الموسوعة الإنسانية

محمد قطب

تضم الكتاب التالية:

1ـ الإنسان بين المادية والإسلام.
2ـ في النفس والمجتمع.
3ـ دراسات في النفس الإنسانية.
4ـ التطور والثبات في حياة البشرية.
5ـ منهج التربية الإسلامية.
6ـ نحو التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية



الإنسان
بين المادية والإسلام

محمد قطب

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"

[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

هذا الكتاب هو أول كتبي، ومن أحبها إلي!

إنه يمثل في نفسي خط الاهتداء إلى الإسلام!

ولقد عشته سنوات طويلة قبل كتابته بالفعل. عشته خواطر متفرقة وتأملات متشعبة في النفس والحياة. ولكنها لم تتبلور ولم تأخذ صورتها النهائية إلا في أثناء كتابة الكتاب!

ولذلك أحسست وأنا أكتبه أنني أجد نفسي! وأجد إسلامي واضح الصورة مفصل القسمات!

ولقد كان مدخلي إليه هو دراسة النفس الإنسانية. وما زال هذا أوسع مداخل البحث لدي. فأنا أشعر دائماً أن دراسة النفس الإنسانية هي القاعدة التي نبني عليها معرفتنا وتصوراتنا في كل ما يختص "بالإنسان" سواء كان أدباً وفناً، أو تاريخاً، أو سياسة، أو اقتصاداً، أو اجتماعاً، أو تربية وعلم نفس.. وأننا لا نستطيع أن نخوض في هذه المجالات بغير تصور سليم ودراسة وافية للنفس الإنسانية.

وأيا كان الرأي فهذا هو المدخل الخاص الذي دخلت منه إلى الدراسة الموضوعية في هذا الكتاب، وفي كتب كثيرة تالية.. وما زلت مقتنعاً بأنه يمكننا التوصل إلى كثير من الحقائق عن هذا الطريق!

ثم إن هذا الكتاب —في الوقت الذي تبلورت فيه أفكاري ومشاعري و"مدخلي" إلى الإسلام ذاته- كان في الحقيقة "مستودعاً" لكثير من الأفكار التالية التي تولدت عنه، فكانت امتداداً له أو بلورة أو تخصيصاً لما جاء فيه من موضوعات. وبهذه النظرة أنظر مثلاً إلى كتاب "شبهات حول الإسلام" و"في النفس والمجتمع" و"معركة التقاليد" و"منهج التربية الإسلامية" و"دراسات في النفس الإنسانية" و"التطور والثبات في حياة البشرية" وحتى "جاهلية القرن العشرين"!

لقد كانت كلها بذوراً محتواة في الكتاب، أو براعم تفتحت فيما بعد وامتدت في شتى الاتجاهات..

وربما كان هذا كله تفسيراً للصلة النفسية التي تربطني بالكتاب!

غير أنه ينبغي لي أن أقول إنني عند مراجعتي له من أجل هذه الطبعة —وتلك أول مراجعة حقيقية منذ كتبته أول مرة سنة 1951- وجدت أن هذه المدة المتطاولة من الزمن قد فعلت فعلها ولا شك في طريقة تفكيري وفي موقفي من بعض قضايا الكتاب!

لقد وجدت مثلاً أنني أعطيت فرويد —والتفكير الغربي عامة- أكثر مما ينبغي من "التوقير العلمي"! وأن هذا التفكير الغربي —بما فيه فرويد بالذات- لا يستحق كل هذا التوقير، ولا كل هذه العناية بتفنيده! ولست أعني بذلك أنني عدلت عن منهج المناقشة الموضوعية لأية فكرة أو نظرية. بل هذا الذي ينبغي دائماً أن نفعله. ولكن المناقشة الموضوعية شيء و"التوقير" شيء آخر.. وأرى اليوم —بعد زيادة خبرتي بانحرافات الفكر الغربي، وبمخططات الإفساد التي تخطط لإفساد البشرية — أن ذلك الفكر يناقش- إذا لزم الأمر- مناقشة موضوعية، نعم، ولكن بغير الحفاوة والاحتفال الذي كان قبل عشرين سنة من الزمان! وأن الأجدر بنا أن نعرض حقائق الإسلام المشرقة الوضيئة دون التفات لتلك الانحرافات!

ومع ذلك فقد رأيت أن أبقي الكتاب تقريباً على ما كان عليه، فيما عدا تعديلات خفيفة في بعض الألفاظ. ولكني أضفت مجموعة من الهوامش تبين موقفي من بعض ما جاء في الكتاب من قضايا خاصة بفرويد وبالتفكير الغربي.

ولست أدرس بعد هل انتهت "البراعم" التي كانت كامنة في هذا الكتاب، أم إنني سأجد مزيداً منها في المستقبل يوحي إليّ بكتاب جديد؟!

والحمد لله أولا وآخراً.. ومن الله التوفيق.

محمد قطب

مقدمة الكتاب

كنت في صغري شديد الإعجاب بفرويد إلى حد الفتنة!

كنت في سن المراهقة التي يستهويها الكشف عن المجهول، في كل شيء. في الكون وفي الحياة والإنسان. وكان فرويد يخايل لي بنظرية العقل الباطن، فيخيل إلي وقتئذ أنه يمنحني المفتاح السحري الذي يفتح مغاليق الأسرار، أو المنظار السحري الذي يكشف المجهول. وأن أغوار النفس الإنسانية السحيقة حاضرة كلها بين يديّ، بنظرة واحدة في المنظار المسحور!

وظللت على فتنتي هذه سنوات، أقرأ كل ما يصل إليّ من أقوال فرويد أو شروح تلاميذه المعجبين به، وإن كان قد هالني منذ اللحظة الأولى أنه في تفسيره للأحلام لا يدع مجالاً للأحلام التنبؤية، ويلغي كل صلة للإنسان "بالمجهول" الكبير..

وأكملت دراستي الثانوية ودخلت الجامعة، وزادت بالطبع معلوماتي عن الكون والحياة والإنسان. وبدأت أنظر إلى فرويد بغير نظرة الإعجاب المسحور. بل بدأت أتخذ منه موقف الناقد، بقدر ما كانت تسمح به تجاربي في ذلك الحين.

ثم دخلت معد التربية، حيث درست علم النفس بشيء من التوسع، وفرويد بشيء من التفصيل...

وخطر لي في أثناء هذه الدراسة أنه بينما يتطرف فرويد في إطلاق النفس من عقالها، ورفع "الكبت" عن الغرائز المحبوسة، وتتطرف الدعوات المتزمتة من الجانب الآخر في فرض الكبت على الطاقة الحيوية للإنسان، يقف الإسلام بينهما موقفاً وسطاً، فلا يفرض القيود إلى الحد الذي يرهق النفس، ويعطل دفعة الحياة، ولا يطلق الإنسان من عقاله إلى الحد الذي يرده حيواناً، ويلغي ما تعبت الإنسانية في الوصول إليه في جهادها الطويل، من "ضوابط" لنزعات الحيوان.

بين هذين الحدين المتطرفين يقف الإسلام، وفي حدوده الرحيبة يمكن أن يحيا الإنسان، حياة طابعها السلامة والاتزان.

ولقد يلتقي الإسلام في نظرته للنفس الإنسانية ببعض النظريات الأخرى، أو يختلف عنها في التفصيلات والفروع. ولكنه يبقى بعد ذلك مستقلاً عنها قائماً بذاته، وله نظرته الخاصة التي ينبغي أن تدرس على هذا الأساس.

وظلت هذه الفكرة تتضح في نفسي وتتأصل، مدى السنوات العشر التي تلت تخرجي في معهد التربية، حتى وجدتها تدفعني دفعاً إلى تسجيلها في كتاب.

وأنا أعلم أن "الذعر" يصيب بعض المشتغلين بالعلم حين يذكر اسم الدين! وأن "المثقفين" و"أحرار الفكر" تصيبهم النوبة فتكفهر وجوههم وتتشنج عضلاتهم، ويشيرون بأيديهم إشارات عصبية يطلبون تنحية هذا الكلام الفارغ عن مجال البحث العلمي الصحيح!

فأحب أن أقول هنا: إن هذا البحث دراسة نفسية بحتة، وإنه يأخذ مفاهيم الدين أخذاً موضوعياً خالصاً. فإذا ظهر لنا بعد الدراسة الموضوعية أن الدين هو الصواب، فإنها الحماقة إذن، أو العبودية المقنعة للغرب، هي التي ترفض الاعتراف بالحقائق، خوفاً على حرية الفكر، أو خوفاً من الاتهام بالرجعية والجمود.

وثمة حقيقة أخرى جديرة بالتسجيل: هي أن النزاع قد قام في أوربا بين العلم والدين لأن الكنيسة هناك احتضنت نظريات علمية معينة، قالت عنها: إنها مقدسة، وإنها من وحي السماء، فلا يجوز الخروج عليها، وإلا عدّ الخارجون كفاراً مارقين. فلما أثبت العلم بطلانها كان أمراً طبيعياً أن يصدق الناس العلوم التجريبية، وينتفضوا على سلطان الكنيسة الذي يفرض عليهم الأكاذيب، و"يتحرروا" بأفكارهم من ربقة الدين.

ولكن هذا النزاع لم يقع بين الإسلام والعلم. ويشهد التاريخ بأن علماء في الفلك وفي الطبيعة والكيمياء والطب والهندسة والرياضيات قد نبغوا في ظل الإسلام، ووصلوا إلى حقائق تعد بالقياس إلى زمنهم كشوفاً علمية ضخمة، وكانوا هم أنفسهم من المسلمين المتدينين، فلم يقع في نفوسهم الصراع بين العلم والعقيدة، ولا وقع بينهم وبين السلطات الحاكمة ما يؤدي إلى القتل والتعذيب، كما حدث لكوبرنيكوس وجاليليو في العالم المسيحي. وكل ما حدث من اضطهاد لبعض ذوي الرأي كانت الملابسات السياسية كامنة من ورائه. ولكن العلم وحقائقه النظرية أو التجريبية لم تتعرض قط لكبت ولا اضطهاد.

فالتقليد الأعمى وحده لا حرية الفكر ولا قداسة العلم، هو الذي يصيب هؤلاء "الباحثين" بالذعر حين يذكر اسم الدين.

نظرة المسيحية

نزلت المسيحية لمواجهة المادية المتطرفة التي كانت شائعة في بني إسرائيل وفي العالم الروماني كله يوم بعث المسيح عليه السلام. مادية تغالي في التشبث بالأرض والقيم الأرضية البحتة، حتى لتقطع كل صلة لها بعالم الروح، وتنسى كل دواعي السماء. لذلك كان من المناسب أن تشتمل على قدر غالب من الروحانية الصافية المرفرفة الجميلة، لتتعادل مع تلك المادية، لعلها تصلح النفوس.

ومن ثم كانت كل تعاليم المسيح عليه السلام دعوة للتطهر والروحانية. دعوة ترتفع بالإنسان عن نفسه، وتصل به إلى الآفاق العليا التي تسمو عن الجسد والمادة. الآفاق الطليقة من قيود الأرض ومن نوازع الشهوات.

ولكن هذه التعاليم المرفرفة الصافية، لم يكن المقصود بها أن تكون هي النظام الدائم الذي تسير عليه البشرية. فقد أنزل الله رسالته الأخيرة بعد ذلك بما يقرب من ستة قرون، حين اقتضت الحكمة العليا أن ينزل النظام الأخير...

ومهما يكن من أمر فإن هذه التعاليم المترفعة المتسامية التي تنفخ فيها روح نبي، قد تحولت من بعده إلى قيود متزمتة تتشدد بها الكنيسة ورجال الدين، حتى حولوها إلى رهبانية تنعزل عن الحياة وتقهر النوازع الفطرية، بحجة أن هذه النوازع دنس ينبغي أن يتطهر منه الأتقياء، الذين يخشون ربهم ويرجون لقاءه يوم القيامة، أو الذين هم —على حد تعبيرهم– "في المسيح".

وربما كانت الكنيسة ورجال الدين قد استوحوا من تعاليم المسيح وهم يحولون المسيحية إلى تشددها المتزمت، حين وجدوا المسيح مثلاً يقول:

"إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بدنك كله في جهنم".

ولكنه كان استيحاء خطراً، يوشك —لو أنه نفذ بحذافيره– أن يعطل دفعة الحياة المتجددة الدائبة، ويصل به إلى البوار.

وما من شك أن هذه لم تكن حكمة السماء من إنزال المسيحية، ولا حكمة المسيح عليه السلام وهو يدعو لصلاح البشر. وإنما كانت تصرفاً بشرياً تطرف عن الحد المقبول، فانقلب عن مقصده الأصيل.

"وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا"[1].

وقد فشلت المسيحية في صورتها تلك عند التطبيق العملي، لأنها تتطلب من البشر فوق ما يطيقون احتماله. ولأن كبت النوازع الفطرية على هذه الصورة أمر مستحيل. فدفعة الجسد قوية عنيفة. وهي لا تفتأ تلح على الإنسان، وتضغط عليه ضغطاً ليستجيب إليها. فإذا وقع الفرد بين ضغط الغريزة الدائم الملح، وبين العقيدة التي توحي إليه أن الاستجابة لهذا الضغط دنس لا يجوز أن يلوث به نفسه، فليس لذلك إلا نتيجة واحدة، أو إحدى نتيجتين: إما أن يستجيب لوحي العقيدة –إن استطاع– فيترهبن، وينقطع عن الحياة والأحياء، أو يستجيب لدفعة الجسد العنيفة الملحة، فيطلق الشحنة الحبيسة التي يرهقه حبسها ويعذبه. ولكنه مع هذا لا ينجو من العذاب. فهناك الصراع الداخلي العنيف الذي ينشب في ضمير الفرد الذي تستولي عليه هذه العقيدة: صراع بين ما فعله وما كان ينبغي أن يفعله، صراع بين الجسد والروح. ينتهي بالعقد النفسية التي أشار إليها فرويد، وخصص حياته للكشف عنها، أو ينتهي بالاضطرابات العصبية التي تضيع نشاط الفرد وتبدد طاقاته، فلا ينتفع بها لنفسه، ولا ينتفع بها أحد من الأحياء.

ولنأخذ مثالاً لذلك الطاقة الجنسية: فالطريقة المثلى في المسيحية هي عدم الزواج. هي التطهر من رجس الغريزة. هي الانقطاع عن هذه الشهوة المدمرة التي تنهك الجسد وتهبط بالروح. ويصنع ذلك كثير من أتقياء المسيحيين، وخاصة رجال الدين. وتنظر المسيحية إليهم على أنهم الأبطال الذين استطاعوا أن يخمدوا شوكة الجسد، ويظهروا على نزعات الشيطان! والشيطان الأكبر في المسيحية هو المرأة التي تخايل للرجل، فتثير فيه ما لا ينبغي أن يثور في نفوس الأتقياء!

ولكن بقية "الشعب" المسيحي يتزوج على أي حال، ولا يأخذ نفسه بالرهبنة والانقطاع عن شهوات الحياة. فهل تنتهي المشكلة عندهم بالزواج؟ كلا! إن الصبي الذي ينشأ في جو العقيدة المسيحية، ينشأ وفي نفسه عقد تستنكر الجنس وتستقذره. وذلك من وحي الإشعاعات الدينية التي يلقيها إليه رجال الدين والكتب المقدسة، ويتلقاها من أبيه ومن مدرسه، ومن كتب النصائح والتحذيرات. فإذا كبر هذا الصبي، ووصل إلى سن المراهقة

([1]) سورة الحديد [27].

فالبلوغ، فهناك الأزمة العنيفة التي يصطدم بها على غير انتظار. هناك الدفعة الجارفة التي تنادي به آناء الليل وأطراف النهار: أن اقبل واستجب، واستمتع بتلك اللذة العارمة التي تنبت في أطواء جسدك، وفي الجانب الآخر ذلك السيف المصلت، أو ذلك السوط المرتفع في الفضاء يهدد تهديداً لا ينقطع، ويكاد يهوي على ظهر ذلك المراهق المسكين، بل هو يهوي عليه فعلاً بين الحين والحين، تمسكه يد خفية لا تبين، يتخيل أنها يد الله، أو يد القسيس، أو يد الوالد، أو المدرس، أو من يكون من صور الرادعين والزاجرين.

عند ذلك يبدأ الصراع، ثم لا يكف أبداً...

فدفعة الجسد متجددة لا تنقطع. وإيحاءات الدين التي تصور الجنس دنساً وقذارة، تلك الإيحاءات التي ترسبت في نفس الفتى وهو طفل صغير، تظل هي الأخرى متجددة لا تنقطع. ومن هذا الصراع تنشأ كما أسلفنا العقد النفسية والاضطرابات العصبية، التي تترك أثراً لا يمحوه بعد ذلك أن يتزوج هذا الفتى –أو الفتاة– في مقبل الأيام. بل أثبت الطب والتحليل النفسي أن كثيراً من أسباب الشقاء الزوجي يرجع أصله إلى عقد الصبا والمراهقة، وأن الزواج لم يحلها، بل كبرها كما يكبر المجهر النقطة الصغيرة.

ذلك مثل من أمثلة الاضطراب الذي ينشأ من تعارض هذه التعاليم مع طبائع الأحياء، اخترناه لأنه أبرزها وأوضحها. ولكنه ليس المثال الوحيد. فخذ مثلاً ذلك القول المنسوب للمسيح عليه السلام:

"إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن، فأدر له الأيسر".

إنها كما ترى دعوة نبيلة إلى الصفح والتسامح والغفران. ولكن كم من البشر يستطيع أن يخضع سورة غضبه لهذا الروح الملائكي الذي يقبل العدوان ويمنح الغفران؟ إنها لأقلية ضئيلة جداً دون شك. أما بقية البشر –الطبيعيين– فإن أول ما يخطر في نفوسهم هو الغضب للإهانة، والرغبة في الانتقام حفظاً للكرامة، وإرضاء للذات. فما موقف المسيحي المخلص لعقيدته بين هذه الرغبة الملحة، التي تعتبرها المسيحية نزغة من نزغات الشيطان، وبين التعاليم المتزمتة المتسامية، التي تفرض عليه الصفح لإرضاء الله أو المسيح؟

إنه على أقل تقدير موقف الصراع. وليس لهذا الصراع –إذا انتهى– إلا إحدى نتيجتين: إما أن تنتصر التعاليم المتسامية، فتكبت الرغبة في الانتقام في باطن النفس؛ ويقول التحليل النفسي إن كثيراً من الجرائم يرجع مصدره إلى مثل هذا الكبت، وإما أن تنتصر هذه

الرغبة، فتعود النفس بعد أن تهدأ سورة الغضب إلى الندم والأسف، وإلى الشعور بالخطيئة، وهو شعور مقلق لا يترك صاحبه في راحة.

وهكذا وهكذا.. كل التعاليم الكنسية المتزمتة.

فالنتيجة الحتمية لذلك هي أن يعيش الفرد حياته كلها في صراع مستمر، بين سطوة العقيدة وسطوة النوازع الفطرية. وينقضي العمر في شقاء لا يتيح للإنسان أن يستمتع بطيبات الحياة.

وليس عجيباً إذن -مع هذا التعارض الواضح بين هذا التعاليم وطبيعة الأحياء- أنها لم تطبق أبداً في واقع الحياة. إلا في أفراد قلائل، هم الذين ترهبنوا واعتزلوا الحياة كلها، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة -في نظرهم وفي واقع الأمر- التي يستطيعون بها أن ينفذوا التعاليم الكنسية على الوجه الأكمل المطلوب.

ولعله من حسن حظ البشرية أن كان تطبيقها في هذا الحيز المحدود؛ وإلا فأي كارثة كانت تصيب الإنسانية، لو أن الناس كلهم قد اعتزلوا في الصوامع والأديرة، فانقطعت الحياة بانقطاع النسل، ووقف التقدم البشري كله بانصراف الرغبة عن الحياة الدنيا، إطاعة لأوامر السماء؟!

وإذا كانت المسيحية -لأسباب سياسية وتاريخية- قد انتشرت في رقعة كبيرة من الأرض، فإنها مع ذلك لم تطبق تطبيقاً عملياً، وإنما بقيت في حدود الكنيسة لا تبسط ظلها على الأحياء إلا وهم خاشعون في صلاتهم، يسمعون التراتيل الساحرة والصلوات المؤثرة، فإذا انطلقوا بعد ذلك إلى أعمالهم، انطلقوا إليها بشراً لا مسيحيين: لا يدير أحدهم خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن؛ ولا يقلع أحدهم عينه ويلقيها عنه لأنها تعثره؛ ولا يرضى بأن يهلك عضو واحد من أعضائه تكفيراً عن إثم من الآثام!

وهكذا ظلت المجتمعات الأوربية -المسيحية- تعيش في ظل القانون الروماني، وبتعاليم الإمبراطورية الرومانية الوثنية، وإن كانت -في الظاهر- تعتنق المسيحية، وتقاتل من أجلها بين الحين والحين، في همجية ووحشية، كما حدث في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش.

على أن عدم تطبيقها بحذافيرها لم يخفف من آثار تعارض التعاليم الكنسية مع الطبيعة البشرية، بل ظل الصراع النفسي قائماً في نفوس المسيحيين، حتى تخلصوا من الدين كله جهرة في العصر الأخير كما سيجيء، ذلك أن التعاليم الذي تلقى في الصبا تترك أثرها الذي

لا يمحى من النفوس. وليس معنى عدم إطاعة هذه التعاليم حين يكبر الفرد، ويستقل بنفسه عن سلطان أبويه، أو سلطان المدرسة والطنيسة، أن المسألة قد انتهت، وأن الصراع الدفين قد استقر. وذلك أمر حققه المحللون النفسيون بما لا يدع شكاً في صحته، وأثبتوا أن العقد التي تصيب أفراد العالم المسيحي يرجع أغلبها إلى سلطان الدين، حتى ولو لم يكونوا في كبرهم متدينين!

ولعل القائل أن يقول: إن هذا شأن الدين كله، لا شأن المسيحية الكنسية وحدها في هذا المجال!

وهذا خطأ وقع فيه علماء النفس الغربيون عن جهل أو سوء نية، وقلدهم فيه أغلب المشتغلين بعلم النفس في الشرق الإسلامي، فصاحوا مع الصائحين: إن الدين جميعاً مخالف لطبائع البشر، فلننزع عن النفوس سلطانه، ولنحررهم من أغلاله، حتى يشعر الناس بالسعادة ويستمتعوا بالحياة.

وإن هدف هذا البحث أن يثبت أن نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية هي النظرة التي تتسق مع الطبيعة البشرية وتسايرها. وقد تحدثت عن ذلك بالتفصيل في الفصل الخاص بنظرة الإسلام. ولكني أكتفي هنا بكلمة مجملة: هي أن الإسلام يعترف بالكائن البشري كما هو —بنوازعه وميوله الفطرية– ولكنه يهذبها ويضع لها الحدود في الدائرة التي تتحقق بها مصالح المجتمع ومصالح الفرد ذاته. وأنه إذا كان يطلب من النفوس أن تتسامى وتترفع، فإنه لا يفرض هذا فرضاً، بحيث يعتبر المخالف له مذنباً أمام الله وفي نظر الشرع، وإنما هو يفرض فقط الحد الأدنى التي لا تصلح بدونه الحياة، ويترك المجال بعد ذلك للسمو والتطهر، تطوعاً لا فرضاً. فلا يثقل على النفوس، ولا يقهر نوازع الحياة في الأحياء.

* * *

على أن الذي يهمنا هنا هو أن نسجل بعض خطوات التاريخ، التي كان لها أثر في تطور النظرة إلى النفس الإنسانية، وما تلا هذا التطور من تغيرات في المجتمع والحياة.

كانت الكنيسة في أوربا هي ممثلة المسيحية. ولكنها لم تكتف —كما يفهم من تعاليم المسيحية– بالدعوة الروحية، ومحاولة الارتفاع بالبشرية إلى ذلك المستوى المثالي، الذي ترتسم صورته في الأنبياء والقديسين، بل ادعت لنفسها سلطة زمنية مسلطة على أرواح البشر وعقولهم وأجسادهم، واشتطت في ذلك إلى حد الدكتاتورية، بله الفظاظة والوحشية.

وهكذا أصبحت الكنيسة، مهبط الرحمة والتواد والتعاطف، غولاً بشعاً يطارد الأفراد في يقظتهم ومنامهم: يفرض عليهم الإتاوات، ويفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين الذين زعموا لأنفسهم قداسة ليست لبقية البشر؛ ويزيد على ذلك كله أن يفرض عليهم أفكاراً معينة باعتبارها أفكاراً سماوية مقدسة، لا يجوز الخروج عليها، وإلا اعتبر من لم يعتنقها كافراً بالكنيسة وبالمسيحية، ووجبت عليه لعنة الرب ولعنة البابا والدولة والناس أجمعين.

وكان من هذه الطائفة الأخيرة علماء قالوا بكروية الأرض، فعذبوا ونكل بهم أبشع تنكيل، لأنهم يخالفون "الحقائق المقدسة" التي احتضنتها الكنيسة، وقالت: إنها كلمة السماء!

ولم يكن ثمة شك، حين يقوم الصراع على هذا الصورة، بين الكنيسة وبين العلم التجريبي، أن يؤمن الناس بما يثبته العلم، ويكفروا بما تقوله الكنيسة، وأن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة فيقفوا في وجه طغيان الكنيسة ودكتاتوريتها الفظيعة، وقد أمسكوا بأيديهم السلاح الذي يحطمون به أوهامها، ويزلزلون به كيانها، وينزعون قداستها من نفوس المؤمنين بها، وكان ذلك السلاح الجبار هو العلم.

ولعل أكبر زلزلة أصابت الكنيسة كانت على يد دارون، حين نادي بنظريته في أصل الأنواع. وتتالت الضربات بعد ذلك على أيدي العلماء والباحثين، فترنحت هيبة الكنيسة وأخذ تتهاوى. ولم يعد لها على أي حال ذلك السلطان الطاغي الذي يفرض نفسه على الضمائر والعقول.

ولكن أوربا حين نزعت عنها سلطان الكنيسة لم تكتف بذلك، بل نزعت عنها سلطان الدين أيضاً، إذ كان الدين لديها ممثلاً في الكنيسة، مجسماً فيها. وأغراهم بهذا أن في العقيدة المسيحية، كما صورتها الكنيسة لا كما أنزلتها السماء، كثيراً مما يناقض العقل ويثقل على الأفهام، وليست مشكلة التثليث إلا واحدة من هذه المتناقضات.

على أي حال لقد تجردت أوربا من نير الكنيسة ومن سلطان الدين معاً. وارتدت بذلك رومانية كاملة، لا يقف شيء في سبيل نزعتها الرومانية المادية التي لا تعرف غير الجسد ونزواته، ولا تؤمن إلا بالواقع المادي الذي تثبته الحواس.

ونشأت على أنقاض الكنيسة والدين فلسفة مادية بحتة، تستمد وحيها من الأرض، من واقع الحواس، ولا ترتفع ببصرها لحظة واحدة إلى السماء.

وكان داون كما ذكرنا بطل هذا الانقلاب التاريخي، حين قرر حيوانية الإنسان. فنفى عنه تلك النفحة الإلهية التي رفعته عن مستوى الحيوان، وهبط به إلى الأرض، لا يحلق ولا يسمو إلى الملكوت الأعلى.

ولست هنا بصدد عرض نظرية دارون. ولا أنا أحب أن أخطئ خطأ الكنيسة الأوربية حين كانت تعارض نظريته العلمية بنظرياتها الفلسفية. ولكني أقرر فقط أنه بصرف النظر عن صحة الوقائع التي وردت في نظريته، فإنه كان من ورائها فلسفة مادية بحتة، لا تتيح مجالاً لأي شيء خارج عن الأرض وعن المادة المحسوسة. وليس تهرب الداوينيين من البحث في مسألة نشوء الحياة على ظهر الأرض، بحجة أنها مسألة لا تهمنا في البحث، ولا يمكن الوصول إل دليل فيها، إلا مظهراً للتهرب من الاعتراف بوجود كائن أعلى يشرف على الحياة والأحياء، ويتدخل في الخلق والإنشاء. إنها فلسفة ترفض كل ما لا تستطيع الحواس أن تدركه، ولا تؤمن إلا بهذا الواقع الصغير الذي يبصره العقل ويصل إلى ميدانه العلم.

ومن هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغبية الحديثة، وكل الفلسفات المسيطرة عليها. منها نشأت الشيوعية كارل ماركس في الشرق، وفلسفة فرويد في أوربا، والبراجماتزم في أمريكا. وكلها تمثل أصلاً واحداً وإن اختلفت المظاهر والفروع.

وبعد، فلم يكن من هذا العرض التاريخي، قبل أن نناقش المذاهب النفسية المختلفة، لنعرف كيف نشأت، والظروف التي كانت تجعل نشوءها أمراً منطقياً مع الظروف. ولكي نعرف أن ما نسميه "نظريات علمية ثابتة لا يتطرق إليها الشك" أو "مسائل موضوعية بحتة" إن هو إلا نتيجة لفلسفات معينة، و"لدوافع" نفسية خاصة، بحيث لا يمكن فصل هذه عن تلك.

وقد رأيت أن أتحدث عن فرويد بشيء من التفصيل، وأعرض لبعض المذاهب النفسية الأخرى عرضاً سريعاً، لسببين: الأول هو أن مهمة هذا البحث ليست استعراض كل النظريات السيكلوجية ومقارنتها بنظرة الإسلام، وإنما الاكتفاء بما كان منها خاصة ذا تأثير قوي على المجتمع. والثاني هو أن معظم النظريات الأخرى التي تبدو مخالفة لنظرية فرويد في التفصيلات والفروع، تلتقي كلها عند أصل واحد كبير: هو حيوانية الإنسان وماديته. فإذا تحدثنا عن نظرية فرويد بشيء من التفصيل، فإننا نكون في الوقت ذاته قد ألقينا على بقية النظريات شيئاً من الضوء.

فرويد

فرويد عبقرية فذة دون شك.

وقد كان لنظرياته في علم النفس أثر خطير، لم يقف عند حد المباحث النفسية، والتربية والتعليم، بل تعداها إلى كثير من نواحي النشاط الإنساني، فأثر في الأدب والفنون عامة، وفي الطب، والتجارة، وغيرها من شئون الحياة. ولكن أخطر آثاره وأعنفها كان في الحياة الاجتماعية، في أوربا وأمريكا، ثم في الشرق عن طريق العدوى والتقليد. فقد أحدثت نظيته في العقل الباطن، وفي التفسير الجنسي لمختلف نواحي السلوك الإنساني، انقلابات خطيرة جداً في المجتمع وفي الحياة. وعلى الرغم من ظهور نظريات أخرى جديدة في علم النفس، وبخاصة في أمريكا، إلا أن مفعول نظريته ما يزال يسري في الأفراد والمجتمعات، وما يزال هو الدافع لكثير من الحركات الفكرية هنا وهناك.

نعم. لقد كان لتلك العبقرية آثار بعيدة في أفكار الناس. ولكن العبقرية لا تعني بطبيعة الحال أن فرويد كان على صواب دائماً فيما يبديه من آراء، ولا تعني أنه لم يخطئ في تفسير النفس الإنسانية أخطاء أساسية خطيرة.

وقد وجه كثير من النقد لنظرياته، وخاصة بسبب إصراره على زج الجنس في كل مجالات النشاط الحيوي للإنسان. وقيل في هذا الصدد: إنه تأثر بدراسة الشواذ الذين كان يفحصهم، ثم أخطأ في تعميم أحكامه المستقاة من حالات شاذة على بقية البشر الأسوياء.

ولكن النقد الأول الذي ينبغي أن يوجه إلى فرويد، هو في أساس نظرته إلا الإنسان على أنه كائن أرضي بحت، لا يرتفع بمشاعره وعواطفه عن عالم الأرض إلا في حالات الشذوذ!

وقد أشرت في الفصل السابق إشارة سريعة إلى تأثر فرويد بدارون، في نظرته الحيوانية المادية للإنسان. وينبغي هنا أن نشرح الإشارة المجملة بشيء من التفصيل:

إن العيب الرئيسي لنظرية دارون ليس في الوقائع العلمية التي بسطها في كتبه، وتابعه فيها أعوانه ومريدوه، بقدر ما هو في إيحاءات تلك النظرية التي خلقت طابعها الخطر، لا في أفكار الجماهير وحدها، بل في اتجاه العلماء كذلك منذ عهده إلى العصر الأخير.

ولن نتعرض هنا للوقائع العلمية التي تحتوي عليها النظرية، وإنما نتعرض للفلسفة التي أدت إلى ظهورها وأثرت في تطبيقاتها فيما بعد. فهذه الفلسفة ليست "واقعاً علمياً" ولا هي "حقيقة موضوعية ثابتة" حتى تكون فوق مستوى النقاش! وإنما هي نزعة شخصية، وزاوية نظر معينة يحاسب عليها صاحبها ولو أدت إلى كشف بعض الحقائق الجوهرية. ذلك أنه ليست الحقيقة ذاتها هي التي تعمل، حتى في ميدان العلم التجريبي كما يخيل لكثير من الناس. وإنما الطريقة التي تعرض بها الحقيقة، والوجهة المقصودة منها، هي التي تمنحها الأثر وترتب عليها النتائج، سواء في العلم أو في المجتمع والحياة.

وهذه حقيقة تستأهل كثيراً من النظر والتحقيق، فنحن في الشرق خاصة يخدعنا هذا العنوان الضخم، عنوان "العلم التجريبي" فنظن أنه حقائق نهائية ثابتة، لا يعتبر من يتصدى لمناقشتها إلا جاهلاً أو مخرفاً! وقد كان ينبغي أن نحترس في الإيمان بالمعلومات "العلمية" حتى في العلوم البحتة كالرياضيات والطبيعة والكيمياء، ونحن نرى أن العلم ما يزال في طفولته، وما يزال كل يوم يصل إلى آفاق جديدة، فيلغي إلغاء تاماً معلومات كان ينظر إليها بالأمس على أنها "حقائق نهائية" لا تقبل الجدل ولا تحتمل التأويل.

وليس العهد ببعيد حين قال إينشتين: إن قوانين نيوتن في الجاذبية لا تصلح للتطبيق إلا على سطح الكرة الأرضية، ولكنها لا تصلح للكون الكبير. فهي إذن حقائق محلية صغيرة لا حقائق مطلقة. وهي قابلة للنقض والتبديل حين تطبق "على الاتساع"!

واليوم تكتشف أسرار الذرة، فتنشأ حولها نظريات كثيرة في تفسير الكون والحياة كانت مجهولة من قبل؛ ويبدو بجانبها بعض ما كان يسمى "نظريات علمية نهائية" أقرب إلى الخرافات والأساطير.

فإذا كان هذا كله في ميدان العلوم البحتة، التي تخضع خضوعاً كاملاً للتجربة المعملية، فأولى بنا إذن أن نكون أكثر احتراساً ونحن نتلقى نظريات علم النفس، أو النظريات التي تتصل بمجاهيل لم يتح للعلم التجريبي أن ينفذ إليها حتى اليوم. وينبغي ألا تأخذنا العزة بالإثم، أو بالعلم، فنقول: إن كذا أو كذا حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل والنقاش.

ومرة أخرى أقول: إنه ليس غرضي من ذلك أن أتعرض لوقائع النظرية الداروينية، ما ثبت منها وما لم يثبت[1]. وإنما أعرض للفلسفة التي نشأ عنها ذلك اللون من التفكير. فأول ما يتبدى لنا منها أنها فلسفة مادية بحتة، تقطع كل صلة للأرض بأية قوة خارجة عنها (ولو حتى على سبيل الاحتياط لما قد يجد من العلوم في المستقبل)[2].! وكأنما يقصد دارون قصداً إلى تحديد مجال بحثه بهذه الأرض، أو المجموعة الشمسية على الأكثر، لينفي أي أثر لقوة خارجة عنها، لها إرادة في الخلق أو دخل في النشوء والارتقاء! ويتضح ذلك من سرعته في معالجة مسألة الخلق الأول، أو نشوء الحياة على سطح الأرض الميتة الخالية من الحياة. وإن الداروينيين ليقولون: إن هذا البحث غير مهم، لا يقدم في المسألة ولا يؤخر! وإن الدليل اليقيني فيه غير موجود ولا يمكن الحصول عليه!

أي نعم، لا يمكن الحصول عليه، ولكن أهميته أو عدم أهميته مسألة ترجع لوجهة النظر الخاصة. فأما النظرة المادية البحتة، التي لا يهمها إلا واقع الأرض وواقع الحواس، فلا تهتم بهذه المسألة الضخمة، لأنها تحس إحساساً باطنياً كاملاً بأن مسألة الخلق الأول مردها إلى قوة ليست في حدود الأرض، وليست مما تدركه الحواس! وأما النظرة الشاملة والأفق المتسع، فيحسب لهذه المسألة حسابها الضخم، لأنه يترتب عليها اختلاف خطير في سير المجتمع وفي حياة الناس.

ذلك أن النظرة الأولى التي تحدد بحثها بحدود الأرض وحدود الحواس تنفي، أو تسقط من حسابها على الأقل، وجود القوة العليا الخالقة[3]، ويترتب على ذلك أن تنفي أو تسقط من حسابها كل ما يتصل بهذه الفكرة من قيم أخلاقية أو روحية، كما تنفي الدين بداهة، لأن الدين هو عبادة الخالق الذي أنشأ الوجود كله بقدرته.

---

(1) كتب جوليان هكسلي وهو من علماء "الداروينية الحديثة" فصلاً بعنوان "تفرد الإنسان" في كتابه "الإنسان في العالم الحديث" ألقى فيه في الحقيقة جذور نظرية دارون فيما يختص بالإنسان وأثبت أنه متفرد في كل شيء حتى في تكوينه البيولوجي فضلاً عن تكوينه العقلي والنفسي!

(2) ذكرت الصحف أخيراً أن عالمين أمريكيين قد كشفا في أحد الكهوف آثاراً من مخلفات الإنسان الأول، وأن هذا الكشف سيؤدي إلى نتائج مخالفة لنظرية دارون.

(3) يقول داروين بصراحة: إن ذلك (أي تفسير شئون الحياة بوجود خالق له إرادة في الخلق) يكون بمثابة إدخال عنصر خارق الطبيعة في وضع ميكانيكي بحت!

والمجتمع الذي ينشأ عن هذه الفلسفة المادية هو بدوره مجتمع مادي، لا يقيم وزناً لشيء من القيم المعنوية. ولا يؤمن بما يقع خارج حسه، ولا تقوم معاملاته ولا أحاسيسه إلا على أساس المنفعة، ولو تعارضت مع الخلق أو نداء الضمير.

بل إن نظرة الناس إلى النفس الإنسانية وإلى عالم المشاعر في مثل هذا المجتمع لا يمكن أن تنجو من آثار تلك الفلسفة العامة، فلا ترى من جوانب النفس إلا ما يتفق مع نظرتها، وتنفي، أو تسقط من حسابها على الأقل، كل جانب يخرج عن هذه الحدود!

ومن هنا كان دارون أخطر من قام من العلماء في العصر الحديث. ومن هنا كذلك كان فرويد بنظرياته كلها، أثراً من آثار تلك الفلسفة، ونتيجة من نتائجها. وكان لزاماً علينا ألا نتلقى آراءه على أنها "حقائق علمية ثابتة" أو "مسائل موضوعية" تتأثر بالبيئة والظروف والملابسات!

وعلماء الغرب لا يحسون بطبيعة الحال بأن دارون قد أتى أمراً إدًّا حين قدم نظريته بهذه الروح المادية المتنكرة لكل قوة خارجة عن محيط الأرض، لأنهم كلهم من طينة واحدة. وهم بطبيعة بيئتهم وظروفهم التاريخية، يعيشون حياتهم على الأرض ولا يتطلعون إلى السماء[1].

أما نحن هنا! فما بالنا نؤمن الإيمان الأعمى بأن ذلك كان الأمر الواحد الصواب؟

وما بالنا نغلق بصيرتنا وأبصارنا، ونتلقف كل ما يصدر عن الغرب كالمسحور الذي لا عقل فيه، أو المبهور الذي تتقطع أنفاسه من البهر؟ لماذا لا نمحص الأمور، ونعلم على الأقل أن الظروف التي أوحت إلى علماء الغرب اتجاههم وفلسفاتهم، ليست هي ظروفنا، ولم تمر علينا؟ لماذا لا نؤمن بأننا أقدر —ونحن في نجوة من ظروفهم القاهرة– أن نقف من الأشياء موقفاً آخر، وننظر إليها نظرة أشمل وأعمق وأدق؟

وي! ألا إنه الغرور المرذول دون شك، هو الذي يدفعني إلى هذا القول الخارج على حدود الأدب بالنسبة لأولئك العلماء المقدسين!

([1]) ظهر فيما بعد الطبعة الأولى (1952) وهذه الطبعة (1975) اتجاه عند بعض علماء الغرب للرجوع إلى الله، وتفسير كل ما يجري في الكون بأنه إرادة الله الخالق المدبر المبدع. انظر نماذج من هذا الاتجاه في كتاب "العلم يدعو للإيمان" تأليف: جون أ. كريسبي، ترجمة: محمود صالح الفلكي.

وما لم يكن هو الغرور المرذول، أو هو الجهل المضحك بالنظريات العلمية، فما تراني كنت أريد من دارون أن يقول؟!

كنت أريد منه أيها السادة أن يقول: إنني توصلت بالشواهد والتجارب إلى تكوين نظرية معينة في النشوء والارتقاء، ولكن أموراً أخرى فاتتني ولم أستطع إدراكها، ومنها سر نشوء الحياة على ظهر الأرض، والسر الذي يجعل الأحياء تتشبث بالحياة، ثم السر الخفي في قدرتها على التطور لمواجهة ما يحيط بها من الظروف، لكي تحقق ما في طبيعتها من حب البقاء. ولا يمكنني في الوقت الحاضر إلا أن أقول: إنها من أسرار خالق الحياة التي لم يكشف عنها بعد للأحياء (وذلك بدل التمحك في "الطبيعة" و"القوانين الطبيعية")، وقد يصل العلم إليها في مقبل السنين، فيكشف عما فيها من مجهول.

هل يتنافى ذلك —يا مقدّسي الغرب وعبّاده المخصين- مع حرية الفكر، أو مع احترام العقل، أو ما ينبغي للعلم من قداسة وتوقير؟

هل يتنافى العلم الحق مع ذكر هذه الحقيقة الكبرى التي تشمل في أطوائها كل حقائق الأرض والسماء؟ أو هل يدفع الاعتراف بتلك الحقيقة إلى وقف التقدم العلمي عند حد محدود؟

كلا. كلا!

ولو قال ذلك دارون لتغير المجتمع الحديث كله، ولتغير التاريخ. فلو أنه ترك في نظريته العلمية التجريبية مجالاً للقوة الخالقة، ولم يلزم الناس —حين يصدقون علمه- أن ينفوا من أفكارهم ومن ضمائرهم تدخل تلك القوة الكبرى في شئون الحياة والأحياء، لسار العلم التجريبي في خطواته الجبارة جنباً لجنب مع العقيدة، وما يتصل بها من قيم خلقية ومعنوية وروحية.

ولكنه لم يقل ذلك: أولاً، لأن ظروف الصراع بين العلم والكنيسة، التي نشأت من دكتاتورية تلك الأخيرة وفظاظتها الوحشية في معاملة العلماء، كانت توجد جواً من العداء السافر بين العلماء وبين كل ما تقول به الكنيسة، ولو كان حقاً كفكرة وجود الله! فلم يكن من المعقول إذن أن يجامل دارون الكنيسة فيعترف لها "بإلهها" وهي لا تجامل أحداً من طلاب الحقيقة ولا ترحمهم من العذاب!

ولم يقل ذلك: ثانياً، لأن الاعتراف بإله الكنيسة كان يقتضي الاعتراف بسلسلة من الخرافات التي تعتنقها، والتي تتصل اتصالاً وثيقاً –في نظرها ونظر الجماهير– بفكرة الإله.

هذا طبعاً إذا كان هو شخصياً يؤمن بوجود إله؛ وعلم ذلك عند الله[1]!

تلك ظروف دارون التي أثرت في كل علاء الغرب من بعده، فجعلتهم يؤمنون بأنه لا سبيل إلى تقدم العلم إلا بمعاداة الدين ونفيه نفياً باتاً من الحياة[2].

فأما نحن فما عذرنا في إقامة العداء بين العلم والدين؟ وما عذرنا في تصديق تلك الخرافة التي تقول: إنه ينبغي لنا أن نطرد الدين من مجال البحث العلمي الصحيح؟!

إنها العبودية للغرب الظافر المستعبد، والتقليد على طريقة العبيد، أو طريقة القرود.

إننا نملك من ظروفنا الخاصة، ومقوماتنا الخاصة، ونظرتنا الخاصة إلى الأمور، أن نعقد السلم بين العلم التجريبي والعقيدة، حين نؤمن بأنفسنا وبكياننا الذاتي، وحين نتخلص من هذا الأسر المنكود الذي أوقعنا فيه الاحتلال من الخارج، والتفكك والانحلال من الداخل.

وعند ذلك سنرى أننا حين آمنا بكل ما يأتينا من الغرب على أنه حقائق موضوعية ثابتة لا يرقى إليها الشك، كنا مخدوعين، وكنا مستعبدين!

* * *

يقول التاريخ الأوربي: إن نظرية دارون كانت نقطة تحول في تاريخ العلوم، وإنها أثرت في اتجاه التفكير البشري بحيث يمكن تتبع آثارها في كل ما أنتجه العلماء في العهد الأخير...

وهذا صحيح.

([1]) كتب داروين إلى أحد أصدقائه يقول: إنه لا يعرف لماذا يتهمه الناس بالكفر مع أنه لا يعتقد أن نظريته تنفي وجود إله! ولقد مر علينا من قوله ما يثبت نفوره من الإقرار بوجود إله يتدخل في شئون الخلق ويشرف على تطوراته.

([2]) مر بنا في هامشة سابقة أن هذا الوضع قد بدأ يتغير. والحقيقة أن الكشوف العلمية الكبرى التي تمت في الفترة الأخيرة قد بهرت العلماء أنفسهم وأجبرتهم أن يعترفوا بأن هذا الكون الهائل الدقيق التكوين إلى حد الإعجاز لا بد أن يصدر عن إله خالق مدبر.

وقد تأثر بها فرويد كما أسلفنا. وأول ما يبدو من هذا التأثر هو نظرته إلى الإنسان على أنه مخلوق أرضي، عالمه كل محصور في هذا النطاق الضيق القريب.

ولكن هذا ليس كل شيء. فقد تأثر به من زاوية أخرى حين أزال عن الإنسان ما كان يحوطه من "كرامة" إنسانية، ومن رفعة وشفافية وروحانية. وذكل على اعتبار أن "رعاية الله" لهذا المخلوق، وتكريمه له، خرافة كبيرة، نتجت من الخرافة الكبرى المتصلة بخلق آدم!

وتأثر به من زاوية ثالثة حين تابعه في قوله: إن "غرائز" الإنسان هي الامتداد الطبيعي لغرائز الحيوانات السابقة له في سلم الصعود، مشافاً إليها قدر من التطور، هو القدر الذي نتج من الظروف التي صادفت الجد الأعلى للإنسان، فأثرت فيه، وأنتجت منه الكائن البشري على مر الأيام.

ومن هذا نجد أن نظريات فرويد هي الامتداد الطبيعي لنظرية دارون، أو هي تخصيص لها في ميدان "الإنسان". وعلى ذلك ينبغي أن نحترس مما فيها من المزالق الخطيرة. فكل هذه الإيحاءات التي نشأت من نظرية دارون ليست "حقائق موضوعية" كما قدمنا، وإنما هي وجهة نظر خاصة، وفلسفة معينة، مردها إلى المزاج الشخصي لصاحب النظرية، وإلى الظروف التي لابست حياته، والتي جعلت النفور من الدين والكنيسة واجباً مقدساً على كل صاحب رأي حر. ولكن هذه الملابسات الشخصية لا تُفرض علينا نحن، ولا تمنعنا من مناقشتها بالمنطق العلمي.

فأما قطع الصلة بين الأرض والسماء، أو بين الإنسان وخالقه، على أساس أن "الطبيعة" هي التي تشرف على الحياة في الأرض، وهي التي تتدخل في عملية النشوء والارتقاء، وأنها هي في آخر الأمر التي خلقت الإنسان، ومنحته أعضاء جسمه و"غرائز" نفسه. فتلك مغالطة مضحكة، إذا كان الأوربيون قد آمنوا بها لأسباب خاصة، فليس لنا نحن أن نؤمن بما آمنوا به. لقد لجأ إليها الأوربيون لأنها تخلصهم من سلطان الكنيسة المرهق، وترد إليها "إلهها" الذي تستبعد الناس باسمه؛ وتستبدل به إلهاً آخر له معظم خصائص الإله الأول، ولكنه يفترق عنه في أنه يعيش معهم على الأرض، ولا كنيسة له تستبد بالناس وتذلهم، ولا متناقضات حوله كمشكلة التثليث التي تحير العقل، ولا التزامات له عليهم من صلاة أو صوم أو تنسك وطهر... نعم. لقد صدق الأوربيون هذه المغالطة لأنهم تخلصهم من ذل الكنيسة، وتطلقهم على أعنتهم يبحثون عن اللذة دون ضابط ولا نذير، ويستعبدون غيرهم من أمم الأرض، لتزيد في ثرائهم ومتعتهم، كما كان الرومان يصنعون من قبل. أما نحن فليس لنا أن نتابعهم... أولاً: لأن ظروفنا غير ظروفهم، وثانياً: لأن هذه المغالطة لا تخضع لأي منطق علمي؛ وإلا فليقل لنا أحد ما هي على وجه التحديد هذه "الطبيعة" التي تخلق

كل شيء، والتي لا حدود لقدرتها على حد تعبير دارون؟ فإن لم تكن شيئاً له حدود معلومة وماهية مفهومة، فما المبرر المنطقي أو العلمي –لا العاطفي ولا الشخصي– الذي يبرر ترك فكرة الإله، والاستعاضة عنها بفكرة الطبيعة؟

أما نزع "الكرامة" الإنسانية عن الإنسان، بعد نفي النفحة الإلهية عن خلقه ونشأته، فتلك مسألة تبدو مفهومة وواضحة، إذ كان القصد منها مكايدة الكنيسة ورجال الدين، بتسفيه آرائهم، وتسوئ سمعتهم العلمية، وتصويرهم بصورة المخرفين الذين يستعبدون الناس بالخرافات. وقد كانت مسألة خلق آدم من أشد الأسلحة التي استخدمها الفريقان المتنازعان كل من وجهة نظره، فاتخذت ذريعة لتكفير دارون من جانب، وذريعة لرمي الكنيسة بالتخريف من جانب آخر.

ولكنا اليوم وقد انتهت تلك المعركة أو خمدت إلى غير رجعة، لا تجد في "العلم الموضوعي" ما ينفي قط أن الإنسان، أيا تكن خلقته الأولى، جدير بالتكريم والرفعة، وهو المخلوق الوحيد على ظهر الكرة الأرضية، الذي سما بعقله وروحه إلى ما يشبه المعجزات.

ويكفي أن يكون هو الذي حطم الذرة وعرف أسرارها وبدأ يطلق طاقتها. وأن يكون هو مبدع كل فن، والقادر على إنشاء كل حضارات التاريخ المادي منها والروحي سواء. فإذا كان هذا كله يميزه عن جميع الحلقات السابقة له في سلم التطور، فليس عجيباً إذن أن يكون وحده موضع التكريم، وأن يكون له شأن غير بقية المخلوقات.

وأما الثالثة: مسألة غرائز الإنسان التي تعتبر امتداداً لغرائز الحيوان، فقد انساق إليها دارون بطبيعة بحثه في "أجسام" المخلوقات وتطورها. فكان من الطبيعي بالنسبة إليه أن يلاحظ الشبه العظيم بين الإنسان وأسلافه من الحيوانات العليا. وجرته حماسته لنظريته أن يعتقد بأن التشابه في وظائف الجسم وأعضائه، لا بد أن يؤدي إلى التشابه في الوظائف النفسية، أو "التركيب النفسي"، بين الحيوان والإنسان[1].

وهذا خطأ لا شك فيه. فهناك بطبيعة الحال قدر مشترك من الحياة في جميع الأحياء. فالرغبة في البقاء، وما تستتبعه من حب الطعام والبحث عنه، والرغبة في حفظ النوع وما تستتبعه من الرغبة الجنسية... الخ، هي مسائل مشتركة بين الجميع وإن اختلفت الوسائل

(1) أشرنا في هامشة سابقة إلى اعتراف جوليان هكسلي، العالم الدارويني الحديث، بتفرد الإنسان حتى من الناحية البيولوجية البحتة التي زعم دارون أنه مشابه فيها للحيوان، فضلاً عن التفرد العقلي والنفسي، ونضيف نحن التفرد الروحي أيضاً.

حسب سلم الرقي. ولكن الإنسان وحده يتفرد –بعد ذلك، أي بعد هذه الجوانب المشتركة بين جميع المخلوقات– بأشياء خاصة، ولا يكون مقياسه فيها هو مقياس الحيوان[1]. وذلك كما يمتاز جنس من أجناس الحيوان عن سابقه بحاسة السمع أو البصر مثلاً، فلا يكون مقياسه فيها هو مقياس الحيوان السابق له في سلم الرقي، والذي لا يملك هذه الحاسة الجديدة. وتلك بديهية لا تحتاج إلى جهد في الإثبات، لولا أن الأمر كما يقول القرآن: "وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً"!

وقد يسلم لك المجادلون بامتياز الإنسان "بالعقل"، وأنه على الرغم من أن الحيوان على قدر من الذكاء والتفكير إلا أنه لا وجه للمقارنة بين ذكائه وذكاء الإنسان. ولكنهم يجادلون أشد الجدل في امتياز الإنسان "بالروح". لا لأن هذه ليست حقيقة. ولكن لأن اعترافهم بها يكلفهم تكاليف كثيرة، كتلك التي كانت تفرضها عليهم الكنيسة ففروا منها هاربين. فهم اليوم يهربون من الاعتراف بالروح والروحانية، لنفس الدافع القديم الذي جعلهم يهربون من سلطان الدين، فضلاً على أن الاعتراف بها يخالف طبيعتهم المادية الوثنية، التي ورثوها من روما القديمة، وما زالت تعمل في دمائهم بشعور أو بغير شعور.

فالنظرة الحيوانية للإنسان، إن كان يصلح تطبيقها في علم الحياة[2]، فمن الخطأ أن تطبق كما هي في علم النفس، لأنها تؤدي إلى نتائج أبعد ما تكون عن الصواب.

* * *

وأحسبنا الآن قد عرفنا إلى أي مدى تأثر فرويد بفلسفة دارون ونظرياته. ولكن هذا كله كان تأثرا واعياً اقتنع به، واتبعه عن روية وقصد[3].

ولكني أزعم أن هناك تأثيراً آخر ينبع من اللاشعور، قد لا يحس به فرويد نفسه، وقد ينكره إذا أحس به أو ووجه به، ولكن هذا لا ينفي أنه ممكن الحدوث.

أنا أزعم أن فرويد متأثر بكونه يهودياً، وأن إحساسه بيهوديته قد أنتج أثره اللاشعوري في فلسفته كلها، ونظرياته جميعاً.

([1]) انظر الهامشة السابقة.

([2]) انظر الهامشة السابقة.

([3]) تبين لي بعد كتابة هذا الكتاب بسنوات أن المسألة لم تكن مجرد تأثر علمي بداروين وإنما كان استغلالاً مقصوداً لنظريته من أجل إفساد البشرية. انظر فصل "اليهود الثلاثة" في كتاب "التطور والثبات".

وأحب –قبل أن ينزعج عبّاد فرويد ومريدوه، وقبل أن يصيحوا بدافع الاستهجان أو الاستنكار: حاشا لله ما هذا بشراً! وإنما هو عالم لا يسري عليه ما يسري على بقية البشر العاديين –أحب قبل ذلك أن أنقل إليهم اعترافاً من فرويد ذاته، بأنه لا يبرئ نفسه من الهوى، وأنه بشر يعتمل في نفسه ما يعتمل في نفس غيره من نزوات وأحقاد![1]

قال في كتابه "تفسير الأحلام": إن دراساته كلها تقع في محيط الشواذ، ولذلك فقد يعترض المعترضون على نظريته في التفسير إذا كانت كلها مستمدة من تلك الأحلام. ولكنه شرح عذره في عدم استطاعته تفسير أحلام الأصحاء، بأنه يحتاج دائماً أن يعرف كثيراً جداً من الملابسات المحيطة بنفس أي شخص لكي يتمكن من تفسير حلم من أحلامه. وهذا لا يتيسر له بين الأصحاء بقدر ما يتيسر في محيط المرضى الذي يفدون إلى عيادته يطلبون العلاج، فيسألهم عن شئون حياتهم، ويسجل ما يلقون إليه من معلومات تعاونه على حل مشاكلهم النفسية.

وقرر لذلك كله أن يأتي بمثال من أحلامه هو، على اعتبار أنه يعرف ملابسات حياته، ويستطيع بالاستبطان أن يفسر خوافي نفسه.

ثم أورد حلماً سماه "حلم 23 –24 يولية سنة 1895"، وفسره على طريقته الخاصة في عدة صفحات. ولا نحتاج هنا إلى نقل كل ما قال في التفسير. وإنما أكتفي بأن أنقل عنه قوله: "إن الدكتور "م" لا يوافق على العلاج الذي أجريته، ويعترض عليه فانتقمت منه في الحلم بوضع هذه الكلمات المضحكة على شفتيه، وتصويره بما يفهم منه أنه جاهل[2]"... "وقد أحسست أن "صديقي" الدكتور أوتو Ottoيقف ضدي (إذ يتهمني بالتقصير في علاج "إرما") فانتقم لي منه الحلم بتحويل اللوم إليه... وتصويره بصورة من يرتكب الأخطاء"[3].

([1]) ظهرت بعد هذا الكتاب بسنوات طويلة مؤلفات بالعربية والألمانية والإنجليزية وغيرها تؤكد أن فرويد كان يصدر في كتابته عن نفس يهودية خالصة. اقرأ بالعربية كتاب الدكتور صبري جرجس وبالألمانية أو الانجليزية كتاب يونج تلميذ فرويد بعنوان "ذكرياتي عن فرويد".

([2]) عن كتاب "تفسير الأحلام" ترجمة أ. أ. بريل، طبعة سنة 1950، ص122.

([3]) ص 126 من المصدر السابق.

فإذا كان هذا اعترافه عن نفسه فأنا لا أتجنى عليه حين أطبق عليه نظريته في الدوافع البشرية والعقل الباطن واللاشعور، وأزعم بناء على ذلك أنه متأثر بكونه يهودياً. وأن إحساسه بيهوديته قد أنتج آثاراً بعيدة في كل نظرياته.

فاليهود كما هو معروف، أقلية عالمية مكروهة ومنبوذة في أرجاء الأرض، وفي العالم المسيحي بوجه خاص. فإذا كانوا قد عاشوا أزماناً متطاولة داخل العالم الإسلامي يتمتعون بكل حقوق الإنسان، ويقومون بنشاطهم الاقتصادي، المشروع وغير المشروع، دون محاسب ولا رقيب، فلم يكن الأمر كذلك في العالم المسيحي الذي كان ينكل بهم، ويلتذ بتعذيبهم، ويصر على تحقيرهم علانية دون مواربة ولا إنكار. ولم يعترف لهم بحقوقهم الإنسانية أبداً، إلا حين أراد في العصر الأخير أن يكايد بهم العرب المسلمين، فقواهم وناصرهم، وسلطهم على العالم الإسلامي الآخذ بأسباب النهوض، ليؤخر نهضته أو يحطمها، وذلك بوحي من الروح الصليبية المتعصبة ضد الإسلام، والتي ما تزال آثارها باقية في نفوس المسيحيين رغم أنهم تخلوا عن المسيحية كدين[1].

ومع كل هذه المناصرة والتشجيع، التي لم تصدر عن شعور إنساني، وإنما عن مصلحة خبيثة كما رأينا، فما تزال في أمريكا ذاتها، أشد مناصري الصهيونية، أماكن وضعت عليها لافتات تقول: "ممنوع دخول الكلاب واليهود"!

أما في غير أمريكا، فالأدب الإنجليزي غني بالشواهد على كراهية الإنجليز لليهود في القديم والحديث، واحتقارهم لهم والاشمئزاز منهم. وأذكر مثالاً قصة "الزنبقة الحمراء" الشهيرة "Scarlet Pmpernel" كما تشهد مسرحية شكسبير "تاجر البندقية" بما كان اليهود يلقونه في إيطاليا من مهانة وتحقير. أما في ألمانيا فقد وصلت المسألة إلى درجة الإبادة والاستئصال!

وأشد ما يتهم به اليهود أنهم قوم ماديون مغرقون في المادية، لا يرعون في سبيل تحقيق مصلحتهم الخاصة إلا ولا ذمة، وليس لهم ضمير يمنعهم من ارتكاب أخس الأعمال إذا كان لهم فيها كسب قريب أو بعيد.

ويتهمون كذلك بأن المثل العليا –والقيم الخلقية خاصة– كلام فارغ في نظرهم، وسخف لا يعود على الفرد إلا بالخسارة والحرمان.

([1]) عن كتاب "الإسلام على مفترق الطرق" تأليف ليوبولدفايس، وترجمة عمر فروخ.

ولا ريب في أن الصبي "سيجموند فرويد" قد وقع في نفسه كثير من ذلك، وترسبت في لا شعوره أحاسيس معينة تجاه هذا الاضطهاد والتحقير الذي يلقاه اليهود، وهو منهم، وإزاء التهم التي تكال لهم بالشمال واليمين. فكيف "انتقم" لا شعوره من كل ذلك في صورة بريئة المظهر، معقولة، لا اعتراض لأحد عليها من أولئك "الجناة المعتدين" من المسيحيين؟

إنه ينتقم لنفسه ولليهود جميعاً بأن يقول: أيها الناس الذين تتهموننا بأننا نعيش على غرائزنا، لا نعرف إلا صوالحنا الخاصة، ولا نقيم وزناً لقيمة عليا أو ميزان خلقي... انظروا إلى أنفسكم! انظروا إلى دخائل شعوركم! وها أنذا أرفع أمامكم المرآة السحرية التي تنفذ إلى دخائل النفوس، وتكشف ظلمات المجهول في اللاشعور! انظروا إلى أنفسكم... إنكم كلكم كاليهود!! كلكم ماديون تعيشون على الغرائز! كلكم لا ضمير لكم، ولا أخلاق، ولا مثل عليا، ولا قيم معنوية! كلكم تنطبق عليكم الصورة البشعة الشائهة التي تلصقونها باليهود. فلماذا تخصونهم بها، وهي صورة الإنسانية عامة في القديم والحديث؟!

وهكذا يرفع فرويد –في اللاشعور– لعنة الأجيال التي انصبت على اليهود وحدهم، وينتقم لهم بأن يصب اللعنة على الجميع!

وليس ذلك فحسب...

ففي تصويره للمجتمع على أنه "الغول" الذي يتعقب الفرد ويحاول تحطيمه، كان يصور في لا شعوره الأغلبية المسيحية، التي تتعقب الأقلية اليهودية وتحاول تحطيمها والقضاء عليها. وحين يصور شعور الفرد نحو المجتمع بالكراهية والحقد، ونظره إليه على أنه القيد الذي ينبغي تحطيمه والتغلب عليه، يصور في لاشعوره إحساس الأقلية اليهودية نحو بقية العالم، وأمنيتهم في أن يحطموهم ويتغلبوا عليهم، ويكون لهم عليهم السلطان آخر الأمر. وكذلك في تصويره للكبت على أنه في الأغلب الأعم شيء مرذول يعود بأسوأ النتائج على الفرد، ويعذبه بالحرمان، والاضطرابات النفسية والعصبية، كان في لا شعوره يصور قمع العالم لليهود، وتعذيبه لهم، وإيقاع الاضطراب في صفوفهم.

وهكذا تكون آراء فرويد الأساسية كلها استجابة لا شعورية لما يعتمل في نفسه كيهودي، من حقد على العالم كله ورغبة في الانتقام. وهي استجابة تحايل لها عقله الباطن

بطريق التبرير "Rationalisation" –كما يقول فرويد– لتتخذ مظهراً علمياً بريئاً لا غبار عليه من الظاهر![1]

وأيا كانت التأثيرات الشعورية أو اللاشعورية، فلن نعتمد عليها في مناقشة آراء فرويد. إذ ينبغي أن نناقشها في ذاتها مناقشة موضوعية علمية. وإنما ذكرنا هذه التفسيرات لأنها تلقي بعض الضوء على اتجاه فرويد في تفسير النفس الإنسانية، وتقنعنا أن آراءه لم تكن حقائق علمية، بقدر ما كانت ملابسات شخصية.

* * *

وقد تحدثنا عن بعض الآراء التفصيلية لفرويد في فصول: "الفرد والمجتمع" و"الجريمة والعقاب" و"المشكلة الجنسية" و"القيم العليا". ولكنا نكتفي هنا بعرض عام لنظريته ومآخذنا عليها.

فأول ما يعاب عليه هو "تحقير" الإنسان، بتصويره مجموعة من الغرائز والشهوات لا يرتفع عن واقع الأرض المادي، ولا ينطلق من قيد الغريزة لحظة في فن رفيع أو فكرة عليا أو سبحة من سبحات الروح، إلا أن يكون قد وقف في طريق الطاقة الغريزية عائق قهري منعها من الانطلاق!

فالصورة التي يرسمها للإنسانية هي دائماً صورة الفرد الذي يسعى جاهداً طوال حياته لتحقيق لذائذه، مدفوعاً إلى ذلك بدفعة "اللبيد" (Libido) وهي الطاقة الشهوانية التي لا تكف عن الإلحاح. فإن استطاع تحقيقها مباشرة فبها ونعمت! وإلا فهو دائب التحايل على الحواجز التي تقف في سبيله، ليفلت منها بطريقة ما. وهو سعيد كلما استطاع أن "يضحك" على حارس من الحراس الواقفين له بالمرصاد، فيمر من أمامه بريء المظهر لا يثير الشبهات، وهو يخفي بين طياته في الواقع ما لو عثر به الحراس لانهالوا عليه بالعذاب والتنكيل! وهو لا يقوم بهذا الاحتيال واعياً في أغلب الأحيان، بل يقوم اللاشعور بمئات من أنواع المغالطة

(1) على الرغم من عدم اعتراضي –من الناحية العلمية– على هذا المعنى الذي كتبته في سنة 1952 فقد تكشف لي فيما بعد أن هناك قصداً –واعياً– مدبراً لإفساد البشرية بنشر تلك الصورة المشوهة "للإنسان" وتحطيم إيمانه بالقيم العليا كلها. ولا تعارض على أي حال بين هذا المعنى وذاك فهما متكاملان.

والتحايل[1]، هدفها جميعاً أن تجد منفذاً للطاقة الشهوانية التي لا تسكت عن الإلحاح. فإذا لم يستطع اللاشعور أن يحقق في اليقظة ما يريد، فإنه يلجأ إلى الأحلام، وفيها متسع كبير لتحقيق كل رغبة لم يتسع المجال لتحقيقها في اليقظة (وكل الأحلام عند فرويد تعبير عن رغبة مكبوتة أو كراهية مكبوتة). والفرد على أي حال لا يكف أبداً عن تحقيق لذائذه إلا أن يعجز عجزاً تاماً عن مواجهة الحراس، أو التحايل عليهم، أو أو يكون به من النقص الجسدي –العضوي– ما يمنعه من التحقيق. وكل ذلك يوقعه فريسة للاضطرابات العصبية والعقد النفسية، التي لا تقف عند حد في إفساد طبيعة الإنسان، وتبديد نشاطه الحيوي، والانحراف به عن الطريق السوي.

وهو يشرح التكوين النفسي للإنسان بأنه ثلاث درجات بعضها فوق بعض: أولها وأدناها الطاقة الشهوانية وموطنها الذات السفلى "id". وهي طاقة جنسية في أساسها، وإن كانت الذات السفلى تشتمل كذلك على طاقة "محايدة" ليس لها عنوان محدد، ولكنها تحت تصرف السيد الذي يستخدمها. وبعد ذلك توجد الذات "ego" وهي النفس الواعية التي تواجه المجتمع وتحتك به، وتحاول التوفيق بين الرغبات المتناقضة في داخل النفس، وبين الحقيقة المادية الخارجية. والعنصر الثالث في النفس هو الذات العليا "Super ego" وهو ينشأ من تلبس الطفل بشخصية والده. وحينئذ تنشأ عقدة أوديب كنتيجة طبيعية لحب الولد لأمه حباً جنسياً، يحول وجود الأب دون تحقيقه، فيتكون في نفس الطفل نحو أبيه شعور مزدوج طرفاه الحب والكراهية في آن واحد. ثم يتخلص الطفل من هذا الصراع –إذا قد له أن يسير في الخط الطبيعي– بأن يزيد تلبسه بشخصية والده (هذا في الولد، أما البنت فإنها تتخذ الموقف المقابل، وتتخلص من العقد بزيادة تلبسها بشخصية أمها). وعند ذلك ينشأ الضمير. وتكون مهمته الكبت والقمع للشهوات الجنسية غير المرغوب فيها، وذلك لحماية الذات من عسف ذوي السلطان في الخارج (الأب أو المجتمع أو الدين أو التقاليد[2]).

إلى هنا وتنتهي النفس الإنسانية في تصوير فرويد.

فأول ما نلاحظ على ذلك أن الضمير بمعناه الخلقي المعروف في علم الأخلاق غير موجود، وإنما هو خرافة يضحك بها الإنسان على نفسه! أما الحقيقة –في نظر فرويد– فهي

([1]) يقول في كتاب "The ego and the id "، ترجمة جون رفيير، الطبعة الثالثة، سنة 1942 في صفحة 83: "إن موقع الذات بين الطاقة الشهوانية والحقيقة الخارجية كثيراً ما يغريها بأن تكون منافقة مخادعة نهازة للفرص، كالسياسي الذي يرى الحقائق، ولكنه يحب أن يحافظ على مكانته بين الجماهير!".

([2]) عن كتاب: The ego and the id .

أن الضمير الذي نشأ عن طريق القهر للنوازع الفطرية، يظل يقوم بهذا القهر لصالح الفرد ذاته، ولتجنيبه الاصطدام بالقوى الخارجية القاهرة.

وهو إذ ينفي الضمير الخلقي، ويستبدل به هذا الضمير النفعي، ينفي بالضرورة كل قيمة خلقية ذاتية، لأن هذه تقوم على "تطوع" الإنسان بالتنازل عن شيء من متعته، استجابة لقيمة عليا؛ أو إشراك الآخرين فيها، نتيجة الشعور بأنهم شركاء في الإنسانية وإخوان في الحياة.

والذي يقوم بهذا التطوع أو يدعو إليه هو ذلك الضمير الخلقي الذي يلغيه فرويد، فيلغي كل "منتجاته" من خير ورحمة وعدل، ومعاونة من القوي للضعيف، ومن الواجد للمحروم، بغير انتظار لجزاء، أو على أقل تقدير انتظاراً للخير البعيد الذي يعود على المجموع كله، حين يتنازل الأقوياء والواجدون عن بعض ما يملكونه للضعيف والمحروم!

ولسنا نغرب في الخيال، ولا نرقى إلى عالم الأساطير خين نقول: إن الحق غير ذلك، وإن الضمير الخلقي حقيقة واقعة، وإنه يفرض على الفرد أحياناً أن يتطوع باحتمال الألم، أو بالحرمان من اللذة أو الفائدة، في سبيل مصلحة عليا لا تعود على هذا الفرد بالذات، أو لا تعود عليه وحده. أو من أجل مثل أعلى يعتنقه ويجاهد في سبيله. والأمثلة كثيرة في التاريخ: أمثلة الأبطال والمصلحين، ولا نقول فقط الأنبياء والقديسين، وإن كان هؤلاء يؤيدون رأينا بداهة، ولا يحتاج أمرهم إلى جدال. وكون أولئك الممتازين قلة في البشرية، لا يعني أنهم غير موجودين، أو أنه لا قياس لهم. فالذي يحدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى. وإنهم قلة بتأثير التوجيهات والإيحاءات التي تصدر عن فرويد وغيه من ذوي النظرة المادية الضيقة. ولكنهم لا يكونون قلة في فترات الإشراق والصعود، الفترات التي يهتف فيها للبشرية الأنبياء والقديسون، والأبطال والمصلحون، فيرتفع الناس إلى آفاقهم العليا، منساقين إلى ذلك بغير ضغط ولا قهر، وإنما استجابة لدافع ذاتي يدفع إلى التسامي والصعود، ويعتمد في داخل النفس على رصيد واقعي مذخور!

والتطوع بعمل الخير أو تحمل الأذى والحرمان في سبيل فكرة عليا أو مصلحة عامة، يعارض تفسير فرويد للضمير، الذي يمثل عنده القوة الجبرية المفروضة على الإنسان فرضاً لا سبيل إلى الخلاص منه؛ ويؤكد وجود القيم المعنوية والإنسانية في محيط البشرية، كنتاج أصيل لها، لم يفرض عليها من الخارج، ولم يكتب لها ألا تطيعه إلا كارهة.

* * *

ولكن فرويد لا يرضيه هذا التفسير النظيف لبعض دوافع الإنسانية النبيلة، فيروح يلتمس لها المفسرات التي تذهب بجلالها، وتطمس ما فيها من إشراق. فكل ارتفاع عنده هو احتيال لا شعوري لمداراة خسة هابطة! وكلما زاد الإنسان تطهراً وإنسانية في الظاهر، كان ذلك دليلاً على عنف المشاعر الإجرامية التي يكبتها في لا شعوره!

ولو أنه قصر الأمر على الحالات المرضية الشاذة، كما يقول مثلاً في كتاب " Totem and Taboo"[1] ص68: "في الحالات العصبية التي تستولي فيها على المريض فكرة معينة، نجد حساسية شديدة في الضمير، هي مظهر للقوة العكسية التي تعمل ضد الإغراء الشرير الكامن في اللاشعور...".

لو قصر هذه الصفة على الحالات المرضية لما كان لأحد أن يعترض عليه. ولكنه يجعل المسألة قانوناً عاماً يشمل الجميع. فها هو ذا يقول في ص60 من الكتاب نفسه: "تكاد تكون جميع الحالات التي فيها ارتباط عاطفي شديد بشخص معين، منطوية على كراهية مختفية في اللاشعور واء هذا الحب الدافق الرقيق"!

وليس لهذه الكراهية سبب معروف فيمكن تجنبها، أو يساورنا الأمل في أن تتخلص منها الإنسانية في يوم من الأيام. وإنما هي فريضة أبدية، لأن الازدواج شيء في طبيعة المشاعر الإنسانية: فمع الحب ينشأ نشوءاً ذاتياً شعور الكراهية. واللذة يصاحبها الألم. والرغبة يصاحبها النفور. وهكذا كل إحساس يخطر في النفس يلازمه الشعور المضاد له بطريقة ذاتية، ولغير أسباب موضوعية[2] وإذ كان من المستحيل عملياً أن يظهر الشعوران المتضادان في منطقة الشعور، فإن أحدهما فقط هو الذي يظهر، وهو الذي يسمح المجتمع بظهوره، بينما يكبت الآخر في اللاشعور. ولكنه ينتهز كل فرصة ممكنة للإعلان عن وجوده، في الأحلام مثلاً، أو في حركات وأعمال ومشاعر تبدو في الظاهر أبعد ما تكون عن الموضوع، ولكن العبقرية الفذة تتصيد لها الشواهد، وتحكم بينها أسباب الارتباط!

يقول في كتاب "The ego and the id" ص59: "تدل المشاهدات الإكلينيكية، على أن الحب تصحبه مشاعر الكراهية بانتظام يفوق الحسبان، وأن الكره في العلاقات البشرية يكون في الغالب سابقاً على الحب. وليس هذا فحسب، بل تدل تلك المشاهدات كذلك على أن الكره يتحول في مناسبات كثيرة إلى حب، والحب إلى كره...

([1]) النسخة التي نستشهد بها في هذا البحث هي ترجمة جيمس ستراشي، طبعة سنة 1950.

([2]) أثبتنا من كلام فرويد نفسه –في فصل القيم العليا– أن هذا غير صحيح!

ومن الواضح أنه لا يدخل في حسابنا تلك الحالات التي يحب فيها الإنسان شخصاً معيناً، ثم يكرهه بعد ذلك لأن هذا الشخص يقدم له من الأسباب ما يبرر هذا التحول".

وعلى هذا الأساس يفسر كل العلاقات العاطفية التي يمكن أن تخطر في نفوس البشر: فالولد يكره أباه[1]، والفتاة تكره أمها، والزوجية تكره زوجها وتتمنى له الموت[2]. وحزن الأهل على ميتهم ليس شعوراً خالصاً بالحزن الحقيقي لمفارقة هذا العزيز، ولكنه مداراة للفرحة الخفية التي يحس بها الأقارب عند التخلص من هذا الشخص، الذي كانوا يكرهونه ويودون لو يموت[3]...

ولا تقتصر هذه الظاهرة على المشاعر الفردية، بل إنها لتمتد حتى تشمل الحياة النفسية كلها بين الأفراد والمجتمعات. يقول في كتاب "Totem andTaboo" ص157: "لقد أشرت في مناسبات عدة إلى أن الازدواج العاطفي "Ambivilence" –أي وجود الحب والكراهية تجاه الشيء الواحد ي ذات الوقت– هو الأساس الذي يقوم عليه كثير من النظم الحضارية. ولسنا نعلم شيئاً عن منشأ هذا الازدواج...".

فهي إذن لعنة مكتوبة على البشرية ألا يظهر فيها شعور واحد نظيف، خالص من الأدران والقذارات! ولن يتخلص البشر من هذه اللعنة أبداً، ما دام كل شعور نظيف في النفس، يلازمه –بصفة دائمة، و"بانتظام يفوق الحسبان" –شعور آخر غير نظيف.

فلن يحدث مثلاً على مدار التاريخ أن يحب الولد أبويه، ولا الوالدان أولادهما، ولا الأخ أخاه ولا أي بشر على الأرض بشراً آخر، إلا بأن يكبت هؤلاء جميعاً شعور الكراهية الذي ينبت في نفوسهم تجاه من يحبونهم، بطريقة جبرية لا إرادة فيها، ولغير سبب موضوعي، وبنفس القوة التي يكون عليها شعور الحب!

ولن يحدث أبداً أن تتسامى الإنسانية إلا بالكبت القهري للنوازع الفطرية، التي تتعارض بطبيعتها مع الارتفاع، ولا يمكن التوفيق بينهما إلا بالكبت... فللا مجال إذن عند فرويد لشخص واحد يمتنع بإرادته، ودون كبت، عن شيء من هذه اللذائذ في سبيل فكرة، أو مراعاة لخلق، أو نداء ضمير.

---

(1) "Totem and Taboo"ص50.

(2) المصدر السابق ص60.

(3) نفس المصدر ص60.

وهو لا ينفي أن الناس تمتنع عن كثير من رغباتها وملذاتها. ولكنه يؤكد لك دائماً أن هذا الامتناع إنما يحدث تلبية لقوة من القوى القاهرة، الأب أو المجتمع أو الدين أو التقاليد، يبلغ من قهرها وسطوتها أن يقف الفرد أمامها عاجزاً عن المقاومة أو الاحتيال.

بل هو لا ينفي أن الإنسان يبدو أحياناً كأنه يمتنع، مختاراً، عن إتيان بعض الأعمال. ولكنه يفسر هذا الاختيار الظاهري بأن الذات العليا، أو الضمير السيكلوجي، هو الذي يقوم في هذه الحالة بإقناع الذات، أو إجبارها، على الامتناع عن هذا العمل، إنقاذاً لها من سخط ذوي السلطان، وما قد يلحقونه بها من أذى وإيلام. وتتم في داخل اللاشعور عملية مغالطة مركبة، يقنع الفرد نفسه بعدها أنه هو الذي اختار أن يمتنع وليست القوة الجبرية القاهرة هي التي منعته. وهذه المغالطة مفيدة من جانبين: الأول أن تضمن الذات العليا أن الذات ستطيعها ولا تنتقض عليها، ما دامت —في الظاهر— تمتنع متطوعة، وحينئذ تنجو من التعرض لسخط ذوي السلطان. والثاني أنه بهذه الطريقة لا ينخدش إحساس الإنسان بذاته، وينتفي —ولو ظاهراً— شعوره بالقهر الخارجي، فيبقى في سلام مع المجتمع، وتتحقق بذلك له السعادة. وهذا أبرع ما تقوم به الذات العليا من ألاعيب غاية في الدقة حتى ليخيل للبسطاء من أمثالنا أن هناك ضميراً خلقياً هو الذي قام بهذا الامتناع!!

وذلك جميل! وما ينكر أحد أن مثل هذا يحدث في نفس كل إنسان، ويتكرر في كل يوم وكل ساعة. وما ينكر أحد أن عبقرية فرويد هي التي كشفت هذا المجهول، الذي كان يلعب لعبه الماهر الدقيق في داخل النفس البشرية، دون أن يفطن إليه الكثيرون.

ولكن الأمر الذي ما نزال نأخذه على فرويد أن النفس البشرية لا تنتهي عند هذا الحد الذي يقف بها عنده. وأن هناك تطوعاً حقيقياً لا مظهرياً، لا يدعو إليه قهر القاهرين من ذوي السلطان، ولا العجز عن تحقيق رغبة معينة. وإنما يدفع إليه الترفع والتطهر، والعظمة النفسية التي تمتنع مختارة عن إجابة دفعة الطاقة الشهوانية، ثم لا يصيبها بعد ذلك عقد نفسية ولا اضطراب عصبي. وقد ذكرت من قبل الأنبياء والقديسين، والأبطال والمصلحين، وأضيف إليهم ألوفاً بل ملايين من البشر على ممر الأجيال، في الشرق كله والشرق الإسلامي خاصة، إن يكونوا قد اختفوا اليوم، أو قلوا بتأثير العدوى الغربية المادية، فقد كانوا إلى جيل واحد من الكثرة بحيث لا يخطئهم النظر. أناس يتطوعون بما لم يطلبه منهم أحد على سبيل الفرض، لا الدين ولا المجتمع ولا التقاليد، ولا هم من الشواذ الذين اضطرب سلوكهم إلى أعلى نتيجة كبت فرضته عليهم من الخارج قوة قاهرة. وإنما هو إرضاء لمشاعر إنسانية نبيلة، يفرضونها هم على أنفسهم متطوعين. وسأذكر لذلك أمثلة كثيرة عند الحديث عن نظرة

الإسلام. ولكني أجتزئ هنا بمثل بسيط ولكنه عميق في دلالته، يعرف صدقه كل من أدرك الجيل السابق في مصر، أو سمع عنه ممن شهدوه.

كان الفقير إذا احتاج إلى سلفة من غني يعرفه، وأحياناً لا يعرفه، يذهب إليه وفي نفسه بطبيعة الحال انكسار ومذلة. فما يكاد الغني يعرف حاجته حتى يبالغ في إكرامه ليزيل عنه ذلك الانكسار. ثم يدفع إليه طلبه، كأنما يدفع إليه سراً لا يريد أن يبوح به لأحد. ويقسم بعد ذلك أغلظ الأيمان لا يكتبن به وقة تثبت الدين. ثم يقسم لا يقبل رده إلا أن يتيسر الفقير، ويصير لديه –زيادة عن ضروراته– ما يستطيع به وفاء الدين. ويحاذر في ذلك كله أن يعلم أحد من الناس بهذا الدين المستور!

من ذا الذي يفرض على هذا الإنسان أن يسلك هذا السلوك؟

الدين؟

إن الدين يجعل من حق الدائن أن يأخذ بماله صكا، ويجعل كتابة الصك بصيغة الأمر في الآية: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ.." فهو لا يفرض على أحد هذا السلوك النبيل، الذي قد يؤدي إلى ضياع الدين كله، إذا كان المدين خسيس الأصل والطباع.

المجتمع؟

كلا! فلم يكن المجتمع يحتم على أحد أن يضع حقوقه هكذا في مهب الريح، عرضة لأبسط انحراف خلقي في نفس المدين. وصحيح أن المجتمع كان بطبيعة الحال "يعجب" بمثل هذا التصرف النبيل. ولكن استحباب الشيء ليس قوة قاهرة تدعو الناس إلى إطاعتها راغمين مكبوتين. ثم إن إصرار الدائن على كتم الخبر عن الناس، ينفي أنها حركة قصد بها استثارة الإعجاب والمديح.

فإذا قال بعض المماحكين: إن هذا كان "تقليداً" في ذلك المجتمع، يدعو إلى إطاعته الخوف من انتقاد الناس، فإن هذا لا يزيد على أن يكون توسيعاً لدائرة الخير والتطوع النبيل، حتى يكون سمة المجتمع كله، لا سمة شخصية يتميز بها فرد في جيل. وإلا فمن الذي فرض على هذا المجتمع منذ البدء أن يكون هذا تقليداً من تقاليده؟ ليست هناك قوة قاهرة يمكن أن ينشأ عنها هذا التقليد. وإنما هو التطوع النبيل بدأ به فرد أو أفراد فأعجب الناس به، وانساقوا إليه بمحض اختيارهم، فكانوا جميعاً نبلاء خيرين!

* * *

فإذا كان فرويد لا يؤمن بهذا الخير في الإنسانية، متأثراً في ذلك بنزعته المادية اليهودية، وبالمجتمع الأوربي الذي كان يعيش فيه، وهو مجتمع عريق في المادية، ورث تعاليم الإمبراطورية الرومانية وأنانيتها، وسعيها إلى تحقيق لذائذها على حساب الآخرين من مستعمرات ورقيق... فما الذي يفسر أو يبرر اعتناقنا نحن لهذه الآراء، ونحن نملك في الشرق معيناً لا ينضب من الأمثلة الإنسانية الرفيعة، التي تشهد بأن في البشرية خيراً حراً، طليقاً من القهر والقيود؟!

* * *

وقد كان منطقياً مع هذه المادية المتغلغلة في كيان فرويد، وفي المجتمع المحيط به، أن ينكر جميع المعنويات. فهو يذهب إلى أبعد مدى في نظريته في تفسير الأحلام، فينكر كل حقيقة خارجة عن نطاق الأرض، بل عن نطاق الإنسان ذاته في حيزه المحدود، فهو ينفي نفياً باتاً ما نسميه "الأحلام التنبؤية" لأنها قائمة على أساس "الروح" وعلى أساس صلة هذه الروح بالعالم الأكبر، وبالغيب المجهول. وتلك كلها "خرافة" يؤمن بها السذج البسطاء، ولا تليق بكرامة العلماء! فلا جرم إذن يقول عن الطريقة الرمزية في تفسير الأحلام إنها "طريقة خرافية"!

ولكن أمره عجيب فيما يتصل بهذا التصريح الخطير. ففي صفحتين متقاربتين عن كتاب واحد يقول أولاً: "إن تفسير الأحلام على الطريقة الرمزية (كتفسير حلم فرعون الشهير) لا يمكن تطبيقه إلا في حيز محدود[1]" ثم يقول عنها في صفحة تالية: إنها طريقة خرافية[2]!

ولو أنه اكتفى بالقول الأول، أي أنها محدودة التطبيق، لما نازعه في ذلك أحد؛ فما من شك في أن الجمهرة الغالبة من أحلام الناس هي تنفيس عن أشياء مكبوتة أو تعبير عن رغبة مشتهاة كما يفسرها فرويد بحق. وتبقى بعد ذلك قلة ضئيلة من الأحلام لا يمكن أن تفسر على هذا الأساس، ولا يمكن بغير تمحل ولا التواء أن تفسر إلا على أساس الاعتراف بصلة ما، خفية دقيقة، بين هذا الكائن البشري والكون الكبير والغيب المجهول.

---

(1) ص108 من كتاب "تفسير الأحلام".

(2) ص112.

وهناك حقيقتان أساسيتان في هذا المجال. الأولى أن قلة عدد هذه الأحلام لا ينفي وجودها، ولا يبرر إسقاطها من الحساب. فلم يقل أشد الروحانيين روحانية إن "كل" أحلام الناس تنبؤية. بل قالوا: إنها القلة التي يراها الإنسان وهو صافي الروح، شفاف النفس، قادر بحالته هذه على اختراق الحجب، والاتصال "بالمجهول". ولكن واحداً منها يكفي لإثبات هذه الحقيقة النفسية الفذة. فكيف وهي ليست واحداً فقط، بل مئات وألوف يشهد بها الواقع الشخصي لكثير من الناس؟

المصادفة؟؟

يقول فرويد وحواريوه: إنها المصادفة هي التي تحقق بعض الأحلام، فيخيل للناس أنهم كانوا متنبئين. أو هو إيحاء الحلم ذاته، يدفع الإنسان دون وعي منه إلى تحقيقه!

والمصادفة يمكن أن تفسر بعض الحالات، والإيحاء الذاتي يمكن أن يفسر بعضاً آخر. ولكن تبقى بعد ذلك حالات لا يمكن تفسيرها على هذا الأساس.والتمحل، والتحايل غير العلمي، هو وحده الذي يصر على تنكب الطريق، لإثبات رأي غير دقيق.

ولنا في اعتراف فرويد الأول، الذي نكل عنه في صفحة تالية، ما يكفي لإثبات أن "بعض" الأحلام على الأقل، لا ينطبق عليها تفسيره الذي ينفي عالم الروح، بل ينفي كل شيء خارج حدود الإنسان وعقله الباطن، وهو "المخزن" الذي تودع فيه تجارب الفرد الشخصية، وملابسات حياته الصغيرة المحدودة.

والحقيقة الثانية: هي أن عدم وصول العلم حتى اليوم إلى تفسير هذه الصلة الخفية الدقيقة التي تربط الإنسان بالكون الكبير والغيب المجهول، لا تعني حتماً أن هذه الصلة غير موجودة. وكل ما تعنيه أن العلم لم يصل إليها بعد. ومن يدري لعله يصل إليها بعد حين. وقد اعترف العلم اليوم بالتليباثي[1] وهو عجيبة من العجائب بالنسبة للإنسان المحدود الطاقة، والمحدود مدى الحواس. فما يمنعه أن يصل غداً إلى آفاق أكبر وأوسع في تفسير النفس الإنسانية، وخاصة بعد وقوعه على أسرار الذروة والإشعاع؟!

([1]) التليباثي: كلمة تطلق على التخاطة عن بعد. ومن الأمثلة التاريخية لها حادثة عمر الشهيرة، إذ وقف يصلي بالناس، ثم إذا به فجأة يقول: "يا سارية الجبل الجبل!" فسمعه سارية وانتفع بنصيحته فانتصر على عدوه، مع أنه كان يفصل بينهما ألوف الأميال.

ليس إصرار فرويد إذن على نفي العامل الروحي من حياة البشرية مستنداً إلى واقع علمي ثابت، وإنما هو تفسير ناشئ من تأثرات خاصة لا شأن للعلم بها، وليس فرضاً علينا، نحن المسلمين خاصة، أن نؤمن بها، ونتلقفها على أنها آيات من التنزيل.

* * *

أما نظرته إلى الدين فقد وصل فيها إلى أقصى الغاية في تشويه المثل الإنسانية الرفيعة، وتصويرها في أقبح صورة ممكنة!

فهو يرى أنه نشأ –أول ما نشأ– من جريمة منكرة. فقد حدث في جيل من أجيال الإنسانية الأولى أن أحس الأبناء برغبة جنسية ملحة نحو أمهم التي ولدتهم (لا أددري، ولم يقل فرويد، لماذا لم يتجهوا إلى الإناث الأخريات، اللاتي خرجن معهم في جيل واحد!) ولكن سطوة الأب كانت تمنعهم من هذه الشهوة الآثمة. فتآمر الأولاد على قتل أبيهم، ليتخلصوا من سطوته، ويستأثروا بأمهم. واستيقظت الأرض ذات صباح على صيحات مجنونة وصرخة مروعة: لقد نفذ الأولاد ما تآمروا عليه!

ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى أحسوا بالندم، وتملكهم الشعور بالخطيئة، فصمموا ليقدسنّ ذكرى أبيهم القتيل!

وامترج شخص الأب في شعورهم ببعض أنواع الحيوان –وتلك عملية نفسية طبيعية كما يقول فرويد[1]!– فقدسوا هذه الحيوانات ومنعوا قتلها، وذلك تكفيراً عن قتل أبيهم، ورغبة في تقديس ذكراه! وبذلك نشأت أول ديانة على ظهر الأرض وهي الطوطمية. "وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها، والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد، وهي رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذي نشأت عنه الحضارة، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة[2]"!

ثم يجد الفرصة السانحة لغمز المسيحية، العدو الأول لليهودية، وكأنما كان يرتب هذه المقدمات كلها ليصل إلى هذه النتيجة، فيقول: إن أساطير المسيحية تصور في حقيقتها رغبة

(1) لم يقل لماذا هي طبيعية. وكل ما استند إليه في تقريرها هو حالات مرضية شاذة لأطفال كانوا يحولون الكراهية المكبوتة في لا شعورهم ضد والدهم، إلى كراهية لبعض أنواع الحيوان وخوف منها.

(2) "Totem and Taboo" ص145.

الابن (المسيح) في قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة، فقتل نفسه هو بدلاً من أبيه، ولكنه في الوقت ذاته أصبح إلهاً مكان أبيه[1]!!

على أن الأمر لا ينتهي بتحقير الدين في منشئه، والزعم بأنه نشأ من عقدة أوديب، أي من شهوة جنسية مكبوتة. فهو يقول: إنه ما زال يمثل هذه الأفكار والمشاعر إلى هذه اللحظة!

وذلك فضلاً عن تصويره بأنه كوابت للنشاط الحيوي، نشأت من سخافة قديمة، كانت مفهومة عند الهمج والبدائيين. أما الآن فإن مهمته قد انتهت، فهو يترك مكانه للعلم[2]. وهذا ما يليق بالبشر المتحضرين!

* * *

أما المجتمع والأخلاق والتقاليد فهي "الحراس" الذين يتربصون بالفرد حتى يفتكوا به أو يوقعوه في سلطانهم ويخضعوه لمشيئتهم. والفرد من جانبه دائم الرغبة في الانتفاض على هذا السلطان، جهرة إذا أمن، واحتيالاً إذا خشي سوء المصير.

وقد لا يقول فرويد صراحة: إنه يعتبر المجتمع والأخلاق والتقاليد سخفاً ينبغي أن يزول، لينعم الفرد بالسعادة، ويهنأ بتحقيق ذاته ولذائذه...

ولكنه حين يقول لك: انظر إلى هذا المخبول، وإلى ذلك المريض بالهستريا، وذلك المصاب بالصراع، وذلك المصاب بالجنون من غير عيب وظيفي في مخه، وذلك المجرم المأخوذ إلى ساحة القضاء.. إنهم جميعاً ضحايا المجتمع التقاليد، ضحايا الدين ووخز الضمير.. ضحايا تلك العوائق التي تقف في سبيل الفرد وتكبت غرائزه، وتحطم بذلك كيانه وتبدد نشاطه...

حين يقول ذلك، يوحي إليك بأن الطريقة التي تمنع وقوع هذه العقد النفسية والاضطرابات العصبية، هي أن تزيل هذه الحواجز الضارة، وتطلق المشاعر المكبوتة من محبسها التقليدي!

([1]) "Totem and Taboo" ص154.

([2]) المصدر السابق ص88.

صحيح أنه اضطر بعد ما وجه إليه من نقد شديد كما يصرح في كتاب " The ego and the id" أن يعترف بما سماه المشاعر العليا للإنسان: وهي الدين اولأخلاق والحاسة الاجتماعية ولكنه أصر على القول بأنها جميعاً تنشأ من قهر النوازع الفطرية الممثلة في عقدة أوديب.

وقد تحسب إذن أن فرويد ينظر إلى عملية الكبت التي يقول إنها السبيل الوحيد للتسامي والارتفاع، على أنها ضرورة بشرية، لا غنى عنها للإنسانية؛ وأنه ينظر إلى التسامي على أنه مزية خصت بها الإنسانية لترتفع عن مستوى الحيوان.

ولكنه لا يدعك لهذا الظن الخاطئ؛ فهو يؤثر الصراحة الكاملة وهو يؤدي رسالته في تلويث البشرية، وتشويه كل معنى جميل!

يقول في كتاب "Three Contributions to the Sexual Theory"[1] ص82: تحت عنوان "التسامي". "أما ثالث أنواع الشذوذ (الجنسي طبعاً) فإنه يحدث نتيجة عملية "التسامي" حيث تصرّف الطاقة الشهرية الصادرة من منابع جنسية فردية، في مجالات أخرى[2]، وينتفع بها في هذه المجالات. وهكذا يحصل الإنسان على قوة "نفسية" كبيرة، من استعداد نفسي هو في ذاته خطير"!

وهو أصرح من هذا في بيان رأيه إذ يتحدث في ص85 من نفس الكتاب عن "التعارض القائم بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية"!

فإن شئت صراحة أكثر من ذلك فهي حيث يقول في كتاب " The ego and the id" ص80: "إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية"!

* * *

على أني لا أريد أن أنكر أن فرويد ربما كان محقاً في بعض ما يقوله عن الدين والمجتمع والأخلاق والتقاليد بالنسبة للمجتمع الأوروبي. فقد كان المجتمع المسيحي الذي عاش فيه، واستمد منه تجاربه وأبحاثه، يتسبب بتزمته وصرامته في كثير من ألوان الشذوذ والاضطراب. وقد رأينا من قبل إلى أي حد يتعارض هذا التزمت مع طبيعة الحياة والأحياء، وكيف

---

(1) ترجمة أ. أ. بريل، طبعة سنة 1910.

(2) أي غير المجال الجنسي.

يصطدم بالنوازع الفطرية في النفس البشرية، فيقوم بينهما الصراع الذي لا يمكن أن يؤدي إلى الخير.

من هذه الوجهة إذن ربما كان له بعض العذر فيما يقول. ولكنه من وجهة أخرى غير معذور! فثمة خطأ فني في الطريقة التي يستقي بها أحكامه.

لقد كانت كل تجاربه في محيط الشواذ. ومن هؤلاء الشواذ استقى أحكامه على الأصحاء بدعوى أن في الناس جميعاً قدراً من الشذوذ[1]! وأن الشذوذ ما هو إلا تكبير للحالة الطبيعية، وقد نشأ في الأصل من حالة طبيعية[2]!

والخطأ في هذه النظرة أن النشاط الطبيعي في الحالة السوية يؤدي وظيفة لا يؤديها النشاط الزائد أو المنحرف. وعلى هذا الأساس، أي على أساس الاختلاف في الهدف والوظيفة ينبغي أن ننظر إلى الشذوذ، لا على أساس التشابه أو الاختلاف في المظاهر والأشكال.

ونضرب مثالاً لحالة جسدية قد تفيدنا في تفهم الحالة النفسية:

ففي الجسم السوي عملية نشاط دائمة تقوم بها الخلايا في نطاق معين، إذ تنمو خلايا جديدة على الدوام، لتعوض ما يستهلك منها في العمليات الحيوية المختلفة التي يقوم بها الجسم. وهذا النمو له وظيفة معلومة. وهو يستمر بطريقة طبيعية ليؤدي هذه الوظيفة، وإلا أصيب الجسم بالعجز والفناء.

ولكن حالة مرضية تصيب الجسم –لأسباب لم تزل مجهولة– فيحدث نشاط زائد في نمو الخلايا، لا يؤدي وظيفته العادية، بل يمتص غذاء الجسم، ويقف حائلاً دون نشاطه الطبيعي.

هذه الحالة لا توصف بأنها مجرد تكبير للنشاط العادي للخلايا، بل تعرّف بأنها ورم خبيث؛ وليس يفسرها في شيء أنها نشأت في الأصل من وظيفة طبيعية يقوم بها الجسم في حالته السوية. ذلك أنه وإن كان هناك تشابه شكلي في عملية النمو مع اختلاف في القدر،

(1) "Three Contributions to the Sexual Theory" ص32.

(2) المصدر السابق ص14.

إلا أن النمو لا يؤدي وظيفة واحدة في الحالين، فهو في الأولى عملية ضرورية يقوم عليها بناء الحياة، وفي الثانية عملية ضارة خطرة على الحياة[1].

كذلك الأمر في الشذوذ النفسي. ففيه مشابهة شكلية للعملية النفسية الطبيعية، ولكنه يختلف عنها اختلافاً رئيسياً في الوظيفة. فلا يمكن الحكم عليه بنفس الطريقة التي نحكم بها على الحالة السوية، لأن هذه تؤدي وظيفة نافعة للنفس لا تتعارض مع كيانها الأصيل، بينما الشذوذ يتعارض مع هذا الكيان، ويؤدي إلى تدميره وإفساده. كذلك لا يجوز أن نعرض القضية في صورة عكسية فنقول: إن الحالة الطبيعية تصغير للحالة الشاذة، كما يود فرويد أن يقول: ليبرر إصدار حكم واحد على الحالتين.

ونأخذ على سبيل المثال حالة السادزم في صورتها السلبية (الماسوشزم) أي استشعار اللذة من الألم. ففي كل فرد سوي قدر من هذا الشعور. وهو يؤدي وظيفته الطبيعية في حدود هذا القدر، لأن بعض عمليات النمو ذاتها يصحبها شيء من الألم (كنمو الأسنان مثلاً) ولأن الضرورة تقتضي أحياناً أن يتعرض الإنسان لشيء من الجوع والعطش. بل إن تكوين الأخلاق والمشاعر العليا لا يتم بغير الامتناع عن أمور معينة، وهذا الامتناع لا بد أن يحدث شيئاً من الألم في مبدأ أمره على الأقل[2]. فلو لم يكن في الجسم ولا في النفس قابلية لاحتمال الأم واستعذابه ما أمكن أن تتم هذه الأمور.

ولكن الحالة المرضية تختلف عن ذلك في الوظيفة والغرض وإن تشابهت الصورتان. ففي حالة الشذوذ لا تتم اللذة إلا عن طريق الألم، سواء في المسألة الجنسية أو في أي شعور آخر. وهكذا يصبح الشذوذ معطلاً للنشاط الحيوي الطبيعي، منحرفاً به عن الطريقة التي تتم بها الفائدة الكاملة.

فكيف يجوز إذن أن نقول إن الماسوشية مجرد تكبير للحالة الطبيعية، أو أن الحالة الطبيعية هي مصغر الماسوشية!!

([1]) لعلماء الطبيعة اصطلاح خاص بهذا الشأن قد يهم القراء أن يعرفوه، خاصة وهو يستخدم أحياناً في العلوم الاقتصادية والاجتماعية وهو أن "التغير الكمي إذا زاد عن قدر معين ينقلب إلى تغير نوعي" أي أن الزيادة لا تقتصر حينئذ على المقدار ولكنها تحدث تغيراً في النوع أيضاً.

([2]) يقول فرويد كما قدمنا: إن المشاعر العليا لا تتم بغير الكبت. ولنا رأي آخر سنذكره في فصل "نظرة الإسلام". ولكن لا جدال في أن الامتناع عن العمل الغريزي يصاحبه الألم، حتى يتعود الإنسان على هذا الامتناع.

وإذ كانت كل أحكام فرويد قائمة على هذا الاستنتاج الخطير من الحالات الشاذة — وهو لا ينكر ذلك– فهي عرضة للخطأ أو المبالغة على أقل تقدير.

وأشد ما يبدو ذلك في افتراض أن كل أبناء البشرية يصابون بعقدة أوديب، ثم يتغلبون عليها بطريقة ما! وذلك لكي يفسر الحالات الشاذة التي عرضت له، والتي وجد فيها أطفالاً مصابين فعلاً بهذه العقدة!

فمقله في ذلك كمثل من يجد بعض الأطفال يولدون بست أصابع لا خمس كالمعتاد؛ فبدلاً من أن يقول: إن هذه حالات شاذة، يزعم أن كل الأطفال تتكون لهم ست أصابع، ولكنهم —بطريقة ما– يتخلصون من الأصبع السادسة ويولدون بخمس فقط، فيحسب أمثالنا من الجهلاء أن هذا هو الأصل في جميع الأطفال!!

* * *

والغلطة الثانية عند فرويد هي تعميم أحكامه المستمدة من جيل معين ومجتمع معين، على البشرية كلها في جميع أجيالها وجميع أنماطها. والأحكام الخاصة بالدين المسيحي في صورته الكنسية على الدين عامة بما فيه الدين الإسلامي، الذي يختلف اختلافاً أساسياً في نظرته إلى النفس الإنسانية عن كل ما عداه من النظم والعقائد. وما من شك في أن فرويد، بأفقه الضيق المحدود، كان عاجزاً عن الدخول في رحاب الإسلام، وتفهم روحه السمحة الطليقة التي لا تعتمد على الكبت، ولا صلة لها بعقدة أوديب، فليس في الإسلام ابن قاتل ولا أب مقتول!!

وقد يقول قائل: إن فرويد لم يكن يعنّي نفسه بهذه المباحث الفلسفية النظرية، وإنما كانت تعرض له حالات معينة فيدرسها ويستنتج من دراستها آراء معينة، يسجلها على أنها تجارب علمية، بصرف النظر عن مدلولاتها من الناحية الدينية أو الأخلاقية أو الاجتماعية!

وقد كان هذا يكون معقولاً وصحيحاً لو لم يتعرض لإصدار أحكام عامة على البشرية كلها، منذ مولدها إلى وقتها الحاضر، ويصر على أن هذه هي الصورة الوحيدة الصحيحة للبشرية جمعاء! ويصدر تفسيراً معيناً للدين، ويصر على أن كل الأديان بلا استثناء خاضعة لهذا التفسير!

ومع ذلك فإذا التمسنا الأعذار لفرويد من إيحاءات العصر الذي كان يعيش فيه، وملابسات حياته الشخصية، فليس هناك عذر لنا نحن حين نقتنع بصحة آرائه، ونعتقد أن البشرية كلها هي كما وصفها، والدين كله كما رآه[1].

ومن الواجب علينا أن نعيد النظر في هذه الآراء والنظريات، فنأخذ منها الصواب ونتجنب الخطأ. وسنجد حين نصنع ذلك أن كثيراً من الجزئيات قد يكون صحيحاً. ولكن الخطأ الأكبر والأخطر فيه، هو أن يقف بالإنسان عند مرحلة أقرب إلى الحيوانية، ولا يدع مجالاً للارتفاع به فوق عالم الضرورات.

ولو أنه قال في حق الإنسانية ما قال، ثم ترك الباب مفتوحاً لإضافة جوانب أخرى في النفس البشرية: الجوانب النظيفة المرتفعة المتسامية، ولم يصر على تشويهها وطمس إشعاعاتها بتفسيراته الملتوية المتحايلة، لما اعترضنا عليه في كثير.

فمن البديهي أن معظم الأحاسيس البشرية يقع في محيط الأرض، ويهبط إلى عالم الضرورة، ولكن القلة التي ترتفع عن هذا المستوى –مختارة– وتنطلق من عقال الجسد، هي أحق الجوانب البشرية بالتسجيل والإشادة، لأنها هي "الإنسانية"! هي التقدم الذي ارتفع بالإنسان عن سوالفه من الحيوان. وإن تطبيقنا لنظرية النشوء والارتقاء لهو ذاته الذي يدفعنا إلى تسجيل هذا الرقي الهائل الذي رفع الإنسان عن أسلافه، فتفرد بينهم جميعاً بمزايا نفسية وروحية، لا وجود لها في الكائنات الأخرى، وهي مزاياه الأصيلة التي لا يجوز إغفالها، ولا تفسيرها على طريقة الحيوان!

* * *

وأياً يكن نصيب آرائه من الخطأ أو الصواب، فقد كان لها في المجتمع الغربي أثر كبير عنيف. ولا تكاد توجد نظرية واحدة قد أحدثت ما أحدثته من الانقلاب في سير المجتمعات إلا نظرية دارون من قبل، ونظرية كارل ماركس التي سبلقت فرويد في الزمن ولكنها لحقته في التنفيذ...

لقد اعتنقت آراءه الجماهير، يظاهرها في ذلك كثير من العلماء. ولم يكتفوا بنصوص نظرياته، بل توسعوا في تفسيرها على هواهم. وآمنوا جميعاً بأن الأمر الطبيعي هو أن تنطلق الغرائز من معقلها، ولا تقف عند حد إلا حد الاكتفاء! ولما كان المجتمع والدين والأخلاق

(1) تبين لي فيما بعد –كما أثبتّ في كتبي التالية– أن فرويد لم يكن معذوراً فيما يقول!

والتقاليد تقف كلها في سبيل هذا الانطلاق، فقد بدأ الناس –والشباب خاصة– ينظرون إليها على أنها أمور غير طبيعية، وغير منطقية. وأنها من تراث الماضي العتيق الذي كان غارقاً في ظلمات الجهالة، فلا ينبغي أن نبقى عليها اليوم وقد خرجنا إلى النور..

ونشأ جيل متشبع بهذه الآراء على ما فيها من مبالغة وأخطاء. جيل يرى أنه ليس أمامه إلا أحد أمرين: إما احترام المجتمع ووصايا الدين، وتقدير القيم المعنوية والخلقية، فينشأ من ذلك الكبت والمرض والاضطراب.. وإما تحطيم تقاليد هذا المجتمع، وإلقاء الدين جانباً، وطرح القيم الخلقية والمعنوية، لتحقيق السعادة الفردية، بمعنى الحصول على اللذة الجسدية، ولتحقيق شعور الأفراد بذواتهم واستقلالهم وحريتهم.

واختار الناس الطريق الثاني كما لا بد أن يكون! ساعدهم على ذلك أنهم كانوا على مقربة من الصراع الهائل الذي نشأ بين العلم والكنيسة، وانتهى بتحطيمها، وكل ما حولها من قيم معنوية صحيحة أو كاذبة، وعلى مقربة من الثورة الصناعية وما أحدثته من رجّات اجتماعية وخلقية[1]. يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال أنه طريق سهل حافل بالمغريات. وأن إطاعته أيسر "وألذ" بكثير من السير في الطريق الآخر، الذي يكلف الناس فرائض كثيرة لا يتحقق بغيرها وجود "الإنسان"!

ثم كانت الحرب العظمى الأولى، وجند ملايين من الشباب في كل مكان في أوروبا وأمريكا، وعاشوا في الخنادق سنين عدداً، يتهددهم الموت بالغازات السامة، وبالقنابل المدمرة، وبحرب الميكروبات، وحرب الأعصاب، وكل مزعجة من المزعجات. فما إن أوفت الحرب على نهايتها حتى انطلق أولئك المكبوتون، المحتجزون في الخنادق والمعتقلات، انطلقوا كالغيلان الجائعة تبحث عن الغذاء: غذاء الجسد الظامئ بطبيعة الحال، لا غذاء العقل والروح!

وكان ملايين من الشبان قد قتلوا في الحرب، فاضطرت المرأة أن تخرج إلى المصنع وإلى الطريق بحثاً عن الرزق: لأن عائلها قد قتل، أو لأنه استنكف أن ينفق عليها وهو خارج من الأزمة العظمى يريد الترفيه عن نفسه، ولا يطيق أن تفرض عليه القيود ولو كانت لأقرب الأقربين. ووقعت المرأة فريسة سهلة للجوع من كل نوع: جوع المعدة، وجوع المظاهر التي

([1]) لم يكن قد تبين لي بوضوح حين كتبت هذا الكلام أول مرة ما تبين لي من بعد، وأثبتّه في "معركة التقاليد" و"التطور والثبات" و"جاهلية القرن العسرين" من أن هذه الرجات الاجتماعية والخلقية التي حدثت في الثورة الصناعية لم تكن تلقائية، إنما افتعلها كذلك اليهود!

تحرص المرأة عليها من ثياب وزينة. وجوع الغريزة، فقد زاد عددهن على عدد الشبان بعد أن قتل منهم من قتل، فاستحال أن تجد كل فتاة زوجاً، ولو تزوج جميع من بقي حياً من الرجال...

وكانت فرصة ذهبية لإطاعة تعاليم فرويد، وما كانوا في حاجة إلى من يدعوهم إلى الانطلاق الحيواني، فقد كانت ظروفهم كلها تغريهم بالانطلاق. ولكنهم وجدوا في فرويد سنداً ضخماً لنزواتهم الجسدية الهائجة، فبدلاً من أن يظهروا أمام المجتمع مجرمين خلقيين، صار لهم من نظريات فرويد ما يسمح لهم أن يقولوا: إنما نحن نطيع هاتف "العلم" وهو أولى بالاتباع من أساطر الأولين!

ومن ثم كانت الأجيال التي نشأت في الحرب العظمى الأولى وما بعدها تؤمن بفرويد إيمانا أعمى، وتعتبره بطلاً من أبطال التاريخ. وليس غريباً –على ذلك– أن تعتبره مجلة لوك Look الأمريكية، أحد العشرين الذين صاغوا القرن العشرين! وتعتبره المراجع التاريخية أحد أبطال العصر الحديث!

وقد نشأت أبحاث فلسفية واجتماعية تقوم كلها على أساس التفسيرات التي قدمها فرويد للنفس الإنسانية، وتحاول أن تثبت أن "فكرة المجتمع" فكرة مضادة لطبائع الأشياء! وأن تقاليده وقيوده التي يحافظ بها على كيانه، هي قيود تحكمية ليس لها ما يبررها. وأن روابط الأسرة غل من الأغلال التي ينبغي الفكاك منها لتحقيق السعادة والهناء!

وزادت كراهية الأفراد للمجتمع، نتيجة للنظرة الفردية الأنانية التي أوحت بها نظرياته، حتى صار اسم المجتمع لا يذكر إلا وتلاحقه أوصاف الظلم والتعسف والاستبداد. وكذلك الأخلاق والدين والتقاليد لم تعد تذكر إلا بالحنق والسخط، أو الهزء والاستخفاف.

وانتهى الأمر في كثير من شعوب أوربا وفي أمريكا كلها إلى تحطيم المجتمع، وحل روابط الأسرة، والانسلاخ الكامل من تراث الأجيال السابقة كلها من أخلاق وتقاليد.

وليست دعوة "الوجودية" المنتشرة في فرنسا، إلا امتداداً ساماً لإيحاءات نظرية فرويد. فهي تدعو إلى تحطيم كل قيد يقف في سبيل تحقيق ذاتية الفرد الكاملة، سواء كان هذا القيد من دواعي السماء أو الأرض. فليفعل كل إنسان ما يبدو له هو شخصياً أنه حق، ولو خالف كل ما اصطلح عليه الناس، ولو خالف العقل والمنطق أيضاً، فتلك من القيود التي فرضتها "الذات العليا" على الفرد إطاعة لقوانين المجتمع. وإنما ينبغي أن ينطلق "اللبيد" الحيواني الشهواني حيث شاء الانطلاق! وليذهب المجتمع إلى الجحيم، ولتذهب معه كل المثل

التي تعبت الإنسانية في إنشائها أجيالاً متطاولة من الزمان، إذا كانت لا تجيء موافقة لمزاج هذا "الفرد" المقدس الذات، الذي لا يجوز أن يعتدي على استقلاله شيء ولا أحد، ويجوز له هو أن يعتدي على كل شيء، وعلى كل قيمة من قيم الحياة!

وما الحيوانية الكاملة التي يمارسها الشباب في أوربا وأمريكا من الجنسين "ليتحرروا" من القيود، إلا أثر سام لإيحاءات فرويد في مسألة الجنس.

والصحافة العارية، والسينما العاربة، والقصص الجنسية الصارخة... وغيرها كثير.

كما نشأ من إيحاءات فرويد لون من الاعتقاد بالجبرية. ولكنها ليست الجبرية الدينية التي كانوا يعيبونها على الشرق المتأخر، والتي ترى بأن الإنسان ليس حراً في تصرفاته لأن الله هو المسيطر، بل هي جبرية نفسية، يؤمن أصحابها بأن الإنسان مسيّر لأن غريزته هي المسيطرة عليه، وهي التي توجه السلوك دون أن تدع للفرد مجالاً للاختيار!

ومن الإيمان بهذه الجبرية حدثت تطورات كبيرة في المجتمع الغربي، فحطمت تقاليده وأخلاقه، وأثرت في قوانينه كذلك، فقد أطلق العنان للفرد —في المسألة الجنسية– يصنع ما يشاء بلا حظر ولا عقاب، لأنه مسكين معذور... مجبر على ما يفعل. وليس أمامنا إذا منعناه إلا نتيجة واحدة، هي الكبت المدمر للأعصاب!

* * *

ولو أن أولئك "الهائجين" قاموا يطالبون بتعديل الأوضاع الظالمة في المجتمع المتزمت الذي كانوا يعيشون فيه، وتصحيحها بحيث لا تجور على الحقوق المشروعة للفرد، دون أن يغالوا في تقديس الفرد إلى الحد الذي يجعله المجتمع خرافة "تستعمل من الظاهر"...

لو فعلوا ذلك لكانت ثورتهم مفهومة ومقبولة.

أو لو أن المجتمع والأخلاق والدين والتقاليد —على إطلاقها– كانت منافية حقاً لطبيعة البشر، ولحقائق علم النفس، لطرحناها جانباً، وتركناها تذهب في ذمة التاريخ.

ولكن من قال إن هذا صحيح؟ بل إن من كلام فرويد ذاته —كما سيجيء في فصل "القيم العليا"– ما يثبت أن ذلك غير صحيح!

إن الرغبة في الانفلات من كل قيد، والإغراق في المتع الجسدية، هي التي أوحت إلى الناس في العالم الغربي بتصديق هذه الخرافة، لأن تصديقها يريحهم من تأنيب الضمير، والشعور بالجريمة، حين يرتكبون هذه الأعمال الحيوانية الخالصة؛ ثم يخادعون أنفسهم مرة أخرى، حين يوحون إليها بأنهم يرتكبون ذلك ليصبحوا متحضرين!

ويتابعهم الببغاوات هنا في الشرق فيقولون: هلموا حطموا دينكم وتقاليدكم وأخلاقكم لتدركوا شيئاً من حضارة المتحضرين!

ألا إنها المغالطة الكبرى لكل حقائق الحياة والنفس البشرية، هي التي أدت بالعالم إلى الحيوانية المتجردة التي ارتكس فيها بغير عذر الحيوان، وبغير حصافة الحياة التي رسمت للحيوان حدوداً معينة تقف عندها غرائزه، ومواسم معينة للنشاط الجنسي، حفظاً لكيانه أن يصيبه التلف والانحلال. أما الإنسان الذي كرمه خالقه ورفعه، وجعل في يده أمر نفسه، فإنه ينتكس اليوم إلى حمأة يتعفف عنها بعض أنواع الحيوان!

التجريبيون

حين ندرس فرويد من وجهة النظر التي اتخذناها في الفصل السابق، لا نكون في حاجة إلى استعراض المدارس الغربية الأخرى في علم النفس، فكلها تقريباً سواء، من حيث نظرتها المادية الحيوانية إلى الإنسان، ومن حيث إسقاطها للجوانب الروحية والعوامل الخلقية من الحساب، على اختلاف ما بينها في الجزئيات والتفصيلات.

ولكنني مع ذلك أرى أنه ينبغي أن نلم إلمامة سريعة بوجهتي نظر أخريين، لا لأنهما تختلفان عن غيرهما في النظرة اساسية إلى الإنسان، بل لأنهما أكثر إيغالاً في الاتجاه المادي الحيواني!

هاتان هما نظرة التجريبيين، ونظرة الشيوعيين.

* * *

التجريب هو الطابع الذي يتسم به العصر الحديث. وهو يؤثر بإيحاءاته المختلفة على العقلية الغربية كلها، ولكنه أشد بروزاً في "العالم الجديد" حيث يصل إلى درجة المغالاة، وإلى حد وضع الملح على البطيخ، والسكر على المخللات "لتجربة" طعم جديد!

ومنذ دارون، أو بالأحرى منذ فرانسس بيكون، بدأ العلم ينفصل عن الفلسفة، ويتخذ له طابعاً آخر غير البحث النظري، فاتجه إلى التجربة العملية، واستخلاص النتائج من التجارب الواقعية التي تقع في محيط الحواس، وخطا العلم خطوات جبارة في هذا السبيل في القرنين التاسع عشر والعشرين، ووصل في الهندسة والطبيعة والكيمياء خاصة إلى ما يشبه المعجزات. وكانت القمة التي وصل إليها هي تحطيم الذرة واستخلاص طاقتها، ومحاولة استغلالها فيما يعن للإنسان أن يستغلها فيه.. من تخريب أو تعمير!

وقد كانت النتائج التي وصل إليها العلم التجريبي من العظمة والجبروت، حتى بهرت الناس في الغرب والشرق، بل وصل الأمر في الغرب خاصة إلى عبادة هذا الكائن الجديد، والنظر إليه بعين الإيمان المطلق الذي لا تشوبه شائبة من شك أو جحود!

وإذا كانت أدوات العلم التجريبي هي الحواس، فقد آمن الغربيون بكل ما تصل إليه حواسهم، وأسقطوا من حسابهم كل ما لا تستطيع أن تصل إليه. وأغلقوا منافذ المعرفة جميعاً

إلا هذا المنفذ الواحد دون سواه، ساعدهم على ذلك من غير شك طبيعتهم المادية الخالصة، التي ورثوها من روما القديمة، وما تزال توجه حياتهم في كل اتجاه.

لذلك يؤمن الغربيون بكل ما يحمل "خاتم" التجريب، ويأخذونه قضية مسلمة لا تحتمل الشك أو التأويل؛ أما ما لا يخضع للمعمل فهو خرافة! أو هو على الأقل شيء ساقط من الحساب. ولما كانت قضية الألوهية لا تدخل إلى المعمل، ولا تخضع للتجريب العلمي، فقد استغنوا عن القضية كلها، وأعلنوا أن الله غير موجود!

وسرت العدوى من الغرب الظافر إلى الشرق المستعبد، فقامت الببغاوات والقرود، تصيح —من غفلة أو من سوء نية– أن اتبعوا الغرب لعلكم تفلحون، واطرحوا عنكم دينكم وروحانيتكم وأخلاقكم وصفاء سريرتكم، واستبدلوا بها المنطق المادي والأخلاق المادية، فذلك أجدر أن تتحرروا، وتخرجوا من الظلمات إلى النور!

* * *

وقد أدى العلم التجريبي للإنسانية خدمات هائلة، وقفز بها في فترة قصيرة إلى مجالات لم تكن تبلغها في الماضي إلا في آماد متطاولة.

وما يستطيع أحد أن يجحد المخترعات الحديثة الجبارة التي أنتجها العلم، فوفر الوقت والجهد، وضاعف طاقة البشرية على الإنتاج.

ولكن الناس لم يقنعوا بالحدود المعقولة للعلم التجريبي، فراحوا يجربون في كل شيء ولو كان لا يقبل التجريب! فالميدان الطبيعي لهذا العلم هو المادة. لأنها تخضع خضوعاً كاملاً لكل ما يجري عليها من تجارب؛ وأهم من ذلك أنها تستجيب دائماً بصورة واحدة للمؤثر الواحد، ولا تتغير استجابتها ما دامت الظروف المحيطة بها لم تتغير؛ لأنها لا تحس ولا تفكر، ولا إرادة لها في الاستجابة التي تصدر عنها، وإنما تخضع دائماً للقوانين الطبيعية والكيميائية التي تحكمها. ومن ثم نستطيع أن نعتمد على النتائج التي نحصل عليها من البحث.

ومع ذلك فما زال العلم كما أسلفنا لا يقطع برأيه الأخير في كثير من المسائل التجريبية التي تتصل بالمادة. وقد كان اكتشاف الطاقة الذرية حدثاً عنيفاً في تاريخ العلم، لأنه فتح السبيل لنظريات علمية كثيرة، يخالف بعضها ما كان العلماء قد تواضعوا عليه من قبل، وظنوا أنه القول الأخير.

ولكن شهوة التجريب لم تقف بالتجريبيين عند المادة، ميدانهم الأصيل، بل راحوا يجربون في كل شيء وكل ميدان، حتى عنّ لهم في مبادئ هذا العصر أن يجعلوا النفس مادة للتجريب، يخضعونها لتجارب المعمل، ويستنتجون من هذه التجارب قوانين يحكمون بها النشاط النفسي، ويفسرون بمقتضاها الإنسان والإنسانية.

وبُهر الناس وصفقوا معجبين! ها هو ذا العلم يقهر الأسرار واحداً إثر واحد، ويخضع حتى المعنويات لتجارب المعمل، ليصل فيها إلى حقائق موضوعية ثابتة، تحسم الجدل، وتقطع السبيل على المناقشات الفلسفية الفارغة!

والتفكير في النفس الإنسانية على هذا النحو تفكير عجيب. فقد يستطيع الباحثون ذات يوم أن يصلوا إلى نتيجة نهائية قاطعة في المظاهر المادية لهذا الكون. أما النفس الإنسانية فهي عالم واسع غير محدود. وما زالت البشرية منذ مولدها إلى هذه اللحظة تتحدث عنها، وتحاول الوصول إلى كنهها، في آدابها وفنونها وفلسفاتها وأديانها واجتماعياتها، فلا ينتهي الحديث، ولا ينقطع عند نقطة معينة. وإنما يتقبل البحث كل ما قيل، وكل ما سيقال، ويبقى الباب مفتوحاً بعد ذلك للمزيد. وكل كلمة صائبة تقال في فن أو علم، فإنما تلقي شيئاً من الضوء على هذا العالم الواسع، ويتقبلها الناس بالإعجاب والشكر، لأنها تنفذ بهم إلى أعماق هذا المجهول، فتطلعهم على بعض آياته الكبرى. ولكنهم كانوا على صواب حين ظنوا أنهم لم يصلوا إلى كل أسرارها، وأن من بين هذا الأسرار ما لا يمكن النفوذ إليه عن طريق العلم المحسوس لا اليوم ولا غداً، لأنه من أسرار الخالق التي لم يشأ أن يطلع عليها مخلوقاته؛ وأكبر تلك الأسرار وأعصاها على البحث مشكلة الروح.

حين كان الناس على سذاجتهم —مثلنا– يمنون بأن في النفس جوانب تتصل بالمجهول الأكبر، وتعتصم مثله بالغيب الأبدي، كانوا على صواب!

ولكن العلم التجريبي أفسد هذه السذاجة، وزعم للناس أنه القادر على كل شيء، وأن خرافات الماضي، وأساطير البسطاء من المؤمنين، إما أن تخضع للعلم والتجربة، وإلا فلتندثر إلى الأبد، وتُخْلِ مكانها للعلم الصحيح...

ومع أن أبعد الطرق عن الوصول إلى نتائج قاطعة في أمر النفس هو المعمل بالذات، لأن منهج القائمين بالبحث فيه، والأدوات الميسرة لهم، هي أبعد ما تكون عن الإحاطة بكل الجوانب البشرية:

أدوات المنهج التجريبي هي الحواس، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو عن طريق الآلات والأدوات، التي تمنحها دقة فائقة، وتصل بها إلى أغوار سحيقة، كانت تعجز بمفردها عن إدراك كثير مما يجري بداخلها، ولكن هذه الأدوات على دقتها البالغة، ليس من شأنها أن تفتح الميادين كلها للبحث التجريبي، وإنما وظيفتها فقط أن تساعد الحواس في الميدان الذي يمكنها بطبيعتها أن تعمل فيه.. ومن ثم فإنه يستحيل على العالم التجريبي، مهما أوتي من دقة الأدوات، أن يجرب إلا ما يقع في حدود الحواس. وعلى ذلك نستطيع أن نقدر إلى أي مدى يمكن للنفس الإنسانية أن تدخل المعمل، وأي قدر منها يكون صالحاً للبحث التجريبي... إنه ذلك القدر الضئيل الذي يتصل بالجسد، وتصلح لقياسه الآلات والأدوات.

وإذا كان هذا القدر يصلح لتفسير سيكلوجية الحيوان، فهو غير صالح للوصول إلى فكرة شاملة عن النفس الإنسانية. ذلك أن كيان الحيوان كله أو معظمه على أقل تقدير كامن في جسده. ولا يكاد يقع من نشاطه شيء خارج الجسد. أما الإنسان فأدنى نشاطه هو الذي ينبع من الجسد، وأنا أتحدث هنا عن النوع لا عن الكم...

وقد كانت الأمانة العلمية تقتضي أن يقول العلماء الأجلاء: إننا لا نجرب من جوانب النفس إلا ما يتصل بالجسم فحسب، ولا نتعرض للجوانب الأخرى، ولا نصدر أحكاماً شاملة على النفس الإنسانية، في الوقت الحاضر على الأقل، إلى أن تتاح لنا وسائل أخرى نصل بها إلى ما نريد.

ولكنهم –سامحهم الله– لا يقولون ذلك، لأن معناه أن يعترفوا بقصور "الإله الجديد" عن الإحاطة بشيء مما في الكون العريض. وأيسر من ذلك عليهم أن يزعموا أن النفس الإنسانية تنبع من الجسد! وأن كل المشاعر البشرية إنما هو صور نفسية لحركات جسدية. فالجسد هو المنبع، وهو المحرك والموجه لكل النشاط الإنساني.

وإذا كان العلماء النظريون يقولون: إن هناك نزوعاً أو انفعالاً نفسياً يؤثر في الجسد فينتج عنه حركة جثمانية، تهدف إلى تحقيق هذا النزوع أو إرضاء ذلك الانفعال... فإن التجريبيين على عكس ذلك يقولون: إن هناك إدراكاً لحالة خارجية معينة، ينتج عنه بطريقة تلقائية حركة جسدية: إفرازات كيميائية أو نشاط كهربي، يثر في النفس فينشأ عنه شعور يُحسّ!

أرأيت؟!

يقول قائلهم: إنني سمعت خبراً محزناً فبكيت، فنشأت من ذلك عاطفة الحزن! فالحزن نشأ من البكاء، أي من الحركة الجسدية، وليس العكس: أن الإنسان يحزن فتنهمر دموعه كما يقول العقلاء من عباد الله!

ويقولون: إنني رأيت الأسد فجريت، فنشأ من ذلك الخوف. لا أنني خفت فجريت..

ولا يحسبن أحد أننا نتجنى عليهم بنسبة هذا الكلام إليهم! فها هو ذا رائدهم وليم جيمس يقول[1]: "إن الفكرة التي نتخذها عن العواطف عادة، هي أن الإدراك العقلي لشيء ما، يستثير الحالة الوجدانية التي نسميها العاطفة، وأن هذه الحالة العاطفية الأخيرة هي التي يتولد عنها التعبير الجسدي. ولكن نظريتي على العكس من ذلك هي أن التغيرات الجسمية تأتي لاحقة مباشرة لإدراك المؤثر، وأن الإحساس الذي نشعر به نتيجة لهذه التغيرات هو العاطفة".

من الجسد إذن تنبع النفس، وليس العكس هو الصحيح!

ولو قالوا: إن هناك حلقة دائمة الاتصال بين الجسم والنفس في داخل الكيان الإنساني: فيؤثر الجسم في النفس، وتؤثر النفس في الجسيم دواليك، وإنما يختلف مقدار تأثير أحدهما في الآخر، حسب نوع الإحساس ومصدره وغايته؛ فيكون الجسم أحياناً هو الغالب، وتكون النفس أحياناً هي الغالبة، أو يكون أحدهما وحده هو مصدر الشعور...

لو قالوا ذلك لكانوا أقرب إلى الصواب!

فالجوع مثلاً حركة جسدية خالصة تؤدي إلى مشاعر نفسية وعقلية.

والرغبة في التعلم حركة نفسية خالصة (أو نفسية عقلية) تؤدي إلى تأثيرات جسدية

وبين هذين الطرفين تقع مشاعر كثيرة، يشترك فيها الجسم والنفس بنسب مختلفة في كل مرة. ويبقى بعد ذلك كله على أي حال، جانب هو أرقى جوانب البشرية وأحقها بالمعرفة والتسجيل، لا يقع في محيط الجسد على الإطلاق، وأعني بذلك الجانب الروحي من الإنسان.

---

(1) "La theorie de lemotion" ص60.

هذا الجانب لا يمكن للمعمل أن يبحثه، لأن الحواس لا يمكن أن تدركه. ومن ثم فالروح بالنسبة للمعمل خرافة لأنها لا تخضع للتجريب.

وعلى الرغم من أن التليباثي، وهو من معجزات الروح الباهرة، قد تقرر كحقيقة علمية، إلا أن التجريبيين ما يزالون على عنادهم في إنكار الروح، يحاولون عبثاً أن يفسروه بطريقة مادية، تتسق مع نظريتهم "الواقعية!".

بقيت الأحلام التنبؤية؛ وقد استعرضنا رأي فرويد فيها من قبل، وتبيّنا مقدار ما فيه من التواء وتمحل، للوصول إلى نتيجة غير نزيهة. والتجريبيون أشد إنكاراً لتلك الأحلام من فرويد؛ فإذا كان هو قد قال: إنها محدود مدى التطبيق، فهم ينكرونها منذ البدء، ويهزءون بها ساخرين!

ومفهوم أن الحلم التنبؤي لا يمكن أن يدخل المعمل، لأنه فيه عنصراً غيبياً لا تدركه الحواس. فما هو يا ترى السر العجيب الذي يطّلع به الإنسان على الغيب، فيرى ما لم يقع بعد، على طريقة الزمر حيناً، وببعض تفاصيله أحياناً، بل بكل تفاصيله الدقيقة في بعض الأحيان، بحسب درجة الحاكم من الصفاء الروحي والقدرة على الاستشفاف؟

إنه من أسرار الخالق العظمى، التي لم يكشف بعد عنها لبني الإنسان!

وبدلاً من أن يعلن التجريبيون عجزهم عن تفهم تلك الأسرار، لأن وسائلهم لا تصل إليها، راحوا في جرأة عجيبة ينفون وجودها، لمجرد أنهم هم لا يستطيعون إثباتها..!

وإنها لحقائق ثابتة يدركها الإنسان حين يتخلص من قيود العقلية المادية الضيقة، ويفتح قلبه وبصيرته لهذا الكون العريض، فيتدبره بنظره واسعة الأفق، وإيمان بكل القوى المذخورة فيه؛ وسيجد حينئذ ظواهر عجيبة في حياة الإنسان، لا يمكن تفسيرها إلا على فرض وجود الروح.

* * *

ألا إنها لسخرية عظمى نظريات التجريبيين! وإنها لتبدو كالأقزام الضئيلة التي تحاول أن تقهر العملاق! ومع ذلك فإن الخطأ فيها لا ينشأ من قصورها عن الإحاطة بكل الجوانب النفسية فحسب، بل من منهج البحث ذاته، حتى فيما يتيسر فيه التجريب!

فقد اقتضت التجارب المعملية أن يجزأ الإنسان إلى أجزاء غاية في الصغر والتفكك، لأن هذه هي الطريقة المثلى في الحصول على نتائج "موضوعية"! ونسي العلماء الأفاضل أن هذه التفاريق المفككة ليست هي الإنسان، فإن اجتماعها ينشأ عنه شيء جديد غير مجموع الأجزاء —كما تقول نظرية "الجشتلت" وهي أقرب إلى الصواب.

ونضرب لذلك مثلين، أحدهما معروف مشهور هو المركبات الكيميائية: فالمركب له صفات جديدة تختلف تمام الاختلاف عن العناصر المركبة له. وملح الطعام مثلاً (كلورور الصوديوم) لا يمت بصلة —لا في المظهر ولا في الخواص- إلى عنصريه المكونين له، وهما الصوديوم والكلور. وكذلك النفس الإنسانية —مع الفارق الكبير- تختلف في كيانها المركب عن طبيعة أجزائها متفرقة.

والمثال الثاني هو الساعة. فالساعة دون شك هي مجموع "التروس" والمسامير والأدوات الأخرى المكونة لها. ولكنك لا تستطيع أن تأخذ فكرة صحيحة عنها إذا أنت اكتفيت بدراستها وهي مفككة الأجزاء، لأن تركيبها على وضعها الصحيح ينشأ عنه شيء جديد بالمرة، هو الحركة الدالة على الزمن، وهي الهدف الحقيقي من وراء كل هذه الأجزاء.

وقد يدرك العلماء ذلك كله ويقرون به وهم على أبواب المعمل، فإذا ما خلوا إلى أبحاثهم وتجاربهم نسوا كل شيء، وأخذتهم العزة، فراحوا يزعمون في خيلاء كاذبة أن تلك المزق والأشلاء التي يبحثونها في المعمل، هي النفس الإنسانية الحقيقية، أو هي الأساس الصحيح الذي تقوم عليه، على أقل تقدير!

ولا يسع الإنسان هنا إلا أن يشير إلى أن الآداب والفنون جميعاً، أصدق تعبيراً عن النفس الإنسانية من علمي النفس التحليلي والتجريبي خاصة، لأنها تصور الحركة الحية في النفس المتكاملة، لا الأجزاء الهامدة، والتفاصيل الجامدة، التي ينقصها الصدق والحياة!

* * *

ولكن هذا كله لا يعني أن علم النفس التجريبي علم لا فائدة له، فهو على العكس من ذلك قد أفاد فائدة لا تقدر في ميدان التعليم. وأصبح اليوم في الإمكان —عن طريق المباحث التجريبية —توفير كثير من الوقت والجهد، كانا يضيعان من قبل عبثاً في تعليم الأطفال بوسائل غير صحيحة.

ولو لم يكن لهذا لعلم غير تلك الأهداف التطبيقية في التعليم، لكان ذلك سنداً كافياً يبرر وجوده ويبيح المضي فيه إلى أقصى الغاية. ولكن أكبر الأخطاء وأخطرها هو أن العلماء لا يعرفون حدودهم الصحيحة. فهم حين خرجوا من الميدان التطبيقي في التعليم، وراحوا يصدرون أحكاماً شاملة عن النفس الإنسانية، وقعوا في أخطاء لا حد لها، ونشأت من أخطائهم إيحاءات خطيرة، خرجت بالإنسان عن إنسانيته، وهبطت به إلى مستوى الحشرات والدواب!

ولا يحتاج الإنسان إلى جهد ليدرك أن نظرياتهم مادية بحتة، تريد أن تعامل الإنسان معاملة المادة الجامدة. فالأساس الذي يقيمون عليه تجاربهم، يوحي بأنهم يفترضون أن النفس كالمادة، تستجيب بطريقة واحدة للمؤثر الواحد إذا اتحدت الظروف. ولا شك أن هذا غير صحيح إلا في محيط ضيق جداً من النشاط الإنساني، هو ما يتصل بالجسد وحده، أو ما يكون الجسد هو العنصر الفعال فيه (وحتى الجسد مادة حية قد تفترق كثيراً أو قليلاً عن المادة الجامدة). أما بقية جوانب النفس فلا يفترق فيها فرد عن فرد فحسب، بل إن الفرد الواحد يختلف عن نفسه ولو اتحدت الظروف جميعاً. وأبسط أنواع الاختلاف كما يقول الفلاسفة هو أن كل لحظة تمر تضيف إلى الإنسان جميعاً من المعرفة ومن التجربة يحسب حسابه في اللحظة التالية، فلا يمكن بذلك أن يمر الإنسان الواحد بحالة واحدة مرتين.

ولكن أخطر مظهر لهذه المادية، هو تفسيرها للنشاط الإنساني كله على أنه نابع من الجسد. لأنه إذا كان الأمر كذلك، فلا مجال إذن لغير المشاعر الجسدية البحتة. أي أنه لا مجال للجوانب الخلقية ولا الروحية، لأنها لا يمكن أن تنبع من الجسد، ولن يتوصل التجريبيون ذات يوم إلى اكتشاف تغيرات جسدية، كيميائية أو كهربية، يمكن أن تنشأ عنها فكرة خلقية، أو ضمير خلقي، أو مثل من المثل العليا الإنسانية!

ومن ثم توحي هذه النظرية، التي لا تقوم على أساس علمي صحيح، بأن المجتمع والدين والأخلاق كلها سخافات لا موجب لها، لأنه لا وجود لها في جسم الإنسان! وقد آمن الناس بذلك مخدوعين باسم العلم التجريبي، أو هم كانوا مؤمنين بذلك من قبل، فقد كانت إيحاءات دارون وفرويد، والمادية المتغلغلة في النفوس تؤدي إلى هذا الإيمان، ولكن العلم التجريبي زادهم استمساكاً بما تدعوهم إليهم فطرتهم الهابطة المنحلة، لأنه زعم أنه يعطيهم حقائق نهائية ثابتة عن النفس الإنسانية!

كذلك آمن الناس في الغرب بأن نظام الأسرة نظام مفتعل، فليس في جسم الإنسان ما يحمل على الارتباط بأسرة. كل ما في جسمه هو الطاقة الجنسية، وهي مسألة بيولوجية، لا خلقية ولا اجتماعية! فلا يحتاج الإنسان ذكراً كان أو أنثى إلى أكثر من تلبية تلك الحاجة

الجسدية البيولوجية على أي شكل من الأشكال؛ ولا ضرورة لأخلاق ولا مجتمع ولا أسرة، لأن المعمل لم يكشف بعد عن الجانب الجسدي الذي "تسكن" فيه هذه الأشياء!

كما آمنوا بأن المثل العليا خرافة يضحك الإنسان بها على نفسه (ولم يبين أحد لماذا يصنع الإنسان ذلك، وما حاجته إليه!)، وأن الحقيقة الوحيدة هي الحقيقة المادية الواقعية حقيقة الأرض، والنوازع التي تشبه نوازع الحيوان، والفرد وملذاته ورغائبه، ولا شيء غير ذلك إلا أساطير الحالمين!

وزادوا إيماناً بالجبرية الشعورية التي أوحى بها فرويد من قبل. فإذا كانت الحياة النفسية مصدرها الجسد، والجسد إفرازات كيميائية ونشاط كهربي لا سلطان لأحد عليه، لأنه يعمل بطريقة غير إرادية، فقد انتفت إرادة الإنسان التي يكون بموجبها مسئولاً عما يفعل.

وضغط الجسم دائم؛ وكل حركة جسدية تؤدي حتماً إلى ما بعدها، وتؤدي في النهاية إلى ألوان من الشعور والعواطف والسلوك، مفروضة على الكائن البشري لا يملك لها دفعاً، ولا تترك له سبيل الاختيار، لأنه لا يحس بها إلا وقد وقعت الواقعة داخل الجسم، فأفرزت الإفرازات، أو صدر النشاط الكهربي الموجه للسلوك!!

وهكذا تسقط المسئولية الخلقية، ويسقط كذلك "الإنسان"!

الشّيوعيون

يؤمن الشيوعيون بادئ ذي بدء بأن علم النفس كلام فارغ، لا لأنهم —لا سمح الله– يعتبرونه أضيق من أن يحيط بكل جوانب النفس الإنسانية الرحيبة، ولكن لأنه يقرر أن في النفس الإنسانية نزعات "فطرية" يولد بها الإنسان؛ وهذا يفتح الباب لمن يريد أن يقول إن حب الملكية نزعة فطرية في البشر أجمعين! ودون ذلك ويصبح كل شيء سخافة من سخافات الرأسماليين!

ولكنهم مع ذلك يحبون فرويد ويؤمنون به! ذلك أنه يشبع شهوتهم في تحطيم المقدسات كلها، وتلويثها، وتصويرها بأنها قيود ابتدعها المجتمع (الإقطاعي ثم الرأسمالي) لحماية ذاته، ولكنها ليست في ذاتها شيئاً يستحق الاعتبار.

فإذا تحطمت المقدسات، وتلوثت صورتها في نفس الفرد، وفي نفس المجتمع نتيجة لذلك، فقد كسبت الشيوعية نصف المعركة على الأقل! وهذا هو مصدر الإعجاب الشديد برجل لا يؤمن بكل ما يؤمنون[1].

وقد أسلفنا أن فرويد قد تأثر في نظرياته بدارون، وأنه نقل إلى علم النفس آراء دارون الخاصة بعلم الأحياء. ونذكر هنا أن الشيوعيين كذلك قد تأثروا به في أكثر من موضع، حتى لنستطيع أن نقول إنهم نقلوا إلى عالم الاقتصاد وعلم الاجتماع تلك الآراء المستمدة من عالم الحيوان. وكان أشد ما تأثروا به ثلاث نقط رئيسية. أولها: القول بالطبيعة بدلاً من الله. وثانيها: القول بأن الكائنات الحية تتبع في تطورها خطأ "حتمياً" ينشأ من ضغط البيئة المادية الخارجية على الكائن الحي، ومحاولة الكائنات أن تكيف حياتها مع هذه البيئة. وفي أثناء

([1]) مما يلفت النظر ولا شك أن فرويد يهودي وكارل ملركس كذلك! وبصرف النظر عن مدى إخلاص كل منهما لمذهبه، فإن الحركة اليهودية لم يفتها أن تستغل نظرياتهما لمصالحها الخاصة. فقد جاء في كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" الذي يرسم السياسة اليهودية العالمية ما يأتي: "يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا.. إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه" كما جاء في الكتاب إشارة مماثلة عن وجوب استغلال مبادئ كارل ماركس لتحطيم العقائد الدينية ونشر المبادئ المادية التي تسهل لليهود السيطرة على العالم. إذ يقول الكتاب: "لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم. وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد".

عملية التطور تنقرض أعضاء أو وظائف معينة لأنها لم تعد تلائم البيئة، وتنمو بدلاً منها أعضاء ووظائف جديدة، أكثر منها تعقيداً، ولكن الكائنات الحية لا إرادة لها في هذا التطور ولا قصد، وإنما هو مفروض عليها فرضاً من الخارج أرادت أم لم ترد ولا تملك هذه الكائنات أن تبطئ به أو تسرع، أو تحوله عن طريقه، فالأمر في ذلك كله متروك "للطبيعة"! وقد طبق الشيوعيون هذه النظرة تطبيقاً كاملاً على التطور الاقتصادي والاجتماعي، وزعموا أن النتائج التي يصلون إليها صحيحة، لأن الأساس الذي يبنون عليه صحيح! وثالثها: النظرة المادية الحيوانية إلى الإنسان، تلك النظرة التي تنفي الجوانب الروحية والمثل العليا، وتؤمن بعالم الجسد وحده، وبالواقع الذي تدركه الحواس فحسب، شأنهم في ذلك شأن بقية أوربا المادية. ومن هنا كانت الشيوعية هي التطور الأخير للحضارة المادية الأوروبية، ولم تكن شيئاً جديداً كما يريد دعاتها أن يفهموا الناس في الشرق والغرب.

صحيح أن أنصار المذهب المادي قد نبذوا المنطق الصوري "Formal Logic"؛ الذي كان سائداً من قبل، والذي ينفي وجود التناقض أو اجتماع الأضداد، لأن هذا المنطق لا يستقيم إلا في عالم ساكن، بينما العالم في حقيقته متحرك دائب الحركة. فلا يصلح لتفسير حركته إلا المنطق الجدلي (الديالكتي Dialectic) لأنه يقر بوجود الأضداد والمتناقضات في وقت واحد، وهي التي تؤدي في نظرهم إلى انتقال المجتمع من صورة إلى صورة. ذلك أن كل نظام في رأيهم يحوي في طياته من المتناقضات ما يقضي عليه في النهاية، وينشئ نظاماً جديداً بدلاً منه، وهذا النظام الجديد يحوي متناقضات أخرى من نوع أرقى، تظل تعمل في كيانه حتى يصير إلى صورة أخرى أرقى من سابقتها، وهكذا... فقد أدى اكتشاف الزراعة إلى الرق، وظل الرق نظاماً معمولاً به طالما كان المجتمع يعيش في النطاق الذي يصلح له الرق، ولكن حاجات المجتمع تطورت بعد ذلك بصورة أصبح الرق فيها عائقاً عن التقدم، وهنا تحول المجتمع إلى الإقطاع. وظل الإقطاع يؤدي مهمته حتى تحولت رءوس الأموال إلى الصناعة، فصار الإقطاع عائقاً عن التقدم الرأسمالي لأنه يربط الفلاح بالأرض، ولا يمنحه حرية الانتقال إلى المدينة ليعمل في المصنع. وهنا عمل المجتمع على التخلص من الإقطاع.. وهكذا دواليك.

صحيح أنهم استحدثوا هذا التغيير الفلسفي، وخرجوا منه في النهاية بمذهب المادية الجدلية التي اعتنقها كارل ماركس، وأقام على أسسها فكرة الشيوعية. ولكنها –جدلية كانت أم غير جدلية– مادية على أي حال، لا ترتفع عن مدركات الحس، ولا تؤمن بالروح، بل تعتبر كل ما لا يقع في دائرة الحس خرافة من مخلفات العصور البائدة. وإلى هنا تتفق النظرة النفسية بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي، لأن أساس الحضارة واحد رغم هذا الاختلاف الظاهري الملحوظ. ولكن الشيوعية والحق يقال تزيد من عندها زيادة طريفة: هي

أن تلك الخرافات البائدة كانت من صنع الإقطاعيين والرأسماليين لتخدير الشعوب وتلهيتها عن الصراع الطبقي. أما هم فسيحررون العالم من الخرافة، ويعطونه جرعة من العلاج الصحيح، من "العلم" الذي لا يرقى إليه الشك ولا يتطاول إليه الجدل، ذلك هو : التفسير المادي للتاريخ!

* * *

يقول المذهب المادي: إن الإنسان هو القوة الفعالة في هذا الوجود. وتلك جملة براقة قد توحي بأن أنصار هذا المذهب يؤمنون بالإنسان، وبالإنسانية في صورها الرفيعة النبيلة، الإنسان في مجموعه بما فيه من جسد وعقل وروح. ولكن الحق أنهم عندما يقولون ذلك يقصدون فقط أن الإنسان وحده لا شريك له هو المسيطر على الأرض. أي أن وجود إله مسيطر على الخلق عالم بوجودهم، مدبر لشئونهم، لغاية يريدها، هذا كله خارج من حسابهم، وليس له وجود في مشاعرهم ولا أفكارهم. فهم لا يؤمنون بالإنسان ليرفعوا من شأنه، ولكن لينفوا فقط تدخل الإله في شئون الخلق! أما إيمانهم بالإنسان فعلى أساس أنه "مادة"! "إن الوحدة الحقيقية للعالم تنحصر في ماديته... ولكن إذا سألنا: وإذن ما هو الفكر وما هو الشعور ومن أين ينبعثان، يتضح لنا أنهما نتاج الدماغ البشري، وأن الإنسان نفسه نتاج الطبيعة"[1] "إن الأفكار يبتدعها دماغ الإنسان. وهذا الدماغ ليس إلا "مادة"[2] دقيقة التركيب، وهو جزء من الجسم يعكس مؤثرات العالم الخارجي[3]".

فهم إذن لا يؤمنون إلا بالجانب المادي من الإنسان، والعقل في نظرهم أداة مادية تعكس المؤثرات الخارجية ثم تتأثر بها، ولكنه هو في ذاته ليس حقيقة فعالة مؤثرة مريدة!

ويقول ماركس: "في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها. **وهي مستقلة عن إرادتهم**. وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محدودة من تطور قواهم المادية في الإنتاج. والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع. وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية، والتي تطابقها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي. **فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين**

---

(1) كارل ماركس في كتاب "Anti- Diihring" طبعة سنة 1934 ص44، ترجمة الدكتور راشد البراوي.

(2) إذا كان العقل مادة، فإن الفكرة في ذاتها ليست مادة، لأنها لا تحدد بحدود الزمان والمكان.

(3) الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم، دراسات في الاجتماع ص68.

الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذين يعين مشاعرهم"[1].

ويقول فردريك إنجلز: "تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي: **وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي**. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل. وإذن فعلينا ألا نبحث عن هذه الأسباب في الفلسفة، وإنما في اقتصاديات العصر الذي نعنيه"[2].

من هذه المقتطفات تتضح لنا الحقائق الأساسية للمذهب المادي. فالحق والعدل الأزليان ليسا في ذاتهما قيمة موضوعية! ولا هما جديران بأن يسعى وراءهما الإنسان! ومثلهما بطبيعة الحال كل ما يتصل بهما من نبوات وعقائد، ومشاعر دينية أو فنية! إنما الحقيقة الواحدة الأزلية هي الاقتصاد. وهكذا ينفون أثر الدوافع النفسية الأصيلة، فضلاً عن الدوافع الروحية. وهم لا ينفون وجودها في الجدل النظري، ولكنهم يقولون إنها ليست شيئاً قائماً بنفسه، ولا صادراً بصورة تلقائية من الكيان البشري ذاته. وإنما هي نتائج للأحوال الاقتصادية، وتلك هي القوة الوحيدة القائمة بذاتها، خارجة عن نطاق الإنسان، ومؤثرة فيه من الخارج.

فالأخلاق ليست حقيقة موضوعية، ولا قيمة ذاتية. إنما هي نتيجة التفاعلات الاقتصادية في المجتمع. فإذا تغيرت علاقات الإنتاج تغيرت معها القيم الأخلاقية، وليس هناك مقياس ثابت تقاس إليه الأمور. والدين –أفيون الشعب– شيء ابتدعه الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الشعوب وشغلها عن صراعها الطبقي، وليس شيئاً سماوياً، ولا حاجة نفسية نبعت من ضمير الفرد حتى في المجتمع الأول الذي لم يكن فيه– باعترافهم– سيد ولا مسود، لأن وسائل الغذاء كانت مباحة للجميع، لكن بقدر ما يريد! والمثل العليا –سخرية الشيوعيين– هي أوهام الجائعين والمحرومين الذين حرمتهم الأحوال الاقتصادية من حاجاتهم فراحوا يحلمون بها. فهي إذن نتاج ضار بالمجتمع، لم ينشأ إلا من سوء الأحوال الاقتصادية، وليست حلماً للبشرية تطوعت به منذ طفولتها، قبل أن تفرضها عليها تطورات الاقتصاد. والأسرة مصلحة اقتصادية، نشأت من اعتماد المرأة في غذائها وإعالتها على الرجل الذي

([1]) ترجمة الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم.

([2]) ترجمة الدكتور راشد البراوي. النظام الاشتراكي ص 120.

يملك وسائل الإنتاج، ويفرض على المرأة تبعاً لذلك أن تكون له وحده دون شريك، ولكنها ليست حاجة نفسية متأصلة في نفس الرجل والمرأة على السواء.. الخ. الخ.

كل شيء إذن هو انعكاس للحقيقة الموضوعية الوحيدة في هذا الكون، وهي العامل الاقتصادي. والاقتصاد ليس صادراً عن إرادة الإنسان. وإنما هو كما يقول كارل ماركس خارج عن إرادته، وله قوانينه الموضوعية الخاصة التي ليس للإنسان إزاءها حول ولا طول فهي تسير إلى غايتها المحتومة، وتؤثر في الإنسان في أثناء تطورها، ولكن الإنسان لا يؤثر في قيامها، ولا في بدئها أو إنهائها، لأن ذلك كله يجري حسب سنة التطور التي لم يخلقها الإنسان، وإنما خلقتها "الطبيعة" أم الإنسان!

وقد أسلفنا القول في فصل فرويد عن الأسباب العاطفية —لا العلمية– التي أدت بالأوربيين إلى اعتناق فكرة الطبيعة ونبذ فكرة الله، رغم ما في ذلك من مغالطة مكشوفة. ولكنا ندع هذا الآن وننظر في "حقائق" المذهب المادي، لنرى كم فيها من المغالطات.

فأول ما يتبادر إلى الذهن من أخطاء هذا المذهب هو إيمانه بالجبرية الاقتصادية الكاملة، التي لا اختيار للإنسان أمامها، ولا فكاك له من تأثيرها عليه.

"وسائل الإنتاج تكيف المجتمع" "ليس شعور الإنسان هو الذي يعين وجوده، ولكن وجوده هو الذي يعين شعوره".

هكذا يقول كارس ماركس، فيؤكد أن المشاعر تجيء دائماً لاحقة للعوامل الاقتصادية متأثرة بها، ولكنها لا تكون أبداً سابقة عليها أو مؤثرة فيها. وما نريد أن ننكر أهمية الاقتصاد، ولا سيطرته على المشاعر البشرية. فنحن نؤمن بأهميته البالغة كمقوم من مقومات الحياة الأساسية، ولكنا نريد فقط أن ننفي جبريته، وأنه العامل الوحيد المسيطر على دنيا البشر.

وأقرب ما يُردّ به على الزعم القائل بأن وسائل الإنتاج هي التي تكيف المجتمع، أن وسائل الإنتاج في أمريكا الرأسمالية، هي نفسها وسائل الإنتاج في روسيا الشيوعية، ومع ذلك فإن استخدامها في روسيا لم يفرض عليها أن تكون رأسمالية! بل إنها لم تبدأ في استخدام هذه الوسائل على أوسع نطاق إلا بعد أن تحولت إلى الشيوعية! فليس أسلوب الإنتاج إذن قوة جبرية تشل حركة الإنسان، وتخضعه لسلطانها القاهر، بدليل أن روسيا قد تصرفت تصرفاً حراً في أسلوب التوزيع وفي أهداف العمل، على الطريق التي رسمتها لنفسها، ولم تجد نفسها مجبرة إزاء هذا الأسلوب الإنتاجي على اتخاذ طريق واحد لا فكاك منه. كما تصرفت دولة

أخرى كانجلترا إزاء الحالة نفسها تصرفاً آخر. وكان تصرف هذه وتلك ناشئاً عن "شعور" معين أو "عقيدة" سابقة في وجودها للتنظيم الاقتصادي، مؤثرة فيه، منظمة لطرائقه وأهدافه. فإذا قيل إن هذا الشعور هو بدوره نتيجة للظروف الاقتصادية السابقة له، سواء في روسيا أو انجلترا، فهذا لا ينفي الاختيار الحر إزاء هذه الظروف. بل إن كارل ماركس —حسب إيمانه بجبرية الاقتصاد– كان يعتقد أن الشيوعية ستقوم في انجلترا أولاً، ثم تنتشر منها إلى بقية العالم الأوربي بعد ذلك. فجاءت الوقائع مخيبة لأفكاره، إذ بدأت في روسيا التي لم تكن قد استكملت نموها الرأسمالي، وتأخرت في انجلترا إلى هذه اللحظة (بصرف النظر عن المستقبل)، رغم وصولها في النمو الاقتصادي الرأسمالي، إلى المرحلة التي كانت تحتم عليها — حسب الجبرية الاقتصادية المزعومة أن تكون أول من يقع فريسة للشيوعية!

ووسائل الإنتاج الحديثة لا تفرض علينا نحن مثلاً حين نستخدمها، أن نخرج من إسلامنا ونصبح رأسماليين كالأمريكان، أو اشتراكيين كالإنجليز، أو شيوعيين كالروس، إذا آمنا حقاً بهذا الدين، وفهمناه على أصوله الكبرى التي فهمها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهي مختلفة في أساسها عن هذه النظم جميعاً، ومستقلة عنها، وإن التقت معها أحياناً في بعض التفصيلات.

أجل لا نحتاج أن نخرج من إسلامنا لنصبح شيئاً من هذه الأشياء، كنتيجة حتمية لاستخدام وسائل معينة للإنتاج، لأن علاقات الإنتاج ليست خارجة عن إرادة الإنسان كما يزعم كارل ماكس. وقد رأينا من الواقع المشهود أن ذلك غير صحيح.

وإنما يذيع الماديون أفكارهم القائمة على جبرية الاقتصاد، ليوحوا إلى الناس في كل مكان أن الشيوعية هي مصيرهم المحتوم، بعدت الشقة أو قربت، فعليهم أن يستسلموا لها ولا يعملوا على مقاومتها! وقد يكون هذا صحيحاً في أوربا، أو في العالم الذي غلبت أوربا عليه. لا لجبرية الاقتصاد. ولكن لأن الحياة الأوربية أو الغربية عامة، قائمة كلها على أساس مادي بحت، لا ينتج إلا الشيوعية في آخر المطاف! أما حين توجد فكرة أخرى عن الحياة والكون أوسع وأرقى، فلن تقف في سبيلها وسيلة من وسائل الإنتاج، لأنها هي التي ستخضع لها كل كيان الدولة الاقتصادي والاجتماعي والفكري على السواء. وقد رأينا أن مجال الاختيار مفتوح في النطاق الصغير، رغم اتحاد الأساس الفكري والفلسفي بين روسيا وانجلترا وأمريكا. فأولى به أن يكون أوسع وأعم حين يختلف هذا الأساس.

فالشهوة المذهبية وحدها هي التي تذيع هذه الأفكار لغاية مرسومة. فلا ينبغي أن تؤخذ على أنها حقائق علمية موضوعية!

* * *

وهم يقولون: إن الرأسمالية تجنح إلى استغلال العمال لاستخلاص أكبر ربح ممكن، لا عن قصد من الرأسماليين ولا سوء نية (؟!) وإنما لأن هذه صفة كامنة في طبيعة رأس المال[1]!

فما السند العلمي لهذه الدعوى العجيبة؟!

لا يوجد لها من سند إلا تلازم هذا الجشع مع النظام الرأسمالي في أوربا، وفي العالم الذي غلبت أوربا عليه. ولكن هذا لا ينفي أن الجشع "شعور" صادر من النفس لا من طبيعة رأس المال، حتى وإن كان ملازماً له على الدوام. وليس معنى هذا أننا نؤمن بالجبرية النفسية في هذا المجال. وإنما نريد فقط أن نرد الأشياء إلى أصلها النفسي، وهو مصدرها الطبيعي. وقد كان هذا الجشع موجوداً في مشاعر الرومان، أسلاف الأوربيين الحاليين، في عهد الرق وعهد الإقطاع، وكانوا يستعبدون به غيرهم من الأمم والشعوب. فهو ليس متولداً من التطور الرأسمالي ولا نابعاً منه.

وإنما يقول الشيوعيون إنه صفة كامنة في طبيعة رأس المال، وإنه لا يجوز الحكم عليه حكماً أخلاقياً، لأنه عمل حتمي كأكل القطة للفأر! يقولون ذلك لكي يصرفوا الأمل عن انتظار الخير والرحمة من الرأسماليين، ولكي يدعوا إلى تحطيم نظامهم بالقوة والعنف.

ونحن أيضاً لا نؤمن بأن الخير يمكن أن يصدر عن النظام الرأسمالي، لا لأن له جبرية على المشاعر، ولكن لأنه لا يمكن أن يقوم من الأصل في ظل مشاعر نظيفة مترفعة، مؤمنة بحقوق الإنسان. فالواقع أن النظام الرأسمالي تابع في وجوده لمشاعر أنانية غير نظيفة، لا أن هذه المشاعر نابعة من هذا النظام!

والشهوة المذهبية وحدها هي التي تقول هذا الكلام العجيب، الذي لا يعرفه العلم من بعيد ولا قريب!

* * *

وهم يقولون: إن إحدى وسائل التضخم الرأسمالي هي إنتاج وسائل الترف على نطاق واسع. وهذا صحيح. ولسنا هنا بصدد الدفاع عن الترف أو عن الرأسمالية، فكلاهما حرام في نظر الإسلام[2]؛ ولكنا نتناول المسألة من الناحية النفيسة، لأنها ذات دلالة كبيرة في هذا

---

(1) الدكتور راشد البراوي. النظام الاشتراكي ص129.

(2) تحدثنا عن رأي الإسلام في الرأسمالية في كتاب "شبهات حول الإسلام".

البحث. فإنتاج وسائل الترف ليس هو الذي ينشئ رغبة الترف في النفوس! ولولا أن في النفس الإنسانية استعداداً طبيعياً كامناً للملل من الأشياء القديمة، أو التي أصبحت معتادة، والسعي إلى شيء جديد أو نمط جديد، لما استطاعت الرأسمالية أن تصرف بضائعها المستحدثة على نطاق واسع. فكل حالة اقتصادية أو نتاج اقتصادي له رصيد مقابل في النفس الإنسانية، سابق على وجوده. وكل ما يصنعه الاقتصاد هو أن يلبي هذه الحاجات البشرية الكامنة. وليس ينفي هذا بطبيعة الحال أن المنتجات الحديثة "تكيف" المشاعر بطريقة خاصة، وأن هذا التكييف ينشئ صوراً جديدة من الأفكار والمشاعر لم تكن موجودة من قبل. هذا مسلم به. ولكن الذي نريد أن نؤكده، هو أن الأصول النفسية لهذه المشاعر موجودة في النفس الإنسانية من قبل ظهور هذه المنتجات. وأن هناك فرقاً كبيراً بين تكييف المشاعر الموجودة فعلاً، كامنة أو غير كامنة، وبين إنشاء هذه المشاعر دون أن يكون لها وجود سابق في داخل النفس. فليس اختراع الطائرة هو الذي أنشأ الرغبة في الطيران. وإنما هذه الرغبة —وهي حلم بشري قديم، بدأ مع طفولة البشرية، وتدرج معها، حتى حاول بعض الأناسيّ أن يركّبوا لأنفسهم أجنحة من الريش ويجربوا الطيران بها كالطيور!– هذه الرغبة هي التي حققها العلم بعد ذلك في صورة طائرة! صحيح أن اختراع الطائرة قد أحدث تطورات هائلة في علاقات الناس ومشاعرهم. ولكن هذا لا ينفي أن الرغبة النفسية هي الأصل.

وهم أنفسهم يقولون: إن الأسرة كانت قائمة في أول عهدها على أساس سيطرة الأم، فكان الميراث ينتقل من الرجل إلى إخوته وأخواته، لا إلى أولاده. فلما ملك الرجل وسائل الإنتاج وحده، حول الأسرة إلى نظام سيطرة الأب، حتى يتمكن من نقل ما يملكه إلى أولاده. فلماذا يا ترى حدث ذلك؟ هل ملكية وسائل الإنتاج هي التي غيرت مشاعر الأب فجعلته يحب أولاده ويؤثرهم بالخير، ولم يكن يحبهم من قبل؟ أم إن هذا الحب سابق في وجوده للتطور الاقتصادي، وكان ينتظر الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافه؟

تلك مسائل نحسبها من البداهة بحيث لا تحتمل المناقشة. فالإنسان يولد وفيه على الأقل هذان الأصلان الكبيران: حب الحياة، ثم الرغبة الجنسية حين يجيء موعدها المحدود. هاتان على الأقل رغبتان لا تنشآن من الحالة الاقتصادية، ظالمة كانت أو غير ظالمة، فكل مخلوق يوجد في أي نوع من أنواع المجتمعات يتشبث بالحياة ولا يتركها إلا كارهاً[1]؛ ويحس بالرغبة الجنسية على نحو من الأنحاء. وكل ما تصنعه الحياة المادية والظروف الاقتصادية، هو أن "تكيف" الصورة التي يحيا بها الإنسان، فيعيش في قصر أو يعيش في كوخ؛ والصورة التي

(1) إلا أن تستولي على نفسه عقيدة أكبر من نفسه ومن حياته الفردية.

يقضي بها حاجته الجنسية، فيقضيها في الشارع أو في المنزل أو في الغابة. ولكن هذه الظروف ليست هي التي "تنشئ" هذه الرغبة أو تلك، من أصلل غير موجود في النفس.

هذه بديهية. وإنما ينفيها الماديون لأنهم لو أقروا بها فسينفتح المجال لمن يريد أن قول: إن حب الملكية والاقتناء أصل من الأصول النفسية، السابقة في وجودها على الحالات الاقتصادية المختلفة. وهم يريدون أن يقفلوا الطريق أمام هذه الدعوى سواء كانت صادقة أو كاذبة[1]، فينفون منذ البدء أن النفس الإنسانية هي الأصل، وأن الظروف المادية والاقتصادية تكيف المشاعر ولكنها لا تنشئها من العدم. وأن شعور الإنسان هو الذي يعين وجوده بالتفاعل مع الظروف المادية الخارجية.

فالشهوة المذهبية إذن هي التي تنكر هذه الحقائق البديهية، وإن كانت تتمسح بالعلم وقضاياه.

* * *

على أن الكارثة العظمى في المذهب المادي هي تحديد مطالب الإنسان بالغذاء والكساء والإشباع الجنسي[2] وإهمال الأمور الأخرى كلها –وأخصها العقيدة– باعتبارها أشياء ثانوية غير مهمة، ولا يضير الدولة أو أي نظام اجتماعي ألا يلتفت إليها، إذا هو قام بتحقيق تلك المطالب "الأساسية".

وما يجادل أحد في أن هذه ضرورات لا تتيسر بدونها الحياة، وأن كل نظام يهملها، أو لا يعطيها حقها من الرعاية والجهد نظام فاسد فاشل، مهما كانت "المعنويات" التي تقوم في رءوس أفراده. لأن المعنويات ليست شيئاً مقصوداً لذاته. وإنما المقصود منها تنظيم الحياة في الأرض على صورة أفضل وأرفع. فإذا لم تؤد مهمتها تلك على صورة من الصور، لأفراد المجتمع، ولأجيال الإنسانية، فهي لا تستحق أن توجد أو تعيش...

ولكن تحديد مطالب الإنسان بمطالب جسده فقط هو من الناحية الأخرى نقص شائن، وهبوط بالإنسان من عليائه إلى مستوى الضرورة، وإلى حظيرة الحيوان.

---

(1) انظر فصل "الإسلام والملكية الفردية" في كتاب "شبهات حول الإسلام".

(2) هذه هي المطالب التي حددها كارل ماركس في "المنيفستو" وسماها: "The Three Satisfactions".

وإذا كانت حاجات الجسد هي أول ما يصرخ في طلب الإشباع، فليس معنى ذلك أن الإنسان كله ينتهي عند هذه المطالب، أو أنها وحدها الجديرة بالإشباع. وكل نظام أو فكرة عالمية لا يجعل همه إلا حاجات الجسد القريبة هو نظام فاسد، مهما كانت دقة تنظيمه، ومهما كانت العدالة المادية أو الاقتصادية التي ينشرها بين الكادحين أو غير الكادحين.

إن الإنسان لأوسع من هذه الحدود الضيقة التي يريد الماديون أن يحبسوه في داخلها. وإن كل ما وجد على ظهر الأرض في الميدان المادي والفكري والشعوري لهو نتاج إنساني أصيل، وتعبير عن حاجة نفسية أصيلة. الفن والعقيدة والمثل العليا، وأحلام البطولة وسبحات الروح، والسيارة الفاخرة، والطائرة المنطلقة في الفضاء، والمدفع، والمصنع وإنتاج الغذاء والكساء. كلها سواء. وليس اختراع الآلة والوصول إلى الإنتاج الكبير أعظم في طبيعته ولا دلالته من الوصول إلى العقيدة والاهتداء إلى الله. كل منهما دليل على عظمة المخلوق البشرية وارتفاعه عن مستوى الحيوان. بل الاهتداء إلى الله أعظم في دلالته على رفعة الإنسان وإشراق روحه، واتساع آفاقه أن تنحصر كالحيوان في عالم المادة أو مدركات الحواس.

والنظام الأوفى هو الذي يأخذ الإنسان في مجموعه. لا يهمل مطالب جسده، ولا ينكر مطالب روحه، أو يدعها تنبت نباتاً "شيطانياً" كيفما اتفق، بحجة أنها ليست من ضرورات الحياة!

وهم يقولون: إن المجتمع لن تستقيم أوضاعه إلا إذا بني على أساس اقتصادي مكين وهذا صحيح لا جدال فيه. ولكنه لا يحمل الدلالة التي يريدون أن يحمّلوها إياه، وكل ما يعنيه هو أنك إذا أردت أن تقيم بناية جميلة فعليك أن توطد الأساس، وإلا تصدع البناء مهما كان فيه من إبدع وفن دقيق. ولكن أية حماقة تلك التي تقول: ما علينا إلا أن نبني الأساس المتين. وسوف يتم البناء من تلقاء نفسه بعد حين؟!

إن إقامة الأسس الاقتصادية الصحيحة ليست غاية في ذاتها كما يفهم الشيوعيون في بلاهة وقصر نظر. إنما هي وسيلة لإقامة المجتمع على أسس إنسانية رفيعة. وكل مهمتها أن تهيئ الجو الصالح للارتفاع الخلقي والفكري والروحي، والإنساني بصفة عامة. ولكنها لا تؤدي إلى ذلك بطريقة آلية، وبغير جهد إيجابي يبذل في رفع الأرواح والنفوس. فإذا كان النظام الشيوعي ينتهي في فكر أصحابه عند مطالب الجسد، أو إقامة حكومة عالمية على هذا الأساس، فهو يحدد حدوده بنفسه، وينتهي بها إلى الفناء ذات يوم قريب أو بعيد!

* * *

وهم إذ يهملون العقيدة الدينية، وينفون أنها —في ذاتها– قوة حقيقية دافعة، يعجزون عن تفسير كثير من مظاهر الحياة البشرية. وهذا هو الإسلام قد احتل جزءاً كبيراً من سطح الأرض، وجزءاً مماثلاً من تاريخ العالم. فإذا نظرنا إليه —كنظام اجتماعي– وجدنا فيه عجائب لا يمكن أن تفسرها كل التمحلات التي يقدمها التفسير المادي للتاريخ.

أولى هذه العجائب وأعظمها أن الإسلام قد انتشر بسرعة مثالية ما تزال فريدة حتى اليوم. ففي أقل من عشر سنوات، أيام عمر بن الخطاب، كان قد غمر فارس والعراق والشام ومصر والنوبة فضلاً على الجزيرة العربية. فأي تغيير مادي، وأي تغيير في أساليب الإنتاج في تلك الفترة القصيرة، قد أنشأ هذه الحركة التي لا مثيل لها في التاريخ كله، في القوة والسرعة والاندفاع؟

لم يكن ثمة بارود ولا اختراع حربي —مادي– يتفوق به حفنة العرب، الذي انطلقوا من الجزيرة يبشرون بالإسلام، على قوى الإمبراطوريتين العريقتين: في فارس وبلاد الروم. بل كانت القوى المادية والعسكرية كلها في صف هذين المعسكرين. ولم يكن كذلك قد حدث أي اختلاف في وسائل الإنتاج بين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وما قبلها وما بعدها، إلى وقت هذا الفتح المبين.

وإنما شيء واحد هو الذي تغير. هو "إحساس" هؤلاء العرب بالحياة والكون، وبالحق والعدل الأزليين، اللذين يسخر منهما دعاة المذهب المادي على لسان فردريك إنجلز وسواه. لقد كانت العقيدة الجديدة هي القوة الدافعة في هذا البناء الجديد. وكانت من القوة والسيطرة بحيث قبلت كل الحقائق المادية السابقة وقضت عليها، في زمن كانت السنوات العشر أو الخمسون أو المائة لا تؤثر شيئاً في حياة الناس الرتيبة، وفي أوضاعهم الاقتصادية والمادية.

وليس ينفي هذا أن أفراداً من المقاتلين كانت تغريهم المغانم فيخرجون إلى القتال. ولكن الحركة في مجموعها لا يجوز أن تؤخذ بهؤلاء الأفراد، وهي التي كانت تدعو الناس أولاً إلى الإسلام. فإن أسلموا فهم منذ اللحظة الأولى متساوون في الحقوق والواجبات مع أهل الجزيرة الفاتحين. لا يتميز عليهم هؤلاء بشيء في المال ولا في السياسة ولا في القرب من الله ورسوله. فإذا أبوا الإسلام فالجزية؛ وهذه تصرف أولاً على المحتاجين من أهل البلاد المفتوحة، ثم يحمل الباقي إلى بيت مال المسلمين، فهو ليس مغنماً شخصياً، ولا هدفاً للدولة تفضله على إسلام المسلمين! فإن أبوا الإسلام والجزية فعند ذلك فقط يدور القتال...

بل نفرض جدلاً أن المغانم كانت الدافع الوحيد على القتال، وهذا كذب على التاريخ. فكيف استطاعت الحفنة القليلة أن تتغلب على أضعاف أضعافها من العدد والعدة والخبرة العسكرية العريقة؟

إنها العجيبة العظمة في تاريخ هذه العقيدة الفذة في التاريخ.

والعجيبة الثانية أن هذه العقيدة –وهي فكرة وشعور– قد أنشأت لنفسها نظاماً اقتصادياً واجتماعياً غير مسبوق في التاريخ كله، وما زال متفرداً حتى اليوم. فحرمت الربا والاحتكار، وقررت حق ولي الأمر (أي الدولة) في أخذ فضول أموال الأغنياء وردها على الفقراء. بل أطلقت يده في اتخاذ أي إجراء يراه كفيلاً بحفظ التوازن في المجتمع، على أساس أن المال مال الله، والجماعة مستخلفة عليه. والمالك موظف فيه بشرط حسن القيام عليه وعدم إيذاء الآخرين، وإلا استرد منه حق التصرف فيه وأعطي لمن يحسن القيام عليه[1].

ولم يكن ذلك كله تحت ضغط الظروف المادية والاقتصادية في جزيرة العرب، أو في العمال كله في ذلك الحين. ولا كانت أحوال الإنتاج قد تطورت إلى الحد الذي يصبح هذا النظام نتيجة حتمية لها –حسب قوانين المذهب المادي– وإلا فقد ظل العالم أكثر من ألف وثلثمائة عام، توالت عليه فيها ألوان من الرق والإقطاع والرأسمالية، حتى وصل إلى شيء قريب من النظام الإسلامي، في انجلترا الاشتراكية وروسيا الشيوعية!

والعجيبة الثالثة أن القوم الذين تملكت هذه العقيدة مشاعرهم قد ثاروا على بذور التفاوت الاجتماعي أيام عثمان. لا لأنه كان قد استنفد أغراضه –كمرحلة اجتماعية تطورية– وصارت أساليب الإنتاج تستدعي الثورة عليه، لتستبدل به مرحلة تالية. كلا! وإنما كانت الثورة ناشئة عن شعور المسلمين بأن الأمور لا تجري كما ينبغي أن تكون، وأنها تخالف الحق والعدل الأزليين اللذين أمر بهما الله... وقد ثاروا حينئذ –وهم قريبو عهد بروح الإسلام– ولم يثوروا بعد ذلك حين ابتعدوا عنها فطواهم الانحراف وهم صاغرون!

والعجيبة الرابعة أن الانحراف الذي امتد أيام الدولة الأموية، لم يفرض نفسه كقوة جبرية على مشاعر عمر بن عبد العزيز. فقام يصلحه، ويرد الدولة إسلامية كاملة في سياسة الحكم والمال، ويأخذ من أمراء بني أمية ما استلبوه من الناس فرده إليهم. وينشر العدالة الاقتصادية والاجتماعية في ربوع العالم الإسلامي، الذي كان قد امتد من الهند إلى شمال أفريقيا، حتى

---

(1) في كتاب "في شبهات حول الإسلام" شيء من التفصيل في هذه الموضوعات في فصول: "الإسلام والإقطاع" و"الإسلام والرأسمالية" و"الإسلام والملكية الفردية".

كان عماله يبحثون عن الفقراء والمستحقين للصدقة فلا يجدونهم، لأن الناس جميعاً قد استغنوا بكسب أيديهم.

ولم يكن ذلك لأن هناك مرحلة تطورية فد انتهت، فقد عاد الانحراف سيرته الأولى بمجرد انقضاء عهد عمر بن عبد العزيز. وإنما كان سببه يقظة العقيدة في قلب هذا المسلم الحق، حطمت "الجبرية" الاقتصادية، وأخضعتها "لمشاعر" فرد واحد أراد، ونفذ ما أراد، مستمداً قوته من عقيدته في الله!

* * *

ولست أعني بهذا أن العقيدة، كفكرة وشعور، تستطيع بمفردها في جميع الأحوال أن تقاوم الظروف المادية والاقتصادية السائدة، أو تسيطر عليها. وإن كانت تستطيع ذلك عن يقين، حين تصل حرارتها في قلوب المؤمنين بها إلى درجة التوهج والاشتعال.

وإنما تقصد أن نرد للإنسان اعتباره. نرد إليه كرامته كإنسان. ونرد إليه حرية التصرف إزاء المادة وإزاء الظروف المحيطة بن من الخارج. ونرده إلى أصول إنسانية نقيس بها تطوره، ورفعته أو هبوطه. ولا نصوره في تلك الصورة الزرية التي يرسمها الماديون، حين يجعلونه عاجزاً أمام كل القوى، خاضعاً لسلطانها القاهر بلا إرادة ولا اختيار[1]، وحين يلغون كل القيم الثابتة ويقولون إنها مجرد انعكاس لصورة الإنتاج! إن الأخلاق ليست فقط انعكاساً للحالة الاقتصادية. فإن لها مقياساً ثابتاً قوامه عدم اعتداء إنسان على إنسان، لأن الجميع إخوان في الإنسانية. وقد رسم الإسلام هذا المقياس، وحاسب الناس على أساسه، في وقت كانت المعايير الخلقية المنعكسة عن الحالة الاقتصادية تبيح الإغارة والعدوان والقتل والغصب، كما تبيح وأد البنات وحرمان المرأة من حقوقها الإنسانية. صحيح أن الإسلام أقام المجتمع على أساس اجتماعي واقتصادي متوازن، ليضمن تنفيذ معاييره الخلقية، وذلك لأنه لا يعيش في عالم المثل منعزلاً عن الواقع المادي. وصحيح أن المجتمع الذي يختل ميزانه الاقتصادي يعجز عن المحافظة على أخلاقه القياسية. ولكن ذلك كله لا ينفي أن هناك أصلاً ثابتاً للأخلاق وأن على الإنسانية أن تصل إليه، من كل طريق يضمن الوصول، فإذا عجزت عن ذلك فترة

([1]) من شدة ما وجه من النقد إلى كارل ماكرس، اضطر الماديون أن يعترفوا بأن الإنسان متأثر ومؤثر في ذات الوقت. ولسنا نكره للناس أن يهتدوا إلى الحق. ولكنهم مع الأسف لا يذكرون ذلك إلا في الجدل النظري، أما في الوقائع فهم يكشفون عن إيمانهم بالجبرية الاقتصادية، وخاصة حين يبالغون في إهمال العقيدة الدينية، والحط من قيمتها كقوة حقيقية دافعة.

من الزمن، عادت إلى المحاولة من جديد، بتعديل أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية في آن.

والأسرة ليست فقط علاقة اقتصادية. فهي كذلك أصل من أصول الإنسانية. فإذا كانت الظروف الاقتصادية تذهب بها ذات الشمال وذات اليمين، فذلك لا ينفي أن هذا مقياساً ثابتاً، هو قيام العلاقة بين أهلها على أساس الحب والعطف والتعاون، بما يليق بكرامة الإنسان. فإذا وقفت الظروف الاقتصادية أو الدعاوى النفسية المنحرفة عن تحقيق هذا المثال، فهي إذن مخطئة، وعلى المجتمع أن يصلحها ليعود بها إلى الصورة الصحيحة.

بل إن الاقتصاد ذاته مسألة نفسية، تتغير بتغير الشعور به في النفوس. فهو في صورته العليا تعاون بين المالكين وغير المالكين، بحيث لا يكون هناك واجد ومحروم. وإنما الجميع منتفعون ومستمتعون. وهو في صورته الدنيا استغلال آثم من الواجدين، وحقد ثائر من المحرومين، يتلوه الصراع بين هؤلاء وهؤلاء.

ولو كان الاقتصاد، لا الإحساس به، هو القيمة الموضوعية الحقيقية، وهو القوة المؤثرة، لما احتاج الشيوعيون إلى هذا الجهد الضخم في نشر دعوتهم، وإثارة "وعي" الجماهير بحالتهم الاقتصادية السيئة. ولتركوا الحالة الاقتصادية وحدها تنقل الناس إلى الشيوعية نقلاً آلياً دون جهد ولا دعاية!

* * *

وحين نؤمن بالإنسان على هذا الوضع، ونعتقد بأن النفس الإنسانية هي الأصل الكبير الذي يرسم الحياة، وأن الاقتصاد أو الإنتاج المادي.. الخ.، ليست إلا منابع من هذا الأصل الكبير، أو ألواناً تلون السلوك والنشاط، نكون قد ارتفعنا بالإنسانية إلى مستواها الحق، ولا نكون قد جانبنا العلم في الوقت ذاته. فالنفس عالم واسع يشمل الاقتصاد والمادة، ويشمل الأفكار والمشاعر. يشمل ضرورات الجسد القاهرة، وسبحات الروح الطليقة، وكلها أصيلة أصيلة.. ولو كره الماديون.

نظرة الإسلام

للإسلام نظرة مستقلة في النفس الإنسانية. تختلف عن غيرها اختلافاً أساسياً. وإن كانت —في الفروع والتفصيلات– قد تلتقي في بعض الأحيان بغيرها من النظريات.

ونظرة الإسلام في تكاملها وتناسقها، وشمولها لكل جوانب النفس وكل جوانب الحياة، غير مسبوقة من الوجهة التاريخية. وما تزال حتى اليوم بعد كل ما ظهر من النظريات، تتفرد وحدها بالشمول والعمق والاتزان.

* * *

أهم ما يتميز به الإسلام أنه يأخذ الكائن البشري على ما هو عليه، لا يحاول أن يقسره على ما ليس من طبيعته، كما تصنع النظم المثالية، وإن كان في الوقت ذاته يعمد إلى تهذيب هذه الطبيعة إلى آخر مدى مستطاع، دون أن يكبت شيئاً من النوازع الفطرية، أو يمزق الفرد بين الضغط الواقع عليه من هذه النوازع، وبين المثل العليا التي يرسمها له.

الإنسان في نظر الإسلام كائن لا هو بالملاك ولا بالحيوان. وإن كان قادراً في بعض حالات الهبوط أن يصبح أسوأ من الحيوان، وفي بعض حالات الارتفاع أن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر. ولكنه في حالته الطبيعية شيء بين هذا وذاك، مشتمل على استعداد للخير كما هو مشتمل على استعداد للشر. وليس أي العنصرين غريباً عن طبيعته، ولا مفروضاً عليه من خارج نفسه.

وهو يشمل نوازع فطرية تربطه بالأرض، لأن الحياة —في أهدافها العليا– لا تتحقق بغير وجود هذه النوازع قوية ملحة يتعذر الفكاك من عقالها. ولكنه يشمل في الوقت ذاته نزعة —فطرية أيضاً– تهدف به إلى الارتفاع والسمو، ومحاولة الانطلاق —ولو قليلاً– من روابط الأرض.

والإنسان قابل —من طرفيه هذين– أن يهبط أو يصعد بحسب التوجيه الذي يوجه إليه، وخاصة في فترتي الطفولة والمراهقة، ولكنه حين يهبط أو يرتفع، يكون في حدود طاقاته الطبيعية، وعناصره المكونة له، لا يفرض عليه شيء من الخارج، ولا يفسر على ما ليس في طبيعته.

والإغراء بالهبوط، كالإغراء بالصعود. كلاهما يتلقى استجابة طبيعية من الفرد، لأن فيه استهواء لهذا وذاك. وبعض الأفراد بطبيعة الحال يكون استهواؤهم للشر أكبر، وبعضهم يكون استهواؤهم للخير أشد. ولكن الغالبية العظمى تقع في الوسط، أو هي —لنكون أكثر واقعية– أميل إلى الهبوط والاستجابة لنوازعها الفطرية الأرضية، وإن كانت في ذات الوقت لا ترفض الاستجاابة إلى دافع التسامي، حين يعرض لها أو توجه إليه.

والغاية العليا للإسلام، هي إيجاد التوازن في نفس الفرد، فيؤدي ذلك إلى إيجاد التوازن في المجتمع، وفي الإنسانية كلها بعد ذلك، بقدر ما يكون هذا في حدود الإمكان.

ووسيلته في ذلك أن يمسك بالإنسان من خيط الصعود، ليساعده على موازنة الثقل الذي يجذبه إلى الأرض. ولكنه لا يعنف في جذبه إلى أعلى حتى يمزق أوصاله، أو يقطع ما بينه وبين الأرض من صلات، لأنه حين ذلك يفقده التوازن المنشود.

والإسلام يكره فقدان التوازن ولو كان إلى أعلى، لأنه يحرص على أهداف الحياة العليا، التي لا تتحقق بغير الاستجالة لنوازع الأرض؛ وكل ما يعمله ويهدف إليه هو تنظيف الوسائل التي يستجيب بها الفرد لنوزاعه، حتى ترتفع الحياة كلها، وتصبح كريمة جميلة، خليقة بمعنى التكريم الذي أسبغه الله على الإنسان.

ومن هنا يقول الرسول الكريم: "لا رهبانية في الإسلام". فالرهبانية —في نظر أصحابها– ارتفاع بالحياة عن نوازع الجسد، وتطهي للروح لتكون خليقة بالدخول في ملكوت الله. ولكنها —في نظر الإسلام– اختلال غير متوازن، يعطل أهداف الحياة، ويعذب الفرد في سبيل هدف —مهما يكن نظيفاً في ذاته– فهو غير عادل بالنسبة للفرد والمجتمع والحياة.

ومن هنا كذلك يتضح أن الإسلام يسعى إلى التوفيق الدائم بين أهداف الحياة وضرورات المجتمع ونوازع الفرد، دون أن يطغى هدف على هدف، ولا مصلحة على مصلحة، وإنما يسير الكل في توافق واتساق، يحقق —حين يتم– أقصى ما يمكن من السعادة على ظهر الأرض.

تلك نظرته العامة فلنأخذ في شيء من التفصيل.

* * *

الإنسان في نظر الإسلام: جسم وعقل وروح. وكل أولئك معترف بوجوده، مقدرة مطالبه، وكلها حقيقة بالاستجابة إليها استجابة صريحة مباشرة لا مواربة فيها ولا إنكار.

فأما الجسد فهو وشائج اللحم والدم. وهو النوازع الفطرية. وهو الشهوة الملحّة التي لا تهدأ ولا تكف. وهو المطالب بحفظ الحياة على الأرض، بالمحافظة أولاً على ذاته، والمحافظة بعد ذلك على النوع. الهدف الأول وسيلته الطعام والشراب (والمسكن والكساء أيضاً) والهدف الآخر وسيلته النسل والإكثار.

وهناك حكمة في جعل نوزاع الجسد من العنف والإلحاح، بحيث يتعذر –أو يستحيل أحياناً– عدم الاستجابة إليها. فإحساس الجوع والعطش إحساس عنيف لا يمكن السكوت عليه. وذلك ليكون هناك ضمان بألا يتهاون الفرد في المحافظة على ذاته. ولن تتيسر تلك المحافظة بغير الطعام والشراب.

والإحساس الجنسي لا يحتاج الإنسان أن يتطرف مثل فرويد لكي يبين أصالته وعمق جذوره في النفس البشرية، فهو واضح بغير حاجة إلى هذا التطرف المعيب. وحكمته كذلك واضحة فلن يستمر النوع إذا كان الإحساس الجنسي ضعيفاً يسهل الانفصال عنه، والانطلاق من عقاله. ولما كانت المرأة تحتمل الغرم الأكبر في سبيل النسل، كان رباطها بنزعة الجنس أقوى، واتصالها بها أشد، ليكون هناك ضمان ألا تعزف بها آلام الحمل والرضاعة عن أداء هدف الحياة الأصيل.

وبقدر ما يوجد من الألم أو القلق في عدم الاستجابة لنوازع الجسد، يوجد في الكفة الأخرى لذة لا آخر لها في هذه الاستجابة. وبذلك وضعت كل الضمانات التي تكفل استجابة الفرد لأهداف الحياة، دون أن يحس في الوقت ذاته أنه مكلف بأداء فرض ثقيل!

أما العقل فمهمته الأولى أن يعاون الإنسان في الحصول على أفضل الطرق لإجابة النوازع الفطرية، والتغلب على العقبات التي قد تقف في سبيل ذلك، بالتدبر والتفكير.

ولكن مهمته لم تقف عند هذا الحد. فلكي يتأتى له أن يقوم بمهمته على أحسن وجه، جعلت فيه نزعة دائمة إلى المعرفة، كأنها في ذاتها هدف مقصود. وعن طريق هذه النزعة ترتقي الحياة وتتقدم، وهي تحقق أهدافها الأصيلة في الوقت ذاته. فالرقي إذن هدف أصيل من أهداف الحياة، تنزع إليه نزوعاً ذاتياً، ووسائله أو جزء منها موجود في العقل البشري.

أما الروح، تلك الطاقة الكبرى التي لا يؤمن بها الغرب، فمهمتها قد لا تكون ظاهرة للعيان في مبدأ الأمر، لأن الروح في ذاتها أمر غير محسوس. ولا نريد أن ندخل في جدل ميتافيزيقي لا ينتهي؛ ولكنا نكتفي بما أثبتناه من قبل من أن إنكار الروح لا يقوم على أساس علمي صحيح. ونزيد هنا أنه من أهداف الحياة الأصيلة ترقية الحياة ذاتها والارتفاع بها على

الدوام، وأن إحدى وسائل هذا الارتفاع في الإنسان هي الروح ومهمتها أن تتصل بالحقيقة الكبرى في هذا الكون، فتستلهم منها النور الذي لا تراه الحواس، ولكنه موجود بالرغم من ذلك. وبهذا النور العلوي تستطيع الروح أن تسمو، فتعاون الكائن البشري على تحقيق هدف الحياة من الارتفاع.

والنفس البشرية تشمل أولئك جميعاً، ولا تضيق بشيء منها. والإسلام يعترف بالكائن البشري كما هو، فيحقق رغبات جسده وعقله وروحه، ويهدف في ذات الوقت إلى إيجاد التوازن بين الجميع.

* * *

يعترف الإسلام بالنشاط الحيوي للإنسان، وبحق الفرد في أن يزاول هذا النشاط، في حدوده المعقولة التي لا تؤذي المجتمع، ولا تؤذي الفرد ذاته في نفس الوقت.

وفرق كبير في هذا المجال مثلاً بين نظرة المسيحية كما صورتها الكنيسة ونظرة الإسلام. فقد كانت الكنيسة تبالغ في فرض القيود على النشاط الحيوي، وتنكر حق الفرد لا في مزاولة كثير من ألوان النشاط فحسب، بل في الإحساس بالرغبة في هذا النشاط. أي أنها لا تكتفي بوضع القيود في الميدان العملي، بل تتعداه إلى مجال الشعور في داخل النفس، وعلى سبيل الإلزام... وبغير ذلك لا يكون الإنسان جديراً بملكوت الرب.

ولا شك أن الكنيسة قد استندت إلى بعض أقوال المسيح عليه السلام، الداعية إلى التطهر الروحي، والارتفاع على متاع الحس، والتي كثر ورودها على لسان المسيح بالنسبة للمادية الطاغية التي كان اليهود يعيشون في دنسها. ولكن الكنيسة بالغت في الاستناد إلى هذه الأقوال حتى وصلت بها إلى الرهبانية التي قيول عنها القرآن: "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ".

فحين يقول المسيح عليه السلام: "لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون!" أو يقول: "من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير!" فلا يخالجنا الشك في أنه عليه السلام كان يرجو الخير للبشرية. وهو حين يطلب إلى الناس هذا الطلب، يريد أن يضيق مجال الشيطان، بمحاربة الشهوات التي تصرف الإنسان عن الخير. وقد كان خليقاً أن يتشدد في المطالبة بقمع الجسد وقهر الشهوات، والترفع عن الحياة الدنيا، بالنظر إلى حالة بني إسرائيل، وما كانوا عليه من مادية مفرطة وقساوة وجحود.

ولكن حين يتحول هذا إلى رهبانية، نجد أنه من المستحيل عملياً أن تقبع البشرية إلى الأبد داخل الحدود التي أرادتها لها الكنيسة، ولا من الخير لها كذلك أن تقبع فيها فتنصرف إلى الأديرة والصوامع.

وهذه الأديرة والصوامع ذاتها ما الذي يجري فيها؟ إن أبشع القذارات الإنسانية لترتكب هناك، في ذات الأماكن التي كان يظن أنها موضع القداسة، ومكان التطهر الكامل، والخلاص الأبدي من شهوة الجسد ونزغات الشيطان! "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا"[1]

ذلك أن الكبت العنيف الذي تفرضه التعاليم المتزمتة لا يمكن تنفيذه، ولا بد أن يؤدي في النهاية إلى نتيجة عكسية.. إلى الانغماس في الشهوات تحت أي ستار.

ولنترك الأديرة، وننظر إلى المجتمع المسيحي كيف صار. إن الكاثوليكية المسيحية مثلاً لا تبيح الطلاق. وتفرض دوام العلاقات بين الزوج وزوجته أياً كان اختلاف طبائعهما، أو ملابسات حياتهما الزوجية. فماذا كانت نتيجة ذلك؟ لقد كانت النتيجة الحتمية أن ظل الناس (فيما عدا الدول التي أباحت الطلاق) يطيعون هذه التعاليم في الظاهر، ثم يتخذ الأزواج خليلات، وتتخذ الزوجات خلاناً، يقضي بعضهم مع بعض شهواتهم المحرمة، لأن هذا هو التنفيس الممكن الوحيد!

وهكذا نحد في الكثير من هذا التعاليم المتزمتة ما يخالف الطبائع البشرية، ويطالبها بما ليس في طاقتها.

أما الإسلام فقد كان أدرى بالطبيعة البشرية وأحكم في معالجتها، حين أباح للناس نشاطهم الحيوي المشروع.

أباح لهم شهوة الطعام وشهوة الجنس وشهوة الاستمتاع بطيبات الحياة... أباحها لهم صراحة في غير مواربة ولا لبس؛ بل دعاهم دعوة قوية صريحة إلى هذا الاستمتاع:

"قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ"[2].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ"[1].

---

(1) سورة الحديد [27].

(2) سورة ا لأعراف [32].

"وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"[2].

وحين تحرم التعاليم الكنسية على الناس أن يحسوا بهذه الشهوات، فينشأ بذلك الكبت والاضطراب النفسي، نرى الإسلام صريحاً في الاعتراف بالطبيعة البشرية حيث يقول القرآن: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ"[3] ويقول: "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"[4].

وهذه مسألة على أعظم جانب من الأهمية، وتستحق أن نفرد بها بضعة سطور من هذا البحث. فالكبت —كما قرر علماء النفس التحليليون وعلى رأسهم فرويد —ليس هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي، الذي تدفع إليه الطاقة الشهوية في الإنسان[5]. وإنما ينشأ الكبت من استقذار العمل الغريزي، وعدم اعتراف الإنسان في داخل نفسه بأنه يحق له أن يفكر في إتيان هذا العمل، أو يحس بالرغبة في إتيانه، وذلك إطاعة للذات العليا، التي تمثل سلطة الوالد أو الإله.. الخ. أي إطاعة لقوة جبرية تحرم على الفرد هذا الإحساس.

وعندما يشعر الإنسان أنه من العيب أو من المحرم عليه أن يحس بشهوة معينة، يكبت هذا الإحساس، أي أنه لا يسمح له بالظهور في نطاق النفس الواعية التي تواجه المجتمع والحياة الخارجية "Ego". ولكن الطاقة التي تكمن وراء هذه الشهوة باقية ما تزال، رغم كبتها وعدم التصريح لها بالظهور. ومن هنا ينشأ الصراع بين هذه الطاقة الحبيسة وبين القوة التي حكمت عليها الحبس والكتمان. ومن هذا الصراع، وعلى قدر شدته والملابسات الشخصية المحيطة به، تنشأ الاضطرابات النفسية والعصبية المعروفة.

فأهم جانب يقوم عليه الكبت هو عدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه —نتيجة التعاليم التي تلقن به– بأن من حقه الشعور برغبة معينة. ومن هنا يتضح كيف أن التزمت الكنسي بتحريمه الرغبة في طيبات الحياة، قد فتح الباب الذي تلجه الاضطرابات العنيفة المدمرة.

([1]) سورة البقرة [172].

([2]) سورة القصص [77].

([3]) سورة آل عمران [14].

([4]) سورة الكهف [46].

([5]) كتاب "Three Contributions to the Sexual Theory" ص82.

أما الإسلام فمزيته الكبرى في هذا المجال، أنه منذ البدء لا يفتح الطريق أمام الكبت، بل يزيله قبل أن يحدث، ولا يترك فرصة مهيأة لحدوثه. فهو يعترف —كما رأينا في الآية– أن الناس هكذا يحبون الشهوات. وأن هذه الشهوات مزينة لهم.

فحين يرى المسلم أن هذا أمر واقع، وأن شرائع السماء تعترف بوجوده، لا يجد في نفسه الاشمئزاز ولا النفور من هذه الشهوات! ذلك الاشمئزاز الذي ينشأ عنه الكبت.

ولكن هذا لا يعني بحال أن الإنسان يحق له أن ينطلق مع هذه الشهوات إلى آخر المدى، حتى تستعبده وتخرج به عن إنسانيته..

كلا! إن هذا الأمر لو أبيح، لعاد بأقصى الضرر على كيان الفرد ذاته، لا على كيان المجتمع فحسب. فينبغي إذن أن تقام له الحدود التي تحتفظ به في حيز النفع الفردي والجماعي. ولكن هذه الحدود لا تَكْبِت. وهذا هو المهم في الموضوع. إن هذه الحدود تنظم فقط مدى القيام بالنشاط الحيوي، وتحدد له ميادين معينة يكون فيها مأمون العاقبة، ولكنها لا تتعرض قط لأصوله في النفس، فلا تحرّم الإحساس به والرغبة فيه.

ولنأخذ في بسط الأمثلة التي توضح ما نقول:

فالتعاليم المتزمتة —كما أسلفنا– تنظر إلى الشهوة الجنسية على أنها رجس من عمل الشيطان، فعلى الذين يرغبون في التطهر، والدخول في ملكوت الله، أن ينزهوا أنفسهم عن الإحساس —مجرد الإحساس– بالشهوة إلى المرأة. ولكن هذه الشهوة عميقة في نفس الإنسان. ولا بد أن يشعر الرجل بها شاء أو لم يشأ، لأن هذا الشعور العنيف الملح هو وسيلة الحياة لحفظ النوع. فالنتيجة الحتمية لهذه التعاليم أن يكبت الرجل شعوره بالرغبة في المرأة (وكذلك الأمر بالنسبة لشعور المرأة نحو الرجل).. ثم ينشأ الصراع.

أما الإسلام فيقرر أن هذه الشهوة قد زينت للناس. فحين يحس الفتى المراهق إذن بالرغبة في الجنس الآخر لا يحتاج —في الإسلام– أن يستعيذ بالله من مجرد هذا الإحساس، لأن الإسلام يقر له في صراحة تامة، أن هذا أمر طبيعي لا خلاف عليه ولا نكران له.. وعلى ذلك لا يحتاج أن يكبت الشعور بهذه الرغبة لكي يتطهر في نظر الناس، ونظر نفسه، ونظر الله.

ولا يحتاج كذلك أن يشعر بالإثم من مجرد إحساسه بالرغبة الجنسية. ومن ثم تنتفي كل الاضطرابات النفسية والعصبية التي تنشأ من الشعور بالإثم، والتي تؤدي إلى الجريمة في حالات الشذوذ.

ولكنا نعلم بطبيعة الحال أن الإسلام لم يبح للفرد أن يطع هذا الهاتف الجنسي حسبما اتفق، وفي أية صورة من الصور. وإنما وضع لذلك الحدود الشرعية التي يكون مباحاً في حالات الشذوذ.

ولكنا نعلم بطبيعة الحال أن الإسلام لم يبح للفرد أن يطيع هذا الهاتف الجنسي حسبما اتفق، وفي أية صورة من الصور. وإنما وضع لذلك الحدود الشرعية التي يكون مباحاً في داخلها، محرماً فيما وراءها.

هذا صحيح. ولكن هذا شيء والكبت شيء آخر. فهنا مجرد تعليق[1] للعمل. وفرق بين هذا وبين استقذاره وعدم الاعتراف به في داخل الضمير. هذا التعليق ينظم النشاط الجنسي العملي ولكنه لا يبته من منبته، ولا يحرم الإحساس به في أية لحظة بين الإنسان ونفسه.

وتعاليم المسيحية –المترفعة المتسامية– تحرم الأخذ بالثأر. ليس هذا فقط. بل تحرم الإحساس بشهوة الانتقام، وتعد ذلك علامة على الانحطاط واتباع الشيطان، وتعتبره خصلة لا تؤهل الإنسان للدخول في ملكوت الرب. (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر).

ورد العدوان وحب الانتقام من اعتداء وقع على الإنسان، نزعة فطرية لا جدال في وجودها بين البشر جميعاً. صحيح أن الاستسلام لها دائماً يهبط بالبشرية إلى درك منحدر، ويقفل الطريق أمام التسامي والارتفاع. ولكنه صحيح أيضاً، أن كبت هذه النزعة الفطرية أو إماتتها ليس من صالح البشرية في شيء، فهناك ملابسات تمر بكل إنسان، وبكل أمة، يصبح القعود فيها عن طلب الثأر مهانة وخزياً لا يعودان على أحد بالخير، إلا على المعتدي الأثيم. فتحريم المبدأ إذن كانت له مبررات مفهومة كدعوة مؤقتة، ولكنه كنظام دائم فكرة خطرة، فضلاً عن كونها غير مستطاعة عملياً، ولا بد أن ينشأ منها الصراع النفسي والاضطراب.. فكيف عالج الإسلام هذا الأمر؟

([1]) اخترنا هنا تعبير فرويد "Suspension" الذي فرق به بين الكبت وبين عدم الإتيان بالعمل الغريزي في كتاب: "Three Contributions".

إنه يقرر في صراحة تامة أن "العين بالعين والسن بالسن... والجروح قصاص" بل يحض على القصاص في أكثر من موضع: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ" "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ".

فهو يقرر —من حيث المبدأ– حق الفرد بالشعور بالغضب والرغبة في الانتقام، فلا كبت هنا ولا مجال للكبت.

وصحيح أنه يجعل ولي الأمر هو المنوط بالتحقيق والتنفيذ. ولكن هذا المنع ينصرف إلى التنفيذ العملي فقط ولا ينصرف إلى الإحساس ذاته، وهو منشأ الكبت والاضطراب.

والمسيحية التي جاءت لتطهير بني إسرائيل من الجشع المادي الغليظ، تحارب حب المال، وتصفه بأنه إطاعة للشيطان ومجلبة لغضب الرب. ولكن حب المال "شهوة" مزينة للنفس على حد تعبير القرآن. ولا بد أن تشعر النفس العادية بالرغبة فيه، فإذا حرم عليها هذا الإحساس، نشأ عن كبته ألوان من السلوك المنحرف، يعرفها علماء النفس التحليليون في الأمراض التي يقومون بعلاجها.

أما الإسلام فقد رأينا أنه يقرر بصراحة أن ذلك من طبائع النفوس. فإذا أحس الإنسان بالرغبة في امتلاك المال فليس ذلك من نوازع الشيطان، ولا هو مما يجلب غضب الله عليه. فتنتفي منذ اللحظة الأولى مبررات الكبت والاضطراب.

وصحيح أن الإسلام يضع قيوداً كثيرة لامتلاك المال، فهو لا يبيح لأحد أن يطيع شهوة القناطير المقنطرة من الذهب، بلا حساب. وإنما يفرض عليه سلوكاً معيناً وطرقاً بذاتها لا يكون المال حلالاً إلا بها، بل يفرض كذلك على هذا المال مصارف معينة، إذا لم ينفق فيها لم يصبح المال حلالاً، حتى ولو جمع بطريق الحلال.

كل هذا صحيح، وفيه تقييد لشهوة المال لا شك فيه، ولكن هناك فرقاً أساسياً بين هذا التحديد في الميدان التنفيذي، وبين منع الإحساس بتلك الشهوة في داخل النفس.

وهكذا.. وهكذا.

ولا أحسبني في حاجة إلى مزيد من الأمثلة التي تقرر هذا الاختلاف الأساسي بين تعاليم المسيحية التي جاءت لفترة معينة من الوقت ولشعب معين، وبين نظرة الإسلام الذي جاء للناس كافة ولجميع الأجيال. فقد اتضحت لنا —فيما أظن– طريقة الإسلام الأساسية في معالجة النوازع الفطرية: فهو يعترف بها، ويعترف بحق الفرد في الإحساس بها، وفي مزاولتها

في الحدود المشروعة. فيتجنب بذلك منذ اللحظة الأولى قيام الكبت الذي ينشأ من استقذار الدوافع الفطرية وعدم اعتراف الإنسان لنفسه —نتيجة ضغط الدين أو التقاليد.. الخ– بأحقية إحساس معين بأن يخطر في شعوره.

بل إن الإسلام ليصل إلى أبعد من هذا في الاعتراف الصريح بالواقع البشري كما هو، وذلك مثلاً حيث يقول: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ". وقد كان من حق دعوة دينية كالإسلام، تعتمد على الجهاد في سبيل الله، وتعتبره جزءاً أساسياً من الإيمان بهذا الدين، وتستحث عليه بكل الوسائل، وأهمها الوعد بالثواب في الآخرة على ما يبذل الإنسان من تضحيات في الحياة الدنيا.. كان من حق مثل هذه الدعوة أن تكتفي بعرض الجانب اللامع الجميل من الجهاد، وهو التضحية النبيلة التي ترخص فيها حياة الفرد الفانية، في سبيل الفكرة العليا الباقية، وفي سبيل خالق الحياة كلها، ومانح هذا الفرد ما منحه من هبات.

ولو أن الإسلام اكتفى بذلك لكان هذا من حقه، وهو يعتمد على الجهاد، ويعتبره ركناً من أركانه الأساسية لا يكاد يتم الإيمان إلا به.

ومع ذلك كله، ومع وجود المبررات التي تبيح للإسلام أن يفرض المثل الأعلى في هذا المجال فرضاً، ويطالب الناس بالارتفاع إليه، فإن إدراك الإسلام للطبيعة البشرية، وصراحته التامة في الاعتراف بها، جعله يقول إن القتال "كره" للمقاتلين.

صحيح أنه لا يقر لهم أن يندفعوا مع هذا الكره إلى الحد الذي يقعد بهم عن القتال. فذلك أمر شائن لا يزال القرآن ينفّر منه ويصوره في أقبح صورة. ولكن هناك فرقاً نفسياً بين ذلك، وبين عدم الاعتراف للفرد بحقه في استشعار الكره وهو مقبل على القتال.

ولأية نتيجة يصل من هذا الاعتراف الصريح؟

إنه يصل إلى نتيجتين في آن واحد: الأولى أنه لا يدع مجالاً للكبت الذي يمكن أن ينشأ في نفوس بعض المقاتلين —بل كثير منهم– حين يذهبون إلى القتال، وقد فرض فيهم أنهم مقبلون عليه إقبال الراغب المتطوع المندفع، الذي لا يجوز له أن يكره ما قد فرض عليه. والمحللون النفسيون يعرفون كثيراً من أنواع الاضطراب النفسي والعصبي الذي ينشأ في الحرب، نتيجة كبت المحاربين لكراهيتهم للقتال، لأن أحداً لا يصرح لهم بهذه الكراهية، لا الدولة التي أرسلتهم، ولا القادة الذين يصدرون الأوامر، ولا الزملاء من الجنود (ولو كانوا هم في داخل نفوسهم من الكارهين!) أما حين نصرح لهؤلاء الجنود بحقهم في استشعار الكراهية لما هم

مقبلون عليه، فلا سبيل إذن لنشوء الكبت اللاشعوري. لأن في استطاعتهم –رسمياً– أن يحتفظوا بالكراهية في نطاق الشعور. وهذا هو المكسب الأول من هذا الاعتراف.

أما الكسب الآخر وهو الأهم، والأعجب، فهو أن هذا الاعتراف من جانب الله سبحانه، بأنه لا يستنكر من عباده أن يكرهوا هذا التكليف الثقيل، يجعل هؤلاء العباد يندفعون إلى القتال بحماسة عجيبة، فيضحون بأنفسهم في بساطة، ويستشعرون لذلك لذة كأنهم مقبلون على عرس يستمتعون فيه بنعيم الحياة! وترى عندئذ تلك النماذج البشرية المعجِبة التي لم تكن أفراداً بل جماعات، يقول الواحد منهم: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلني؟! ثم يلقي بنفسه في المعركة فيستشهد وهو قرير العين!

فتلك البطولة الفذة قد صاحبت هذا الاعتراف الصريح بحق المجاهدين في كراهية القتال. ولكنا لو فرضناه عليهم، وقد حرمناهم الحق النفسي في كراهيته –إذا شاءوا أن يحسوا بها –لذهبوا إليه كارهين مكبوتين مضطربين.

وهذه الصراحة ذاتها نجدها في فرض بعض التشريعات. يقول القرآن: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا".

فهو هنا يقرر أن في الخمر والميسر منافع للناس. ولكنه يبين سبب المنع في أن الإثم الذي ينشأ عنهما أكبر من النفع. ولو قد نفى منذ البدء أن فيهما أية فائدة لأحد، لقام الناس يعارضون، أو لأطاعوا –حين يطيعون– وهم غير مقتنعين بحكمة هذا الفرض، فلا يخلصون في تنفيذه، كما يصنع الأوربيون في بعض أوامر الكنيسة (كتحريم الطلاق مثلاً) فيتحايلون عليه بوسائل غير نظيفة[1].

يعترف الإسلام إذن بالواقع البشري كما هو، ويتقبل الإنسان بدوافعه ونوازعه الفطرية، ولا يطرده من رحمة الله حين يحس بهذه الشهوة أو تلك.

ولكنه في ذات الوقت الذي يعترف له فيه بحقه في تلك المشاعر، فيحميه من الكبت اللاشعوري المؤذي، لا يتركه ينطلق مع هذه الشهوات إلى آخر المدى، فيستعبد لها، ويصبح خاضعاً لإلحاحها، لا فكاك له من ربقتها.

---

(1) انظر الهامشة رقم (1) صفحة 92.

وإذا كان في اعترافه بواقع البشر يتميز تميزاً واضحاً عن النظم والعقائد الرهبانية، فهو في فرض القيود على شهوات الإنسان يتميز عن الدعوات الغربية المتحللة الفاسدة. فهنا موضع الخلاف بين الإسلام وبين علم النفس الغربي، الذي يدعو لإطلاق الإنسان من كل القيود.

ويسأل المتأثرون بالاتجاهات الغربية المنحلة، والذين استعمرت أوربا أرواحهم: لماذا؟ لماذا نفرض هذه القيود الثقيلة على الإنسان؟ لماذا لا نطلقه حراً من كل قيد، فيستمتع بالحياة الدنيا، ويفرغ باله من ضغط الجسد الملح، فينصرف للإنتاج والاختراع، نشيطاً طليقاً، كما يصنع الغربيون فينعمون ويرتفعون ويرتقون ويَغْلِبون؟!

وتلك مسألة جديرة بالعرض والمناقشة. لأن أولئك المستعبدين لأوربا، شرقها وغربها سواء، لا يتصورون أبداً أن أوربا يمكن أن تخطئ! ولا يتصورون أن أي نظام يخالفها يمكن أن يكون على صواب. ويبهرهم لألاء الحضارة الغربية المادية فيسحر عقولهم وأرواحهم، ويشعرون بضآلة أنفسهم وحقارتها بجانب هذا البريق الخاطف الأخاذ، فلا يطيقون أن يعتقدوا أن في الإمكان أبدع مما كان!

وي! هل يمكن أن تكون الأمم التي تملك الطائرة والمدفع والقنبلة الذرية المهلكة، قائمة على أساس حضاري أو نفسي فاسد، ونكون نحن الضعفاء المتأخرين بحيث ننتقد حضارتهم، ونزعم أن لنا خبرة بالنفوس –أو بشيء على الإطلاق– أكثر من خبرتهم؟

كلا! كلا! رحم الله امرأ عرف قدر نفسه!

ومع ذلك فهذا كله صحيح![1]

إن تلك القيود التي يفرضها الإسلام ضرورة إنسانية ملحة، ضرورة لازمة لحفظ كيان الفرد ذاته، لا كيان المجتمع وحده. ولو أنها كانت من مستلزمات المجتمع فحسب، لما نقص هذا من قدرها، ولا جعلها سخرية للساخرين. فليس المجتمع مفروضاً على الفرد من الخارج. ولولا تلك الرغبة الملحة في نفس الفرد أن يستأنس بغيره، ويتعاون معه، ويشعر بالراحة في وجوده، لما وجد المجتمع؛ فهو إذن حقيقة نفسية نابعة من نفس الفرد، لم يفرضه عليه نظام ولا دين..

([1])حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (1952) بل حتى الثالثة (حوالي 1960) لم تكن علامات التفسخ والانهيار في الحضارة الغربية قد بدت واضحة كما هي اليوم. ولكنها اليوم أوضح من أن يجادل فيها المجادلون، بعد أن اعترف بفسادها أصحابها الأصليون!

ولأهمية هذه النقطة أفردنا لها فصلاً خاصاً في هذا البحث هو فصل "الفرد والمجتمع". ولكن يكفينا هنا أن نشير إلى أن الخضوع لضرورات المجتمع، هو في الوقت ذاته خضوع لدافع نفسي أصيل في نفس الفرد، لا غنى له عن إجابته، ولا يسعده ألا يستجيب إليه.

ولكن المهم أن القيود التي فرضها الإسلام، منظور فيها لمصلحة الفرد ذاته أولاً وقبل كل شيء... وأن الإسلام، أو أي نظام آخر على الأرض، لو أطلق الإنسان من عقاله لعاد ذلك عليه بأبلغ الضرر في القريب أو البعيد.

وإذا كان حاضر أوربا وأمريكا يخفي هذه الحقيقة ببريقه الخاطف، فليعلم المخدوعون بهذا البريق أن عقلاء الأوربيين والأمريكان أنفسهم ينادون بمثل ما ننادي به. وليعلموا كذلك أن الخطر إذا استتر حيناً، فهو موجود على أي حال، ولا بد أن يؤتي ثماره البغيضة ذات يوم. بل هو قد آتى بعض هذه الثمار فعلاً في فرنسا التي هوت على ركبتيها عند أول ضربة من الألمان، خاضعة ذليلة تستجدي الظافرين. وآتى ثماره كذلك في نشوب حربين عالميتين في ربع قرن، والثالثة على الأبواب تنذر بهلاك العالم كله. وغير هذا وذلك تلك الأمراض النفسية والاضطرابات العصبية والجنسية، وحالات ارتفاع ضغط الدم.. الخ التي تنتشر في أمريكا ذاتها، بلد الحرية والانطلاق، والمثل الأعلى أمام المخدوعين والمغفلين![1]

إن الإنسان ليتميز عن الحيوان بالحرية التي منحها الله له في التفكير والتنفيذ.

فالحيوان مقيد بحدود غريزته. هي التي تفرض عليه حركاته وسكناته، وهي التي تعين له نواحي نشاطه؛ وأهم من ذلك أنها تعين له مدى الاستجابة لحاجات الجسد.

فهو يأكل بدافع الغريزة حين يجوع، وينتقى ألواناً معينة من الغذاء بدافع الغريزة كذلك، لا اختيار له ولا إرادة. ثم هو يكف عن الطعام حين تقرر له غريزته حد الاكتفاء. وهدف الغريزة من تقرير هذا الحد، هو منع الضرر عن الحيوان لو أسرف في الطعام عن الحد الذي يتناسب مع طاقة هضمه وتمثيله. ويظل هذا الحد غريزياً ما دام الحيوان على طبيعته وفطرته. فإذا استؤنس، وصار يعتمد على الإنسان في الحصول على طعامه، فقد يضل أحياناً عن هدي الغيزة، فيلزم حينئذ أن يتولى راعيه تحديد القدر الذي يؤدي الغرض، ولا يعود بالضرر على الحيوان.

([1]) حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (1952) بل حتى الثالثة (حوالي 1960) لم تكن علامات التفسخ والانهيار في الحضارة الغربية قد بدت واضحة كما هي اليوم. ولكنها اليوم أوضح من أن يجادل فيها المجادلون، بعد أن اعترف بفسادها أصحابها الأصليون!

والغريزة —في بعض الحيوانات– تقوم بكسوة الحيوان عند البرد، ونزع هذه الكسوة عند ظهور الحر، دون أن يكون له إرادة في ذلك، ودون أن يملك تأخيره عن موعده أو تقديمه.

أماا لنشاط الجنسي فله عند الحيوان مواسم معينة يهيج فيها الذكر والأنثى للقاح والإخصاب. فإذا انتهى الموسم امتنعت الأنثى على الذكر، وكف الذكر بدوره عن المحاولة.

وبهذا تضمن الغريزة ألا يستهلك من النشاط الحيوي للحيوان قدر أكثر مما تحتمله طبيعته، فيفسد جسده ويتحلل، ويضيع على الحياة فرد من أفرادها قبل الأوان الطبيعي لاستهلاكه!.

أما الإنسان فقد كرمه خالقه فنزع عنه قيد الغريزة، على الأقل في طريقة التنفيذ ومداه. فإلا يكن الإنسان حراً في الدوافع المفروضة عليه من الداخل، فهو حر في الطريقة التي يستجيب بها لتلك الدوافع، والمدى الذي يذهب إليه حين يستجيب.

فماذا يحدث لو استغل الإنسان هذه الحرية إلى أقصى المدى، ولم يقم لنفسه الحدود التي تقف عند حد الاكتفاء المعقول؟

يظن بعذ البسطاء أن هذا أدعى إلى زيادة المتعة، وإلى الشعور بالسعادة والامتفاء. ولكن الأمر في هذا ليس متروكاً للنظريات؛ فالواقع التجريبي يحسم الجدل، ويوفر علينا النقاش.

ولنبدأ بالطعام، فقد يكون الحديث فيه أقرب إلى الفهم والتصديق. فبعض الناس يسرف في الطعام عن الحد الذي تتطلبه حاجة الجسد من بروتينات وفيتامينات وأملاح وعناصر أخرى، ويخيل إليهم في بادئ الأمر أنهم يستمتعون بهذه الزيادة، وينالون من اللذة أكثر مما ينال الفرد الطبيعي، الذي يقنع بالقدر المعقول من الطعام.

ولكن الأيام تمر، فإذا هذا الأكول يزداد نهماً كل يوم، ويصل إلى درجة لا يشبع فيها أبداً مهما قدم إليه من الطعام. ويصبح كما تقول العامة "فجعان!!".

كيف حدث ذلك؟ إن معدته وأمعاءه قد اتسعت عن الحجم الطبيعي، فلم تعد تكتفي بالقدر المعتاد، وأصبح لا بد لملئها من كميات ضخمة هائلة. وما تكاد تمتلئ حتى تعود إلى الفراغ وطلب الطعام من جديد. وهكذا يفقد هذا النهم لذة الاكتفاء والامتلاء، التي يشعر بها الشخص السوي، ويظل عمرَهُ معلقاً لا تطيب له الحياة.

وأكثر من ذلك أن شهوة الطعام تستعبده فلا يعود بيده أن يأكل أو يمتنع. وإنما هو أبداً مشدود إلى هذه الشهوة، يتبعها حيث تقوده ولا يملك حريته معها. فكيانه كله، وتفكيره ونشاطه، محدود بهذا الموضوع الواحد لا يتعداه. وتنحصر رغباته في أكلة شهية، فإذا كان غنياً أنفق فيها أمواله. وإن كان فقيراً تدنأ على موائد الأغنياء! فأية حقارة إذن تلك التي تهبط بالإنسان إلى هذا الدرك فتحرمه إنسانيته، وتقعد به عن الارتفاع إلى حيث ينبغي للبشر أن يرتفعوا، بأفكارهم وأرواحهم، إلى آفاق أخرى أوسع من الطعام والشراب؟ وكيف تصير الحياة التي يكون أفرادها مشغولين أبداً بلقمة الطعام؟ متى ترتقي؟ وأنى لها أن تصل إلى المشاعر والأفكار والمخترعات التي تعود بالخير على الجميع؟

من أجل هذا إذن يقول الإسلام: "وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ". فيبيح المبدأ، ويضع القيود في التنفيذ، القيود التي تهدف أولاً إلى سلامة الفرد، ثم إلى رفعته واارتقائه.

والجسم مثلاً في حاجة إلى الراحة، لأنه بغيرها تصبح الحياة عذاباً لا يطاق. والإسلام يلحظ ذلك، فيقول النبي الكريم: "إن لبدنك عليك حقاً".

ولكن الإسراف في الراحة، الذي يُظن في بادئ الأمر أنه أدعى إلى زيادة الاستمتاع، يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى الكسل والاسترخاء. والكسل ليس متعة. لأن الكسول يشعر "بالعجز" عن الحركة والنشاط. بل يصير النشاط أمنية عزيزة المنال، لأن "ميكانيكية" الجسم تتأثر كلها بهذا الإسراف في الراحة فتكسل عن أداء عملها، فلا تفرز الغدد إفرازاتها بالقدر المطلوب، وتقعد الأعضاء التي تطرد الفضلات عن نشاطها، فتتراكم السموم وتؤدي إلى الفتور والخمول.

وهكذا تنقلب المتعة المرجوة إلى مرض وعذاب. ويحتاج الكسول المترف إلى منشطات غير عادية تنهك ماله وصحته، لكي يستمتع بقدر معقول من النشاط، كان يستطيع أن يناله في هدوء ويسر لو وقف عند حد معقول.

فحين يحرّم الإسلام الترف، ويصوره في صورة بغيضة منكرة، يكون من أهدافه سلامة الفرد ذاته، والاحتفاظ به في حالة سوية تهيئ له الاستمتاع بقسط معقول من متعة الحياة.

ونحسب أن هذا الكلام من البديهيات التي لا تحتاج إلى جدال في الشرق ولا في الغرب. وإنما يدور الجدل الأكبر حول المسألة الجنسية. فيرى الغربيون وعبيدهم في الشرق، أنه ينبغي أن تطلق للفرد حريته كاملة فيها، لكي يفرغ من ضغطها الدائم على أعصابه،

ويخصص جهده لما ينفع، بدلاً من أن يضيع هذا الجهد في مجاهدة دفعة الغريزة، وفساد الأعصاي نتيجة لذلك الجهاد.

وتلك مسألة نرى من أهميتها ما يجعلها جديرة بفصل مستقل نبحثها فيه من أطرافها جميعاً. ولكنا نستطيع هنا ونحن نبسط النظرة العامة للإسلام أن نقول: إن شأن المسألة الجنسية في هذا الصدد، هو شأن كل شهوة أخرى من شهوات الجسد أو النفس، قد يظن قصار النظر أن إباحتها وفتح الباب أمامها على مصراعيه، حريّ بأن يقلل من ضغطها الملح أو يقضي عليه. ولكن الواقع يكذب ذلك. فأقدر الناس على الانصراف عنها بأفكارهم والابتعاد عن إغرائها العنيف –لفترة من الوقت– ليسوا هم الغارقين فيها لأذقانهم، ولا "المستمتعين" بلذائذها المتاحة في كل حين! صحيح أن المحرومين هم كذلك عاجزون عن الانصراف عنها والابتعاد عن إغرائها. ولكن المهم أن المسرفين فيها ليسوا أقل منهم عجزاً، بل ربما كانوا أكثر. لأن هذه الشهوة، كبقية الشهوات، لا تشبع بزيادة ما يقدم لها من وسائل الإشباع، بل تزداد اشتعالاً ونهماً، حتى تصبح عذاباً لا يهدأ ولا يترك صاحبه في راحة، فلا هو يشعر بالاستمتاع الحقيقي، ولا جسده يحتمل الجهد الدائم، الذي يستلزمه طلب الإرواء المستمر، لظمأ كافر لا يرحم!

بل إن هذه الشهوة –لعنفها وتعمقها وشمولها لكثير من نواحي النشاط– أخطر من كل شهوة أخرى حين يباح لها التفريغ الدائم، الذي يؤدي بدوره إلى الظمأ الدائم، لأن استعبادها للإنسان في هذه الحالة يكون أعنف وأشد. وهي كفيلة بأن تفسد عليه عقله وتذهب بصوابه، وتجعله عرضة للهبوط والانحلال، حتى يصبح في النهاية جسداً ينزو كالبهيمة، لا يرتفع بفكره ولا بروحه عن مستوى الحيوان، فضلاً على أنه حيوان هائج على الدوام.

فحين يضع الإسلام الحدود للشهوة الجنسية، بعد أن يعترف بها من حيث المبدأ، لا يصنع ذلك تحكماً واعتباطاً. وإنما يهدف قبل كل شيء إلى حفظ كيان الفرد، وإلى مصلحته الخاصة.

وهو لا يسير على هذه القاعدة العامة في شهوات الجسد فحسب، بل يتبعها كذلك في الشهوات النفسية: كشهوة المال. أو "التملك" بصفة عامة.

فقد بينا من قبل أنه يبيحها ويعترف بها من حيث المبدأ، ومن حيث إنها شعور في النفس لا ينبغي كبته ولا مطاردة الإحساس به، كما تصنع بعض المذاهب الاجتماعية الحديثة.

ولكن إباحته على إطلاقه تنقلب به إلى شهوة جامحة مقعدة مقيمة. وكلنا نعرف حالة "جامع المال" الذي يقضي حياته كلها في جمعه، ويحتمل في ذلك عذاب الهون، وقد يذل نفسه للحصول عليه كما يقول الشاعر: "أذل الحرص أعناق الرجال". ولا يستمتع به بعد ذلك كله. لأن جمعه يصبح غاية في ذاته، لا وسيلة لغاية أخرى أرفع وأنبل. وهكذا تنقلب اللذة الأولى الناجمة من الاستكثار من المال، شغلاً دائماً للبال، وقلقاً للأفكار، وجشعاً لا يرتوي، بل يزداد حدة كلما ازداد المال كثرة!

ويحضرني هنا قول معبّر لأحد السكيرين إذ يقول: "إنني حين أشرب الكأس الأولى، أصبح شخصاً جديداً يحتاج إلى كأس ثانية!" وهو شديد الانطباق على الشهوات جميعاً وشهوة المال خاصة. فإن الذي يملك مليوناً من الجنيهات يصبح شخصاً جديداً يحتاج إلى مليون آخر، وهكذا!

فحين يحرم الإسلام الكنز ويقول القرآن في ذلك: "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"...

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من جمع ديناراً أو درهماً أو تبراً أو فضة ولا يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة"....

يكون هدفه الاحتفاظ بالفطرة السليمة للفرد، وحمايته من نفسه، ومن العذاب الذي يقع فيه لو ترك بلا قيود ولا حدود.

* * *

نخرج من هذا الاستعراض بفكرة مؤكدة لا تمحل فيها ولا ادعاء: هي أن القيود التي يفرضها الإسلام على شهوات الفرد –بعد أن يحتاط من كبتها في اللاشعور– هي قيود منظور فيها لمصلحة الفرد كفرد، وليست مفروضة عليه لشهوة التحكم والاستعباد!

ولكنها في الوقت ذاته مفروضة عليه أيضاً لصالحه جين يجتمع بغيره من الأفراد في هيئة مجتمع. وقد أشرت إشارة عابرة من قبل –سأعود إليها في بحث مفصل– إلى أن المجتمع حاجة نفسية للفرد لا يستطيع الاستغناء عنها ولا الحياة بدونها. فلو أن قيوداً فرضت على الفرد لصالح المجتمع وحده، لما كان في ذلك افتئات على كيان الفرد، لأن هذا المجتمع جزء من كيانه في الواقع. ولكن الذي أريد أن أؤكده بالنسبة إلى الإسلام، أن القيود التي يفرضها على الفرد لصالح المجتمع، هي ذاتها القيود التي فرضها عليه من قبل للمحافظة على كيانه

ومصلحته الفردية. فلا تعارض في الإسلام بين مصلحة الفرد –كشخصية مستقلة– ومصلحته وهو جزء من المجتمع الكبير. وكل قيد يُفرض هو قيد ذو شعبتين تعملان معا وفي آن واحد: إحداهما لمصلحة الفرد، والأخرى لمصلحة المجتمع. وكل حرية تباح هي كذلك حرية ذات هدفين في آن واحد: أحدهما لصالح الفرد، والآخر لصالح المجتمع.

ونضرب لذلك الأمثلة...

إن منع الإسراف في الطعام والشراب هدف اجتماعي: لأن ذلك الإسراف يخل بتوازن المجتمع إخلالاً يؤدي إلى الفوضى والاضطراب، إذ يجعل بعض الأفراد يستهلكون أكثر مما ينبغي لهم، فيترتب على ذلك حتماً أن يوجد أفراد لا يجدون القدر اللازم لهم من الطعام. وينشأ من ذلك تغير القلوب، وتغلغل الحقد في نفوس المحرومين. وهذا بدوره يؤدي إلى ثورتهم على الواجدين المترفين. فيضطرب سير الأمور، ويتحول نشاط البشرية من الخير المرجو إلى الشر الكريه.

ذلك صحيح. فالمنع مقصود به مصلحة مجموع الأفراد، وهو يقضي بأخذ الزائد من الواجدين وإعطائه للمحرومين. ولكنه في ذات الوقت ضروري لمصلحة أولئك الأفراد المسرفين كما بينا من قبل.

وشهوة المال أقرب شيء إلى شهوة الطعام والشراب. والعامل الاجتماعي واضح فيها إلى درجة لا تحتاج إلى بيان. فهي في الواقع سبب كل اضطراب في المجتمع حين تترك بلا حدود. والفرد الذي تتملكه شهوة المال يؤذي المجتمع –أي بقية الأفراد– إيذاء شديداً لا يقف عند حد، ويجرم في حقهم جريمة لا تغفرها الأرض ولا السماء. ذلك لأنه بأنانيته المفرطة –وهو فرد– يحرم المئات والألوف من حق الحياة الإنسانية النظيفة حساً ومعنى. لأن الفقر لا يقف ضرره عند حرمان الجسد مطالبه الرئيسية، من طعام وشراب وملبس ومسكن محترم، بل يتعدى ذلك إلى إفساد مشاعر الفقير وأفكاره، والهبوط بها عما ينبغي للإنسانية أن تهدف إليه. فهو إما أن يستذل للأغنياء ويفنى فيهم لإرضاء شهواتهم الداعرة، كما يصنع القوادون والبغايا للحصول على لقمة العيش.. وإما أن يحقد عليهم، والحقد شعور غير نظيف من الوجهة الإنسانية، فضلاً عما ينجم عنه من اضطرابات خطيرة في المجتمع، لا تصيب الذين ظلموا منه خاصة.

هذا صحيح، بل هو من القوة والوضوح بحيث يغري بالظن بأن القيود التي فرضت على شهوة المال لم يقصد بها إلا مصلحة المجتمع، على حساب الفرد. ولكن الواقع أن هذه القيود، تمشياً مع نظرة الإسلام العامة، قد قصد بها كذلك وفي ذات الوقت، مصلحة الفرد

الخاصة —لا لإنقاذه من نفسه، ومن الجوع الدائم إلى المال فحسب— بل لإنقاذه أيضاً من ثورة المحرومين عليه حين يثورون فيحرمونه مما يملك، وقد يحرمونه حياته ذاتها، كما يحدث في الاضطرابات العامة. وهكذا تتحد مصلحة الفرد والمجتمع في تشريع واحد.

والحديث عن شهوة الترف يتمشى مع الحديث السابق، لأن الترف من جانب يقابله الحرمان من جانب آخر، فيختل بذلك استقرار المجتمع. يضاف إلى هذا أن مجتمع الكسالى لا يرتقي أبداً، ولا يأخذ بأسباب القوة التي لا غنى عنها لكي يحتفظ بكيانه، فيتعرض بذلك لخطر الغزو والاستعباد من المجتمعات الأخرى المحتفظة بقوتها ونشاطها.

فالقيد المفروض على شهوة الترف قد فرض لصالح المجتمع، ولكنه —كما بينا من قبل— مفروض لمصلحة الفرد ذاته في عين الوقت.

أما الشهوة الجنسية، فالجانب الاجتماعي منها واضح كذلك، فلن ينتج من الفوضى الجنسية إلا اختلاط الأنساب وتفكك الأسرة واضطراب عواطف الناس. وأهم من ذلك أن الفرد الذي يستغرق في شهواته فرد أناني لا يصيخ لصيحة المجتمع، ولا يشعر بوازع يدفعه إلى التنازل عن بعض لذائذه المستولية عليه، لصالح المجتمع أو الدولة. وقد كانت هذه الأنانية الصارخة هي التي أضعفت فرنسا وفتت في عضدها، بل نخرت في كيانها كالسوس. فما إن واجهت أول ضربة من الألمان حتى خرّت ذليلة تستجدي الفاتحين، وتستعطفهم على عمائر باريس ومراقصها ومواخيرها أن تحطمها قنابل الطائرات!!

فالحدود المقامة على الشهوة الجنسية قد روعي فيها صالح المجتمع بلا جدال. ولكن صالح المجتمع لم يكن وحده المقصود. بل كان مقصوداً كذلك إنقاذ الفرد ذاته من حياة العذاب وعدم الاستقرار.

* * *

من هذه الأمثلة ندرك الطبيعة المزدوجة للحدود التي يقيمها الإسلام على شهوات الجسم والنفس. وندرك أن الإسلام لم يفرضها تحكماً ولا اعتباطاً.

ويتولى الإسلام صيانة هذه الحدود بالتشريع، أي بسن القوانين التي تكفل عدم الاعتداء، والتي تتيح لكل فرد أن يعمل، ويستمتع، ويوجه نشاطه الحيوي في كل وجهة ممكنة، بحيث لا يؤذي في أثناء ذلك كله أحداً غيره من الأحياء، ولا يضيق على هذا الغير فرصة الاستمتاع بالحياة.

ولكن للقوانين في الإسلام مزايا ليست لغيرها في النظم الأخرى، التي تنبع من الأرض ولا تتصل بالسماء، والتي تعمل لحساب طبقة دون طبقة، أو لفرد دون أفراد.

أول هذه المزايا هو ما ذكرناه من قبل، من أن كل حد من حدود الإسلام قد فُرض لصالح الفرد كشخصية مستقلة، ولصالحه كذلك وهو عضو في الجماعة مع غيره من الأفراد.

وحين يحس الفرد أن هذا هو الهدف المقصود من وراء القيد المفروض، وأنه إذ يقف في طريق بعض شهواته لكيلا يؤذي غيره من الأفراد، يحميه كذلك في نفس الوقت من شهوات غيره أن تمتد إليه بالإيذاء. بل يحميه من شهوات نفسه أن تقوده إلى الدمار والفناء.

حين يحس بهذا لا تضطغن نفسه على هذه القوانين، ولا يتمنى زوالها، ولا يعمل على الانتقاض عليها (إلا في الحالات الشاذة دون شك، وسنتكلم عن هذا بالتفصيل في فصل الجريمة والعقاب) ولا تكون العلاقة بينه وبين المجتمع هي علاقة الكراهية العنيفة التي يصورها فرويد وغيره من علماء النفس التحليليين، لأن المجتمع في هذه الحال لن يكون الغول المفترس الذي يتربص بالفرد ليسحقه ويحطم كيانه، وإنما هو الصديق الحازم الذي يحجز بين الأفراد المتخاصمين، ويصلح بينهم، ثم يدعوهم إلى التعاون فيما بينهم بدون احتكاك.

والمزية الأخرى أن القوانين الأرضية لم تنج إلى هذه اللحظة من أن تكون تغليباً لمصلحة طبقة على طبقة، أو فرد على أفراد. تستوي في ذلك كل النظم المعروفة على ظهر الأرض. ويكفي أن نستمع لطعن الشيوعيين في النظام الرأسمالي، وطعن الرأسماليين في النظام الشيوعي، وطعن الديمقراطيات في النظام الدكتاتوري، والدكتاتوريات في النظام الديمقراطي.. لنعرف أن كل نظام من هؤلاء قد راعى فرداً أو طائفة على حساب بقية الأفراد والطوائف، وأن الذي يَغْلِبُ على أمره في هذه الدول والشعوب يصوغ القوانين لصالحه هو، لينال أكبر قسط من الحرية والاستمتاع على حساب الآخرين.

والأسماء الطنانة كالحرية والإخاء والمساواة، أو الخبز والعمل للجميع، أو الجميع أمام القانون سواء.. الخ، لا تستطيع أن تخفي الحقيقة، وهي أن القوانين تطبق بطريقة تضمن صوالح الغالبين، ولا تعنيها كثيراً صوالح المغلوبين، حتى في أكثر الأمم عدالة وحرية. فالقانون في انجلترا مثلاً –وهي في نظر بعض الناس مثل أعلى في الديمقراطية– يحمي مصالح النظام الرأسمالي ضد العمال، مهما يكن الصراع خفياً بين الطبقتين في الوقت الحاضر. وهو في أمريكا أوضح في ذلك وأصرح. أما روسيا فهي تصرح بأن حركتها كانت قائمة على تسويد طبقة العمال و"سحق" طبقة الملاك!

وما دام القانون ينبع من الأرض فهو دائماً عرضة لتقلبات الحال بين الغالبين والمغلوبين في الأمة الواحدة، وفي المجتمع العالمي كله. ويصدق عليه دائماً ما يقوله الغربيون "الواقعيون" ويعممونه خطأ على كل النظم بما فيها الإسلام، من أن القوانين تضعها الطبقة الأقوى لحماية مصالحها.

أما النظام الإسلامي فلم تضعه هيئة تشريعية على الأرض. وإنما هو من وحي السماء. ولا مصلحة للسماء في تغليب طبقة على طبقة ولا فرد على أفراد، لأن هؤلاء وأولئك جميعاً عباد الله، وهم سواء من حيث منشؤهم، ومن حيث مآلهم الأخير؛ من قدرة الله خلقوا، وإلى الله يعودون في النهاية فيحاسبهم جميعاً بميزان واحد، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

والشريعة الإسلامية نظام يطبق على الجميع، لصالح الجميع، ولا يجامل أحداً على حساب أحد: الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، الشريف والعبد، كلهم أمام القانون سواء.

وليس هذا كلاماً يطلق في الهواء.. وإنما هو واقع تاريخي مشهود. يقول القرآن: "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أفسد من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها". وعمر يجلد ابنه على الخمر، لا يمنعه عن ذلك أنه ولده، ولا أنه شريف من قريش...

فإذا كان هذا لم يستمر، وجاءت ظروف أفسدت تطبيقه، فكل نظام عرضة لمثل ذلك، ولا يحسب هذا على الإسلام على أية حال. فنحن هنا نتحدث عنه من حيث هو مباجئ نظرية أولاً، ثم من حيث هو مبادئ قابلة للتطبيق العملي. وفي كلتا الحالتين نجد الشواهد في صف ما نذهب إليه من أنه نظام متفرد بمزايا لا توجد مجتمعة في أي نظام آخر على ظهر الأرض. وإن ما أمكن تطبيقه في زمن أبي بكر وعمر، وعلي، وعمر بن عبد العزيز، ليصلح للتطبيق دائماً حين تتهيأ لذلك الظروف. وليس مبحثنا هنا عن الظروف السياسية التي تمكن لحكم الإسلام. وإنما نبحث في الإسلام من الوجهة النفسية. فكل ما يهمنا إذن أن هذا النظام الممتاز من الناحية النفسية يمكن تطبيقه عملياً حين يراد ذلك...

فإذا طبق، كما حدث مرة في التاريخ، وكما يمكن أن يحدث مرة أخرى، يشعر الفرد المسلم أن الشريعة المنزلة من السماء، لا تظلمه لصالح فرد آخر، ولا تحابي فرداً آخر على حسابه. ويشعر كذلك أنه ليس الحاكم فقط هو الموكل بتنفيذها –ضده هو إذا أخطأ– وإنما كل فرد مطالب بتنفيذها على الآخرين بما فيهم هذا الحاكم، كما ينفذها على نفسه سواء بسواء، تحقيقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"

وقوله: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان" وقوله: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر".

عندما يثق بهذه العدالة المطلقة التي تشمل الحاكم والمحكوم وتخضعهم جميعاً لقانون واحد صادر من الله، يحب هذه الشريعة، ويدافع عنها ولا ينتقض عليها.

* * *

على أن الإسلام –مع ذلك– لا يكل للقوانين وحدها أمر تنظيم المجتمع.

إن القوانين تكفل الحد الأدنى من التنظيم، الذي تصبح الحياة بدونه مستحيلة، أو تصبح فوضى لا قرار لها ولا كيان.

والحياة في نظر الإسلام لا ينبغي أن تقف عند هذا الحد الأدنى. ففي البشرية رغبة دائمة في التطور والتقدم، في اقتحام ميادين جديدة من المعرفة، والوصول إلى مدارج جديدة من السمو والارتفاع. ولا يتحقق للبشرية أن تتقدم وترتفع إذا هي ظلت عند الحد الأدنى لا تتعداه.

وكما أن الإسلام قد راعى الفطرة الإنسانية فلم يكبت نوازع الجسد وشهواته، ولم يحرم على الإنسان أن يحس بتلك النوازع ويسايرها بعض المسايرة..

فهو كذلك يراعي الفطرة الإنسانية ورغبتها الدائمة في النهوض والارتفاع، فيهيء لها ما يعاونها على ذلك الهدف النبيل، وبذلك يحقق للإنسان شطري حياته، ويوازن بينهما، بل يمزج بينهما حتى ليصبحان أمراً واحداً في النهاية، يتحقق به هذا الهدف وذاك.

والمثال دائماً أوضح...

حين تستولي على الإنسان شهوة الطعام والشراب، فيسرف فيهما ولا يقف عند الحد المعقول، يعود عليه ذلك بالضرر، فلا يتحقق هدف الحياة الأول من حفظ الحياة في كيان هذا الفرد، لأن الإسراف يعطب أعضاءه، ويبدد نشاطه، ويضيع عليه في ذات الوقت كل فرصة للسمو والارتفاع –وهو هدف من أهداف الحياة الأصيلة– لأن كل تفكيره ومشاعره تنحصر في هذا الميدان المغلق الحقير.

وذلك كله يحدث لأن الفرد قد نسي أهداف حياته، أو اعتقد أن لذة الطعام هدف في ذاتها، وليست وسيلة لغاية أخرى أنبل وأرفع.

لذلك يتعين على كل نظام صحيح أن يعيد تذكير هذا الفرد المنحرف بتلك الأهداف العليا، فيذكره بأنه يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل!

فإذا صنع ذلك حقق هدفين في آن واحد: الأول أن يهيئ للجسم القدر اللازم له من الطعام —القدر الذي يحقق حفظ الذات، ويحفظها سليمة من العطب– والثاني ألا تستعبده شهوة الطعام، فيستطيع أن ينطلق في مدارج الرقي، بفكره وروحه، ويشارك بقدر ما ينطلق من نشاطه، وبحسب نوع هذا النشاط، في ترقية الإنسانية عامة، تحقيقاً لهدف الحياة من التطور المستمر.

وحين يترك الإنسان نفسه لشهوة الجنس، فتستعبده، وتشغل باله، وتنهك قواه، يكون أولاً قد أضر بنفسه، ويكون ثانياً قد قعد عن تحقيق الهدف الأسمى والأهم.

وهو يصنع ذلك لأنه نسي أن شهوة الجنس قد ركبت في جسده لهدف أكبر منه في ذاته: هو استمرار النوع على ظهر الأرض، وأن الإلحاح الذي تتصف به هذه الشهوة قد قصد به أن يفرض هذا الهدف نفسه فرضاً على حياة الفرد، حتى لا تشغله المشاغل أو الرغبات الأخرى عن تحقيق غاية لا تستمر بدونها الحياة.

فيجب إذن أن نذكر هذا الفرد المنحرف بأن لشهوة الجنس غاية هي النسل، وأنها ليست غاية في ذاتها. فإذ صنعنا ذلك حققنا هدفين في ذات الوقت: الأول أن نحتفظ بجسم هذا الفرد لأطول مدة ممكنة، سليماً قادراً على النسل، لحفظ النوع على الأرض. والآخر أن نطلق جزءاً من تلك الشحنة الضخمة، فنستغلها في تحقيق غاية الحياة الأخرى من السمو والارتفاع: شحنة جسد وفكر وروح، يكون من الخسارة ولا شك أن نبددها في ميدان ضيق صغير.

وحين ينطلق فرد مع شهوة المال أو الملك إلى آخر المدى، يعذب نفسه بظمأ لا يرتوي ولا يقنع مهما تحصل لديه من المال. وتنحسر نفسه في الوقت ذاته عن طلب الرفعة والسمو، لأن شعور ألأنانية شعور بغيض مضاد لدفعة الحياة المشرقة المتسامية.

وهو يفعل ذلك لأن شهوته تخيل له أن المال هدف في ذاته، وليس وسيلة للإنفاق؛ وللإنفاق فيما يعود بالخير على أكبر عدد من أفراد الإنسانية.

فعلى النظام الذي ينوط نفسه بإصلاح هذا الفرد المنحرف أن يذكره بتلك الأهداف العليا، فيحقق بذلك أولاً قدراً من القناعة والهدوء النفسي لهذا الفرد ذاته، ويحول نشاطه في ذات الوقت لرفعة الإنسانية كلها، تحقيقاً لنزعتها في السمو والارتفاع.

وهكذا في كل أمر من أمور الحياة.

والوسيلة التي يتبعها الإسلام في كل هذه الحالات هي إقامة الأهداف العليا أمام البشرية، وتذكير الناس بها كلما انحرفوا عنها، أو هبطت بهم شهوات الجسد عن التوجه إليها بأفكارهم وأرواحهم جميعاً.

ومهمة "الأخلاق" هي هذا التذكير الدائم بالأهداف العليا للحياة. تذكير الإنسان بأنه لا يعيش وحده في هذا الكون، وإنما يعيش معه فيه أفراد آخرون، لهم مثل ماله من الحقوق، وعليهم مثل ما عليه من الواجبات. وتذكيره بأن شهوات جسده وسيلة لغايات أخرى هي حفظ الذات وحفظ النوع، فينبغي دائماً أن نعمل على تحقيق تلك الغايات. وتذكيره أخيراً بأن الانسياق مع الشهوات يغشى روحه بظلام يتراكم بعضه على بعض، حتى يخفي الجانب المشرق من الفطرة الإنسانية، ذلك الجانب الذي ينزع بطبعه إلى التطور والارتفاع، فينبغي أن يجلو هذا الظلام لتتكشف له طبيعته على حقيقتها، ويؤمن بعظمته القادرة على ما يشبه المعجزات، حين يوجه نشاطه التوجيه الصحيح.

والإسلام يهتم اهتماماً بالغاً بالأخلاق، لأنها هي مناط "النظافة" الداخلية، وهي القديرة على توجيه الإنسان إلى ما يصلح به حاله فرداً وعضواً في جماعة، بطريقة ذاتية تشبه أن تكون لا شعورية، وإن كانت دائماً "تحت طلب" القوة الواعية في الإنسان، إذا اقتضى الأمر أن يناقشها بوعيه، ويتعرف على حكمتها.

وهو يعنى ببذر بذور الأخلاق في نفس الطفل وهو وليد، لأن ذلك أحرى أن يجعلها مكينة الأساس قوية البنيان. ثم يكل إليها بعد ذلك التنظيم الحقيقي لنشاط الفرد في المجتمع، ولا يعتمد على القوانين إلا في الحالات التي تخفق فيها الأخلاق عن أداء مهمتها، والتي تهبط فيها فطرة الفرد رغم كل التوجيه والتهذيب.

وقد قيل كلام كثير ضد الأخلاق.

قيل إنها لا تتمشى مع الطبيعة البشرية، وإنها مفروضة عليها فرضاً من قوة خارجية مسيطرة ذات سلطان. وقيل: إنها كوابت تمنع النشاط الإنساني من الانطلاق، وتمنع الفرد

من التمتع بحريته، فضلاً عما تصيبه به من الضرر الذي يتمثل في الأمراض النفسية والاضطرابات العصبية. وقيل: إنها بقايا من العهود الغابرة! وإنها كانت شديدة قاسية لدى المتوحشين، نابعة من عنف مشاعر أولئك المتوحشين وشدة رغبتهم في الشر (!) وإنه كلما تقدمت الإنسانية في سبيل التطور خفت قيود تلك الأخلاق وانحلت عقدها؛ ويستتبع إيحاء تلك النظرية أن تنزع الإنسانية عنها ما بقي في عنقها من نير تلك الأخلاق، لتتحرر نهائياً من عقابيل "الوحشية" الغابرة! ولتصير متحضرة!

وليس هذا تجنياً منا على السادة "العلماء" الذين يقولون ذلك. فهذا فرويد يقول بصراحة في كتابه "The ego and the id" ص80: "إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجته الطبيعية العادية"! وذلك بعد أن يقرر أن الاضطرابات النفسية والعصبية تنشأ من تناول جرعة كبيرة من هذه المادة السامة الخطرة التي تسمى الأخلاق! ويقول في كتاب "Three Contributions to the Sexual Theory" ص62: "وهكذا يحصل الإنسان على قوة "نفسية" كبيرة من استعداد نفسي هو في ذاته خطير"! وكتابه "Totem and Taboo" كله تشنيع على الأخلاق في منشئها الأول، وتصوير لها بأنها نابعة من "أقذر" المشاعر البشرية وأشدها ميلاً إلى العدوان. وإن كان – والحق يقال- لا يشاركنا النظر إلى تلك المشاعر على أنها قذرة أو شريرة، فإنها الطبيعة البشرية هكذا؛ ولا يجوز أن ينظر إليها على أنها –في ذاته- خيرة أو شريرة. لأن الإنسان غير أخلاقي بطبعه!

وليس فرويد وحده هو الذي يقول ذلك، فكثير غيره من علماء النفس والاجتماع الغربيين يقولون هذا السخف على أنه وقائع مقررة، ولا يستحون من أنفسهم وهم يهدرون كرامة الإنسان ويهبطون به إلى الدرك الحيواني الأسفل.

وأولئك الذين يؤمنون بهذه الآراء –متأثرين بطبيعتهم المادية وبيئتهم الهابطة- يسوء ظنهم بالإنسانية إلى حد أنهم يستكثرون عليها شعوراً واحداً نظيفاً، أو رغبة واحدة في التطهر والارتفاع. ولكنهم مخطئون في بديهية لا يتطلب فهمها ولا تصديقها شيئاً من إعمال الفكر: فلولا أن الطبيعة البشرية في ذاتها قابلة للتهذيب لما أمكن تهذيبها، مهما كانت المحاولة المبذولة لذلك، ومهما كان عنف "السلطان" الذي يفرض هذا التهذيب.

بل إن بعض أنواع الحيوان ليمكن تهذيبه إلى حد يذهب بوحشيته الأصيلة، أو بكثير منها على الأقل. فكيف إذن ينكر المنكرون على الإنسان، وهو أرقى مخلوق على الأرض باعتراف الجميع، أن تتهذب طباعه، ويسمو إلى "الغيرية" وإلى "الإنسانية"؟

ولا عبرة بما يقوله فرويد من أن الأخلاق لا يمكن إلا أن تكون كبتاً لا شعورياً للنشاط الحيوي للإنسان؛ فإذا كان هذا يصدق على الهمج، وعلى الشواذ الذين قضى حياته معهم، أو على المجتمع المسيحي الأوربي الذي كان موكلاً بالتشنيع عليه لأي سبب من الأسباب، فليس الحال كذلك في الإسلام.

وقد بينا فيما سبق أن الإسلام يعترف من حيث المبدأ بحق الفرد في أن يشعر بشهواته. فهو منذ البدء لا يلجأ إلى الكبت البغيض. وإنما وسيلته لتقييد الاندفاع مع الشهوات عملية نفسية أخرى، قد تشترك مع الكبت في بعض مظاهرها، ولكنها في الواقع أبعد ما تكون عنه في طريقتها وأهدافها.

يلجأ الإسلام دائماً إلى عملية "الضبط" يكل إليها أن تحد من تيار الشهوة، وتقف بها عند الحد الذي يمنع الضرر عن كيان الفرد ذاته، وعن كيانه كعضو في المجتمع الإنساني في نفس الوقت. والفارق الأساسي الهائل بين الكبت والضبط أن الأول عملية لا شعورية ضارة خطيرة، أما الثاني فعملية واعية، موطنها الشعور، أو هي على الأقل تحت تصرف القوة الواعية في كل وقت. عملية الضبط لا تتعرض للشهوة في منبتها، وقبل أن تظهر في الشعور كما يصنع الكبت. لأن ذلك يحبس النشاط الحيوي عن منطلقه الطبيعي، ويضيع الجهد المذخور، المطلوب لذاته، لتحقيق بعض أهداف الحياة الأصيلة. وهي أهداف يحرص الإسلام على تحقيقها وعدم التعرض لها.

وإنما يتولى "الضبط" عمله بعد أن تخرج الشهوة من ظلمات اللاشعور إلى وضح الشعور. وتكون مهمته أن ينظم مساربها وينظفها ويتحكم في القدر الذي يُصَرّح به منها، واللحظة المناسبة "للتفريغ". بحيث يوازن بين المطالب المختلفة للفرد، أولاً بوصفه شخصية مستقلة، فيمنعه من الإسراف المضر، وكذلك بوصفه عضواً في الجماعة، فلا يصرح له بإيذاء غيره، حرصاً على المصلحة العامة التي تعود آخر الأمر على هذا الفرد ذاته بالخير العميم.

هذا الضبط الواعي، المنظم المتحكم، هو الرقيب اليقظ الذي يحاسب النفس على أعمالها ويوجهها إلى طريق الصلاح، أو إلى الصراط المستقيم كما يعبر القرآن. وكلما زادت درجة التهذيب زادت يقظة هذا الرقيب، وزاد إشرافه على ما يأتيه الإنسان من أعمال، بحيث لا يفر عمل واحد من رقابته، ولا يخرج إلى الوجود دون تصريح منه... ولكنه دائماً في وعيه، يحاسب النفس حسب لوائح معروفة، وأسبابها كذلك معروفة، فهي ليست طلاسم وألغازاً، وليست قرارات تحكمية قصد بها أن ترضي نزعة السلطان! وإنما هي دستور موضوع بحكمة وتدبير. وقد يقال: إنه ليس لفرد أن يناقش هذا الدستور، لأنه منزل من عند الله سبحانه، فلا يجوز التعرض لأحكامه ولا يحل تغييرها على أي حال. ولكن مزية الإسلام في

هذا الموضع بالذات، لأنه لم يفرض شيئاً من الحدود لمجرد شهوة الفرض. وإنما وضع حكمته من كل فرض يفرضه. وليس في وسع النظرة الموضوعية التي لا تتأثر بعاطفة ولا عقيدة، أن تنكر أن هذه التشريعات والحدود قد قصد بها مصلحة الإنسانية لا ضررها. فإذا كان الرقيب يحاسب النفس بموجب هذا الدستور المنزل، فإنما عن اقتناع شعوري واع بمعقوليته ومشروعيته[1].

وليس معنى هذا —من الوجهة النفسية أن الكبت ينتفي تماماً من النفس البشرية، فقد يكون هذا مستحيلاً، وقد يكون بعض الكبت خيراً. وفرويد ذاته يقرر أن قدراً معيناً من الكبن ينشأ بطريقة ذاتية ولا ضرر فيه. ولولا وجود الكبت لظل الإنسان في عذاب دائم من رغبات لا يمكن تحقيقها أصلاً، لا لأن المجتمع أو الدين أو الأخلاق تحول دونها، ولكن لأن الطاقة البشرية تقف دونها عاجزة، كالرغبة في الطيران في الجو كالطيور، والرغبة في السيطرة المطلقة على قوى الطبيعة! ورغبة بعض الأطفال في الحصول على القمر! ولعل كبت هذه الرغبات المستحيلة هو الذي يوجه النشاط العملي لمحاولة تحقيقها من طريق آخر، ويوجه الفن لتحقيقها في الخيال!

أجل ليس معنى هذا أن ينتفي الكبت على إطلاقه. وإنما معناه أن الرقيب يظل بيقظته الدائمة يعمل على إخراج "الممنوعات" من اللاشعور إلى دائرة الشعور، ومناقشتها وبيان أسبابها، وبذلك ينتفي الأثر الضار للكبت، وتضييق دائرته إلى أبعد الحدود.

وقد يقال: إن تربية الطفل تستلزم توجيه الأوامر والنواهي إليه باستمرار، دون أن يستطيع في طفولته إدراك الحكمة من هذا التوجيه، فلا مناص إذن من أن تهبط هذه التوجيهات إلى اللاشعور.

([1]) ينبغي أن نضيف هنا إلى ما سبق كتابته في الطبعات السابقة أن بعض التشريعات لا تذكر حكمتها في القرآن والسنة، أو يذكر في بيانها أنها فرضت "لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ" أو "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ". وأن طاعة الله واجبة دائماً سواء عرف الإنسان حكمة الأمر الرباني أو لم يعرفه. ولكن ينبغي هنا أن نجعل بالنا إلى أمرين: الأول أنه —مع وجوب الطاعة– فلا حظر على التفكير لمحاولة معرفة الحكمة من الأوامر الربانية، بل الاجتهاد في هذا مستحب. والثاني أن الإنسان المؤمن حين يطيع ربه فيما يتعبده به يحس أنه يطيع رباً كريماً يريد بالإنسان اليسر ولا يريد به العسر، ويحب له الخير، ولا يحب له الأذى في الدنيا ولا الآخرة: "مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ" [سورةا لنساء: 147] فيطيع عن رضا؛ ويطيع طمعاً في ثواب الله في الدنيا والآخرة: "فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ" [سورة آل عمران: 148].

وإطلاق القول على هذه الصورة غير صحيح، فالثابت من مشاهدات علم النفس أن الطفل على قدر من الوعي أعظم بكثير مما يظن أغلب الناس. وأن في إمكان المرابي —بحذقه ومهارته– أن يبين للطفل الحكمة في منعه من إتيان عمل من الأعمال بطريقة لا يتعذر فهمها على مداركه. وقد وصلت الطريقة الأمريكية في تربية الأطفال إلى درجة معجبة في هذا السبيل، تشهد بأن ذلك في الإمكان. وعلى أي حال، فإذا كان من المتعذر أن تكون كل الموانع واعية في زمن الطفولة، فالفرصة موجودة دائماً لرفعها إلى عالم الشعور الواعي فيما بعد، حين تنضج أفكار الطفل إلى حد يسمح لها بالاستيعاب. فإذا فرضنا جدلاً أن بعض الأطفال قد أصيبوا بشيء من الكبت المبكر، فإن الوعي الذي يبثه الإسلام في نفس المؤمن كفيل بإزالة أي أثر للكبت.

* * *

هذا الضبط الواعي إذن يختلف في طبيعته اختلافاً أساسياً عن الكبت اللاشعوري، وينجو من أضراره جميعاً لأنه يعترف بحق الشهوة في أن توجد، ولكنه "يعلق" تنفيذها العملي إلى اللحظة المناسبة. ولعل خير مثال له في الإسلام هو الصيام. فالصائم لا يحرم على نفسه الطعام والشراب من حيث المبدأ، وإنما هو "يعلق" أو يؤجل تنفيذ حقه فيهما إلى لحظة معينة. وكأنما يقوم بينه وبين نفسه هذا الحديث: "إنني ممتنع عن الطعام والشراب، ولكن هذا الامتناع ليس أبدياً، إنه موقوت بساعات، وبعدها أستمتع بكل ما هو محرم عليّ الآن. وقد امتنعت على وعي مني ومعرفة. إجابة لأمر صادر إليّ من أعلى. ولكني مقدر حكمة هذا الأمر وفائدته. وإن أحداً لا يمنعني لو أردت أن آكل أو أشرب. ولكني أنا أمنع نفسي، لأني أشعر بذلك أنني تفوقت على نفسي، فأفرح بهذه المقدرة وأكبر في نظر نفسي!".

ومثل هذا الحديث الذي ليس خيالاً كله، هو الذي يدفع الأطفال إلى التشبث بالصيام دون أن يكلفهم به أحد، وهو الذي يجعل عدد الصائمين —حتى في وقت الانحلال الديني– أكبر من عدد المصلين. على عكس ما كان ينتظر، نظراً لمشقة الصوم وسهولة الصلاة بالنسبة إليه. ويرجع ذلك إلى أن مغالبة النفس أوضح في الصوم منها في الصلاة. وهي —كما يشهد الواقع– عملية محببة حين يوجه إليها الإنسان.

وأحب أن أكون صريحاً صراحة الإسلام في معالجة النفس الإنسانية، فلا أزعم أن عملية الضبط تكون دائماً سهلة ميسرة؛ فما من شك أنها تكون أحياناً غاية في المشقة، وخاصة حين يطلب من الإنسان أن يتجرد من متاع الحياة الدنيا، لكي يجاهد في سبيل الله.

ولكني أذكر في ذلك حقيقتين هامتين: الأولى أن الضبط رياضة نفسية تشبه في كثير من وجوهها الرياضة البدنية، فكلتاهما قد تشق في بادئ الأمر، ولكن التعود عليها يقلل من مشقتها إلى حد كبير. وكلما بدأ الإنسان بها في وقت مبكر، كان أقدر على احتمال تكاليفها، وأحرى أن يصل فيها إلى درجة من التمكن والإبداع.

ولهذا يحرص الإسلام حرصاً شديداً على أن يبدأ التوجيه السليم من أول سنوات الطفولة، فيعوّد الطفل على ضبط رغباته —لا كبتها– منذ نعومة أظفاره.

والحقيقة الثانية أن تربية الإرادة بهذه الصورة عملية لا تخلو من لذة. وقد نصدّق هنا فرويد حين يقول: إن في النفس البشرية رغبة في تحمل الألم والالتذاذ به[1]. فليس الألم الذي يحدثه الضبط أحياناً غريباً على البشرية أو خارجاً عن طاقتها، وإنما هو على العكس من ذلك أمر مرغوب فيه.

* * *

والإرادة في الإسلام هي الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان. وهي مناط المسئولية ومحور الارتكاز في النظام الإسلامي كله.

الحيوان فقط هو الذي لا يضبط نوازعه، ولا يملك أن يضبطها إلا قسراً. أما الإنسان —وتلك مزيته التي كرمه الله بها– فقادر على ضبط نفسه عن طريق الإرادة المتحكمة في مشاعره وأعماله. وهو ليس بإنسان إن لم يعمل على ضبط نوازعه وتنظيم شهواته.

وهذه النظرة من جانب الإسلام ليست تحكماً، ولا تكليفاً للبشر بما ليس في طاقتهم.

فمن المستحيل عملياً أن ترتقي الإنسانية وتحقق أهدافها العليا، إذا هي ظلت مستعبدة لشهواتها، كلما دعتها استجابت لها واندفعت معها إلى آخر الطريق.

مستحيل أولاً من جهة الطاقة البشرية وهي محدودة على أي حال، فإذا أنفقت كلها في إرضاء رغبات الجسد —كما يصنع الحيوان– لم يبق فيها ما يتوجه به الإنسان إلى أعمال أخرى فكرية أو نفسية عالية. وقد يخلب البريق الغربي ألباب المستعبدين هنا، فيقولون: انظروا، هذه هي أمريكا قد انطلقت من عقالها، فأباحت لبنيها وبناتها في كل وقت وكل

[1] قلنا من قبل: إن معارضتنا للأسس العامة لنظريات فرويد لا تنفي أن بعض آرائه صحيح.

مكان، أن ينزو بعضهم على بعض، وأن يفرغوا شحنتهم الجنسية بلا قيود، ومع ذلك فهم من أكثر الأمم إنتاجاً وأقدرهم على العمل المتواصل.

وهذا حق، ولكنه ليس الحق كله.

فيجب أولاً أن نجعل في حسابنا أن أمريكا أمة فتية غنية، وأن طاقتها المذخورة لم تنفق بعد: طاقتها الاقتصادية والمادية والنفسية على السواء. فهي إذن أقدر من غيرها على احتمال هذا التيار الجارف من الانحلال، كما يكون الشاب الفتي أقدر من احتمال الأمراض المختلفة، دون أن يبدو من الظاهر أنها قد أثرت في بنيته. ولكن هذا وهم. لأن كل نوبة من نوبات المرض تترك آثارها في جسمه لا محالة، فتعجل بشيخوخته وتعصف به قبل الأوان. فإذا أصرت أمريكا على ما هي ماضية فيه من الانحلال الخلقي، ولم تأخذ بحجز أبنائها وبناتها أن يتهاووا إلى حمأة الرذيلة، فليس لها إلا مصير واحد، هو مصير فرنسا حين نخر فيها الانحلال فهوت راكعة ذليلة؛ وهو مصير كل أمة في التاريخ أطلقت لنفسها عنان الشهوات، كما سنعت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية من قبل، فاستطاع الإسلام الفتي أن يزلزل كيانهما في فترة قصيرة كأنها البرق اللامح؛ وكما صنع العالم الإسلام حين أُترف واجتاحته الشهوات، فتهاوى أمام قوة الفاتحين.

هذه واحدة.. والثانية أنه إذا كان في إمكان الشعب الأميكي ذي الطاقة المذخورة، أن يغرق اليوم في الشهوات ثم يقدر على العمل الآلي البحت، فإنه لم يظهر مقدرته على الارتفاع النفسي، وهذه حضارته حضارة مادية هابطة، ليس فيها مكان للمشاعر الإنسانية ولا المثل الخلقية. وهذا يجرفها في تيار الصراع المادي الذي يؤدي إلى الحرب وإلى الخراب..

والثالثة أن "المفكرين" هناك لا يغرقون في تيار الشهوات كأفراد، بل هم أشخاص معتدلون في حياتهم الخاصة. ثم هم لا يوافقون الشعب على انحلاله الخلقي، بل يصرخون في وجهه محذرين: أن هذا خطر محقق يجب أن يرتدعوا عنه.

فمن المستحيل إذن —من جهة الطاقة المحدودة– أن تنفق في شهوات الجسد، ثم تبقى في الإنسان قدرة على التسامي والارتفاع.

ومن جهة أخرى فإن الحياة عادة... فإذا تعود الإنسان أن يكون دائماً عبداً لشهواته الهابطة، فلن يجد دافعاً للارتفاع عن مستوى الجسد، حتى لو وجد الطاقة اللازمة لذلك. خاصة وأن التلبية المستمرة لداعي الشهوة من شأنها أن تعوّد الإنسان على لون من الترف النفسي المترهل، يصبح معه كارهاً لتكاليف الارتفاع. كما يكره الجسم المترف الكسول

دواعي النشاط والحركة، لا لأنها في ذاتها مؤذية لكيانه –فهي على العكس لازمة له– ولكن لأنه أصبح عاجزاً عن احتمالها.

وما دمنا متفقين على أن التسامي والارتفاع من أهداف الإنسانية فيجب إذن أن نتقبل الأداة التي لا يمكن أن يتحقق بدونها الارتفاع، وهي الإرادة القادرة على ضبط الشهوات.

ومن هنا لا يكون الإسلام متجنياً على البشرية حين يجعل الإرادة هي الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان، وحين يرفض الاعتراف بإنسانية أحد أو قوم إذا هم فقدوا إرادتهم، واستحبوا الانطلاق كالحيوان، أو "استحبوا العمى على الهدى" كما يعبر القرآن.

والقرآن يصفهم بأنهم "شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ" وأنهم "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ" ويعتبر الذين نقضوا ميثاقهم، استجابة لشهواتهم، واستحباباً أن ينطلقوا معها على أن يضبطوها ويلزموها حدودها، حيوانات غير جديرة بصفة الإنسانية فيقول: "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ[1] مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ" أي حيوانات. لأنهم قد انتكسوا إلى المرتبة الحيوانية حين لم يُعملوا إرادتهم، وهي الفارق بين الإنسان والحيوان.

والإسلام لا يعترف بالجبرية النفسية التي أوحى بها فرويد ومن تبعه من علماء النفس التحليليين والتجريبيين. فهو أولاً لا يأخذ الإنسان تفاريق كما يصنع علماء المعمل التجريبي، ولا يبالغ في تقدير أهمية جانب من النفس الإنسانية على حساب الجوانب الأخرى، كما يصنع التحليليون الذين يهبطون –بطبيعة منهجهم العلمي– من الذروة العليا للإنسان، إلى بذوره الدفينة في الأرض، فينسون ما مروا به في الطريق من ضوابط ومنظمات، ويذكرون فقط تلك الطاقة الديناميكية المحركة في قرار النفس، طاقة الجسد وشحنة الشهوات.

ينظر الإسلام للإنسان نظرة واسعة عميقة، تشمل الطاقة المحركة "والفرامل[2]" الضابطة في آن واحد، فيكون أعدل ممن يقف عند المحرك لا يهمه سوى إطلاق شحنته (كما يفعل فرويد)، أو يقف عند "الفرامل" لا يهمه إلا استخدامها خشية أن تؤدي الحركة إلى خطر الاندفاع (كما تفعل كل العقائد المتزمتة)!

([1]) لم يكن هناك "اعتداء" بالمعنى المعروف، وإنما كان هناك انسياق وراء شهوة من شهوات الأرض، وقد اعتبرها القرآن اعتداء لأن فيها نقضاً للميثاق من جهة، وهبوطاً بالكيان الإنساني عما ينبغي له من النظافة من جهة أخرى.

([2]) الفرامل: كلمة افرنجية دخلت إلى اللغة العامية، ولكني أرى أن استخدامها في العربية لا غبار عليه، فهي تقبل جميع الصيغ العربية في الاشتقاق فعلاً ومصدراً واسماً.

بهذه النظرة الشاملة العادلة يوازن بين جوانب الإنسان المختلفة، ويضع كلاً منها في موضعه الصحيح. ويقيم الإرادة مشرفة على تنظيم الشهوة، متحكمة في انطلاقها، دون أن يكلفها وقف الجهاز الإنساني عن العمل، أو كبته حتى تنفجر شحنته الخطيرة.

وحين يقيم الإرادة ويكل إليها هذا التنظيم يجعلها مناط "المسئولية" الجنائية والخلقية، لا في الحياة الدنيا فحسب، بل في الآخرة كذلك. فيقول القرآن: "بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ". ويقول عن النفس الإنسانية: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا". وعلى هذا لا يكون الحساب ظلماً ولا تكليفاً غير مشروع.

* * *

ومع الإرادة الضابطة ينشأ الضمير...

وهو ليس ضميراً نفعياً كالذات العليا التي رسمها فرويد، مهمتها "حماية" الذات من ضغط المجتمع الخارجي، بإجبارها على الخضوع لأحكامه التي تتمثل أولاً في الوالد، ثم في الإله.. الخ.

وليس صادراً من الكراهية الطاغية التي تجتاح النفس البشرية تجاه كل شخص آخر حتى من تحبهم وتقربهم (!)، حتى إذا كادت تخرج من ظلام اللاشعور اصطدمت بأن ظهورها أمر لا يجوز أن يحدث (لم يقل فرويد لأي شيء أحس الإنسان الأول بأن عمله هذا لا يجوز. وتهرب بذلك من الاعتراف بالبذرة الحقيقية للنمو الخلقي للإنسانية (فإذا اصطدمت بهذا المنع، انقلبت فصارت حباً أو تظاهراً بالحب للغير، وللخير!!

وإنما هو ضمير خلقي واع يتفاهم مع النفس ويحاول تذكيرها دائماً بأهداف الحياة العليا، وبأن الإنسان لا ينبغي أن يعيش لنفسه فقط، ولا ينبغي أن يستعبد لشهواته كالحيوان. فإذا كان الضمير يمسك أحياناً بالعصا، ويهم بالضرب، أو يضرب فعلاً، فليس في ذلك من ضير ما دام ذلك كله في محيط الشعور، وما دام الضمير —في الإسلام– لا يوكل بكبت المشاعر الشهوية، بل بضبطها وتنظيمها بعد أن تظهر في عالم الشعور.

بل لا ضير في ذلك كله ما دامت الموانع والمحرمات في الإسلام واضحة واعية مفهومة الهدف معقولة الغاية، وما دامت عملية المنع والتحريم لا تتعرض في أية لحظة لمنبت الشهوة، بل لطريقة التنفيذ.

ويهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بتربية هذا الضمير منذ الطفولة، ويدع له تهذيب النفس والارتفاع بمشاعرها على أساس الغيرية؛ على أساس أن يقيم الإنسان من نفسه رقيباً على أعماله يزجره عن إيذاء غيره، أو الاعتداء على حق من حقوقه ولو كان لا يحبه! "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" ويذهب في هذا إلى تحريم الاعتداء بالقول –لا بالفعل– سواء كان مواجهة أو في الغيبة. يقول "وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ" و"لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ" هذا في المواجهة. أما في الغيبة فيقول: "وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ". وكذلك يمنع التجسس للغرض ذاته.

ويدعو إلى أن تقوم العلاقات بين الناس على أساس الحب والتعاون: "أحِبَّ لأخيك ما تحب لنفسك". "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً". "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى". "الناس بخير ما تعاونوا"... الخ. وذلك كله على أساس وحدة الإنسانية، واشتراك الناس جميعاً فيها بنسبة واحدة "الناس سواسية كأسنان المشط" فلا يجوز إذن أن يكون لفرد أياً كان حق الاعتداء على فرد آخر أياً كان. وعلى أساس أن الحب والتعاون هو الطريق الوحيد لتحقيق أهداف الحياة العليا، التي تنبت من نفس الفرد ذاته حين تهيأ لها أسباب النماء.

ويكل الإسلام إلى الضمير بعد تربيته وتهذيبه تنفيذ الشرائع والتوجيهات جميعاً، ولا يكل ذلك إلى القانون (إلا في الحالات الشاذة) لأن القانون يمنع من الخارج. ولكن دراية الإسلام بالنفس الإنسانية تجعله يدرك أن الامتناع من الداخل بتأثير الوازع الخلقي والديني، أكثر ضماناً وأبلغ في الوصول إلى الغاية، لأن هذا الوازع اليقظ موجود مع الإنسان في أعماق نفسه، ومطلع على دقائقه وخفاياه. أما القانون في الخارج فأدواته محدودة وعلمه كذلك محدود.

وليس معنى ذلك كله أنني أزعم بأن الناس في ظل الإسلام يصبحون جميعاً ملائكة مطهرين! كلا ولكني لا أحلق في الخيال، ولا أجانب الواقع الذي يشهد به التاريخ، حين أقول: إنهم يصبحون في ظل الإسلام الحق، أنظف مما يستطيعون أن يصلوا إليه في ظل أي نظام على وجه الأرض. ولدينا مئات من الأمثلة على هذا الواقع المشهود لا نستطيع أن نثبتها كلها في هذا الكتاب، فهي تملأ بطون كتب التاريخ، سواء منها ما كتبه المسلمون عن أنفسهم، وما أقرت به كتب الأوربيين من أعداء الإسلام، والحق ما شهدت به الأعداء.

ولكنا سنجتزئ ببعض منها في نهاية هذا الفصل، اخترناه من بينها ليدل على معنى نفسي خاص.

* * *

والإسلام لا يدع الناس وحدهم في صراعهم الشاق مع شهواتهم، بل يقدم لهم العون العملي، والنفسي والروحي، ليساعدهم على الوصول إلى الهدف المنشود.

فمن الوجهة العملية هو يَشْغَلُهم بالعمل والجهاد. والمشغلة هي الطريقة العملية لصرف الناس ما أمكن عن هواتف الشهوات. وذلك من جهتين: الأولى أنها تستنفد جزءاً كبيراً من الطاقة الحيوية المذخورة فتقلل من ضغطها على الأعصاب. ولفرويد في هذا الأمر نظرة صائبة إذ يقول في كتابه "The ego and the id" إن الطاقة الشهوية تبدو فيها ظاهرة عجيبة، فكأنها متصلة في المنبع بعضها ببعض كالأواني المستطرقة، أو كأنها صادرة كلها من منبع واحد، فأي تنفيس عن شيء منها ينفس عن الباقي جميعاً. وهذا صحيح. والإسلام يتنفد أغلب الطاقة في العمل والجهاد من أجل إعلاء كلمة الله.

والوجهة الأخرى أن الحياة عادة كما أسلفنا، فإذا تعوّد الفرد أن ينشغل عن داعي شهواته فترات طويلة، قلّ اندفاعه في تيارها دون أن يشعر بكبت ولا حرمان. وإن كان الإسلام لا يصل في ذلك إلى الحد الذي يقتل النوازع الفطرية أو يصرف الإنسان عنها نهائياً، لأن ذلك يخل بنظريته العامة في التوازن. ومن أجل هذا حرمت الرهبانية في الإسلام.

والعمل ميدانه واسع ومجاله فسيح، وهو يشمل تعمير الأرض من كل وجهة يمكن فيها التعمير. والإسلام يدعو إلى ذلك دعوة صريحة، ويفضل العاملين على القاعدين ولو كانوا من المتعبدين! وكل عمل يتوجه به الإنسان إلى ربه فهو عبادة يثاب عليها الإنسان.

والجهاد أنواع: جهاد أعداء الإسلام في الخارج: "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ". وجهاد الباغين في الداخل: "وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ". وجهاد الظالمين: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده؛ فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان".

كل ذلك هو الجهاد الأصغر كما جاء في القول: "عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر". أما ذلك الجهاد الأكبر فهو جهاد النفس، وهو أشق مؤنة وأطول مدى وأبعد أثراً.

وبجانب هذه المشغلة العملية يضع الإسلام العبادات. والعبادات ليست مقصودة لذاتها في الإسلام. صحيح أن الله يقول: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ". ولكن الله غني عن عبادة العابدين وتسبيح المسبحين: "وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ". فهو لا يفرض عليهم العبادة لأنه هو في حاجة إليها سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً... وإنما يفرضها لأنها تعينهم على الخير، وعلى تحقيق أهداف الإنسانية العليا، حين تطهر أرواحهم وتصل قلوبهم بالله.

"إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ" فهي وسيلة إذن لهدف آخر، هو تطهير النفس من الفحشاء، أو معاونتها على التطهر، بالتذكير الدائم بصلة المخلوق بخالقه.

والصوم تجنيد للنفس، أو تمرين على الإرادة الضابطة التي يتوسل بها الإنسان لضبط شهواته والتحكم فيها: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ".

والزكاة ضبط لشهوة المال، وتطهير من رذيلة الشح، وتوسيع لأفق المشاعر عن الدائرة الذاتية الضيقة، إلى الإنسانية في ميدانها الواسع الفسيح: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا".

والحج —من استطاع إليه سبيلاً– له أثره الساحر في تطهير النفس وتقريبها من المثل العليا؛ وأن المثول بين يدي الله في بيته المكرم، والحياة فترة من الوقت في ظلال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، قريباً من إشعاعه قرباً مادياً معنوياً، كل ذلك ينسرب في النفس، فيصل إلى أعماقها ما لا يستطيع شيئاً آخر أن يصل إليه.

فالعبادات كلها إذن، وسيلة لا غاية. وسيلة لمعاونة الفرد في ضعفه، لكي يرتفع إلى حيث ينبغي أن يكون.

* * *

حين يصنع الإسلام ذلك: فيعترف أولاً بالواقع البشري كما هو في حقيقته، ولا يقسره على ما تأباه طباعه، ثم يضع له الحدود التي تمنع عنه الضرر فرداً مستقلاً في ذاته، وفرداً مشتركاً مع غيره في المجتمع، ويقيم في داخل نفسه إرادة واعية، يكل إليها ضبط الشهوات وتنظيم منصرفاتها، وينشأ مع هذه الإرادة ضميراً حياً يلتزم بمكارم الأخلاق، ويرتفع بالنفس عن مهاوي الشر، ومهابط الحيوان، إلى آفاق مشرقة رحيبة...

عند ذلك يكون قد أعطى كل ذي حق حقه، واستجاب لكل رغبات الإنسانية، وقدم لها جميعاً ما تطلبه من غذاء: فأشبع الجسم، وأتاح للعقل أن ينشط، وقدم للروح غذاءها الروحاني من العقيدة، وما يتبعها من عبادات تقرب بين المخلوق وخالقه. كل ذلك في تناسق عجيب يجعل كلاً منها جزءاً من الآخر، متمماً له، ومساعداً عليه، فالعبادة جسداً يتحرك وروح تتسامى. والشهوة ذاتها عمل جسدي وهدف إنساني من ورائها يتحقق... ولا انفصال بين هذا وذاك. ولا تعارض بين عمل وعبادة... بل كل عمل يأتيه الإنسان ابتغاء مرضاة الله وهو مؤمن، فهو هو العبادة الحقة، لا خفض الهامات ولا عذاب العطش والجوع. " من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً". "من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة بترك طعامه وشرابه".

وعند ذلك أيضاً يكون الإسلام قد شمل كل النشاط الإنساني: شمل نوازعه الفطرية ونزعته إلى العلو والارتفاع. شمل اقتصادياته ومادياته وروحانياته. والتقى مع شيء من التفسير الجنسي للسلوك، والتفسير الجثماني للمشاعر، والتفسير المادي للتاريخ، والتفسير الاقتصادي للحياة، ووازن بينها جميعاً بحيث لا يطغى منها شيئاً عن حدها الطبيعي، ثم أضاف إلى ذلك جميعاً التفسير الروحي للسلوك والمشاعر والتاريخ والحياة، لا في النظريات فحسب، بل في واقعه العملي كذلك. ولذلك يكون أشمل نظام عرفته الأرض، وأوسع نظرة للإنسان عرفها التاريخ.

وهذا –في نظري– هو التفسير النفساني لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "الإسلام دين الفطرة". أي الدين الذي يتمشى مع مطالب الفطرة السليمة، ويعالجها بخير طريقة يمكن بها استغلال كل المواهب البشرية، وتوجيهها إلى الصراط المستقيم.

* * *

وقد حان أن نضرب الأمثلة التي توضح من دنيا الواقع ما بسطناه في النظريات. ولكن في الحديث عن الإسلام بقي ما كان هو هذا المكان.

إن الإسلام يتطلب من معتنقيه جميعاً أن يتصفوا بأخلاقه ويهتدوا بهديه، فينظفوا مشاعرهم، ويستشعروا تقوى الله في قلوبهم، ويصدروا عن هذه التقوى في أعمالهم.

ولكن الإنسانية لا تقف في ارتفاعها عند هذا الحد، وهو في ذاته مستوى عال رفيع. بل إنها لتقدر بعد ذلك على الكثير. فما يزال أمامها ميدان مشرق، يرفرف عليه النور، وتهتف به البشرى، وتحف به ملائكة الخير ترفرف بأجنحتها الشفيفة، وترتفع بأرواح

المتطهرين إلى آفاق عليا، فتقرب بها من الملأ الأعلى، وترفع عنها الحجب، حتى تصل بها في لحظات الاستشفاف الصافية إلى النور العلوي المقدس، تقبس منه، فتعود أكثر استشفافاً، وأعظم رضى، وأشد رغبة في عمل الخير.

تلك هي الإنسانية في أفقها الأسمى، حيث ينسى الإنسان نفسه، ويذكر الكون الأكبر والحياة العظمى. يذكر أنه بضعة من هذا الكون العريض متناسقة متعاونة مع سائر الأجزاء، لا يتحقق وجوده الذاتي، إلا أن يهب نفسه لبقية الأجزاء عن رضى وطيب خاطر.. يذكر أن الإنسانية هي الوحدة العظمى التي تجمعه بإخوته فيها، وأن الحياة هي النهر الشامل الذي يسبحون فيه معاً ليصلوا جميعاً متعاونين متحابين، إلى الهدف الأخير، إلى الله خالق الحياة.

ذلك هو المثل الأعلى...

ولكن الوصول إليه جهد ضخم لا يتيسر لكل إنسان، بل هو رهين بمواهب خاصة واستعداد خاص، يتميز به القلة النادرة من الناس.

لذلك لا يفرض الإسلام هذا المثل الأعلى على الجميع فرضاً، بل يرسمه أمامهم، ثم يتركهم لطاقاتهم: "لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا". ويتقبل من كل ما يتقدم به على قدر جهده: "وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ" فلا يظلم أحداً، ولا يقسره على ما لا يقدر عليه.

إنه يحبب إليهم الصعود والارتفاع، ولكنه يدعهم يتطوعون بذلك، ثم يثيبهم بقدر ما تطوعوا جزاء في الآخرة. فهم بطبيعة ارتفاعهم وتطهرهم لا ينتظرون الجزاء في الحياة الدنيا، وإن كانوا ينالونه تقديراً من الناس ومحبة، كما ينالونه شعوراً بالرضى والاغتباط حين يغالبون أنفسهم فيقدرون عليها.

يبيح للناس أن يأخذوا بثأرهم، ولكنه يحبب لهم العفو: "وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى". "أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ".

يبيح لهم الملك، ولكنه يحبب إليهم الإنفاق في سبيل الله، ولو خرجوا عن مالهم كله! قال أبو ذر: "خرجت يوماً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بأحد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: ما أحب أن لي مثل أحد أنفق منه في سبيل الله، أموت وأترك منه قيراطين!".

ويقرهم على استشعار الكراهية للقتال، ولكنه يحبب إليهم الاستشهاد في سبيل الله، ويرسم لذلك صوراً مؤثرة رائعة: "إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ". "وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ".

ويبيح لهم الاستمتاع بطيبات الحياة، ولكنه يحبب لهم أن يتخففوا منها، ويرتفعوا عليها، ويتجهوا إلى نعيم الروح: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ".

كل ذلك على سبيل التطوع لا على سبيل الإلزام. وذلك أفعل في تربية النفس، وأدعى إلى تحقيق الغاية، لأن المتطوع يشعر بلذة عميقة في تطوعه، تعوضه عن المشقة التي يحتملها، وتحبب إليه الاستمرار فيه. لذة لا يستشعرها من يؤدي واجباً مفروضاً عليه.

فلا عجب إذن حين نجد مثل أبي بكر وعمر في الذروة العليا من مدارج الإنسانية، مثلين متفردين تتطلع إليهما الأبصار، وتعجز الإنسانية حتى اليوم عن الإتيان لهما بشبيه.

ولم يكن ذلك منهما كبتاً، ولا تحريماً لنشاط الحياة الدنيا. فالكبت يؤدي إلى الرهبنة، وإلى الاضطراب النفسي والعصبي. ولم يكن أحدهما راهباً، فقد كانا خليفتين عاملين واجها أكبر مشاكل السياسة والإدارة والحرب، بالإضافة إلى نشاطهما الروحي الخاص؛ ولم يكن في تصرفاتهما الحاسمة الحازمة، المتزنة المحكمة، ما يشي بأثر واحد من آثار الكبت والاضطراب.

وإنما كان ارتفاعهما إلى تلك القمم السامقة بالإرادة الواعية، والضبط المستنير.

* * *

ولكن الناس لا يقدرون كلهم على هذا المستوى الرفيع.

بل إن بعض الناس، بتأثير ظروفهم الخاصة، وبيئتهم ووراثتهم، وبنية مزاجهم، لا يستطيعون حتى أن يصلوا إلى المستوى الذي يلزمه الإسلام للناس. أو هم يندّون عنه أحياناً بسبب ضعفهم البشري، وغلبة الشهوات عليهم رغم مغالبتها...

فهل يطرد أولئك من رحمة الله؟

كلا. إن الله لرحيم. وإنه لا يتركهم للعذاب الممض، وتأنيب الضمير القاتل؛ ولا يدع الإحساس بالإثم يفسد أعصابهم وينغص عليهم الحياة.

إنه يفتح لهم باب رحمته، فيقبل التوبة منهم حين يسعون إليها ويعملون لها. "فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ". "أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ". "إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ". "إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً". "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ". ويكفي أن نذكر أن التوبة باشتقاقاتها قد وردت في القرآن 87 مرة، والمغفرة بمشتقاتها 230 مرة، والرحمة والرحمن والرحيم 280 مرة. فتلك الأرقام ليست في حاجة إلى تعليق.

* * *

من هذه النظرة الشاملة، ومن هذه الطريقة المحكمة في معالجة النفس الإنسانية، نشأت تلك البطولات العجيبة النادرة التي زخر بها صدر الإسلام، وما زالت على فترات تؤتي أكلها بين الحين والحين، بالأمثلة المعجبة التي لا يتمالك الإنسان نفسه أمامها من العجب، أن يكون ذلك كله في مكنة بشر فانٍ محدود الطاقة، مشدود إلى الأرض بوشائج اللحم والدم.

ولسنا هنا في حاجة إلى استعراض البطولات الحربية والإدارية والسياسية —وهي كثير– وكل منها مثل فذ في تاريخ البشرية. ولكنا نجتزئ بما نسميه البطولات النفسية، فهي أنسب شيء في بحث عن النفس الإنسانية في نظر الإسلام. البطولات التي تظهر في المشاعر، فتنظفها إلى درجة تقرب من الخيال. وقد اخترناها لنرد بها على فرويد وغيره، ممن لا يطيقون أن يتصوروا في البشرية شعوراً واحداً لم يصدر عن جبرية أو مصلحة شخصية. فتلك أمثلة قائمة كلها على التطوع البحت. التطوع بما لم يطلبه منهم أحد على سبيل الجبر والإلزام: لا الدين ولا المجتمع ولا القانون... وإنما هم فرضوه على أنفسهم متطوعين، لا مصلحة لهم في ذلك من قريب ولا بعيد.

وما نزعم أن الإسلام ينفرد وحده بتلك البطولات. فلا شك أن الإنسانية —في غير الإسلام– تعرف أمثالاً لها. وهذا يؤدي نظرتنا على أي حال، في أن الإنسانية في مجموعها قادرة على الخير الذي لا تدفع إليه ضرورة من ضرورات فرويد!

وإنما مزية الإسلام التي تفرد بها هي ذلك العدد الضخم من تلك البطولات النادرة في فترة متناهية في القصر، مما لم يتح —في الكم ولا في النوع- لأمة واحدة في التاريخ، في مثل هذا الزمن القصير.

فهذا أبو بكر خليفة رسول الله، المهيمن على الدولة الناشئة، ومشاكلها المتعددة في الداخل والخارج، لا تمنعه كل هذه المشاغل عن أن تطوف بمشاعره أنبل العواطف الإنسانية، التي تكفي وحدها، لو شغلت قلب إنسان، أن ترفعه عن مستوى البشر العاديين! وأمثلة بره وعطفه كثيرة مشهورة، نجتزي منها بمثال واحد بسيط في مظهره، ولكنه عظيم الدلالة على قلب "الإنسان" الذي يخفق في صدر أبي بكر. خرج يوماً بعد توليه الخلافة فإذا جارية تقول: "اليوم لا تُحلب لنا منائح دارنا" ذلك أن أبا بكر كان يحلب لها إبلها من قبل وهو فرد من عامة المسلمين. أما وقد شغلته الخلافة فلن تجد الفتاة من يقوم بهذه المهمة! ولكنه يسمعها فيقول: "بلى والله لأحلبنها لكم!" فكان يحلبها لها كل يوم، ويسألها: "يا جارية! أأرغى أم أصرح؟" فأي ذلك قالته فعل!

* * *

وعمر... إحدى معجزات الإسلام، لا يبيح لنفسه من الطعام والكساء أكثر مما لفرد من عامة المسلمين. فلما جاء عام الجوع، وأصاب المسلمين القحط، أقسم لا يذوق السمن حتى يفتح الله على المسلمين. وبقي عامه على هذا الحرمان حتى بسر وجه من أكل الزيت، والمسلمون يرون حاله فيشفقون عليه من الجهد الذي يبذله، مع قلة الطعام الذي يتناوله، فيرجونه أن يرأف بنفسه، ويبيحون له —عن طيب خاطر منهم- أن يأخذ من بيت المال ما يصلح به شأنه. ولكنه يرفض ذلك، ويصر على رفضه حتى يفيض الله الخير على المسلمين!

فيم هذا العناء كله، والدين لا يأمره به، والمجتمع الإسلامي يتمنى لو قبل عمر نصيحته، فقلل من شظف معيشته؟!

إنها الحساسية المرهفة في ضمير عمر. إنه التطوع النبيل الذي لم يفرضه عليه أحد إلا نفسه، وتفسيره قول عمر: "كيف يعنّيني أمر الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم؟".

* * *

وعثمان يرى المسلمين وقد انقطعت مواردهم في أيام أبي بكر، ووقعوا في ضائقة اقتصادية شديدة، ثم تجيئه العير محملة ببضائع كان استوردها من الشام، فيسرع إليه التجار

في المدينة، يريدون —كعادة التجار– أن يستغلوا ساعة العسرة، ليربحوا على حساب المستهلكين. فيتقدمون إليه بعرض سخي أن يربحوه في الدرهم درهمين. فيردهم عثمان قائلاً: أُعطيت أكثر من ذلك! فيعرضون ثلاثة. فيقول: أعطيت أكثر من ذلك. فيعرضون أربعة دراهم ثم خمسة وهو يردهم كل مرة. فقالوا: يا أبا حفص! ما سبقنا إليك أحد. ونحن كل تجار المدينة! فيقول: إن الله أعطاني عشرة أمثالها! ثم يقسم ليتركنها خالصة للمسلمين، يرد بها عنهم غائلة الحاجة!

ماذا كان عليه —حتى وهو يريد البر بالمسلمين– أن يأخذ على الأقل ثمن بضاعته بدون ربح؟ ويكون —في ذلك– نبيلاً مشكور النبل!

ولكنه مثل يفرضه لنفسه، ويتطوع لتحقيقه، لم يفرضه عليه دين ولا مجتمع ولا قوة واحدة قاهرة!

* * *

وعلي بن أبي طالب يمكّنه الله من أحدا أعدائه وأعداء الإسلام في إحدى المواقع، حتى ليجلس على صدره، ويأخذ بسيفه. ثم ينهض عنه، ويتركه طليقاً! ويعجب رجل من المسلمين كان يشاهد الحادث، ويسأله: لم تركت عدو الله، وقد أمكنك الله منه؟ فيقول: حينما هممت أن أحتز رأسه بصق في وجهي. فخشيت إن أنا فعلت أن أكون قد قتلته غضباً لنفسي لا لله.

ما الذي كان يفرض على عليّ يا ترى هذا التصرف النبيل، الذي يقرب من الأساطير؟ إن هذا العدو الذي أطلقه كان حرياً أن يعود فيقتله. وعليّ يعلم ذلك دون شك. ولكنها "النظافة" الكاملة داخل الضمير، لا تطيق ظلاً من الشك، في تصرف تبيحه —بل تدعو إليه– كل شرائع السماء والأرض!

* * *

و"لما أزمع (عمر بن عبد العزيز) أن يرد ما لديه، أمر فنودي بالناس: الصلاة جامعة، وصعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها. وإن ذلك قد صار إليّ، ليس عليّ فيه دون الله محاسب، ألا وإني قد رددتها، وبدأت بنفسي وأهل بيتي. اقرأ يا

مزاحم –وقد جيء ذلك بسفط فيه تلك الكتب– فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيأخذه عمر، وبيده مقص فيقصه به، حتى لم يبق فيه شيء إلا شقه.

"ثم ثنى بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله، فقال لها: اختاري إما أن تردي حليلك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وهو في بيت واحد. فقالت: لا، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي. فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسمين. فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك، قال لأخته فاطمة: إن شئت رددته عليك. قالت: فإني لا أشاؤه. طبت عنه نفساً في حياة عم وأرجع فيه بعد موته؟! لا والله أبدا[1]!".

وهكذا يتنازل عمر عن كل ما يملك بمثل هذه السهولة. بل بمثل هذا الترفع أن يمس درهماً لا يرى لنفسه حقاً فيه، مع أن الإجراءات القانونية كلها تبيح له تملكه، والمجتمع الذي يعيش فيه لا يطالبه، بل لا يفكر في أن يطالبه بالتنازل عن شيء...

ولكن عمر ليس وحده الجدير بالإشادة في هذا المقام، على الرغم من عظمة هذه البطولة النفسية، التي تقف فذة في التاريخ، من حيث هي تطوع نبيل لم يفرضه إلا يقظة الضمير. فزوجته كذلك جديرة بتسجيل موقفها النفسي المترفع. فلم يكن ثمة ما يمنعها –وقد فضلت عمر في حياته على كل ما تملك– أن تسترد أموالها وأملاكها بعد أن مات عمر. وقد وفر عليها أخوها الحرج، حين عرض عليها ذلك، ولم يجعلها تطلبه بنفسها. ولكنها ترفعت عن ذلك لغير قوة قاهرة تدفعها إلى التنازل عن رغبة أصيلة في نفس كل امرأة: رغبة الاستمتاع بالحليّ وألوان الترف.. وإنما هو في أعماق أعماقها هاتف شعوري متطوع نبيل.

* * *

وهذا خالد بن الوليد، قائد الإسلام المظفر الذي لم ينهزم قط، يعزله عمر بن الخطاب وهو في معمان المعركة. فلا يضطغن، ولا يحقد ولا يترك المعركة انتقاماً "لشرفه العسكري" ولا ينتقض على الخليفة، وهو يرى –بينه وبين نفسه– أنه لم يرتكب ما يوجب العزل!

ولقد كان خالد حريّاً –على الأقل– أن يسلم القيادة للقائد الجديد، وينسحب إلى بيته. ولكنه يرى نفسه في موقف لو انسحب فربما أطلت الهزيمة على جيش المسلمين. فلا يُعلم أحداً بالخبر، ويمضي في قتاله المستبسل حتى يمن الله بالنصر! النصر لا لنفسه ولكن

(1) عن كتاب "عمر بن عبد العزيز" للأستاذ أحمد زكي صفوت.

للمسلمين، وللإسلام الذي يملأ قلبه الإيمان به! وعند ذلك فقط يعلن القائد الجديد بالأمر، ويسلمه القيادة!

وهنا كذلك –وقد اطمأن على مصير المعركة– كان يستطيع أن ينسحب، وقد أراح ضميره المرهف الحساس. ولكنه يأبى ذلك أيضاً، ويستمر في القتال جندياً كعامة الجند!

فيم يطمع خالد بالاستمرار في القتال، وفقد فقد القيادة والسيطرة والأمر والنهي؟ إنه الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل المثل العليا، التي تعمر قلب هذا البطل العجيب.

وأية بطولة؟! إن كل بطولات خالد الحربية لا تعد شيئاً بجانب هذه البطولة النفسية الخالدة، التي كشف عنها هذا الموقف الفريد!

* * *

وأبو محجن الثقفي، أحد أبطال المسلمين في فتح فارس، رجل كان صاحب خمر في الجاهلية، وظل يتغنى بها حتى بعد أن جاء الإسلام، فحبسه سعد بن أبي وقاص في داره، ووضع القيد في رجليه ليستتيبه مما قال.

ويخرج سعد لقتال الفرس، وأبو محجن عنده حبيس في داره، ثم يمرض القائد فلا يستطيع ركوب فرسه، وتملؤه الحسرة أن يعجز عن الخروج بنفسه إلى المعركة والقتال مستعر. وأبو محجن يسمع ذلك ويرى، وهو حبيس، فلا يطيق أن يقعد عن نصرة دين الله ورسوله، فيرجو سعداً أن يطلقه ليقاتل فلا يفعل. ويلح في الرجاء ولكن سعداً لا يستجيب. ولكن أبا محجن لا ييأس. إنه يحاول لدى امرأة سعد! ويستعطفها أن تفك قيده ليخرج إلى القتال. ويعدها –إن هو لم يستشهد في المعركة– أن يعود إليها ويضع بنفسه القيد في رجليه! ورقّ قلبها له فأطلقته! فأخذ فرس سعد وانطلق بها إلى القتال. وهجم على العدو هجمة صادقة، فرجحت كفة المسلمين. حتى إذا أقبل المساء عاد! عاد البطل المنتصر إلى دار سعد، فربط الفرس، ثم وضع القيد في رجليه كما وعد من قبل!

وظل على ذلك ثلاثة أيام حتى كتب الله النصر المؤزر للمسلمين. وسعد يطل على ميدان المعركة من نافذته ويقول لامرأته: رأيت فارساً على البلقاء يضرب كأحسن ما يكون الضرب، ولولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن! فتقص له امرأته قصته، فيناديه إليه ويقول: "اذهب! فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله!".

فيرد أبو محجن قائلاً: "لا جرم والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً!".

ولقد كان أبو محجن في حل من القتال وهو حبيس. وكان مستطيعاً –وقد حارب وانتصر– أن يتحلل من وعده ومن محبسه. ولكنها بطولة نفسية خارقة، أيقظتها العقيدة في هذا الضمير.

ولم يكن الخلفاء ولا أبطال الحرب وحدهم هم الذين يبلغون تلك القمم العالية من النظافة النفسية المتطوعة بعمل الخير. فهذا رجل من عامة المسلمين: يونس بن عبيد "كان عنده حلل مختلفة الأثمان. ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة، وضرب كل حلة قيمتها مائتان. فمر إلى الصلاة، وخلف ابن أخيه في الدكان. فجاء أعربي وطلب حلة بأربعمائة، فعرض عليه من حلل المائتين. فاستحسنها ورضيها واشتراها، فمضى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس، فعرف حلته. فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردها! فقال: هذه تساوي في بلدنا خمسمائة، وأنا ارتضيتها. فقال يونس: انصرف، فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها. ثم رده إلى الدكان، ورد عليه مائتي درهم. وخاصم ابن أخيه في ذلك، وقال له: أما استحييت؟ أما اتقيت الله؟! تربح مثل الثمن، وتترك النصح للمسلمين؟ فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها! قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك؟"[1].

* * *

وعن بريدة قال: "جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله طهرني. فقال: ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه. قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال يا رسول الله طهرني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك. حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله: مم أطهرك؟ قال: من الزنا! فسأل رسول الله: أبه جنون؟ فأُخبر أنه ليس بمجنون. قال: أشَرِب خمراً؟ فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر. فقال: أزنيت؟ قال: نعم! فأَمر به فرجم. فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: استغفروا لماعز بن مالك: لقد تاب من توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم. ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله طهرني. فقال: ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه. فقالت: تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك؟ إنها حبلى من الزنا! فقال: أنت؟؟ قالت: نعم! قال لها: حتى تضعي ما في بطنك. قال فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قد وضعت الغامدية. فقال إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من ترضعه. فقام رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعه يا نبي الله. قال فرجمها.

(1) عن كتاب "الرسالة الخالدة" للأستاذ عبد الرحمن عزام.

ويروى أنه قال لها: اذهبي حتى تلدي. فلما ولدت قال: اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه. فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين. ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجه خالد؛ فسبها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت".

وحادثة ماعز قد تفتح المجال لمن يريد أن يقول —على مذهب فرويد– إنها حالة هوس ديني. وقد كان شيء من هذا في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأل: أبه جنون؟ ولكن ظروف الحادث كلها تشير إلى أن الرجل والمرأة كليهما كانا في حالة سوية. وهناك فرق بين الشعور بالإثم الذي يقول فرويد إنه يكون كامناً في اللاشعور، وإنه يدفع الناس إلى طلب توقيع العقوبة عليهم على جرائم لم يرتكبوها، أو إلى تعذيب النفس تكفيراً عن هذا الإثم الخفيّ، وبين هذا الشعور الواعي بجريمة محددة. ومما يلاحظ كذلك أنهما لم يقتلا نفسيهما، ولم يعرضا أنفسهما لمخاطر قد تقضي عليهما، لإراحة ضميرهما القلق. وإنما تقدما إلى رسول الله ليطهرهما طمعاً في رضاء الله ومغفرته. وهي قمة من التطوع النبيل لا يقدم عليها أحد إلا وقد بلغ الغاية من نظافة الضمير.

* * *

وإذا كانت أمثلة هذه البطولات النفسية قد تواترت في صدر الإسلام، فإنها لم تنقطع بعد ذلك على مر العصور. وهذا صلاح الدين يصل في معاملته لأسرى الصليبيين، أعدائه في الدين وفي الحرب، إلى درجة جعلت أولئك الصليبيين أنفسهم يكتبون عنه القصص المبدعة، ويصوغون حوله الأساطير!

وقد كان الصليبيون يعاملون المسلمين بوحشية لا مثيل لها. وكانوا يهجمون عليهم في بيوت الله، فيحولونها بركاً من الدماء. وكان المسلمون في حل من أن ينكلوا بهم، وإطاعة لأمر السماء: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ" "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ". ولكن صلاح الدين "يتطوع" فيمرّض أسيراً وقع بين يديه، ويسهر عليه حتى يتماثل للشفاء!!

وما زال المسلمون حيثما آمنوا بالإسلام، وتشربته أرواحهم، يضربون تلك المثل النادرة في التاريخ. يقول السيد أبو الحسن الندوي (من علماء الهند) في كتابه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" صفحة 215: "إن الشيخ رضي الله البدواني اتهم بالثورة على الإنجليز

عام 1857م. وحوكم أمام حاكم إنجليزي كان من تلاميذه، فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه. ولكن الشيخ أبى، وقال: قد اشتركت في الخروج على الإنجليز فكيف أجحد؟ واضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام، ولما قُدِّم للشنق بكى الحاكم وقال له: حتى في هذه الساعة لو قلت إن القضية مكذوبة عليّ، وإني بريء، لاجتهدت في تخليصك. فغضب الأستاذ وقال: أتريد أن أحبط عملي بالكذب على نفسي؟! لقد خسرت إذن وضل عملي. قد اشتركت في الثورة فافعلوا ما بدا لكم. وشنق الرجل".

* * *

وبعد فهذه الأمثلة، وأشبهها في تاريخ الإسلام كثير، لا تحتاج إلى تعليق. فهي تشهد كلها بعظمة هذا النظام الذي يعامل النفس الإنسانية على أسسها الصحيحة، فتستجيب إليه بأقصى طاقتها، وتصل في ارتفاعها إلى ما يشبه المعجزات!

الفرد والمجتمع

العلاقة بين الفرد والمجتمع هي الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع. وهي كذلك مبحث أساسي من مباحث علم النفس، فلا يمكن أن تدرس النفس الإنسانية دراسة حقة، من غير التعرض لهذا الجزء المهم من كيانها الأصيل. كما أن للحكومات والشعوب المختلفة آراء نظرية وتطبيقات عملية في هذا الموضوع. وقد كان طبيعياً أن تختلف الآراء بين هؤلاء وأولئك تبعاً لاختلاف الزاوية التي ينظرون منها، واختلاف الهدف من ورائها كذلك.

فأما علماء النفس الفرديون فينظرون إلى المجتمع دائماً من وجهة نظر الفرد. فيبالغون في تقدير أهمية الفرد كشخصية مستقلة لها كيان منفصل عن الآخرين. كما يبالغون في الحجر على حق المجتمع في تأديب الفرد الخارج على طاعته.

ومن الجانب الآخر تبالغ الدول الاستبدادية في تحقير قيمة الفرد، وتصوره هباءة فارغة لا يكاد يكون لها وجود منفصل عن الجماعة.

وكلتا النظرتين مبالغ فيها إلى حد الإسراف المعيب.

فالفرد الذي يبلغ إحساسه بنفسه وذاتيته أن ينسى وجود الآخرين، والمجتمع الذي لا يفرض للفرد أي وجود مستقل؛ كلاهما يتجاهل طبائع الأشياء ويغفل عن حقيقة نفسية مهمة..

فما هو المجتمع في الحقيقة؟

وما ذلك الخط العجيب الذي يفصل بين الفرد والمجتمع؟

إن الفصل بينهما فكرة عجيبة لا تثبت أمام البحث العلمي الصحيح. والحديث عن الفرد والمجتمع كأنهما قوتان منفصلتان، أو معسكران متقابلان، هو من عيوب البحث النظري الذي يتصور حالات وقضايا لا وجود لها في واقع الأمر. كما كانوا يتحدثون في النقد الأدبي عن اللفظ والمعنى كأنهما شيئان يمكن أن ينفصلا، ويكون لأحدهما وجود مستقل عن الآخر. والتشبيه مع الفارق دون شك.

إن الفرد لا يمكن أن يكون فرداً خالصاً، ذا كيان مستقل مقابل لوجود المجتمع، إلا إذا تصورنا جدلاً أنه قد اعتزله تمام الاعتزال، بجسمه وأفكاره ومعاملاته جميعاً. وهذا أمر مستحيل الحدوث عملياً، ولا حتى في مستشفيات المجاذيب!

والمجتمع هو مجموع الأفراد. تلك بديهية لا تحتاج إلى مجرد ذكرها؛ فكيف يوجد المجتمع إذن منفصلاً عن وجود الفرد، وهو الوحدة التي يتكون منها المجموع؟

في عالم النظريات فقط يمكن أن يوجد الفرد المستقل، والمجتمع الذي يتكون منفصلاً عن وجود الفرد الذاتي. أما الواقع العملي فلا يعرف هذه التفرقة العجيبة، لأنها من المستحيلات العقلية.

إن الواقع المحسوس هو أن كل فرد هو في ذات الوقت كائن مستقل وعضو في جماعة؛ ولا تكاد توجد لحظة واحدة ولا فكرة ولا عمل يمكن أن يزاوله الفرد بإحدى صفتيه دون الأخرى، وإن بدا في ظاهر الأمر أن هذا مستطاع.

فمنذ خرج الإنسان من عزلته في الكهف تكوّن مجتمع. بل إن المجتمع قد تكوّن قبل ذلك، في داخل الكهف ذاته. فمنذ حدث على ظهر الأرض إن وجد فردان من النوع البشري، يشتركان في علاقة معينة، لم يكن هناك فرد له وجود كامل الانفصال، بجسمه ومشاعره وأفكاره وأعماله.

ومعنى ذلك أن الفرد بهذا المعنى لم يوجد قط. وحتى الأساطير التي تصور شخصاً وجد بمفرده في جزيرة نائية، ليس فيها أحد غيره من الأحياء، فسرعان ما تخلق حوله مجتمعاً من الجن أو غيره من المخلوقات، لأنها –حتى وهي أساطير– تراعي تلك الحقيقة الثابتة: وهي أن الإنسان لا وجود له في صورة فرد مستقل. وقد وُجد المجتمع في نشأته الأولى لأن أفراد النوع البشري منذ مولده –أياً كان مولده– لم يستطيعوا أن يعيشوا منفصلين تمام الانفصال. بل أحسوا دافعاً قوياً لا يغالب، في أن يتصل بعضهم ببعض على نحو من الأنحاء.

فالمجتمع إذن حاجة نفسية نبعت من نفس الفرد، من رغبة ملحة في ألا يعيش وحده. وسواء كان الخوف من الانفراد، والشعور بالوحشة أمام الحيوانات المفترسة، وقوى الطبيعة المجهولة. أو كانت المصلحة، حين وجد كل فرد أنه يستطيع أن يدرك بالاشتراك مع غيره، ما لا يستطيع أن يدركه وحده. أو كانت غريزة الجنس، أو نزعة القطيع... فالنتيجة الأخير واحدة، وهي أن نزعة لا تقهر، هي التي أنشأت المجتمع من ضمير الفرد.

هذه النزعة أقوى من كل رغبة أخرى في النفس البشرية مضادة لها في الاتجاه. أقوى من شعور الإنسان بنفسه كوحدة مستقلة، وأقوى من المنازعات التي تنشأ من اجتماع أفراد لكل منهم مطامع خاصة لا تلتقي مع الآخرين. وأقوى من رغبة كل فرد في أن يكون له السلطان المطلق المفرد لا على الآخرين فحسب، بل على عناصر الطبيعة أيضاً... ولولا ذلك ما

استطاعت أن تصمد لتلك الرغبات المتعارضة، بل لما استطاعت أن تخضع لها الرغبات الأخرى بالتدريج، وتهذبها وتكسر من حدتها، حتى تتمشى معها إلى أطول مدى مستطاع.

وقد كان أمراً طبيعياً وبديهياً، أن يكون المجتمع الأول في أضيق نطاق ممكن، وأبسط صورة ممكنة: أسرة: زوج وزوجة وأبناء. فتلك أول مجموعة يمكن أن تتغلب فيها نزعة الاجتماع، على النزعات الفردية المستقلة، وتخضعها لسلطانها بأي طريق.

ومنذ تلك اللحظة صارت الأسرة هي الوحدة بدلاً من الفرد؛ ومع أن الفرد ظل محتفظاً بكيانه كشخصية مستقلة، إلا أنه قد اكتسب في الوقت ذاته صفته الأخرى كعضو في جماعة، ولم يعد في طوقه أن يحس أو يفكر أو يعمل إلا بصفتيه في آن واحد. فهو يخرج للصيد بنفسه —نعم– ولكنه يصطاد لزوجته وأبنائه أيضاً. فكأنه يحمل في قلبه وفكره وهو يصطاد، أشخاص الآخرين الذين من أجلهم يدخل الأدغال، ويجاهد الوحوش. وهو يلبي مع زوجته دافع الجنس، بصفته جسداً فرداً له غريزة —نعم– ولكن هذا ينتج منه بنات وبنون: أي أحداث خارجة عن نفسه وجسده، وهي منها في الوقت ذاته. وهكذا يتداخل وجود الآخرين في وجوده، ووجوده هو في وجود الآخرين، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر في نفوس المجموعة المكونة لهذا المجتمع الصغير.

وقد كان طبيعياً كذلك أن تتأخر مرحلة امتزاج أسرة بأسرة لتكوين مجتمع أكبر، حتى تستطيع المصلحة المشتركة أن تتغلب على نزعة كل أسرة للاستقلال والسيطرة الكاملين. وهنا تكون الوحدة التي تتفق أو تتصارع، هي الأسرة بدلاً من الفرد، ولكنها في الوقت ذاته الأسرة بمن فيها من الأفراد. أي أن كيان الأسرة مستمد من كيان أفرادها، دون أن يفقد الفرد وجوده في ذات الوقت.

ثم ظل المجتمع يرتقي ويكبر، كلما تلاقت مصالح الناس، فغلّبوها على نوازعهم الفردية، حين يجدون أن ذلك يحقق لهم قدراً من النفع المشترك أكبر مما يستطيعه الفرد وحده، أو الأسرة بمفردها، فوجدت العشائر والقبائل ثم الأمم والشعوب. ولم يقف رقيّ المشاعر عند هذا الحد، بل صارت الإنسانية تهدف إلى مجتمع إنساني شامل، يعم فيه الإخاء كل سكان الأرض. وذلك حلم إن لم يكن قد تحقق فهو على أي حال رغبة تشير إلى الاتجاه.

ولكن المهم أن الفرد قد ظل في جميع هذه الأطوار ملازماً لصفتيه المسيطرتين على كيانه: صفته كفرد مستقل وصفته كفرد في مجموعة. ولكن الصفة الثانية قد أخذت تتسع وتبرز، وتبسط نفوذها بالتدريج على"مساحات" أوسع في نفس الفرد، ومشاعر وعواطف كانت من قبل أقرب إلى أن تكون فردية خالصة. ولم يعد في وسع الإنسان —حتى في أشد

أوقاته انفراداً بنفسه– أن يكون فرداً منفصلاً عن الآخرين، ما دام يحمل دائماً في قلبه ومشاعره صورة من المجتمع الخارجي.

ولكن هذا الارتقاء الذي حدث على آماد متطاولة في تاريخ البشرية، ونتيجة لتجارب لا حد لها، وقعت للأفراد منفردين ومجتمعين، وأثرت في نفوسهم وأفكارهم، وترسبت فيها على مدى الأجيال... هذا الارتقاء لم يكن مفروضاً على البشر من خارج أنفسهم، وإنما كان استجابة لتلك النزعة القوية المتأصلة، التي تدفع الإنسان الالتقاء بأخيه الإنسان. وتجد راحتها في هذا اللقاء.

وربما كان لمعترض أن يقول: لو كان الأمر كذلك، وكان الفرد هو الذي كوّن المجتمع من رغبته الملحة في الاجتماع بغيره من الأناسي، لما وجدت فيه النزعة إلى الانتفاض على هذا المجتمع والخروج على أوامره ونواهيه...

ولكن الواقع أن الإنسان مجموعة من المتناقضات. أو مجموعة من الرغبات المتضاربة التي لا يمكن تحقيقها كلها في آن واحد. وقد قلنا: إن الرغبة في الاجتماع قد أخضعت النوازع الفردية لسلطانها، وعملت على تهذيبها بالتدريج. ولكنها لم تنتزعها من نفس الفرد، ولم يكن من الممكن ولا من المصلحة استئصالها من منبتها. لأن قتل الفرد –لصالح المجتمع– لا يمكن أن يؤدي في النهاية إلا لضياع هذا المجتمع ذاته. إذ كيف يمكن أن تنشأ الحياة من مجموعة من الأموات؟!

فالنوازع الفردية إذن ما تزال موجودة، جنباً إلى جنب مع الرغبة الجماعية الملحة. وإذاكان هذا تناقضاً، فهو موجود في النفس البشرية، كما يوجد فيها الحب والكره، والخوف والرجاء، والواقع والخيال[1]...

وهذا الكائن البشري مخلوق متقلب؛ وكما يتقلب جسده من وضع إلى وضع ليستريح ويجدد نشاطه، فكذلك تتقلب نفسه ذهاباً وجيئة، على الدوام.

فهو ساعة يستجيب لنوازعه الفردية ويسير معها إلى آخر المدى، فيشعر أن وجود الآخرين يضايقه، ويتمنى كما كان يصنع في طفولة البشرية، لو أن له السيطرة المطلقة لا على الآخرين فحسب بل على قوى الطبيعة أيضاً.

([1]) عالجت هذه النقطة بتوسع أكثر فيما بعد في فصل "خطوط متقابلة في النفس البشرية" في كل من كتاب "منهج التربية الإسلامية" وكتاب "دراسات في النفس الإنسانية".

وساعة يستجيب لنزعة الاجتماع، فيضيق بنفسه فرداً، ويخيل إليه أن نفسه الفردية تلك سجن تضيق جدرانه وتقترب حتى لتكاد تخنقه، فيسعى إلى التنفس في خارج نفسه، وقد يصل في هذا إلى أقصى المدى، فيذوب كيانه في كيان الآخرين...

وهو في حالته السوية دائب التقلب من وضع إلى وضع. ولا ضير في ذلك ولا خطر. فتلك فطرته. وهو مستطيع –ما دام لا يسرف ولا يتطرف– أن يحقق بفطرته أقصى الخير لنفسه وللجميع.

ولكن الخطر ينشأ من الإسراف والتطرف، سواء في هذا الاتجاه أو ذاك.

ونبدأ بالحديث عن النزعة الفردية المتطرفة: فحين تفسد فطرة الفرد، ويحس بوجوده الذاتي إحساساً مبالغاً فيه، يكون قد اعتدى على الآخرين اعتداء مؤكداً، ليحقق لنفسه أكثر مما ينبغي له من المتعة الفردية الأنانية. وهو مع ذلك لا يعتزل المجتمع ولا يعيش وحده، ولا يتنازل عن العون الضخم الذي يستمده من وجوده في الجماعة، والتسهيلات الهائلة التي ييسرها له مجموع الأفراد. فكأنه في تبجحه يريد أن يستغل المجموع إلى أقصى درجة، ثم لا يؤدي نصيبه من التكاليف.

وهنا موضع للجدل الشديد بين دعاة الفردية، وبين النظرة المعتدلة المتوازنة.

فهم حيناً يزعمون أن المجتمع لن يضيره شيء في أن يستمتع الفرد بحريته فيما يسمونه شئونه الخاصة. وهم حيناً آخر ينكرون حق المجتمع في التحريج على الفرد في تلك الشئون، أو في "تحقيق ذاتيته" كما يقول الوجوديون وغيرهم من المنحلين، سواء كان في ذلك ضرر على المجتمع أو لم يكن، لأن الأصل هو الفرد، وهو الذي ينبغي أن يتحقق له وجوده الكامل، رضي الآخرون أم غضبوا!

وفي كلا القولين مغالطة هائلة، تنهار أمام المنطق الصحيح.

فهنا نعود للسؤال الذي سألناه في مبدأ هذا الفصل: ما هو الفرد وما هو المجتمع؟ وما ذلك الخط الوهمي الذي يفصل بينهما، ويضعهما على صورة قوتين متقابلتين، أو معسكرين متصارعين؟

فلنفرض أننا نزلنا إلى الطريق فوضعنا أيدينا على واحد من المارين فيه: فمن هو ذلك الشخص؟ إنه فرد بالنسبة لنفسه، ينظر إلى الآخرين على أنهم "المجتمع". ولكن هذا الفرد

ذاته ينظر إليه الآخرون على أنه هو "المجتمع" أو هو فرد من أفراده، يتكون المجتمع –بالنسبة إليهم– منه ومن الآخرين معه.

وهكذا لا يمكن الفصل أبداً بين الفرد والمجتمع في حقيقة الأمر. فالمسألة كالدائرة لا تستطيع أن تمسك بنقطة معينة منها فتقول: من هنا تبدأ الدائرة، أو إلى هنا تنتهي. كل نقطة ككل نقطة، تصلح أن تكون مبدأ أو نهاية أو وسطاً بين نقطتين. ويظل الأمر هكذا ما دامت الدائرة قائمة. فإذا انكسرت لأي سبب من الأسباب، فعند ذلك فقط يصير لها مبدأ ونهاية، ولكنها تفقد اسم الدائرة وصفتها منذ ذلك الحين.

والمجتمع كذلك.. لا تستطيع أن تأخذ فرداً منه فتعزله، وتضعه في موضع المقابلة من الآخرين، ما دام المجتمع متماسكاً كالدائرة. لأن كل واحد من هؤلاء الآخرين ينظر إلى هذا الفرد نظرته هو إليهم. أما حينما يتحطم المجتمع ويفقد تماسكه، وتشيع فيه الفوضى، فعند ذلك كل شيء يجوز!

ولنخرج من حسابنا مؤقتاً أولئك المتميزين عن المجتمع في مجموعه، سواء كان تميزهم ارتفاعاً إلى أعلى، أو انحرافاً إلى أسفل. فأولئك شواذ. والشذوذ لا ينفي القاعدة كما يقولون. وسنعود إلى الحديث عنهم بعد أن نستوفي الكلام عن الشخص العادي، الذي يمثل الأغلبية العظمى من المجموع.

فإذا استبعدنا المتميزين، واستبقينا الأغلبية الساحقة المتقاربة بعضها من بعض في الصفات النفسية والعقلية.. فماذي يعني قول قائل منهم: إن المجتمع يظلمني، أو يحرج على حريتي الشخصية؟

لنفرض أن لي شهوة معينة، وأنا أرغب في تحقيقها، والذهاب فيها إلى آخر ما تسوّل لي نفسي من المتعة التي لا يبيحها "المجتمع": فعند ذلك أقول: إن المجتمع يقف في طريق تحقيق هذه الشهوة. وأزعم أنه يحد من حريتي، ويضع القيود في سبيل تحقيق كياني الذاتي. وقد أزيد على ذلك، فأمسك بكتاب من كتب فرويد، فأتأثر بنظرياته، أو إيحاءاتها المبالغ فيها، فأرفع عقيرتي محتجاً على المجتمع، قائلاً إنه يهدف إلى كبت نوازعي الفطرية، فتصيبني بذلك الاضطرابات العصبية والنفسية، وتتعطل طاقتي المذخورة.. الخ.

ولكني في الواقع أكون قد نسيت حقيقة مهمة. أو أدركتها ولكني أغالط نفسي وأغالط الآخرين. فأنا الذي أحتج على تحريج المجتمع عليّ في متعتي الخاصة، حين أرى فرداً آخر يريد أن يذهب إلى ما رغبت فيه لنفسي، فيستجيب لشهوته الملحة، ويذهب فيها إلى أقصى

المدى.. أنا ذاتي أهب محتجاً عليه، وأقول له مكانك! لا تتجاوز الحد المفروض! وعند ذلك أصبح أنا "مجتمعاً" أو ممثلاً للمجتمع بالنسبة لهذا الشخص، كما كان هو أو غيره مجتمعاً أو ممثلاً للمجتمع بالنسبة إلي.

وهكذا... فإذا كان الوقوف في سبيل حرية الفرد الزائدة عن الحدود جريمة في حق هذا الفرد، فكل شخص يرتكب هذه الجريمة في حق غيره، في ذات الوقت الذي يصرخ من ارتكابها في حقه! وبذلك لا يوجد شخص واحد مجنيّ عليه مائة في المائة. وإنما الجميع جناة ومجنيّ عليهم في آن واحد وبنسبة واحدة! (ومرة أخرى نستبعد الشواذ من هذا الحكم العام).

فإذا قال فرد: ما للمجتمع ومالي حين أصنع كذا وكذا، فعليه أولاً أن يسأل نفسه: ماله هو وللآخرين حين يأتون نفس هذا الأعمال؟

إنما تقوم هذه النظرة الفردية على نزعة أنانية غير مستقيمة. وحين يعطي كل فرد نفسه حق الخروج على "تقاليد" المجتمع، فلا مناص من أن تتعارض أهواء الأفراد وتتصارع، فيعتدي بعضهم على بعض، وتنشأ الفوضى التي قد يفيد منها البعض حيناً من الزمان، ولكنها بعد ذلك تعود بالضرر على الجميع.

وهنا كذلك يعترض المجادلون، ممن تأثروا بنظريات الغرب، واستهواهم بريقه الخاطف.

إنهم يقولون لك: لا تعارض ولا فوضى. والمسألة كلها نسبية. فنحن هنا في الشرق، ننظ إليها على أنها فوضى، لأننا مستعبدون لتقاليدنا البالية، التي لم تعد تصلح لهذا العصر. ولو تطورنا و "تقدمنا!" لقبلنا الأمر الواقع، وتغيرت نظرتنا إليه، فلم نستنكره ولم نعتبره "خروجاً" على الأخلاق والواجب. فليست الأخلاق قيمة ذاتية، وإنما هي انعكاس المجتمع. فإذا قال المجتمع كله أو أغلبه: هذا خير فهو خير. أو شر فهو شر. لا لأن شيئاً في ذاته يمكن أن يكون خيراً أو شراً. وإنما نظرة الناس إليه تعطيه هذه الصفة أو تلك.

وهذا كلام له بريق.. ولكن لنر من واقع الأمر إلى أي حد هو صحيح.

يقولون إننا نحن المتأخرين في الشرق، ننظر مثلاً إلى الحرية الجنسية على أنها شناعة لا يجوز أن تحدث، ونظل ننذر بالويل والثبور كل فرد أو مجتمع يندفع إليها، لأننا نحن هكذا متأخرون، لا لأن هذه حقيقة. ويقولون إنه حين يأتي الوقت الذي تتغير فيه نظرتنا إلى الأمور، فلن نعتبر هذه الحرية "اعتداء" على أحد ولا على شيء لأنها ستتم بالتراضي بين الطرفين، فلا يكون هناك معتد ومعتدى عليها كما نرى نحن. ولن يعترض الآباء على نزوات

بناتهم وأبنائهم، لأن منشأ الاعتراض هو أن المجتمع لا يسمح. فما دام قد صار يسمح، فلن يخشى الأب أن يعيّر بعار ابنته، لأنه ليس هنا عار في نظر أحد... وهكذا تهدأ الضمائر وتستقر الأعصاب، ويسير كل شيء سيره الطبيعي الهادئ الرتيب.

ويقولون: انظروا هذا هو الغرب قد صنع ذلك فتقدم وارتقى، وتحرر من خرافات الماضي، ومن خزعبلات الأخلاق.

ونترك الآن مناقشة هذا الرقي المزعوم، ومدى ما فيه من الخطر على كيان الإنسانية كلها في الشرق والغرب، لأن هذا قد يحتاج إلى قدر من الجدل مع المكابرين وهم كثير.

ولكن الذي لا يمكن الجدال فيه هو الوقائع التي تنشرها الكتب والصحف في ذلك الغرب الذي يستعبد الأرواح والقلوب...

تقول صحف أمريكا –أرحب بلاد العالم صدراً بالحرية الجنسية– إن هناك مشكلة اجتماعية خطيرة، يتزايد خطرها كل يوم، حتى أصبحت تقلق بال المسئولين، فيفزعون إلى المختصين من علماء الاجتماع، يسألونهم العون في هذه المشكلة التي تنذر بالويل والثبور!

تلك هي مشكلة الاختطاف! فكل يوم تأتي الأخبار المزعجة بأن بعض الفتيان قد اختطفوا فتيات في سياراتهم، فقضوا منهن وطرهم. وتركوهن بعيداً عن منازلهن بمسافات شاسعة، لا يتيسر لهن الرجوع منها إلى بعد أمد طويل!

ويتبادر إلى الذهن هذا السؤال: فيم الاختطاف، والحرية مباحة للجميع، إباحة كاملة لا قيد فيها ولا حدود؟

والسؤال على عجبه مردود ببساطة. فلا مناص، حين تطلق الحرية للجميع يصنعون ما يشاءون، أن تتعارض الأهواء، وتصطدم الرغبات. فيحدث أن يعشق فتى فتاة لا تحبه، وإنما تميل بمشاعرها إلى غيره. وما دامت النوازع والشهوات قد أطلقت من عقالها، ولم يضبطها ضابط خوفاً من تقييد الحرية، فإن هذا العاشق المتهوس لن يضبط عواطفه –أستغفر الله– بل شهوته إلى تلك الفتاة بعينها، فلا يجد سبيلاً إلا استدراجها واختطافها!

وهكذا يحدث هذا الأمر الشنيع، في البلد الذي أباح كل شيء للجميع، بل يحدث نتيجة لهذا الإباحة التي لا تقف عند حد..

هذا خطر تعترف به أمريكا وتنذر به الصحف، وتطلب تدخل المسئولين. وإن تزايده يوماً بعد يوم لينذر بأنه مقدمة لما هو أخطر منه في الحياة الاجتماعية والأمريكية. أي أنه العوارض الأولى للانحلال الذي أشرنا إليه من قبل، والذي ينكره المستعبدون هنا، لأنهم ملكيون أكثر من الملك كما يقال!

وقد ينظر إليها بعض قصار النظر هنا أو هناك على أنها حوادث فردية. ولكن دلالتها واضحة لكل من أوتي حظاً من التقدير السليم. فهي اليوم تبدأ بالمسألة الجنسية، وغداً تشمل ميادين أخرى غيرها، كما أثبتت حوادث التاريخ في كل شعب على ظهر الأرض[1].

ولنعد إلى فرنسا، فهي أقرب الأمثلة إلى أذهان الجيل الذي نعيش فيه. بدأت فيها المسألة بالحرية الجنسية أو الفوضى الجنسية. ثم أصبحت لهذه الفوضى تقاليد! ولا عجب فللصوص وقطاع الطرق في مصر تقاليد!

من بين هذه التقاليد الرائعة أن يتعانق العشيقان أو يتشابكا، أو يحدث منهما ما يحدث في الطرق والحدائق والسيارات العامة، فلا ينهرهما أحد ولا يستنكر حيوانيتهما تلك أحد، وإنما تنصب اللعنة والاستنكار الحار على من تسوّل له نفسه أن يعترض على ذلك، أو ينظر إليه باشمئزاز!!

ومضت فرنسا في طريقها قدماً، ولذت تلك المتع لأهلها شباناً وشيباً، فلم يعد للأسرة تقاليد ترعى، ولم يعد الزوج أو الزوجة يطالبان نفسيهما بالإخلاص بعضهما لبعض أو للأخلاق والتقاليد. وصارت الفتاة لا تحاسب نفسها ولا يحاسبها أحد حين تسقط، ولا الفتى يستنكف أن يقضي وقته غارقاً في الملذات.

ونظر أناس مبهورين، وصاحوا: هذه هي المدنية! أنّى لنا أن نرتقي ونصل إلى هذا المستوى الرفيع!

ومرد الشعب على المتاع الدنس في المراقص والبارات... وأحس كل امرئ أن من حقه أن يصنع ذلك دون أن يلومه أحد، أو يتدخل في "حريته الشخصية"!

([1]) حين كتبت هذا أول مرة لم تكن قد ظهرت بعد في المجتمع الأمريكي مظاهر الانحلال التي تكاثرت فيما بعد حتى ضج منها المجتمع الأمريكي ذاته، ومن بينها جرائم الهبييز الشهيرة.

وانتقلت عدوى الحرية في داخل نفوس الأفراد، من إحساس إلى إحساس. وتلك عملية نفسية معروفة، وفيها يكمن الخطر كله. فمالشاعر المتميزة من الظاهر ليست مستقلة في باطن النفس، ولا ينفصل بعضها عن بعض كما تبدو حين تظهر على السطح، بل هي وثيقة الصلة كأنها الأواني المستطرقة. فإذا تعمقنا أكثر، وجدناها في آخر الأمر كأنها تنبع من منبع واحد كبير. وسواء كان هذا المنبع جنسياً بحتاً، كما يفسره فرويد، أو كان طاقة حيوية شاملة كما تفضل أن نعتقد، فالنتيجة واحدة: وهي أن المشاعر يعدي بعضها بعضاً في داخل النفس، فنجد المنحلّ في الغالب ينحل في جميع نواحي حياته. والحالات القليلة التي ينحصر الانحلال فيها في رقعة معينة من النفس ولا يفسد بقية جوانبها، هي من القلة والندرة بحيث لا تغير القانون العام، ثم إنها تكون في الغالب مرحلة وسيطة في المنزلق الذي يؤدي إلى الانحلال التام.

وذلك تفسير ما حدث في فرنسا. فقد انتقل حب الاستمتاع بالحرية المطلقة من دائرة الجنس إلى دائرة أخرى ظلت تتسع بالتدريج حتى شملت كل نواحي النشاط للأفراد والجماعات. فانتقلت –كما لا بد أن يحدث– إلى السياسة والاقتصاد، وكل ما يتصل بالمجتمع والحكومة والدولة. وكرهت أنانية الأفراد –وهي نتاج الاستمتاع الزائد عن الحد– أن يجندوا أنفسهم للدولة، لأن الدولة بدت لهم معسكر آخر، منفصلاً عنهم، لا ينبغي له أن يتدخل في شئونهم أو يفرض عليهم قيداً من القيود. وأدى ذلك كله إلى قلة الإنتاج وضعف الجيش وانتشار الدسائس والاضطرابات. فلما دخلت فرنسا الحرب كانت على غير أهبة، لا لنقص أسلحتها فحسب، بل لنقص عنصر آخر أهم وأخطر من كل ما عداه، ذلك هو "الروح المعنوية"...

أمة لا تريد أن تحارب، ولا تريد أن تحمي نفسها من الغزو، لأنها تكره التكاليف النفسية للجهاد. تكره أن تترك متعتها الدنسة، وملذاتها الرخيصة. أمة لا يجمعها هدف مشترك لأنها أفراد: "تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى". أمة تهتم بعمائر باريس الرشيقة الأنيقة، ومراقصها الفاخرة المثيرة، أكثر مما تهتم بكرامتها وكيانها في المعترك الدولي.

وكان حقاً وعدلاً أن تنهزم فرنسا، وتخلي مكانتها التاريخية، حتى بعد أن أنجدها الحلفاء، وحاولوا أن يرفعوها على أرجلها المتراخية المتهاوية، لتستطيع أن تتلقى ضربة أخرى قبل أن تموت!!

ولست أجهل أن هذا التفسير "الخلقي" لكارثة فرنسا لا يعجب الشيوعيين وأضرابهم من هواة التفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ، كما أنه يعز على عشاق فرنسا أن يصدقوه أو يقروا به.

ولكنني أحيل هؤلاء وأولئك إلى خطبة بيتان الشهيرة، التي ألهب بها ضمائر الفرنسيين، إن كان قد بقي لهم ضمائر، وأرجع الكارثة كلها إلى انحلال أخلاقهم، وإغراقهم في شهواتهم المنحطة. وهذا رجل فرنسي، لا يمكن أن يتهم بالتشنيع على أهل بلده، وهو يرجو لهم الخير والإصلاح[1].

وهكذا نرى أنه أنه ليست هناك إلا نتيجة حتمية واحدة لخروج الأفراد على تقاليد المجتمع دون رادع، وتنازل المجتمع عن تقاليده، وترك العابثين بها يعبثون. تلك النتيجة الحتمية هي انهيار هذا المجتمع بكارثة تصيبيه من الداخل أو الخارج، وتؤدي في النهاية إلى حرمان أولئك الأفراد أنفسهم مما كانوا غارقين فيه من المتاع المباح.

فقصر النظر وحده، هو الذي يخيل للعابثين من الأفراد أنهم مستطيعون أن يظلوا في عبثهم ذلك إلى غير نهاية، دون أن يؤدي بهم إلى الكارثة، أو الفتنة التي لا تقتصر على الظالمين.

وهذه التقاليد التي تعبت الإنسانية في بنائها لم تكن عبثاً، ولا كانت لمجرد "الزينة"! بل إن لها لمهمة حيوية تؤديها لصيانة المجتمع؛ مما يؤدي في نهاية الشوط إلى خير الأفراد أجمعين. الخير السلبي على الأقل، بحمايتهم من الضرر الذي لا يمكن تفاديه على ممر الأجيال.

على أن هذا لا يعني أن المجتمع دائماً على صواب فيما يحرص عليه من تقاليد. ولا ينفي أن بعض أفراده الخارجين عليه يكونون أحياناً على صواب.

ذلك أن المجتمعات كالأفراد: عرضة للأمراض والانحرافات. ولكن أمراضها دائماً أخطر من أمراض الفرد، لأنها تطبع بطابعها المنحرف مزاج الأجيال الناشئة قبل أن يتاح لها أن تبصر الأمور على حقيقتها، وترتد إلى سواء السبيل.

وأشد ما يصيب المجتمعات أمران ينشآن بطريقة طبيعية، من عملية نفسية معروفة تحدث في نفس الفرد بمفرده، وتؤثر حتماً في نفوس مجموع الأفراد.

الأمر الأول هو انقلاب الوسيلة إلى أن تصبح هي في ذاتها غاية، بعد نسيان الغاية الأصيلة.

([1]) قد يبدو اليوم أن فرنسا قد استعادت كيانها ومكانتها بعد أن حاول ديجول أن يقيمها من وهدتها. ولكنها صحوة عابرة قبل أن تنهار الحضارة الغربية كلها.. ما لم تعد إلى الله.

يحدث هذا في نفس الفرد حين ينسى أنه يأكل ليعيش، فينتهي إلى أن يعيش ليأكل! وحين ينسى أن بقاء النوع هو الهدف من الطاقة الجنسية، فيجعل لذائذه الجنسية غاية تطلب لذاتها بغير نظر إلى الهدف! وحين ينسى أن هدف المال هو الإنفاق، فينقلب جمع المال شهوة مستقلة عن الغرض المرسوم لها في الحياة. وحين يلعب الورق أو النرد "لقتل الوقت" في بادئ الأمر، فينقلب اللعب هدفاً يستولي على اهتمامه، ويطلبه لذاته ولو لم يكن لديه وقت يقتل، بل ولو شغله ذلك عن أمور معاشه.

وتلك عملية تحدث تلقائياً إذا غفل الإنسان عن معنى وجوده وهدف الحياة التي يحياها على الأرض، ولا يحمي الفرد منها إلا أن يذكّر على الدوام، ويهذّب على الدوام.

ومثلما يحدث في نفس الفرد، يحدث في نفوس الجماعات، فتنسى أهداف التقاليد وتحسبها غاية في ذاتها تحافظ عليها محافظة التقديس، بغير هدى ولا بصيرة. ويجرها ذلك في النهاية إلى النفاق الاجتماعي، حين ينصرف الناس عن الغاية الحقيقية ويخالفونها في حياتهم الخاصة، في الوقت الذي يحافظون فيه على المظاهر الجوفاء.

والمجتمعات كذلك تصاب بالجمود. وهو ينشأ من عملية أخرى طبيعية في نفس الفرد هي التعود. والعادة تؤدي مهمة هائلة في نفس الفرد، وهي جزء أساسي من كيانه. ولولا وجودها، وقيامها بكثير من الأشياء بطريقة لا شعورية، أو على الأقل شبه شعورية، لما أمكن أن يوجد الفرد نشاطه الواعي إلى ميادين جديدة من التفكير والاستنباط والاختراع، ولبقي حياته كلها يتمرن مثلاً على المشي والكلام والطعام والشراب!

ولكن على قدر الفائدة التي يجنيها الفرد عن طريق العادة، يصيبه الضرر كذلك حين يتعود على أشياء ضارة فيصعب عليه تغييرها.

والمجتمع في ذلك كالفرد، فهو عن طريق العادة يوفر جزءاً كبيراً من نشاطه، حين يجعل التقاليد عادة مرعية تتم بطريقة لا شعورية، أو شبه شعورية، ويوجه هذا النشاط لميادين جديدة من العمل والارتقاء. ولكنه في الوقت ذاته يضار أكبر الضرر عن طريق تثبيت العادات الضارة والجمود عليها، فيفقد بذلك من الطاقة ما كان يمكن أن يتوجه به إلى الخير العام، ولا ينقذه من ذلك إلا حركة عنيفة مزلزلة.

وهنا يأتي دور الفرد الممتاز، فينفض عن المجتمع جموده، ويرده إلى الإيمان الحق بالغايات الأصيلة. وقد أرجأنا الحديث عنه حتى يجيء مكانه الصحيح.

الفرد الممتاز عضو من المجتمع دون شك، متأثر بتياراته، متفاعل معها، ولكنه ممتاز عنه في طريقة تكوينه. ففي بنيته قدر من الطاقة الحيوية أكبر من المعتاد. وهو أقدر على تفهم تلك التيارات المتفاعلة في المجتمع، وأقدر على سلخ نفسه منها والنظر إليها كأنما ينظر من خارجها، فيراها بعين النقد والتمحيص. وتلك درجة من الامتياز. ولكنها ليست كل درجاته. فهناك مرحلة أخرى هي إنكار ما يراه من خطأ في سير المجتمع، وإعلان هذا الإنكار. أي عدم الاكتفاء بالمعرفة السلبية.

ومرحلة أخرى: هي الدعوة إلى إصلاح هذا الفساد، والعمل على هذا الإصلاح.

ولكن الدرجة القصوى هي القيادة هي التصدي للإصلاح بإيمان كامل يستولي على نفس صاحبه، فيصبح شغلها الشاغل لا تملك أن تتخلى عنه... يصاحب هذا الإيمان مقدرة على العمل في سبيله، وفطنة لأفضل السبل لتحقيق الغاية... ثم قوة أخرى كأنها السحر، هي موهبة التأثير في الآخرين، تأثيراً يشبه العدوى، يسري في نفوس الناس خفية، فلا يبصر أحدهم إلا وهو متأثر منساق إلى العمل كأنما يطيع هاتفاً يهتف به من داخل نفسه.

وتلك أقصى درجات العظمة الفردية دون جدال..

ولكن ينبغي ألا نغفل أن المجتمع لا يستجيب بسهولة إلى هؤلاء. وتلك عقبة كئود طالما شكا منها المصلحون جميعاً وعلى رأسهم الأنبياء..

إن المجتمع ليعصي داعي الخير الذي يتقدم به الأنبياء والمصلحون، ويظل يقاوم ما وسعته المقاومة، حتى تنهار مقاومته بالتدريج. ولكنه عند ذلك يندفع في التيار الجديد اندفاعاً حماسياً حاراً، كأنه يكفر عن سابق خطيئته.

وشكوى الأنبياء والمصلحين على حق، خاصة وهم على يقين من أنهم يدعون إلى الخير، وأن الناس على الباطل.

ولكن هذه المقاومة ليست شراً خالصاً في كل حال! فلولا المقاومة العنيدة لكل دعوة جديدة، لأصبح الأمر فوضى، ولكن كل مأفون تقوم في رأسه فكرة يتمكن من الوصول بها إلى أقصى الغاية في وقت قصير... وفي ذلك من الخطر ما فيه..

بل إن مقاومة الفكرة –فيما عدا الرسالات السماوية بطبيعة الحال– ليفيدها هي ذاتها إذ ينضجها ويبصِّرها بما قد يكون خافياً عليها عند البدء. فقد تدفع الحماسة بصاحب

الفكرة أن يجعل فيها من الخيال أكثر مما يطيقه الواقع، فتعدل المقاومة طريقته وتردها إلى الحقائق. أو قد تكون الفكرة بأكملها سابقة لأوانها الذي تستطيع أن تؤتي ثمارها فيه فتقتلها المقاومة مؤقتاً، حتى تتهيأ لها الظروف...

أو قد تكون الفكرة صالحة ولكن القائم بها غير صالح، أو غير كفء لها، فتظهره المقاومة على حقيقته، وتقف به عند حده الذي تهيئه له طبيعته. ولو لم يحدث ذلك لكان الضرر محققاً في قيام شخص ضئيل الطاقة بدعوة لا يطيقها كيانه، فيفسد ما فيها من خير لا محالة... ولو على غير قصد منه.

وهكذا تكون المقاومة أداة للتمحيص، ثم يستقر الخير في آخر المطاف: "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ".

* * *

كنا إلى هذه اللحظة نتحدث عن الشذوذ الذي يصيب الأفراد حين يبالغون في الإحساس بفرديتهم، والانحرافات التي تصيب المجتمع نتيجة لتهاونه في ردهم إلى صوابهم. واستطردنا من ذلك إلى وصف بعض العوامل التي تتفاعل في بنية المجتمع والأفراد.

والآن ننتقل إلى الطرف الآخر، حين يخضع الإنسان أو يراد له أن يخضع لنزعته الجماعية إلى آخر المدى، وعلى حساب كيانه الفردي.

في المرة السابقة كان الاعتداء موجهاً من الفرد؛ وقد رأينا كيف أصاب الضرر المجتمع أولاً، ثم ارتد في آخر الأمر إلى الفرد. وسواء أن يكون هو الفرد نفسه، أو يكون نسله في الأجيال التالية له، فالإنسانية لا تنقطع عند جيل معين، وإنها للأنانية الكريهة التي تقول: نفسي أولاً، وليكن بعد ذلك ما يكون.

وفي هذه المرة نجد أن الاعتداء موجه من المجتمع إلى أفراده. ووضع المسألة على هذه الصورة يوقعنا في الخطأ الذي يرسم خطأ وهمياً بين المجتمع والفرد. ولكن الذي يحدث في الواقع هو أن فرداً مستبداً أو جماعة من المستبدين، يخضعون لسلطانهم الجائر بقية المجتمع، ويفرضون عليه نظاماً معيناً، تضيع فيه شخصية الفرد المستقلة، ولا يبقى له إلا كونه فرداً في القطيع، يتجه دائماً حيث يراد له، لا حيث هو يريد. فقولنا: إن المجتمع في هذه الحالة يقضي على كيان الفرد مجاز يشبه الحقيقة، لأن المجتمع الذي يستنيم لمثل هذا القهر من حكامه الدكتاتوريين، لا يسمح لفرد من أفراده أن يفكر على طريقته الخاصة، أو يكون له

رأي في أمور بلاده أو أمور الدنيا عامة، غير الرأي الرسمي الذي تريده الدولة. والمجتمع يصنع ذلك واعياً في أول الأمر، ثم يصنعه بحكم العادة بعد ذلك. وإن كانت الدولة لا تأمن أبداً أن تظل هذه الاستنامة إلى الأبد، ولا أن يسلم الأفراد كيانهم الذاتي لها عن طيب خاطر، مهما يكن الخير الذي يحصلون عليه من هذا التكتيل الجماعي، المفروض عليهم بسلطان القانون وجبروته. ولذلك فهي تلجأ إلى وسائل شتى تختلف بين اللين والشدة، تحاول بها أن تستولي على أرواح القطيع، فينقاد إليها رغباً ورهباً.

فهي أولاً تشرف إشرافاً كاملاً دقيقاً على تربية الأطفال، في محاضنهم أيام الطفولة المبكرة، ثم في مدارسهم الابتدائية والثانوية، ولا تتركهم حتى في الجامعة. بل تظل تشرف عليهم وتراقبهم في حياتهم العملية، سواء كانوا عمالاً في المزارع والمصانع، أو كانوا معلمين أو مهندسين... أو أي لون من الحرف والفنون.

وحين تتسلم الدولة الطفل منذ منشئه، تعمل على أن تبذر في نفسه الغضة الطيعة أن النظام القائم هو خير نظام أخرج للناس على الأرض، وأن كل ما سواه منحط متأخر. وتتفنن في ذلك بكل الوسائل الممكنة، حتى ينطبع الطفل انطباعاً لا شعورياً على "حقائق" معينة، لا يناقشها، بل لا يفكر في مناقشتها حين ينضج فكره في المستقبل.

وتبذل الدولة جهداً ضخماً في ذلك، حتى تتوصل إلى الربط الكامل بين ذاتية الفرد وبين النظام الذي يعيش فيه، بحيث لا يحس أن له وجوداً –أو يمكن أن يكون له وجود– إلا في داخل هذا النطاق المرسوم، وأنه لو خرج عنه تهددته الكوارث وتخطفته الأعاصير، كالسمك إذا خرج من الماء، أو الطير الغض لو خرج من العش!

وهي تمد هذا الارتباط اللاشعوري بين كيانه وكيان النظام، برصيد ضخم من الدعاية تستغل له كل وسائل الإعلام، من صحف وسينما وإذاعة وكتب... الخ.

ثم لا تكتفي بذلك كله؛ فقد يندّ بعد هذا المجهود الجبار فرد أو أفراد، لا تفلح فيهم التربية ، ولا تؤتي ثمارها المرجوة! فعند ذلك تلجأ الدلولة إلى المراقبة، عن طريق الجاسوسية التي تشكك الوالد في ولده، والولد في أبيه، والزوج في زوجته، والأخ في أخيه، فضلاً على زمالة العمل في المصانع أو الدواوين. فعندها لا يجسر أحد أن يبوح بغير ما تريده الدولة من أفكار، وتقبر أولاً بأول كل فكرة ناشزة أو تفكير مستقل. وإلا فالموت لمن يعارض، والويل لمن يثور!

ورغم ذلك فإن الأمور لا يمكن أن تستقيم بهذا الوضع من الناحية النفسية. فالفرد مجبول على أن يحس بذاتيته، وفي نفسه نزعات فردية لا يمكن القضاء عليها ولا بقوة الحديد والنار... لذلك تلجأ الدول الدكتاتورية إلى إطلاق حرية الفرد في الميدان الحيواني، لتعوض عليه ما سلبته من حرية وإرادة في ميدان العمل وميدان الفكر والشعور، ولتنفس عن الطاقة المكبوتة في نفوس الأفراد، لكي لا تتجمع وتتكتل، فتكون خطراً على الدولة والنظام!

وسواء كان إهمال القيم الخلقية في النظم الدكتاتورية ناشئاً من أنها بطبيعتها -في الغالب- دكتاتوريات هابطة من الوجهة الإنسانية، أو كان ضرورة للتنفيس عن المكبوتين، وشغلهم بملذات الجسد المتاحة، عن إعمال الفكر واعتناق المبادئ "الخطرة!" أو كان مرده إلى هذا وذاك.. فإن الواقع المشهود أن الدكتاتورية الفكرية تلتقي دائماً مع الانطلاق الحيواني الشديد.

ولا شك أن هذه الدكتاتوريات تؤدي خدمات ما إلى القطيع الذي تكبله وتقوده، فالشعب في روسيا الشيوعية خير مما كان أيام القياصرة وحكم الإقطاع. وقد استطاع النظام الجديد أن يحقق عدالة اقتصادية لم تكن تتاح من قبل لهذا القطيع ذاته، حين كان يستغله أصحاب الأملاك فيمتصون دمه، ويتركونه جثة تعمل فيها الأمراض والأوجاع، وتلقي بها في النهاية بين ركام الثلوج، وفي صقيع الفقر والحرمان.

ولكن عيبها، ككل دكتاتورية على وجه الأرض، أنها لا تساير طبائع الأشياء، وتهبط بالإنسان من آفاقه العليا كائن له إرادة حرة وكيان مستقل. صحيح أن إرادته يحدها الصالح العام، وكيانه المستقل يخضع لقدر من الإشراف يتحقق به في النهاية صالح الفرد ذاته، بتحقيق صالح المجموع... ولكن الفرد في المجتمع الحر له رأي في تكييف هذا الصالح العام وفي طريقة تنفيذه. رأي حر يتشاور فيه الناس علانية دون خوف من سلطان الدولة ولا تجسس الرقباء... ومن احتكاك الآراء وتمحيصها تتبلور وتنصقل، فتكون أقدر على الوصول إلى الخير. والفرد حر في مشاعره -التي لا تؤذي غيره- يصوغها كما يشاء له كيانه وبنيته النفسية الخاصة. حر في نظرته الشخصية التي ينظر بها إلى الحياة والكون في حدود الإطار العام الذي يتحرك فيه الجميع متعاونين غير متصارعين. وحر في اختيار العمل الذي يناسبه ويشعر أنه ميسر له...

ومن هذه الحرية تنبع الأفكار "التقدمية" وتؤثر في تطور البشرية. ومن الدوافع الفردية، دوافع الملك، وتحقيق الذات، والرغبة في التميز والبروز، يتقدم العلم والصناعة والإنتاج. ومهما كانت الأهداف الجماعية فلا يمكن أن تكون في قوة النوازع الفردية. ومهما ارتقت الإنسانية فإنما ترتقي في حدود فطرتها. وقد يصل إلى الذروة أفراد، فيحسون أن كيانهم الذاتي لا يتحقق

إلا حين يهبون أنفسهم للجماعة. ونحن نحب هؤلاء ونمنحهم من إعجابنا الشيء الكثير، ولكنهم بعد ذلك أفراد.. أما الأغلبية الساحقة من الناس ففي حدود فطرتهم يكون ارتقاؤهم، وليس في وسعهم —أو على الأقل لم يسعهم حتى اليوم– أن ينحّوا دوافعهم على طول الخط.

وإن إنكار حق الفرد الممتاز في القيادة والتوجيه لجريمة مزدوجة: فهو أولاً يبدد طاقة بشرية من نوع نادر متميز، كان يمكن أن يستفيد بها المجموع لو أتيحت لها الفرصة المناسبة. وهو كذلك يظلم هذا الفرد حين يعامله معاملة الأفراد العاديين، بدعوى المساواة المطلقة بين الجميع. فطالما أن الناس مختلفون في طاقاتهم الفردية، واستعداداتهم الجثمانية والفكرية والنفسية، كما يختلف كل شيء في هذا الكون بين القوة والضعف، والعظمة والضآلة، فدعوى المساواة المطلقة خرافة حمقاء، أو ظلم لا يقف ضرره عند حد.

وعبثاً يزعم دعاة الشيوعية أن مكانة الفرد عندهم محفوظة، وأن الامتياز موضع تقدير الدولة ومكافأتها. فالواقع أنهم في فلسفتهم النظرية ينكرون أن هناك فرداً ممتازاً بالمعنى الذي نقصد إليه، ويزعمون أن الفرد هو نتاج المجتمع الذي يعيش فيه، وهو يمثله فحسب، فلا يمكن بحال أن يشذ عنه. وغاية ما قد يتميز به عن غيره من أفراد القطيع، أن يكون مزوداً بقدرة على "فهم" الأمور على وضعها الصحيح! أما الذاتية المتميزة، التي تقدر على القيادة، والتي تتفوق على مجتمعها بحيث تؤثر فيه أكثر مما تتأثر به، وتدفعه إلى تغيير عقائده ونظم حياته، بمقدرتها الفذة على التأثير والتوجيه، فتلك كلها خرافة لا وجود لها إلا في نفوس المتأخرين من أمثالنا، الذين يؤمنون مثلاً بأن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد استطاع أن يغير وجه البشرية بما أوحي إليه من عند الله، وبطريقته في تنفيذ ما أوحي إليه؛ تلك الطريقة التي تعكس شخصيته الفذة العميقة، التي ترتفع في قوتها وتوازنها مع تعدد جوانبها، إلى قمة البشرية في تاريخها الطويل[1]. والذين يؤمنون كذلك بأن عمر بن الخطاب — بشخصيته الذاتية التي استطاعت أن تستلهم روح الإسلام —قد أنشأ نظاماً للدولة الإسلامية، وأشرف على إقامة مثل عليا في سياسة الحكم وتنظيم المجتمع، كانت كلها قائمة على وجوده الشخصي إلى جانب قيامها على بقية العوامل الأخرى، وقد رأينا أن كثيراً من هذه العوامل قد انهار حين تولت أمور المجتمع الإسلامي شخصيات أخرى من نوع آخر...

(1) يميل بعض المسلمين إلى التطرف فيجعلون الفضل كله في الرسالة لا للرسول. ويميل بعض الأوربيين إلى تعظيم قدر محمد صلى الله عليه وسلم، ليصلوا بذلك إلى غاية خبيثة هي نفي وجود الرسالة. والذي أراه أن كلا الرسالة وشخصية الرسول كان له أثر حاسم في إعطاء الإسلام صورته الحقيقية وكل من عند الله.

هذا من الوجهة النظرية في فلسفة الشيوعيين. أما من الوجهة العملية فإن ثلوج سيبريا الباردة ومعسكرات الاعتقال القاسية، في انتظار كل من يسول له امتيازه أن ينتقد شيئاً من النظام الشيوعي، أو يفكر مرة واحدة في انتقاد الإله المسيطر ذي القوة والجبروت. "بابا ستالين"[1]!

على أن الضرر الاجتماعي والفردي للدكتاتوريات لا يقف عند هذا الحد، فهي دائماً تعمد إلى إقامة عدو توجه إليه طاقة الكراهية التي كان يمكن أن توجه إلى الدولة ذاتها لولا الحديد والنار، والسهوب والثلوج؛ وينفس في الوقت ذاته عن الرصيد المكبوت من المشاعر والأفكار، ولكن النتيجة الحتمية لذلك التوجيه هي إقامة البغضاء بين طبقات الشعب الواحد في مبدأ الأمر. فإذا تمت السيطرة الكاملة لإحدى الطبقات، فسحقت غيرها وأفنتها، توجهت طاقة البغض إلى الشعوب الأخرى، وقامت الحرب المؤكدة في آخر الأمر سواء من هذا المعسكر أو ذاك، لتحقيق السيطرة أو لرد الاعتداء، فلا يمكن أن يعيش العالم في سلام وإخاء. والتاريخ يثبت أن كل الدكتاتوريات سواء في هذه الجريمة، أياً كانت الفكرة لتي تقوم عليها وتسند بها دكتاتوريتها.

ولا ينتهي الضرر كذلك عند هذا الحد. فإن طبع الألوف والملايين بطابع الدولة، وصبهم في قوالب متشابهة، إذا كان يؤدي غرضاً نافعاً لجيل من الأجيال، فإن نتيجته هي قتل القدرة على التبصر والتفكير السليم لدى الأفراد، ما دامت الأفكار تأتيهم جاهزة من مصنع الدولة الضخم؛ كالفيتامينات الجاهزة إذا أعطيت للجسم على الدوام لم تستطع أن تؤدي وظيفة الطعام العادي، الذي يهضمه الجسم ويمثله بحريته، فيأخذ منه الصالح، وينفي منه ما يضر. فضلاً على أنها تفسد الجهاز الهضمي من حيث تريد له الفائدة. لأن سنة الحياة التي لم يخترعها الرأسماليون لمصلحتهم الخاصة، ولا يستطيع الشيوعيون أن يغيروها ولو أرادوا، هي أن العضو الذي يتعطي عن العمل فترة طويلة –لضرورة أو لغير ضرورة– يعجز عن العمل في النهاية، ويصبح كأنه غير موجود...

([1]) كنت قد كتبت هذا في الطبعة الأولى وكان ستالين حياً يسيطر على روسيا بسلطانه المطلق. وكان الشيوعيون في مصر يجادلونني أشد الجدل في هذا الأمر، وينفون أن في روسيا دكتاتورية! فلما مات ستالين جاءت الأخبار من روسيا ذاتها كما يعلم القراء، بأن ستالين كان دكتاتوراً فظًا مجرماً يحكم الشعب بالحديد والنار والتجسس! وقامت الحملات في روسيا لإزالة القداسة من الصنم القديم، وقالت الصحف إن الحكم الفردي المطلق لن يعود لروسيا أبداً!

فحين يتعطل جهاز التفكير الحر عند الفرد، كما تتعطل أجهزة الهضم في الجسم الذي يعيش على الكيمياء الجاهزة يأتي جيل لا يستطيع أن يدبر شئون نفسه، ويكون عرضة لأي سيد يحلو له أن يمتطي القطيع، ولا يفكر، بل لا يستطيع أن يفكر، في صده أو تقويمه، لأن العبيد لا يعرفون كيف يقوّمون السادة، بل لا يتجهون إلى مثل هذا التفكير.

وكيف يضمن أي نظام أن يكون حكامه صالحين على الدوام، إذا فقد أفراده ومجتمعه حرية التفكير، والقدرة على التمحيص والتدبير؟ إن الدستور الإقتصادي الشيوعي ليس قوة ذاتية تفعل فعلها بصرف النظر عن "الناس" و"النفوس". وإنما المفروض في "النظام" أن الاستفادة منه معقودة بقيام حاكم صالح، وشعب له من الوعي والإرادة الحرة ما يقوّم به الحاكم إذا أخطأ. فإذا فقد الشعب إرادته الحرة، الحقيقية لا المسرحية، لم ينفعه النظام في ذاته، مهما يكن في النظم من خير مزعوم!

والقول بأن التوزيع الاقتصادي العادل بمفرده، ودون أية محاولة أخرى لبناء الفرد والمجتمع على أسس نفسية وخلقية صحيحة، كفيل بأن تسير الأمور دائماً على خير وجه، وبأن يظهر المواطن الصالح والحاكم الصالح بطريقة آلية، قول لا يدل إلا على سذاجة التفكير، والجهل المضحك بالنفس الإنسانية ونوازعها[1].

فقصر النظر إذن هو الذي يقتل كيان الفرد في آفاقه النفسية والفكرية العليا، ويعوضه بها انطلاق البهائم في دركها الأسفل، بدعوى أن في ذلك صالح المجتمع وصالح الأفراد.

والتطرف في إخضع الفرد لنزعته الجماعية، كالتطرف في السماح له بأن يستهين بتقاليد المجتمع وأخلاقه ليحقق كيانه الذاتي، كلاهما خطأ، وكلاهما خطر على كيان الفرد والجماعة، إذا لم يظهر أثره العاجل في جيل من الأجيال، فهو لا بد مؤتٍ ثماره البغيضة على مر الأجيال.

والنظام الصالح هو الذي يوازن بين دوافع الفرد ومصالحه، وبين ضفتيه المكونتين له، كفرد مستقل، وعضو في جماعة، كما يوازن بين الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة في نطاق الإنسانية الشاملة الرحيبة..

وذلك ما يهدف إليه الإسلام.

([1]) أقرب الأمثلة على ذلك هو ستالين نفسه الذي تربى في ظل النظام الشيوعي واضطلع بأخطر قسط فيه، ومع ذلك قالت عنه صحف روسيا —بعد موته كما تقدم– إنه كان غلطة لا يجوز تكرارها!

* * *

من الفرد المتوازن ينشأ المجتمع المتوازن، وفي المجتمع الصالح ينشأ الفرد الصالح. تلك نظرية الإسلام. وهي نظرية لا تغفل الفرد، ولا تغفل المجتمع، ولا تبالغ في تقدير واحد منهما على حساب الآخر.

حينما نشأ المجتمع الإسلامي الأول، كان فرد واحد هو الذي تلقى الروح الجديد، وتشبع به، ومزجه بأعماق كيانه، وبكل قطرة من دمه، ذلك هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا الفرد الواحد، انتقلت الفكرة، بل الروح الجديد، إلى خديجة، ثم إلى أبي بكر، ثم إلى علي بن أبي طالب، ثم إلى غيرهم من الأفراد، في بطء وحذر، كأنما هو روح غريب يتلفت حواليه في كل خطوة، ويذرع الأفق كله ببصره قبل الخطوة التالية.

وكل فرد من أولئك المهتدين أصبح في ذاته شمساً مشعة، قبست من النور الأعظم قبسة، فتوهجت، وتألقت، وراحت بدورها تضيء آفاقاً جديدة مما حولها، وتنشر النور العلوي في ركام من الظلام.

وقام المشركون الذين عبت قلوبهم وأرواحهم من ظلمات الأرض، قاموا فزعين مبهورين، يقاومون النور الجديد، وإن كانوا يحسون في أعماقهم أنهم أضعف من أن يقفوا في سبيله. بل هم يزدادون تشبثاً بالظلام، كلما أوغل عليهم النور، كما يتشبث الناس بالجرف المنهار، كلما أوغلوا في الانهيار!

وقامت الحرب بين الهدى والضلال، ولم يكن ثمة بد من قيامها، فتلك سنة الله في الأرض. وأتم الله نوره، فغلبت كلمة الحق "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ" وتزايد "الأفراد" المؤمنون حتى صاروا هم الكثرة الغالبة، وأصبحوا هم المجتمع الإسلامي. وهذه النشأة التاريخية، التي تلتقي في نظامها بكل حركة أخرى حدثت في التاريخ، تؤكد قيمة الفرد المتميز الموجه، الذي ينبثق النور من روحه أول مرة، فينتشر بعد ذلك في الآفاق. ولكن الأمر في الإسلام أشد وضوحاً وأعمق غوراً. فكل الحركات الأخرى، والأوربية منها خاصة، كانت عوامل قيامها كلها أو معظمها كامنة في المجتمع ذاته، بحيث كانت الثورة هي الخطوة الطبيعية المنتظرة من تفاعل الظروف؛ ومن ثم ينطبق عليها التفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ.

ولكن هذا لم يكن شأن محمد صلى الله عليه وسلم وشأن الإسلام. وليس معنى ذلك أن الإسلام كان غريباً كله على المجتمع العربي الذي ولد فيه، وانتشر منه. فلو لم يكن هناك استعداد للاستجابة إلى هذا الدين الجديد، ما استطاع –بأي جهد– أن يثبت أركانه. ولكن الذي نريد أن نثبته ونؤكده أن الواقع المادي والاقتصادي للعرب في الجزيرة العربية ، بل للعالم أجمع حينذاك، لم يكن يؤدي –بطريقة ذاتية– إلى ظهور هذا النور الجديد، بنفس الطريقة التي قامت بها الثورة الفرنسية أو الثورة الشيوعية. وبعبارة أخرى لو لم يبعث الله رسوله بهذا الدين، لما اهتدت البشرية من تلقاء نفسها إليه في تناسقه العجيب، وتمشيه الكامل مع الفطرة الإنسانية، واستجابته لكل مطالبها في توازن شامل دقيق.

لذلك كله ينظر الإسلام إلى الفرد على أنه في ذاته كائن جدير بالاحترام والتقدير. ومجرد الإسلام أي الاهتداء بنور الله، والامتزاج به، يعطي المسلم هذا التقدير في شعور المجتمع الإسلامي، لأنه يرى فيه نفخة من الله كرمه بها، وارتفع به عن مستوى السوائم من المشركين والملحدين، الذين ينظر إليهم المسلم على أنهم كائنات ممسوخة، هي "شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ".

ومجرد الإسلام يعطي المسلم حصانة من الاعتداء، تصون له كرامته الإنسانية وحقوقه البشرية: "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله". فلا يجوز قتله –بغير الحق– ولا تلويث عرضه، ولا التعرض لماله إلا بالحق، بل لا يجوز جرح كرامته باللمز والتنابز بالألقاب في المواجهة، ولا بالغيبة في غيابه، ولا التجسس عليه، ولا دخول بيته بغير إذن...

فإذا رجعنا إلى الصورة التي رسمناها للعلاقة المتبادلة بين كل فرد وكل فرد في المجتمع، أدركنا في الحال أن هذا التكريم للفرد يشمل كل فرد، فيشمل المجتمع كله في نفس الوقت. وهذا ما نقصد إليه حين نقول: إن الإسلام يشمل الفرد والمجتمع بنظرة واحدة شاملة.

ووسيلته إلى ذلك هي تكوين الفرد المتوازن. فمثل هذا الفرد بطبيعة توازنه، لن يعتدي على حقوق غيره، لأن الاعتداء ينشأ من الإسراف، أي من عدم التوازن في نفس الفرد من الداخل. وحين يكون كل فرد متوازناً في ذاته، يتكون بطريقة ذاتية مجتمع متوازن الأغراض والنزعات.

لذلك يعني الإسلام عناية شديدة بكل فرد على حدة، لأنه الوحدة التي ينشأ المجتمع من اجتماعها بغيرها من الوحدات، واللبنة التي يقوم عليها البناء.

وعناية الإسلام بالفرد طفلاً ومراهقاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، قد تشبه في بعض مظاهرها عناية الدول الجماعية، ولكنها تختلف عنها في جوهرها أشد الاختلاف.

ففي تلك الدول الجماعية تشرف الدولة بنفسها على تنشئة الأطفال بوسائلها الخاصة، وعلى يد أشخاص معينين هي التي تنتدبهم لهذا العمل، وتراقبهم في أثناء قيامهم بواجبهم، رقابة علنية حيناً وسرية على الدوام. ذلك لأنها لا تثق بهم، ولا تستطيع أن تكلهم لضمائرهم، لأنها لا تعنى بتربية هذا الضمير. كما أن موضع التقديس الذي تربط به المشاعر والأفكار وتنشأ عليه الأجيال هو "الدولة" لا العقيدة، وهو "الحاكم" ذو السلطان.

أما الإسلام فلا يحتاج لشيء من ذلك كله، لأن إيمان أهله به، الإيمان الذي يصلهم بالله مباشرة، يعبدونه دون شريك من دولة أو سلطان، يجعلهم يتطوعون بتنشئة أولادهم على عقيدة الإسلام، لا يرجون من وراء ذلك مغنماً، ولا يصنعونه خوفاً من حاكم أو رقيب، إلا الله الذي يخلصون له أرواحهم ويسلمون له أنفسهم.

بل لا يحس الأب المسلم والأم المسلمة حين ينشئان أبناءهما على عقيدة الإسلام أنهما قد "تطوعا" بشيء، بل هو واجبهما الطبيعي الذي لا ينتظران من أحد أن ينبههما إليه، فهو البديهية الأولى في حياة الأسرة، لا تحتاج إلى تفكير.

وحين يربي الآباء والأمهات طفلهم على المبادئ الإسلامية الصحيحة، فهم أولاً: لا يكبتون رغائبه وأشواقه لأن الكبت مناف لطبيعة الإسلام. بل يضبطون نزعاته الفطرية وينظمونها، ويربون في نفسه تلك الإرادة الضابطة التي تتحكم في تصريف الطاقة الحيوية، فلا هي تستأصلها من منبتها، ولا هي تطلقها بدون حدود. وبذلك ينقذ الطفل بما لا يمكن أن ينشأ في نفسه من اضطرابات عصبية ونفسية، تكون في مستقبل أمرها خطراً لا على الفرد وحده، بل على بقية المجتمع كذلك، إن لم يكن بتوجيه هذا الفرد إلى الجريمة، فعلى الأقل بتبديد طاقة حيوية نافعة.

وهم ثانياً: يبذرون في نفسه بذور الأخلاق التي ترتفع بمشاعره، وتتسامى بها عن الأنانية البغيضة التي تؤذي الغير حباً في أكبر قسط من الاستمتاع.

وهم ثالثاً: يقيمون في نفسه ضميراً حياً، يراقب أعماله ويحاسبه عليها أولاً بأول، ليضمنوا أن يطيع دافع الخير، ويمتنع عن دافع الشر، لا خوفاً من السلطان القاهر في الخارج، ولكن طاعة لله، وحباً في أن يعيش الإنسان مع غيره في سلام ومودة وإخاء.

وهم أخيراً: يربون فيه الأنفة والعزة التي تستنكف أن تخضع لإرادة بشر على ظهر الأرض إذا خالفت إرادة الله، والتي لا تقبل الظلم يقع عليها من مخلوق.

والحديث بالتفصيل عن وسائل التربية على الطريقة الإسلامية الصحيحة ليس مجاله في هذا الكتاب، فهو مبحث مستقل يمكن أن تؤلف فيه الكتب المطولة. وحسبي أن أذكر المبادئ العامة التي تشير إلى الطريق[1].

فإذا ربينا الطفل على هذه المبادئ –وتلك مهمة تقوم بها الأسرة دون قهر من الدولة ولا تجسس منها– أصبح لدينا أفراد متوازنون، ينشئون بطريقة ذاتية مجتمعاً متوازن الأركان، يقوم على الحب لا على البغضاء[2].

ولكن الإسلام، مع اعتماده الشديد على هذه التربية الفردية في إقامة المجتمع الصالح، لا يستطيع أن يكل إليها وحدها تنفيذ المبادئ الإسلامية كاملة. فلا بد من أنظمة خارجية تقوّم تلك التربية الخاصة، وتعاون على تركيزها وتثبيت أركانها.

ومن هنا يلجأ الإسلام إلى إقامة نظمه كلها في سياسة الحكم وسياسة المال على أساس من الشريعة الإسلامية. وقد أشرت في مرة سابقة إلى أن القانون الإسلامي يختلف في طبيعته عن كل القوانين الأرضية الأخرى، في أنه لم تضعه طبقة لصالحها الخاص، ضد طبقة أخرى، ولا فرد لمصلحته ضد بقية الأفراد. وإنما هو الله الذي وضعه وأنزله. ولا يمكن بداهة أن يكون الله سبحانه قد حابى فرداً على حساب فرد أو طبقة على حساب طبقة، لأن الناس جميعاً بالنسبة إليه سواء، هو الذي خلقهم وإليه مرجعهم، لا يتميزون عنده إلا بالتقوى. فإذا كان القرآن يقول: "وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ" "وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ" فهذا تقري للأمر الواقع لا في المجتمع الإسلامي وحده، بل في كل مجتمع على ظهر الأرض. والمجتمع الشيوعي ذاته، الذي زعم أنه سيطبق المساواة المطلقة، يعترف بأن المهندسين لهم امتيازات خاصة، ليست لبقية "الطوائف" لأنهم يقومون بخدمات جليلة في النظام الصناعي تبيح لهم هذا الامتياز، كما يقول الشيوعيون مفاخرين: إن رجال الأدب

([1]) كتبت بعد هذه الإشارة الموجزة كتاباً عن التعليم في مصر –لم ينشر بعد– يشتمل على فصل عن التربية الإسلامية ثم أخرجت كتاباً بعنوان "منهج التربية الإسلامية" شرحت فيه نظرية الإسلام التربوية بقدر من التفصيل.

([2]) لفرويد رأي في أن الإنسانية تقوم على مشاعر الكره، أو بالأحرى على الصراع بين الكره الأصيل المكبوت، والحب المفروض عليه من قوة خارجية قاهرة. وقد ناقشت هذا الرأي في فصل قادم عن "القيم العليا" وقلت: إن الرأي الذي أرجحه هو أن الحب أصيل في البشرية، وإنما ينشأ الكره من احتكاك مصالح الأفراد، فإذا استطعنا أن نقلل هذا الاحتكاك إلى آخر مدى ممكن، كان لنا أن نتوقع أن تقوم البشرية على الحب والمودة والإخاء.

والفنون هم "الطبقة" المميزة في الاتحاد السوفيتي، لا في الأجور فحسب، بل في كل متع الحياة.

وإذا كانوا يماحكون بعد ذلك في طبيعة هذا الامتياز ومداه، فالمهم –من حيث المبدأ– أن التمييز موجود، وتلك هي السنة الطبيعية ما دام الناس مختلفين في استعداداتهم ومواهبهم. ولكن هذا الامتياز في الإسلام لا يبيح لأحد حقاً إنسانياً أكثر من غيره من الأفراد. فأفقر فقير في الأمة الإسلامية له نفس الحقوق البشرية التي لغيره، أياً كان غيره. له حصانة الدم والعرض والمال والكرامة الإنسانية. له أن يقول للحاكم كما قال رجل من المسلمين لعمر بن الخطاب: "والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف" فلا يغضب عمر ولا يعتبر ذلك إهانة، بل يحمد الله على هذه الروح المعجبة التي أشعرت هذا الرجل بإنسانيته الكاملة أمام الحاكم ذي السلطان، فيقول راضياً مغتبطاً: "الحمد لله الذي جعل في أمة عمر من يقوّمه بحد السيف"! والحصانة التي جعلت عمر يقول "اسمعوا وأطيعوا" فيقول له فرد من المسلمين "لا سمع لك علينا ولا طاعة". فإذا سأله "ولم؟" طلب منه أن يبين من أين له ذلك الثوب الذي يكتسي به، وهو رجل طوال، لا يكفيه البرد الذي ناله كفرد من المسلمين، فلا تأخذ عمر العزة بسلطان الخلافة، بل يبتسم وينادي ابنه عبد الله فيسأله: "نشدتك الله! هذا البرد أهو بردك؟" فيقول عبد الله: إنه تبرع بنصيبه لأبيه ليتسنى له الحصول على ثوب يناسبه. فعند ذلك يقول الرجل: "الآن مر، نسمع ونطع!"

ذلك أن الحاكم في الإسلام لا يمثل طبقة ولا بيتاً ولا طائفة. إنما هو رجل من المسلمين اختاروه بالشورى، وبملء حريتهم لينفذ شريعة الله، لا شريعته الخاصة. شريعة الله التي تسوّي بين الجميع في الكرامة الإنسانية وحق الحياة. ونصيب الحاكم من هذه الشريعة هو نصيب كل فرد آخر من المسلمين، لا امتياز له إلا حق الهمينة والإشراف، وحق السمع والطاعة من المحكومين، طالما كان ذلك كله في حدود شريعة الله. فإذا شذ عنها ابتغاء مغنم لنفسه أو أهل بيته، أو طبقة من المسلمين دون طبقة، سقطت طاعته على حد قول أبي بكر: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم".

بقيت مسألة خطيرة هي مسألة المال، أو المشكلة الاقتصادية، وهي ركن أساسي من أركان المجتمع لا يقوم له بدونها كيان. وقد تزعم الشيوعية أنها هي التي اكتشفت أو اخترعت العدالة الاجتماعية في القرن العشرين. وقد يتابعها المستغفلون في الشرق الإسلامي، فيفتحون أعينهم مبهورين بما هناك، ويقولون: انظروا! هذه هي العدالة، لا الإسلام الذي يبيح الملكية الفردية بدون قيد ولا شرط!

وليس أكذب من هذا على الحق والتاريخ. فالحقيقة أن العدالة الاجتماعية –الاقتصادية– هي الركن الركين في الإسلام، لا على الأسس الشيوعية المحدودة، التي تنتهي عند ضرورات الجسد، وتهبط بالإنسان إلى مستوى الحيوان، وإنما على أساس إنساني شامل رفيع، يشمل عدالة المال كاملة، ويضيف إليها العدالة الإنسانية في أعلى الآفاق.

وعلى ما لهذه النقطة من الأهمية البالغة في كيان المجتمع، فإني لا أملك في بحث نفسيّ أكثر من الإشارة إليها. وقد تكفل بشرحها بطريقة وافية دقيقة كتاب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" لسيد قطب. ومنه أخذنا فكرة التوازن في المجتمع الإسلامي. وتلخيصها في أبسط صورة: أن المال ليس ملكاً حقيقياً لأحد، وإنما هو مال الله يستخلف فيه الجماعة. والمالك موظف فيه بعمله وجهده، وحسن التصرف فيه. فإذا أساء التصرف فيه عاد حق التصرف فيه إلى الجماعة. كما أن لولي الأمر في كل وقت أن يسترد الفائض من المال إذا اقتضت الضرورة ذلك، لموازنة المجتمع، ودفع الضرر الذي ينشأ لا محالة في مجتمع غير متوازن.

فإذا وجدت العدالة الاجتماعية –الاقتصادية والإنسانية– التي لا تحرم الفرد من نشاطه الحيوي المعقول، وتقف به في الوقت ذاته عند الحد الذي لا يؤذي الآخرين، أمكن أن تقوم العلاقة بين الناس في المجتمع الإسلامي على الود والإخاء، لا على التشاحن والبغضاء. ولم تكن هناك "طبقة" واحدة وأخرى محرومة. بل "أفراد" يملكون، بوسائل محددة واضحة، ودولة أو حاكم، يأخذ فضول ما يملك هؤلاء فيردها إلى الفقراء لأنها حق لهم، لا منحة يمنحونها. حق تعطيه إياهم الدولة وهم كرماء على أنفسهم وعليها، لا أذلاء ولا مستضعفون.

وليس من الضروري في كل حالة أن تعطيهم إياه نقداً وعيناً. فهي تستطيع أن ترده إليهم ومدارس ومستشفيات ومساكن صحية ومواصلات رخيصة... إلى آخر ما يمكن تصوره من التسهيلات[1].

ولا بد هنا من بيان حقيقة تاريخية هامة. فمما لا شك فيه أن المجتمع الإسلامي لم يحقق بعد أبي بكر، تعاليم الإسلام وروحه كاملة في مسألة المال وفي طريقة الحكم. ولكن هذا لا يعني أن الإسلام نظام خيالي أو مثالي[2]، فإن تحققه كاملاً في عهد الشيخين يقطع بأنه ممكن التطبيق. وقد استطاع عمر بن عبد العزيز، بعد فترة من قيام الحكم الأموي أن يعيد الإسلام سيرته الأولى في كل شيء.

([1]) في كتاب "شبهات حول الإسلام" بعض التفصيل لهذه الموضوعات.

([2]) في كتاب "شبهات حول الإسلام" بعض التفصيل لهذه الموضوعات.

وإذا كان المسلمون قد انحرفوا في الماضي عن تطبيق مبادئ الإسلام كاملة في سياسة الحكم وسياسة المال، فلعلهم اليوم أقدر على ذلك، على ضوء تجارب البشرية التي اقتربت — في بعض جوانبها– من الصورة الإسلامية وإن اختلف الأساس كل الاختلاف.

وفي الإسلام لا تتدخل الدولة ممثلة المجتمع في الحرية الشخصية للأفراد. ولكن الحرية الشخصية هنا شيء آخر غير ما تفهمه الدول المنحلة، التي تترك أفرادها يعيثون فساداً في الأرض باسم الحرية الشخصية.

فقد رأينا تدخلها في مسألة المال لحماية المجتمع من أخطار عدم التوازن، التي تؤدي إلى الفتن والثورات وانحلال عقدة المجتمع، بسبب وجود الترف المجرم من جانب، والحرمان الكافر من جانب آخر. وهنا يفترق الإسلام افتراقاً أساسياً عن الدول الرأسمالية التي تترك حفنة من الناس أحراراً في استعباد بقية الشعب، لمصلحتهم الخاصة. وإذا كانت بعض هذه الدول الرأسمالية قد اهتدت أخيراً جداً إلى نوع من التوازن، عن طريق نظام الضرائب التصاعدية، أو تأميم وسائل الإنتاج، فقد سبق الإسلام في ذلك كله، وفيما هو أوسع منه، قبل أن تنشأ الشيوعية التي أخافت هذه الدول فأجبرتها على التعديل. فلم يكن نظام الإسلام اضطراراً لمواجهة خط أجنبي محدق، وإنما كان تطوعاً وإنشاء، في فترة كانت أوربا فيها تعيش في ظلمات الجهالة والاستعباد...

ليس استغلال الآخرين إذن حرية شخصية في الإسلام.

وكذلك الانحلال الخلقي أمر غير مباح. وحكمة تحريمه واضحة بعد كل الأمثلة التي ذكرناها من قبل، والتي تبين الأثر السيء الذي ينتج من هذا الانحلال على مدى الأجيال. وليس الإسلام من قصر النظر بحيث ينظر إلى جيل واحد كأنه مقطوع الصلة بما قبله أو بعده من أجيال. فالإنسانية حلقة مستمرة. والذي نصنعه اليوم يؤثر حتماً فيما يحدث غداً. وأبناؤنا الذين نربيهم ونحن منحلون، أو نهمل تربيتهم لهذا السبب، سيكونون أكثر انحلالاً في الجيل القادم، لأن الإفلات من القيود والارتداد إلى الحيوانية أسهل على الأفراد والمجتمعات من ضبط الشهوات ومحاولة الارتفاع. ومن هنا كانت التربية الرشيدة واجباً دائماً لا يسقط من الآباء، ولا عن أولياء الأمر في أي جيل من الأجيال.

والاعتداء على الآخرين بأية صورة من الصور أمر كذلك غير مباح. فإصابة أي مسلم في دمه أو عرضه أو ماله أو كرامته أمر لا يجوز لأحد من الحكام أو المحكومين.

فحدود الحرية الشخصية إذن في الإسلام هي عدم الإيذاء للآخرين، سواء كان الإيذاء يقع على فرد بعينه، أو على المجتمع كله. وسواء كان الضرر الناشئ واضحاً لمرتكبه، عاجل الأثر، أو كان خفياً لا يتبين مداه إلا بعد أجيال.

ولا يستطيع أحد مهما أوتي من الجرأة على الحق، أن يماري في أن دفع الضرر أمر واجب. وأن المجتمع، والدولة الممثلة له، مكلفان بعمل كل ما في طاقتهما في هذا السبيل.

وأدق ما قيل في تصوير ذلك هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الدين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً".

تلك هي الحدود المأمونة للحرية الشخصية، وهي الوسط المتوازن بين اتجاهين متطرفين.

ولكن الإسلام يذهب إلى أبعد من ذلك في دفع الضرر، وصيانة المصلحة العامة والخاصة لجميع الأفراد. فهو لا يمنح حق الردع والزجر لولي الأمر وحده، وهو ممثل المجتمع، المكلف بالإشراف على شئونه. بل يجعل كل فرد في الأمة مكلفاً تكليفاً شخصياً بتغيير المنكر، سواء وقع عليه هو أم وقع على أي مسلم في أقصى الأرض، وسواء كان المنكر من الحاكم أو المحكومين: "من رأى منكم منكراً فليغيره". "والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنّه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض".

وهكذا يصبح كل شخص فرداً بالنسبة لنفسه مطالباً بحقوقه المشروعة، ومجتمعاً، أو ممثلاً للمجتمع بالنسبة للآخرين، يسعى لدفع الضرر عنهم كما يدفعه عن نفسه، ويعاونهم على نيل حقوقهم كما ينالها لنفسه. وذلك أقصى الغاية في العدالة المتوازنة، وفي التمشي مع فطرة الأمور.

أما ما يتحقق به النفع الفردي، ولا ينتج منه ايذاء لفرد بعينه، أو لمجموع الأفراد، فالحرية مباحة فيه إلى آخر الحدود.

فكل فرد يختار عمله بنفسه، وبما يرى أنه موهوب فيه. ولا تتدخل الدولة لتفرض عليه لوناً معيناً من العمل، كما تصنع الدول الاستبدادية، بحجة أنها أدرى من الفرد بنفسه،

وأدرى منه بحاجات المجتمع! إن المجتمع ينظم نفسه في هذا الشأن بطريقة ذاتية لا تحتاج لتحكم الدولة. وإنما كل واجب الحكومة –وهي المهيمنة على السياسة العامة– أن تهيئ أحسن الفرص للحصول على أحسن نتيجة، وأن تنصح إذا لزم النصح، وتنظر في أن أحداً لم يحرم من فرصته الملائمة بسبب اضطراب الأحوال الاقتصادية أو الاجتماعية.

فإذا كان نظام العمل يعد تقدم الصناعة في العصر الحديث، يستلزم طرقاً وقيوداً معينة، فهنا تتدخل الدولة لرسم السياسة العامة، ولكنها لا تفرض على فلان أن يكون مهندساً، أو طبيباً أو عاملاً في مصنع، لمجرد أنها ترى أن ذلك خير...

والآباء أحرار في أبنائهم، في حدود التربية الإسلامية بطبيعة الحال. فهم ليسوا أحراراً في إفساد أخلاقهم، ولا تركهم بدون رعاية. وللدولة في هذا الصدد حق الإلزام، أو تكليف غيرهم إذا كانوا عاجزين لأسباب خارجة عن إرادتهم. وإنما هم أحرار في الشعور بأن أبناءهم ملك لهم –بعد الله– لا ملك للدولة تتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شئونهم.

إن الدولة الشيوعية –مثلاً– لترى من حقها الإشراف الكامل الدقيق على الأبناء ما دامت هي التي تكفل لهم الغذاء والكساء.. كأنما الحياة كلها هي الغذاء والكساء. أو كأنما يجوز لأحد أن يستعبد أحداً بلقمة الخبز. ألا إنها حطة للبشرية، ونزول بها عن مستواها الكريم في آفاقها العليا، لتكون حاجة جسد وضرورة عيش!! والواقع أن الدول الدكتاتورية تكره رابطة الأسرة كراهية عنيفة. لأنها أولاً تقف في سبيل رغبتها الجامحة في الإشراف بنفسها على تنشئة الأطفال حتى لا يخرجوا على النظام المفروض. وثانياً لأنها تعاكس نظام الجاسوسية الذي لا تقوم الأمور بدونه في ظل الاستبداد. وبدلاً من أن يقروا بتلك الحقيقة السافرة يزعمون أن قوة روابط الأسرة هي من سمات المجتمعات المتأخرة!! وهذا على أي حال اعتراف منهم بأن مجتمعهم "المتقدم" خلو من هذه الروابط الإنسانية!

والفرد في الإسلام حر في أن يمتلك ما يشاء في الحدود العامة التي تمنع الإيذاء، وذلك في مقابل حق الدولة في أن تسترد الفائض من هذه الملكية حين ترى أن المصلحة العامة لا تتحقق بغير ذلك.

وحر في اختيار حاكمه، بانتخاب حر لا تتدخل فيه سلطة الحاكم، ولا نفوذ أسرته، ولا يخضع لضغط أي "طبقة" من الطبقات.

وهو حر على العموم في الاستمتاع بكل طيبات الحياة بالقدر الذي لا يؤذي به نفسه ولا غيره. وحر في التفكير في أمور الحياة على النحو الذي يراه، في داخل الحدود الإسلامية

التي تتعرض للأصول العامة في المسائل المتغيرة، ولكنها تترك التفاصيل لكل جيل يحددها حسب حاجاته وملابساته الخاصة. ومن ثم فقد ترك للناس حرية التصرف في تلك الأمور في حدود روح الإسلام بحيث لا يخالفون أصلاً من أصوله العامة. فكل فكرة أو عمل لا يعارض العقيدة ولا المصلحة العليا، مباح للفرد بدون استثناء. والعقيدة ذاتها قد تعرضت لمبادئ عامة هي وحدانية الله وعبودية الناس له وحده دون شريك. ولكنها تركت كثيراً من التفصيلات، ولم تصنع كالكنيسة المسيحية حين حتمت على الناس أن يعتنقوا آراء معينة، من خرج عليها فهو كافر، بينما هذه الآراء لم تكن على صواب من الناحية العلمية، فنتج من ذلك أن كفر الناس بالكنيسة وبالدين. أما الإسلام فقد ترك الناس —مثلاً– يختلفون في مسألة الإسراء هل هو بالروح أم بالجسد، ويظلون مع اختلافهم مسلمين مؤمنين. ويختلفون في وصف الآخرة، وفي أمر آدم هل هو أول الخلق أم هو "خليفة" لأجيال سابقة.. كل ذلك دون أن تمس عقيدتهم أو يعتبروا كافرين.

فالعجب بعد ذلك أن يزعم الشيوعيون أن الإسلام نظام دكتاتوري! وغير هؤلاء كانوا أولى بالكلام عن الحرية، وهم الذين لا يكادون يتنفسون إلا أن تأذن لهم الدولة، وتحدد لهم القدر المباح من الهواء!

إن الذي لا يباح للمسلم، ويعتبر في الظاهر من قبيل الحرية الشخصية، هو الكفر بعد الإيمان، ورفض التحاكم إلى شريعة الله. وعقوبته الصريحة هي القتل.

ولكن الارتداد ليس مسألة شخصية وإن بدا لك في ظاهر الأمر. ولا أحب أن أدخل في جدل مذهبي فأسأل أولئك المتبجحين: كيف كان يجوز أن يُقتل شخص بل مئات وآلاف لأنهم لا يؤمنون بستالين، ثم يباح للناس ألا يؤمنوا بخالق ستالين؟ على أن غير المسلم له أن يعتقد ما يشاء، وليس لأحد عليه سلطان —حتى داخل الدولة الإسلامية– " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ". وإنما يعاقب المسلم المرتد. فما معنى ارتداده عن الإيمان؟

إن الارتداد عن دين الله بعد الإيمان معناه إفساد نظام لا مجرد تغيير عقيدة فردية. فالإسلام نظام عملي قائم على عقيدة، ومجتمع قائم على هذا النظام. وأوامره —كما رأينا فيما سبق– مفروضة لصالح الفرد أولاً، وصالح المجتمع في الوقت ذاته. فهي إذن ليست مسألة شخصية، وإنما يرجح الضرر والنفع فيها على الجميع.

بل إن عبادة الله الواحد، لترفع الفرد عن أن يستذل لأية قوة أخرى على الأرض، سواء كانت قوة السلطان الجائر، أو قوة المال أو غيرها مما يستذل الأفراد والمجتمعات التي لا تؤمن بالله. وهذا الإيمان يدفع المؤمن الحق، بل يكلفه تكليفاً أن يضرب على يد الحاكم إذا استبد

وخرج عن شريعة الله. فليس لصالح نفسه إذن ينفذ الحاكم عقوبة الردة على المرتد. وإنما لصالح الجميع حاكمين ومحكومين.

* * *

الآن رأينا كيف تقوم العلاقة بين الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي.

وهي حين تقوم على هذا الأساس الذي يتسم بروح التعاون والتكافل بين الجميع في الواجبات والحقوق، لا تدع مجالاً لانقسام المجتمع إلى طبقات مستغِلة وطبقات مستَغَلّة. طبقات حاقدة وطبقات محقود عليها. طبقات يتمنى بعضها زوال بعض، وتعمل بينها الكراهية والبغضاء.

ولا تدع مجالاً كذلك لشعور الفرد بأن المجتمع هو القيد الذي يضيّق عليه، أو الغول الذي يتعقبه ليفتك به. ولا لشعور مجموع الأفراد بأن كل واحد من بينهم قوة معادية ينبغي أن تخضع وتقهر، لتسير على هواهم في كل الأمور.

وربما كان المجتمع الإسلامي –في صورته الحقة– أقل المجتمعات عرقلة لنشاط الممتازين من أفراده، طالما أن امتيازهم موجه لخدمة الله الذي يؤمن به الجميع، ويعملون على إرضائه كل بقدر ما يستطيع.

أما الفرد المنحرف إلى أسفل، في تيار الجريمة، فله حكمه الخاص الذي سنبحثه في فصل "الجريمة والعقاب".

وفي مثل هذا المجتمع لا تكون التقاليد سجناً يحبس حرية الأفراد، ولا سخفاً لا موجب له. بل هي الحواجز التي تمنع الطغيان، وتنظم المرور بحيث لا يصطدم الغادرون والرائحون: حواجز إذا أحسها الفرد عائقاً لشهواته الجامحة، فهو يحسها في الوقت ذاته درعاً تحميه هو من جموح الآخرين. ولذلك يرتضيها ولا تضطغن نفسه عليها ولا يعمل على إزالتها. لأنها يوم تزول لن يستطيع وهو فرد محدود القوة والمقدرة أن يصد بمفرده طغيان الجميع.

وأكرر هنا مرة أخرى، أنني لا أزعم أن المجتمع الإسلامي يحوّل أفراده إلى ملائكة مطهرين. ولكني أؤكد في ثقة ويقين أنه يرتفع بهم إلى أقصى ما في طاقة الإنسانية أن ترتفع، دون أن تبدو عليهم أمارات الكبت والاضطراب. وإنما يرتفعون متطوعين، شاعرين بأن إنسانيتهم التي كرمها الله ورفعها عن الحيوانية البغيضة، لا تتحقق إلا بهذا الارتفاع. وحتى في أظلم العهود الإسلامية وأبعدها عن روح الإسلام في سياسة الحكم والمال، كان الحكام

وحدهم هم الفاسقين. وكانت بقية المجتمع تعيش على التعاون الإنساني الرفيع. وكان الخير هو الغالب، وهو الموجه للأفراد فيما يشعرون وما يعملون... فلا يشعر الغني أن ماله ملكه وحده ولا الفقير أنه يعيش وحده منبوذاً في المجتمع.

بل حتى حين انقسم العالم الإسلامي إلى دويلات متنافسة متباغضة، كانت الحكومات وحواشيها هي التي تتصارع. وبقي المسلم أخاً للمسلم في كل أقطار الأرض، يلقاه بالبشر والترحاب، ويعاونه على قضاء حوائجه بكل ما في وسعه من جهد.

* * *

ولكن المجتمع الإسلامي على نطاقه الواسع من الهند إلى الأندلس، لم يكن يقصر روحه المتسامية المترفعة على أهله من المسلمين، فقد ارتقى بالروح الجماعية من حدود القبيلة وحدود الإقليم، وحدود الأمة الإسلامية ذاتها إلى أن تكون روحاً إنسانية شاملة رحيبة.

ولم يكن ذلك أمانيّ في الضمير، ولا كلاماً يتشدق به المتشدقون. وإنما هي وقائع يشهد بها التاريخ، نقرر أن الإسلام أول نظام على ظهر الأرض هدف إلى تحقيق المجتمع الإنساني. بل إنه النظام الوحيد الذي صنع ذلك، لا على أساس الاستغلال الاقتصادي، ولا الطمع السياسي، وإنما على أساس إنساني بحت، لا تستطيع أن تفسره كل التمحلات التي يقدمها التفسير المادي أو التفسير الاقتصادي للتاريخ، ويزعم أنها تفسر كل حوادث التاريخ، ومشاعر النفوس.

خرج عمر يوماً فإذا بشيخ يهودي ضرير يسأل على الأبواب فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن... وهنا تحركت مشاعر الإنسانية الغامرة عند عمر، فقاده حتى وصل به إلى بيته، وأضفى عليه من رحمته وعطفه، وأمر له بصدقة من بيت المال تكفيه الحاجة والسؤال. وقال لخازن المال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخزه عند الهرم.

لم يكن عطف المسلم على المسلم هو الذي دعا عمر أن يصنع ما صنع. وإنما هو الشعور الإنساني الذي لا يقف عند حد، حتى العداوة للدين. وقد كان اليهود من أشد الحاقدين على الإسلام، وعملوا كل ما في وسعهم لعرقلته وتأليب القبائل عليه.

وهؤلاء هم الأسرى من المشركين، الذين ينظر إليهم المسلمون على أنهم كائنات ناقصة البشرية، يوصي بهم الرسول خيراً. فيفضلهم الآسرون على أنفسهم، فيمنحونهم من الطعام ما لا يكادون يجدونه لأنفسهم، وهم مشتبكون معهم في قتال!!

قال أبو عزيز بن عمير بن هاشم (حين وقع في الأسر): كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر.

وقد كانت معاملة المسلمين لأسراهم على مدار التاريخ مثلاً من المثل الرفيعة التي أقرّ بها أشد أعدائهم بغضاً لهم من الصليبيين. ولم يكن الدافع إليها اشتراكاً في الدين ولا في المصلحة القريبة أو البعيدة. وإنما هي معاملة لوجه الله، ولوجه الإنسانية في أفقها الرحيب.

وما يزال الغرب المتبربر حتى اليوم، رغم ما يزعم من الرقي والتحضر، لا يصل إلى شيء من ذلك، لا في معاملة الأسرى، بل في معاملة البلاد المفتوحة، بل في معاملة الزنوج الذين يعتنقون ديانة الغربيين أنفسهم، في جنوب أفريقيا والولايات المتحدة..

فأين تلك البربرية المتوحشة من تعاليم الإسلام الإنسانية الرفيعة، التي تشمل البشرية كلها، رغم كل ما بينها من اختلاف المصالح، واختلاف الأجناس والألوان والأديان؟!

بل إن الشعور الإنساني لا يقف عند حد الإنسان، بل يتعداه إلى الطير والحيوان:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى. فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له".

فسألوا: "وإن لنا في البهائم لأجراً يا رسول الله؟ قال: "في كل كبد رطبة أجر".

ويقول: "ما من زارع يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كان له به أجر".

ألا إنها لآفاق لا يملك الإنسان نفسه وهو يتطلع إليها من العجب والإعجاب!

الجريمة والعقاب

الجريمة –في الغالب– اعتداء موجه من الفرد إلى الجماعة. لذلك كان طبيعياً أن تختلف النظرة إلى الجريمة باختلاف النظر إلى طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع.

فأما الأمم التي تبالغ في تقدير حرية الفرد، وترى أن كيانه الذاتي يجب أن يتحقق دون أن تقف في سبيله العراقيل، فهي لا تكتفي بالتساهل في أمر الجريمة، بل تذهب إلى أبعد من ذلك، فترى أن المجتمع هو المسئول عن جرائم أفراده، بما يفرض عليهم من الكوابت والقيود. وترى –تبعاً لهذا– أن المجرم مجنيّ عليه، وهو أحق بأن يعوض عن جريمته لا أن يعاقب عليها!

وعلى العكس من ذلك الأمم ذات النظم الجماعية. فهي تبالغ في الحط من قيمة الفرد ولا تعترف له بكيان مستقل. فتقسو تبعاً لذلك في الحكم على جرائمه ومخالفاته، لأنها في نظرها اعتداء على شيء "مقدس" هو الجماعة، من شيء لا قداسة له في ذاته ولا كيان!

أما الإسلام فله رأي في الجريمة والعقاب ينفرد به بين كل نظم الأرض، ويمسك فيه بميزان العدالة المطلقة –بقدر ما يمكن أن تتحقق في دنيا البشر– فلا يسرف في تقدير حقوق الجماعة، ولا يسرف في تقدير حقوق الفرد، ولا يميل مع واحد منهما على حساب الآخر، وذلك تبعاً لنظرته المتوازنة التي ينظر بها إلى الناس، لا من واقعهم الأرضي المحدود، ولا من زواياهم المتضاربة، بل ينظر إليهم من أعلى، من السماء، فيراهم كلهم في لحظة واحدة، بنظرة واحدة شاملة، تدرك مساربهم المتشعبة، وهي كامنة في داخل أنفسهم، أو وهي أعمال صريحة في واقع الحياة. فحينذاك لا يبدون فرداً وجماعة منفصلين متقابلين، بل يبدون وشائج متصلة، وعلاقات متداخلة، لا يمكن فصل بعضها عن بعض. وتبدو الأرض لا خيراً خالصاً ولا شراً خالصاً، وإنما نسيجاً من هذا وذاك. ينبع الخير من الشر، كما ينبع الشر من الخير. ومن كليهما يتكون نسيج البشرية! وعن هذه النظرة العميقة الشاملة المتوازنة يصدر الإسلام في كل تشريعاته وتوجيهاته: في العبادات والمعاملات، في الاجتماعيات والاقتصاديات، وفي تقدير الجريمة والعقاب.

* * *

ولنأخذ في شيء من التفصيل.

في الأمم الفردية تكون ذات الفرد مقدسة... وإذا تتبعنا التاريخ وجدنا أن هذه النظرة حديثة. فأما في الماضي، فكانت القداسة في نطاق ضيق شديد الضيق، لا تشمل إلا السيد

المسيطر على القطيع. وكانت الشعوب هملاً، لا يحسب لها حساب ولا تباح لها حقوق، وإنما تفرض عليها الواجبات والالتزامات من كل جانب. وشيئاً فشيئاً انتقلت القداسة إلى الحاشية المحيطة بالسيد، وإلى الأشراف كطبقة، وإلى رجال الدين، وإلى أصحاب الإقطاع على وجه العموم. ثم قامت الثورات، السلمي منها والدموي، فتغيرت الأحوال على مر الأيام، واسترد القطيع كيانه، ثم أخذ يسيطر بالتدريج، حتى انتقلت القداسة إلى أفراده باعتبارهم مصدر السلطات...

وللشيوعية رأي في أن الناس ما زالوا مستعبدين، وإنما تغير السيد من صاحب الإقطاعية إلى صاحب المصنع أو صاحب رأس المال. والواقع أن الكيان الاقتصادي للفرد في الدول الرأسمالية يخضع خضوعاً كاملاً لسيطرة أصحاب رءوس الأموال. ولكن الحرية الشخصية – فيما عدا هذا– مباحة للفرد في أوسع الحدود، إلى درجة القداسة التي لا ينبغي أن تمس ولو خرجت عن حدود الأدب واللياقة...

وما زلت أذكر خبراً نشرته الصحف العالمية على سبيل التفكهة والترفيه عن القراء، وهو بالغ الدلالة في معناه: ذلك أن جلسة من جلسات الكونجرس الأمريكي تعطلت، لأن امرأة تقطن في عمارة مواجهة للمجلس قد وقفت في شرفتها عارية... تماماً لا يستر جسدها شيء البتة.. فانشغل الأعضاء –المحترمون!– بفتنتها الطاغية، وتعطلت أعمال الدولة، ريثما بعث رئيس المجلس "يرجو" السيدة الفاضلة –أو لعلها آنسة– أن تدخل من الشرفة، أو تكتسي، ليتسنى للمجلس أن ينظر في سياسة العالم!!

وهكذا نرى أن الحرية قد أبيحت في الميدان الذي كان ينبغي أن تقيد فيه، بينما هي مغلولة إلى درجة خطيرة في ميدان آخر كان أحرى أن تعدّل فيه القيود بما يحقق العدالة للجميع.

وكان من نتيجة هذه الإباحة أن توسع الناس في تقدير المدى الذي يذهبون إليه في تحقيق حريتهم؛ ونشأ من ذلك لا محالة أن يعتدي أفراد على حقوق أفراد آخرين، أو على كيان المجتمع بوصفه الإطار الذي يحفظ مصالح الجميع.

وكان القانون فيما مضى صارماً في توقيع العقوبة على الفرد المعتدي، وخاصة حين كان الاعتداء يقع من أحد أفراد القطيع ضد السيد المطاع (ولو لم يكن في الأمر جريمة حقيقية). ولكن العقوبات ظلت تخف بالتدريج، حتى صارت الجريمة الوحيدة التي تشتد الدول الرأسمالية في محاربتها هي الاعتداء على رأس المال. أما الجرائم الأخرى، والخلقية منها خاصة،

فقد صارت تلتمس لها المعاذير، وتخفف العقوبة عليها إلى أقصى حد ممكن، إلى حد اعتبارها أحياناً مخالفة هينة يعالجها القاضي "بكلمتين" وتنتهي المسألة في بساطة ويسر!

وهنا تدخل علم النفس التحليلي ليبرر الجريمة!

يقول ألدوس هكسلي في كتابه (Texts and Pretexts): "إنه لا مناص من أن يقف المحلل النفساني إلى جانب المجرم الخلقي".

وهذا صحيح. فالتحليل النفسي يهبط مع الإنسان من الذروة إلى الدرك الأسفل، يهبط من الشجرة المورقة المزهرة المثمرة، إلى البذرة الغارقة في الطين. فموضع اهتمامه الدائم، ليس هو الإنسان في آفاقه العليا، وإنما هو المنبع الذي تصدر عنه الأعمال، أي الدوافع الفطرية، والطاقة الشهوية الجامحة. والمحلل ينسى –حين يركز اهتمامه كله في هذا الميدان– أن في الإنسان طاقات أخرى غير طاقة الشهوة، من بينها القوة المتحكمة في انطلاق الشهوات.

أو هو لا ينسى، ولكنه ينظر إليها من زاوية أخرى. فهو موكل دائماً بدراسة حالات المرض النفسي، وهذه تنشأ من الكبت، من الصراع الذي ينشب بين الشهوة الجامحة والقيد المفروض عليها من الخارج، أو من الداخل، حين يتلبس الإنسان بالقوة المسيطرة عليه من الخارج، ويتولى عملها في داخل النفس دون أن يحس.

فهو إذن ينظر إلى هذه القيود نظرة الكراهية والبغضاء. ويرى –من وجهة نظره– أنها تجرم في حق هذا الفرد إذ تسبب له آلاماً مزعجة، وتعطل نشاطه، وتبدده فلا يفيد منه أحد.

وبطول مصاحبة الحالات المريضة، والاهتمام بها، يتخذ المحلل النفساني –دون وعي منه تقريباً– اتجاهاً عدائياً نحو القيود كلها، يشمل الضروري منها والزائد عن المعقول[1].

وإذ كان المجتمع هو الذي يفرض القيود، فهو في نظر المحلل النفساني مجرم مجرم مهما برر موقفه، ومهما قال إنه يضع القيود لكيلا تصطدم الرغبات الجامحة والميول المتطرفة!

ولكن المحلل النفسي في وقوفه إلى جانب المجرم الخلقي لا يكون على صواب. وكل ما يقوله في تبرير الجريمة هو في الواقع كلام يفسر ولا يبرر. يفسر الجريمة بشرح الخطوات النفسية

([1]) حين كتبت هذا في الطبعة الأولى لم يكن قد تبين لي بوضوح أن وراء فرويد –وعلم النفس التحليلي من بعده– مخططاً تخريبياً، يقوم بتبرير الجريمة، والجريمة الخلقية بصفة خاصة، لتنتشر الجريمة في المجتمع.

المتتابعة التي أدت إلى حدوثها. ولكنه لا يبررها، لأنه —كما قلنا من قبل– يغفل القوة الضابطة في كيان الإنسان، وهي واقع علمي لا سبيل إلى إغفاله، ومن الخطأ ولا شك أن نقيم نظرياتنا وتشريعاتنا على أساس إغفاله أو التهوين من قيمته في الحياة البشرية.

كما ينشأ الخطأ كذلك من اعتبار كل مجرم مريضاً نفسياً، لا إرادة له فيما وقع منه من اعتداء، بل مجنياً عليه من المجتمع، ينبغي علاجه من شذوذه، دون أن يوقع عليه عقاب.

والاعتقاد بالجبرية النفسية هو الأساس الذي يقوم عليه هذا الاتجاه وما يترتب عليه من تشريعات وقوانين. وقد كان فرويد بطلاً مغواراً في هذا الميدان، وإليه يرجع الفضل أكثر من غيره في تقرير هذا المبدأ النفسي الخطير.

وقد تكلمنا من قبل عن فرويد، وبينا ما نعتقده من أسباب شذوذه؛ ووصلنا إلى تقرير هذه الحقيقة: وهي أن تطرفه في تطبيق نظرياته، وإغفاله للجوانب العليا من البشرية، أو الإصرار على تفسيرها بما يلوث نظافتها، هو الذي يقلل من قيمة هذه النظريات من الوجهة العلمية، ويحدد المجال الصالح لتطبيقها.

وما يكابر أحد في أن بعض بواعث الجريمة في المجتمع المسيحي الغربي، قد نشأ من سوء تطبيق التعاليم المسيحية، ومن الكبت الذي لا مبرر له في واقع الأمر... فإن الحجر على كل نزعة فطرية، وتحريم الإحساس بها في داخل النفس، لا بد أن ينشأ عنه هذا الصراع المدمر الذي ينتهي أحياناً إلى الجريمة.

ولكن التوسع في تطبيق هذه النظرية، حتى تشمل كل جريمة، أمر شديد الخطورة فضلاً عن مجانبته للحقائق العلمية. فكثير من الجرائم في المجتمع الغربي الحديث لا ينشأ عن الكبت، وخاصة بعد أن انحلت القيود، ولم يعد هناك رقيب من المجتمع ولا من داخل النفس يحرم النشاط الجنسي، وهو مبعث الجريمة كلها في نظر فرويد، وكثير غيره من المحللين. وإنما تنشأ الجريمة في هذا المجتمع المنحل من المبالغة في الإباحة ونزع القيود، لأن هذا يؤدي إلى إغراء كل فرد "بتحقيق ذاتيته" على أوسع نطاق، فتتضارب المطالب وتصطدم الرغبات، وتحدث الجريمة.

وحين تتجه التربية إلى عدم إقامة الحواجز أمام رغبات الطفل —خوفاً من الكبت– تكون النتيجة أن ينساق الفرد مع شهواته إلى آخر حد، ويرى في ذلك حقاً مقدساً لا يجوز لأحد أن يقف في طريقه. وفي الوقت ذاته يتقدم علماء النفس التحليليون والتجريبيون،

بمبررات هذا النظام المنحل، حين ينادون بمبدأ الجبرية النفسية الذي يهبط بالإنسان إلى مستوى الحيوان.

على هذا الأساس الخاطئ في التربية وعلم النفس، يقوم المجتمع الغربي المنحل، وتنتشر فيه الجريمة؛ ثم تقدم لها المبررات، فتزداد يوماً بعد يوم، ويتغاضى عنها المجتمع، ويأخذها على أنها أمر واقع لا تجوز مقاومته، ولا تستطاع حتى لو أريدت، لأنها مسألة جبرية ليس لأحد عليها سلطان!

* * *

أما الشيوعية فترى أن الجريمة تنشأ من أسباب اقتصادية لا جنسية، ولا نفسية على وجه العموم. وأنه طالما كان المجتمع غير متوازن من الوجهة الاقتصادية فلا بد أن تنشأ الجرائم، لأنه لا سبيل إلى قيام الفضائل في نفوس الفقراء الحاقدين، ولا الأغنياء المترفين. ولذلك فهي ترى أن وجود الجرائم في البلاد الرأسمالية أمر طبيعي، وأنه ليس من العدل مقاومتها ولا فرض العقوبات عليها. كما أنه لا سبيل إلى القضاء عليها مع بقاء الأساس الاقتصادي غير متوازن. وقد مر علينا أنهم يؤمنون بالجبرية الاقتصادية في الحياة.

أما في داخل البلاد، فنحن لا نعلم الأمور كلها على وجه اليقين. ومعظم ما يصلنا هو الدعاية إما منهم وإما ضدهم. وعلى أي حال فهم يزعمون أن الجرائم قد انتهت، وإن كانوا لم يزعموا بعد أنهم قد ألغوا المحاكم والسجون! ولعلهم يقصدون أن جرائم السرقة هي التي انقطعت. فإنه لا موجب فعلاً للسرقة إذا أتيح لكل شخص كفايته من الطعام والشراب والكساء. وإن كانت الأخبار قد جاءت ذات مرة بمحاكمة صبي في الثالثة عشرة لأنه زوّر في البطاقات الخاصة بمواد التموين، ليحصل على قدر أكبر من نصيبه. وقالت الصحف التي أوردت الخبر: إن القاضية نصحت الصبي بألا يعود لمثلها أبداً، ثم أطلقت سراحه.

قد تكون هذه دعاية!

إنما المهم أن الشيوعية لا تنظر إلى الأخلاق على أنها قيمة ذاتية؛ وربما قالت عنها إنها أشياء ابتدعها الإقطاعيون والرأسماليون لحماية نفوذهم من أن تمتد إليه يد "الشعب" المتطلع المحروم! ولذلك فإن ضرورتها تسقط حين يزول الإقطاعيون والرأسماليون وما كان لهم من نفوذ!

وهم لا يرون في الجريمة الجنسية جريمة، لأنهم لا يؤمنون بالإنسانية المترفعة المتعالية عن مستوى الحيوان. ولأنهم في الوقت ذاته مضطرون إلى إطلاق القطيع على سجيته في المسألة الجنسية، تنفيساً عن الطاقة المكبوتة، ومنعاً لها أن تتكتل فتتجه يوماً إلى تحطيم النظام[1].

أما الجريمة الكبرى في الدولة الشيوعية، الجريمة التي تنشق لها السماء وتنهد الجبال هداً، فهي انتقاد النظام الشيوعي، أو التعرض لواحد من الآلهة المقدسين، وخاصة الإله لينين[2]! عند ذلك ينسى القاضي رحمته المشرقة التي تؤثر النصح على العقاب، وتنسى الدولة مناعة النظام الذي لا تتغلب عليها قوة أياً كانت، وينسى الدعاة جبرية الاقتصاد، التي تخضع الأرض والسماء لسلطانها بطريقة ذاتية، غنية عن كل قانون.. وينقضّون جميعاً على هذا المجرم الأثيم فيسرعون به إلى المشنقة إن أرادوا له الرحمة، أو ينفونه في ثلوج سيبريا إذا أريد له العذاب! وعندئذ تخرج الصحف الروسية مفاخرة مباهية، بأن الدولة قد قامت بحركة تطهير لحماية النظام!

وبعد ذلك يجدون في أنفسهم الجرأة التي ينتقدون بها عقاب المسلم المرتد، ويتصنعون العطف على هذا "المسكين" الذي لا جريمة له إلا حرية الفكر! وقد تكلمنا في الفصل السابق عن الردة، وسنعود إليها هنا عند الكلام عن الحدود في الإسلام. ولكني أريد أن أثبت في هذا المقام أن شخص الحاكم لا قداسة له في النظام الإسلامي. وانتقاده ليس ممنوعاً. بل إنه لواجب محتم على كل مسلم أن يوجه النقد للحاكم إذا رأى أنه أخطأ في فهم الشريعة أو تنفيذها. والنبي صلى الله عليه وسلم يأمر المسلمين أن يأخذوا على يد الحاكم الظالم وإلا كانوا عرضة لغضب الله. والله يقول "وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً" فيشرك الجميع في المسئولية إذا سكتوا عن الأخذ على يد الظالم، وإن كانوا هم أنفسهم لا يظلمون.

وننتقل الآن إلى الجريمة والعقاب في الإسلام.

---

(1) يزعم الشيوعيون أولاً أن النظام ليس في حاجة إلى حماية لأنه محبوب من "الملايين". وصحيح أنه يحقق لهم مصلحة مؤكدة، ولكن هذا لا ينفي أن سلب الناس حريتهم الفردية قد يؤدي في أية لحظة، لو ترك بدون تدبير معين، إلى الانتقاض عليه. ويزعمون ثانياً أن روسيا قد ارتدت إلى المحافظة على الأخلاق. وسواء كان ذلك صحيحاً أو كان دعاية للترغيب.، ففيه على أي حال اعتراف صريح بأن الأخلاق ضرورة لا غنى عنها للحياة البشرية.

(2) سمحت روسيا أخيراً بمهاجمة ستالين ولكن بعد أن مات!

الجرائم الكبرى التي يعاقب عليها الإسلام هي القتل والسرقة، والزنا، وشرب الخمر، ثم الردة والإفساد في الأرض. وهي التي ورد ذكرها في هذه الآيات والأحاديث[1]:

(1) "وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ". "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى". "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ". "وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً". "من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن أخصى عبده أخصيناه" حديث.

(2) "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ".

(3) "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ".

وقضت السنة بالرجم لا بالجلد في حالة الإحصان —أي الزواج.

(4) من شرب الخمر فاجلدوه. فإن عاد فاجلدوه" حديث.

(5) "من بدل دينه فاقتلوه" حديث. "أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن عاد، وإلا فاضرب عنقه" حديث.

(6) "إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ".

* * *

ولننظر أولاً في الحكمة التي تقضي بتحريم كل عمل من هذه الأعمال، ولا بأس في أن نمر في الطريق ببعض النظريات الغربية.

([1]) اكتفينا هنا بالجرائم الكبرى التي نزلت فيها الحدود، لأننا بصدد النظرية العامة. وفي كتب الفقه تفصيل واسع لمن يريد الاستزادة، وخاصة في شأن التعزير والحبس في الأمور التي دون الحدود.

يلح فرويد –وخاصة في كتاب (Totem and taboo)– في القول بأن الجريمة اتجاه طبيعي للبشرية! ويستشهد على ذلك بأن الشيء لا يمنع إلا إذا كان هناك دافع قوي إلى ارتكابه. فلولا أن في البشرية اتجاهاً قوياً إلى الجريمة ما وضعت لها الحواجز والعقوبات.

وهذا حق. ولكنه حق يراد به باطل! فالنزعة إلى الاعتداء موجودة، بل متأصلة في أعماق البشرية. والقرآن يروي قصة بني آدم ليدل على أن الجريمة قديمة قديمة في النفوس.

ولكن هذا جانب واحد من جوانب "الإنسان". وهو لم يصبح إنساناً إلا بأن أصبح له الجانب الآخر الخيّر المشرق، الذي ميز بينه وبين الحيوان.

ويصر فرويد على أن هذا الجانب لم ينشأ نشأة ذاتية، شأنه في ذلك شأن الاتجاه الإجرامي الشرير، وإنما نتيجة الكبت الذي وقع على الطاقة الغريزية الميالة إلى الاعتداء. ولا نريد هنا أن ندخل في جدل مع فرويد! وإن كان هو قد أقر بأن الإنسان الأول قد أحس بالندم على الجريمة التي اقترفها. ولكنه تهرب من هذا السؤال: من الذي فرض هذا الإحساس على الإنسان الأول؟ من الذي أوحى إليه بأن عملاً من الأعمال خطأ لا يجوز أن يعمل؟!

وسنناقش في فصل "القيم العليا" آراء فرويد في هذا الشأن بشيء من التفصيل. ولا يمنعنا هذا من أن نقول هنا: إن الجانب الخيّر المشرق من الإنسانية قد وجد فعلاً، مهما يكن السبب الأول في نشأته، وإن الإنسانية –في مجموعها– لم تعد تتجه إلى الجريمة. وإنه لو ترك الناس أحراراً من كل قيد –الآن– لما أقبلوا– كلهم– يتقاتلون كالوحوش. وإنما سيبقى جانب منهم، كثير أو قليل، يميل إلى السلام وينفر من الجريمة.

بل نعود إلى قصة ابني آدم ذاتها كما وردت في القرآن، والكتب السابقة، وكما روتها أقاصيص الأمم قبل ذلك، فنرى أنها تثبت اعتداء واحد منهما على الآخر، وامتناع الثاني عن ارتكاب الجريمة. يقول القرآن في ذلك: "قال لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك". فمنذ الإنسانية الأولى إذن كان هناك من يترفع عن الجريمة وينفر من ارتكابها.

ويتفكه بعضهم تعليقاً على هذه القصة فيقولون: إن الأخ الشرير قد قتل أخاه الخيّر، فجاء نسل البشرية كلها بعد ذلك من هذا الشرير! وتمشياً مع الفكاهة نقول: إن البشرية مزيج من نسل هذا وذاك، فهي إذن مزيج من الخير والشر، وقد يرث أحد الأحفاد قسطاً أكبر من طباع هذا الجد أو ذاك فيكون مجرماً، أو يكون من القديسين!

ونعود إلى فرويد. فهو لا يكتفي بتلويث الإنسانية في نشأتها الأولى. ولكنه يتعقبها إلى هذه اللحظة، فيقول: إن مركب أوديب، أي عشق الأم، هو السبب في كل جريمة، إذا لم يتغلب عليه الصبي في الوقت المناسب "فيكبته" وينشئ مكانه الفضائل والأخلاق!

ونحن على أي حال نحاسبه بأقواله! فهو يقر بأن الغالبية العظمى من الأطفال تتغلب على هذه العقدة بطريقة طبيعية، وأن الشواذ فقط هم الذين يخفقون في ذلك، فينحرفون إلى الاضطرابات العصبية والنفسية.. وإلى الإجرام.

الحمد لله! ليس كل الناس إذن مجرمين! والجريمة —في جميع أحوالها– شذوذ عن الطريقة السوية، وليست أصلاً من الأصول.

* * *

يحرص الإسلام أشد الحرص على أمن الجماعة وسلامتها. فهذا هو الطريق الوحيد الذي يكفل لجميع الأفراد أكبر قسط من السعادة في الحياة. وليس في وسع أي نظام أن يضمن للأفراد سعادتهم وطمأنينتهم من طريق آخر غير الحرص على كيان الجماعة واستقرارها، تبعاً للبديهية التي ذكرناها من قبل وهي أن الجماعة هي مجموع الأفراد.

وكل الجرائم التي حرمها الإسلام هي أعمال تفسد أمن المجتمع، وتؤدي —لو تركت وشأنها– إلى اضطراب الأمور، وإشاعة الفوضى والقلق في النفوس.

فكيف يعيش الناس آمنين، وكيف ينشطون إلى أعمالهم التي تعود عليهم بالخير، وعلى الإنسانية كلها بالرخاء والتقدم، إذا أبيحت مثلاً حرية القتل؟

ولا نحتاج إلى بيان تلك البديهية. ومع ذلك فلا بأس من ذكر هذه الحقيقة التاريخية، وهي أن كل الفترات التي ساد فيها الاضطراب، وتقوض فيها الأمن، كانت فترات تأخر في تاريخ البشرية. وأن العلوم والفنون، والحضارة بوجه عام، لم تتقدم إلا في الشعوب التي استقرت فيها الأمور. وذلك طبيعي من الوجهة النفسية، لأن الفرد الذي يتوجه بكل همه إلى حماية شخصه وأهله من الاعتداء، لا يبقى لديه من الطاقة ما ينفقه في علم أو فن، بل لا يتجه إلى ذلك ولو وجد فضلاً من الطاقة. ويقول علماء النفس في ذلك: إن الغرائز أو النزعات الفطرية لا تنشط إلى العمل، إلا بعد أن تطمئن الغريزة الأولى. وهي غريزة حفظ الذات.

فتحريم القتل بديهية لا تحتاج إلى مبررات.

أما السرقة فقريبة من القتل، وإن كانت أخف ضرراً وأثراً. فهي اعتداء على الملك لا على النفس. أي اعتداء على نزعة فطرية تالية في الترتيب والأهمية لغريزة حفظ الذات[1].

ولكن إطلاق السرقة بدون عقاب يؤدي إلى حالة تقرب من إباحة القتل. فهي تجعل الناس في شغل شاغل بحماية أملاكهم، وذلك يبدد نشاطهم الذي كان يمكن أن يوجه الناس إلى شيء نافع. كما أنه يمكن أن يؤدي إلى الجريمة الكبرى حين تضطغن النفوس، وتقوم بينها الحزازات. ولا بأس هنا أيضاً من ذكر حقيقة تاريخية أخرى: هي أن حركة التجارة، الإقليمية والعالمية سواء، لم تكن تنشط إلا في الفترات التي يسود فيها الأمن ويمتنع السلب والنهب. أما فترات الفوضى التي كانت تقضي على حركة التجارة، فكثيراً ما كانت تؤدي إلى المجاعات في شتى بقاع الأرض.

حين يأمن المالك على ملكه، ويطمئن باله من هذه الناحية، يمكن أن يتجه إلى تحسين وسائل الإنتاج. وقد كان هذا من أكبر حوافز البشرية على التقدم والرقي.

فتحريم السرقة كذلك أمر لا يحتاج إلى جدال[2].

وإنما يكثر الجدل بشأن تحريم الزنا؛ ويأتي الجدل من الغرب المنحل، ومن بريقه الخاطف الذي يفسد أعصاب المحرومين والمنحلين في الشرق، فيفتحون عيونهم مبهورين، ويسيل لعابهم إلى الإباحية الحيوانية، كما يسيل لعاب الكلب على الطعام.

لماذا يحرم الزنا، ويكبت الناس دوافعهم الغريزية التي تريد أن تنطلق، والتي لا بد أن تنطلق، شئنا أم أبينا، وأقمنا الحواجز أم حطمناها؟ لماذا لا نرضى بالأمر الواقع، ونكون

([1]) لعل الترتيب الطبيعي أن نتحدث عن جريمة الزنا بعد القتل. فغريزة الجنس هي التالية في الترتيب لحفظ الذات. وقد تمشى الإسلام في تقرير العقوبة مع هذا الترتيب التنازلي. ولكني أخرتها فقط لأن القتل والسرقة لا يثور الجدل بشأنهما كما يثور بشأن الزنا، فأردت أن أرجئ ما يحتاج إلى جدل، إلى ما بعد البديهيات المسلم بها.

([2]) يقول الشيوعيون: إن السرقة لا تنشأ إلا في المجتمع الإقطاعي أو الرأسمالي الذي يزاول الملكية الفردية، وإنه حين تلغى الملكية الفردية تلغى جريمة السرقة في ذات الوقت ولا نحتاج لوضع العقوبة لها. وقد تحدثت في كتاب "شبهات حول الإسلام" عن الملكية الفردية بما يثبت أنها نزعة فطرية أصيلة لا ينبغي مقاومتها ولا كبتها، خاصة وأنه يمكن تهذيبها بحيث يتحقق منها الخير ويمتنع الشر إلى أقصى حد. وقد عرضنا هنا في هذا الفصل كيف يعالج الإسلام أمر السرقة بما يحقق العدالة الكاملة.

معقولين، بدلاً من هذا النفاق الاجتماعي البغيض! إن كل واحد فينا بينه وبين نفسه يشتهي.. وكل واحد يعرف أنها شهوة لذيذة تأخذ بالألباب. فلماذا.. لماذا بالله تحرمونها أيها المتأخرون.. المنافقون؟!

وقد أفردنا فصلاً خالصاً للمشكلة الجنسية من جميع نواحيها. ولكني أحسب أنني تحدثت بما فيه الكفاية عن نتيجة الفوضى الخلقية، وكيف تنخر في كيان الأمة كالسوس، وأن آثارها البغيضة قد تخفى جيلاً أو بضعة أجيال ولكنها تظهر لا محالة في آخر الأمر؛ وتظهر بصورة فتاكة مدمرة، تقضي على كيان الشعب كله في فترة وجيزة. كما ينهار في لحظة واحدة بناء بيت كامل حين يتخلخل الأساس.

وشواهد التاريخ كلها تثبت هذه الحقيقة بصفة مؤكدة. لم تشذ أمة في الأرض عن هذا المصير حين أدت إليه مسبباته الطبيعية: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً".

وإنه للبله وقصر النظر هو الذي يدعو شخصاً أن يقول: ومن أدراني أن الكارثة ستحدث في هذا الجيل، أو تصيبني أنا بالذات من بين المصابين؟ فلأستمتع. ولأمض إلى آخر الشوط، وليكن بعد ذلك ما يكون...

وما ينبغي لأي نظام يعمل لحياة الأجيال كلها، لا لجيل واحد بعينه، أن يجاري هذا البله الخطير، فيبيح للناس شهواتهم، وهو يرى رأي اليقين بعين المستقبل أن الكارثة تنتظرهم في آخر الطريق!

ولو فعل فأي نظام يا ترى يكون؟!

وكيف يجاري سنة الحياة في التقدم والتطور، وهو يبيح للإنسانية أن تهبط وتنحط، وتنفق طاقتها في لذة الحيوان، فلا تجد رصيداً بعد ذلك للارتفاع، ولا ميلاً إليه ولو وجد الرصيد؟

ثم... كيف يجوز لأحد أن يسرق عرض أحد في غيابه؟ من يبرر ذلك؟ وكيف يجوز أن تسرق عواطف أب، بالتدليس عليه بولد غير ولده؟ أم يقولون: إن هذه المشاعر –مشاعر الغيرة على العرض، أو الغيرة من العشيق– لا توجد إلا في الشرق المتأخر؟ فلينظروا في حوادث الانتحار وحوادث القتل التي تحدث في الغرب المتحضر، نتيجة لإحدى الغيرتين.. في فرنسا أم المدنية، وأمريكا أمة الآلهة القادرين!

إنه لعجيب أمر هذا الناس الذين يطلبون إباحة الزنا للمجرمين...

أما الخمر فقد كان أمراً طبيعياً أن يحرمها الإسلام. ولست أدري أن نظاماً يحترم نفسه يمكن أن يبيحها. وإذا كانت دول الغرب تأخذ المسألة على أنها أمر واقع، فإنها -مع ذلك- تعاقب السكير حين يخرج عن حدوده، حتى ولو لم يعتد على أحد ولا على شيء. لأن منظره وهو ملقى في الشارع، أو محتضن عمود النور يناجيه بآلامه وأمانيه، أو سائر يترنح لا تكاد قدماه تحتملانه.. منظر مؤذ لكرامة الإنسان.

ولكن الإسلام بالذات لم يكن ليبيحها، ولو أباحتها كل نظم الأرض..

فالخمر في حقيقتها هروب من واقع الحياة، وإعلان للهزيمة أمام التبعات!

فبدلاً من أن يواجه الإنسان شئون حياته ويتدبر الحلول لمشكلاته -ولكل إنسان على الأرض مشكلات- نجده يهرب من ذلك كله في كأس من الخمر، تخدر أعصابه رويداً رويداً، وتبعده عن تلك المشكلات، وتخلق له -في الخيال- عالماً جديداً ليس فيه شيء من تلك الواقع التي كانت تشغل باله منذ حين. عالماً يصنعه على عينه، وكما يشتهي. ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. فهناك نشوة تسري في عروقه، تخيل له أنه قد أصبح شخصاً جديداً، حياً، فياضاً بالحيوية والنشاط. وهذا الشخص الجديد كما يقول السكير الذي استشهدنا من قبل بكلمته، يحس أنه في حاجة إلى كأس أخرى. وهكذا لا يرتوي من الشراب. بل كلما شرب ازدادت شهوته إلى كأس جديدة، حتى يفقد وعيه، وتعجز أعصابه وفكره عن أداء وظيفتهما فيصير إلى ذلك الشخص المضحك المثير للسخرية الذي وصفناه منذ قليل. وقد يزيد على ذلك، فتصيبه نوبات القيء التي تثير الاشمئزاز والنفور.

وهب أن هذا الإسفاف لا يقع كله فإن الإسلام يكره الهروب من الواقع. إنه دين مواجهة ومجالدة. دين غلبة وجهاد. سواء جهاد الأعداء أو جهاد النفس الذي أشار إليه القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ولا يتيسر شيء من ذلك مع الهرب من مواجهة الحقائق واللوذ بالخيال المريض.

والحياة عادة كما كررنا أكثر من مرة. والذي يتعود أن يهرب من المشكلة ولا يواقعها، ويحلها هذا الحل الرخيص في عالم الخيال، شخص لا يصلح للجهاد. بل هو أقمن أن ينزوي عنه ويطلب السلامة من أيسر سبيل. والجهاد ليس الحرب والقتال فقط. فتلك مسألة استثنائية، وإن كانت تحتاج إلى تعويد النفس عليها، وتجنيدها لها، حتى إذا وقعت فجأة كان الناس على استعداد.

ولكن حياة السلم ذاتها مليئة بالمشكلات: فعلاقات الإنسان بأهله، وبرؤسائه ومرؤوسيه، وزملائه، ومواجهة المطالب التي لا تنتهي، كل ذلك في حاجة إلى الوعي الكامل، ولا يمكن أن تحلها كؤوس الخمر وعرائس الخيال! وكل شيء يحتاج إلى مرانة.. إنك لا تستطيع السباحة إذا لم تتعلمها وتمرن عليها. لا لأنك عاجز بطبيعة تكوينك، ولكن لأنك فقط لم تدرب. وكذلك لا تستطيع الوقوف للمشكلة والعمل على تخطيها إذا أنت لم تدرب على ذلك مرة ومرات، لا لأن كيانك في ذاته يعجز عن ذلك، ولكن لأنك تعجزه بعدم التدريب.

ومن هنا لا يستطيع المدمن أن يصحو فجأة فإذا هو قادر على مجالدة الأمور ومصارعتها، لأن جهاز المصارعة يتعطل بعدم استخدامه في مواجهة وقائع الحياة.

وقد يزعم الشارب أن هذا شأنه كفرد، وليس لأحد أن يتدخل في شئونه الشخصية ما دامت لا تؤذي أحداً سواه.

وفي هذا القول كثير من المغالطات.

فليس أولاً حراً في إيذاء نفسه! لأنه ليس ملكاً خالصاً لنفسه. فإذا قيل إن في هذا اعتداء على كيانه الشخصي فردنا على ذلك بسيط: إذا كان الفرد يريد أن يكون ملكاً خالصاً لنفسه فعليه أن يعتزل المجتمع كله، ويصنع لنفسه غذاءه وشرابه وكساءه، ويحافظ على أمن نفسه من كل خطر يتهدده. وليصنع بعد ذلك ما يشاء! أما إذا أراد أن يعيش في المجتمع، ويستفيد من حياته فيه أمناً ورفاهية وسعادة، فعليه إذن أن يضع نفسه تحت تصرف الجماعة، بقدر ما وضعها هو تحت تصرفه، في الخدمات التي تؤديها له. والجماعة في حاجة إليه صحيحاً معافى، لا في الجسد فقط، ولكن في النفس والعقل والضمير. فكل إيذاء يتعرض له الفرد، سواء بإرادته أو بغير إرادته، يعود بالضرر على المجتمع الذي يعيش فيه.

تلك هي المغالطة الأولى، وإن لم تكن الكبرى..

فهناك العدوى بالتقليد، وذلك أخطر ما في الموضوع. إن نزعة التقليد نزعة بشرية لا يمكن الفكاك منها. ومهما كان الفرد ممتازاً، ففي نفسه هذا النزوع الدائم إلى تقليد غيره، بغير وعي في كثير من الأحيان. فمن جرائم السكير أنه يضع القدوة السيئة أمام غيره، وفيهم من الضعفاء كثيرون. ولا يزعم هذا السكير أنه غير مسئول عن الآخرين، لأنهم لو شاءوا لامتنعوا عما يأتيه هو من السوء! فإنه لا يجوز لي أن أضع الجراثيم وسط الناس ثم أقول: إذا

كانت لديهم مناعة فلينجوا من الأمراض! وإنما علي أن أمنع الجرثومة في ذات الوقت الذي أربي المناعة فيه.

وأسوأ ما يكون الأثر على أسرة السكير، ولو علم أي جريمة يرتكبها في حق أولاده لجلد نفسه بنفسه قبل أن يجلده الآخرون. إن الطفل ينزع إلى إكبار والده، حتى ليرى فيه كائناً يشبه الإله! ثم هو –على غير وعي منه– يتلبس بشخصية والده في داخل نفسه، فيحاول أن يكون صورة منه. فكيف يكون الحال حين يرى أباه في تلك الهيئة المزرية المنفرة المهينة؟ إن صراعاً عنيفاً جداً يقوم في نفس الطفل، ولا يمكن أن ينتهي بالخير. فهو إما أن ينفر من والده ويحتقره، فيفصل في داخل نفسه بين شخصين كانا متحدين من قبل، فيلقي بأحدهما إلى الخارج، وينزوي بالآخر حائراً ليس له دليل. وإما أن يظل متلبساً به، مقتدياً بأعماله، فينشأ منحلاً ليسه له كيان. فإذا كانت طفلة، فهي إما أن تنشأ منحلة الأخلاق ساقطة، أو يصيبها النفور من الرجال جميعاً فتنفر من الزواج، وتصاب بالعقد النفسية إذا قسرت عليه. فكأن السكير يهدر كيان أبنائه، ويبدد حياتهم ويضعها في كف الشيطان.

ولا ننس المشاحنة والبغضاء التي تقوم بين الشاربين حين يفقد كلٌّ وعيه. فينسى إنسانيته، ويخرج بحيوانيته الكامنة في عقله الباطن. ثم إن شرب الخمر جريمة تغري بجرائم أخرى أهمها الزنا، والقتل في بعض الأحوال.

يقول القرآن: "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ" ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا الخمر فهي أم الكبائر". وذلك لما يتولد عنها من شرور أخرى، أثناء تعطل الإرادة الضابطة، والوعي الذي يزن الأمور. وعلم النفس التحليلي يؤكد هذه الحقيقة إذ يقرر أن الخمر تخدر "الرقيب" الذي يقف بباب العقل الباطن يمنع منه ما لا يجوز أن يخرج، فتنفلت الشرور الحبيسة فيه في غفلة من هذا الرقيب "المغفل"!

وسيان فعل الخمر وغيره من المخدرات كالحشيش والأفيون.. الخ. والذين يتشككون في حكم الإسلام عليها قوم قصار النظر، لا يتبينون طبيعة الإسلام. فما دام الإسلام يكره الهروب من الواقع، ويحتم أن يكون الإنسان في وعيه، ليعد نفسه على الدوام لمواجهة الأزمات والتغلب عليها، فكل شيء يسلبه وعيه –ولو إلى حين– حرام، صريح الحرمة في نظر الإسلام.

ويحضرني في ذلك وصف دقيق لفعل الأفيون في مشاعر من يتعاطاه، كتبه سومرست موم في قصة المأزق الحرج The Narrow Corner. كان يصف حالة رجل مضطرب

على ظهر سفينة شراعية صغيرة تعبر المحيط بين استراليا وأندونيسيا. والرجل في خشية من مواجهة البحر لأنه هائج مضطرب، ولم يكن له قِبَل به في مثل هذا المركب الصغير. فماذا يعمل؟ لقد هرب لأنه لم يستطع مواجهة العاصفة. هرب إلى قمرته في داخل السفينة وأخرج غليونه، فوضع فيه قدراً من الأفيون وأخذ يدخن (وقد كانوا في الشرق الأقصى يدخنونه!) ورويداً رويداً هدأت مخاوفه، فقد صارت هزات السفينة العنيفة، اهتزازاً لطيفاً كاهتزاز المهد بالطفل! ثم أخذ بالتدريج يسبح في "الملكوت". وخيل إليه أنه قد اكتسب قدرة فائقة. قدرة جسدية وعصبية وفكرية. وأنه قادر على حل كل مشكلات الأرض لو عرضت عليه. ولكنه مطمئن إلى قدرته تلك. فهي تحت تصرفه حين يريد. فلماذا يشغل باله الآن بحل المشكلات؟ كلا. كلا! فلينعم الآن بالخيال، وليترك المشكلات لحينها. ووقتها سوف يحلها بإشارة واحدة من بنانه، ولمحة واحدة من فكرة الخصب!!

وهكذا خيال المساطيل! فكيف يبيح الإسلام هذه الغيبوبة التي تشل الفكر وتعطل جهاز المجالدة والصراع! لا يحتاج الإنسان إلى كثير فكر ليعرف رأي الإسلام في المخدرات، وهو الحريص على تربية كل جوانب النفس، وخاصة جانب الإرادة الواعية، والمقدرة على ضبط المشاعر والشهوات.

* * *

بقيت جرائم الردة والإفساد في الأرض.

وقد بينا من قبل أن الردة لا تدخل في باب الحرية الشخصية. ونضيف هنا أن فيها كجريمتي الخمر والزنا خطر العدوى، لو تركت بغير عقاب. والارتداد تحلل من الالتزامات. ولا يمكن أن يتحلل فرد من التزاماته نحو ربه، التي هي في الوقت ذاته التزاماته نحو نفسه والجماعة التي يعيش فيها، دون أن يكون خطراً على بقية المجتمع، ولنتمش قليلاً مع خيال الذين يزعمون أن هذا حادث فردي يدخل في نطاق الحرية الشخصية. ما موقف هذا الفرد المرتد من بقية المؤمنين؟ إن خياله المريض يخيل له دون شك أنه هو المهتدي! وتلك مغالطة داخلية يقوم بها بينه وبين نفسه، لينكر أنه في الواقع يريد أن يتنصل من قيود الخلق ومن ضوابط الإنسانية، ليصبح حيواناً عربيداً يخضع لهاتف الشهوات.

هو إذن يزعم أنه هو المهتدي، وأن الآخرين –المؤمنين– مغفلون، يقيدون أنفسهم بالتزامات تحد من استمتاعهم بحيوانيتهم الطليقة! فهو يدعوهم إلى الهدى! ويبشرهم بالنور الجديد! والاستجابة لدعوة الشر، أو دعوة الانطلاق من القيود لا تحتاج إلى كبير جهد، فالإنسان أقرب إلى الهبوط منه إلى الصعود. وإنما التسامي والارتفاع هو الذي يحتاج إلى

جهد دائب. من المربي في أثناء الطفولة، ومن الإنسان ذاته حين يرشد، ومن ولي الأمر ليعاون الضعفاء الذين يتعرضون لمخاطر الهبوط. فيأتي هذا المرتد فيفسد هذا الجهد الطويل كله، ويرتد بالناس إلى الحيوانية الغريزية. فكيف يطلب المتشدقون بالحرية أن يباح هذا لمن يريد؟ ولا يزعم المرتد —كما يزعم شارب الخمر– أن هذا شأنه وحده، وعلى الناس أن يتحصنوا من شروره. فهذه سفسطة لا تثبت للنقاش.

ثم إن المرتد لا بد أن يرتكب شيئاً من الجرائم الخلقية، تلك الجرائم التي بيّنا خطرها على المجتمع من قبل. ولا تصدق من يقول لك: إنني ألحد —بالفلسفة!– ولكني أراعي قواعد الأخلاق. فقد كان الانفلات من قيود الأخلاق هو الدافع الأصيل الذي دفعه إلى الهروب من الدين. ولو وافق عليها، عن اقتناع حقيقي بضرورتها، وإيمان خالص بأن الإنسانية لا تتحقق إلا بها، لما وجد في نفسه حاجزاً يحجزه عن الله ودينه الحق.

ومهما يكن من أمر، فلن يتوقع أحد من نظام يحرص على سلامة الجماعة، سلامتها الجسدية والعصبية والفكرية والروحية، أن يبيح للمؤمنين أن يرتدوا إلى حظيرة الحيوانات.

* * *

أما الإفساد في الأرض فجريمة تندرج تحتها أعمال كثيرة: منها فتنة المسلمين عن دينهم. وقد كان هذا يحدث في بدء الدعوة، وانتهى باستقرارها وتمكنها في الأرض، وإن كان ما يزال ينطبق —من الوجهة القانونية– على عصابات التبشير التي تبثها الدول الأجنبية في البلاد الإسلامية.

ومنها إقامة العراقيل والاضطرابات أمام الحكومة الإسلامية الرشيدة، بدون وجه حق، وبنية خبيثة هي تقويض دعائم الإسلام، وإثارة الفتنة في صفوف المسلمين. وينبغي أن نفرق هنا تفريقاً حاسماً بين هذا العمل وبين معارضة الحاكم الإسلامي حين يخرج على شريعة الله. فتلك المعارضة واجب محتم على كل مسلم، لا يتم إيمانه دون القيام به. ويتهدده العذاب في الدنيا والآخرة إذا هو نكل عن أدائه.

ومن أهم ما ينطبق عليه كذلك "التكييف القانوني" لجريمة الإفساد في الأرض، إقامة العصابات للسلب والنهب والاعتداء على الأرواح والأعراض. فكل عصابة تتألف للسرقة أو النشل أو قطع الطريق أو نهب المحاصيل، أو نشر الدعارة والفساد الخلقي، داخلة في هذه الجريمة الشنعاء.

وقد كان حقاً أن تشدد العقوبة على هذه العصابات أكثر مما تشدد على الأفراد. فالفرد الذي يرتكب جريمة بمفرده أقل خطراً على أمن الجماعة وسلامتها، من الذين يجتمعون للشر ويتفننون فيه. فهم لكونهم جماعة، قادرون على تنظيم أنفسهم، بحيث يرتكبون أكبر قدر من الشر، دون أن ينالهم أذى كبير. فهم يعهدون إلى البعض منهم بأعمال الكشف، ليتمكنوا من الهرب إذا دهمتهم الشرطة. ويعهدون إلى البعض الآخر بالتسلح لحراسة الجريمة، ومهاجمة الشرطة والاعتداء عليها إذا وقع بينهما صدام، وهكذا يسعون في الأرض فساداً متبجحين معتزين بالإثم. فلا بد أن تكون العقوبة من الجانب الآخر عنيفة قاسية، ليرتدع من لا ضمير له من المجرمين. وإن عثمان يقول: يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

* * *

إلى هنا كنا نعرض الجريمة من وجهة نظر الجماعة المعتدى عليها. ولا يماري أحد في حق الجماعة في حماية نفسها ما يفسد أمنها وسلامتها. وإن من حقي وأنا قابع في بيتي أو منصرف إلى عملي أو إلى المباح من المتعة البريئة، لا أوذي أحداً ولا أشترك في إيذاء أحد، أن أستمتع بالاطمئنان الكامل على نفسي وأهلي وملكي المشروع. وعلى الدولة بوسائلها أن تحقق لي هذا الاطمئنان.

ولكن كثيراً من الغربيين "المتحضرين!" يتابعهم هنا كثير من "المثقفين" يستبشعون العقوبات الإسلامية، ويعدونها همجية بربرية، لا يجوز أن توصم بها الإنسانية وخاصة في العصر الحديث... عصر الهلاك الإجماعي بالقنابل الذرية والإيدروجينية وأشعة الموت، للشيوخ والأطفال والنساء، وللظالمين والأبرياء سواء!!

وهم يقولون لك: إن سمات البربرية والتأخر في هذا الإسلام أنه يهدر كيان الفرد، فيستسهل إعدامه، أو رجمه وجلده، أو قطع يده لأبسط الشئون. أوَ من العدل أن تقطع يد رجل من أجل عشر تمرات. أف! إنها لوحشية كريهة، إن كانت تصلح لأعراب الجزيرة في ظلمات الماضي، فإنها لا تصلح للعالم المتحضر في القرن العشرين...

ولا نسأل أولئك الملائكة المترفعين عن قنبلتي هيروشيما ونجازاكي، ولا عن معسكرات الاعتقال في الثلوج الباردة، وقوائم التطهير السنوية التي يعدم فيها الناس بالمئات والألوف. ولا نسألهم عن الزنوج –إخوانهم في المسيحية لا في الإنسانية فحسب– كيف يركلون بالأقدام حتى تفارقهم أرواحهم، فيصلبون في جذوع الشجر نكالاً وعبرة، لأنهم ارتكبوا جريمة شنيعة، وأصروا على ارتكابها: جريمة "الحياة" وهم ملونون!

لا نسأل عن شيء من ذلك، لأن أولئك المتبجحين لا يخجلون من أنفسهم ولا يتأثمون.

وإنما نقول لهم: إنه لا يوجد نظام على ظهر الأرض، شرقها وغربها سواء، يصون كرامة الفرد وإنسانيته بقدر ما يصنع الإسلام. فهو النظام الوحيد الذي يعتبر الجماعة مجرمة في حق الفرد إذا هي سلبته حق الحياة، فيبيح له أن يقاتلها، فإذا قتل فهو شهيد تدفع لأهله الدية، وإذا قتل فلا دية عليه. وهو لا يترك هذا أماني في الضمير، ولا دعاية شفهية. بل يجعله جزءاً من التشريع. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى". ويرتب ابن حزم على ذلك —وهو من كبار الفقهاء— فيقرر أن أي إنسان يموت جوعاً في محلة لزمت الدية على أهلها جميعاً (أو على الدولة ممثلة المجتمع).

والغربيون يستبشعون الحدود الإسلامية لأنهم يتصورون أنها تطبق كل يوم كعقوبات السجن والغرامة التي يطبقونها في بلادهم كل يوم، فيتصورون في المجتمع الإسلامي مجزرة هائلة لا تهدأ عن العمل: هذا يقتل وهذا يرجم وذاك يقطع... ولكن الواقع أن هذه العقوبات لشدتها وقسوتها لا تكاد تطبق أبداً! وربما يمضي الجيل الكامل لا يوقع فيه حد على أحد من الناس. فهي كما يقول عمر: "علّق عصاك بحيث يراها أهل الدار، ولا داعي للضرب بعد ذلك، فإنه يكفي التهديد!

ولكن أهم من ذلك كله أن الإسلام لا ينظر للجريمة بعين الجماعة فحسب، بل يمسك الميزان من منتصفه، فينظر إليها كذلك —وفي ذات الوقت— بعين الفرد الذي تقع منه الجريمة.

فهو حين ينظر إليها بعين الجماعة، فيقرر حقها في حماية نفسها من الجريمة، ويفرض لذلك العقوبات، ينظر كذلك بعين الفرد، فيرى مبرراته ودوافعه لارتكاب الجريمة، فيعترف بها، ويعطيها حقها الكامل من التقدير والرعاية، ويعمل على إزالة كل الدوافع المعقولة قبل أن يفرض العقوبة. فإذا حدث رغم هذا الاختياط الذي يحرص عليه أشد الحرص، أن قامت المبررات، سقط الحد ولم تكن هناك جريمة.

وأنا أستند في هذا إلى حادثتين لهما دلالة عميقة، وقعتا في عهد عمر بن الخطاب. وعمر بالذات لا يمكن أن يتهم بالتوسع أو التساهل في تطبيق الشريعة. وهو الذي حضر الرسول عليه الصلاة والسلام في نوبة من نوبات المرض الشديدة فوجده يقول: "ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً" فيقول عمر: إن النبي عليه الصلاة والسلام والسلام غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا.

فإذا كان هذا هو استمساك عمر بحرفية الشريعة، فلا يمكن أن يتهم بالتوسع والتساهل في أمور الشريعة.

فأما الحادثة الأولى فهي أنه أسقط حد السرقة في عام الرمادة –عام الجوع– فاعتبر الجوع شبهة تمنع إقامة الحدود.

والثانية وهي أبلغ في الدلالة، هي هذه الحادثة: "روي أن غلماناً لابن حاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة، فأتى بهم عمر، فأقروا، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم. فلما ولّى ردّه، ثم قال: أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له، لقطعت أيديهم. ثم وجه القول لابن حاطب بن أبي بلتعة فقال: وأيم الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك! ثم قال: يا مزني، بكم أريدت منك ناقتك؟" قال: بأربعمائة. قال عمر لابن حاطب: "اذهب فأعطه ثمانمائة".

هذه الحادثة كتلك، قاطعة الدلالة في أن العقوبة لا تنفذ في الإسلام، حتى يضمن ولي الأمر أن مبررات الجريمة غير قائمة. فإذا قامت المبررات –ولو على سبيل الشبهة– سقط الحد. والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يقول: "ادرءوا الحدود بالشبهات" فيجعل ذلك مبدأ تشريعياً، لا تصل الرحمة إلى أبعد منه في معاملة الفرد، حتى وهو يعتدي على أمن الجماعة وطمأنينتها.

* * *

ولننظر في الجرائم واحدة واحدة، فنرى المبررات المعقولة لها في نفس الفرد، وكيف يتفادى الإسلام قيامها في مشاعره قبل أن يفرض عليه العقاب.

إذا أحصينا جرائم القتل في أنحاء العالم كله، وجدنا معظمها يقع لأسباب اقتصادية أو لأسباب تتصل بالعرض.

فأما المسألة الاقتصادية فقد احتاط لها الإسلام بمبدأي التكافل الاجتماعي، والتأمين الاجتماعي.

فولي الأمر في الإسلام مكلف بنشر العدالة الاجتماعية، بحيث يمنع وجود الترف المجرم من جانب والحرمان الكافر من جانب آخر. وقد وضع الإسلام في يده تشريعات تحرم الربا وتحرم الاحتكار –وهما وسيلتا التضخم الرأسمالي الذي يفقد المجتمع توازنه– كما تحتم جباية الزكاة التي تأخذ قدراً من رأس المال ذاته – لا من الأرباح فحسب– وتشريعات تفتت الثروة

بالإرث، حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء، وجعلت له بعد ذلك كله حق أخذ فضول أموال الأغنياء وردها إلى الفقراء، على حد قول عمر. كما أوجب عليه الإسلام أن ينظر في أن لكل فرد في الأمة عملاً شريفاً يتكسب منه[1]، فإذا كان عاجزاً عن الكسب فعلى بيت المال أن يؤمّنه من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية...

وليس هذا فقط هو الإسلام. فهو يضيف إلى العدالة الاقتصادية، التي تضع الشيوعية كل همها في تحقيقها، وتنفض يدها من الأمر بعد ذلك، على زعم أن جبرية الاقتصاد — تعمل عملها دون تدخل من أحد! يضيف الإسلام إلى تلك العدالة الاقتصادية غاية أخرى يهتم بها أشد الاهتمام، ويدأب عليها، ولا يمل أن يلقي إليها همه: تلك هي تربية الفرد منذ طفولته على مشاعر الحب والألفة والتعاون، بحيث تُمنع الضغينة من القلوب.

فإذا كان الأمر كذلك فقد انتفت المبررات الاقتصادية للقتل والاعتداء. ومع ذلك، فإذا وجدت المبررات —رغم كل احتياط– فقد أبيح للفرد أن يقتل من في يده طعامه أو شرابه إذا منعه عنه، وخاف على نفسه الهلاك، كما يقرر الفقه الإسلامي.

فالإسلام إذن لا يترك المظالم الاجتماعي قائمة ثم يطالب الناس بالبعد عن الجريمة، بل يمنع هذه المظالم أولاً ويطلب منهم بعد ذلك ألا يكونوا معتدين.

أما الأسباب التي تتصل بالعرض، فقد ضمن الإسلام عدم قيامها بتشريع آخر هو حد الزنا. ولا يكتفي بذلك —كعهده في كل شيء– بل يعمل جاهداً على تعويد الفرد أن يضبط شهواته ويكبح جماحها في الحدود الشرعية المعقولة، التي تعود بالنفع على الجماعة والفرد في آخر الشوط.

فإذا كان المجتمع قائماً على الفضيلة، لأن أفراده قد تربوا على استنكار الحيوانية البهيمية، وإذا كانت هناك عقوبة توقع على سارقي الأعراض، فقد انتفت المبررات التي تدفع إلى القتل دفاعاً عن العرض.

* * *

(1) جاء رجل يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم، فنهاه عن السؤال ودبر له عملاً يقتات منه. وهذا مبدأ تشريعي صريح في بيان واجب الحاكم نحو الشعب في الدولة الإسلامية.

أما السرقة فدوافعها الجوع، والعجز عن الكسب الشريف، واضطراب الميزان الاقتصادي في المجتمع. وقد أسلفنا بيان الواجب المفروض على وليّ الأمر في الإسلام لملاقاة هذا الاضطراب، وتمكين كل فرد أن يجد العمل الذي يكسب به قوته وقوت عياله في حدود إنسانية كريمة. وبيت المال مطالب بتكملة النفقات الضرورية إذا كان العمل وحده لا يكفي. فإذا كان الفرد عاجزاً للمرض أو الضعف أو الشيخوخة، أو كان طفلاً، فعند ذلك يتكفل بيت المال بجميع النفقات اللازمة للحياة الكريمة. وذلك بالإضافة إلى التربية الإسلامية التي تحبب الإنفاق في سبيل الله، طمعاً في رضوان الله.

فإذا حدث —رغم هذا الاحتياط– أن وجد جائع يسرق ليأكل، أو يسرق ليستكمل وسائل حياته، فقد سقط عنه الحد بنص حديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

* * *

أما دوافع الزنا فهي الغريزة المسيطرة العنيفة الملحة، التي لا تهدأ ولا تكف عن الهياج.

وقد عالج الإسلام أمر هذه الغريزة من عدة وجوه. أولها التربية التي تعود الفرد على ضبط شهواته جميعاً ومن بينها شهوة الجنس، دون أن تكبتها بما يؤدي إلى الاضطرابات النفسية والعصبية. فإذا صرح للفتى المراهق أن يحس بالرغبة دون أن يتحمل قلبه إثماً، فهذا يخفف كثيراً من الحمل الذي يقع على الأعصاب. ويعالجها ثانياً بإيجاد مجتمع تحكمه الفضيلة، فلا يوجد فيه التبرج الذي يثير كوامن الشهوة، ولا الصور الخليعة ولا السينما ولا الإذاعة التي تشترك في هذه الجريمة؛ كما يضرب على أيدي تجار الأعراض المفسدين في الأرض؛ فيعمل بذلك على منع العوامل التي تستفز الغريزة إلى درجة السعار المجنون، الذي يتعذر معه الضبط والقياد. ثم هو يشغل الفتيات والفتيان بما ينفس عن الطاقة الحبيسة شيئاً من التنفيس. ولكن الإسلام يدرك من طبيعة البشر ما يجعله يعلم أن كل هذه الوقاية لا تفلح إلا في تخفيف عوارض الغريزة. فهو لذلك يقرر لها العلاج العملي الذي لا علاج غيره وهو الزواج. فيدعو إلى التبكير فيه، ويحض عليه بكل الوسائل، إلى حد أن يفرض على بيت المال أن يعاون من تقف حالته المالية عائقاً عن الزواج[1].

([1]) أول ما يتبادر إلى الأذهان هو استحالة هذا الحل في في المجتمع الحالي. وقد عرضت لتلك الاعتراضات بالتفصيل في فصل المشكلة الجنسية. وأنا على أي حال أتكلم عن المجتمع الإسلامي، لا عن المجتمعات التي لا تعرف من الإسلام إلا اسمه، والتي لا يمكن أن يقام فيها الحد.

فإذا وجدت هذه الاحتياطات العملية والتربوية، فقد سقطت المبررات المعقولة لهذه الجريمة. ومع ذلك كله فقد يحدث أن يعنف الإغراء بفرد حتى تنهار مقاومته، ولا يملك نفسه من التردي في الهاوية. فأي رحمة بهذا الفرد الضعيف أمام شهوته –رغم جريمته– أعظم من أن يكون في التشريع ذاته ما يعاونه على الإفلات من العقاب؟!

إن جريمة الزنا لا تثبت إلا بشهادة أربعة شهود يرون الجريمة فعلاً، وبدرجة التثبت واليقين. بحيث لو نقصوا عن أربعة، أو سحب واحد منهم شهادته، لاعتبر الباقون متهمين بالبلاغ الكاذب، ووقعت عليهم العقوبة بدلاً من توقيعها على المجرم الأصيل!

ولم يكن القصد من هذا الاختياط بطبيعة الحال تشجيع المنحلين على الفاحشة! ولكن قصد به ألا يتخذ الكاذب في هذه المسألة وسيلة للإيقاع بالناس بغير جريرة، إرضاء لضغائن شخصية، وأحقاد مريضة.

كما روعي فيه كذلك أمر بالغ الخطورة في نظر الإسلام. فإن صعوبة إثبات جريمة الزنا، ومعاقبة المبلغين إذا لم يتثبتوا، تجعل التبليغ عن الجريمة أمراً نادر الحدوث. فلا يتحدث المجتمع إذن عن وقوعها، ولا تلوكها الأفواه، وهذا هو المقصود. فإن كثرة الحديث عن وقوع الجرائم يهوّن أمرها لدى السامعين، ويغري ضعفاء النفوس بإتيانها –اقتداء بالمثل السيء. فأما حين لا يذكرها الناس في مجتمعاتهم، فإنها تظل مرهوبة يستبشع الناس حدوثها ولا يقدم عليها أحد. فيقف هذا حائلاً سلبياً يحول دون انتشارها. وهكذا يقصد الإسلام بتصعيب إثبات الزنا ألا تشيع الفاحشة بالسماع، وتظل قلوب المتطهرين والمتطهرات خلواً مما يخدش ترفعها ونظافتها. ولمثل هذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم من وقع في معصية فستر الله عليه فلم يره أحد، أن لا يعود فيقول صنعت كذا وكذا.

وإنما توقع العقوبة على المتبجح الذي يصل تبجحه إلى حد أن يضبطه أربعة من المارة متلبساً بجريمته. وأقول من المارة، لأن التجسس ممنوع بأمر القرآن. وتسور البيوت لإثبات الجريمة ممنوع كذلك إلا أن تقوم القرآن اليقينية على اتخاذها أوكاراً للمفسدين في الأرض، يسعون فيها فسادا.

وهذا المتبجح يرتكب في الحقيقة جريمة مزدوجة. فليس هو الشخص الذي استولت عليه نزوة الغريزة فلم يقدر عليها. وإنما هو العابث المستهتر، الهازئ بكل تقاليد المجتمع وقوانينه وآدابه، فهو لذلك لا يستحق الرحمة من الله ولا من الناس، فيقول القرآن عنه وعن شريكته في الجريمة: "وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ".

أما المجرم المتستر، الذي يراعي تقاليد الجماعة، حتى وهو يقع في الخطيئة، فهو أقل ضرراً على المجتمع لأن جريمته لن تشيع، فلا يكون هناك خطر العدوى بالقدوة السيئة. وهو متروك لضميره، ولعذاب الآخرة ينتظره في نهاية المطاف. فإما أن يتوب ويصلح، فعسى الله أن يغفر له، وإما أن يستمر في غيه، فيزيد عبودية لحيوانيته، فيقع يوماً تحت طائلة العذاب.

ذلك بين العزاب من الشبان المراهقين. ولكن المتزوجين أحياناً يقعون في الخطيئة. وقد كان المفهوم أن الزواج قد أحصنهم فلم يعودوا يجدون دافعاً للجريمة. وكان هذا هو السبب في تشديد العقوبة عليهم وجعلها الرجم حتى الموت لا مجرد الجلد. ومع ذلك فإن تلك العقوبة القاسية لم تقرر على الزوج أو الزوجة حتى تستنفد جميع المبررات المعقولة.. رغم أنهما متزوجان.

فهذه المبررات عند الزوج قد تكون طاقة جنسية شاذة عنيفة لا تكفيها زوجة واحدة. أو قد تكون كرهاً للزوجة لا تجعل الاتصال بها يحدث السكينة المطلوبة. وقد كان تشريعا تعدد الزوجات وإباحة الطلاق منظوراً إليهما من هذه الوجهة، مع المبررات الأخرى التي اشتملت عليها حكمة التشريع لمواجهة حالات "الطوارئ" الشاذة. فأما الزوجة فقد يكون عذرها كذلك أن زوجها عاجز عن إشباع رغبتها الجنسية أو تكون كارهة له بحيث لا تسمتع بالاتصال به. وهما حالتان تبيحان لها أن تطلب الطلاق وتحصل عليه.

وهكذا تسقط المبررات، ولا يبقى إلا الزجر بعقوبة قاسية تكافئ الجرم في شناعته.

* * *

أما الخمر فلست أرى كيف يتجه إليها شخص له فطرة سليمة! فلنسأل الشاربين إذن ما الذي يغريهم بها، فينكبّون عليها حتى ينسوا أنفسهم وكرامتهم!

يقولون إنهم يغرقون فيها هموم الدنيا، ويستبدلون بظلمة اليأس نشوة وانطلاقاً. ولكن أصحيح ما يقولون؟ وما قيمة النشوة التي يعقبها الخمار والدوار، ويتبعها في الصباح هم أسود يغشى الحياة كلها بظلمته كما كان بالأمس أو أشد؟

على أي حال، فالخمر من أدواء المجتمع المضطرب الذي لا توازن فيه..

فالترف الفاجر في القصور يبلد الحس بكثرة المتاع، والانكباب الدائم عليه، فيحتاج هذا الحس البليد إلى منشطات صناعية، ليستعيد شيئاً من نشاطه المفقود.

والفراغ التافه الذي يحيا فيه المترفون، يبعث على السأم والركود، فيحتاج هو الآخر إلى "مبهجات"صناعية، تخيل لصاحبها أنه يتجدد، فيحس أنه يعيش.

وهكذا تحيا القصور دائماً غارقة في الخمر، ما دامت غارقة في الفجور.

أما الشعب المحروم من جانب آخر فهو مكبوت محزون، تأكل الحسرة قلبه، وينغص الواقع حياته؛ ولذلك يلتمس المهرب في الخمر أو غيرها من "المغيبات" لينسى.. ينسى الهم والكبت والتنغيص طرفاً من الليل، فإذا أقبل الصباح عاد الهم من جديد.

وأشد الناس إقبالاً على الخمر هم العمال المتعطلون. فحالة التعطل هي أقسى ما يمر على العامل من الناحية النفسية، لا المالية فحسب. لذلك يشتد إدمانه على الخمر لينسى هذا العجز الذي يعيش فيه. وإذا كان فقيراً معدماً، فهو يشرب أردأ الأنواع، وهي في الوقت ذات أقدرها على شل التفكير.

وهكذا تلازم الخمر والمخدرات الأخرى كل مجتمع تشتد فيه الفوارق بين الطبقات.

ولكن الملاحظ أنها توجد اليوم في كل المجتمعات وتؤدي في كل منها وظيفة متقاربة، هي الهرب من الواقع السيء حيناً من الزمان... ولكن ذلك لا يستعصي على التفسير. فالمدنية الحديثة، كما صدرت عن الغرب المادي الذي لا يؤمن بالروح، ولا يرتفع عن المادة، مدنية ثقيلة الحمل على الأعصاب. وليس فيها الترفيه الروحي الذي كان يمكن أن يعوض الجهد الجسدي المضني، أو الجهد العصبي طوال النهار. فلا بد إذن من مرفه صناعي، يخلق هذا الجو المشرق، بعيداً عن كآبة الآلة الجامدة ذات الوتيرة الواحدة. الآلة الصماء التي لا تأنس إليها النفس، ولا يرتاح إليها الضمير. وبعيداً عن الجلسة المملة في مكاتب الحكومات والشركات، ساعات متطاولة من النهار في عمل صامت كئيب.

وقد لوحظ أن الخمر، وكل المفاسد الخلقية الأخرى، تسير دائماً في ركاب "المدنية" الأوربية، حيثما وصلت شرورها إلى ميدان جديد.

وكان يقال إن البرد القارس في أوربا هو الذي أجبر الأوربيين على شرب الخمر، ولكن انتشار شرب الخمر في منطاق شديدة الحرارة في أمريكا، كفيل بالرد على هذا الزعم، كما يرد عليه أيضاً وجود قوم في أبرد بلاد أوربا لا يشربون الخمر، ومع ذلك لا يحسون بنقص في نشاطهم وحيويتهم.

وإنما الحقيقية أن الجفاء الذي يتسم به الغرب المادي، لقيام علاقاته على غير روح الود الإنساني فترات طويلة من التاريخ، يحتاج إلى "مليّن" صناعي، يذيب هذه القشرة الجامدة التي كونّنها الصراع على لقمة العيش، ويصل إلى القرار الإنساني المطمور تحت الركام.

أما المجتمع الشرقي أو الإسلامي فإنسانيته دائماً حاضرة، طافحة على السطح، وعميقة في الضمير. فهو لا يلجأ إلى الخمر إلا هروباً من الملل المخيم على القصور، أو هروباً من الواقع السيء الذي ظلت تعانيه الشعوب في سياسة الحكم والمال، آماداً متطاولة، وما زالت حتى اليوم تعانيه.

والنظام الإسلامي الصحيح مكلف بإعادة التوازن إلى المجتمع كلما جنح إلى الاختلال. ومكلف بإيجاد عمل للمتعطلين، سواء من سكان القصور الفارغين، أو من الشعب الفقير. وبذلك تنتفي الحاجة القاسية والفراغ الممل.

والتربية الإسلامية كذلك، بما تبثه في القلوب من تراحم وتعاطف، لا تجعل أحداً يركبه الهم إلى الدرجة التي تلجئه إلى الهروب من الواقع، دون أن يناله من عطف الآخرين ورحمتهم ما يخفف عنه، ويرده إلى البِشْر والتطلع والرجاء. وفوق ذلك فالإسلام يعالج جفوة الحياة وتجهمها بالإشراقة الروحية التي تبعثها العبادة، وإن كان لا يستحب أن تشغل العبادة أحداً عن عمله الذي يرتزق منه، ولا عن الصحو الواجب للمؤمن المجاهد في سبيل الله.

ومع ذلك فحين يوجد –رغم كل احتياط– من تلجئه حالة نفسية أو جسدية إلى شرب الخمر، فهو لا يعاقب –في الحياة الدنيا– على مجرد شربها، وإنما يعاقب على الجهر بذلك بحيث يراه الناس. وتلك جريمة أخرى مضافة إلى الشراب. لأنها تعدي بالقدوة السيئة وتغري بالاستهتار.

أما الشارب المتستر، فحسبه عذاب الآخرة، إذا لم يتب إلى الله. والواقع أنه إذا لم يتب، فسوف يصل إلى الإدمان، والمدن لا يستطيع أن يضبط نفسه، فيصل في النهاية إلى العلانية التي توجب العقاب.

* * *

أما المرتد فلست أدري كيف أبحث له عن مبررات!

غاية ما أستطيع أن أقول: إنها نوبة من الشك تنتاب الفرد، فيشك في إلهه وفي كل ما حوله، حتى نفسه! أي أنها أزمة نفسية، دائمة أو موقوتة. أو خلل نفسي يؤدي إلى خلل في

التفكير. هذا طبعاً إذا أحسنّا الظن. وإلا فإن الرغبة في الانفلات من القيود، كامنة دائماً وراء هذا التحايل الفكري، مقصوداً كان أو غير مقصود.

والمجتمع الإسلامي يربي أفراده على الإيمان، ويطبع في نفوسهم الطمأنينة إلى الله، والتوجه إليه دائماً في كل مشكلة؛ ويعقد بين العبد والرب صلة وثيقة من الحب والرجاء، تنتفي معها الأزمات الروحية التي تثور في نفوس المتشككين. ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى النصيحة قبل توقيع العقوبة.

وعلى أي حال فالمرتد الذي يبقي أفكاره لنفسه ولا يذيعها في المجتمع، لا يناله العقاب في الدنيا، لسبب بسيط، هو أن أحداً لن يعرف به. وإنما يعاقب المجتمع دائماً على الجهر بالجريمة، لأن فيه خطر العدوى، وهو خطر يقوض أركان المجتمع في النهاية.

أما المرتد المستتر، فقد يعود فيهتدي. فيتوب الله عليه. وإلا فعذاب الآخرة للكافرين.

* * *

والإفساد في الأرض هو مجموع الجرائم السابقة كلها، وإنما يزيد عليها أن مرتكبيها ليسوا أفراداً متفرقين، بل عصابات مجتمعة، تقدر على "كميات" من الشر لا يقدر عليها شخص بمفرده.

ولا يمكن أن تقوم المبررات للإفساد في الأرض إلا في المجتمع المختل، الذي لا يجد فيه الناس العمل الشريف، أو الكسب المجزي على العمل الشريف.

والمجتمع الإسلامي الحق مكلف بأن يمنع تلك الحالة من الوقوع، وبمعالجتها إذا وقعت، بإعادة التوازن إلى المجتمع، فعندئذ لا توجد المبررات، ويحق العقاب على المفسدين.

* * *

وبعد فتلك نظرة الإسلام إلى الجريمة والعقاب.

وهي إذ تراعي حق الجماعة في الطمأنينة اللازمة لكيانها، وتضع لهذه الطمأنينة ما يكفلها من تشريعات، لا تغفل عن دوافع الجريمة في نفس الفرد. ولا تطبق العقوبة عليه حتى تضمن أولاً أن هذه المبررات غير قائمة في شعوره. وهي تعترف بكلا الدوافع الاقتصادية

والدوافع النفسية للجريمة، وذلك قبل أن يتشدق بهما المتشدقون في الغرب بما يزيد على ألف عام!

فأين هذه العدالة المطلقة، التي تمسك الميزان من منتصفه، وتعطي كل ذي حق حقه بغير تفريط ولا إفراط، من تخرصات المتخرصين على الإسلام، أو من العدالة الجزئية التي اهتدى إليها الأقزام؟

حقاً إن الإسلام لا يتطرف مع المدارس النفسية التحليلية ليقول إن المجرمين جميعاً مرضى لا يجوز للمجتمع أن يعاقبهم على ما أحدثه فيهم من شذوذ. ولكنه يوجه المجتمع — بكل الوسائل الاقتصادية والنفسية والروحية– إلى حالة لا تسمح بقيام الشذوذ النفسي. فإذا بقيت بعد ذلك حالات شاذة نادرة، وهو أمر لا معدى عن حدوثه أياً كان الجهد المبذول، فما ذنب البريء الذي لم يشترك أي اشتراك في إحداث هذا الشذوذ، حين ترتكب في حقه الجريمة؟ إن العدل ليقضي أن نضع العقوبات التي تخوّف هذا الشخص الشاذ من ارتكاب الجريمة، فيفكر مرات قبل أن يقدم عليها. فإذا كان الشذوذ عنيفاً بحيث يقضي قضاء كاملاً على الإرادة، فقد سقط الحد من تلقاء نفسه، لأن الحد لا يقام إلا على الشخص المسئول.

أما الحالات الخفيفة التي لا تقضي على الإرادة، وتقع فيها المسئولية، فغاية ما يحدث فيها هو "كبت" نوازع الجريمة خوفاً من العقاب. وذلك أخف ما يمكن أن يقع من الإجراءات، حرصاً على سلامة الأبرياء. والإسلام على أي حال يعمل على علاج الجميع بما يصلح نفوسهم، ويستخرج منها دوافع الجريمة قبل أن تقع بالفعل، كلما كان هذا في الإمكان.

ومهما يكن من أمر، فالمجتمع الإسلامي الصحيح هو أقل مجتمعات الأرض لجوءاً إلى العقوبة، لأنه أشدها حرصاً على بناء النفس الإنسانية على وضعها السليم.

المشكلة الجنسية

الجنس مشكلة[1]...

فالإحساس الجنسي هو أعنف الأحاسيس التي تخطر في نفس الفرد، بعد إحساسه بذاته. وطالما كان الإنسان مطمئناً على ذاته، من الوحوش الكاسرة والمفاجآت القاتلة، فالجنس هو القوة المسيطرة على كيانه، الموجهة له من حيث يشعر أو لا يشعر، في مسارب الحياة المختلفة وطرقاتها المتعرجة، ما لم يكن للحياة هدف أعلى، يستوعب الطاقة البشرية ويوجهها إلى القيم العليا، وإلى الجهاد في سبيل إقامة الحق والعدل.

لذلك كانت المدنيات التي تؤمّن الناس على أرواحهم وأملاكهم أبعث على استثارة العامل الجنسي وتوسيع نطاقه في الحياة، على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن، من أن المتوحشين أو البدائيين، أشد اهتماماً بالمسألة الجنسية. وإن كان ينبغي أن نفرق هنا بين العنف الذي يمارس به البدائيون شئونهم كلها، والجنسية من بينها، مع المجال الضيق والنطاق المحدود، وبين التهذيب العملي مع السعة والشمول عند المتحضرين.

ولذلك أيضاً كانت كل مدنية تجنح إلى الترف وتيسير وسائل العيش، دون أن تقيم للحياة هدفاً أعلى تجاهد في سبيله، أشد استثارة للشعور الجنسي، حتى لتجعله الشغل الشاغل، والهم المقعد المقيم، لا بتأثير الطعام الموفور والفراش الوثير والطاقة المذخورة التي لا تتفق في شيء فحسب، بل كذلك لسد الفراغ الشعوري الهائل الذي يتخلف بعد قضاء كل مطالب العيش من أيسر سبيل.

والمشكلة في الجنس أنه ضرورة وضرر في آن[2].

([1]) خطر لي فيما بعد (في الجزء الثاني من منهج التربية الإسلامية) أن استخدام كلمة "مشكلة" بالنسبة لأي دافع من الدوافع الفطرية أمر بعيد عن الصواب. وأن "المشكلة" لا تنجم من الدافع الفطري في ذاته، إنما تنجم من التوجيه الفاسد لتلك الدوافع. وأنه حين يطبق منهج التربية الإسلامية تطبيقاً صحيحاً في مجتمع مسلم فلن توجد "مشكلة" جنسية! (راجع منهج التربية الإسلامية، الجزء الثاني).

([2]) خطر لي فيما بعد (في الجزء الثاني من منهج التربية الإسلامية) أن استخدام كلمة "مشكلة" بالنسبة لأي دافع من الدوافع الفطرية أمر بعيد عن الصواب. وأن "المشكلة" لا تنجم عن الدافع الفطري في ذاته،

ضرورة لأن الحياة لا يمكن أن تستمر إلا بالتزواج الدائم، الذي لا يقف في جيل من الأجيالأ. فلا بد إذن أن يكون في نفس كل فرد في كل جيل ما يحمله على طلب الجنس الآخر ليتم التزاوج، ويخرج النسل الجديد الذي يعمر وجه الأرض. ولا بد أن يكون هذا الدافع من العنف والإلحاح بحيث لا يتمكن الفرد من الإفلات منه، ولو حدثته نفسه بالإفلات!

وضرر لأن الاستجابة الكاملة لهذا الدافع الملح تؤدي إلى هبوط الإنسان إلى مرتبة الحيوان، وتفسد الحياة كلها إذ تنتهي بها إلى أن تكون ضرورة جسد ونشوة غريزة، لا ترتفع إلى فكرة عليا، ولا شعور إنساني، ولا فن رفيع. وبذلك يتحطم المجتمع وتنهار الحضارة وينتهي كل شيء إلى البوار.

والتوفيق بين هذين المتناقضين هو مهمة الإنسانية!

ففي عالم الحيوان تقوم الغريزة بتنظيم مواسم معينة للنشاط الجنسي، حتى إذا تمت المهمة، وحملت الإناث بذور الأجيال القادمة، صام الذكر والأنثى كلاهما عن كل محاولة جنسية، صياماً ينشأ من عدم وجود الرغبة، لا من ضبطها وتقييدها بإرادة الحيوان.

أما الإنسان فقد تحرر من هذا القيد، وصارت الأيام كلها عنده موسماً صالحاً لهذا النشاط. وفي مقابل الحرية تقوم دائماً تبعة، فتلك سنة الحياة!

وهذه التبعة تقتضي أن يقوم الإنسان نفسه بتنظيم مشاعره الجنسية وضبطها، بحيث تحقق أهدافها المرسومة، ولا تعود عليه بالضرر فرداً أو جماعة.

وعلى قدر توفيقه في هذه المهمة يكون مدى ارتفاعه في سلم الرقي. فلن يكون مرتفعاً إذا هو أغرق في ملذاته الجنسية دون أن يصحو إلى أهداف الحياة الأخرى، التي لا تقف عند مجرد استمرارها على وجه الأرض، بل تهدف دائماً إلى التحسين والارتفاع.

ولن يكون مرتفعاً الرفعة الحقيقية إذا هو أهمل دافع الجنس، ليتطهر ويتسامى بروحه عن ضرورات الأرض. لأنه بذلك يقف في طريق غرض أصيل للحياة، فضلاً عما يصيبه هو من كبت وإرهاق.

إنما تنجم من التوجيه الفاسد لتلك الدوافع. وأنه حين يطبق منهج التربية الإسلامية تطبيقاً صحيحاً في مجتمع مسلم فلن توجد "مشكلة" جنسية! (راجع منهج التربية الإسلامية، الجزء الثاني).

وإنما يرتفع حقاً حين يصل إلى التوازن بين المطالب المختلفة والنزعات المتباينة. بين ضغط الجسد وانطلاقة الروح، بين واقع الأرض المحدود، وفسحة السماء التي لا تعرف الحدود.

والحياة كلها في أفقها الأعلى محاولة دائمة للتوازن بين مختلف النزعات.

وما يزعم أحد أنها محاولة سهلة رفيقة. فهي محاولة مشقية لا يصل إليها فرد إلا وقد بذل من جهده ومن راحته. وقد يحتاج أن يبذل فيها الدماء والدموع!

ولكنه يجد سعادته من خلال هذه الآلام... سعادة الشعور بالرفعة والامتياز. سعادة القدرة على الانطلاق لحظة من قيود الضرورة المرهقة، والانفلات من الظلمة الكابية إلى إشراقة النور.

ومتى كانت الحياة خلواً من الآلام؟

لو أن الانطلاق الكامل مع رغبات الجسد، يمنح النفس سعادة كاملة لا يشوبها القلق والعذاب، لكان هناك شيء من المنطق في دعوة الراغبين في الهبوط! ولكنه ليس كذلك في الواقع، فهو يبعث اللهفة الدائمة ويؤدي إلى شقاء الجسد والأعصاب..

ولكنه شقاء خطير!

وعلى قدر مكان الإنسان في سلم الرقي، يكون شقاؤه وسعادته. فهو في دركه الأسفل يتمتع كما تتمتع الأنعام، ويشقى بالتفاهات الحقيرة التي لا تزن جناح بعوضة!

وهو في أعلى آفاقه يشقى في جهاد الشر المنبث في الحياة والأحياء، ويسعد كذلك بلذة الانتصار.

فإذا لم يكن من الشقاء بد، في مقابل قدر من السعادة، فعلام يا ترى نحرص على الشقاء الحقير في مقابل نعيم حقير؟!

* * *

وحين نتحدث عن الجنس فلا مناص من ذكر فرويد، فقد كان يوجه اهتمامه لهذه المسألة إلى درجة المبالغة والشذوذ! وقد ألف كتاباً خاصاً بشأنها سماه Three Contributions to the Sexual Theory، ولكن كل كتبه الأخرى تدور

حول الغريزة الجنسية، لأنه يجعلها مدار الحياة كلها، ومنبع المشاعر البشرية جميعها بلا استثناء.

ويصل به التعسف في تقرير نظريته إلى حد أن يصبغ كل حركة، حتى حركات الطفل الرضيع، بصبغة الجنس الحادة المجنونة. فالطفل يرضع فيجد في رضاعته لذة جنسية! ويلتصق بأمه بدافع الجنس! (والطفلة يا ترى هل تحس نحو أمها بنفس الدافع؟) وهو يمص إبهامه بنشوة جنسية، ويحرك أعضاءه بنفس الدافع ولنفس الغاية! وهكذا وهكذا إلى آخر الأوهام التي يقيمها بغير دليل، إلا دليلاً واحداً مشكوكاً فيه هو حالات الشذوذ. وقد بينا في فصل "فرويد" رأينا في استدلالاته الخاطئة من حالات الشذوذ.

والحضارة كلها ناشئة من الغريزة الجنسية، لا لأنها تجمع الذكر والأنثى، فتخرج منهما نسلاً، فيتكون المجتمع، وتتعدد ضروراته فترتقي حياته... كلا! فهذا كلام مفهوم معقول، لا يحتاج في بيانه إلى عبقرية ولا شذوذ! وإنما الذي يحتاج إلى العبقرية والشذوذ أن يقول: إن الإنسانية الأولى قتلت أباها، لأن الأبناء طمعوا في الاستيلاء على أمهم والاستئثار بها دون أبيهم، لأنهم يحسون نحوها بشبق الجنس. فلما قتلوه وجدوا أنهم سيدخلون في معركة عنيفة لتقرير غلبة أحدهم، واستيلائه على أمه. لذلك كبت الأولاد شعورهم الشهوي نحو أمهم. ومن هذا الكبت نشأت الحضارة!!

وحين قتلوا أباهم بدافع الصراع الجنسي نشأ الدين! فقد أحسوا بالندم على فعلتهم فقدسوا ذكرى الوالد، وجسموه في حيوان، فعبدوا الحيوان! ثم ظلت الفكرة ترتقي حتى عبدوا إلهاً ما.. وذلك قبل أن تنزل الأديان. ولكن نزول الأديان من السماء لم يخرجها عن نطاق الجنس. فقد أراد المسيح أن يقتل أباه ثم جعل نفسه إلهاً مكانه، كما قتل الولد الأول أباه ليأخذ مكانه مع الأم!!

على هذا النسق من التعسف والسخف يجري فرويد في تفسير السلوك الإنساني كله على ضوء الجنس. وما يحتاج الإنسان، لكي يؤمن بقوة الدافع الجنسي وتعمقه، أن يصل إلى كل هذا التعسف السخيف. فما من شك في أن الحياة كلها لا يمكن أن تقوم بغير المشاعر الجنسية التي تجمع بين الجنسين، ومن تطور هذه الغريزة نشأت الأسرة بكل ما فيها من مشاعر التعاطف والود والأمومة والأبوة. ومن أجل الأولاد خرج الوالد للعمل والإنتاج، وبدافع الصراع وحب الغلبة، تحسنت وسائل الإنتاج وارتقى العلم...

ومن هذه الغريزة كذلك نشأ الفن. فهو في مبدئه حنين جنس إلى جنس، وفرحة باللقاء. وظل يرتقي حتى شمل الجمال كله في الكون العريض، وبعد عن منبعه الأول، ولكنه ما زال على صلة به لا يفترقان.

ومن رغبة كل جنس في أن يعجب الآخر نشأ كثير من المشاعر والأعمال، فتفنن الرجل في إظهار قوته ومقدرته، وتفننت المرأة في إبراز جمالها وفتنتها، وإظهار مقدرتها على تدبير المنزل بمختلف شئونه. فكان الجنس باعثاً هاماً من بواعث الحيوية في كلا الجنسين.

وهكذا لا نكاد نجد شيئاً في حياة الرجل والمرأة لم يدخل فيه الجنس من بعيد أو قريب. ولكن تفسير الحياة –في أبسط صورها– بباعث واحد، أو عنصر واحد، خطأ علمي لا يرتكبه إلا الأطفال. وقد كان فرويد مخطئاً أشد الخطأ حين قصر تفسير الحياة كلها على دوافع الجنس، مهما كانت من القوة والشمول.

* * *

على أن هذه الأحكام العامة على الطاقة الجنسية لا ينبغي أن تنسينا حقيقة مهمة: هي اختلاف طبيعة الإحساس الجنسي بين الرجل والمرأة، مع اشتراكهما في الأصل الكبير.

فكل منهما مهيأ لوظيفة معينة. وعلى حسب تلك الوظيفة صيغت مشاعر كل منهما وأفكاره، كما صيغ جسده من قبل، بحيث يؤدي وظيفته المرسومة على أفضل وجه.

وإذ كان الرجل بتكوينه الجسدي والعصبي مكلفاً بالصراع الخارجي لكسب القوت، فقد تضخم إحساسه بذاتيته، ونزعته إلى السيطرة، ليكون ذلك هو الدافع الذي يدفعه إلى الصراع. ولم يعد الجنس يستغرق من جسده ولا تفكيره بقدر ما يستغرق من جسد المرأة وتفكيرها. وبغير ذلك لم يكن يتيسر له أن يفرغ إلى مهمته الأولى أطول وقت مستطاع.

ولكن هذا ليس معناه أنه طليق من الإحساس بالجنس، أو قادر على الإفلات منه لو أراد. كلا! فإن ذلك يفسد أغراض الحياة! وإنما معناه فقط أن الرجل يستطيع أن ينصرف بفكره أحياناً عن مسائل الجنس إلى ألوان أخرى من الحياة لا تتصل اتصالاً مباشراً بالمشاعر الجنسية، كما يستطيع أن ينصرف عنه بجسده في كثير من الأحيان.

وللتوفيق بين هذين الغرضين المتزاحمين في نفس الرجل، فإن مشاعر الجنس في نفس الرجل أقرب إلى النزوة الطارئة المركزة، أو الشحنة الكهربائية الجارفة، التي تنزع إلى التفريغ،

فإذا أفرغت هدأت واستقرت.. حتى تعود من جديد. وفي خلال ذلك ينصرف الرجل إلى شئون الصراع.

أما المرأة فليس إحساسها كذلك. وليس ينفي هذا أنها تشعر بوجود الشحنة الجارفة التي تطلب التفريغ، ولكن كثيراً ما يكون هذا نتيجة الإثارة الموضعية التي تصاحب العمل الجنسي.

وأما إحساس المرأة بالجنس فهو عميق جداً، وشامل جداً. ولم يكن بد من ذلك، حتى لا تحملها آلام الحمل والوضع والرضاعة على الإفلات! وهو لا يتركز في نشوة الجنس الطارئة كما يحدث عند الرجل. فبينما تنتهي المسألة –مؤقتاً– عند الرجل بهذا التفريغ السريع، فهي على العكس من ذلك عند المرأة قد تبدأ بهذا التفريغ، إذ يليه الحمل والولادة والرضاعة والتربية.. إلى آخر هذه الأمور، وكلها عند المرأة جزء من الإحساس الجنسي الأصيل.

ولا يقتصر الأمر على هذا الاختلاف الجسدي "البيولوجي" بين الرجل والمرأة في شأن الجنس. فإن أموراً كثيرة أخرى نفسية وعقلية تشير إلى هذا الاختلاف. وليس اهتمام المرأة الشديد بزينتها، مهما تكن درجة ثقافتها أو العمل الذي تؤديه، إلا مظهراً من مظاهر هذا الأمر. ففي أعماقها رغبة شديدة في أن تبدو جميلة على الدوام. وهذا –في حسها– هو التعبير المباشر عن "أنوثتها".

وتبعاً لهذا الاختلاف الحاسم في المهمة والأهداف، اختلفت طبيعة الرجل والمرأة، ليواجه كل منهما مطالبه الأساسية وقد زودته الحياة بكل التيسيرات الممكنة، ومنحته التكييف الملائم لوظيفته.

لذلك لا أرى كيف تستساغ هذه الثرثرة الفارغة عن المساواة الآلية بين الجنسين! إن المساواة في الإنسانية أمر طبيعي ومطلب معقول. فالمرأة والرجل هما شقا الإنسانية، أو هما نصفا التفاحة التي تشير إليها الأسطورة الشهيرة. أما المساواة في وظائف الحياة وطرائقها، فكيف يمكن تنفيذها، ولو أرادتها كل نساء الأرض، وعقدت من أجلها المؤتمرات، وأصدرت القرارات؟

هل في وسع هذه المؤتمرات وقراراتها الخطيرة، أن تبدل طبائع الأشياء، فتجعل الرجل يشارك المرأة في الحمل والولادة والإرضاع؟

وهل يمكن أن تكون هناك وظيفة بيولوجية من غير تكييف نفسي وجسدي خاص؟ هل اختصاص أحد الجنسين بالحمل والرضاعة لا يستتبعه أن تكون مشاعر هذا الجنس وعواطفه وأفكاره مهيأة بطريقة خاصة لاستقبال هذا الحادث الضخم، والتمشي مع مطالبه الدائمة؟

إن الأمومة، بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة، وأعمال رفيعة، وصبر على الجهد المتواصل، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء.. هي التكييف النفسي والعصبي والفكري، الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والإرضاع. كلاهما متمّم للآخر، متناسق معه، بحيث يكون شذوذاً عجيباً أن يوجد أحدهما في غيبة من الآخر.

وهذه الرقة اللطيفة في العاطفة، والانفعال السريع في الوجدان، والثورة القوية في المشاعر، التي تجعل الجانب العاطفي، لا الفكري، هو النبع المستعد أبداً بالفيض، المستجاش أبداً بأول لمسة.. كل ذلك من مستلزمات الأمومة، لأن مطالب الطفولة لا تحتاج إلى التفكير، الذي قد يسرع أو يبطئ، وقد يستجيب أو لا يستجيب. وإنما تحتاج إلى عاطفة مشبوبة لا تفكر، بل تلبي الداعي بلا تراخ ولا إبطاء.

فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حين تلبي وظيفتها الأصيلة، وهدفها المرسوم.

والرجل من جانب آخر مكلف وظيفة أخرى، ومهيأ لها على طريقة أخرى.

مكلف بصراع الحياة في الخارج. سواء كان الصراع هو مجابهة الوحوش في الغابة، أو قوى الطبيعة في السماء والأرض، أو نظام الحكم وقوانين الاقتصاد.. كل ذلك لاستخلاص القوت، ولحماية ذاته وزوجه وأولاده وعشيرته من العدوان.

هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش. بل ذلك يضرها ولا ينفعها. فالعاطفة تنقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض. ولا تصبر على اتجاه واحد إلا فترة، تتجه بعدها إلى هدف جديد. وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغيرة المتقلبة، ولكنه لا يصلح لعمل له خطة مرسومة، ويحتاج في تنفيذه إلى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة من الوقت. وإنما يصلح لذلك الفكر. فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ. وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجرة؛ ولكن المطلوب منه ليس هو السرعة بقدر ما هو تقدير الاحتمالات والعواقب، وتهيئة أحسن الأسباب للوصول إلى الهدف المنشود. وسواء كان المقصود هو صيد فريسة، أو اختراع آلة، أو وضع خطة

اقتصادية، أو سياسة حكم، أو إشعال حرب، أو تدبير سلم، فكلها أمور تحتاج إلى إعمال الفكر ويفسدها تقلب العاطفة.

ولذلك فالرجل في وضعه الصحيح حين يؤدي هدفه الصحيح.

وهذا يفسر كثيراً من أوجه الخلاف بين الرجل والمرأة. فهو يفسر مثلاً لماذا يستقر الرجل في عمله، ويمنحه الجانب الأكبر من نفسه وتفكيره، بينما هو في الميدان العاطفي متنقل كالأطفال. في حين أن المرأة تستقر في علاقتها العاطفية تجاه الرجل، وحينما تتجه إليه فكأنما كيانها كله يتحرك ويدبر الخطط ويرتب الملابسات. وهي في هذا الشأن أبعد ما تكون نظراً وأشد ما تكون دقة. ترسم أهدافها لمسافات بعيدة وتعمل دائبة على تحقيق أغراضها. بينما هي لا تستقر في العمل، إلا أن يكون فيه ما يلبي جزءاً من طبيعتها الأنثوية كالتمريض أو التدريس أو الحضانة. أما حين تعمل في المتجر، فهي تلبي كذلك جزءاً من عاطفتها، بحثاً عن الرجل هناك. ولكن هذه الأعمال كلها بديل لا يغني عن الأصل، وهو الحصول على رجل وبيت وأسرة وأولاد. وما إن تعرض الفرصة للوظيفة الأولى حتى تترك المرأة عملها، لتهب نفسها لبيتها؛ إلا أن يحول دون ذلك عائق قهري، كحاجتها الشديدة إلى المال.

ولكن هذا ليس معناه الفصل الحاسم القاطع بين الجنسين. ولا معناه أن كلا منهما لا يصلح أية صلاحية لعمل الآخر.

فالعلم يقرر أن الجنين في أسابيعه الأولى لا يكون له جنس متميز، بل يحوي أعضاء الذكورة والأنوثة في وقت واحد، ولا يتقرر جنسه إلا في الشهر الثالث، فتنمو مجموعة من الأعضاء وتظل الأخرى على حالتها الجنينية، ولكنها تبقى مكانها ولا تزول. وهكذا يحمل كل جنس أعضاء من الجنس الآخر. ويقرر العلم كذلك أن في كل من الجنسين هرمونات جنسية مزدوجة، وإنما تغلب واحدة على الأخرى فتكون الرجولة أو الأنوثة واضحة بقدر هذه الغلبة وعلى حسب نسبتها. فإذا جاءت الشيخوخة ضعفت الهرمونات المميزة للجنس، فأخذت الأخرى تظهر عليها رويداً رويداً، فيخشن صوت المرأة، ويضعف صوت الرجل ويرق...

الجنسان إذن خليط، وعلى نسب متفاوتة. فإذا وجدت امرأة تصلح للحكم أو القضاء أو حمل الأثقال أو الحرب والقتال.. وإذا وجد رجل يصلح للطهي وإدارة البيوت أو الإشراف الدقيق على الأطفال، أو الحنان الأنثوي، أو كان عاطفياً سريع التقلب يتنقل في لحظة من النقيض للنقيض..

فكل ذلك أمر طبيعي، ونتيجة صحيحة لاختلاط الجنسين في كيان كل جنس. ولكنه خلو من الدلالة المزيفة التي يريد أن يلصقها به شذاذ الآفاق، في الغرب المنحل والشرق المتفكك سواء.

فالمسألة في وضعها الصحيح ينبغي أن توضع على هذه الصورة: هل كل هذه الأعمال التي تصلح لها المرأة زائدة عن وظيفتها الطبيعية، تغنيها عن هذه الوظيفة الأصيلة؟ تغنيها عن طلب البيت والأولاد والأسرة؟ وتغنيها عن طلب الرجل قبل هذا وبعد ذلك ليكون في البيت رجل؟ بصرف النظر عن شهوة الجنس وجوعة الجسد؟

* * *

على أن ذلك كله شيء والمساواة الإنسانية شيء آخر. فكلا الجنسين من طينة واحدة ومن أصل واحد. وكلاهما ينطبق عليه الوصف الذي أوردناه في فصل "نظرة الإسلام": مخلوق لا هو بالملاك و بالحيوان، وإن كان قادراً على الصعود كالملائكة، والهبوط إلى مستوى الحيوان.

ولست أجد في نفسي ميلاً لتلك المفاخرات التي يعقدها الجنسان كل ضد الآخر، كالمفاخرة بين القطار والطائرة، والطبيب والمهندس.. إلى آخر ما تفسد به دروس الإنشاء عقول التلاميذ!

إنني أومن بأن لكل من الجنسين نبالاته الرفيعة، وسفالاته المخزية، كل في ميدانه وعلى طريقته. فالرجل الذي يهب نفسه لفكرة، فيعيش حياته كلها من أجلها، لا تفتنه مغريات الأرض، ولا تقعده عن الجهاد عقبة، دون أن يكون له في ذلك مصلحة قريبة أو بعيدة، وإنما يعمل لصالح الإنسانية بلا تمييز؛ الإنسانية التي يربطها بقلبه الحب.. الحب الخالص من الضغائن والأحقاد.. الحب الشامل للجميع.. ذلك يرتفع إلى قمم لا تقدر عليها المرأة[1].

([1]) حين كتبت هذا في الطبعة الأولى كان في خاطري الأنبياء –وكلهم من الرجال– والمصلحون المخلصون والمكافحون في سبيل الأفكار والعقائد. ثم خطر لي من عالم المرأة في داخل الإسلام وخارجه أسماء شهيرة: أسماء بنت أبي بكر ومدام كوري وجان دارك؛ بالإضافة إلى كثير غيرهن من المؤمنات بعقيدة والمكافحات في سبيلها. ولكن ينبغي أن نذكر في هذا الشأن حقيقتين بارزتين: الأولى أن المرأة لا تصبر للكفاح الطويل مع الهزيمة. والثانية أنها لا تصبر على الكفاح الذي لا يؤتي ثماره في أثناء حياتها الفردية. بينما عظماء المكافحين من الرجال يصبرون على الهزائم المتكررة ويظلون على نفس الدرجة من التصميم.

والرجل الذي يهبط إلى حيوانية الجنس، فيتحول إلى نزوة بهيمية لا تهدأ، إلى ذئب مفترس لا يكاد ينتهي من الاعتداء على فريسة حتى يبحث عن أخرى في سعار مجنون، ذلك يهبط إلى مستوى لا تقدر عليه المرأة السوية.

والمرأة التي تهب نفسها لحب كبير، لرجلها أو أبنائها وبيتها، فتتفانى في ذلك إلى أبعد حد. إلى حد أن تنسى نفسها وأنانيتها، وكأنما كل ذرة من كيانها قد تحولت إلى طاقة تنفقها لإسعاد من تحب؛ تلك ترتفع إلى قمة لا يصل إليها الرجل.

والمرأة التي تبلغ بها وحشية الغيرة من امرأة أخرى أن تقتل لها أولادها، أو تنشب أظافرها في جسدها تمزقه، تهبط إلى مستوى لا يقدر عليه الرجل السوي.

وبين هذه القمم العالية والمنحدرات السحيقة يلتقي الجنسان في كثير من ألوان النبل وكثير من الحقارات... كل على طريقته، وفي ميدانه. ولكن أعجب ما في هذه الحياة أن نتوءات كل جنس تلتقي في الجنس الآخر بأوضاع كأنما هي مرسومة على قدها لتتلبس بها وتثبت فيها! كل بروز هنا يقابله هناك تجويف، وكل تجويف هنا يقابله هناك بروز. ومن التحام الجزئين المتقابلين تتألف "تعشيقة" مترابطة متناسقة، يتكون منها مخلوق متكامل، متآلف الأجزاء. وقد يحدث أحياناً ألا يتآلف الجزءان، لأن كلاً منهما ليس على قد الآخر بالتمام. فيكون معنى ذلك أنه قد وقع خطأ في التنسيق: فذهب كل نصف من نصفي التفاحة في طريق، ولم يعثر على نصفه الأصيل. ولكن التنافر الكامل قليل على أي حال، وفي الإنسانية من المرونة ما يجعلها توفق نتوءاتها ومنحنياتها، ليتلبس كل نصف بالآخر على قدر الإمكان.

* * *

وأنا أومن بتكافؤ الجنسين على هذا المعنى؛ على أساس التقابل في النتوءات والمنحنيات، ليتكون منها تمازج كامل بين القسمين المتقابلين. ولكني لا أستطيع أن أومن به على أساس التماثل المطلق. ففضلاً عن المغالطة الضخمة التي تحملها هذه الدعوى بين طياتها، وإغفالها لكل الحقائق الجسدية والنفسية، البيولوجية والفسيولوجية، فإنها لا تؤدي إلى التآلف المنشود، بل تؤدي إلى الاحتكاك الدائم بين النتوءات المتماثلة، التي يبرز بعضها في وجه بعض. فما يحب الرجل أن يقضي حياته مع رجل مثله، وما يلبي رغبات المرأة أن تعيش

كما أنهم يستطيعون الكفاح من أجل فكرة يعلمون في قرارة أنفسهم أنها لن تتحقق في جيلهم ولن تنتصر وهم أحياء. وتلك فروق ينبغي أن يحسب حسابها في هذا المجال.

مع امرأة تشابهها في الطباع، تنقص حيث تنقص هي، وتزيد حيث تزيد، فلا يلتقي هذا النقص بتلك الزيادة. ويخطر على ذهني تشبيه لا أملك الإفلات من صورته: صورة حذاء كلتا فردتيه يمين أو يسار!! وأتخيل لابسه وهو يعرج بإحدى قدميه لأن الحذاء لا يوافقها، وقد يصبر عليه حيناً، ولكنه يضيق به في النهاية، فيلقيه عنه في حنق وضيق!

وليست العلاقة بين المرأة والرجل علاقة الصراع والقتال، ليشحذ كل منهما سلاحه في وجه الآخر مدى الحياة. فإذا كان هناك صراع وهمي، فأنا أتخيله لا كالجيشين اللذين يلتقيان ليفتك كل منهما بالآخر، بل ليتفرس كل في الآخر، ويعجم عوده، ويكشف حقيقته بعد أن ينحي عنه الدروع التي يختفي وراءها. فإذا اطمأن إلى تلك الحقيقة ألقى سلاحه، وراح يحتضن خصمه الوهمي في شوق وابتهاج!!

وأسلحة هذا الصراع متكافئة، ولكنها ليست متماثلة. فإذا غلب الرجل بجسمه أو بعقله، أو بنقوده كما يقول الاقتصاديون، فهي تغلب بجاذبيتها وأنوثتها، فتأخذ السلب كله وتملكه في النهاية!

تلك هي الفطرة السوية، وفيها الخير كل الخير. فإذا ألقت المرأة سلاحها الأصيل، ولجأت إلى أسلحة الرجل لتحاربه بها، فقد انقلبت المسألة إذن إلى صراع حقيقي بغيض، قد يغلب فيه هذا أو ذاك. ولكن الجيشين ينحسران، فإذا جثث القتلى تملأ الميدان، جثث الحب والود والتعاطف. ولا يبقى بعد ذلك إلا وجوه صلدة وقلوب متحجرة، وشقاء يشمل الجميع.

على أن هذا كله لا ينفي أن المرأة قد أوذيت واضطهدت على مدار التاريخ. ولا ينفي أنها قد عُيِّرت بأنها تحمل وتلد ولا تخرج إلى العمل، ولا تكسب قوتها بنفسها.

وتلك حطة تردت فيها البشرية، وما كان يجوز لها أن تنزل إليها. ولكني لا أرى كيف يمكن علاج ذلك بخروج المرأة إلى العمل، وتكسبها للمال، وقد كانت نتيجة ذلك في المجتمع الأوربي أن صارت المرأة –باختيارها– متعة لهو تهب نفسها راضية لكل نزوة هائجة في جسد حيوان! بل صارت في المجتمع الأمريكي –وقد حصلت على المساواة الاقتصادية الكاملة– تسعى بنفسها لاصطياد الرجل، وتتزلف إليه لعله يرضى!!

أو هذه هي الكرامة التي تسعى إليها المرأة؟ أو هذا هو الاستقلال والحرية؟

لست أستطيع أن أدافع عن الحطة التي هبطت إليها البشرية حين عُيّرت المرأة بأن الرجل هو الذي ينفق عليها. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يدافع عن العودة إلى الرقيق الأبيض، في كل مكان استقلت فيه المرأة في ميدان الاقتصاد؟

إنما علاج ذلك بالتربية.

فحين تربي كل أم ولدها على أنه ينفق لأنه مكلف بالإنفاق، وأنه له القوامة لأنه رجل مكلف بصراع الحياة، فهو أقدر على حماية زوجه وأولاده. ولكن ليس له مقابل هذا التكليف والقوامة أن يستذل أحداً، أو يُشعر أحداً "بالدونية".

حين تربي كل أم ولدها على هذا الأساس، تنتهي المشكلة إلى حلها الصحيح. لا عن طريق المساواة الاقتصادية، ولا المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات عن طريق القانون. فما كان القانون قط وسيلة لتنفيذ شيء ما لم يكن راسخاً في الضمير.

صحيح أنه حل بطيء. وأنه خلو من الضجة المفرقعة التي تحرص عليها نساء المؤتمرات والأحزاب والهيئات. ولكنه مع ذلك الحل المثمر الوحيد.

* * *

وإذا كان كل جنس بطبعه يهفو إلى الجنس الآخر، فقد كان من المحتم أن يلتقيا على صورة من الصور. ولم يكن هناك مناص من أن تختار البشرية بين أحد وضعين: أن يكون كل النساء لكل الرجال، على المشاع. أو تكون امرأة واحدة لكل رجل، ورجل واحد لكل امرأة[1].

وقد اختار الإسلام —والأديان كلها– الوضع الآخر، واختار الغرب المتحضر أن يعود إلى الوضع الأول. فلننظر أي الوضعين أصلح للبشرية وأنسب لفطرتها. ونبدأ بالوضع الذي اختاره الغرب، ولكنا لن نتحدث عنه من الناحية الخلقية التي يكرهها علماء النفس ولا يطيقون ذكرها، بل من الناحية النفسية البحتة.

([1]) يحدد علماء الاجتماع خمسة أنواع للعلاقة بين الرجل والمرأة كما يلي: الشيوعية الجنسية، وتعدد الأزواج والزوجات معاً، ووحدانية الزوجة مع تعدد الأزواج، ووحدانية الزوج مع تعدد الزودات، ووحدانية الزوج والزوجة. ولكنا هنا نشير إلى اللونين البارزين: وهما الشيوعية من جانب، والواحدنية من جانب آخر.

لقد "تحرر" الغرب من قيود الأخلاق، لأنها عبء ثقيل ورثناه من ظلمات الماضي دون وعي منا، عن طريق التقليد الأعمى والجمود المتحجر. وقد كانت هذه الأخلاق والتقاليد تصلح للبشرية في طفولتها وتأخرها. يوم لم تكن هناك طائرات تستطيع أن تقطع العالم في ساعات. وتستطيع كذلك أن تدمره في ساعات! يوم كان الإنسان حيواناً يغار على عرضه، ولا يتركه نهباً مباحاً لغيره من الحيوانات الجائعة المسعورة. يوم كنا جهلاء، لا نفهم أن الطاقة الجنسية مسألة بيولوجية لا شأن لها بالأخلاق. مسألة حيوانية بحتة، يأتيها الإنسان كما تأتيها الكلاب والبهائم. ولا ينبغي أن توضع لها القيود المصطنعة لئلا نرتفع عن الكلاب والبهائم. يوم كنا منافقين نأثم بقلوبنا وأفكارنا، ويعتبرنا المجتمع شرفاء لأن أجسادنا وحدها لم تتلوث بالطين. فصار ينبغي أن نغرق بأجسادنا وقلوبنا وأرواحنا في الأقذار، لنكون على طبيعتنا الحيوانية الخالصة، ونخلص من تهمة النفاق!

على أي حال لقد تحررنا، ونجت أرواحنا –إن كان لنا أرواح– من لعنة الماضي المظلم الكريه. وصرنا لا نجد حرجاً في أن نصارح أنفسنا بما في أنفسنا من لواعج وأشواق. وإن كل ذكر ليحنّ لكل أنثى، وكل أنثى لكل ذكر. هكذا خلقتهم الحياة لا يستغني بعضهم عن أن ينزو على بعض. وركبت "الطبيعة" في كيان كل منهما كيمياء خاصة تجعله يهفو للآخر ويشتهيه. كيمياء أيها المتأخرون الجهلاء. كيمياء لا دخل لها بالأخلاق. بل لا ترتفع حتى تكون مجرد مشاعر، إلا لأن الكيمياء الجسدية تنشئ، كنتيجة حتمية لها –مع الأسف البالغ– مشاعر نفسية. فيفهم المغفلون ممن لم يدرسوا علم الحياة، أو علم النفس التجريبي، أن هذه المشاعر لها قيمة في ذاتها، أو يمكن أن تكون موضع احترام وتقدير. أو موضع تفاضل بين شخص وشخص!

حين ينزو كلب على أنثاه، هل تكون هناك أخلاق؟ هل تتدخل المشاعر؟ هل يجوز أن نقول إن هذا الكلب أنبل من ذلك أو أحط منه في هذا الأمر بالذات؟ كلا. كلا! وأنتم أيها البشر كالكلاب سواء بسواء. فإذا اشتعلت شهوة الجنس في أجسادكم فلماذا تقفون هكذا مترددين؟ أوَ يتردد أسلافكم من الحيوان؟ أو يحسون بذلك الخجل المصطنع الذي يقعد بكم عن العمل؟ هلموا. فليتقدم كل ذكر فيختار الأنثى التي تعجبه. فإذا تأخر أو تلكأ فهلمي أنت أيتها الأمريكية الفارهة فهزيه من جموده، وأثيري شهيته المتخاذلة. وانطلقا. فإن لم تكن الشوارع تناسبكم لأن حركة المرور تقلق متعتكم، فلا بأس بالغابات والأحراج، وشواطئ الأنهار والبحيرات. هنالك كان أجدادكم لا يجدون حرجاً في أنفسهم. فعودوا مثلهم إلى الحرية والانطلاق، وتخففوا من قيود الإنسانية السخيفة!

عظيم! ولن نتقدم إليكم باعتراض. ولكننا نسايركم إلى آخر الشوط لنرى كيف تفعلون.

* * *

حين انطلق الغرب إلى هذا العبث، كان خارجاً من قيود المسيحية الكنسية المتزمتة، التي تكبت النوازع الفطرية، وتغلها عن الانطلاق حتى في الخير المأمون. وما أريد أن أبالغ في سوء الظن. فلعلهم حسبوا مخلصين أن هذا الانطلاق هو الحل الحقيقي لمشكلة الجنس الجامحة، التي تزداد تعقداً كلما ازدادت المدنية الغربية "رقياً" على طريقتها المادية الخالصة.

وتربى جيل من البشرية على طريقة جديدة، تمنع الكبت من المشاعر بإطلاق الحرية إلى أبعد الحدود. وصار الفتى أو الفتاة حين ينطلقان مع شهوة الجسد، لا يحس كل منهما أنه قد أتى منكراً يحاسبه عليه أحد: لا ضميره، ولا المجتمع، ولا الدولة، ولا الدين:

واستمتع الناس...

وانتظر العالم أن تحدث المعجزة المرجوة، فتشبع الغريزة الجائعة، وتستقر الأجساد الهائجة، وتستقر تبعاً لذلك كل أوضاع المجتمع، وشئون الحياة.

فهل حدثت المعجزة حقاً؟

فلنترك جانباً كل ما تقوله الدعاية المغرضة من هنا أو هناك. ولنأخذ أحكامنا من الواقع الذي نراه. ولنختر أمريكا موضوعاً للدراسة. وذلك لعدة أسباب: فهي التي وصلت في الإباحة إلى أقصى المدى، على أسس علمية تجريبية! كما أنها أشد الأمم اهتماماً بالإحصاءات في كل أمر من أمور حياتها، ومن بينها شئون الجنس. وهي أخيراً القبلة التي تتجه إليها عيون الزائغين والزائغات من أبناء الشرق المضطرب المفتون[1].

ظنت الجماهير، وتابعها العلماء، أن إباحة العمل تطفئ الغريزة. ونسوا أن الغريزة من شأنها ألا تشبع، مهما قدم لها من الغذاء. ولحكمة عليا قد فطرت الغرائز هذه الفطرة. فلو أنها كانت تشبع أو تقنع بكثرة الغذاء، لجاءت عليها لحظة تتوقف عن العمل إلى الأبد، اكتفاء بما حصلت عليه. وعندئذ تقف دورة الحياة. حين يكف الناس عن الطعام لأنهم كانوا قد شبعوا ذات مرة، فتضعف أجسادهم وتتهاوى. أو حين يكفون عن الجنس لأنهم أخذوا كفايتهم من متعته، فلا يأتي نسل جديد.

([1]) كتبت ذلك في الطبعة الأولى. وقد مرت على الشرق الإسلامي فترة كانت قبلته فيها هي روسيا. وليس هناك فارق كبير!

وتلك بديهية.. فلا بد إذن من هذا الجوع المتجدد لتستمر عجلة الحياة.

ولكنا نجد من جانب آخر أن هذه الحكمة العليا ذاتها، لم تجعل هذا الجوع بحيث يملأ الحياة كلها ويستعصي على الإشباع، وإلا كانت الحياة جحيماً لا يطاق، ولم يكن هناك حتى الوقت الكافي لتدبير الغذاء اللازم لسد هذا الجوع، سواء في أمر الجنس أو الطعام.

وهكذا تنقسم الحياة إلى فترات من الجوع، وفترات من الشبع تتفق في إعداد الطعام. وتلك كانت هموم البشرية الأولى في أبسط أوضاعها.

ولكن الحياة البشرية، تمشياً مع سنة التطور والارتقاء، لم تشأ أن تقف عند هذا الحد البدائي الضئيل، ففيها دائماً تلك النزعة الفطرية إلى "تحسين" الوسائل. ومن ثم نشأت عن الجنس مشاعر وعواطف، تنبع من الغريزة، ولكنها تأخذ صورة متطورة مترفعة. وكان من ذلك الفنون المختلفة، بل الحضارة كلها في أوسع نطاق.

ومع ذلك فلنجعل كلامنا –مؤقتاً– في نطاق الغريزة ذاتها، وفي أضيق حدودها. في صورتها الجسدية البحتة، وما يصاحبها من مشاعر ملاصقة.

لقد ثبت من التجربة العملية أن كثرة الغذاء لا تطفئ الغريزة، بل تزيدها اشتعالاً، حتى تصل بها إلى السعار المجنون. وتلك هي النتيجة المنطقية التي تتفق مع الآراء النظرية. ولكنا نستمد شواهدها التجريبية من الحياة الأمريكية.

فلو أن الاطمئنان إلى إباحة العمل الجنسي، وسهولة الحصول عليه من أقرب طريق، كان يؤدي إلى تهذيب الغريزة وانطفاء ثورتها الجامحة، ما رأينا تلك المظاهر التي لا توجد بهذه الدرجة الفظيعة إلا مع الحرمان الشديد، والجوع المستبد.

فلم يقل أحد ممن شهدوا الحياة الأمريكية عن قرب وامتزجوا بها، إن الفتى والفتاة حين يلتقيان، يلجآن إلى شيء من الغزل الذي تلجأ إليه بعض الحيوانات ذاتها قبل نزوة الأجساد، بل يقولون جميعاً إنهم يلتقون، شباناً وشابات، وفي عيونهم اللهفة الواضحة والنداء المكشوف؛ كل منهما يقول بحركاته ونظراته: أن هلم، أسرع إلى العمل الأخير.

وهذا وحده دليل على أن شيئاً من التهذيب لم يلحق هذه الغريزة بالإباحة الكاملة المطلقة. وهم يقولون لك إننا على عجل. ولا وقت لدينا ننفقه في الغزل. كما أننا قوم عمليون نهدف إلى الغاية المباشرة دون إبطاء –وقد يُعجب بعض المفتونين بهذه السفسطة

التي تخفي وراءها نزوة الحيوان الهائج، الذي لا يصبر حتى على المداعبة التي تهيئ النفوس لتلقي نشوة الأجساد.

ففيم هم معجلون؟ وما هذا الشغل الشاغل الذي لا يجد دقائق قليلة يكسب فيها متعة نفسية مع الشهوة البهيمية؟ إنهم يجرون إلى نواديهم الليلية ليلعبوا القمار، أو يشهدون السينما، أو حلقات المصارعة الوحشية.. الخ. وكل هذه كانت تستطيع أن تصبر بضع دقائق، لو وجدت الرغبة في النفوس.

فهي الحيوانية الجامحة التي لم تشبع بالانطلاق المجنون.

ولكنا لا نكتفي بهذا الشاهد وهو صريح الدلالة على ما نريد. فما تلك الصور العارية التي تملأ السينما والصحف والمجلات والإعلانات، والشوارع والمنازل والنوادي والأحراج؟! وما هذا الإقبال النهم من الفتيان والفتيات على هذه الصور العاريات؟ أنا أفهم أن يكب عليها الشرق "المحروم" كما يزعمون، ليروي في الخيال ما لا يجده في الواقع. ولكن هؤلاء المرتوون ما بالهم؟ ولماذا يستهلكون كل هذا الوقت والجهد في رؤية الصور العارية، لا حيث تقابلهم مصادفة فحسب، بل في أماكن خاصة يسعون إليها سعياً، أقيمت فيها أجهزة سينمائية صغيرة يراها مشاهد واحد في الوقت الواحد، كصندوق الدنيا عندنا، فيضع في ثقب معين قطعة معينة، فيدور أمام عينه شريط عار على مختلف الأوضاع. وتلك المجموعات من الصور للممثلات والراقصات، في أوضاع مغرية مثيرة، لماذا تباع منها الألوف والملايين، لقوم لا يشعرون بلذعة الجوع الكافر والحرمان المسعور؟

إن الغريزة إذن لم تنطفئ ولم تتهذب، وإنما اشتعل أوارها، وزادت لهفة مع الانطلاق المجنون[1]!

* * *

ونرتقي إلى أفق آخر، وإن كنا بعد لا نمس حديث الأخلاق، بل نتحدث عن الأسرة من حيث هي حاجة نفسية للرجل والمرأة على السواء.

([1]) هناك ظاهرة أخرى منتشرة في كل من فرنسا وأمريكا اللتين أباحتا الحرية الجنسية إلى آخر الحدود. وهي ظاهرة الشذوذ الجنسي. وهي عجيبة في مجتمع يبيح اللقاء بين الجنسين، ويسهل الاتصال الكامل بينهما. ولكن يبدو أن هذه الإباحة الكاملة تؤدي إلى الشذوذ كلون من التغيير!

وقد كانت "الحضارة!" الغربية الحديثة بما تقوم عليه من أسس مادية خالصة، وما نتج عنها من تفسيرات قاصرة للنفس والحياة، كالتفسير الاقتصادي للتاريخ، والتفسير الجثماني للمشاعر، والتفسير الجنسي للسلوك... كل ذلك كان سبباً في زلزلة كيان الإنسانية، وتشكيكها في كل مقدساتها، وتصويرها في صورة هابطة منفرة. وشملت الزلزلة فيما شملته فكرة الأسرة، وما يقوم بين أفرادها من عواطف وارتباطات.

والواقع أن الثورة الصناعية كانت حدثاً ضخماً في التاريخ الحديث. وكان تشغيل النساء والأطفال أكبر ضربة أصابت الأسرة في صميمها، وفككت روابطها، وجعلت البيت أشبه بفندق يأوي إليه أفراد الأسرة بعد عملهم الشاق في المصانع، ليجدوا المسكن والمأكل والمشرب، ولكنهم لا يبحثون عن "العواطف" الآدمية، وهم معجلون عنها في زحمة الصراع!

وبدلاً من تصحيح الأوضاع، وإعادة الإنسانية إلى طريقها السوي الذي يليق بكرامة الإنسان، لج الغرب في غيّه، مبهوراً بقوة الآلة وضخامة الإنتاج، وراح يبتدع نظريات — علمية!- تثبت الأوضاع القائمة، وتبرر قيامها واستمرارها، باسم العلم والبحث والتمحيص!

وقد أدى "العلماء" مهمتهم في تلويث البشرية بحماسة شديدة، كأنما هم موكلون بذلك من لدن قوة جبارة، تنفخ في مشاعرهم وتأجرهم على ما يأفكون! قوة اللذة البهيمية، أو قوة الشيطان!

من هذه النظريات —العلمية- نظرية تقول بأن الأسرة مسألة اجتماعية، لا تنشأ من دوافع طبيعية، ولا ميول فردية! وإنما هي من صنع "العقل الجمعي". هو الذي ابتدعها وهي دائماً تحت سلطانه، سواء في تطور نظمها، أو فيما تقوم به من تبعات!

والذين يقولون بذلك، هم الذين يفرقون بين كيان المجتمع وبين الأفراد المكونين لهذا المجتمع، بحيث يعتقدون أن هذا "العقل الجمعي" كائن منفصل تمام الانفصال عن وجود الأفراد! ويستدلون على ذلك بأن المجتمع يقسر الأفراد أحياناً على غير ما تتجه إليه غرائزهم أو ميولهم الفطرية[1].

وقد سبق أن رأينا في فصل "الفرد والمجتمع" أن خضوع الإنسان لنزعته الجماعية على حساب نزعاته الفردية أحياناً، لا يعني أن المجتمع منفصل عن كيان الأفراد، وإنما يعني فقط

([1]) ناقشت هذه الفكرة فيما بعد في فصل "اليهود الثلاثة" من كتاب "التطور والثبات" في حياة البشرية، عند الحديث عن دركايم

أن الفرد يُغلّب إحدى نزعتيه على الأخرى، لأنه يرى في ذلك مصلحة لا يستطيع تحقيقها وهو فرد بمفرده.

ولكن الذي يعنينا هنا أن هذه النظرية توحي لمعتنقيها بأن الأسرة ليست أصلاً ثابتاً من أصول الإنسانية، بحيث لا تقوم هذه الإنسانية بدونه، وإنما هي شيء تحت تصرف المجتمع، إن شاء أبقاها وإن شاء أزالها من الوجود، دون أن يكون لأحد أن يعترض، أو يقول إن المجتمع قد أخطأ أو انحف عن سواء السبيل!

وإذا عنّ للمجتمع الحديث أن يعود إلى حالة الفوضى الجنسية السابقة للتاريخ، فهو وشأنه، لا معقب لكلماته! لأنه لا يُسأل عما يفعل، ولكن الأفراد يسألون!

ولعل أهم هذه النظريات وأخطرها كذلك في نفس الوقت، تلك النظرية القائلة بأن الأسرة بوضعها الذي استقرت عليه فترة طويلة من التاريخ كانت ضرورة اقتصادية!

فمنذ أصبح الرجل هو المالك الوحيد لوسائل الإنتاج –بعد فترة من تكوّن البيئة الزراعية– وصارت المرأة تعتمد عليه اعتماداً كاملاً في أمر إعالتها، اضطرت أن تخضع لأنانيته الجائرة، التي تلزمها بأن تكون له وحده، ولا تكون لجميع الرجال على السواء!

وإذا كان الذي يملك وسائل الإنتاج هو الذي يملك ويحكم ويشرّع، فقد ابتدع الرجل "أخلاقاً" تحيط الأسرة بالقداسة الكاذبة، ليضمن أن تظل المرأة في خدمته وحده، ولا تعرض نفسها لكل طامع غيره من الرجال!

وجاء الدين –ولعله كذلك من اختراع الرجل!– فزاد في تلك الهالات الكاذبة التي تحبس المرأة في نطاق رجل واحد، ولا تبيح لها الخروج على هذا النطاق!

ولكن العالم اليوم قد تغير: وخرجت المرأة نهائياً من أسر الرجل، لأنها صارت تعمل، وأصبحت عنصراً إيجابياً في عالم الاقتصاد. إذن لقد تحررت. ولم تعد منذ الآن مستعبدة للرجل، وللأنانية الكريهة التي ابتدعها وسماها الأسرة! لقد أصبحت حرة.. حرة تهب جسدها لمن تشاء. لا لرجل واحد معين كما كانت تفعل من قبل تحت ضغط الضرورة الاقتصادية. فإذا اشتهت أن تكون الليلة في أحضان هذا الفتى الذي يعجبها ويملك عليها مشاعرها، ثم تكون في الليلة القادمة في أحضان رجل آخر، وجدته مصادفة في العمل أو في الطريق، ورأت أنه أقوى عضلاً، أو أكثر شبهاً بكلارك جبيل، فليس لأحد أن يقول لها: لا تفعلي. فقد بطلت البربرية الأولى، وصارت المرأة تكسب عيشها وتنفق على نفسها.

ولتذهب إلى الجحيم كل دعاوى الدين والأخلاق والتقاليد. فالأخلاق مسألة اقتصادية! وكل نظام اقتصادي ينشئ الأخلاق الصالحة له. والآن وقد تغيرت النظم الاقتصادية، سواء في الغرب الرأسمالي أو روسيا الشيوعية، فقد نشأت "أخلاق" جديدة، تتفق مع الحرية الاقتصادية للمرأة، فتمنحها كذلك حرية الدعارة، باسم الحرية الشخصية، وتحقيق الكيان الذاتي!

* * *

تلك أهم الأفكار الحديثة بشأن الأسرة. وهي على ما بينها من اختلاف تتفق على أمر واحد، هو أن الأسرة ليست شيئاً من طبائع البشر، ولا أصلاً من الأصول الإنسانية. وأن بقاءها فترات متطاولة من تاريخ البشرية ليست حجة لدوام بقائها في المستقبل، إذا اقتضت الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أن تهدمها من أساسها، وتنشى مجتمعاً غير أسَري!

وهذه النظريات العلمية تغفل أهم الحقائق العلمية! وهي أن الأسرة حاجة نفسية بصرف النظر عن دفعة الجنس أو رغبة المجتمع أو حاجات الاقتصاد. وأنها -وهي تشمل عنصر الغريزة وعنصر الاقتصاد، وتخضع لتطورات المجتمع- تضيف إلى كل ذلك "مشاعر" أخرى لا تتصل بهذا وذاك!

والنظرة العلمية الصحيحة، التي لا تغالي في تقدير عنصر من مقومات الحياة البشرية على حساب سائر العناصر، تدرك أن هذه الحياة أوسع من أن تنحصر في "ضرورات" المجتمع أو "ضرورات" الاقتصاد، لأن هذا وذاك رافدان من روافدها الكثيرة المتعددة. وهي تشملهما معاً، ولكنها لا تقف عند أحدهما ولا عند كليهما، وترتفع عن عالم "الضرورة" كله إلى آفاق أخرى أوسع وأشمل، وأجدر بتحقيق كيان "الإنسان".

وما دامت الأسرة نتاجاً بشرياً، فهي ككل نتاج بشري آخر، صادرة من النفس في مجموعها، ومتأثرة بكل عناصرها. ولا شك أن تغير النظم الاقتصادية، وتطور الغريزة الجنسية مع تطور المجتمع، يتحكمان في تكييف الشكل الذي تقوم عليه الأسرة، وتكييف الروابط التي تقوم بين أعضائها. ولكن الأسرة من حيث المبدأ أعمق بكثير في نفس الفرد من دوافع الجسد وضرورات الاقتصاد. فقد يقضي الفرد -رجلاً كان أو امرأة- حاجته هذه وتلك، ويخيل إليه في فترة من فترات عمره أنه قد استغنى نهائياً عن الأسرة وروابطها. ولكن حنيناً خفياً موغلاً في أعماق نفسه، ينتبه في النهاية فيدفع به إلى طلب الأسرة، حيث يجد الاستقرار النفسي الذي لا يجده في أي مكان آخر. والذي هو في ذاته مطلب من مطالب النفس، لا تستقيم بدونه الحياة.

ولننظر نظرة علمية هادئة إلى فرد في أسرة، وفرد بلا أسرة، لنرى أيهما أكثر هدوءاً واطمئناناً في آخر الشوط.

إن الفتى والفتاة اللذين أُطلقا من قيود الأخلاق، ووجدا كفايتهما الاقتصادية، ليبدوان في سعادة غامرة ومتعة لا حد لها، وهما ينطلقان كالحيوان الهائج، يشبعان نزوات الجسد حيثما شاءا وشاءت لهما الأهواء... ولكن هذه السعادة الظاهرة لا تلبث أن تنكشف عن قلق نفسي شديد.

فقد بينا في الفقرة السابقة كيف ينتهي التكالب الشديد على اللذة، إلى سعار دائم لا يرتوي، ولا يشعر صاحبه بالراحة. لأن الذئب المسعور لا يلتذ بكل نهشة ينهشها من هنا أو هناك، وهو هائم كالمجنون، ولو كانت من أشهى طعام يحبه، كما يلتذ المخلوق السوي بالقدر المعقول، الذي يحصل عليه وهو هادئ مستقر الأعصاب. وهذا التكالب المسعور سمة دائمة من سمات الهيام الذي يقع فيه الفرد حين لا يصيخ إلى دافع الأسرة، فينطلق مع الشهوات بلا ضابط ولا حدود.

والأسرة هي الرقية الطبيعية التي تحمي الفرد من هذا السعار.

فهي أولاً تكسر من حدة الشهوة المجنونة، لأن الإنسان يزهد بفطرته من كل شيء يملكه! فإذا اطمأن الزوج والزوجة بعد فترة التعطش الأولى إلى أن كلاً منهما يملك الآخر في كل لحظة يريدها، لم يعد هناك دافع إلى التشهي العنيف والسعار الملهوف.

ولكن هذا ليس معناه أن تموت الشهوة أو تتلبد نهائياً بالزواج، فلحكمة عليا جُعلت شهوة الجنس من الحدة والعنف بحيث لا تخمد طالما كانت المقدرة الصحية للفرد صالحة لأداء الغرض المطلوب، وذلك لكي يستمر النسل، وتستمر الحياة على ظهر الأرض، لا يوقفها شِبَع الارتواء ولا زهادة الزاهدين.

بل إن هذه الشهوة في حالتها السوية ليست في حاجة إلى استثارة نفسية[1]، فهي دائماً سهلة الاستجاشة عند أول طرقة، ولكنها في حاجة دائمة إلى ملطفات تكبح جماحها، لكيلا تكون عذاباً مستمراً لصاحبها، يفقده هناءة العيش. وذلك ما يحققه الزواج.

([1]) على العكس من ذلك قد تحتاج إلى منشطات جسدية، لتجاري التطلع النفسي، حين يهمد الجسم من الإسراف.

والأسرة كذلك بمشاغلها الخاصة، ومطالبها الدائمة، وعلى الأخص حين يكثر الأولاد ويحتاجون لمزيد من الرعاية، تصرف النفس عن الشهوة الملحة، وتقف بها عند الحد المعقول الذي لا يرهق الجسم ولا يكلفه شططا.

فمن ناحية الغريزة الجنسية ذاتها تجد الأسرة هي المنظم الطبيعي لانطلاق الشهوة، بالصورة التي تمنع دمار الجسد وعذاب اللهفة الدائمة، وتمنح الفرد السوي في الوقت ذاته نصيباً معقولاً من المتعة الجسدية، ينتهي به إلى الرضا والارتواء.

ولكن الأسرة لا ترضي جانب الجسد وحده. فهذا الفتى الهائم والفتاة الهائمة لا ينعمان بالسعادة النفسية كذلك. وقد يبدو للحالمين والحالمات من أهل الشرق ومن أهل الفن، أن ما يسمونه "الحب" ويطلقون حوله الهالات الساحرة والظلال الفاتنة، هو السعادة العظمى التي لا يعدلها في الحياة شيء. وإنه لكذلك، حين يكون مرحلة طبيعية تمر بها النفس، لتتهيأ لاستقبال رفيق الحياة. ولكنه ليس كذلك حين يصير شاغل حياة. وإني أُطمئن الحالمين والحالمات أن الحب في الغرب المنحل لم يصبح ذلك النور الإلهي الشفيف، ولا النشوة الروحية المرفرفة التي قد يقرءون عنها في كتب الفن، والتي عرفتها الإنسانية ذات يوم في لحظات ارتفاعها وتطهرها، بل صار كله نشوة جسد ونزوة غريزة، ولم يعد يستحق من الوجهة النفسية أو الوجهة النفسية الخالصة أن يُحرص عليه. فلننظر إليه إذن في واقعه الموجود، لا في مثاله المنشود.

هذا "الحب" الذي انتهى إلى أن يكون شهوة ملهوفة، هو الذي يمارسه أبناء الغرب وبناته كل يوم. فهل سعدوا به حقاً؟ وهل يسعد الإنسان وهو دائماً في مهب الريح، تتقاذفه كل هبة طائرة، أو دفعة هائمة؟ إن الإنسان حين يكشف نفسه لمهاب الفتنة بغير وقاية داخلية أو خارجية، يجد نفسه عرضة للاندفاع مع كل تيار أشد. فهو اليوم هنا، لأنه يرى أمامه إغراء قوياً يجذبه إليه فيحسب فيه إشباعاً لرغباته. ولكنه غداً في مكان آخر، لأنه وجد فتنة أعنف، تبدو لنزوته الطارئة أكثر إغراء وأجدر بإشباع رغائبه. وهكذا هو كل حين في اتجاه جديد. فكيف يستمتع بالاستقرار العاطفي الذي تنشأ معه السعادة؟

أم يقولون إن السعادة هي في هذه اللهفة الدائمة التي لا تكاد تهدأ حتى تثور، والتي تبحث كل يوم عن وجهة جديدة؟ فليسأل كلّ نفسه: كيف يحس من عقابيل كل عاطفة لم تنته إلى الاستقرار المنشود؟ إن كل علاقة نفسية تنفصم هي جرح في القلب تنزف منه الدماء. وقد يجف الدم ويندمل الجرح، ولكنه هيهات أن يزول. ولن يكون قط عالماً بالنفس ذلك الذي يقول: إن علاقة ما يمكن أن تنتهي دون أن تترك وراءها العقابيل في الشعور أو

في اللاشعور، بحيث تظل موجودة أبداً، ولو زالت كل ملابساتها من الوجود. فكيف بالذي يتلقى كل حين طعنة، وتنزف كل حين من قلبه الدماء؟

سيقولون إن هذه أوهام الشرق، الغارق في العاطفة، والذي يصنع الهالات من خياله حول الحقائق الجامدة التي لا تستحق الهالات.

إن الفتى والفتاة يلتقيان في الغرب دون أن يكون في بال أحدهما أنها علاقة دائمة. بل هو لقاء ساعة، يفرغ فيه كل منهما شحنته الدافقة. ثم يفترقان، لا قلوب ولا جراح.

وأنا أعيذ الإنسانية أن تهبط إلى هذا الحد الذي يرتفع عنه بعض الحيوان. ففي الحيوانات ألفة تعقد الروابط بين الأنثى والذكر؛ لا تنشأ من حاجة الجسد، فتلك متاحة على الدوام بين أي أنثى وذكر. ولكنها تنشأ من عوامل أخرى، فطرية حتى في نفوس الحيوان.

أفيحب الغرب المنحل أن يشهد على نفسه أنه هبط حتى عن مستوى الحمام، بل القرود، بل بعض أنواع الثعابين الغائرة في الجحور؟

إنني على سوء ظني بهذا الغرب الهابط المتحلل، لا أستطيع أن أصدق أنه في مجموعه قد هبط إلى هذا الدرك الأسفل من المشاعر. فحوادث الانتحار بين الشباب، والقلق النفسي والعصبي الذي يكابدونه، فيسعى بهم إلى عيادات الأطباء النفسانيين، كلها مظاهر على أن هذا النظام الفاسد المضطرب لا يلائم الفطرة السوية. فإذا اندفعت معه بفعل الإغراء الزائد عن الحد، فإن هذا الاندفاع لا يريحها ولا يسعدها، وإنما تنشأ عنه الاضطرابات العنيفة التي تطلب العلاج.

إن الرجل في حاجة إلى المرأة، والمرأة في حاجة إلى الرجل، لشيء آخر غير ضرورة الجسد ودفعة الغريزة. إن كلاً منهما ليجد عند الآخر وفي رحابه "مشاعر" نفسية: الألفة والحنان، والود، والتعاطف. مشاعر لا يجدها في أي مكان آخر. لا يجدها الرجل —كاملة— عند الرجل، ولا المرأة عند المرأة، إلا في حالات الشذوذ. وهذه المشاعر كلها لا تستقيم مع الطفرات الهائجة والتيارات المتحولة. لأنها بطبيعتها في حاجة إلى الزمن والاستقرار. كيف ينشأ الود بين عابري سبيل قد لا يلتقيان بعد ذلك أبداً؟ وكيف تنشأ الألفة بين شخصين لا يلتقيان إلا كما تلتقي القطر المتقابلة على السكة الحديد، دقائق ثم يمضي كل منهما إلى سبيل؟

كلا! إن هذه المشاعر اللطيفة، النابعة من أعماق النفس، لا تجد منطلقها إلا في جو هادئ مستقر. وتظل –إذا لم تتحقق– تسبب جوعة نفسية دائمة، وحنيناً لاهفاً لا يستقر، ولو وجد الإنسان في كل متعة الجسد، وكل حرية الاقتصاد.

إن كل فرد من أحد الجنسين في حاجة إلى فرد من الجنس الآخر يلقي إليه نفسه كلها، مشاعرها وأفكارها. وينكشف له عن كل أسراره الدفينة. ويتجاوب معه ويتعاطف. ويجد منه حافزاً وعوناً لمواجهة الحياة وتبعاتها المختلفة. وإن الدنيا كلها لتتفتح لقلبين متحابين متآلفين، ولا تتفتح لقلب واحد، محروم من الحب والعطف، مقطوع عن الألفة الندية، ولو كان أكبر قلب لأعظم إنسان. بل هو لن يكون قلباً كبيراً، وهو محروم من هذا الغذاء الروحي الشفيف.

تلك وقائع قد يفتنّ الشعر في تصويرها في عالم المثل والأحلام. ولكنها بغير شعر ولا فن، وقائع "علمية" تشهد بصحتها الحياة كلها منذ فجرها إلى اليوم.

فالاستقرار العاطفي إذن حاجة نفسية للرجل والمرأة، لا يغني عنها كل متعة الجسد وكل حرية الاقتصاد. وهو لا يتحقق في هذا التيار الجارف الذي يسير فيه الغرب المجنون. لأنه لا يتحقق إلا في أسرة وبيت. وهم يقضون حياتهم في الشارع. مشردي النفوس. حائري القلوب. حتى المتزوجون منهم لا يصلون إلى الاستقرار المنشود.

وإن الدعاة المفتونين هنا في الشرق ليفتحون أفواههم كالببغاوات ليصيحوا بنا: انظروا إلى التقدم والرقي. إن الفتى والفتاة هناك يختار كل منهما رفيقه بعد تجربة "كاملة" يعرف فيها عنه كل شيء، حتى أدق الأشياء وأخفاها. حتى خصائص الرغبة الجنسية ومداها. وعند ذلك لا تكون هناك مفاجآت مزعجة. ويستقر المنزل كما ينبغي له أن يستقر.

ولا يملك الإنسان نفسه من السخرية بأولئك الحمقى المفتونين، وهو يرى نسبة الطلاق في أمريكا تزيد عنها في كل بلاد العالم، بما فيها مصر، أمة المتأخرين هواة الزواج والطلاق! فقد وصلت هذه النسبة إلى 40% في بعض الولايات الأمريكية، بينما هي في مصر لم تصل في أشد أوقاتها ارتفاعاً إلى هذه النسبة الفظيعة.

ولكنهم أولى بالسخرية والزراية حين يقولون لك: لا! إن الطلاق في أمريكا دليل تحضر ومدنية. ولكنه في مصر تأخر وهمجية! نعم لأن الطلاق الأمريكي "وارد الخارج" فهو إذن صناعة جيدة متقنة. أما الطلاق المصري فهو صناعة محلية رديئة!! إنه هناك طلاق الشادة، وهو هنا طلاق العبيد!

ثم ينشأ هذا الطلاق المبالغ فيه إلى هذا الحد المجنون؟

ينشأ من تلك الفوضى الجنسية التي لا تعرف الحدود. فالذي تعوّد، والتي تعوّدت، أن يعيشا في الشارع أو المنتدى أو الغابة، لن يجدا للحياة طعماً في جو البيت الهادئ الرتيب، فيكن البيت ذاته هو المفاجأة المزعجة التي تعصف بالهناء المزعوم.

وأبلغ من ذلك في بيان السبب، أن الذي تعود أن يهفو لكل فتنة عابرة، والتي تعودت أن تندفع حيث تقودها عواطفها، بحثاً عن المتعة الخالصة، لن ينعما بالعيش في نظام الوحدانية المستقرة، بل يعاودهما الشوق إلى النزوات المتنقلة والأحضان المتجددة، وتكون الوحدانية ذاتها صدمة عنيفة لم تتهيأ لها نفوسهما من قبل؛ ولن يلبث كل منهما حتى يجد الفتنة التي اختار من أجلها رفيقه قد انطفأت وبردت بحكم الألفة والعادة. ولن يلبث حتى يجد فتنة جديدة قد ظهرت على الأفق في شخص فتاة أخرى أو فتى جديد. وما دام الهدف هو المتعة، فسوف يجد الزوج والزوجة أن مزاجهما لم يعد يتفق، وأن شهيتهما قد اتجهت إلى خارج البيت، فيحدث الطلاق لينطلق كل منهما إلى صيد جديد. وإلا حدثت الخيانة، إذا وقفت الحوائل القانونية دون رغبة الانفصال[1].

وتلك نتيجة طبيعية في حياة كل هدفها المتاع. فلن يوجد شخص واحد يجمع كل الصفات المرغوبة عند رفيقه. ولا بد أن تظهر المصادفة شخصاً آخر، يملك صفة جديدة، أو يبدو أكثر بريقاً لأنه جديد.

والحياة عادة...

فإذا لم يتعود كل شخص من الجنسين أن يكتفي بواحد من الجنس الآخر، يطمئن إليه، ويلقي إليه بكل نفسه ومشاعره وأحاسيسه، كما يلقي إليه بجسده، فلن يجد السعادة في نظام الزواج الذي يفرض هذا التخصيص.

ثم تجارب الماضي ذاتها.. كيف يصدق أحد أنها تنتهي نهاية حاسمة بالزواج؟ إن كل تجربة تترك أثرها العميق –وخاصة في نفس المرأة– مهما نسيت من الظاهر. وهذه الآثار المختفية في اللاشعور توجه حياة الإنسان دون وعي منه، فتؤثر في سعادته ولو خيل إليه أنه يعيش بنفسه كلها في اللحظة الحاضرة. فما قيمة الحياة التي يحياها كل شخص مع شريكه

([1]) كتبت هذا ولم أكن قد اطلعت على كتاب "ول ديورانت" بعنوان "مباهج الفلسفة" فلما قرأته وجدت أنه يقول نفس الكلام عن المجتمع الأمريكي الذي كان يعيش فيه!

بجسده، بينما عواطفه في الخارج تحوّم في الآفاق، بوعي أو بغير وعي، وتنبش في الماضي عن سعادة ضائعة، أو لهفة عارمة أو ذكرى حبيبة؟ وأي سعادة في تلك الحيرة الزائغة والعواطف الموزعة؟

إن الواقع التجريبي، لا الخيال النظري، هو الذي يهدم دعوى الإباحة المطلقة في إسعاد الناس وإراحة الأجسام والقلوب، ويثبت أن تلك الحياة المنطلقة الهائمة التي يحياها الغرب في الشارع، سواء حدث الزواج الرسمي أم لم يحدث، مفسدة للأعصاب مرهقة للنفوس. وقد يحسب بعض "الأذكياء" أن هذا يتنافى مع الواقع المحسوس وهو تقدم هذا الغرب في العلم والاختراع والاقتصاد والسياسة. ولكنا ندلهم من جانب آخر على انتشار الأمراض النفسية والعصبية إلى درجة مخيفة لم تبلغها الإنسانية في كل عهودها، بما في ذلك عهد الكهوف والغابات!

* * *

على أن الأسرة المستقرة ليست حاجة نفسية للرجل والمرأة فحسب، فهي كذلك ضرورة لازمة لإقامة الكيان النفسي للأطفال على أساس قويم.

ونبدأ بتقرير حقيقة نفسية ثابتة وهي أن إنجاب الأطفال شهوة لم ينج منها أحد في القديم أو الحديث. وقد تمر على الشباب الحديث فترة يحسب فيها –بدافع الأنانية وحب الراحة– أنه قد تخلص من شهوة النسل. أو قد تؤثر الأحوال الاقتصادية على هذه الرغبة فتقف في طريقها إلى حد ما. ولكن هذا الشباب تمر عليه فترة أخرى فيحس بالفراغ الهائل في نفسه وحياته كلها، فراغ لا تملؤه إلا صيحة طفل. ويشعر بالندم على ما ضيع من عمره خاوياً من نسل يمد من عمره القصير على ظهر الأرض، ويوهمه بالخلود!

وقد يجد الرجل أحياناً عملاً أو فكرة يغرق فيها نفسه، ليسكت في ضميره هذا الهاتف الملح، والحنين الملهوف. ولكن المرأة.. ما أقصى حياتها وما أشقاها بغير طفل! إن الطفل جزء من المرأة حقاً ومجازاً. جزء من جسدها تحمله وتغذيه من دمائها، ثم من لبنها وهو خلاصة الدماء. وجزء كذلك من كيانها النفسي، بحيث تشعر أنها معطلة أو ناقصة أو عاجزة إذا لم تأت بنسل!

وما دام الإنسان يحب إنجاب الأطفال، فعليه إذن أن يهيئ لهم البيئة الصالحة للتربية والنماء. ولا أقل من ذلك. فالحيوان ذاته لا يترك أطفاله لأنفسهم حتى يطمئن إلى قدرتهم الكاملة على الاستقلال.

وأطفال الإنسان أحوج الأطفال جميعاً إلى الرعاية الدائمة لأمد طويل. فكلما ارتفع الحيوان في سلم الرقي، زادت وظائفه، واتسع مدى الأعمال التي يقوم بها، فكانت أطفاله في حاجة إلى فترة أطول للمرانة على هذه الوظائف والأعمال. حتى نصل إلى الإنسان، أرقى الكائنات (أو على الأقل هذا هو المفروض!) فنجد فترة الطفولة أطول منها لدى الحيوان. وكلما تحضرنا زادت الوظائف الجسدية والنفسية والعقلية، واتسع المجال لعدد لا ينتهي من الأعمال والمشاعر والأفكار، فصارت الأطفال أحوج من ذي قبل إلى زيادة الرعاية والاهتمام.

فنحن إذن كلما تحضرنا زادت حاجتنا إلى الأسرة المستقرة من أجل تنشئة الأطفال، ولم تقل هذه الحاجة كما يزعم المنحلون والمستهترون. فالأسرة هي المجال الطبيعي الوحيد الذي نربي فيه عواطف الطفل —لا جسده فحسب– على أساس إنساني. وهي البيئة الوحيدة التي يمكن أن نزرع فيها عواطف الحب والرحمة والعطف والمودة في نفوس الأطفال، لنتمكن بعد ذلك من إنشاء مجتمع متعاون متعاطف تقوم علاقاته على الحب أكثر مما تقوم على الصراع.

وقد يكون الصراع من ضرورات الحياة. وهو ليس شراً خالصاً في ذاته. فبدونه تترهل النفس وتنحط كما تترهل عضلات الجسد وتسترخي إذا لم تمرن على شيء من الحركات القوية العنيفة. ولكنه يصبح شراً حين يسرف الإنسان فيه، وحين ينسى أنه وسيلة إلى غاية نبيلة، وليس غاية في ذاته. فلا بد إذن من إنبات هذه الغاية في نفس الطفل لتنمو معه في مراحل نموه المختلفة، وليظل على ذكر دائم بأنه يصارع من أجل هدف أسمى، فيمنعه ذلك من أن يعنف في الصراع إلى حد الاعتداء على حقوق الآخرين. وبغير هذه الوسيلة الوحيدة —وهي تربية الطفل في جو من الحب والرعاية الكاملين– لا يتسنى لنا أن نمنع الإسراف في شهوة الصراع، خاصة والحياة تغري به وتدفع إليه.

ويقولون: إن المحاضن قد قضت على هذا الهراء الذي تقوله من أساسه. إذ أمكن تربية الأطفال فيها على أسس علمية صحيحة تزري بكل ما يقدر عليه الأبوان الجاهلان. بل إن الأبوين الجاهلين أحرى أن يفسدا أطفالهما وينشئاهم على أسوأ صورة نفسية وفكرية، وجسدية أيضاً. ولكن المحاضن تتلافى هذا كله، وتنشيء للمجتمع أطفالاً أصحاء من كل وجه.

وتلك أسطورة ضخمة، لا يكفي لتثبيتها كل ما تقوله الدعايات المغرية من هنا أو هناك. ففي وسع المحاضن أن تقدم للطفل غذاءه الصحيح، وتعنى به العناية الصحيحة الواجبة، فتزنه كل يوم وتسجل وزنه، وتعطيه حماماً مناسباً، وتختبر ذكاءه، وتمرن مواهبه

العقلية، وتنظر في كل نقص في النمو فتعالجه في اللحظة المناسبة. وبالوسائل العلمية الصحيحة.

كل هذا ممكن. ولكن يبقى شيء أهم من ذلك كله، أو على الأقل يساويه في الأهمية. هو الحاجات النفسية للطفل، التي يستحيل على المحاضن أن يزوده بكفايته منها، ولو رغب في ذلك.. لأنها لا تتيسر إلا في الأسرة بوضعها الصحيح.

والذين يؤمنون، من علماء النفس، بأن النفس كلها تنبع من الجسد. والذين يؤمنون كذلك بأن الظروف المادية وحدها هي التي تنشئ المشاعر، أولئك قد لا تهمهم الحاجات النفسية التي لا تتصل مباشرة بالجسد، أو لا ترتبط بالظروف المادية الخالصة.

ولكنا قد أوضحنا في مبدأ هذا البحث كيف يغفل هؤلاء عن أهم الجوانب البشرية، فتجيء تفسيراتهم قاصرة مضللة.

وقد تحدثت "أنّا فرويد" في كتابها "أطفال بلا أسر" عن الخلل النفسي الذي يلازم تربية الأطفال في الملاجئ والمحاضن، وما ينتج عنه من اضطرابات عاطفية وانحرافات شاذة لا يملك العلم النفساني أن يقوّمها إلا بجهد جهيد. هذا إن استطاع.

إن الطفل يحس في الفترة الأولى من حياته بالحاجة إلى أبوين معاً، يشعر بأنه يملكهما ملكية كاملة لا ينازعه فيها أحد. وحين يجد من يزاحمه في هذه الملكلية، ولو كان أخاه الشقيق، إذا جاء مبكراً عن موعد الفطام الجسدي والنفسي، تنفعل نفسه بانفعالات عنيفة، تصل أحياناً إلى حد المرض العصبي أو النفساني، إذا لم يُتدارك الأمر بطريقة ما.

وفي الأسرة فقط يمكن أن يجد الطفل في الفترة الأولى من حياته أبوين كاملين، يملكهما تمام الملك، ولا يزاحمه فيهما أحد. بينما لا يستطيع المحضن أن يمده إلا بجزء صغير من أم –بحسب عدد الأطفال– قد يكون ربع أو عشر أم، أو جزءاً من عشرين أو ثلاثين. وقلما يمنحه جزءاً مماثلاً من أب.

ولقد يفقد الطفل في حياته العادية أحد أبويه أو كليهما فينشئ ذلك آثاره في نفس الطفل. ولكن هذه ضرورة لا حيلة فيها لأحد ولا يمكن تفاديها. أو قد يجيء طفل جديد –في البيئات المخصبة– قبل موعده المناسب، فيزحم أخاه في الفترة التي لا يقبل فيها المزاحمة. ولكن هذه قلة نادرة لا تؤثر في النسبة العامة، ومن الممكن تفاديها على أي حال.

أما في الحالات الطبيعية وهي الكثرة الغالبة، فإنا نجد نظام الأسرة يرتب الأوضاع بالنسبة للأطفال ترتيباً محكماً يدعو إلى العجب والدهشة، فإن الطفل ليولد فيتلقاه ثدي الأم منذ اللحظة الأولى باللبن، وهو الغذاء الطبيعية الأكمل، الذي لا يغني عنه شيء سواه. ولم يكن هذا اللبن هناك منذ هنيهة حيث لا حاجة له، ولا يتأخر –في الحالة السوية– هنيهة لأن ذلك يؤذي الوليد! ويتلقاه كذلك في نفس الأم شعور لا تقل حاجته إليه عن حاجة اللبن والغذاء، ذلك هو شعور العطف والحب والمودة.

ويجيء دور الأب متأخراً بعض الشيء. ولكنه يجيء في موعده المطلوب بالنسبة للطفل. فهو في حاجة إلى أمه أولاً، ولفترة طويلة بعض الشيء. فإذا بدأ عالمه يكبر عن ثدي أمه، وملامح وجهها، والتصاقه بجسمها صاحياً ونائماً، بدأ يتطلع إلى وجه جديد. ويكون دور الأب هو اجتذابه للعالم الخارجي، وتوسيع أفقه، وتنمية جوانب القوة والمقدرة في جسمه ونفسه على السواء.

ويظل الطفل مدى العامين الأولين تقريباً ملتصقاُ بأبويه، شاعراً بلذته العظمى في امتلاكه لهما، بحيث "يُشغلهما" في إجابة مطالبه، سواء كانت غذاء أو مناغاة أو تدريباً على المشي أو الكلام. وهو على العموم لا يشعر بالأمن النفسي والعاطفي إلا أن يكون على مقربة منهما، مطمئناً إلى استجابتهما الدائمة لكل ما يحتاج إليه. ولكنه في أثناء هذين العامين يتعود بالتدريج على التحرر من الالتصاق الكامل بأبويه. فمن الناحية الغذائية يتطلب جسمه ألواناً أخرى بالإضافة إلى اللبن، ويحتملها جهازه الهضمي كذلك. ومن الناحية النفسية يتسع عالمه عن محيط الأبوين، فيأنس إلى أشخاص آخرين، صغار وكبار، يغذي فيهم نزعته الاجتماعية، وإن كانوا لا يغنونه الغناء الكامل عن أبويه.

ثم يجيء دور الفطام من الثدي. وهي عملية شاقة جداً على نفس الطفل، ولكنها كذلك ضرورية، لأن اللبن لا يعود صالحاً لغذائه ونموه. ولأن جهازه الهضمي لا بد أن يمرن لاستقبال الأطوار القادمة من الحياة. والفطام النفسي كذلك ضرورة ولو أدى إلى بعض الانفعالات العنيفة. وليس معناه إقصاء الطفل عن حب أبويه أو إهماله كأنه غير موجود. فليس شيء أضر على كيانه من مثل هذا الإجراء. ولكن معناه تعويد الطفل رويداً رويداً أن يعتمد على نفسه وعلى العالم الخارجي، مع استمراره في تلقي العون والعطف من الأبوين. وبغير هذا لا تنضج نفسه، ولا تصلح عواطفه لاستقبال الأطوار القادمة من الحياة. ويظل طوال عمره طفلاً في مشاعره وأفكاره لا يصلح لموجهة الحياة. وذلك شأن الأطفال المدللين الذين لم تفطم نفوسهم في الموعد المناسب.

فإذا تم الفطام الجسمي والنفسي، وصار الطفل قادراً على الاستغناء عن أبويه إلى حد ما، فعند ذلك فقط تتهيأ الأم في الحالات الطبيعية لمولود جديد. فيأتي في موعده المناسب، دون أن يزحم سابقه، إلا في الحالات النادرة التي لا تحسب في القياس. يأتي فيجد أبوين، أو أماً على الأقل في مبدأ الأمر، مستعدة لاستقبال ومنحه ملكية كاملة، هي الشيء الذي يريده ولا يغنيه شيء آخر سواه.

أما الطفل الأول فلا شك ستنشأ في نفسه الغيرة من الوافد الجديد، الذي استولى على مملكته السابقة. ولكن هذا شعور يمكن التغلب عليه أو تلطيفه إلى أبعد مدى، أولاً بإشعاره أنه ما زال موضع الرعاية رغم الحادث الجديد، وثانياً بإيهامه أنه أكبر من هذا الجديد، فهو بذلك أهم منه شأناً! وثالثاً بتعويده على التوجه بالرعاية إلى أخيه الأصغر بموجب أنه هو أكبر وأقدر! وذلك ريثما تعمل الألفة عملها بين الصغيرين، وتحل فرحة التعاون والتعاطف محل الغيرة والشقاق.

هذا كله يحدث بطريقة محكمة متقنة في جو الأسرة الطبيعي. ولكن أنى له أن يحدث في المحاضن، حيث يشترك عدد من الأطفال ذوي عمر واحد وحاجات متوازية، في أم واحدة، طول الوقت الذي يقضيه الأبوان الحقيقيان في العمل في المصانع، أو الاستمتاع باللذة المحرمة أو غير المحرمة في النادي أو الطريق؟

وإن روسيا الشيوعية لهي أشد الأمم محاربة للأسرة ودعاية للمحاضن. ووراء هذه الحرب تكمن شهوة ملحة في مقاومة الفطرة الطبيعية في مسألة الملكية الفردية. فهم يقولون إن نظام الأسرة هو الذي يربي مشاعر الأثرة وحب الملكية لتوريث الأولاد. والنظام الشيوعي يقوم على إلغاء الملكية الفردية. فلا بد –لمقاومة هذه المشاعر ونزع الميل إلى التملك من وجدانات البشر– من محاربة عواطف الأسرة، وجعل الأولاد ملكاً للدولة لا لآبائهم الحقيقيين. يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال ضمان إشراف الدولة على الأولاد ليخرجوا شيوعيين مضمونين!

ولكن هذا يؤدي إلى ضررين محققين: أولهما عجز المحاضن عن إمداد الأطفال بحاجتهم النفسية، مما يؤدي إلى تنشئتهم على الصراع المطلق، لا على الحب والتعاطف. أو تنشئتهم كالآلات لا قلب لهم ولا شعور. والثاني أن علاقة الرجل والمرأة، حين تنتزع منها عواطف الأسرة والأطفال، تهبط إلى أن تكون علاقة جسد وشهوة وغريزة، مما يؤدي حتماً إلى النظر إلى الزواج على أنه قصاصة ورق. فما دامت الدولة تستولي على الأطفال من أي طريق، وما دام الزواج مجرد علاقة جنسية، فما الفارق بين علاقة وعلاقة؟ وما الذي يلزم الزوج والزوجة بالإخلاص، أو الوفاء، الذي يحد من المتعة البهيمية الخالصة؟

ولكن بعض عقلائهم ينفون هذا كله، ويقولون: إن التربية في المحاضن ضرورة لجأت إليها روسيا لتمنع الآباء الجهلاء من إفساد الأطفال بجهالتهم! فعلى هذا الأساس قد نسلم لهم! على أنها ضرورة لجأ إليها جيل، لا على أنها النظام الصالح الأصيل[1].

* * *

ثم نرتقي إلى أفق آخر، ومازلنا بعد لا نمس حديث الأخلاق!

فمن قال: إن الإحساس الجنسي ذاته –بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى كلها– لون واحد ودرجة واحدة؟

هناك الشهوة العارمة التي تتمثل في الجسد الهائج والجوارح الظامئة، والعيون التي تطل منها الرغبة الهائجة المجنونة.

وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة، التي تعد العدة في ترتيب وأناة، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال.

وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التي تنبع من الجسد، ولكنها تمر في طريقها على القلب، فيصفيها من بعض ما بها من "العكار" ويعطيها قسطاً من "العاطفة" تمتزج بصيحة الجسد الملهوف.

وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التي تنبع من القلب، ولكنها قد تمر في طريقها على الجسد، فيمنحها بعض لهيبه المحرق، وقد يخلط بها بعض العكار، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء.

وهناك إشراقة الروح الحالمة، قد صفيت من العكار كله، وصارت صفاء مطلقاً لا يعرف الجسد، وإشعاعة لا تعرف القيود. تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذي يُصبّ فيه!

وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ، ولا يقدر عليها التعبير!

([1]) يقول دعاة الشيوعية: إن روسيا قد ارتدت إلى احترام الأسرة وتقوية روابطها. وسواء كان هذا حقاً أو كان دعاية للترغيب، فهو –كما قلت في هامشة سابقة– اعتراف صريح بمطالب الفطرة الأصيلة.

وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس، تشترك في الأصل، ولكنها تختلف فيما بينها أشد اختلاف.

فأي كسب للإنسانية في أن تقول مع القائلين: "كله في النهاية جنس"!؟

كله جنس. هذا صحيح. ولكن نظرة كهذه كفيلة بأن تفسد كل شيء وكل علم على ظهر الأرض! فالأحياء مثلاً كلها أحياء! ذلك صحيح في ظاهر الأمر. ولكن فيم إذن يعنّي نفسه علم الحياة في المقارنة بين الأحياء، وتسجيل خصائص كل نوع منها وكل جنس؟ إنه يصنع ذلك، ويبذل فيه جهوداً هائلة، لأن هذه الاختلافات هي التي تميز بين الأحياء فتجعل بعضها أرقى من بعض. ولن يكون علم الأحياء علماً، إذا أغفل هذه الفوارق، أو جعل الأحياء كلها في مرتبة واحدة، لمجرد اشتراكها في أساس واحد هو الحياة.

وعلم النفس كذلك لن يكون علماً حقاً إذا هو أغفل الفوارق بين شعور وشعور في المسألة الجنسية، بحجة أنها تنبع كلها من أصل واحد هو الطاقة الجنسية. فإن هذه الفوارق ذات دلالة عظيمة، وهي التي تفرق بين إنسان وإنسان في سلم الرقي.

* * *

ومن قال كذلك إن كل هم الحياة هو أداء وظائفها البيولوجية، كيما يزعم أناس في الغرب الهابط والشرق المتحلل، أن المسألة الجنسية مسألة بيولوجية خالصة؟

وفيم إذن كان الجمال؟ إن الجمال صفة زائدة عن ضرورات الحياة البيولوجية، لا تستلزمها هذه الضرورات. فأي شق يمكن أن يؤدي وظيفة الفم، وكل فتحة يمكن أن يتكون منها أنف يُدخل الهواء. وكل شقين يمكن أن يكونا عينين تبصران. وإن هذه الوظائف جميعاً لتتم في أقبح وجه وفي أجمل وجه بصورة واحدة من الوجهة البيولوجية.

ففيم كان الجمال، وليست له ضرورة بيولوجية؟ إنه ولا شك إشارة إلى هدف آخر مذخور في فطرة الحياة، هدف يرتفع عن الضرورة، وينطلق إلى ما فوقها من آفاق. هو هدف التسامي والارتفاع.

فإذا كان هذا –بصورة قاطعة لا تحتمل الجدل– من أهداف الخلق في عالم الأجسام، فهو كذلك من أهداف الخلق في عالم النفوس. فالجمال الجسمي، الذي يؤدي الوظائف كلها ويضيف إليها عنصراً زائداً عن الضرورة، لا بد أن يقابله جمال نفسي، يؤدي المشاعر

البيولوجية كلها، ويضيف إليها عناصر أخرى، لا تستوجبها الضرورة البيولوجية، ولكن يستوجبها الارتفاع بالنفس عن مستوى الضرورات.

وتلك فطرة الحياة، لم يخلقها الإنسان لنفسه، وما خلقها الحالمون من أهل الشرق، المتأخرون الذين لم يؤمنوا بالعلم! ولكنها خلقة الله الذي فطر كل شيء، ووجّهه إلى الصعود الدائم والتطور المستمر "إن الله جميل يحب الجمال".

* * *

والآن نترك ما ينحدر إليه الغرب المجنون من مستويات هابطة، بعد اطمئناننا الكامل إلى أن مصلحة الفرد ذاته لا تتحقق بالإباحية المطلقة، والبهيمية الهائجة. وبعد أن تأكدنا أن الحياة لا تهدف إلى مجرد قضاء الوظائف البيولوجية، ولكنها تهدف إلى الارتفاع بها، لكي تؤدّى على نسق جميل يتسامى عن قيود الضروة.

نترك تلك المستويات الهابطة، لندخل إلى رحاب الإسلام، حيث تهدأ الأعصاب من هياجها الثائر، وتطمئن القلوب من القلق الحائر والتطلع الملهوف.

* * *

يعترف الإسلام بالطاقة الجنسية من حيث المبدأ، أصرح اعتراف يمكن أن تصبو إليه الإنسانية! ولكنه لا يعترف بها ضرورة هابطة، ولا خلسة تختلس في الظلام. بل على العكس من ذلك يرفعها ويطهرها، ويسلط عليها النور!

فهو لا يكتفي بذكر الأمر الواقع في مسألة الجنس، حيث يقول القرآن "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ". بل يعتبرها جزءاً من العبادة يستحث النبي صلى الله عليه وسلم على أدائها إذ يقول: "أكملوا نصف دينكم بالزواج". فإذا قيل إنه يقصد بذلك الزواج ذاته لما فيه من إحصان للفرد، أي أنه ينظر إلى الناحية الأخلاقية لا الجنسية، فقد جمع بينهما حيث قال: ".. وفي بضع أحدكم أجر" أي أن الرجل يثاب على العمل الجنسي يأتيه مع زوجته. فلما سأله المسلمون متعجبين: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"! ثم هو الذي يقول: "حُبِّبَ إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة" فيرفع الجنس —من حيث هو جنس– إلى مستوى الصلاة، أطهر ما يتطهر له المؤمن، ومستوى الطيب، أزكى رائحة تنتعش لها الروح!

بل إن ما كان يصنعه المسلمون إلى عهد قريب، ولعل أتقياءهم ما زالوا حريصين عليه، من قراءة اسم الله قبل البدء في اللقاء الجنسي ليدل دلالة قاطعة على مدى نظافة الجنس في حس المسلم. صحيح أنهم كانوا يصنعون ذلك من أجل أن يبارك الله النسل المنتظر. ولكن اسم الله هو أطهر اسم يرد على خاطر المسلم المؤمن، فإذا ذكره في هذا المجال، فهو على اطمئنان من أنه مقدم على عمل نظيف يستأهل هذا الاسم الكريم.

والطاقة الجنسية من حيث المبدأ مسألة بيولوجية، وبدونها لا يمكن استمرار الحياة على وجه الأرض. والإسلام حريص على تحقيق أهداف الحياة العليا، فهو لذلك يحترم كل ما يؤدي إلى تحقيق هذه الأغراض.

ولكن الذي يضع له الإسلام الضوابط والقيود، هو طريقة التنفيذ العملي لتلك الأهداف، بعد الاعتراف بها من حيث أحقيتها بالوجود، والاعتراف للناس بحق الإحساس بها في الشعور.

أي أنه كما بينا في فصل "نظرة الإسلام" لا يكبت النوازع الفطرية التي تؤدي غاية حيوية.. ولكنه يضبط انطلاقها بما تتحقق به مصلحة الفرد الواحد، وبقية الأفراد. وهو في هذا يستجيب للفطرة السوية لا يفرض شيئاً يخالف طبيعتها، ولا يحمل الناس على شيء ليس في وسعهم قضاؤه.

إنه يبيح للناس أن يطاوعوا داعي الجنس ولا يكبتوه في مشاعرهم. بل يأمرهم أمراً بالاستجابة إليه، ويحبب إليهم ذلك ويغريهم به. ولكنه لا يتركهم ينزو بعضهم على بعض كما يفعل الحيوان، لأنه يؤمن إيماناً راسخاً بأن الإنسان أرفع من الحيوان. وتلك حقيقة علمية، قررها العلم بصرف النظر عن الأديان. وهو كذلك ينظر من الأفق الأعلى، فيرى الحاضر، ويرى معه الماضي والمستقبل: حلقة واحدة لا تنفصم أجزاؤها ولا تتفكك. ولذلك لا يجاري الفرد في نزوة من نزواته، وهو يراه رأي اليقين يتردى بهذه النزوة بعد حين. ولا يطيع فرداً بذاته وهو يرى من أفقه المرتفع أفراداً آخرين يقع عليهم الضرر من فعلته، وهم ذوو حق مقدس في أن يأمنوا الضرر ويستمتعوا بطمأنينة الحياة. ولا يستجيب لاندفاع جيل، وهو يرى ببصيرته النافذة كيف يؤذي هذا الجيل باندفاعه بقية الأجيال...

وهو كذلك لا يملي للإنسانية في الهبوط، وهو يعلم أنها تهدف إلى الارتفاع. وتلك حقيقة أخرى أثبتها العلم، منقطعاً عن الإيمان بعقيدة. ولا يكتفي بمجرد أداء الوظيفة البيولوجية وهو يعلم أن الحياة لا تكتفي بها، وإنما في فطرتها أن تصل إلى مستوى الجمال، وهو زائد عن ضرورة الحياة، وهو في الوقت ذاته موضع الإعجاب الشديد وموضع التقدير.

وهو لا يقبل كذلك أن تنحدر الإنسانية إلى الدرك الذي تتشابه فيه أعمال الناس – لأنها أعمال غريزية خالصة– وهو يعرف أن الناس تتفاضل بالمشاعر، كما تتفاضل بالقوة والمقدرة والذكاء والأموال... وأن تعدد النماذج واختلاف الدرجات سنة من سنن الحياة وهدف من أهدافها الأصيلة، لا يتحقق إذا هبط الناس كلهم إلى الحضيض.

وهكذا يستجيب الإسلام لأهداف الحياة كلها في وقت واحد، لا يغفل منها شيئاً، ولا يقحمه إقحاماً على النفوس. فهو إذ يطيع دافع الجنس يعرف حق الحياة في استمرار النسل، وحق الناس في إجابة الشهوة الشاغطة. وإذ ينظف وسائل التنفيذ يعرف استهداف الحياة للارتفاع، وقدرة الناس عليه. ولا يكلفهم مع ذلك شططاً، فلا يدعوهم للرهبانية، ولا يقبلها منهم إذا أتوا بها، بل يعتبرها نكولاً عن واجبات الدين.

* * *

يتصور الإسلام وجود علاقة بين الرجل والمرأة على أنه الشيء الطبيعي الذي ينبغي أن يكون. فهو يقرر أن الله جعل في قلب كل منهما هوى للآخر وميلاً إليه؛ يقول القرآن: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً". ولكنه يذكّرهما بأنهما يلتقيان لهدف هو حفظ النوع. وتلك حقيقة لا أحسبها موضع جدال. فمن المسلم به لدى "العلم" أن للوظيفة الجنسية هدفاً معلوماً. وليس هي هدفاً في ذاتها. فيقول القرآن: " نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ". فيحدد بذلك هدف العلاقة بين الجنسين، بتلك الصورة الموحية: صورة الأرض التي تحرث، لوضع البذرة، وتعهدها حتى تنبت، وتأتي بثمرة جديدة من نفس النوع.

وبهذه الصورة الموحية يتبين رأي الإسلام منذ البدء. فهو يرى أن للشهوة هدفاً محدداً، ولا يوافق على أن إرضاء الشهوة هو في ذاته الهدف الأول والأخير.

وربما خطر في فكر سائل أن يقول: إن هدف الحياة من هذه الشهوة يتحقق، سواء تيقظ إليه الفرد أو كان غارقاً في الشهوة العمياء؛ فما الفرق إذن بين هذا وذاك؟

ولكن الحقيقة أن هناك فارقاً هائلاً بين النظرتين في واقع الشعور. فحين يؤمن الإنسان بأن للعمل الغريزي هدفاً أسمى منه، وليس هو هدفاً في ذاته، يخف سلطان الشهوة الطاغية في شعوره، فلا يتخذ تلك الصورة الجامحة التي تعذب الحس أكثر مما تتيح له المتعة والارتياح؛ وليس معنى ذلك أنه يقلل من لذتها الجسدية، ولكنه على التحقيق يمنع الإسراف الذي لا يقف عند الحد المأمون.

وقد يكون مثال الطعام أقرب إلى الإدراك. فالذي يحسب أن الأكل غاية في ذاته، فيعيش ليأكل، يجعل همه الطعام ويسرف فيه إلى درجة قد تؤدي إلى التخمة، وفقدان المتعة بالغذاء في النهاية. أما الذي يأكل ليعيش، فلن يفقد لذة الاستمتاع بالطعام الشهي، ولكنه سيحد من شهوته إليه، فلا يسعى إليه سعياً يذل كرامته وينقص من إنسانيته، وسيقف كذلك عند الكمية التي لا تؤذي الهضم، ولا تضر في نهاية الشوط.

والشأن في المسألة الجنسية كذلك. فالذي يرى أن إرضاء الشهوة هو كل الغاية، يسرف في طاقة جسده المحدودة، وفي ماله وأفكاره ومشاعره، حتى يصل إلى درجة الضعف الجسمي والانحلال النفسي. أما الذي يستحضر في فؤاده غاية الجنس، وهي النسل، فلن يسرف —لا لأنه سيمنع نفسه عن قصد وإرادة– ولكن لأن نفسه بطريقة آلية ستمتنع عن الإسراف، لانشغالها في أهداف أعلى. وهو في الوقت ذاته لن يفقد اللذة الجسدية حين يتجه إليها بنفسه ومشاعره، كلما فرغ إليها من شغل، أو أحس بدافع الجسد يدعوه.

والفارق الاجتماعي والإنساني، الذي ينشأ من هذا الشعور، هائل كذلك. فحين يكون الجنس غاية في ذاته، لا يحس الفرد بأي احترام لتنظيمات المجتمع التي تضع القيود على التنفيذ، لأن هذه التنظيمات قائمة على الأساس الآخر، وهو وجود هدف وراء الغريزة أسمى منها وأجدر بالاعتبار. ولن يجد كذلك طعماً للمشاعر الإنسانية الرفيعة، لأن هذه تفترض منذ البدء أن النزعات الفطرية كلها —والجنسية من بينها– ذا درجات متفاوتة بين الهبوط والصعود، أعلاها هو أبعدها عن منبع الغريزة، وأدناها هو أقربها إليه.

ومن هنا يهبط الناس في الناحية الاجتماعية والإنسانية هبوطاً شائناً حين يؤمنون بأن الجنس غاية في ذاته، ويرتفعون، كل بقدر ما أوتي من عظمة ومقدرة، حين يؤمنون بوجود هدف آخر (بل عدة أهداف كما سيجيء) وراء اللذة البهيمية الخالصة.

وهذا الهبوط والارتفاع يصدقان على كل النوازع الفطرية، ولكنهما أشد بروزاً في المسألة الجنسية وأعمق أثراً، لما سبق أن بيناه في مبدأ هذا الفصل من عنف الطاقة الجنسية وتعمقها في مسارب النفس، وسيطرتها على عدد هائل من المشاعر والأعمال. ولذلك كانت الأخلاق، وهي مسألة شاملة لكل تصرفات الإنسان، أشد اتصالاً بالمسألة الجنسية منها بأي أمر آخر. حتى صار أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع كلمة الأخلاق هو طريقة الشعور بالدافع الجنسي، وطريقة الاستجابة إليه.

* * *

الهدف الأول القريب هو النسل. وهو الذي بينته الآية التي تقول: "نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ".

ولكن الإسلام لا يأخذ الحياة تفاريق. إنه ينظر إليها ككل أكبر، ثم يوفق بين الجزئيات في تناسق عجيب، بحيث يتألف منها في النهاية هذا الكل المتناسق المتآلف، في ذات الوقت الذي تؤدي فيه كل جزئية عملها الخاص على أوفق وضع وأجدره بإنتاج النتيجة الصحيحة. ومن ثم كانت كل جزئية تؤدي –على الأقل– وظيفتين في وقت واحد: وظيفتها الخاصة القريبة، ثم نصيبها من التناسق الأعظم في الكل الكبير.

رأينا ذلك من قبل في نظرة الإسلام للفرد والمجتمع، وتنسيقه كل شرائعه وتوجيهاته على أساسها، إذ اعتبر للفرد صفتين في آن واحد: صفته كفرد مستقل، وصفته كعضو في الجماعة، ثم وافق بين مطالبه الفردية والاجتماعية بتشريع واحد ذي شعبتين، يتحقق به في ذات الوقت صالح الفرد وصالح المجموع.

ونراه الآن في المسألة الجنسية. فإذا ألقى الله في قلب كل جنس ميلاً للجنس الآخر، فالإسلام يهدف من وراء ذلك أولاً إلى إنتاج النسل. وهو الوظيفة القريبة المباشرة. ولكن هذا جزء من تناسق أكبر. فهناك الأسرة، التي تستجيب لمشاعر الألفة في نفس الرجل والمرأة استجابة كاملة، لا تتيسر بنوعها ومداها ودوامها في أية علاقة أخرى يمكن أن تقوم بين فردين. وتستجيب في ذات الوقت لمطالب الأطفال، الذين أنجبتهم في المرحلة السابقة – أو في الجزئية التي سبقت هذه في الترتيب. وفي الأسرة تتربى الطفولة على مشاعر الحب، التي تخفف من شهوة الصراع الذي تدفع إليه طبيعة الحياة "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ". فيتحقق بذلك أكبر قسط من السعادة لهؤلاء الأطفال أنفسهم، ولآبائهم من قبل، وهم في الوقت ذاته نواة المجتمع المستقبلة، منهم يتكون الجيل الجديد الذي يحكم المجتمع عما قليل. وهكذا تكون الأسرة التي شملت جزئيات أصغر منها، في تناسق وتوافق كاملين، جزئية في نظام أكبر منها، تؤدي وظيفتها الخاصة القريبة، ووظيفتها الأخرى في التناسق الاجتماعي وهو أوسع مدى وأشمل.

وهكذا نتدرج من المجتمع الواحد إلى المجتمعات الأخرى، إلى الإنسانية الشاملة في النهاية، على هذا النسق المتوافق الذي يجعل كل جزئية وسيلة لغاية أكبر، حتى تتحقق غايات الحياة العليا، بالجملة والتفصيل في لحظة واحدة، وبنظام واحد دقيق!

* * *

يصف القرآن العلاقة بين الرجل والمرأة في تعبير دقيق جميل حيث يقول: "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ". ففي هذه الكلمات القليلة تصوير رائع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن. فاللباس ألصق شيء ببدن الإنسان، وهو الستر الذي يستتر به، وهو في الوقت ذاته مفصل على قده لا ينقص ولا يزيد. والرجل والمرأة ألصق شيء بعضهما ببعض: يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة. وفي لحظة يذوب كل منهما في الآخر فلا تُعرف لهما حدود. وهما أبداً يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلابسه.

ثم هما ستر، كل واحد للآخر. فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة. وهما على الدوام ستر روحي ونفسي. فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شيء فتنهبه الأفواه والعيون. وهما كذلك وقاية تغني كلاً منهما عن الفاحشة وأعمال السوء، كما يقي الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير.

وهما بعد ذلك كاللباس في تفصيله مضبوطاً على القد. يلبسه صاحبه فيستريح إليه، ويتحرك نشيطاً في محيطه، ويكتسب به زينة وجمالاً تعجب صاحبها وتعجب الناظرين. فليس أبدع من تصوير هذه المعاني كلها في تشبيه واحد شامل عميق.

وإذ كانت العلاقة بين الرجل والمرأة وثيقة إلى هذا الحد، فقد وجب أن يلتقيا ليكون كل منها لباساً لصاحبه، يزينه ويكمله، ويلتصق به للوقاية والستر.

وقد ذكرنا من قبل أنه لا مناص –حين يلتقي الجنسان– من أن تختار البشرية بين أحد وضعين: أن تكون جميع الإناث لجميع الذكور على الطريقة الغالبة بين الحيوان[1]، أو تكون امرأة واحدة لكل رجل، ورجل واحد لكل امرأة. وكان الأمر الطبيعي أن يختار الدين الوضع الآخر، وهو يحرص على الارتفاع بالإنسانية إلى مكانها الحق الذي اختاره لها الله.

على أننا رأينا من مساوئ الفوضى الجنسية، بالنسبة لاستمتاع الفرد وراحته، ما يجعل المصلحة الفردية ذاتها تهدف إلى النظام الآخر، فتحقق في نهاية الشوط من المتاع والطمأنينة أكثر مما تحقق النشوة المسعورة التي تخلف القلق العصبي والاضطراب النفسي.

([1]) بعض الحيوانات العليا تنشى نظاماً قريباً من نظام الأسرة، فلا تعترف بالفوضى الجنسية من جانب الأنثى، فإذا اشتهى هذه الفوضى أحد الذكور قامت المعارك التي تنتهي بانتصار الأقوى وإذعان الضعيف.

لذلك يحرص الإسلام (والأديان السماوية كلها) على أن يكون الزواج هو الطريقة التي يلتقي بها الرجل والمرأة، ويزيد على بقية الأديان أن يدعو إليه دعوة حارة، فيجعله النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة نصف الدين، لأنه إذ يقي من الشهوة العارمة، ويخلص النفس من سطوتها ومشغلتها، يهيئ المشاعر والأفكار لاستقبال الأهداف العليا، والعمل في سبيلها. وذلك هو الدين.

والغرب المنحل يزعم مثل هذه الدعوى حين يقول: إننا نتيح لفتياننا وفتياتنا أن يفرغوا شحنة الغريزة بأيسر سبيل، ليتخلصوا من حملها على الأعصاب، وينطلقوا للعمل المثمر المفيد.

وهي دعوى براقة، لولا أنها تخالف الواقع. فالشباب ينطلق للعمل حقاً بعد إفراغ هذه الشحنة. ولكنه العمل الآلي البحت الذي لا يرتفع عن الضرورة، ولا يستوحي أي هدف أعلى من وقائع المادة وحقائق الأرض القريبة. ومن ذلك تنشأ الحضارة الغربية المادية. حضارة الإنتاج العظيم في عالم المادة، مع الضآلة المخزية في عالم النفس والروح والضمير. ولا أقصد الضمير النفعي، الذي ينظم المعاملات الفردية بين التاجر والمستهلك، أو بين الرئيس والمرءوس في العمل.. وإنما أقصد الضمير الإنساني الذي يشعر بالأخوة الإنسانية بين أفراد البشر، ويعمل بوحي هذا الشعور.

فإذا هز قوم أكتافهم، أو أشاحوا بوجوههم، وقالوا ما قيمة هذه الأوهام التي تتحدث عنها؟ إنما النجاح نجاح المادة والعلم والإنتاج الأرضي... فلينظروا إلى العالم بعد أن سيطرت على مشاعره هذه المبادئ الهابطة، وحين غلبت عليه أوربا التي تعتنق هذه الفلسفة الحيوانية.. كيف صار؟ هاتان هما حربان عالميتان في ربع قرن، والثالثة على الأبواب. ألا فليهنأ المفتونون ببريق الغرب الخاطف، بالنعيم النفسي والفكري، في ظل القنابل المدمرة والغارات المميتة!

وإنما ينصرف الناس إلى الغايات العليا ويستشعرون في ضمائرهم الأفق الأعلى، حين يفرغون شحنة الجنس على أساس نظيف، يستهدف وراءه غاية، ولا يجعل الإشباع الجنسي وحده هو الغاية.

ولست أزعم أن مجرد هذا يؤدي إلى ذاك. ولكني أقول إن استشعار الهدف الأسمى من كل نزعة فطرية، يوجد التربة الصالحة، التي يمكن أن تبذر فيها المثل العليا فتنمو وتثمر. وبدون ذلك لا يمكن لأي مثل أن يقوم، مهما تحدثت الدعاية عن "الإنسانية" الرفيعة التي تؤرق ضمير انجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا، وتستحثها على رفع مستوى الحياة للشعوب،

بالاحتلال العسكري حيناً، والإذلال الاقتصادي حيناً آخر، وبالمساهمة حيناً ثالثاً في خلق دولة كإسرائيل، تمتص دماء العرب وترفع مستوى الشيوعية بين اللاجئين!!

وحين كان المسلمون يحافظون على إسلامهم —بمعناه الحق– في صدر الإسلام، ثم في فترات متفرقة بعد ذلك، كانت في نفوسهم تلك المثل العليا التي ساعدت على نشر الإسلام بسرعة مثالية في التاريخ كله، وآخت بين المسلمين كلهم من الهند إلى الأندلس، ومدت مشاعر الإنسانية إلى غير المسلمين من النصارى واليهود، طالما كانوا لا يحاربون الدعوة المنطلقة إلى الخير. وكانت للمسلمين في الوقت ذاته للغلبة العسكرية والاقتصادية والعلمية، لأن الإسلام لا يعيش طائراً في السماء يحلق في الخيال، وإنما يعيش على الأرض يعمل ويكسب، وهو متوجه في نفس الوقت بمشاعره وروحه إلى السماء يستلهمها النور.

* * *

ويقيم الإسلام روابط الأسرة على أساس المساواة الإنسانية بين الجنسين. فكل بشر ذكراً كان أو أنثى هو في نظر الإسلام مخلوق إنساني، له حقوقه البشرية كغيره من المخلوقات. حياته مصونة ودمه وعرضه وماله حرام على الآخرين. وكرامته الإنسانية محفوظة لا يلمز ولا ينبز بالألقاب ولا يغتابه أحد ولا يتجسس عليه ولا يدخل عليه داره بغير إذن.

تلك حقوق يستوي فيها البشر جميعاً لا فرق بين ذكر وأنثى، لأنها تتصل بالقسط المشترك من الحياة الإنسانية.

وكذلك تكون المساواة في الأجر على الأعمال في الحياة الآخرة: "مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ".

ولكن الإسلام الذي يعرف حقيقة الفطرة الإنسانية السوية ويتمشى معها، يعترف بتكافؤ الجنسين لا بتماثلهما، لأن التماثل ليس حقيقة. وهو لذلك يفرق بينهما في بعض الحقوق والواجبات التي تنشأ من اختلاف طبائعهما، واختلاف وظائفهما، بعد أن سوّى بينهما في الأمور الأخرى التي تتصل بالإنسان من حيث هو إنسان.

وهنا موضع الضجة الزائفة التي يقوم بها النساء في مؤتمراتهن، ويؤجرن بعض الكتاب، بما لا أدري أو بما لا أحب أن أسميه من أنواع الإيجار، ليكتبوا لهن عن المساواة المطلقة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، وربما طلبوا أو طلبن اختراع أجهزة جديدة تغير بناء الأجسام

وطبائع النفوس، ليتم التماثل المنشود، ويصير كل جنس رجلاً وامرأة في آن، ويستغني كل إنسان عن كل إنسان.

يفرق الإسلام بين الجنسين في موضعين أساسيين: القوامة وتوزيع الميراث.

ونبدأ بالمسألة الاقتصادية لأن دعاة الاقتصاد في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إلى الإسلام في هذه المسألة على أنه نظام "تأخري!" غارق في ظلام الجهالة والاستبداد. وذلك على الرغم من أنه يمنح المرأة من الحقوق الإنسانية ما لا تزال النساء تتظاهر من أجله في كثير من بقاع الأرض فلا يستمع لصراخهن أحد!

يقول الإسلام في الإرث: "لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ". ذلك حق. ولكنه يجعل الرجل هو المكلف بالإنفاق، ولا يتطلب من المرأة أن تنفق شيئاً من مالها على غير نفسها وزينتها. فأين الظلم والاستبداد؟ إن المسألة مسألة حساب، لا عواطف ولا ادعاء.

تأخذ المرأة –كمجموعة– ثلث الثروة الموروثة لتنفقها على نفسها. ويأخذ الرجل ثلثي الثروة لينفقها أولاً على زوجة، أي على امرأة، وثانياً على أسرة وأولاد. فأيهما يصيب لنفسه أكثر من الآخر بمنطق الحساب والأرقام؟ وإذا كانت هناك حالات شاذة لرجال ينفقون كل ثرواتهم على أنفسهم، ولا يتزوجون ولا يبنون أسرة، فتلك أمثلة نادرة، وهي على أي حال مخالفة لتعليمات الإسلام وأوامره، فلا تدخل في اعتبار الإسلام. وإنما الأمر الطبيعي أن ينفق الرجل ثروته على بناء أسرة فيها امرأة بطبيعة الحال هي الزوجة. وهو ينفق عليها لا تطوعاً منه، بل تكليفاً. ومهما كانت ثروتها الخاصة فلا يحق له أن يأخذ منها شيئاً البتة إلا بالتراضي الكامل بينهما. فإذا شاءت أن تحتفظ بها لنفسها فهي وما تشاء، وعليه مع ذلك أن ينفق عليها كأنها لا تملك شيئاً. ولها أن تشكوه إذا امتنع عن الإنفاق أو قتر فيه بالنسبة لما يملك: "عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ". ويحكم لها الشرع بالنفقة أو بالانفصال. فهل بقيت بعد ذلك شبهة في القدر الحقيقي الذي تناله المرأة من الثروة الموروثة؟ وهل هو امتياز حقيقي في عالم الاقتصاد أن يكون للرجل مثل حظ الأنثيين، وهو مكلف ما لا تكلفه الأنثى؟

وينبغي أن نتذكر جيداً أن هذه التفرقة هي في المال الموروث فقط. وقد وزع على الرجل والمرأة بحسب حاجة كل منهما وتكاليفه. أما المال المكتسب فالمساواة الكاملة فيه هي القانون. وليس في الإسلام نص واحد يبيح التفرقة بين الرجل والمرأة في الأجر أو الكسب. بينما لا يزال النساء في انجلترا إلى اليوم –أي بعد الإسلام بأربعة عشر قرناً– يتظاهرن من أجل الحصول على هذه المساواة!!

ليس وضع المسألة إذن أن قيمة المرأة نصف قيمة الرجل في حساب الإسلام، فقد رأينا بمنطق الأرقام أن هذا غير صحيح. وليس اعتبار شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد دليلاً كذلك على أن المرأة تساوي نصف رجل، ولو أن النسبة هي نفس النسبة في الميراث! إنما هذا إجراء روعي فيه توفير كل الضمانات في الشهادة. ولما كانت المرأة بطبيعتها العاطفية المتدفقة السريعة الانفعال، مظنة أن تتأثر بملابسات القضية "فتضل" عن الحقيقة، روعي أن تكون معها امرأة أخرى "أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى". ومن النادر جداً، حين تحضر امرأتان في مجال واحد، أن تتفقا على تزييف واحد، دون أن تكشف إحداهما نوايا الأخرى فتظهر الحقيقة!

أما مسألة القوامة، فالضرورة تقتضي أن يكون هناك قيّم توكل إليه الإدارة العامة لهذه الشركة القائمة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عنها من نسل، وما تستتبعه من تبعات. وقد اهتدى الناس في كل تنظيماتهم إلى أنه لا بد من رئيس مسئول، وإلا ضربت الفوضى أطنابها، وعادت الخسارة على الجميع. وهناك ثلاثة أوضاع يمكن أن تفترض بشأن القوامة في الأسرة: فإما أن يكون الرجل هو القيّم. أو تكون المرأة هي القيّمة. أو يكونا معاً قيّمين.

ونستبعد الفرض الثالث منذ البدء لأن التجربة أثبتت أن وجود رئيسين للعمل الواحد أدعى إلى الإفساد من ترك الأمر فوضى بلا رئيس. والقرآن يقول عن السماء والأرض: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" "إذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ" فإذا كان هكذا الأمر بين الآلهة المتوهّمين، فكيف هو بين البشر العاديين؟

وعلم النفس يقرر أن الأطفال الذين يتربون في ظل أبوين يتنازعان على السيادة، تكون عواطفهما مختلة، وتكثر في نفوسهما العقد والاضطرابات.

بقي الفرضان الأولان. وقبل أن نخوض في بحثهما نسأل هذا السؤال: أيهما أجدر أن تكون وظيفته القوامة، بما فيها من تبعات. الفكر أم العاطفة؟ فإذا كان الجواب البديهي هو الفكر، لأنه هو الذي يدبر الأمور في غيبة عن الانفعال الحاد، الذي كثيراً ما يلتوي بالتفكير، فيحيد به عن الطريق المباشر المستقيم، فقد انحلت المسألة دون حاجة إلى جدال كثير.

فالرجل بطبيعته المفكرة لا المنفعلة، وبما زودته به الحياة من قدرة على الصراع، واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته، أصلح من المرأة في أمر القوامة على البيت. بل إن المرأة ذاتها لا تحترم الرجل الذي تسيّره هي فيخضع لرغباتها، بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أي اعتبار. فإذا كان هذا من أثر التربية القديمة التي تترك طابعها في اللاشعور، وتكيف مشاعر المرأة دون

وعي منها، فهذه هي المرأة الأمريكية التي ساوت الرجل مساواة كاملة في الحقوق الاقتصادية وصار لها كيان ذاتي مستقل، عادت فاستعبدت نفسها للرجل؛ وهذه هي كما تتحدث الاعترافات التي تنشرها الصحف الأمريكية، وكما يشهد الذين زاروا تلك البلاد، تتحسس عضلات الرجل، وتتطلع إلى صدره العريض وذراعيه المفتولين، ثم تلقي بنفسها بين أحضانه، حين تطمئن إلى قوته بالقياس إلى ضعفها، أي حين تتلبس النتوءات والمنحنيات ليتألف منها مزاج مؤتلف متناسق.

على أن المرأة إذا تطلعت "للسيادة" في أول عهدها بالزواج، وهي فارغة البال من الأولاد وتكاليف تربيتهم التي ترهق البدن والأعصاب، فسرعان ما تنصرف عنها حين تأتي المشاغل، وهي آتية بطبيعة الحال. فحينذاك لا تجد في رصيدها العصبي والفكري ما تحتمل به مزيداً من التبعات.

وليس مؤدى هذا أن يستبد الرجل بالمرأة أو بإدارة البيت، فالرئاسة التي تقابل التبعة، لا تنفي المشاورة ولا المعاونة. بل قد يكون العكس هو الصحيح. فالرئاسة الناجحة هي التي تقوم على التفاهم الكامل، والتعاطف المستمر. وكل توجيهات الإسلام تهدف إلى إيجاد هذه الروح في داخل الأسرة، حتى لينفّر النبي صلى الله عليه وسلم الرجال من استعمال حقوقهم في تأديب زوجاتهم الناشزات –تلك الحقوق التي صرح لهم بها القرآن– إلا في حالات الضرورة القصوى. فهو يقول لهم: "أما يستحي أحدكم أن يضرب زوجته أول النهار ثم يضاجعها آخره؟" فيدعو إلى تغليب الحب والتفاهم على النزاع والشقاق. ويجعل مقياس الخير عند الرجل هو طريقة معاملته لزوجته حيث يقول: "خيركم خيركم لأهله".

ومن حق القوامة نشأ في الإسلام أن يكون الرجل هو الذي له حق الطلاق لا المرأة؛ وتقول النسوة اللائي احترفن إقامة المؤتمرات للإعلان: إن هذا ظلم، وإنه كان ينبغي أن تعطى المرأة أيضاً هذا الحق فتطلق الرجل حين تريد.

والمسألة أبسط من أن تقوم فيها المماحكة. فلتسأل كل امرأة نفسها كم مرة في حياتها وافقت على الشيء بكليتها ثم رفضته هو ذاته حين تغيرت عاطفتها نحوه.. ولنتصور بعد ذلك كم مرة كانت ستطلق زوجها ثم تعود فترده، ثم تعود فتطلقه، وهكذا وهكذا. بحيث لا يقر للبيت قرار، وتختل لنفوس الأولاد من هذه الحركة الدائمة من النقيض إلى النقيض.

وليس معنى هذا لأنه لا يوجد رجال يصنعون ذلك، فقد بينا من قبل أن في كلا الجنسين قدراً من طباع الآخر يزيد أو ينقص. ولكن الأحكام العامة في مثل هذه الأحوال تكون موكلة بالأغلبية الساحقة، لا بالحالات الفردية التي تدخل في باب الشذوذ.

على أن الإسلام أباح للمرأة أن تشترط عند عقد الزوج أن تكون عصمتها بيدها، فتنفصل عن الرجل حين تريد. فإذا شاءت أن تستعمل حقها فهي وما تريد[1].

* * *

في حدود الأسرة، وفي نطاق الزواج، يتيح الإسلام للطاقة الجنسية مجالها الطبيعي المعقول. ولكنه لا يتيح لها المجال في الشارع، خلسة أو علانية، وهو يرى ببصيرته كيف تنحل الأمم وتسقط حين تترك أفرادها يتهاوون في الرذيلة، دون أن تأخذ بحجزهم وتمنعهم من الانحدار.

وقد يقول البعض: "إن هذا النظام الذي يقصر المرأة على رجلها، ويحرم عليها إبداء زينتها إلا له: "وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ" نظام ظالم المراة، لأن من طبيعتها أن تزهو بفتنتها، وهي تحب أن تجرب سحرها في أكبر عدد من الرجال، ولا تشعر أن كيانها قد تحقق إلا إذا ظفرت بالإعجاب الإجماعي. فكأننا نكبت طبيعتها الأنثوية حين نقصرها على رجل واحد فحسب. وصحيح أن النظام الذي حرم عليها أن تجرب تأثيرها إلا في هذا النطاق المحدود قد هدف إلى مصلحة أكبر من الفرد، هي مصلحة الجماعة. ولكنا قد بينا بما لا يدع مجالاً للشك أن كل تشريع أو توجيه في الإسلام نظر فيه إلى مصلحة الجماعة، قد قصد به في ذات الوقت مصلحة الفرد نفسه. وإلا فهل تحب المرأة أن تطلق لها الحرية تجرب فتنتها فيمن تشاء من الرجال، تحقيقاً لكيانها الذاتي، على أن تترك رجلها يقع في فتنة غيرها من النساء، اللواتي نلن مثلها حق الفتنة والإغراء؟ وهل يحقق سعادتها أن تظل أبداً مشغولة البال على رجلها أن "تخطفه" امرأة أخرى، فيكون معنى ذلك أن فتنتها هي قد عجزت عن الاحتفاظ به وتكون صدمة لكبريائها تعصف بكل ما أرادت تحقيقة من كيان؟

على أن المرأة تحقق كيانها كاملاً حين ترى رد الفعل في نفوس الأخريات، في المجتمع النسائي الخالص، الذي ليس فيه رجل حاضر بشخصه، لأن كل واحدة منهن تدرك بفطرتها أن هذه الجاذبية كفيلة بأن تجتذب رجلاً ما. وهذا يكفي، دون أن تقع جريمة، ولا ينحدر المجتمع إلى الفوضى والانحلال.

فإذا قيل —كما يقال– إن هذا قيد قد اختصت به المرأة دون الرجل، لأن الإسلام يحابي الرجل على حساب المرأة، فتلك مغالطة بيانها بسيط. فإذا كان في طبيعة المرأة أن

([1]) في كتاب "شبهات حول الإسلام" في فصل "الإسلام والمرأة" شيء من التفصيل عن وضع المرأة في الإسلام من كل نواحيه.

تعرض فتنتها على الأنظار، فإن في طبيعة الرجل أن يجد لذة عظمى في إخضاع أكبر عدد من النساء لسيطرته في وقت واحد، يتنقل بينهن بحسب طبيعته المتنقلة. فهل أباح له الإسلام ذلك؟ أم حرمه عليه لنفس السبب، وهو مصلحة الجماعة التي تحقق مصلحته هو في ذات الوقت؟ فإنه حين يباح لكل رجل أن يتنقل بين النساء بلا ضابط، فلا مناص من أن يعتدي واحد على اختصاص الآخر، فلا تتحقق السعادة المرجوة لهذا الرجل الذي يريد أن يحقق كيانه.

على أن الإسلام وهو يفرض هذا المنع على الرجل والمرأة لمصلحتهما الخاصة، لم يفرضه عليهما من خارج أنفسهما، ولا كلفهما ما ليس في طبيعتهما. وإنما هو يستحيب لنزعة أخرى في داخل النفس البشرية، لا تقل أصالة وعمقاً عن النزعة الأخرى، تلك هي الحنين إلى الأسرة، والمتعة الغامرة التي يجدها الرجل والمرأة كلاهما في جو الاستقرار والحب والأنس والألفة التي تهيئها الأسرة ولا تتهيأ في أي مكان آخر.

* * *

ولكن الشبهة الكبرى في هذا الشأن هي تشريع تعدد الزوجات الذي يبيح للرجل أن يتزوج من النساء "مثنى وثلاث ورباع" ولا يبيح للمرأة تعدد الأزواج.

والمرأة لم تطالب إلى هذه اللحظة بإباحة تعدد الأزواج، ولذلك نسقط هذا الأمر من الحساب! ولا نحتاج أن نتحدث عن مخالفته لطبيعة المرأة الأصيلة، إذ تخلص بكيانها كله للرجل الذي تحبه، وللأسرة التي تستظل بكنفها، فلا يبقى لديها ما تمنحه لشخص آخر ولو ارتبطت به!

أما تعدد الزوجات الذي يُشنّع به على الإسلام فوقاية شرعت للطوارئ كما ذكرنا من قبل. فحين يزيد عدد النساء على الرجال لسبب من الأسباب، كالحرب في الغالب، أو الأوبئة التي يتعرض لها الرجل في الخارج أكثر مما تتعرض لها المرأة داخل البيت، ويموت بسببها من الرجال عدد أكبر من النساء إذا تعرضاً لها معاً —كما تثبت الإحصاءات— بسبب مناعة جسمها ضد الأمراض أكثر من مناعة الرجل... الخ. حين يحدث هذا الاختلال العددي، لا يكون هناك بد من إجراء وقائي يمنع نتائجه المحتومة. ولن يكون له نتيجة إلا أن يجد نساء أنفسهن بلا رجل. وبصرف النظر عن الإنفاق، الذي قد تحله النظم الاقتصادية بطريقة ما، فإن حاجة المرأة للرجل، كحاجته إليها، ليست قائمة في أساسها على الاقتصاد. وإنما هي حاجة نفسية وجسدية لا يمكن أن يستغني عنها أحد الجنسين. فما لم تكن هذه الفتاة التي ليس أمامها رجل، قديسة أو ملاكاً، فلن تجد طريقة لإشباع حاجة الجسد ومتعة النفس إلا

خلسة، وفي الظلام. وحتى إذا انحل المجتمع وأباح لها أن تصنع ذلك علانية، فسيبقى الجوع الدائم إلى بيت. إلى أسرة. إلى رجل تعيش في كتفه وتشعر أنها في جواره. فأيهما إذن خير؟ أن تكون هذه الفتاة شريكة لامرأة أخرى في رجل، أو تظل حياتها شقية مبتئسة لأنها لا تجد الرجل إلا خطفاً؟

وإن الحياة مع امرأة أخرى في كنف رجل واحد لهي جحيم نفسي دون شك. ولكنه بلا جدال أيسر من الجحيم الآخر، الذي تعيش فيه المرأة بلا رجل. ولولا ذلك ما قبلت أن تقدم عليه، اختياراً لأهون الضررين.

هو إذن تشريع ضرورة، لمواجهة الطوارئ التي تحدث من عدم التوازن بين عدد الرجال والنساء. ولا يمكن تحقيقه أبداً في الظروف العادية التي يتكافأ فيها عدد الجنسين، لأنه لن توجد الأنثى الزائدة بلا رجل، التي يمكن أن يضمها إليه رجل عنده امرأة! ولن تقبل فتاة أن تأوي إلى كنف رجل متزوج، وهي تجد الرجل الذي تعيش معه دون شريك!

ويستوي أن يكون عدد الرجال قد نقص فعلاً أو حكماً، فالرجل العاجز عن الزواج لأسباب اقتصادية أو صحية، أو نفسية، غير موجود بالنسبة للمرأة. وكل هذه حالات من عدم التوازن، بعضها يمكن علاجه، وبعضها الآخر –كنتائج الحرب– ليس لأحد حيلة فيه. وعندئذ فقط ينفذ قانون الطوارئ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولتخفيف الضرر المحقق إلى أقل قدر مستطاع. وقد اتجهت ألمانيا بعد الحرب الأخيرة التي أفنت عدداً هائلاً من الشبان إلى إباحة تعدد الزوجات، وهي دولة غير مسلمة، مما يدل على أنها قد وجدت ذلك خير حل ممكن لتلك المشكلة الفظيعة، ويشهد للإسلام شهادة تسقط بعدها جميع المماحكات[1].

* * *

أما في الظروف العادية التي يتكافأ فيها عدد الجنسين فالفرص المتاحة واحدة، ولا يباح للرجل شيء غير ما يباح للمرأة. بل قد يكون الإسلام أحرص على المساواة الخلقية والنفسية من كل نظام آخر.

([1]) لم بنفذ هذا الاتجاه في ألمانيا رغماً عن إرادتها، لأن الدول التي احتلها خشيت –حين تجد كل فتاة زوجاً شرعياً– ألا يجد جنود الاحتلال متعتهم المحرمة التي يجدونها اليوم بغاية اليسر، كما أن إفساد الأخلاق في ألمانيا المحتلة كان هدفاً من أهداف الاحتلال، لكي يؤخر قومة الغول الذي يهدد المحتلين!

فعلى حين تنظر المجتمعات كلها إلى خطيئة الرجل نظرة أرفق وأكثر تساهلاً من نظرتها إلى خطيئة المرأة، على اعتبار أن الرجل حين يخطئ لا يسيء إلى شرف أهله ولا زوجته، ولا يحمل في جسده أعقاب الجريمة، ولا يزور على المرأة نسلاً أتى به من غيرها، بينما تحمل المرأة هذا العار مجسداً، وتزوّر على الرجل نسلاً لم ينجبه، نجد أن الإسلام كان عادلاً كل العدالة، حين جعل العقوبة واحدة على الجريمة الواحدة من أي الجنسين. إذ نظر إلى الجريمة من حيث الرغبة فيها، وهي متكافئة في نفس الرجل والمرأة، ولم ينظر إلى نتائجهما العملية التي لا حيلة للمرأة في خلقها، ولا مزية شعورية للرجل في اجتنابها. كما نظر إلى حق الأبناء في أبوين نظيفين، وهو حق يقع بالتساوي على كل من المجرمين.

بل أكثر من ذلك أن الفتاة ذاتها قد لا تتطلب العفة في الرجل الذي يتقدم إليها، كما يتطلب هو العفة فيها. وكأنما تريد أن تطمئن إلى أنها تهب نفسها لرجل قوي، قد تحققت قدرته فعلاً، بالتجربة العملية. وفي الوقت ذاته كأنها تجد إرضاء لغرورها أن تستولي على شخص له قيمة في نظر الأخريات، لتشعر أنها أكثر منهن جاذبية وأقدر على الاستيلاء. أما الرجل "الخام" كما تسميه، فهو صيد سهل لا يحتاج إلى براعة، ولا يثبت الكفاءة للفتاة التي تستولي عليه. وكلما زادت تجارب الرجل، وزاد عدد النساء اللواتي تخلص من أسرهن ليقع في أسرها، كان ذلك أدل على جاذبيتها وأبلغ في تحقيق ذاتيتها. ولكن الإسلام كان أعرف بمصلحتها، وأكرم عليها حتى من نفسها، حين جعل أوامره واحدة للجنسين: "قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ". "وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ". وحرم على الزاني أن يستمتع بالمرأة الطاهرة: "الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" فضمن لها أن تطمئن إلى أن الرجل الذي تمنحه نفسها لم يتلوث من قبل: لا جسده ولا نفسه ولا ضميره. ولم تترك فيه التجارب الماضية تلك الجروح والندوب التي قد تحتجز جزءاً من مشاعره، فلا تكون خالصة لشريكة حياته. وهكذا يرتفع الإسلام بالمشاعر البشرية عن مستوى الحيوان، وهو يحافظ في الوقت ذاته على فطرة الإنسان.

* * *

ومن الشبهات كذلك، القول بأن الرجل في ظل الإسلام أكثر استمتاعاً بالحياة من المرأة، لأنه يخرج إلى الشارع، بينما يقال للنساء "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ". وفي ذلك القول كثير من المغالطة، فإذا كان الرجل يجتمع بزملائه من الرجال في الخارج، فالمرأة تجتمع بزميلاتها في الزيارات التي يتبادلنها على الدوام. وإذا كان القصد استمتاع الرجل بصحبة النساء في الخارج فمن أين تتاح هذه المتعة حين يحرم على كل أنثى أن تخرج متبرجة، أو أن تبدي زينتها

للآخرين؟ إنه لن يجد الأنثى التي يستمتع بها في الخارج، ما دامت كل امرأة في بيتها مخلصة لزوجها وأسرتها. إنما توجد المتعة الزائدة للرجل إذا خرجت المرأة إلى الطريق. أما حين يطيعان كلاهما أوامر الإسلام، فسيكونان سواء في المتعة المباحة وسواء في الحرمان.

فلم يبق إذن إلا أن يكون الشارع في ذاته، لا بمن فيه من الكائنات، متعة يظن أن الرجل يستمتع بها وحده، ولا تشاركه فيها المرأة في ظل الإسلام، فإذا كانت المرأة ترى الشارع متعة مغرية فالإسلام لم يحرمها أن تخرج إليه. ولم يمنع أن يشترك الزوجان وأولادهما في نزهة أو زيارة. ولكنه منع فقط أن تتبرج في خروجها، وأن تنطلق من عقالها لتغري هذا وذاك. وقد بينا حكمة هذا المنع، وضرورته لحماية المرأة ذاتها من أن تختطق رجلها امرأة أخرى أكثر منها إغراء وفتنة، سواء كان هذا الرجل زوجاً بالفعل أو خطيباً، أو مرجواً لهذا وذاك.

* * *

ويقول الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في عباد الله ليحققوا مآربهم الخسيسة في يسر وسهولة، دون أن يتعرضوا لثورة المجتمع ولا سيف القانون: إن الحياة تصير أبهج وأمتع حين تخرج المرأة إلى الطريق سهلة القياد طليقة من القيود. وإنه لكذلك. فإن ألواناً كثيرة من الطعام لهي أشهى من لون واحد بلا جدال. ولكن ما القول حين تكون هذه الصحاف مسروقة، من كل بيت صحفة؟ وأنه لا يستمتع أحد بصحفة شهية، مسروقة من بيت آخر، حتى تكون الصحفة التي في بيته قد سرقت ليستمتع بها آخرون؟ أوّ كذلك يحبون؟ أم يخيّل إليهم الغررو أنهم حدهم يفتكون، وتبقى بيوتهم آمنة لا يسطو عليها الفاتكون؟

أم يريدونها علانية؟ كل واحد يحضر صحفته بنفسه ليلغ فيها غيره، في مقابل أن يلغ هو في صحاف الآخرين؟ إذن لقد عدنا إلى الفوضى الجنسية التي رأيناها في الغرب المنحل، ووجدنا أنها لا تحقق في نهاية الشوط تلك السعادة الموهومة التي كان يرجوها المستمتعون.

* * *

على أن للعادة شأناً كبيراً في ذلك. فإذا تعود الزوج أن يكتفي بزوجته، والزوجة أن تكتفي بزوجها، في نطاق المتعة المباحة، وأخرجا من حسابهما نهائياً أن في الإمكان أن يسعى أحدهما إلى اللذة المحرمة أو يحصل عليها، فسيجد في الحياة الزوجية متعة كاملة تغنيه فلا يشعر بالحرمان:

والـــــنفس راغبــــة إذا رغبتهــــا وإذا تـــــرد إلى قليــــل تقنــــع

لكن يقال: إن هذا النظام "المتزمت" الذي يفصل بين الجنسين يولد الكبت. وإن الشرق الإسلامي مكبوت لأنه لا يسمح بالاتصال الحرّ بين الرجل والمرأة. فمن أين نشأت هذه الأسطورة؟

إنها أسطورة حديثة لم تنشأ إلا بعد أن خرجت المرأة متبرجة إلى الشارع والسوق، وأصبحت فعلاً أو حكماً في متناول الراغبين. ولم تكن موجودة قبل ذلك حين كان كل رجل يتزوج، وكل فتاة تتزوج، فيكتفي كل واحد بالآخر، فلا يشعر بالكبت والحرمان.

أما حين خرجت الفتنة إلى الطريق فقد وجد الكبت حقاً. لأن هذه الفتنة تستثير مشاعر محرمة في نفس المسلم (أو المسلمة) الذي تربى في ظل التعاليم الإسلامية. وهي ليست محرمة لأنها تتصل بالجنس، فقد مر علينا كيف يكرم الإسلام الجنس ويرفعه إلى مستوى العبادة. ولكنها محرمة لأنها تتصل بالفاحشة، بالجريمة التي لا يجوز أن تحدث. فكان طبيعياً إذ ذاك أن ينشأ الصراع بين هذه الفتنة الجائحة في الخارج، وموانع التحريم في الداخل، لا لأن هذه الموانع هي المخطئة، وهي التي ينبغي أن تزول، بل لأن هذه التقاليد المنحلة هي الخطأ الذي يجب أن يزول. ومناط الحكم في هذه القضية ليس هو العواطف الهائجة والشهوات الجارفة، وإنما هو التحقيق العلمي الصحيح في أي الوضعين أسلم لبنية الفرد ذاته، وأكثر تحقيقاً لسعادته الفردية في نهاية الشوط. وليس أمام العلم النزيه إلا جواب واحد، حين يمسك بالقضية من جميع أطرافها، وينظر إليها بعين الأجيال كلها، لا بعين جيل واحد محدود.

وقد عرف الإسلام هذا الجواب الواحد قبل ألف وثلثمائة عام، وما زال هديه هو الصحيح على مر الأعوام.

* * *

وحين يبيح الإسلام المتاع الجنسي في نطاق الزواج وحده، ويحرمه في خارج هذا النطاق، تنشأ مشكلة الشباب الذي لم يتزوج بعد.

وهي مشكلة ما في ذلك شك. وكلما تعقدت الحياة الاجتماعية والاقتصادية، في ظل الحضارة الغربية، زادت هذه المشكلة تعقداً وعنفاً. وقد كان الشغل الشاغل لعلماء النفس والاجتماع في الغرب هو الاهتداء إلى حق معقول لهذه المشكلة الخطيرة؛ وكان الانحدار

العنيف الذي انزلق إليه الغرب نتيجة للاتجاه إلى حل خاطئ، والسير فيه إلى أبعد الحدود، لأن هذا الحل بطبيعته لا يعرف القيود والسدود!

بدءوا بالاختلاط البريء! وانتهوا إلى الإباحية الجنسية الكاملة، لأنها النتيجة المحتومة لتلك البراءة المزعومة!

فلقد كان هذا الاختلاط البريء أسطورة ضخمة طلع بها الغرب في بدء انحلاله، ليعالج بها الكبت الجنسي. وراح علماء النفس والاجتماع يهولون في فائدتها المطلقة وخيرها العميم... ثم عاد الغرب فكفر بها، ولم يعد اليوم يجري ذكرها على لسانه، بعد أن تكشفت عن نتيجتها الطبيعية المحتومة.

فأما علماء النفس وأطباء الأعصاب فقد نكلوا عن رأيهم السابق في هذا الاختلاط الشفوي، بما فيه الرقص على أنغام الموسيقى، وحفلات الشاي "البريئة" والنزهات الخلوية "تحت رقابة الوالدين أو إشراف المدرسين".

فهم يقولون اليوم: إن كل اختلاط من شأنه أن يهيج المشاعر الجنسية لا أن يخمدها. فإذا كانت هذه المشاعر تَسكت أو تُسكت، بحكم ظروف الاجتماع التي لا تمكّن من التنفيذ العملي، أو بحكم الحياء من الظهور أمام الموجودين والموجودات بمظهر الجائع المتعطش، أو لأي سبب آخر، فإن هذا لا بد أن يحدث لوناً من القلق النفسي والعصبي بعد الهدوء المؤقت الذي قد تحدثه الاجتماعات المختلطة. وعندئذ يحدث أحد أمرين: فإما أن يلجأ الشاب إلى تفريغ الشحنة المستثارة، في مكان آخر لا تقوم حوله الحواجز، أو يظل في قلقه المفسد للأعصاب. بل زاد بعض الأطباء أن يقولوا: إن الاستمرار على هذه الحال، أي الإثارة الدائمة بدون تفريغ، قد يؤدي عند الشاب إلى ضعف عصبي، بالإضافة إلى اللهفة النفسية الدائمة.

وهكذا انكشفت حكاية "التهذيب الجنسي بالاختلاط البريء" عن وهم كبير! فما قيمة أن تتهذب مع واحدة بعينها، لتنطلق مع أخرى كالحيوان، أو تظل دائماً في لهفة وهيام؟ وما قيمة أن تكون الفتاة التي تهذبك اليوم وتتهذب بك فريسة في الغد لفتى آخر، قد "تهذب" من قبل، فانطلق يريد الارتواء؟!

إنها أضحوكة، أو ستار رقيق جداً يكشف عن المغالطة التي تستتر وراءه. وعلى أي حال فقد كفر الغرب بها، ولم يعد يزعم أن الاختلاط البريء أمر ممكن التنفيذ. لقد ألقى

القناع، وأعلن في صراحة حمقاء، أنه قد أباح لفتيانه وفتياته أن ينزو بعضهم على بعض بلا حياء!

فما بال هذا الشرق المسكين يتشبث بهذه الأساطير؟ وفي أي مكان على ظهر الأرض يوجد اليوم –أو وجد قبل الآن– اختلاط بريء، حتى يدعو إليه هنا الكتاب والمؤلفون؟ ألا فليملأ الكتاب الفارغون اسطواناتهم بطبعة جديدة، فقد بطلت الطبعة الأولى وأصبحت غير ذات موضوع!

ولقد كان الإسلام أشد بصراً بالطبيعة البشرية، وأدرى بإمكانياتها ومساربها الخفية، حين منع هذا الاختلاط، وهو يعلم أنه لن يظل بريئاً قيد خطوات.

وهو حين دعا إلى الاستمتاع المعقول داخل نطاق الزواج، وحرم المتاع الفاجر في الخارج، لم يكن قصده مجرد التحكم في الناس لشهوة التحكم، وإنما كان يقصد إلى منفعتهم، وتوفير أسباب الراحة النفسية والعصبية للجميع. فإذا كان الشباب الفائر لا يرى هذه المصلحة في لحظة من اللحظات، لأنه لا يرى الهوة في آخر الطريق، فلا ينتظر مما يراها رأي العين، أن يسكت عليه حتى يتردى قبل أن يفيق.

* * *

وقد كانت المشكلة عندهم في العالم المسيحي، مشكلة نفسية وعصبية أكثر منها جسدية وعضلية. كان الأمر الذي يطلبون علاجه هو الكبت النفسي الذي يعانيه من يتربى في ظل التعاليم المسيحية، كما أوحى بها رجال الدين وكتب المواعظ الدينية. ولكن الطريقة التي عالجوا بها الكبت، قد فشلت في إيجاد السلامة النفسية والعصبية، ولم تزد على أن تستبدل به الجوع الدائم واللهفة التي لا تشبع، فضلاً على حالات القلق المتزايد، التي تفد كل يوم، بنسبة مزعجة، على العيادات النفسية في أمريكا خاصة، وهي التي طبقت هذا الحل المثالي إلى آخر مداه!

وهنا يتميز الإسلام بأنه لا يكبت المشاعر الجنسية، ولا يستقذرها في ذاتها، ولا يعتبر من تلم به خارجاً عن ملكوت الله. بل يعترف بها أولاً على أنها أمر واقع، ثم يرفعها في حس المسلم إلى درجة النظافة الكاملة التي تقترن بالعبادة وباسم الله الكريم.

فإذا امتنع الكبت فقد خفت المعركة النفسية إلى درجة كبيرة، ولكنها لم تَزُلْ من الوجود. فما زال المراهق بين الشد والجذب: بين دفعة الجسد الملحة، ومعرفته بأن الإجابة

العملية لهذه الدفعة ممنوعة عنه "الآن" حتى يستطيع الزواج. ومرة أخرى نجد أن توقيت المنع بفترة معينة، يخفف كثيراً من وقعه على الأعصاب. وإن كان بعد لا يزيله!

وهنا يلجأ الإسلام إلى شَغْل المراهق بما ينفس عن الطاقة الجنسية، من طريق الجسد والنفس في آن. فأما الفتى فقد كان يشغله بالفروسية ومطالب الجهاد. وهذه ترفع المشاعر كلها وتهيئ الرجل للصراع النبيل في المستقبل، وتستنفد طاقة الجسد، فتنفس في الوقت ذاته عن كثير من الرصيد المحبوس، كما بينا من قبل. وقد صار الفتى اليوم يقضي مراهقته في المدرسة فعليها أن تقوم بما كانت تفعله الفروسية من قبل، فتجعل الرياضة البدنية والتدريب العسكري شيئاً أساسياً في الدراسة، وتأخذه مأخذ الجد. وإن كانت المدارس المصرية لم تزل بعد لا تجدّ في شيء البتة، حتى إعطاء الدروس وامتحان التلاميذ!

وأما الفتاة فقد كان يشغلها بأمور المنزل، فيهيئها لمستقبلها كأم وربة بيت، ويشغل أفكارها عن خوطر الجنس مباشرة، فيدعها أحلاماً مبهمة بمستقبل سعيد، ويستنفد طاقة الجسد الفائر في غير إرهاق. ومن هنا تتضح جريمة المدرسة التي تدرس للبنات في سن المراهقة الحساب والجبر والهندسة والكيمياء، ولا تشفع ذلك بالتدبير المنزلي كمادة أساسية، لا كحصة طائرة؛ مادة تستغرق الوقت والتفكير والجهد، وتوجه مشاعر الفتاة وجهتها الصحيحة فلا تدعها تسترجل وتنسى طبيعتها الأصلية. وبعد ذلك لا قبله، تدرس من المواد الأخرى بقدر ما تشاء، دون قيد إلا الرغبة والمقدرة.

وهذه الفتاة التي تدرس دراسة لا تستجيب لطبيعتها الأنثوية، ولا تستنفد طاقة الجسد المذخورة، بل ترهق الأعصاب فتجعلها أقرب إلى الهياج، تجد طاقتها الجنسية فائرة لم تستنفد ولم يخفف منها شيء. ولذلك تتسكع في الطرقات، وتَعرِض نفسها للنظرات الجائعة والشهوات الهائجة، ثم تسقط في النهاية إلى حيث يؤدي بها الطريق.

وفي المجتمع الإسلامي لا توجد تلك المهيجات العنيفة التي تعمل على استثارة الشهوة على الدوام، وبدرجة غير طبيعية. لا توجد الصور العارية ولا الصحافة العارية، بكتابها المنحلين الذين يرتزقون بإفساد أخلاق الشباب، وإثارة الحيوانية الفاجرة في نفوسهم كما يفعل القوادون وتجار الأعراض. ولا توجد فيها السينما الخليعة والمراقص الداعرة التي لا تمثل فناً ولا فكرة، ولا شيئاً آخر غير عرض الشهوات المريضة والأجساد العارية في كل وضع مثير.

فإذا امتنعت هذه المثيرات غير الاعتيادية فقد خفت حدة الشهوة إلى حد كبير.

ولكن الإسلام وقد تحاشى الكبت، وحدد المنع بفترة محدودة، وشغل المراهق —فتى كان أو فتاة— بما يستنفد طاقته ويحول أفكاره، ومنع عنه المثيرات العنيفة المتلفة للأعصاب.. يعلم أن ذلك كله "تصبيرة" لا تغني عن الغذاء الأصيل؛ وعند ذلك يفتح باب الزواج، ويقف عنده منادياً: أن هلموا وبكروا، ولا تتأخروا عن النعيم المباح!

وذلك هو العلاج الحقيقي للمشكلة، والحل الذي لا يغني عنه شيئاً آخر، مهما ابتدعت الإنسانية في القديم والحديث.

الزواج ينهي المشكلة، فيصرف الطاقة الحبيسة، ويهدئ الشهوة الجامحة، ويرتفع بالإنسان عن مستوى الحيوان، ويذكره بالأهداف العليا للحياة الإنسانية، ويخلص مشاعره وأفكاره من الدوران في دائرة الجنس، فيتيح لها العمل على تحقيق هذه الأهداف.

ولذلك كله يدعو الإسلام إلى التبكير في طلب الزواج، بمجرد الاستطاعة. ويشهد الواقع الإسلامي بأن هذا كان حالاً ناجحاً للمشكلة الجنسية، إلى حد أنه لم يحوج الناس إلى ارتكاب الجريمة، لا لأنهم مكبوتون وممنوعون، ولكن لأنهم واجدون فمستغنون.

ويزعم بعض الناس أن وجه الأرض لا يمكن أن يخلو من جريمة الزنا، ولهذا ينبغي ألا تقاومه الدولة أو المجتمع، بل تعترف به وتنظمه وتشرف عليه. وكان من أولئك كتّاب لهم أقلام، لا يستحون أن يدعوا هذه الدعوة المجرمة في بلد إسلامي، بدل أن يدعوا إلى الحل الصحيح.

فهذا هو الواقع التاريخي للإسلام يكذبهم. صحيح أن الجريمة لم تنقطع انقطاعاً كاملاً ولا أيام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. ولكن النسبة تختلف. وفرق بين مجتمع لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذاً يستنكر، وبين مجتمع تحدث فيه كأمر عادي لا يثير الاستنكار، بل يكون الامتناع عن الجريمة فيه هو الشيء الذي يبعث الدهشة والاستنكار!

وقد كانت الأغلبية الساحقة من المسلمين لا ترتكب الخطيئة، لا لأن الناس قد صارت ملائكة، ولكن لأن دوافع الجريمة لم تعد موجودة. واكتفى الناس بالزواج المبكر فلم يعودوا يشعرون بالحرمان.

وتلك هي طريقة الإسلام في تهذيب النفوس، فهو لا يعظهم من المنابر. وإنما يقدم الحلول العلمية للمشاكل، ثم يجعل الوعظ متمماً للحل العملي، وباعثاً على الوصول به إلى النتيجة المطلوبة.

ولكن هذا الحل يبدو اليوم في حكم المستحيل! هكذا يقول الذين لا يتصورون الأشياء إلا كما يرونها موجودة أمامهم في هذا الجيل!

فهم يرون في معظم أجزاء العالم نظاماً اقتصادياً معقداً، لا يتيح للفرد أن يتكسب إلا بعد فترة طويلة من التعليم والمرانة. وحتى بعد ذلك فإن كسبه لا يكاد يفي لضروراته، فضلاً على إنشاء أسرة ومواجهة تكاليفها المتزايدة.

ويرون نظاماً تعليمياً معقداً لا يتيح للطالب أن يتخرج في سن مبكرة، إذا أراد أن يحصل على شهادة محترمة، تهيئ له بعد الجهد المضني هذا الكسب الضئيل الذي أشرنا إليه. ولا تتيح له هذه الدراسة بنظامها المعقد، أن يعمل في أثناء الدراسة، ليحصل على شيء من الكسب.

ويقولون غير ذلك: إن الفتى لا يستطيع أن يدرس ويتزوج في آن واحد. فلا مناص من تأخير الزواج إلى ما بعد التخرج، ثم تأخيره إلى ما بعد الحصول على عمل، ثم إلى ما بعد القدرة على توفير مبلغ صالح للزواج والإنفاق...

بل يقولون: إنه ليس من المصلحة أن يتزوج مبكراً، قبل أن تصقله التجارب، فيعرف كيف يختار، وكيف يتحمل التبعة، وكيف يربي أولاده... الخ.

فإذا كانت الأمور كلها كذلك، فلا حل للمسألة إلا أن تتيح للشباب حاجتهم الجنسية من غير طريق الزواج؛ وإلا احترقت أعصاب أولئك المساكين المحرومين! إلا ما أشد قسوتنا وتأخرنا إذا وقفنا في جانب الدين، الذي لم يعد يصلح لتلك التطورات الاقتصادية والاجتماعية الحديثة! لا. لا! ينبغي علينا، لكي نكون أحرار الفكر، أن ندعو إلى إباحة الفاحشة؛ وإلا سخرت منا أوربا وقالت: إننا متأخرون! حتى ولو كانت أوربا ذاتها قد بدأت تستنكر البغاء الرسمي وتلغيه!

وأحب أن أؤكد أولاً أن الإسلام نظام كامل لا أجزاء متفرقة، وأنه ينشى مجتمعه بنفسه، على الطريقة التي يريدها ويراها كفيلة بتحقيق أهدافه المرسومة. وأن الإسلام ليس مكلفاً أن يصحح للناس أخطاءهم ويحل لهم مشاكلهم، إلا إذا حكّموه جملة وتفصيلا وعاشوا تحت ظله هو، لا تحت ظل نظام أجنبي عنه، له جهازه الخاص ومشاكله الخاصة. فلا يجوز —ولا يصلح– أن ننتقي قطعة إسلامية بذاتها، ونضعها بدل قطعة جاهلية، في نظام جاهلي كامل. إنها بطبيعة الحال لن تصلح، ولن تحل المشكلة، لا لأنها فاسدة في ذاتها، ولكن لأنها من

"مقاس" آخر، ومفصلة على جهاز آخر، يختلف عن غيره اختلافاً رئيسياً في الطريقة والأهداف.

حين تختل ساعتك، فلن تستطيع إصلاحها "بترس" من نوع آخر مهما يكن متيناً في ذاته ومتقن الصنع. وإنما عليك أن تغير الساعة كلها إذا رأيت أنها تضايقك، أو تأتي لها بقطعة غيار من نفس نوعها وعلى حساب طاقتها.

فإذا فسد الاقتصاد المأخوذ من الغرب، أو من أي نظام آخر غير إسلامي، وأثر فساده في المجتمع والأخلاق، وجعل الزواج المبكر عملية مستحيلة، فلا يقل أحد: إن الإسلام لم يعد يصلح للحياة، لأنه ينص على أمر لا يمكن تنفيذه في ظل الأوضاع الاقتصادية المقلوبة. وإنما يقال فقط إن هذه أوضاع غير إسلامية، فلا يمكن أن تنفذ فيها الأساليب الإسلامية. وعلينا حين نقتنع بأن طريقة الإسلام هي الأصوب، أن ننشئ المجتمع الإسلامي كاملاً، فنجد كل جزئية في مكانها الصحيح، مفصلة على مقاسه، عاملة منتجة على خير الوجوه.

وقد يستهول الأمر الذين ضعفت قلوبهم، واستعبدت أرواحهم فظنوا أن الأوضاع الاقتصادية القائمة لا يمكن أن تتبدل أو تزول! ولكن الشيوعية مثلاً قد غيرت كل ما كان قائماً من النظم الاقتصادية والاجتماعية، وأنشأت لها نظاماً خاصاً جديداً من ألفه إلى يائه (وإن كانت في نظرنا لم تغير الأساس المادي للحضارة كما بينا في فصل "الشيوعيون"! فلم يستعص عليها التغيير؛ وتحولت مشاعر الناس وأفكارهم مع جهاز الدولة الجديد فصارت تستنكر ما كان أمراً واقعاً من قبل. والإسلام أقدر، حين يؤمن به أهله ويسعون إليه، على تغيير النفوس والمشاعر والنظم الاقتصادية والاجتماعية، لأنه –فوق تنظيماته وتشريعاته– يتصل بمكمن العقيدة في أعماق الضمير.

وفي ظل النظام الإسلامي الكامل تنحل مشكلة الزواج المبكر، وتصبح أمراً طبيعياً لا تقف في طريقه العقبات.

فالنظام المادي الغربي، الذي يحجر المشاعر، ويثير الأنانية البغيضة حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، هو الذي جعل الوالد ينكل عن الإنفاق على أبنائه بعد سن معينة، فصاروا لا يجدون إلا ما يكسبونه بأيديهم، مهما كانت ثروة الوالدين. ونظام الميراث المختل هناك يجعل الولد الأكبر وحده هو الذي يرث، ويخرج بقية الأولاد فقراء معدمين. أما في النظام الإسلامي المتعاطف المتعاون، فلا تقوم هذه الحواجز المتحجرة بين الأب وأولاده، ولا يمتنع عن الإنفاق عليهم حتى تمكنهم ظروفهم من الكسب، في غير لهفة ولا استعجال. وذلك في مقابل حقه عليهم في أن ينفقوا عليه في كبرته حين يعجز عن الكسب، أو يحتاج إلى زيادة

في النفقات... وهكذا يتبادلان التعاون، كل حسبما يقدر، وفي الوقت الذي يكون قادراً فيه.

وبذلك لا يقف عجز الولد عن الإنفاق عائقاً في طريق الزواج المبكر، لأن والده لا يمتنع عن معاونته حتى يستطيع الاستقلال عنه. والذين يزعمون أن هذا يدعو إلى تواكل الأولاد وتقاعدهم عن العمل، يتحدثون عن فرض خيالي لا وجود له في الواقع (إلا في الحالات الشاذة بطبيعة الحال) ويغفلون عن عوامل نفسية مهمة. فليس أحب إلى الفتى أو الشاب من كسب يده، مهما تكن الثروة التي يجدها عند أبيه. والذي يذهب إلى الريف يجد تسابق الصبيان والمراهقين إلى العمل في جمع المحاصيل، ليحصلوا على نقود خاصة لأنفسهم، لا يقعد منهم عن ذلك إلا أولاد المترفين من الأغنياء. والإسلام يحارب الترف ويعده جريمة تؤدي إلى العذاب.

وفي ظل الإسلام لا يوجد الفقر الذي يُعجز الشاب ووالده معاً عن بناء أسرة جديدة والإنفاق عليها. لأنه يعمل على توزيع الثروة بصورة تضمن العدالة الاقتصادية بين الجميع، ويضع في يد ولي الأمر سلطات واسعة جداً، تبيح له كما قال عمر، أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء، ويعيد التوازن إلى المجتمع كلما جنح إلى الاختلال.

وبيت المال مكلف خاصة بمعاونة من يريد الزواج من الفقراء ولا يقدر على نفقاته. أي أن الدولة، بلغتنا الحديثة، مكلفة بدفع إعانة لمن يحتاج إليها من الفقراء، باعتبار أن هذا دفع لضرر اجتماعي وأخلاقي منظور.

فالمسألة الاقتصادية في الإسلام لا تقف عائقاً عن الزواج.

ومع ذلك فلنفرض أننا في بلد كأمريكا، لا يعول الوالد فيه ولده ولا ابنته كذلك بعد الدراسة الثانوية، ولا تنفق الدولة شيئاً على راغبي الزواج. فماذا يحدث هناك؟ إن الصبيان بعد الدراسة الابتدائية ليبدأون في العمل ليكسبوا نفقاتهم الخاصة. فإذا أكملوا الدراسة الثانوية انقطعت كل صلة مالية لهم بأهليهم، وصار عليهم أن يكسبوا ما يتعلمون به في الجامعة، وما يعيشون به كذلك. ونظم التعليم هناك من المرونة بحيث تتيح لهم أن يتعلموا ويعملوا في وقت واحد. فتنظم الجداول، ومواد الدراسة، وطرق الامتحان، بحيث يصبح في مقدور كل طالب أن يجد وقتاً للعمل والكسب، دون أن ينقطع عن التعليم.

فما دام هذا ممكناً في أي بلد على ظهر الأرض، فما الذي يمنع من إمكانه عندنا حين نريد؟ أهو فرض علينا أن نظل على هذه النظم الفاسدة التي اقتبسناها من انجلترا وفرنسا، ثم جمدنا عليها كأنها منزلة من السماء؟

فإذا انتهت المشكلة الاقتصادية والتعليمية، بقيت المشاكل النفسية.

إن الشاب لا يقدر على الدراسة والزواج في آن واحد. لماذا؟ إن الفتى الأمريكي –وهو آدمي كبقية الآدميين– يدرس، ويحتمل تبعة نفسه، وينفق على حياته الخاصة كلها، ثم يقيم علاقات "غرامية" مع الفتيات، ويقوم بالجانب الجنسي على طريقة الحيوان. فأي شيء في الزواج يزيد عن هذه الأعمال إلا نظافة الحس والضمير؟ فإذا كان إنجاب الأطفال في سن مبكرة يشغل الأبوين عن الدراسة، أو يرهق الوالد بالتكاليف قبل الأوان، فقد أصبح في الإمكان –بالوسائل الحديثة– تأخير النسل بضع سنوات، وليس في هذا التأخير ما يتعرض لغضب الإسلام إذا كان ضرورة ليس منها مناص.

أما حكاية النضج فأمرها عجيب. فما الذي يمنع أن ينضج الناس في داخل أسرهم، بدل أن ينضجوا في الطريق؟! وهل كل هذه الأجيال التي تزوجت مبكرة قد وقفت عن النضج، بكل من خرج فيها من عظماء التاريخ؟

تبقى تلك الدعوى الفارغة التي تقول: إن الزواج المبكر عرضة للعواصف حين ينضج الزوجان فيجدان نفسيهما غير متكافئين أو غير متفاهمين. وإنه لذلك ينبغي التأخير حتى يحس الزوجان وزن الأمور، ويختار كل منهما رفيقه اختياراً يقوم على الاختبار الدقيق!

ومثل هذا الكلام كان يمكن أن يقام له وزن، لو أن الاختيار المبني على الاختبار الكامل، قد أثبت أنه أكثر استقراراً وأبعث على التفاهم بين الزوجين. ولكن كيف الحال ونتيجته هي الطلاق الجنوني الذي شرحنا أسبابه ودوافعه في هذا الفصل؟

ومع ذلك فأسوأ الفروض أن ينفصل الزوجان بعد نضوجهما، ويبحثا عن زواج جديد. أليس كذلك؟ فلنأخذ نتائج الإحصاء. إن المجتمع المصري الريفي يزاول الزواج المبكر. ومع ذلك لم تصل فيه نسبة الطلاق ما وصلت إليه في أمريكا، بلد الاختبار الكامل الدقيق!؟

ولكن أناساً سينظرون إلى المجتمع الإسلامي، وقد اختفت الفتنة الهائجة في الطريق، وارتفعت مشاعر الناس عن الدنس والقذارة، فيخيل إليهم أنهم سيفقدون المتاع الذي هم فيه اليوم غارقون! ذلك أنهم يتصورون أنفسهم، بمشاعرهم الحالية، ورغائبهم وشهواتهم وأفكارهم،

ومشاغلهم وطرائق حياتهم، وأهدافهم كما هي الآن، ثم يتصورون أنهم دخلوا في الإسلام بهيئتهم الحالية دون تغيير! فيحسون أنهم "حُرِموا" من متاع كبير! ولكن الواقع أن الإسلام سينشئهم من جديد: سيمنحهم نفوساً ومشاعر ومشاغل وأهدافاً وطرائق حياة تنسجم مع نظامه الخاص، فإذا هم خلق آخر لا يشعر بالحرمان من المتاع الدنس، بل يحس نحوه بالاستعلاء والنفور!

* * *

في رحاب الإسلام إذن تجد المشكلة الجنسية حلها الكامل، الذي يريح الأعصاب، ويحفظ المجتمع نظيفاً من الجريمة، ويهيئ الجو النفسي والشعوري للارتفاع فوق عالم الضرورة، لتحقيق أهداف الحياة العليا التي تليق بالإنسان، ذلك المخلوق الذي كرمه الله ورفعه على بقية مخلوقاته، ليسود الأرض، ويصل بينها وبين السماء!

القيم العليا

حين يهبط الإنسان إلى الظلمات الكريهة التي يضع فيها فرويد النفس الإنسانية، وحين يدخل المعمل مع التجريبين فيرى مزقاً منها ملقاة هنا وهناك تحت الاختبار، وقد صعدت منها روائح التحلل المتعفنة، وحين يسير مع المذهب المادي والمذهب الاقتصادي إلى آخر الطريق، فيرى البشرية قطعاناً تحركها الآلة ويسيرها الاقتصاد، دون أن ترتفع لحظة عن قيود الأرض وعالم الضرورة...

حين يهبط الإنسان إلى هذه المستويات الدنيئة، يأخذه الدوار ويصيبه الغثيان!

هل هذه هي النفس حقا؟ هذه القذارة المغثية، والضرورة الهابطة؟

أم إنها تهمة يطلقها المنحلون وصغار النفوس وملوثو الضمائر، ليداروا ما فيهم من ضآلة ونقص، ويبرروا ما يرتكبونه من آثام؟

هل القيم العليا كلها خرافة؟ والمشاعر النبيلة كلها أوهام؟

هل كانت عبثاً كل دعوة الأنبياء والمصلحين، وكل محاولة لتهذيب الطبائع البشرية؟

وهؤلاء العظماء من كل لون وفي كل باب: الذين ضحوا بصالحهم لصالح الإنسانية. الذين استعصوا على دعاء الشيطان واستمعوا لهاتف الضمير. الذين أقاموا أنفسهم مثلاً رفيعاً للعدل والنزاهة والرحمة والعطف، والاعتداد بالكرامة، والإيمان بالأفكار العليا، والجهاد في سبيلها.. هل كانوا كلهم خرافة؟

أبو بكر وعمر وعثمان وعلي... وأبو عبيدة وأبو ذر وعمر بن عبد العزيز... وغيرهم وغيرهم.. كلهم أوهام؟

ومئات وألوف وملايين في تاريخ البشرية العرض، بعضهم من ذوي الأسماء اللامعة، وأكثره جنود مجهولون في ساحة الشرف، جاهدوا أو استشهدوا في صراع الحياة الأكبر.. كلهم أساطير لم تعمر وجه الأرض، وإنما عمرها فقط الشريرون والخبثاء والمجرمون؟

فلنعد إلى أقذر صورة تخيلها للإنسانية ذهن إنسان! الصورة التي رسمها فرويد جاهداً ليلوث بها كل جميل في مشاعر البشر!

لنعد إلى هذه الصورة ذاتها، لنجد الجواب على غير ما يزعم الهابطون والمنحلون وصغار النفوس.

قتلت الإنسانية أباها الأول، ليستمتع الأولاد بأمهم في شهوة جنس دنس مسعور. ولكنهم ما كادوا يصنعون ذلك، ويرون أباهم جثة هامدة، حتى اعتراهم الندم على فعلتهم الآثمة..

ونأخذ الرجل من لسانه!

فمن أين أتى شعور الندم لهذه الحيوانات الهائجة التي تتصرف بدوافع الحيوان؟ من ذا الذي أوحى إليهم بأن عملهم هذا كان خطأ لا يجوز؟

إننا هنا أمام أول شعور إنساني يفرق بين الإنسان والحيوان، وذلك على فرض أن القصة كلها صحيحة، وفرويد نفسه لا يملك على ذلك أي دليل. فهذا الندم على الجريمة يؤكد وجود الحاسة التي تفرق بين ما ينبغي وما لا ينبغي أن يعمل، بين ما هو خيّر وما هو شرير. حاسة تقدر "قيماً" ذاتية للأعمال، منفصلة عن الدافع الغريزي الذي يدفع إليها.

هذه واحدة.

ثم نظر الأبناء فيما بينهم فوجدوا أن أحداً منهم لن يفوز بأمه وحده، إلا إذا قتل الآخرين. وإذن فستنشب معركة عنيفة لا تؤدي إلى تحقيق المصلحة المنشودة، فاتفقوا بينهم على أن يتركوا أمهم لا يمسها أحد منهم، وينصرفوا راشدين متآخين، بدلاً من أن يقتتلوا فينقلبوا خاسرين!

وهذه هي الثانية.

فهنا شعور إنساني آخر: شعور التآخي على مصلحة عامة، بدل الأنانية القاتلة والصراع المرذول.

ولا يقف ما نستخلصه من القصة عند هذا الحد. فهي تثبت كذلك مقدرة الإنسان على "ضبط" نوازعه الفطرية في سبيل الخير العام، الذي يعود في نهاية الأمر على كل فرد بما فيه مصلحته الخاصة.

فإن فرويد يقول، نقلاً عن دارون، إن مجتمع الثيران يحدث فيه ما تخيل حدوثه في مجتمع الإنسان. فتنطلق الثيران الفتية الشابة تريد أن تنزو على أمها وتستخلصها من الأب المسيطر عليها. فيبدأون أولاً، كمجموعة، بقتل أبيهم (ولا يصيبهم الندم على ذلك)، ثم يقتتلون فيما بينهم (لا تمنعهم الأخوة ولا يحدوهم دافع مشترك) حتى يموت الضعاف منهم ويبقى واحد قوي يستولي على البقرة التي كانت موضع النزاع.

أما الإنسانية الأولى كما رسمها فرويد نفسه، فقد ترفعت عما يفعله الحيوان، فأحست بالندم، وربط بينها شعور التعاون، واستطاعت أن تضبط نزوات الانفعال.

ونحن لم نقل أكثر من ذلك، وما نريد أن نقول أكثر منه!

فذلك حسب أي إنسان يريد أن يؤمن بالإنسانية، ويرتفع بها عن قيود الضرورة ونزوة الغريزة.

إن هذا الاعتراف الذي أقر به فرويد دون أن يدري، ليهدم كل ما أقامه بعد ذلك من نظريات ملوّثة، وتصميمات خبيثة. فهو ينفي الجبرية النفسية إذ يقر بالإرادة الضابطة التي امتنع بها الأولاد عن غشيان أمهم. وينفي أن كل مشاعر الإنسانية غريزية، إذ يقرر إحساس الأولاد بالندم على ما صنعوه بدافع الغريزة. وينفي أن القيم الأخلاقية مفروضة على الإنسان من قوة قاهرة خارج نفسه، فهذا الندم ذاته قيمة أخلاقية، أحس بها الأبناء تلقائياً لحظة انتهائهم من الجريمة.

فمن هذا الظلام الهابط الكريه يشاء الله أن يخرج بصيص من النور!

وليست هذه هي الحقيقة الوحيدة التي انزلق فرويد إلى الاعتراف بها على غير قصد منه. فقد جعل يبدئ ويعيد في نظرية لتفسير السلوك الإنساني مؤداها أن كل مشاعر البشر ثنائية الطبيعة والاتجاه. فاللذة يصحبها بطريقة ذاتية شعور الألم. والحب يصحبه الكره. والرغبة يصحبها النفور. لا لأن هناك أسباباً موضوعية للشعور المضاد، ولكن لأنه هكذا خلقت "الطبيعة" الإنسان. ففي اللحظة التي يولد فيها الحب ينشأ الكره تلقائياً تجاه الشخص أو الشيء المحبوب! بل الغالب أن يكون الكره هو السابق في الظهور! وكلما اتسع نطاق الحب. اتسع نطاق الكراهية في ذات اللحظة حتى تشمل نفس الميدان الذي يشغله الحب. ولكن لما كان من المستحيل أن يحتل الشعوران المتضادان منطقة الشعور، فإن الحب يظهر على السطح، وتكبت الكراهية في اللاشعور! والحياة كلها في نظر فرويد قائمة على الكره المكبوت الذي يوجه المشاعر على غير وعي منها، ويؤثر كذلك في الأعمال. ومن هذه

الكراهية، أو بالأحرى من الصراع الدائر بين الحب الظاهري والكراهية المكبوتة، نشأ الدين والحضارة وتقاليد المجتمع.. وكل مظهر من مظاهر البشرية!!

وهو يقرر هذا المبدأ في معظم ما يكتب، ويتحمس في إثباته، ليقرر في ذهن قارئه أنه حقيقة لا تقبل النقاش. ولكن الله يشاء أن ينزلق قلمه في سطرين اثنين من كتاب، فيقرّ بحقيقتين هائلتين تهدمان هذا المبدأ من أساسه. فهو يقول في كتاب " Totem and Taboo" ص139: "إن الكراهية التي تنشأ في نفس الولد نحو أبيه **من منافسته على أمه**، لا تستطيع أن تستولي على نفسه دون أن تتعرض للمنع والحجر. فإن عليها أن تصارع الحب والإعجاب اللذين نشأ قبل ذلك في نفسه تجاه الشخص ذاته" (أي تجاه الأب).

فهو يقرّ هنا أولا بأن للكراهية أسباباً موضوعية، هي المنافسة على الأم، وأنها لا تنشأ نشوءاً ذاتياً من الحب، ودون تدخل أية عوامل أخرى، كما أراد أن يقرر في غير هذا الموضع. ويقرّ ثانياً بأن الحب سابق في ظهوره على الكراهية. وأن الكراهية التي تنشأ متأخرة تصارع هذا الحب الموجود من قبل (أو old establishedكما يقول). وذلك فضلاً عن إقراره بحقيقة ثالثة لا تقل أهمية عما سبق، وهي أن الذي يصارع الكراهية ويكبتها ليس قوة خارجية قاهرة، وإنما هو شعور أصيل في داخل النفس، هو الحب الذي ينشأ سابقاً للكراهية. وذلك كله على فرض صحة وجود الشعور الجنسي بين الولد ووالدته، وهو وَهْمٌ ليس عليه دليل.

ونحن لم نقل أكثر من ذلك، وما نريد أن نقول أكثر منه!

فذلك حسب أي إنسان يريد أن يؤمن بالإنسانية، وبأن المجتمع الإنساني يمكن أن يعيش على مشاعر الحب والعطف والرحمة، حين يظلله نظام يخفف إلى أقصى درجة ممكنة أسباب الكراهية التي تنشأ من الصراع.

* * *

لسنا إذن واهمين حين نؤمن بالقيم العليا، والنصيب الذي تقوم به في الحياة.

ففي النفس الإنسانية منذ فجرها الأول، بل في ظلماتها الأولى قبل أن ينبثق عليها النور، وفي أسوأ صورة رسمت لها في وهم بشر، نجد البذور الأولى للقيم العليا من خلقية واجتماعية وإنسانية.

وقد مر على ذلك دهور طويلة لا يعرف إلا الله مداها، ولكن قوماً يعدونها بملايين السنين. وفي خلال تلك الدهور تطورت الإنسانية وارتفعت مشاعرها وتهذبت طباعها. وقامت الحضارات المختلفة، والرسالات السماوية المتعاقبة، وظهر في البشرية أنبياء ومصلحون حققوا هذه القيم العليا في أشخاصهم، ودعوا إليها من يستمع لهديها ويقدر عليها. فاتبع النور كثيرون، منساقين إليه بدافع من نفوسهم، متطوعين بالخير غير مقهورين عليه.

فنحن أولى اليوم وقد تحضرنا –والغرب يزعم أنه متحضر– أن يزيد إيماننا بالقيم العليا والعمل من أجلها. أمام حين ننكرها، ونقول عنها إنها أوهام وخرافات، فلنكن على يقين من أننا ننتكس إلى أسفل، ولو حطمنا الذرة، ولو استعمرنا القمر وذهبنا إلى المريخ.

إن هناك وهماً صارخاً يستولي على أفئدة الناس في الغرب، ويتسلل إلى المستعبدين في الشرق فيملأ في نفوسهم من تفاهة وفراغ. إنهم يظنون أن العظمة العلمية تستتبع حتماً أن يكون "الإنسان" كله قد ارتقى. فلا بد إذن أن تكون الأخلاق والعادات والتقاليد الموجودة في عصر الذرة، أفضل من مثيلاتها في العصور السابقة، التي لم يكن العلم فيها قد وصل إلى هذه الأسرار!! وما دام الناس اليوم لا يؤمنون بإله، ولاي تبعون قواعد الأخلاق، ويستبيحون الفوضى الجنسية، وينكرون القيم العليا ويعتبرونها خرافة، فلا بد إذن أن يكون هذا كله هو الحق، لأن هذا هو عصر العلم والنور والحقيقة!

فأية خرافة أكبر من هذه الخرافة التي يعيش فيها هذا الجيل من البشرية؟

إن المقياس الحقيقي لعظمة الإنسان ليس هو جهاز الراديو أو التليفزيون الذي يملكه، ولا السيارة التي يركبها، ولا جهاز الغسيل الآلي، ولا القنبلة التي يدمر بها الحياة على وجه الأرض... وإنما هو أثر ذلك كله في مشاعره وعواطفه، وكيانه النفسي على وجه العموم، فإذا كان يصل به إلى فكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل، وفكره عن الحياة أكبر وأرفع، فقد ارتقى الإنسان حقاً بكل ذاك. أما إذا كان يضيّق مشاعره إلى نطاق الأنانية المرذولة، ويعكف به على ملذات الجسد الملهوفة، فقد انحطت البشرية رغم هذا البريق الذي يخطف الأبصار...

وطالما كان الأمريكان يعاملون الزنوج –الذين يتحدثون معهم في اللغة والدين والوطن– هذه المعاملة المزرية بكرامة الإنسان. والإنجليز يعاملون المستعمرات معاملة مصاصي الدماء، ويقيمون لافتات على محلاتهم كتب عليها "للبيض فقط". والفرنسيون يعاملون الشمال

الإفريقي —وهم الدخلاء فيه– معاملة المجرمين[1]. والروس يعاونون في إقامة إسرائيل، على أساس الدين وحده، مخالفين كل مبادئهم ودعاياتهم، لتكون سنداً لهم ضد الإسلام في هذه المنطقة من الأرض، ويبيحون لأنفسهم بالأمس أن يفتكوا بعشرات الألوف في المجر وبولندا..

طالما كانت هذه المبادئ التي يسير عليها الغرب، وتلك هي المشاعر المسيطرة على أهله، فكيف يزعم أحد أنه ارتقى، ولو بنى الأساطيل وأقام المصانع ووصل إلى الأفلاك؟ إنما مقياس الرقي البشري هو الطريق التي يعامل الإنسان بها أخاه الإنسان. ولكن المحك في ذلك ليس معاملة الإنجليزي للإنجليزي مثلاً، حيث يتدخل القانون، وتتحكم القوة المتكافئة في تحديد العلاقة، وإنما هو معاملة الغربي للآخرين الذين لا يملكون السلاح، ولا يجدون في الوقت الحاضر القوة المكافئة. فهنا يبرز الشخص على حقيقته الكامنة وراء القشور والأصباغ، وينكشف مدى إيمانه الحقيقي "بالإنسانية"!

وحين يؤمن الغرب بذلك يكون قد ارتقى حقاً. ولكنه لن يؤمن حتى يغير نظرته للأحياء والحياة والأشياء. ويقيم فلسفته على أساس آخر غير البراجماتزم، أو غير الغاية النفعية للأعمال.

وإنما ينكر الغرب كل القيم العليا، ويؤمن بالمادية النفعية، بسبب ظروف البيئة الأوربية التي جعلت شعوباً مختلفة تزدحم على رقعة ضيقة من الأرض قليلة الخيرات. فأصبح الصراع هو الغالب على طبائعهم، لا التعاون والحب. وصارت تسيطر على مشاعرهم تلك الواقعية المادية التي لا ترتفع عن محيط الأرض وعالم الضرورة. فهو إذن عيب اضطرتهم إليه ظروف معينة، وليس مزية تُشتهى كما يتصور المغفلون!

وصحيح أن الغرب اليوم يملك القوة والسيطرة، وأنه امتلكها في الفترة التي كفر فيها بالقيم الإنسانية العليا، وآمن بواقع الأرض المحدود. ولكن ذلك لا يعني أن هذه هي الطريقة الوحيدة لامتلاك القوة. ودليلنا الذي نتخذه من وقائع التاريخ، هو أن العالم الإسلامي — وقت تمسكه بالإسلام وإيمانه الحقيقي به– كان هو الذي يملك السيطرة في عالم الحرب والسياسة والعلم والاقتصاد. حتى إن أوربا التي تلوح اليوم لعقول الشرقيين وقلوبهم كالمارد الجبار، كانت تتلمذ على الشرق الإسلامي في كل اتجاه.

([1]) كتب هذا أيام احتلال فرنسا للشمال الأفريقي. وإذا كانت فرنسا قد رحلت من مستعمراتها فليس ذلك لفضيلة اكتسبتها وإنما لظروف قاهرة أجبرتها على الرحيل.

فامتلاك القوة إذن لا يستلزم الكفر بمقومات الإنسانية الحقة، ما دام قد أمكن عملياً أن يجتمع هذا وذاك. وأهم من ذلك أن امتلاك القوة على الأسس المادية النفعية لم يجلب للإنسانية غير الخراب والدمار، فهو قائم على الصراع لا على الحب. وعلى أن الغلبة للأقوى لا لصاحب الحق. وما دام الأمر كذلك فالنتيجة الحتمية لهذه الفلسفة البربرية هي الحرب التي تحطم في لحظة ما شيده الإنسان في أجيال.

ويظن بعض البلهاء من "المثقفين" أن الإيمان بالروحانية والقيم العليا يستلزم من جانب آخر أن ننفض أيدينا من اكتشافات العلم الحديثة وكل التيسيرات التي أدخلها العلم على وسائل الحياة! وهو وهم لا يقتصر على "مثقفي" الشرق فقط! بل لعله سرى إليهم مع "الثقافة" التي تثقفوها من الغرب! فقد حدثني رجل انجليزي متخرج في أكسفورد، ويعمل أخصائياً في مؤسسة اليونسكو، وهي مؤسسة ثقافية! زار مصر منذ سنوات، وجرت بيني وبينه عدة مناقشات، فقال: إنه لا يحب الروحانية لأنه يحب أن يستمتع بالسفر بالطائرة، والاستماع إلى المذياع!! فقلت له مدهوشاً: وماذا يحملك على ترك هذا المتاع حين تؤمن بالروحانية؟ قال: أو ليس يقتضي ذلك أن أعود إلى الخيام؟!

كلا يا هؤلاء المثقفون! إن الإيمان بالقيم العليا لا يمنع العلم أن يتقدم ويصل كل يوم إلى اكتشاف جديد. وقد كان العلم الوحيد على ظهر الأرض في فترة من فترات التاريخ هو ما يعرفه الشرق الإسلامي في الطبيعة الكيمياء والفلك والرياضيات! ولن يمنع كذلك من استخدام الطائرة أو الصاروخ الجوي، ومن احتلال القمر والمريخ. ولكنه سيجعل لكل ها غاية... غاية إنسانية نبيلة ترتفع على النفع المادي القريب.

* * *

وقد يتفلسف الغرب المادي لتبرير كفرانه بالقيم العليا فيقول: إن النفس الإنسانية هكذا لا تقبل الارتفاع، ولا تخضع لهذا التهذيب الذي ربما كان جميلاً في ذاته ولكنه غير مستطاع. ويستدلون على ذلك بأن الجريمة لم تنقطع من وجه الأرض حتى في أيام الرسل والأنبياء. ويستجيب المنحلون والهابطون من أهل الشرق إلى هذه الفلسفة، وتنسط لها أساريرهم، ويقولون لك: لا فائدة! لا تتعب نفسك، فالواقع يكذبك على طول الخط!

وهؤلاء وأولئك يبررون ضآلتهم وانحلالهم بهذا الحديث. ولكن فيه مغالطة مكشوفة. فهناك فارق هائل كما قلنا في الفصل السابق، بين مجتمع لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذاً يثير النفور والاستنكار، ومجتمع يكون الامتناع عن الجريمة فيه هو الذي يبعث الدهشة والاستنكار! فإذا كانت الجريمة لم تنقطع حتى أيام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم،

فقد كانت نسبتها بلا شك أقل بكثير جداً مما هي عليه الآن. وبمثل هذه النسبة تقاس المجتمعات.

على أن الغرب قد وصل في تهذيب بعض الطباع إلى درجة مثالية. فبائع الصحف الذي يترك صحفه في انجلترا وعليها كومة من النقود، فيأتي الزبائن فيأخذ كل منهم صحيفته ويضع ثمنها دون أن يفكر في أخذ هذه النقود المتروكة بلا حراسة، يعتمد دون شك على التهذيب الفائق الذي صقل النفوس فمنعها من السرقة المتاحة.

وللبيوت في أمريكا حدائق ليس لمعظمها أسوار. فالسائر في الطريق يراها بكل ما تحمله من زهور وثمار، ويتمكن —لو أراد– من دخولها وقطف ما يريده منها دون أن يراه أحد، في الليل على الأقل. ومع ذلك لا يسرقها أحد. بل سمعت عن أحد المصريين العائدين من هناك، أنه سمع جرس بابه يدق ذات مرة، فقام يفتح فإذا طفل صغير يشب على قدميه ليبلغ الجرس، يستأذنه —إذا لم يكن عنده مانع– في أن تأخذه أخته الصغيرة زهرة من زهور الحديقة! وقد كان الطفل وأخته قادرين على أخذها دون أن يحس صاحبها أو ينتبه!

فإذا كان هذا التهذيب ممكناً وواقعاً —لأي سبب وبأية طريقة– فكيف نقول إن الطبيعة البشرية لا تقبل التهذيب؟ وقد كان أولى بالغرب الذي توصل إلى مثل هذا التهذيب، أن يجربه ويصل إليه في كل مناحي النفس البشرية، فلا يطلق أبناءه كالبهائهم ينزو بعضهم على بعض، بحجة أن الغريزة الجنسية لا تخضع للتهذيب!

وإنما وجّه الغرب كل عنايته إلى هذا اللون من التهذيب النفعي، ونجح فيه، لأن طبيعته مادية نفعية، ولم يتجه إلى التهذيب الخلقي والإنساني، لأنه لا يؤمن بالمبادئ الخلقية والإنسانية، لا لأنه حاول فاستعصت النفس البشرية على المحاولة... وقد عمل الإسلام من قبل، في كلا الميدانين، فنجح. وكان من نجاحه تلك الأمثلة العجيبة التي أوردنا بعضها في فصل "نظرة الإسلام".

فالنفس البشرية لا تستعصي على الارتفاع حين تجد التوجيه والترغيب، ولكنها حين تترك وشأنها، أو حين تجد المغريات الدائمة للهبوط، فلا شك أنها تهبط حين تصل إلى مستوى الحيوان. وهذا ما وصل إليه الغرب في المسألة الجنسية خاصة، حين اعتبرها مسألة بيولوجية منفصلة عن الأخلاق! وحين قال عن الاستعمار إنه مسألة اقتصادية لا تخضع للأحكام الأخلاقية، كما تثب القطة لتأكل الفأر دون أن يوصف عملها بأنه أخلاقي أو خارج على مقتضيات الأخلاق!

في دنيا الحيوان فقط يمكن أن توجد الأعمال منفصلة عن القيم الأخلاقية، لأنها محكومة بدفعة الغريزة، ولا إرادة للحيوان في الاستجابة أو الامتناع. ولكنها لا يمكن أن تكون كذلك في عالم الإنسان، وقد رأينا الإنسان الأول يقدر قيمة أخلاقية لأعماله، وهو ما يزال في ظلام الكهوف.

* * *

بل إننا لنجد في عالم الحيوان ذاته ما يصلح أن يكون بذوراً للقيم العليا التي نطلبها في عالم الإنسان.

فإذا كان الفيل حين يدهمه المرض ينعزل عن بقية القطيع، ويحتمل مرارة الوحدة والحرمان، حتى يشفى فيرتد إلى رفاقه، أو يموت حيث هو في عزلته، لكي يؤمن بقية القطيع من خطر العدوى...

وإذا كان الحمام يصل به الوفاء إلى درجة مثالية عجيبة، فإذا مات أحد الإلفين، ظل الآخر حزيناً عليه لا يأكل ولا يشرب ولا يتسلى، حتى يلحق به، وأمامه البديل الممكن لو أراد...

وإذا كانت الجمال تأبى أن تقوم بالعملية الجنسية في مكان مكشوف، بل تسعى إلى التستر عن عيون المتطلعين...

وإذا كان الحصان –فيما يقال– يأبى أن يواقع أمه، مهما تحايل الناس على ترغيبه...

إذا كان هذا وأمثاله يقع في دنيا الحيوان بلا وعي منه ولا إرادة، أفما يجدر بالمخلوق الذي يقرر العلم أنه أرفع وأرقى، أن يعتنق هذه المبادئ السامية، ويسعى إلى تحقيقها بوعيه وإرادته؟!

* * *

بل أنا أزعم أن العقل الباطن في الإنسان ليس شهوة خالصة ولا ظلمات كافرة. وأزعم أنه زاخر –إلى جوار ذلك– بأحلام البطولة، والخير الخالص، والمثل العليا الرفيعة. وإلا فمن أين جاء الإنسان بهذه الأحلام؟ من الذي أوحي إليه بتلك الصور الخلابة التي رسمها لأبطاله فتصورها بيضاء ناصعة، لا يعتورها نقص ولا تشوبها خسة؟

إن فكرة الكمال المطلق عميقة عميقة في نفس الإنسان، وإلا لما اهتدى إليها في طفولة البشرية، ولا حلق في آفاقها الرحيبة.

وإن بريق القيم العليا والنظافة النفسية ليجذب الناس إلى أعلى فيرتفعون مختارين لا يقهرهم شيء. وتبهرهم البطولة فيحبون تقليدها بدافع داخلي كامن في الأعماق. ولن يكون ذلك إلا إذا كان في باطن النفس رصيد لهذه القيم وتلك البطولة. صيد مذخور ينتظر اللحظة المناسبة للانطلاق، في عالم الواقع أو في عالم الأحلام.

* * *

وقد كان الإسلام على صواب حين قدر قيمة الإنسان بمقدار تمسكه بالقيم العليا والعمل على تحقيقها، لأنه لن يكون إنساناً حقاً بغير ذلك ولو ملك القوة والسلطان. وإن دعوى الفصل بين القيم الخلقية وبين الأعمال لهي أعجب ما جاء به الغرب في فترة انحطاطه الحالية.

إن حقائق الحياة كل لا يتجزأ، ولا يتعارض إلا في العقول الصغيرة والقلوب الصغيرة. وكلما اتسعت النظرة فشملت أكثر من جانب واحد من جوانب الإنسان كانت أصح تقديراً وأقرب إلى الصواب. ومن هنا تجيء قيمة الإسلام الذي أشرف على الحياة من أعلى، ووضع الإنسان في مكانه الصحيح، بعد أن وفق بين نزعاته الداخلية والخارجية أجمل توفيق.

وقد كان لهذا التوفيق أثره الحاسم في تهذيب النفس البشرية والارتفاع بها عن مستوى الغريزة والضرورة. وإذا كان الغرب —لأي سبب– قد هبط عما ينبغي له، ولم يعد يؤمن بالقيم العليا، فنحن لم نقع تحت ضروراته، وليس هناك ما يلزمنا أن نأخذ بنظرته الهابطة، ونحن نملك في دنيا الواقع لا في عالم الأوهام، أمثلة أخرى ونظرة أخرى لأهداف الحياة ونوازع الإنسان.

فحين كان الجنود الإنجليز في الحرب الماضية يعتدي أحدهم على آخر، فيتلاكمان، فمن انتصر فهو صاحب الحق، وعلى الآخر أن يعتذر بصرف النظر عن المسيئ الحقيقي، يكون الذي يحكم هو قانون الغابة، "قانون القوة هي الحق[1]". أما حين يشكو القبطي إلى

([1]) كتبت هذا في الطبعة الأولى. ثم كان اعتداء إسرائيل مع انجلترا وفرنسا على مصر سنة 1956 أبشع تطبيق لقانون الغابة.

عمر أن ابن عمرو بن العاص ضرب ولده بغير وجه حق، فيقول عمر للقبطي: اضرب ابن الأكرمين، يكون قانون آخر هو الذي يحكم: قانون العدالة المطلقة بين بني الإنسان.

وحين يحدث كما حدثني أحد المصيين الذين هاجروا إلى فرنسا لطلب العلم، أن التي سكن في بيتها كانت تبالغ في استلاب نقوده بكل وسيلة –وهو يتعلم علم بلادها ويقبس من وحيه– حتى إنها دعته ذات يوم إلى نزهة ثم اتضح له وقت الحساب أنها دعته فقط ليدفع لها أجر الذهاب والإياب! وطلبت له في أثناء النزهة فنجانة من الكاكاو، ولنفسها مثله، وإذا به يفاجأ بأنها حسبت عليه كلتا الفنجانتين!! حين يحدث ذلك يكون الجشع المادي هو الذي يحكم. فأما حين كان الأنصار يقتسمون مع المهاجرين بيوتهم وأرزاقهم لا يريدون منهم جزاء ولا شكورا، وإنما ابتغاء وجه الله، وفرحة بما يقيسون من وحيهم، فقد كان الإيثار النبيل هو الذي يحكم.

وحين يأبى الأمريكي أن ينفق على والديه، ولو كانت ثروته تعد بالملايين وهما شيخان فقيران، لأنه غير مكلف، ولأن على كل امرئ أن يعول نفسه، تكون الأنانية البغيضة هي التي تحكم. فأما حين يشعر الفرد المسلم أن الإنفاق على أبويه المعوزين جزء من عرضه، ويعيّر بهما إذا نكل عن أداء هذا الواجب المقدس، لقاء ما جهدا في تعليمه وتربيته، يكون البر الإنساني هو الذي يحكم.

وحين يعامل الأمريكان الزنوج الذين يشتركون معهم في دين واحد ولغة واحدة تلك المعاملة الوحشية، فيركلونهم حتى يزهقوا أرواحهم، ثم يعلقونهم في جذوع الشجر عقاباً ونكالاً لأنهم باشروا بعض حقوقهم الإنسانية المشروعة كالسير في طرقات المدينة، أو ركوب سيارتها العامة، أو دخول أحد مقاهيها، تكون الروح الهمجية البربرية هي التي تحكم. أما حين يقول الرسول الكريم: "اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد أسود كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى" فلا يعطى العبد مجرد المساواة في الإنسانية، بل يؤهله حتى لمركز القيادة ما دام يطبق شريعة الله، فهنا الروح الإنسانية العالية هي التي تحكم.

وحين يكون الاستعمار شهوة سلطان، لاستنباط موارد جديدة للرقيق كما كان في الدولة الرومانية القديمة، أو لفتح أسواق جديدة لتصريف فائض الإنتاج كما هو الحال في ورثة الروح الرومانية من دول أوربا وأمريكا، تكون المادة وحدها هي التي تحكم، ويكون الناس مستعبدين للمادة لأنهم ينقصون روح الإنسان. أما حين كان الفتح الإسلامي يهدف إلى نشر النور الجديد في كل أركان الأرض دون دافع اقتصادي ولا استعماري، وحين كان الإسلام لا يبخل بكل علومه ومعرفته على البلاد المفتوحة، وحين كان ينفق الأموال المجموعة من البلاد على أهلها أولاً، فإذا بقي شيء حمل إلى بيت المال العلم لينفق على لمسلمين

جميعاً في العالم الإسلامي، فلم تكن المادة هي التي تحكم وإنما "الروح" الشفيفة التي قبست من نور الله.

فمن واقع الإسلام إذن لا من عالم الأوهام نبتت القيم العليا، وأثمرت ثمارها، حين كان يتعهدها الغارسون بالغذاء والرعاية. فأما اليوم فقد نكل المسلمون عن دينهم الحق، ليقلدوا الغرب الهابط المنحل، فصاروا أسوأ منه مادية، وهم أضعف منه في ميدان القوة العملية. فخسروا الدنيا والآخرة معاً، وباءوا بغضب الله واحتقار الناس.

فإن أرادوا أن يعودوا إلى عزتهم، فإن أمامهم مثلهم الخاصة، التي استمدوا منها قبل ذلك العزة والمنعة والسلطان: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ".



في
النفس والمجتمع

محمد قطب

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

صدق الله العظيم

مقدمة الطبعة الثانية

هذه المجموعة من الخواطر مكتوبة قبل سنوات...

وقد لاحظت عند مراجعتها لإعادة الطبع، أن بعضها قد نما وتبلور، وأخذ امتداده في الكتب التي تلت هذا الكتاب: "قبسات من الرسول" و"معركة التقاليد" و"منهج التربية الإسلامية" و"هل نحن مسلمون؟" و"منهج الفن الإسلامي".. وبعضها الآخر قد بقي على صورته التي كتب بها في هذا الكتاب، لأنه لم يأخذ في نفسي امتدادا آخر، ولم تضف تجاربي الشعورية والفكرية جديدا إليه.

وقد أبقيت هذه وتلك بترتيبها وألفاظها، لأنها تمثل حلقة من حلقات التفكير والاتجاه..!

محمد قطب

مقدمة

لهذا الكتاب قصة...

فمنذ بضع سنوات كنت أكتب مؤلفي الأول عن نظرية الإسلام في النفس الإنسانية في مجالها الفردي والاجتماعي، وسميته "الإنسان بين المادية والإسلام". وأشهد أنني حتى اللحظة التي بدأت فيها الكتابة بالفعل لم أكن أتصور أن نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية هي بهذه الدقة والشمول في كل اتجاه!

لقد كنت —بطبيعة الحال– قد كونت فكرة عامة بدأت الكتابة على أساسها؛ هذه الفكرة مبنية على أن "التوازن" هو أساس نظرة الإسلام إلى الحياة وإلى الإنسان. وأن الإسلام هو النظام الذي يوازن بشكل دقيق ملحوظ بين مختلف القوى الإنسانية: يوازن بين الروح والجسد، بين الأشواق العليا ونزعات الغريزة، بين الخضوع لضرورات الحياة، والتسامي إلى طلاقة الأفق الأعلى.. كما أن الإسلام يقع في نقطة الوسط بين أفكار البشرية المتطرفة. يقع بين الكبت الذي تفرضه بعض النظم والعقائد، والانطلاق الحيواني الذي توحي به بعض آراء علماء النفس من أمثال فرويد. ويقع بين الفردية المتطرفة التي تقوم في العالم الرأسمالي، والجماعية المتطرفة التي تقوم في العالم الشيوعي. ويقع بين المادية المغرقة التي تحدد الحياة بما يقع في محيط الحواس، والروحانية المغرقة التي تهمل عالم المادة لتتعلق بسبحات الروح وأطياف الخيال.

تلك هي الفكرة العامة التي كنت قد كونتها من دراستي لنظرة الإسلام إلى الحياة والإنسان. ولكن فيضاً عجيباً من الخواطر المتلاحقة كان يرد في خاطري أثناء الكتابة، كأنه يخطر لي لأول مرة، وكأنما أكتشفه اكتشافاً في أثناء الطريق!

هذه الخواطر سجلت بعضاً منها في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" لأنها تدخل بصفة مباشرة في موضوع البحث، ولأنها لازمة لتوضيح الفكرة الأساسية للكتاب.. ولكن بقية من هذه الخواطر كانت تملأ ذهني في وقتها فأبعدها عن خاطري إبعادا، حتى لا يتضخم الكتاب من جهة، وحتى يمكن من جهة أخرى الإلمام بفكرة عامة عن سيكلوجية الإسلام، دون أن تتوزع في كثير من التفصيلات.

وظلت هذه الخواطر حبيسة لا أجد الفرصة لتسجيلها.. حتى سجلتها أخيراً في هذا الكتاب.

إنه مجموعة من الخواطر يربطها كلها رباط واحد، هو أنها عرض للفكرة الإسلامية في الفرد والمجتمع، يشمل نواحي مختلفة من النفس الإنسانية والنشاط الفردي والاجتماعي.

وقد يلحظ القارئ نوعاً من التسلسل في موضوعات الكتاب، أو يلحظ على الأقل نوعاً من الترابط بين مجموعات مختلفة من العنوانات التي جاء بعضها على إثر بعض.

وعلى أي حال فالرباط الأكبر هو أنها كلها مأخوذة من زاوية العقيدة، وأثرها في الحياة البشرية.

وهي مادة تصلح بذوراً لتكوين نظرية إسلامية نفسية، لا أزعم أنني وصلت فيها إلى شيء قاطع، ولكن حسبي منها أن أفتح بها الباب للباحثين يستخلصون منها ومن غيرها نظرية تفصيلية تشمل كل ميدان النفس، وتصلح أن توضع في ميدان البحث العالمي في مقابل النظريات الغربية، تتلافى ما فيها من انحرافات وعيوب، وتساهم في إنشاء عالم أفضل، يقوم على هدى واضح واتجاه سليم[1].

نرجو الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير، إنه سميع مجيب الدعاء...

[1] – بين يدي الآن بحث أرجو أن أقدمه للقراء قريبا باسم "دراسات في النفس الإنسانية".

العقيدة

عقيدة. أو لا عقيدة؟!

سؤال حائر في أفكار الشباب وفي ضمائرهم.

ما قيمة العقيدة؟ ما دورها في الحياة؟ هل يمكن أن يكون لها اليوم دور في عصر الآلة والإنتاج الكبير؟

وما غرض العقيدة؟ أو ليس هدفها إقامة الحياة البشرية على أسس صالحة؟ لقد تولى ذلك عنها العلم في العصر الحديث، فأقام نظما اقتصادية واجتماعية من شأنها تنظيم العلاقات بين الناس على أسس الاشتراكية والتعاون، بحيث تجعلهما جزءا من النظام العام، تشرف عليه الدولة، وتضع له التشريعات والقوانين.

فماذا بقى إذن من مهام العقيدة لم تقم به "الدولة" الحديثة؟ لقد كان للعقيدة دور مهم تؤديه يوم كانت الدولة في طفولتها، وعلاقات الناس شخصية أكثر منها جماعية ونظامية. أما اليوم فقد صيغت العواطف نظما والنوايا الطيبة أعمالا منظورة. وتحول العدل الاجتماعي من دعوة ووعظ، إلى نظريات علمية وتطبيقات عملية. فما شأن العقيدة في العالم الحديث؟

ثم إن العقيدة وما حولها من روحانيات وطقوس كانت مفهومة قبل أن يفسر العلم ظواهر الحياة تفسيراً "واقعيا"؛ فكان الجهل بما وراء هذه الظواهر هو الذي يدفع الناس إلى افتراض قوة خفية تسيّر الكون. وإذ كانوا لا يرونها، وهم في الوقت ذاته يخشونها، فقد أقاموا العبادات لاسترضائها واستمطار رحمتها. واليوم ذهب ذلك كله. فقد "قهر" الإنسان الطبيعة، وانتزع أسرار الكون واحدا إثر واحد. فجّر الذرة واستخلص منها طاقة هائلة يمكن أن تدمر وجه الأرض. واكتشف أعماق البحار المجهولة وأغوار السماء. وفتش في كل مكان حتى عرف القوة الخفية أو كاد! فما معنى التشبث بما كان أيام الضعف والجهالة؟ اليوم يعبد الناس إلههم الجديد الذي وصّلهم إلى الأسرار. وهو العلم. أو يعبد الإنسان نفسه، فهو القوة الفعالة على ظهر الأرض![1].

كذلك يتحدث الشباب عن العقيدة.. مخلصا حينا، ومستمعا حينا إلى غواية الشياطين ينفثون في فكره، ويجرونه من خيوط الرغبة الهائجة والشهوة المجنونة.

[1] – انظر الفصل التالي: "العلم والعقيدة".

والشباب دفعة الحياة الجارفة وطاقتها المذخورة. ولكنه كذلك ذخيرة خطرة حين ينحرف عن طريقه ويضل عن الهدف المنشود.

والضلال الأكبر الذي يشمل هذا الجيل من البشرية هو استغلاق روحه عن العقيدة، وانطماس بصيرته أن تستمتع بنورها الشفيف.

(**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**)..

كذلك كان الناس في الجاهلية. كانوا يتبعون باطلهم المضحك مخلصين حينا، ومستمعين حينا إلى غواية الشياطين... (**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**)!

والجاهلية الجديدة أشد عتواً لأنها أشد قوة! إنها تملك من وسائل التحطيم ما لم يخطر من قبل على ذهن بشر. لذلك فهي أشد اعتزازاً بباطلها المضحك، وأشد ضلالا به من السابقين.

كانت الجاهلية الأولى تعبد أصناماً فجة الصنع أو فجة العقيدة. لذلك انهارت في يسر. وإن كان هذا اليسر النسبي قد استغرق بضعة قرون من الكفاح، وبضعة آلاف من أرواح البشر استشهدوا في الطريق.

والجاهلية الثانية تعبد أصناماً لا سبيل إلى كفاحها في يسر أو تحطيمها في هوادة، لأنها لا تقوم على باطل مطلق كأوثان الفراعنة والبدو، والإغريق والفرس، بل تقوم على ركيزة هائلة من "الحق" هي ركيزة العلم.

ولكنه حق يراد به باطل.

العلم حقيقة محايدة، لا تؤدي بذاتها إلى الخير أو الشر، ولا تؤدي بذاتها إلى الهدى أو الضلال. ولكن القلب الذي يستخدم هذه الحقيقة هو الخيّر أو الشرير، هو الذي يتجه بها إلى طريق الهدى أو طريق الضلال.

ومن الناس من (**وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ**). وهو أخطر ممن ضل على جهالة لأنه يملك من وسائل المعرفة ما يقدر به على الشر.

وهذا الجيل من البشرية ربما كان أبعد أجيالها في الضلال، لأنه أشدها ضلالا "على علم" وأقدرها على استخدام العلم في طريق الشر.

وما هذه الحروب المدمرة التي تهدد العالم بالفناء؟ اثنتان في ربع قرن والثالثة على الأبواب؟

يقولون لك إنه "الصراع".. صراع الحياة، أو صراع البقاء.

نعم. ولكنه في الواقع هو الضلال الذي يؤدي إلى الصراع.

لو أفلت نظام الكون.. لو انحلت الرابطة التي تربط كوكباً بكوكب، وتسيّر الأفلاك في الكون العريض.. كيف يحدث؟

ولو أفلت نظام الذرة، وهي البنية التي يقوم عليها الكون، لو تفتت نواة الذرة التي تمسك حولها الكهارب المنطلقة في نشاط دائم.. كيف يحدث؟

هل يحدث إلا الفوضى المدمرة والضلال الرهيب..؟

ذلك ما حدث لهذا الجيل من البشرية. تفتت نواته. وانطلقت كهاربه المجنونة تصطدم وتتحطم، وتدمر كل ما تصادفه في الطريق.

وهل يمكن أن تكون النواة في الكيان البشري غير العقيدة؟

النواة هي الطاقة الموجبة في بناء الذرة. وهي التي تمسك الكهارب المنطلقة أن ينحل عقدها، وتنفلت إلى غير رجوع. هي التي تمسك البناء كله وتشده بعضه إلى بعض. هي التي تحفظ التوازن وتسير النظام. هي المركز الذي يدور كل شيء حوله، ويظل أبداً منجذباً إليه في رباط خفي ولكنه وثيق.

وحين تتحطم الذرة يحدث الخراب. تنطلق القوى التي كانت خيّرة منذ لحظة، لأنها كانت —وهي مشدودة إلى النواة– تمثل النشاط الدائب الذي يعمل للبناء. تنطلق هذه القوى بلا ضابط، فتصبح هي قوى الشر وعوامل التدمير!

وكذلك الإنسان بلا عقيدة!

كتلة هائمة من النشاط المجنون. نشاط مدمر لأنه فقد المركز الذي يدور حوله، وفقد كذلك الرباط الوثيق بين أجزائه.

أو.. ميوعة وانحلال. تفكك ورخاوة. تفاهة سالبة، كالكهرب السالب بلا نواة تشده إليها وتحركه إلى هدف معلوم.

وهذا وذاك هو الواقع الذي يعيش فيه البشر في القرن العشرين.

فهل رأت البشرية في تاريخها الطويل من دواعي القلق والفزع ما تراه اليوم من الحرب الذرية؟

هل رأت من دواعي الصراع المجنون –حتى أيام الغابات والكهوف– ما تراه اليوم من الصراع العنيف من أجل الغلبة والسلطان، والإهلاك والتدمير؟

وهل رأت من الانحلال الخلقي والتفاهة المشردة ما تراه اليوم في المراقص والحانات، والغابات والطرقات، والصحف العارية والسينما المتبذلة و"الفن" الخليع؟

نعم.. مر على البشرية من كل ذلك ألوان. ولكنها لم تبلغ قط في حدتها وضراوتها ما بلغته في هذا الجيل.

يقولون لك: هذه ضريبة العلم.

كذبوا: إنها نتيجة الضلال.

ليس العلم شريراً في ذاته. وليس من الضروري أن تكون ضريبته هي هذا الشر الضارب في الآفاق.

ولكنه هو هكذا المخلوق البشري حين ينحل رباطه ويختل توازنه. هو هكذا يصبح قطعة من الشر، وصنوا للشيطان.

تذكر الإحصاءات أن ما أنفق في الحربين الأخيرتين كان كفيلا بأن يمنح كل فرد على ظهر الأرض بيتاً حديثاً مجهزاً بأنفع الأدوات، ودخلا أعلى من المتوسط اليوم.

يقولونها للتسلية والتندر..

ليس هناك دافع جدي يقول للناس: ويحكم! ماذا تصنعون!

ليس هناك شعور حقيقي بوحدة الإنسانية وأخوتها.

ليس هناك ضابط حقيقي يمنع شهوة الإبادة والتخريب.

ليس هناك عقيدة.

وتذكر الإحصاءات أن ما ينفق في المواخير ونوادي الميسر ووسائل الهبوط المختلفة، من ساعات العمر ومن الأموال التي تمثل الكد البشري، هو مئات الملايين.

يقولونها للتسلية والتندر.

ليس هناك إحساس حقيقي بكرامة البشرية أن تهبط إلى هذا المستوى من التفاهة والانحلال.

ليس هناك استخسار حقيقي للطاقة البشرية الضائعة في لا شيء، المنحدرة إلى الهاوية.

ليس هناك تقدير حقيقي لتلك الخامة العجيبة التي صنع منها المخلوق البشري. الخامة القادرة على الرفعة بقدر ما هي قادرة على الهبوط.

ليس هناك معرفة حقيقية بهذا الجوهر الفذ الذي نفخ فيه الله من روحه وخلقه على صورته.

ليس هناك عقيدة.

وحين يفقد الإنسان العقيدة فهكذا يصير.. ضراوة الوحش وتفاهة الانحلال.

* * *

هل معنى ذلك أن نغمض أعيننا عن كل ما أحرزته البشرية في العصر الحديث من تقدم؟ ونلغي من حسابنا كل ما يسره العلم من الخدمات؟

كلا! ما قصدنا إلى شيء من ذلك. وإنه لضرب من المستحيل.

وإنما نقصد فقط أن نراجع الوسائل والأهداف.

لأي معنى نعيش؟

هل كل همنا أن نبدد طاقتنا الحيوية في متاع الجسد، أو نتصارع كالوحوش على الغلبة والسلطان؟

أو لشيء أعلى من ذلك نعيش؟

نستمتع بمتعة الجسد، ونتطلع مع ذلك إلى آفاق أخرى، آفاق تربط بين البشر برباط الأخوة وتهدف إلى الجمال؟ الجمال في كل شيء. جمال التعبير، وجمال الشعور. لا في عالم الفن المحدود وحده ولكن في نطاق الحياة كله... وهل أجمل شعوراً في النفس من الحب؟ وأجمل تعبيراً من الخير في الحياة؟

والوسيلة هي العقيدة..

والمخلوق البشري ككل شيء في بينة هذا الكون الأعظم. **(مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ)**.

نواة موجبة الطاقة وكهارب سالبة تستمد منها الحركة الدائبة والهدف المحدد الاتجاه.

هذا.. أو الفوضى الضاربة الأطناب.

والعقيدة هي الرباط الذي يربط كيان الإنسان ويوحد اتجاهه. هي العقدة الصلبة التي تمنع انحلاله. هي التي تنظم غدوه ورواحه. وتوازن بين دفعاته المتشعبة الأهداف.

ولا شيء يستطيع أن يغني في ذلك غناء العقيدة. لا العلم. ولا الدولة ولا التنظيم الاجتماعي. ولا تنظيم الاقتصاد[1].

كلها جزئيات تشمل أجزاء من الكيان البشري ولا تجمعه كله. والويل لها إن لم يكن بينها ترابط يجمع شتاتها ويوازن بين دفعاتها المتشعبة الأهداف. فعند ذلك تمزق المخلوق البشري بين الشد والجذب، وتفسد أعصابه، وتدفع به إلى الجنون.

الجنون الذي يسمونه الحرب. أو الجنون الذي يسمونه صراع الحياة.

أو في القليل جنون التكالب على المتاع الجسدي المسعور.

والعقيدة هي الرقية من هذا الجنون.

إنها ليست بديلا من العلم. أو الدولة. أو التنظيم الاجتماعي. أو تنظيم الاقتصاد.

---

[1] – انظر الفصل التالي عن "العلم والعقيدة".

وليست في موضع التقابل من ذلك كله[1].

وإنما هي الرباط الذي يربط كل ذلك، ويوجهه إلى طريق الخير. هي النواة التي تمسك كيان الذرة وتنظم ما فيها من النشاط.

والنواة —وهي ثابتة راكزة– لا تعيق نشاط الكهارب ولا تمنعها من الانطلاق.

تمنعها فقط من الفوضى والتصادم. تمنعها من الانفلات بلا غاية ولا دليل. لأنها عندئذ تفقد معناها. تفقد وظيفتها الحقة، وتصبح أداة للهدم فوق أنها هي ذاتها تضيع.

والعقيدة لا تمنع الاستمتاع بالطيبات من الرزق ولا تحرم زينة الله التي أخرج لعباده. ولا تمنع كذلك تقدم العلم وتنظيم المجتمع[2].

وإنما تجعل لكل ذلك غاية. غاية غير الصراع المجنون والتدمير الرهيب. غاية هي الشعور الجميل والتعبير الجميل. غاية هي الحب وهي الخير.

والحب هو الله.

والخير هو الله.

والله جميل يحب الجمال.

[1] – انظر الفصل التالي عن "العلم والعقيدة".

[2] – انظر الفصل التالي عن "العلم والعقيدة".

العلم والعقيدة

أعجب ما في هذا المخلوق البشري أن أداة الهدى يمكن أن تكون بذاتها أداة الضلال! وأداة الخير يمكن أن تكون أداة للشر سواء![1].

ومن هنا ضلت البشرية بالعلم في هذا القرن العشرين، بدل أن يقودها العلم إلى الهدى واليقين!

واتُّخذ العلم سلاحا لمحاربة العقيدة ومطاردتها في نفوس المؤمنين!

واتخذت الحرب طريقين تلتقيان في النهاية.. تلتقيان عند الجاهلية الكبرى التي يصنعها الناس لأنفسهم، وتباركها من ورائهم الشياطين!

الطريق الأول نظريات "علمية" تقول إن الدين نشأ من الضعف ومن الجهل اللذين سيطرا على طفولة البشرية، فينبغي أن يترك اليوم مكانه للعلم.. وكفى ما كان من خرافة وأساطير!

والطريق الثاني نظريات علمية كذلك! تقول إن "الدولة" في العالم الحديث تقوم بالتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية على أسس علمية. فلم يعد هناك حال للتنظيمات التي كانت تقوم على الوجدان الديني الذي قد يخطئ وقد يصيب. وهو وجدان فردي على أي حال، لا يصلح لتنظيم الجماعات الراقية في عصر الذرة والصاروخ!

* * *

نشأ الدين من الضعف ومن الجهل...

كان الإنسان الأول يرى البرق ويسمع الرعد فيرتجف فرقا، ولا يعرف السر وراء هذه الأشياء. وكان ظلام الغابة وعويل الرياح فيها وحفيف الأشجار يفزعه ويخيّل إليه أن هناك أرواحا شريرة تريد أن تفتك به. ومن هذا وذاك نشأ اعتقاده بوجود آلهة مختلفة بعضها للخير وبعضها للشر. بعضها من ظواهر الطبيعة وبعضها من حيوانات الأرض..ثم ظل علمه بالأشياء يزداد وفكرته عن الإله ترتقي حتى وصل آخر الأمر إلى عقيدة التوحيد. وكانت

[1] – انظر فصل "الطاقة البشرية المحايدة".

تلك مرتبة عالية في الفكر البشري. ولكنها هي الأخرى استنفدت أغراضها وأخلت مكانه للمعرفة الواقعية والعلم الصحيح.

ذلك حديث أوروبا عن الدين. بضاعة أرضية بحتة من صنع الإنسان، ترتقي معه، وتتطور بتطوره. ولكنه ليس كما يفهم المسلمون حقيقة علوية قائمة بذاتها، ظل الإنسان ينهل منها بحسب طاقته واستعداده، حتى وصل على يد الرسل إلى أوضح فهم لها في عقيدة التوحيد.

ولنترك عقيدة المسلمين في الله لحظة، ولنتجرد من كل قداسة الدين لنواجه هذه "الحقيقة العلمية" بلا ستار!

الضعف والجهل هما أساس العقيدة..

فماذا نال الإنسان من القوة ومن العلم ليستغني عن العقيدة في القرن العشرين؟

فجّر الذرة واكتشف الأفلاك؟ ركب الطائرة الصاروخية؟ صار يسمع ويرى ما يحدث على بعد مئات الألوف من الأميال؟ صار يستخدم الإشعاع الذري في تشويه صنع الله في الطبيعة والأحياء؟

نعم. ولكن ذلك لم يكن مشكله الأول. بل جاء ذلك كله في الطريق وهو يبحث في مشكله الأول!

(وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)!

تلك قصة الشيطان مع آدم. وقد استزله بهذا الإغراء العنيف الذي لم يطق الوقوف إزاءه. أن يكون ملكا يعرف كل شيء. أو يكون من الخالدين.

المعرفة والخلود.. هما مشكلة الإنسان الأول. فكيف يقف منهما اليوم الإنسان الأخير؟

ماذا وصل في طريق المعرفة؟ وماذا حقق في طريق الخلود؟!

العلم! هذا الساحر الكاذب الذي يبهر العيون. أو هذا المارد الجبار كما تراه أوروبا في غمرة السحر.. ماذا كشف من حقائق الأشياء؟ إنه ما زال مشغولا "بظواهر" الأشياء لا يجرؤ على تفسير "كنهها"، لأنه اضطر كارها أن يترك كنهها لما وراء الطبيعة! إنه يتحدث

عن "أثر" الكهرباء ولكنه لا يقول "ما هي" الكهرباء. وقد تحدث كثيرا عن قوانين الطبيعة. وقال إن الأشياء تتصرف على نحو معين في ظروف معينة، ولكنه لم يستطع أن يقول لم تتصرف بهذه الطريقة، ولماذا لم يكن تصرفها في تلك الظروف على نحو آخر. ما زال "السر" الذي استغلق على الإنسان الأول مستغلقا على الإنسان الأخير، على الرغم من كل الظواهر التي اكتشفها وعرف قوانينها.

والغيب المجهول؟ ماذا صنع فيه العلم؟ **(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)**.

هل كشف العلم عن الغيب؟ هل يستطيع عالم مهما بلغ من علمه أن يعرف ماذا يكسب غدا؟ بل هل يستطيع أن يعلم غيب اللحظة القادمة القريبة الماثلة على الأبواب؟ اللحظة التي لا يكاد يفصلها عنه زمن، ومع ذلك تفصلها عن "علمه" الآماد والآباد؟!

والخلود؟ كيف صنع فيه؟ رد الحياة إلى القلوب الميتة، فعاشت بعد موتها الظاهري دقائق أو ساعات أو سنوات؟ ليست هذه هي مشكلة الإنسانية! المشكلة هي الخلود.. الخلود الذي لا ينتهي أبدا ولا يموت الإنسان منه أبدا! فكم وصل العلم يا ترى لهذا الخلود؟

تلك مشاكل الإنسانية الأولى التي ألجأتها إلى الدين والعقيدة في الله. أليس كذلك؟

نقول بلى توفيراً للجدل والنقاش! فماذا تم فيها لتستغني عن الدين والعقيدة؟

إن العلم سلاح جبار دون شك. وهو أحد وسائل البشرية للمعرفة. ولكنها الخرافة العظمى التي يعيش فيها هذا الجيل من البشرية، هي التي تخيّل إليهم أنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة، وأن كل ما عداه خرافة ساقطة من الحساب.

ما أصدق العالم الفلكي المعاصر جيمس جينز وهو يقول بعد دراسة علمية استمرت نصف قرن:

"إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله"!

وما أصدق سومرست موم وهو يقول "إن أوروبا قد نبذت اليوم إلهها وآمنت بإله جديد هو العلم. ولكن العلم كائن متقلب، فهو ينفي اليوم ما أثبته بالأمس، ويثبت غداً ما نفاه اليوم، ولذلك تجد عبّاده في قلق دائم لا يستقرون"!

* * *

تلك قصة العلم في الطبيعة والكيمياء والفلك وعلم الأحياء.

أما قصته في تنظيم المجتمع، والاستغناء بهذا التنظيم عن العقيدة، فلا تقل قصوراً عن القصة الأولى!

إن أوروبا نظمت المجتمع. تلك حقيقة كبرى لا سبيل إلى إنكارها.

ومع ذلك فإننا نلاحظ هنا ملاحظتين:

إن أوروبا في سبيل هذا التنظيم قد جففت منابع الإنسانية في نفوس البشر، وحولتها إلى قوالب جافة قد تكون مفيدة ولكنها ليست حية. كالكيمياء الجاهزة. كالفيتامينات التي تتناولها في أقراص ولكن جسمك لا يفيد منها كما يفيد من الغذاء الحي الذي تهضمه وتمثله و"تتعامل" معه.

إن هذا الإنجليزي السائر في الطريق ليبادرك بقولة (أنا آسف!) إذا همت كتفه من بعيد أن تمس كتفك. جميل. ولكنه لا يتعاطف معك. لا يقف ويعطل نفسه عن عمله ليحل لك مشكلة من مشكلاتك، إلا أن يكون هذا جزءاً من عمله الرسمي كرجل البوليس! أو طمعاً في زيادة حصيلة الدولة من نقودك إذا كنت من السواح! وفوق كل شيء لا يمكن أن يتحمل من أجلك خسارة مادية! إنه يتقبل طائعاً أن تأخذ الدولة فضول أمواله في صورة ضرائب أو استقطاعات، لتردها على الفقراء في صورة خدمات. ولكنه لا يعطف على هؤلاء الفقراء. لا يعرفهم بأعيانهم، ولا يحب أن يعرفهم أو يعنّي نفسه بهمومهم. يكفي أنه أدى واجبه الرسمي نحوهم دون تذمر، أو على الأقل دون إبداء لهذا التذمر!

والحياة على هذا النحو قد تكون أروح في ظاهرها. ولكنها تقطع الصلات بين البشر، وتجعل كل إنسان جزيرة وحده، لا تتصل بغيرها من الجزر في الخضم العريض. وإن الله لم يخلق الناس ليعيشوا على هذا النحو. لم يخلقهم ليتعاونوا بقوة القانون وهم في دخيلة أنفسهم متكارهون متنافرون، أو على الأقل مقطوعو الصلة غير متعارفين. فالله يقول: (**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**). وهو يريد أن تقوم العلاقة بينهم على الحب الحي الذي ينفذ إلى القلوب فيلين جفافها، ويربطها بعضها ببعض.

والأمر الثاني: أن العقيدة لا تمنع التنظيم الاجتماعي على أسس علمية!

وقد قام الفصل بين الدين والدولة، وبين الدين والعلم في أوروبا لملابسات خاصة هناك. فقد اضطرت المسيحية أن تدع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، فينفصل الدين عن الدولة،

ويختص الدين بتهذيب المشاعر وتنظيف النفوس، ويترك الدولة تضع التشريعات اللازمة للحياة اليومية أو "الواقعية" كما يسميها الأوروبيون، بسبب نشأتها في ركن صغير من الدولة الرومانية لا قبل له —يومذاك– بمحاربة تلك الدولة الغائلة والاستقلال عن سلطانها، ثم إن موقف الكنيسة الأوروبية من العلم، وتحريقها العلماء وتعذيبها للذين جرءوا على نشر بعض الحقائق العلمية من أمثال كوبرنيكوس وجاليليو، هو الذي فصل بين الدين والعلم، بل أقام بينهما عداوة لا يطفئها مرور السنوات.

ولم يحدث هذا وذاك في الإسلام.

فالدين والدولة في الإسلام شيء واحد. كان الرسول عليه الصلاة والسلام نبيا ورئيساً للدولة في ذات الوقت. ثم كان خلفاؤه رؤساء للدولة وقائمين على الدين في آن واحد. والقرآن —وهو دستور الحكم الإسلامي– يشتمل على الجانبين معا: جانب التشريع وجانب التهذيب. ويشتمل عليهما ممتزجين لا ينفصل أحدهما عن الآخر. ما من تشريع في القرآن كله قد خلا من توجيه القلب لله وتذكيره بسلطانه وعزته، أو رحمته ومغفرته: حسبنما يقتضي السياق.

ولم يفهم الرسول وخلفاؤه من بعده أن العقيدة عواطف ووجدانات فحسب، منفصلة عن الملابسات اليومية والتشريعات الاجتماعية والاقتصادية. ولا فهموا أن تنظيم الملابسات اليومية يجوز أن يتم بمعزل عن العقيدة وعن الصلة الدائمة التي تربط بين الناس والله. لذلك كان الدين بروحه ونصوصه وتشريعاته وتوجيهاته، يحكم كل كبيرة وصغيرة في المجتمع. كان الحاكم يصدر الأمر أو القانون، ويضع السلطة اللازمة لتنفيذه على الوجه الأكمل، ثم يزاوج بين هذا وبين التهذيب الروحي والخلقي الذي يجعل إطاعة القوانين منبعثة من أعماق النفس، برغبة إيجابية في عمل الخير، بدل أن تكون إطاعة سلبية ينفذها الناس وهم كارهون أو خائفون.

والمزية الكبرى في هذه السياسة البارعة هي ربط القلوب بعضها ببعض في شعور إنساني كريم، وإزالة الجفوة التي تثيرها إطاعة القانون بغير وازع داخلي. ومزيتها كذلك ألا يقف الناس عند حدود القانون، بل يتطوعوا بمحض إرادتهم بأكثر مما طلب منهم. وتلك هي الوسيلة العملية لرفع المجتمع إلى الآفاق الإنسانية العليا. ذلك أن القانون دائما يضمن الحد الأدنى الذي لا تسير بدونه الحياة، ولكنه لا يستطيع أن يفرض الحد الأعلى الذي لا يقدر عليه كل إنسان، وإلا أصبح قانونا نظريا لا رصيد له من الواقع. وإنما يترك الحد الأعلى للتطوع النبيل يحاوله كل إنسان على قدر طاقته **(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)** و**(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)**.

وهكذا نجد أن التنظيم العلمي لشئون المجتمع داخل بأجمعه في نطاق العقيدة، ولكنه حين يترك وحده لا يقوم مقامها في شد البنيان وربط لبناته بعضها ببعض. وإن موقف العلم هنا لشبيه بموقفه هناك في العلوم البحتة، يبحث الظواهر ويرتبها، ولكنه لا ينفذ إلى القلوب وجواهر الأشياء!

* * *

والمسألة الخلقية...

إن الناس يقبلون الخضوع للدولة في الشئون الاقتصادية والاجتماعية، لأنهم قد يصلون لدرجة من الوعي يستطيعون معها إدراك هذه الحقيقة: وهي أنهم حين يتنازلون عن بعض امتيازاتهم في هذه الشئون للمحرومين منها فإن ذلك سيعود عليهم بالخير في النهاية. أو على الأقل يخضعون لها بحكم السلطة التي تملك بها إخضاعهم لأوامرها. ولكن الشأن يختلف في المسألة الخلقية. فالناس لا يتنازلون عن متاعهم ولذائذهم من أجل الدولة وحدها. وقد يدرك الفلاسفة والمشتغلون بالقضايا الفكرية أن التحلل الخلقي شر على الإنسانية يعود عليها بالبوار، ويبدد طاقتها في محيط حيواني هابط، فلا تتطلع إلى الارتفاع، ولا تجد الطاقة اللازمة له، لو اتجهت إليه. ولكن غمار الناس لن يدركوا ذلك، لأنه قد لا يقع في جيلهم. فقد تظل الأمة سليمة –من الظاهر– جيلا أو جيلين أو ثلاثة، بينما التحلل الخلقي يسري في كيانها خفيا كالسوس. فيتعذر على الشخص العادي، أو الشخص المنجرف بطبعه وراء اللذات، أن يصدق أن تحلله هو –وهو فرد واحد– أو أن الجريمة العابرة التي يرتكبها خلسة في الظلام، يمكن أن تؤثر في خط سير المجتمع وتؤدي إلى انهياره. وحتى إذا صدّق بذهنه، فإنه –بغير تهذيب ديني– لا يستطيع أن يمتنع عن اللذة العارمة التي يحسها من أجل خطر لا يرى أنه سيقع عليه مباشرة، حتى إذا وقع في نفس الجيل.

فإذا فرضنا أن الدولة من عندها –أي بالقوانين الأرضية وحدها– تعاقب على الجرائم الخلقية حين تضبطها، فهي لن تستطيع أن ترى كل جريمة، ولا أن تتعقب كل مجرم. وسيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثبات ولا عقاب. ومع ذلك فهذا فرض نظري في الوقت الحاضر، فدول الغرب "المتحضر" كلها لا تكاد تعاقب على هذه الجرائم إلا حين تقع كرها أو على القاصرين!

وإنما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخلقية إلى الارتباط بالله. وذلك وحده هو الضمان.

الارتباط بالله هو الذي يهذب النفس فلا تندفع وراء الجريمة.

وهو الذي يقيم أهدافا أعلى من أهداف الأرض تستنفد الطاقة الجسدية والنفسية الفائضة فتصرفها عن عالم الشهوات.

وهو الذي يقيم في داخل النفس حسيبا يراقب كل عمل لا تصل إليه يد القانون ولا تبصره عين الدولة.

وهو الذي يعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التي يتركها في الأرض، أملا في النعيم الدائم في السماء.

وهو الذي يحدث في نهاية الأمر رهبة من الجريمة أقوى من رهبة الدولة والقانون.

وبهذه العوامل كلها مجتمعة وممتزجة في العقيدة، يمتنع الناس عن ارتكاب الجريمة. فإذا أضيف إلى ذلك أن تكون القيود التي تفرضها العقيدة معقولة في ذاتها لا تحرم إلا المتاع الزائد عن الحد، ولا تكبت الشهوات من منبتها، فقد استوت لها العدالة مع القدرة على التهذيب. وذلك ما يتحقق في العقيدة الإسلامية التي تعترف بالشهوات على أنها الأمر الواقع بالنسبة للبشر: (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**..) ولكنها فقط تهذب التنفيذ العملي لهذه الشهوات، فتقف بها عند الحد الذي لا يؤذي الفرد ولا المجتمع، ويتيح في الوقت ذاته قسطا معقولا من المتاع.

* * *

والمسألة الإنسانية...

لقد أفلحت النظم الأوروبية في حدودها الإقليمية الضيقة، حيث يمكن أن يسود القانون الذي وضعته الدولة وجعلت تهذيب الناس في حدوده ولكنها لم تفلح قط على أساس إنساني واسع يشمل أكثر من إقليم. وإنما حلت محلها فيما بين إقليم وإقليم روح الكراهية والبغضاء والصراع، وهي النتاج الطبيعي لهذا اللون من "التهذيب"! وكانت النتيجة هي الحروب المستمرة، آخرها هاتان الحربان العالميتان في ربع قرن، والثالثة على الأبواب.

وحتى الشيوعية التي زعمت أنها قائمة على أسس عالمية لم تستطع أن تحل هذه المشكلة. لأنها قامت على أساس الاقتصاد والمادة، ونفرت من العقيدة في الله وسخرت منها. ثم أباحتها —حين أباحتها– على أنها هواية شخصية لبعض الناس لم يفلح في القضاء عليها الوعظ والإلحاد!

لذلك لم تستطع روسيا في مبدأ الأمر أن تحس بالأخوة الحقيقية في الإنسانية نحو العرب المسلمين في فلسطين، وساعدت عليهم اليهود، لأنها في ذلك الحين كانت تطمع أن تكون الدولة اليهودية قدما شيوعية لها في الشرق الأوسط. فلما يئست من ذلك عادت فاضطهدت اليهود، مما كشف عنه مالنكوف بعد وفاة ستالين. وكذلك لم تستطع أن تغفر لبولندا والمجر رغبتهما في التحرر من التبعية لروسيا، ولم يشفع لهما انهما شيوعيتان تهتديان بهدى الشيوعية، فراحت تقتل منهما مئات الألوف.

كلا! إن الأخوة الإنسانية شيء لم يكن الوصول إليه أبدا بغير عقيدة في الله.

يستطيع الناس أن يلتقوا في لغة، أو وطن، أو جنس، أو لون، أو مصلحة قريبة، دون أن يحسوا حاجة مباشرة إلى العقيدة في هذا اللقاء. ولكنهم حيث تختلف اللغة أو الوطن أو الجنس أو اللون أو المصلحة القريبة لا يستطيعون –بغير عقيدة– أن يلتقوا إلا على الحرب والنزاع.

بينما استطاع الإسلام –وحده في تاريخ الأرض– أن يضرب مثلا إنسانية عليا استمدها من شعوره العميق بوحدة الإنسانية، المستمد بدوره من العقيدة في الله: (**اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**). و(**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**). فعامل البلاد المفتوحة التي لم تعتنق دين ولا لغته معاملة إنسانية كريمة شهد بها المؤرخون غير المسلمين على أنها حادث فذ في تاريخ البشرية[1]. وعامل أعداءه الصليبيين –حتى وهم يحاربونه على العقيدة– معاملة مثالية لم يقدر عليها شعب آخر ولا دولة ممن يعيشون في واقع الأرض الضيق، ولا يربطون عواطفهم ووجدانهم بالله خالق الحياة والأحياء.

* * *

ويضرب الناس في الأرض مضارب شتى.. فينشأ الصراع.

صراع في عالم العواطف. وصراع في عالم المادة. وصراع في عالم السياسة وصراع في عالم الاقتصاد.

صراع مع الزميل في العمل. أو مع الرئيس والمرءوس. أو مع الزوج والأقارب والأصدقاء.

---

[1] – انظر كتاب ت. و. أرنولد "الدعوة إلى الإسلام" ص51-53-54 ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين.

صراع مع الرغبات الواعية أو المكبوتة. صراع مع الشهوات الجامحة. صراع مع نظريات الفكر المتعارضة. صراع مع المرض. صراع مع العجز البشري والرغبة في التغلب عليه.

فمن يسند الناس في هذا الصراع ويكسر من حدته حين يزيد عن الحد المعقول؟

الدولة؟ المجتمع؟ القانون؟ القوة العضلية؟ التنظيم الاقتصادي الذي تحاوله الشيوعية؟

نعم! كل أولئك يسندون في هذا الصراع الجبار. ولكن إلى أمد محدود. يبقى بعد ذلك من ألوان الصراع ما لا تستطيع كل قوى الأرض أن تسند فيه. لأنه أكبر من كل قوى الأرض، أو لأنه من طبيعة أخرى غير ما تستطيع كل قوى الأرض أن تتدخل فيه.

عندئذ من يسند الناس وهم يصارعون؟ من غير القوة الكبرى الخالدة التي خلقت الأرض والسماء، وهي تتصرف في شئون الأرض والسماء؟ لمن يلجأ الناس في صراعهم غير هذه القوة التي تنتهي عندها جميع القوى، ويقف الكل عندها صاغرين؟

ولقد قطع الناس في الغرب صلتهم بهذه القوة العظمى، وجعلوا كل همهم في الأرض، وكل اتكالهم على أنفسهم في الصراع الجبار. ونشأ من ذلك تعمير الأرض، ونشاط الناس فيها، وسعيهم الحثيث لإصلاح أحوالها والاستمتاع بطيباتها إلى أبعد حد مستطاع.

وذلك كسب لا شك فيه.

ثم نشأ من ذلك أيضاً سعي الشعوب بنفسها لإقامة العدل في الأرض، لأنها لا تنتظر عون السماء ولا تتكل عليه.

وذلك كسب آخر.

ولكن هذا الوجه المشرق الذي يفتن السذج والبسطاء فيدعون إلى الاستغناء عن العقيدة، بل إلى التخلص منها رجاء التقدم والعمل المنتج.. هذا الوجه المشرق ليس الوجه الوحيد للمسألة. هناك وجه آخر كالح كئيب. هنالك البشرية التي لا تعرف السلام أبداً ولا تهدأ ولا تستريح هناك القلق الدائم الذي لا ينتهي، والاضطراب النفسي والعصبي الذي يؤدي إلى أمراض ضغط الدم والهستريا والجنون والجريمة. وهناك الحروب المدمرة التي تفسد الأعصاب والنفوس، وتتلف في لحظات ما عمرته البشرية في قرون!

وهذا الوجه نتيجة ملازمة لذاك. لا يوجد الأول دون أن يوجد الأخير.

وفي العقيدة الإسلامية لا يمتنع الناس عن تعمير الأرض وعن إقامة العدل فيها. ولكنهم يقتصدون في الصراع لأنهم يستندون إلى القوة الكبرى التي تسيّر الحياة والأحياء. وينظفون وسائله حين لا يكون بد من الصراع.

وفترة صدر الإسلام خير شاهد على هذه الحقيقة. فإن النشاط الذي قام به المسلمون الأوائل في سنوات معدودة، في السياسة والاقتصاد والاجتماع وعالم الفكر وعالم الضمير ليعد معجزة في تاريخ البشرية. ومع ذلك كانت الحياة الإسلامية في مجموعها أنظف صورة للحياة البشرية على سطح الأرض.

وهكذا نجد أن العقيدة لا تتعارض مع الأهداف التي وصلت إليها أوروبا بمعزل عن العقيدة. وإنما تضيف إليها العنصر الذي ينقص القوم هناك في معاملاتهم كلها.. عنصر الإنسانية!

* * *

وتقع المظالم في الأرض فلا ترفعها العدالة الأرضية المحدودة...

وهل تستطيع عدالة الأرض مهما سمت، ومهما اتسعت آفاقها أن تزيل كل مظالم الأحياء؟

كان الرسول يقول: "**إنما أنا بشر، وإنكم لتختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألْحَنَ بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من النار**"!

ذلك وهو رسول والوحي ينزل عليه، فكيف بالبشر المحجوبة بصائرهم عن غيب الله وغيب النفوس؟

هذا في المظالم الفردية. أما في المظالم الجماعية، فليس في الأرض نظام –مهما كان من عدالته– يمكن أن يكون عادلا لجميع البشر وفي جميع الحالات، على الأقل لأن تطبيقه في يد البشر المعرضين دائماً للخطأ والانحراف. وحسب أي نظام أن يسعى إلى العدالة لأكبر مجموعة من الأمة.. أما كلها.. فليس في وسع البشر أن يحققوا ذلك على الأرض!

فكيف يكون حين يفقد الناس ثقتهم باليوم الآخر، وبعدالة الله المطلقة تعوضهم في ذلك اليوم عن ظلم الأرض وتنتقم لهم من الظالمين؟

ليس التواكل.. وليس تخدير الشعوب لتسكت عن حقوقها المسلوبة![1].

كلا! لا نقصد إلى شيء من ذلك. ولا يرضى الإسلام بهذا المنكر الخطير.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ... فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً)... "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يغيروا عليه أوشك الله أن يعمهم بعقاب".

ليس السكوت عن الظلم هو ما يقصد إليه الإسلام.

ولكنها المظالم التي لا تدركها عدالة الأرض ولو قصدت إلى ذلك واتخذت إليه كل سبيل. وألوان الحرمان التي لا تملك الدولة ولا المجتمع أن تزيلها: الضعيف المحروم من القوة. المريض المحروم من الشفاء. الطموح المحروم من المواهب. الفتاة العاطلة من الجمال. الأم المحرومة من الأبناء..

فكيف يعيش المظلومون وهم لا يرجون ثواب الآخرة ولا يثقون في عدالة الله؟ وكيف يعيش المحرومون وهم لا يأملون في عطاء الله السابغ، وتعويضه الكريم لهم عن الحرمان الذي صبروا عليه؟

هل يمكن أن تكون حياتهم سوى أحقاد مريضة وشقاء مرير؟ أو جرائم يضطرب لها وجه الأرض؟

وهل يملك "العلم" لهم من علاج إلا العقيدة التي تبعث في نفوسهم الأمل وتطلق في ظلماتهم شعاعا من النور؟!

* * *

وتفسد الأمور في الأرض، من ظلم الحكام واستهتارهم، وجهالة الشعوب واستكانتها، أو من استغراق الناس في شهوات تستعبدهم لأنفسهم ولغيرهم.. فيقوم المصلحون ينشدون الإصلاح. وتدفعهم إلى ذلك دوافع شتى.

فريق يؤمن بالله واليوم الآخر، وفريق لا يؤمن إلا بواقع الأرض المحدود.

---

[1] – انظر فصل "الدين أفيون الشعب" في كتاب "شبهات حول الإسلام".

ولسنا نعتقد أن هذا الفريق الأخير خلو من الشعور الإنساني، ومن الإحساس النبيل بآلام البشرية. ولكن أحاسيسهم الشخصية تغلب عليهم. بعضهم يحب البروز إلى حيث تسلط عليه الأنوار. وبعضهم يحقد على الأوضاع الظالمة التي حاولت إيذاءه أو تحطيمه. ومن كلا الشعورين يمكن أن تنبع رغبة حقيقية في الإصلاح، ولكنها موقوتة بدوافعها أو متأثرة بانحرافاتها.

فالذي يصلح لكي يبرز، يحس أن مهمته قد انتهت في اللحظة التي تهتف باسمه الجماهير وتحمله على الأعناق. وتستعبده شهوة البروز فيسعى أحيانا إلى استرضاء الجماهير على حساب الإصلاح الحق! والناس يستفيدون في الطريق. ولكنها فائدة محدودة، لا ترتفع بهم كثيراً إلى حيث ينبغي أن يكون الإنسان الكريم. والمهرجون السياسيون كثير في التاريخ.. وهم مثال لما نقول!

والذي يحقد على الأوضاع الظالمة يعمل برغبة حقيقية لتحطيم هذه الأوضاع، ويشعر بلذة حقيقية في مكافحة الظلم والصمود له وتحمل العذاب في سبيل القضاء عليه.

ولكن الحقد شعور منحرف. ولا يمكن أن يؤدي إلى فلسفة سليمة ولا نظام صحيح. وأبرز مثال لذلك الشيوعية. فهي رغبة مخلصة في الإصلاح، ولكنها تجمع كل أحقاد البشرية وتجعلها وقودا للكفاح وأساسا للنظام! فالحقد الطبقي يتمثل في "إزالة" جميع الطبقات وإبقاء طبقة واحدة تعمل بالعنف وتحكم بالدكتاتورية (وهم يعترفون بذلك علانية إذ يسمون حكمهم "دكتاتورية البروليتاريا"). والحقد على الملاك يتمثل في نزع الملكية الفردية جميعا وحرمان الجميع من الملكية، والحقد على الممتازين يتمثل في التسوية بين جميع الناس موهوبهم وعاطلهم —في الأساس الفلسفي على الأقل وإن كانوا قد اضطروا إلى ألوان من التمييز عند التطبيق. والذي يجذب الشيوعيين إلى الشيوعية في كل أقطار الأرض ليس هو حب الخير للبشرية بقدر ما هو الحقد العنيف من المحرومين على الواجدين. وبصرف النظر عن المبررات الكثيرة لهذا الحقد، فإن أثره لا يخفى في بنية النظام القائم على أساسه. فهذه الدكتاتورية التي تتحكم في كل شأن من شئون كل فرد بحجة استتباب النظام، وبحجة أن الدولة أدرى من الناس بمصالحهم ومواهبهم وميولهم، فهي تعيّن لهم أعمالهم، وتحدد لهم المكان الذي يعملون فيه، وهي تصنع لهم أفكارهم ومشاعرهم... هذه الدكتاتورية التي لا يخفف من انحرافها أن تسمى دكتاتورية الطبقة العاملة، ليست نظاما طبيعيا يمكن أن تحكم به الإنسانية الراقية إلى الأبد، ولا حتى مدى أجيال. وذلك فضلا عن نضوبها الروحي وتحديدها مجال الإنسان بالواقع الصغير الذي تدركه الحواس فحسب، وحصرها مطالبه في الغذاء والمسكن والجنس.. أي في مطالب الحيوان.

تلك دوافع الذين "يصلحون" دون إيمان حقيقي بالله وباليوم الآخر. وذلك مدى ما فيها من خير في نهاية المطاف.

ولكن الإصلاح الحق يحتاج إلى الحب الصادق العميق. الحب لمن تريد أن تصلحهم ولو لم يتبعوك على الفور ويصفقوا لكلماتك. الحب للطغاة أن يهتدوا وللمظلومين أن يرتفع عنهم الظلم. الحب للناس أن يكون العدل ملكهم جميعا كأنه ملك كل واحد بمفرده، والخير ملكهم جميعا كأنه ملك كل واحد بمفرده! الحب للبشرية أن تقوم علاقتها على التعاون والود، لا على الصراع والبغضاء.

وعلى قدر الإخلاص في هذا الحب، وتحمل المشقات في سبيله، ومصارعة الشر من أجله وليس حقداً على الشر فحسب، يكون نجاح الدعوة، وتكون فائدة البشرية.

ولذلك كان الأنبياء أعظم قادة البشرية، وكانت رسالاتهم أعمق الرسالات تأثيراً في النفوس.

ويتلوهم من سار في طريقهم، واحتمل قبسة من إيمانهم المخلص العميق.

ولن يستطيع ذلك شخص لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

فحين نسقط من حسابنا دوافع البروز الشخصي أو الحقد الشخصي، فما الذي يمكن أن يدفع للإصلاح؟ لمن يتحمل الإنسان المصاعب وهو لا يرجو بها نفعاً قريباً ولا يطفئ بها غلة؟ وما الذي يغريه على احتمال العذاب حين يتنكر له حتى أولئك الذين يدعو من أجلهم ويحتمل العذاب؟ أو من يغريه بدعوة يعلم علم اليقين أنها لن تؤتي ثمارها في الجيل الذي يعيش فيه؟

هل يمكن أن يدفعه إلى ذلك شيء غير الحب الخالص لله، وابتغاء مرضاته والإيمان بحسن الجزاء عنده للمحسنين؟

وتلك –وحدها– هي الدعوات التي يغلب فيها الخير على الشر، وتصمد لكثير من انحرافات البشرية!

* * *

ومن الناس من يريد عقيدة بلا تكاليف.

عقيدة سلبية كامنة في داخل الضمير، لا أثر لها في واقع الحياة.

فما قيمة هذه العقيدة؟ وكم تكسب الإنسانية من اعتناقها؟

يقولون لك تارة إن "العلم".. علم النفس، يكره القيود التي تفرضها العقيدة على السلوك، ويعدها كوابت للنشاط الحيوي.

ويقولون تارة "إن ربك رب قلوب" وما دام الضمير نظيفاً من الداخل، فقد تحقق الهدف المطلوب من وراء العبادة، وإذن فلا ضرورة لتأدية العبادة!

وهذه وتلك دعاوى براقة تفتن بعض الناس.. على الأقل أولئك الذين يتشبثون بها ليبرروا مسلكهم!

أما العلم النفسي فقد بحثنا شأنه بالتفصيل في غير هذا الكتاب، ورأينا أن العقيدة الإسلامية لا تكبت النشاط البشري، وإنما تساير الفطرة أجمل المسايرة لتخلص منها بأفضل النتائج الممكنة في عالم الإنسان[1].

ومن هذه المسايرة للفطرة كذلك كانت التكاليف في العقيدة الإسلامية!

فالإسلام لا يأخذ الكائن البشري أجزاء وتفاريق. لا يأخذ روحه ويترك جسمه وعقله. لا يأخذ عالمه النظري ويترك عالم الواقع. لا يأخذ ضميره ويترك سلوكه. لا يتركه حالة مبهمة لا تفصح عن الطريق.

والحياة البشرية في واقع الأرض لا تكتفي بالنوايا الطيبة، ولا تستغني بها عن التطبيق.

فلنفرض أن شخصاً يؤمن بما يسمونه "الديمقراطية" ثم لم يشأ أن يشترك في انتخاب، ولم يهتم بتفضيل مرشح على مرشح، ولا حكومة على حكومة، فما مكسب الديمقراطية منه، وما مكسبه هو من الديمقراطية؟

ولنفرض أن شخصاً يؤمن بالشيوعية، ثم لم يجعل في باله أن يقاتل في سبيلها أو يحتمل السجن والعسف والتشريد، ولم يشترك في اجتماع ولم يقرأ كتاباً ولم ينفذ التعليمات الصادرة

[1] – انظر كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" فصل "نظرة الإسلام" وكتاب "منهج التربية الإسلامية".

إليه في النشرات. فكم يكسب منه "المذهب" وكيف يستطيع هو وأمثاله أن ينشئوا نظاماً ويدفعوا عنه؟

وكذلك كل عقيدة..

هؤلاء المؤمنون السلبيون الذين يعتقدون أنهم وصلوا إلى لب العقيدة وتركوا قشورها.. مخدوعون يخادعون أنفسهم. إنهم يؤمنون في "السلم". يؤمنون طالما كانت العقيدة لا تكلفهم شيئاً ولا تعرضهم لخطر. إيمان الراحة والترف والاسترخاء. أما حين يتعرضون للتكاليف، في الأنفس أو الأموال. أو في الجهد والمشقة. أو في الحرمان من بعض اللذائذ.. فسرعان ما يضيقون بهذا التكاليف. وينزوون بأنفسهم عن ميدان الصراع.

ذلك أنهم لم يعوّدوا أنفسهم على احتمال التكاليف. لم يشاءوا أن يتعودوا التكاليف البسيطة التي تؤهلهم لما هو أكبر.

رفضوا أن يقيدوا أنفسهم بمواعيد محددة وأعمال بسيطة يؤدون بها الصلاة، ورفضوا أن يمنعوا أنفسهم عن بعض الملذات ساعات معدودة أثناء الصيام. فلا يمكن أن ينقلبوا في لحظة واحدة قادرين على التكاليف الكبرى التي تلزم لكل عقيدة. إنهم كالجندي الذي يذهب إلى الميدان بغير تدريب. أقرب شيء إليه أن يفر من الميدان لا أن يصبر على الصراع.

والحياة عادة..

فالذي يتعود على أن يترك نفسه على سجيتها إباء لها عن تحمل المشقة، أو اطمئنانا خادعا إلى أنه يستطيع حين يريد أن يجند نفسه بغير تدريب سابق.. ذلك لن يستطيع شيئاً في واقع الأمر.

وهل كان الشيوعيون يستطيعون أن يصمدوا كما صمدوا في ستالنجراد لو لم يكونوا قد دربوا من قبل تدريباً قاسياً على احتمال العذاب في الثلوج الباردة والشمس الحارقة والامتناع عن الطعام والشراب فترات طويلة؟

وليس الكفاح من أجل تقرير العقيدة أو الدفاع عن كيانها هو الكفاح الوحيد في الحياة. وإن كان هذا في حاجة إلى إعداد دائم تقوم به جميع الأجيال.

وإنما الحياة كلها كفاح...

والمعركة الكبرى ليست هي الحرب التي تستغرق لحظات من حياة البشرية، إنما هي الحياة ذاتها على الاتساع!

ولذلك فالتدريب ضرورة لازمة لكل فرد في كل جيل، ضرورة لازمة لهذا الفرد ذاته. وإلا فكيف يكون حال شخص لا يستطيع أن يمتنع عن شهوة أو يتحمل بتكليف، والحياة تلزم الناس رضوا أو كرهوا، بالامتناع عن كثير من الشهوات والتحمل بكثير من التكاليف؟

والإسلام عقيدة حياة..

عقيدة الحياة الشاملة للنشاط كله ولجميع الأهداف.

ومن ثم كانت عباداته منظوراً فيها إلى التدريب بمعناه الواسع. التدريب على الحياة. وذلك فضلا على ربط القلوب بالله، وهو كما رأينا الضمان الأكبر لنظافة الحياة.

ومن ثم كذلك اتسع معنى العبادة في الإسلام حتى شمل كل عمل يأتيه الإنسان وهو متوجه به إلى الله[1].

* * *

ويقولون لك إن كثيراً ممن يقومون بتكاليف العقيدة بل يتنطعون فيها، هم في حياتهم الخاصة من الفساق الذين لا ذمة لهم ولا ضمير، أو من الجبناء الذي يهربون من الكفاح، أو من الذين يقول القرآن فيهم: (**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ**).. أي حياة!

نعم! ذلك حق!

فكثير من الناس منافقون ومخادعون، وكثير منهم منحرفون عن سواء السبيل. لا تؤتي التربية في نفوسهم ثمارها المنظورة.

ولكن هل يعني ذلك أن نلغي العقيدة من حياتنا، أو نلغي تكاليفها الظاهرة ونكتفي بها كامنة في الضمير؟!

[1] – انظر فصل "العبادات الإسلامية".

كلا! فالمنافقون في كل مكان على الأرض. في كل مذهب وكل فكرة. في الشيوعية والديمقراطية والملكية والجمهورية! ومع ذلك لا نلغي الأفكار والمذاهب من أجل أولئك المنافقين والمنحرفين وهم الكثرة الغالبة في البشرية!

وكذلك لا نلغي العقيدة أو نهمل مراسمها وتكاليفها من أجل المنحرفين والمنافقين! وإنما يظل بابها مفتوحاً لكل فرد في كل جيل، ليطّهّر، ويرتفع، ويرفع معه من يستطيع من أفراد البشرية.

ولا ضير على البشرية من الملايين الزائغة حين يهتدي المئات والألوف. فهؤلاء هم الذين يكافحون حقاً، ثم يمسكون في أيديهم الزمام!

العلم وحيرة البشرية

قسم فرويد تاريخ البشرية إلى ثلاث مراحل، عصر الخرافة، وعصر التدين، وعصر العلم.

ثم حمد الله كثيراً، أو حمد الشيطان، على أننا تخلصنا من المرحلتين الأوليين إلى الأبد، ودخلنا المرحلة الثالثة التي يظللنا فيها العلم، وتتفتح لنا أضواء المعرفة فتنير لنا الطريق.

وحمد الله مثله أو حمد الشيطان مئات الملايين من الأحياء اليوم على ظهر الأرض في الغرب "المتحضر" والشرق "المتأخر" سواء. وانطلقوا ينسلخون من الدين، وينفلتون من ذلك القيد الذي قيدتهم به جهالة الأزمان الغابرة، ولم يعد يليق اليوم بكرامة العقل البشري الجبار أن يظل مقيداً به، وقد وصل إلى أسرار المعرفة، وحطم الذرة، وأطلق طاقتها لتحدث الفناء المدمر الرهيب!

وقد أشرت في كتاب "شبهات حول الإسلام" إلى الرواسب اللاشعورية التي رسبت في نفوس الأوروبيين من عهد اليونان القديمة، والتي كانت تمثل الحياة صراعاً جباراً بين الآلهة والعباقرة من البشر، يحاول الآلهة أن يكبتوا أولئك العباقرة، وهؤلاء يحاولون أن يغتصبوا من الآلهة أسباب القوة والمعرفة والنجاح. وقلت إن هذه الرواسب جعلت الأوروبيين يحسون أن الضعف –وحده– هو الذي يخضعهم لله، فإذا تقووا، إذا وصلوا إلى أسرار المعرفة، فلم يعد للإله كلمة عليهم وصاروا هم في نهاية المطاف آلهة!!

لذلك تطغيهم المعرفة، وتبعدهم عن طريق الله: **(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى)** بدلا من أن يهديهم المنطق السليم إلى القوة المعجزة وراء العلوم والأسرار. ولكن أوروبا إذ نبذت إلهها قد أصبحت كما قال سومرست موم في قلق دائم لا تستقر[1].

وليست حيرتها ناشئة من تقلب العلم بين النفي والإثبات كما أشار سومرست موم فحسب، بل إن تقدم العلوم ذاته قد أنشأ حيرة جديدة!

* * *

كان الناس في عهد الخرافة يفسرون الحياة كلها بمجاهيل.

[1] – أشرنا إلى قولته هذه في فصل "العلم والعقيدة".

البرق إله، والمطر إله، والظلام إله، والنور إله، وبعض الحيوانات المرهوبة آلهة، وبعض البشر المزوّدون بقوى خارقة آلهة أو متصلون بالآلهة يتلقون عنهم أسرار الحياة.

وكان الكون ذا طبيعة "تليباثية" على حد تعبير فرويد وبعض علماء الاجتماع، أي أن الإنسان كان يعتقد أنه حين يفكر في شيء أو شخص فإنه يتصل به مباشرة بصرف النظر عن الحواجز والأبعاد، وأنه إذا أراد أن يوصل إليه خيرا أو يلحقه بضرر فما عليه إلا أن ينوي ذلك، أو يقوم بحركات تمثل هذا الخير أو الشر، أو ترمز إليه، ثم يتوجه بها –في خاطره– إلى من يريد إيصالها إليه، فتصل بمجرد النية أو العزيمة. ومن هنا كان السحر، وكانت الرموز التي تستعمل فيه. فإذا اغتاظ إنسان من عدوه فليصنع دمية تمثله، ثم ليطعن الدمية بالسيف، فإن السيف لن يقتل الدمية وحدها، ولكن مفعوله السحري سيصل كذلك –في ذات الوقت– إلى العدو الأصيل. وإذا عبد إلها، وأراد أن يتقرب إليه بالقرابين، فليقم له تمثالا وليضع القرابين عنده، فإنها ستصل إلى الإله المرموز له بالصنم المعبود.

ثم ارتقى الناس في عهد التدين فعرفوا أن هناك إلها خالقا هو الذي خلق الناس والأشياء، وأن قوى الطبيعة ليست آلهة متعددة، وإنما هي مظاهر مختلفة لقوة الله الواحد، تخضع لمشيئته، وهو الذي يسيّرها وفق القانون الذي ارتضاه.

وكان العلم قمينا أن يستمر في تقدمه في ظل هذه العقيدة.

ولكن ظروفا محلية في أوروبا أفسدت العلاقة بين الدين والعلم، وأوجدت بينهما النفور والشقاق. ذلك حين تدخلت الكنيسة فيما لا يعنيها، وفرضت لنفسها رقابة على أفكار الناس وعقولهم. وقامت تحرق العلماء وتعذبهم حين يصلون إلى بعض نظريات العلم وحقائقه، كما حدث لكوبرنيكوس، وجاليليو، وغيرهما من العلماء.

عند ذلك نشأ جيل من العلماء يعادي الكنيسة، ويكره الدين، ويظن أن الحقائق العلمية تسير في خط مضاد للفكرة الدينية بحيث لا يمكن أن يوجدا معا في نفس الإنسان ولا في واقع الحياة. وأنه إما الدين وإما العلم. إما الدين في صورته البشعة التي تمثلها الكنيسة: تحرق وتعذب، وتفرض الإتاوات، وتلاحق الناس بالشر حيثما ذهبوا، وإما العلم الذي لا يخضع لسيطرة بشر، وليست له كذلك قيود يفرضها على البشر، وإنما هو يبحث ويجرب، ويحث الناس بما وصل إليه البحث والتجريب، ويهدف –فيما يهدف إليه– إلى منفعة الناس: يوفر عليهم الجهد البدني، ويقيهم المرض والأخطار.

ولم يكن ثمة مجال للتردد حين توضع المسألة على هذا النحو..

واختار الناس العلم ونبذوا الدين والكنيسة.. والله.

وزاد الأمر سوءاً أن هذه الأزمة الفكرية الروحية لم تكن قد هدأت بعد حين أضيفت إليها أزمة أخرى اجتماعية واقتصادية نشأت من الثورة الصناعية بعد اختراع الآلة.

لقد تحطم الإقطاع في غرب أوروبا ونشأت الرأسمالية. وكانت في بدء عهدها نوراً جديداً يبشر بالخير، ولكن سرعان ما تحولت إلى استغلال منكر يمتص دماء العمال ليزيد في الثراء الفاجر يتكدس في يد الرأسماليين. أما في شرق أوروبا فقد بقي الإقطاع في أبشع صورة وعاها له التاريخ.

وثارت الطبقة الكادحة في الشرق والغرب. فقام رجال الدين يهددونهم بغضل الله! غضب الله لأنهم يقاومون ظلماً ما أنزل الله به من سلطان..!

وكفر الناس... وحق لهم أن يكفروا. كفروا بكل القيم الأرضية والسماوية. كفروا بالدين والكنيسة فوق كفرهم السابق. وتطلعوا إلى الإله الجديد لعله ينقذهم مما هم فيه من هوان.

وأحس الأوروبيون أنهم دخلوا في مرحلة ثالثة من تاريخهم. هي مرحلة العلم.

* * *

ومضى العلم في طريقه قدماً يحقق ما يشبه المعجزات...

إن الناس ليفركون عيونهم من العجب في بادئ الأمر، ولا يكادون يصدقون. ولكن حقائق العلم لا تدع لهم سبيلا إلى التشكك. وكيف يتشككون وهم يرون أمامهم القطار والسيارة والآلة الضخمة.. ثم يرون الكهرباء تنير منازلهم وشوارعهم وتدير المصانع والآلات.. ثم يجدون الراديو يعمل بلا سلك والصور تنقل بالتليفزيون بعد أن كان التليفون البسيط من قبل معجزة لا تحتمل التصديق؟!

وقال لهم العلماء: هلم أيها الناس إلى الإله الجديد.. هلموا اتركوا خيالات الماضي المبهمة التي تحدثكم عن أمور لا تستطيع حواسكم أن تدركها، ولا يمكن أن تدخل في نطاق تجاربكم. هلموا اتركوا الدين الذي يفسر لكم الأشياء بإرادة الله —وهي لا تفسر شيئاً!– وتعالوا إلى العلم الذي يفسر لكم كل شيء بقوانين مفهومة يدركها العقل ويستطيع أن يتبين فيها الخطأ والصواب.

يحدثونكم عن الله الذي أنشأ كل شيء من العدم.. هل يمكن عقلا أن ينشأ شيء من لا شيء؟! إن الخلية الحية الأولى لم تنشأ من العدم.. والحياة التي دبت فيها إنما هي عملية كيميائية طبيعية تمت في ظروف تاريخية معينة لم تتكرر مرة أخرى. لماذا؟ أوه!! لا تهتموا بهذه الأسئلة التي لا مدلول لها في واقع الحياة واصرفوا نشاطكم فيما هو أفيد لكم وأنفع!!

ولقد ربطوا لكم بفكرة الله مجموعة من الخرافات التي لا تخضع لمنطق العلم: فحدثوكم عن النبوات والمعجزات. ما معنى أن "يُبعث" نبي؟ وما معنى أن ينزل عليه "وحي"؟ كيف يتم هذا الإيحاء؟ هل هذا معقول؟ إنها "تهيؤات" لا أكثر ولا أقل... وهذه المعجزات! لا يمكن! إن قوانين الطبيعة لا يمكن أن تخرق أبدا.. لا يمكن أن ينشق البحر. ولا.. ولا..

ويحدثونكم عن الروح. ما الروح؟ كيف تثبتون وجودها إثباتا علميا؟ ما الدور الذي تقوم به في واقع الأشياء؟ هل تجعل المواد تتمدد كما تصنع الحرارة، أو تتقلص كما تصنع البرودة؟ هل تنعكس على المرايا، أو الألواح الحساسة كالضوء والأشعة السينية وما إليها؟

ويحدثونكم عن العالم الآخر. ما هو؟ هل رأيتموه؟ هل يمكن أن يدخل في تصوركم؟ هل يمكن تصويره بالكاميرا؟ أو التحسس عليه بالرادار؟

خرافات... كلها خرافات أيها البشر.. لا تشغلوا بها عقولكم. ووجهوا تفكيركم إلى النشاط العملي الذي ينتج ويفيد!

* * *

ونصرف النظر مؤقتا عن أن هذه الملابسات المحلية وحدها هي التي أوجدت الفرقة بين الدين والعلم، وأنه لو أتيحت لأوروبا فكرة أخرى –كالفكرة الإسلامية– لا تعادي العلم والعلماء، ونظام اجتماعي واقتصادي عال –كالنظام الإسلامي– يحرم تركيز الأموال في يد فئة قليلة من الأمة، ويجعل الربح شركة بين العامل وصاحب العمل، ويكفل لكل فرد حياة نظيفة تتهيأ فيها المطالب الأساسية للإنسان، ويجعل الدولة مسئولة عن أقوات الناس وصحتهم وحرماتهم وكراماتهم...

لو أتيحت للناس في أوروبا هذه الفكرة وهذا النظام لأمكن أن يسير العلم سيرة سوية في ظلال العقيدة، لا يصادمها ولا يحتاج إلى معاداتها.

نصرف النظر عن ذلك مؤقتا، للسير مع العلم في خطواته الجبارة..

* * *

كانت قضية العلم الأولى أن ينقذ الناس من الغموض والإبهام الذي يصاحب العقائد! ينقذهم من المجاهيل التي لا تقبل التفسير. ويعطيهم "معلومات". معلومات ثابتة يقوم عليها البرهان المادي المحسوس.

وفي وسط الحيرة والفزع اللذين سادا أوروبا في القرون الوسطى، لأسباب مختلفة كانت الكنيسة واحدا منها، بدا للناس أن العلم مخلص حقيقي من الحيرة والاضطراب.

واطمأنوا إلى أنهم يقفون على أرض صلبة لا تهتز تحت أرجلهم. أرض العلم. أرض الأبحاث التجريبية التي لا تخطئ. ولا يمكن أن تخطئ.

وتنازلوا في سبيل هذه الطمأنينة عن حاجتهم البشرية الطبيعية إلى العقيدة، والاتصال بالله، والاستعانة بقوته في صراع الأرض الجبار. خاصة والله –كما صورته لهم الكنيسة– يبلبل أفكارهم بقضية التثليث، ولا يسعفهم في صراع الأرض لأن يقول لهم: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن أراد أن يأخذ رداءك فأعط له الثوب أيضاً".

ومضى العلم في خطواته المرسومة يفتح كل يوم عالما جديدا من المجهول. ووصل إلى ميادين لم يكن يتصور أحد أو يصدق أنه يستطيع أن يصل إليها. في أغوار السماء وأغوار الأرض.. وأغوار النفس البشرية.

وملأت البهرة والإعجاب قلوب الناس بهذا الإله الجديد الجبار... الإله المفهوم. الذي يمكن إدراكه بالحواس، وقياسه بالآلات، وحسابه بالأرقام!

ولكن الفرحة الغامرة لم تدم طويلا في نفوس الأوروبيين!

وجاء اليوم الذي ناقض العلم فيه نظرياته "الثابتة" التي لا تقبل الجدال.

كان كشف نيوتن لقوانين الجاذبية معجزة لا يفرق بينها وبين معجزات الأنبياء "الموهومة!" إلا أنها داخلة في نطاق المعقول، قابلة للحساب الدقيق.

ثم..

جاء أينشتين ليقول إن قوانين نيوتن محلية بحتة. لا تفسر إلا هباءة صغيرة من كيان هذا الكون، وإنها تؤدي إلى نتائج خاطئة حين تطبق على الكون الكبير.

وقال علماء الطبيعة إن الضوء ينطلق دائماً في خط مستقيم..

ثم عاد علماء الطبيعة يقولون إن الضوء ينحرف بتأثير الجاذبية فلا ينطلق في خط مستقيم!

وقالوا إن الزمن حقيقة مطلقة..

ثم عادوا يقولون إن الزمن حقيقة نسبية.. وإن الشيء الواحد أو الحدث الواحد يكون حاضرا بالنسبة لك في هذا الكوكب، وماضياً بالنسبة لكوكب آخر، ومستقبلا بالنسبة لكوكب ثالث!

وقال الكيميائيون إن العناصر والمركبات تسلك سلوكا واحدا في جميع الظروف المتماثلة.

ثم عاد الكيميائيون يقولون إن بعض العناصر والمركبات المنتجة في المعمل تشلك سلوكا مخالفا للمتوقع منها حسب "حتمية" القوانين الطبيعية!

وقال الأطباء: لا تأكلوا إذا مرضتم بالمرض الفلاني واكتفوا بالسوائل لأن الأكل في هذه الحالة خطر محقق على الصحة.

ثم عاد الأطباء يقولون: كلوا إذا مرضتم بهذا المرض. فالأكل إحدى وسائل الشفاء!

وبدأت الحيرة التي أشار إليها سومرسست موم.

ولكنها لم تكن الحيرة الوحيدة..

لقد كانت الحيرة العظمى هي ما نتج عن أخطر فتح في ميدان العلم الحديث: تفجير الذرة!

كان العلماء قد قالوا للناس إن "المادة" هي أساس الحياة والكون، حتى لقد وصلوا في ذلك إلى حد الانحراف والتهوس. إلى حد تفسير كل شيء في نطاق المادة. ولو كانت النفس الإنسانية هي موضوع التفسير! وإلى حد نكران كل ما ليس بمادة. فأنكروا الروح لغير شيء سوى أنها ليست مادة ترى أو تُحس!

كانوا يقولون: هذه هي "الحقيقة". حقيقة ملموسة واضحة المعالم والحدود. حقيقة لا غيبيات فيها، ولا إبهام ولا غموض. حقيقة لا تلجئنا لقوة أخرى خفية لا نراها، ولا تدركها الحواس.

وفجأة.. اهتزت الأرض الصلبة، وزلزلت زلزالا شديدا، وتناثرت سحب الغبار تملأ الآفاق، وتسد طريق النور..

وانتظر الناس. انتظر العلماء حتى يهدأ الغبار الثائر وتستقر الأرض من زلزالها العنيف.

ونظروا... فإذا الأرض الصلبة التي يقفون عليها قد انداحت من تحت أرجلهم، وإذا هم معلقون في الفضاء.. فوق السحب الضالة التي دفعتها قوة الانفجار في طريق غير محدود!

"المادة" لم تعد مادة!

لقد انفجرت وانطلقت فإذا هي "طاقة"!

ووقعت الحيرة الكبرى. إن كل حقائق العلم السابقة عرضة للتغير على هذا الأساس الجديد: وهو أن الكون كله والحياة كلها طاقة. وأنه ليس ثمة مادة إلا للنظرة السطحية التي لا ترى غير ظواهر الأشياء. وأن الفواصل بين المادي وغير المادي أصبحت غير ذات موضوع!

وانطلقت السحابة الشاردة في دفعة من دفعات الانفجار العنيف، فانتقلت فجأة من ميدان "الطبيعة" إلى "ما وراء الطبيعة". وإذا الفرق بينهما ليس بالضخامة التي تخيلها العلماء وهم يعيشون في عالم المادة! ويحسبون أن هناك فارقا جوهريا بين المادة المحسوسة والضوء المنطلق في الفضاء والطاقة التي لا تراها العيون.

وزلزلت الأرض كرة أخرى، فإذا العلماء في حيرة كبرى..

"الحقائق" التي توصلوا إليها من قبل.. ما هي اليوم في ضوء الحقائق الذرية؟

"والمعرفة" التي عرفوها.. ما نصيبها اليوم من المقدرة على تفسير الأشياء؟

ما هذه الطاقة؟ ما سرها؟ ما كنهها؟ ما حقيقتها؟

يستطيع العلم أن يشهد ظواهرها ويسجل مظاهرها، ولكن "هي" في جوهرها. ما هي؟

كان الناس والعلماء قد استقروا حين حسبوا أنفسهم وصلوا إلى حقيقة الكون أو حقيقة المادة. فما الحقيقة اليوم في العصر الذري الجديد؟ أهي "معلوم" يعلمه الناس ويستطيعون أن يلموا بجوهره؟ أم "مجهول" خفي لا تشهد إلا مظاهره الخارجية، وتظل حقيقته عميقة في أغوار المجهول لا تصل إليها العقول؟

قصة الصبي الذي أعطى مفتاح القصر المسحور... ففتحه غرفة غرفة، وبهره ما لقيه هناك من عجائب وأسرار، كل غرفة تحوي أشياء أعجب من سابقتها. حتى وصل إلى الغرفة الأخيرة، وهناك قرأ تحذيراً من الدخول؟ ولكنه لا يتردد إلا هنيهة. إنه يريد أن يزداد معرفة وعلماً. وماذا يخشى اليوم وقد تمرس بكل أنواع المعلومات في الغرف السابقة؟

وأخيراً أقدم وفتح الباب المحظور..

وهناك.. تقول القصة إنه وجد ما أذهله عن معرفته السابقة، وأنساه كل العالم المنظور، وغاب في الملكوت!

* * *

لقد أدرك العلماء اليوم أنهم ضللوا الناس حين زعموا لهم أنهم يستطيعون تفسير كل شيء في الكون بقانون مفهوم!

أدركوا أن دعواهم بأن العلم يستطيع أن يفسر المجاهيل كلها لم يكن سوى خرافة!

وأن العصر الذهبي للعلم –في نظرهم– العصر الذي سيطر فيه الإله الجديد فجعل يثبت ما يدخل في إدرامه وينفي ما لا يقع في نطاقه..

هذا العصر كان عصر الخرافة الكبرى!

وأن الخرافة التي سيطرت على عقول البشرية في فجر التاريخ –قبل عصر التدين– لم تكن الخرافة الوحيدة في تاريخها. وأن الخرافة الجديدة –التي تزعم أن العلم يفسر وحده كل شيء– ربما كانت أخطر من الأولى وأخبث في إفساد المدركات، وإفساد العلاقات بين البشر، لأنها تعطل –أو تسقط من حسابها– جوانب من الكون ومن النفس البشرية، ربما كانت أعمق وأفضل "وأنفع" للناس من كل ما يقع في نطاق المعلوم!

وبدأ هؤلاء العلماء –بعضهم على الأقل– يكفّرون عن خطيئتهم السابقة في تضليل البشرية، وجرها إلى خرافة أخطر على كيانها من خرافة ما قبل التاريخ.

بدءوا يقولون للناس نحن لا نعلم! وما أوتينا من العلم إلا قليلا!

بدءوا يقولون لهم: إن هذا المارد البشري الجبار، الذي استطال في الأرض وحسب أنه قادر على كل شيء، قد تضاءل فجأة. تضاءل بشدة. حين فتح باب الغرفة المحظورة، فانفتحت أمامه كوة على المجهول!

وكما خرج الناس من الخرافة الأولى إلى النور الحق الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويفتح مغاليق النفس لتتصل بالقوة الكبرى، فتدرك ببصيرتها ما تعجز عن إدراكه بأفهامها..

كذلك يخرج العلماء واحداً تلو الآخر من الخرافة الثانية –خرافة أن العلم يفسر كل شيء– فيدخلون إلى النور الحق.. نور العقيدة المشرق المضيء.

العقيدة –فيما يظهر– هي الملجأ الوحيد من الخرافة، هي النور الوحيد الذي يكشف المجهول.

قال جيمس جينز، العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحداً شاكا: إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله.

وقال ألدوس هكسلي، العالم الطبيعي والفيلسوف الأديب: إنه لم يعد لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزودون بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس وإن جهلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له. فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر. من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة التذكر؟ أو الإدراك؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف، ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية.. ثم استشهد في نهاية مقاله بالدكتور راين أحد العلماء المشتغلين في هذع الأبحاث، حيث قال: إن هذه الحقائق تدخلنا رويدا رويدا إلى عالم الدين!!

وقال أ. كريسي موريسون، رئيس الأكاديمية الأمريكية للعلوم بنيويورك في كتابه "العلم يدعو للإيمان" (الإنسان لا يقوم وحده Man does stand alone): "إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة. وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الضخمة لذكائه، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون.

"إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم في كل وحدة من وحدات العلم. غير أن تحطيم ذرة دالتون –التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون– إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلا

جوهرياً. ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتفتح مجالا للإيمان بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة".

والبقية ما تزال في الطريق...

ولن يكون الهدف هو القضاء على العلم ولا نبذ النتائج العلمية التي توصل إليها، والتي تحقق كثيراً من الخير. وإنما الهدف تصحيح الأوضاع في الأرض وإطلاق العلم في طريقه السوي في ظلال العقيدة.

ولكن "الناس" لا يريدون بعد أن يصدقوا" لا يريدون أن يخرجوا من عالم الخرافة الذي يعيشون فيه! وتعز عليهم معبوداتهم التي يحسبونها حقيقة، ويأنسون إليها كما كانوا يأنسون من قبل إلى الأصنام والأوثان!

وتبدو لهم العقيدة أمراً عجيباً بعيداً عن التصديق! كيف يتركون الصنم المحسوس الذي يرونه رأي العين، ليعبدوا إلهاً بعيداً عن أنظارهم لا تتبدى ذاته للحس القريب؟

ولكن النتيجة الأخيرة ليست موضع ارتياب.

فسوف يتبع الناس أنبياءهم المحدثين —علماء اليوم– وهم يدخلون بهم إلى الساحة الكبرى التي يغمرها النور.. النور الحق.. نور العقيدة المشرق المضيء. وإلا فسوف يظل الشيطان يضللهم كما ضللهم من قبل، ويدفع بهم إلى الحيرة والاضطراب.

الصراع

هل الصراع ضرورة بشرية؟ بحيث لو خلت منه النفس الإنسانية والحياة البشرية لنقصت كل منهما عنصراً أساسياً في كيانها؟ أم هو مرض يصيب النفس والمجتمع، ونشاط ضار كالأورام الخبيثة التي تصيب الجسم فتفسد كيانه، وتقضي عليه في النهاية؟

يحلم الشيوعيون بعالم خلا من الصراع.

ومن قبل كانت "اليوتوبيات" –أو العوالم المثالية الخيالية– تحلم هذا الحلم، وترسم له صوراً مبدعة من صنع الخيال..

ولكن الصراع مع ذلك حقيقة!

وأنا أحسب أنه قائم في طبيعة الكون كله، وليس في طبيعة الإنسان فحسب. انظر إلى الأفلاك كلها في الكون العريض.. كل فلك يقع بين الشد والجذب لمجموعة من الأفلاك الأخرى، وهو لا يأخذ مساره المنتظم المتوازن إلا بوجوده بين هذه الأفلاك، وتعرضه لشدها وجذبها جميعاً! قوة تجذب عن يمين وقوة تجذب عن شمال، ثم ينتظم الكوكب في مداره المرسوم. ولو بطل الشد والجذب لهوى الكوكب في الفضاء إلى حيث لا يعلم أحد، ولا يستطيع أن يتصور أحد!

كل ما هناك أن هذا الشد والجذب قائم بمقدار، حسبما قدرته القوة المعجزة التي أنشأت هذا الكون من العدم، والتي تدبر أمره وتشرف عليه. وهدفه المرسوم هو إيجاد التوازن في الكون، وليس هدفه الإفناء والتحطيم. فكل كوكب يتعرض منه للقدر الذي يحفظ توازنه في النهاية، ولا يعرضه للتناثر والتفكك، إلا حين تكون تلك هي المشيئة العليا للقوة التي تدبر أمر هذا الكون العريض.

ثم انظر إلى الحياة على الأرض.

إنها مثل من أمثلة الصراع الأزلي الدائم الذي لا يفتر ولا يضعف ولا يهن.

كل نبات له آفة. وكل حيوان له عدو..

والمد والجزر بين الفريقين دائمان متناوبان.

كل ما هناك أن حركة الصراع الدائمة بين هذه المتناقضات تهدف إلى إيجاد التوازن الدائم بين قوى الأرض، فلا تطغى قوة على الأخرى، ولا تنفرد وحدها بالسلطان!

وعالم الإنسان كذلك.. الصراع عنصر من عناصره الأصيلة، وضرورة لا تستقيم بدونها الحياة.

ضرورة يشير إليها تركيب الإنسان ذاته من جسم وعقل وروح، مختلفة المطالب متباينة الاتجاه.

وتشير إليها رغبات الإنسان التي لا تقف عند حد، وطاقته المحدودة التي لا تستطيع تلبية الرغبات كلها، سواء رغبات الجسد أو العقل أو الروح.

يشير إليها تطلع الإنسان الحسي والمعنوي إلى السماء، إلى الطيران والتحليق، والجاذبية الحسية والمعنوية التي تثقله إلى الأرض، وتشده إليها شداً.

يشير إليها اضطرار الإنسان إلى مقاومة كثير من الآفات والأمراض والقوى الطبيعية لكي يعيش، فضلا عن أن يرتفع بحياته إلى حيث يرجو من الارتفاع.

ويشير إليها أخيراً وجود الشر في الأرض كحقيقة واقعة، واضطرار الخير أن يصارع الشر لكي يثبت وجوده، فضلا عن الغلبة عليه في نهاية المطاف.

* * *

ونبدأ بهذا العنصر الأخير.

هل أمكن في الواقع العملي القضاء على الشر ومحوه من الوجود؟

تلك هي الشيوعية التي زعمت أنها أممت وسائل الإنتاج لتبطل الصراع –الذي لا منشأ له في زعمهم إلا السعي لتملك وسائل الإنتاج –تلك هي الشيوعية تتهم بريا بالسعي إلى السلطان، وتحاكمه وتعدمه –لثبوت التهمة في نظرها– رغم أنه تربى في ظل النظام الشيوعي وارتفع في ظله من القاعدة إلى القمة.

وهذا هو ستالين –بعد أن مات– يُتهم في روسيا بالدكتاتورية والطغيان، والانحراف عن مبادئ الشيوعية، والأثرة والأنانية، وارتكاب الجرائم بلا وازع ولا ضمير!

فما معنى ذلك؟

معناه أن إبطال الملكية الفردية لم يبطل نوازع الشر في النفوس، وأن هذه النوازع —في بعض النفوس على الأقل– أعمق كثيراً من وسائل الإنتاج!

ولا نحتاج أن نذهب إلى المدى الذي ذهب إليه فرويد حين افترض أن بذرة الشر – مقترنة بعقدة أوديب– موجودة في كل نفس.. كل نفس في هذا الوجود.

ويكفينا أن نقول إن بعض النفوس أميل إلى الشر وأقدر عليه.

فماذا يصنع الخير إزاء هذا الشر الموجود، إذا لم تكن له القدرة على الصراع؟

من هنا نقول إن الصراع ضرورة بشرية. وعلى هذا النحو نفهم الآية التي تقول: **(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ)**. أي لغلب الشر وأصبح هو المسيطر على الأرض.

نعم. ضرورة" بشرية". ما دام البشر هم هؤلاء البشر وحياتهم هي هذه الحياة.

والخالق —سبحانه– قد زود مخلوقاته بضروراتها.

وما دام الصراع ضرورة للبشر فقد زود البشر بالقدرة على الصراع.

زودهم بها في أجسامهم وعقولهم وأرواحهم، وكيانهم كله.

فهو إذ أعطاهم أجساما تشتهى، وعقولا تفكر وأرواحا تحلق ساعية إلى النور، زودهم كذلك بالقدرة على التوفيق بين هذه جميعاً. ولن يقوم التوفيق بينها إلا بشيء من الصراع. شيء من التدافع. حتى لنستطيع أن نقول: إنه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس.

ولنتصور إنسانا يسير في خطه الجسدي إلى آخر مداه، فينساق مع شهواته ويصبح في النهاية عبدا لهذه الشهوات. هل تتحقق له سعادته الفردية فضلا عن أثر هذا الانسياق في بنية المجتمع؟ إن الشهوة لا تهدأ بإشباعها الدائم، بل تصبح سعارا دائما لا ينقطع، وعذابا دائما لا يستقر.

أو نتصور إنسانا يسير في خطه الروحي إلى آخر مداه، فيكبت نشاطه الحيوي ولا يسمح له بالوجود في كيانه الواعي. هل تتحقق له سعادته الفردية فضلا عن أثر هذا الكبت في وقف الحياة –وقف النسل، ووقف عمارة الأرض– بوقف النشاط الجثماني؟ إن الكبت عذاب دائم لا يهدأ صاحبه ولا يستريح.

أو نتصوره سار مع عقله ومنطقه لا يستجيب لدفعات الجسد أو هواتف الروح.. إن الذهن –على ألمعيته ونشاطه الفائق في محيطه الخاص– قوة بليدة لا تنفعل. وآلاف من الأعمال التي لا بد منها لتسيير دفة الحياة قد لا يسيغها منطق العقل، خاصة حين يتجرد ويدخل فيما وراء الطبيعة، وينكر حقائق الأشياء الظاهرة ويقول إنه ليس لها وجود مادي!!

إنه لا بد من التوفيق بين هذه المتناقضات.

ولن يكون التوفيق بينها إلا بشد بعضها بعضا نحو نقطة التوازن في منتصف الطريق. وتلك بذرة الصراع في داخل النفس الإنسانية. وهي ضرورة لا يستقيم بدونها الكيان النفسي للبشر.

فإذا وسعنا الدائرة قليلا وجدنا في النفس الواحدة بذرتين تنموان في اتجاهين مختلفين. ففي نفس الإنسان كيانان متميزان: كيانه كفرد مستقل، وكيانه كعضو في جماعة. كلاهما أصيل فيه. وليس أحدهما مفروضا عليه من الخارج. فهذا الفرد الذي يحب ذاته: **(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)** ويحس أحيانا أن ذاته هذه هي محور الوجود كله وملء فراغه، هو نفسه يضيق بذاته الفردية، ويحس كأنها سجن ينقبض عليه وتكاد تفتك به وحدته، فيسعى إلى "الناس" إلى "المجتمع" فرارا من وحدته وأنسا بالآخرين.

هاتان بذرتان متناقضتان، لو استجاب لإحداهما استجابة كاملة لقضت على الأخرى، أي لقضى جزء من النفس على الجزء الآخر. ولا بد من التوفيق بينهما. ولن يكون التوفيق إلا بشد إحداهما للأخرى نحو نقطة التوازن في منتصف الطريق.

ونخرج من النفس الواحدة إلى النفوس المتعددة، فنجد شبيها لهذا التناقض وهذا الصراع. نجد تناقضاً بين نفوس الناس ومصالحهم وشتى اتجاهاتهم. تناقضاً لا بد من التوفيق بين جزئياته. ولن يكون التوفيق إلا بشيء من الصراع لرد القوى المتطرفة إلى نقطة التوازن في منتصف الطريق.

الصراع إذن ضرورة.

وحكمة الخالق العليا قد اقتضت التوفيق بين المخلوقات وضروراتها، فجعلت بذرة الصراع موجودة في داخل الكيان النفسي ما دامت ضرورية لواقع الحياة.

والفكرة الإسلامية تقر الصراع على هذا النحو: على أساس أنه ضرورة لازمة لمنع الفساد عن الأرض، ولإيجاد التوازن في الحياة البشرية. وأنه –لهذا السبب– موجود في بنية النفس الإنسانية.

ولكن الفكرة الإسلامية فكرة متوازنة، لا تشتط ولا تتطرف إلى أقصى اليسار أو أقصى اليمين.

فبينما تقوم الحضارة الغربية اليوم على الصراع الخالص: صراع بين الأفراد لا تحكمه إلا الضرورة، وصراع بين الأمم لا تحكمه إلا غلبة السلاح.

وبينما تقوم الشيوعية على فكرة أن الصراع ذاته ينشئ الاضطراب في المجتمع، فلا بد من القضاء عليه لكي يستريح المجتمع ويستقر إلى الأبد (وإن كانت في الواقع في حاجة إلى صراع دائم للقضاء على نوازع الصراع)؟!...

فإن الإسلام لا يعتبر الصراع هدفا في ذاته، ولا يقر كذلك أنه هو بذاته الذي ينشئ القلق والاضطراب في حياة البشرية.

الإسلام يفهم الصراع على أنه وسيلة للتوفيق بين المتناقضات، ووسيلة بعد ذلك لرفع الكائن البشري عن عالم الضرورة، وعن وهدة الشر، إلى حيث يستطيع أن يحلق –سوياً متوازناً– في عالم النور.

وهو لهذا يوازن عنصر الصراع في داخل النفس.

يوازنه أولا بعنصر الحب.

فلو أن الصراع نبت وحده في داخل النفس –وهو طاقة طبيعية تنشأ نشوءاً ذاتياً كما أسلفنا– فلن يؤدي غير مهمة واحدة، هي الكراهية والنفور. هي التنابذ والتناحر. هي الحرب المدمرة التي تعمل للهدم ولا تعمل للبناء.

والحب هو الذي يستطيع أن يوازن عنصر الصراع في النفس، فيخفف حدته ويكسر شوكته، أو "يستأنسه" فلا يهيج إلا حيث ينبغي له أن ينطلق لتحطيم الشر، لتحطيم العناصر التي تقف في طريق الحب، وتمنع البشرية أن تستمتع بظلاله.

والحب نبتة إنسانية طبيعية، تنشأ نشوءاً ذاتياً في باطن النفس. وهو سابق في وجوده على الكراهية والصراع. كذلك اعترف فرويد دون أن يقصد![1].

ولكنه لا يستمر في نموه، ولا يزدهر ويترعرع إلا في بيئته الطبيعية وجوه الملائم.

في داخل الأسرة يتلقى الطفل أول نسمة من نسمات الحب الرخية التي يتفتح لها قلبه الصغير.

من صدر الأم الدافئ وبين ذراعيها الحانيتين يحس بالأمن والراحة، ويفتح عينيه مطمئنا إلى عالمه الصغير..

ثم يكبر قليلا ويتطلع إلى أبيه.. ومن مناغاة الأب ورعايته يطمئن إلى عالم أوسع من الثدي الذي يطعمه والذراعين اللتين تحملاته.. ويدلف رويداً رويداً إلى العالم الكبير.

وبغير الأسرة، بغير أم وأب يمتلكهما الطفل ملكية كاملة، ويحس أنه لا منازع له فيهما — في العامين الأولين على الأقل– لا يترعرع الحب الذي يوازن بذرة الصراع، فينشأ الصراع وحده نافراً كالأشواك.

لذلك يحرص الإسلام حرصاً شديداً على كيان الأسرة. ويقيم فكرته كلها: الروحية والفكرية والاجتماعية —والاقتصادية كذلك– على تخصيص الأم لمهمتها الخطيرة في تكوين البشرية.

لأنه يريد للناس أن ينشئوا متوازنين.

ولكن المدنية الحديثة —المدنية الحمقاء التي أطار صوابها الكسب المادي والإنتاج الآلي– قد نزعت الأم من طفلها المتشبث بها، المتطلع إليها، لتضعها في المصنع والمتجر والطريق. وسمت ذلك تحريرا للمرأة.. لا جرم يكون ذلك تحريراً للبشرية من عنصر الإنسانية!

[1] – انظر كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" فصل "القيم العليا".

والمحاضن التي يلهّون بها الأطفال، يلهّون بها الأجيال المقبلة من البشرية، لن تكون إلا منابت الشوك الذي يمزق غدا أجيال البشرية!

* * *

وبعد ذلك يقيم الإسلام توازنا آخر لعنصر الصراع.

فهو لا يكتفي بأن يوازنه بعنصر الحب، حتى لا ينقلب إلى نفور مطلق وخيم.

ولكنه يوازن كذلك مكانه من الكيان النفسي والطاقات البشرية..

فحيث تعمل بعض العقائد —كالهندوكية- على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى داخل النفس لكبت الجسد، وغل نشاطه بحجة التطهر والارتفاع..

وحيث تعمل بعض المدنيات —كالمدنية الأوروبية الحديثة- على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى خارج النفس، فتعمل على تحطيم الآخرين من بني البشر (على الأقل خارج حدود الدولة أو القومية ذات السيادة)..

يعمل الإسلام على توجيهها —بقدر- إلى الداخل والخارج على السواء، في الحدود المعقولة التي لا تدمر النشاط الحيوي ولا تدمر كذلك الآخرين، وإنما تسمح لكل بالعمل في الحدود المأمونة للجميع.

وللإسلام في ذلك حكمته..

فتوجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى الداخل ينظف النفس حقا من شهواتها، ولكنه يقتل نشاطها وينشئ فيها سلبية معيبة تجاه الحياة. سلبية لا تنتج، ولا تقاوم الشر حين يقع، ولا تضيف شيئاً إلى رصيد الحياة الدائم النماء.

وتوجيه هذه الطاقة كلها أو معظمها إلى الخارج ينشئ قوة إيجابية حقا. قوة تنتج وتخلق جديدا كل يوم. وتفتح وتتوسع. ولكنها تقضي على نفسها بحماقة في نهاية الأمر، لأنها تهمل تنظيف داخل النفس، ولا تتعرض لتهذيب الشهوات. فتعصف هذه الشهوات في النهاية بكل ما أنتجته تلك القوة الإيجابية من خير مفيد.

أما التوجيه المتوازن فهو يوجه إلى داخل النفس من طاقة الصراع ما يقف في طريق الشهوات الجامحة، ولكنه لا يحبسها من منبتها، ولا يعترض طريقها المشروع، أي أنه لا يكبتها ولا يستقذرها في ذاتها، وإنما يحدد لها فقط سبيلها المأمون.

ويوجه من هذه الطاقة إلى خارج النفس ما يحول دون وقوع الشر، ولكنه لا يقف في طريق الرغبات المشروعية للآخرين، فلا يعطل إنتاجهم، ولا يشغلهم عنه بالدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداء. ويقيم نظامه على أساس "إنساني" لا قومي ضيق، ولا مذهبي متعصب، يتعاون فيه البشر كلهم لخير الإنسانية.

وبذلك يتجنب السلبية المريضة كما يتجنب الإيجابية المعتدية، ويحقق من الخير على وجه الأرض أقصى ما يستطاع.

ويوم كان المسلمون يفهمون من دينهم هذه الحكمة، أو يدركونها ببصيرتهم، كانوا هم القوة العاملة على وجه الأرض، الممسكة بمشعل النور تضيء به للبشرية الطريق.

ويوم انحرفوا بطاقة الصراع إلى داخل النفس أو خارجها، انحرفوا عن سبيلهم الأقوم، وحل بهم ما يحقق سنة الله في المنحرفين عن صراطه المستقيم.

* * *

وإذ يعلم الإسلام أن الصراع طاقة ضرورية لداخل النفس وخارجها، فإنه يتعهدها بالرعاية والتوجيه.

فهو لا يتركها تطغى عن حدودها المعقولة، بل يعقلها بالحب من أول الطريق.

ولا يتركها كذلك تذوى وتضعف لسبب من الأسباب، لأن ضعفها ينشئ انحرافاً آخر في النفس الإنسانية. ينشئ فيها الترهل والتخاذل والانحطاط..

فالجسم الذي لا يقوم بأية رياضة ولا جهد، يصيبه الترهل، وتنحط قوته، ولا يعود قادراً على تحمل شيء من الأعباء، أو مقاومة شيء من الأدواء. وسرعان ما يصيبه التلف والبوار.

وكذلك النفس التي لا تدرب على الرياضة والجهد.. تضعف وتترهل.. وتصبح نفساً مائعة متهاوية لا تقف في صدام، ولا تتحمل مواجهة الواقع بما فيه من مشقات. ولا تصلح –فضلا عن ذلك– لعظائم الأمور التي تحتاج لمزيد من الجهد، لأنها أحفل بالمشقات.

ومن هنا تظل هذه النفس تدور في محيط تافه، وتتهاوى حتى تستحيل إلى فتات.

لذلك يرعى الإسلام في النفس قوة الصراع. فهو يكره التفاهة المتهاوية، ويكره تحول الناس إلى فتات، وهو يعدّهم دائما للنشاط والرفعة، والقوة والنماء.

يرعاها بشتى ألوان التدريب.

وفي بعض عباداته —كالصوم– تدريب لطاقة الصراع في داخل النفس.

وفي بعض توجيهاته —كالفروسية– تدريب لها في مواجهة الناس والأشياء.

وهو يختار لذلك لفظة "الجهاد".

جهاد النفس بنهيها عن الهوى. وجهاد الأعداء بالتدرب على القتال. وجهاد الظلم من الحكام أو المحكومين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتغيير عليه..

وبذلك ينقذ النفس من الترهل، ويصل في الوقت ذاته إلى تصحيح الأوضاع في المجتمع البشري كلما مالت إلى الانحراف.

وهي لمسة واحدة من القوة المعجزة، تضع كل شيء في مكانه الصحيح، فتدور العجلة كلها في اتجاهها الصحيح..

مقياس الحياة

هل للحياة مقياس؟

خطر هذا السؤال في بالي أول مرة وأنا أستعرض في خيالي حياة حارس المنارة.

أهو حي؟

ذلك الرجل المنقطع عن الحياة والأحياء. هناك في عرض البحر. وحده. وحده من كل نأمة وكل حركة إلا أصوات الموج المصطخب أحياناً، الهادئ الرتيب أحياناً أخرى. وصوت الريح المزمجرة في غضب عنيف تارة، المرسلة رخاء تارة أخرى. وهذا الشعاع من النور الذي يرسله في الفضاء لتراه السفن من مكان بعيد.

أهو حي؟ ذلك الرجل المنقطع عن الحياة والأحياء. الصامت لا يتحدث. الساكن لا يتحرك. الذي يعيش في بقعة محدودة لا يملك أن يزيد عليها شيئاً في الفضاء الواسع الممتد حوله لغير نهاية؟

أهو حي؟ وحتى الماء والطعام لا يصلان إليه إلا مرة كل أسبوع أو مرة كل أربعين يوماً. وهو معلق بمرور السفينة التي تحمل إليه هذا الطعام، كأنها القدر الذي يحمل الحياة.. أو الفناء.

أهو حي؟ هل يحس أن بينه وبين الحياة رابطة؟

أهو حقيقة؟

أم هو شخص أسطوري.. شبح يلمحه الإنسان في خياله، ولا وجود له في عالم الحقيقة؟

* * *

وانتقل بي الخيال يستعرض قوماً آخرين بينهم وبين حارس المنارة شبه بعيد أو قريب.

سكان الواحات.. المنقطعون عن الوادي. المحدودة حياتهم بحدود الواحة، لا تكاد تتعداها إلا في مواسم قليلة، والمواسم مع ذلك لا تخص سكانها جميعاً، وإنما تتصل بأفراد قليلين.

هل هم أحياء؟

وسكان القرى في الريف المصري.. سكان تلك الجزر المتباعدة المنقطعة في خضم الحياة.

هل هم أحياء؟

والموظف الذي يعيش هناك. لا تصل إليه الحياة إلا أصداء في الصحف أو المذياع. ولكنه لا يراها. ولا يشارك فيها. لا يدبر بنفسه ولو "ترسا" ضئيلا في عجلة الحياة الضخمة. بل لا يملك أن يشتبك عفواً في أحد التروس الدائرة فيدور معها شوطا يسيراً في الواقع أو الخيال!

هل هو حي؟

* * *

واتسع السؤال في خيالي، واتخذ طريقاً آخر..

هل للحياة مقياس يمكن أن نقيس به حياة هؤلاء الأشخاص، فنعرف أحياء هم أم غير أحياء؟

مقياس مدرج يمكن أن يقول لنا: هذا حي في درجة الصفر، وذلك حي في درجة المائة.

وإذا وجد هذا المقياس فما مفرداته؟ أو درجاته التي يقيس بها الأحياء؟

وهل نستطيع أن نعرف به "درجة" الحياة عند حارس المنارةى وساكن الواحة وساكن الريف؟

ثم أيهما الحي بهذا المقياس -إن وجد- الرجل الأمريكي المتوفز -في ظاهر العين- حياة وحركة، أم الرجل الصيني الذي يبدو -لظاهر العين- بليداً بطيئاً لا يتحرك ولا يعيش؟

واستبد السؤال بنفسي حتى أحدث لي أزمة حقيقية! أزمة عاطفية وفكرية. أزمة تملأ أعماق نفسي وتصل إلى أغوارها.

هل للحياة مقياس؟!

فلنستعرض هذين النموذجين اللذين يعيشان على طرفي نقيض:

الأمريكي لا يهدأ لحظة من يقظته إلى منامه.

يقوم في الصباح متوفزا فيجري مندفعا إلى دورة المياه فيصلح من شأنه. ويفطر على عجل، ويخرج مهرولا إلى عمله. يركب سيارته وينطلق بها مسرعا إن كانت له سيارة. أو يركب السيارة العامة فتنطلق به إلى آخر ما يتاح لها في الزحام من انطلاق. أو يسير على رجليه كأنه يسابق الزمان إن كان العمل منه غير بعيد.

ثم تتاح له مثلا فرصة عشر دقائق في وسط العمل، فيركب مصعداً سريعاً، يصعد به إلى الدور الخمسين أو الستين.. فإذا هناك مكتبة. فيندفع إلى الرف فيخرج كتاباً، ثم يقرأ فيه بسرعة مجنونة مدة خمس دقائق، ثم ينزل في المصعد السريع ويعدو مهرولا إلى العمل.

ويجيء يوم الأحد، فيركب هو وأسرته السيارة منطلقاً إلى المزارع والغابات بأقصى سرعة تتاح له إلى منتصف الطريق. ثم يمكثون هنيهة يتناولون فيها الطعام على عجل، ويعودون إلى السيارة، فتقودها زوجته بأقصى سرعتها ليعودوا إلى المدينة.

حركة دائمة. نشاط مستمر، سرعة في كل شيء... سرعة تبلغ حد الجنون!

هل هو حي حقاً ذلك الأمريكي الذي ينطلق كالآلة ويعيش كالآلة؟

هل يستمتع حقاً بالحياة.. وهل يحس بها في زحمة هذا الانطلاق المجنون؟!

والصيني رجل هادئ وئيد لا يكاد يتحرك[1]. الزمن لا يساوي شيئاً في حسه وفي حياته. فعلام ينطلق، وعلام يندفع، وعلام يهرول كالمجنون؟ كل شيء يمكن أن يتم بهدوء. ولن "تطير" الدنيا إذا سار عشر خطوات في الدقيقة بدلا من مائة. ولن يحدث شيء في الوجود إذا جلس مع صديق له "يدردش" من الصباح إلى الظهر، أو من المغرب إلى ساعة متأخرة من الليل.

أو إذا جلس وحده..

ما الذي يمكن أن يحدث؟

---

[1] – في الصين اليوم حركة ونشاط، ولكنها –فيما أرى– حركة عابرة هي نتيجة تفاعلات مؤقتة. فإذا استقر التفاعل عادت إلى طبيعتها. وهي مع ذلك حركة لا تشمل كل الأفراد. فما زالت الكثرة هادئة وئيدة لا تكاد تتحرك، وإن كنت أرجو أن تكون الصين قد ولدت حقاً من جديد.

يموت فلان أو يولد فلان؟ أو يحدث لفلان حدث من الأحداث؟

وهل الحياة إلا مثل هذه الأحداث؟

فما السرعة وما العجلة؟ هل تحو هذه السرعة دون وقوع ما لا بد أن يقع؟ وهل تتأثر حركة الأفلاك حين يهرول كالمجنون، أو يجلس ساكنا ساعة بعد ساعة أو عاما بعد عام؟

وهل الحياة إلا متعة فانية لا تتلبث؛ فمهما سابقها الإنسان فهي تسبقه. مهما انطلق فهي أسرع انفلاتا. ومهما صنع فالزمن يغلبه بالضعف والعجز والشيخوخة؟

فالمتعة الحقة إذن ليست متعة الأرض... ليست هذه اللحظات الذاهبة إلى غير رجعة. الفانية في عالم المادة.. إنما هي متعة الروح. الروح الخالدة التي تستطيع وحدها أن تغلب الزمن. لأنها لا تعرف الفناء..!

لذلك يتصوف الصيني ليقهر الزمن في عالم الروح، في الوقت الذي ينطلق الأمريكي كالمجنون ليقهر الزمن في عالم المادة.

ولكن هل هو حي؟ هذا أو ذاك؟! وما مقياس الحياة؟!

نعم. ما مقياس الحياة؟!

هذا الفتى الغارق في لذائذ الحس، لا يدع لحظة تمر إلا أن يكون فيها متعة تشبع رغبة جامحة في كيانه. أو تستثير رغبة أخرى..

الخمر والنساء.. والملبس والطعام.. والفراش الوثير.. والمسكن الأنيق.. في كل شيء متاع، وفي كل شيء لذة. فما الذي يمكن أن يحتجز الإنسان عن ذلك المتاع؟

التفكير؟ وما قيمة التفكير؟ وفيم يفكر الإنسان، إلا في الطريقة التي يزيد بها نصيبه من متعة اللحظة الحاضرة؟ وما المستقبل الذي يمكن أن يفكر فيه؟ أليس هو لحظات كالتي يعيش فيها الآن، تسمى المستقبل لأنها لم تجيء بعد، ولكنها حين تجيء تصبح كاللحظة التي يعيش فيها اليوم، وكاللحظة التي مرت أمس.

كيف عاش هذه وتلك؟ عاشها. استمتع فيها بما كان في يده من متاع. فلماذا إذن يفكر؟ وفي أي شيء؟!

وهذا الفتى الذي حرم نفسه من كل لذائذ ذلك المفتون، لأن له في الحياة "هدفا" يريد تحقيقه ويجاهد في سبيله.

هدف أعلى من لذائذ الجسد ومتعة اللحظة الحاضرة.

هدف يحقق الخير لمجموعة من الناس.. ولو على حساب راحته وأعصابه ونصيبه من الحياة.

يقوم في الصباح.. لا موعد مع فتاة.. لا موعد مع كأس.. لا وقت لنزهة. لا جلسة للسمر بلا هدف.. لا فراغ من الوقت يسعى "لقتله" على نحو من الأنحاء.

وإنما هو الصراع..

صراع الشر في الأرض.. ممثلا في مجتمع فاسد أو فكرة منحرفة أو حق مهضوم.

صراع يملأ وقته وحياته. ولا يلفته إلى نفسه وإلى نصيبه من المتاع..

وهذا الفتى الثالث الذي لا يعرف لذائذ الجسد، ولكنه كذلك لا يصارع في خضم الحياة..

الفتى الغارق في أحلام من المثل العليا الرفيعة المشرقة.. أحلام تملأ نفسه فلا تترك فيها فراغا للجسد، ولا اتجاها لممارسة الحياة في الواقع..

فتى مرهف الحس رقيق الشعور.. لا يرتكس في الشر ولا يهبط إلى حيوانية الغريزة. ولكنه منعزل كذلك عن الناس. لا يكرههم ولا يتمنى لهم الشر. بل هو شديد العطف عليهم والحب لهم. ولكنه يكره جهد الواقع ويعيش في الأحلام.

أيهم حي؟

وما مقياس الحياة؟!

* * *

لو أخذنا مقاييسهم الشخصية فكل واحد من هؤلاء حي في نظر نفسه، وحياته هي الحياة، وأغلب الظن أنه ينظر إلى حيوات الآخرين نظرة السخرية والرثاء!

فالأمريكي إذ يجعل مقياس الحياة الحركة والنشاط الجسدي والإنتاج المادي، يرى أنه أشد أبناء الأرض حيوية، ويرى الصيني في عداد الأموات!

والصيني إذ يجعل مقياس الحياة انطلاق الروح من قيود الجسد، والتأمل في ملكوت السماء، يرى نفسه زاخرا بالحياة الحقة، ويرى الأمريكي آلة منطلقة بلا مشاعر.. ولا حياة!

والفتى الغارق في لذائذ الجسد يرى كل شيء عدا ذلك عبثا وإضاعة وقت. ويرى أنه هو وحده الذي يفهم الحياة حق فهمها، ويعيشها على أصولها.

بينما الفتى المكافح لا يرى فيه أكثر من حيوان هابط يأكل ويشرب ويستمتع ولكنه لا يعيش. وإنه هو الذي يعيش حقاً. يعيش الحياة في أعلى مستوياتها.

أما الفتى الحالم فقد يحترم المكافحين ويقدرهم. ولكنه -في غالب الظن- مغتبط بحياته كما هي. يراها -على خوائها من كل واقع ملموس- غنية بالمشاعر والأفكار، غنية بالسبحات العليا التي تمثل في نظره لباب الحياة!

...

وتظل الحيرة كما هي. وتظل الحياة بلا مقياس!

* * *

المقاييس الشخصية إذن لا تصلح لقياس الحياة.

فهل هناك مقياس موضوعي نقيس به هذه المتناقضات، ونضعها في مكانها الحق بعضها بالنسبة لبعض، وبالنسبة لحقيقة الحياة؟

وتمتد الحيرة بي أياما وأسابيع.. وسنين!

ثم أفكر في فكرة.. لعلها تفتح الطريق..

ما عيب كل واحد من النماذج السالفة؟

وهل هناك نفس "نموذجية" نقيس بها انحراف هذه النفوس؟

وتعود إليّ حيرتي القديمة...

وفجأة.. في وسط هذه الحيرة الشاملة، تبرز إلى خاطري صورة، وتبزغ أمامي شخصية فذة..

تبزغ شخصية محمد بن عبد الله.

محمد –صلوات الله وسلامه عليه– هو النفس النموذجية!

انظر إلى جوانبه المتعددة جميعاً.. إنه يجمع في كل منها نفسا كاملة!

إن فيه روحانية صافية تعدل وحدها روحانية المسيح. والمسيح روحانية شفافة خالصة.

وفيه طاقة عملية تنفيذية فريدة في التاريخ.. قبسة منها في نفس أبي بكر وعمر أنشأت العالم الإسلامي في رقعة واسعة من الأرض، في فترة خاطفة بالنسبة لكل حركات التاريخ.

وفيه حيوية جسدية فياضة تعدل وحدها رجلا كل همه متاع الأرض. ومع ذلك فهي لا تشغله –رغم استمتاعه بها– عن الكفاح لإعلاء كلمة الله في الأرض، وعن الروحانية الشفافة التي تقبس من نور الله، وتشمل العالم كله حبا صافيا رقيقا كالملائكة الأطهار.

يتحرك في واقع الأرض.. فتنتج حركته بناء أمة فريدة البناء.. غير مسبوقة في الزمن كله منذ بدء الخليقة.

ويسكن إلى ربه في لحظات المتعة الروحية المرفوفة الطليقة..

ولا ينسى نصيبه من الدنيا.

ذلك هو الإنسان الحق. النفس النموذجية الكاملة.

وهي النفس التي تتمثل فيها الفكرة الإسلامية الكاملة. فكرة التوازن بين القوى جميعا والاتجاهات جميعا والمتع جميعا..

وقد استطاعت هذه النفس أن تجتذب إليها بدافع الحب وحده، وبدافع الاحترام البالغ الذي لا يمنعه أن يكون تقديسا إلا خوف الله الواحد المعبود.. استطاعت أن تجتذب إليها ملايين وملايين من البشر على مدار التاريخ.

في النفس البشرية إذن رصيد تتجاوب به مع تلك النفس الكاملة.

وليس معنى ذلك أن يصبح الناس كلهم —أو أحدهم– محمد بن عبد الله.

وإنما معناه —كما يقول القرآن– أن في رسول الله للناس أسوة حسنة.

أسوة يحاولون الاقتداء به، كل على قدر طاقته —لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ويقتدون به في فكرته الشاملة عن الحياة، التي هي حقيقة الفكرة الإسلامية.

فيأخذون بنصيب من متعة الروح، ومتعة الفكر، ومتعة الجسد.

يتحركون في عالم الواقع، ويسكنون إلى الله، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا.

ذلك هو المقياس الذي يقدمه الإسلام للحياة. وهو لا يفرضه على الناس فرضاً، فقد انجذبوا إليه مختارين حين رأوه يتمثل في شخص بشر، وأحبوه كما لم يحب أحد أحداً في التاريخ.

في صميم النفس الإنسانية استجابة لهذا المقياس، حين تنكشف بصيرتها. وتزيح عنها غشاوة "الواقع" المنحرف الذي تعيش فيه.

حدث ذلك مرة في الجزيرة العربية. حين فتح العرب عيونهم على النور الجديد، ووضعوا حياتهم على هذه المقياس فرأوا ما كان فيها من انحراف، فانطلقوا يصححون نفوسهم.. بل لقد أبصروا فإذا نفوسهم المنحرفة تصح وحدها بفعل كفعل السحر، لا يدرون من أين أتى، ولا كيف أخذ بمجامع قلوبهم.. إلا أنه من عند الله، وعلى يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحث في كل مرة انفتحت فيها بصيرة شخص على هدى الإسلام.

ويمكن أن يحدث مرة ومرة...

يمكن أن يحدث لهذا الأمريكي فيرده إلى رفرفة الروح الصافية.

ولهذا الصيني فيدفعه إلى الحركة في واقع الأرض.

وللفتى الغارق في متعة الجسد فيقيم له أهدافاً أخرى توازن حياته.

والفتى المشغول عن لذائذ الأرض فيأخذ بنصيبه منها.

والفتى الحالم فيدفعه إلى الكفاح من أجل تحقيق أحلامه في واقع الحياة.

ويلتقي البشر على هذا المقياس الذي يكشف عن مدى انحراف الناس، ويلهمهم كيف يثوبون إلى التوازن الصحيح.

ولكن.... هل يستجيب البشر؟

أحسب أن الحيرة التي يقع فيها العالم اليوم.. حيرة المشاعر والأفكار والنفوس. حيرة الأعصاب القلقة والأوضاع المضطربة. حيرة الفزع من الدمار الرهيب.

أحسب أن هذه الحيرة كفيلة أن تجعلهم يثوبون إلى مقياس الحياة الصحيح.

الشرق والجنس

الشرق منهوم بالجنس لا يشبع.

الجنس يملأ أحلامه وألفاظه وأفكاره.

والجنس يشغل وقته حديثا وعملا. تمهيدا وتدبيرا. جدا ومزاحا. تصورا ووقائع.

وتصل المشغلة بالجنس وتغلغله في الأفكار والمشاعر، والتعبيرات والتصورات، ألا يكتفي الناس بالحديث عنه بألفاظه المباشرة وميدانه الأصيل، بل ينقلون ألفاظه بطريق الاستعارة إلى موضوعات أخرى لا دخل لها بالجنس، كالنصر والهزيمة والسيطرة والخضوع.. إلخ، كما تستغل كل لفظة وكل إشارة وكل استعارة قريبة أو بعيدة للتعبير عن أعمال جنسية بكنايات يمكن أن تحمل معنيين. ولا يتورع عن ذلك في مجالسهم الخاصة أناس يعرفون بالوقار والتزمت، أو يعرفون بنظافة المشاعر والسلوك!

والنساء والرجال في الشرق سواء في المشغلة بالجنس. وإن كان الحياء يمنعهن —أو يمنع كثيرا منهن– أن يستخدمن الألفاظ —نابية أو نظيفة– للتعبير عن هذه المشغلة المستديمة.

لم كان ذلك؟

إنها مسألة تستلفت النظر، وتستحق أن يبحث فيها عن الأسباب. فليس من الطبيعي — ولا من الخير– أن تنفق شعوب كاملة معظم طاقتها في أمور الجنس —ولو كانت مجرد قصص ونكت وأحاديث– فإن ذلك يشغلها عن أمور أخرى أجدى أن توجه إليها الطاقة ويصرف فيها المجهود.

والجنس طاقة بشرية طبيعية تحتاج إلى إشباع؛ وهي تؤدي مهمة حيوية بإشباعها، فتنتج النسل الذي يعمر وجه الأرض جيلا بعد جيل.

ولكن الاستغراق الذي يجاوز حدود المعقول هو الأمر المستنكر. مستنكر لأنه يضخم أحد جوانب الإنسان على حساب بقية الجوانب، ويستنفذ طاقة يمكن أن تنطلق في اتجاهات عدة، فيحبسها في اتجاه واحد محدود.

وحتى الشعوب الأخرى التي انهارت —كفرنسا- واستغرقتها متع الجنس الفاجرة، وتفننت في إشباعها فنونا هابطة مستقذرة، وخصصت لهذا العمل الكريه صحافة وموسيقى ومسارح ومواخير، وفتحت حدائقها بل شوارعها وبيوتها لإرواء نهم هابط مسعور..

حتى هذه الشعوب التي استغرق الجنس حياتها إلى هذا الحد، لم يكن الحديث عن الجنس يستغرقها كما يستغرق الشرق، بل كانت تكتفي بالهبوط الفكري والنفسي والروحي. ولا تحتاج إلى كثرة الحديث. بينما الشرق يصرف في الحديث عن الجنس وقتا غير معقول، حتى وهو لا يقصد الجريمة، ولا يهبط بفكره وروحه وسلوكه كما يهبط الغربيون!

* * *

يقولون إنه الكبت.. الكبت الجنسي هو المسئول عن هذا السلوك المنحرف المعيب.

فالشرق منذ مولده متدين. وله تقاليد دينية "تكبت" النشاط الجنسي فتحوله تصوُّرات جائعة وتعبيرات منهومة وتصرفات منحرفة وأفكارا شاردة وعقولا مشغولة.

ولست أستطيع التسليم بهذا الرأي. وخاصة في الشرق الإسلامي، الذي كان إلى عهد قريب يطبق تعاليم الإسلام في التبكير بالزواج، بل كان يبالغ في ذلك إلى حد تزويج الفتيات اليافعين والفتيات في سن الطفولة!

متى ينشأ الكبت في مثل هذا النظام؟

والكبت بمعناه الفني أو السيكلوجي هو استقذار الدوافع الجنسية، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه أن مشاعر الجنس يجوز أن تخطر في باله أو في بال أي شخص شريف.

والإسلام بالذات لا يستقذر الدوافع الجنسية. فهو يعترف بها اعترافاً واضحاً صريحاً على أنها الأمر الواقع الذي لا يستنكر في ذاته ولا يستقذر: (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ..**)... "**حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**".. "**إن في بضع أحدكم** (أي لقائه بزوجته) **لأجرا..**".

إن الإسلام يحدد فقط مصارف الجنس. يحددها بالزواج. وهو حين يدعو إلى التبكير في الزواج يخفف الضغط على الأعصاب إلى أصغر مدى ممكن، ويريح النفس من كثير من عوامل الاضطراب.

وإنما وجد الكبت حقاً في العالم الإسلامي منذ عهد قريب. حين خرجت المرأة سافرة متبرجة، وأصبحت فعلا أو حكما في متناول الشباب الجائع، الذي تمنعه من الزواج المبكر ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية، تطيل فترة التعطل الجنسي وتدفع إلى الجريمة.

حين ذلك وجد الكبت.. وجد الصراع الداخلي بين تعاليم الدين ودفعة الجريمة، ولم يكن ذلك —كما يريد البعض أن يفهم– نتيجة اتباع تعاليم الدين، وإنما كان نتيجة انحراف المجتمع عن الدين، وبعده عن الحل الطبيعي الذي وضعه الإسلام للمشكلة الجنسية.

ولست هنا بصدد تفنيد العقبات التي تقف اليوم في سبيل هذا الحل الطبيعي وتظهره في صورة حل نظري لا يصلح للتطبيق. فقد ناقشت ذلك كله في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام". وإنما أريد فقط أن أقرر أن هذا الكبت لم يعرفه الشرق الإسلامي إلا منذ قريب. بينما المشغلة العنيفة بالجنس قديمة قديمة في هذا الشرق، إلى حد أنها تملأ كتاباً شعبياً كاملا كألف ليلة وليلة، وتظهر بشكل بارز في دواوين الشعر وكتب الأدب في ألف وخمسمائة عام مدونة، غير ما لا نعرف في العصور السابقة على التدوين!

* * *

الكبت. نعم..

ولكنه ليس الكبت الجنسي في معظم الأحيان.

فأنا أزعم أنه الكبت الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في أغلب الأحايين.

ولنعرف أولا أن مسارب النفس الإنسانية كثيرة التعاريج خفية الاتصالات، ولكنها على أي حال ليست "خزائن" مستقلة كل واحدة عن الأخرى، كما قد يصورها البحث العلمي خضوعاً لمنهج البحث لا تقريرا للحقيقة!

وليس من الضروري دائماً أن يكون الدافع إلى الجنس شهوة جنسية!

فقد يحدث كثيراً أن يكون الانهماك في الجنس تخلصاً من أزمة ملمة لا تجد حلها المباشر. ويستوي أن يكون التخلص بهذا الطريق عن قصد ووعي، أو يكون تدبيراً باطنيا في اللاشعور.

وأذكر هنا مثالا من علم الطبيعة هو أحد قوانين فيتاغورس.

فلنتصور إناء به سائل؛ وفي الإناء فتحات مختلفة الاتساع. وقد وضعنا فوق السائل ثقلا ما. فهذا الثقل سيحدث ضغطا على السائل، والسائل بدوره سيضغط على جميع جوانب الإناء بما في ذلك الفتحات المختلفة الاتساع. وهنا يقول فيتاغورس: إن الضغط الواقع على كل فتحة يتناسب تناسباً طرديا مع اتساعها. أي أنه كلما اتسعت الفتحة زاد الضغط الواقع عليها، مع أن الثقل هو هو بالنسبة لجميع الأجزاء!

ذلك من قوانين المادة.

وفي النفس الإنسانية ما يشبه هذه الأوضاع!

فهي مسارب مختلفة و"فتحات" متباينة الاتساع. فإذا وقع على النفس ضغط من أي جانب، فإنه لا يؤثر في الجانب الذي وقع عليه وحده، وإنما يؤثر في الفتحات أو المنصرفات جميعا، ويؤثر فيها بنسبة كل واحد من هذه المنصرفات.

والجنس من أوسع المصارف في الأحياء.

ومن هنا يكون الضغط عليه شديدا حين تقع أزمة لا تجد حلها المباشر، وتظل ضاغطة بثقلها على النفس والأعصاب.

ولكن الفرق بين "المادة" و"النفس" أن المادة تتصرف بطريقة واحدة في كل الحالات المتماثلة، بينما النفس تتصرف بوسائل شتى وطرائق متعددة. تختلف بين الوعي الكامل وانعدام الوعي، وبين القصد المباشر والتواء السبل المؤدية للتنفيذ.

وقد أقر لي بعض الضباب من المتزوجين أنهم يصابون "بنوبات" جنسية كلما أصيبوا بأزمات نفسية تستعصي على الحل السريع. وهؤلاء "يستبطنون" مشاعرهم فيلحظون كيف تتصرف نفوسهم تجاه الأشياء.

ولكن ألوفا وملايين غيرهم لا يستبطنون مشاعرهم، ولا يلحظون كيف تعمل في باطن النفس، وكيف تتخذ عشرات من الصور والتصرفات.

وأولئك لا يدركون كيف تتصرف الأزمات النفسية والعصبية من منصرف الجنس الواسع، في صورة إدمان جنسي حيناً، تستخدم له المكيفات المتنوعة، وفي صورة مباهاة بالقوة الجنسية حينا، وفي صورة نكت وأقاصيص تدور حول الجنس من قريب أو بعيد.

من هذا الباب نستطيع أن نفسر كثيراً من شئون الجنس في الشرق.

فالكبت الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي وجد في الشرق في تاريخه الطويل قد وجد له منصرفا ضخما في هذا الباب.

صحيح أن الروح الإسلامية كانت تحول في كثير من الأحايين دون الفقر المدقع الذي يقهر النفوس ويستذلها، فقد كانت روح التكافل تخفف من قسوته على كثير من الناس. ولكن هذا لا ينفي انخفاض مستوى المعيشة بصفة عامة، وخاصة في عصور الظلم السياسي الذي كان ينهب أقوات الناس ويتركهم معرضين للقلق على أرزاقهم على أقل تقدير.

ومع الفقر يوجد الكبت الاجتماعي، الذي يحول دون الناس وأخذهم مواضعهم المستقرة في المجتمع، والمكانة الراسخة التي يهفو إليها بطبعه كل بشر سوي.

وصحيح مرة أخرى أن الروح الإسلامية كانت تحول دون شيء من هذا الكبت الاجتماعي، بروح الأخوة في الله، وبإقامة موازين أخرى للناس غير القيم المادية البحتة. ولكنا يجب أن نذكر أن المسلمين حكاما ومحكومين قد هبطوا عن مستوى الإسلام فترات طويلة في الماضي لأسباب ليس هنا مجال تفصيلها ولكنها حقيقة.

أما الكبت السياسي فهو أوضح. فإن فساد الحكومة الإسلامية في الماضي قد حولها إلى دكتاتورية مطلقة، تحكم بنظرية الحق الإلهي، وتضفي على نفسها ألواناً من القداسة لا ينبغي أن توجه لغير الله.

وفي هذا الجو لا يمكن للشعب أن يشترك في حكم نفسه أو يكون له رأي في إقامة حكامه أو خلعهم، أو رقابة على تصرف من تصرفاتهم. فينشأ الكبت السياسي أو "ألعجز" من جانب الشعب عن التصرف في شئون نفسه.

هذه الألوان المختلفة من العجز.. العجز المالي والعجز الاجتماعي والعجز السياسي هي المسئول الأول عن الانهماك الشديد في أمور الجنس، وخاصة عن أحلام القدرة الجنسية التي لا حد لها، والمباهاة بهذه القدرة بالحق أو بالباطل، فالقدرة من أي سبيل هي التعويض المناسب عن العجز في كل سبيل!

وفي ألف ليلة وليلة مثال واضح لهذا التعويض.

فالفترة التي كتب فيها —فترة الحكم التركي على الأرجح– من أقصى الفترات التي مرت بالشعب، وعانى فيها العجز المطلق في ميادينه الثلاثة السابقة الذكر.

وكان التعويض الذي قام به الشعب في هذا الكتاب هو أحلام الغنى المفاجئ من أيسر سبيل. وأحلام القدرة المطلقة باستخدام قوى غير منظورة —قوى الجن والعفاريت (لأن القوى المنظورة عاجزة أمام السلطان!)– ثم أحلام القدرة الجنسية التي لا حد لها ولا شبع ولا ارتواء!

ولكن نظرة سريعة إلى الحيز الذي يشغله كل حلم من هذه الأحلام يبين أن الحلم الجنسي هو الغالب، وأن الحلمين السابقين —في كثير من الأحيان– أدوات لتحقيق الحلم الجنسي الذي يتحقق عن طريقه "الوجود" الكامل للإنسان! وهذا يتناسب مع وضع الجنس من النفس البشرية، وشدة الضغط الواقع عليه بسبب اتساع مساحته في الشعور واللاشعور.

فهو الكبت إذن حقاً.. ولكنه ليس الكبت الجنسي في معظم الأحايين.

* * *

والفراغ...

فقد ظل الشرق فارغاً أجيالا طويلة بعد أجيال.

الزراعة لا تستغرق الوقت كله ولا الجهد كله.

والتجارة جلسة هادئة بليدة ما بين زبون زبون.

والصناعة اليدوية البسيطة لا تمنع من "الدردشة" الفارغة، وتبادل النكت والأقاصيص!

ذلك فراغ الزمن. وفراغ الجهد.

أما فراغ الأهداف فهو أشد. فمنذ فرغ الشرق الإسلامي من فتوحه العظيمة، منذ وقف أكبر مد شهده التاريخ، وانحسر إلى داخل نفسه، فرغ الناس من الأهداف، وانهمكوا في إشباع أهدافهم القريبة، والجنس والطعام أبرز الأهداف وأقدرها على استهلاك الطاقة التي تبحث عن استهلاك!

* * *

والجو الحار الذي يسود الشرق.

الجو الذي يُنضج الأجسام والمشاعر في سن مبكرة شديدة التبكير، ويساعد على النهم الدائم حين تجتمع الظروف كلها على استثارة النهم المسعور.

* * *

تلك أهم الأسباب التي تبعث على الإدمان الجنسي والمشغلة الدائمة به في الشرق المنهوم.

وهي أسباب عميقة الجذور في التربة الشرقية، لطول ما نبتت فيها ولم تطهرها يد الزارع الحصيف.

ولا مطهر لها إلا العقيدة.

وتلك شهادة التاريخ.

فإن هذا الشرق لم يبرأ من هذا النهم المسعور إلا في الفترات التي تملكته فيها العقيدة، فاستنفدت طاقته المذخورة في آفاق أعلى من محيط الجسد، وأثمن من دفعة الغريزة.

حين تحولت هذه الطاقة فتوحات لا مثيل لها في التاريخ، وحركة علمية وفكرية وروحية ومادية أضاءت المشعل للإنسانية الحائرة الغارقة في الظلمات.

حين ذلك كان الجنس في موضعه المعقول لا يتجاوزه. لا كبت ولا إهمال. ولا مبالغة كذلك ولا سعار.

ونحن اليوم في حاجة إلى العقيدة.

في حاجة إليها تنظف النفوس وترفع من أهدافها.

وفي حاجة إليها تملأ الفراغ المدمر القاتل: فراغ الزمن وفراغ الجهد وفراغ الأهداف. فراغ الجسم والنفس والروح على السواء.

وفي حاجة إليها تزيل الكبت الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي ينحرف بالنفوس فتغرق في التيار الجنسي المنهوم.

ونحن اليوم أقدر على تحقيق العدلة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن طريق العقيدة، من آبائنا قبل مئات السنين. لأن تجارب البشرية في هذه الميادين كلها قد قربت المسافة بينها وبين القمم العالية التي وضعها الإسلام. فلم نعد نحتاج إلى الطفرة العالية. وإنما هي نقلة معقولة في حدود المستطاع.

فإذا استمسكنا بالعقيدة، ونفذناها في واقع الحياة، فذلك هو الطريق الوحيد للقضاء على انحراف طال به الأمد في نفوس الشرقيين.

وإذا كان الغرب في حاجة دائمة إلى العقيدة ليوازن ماديته الجاحدة، ويلطف من قسوة الصراع الأرضي هناك..

فالشرق في حاجة دائمة إليها لتحول بينه وبين الهبوط في حمأة الجنس المسعور!

الإنسان والآلة

هواة التفسير المادي للتاريخ يقولون إنه ليس ثمة كيان ثابت اسمه "الإنسان".

وإنما الإنسان هو مجموعة استجاباته للوسط المادي الذي يعيش فيه. ومن ثم فالإنسان في البيئة الزراعية غيره في البيئة الصناعية. غيره في المشاعر والأفكار والسلوك والاتجاهات. ولا حيلة للإنسان في أن يتأثر بالوسط المادي، ولا حيلة له كذلك في الطابع الذي يتخذه نتيجة هذه الاستجابة. فالتعاون الفردي والفروسية والعقيدة وبساطة المشاعر صفات تميز البيئة الزراعية وهي من لوازمها. والاستقلال والبعد عن العقيدة والغيبيات جميعا، والإخلاد إلى الواقع المحسوس وحده، وتعقد الأفكار والمشاعر، صفات تميز البيئة الصناعية وهي من لوازمها. فلا تصلح العقيدة مثلا ولا التعاون الفردي (أي الذي يتم مباشرة بين فرد وفرد) للإنسان "الصناعي". ولا يصلح الاستقلال –الفكري أو العملي– للإنسان الزراعي!!

وبعض هذا الذي يقولونه صحيح.

أو هو صحيح كله إذا ترك الإنسان وشأنه بغير توجيه.

وقد كان صحيحا –إلى حد كبير– في أوروبا التي يبني عليها أولئك "العلماء" نظرياتهم وفروضهم، ويخيل لهم الغرور البشري أن أوروبا هي العالم، وأن ما ينطبق على أوروبا هو القانون الذي يحكم البشرية!

ولكنه صحيح –كله أو بعضه– على أساس آخر غير الذي يبنون عليه نظرياتهم المنحرفة.

فليس الإنسان الزراعي كائنا آخر غير الإنسان الصناعي، حتى نقول إنه ليس هناك كيان ثابت للإنسان، وإن الإنسان هو مجرد استجاباته للبيئة الخارجية المتطورة.

وإنما الحقيقة التي ينبغي أن يهتدي إليها العلم الصحيح –حين ينجو من انحرافاته الأوروبية– أن كيان الإنسان كيان واسع شامل لا تحده الخطوط الضئيلة التي يهتدي إليها العلم التجريبي، أو تدركها الملاحظة المحدودة. وأن البيئة الخارجية تتفاعل مع بعض عناصر هذا الكيان فتبرزها أكثر من غيرها، أو تخفي بعضها لأنه غير لازم في فترة معينة. كما يشتد ساعد الملاكم ويصبح ذا قوة هائلة لأنه يدربه ويستخدمه بصورة بارزة؛ وكما يضمر أي عضو لا يستخدم لفترة طويلة، حتى لقد يفقد وظيفته. ولكن هذا لا يعني أن الملاكمة هي التي

"تخلق" الساعدة ولم يكن موجوداً من قبل، ولا يعني أن إهمال عضو من الأعضاء يزيله من مكانه —ولو طالت فترة الإهمال– بحيث يستحيل إعادته إلى العمل بشيء قليل أو كثير من التدريب.

والكيان الإنساني كذلك؛ لا تنشئه البيئة الزراعية أو الصناعية —أو الذرية إذا نظرنا إلى المستقبل! وإنما هذه البيئات قد تضخم بعض عناصره أو تدعها تضمر بحسب الظروف. ولكن في هذا الكيان من القوى المذخورة، الظاهرة والخفية، المدركة وغير المدرَكة، ما يبرز للوجود جيلا بعد جيل، فيحسبه بعض الناس جديداً لم يكن له وجود من قبل!

وليس الإنسان كذلك كيانا سلبيا خالصا كما يريدون أن يصوروه. وليست البيئة المادية هي القوة الإيجابية الوحيدة التي تسيطر وتفرض سلطانها على المشاعر والأفكار. بل هما قوتان: الإنسان من ناحية، والقوى المادية الخارجية من ناحية أخرى. وهما قوتان متفاعلتان أبدا. ولكن سيطرة إحداهما على الأخرى أمر متروك للإنسان، لأنه هو —من بين القوتين– صاحب الإرادة والقادر على التصرف. والمادة هي التي من شأنها أن تخضع لما يقع عليها من تأثير.

فحين يختار الإنسان أن يكون هو القوة الموجهة المنشئة المريدة، فهو الذي يكيف حياته، وهو الذي ينشئ الأوضاع المادية أو يكيفها كما يريد، أو على الأقل يكيف نفسه منها على الوضع الذي يريد.

وحين يتنازل الإنسان عن إرادته. حين يتخلى عن طاقته الإيجابية الموجِّهة. حين يختار أن يترك نفسه على سجيتها تؤثر فيها القوى الخارجية ولا يؤثر هو فيها.. حينذاك يكون هو الذي ترك الوسط المادي يفرض عليه سلطانه، وهو الذي اختار موقفه السلبي الخانع، وليست القوى المادية بطبيعتها هي ذات السلطان.

وفي قصة الآلة مثال لما نقول.

* * *

حين اخترع الإنسان الأول أول "آلة".. قطعة من الحجر مشطوفة على هيئة سكين[1]، كان ذلك نصراً عظيما لذلك الإنسان، وتحقيقاً إيجابياً للطاقة الكامنة في كيانه، طاقة الاختراع، ومحاولة السيطرة على الوسط المادي الذي يعيش فيه.

ولا شك أن نشوة لا حد لها قد تملكت ذلك المخلوق البدائي، وأحس لبضع لحظات على الأقل أنه أكبر من نفسه، وأنه يدق بيده باب مستقبل زاهر عظيم.

وكان ذلك حقاً. فقد كان في طريقه إلى تطورات أخرى أعظم خطراً من قطعة الحجر المشطوف.

ومضى الإنسان يخط بجسمه وعقله وروحه سطور عظمة البشرية. سطور الرفعة المطردة لذلك المخلوق الذي كرمه خالقه حين منحه تلك القدرة المعجزة على التطور والارتفاع.

ونعتذر "للمثقفين" من ذكر الروح! وهم الذين يقولون إن البحث عن الطعام هو رائد التقدم البشري. كأنما الحيوان لا يبحث عن الطعام!!

نعتذر إليهم عن إزعاجهم –في عصر الصناعة وعصر الذرة– بذكر شيء من مخلفات البيئة الزراعية البائدة التي لا ينبغي أن تعود!

ونعود لقصة الآلة، فهي قصة "مفهومة" لا غيب فيها ولا إبهام ولا غموض!

لقد ظل الإنسان ينتقل من اختراع إلى اختراع، وهو يتنقل في مدارج الرقى، فاخترع المحراث، والمغزل والمنسج، وآلات الصيد والقتال، وآلافا غيرها من الآلات النافعة التي يقوى بها كيانه، ويحقق في عالم الواقع طاقاته النظرية الكامنة، وأحلامه المتطلعة إلى القوة والسيادة على محتويات الكون العريض.

وكانت الآلة في ذلك الطور الطويل الذي استغرق ألوف السنين مصدر قوة للإنسان، قوة فردية وجماعية. قوة مادية وسيكلوجية..

والقوة السيكلوجية جديرة بالتسجيل، وجديرة بتحديد وضعها الحقيقي.

---

[1] – ربما لم تكن هذه أول آلة من الوجهة التاريخية ولكنا نتخذها فقط للتمثيل. ويستوي أن تكون هي أو غيرها أول آلة.

فاليد التي تحمل العصا أو الفأس أو المدافع أقوى –في القياس المادي– من اليد الخاوية.

وصاحب اليد التي تحمل العصا أو الفأس أو المدفع أقوى –سيكلوجيا– من صاحب اليد الخاوية.

هذه القوة المادية تمنحه قوة نفسية تظهر في سلوكه وأفكاره ومشاعره. هكذا يبدو في ظاهر الأمر، بحيث يخيل لهواة التفسير المادي للحياة أن القوى المادية هي التي "تنشئ" المشاعر والأفكار.

وليس الأمر كذلك في الحقيقة.

فرصيد القوة موجود في داخل النفس، في صورة رغبة كامنة تنتظر التحقيق.

والعصا أو الفأس أو المدفع أدوات يخترعها الإنسان ليحقق بها رصيد القوة في نفسه.

والنفس التي حققت رصيدها في عالم الواقع أقوى من النفس التي تحتفظ بهذا الرصيد رغبة كامنة لا تتحقق أو لا تسعى إلى التحقيق.

والمحك الصادق لهذه الحقيقة أن الجندي الجبان لا يستمد القوة من أدوات الحرب، لأن رصيدها النفسي مفقود. وقد كان الجنود الطليان في الحرب العالمية الثانية يملكون أحدث الأسلحة وأفتكها، ولكنهم كانوا يفرون من الحرب، ويمنحون هذه الأسلحة هدية خالصة، لمن يمنحهم نعمة الوقوع في الأسر والهوان!

فالنفس تتقوى بالوسائل المادية، لأنها تحقق عن طريقها رصيدها المذخور. وهذا الرصيد سابق في وجوده للوسائل المادية، وهو الأصل الحقيقي الذي يحسب له الحساب.

وقد كانت الآلة –في فترة طويلة من تاريخ البشرية– مصدر قوة سيكلوجية للإنسان.

كان هناك عامل مهم في الموضوع. كان الإنسان هو الذي يدير الآلة! كان يشعر أنه هو القوة الموجهة، وأن الآلة خاضعة لإشرافه وتوجيهه. ومن ثم فهو المسيطر، وهو صاحب السلطان!

ولكن الآلة تطورت بعد ذلك.

لم تعد آلة يدوية، يديرها الإنسان بيده، ويشعر بالسلطان عليها، إن شاء وقفها، وإن شاء أطلق لها العنان.

لقد تضخمت حجما حتى صار الإنسان بجوارها جرماً صغيراً لا يكاد يبين.

وصارت لها قوة ذاتية تتحرك بها من الداخل. ولا يملك وقفها بطريقة مباشرة حين يريد.

وتغير موقفه منها تغيراً كاملا داخل المصنع.

فبعد أن كان العامل أو الصانع يصنع العمل كله بيده، أو بالإشراف على آلته وتوجيهها، صار العامل قطعة صغيرة من مجموع العمل. وصارت الآلة المعقدة تقوم بأجزاء كثيرة متعاقبة، ولم يبق للعامل إلا أن يقوم بدق مسمار أو ربطه، أو تقديم مادة خامة للآلة الضخمة التي تبتلعها في طرفة عين وتطلب المزيد.

صار الإنسان قوة سلبية، والآلة هي القوة الإيجابية التي تملى على العامل مكان عمله، وزمنه، وطبيعته، وحدوده!

وهنا حدث انقلاب كبير في سيكلوجية الإنسان.

فقد أخذ رويداً رويداً يفقد سيطرته على نفسه، ويفقد في الوقت ذاته إنسانيته.

لقد توغل شبح الآلة الضخمة في أعماق حسه، وصارت هي القوة القاهرة التي تملى عليه إرادتها، وتصرف حياته كما تريد.

أحس الإنسان بالضآلة فانكمش داخل نفسه. انكمشت مشاعره الحية ورفرفاته المضيئة. انكمشت عواطفه المتدفقة وأشواقه المتطلعة إلى الأفق الطليق.

ورويداً رويداً تصلبت أنسجة نفسه وجفت فصارت كالآلة البليدة الصماء التي تسيطر على كيانه.

وصارت حياته كلها روتينا كروتين الآلة! يبدأ في الصباح وينتهي في المساء.

زر واحد أو مجموعة أزرار تفتح في لحظة معينة مضبوطة كانضباط الآلة، فتشتغل الآلة النفسية مندفعة بما فيها من وقود مشحون. وتظل تعمل وتعمل وتعمل.. حتى يدق لها

الجرس. وهنا يسكت العمل فجأة كما ابتدأ فجأة. يسكت كما تسكت الآلة حين يقطع عنها التيار.

ثم تشتغل قطع أخرى من الآلة النفسية حين يجيء عليها الدور.

أو تقف خامدة بليدة بلا حراك.

ولكن الدفعة الحيوية البشرية المكبوتة منذ الصباح لا بد أن تنطلق في صورة من الصور، فهي لم تستهلك كلها في النشاط الآلي الجامد البليد.

وإنها لتنطلق بالفعل.. انطلاق البهيمة حين تفك عنها القيود.

فورة جسد هائم مجنون.. يهفو إلى جسد هائم مجنون.

وتندفع الشحنة الحبيسة في منصرفها الحيواني، فتهدأ الأعصاب الثائرة لحظة، ريثما تشحن في الغد بالطاقة المكبوتة التي تبحث عن التفريغ..

وتصبح كذلك حياة الإنسان: آلية جافة جامدة لا مكان فيها للعواطف الحية أو الأشواق الرفافة، أو اللمسات الدقيقة العميقة. لا مكان فيها للتطلع إلى فكرة عليا أو إحساس كبير.. وحيوانية هابطة تستغرق ما بقي من النشاط المذخور، وتحول ما بقي من الحياة إلى ماخور كبير.

وبهذا وذاك يتوارى "الإنسان ويحل محله الحيوان الآلي الذي يملأ وجه الأرض في العصر الحديث.

وأبرز الأمثلة على ذلك أمريكا.

هنالك وصلت الآلية إلى أقصى درجاتها. كل شيء يدار بالآلات. والإنسان أول شيء هناك يدار بالآلات!

دقة متناهية في العمل. دقة مضبوطة كانضباط الآلة. وإنتاج ضخم لا مثيل له في أي مكان.. ولكنه إنتاج الآلة. الآلة الميكانيكية أو الآلة البشرية سواء.

ولكن ليس هناك بشر..

البشر الذين تعرفهم بملامحهم النفسية، بخلجات نفوسهم وخفقات قلوبهم ورفرفة أرواحهم.

البشر الذين تعبر وجوههم عن فكرة أو إحساس أو تطلع.

البشر.. كما عرفتهم البشرية منذ ألوف السنين!

ليس لهؤلاء وجود.

آلات دقيقة في النهار.. وحيوانات هائجة في الليل.

حيوانات فارهة.. تريد أن تستعمر العالم!

وذلك أقصى ما بلغته الحضارة المادية في العصر الحديث، ونموذج للعالم "المتأخر" كله يتحذيه.

حقا. إن هذا هو عصر الآلة!

* * *

لقد سيطرت الآلة على الحياة الإنسانية كلها في العصر الحديث، وطبعتها بطابعها المنظم الجامد المرتب البليد.

ولقد يخطر لهواة التفسير المادي للتاريخ أن يرفلعوا رءوسهم منتصرين ويقولوا في ظفر أبله:

ألم نقل لكم؟ إنه ليس ثمة كيان ثابت اسمه الإنسان. وإنه يتأثر بالوسط المادي الذي يعيش فيه فيطبعه بطابعه المحتوم؟!

ونقول لهم أولا: إن هذا النصر يحمل في أطوائه الهزيمة، لأن معناه أن "التقدم" الصناعي الذي يتعبدونه نكسة بشعة في حياة البشرية، تهبط بها إلى مستوى الحيوانات والآلات. وهي —لو كانوا صادقين في دعواهم– نكسة محتومة تصيب كل البشر، وليس لهم من مفعولها فكاك.

ثم نقول لهم ثانياً: إن هذه النكسة لم تكن حتما على البشرية. وإنما هي أصابت الإنسان باختياره حين تخلى عن عقيدته وتخلى عن إلهه.

هذه الضآلة التي أحس بها الإنسان إزاء الآلة. فسيطرت عليه بالتدريج، وحولت حياته إلى نسق آلي بليد.. سببها الأصيل أن الإنسان قطع صلته بكل قوة خارج نطاق الأرض، خارج العالم المحسوس.

ومن هنا أصبحت الآلة قوة ضخمة بالنسبة إليه. وصار هو قزما ضئيلا يتعبدها، ويخضع بوعيه أو بغير وعيه لإرادتها.

ولو لم يقطع صلته بالقوة الكبرى.. القوة التي تسيطر على كل قوى الأرض، وتوجه كل قوى الأرض..

لو لم يقطع صلته بالقوة الكبرى التي يستم هو منها قوته وكيانه، وحسه ووجدانه..

لو لم يفعل ذلك ما استعبدته الآلة، وما أحسن بجوارها أنه صغير.

كان اتصاله بالقوة الكبرى الخالقة الموجهة، سيمنحه القوة التي يحارب بها سلطان الآلة، أو يخضعها لسلطان نفسه، فيتحكم فيها وفق ما يريد.

كان سيصبح هو –كما كان من قبل– سيد الآلة: السيد المسيطر الموجه المريد. فلا تفقد نفسه مرونتها بمصاحبة الآلة الجافية، لأن قوة حية كانت ستظل في نفسه ذات رصيد. ولا تفقد روحه صفاءها المشرق من طنين الآلات الأجوف، لأن قوة عليا كانت ستمدها بمدد مذخور.

والنفس لا تتحقق قوتها بالوسائل المادية فحسب. فللقوة رصيد نفسي متحرك، ورصيد روحي منطلق لا يعرف الحدود.

والنفس السوية تحقق رصيدها من القوة بكل هؤلاء.

بالوسائل المادية للنفع القريب الذي ينظم حياة كل يوم.

والمشاعر النفسية التي تنظم علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته بغيره من الأفراد.

وانطلاقة الروح التي تفسح الحواجز كلها، وتغمر النفوس بالنور، وتصلها بخالقها في ومضة من ومضات الشفافية، فتتصل بالمدد الأزلي الخالد، فتقبس منه قبسا من الخلود.

حينذلك يسيطر الإنسان على كل قوى الأرض، ويحس –وفيه النفخة الإلهية المعجزة– أن كل ما في الأرض مسخر له، فلا يدع الآلة تكيف له حياته وتهبط به إلى الحيوانية الآلية الهابطة.

ولا شفاء للناس في العصر الآلي –أو العصر الذري المقبل– إلا في رحاب العقيدة. العقيدة التي ترفعهم من وهدتهم، وترد لهم كيانهم، وثقتهم بأنفسهم، فيكيفون مشاعرهم كما ينبغي للإنسان "المتطور" نحو الصعود، وكما ينبغي للمخلوق الذي كرمه خالقه ونفخ فيه من روحه.

والعقيدة الإسلامية التي تشمل الجسد والعقل والروح، وتربطها برباط واحد متصل بالله، هي وحدها التي تحقق للنفس رصيدها الكامل من القوة، وهي وحدها التي تستطيع أن تنقذ العالم من هبوطه المدمر الرهيب.

القرية والمدينة

وكذلك الشأن في قصة القرية والمدينة..

فهواة التفسير المادي للتاريخ يعتقدون أن للقرية أخلاقاً وطابعاً معيناً للحياة، وللمدينة أخلاقاً أخرى وطابعاً آخر.. وبينهما برزخ فلا يلتقيان.

وذلك قول فيه كثير من الحق.. وكثير من المغالطة الناشئة من استنباط الأحكام من بيئة معينة وجيل معين، ومحاولة تعميمها على كل البشرية.

أهل القرية أقرب أن يعرفوا الله ويستشعروا وجوده..

فصناعتهم الرئيسية هي الزراعة.

والفلاح يضع البذرة في الأرض، ثم ينتظر بشأنها كلمة السماء!

وهو لا يستطيع –مهما كانت رغبته الخاصة– أن يتصرف في نمو النبتة –إلا في حدود ضئيلة– فعليه أن يصبر عليها حتى تنبتها القوة الخفية التي لا يعلم من سرها شيئا إلا ما يراه من مظاهرها. والعلم ذاته لا يعرف من أمر هذه القوة الخفية أكثر من ذلك. ثم عليه أن يترقب تطوراتها المتوالية من إيراق وإزهار وإثمار ونضوج، وهو لا يملك أن يغير ترتيبها، أو يستعجلها أو يبطئها أو يتصرف بشأنها إلا في حدود قليلة.

إنه يعيش في ظل هذه القوة الخفية معظم حياته. وهو يتعامل معها مباشرة في عمله الرئيسي منذ أن يضع البذرة في الأرض حتى يسترد الثمار في نهاية المطاف. والثمار ذاتها مرهونة بمشيئة هذه القوة الخفية نوعا وكما.. إن شاءت هذه القوة أنجتها من الأعاصير والآفات وتقلبات الطقس، وإن شاءت سلطت عليها هذه القوى جميعاً. ومهما يصنع الفلاح من احتياط، ومهما تساعده "الدولة" أو يساعده "العلم" فهو يحس في أعماق ضميره بأن تلك القوة الخفية التي يجهلها ولكنه يرى مظاهرها وآثارها..هي التي تكيف حياته تكييفا مباشراً وتتحكم في مصيره.

ومن هنا يتدين..

وسواء اهتدى إلى الدين الحق، أم تاهت به الظنون في جاهلية مضلة..

وسواء أدى طقوس العبادة التي يؤمن بها بانتظام وإخلاص، أم تكاسل عنها أحيانا، وانصرف عنها أحيانا أخرى.. فهو في معظم حالاته متدين، يستشعر في ضميره وجود القوة الكبرى الخالقة، ويرى بحسه آثارها، ومدى تعلق حياته بإرادتها الخفية وآثارها الظاهرة.

وأهل المدينة –الصناعية خاصة– أقرب ألا يعرفوا الله أو يستشعروا وجوده.

العامل يتعامل مع الآلة، ولا يتعامل مع الأرض.

هو يديرها بنفسه، أو تدار أمامه. وهو ينتج بيديه المادة المصنوعة أو يشارك في إنتاجها.

العملية كلها مكشوفة أمامه. ودوره في الإنتاج بارز ملموس.

وحتى حين تعقدت الآلة فلم يعد العامل يدرك كل "أسرارها".. وحتى حين تضاءل دوره من الإنتاج الكامل إلى القيام بجزء ضئيل تافه من مجموع عملية الإنتاج.. حتى عندئذ ظل العامل يحس أن عملية الإنتاج عميلة بشرية خالصة، لا تخضع –في الظاهر– لإرادة القوة الخفية التي تنبت الحب من الأرض، وإنما تخضع لإرادة بشر أو مجموعة من البشر، أو تخضع للكيان المادي الخالص الذي يكيف الإنتاج.

ومن هنا لا يتدين..

لأنه يتخيل أنه يصنع حياته بنفسه، ويكيفها كما يشاء.

فإذا تعقدت عملية الصناعة، وسلب حرية الإنتاج وحرية تكييف حياته، لم يتدين رغم ذلك، وإنما راح يتعبد السلطة التي حلت إرادتها مكان إرادته؛ لأنه يتعامل في معظم حياته مع قوة ظاهره وسلطات ظاهرة، لا مع القوة الغيبية التي لا تدخل المصنع –في ظاهر الأمر– ولا تدير آلاته!

ذلك مزهر يتعلق بباطن النفس.

وثمة مظهر آخر يتعلق بنظام المجتمع.

فأهل القرية بطبيعة عملهم، وقلة عددهم، وانحصار حياتهم في محيط ضيق محدود.. قوم متعارفون متعاونون. تشملهم روح المودة والقربى أو –على الأقل– تغلب على حياتهم هذه الروح.

وأهل المدينة —الصناعية خاصة– لا تربطهم مثل هذه الروح، فهم في أعمالهم أفراد لا تربطهم إلا رابطة العمل —رابطة قضاء ساعات يومية في عمل صامت ممل رتيب وسط طنين الآلات الأجوف، أو وراء المكاتب الصامتة البليدة. وهم بحكم كثرة عددهم لا يستطيعون —حتى لو أرادوا– أن يكونوا متعارفين على طريق أهل الريف، ولذلك يعيشون في "شقق" منفصلة لا تعرف كل شقة عن جارتها شيئا، ولا يهمها شأنها في شيء.

وإذا كان التعاون ضرورة بشرية لا يمكن الاستغناء عنها، فهو في المدينة —الصناعية خاصة– يأخذ صورة "عملية" منظمة تقوم بها الدولة (على أسس علمية!) ولكنها لا تقوم على أسس شعورية مباشرة، ناشئة عن العلاقة القلبية الحية التي تربط قلبا بقلب، وإنسانا بإنسان.

* * *

تلك حقائق مشاهدة في واقع البشر.

ونحن —كما صنعنا في قصة الإنسان والآلة– نؤمن بأن ذلك واقع. ولكننا لا نؤمن به على أنه الأمر الوحيد المحتوم الذي لا حيلة للناس في وقوعه، ولا سبيل لهم إلى تغييره.

فالإنسان —كما قلنا هناك– ليس قوة سلبية تنطبع بالوسط المادي دون إرادة أو اختيار.

وإنما هو يصبح كذلك حين يختار أن يتنازل عن إرادته، وموقفه الموجّه من الحياة والأشياء، ويترك نفسه معرضة للمؤثرات دون وقاية ولا عزيمة ترد بعض هذه المؤثرات.

أما حين يختار أن يكون إنسانا، فلن تقف أمامه "المادة" بوصفها قوة جبرية تحتم عليه سلوكا معينا، وتفرض عليه نظرة معينة للحياة والأشياء.

والدليل على أن الوسط المادي ليس هو صاحب السلطان، والدليل كذلك على أن للبشر جميعا –زراعيين أو بدويين أو صناعيين– كيانا مشتركا هو "الإنسان"، وأن البيئة قد تبرز بعض جوانب هذا الكيان أو تهملها، ولكنها لا تنشئها من العدم، ولا تقتلها أو تزيلها من مكانها..

الدليل على هذا وذلك أن المدينة قد تتدين تدينا عميقا رغم طابعها الصناعي الملحد.

وأن القرية قد تلحد رغم ما تدفعها إليه البيئة من استشعار دائم لوجود الله!

ولدينا أمثلة لما نقول.

فاليابان أمة صناعية ناهضة، تهدد بإنتاجها غرب أوروبا وأمريكا. وهم مع ذلك أمة ذات عقائد عميقة الجذور في نفوسهم لم تستطع الصناعة، ولم تستطع قوات الاحتلال الأمريكية أن تنزعها من قلوبهم رغم أنها حرمتها بقانون!

والأمر في اليابان عجيب.. فلو أنها تؤمن بعقيدة سماوية مفهومة، يقبلها العقل كما يطمئن إليها الوجدان، لما كان هناك —من وجهة نظرنا– عجب في قيام العقيدة مع الحركة الصناعية. أما وهي تؤمن بخرافات وثنية لا تثبت للمنطق ولا تتمشى مع طبيعة العقل المثقف، فالأمر أعمق من أن يكون قضية منطقية أو قضية علمية! فهي قضية تلك النفس البشرية العميقة التي لا يستطيع العلم أن يصل لكل أغوارها مهما زعم أنه يستطيع.

والقرية المصرية التي تدينت منذ عشرة آلاف عام، وتقلبت على شتى العقائد من فرعونية ومسيحية وإسلامية.. قد بدأت في السنوات الأخيرة تلحد، وتعتنق فلسفة مادية في بعض الأحيان. وبدأت الروابط بين أهلها تتفكك، والأثرة الجافية تحل محل التعاون القلبي الودود.

وصحيح أنه إلحاد غير عميق الجذور. وأن ظروفا عارضة قد كفرتهم من دينهم.. إلا أن "حتمية" القوانين الاجتماعية التي يفترضها العلماء لم تكن لتسمح لهم بالإلحاد، مهما تكن ظروفهم، ما داموا لا يزالون يعملون في الزراعة —خاصة وهي زراعة بدائية لا تعتمد على الآلات– ولم يتحولوا بعد إلى عمال أو صناع! أي لم يتغير الوسط المادي الذي يعيشون فيه، ويكيف لهم —في زعم هؤلاء العلماء– أفكارهم ومشاعرهم وعقائدهم وسلوكهم.

ثم هذا الخبر العجيب الذي نشرته إحدى المجلات الأمريكية (Time عدد 15 مايو سنة 1945) عن تعديل القسم الذي يقسمه المواطن الأمريكي ويتعهد فيه بالإخلاص لراية الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أضيفت إليه كلمة "في ظل الله" لأول مرة منذ إنشاء هذا القسم. أي منذ مائتي عام.

لست أصدق أن هذا الجيل من الأمريكان يمكن أن يتدين.

ولكنها إشارة واضحة الدلالة، تشير إلى مستقبل الأجيال! وهي إشارة ذات دلالة خاصة حين تجيء من أمريكا التي لا قلب لها ولا روح، والتي تعيش في حيوانية آلية لم يهبط إلى مثلها البشر في تاريخهم الطويل[1]!

* * *

كلا! ليست هناك قوالب حتمية للنفس الإنسانية. وليس الوسط المادي هو صاحب السيطرة والسلطان.

وليس من الحتم أن يكون سكان المدينة ملحدين!

والمدينة الإسلامي خاصة لا يمكن أن تلحد. ولا يمكن أن تدع الوسط المادي يفسد عليها روحانيتها الصافية ومشاعرها القلبية الودود. فإن إيمانها بالله يرفعها من هذه الوهدة الهابطة، ويرسم لها طريق الصعود كما أن إيمانها بالله يربط قلوب سكانها برباط الود. حتى لو استحال عملياً أن يعرف كل فرد كل فرد، فإنه يكفي أن يتعرف أهل كل حي متقاربين، ثم يسود السلام والإخاء بين غير المتعارفين: (**وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**)... ".. **وألق السلام على من تعرف ومن لا تعرف**". تلك آداب الإسلام التي أوصى بها الله والرسول.

ولقد رأيت عمالاً وصناعاً مسلمين. أعني مسلمين حقاً!

رأيتهم يخرجون من عملهم المرهق الذي يتعاملون فيه مع الآلة الصاخبة الصماء، ومع عملية الإنتاج الصناعي المكشوفة للعين البشرية الخالصة في ظاهر الأمر..

رأيتهم يخرجون من عملهم فلا يصخبون كما يصخب زملاؤهم الذين خلت قلوبهم من العقيدة، والذين لا يجدون في نفوسهم الرصيد الروحي الذي يخففون به عن أعصابهم وأرواحهم وقع العمل المرهق الكابت لدفعة الانطلاق، فيعوضونه بالضجيج المفتعل المزعج، يثبتون به وجودهم، ويعلنون به حريتهم، كما يعلنها البعد الآبق من القيود!

---

[1] – كتبت هذا في الطبعة الأولى. وقد جاء في الأنباء الأخيرة أن العلماء السوفييت –بعد الرحلات الصاروخية الأخيرة– قد بدءوا يؤمنون بالله!

رأيتهم مطمئنة قلوبهم ونفوسهم إلى ذكر الله. فهم لم ينسوه في المصنع. لم ينسوا أن الآلة الضخمة الدائرة ليست إلهاً! وإنما هي أداة سخرها الله للإنسان، ليزداد بها قوة، ثم يحمد الله على آلائه ونعمائه بالصلاة والشكران.

ورأيتهم يشعرون بالأخوة الحقة في الله. فيتزاورون، وتتزاور أسرهم. ويتبادلون المعونات الفردية حين يحتاجون إليها. فإذا أغنتهم الدولة عنها —أو المصنع —فهم على صلاتهم رغم ذلك لا يقطعونها، ولا يتباعد بعضهم عن بعض بدافع التباغض أو العزلة والانطواء. أو بدافع عدم الإحساس بالرابطة التي تربط بني الإنسان.

رأيتهم فأدركت أن المدينة الإسلامية —الصناعية– لا يمكن أن تلحد، لأن العقيدة أقوى من المادة، وهي وحدها صاحبة السلطان!

وكان خاطر قد ألمّ بي ذات يوم فأزعجني على مستقبل البشرية!

إن المدنية الغربية المجنونة تحطم اليوم حياة القرية وتحولها إلى مدينة. مدينة ملحدة جافية على ما هو موجود لديهم هناك. ويصنعون ذلك باسم "تمدين" القرية أي رفع مستواها!

والقرية في أمريكا خاصة ليس لها وجود. فهي مزارع منعزلة، تسكن في كل مزرعة أسرة أو مجموعة قليلة من الأسر ولكنها تعيش على طريقة المدينة المنعزلة التي لا تجمع بنيها مودة القلب، ولا الأخوة في الله.

وكان ذلك متمشيا —هناك– مع إدخال الآلة في الزراعة، فقد تحولت حياة الريف من صفتها "البشرية" إلى صفتها "الآلية" فتطورت القرية بحسب منطق الآلة في تلك البقاع. وأزعجني هذا الخاطر..

إن بذرة الخير الإنساني كانت ما تزال باقية في تربة الريف، حيث يستشعر الناس آثار القوة الكبرى الخالقة ويؤمنون بوجودها. فهل كتب على هذه البشرية الضالة أن تلاحق هذه البذرة الطيبة بالمبيدات الصناعية حتى في أحضان الريف؟

هل كتب عليها أن تطارد الخير، وتقطع روابط المودة، وتبعثر الناس أفراداً متفرقين، لا يلتقون إلا على مصلحة قريبة أو شهوة جسد منهوم؟

وهل هذا هو مستقبل البشرية مع "التقدم" العلمي الذي لا يمكن وقفه عن طريقه، لأن وراءه شهوة البشر الخالدة في كشف المجهول وتحقيق الرصيد النفسي المتطلع إلى القوة من كل سبيل..؟

ثم تذكرت المدينة الصناعية اليابانية.. وتذكرت القسم الأمريكي الجديد..

فضلا عن المدينة الإسلامية المنشودة..

كلا! ليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج على مستقبل البشرية.

إن كل الدلالة التي يمكن أن نستخرجها من هذا الواقع السيء الموجود اليوم، والذي ينذر بإفساد المستقبل.. هي حاجة البشرية الماسة إلى العقيدة.

وحين توجد العقيدة توجد "الإنسانية". ويوجد الخير الذي يتمثل في تلك الكلمة الخالدة. خالدة لأن فيها قبسا من الله الخالد الذي نفخ فيها من روحه وأراد لها الارتفاع!

حضارة الكيلوواط!

قال لي أحد الشيوعيين مرة وهو يجادلني: إن مقياس الحضارة الحديثة هو مقدار ما يستهلكه الفرد من التيار الكهربائي! فبقدر ما يستخدم من آلات حديثة تستهلك تياراً كهربائياً تقاس حضارته، وقد بلغت حضارة أمريكا كذا كيلوواط في المتوسط لكل فرد، ولم تبلغ بعد في روسيا هذا الرقم، ولكنها في طريقها إليه لأن استهلاك الفرد هناك يرتفع بسرعة سنة بعد سنة.

قلت له: ولكن هذا معناه –بمقياسك– أن الشيوعية ما تزال متأخرة عن الرأسمالية، فكيف يتفق هذا مع كونها –في رأيك– حركة تقدمية عن الرأسمالية؟

وفوجئ محدثي الشيوعي بهذا القول مفاجأة تامة، وبدا عليه الذعر! لأن المقياس الذي يتخذه لقياس الحضارة قد خذله على حين غرة منه؛ وراح يحاول التخلص من المأزق بأن يقول: إن الشيوعية لم تأخذ مداها بعد، وحين تصل إلى قمتها ستفوق الحضارة الأمريكية.

قلت له: لا تهرب! أنا أسألك عن الفكرة الشيوعية ذاتها: أأرقى هي من الرأسمالية الأمريكية حتى قبل أن تبلغ قمتها، أم هي متخلفة عنها؟

وسكت.. فلم يهتد إلى جواب!

ثم قرأت حديثا جرى بين إحدى الأمريكيات اللواتي يزرن مصر، وبين إحدى الصحفيات عن مقياس الحضارة رددت فيه الأمريكية نفس الكلام. قالت إننا نقيس الحضارة بالكيلوواط! فبقدر ما يستهلك الفرد من التيار الكهربائي تقاس درجة تحضره!

* * *

لماذا ينحرف الناس هناك هذا الانحراف؟ لماذا تختل القيم في موازينهم إلى هذا الحد الذي يثير السخرية حين يتمعن فيه الإنسان؟

إنها المقاييس الخاطئة تؤدي حتما إلى النتائج الخاطئة. وبقدر ما يكون الخطأ في المقاييس يكون الانحراف في النتيجة.

والمسألة إذن في حاجة إلى تصحيح القيم.. تصحيح المقاييس.

* * *

كيف نقيس الإنسان؟

هل هناك مقياس "موضوعي" لا يخضع لرأي ورأيك، بل يعتمد على أسس ثابتة يمكن الرجوع إليها لتصحيح المقاييس كلما اختلت في أيدي البشر؟[1].

فلننظر في هؤلاء "البشر". كيف أصبحوا بشرا. فلعلنا أن نصل –عن هذا الطريق– إلى المقياس الصحيح.

وأسهل طريق نصل منه إلى النتيجة، وهو كذلك أضمن طريق، أن نوازن بين الإنسان والحيوان. فالفرق المتبقي في الميزان هو حقيقة الإنسان!

والفروق بين الإنسان والحيوان كثيرة لا نظنها تحتاج إلى جدل كثير.

أحد الفروق بطبيعة الحال أنه يستخدم "عقله" في التفكير والتعلم والاختراع.

وأحد الفروق كذلك أنه يستخدم الإرادة الضابطة في تنظيم ميوله الفطرية وتوجيهها ذات اليمين وذات الشمال.

ومن هذا الفارق الأخير، أو من كليهما معاً، كف الإنسان –على مدار الزمن– عن الاستجابة المباشرة لميوله الفطرية على طريقة الحيوان، وراح ينظمها ويهذبها، ويستجيب لها آخر الأمر ولكن بعد أن يقطع بها شوطا بين المنبع والمصب. وعلى ضفاف هذا الشوط من المنبع إلى المصب نبتت الفنون والعقائد، والأفكار والفلسفات، والعادات والتقاليد، كالزهور الجميلة تنبت في وسط الطين، ولكنها شيء آخر غير الماء والطين.

إلى هذا الحد يتفق الناس في حكمهم على الإنسان. فنكتفي إذن بهذا القدر، ولا ضرورة الآن لذكر الروح، ما دام الناس غير متفقين على أنها من مزايا الإنسان التي تفرقه عن الحيوان!

وإذن فحين نتحدث عن الحضارة "الإنسانية" ينبغي أن نرجعها إلى مقاييسها تلك البديهية الظاهرة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان، وإلا فستكون مقاييسنا خاطئة قاصرة لا تصل بنا إلى الجواب الصحيح.

---

[1] – أشرنا إلى هذه الفكرة من قبل في فصل "مقياس الحياة" وهنا نقيس الحياة من زاوية أخرى. وهذه الفكرة مكملة لتلك.

العلم.. والاختراع.. لا شك أنهما إنتاج إنساني أصيل. فالحيوان لا يخترع، ولا يحسن أن يكيف حياته على أساس الاستفادة الواعية مما حوله من ذخائر الوجود.

ولكن القياس بهذا المقياس وحده لا يكفي، ولا يؤدي إلى نتيجة صحيحة.

تصور أنك تحاول رسم دائرة بفرجار (برجل) ذي قائمة واحدة! هل يمكن أن تصل إلى نتيجة؟ أم إنه لا بد من القائمتين معاً، تركز بإحداهما في مركز الدائرة وتدور بالأخرى على الورقة حتى يتم الرسم؟

العلم أو الاختراع.. هو إحدى قائمتي الفرجار. ولكنه وحده لا يعني شيئا ولا يرسم صورة.

فالعلم يمكن أن يستخدم للخير وللشر. ويستخدم في التدمير ويستخدم في البناء.

والعلم يمكن أن يستخدمه الرجل الفاضل والرجل المنحرف. فأنا أستطيع أن أستخدم الغسالة الكهربائية في بيتي وأنا رجل هابط منحرف، أكيد للناس وأتمنى لهم الشر —سواء نفذت هذا الشر في صورة جريمة أم بقى إحساسا كامنا في نفسي- كما أستطيع أن أستخدم هذه الغسالة الكهربائية وأنا رجل نظيف المشاعر أحب للناس الخير وأسعى لهم في الخير.

فإذا كنت أستخدمها في الحالتين فكيف تصلح في ذاتها أن تكون مقياسا لإنسانيتي أو تحضري؟

والغسالة الكهربائية شأنها شأن المحراث الميكانيكي، وشأن الراديو والتليفزيون والسينما والمطبخ الكهربائي والقطار الكهربائي والإنسان الآلي والمخ الإلكتروني.. إلى آخر هذه الآلات التي تعمل بالكهرباء وتستهلك الكيلوواط! لا يمكن أن تكون في ذاتها مقياسا للحضارة ولا مقياسا للآدمية، لسبب بديهي بسيط هو أن الجميع يستخدمونها، بما فيهم من خير وشر، وصعود وهبوط. وإذن فلا تصلح لقياس الصعود والهبوط في مقاييس الإنسانية.

وإنما هي تصلح حين نضيف إليها القائمة الأخرى من قائمتي الفرجار، لترتسم الدائرة وتتضح الصورة للعيان.

قلنا إن الفارق بين الإنسان والحيوان —إلى جانب العلم والاختراع- هو تحكمه في نوازعه الفطرية، وعدوله عن الاستجابة المباشرة إليها، مما نشأ عنه الفنون والعقائد، والفلسفات والأفكار، والتقاليد والعادات.

تلك هي القائمة التي ترسم الدائرة. أما الأخرى فهي فقط محور الارتكاز. وعلى قدر المسافة التي أفتح بها القائمة الثانية تكون الدائرة ضيقة أو واسعة، محدودة أو شاملة. بينما القائمة الأولى ثابتة في جميع الأحوال في نقطة الارتكاز.

فعليّ إذن حين أبحث في مدى حضارة إنسان معين، أو شعب معين، أن أرى الدائرة التي يعيش فيها. الدائرة التي يرسمها لنفسه بقائمتي الفرجار.

فإذا كان هذا الفرد أو هذا الشعب يستخدم التليفون والتليفزيون والغسالة الكهربائية والمطبخ الكهربائي... ويستهلك أكبر قدر من الكيلوواط في اليوم، ثم يكذب وينصب، ويستغل الآخرين أسوأ استغلال، وتفوح من تصرفاته روح الغدر والخيانة، والأنانية البغيضة.. أو إذا كان يستهلك هذا القدر من الكهرباء، ثم يتنازل عن آدميته، عن فنونه وعقائده، وآرائه وفلسفاته، وتقاليده وعاداته، ويرتد كالحيوان يستجيب لميوله الفطرية استجابة مباشرة.. فكيف أقول إنه متحضر، بل كيف أقول إنه إنسان؟!

وما قيمة هذه الكيلوواطات كلها، وهي لا ترفع مشاعره إلى إحساس نبيل، أو رغبة في التعاون مع بني البشر على الخير؟

أمريكا هي البلد الذي وصل إلى القمة في استهلاك الكهرباء..

وأمريكا هي التي تعامل الزنوج تلك المعاملة البشعة التي لم يُسمع عنها إلا في شريعة الغاب.

فكيف تكون أمريكا متحضرة، ولو استهلكت من الكهرباء أضعاف ما تستهلكه اليوم بحساب الكيلواواط؟!

* * *

وإذا كان العلم والاختراع شيئا مشتركا، أو يمكن –على مدار الزمن– أن يكون مشتركا بالنسبة للجميع، فالمقياس الآخر إذن هو الذي يحدد النتيجة ويرسم الصورة.

الآدمية.. أو الحيوانية..

الارتفاع عن عالم الضرورة أو الهبوط إليه..

الإحساس بالآخرين على أنهم زملاء في البشرية، أو أعداء يجب تحطيمهم والاستئثار دونهم بطيبات الحياة، أو عبيد يستغلون لحساب سيدهم.

هذا هو المقياس.

وبقدر ما يرتفع الإنسان أو يهبط في هذا المقياس تكون درجة تحضره، لأنها درجة إنسانيته.

فالذي يغرق في شهواته ولذائذه لا يرتفع عنها. حيوان مرتد عن الإنسانية.

والذي ينبذ عقائده وتقاليده وأخلاقه.. حيوان مرتد عن الإنسانية.

والذي يسعى إلى إيذاء الآخرين من بني البشر... حيوان مرتد عن الإنسانية..

ولو استخدم كل آلات الأرض، واستهلك كل ما فيها من كهرباء.

والذي يكتفي من متاع الجسد بالقدر المعقول، ويملك حريته إزاء شهواته..

والذي يربط قلبه ووجدانه بعقيدة تقيه من الهبوط وترفع وجهه إلى السماء وهو يمشي بقدميه على الأرض.

والذي يحس بالكيان البشري للآخرين فلا يستعبدهم ولا ينابذهم ولا يستأثر دونهم بالخير..

ذلك هو الإنسان المتحضر، ولو لم يستهلك كيلوواطا واحدا من الكهرباء!

* * *

هل تلك مقاييس شخصية تقديرية؟

كلا! فقد رددناها إلى أصولها البسيطة، التي ينبغي أن ترد إليها، وهي الفوارق التي تفرق بين الإنسان والحيوان وكل مقياس لا يدخل هذه الفوارق في حسابه فهو مقياس خاطئ، لأنه لا يقيس حقيقة الإنسان، وإنما يقيس جانبا واحدا منه لا يعبر بذاته، وليس له وحده دلالة، وإنما يعبر فقط حين يتبين اتجاهه، ويُرسم له الخط الذي يسير فيه.

ومن هنا تبدو تفاهة المقاييس الغربية التي تقيس الحضار بالكيلو واط!

* * *

هل معنى ذلك أن ننفض أيدينا من ثمار التقدم العلمي ما دام ليس لها وزن في الميزان؟

كلا. لا أريد أن أقول ذلك.

فالعلم –كما قلنا– نتاج بشري أصيل. والاستفادة من ثماره، وتكييف الحياة على أساسها خصلة مميزة للإنسان، فإذا أبى الإنسان ذلك أو نكص عنه فهو لا يريد أن يستغل كل كيانه وكل طاقاته، وهو إذن ناقص الكيان.

ولكني أريد أن أثبت حقيقة مهمة:

إن الإنسان يستطيع في سهولة أن يعوض ما ينقصه في جانب العلم والاختراع، إذا كان غني النفس بالجوانب "الإنسانية" الأصيلة التي يرتفع بها عن عالم الضرورة، ويشعر بزمالة البشر في الإنسانية فيتعاون معهم على الخير المشترك للجميع.

ولكنه لا يستطيع بالعلم وحده أن يعوض ما ينقصه في الجانب الإنساني ولو أضاف كل يوم مائة اختراع جديد، ولو استهلك كل يوم ألف كيلوواط.

ومن ثم يكون المقياس الآخر هو المقياس الحاسم، ولا يكون الأول إلا "شيئاً" في الميزان!

* * *

وأوروبا اليوم تفسد مقاييس الحياة لأنها –اليوم– تملك السيطرة والسلطان!

ورب قائل يقول: وكيف ملكت القوة والسلطان؟ وكيف ملكت أن تفرض المقاييس الخاطئة على البشرية؟ أليس بالعلم والاختراع؟! وإذن فهذا هو المقياس!

وذلك حق يؤدي إلى باطل!

فامتلاك السيطرة ليس حتما أن يكون على حساب الإنسانية الحقة. وقد كان العالم الإسلامي في وقت من الأوقات يملك كل وسائل القوة المادية وكل ثمرات العلم، ومع ذلك

كان يرتفع في مقياس الإنسانية إلى الحد الذي شهد به أعداؤه من الصليبيين، وما يزالون يشهدون به في كتب التاريخ.

ومن جهة أخرى فإن امتلاك أوروبا للقوة المادية على غير رصيد نفسي نظيف قد أدى إلى هذا الصراع الرهيب في حربين متواليتين في ربع قرن، والثالثة على الأبواب تنذر بتدمير الحياة على وجه الأرض.

ويوم تصل البشرية إلى استخدام ثمار العلم في تهذيب النفوس والارتفاع على عالم الضرورة، فيومئذ فقط تكون قد ارتفعت حقا في مقياس الحضارة الأصيل.

النفاق الاجتماعي

النفاق في جميع صوره رذيلة منفرة، فهو عجز عن المواجهة، وضعف في الخلق والتواء في الطبع وخبث في الطوية...

والنفاق الاجتماعي، بمعنى التظاهر بالفضيلة في الوقت الذي لا يؤمن بها الإنسان أو لا يمارسها في الواقع، لا يخرج عن كونه نفاقا، ولا يخرج عن كونه رذيلة..

إلى هنا نتفق مع جميع الذين يكرهون النفاق ويدعون إلى إبطاله..

ولكنا نفترق عن بعضهم بعد ذلك.

* * *

النفاق هو المرحلة المتوسطة بين الفضيلة الحقة والرذيلة المكشوفة.

قوم لا يؤمنون بالفضيلة لأنهم يعجزون عن تكاليفها، أو لأن طباعهم الهابطة لا تأتلف معها، ولكنهم في ذات الوقت ضعاف الشخصية، لا يقدرون على المواجهة، فيتظاهرون بالفضيلة ليرضوا المجتمع، بينما هم يمارسون رذائلهم في الخفاء، هذا بطبيعة الحال إلى جانب الذين يتخذون من التظاهر بالفضيلة تجارة يصلون بها إلى مطامعهم الخبيثة، وهؤلاء ليسوا في حسابنا لأنهم يدخلون في طائفة الدجالين والمحتالين ومن إليهم من المجرمين. ولكنا هنا نتحدث عن الفرد العادي الذي لا ينافق لغرض خبيث يهدف إليه، وإنما مجاراة للمجتمع دون إيمان حقيقي بما يأتيه من الأفعال.

والخروج من هذا النفاق لا يتم إلا بإحدى وسيلتين:

إما الإيمان الحق بالفضائل التي يمارسها الإنسان نفاقا، والصبر على تكاليفها في السر والعلن، ومغالبة النفس عن الانحراف عنها..

وإما الخروج الصريح عليها، والقيم علانية بالرذائل التي يأتيها الإنسان في غفلة من الناس.

والأمر الذي نحسبه لا يحتاج إلى جدال هو أن الوضع الأول هو الوضع اللائق بكرامة الإنسان، الذي كرمه ربه وفضله على كثير ممن خلق، وهداه الطريق الأسمى، ورسم له سبيل الفلاح.

ولكن قوما يقولون إن هذا غير ممكن. والإنسان ليس فاضلا بطبيعته، وإن هذه المثل الأخلاقية مُثل نظرية لا يمكن تطبيقها في الواقع؛ وإذن فلا ضرورة لنفاق، ولنكن صرحاء، ولنتكاشف برذائلنا. أو فلنكف عن تسميتها رذائل، فإن ذلك نفسه نفاق؛ ولنسمها الأمر الواقع، ولا نتحرج من الظهور بها على حقيقتها. ولنتشجع. فإن ذلك هو اللائق بالإنسان المتحرر من سخافة التقاليد أو من خرافة الفضيلة!

وهؤلاء هم الذين لا نستطيع أن نوافقهم!

* * *

لقد نشأت هذه النظرة في أوروبا في العصر الحديث من ظروف شتى.

أولها أن المثل المسيحية المتعالية المتزمتة عسيرة التطبيق حقاً. فهي تكلف الإنسان فوق طاقته وقد وجد أهلها أنهم لا يستطيعون تنفيذها كاملة إلا بالرهبنة، أي الانقطاع الكامل عن العالم الحي المتحرك الجياش بالحركة والحياة. ثم انكشفت الأديرة ذاتها عن فضائح خلقية بشعة، تستنكر من الشخص العادي، فضلا عن الشخص المنقطع للعبادة، الكاظم لشهواته، المتطلع –على طريقته– إلى السماء.

وقد مر جيل أو أجيال من الناس فيها بالمثل المسيحية حقاً، ثم ثقلت عليهم تكاليفها وعجزوا في الوقت ذاته عن الخروج الصريح عليها، من أثر النفوذ الذي يمارسه رجال الدين، ومن أثر الاستحياء من الظهور بمظهر الضعف والعجز و... ما إلى ذلك من الأسباب، فنافقوا، أي تظاهروا بأنهم فضلاء، وهم في الواقع لا يطيقون تنفيذ الفضيلة بمفهومها لديهم، أو لا يريدون ذلك.

ثم جاء فرويد.. وارتكب جريمته العظمى التي تكشف عنها بروتوكولات حكماء صهيون، إذ يقول هؤلاء الحكماء: "إن فرويد واحد منا. وينبغي أن ننشر تعاليمه بكل قوتنا. يجب أن نضع الرذائل الإنسانية تحت الشمس حتى لا يستحي أحد من كشفها. وحتى تتحطم الفضيلة فيتاح لنا التغلب على البشرية".

جاء فرويد ليقول إن الفضيلة كلها كذب وزور وخداع. وإن الإنسان في حقيقته ما هو إلا طاقة جنسية غالبة قاهرة مندفعة كالحيوان. وإن إقامة الحواجز في طريقها من خلق أو دين أو عرف أو تقاليد لا ينظفها ولا يهذبها، وإنما هو فقط يكبتها، أي يمنعها من الظهور على السطح، ولكنها باقية على حالها في اللاشعور، تحرك الإنسان دون أن يدري أو يحس، فضلا

عن العقد النفسية والاضطرابات العصبية التي تصاحب هذا الكبت ولا تترك الإنسان في راحة.

وقعلت تلك الدعوة فعلها الخبيث المقصود.

وانفلتت أوروبا من تزمت المسيحية إلى إباحية فرويد.. انفلتت كالحيوان الهارب من القفص يأكل كل شيء في طريقه، ويحطم كل شيء في طريقه. ليشعر أنه طليق.

وفي ظل هذه "الهيجة" المنطلقة بلا تعقل ظهرت آراء و"فلسفات" ومعتقدات جديدة، تسير في نفس الخط الذي رسمه فرويد، تقول إن ما يسمى بالفضيلة ليس إلا وهما أو خرافة نادت بها الأديان، واتبعها الناس تحت سلطان الدين والخرافة. اتبعوها نفاقا فقط، ولكنهم لم يؤمنوا بها قط ولم ينفذوها قط، فينبغي إذن أن "نتحرر" من هذه الخرافة، وأن نتبع "النور" الذي أتى به علم النفس، فنعرف نفوسنا على حقيقتها، ونتكاشف بها على طبيعتها، لا يمنعنا من ذلك حرج زائف ولا تزمت كاذب. ولنقل لأنفسنا صراحة إننا شهوانيون، وإن الشهوة هي حقيقتنا العميقة المتأصلة.. ثم لنكن شهوانيين على المكشوف بدل الخداع والنفاق واللف والالتواء...

وتمادى هؤلاء إلى حد المغالطة المكشوفة والاستدلال المفتسر الذي لا يخضع لمنطق ولا يثبت لبرهان.

قالوا إن الإنسان حين يكون وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له، يتخلى عن فضائله المزعومة، ويتصرف على طبيعته. فهو لا يتحرج أن يأتي بأي عمل من الأعمال التي تنافي مفهوم الفضيلة عند ذلك الشخص ذاته. ولكنه في اللحظة التي يحس فيها وجود أحد يسرع فيداري طبيعته.. يلبس ويتحشم ويتأدب ويتخذ سلوكا جديداً كله مفتعل.. من أجل الآخرين!

وقالوا إن التزمت والتستر وإقامة سدود سميكة من الدين والأخلاق والتقاليد لم يمنع من وجود إباحيين متحللين إلى أقذر حد يختفون داخل مسوح الفضيلة ويصنعوا كل شيء في السر، ولم يمنع من وجود نساء متهتكات إلى أقصى حدود الفجور وهن داخل الأسوار ووراء الحجاب.

وكلتا القولتين حق يراد به باطل.

فصحيح ولا شك أن الإنسان وهو وحده يتخفف من كثير من القيود التي يلتزمها وهو موجود مع الناس. ولكن لماذا نسمي ذلك نفاقاً، ولماذا نقول إنه شيء مفتعل، ليس في طبيعة الإنسان؟

فلنأخذ مثالا من الواقع، لا نتحرج من ذكره، لأنه واضح الدلالة على زيف هذا الاستدلال.

إن كل حي يخرج فضلاته عن طريق التبرز. والتبرز عملية قذرة في حد ذاتها لأنها تتصل بالأقذار التي يلفظها الجسم إبقاء على الحياة. ولكن الأمر الواقع الذي يلمسه كل إنسان بالتجربة أنه لا يتأفف من قذارة نفسه، ولا يشعر بالنفور من عملية التبرز التي يأتيها كل يوم. بل الأمر على العكس، فإنه من عجائب الخلقة ومعجزاتها الطريفة أن كل العمليات البيولوجية مصحوبة باللذة، تشجيعا للكائن الحي على القيام بها؛ حفظاً لذاته أو حفظاً لنوعه؛ ولولا هذه اللذة لتكاسل الكائن الحي عن أدائها، وربما أصيب بالضرر أو قضى عليه بالفناء.

فالذي يحدث إذن أن كل مخلوق يحس بلذة في إخراج فضلات نفسه، بينما يحس بالتقزز والنفور من رؤية فضلات غيره، لأنه يرى قذارة ولا لذة!

أفإن قام كل إنسان بإخراج فضلاته بعيداً عن أعين الناس ليمنع ما يحسون به من النفور والتقزز، أيقال عنه إنه منافق؟ ويقال إنه يصنع من أجل الناس ما لا يصنع من أجل نفسه؟ وإنه لو كان وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له لما قام بهذا الإجراء؟

أي منطق هذا؟

نعم إنه يصنع ذلك من أجل الناس. ولكن لماذا حدث ذلك؟ أليس لأن الناس قد وجدوا أنهم لو صنعوا أمام بعضهم بعضا ما يصنعونه في خلوتهم فستكون النتيجة أن يتقزز الناس جميعاً وينفروا جميعاً؟ أليسوا قد اتفقوا حينئذ أو تواضعوا على أن يداروا سوآتهم عن الآخرين ليمنع كل إنسان عن نفسه هو في النهاية ما يثير تقززه واشمئزازه؟ أليست المصلحة المشتركة إذن هي التي منعت كل إنسان أن يعمل في صحبة الناس ما يعمله في خلوته. المصلحة التي هي في النهاية مصلحة كل فرد بمفرده؟

أفيقال إن هذا نفاق؟!

والمسألة كذلك في "الفضائل" كلها، وإن كان الأمر مستويات فوق مستويات.

ولنأخذ المسألة الجنسية التي يدور حولها الجدل كله في هذا القرن العشرين.

الرغبة الجنسية رغبة أصيلة عميقة في الكيان البشري تمتد إلى أعمق جذوره. هذا حق.

وقد عملت الأديان والتقاليد والأخلاق على تهذيبها والارتفاع بها، ولكنها موجودة لا تزال، متأصلة في الأعماق. ذلك أيضاً حق. ولكن ما صلة ذلك بما يقولون وما يريدون؟

هل معنى ذلك في منطقهم أن يقوم الإنسان بهذا العمل بلا تحرج وأمام الناس؟ إنهم إن لم يقوموا ذلك كله علانية فقد قالوا معظمه، حين أباحوا العرى، وأباحوا التقبيل والعناق على قارعة الطريق، وأباحوا اتخاذ الخليلات والخلان، وأباحوا القصص الجنسية الحادة والصور المثيرة في السينما والمسرح والإذاعة والصحافة.. وأباحوا كل ما نراه اليوم بدعوى التحرر والواقعية والانطلاق، وما أشبه ذلك من هذيان المحمومين.

فلنرجع إلى هذه القيود كيف وضعت ولأي شيء وضعت.

يقولون إن البشرية الأولى كانت تمارس الشيوعية الجنسية كاملة أو قريبة من الكاملة.

ورويداً رويداً بطلت هذه الشيوعية الجنسية وعرف نظام الزواج، أي تخصيص رجل لكل امرأة وامرأة لكل رجل على تفاوت في هذا التخصيص.

هل حدث ذلك بلا سبب؟

هل استقرت الأمور على الإباحية الأولى وساد الوئام بين الناس؟

أم إن التنازع على "امتلاك" النساء قد أقام المذابح بين الرجال، بحيث وجدوا أن أفضل طريق هو أن "يحوط" كل إنسان على ملكه بحيث لا يتعداه غيره؟

ثم استقرت الأمور على ذلك آلاف السنين لا تضطرب إلا حين يقوم شخص عابث يتعدى الحدود. ووجد الناس أنه لا يأمن أحدهم على حدوده الخاصة إلا بأن يمتنع هو عن مهاجمة حدود الآخرين ولو كان راغباً في ذلك مشتهيا له.

فهل كان ذلك نفاقا؟

هل كان نفاقا وهو يؤدي في النهاية إلى الأمن المشترك والمصلحة المشتركة؟ يطمئن كل إنسان على أسرته ويمنع أذاه عن أسر الآخرين؟

وهل مغالبة الناس لشهواتهم –مع وجودها وتأصلها في نفوسهم– حرصا على المصلحة المشتركة، أو خوفا مما يصيبهم من الضرر لو انفلت القيد، يعتبر زورا وكذبا وخداعا لا يصنعه الإنسان إلا من أجل الآخرين؟

أي منطق هذا يصاب به مفكرو القرن العشرين؟

ثم ننتقل إلى العجيبة الثانية في تفكير أولئك العباقرة المحدثين..

إن الوقار والتزمت والقيود التي يفرضها الدين والأخلاق والتقاليد لم تمنع قيام المتهتكين في السر، ولا المتهتكات من وراء الحجاب.

نعم. هذه حقيقة. فماذا يراد من ورائها؟

يراد أن نلغي هذه القيود والتقاليد، ونتخلى عن الغفلة التي نعيش فيها مغمضي العيون!

لماذا؟ هل سيؤدي ذلك إلى تنظيف أولئك المتهتكين والمتهتكات، وردهم إلى الفضيلة؟

أم قصاراه أن يخرج إلى عرض الطريق ما يحدث من الخبائث وراء الجدران؟!

فلننظر إلى الأمر الواقع.. فلنترك النظريات البراقة.. فإنه يقال لنا إن مزية القرن العشرين هي التمسك بالواقع والتخلي عن الأوهام!!

هل الذي حدث في أوروبا وأمريكا أننا نظفنا النفوس ورفعنا الأخلاق ورددنا الناس إلى الفضيلة –عن طريق الحرية– أم أننا حولنا البيوت والفنادق والطرقات والشوارع كلها إلى مواخير؟

وماذا كان يصنع المتهتكون عندنا في السر والمتهتكات وراء الجدران، أكثر مما يصنعه "الفضلاء" هناك على المكشوف؟

أم إن العمل ذاته يعتبر رذيلة هنا وفضيلة هناك؟

وما الذي يريده السادة "المفكرون" هنا في الشرق على وجه التحديد؟

يريدون أن يطهروا نفوس الناس ويعودوهم على الفضيلة الحقة، الفضيلة الناشئة عن اقتناع في الضمير وتأصل في الوجدان؟ أم يريدون أن يخرجوا المواخير المستورة إلى الشارع، ويقولوا إن ما يحدث فيها هو الفضيلة، كما صنعت أوروبا وأمريكا في العصر الحديث؟

* * *

وليس هنا مجال الرد على فرويد وأتباعه من أن الإنسان سافل بطبعه مندفع أبداء وراء شهوته. وأنا إما الكبت المضر وإما الانطلاق وراء الشهوات.

ليس هناك مجال الرد، فقد أفردت له فصلا خاصا في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" كما ناقضت كثيرا من آرائه في أماكن متفرقة من الكتاب.

ولكني أعيد هنا في اختصار شديد ما قلته هناك عن نظرة الإسلام.

إن الإسلام لا يلجأ إلى كبت الطاقة الحيوية —جنسية كانت أو غير جنسية– بل يعترف بها اعترافا كاملا على أنها الأمر الواقع في طبيعة البشر: (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**). وإن كل ما يدعو إليه الإسلام هو تنظيف الاستجابة إلى هذه الشهوات —مع الاعتراف بنظافتها في ذاتها وأصالتها وأحقيتها الكاملة في الإشباع– وهدف هذا التنظيف في النهاية هو رفع الضرر عن الفرد والجماعة. وهو قائم في الحدود التي لا ترهق الفرد ولا تكلفه فوق طاقته (**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**). وقائم على حقيقة "علمية" ملموسة، هي أن الإنسان قابل بالفعل للتهذيب بدرجة لا توجد في الحيوان، مما يدل على أنها خاصية من خصائصه التي تفرد بها بين مخلوقات الله.

هذا التحديد المختصر لنظرة الإسلام يكفينا هنا في صدد ما نريد الإشارة إليه، وهو أن الإسلام يتمشى مع الطبيعة البشرية ولا يكبت طاقتها الحيوية، ومن ثم لا يلجئ الناس إلى النفاق، لأنه لا يتطلب منهم ما يحوجهم إلى النفاق.. إنه مثلا لا يقول لهم إن الشعور الجنسي قذر في ذاته فتطهروا منه وتعالوا عليه. فإذا عجزوا عن إطاعة هذا النداء —تلبية لدوافعهم الفطرية– نافقوا ليحافظوا على تعاليم الدين.. كلا! إنه يقول لهم إنه أمر طبيعي جداً، ونظيف في ذاته إلى أبعد الحدود. "**حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء. وجعلت قرة عيني في الصلاة**". بل هو يدعوهم دعوة صريحة إلى أخذ نصيبهم من المتاع الجنسي إذ يدعوهم إلى الزواج والتبكير فيه. كل ما في الأمر أنه يمنعهم من أخذ هذا النصيب فوضى على طريقة الحيوان، ويتيحه لهم نظيفاً طاهراً كما يليق بالإنسان. فإذا أطاع الناس تعاليم

دينهم في هذا الموضوع فلا نفاق إذن ولا حاجة إلى النفاق. وإنما الصراحة الكاملة والسعي الواضح المكشوف.

وكذلك الأمر في بقية تعاليم الإسلام، لا تجد فيها النفس السوية حرجا يدعو إلى النفاق.

وذلك فارق أساسي ينساه أو يتناساه من يقيسون الأمور هنا على ما يحدث في ظل الكنيسة الأوروبية، وكله عند "المثقفين" دين!

* * *

ولكن الناس ليسوا كلهم أسوياء.

ومهما بلغ التهذيب الديني فليس المفروض فيه أن يهذب الناس جميعا ويرفعهم إلى مستواه. والإسلام والإسلام لم يفترض ذلك ولم يقل إن كل الناس سيعتنقونه مؤمنين مخلصين.

هناك إذن قوم لن يؤمنوا. لن تتشرب أرواحهم العقيدة، ولن يستضيئوا بنورها الشفيف.

وهؤلاء إما أن يخرجوا على الدين جهرة، أو يكونوا منافقين.

وقد يكون من الخير في الأمور السياسية أن ينكشف المنافقون ليأخذ المؤمنون حذرهم منهم، ويكونوا لهم دائما بالمرصاد.

ولكن الشأن في الأمور الخلقية يختلف.

فليس من الخير أن يتبجح المنحلون والساقطون برذائلهم ويرتكبوها على قارعة الطريق.

فهنا تنشأ القدوة السيئة التي تشجع المترددين وتجرف المحافظين. وتكون النتيجة الأخيرة في النهاية أن يرتكز المجتمع كله في الرذيلة، لا أن يتحول كله إلى فضلاء.

والرهان هو ما حدث في أوروبا.

ولا ينبغي أن يخدعنا وصفهم لرذائلهم بأنها فضائل، وتبجحهم بأنهم أصبحوا واقعيين!

لقد أصبحوا واقعيين على مستوى الحيوان، حيث ينبغي أن يكونوا واقعيين على مستوى الإنسان.

ولنعلم أن للقوم هناك ظروفهم، سواء كانوا معذورين فيها أو غير معذورين.

ونحن لنا ظروف غير ظروفهم، وفهم للعقيدة غير فهمهم، لا يكلف الناس فوق طاقتهم ولا يحوجهم إلى النفاق.

فمهمتنا إذن أن نرفع الناس إلى مستوى الإنسانية. أن نبذر في نفوسهم الفضيلة الحقة ليكونوا مؤمنين بها عن اقتناع صادق وتأصل في الوجدان، لا انصياعا لقيد خارجي محكم أو حجاب مفروض.

ولكننا في الحالات التي نعجز فيها.. لا لسوء عقيدتنا ولا فساد نظامنا، بل لوجود انحراف في شخص لا يريد أن يرتفع إلى مستوى الإنسانية ويريد أن يخلد إلى مستوى الحيوان..

عند ذلك فلنفرض تقاليدنا فرضا بقوة القانون..

ولا ضير يومئذ مما يقوم به بعض الناس من النفاق خوفا من سطوة القانون والتقاليد، فذلك خير من إباحة القدوة السيئة التي تشجع المرتدين وتفسد الصالحين.

إنما الضير يوم يتحلل الناس كلهم من عقائدهم، ويبقون على ردائها الخارجي وحده انصياعا للقيد المفروض. فالذي يحدث عند ذلك أن يتهدم المجتمع كله ليبنى على نسق جديد.

فوق الواقع

لي صديق يشتمل على صفات كثيرة تضايقني.

فهو مثلا مولع بذكر التفصيلات الدقيقية التي لا تقدم ولا تؤخر، وأنا أمقت ذلك في غير الأبحاث العلمية والمشكلات الفكرية، التي يحتاج الإنسان إلى تتبع جزئياتها للوصول إلى نتائجها.

وهو كثيراً ما ينسى نفسه، فيعيد رواية قصة رواها من قبل، ويعيدها بكلا تفصيلاتها الدقيقة التي لا تقدم ولا تؤخر؛ وأنا أكره بطبيعتي أن أستمع إلى الشيء مرتين، فضلا عن التفصيلات المملة التي تصبح أكثر إملالا حين تكرر وتعاد.

يقول لي مثلا: إنك لم تسمع مني قصة الليلة التي قضيتها في باريس أو لندن أو برلين.. وأكون قد سمعتها منه قبل ذلك عشر مرات! فيروح يقصها مرة أخرى، ويروي لي ما قال فيها من شعر وما حلم من أحلام، ويتوقع أن أنفعل بكل جزء من جزئياتها، وأتعلق بمفاجأتها كأنني أسمعها أول مرة، وإلا فأنا معرض عنه ومشغول!

وهو ينسى نفسه كذلك فيسألني عن أشياء فأشرحها له بالقدر الذي أظن أنه أشبعه ولم يعد في حاجة إلى مزيد، ثم إذا هو بعد أيام يسألني عنها بنفس الصيغة واللهجة كأنني لم أقل له شيئاً من قبل؛ وأنا أكره أن أكرر نفسي، وأمقت مقتا شديدا أن أضطر إلى إعادة كلام قلته من قبل.

ثم هو حساس إلى درجة شديدة، تجرحه الإشارة العابرة ويتعلق بها ويكبرها ويضخمها حتى يجعل منها قضية كبيرة. وأنا تعودت مع أصدقائي خاصة أن أتكلم بلا تكلف —ما دمت مطمئنا إلى أني أحبهم ولا أقصد الإساءة إليهم— وأكره من أحد من أصدقائي أن يكلفني —بحساسيته— أن أتيقظ لكل كلمة أقولها خشية أن تجرح إحساسه وأنا لا أقصد. بينما أنا أملك الصراحة الكافية —كما قلت له مراراً— أن أنتقد الناس مواجهة حين أقصد إلى ذلك.

وهو يتسبب بحساسيته تلك في مضايقات كثيرة لي.

فقد يضرب لي موعدا ثم يتأخر عنه ساعة أو أكثر.. أو لا يجيء أصلا. ثم يعتذر إلي فأقبل عذره رغم معرفته بأن الانتظار يمزق أعصابي. فإذا تأخرت أنا لأسباب تخرج عن إرادتي وجدته منفعلا ثائرا لا يقبل عذرا ولا يهدأ من قريب!

ويتصرف أحياناً –وهو معي– تصرفات مسيئة للآخرين، فيؤذيني ذلك. يؤذيني من أجله هو. ومع ذلك لا أملك تنبيهه ولو بأرق لفظ، بسبب حساسيته الزائدة، وأظل أكظم في نفسي هذا الضيق.

وهو في جملة القول متعب بالنسبة إلي. وما أريد أن أزعم أنه هو المخطئ في كل هذه الأمور وأنا على صواب. فقد أكون أنا المخطئ أو قد يكون كلانا على صواب ولكنه اختلاف الطبع بين الاثنين. وما أريد كذلك أن أزعم أنه –حتى بالنسبة إلي– متعب في جميع أحواله. فما من شك أنه يحمل بين جنبيه قلب إنسان، وما أقل القلوب الإنسانية في هذا الزمان.

ولكني أريد فقط أن أبين حقيقة واقعة: أنه لا تكاد تخلو جلسة واحدة من جلساتي معه من أمر يملني ويضجرني. ثم يزيد الأمر وقعا على أعصابي أنني لا أحب أن أظهر له الملل والضيق، بل أحب أن أظهر بمظهر المقبل عليه، المرتاح لكل ما يقول.

تلك حقيقة واقعة...

وأنا معذور حين أحس بالضيق والضجر من أمور لا تتفق مع طبيعتي، بل هي معها على طرفي نقيض.

ولكني مع ذلك كثيراً ما أحس أنني مقبل عليه إقبالا حقيقيا لا اصطناع فيه. أحس أنني متقبل لكل ما يصنعه وما يقوله.. كل تصرفاته التي تبدو لي بعين "الواقع" منحرفة منفرة.. كل تفصيلاته التي لا تقدم ولا تؤخر.. كل تكراره وإعادته.. كل أسئلته عن أشياء سبق أن شرحتها له.. كل حساسيته الزائدة.. كل تصرفاته التي لا ترضى الآخرين.

كل هذه الأمور أحس أنني أتقبلها بقبول حسن. لا أحس أنني "مصطبر" عليها كرها لكيلا أجرح شعوره، بل متقبلها حقا.. بغير جهد، بغير حمل على الأعصاب.. متقبلها وأنا بها سعيد!

هل تغير "الواقع"؟

أبداً.. إنه "واقع" ما يزال.

ولكني أنا ارتفعت "فوق الواقع" لحظات من الزمان!

وصحيح أنني لا أرتفع فوق الواقع في كل لحظة، ولكنني أحسن أنني "إنسان" حقاً حين أرتفع فوق الواقع، وبمقدار ذلك الارتفاع!

* * *

"الواقع" حقيقة ما في ذلك شك.

ولكن الارتفاع فوق الواقع حقيقة كذلك... إنه حقيقة "الإنسانية".

وندرة اللحظات التي يرتفع فيها البشر عن الواقع لا تعني أنها غير موجودة، ولا يبرر إغفالها من "واقع" الحياة. فما دامت تحدث بالفعل فلا بد من تسجيلها والإشادة بها، ووضعها موضعها الحق في وزن الأمور.

هل كل يوم يزهر النبات؟ أليست لحظات معدودة من حياته هي التي تتفتح فيها الزهور؟ ولكن من يقل إن ندرة هذه اللحظات تبرر إغفال ذلك الشذى العذب والمنظر البهيج؟ وكم تخسر البشرية حين تغفل من حسابها هذه اللحظات، ولا تستمتع بذلك الجمال المتاح؟ وكم تكسب وهي تترقب الزهور المتفتحة، وتتطلع إليها في لهفة، وتتسابق إلى الاستمتاع بها بضع لحظات؟

ثم أليست الثمرة الجنية ذاتها نتيجة لهذه الزهرة التي لا تتلبث، ولا يتضوع شذاها غير لحظات؟

كذلك "زهرات"، المشاعر و"ثمرات" النفوس. قليلة نعم. ولكنها في قلتها أحق بالإشادة وأحق بالتسجيل!

* * *

وقد كانت أوروبا غبية بلهاء وهي تنحي من حسابها تلك المشاعر الصافية والومضات النفسية الوضيئة بحجة "الواقعية"! أو قل –إن شئت– إنها كانت تتحدث عن واقعها هي لا عن واقع البشرية!

إن الواقعية لا تكون واقعية حقة وهي تغفل من الحساب جزءاً من الواقع وتنظر إليه كأنه غير موجود.

ومضة البرق لا تستغرق إلا لحظة، ولكنها تضيء وجه الأرض كما لا تضيئه ألوف المصابيح. وإذا كان علماء الطبيعة يدرسون كيفية الإفادة من هذه الومضة الخاطفة كيلا تضيع في آفاق الكون، فكذلك ينبغي لعلماء النفس والاجتماع أن يفيدوا من ومضات النفوس المشرقة كيلا تضيع في آفاق البشرية.

ولكن أوروبا التي تسيطر اليوم على العالم تأبى إلا أن تغفل الواقع الأكبر لتعيش في حدود الواقع الصغير.

وفي ظل هذه الواقعية المشوهة التي تنكر قدرة الإنسان على الارتفاع فوق الواقع، نبتت نظريات دارون وماركس وفرويد والبراجماتزم، ونبتت الفنون "الواقعية" كلها، تمرغ النفس الإنسانية في الوحل، وتقول إن هذا هو الواقع!

دارون كان أول من قرر مادية الإنسان وحيوانيته، لأن "الواقع" الذي كان يدرسه هو الواقع الجثماني الحيواني الذي أوحى إليه أن الإنسان من سلالة الحيوان. وقد أغفل في غمرة نشوته بهذا الكشف أن الإنسان قد ارتفع فوق الواقع الحيواني، وأن جوانب جديدة في نفسه لا مثيل لها في عالم الحيوان، تعطيه إشراقة الروح وصفاء المشاعر.. وقد كان حريا —لولا واقعيته الضيقة– أن يدرك أن التطبيق الصحيح لنظرية النشوء والارتقاء ذاتها ينتهي إلى هذه النتيجة. فكل كائن أرقى يحمل صفات ليست لسابقه. هناك كائن له أذنان تسبقه كائنات لا آذان لها. وهناك كائن له عينان تسبقه كائنات لا عيون لها. وهذا كائن له روح، تسبقه كائنات لا تعرف إشراقة الروح.

وجاء ماركس وصفيه إنجلز يتحدثان عن واقعية المادة وواقعية الاقتصاد. "إن حقيقة العالم تنحصر في ماديته". "إن وجود الناس هو الذي يحدد مشاعرهم. وليست مشاعرهم هي التي تحدد وجودهم... إن علاقات الإنتاج ووسائله هي التي تحدد الصفة النهائية للمجتمع، وهي التي تحدد للناس مشاعرهم وأفكارهم وعقائدهم".

وذلك واقع.. ولكنه واقع صغير!

والواقع الأكبر الذي أغفله ماركس أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تنحصر في الطعام والكساء والجنس —وهي المطالب الأساسية للإنسان كما سماها– ولا يمكن أن تنحصر في

نطاق المادة. وإن كل ما أنتجته البشرية في تاريخها الطويل، وكل ما استوعبته من آراء وأفكار وعقائد، هو تعبير عن حاجة نفسية أصيلة، وتعبير عن الواقع البشري الكبير. وأن الاقتصاد قد يكون "أساس" الحياة البشرية، ولكن الأساس شيء والبنيان ذاته شيء آخر. فضلا عن وجود قيم بشرية كثيرة ليست اقتصادية في "أساسها" وإنما هي سيكلوجية أو روحية أو فكرية لا تقل توجيها للناس في حياتهم عن وقائع المادة وحقائق الاقتصاد.

أما فرويد وعلم النفس التحليلي كله فيتتبع الإنسان من أعلى إلى أسفل. ينزل من الثمرة الجنية والزهرة الأريجة والأغصان الباسقة إلى البذرة الغارقة في الطين. ثم يقول لك: انظر! أليس هذا هو "الواقع"؟ ألست ترى معي البذرة الغارقة في الطين؟

نعم هذه البذرة حقيقة. ولكن من يقولها إنها تشبه الثمرة والزهرة والأغصان؟ أو يقول إن استمدادها من الطين قد منع أن يفوح منها الأريج العذب وتنعكس منها أبهج الألوان؟ هل كل ذلك ليس حقيقة؟ والحقيقة الوحيدة هي البذرة والطين؟

* * *

والفنون الحديثة تنحو هذا المنحى الأحمق، لكي تكون فنونا واقعية!

الفنانون والنقاد المحدثون يسخرون من الفنون القديمة التي كانت تبرز الجانب الأبيض من الإنسان كأنما كله فضيلة! ويدعون في مقابل ذلك إلى تسجيل الإنسان بحسب واقعه. يعني تسجيل الجانب الأسود من طبيعته وكأنما كله رذيلة! أستغفر الله! إن الحدث عن الفضيلة والرذيلة من تراث الماضي البائد الذي يجعل للفنون وللحياة كلها هدفاً أخلاقياً. وتلك أفكار رجعية. نحن اليوم معنيون بدراسة "الواقع" وتسجيله صافيا من الخرافات والأوهام!

وفي ظل هذه العقيدة راح الفنانون الغربيون يمزقون الإنسان مزقا ويمرغونها في الوحل. نزوات الجسد. نوازع الفطرة. صراع الحيوان. خسة الطبع. التواء المشاعر. هذه هي الدراسة الحديثة للإنسان كما ينعكس من كثير من ألوان الفن الحديث.

وما أريد أن أقول إن البشر ملائكة، ولا إن الفن ينبغي أن يصورهم ملائكة. ولكن الواقعية الحقة ينبغي أن تشمل الواقع الكبير، وأن تكون أكثر إشادة باللحظات الشفافة الرائقة منها باللحظات المعتمة الغليظة، لأن الواقع الأكبر يقول إن هدف الحياة ليس مجرد استمرار الحياة على سطح الأرض، وإنما هو الوصول بها إلى مرتبة الجمال، والكمال.

صراع الجسد حقيقة. غلبة النوازع الفطرية على المبادئ والمثل حقيقة. ضعف الإنسان ورضوخه لنزواته حقيقة. ولكن ارتفاعه فوق الواقع حقيقة كذلك يلمسها كل إنسان في نفسه حين يحقق كيانه كإنسان. والفن ينبغي أن يشمل الواقع كله بلا تمييز.. الواقع الأكبر والأصدق في التصوير.

وما نعني حين ندعو إلى "تطهير" الفن من واقعيته السخيفة أن نغفل لحظات الضعف والهبوط، أو نلغي تصوير المشاعر الخسيسة من الحساب. أو نصور الإنسان ملاكا بلا خطايا ولا أخطاء. كلا! وإنما نعني أن يكون الضوء مركزا على لحظات الارتفاع فوق الواقع لا على اللحظات الهابطة إلى عالم الضرورة.

قصة "وسوسة الشيطان" لعبد الحميد جودة السحار مثال لما نقول. إنها قصة شاب متدين يقع تحت إغراء الفتنة. وتتأذى روحانيته الصافية وتتحرج، ولكنها رويدا رويدا تقع تحت سيطرة الدفعات الحسية الغليظة تصرعها وتكتم أنفاسها. ويظل يصور لنا مشاعر هذا الفتى بين الشد والجذب، حتى يقع في الخطيئة ويرتكب الفاحشة... هل رضيتم يا أنصار الواقعية؟ إنه يصور الفاحشة! إنه يصور الواقع البشري كما يحدث على سطح الأرض! ولكنه لا يتركك والضوء مسلط على منظر الجريمة! وهنا الفارق بين الواقع الصغير والواقع الكبير. إنه يرسم لك لحظة الإفاقة. إنه ينهي القصة بمنظر التوبة. منظر الفتى وهو يتلمس في ظلمة نفسه أضواء المغفرة. ثم يفتح الباب ليدخل منه النور: كل ابن آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون. ثم يتركك والنور مسلط هناك!

* * *

والواقعية الأوروبية تقول لك: دع عنك أحلام الخيال والمثل العليا. ولنكن واقعيين. أين التضحية التي ترسمها قصص البطولة وترويها الأساطير؟ أين الشجاعة المثالية والوفاء النبيل؟ أين مغالبة الأهواء والارتفاع على الضرورة؟ أليس هذه كلها أساطير "استغفلتنا" بها الأجيال السابقة في قصص أبطالها وأنبيائها؟ فلنكن نحن واقعيين. فلنأخذ الإنسان بحقيقته الواقعة. خليط من النوازع الفطرية والنزوات الجائحة. والحياة كلها صراع هذه النزوات وارتطامها بعضها ببعض، يغلب الأقوى ويسقط الضعيف. لا عبرة بصاحب الحق. فالحق هو القوة.

تعال إلى هؤلاء الأنبياء والقديسين والأبطال والمصلحين. هلم نمزق نفوسهم على المشرحة، وننظر خلالها في "الميكرسكوب" انظر: ها هو ذا العفن الذي كانت تخفيه الأساطير. انظر إلى هذه النفس البيضاء السامقة التي يشع منها النور. تفحصها جيدا. ألا

ترى نقطة "الضعف البشري" الكامنة فيها؟ ألا ترى هذا التصرف المنحرف من تصرفاتها؟ ثبّت نظرك هناك، وسلط هناك كل ما تملك من أنوار!

وهكذا يعيدون دراسة الشخصيات التاريخية بهذا الهدف وتحت هذا الضوء! يبرزون ما فيها من نقط الضعف ويجسمون ما فيها من البقع تحت "الميكروسكوب"، ويغفلون — عامدين أو غير عامدين– كل ما فيها من بياض وخير. في سبيل نقطة أو نقط ليست لامعة البياض.

إنها الواقعية.. الحمقاء!

أي كسب للبشرية في تجريح عظمائها وتلويثهم وتشويه صورهم بحجة الواقعية؟

إنها —فيما أرى– لوثة هذا الجيل. عجز عن الرفعة فراح يحطم المثل الرفيعة من بني الإنسان، وينزلهم إلى الوحل الذي غرق فيه هذا الجيل.

إن وجود النظافة حجة على القذرين. ووجود المرتفعين حجة على الهابطين. فليهبط الجميع وليتسخ الجميع، حتى يتساوى هؤلاء وهؤلاء، وتبطل التهمة ويبرأ المتهمون!

لست أقصد أن ننفي عن العظماء لحظات الضعف والهبوط، ولا أن نصور حياتهم خلوا من دوافع البشر العاديين. ولكن المسألة هي توزيع الأضواء على اللوحة! لماذا نكون واقعيين فقط حين نغفل كل جوانب العظيمة ونبرز جوانب السوء، ولا نكون واقعيين حين نبرز في الأبطال جانب البطولة، وهو الجانب البارز حقا في حساب الحياة؟!

وماذا تكسب البشرية من إبراز الجوانب الهابطة والنقط الضعيفة؟ إنها لا تكسب إلا الزيادة الدائمة في الهبوط. هناك مثل إنجليزي يقول: "صوب إلى الأغصان لتصيب الجذع". وهو مثل صادق إنك تحتاج أن تطلب الكثير لتصل إلى المعقول. لأن الذي تحصل عليه دائما أقل مما تصبو إليه. فلو أدركك "التعقل" وقلت في نفسك: ما دمت لا أصل إلا إلى خمسين في المائة مما أصبوا إليه، فلأهدف منذ البدء إلى خمسين في المائة.. إذا قلت ذلك فلن تصل إلى الخمسين المنشودة، لأنك تحصل دائما على أقل مما تصبو إليه!

فهذه الواقعية الحمقاء إذن لا نتيجة لها إلا الهبوط الدائم إلى عالم الضرورة، وتضييق دائرة "الواقع" حتى يصبح واقع الحيوان.

* * *

وقد كان الإسلام على صواب وهو يرسم للبشرية أهدافها لا على أساس "الواقع" وحده، بل على أساس ما "فوق الواقع" كذلك.

إنه لا يغفل واقع الإنسان وضروراته. لا يغفل نوازع الجسد وضغط المادة.

إنه لا يرسم مثلا خيالية غير قابلة للتطبيق، ولا يفترض في الإنسان غير ما في طبيعته. ولكنه يبرز له أجمل خصائله وأرفع مشاعره، ويحاول أن يأخذ بيده إلى حيث الرفعة والسمو. فإذا هبط في لحظة إلى الواقع الضيق وعالم الضرورة فلا بأس. وباب المحاولة دائما مفتوح. وباب التوبة من اللحظة الهابطة لا يغلق أبدا في وجه من يعاود الصعود (..**وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**).

والبشرية في ظل هذه النظرة وهذا التوجيه كاسبة أبدا، عاملة أبدا على الصعود: "صوب إلى الأغصان لتصيب الجذع". والإسلام يصوب أبدا إلى أعلى ليدرك جمهرة الناس في النهاية مستوى معقولا من الرفعة، ويدرك الأقلون المراتب العليا، ولا يهبط إلى الدرك الأسفل إلا الأقلون.

وهو بهذا "واقعي" جدا وعملي جدا. ولكن على النظرة الشاملة للواقعية. النظرة التي تشمل ما فوق الواقع الأصغر، لأنها ترى الواقع الكبير.

النفس والجسم

ما العلاقة بين النفس والجسم؟

لقد شغل هذا السؤال الفلاسفة من قديم الزمان، ثم عاد يشغل العلماء اليوم كما كان يشغل الفلاسفة من قبل.

وتتشعب الآراء بين هؤلاء وهؤلاء في اتجاهات شتى.

كان الرأي الغالب في القديم أن النفس هي الجوهر الحق، أو على الأقل الجوهر الأسمى. وأن الجسم مجرد مظهر، أو "محل" تحل فيه النفس. أو على أكثر تقدير هو الجوهر الأدنى.

ثم ظل محور الثقل ينتقل رويداً رويداً حتى أوشكت المدرسة التجريبية في علم النفس أن تقول –أو لعلها قالت بالفعل– إن الجسم هو الأصل. هو الحقيقة. هو منبع كل ألوان النشاط الحيوي من فكر وحس وإدراك وتذكر وانفعال وتصرف. وإن ما نسميه "النفس" ليس إلا انعكاسا للنشاط الجثماني. وجاء علماء الغدد ليؤكدوا هذه "الحقيقة!" حين قالوا إن الغدد هي التي تتصرف في كل نشاط الإنسان، وهي موطن غرائزه وميوله ونزعاته. فالأمومة ليست "شعراً" نبيلا أو غير نبيل، وإنما هي غدة إذا نزعتها من موضعها زال الشعور بالأمومة من نفس الأم، وإذ حقنتها بخلاصتها عاد ذلك الشعور!

وقد كان معروفا منذ القدم أن الجنس إحساس "غدي" يزول بإزالة موضعه في الجسم؛ وتلك كانت فكرة الخصيان في حريم القدماء. ثم جاء العلم الحديث يضيف إلى ذلك شواهد أخرى، حتى قال إن التفكير نشاط كهربي في المخ، وإن الخوف والشجاعة إفرازات –تنقص أو تزيد– من الغدة الأدرينالية فوق الكلى.. إلى آخر ذلك اللون من التفكير.

وحقائق العلم التجريبي في ذلك بارزة ومحيرة.

هل صحيح أن النفس هي مجرد الإطار الخارجي الذي تنعكس فيه كيميائيات الجسم وكهرباؤه. وأنها ليست جوهراً مستقلا كما كان يتصور القدماء، فضلا عن أن تكون هي الجوهر الأسمى؟ وهل كل هذه المشاعر النبيلة التي يشيد بها الأخلاقيون والفلاسفة وتدعو إليها الأديان وتسجلها قصص البطولة. هل هي كلها مجرد إفرازات كيميائية، عضوية وغير عضوية، تفرزها أجهزة الجسم المتعددة، أو مجرد نشاط كهربي في نسيج الجسم؟

إن الخلاف بين النظرتين ليس مسألة هينة. إنه خلاف في تقويم الحياة كلها. خلاف في تقويم "الإنسان". هل تعامله على أنه نفس أم على أنه جسم؟ هل نعطيه دروسا في الأخلاق وتدريبات على الفضيلة أم نعطيه حقنا كيميائية؟! ولأي شيء ندربه ونهذبه؟ إن كل هذا التدريب والتهذيب قائم على الأساس النفسي للإنسان. قائم على أن "نفسه" تقبل التهذيب، و"ترتفع" و"تقدر" المثل العليا، و"تعتنق" المبادئ الرفيعة وتعمل بوحيها، و"تهفو" إلى الجمال الحسي والمعنوي، فتقوم بناء على ذلك كله أديان ونظم وعقائد وأفكار. فإذا كان الإنسان غدد أو إفرازات كيميائية ونشاطا كهربيا فما معنى العقائد؟ وما قيمة المثل؟ وما دلالة الأفكار؟ ولماذا نتعب أنفسنا في ذلك كله؟ لما نعنّي أنفسنا "بالقيم"؟ لماذا لا نترك هذا الحيوان الإنساني يتصرف كما توحي إليه غدده وإفرازاته، أو كما خلقته "الطبيعة"؟

* * *

داروν؟

هل هو المسئول عن هذا الاتجاه؟

لا شك أن دارون من المسئولين عن وضع الأساس المادي الحيواني للإنسان. ولكن لعلنا نظلمه إن قلنا إنه مسئول وحده عن كل ما حدث بعده من اتجاهات. فلولا أن هذا هو الاتجاه الغربي الأصيل ما استطاع دارون وحده أن يجر إليه كل هذه الأجيال المتعاقبة من المفكرين والمعتنقين للأفكار.

والمسألة لا تحتاج إلى هذا التعب كله!

فمن البديهيات المعروفة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا غذاء. وأن نشاطه الجسدي والفكري والنفسي كله متوقف على كمية من الغذاء يتناولها بين الحين والحين. ولكن من يقول إن قصيدة الشعر التي أكتبها أو اللوحة التي أرسمها أو الفكرة التي أبتدعها أو النشوة النفسية التي أحس بها هي المعادل الرياضي لهذا الغذاء بحيث أستطيع أن أكتب هذه المعادلة:

س فيتامينات + ص بروتينات + ع نشويات +دماء

= قصيدة في وصف الربيع!

أو = عقيدة

أو =نظرية هندسية!

ولماذا لا تنشأ القصيدة أو العقيدة أو النظرية الهندسية في جسم الحيوان الذي يشارك الإنسان في تناول هذه الفيتامينات أو البروتينات والنشويات والماء؟

بل لندع الحيوان جانبا. فقد تكون كيميائياته ناقصة! لماذا لم يبتدع الناس جميعا نظرية كنظرية النسبية التي ابتدعها أينشتين، أو أدبا كأدب شكسبير ودستويفسكي، أو جهازا لاسلكيا كماركوني أو قنبلة ذرية كالعلماء الألمان الذين "سرقهم" الحلفاء في نهاية الحرب وجندوهم لتفجير الذرة؟

إن هؤلاء جميعا يأكلون نفس الفيتامينات والبروتينات والنشويات والماء.. ولم يثبت العلم التجربي أن مخ هؤلاء العباقرة يحوي مادة أخرى غير ما في أمخاخ الآخرين.

وهل لو أخذنا الإفرازات الكيميائية المتمثلة في جسد الشاعر وقت "إفرازه" قصيدته ثم حقنّا بها ذلك الجلف الغليظ الحس، أو حتى ذلك الفتى المرهف الحس الذي لا دراية له بنظم الشعر... هل تكون نتيجة الحقنة أن يمسك بالقلم ويكتب لنا نفس الأبيات التي كتبها الشاعر؟!

لم يقل ذلك أحد من السادة العلماء.

كل ما قالوه أن حقنة من الإفرازات الداخلية في جسم مُتعَب، تشيع التعب المفاجئ في الجسم النشيط حين يحقن بها، لأنها مجموعة من السموم التي تؤثر في الخلايا والأنسجة فتحيل نشاطها إلى خمول. وقالوا إن حقنة من جسم كلب على وشك الموت لأنه حرم من النوم عدة أيام، قتلت كلبا سليما معافى كان يأخذ نصيبه الطبيعي من النوم والغذاء والرياضة.

نعم. كل ذلك مفهوم. إنه "جسم" يتأثر بإفرازات جسم مماثل. ولكنا لم نجد بعد أن الحق بالإفرازات الجسمية ينشئ أفكارا وفنونا وعقائد تشابه مثيلاتها عند صاحب الإفرازات!

* * *

ثم إن هذه هي نصف الحقيقة. فلماذا يحتفل بها العلماء كل هذا الاحتفال ويهملون النصف الباقي؟

لقد جعلوا كل همهم دراسة تأثير الجسم في النفس. فلماذا لا يدرسون كذلك تأثير النفس في الجسم؟

إنني أكون متعبا، متضايقا، مهموما، آيسا من الحياة.. بمعنى أن إفرازاتي الداخلية من الغدد والأجهزة الأخرى قد رسمت لنفسي هذا الإحساس، ووجهتها —بغير إرادتها– هذه الوجهة... ثم أرى فلانا من الناس أحبه فتنطلق أساريري وآنس إليه وأنسى نظرتي القائمة إلى الحياة.. بمعنى أن إفرازاتي الداخلية من الغدد والأجهزة الأخرى قد تغيرت مناسيبها وأنواعها، فرسمت لنفسي هذا الاتجاه الجديد. فماذا حدث يا ترى؟ هل مجرد الانعكاس الضوئي لصورة هذا الشخص على شبكية العين هي التي تحرك هذه الإفرازات، بحيث لو نقلت هذه الإفرازات إلى المعمل، وعكست عليها صورة الصديق تنقلب —كيميائياً– إلى إفرازات فرحة مستبشرة؟!

أو ليست هذه "عملية نفسية" تؤثر في نشاط الجسم، وتعدل إفرازاته وكيميائياته؟

وأكون متعبا.. بمعنى أن إفرازات التعب قد سممت خلايا جسمي وأنسجته، فأعجز عن الاستمرار في العمل، وأحس بحاجة ملحة إلى الراحة. ثم فجأة يخطر في بالي خاطر.. إن المصلحة العليا، إن العقيدة التي أعتنقها، إن حبي لفلان من الناس، إن رغبتي في زيادة الكسب، إن رغبتي في التفوق على فلان.. تعطيني عزيمة جديدة، فأندفع في العمل بروح ماضية، وأحس أن التعب قد زال، وأنني أستطيع أن أعمل عدداً آخر من الساعات.. فما الذي حدث؟ من أين جاءت الإفرازات الجديدة التي عدّلت الإفرازات الأولى وعادلت ما فيها من سموم؟!

أو ليست هذه دوافع نفسية تؤثر في نشاط الجسم وتغير إفرازاته وكيميائياته؟

وطاقة الجسم البشري محدودة، ومحدودة بالحساب المادي لقوة أنسجته واحتمال خلاياه فكيف حدث على مدار التاريخ تلك المعجزات من احتمال بعض الأفراد من ذوي العقائد ألوانا من التعذيب لا يتصورها العقل، ثم ظلوا أحياء، وظلوا محافظين على قواهم العقلية، وظلوا مستبشرين للحياة واثقين بالله، وبعض هذا التعذيب يقتل آخرين، وبعضه يفسد قواهم العقلية، وبعضه يورث الهم والحزن ويشيع اليأس من الحياة؟

* * *

هناك إذن علاقة متبادلة بين النفس والجسم. فما هي يا ترى هذه العلاقة؟

خطر في بالي هذا الخاطر: أنه بصرف النظر —مؤقتا– عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم، فإن هناك توازيا بين النفس والجسم في العمل والاتجاه.

لحظت هذه التوازي وأنا أكتب "الإنسان بين المادية والإسلام" في أكثر من اتجاه. لحظته في التفرقة بين الأمومة والأبوة. وفي التفرقة بين الإحساس الجنسي عند الرجل والمرأة. وفي الحديث عن "الرشاقة" الجسمية والرشاقة النفسية. وفي استعذاب الجسم لقدر من الألم لأداء بعض الوظائف الحيوية، واستعذاب النفس لقدر من الألم في سبيل تكوين المثل والأخلاق. كما لحظته في أن كثيراً من العمليات النفسية تتضح في الذهن إذا شبهناها بعمليات جسمية مماثلة.

قلت في الأمومة والأبوة إن إحساس الأم بطفلها هو أنه جزء منها. من صميم كيانها، تحس وجوها في وجوه، ويتحقق كيانها بتحققه. وقلت إن هذا الإحساس النفسي مواز للحقيقة الجسمية وهي نشوء الطفل في داخل جسم الأم واتحاد كيانهما الجسمي فترة من الزمن يتغذيان من غذاء واحد أو من "كيان" واحد.

وإن إحساس الأب بطفله مختلف. فهو يحس أنه جزء منه، ولكنه جزء موجود خارج كيانه، والعلاقة بينهما هي مودة الألفة والصداقة أكثر مما هي وحدانية الكيان. وإن هذه الإحساس مواز للحقيقة الجسمية وهي أن "المادة" التي يشارك بها الأب في تكوين الطفل، مادة تندفع إلى الخارج ولا تبقى داخل الجسم كما يحدث في حالة الأم.

لست أقصد أن الاتجاه النفسي ينشأ من الحالة الجسمية ولكني فقط ألحظ التوازي في الاتجاه.

وقلت في مسألة الإحساس الجنسي عند الرجل والمرأة، إن اتجاه الجسم "يشير" إلى اتجاهات النفس. فبينما نجد الإحساس الجنسي عند المرأة عميقاً جداً وشاملاً جداً، لا يقف عند حدود العمل الجنسي بل يتعداه إلى الحمل والولادة والإرضاع والتنشئة، ثم يتعداه إلى كيان المرأة كله من تدبيرها لبيتها وتزينها ومختلف رغباتها وأفكارها... نجد هذا الإحساس عند الرجل أشبه بالنزوة الطارئة، بالشحنة الكهربائية التي تطلب التفريغ. وبمجرد التفريغ ينصرف الرجل إلى مجالات أخرى من النشاط ليست جنسية في منشئها، حتى تعود الشحنة تطلب التفريغ من جديد. وإن الإحساس الجثماني بالجنس مواز لهذه الاتجاهات عند الرجل والمرأة. فبينما يتركز إحساس الرجل في منطقة بعينها، ينتشر إحساس المرأة في جسمها كله وإن كان يتركز في مناطق معينة بعضها داخل الجسم وبعضها على السطح.

وقلت إن الجسم في سبيل الحصول على الرشاقة يحتمل كثيراً من الجهد ويحتاج إلى كثير من التدريبات لا يصل إلى الرشاقة بدونها، ولكنه بعد ذلك ينعم بهذه الرشاقة ويحس بالخفة

والانطلاق. وكذلك النفس تحتاج إلى تدريبات وجهد، وامتناع عن بعض الرغبات لتصل إلى الرشاقة النفسية، ولكنها بعد ذلك تنعم بهذه الرشاقة وتحس بالخفة والانطلاق.

وقلت إن بعض الوظائف الحيوية كنمو الأسنان مثلا يصحبه شيء من الألم. فلو لم يكن في الجسم استعداد لتحمل قدر من الألم بل استعذابه أحيانا لما أمكن أن تتم هذه الوظائف الحيوية في يسر. وكذلك تكوين المثل والأخلاق يحتاج إلى تحمل قدر من الألم، وفي النفس استعداد له يوازي الاستعداد الجسمي لتحمل الألم، وبذلك يصبح تكوّن هذه المثل والأخلاق ميسرا في النفس حين توجه إليها.

وثمة كبير من التشبيهات يصلح التمثيل فيها بما يحدث في الجسم لشرح ما يحدث في النفس.

فالعضلات الجسمية تتضخم وتقوى بالتدريب المستمر والاستخدام الطويل، وتذبل وتضْوى بالإهمال حتى لتكاد تعجز عن وظيفتها. والخصائص النفسية كذلك لا بد من استخدامها وتدريبها لتقوى. وإذا أهملتها ذوت وضعفت حتى كأنها غير موجودة. ومن هنا يعجز العبد عن التصرف الحر، لا لأن كيانه النفسي مختلف في أصله عن كيان الحر، ولكن لأنه لا يستخدم أجهزة التصرف. وهذا ما يلجأ إليه الاستعمار في استعباد الشعوب نفسيا إذ يسلبون الشعوب حرية التصرف فتستعبد على مر الأيام.

والكيمياء الجاهزة يحتاج إليها الجسم أحيانا في صورة فيتامينات. ولكنها لا تؤدي مهمة الغذاء الطبيعي كاملة، إذ أن الجسم يستفيد أكثر من الغذاء الذي يهضمه ويمثله ويختار منه ما يريده ويطرد فضلاته: أي يتفاعل معه تفاعل إيجابيا في كل مرحلة من المراحل. والنفس كذلك. قد تحتاج أحيانا إلى أفكار جاهزة ومشاعر جاهزة! ولكنها لا تستطيع أن تعيش عليها؛ ولا بد أن تذوى وتضعف إن لم تقم بالتفاعل الإيجابي مع الأفكار. لهذا يقف النمو النفسي للشعوب الجماعية، ذوات الحكومات الدكتاتورية التي تلقنها أفكار جاهزة ومشاعر جاهزة تنتجها معامل الدولة كما يحدث في الشيوعية.

وغير ذلك كثير.

كلها أمثلة تشير إلى وجود تواز بين كثير من التصرفات النفسية والتصرفات الجسمية في الإنسان.

* * *

لذلك خطر لي أنه بصرف النظر —مؤقتا– عن طريق التفاعل الخفية بين النفس والجسم، فإن أقرب صورة للعلاقة بينهما هي السلم الخشبي ذو القائمتين تربط بينهما قوائم عرضية.

هذا السلم يرتكز على قائمتين شبه متوازيتين، تلتقيان —نظريا– لو مددنا كل قائمة إلى نهايتها. ولكنهما في وضعهما الموجود بالفعل تلتقيان عن طريق العوارض الصغيرة التي تربط كلا منهما بالأخرى. والراكب على السلم يرتكز على كل من القائمتين في ذات الوقت عن طريق هذه العوارض. وقد يكون ثقله أحيانا أقرب إلى هذه القائمة أو تلك، ولكنه في كل حالاته مرتكز عليهما معا في ذات الوقت. ولا تمر عليه لحظة واحدة يكون مرتكزا فيها على إحدى القائمتين دون الأخرى.

تلك أقرب صور الخيال إلى الواقع.

فكل عمل يقوم به الإنسان يؤديه بنفسه وجسمه في آن واحد. ومهما يكن من بروز أحد الجانبين في لحظة من اللحظات، فالاتصال بينهما قائم في كل لحظة، والعمل مرتكز على كليهما في ذات الوقت.

أدخل الأمور في الناحية النفسية: النشوة التي أحسها بين جنبي وأنا جالس لا أتحرك، يصحبها تغير في إفرازات الجسم ينتج عنه نشاط جثماني غير مقصود. حتى ليهم الإنسان أحيانا بالنط والقفز ليعبر عن "شعور" حي متوفز.

وأدخل الأمور في الناحية الجسمية: تناول الطعام، يصحبه سرور بمذاق الطعام وارتياح نفسي له ينتج عنه الرضا والانبساط.

وكثير من الحالات الأخرى تقع بين بين، ويبدو فيها الازدواج بشكل ملحوظ.

* * *

وندع للعلم أن يبحث بكل وسائل عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم..

ولكنا نطمئن إلى هذه الحقيقة التي يرسمها السلم الخشبي ذو القائمتين.

ونبحث في النظم والعقائد التي تعامل "الإنسان"، فنجد الإسلام من بينها أكثر النظم إدراكا لهذه الحقيقة، وتمشيا معها في واقع الحياة.

إنه يأخذ الإنسان ككل: عقله وجسمه ونفسه وروحه. نشاطه الجسمي ونشاطه النفسي والروحي كلاهما داخل في الحساب. مطالب جسده ومطالب روحه جزآن من النظام متكاملان لا متعارضان..

وبينما ترتكز بعض العقائد على ركيزة واحدة، ركيزة الروح، وتجنح بعض النظم إلى العناية الفائقة بمطالب الجسد وإهمال مطالب الروح، وتحاول كلتاهما أن تقف على إحدى القائمتين دون الأخرى فتتزلزل وتقع، أو تعجز عن الوقوف الطويل، نجد الإسلام يعمل على أساس وحدة الجسم والنفس، حتى ليجعل العبادة عملا والعمل عبادة! ولا يفصل بين الماديات والروحيات، ولا بين الأرض والسماء. كله وحدة مترابطة الأجزاء.

العبادة الإسلامية ليست سبحات روحية خالصة ولا تهويما صامتا في الملكوت. بل هي "حركات" جسمية في ذات الوقت الذي تتحرك فيه النفس من الداخل بشتى الانفعالات والوجدانات والصلاة الإسلامية أبرز الأمثلة لما نقول[1].

والعمل في ظل العقيدة الإسلامية يعتبر عبادة ما دام الإنسان يتوجه به إلى الله ولا يسعى به إلى ضرر مخلوق من خلق الله.

والقرآن تشريع وتهذيب في وقت واحد. تنظيم لحياة الأرض وربط لها بحياة السماء.

والدنيا والآخرة ليستا منفصلتين.

وضرورات الجسد وأشواق الروح غير متنافرتين.

حتى نشوة الجسد الخالصة في العمل الجنسي يتوجه بها الإنسان إلى الله إذ يقرأ عليها اسمه الكريم فإذا هي عبادة وإذا له عليها أجر!

والتشريع القائم على وجدان التقوى ومشاعر الخوف من الله تشريع يقوم في الوقت ذاته على القوة المادية اللازمة للتنفيذ. وهو ينظم مسائل الغذاء والكساء والجنس والتعايش السلمي بين البشر، في ذات الوقت الذي ينظم ارتباطاتهم الوجدانية بالمحبة في الله.

وهو لذلك أشمل النظم وأعمقها وأقواها. لأنه يتمشى مع الفطرة البشرية. ويدرك حقيقة الترابط بين الجسم والنفس في كيان الإنسان.

---

[1] – اقرأ بعد ذلك فصل "العبادات الإسلامية".

ولكنا في حاجة إلى تفهمه وتدبره لنرتكز على كلتا الركيزتين. ولو أدركنا حقيقة الكيان الإنساني لاهتدينا لتونا إلى حقيقة الإسلام!

الطاقة البشرية المحايدة
بين الخير والشر

قرأت لفرويد كلمة أعجبتني. فهو لا يزال يبدئ ويعيد في كل كتبه أن الطاقة البشرية جنسية في طبيعتها. ويصل في ذلك إلى حد الافتعال والسخف. ولكنه مرة واحدة في أحد كتبه قال إن النفس البشرية تشتمل بجانب ذلك على طاقة "محايدة" لا لون لها، ولكن المشاعر القوية في النفس تستخدم هذه الطاقة المحايدة وتسخرها لأغراضها.

هنا كان فرويد معقولا على غير عادته!

وسرحت بفكري أتدبر هذا القول من وجهة نظري الخاصة.

وتركت فرويد وفلسفته الجنسية. ورحت أبحث المسألة من ناحية الخير والشر. الخير والشر بأي مقياس من مقاييس السماء أو مقاييس الأرض..

وخطرت لي خواطر عجيبة.. إن الطاقة النفسية كلها.. فيما عدا خطوطا قليلة جدا.. محايدة بين الخير والشر. لا لون لها في ذاتها. ولكن التوجيه الذي يقع لها هو الذي يحولها إلى طاقة خيرة أو طاقة شريرة.

هذا تيار من الماء نستطيع أن تحوله لري الأرض واستنبات النبات أو تستطيع أن تغرق به الأرض وتقتل الحياة. هو في الحالة الأولى خير. وفي الحالة الثانية شر. ولكنه هو الماء ذاته في الحالتين. لم تتغير طبيعته. ولكن تغيرت وظيفته.

وهذا تيار من الكهرباء تستطيع أن تضيء به المصابيح هدى ونورا للناس، وتستطيع أن تصعق به الأحياء. هو في إحدى حالتيه خير وفي الثانية شر. ولكنه هو هو تيار الكهرباء لم يطرأ عليه تغيير.

وكذلك الطاقة النفسية. طاقة محايدة. تصلح أن تستخدمها للخير كما تصلح هي ذاتها أن تستخدمها في الشر. لا تتغير طبيعتها في الحالتين وإنما يتغير التوجيه.

خذ طاقة الجنس. أشر هي في ذاتها أم خير؟

لا شيء من ذلك. إنها طاقة ميكانيكية جسمية توازيها طاقة نفسية تتحرك معها في نفس الاتجاه. وليس الخير أو الشر كامنا في طبيعتها. ولكنك توجهها أنى شئت. توجهها

لإحداث النسل، في الطريق التي تتمشى مع أهداف الحياة وتحققها في نطافة فإذا هي خير. خير لا يستحي المسلم أن يقرأ عليه اسم الله الكريم. وتوجهها لهدف منقطع عن هدف الحياة، ناشز منحرف، فإذا هي شر. شر تنبغي محاربته وإعلان الحرب عليه.

وخذ طاقة القتال. إن الإنسان السوي مشتمل على هذه الطاقة كجزء من بنيته. ولكن شر هي أم خير؟

لا هذا ولا ذاك. إنها مجرد قدرة على الصراع، قدرة ميكانيكية جسمية توازيها قدرة نفسية في ذات الاتجاه. وهي ليست في ذاتها خيرا أو شرا. ولكنك تستخدمها لإقامة الحق والعدل ودفع الظلم والعدوان فهي خير. وتستخدمها في الظلم والعدوان فهي شر واضح مبين.

وشبيه بالطاقة النفسية الطاقة الفكرية والروحية.

فالقدرة على التفكير طاقة محايدة. ولكنك تستخدمها للنفع العام فهي خيرة، وتستخدمها للإيذاء وإيقاع الضرر فهي شريرة. ولكنها هي في ذاتها من حيث هي نشاط بشري لم تتغير في الحالتين.

وكذلك الطاقة الروحية. وقد غلب على الناس أن يتصوروا الطاقة الروحية مقرونة بالخير والنقاء والسمو، ولكنها –ككل طاقة بشرية– محايدة في ذاتها وصالحة لكلا التوجيهين. إنها –كالذكاء، وككل الطاقات الأخرى– موهبة توهب للناس على درجات متفاوتة. فهي عند بعضهم ضعيفة بحيث لا تكاد تظهر، وعند آخرين قوية واضحة الآثار. والشخص ذو الموهبة الروحية الخارقة يستطيع أن يوجهها إلى الخير أو الشر سواء. وقصة راسبوتين ساحر روسيا معروفة في التاريخ. إنها طاقة روحية جبارة وجهت وجهة الشر والأذى والإيقاع بالناس. وقصص الأنبياء والقديسين معروفة كذلك في التاريخ. طاقة روحية خارقة وجهت وجهة الخير. وليس الناس كلهم أنبياء وقديسين، وليسوا كلهم راسبوتين. ولكن الواقع المشهود يعرف درجات مختلفة من الطاقة الروحية تستخدم للخير وللشر سواء.

* * *

هناك إذن نتيجة نستطيع أن نطمئن إليها: هي أن الطاقة للبشرية –في معظمها– طاقة محايدة تصلح للخير والشر بحسب ما تتلقاه من توجيه. ونقول في معظمها احتياطا فقط،

وإن كنت كلما أمعنت في التفكير لا أجد شيئا له في ذاته لون ثابت متميز بحيث لا يقبل التلوين[1].

ومن هنا تنشأ القيمة الخطيرة للتربية والتوجيه. إنها قيمة بالغة الخطورة. لأنه يتوقف عليها اللون الذي تأخذه هذه الطاقة المحايدة الصالحة لمختلف الألوان.

في الحيوان تأخذ الطاقة لونا واحدا لا تكاد تغيره. لونا يهدف إلى التحقيق المباشر لمطالب الحيوان. ومن هنا لا يوصف تصرفه بأنه خيّر أو شرير. لأن هذه التفرقة لا توجد إلا حيث توجد الألوان المتميزة، وتوجد القدرة على اتخاذ مختلف الألأوان.

والإنسان –وحده فيما نعرف من المخلوقات– هو المخلوق المتعدد الألوان، القابل للتلوين.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا..).

نعم. "النفس" البشرية وحدها هي التي تعرف الفجور والتقوى. تعرف النقيضين وتقدر على النقيضين. ومن هنا توصف أعمال الإنسان بأنها خير أو شر، ويعاقب أو يثاب.

(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا..)[2].

[1] – انظر كتاب "منهج التربية الإسلامية" وكتاب "دراسات في النفس الإنسانية".

[2] – العقوبة قائمة على أساس قدرة الإنسان على التمييز بين الخير والشر. والمسئولية الكاملة عن أي جريمة ترتكب، هي في الواقع مسئولية موزعة بين الفاعل الأصلي للجرم، وأبويه اللذين نشآه، وأهله وأصدقائه (البيئة بصفة عامة) والحاكم الذي يشرف على سياسة الدولة. وهم يتقاسمونها بينهم بنسب مختلفة. ولكن نصيب فاعل الجرم لا يكون صفرا إلا في حالة الاضطرار الكامل: **(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)**. أو إذا كان مصابا بعيب وظيفي في القدرة على التفكير، وعندئذ تسقط عنه المسئولية. أما الاتجاهات الحديثة التي تخلي المجرم من المسئولية إخلاء كاملا باعتباره ضحية الأوضاع الفاسدة في المجتمع، أو ضحية التوجيه الفاسد، فهي تسقط من حسابها قدرة الفرد الفطرية على التميز، وقدرته الفطرية على ضبط تصرفاته، وتعتبره مخلوقا سلبيا خالصا. وهذا ليس حقيقة علمية. فالطفل الصغير يتمكن –ولو لم يمرنه أحد– من ضبط إفرازاته بعد فترة من مولده، مما يدل على أن مقدرة الضبط فطرية، وكذلك القدرة على ضبط الانفعالات والتصرفات. وليس ينكر أحد المسئولية العظيمة التي تقع

وقد وجد في القرن العشرين ناس يريدون أن يردوا الإنسان حيوانا لا توصف أعماله بالخير أو الشر. ناس يغفلون قدرة الإنسان على التلون، ويجعلون من طبيعته المزدوجة طبيعة مفردة الاتجاه.

ناس من أولئك يوجدن في أمريكا يقولون لك: ما دخل المسألة الجنسية بالأخلاق؟ إنها عملية "بيولوجية" ليست لها صفة خلقية.. تماما كالحيوان!

وناس شبيهون بهم من أنصار التفسير المادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ يقولون لك: إن الاستعمار ليس مسألة خلقية، ولا تدخل فيه الاعتبارات الإنسانية. لا يقال إنه ظالم أو غير ظالم. إنه حركة طبيعية كأكل القطة للفأر. عملية لا بد أن تحدث، ولا يقال عنها إنها خير أو شر!

وهؤلاء هم خلاصة المدنية الحديثة! خلاصتها أن ترد الإنسان حيوانا ذا لون واحد وطبيعة واحدة. بينما المعجزة الكبرى في خلق الإنسان هي طبيعته المزدوجة اللون والاتجاه.

* * *

والتربية كما قلنا هي أخطر مهام الإنسانية. هي التي يتوقف عليها أن نصبح آدميين أو نرقد حيوانات. هي التي تجعلنا نزكي أنفسنا أو ندسيها.. فنفلح أو نخيب.

وقد أدرك الإنسان منذ فجر حياته قيمة التربية فوضع لها قواعد وأهدافا تتناسب مع درجة وعيه لنفسه وإدراكه لحقيقة رسالته في الأرض. وما تزال التربية موضع العناية من الشعوب كلها وإن اختلفت قواعدها وأهدافها بين الخطأ والصواب.

والتربية الغربية الحديثة —على براعتها الفائقة ودقتها المتناهية– هي أخطر ما عرفته البشرية في تاريخها. وأقربها إلى إفساد الإنسانية، ما لم يصح الغرب إلى أخطائه ويرتد إلى الصواب.

على المجتمع والبيئة، والقيمة الخطيرة للتربية والتوجيه. ولكن ذلك كما قلنا ليس معناه إلغاء المسئولية عن فاعل الجريمة في كل حالة. ولعل من المناسب هنا أن نذكر الحادثة التي سرق فيها بعض الغلمان ناقة على عهد عمر، فلم يقم عليهم الحد، بل وقع العقوبة على صاحبهم وقال له: "والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم حتى إن أحدهم لو سرق ما حرم الله عليه لحل له.. لقطعت أيديهم. فإذ لم أفعل ذلك فلأغرمنك غرامة توجعك". فهنا اضطرار واضح أسقط المسئولية عن الفاعل. ولكن علم النفس التحليلي الحديث يبالغ مبالغة معيبة في تصوير الدوافع القهرية للجريمة.

ذلك أنها –فيما تزعم– تعتمد على أبحاث العلم التجريبي.

والعلم التجريبي مظلوم في هذا الزعم. فهو –ككل الطاقات البشرية– عنصر محايد. يصلح أن يوجه للخير كما يوجه للشر!

وقد فتن العلماء أن يبحثوا الإنسان "على طبيعته". أي بغير توجيه معين. والإنسان على طبيعته أقرب إلى الهبوط والانحراف إلى الشر.

ولا يتعارض ذلك مع ما قلناه من قبل من أن الطاقة البشرية محايدة في ذاتها، ليس لها لون متميز..

ونرجع إلى قولة فرويد: إن النفس البشرية تشتمل على طاقة محايدة. ولكن المشاعر الأقوى في النفس تستخدمها وتسخرها لأغراضها.

فالطفل يولد وله طاقات محايدة لا لون لها ولا اتجاه..[1] .

ثم يحس بالجوع –مثلا– فيوجه طاقاته للبحث عن الثدي، ثم إلى عملية الرضاعة.

ويحس بالحاجة إلى إخراج فضلاته فيوجه بعض طاقاته لإخراجها.

ويحس بالخوف فيوجه بعض طاقاته للاحتماء في صدر أمه.

ويحس بالحاجة إلى "المجتمع" فيوجه بعض طاقاته للاتصال بالآخرين.

ورويدا رويدا تتلون الطاقة حسبما تسخرها حاجات الطفل.

أي أنه في هذه الفترة محكوم بضروراته، وطاقاته خاضعة لهذه الضرورات. فهو في ذلك أشبه بالحيوان.

[1] – هذا لا ينفي أثر الوراثة. فكما أن بعض الأطفال يرثون ضعف البنية أو قوتها، وضعف الذكاء أو قوته، فلا شك أنهم يرثون كذلك ضعف القدرة على ضبط النفس أو قوتها. ولكن هذا لا يلغي أثر التربية، بل إنه يضاعف مهمتها في مثل هذه الحالة لتقويم الانحراف أو تخفيفه. والتجربة العملية تثبت أن التوجيه الصحيح للطفل المنحرف أو ذي الاستعداد الوراثي للانحراف يفيد أكبر الفائدة في تقويمه.

ولكن كيانه ينمو بعد ذلك ولا يقف عند هذا الحد الحيواني. ففي بنيته مقدرات أخرى، وأشواق أعلى من الضرورات. هذه الأشواق تتأخر في الظهور، ولكنها طور طبيعي من أطوار الإنسان، كعملية الإزهار في النبات. تأتي متأخرة ولكنها طبيعية.

وهذه الأشواق العليا تستطيع أن تستخدم الطاقة المحايدة وتسخرها لأغراضها كما تصنع الضرورات. ولكنها في حاجة إلى معاونة من الخارج، معاونة فعالة لإنضاجها وتوجيهها الوجهة الصحيحة. وإلا انحرفت أو تأخرت في الظهور.

وكونها في حاجة إلى المعاونة الخارجية ليس معناه أنها مفتعلة، أو مفروضة من الخارج، أو غير طبيعية كما يزعم فرويد ومن ذهب مذهبه. كلا! فالطفل يحتاج –لكي يمشي– إلى معاونة خارجية تسنده حتى يستطيع أن ينظم خطواته ويضبطها. وإذا لم تعاونه فربما نشأ كسيحاً أو تأخر مشيه عن موعده. والمشي مع ذلك قدرة طبيعية يولد بها الطفل، وليست تفرض عليه من خارج كيانه.

وكذلك الأشواق العليا التي تخرج بالإنسان من صالحه الخاص إلى صالح غيره، وتجنح به إلى المعايشة السلمية القائمة على الحب المتبادل والتعاون بين الجميع. هي جزء من الفطرة البشرية كالأشواق الذاتية الأنانية سواء بسواء. ولكنها –كتعليم المشي– تحتاج إلى معاونة خارجية.

وتلك هي مهمة التربية.

فإذا أخذنا الإنسان "على طبيعته" بمعنى دراسته دون توجيه ولا تهذيب، فإننا بذلك نغفل من حسابنا الجانب الآخر من طبيعته، الجانب الموجود في حالة كامنة، والذي يحتاج إلى التوجيه لكي يظهر للعيان[1].

وإذا وضعنا قواعد التربية على هذا الأساس –الذي نزعم خطأ أنه الأساس الطبيعي– فمعنى ذلك أننا نترك الإنسان محكوما بضروراته إلى الأبد، ونترك الطاقة المحايدة تتلون بهذا

---

[1] – لا بأس أن تتخصص بعض الدراسات النفسية في دراسة الطفل كما هو بدون توجيه، على أن يكون مفهوما منذ البدء أنها دراسة ناقصة، لا تصلح للتطبيق العملي، وإنما كل مهمتها أن تتعرف على الطاقة الحيوية في صورتها "البرية" للاستفادة من ذلك عند وضع القواعد الصالحة للتهذيب. أما أن يتصور علم النفس أن الطفل في هذه الصورة هو الطفل الطبيعي، أو أن هذه الصورة هي التي ينبغي أن يكون عليها الطفل، فهذا هو الخطأ والخطر الذي تنذر به بعض الدراسات النفسية المعاصرة.

اللون فتصبح بعد حين طاقة شريرة، شريرة لا لأن ضرورات الإنسان في ذاتها شريرة، ولكن لأن غياب العنصر الآخر الذي يعادلها يجعلها تتطرف في اتجاه واحد. وذلك ما نسميه بالشر لأنه —كما ثبت من التجربة– يعود بالضرر على الفرد وعلى الجماعة.

فطاقة التملك —وهي طاقة في ذاتها محايدة– لو تركت للضرورات وحدها تحكمها، تتخذ بعد حين لون السرقة والغصب والاحتيال والنصب.. والغرب لا يتركها لحكم الضرورات، بل يهذبها تهذيبا فائقا يصل إلى حد معجب. وذلك باستخدام الأشواق العليا التي توازن هذه الطاقة وتمنع انحرافها.

وطاقة القتال —وهي كذلك طاقة محايدة– لو تركت للضرورات وحدها تحكمها، تتخذ بعد حين لون العدوان. والغرب لا يتركها كذلك، بل يبالغ في تهذيبها بإطلاق الأشواق العليا التي توازنها وتقف دون ضراوتها.

ولكنها المشكلة الجنسية هي التي ينحرف فيها الغرب أعظم انحراف. ولست أدري لم يخصها وحدها بأنها مسألة بيولوجية لا تخضع لحكم الأخلاق. بينما الطعام أيضا مسألة بيولوجية، وكان يمكن —على نفس الأساس– أن تباح فيه الفوضى فيأكل كل الناس من حيث شاء لهم مزاجهم بلا ضوابط ولا حدود!

كما أن عيب الغرب الأكبر أنه لا يجعل تهذيبه على أساس إنساني ولكن على أساس قومي. ومن هنا يعيش القوم داخل وطنهم على خير ما يكون، فإذا برز قوم لقوم تصارعوا كالوحوش الضارية بصرف النظر عن الظالم والمظلوم.

* * *

والإسلام قد أدرك الطبيعة البشرية المحايدة الطاقة المزدوجة الاتجاه:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا).

وأوجبت تزكيتها. أي تربيتها وتهذيبها. وجعل ذلك أمانة في عنق الوالدين وأولياء الأمور.

وجعل هذه التزكية على أساس إنساني بحت لا يعرف فوارق الوطن ولا اللغة ولا الجنس ولا حتى العقيدة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...) **(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...)**.

وجعل أساس هذه التزكية هو التهذيب لا الكبت.

فهو لا يحب أن يمحق طاقة حيوية أو يعطلها عن عملها. لأنه يعرف أن كل طاقة حيوية يشتمل عليها الإنسان هي جزء من كيانه ضروري له في حياته. وتعطيله أو كبته معناه إهدار هذه الطاقة وتضييع الفائدة المرجوة منها.

ولكنه كذلك لا يترك الإنسان "على طبيعته" بالمعنى الخاطئ من هذا التعبير، الذي يزعم أن ضرورات الجسد هي الطبيعة الوحيدة للإنسان. بل يتركه "على طبيعتيه". فيعطي ضرورات جسده نصيبها المعقول: "**إن لبدنك عليك حقا**" ويعطي أشواقه العليا نصيبها المعقول: "**أحب لأخيك ما تحب لنفسك**" ويوازن بين هذه وتلك **(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)**.

والإنسان بعد من أعظم معجزات الخلق: لا هو بالملاك ولا بالشيطان. ولكنه مشتمل على الخير والشر، وقادر في لحظات الارتفاع أن يصبح كالملائكة، وقادر في لحظات الهبوط أن يصبح كالشياطين.

العبادات الإسلامية

هناك مزية بارزة في العبادات الإسلامية: أنها كلها تمزج بين الدنيا والآخرة، وتصل بين الأرض والسماء.

ليس من بينها "عبادة خالصة" منقطعة الصلة عن عالم الأرض. وإنما كلها تشتمل على جانب "تعبدي" موجه للسماء مقصود به الآخرة؛ وتشتمل في الوقت ذاته على حانب عملي، موجه لواقع الأرض، مقصود به الحياة الدنيا، وتنظيمها وإقامتها على أسس مكينة من النظافة والعدالة والصلاح والاستقرار.

والمزية العظمى –كما ذكرنا– هي مزج هذه وتلك، بحيث يصبح الشيء الواحد عملا وعبادة في ذات الوقت، وتصبح الدنيا والآخرة متصلتين متحدتين في الفكر والضمير، ويصبح الكائن البشري يمشي بجسمه على الأرض وروحه متطلعة إلى السماء.

* * *

كل العبادات الإسلامية ينطبق عليها هذا الوصف حتى التي تبدو لأول وهلها أنها مجرد صلة بين العبد والرب، أو عمل يعمل في الدنيا لغير شيء إلا رجاء الثواب في الآخرة.. حتى هذه لا تغفل الحياة الدنيا، ولا تنفصل نتائجها العملية عن عالم الناس.

خذ العبادات واحدة واحدة...

شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

لعل الشق الأول من الشهادة يبدو من أبرز الأمثلة على "العبادات الخالصة" التي تنشئ صلة مجردة بين العبد والرب. فهي الإقرار لله بالألوهية المطلقة، والإقرار بالعبودية الكاملة لله. ولا شيء غير ذلك!

كلا: إنها ليست ذلك فحسب.

إن الإقرار بالعبودية لله وحده، والإقرار بالألوهية لله وحده، معناه نفي الألوهية عن كل ما عدا الله. ونفي العبودية لأحل غير الله. معناه عدم الخضوع لأحد –كائنا من كان– إلا الله. معناه أن السلطة الحقيقية التي ينبغي أن تعبد وتطاع هي سلطة الله، ولا سلطة لأحد إطلاقا غير الله.

معناه أن الله وحده هو القوة المدبرة لهذا الكون كله. وأنه لا تدبير لبشر في صغيرة ولا كبيرة إلا أن يشاء الله. ومن ثم تتجه القلوب كلها إلى الله، ولا تطلب العون من أحد سواه.

معناه أن قوى الأرض كلها ينبغي أن تتجه في أعمالها وأقوالها إلى الله، تهتدي بهديه وتسترشد بنوره.

ومن ثم لا تصبح مجرد ألفاظ.. ولا تكون مجرد صلة بين العبد والرب. وإنما هي واقع أرضي عظيم الخطر كبير الشأن. واقع أرضي تقوم عليه "السياسة" الأرضية كلها بأوسع مدلوها: سياسة الحكم والمال والقضاء والإدارة.. وكل تنظيمات الأرض، والعلاقات التي تقوم بين طوائف المجتمع المختلفة، المتضاربة المصالح والحقوق والواجبات.

أما الشق الآخر من الشهادة فواضح الدلالة على المصدر الذي نستقي منه، ونفسر به كلام الله. فالرسول –صلى الله عليه وسلم– هو الترجمة العملية الكاملة الواضحة للفكرة الإسلامية كما وضعها الله. ومن ثم فهو القدوة التي يقتدى بها، والمثل الذي ينظر إليه.

إن المسلمين لا ينبغي لهم أن يولوا وجوههم قبل المشرق والمغرب يبحثون عن القدوة والمثال. فأمامهم المثال الكامل عبد الله ورسوله الذي اصطفاه ليكون معلم البشرية وهاديها إلى النور. وهذا المثال لو تدبروه لوجدوا فيه كل جوانب حياتهم الدنيوية والأخروية. محمد الإنسان. محمد الزوج. محمد الأب. محمد الحاكم. محمد القاضي. محمد القائد. محمد المجاهد. محمد المتعبد. محمد الروحانية الصافية والواقعية الكاملة في مزاج واحد وطبيعة واحدة.. محمد الذي شمل اتجاهات البشرية النظيفة كلها، وشمل من كل منها قدراً يكفي وحده ليملأ حياة إنسان!

ذلك هو المثال الذي ينبغي أن يحتذي بقدر ما تطيق قدرة البشر، وبقدر ما يستطيع كل إنسان أن يستوعب من جوانب نفسه العميقة الشاملة الصافية. وذلك هو المقياس الذي يقيس كل إنسان حياته عليه، ليعرف إلى أي مدى هو مخطئ، وإلى أي مدى هو على صواب.

فليست هي إذن مجرد ألفاظ يلفظ بها لسانه، ولا مجرد "وجد" يشعر به الإنسان لذكر محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما هو التوجيه العملي نحو القدوة الكاملة، وما يتبع ذلك من

تأثير في حياة الفرد والجماعة في علاقتهم بعضهم ببعض، وفي الأسس كلها التي تقوم عليها الحياة[1].

* * *

والصلاة.. قد تبدوا كذلك لأول وهلة عبادة خالصة.

ولكنها ليست كذلك في واقع الحياة الإسلامية. إن أثرها الدنيوي ملحوظ حتى وهي عبادة فردية يقوم بها الإنسان في خلوته، فما بالك وهي صلاة جماعة، يلتقي فيها الناس على نظام معين، وتتحد أجسامهم وقلوبهم في قبلة واحدة؟

والصلاة الإسلامية تستحق أن تفرد لها كلمة ينوه فيها بمدلولها الخاص الذي لا تجده في أنواع الصلاة الأخرى.

إن الصلاة في كل عبادة هي عنوانها وترجمانها، وهي "ملخصها" الذي يدل على مبادئها واتجاهاتها.

فبينما نجد الصلاة في بعض العقائد التي تجنح إلى الروحانية الخالصة، أنغاما موسيقية ساجية، وترتيلا مبهما، وغناء مؤثرا، مع السكون الشامل يشمل المصلين فلا تتحرك أجسامهم ولا عقولهم، وإنما تسبح أرواحهم في الملكوت وهم قعود..

وبينما نجدها في بعض العقائد الوثنية ذات المعبودات الحسية القريبة حركات جسمية عنيفة، وطبولا مدوية وصرخات مجنونة...

نجد الصلاة الإسلامية عنوانا للفكرة الإسلامية، التي تشمل الكيان البشري كله في آن واحد: جسمه وعقله وروحه، تعطي كل منها نصيبه، وتوازن بين شتى الاتجاهات.

نصيب الجسد في الصلاة هو الحركة التي يقوم بها من قيام وركوع وسجود وتحرك وسكون.

ونصيب العقل هو التفكر فيما يتلوه المصلي من الأدعية والآيات. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "**ليس لك من صلاتك إلا ما وعيت**".

[1] – انظر كتاب "قبسات من الرسول".

ونصيب الروح هو الخشوع والتقوى والتطلع إلى الله والاتصال بنوره الشفيف.

وكل ذلك في آن.

ليس هناك حركة هي جسم فقط. أو عقل فقط. أو روح فقط..

وإنما هي الجسم والعقل والروح في كيان واحد متكامل ممتزج الأجزاء[1].

والصلاة تَوجُّه إلى الله بالدعاء. ذلك أمر واضح لا يحتاج إلى بيان. ولكن هذا التوجه له أثره العملي في حياة الفرد، حين يؤدي الصلاة على حقيقتها، ولا يؤديها مجرد حركات وكلمات..

ولقد جربت اللحظات التي أصلي فيها بكامل نفسي، وخاصة صلاة العشاء.

كم مرة ملأ نفسي الظلام والإجهاد.. كم مرة يئست من حياتي وأحسست بتفاهتها وضآلتها وقلة جدواها.. كم مرة أحسست أن الحمل الذي أحمله أثقل من أن أقدر على حمله.. كما مرة أحسست أنني لا أستطيع.. لا أستطيع أن أستمر في هذا الجهد المرهق بلا نتيجة، والساقية الدائرة بلا انقطاع. كم مرة أحسست أن آخر طاقتي هي الليلة.. وأنه لا شيء قد بقي للغد.. لا زاد ولا طاقة ولا قدرة على الصراع...

ثم أصلي..

أهو سحر؟! أهو وهم وخداع؟

هذه اليد الرفيقة الحانية التي تمتد في خفة ورفق، فتمسح على صدري فيطمئن. وتمسح على آلامي فليس لها وجود..

أهي وهم؟

كلا! بل إنها حقيقة. إنها يد الله. إنها يد القوة العظمى الحانية في جبروتها وعليائها، تمسح أوضار نفسي وتنقي أدرانها، وتمنحني الزاد والقوة والطمأنينة.

---

[1] – الفكرة مأخوذة من حديث لسيد قطب في إحدى محاضراته.

إنها يد الله. الله الذي كنت أصلي له. والذي استطاعت روحي في لحظة صفاء خاطفة أن تتصل به، فتشرق في نوره، وتتعلق برحمته.

الله يمدني بالقوة والعون.. ويخلقني من جديد.

هل هذه مجرد عبادة للآخرة؟

أو ليست تمنحني النشاط للحياة من جديد، فأؤدي عملي، وأبذل جهدي، وأحتمل قسوة الصراع؟

أو ليست زادا واقعيا لحياة الأرض، من حيث هي زاد علوي لحياة الآخرة؟

ذلك وهي عبادة في خلوة..

أما صلاة الجماعة فدلالتها واضحة في جميع شتات الناس، وربطهم برباط المحبة والتعاون حين ترتبط قلوبهم بالله في الصلاة. فضلا عن المعنى العسكري الملحوظ في تنظيم الصفوف واتباع القائد، وكل المشاعر الأخرى التي ينشئها الإحساس باتحاد الوجهة واتحاد الشعار واتحاد الحركات والسكنات.

* * *

والزكاة على العكس.. يبدو الجانب الأرضي التنظيمي فيها واضحا حتى ليغري بالظن أنه هو كل المقصود من هذه الفريضة التي تأخذ من القادرين لتعطي غير القادرين، وتشعر الجميع أنهم شركاء في ثمرة الجهد البشري كل بحسب حاجته، حتى ولو لم يتساووا في الجهد والقدرة على الإنتاج.

نعم إن الجانب الاجتماعي الاقتصادي واضح جدا في هذه الفريضة. فهي أول ضريبة نظامية في تاريخ الناس. كانت الضرائب قبل ذلك بلا نظام ولا قاعدة، ولا ميزان لها إلا ميل الحاكم ومدى تعطشه للمال. فجاءت الزكاة فنظمت الضريبة المفروضة على الناس، وحددت أهدافها. فهي ليست لمنفعة الحاكم ولا لإثراء أهل بيته من دماء الناس، وإنما هي لكفالة المحتاجين إلى كفالة الدولة من الضعفاء والعاجزين.

ولكنها ككل العبادات الإسلامية ليست للدنيا وحدها ولا للآخرة وحدها. وإنما هي مزيج من هذه وتلك. ويكفي أن تكون التنظيمات الاقتصادية "عبادة" لتدل على هذه المزية

التي تمتاز بها الفكرة الإسلامي. فالضرائب في كل نظم الأرض فريضة تفرضها الدولة، لأهداف اجتماعية واقتصادية. أي أنها علاقة أرضية بحتة؛ والدولة تقوم بجمعها بقوة القانون وقوة السلطان، والناس يتهربون منها، إلا أن تضيق الدولة عليهم الخناق بتنظيماتها وأدواتها التنفيذية فيرون أن دفعها هو الأسلم والأجدى فلا يقاومون..

ولكنها في الإسلام ليست كذلك.

فكونها عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله لم يجعلها فريضة ثقيلة على النفس، يتهرب منها دافعها، بل جعلها أمراً يسابق الناس إلى أدائه ليرضى الله عنهم، ويمنحهم البركة في أموالهم وأحوالهم؛ وجعل في ضميرهم حساسية تجاهها بحيث يتحرج المسلم من أن يطعم طعاما أو ينفق على نفسه وأهله مالاً لم يدفع زكاته. وكذلك كان الناس في صدر الإسلام حين كانوا مسلمين. بل كذلك ظلوا إلى عهد قريب حتى بطلت الزكاة باستخدام القانون الفرنسي بدلا من الشريعة الإسلامية. وقد بدأت الموجة الإسلامية الجديدة تحفز الناس من جديد إلى دفع الزكاة.

وبذلك يتم التنظيم الأرضي والشعور الوجداني في عمل واحد، غير متميز هذا عن ذاك.

* * *

والصوم فريضة تعبدية خالصة في ظاهرها.

إنه حرمان النفس من شهواتها، وحرمان الجسد من غذائه وشرابه ابتغاء مرضاة الله.

ولكنه لم يفرض لصالح الفرد في الحياة الآخرة وحدها، وإنما فرض لصلاح أمره في الحياة الدنيا كذلك.

إن الصوم في حقيقته عملية تجنيد.

وكما تحتاج الأمم كلها لتجنيد أبنائها وتدريبهم على احتمال الجهد والمشقة توقعا للاحتياج إليهم يوم الصراع.. فكذلك فرض الإسلام هذا التجنيد، ولكنه على نطاق أوسع، يشمل الروح والجسد في وقت واحد، ويشمل الصغار والكبار. والرجال والنساء.. لأنه تدريب لهم على الصراع الأكبر.. الصراع الدائم.. صراع الحياة، التي يمارسها الجميع وتقع تبعاتها على الجميع.

الحياة كلها صراع. وليست الحرب وحدها هي الصراع الذي يحتاج إلى التدريب وتحمل المشاق.

وأبسط ألوان هذا الصراع أن الحياة لا تعطي أحدا كل أمنياته، مهما بدا مستمتعا بطيبات الحياة. فالنفس البشرية خلقت هكذا واسعة المطامع والأحلام، لا تقنع بما تجد، وتسعى دائما إلى جديد، ليكون هذا حافزا من حوافز النشاط الدائم على الأرض. وباعثا على التعمير والنماء.

ولكن هذه الخصلة التي ركبت في طبيعة البشر لمنفعتهم وصالحهم تنقلب شرا وشقاء إذا لم تعرف كيف تقف عند حد، وكيف تقنع أحيانا بالموجود لأنه لا مطمع في غير الموجود.

وذلك أمر يحتاج إلى تدريب.

وخير تدريب هو الامتناع الاختياري عن بعض الشهوات وبعض الضرورات فترة من الوقت. فهذا هو الذي يعطي النفس القدرة على تحمل الامتناع الإجباري عن تلك الشهوات والضرورات حين تحكم بذلك ظروف الحياة.

فكما أنك تكسب عضلات جسمك القوة المطوبة بتدريبها على تمرينات مماثلة لما يمكن أن تقوم به وقت الحاجة العملية من ثني ومد ورفع ووخفض، ومصارعة وملاكمة.. إلخ، فكذلك تكسب عضلات نفسك القوة المطلوبة بتدريبها على مثل ما قد يتطلب الأمر القيام به وقت الضرورة من امتناع عن طيبات الحياة.

وليس هذا هو اللون الوحيد من الصراع الذي يعرض للناس في حياتهم..

فالحياة مملوءة بالشر. والمسلم مطالب بمقاومة الشر أنى وجده. وهذه المقاومة قد تعرضه أحيانا للأذى. فكيف يمكن أن يحتمل الأذى إذا كان لا يقوى على احتمال الجوع والعطش بضع ساعات؟

وكما أن الجندي لا يؤخذ من داره إلى ميدان المعركة في يوم وليلة، وإلا حكم عليه بالفناء العاجل..

فكذلك هذا الجندي في صراع الحياة الأكبر، لا يجوز أن يواجه المعركة الدائمة بغير إعداد. والصوم إحدى وسائل الإعداد.

ولا عجب إذن أن يكون الصيام قد فرض عام فرض القتال!

ولمنفعة الفرد في الحياة الدنيا إذن قد فرض هذا الصيام، في ذات الوقت الذي يجزى عليه في الآخرة أعظم الجزاء.

وهو كرم الله السابغ الذي يمنحنا من الفرائض ما يصلح به حالنا على الأرض، ثم يجزينا به الثواب والمغفرة يوم يقوم الحساب.

* * *

والحج من العبادات التي تمتزج فيها الدنيا بالآخرة، والأرض بالسماء.

والذين يذهبون إلى الحج صافية قلوبهم لهذا الفريضة، يحكون ويحسون عجبا.

إن حالات "الوجد" التي تستجيشها في وجداهم زيارة الأماكن المقدسة وأداء الفريضة فيها لهي حالات عجيبة نادرة المثال في واقع الحياة. حالات ترتفع فيها النفوس البشرية عن ملابسات الأرض، ومطامع الأرض، وشهوات الأرض. وتتجرد لله خالصة، تتوجه إليه أن يتقبلها في عباده ويمنحها مغفرته ورضوانه.

والشفافية التي يحسها الناس هناك، وهم يسيرون حيث سار الرسول صلوات الله وسلامه عليهم، ويصلون حيث صلى، وحيث تنزل الوحي، وحيث جاهد وصبر، وحارب وانتصر..

إنها مشاعر عميقة تهز الوجدان هزا، وتصل إلى أعماقه.. تصل إلى الكيان الخالص المصفى من الأدران، إلى الجوهر المشرق المستضيء بنور الله هنالك حيث أودعه الله ليتصل به ويلقاه...

ذلك من حيث هي عبادة.

وذلك من حيث أثرها في تطهير النفس وتخليصها من كثير من أوضارها.

ومع ذلك فقد أشار القرآن الكريم إلى "المنافع" في الحج. منافع أخرى غير إصلاح النفوس وربطها بالله والرسول. من تبادل التجارة والتعارف بين المسلمين، وقيام هذا المؤتمر السنوي الذي يتلاقون فيه بمختلف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، لينهلوا من معين واحد، ويلتقوا على قبلة واحدة.. ثم يستعرضوا مشكلاتهم ويتدارسوا أحوالهم، لينظموا شئونهم على هدى وبصيرة، واتصال في الوشائج والأفكار.

* * *

تلك هي العبادات الإسلامية.

ليس فيها عبادة واحدة خالصة للآخرة. ولا عمل واحد لا يعود على الإنسان بالنفع الحاضر القريب.

إن الله لم يفرض هذه العبادات من أجله سبحانه.

صحيح أنه يقول: (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**). وصحيح أن حق ألوهية الله على عبودية البشر هو العبادة الخالصة لله. ولكن الله سبحانه غني عن عبادة العبّاد وتقوى المتقين. والله يقول: (**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**). فليس لفائدة الله سبحانه تقوم هذه العبادات، وإنما هي لصالحنا نحن أبناء البشرية، في ذات الوقت الذي هي فيه أداء لحق الله على العباد.

وهو كرم الله السابغ –كما قلنا– الذي يمنحنا من الفرائض ما يصلح به حالنا على الأرض، ثم يجزينا به الثواب والمغفرة يوم الحساب!

الفرد والمجتمع

الفرد أم المجتمع؟ أيهما الذي يواجه الحوادث ويصنع التاريخ؟

كان القدماء يعتقدون أن الفرد هو الذي يوجه الأحداث. الفرد الممتاز بطبيعة الحال. وأن المجتمع –أو الدهماء– لا دور لهم إلا الانقياد للزعيم، والسير في الطريق الذي يوجههم فيه.

وقام المحدثون يعارضون هذه النظرية في عنف، ويقولون إن المجتمع هو الذي يستطيع أكثر من غيره أن يتفهم التيارات التي تسري فيه فيتمشى معها ويعمل على إنضاجها، وأن الفرد العادي لا يقل أهمية عن الفرد الممتاز في هذا المجال.

ولم يكتف هؤلاء المحدثون بأن يفسروا التاريخ الحديث وحده هذا التفسير، –أي في الفترة التي صار فيها للفرد العادي كيان متميز– بل راحوا يزيدون أن الفرد والجماعة كليهما محكومان منذ فجر التاريخ بالتطور المادي أو التطور الاقتصادي، وأن هذا الأخير وحده هو الذي يصنع التاريخ؛ وهو يصنع التاريخ في اعتقادهم من خلال الجماعات لا من خلال الأفراد!

والواقع أن إصدار حكم واحد ينطبق على جميع الحالات أمر عسير.

والأصح والأقرب إلى العدالة في نظري أن نقول إن هناك تفاعلا دائماً بين الفرد والمجتمع في كل حركة كبيرة من حركات التاريخ؛ كلاهما يأخذ ويعطي. ولكن الدفعة الإيجابية قد تكون أبرز في أحد الجانبين منها في الآخر. فيبدوا هذا الجانب راجح الكفة، وإن كانت الكفة الأخرى لا تصل في حالة من الحالات إلى حد الخواء.

المجتمع يبرز مرة، والفرد يبرز مرة، والتفاعل موجود دائماً في جميع الحالات.

والرد على المتطرفين الذي يلغون دور الفرد الممتاز في التوجيه والقيادة، ويجعلونه قوة سالبة بالنسبة لقوة المجتمع، أو لقوة المادة والاقتصاد.. الرد البسيط على هؤلاء أن نتصور بعض أحداث التاريخ التي ارتبطت بحياة فرد، ثم نفترض أن هذا الفرد لم يوجد، أفكانت الأحداث تسير على نفس النسق وتؤدي نفس النتيجة؟ إذا كان الجواب نعم، فهذا الفرد إذن ليس له دور إيجابي في الموضوع. وإذا كان الجواب لا، فمن أين جاء الفارق، والمجتمع هو هو في الحالتين؟

خذ نابليون. فلعله من أبرز "الأفراد" الذين لعبوا دورا في التاريخ.

وتصور لحظة أنه ليس هو الذي يلعب على المسرح، وإنما هو شخص آخر ليست له أطماع نابليون، ولا تركيبه العصبي والفكري والجسدي، ولا عقده النفسية، ولا مشاعر "شعوره" ولا خفايا "لاشعوره".. هل كان يسير تاريخ فرنسا في ذات الخط الذي سار فيه صعوداً وهبوطا ونجاحا وخيبة؟

الذي يقول نعم لا شك يغالط نفسه ويغالط التاريخ.

وخذ من التاريخ الإسلامي شخصية عمر... عمر الفذ في التاريخ الإنساني كله. هل كانت الدولة الإسلامية التي صارت فيما بعد "العالم الإسلامي" تسير على نفس النسق بوجود عمر وعدم وجوده سواء؟

الذي يقول ذلك يغالط نفسه ويغالط التاريخ.

فصفات عمر الشخصية بارزة إلى حد يبهر النظر في كل أحداث تلك الفترة من تاريخ الإسلام وتاريخ العالم المعروف كله في ذلك الحين.

وخذ مثلا حادثة كعزل خالد بن الوليد.

فهذه حادثة تبرز فيها شخصية عمر على أشدها. من غيره كان يجرؤ على عزل خالد؟ ومن غيره كان يمكن أن يحدث هذا الأمر ثم يمر مأمون العاقبة لا يؤدي إلى فتنة كبرى تزلزل العالم الإسلامي كله وتهد الدولة من قواعدها؟

صحيح أن إيمان خالد، وعظمته البالغة، لهما حسابهما الكبير في الموقف، ولكن هذا لا يغير وجهة النظر التي نحن بصددها. فخالد "فرد" آخر ممتاز، وتصرفه راجع إلى شخصه، ثم إن شخصية عمر الفذة كان لها رغم كل شيء الأثر الحاسم في الموقف، فربما كان خالد رغم إيمان وعظمة نفسه قمينا أن يثور ويتمرد لو أن من عزله لم يكن عمر بالذات...

ورب قائل أن يقول إنه ليس عمر الفرد الفذ هو الذي صنع تاريخ تلك الفترة من الزمان. وإنما هي "الروح الإسلامية". وذلك حق ليس فيه شك. ولكن فضيلة عمر ومزيته "الشخصية " أنه استوعب الروح الإسلامية بكل خصائصها، واستوعبها "بقوة" تناسب قوة نفسه، وسار معه مستقيما لا ينحني ولا يضعف ولا تضطرب في يديه مقاليد الأمور.

ونظرة واحدة إلى تاريخ الإسلام بعد عمر —في فترة عثمان– ترينا أن الفارق الضخم هو فارق الشخصيتين، هو الفارق بين فرد وفرد في توجيه الحوادث وقياد الأمور.

وليس معنى ذلك أننا مع عمر —أو مع غيره من عظماء التاريخ– نلغي دور المجتمع ونجعله كمية سالبة مطلقة السلبية. فهناك دائما هذا التفاعل المشترك بين الفرد والمجتمع. فلو لو يكن المجتمع أيام عمر مسلما، متشبعا بالروح الإسلامية، مستجيبا لوحيها وأهدافها، لاستعصى على عمر —بعظمته الشخصية وحدها– أن يسير به إلى القمم العالية التي وصل إليها. ولكان قمينا أن يصرف جزءا من طاقته الجبارة في الصراع مع الناس، مع الجماهير التي لا تريد أن ترتفع، أو التي تنكل عن التكاليف. فدور المجتمع إذن واضح في مساندة عمر، وتيسير مهمته في بناء الدولة الإسلامية، وتوفير الجهد كله لهذا البناء، بدلا من توزيعه بين الهدم والبناء. كل ما هناك أن الطاقة الإيجابية المتمثلة في شخصية عمر من الضخامة بحيث تبهر العيون.

وكذلك الأمر مع أبي بكر في وقفته الخالدة من حرب المرتدين. إنه موقف فذ في التاريخ. موقف رجل واحد تتخلى عنه كل قوى الأرض. المسلمون كلهم بما فيهم عمر نفسه. فيستطيع بقوته الروحية الفذة التي تستمد قوتها من الله أن يحول دفة الموقف ويخوض الحرب التي غيرت وجه التاريخ.

إنه شخص أبي بكر القوة الفعالة في الموقف. ولكن هذا لا يلغي دور المجتمع ولا يجعله كمية سالبة. وما قلناه عن دور المجتمع مع عمر يصلح بنصه هنا مع أبي بكر.

ونهبط في مدارج الأشخاص حتى نصل إلى نابليون.

إنه دون شك هو القوة الفعالة في الفترة التي ظهر فيها على مسرح الأحداث. ولكنه —وحده– لم يكن ليفعل ما فعل من معارك وفتوحات. فلولا تطلع الشعب الفرنسي للغلبة والفتح، والطاقة المنبثقة من الثورة، لذهبت عبقرية نابليون الحربية مع الريح، لأنها تكون إذ ذاك عبقرية بلا رصيد. ورصيدها كان تلك الدفعة المتطلعة في نفوس الشعب، المستعدة للبذل والجهد وتحمل مشقات الحروب. ولو كان نابليون قد ظهر مثلا في الحرب الأخيرة، والشعب الفرنسي متميع منحل الأخلاق مشغول بشهواته وملذاته، فأغلب الظن أن عبقريته الحربية كانت ستفقد قيمتها في الصراع. وكل ما كان يمكن أن يحصل عليه هو هزيمة مشرفة بدل تلك الهزيمة المنكرة التي لوثت وجه فرنسا في تاريخها الحديث.

كذلك الأمر مع ستالين، الذي راحوا يحطمون تماثيله ويشوهون سمعته.. بعد أن مات!

إن دوره في بناء قوة روسيا دور غير منكور، دور يرجع إلى شخصيته غير العادية، وإلى أفكاره الخاصة وطريقة إدارته للأمور. وهم يقولون اليوم إنه خائن لمبادئ ماركس ولنين، ولعل مززيته في نظرنا هي هذه "الخيانة" التي عدّل بها بعض أسس الشيوعية فأخضعها لمنطق الواقع واقترب بها من التفكير المعقول. ولكن الذي يعنينا هنا أنه لم يكن قمينا أن يقوم بهذه "الخيانة" لولا تفرد شخصيته وبروزها، والطاقة الإيجابية التي تشتمل عليها، والقدرة على القيادة والتوجيه.

وقد يصعب علينا أن نرى دور "المجتمع" مع ستالين. فالذي يظهر للعين هو السلبية الكاملة من الشعب إزاء دكتاتورية ستالين المطلقة.

ومن المضحك أن تصاب النظم الجماعية، صاحبة الفكرة القائلة بأن المجتمع هو الأصل، وأن الفرد ليس له كيان مستقل ولا توجيه، ولا دور في صناعة التاريخ.. من المضحك أن تصاب هذه المجتمعات "بالزعامة الفردية" ممثلة في ستالين، ليهدم نظرياتها من أساسها، ويكذب في عالم الواقع ما تقول في عالم النظريات!

ولكن الدور الذي لعبه المجتمع الروسي موجود على أي حال. فالرغبة الجامحة في إنشاء روسيا الكبرى وجعلها قوة فعالة في توجيه الحوادث هي الحافز الإيجابي الذي استند إليه ستالين... كل ما هناك أن شخصيته هي القوة الظاهرة على مسرح الأحداث.

التفاعل إذن موجود دائما بين الفرد والمجتمع. ولكن الأمثلة التي ذكرناها كانت واضحة الدلالة على الدور البارز الذي قام به أفراد في صناعة التاريخ.

وليس الأمر واحداً في جميع الأحوال.

فهناك حركات تاريخية يبرز فيها دور المجتمع بروزاً واضحاً، كبروز الأفراد في الأمثلة السابقة.

خذ مثلا الثورة الفرنسية.. والثورة الشيوعية.

الجماهير هنا هي القوة الفعالة. القوة الدافعة. المركز الذي ينبثق منه النور أو ينتفض منه اللهيب.

وأبرز ما تبرز الجماعة في الثورة الفرنسية في عمليات التدمير والتخريب. وفي التقلبات المفاجئة في الموقف. واندفاع التيار الشعبي إلى اليمين تارة، ثم إلى اليسار تارة أخرى بنفس الحماسة ونفس القوة.

ذلك طابع الجماهير. وتلك كانت ثورة الجماهير.

وقد كان للثورة زعماء. ما ينكر أحد أنهم كانوا ذوي أثر في توجيه الثورة. ولكنهم في هذه لمرة ليسوا القوة البارزة على المسرح، إن دورهم أقرب إلى دور عامل الإشارة الذي يوجه القاطرة على الشريط، ولكن القوة الدافعة ليست في يد محول الإشارة. وإنما هي في المرجل المنطلق كالمجنون.

ولعل هذه الثورات هي التي أوحت لعلماء الاجتماع المحدثين بنظريتهم القائلة إن الجموع هي العنصر المحرك. وهي القوة الفعالة في أحداث التاريخ.

ولكن قياس التاريخ كله على بعض أجزاء منه خطأ علمي. فالواقع يشمل هذه الأمثلة وتلك. والحقيقة المشتركة هي وجود التفاعل الدائم بين الفرد والمجتمع، مع بروز أحدهما على الآخر هنا أو هناك.

* * *

وهتلر؟ ما مكانه في هذا الجدل القائم بين الفرد والمجتمع؟

لعل هتلر من الأمثلة النادرة في التاريخ، التي يكاد يتساوى فيها دور الفرد ودور المجتمع في توجيه الأحداث وتسيير دفة الأمور!

ولا شك أن المعجبين بهتلر سيقولون: كلا! إن شخصيته الفذة كانت هي محور الأحداث كلها في تلك الفترة من الزمان.

ولكن أنصار نظرية المجتمع سيقولون من جانب آخر: إن هتلر لم يكن إلا منفذاً للدوافع الكامنة في المجتمع الألماني عقب الحرب الأولى، وعقب الهزيمة الظالمة التي أصابت ألمانيا في تلك الحرب.

الروح العسكرية المتغلغلة في الشعب الألماني. الكبرياء الجريحة في معاهدة فرساي. المطامح والمطامع التي تملأ مشاعر الشعب، ويغذيها الإحساس بتفوق الجنس الألماني في العلوم والفنون والحرب...

كل تلك العوامل هي التي خلقت هتلر في نظر هذ الفريق من المؤرخين وعلماء الاجتماع.

ولكن هؤلاء وأولئك متطرفون.

فلنأخذ كل هذه العوامل الإيجابية في نفوس الشعب الألماني، ولنحذف وجود هتلر، ولنضع بدلا منه شخصا آخر، أو لا نضع أحداً في مكانه، هل تكون النتيجة واحدة؟

الفرق يساوي شخصية هتلر.

ومن جانب آخر فلنأخذ هتلر بكل عبقريته ومزاياه ولنضعه في غير ألمانيا أو في ألمانيا في غير تلك الفترة وفي غير هذه الظروف. هل تكون النتيجة واحدة؟

الفرق يساوي الشعب الألماني في عهد هتلر.

وهذه القضية تصدق في كل حالة. هذا حق. ولكن لا تتقارب النسبة في الحسبتين في جميع الحالات كما تتقارب في حالة هتلر. فالميزان يميل أحيانا هنا وأحيانا هناك. ولكنه في هذه الحالة يكاد يسوي بين الكفتين بعد تأرجح بسيط هنا أو هناك.

* * *

والخلاصة من هذا كله أن المسألة متروكة للمصادفات!

المصادفة هي التي تبرز الزعيم الفذ القادر الموجه. والمصادفة هي التي تجعل الشعوب تثب وثباتها الجبارة!

وليس هناك كبير ضمان!

الروح الإسلامية الجبارة تحطمت —جزئيا على الأقل– على يد بني أمية ابتداء من عهد عثمان.

والروح الشيوعية "الجماعية" القائمة على أسس علمية (!) تحطمت –جزئيا على الأقل– على يد ستالين.

وليس في وسع أي شعب أن يقول إنه يستطيع أن يربي زعماءه على مبادئ معينة، ليضمن قيامهم على تنفيذ هذه المبادئ وعدم الانحراف عنها حين توضع في أيديهم مقاليد الأمور.

وليس كل يوم يولد عبقري يترجم الطاقة الكامنة إلى عمل حي، والمشاعر إلى حقائق.

ومع ذلك فليس هناك ما يدعو إلى اليأس من أمر البشرية!

هنالك شيء ولو قليل من الضمان!

إثارة وعي الشعوب يجعل انحراف الزعماء أصعب، واستجابتهم لدواعي العدالة في الحكم أقرب إلى التحقيق. وكلما زاد وعي الشعب زاد استقرار حياته وأمن النكسات المدمرة.

وتلك مهمة الدعاة.

وهي مهمة دائمة لا تنتهي ما بقيت الحياة على الأرض.

وخير الدعوات ما يربط القلوب بالله، أي بالقوة المتحكمة في قوى الأرض، القاهرة فوق قوى الأرض.

وواجب الدعاة ألا ييأسوا، مهما وجدوا أمامهم من صعاب، ومهما تحملوا من تضحيات ومشاق. وليخرجوا من حسابهم أنهم يعملون للناس. وليجعلوا في حسابهم أنهم يعملون لله!

المرأة والحضارة

من أبرز سمات هذا العصر ما يسمونه "تحرير المرأة".

فماذا كسبت المرأة وماذا خسرت من هذا التحرير؟

لا شك أن وضع المرأة في كثير من أرجاء العالم كان في حاجة إلى تصحيح. كانت المرأة في حاجة إلى رد الاعتبار الإنساني إليها ورفعها عن أن تكون جارية للرجل أو وسيلة من وسائل إمتاعه، ولكن الطريقة التي صُحح بها وضعها لم تكن في ذاتها صحيحة. كما أن الظروف التي لابست عملية التحرير في أوروبا قد جرفت المرأة في تيار عنيف أفسد كثيرا من جوانب طبيعتها، كما أفسد كثيرا من مفهومات الحياة في العصر الحديث.

وقد كانت قضية المساواة بين المرأة والرجل من أكبر القضايا التي شغلت هذا الجيل. والذي يشهد النتائج التي وصل إليها الغرب في هذا الباب على رضا منه أو على كره، يجد أن المرأة قد اكتسبت كثيرا من رذائل الرجل الفطرية من غير أن تكسب شيئاً يذكر من فضائله الحقيقية، بينما هي تخلت في الوقت ذاته عن كثير من فضائلها الفطرية.

فالرجل بفطرته غير مخلص في علاقاته العاطفية المتصلة بالجنس. والسبب في ذلك أن ذكور الحيوانات جميعا أقل من الإناث، لأسباب مختلفة، ليس أقلها اقتتال الذكور فيما بينهم للحصول على أنثى، وما ينتج عن هذا القتال من فقد عدد من ضعاف الذكور ولا يبقى إلا الأقوى (وتلك من حكمة الخالق في خلقه). فلو لم يكن في تركيب الذكر استعداد فطري أن يلقح أكثر من أنثى واحدة، لظلت كثير من الإناث معطلات لا يؤدين مهمتهن الطبيعية من إنتاج الحياة جيلا بعد جيل. بينما الأنثى لا تحتاج في فطرتها إلى الالتقاء بأكثر من ذكر واحد، لأنها تحمل مرة واحدة في المرة الواحدة، ومن لقاح واحد فقط، فيكون اللقاء بالذكور الآخرين عملية لا معنى لها لأنها لا تؤدي وظيفة بيولوجية ومن ثم لم يركب الخالق في فطرتها هذا الطبع.

وفي الإنسان بجنسيه امتداد لهذه الفطرة الموجودة في غيره من الخلق. فالرجال أقل عددا من النساء في مجموع الجنس البشري. لأسباب مختلفة. منها أن الحروب تقتل من الرجال أكثر مما تقتل من النساء. ومنها أن جسم المرأة أكثر احتمالا وأكثر مناعة من جسم الرجل، ليساعدها ذلك على احتمال آلام الحمل وتبعاته، ومن ثم يموت في جميع الأمراض والأوبئة عدد من الرجال أكثر من النساء، فضلا عن تعرضهم لحوادث العمل والطريق بنسبة أكبر، حتى لو تساويا في العدد، لأن المرأة أكثر حرصا ومن ثم فهي أقل تعرضا للإصابة.

والنتيجة لكل ذلك أن عدد الرجال كما قلنا أقل من عدد النساء في مجموع الأرض. فلو لم يكن في الرجل —كبقية ذكور الحيوانات– استعداد فطري للالتقاء بأكثر من أنثى واحدة، لظلت كثير من النساء —اللواتي فقدن ما يوازيهن من الرجال– معطلات عن أداء مهمتهن الطبيعية من إنتاج الحياة. بينما لا تحتاج أنثى الإنسان إلى الالتقاء بأكثر من رجل لأن مهمتها تتحقق بلقاء رجل واحد.

وعلى هذا كانت المرأة مخلصة بفطرتها للرجل الذي تلتقي به لتحقيق مهمة الحياة. ولم يكن الرجل مخلصا بفطرته مثل هذا الإخلاص. لأن في طبيعته استعدادا فطريا للقاء بأكثر من واحدة. ولو ترك على طبيعته لما قنع قط بواحدة. ولكن الدين والأخلاق والتقاليد هي التي تهذب هذا الميل الفطري في طبيعته، وتربطه إلى أسرة منظمة العلاقات، وإلى امرأة واحدة لا تعدو عيناه إلى غيرها. والدين والأخلاق والتقاليد على أي حال لا تقسره قسرا ضد طبيعته. وإنما هي تعتمد على خيوط أخرى في نفسه، تستغلها للصالح البشري كله، منها شعور الألفة العميق في نفس الرجل، ومنها حب السكن والاستقرار...

والإسلام بالذات من بين النظم جميعا لا يقاوم هذا التركيب الفطري في طبيعة الرجل للقاء مع أكثر من أنثى، لأنه يحتاج إليه أحيانا لسد النقص في عدد الذكور —وهي حالة دائمة في البشرية كما ذكرنا– وإنما يهذب هذه الطبيعة فقط ويقيدها لحين الحاجة إليها. ومن ثم فهو يبيح للرجل نظريا أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع، ليتمشى مع فطرته ولا يكبتها، بينما يضع القيود الكثيرة في طريق التنفيذ العملي، مما يجعل الرجل في النهاية زوجا لامرأة واحدة لا غير، إلا في الحالة الاستثنائية التي ذكرناها من قبل —حالة نقص الرجال عن النساء– ولا تتعدى النسبة في مصر مثلا3% من مجموع الزيجات.

هذا الاستطراد نخلص منه بنتيجة بارزة هي أن الرجل بفطرته غير مخلص في علاقاته العاطفية، وإنما هو يتعلم الإخلاص بتهذيب الدين والأخلاق والتقاليد لطبيعته. أما المرأة فمخلصة بفطرتها لأن ذلك هو الذي يتناسب مع طبيعتها.

وكذلك سارت الأمور أجيالا طويلة بعد أجيال.

ولكن المرأة في العصر الحديث قد تغيرت! فهي تريد أن تتساوى بالرجل. تريد أن تخرج إلى المجتمع. لا تريد أن ترتبط ببيتها —على الرغم من أن هذا شعور فطري لا تقسر عليه المرأة قسرا، بل هو كامن في طبيعتها– وهي تريد أن تثبت أنها مثل الرجل تماما وقادرة على القيام بكل ما يقوم به من أعمال!

وتعلمت المرأة في هذه الحمى ألا تستقر في علاقاتها العاطفية تجاه رجل واحد، وأن "تدور" على الرجال كما يدور الرجل على النساء. بل تعلمت ما هو أسوأ وأفحش فصارت تجرب اللقاء الجنسي كله أو بعضه بلا حياء ولا غضاضة مع عدد كبير من الرجال —بحجة اختيار زوج المستقبل– ثم تعودت ذلك حتى صار جزءا من حياتها لا تستغني عنه. وبذلك تخلت عن فضيلتها الفطرية في هذا الجانب واكتسبت رذيلة الرجل الفطرية التي سعى إلى تهذيبها الدين والأخلاق والتقاليد.

والمسألة هنا ليست مسألة الأخلاق بمفهومها الضيق —وإن كانت تلك من الخطورة بمكان– ولكنها أشمل من ذلك وأعمق. إنها مسألة تدمير الكيان الأنثوي من أساسه، والانحراف به انحرافا خطيرا عن طبيعته، في سبيل لا شيء.. إلا متعة جسد عابرة لا تدوم طويلا، ولا تترك النفس مع ذلك بلا جراح! وهذه البيوت المحطمة العديدة التي لا يمسكها في أوروبا إلا القوانين التي تمنع الطلاق، والتي لا يمسكها شيء في أمريكا حيث يباح الطلاق فيصل إلى نسبة 48% من مجموع الزيجات وهو أكبر رقم في العالم وأخطر رقم.. هذه البيوت المحطمة هي نتيجة هذا الانحراف في فطرة المرأة، والفساد الذي طرأ على كيانها، فأصبح الزوج الواحد مملا في نظرها، وأصبح التغيير متعة تتلمس له الأسباب. كما أن ذلك قد أتاح للرجل فرصة عظمى يرتد فيها إلى فطرته، ويتخلى عن تهذيب الدين والأخلاق والتقاليد، إذ صارت المرأة سهلة التناول بالنسبة إليه، تذهب بنفسها إلى عتبة داره ولا تحتاج منه إلى جهد في البحث!

وبعض المخدوعين هنا في الشرق يفتحون أفواههم في بلاهة من شدة الإعجاب بحوادث الطلاق الأمريكية التي يطلب غالبيتها النساء. ويقولون لك: انظر إن المرأة هناك قد تحررت وشعرت بالمساواة. إنها تطلب الطلاق من زوجها لأنه لا يحلق لحيته كل يوم! أو لأنه لا يشركها في شئونه.. إلخ. وهم ينسون في بهرتهم أن المرأة لا تتلمس هذه الأسباب الواهية إلا لأنها قد ملت، ولأنها ترى صيدا آخر في الخارج يبدو جميلا لأنه جديد.

* * *

والخمر والتدخين من رذائل الرجل الفطرية.

طبيعة الرجل وعمله الذي يقوم به يساعدان على تراكم قشرة صلدة تحجب إشراق روحه و"تغبش" صفاءها. فهو يعمل في مجال احتكاك دائم. احتكاك مع ماديات الحياة ومعنوياتها، مع المعادن الصلبة التي يطوعها للإنتاج، ومع غيره من الأحياء في صراع الحياة الكبير. ومن ثم يلجأ حتما إلى شيء يذيب تلك القشرة الصلدة كلما تراكمت على روحه،

وشعر بها تضيق أنفاسه وتحجب عنه النور. وحين يكون طبعه مستقيما وقلبه مهتديا إلى النبع الأصيل فإن العبادة المخلصة هي التي يجد فيها ضالته؛ هي التي تمسح أوضار نفسه، وتزيل غبشها، فإذا هو مشرق الروح شفيف النظرات. ولكنه حين يكون بعيدا عن النبع، لا يهتدي بهدي الدين، يلجأ إلى الخمر وأشباهها[1] يحاول بها أن يستعيد إشراقه، فتمنحه الإشراق الصناعي لحظة، وتطمس روحه بعد ذلك لحظات.

على أي حال فالخمر من رذائل الرجل التي تفرد بها أجيالا طويلة في التاريخ! ولم تكن المرأة قط في حاجة إليها، فطبيعتها المتوفزة المملوءة بالحيوية، الحاضرة العواطف والانفعالات، لا تحتاج إلى منبه صناعي كالذي يحتاج الرجل إليه.

ولكن المرأة اليوم تحررت! وأقبلت تطالب بالمساواة الكاملة مع الرجل. فلم لا تشرب الخمر؟ هل الرجل أحسن منها؟ فلتشرب ولتسكر حتى لا ينفرد الرجل دونها بشيء!

والتدخين كذلك.

وسواء صدق فرويد في تفسير الميل إلى التدخين أم كذب[2]، فإن التدخين كان من رذائل الرجل. كان يرضي به غروره، ويحس بالزهو الفارغ وهو ينفث الدخان حوله، فيشعر شعورا كاذباً أن كيانه قد كبر وامتد في الفضاء بقدر ما يمتد من نفثه من الدخان! وكان الرجل المستقر عاطفيا، الواثق من كيانه، المطمئن إلى وجوده، المحقق لذاته، لا يحتاج إلى التدخين، أو لا يسرف فيه. أما المرأة فلم تكن تحتاج إلى تحقيق ذاتها عن طريق الدخان المنعقد في الفضاء، وهي تملك وسائلها الأخرى، من حيوية فائضة، ومن أبناء تحس أن كيانها متحقق في كيانهم، وأنها "موجودة" في الحياة بقدر ما أوجدت من الأحياء.

ولكن المرأة اليوم قد تحررت! ولم تعد تجد كيانها في تلبية فطرتها الطبيعية.

ومن ثم أحست بالنقص الذي تكمله تكميلا زائفا بسحائب الدخان في الهواء!

والرجل خشن بطبعه وليس شديد الحياء.

[1] – من البديهي أن الخمر ليست الوسيلة الوحيدة للرجل الذي لا يهتدي إلى الله. فلها أشباه كثيرة من المغيبات عن الوعي. كما أن بعض الرجال يلجأ إلى التهريج والصياح كوسيلة للتنفيس.

[2] – من المعلوم أن فرويد يرد جميع تصرفات الإنسان بلا استثناء إلى أصل جنسي.

وهو منطقي مع كيانه ومهمته التي هو مكلف أداءها. مهمة الصراع الخارجي مع الحياة والأحياء. فلو أنه كان لينا رقيقا ناعما حييا لعجز عن أداء مهمته، وضعف إنتاجه المادي، ووقف تبعا لذلك تقدم الحياة.

والدين والأخلاق والتقاليد تهذب هذا الطبع الفطري في الرجل ولكنها لا تتعرض له حيث يكون ضرورة لازمة. فالإسلام يطلب من الرجل أن يكون لينا مع إخوانه رقيقا في معاملتهم، حييا في المسائل التي تتصل بالأعراض والبيوت، فهو يصف المؤمنين بأنهم (**رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**) (**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**) ويقول: (**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**). ولكنه فيما عدا ذلك يشجعه على القوة والشدة والخشونة ويأبى منه الضعف واللين.

والمرأة ليست في حاجة إلى الخشونة وقلة الحياء. لأن مهمتها تختلف عن مهمة الرجل، وطبيعتها غير طبيعته. والرقة والليونة سواء في بناء جسمها أو بناء نفسها هي المنطقية مع وظيفتها الحيوية، فهي تسهل لها مهمة الحمل والولادة، كما تسهل لها القيام بالأعباء النفسية للأمومة. وقد كان الحياء طابعا فطريا فيها يتناسب مع كل ذاك. كما كان إحدى الوسائل الفطرية التي تجتذب بها الرجل، إذ تخطر أمامه ثم تختفي، وتتركه هو يسعى إليها، وتسبر غوره في أثناء الطريق!

ولكن المرأة الحديثة المتحررة، قد تحررت من الحياء أيضا إذ تحررت من كيانها الأنثوي كله، وصارت تشارك الرجل في تجرئه وتوقحه، ولكن في غير المجال الذي يلجئ الرجل إلى ذلك، ويكون منطقيا فيه مع كيانه ووظيفته. فصارت تطلب الرجل بنفسها كما يطلبها، وصارت لا تستحي من أمور كثيرة قد يتحرج منها بعض الرجال! فضلا عن خشونتها التي صارت لازمة لها ما دامت تعمل في المصنع والمتجر والطريق، وتتعرض للمصادمات والمنازعات.

* * *

وماذا كسبت المرأة حين خسرت كل ذاك؟

لست أتحدث هنا عن تصحيح وضعها الإنساني والاجتماعي... لسببين:

الأول: أنه لا يملك إنسان له ضمير أن يعارض في حق المرأة في أن تكون إنسانة، وتشعر بكيانها كإنسانة.

والثاني: أن تصحيح وضع المرأة لم يكن يقتضي كل هذا الانحراف الذي حدث في الغرب. وقد تحدثت في كتاب "الشبهات" في فصل "الإسلام والمرأة" عن الطريقة التي رد بها

الإسلام إلى المرأة كيانها الإنساني دون أن تفقد طبيعتها الأنثوية، ودون أن يضطرها إلى عرض نفسها في الطريق، وتحويل الحياة إلى ماخور كبير كما صنع الغرب بعد تحرير المرأة.

ولكني أتحدث عن جانب واحد من هذه القضية، هو محاولة المرأة التشبه بالرجل لتحدث المساواة.

لقد شاركت المرأة الرجل —كما رأينا– في بعض رذائله الفطرية، وبعض طبائعه التي لا تعد عيبا فيه ولكنه عيب حين توجد في امرأة، كالخشونة والغلظ والاقتحام في غير ضرورة.

فهل شاركته مشاركة حقيقية في فضائله ومزاياه الفطرية؟

إن للرجل عبقريتين رئيسيتين في الحياة، أو هي عبقرية واحدة ذات وجهتين: عبقرية الإنتاج المادي، وعبقرية السياسة: سياسة المجتمع ووضع نظمه وإدارة شئونه السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وذلك في مقابل عبقريتين رئيسيتين للمرأة، أو هي عبقرية واحدة ذات شعبتين: عبقرية الأمومة —أي الإنتاج البشري– وعبقرية إدارة البيت وحمل تبعاته الضخام.

وحين تخلت المرأة عن كيانها الأصيل، وعن عبقريتها الحقيقية أرادت أن تشارك الرجل في عبقريته. فلأي شيء وصلت في هذا السبيل؟

أما الإنتاج المادي فقد يخيل للناس أن المرأة لم تشارك فقط، بل برعت وبزت الرجل في ميدان الإنتاج. لماذا؟ لأن المرأة تعمل على بعض الآلات الدقيقة أبرع مما يعمل الرجل، وهي كذلك أصبر في العمل عليها من الرجل. كما أنها في روسيا وغيرها من البلاد تعمل في معظم المصانع مع الرجل جنبا إلى جنب بلا فارق سوى الانقطاع في فترات الحمل والإرضاع...

وهذه الحقيقة الظاهرية لا يجوز أن تخدعنا عن شيئين مهمين:

الأول أن عملية الإنتاج الحديثة قد صارت آلية ومتخصصة إلى حد أنها لم تعد تحتاج إلى "إنسان" يديرها، بل هي في حاجة إلى "آلة إنسانية" تراقبها وتزودها بالمادة التي تحولها إلى مصنوعات. وهذه الآلة يستوي أن تكون رجلا أو طفلا أو امرأة، لأن الإنسان لا يتعامل مع عملية الإنتاج الحديث بكيانه الشامل كجنس، أو كإنسان، بل يتعامل معها ككيان آلي، يدق مسماراً، أو يضع قضيبا من الحديد، أو يهز جزءاً من الآلة على فترات منتظمة. والإنسان الآلي في طريقه أن يحل محل الإنسان الحي في كثير من عمليات الإنتاج.

فليس فوزا ضخما للمرأة كما يتوهم الناس أنها استطاعت أن تشارك في عملية الإنتاج الحديث. بل قد يكون صبرها عليها دليلاً سيئاً في حقها! فقد تكون دلالته أن المرأة أكثر آلية من الرجل، وأقدر –معاذ الله– على تحويل الحياة إلى نشاط آلي منظم رتيب! لولا أننا نعلم علم اليقين أن في المرأة من الحيوية الفياضة ما يخالف هذا الظاهر، ولكن المرأة الحديثة تريد لنفسها هذا المصير.

والأمر الثاني: أن اشتراك المرأة في عملية الإنتاج الآلية الحديثة لم يشجعها كثيراً على الاشتراك في العملية الحقيقية التي برع فيها الرجل، وهي اختراع الآلة التي تنظم الإنتاج. وكليات الهندسة في العالم مفتوحة للنساء، وشعور التحدي الذي تملك المرأة موجود بصورة حادة في كثير من أقطار الأرض وخاصة في أمريكا. ومع ذلك فعدد الفتيات اللواتي يقبلن على تعلم الهندسة الميكانيكية والهندسة الكهربائية ضئيل جداً بالنسبة لعدد الفتيان. ولا يقال في هذا إن المرأة جديدة على الميدان. فقد كانت جديدة على الميادين كلها في مبدأ الأمر بنسبة واحدة. وهي تعلم –في أمريكا على الأقل– أن المصانع والشركات ترحب بالمرأة أكثر مما ترحب بالرجل، لغاية في نفس يعقوب! فالتشجيع لا ينقصها، والباب ليس موصداً أمامها. فعزوفها إذن له دلالة لا سبيل لإنكارها.

أما عبقرية السياسة: سياسة المجتمع، سياسة الحكم والاقتصاد والسلم والحرب، ووضع النظم والجهاد في سبيل إقرارها.. فلعل مشاركة المرأة فيها لا تختلف كثيراً عن اشتراكها في ميدان الإنتاج: أي أنها تشارك في التنفيذ، ولا تشارك في الابتداع.

وليس اشتراك بضع نساء في برلمانات العالم، أو وظائفه الكبرى، أو اشتراكهن في عملية الانتخاب إلا لعبة طريفة يتلهى بها العالم الحديث! وليس ذلك هو الذي نعنيه.

إن وضع سياسة للمجتمع يحتاج إلى طباع خاصة لا تتوفر كثيرا في المرأة، لأنها بفطرتها لا تحتاج إليها، بل إنها –حين توجد فيها أحيانا– ترهق كيانها العصبي وتحمله فوق طاقته، لأنها ليست من حاجاتها الطبيعية في مهمتها الأصيلة.

خذ مثلا مسألة الجهاد في سبيل فكرة عليا تنظم حياة البشر على الأرض، وتصحح أوضاعهم الفاسدة..

لست أقول إن المرأة عاجزة أو عازفة عن المشاركة فيها. فهذا يخالف الواقع.

ولكن المرأة –في الغالب– تشارك بقدر ما يصيبها هي من جزئيات هذه الفكرة– هي كفرد، أو هي كجنس– ولكنها نادرا ما تشارك في الفكرة ككل شامل يصيبها أو لا يصيبها سواء.

ثم إنها إذا شاركت في الفكرة ككل، فهي تشارك فيها بطبيعتها التي تجنح إلى طلب النتيجة المباشرة لأي عمل أو فكرة، ولذلك لا تصبر على الفكرة التي لا تتحقق وصاحبها حي، لأنها في حاجة إلى جيل أو أجيال حتى تؤتي ثمارها؛ وسرعان ما تيأس وتنفض يدها من الصراع.

وثمة حقيقة هنا لا بد أن تسجل: هي أن كثيرا من الرجال كذلك ييأسون وينفضون أيديهم من الصراع.

نعم. ولكن البقية القليلة التي تبقى، أو الفرد الواحد الذي يبقى، هو الذي ينشئ الحوادث ويكتب التاريخ!

والذي حدث حتى اليوم أن هذا الفرد كان رجلا ولم يكن امرأة.

حتى جان دارك القديسة الثائرة، فقد ثارت لقضية مباشرة هي تحرير شعب. ولكن لم توجد بعد من تؤدي مهمة الرسل والمصلحين، الذين يبذرون البذرة اليوم لتتحقق غدا وهم في عالم الخلود.

ولا يقال كذلك إن المرأة جديدة على الميدان، فإن ذلك لم يمنع العبقريات من الظهور حين وجدت، كما ظهرت جان دارك على مسرح التاريخ.

وليس معنى ذلك –كما قلت– أن المرأة لا تشارك في المسائل العامة.

كيف يقال ذلك وفي تاريخ الإسلام نساء كعائشة وأسماء وسمية.. وشهيدات ومقاتلات؟

كلا! وإنما أتحدث عن أمر معين: هو عبقرية وضع المناهج والخطط والأفكار لسياسة البشرية.

* * *

لكل جنس إذن عبقرياته الأصيلة ورذائله الأصيلة. وأنا أحسب كما قلت في كتاب "الإنسان" أنهما متكافئان ولكنهما ليسا متشابهين. وقد أرادت المرأة أو أريد لها —في صراعها المجنون مع الرجل في الغرب– أن تنشئ فلسفة جديدة وتثبت "حقائق" جديدة..

وهذه —حتى اليوم– هي نتيجة الصراع! ومع ذلك فأنا على استعداد حين تتغير الحقائق أن أغير الأفكار!

التطور والانتكاس
في تاريخ البشرية

كنت في حفل أقامته إحدى مدارس البنات بمناسبة "أعياد الربيع".. وكان البرنامج كله رقصا. رقصا تقوم به البنات من المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية على المسرح أمام المدعوين من الرجال. أخواتنا وبناتنا يرقصن "رقصا توقيعيا" أمام جمع من الشباب المتعطش الذي يتابع كل حركة بنهم، ويكملها في خياله على هواه، وتتبع عيناه الجائعتان كل حركة وكل ثنية وكل قطعة من اللحم المعروض على المسرح، ويمد نظراته إلى القليل الذي تستره الملابس، ينضي عنه غطاءه ويتصوره عريان.

ولكن تحويل المدرسة إلى مرقص لم يرعني بقدر ما راعني تعليق رجل من الحاضرين، إذ قال والحماسة تملؤه وتفيض منه: "الحقيقة هذا تطور. تطور عظيم. غير منتظر. من كان يتصور قبل عشر سنوات فقط أن يتم هذا التطور العظيم؟ حفلة كهذه تمر بسلام لا في القاهرة أو الإسكندرية بل في إقليم من أقاليم القطر. وفي الصعيد بالذات. لا. هذا تطور. تطور عظيم. رائع".

* * *

ما أعظم الخرافة التي يعيش فيها هذا الجيل من البشرية، وما أفظع الهوة التي ينحدر إليها..

الخرافة التي تخيل له أن البشرية تسير في خط تطور دائم.. يرتفع دائماً إلى أعلى، وأن أعلى ما وصلت إليه البشرية هو ما وصلت إليه في هذا الجيل، لأنه أحدث الأجيال.

والهوة التي ينحدر إليها وهو يظن أن التطور هو الانسلاخ من قيود الأخلاق والتقاليد، باعتبارها قيوداً سخيفة من تراث الماضي العتيق، ينبغي أن ننبذها و"نتحرر" منها لزيادة الاستمتاع بالحياة.

* * *

هل صحيح أن البشرية تتطور دائماً إلى أعلى؟ بجميع خطوطها واتجاهاتها؟

من أين نشأت هذه الخرافة؟

لقد نشأت دون شك من تطور البحوث العلمية، والانتصارات الباهرة التي حققها العلم والاختراع وخاصة في العصر الحديث.

وهذا الخط من خطوط البشرية –خط العلم– قد تطور حقاً إلى الأمام بصورة دائمة منذ فجر التاريخ. ولا عجب في ذلك. فطبيعته ذاتها هي التي تؤدي إلى هذا التطور الدائم إلى الأمام.

هدف البحث العلمي والاختراع هو تيسير الحياة والتغلب على مصاعب البيئة أو ما يسمونه الصراع مع الطبيعة.

ومنذ طفولة البشرية حاول الإنسان أن يتفهم أسرار الطبيعة ليسيطر عليها ويسخرها لمصلحته. كان من قبل يظنها آلهة وقوى خفية فراح يسترضيها ويتعبدها لتمنحه سلطانها أو تقيه شرها. وتعلم السحر لنفس الغاية. ثم تعلم الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات والطب، وهو لم يبرأ بعد من السحر، فمزج بينها وبينه، فكان العلم كهانة وعلما في ذات الوقت أيام قدماء المصريين. وتلا ذلك البحث عن حجر الفلاسفة على يد العرب لتحويل المواد كلها إلى ذهب.

ثم سار العلم خطوة على يد أوروبا فدخل ميدان التجربة العملية.. ومن هناك انفتحت أبواب هائلة كانت مغلقة من قبل، وكأنها يد السحر عادت من جديد.

كل ذلك كان تطوراً إلى الأمام. وكان طبيعيا لا غرابة فيه.

فلنتصور الرجل العبقري الذي اخترع المدية الحجرية في ما قبل التاريخ.. لقد كانت فتحا هائلا في عالم الاختراع. آلة يستطيع أن يذبح بها الطير ويسلخ الجلد ويقطع اللحم. ومنذ استخدمها الإنسان فلن يرجع عنها إلى الطريقة البدائية التي كان يستخدمها قبل هذا الفتح العلمي.. لن يرجع إلى الوراء. قط. فليس من المعقول أن يجد الطريقة الميسرة ثم يعود إلى الطريقة المتعبة ذات الإنتاج الأقل. ومن هنا يسير الكشف العلمي دائما إلى الأمام. وتنتشر المخترعات الجديدة، وتتطور دائما إلى أحسن. وتسير في خط دائم الصعود. لأن البحث يجري دائما لتحسينها وزيادة الفائدة منها، والدافع من ورائها موجود دائما مندفع دائما إلى الأمام.

ولكن هذا التقدم الدائم في ميدان العلم قد أغرى "العلماء" بخطأين عظيمين.

الأول: الاعتقاد بأن جميع الخطوط البشرية تتقدم دائما إلى الأمام شأنها شأن التقدم العلمي، وأن الواقع البشري قد حقق هذا التقدم، جنبا إلى جنب مع التقدم العلمي أو نتيجة له.

والثاني: الاعتقاد بأن التطور قوة قاهرة، مستقلة عن كيان الإنسان وإرادته، تدفعه دائما إلى الأمام رضى أو أبى، وأنه لا قبل لأحد، فرد أو جماعة، بوقف التطور أو الوقوف في سبيله.

* * *

ونبدأ بالفقرة الأولى من المبدأ الأخير، أن التطور قوة قاهرة مستقلة عن كيان الإنسان وإرادته.

أصحاب هذا الرأي هم أصحاب التفسير المادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ، ويجاريهم فيه لفيف من علماء الاجتماع "المحايدين". وأهم ما يعتمدون عليه لتأييد دعواهم هو الحقيقة الظاهرة للعيان، وهي أن اختراع أي آلة جديدة يحدث تغييرات كبيرة أو صغيرة في علاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالبيئة (أو بالطبيعة على نطاق واسع) وهذه التغييرات تكيف حياتهم وأفكارهم ومشاعرهم على نحو جديد لم يكن معروفاً لهم من قبل، ولا حيلة لهم فيه إلا اتباعه عاجلا أو آجلا، رضوا أو كرهوا.

العالم قبل اختراع البارود غير العالم بعد اختراعه.

والعالم قبل الآلة البخارية غيره بعد هذه الآلة.

والعالم قبل السينما والراديو والتلفزيون شيء آخر غيره بعد هذه الأشياء. من الناحية الفكرية والخلقية والاقتصادية. إلخ.

وإذ كانت الاختراعات تسير بطريقة لا يمكن وقفها، فالتطور الناشئ منها لا يمكن وقفه، وهو بالتالي قوة قاهرة خارجة عن إرادة الإنسان.

وحين توضع المسألة بهذه الصورة فهي تبدو منطقية جداً وحقيقية للغاية.

ولكنا نترك مؤقتاً مسألة قهر التطور للناس ودفعهم إلى الأمام –حتى نأتي بشواهد من التاريخ– ونبحث في حقيقة هذه القوة التي تسمى التطور، هل هي مستقلة حقاً عن كيان الناس. أم هي في الواقع جزء من طبيعتهم.

ونعود إلى حقيقة ذكرناها قبل سطور..

ما الذي دفع بالعلم قدماً إلى الأمام؟ من الذي اقتحم به أسراراً بعد أسرار؟ أليس هو "رغبة" البشر في كشف المجهول وتسخير قوى الطبيعة؟

هل كان العلم قميناً أن يوجد أصلا، أو يتقدم خطوة بعد خطوة لولا هذا الدافع الملح في النفس البشرية؟ الرغبة الدائمة في معرفة الأسرار المجهولة؟ وعدم الاكتفاء بأي شيء "يُعرف" والسعي دائماً وراء الجديد؟ أليست هذه الرغبة جزءاً من كيان الإنسان؟ ومنها ينتج التطور العلمي الذي ينشئ بدوره –في زعمهم– كل التطور الخلقي والفكري والاجتماعي والاقتصادي؟ فكيف يكون التطور إذن قوة خارجة عن كيان الإنسان وهي كامنة في أعمق أعماقه؟

أما أنها خارجة عن إرادته فقول يمكن أن يفهم على معنى واحد: هو أن الرغبة في معرفة المجهول قوة قاهرة في داخل الكيان البشري لا حيلة للإنسان فيها، لأنها جزء من خلقته، كالحاجة إلى الطعام والحاجة إلى الجنس. ولكن القول مردود حتى على هذا المعنى الواحد، لأن الإنسان يتحكم بعقله وإرادته في تلك الحاجات الفطرية التي لا حيلة له فيها، فينظمها، ويوجهها الوجهة التي يريدها. وبذلك تتحقق إرادته حتى إزاء "القوى القاهرة" في داخل كيانه.

على أنهم حين يقولون هذا القول لا يقصدون هذا المعنى الذي قبلناه من حيث المبدأ، ورددنا عليه بما يفسره، وإنما يقصدون أن التطور قوة مستقلة عن الإنسان أصلا، ليست خاضعة لوجوده، وإنما هي كائنة بذاتها، وهي تؤثر في الإنسان من خارج نفسه، فتتطور به على مدى الأجيال! وهو قول يحتاج إلى قليل من التعقل ليتبين مدى ما فيه من خرافة يؤمن بها كبار السادة العماء!

* * *

ونعود إلى المبدأ الأول: أن البشرية تتقدم بجميع خطوطها إلى الأمام، ولا ترجع أبداً إلى الخلف. وأن الواقع البشري قد حقق هذا التطور الدائم مع التقدم العلمي أو نتيجة له.

الخطأ الأول هنا هو الاعتقاد بأن الكيان النفسي في مجموعه يسير مع التقدم العقلي، المتمثل في العلم والاختراع.

وبمقتضى هذا الاعتقاد يكون البشر قد تقدموا نفسياً باستمرار مع تقدم العقل والعلم.

أي أن المستوى النفسي للبشرية في القرن العشرين أرقى مما كان في القرن التاسع عشر، وهذا بدوره أرقى مما كان عليه في القرن الثامن عشر، والسابع عشر... والعاشر.. والعاشر قبل الميلاد.

أي أن هذه الأحقاد التي تأكل قلب البشرية في القرن العشرين؛ هذا الصراع الجبار المدمر المخرب الرهيب المتمثل في حربين متتاليتين في ربع قرن، والثالثة على الأبواب؛ هذه الأنانية البغيضة والتفكك العاطفي الذي يجعل كل إنسان جزيرة وحده، لا يلتقي بالآخرين إلا حيث تكون المنفعة القريبة أو المتاع الحسي.. هذا هو أرقى ما وصلت إليه البشرية من الناحية النفسية على مدار التاريخ!!

فمن يقول هذا الكلام وفي نفسه ذرة من التعقل، أو ذرة من الإخلاص للبحث العلمي الصحيح؟

ولرب قائل ينتقض متحمسا ويقول: لعلك ستحدثنا عن الأديان ودعواتها، والفترات التي ارتفع فيها البشر على أيدي الأنبياء والرسل؟ بربك دع عنك هذه الخيالات ولنعش في الواقع: البشر هم البشر من لدن آدم إلى اليوم. الصراع هو الصراع والبغضاء هي البغضاء والمنفعة هي المنفعة. وما استطاع الرسل والأنبياء أن يصلحوا إلا أفرادا قلائل على مدى الأجيال. والباقون على حالهم يخافون ولا يستحون. تحكمهم بالقوة فيرتدعون، وتتركهم فيعيشون مفسدين!

ولنقبل هذا القول على علاته!

فأين إذن ذلك التطور المزعوم في النفس البشرية؟ أين التقدم الدائم إلى الأمام، الذي يسير جنبا إلى جنب مع التطور العلمي والاختراع؟

والعجيب أن من بين المؤمنين بالتقدم الدائم أولئك الذين يقسمون حياة البشرية إلى مراحل متميزة: هي الشيوعية الأولى، والرق، والإقطاع، والرأسمالية ثم الشيوعية الثانية. ويقولون إن الشيوعية الأولى –قبل تملك أدوات الإنتاج– كانت أسعد فترات البشرية وأقربها إلى حياة الملائكة! لا ضغائن ولا أحقاد ولا صراع. وتعاون وحب وسلام يشمل الجميع...

وأن البشرية انتكست بعد ذلك حين بدأ اختراع أدوات الإنتاج والصراع عليها. فكيف يتفق هذا الرأي مع الإيمان بالتطور الدائم إلى الأمام؟

ألا إنها الخرافة الكبرى، يؤمن بها السادة من كبار العلماء في العالم الحديث!

* * *

ومن هذه الخرافة تنبع الخرافة الأخرى التي تقول إننا نتطور خلقيا كذلك إلى أحسن، بصورة دائمة! وإننا ما دمنا في القرن العشرين "متطورين" أكثر ما كنا في القرن التاسع عشر، والثامن عشر، والسابع عشر، والعاشر، والعاشر قبل الميلاد، فقد لزم أن تكون أخلاقنا اليوم أرقى مما كنا في الأجيال السابقة. وإذا كانت أخلاقنا اليوم هي التحلل من قيود الأخلاق، فالتحلل إذن هو التطور، وهو الرقي وهو التقدم إلى الأمام!

وقد بينا في الفقرة السابقة مدى الزيف الذي تشتمل عليه تلك الخرافة الهائلة التي تزعم أن البشر اليوم أرقى نفسيا مما كانوا في أي وقت مضى، ورأينا أن المسألة أوضح من أن تحتاج إلى تعمق في التفكير. وإنما تحتاج فقط إلى أن يفتح الإنسان عينيه على الواقع ليرى أن المشاعر التي يتبادلها هذا الجيل من البشرية ربما كانت أسوأ ما أحس به البشر على مدار التاريخ!

وإذ انهارت خرافة الرقي النفسي التي تبني عليها خرافة الرقي الخلقي في القرن العشرين، فقد انهارت هذه الخرافة الأخرى ولم تعد تحتاج إلى تدليل.. من ذا الذي يزعم أن هذه الفوضى الجنسية الضاربة أطنابها في الغرب، وهذه الأسر المنهارة التي تصل نسبتها في أمريكا إلى أكثر من 48 %، والتفكك الذي أصاب فرنسا حين أغرقت في شهواتها فهوت بها إلى الحضيض.. هو "الرقي" الذي تنشده الإنسانية، والذي ينبغي أن تسير فيه إلى النهاية؟!

على أنني أريد أن أبين حقيقة أخرى تنفي هذه الخرافة الضخمة من جانب آخر: فمن قال إن هذا "التطور "الخلقي الذي يشهده العالم في القرن العشرين شيء جديد في حد ذاته حتى يظن أحد أنه جميل لأنه جديد، أو أنه راق لأنه جديد؟!

أهو جديد حقاً؟ أو لم تعرفه اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة؟

هو هو بحذافيره... اتخاذ الخليلات والخلان "بحرية" ودون انتقاد من المجتمع. وإفراغ الطاقة الجنسية في صداقات "بريئة" (بريئة والله!) لإراحة الأعصاب من تحملها. والاختلاط بين

الجنسين. والرقص في الساحات الشعبية والمواكب والحفلات، بل في المعابد. و.. و.. والسعي إلى الاستمتاع بالحياة من كل سبيل.

هل من جديد؟

فأين إذن خرافة التطور بالتجديد؛ وهذه هي البشرية قبل ما يقرب من ألفي عام تصل في رقيها "الخلقي" إلى دعارات القرن العشرين؟

ألا يراجع الناس التاريخ قبل أن يحشوا أفواههم ورءوسهم بالأوهام؟!

* * *

الخلاصة إذن أن الكيان البشري لا يتطور كله إلى الأمام. وأن العلم وحده هو الذي يسير للأمام قدما لأن طبيعته تؤدي به إلى هذا الطريق.

أما الكيان النفسي والخلقي فليس حتما أن يتطور مع التدم العلمي. والبرهان هو وقائع التاريخ. وحين يتحدث الواقع فلا مجال لنظريات يصنعها أصحابها ويتحمسون لها بحسن نية أو بسوء نية. واحترام البحث العلمي –وهو من ألوان التقدم التي وصل إليها البشر في العصر الحديث– احترام البحث العلمي ذاته هو الذي يدفعنا أن نقر بهذه الحقيقة سواء وافقت ميولنا أم خالفتها.

والحقيقة أن البشر في الناحية النفسية والخلقية لا يسيرون على خط مستقيم من التقدم، وإنما هي دورات من الصعود والهبوط. من التطور والانتكاس على مدار الأجيال.

وكما أن طبيعة البحث العلمي هي التي أدت به إلى أن يسير في خط مستقيم من التقدم، فإن طبيعة الكيان النفسي للبشر هي التي أدت بهم إلى هذه الدورات الدائمة من التطور والانتكاس.

ونبدأ الدورة من أي جزء فيها ثم نكملها..

فلنفرض أننا نعيش في مجتمع منحل. مجتمع مفكك العرى ملوث الأخلاق.. فما النتيجة؟ النتيجة التي تكررت في التاريخ أن هذه الموجة تنتشر حتى تصل إلى آخر المدى... حتى تنهار الأمة بكاملها في حرب داخلية أو خارجية. كما حدث لفارس القديمة واليونان

القديمة وروما القديمة.. وكما حدث لفرنسا في العصر الحديث.. التكالب الشديد على اللذات يصرف الأمة عن تكاليف الجد في العمل، وتكاليف الدفاع عن الكيان فتنهار...

ثم تؤثر الهزيمة أو الصدمة العنيفة في أعصاب الناس فتفيقهم مما هم فيه. ويحسون أن تكالبهم على الشهوات هو الذي أحل بهم الضعف والخزي والهزيمة. فتقوم الدعوة لوقف الفساد ورفع الهمم والترابط والتساند وجمع الصفوف المفككة المنهارة. وتظل هذه الدعوة تعمل عملها رويداً رويداً حتى تؤتي ثمارها بمرور الأيام فينشأ جيل فاضل. ولا نقصد أنه خال من الفساد. فإن وجه الأرض لم يخل قط من الفساد والجريمة. وإنما نقصد أن نسبة الفساد فيه هي الصغرى ونسبة الفضيلة هي الغالبة. ويستمر المجتمع على ذلك جيلا أو أجيالا حتى ينتعش ويربو، ويحس بالاطمئنان إلى كيانه وقوته. وعند ذلك يبدأ التحلل. يبدأ به أشد الناس انحلالا، والمجتمع كله مستنكر. ثم يسري الانحلال رويداً رويداً ويخف استنكار المجتمع، ويرضى بالأمر الواقع. ثم يشارك الجميع في الفساد الذي يصبح هو الدفعة الغالبة.. إلا أقلية بسيطة تظل متزمتة.. وهي التي تبدأ منها الدورة التالية الهادفة إلى التماسك والصعود!

وهكذا تدور البشرية في دورات متوالية من الارتفاع والهبوط ولا تسير في خط واحد مستقيم!

* * *

ذلك حين يتركون أنفسهم على سجيتهم. ويتركون "التطور" يتحكم في إرادتهم ولا يتحكمون هم فيه.

وقد قالت أوروبا إن التطور قوة قاهرة خارجة عن إرادة البشر مستقلة عن كيانهم، لأنها تركت نفسها على سجيتها، فوجدت نفسها تندفع في تيار فكري وخلقي معين، كل خطوة فيه تؤدي إلى الخطوة التالية بلا قصد ولا تدبير!

ولكن هذا كان بعد أن ابتعدوا –بإرادتهم– عن الارتباط بالله في صورة دين وعقيدة.

وحين يقطع الإنسان صلته بالله –فرداً كان هذا الإنسان أو جماعة– فلا مصير له إلا هذا المصير: (**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**) والهوى هو الخضوع للضرورات: هو الهبوط مع الخيط الهابط، وإهمال القدرة على الصعود.

وليس هنا مجال التفصيل للأسباب التي دعت أوروبا إلى التحلل من دينها والكفر بعقيدتها، فقد تحدثت عنها في أكثر من موضع في كتاب "الإنسان" وكتاب "الشبهات".

ولكني أقول فقط إنه لم يكن حتما على أوروبا حين نفرت من دكتاتورية الكنيسة وبشاعة ما تفرضه على أرواح الناس وعقولهم وأموالهم من أرزاء، لم يكن حتما عليها أن تنسلخ من دينها كله ومن الارتباط بالله. فقد كانت تملك أن تحطم سلطان الكنيسة لتخلص الدين من قبضتها وترده إلى صفاته وروحانيته واتصاله المباشر بالله.. وكانت أوروبا تستطيع —لو أرادت— أن تعتنق الإسلام، فيخلصها من دكتاتورية الكنيسة، ويردها في الوقت ذاته إلى الله، ويزيل العداوة القائمة في أفكارهم وأرواحهم بين العلم والعقيدة، وبين العقل والدين... ولكن أوروبا لم تصنع شيئاً من ذلك، وانسلخت من دينها وعقيدتها وأخلدت إلى الأرض.. وسارت في طريق "التطور"، وصعدت في ميدان العلم والاختراع، ولكنها هبطت هبوطا مزريا في عالم المشاعر والأخلاق حتى وصلت إلى درجة من الانحطاط ندر مثلها في التاريخ. فقد كانت نوبات الفساد السابقة لا يسندها شيء إلا حب الناس للشهوات ورغبتهم في الاستمتع بالحياة. أما النوبة الحالية فتسندها نظريات علمية وسيكلوجية زائفة تقرر أن هذا الفساد هو الحق الذي ينبغي أن يكون.

وأوروبا اليوم في قمة فسادها. أو على الأصلح في الدرك الأسفل من الهبوط.

وسيفغر أناس أفواههم في بلاهة ويقولون: وى! في عصر الذرة والطائرة الصاروخية والتليفزيون والمخ الإلكتروني.. وفي عصر التنظيم الآلي للإنتاج والتنظيم العلمي للسياسة والاقتصاد وكل شئون الحياة؟ العصر الذي يكشف كل يوم عجيبة، ويحاول أن يصل إلى القمر ويتصل بالمريخ؟!

ونقول لهم: نعم. إنها الحقيقة الواقعة. إن العلم يسير في خطه المستقيم صاعدا أبدا نحو القمة. ولكن نفوس البشر تلتوي في موجات هابطة وصاعدة بصرف النظر عن التقدم العلمي. وهي اليوم في حضيض الموجة الهابطة كأسوأ ما يكون عليه الإنسان.

ولكنها ستهدف إلى الصعود!

الدورة الطبيعية التي تحكم الحياة البشرية!

وقد بدأت أمارات قليلة من هذا الصعود تظهر على الأفق... ولكنها ضعيفة ما تزال. فمن أمريكا بلد الهوس الجنسي الذي يدعونه الحرية، والانطلاق المجنون الذي يدعونه التقدم، تتعالى صيحات علماء التربية وعلماء الاجتماع وعلماء السياسة أن أمريكا مشرفة على الخطر إن لم تضع القيود لهذا الهوس المجنون، وترتد إلى حظيرة الأخلاق.

وروسيا الملحدة تضطر لأي سبب من الأسباب إلى إباحة التدين.

والبقية تأتي...

سترتد البشرية إلى صوابها. ستعود إلى الصعود.

وقد لا نعيش نحن حتى نرى فرنسا الداعرة قد ارتدت متدينة محافظة، ولا أمريكا المجنونة قد صارت إلى التعقل، ولكن الموجة سائرة في طريقها المحتوم. والبشرية لا بد أن تصعد في مستقبلها القريب، لا بحكم الزمن والتطور، ولكن بحكم الموجة التي أخذت مداها من الهبوط فعادت إلى الارتفاع.

نهاية الشيوعية

الشيوعية في نظر أصحابها هي النظام الأخير للبشرية.. أي أنها النظام النهائي الذي ليس له في ذاته نهاية!

ومع ذلك فإن الفلسفة الشيوعية ذاتها هي التي تحدد نهاية الشيوعية!

الغذاء والمسكن والجنس.. تلك هي المطالب الأساسية كما حددها كارل ماركس في الإعلان الشيوعي.

والغذاء والمسكن والجنس هي الهدف الذي تسعى الحكومات الشيوعية لتحقيقه لمئات الملايين.

وهو هدف ضخم جداً بغير شك وجدير بأن يشغل الحكومات كلها شيوعية كانت أو غير شيوعية.

ولكن نقطة الخلاف بيننا وبين الشيوعيين، أن هذه الأهداف وحدها لا يجوز أن تكون هي الشغل الأوحد لحكومة من الآدميين. وإلا فلو قامت بين الحيوانات حكومة، أو لو أن بشرا قام يشرف على تنظيم حياة الحيوان، فما الذي يمكن أن يسعى لتوفيره له إلا الغذاء والمسكن والجنس؟! فهل يليق بكرامة الآدميين، وحكومات الآدميين أن تكون مطالبها هي ذاتها مطالب الحيوان؟ وفيم إذن كان الإنسان إنسانا إذا كنا سنعود به إلى عالم الحيوان؟

ولا نحب أن نظلمهم ولا أن نتجنى عليهم. فهم لا يرون الحياة البشرية تقف عند هذا الحد في حقيقة الأمر. ولكنهم مع ذلك يقصرون وظيفة الدولة على ضمان تلك المطالب الرئيسية. ويدعون بقية الأمور تنبت نباتا تلقائيا بعد تنظيم الاقتصاد، على الأساس الفلسفي الخاطئ الذي يؤمنون به، وهو أن مجالات الإنسان العليا: من فكر أو فن أو –لا قدر الله!– إنما هي انعكاس للوضع الاقتصادي القائم، وليست شيئا قائما بذاته، ناشئا من جذور إنسانية أصيلة، شأنها شأن عوامل المادة والاقتصاد.

ولن تفلح الشروح الشيوعية كلها في زحزحتنا عن عقيدتنا الفاسدة، التي تجعلنا نؤمن أن العناصر الاقتصادية جانب واحد من جوانب الكيان الإنساني الواسع، وأن هناك في هذا الكيان قيما أخرى ليست اقتصادية في جوهرها، ولا يهذبها، وإنما كل ما يصنعه هو أن يهيئ لها جوا صالحا للتغذية والتهذيب.. فقط ولا يزيد!

لن تفلح الشروح الشيوعية –العلمية!– كلها في زحزحتنا عن هذه العقيدة الساذجة الفاسدة، الموروثة من عقلية القرون الوسطى، لأننا نرى في عالم الواقع لا في الكتب والنظريات حادثتين ضخمتين في العالم الشيوعي، تكذبان هذه الشروح العلمية كلها وتؤيدان ما نذهب إليه من أفكار.

بريا.. وستالين.

اتهم بريا –وأعدم من أجل هذا الاتهام– بأنه يتآمر مع الرأسمالية سراً لتقويض أركان الشيوعية. من أجل أن يتمتع هو بالسلطان!

والاتهام لا يخرج عن أحد أمرين، فهو إما صادق وإما كاذب.

فإذا كان صادقا، فقد وجد إذن بين الذين تربوا في ظل النظام الشيوعي، وانطبعوا بانطباعاته كلها، وجرت عليهم حتمية التنظيم الاقتصادي التي تقضي بامتناع شهوة السلطان ما دام المجتمع غير طبقي ولا يمارس الملكية الفردية. وجد بين هؤلاء من يضرب بهذه الحتمية عرض الحائط، ويبرز أمام الناس مثالا بشعا للخيانة وعدم الإيمان، لأن هذه الشهوة النفسية –شهوة السلطان– لم تتهذب بكل التنظيمات الاقتصادية، ولم تنبت حولها الفضيلة نباتاً تلقائياً يغنيها عن توجيه العناية المباشرة إليها، بغذاء لا يستمد من عالم المادة وعالم الاقتصاد.

غذاء العقيدة.. غذاء الروح.

أو يكون الاتهام كاذبا.. فالأمر سواء!

لقد وجد إذن في العالم الشيوعي المنظم تنظيما اقتصادياً –علمياً!– من تسول له نفسه الكذب، واتهام الأبرياء وإعدامهم، رغبة في التخلص منهم، والتفرد دونهم بالسلطان!

ذلك بعض ما نخلص إليه من الحادث الأول الخطير.

أما ستالين فشأنه أخطر. فقد كتبت عنه الصحف الروسية –لا صحف أعدائه– أنه كان مجرما فظا يحكم البلاد بالدكتاتورية والحديد والنار والتجسس، وأنه كان يعبد شخصه ويسعى لفرض عبادة شخصه على الجماهير!

يا للهول! وماذا بقي إذن للإسلام مثلا؟!

معقول أن تقوم هذه الجرائم كلها في ظل نظام فاسد كالإسلام، لا يقوم على أسس علمية، ويبيح الملكية الفردية، ويبيح نظام الطبقات، ولا يقيم وزنا للبروليتاريا، ويبلغ به التأخر أن يكون قائما على عقيدة، وأن يكون منزلا من عند الله..

معقول أن يكون في نظام الله كل هذه المفاسد والانحرافات[1].. أما أن تتوفر كلها، وبهذه الشناعة في نظام –علمي!– فهذا كثير والحق يقال... إنه يدعونا إلى مراجعة هذه الدعوى العريضة من أساسها، دعوى التنظيم الاقتصادي في تهذيب النفوس ونزع شهواتها الكافرة، وتحويل الناس إلى ملائكة مطهرين!

إن تأثير الاقتصاد في المشاعر والأفكار حقيقة أزلية خالدة لا ينكرها عاقل. ولم يكن ماركس وإنجلز وعلماء القرن التاسع عشر والعشرين هم الذين اكتشفوها وحدهم على مدار الأجيال، فإن رجلا متأخرا جداً كعمر بن الخطاب، جاهلا، لم يدرس في الجامعة، ولم يتخصص في علم الاقتصاد أو علم الاجتماع، بل هو أشد تأخراً من ذلك لأنه يسير حافياً في الصحراء، وأسوأ من ذلك أنه يؤمن بالله وبالعقيدة.. رجل بهذا التأخر هو الذي قال لعماله ولاة الأقاليم وهو يشرح لهم أساليب الحكم وحدود معاملة الناس "..ولا تجيعوهم فتكفروهم"!

أدرك هذا الرجل المتأخر أن العقيدة لا تنبت في المعدة الخاوية. وأنه لا بد من إعطاء الناس مطالبهم الأساسية من الغذاء والمسكن والجنس لكي تقوم العقيدة في نفوسهم على استواء.

ولكنه لم يكن مثقفا ثقافة علمية، فنجا من الهوة الكبرى التي تنحدر إليها الأفكار المثقفة في القرن العشرين. ولم يعتقد أن ضمان المطالب الأساسية وحده –وبطريقة تلقائية– يهذب الطباع ويرفع النفوس ويغني عن العقيدة. فكان يرسل للناس –وقد أمّنهم على مطالب الجسد– من يهذب أرواحهم ويمنحها غذاءها الحق من نور الله.

ذلك هو موضع الخلاف الأكبر بيننا نحن المتأخرين وبين الشيوعيين التقدميين. هم يؤمنون بأن الاقتصاد حقيقة طردية وعكسية. ونحن نؤمن بأنها حقيقة عكسية فحسب. أي أنها حين لا توجد يختل البناء كله من أساسه وينهار (ولا تجيعوهم فتكفروهم) ولكنها حين توجد لا تؤدي بذاتها إلى الرفعة الروحية والخلقية والفكرية والإنسانية، ما لم يصحبها تهذيب

[1] رددنا على هذه المزاعم كلها في كتاب "شبهات حول الإسلام".

مباشر غير مستمد من عالم المادة وعالم الاقتصاد، بل مستمد من العقيدة وارتباط القلوب بالله[1].

* * *

ولكننا نتجاوز مؤقتا عن هذا الخلاف الرئيسي بيننا وبين الشيوعيين، لنتابعهم في عالمهم المثقف الرفيع.

الغذاء والمسكن والجنس هي المطالب الرئيسية، وهي همّ الحكومة الشيوعية.

ومضى الزمن قدما.. وتحقق الحلم الشيوعي الأكبر: لكل بحسب حاجته، ومن كل بحسب مقدرته.

تقدمت وسائل الإنتاج مع تقدم العلم، وصار في مكنة البشر أن يعملوا ساعات قليلة من النهار، بأقل جهد ممكن، ويحصلوا على قدر كبير من الإنتاج، يكفي كلا بحسب حاجته..

ثم..؟!

إن الشيوعيين لن يؤخذوا بهذا السؤال على غرة. فهم قوم مثقفون على أسس علمية. ولم يفتهم أن يبحثوا هذا الأمر. إن الشيوعية لن تنتهي حينئذ كما يظن المتأخرون قصار النظر فاسدو العقيدة.

إن هناك امتدادا للحلم الشيوعي الأكبر..

عندئذ تقوم حكومة عالمية في كل الأرض لتمنع الحرب، وتمنع التسابق إلى الغلبة والتسلح، ما دام الإنتاج صار من الجميع بواسطة الجميع.

ثم..؟!

ومرة أخرى لن يؤخذوا بالسؤال على غرة. فالمادية الجدلية ترقب تاريخ العالم في المستقبل البعيد، كما يرقب الفلكي بمنظاره أبعاد الكون البعيد..

---

[1] – انظر فصل "العلم والعقيدة" في أول الكتاب.

عندئذ تنتهي مهمة الحكومة كسلطة آمرة ناهية مدبرة. وتصبح مجرد تنظيم مدني لتوزيع الخدمات على الملايين.

ويعيش الناس في عالم جميل بطل فيه الصراع وحلت محلة المحبة والوفاء إلى أن يأذن العالم بانقضاء...

* * *

ولن تبلغ بنا الجرأة أن نبسط ألسنتنا بسوء الأدب في حق هذا "العلم" الذي "يبحث" و"يقرر" وهو كالغائب في الملكوت، أو "المبسوط" من دخان الحشيش والأفيون! ولن نقول إن الشيوعية الأولى الضاربة في أطناب التاريخ قبل اكتشاف الزراعة والملكية الفردية لوسائل الإنتاج لم تكن ذلك الحلم الذهبي الساحر الذي تسعى الشيوعية الثانية إلى إعادته، ولم تكن تخلو من صراع وحشي بشع على شهوات أخرى غير شهوة السيطرة على وسائل الإنتاج المادي. فقد كان الصراع يقوم بين الرجال أحياناً من أجل امتلاك امرأة –رغم وجود الشيوعية الجنسية– أو يقوم تارة أخرى من أجل رئاسة القبيلة والترد بالسلطان! ولن نقول كذلك إن تجربة الشيوعية في مهدها الأصيل –روسيا– قد تكشفت عن نصرين هائلين في بريا وستالين!

كلا! لن تبلغ بنا الجرأة وسوء الأدب أن نقول شيئاً من هذه الأكاذيب.

وسنصدق ذلك الحلم الساحر الذي "يسرح" في عقول الشيوعيين؟

فعلى أي أساس هو؟

على أساس الغذاء والمسكن والإشباع الجنسي؟

على أساس مادية الإنسان وحيوانيته؟

أم على أساس آخر من النظر إلى الإنسان والحياة؟!

فأما إن كان على أساس أن الإشباع الاقتصادي سيؤدي حتما –بطريقة ذاتية أو غير ذاتية– إلى ارتقاء الناس وارتفاعهم، وتحليقهم في الآفاق الإنسانية العليا التي أساسها المودة والإخاء والتهذيب الخلقي، والارتفاع عن عالم الضرورة وقيود الأرض.. فقد التقينا إذن على كل ما بيننا من خلاف. التقينا على تحديد الغاية العليا للإنسانية. والتقينا على القول بأن

هذه الشيوعية –المادية– التي تحدد المطالب الرئيسية بالغذاء والمسكن والجنس– ليست فكرة أبدية، ولا نظاما طويل الأمد، وإن هي إلا فترة انتقال، تنتهي –كفكرة وفلسفة ونظام– يوم يجد الناس مطالبهم الدنيا، أي حين يتوفر القدر اللازم من الإنتاج. وتكون نهاية الشيوعية رهينة بتلك اللحظة التي يستطيع فيها العلم تحقيق هذه الغاية التي أصبحت اليوم قريبا من قريب!

أما إذا كان على الأساس الحالي نفسه، الذي ينظر إلى الإنسان نظرته إلى الحيوان سواء، فهنا سوف تفاجأ الشيوعية بالحقيقة الكبرى، يوم تحقق حلمها الأكبر من زيادة الإنتاج وتوزيعه على الناس بالعدل والقسطاس!

سوف تفاجأ بجوعة الروح بعد أن تشبع الأجسام.

تلك سنة "الطبيعة" التي نسميها نحن المتأخرين سنة الله، لأننا لا نفهم سبباً منطقيا للعدول عن فكرة الله والقول بفكرة الطبيعة.

سنة الله في خلقه أن جوعة الروح تبدأ بعد اكتفاء الجسد، إن لم تبدأ قبل ذلك.

العصفور حين تمتلئ بطنه بالحب يرفرف بجناحه ويصفر بفمه.. يريد الانطلاق. حتى في غير موسم الجنس والإكثار.

والإنسان كذلك. حين تكتفي مطالب جسده بدرجة معقولة يحس بحنين آخر.. حنين إلى الانطلاق، الانطلاق إلى عوالم أخرى غير عالم الأرض المحدود.

ولن تفلح كل وسائل الوعظ الإلحادي في القضاء على هذه النزعة البشرية، لأنها لا تخص البشر وحدهم، بل هي فطرة الحياة كلها في جميع الأحياء!

ومعقول جدا أن تغرق الروح في ركام المادة حين تجوع الأجساد أو تتحرق شوقا إلى الضرورات. "ولا تجيعوهم فتكفروهم" ولكنه ليس من المعقول أن تظل غريقة في ركام المادة حين تشبع الضرورات وتهدأ الحرقات.

وسترتد الإنسانية حتما إلى العقيدة.

سترتد إليها في اللحظة التي يتحقق فيها الحلم الشيوعي الأكبر، إن لم يكن قبل ذلك بكثير.

سيفيق الإنسان إلى ذاته.. إلى عظمته التي طمرت في تراب المادة وأوحال الاقتصاد. سيفيق إلى أنه طاقة كبرى أوسع بكثير جدا مما أرادت له الشيوعية المادية التي حددت مطالبه الرئيسية بالغذاء والمسكن والإشباع الجنسي. طاقة تشمل جسمه وعقله وروحه كلها في كيان.

وعندئذ ستنتهي الشيوعية. ستنتهي لأنها أدت مهمتها. أوصلت الناس إلى الغاية التي رسمتها لنفسها وحددت بها مطالبها.

أو تتحول إلى نظام آخر..

نظام يشمل مطالب الجسد ومطالب العقل ومطالب الروح.

نظام يؤمن بالمادة ولكنه لا يغلق بصيرته عما وراء الكون المادي من أنوار وطاقات.

نظام يؤمن بما تدركه الحواس، ولكنه لا يغفل ما لا تدركه الحواس.

نظام يجمع الروح والمادة، ويصل بين الدنيا والآخرة والأرض والسماء.

وذلك هو الإسلام!

وذلك هو النظام الخالد لأنه يتمشى مع كيان الإنسان الخالد. يعرف أنه جسد وعقل وروح، فيمده بمطالب الجسد ومطالب العقل ومطالب الروح.

إنه يتعامل مع الإنسان كله. مع الجوهر الدائم الذي لا يتغير في حقيقته الجوهرية مهما تغير الإطار الخارجي من نظام للحكم أو نظام للمجتمع أو نظام للاقتصاد.

ويعرف حين يتعامل معه أن فيه عنصراً دائماً ثابتاً مقيما على الأجيال، وجوانب متغيرة متجددة متطورة على الدوام.

فيعطي الجانب الأول العقيدة...

ويعطي الجوانب الأخرى نظاما مرنا في الحكم والاجتماع والاقتصاد، يضع الأسس العريضة ويترك للعقل البشري أن يجتهد في حدودها بحسب درجته من التطور والارتقاء.

ومن ثم لا ينتهي..

وكيف ينتهي وهو لا يضع نظاما لفترة معينة أو جيل من الناس. وإنما يتعامل مع "الإنسان" إلى أن ينتهي الإنسان؟

ومن أجل ذلك لا نؤمن بالشيوعية ونؤمن بالإسلام!

صناعة البشرية

كنا نتناول الطعام مرة، وجاءت صحفة من "السلاطة"، مكونة من خضر طازجة لا توابل عليها و إضافات، فقال أحد الحاضرين: أنا لا آكل من هذه الصحفة لأنها خضر خادمة لم "تصنع" بعد!

عندئذ خطر في نفسي هذا الخاطر: إن الناس يرفضون أن يأخذوا شيئاً خاما بلا صناعة. وأيما خامة وجدوها لم يتركوها على حالها، ولم يألوا جهدا في أن يصنعوا منها أشياء جديدة مختلفة الأشكال والألوان. ويحسون بالزهو الغامر كلما استطاعوا أن يبعدوا بها عن خامتها الأولى، وكلما استعصى على الناظر أن يكشف أصلها عُدَّ ذلك إتقانا للصنعة وشهادة لها بالتفوق والافتتان.

وقد قضى الإنسان آمادا متطاولة وهو منطقي مع نفسه في هذا الاتجاه فلم يكتف بصناعة المادة، والابتعاد بها عن أصلها الأول، وابتداع أشكال متعددة من الخامات الواحدة، بل مضى على النهج ذاته في صناعة النفوس! فلم يترك نفسه على خاماتها الأصلية الفطيرة، بل راح يهذبها ويصقلها، ويخرج من ركامها وترابها ألوانا بديعة من الصور الرائعة. راح يخرج من شهواتها النافرة ودوافعها الناشزة نماذج رائقة من المشاعر والأفكار متعددة تعدد أنماط البشرية.

وما من شك أن الخطى في صناعة المادة كانت أسرع من الخطى في صناعة النفوس. لأنها أطوع وأسهل، وأكثر خضوعا للتشكيل والتنويع. بينما النفوس —لحيويتها– لا تثبت على الوضع المطلوب لها بغير مشقة، وبغير رعاية دائمة في الليل والنهار.

وما من شك كذلك أن الخطى في صناعة المادة كانت تسير قدما ولا ترجع، لأن العنصر المسيطر عليها —وهو العلم– يسير في خط صاعد أبداً، يضيف كل يوم جديداً في عالم المادة دون أن يضيع منه القديم، بينما كانت الخطى في صناعة النفوس تتعثر وتضطرب، وتصعد وتهبط، لأن "مادة النفوس" لا تثبت على قرار واحد، ولا تنى ترتد كل هنيهة أو تشرد عن الطريق.

.. ولكنها كانت تسير على أي حال! وكانت حين تتعثر وتضطرب تجد من يدعوها إلى العودة إلى الطريق السوي، وتجد من يندد بانحرافها عن سواء السبيل.

ولكن الإنسان في القرن العشرين يرتد في نكسة كبرى، فينسى منطق وجوده وينسى اتجاهات كيانه، ويروح يسمي هذا التهذيب النفسي والخلقي نفاقا! ويروح يندد بصناعة النفوس، ويقول: لماذا لا نرتد إلى الفطرة. لماذا لا نترك نفوسنا على "حقيقتها". لماذا نقيم الحواجز المصطنعة. لماذا لا نعترف بالحقائق البيولوجية؟!

وى! هل النفوس وحدها هي التي ينبغي أن تترك على فطرتها الخامة بلا تصنيع؟!

بل إنهم لا يقولون ذلك بشأن الكيان النفسي في مجموعه.

فتناول الطعام فطرة البشر، كما هو فطرة جميع الأحياء... فكيف يقول لك الأوروبي المهذب المتمدين إذا رآك تغرس أصابعك في اللحم فيسيل دهنه على يدك و"تتلغمط" به شفاهك!

!Savage متوحش!

وإنه ليزجرك ويندد بك. ويقول لك إن الإنسان صنع السكين واالشوكة والملعقة "ليهذب" تناول الطعام. ليهذب الفطرة. ليبعد بها عن خامتها الأولى إلى ألوان جديدة رائعة زاهية، تخفي أصلها الأول وتبدو كأنها خلق جديد.

واللباس فطرة.. أو كأنه فطرة. فكيف يقول لك هذا الغربي المهذب المتمدن لو رآك تلبس قطعة من الخيش، أو ثوباً غير مخيط؟ متأخر! لا تفهم الحضارة. لا تفهم أن الإنسان قد تفنن في صناعة الملابس، لينشئ "جمالا" زائداً عن مجرد الضرورة، وليمنح الحياة ثروة واتساعا بتنويع النماذج وتعديد الأنماط.

وكذلك في معظم شئون الفطرة، ومعظم شئون الحياة.

...إلا الجنس! تلك مشكلة القرن العشرين!

في مسألة الجنس ينسى هذا الغربي المهذب المتمدين نفسه. ينسى قصة الصقل والتهذيب، ينسى قصة الجمال الزائد عن الضرورة. ينسى أنه لا يترك شيئاً في الوجود كله على حالته الأصلية الفطيرة. ينسى أنه يتناول الخامات كلها بالتحوير والصناعة. ينسى الملعقة والشوكة والسكين. ينسى أنواع الملابس المختلفة. ويقول لك في تبجح: الجنس مسألة بيولوجية فلماذا نخلطها بالأخلاق؟ لماذا لا نترك نفوسنا على سجيتها؟ لماذا لا نعود إلى الفطرة؟!

وى!

ولماذا يكون الإنسان وحشا إذا غرس يده في اللحم؟ وقذرا متأخرا إذا مخط في يده أو قضى حاجته في الطريق؟

ولماذا تنفرون منه وتتقزز نفوسكم؟ أليس على الفطرة؟ أليس على سجيته بلا تصنع ولا صناعة؟!

كان المنطق يقضي أن نعود بكياننا النفسي كله إلى الغاب أو إلى ظلمة الكهوف، هناك نكون منطقيين مع أنفسنا حيين نعتبر الجنس مسألة بيولوجية لا ينبغي خلطها بالأخلاق، ولا يفرض عليها التهذيب. ونتعرى كذلك من لباسنا، ونغرس أيدينا في اللحم، ونقضي حاجتنا بلا تحرز ولا ستار.

ونترك كل صناعة بشرية. سواء في عالم المادة أو عالم النفوس.

أما أن نتشبث بالحضارة والمدنية، ونتفج في لباسنا وطعامنا ومسكننا وحديثنا وتفكيرنا وتفلسفنا.. ونسير على ذلك في كل أمورنا، ثم نقف فجأة بلا مقدمات ولا منطق، ونلقي عن أنفسنا كل ذلك، ونقف عرايا لا يستر نفوسنا شيء، نقتحم عالم الجنس نقول: فلنكن على الفطرة.. ذلك خبل لا يقدم عليه إنسان في رأسه عقل!

ومع ذلك يقدم عليه سادة "علماء!" محترمون!

علماء في النفس وعلماء في الاجتماع وعلماء فيما لا أدري من ألوان الشرور!

علماء يتحدثون عن الكبت، وعلماء يتحدثون عن التطور، وعلماء يتحدثون عن رجعية الأخلاق والأديان!

وكلهم يدعون الناس أن يعرّوا مشاعرهم الجنسية ويرتدّوا بها إلى فطرتها..

ويسمونه التقدم..!

والصقل والتهذيب، والابتعاد عن الخامة النافرة الناشزة، والجمال الزائد عن الضرورة.. اسمه الرجعية!

حين نحاول تنظيف الجنس من أن يكون كله متاع الجسد الملهوف. حين نستخلص من طاقته الضخمة أفكارا ومشاعر ترتفع عن عالم الضرورة وقيودها القاهرة، لكي تصبح فنونا طليقة، وعواطف حب، ورباط أسرة، ومشاعر أبوة وأمومة.. حينذاك نكون رجعيين متأخرين غير متطورين.

وحين نقتحم عالم الجنس عرايا النفوس، وأحيانا عرايا الأجساد، على الشواطئ المعرّم عليها اللحم، وفي السينمات الداعرة والصحافة العارية والصور المكشوفة، ومقابلات الشبان والفتيات بإذن المجتمع أو بغير إذنه.. نكون متحضرين متحررين من القيود.

ولا يرى الإنسان بذلك أنه ناقض كيانه، وانحرف عن منطق وجوده.

ولا يرى أنه منافق مخادع وهو يزعم لنفسه المدنية والتحضر.

بل يزيد تبجحه فيقول إن "العلم" هو الذي يأمر بهذه الهمجية الضالة المرتدة إلى وحشية الغابة وظلمة الكهوف.

ويزعم الإنسان كذلك أنه تحرر إلى الأبد من وصاية الله عليه. لأنه شب عن الطوق. وتسلم زمام نفسه، وصار يكتب بنفسه لنفسه المصير.

لا جرم إذن يكون مصيره المحتوم هو الهاوية في آخر الطريق!

القيد والحرية

لماذا لا ننطلق من القيود؟!

لماذا نعيش في الأغلال، ونفسد على أنفسنا الاستمتاع بالحياة؟

الفضيلة؟ القيم العليا؟ التسامي عن دفعة الغريزة؟؟

ماذا يساوي ذلك كله؟ ماذا يساوي إذا وضعنا في الكفة الأخرى تلك القيمة الكبرى التي لا يعدلها شيء ولا توزن بشيء.. الحرية..!

حرية السلوك.. حرية التصرف.. حرية التفكير.. حرية الحياة.. الحرية!!

هل يمكن أن يوجد في الحياة شي أثمن من الحرية؟ ألم يكن جهاد الإنسان منذ فجر التاريخ إلى اليوم في سبيل التحرر والانطلاق؟ ولقد حطم القيود واحداً أثر واحد، في عالم المادة وعالم الفكر، في عالم الاقتصاد وعالم السياسة، ولم يبق إلا تلك التقاليد البالية التي يسمونها الفضيلة أو يسمونها الأخلاق. وهي قيد من القيود العتيقة التي تحطمت تباعا إزاء عناد الإنسان وإصراره على تحقيق ذاتيته.. وستتحطم تلك البقية البالية دون شك ما دام الإنسان مصراً على المضي في جهاده النبيل نحو التحرر. نحو الاكتمال.. نحو السيطرة على الوجود كله.. نحو التربع على عرش الكون.. ليصبح كما ينبغي له: القوة الفعالة في هذا الوجود!

* * *

تلك عقيدة القرن العشرين.. عقيدة أوروبا والعالم الذي غلبت أوروبا عليه. يستوي في ذلك الشرق والغرب والشمال والجنوب. وهي عقيدة منطقية مع أوروبا، ومع ظروفها التاريخية وخاصة في القرون الثلاثة الأخيرة.

ولكنها ليست عقيدة الحياة، ولا العقيدة التي تتمشى مع الكيان الحقيقي للإنسان.

وهذا المنطق المغري.. منطق التحرر من القيود كلها لتحقيق أسمى ما في الكيان الإنساني من عناصر.. هذا المنطق ليس منطق الحقيقة!

والغرب اليوم في انطلاقه المجنون لا يتلبث ليرى الحقيقة.

إن الذي تلسعه النار، يجري.. يجري كالمجنون لا يهمه إلا أن يبتعد عن مصدر الحريق، ولا يتلبث خشية أن يقع في الهاوية وهو يجري كالمجنون!

أما السليم الذي يندفع كالملسوع.. ويرى الهاوية ثم يقع فيها.. فهذا هو المجنون حقا دون مبرر للجنون.

والشرق الإسلامي اليوم هو المجنون الذي يندفع للهاوية.. بينما الغرب ذاته قد أخذ يحاول أن يمسك اللجام!

* * *

ينطلق الإنسان وراء رغباته الجامحة؛ كلما دبت رغبة أطلق لها العنان.

..ويظن أنه متحرر من القيود! متحرر لأنه يطيع خلقا ولا دينا ولا عقيدة ولا قيداً واحداً من القيود المفروضة على السلوك.

ولا أريد هنا أن أناقش خرافة "الحرية" في القرن العشرين، وهو القرن الذي شهد في أوروبا خاصة أفظع دكتاتوريات التاريخ في السياسة والاقتصاد، والذي يستعبد الفرد "للدولة" باسم التحرر من الجوع والصراع الطبقي! ولا خرافة التحرر من الخوف، والعالم يعيش في أسوأ فترة من الفزع والاضطراب مرت به منذ فجر التاريخ. ولا خرافة السيطرة على قوى الكون، والإنسان في سبيل أن يدمر حياته بنفسه، بالصواريخ الموجهة والقنابل الذرية، قبل أن تتم له السيطرة على قوى الكوكب الضئيل الذي يعيش فيه، فضلا عن الكون الواسع العريض!

لن أناقش هنا هذه الخرافة..

ولكني فقط أناقش الخرافة الأخرى.. خرافة الشعور بالحرية حين ينفلت الإنسان من قيود الأخلاق.

انظر إلى هذا الفتى المملوء بالقوة والحيوية.. وهذه الفتاة المتوفزة التي ينطلق من جوارحها نداء الحياة.

لقد أحس بالرغبة فيها.. رغبة طبيعية.. رغبة الحياة! وأحست كذلك بالرغبة فيه.

وانطلقت رغبتان متجاوبتان فأطاعتا هاتف الجنس، وحققت كل منهما كيانها متحررتين من القيود!

وهذا شخص آخر لا يشاركهما فيما ينطلقان إليه من "تحرر"..

لا يشاركهما عن عقيدة. أو لا يشاركهما لأنه لا يجد "الآن" رغبة في هذا اللون من المتاع. أو لا يشاركهما لأنه لا يجد السبيل!

لا يعنيني! المهم أنه متفرج يسجل ما يجري أمامه من الأحداث.. فما الذي يراه؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها الفتى ولا الفتاة!

إنه يرى الحبل الممدود الذي ينجر منه الفتى وتنجر منه الفتاة! حبل الشهوة. حبل الرغبة الجامحة التي انقاد لها كل منهما بلا وعي. حبل غليظ لا يملك كل منهما الفكاك منه، لأن قوتهما ضئيلة بالقياس إليه، أو لأنهما لا يقاومان!

هذا الحبل لا يراه الفتى لأنه بالنسبة إليه كالمغناطيسية قوة غير منظورة، يندفع إليها طائعاً مختاراً لأنه هو الذي يريد! ويراه الشخص المتفرج غليظاً مجسما، لأنه بعيد –أو مبْعَد– عن مجاله، فهو غير متأثر به، ولذلك يراه!

أي الوجهين هو الحقيقة؟

ثم نقلب الصورة...

هذا فتى يواجه الإغراء بقلب رابط وقوة ضابطة، يراه وينصرف عنه. ويوجه طاقته الفائرة في مجال جديدة. ويحس أنه "متحرر"! متحرر من ضغط الشهوة. متحرر من الانقياد لهذا الحبل الذي يخزم الأنوف فتنقاد، متحرر من إطاعة هذا الهاتف. متحرر يتوجه بطاقته حيث يريد!

وهذا شخص آخر يتفرج من بعيد دون أن يشارك هذا الفتى عقيدته.. فما الذي يراه؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها هذا الفتى "المتحرر"..

إنه يرى القيد مجسما غليظاً. يرى الحبل الذي يكتف هذا الفتى فيمنعه من الحركة ويزجره عن الانطلاق. هذا الحبل الذي لا يراه الفتى، لأنه يحس أنه قيّد نفسه باختياره.. هو الذي يريد ذلك. ليس الحبل هو الذي يمنعه من إجابة الهاتف، ولكنه هو يتجه بعيداً عنه لأنه لا يريده.

أي الوجهين هو الحقيقة؟ لا أريد أن أحير القارئ بين الوجهين المتناقضين.

سأريحه.. سأقول له: إن كلا الوجهين هو الحقيقة!

القيد والحرية.. حقيقتان متجاورتان. بل حقيقة واحدة ذات صورتين! هذا الفتى الجامح الذي أطاع هاتف الجنس قد تحرر.. تحرر من قيود الأخلاق والدين والمجتمع، وفك كل ضوابط الإنسانية.. وهو في الوقت ذاته قد انقاد للشهوة الجامحة بهذا الحبل المخزوم في أنفه، لأنه –بالتجربة العملية– لا يستطيع أن يقاوم إغراءها.. وليجرب إذا أراد!

وهذا الفتى الرابط مقيد بقيد غليظ: هو الميثاق الغليظ الذي أخذه على نفسه مع الله، فهو لا يريد الفكاك منه، وكلما توغلت في نفسه العقيدة أصبح لا يملك الفكاك. وهو في الوقت ذاته متحرر من قيود الضرورة، يحس بحرية حقيقية إزاء الدوافع الملحة، وينطلق بطاقته إلى آفاق وضيئة من النور.

حرية إزاءها قيد.. وقيد إزاءه حرية. هذه هي الحقيقة البشرية.

ليس القيد في كفة وفي الكفة الأخرى الحرية.. وإنما كل حرية لها قيودها، وكل قيد له حرياته. وفي كل من الكفتين حريات وقيود.

والمفاضلة في واقعها ليست كما تضعها أوروبا والعالم الذي غلبت أوروبا عليه، ليست مفاضلة بين القيد والحرية، وإنما هي مفاضلة بين قيد وقيد، وحرية وحرية.

وهي في حقيقتها المفاضلة بين حرية الإنسان وحرية الحيوان، مقابل التقيد بقيود الإنسان أو التقيد بقيود الحيوان...

وقيود الإنسان اسمها الفضيلة أو اسمها العقيدة.

وقيود الحيوان اسمها الغريزة أو اسمها الشهوة.. أو اسمها المتاع الغليظ.

والإنسان حر بعدُ في أن يظل إنساناً أو يعود إلى حظيرة الحيوان!

الحقيقة؟!

أيهما الحقيقة؟

نظرت مرة من مبنى المجمع العالي فرأيت "الكوبري". كوبري قصر النيل. فخطر لي هذا الخاطر: أهذا هو الكوبري الضخم الذي أمر عليه وأشاهد طوله واتساعه وحركة المرور الدائبة التي تمر عليه؟ أهذا هو ذلك الشريط الضيق المعلق في الفضاء فوق النيل على دعائمه الصغيرة المتواضعة؟

أيهما حقيقة الكوبري؟ أهي التي أراها الآن، إذ أراه كله وحدة متكاملة وأرى على جوانبه رقعة من الفضاء، ولكني أراه بالنسبة للرقعة الواسعة شيئاً صغيراً محدود الآماد؟ أم حقيقته هي تلك التي أراها وأنا عنده إذ أراه ضخما ممتد الأبعاد، لا أكاد أرى شيئاً غيره، بل لا أراه هو إلا أجزاء تلو أجزاء؟

تقول إن النظرة الثانية هي الحق لأنها ترى الواقع كما هو من قريب؟

نعم. ولكنها نظرة جزئية لا تدرك الكل، ولا ترى النسبة بين الأبعاد على حقيقتها. والأولى هي التي تمكنني من رؤية حقيقة الكوبري بالنسبة للماء والشاطئين وبقية الفراغ!

أيهما أصدق؟ النظرة الجزئية التي تكبر الأجزاء وترى كل تفصيلاتها، أم النظرة الكلية الشاملة التي تحدد أبعاد الأشياء كلها بالنسبة بعضها لبعض، ولكنها تهمل الجزئيات أو تضغطها فلا تكاد تبين؟

أي النظرتين ترى الحقيقة؟ أم إنها لا هذه ولا تلك، وإنما هي نسب مختلفة تبدو لي بحسب موقعي من المكان؟

* * *

أيهما الحقيقة؟

هذه الفتاة الفاتنة التي تسلب اللب، ولا يملك الفتى إزاءها نفسه، يراها فلا يكاد يشبع من النظر إليها. كل شيء فيها فتنة. وجهها الساحر. عيناها المشرقتان. شفتاها الممتلئتان بالحيوية والنداء. حركاتها. لفتاتها. ضحكاتها. بسماتها. تعبيرات وجهها المتباينة المتلاحقة. النور الذي يشع من كيانها كله، والنار المتأججة من حولها..

هل هذه هي حقيقتها؟ أم هي تلك الفتاة العادية التي يراها الفتى ذاته حين تهدأ الرغبة ويستقر الشواظ؟ فتاة ككل النساء. يا لها من متصنعة. ما هذه الحركات التي لا مبرر لها ولا ضرورة. ما هذا الثقل الظاهر في روحها إذ تحاول أن تلفت نظره إليها وهو لا يريد؟

نقول إن الصورة الثانية هي الحقيقة لأنه يراها بلا هوى ولا تحيز، ولكن الأولى كاذبة لأنه يراها بعين الرغبة المجنونة؟

نعم. ولكن هذه الرغبة ذاتها: أليست حقيقة؟

تريد أن تتأكد؟ انظر إلى صورتها في نفسه مرة أخرى حين تعود الرغبة ذاتها من جديد! حينئذ تختفي "الحقيقة" التي رآها بعينه الباردة مرة، وتظهر "الحقيقة" الأخرى التي يراها بعين الرغبة والاشتعال.

أي الصورتين هي الحقيقة؟ أم إنها لا هذه ولا تلك، وإنما هي انعكاسات مختلفة بحسب مشاعره من الصورة؟

* * *

أيهما الحقيقة؟

هذا الرجل الذي تراه لأول وهلة فتستثقل ظله، وترى عيوبه بارزة نافرة منفرة؟

أم هو حين تألفه وتأنس إليه، وترى لطف روحه ومزاياه التي لم ترها لحظة النفور؟

تقول إن الثانية هي الحقيقة، لأنك لم تأنس إليه إلا حين اكتشفت –على مهل وروية– أنك مخطئ في تقديرك الأول، وأن هناك مزايا كانت خافية للنظرة الأولى؟

نعم. ولكن انتظر حتى تبرد موجة هذا الحب، وتنصرف عنه لأمر من الأمور!

* * *

أيهما الحقيقة؟

هذا المنظر الذي تبصره العين لأول مرة ويتفتح له الوجدان، فإذا كل شيء فيه سحر، وكل معنى فيه جميل. يخفق له القلب كما تخفق العين، وترف حوله الخواطر، ويضطرب الوجدان بشتى الأحاسيس، وتهتز أوتار النفس كلها في امتزاج كامل بهذه التجربة الحية...

أم ذلك المنظر ذاته حين تألفه العين وتألف النفس، فيفقد حرارته، ويمر عليه الإنسان دون اكتراث؟

تقول إن النظرة الثانية هي الحقيقة، لأنها بريئة من بهرة السحر واضطراب الوجدان، فهي لذلك ترى الحقيقة بلا زيادة؟

نعم ولكنها تفقد كل جمالها وكل تأثيرها، تراها العين وحدها ولكن لا تبصرها النفس، والقلب لا يتفتح لها، والوجدان لا يستجيب.. فكأنها غير موجودة بالنسبة إليه..

أيهما إذن هي الحقيقة؟ أم إنها لا هذه وتلك، وإنما هي استجابات شتى وتأثرات مختلفة؟

* * *

أيهما الحقيقة؟

هذه الفكرة التي تملأ نفسي وتملك عليّ مشاعري، وأرى أنها الحق كل الحق، والخير كل الخير، وأن مصيري كله معلق بتنفيذها، ولا حياة لي سواها..

أم الفكرة الجديدة التي نبتت في نفسي بعد عشر سنوات، فاستهجنت بها الفكرة الأولى، وسخرت من نفسي إذ كنت أتعلق بالضلالات والأوهام، وأعتقد أنها حقيقة؟

تقول إنها الثانية، لأن عشرة أعوام من التجارب قد زودتني بالقدرة على الحكم وحسن التقدير؟

نعم قد يكون ذلك. ولكن كيف الحال وقد تعود إلى –لأسباب خارجة عن حسابي– وفزة حارة من وفزات الشباب، فأستهجن أفكاري الحكيمة المتئدة، وأستصوب من جديد ما كنت أستصوبه قبل عشر سنوات؟

أيهما إذن هو الحقيقة؟ وكيف الحكم وأنا ذاتي أمتلئ بالفكرة إلى حد التشبع، ثم أعود فأراها غير ذات موضوع؟

* * *

ومع ذلك يركب الإنسان رأسه، ويتشبث بما يعتقد أنه "الحقيقة"!

ويزعم لنفسه بصرا بالأشياء لا يخطئ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

ما الحقيقة الواحدة التي ثبتت عندها الإنسانية؟ ذلك تاريخها كله: تخبط من اليمين إلى الشمال، ومن الشمال إلى اليمين، وإيمان جازم في كلتا الحالتين أنها ترى الحق وتصنع الصواب!

حتى حقائق العلم، المفروض فيها أن تثبت لأنها لا تتأثر بعواطف البشر وانفعالاتهم، حتى هذه الحقائق تتغير، وتتغير معها نظرة العلماء إلى الكون والحياة والأشياء!

* * *

هناك حقيقة كبرى وصل أينشتين إلى طرف منها، ولكن روحه الجاحدة أبت أن تمضي معها إلى نهايتها.

كل الأشياء في هذا الكون نسبية: الزمان نسبي والمكان نسبي والحقائق نسبية.

تلك قضية لا تنطبق على الكون المادي وحده، ولكنها تشمل كذلك حياة البشر وأفكارهم ومشاعرهم..

وثمة حقيقة واحدة مطلق في هذا الكون العريض.. هي الله.

الله وحده هو الحقيقة المطلقة، لأن الحقائق النسبية كلها تنتهي إليه. تنتهي إليه انتهاء مطلقا لأنه هو خالقها، بينما لا ينتهي بعضها إلى بعض إلا "بالنسبة" التي قدرها الخالق بين بعضها وبعض.

والله وحده هو الذي ينبغي أن يعبد ويطاع، لأنه الحقيقة الوحيدة الثابتة في هذا الكون.

وكلمة الله هي العليا...

وحين يشرع لنا الله في الأرض، فهو وحده الذي يرى الأشياء على إطلاقها، ويقدرها بالنسبة لنا. بينما نحن لا نرى من الأشياء إلا زوايا مختلفة، تختلف حين يتغير الموقف أو الشعور!

ولكن الإنسان يركب رأسه، ويرفض أن يطيع الله، ويزعم أن بصره بالأشياء أصدق من بصر خالقه، لأنه شب عن الطوق، وتكشفت له "حقائق" الأشياء!

فمتى يثوب إلى رشده، ويرى الحقيقة الواحدة المطلقة، التي تحدد له موقفه الحق من الأشياء؟

الطريق إلى الله

هل أحسست مرة وأنت تقدم مساعدة لشخص لا تعرفه، فتقيله من عثرة، أو ترفع له حملا لا يقوى على رفعه، أو تناوله شيئاً لا تناله يده، أو تدله على حل لإحدى مشكلاته، أو تقوم له بعمل هو في حاجة إليه.. هل أحسست بالخفة تملأ نفسك، فتكاد تحمل جسمك حملا في الهواء؟ هل أحسست روحك ترفرف عالية مستبشرة، ونشوة خفية تملأ جناحيك؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل استأت مرة من صديق، لأنه يقوم بعمل يؤذيك أو يتسبب في مضايقتك؟ هل هممت أن تقاطعه فلا تكلمه بعد ذلك أبداً؟ هل جمعت أمرك أن تلقيها في وجهه كلمة قاطعة: لست صاحبي ولا أعرفك منذ اليوم؟

ثم رددت نفسك في اللحظة الأخيرة وقلت: إنه بشر، وكل البشر يخطئون. وأنا أيضاً أخطئ أحياناً بغير قصد، ثم يتبين لي ما أخطأت؟.. وهل أقبلت على صديقك تكلمه كأنه لم يسيء إليك، بل تكلمه مقبلا عليه وقد أعطيته نفسك وقلبك.. حقاً لا رياء.. حقاً ينبع من أعماق نفسك؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست نحو إنسان أنك تحبه؟ تحبه ولست في حاجة إليه ولا تنتظر نفعا على يديه؟ تحبه بلا ضغينة له في نفسك ولا غيرة ولا حقد؟ تحبه فلا تقيس نفسك –سراً– إليه وتقول: ألم أكن أنا أولى منه بما هو فيه؟ تحبه فلا تحسده على مزاياه ومواهبه بل تحبها كأنها هي ملكك، وتتمنى له المزيد؟ تحبه فتنجذب إليه كما ينجذب المغناطيس، وتسري روحك على موجات الجاذبية خفيفة مرفرفة نشوانة كالفراشة التي ترفرف للنور؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل فتنتك هذه الفتاة الممشوقة الساحرة النظرات؟ هل أحسست رعشة في كيانك وهزة في فؤادك؟ هل اضطربت نفسك كلها كما تتحرك الرواسب الخامدة في الماء الرائق فإذا كله قد اضطرب وماج؛ تيارات صاعدة هابطة، وذرات تذهب وتجيء. والماء الرائق صار مختلط اللون قد امتلأ "بالعكار"؟

ثم هل تذكرت أنها ليست لك؟ وأنه ليس لك أن تتبعها بخطواتك أو بنظراتك أو بمشاعرك؟ هل أحسست –رغم الرغبة الجامحة التي تكاد تنتزعك من إطارك وتفلت بك من نفسك –أنك متنازل عنها.. عن الشهوة والفتاة، وأنك تسترد أنفاسك اللاهثة وخفقاتك المضطربة.. وتهدأ وتطمئن؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل صفت نفسك في نور القمر؟ هل سرحت طرفك في هذا الكون الحالم الغارق في الضياء؟ هل نسيت نفسك. وأحسست بالحواجز بينك وبين الكون تتذاوب وتختفي رويداً رويداً حتى إذا أنت جزء من العالم الواسع الفسيح، وهو خاطرة تملأ فؤادك؟ هل نسيت أحقادك وضغائنك وما بينك وبين الناس من صراع وتضارب، وأحسست أنك والناس جميعاً ذرات خفيفة هائمة في الملكوت، لا ينبغي أن تتصادم –فالكون فسيح– بل ينبغي أن يخلي بعضها الطريق لبعض، وأن تتجاذب لتسبح معا منسابة في النور؟ هل أحسست أنك طليق كهذا الشعاع السارب في الفضاء ينقل بسمة القمر الحالم إلى وجه الأرض؟ طليق من السلاسل التي تقيدك بالأرض، طليق من شهواتك الجامحة ورغباتك المجنونة، ونوازع الشر الحبيسة؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست بتلك القروش التي في جيبك كأنها ليست لك؟ هل انقطعت السلسلة المتينة التي تشدك إليها وتشدها إليك؟ هل بطل الجذب العنيف الذي يربط كلا منكما بالآخر؟ هل أحسست بدلا من ذلك أن يدك تعبث بها لتخرجها من مكمنها، نشوانة بما تفعل، طليقة من الشح، نشيطة إلى العطاء؟ هل دسستها بعد ذلك في يد فلان من الناس وانطلقت نشيط الخطوات خفيف الروح، كأنك تخلصت من ثقلة كانت تشدك إلى الأرض؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست بالألم يعتصر فؤادك؟ ألم من كل نوع. آلام شتى، كلها مؤلم وكلها شديد.. هل أحسست أنك تتهاوى تحت وطأتها وأنك لا تستطيع احتمالها؟ هل أحسست وخزها يدفعك إلى الصياح.. إلى التأوه.. إلى الانفطار.. إلى انهيار الأعصاب وانهيار السلطان على النفس؟

ثم هل تمالكت نفسك رغم هذا، وقلت تؤسي نفسك وتجمع شتاتها تصبرها.. فليكن ذلك في سبيل الله؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست برغبة تدفعك إلى العبادة؟ رغبة ملحة تقيمك وتقعدك، ولا تجد راحتها إلا ابتهالا إلى الله، واستسلاما لله؟ وهل خشعت نفسك وأنت تلبي هذا الهاتف الذي يدفعك إلى الله، واهتز وجدانك وشعرت بالقشعريرة تسري في كيانك؟ هل أحسست أنك لست في عالم الأرض. لست في تلك البقعة التي يحددها الزمان والمكان المعلوم. وأنك لست أنت هذه الوشائج والعضلات والعظام. وإنما أنت أمام الله ومع الله. وأنت كيان لا حدود له ولا رسم، لأنك روح تقبس من روح الله؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحنقك الشر يمرح في الأرض؟ هل أحسست بهزة الغضب وأنت ترى الظلم يقع عليك وعلى غيرك من بني البشر؟ هل رأيت أنه لا يجوز لك أن تسكت وأنه ينبغي أن تتحرك وتثور؟ وأنك أنت.. أنت قبل غيرك، ينغي أن تقول لهذا الشر مكانك، فقد جاوزت حدك. وهل علمت أنك لا شك متعرض للأذى حين لا تسكت على الظلم، وحين تأخذ على عاتقك أن تقاومه وتعترض سبيله؟ وهل علمت أن الأذى قد يشتد عليك حتى ليسلبك الراحة والأمن ورغد العيش.. وقد يسلبك الحياة.. ثم ظلت نفسك على غضبها، وعلى عزيمتها في الوقوف للظلم وصد العداون؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل ضاقت نفسك بالحياة فما عدت تطيق آلامها وقسوتها؟ هل تملكك الضجر واليأس، وأحسست بالحاجة إلى الشكوى؟ هل تلفت حولك فلم تجد من تشكو إليه؟ لم تجد الصفى الذي يخلص لك حتى لتفتح له نفسك دون تحرج وتطلعه على كل خفاياك؟ أو لم تجد راحة في شكواك إلى الناس؟

ثم هل تطلعت إلى السماء وانفجرت بالشكوى؟ هل وجدت الله وشكوت له بثك ونجواك؟ هل أحسست أن هذا الحمم الذي تطوي ضلوعك عليه قد تدفق وتدفق، وسال كلمات على لسانك وعبرات في عينيك، وأنك أرسلتها كلها إلى القوة الكبرى القاهرة التي تملك كل شيء وتقدر على كل شيء؟ وأحسست بالراحة والبرد والسلام إذ انطلقت تلك الشحنة الحبيسة ووصلت إلى غايتها؟ وهدأت نفسك أنك أودعتها حيث ينبغي أن تودع وحيث لا تضيع؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل ألممت بذنب؟ هل جمحت نفسك فانطلقت من عقالها، وأنت تغلبها فتغلبك، أو تسكت عنها منذ البدء فتنطلق إلى حيث يغويها الشيطان؟ هل وقعت الواقعة وانتهى الأمر ولم يعد إلى مرد من سبيل؟

وهل أفقت من غفوتك على لذعات ضميرك؟ هل نكست رأسك خجلا من نفسك أن ضعفت وتلاشيت أمام الإغراء؟ هل أحسست أنك لا شيء؟ أنك تافه لا تستحق التقدير والاحترام؟

هل انقلبت خطيئتك سجناً يحيط بك من كل جانب، لا مهرب منه إلا إليه. وحيثما توجهت سد عليك الأفق وحجبه بالظلمات؟

وهل ضاقت نفسك بالحياة؟...

ثم...

هل انفتحت كوة من عالم الغيب ودخل منها بصيص من النور؟

هل استروحت نسمات تدخل إليك من عالم سحيق؟

هل أحسست بسمة حانية تطل عليك من ملكوت الله؟

هل أحسست يداً رفيقة تأخذ بك من كبوتك؟

هل أحسست صوتاً يهتف بك: (**وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**).

وصوتا آخر يهتف بك: "**كل ابن آدم خطاء، وةخير الخطائين التوابون**".

وهل غمرتك غمرة من نور؟

وهل اندفعت قائما تذكر الله وتستغفر الله، وتتوب إليه، وتمسح الخطيئة من ضميرك ، وتعزم عزمة الواثق أن لن ترجع إليها..

وهل أحسست أنك مندفع إلى الله أكثر حماسة مما كنت من قبل، وأشد تعلقا به مما كنت من قبل، وأكثر إقبالا على نوره مما كنت من قبل..

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست –وقد فرغت من عملك ومن جهاد يومك– أنك لا تملك من أمر نفسك شيئاً؟ وأنك مهما عنّبتها بشئون الحياة فليس من وراء ذلك إلا تعب الخاطر ومشغلة الفكر؟ وأن عليك أن تسعى ولكنك لا تملك نتيجة السعي ولا تعلم أيان مرساه؟

هل شعرت أن القوة الكبرى هي التي تدبر كل شيء وتمنح كل شيء؟

هل شعرت أنك أديت واجبك كما ينبغي، وفي حدود طاقتك، وأنه ليس في وسعك بعد ذلك إلا أن تنتظر أمر الله؟

وهل حداك هذا إلى أن تكل أمرك إلى الله وتضع في رعايته الحمل الذي يثقل ظهرك والمشغلة التي تأكل فؤادك؟ وهل أحسست أنك آمن على هذا الحمل حقاً وهو في رعاية الله؟ وأنه هناك كأنك أنت الساهر على حراسته؟ وهل ملأت قلبك الطمأنينة إليه؟ ونمت وفي خاطرك أنه يرعاك وأنت نائم؟ يدبر لك أمرك وأنت غاف عن الإدراك؟

إنها الطريق إلى الله..



دراسات
في النفس الإنسانية

محمد قطب

الفهرس

مقدمة

في كتاب الله دعوة صريحة إلى التأمل في "النفس الإنسانية" وما تنطوي عليه من أسرار وآيات:

"وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ".

"سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ...".

والكتاب حافل بالآيات التي تصف النفس الإنسانية في مختلف حالاتها: سوية وشاذة، صاعدة وهابطة، خيّرة وشريرة، مقبلة ومعرضة، مؤمنة وكافرة، لاصقة بالطين أو مرفرفة في عالم النور:

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا".

"إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ".

"وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً".

"وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ".

"وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ".

"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ"..

"وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ"..

"وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ"!

"وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً".

"وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ".

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً".

"وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ".

"وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ"..

والذي يتحدث عن النفس الإنسانية في القرآن هو خالقها العليم بأسرارها وخفاياها:

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ".

"أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"؟

ولقد خطر لي يوماً –وأنا في مبتدأ دراستي للقرآن وللإسلام– أن للإسلام نظرية معينة في النفس الإنسانية، تنبني عليها كل توجيهاته وتشريعاته، وطريقة معالجته لهذه النفس، وطريقة تربيتها وتقويمها؛ وأن هذه النظرية لا بد أن تكون موجودة في القرآن. أو في القرآن وفي أحاديث الرسول، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو التفسير الواقعي للقرآن.

وحين قمت بتأليف كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" كان في نفسي هذا الخاطر.. ورحت أقارن بين نظرة المدارس الغربية في علم النفس ونظرة الإسلام؛ وبين ما ترتب على النظرة الغربية للنفس الإنسانية من شرائع ونظم وفلسفات وأفكار وسلوك، وما يترتب على النظرة الإسلامية للنفس في هذه المجالات جميعاً، واخترت بصفة خاصة مجال العلاقة بين الفرد والمجتمع، ومجال الجريمة والعقاب، والمسألة الجنسية، والقيم العليا.

وأحسست أن الخطوط العريضة لنظرية إسلامية في النفس الإنسانية ترتسم بين يدي وأنا أخط سطور الكتاب، وظننت أني قاب قوسين أو أدنى من استخلاص هذه النظرية ووضعها موضع المقابلة من انلظريات الغربية عن النفس..

ومضت سنوات...

ورحت أكتب مجموعة من الخواطر "في النفس والمجتمع" فيها معالجة لبعض الخطوط في النظرية الإسلامية، ولكنها معالجة خفيفة تأخذ سمة الخاطرة أكثر مما تأخذ سمة البحث العلمي الدقيق..

ومضت سنوات أخرى..

وكتبت كتابي في "منهج التربية الإسلامية".. واحتجت في وضع فكرة الكتاب إلى تخطيط صورة للنفس الإنسانية، إذ كان قد تبين لي أن منهج التربية الذي وضعه الله في كتابه، مطابق تماماً للنفس التي خلقها منزّل الكتاب، وأن أبرز ما في المنهج هو هذا التطابق الكامل بينه وبين النفس، بحيث لا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا اشتمل عليها وعمل لها حسابها. فكان طبيعياً أن أوضح صورة النفس الإنسانية كما أراها، لأبين هذا التطابق بين المنهج المنزل والنفس التي تتلقاه.

وأحسست مرة أخرى وأنا أكتب الكتاب أن الخطوط العريضة للنفس الإنسانية ترتسم بين يدي في ثنايا السطور، وخاصة في فصل "خطوط متقابلة في النفس البشرية" الذي كان فكرة جديدة لم تخطر لي قبل هذا الكتاب..

ومرة أخرى اشتاقت نفسي إلى استخلاص نظرية شاملة عن النفس الإنسانية!

وهذا الكتاب محاولة في هذا السبيل!

وهي مجرد محاولة.. أتحمل مسئوليتها وحدي!

فالإسلام ليس مقيداً بما أقول.. وما أزعم أن هذه هي "النظرية الإسلامية".. وإنما أقول فقط إنها "نظرية" إسلامية.. اجتهدت فيها بمقدار ما فتح الله علي من طاقة المعرفة. وهو وحده الموفق إلى الصواب.

* * *

والقرآن ليس كتاب نظريات.. نفسية أو علمية أو فكرية.. ولكنه يحوي التوجيهات الكاملة الكافية لإنشاء هذه النظريات.

إنه كتاب تربية وتوجيه.. وفي سبيل هذا التوجيه يكشف للإنسان عن بعض أسرار نفسه وأسرار الكون من حوله، ويدعوه إلى دراسة هذه وتلك "ليعرف" و"يتعلم" ومن ثم يتجه الاتجاه الصحيح.

وأنا شديد النفور من الذين يقولون إن في القرآن نظريات طبيعية وكيميائية وطبية وفلكية وذرية وصاروخية..! ويروحون يجرون وراء كل كشف أو اختراع جديد، يحاولون أن يثبتوا أن القرآن قد أشار إليه أو تنبأ به.

إن القرآن غني عن كل هذا.. وهو آخذ مكانته في تربية البشرية وتوجيهها الوجهة الصحيحة بغير هذا التمحل كله.. ولا ينقص من قدره ذرة واحدة ألا يكون يكون فيه طب وطبيعة وكيمياء وفلك وذرة وصواريخ!

إنه كتاب تربية وتوجيه.. كتاي ينشئ النفوس على النهج المستقيم. وهو يؤدي مهمته هذه كاملة دون أن يتعرض لنظريات العلم المختلفة. وإنما كان ما ورد في ثناياه من "المعلومات" إشارات كونية للإنسان، ليفتح بصيرته على آيات الله في الكون، فيتصل بالخالق، ويحبه ويخشاه.

والذي يستحق الالتفات حقاً في هذا الباب –باب العلم– ليس هو المعلومات الواردة في القرآن على سبيل الإشارة إلى آيات الله، وإنما هو منهج التربية العقلية الذي يوجه العقل إلى استنباط أسرار الكون والاستفادة بها في كل منحى من مناحي الحياة. وهو المنهج الذي وعته الأمة المسلمة الأولى، فحولت اتجاه البشرية من التأمل النظري الفارغ الذي لا يؤدي إلى شيء، ووجهتها إلى المنهج التجريبي الذي نشأت عنه العلوم الحديثة، والذي استطاعت به أوربا –بعد أن قبسته من احتكاكها بالإسلام والمسلمين، وبعد أن استمدت ما استمدته من علوم المسلمين– أن تصل إلى فتح مغاليق العلم، واستخلاص الأسرار والطاقات.

* * *

ولكن الأمر في "النفس" قد يختلف بعض الشيء..

ليس في القرآن "نظرية نفسية" مخططة مبوبة مبلورة ذات فصول وتفصيلات. فليس من شأن القرآن وهو ينشئ النفوس ويربيها أن يضع "نظريات" من هذا القبيل.

ولكن فيه مع ذلك "معلومات" عن النفس الإنسانية كثيرة وشاملة، أكثر مما فيه عن أي "علم" آخر.

وقد كان هذا طبيعياً في كتاب مهمته الأولى هي التربية والتوجيه.. كتاب يخاطب "النفس" ويوجهها.

وهذه المعلومات –المنبثة في ثنايا القرآن– يمكن أن تُسْتَوْحى في استخلاص نظرية شاملة عن النفس.. تعمل المشاهدة والتجربة في توضيحها ووضع تفصيلاتها، كما تعمل في توضيح بقية الإشارات الكونية في القرآن.

فالقرآن مثلا يقول "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".

ولكنه لم يقل كيف يختلف النهار والليل، وكيف تجري الفلك في البحر، وكيف ينزل الماء من السماء، وكيف تحيا به الأرض، وكيف تصرّف الرياح ويسخر السحاب بين السماء والأرض.. وترك للمشاهدة والتجربة أن يتحققا من سر هذه الآيات، ويعرفا –بقدر ما ييسر الله لهما– حقيقة النواميس التي تعمل بها القدرة الإلهية في الكون.

وكذلك وجّه الإنسان إلى استجلاء أسرار النفس، وذكر صفاتها وحالاتها، ولكنه ترك للمشاهدة والتجربة أن يتحققا مما وراء ذلك من النظريات والتفصيلات.

لذلك كان المشاهدة والتجربة عماداً لي في هذا البحث، أتفهم عن طريقهما إشارات القرآن.

* * *

ولست من أنصار وضع النفس الإنسانية في "المعمل" لاستخلاص حقيقتها..

وقد أشرت في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" إلى رأيي في المدرسة التجريبية التي تستخلص معلوماتها عن طريق المعمل، وبينت أنها لا تحصل على أكثر من مزق متفرقة من النفس البشرية، لا تغني في الوصول إلى حقيقتها المتكاملة.

وعلم النفس التحليلي يدلي بدلوه في هذا المجال ولا شك.. ولكنها –وحده– لا يؤدي إلى الحقيقة الشاملة، لأنه بطبيعة منهجه الذي يفتت ويحلل، ويهبط من أعلى إلى أسفل، يفوته كثير من آفاق النفس العليا، ومن حركتها المتكاملة التي تتحرك بأجزائها جميعا وارتباطاتها جميعا..

وربما كان علم النفس التكاملي أقرب إلى الصواب في هذا الباب..

وفي دراستنا لنظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية لن نمتنع من الاستفادة بكل ما نراه صالحا ومؤديا للحقيقة من مناهج البحث.. ولكن مرجعنا الأول والأخير هو القرآن.

وبالإضافة إلى ذلك نأخذ من مجالات المشاهدة في نطاق الواسع، ولا نتقيد بالدراسات النفسية "الرسمية".. فليس علم النفس وحده هو الذي يتحدث عن النفس، وليس حديثه هو أصدق حديث. وإنما الفن والأدب، والاجتماع والتاريخ.. والحياة الواقعية بأكملها.. هي الحديث الصادق عن النفس، لأنها تتحدث عنها في بيئتها الطبيعية.. بيئة "الحياة".. ولا تنشئ لها بيئة مصطنعة كحيوانات المعمل الموضوعة تحت الاختبار..

* * *

وهدفنا من استخلاص نظرية شاملة عن النفس الإنسانية هو معرفة مكونات هذه النفس –بقدر ما تتيسر لنا المعرفة– لنعرف بعد ذلك كيف تكون في صحتها ومرضها، واستوائها وانحرافها.. ونفيد من هذه المعرفة في معالجة هذه النفس على أساس سليم.

وهذا هو الهدف الذي ينبغي أن يهدف إليه علم النفس في الحقيقة.

إن المعرفة هدف يُنشَد من أجل ذاته. و"الحقيقة ضالة المؤمن" كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكنها تؤدي دائما إلى غاية وراءها، فقد ركبت فطرة الإنسان بحيث يسعى دائما إلى الاستفادة مما يعرفه، فيزداد به نماء وقوة وارتقاء نحو الكمال.

وحين نعرف حقيقة النفس الإنسانية –بقدر ما نستطيع– فسوف يساعدنا ذلك على إنشاء نظم وأفكار وسلوك ومشاعر، تتفق مع هذه الحقيقة ولا تصادمها ولا تتعارض معها.. وعلى تربية أجيال من الناس بمقتضى الفطرة الصحيحة كما خلقها الله.

فليست النظرية الإسلامية عن النفس الإنسانية نظرية معلقة في سماء البحث العلمي، تسكن في البرج العاجي ولا تفيد في واقع الأرض. وإنما هي جزء من هذا الواقع، يؤدي مهمته –بطريقته الخاصة– في دولاب الحياة الكبير.

وإذا استطعنا –نحن المسلمين– أن نصل إلى شيء من حقيقة النفس الإنسانية، تقوّم به سبيل الانحرافات الغربية في نظرتها إلى النفس وما ترتب عليها من فساد اجتماعي واقتصادي وخلقي وروحي.. فإننا جديرون أن نؤدي خدمة ما إلى البشرية التي ينهكها اليوم ما تعانيه من اختلال.

* * *

والبحث "العلمي" هو رائدي فيما أكتب هنا، وما كتبت من قبل..

ولكني بينت في كتاب "الإنسان" أن البحث العلمي –بمعناه الصحيح– لم يتعارض قط ولا يمكن أن يتعارض مع المفاهيم الإسلامية في عالم الواقع أو عالم النظريات.

فليس رجوعي إلى "الدين" انحرافا عن البحث العلمي، ولا رجوعي إلى البحث العلمي انحرافا عن الدين. فهما في حسي طريقان متلازمان، يؤديان إلى الحقيقة بإذن الله.

وإذا وفقني الله إلى شيء من "الحق" في هذا الكتاب، فأنا شاكر لأنعمه، وهو المتفضل الوهاب. وإلا فبحسبي أن أكون فتحت الطريق للبحث.. والله الموفق لما يريد.

محمد قطب

أولاً.. ما الإنسان؟

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً"

صدق الله العظيم

ما الإنسان؟

ما وظيفته؟

ما دوره في الحياة؟

ما طاقاته؟ وما حدود هذه الطاقات؟

تلك أسئلة ينبغي أن نعرف جوابها قبل أن نبدأ البحث في "النفس الإنسانية"! لتكون هدى لنا في هذا البحث، ولنكون على بينة –قبل أن نبدأ التحليل والتركيب– أننا لا نشطح بعيداً عن الحدود التي يحددها وجود هذا "الإنسان" وطبيعته.

وقد تحاشت الدراسات النفسية الغربية هذه الأسئلة وأمثالها، بدعوى أنها من مباحث الفلسفة التي لا ينبغي أن يخوض فيها علم النفس. وأن علم النفس معني ببحث "الواقع" النفسي الذي يجده أمامه، غير ناظر إلى أي هدف آخر خارج عن نطاق هذا البحث.

ولكن ذلك أدى إلى عيبين كبيرين في تلك الدراسات:

الأول: أنه جعل هذه الدراسات على غير وعي "بالإنسان" المتكامل. الإنسان "الواقعي" الذي يعيش بحقيقته المتكاملة في دنيا الواقع. فانحرف معظمها إلى دراسة أجزاء متفرقة من الإنسان على أنها هي "الإنسان".. وأدت تلك الصور الجزئية إلى إعطاء صورة خاطئة ومشوهة عن الإنسان. كما ترتب عليها كذلك انتشار كثير من المفاهيم الخاطئة في الاقتصاد والاجتماع والآداب والفنون.. والتعامل الفردي والجماعي.. الخ.

الثاني: أنه جعل هذه الدراسات لا تميز كثيراً بين الحالات السوية والحالات المنحرفة، لأنها فقدت المقياس الذي ترجع إليه لمعرفة الاستواء والانحراف. وعاملت كل شيء على أنه هو "الواقع" النفسي الذي تستخلص منه النظريات والتطبيقات. ومن ثم صار الواقع المنحرف الذي يعيشه الناس في الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين هو المقياس الذي

تقاس به النفس الإنسانية، وتصاغ النظريات على أساسه، وهو الصورة الطبيعية السوية (normal) التي يتعامل معها "العلماء"!

هذان الخطآن المنهجيان يظللان معظم الأبحاث النفسية في الغرب، ويجعلان كثيراً من الحقائق الجزئية التي يتوصل إليها العلماء لا تصل إلى دلالتها الحقيقية التي كان يمكن أن تؤخذ منها لو ارتكزت هذه الأبحاث على القاعدة السليمة للبحث، وهي "الإنسان".

يقول ألكسيس كاريل في كتابه "الإنسان.. ذلك المجهول"، وهو عالم مثقف أتيحت له —كما يقول في مقدمة هذا الكتاب– فرص نادة للبحث والاطلاع في شتى فنون المعرفة، من طب وطبيعة وكيمياء، وعلم وظائف الأعضاء وعلم الحياة، والآداب والفنون[1]:

"هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة.. وعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة باللغة الحسابية. وقد أنشأت هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة. إنها تنسج حول هذا العالم نسيجاً رائعاً من الإحصاءات والنظريات. إنها تبحث عن الحقيقة فيما وراء مملكة تمتد من الفكر الشائع إلى المعنويات غير المنطوقة التي تتكون من المعادلات الجبرية والرموز فقط.. بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف، حتى ليبدو كأن الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم في غاب متشابك الأشجار. أو أنهم في قلب دغل سحري، لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها. فهم يرزحون تحت عبء أكداس من الحقائق التي يستطيعون أن يصفوها، ولكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها في معادلات جبرية. فمن الأشياء التي تراها العين في عالم الماديات، سواء أكانت ذرات أم نجوما، صخورا أم سحبا، صلبا أم ماء.. أمكن استخلاص خواص معينة كالثقل والأبعاد والاتساعية.. وهذه المستخلصات —وليست الحقائق العلمية– هي مادة التفكير العلمي.. وملاحظة الأشياء تمدنا فقط بأقل صور العلم شأنا، ونعني بها الصورة الوصفية. فالعلم الوصفي يرتب الظواهر، بيد أن العلاقات التي لا تتغير بين الكميات غير القابلة للتغير —أي القوانين الطبيعية– تظهر فقد عندما يصبح العلم أكثر معنوية. وما ذلك النجاح العظيم الشريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء إلا لأنهما علمان معنويان كميان... وبتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء موجود على ظهر البسيطة.. فيما عدا أنفسنا.

".... ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة —والإنسان بصفة خاصة– لم يصب مثل هذا التقدم.. إنه لا يزال في المرحلة الوصفية.. فالإنسان كل لا يتجزأ، وفي غاية التعقيد،

([1]) تعريب شقيق أسعد فريد. منشورات مكتبة المعارف ببيروت.

ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه، أو في أجزائه، في وقت واحد. كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي.

"ولكي نحلل أنفسنا بإننا نضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة، وإلى استخدام علوم عديدة، ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم إلى رأي مختلف، في غايتها المشتركة، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط. وبعد أن تضاف المستخلصات بعضها إلى بعض، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة.. إنها تخفي وراءها بقية عظيمة الأهمية بحيث لا يمكن إهمالها..

..........."

"وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه.. ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.. إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة..

"وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة.

"... فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب".

ثم يعود فيشرح أثر هذا الجهل المطبق بحقيقة الإنسان على الحياة البشرية الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والفكرية.. الخ فيقول:

"إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا. لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم.. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.

..."

"وهؤلاء النظريون يبنون حضارات بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهوشة للإنسان.

"يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب في العالم الذي ابتدعه. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية.. إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً.. الخ.. الخ.."

ونكتفي هنا بهذا القدر من المقتطفات من كتاب ألكسيس كاريل، وإن كان الكتاب كله ذا دلالة عميقة فيما نحن بصدده في هذا البحث، ذلك أن هدفنا هنا أن نبين مدى الخطأ والخطورة في أخذ مزق متفرقة من الإنسان على أنها هي "الإنسان". كما نبين ضرورة أخذ الإنسان ككل، وجعله —في صورته المتكاملة– مقياساً لكل شيء يتعلق بالإنسان.

وحين ننظر في اتجاهات علم النفس الغربي ندرك على الفور كيف أدى هذه النظرة الجزئية إلى كثير من الاختلالات في تصور "الإنسان"، وكيف ضيّعت فرصة الاستفادة من الحقائق الجزئية التي توصل إليها العلماء..

فحين أدلى فرويد بنظريته في "العقل الباطن" وعالم "اللاشعور" كان ذلك كشفاً له قيمته ولا شك في محاولة تفهم النفس الإنسان والاهتداء إلى بعض أغوارها التي يكتنفها الظلام.. ولكن النظرة الجزئية —التي تصر في ذات الوقت على اعتبار أن الجزء الذي تهتدي إليه هو "الإنسان"– هذه النظرية الجزئية أدت بفرويد إلى تصوير خاطئ خطر للنفس الإنسانية؛ إذ صورها على أساس أن اللاشعور —أو العقل الباطن– هو "الإنسان الحقيقي".. وأن العقل الواعي هو إنسان مزوّر لا يمت بسبب إلى الحقيقة! إنسان مفروض على "الإنسان الحقيقي" من خارج نفسه وخارج كيانه! إنسان تتمثل فيه الموانع والكوابت التي يفرضها المجتمع أو القوى الخارجية —من دين وأخلاق وتقاليد وقوة وسلطان.. الخ– على الكيان الحقيقي للإنسان!

وكانت هذه هي البذور الخاطئة التي نبتت منها اختلالات شتى في فهم النفس الإنسانية والحياة البشرية!

فقد أغفل فرويد جملة من الحقائق النفسية "العلمية" كان قمينا أن يدركها ويعمل حسابها لولا هذا الإصرار المعيب على النظرة الجزئية للإنسان:

أغفل أولا- أن العقل الواعي جزء من بنية النفس الإنسانية كالعقل الباطن سواء. موجود في داخل كيانها وليس مفروضاً عليها من الخارج. فلا الدين والأخلاق والتقاليد، ولا المجتمع بما يملك من قوة وسلطان، ولا غيره من العوامل المادية أو المعنوية تملك أن "تنشئ" في النفس شيئا لم يكن في بنيتها من قبل[1]! وغاية ما قد تملكه هذه العوامل والقوى أن "تشكل" هذا الشيء الموجود بالفعل، ولكنها لا تنشئه إنشاء ما لم يكن موجوداً في الفطرة من قبل.

وأغفل ثانياً أن المجتمع والميل إليه والخضوع له كلها حقائق نابعة من داخل النفس وليس مفروضة عليها من خارجها! فالرغبة في الاجتماع بالآخرين هي التي تنشئ المجتمع، وهي التي تجعل الإنسان يضحي -أحياناً- ببعض رغباته وملذاته الفردية في سبيل الوجود في مجتمع. وهي رغبة فطرية موجودة في داخل النفس، ولا تملك قوة في الأرض أن تنشئها إنشاء -بمجرد الضغط- لو لم تكن موجودة بالفعل. ومن ثم فإنه على فرض أن العقل الواعي يتكون من ضغط المجتمع الخارجي -وهو أمر غير مسلّم!- فإنه ينبع في النهاية من جزء فطري في داخل النفس، هو الرغبة في الاجتماع بالآخرين!

وأغفل ثالثاً أن الموانع -أو حتى الكوابت كما يسميها!- التي تنشئ القيم العليا، ليست جزءاً خارجاً عن كيان الإنسان مفروضة عليه من الخارج بالضغط والقهر. فلولا وجود الاستعداد الفطري في النفس لتقبل هذه الموانع من جهة، وإنشاء القيم العليا على أساسها من جهة أخرى، لما أدى الضغط الخارجي إلى إنشائها البتة، مهما اشتد وطغى، لأنه ليس من طبيعة الضغط ولا في طاقته أن ينشئ شيئاً لا وجود له من قبل!

ومن هنا أعطى فرويد صورة مزورة للنفس الإنسانية، خلاصتها أن "الكيان الحقيقي للإنسان" هو الطاقة البهيمية البحتة، وأن كل تعديل لهذه الطاقة أو تشكيل أو تهذيب، ليس داخلا في هذا الكيان "الحقيقي!" وإنما هو مفروض عليه من الخارج من لدن قوى عدوانية لا همّ لها إلا تحطيم "الكيان الحقيقي للإنسان"!

ومرة أخرى حين كشف فرويد عمق الدافع الجنسي في الكيان البشري، وتشعب أطرافه وامتدادها، كان هذا كشفاً حيوياً ولا شك، قمينا أن يزيدنا علماً بأغوار النفس البشرية، لولا

(1) أقر فرويد -دون شك- بأن النفس الواعية أي الذات، والذات العليا، super ego&ego موجودتان في النفس كجزء منها. ولكنه أصر على أنهما ينشآن من ضغط العوامل الخارجية! ولم يعترف بشيء موجود في النفس وجودا فطريا إلا الذات السفلى id التي هي القوة المحركة للإنسان -وهي غير واعية! راجع كتابه: (The Ego & the Id).

إصراره على النظرة الجزئية التي تصر على "تفسير "الكل الإنساني" بالجزء الذي تسلط عليه الأنوار.

فلم يكتف بما فعله في المرحلة السابقة من تفسير الإنسان على أساس حيواني بحت، وإقصاء كل عنصر "إنساني" في كيانه، بحجة أنه مفروض عليه من خارج نفسه، وليس أصيلا في كيانه الحقيقي! بل زاد على ذلك أن أعطى هذا الكيان الحيواني لوناً جنسياً صارخا، فلم يتركه حتى كالحيوان الحقيقي يأكل بلذة الأكل، ويشرب بلذة الشرب، ويجري بلذة الجري، ويصارع بدافع الصراع.. ثم يؤدي نشاطه الجنسي بلذة الجنس.. وإنما جعله يأكل ويشرب ويتحرك ويصارع، كل ذلك بلذة الجنس.. بالإضافة إلى النشاط الجنسي المتعارف على أنه نشاط جنسي!! فصار الطفل يرضع بلذة جنسية، ويتبول ويتبرز بلذة جنسية، ويحس نحو أمه بدافع جنسي.. إلى آخر هذا الخلط الدنس الذي لا يقوم عليه دليل.

ومن ثم ضاع الكشفان الأول والثاني في غمار هذه اللوثة المنحرفة النابعة من النظرة الجزئية الخاطئة، وقد كانا جديرين –في ظل النظرة المتكاملة للإنسان– أن يؤتيا ثمارا أطيب وأصدق مما وصل إليه فرويد بنظرته الجزئية المبتسرة التي تصر على تلويث "الكيان الحقيقي للإنسان"!

وحين راح تلميذاه أدار وبونج يحاولان تخفيف انحراف أستاذهما وشرهه الجنسي، بوضع "قاعدة" أخرى للحياة الإنسانية غير قاعدة الجنس، فقال أدار إن الدافع الجيوي للفرد هو شعوره بالتفوق في ناحية معينة إزاء الجماعة، وقال بونج إن هذا الدافع هو الشعور بالنقص ومحاولة التعويض.. كان كلاهما يضع إصبعه على حقيقة جزئية في النفس الإنسانية، قمينة بأن تفيد في إلقاء بعض الضوء على أغوارها البعيدة، ولكن كلتا الحقيقتين ضاعت ولم تؤت أكلها، لأنهما أصرا على تفسير "النفس" كلها بهذه الجزئية الصغيرة التي لا تفسر وحدها شيئاً في حقيقة الأمر!

وحين راحت المدرسة التجريبية تضع النفس الإنسانية في المعمل.. كانت تصل ولا شك إلى بعض الحقائق الجزئية النافعة. ولكنها أفسدت هذه الحقائق وأذهبت قيمتها بالإصرار على تفسير النفس كلها بهذه الجزئيات، في حين أنها ليست فقط عاجزة عن تفسير الكل الإنساني المعقد لأنها جزئيات، بل هي كذلك أبعد الجزئيات جميعاً عن تفسير النفس الإنسانية، بسبب أن الطريقة التجريبية ذاتها لا تستطيع أن تأخذ من النفس إلا جانبها "الجسدي" الذي تستطيع أن تقيسه بالمقاييس المادية وتدركه بالحواس، وتقف عاجزة عجزاً تاماً عن الوصول إلى أي شيء في النفس لا يقع في دائرة الآلات والحواس! ومن ثم تقف عاجزة في الحقيقة عن كل الكيان الأعلى في نفس الإنسان! فقد تستطيع أن تقيس "التعب"

أو "النشاط" الجثماني وتأثير الغدد في مشاعر الإنسان وحالته النفسية، ولكن كيف تقيس إحساس الإنسان بالحق والعدل والجمال، وكيف تقيس إبداعه الفكري ونشاطه الروحي الطليق[1]؟!

وحين راحت المدرسة السلوكية تفسر الإنسان على أنه مجموعة من العادات، وردود الفعل الشرطية المنعكسة conditioned reflexes التي تنميها البيئة (أو لا تنميها)، والتي لا يختلف بعضها عن بعض إلا باختلاف المؤثر.. لم تكن في الحقيقة تفسر "الإنسان" بقدر ما كانت تفسر "الحيوان"، ثم تحيل الإنسان على ما تتصوره من سلوك الحيوان، فترد السلوك كله إلى أسباب "فسيولوجية" (أي جسدية)، وترد "التعلم" إلى الأفعال وردود الأفعال ذات الطابع الحسي البحت.. وتضيق "مساحة" الإنسان بذلك إلى درجة مزرية، فلا فكر ولا إرادة ولا مثل ولا قيم عليا ولا مشاعر رفيعة.. وإنما هي الحيوانية الحسية وفي أضيق نطاق!

وحين راحت المدرسة الميكانيكية تشبّه الحياة كلها –بما فيها الحياة الإنسانية– بالجهاز الآلي، المحكوم بضرورات الآلة، والذي تفسر نشاطه كله قوانين الطبيعة والكيمياء.. لم تكن تكتفي بتجريد الإنسان من إنسانيته، ولا تكتفي حتى برده إلى صورة حيوانية محدود النطاق.. إنما كانت تهبط به إلى درك أسفل.. هو أن يصبح مجرد آلة تحكمه ضرورات الآلة.. وتنتفي عنه بطبيعة الحال كل إرادة موجّهة –إنسانية أو حتى حيوانية!– وتنتفي عنه، بصورة أبشع، كل رفرفة طليقة وكل شعور نبيل! كما تصبح كل تنظيماته الفكرية والروحية والمادية والاقتصادية والاجتماعية، أدنى حتى من تنظيمات الغريزة في خلية النحل أو بيت النمل، فقد صارت أجزاء من الآلة الكبرى.. الصماء الخرساء.. المحكومة بالضرورات!

وهكذا جرت معظم مدارس علم النفس الغربية في هذا الخلط المعيب بسبب نظرتها الجزئية وإصرارها على أن تفسر الكل الإنساني بالجزء الذي تهتدي إليه، فلا يقف خطؤها عند إعطاء صورة مشوهة مزورة للإنسان، بل تضيّع كذلك فرصة الاستفادة من الحقائق الجزئية في مكانها الصحيح. ويزيد الخطأ حين تُنشأ على أساس هذه النظرة الجزئية نظريات في الاقتصاد والاجتماع، والأخلاق والسلوك، والجريمة والعقاب.. وينتهي الأمر –كما قال ألكسيس كاريل– إلى تدمير الإنسان بسبب جهلنا المطبق بحقيقة الإنسان!

* * *

([1]) في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" فصل عن التجريبيين أكثر تفصيلا لمن أراد.

على أن هناك خطأ ثالثا تقع فيه كل المدارس الغربي. –بلا استثناء– هو دراسة النفس الإنسانية والحياة الإنسانية بمعزل عن الله!

وهذا الخطأ له في حياة الغربيين قصة.. طويلة تبلغ قرونا من الزمان!

فالحياة "الهيلينية" [اليونانية القديمة] التي يقدسها الغرب، ويستمد منها مفاهيمه منذ عصر النهضة، كانت حياة وثنية ذات طابع خاص، يصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة خصام دائم وصراع لا يفتر.. صراع وحشي في بعض الأحيان. وأسطورة بروميثيوس الشهيرة تصور لونا ذا دلالة معينة من ذلك الصراع:

"فبروميثيوس كائن أسطوري كان الإله زيوس يستخدمه في خلق الناس من الماء والطين. وقد أحس بالعطف نحو البشر، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم. فعاقبه زيوس على ذلك بأن قيده بالسلاسل في جبال القوقاز حيث وكّل به نسر يرعى كبده طول النهار وتتجدد الكبد في أثناء الليل، ليتجدد عذابه في النهار. ولكي ينتقم زيوس من وجود النار المقدسة بين أيدي البشر أرسل إليهم "باندورا" –أول كائن أنثى على وجه الأرض– ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشرور ليدمر الجنس البشري!! فلما تزوجها إبيميثيوس –أخو بروميثيوس– وتقبل منها هدية "الإله!" فتح الصندوق فانتشرت الشرور وملأت وجه الأرض!!

"تلك طبيعة العلاقة بين البشر والله! النار المقدسة، نار "المعرفة" قد استولى عليها البشر سرقة واغتصابا من الآلهة، ليعروا أسرار الكون والحياة، ويصبحوا آلهة! والآلهة تنتقم منهم في وحشية وعنف، لتنفرد وحدها بالقوة، وتنرد دونهم بالسلطان!..."[1].

ولقد دخلت أوربا في المسيحية في القرون الوسطى، فاختفت "الهيلينية"أو "الهيلنستية"[2] مؤقتا تحت قشرة رقيقة من المسيحية، ما لبثت أن انزاحت في عصر النهضة، فعادت أوربا إلى وثنيتها القديمة كاملة، بنفس الروح التي تشعر بالصراع مع الله (الآلهة) أكثر مما نحس نحوه بالمودة والتطلع والرجاء..

وزاد الأمر سوءا أن الكنيسة كانت –قبل انصراف الناس عنها في عصرها الأخير– قد تحولت إلى غول بشع يهدد الناس في أمنهم وراحتهم وكيانهم الإنساني ذاته.. يفرض عليهم

([1]) من كتاب "منهج الفن الإسلامي" ص31-32.

([2]) اليونانية المتأخرة.

العشور المرهقة كما يفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين.. وأخيرا –وتلك كانت الطامة– يفرض عليهم معلومات "علمية" مزيفة، باسم أنها كلمة السماء! فلما أثبت العلم النظري والتجريبي فسادها راحت الكنيسة تحرّق العلماء وتعذبهم بتهمة المروق من الدين!

هذه العوامل مجتمعة أوجدت في الفكر الغربي –وفي اللاوعي كذلك– نفورا من الدين ونفورا من الله –سبحانه– ورغبة محمومة في البعد عن ذكر الله في كل مجال يتعلق بشئون "الإنسان"!!

ومن ثم لا تدرس النفس الإنسانية قط موصولة بالله خالقها ومحركها، ومودع ما فيها من طاقات!

ويدرس "العلماء" النفس الإنسانية في مجالات التأثر المختلفة.. وليس من بينها جميعها تأثير الإرادة الإلهية في حياة الإنسان!

فمرة يدرس الإنسان تحت التأثير الجغرافي والمناخي والبيئي والمادي..

ومرة يدرس تحت التأثير الاقتصادي..

ومرة يدرس تحت التأثير الاجتماعي..

ولكنه لا يدرس مرة واحدة متأثرا بقدر الله الذي يقرر مصير كل شيء بما في ذلك مصير الإنسان! الإنسان في مجموعه، وكل كائن فرد من بني الإنسان.

وينشأ من ذلك خطأ فاحش، بل جملة أخطاء..

فهذه المذاهب والنظريات كلها تغفل من حسابها توجه النفس البشرية توجها فطريا إلى خالقها، واستمدادها منه مكوّنات حياتها كلها، وقوانين حركتها، ومجالات تحركها، وطاقاتها، ومدى هذه الطاقات.. كما تهمل تأثير الديانات السماوية في رسم خطوط جوهرية وحاسمة في تاريخ البشر كله. وفوق ذلك تهمل حقيقة "كونية" هي تأثر الإنسان بقدر الله "المباشر" الذي يسيّر أحداث حياته ويشكلها، كما تغفل أن التأثير الجغرافي والمادي والاقتصادي والاجتماعي.. إلخ، هي كلها إطار لقدر الله، وليست شيئا مستقلا عن إرادة الله!

وهذا الإغفال المتعمد –الذي شرحنا في إيجاز أسبابه التاريخية– يحدث تشويها وتشويشا في الصورة المرسومة "للإنسان". فتارة يرسم كأنه يقوم في هذا الكون وحده، وكأنه

هو الإله في هذا الكون! [وليس هذا حقيقة علمية، فهو إنما يقوم بالاستمداد من خالقه في كل شأن من شئونه، وفي الحدود التي رسمها له خالقه! وتارة يرسم عبدا لتلك الآلهة المزعومة: آلهة الاقتصاد والاجتماع والمادة [وفي ذلك إصغار لقيمته الحقيقية] وتارة يرسم كأنما المحرك له هو الأفعال المنعكسة. أو الجنس. أو الكيماويات. أو الميكانيكية الجسمية.. وحدها.. [وفي ذلك تشويه لحقيقة الكيان الداخلي للإنسان]، وفي جميع الحالات تنعكس تلك المفاهيم المنحرفة على الصورة المرسومة، ولا يكون الإنسان الذي ترسمه هو حقيقة "الإنسان"!

* * *

ولقد ظنت تلك المدارس الغربية أنها تستطيع أن تتجنب مجموعة الأسئلة التي صدّرنا بها هذا الفصل -أو أمثالها: ما الإنسان؟ ما وظيفته؟ ما دوره في الحياة؟ ما طاقاته؟ ما حدود هذه الطاقات؟

أو ظنت أنها ينبغي أن تتجنب هذه الأسئلة تجنبا، لكي لا "تتقيد" بشيء يقيد الوصول إلى النتيجة!

فكانت النتيجة الأخيرة -كما قال كاريل- هي الجهل المطبق بحقيقة الإنسان، وإنشاء نظم وحضارات ونظريات "علمية" من شأنها تدمير الإنسان!!

* * *

إن الدراسة الشاملة "للإنسان" لهي ضرورة أولية تسبق كل بحث تفصيلي في "النفس الإنسانية".. ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة الشاملة لن تعوق الدراسة التفصيلية ولن تفسد حريتها في الاستقصاء والبحث؛ بل إنها في الواقع ستنير لها الطريق، كما تنير الدراسة الشاملة لجسم الإنسان -مثلا- طريق البحث لمن يريد أن يتعمق في دراسة القلب أو غيره من الأعضاء.

وسنجد -في أثناء الدراسة التي يقوم بها هذا الكتاب- أن المعرفة الأولية بالإنسان، ووظيفته، ودوره في الحياة، وحدود طاقاته، ليست من صميم الدراسة النفسية فحسب، بل إنها كذلك هي الضمان الوحيد لعدم الوقوع في العيوب المنهجية التي وقعت فيها أبحاث الغرب. ففيها الوقاية من تجزئة الإنسان إلى مزق متفرقة تخالف الواقع المتكامل للإنسان الحقيقي الذي يعيش في الأرض. وفيها الضمان أن تؤدي الجزئيات دلالتها الحقيقية الصادقة حين توضع في مكانها الصحيح من الكيان المتكامل، فيبدو تناسق الجزئيات كما هو في

حقيقته، وينتفي ما قد يبدو فيها من تعارض –في الوقت الحاضر– حين تدرس كل جزئية على حدتها، دون مراعاة للروابط التي يرتبط بها الكيان الموحد الأجزاء، وفيها الضمان للتمييز بين السوي والمنحرف من أنماط النفوس. كما أن فيها الضمان كذلك لتصور الصورة الحقيقية لمكان الإنسان في الكون ومكانته في الحياة.

* * *

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[1].

هذه قصة "الإنسان" كما وردت في القرآن..

وفي غير هذا المجال[2] تحدثنا عن الإيحاءات الفنية والتربوية لهذه القصة التي يرويها خالق الإنسان العليم وحده بما خلق: "مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ"[3] القادر وحده على أن يحدثنا بأمر الغيب الذي لم يشهده أحد من بني الإنسان.

ولكننا هنا في مجال الدراسة النفسية نجتزئ منها بدلالاتها في شأن الأسئلة التي قدمنا بها لهذا الفصل: ما الإنسان؟ ما وظيفته؟ ما دوره في الحياة؟ ما طاقاته وما حدود هذه الطاقات؟

([1]) سورة البقرة [30-39].

([2]) في كتاب "منهج التربية الإسلامية" وكتاب "منهج الفن الإسلامي".

([3]) سورة الكهف [50].

وفي هذه الآيات –على إيجازها– الإجابة الكاملة عن هذه الأسئلة التي ينبغي أن نحدد جوانبها قبل الدخول في تفصيلات "النفس الإنسانية" ومكوناتها المختلفة.

ما الإنسان؟ إنه خليفة الله في الأرض: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً".

وكلمة الخلافة كلمة ضخمة ذات إيحاءات.

فأول إيحاءاتها أن هذا الكائن الإنساني كائن عظيم القدر ذو أهمية بارزة في الحياة.

فهو خليفة.. الله!

خليفة الخالق المبدع المسيطر على كل قوى الكون.

ولا بد للخليفة أن يكون مزوداً بأدوات الخلافة. وإلا فلا معنى لخلافته ولا قيمة.

ولا بد كذلك أن يكون فيه قبس ممن منحه الخلافة. وإلا فما هو مستحق أن يكون له خليفة.

ولا بد أن يكون دوره في الحياة أكبر وأخطر من دور غيره من الكائنات. وإلا فلا معنى لإفراده وحده بالخلافة دون بقية الكائنات.

ورغم أننا هنا نلتزم الدراسة النفسية البحتة، إلا أننا لا نملك الإفلات من التأثير "الفني" للنص القرآني. فهذه الإيحاءات كلها الكامنة في كلمة الخلافة يبرزها النص إبرازاً ليعطيها مدلولها الكامل الصريح.

فهذا المخلوق تحتفل به السماوات والأرض. ويتولى الله سبحانه بنفسه إعلان مقدمه على الملأ الأعلى، والملائكة يفزعون للنبأ ويهتزون. ويراجعون ربهم، ويطلبون مزيداً من المعرفة عن حكمة خلق الإنسان واستخلافه، وهم الذين لا يراجعونه في أمر قط: "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"[1] ثم يسجد الملائكة لمعجزة خلق الإنسان، زيادة في إبراز أهميته، وتوكيداً لتفرد هذه المعجزة بين المعجزات.

كل ذلك يعطي إيحاء بتفرد الإنسان.

(1) سورة التحريم [6].

ثم تبين الآيات –هنا وفي أماكن أخرى من القرآن– أن دور هذا الإنسان في الأرض هو عمارتها. فالخلافة عن الله فيها معناها الإنشاء والابتكار والتعمير والتبديل والتغيير. وكلها من عمل الله، الذي أعطى قبسة منه للخليفة الذي استخلفه فيها، وزوده كذلك بالإمكانيات.

والإمكانية الكبرى هي المعرفة.. هي العلم.. " وَعَلَّمَ آدَمَ ..."

وهي إحدى المزايا التي يتفرد بها الإنسان. يتفرد بها حتى على الملائكة. فهو يقوم بدور في المعرفة والعلم يعجز عنه الملائكة، ويكون بمثابة "شهادة الاستحقاق" التي يمنحها الله للإنسان. فيقرّ بها الملائكة ويسجدون لله المبدع القدير.

ولكن الطاقات الضخمة الممنوحة للإنسان.. ومن أبرزها طاقة المعرفة التي يسخر الله له بها السماوات والأرض: "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ"[1].. لا تمنعه من نقطة ضعف أصيلة في كيانه هي حبه للشهوات: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"[2]. إن "الشجرة" التي نُهي عنها أصبحت شهوة بالنسبة إليه. ولا يعنينا هنا –بصدد الدراسة النفسية– أن ندخل في أي تفصيل عن هذه الشجرة: ما هي؟ وما المقصود بها؟ وأين مكانها.. الخ. إنما يعنينا فقط أنها كانت تجربة لإرادته الضابطة –وهي من بين الطاقات الممنوحة له– هل تستطيع أن تمتنع على "الشهوة" أم لا تستطيع. وفي هذه التجربة تبدو نقطة الضعف في كيان هذا الإنسان المتفرد! فهو لا يصمد في كل حالة، ولا تقوى إرادته الضابطة على المقاومة: "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً"[3].

ولكنه ليس ضعفاً أبديا. ولا هي زلة لا قيام منها.

فهو يملك دائماً أن يفيق من زلته. بأن يرفع وجهه إلى خالقه: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ".

وتلك قيمة رئيسية من قيم حياته. فهو عرضة للضعف أمام الشهوات.

---

(1) سورة الجاثية [13].

(2) سورة آل عمران [14].

(3) سورة طه [115].

ولكنه كذلك مزود بالقدرة على الإفاقة من هذا الضعف بالتوجه إلى الله. وفي صميم فطرته أن يفعل هذه وتلك: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"[1].

ثم هو مزود بالقدرة على الصراع: "قُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ".

وما دام هناك عداء، فهنا ولا شك صراع وقدرة على الصراع.

والعداء مع الشيطان. مع قوى الشر المتمثلة في شتى الصور والأشكال. ولكن الذي يعنينا هنا –مؤقتاً– ونحن نستعرض طاقات الإنسان، أن نثبت له هذه القدرة على الصراع. وأنها قيمة كذلك أساسية من قيم حياته، ضرورية له في أداء دوره على الأرض: "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ"[2].

ثم إن له في الأرض قسطاً من الاستقرار والمتاع: "وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ".

فالاستقرار المؤقت والمتاع قيمتان رئيسيتان في حياة الإنسان. مزود بهما كيانه، كما هو مزود من الجانب الآخر بالقدرة على الصراع.

وفي النهاية فإنه يقوم بدوره في الخلافة عن الله في الأرض مزوداً من الله الذي أخلفه، بدستور من الهدي الرباني: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ". وفي فطرته أن يستطيع التوجه إلى الله، والاستمداد من هداه. كما أن في فطرته أن يستطيع الابتعاد عن الله والكفر بآياته: "وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ".

* * *

تلك هي الخطوط العريضة "للإنسان".

فالآن نستطيع أن نأخذ فكرة عامة عن هذا المخلوق:

---

(1) سورة الشمس [7-10].

(2) سورة البقرة [251].

إنه مخلوق متفرد. فكل تفسير له يلحقه بغيره من الكائنات تفسير باطل من أساسه. سواء في ذلك من يفسره بالتفسير الحيواني أو التفسير الميكانيكي. أو يفسره بالتفسير الملائكي أو النوراني. أو غيرهما من التفاسير.

وهو مخلوق خطير الشأن في دورة الحياة. أولى آيات خطره أن الله بنفسه سبحانه هو الذي يعلن نبأ مولده. ومن آيات هذا الخطر أن تسجد لخلقه الملائكة. وأن يسخر الله له السماوات والأرض جميعا. وأن يجعل الله إرادته العليا سبحانه مقتضية عن طريق إرادة الإنسان ووجوده وأفعاله: "إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ[1]". "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ[2]". "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَت أَيْدِي النَّاسِ[3]".

وهو مخلوق مزود بطاقات. من أبرزها طاقة المعرفة. وطاقة الإرادة الضابطة. وطاقة القوة الفاعلة المتضمنة في معنى الخلافة ومقتضياتها. وطاقة الصراع. والقدرة على التوجه إلى الله وتلقي كلماته وتتبع هداه.. والقدرة كذلك على الاستقرار والمتاع.

وهو مخلوق مشتمل على نقطة ضعف. هي حب الشهوات. ونسيان العهد ونسيان الهدى والكفر بآيات الله.

وهو مخلوق ذو طبيعة مزدوجة. فيه القدرة على الارتفاع إلى أقصى المدى، والقدرة على الهبوط إلى الحضيض.

* * *

من هذه الفكرة العامة نستطيع أن نبدأ في دراسة الإنسان..

ولكنا قبل أن نبدأ بالدراسة يحسن أن نلم ببعض ما يقوله "العلم" في باب تفرد الإنسان، لأنه ذو دلالة واضحة فيما نحن بصدده من هذا البحث.

يقول جوليان هكسلي في كتابه "الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World" في فصل بعنوان "تفرد الإنسان":

([1]) سورة الرعد [11].

([2]) سورة البقرة [251].

([3]) سورة الروم [41].

"لقد تأرجح رأي الإنسان كالخطّار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات، بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه. تفصل بينه وبين الحيوانات حيناً هوة سحيقة جداً، وحيناً آخر هوة صغيرة جداً..

"وبظهور نظرية دارون بدأ الخطّار يتأرجح عكسياً، واعتبر الإنسان حيواناً مرة أخرى، ولكن على ضوء العلم لا على الإحساس الساذج. وفي بادئ الأمر لم تتبين تماماً نتائج هذا الرأي الجديد.. إلا أن الخطّار وصل شيئاً فشيئاً إلى أقصى مدى تأرجحه، وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض دارون. فالإنسان (أي في رأي دارون) حيوان كغيره. ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية، والمثل العليا الإنسانية، لا تستحق بالنسبة لباقي الكائنات تقديراً أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتيريا الباشلس، والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري. ولذلك فكل الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة. وليس فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية. ومن المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات. ولكن قد تحل محله النملة أو الفأر..

"ولم تصغر الهوة هنا بين الإنسان والحيوان نتيجة المبالغة في إعطاء الحيوان صفات إنسانية، وإنما نتيجة التقليل من الصفات الإنسانية في الإنسان.

ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد سببه في الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي.

"إن الخطار يتأرجح ثانية، وتتسع الهوة بين الإنسان والحيوان مرة أخرى. وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعاً تجنب اعتبار نفسه حيواناً ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً. وفي حالات كثيرة لا مثيل له. ولا يزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام.

"وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً، قدرته على التفكير التصويري، وإذا كانت تفضل استخدام عبارات موضوعية، فقل: استخدامه الكلام الواضح..

"ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة..

"ومن أهم نتائج تزايد التقاليد –أو إذا شئت– من أهم مظاهره الحقيقية ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات..

"وإن التقاليد والعُدد لهي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية. وهذه السيادة البيولوجية في الوقت الحاضر خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة.. ولم يتكاثر الإنسان فحسب، بل تطور، ومد نفوه، وزاد من تنوع سبله في الحياة.

"وهكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات، كما تقول الأديان. ومع ذلك هناك فروق، وفروق هامة بعض الشيء، بالنسبة لنظريتنا العامة. فمن وجهة النظر البيولوجية لم تخلق الحيوانات الأخرى لخدمة الإنسان، ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس، ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوجية في معظم أجزاء اليابس من الكرة الأرضية. ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة في تفاصيلها أو في كثير مما تضمنته. ولكن كان لها أساس جيولوجي متين[1].

"ولقد أدى الكلام والتقاليد والعُدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى، التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى. ومعظمها واضح معروف. ولذلك أرى عدم التعرض لها حتى أنتهي من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيراً، لأن الجنس البشري –كنوع– فريد في صفاته البيولوجية الخالصة. ولم تلق تلك الصفات من العناية ما تستحق، سواء من وجهة نظر علم الحيوان، أو من وجهة نظر علم الاجتماع.

"..... وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره.

"... وإن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر لهي التفكير المعنوي.

"... يجب ألا يعزب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما يظن عادة.

"... ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى –سيكلوجية– يتناساها رجال الفلسفة العقلية. والإنسان فريد أيضاً في بعضها. وقد أدت هذه المرونة مثلا إلى حقيقة أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا بد أن يتعرض للصراع النفسي.

([1]) جوليان هكسلي عالم ملحد، لا يقر بوجود الله! وهو يرى الحق أمامه ويكاد يسلم به، ولكن تأخذه العزة بالإثم فيحاول التكوص عما يفرضه الحق الواضح المبين. ولكن يكفي على أي حال أن يقر بأن وجهة النظر الدينية لها أساس جيولوجي متين! فما ينتظر من رجل ملحد أن يذهب إلى أبعد من هذا المدى في الاعتراف بحقائق الدين!

"...وفي الحقيقة أن منع النزاع بين طرق العمل المتعارضة لظاهرة عامة جداً، وذات منفعة بيولوجية، وهي ليست إلا خاصية العقل البشري الذي مكن الإنسان من التخلص من هذا النزاع.

"... وعندما نصل إلى المستوى الإنساني نجد تعقيدات جديدة، لأن من خصائص الإنسان كما رأينا التغلب على شد الغريزة...

"... وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان –والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية– تنشأ من خاصة أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

الأولى: قدرته على التفكير الخاص والعام.

الثانية: التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

الثالثة: وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (الجماعة الدينية) وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها.

"... ولكن لا يكفي هنا أن نحصي بعض أوجه النشاط. ففي الحقيقة إن معظم أوجه نشاط الإنسان وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية. ولذلم فهي مثلها فذة من الناحية البيولوجية.

"ثم إن التخاطب والألعاب المنظمة والتعليم والعمل بأجر وفلاحة البساتين والمسرح والضمير والواجب والخطيئة والذلة والرذيلة والندم، كلها نتائج ثانوية (لخصائص الأصلية) والصعوبة في الواقع هي إيجاد نشاط للإنسان لا يكون فريداً. بل إن الصفات الأساسية البيولوجية مثل الأكل والنوم والاختلاط الجنسي زينها الإنسان بكل المحسنات الفريدة.

"وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد.... وبذلك قد يكون الإنسان فريداً في أحواله أكثر مما نظن الآن"[1].

* * *

تلك كلمة "العلم" من فم رجل ملحد لا يؤمن بالله!

(1) ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر، مقتطفات متفرقة من ص1- ص36.

ويتضح فيها الإقرار العجيب بالحقائق التي يذكرها كتاب الله. فالعلم –يوما من بعد يوم– يكشف عن معان جديدة لتفرد الإنسان. وهي الحقيقة الكبرى التي قررها الدين عن الإنسان.

وقد أوردنا هذه المقتطفات الطويلة بعض الشيء لمعنى معين في منهج البحث نريد توضيحه.

إن "الحقيقة" هي كلمة الله.. والإقرار بها لا يمنع أن يأخذ البحث العلمي مجراه. بل إن البحث العلمي للكشف عن الحقيقة لهو الاستجابة لأمر الله للناس أن يفتشوا عن الآيات في كل شيء: " وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"[1]. "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ"[2].. وفي النهاية تلتقي حقيقة الدين الكلية بحقائق العلم التفصيلية ويستقيم بذلك منهج الحياة.

* * *

والآن وقد عرفنا فكرة عامة عن "الإنسان" نستطيع أن نمضي في البحث التفصيلي مطمئنين أننا لن نضل الطريق في غمار الجزئيات والتفصيلات.

إن هذه الفكرة العامة لن تقيد حرية الباحث في البحث. ولن تلزمه بسلوك خط معين. ولكنها ستذكره فقط في كل خطوة بالمنهج الأصيل فلا يضل عن الطريق.

فحين يتذكر مثلا أن الإنسان كائن متفرد، فلن يخطئ بتفسيره بيولوجيا أو سيكلوجيا بالتفسير الحيواني كما جنحت الداروينية القديمة[3] وجنح من ورائها فرويد، ولن تعمى عينه عن مظاهر التفرد الواضحة في تركيب الإنسان البيولوجي والنفسي ليعتسف تفسيرا معيناً على هواه.

وحين يتذكر سعة الأفق الإنساني وتعدد طاقاته وجوانبه فلن يخطئ بتفسيره بعامل واحد مفرد، كما فسره فرويد بالجنس، وأدار بالتفوق، وبونج بمركب النقص، والتجريبيون بالنشاط

([1]) سورة الذاريات [20-21].

([2]) سورة فصلت [53].

([3]) تمييزا لها من الداروينية الحديثة Neo Darwinism التي تبرز ما بين الحيوان والإنسان من خلاف، والتي من علمائها جوليان هكسلي الذي اقتطفنا منه المقتطفات في هذا الفصل.

الجثماني، والشيوعيون بحتمية المادة أو حتمية الاقتصاد... إلخ. فالإنسان أوسع من كل واحد من هذه العوامل المفردة، لأنه يشملها جميعاً، ويشملها متشابكة متداخلة بحيث يستحيل فك بعضها من بعض إلا في نظريات الخيال!

طبيعة مزدوجة

"إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ،

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"

"صدق الله العظيم"

أبرز ما في الكيان البشري أنه كيان مزدوج الطبيعة.

وهو بهذا الازدواج كائن متفرد في كل ما نعلم من مخلوقات هذا الكون، التي تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة.

فالحيوان من جانب والملك من جانب —وهما المخلوقان اللذان تجمعهما بالإنسان صلات– كلاهما ذو طبيعة واحدة ووجهة واحدة.

الحيوان —حتى أعلى درجاته التي تشابه الإنسان في تركيبه الجثماني– مخلوق ذو طبيعة واحدة، تتحدد بحدود الجسد والغرائز والتصرفات الغريزية. جسمه هو مصدر طاقته. وغرائزه هي الموجّه له. وتصرفاته الغريزية هي عالمه بأكمله.

يأكل ويشرب ويؤدي عملية الجنس بدافع جسدي بحت، لا إدراك فيه لهدف، ولا تصرف فيه في وسيلة.

يأكل حين يدفعه الجوع. ويمسك حين تقرر له الغريزة حد الاكتفاء. وينشط نشاطه الجنسي في موسم معين محدد، لا يختار هو وقته، ولا يحدد هدفه ولا يدركه، ولا يختار فيه سلوكاً معيناً غير ما توجيه له غريزته. ثم يكف عن هذا النشاط جملة في موعد كذلك محدد. لا يختاره هو ولا يدرك سره، ولا يملك كذلك مخالفته.

وكذلك كل "تصرف" من تصرفاته. ليس تصرفاً ذاتياً نابعاً من إدراك أو إرادة. وإنما هو تلبية مباشرة لدفعة لا يملك الحيوان مقاومتها، ولا يفكر في مقاومتها كذلك. فهو بطبيعة تكوينه مستسلم لكل ما تمليه الغريزة عليه.

إنه مخلوق ذو طبيعة واحدة، تعمل في اتجاه الجسم.

والمَلَك –من وصفه الذي نعرفه به وإن كنا لا نراه– مخلوق ذو طبيعة واحدة كذلك وذو اتجاه واحد. مخلوق يعيش في نطاق روحه ويطيع توجيهاتها بلا إرادة ذاتية ولا تصرف ذاتي. فالملائكة مخلوقات مفطورة على الطاعة المطلقة: "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"[1]. وهي وإن لم يكن لها غرائز جسمية لأنها غير ذات أجسام مادية، فإن لها"غرائز روحية" تعمل بوحيها في كل أمر دون تفكير أو تصرف أو اختيار.

أي أنها ذات طبيعة واحدة تعمل في اتجاه الروح.

والإنسان وحده –فيما نعلم من الكائنات– هو الكائن المزدوج الطبيعية القادر على أكثر من اتجاه.

وهذا الازدواج هو طابع كيانه كله. وهو متغلغل في كل أعماقه. فلا يوجد عمل ولا شعور ولا فكر ولا تصرف لا تبدو فيه هذه الظاهرة الفذة المتميزة. وسنستعرض في الفصول التالية كثيراً من مظاهر هذا الازدواج وأثرها في حياة الإنسان وتصرفاته. ولكنا نبدأ هنا بأول مظاهره وأوضحها، وهو حقيقة الجسم والروح، التي قد تكون هي الأصل الذي ينشأ عنه كل ما في طبيعته من ازدواج.

*   *   *

"إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"[2].

الإنسان قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.

قبضة من طين الأرض تتمثل في حقيقة الجسد: عضلاته ووشائجه وأعضائه وأحشائه.

والعلم يقول إن جسم الإنسان مكون من ذات العناصر التي يتكون منها طين الأرض: الأكسجين والإيدروجين والكربون والحديد والنحاس والكلسيوم والزرنيخ والصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم.. الخ.. الخ.

---

(1) سورة التحريم [6].

(2) سورة ص [71-72].

وتتمثل كذلك في مطالب الجسد وألوان نشاطه. فالعلم يقول إن الجوع والعطش أمران يرجعان إلى التركيب البيولوجي للجسم. وكذلك النشاط الجنسي وأنواع النشاط الجسمي الأخرى التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان من حيث الدافع، وإن لم يتماثلا في الصورة التي يتخذها النشاط، ولا الغاية التي يصل إليها.

و"الشهوات" كلها، أو الدوافع الفطرية، أو القوة الحيوية للإنسان، هي نشاط جثماني، أو نشاط قائم على قاعدة جسمية، بحيث تتعطل أو تزول لو أزيل العضو الذي يقوم بها أو الغدة التي تبعث نشاطها.

ونفخة من روح الله تتمثل في الجانب الروحي للإنسان. تتمثل في الوعي والإدراك والإرادة. تتمثل في كل "القيم" والمعنويات التي يمارسها الإنسان.

فالخير والبر والرحمة والتعاون والإخاء والمودة والحب والصدق والعدل والإيمان بالله والإيمان بالمثل العليا والعمل على تحقيقها في واقع الحياة.. كل ذلك نشاط روحي، أو نشاط قائم على قاعدة روحية. وهو –مثلها– أمر معنوي لا تدركه الحواس ولكن تدرك آثاره الظاهرة في الواقع المحسوس.

وهذان اللونان من النشاط البشري حقيقة واضحة مشهودة.

والحقيقة الجسدية لا تحتاج إلى توكيد. فهي ظاهرة أمامنا نراها ونلمسها، ولا نتعب في تحديد حدودها وقياس أبعادها وطاقاتها. وإن كانت العلوم التي تبحث فيها تقر بعجزها الكامل عن استكناه كنهها الحقيقي، وتكتفي بوصف مظاهرها ورسم أبعادها.

وإلا فأي سر يمنح الخلية الحياة بادئ ذي بدء، فتتحول من مادة ميتة إلى خلية حية؟

وأي سر يجعل تلك الحياة الممنوحة للخلية تتخذ نشاطاً معيناً منظما منسقاً مضبوطاً؟

وأي سر يجعل مجموعة من الخلايا الحية تتخصص لتكون الأنف، أو الفم، أو العين، أو القلب، أو المخ أو الذراع أو الساق.. إلخ. وهي كلها في الأصل متشابهة ومتماثلة؟

وأي سر يجعل تلك المجموعة التي كونت الأنف أو الفم أو العين.. تأخذ شكلا معينا ذا شبه معين قريب أو بعيد من الآباء والجدود؟

وأي سر يجعل العين -تلك المجموعة من الخلايا- ترى، والأنف يشم والأذن تسمع والجلد يحس والعقل يفكر؟

ومئات من الأسرار وألوف.. كلها مغلف بستار الغيب لا يصل "العلم" منها لغير المظاهر والسطوح!

أما الحقيقة الروحية فهي خفية. نعم. ولكن أي شيء في الإنسان ليس بالخفي؟ إنها مجهولة الكنه، ولكن.. أيزيد جهلنا بها عن جهلنا بسر الحياة في الخلية الحية، وسر النمو، وسر التخصص، وسر التشكل، وسر قيام الأعضاء بوظائفها المعقدة الشديدة التعقيد؟

نعم إنها غير ظاهرة، لا نستطيع تحديد حدودها ولا قياس أبعادها. ولكنا نرى آثارها وندركها. نراها متمثلة أحياناً في وقائع ملموسة وأحياناً في رغبات وأشواق. ومن ثم لا نستطيع أن نلغي من حسابنا وجود كيان معنوي للإنسان، نسميه "الروح" اصطلاحا، أو نسميه بأي اسم آخر. ولكنا نلتقي عند مفهوم معين واضح الحدود والسمات.

إن كان معنى من المعاني التي تعبر عن القيم العليا.. عن الحق والخير والجمال والحرية والإخاء والحب.. إلخ لهي دليل على هذا الكيان المعنوي للإنسان. وليس من الضروري أن يمارس الناس كلهم هذه المعاني في كل وقت. فيكفي أن يمارسها بعضهم في أية لحظة لتكون واقعاً بشرياً موجوداً في عالم الحقيقة. بل يكفي أن توجد في اللغة البشرية (واللغة ذاتها من المعنويات التي اختص بها الإنسان) لكي يثبت ذلك وجودها الواقعي. فحين توجد في اللغة البشرية كلمة "الحب" أو "العدل" أو "الجمال" فيستوي أن تكون هذه القيم وقائع محسوسة أو حلما يشتاق البشر إلى تحقيقه.. يستوي هذا وذاك في إثبات النشاط المعنوي للإنسان.. فالرغبة في هذه القيم هي ذاتها نشاط معنوي واقعي، سواء تحققت في عالم الحس أو لم تتحقق. كما أن الرغبة في الطعام مثلا دليل على وجود نشاط معين داخل الجسم، سواء أدت إلى تناول الطعام فعلا أم لم تؤد إليه.

غير أننا نقرر أن هذه المعاني لم توجد في قاموس البشرية إلا لأنها وجدت بالفعل -على درجة ما- في واقع البشرية. فلو لم يوجد شخص يتعاون مع شخص آخر في سبيل هدف مشترك لما وجدت كلمة "التعاون" ومشتقاتها في اللغة. ولو لم يوجد شخص صادق أو عادل أو رحيم.. ما وجد في القاموس البشري ما يدل على هذه الصفات. والأفراد يتفاوتون بطبيعة الحال في مدى وجود هذه الصفات في كيانهم، ولكن لا يوجد في الحالة السوية شخص لا رصيد له منها البتة بحيث يعجز عن فهم مدلولها اللغوي.

وإذا كان للطاقات الجسمية مقاييس محدودة تقاس بها، قوة وضعفا، فللروح كذلك —أو الطاقة المعنوية– مقاييس تقاس بها، ولكنها —مثلها– مقاييس معنوية. فهناك في أذهاننا صورة للعدل والرحمة والبر والتعاون.. إلخ. تكونت بصورة ما. وبمقتضى هذه الصورة نقيس أعمال الناس ونعطيها درجة من القوة أو الضعف.

والذي يهمنا على أي حال في هذا التمهيد أن نقرر وجود هذين اللونين من النشاط في كيان الإنسان، كمظهر من مظاهر الازدواج في طبيعته، وأن هذا الازدواج خصيصة تفرد بها الإنسان.

ولكن مجرد وجود هذا الازدواج لا يعطي صورة صحيحة عن الكيان البشري المتفرد بين جميع المخلوقات. فهناك مظهر آخر لهذا الكيان، تنبني عليه في الحقيقة كل حياة الإنسان.

إن هذا الكيان —مع ازدواجه– ليس مكوناً من عنصرين منفصلين، يعمل كل منهما وحده في اتجاه.

إنه ليس جسما وروحا منفصلين.

"فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي...".

إن هذه النفخة العلوية التي أعطت الإنسان روحه —وهي قبسة من روح الله– لم تظل عنصراً منفصلا عن الكيان المسوى من الطين، ولم تتحيز في حيز معين منه. وإنما سرت "فيه". فيه كله من أوله إلى آخره، وشملت كل كيانه، فأصبح كيانه جسمياً روحياً في ذات الوقت. لا ينفصل فيه عنصر عن عنصر، ولا يستقل فيه كيان عن كيان.

إنه لم يعد طيناً بحتاً.. ولا يمكن أن يعود كذلك.

ولا هو أيضاً روح بحت.. و يمكن أن يكون.

فالعنصران مختلطان ممتزجان مترابطان.. يتكون منهما كيان موحد مختلط الصفات، أو مزودج الصفات.

وتلك حقيقة كبرى في الكيان البشري، تنبني عليها كل أعمال الإنسان ومشاعره وتصرفاته في الحياة.

وقد انبنى عليها –بادئ ذي بدء– أن الإنسان –في حالته السوية– يؤدي نشاطه الجثماني على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان. ويؤدي نشاطه الروحاني على طريقة الإنسان كذلك لا على طريقة الملائكة.

أي أنه يؤدي كلا نشاطيه بكيانه المزدوج الموحد، لا بأي من عنصريه منفصلا عن الآخر ومستقلا عنه.

الإنسان يأكل.. وتلك عملية مشتركة بينه وبين الحيوان. عملية يقوم بها الجهاز الجثماني، وتحكمها تفاعلات الكيمياء وعناصر الطين.

ولكن الإنسان لا يأكل على الطريقة الحيوانية.

ولا ينحصر الفارق في تعدد أنواع الطعام التي يسيغها الإنسان وتنوعها، بينما الحيوان لا يسيغ إلا نوعا محدداً من الطعام، تحدده الغريزة لكل نوع معين على حدة، فلا يتجاوزه ولا يتعداه.. وإنما تختلف كذلك "طريقة" الطعام و"أهدافه".

أبرز وجوه الاختلاف أن الإنسان "يختار" سلوكه نحو الطعام.

صحيح أنه مدفوع إليه بدفعة الغريزة. دفعة المواد التي تتفاعل داخل الجسم. وأنه مضطر اضطراراً قاهراً أن يستجيب لهذا الدافع. ومع ذلك فهو "يملك" أشياء كثيرة في أثناء الاستجابة لهذا الدافع القهري. يملك أن ينظم مواعيد لتناول الطعام يختارها بمحض إرادته (فرداً أو جماعة). ويملك أن يمتنع باختياره عن الطعام فترة من الوقت تطول أو تقصر (كفترات الصيام أو الحمية. إلخ). ويملك أساليب شتى في تناول الطعام يختار من بينها ما يروق له: يتناوله –باختياره– التهاما شرها كالحيوان، أو تناولا مهذباً لطيفاً، أو تناولا متأنقا مبالغا فيه.. ويتناوله حراما أو حلالا. ويتناوله في عزلة أَثِرَة أو في صحبة مُؤْثِرَة. حسبما يتراءى له من "قيم" الحياة.

وإذن فهو يستجيب لنفس الدافع القهري الذي يدفع الحيوان لتناول الطعام. ولكنه –فيما بين الدافع والاستجابة– يعبر طريقا طويلاً مملوءاً "بالاختيارات".. نشأ من وجود الروح وامتزاجها بالطين وتلبسها به. "فالإرادة" و"الاختيار" صفتان من صفات الروح، تتمثلان في صورتهما المطلقة في ذات الله سبحانه، الذي نفخ في الإنسان من روحه. وتتمثلان في صورتهما المحدودة المقيدة في الإنسان، بمقدار ما تطيق قبضة الطين أن تقبس من روح الله.

ويستجيب الإنسان لدافع الجنس.. وهو نفس الدافع العنيف الملح الذي يستجيب له الحيوان.

ولكنه لا يستجيب له على طريقة الحيوان.

وليست المسألة هنا كذلك محصورة في اتساع موسم النشاط الجنسي عند الإنسان حتى يصل إلى العالم كله، بينما يقتصر على موسم محدد عند الحيوان.. وإنما تختلف كذلك الطريقة والأهداف.

فكما أن الإنسان يختار سلوكه نحو الطعام، فهو كذلك يختار سلوكه نحو الجنس، ويملك نطاقاً واسعاً للاختيار.

فالنفس الإنسانية –بادئ ذي بدء– تتسع لدرجات مختلفة من مشاعر الجنس لا تتسع لها نفس الحيوان التي لا تعرف إلا صورة واحدة من صور الإحساس الجنسي، متكررة عند كل فرد، ومتكررة في كل فرد.

يعرف الإنسان درجات تختلف بين الشدة واللطف، بين اللهفة والتمهل، بين الغلظ والرقة، بين العتامة والصفاء. أدناها شبيه بالحيوان، وأعلاها صاف رائق جميل. درجات تبدأ عند الطرف الحيواني من الإنساني، فتغلب عليها حركة الجسد الفائرة المتلمظة؛ وتنتهي عند الطرف الملائكي من الإنسان، فتغلب عليها رقة الروح ونورانية الشعاع:

"هناك الشهوة العارمة التي تتمثل في الجسد الهائج والجوارح الظامئة، والعيون التي تطل منها الرغبة الهائجة.

"وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة، التي تعد العدة في ترتيب وأناة، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال.

"وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التي تنبع من الجسد، ولكنها تمر في طريقها على القلب، فيصفيها من بعض ما بها من "العكار" ويعطيها قسطاً من "العاطفة" تمتزج بصيحة الجسد الملهوف.

"وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التي تنبع من القلب، ولكنها قد تمر في طريقها على الجسد، فيمنحها بعض لهيبه المحرق، وقد يخلط بها بعض العكار، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء.

"وهناك إشراقة الروح الحالمة، قد صفيت من العكار كله، وصارت صفاء مطلقاً لا يعرف الجسد، وإشعاعة لا تعرف القيود. تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذي يُصبّ فيه!

"وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ، ولا يقدر عليها التعبير!"[1].

ويختلف الناس بين هذين الطرفين البعيدين. بل يختلف الشخص الواحد من حالة إلى حالة في اللحظة الواحدة أو في اللحظات المتفرقة. ولكن يبقى بعد ذلك أن الجنس —في الحالة السوية– لا يمكن أن يخلو عند الإنسان من "مشاعر" نفسية مصاحبة لدفعة الجسم. وهذه المشاعر — قلّت أو كثرت– هي النتيجة لامتزاج الروح بالطين في كيان الإنسان.

وعلى ذلك يستجيب الإنسان لدفعة الجنس القاهرة، ولكنه —منذ البدء– لا يستجيب لها على طريقة الحيوان، الجسدية الخالصة، النابعة من الكيان الطيني وحده، والتفاعلات الكيميائية التي تحدث في ذلك الكيان.

ثم يملك الإنسان بعد ذلك اختيارات شتى في طريقة الاستحابة.

يملك أن يسرف وأن يخفف.

ويملك أن يشغل نفسه بالتفكير في شئون الجنس، أو ينصرف عن هذه المشغلة بأمور أخرى متصلة بكيانه الشامل المتكامل، المتعدد الجوانب المتعدد الأهداف.

ويملك أن يحيل مشاعر الجنس إلى حركة جسمية، يفرغ منها ويستريح، أو يحيلها إلى حركة نفسية وعاطفية، ينشئ بها فنوناً، وأفكاراً، ومشاعر، وسبحات، فتتسع رقعتها في نفسه، وفي الوقت ذاته تخف وتشف، وتخرج من كونها ضرورة تُقْضى، إلى كونها جمالا يُحَسّ.

ويملك في النهاية أن يمنع نفسه منعاً من الاستجابة لهاتف الجنس، مهما ترتب على ذلك من مشقة وحرمان..

هذا إلى اختلاف السلوك من فرد إلى فرد، وإن اشتركت الأهداف وتشابهت الاتجاهات.

([1]) من كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام".

وهكذا يسير الإنسان بين الدفعة والاستجابة في طريق طويل مملوء بالاختيارات، أنشأه في كيانه تلبس الروح بقبضة الطين، وعدم انفراد الطين بالتصرف في أمر من الأمور.

وهكذا جميع الدوافع القاهرة المشتركة بين الإنسان والحيوان، يتعرض الإنسان لضغطها عليه بمثل ما يتعرض الحيوان، ولكنه يختلف عنه في طريقة الاستجابة، اختلافا توجهه" الإرادة" ويعمل فيه "الاختيار" وهما صفتان مميزتان من صفات الروح.

* * *

ذلك من الطرف الحيواني للإنسان.

والأمر من الطرف الملائكي بالمثل.

يحس الإنسان بأشواق عليا، وتنطلق روحه مرفرفة خفيفة مشعة رائقة.

يحس برغبة في الاتصال بالله، ويتعبد إليه راغباً في محبته ساعياً إلى رضاه. وقد تستغرقه العبادة في لحظة فينسى نفسه. ينسى أنه على الأرض، وأنه جسم ذو عضلات ووشائج وأعصاب، وذو مطالب لا يطول سكوتها عن الإلحاح، لأنه لا يحس في تلك اللحظة بحدود هذا الجسم، ولا يحس بما يفصل بينه وبين الله.

ويحس برغبة في الاتصال بالكون، وبروح يستجلى جمال الطبيعة، ويتنقل من زهرة جميلة إلى جدول، إلى جبل شامخ، إلى سحاب مسخر بين السماء والأرض. وقد يستغرقه الإعجاب بالطبيعة لحظة، فينسى أنه كائن ذو "حيز" محدود محسوس، لأنه لا يحس في تلك اللحظة بما يفصل هذا الحيز المحدود عن الكون الواسع الفسيح.

ويحس برغبة في الاتصال بغيره من بني الإنسان. يتعاون معهم ويتوادّ. ويقيم معهم موازين العدل والحق والإخاء والمساواة.. وقد تستغرقه هذه الرغبة لحظة فينسى كيانه الفردي، وما يحمله هذا الكيان من مطالب ذاتية ورغبات، لأنه لا يحس في تلك اللحظة فاصلا بينه وبين غيره من الأفراد.

ويحس رغبة في الاتصال بفرد من الجنس الآخر.. في غير نطاق الجسد.. في عاطفة شفيفة لا تتلامس فيها الأجسام، وإنما تنتقل العواطف من قلب إلى قلب، ومن كيان إلى كيان. وقد تستغرقه رفعة الحب لحظة فينسى كيان جسده وما يحمل من كيماويات وتفاعلات.. لأنه لا يحس في تلك اللحظة بحاجز الجسد يحجب روحه عن الانطلاق..

كل تلك لحظات من لحظات الروح.. تسبح فيها سبحات طليقة من القيود.

وتلتقي تلك اللحظات بنورانية الأملاك عند الطرف الملائكي للإنسان.

ولكنها مع ذلك لا تقلب الإنسان إلى مَلَك، حتى وهو يمارس تلك الانطلاقات.

أول فارق بينه وبين ملك أن هذه اللحظات من جانب الإنسان "اختيار".. بينما هي في ملك جزء من طبيعته التي لا يملك الحيد عنها: "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"[1]. "يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ"[2].

وإلى جانب الاختيار هي مسالك متباينة، يختلف فيها فرد عن فرد، ويختلف الفرد الواحد من لحظة إلى لحظة بين الإقبال والإعراض.

ولكن أبرز الفوارق أن الإنسان لا يصبر على هذه اللحظات أكثر من لحظات! ثم يعود إلى واقع الأرض المحدود المحسوس، بحكم الضرورات القاهرة التي تتوالى على حسه من جوع وعطش وإفرازات ومطالب ورغبات.. ومهما حاول الإنسان أن يتسامى بروحه على الضرورة، فإلى فترة محدودة من الوقت –تطول أو تقصر– ثم يعود. ولا محيص له من أن يعود..

وذلك أثر من آثار امتزاج الجسد بالروح، وعدم انفصاله عنها، فلا يمكن أن تنطلق انطلاقاً كاملا وهي مرتبطة في الأرض بقبضة الطين.

وهكذا لا يصدر عن الإنسان شيء في أية لحظة يكون فيه مماثلا تماماً للحيوان أو مماثلا للملك. وإنما هو في كل حالاته إنسان، يتصرف على طريقة الإنسان. وذلك أثر من آثار امتزاج الطين والروح في كيانه بحيث لا ينفصلان.

* * *

وصحيح أن الإنسان "يجنح" بأحد جانبيه في لحظة من اللحظات..

يجنح تارة بجسده في دفعات الحس الغليظة، ويجنح بروحه في لحظة الإشراق.

([1]) سورة التحريم [6].

([2]) سورة الأنبياء [20].

لحظات الضرورة القاهرة جنوح بجانب الجسد.. فالإنسان وهو يقضي ضروراته "البيولوجية": وهو يفرز إفرازاته أو ينهمك في حركات الجنس، يكون الجانب الجسدي هو المسيطر على نشاطه وحركاته، ويكون هو الجانب البارز من الكيان.

وكذلك حين يهتاج الإنسان فيغضب ويبطش.. أو حين يستجيب لنزعة من نزعاته الفطرية بعد فترة من التعطش والحرمان..

وكل متاع حسي هو نشاط يغلب عليه عنصر الجسد، ويستجيب لقبضة الطين.

ولحظات العزوف عن متاع الحس، والانصراف عن مطالب الجسد، هي من الجانب الآخر جنوح بجانب الروح.

والإنسان يصنع هذا وذاك.. ففي طبيعته أن يجنح أحياناً هنا ويجنح أحياناً هناك. وذلك مظهر من مظاهر الازدواج في تكوينه الأصيل.

ولكن علينا أن نلاحظ في ذلك ثلاثة أمور:

أولا: أنه في كلتا حالتيه –كما رأينا– إنسان. فما دام في حالته السوية –أي بريئاً من الخلل النفسي– فهو يمارس كل أنواع النشاط بكيانه المجتمع المترابط، حتى ولو غلب جانب من جوانبه على جانب آخر في لحظة من اللحظات. وفرق بين أن يبرز أحد الجوانب، وبين أن ينفصل ويعمل مستقلا عن بقية الكيان.

ثانياً: أن هذا الجنوح –في الحالة السوية– مؤقت لا يدوم. فالإنسان ينغمس في نشاط الجسد ساعة، ثم يعود إلى نشاطه الروحي أو المعنوي ساعة. ويتداول هذه الساعات على الدوام. فلا يظل جانحاً بجانب واحد إلا في حالات الاختلال.

ثالثاُ: أن هذا التداول الدائم بين نشاط الجسم ونشاط الروح، يساعد الإنسان على التوازن في نقطة الوسط التي يلتقي فيها الجسم والروح على استواء. فهو كالذي يسير على عارض دقيق، يميل مرة هنا ومرة هناك لكي يحفظ توازنه في كل مرة، ولا يمنعه الميل ها هنا وها هنا من الوصول إلى التوازن، بل قد يكون هو الذي يعاونه على الاتزان.

* * *

هذا الكيان الإنساني المتفرد، لا نصل إلى كل قراره في الحقيقة حين ندرك فقط أنه كيان مزدوج الطبيعة، ثم ندرك أن هناك امتزاجاً بين عنصريه المكوّنين له، يجعله وهو يجمع بين نشاط الملَك ونشاط الحيوان- يؤدي كلا منهما بطريقته الخاصة، طريقة الإنسان، التي تحمل مشابه من الملك ومشابه من الحيوان، ثم تفترق في النهاية عن الملك والحيوان.

ليس هذا هو القرار الأخير في كيان الإنسان!

وإنما نصل إلى قراره حين ندرك أنه في الحقيقة كيان موحد، برغم ما في طبيعته هذه من ازدواج.

كيان موحد. كل ما ينبعث عنه من نشاط فإنما يصدر عن كيانه الموحد المتشابك المعقد التركيب!

أعمال الإنسان كلها ذات ترابط وثيق وإن بدت منفصلة في بعض الأحيان.

النشاط المادي والنشاط المعنوي..

النشاط العملي والنشاط التعبدي..

النشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والنشاط الفكري والروحي..

النشاط الفردي والنشاط الجماعي..

كل لون من ألوان النشاط هذه وما شابهها قد يبدو لأول وهلة نشاطاً منفصلا، متخصصاً، مستغرقاً، يقوم به الإنسان بجانب من جوانبه، ولا يتصل ببقية الجوانب أي اتصال..

وذلك وهم ظاهري، كوهم تجزؤ الإنسان إلى جسم وروح منفصلين.

وَهْمٌ يغرى به بروز أحد هذه الجوانب في لحظة وتَوارِي الجوانب الأخرى مؤقتاً وراء هذا البروز.

فحين يعمل الإنسان بجسمه، ويستغرقه العمل، يخيل إليه أن هذا النشاط المادي منفصل ومستقل، وأنه في لحظة الاستغراق هذه لا صلة له بأي شيء معنوي في نفسه أو في الحياة.

وحين يستغرق الإنسان في لحظة تعبد، فقد يخيل إليه أن هذا النشاط الروحي منفصل عن بقية كيانه، وأنه في لحظة الاستغراق هذه لا صلة له بشيء مادي في نفسه أو في الحياة.

والحقيقة أن هذا الانفصال لا يمكن أن يحدث.. وإن توارت الصلات أو نسيها الإنسان.

فهو حين يعمل بيديه ويستغرقه العمل.. قد ينسى "لماذا" يعمل. ولكن نسياته للهدف في لحظة الاستغراق لا يعني أن الهدف غير موجود، ولا أنه –حين بدأ العمل أول مرة– لم يكن عالماً بهذا الهدف ومدركا له. ومن ثم يرتبط العمل بالهدف في عالم الحقيقة، ويرتبط به كذلك في داخل نفسه، وإن نسي هو هذا الارتباط في بعض الأحيان. ويصبح العمل –المادي– أمراً مادياً ومعنوياً في ذات الوقت، محققاً لكيان الإنسان الموحد المجتمع المترابط، الذي لا يصدر فيه شيء عن الجسم وحده ولا عن الروح.

وحين يستغرق في لحظة عبادة.. فقد ينسى أثر هذه اللحظة في كيانه المادي –الجسمي– لأن جسمه في هذه اللحظة مستريح. والجسم مكّون بحيث لا يحس الإنسان بوجوده إلا إذا كان متألماً موجوعاً. أما في حالته الطبيعية التي لا يتألم فيها من جوع أو عطش أو مرض أو تهيج، فالإنسان لا يحس بوجوده على وجه التحقيق! ومع ذلك فالجسم موجود! وهو يتلقى وقع هذه اللحظة الروحية ويتأثر به نشاطاً وخفة إذا كانت في حدود ما يَحْتَمِلُ. ويتأثر به ألماً وإجهاداً وإنهاكا إذا كان فيها مشقة –ولو لم يتحرك الجسم من مكانه!– فالمشاعر ذاتها تجهد الجسم أحياناً إذا زادت عن احتماله. وهكذا يرتبط الجسم بالروح في لحظة العبادة.. يرتبطان في عالم الحقيقة وفي داخل النفس، وإن سها الإنسان لحظة عن هذا الارتباط!

وقياساً على هذين المثالين تجري الأمور كلها في حياة الإنسان.

فقد يخيل للإنسان وهو يضع خطة اقتصادية.. أو يخيل إليه وهو يشاهد النشاط الاقتصادي للبشر على الأرض.. أن "الاقتصاد" قوة منفصلة في كيان الإنسان، أو منفصلة عن كيان الإنسان. وأنه لا صلة لها بعالم الفكر وعالم الروح، ولا بالقيم الخلقية والمعنوية.

وهذا وهم مستحيل الحدوث. فالنشاط الاقتصادي تنشأ عنه علاقات معينة بين البشر بعضهم وبعض. علاقات مودة أو علاقات تنافس أو علاقات نضال وعداء. وفي كل حالة من هذه يرتبط النشاط الاقتصادي بالجانب "المعنوي" للإنسان، ويكيف مشاعره وأفكاره وطريقة تناوله لشئون الحياة. ومن جانب آخر تؤثر الرغبات والنوازع الفطرية، وما ينشأ عنها

من أفكار وتصورات.. تؤثر في توجيه الاقتصاد وجهة معينة في أية لحظة من اللحظات. "فالرغبة" في الاستحواذ والتملك. و"الرغبة" في البروز. و"الرغبة" في الترف. و"الرغبة" في القوة والسلطان. و"الرغبة" في استعباد الآخرين أو "الرغبة" في التعاون مع الآخرين.. وما شابهها من رغبات سوية أو منحرفة، صاعدة أو هابطة، هي التي ترسم التوجيه الاقتصادي للمجتمع، وتجريه في حدودها وعلى مستواها. ومن ثم لا ينفصل الاقتصاد عن القيم الروحية والخلقية والمعنوية في واقع الحياة وفي واقع النفس، وإن خيل للناس أحياناً أنه قوة مستقلة عن كيان الإنسان.

وحين يتعبد الإنسان.. فهذه القيمة الروحية —البحتة في ظاهرها– لا تنفصل عن القيم الاجتاعية والاقتصادية والسياسية والمادية.. وكذلك حين ينفر من التعبد ويحيد عنه. ففي كلا الحالين يتأثر سلوكه العملي بهذه العبادة. فحين يكون صادقاً فيها فهو يتقن عمله المادي إرضاء لربه الذي يتعبد إليه، فيتأثر الإنتاج كمًّا ونوعاً بروح هذه العبادة. وكذلك تتأثر علاقات الاقتصاد. فالمؤمن المتعبد لا يحب أن يحرم غيره من ثمرة عمله، ولا أن يستأثر دونه بالكسب.. فتنشأ روح من التعاون والتكافل تسيّر الاقتصاد في طريق خاص. وحين لا يكون صادقاً في تعبده، أو يكون نافراً منه حائداً عنه، فلن يهتم بالإتقان —ما لم تكن هناك عوامل أخرى تدفعه إليه أو تجبره عليه– كالرغبة في الاستغلال أو الخوف من سلطان الدولة أو صاحب العمل– ولن تنبت في نفسه مشاعر التعاون والتكافل، ويسير الاقتصاد في خط السلب والنهب والاغتصاب الذي يأخذ صورة الإقطاع أو الرأسمالية.. أو يأخذ خط العبودية للدولة صاحبة السلطان.

وهكذا ترتبط القيمة الروحية بالقيم المادية والاجتماعية والسياسية بلا انفصال.

وحين ينهمك شخص فرد في نشاط جنسي حلال أو حرام في لحظة معينة، فقد يخيل إليه أن هذه اللحظة منفصلة عن كل "القيم" وأنها مجرد شهوة بدنية واستجابة لهذه الشهوة.

وقد مر بنا الحديث عن استحالة الانفصال بين الجسم والروح في العمل الجنسي —في الحالة السوية– ما دامت هناك "مشاعر" تربط بين الجنسين، وسع من دائرة العمل الجسدي.

ولكنا هنا نريد أن نعرض الأمر في نطاق أوسع.. فهذا النشاط الجنسي الفرد ليس فرداً في الحقيقة، ما دام واقع البشر أنهم يعيشون في مجتمع (وهذا المجتمع ذاته قد نشأ في الأصل نتيجة للنشاط الجنسي للأفراد!) فكل نشاط جنسي فرد، أيًّا كان نوعه يؤثر بالتالي في المجتمع، قيمه وأفكاره ومادياته ومعنوياته. ويتأثر به. فحين يحرص هذا الفرد على أن يكون نشاطه الجنسي حلالا —أي في الحدود المشروعة– فقد التزم منذ البدء "بقيمة" من القيم.

وسواء تيقظ لهذه القيمة في كل مرة أو كمنت في حسه، فهي موجودة، وهو عالم بها ومدرك لها منذ أول الأمر. وحين لا يبالي بهذه القيمة، ويقوم بنشاط غير مشروع، فهنا كذلك لم ينفصل العمل عن القيمة المصاحبة له. وإنما الذي حدث أن هذا الشخص قد استبدل بالقيم العليا قيماً أخرى هابطة، استمدها من رأيه الخاص أو من المجتمع من وحوله. وسواء نسي قيمه الهابطة في أية مرة أو تذكرها، فهي موجودة في حسه، وهو عالم بها ومدرك لها منذ البدء. وعلى ذلك يرتبط هذا العمل الجسمي الخالص بالقيمة المصاحبة له. ولا ينفصلان.

ثم ينشأ عن كل من الأمرين آثار حتمية في كيان المجتمع كله. فالمجتمع هو مجموع الأفراد. وحصيلة تصرفات الأفراد، وأفكارهم ومشاعرهم، والقيم التي يؤمنون بها، والأعمال التي يقومون بها، هي في النهاية التي ترسم خط سير المجتمع وتحدد منهاجه. فحين يحرص الأفراد على أن يكون نشاطهم الجنسي في دائرة النظافة المشروعة، فإن المجتمع يأخذ صورة معينة من الترابط والقوة وانطلاق الطاقة الحيوية نحو العمل الصاعدة النظيف. وحين ينغمسون في نشاط دنس، فإن صورة المجتمع تتحول إلى التحلل والتفكك، وتنطلق الطاقة الحيوية في سبيل الانحراف. وحين يكون الأفراد خليطاً من هؤلاء وهؤلاء، فالمجتمع سائر في طريق الضعف أو طريق القوة بمقدار ما يشير إليه اتجاه الأفراد: وهل هم يتزايدون في طريق النظافة أو يتزايدون في طريق الهبوط.

وهكذا يرتبط الفرد بالجماعة في لحظة الجنس العابرة، ارتباط العمل الجسمي بالقيم والأفكار.

ومن حيث استعرض الإنسان حقائق الحياة البشرية فهو لا بد واصل إلى هذه النتيجة في النهاية، وهي ارتباط النشاط البشري كله بعض ببعض، وتأثره كله بعضه ببعض.

وهذه الحقيقة الواقعة في الحياة هي انعكاس للحقيقة النفسية الداخلية العميقة.. وهي توحُّد الكيان البشري وترابطه، برغم ما فيه طبيعته من ازدواج.

الأمور كلها مرتبطة في داخل النفس. وإشعاعاتها في الحياة قد تصل إلى آماد وسعة وآفاق مترامية بعيدة جدا عن منبعها في داخل النفس. ولكنها تظل مترابطة متشابكة، لأنها صادرة عن كيان موحد مترابط متشابك معقد التركيب!

كل ما في الأمر أنه يحدث في لحظة من اللحظات بروز في جانب من الجوانب في حياة الإنسان:

يبرز العامل الاقتصادي في لحظة..

ويبرز العامل الروحي في لحظة..

ويبرز العامل الجنسي في لحظة..

وذلك انعكاس طبيعي لبروز بعض الجوانب الإنسانية وتَواري بعضها الآخر. ولكن الحقائق الثلاث التي تصدق على عالم النفس تنعكس بدورها على الحياة البشرية: أن بروز هذا الجانب أو ذاك لا يفصله في أية لحظة عن بقية الجوانب. وأن النفس تتداول البروزات والانحسارات على الدوام، فلا تثبت على بروز واحد أو انحسار واحد إلا في حالات الاختلال.

وأن هذا التداول المستمر يساعد على إحداث التوازن في النفس.. وفي الحياة.

* * *

ومن ثم تبدو ضخامة الغلطة التي يرتكبها كل تفسير للنفس الإنسانية يأخذ في حسابه جانبا واحدا من كيان الإنسان.

التفسير الحيواني للإنسان.. والتفسير الروحاني الملائكي.. كلاهما مخطئ وبعيد عن الصواب.

التفسير الحيواني الذي يهمل جانب الروح، ويحاول أن يفسر الإنسان بجسده وحده: بلقمة الطعام ودفعة الجنس ومطالب المادة..

والتفسير الروحاني الذي يهمل حقيقة الجسد ودلالتها، ويحاول أن يفسر الإنسان بروحه وحدها: بإشعاعة النور والشفافية والطلاقة والإشراق..

كلاهما يتحدث عن كائن وهمي بالنسبة للإنسان!

وكلاهما يرتكب خطأ جسيما في حق الحياة وحق الإنسان!

وكل النظم التي لا تؤمن بوحدة النفس البشرية وامتزاج عنصريها الكبيرين تنحرف انحرافات خطيرة، تؤدي إلى إحدى نتيجتين: إما كبت الجسد وإما كبت الروح. ثم تتعرج في انحرافات تفصيلية كثيرة تندرج تحت واحد من هذين الاختلالين الرئيسيين.

هناك نظم فصلت بين القيم الروحية والقيم المادية، فأهملت الجسد واحتقرته ونبذته، وكبتت نوازعه الفطرية وضروراته القاهرة، فلا تقضيها أصلا، أو تقضيها بتقزز ونفور. ونشأ من ذلك اختلال في داخل النفس واختلال في الحياة. فرانت السلبية على النفوس، وتأخر المجتمع وانحسر عن التقدم والانطلاق.

وهناك نظم فصلت بين القيم الروحية والقيم المادية، فأهملت الروح، ونبذت كل ما يتصل بها من قيم، فنشطت نشاطا جما في عالم المادة وعالم الجسد، ولكنها لفقرها الروحي انقلبت تتقاتل وتتنابذ، فلم تعد تعرف الراحة ولم تعد تعرف السلام.

الهندوكية والبوذية وما نحا نحوهما من الديانات والفلسفات والعقائد، كبتت الجسد لتعلي من شأن الروح، فوصلت إلى السلبية المريضة وإلى الهزال.

والمادية الأوربية كبتت الروح لتعلي من الإنتاج المادي والمتاع الجسدي، فوصلت إلى ما يشبه الحيوانية في صلات الناس بعضهم ببعض: من استعمار واستعباد واستغلال. وهبوط خلقي وروحي في أمور الجنس خاصة.. حيوانية لا تليق بالإنسان.

ثم إن أوربا المادية هي التي فصلت بين القيم المختلفة: فأقامت السياسة والاقتصاد بمعزل عن القيم الروحية. وأقامت شئون الجنس بمعزل عن الأخلاق. وشئون الدنيا بمعزل عن الآخرة. وشئون الحياة بمعزل عن الدين. وكانت النتيجة تصادم هذه القيم المقطوعة من جذورها المشتركة، والصراع المدمر العنيف، والشد والجذب في داخل النفس بصورة تتلف المشاعر وتُمْرِض الأعصاب. فوصلت حوادث الجنون والانتحار وضغط الدم والأمراض العصبية والنفسية إلى درجة لا مثيل لها في التاريخ.

وكل ذلك لأنها لم تتعرف على هذه الحقيقة النفسية ولم تُصِخ إليها: حقيقة توحد الكيان البشري، والترابط في داخل النفس الإنسانية بين الروح والجسد، والترابط فيما يصدر عنهما من إشعاعات.

والإسلام –كلمة الله إلى الأرض– هو وحده الذي تمشى مع الفطرة البشرية كما خلقها الله.

الفطرة البشرية هي قبضة الطين ونفخة الروح العلوية في ذلك الطين، وامتزاجها به وتوحدها فيه.

والإسلام هو النظام الذي يربط بين كل ألوان النشاط البشري، ويوحد بينها في الاتجاه.

يربط بين الروح والجسد ويوحد بينهما في كل ما يصدر عنهما من مشاعر وأفكار وأعمال.

الطعام والشراب يبيحه.. ثم يجعله باسم الله.. أي يجعل له قيمة روحية مصاحبة. وبهذا يجعل الطعام والشراب مسألة إنسانية لا حيوانية. ويقضيهما الإنسان على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان. ويكون بذلك متمشياً مع الفطرة السوية التي أودعها الله في الإنسان.

وحين يجعلهما باسم الله، فهي ليست كلمة تقال.. وإنما هي حقائق كثيرة تجعل الارتباط كاملا فيهما بين نشاط الجسم ونشاط الروح.

فالطعام ينبغي أن يكون من حلال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً"[1]. "وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً"[2].

وأن يذكي هو ذاته قبل تناوله بقراءة اسم الله عليه، أي بربطه بالله في الوجدان: "وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ"[3].

وألا يسرف الإنسان فيه بلا ضابط: "وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ"[4].

وألا يستأثر به وحده: "فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ"[5].

وألا يجعله همه الشاغل، ولا هدفاً في ذاته، وإنما وسيلة لهدف: "بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه"[6].

وبهذا كله يصبح الطعام مسألة جسمية روحية في ذات الوقت، وبتعبير آخر يصبح نشاطا إنسانياً صادرا عن الكيان الإنساني الواحد المجتمع المترابط، الذي لا ينفصل فيه كيان عن كيان.

([1]) سورة البقرة [168].

([2]) سورة المائدة [88].

([3]) سورة الأنعام [121].

([4]) سورة الأعراف [31].

([5]) سورة الحج [28].

([6]) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

والإسلام يبيح النشاط الجنسي.. ولكنه يجعله كذلك باسم الله.

فهو أولا يشترط أن يكون حلالاً طيباً لا عن طريق الفاحشة: "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ... إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ..."[1].

ثم جرت السنة على قراءة اسم الله قبل العمل الجنسي ذاته، أي ربط العمل بالعبادة والتوجه به إلى الله.

ثم يكون في ذاته نظيفاً وطاهراً: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"[2].

ثم لا يكون عملاً جسدياً خالصا على طريقة الحيوان:

فأولا: تصاحبه أقوال ومداعبات تلطف من غلظ الحس. وفيما روت عائشة رضي الله عنها من حال الرسول صلى الله عليه وسلم معها ما يثبت هذا المعنى ويؤكده، فقد روت من أنواع المداعبة الكثير.

وثانياً: يذكّر الإنسان بأن الجنس وسيلة لهدف، وليس هدفاً في ذاته: "نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ"[3] والإشارة في الحرث واضحة إلى البذرة والإنبات.. أي النسل عن طريق المجاز.

وثالثاُ: يُجْعَل علاقة روحية ووجدانية إلى جانب كونه علاقة جسدية: "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ"[4]. "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً"[5].

(1) سورة المائدة [5].

(2) سورة البقرة [222].

(3) سورة البقرة [223].

(4) سورة البقرة [187].

(5) سورة الروم [21].

وبهذا يصبح الجنس نشاطاً جسمياً روحياً، أو "إنسانياً" بتعبير آخر، صادراً عن الكيان المجتمع للإنسان.

* * *

ثم يجعل مختلف ألوان النشاط الإنساني في الحياة ممتزجة مترابطة على ما هي عليه في حقيقة النفس:

العمل والعبادة أمران مرتبطان:

فكل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة. بل هو العبادة: "لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"[1].

والعبادة عمل يشترك فيه الجسم إلى جانب الروح:

فالصلاة –وهي عنوان العقيدة ولبابها– حركة جسم متطهر إلى جانب حركة روح متطلعة تحاول في خشوعها أن تتصل بالله. وهي لا تصح بأحد العنصرين دون الآخر. لا تصح دون تهيؤ الجسم لها بالتطهر والوضوء واشتراكه في الحركات والسكنات في القيام والركوع والسجود؛ ولا تصح دون تهيؤ الروح بالوعي والخشوع والتطلع إلى الله: "فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ"[2]. " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ"[3].

والصيام امتناع جسمي عن الطعام والشراب، وتحمل للجوع والعطش، إلى جانب تقوى المشاعر وانطلاقة الروح. ولا يصح بأحد العنصرين دون الآخر. لا يصح دون اشتراك الجسم بالامتناع عن المباح من الطعام والشراب والمتاع. ولا يصح دون اشتراك الروح بالتقوى، والامتناع عما يفسد جو الصيام من قتال أو خصام أو فحش في القول أو فحش في النظر

(1) سورة البقرة [177].

(2) سورة الماعون [4].

(3) سورة المؤمنون [1-2].

أو فحش في الفعل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[1].

"الصوم جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إني صائم، إني صائم"[2].

"من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"[3].

والزكاة "أعمال" محسوسة تؤدّى إلى جانب التطهر الروحي، ولا تصح بأحد العنصرين دون الآخر. لا تصح بالنية الطيبة دون عمل حسي يؤدّى، من إنفاق للأموال وبر بالفقراء مما يملك الإنسان نقداً وعيناً. ولا تصح بالإنفاق دون طهارة النفس من الداخل والبذل عن طيب خاطر: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا"[4]. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ"[5]. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ"[6].

والحج كذلك أعمال جسدية وحركة روحية. ولا يصح بأحد العنصرين دون الآخر. لا يصح بدون الحركة الجسدية من توجه وانتقال وسفر وتجرد من المخيط.. الخ. ولا يصح دون التزام التقوى والتطهر والخشوع: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ"[7].

وبذلك يرتبط العمل والعبادة ويمتزجان، كامتزاج الجسم والروح في داخل الكيان.

والقيم المادية والقيم المعنوية مرتبطتان.

([1]) سورة البقرة [183].

([2]) أخرجه السنة.

([3]) رواه البخاري.

([4]) سورة التوبة [103].

([5]) سورة البقرة [264].

([6]) سورة البقرة [267].

([7]) سورة البقرة [197].

الإنتاج المادي والنظم الاقتصادية ليست منفصلة عن القيم المعنوية التي تحكمها:

"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

والمال ينبغي أن يوزع على الناس: "كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ"[1].

والأخلاق عنصر مرتبط بكل العمليات الاقتصادية من بيع وشراء وتملك وإنتاج: "رحم الله رجلا سمحا إذا با ع وإذا اشترى وإذا اقتضى"[2].

والربا يحرم تحريما شديدا لما يحمله في طياته من الظلم الاجتماعي والاقتصادي، ويرتبط تحريمه بغضب الله، بل بالحرب من الله ورسوله: "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ، وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ"[3].

والاحتكار ملعون: "من احتكر فهو خاطئ"[4].

وبهذا ترتبط المعاملات الاقتصادية بالقيم الخلقية والروحية، كما هي مرتبطة في داخل النفس وفي واقع الحياة.

* * *

وترتبط الدنيا بالآخرة والأرض بالسماء..

---

(1) سورة الحشر [7].

(2) رواه البخاري والترمذي.

(3) سورة البقرة [275-280].

(4) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

إن الدنيا ليست مملكة الجسم والآخرة مملكة الروح.. بل هما مملكة الجسم والروح في آن. وهي رحلة واحدة أولها في الدنيا ونهايتها في الآخرة بلا انفصال.. والإنسان يقطعها من أولها إلى آخرها وهو بذاته "الإنسان".

والإسلام في هذه النقطة بالذات واضح شديد الوضوح. فتوجيهات القرآن كلها إلى الناس في الأرض، ومشاهد القيامة التي تصف أحداث اليوم الآخر، كلتاهما تربط ربطاً شديداً بين الدنيا والآخرة بحيث يقرّ في قلب الإنسان أنهما شيء واحد متصل وليسا شيئين منفصلين:

كل عمل من أعمال الدنيا يقال للإنسان فيه اتق الله واليوم الآخر. وكل عمل في الأرض يذكّر الإنسان فيه بالآخرة:

"وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ"[1].

" فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ"[2].

"يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً"[3].

"أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ"[4].

"يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ"[5].

"سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[6].

"كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

([1]) سورة الحشر [18].

([2]) سورة آل عمران [25].

([3]) سورة آل عمران [30].

([4]) سورة البقرة [254].

([5]) سورة آل عمران [114].

([6]) سورة آل عمران [180].

"قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2].. الخ. الخ.

وحين يصنع الإسلام ذلك فهو يتمشى تمشياً كاملا مع الفطرة السوية التي خلق الله بها الإنسان. "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ"[3]. ويكون مطابقاً –بدرجة معجزة– للكيان الإنساني الفذ، الذي خلقه الله متفرداً بين جميع الخلق، وأرسل له هذا المنهج المتفرد، المفصل على قده، المضبوط على كل دقائقه وتفصيلاته؛ والشامل في الوقت ذاته لكل نشاط في الحياة البشرية منبثق عن كيان الإنسان.

([1]) سورة آل عمران [185].

([2]) سورة الأعراف [32].

([3]) سورة الروم [30].

خطوط متقابلة في النفس البشرية

في كتاب "منهج التربية الإسلامية" فصل بهذا العنوان يقع في 67 صفحة، كان موضعه في الحقيقة هنا في هذا الكتاب! ولكنه سبق مولد هذا الكتاب في نفسي، كما أنه يؤدي دوره الطبيعي هناك في "منهج التربية".. فالموضوعان متصلان ومتشابكان.

ولا أملك أن أعيد هنا ما قلته هناك بحذافيره! ولكني أعيد عرض الفكرة هنا بما يناسب الدراسة النفسية التي نحن بصددها في هذا الكتاب.

* * *

قلنا في الفصل السابق ونحن نستعرض الطبيعة المزدوجة للكيان البشري، إن هناك مظاهر كثيرة لهذا الازدواج. ثم بدأنا بأول هذه المظاهر وأوضحها وهو حقيقة الجسم والروح.

وهنا نتحدث عن الخطوط المتقابلة في النفس البشرية. وهي مظهر آخر من مظهر الازدواج في تلك النفس.

"إن من عجائب التكوين البشري تلك الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية، كل اثنين منها متجاوران في النفس وهما في الوقت ذاته مختلفان في الاتجاه: الخوف والرجاء.. الحب والكره.. الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال.. الطاقة الحسية والطاقة المعنوية.. الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بما لا تدركه الحواس.. حب "الالتزام" والميل للتطوع.. الفردية والجماعية.. السلبية والإيجابية.. إلخ. كلها خطوط متوازية ومتقابلة. وهي –باختلافها ذلك وتقابلها– تؤدي مهمتها في ربط الكائن البشري بالحياة، كأنما هي أوتاد متفرقة متقابلة تشد الكيان كله، وتربطه من كل جانب يصلح للارتباط! وفي الوقت ذاته توسع أفقه وتعدد جوانبه وتفسح مجال حياته، فلا ينحصر في نطاق واحد ولا مستوى واحد. وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد في كل ما نعرف من مخلوقات الله. كيان يرجع في النهاية إلى النشأة الأولى العجيبة المعجزة: قبضة الطين ونفخة الروح"[1]...

* * *

(1) من كتاب "منهج التربية الإسلامية".

هذه الخطوط المتقابلة عجيبة من عجائب التكوين البشري، وأعجب ما فيها هو الترابط القائم بين كل زوج منها رغم التقابل الكامل بينهما في الاتجاه.

كيف نشأت هذه الخطوط في نفس الإنسان؟

هل نستطيع أن نقول إنها نتيجة مباشرة لقبضة الطين ونفخة الروح؟

هل نستطيع أن نقول إن بعضها من طبيعة الطين وبعضها من طبيعة الروح؟

علم ذلك عند الله! وهو وحده الذي يعلم اليقين! وما نملك هنا القطع بشيء كما قطعنا بالحقيقة الأولى: حقيقة الجسم والروح. فهناك نستمد اليقين من كلام الله ذاته. أما هنا فهو مجرد حدس قد يخطئ وقد يصيب!

حسبنا إذن أن نصف هذه الخطوط وآثارها في كيان الإنسان وحياته.. دون أن نقطع في أمر نشأتها الأولى بيقين.

* * *

كل خطين متقابلان في الخلقة، متضادان في الاتجاه.. ومع ذلك فهما مترابطان، ويبلغ من ترابطهما أن يعملا معاً أحياناً في ذات الوقت وفي ذات المجال..

وقد التفت فرويد إلى خطين اثنين فقط من هذه الخطوط المتقابلة، هما خطا الحب والكره، وراح ينشئ حولهما نظرية بأكملها سماها نظرية "الازدواج العاطفي Ambivilence" ويقصد به على وجه التحديد أن الإنسان يحس بالحب والكره معا وفي ذات الوقت تجاه كل شيء وكل شخص في الوجود! وبلا سبب واع ولا سبب معقول! ففي اللحظة التي يولد فيها الحب في النفس تجاه أي شيء أو أي شخص، يولد معه الكره تلقائيا وبنفس القوة تجاه الشيء ذاته أو الشخص ذاته! ولما كان من المستحيل أن يظهر الإحساسان معاً في دائرة الشعور، فإن واحدا منهما فقط هو الذي يظهر على السطح وهو الحب –لأنه هو الذي يسمح المجتمع بظهوره! (ولم يقل لماذا!) – ويرسب الثاني –وهو الكره– في اللاشعور. ومن ثم يصبح كل حب ظاهر على السطح "تمويها" عن الكره الراسب في الأعماق! وبمقدار ما يكون الحب الظاهري قويا يكون الكره المكبوت في اللاشعور! وهكذا يكون ظاهر النفس الإنسانية هو الحب، بينما الباطن –بلا سبب– مملوء بالأحقاد!

وقد استبعد فرويد -في إصرار- كل حالة يكون فيها الكره المكبوت في اللاشعور ناشئا عن سبب -أي سبب!- كأن يكون الإنسان الذي تحبه قد تسبب في إغضابك أو إيلامك أو إزعاجك، فتكرهه لهذا السبب، ولكنك تغلب الحب على الكره، "فتكبت" الكره في اللاشعور..

كلا لا يقصد ذلك! فهنا "سبب".. واع أو غير واع.. ولكنه يصر على أن الازدواج العاطفي تجاه الشيء الواحد أو الشخص الواحد يحدث بلا سبب.. فهو هكذا في صميم الفطرة!

ومن هنا -وبلا سبب- يحب الولد أمه ويكرهها. ويحب أباه ويكرهه. والأم تحب ولدها وتكرهه. والوالد يحب ولده ويكرهه. والزوج يحب زوجته ويكرهها. والزوجة تحب زوجها وتكرهه.. إل.. إلخ!

ويقيم فرويد على هذه "النظرية" نصف تفسيره على الأقل للنفس البشرية! فهذا الكره المكبوت -بلا سبب- هو الذي يوجه مشاعر الأفراد والجماعات، ويؤثر كذلك في العمل والسلوك. ومن هذا الكره -أو بالأحرى من الصراع الدائر بين الحب الظاهري والكره المكبوت- نشأ الدين والحضارة وتقاليد المجتمع.. وكل مظهر من مظاهر البشرية!!

وهو تعسف وتعنت لا يحمل الدليل! وما كان ينبغي "للعالِم" أن يلقي القول هكذا على عواهنه بلا دليل!

ولقد كشف هو نفسه عن زيف هذه النظرية كلها في سطرين اثنين من كتابه "Totem and Taboo" حيث قال في ص 139 -دون انتباه منه لما سبق أن قرره في هذا الكتاب وفي كل كتاب سواه-: "إن الكراهية التي تنشأ في نفس الولد نحو أبيه بسبب منافسته على أمه، لا تستطيع أن تستولي على نفسه دون أن تتعرض للمنع والحجر، فإن عليها أن تصارع الحب والإعجاب اللذين شنآ قبل ذلك في نفسه تجاه الشخص ذاته" (أي تجاه الأب).

وهكذا يقر -من حيث لا يدري- بأن الحب والكره لا ينشآن نشوءا ذاتيا في نفس الوقت. فقد كان الحب موجودا قبل ذلك بمفرده دون أن يصحبه الكره. ثم إن الكره لا ينشأ هكذا بلا سبب. فقد نشأ في هذه الحالة -فيما يزعم فرويد- بسبب منافسة الأب للابن على شخص الأم!

ولو فتح فرويد بصيرته، وتخلى عن الأوهام التي سيطرت عليه في تفسير النفس الإنسانية، لكان حريا أن يرى أولا أن الخطوط المتقابلة ظاهرة عامة في الكياة النفسي، وليست خاصة بالحب والكره. فقد أحصينا منها ثمانية أزواج هنا، وربما يتسع البحث لمزيد! وأن يرى ثانيا أنها ليست متزاحمة —رغم تقابلها– بحيث يظهر أحدها على السطح فيختفي الآخر في اللاشعور، فمن الممكن —كما سنرى– أن تظهر كلها في دائرة الوعي بلا تعارض ولا اصطدام. وإن اصطدمت فلسبب يحملها على الاصطدام. وأن يرى أخيرا أنها في حاجة إلى تفسير أشمل من تفسيره الذي يقتصر على خطين اثنين من خطوط النفس، والذي يتعسف فيه كل هذا التعسف بلا دليل، ثم ينقضه كله دون أن يتنبه في سطرين من كتاب!

ولكنا مع ذلك نسجل الحقيقة الجزئية التي اهتدى إليها، وهي اتصال خطي الحب والكره في داخل النفس، ثم نقول إنه ليس الحب والكره وحدهما هما الخطين المتقابلين في النفس البشرية، فهناك مجموعات عدة من الخطوط المتقابلة. وليس الاتصال والترابط قائما بين هذين الخطين وحدهما، وإنما هي ظاهرة عامة تشمل كل الخطوط.

الخوف والرجاء

"خطان متقابلان من خطوط النفس، يوجدان فيها متجاورين مزدوجي الاتجاه.

"إن النفس –بطبيعتها– لتخاف وترجو. هكذا ركب في فطرتها.. يولد الطفل وفيه هذان الاستعدادان متجاورين. يخاف الظلمة ويخاف الوحدة ويخاف السقوط ويخاف الاصطدام ويخاف المناظر التي لم يألفها والأشخاص الذين لم يألفهم.. ويرجو.. يرجو الأمان والراحة والدفء والاستقرار في حضن أمه وهو يرضع، وبعد ذلك في حضن أمه وفي حجر أبيه وفي يد من يستريح إليهم من الناس. وينمو الطفل وينمو معه هذان الخطان المتقابلان. وتتنوع المخاوف ويتنوع الرجاء، ولكن الخطين هما هما، في تقابلهما وازدواجهما، يحددان له مشاعر الحياة واتجاهاتها. يخاف الموت، ويخاف الفقر، ويخاف العجز، ويخاف الخيبة، ويخاف الخزي، ويخاف الألم الحسي والمعنوي، ويخاف المجهول.. كلها مخاوف. كلها أنغام مختلفة تصدر عن هذا الوتر الواحد الذي يعتبر –كزميله المقابل له– أقوى الأوتار و"أوسعها" من القمة إلى القرار.. وهو كذلك يرجو الاستقرار والأمن والراحة كما كان يرجوها وهو طفل، ولكن على مستويات أعلى وأوسع، ويرجو التوفيق ويرجو القوة، ويرجو المكانة، ويرجو الجاه، ويرجو النعيم، ويرجو آمالا شتى لا تنقضي.. ولا تحصى. كلما تحقق أمل جدّ أمل جديد.

"والخوف والرجاء بقوتهما تلك وتشابكهما واختلاطهما بالكيان البشري كله في أعماقه، يوجهان في الواقع اتجاه الحياة ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه، ومشاعره وأفكاره، فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف.. وعلى قدر ما يرجو، ونوع ما يرجو.. يتخذ لنفسه منهج حياته، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو وما يخاف"[1].

* * *

هذان الخطان –فيما أرى– هما أسع وأعمق الخطوط المتقابلة في النفس البشرية. أوسع وأعمق من خطي الحب والكره الذين ركز فرويد عليهما انتباهه. فالطفل قبل أن يتعلم الحب والكره، وهما شعوران يتجهان نحو الخارج –نحو الآخرين– نحو العالم الخارجي – يحس إحساساً فطرياً بالخوف على ذاته، وإحساساً فطرياً آخر بالأمن على ذاته في حضن مرضعته– وهي أمه في الغالب. وهذا أمر منطقي فذاته –في مبدأ الأمر– هي عالمه كله، والخوف عليها وطلب الأمن لها هما أول شعورين "منطقيين" مع هذا الكيان المركز في الذات. وثدي الأم (أو المرضع) وحضنها، هما أقصى ما "يرجوه" في عالمه الصغير هذا المتصل اتصالا

(1) من كتاب "منهج التربية الإسلامية".

مباشراً بذاته، وذلك قبل أن "يعرف" من هي أمه أو مرضعته، أو ما هو الثدي الذي يطعم منه؛ وقبل أن يحس "بالحب" نحو شخص الأم.. والبعد عن الثدي أو الحضن هو أشد ما "يخافه" في تلك الفترة، قبل أن "يعرف" شيئاً يحس نحوه "بالكره".

وإنما يجيء الحب والكره تالبين في نفسه للرجاء والخوف.. حين يتسع عالمه قليلا، ويشرع في الخروج من ذاته، فينشئ صلات "نفسية" بمن حوله وما حوله، تَعْبُرُ على قنطرة الصلات "الجسمية" أولا، على قنطرة الثدي والحضن، ثم تستقل عنها، فتصاحبها أو لا تصاحبها.. حسب الأحوال.

ومن هنا كان خطا الخوف والرجاء أعمق الخطوط لأنهما أول الخطوط تميزاً في كيان النفس، ولأنهما ألصق الخطوط بالذات...

وبصرف النظر عن طبيعة الصلة بين حقيقة الجسم والروح وبين خطي الخوف والرجاء، ومدى نشوء الحقيقة الثانية من الحقيقة الأولى —وهي مسألة لا نقطع فيها بيقين– فإن الخطين —كما رأينا– يعملان معاً مترابطين ومتصلين، كالترابط القائم بين الجسم والروح!

يعملان معاً في نطاق واحد وفي "موضوع" واحد، هو في مبدأ الأمر الثدي والحضن.. أو هو من ناحية أخرى تلك العملية "البيولوجية" المتصلة بالغذاء.

وعلى ضوء هذه الحقيقة تتضح لنا جملة أخطاء في نظريات فرويد، يحسن أن نلم بها قبل أن نمضي في الطريق:

الخطأ الأول —وقد ذكرناه من قبل– أن خطي البشرية الأولين —قبل الحب والكره– هما الخوف والرجاء. ومن ثم لا يجوز تفسير النفس البشرية من خطي الحب والكره دون خطي الخوف والرجاء.. على أنه من الخطأ في الحقيقة تفسير النفس بأي من هذه الخطوط وحدها دون بقية الخطوط. فقد أكدنا هذه الحقيقة من قبل: أن النفس تعمل بمجموعها كله. وكل تفسير لها بجزء منها منفصل ومستقل، هو تفسير مشوه وخاطئ. وإذا كنا نضطر هنا "لتنصيص" النفس وتجزئتها، فتلك ضرورة من ضرورات البحث لا تعني مطلقاً أن النفس هكذا في حقيقتها. وكل الخطوط المتقابلة في النفس البشرية هي أجزاء من الكيان الشامل، ولكنها —رغم وضوحها وتميزها الذاتي– لا تعمل وحدها أبدا، ولا تعمل بمعزل عن بقية الخطوط. وإنما تعمل كلها متشابكة مترابطة متصلة —لا كل زوج بنفسه فحسب– بل كل الأزواج في وقت واحد وفي جميع الحالات، مع بروز مؤقت لبعض الخطوط وانحسار مؤقت لبعضها الآخر.. ولكن دون استقلال ولا انفصال.

والخطأ الثاني: أن الخطين المتقابلين يمكن أن يعملا معاً وفي ذات الوقت في دائرة الشعور والوعي –أو في دائرة اللاشعور– دون أن يستلزم ظهور أحدهما "كبت" الآخر ودفنه في اللاشعور! فمخاوف الرضيع وآماله –كما رأينا– تدور حول الثدي والحضن والراحة والأمن. وهو إذ يتشبث بالثدي فهو "يرجوه" و"يخاف" أن ينتزع منه في ذات الوقت بلا تعارض! فإذا اطمأن إلى وجوده في شفتيه وراح يمتص منه رحيق الحياة فقد ينسى –مؤقتاً– خوفه على ضياعه. ولكنه لا يحتاج أن "يكبت" هذا الخوف فهو موجود –مع الرجاء– في دائرة الشعور. ثم إن الرغبة في الثدي والخوف من انتزاعه، قد يهبطان معاً إلى دائرة اللاشعور حين يكبر الطفل، فيكونان معاً على درجة واحدة من الشعور أو اللاشعور.

وسنرى عند الحديث عن الحب والكره، كيف يمكن أن يتصل هذان الخطان في نطاق الشعور، ونطاق اللاشعور، على نسق ما ينصل خطا الرجاء والخوف سواء بسواؤ.

والخطأ الثالث: أن أول خطين يبرزان في النفس البشرية ويأخذان في العمل، وهما الخوف والرجاء، لا يتصلان أدنى اتصال بأسطورة الجنس التي بنى عليها فرويد كل أوهامه، وراح يفسر بها في تعسف كل كيان النفس وكيان الحياة! فهما متصلان بالعملية البيولوجية الأولى وهي حفظ الذات عن طريق الطعام. ولا يمكن بحال من الأحوال أن تكون "جنسية" ما دام يستوي فيها الرضيع الذكر والرضيع الأنثى بنفس الصورة ونفس التفاصيل. وحين يتمحل فرويد فيقول إن الإحساس البيولوجي عند الرضيع هو إحساس جنسي، وإن كل لذة بيولوجية من طعام أو شراب أو تبول أو تبرز هي لذة جنسية، فعليه وزر هذا التمحل وحده.. فليس له عليه من دليل! والحيوان ذاته –أبو الإنسان في رأي دارون وفرويد– لم يقل عنه أحد إنه يتناول طعامه بلذة جنسية، فما بال الإنسان وحده هو الذي تنصب عليه لعنة الجنس من المولد إلى الممات؟!

.. وإذ تبينا هذه الأخطاء في نظرية فرويد، نمضي في الحديث عن خطي الخوف والرجاء.

* * *

الطفل البشري شديد الشبه بالحيوان.. فهو يعيش في نطاق ذاته وفي نطاق جسمه.. ولكنه سرعان ما ينمو نفسياً وشعورياً، لأن في كيانه الاستعداد الفطري لهذا النمو.

ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال أنه يكون جسماً خالصاً في أية لحظة من اللحظات عند مولده!

ولكنه يعني على وجه التحديد أن الجانب الواعي منه –الناشئ في الفطرة من نفخة الروح في قبضة الطين– يكون "كامنا" في كيانه لم ينشط بعد، ولم يبرز إلى عالم العيان. كما تكون "الرؤية" كامنة في جهازه العصبي ولكنها غير ظاهرة في عينيه في الأيام الأولى من الميلاد[1].

ومن ثم فإن خطّي الخوف والرجاء يعملان بادئ ذي بدء في نطاق الحس ثم يأخذان رويداً رويداً يعملان عل مستوى الكيان المتكامل الذي يشمل الجانب الحسي والمعنوي ممتزجين متحدين.

فهو في أيامه الأولى يخاف ويرجو –كما أسلفنا– في نطاق الثدي والحضن الآمن فحسب. أي في النطاق المحسوس وحده، وفي النطاق المباشر. ولكنه بعد فترة.. بعد أن يعمل "الوعي" في كيانه.. يأخذ يخاف من الظلمة.. ومن الوحدة.. ومن وجوه الآخرين! وهي أشياء لم يكن ليخاف منها في بادئ الأمر لأنه لم يكن على وعي بوجودها!

وإذا كانت هذه أموراً حسية، ولكن على نطاق أوسع من الثدي والحضن، فإنه بعد فترة أخرى يبدأ يخاف ويرجو على نطاق معنوي وإن كان –بعد– على مقربة من النطاق الحسي. فهو حين يخاف من الوقوع، أو من الصعود على شيء مرتفع لا يكون الأمر حسياً بحتاً، وإنما يصاحبه لون من "التصور" للمسافات والأبعاد، والآثار الحسية التي تنجم من السقوط. بينما كان الفزع من الظلمة أو الوحدة في المرحلة السابقة خوفا "غريزيا" لا ينشأ من تصور شيء معين بالذات (وهو يفترق طبعاً عن الخوف الذي يمارسه الأطفال الأكبر سناً من الظلمة والوحدة، والذي ينشط فيه الخيال فيهيء للطفل مئات من الكائنات المخيفة والحالات المفزعة تثير الفزع في حسه).

فإذا ارتقى درجة أخرى أصبح يخاف ويرجو في نطاق المعنويات إلى جانب الحسيات.. "فيخاف" من تعبير الناس له إذا أخطأ في أداء عمل معين. و"يرجو" أن يوفق فينال إعجابهم. ويخاف أن يحرم من رضا أبويه عنه إذا أتى عملاً معيناً ينهيانه عنه، ويرجو أن ينال رضاهما بإتيان ما يشجعانه عليه من الأعمال..

وهنا يبدأ في دخول عالم "القيم"..

([1]) رغم أن الطفل البشري يولد بعينيه مفتوحتين إلا أنه لا يرى بهما شيئاً على الإطلاق في الأيام الأولى، ثم يأخذ في الرؤية بالتدريج، ولكنه لا يستطيع أن يركز بصره بعينيه الاثنتين معا قبل نهاية الشهر الأول، حيث يستطيع أن يرى أمه بوضوح ويعرفها.

لقد بدأ مرحلة حاسمة من مراحل نضوجه.. فلم يعد العمل –أيّ عمل– مستقلا في حسه وقائماً بذاته، وإنما أصبحت تصاحبه "قيمة" من القيم..

قيمة تبدأ على نطاق أشبه بنطاق الحيوان.. بطريقة الفعل الشرطي المنعكس.. طريقة التلازم اللاإرادي بين الفعل ورد الفعل [كما يُعَوَّدُ الكلب مثلا على أن يُدَقّ له جرس ثم يعطى الطعام. فيتلازم الجرس والطعام في جهازه العصبي. فإذا سمع الجرس بعد ذلك سال لعابه حتى ولو لم يكن هناك طعام]!

ولكنها سرعان ما تنتقل إلى دائرة الوعي.. و"يفكر" فيها الطفل تفكيراً ملياً.. و"يتعلم" أنه حين يقوم بعمل ممنوع يصيبه الأذى، وحين يقوم بعمل مرغوب يصيبه ما يسره ويبهجه.

وهذه الخطوة ذاتها تبدأ أولا على نطاق حسي.. فاللذة والألم اللذان يتعامل معهما أولا، واللذان يُنشئان "القيم" في نفسه هما لذة وألم حسيان. ولكنه بعد فترة يرتقي فتصبح اللذة المعنوية والألم المعنوي –كابتسام الأم وتشجيعها، أو عبوسها وتأنيبها– حافزين واقعيين لإنشاء القيم وتعميقها في النفس.

ثم تنمو نفسه وتتسع.. فيصبح الخوف والرجاء ملء عالمه كله، مشتبكين بكل حسياته ومعنوياته، بكل أعماله ومشاعره، بكل أفكاره ومبادئه.. بكل لحظة تمر عليه في هذه الحياة!

* * *

وسوف نتحدث بقدر من التفصيل عن بقية الخطوط المتقابلة في النفس البشرية. ولكن لا يفوتنا هنا أن نلاحظ ملاحظة هامة ورئيسية...

فقد رأينا ونحن نستعرض خطّي الخوف والرجاء، أننا لا نستعرضهما وحدهما في الحقيقة! فقد لمسنا معهما صراحة أو ضمنا أزواجاً أخرى من الخطوط المتقابلة في النفس.. دون أن نقصد!

لمسنا صراحة خطّي الحسية والمعنوية ونحن نشرح مراحل النمو في خطّي الخوف والرجاء! وكذلك خطّي الواقع والخيال وما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس! [سنعود إلى هذه الخطوط بالتفصيل لنبين ما بينها من فوارق دقيقة] ولمسنا ضمن خطّي الحب والكره وإن لم نشر إليهما إشارة واضحة. فالحب والكره شديدا الصلة بالرجاء والخوف. كل ما يرجوه الإنسان وكل من يرجوه فهو يحبه، وكل ما يخافه ومن يخافه فهو يكرهه (على وجه التقريب). و[وإن كانت هنا فروق مميزة بين الخطين سنشرحها في الفقرة التالية] كما أن كل

الخطوط الأخرى التي ذكرناها في مقدمة الفصل من فردية وجماعية وسلبية وإيجابية والتزام وتطوع، متضمنّة في بعضها البعض، بحيث يستحيل فصل أيها عن الآخر رغم تميز بعضها عن بعض في "اختصاصاتها".. كما يستحيل فصل عضو من الجسم عن عضو آخر –رغم تميزه في اختصاصه– بسبب ترابط الأعضاء كلها في النهاية لتكوين جسم الإنسان.

وهذا دليل آخر نضيفه إلى ما سبق أن ذكرناه على توحد الكيان النفسي للإنسان بالرغم من ازدواج طبيعته، وما ينشأ عن هذا الازدواج من تشعب وتعدد واتساع!

الحب والكره

الحب والكره خطان شديدا العمق في النفس الإنسانية، حتى ليبدو لأول وهلة –كما بدا لفرويد– أنهما الخطان الأولان في كيان النفس. ولكنا رأينا في الفقرة السابقة ونحن نتدرج مع الطفل منذ مولده، أن خطي الخوف والرجاء أسبق ظهوراً، لأنهما ملتصقان بذات الطفل، قبل أن يعرف الحب والكره، اللذين يربطان بينه وبين عالم خارج عن كيان ذاته..

ومن ثم يبقى الخوف والرجاء –المتصلان بالذات– أعمق خطين في الكيان البشري وأوسع طين، رغم السعة والعمق اللذين يتصف بهما خطا الحب والكره في كيان الإنسان!

ويكاد الحب والكره يشملان نفس المجال الذي يشمله الخوف والرجاء، ولكن هناك فوارق في "الشكل" وفي "الموضوع".

فالدائرتان لا تنطبقان انطباقا كاملا، وإنما تشتركان في جزء كبير منهما، ثم تختص كل منهما بجانب لا تشاركها فيه الأخرى. فالخوف والرجاء يشتركان مع الكره والحب في نطاق معين.. ولكنهما يفترقان بعد ذلك. فقد يحب الإنسان شيئاً أو شخصاً لا "يرجوه" لشيء معين. وقد يكره شيئاً أو شخصاً لا يخاف منه. وإنما يحبه لأن هناك "انسجاما" و"توافقاً" و"التقاء" و"امتزاجاً" بينهما. ويكرهه لأنه لا التقاء بينهما ولا انسجام. وفي الوقت ذاته قد يحب الإنسان شيئاً يخافه، كما يحب الإنسان المخاطر، وقد يكره شيئاً ويرجوه! كما يرجو لنفسه السلامة في موقف معين، ثم يكره ما يصيبه من خزي فيه! هذا إلى جانب أن هناك فارقاً أساسياً في "طعم" كل من الشعورين واتجاههما: الخوف والرجاء أمران لاصقان بالذات، متمركزان حولها، واتجاههما نحو الداخل. نحو المركز. أما الحب والكره فشعوران نابعان من الذات ولكن متجهان نحو الخارج.. نحو الآخرين.

* * *

ومن العسير وصف هذه المشاعر الأولية.. سواء الخوف والرجاء أو الحب والكره.. وهي من بديهيات النفس التي لا تحتاج إلى وصف، وإنما يدركها كل إنسان كما يدرك الجوع والعطش واللذة والألم بمجرد أن يمارسها في واقع كيانه. ولكن ربما كانت "الجاذبية" في الطبيعة، وهي ظاهرة تجاذب الأجسام [أو تنافرها]، هي أقرب الصور للحب والكره في النفس. وهناك –في هذا الشأن بالذات– مشابه عجيبة بين الجاذبية وقوانينها في الطبيعة، وبين الحب والكره ومظاهرهما في الإنسان:

فالذي يرقب قطعة الحديد الموضوعة أمام المغنطيس، كيف تهتز وتضطرب، ثم تتجه إلى المغنطيس في قوة متزايدة حتى تلتصق به.. ثم يرقب كيف تهتز نفس بشرية تجاه نفس اهتزازة الحب، ثم تتجه نحوها في قوة متزايدة حتى تلتصق بها ولا تريد أن تفارقها..

والذي يرقب تنافر القطبين المتماثلين في المغنطيسية.. كيف يهتز أحدهما أو كلاهما في حركة نفور وتباعد حتى ينتهي بهما الأمر على وضع من النفور.. ثم يرقب شعور الكراهية في نفسين بشريتين: كيف تهتز إحداهما أو كلتاهما في حركة نفور وتباعد حتى يستقر الأمر بينهما على النفور..

الذي يرقب هذه العملية وتلك يجب مشابه عجيبة بين هاتين العمليتين في عالم المادة وعالم النفس، حتى ليعجب بادئ ذي بدء: هل الحب والكره —في صورتهما الحسية على الأقل– ميراث ورثته النفس من مادة الكون؟!

والذي يدرس ظاهرة الجاذبية من داخلها [وإن كان لا يصل إلى كنهها، فتلك من المجاهيل التي لم تكشف للإنسان]، ويعرف سلوك الأمواج الكهرطيسية [الكهربائية المغنطيسية] التي تسبب التجاذب أو النفور، ثم يرقب "الأمواج الشعورية" التي تختلج بها النفوس فتكره أو تحب..

الذي يدرس هذه الظاهرة وتلك، يجد مشابه عجيبة بين عالم الإشعاع في الكون وبين النفوس البشرية، حتى ليعجب: هل الحب والكره —في صورتهما النفسية– ميراث ورثته النفس من عالم النور وعالم الإشعاع؟!

والذي يدرس التنويم المغنطيسي —وهو ظاهرة معترف بها– ويرقب كيف تنتقل الأفكار والمشاعر والأحاسيس من نفس إلى نفس مع الأمواج المحسوسة الصادرة من المنوِّم إلى المنوَّم.. يعجب لهذا الامتزاج بين الحسيّ والمعنوي في كيان الإنسان!

* * *

وكما ينشأ الخوف والرجاء في نطاق المحسوس أولا، ثم يرتقيان إلى نطاق المعنويات.. فكذلك ينشأ الحب والكره في نطاق المحسوس ثم يرتقيان إلى نطاق المعنويات.

وكما يَعْبُر الخوف والرجاء قنطرة الثدي والحضن، ليصلا من الحسيّ إلى المعنوي، فكذلك يعبر الحب والكره القنطرة ذاتها ليصلا من الحسيّ إلى المعنوي.

أول حب يحسه الطفل هو حبه لأمه.. التي ترضعه وتحتضنه. فالحب –كما ترى– متصل اتصالا كاملا في أول ظهوره بالثدي والحضن.

وقد زعم فرويد بطبيعة الحال أن هذا الحب جنسي! وتعسف وتمحل ليقول إن كل لذة بيولوجية –من طعام أو شراب أو تبول أو تبرز أو حركة عضلية – هي لذة جنسية، على أساس أن الكيان البيولوجي ذاته مصبوغ بصبغة جنسية، فكل ما يصدر عنه ملوث بلوثة الجنس!

وبصرف النظر عن هذا التعسف "الاستبدادي" الذي لا يحمل دليله في هذا الفرض.. فإننا نتمشى مع فرويد خطوة أخرى لنكشف زيف نظريته على نطاق أوسع..

فالحب –دون شك– يتعدى بعد قليل نطاق اللذة البيولوجية، فيتجه "لشخص" الأم ذاتها حتى في غير ساعات الثدي والحضن.. إنه يعبر القنطرة كما قلنا ويصل إلى نطاق "المشاعر".. والطفل يحب أمه قطعا لأنها هي التي ترضعه وتحتضنه.. ولكن امتداد الحب إلى ما بعد لحظة الرضاعة والاحتضان هو بدء الدخول في العالم المعنوي، الذي ينبني على أساس حسي ولكنه ليس حسيا خالصا على أي حال.

في هذه المرحلة.. التي لا يكون فيها الحب بيولوجيا بحتا... حين يبدأ الحب يصبح أمرا "نفسيا" أكبر من الكيان البيولوجي.. كيف يتجه الطفل الذكر والطفلة الأنثى نحو أمهما بالحب، إذا كان هذا الحب مسألة "جنسية" كما يزعم صاحب التفسير الجنسي للسلوك البشري؟!

ثم إن الذي يثبت لنا أن هذا الحب "حب" لا "جنس".. أن الطفل بعد فترة يأخذ في الارتياح إلى أشخاص آخرين غير أمه.. منهم الأب، ومنهم الأقرباء والأصدقاء.. فيلصق بهم ويهفو إليهم.. وإن كان أحد منهم لا يغني –بعد– عن الأم. وإنما هو مجرد مظهر لاتساع الحب في نفس الطفل مع اتساع إحساسه بالكون الخارجي، الذي يقع خارج نطاق ذاته. وفي هذا يستوي الطفل والطفلة بلا تمييز. مما يثبت أن أسطورة الجنس في هذه المرحلة من العمر غير قائمة على أساس!

إنما يجيء الحب الجنسي في مكانه الطبيعي من مراحل النمو، حيث تحتاج إليه البنية النفسية للكائن الحي، ليؤدي دوره البيولوجي المقسوم.

* * *

هل يظهر الحب وحده في عالم الطفل دون الكره في مبدأ الأمر؟

لقد قال فرويد نفسه في كتاب "Totem and Taboo" إن حب الطفل لأبيه يسيطر على نفسه وحده لفترة من الوقت، قبل أن يظهر الكره في عالمه الشعوري تجاه الأب –فيما يزعم– بسبب منافسته على الأم.

ويبدو على أي حال أن الحب –وهو في عام الطفل الرضيع عبارة عن "الالتصاق"– يكون أول الخطين المتقابلين في الظهور. ويكون الخلط المقابل له كامناً في النفس لأنه لا يجد بعد ما يثيره. ولكنه ولا شك موجود فهو يكره مثلا أي شخص يحاول أن ينتزع الثدي من فمه. ولو كانت أمه ذاتها التي يحبها. ويكره أي شخص يحاول أن ينتزعه هو من حضن أمه. ولو كان أباه الذي يحبه [حتى يألفه بالدرجة التي يستريح فيها إليه كما يستريح للأم، أو يكون راغباً من تلقاء نفسه في الذهاب إليه]. ثم هو في مبادئ مرحلة الوعي هذه يكره وجوهاً معينة وأشخاصاً معينين بغير سبب ظاهر.. ولو توددوا إليه. وكل ذلك يثبت وجود الكره في النفس في تلك المرحلة المبكرة، ملازما لظهور الحب أو لاحقاً له بقليل.

ولكن الأسطورة التي رددها فرويد في معظم كتبه عن الازدواج العاطفي Ambibilance بمعنى نشوء الحب والكره نشوءاً ذاتياً في وقت واحد تجاه كل شيء وكل شخص يقع في عالم الإنسان.. أسطورة لا دليل عليها من الواقع.. إلا هذه الظاهرة الخادعة، وهي أن الإنسان كثيراً ما يكره الشخص أو الشيء الذي يحبه دون أن يعي الأسباب الدافعة إلى هذا الكره.

وهي ظاهرة خادعة كما قلنا لأن الكره في كل حالة له سبب. وحين يحدث أن يختفي السبب في اللاشعور فليس معناه أنه لم يكن موجوداً بادئ ذي بدء في نطاق الشعور، أو أنه نشأ نشوءاً ذاتياً من الحب وبسبب الحب كما يزعم فرويد.

فالطفل يكره أمه –التي يحبها حباً لا شك فيه– لأنها تنزع الثدي من فمه [حين ترى أنه يحسن كفه عن الرضاعة– بينما يحس هو –من وجهة نظره– أن الثدي ملكه هو، وهو صاحب التصرف فيه، وهو الذي ينبغي أن يعلن الاكتفاء منه حين يريد! ويكرهها لأنها تنزع عنه ملابسه حين تتسخ وتلبسه ملابس غيرها، في حركات تضايقه وتحز في نفسه كما تحز في جسمه! ويكرهها لأنها تبل جسمه بالماء حين تحممه، ولا تصيخ لصراخه فتكف عنه هذه المهمة الثقيلة! ويكرهها لأنها تكفه عن لمس أشياء يرى هو أن من حقه أن يلمسها، أو قضم أشياء [ضارة] يرى هو أن من حقه أن يختبرها بأسنانه "ليعرفها".. إلخ.. إلخ.. وكلها أسباب تنشئ الكره. ويتبدى هذا الكره في ضرب الطفل لأمه على وجهها وما يطوله من جسمها

في أثناء الرضاع أو في غير الرضاع. ولكن هذا الكره كله لا يقوى على مواجهة الحب العميق العنيف الذي يحس به نحو أمه. ومن ثم يكون مؤقتاً، وفي صورة نزوات، ويظل الحب –قبلها وبعدها– هو المسيطر على مشاعره تجاه أمه. وسواء رسب هذا الكره في اللاشعور أم بقي في دائرة الشعور [وهذا ممكن] فهو كره مسبب، وليس بلا سبب كما يزعم فرويد.

ويكره الطفل أباه –الذي يحبه حباً لا شك فيه– لأنه تتمثل فيه القوة الآمرة الناهية، التي تضع حداً لتصرفات الطفل السائبة بلا حدود. فهو يمنعه من الإمساك بهذا الشيء أو ذاك. أو يمنعه من قضمه. أو ينهره بشدة إذا أتى عملا لا يرضى عنه. أو يضربه. أو يمتنع عن حمله. أو يتركه ويخرج لعمله وهو متعلق بحضنه.. إلخ.. إلخ.. وكلها أسباب تنشئ الكره. ويتبدى الكره كذلك في ضرب الطفل لأبيه أو عضه له! ولكن هذا الكره كله لا يقوى على مواجهة الحب العميق العنيف الذي يحسه نحوه. ومن ثم يكون –ككرهه لأمه– مؤقتاً وفي صورة نزوات. ويظل الحب هو المسيطر. وسواء رسب الكره في اللاشعور أم بقي في دائرة الشعور فهو كره مسبب، ليس ناشئاً نشوءاً ذاتياً من الحب، وليست المشاعر الجنسية تجاه الأم داخلة كذلك في أسبابه.. إلا في مظهر واحد خادع.. فالطفل يغار على أمه حقاً لأنه يشعر بالامتلاك الكامل لها. فهو يكره أن ينافسه فيها أحد البتة. يستوي في ذلك أبوه أو أي أحد غيره.. ولكن أشد من يكره منافسته ليس أباه.. وإنما هو الطفل الوافد بعده، الذي يخلفه على الثدي والحضن، وينتزعه من مملكته وينزله من عرشه! ذلك هو الذي لا يطيقه الطفل بحال!

أما أسطورة العشق الجنسي للأم، وكراهية الأب بسبب منافسته عليها، فالذي يهدمها من أساسها أن الطفلة كذلك تشعر بالامتلاك الكامل للأم، وتكره كل من ينتزعها منها وبخاصة الوافد الجديد!

والحالات التي أفنى فرويد عمره في تحليلها ليثبت أن كراهية الطفل لأبيه عميقة جداً في لا شعوره، ومرتدة إلى أيام الطفولة الأولى. حالات نحن على استعداد كامل للتسليم بها، سواء كانت شاذة أو سوية.. ولكن الذي لا نسلم به –لأنه لا يحمل أي دليل علمي– هو أن سبب الكره هو العشق الجنسي للأم [عقدة أوديب] والشعور بمنافسة الأب –جنسياً– في الاستيلاء على الأم.

يقول فرويد إن الأحلام التي يرى فيها الطفل حيواناً مزعجاً يهجم عليه ويهم بافتراسه هي تعبير لا شعوري عن كراهية الأب..

ويروح "يتعمق" جداً في البحث، فيقول إن حلول الحيوان محل الأب في الرمز اللاشعوري الذي يستخدمه العقل الباطن في الحلم، سببه أن البشرية الأولى قتلت أباها لتستأثر بأمها (!!) ثم أحست بالندم على ذلك فقدست ذكرى الوالد وعبدته تكفيراً عن خطيئة القتل. ثم استبدلت به عبادة الحيوان. ومن ثم رسب في لا شعور البشرية استبدال الحيوان بالأب. وصار اللاشعور —حين يحب أن يرمز إلى كراهية الأب– يرمز لذلك بحيوان مفترس هاجم على الطفل.

وهذه اللفة الطويلة الملتوية التي يلفها فرويد.. سنفترض جدلا أنها صحيحة بحذافيرها!

فلماذا تحلم الطفلة الأنثى كذلك بحيوان مفترس هاجم عليها؟! بينما هي —في زعم فرويد تعشق أباها عشقاً جنسياً، وتكره الأم التي تنافسها في هذا العشق [عقدة إليكترا] والأم لم يقتلها أحد، ولم يقدس ذكراها أحد تكفيراً عن الخطيئة، ولم يستبدل بها أحد عبادة الحيوان؟!

* * *

أما الكره الموجه للناس عامة.. "للآخرين" كلهم.. فله كذلك أسباب!

سببه هو الوجود ذاته!

فالطفل —أو الإنسان عموماً– يكره الآخرين لأنه يحب ذاته! ويحب الخير لذاته: "وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ"[1] "وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ"[2]. وما دام متمركزاً حول ذاته، شاعراً بوجودها شعورا مبالغاً فيه، فإنه يكره الآخرين لمجرد وجودهم! لأنه يحس وجودهم ضاغطاً على وجوده، مضيقا عليه.

وهذا هو "الغل" الذي يقول القرآن إن لله سينزعه من قلوب المؤمنين يوم القيامة [أي أنه موجود في قلوبهم في الدنيا!]: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ"[3].

(1) سورة العاديات [8].

(2) سورة النساء [128].

(3) سورة الحجر [47].

وسنتحدث في نهاية الفصل عن "التهذيب" الذي يشمل الخطوط النفسية كلها، وبخاصة خطّي الخوف والرجاء، والحب والكره..

وهو تهذيب –كما سنتبين– ضروري للحياة البشرية في مجموعها.

ولكنا نود أن نشير هنا إلى أن الكره لا يكون وحده مسيطراً أبداً على النفس السوية.. ولا يتحول إلى حقد إلا في النفوس المريضة المنحرفة.. لأن الحب الذي يحسه الإنسان للناس عامة.. للآخرين كلهم. هو حب فطري وعميق. وهو يعمل على موازنة الكره فلا يطغى على الإنسان، حتى مع شعوره بذاته، وحب الخير لنفسه.

وإنما يعمل التهذيب على التقليل إلى آخر مدى من ذلك "الغل" الموجه للآخرين، بوسائل سنذكرها في أثناء التعقيب على الخطوط المتقابلة. ولكنه لا يفرض على الإنسان شيئاً من خارج نفسه، ولا "يكبت" طاقة الكره بحيث تحتدم –مكبوتة– في داخل النفس وتوجه خط سير الحياة من وراء الستار كما زعم فرويد في كتبه كلها، وخاصة كتاب "Totem & Taboo" الذي يصف فيه الحياة الاجتماعية والوجدانية والدينية والفكرية للبشرية من خلال عقدة أوديب والازدواج العاطفي الذي سبقت الإشارة إليه، والذي يزعم فيه أن الكره ناشئ من الحب –ضريبة مفروضة بغير أسباب!

*   *   *

هذا الحب.. الذي يبدأ متصلا بالثدي والحضن، ثم يعبر هذه القنطرة إلى عالم "المشاعر" والمعنويات... إنه عالم عجيب جدا.. رائع جدا.. ونبيل جدا:

إنه يظل يرتفع ويتسع.. من نقطة الثدي الصغيرة التي تكوّن عالم الطفل كله.. حتى يشمل العالم كله.. حقيقة لا مجازا.. يشمل الكون كله والحياة كلها والإنسان.. ويصل إلى الله.

إنها طاقة ضخمة جدا.. وذات استعداد عجيب للسعة والارتفاع..

فبعد أن يحب الطفل أمه كلها.. لا ثديها وحضنها فحسب.. بل هي كلها كذات مستقلة عنه، حبيبة إليه، وبعد أن يحب أباه كذلك، ويحب من حوله من الناس ممن يلاطفونه ويلاعبونه ويعاونونه على الحركة والسير والكلام والتفكير..

يتسع عالمه الحسي ويتسع معه كذلك نطاق الحب ومستواه.

لقد أصبح يحب أمكنة معينة وأشياء معينة.. و"مواقف" معينة.

يحب اللعب وأدوات التسلية والحلوى والطعام... إلخ.

ويحب أن يُحْمَل.. وأن يدلل.. وأن يناغى.. وأن يُبْتَسَم في وجهه. وأن يشجّع..

هذه ليست مسائل حسية.. أو ليست حسية خالصة.. فهي مواقف "معنوية". إنها – في عالمه– قيم وأعمال.. وليست أعمالا فحسب.

وطبيعي أن "القيم" التي يحبها بادئ ذي بدء هي القيم اللاصقة بذاته، التي تحدث له المتعة والسرور.

ولكن عملية النمو العجيبة التي وهبها الله للإنسان، تخرج به من حدود ذاته المفردة، على خط "الجماعية" الذي سنتكلم عنه فيما بعد، فيحب الآخرين، ويحب –بالتدريج– قيما تستلزمها الحياة مع الآخرين..

ونمو هذه القيم ليس أمرا هينا في مبدئه.. بل إنها لتكون كريهة في بادئ الأمر.. تقع في دائرة الكره لا في دائرة الحب..

ورويدا رويدا تنتقل.. فتنزلق من خط الكره.. حتى تصل إلى خط الحب.. ثم تصعد معه درجة درجة حتى تصل إلى أعلى الآفاق..

عندئذ يحب الإنسان "العدل" و"الرحمة" و"الصدق" و"الشجاعة" و"الإنسانية"..

ويحب الكون.. يحب "الطبيعة"..

ويحب الجمال.

ويحب الحياة والأحياء..

ثم يصل إلى القمة القصوى فيحب الله..

ويعود هذا الحب العلوي فينشر ظلاله على كل أنواع الحب.. فيربطها بالله..

وتلك قمة الحب في النفس البشرية حين تصل غايتها من الصفاء.. عند الطرف الملائكي من الإنسان..

ثم تحدث عجيبة من العجائب في خط الحب..

لقد قلنا إن خطّي الحب والكره هما الخطان الثانيان في تكوين النفس.. والخطّان الأولان هما الخوف والرجاء، اللصيقان بذات الإنسان.

ولكن الحب.. هذا العنصر النوراني الشفيف.. يصنع أحيانا المعجزة.. يرفع الإنسان على ذاته.. يرفعه على ذاته فيغيّر –مؤقتا على الأقل– تركيب نفسه.. ويصبح الحب هو الخط الأعمق والأوسع، حتى ليغلب في نفسه خط الخوف وخط الرجاء.. وعندئذ يضحّي الإنسان نفسه، اللصيقة بالخوف والرجاء، في سبيل "القيم".. في سبيل الله!

ليس هذا هو الإنسان "العادي".. ففي الإنسان العادي يكون ترتيب الخطوط كما ذكرنا؛ الخوف والرجاء أولا، ثم الكره والحب.. ولكن الإنسان الذي يرتفع على الخط العادي تتسع دائرة الحب في نفسه، ويكون ارتفاعه بمقدار اتساع هذه الدائرة، حتى تغلب في النهاية الخوف والرجاء الأرضي كله.. ويتبقي الخوف والرجاء من الله وحده..

والقمة البشرية في هذا الأمر هم الأنبياء.. الذين يغلب الحب في نفوسهم على كل ما يتصل بأشخاصهم من الخوف والرجاء..

* * *

وينبغي قبل أن نختم هذه الفقرة أن نسجل لفرويد الحقائق الجزئية التي اهتدى إليها بشأن هذين الخطين المتقابلين في النفس البشرية، وهما اللذان صرف إليهما كثيرا من جهده وأبحاثه، وإن كان قد تعسف كما رأينا في وضع الأساس الذي يفسر به هذه الجزئيات.

فقد اهتدى إلى الترابط الوثيق بين خطّي الحب والكره. وإن كان لم يدرك أنها ظارهة شاملة لكل خطوط النفس المتقابلة.

واهتدى إلى اجتماع الحب والكره أحيانا تجاه الشيء الواحد أو الشخص الواحد [Ambivilence] وإن كان أصر على أن هذه هي الحالة الدائمة، وأصر كذلك على تفسيرها بأنها ظاهرة طبيعية لا أسباب لها! وقد رأينا أنها حالة ذات أسباب، ومن ثم يمكن على الأقل تعديل المقادير بحيث يكون الحب هو الأقوى والأدوم والأعمق.

واهتدى أخيرا إلى أن الإنسان ينتقل أحيانا –بلا سبب ظاهر– من حب شيء أو شخص إلى كراهيته والنفور منه فجأة أو تدريجا. وتلك ملاحظة صادقة ولا شك. ولكنه اتخذ منها دليلا على وجود الكره تلقائيا مع الحب –بدون سبب– تجاه كل شيء وكل شخص [Ambivilence]، وقال إنها مجرد انقلاب للوضع، بحيث يتحول الكره الذي كان مكبوتا في اللاشعور إلى كره واع على السطح، ويكبت الحب المقابل له في اللاشعور!

ولا نستطيع أن نؤيده في هذا التفسير.. ففضلا على أنه لم يفسر الظاهرة ذاتها؛ لم يفسر سبب هذا الانقلاب المفاجئ أو التدريجي.. سبب تحول اللاشعور إلى شعور.. إذ أنها ليست ظاهرة دائمة ولا شاملة ولا عامة عند جميع الناس.. وإنما هي حالات فردية في المشاعر وفردية عند الأشخاص.. فضلا عن أنه لم يفسر الظاهرة ذاتها وإنما سجل حدوثها فقط، فإنه اتخذ منها دليلاً اعتسافياً لإثبات أمر لا تثبته بالضرورة.. فهو ككل شيء مما تناوله فرويد، يحتمل أكثر من تفسير.

أما نحن فلا نقول في هذه الظاهرة إلا ما قال الله سبحانه في كتابه: "وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ"[1]. وإلا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرّفها كيف يشاء[2].

فكل شيء يمكن أن يفسر بالعلم والمنطق. إلا تحوّل القلوب!

* * *

الحسّية والمعنوية

هذان الخطان.. الطاقة الحسية والطاقة المعنوية في الإنسان ينبعان بصورة ظاهرة من حقيقة الجسد والروح التي بنينا عليها ازدواج الطبيعة البشرية.. وإن كان ينبغي أن يقر في أذهاننا دائماً أن الإنسان كيان موحد بالرغم من ذلك الازدواج.

"الطاقة الحسية هي طاقة الجسد المتصلة بالحواس والأعصاب والكيماويات والبيولوجيات والفسيولوجيات. والطاقة المعنوية لا يدري أحد على وجه التحديد "مكانها" و"ماهيتها" ولكنها هي التفكير التصوري التجريدي الذي يدرك "الكليات" و"المعنويات".

([1]) سورة الأنفال [24].

([2]) حديث رواه الإمام أحمد في مسنده.

يدرك "الفضيلة". يدرك "القيم العليا". يدرك "العدل". يدرك "الحق". يدرك "الجمال".. وما إلى ذلك من كليات ومعنويات وتجريدات"[1].

يقول جوليان هكسلي في كتابه "الإنسان في العالم الحديث" في فصل "تفرد الإنسان": "أول خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً قدرته على التفكير التصوري.. ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة.."

ويقول في موضع آخر من نفس الفصل: "وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية، تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

"الأولى: قدرته على التفكير الخاص والعام.

"الثانية: التوحيد النسبي لعملياته العقلية، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

"الثالثة: وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (الجماعة الدينية)، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها.

"وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان، وهي بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية، ولنذكر منها العلوم الرياضية البحتة والمواهب الموسيقية والتذوق والإبداع الفنيين، والدين، والحب المثالي".

* * *

الطاقة الحسية هي طاقة الجسم.. المتمثلة في الطعام والشراب والجنس.. والطاقة العضلية المتحركة المنتجة في عالم الحس وعلم الماد.. طاقة "العمل".

وواضح أنها الطاقة الأولى التي تولد في الإنسان، والتي تكون –فيما عدا طاقة الجنس– قد نمت نمواً ظاهراً مطرداً ملموساً، قبل أن تأخذ الطاقة المعنوية في النمو..

وليس معنى ذلك –كما أشرنا آنفا– أن الإنسان يولد وهو طاقة حسية فحسب. أي يولد جسداً خالصاً. أو حيواناً خالصاً. وإنما توجد في داخل كيانه الطاقة المعنوية القابلة

([1]) من كتاب "منهج التربية الإسلامية".

والمكملة للطاقة الحسية. ولكنها، كما مثلناها من قبل، تكون كامنة كالقدرة على الإبصار التي لا تنمو إلا بعد حين.

يولد الطفل بحواس –تقوى تدريجياً– وعضلات– تقوى كذلك تدريجياً– وأجهزة جثمانية تأكل وتشرب وتفرز.. وهذا هو الكيان الحسي للإنسان.

طاقة الجنس وحدها –من بين الطاقات الحسية– هي التي تتأخر في الظهور، فتظل كامنة في الجسم حتى يأتي دورها المقدور.

ولذلك حكمته عند الخالق المبدع القدير..

فالإنتاج الجنسي –حتى عند الحيوان– يستلزم قدراً معيناً من النمو الجسدي و"النفسي"[1] ليتحمل الكائن –ذكراً كان أو أنثى– ما يتطلبه اللقاء الجنسي من جهاد وبحث وكد حتى يتم؛ ثم يحتمل ما يترتب عليه من نتائج: الذرية وما تستلزمه من إطعام وعناية وتربية ورعاية.. الخ.

ومن ثم ينبغي أن يكون الكائن قد نضج في المجال الجسدي والنفسي ليصبح صالحاً للإنسان. ولا يصلح أن يكون أداة للنسل، بينما هو طفل بعد يعوله غيره في أمور جسده، ونفسه، ولا يحتمل المشقة والجهد والتبعات.

ومن أجل ذلك يصبح ظهور الطاقة الجنسية في الطفولة الباكرة أمراً لا مقتضى له ولا مبرر.. لأنه لا يؤدى في ذلك الوقت أية وظيفة للكائن الحي.

والخالق المبدع القدير يضع كل شيء في مكانه المقدر المضبوط، حسب حكمته العليا التي لا يسبقها علم ولا يعلوها علم.. والتي تتنزه عن الخطأ والعبث والإسراف: "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ[2]" "مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ[3]".

والدقة المتناهية المضبوطة في الكون العريض كله، التي تنتظمه من أوله إلى آخره فلا يختل توازنه ولا يخرج عن مداره قيد شعرة ولا مترا من سرعة الشعاع! هذه الدقة هي التي تضع كل شيء في مكانه الصحيح، وتضع الجنس في مكانه الصحيح من كيان الإنسان وحياته.

---

(1) نستخدم النفس عند الحيوان مجازا، وعند الإنسان حقيقة.

(2) سورة القمر [49].

(3) سورة الملك [2].

لذلك كان عجباً ما زعمه فرويد من أن الكيان الجنسي يولد نشيطاً مع الطفل، ويتخذ صوراً متعددة حتى يصل إلى مرحلته الطبيعية. وهي الميل إلى الجنس الآخر في مرحلة البلوغ!

وكل الأدلة التي حشرها فرويد حشراً ليدلل على صحة قوله.. أدلة مردودة، لأن تفسير فرويد لها ليس هو التفسير الوحيد ولا التفسير الرشيد! وإنما التفسير الأصح هو الذي يشمل ظواهر أكثر والذي يكون أكثر تمشياً مع النواميس العامة. وهذه كلها تشير إلى أن ظهور طاقة الجنس في أية صورة في مرحلة الطفولة الباكرة أمر لا معنى له ولا ضرورة.

وسنتحدث بشيء من التفصيل عن طاقة الجنس في الفصل القادم، ونحن نتحدث عن "الدوافع والضوابط".. فنكتفي هنا بأن نقول إنها طاقة تظهر متأخرة في المجال الحسي — والنفسي كذلك– لأن دورها في حياة الإنسان يتأخر إلى ما بعد مرحلة الطفولة.. فلا قيمة لظهورها قبل الأوان.

ولا ينفي هذا أن الطفل الصغير يأخذ في "التعرف" على جسده وأعضائه الجنسية في مرحلة مبكرة.. ولكن هذه العملية —كما يقول علماء النفس جميعاً– لا تحمل طابع الجنس. وإنما هي كما قلنا عملية تعرّف.. وحتى حين يكتشف الطفل بعبثه الصبياني أن هذه المنطقة ذات حساسية خاصة، فيزداد عبثاً بها ليزداد إحساساً بما تحدثه من لذة.. فهي مسألة لا علاقة لها بمشاعر الجنس في تلك المرحلة التي لا يدرك فيها الطفل معنى الجنس.

وحتى حين ينحرف الطفل انحرافاً شاذاً بتأثير التوجيه الفاسد من الكبار أو الأقران، فيعرف عملية الجنس كلها قبل أوانها، ويعرف ما يستخدم فيها من الأعضاء، ويشير إلى ذلك في كلامه وألفاظه وحركاته، فكل ذلك إرهاص فقط وليس حقيقة.. إرهاص بالدور المقبل. لا يزيد عن لعبة "الفروسية" التي يستخدم فيها الطفل عصاه على أنها حصان.. لا تحمل من معاني الفروسية الحقة ومشاعرها أكثر من الإرهاص!

وليس معنى ذلك كله أن الطفل لا يدرك شيئاً من مشاعر الجنس حتى البلوغ. فالخالق المبدع القدير قد جعل عملية النمو كلها تدريجية بطيئة.. ولم يجعلها مفاجئة إلا في بعض "مظاهرها" دون حقيقتها.. ومن أجل ذلك يأخذ الطفل في لمحات متوالية يدرك مشاعر الجنس.. ولكن على غير طريقة فرويد التي تنسب كل شيء إلى مشاعر الجنس، من رضاعة وتبول وتبرز ومص إبهام وحركة عضلية وحب للأم!

حرام.. أن نلقي القول على عواهنه هكذا بغير دليل![1]

يولد الطفل بطاقته الحسية –فيما عدا الجنس– مستعدة للعمل، إما مباشرة، وإما في الأيام أو الأسابيع الأولى على أكثر تقدير..

ومن طريقها يتصل بالحياة ويمارسها ويأخذ خبراتها..

فهو يرى الأشياء ويسمعها ويتحسسها ويذوقها –وقد يشمها– ليتعرف عليها. وتعرفه عليها يمنحه خبرة بها، ثم يجعله –بالتدريج البطيء– يدرك أنواعاً من الترابط بينها.

ومن هنا تبدأ الطاقة المعنوية في العمل، مستندة في أساسها على الطاقة الحسية.

وتلك نقطة الوسط.. نقطة التحول، أو القنطرة التي يعبرها الطفل ليصل إلى الطرف الآخر.. إلى الأمور المعنوية الخالصة.

وقد تتبعنا من قبل –ونحن نتحدث عن خطّي الخوف والرجاء والكره والحب– بعض أنواع النمو من الحسّي إلى المعنوي. وهنا نقول إنها ظاهرة عامة لا تختص بهذا الخط أو ذاك.. وإنما تشمل كل النشاط البشري. كله يبدأ في نطاق الحس.. ثم يعبر القنطرة ويصل إلى النطاق المعنوي.. ثم يظل في حياة الإنسان كلها يتأرجح بين هذه النقطة وتلك، ويعبر القنطرة ذاهباً وآيباً، في لحظات البروز ولانحسار الدائمة التداول في الكيان البشري.. ولكنها لا تكون قط حسية خالصة ولا معنوية خالصة إلا في ظاهرها.. أما حقيقتها فهي أنها مزيج تتعدد نسبه وأشكاله، ولكن لا تتغير حقيقته المكونة من عنصرين ممتزجين.

الطعام وهو ألصق الأشياء بالطاقة الحسية –الخالصة– يعبر القنطرة فيصبح "مواعيد" و"آدابا" و"معاني" مختلفة: من اختيار، ومشاركة، ونقصٍ للطيب والحلال..

والجنس –وهو ألصق الأشياء كذلك بالطاقة الحسية– يصبح مشاعر وعواطف و"مشاكل" نفسية وعاطفية وفكرية واجتماعية واقتصادية.. الخ.

وتلك هي معجزة هذا الكائن البشري! أنه يمارس كل نشاط الحيوان الحسي، ومع ذلك يمارسه على طريقة أخرى غير طريقة الحيوان.. يمارسه على طريقة الإنسان!

([1]) حالات الشذوذ النفسي التي اتخذها فرويد دليله الأوحد في متاهة الجنس هذه، سنناقشها في الفصل القادم.

ولكن المعجزة الكبرى –التي أشار إليها جوليان هكسلي فيما نقلناه عنه في هذه الفقرة– هي ارتقاء الإنسان إلى مرحلة التفكير المجرد، وما ينشأ عنها من عقائد وأفكار وعلوم وفنون ومشاعر، وتنظيمات اجتماعية وسياسية واقتصادية وحضارية وثقفية.. إلخ. وارتقاؤه إلى إدراك "القيم" و"الفضائل" والإيمان بتلك القيم والفضائل، والتمسك بها.

حقاً إن هذه هي القمة البشرية..

هي أبدع ما في كيان الإنسان.

ولسنا نعلم شيئاً عن كنهها وماهيتها. كيف تنشأ؟ وكيف تعمل؟ في أي مكان تسكن في الكيان البشري؟!

وقد كان هذا الجهل بكنهها وماهيتها حافزاً لبعض المدارس النفسية [التجريبية والسلوكية والميكانيكية من بينها] وبعض المذاهب الحضارية إلى إغفالها جملة، أو تفسيرها بالتفسير المادي!

ولكن –كما سبق أن أشرنا– ما المعلوم في كيان الإنسان، حتى نلغي هذه لأنها مجهولة الكيان؟!

ما المعلوم في جهاز الهضم وجهاز التنفس وجهاز الحس وجهاز الإنسال؟

هل يتجاوز المعلوم عالم الظاهر إلى حقيقة الكيان؟

هل الخلية الحية الواحدة المفردة –حتى قبل أن تتخصص إلى فم أو معدة أو عصار هاضمة أو بويضة أو حيوان منوي– هل هي شيء معروف لنا إلا من الظاهر وحده؟

هل نعلم كيف تنشأ؟ وكيف تعمل؟ والسر في نشاطها، أو السر الذي جعل أوضاعا طبيعية أو كيميائية معينة تثير فيها نشاطها وحركتها؟!

كلا. لا نعلم!

فإذا كنا نجهل كذلك ماهية الطاقة المعنوية في الإنسان.. فلماذا نفرق بين جهل وجهل.. فننفي "الوجود" عما تجهله في ناحية، بينما تثبت الوجود لما تجهله في ناحية ثانية.. ومدى الجهل واحد في الحالتين؟!

كلا! وإنما قصارى ما نفعل أن نكف –حين نتعب– عن البحث في ماهيات الأشياء ونكتفي بدارسة مظاهرها.. وحينئذ نجد مظاهر الطاقة المعنوية ظاهرة حتى للماديين كجوليان هكسلي وغيره من العلماء "الواقعيين"!

وإنما يعنينا هنا –في هذا الاستعراض– أن نثبت اتصال الطاقتين في كيان الإنسان، وأنهما معاً يمسكان الإنسان من طرفيه، أو يمدان له جناحيه.. فيمشي بجسده على الأرض وروحه محلقة في السماء!

* * *

ما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس

أو الإيمان بالمحسوس، والإيمان بالغيب..

خطان آخران من الخطوط المتقابلة في النفس البشرية..

أحداهما يؤمن بما تدركه حواسه من سمع وبصر ولمس وشم وذوق.. والآخر يؤمن بما وراء الحس.. مما لا يُرى ولا يُسمع ولا يلمس ولا يلمس ولا يذاق ولا يشم..

وهما خطان يسيران مقاربين لخطّي الحسية والمعنوية.. ولكنهما ليسا هما بالضبط، وإنما شبيهان..

فهناك تحدثنا عن "طاقات" حسية ومعنوية.. عن طاقة عضلية جسمية، وطاقة فكرية معنوية.. وعن المجال الذي تعمل فيه تلك الطاقات.

وهنا نتحدث عن "الإيمان" بالمحسوس و"الإيمان" بالغيب..

إن "الإيمان" داخل كله من حيث الشكل في نطاق الطاقة المعنوية، فالطاقة الحسية "تمارس" النشاط، ولكنها ليست هي الموكلة "بالإيمان".. ولكنه من حيث الموضوع يمد جناحيه معاً فيشملان ما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس. وذلك –في أبسط صورة ممكنة– توضيح لمدى التعقد والتشابك والترابط في كيان النفس البشرية، وفي خطوطها المتقابلة بصفة خاصة.. إنه لا شيء من هذه جميعاً يوجد منعزلا بمفرده، أو يعمل منعزلا بمفرده.. وإنما تعمل كلها جميعاً بطريقة معقدة متشابكة، كما يعمل الجسم كله مترابطاً متكاملا، وإن سهل علينا التمييز –في العمل– بين عضو وعضو. ولكن على أساس الترابط

لا على أساس العزلة والانفصال. حتى الأعضاء المتخصصة جداً، والتي لا تعمل —في الظاهر– بصفة دائمة كجهاز الإنسال.. حتى هذه تأخذ من الدم غذاءها لحظة لحظة.. وتصب في الدم هرموناتها لحظة لحظة.. فلا تنفصل عن بقية الجسم في أية لحظة، ولو كانت —في فترات– لا تمارس نشاطها الكبير!

والنفس كالجسم في ذلك ولكن على صورة أشد في الترابط والتشابك والتعقيد!

* * *

يؤمن الإنسان بما تدركه حواسه.. كذلك فطرته.

فهو —دون كدّ منه ولا بحث ولا سؤال– يؤمن بأن ما يراه وما يسمعه وما يلمسه وما يشمه وما يذوقه كله موجود.

ولا يتردد —إلا في الخبل الفلسفي الدائر في الأبراج العاجية لا في حقيقة الواقع!– لا يتردد في الإيمان بوجود هذه الأشياء كلها التي تدركها حواسه، والتي اصطلح على تسميتها بالكون المادي.

وقد يدور الجدل في مدى انضباط الحواس وهي تتلقى.. وهل ما تتلقاه هو "الحقيقة" كما هي موجودة في الواقع "المطلق".. أم هو صورة مشكّلة بحسب طبيعة الحواس وعلى صورتها.

ولكن الإنسان —فيما عدا الخبل الفلسفي الدائر في الأبراج العاجية– لا يساوره الشك في وجود الأشياء بالفعل، حتى وإن ساوره الشك في وجود فارق بين وجودها الحقيقي المطلق، ووجودها الذاتي النسبي كما يتشكل في داخل الحواس..

ولا يعنينا هنا —ولن نصل فيه إلى دليل قطعي– أن نبحث في كيفية إدراك الإنسان لما تدركه حواسه وكيفية إيمانه بما تدركه الحواس.. فقصارى ما نصل إليه في هذا الشأن هو تسجيل الظاهرة وتتبع مظاهرها. أما كنهها وماهيتها فأمر لم يصل العلم فيه إلى شيء، وما أظنه يصل في أي يوم.. وهو لم يصل إلى كنه المادة ولا الطاقة ولا الإشعاع!

يعنينا فقط أن نسجل أن في فطرة الإنسان أن يؤمن بوجود ما يصل إليه عن طريق الحواس.

وفي فطرته كذلك أن يؤمن بوجود أشياء لا تصل إليه عن طريق الحواس..

وتلك مزيته الكبرى على عالم الحيوان..

الحيوان يتعامل مع الوجود بحواسه وحدها –فيما نعلم نحن عن ظاهر حياته– ولا يتعامل معها فيما وراء الحس.

وقد تكون له أجهزة حسية لا نعلمها، يدرك بها حدوث الزلازل والعواصف وانفجار البراكين قبل أن يحسها الإنسان.. أجهزة تتلقى الأمواج الكهرطيسية لهذه الأحداث وتترجمها بصورة ما، كما تترجم العين إشعاعات الضوء، وكما تترجم الأذن اهتزازات الصوت.

ولكنه في هذه الحالة أيضاً يكون إدراكاً حسياً، وإن اختلفت الحاسة عما يعرف الإنسان في نفسه من حواس.

ولكن الإنسان بعد ذلك –يتميز بإدراك وجود لأشياء لا تصل إليها حواسه، والإيمان عن وعي بوجود هذه الأشياء.

والقرآن يستخدم لوصف هذا المفهوم لفظ الإيمان "بالغيب".

"الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ..."[1].

"لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ.."[2].

"جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ"[3].

"وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ"[4].

وقمة الإيمان بالغيب هي الإيمان بالله..

---

(1) سورة البقرة [1–3].
(2) سورة المائدة [94].
(3) سورة مريم [61].
(4) سورة الحديد [25].

وسنتحدث في فصل "الدين والفطرة" عن "الدلائل" التي تهدي الفطرة إلى وجود الله. الدلائل الحسية وغير الحسية..

ولكن وجود هذه الدلائل ليس هو الذي ينشئ تلك الطاقة التي نحن بصددها: طاقة الإيمان بالغيب..

فلو كانت هي بذاتها التي تنشئ الإيمان بالغيب، لتساوى الناس كلهم –بصورة آلية حتمية– في الإيمان بالغيب.

والواقع ليس كذلك.. فمن الناس من يزيد عنده الإيمان بالغيب ومنهم من ينقص.. ومنهم من يكون مهتدياً في الإيمان بالغيب ومنهم من يضل. فليست طاقة الإيمان بالغيب إذن مترتبة على وجود دلائل الإيمان الحسية أو غير الحسية..

إنما هي طاقة موجودة داخل الكيان البشري، سواء وجدت الدلائل أم لم توجد.. وهي تهتدي وتضل سواء وجدت الدلائل أم لم توجد.

إنها طاقة فطرية في الإنسان.. في كل إنسان! ولكنها ككل طاقاته الأخرى تهتدي وتضل.. وتزيد عند هذا الشخص وتنقص عند ذاك.

تهتدي فتؤمن إيماناً غيبياً بوجود الله. وهو غيب بطبيعة الحال. فالله لا تدركه الأبصار.. ولا أي حاسة من الحواس..

وتضل، فتؤمن –إيماناً غيبياً– بالطبيعة أو بأية قوة أخرى تسوس الكون وتدبره..

وفي كلتا الحالتين هي طاقة فطرية موجودة في كل إنسان.. تجعله يؤمن بأشياء لا تدركها حواسه، ولا يدركها عقله كذلك إلا في حدود.

ولقد كفرت بعض المذاهب والنظم بهذه الطاقة التي تؤمن بالغيب.. ولكنها نسيت أنها طاقة فطرية! وأنها حين لا تتوجه إلى الإيمان بالله –وهو مجالها الأكبر والأعلى– فإنها تتوجه وجهات أخرى ضالة منحرفة ولكنها لا تُكبت ولا تموت! ولو قاومتها الدولة وسخرت منها الدعايات!

ولطول ما هرب الأوربيون من الله.. إلى "الطبيعة".. أو بالأحرى من الكنيسة التي كانت تمارس معهم صنوفا من الاستبداد والإذلال والمهانة الروحية والفكرية والمادية.. لطول

ما هربوا من فكرة الله الكنسية إلى فكرة الطبيعة، نسوا أن هذه الطبيعة ذاتها غيب.. وإلا فما هي على وجه التحديد؟! وكيف تعمل؟ وما كنه الطاقة التي تشتمل عليها؟ وما كنه "القوانين الطبيعية"؟.. كيف نشأت، وكيف التزم بتنفيذها الكون؟ وهل هي –هذه الطبيعة– قوة مسيطرة أو قوة مسيطرٌ عليها؟.. إلخ.. إلخ.

كل ذلك غيب.. إنه غيب ضال منحرف.. ولكنه غيب.. لا تُدْرَكُ حقيقته ولكن تدرك فقط آثاره. ومن ثم فهذا الإيمان الضال "بالطبيعة" هو –من حيث جوهره– إيمان بالغيب.. عن طريق تلك الطاقة الفطرية التي تؤمن بما لا تدركه الحواس!

وهكذا تظن أوربا أنها تهرب من "الغيبيات" فتلاحقها الغيبيات في مهربها.. ولكن في صورة ضالة تناسب ما هي عليه من ضلال وانحراف.

بهذه الطاقة الفكرية إذن يؤمن الإنسان بوجود الله.. ثم يعبده أو لا يعبده. تلك خطوة أخرى!

ويؤمن بالبعث واليوم الآخر.. حين تتفتح بصيرته للإيمان بالله.. بل لقد آمن بهما حتى وهو ينحرف في طريقة عبادته لله!

ويؤمن بوجود كائنات خفية عن حواسه: الملائكة والجن والشياطين.. وغيرها من الكائنات.

وبصرف النظر عن الاتجاه المادي الحالي في الغرب، الذي يريد أن يقصر الإنسان على ما تدركه حواسه فحسب –أي على الجانب المادي الحيواني منه– فإن البشرية في أعصرها كلها قد آمنت بوجود كائنات خفية لا تدركها الحواس، وتصورتها في صور شتى بما تملي لها طاقة الخيال[1].

ويكفي أن نثبت أن هذا الاتجاه المادي ذاته لم يستطع أن يقتلع من كيان الإنسان إيمانه بما لا تدركه الحواس.. فقد لجأ إلى لون من ألوان الغيب يسد به الفراغ الناشئ من الإيمان بالله.. حين آمن بالطبيعة أو غيرها من القوى الغيبية التي تحكم الكون.

ويعنينا هنا فقط –ونحن نستعرض الخطوط المتقابلة في النفس– أن نثبت وجود الطاقتين في كيان الإنسان. ونثبت أنهما متصلتان.

(1) نتحدث في الفقرة التالية عن خطي الواقع والخيال.

فنحن نؤمن بما لا تدركه الحواس ثم نحاول تفسيره أو تصوره في صورة تدركها الحواس!! نتصور صورة حسية للملاك والشيطان.. ونتصور صوراً شتى لليوم الآخر والقيام والبعث والحساب.

وفي مجال التنزيه المطلق يكف الإنسان عن التصور.. ولكن بجهد.. بأن يطرد من خياله كل صورة يتصورها لذات الله، سبحانه وتعالى عما يصفون! ليس كمثله شيء.

فالطاقتان إذن متصلتان من هذا الجانب.

ومتصلتان بالقنطرة التي تتصل عن طريقها كل الخطوط المتقابلة..

فعالم الحواس ينشأ أولا.. ثم تقوم القنطرة الحسية المعنوية التي ينتقل بها إلى عالم ما وراء الحواس..

ومتصلتان أيضاً بأنهما –معاً– توصلان إلى كيان الإنسان المجتمع المترابط مدركات متنوعة –حسية وغير حسية– يتكون منها في النهاية عالمه الشامل الكبير.

الواقع والخيال

خطان متقابلان في داخل النفس.. قريبان في ظاهرهما من خطّي الحسية والمعنوية، وخطّي الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب.. ومع ذلك فكل من هذه الأزواج الثلاثة ذو كيان متميز.

وقد رأينا في الفقرة السابقة الفارق بين خطّي الحسية والمعنوية وخطّي الإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب. وهنا نبين الفرق بين الأزواج الثلاثة المتقاربة:

الخطان الأولان طاقتان في الكيان البشري إحداهما الطاقة الحسية المتمثلة في الجسم: الطعام والشراب والجنس. وهي الطاقة العضلية المتحركة المنتجة.. طاقة "العمل". والأخرى الطاقة المعنوية التي تدرك المعاني الكلية والمعاني المجردة. تدرك الفضيلة والقيم العليا والحق والعدل... وتقوم على التفكير التصوري التجريدي.

والخطان الثانيان هما خطّا الإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب. الإيمان بأن ما يصل للنفس من طريق الحواس موجود في عالم الحقيقة. والإيمان كذلك بأن ما يصل للنفس من وراء الحس موجود أيضاً في عالم الحقيقة.

والخطان الثالثان اللذان نحن بصددهما في هذه الفقرة هما الطاقة التي تتصل بواقع الأرض المحسوس فتعمل فيه وتحقق إنتاجاً واقعياً ملموساً. والطاقة التي والطاقة التي تتخيل أشياء أخرى غير ما تراه في الواقع، وهي عالمة بأنه خيال.

ولا شك أن هناك تداخلا وتشابكا بين هذه الأزواج الثلاثة شديد التعقيد والتركيب.. ولكني أود أن أؤكد حقيقة تميزها رغم تشابكها وتشابهها.

فقد يبدو أن طاقة الواقع هي ذاتها الطاقة الحسية [في الزوج الأول] وهي ذاتها طاقة الإيمان بما تدركه الحواس [في الزوج الثاني] وأن طاقة الخيال هي ذاتها الطاقة المعنوية في الزوج الأول وطاقة الإيمان بالغيب في الزوج الثاني.

وليست الحقيقة كذلك..

فطاقة الواقع تشمل –مع تميزها– الخطوط الأربعة الأولى جميعاً!

الطاقة الحسية بكاملها داخلة في طاقة الواقع. لأنها جزء من الواقع. والطاقة المعنوية القائمة على التفكير التصوري التجريدي، داخلة كذلك في طاقة الواقع. فحين يفكر الإنسان في العدالة. في الحق. في الصدق. في الفضيلة. في الشجاعة.. إلخ فإنه يفكر تفكيراً تجريدياً نعم. ولكن على أساس الواقع. على أساس أن العدالة واقع. والحق واقع. والصدق واقع. والفضيلة واقع. والشجاعة واقع.. الخ. إنه لا يفكر فيها على أنها خيالات. بل إنه في الحقيقة لم ينشئ الصورة التجريدية إلا من "الوقائع" التي مارسها أو شاهدها بالفعل، وجمع بعضها إلى بعض، وأنشأ منها صورة تجريدية. وهو "يتخيل" هذه الصورة التجريدية. نعم. ولكن دور الخيال فيها ليس هو إنشاءها إنشاءً من الخيال. وإنما تجميعها من الواقع. ولصق أجزائها بعضها إلى جوار بعض لتتكون منها "الفكرة" المجردة. وحين يطالب الناس في الأرض "بتحقيق" العدالة أو الفضيلة.. وحين يطالبون بعضهم بعضاً بأن يكونوا شجعانا أو صادقين أو ملتزمين للأخلاق.. الخ فهم لا يطالبون بخيالا مجردة يعلمون سلفاً إنها لا تقبل التحقيق في عالم الواقع، أو غير موجودة في عالم الأرض.. وإنما يطالبون بما يعتقدون أنه حقيقة قابلة للتطبيق.. وهم يعلمون أن الناس ليسوا سواء في هذه الفضائل والقيم.. وأنهم لا يثبتون عليها، وإنما يهبطون ويتعثرون في الطريق.. ولكنهم يعلمون كذلك أن في كل إنسان قدراً من الفضيلة يزيد أو ينقص، ولكنه موجود.. ومن ثم فالأمر كله –من حسي وتجريدي– يقع في نطاق الواقع لا في نطاق الخيال.

وكذلك الإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب.. كلاهما دخل في نطاق الواقع.

والخيال يعمل في تصوّر ما وراء الحواس. نعم. ولكن دوره مقصور على محاولة التصور. ولا يتعداه إلى إنشاء شيء من عالم الخيال.

وحين يؤمن إنسان بالله –بالغيب– فهو يؤمن به على أنه –سبحانه– حقيقة موجودة واقعة.

وحين يؤمن بوجود الملائكة، فهو يؤمن بأنهم موجودون حقاً في عالم الواقع، وإن كانت حواسه لا تدرك هذا الوجود، ولا تدرك حتى آثاره..

وكذلك إيمانه بأي شيء فيما وراء الحواس.. هو إيمان الواقع لا إيمان الخيال، ما دام يؤمن به بالفعل.

أما الخيال فيعمل في نطاق آخر..

إنه خيال يعلم أنه خيال..

إن الإنسان ابتداء.. يتخيل.. أي ينشئ صورا لا وجود لها في عالم الواقع.. لا في العالم الذي تدركه الحواس ولا العلم المغيّب عن الحواس.. ولا في نطاق الطاقة الحسية ولا الطاقة المعنوية [وإن كان متصلا بها جميعا كما سنرى بعد لحظة].. ويعلم –في أثناء عملية التخيل– أنه ينشئ هذه الصور إنشاء في عالم الخيال، وهو مدرك بأنها ليست حقيقة واقعة وأنها قد لا تتحقق أبدا في يوم من الأيام!

أعتقد أن الفروق قد صارت الآن واضحة بين كل من هذه الأزواج الثلاثة المتشابهة[1].

فإذا كان ذلك.. فنعود الآن إلى ما بيان ما بينها من تشابك وتداخل وتعقيد!

([1]) يمكن أن نضيف هنا زوجا آخر من الخطوط المتقابلة قريبي الشبه بهذه الأزواج الثلاثة ولكنهما متميزان عنها، هما خطا "الاعتقاد والتجربة" أو "الاعتقاد والتعلم". وقد يبدو لأول وهلة أنهما هما خطا "الإيمان بالغيب والإيمان بالمحسوس". وحقاً إنهما يتداخلان معهما بعض الشيء، ولكنهما يتميزان بعد ذلك. ففي الناس ميل إلى "الاعتقاد" بطريق غير طريق التجربة والتعلم، وميل آخر إلى المعرفة عن طريق التعلم والتجربة. وهما في النفس السوية متوازنان، فهي "تعتقد" فيما هو موضوع اعتقاد، كالإيمان بالله. وتطلب التجربة فيما مجاله التجربة كمعرفة أحسن الطرق لزرع نبات أو إقامة بناء.. أو معرفة عناصر الكون المادي وشكله وظواهره. وكلاهما أمر ضروري لحياة الإنسان، ونشاط سوي من مناشطه.

لقد قلنا إن الخطوط الأربعة الأولى جميعا —الطاقة الحسية والطاقة المعنوية، والإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب– داخلة جميعها في نطاق الواقع.. فالآن نقول إنها —جميعا– متصلة كذلك بطاقة الخيال!

إن الخيال لا ينشئ شيئا من "العدم"! ولو أنه خيال!

إنه في صوره التي يتخيلها يستند أساسا على الموجود في عالم الواقع! ويزيد عليه أو ينقص منه أو يعدل فيه ويشكل، لكي ينشئ الصور الخيالية التي ينشئها! ولكنه لا يصنع شيئاً من "لا شيء"!

وهو —ككل الطاقات المعنوية الأخرى– يبدأ من عالم الحس.. ثم يعبر القنطرة.. ثم يصل إلى المعنويات..

حين يتخيل الطفل أن عصاه حصان، ويركب حصانه هذا الوهمي ويجري به، فهو يأخذ خياله من الصورة الواقعية التي تدركها حواسه، وهي الحصان الحقيقي والركوب الحقيقي. وحين يتصور الجن أو الغول أو العفريت.. الخ. فهو ينشئ من صورة واقعية بادئ ذي بدء ثم يزيد عليها. يزيد عليها اتساعا مرعبا في العينين. ولكن العينين ذاتهما حقيقة مستمدة من الواقع. وطولا بشعا في الشعر ولكن الشعر ذاته حقيقة مستمدة من الواقع. وضخامة رهيبة في الجثة. ولكن الجثة ذاتها حقيقة مستمدة من الواقع..

وحين يتخيل حيوانا يطير.. أو يتكلم.. أو يؤدي أعمالا أخرى فهو يركّب صورا جديدة من صور قديمة موجودة ومحسوسة في عالمه.

ثم يكبر الطفل ويصبح إنسانا ناضجا، ويتغير طابع خياله.. فيتخيل —مثلا– عالما مثاليا [يوتوبيا] كل ما فيه كامل وكل ما فيه جميل.. ولكن طريقة عمل الخيال لا تتغير. فما زال يركّب صورا جديدة من صور قديمة موجودة ومحسوسة في عالمه. وما زال يستند على الموجود في الواقع ويزيد عليه أو ينقص منه أو يعدل فيه.. ولكنه لا يصنع شيئا من لا شيء.

وهكذا يتصل الواقع والخيال أحدهما بالآخر كخطين متقابلين، ثم يتصلان معا ببقية الخطوط النفسية في تشابك وتداخل وتعقيد..

ولا يقف الاتصال والتداخل عند هذه النقطة التي تتصل بطبيعة الخطين..

وإنما يمتد الاتصال والتداخل في الواقع الحيوي للإنسان..

فطاقة الواقع هي التي تشتبك بالعالم المادي المحسوس، وبالعالم "الواقعي" على نطاق واسع [بما في ذلك من قيم –معنوية– وإيمان بالغيب على أنه واقع].

هي طاقة "العمل" و"الإنتاج" الواقعي.. سواء كان الإنتاج في عالم المادة أو عالم الروح.

الطاقة التي تتناول الواقع المادي فتحوله من مادة خامة إلى مادة مصنعة. الطاقة التي تزرع الأرض وتفلحها. الطاقة التي تحاول التعرف على أسرار الكون بما فيه من عناصر وطاقات، لتستفيد منها في استغلال الأرض وعمارتها.. وتتناول كذلك الواقع الروحي والمعنوي.. فتنشئ "النظم" الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وتنظم العلاقات بين الناس في الأرض. وتقيم حياتهم على مبادئ معينة تعتنقها وتعمل على تحقيقها في دنيا الواقع.

هي باختصار الطاقة التي "ينفّذ" بها الإنسان مهمة الخلافة عن الله في الأرض.

ولكن طاقة الخيال ليست بعيدة عن ذلك كله!

إن الإنسان وهو يتخيل –وهو عالم بأنه يتخيل– لا ينقطع في الحقيقة عن عالم الواقع!

فحين يتخيل الكمال المطلق.. بقدر ما يطيق خياله.. فهو يستعين بذلك على تصور الحقيقة الإلهية التي يتمثل فيها الكمال المطلق.. ومن ثم يدخل هذا التخيل في نطاق العقيدة.. التي هي جزء من الواقع!

وحين يتخيل الكمال في عالم الإنسان.. فهو يتمثل الصورة التي "ينبغي" –في تصوره– أن تكون موجودة بالفعل في عالم الواقع.. ويستعين بهذا الخيال على محاولة تحقيق هذه الصورة المثالية.. فيتحقق منها شيء بالفعل وترتقي البشرية صعدا، بمقدار ما تستطيع أن تتخيل الكمال.

وحتى حين يتخيل لذات التخيل.. في متعة الفن أو في ساعات الاسترخاء أو لحظات "الهروب" من الواقع.. فهو يصل إلى نتيجة "عملية" في عالم النفس. إنه يوسع حدود العالم الذي يعيش فيه. يوسعها "بالفعل".. فلا فارق في الإحساس النفسي بين الخيال والواقع حين يوجد كل منهما في النفس! كل خيال وجد بالفعل في النفس فهو حقيقة شعورية ونفسية.. تؤدي إلى نتيجة فعلية: من غم أو فرح أو نشاط أو تقاعس.. ومن ثم يعيش الإنسان –عن طريق الخيال– في عالم أوسع من العالم "الواقعي" المحدود.

هذا ولا نحتاج بطبيعة الحال أن نتحدث عن الخيال الذي يؤدي إلى اكتشاف الكشوف العلمية واختراع المخترعات.. فصلة هذا الخيال بالواقع واضحة لا تحتاج إلى بيان. وإنما الذي يحتاج إلى بيان وتوكيد أنه حتى الخيال الذي لا غاية له أبدا –في ظاهر الأمر– يتصل في النهاية بالواقع، فيختلطان ويمتزجان!

* * *

وطاقة الواقع –من حيث النشأة– هي السابقة في الظهور.

فالطفل الرضيع يعيش شهوره الأولى في عالم الواقع.. الواقع القريب الذي يتعامل معه.. واقع الثدي والحضن.. ولم تدخل بعد –بأجهزتنا الحالية– إلى عالمه النفسي لنعلم هل "يتخيل" وهو في هذه الشهور الأولى؟ وإن كان من الثابت أنه يحلم.. فيحرك شفتيه وهو نائم حركة الرضاعة. فهل يعمل الخيال في يقظته أيضاً فيتصور الثدي مثلا عالما ضخما لا أول له ولا آخر ولا حدود.. ويتصور الحضن جزءاً متصلا بكيانه لا منفصلا عنه؟! نحتاج في هذا الأمر إلى تليفزيون إلكتروني يصور الأفكار من داخل النفوس! [وهذا خيال "علمي" قد يتحقق في القريب!].

ولكن طاقة الخيال سرعان ما تنمو حتى تغطي في نفس الطفل على طاقة الواقع!

فهو في سنوات الطفولة الأولى واسع الخيال جداً.. يستطيع بسهولة أن يتخيل كل شيء وأي شيء.. ويعيش في خيالاته كأنها واقع.. بل هي الواقع الذي يأنس إليه أكثر مما يأنس إلى واقع الكبار ذي النطاق المحدود!

والخيال في هذه المرحلة يؤدي مهمة حيوية في حياة الطفل.. فمن طريقه ينمي الطفل مداركه الذهنية.. وكأنما يمهد الأسس التي تنبني عليها الوقائع فيما بعد.. فكل خيال طائر يرسم مكانا في الذهن يمكن أن يقام عليه في المستقبل بناء!

ورويداً رويدا تُلْقى "الحقائق" الواقعة في "بحار" الخيال فتَرْدِمُها، وتظهر جزر من اليابسة في غمار المحيط!

تُلْقى من العالم الخارجي الذي يزيد تعامل الطفل معه باستمرار، ويزيد وقعه المحسوس على فكره وحسه ومشاعره، كما تلقى بالتلقين والتعليم من جانب الكبار..

وفي عملية التشوق الدائم "للمعرفة".. تبرز هذه الجزر في المحيط، وتظل تنمو حتى تصبح قارات واسعة متشابكة. ولكنها قط لا تملأ المحيط!

ينمو الواقع.. ولا ينتهي الخيال.

ثم يعود الطفل في فترة المراهقة إلى موجة جديدة من الخيال، بعد أن كان قبل سنوات قد أصبح أميل إلى الواقعية. ولكنه هنا خيال من نوع جديد.. ليس خيال الجن والغيلان والطيور المتكلمة والحيوانات المتعلمة! وإنما هو خيال عاطفي شاعري وجداني.. يتصل بالقيم والعواطف والأحاسيس.

ولئن كانت دفعة الخيال الأولى تؤدي مهمتها في حياة الإنسانية بتنمية قوى الطفل الذهنية.. فهذه الدفعة الثانية تؤدي مهمتها بتنمية القوى العاطفية والوجدانية، التي يقوم عليها فيما بعد التعامل "المعنوي" بين بني الإنسان.

ثم تجيء موجة أخرى من الواقعية في مرحلة الشباب.. لمواجعة واقع الحياة ومشاكلها..

ورويداً رويداً ينضب الخيال وتظهر الصخور الناتئة في الماء الراكد الذي لا يمور.. صخور المشاكل والعقبات والتبعات والهموم..!

ولكن الماء لا ينضب أبداً على أي حال..

فحين يجف الماء تموت النفس ولا يعود لها بالحياة اتصال..

وبعض الناس تبقى طاقة الخيال عندهم على حالها من الحركة والإبداع.. أولئك الفنانون. أما بقية الناس.. فمهما نضب الخيال في نفوسهم، فهم على الأقل يقتانون أعمال الفن هذه ليشبعوا ما بقي فيهم من طاقة الخيال!

ويظل الخيال والواقع من البدء للنهاية متصلين أحدهما بالآخر.. ومشتبكين ببقية الخطوط.

الالتزام والتحرر

"في الكائن البشري خطان متناقضان متقابلان، يعجب الإنسان لأول وهلة كيف يوجدان بتناقضهما ذلك متجاورين في النفس الواحدة. والواقع أن الازدواج هو السمة العامة للكيان البشري كله، الناشئة في الأصل من ازدواج منشئه من قبضة الطين ونفخة الروح، ومن ثم فلا موجب للعجب مما يحويه الإنسان في كيانه من متناقضات ظاهرية...

"في الإنسان ميل للالتزام. ميل لأن يلتزم بأشياء معينة وينفذها. ولو وجد نفسه طليقا من كل التزام خارجي لفرض على نفسه أموراً معينة والتزم بها.. إرضاء لما في طبيعته من ميل للالتزام! ومن ثم فالفوضى المطلقة لا وجود لها، ولا يمكن أن توجد. لأنها ليست جزءا من طبيعة الإنسان!

"ومع عمق هذا الميل للالتزام في الطبع البشري، فإن فيه إلى جانب ذلك ميلا للإحساس بأنه غير ملتزم! وأنه يؤدي الأشياء لأنه هو يريد أن يؤديها لا لأنها مفروضة عليه!

"كلا الخطين أصيل وعميق. وكلاهما يؤدي دوره في فطرة النفس وواقع الحياة"[1].

* * *

كلاهما يؤدي دوره في حياة البشرية..

لا شيء مما أودعه الله في فطرة الإنسان قد أودع عبثا بلا غاية! "مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ"[2] "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ"[3] "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً"[4] "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ"[5].

الالتزام هو الذي "ينظم" حياة البشرية..

---

(1) من كتاب "منهج التربية الإسلامية".

(2) سورة الملك [4].

(3) سورة آل عمران [191].

(4) سورة ص [27].

(5) سورة الدخان [38].

فحياة الفرد لا تنتظم إلا بالتزامه نظاما معينا في معيشته.. نظاما يشمل كل شيء وكل سلوك. يشمل موعد اليقظة وموعد النوم. وموعد تناول الطعام. وموعد العمل. وموعد الراحة.. إلخ. وبشمل طريقة أداء كل عمل من هذه الأعمال.. ويشمل إنشاء علاقات منظمة بأفراد الأسرة وأفراد المجتمع.. والتزام هذه العلاقات..

وحياة المجتمع لا تستقيم كذلك إلا بالتزام نظام معين، يشمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسلوكية والخلقية والروحية.. إلخ.

ولأن هذه بديهيات في حياة البشرية فالإنسان لا يحس بقيمتها ولا بضخامتها!

ولكن عليه –لكي يحس بحقيقتها– أن يتصور الحياة بغير هذا الالتزام!

فليتصور حياة فرد لا ضابط له ولا نظام في نومه وصحوه وطعامه وملبسه ومسكنه وعمله وعلاقاته بالأفراد!

مرة ينام بالنهار ومرة ينام بالليل! مرة يذهب إلى عمله ومرة لا يعمل! مرة يأكل ومرة يمتنع عن الطعام! مرة يسكن في مسكن ومرة يأوي إلى غير مكان! مرة يوادّ أصحابه ومرة يثور في وجههم بلا أسباب! مرة يتعبد إلى الله ومرة يفجر ويفسق! مرة يطيع أوامر الدولة ومرة يخرج عليها بلا سبب مفهوم!.. إلخ.. إلخ..

كيف تصبح صورة الحياة بالنسبة لهذا الفرد؟

وليتصور الإنسان مجتمعاً بلا نظام ولا رابط.. مرة ينشئ نظاماً للزواج ومرة يفك الروابط ويطلق الناس يقضون حوائج الجنس بلا قانون. مرة يقيم حكومة ومرة يفك روابط السياسة ويترك كل إنسان على هواه. مرة ينظم علاقات العمل وعلاقات الاقتصاد، ومرة يترك الناس يقتتلون بلا نظام!

كيف تصبح صورة الحياة بالنسبة لهذا المجتمع؟

وحقيقة إن قدرا من هذه الفوضى تحدث بالفعل في حياة بعض الأفراد وبعض المجتمعات.. ولكن هذه حالات اختلال منحرفة.. نتحدث عنها فيما بعد.. ولكن الذي لا مراء فيه أن الفرد أو المجتمع الذي يحدث هذا الاختلال في كيانه، مهدد بالدمار.. وعلى قدر ما تكون الفوضى يحدث الدمار.

فالميل للالتزام إذن يؤدي مهمته الحيوية في تنظيم الحياة..

والميل للتحرر يؤدي كذلك مهمته الحيوية في الحياة.. وهي ليست مهمة واحدة وإنما جملة مهام:

يؤدي مهمته أولا في أن يَحول بين الالتزام وبين الآلية الجوفاء.. التي تحيل الحياة إلى جمود وتحجر، وتفقد التصرفات والأعمال والمشاعر حيويتها ودلالتها، وتحول البشر إلى آلات [كما صنعت الحضارة المادية الحديثة حين قتلت الجانب الروحي في الإنسان، وهو الجانب الذي ينشأ عنه الميل للتحرر والانطلاق!].

ويؤدي مهمته ثانياً في تطوير الحياة.. فالالتزام الدائم يقف بالحياة عند نقطة لا تغادرها.. كما يقف عالم المادة وعالم الحيوان.. وليست هذه إرادة الله بالإنسان، خليفته في الأرض، المكلف بتطويرها وعمارتها.. فلا بد —إلى جانب الالتزام– من عنصر آخر يمنع الوقفة الآسنة، ويحرك الحياة باستمرار، لنصل إلى جديد في عالم الإنتاج المادي، وجديد كذلك في عالم الفكر والروح، يضيف رصيداً جديداً إلى الرصيد الموجود، ويزيد من سعة الحياة وثرائها، واستمتاع الإنسان بما فيها من ثمرات.

ويؤدي مهمته ثالثاً في إعطاء الحياة —مع تطويرها– دفعة حية متحركة تزيد من حيويتها، وتضمن لهذا التطور ذاته ألا يذبل ويضمر ويموت.. فليس يكفي أن يحدث الإنسان في حياته جديداً كل حين. وإنما ينبغي أن يكون لهذا الجديد من القوة الدافعة ما يمكّن له في الوجود.

وهكذا يتصل الالتزام والتحرر في داخل النفس وفي واقع الحياة، ويتعاونان معاً في أداء مهمة مشتركة،ولو بدا لأول وهلة أنهما متضادان ومتناقضان!

* * *

ينشأ الالتزام أولا في نفس الطفل.. فعالم الطفل هو عالم الضرورة.. والضرورة تعنى الالتزام.

ضرورة الطعام —بالرضاعة– وضرورة الإفراز، وضرورة النوم.. إلخ.

كلها ضرورات يلتزم بها الطفل.. ويتعود الالتزام بها.. فالجهاز العصبي مكوّن بحيث يترك كل عمل أثراً معيناً فيه.. وبتراكم هذه الآثار تتكون "عادة" يلتزمها بالجهاز العصبي ويرتاح إلى أدائها، ويتعب من تغييرها..

ولكن الالتزام لا يظل وحده المسيطر على عالم الطفل.

فما إن يبدأ القدرة على الحركة، حتى يحس باللرغبة في التحرر من القيد!

يحرك يديه ورجليه، وبوده لو يتخلص من قيد ضعفه الذي يجعل يديه لا تطولان شيئاً، ورجليه عاجزتين عن حمله والتحرك به حيث يريد!

ويلاحظ هنا –كما رأينا في الخطوط السابقة– أن كلا من خطّي الالتزام والتحرر يبدأ في عالم الحس، ثم يعبر الفنطرة إلى عالم المعنويات.

الالتزام جثماني كله في مبدأ الأمر.. ثم تتكون عنه "عادات".. جثمانية نفسية.. ثم عادات نفسية في نهاية الخط.. كعداة الصدق وعادة الشجاعة وعادة الإيثار.. أو ما يقابلها من الكذب والجبن والأنانية.. إلخ.

والتحرر يبدأ انطلاقه من عضلات الجسم.. ثم تتسع دائرته حتى يصبح في نهاية الخلط تحرراً روحياً وفكرياً شاملا لكل المعنويات..

ومن هنا يلتقي الخطان بخطي الحسية والمعنوية، كما يلتقيان مرة أخرى بخطّي الواقع والخيال. فيلتقي لالتزام بالواقع، ويلتقي التحرر بالخيال. ثم تعود الخطوط لها فتشتبك وتتداخل، فيدخل الالتزام والتحرر كلاهما في دنيا الواقع، ينظمانه من ناحية، ويدفعانه إلى الحيوية والتطور من ناحية؛ ويدخلان كلاهما في عالم الخيال.. فيلتزم الخيال –بحكم العادة– بأخيلة معينة من جهة، وينطلق متحرراً من جهة أخرى؛ كما يبدو في إنتاج الفنانين، حيث تتلازم الصور والأخيلة وتتكرر في إنتاج كل فنان، ومن ناحية أخرى يأتي بأخيلة خاصة لا تشبه أخيلة غيره من الناس لأنها تتحرر من تقليد الآخرين!

وهذا لون من التشابك والتداخل والتعقيد في كل كيان الإنسان!

السلبية والإيجابية

خطان متقابلان في النفس قريبا الشبه بخطي الالتزام والتحرر.. ولكنهما لا يتطابقان. فالالتزام قد يكون سلبياً [آليا] وقد يكون إيجابيا نتيجة تصميم وإصرار. كما أن التحرر – وإن غلبت عليه صفة الإيجابية– قد يكون أحياناً تحررا ظاهريا من القيد، رغبة في الانسياق السلبي وراء الشهوات!

وهكذا تتداخل الخطوط وتتشابك، حتى لا يتميز أحدها عن الآخر إلا بجهد جهيد!

والأقرب إلى الظن أن تكون السلبية ناشئة من حقيقة الجسد، والإيجابية ناشئة من حقيقة الروح. فقبضة الطين سلبية تخضع للقوانين المادية خضوعا كاملا –إلا ما شاء الله– ولا تملك التغيير ولا تفكر فيه. ونفخة الروح إيجابية.. فهي نفخة من روح الخالق المنشئ المدبر المبدع المريد.. تحمل إلى الإنسان من مظاهر الإرادة والإبداع والإنشاء والحرية والاختيار والتوجه والفعالية... بقدر ما قسم الله للإنسان.

ومع ذلك فليس في كيان الإنسان شيء باق على "خامته" الأولى، دون امتزاج وترابط وتشابك وتعقيد!

الخط –في ظاهره– ينبع من هنا أو ينبع من هناك. ولكنه لا يسير خطوة واحدة حتى يكون قد امتزج بهذا الخط أو ذاك. لأنه لم يعد يوجد في الواقع "هنا" خالصة أو "هناك" خالصة.. وإنما كل شيء من هنا ومن هناك في ذات الوقت!

وقد قلت عن هذين الخطين في كتاب "منهج التربية الإسلامية" ما يأتي:

"ولولا أننا مشغولون هنا بمبحث تربوي لا سيكلوجي ولا بيولوجي، لوقفنا طويلا عند تلك الحقيقة العجيبة في الخلقة، وهي أن الجنين يتكون من التقاء خليتين: البويضة الأنثوية والحيوان المنوي. وأن لكل من هذين طريقة في السلوك مخالفة للأخرى. فالبويضة في مسارها من المبيض إلى الرحم تسير "مع التيار"، بينما الحيوان المنوي في مساره من عنق الرحم إلى الأغشية الداخلية ليلتقي بالبويضة ويلقحها، يسير "ضد التيار"، وفي فطرته القدرة على المغالبة والاقتحام والمسير ضد التيار ليؤدي مهمته. والجنين هو خلاصة هاتين الطاقتين! خلاصة السلبية والإيجابية معاً وفي ذات الوقت!

"إنها حقيقة عجيبة في الخلقة.. توحي بالظن أنها هي منشأ هذين الاستعدادين النفسيين المتناقضين! والله أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير".

إنها فعلا حقيقة تلفت النظر...

ولا يمتنع أن تكون حقيقة السلبية والإيجابية ناشئة من حقيقة الجسد والروح، ثم تكون حقيقة البويضة والحيوان المنوي توكيداً آخر لها، يحمل في ذاته مزيجا من الجسد والروح، لأنه صدى لحقيقة "الإنسان" المكون من قبضة الطين ونفخة الروح! الإنسان الذي لا ينشأ فقط من التقاء البويضة والحيوان المنوي، بل يحمل كل جنس من جنسيه كذلك أعضاء الذكر والأنثى، وطبيعة الذكر والأنثى، وإن كانت إحداهما تغلب فتقرر صورة الجنس، والأخرى تظل ضامرة في صورتها الجنينية.. تشير فقط إلى حقيقة التكوين!

الله أعلم من خلق..

ليس لنا سبيل إلى اليقين القاطع.. وإنما نستعرض الظواهر بقدر ما تنكشف للإدراك البشري المحدود.

*   *   *

السلبية والإيجابية استعدادان فطريان يؤديكل منهما مهمة معينة للحياة.

ونحن في حديثنا هنا كله نتحدث عن الصورة الفطرية السوية ولا نصف الانحرافات — التي سنفرد لها حديثاً خاصاً. وكل الخطوط المتقابلة.. وكل شيء في النفس البشرية.. قابل للانحراف كما هو قابل للاستواء [وهذا نفسه مظهر من مظاهر الطبيعة المزدوجة في كيان الإنسان] ولكنا حين نتحدث عن المهمة التي يؤديها كل خط من الخطوط وكل طاقة في النفس فإننا نتحدث بطبيعة الحال عن الصورة الصحيحة السوية، لأنها هي الأصل، وليس الأصل هو الانحراف[1]!

وعلى هذا الأساس نقول إن السلبية تؤدي مهمتها في الحياة البشرية كالإيجابية سواء.

السلبية —بمعنى الطاعة– ضرورية في حياة الطفل ليمتثل لتوجيهات الكبار، التي لا يمكن بدونها أن تنمو في نفسه القيم المختلفة، فينشأ وقد غلبت عليه الأنانية والاستجابة السريعة للنزوات —الحسية أو المعنوية– أي أنه ينشأ على مقربة من عالم الحيوان!

([1]) سنعالج هذه الفكرة في فصل "الانحراف والشذوذ" وفصل "الخير والشر".

وهي —بمعنى الطاعة كذلك– ضرورية في حياة الإنسان البالغ ليستطيع الحياة في المجتمع ذي الأوضاع المنظمة والقواعد الثابتة والأركان الراسخة.. وإلا ظل ناشزا لا يطيع نظاما ولا يخضع لقانون، فتضطرب الأمور في المجتمع وينتهي إلى الدمار.

وهي —بمعنى حب الخضوع والاستسلام– ضرورية كذلك في حياة الطفل وحياة الإنسان البالغ، لتعطف قلبه للآخرين.. فيحبهم.. ويسلم عواطفه لهم: فتنشأ الروابط الضرورية بينه وبين الآخرين.. الروابط التي لا تقوم بدونها الحياة.

أما الإيجابية —بمعنى الإرادة والإقدام والفعالية والإبداع والإنشاء والتوجّه– فتؤدّى مهامها في حياة الإنسان بما يشبه مهام "التحرر" التي ذكرناها من قبل.. وإن كانت متميزة عنها في الموضوع والاتجاه.

أولى المهام هي موازنة لسلبية فلا تصل إلى الضعف المعيب وانعدام الشخصية [أي منعها من الانحراف].

وثانية المهام مقاومة الشر في النفس والمجتمع.. فلو كان الإنسان سلبياً لكل شيء، لتفشت الأمراض والشرور دون أن يقاومها أو يغيّر ما فيها من منكر. وتخضع النفوس للفساد وللظلم. وينتهي الأمر بالبوار والدمار.

وثالثة المهام إبداع النظم الجديدة التي تدفع البشرية إلى الأمام، دون خوف من الخروج على "مألوف" الناس حين يفسد هذا المألوف ويصبح مصدراً للفساد.

وكلها أمور حيوية بالنسبة للفرد والمجتمع والحياة..

ويلتقي الخطان —من طرفيهما– بخطي الالتزام والتحرر.. وإن كان في كل منهما من التخصص ما يجعلهما استعدادين متميزين.

فالالتزام كما قلنا قد يكون سلبيا وقد يكون عن رغبة وتصميم.

والتحرر قد يكون انسياقا سلبيا مع الشهوة وقد يكون عن إرادة وإيجابية واقتحام.

والالتزام رغبة في اتخاذ سلوك معين محدد مكرر.. بينما السلبية رغبة في عدم المقاومة للقوى الخارجية (أو الداخلية) التي تفرض وجودها على النفس.

والتحرر رغبة في الانفكاك من القيد.. بينما الإيجابية رغبة في البروز إلى الأمام.

ويكفي هذا للتمييز بين الخطين المتشابهين.. وإن كانت بعد ذلك تشتبك الخطوط كلها وتتعقد أشد تعقيد!

* * *

السلبية هي الطور الأول من أطوار النفس..

فالطفل في أيامه الأولى مسلوب الإرادة، خاضع لكل ما يملى عليه من الداخل أو الخارج سواء.

يجوع فيرضع الثدي.. عملية سلبية.

يُرْفَع أو يُحَطّ.. فلا يملك أمره.

ولكن بعد فترة بسيطة تنمو الإيجابية التي كانت كامنة –أو عاجزة– من قبل.

يجوع فيطلب الثدي بنفسه أو يطلب الطعام.. ويصرخ حين لا يعطى ما يريد..

ويرفع أو يحط.. فيقاوم حين لا يريد.

وفي هذه المرحلة تكون السلبية والإيجابية كلتاهما في نطاق المحسوسات.

ثم تعبران القنطرة إلى الشاطئ الآخر..

يكون سلبياً في إطاعة الأوامر الصادرة إليه من الكبار..

ويكون إيجابياً في التصرف بما يهديه إليه تفكيره ومزاجه الخاص..

وسنتكلم في نهاية الفصل عن التهذيب الضروري للسلبية والإيجابية.. ولجميع الخطوط والطاقات.. فنكتفي هنا ببيان أنهما خطان فطريان في الخلقة، وأنهما –في صورتهما السوية– يؤديان مهمة ضرورية في الحياة.

الفردية والجماعية

هذان الخطان من أخطر الخطوط في حياة البشرية..

فعليهما –في صورتهما الصحيحة أو المنحرفة– تقوم نظم الحياة كلها، صالحها أو فاسدها، وعلاقات الحياة كلها، سويها أو منحرفها، وسلوك الأفراد والجماعات..

وعنهما وحولهما دارت مناقشات كثيرة فلسفية واجتماعية ونفسانية، وانبنت مذاهب فكرية وسياسية واقتصادية.. بل بتأثيرهما قامت في البشرية حروب وحدثت اهتزازات واصطدامات ورجات!

والخطان فطريان..

ففي كل نفس سوية ميل للشعور بالفردية المتميزة.. بالكيان الذاتي. وميل مقابل للاندماج في الجماعة والحياة معها وفي داخلها.

ومن هذين المَيْلَيْن معا تتكون الحياة!

ومن ثم لا يكون الإنسان فرداً خالصا، ولا يكون أيضاً جزءاً منبهما في كيان المجموع.

إنه يحس بفرديته دون شك. يحس بحدود كيانه. يحس "بالأنا" التي يشتمل عليها. يحس برغباته الخاصة وأشواقه الخاصة ومطالبه الخاصة وضروراته الخاصة. يحس بها إحساسا واضحا محدداً لا لبس فيه ولا انبهام.

فحين يجوع فهو الجائع. وحين يتألم فهو المتألم. وحين يفرح فهو الفرحان. وحين يؤدي عملا فهو بشخصه بفكره بعضلاته بكيانه المحدد الذي يقوم بالعمل. وفي كل حالة يحدث تياران من المشاعر: من الإنسان وإليه، كما يحدث تياران في الأعصاب من المخ وإليه.. ينشأ نتيجتهما إحساس الإنسان بما يشتمل عليه كيانه في تلك اللحظة من فكر أو عمل أو شعور..

وهذا هو الكيان الفردي المحدد الحدود.

ومع ذلك فليس هذا هو كل الإنسان، وإنما هو واضحد فقط من جانبي الإنسان.

والجانب الآخر أنه من أعمق فرديته هذه، المحددة الواضحة الحدود البارزة السمات، يهفو إلى الآخرين.

يهفو إلى الجنس الآخر بدافع الجنس..

ويهفو إلى الذرية..

ويهفو إلى الأصدقاء..

ويهفو إلى الزملاء..

بل يهفو كذلك إلى وجود أعداء أو منافسين يصارعهم ويتغلب عليهم!!

وكل هذه روابط جماعية.. تعبر عن رغبته في الارتباط بالآخرين بأنواع مختلفة من الرباط..

وهي رغبة أصيلة جداً وعميقة جداً في باطن النفس.. نابعة من الكيان المفرد للإنسان!

وهي -في النهاية- التي تنشئ المجتمع وتنظم ما فيه من روابط ونظم وصلات.

ومن هنا يختلط الفرد والمجتمع في كيان النفس وفي كيان الحياة!

* * *

لا تمر على الإنسان لحظة واحدة يكون فيها فرداً خالص الفردية قائماً بذاته.

ولا تمر عليه لحظة واحدة يكون جزءاً من الثقطيع غير متميز الكيان.

عملية مستحيلة.. غير قابلة للتحقيق..

في أشد اللحظات فردية يحمل الإنسان في قلبه "مشاعر" تربطه بالآخرين.

وفي أشد اللحظات جماعية يحس بأنه -على الأقل- هو الذي ينفذ رغبة الجماعة بذاته.. بكيانه الفردي.

كل ما في الأمر أن هذه النزعة أو تلك تبرز في لحظة –أو يُسْمح لها بالبروز– فتتوارى الأخرى حتى تبرز من جديد. في عملية مستمرة التداول بين البروز والانحسار.

والإنسان بفطرته تلك –بطبيعته المزدوجة– يعيش. يعيش حياة سوية طبيعية صالحة نافعة.

يستمد من نزعته الفردية.. من إحساسه بذاته.. من حبه للبروز بكيانه.. من حب الخير لنفسه "وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ[1]".. من حرصه على منفعته.. من سعيه لتحقيق رغباته وإثبات ذاته.. يستمد من ذلك جميعاً دافعاً للحركة والنشاط والإنتاج، والتقدم إلى الأمام.

ويستمد من نزعته الجماعية.. من ميله للوجود مع الآخرين، والفناء فيهم أحياناً.. من سلبيته إزاءهم.. من ضعفه إليهم وحاجته إلى معاونتهم والأنس بهم.. يستمد من ذلك كله معيناً له على قطع بيداء الحياة الموحشة –لو انعزل كل إنسان عن الآخر– وعلى أداء الأعمال التي لا يقدر عليها بمفرده. وعلى التقدم بالحياة كلها إلى الأمام.

ومن ثم تؤدي النزعتان معاً دورهما في الحياة البشرية، وتكونان معاً ضروريتين لكيان الإنسان.

* * *

"ولقد اضطربت كثير من النظم وكثير من الفلسفات بين هذه النزعة وتلك. بعضها يوسع دائرة الفردية حتى تصل إلى الأنانية المرذولة، وتفكيك روابط المجتمع، وتشتيت طاقاته. وبعضها يوسع الدائرة الجماعية حتى تقضي على كيان الفرد وتكاد تلغي وجوده إذ تعتبره ذرة ضئيلة تافهة لا يستمد كيانه إلا بوصفه فرداً في القطيع.

"ونحن نرى في هذه اللحظة على وجه الأرض مذهبين متنافرين، كل منهما يقوم على اتجاه.

"الرأسمالية في الغرب قائمة على أساس فردية الإنسان، فتوسع له في حدود فرديته، وتترك له حرية التصرف في كثير من الأمر، حتى يصل إلى حد إيذاء نفسه وإيذاء الآخرين، فلا تحرّج على نشاطه الزائد عن الحد، ولا تقفه عند حد معقول. يطلق لنفسه عنان الشهوات والأهواء.. ويحطم الأخلاق والتقاليد.. ولا يعترف بحق أحد في توجيهه وضبط

([1]) سورة العاديات [8].

تصرفاته.. ويحول أمواله إلى أداة لاستغلال الآخرين، وامتصاص جهدهم ودمائهم وتحويلها إلى ترف فاجر ومتاع حسيّ غليظ.. ويفسد سياسة الحكم وسياسة المجتمع، ويفسد تصور الناس للحياة.. ومع ذلك فهو يمارس "حريته الشخصية" وليس لأحد عليه سلطان!

"والشيوعية في الشرق قائمة على أٍس جماعية الإنسان. فتوسع في دائرة الجماعة –أو في الحقيقة الدولة– وتحجر على كل نشاط للأفراد– اللهم إلا نشاطهم الحسيّ الغليظ فتتركه لهم مباحا للتنفيس عن الطاقة المكبوتة!– فتمنع اشتراك الناس الفعلي في سياسة الحكم وسياسة المجتمع، وتفرض عليهم النظم والترتيبات بحجة أنها أعرف منهم بمصالحهم. فتعيّن لهم أعمالهم، وأماكن إقامتهم، كما تعيّن لهم أفكارهم ومشاعرهم وطريقة إحساسهم.. بالأمر. ولا تترك لهم سبيلا للاختيار. وتحكمهم بالحديد والنار والتجسس. وتعتبر كل نصيحة للدولة أو القائم عليها خيانة تعاقب "بالتطهير" لأنها نزعة فردية آثمة، موجهة ضد كيان الجماعة المقدس، من فرد لا قداسة له في ذاته ولا كيان!

"والفلسفات كذلك تخبطت كثيراً في هذه الأمور. ولم يستطع كثير منها أن يَخْلُص إلى حقيقة بديهية بسيطة يؤيدها الواقع المشهود.

"إن هذه الفلسفات تفترض أنه إذا كان الإنسان فردى النزعة فالمجتمع إذن مفروض عليه من خارج نفسه، متحكم فيه بغير إرادته، ضاغط على كيانه، محطم لشخصيته، ومن ثم فهو مكروه. وتفتيته وتفكيكه حلال!

"أو.. أن النزعة الجماعية هي الأصل. فالطفل يولد ضعيفاً لا حول له ولا قوة. ولا كيان.. ولولا وجوده في الجماعة ما استطاع أن ينمو وأن يعيش.. وهو في حاجة دائمة للجماعة لكي يستمر في وجوده، وإذن فالنزعة الفردية رجس ينبغي أن يقاوم.. ينبغي أن تُسحق هذه الرغبة وأن تُزال!

"لماذا؟!

"إن هذه الفلسفات لا تنتبه إلى الطبيعة المزدوجة في هذا الكيان البشري. التي تبدو متناقضة حين ينظر إليها من السطح. ولكنها مع ذلك مترابطة. وهي تؤدي مهمتها في حياة الكائن البشري بتناقضها ذلك وترابطها. كما يؤدي مهمته الحب والكره، والرجاء والخوف، والسلبية والإيجابية، والحسية والمعنوية والإيمان بالواقع والإيمان بما وراء الواقع.. ويخرج لنا في النهاية مخلوق متعدد الجوانب موحد الكيان!

"إن في صميم الفطرة هذين الخطين.. كل منهما حقيقة. وكل منهما أصيل. والتناقض يحدث في باطن النفس كما يحدث الاضطراب في واقع الحياة، حين تزيد النسبة المقررة لكل واحد فينحرف عن مساره، ويعتدي على مسار الآخر ويشده إليه. أما حين يأخذ كل منهما مداره الصحيح، فلن يحدث التنافر بين الفرد والجامعة أو يحدث الشقاق.

"... وهذه فطرة الإنسان: فرد داخل في المجموع. أصيل الفردية، أصيل في الميل للمجموع، وهو دائم التقلب بين نزعتيه المتناقضتين، كما ينقلب في نومه من جنب لجنب ليستريح! ولكنه في كل لحظة شامل لجانبيه معاً على اختلاف في النسبة والمقدار"[1].

والمعقول أن تكون الفردية هي الإحساس الأول الذي يخطر في النفس..

فالطفل يحس –حين يبدأ في الإحساس– بأنه موجود كفرد محدد الكيان. وهو إحساس مبهم بكل تأكيد في مبدأ الأمر. فكل أجهزة الإحساس عند الطفل لا تكون عند مولده تامة التكوين. ولكنه يحس أنه جائع. ويحس هذا الجوع في داخل كيانه الفردي المحدد. ويحس حين يرضع بلذة في الرضاعة، ورضا واكتفاء. ويحس آلاما في جسمه من تأثير الجو أو من تأثير وضع غير مريح فيصرخ.. حتى يجاب إلى ما يريد.. وهكذا يتضح له كيانه الفردي رويدا رويدا وتتحدد معالمه وتبين..

ومع ذلك فهو منذ اللحظة الأولى عاجز عن الاستقلال بكيانه الفردي! محتاج أشد الحاجة إلى مدد من الخارج يأتيه في صورة الثدي والحضن.. وهما كل ما يتبينه من معنى "الأم"!

فهو إذن –بحكم الضرورة ذاتها– محتاج إلى "المجتمع" الخارجي في شخص الأم.

وإحساسه بهذه الحاجة مبهم في مبدأ الأمر كإحساسه بذاته! فربما يخيل إليه أن الثدي قطعة منه هو لا من شخص آخر! تنفصل عنه وتتصل به لأسباب لا يدركها، ولكنها مكملة لكيانه غير منفصلة عنه! وربما خيل إليه كذلك أن حضن أمه إطار خارجي لكيانه هو، وليس قطعة من شخص آخر. ويكون "المجتمع" المتمثل في شخص الأم قطعة حقيقية من نفسه لا شيئا منفصلا عنه!

([1]) من كتاب "منهج التربية الإسلامية".

ويكبر إدراكه بعد فترة ويتحدد.. فيحس بكيانه المفرد على حقيقته، ويحس بأن الأم كيان منفصل عنه، يروح ويجيء، ويبعد ويقترب.. ولكن تشبثه بهذا "المجتمع" المتمثل في شخص الأم يظل على شدته..

ثم تزداد رغبته في رؤية الآخرين والأنس بهم.. حتى تقوى رجلاه على حمله فينتقل هو إليهم ليشعر "بوجوده" معهم.. ويكون كيانه الفردي عندئذ ممتزجا بكيانه الجماعي غير متميزين.

واللعب.. وهو نشاط الطفولة، مظهر بارز لاختلاط الفردية والجماعية في نفس الطفل. فهو يلعب مع الآخرين ليثبت ذاته ويكمل وجوده الفردي بوجودهم.. وحتى حين يلعب وحده فهو ينشئ في خياله مجتمعا من الناس يتحدث إليهم ويتخيل أنهم يتحدثون إليه ويشاركونه مشاعره وأفكاره. فهو في "مجتمع" دائم لا ينعزل بشخصه في لحظة من اللحظات..

وحين يشتد إحساسه بذاتيته المفردة.. وحين يأخذ في العناد مع أبويه ومع الآخرين لإثبات ذاته.. وحين يصل الأمر إلى الأنانية الشديدة أحيانا.. "أنا" أريد كذا.. لا بد من كذا لأنني "أنا" أريده.. حتى في هذه الفترة من العمر فلا انفصال بين نزعتي الطفل – الممثلتين لنزعتي الإنسان كله– وإنما هناك فقط بروز في إحدى النزعتين يلونهما كليهما! فحين تبرز النزعة الفردية إلى هذا الحد فهي لا تقتل النزعة الجماعية وإنما تلونها بالصراع! فهو يريد المجتمع.. ولكنه يريده خاضعا لنزعاته، ملبيا لطلباته.. ولا يحب أن ينعزل عنه ليبقى فردا بلا زملاء وأصدقاء.. أو بلا منافسين وخصماء!

وهذه المرحلة طبيعية في حياة الطفل وإن كانت في حاجة إلى الرعاية الدائمة والتوجيه لكيلا تزيد عن الحد، ولكيلا يثبت عليها الطفل فينشأ منحرفا.. جانحا بأحد جانبيه..

وهي تؤدي مهمتها في حياته..

فكما رأيناه من قبل يتداول الحسية والمعنوية في حياته، لينمو كل جانب منهما في فترة من الوقت استعدادا للحياة المقبلة..

وكما رأيناه يتداول الحب والكره والخوف والرجاء لينمو كل منهما في فترة معينة استعداداً للمستقبل..

وكما رأيناه يتداول الواقع والخيال.. والسلبية والإيجابية.. كل منها تبرز في فترة معينة لتتدرب للمستقبل..

فكذلك الفردية والجماعية تتداولان البروز في كيانه.. تنمو هذه مرة وتنمو الأخرى مرة ليكون عند نضجه قد تدرب على جميع المشاعر وجميع الاتجاهات!

فهو يعود في فترة المراهقة جماعيا بصورة بارزة، بعد فترة الفردية السابقة.. وإن كان — كما سبق أن بينا– لا يفقد أياً من عنصريه في لحظة بروز العنصر الآخر. وإنما ينحسر الآخر انحساراً مؤقتا ولا يزول.

ثم يستوي في مرحلة الشباب والنضج على وضعه الطبيعي الذي يقضي به بقية حياته بعد أن تدربت كل جوانبه من قبل.. وفي هذا الوضع الطبيعي تعمل النزعتان معا.. ولكن على صورتهما الطبيعية التي تجعل هذا الجانب يبرز في لحظة وذاك في لحظة.. في تداول مستمر مدى الحياة.

وفي كل شأن من شئون الحياة يواجه الإنسان الأمر بكيانه كله.. أياً كان الجانب البارز منه في هذه اللحظة أو تلك.. ولا يواجهه مرة واحدة بجزء واحد من كيانه، فهذا أمر مستحيل!

يكبر الإنسان.. ويتزوج ويكوّن أسرة.. ويشارك في تسيير دفة المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وفكريا وروحيا بصورة من الصور.. وهو في كل ذلك إنسان ذو نزعتين، فردية وجماعية.. متشابكتين ومجتمعتين.. لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ما دامت الحياة..

* * *

لذلك كان عجبا ما يراه فرويد وغيره من التحليليين.. من أن الفرد هو الضحية الدائمة للمجتمع.. وأن المجتمع شيء مفروض على الإنسان من خارج كيانه، وضاغط عليه وكابت لرغباته، ومعوّق لنموه الأصيل!

عجب.. وقد تبينا كيف ينشأ المجتمع من داخل كيان الفرد.. من أعمق أعماقه.. من رغبته في الاجتماع بالآخرين!

ولا نتحدث هنا عن المجتمع المنحرف الذي يضغط كيان الفرد ضغطا زائدا عن الحد [وفرويد لا يتحدث عن المجتمع المنحرف، وإنما يتحدث عن كل مجتمع.. عن المجتمع

إطلاقا!] وإنما تتحدث عن المجتمع "الطبيعي" الذي ينشأ حتما من تلاقي الأفراد، والذي يعيش فيه الفرد بالقدر المعقول من الحرية والانطلاق [في الحدود التي لا تدمر المجتمع، لأن تدمير المجتمع هو بالتالي تدمير للأفراد!] هذا المجتمع ليس مفروضا على الإنسان من خارج نفسه، وليس راغبا في قتله، وليس معوّقا لنموه الطبيعي.. بل هو التكملة الطبيعية للفرد [ما دامت نابعة من داخل نفسه] وهو الامتداد الطبيعي الذي يجد فيه الفرد وجوده المتكامل السليم.

وعجب كذلك ما يراه علماء الاجتماع –الجماعيون [دركايم وأمثاله] الذين يرون المجتمع قوة قائمة بذتها، غير نابعة من كيان الأفراد، ومؤثرة في الأفراد بإرادة مستقلة عن إرادتهم! أين توجد هذه القوة إذن؟! في أي فراغ مطلق تقيم، ومن أي فضاء تؤثر في حياة الأفراد وتوجههم؟!

هؤلاء وهؤلاء ينحرفون في تصورهم للأمر، لأنهم يأخذون الإنسان من أحد جانبيه دون الآخر، وينظرون للحياة من زاوية رصد منحرفة لا ترى إلا جانباً واحدا من الجانبين..

ولو رأوا الإنسان على طبيعته.. الفردية الجماعية معاً في ذات الوقت.. ولو لاحظوا أن هذا الازدواج طبيعة شاملة.. وأن الخطوط المتقابلة في النفس البشرية ظاهرة تشملها كلها.. إذن لعرفوا أن الفرد أصيل كالمجتمع سواء!

* * *

هذه الخطوط المتقابلة التي استعرضناها تفصيلا من قبل.. إنها مجتمعة تؤدي مهمة معينة في حياة الإنسان! إنها تمتد –متقابلة– على جانبي نفسه، وتشتبك وتختلط في داخلها، كما تشتبك الأعصاب وتمتد في داخل الجسم والأطراف، لتؤدي في كيان النفس مهمة شبيهة بمهمة الأعصاب في كيان الجسم!

إن امتداد الأعصاب في الجسم كله وتداخلها واشتباكها مهمته أن ينقل "الحس" من المخ إلى جميع أجزاء الجسم ومن جميع الأجزاء إلى المخ، فيحس الإنسان "بكل شيء" يقع في نطاق حسه، ويدرك عن هذا الطريق– كل ما يتاح له إدراكه.

و"الأعصاب النفسية" إذا جاز لنا استخدام هذا اللفظ.. وهي الخوف والرجاء، والحب والكره، والحسية والمعنوية.. الخ.. الخ.. تمتد إلى كل جزء من أجزاء النفس، ثم تتجمع في الكيان النفسي الموحد، لكي تنقل الإشارات من هذا الكيان الموحد إلى الأجزاء، ومن

الأجزاء إلى الكيان الموحد، فيحس الإنسان بكل شيء في نطاق شعوره، ويدرك —من هذا الطريق– كل ما يتاح له إدراكه.

تلك هي المهمة الأولى لهذه الأعصاب النفسية..

ومن هنا يتضح أنها —بتعددها، واختلاف أنواعها، وامتدادها، وتشابكها– تعطي سعة عظيمة للنفس الإنسانية، هي مظهر من مظاهر القدرة التي وهبها الله للإنسان وهو يمنحه الخلافة عنه في الأرض: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً"[1]..

فقد لمحنا —في أثناء الاستعراض التفصيلي لكل زوج من الخطوط– أنها تتداخل، فينتج من تداخلها مزيج جديد غير المزيج الأصلي لكل زوج من الأزواج بمفرده!

الخوف والرجاء زوجان من الخطوط.. يعطيان —منفردين– لونا معينا من الشعور.

ثم يختلط الخوف والرجاء بالحسية والمعنوية.. فينتج خوف حسي —يتصل بالجسم وبالمحسوس– وخوف معنوي يتصل بالمشاعر والقيم والأفكار.. ورجاء حسي يتصل بنعيم الجسم ولذائذه، ورجاء معنوي يتصل بالسعادة الشعورية والفكرية والروحية.

ويختلطان بالحب والكره.. فإذا هناك خوف مكروه.. وخوف محبوب! خوف مكروه يخافه الإنسان ويكرهه في ذات الوقت، كما يخاف الموت ويكرهه. ويخاف الألم ويكرهه.. وخوف محبوب، كالمخاطر، والمغامرات التي يخشاها الإنسان ومع ذلك يحبها ويقبل عليها.. بل قد يندفع إليها ولو أدت إلى الموت! وإذا هناك رجاء محبوب ورجاء مكروه! رجاء محبوب يرجوه الإنسان ويحبه، كما يرجو النعيم ويحبه.. وكما يرجو لقاء الأحباب ويحبه.. ورجاء مكروه.. كما يرجو الإنسان النجاة والأمن لنفسه أحيانا ببذل شيء من كرامته أو إنسانيته أو حريته.. فهو يحب النجاة ولكنه يكره مجيئها إليه بهذه التضحية المزرية، ويختلط الشعوران معاً فإذا هو رجاء مكروه!

ويختلطان بالواقع والخيال.. فإذا هناك خوف واقعي، ناشئ من شيء موجود في عالم الواقع، وخوف خيالي ناشئ من أشياء متخيلة أو موهومة.. وإذا هناك رجاء واقعي، متصل بأمر واقعي، ورجاء خيالي يعيش في عالم الوهم!

([1]) سورة البقرة [30].

ويختلطان بما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس.. فإذا هناك خوف متصل بالعالم المحسوس، وخوف متصل بالغيب.. خوف متصل بالله، وخشيته وتقواه.. وإذا هناك رجاء متصل بالعالم الأرضي المحسوس، ورجاء متصل بعالم الغيب.. رجاء في الله.

ويختلطان بالسلبية والإيجابية.. فإذا هناك خوف سلبي.. يجعل الإنسان يجمد مكانه ولا يتحرك.. وخوف إيجابي، يجعل الإنسان يقتحم الأمر المخيف المرهوب.. وإذا هناك رجاء سلبي.. رجاء الاسترخاء والتواكل البليد.. ورجاء إيجابي يسعى لتحقيق ما يريد.

ويختلطان بالفردية والجماعية.. فإذا هناك خوف فردي يتصل بذات الإنسان المفرد.. وخوف جماعي يتصل بإحساس الإنسان بالجماعة التي يعيش فيها وخوفه عليها من أن يصيبها مكروه. وإذا هناك رجاء فردي يتصل بذات الإنسان وحده.. ورجاء جماعي، حين يرجو الإنسان الخير للجماعة التي يعيش فيها ولها.

وهكذا.. وهكذا ينشأ مزيج جديد في كل مرة يختلط فيها خطا الخوف والرجاء بخطين آخرين من خطوط النفس!

وذلك مثل واحد.. يتكرر مع كل زوج من الخطوط نبدأ منه ونركب الآخرين عليه! وهو مثل بسيط لا تعقيد فيه.. مكون من زوجين اثنين في كل مرة.. يمكن أن نتدرج معه بمزج ثلاثة أزواج مرة واحدة. كما يختلط خطّا الخوف والرجاء بالفردية والجماعية بالحسية والمعنوية.. فيخاف الإنسان على نفسه فرداً في محيط الحس، ويخاف على نفسه فرداً في نطاق المعنويات. ثم يخاف على الجماعة في محيط الحس، ويخاف على الجماعة في محيط المعنويات!

ثم نظل نتدرج حتى نصل —إذا استطعنا– إلى تصور الخطوط كلها ممتزجة متشابكة تعمل في وقت واحد وفي نطاق واحد.. فهذه إذن هي النفس الإنسانية!!

* * *

بهذه "الأعصاب النفسية" المتداخلة المتشابكة المتعددة المتنوعة، "يتذوق" الإنسان عدداً لا يحصى من مشاعر الوجود!

وتلك إحدى نعم الخالق عليه.. إحدى المواهب التي كرمه بها وفضله على كثير ممن خلق: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"[1].

هذه السعة النفسية –الفريدة في كل ما نعلم من خلق الله– هي التي تعطي الحياة البشرية تلك السعة والتنويع الذين تتميز بهما حياة الإنسان عن غيره من المخلوقات.

هي التي تعطيه موهب الحياة على مستويات متعددة وفي اتجاهات متعددة: حسية ومعنوية، مادية وروحية، فردية واجتماعية، اقتصادية وسياسية وفكرية وفنية وعلمية وعملية..

هي التي تجعله ينشئ الحضارات، بكل ما تشتمل عليه الحضارة من إنتاج في عالم المادة وعالم الفكر وعالم الروح..

هي التي تجعل يديه تعملان في المادة، ونفسه تعمل في القيم، وروحه تعمل في العقيدة..

هي التي تجعله يأكل ويشرب ويقضي ضروراته كلها في عالم الحس، ثم يسبح بروحه في ملكوت الله الواسع، ثم تنبض مشاعره بأحاسيس فنية يسجلها في قصيدة أو لوحة أو لحن أو ما شاء من الفنون..

هي التي تجعله يدخل الحرب ويعقد السلم.. يقتل ويسفك الدماء، ثم تشف روحه بالحب كأنها شعاع من النور..

هي التي تجعله يكشف ويخترع ويصل كل يوم إلى جديد..

وهي موهبة موهوبة له من الخالق.. لأمر أراده يوم خلق الله الأرض والسماوات!

* * *

والمهمة الثانية لهذه الخطوط المتقابلة –غير توسيع الحياة وتلوينها وتعديد مذاقاتها ومنتجاتها– هي إنشاء "روابط" متعددة بين الإنسان والحياة.

إن الخالق المبدع –سبحانه– وقد شاء للإنسان أن يؤدي دوره الضخم في حياة الكون– قد شاء له أن يرتبط بالحياة بأكثر من رباط. وسنتحدث في الفصل التالي "الدوافع

(1) سورة الإسراء [70].

والضوابط" عن كثير من هذه الرباطات. ولكنا هنا نكتفي بأن نقول إن هذه الخطوط المتعددة تعتبر نقط اتصال –أو "مشابك"– تشتبك النفس عن طريقها بالحياة. تتصل بها خوفاً ورجاء، وحباً وكرهاً، وحساً ومعنى، واقعاً وخيالا، وفردية وجماعية.. الخ فتنفذ الحياة إلى النفس من هذه المنافذة المتعددة، وتخرج النفس إلى الحياة من هذه المنافذ كذلك.. فتتعمق الصلات بين الإنسان والحياة، وبين الإنسان والكون.. وتكون هذه الصلات العميقة الوثيقة أداة من أدوات الخلافة في الأرض، إذ ينبغي –في علم الله– أن تكون الصلات عميقة جداً ومتعددة ومرتبطة بأوثق الحبال وأمتنها، لكي يستطيع الإنسان أن يقاوم العقبات الكثيرة في طريقه، وينتصر في معركة "الكدح" الدائم الذي يمثل الحياة: "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ"[1]. "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ"[2].

وعلى قدر ما تشتبك نفس الإنسان بالحياة والكون بهذه المشابك المختلفة تزداد قيمته في الحياة ويعظم الدور الذي يؤديه فيها. وعلى قدر ما تنفصم الرباطات يتضاءل دوره في الحياة!

* * *

أما المهمة الكبرى –الملحوظة في تقابل الخطوط على جانبي النفس– فهي إنشاء التوازن في كيان الإنسان.

إن كل خطين متقابلين هما رباطان يربطان الكيان النفسي من الجانبين.

وبقدر تعدد الخطوط تتعدد الرباطات.. وتقابل كذلك من الجانبين.

وقد أحصينا منها ثمانية أزواج متقابلة [أو تسعة][3] في هذا الفصل –وقد يكشف البحث عن مزيد0 فإذا تخيلنا ثمانية أزواج من الأوتاد المربوطة ثمانية من هنا وثمانية من هناك، في نقط متفرقة، مرسومة رسماً هندسياً دقيقاً، استطعنا أن نتخيل الكيان الذي تربطه هذه الأوتاد متوازناً توازناً كاملا لا يميل من هنا ولا يميل من هناك.

وتلك إرادة الله لهذا المخلوق.. التوازن الذي يجعله يمشي على الصراط!

([1]) سورة الانشقاق [6].

([2]) سورة البلد [4].

([3]) انظر الهامشة في ص114.

إن التوازن سمة عامة للكون كله الذي خلقه الله..

السماوات والأرض.. الكواكب والنجوم.. المادة والإشعاع.. كل شيء في خلق الله ملحوظ فيه التناسق الدقيق والتوازن المضبوط.. التوازن الذي يدير الأفلاك في فضائها الهائل في مدارات مضبوطة لا تختل ولا تصطدم ولا تخرج عن خطها قيد شعرة في هذا الفضاء الرهيب..

والأرض ملحوظ فيها التوازن في عناصرها، في برها ومائها، في جوها، في كائناتها الحية: "وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ"[1].

والإنسان بضعة من هذا الكون تحكمه نواميسه..

وفي فطرة الإنسان هذا التوازن.. تنشئه هنا هذه الخطوط المتقابلة في النس البشرية– حين تكون كلها في وضعها الصحيح ونسبها الصحيحة– فتشده من الجانبين بنسب متساوية، وتجعله في النهاية يقوم متوازناً في نقطة الوسط الموزون.

* * *

تلك بعض الأسرار في تركيب النفس المعقد المتشابك الدقيق.

وما نزعم، وما يزعم أحد، أنه يحيط بكل أسرار النفس، ويصل إلى كل أغوارها.. وإنما استجيب لأمر الله حين يقول الناس: "وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"[2] فنحاول أن نبصر منها بقدر ما تطيق البصائر والأبصار!

ثم ننتقل من استعراض الخطوط المتقابلة وما نكشف عنه من مهامها.. إلى الطرق التي تتبعها نظم التربية في "تهذيب" هذه الطاقات والاستعدادات والخطوط..

إنها –بادئ ذي بدء– لا بد لها من تهذيب!

حقيقة إنها فطرية كلها، وإنها تؤدي –بالفطرة– إلى التوازن الصحيح في نهاية المطاف.

([1]) سورة الحجر [19].

([2]) سورة الذاريات [21].

ولكن من حقيقة الفطرة كذلك أنها تحتاج إلى "التربية" و"التعليم".

إن الإنسان ليس أُحاديّ النزعة في أي شأن من شئون كيانه..

ومن ألوان الازدواج في طبيعته أن في كيانه استعداداً للاستواء واستعداداً للانحراف[1].

ومن أجل ذلك يحتاج إلى التقويم والتهذيب ليستقيم.. وإلا مال مع الاستعداد الآخر.. استعداد الانحراف!

وسنتكلم في فصل الشذوذ والانحراف عن بضعة من ألوان الشذوذ بعد أن نستكمل الحديث عن النفس السوية في كل مجالاتها.

ولكنا هنا –فيما يتعلق بالخطوط المتقابلة في النفس البشرية– تذكر أننا في أثناء استعراضها لحظنا طريقة نموها من الطفولة الباكرة إلى مرحلة النضوج، فرأيناها تنمو في دفعات، كل دفعة تكاد تختص بأحد الجانبين حتى ينضج الخطان معاً في نهاية المطاف.

مرة يبرز الحب لينضج.. ومرة يبرز الكره.

مرة يبرز الخوف.. وميرة يبرز الرجاء.

كرة يبرز الحسي.. ومرة يبرز المعنوي.

مرة يبرز الواقع.. وميرة يبرز الخيال.

مرة تبرز الفردية.. ومرة تبرز الجماعية.. الخ.

وفي النهاية يكونان قد نضجا كلاهما، فيتداولان البروز والانحسار في النفس –على نضج– فيبرز هذا وينحسر ذاك مع وجودهما كليهما على مستوى واحد من النضوج.

تلك المرحلة الطويلة من النمو عرضة للانحراف في كل مرة إذا لم يلاحقها التقويم والتهذيب.

([1]) انظر بعد ذلك فصل "الشذوذ والانحراف" وفصل "الخير والشر".

الطفل عرضة مثلا لأن ينضج فيه جانب السلبية ولا ينضج جانب الإيجابية فينشأ ضعيف الشخصية خامل الكيان.

وعرضة لأن ينمو فيه الجانب الحسي ولا ينمو الجانب المعنوي الذي يوازنه فينشأ منغمساً في لذائذ الحس، لا يرتقي إلى عالم القيم والأفكار والعقائد.. ويظل على مقربة من عالم الحيوان.

وعرضة لأن ينمو فيه جانب الواقع ولا ينمو جانب الخيال [أو العكس بطبيعة الحال] فينشأ مسرفاً في أحد الجانبين وناقصاً في الجانب الآخر..واقعياً ضيق الأفق لا يقوى على التفكير خارج نطاق الواقع الصغير الذي يحيط بشخصه أو مجتمعه.. أو خيالياً لا يحسن مواقعة الحياة، يتعثر في مشكلاتها على الدوام.

وعرضة لأن ينمو فيه جانب الفردية فيطغى، ويظلم، وتنضب في نفسه مشاعر الإنسانية والمودة والإخاء.. أو جانب الجماعية فيذوب في كيان الآخرين ويصبح بلا كيان..

هذه واحدة..

ثم هو عرضة لأن يغذي هذه المشاعر والطاقات بغذاء خاطئ.. نتيجة تنمية بعض الأزواج دون بعضها الآخر.

قد ينمو فيه خطا الفردية والجماعية معاً.. وليس أحدهما دون الآخر.. ولكنهما ينموان في محيط ما تدركه الحواس فحسب، دون أن ينمو في محيط الإيمان بالغيب. وهنا ينشأ اختلال من نوع آخر. فليس منشأ الاختلال أن النزعة الفردية قد غلبت أو النزعة الجماعية.. ولكن منشأه أن هذا التوازن الجزئي بين الفردية والجماعية قد اختل بكامله لأنه جنح إلى جانب الإيمان بالمحسوس دون الإيمان بالغيب. وأقرب مثال لذلك "الديمقراطيات" الغربية حتى المتوازن منها، التي تدع مجالا معقولا للفرد ومجالا معقولا للجماعة. ولكنها في الوقت ذاته تعيش —فرداً وجماعة– على مستوى الحيوان لا على مستوى الإنسان. على مستوى اللذائذ الحسية والمنافع القريبة، بعيداً عن القيم العليا، وبعيداً عن الله.

وذلك يكفي لإعطائنا فكرة عن مجالات الانحراف في هذه الخطوط..

والطريقة التي تتبعها نظم التربية والتهذيب يتوقف عليها مصير الإنسان في مرحلة النضوج.

وكثير من الاختلالات التي تعانيها البشرية اليوم في الشرق والغرب.. سببها اختلال في طريقة التهذيب.

إن البشرية كلها تمارس نوعا من التهذيب بالضرورة.. يستوي في ذلك سكان الكهوف وسكان أرقى المدن في أرقى الحضارات. فالتهذيب من اللوازم الأولى للبشرية. ومن بديهياتها التي تفترق بها عن الحيوان.

ولكن نظم التهذيب تفترق فروقاً شاسعة من أقصى اليسار لأقصى اليمين.

والغرب –الذي تغلب حضارته اليوم على الأرض– يمارس ألوانا من التهذيب، رائعة جداً في بعض جزئياتها، ولكنها في مجموعها منحرفة أشد الانحراف.

والسبب كما قلنا هو العناية ببعض الخطوط البشرية دون بعضها الآخر، أو تغذيتها بغذاء فاسد من هنا أو هناك.

ولا تستقيم الفطرة ولا تتوازن إلا حين تُهذّب الخطوط كلها في ذات الوقت، وتغذى بالغذاء الصالح السليم.

وهذا ما يصنعه الإسلام.. دين الفطرة: "فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا.. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ"[1].

وقد تحدثت بتفصيل في كتاب "منهج التربية الإسلامية" عن طريقة معالجة الإسلام للخطوط المتقابلة في النفس البشرية.. بما لا أملك نقله هنا ولا تكراره في هذا الكتاب.

ولكن لا بأس من بعض فقرات:

"ومزية الإسلام –في مسايرته للفطرة– أنه لا يترك وترا من أوتار النفس لا يوقع عليه. ثم هو لا يوقع على وتر أكثر من طاقته، أو يبخسه قدره فلا يوقع عليه ما يستحق من نغمات! وبذلك يشمل الكيان الإنساني كله، وفوق ذلك يحدث التوازن في داخل النفس بشدها إلى أوتادها جميعاً فلا تميل من هنا ولا تميل من هناك، والتوقيع على أوتارها جميعاً فلا تتعلق من جانب وتظل في الجانب الآخر صماء!"

([1]) سورة الروم [30].

"والإسلام يعمد إلى خطّي الخوف والرجاء، فينفض عنهما أولا كل خوف فاسد وكل رجاء منحرف، ثم يعمد إليهما بعد ذلك فيوقع عليهما الإيقاع الصحيح الذي يصدر عن نفس بشرية سوية ينبغي لها أن ترجو وينبغي لها أن تخاف.

"ينفض من وتر الخوف أولا كل ما يرهق كاهل البشر من مخاوف زائفة.. زائفة لأنه لا طائل وراءها: لا تقدم ولا تؤخر.. ولا تغير شيئاً من واقع الأمر!

"ينفض عنه الخوف من الموت! إذ أنه.. ما قيمته؟ هل يؤخر الأجل، أو يغيّر المكتوب؟ كلا! وما دام لا يغيّر شيئاً من الواقع فهو إذن أمر لا يليق.. إنه تبديد للطاقة وتدمير للكيان.. بلا نتيجة.

"لذلك يكرر القرآن هذه الحقيقة في صور شتى وإيقاعات متنوعة.

"إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ".. إلخ.. إلخ..

"والخوف على الرزق كذلك:

"قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ"؟؟ إلخ.. إلخ.

"وكذلك الخوف من أذى الناس ومن أي ضرر توقعه بالإنسان قوى الأرض...

"وكذلك الخوف من النتائج المجهولة المبنية على حاضر معلوم...

"وهكذا يتناول القرآن كل المخاوف البشرية الزائفة واحداً واحداً فينفضها عن النفس، ويرفع عنها إصرها، ليطلقها تواجه الحياة قوية عزيزة متمكنة متطلعة، مطمئنة إلى قدر الله.

"ثم يمسك وتر الخوف –الفطري في النفس البشرية– فيوقع عليه نغمة الخوف القويمة الأصيلة التي ينبغي أن تصدر عن هذا الكيان.

"إن قوى الأرض كلها لا تخيف –أو لا ينبغي أن تخيف– لأنها قوى مسخرة. لا تستمد من نفسها، ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعا. والقوة التي ينبغي أن تخاف حقاً هي القوة التي بيدها كل شيء. هي المانحة حقا والمانعة حقاً. وإذن فخوفها هو الخوف الواجب. وخشيتها هي السبيل.

"الخوف ينبغي أن يكون من الله. ومما يُخَوّف به الله".

* * *

"من أجل ذلك يضع الإسلام "ضوابط" لشهوة الحب والكره. ضوابط تتصل بالروح، وضوابط تتصل بالعقل، وجميعها يتصل بالله...

"ولكي يصل الإسلام إلى ذلك فإنه يوقع على وتر الحب أنغاما جميلة شفيفة رائقة تنتهي في النهاية إلى أن يحب الإنسان نفسه في وضعها الصحيح!

"يوقع أولا نغمة الحب لله.. وإنها لتوقيعات شتى...

"ويوقع نعمة الحب للكون الذي خلقه الله.. فالإسلام –كما قلنا من قبل– يعقد صداقة قوية بين الكون والإنسان...

"ثم يوقع نغمة الحب لبني الإنسان..

"وحين يوقع الإسلام أنغام الحب هذه كلها، فإنها –بطبيعتها– توازن حب الإنسان لنفسه، وتضعه في وضعه الصحيح، الذي لا يظلم ولا يجور، ولا يغتصب لنفسه حقوق الآخرين.

"أما الكره فيوجهه إلى قوى الشر في الأرض..."

* * *

"الإسلام يساير الفطرة بشقيها، فيعطي الطاقة الحسية غذاءها، ويمنح الطاقة المعنوبة مجال العمل والإبداع.

"كل لذائذ الحس مباحة ما دامت في الدائرة المأمونة النظيفة التي لا تضر بالفرد ولا تضر بالمجموع. لذائذ الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس.. وما يتدعه الإنسان من أدوات تيسر حياته وتوفر جهده وتمتع حسه المتعة الحلال.. وفي ذلك غذاء كامل لطاقة الحس.

"أما الطاقة المعنوية.. الطاقة التي هي إنسانية أصيلة.. الطاقة التي تميز بها الإنسان عن الحيوان.. فالإسلام يحتفل بها احتفالا ضخماً، ويجعلها هي أساس الحياة الإنسانية، بما أنها هي أساس إنسانية الإنسان.

"أول ما يحتفل بها يمنحها العقيدة. العقيدة على شمولها واتساعها وطلاقتها. العقيدة بمعنى الإيمان بوجود الله ووحدانيته. وبمعنى العبادة لله وإخلاص الدين له. وبمعنى تصور الكون والحياة على أساس هذا الإيمان بالله. وبمعنى الإيمان بالحق الذي خلق به الله السماوات والأرض. وبمعنى إحقاق هذا الحق على ظهر الأرض. وبمعنى إقامة المجتمع الإنساني على أساس الحق الإلهي الذي نزل به القرآن. وبمعنى الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل الحق وفي سبيل الإسلام.. الجهاد في سبيل إقامة مجتمع نظيف متوازن يؤمن بما أنزل الله، ويحكم بما أنزل الله.. تلك هي العقيدة التي يبذرها الإسلام في النفوس، ويغذي بها الطاقة المعنوية في الإنسان".

* * *

"والإسلام يتناول هاتين الطاقتين [السلبية والإيجابية] فيضع كلاً منهما في مكانه الصحيح، وفي التو تنطلق النفس صحيحة البنيان قوية الكيان.. كما تدور الساعة في اللحظ التي يتم فيها وضع المسامير و"التروس" في مكانها الصحيح.

"يجعل الإسلام سلبية كاملة إزاء الله..

"وإيجابية كاملة إزاء كل قوى الكون.

"وبذلك تصلح النفس وتسقيم الحياة.

"سلبية كاملة إزاء الله.. فالله هو الخالق، والله هو المدبر، والله هو مالك الملك ومصرف كل أمر. هو الذي يحيي ويميت ويبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر. وهو القاهر فوق عباده. وهو الفعال لما يريد. وهو الذي يملك حقاً أن ينفذ ما يريد، حيث لا يملك أحد غيره من البشر لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فضلا عن أن يملكوا للآخرين...

"... وهو تسليم الحب! وليس تسليم القهر!

" إن الله هو القاهر فوق عباده حقاً. وهو يملك كل وسائل القهر، وبيده ملكوت كل شيء. ولكن الله ذاته هو الذي يحب عباده ويرضى عنهم، ويدعوهم إلى حبه "والرضى عنه".

"قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ.

"رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

"وهو تسليم الاطمئنان: ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب.

"ومن هذا التسليم الخالص لله يستمد الإنسان إيجابيته الكاملة تجاه الأشياء والأشخاص والأحداث!

"إنها العجيبة التي تحدث في النفس المؤمنة! عجيبة الإيمان التي تملؤها فتطلقها بانية منشئة هادية، مكافحة معتزة مجاهدة مستعلية!

"وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ" تلك هي العزة إزاء الأشخاص.

"وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" وتلك هي العزة إزاء الأحداث.

"وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ". وتلك هي العزة إزاء الأشياء.

"عزة كاملة في كل اتجاه.

وهذه معجزة الإيمان. التسليم الكامل لله يعطي النفس هذه القوة العجيبة التي تكافح بها كل شيء وتستعلي بها على كل شيء، وتنشئ بها ما تريد.

"إنه لا عبودية لقوة المادة ولا قوة الاقتصاد ولا قوة الدولة ولا قوة المجتمع ولا قوة العادة ولا قوة التقاليد.. لا "حتمية" لشيء على وجه الأرض إلا سنة الله: "وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً". ومن سنة الله أن تكون النفس المؤمنة قوة كونية قادرة، تسير مع الناموس الأكبر، وتفهم عنه أسراره، وتستغل قواه وطاقاته.. لأن هذه القوى والطاقات كلها مسخرة للإنسان بإذن من الله.

"ومن ثم كان المسلمون الأوائل الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان حقاً ينشئون نظاما غير مسبوق في كل الأرض: نظاماً سياسياً واقتصاديا واجتماعيا وفكريا وروحياً لا توحي به ضرورة من ضرورات الأرض، وليس نتيجة "حتمية" لشيء من ظروف الأرض. إنما يُنْشَأ إنشاء، إرادة واقتداراً، بدافع الإيمان".

* * *

تلك نماذج متفرقة من معالجة الإسلام للخطوط المتقابلة في النفس البشرية تكفي لتنير الطريق..

وخلاصتها في النهاية أنها تساير الفطرة بما فيها من شمول وتكامل، وما هلي عليه من ازدواج الطبيعة وتوحد الكيان.

ومن ثم تصل هذه الطريقة إلى التوازن في كيان الإنسان، الذي هو سمة في الوقت ذاته من سمات الكون والحياة. كما تصل إلى تعميق الحياة في نفس الكائن البشري، وإثرائها بعديد من المشاعر وعديد من "المذاقات".

الدوافع والضوابط

تحدثنا في الفصل السابق عن "الأعصاب النفسية".. أو الخطوط المتقابلة في النفس البشرية. وقلنا إنها "منافذ" متعددة –متشابكة متداخلة– تنفذ منها الحياة الخارجية إلى داخل النفس، وينفذ منها باطن النفس إلى الحياة.. كما قلنا إنها تقوم في النفس بما يشبه دور الأعصاب في الجسم. فإذا كانت هذه تنقل الأحاسيس من جميع أجزاء الجسم إلى المخ، ومن المخ إلى جميع الأجزاء.. فتلك تنقل المشاعر من أجزاء النفس كلها إلى الكيان النفسي المتجمع –إلى مركز الوجدان أياً كان موضعه– ومن هذا الكيان المركزي المتجمع إلى جميع أجزاء النفس...

من خلال هذه المنافذ تنطلق الطاقة الحيوية للإنسان.. الطاقة الدافعة، فتتلون بألوانها، كما تأخذ الأحاسيس لون العصب الذي تمر فيه، فتصبح إحساساً بالألم أو اللذة أو الحرارة أو البرودة.. إلخ بحسب نوع العصب الذي تمر فيه، ثم تصبح في مركز الإحساس في المخ مزياً مختلطاً من أحاسيس متباينة في وقت واحد.. وكذلك تتلون الطاقة الدافعة بلون "العصب النفسي" الذي تمر فيه، فتصبح شعوراً بالحب أو شعوراً بالكره، أو شعوراً بالخوف أو شعوراً بالرجاء... الخ ثم تصبح في الكيان النفسي المتجمع مزيجاً مختلطاً من مشاعر متباينة في وقت واحد، يختلف في مجموعه عن المفردات..

ولكن هذه الطاقة الحيوية ذاتها.. ما هي؟

أهي تفاعل كيميائي؟ أهي كهرباء؟ أهي طاقة كطاقة المادة؟ وما طاقة المادة؟!

وأين تسكن؟

أفي أعضاء الجسم وخلاياه؟

أم في "شيء" اسمه النفس؟

ومر مركز تجمعها؟

أهو المخ؟ أم جهاز "نفسي" يقابل المخ من الجسم؟

وإذا كان الجسم هو القاعدة التي تنبعث منها الطاقة الحيوية.. فما هي الصلة بين "الجسم" و"النفس"؟ ما الصلة بين "العضو" أو الغدة وبين "الشعور" الذي يصاحب نشاط العضو أو الغدة. كيف ينشأ هذا عن ذاك؟ أكما ينشأ الشعاع من المادة؟

"الشعور" الجنسي مثلا.. "الحنين" إلى الجنس الآخر.. "الرغبة" في القرب منه و"السرور" الذي يصاحب هذا القرب و"الألم" الناشئ من الحرمان منه.. و"الإحساس" بالجمال، و"الابتهاج" به و"الأنس" إليه...

هذه المشاعر كلها أين هي من "هرمونات" الجنس، من العصارة الكيميائية التي تفرزها الغدد الجنسية في خلايا الجسم؟ وكيف ينشأ "الشعور" من "الكيمياء"؟ كيف تنشأ "النفس" من "الجسم"؟

أم هما طاقتان متوازيتان ومتصلتان، إحداهما تنبع من الجسم، والأخرى تنبع من "النفس" ويسيران في خط واحد ويتلازمان؟

والرغبة في الملك مثلا.. أين تنبع من كيان الجسم؟ في أي أعضائه وفي أي غدده تكمن الرغبة في تملك الأشياء والاستحواذ عليها؟

أم هي في "النفس" فقط؟ وما "النفس" على وجه التحديد؟

وكيف تتحول هذه الرغبة "النفسية" إلى حركة "جسدية".. حركة الجمع والاستحواذ؟

وحين يتعطل المخ عن العمل، تتعطل الوظائف النفسية من وعي وإدراك ونوازع ورغبات.. فهل معنى ذلك أن المخ هو النفس؟ أو أن النفس "تسكن" المخ؟ أو أن النفس تعمل عن طريق المخ؟!

مئات من الأسئلة لا يصل فيها الإنسان إلى يقين!

وقد تناولت الفلسفة من قديم موضوع النفس والجسم، وأبعدت في التيه.. ولم تصل إلى يقين.

ثم انفصلت الأبحاث النفسية عن الفلسفة —التي كانت جزءاً منها– وأخذت تتجه اتجاهاً متزايداً إلى البحث التجريبي المعملي.. وكانت لها في هذا الموضوع آراء متفاوتة.. ولم تصل كذلك إلى يقين.

قالت المدرسة التجريبية –المعملية– إن "النفس" انعكاس لنشاط الجسم، وإن النشاط الحيوي والشعوري جسدي كله: كيميائي وكهربي. وإن ما نسميه المشاعر هو نتيجة التفاعلات الكيميائية التي تحدث في الغدد والأعضاء، ونتيجة النشاط الكهربي الذي يحدث في المخ..

وقالت مدارس علم النفس النظري إن هناك "غرائز" أو "دوافع فطرية" أو ما يكون من الأسماء.. وإنها نفسية في أساسها، وإن لها مظاهر جسمية هي التعبير المحسوس عن الطاقة النفسية الأصيلة.

وتتردد بين هذا الطرف وذاك آراء..

وما نملك أن نصل في هذا الأمر إلى يقين..

هناك مظاهر تؤيد كلا من الرأيين، وتنقض كلا من الرأيين!

النشاط الجنسي كله.. بما فيه من مشاعر وأحاسيس ورغبات و"تهويمات" وانطلاقات واندفاعات.. وما يصاحبه من ميول فنية وأحاسيس جمالية.. ينقطع انقطاعاً تاماً إذا نزعت الهرمونات الجنسية من الجسم في وقت نموها الطبيعي.. ! وينشأ الفتى أو الفتاة بلا دوافع ولا ميول! كأنما هذه المشاعر كلها نابعة من الهرمونات!

والعقيدة في الله، وما تبعثه في النفس من مشاعر، وما تغرسه فيها من قيم ومبادئ، وما تدفع إليه من سلوك معين في الحياة.. توجد مع الجسم السليم والجسم غير السليم. الجسم المكتمل الأعضاء والجسم المبتور الأعضاء. الجسم النامي والجسم الضامر. وتظل موجودة طالما كان الجسم واعياً فقط ومدركاً.. أي ما دام الإنسان لم يغب عن الوعي. فإذا غاب عن الوعي فإنه لا يدرك شيئاً مما يوجد حتى في داخله، ولا يدرك وجود العقيدة بالتالي، لا لأنها لم تعد توجد، ولكن لأنه هو لا يدرك.. فكأنما الجسم الواعي المدرك هو مجرد وعاء للعقيدة.. أما هي، والمصدر الذي تنبعث منه فلا علاقة لها بالجسم إلا حلولها فيه!

وبين هذا الطرف وذاك ألوان مختلفة من المشاعر والأحاسيس، بعضها ينبع من الجسم فيؤثر في النفس، وبعضها ينبع من النفس فيؤثر في الجسم، وبعضها يصدر عن الكيانين معاً في ذات الوقت..

وقد يستطيع التليفزيون الإلكتروني في المستقبل أن يصور ما يدور في داخل النفس من نشاط في صور مرئية تبين من أين تنبعث المشاعر وكيف تنبعث.. أما الآن.. فلا يقين!

ربما كان أقرب تشبيه –وهو مجرد تشبيه لا نستطيع أن نحكم بصحته– هو المادة والإشعاع.. وهي حقيقة من حقائق الكون الكبير: أن المادة تتحول إلى إشعاع، والإشعاع يتحول إلى مادة. وأن الخلية الكونية –وهي الذرة فيما نعلم– مكونة من مادة وإشعاع. ولكنها تأخذ أحد الشكلين فقط في الوقت الواحد: فإما أن تكون مادة وإما أن تتحول إلى شعاع. أما الأجسام المشعة كالراديوم واليورانيوم والبلوتونيوم والأسترنشيوم وأمثالها، التي تجمع في ظاهرها بين المادة والإشعاع، فحقيقة الأمر فيها أن جزءاً من المادة يتحول باستمرار إلى إشعاع ويفقد مادته[1]..

أما الإنسان –المزدوج الطبيعة الموحد الكيان– فهو الكائن الوحيد –فيما نعلم– الذي يشمل المادة والإشعاع معا، متصلين ممتزجين، عاملين معاً دون أن يُفْقَد أحدهما ليتحول إلى الآخر..

يشمل هرمون الجنس الكيماوي –الذي تصحبه مشاعر الجنس النفسية من حنين وحب ورغب وسرور وابتهاج وإحساس بالجمال.

ويشمل العقيدة الروحية –التي تصاحبها حركات جسدية من التعبد والسلوك..

وذلك مظهر من مظاهر الازدواج في طبيعته، ناشئ من الحقيقة العظمى في كيانه: أنه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله.

* * *

الدوافع كلها يمكن تلخيصها في كلمة واحدة هي حب الحياة!

ذلك هو العنوان الذي يجمعها. ولكنها بعد ذلك تتفرع وتتشعب في أكثر من اتجاه.. بل في كل اتجاه!

تتفرع وتتشعب فتصبح دافعاً لحفظ الذات، ودافعاً لحفظ النوع، ودافعاً للقتال عن الذات أو القتال عن النوع، ودافعاً للملك، ودافعاً للتميز والبروز.. وكلها مظاهر لحب الحياة والتشبث بها والذود عنها والاستحواذ عليها والاستكثار منها والامتداد فيها..

([1]) إلى أن يخمد نشاطه فيصبح مادة لا إشعاع فيها ويتحول إلى عنصر آخر: كما يتحول الراديوم إلى رصاص عديم الإشعاع.

وسنتكلم بشيء من التفصيل عن كل واحد من هذه الدوافع بمفرده، وعن مهمتها مجتمعة، كما صنعنا في الحديث عن الخطوط المتقابلة في النفس البشرية.

ولكنا هنا –في مقدمة الفصل– نريد أن نقول كلمة عابرة عن الجهاز الآخر في النفس، المقابل لقوة الدفع في كيان الإنسان.. وهو جهاز "الضبط".. جهاز "الفرامل" المقابل "للمحرك".

إن القوى الدافعة ليست هي وحدها التي تكوّن بناء النفس.. ولا يمكن أن تكون كذلك!

لقد تعلم الإنسان وهو يخترع الآلة المتحركة أنه لا بد لها من جهازين اثنين: أحدهما ينشئ الحركة الدافعة، والآخر يوقف الاندفاع!

ثم لاحظ وجود هذه الحقيقة في تركيب نفسه.. في صميم بنيانه.. فأدرك وجود طاقتين مختلفتين في كيانه: قوة دافعة تحركه في شتى اتجاهاته، وقوة ضابطة تضبط حركة الاندفاع!

وكلتا القوتين من صميم الفطرة..

ليست إحداهما أصيلة والأخرى مفروضة عليها من الخارج كما يرى علم النفس التحليلي، الذي ينظر –بطبيعة منهجه– إلى الدوافع المحركة، ويكره الضوابط التي تحد الاندفاع!

ليس المجتمع، أو الدين أو الأخلاق والتقاليد، أو دكتاتورية الأب، هي التي تنشئ الضوابط في نفس الإنسان! إنها –كما سنرى في البحث– استعداد فطري يولد مع الطفل. ولكنه يكون كامنا. كما تكون الرؤية كامنة في جهاز الإبصار في الأيام الأولى لم تنضج بعد.. ولكنها تنضج –فطريا– بعد قليل. وكما تكون الحركة كامنة في عضلات الجسم والأطراف في الأيام والشهور الأولى، لم تكتمل بعد (فالطفل مثلا لا يستطيع المشي إلا بعد تجاوز السنة الأولى)، ويحتاج إلى معونة خارجية لمساعدة هذه الطاقة الكامنة في الظهور.. ولكنها في النهاية تظهر. وكذلك التوجيه والتهذيب والرعاية تنضج القوة الضابطة في كيان الطفل، وتساعدها –من الخارج– على استكمال نموها، ولكنها لا تنشئها من لا شيء. كما أن المساعدة ليست هي التي تنشئ حركة المشي من لا شيء!

ووجود الضوابط في داخل النفس –مع الدوافع– لا يزيد على أن يكون مظهر آخر من مظاهر الازدواج في الكيان البشري، الملحوظ في كل شيء يشتمل عليه ذلك الكيان!

الدوافع

"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.."

[صدق الله العظيم]

حب الحياة والاستمتاع بها، هو الدافع الأكبر في الكيان البشري. والمحرك الأكبر لما يصدر عنه من نشاط.

وهو يشمل –كما قلنا في مقدمة الفصل- دوافع جزئية أو فرعية، تظل تتفرع بدورها وتتشعب حتى تصل إلى دقائق صغيرة عميقة.. وكل منها يتصل في النهاية بالأعصاب النفسية التي سبق الحديث عنها، في تشابك معقد شديد التعقيد.

هذا الدافع الأكبر يشمل فرعين رئيسيين –فطريين- هما حفظ الذات وحفظ النوع.

ثم تتفرع عن كل منهما –أو عنهما معاً- فروع أخرى.

فالطعام والشراب والملبس والمسكن.. ورغبة الملك.. ورغبة البروز والتميز.. والقتال ذوداً عن النفس، كلها أمور تتصل اتصالا وثيقاً بالرغبة في حفظ الذات، والاستمتاع بحفظ الذات.

أما حفظ النوع فأداته الكبرى هي الطاقة الجنسية.. ولكن الفروع السابقة كلها تشتبك بهذه الطاقة، فيصبح كل منها مزوداً بشعبتين: شعبة تتصل بالذات، وشعبة تتصل بالجنس.

وهذان الدافعان معاً، بكل ما يتفرع عنهما من فروع وما يشتبك بهما من اشتباكات، واللذان هما في الأصل مظهران لحب الحياة والاستمتاع بها.. يؤديان مهمة ضخمة في حياة الإنسان.

لقد اقتضت حكمة الخالق أن يكون هذا المخلوق المندوب للخلافة عن الله في الأرض، مزوداً بطاقة هائلة تعينه على أداء دوره في الأرض ودوره في الحياة.

طاقة تدفعه للعمل..

فالعمل في الأرض.. والإنشاء والتعمير.. والبناء والتغيير.. هي المهمة الكبرى لهذا المخلوق. وهي معنى الخلافة عن الله في الأرض..

كان الإنسان قبضة من طين الأرض، لا إرادة لها ولا تَوَجّه ولا مهمة محدودة.. ثم نفخ الله فيها من روحه، ليعطيها من مظاهر قدرته —سبحانه– ما تقدر على حمله قبضة الطين، وما يكفي —في تقدير العزيز العليم– لمهمة الخلافة المنوطة بهذا الكائن الفريد.

ومن نفخة الروح صار "الإنسان" خليفة.. وصارت فيه القدرة على الإنشاء والإبداع والتغيير والتطوير.. التي هي قبس من إرادة "الخلق" في ذات الخالق المبدع المصور القدير.. بمقدار ما تطبق قبضة الطين.

وزود الله الإنسان بصفات ضرورية له في الخلافة عن الله:

زوده "بالعلم": "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا.."[1].

وزوده "بالإدراك": "قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ.."[2].

وزوده "بالإرادة والاختيار": "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"[3]. "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"[4].

وهكذا أصبح الإنسان —بهذه الطاقات– مهيأ لدور الخلافة في الأرض، كفئاً للقيام بأعبائها الجسام.

ولكن.. كان لا بد من وقود يشعل "الرغبة" في هذا الكيان ليتحرك!

إنه لا يتحرك بذاته ولا يعمل بذاته —كما تعمل الذات الإلهية التي نفخت فيه من روحها، بطريقة لا ندركها نحن البشر الفانين، ولكنا نعلم فقط أن الله يقول للشيء كن فيكون. وأنه مريد وفعال لما يريد، بلا واسطة ولا معين.

([1]) سورة البقرة [31].
([2]) سورة الملك [23].
([3]) سورة الشمس [7-10].
([4]) سورة البلد [10].

أما الإنسان، فعلى الرغم من نفخة الله فيه من روحه، فهو ليس إلها.. وما ينبغي له أن يكون.. وإنما هو قبضة من طين الأرض محدودة الكيان، محدودة الطاقة، محدودة الصفات. وكل ما منحه الله للإنسان من القدرة أو العلم أو الإرادة.. إلخ. فهو محدود بحدود قبضة الطين.. ومحدود بحدود دور الخلافة عن الله في الأرض.. الخلافة بكيان "الإنسان".

وفي هذا الكيان المكون من الطين والروح.. لا بد من وقود مشتعل ليتحرك ويبدع وينشئ، ويستغل الطاقات التي أودعتها النفخة العلوية في كيانه، للقيام بدور الخلافة عن الله.

هذا الوقود المشتعل هو الدوافع التي يشتمل عليها كيان الإنسان..

ولا نسأل نحن: لماذا؟ لماذا كانت هذه هي الفطرة البشرية؟ لماذا لم يكن الإنسان مفطورا على أن يعمل بلا وقود ولا اشتعال ولا دوافع؟

لا تسأل لأنه ليس من شأننا أن نسأل. ولأن الله "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ"[1] سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وإنما نعرف فقط.. ونتتبع مظاهر الإرادة الإلهية في هذا الكيان.

كان لا بد له من دوافع تدفعه إلى العمل.. وتعينه على تحمل المشاق.

لقد خُلق الإنسان في كبد..

كل خطوة من خطاه على الأرض يتمثل فيها التعب والجهد والمشقة..

الحركة الجسدية ذاتها عليها أن تقاوم جاذبية الأرض، فتبذل جهدا معينا في كل حركة حتى رفع الأصبع، حتى اندفاع الدم في داخل العروق..

وتحويل المادة الخامة المحيطة بالإنسان في الأرض إلى مادة مشكّلة.. إلى بناء وزرع وصناعة.. تحتاج إلى الجهد المضني والعمل المتعب الطويل..

وتعمير وجه الأرض بالنسل يحمّل الوالدين جهداً مضنيا، كل في دائرة اختصاصه. الأم تحمل جنينها وهنا على وهن، وفصاله في عامين.. وما تنتهي من واحد حتى تستعد لحمل جديد وجهد جديد. والأب يحمل تبعة إطعام هذا النسل بعد مرحلة الرضاع، وتبعة كسوته

(1) سورة الأنبياء [23].

وإسكانه وحمايته وتوفير الراحة له، ثم إعداده وتربيته حتى يصبح قادرا على تسلم الدور، والإنشاء من جديد..

وهكذا كل حركة من حركات الخلافة التي نيطت بالإنسان تحتاج إلى بذل الجهد وتحمل المشقة..

فما الذي "يدفع" الإنسان إلى هذا الجهد كله، ويعينه على تحمل المشاق؟

لا بد له من دافع! لا بد له من وقود مشتعل ينفث فيه الحركة والاندفاع..!

لا بد من دفعة تكافئ الجهد المبذول..

ولكن لا.. فلو تكافأت قوة الدفع مع المشقة المبذولة لوقف الإنسان عند نقطة الصفر لا يتحرك ولا يعمل ولا يسير!

كل جسم تتولاه قوتان متساويتان متضادتان في الاتجاه فهو ساكن ثابت لا يريم!

لا بد أن تغلب إحدى القوتين لتدفع الجسم إلى الحركة في الطريق الذي تريد.

لا بد أن تزيد القوة الدافعة عن المقاومة ليحدث التحرك المطلوب.

ومن هنا كان لا بد أن تكون الدوافع قوية قوية.. ليتحرك الإنسان ويعمل ويسير في الطريق..

كان لا بد له من وقود مشتعل شديد الاشتعال، ينفث فيه الحرارة المتوقدة التي تستحث خطاه على الأرض. ومن ثم كانت "الشهوات"...

* * *

كل دافع من الدوافع الفطرية يحمل معه قوته الدافعة.. ولكنه يحملها بطريقة فذة فيها كل "الضمانات" التي تضمن ألا يتعطل الدافع أو تغلبه العقبات!

لا يكفي أن يكون الدافع "من الخلف" .. بل يصحبه الجذب من الأمام! حتى إذا ضعفت إحدى القوتين لسبب من الأسباب كانت الأخرى كفيلة بأداء الدور المطلوب!

جذب من الأمام هو اللذة.. ودفع من الخلف هو الألم. وهما معاً مرتبطان بكل نزعة فطرية في الإنسان.

اللذة هي الحداء الذي يشد الإنسان إلى الأمام.. فيتحرك لتحقيق هذه اللذة، التي ركب في طبيعته أن يستجيب لها ويسعى إليها، كما ركب في قطعة الحديد أن تنجذب إلى المغنطيس.

والألم هو المهماز الذي يدفع الإنسان من الخلف.. فيتحرك ليبعد عنه. فقد ركب في طبيعته أن ينفر منه ويسعى بعيداً عنه، كما ركب في القطبين المتشابهين أن يحدث بينهما النفور والابتعاد.

وكل نزعة فطرية مزودة بهذين العاملين المساعدين.. لضمان تحركها دائماً إلى الأمام.

الطعام والشراب ضرورة لحفظ الذات.. فكان لا بد من ربطهما بالألم واللذة من الخلف والأمام.

والجوع والعطش هما المهماز الذي يدفع الإنسان –بالألم– فيسعى إلى الطعام والشراب لإسكان هذا الألم الذي لا يهدأ ولا يكف حتى يستجاب له.

ولكن الألم لا يكفي!

فهناك لذة الشبع والري.. وهما معاً: اللذة من الأمام والألم من الخلف يدفعان إلى طلب الطعام والشراب محافظة على كيان الذات!

والملبس ضرورة كذلك..

والألم الذي تحدثه عوارض الجو من البرد الشديد والحر.. الخ. دافع من الخلف للتزود باللباس.

واللذة التي يحدثها الدفء وتحدثها الوقاية من عوارض الجو جاذب يجذب من الأمام.

والجنس أداة حفظ النوع..

ولا بد كذلك من اللذة والألم لضمان القيام بالدور المطلوب، حتى لا تقعد المتاعب والمشاكل المترتبة على النسل عن أداء هذا الدور من جانب الذكر أو الأنثى سواء.

ولأن المتاعب كثيرة جداً، والمشاكل شديدة التعقيد.. كان لا بد أن يكون الجذب عنيفاً جداً والألم لا يطاق الاصطبار عليه.. حتى يوجد الضمان الكافي للتنفيذ!

ولضمان حفظ الذات وحفظ النوع كان لا بد من الاستحواذ على أشياء.. أشياء من الطعام والشراب والملبس وغيرها من الحاجات.. خوفاً من نفادها وتعرض الإنسان للهلاك.

وكان لا بد كذلك من الحداء من الأمام والألم من الخلف.. الحداء باللذة المترتبة على الملك.. لذة رؤية الأشياء ولمسها وشمها وذوقها، والاستحواذ المادي عليها.. والألم من عدم التملك.. الألم من "الحرمان".

ولضمان حفظ الذات وحفظ النوع كان لا بد من الذود عنهما ضد الأخطار.. أي القتال.. وكان لا بد للقتال كذلك من الرباطين من الأمام والخلف.. فمن الخلف كان الألم من التعدي على كيان الإنسان –فرداً أو جماعة– التعدي على الذات أو ما يتصل بها من ممتلكات. ومن الأمام كانت لذة الانتصار على الآخرين..

ولضمان حفظ الذات وحفظ النوع كذلك كان لا بد من دافع التميز والبروز، كعامل مساعد، يغري بأن يندفع كل إنسان إلى الأمام في أداء هذه المهمة وتلك، ولا ينكص على عقبيه.. وكان لا بد من رباطين لدافع البروز.. الألم الذي يحسه الإنسان من تخلفه وبروز غيره عليه، واللذة التي يحسها في أن يسبق غيره ويفوز..

تلك هي الدوافع الفطرية.. وتلك مهمتها في كيان الإنسان ودوره في الحياة.

* * *

لا شيء منها يوجد جزافاً في كيان الإنسان..

ولا شيء يتصل بمفرده..

إنما تعمل كلها جميعاً لتصب في المرجل الرئيسي الأكبر.. في الدافع الأول في الكيان البشري، وهو حب الحياة والاستمتع بالحياة.. وهذا بدوره هو الذي يدفع الإنسان للعمل والإنتاج والإنشاء والإبداع والتعمير.. الذي هو مهمة الخلافة عن الله..

وكل تفسير للنفس الإنسانية بدافع واحد من دوافع الحياة، هو تفسير ناقص قصير النظر محدود الرؤية عاجز عن التفسير!

التفسير الجنسي للسلوك البشري الذي قال به فرويد..

التفسير المادي الذي يقول إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام، والذي قال به ماركس وإنجلز، وغيرهم من دعاة التفسير المادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ.

والتفسير السيكلوجي الجزئي الذي يقول إن رغبة البروز هي الدافع الأصيل للإنسان، سواء في صورة رغبة في التفوق كما أدلى بها "أدار" أو شعور بالنقص ومحاولة للتعويض كما أدلى بها "يونج" تلميذا فرويد..

كل هذه التفسيرات ترتكب خطأً رئيسياً فاضحاً.. هو أخذ جانب واحد من الإنسان، والقول بأن هذا الجانب هو "الإنسان"..

وما من دافع هناك لهذا الاعتساف في التفسير.. حين يضع الباحث الكيان البشري كله على مائدة بحثه، ويراه على حقيقته الشاملة المتكاملة، التي تشمل هذه الجزئيات كلها وتضيف إليها التشابك فيما بينها والتداخل والارتباط.

وكذلك كل تفسير يأخذ في حسابه الدوافع وحدها، ولا يعمل حساب القوة الضابطة في كيان الإنسان!

الضوابط

"وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ"

[صدق الله العظيم]

هل كان يصلح الإنسان –بالدوافع التي أشرنا إليها من قبل– لأن يكون خليفة الله؟

أو ليست هي ذاتها دوافع الحيوان؟!

الطعام والشراب والجنس والقتال.. أو ليست كلها من دوافع الحيوان؟

ويزيد عليها أنها دوافع "مفتوحة"! ففي الحيوان توجد هذه الدوافع، ولكن لها صمامها الذي يغلقها إغلاقاً غريزيا عند حد الامتلاء.. أو الحد المناسب الذي تدركه غريزة الحيوان. أما الإنسان فلم يكن في فطرته صمام الغريزة.. ويستطيع –لو أراد– أن يمضي مع هذه

الدوافع إلى أكثر من حد الامتلاء، أو أكثر من الحد "المناسب" الذي تدركه –بطريقة غريزية– فطرة الحيوان..

فهل يصلح بذلك أن يكون خليفة لله في الأرض، مكرما، مفضلا، تناط به المسئوليات الجسام؟

بل هل يصلح أصلا أن يكون كائنا حيا يكتب له الاستمرار في البقاء، ولا تدمره الدوافع العنيفة التي تدفعه بلا ضابط ولا انتهاء؟

كلا! ما هكذا تكون صنعة الخالق الحكيم! الخالق الذي خلق الإنسان فأحسن صورته: "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ"[1].

لا بد من صمام.. ولكنه صمام يناسب طبيعة الإنسان.. صمام يتمثل فيه ما في طبيعة الإنسان من وعي وعلم وإرادة وحرية اختيار..

ومن ثم كانت "الضوابط" في كيان الإنسان.

* * *

الضوابط قوة فطرية تولد مع الإنسان. تولد كامنة في كيانه. ولكنها لا تظهر في مبدأ الأمر كما تظهر الدوافع.. ثم إنها في حاجة إلى مساعدة خارجية ليتم لها النماء والنضج، وإلا بقيت ضامرة لا تؤدي وظيفتها كاملة في حياة الإنسان.

وقد أغرى ذلك بعض "العلماء" فظنوا أنها ليست جزءا فطريا من كيان الإنسان. ظنوا أنها دخيلة عليه، تصنعها القوى الخارجية التي تعوّد الطفل على عملية الضبط، بالضغط أحيانا أو بالتحبيب والترغيب. ثم اختلف هذا البعض فيما بينهم –مع اتفاقهم على أنها تنشأ من العوامل الخارجية!– فحبذ بعضهم تنميتها وأقر بضرورة وجودها. ونفر منها بعضهم وود أن يحطمها!

وكان فرويد بطبيعة الحال من الفريق الآخر!

([1]) سورة التغابن [2].

قال في كتاب "Three Contributions to the Sexual Theory" ص82 تحت عنوان "التسامي": "أما ثالث أنواع الشذوذ فإنه يحدث نتيجة عملية التسامي (!) حيث تصرّف الطاقة الشهوية الصادرة من منابع جنسية فردية، في مجالات أخرى (أي غير المجال الجنسي) وينتفع بها في هذه المجالات. وهكذا يحصل الإنسان على قوة نفسية كبيرة، من استعداد نفسي هو في ذاته خطير"!!

وفي ص 85 من نفس الكتاب يتحدث عن "التعارض القائم بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية"!!

وفي كتاب "The ego & the id" ص80 يقول: "إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية"!!

ولكن هؤلاء وهؤلاء معا مخطئون.. فليست الضوابط قوة أجنبية عن كيان الإنسان. وهناك حقيقة بديهية ينبغي أن يدركها "العلماء" جميعا.. لأنها بديهية! هي أن الضغط الخارجي لا يمكن أبدا أن ينشئ شيئاً في كيان الإنسان، ما لم يكن هناك استعداد فطري للاستجابة إليه!

الجوع مثلا جزء من كيان الإنسان.. ولا يمكن بأي نوع من أنواع الضغط الخارجي إنشاء إنسان لا يجوع! وقد يتعود الإنسان –بالضغط الخارجي أو الذاتي– أن يمتنع عن الطعام فترة من الوقت [لأن هذا موجود في فطرته!] ولكن لا يمكن أن يمتنع البتة عن الطعام مهما اشتد الضغط عليه [لأن هذا ليس من فطرته!].

والدافع الجنسي جزء من كيان الإنسان.. ولا يمكن بأي نوع من أنواع الضغط الخارجي إيجاد إنسان سوي لا يحس بهذا الدافع [نتكلم عن الإحساس لا عن التنفيذ. فقد يوجد الإحساس ويمتنع الإنسان عن التنفيذ] وهذا الإحساس يهذّب فيتسامى ويرتفع [لأن ذلك في فطرة الإنسان] ولكنه لا يزول بالتهذيب ولا بالضغط [لأن إزالته ليست من الفطرة السوية!]

وهكذا لا يمكن أن ينشئ الضغط الخارجي شيئا غير موجود بالفعل، ولا يمكن أن يزيل إزالة تامة شيئا موجودا بالفعل. وإنما يفلح الضغط فقط حيث يوجد الاستعداد للاستجابة إليه، وبمقدار هذا الاستعداد. ويفشل حيث لا يوجد استعداد للاستجابة مهما يكن شديدا وقاسيا ومستديما..

"فالضوابط" لا ينشئها الضغط الخارجي، ولا التوجيه والتهذيب، ولا يمكن أن تنشئها. وإنما فقط تنميها..

والتنمية قضية أخرى غير قضية الإنشاء!

الطفل يولد عاجزا عن الحركة، ويحتاج إلى معونة خارجية ليتحرك، وخاصة حركة المشي. وإذا فقد هذه المعونة فربما ينشأ كسيحا لا يمشي مدى العمر على رجليه.. فهل معنى هذا أن المعونة الخارجية هي التي تنشئ المشي؟! كلا وإنما معناه أنها قدرة كامنة، تحتاج إلى معونة لتظهر وتشتد.

ويولد الطفل عاجزا عن الكلام. ويحتاج إلى مناغاة وملاغاة طويلة دؤوبة صابرة لكي يتعلم النطق، ويتعلم دلالة اللغة [وهي إحدى معجزات الخلق التي أشار إليها القرآن في خلقة آدم: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا"] ثم يأخذ في استخدام اللغة بما تعلمه من دلالتها. وإذا لم يجد هذه المعونة فقد لا ينطق أبدا [كما لا ينطق الصم الذين لم يسمعوا اللغة فلم يدركوها وبالتالي لم يستخدموها] أو قد يقتصر نطقه على عواء أبكم كعواء الحيوان. فهل معنى ذلك أن المعونة الخارجية هي التي تنشئ النطق؟! كلا! وإنما معناه أن النطق قدرة كامنة، تحتاج إلى معونة لتظهر وتشتد.

فإذا كان هذا شأن القدرات الجسدية البحتة [كالمشي] أو الحسية المعنوية [كاللغة والنطق] فهو كذلك شأن القوى الضابطة في كيان الإنسان. لا تنشأ من الضغط. ولا تنشأ من التوجيه والتهذيب. وإنما تنشأ فطرية في كيان الإنسان. والضغط أو التوجيه والتهذيب هي العوامل المساعدة لنمائها وتطورها.

* * *

يقول جوليان هكسلي –العالم الدارويني الذي أشرنا إليه من قبل– في كتابه "الإنسان في العالم الحديث":

"ولذلك فالإنسان أذكى بكثير من الحيوانات، لأن تركيب مخه أكثر مرونة...

"ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكلوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية. والإنسان فريد في بعضها. ولقد أدت هذه المرونة مثلا إلى كون الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا بد أن يتعرض للصراع النفسي.

"وفي الحقيقة أن منع النزاع بين طرق العمل المتعارضة هو ظاهرة عامة جداً، وذات منفعة بيولوجية، وهي ليست إلا خاصية العقل البشري الذي مكن الإنسان من التخلص من هذا النزاع..

"وعندما نصل إلى المستوى الإنساني نجد تعقيدات جديدة [أي أكثر مما يوجد في الحيوان] لأن من خصائص الإنسان كما رأينا التغلب على شدة الغريزة، وتهيئة أجهزة الاتصال التي بها يمكن أن يتصل أي نشاط للعقل سواء في دائرة المعرفة أو الحس أو الإرادة بأي نشاط آخر، وبهذا حصل الإنسان على حياة عقلية موحدة. وإن كان الباب قد فتح بهذا أيضاً لعوامل الانشقاق التي قد تقضي على الوحدة، بل وتمنع من التمتع بالحياة، لأن الجهاز العصبي كما يقول شرنجتون يشبه القمع، مدخله أوسع من مخرجه. ويشبه مدخل القمع الأعصاب المستقبلة التي توصل البواعث من أعضاء الحس إلى الجهاز العصبي المركزي، ومخرج القمع يوصل البواعث بواسطة الأعصاب الناقلة إلى العضلات... ومع ذلك، فطبقا للآراء الحديثة، توجد أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد، وهي التي يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع. والقمع أهم من وجهة نظرنا، وهو عبارة عن حبس أحد المؤثرين المتنازعين في ظلمات العقل الباطن [هذا الذي سماه فرويد بالكبت]. ومع ذلك فهذه الاستعارة غير تامة، لأن السجين في ظلمات العقل يمكنه أن يستمر مؤثراً في الشخص في ضوء الوعي. وعلاوة على الاضطراب العصبي العام يضطر الإنسان إلى بعض الأفكار والأعمال. ولذلك فالقمع [الكبت في تسمية فرويد] ضار. إلا أنه قد يعتبر ضرورة بيولوجية لفض النزاع الذي لا بد من وجوده في السنين الأولى من حياة الإنسان قبل سداد الرأي المبني على العقل. ومن الخير أن يكون الإنسان قادراً على القيام بعمل ما دون قيد، حتى ولو أدى ذلك إلى اضطراب عصبي، عن أن يكون عاجزاً عن الحركة مثل الحمار بين حزمتين من البرسيم المجفف، فإن حيرته بينهما متكافئة.

"وفي القمع لا ينفي الباعث المنهزم إلى اللاشعور فحسب، بل إن عملية النفي ذاتها لا شعورية. وإن الأجهزة التي قامت بذلك لا بد أن تكون قد تطورت لتمنع الإمكانيات الظاهرة للنزاع –وبخاصة في السنين الأولى من الحياة– ذلك النزاع الذي نشأ كنتيجة ثانوية لعقل الإنسان.

"وفي الكبت [نؤثر نحن أن نسمي هذه العملية بعملية الضبط] ينفي الباعث عن وعي، ولذلك فليس من المحتمل ظهور اضطراب عصبي. وأخيراً عند سداد الرأي لا ينفي أحد

الباعثين المتعارضين إلى اللاشعور، ولكنهما يوزنان على ضوء العقل والخبرة ثم يؤدّي العمل عن وعي"[1].

* * *

أخذنا هذه المقتطفات المطولة شيئاً ما، لأنها تفيدنا –من رجل ملحد لا يؤمن بالله ولا بالقيم الخلقية[2]– في إثبات هذه المجموعة من الحقائق:

أولا: إن أجهزة "الضبط" سواء منها اللاشعوري أو الشعوري هي أجهزة بيولوجية تنشأ عنه أجهزة سيكلوجية. ومعنى كونها بيولوجية أنها من صميم الفطرة. فالكيان البيولوجي للإنسان فطري يولد معه، ويُوَرّثُ عن طريق البويضة الملقحة.. ولا يكتسب من عمل الظروف الخارجية!

ثانياً: إن من خصائص الإنسان التغلب على شدة الغريزة. فهذه خاصية له. فطرية. من صميم كيانه. ليست مفروضة عليه من خارج نفسه.

ثالثاً: إن عملية الضبط تعمل لا شعوريا في سنوات الطفولة الأولى، ثم تعمل شعورياً بعد ذلك. أي أنها تتبع نفس خط النمو الذي تتبعه جميع العمليات النفسية الأخرى وجميع القدرات.

وهذا يكفي فيما نحن بصدده من إثبات هذه الحقيقة الكبيرة، وهي أن الضوابط فطرية في كيان الإنسان!

* * *

فطرية ولكنها في حاجة إلى معونة خارجية..

وتلك مهمة التوجيه والتهذيب.. وهي عملية ضرورية بالنسبة لحياة الإنسان.

---

(1) ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر ص26–ص30.

(2) في الفصل الثاني من الكتاب يدعو إلى "تحسين النسل" بانتخاب ذكور ممتازة من الإنسان لتلقيح الإناث.. دون عائق من التنظيمات الاجتماعية والأخلاقية!

ولكنا سنفترض أن طفلا من الأطفال لم يُرَبِّ أبداً.. وترك هكذا "على فطرته".. فهل ينشأ بلا ضوابط؟!

كلا!.. إن الطفل يتعلم ضبط إفرازاته بمفرده بعد فترة من الوقت ولو لم يعوده على ذلك أحد. وإنما تتأخر هذه العملية فقط حين لا يوجد التوجيه.

وهكذا لو تركناه بلا توجيه فسيحدث أن تتأخر جميع الضوابط في الظهور. وأن تنمو نمواً ناقصاً ومضطرباً غير متناسق. وقد يحدث أن يبقى الكثير منها ضامراً.. ولكن لا يحدث أبداً أن تكون كلها غير موجودة!

يذكر فرويد أن الملل طبيعة إنسانية. وأن هذا الملل يحول دون استمرار الإنسان في عمل واحد أو اتجاه واحد إلى ما لا نهاية، ويحوّله إلى عمل جديد أو اتجاه جديد. وأن هذا الملل ينمو تدريجياً.. فالطفل الصغير يكاد لا يمل من تكرار العمل الواحد أو اللفظ الواحد، ولكنه كلما كبر أسرع إليه الملل وطلب التغيير..

وتلك ملاحظة صادقة، كان ينبغي أن يصل معها فرويد إلى آخر دلالتها! فالملل إذن فرملة لا إرادية تمنع الشطط في أي اتجاه! وهي تنمو تدريجياً مع نمو الطفل.. والتوجيه والتهذيب يعملان على أن يكون منع الشطط عملية واعية، مبنية على أسس ومبادئ، ولكن حتى في حالة عدم وجود التوجيه والتهذيب فهناك "أجهزة" كما قال جوليان هكسلي تقوم بعملية الضبط..

أجهزة من الفطرة...

* * *

في كيان الإنسان إذن قوة ضابطة تمنع الشطط في أي دافع من الدوافع الفطرية. وهذه القوة تنحرف أحياناً وتكف عن العمل أحياناً.. ولا نتحدث عن ذلك هنا. إنما نتحدث حتى الآن عن الفطرة السوية.

وهي تؤدي مهمة رئيسية في حياة الإنسان.

إنها الصمام الذي لا بد منه في كيان الكائن الحي.. الصمام الذي يمنع الدمار.

إنها المقابل الواعي لعمل الغريزة في الحيوان. هي التي تحدد حد الاكتفاء.

ثم هي —في حياة الإنسان– تقوم بمهمة أخرى لا تقل في حيويتها عن تحديد حد الاكتفاء الذي يمنع الدمار.

إنها تقوم بتوجيه الطاقة الحيوية إلى مستويات أعلى وأرفع من مجرد الاستجابة المباشرة لدفعة "الغريزة".

إن قوة الإنسان قوة فائضة عن "الضرورة". وليست كقوة الحيوان على قدر الضرورة. وهذا الفائض هو الذي تمنع القوة الضابطة استهلاكه في محيط الضرورة، وترفعه إلى المستوى الأعلى. تحوّله إلى عمل. إلى إنتاج. إلى إنشاء وتعمير.. وتغيير وتطوير.. أي إلى القيام بمهمة الخلافة عن الله في الأرض.

هذا الفائض هو الذي ينشئ به الإنسان الحضارات، ويكافح به في سبيل العقائد والمثل، وينتج به الإنتاج المادي، والمخترعات والمكتشفات، والفنون والعلوم.. هو مجد الإنسان في الأرض، الذي هيأه الله للإنسان. وهو ينشأ من الدوافع والضوابط معاً في حياة الإنسان!

الدوافع والضوابط معاً في حياة الإنسان

كما يعمل الإنسان بكيانه المتكامل في كل نشاط يصدر عنه، فكذلك تعمل الدوافع والضوابط معاً في ذات الوقت..

ولقد يجنح الإنسان بالدوافع تارة —مفردة أو مجتمعة– أو يجنح بالضوابط تارة —مفردة أو مجتمعة– ولكنه في كل لحظة يعمل بطاقتيه جميعاً– ما دام في حالته السوية لم يطرأ على تركيبه خلل أو انحراف.

وهذا الكيان المتجمع من الدوافع والضوابط [الإرادية] هو الذي يجعل حياة الإنسان تفترق عن حياة الحيوان، الذي لا يعرف الضوابط الإرادية، ولا تشمل حياته إلا الدوافع وحدها، وضوابط الغريزة اللاإرادية التي لا تبقي فائضاً من النشاط تدخره لشيء من الإنتاج والإبداع. كما تفترق حياته عن حياة الملَك، الذي لا يعرف الدوافع البشرية أو الحيوانية، وليس في كيانه وقود مشتعل من الرغبات يؤزه ويدفعه إلى أي عمل أو إنتاج، سوى العبادة المفطورة نفوسهم عليها، بمعناها الملائكي: "يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ"[1].

([1]) سورة الأنبياء [20].

وهذا الكيان المتجمع من الدوافع والضوابط معاً هو الذي يسمح بوجود "غاية" للحياة الإنسانية.. غاية واعية مدركة تشمل كل دافع على حدة، والدوافع كلها مجتمعة [بل الغاية الواعية المدركة هي ذاتها لون من الضوابط يضع حداً للاندفاع وراء الدوافع أو الشهوات] وهو الذي يجعل "حب الحياة" عند الإنسان يتبدى في ألوان وأشكال تختلف عن حب الكائنات الأخرى للحياة.

* * *

حفظ الذات هدف لكل كائن حي.. يؤديه بدافع الغريزة.. ولكن الإنسان يضيف إليه الوعي والإدراك، فيصبح شيئاً آخر غير حفظ الحيوان لذاته. يختلف عنه في الطريقة وفي الهدف سواء.

فالحيوان يأكل ويشرب، ويتقي البرد والحر، ويتخذ المأوى، ويقاتل ويحب الغلبة والبروز..

فأي فرق هائل بين هذا وذاك..؟!

لذعة الجوع تدفع الحيوان للطعام. فيتجه تواً إليه. ويأكل أنواعاً معينة من الطعام لا يغيرها [وهو لم يخترها لنفسه اختيارً حراً] ويأكل حتى تقرر له الغريزة حد الاكتفاء فيكف عن الطعام. ويأكل بطريقة واحدة لا يغيرها، وهي طريقة مكرورة في كل فرد مع فروق فردية بسيطة لا تبلغ أن تكون اختلافاً في "السلوك".

ولذعة الجوع تدفع الإنسان إلى الطعام.. وربما مرت على البشرية عصور كانت فيها أقرب إلى الحيوان في السلوك، ولكنها لم تكن قط كالحيوان!

وأول اختلاف –منذ البدء- كان في سعة المجال الذي يختار منه الإنسان طعامه: "وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا"[1]. وقابليته لهذا التنوع في الطعام. وذلك تناسق عجيب في الفطرة. فكل شيء في حياة الإنسان متعدد متنوع. حتى الماديات. حتى الضرورات. وليست المشاعر وحدها ولا الأفكار!

والاختلاف الثاني أنه هو الذي يحدد لنفسه حد الاكتفاء.. فلا يوجد ضابط غريزي يجعله يتوقف. وفي مكانه يوجد ضابط مدرك واع مريد متصرف. يستطيع أن يحدد مكان

(1) سورة البقرة [35].

التوقف ابتداء من نقطة الصفر [لفترة من الوقت على الأقل] إلى ما بعد حد الاكتفاء المعقول [وهو الإسراف الذي لا يقدر عليه إلا الإنسان!].

والاختلاف الثالث أنه لم يكتف بتناول الطعام على حالته الخامة التي وجده عليها، بل أخذ يتدخل بالصنعة في إعداده. فما إن اكتشف النار حتى راح ينضج عليها الطعام، ثم فتحت له النار أبواباً لا نهاية لها من فنون الطعام، من بسيطة ومركبة، جعلت في استطاعته أن يستحدث طعوماً جديدة للأشياء وطعوماً متنوعة. وكان هذا استجابة لما في فطرته من التجدد والتنوع، وهو طابع عام للإنسان يشمل كل شيء في حياته ولا يقتصر على الطعام.

والاختلاف الرابع أنه لم يتخذ سلوكاً واحداً نحوه. فليس يختلف فرد عن فرد في سلوكه نحو الطعام فحسب، بل يختلف الفرد الواحد ما بين مرة ومرة، وبين حالة وحالة.. فهو تارة معجل يأكل طعامه نهشاً وتارة مستأن يأكل على مهل وروية. وتارة يتأنق فيه تأنقاً، فيأكل بأدوات أنيقة وصحاف مزخرفة، وعلى مائدة منسقة، بعد عناية زائدة بالغسل والإعداد وطريقة التقديم.. الخ حتى يصبح ذلك "فناً" تؤلف فيه المؤلفات ويتعلمه الناس..

والاختلاف الخامس أنه جعل له هدفاً.. ثم لم يجعله هدفاً واحداً، وإنما اختلف الناس في هدفهم من الطعام. فبعضهم يأكل للضرورة. لحفظ الحياة. يأكل ليعيش. وبعضهم يجعل الطعام هدفاً في ذاته فيعيش ليأكل. وبعضهم يأكل لسد الجوعة وبعضهم للتلذذ من كل أصناف الطعام.. وقد تختلط هذه الأهداف.. وقد يتنقل الفرد الواحد من حالة إلى حالة.. فقد يأكل لحفظ الحياة فقط ولكنه يتلذذ بما يأكل. وقد يجعل الطعام هدفاً في ذاته، ولكنه لنهمه وبطنته يلتهم الأكل التهاماً فتفوته لذة التذوق والتفنن في الإعداد أو التقديم أو التناول... ثم يختلف الهدف مرة أخرى: هل هو اللذة الفردية الأنانية فيأكل وحده، ويبخل بطعامه على الناس، ويذودهم عنه. أم لذة جماعية. فيأكل مع الآخرين، ويجود بالطعام على الناس ويدعوهم إليه، ويجعل لهم حقاً فيه.. الخ ثم يختلف مرة أخرى: هل يتحرى فيه "النظافة" الحسية والمعنوية. نظافة المأخذ، فلا يأكل إلا النظيف والطيب والحلال، أم لا يبالي بالنظافة فيأكل القذر من الطعام حساً ومعنى، فيبذل فيه كرامته، أو يغتصب ويسرق وينهب ويأكل المأكل الحرام؟

والاختلاف السادس أنه لا يحس بالقهر الكامل إزاءه. حقيقة إنه لا بد أن يستجيب في النهاية. فقد شاءت الحكمة العليا —التي جعلت الطعام ضرورة لحفظ الكيان– أن تجعل دافعيه من اللذة والألم، من الشدة والإلحاح بحيث يستحيل على الإنسان ألا يستجيب. ولكن هناك "مسافة" زمنية وشعورية وسلوكية بين الدفعة والاستجابة. مسافة تطول أو تقصر. ولكنها تمثل الاختيار الحر الذي هو سمة الإنسان. وصحيح أن الحرية في الاختيار هنا

محدودة. فالإنسان لم توهب له الحرية المطلقة. التي لا تتمثل إلا في ذات الخالق وحده. وإنما وُهِبَ له قدر من الحرية، بمقدار ما تطيق قبضة الطين من نفخة الروح. ولكن هذا القدر قد ميزه لتوه عن الحيوان. وجعله حراً نسبياً في اختيار سلوكه واختيار موقفه من الدافع الملح الذي لا بد من إطاعته في نهاية المطاف. ومن ثم يملك الإنسان أن يستجيب في الحال – بإرادته– أو يستجيب بعد فترة من الوقت. وأن ينظم مواعيد طعامه بحريته. وأن يمتنع عن أنواع معينة ويقبل على أخرى. وأن يصوم فترة من الوقت إذا أراد..

كل تلك الفروق بين استجابة الإنسان لدافع الطعام واستجابة الحيوان، قد ميّزته عنه منذ اللحظة الأولى، وجعلت تاريخه –منذ اللحظة الأولى كذلك– أوسع من البحث عن الطعام!!

إن التفسير المادي للتاريخ الذي يزعم أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام تفسير جاهل أو مغالط.. يرى الحقائق ثم يغضي عنها لشهوة مذهبية، تريد أن تلوي الحقائق ليًّا لتؤدي إلى هدف معين موضوع قبل المقدمات!

فعلى فرض أن البحث عن الطعام هو تاريخ البشرية [وهذه مغالطة مكشوفة لأنها – بصرف النظر عن "القيم" كلها– تغفل دافع الجنس ومدى تدخله في تاريخ البشرية، على الأقل بإنتاج نسل يتكون منه "المجتمع"، وما يقتضيه هذا المجتمع من تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وروحية.. إلخ] فقد دخلت في هذا البحث عناصر أخرى لم تجعله بحثاً خالصاً عن الطام.. إنما جعلته –إلى جانب ذلك– بحثا عن القيم! هل يتعاون الناس في البحث عن الطعام أم يتقاتلون ويتنازعون؟ هل يأخذ كل إنسان كفايته وحدها أم يتاح له أن يخزن ما يزيد على حاجته؟ هل يملك الطعام ملكية فردية أم ملكية جماعية؟ وهل يوزع بالتساوي أم بحسب الحاجة؟ وما مقياس الحاجة؟

كل هذه قيم.. اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية وروحية.. نشأت في أثناء هذا البحث عن الطعام –على زعم أنه البحث الأوحد الذي قام به الإنسان [وليس ذلك حقيقة!]– ومن ثم لم يعد البحث عن الطعام هو وحده الذي يكتب تاريخ البشرية [حتى لو كان هو الدافع الأوحد!] وإنما صارت هذه القيم كلها مجتمعة هي التي تكتب تاريخ البشرية. وكان هذا نتيجة طبيعية –وحتمية– لتعدد جوانب الإنسان وتداخل مساربه وطاقاته ومكوّناته، وعدم انفراد أي جانب منها أو طاقة بالعمل في لحظة من اللحظات.. ومن ثم يصبح "الإنسان" بكامله هو الذي يكتب تاريخ الإنسان!

وتلك بديهية لم يكن ينبغي أن "يتعب" في فهمها هواه التفسير المادي للتاريخ!

* * *

والحيوان يتقي البرد والحر بطريقته الغريزية التي وهبها له الله. فبعضه –بلا وعي ولا إرادة– ينتف شعره إذا جاء الحر، وينمو له فرو دفئ إذا جاء البرد. وبعضه يبيت بياتاً شتوياً لا يتحرك فيه البتة لكي لا يستهلك كيانه في البرد. وبعضه يأوي إلى الكهوف. وبعضه ينتقل من ماء إلى ماء مختلف في الحرارة.. الخ.

كل نوع بطريقته.. لا إرادة له فيها ولا اختيار ولا تنوع بين الأفراد.

والإنسان يتقي البرد والحر بوسائل شتى واسعة النطاق.. تبدأ باتخاذ الملابس وتنتهي –اليوم– بتكييف الهواء في الأماكن المحدودة.. وقد تنتهي غداً بتكييف الهواء في الأجواء!

وكلها تتمثل فيها الصفات الستة التي تمثلت من قبل في الطعام.

فهناك أولا: سعة المجال وتعدد الطرائق.

وهناك ثانياً: أن الإنسان هو الذي يحدد بنفسه حد الاكتفاء. ما بين العري أو ما يشبه العري، وتكديس الملابس بعضها فوق بعض طبقات!

وهناك ثالثاً: أنه لا يأخذ الأمور على حالتها الخامة إنما يصنعها.. سواء في الملابس أو الأدوات والأشياء.

وهناك رابعاً: أنه يختلف في سلوكه نحوها بين الأناقة المفرطة وعدم المبالاة.

وهناك خامساً: وجود هدف ثم اختلاف هذا الهدف بين فرد وفرد، واختلافه في الفرد الواحد بين حالة وحالة.

وهناك سادساً: أنه لا يحس بالقهر الكامل إزاء الضرورة. فهو يملك –بِقَدَر– أن يستجيب أو لا يستجيب، وأن يختار طريقة الاستجابة وينظمها.

وتلك كلها صفات "الإنسان" التي تلازمه في كل ما يفعل، وتميز نشاطه عن نشاط الحيوان.

* * *

والحيوان يتخذ المأوى.. بصورة غريزية مكرورة ولا اختيار فيها..

والإنسان يتخذ المأوى.. على نفس النسق "الإنساني" ذي الصفات الست التي تسم كل نشاط الإنسان. فتتعدد الطرائق من الكوخ إلى القصر إلى الحصن إلى ناطحات السحاب [وقد توجد جميعاً في بلد واحد وفي زمن واحد!] ويحدد الإنسان بنفسه حد الاكتفاء. فهذا يكفيه الكوخ، وذلك لا يكفيه القصر! ولا يأخذ الأمور على حالتها الخامة التي وجدها عليها [وهي الكهوف بادئ ذي بدء] وإنما يصنع لنفسه ما يريد منها وما تمكنه إمكانياته المادية والعقلية والآلية من صنعه. ويختلف سلوكه نحوها بين الاكتفاء بالمطالب "العملية" أو التأنق والتفنن. وأن هناك هدفا واعيا، يختلف من فرد إلى فرد. وأنه لا يحس بالقهر الكامل إزاء الضرورة. فيبيت في العراء إذا شاء ويلزم المأوى إذا شاء.

وفي كل ذلك يعمل بكيانه المتكامل المجتمع المترابط لا بجزء واحد من الأجزاء.

* * *

والحيوان يقاتل.. مدفوعا إلى ذلك دفعا بصورة لا يمكن اتقاؤها. ويقاتل بطريقة واحدة مكرورة في كل فرد من كل نوع. ثم يقاتل لغير هدف واع في حس الحيوان. حتى لو قاتل دفاعا عن النفس أو دفاعا عن الصغار، أو دفاعا عن "المجموع" فهو لا يفكر في شيء من ذلك. وإنما يترك حركة غريزية لا تتدبر الوسائل ولا الأهداف!

والإنسان يقاتل.. فيختلف عن الحيوان تلك الاختلافات الست التي ذكرناها من قبل.

ففنون القتال.. ما أوسعها في عالم الإنسان! من أول الصخرة المسنونة وقطعة الحجر الثقيلة والرمح والسهم إلى القنبلة الذرية والصاروخ وأشعة النوم وقنابل المكروب!

ثم الإنسان هو الذي يحدد لنفسه حد الاكتفاء من أول الصفر إلى ما بعد المدى "المعقول"! فيجنح إلى السلم إذا أراد.. وهذا ما لا تعرفه صنوف الحيوان! ويتجاوز المدى إذا أراد فيفجر ويغدر ويمعن في القتل والتعذيب شفاء لغليل لا يعرفه كذلك الحيوان!

وهو لم يأخذ القتال على حالته الخامة! من القتال البدني المباشر على طريقة الحيوان. وإنما "صنع" أدوات القتال وفنونه، ووضع خططه وعدل فيها وأضاف عليها.. حتى لكأن صناعته الأولى هي الحرب!!

واختلف سلوكه فيها بين التنظيم وعدم التنظيم، وقوة "التكتيك" وضعفه.. الخ.

وجعل له هدفا واعيا.. واختلف بعد ذلك في الأهداف. فمن صراع شخصي على الغلبة. إلى نزاع على الممتلكات. إلى رغبة في التوسع والمجد الشخصي. إلى صراع على عقيدة. إلى قتال لضرورة العيش.. الخ الخ.

ثم إنه لا يحس بالقهر الكامل إزاءه كما يحس الحيوان. فحيثما تلاقى نوعان متقاتلان من الحيوان فلا محل لشيء سوى القتال.. حتى يفر أحدهما أو يموت أو يثخن بالجراح. ولكن الإنسان لا يحس بدافع القتال على هذا النحو القهري. فهو يختار أن يقاتل أو يجنح إلى السلم. ويختار موعد القتال وطرائقه. ويختار أن يثبت فيه أو ينهزم.. حسب الظروف والأحوال.

ويصبح القتال بذلك هو قتال الإنسان لا قتال الحيوان!

* * *

وينزع الحيوان إلى التميز والبروز.. بعضه على الأقل! ولكن بطريقة واحدة وهدف واحد على مدار العصور.

فهو إما أن يبرز لقيادة القطيع. أو يبرز للحصول على أنثاه. أو يبرز للاستئثار بالطعام أو المأوى..

وفي كل مرة يتخذ سلوكا واحدا وقواعد ثابتة..

فالحيوانات ذات القيادة المنظمة كقطيع الغزلان والبقر الوحشي والقرود.. الخ تتصارع حتى يبرز الأقوى جسما وحجما فيتولى قيادة القطيع، ولا يعود ينازعه أحد حتى يهرم ويشيخ فتثور المعركة من جديد.

وحين يبرز الذكر للحصول على أنثاه فهو يأتي حركات معينة محدودة مكرورة.. ثم يقوم النزاع بين الذكور –في الغالب– حتى يظفر أحد الذكور.. وتتنحى الأخرى أو تموت في الصراع.

وحين يتقاتل حيوان مع حيوان على الطعام أو المأوى فهما يستخدمان بطبيعة الحال الجسد والعضلات!

وفي كل مرة لا يكون السلوك إراديا، ولا الهدف واعيا في كيان الحيوان.

أما الإنسان فينزع إلى التميز والبروز بطرائق شتى وأحوال شتى وأهداف لا حصر لها ولا حدود!

فمرة يبرز بعضلات جسمه واكتمال قوامه.

ومرة يبرز بقوة فكرة وعبقرية ذهنه.

ومرة يبرز بقوة أخلاقه.

ومرة يبرز بقوته الروحية ومقدار تأثيرها على الآخرين.

ومرة يبرز بجاذبية شخصيته.. أو جمال قسماته..

ومرة يبرز بأناقة ملبسه.

ومرة يبرز بخبثه ومكره ودهائه.

ومرة –في حالات الشذوذ والانحراف– يبرز بالعدوان والبطش والإجرام.

ويبرز في مجالات شتى ولأهداف شتى.. في مجال القيادة ومجال الجنس ومجال النزاع على الطعام والمأوى.. ومجال العلم ومجال الفن ومجال الخير [ومجال الشر!] ويبرز ليثبت ذاته فحسب. أو ليثبت ذاته ويحطم الآخرين. أو ليثبت ذاته بتحطيم الآخرين!

ويبرز بروزاً "معقولا" أو بروزاً مسرفا يتجاوز الحد [أو ينزوي في حالات المرض النفسي والشذوذ].

ويبرو بروزاً جاداً، لأهداف جادة، أو بروزاً لاهياً عابثا غير جاد [كما يبرز بالأناقة المسرفة في الملبس أو الزينة أو التميع والرقاعة– ذكراً أو أنثى]!

وهكذا وهكذا.. ألوان من البروز وأشكال.

وحب البروز دافع ضخم جداً في حياة الإنسان. دافع يشتبك بالدوافع كلها ويخدمها، وفي الوقت ذاته يلونها بلونه ويعطيها من طبيعته..

وإلى حد ما كان أدلر ويونج محقين في إبراز هذا الدافع واعتباره مسيطراً في الحياة. ولكن خطأهما –كخطأ كل نظرية جزئية– أنهما يُؤخذان بقوة أحد الدوافع فيلغيان كل شيء سواه.

وهذا إسراف معيب يفقد الحقائق الجزئية التي يصل إليها "العلماء" دلالتها الحقيقية.. ويفسد الصورة التي يرسمون بها الإنسان.

والحقيقة أن حب البروز دافع قوي عميق. وله مهمة خطيرة في حياة الإنسان. فإعجاب الإنسان بذاته وتفضيله لكيانه، ورغبته في إبرازه، هو الذي يجعله –مع الدوافع الأخرى– ينشط ويعمل وينتج ويكافح، ويتحمل المشقة والأذى في سبيل الوصول إلى هدفه المنشود.

وهو ككل دافع بشري يحتاج إلى تهذيب لكي لا ينحرف عن نطاقه السوي. ولكن المهم أن له هدفاً وغاية وضرورة في حياة الإنسان. بحيث يصبح الإنسان الذي ضعف فيه هذا الدافع منحرفاً ومريض الكيان. ثم إنه كذلك –في حالته السوية– يأخذ صورة الإنسان وسمات الإنسان، التي تفترق افتراقاً أساسياً عن سمات الحيوان.

* * *

تلك كلها دوافع تتصل بحفظ الذات يشترك فيها الإنسان والحيوان. ويتميز فيها الإنسان عن الحيوان.

ثم يبقى للإنسان دافع ضخم هو حب التملك.. لا يشاركه فيه الحيوان. أو على الأقل لا يشاركه في كل صوره وحالاته.

بعض الحيوانات "تمتلك" إناثها فلا تقبل عدوان الذكور الآخرين عليها.

وبعضها يمتلك مأواه فلا يقبل دخيلا عليه.

وهي تتقاتل على ملكية الطعام [ولكنها لا تدخره على طريقة الإنسان].

وبعضها القليل جداً يدخر.. كالنمل والنحل..

أما الإنسان فيمارس الملكية على نطاق واسع جداً لا مثيل له في الكائنات.

فهو يمتلك الأرض. ويمتلك ما تنتجه الأرض من زرع وخامات. ويمتلك أحياناً الناس الموجودين على الأرض. ويمتلك المأوى. ويمتلك الأوطان. ويمتلك النساء والبنين. ويمتلك الذهب والفضة.. كل ما على الأرض وكل من عليها قابل للتملك في نظر الإنسان.

والملك رغبة عنيفة جداً في حس الإنسان. فهو يجد لذة كبرى في أن يمتلك. سواء كان الملك حسياً أو معنوياً.. أرضا وأناسيّ وحيوانات ومعادن.. إلخ أو علماً وأفكاراً وقوة وسيطرة.. إلخ. كما يجد ألماً عنيفاً في الحرمان، سواء كان حسياً أو معنوياً.. حرماناً من الأرض والمال والناس، أو حرماناً من القوة والعلم والسلطان.. إلخ..

وقد أرادت الشيوعية –لشهوة مذهبية– أن تجادل جدالا عنيفاً في أن حب الملكية الفردية نزعة فطرية. وزعمت أن التطورات الاقتصادية والمادية هي التي علمت الإنسان حب الملكية الفردية أو أنشأته إنشاء في نفسه، ولم يكن موجوداً يوم كانت الملكية شائعة وكل إنسان يأخذ بقدر حاجته.

وقد ناقشت أمر الملكية الفردية في كتاب "شبهات حول الإسلام" في فصل "الإسلام والملكية الفردية" وقلت إنه مع التسليم بهذا الفرض النظري وهو أنه قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن الأفراد يملكون ملكية فردية.. فمعنى ذلك أن الرغبة "الكامنة" في التملك لم تكن تجد ما يثيرها في تلك الفترة. ولكن في اللحظة التي وجد فيها المثير [وهو اكتشاف الزراعة فيما تزعم المادية الجدلية] برز حب التملك وأصبح مسيطراً على البشرية. وقلت إنه حتى على فرض أن التملك ليس نزعة فطرية قائمة بذاتها، فإنه قد لصق منذ أدهار سحيقة بنزعة فطرية قوية وعميقة في كيان النفس وهي حب التميز والبروز. وصار التملك هو أحد وسائل التميز والبروز الأساسية في عالم الإنسان.

وأضيف هنا ما أشرت إليه من قبل، وهو أن الظروف الخارجية لا يمكن أن "تنشئ" شيئاً لا وجود له في فطرة الإنسان. إنما كل عملها أن تنمي شيئاً موجوداً بالفعل، حتى وإن كان في حالة كمون.

والملكية –ككل دافع إنساني– تأخذ صورة الإنسان وسماته.. تأخذ الصفات الإنسانية الست التي ذكرناها من قبل.

فهي واسعة النطاق جداً: تشمل الناس والأشياء والأحياء.

والإنسان هو الذي يحدد كفايته منها.

وهو لا يأخذ الممتلكات على حالتها الخامة وإنما يصنع منها أشياء جديدة.

ويختلف سلوكه نحوها بين الشَره والاعتدال.

ويجعل لها هدفاً.. ثم تختلف أهدافه ما بين الارتفاع والهبوط.

ولا يحس بالقهر الكامل إزاءها، بل يتصرف ما بين التنازل عنها، زهداً فيها وارتفاعاً عليها، وبين الإقبال عليها والاشتداد فيها..

وفي كل ذلك يمارس الأمر بكيان الإنسان المتجمع المترابط المحكم الرباط.

* * *

والجنس.. طاقة عظمى من طاقات الإنسان، ودافع من أكبر دوافعه. هو الدافع الثاني في الحقيقة بعد حب الذات والمحافظة عليها. وهو يؤدي كذلك مهمة ضخمة في حياة الإنسان.

لحكمة عليا كانت طاقة الجنس.. ولحكمة عليا كانت بهذا العنف في الكيان البشري.. وبهذا الاتساع.

لقد اقتضت سنة الله في بناء الكون أن تكون بنية الكون كلها أزواجاً حتى في الجماد!

"سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ"[1].

وقد كشف العلم الحديث عن جوانب مما كان مجهولا في بنية الكون —وما يزال أمامه أن يكشف عن كثير. وكان من بين ما كشف عنه أن بنية الذرة مكونة من كهارب موجبة وكهارب سالبة– أي أزواج متقابلة في الخلقة– وأن التفاعلات الكيميائية تتم في الكون في صورة أزواج. ففي ذرة كل عنصر نواع موجبة. [بروتون] وحلقات متوالية من الكهارب السالبة [إلكترونات] كل حلقة منها مكتملة إلا الحلقة الأخيرة فهي ناقصة. ولا تتفاعل العناصر إلا مع عناصر أخرى ينتج عن امتزاجهما معها أن تكمل الحلقة الأخيرة من الإلكترونات! أي أنه يتم نوع من التزاوج في التفاعلات الكيميائية في "المادة" يشبه ما يحدث في عالم النبات والحيوان.

(1) سورة يس [36].

والإنسان قمة الحياة وخلاصة بنية الكون.. يسير على الناموس ذاته الذي يسير عليه الكون. وتتمثل فيه ظاهرة "الأزواج" بكل عمقها وكل دلالتها. فالحياة كلها بجميع مظاهرها متصلة في كيانه بالجنس.. حتى الأعماق.

ولا يذكر الجنس دون أن ذكر فرويد!

ولقد كان فرويد محقاً ولا شك في الإشارة إلى عمق الظاهرة الجنسية في حياة الإنسان، وتشعبها واتساع نطاقها، وتداخلها مع النشاط الحيوي كله، ومع المشاعر والأفكار.

ولكن الشطط يفسد كل الحقائق التي اهتدى إليها فرويد أو أشار إليها.. لأنه يعطي صورة مزورة عن حقيقة الإنسان. صورة لا تمثله في الحقيقة.

من البديهيات التي لا تحتاج إلى جدل أن الجنس ليس الإنسان. وإنما الجنس جزء من الإنسان!

وقد اعترف فرويد —اعترافاً عابراً– بأن الجنس ليس هو الطاقة الأولى في كيان الإنسان. ولكنه قال إن "المدنيات" تؤمّن الإنسان على نفسه، فيطمئن على ذاته، ولا يعود مشغولا بحفظ الذات [التي هي الشاغل الأول] ومن ثم يتسع نطاق الجنس في حياته فيحتل المكان الأول[1].

وتلك ملاحظة قيمة. ولها دلالتها. ولكنه نسيها في اندفاعه الشديد لتلويث الحياة كلها بصبغة الجنس. نسي أنه قال إن هناك عملية إحلال تصنعها المدنية التي تؤمّن الإنسان على ذاته، فيتجه اهتمامه ونشاطه إلى الجنس، بمعنى أن هذا ليس شأن الفطرة الداخلية، وإنما هو نتيجة لعارض قد يوجد في حياة الإنسان وقد لا يوجد. قد يطمئن الناس على ذواتهم فينصرفون إلى الجنس.. أو لا يطمئنون فيصبح الشاغل الأول لهم هو ذواتهم والحفاظ عليها..

نسي كل هذا وراح يؤكد في حماسة مجنونة أن هذا هو تركيب الفطرة الأصيل! فالنفس جنسية في صميمها. مصبوغة بصبغة الجنس. وكل نشاطها الحيوي [اللبيدLibido] نشاط جنسي. حتى الطعام. حتى الشراب. حتى التبول والتبرز والإفراز. حتى الحركة العضلية. حتى التنظيم الاجتماعي. حتى الدين. حتى التفكير.. يستوي في ذلك الطفل والشاب والمسن. والمتوحش والمتمدن على مر العصور!

---

(1) كتاب "Totem and Taboo".

ولا نحتاج بطبيعة الحال إلى هذا السفه لكي نثبت حقيقة الجنس وعمقها في كيان الإنسان!

إنها حقيقة عميقة واسعة متشابكة مع الكيان كله.. ولكنها جزء من ذلك الكيان وليست كل الكيان!

أما التشابك والتداخل فظاهرة عامة في بنية النفس. ليست خاصة بالجنس حتى تقول إنها فريدة، وإنها تستدعي دراسة خاصة. وقد بينا في الخطوط المتقابلة –وسنبين هنا مرة أخرى في الدوافع والضوابط –أن كل شيء في كيان الإنسان متداخل متشابك معقد أشد التعقيد. فما بال الجنس وحده في نظر فرويد هو الذي يتسم بهذه السمة، ويستأهل الإفراد والتخصيص؟!

كلا! وما يستطيع عاقل أن ينفي أن الاهتمام الأول للإنسان هو ذاته. وأنه من خلال ذاته تصدر الاهتمامات الأخرى –ومن بينها مشاعر الجنس. ومن بينها كذلك المشاعر الجماعية التي تهدف إلى التجمع والترابط مع الآخرين.

أما أن يكون الإنسان كله منبعثاً من إحدى طاقاته.. ! فتصوّر عجيب لا يخطر إلا على بال عالم من "كبار" العلماء!

الطاقة الجنسية تشتبك بكل النشاط الإنساني، ولكنها لا تلونه بلونها المفرد. ولا تصنع ذلك أية طاقة أخرى في كيان الإنسان. فلا يمكن أن يكون الدين جنسا. والنظام الاقتصادي جنسا. والطعام والشراب جنسا. وقطع الأحجار لإقامة البيوت جنسا. ومراقبة الفلك ومعرفة أسراره جنسا..!! وكل ذلك في دائرة اللاشعور!!

إنما يمكن أن يقال –في اعتدال– إن حقيقة الجنس ينبثق منها التزاوج والتناسل.. فينشأ "الناس" والمجتمعات: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء"[1] فيحتاج هذا المجتمع إلى تنظيم: اجتماعي واقتصادي وسياسي.. وفكري وروحي. فتنشأ القواعد والنظم والأفكار والفلسفات.. ويحتاج الإنسان إلى إعالة بنيه الناتجين من حقيقة الجنس، فيبحث عن طعامهم وشرابهم وملبسهم ومأواهم –كما يبحث لنفسه– فيكون السعي إلى الرزق. ويكون "العمل" وتكون عمارة الأرض.

(1) سورة النساء [1].

ويكون "العلم" الذي يبحث به الإنسان في كنوز السماوات والأرض ويحاول معرفة أسرارها ليستطيع استغلالها.. الخ.. الخ.

ولكن ذلك كله –على أنه حقيقة مشهودة– لا يعني أن الجنس هو الحياة البشرية!! الجنس كشعور أو دافع. يدفع إلى لقاء الجنس الآخر والاتصال به...

إنما يعني –وتلك هي الحقيقة الكبرى– أن الإنسان يمارس نشاطه الجنسي بكيانه كله لا بالطاقة الجنسية المحدودة المتخصصة. كما يمارس نشاطه كله بكيانه كله. فهو لا يبحث عن الطعام بمعدته. أو بدافع الجوع وحد. ولكن بكيانه كله. رضي أم أبى! لأنه يحتاج إلى تشغيل جسده وفكره في البحث عن الطعام. ثم يصطدم بوجود آخرين معه في الأرض يبحثون عن طعامهم، فيتعامل معهم بكلا جانبيه: الفردي والجماعي، وينشئ "قيما" من التعاون والمشاركة. وينشئ "نظما" اجتماعية واقتصادية وسياسية وروحية وفكرية.. الخ.

وهكذا.. فمن حيث بدأ الإنسان.. من دافع الجوع. أو من دافع الملك. أو من دافع البروز.. فهو في النهاية واصل إلى حيث يلقى الحياة بكيانه المجتمع، وتلقاه الحياة من خلال هذا الكيان!

والجنس –في ذلك– ليس بدعا في طاقات الإنسان..

* * *

وفي حديثنا السابق عن الدوافع بيناً كيف تفترق دوافع الإنسان عن دوافع الحيوان.

وهنا في ميدان الجنس، سنجد الفوارق ذاتها التي يتميز بها النشاط الإنساني عن النشاط الحيواني، منطبقة بتمامها على النشاط الجنسي.. بل ربما كانت أكثر انطباقا هنا مما هي هناك!

فالغريب أن هذه الطاقة التي يبدو لأول وهلة أنها أقرب الطاقات شبها بالحيوان، هي – في صورتها الإنسانية– أشدها لصوقا "بالإنسان" وأبعدها من الحيوان!

ولم يفت فرويد –وهو يبحث في شئون الجنس هذا البحث المتخصص الذي استغرق كل حياته العملية– أن يدرك ما في النشاط الإنساني من فروق شاسعة عن نشاط الحيوان، ولكنه في حماسته المجنونة لتقرير حيوانية الإنسان لم يعجبه من نشاط الإنسان كل ما يتميز به عن نشاط الحيوان.. فسماه شذوذا [!!!]. وقد مرت بنا الفقرة التي نقلناها من كتابه

"Three Contributions to the Sexual Theory" والتي قال فيها إن "التسامي" نوع من أنواع الشذوذ، تُصَرّف فيه الطاقة الشهوية الصادرة من منابع جنسية، في مجالات أخرى غير المجال الجنسي، وينتفع بها في هذه المجالات!!!

أي أنه إما أن يكون الإنسان حيواناً.. وإما أن يكون قد أصابه الشذوذ!

وتلك نظرية "عالم" من كبار العلماء!

* * *

أول فرق بين نشاط الإنسان الجنسي ونشاط الحيوان هو امتداد موسم النشاط والإخصاب بغير حدود طيلة العام. وهذه أول سمة من سمات التحرر في بنية الإنسان الجنسية لا مثيل لها في عالم الحيوان.. حيث الموسم محدود. والرغبة لا توجد عند الذكر أو الأنثى إلا خلال الموسم وحده. وبعد ذلك يصوم الذكر والأنثى كلاهما قد يحدث تقارب ولا يحدث اتصال. بل يصومان [أو تصوم الأنثى على الأقل] في لحظة حدوث الإخصاب.

وقد ترتب على هذه الحقيقة أن الجنس أصبح مشاعر دائمة في نفس الإنسان. لا تتحدد بحدود الاتصال الجنسي ذاته كما يحدث في الحيوان. وإنما تسبقه وتلحقه وتلازمه.. ومن ثم أصبح الجنس في حياة الإنسان أوسع من اتصال الأجساد في ساعة من الساعات!

ومن أبرز الفروق تنوع مشاعر الجنس مع السعة الهائلة في المجال.

وقد أثبتّ من قبل فقرة في هذا الشأن من كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" تصلح لإثباتها مرة أخرى في هذا المجال:

"هناك الشهوة العارمة التي تتمثل في الجسد الهائج والجوارح الظامئة، والعيون التي تطل منها الرغبة الهائجة المجنونة.

"وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة، التي تعد العدة في ترتيب وأناة، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال.

"وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التي تنبع من الجسد، ولكنها تمر في طريقها على القلب، فيصفيها من بعض ما بها من "العكار"، ويعطيها قسطا من "العاطفة" تمتزج بصيحة الجسد الملهوف.

"وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التي تنبع من القلب، ولكنها قد تمر في طريقها على الجسد، فيمنحها بعض لهيبه المحرق، وقد يخلط بها بعض العكار، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء.

"وهنا إشراقة الروح الحالمة، قد صفّيت من العكار كله، وصارت صفاء مطلقاً لا يعرف الجسد، وإشعاعة لا تعرف القيود. تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذي يصبّ فيه!

"وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألأفاظ، ولا يقدر عليها التعبير!

"وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس، تشترك في الأصل، ولكنها تختلف فيما بينها أشد اختلاف".

وهذا الاتساع والتنوع في مجال الجنس مزية فريدة تفرد بها الإنسان.

والاختلاف الثاني أن الإنسان هو الذي يحدد لنفسه حد الاكتفاء. فليس هناك القيد الغريزي الذي يغلق الصمام في لحظة معينة.. وإنما هناك الحرية المفتوحة.. التي تبدأ من التوقف الكامل.. إلى ما بعد حد الاكتفاء المعقول.. أي إلى حد الإسراف!

والاختلاف الثالث أن الإنسان لم يأخذ الجنس على حالته الخامة! حالته الجسدية الخالصة التي تتلخص في حركات معينة تصل إلى الهدف بطريقة مباشرة.. فليس ذلك حال الإنسان في أي نشاط من نشاطاته..

فكما أبى أن يأخذ الطعام على ما هو عليه.. وصنع منه ألواناً وأشكالا وطعوماً مختلفة المذاق.. وكما صنع ذلك في الملبس والمسكن والملك.. فكذلك يصنع في الجنس. فهو يأبى أن يقف به عند خاماته الجسدية الأولى. وإنما ينشئ منه "صناعات" مختلفة واسعة النطاق.

وإذا كان قد "تفنن" في المأكل والمشرب والملبس والمسكن.. الخ فأكبر "فنونه" هي فنون الجنس!

فنون واسعة المجال جداً: في الأدب والموسيقى والغناء والرسم والرقص والنحت.. وكل ما يخطر على البال!

وقد أغرت هذه السعة الفنية في مجال الجنس [أو السعة الجنسية في مجال الفن!] أغرت فرويد بأن يقول إن الفن كله طاقة جنسية! وليس ذلك صحيحا بطبيعة الحال. فالفن طاقة

"إنسانية" شاملة.. تشمل —كما رأينا– الطعام والشراب والملبس والمسكن والملك وحب البروز.. وتشمل الجنس كذلك فيما تشمله. وإذا كان مجالها في الجنس واسعاً، فلأن الجنس طاقة واسعة. ولكن عمل الفن في دنيا الجنس هو مجرد امتداد لعمله في كل مجالات النشاط الحيوي للإنسان.

والاختلاف الرابع أن الإنسان —كما نرى من الفقرة التي نقلناها من كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام"– لم يتخذ سلوكاً واحداً نحوه. وإنما يختلف فرد عن فرد، كما يختلف الفرد ذاته في حالة عن حالة..

والاختلاف الخامس أن الإنسان قد جعل له هدفاً.. ثم اختلفت الأهداف.. فمن الناس من يراه في نطاق الضرورة ويقضيه في نطاق الضرورة. ومنهم من يجعله هم حياته الشاغل.. ومنهم من يجعله وسيلة النسل.. ومنهم من يطلب فيه السكن النفسي والهدوء والراحة.. ومنهم من يجمع بينها جميعاً.. الخ.

والاختلاف السادس أنه لا يحس بالقهر الكامل إزاءه..!

فعلى كل ما فيه من سعة وتنوع وعمق.. و"ضراوة" أحياناً.. فالإنسان "يملك" إزاءه أشياء كثيرة! يملك الامتناع عنه [ولو لفترة من الوقت].. الامتناع عن مبدأ أو عقيدة أو ضرورة.. يملك "التسامي" الذي سماه فرويد نوعاً من أنواع الشذوذ! ويملك اختيار السلوك الذي يسلكه فيه، ويملك تحديد الهدف الذي يريده منه. وهي كلها تمثل حرية الاختيار في مقابل القهر والإجبار!

* * *

هذه الضوابط الفطرية —كما رأينا– ليست نوعاً واحداً بل أنواع.

وليست متجهة إلى المنع.. وإنما هي أقرب إلى التنظيم.

إنها كلها حواجز تقف في طريق التيار المندفع.. ولكن لا لتمنعه بل لتضبط انطلاقه. وحتى إذا منعت جانباً منه، فلكي ترفع مستواه لينطلق في أفق أعلى..

إنها كالخزانات والقناطر المقامة على مجرى الماء لتنظم انطلاقه.. إنها —بادئ ذي بدء– تحجزه قليلا حتى يرتفع مستواه. ثم تسمح لجانب منه بالمرور مباشرة في مجراه الأصلي.

وتستفيد ببعضه في نطاق آخر لم يكن ليصل إليه لو ترك بلا حواجز ولا رفع.. وتشتد أحيانا في حجز جانب منه.. لنستخرج منه طاقة الكهرباء!

وهذه الضوابط التي رأيناها، والتي تميز بين نشاط الإنسان ونشاط الحيوان تحجز الدوافع الفطرية –قليلا– لترفع مستواها كله. ثم تسمح بقدر منها ينطلق في مجاله الأصلي: مجال الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس والقتال والملك والبروز.. وإن كان ينطلق على مستوى أعلى مما كان في منبعه. وتحول قدراً منها –بعد أن رفعته– إلى مجالات جديدة غير مجالاته الأصلية المباشرة [وهي عملية "التسامي" التي قال فرويد إنها شذوذ.. وهي فطرة لا شذوذ فيها إلا من زاوية النظر الحيوانية التي نظر بها فرويد إلى الإنسان!] ثم تشتد في منع جانب منها لتكوّن منه طاقة هائلة كطاقة الكهرباء.. هي الطاقة المتصلة بالكفاح في سبيل العقيدة والمثل العليا!

هذه العمليات الثلاث التي تقوم بها الفرامل المنظمة لانطلاق "الشهوات".. تقوم بها فرادى ومجتمعة في ذات الوقت.. كما تعمل الدوافع ذاتها فرادى ومجتمعة في ذات الوقت!

فهي –مجتمعة– تحجز تيار الدوافع.. قليلا.. فلا يأخذ منه البدء صورة انطلاق الحيوان.

ثم يسمح بعضها بتمرير الدوافع –التي ارتفع مستواها– في نطاقها الأصلي، ولكن مع التنويع وتوسيع نطاق الانطلاق.. ففرملة التنويع هي التي نوعت ألوان الطعام، ونوعت سلوك الإنسان نحوه. وهي التي نوعت الملابس وتفننت في تفصيلها. وهي التي نوعت المسكن وزخرفته. وهي التي نوعت مشاعر الجنس. ونوعت آفاق البروز.. إن عملها هو التنويع. هو تلقي الدفعة الحيوية وتوزيعها من عيون مختلفة وعلى مستويات مختلفة.. وهي المتصلة "بالفن" في عالم الإنسان.

وفرملة تكوين الهدف هي التي تحول الدافع عن مجراه الأصلي –بعد رفعه– إلى مجالات جديدة لم يكن ليصل إليها لو ترك في مجراه الأصلي وعلى مستواه الأصلي. وهي التي حولت الطعام من شهوة بطن –وهي صورته الحيوانية الأصلية– إلى "قيم" أخرى. منها التعاون والإيثار والرحمة والتعاطف.. حين أوحت للإنسان –في مجال الطعام– أن يتعاون مع أخيه في سبيل الحصول عليه، ثم يتعاطف معه بإشراكه فيما يحصل عليه من طعام.. وأنشأت بذلك نظما اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية.. الخ. وهي التي حولت الجنس من شهوة جسد خالصة –وهي صورته الحيوانية الأصلية– إلى قيم أخرى. منها الرحمة والمودة والسكن:

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً"[1] ومنها المصاهرة والنسب.. ومنها التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية.. الخ. وعلى هذا النسق تدخلت في مجرى كل دافع من الدوافع الفطرية فحولته إلى قيم وتنظيمات..

وفرملة الاختيار الحر قد استغلت عمل الفرملة المنوّعة والفرملة المكوّنة للأهداف.. وإن كانت تعمل –بعد ذلك– في نطاق أعلى. فهي التي تملك حجز الدافع حجزاً تاماً لفترة من الوقت.. لتولد منه فيما بعد طاقة الكهرباء!!

* * *

وهذه الضوابط –مجتمعة ومتداخلة– هي التي جعلت الإنسان هو "الإنسان" وحياته هي حياة الإنسان!

إنها هي التي جعلت الإنسان –وحده في كل ما نعلم من صنوف الخلق– هو الذي ينشئ ويبني ويعمر.. ويقوم بدور الخلافة عن الله..

إنها هي التي جعلت "حب الحياة" –الذي يشترك فيه الإنسان مع كل الأحياء– يتحول إلى "تجميل الحياة"!

الإنسان يحب الحياة فيجملها.. ويتجمل هو في أثناء تجميلها!

يجملها في عالم المادة وعالم الروح.. في النطاق المحسوس ونطاق المعنويات.

يجملها فيستخرج كنوزها وينشئ منها صناعات تيسر لها لحياة.. ينشئ منها مساكن مريحة وأدوات للإنتاج مريحة.. ينشئ القطار والسيارة والطائرة والصاروخ.. وينشئ المنسوجات المتعددة ليلبسها.. وينشئ الأطعمة المختلفة ليأكلها.. وينشئ الحدائق ليستمتع بما فيها من جمال.

ويجملها فينشئ فيها قيما جميلة.. ينشئ فيها العدل والحق والإخاء والمساواة.. والنظم والتنظيمات.

([1]) سورة الروم [21].

ويتجمل هو في أثناء تجميلها.. يتجمل في عالم المادة وعالم الروح.. في النطاق المحسوس ونطاق المعنويات.

يتجمل باللباس والزينة.. ويتجمل بالمطعم والمشرب والمسكن..

ويتجمل بالأخلاق والمشاعر والأفكار والعقائد..

كلها ألوان من الجمال الحسي والمعنوي، يصنعها الإنسان في نفسه وفي الحياة من حوله.. نتيجة لوجود هذه الضوابط الفطرية في كيانه، التي ترفع مستوى الدوافع وتمدها في الآفاق..

إنها تصون الطاقة البشرية أن تتبدد في مستوى الحيوان. فتستهلك بلا إنتاج..

الحيوان يستهلك طاقته كلها في شهواته. ولا يُبقى فائضاً. ولا يملك فائضاً يحوّله للإنتاج. والإنتاج الوحيد الذي اقتضت حكمة الله أن تمنحه إياه، هو الإنتاج الجنسي.. إنتاج نسل جديد يحل محل القديم حين يموت.. أي أنه في الحقيقة يقوم بمجرد الاستمرار.. لا الإنتاج الحقيقي الذي يزيد حجم الحياة.

أما الإنسان فلغير ذلك خلقه الله..

لم يخلقه ليستهلك نشاطه بلا إنتاج..

بل خلقه لينتج.. لينشئ.. ليبدع.. بما أودعه الله فيه من قدرة الإنشاء حين نفخ في قبضة الطين من روحه.. بقدر ما تطيق قبضة الطين، وبقدر ما يرى الله –بحكمته وعلمه– أنه يصلح للدور الذي ناطه بالإنسان.

ولكي ينتج لا بد أن يحجز جانبا من الطاقة لا يتبدد في نشاط الحيوان!

يحجزه بهذه الفرامل المختلفة.. ويأخذ الفائض فيحوله إلى إنتاج.. إنتاج في عالم المادة وعالم الروح.. في الزراعة والصناعة والبناء والتعمير.. وفي المشاعر والأفكار والفنون.

إنتاج يجعل الحياة جميلة، ويجعله هو جميلا في تجميلها..

ويجعله –بذلك– موصول القلب بالكون الأعظم ونواميسه الكبرى، وبالجمال الذي تشتمل عليه هذه النواميس.

ويكون بذلك جديراً بأن يكون خليفة لله. وجديراً بالتكريم الذي منحه الله إياه.

* * *

ليست هذه الضوابط إذن معوّقا للإنسان عن إتمام نموه.. ولا معوّقا للإنسان عن الحياة!

وقد جاهد فرويد جهاداً عنيفاً ليشوه صورة الضوابط بكل وسيلة من وسائل التشويه.

وقد أثبتنا فيما سبق من هذا الفصل كلامه عن الأخلاق بأنها تتسم بطابع القسوة حتى في صورتها الطبيعية العادية. وكلامه عن التعارض بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية. وكلامه عن "التسامي" بأنه شذوذ!!!

وقد أنفق سنوات من عمره ليثبت أنه ليس هناك إلا أحد طريقين اثنين: إما انطلاق الطاقة الشهوية –الجنسية في أساسها– انطلاقا "حراً" أي حيوانيا لا شذوذ فيه! وإما الكبت المدمر للأعصاب المبدد للطاقات المفسد للحياة!

وليس هناك طريق ثالث..!

وأنت أيتها البشرية فاختاري إما انطلاق الحيوان وإما الشقاء وفساد الأعصاب!

أما عملية "الضبط" فلم يشر فرويد إليها!

ليس في عرفه "ضوابط".. وكل شيء في عرفه كوابت.. ضارة مفسدة كريهة!

ثم إن الكبت –وهو الصورة الوحيدة عنده للمنع والضبط– عملية مفروضة على الإنسان من الخارج. تبدأ أول ما تبدأ بلوثة العشق الجنسي الذي يحسه الطفل نحو أمه، ثم يجد أباه الضخم الهائل الحاكم بأمره وجبروته حائلا بينه وبين الوصول إلى هذا العشق "فيكبته"!! وحين يكبته أي يمنعه البتة يتحول إلى قيم ومبادئ.. وإلى دين!!

وقد ناقشنا من قبل أسطورة العشق الجنسي في حياة الطفل.. ولا نحتاج إلى مناقشتها مرة أخرى فهي مجرد أسطورة! ولكنا نقول هنا إن عملية الحجز كما رأيناها ليست كلها منعا. وإنما هي أقرب للتنظيم والضبط. وأن الجانب الذي يُمنَع لتتكون من حصيلته مبادئ ومُثُل هو جانب واحد فقط من الطاقة. وهو لا يسبب فساداً للأعصاب ولا تدميراً للحياة.. ما دام الجانب الآخر يأخذ منطلقه الطبيعي في مجراه الأصيل..

ونقول كذلك إن عملية الضبط فطرية طبيعية داخلية بما أنها تستخدم أجهزة فطرية واستعدادات فطرية.. فالتنويع، وتكوين الأهداف، والاختيار الحر.. وهي المجموعات الثلاثة الكبرى من الضوابط، استعدادات وطاقات تنشأ من داخل الكيان النفسي، ولا تنشأ —ولا يمكن أن تنشأ– من أي ضغط خارجي. والإنسان يستخدمها استخداماً حراً في كل مجالات النشاط الحيوي من طعام وشراب ومسكن وملبس.. وجنس!

ثم إنها —فوق ذلك– هي المقابل الواعي المدرك المفكر للصمام الغريزي عند الحيوان.. فهي تتناسب مع طبيعة الإنسان كما يتناسب الصمام الغريزي مع طبيعة الحيوان. أم كان يريد فرويد أن يكون الإنسان بلا ضوابط أصلا، فلا يصبح حتى كالحيوان؟!

وبعد ذلك كله.. من ذا الذي يقول إن عملية الإنتاج الهائلة التي تنشأ من وجود الضوابط الفطرية في كيان الإنسان.. الإنتاج المادي والروحي.. الذي يتمثل في الإنشاء والتعمير والبناء والحضارة.. والفنون والأفكار.. من يقول إن كل ذلك إفساد للحياة البشرية وتدمير لكيان الإنسان؟!

* * *

ولكن هذه الضوابط مع كونها فطرية.. ومع كونها تؤدي هذه المهمة الضخمة في حياة الإنسان.. فهي لا تنمو بمفردها دون معونة خارجية!

وقد بينا من قبل أن هذا لا يعني أنها مفروضة على الكيان البشري من خارجه! وإنما شأنها في ذلك شأن القدرة على المشي والقدرة على النطق.. ما لم تنميّا من الخارج فلن تنموا نموهما الطبيعي، مع أنهما في ذاتهما طبيعيتان وفطريتان..

وقد شاءت حكمة الله أن يرعى الإنسان صغاره لينمي فيهم هذه الضوابط وإلا فلن تأخذ صورتها السوية الكاملة.. كما شاءت حكمته —سبحانه– أن يرعى هو البشرية كلها لينمي فيها هذه الضوابط.. بالرسل والرسالات.. وإلا فلن تأخذ صورتها السوية الكاملة، مع أنها موجودة في صميم الفطرة البشرية!

وحين لا تنمو هذه الضوابط فالنتيجة الحتمية هي انطلاق الشهوات بلا ضابط.. وهبوط الإنسان عن مستواه الرفيع الذي خلق من أجله.. مستوى الخلافة والرفعة والتكريم.

وسنتحدث في الفصول القادمة عن كيفية نمو القيم العليا. وعن الشذوذ والانحراف. وعن الخير والشر. وكلها متصل بالضوابط وعملها في كيان الإنسان. والفساد الذي يصيب هذا الكيان حين لا تنمو الضوابط نموها الطبيعي كما خلقه الله.

ونكتفي هنا بتوكيد هذه الحقيقة: وهي أن التربية والرعاية والتهذيب والتوجيه ركن أصيل من حياة الإنسان لا يصلح أمره بدونه. ومن ثم يتولاه الله سبحانه بالنسبة للبشرية كلها، ويأمرهم أن يتولوه بالنسبة لبعضهم بعضا، وبالنسبة لصغارهم خاصة: "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ"[1].

(1) سورة البقرة [251].

الدين والفطرة

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا"

صدق الله العظيم

الدين من صميم الفطرة..

ففي صميم الفطرة أن تحس بالله على نحو من الأنحاء.

وقد لا تهتدي دائماً إلى الصورة الصحيحة للعقيدة.. وقد تمزج بها كثيرا من الخرافات والأساطير.. وقد تتصور الحقيقة الإلهية تصورا منحرفا.. بل قد تلحد بالله إلحادا.. ومع ذلك يظل في صميمها هذا الإدراك لوجود خالق لهذا الكون.. خالق قوي جبار..

والكون كله مفطور على عبادة الله.

والتفسير "العلمي" لأحد مظاهر هذه العبادة أن الكون يطيع القوانين التي سنها الله لوجوده وحركته ومبدئه ومنتهاه. ولا يخرج على قانون واحد منها، ولا يتجه إلى الخروج عليها.

الذرة في تكوّنها من مادة وطاقة، بترتيب معين وصورة معينة، وما تحمله في طياتها من حركة وتجاذب ونظام.. هي الذرة.. لا تملك أن تكون غير ذلك. لا تملك أن تتكون من شيء آخر غير مكوّناتها الحالية.. ولا تملك أن تغير نظامها الذي خلقت به وفطرت عليه.. وهي بذلك "تعبد" الله.

والكون في تكوّنه من هذه الذرات، أو من المادة والطاقة على نحو معين وصورة معينة، وما في كيانه من حركة وتجاذب ونظام.. وما يقوم بين أجرامه من أبعاد ونسب ومسافات.. هو الكون.. لا يملك أن يكون غير ذلك.. لا يملك أن يغيّر نظامه، فيقترب بعضه من بعض أو يبتعد بعضه عن بعض، أو يتناثر أو يتجمع.. إلا على النحو الذي خلقه به الله وفطره عليه.. وهو بذلك يعبد الله.

والأرض في تكوّنها من مجموعة العناصر التي تحتويها، على نظام معين وصورة معينة، وما تحمله في كيانها من طاقة كهربائية مغنطيسية تحدد مكانها في المجموعة الشمسية وتحدد مسارها وطريقة دورانها.. وما تشتمل عليه من إمكانيات الحياة سواء في باطنها أو على

سطحها أو فيما يحيط بها من غلاف جوي، وما تتلقاه من إشعاعات من الكون كله، ومن الشمس خاصة.. هي الأرض.. لا تملك أن تكون غير الأرض، ولا أن تغيّر شيئاً من صفاتها ولا إمكانياتها.. وهي بذلك تعبد الله..

والحياة على ظهر الأرض، من الكائن الوحيد الخلية إلى النبات إلى الحيوان.. في مختلف صورها وحالاتها وأنماطها وعاداتها وسلوكها.. لا تملك أن تكون غير ما هي عليه، ولا أن تؤدي دورا غير دورها المقدور، ولا أن تخرج على القوانين التي تحكمها في كل نمط من أنماطها.. وهي بذلك تعبد الله..

ولقد يقول العلم إن الحياة على ظهر الأرض قد "تطورت"، فارتقت وتعقدت، وجدّت فيها وظائف وأعضاء، وجدّت لها وسائل وأهداف.. فإذا كان ذلك حقا، فهو يجري كذلك على الناموس الذي وضعه الله لتلك الكائنات، وجعلها تسير بحسبه في ارتقائها وتعقدها، وما يجد عليها من أمور.. ويكون تطورها ذلك جزءاً من العبادة التي تتوجه بها إلى خالقها، ملبية مطيعة لما فطرها عليه من اتجاهات واستعدادات.

وذلك هو التفسير "العلمي" لمعنى من معاني قوله تعالى: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"[1].

* * *

ثم يجيء دور الإنسان..

والإنسان كائن متفرد في كل الخلق.. لا يشبهه في تفرده شيء، ولا يشاركه في التفرد كائن من الكائنات.

إنه –كما رأينا من قبل– قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله.

وهو –بتفرده ذلك– يعبد الله على نحو يختلف عن عبادة الآخرين، وإن كان –في النهاية– يلتقي بها في الاتجاه.

العبادة –بمعنى الطاعة– مظهر من مظاهر اكلون كله، لا يفترق فيه جماد عن نبات عن حيوان.

([1]) سورة فصلت [11].

والإنسان داخل في ناموس الكون الأكبر لا يتخطاه..

غير أن الناموس –بالنسبة للإنسان– قد أعطاه كياناً متفرداً في أمرين عظيمين، يتميز بهما عن غيره من الخلق:

الأمر الأول: أنه بالنفخة الإلهية التي تشتمل عليها روحه قد صار "مدركا" لنفسه وما حوله.

والأمر الثاني: أنه بهذه النفخة ذاتها قد صار "مريداً" لما يقوم به من أعمال وتصرفات.

وهذان العنصران: الإدراك والإرادة، المستمدان من النفخة العلوية، هما في الإنسان محدودان بحدود، وهذه الحدود قد قدرها الخالق بما يناسب المهمة التي خلق لها الإنسان وهي الخلافة عن الله في الأرض.. بلا زيادة عن ذلك القدر ولا نقصان. فهو سبحانه يخلق بِقَدَر ما يشاء.

وبهاتين الصفتين تختلف كل أعمال الإنسان عن أعمال الكائنات الأخرى، في أنها أعمال "واعية" يدرك الإنسان غايتها وأهدافها. وأنها أعمال "إرادية" يريدها الإنسان ويقصدها.

ومن بين ذلك العبادة..

فعبادة الإنسان إرادية وواعية، في جانب منها على الأقل، بخلاف عبادة غيره من الكائنات [هناك جانب غير إرادي وغير واع من العبادة –بمعنى الطاعة– هو خضوع الإنسان في محياه ومماته ونموه وصحته ومرضه، وهضمه وتنفسه.. الخ.. الخ لقوانين الله التي فطره عليها. وفي هذا الجانب يشابه الإنسان بقية الكون. ولكن يبقى له –فوق ذلك– جانبه المدرك المريد، وما يصدر عنه من عبادة إرادية وواعية].

فإذا كانت الذرة تعبد الله بالطاعة التي لا إرادة لها فيها ولا وعي. وإذا كان الكون، والأرض وما عليها من نبات وحيوان تعبد الله على نفس الطريقة، فإن الإنسان [إلى جانب هذا اللون من الطاعة] قد أُلهِمَ طريقين لا طريقاً واحداً: طريقة الطاعة وطريق العصيان، وأعطى القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما والمضي فيه: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"[1].

([1]) سورة البلد [10].

"إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً"[1]. "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"[2].

ومن ثم فهو المخلوق الوحيد –من مخلوقات الأرض– الذي يعبد الله عن وعي وفهم وإدراك. وهو كذلك المخلوق الوحيد في الأرض الذي يعصي الله، حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان.

وهو إذ يعصي، يخالف أوامر الله إليه باتباع طريق الهدى والاستقامة والنظافة والارتفاع. ولكنه –مع ذلك– لا يخالف الناموس المقرر له من لدن الله. إذ الناموس المقرر له هو استعداده للهدى والضلال، وحرية اختياره بين طريق الهدى وطريق الضلال..

* * *

ولكنه في الحالين "يدرك" وجود الله.

ويدركه بالفطرة.. "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا"[3].

والفطرة طريقة خفية في إدراك وجود الله، والإيمان بوجوده، والاتصال به، والاستعانة به، والتزود من زاده..

ولا نتحدث هنا عن تلك الطريقة الخفية، لأن كل حديث عنها لن يوضح ماهيتها.. ما دامت خفية الكنه.. ككل شيء في هذا الكون الهائل العجيب!

إنما نتحدث فقط عن بعض الوسائل المدرَكة التي "توقظ" الفطرة الكامنة، وتوجهها إلى الله.

وكما قلنا إن القدرة على النطق كامنة في كيان الطفل، ولكنها تحتاج إلى معونة خارجية لإيقاظها.. فكذلك مقدرة الفطرة على الاهتداء لوجود الخالق كامنة في داخلها، ولكن أموراً

(1) سورة الإنسان [3].

(2) سورة الشمس [7-10].

(3) سورة الأعراف [172].

خارجية توقظها وتحركها وتنميها.. أو على أقل تقدير تعطيها الوعي والإرادة اللذين تتسم بهما بقية أعمال الإنسان.

* * *

يحس الإنسان "بالعجز" إزاء الكيان الكوني من حوله..

يبدأ العجز من لحظة الميلاد.. ويستمر إلى لحظة الموت.. ولا ينقطع فيما بين الميلاد والموت وإن كان يأخذ صوراً مختلفة في كل سن وكل طور من أطوار النمو الجسمي والنفسي.

هو في الطفل عجز كامل عن الحياة بغير مدد دائم ومعونة دائمة ممن حوله: بالإرضاع والرعاية في كل لحظة من النهار والليل.

ويكبر الطفل، ويكبر معه "مستوى" العجز ومجاله.

لم يعد هو العجز عن الحركة –فقد صار يتحرك– ولا العجز عن تناول الطعام –فقد صار يتناوله بنفسه– ولا العجز عن الإمساك بالأشياء وتحريكها طوع إرادته– فقد صار يصنع الكثير من ذلك..

وإنما هو عجز على مستوى آخر. فهو عاجز عن أن ينمو بالدرجة وبالسرعة التي يريدها لنفسه. وعاجز عن أن يسيطر على هذا الشيء أو هذا النبات أو الحيوان أو الإنسان كما يشتهي.. وعاجز عن الطيران في الجو كالطيور.. وعاجز عن أن يدرك الشمس والقمر والنجوم ويمسكها بيديه.. أو يلمس السماء!

إن العجز لم يعد حسيا بحتا كما كان في المراحل الأولى من العمر –حين كان الكيان كله حسيا– وإنما صار حسيا تارة ومعنويا تارة، أو حسيا معنويا معاً في بعض الحالات.

ويظل يكبر.. ويكبر معه العجز.

حتى يستوي على أشده، وما يزال يحس بالعجز في أكبر مجالاته: العجز عن تحقيق كل ما يريد تحقيقه، والعجز عن معرفة كل ما يريد معرفته، والعجز عن السيطرة على كل ما يريد السيطرة عليه..

حقا إنه يحقق أشياء كثيرة ويعرف أشياء كثيرة ويسيطر على أشياء كثيرة. ولكن هذا لا يغنيه، ولا ينفي عن خاطره شعور العجز. فهو يريد أن يحقق كل شيء. ويعرف كل شيء. ويسيطر على كل شيء.

وأشد ما يقف أمامه عاجزا: رغبة الخلود. والرغبة في معرفة الغيب الذي لم يحدث بعد..

إنهما ذاتهما الرغبتان العنيفتان اللتان أزلتا آدم من الجنة، وأمسكه بهما الشيطان من خطامه، بسلطان الإغراء!: "وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ"[1]. "قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى"[2].

..ولقد حقق الإنسان معجزات كثيرة في هذا الكون. وأطلق طاقة الذرة وأطلق الصاروخ، وانطلق معهما يرتاد الفضاء.. ولكن.. هل حقق شيئا من عقدتيه الأزليتين اللتين تؤرقان باله:

هل استطاع أن يحقق الخلود في الأرض.. ألا يموت أبداً ولا يغادر الحياة أبداً؟

هل استطاع أن يعرف الغيب؟ لا الغيب البعيد الذي يقع بعد سنوات. بل الغيب الذي يقع بعد لحظات. بل غيب هذه اللحظة الداخلة عليه من كل باب، اللحظة التي لا يكاد يفصلها عنه زمن، ومع ذلك تفصلها عن علمه" الآماد والآباد؟!

كلا!

ولقد أدى هذا العجز في تاريخ البشرية إلى كثير من ألوان العبادة.. المهتدية والضالة.

أدى إلى عبادة الوالد.. وعبادة قوى الطبيعة.. وعبادة الطوطم.. وعبادة الوثن.. وعبادة الله.

الطفل العاجز ينظر إلى ولده نظرة تبجيل شديد واحترام، يصلان إلى حد التقديس.. إلى حد العبادة الخفية.. ومرد ذلك إلى ضآلة حجمه بالقياس إلى حجم والده، وضآلة قدرته إلى جانب قدراته. وقد كانت البشرية الأولى –في فترات ضلاله وجاهليتها– تعيش بحس

([1]) سورة الأعراف [20].

([2]) سورة طه [120].

الطفل ومشاعره واتجاهاته وتصوراته. ومن ثم اتجهت –في فترة من فتراتها– إلى عبادة الأب وتقديسه بمختلف صور العبادة والتقديس.

والإنسان العاجز إزاء قوى الطبيعة.. إزاء البرق والرعد والمطر والعواصف والسيول.. يحس في هذه الطبيعة بالهول.. ويحس إزاءها بالضآلة. ويحاول –في طفولته– أن يترضاها، لأنه يتصور لها نفسا، ويتخيل لها مشاعر، تغضب وتعطف، وتقسو وترق. فيستعطفها لترحمه ولا تناله بالأذى.

وقد كانت البشرية الأولى –في بعض فترات انحرافها– تتعبد الطبيعة بهذا الدافع، وتقدم لها القرابين! وتتصور إلها للبرق وإلها للرعد وإلها للمطر وإلها للريح وإلها للنار.. ثم تنصب لكل إله من هؤلاء معبداً تحاول فيه أن تتقرب إليه وترضيه!

وإذا كان الرمز أحد مواهب البشرية وخصائصها، وهو الذي كوّن لها اللغة بما تشتمل عليه من رموز واصطلاحات، فالنقلة من عبادة الولد وعبادة الطبيعة، إلى عبادة الطوطم وعبادة الوثن نقلة قريبة في نفس الإنسان!

وقد كانت هذه كلها انحرافات عن العبادة الحقيقي، مارستها البشرية في مختلف مراحل ضلالها.. وإن كانت في وسط ذلك التيه –بين الحين والحين– قد قامت إلى عبادة الله الواحد على أيدي الرسل والرسالات.

والذي يهمنا هنا –من الوجهة النفسية– أن النفس البشرية– ضالة أو مهتدية– تحس إحساساً فطريا بالعجز إزاء قوة أكبر منها.. ويكون هذا العجز لديها عنصراً من عناصر "الدين".

* * *

ويحس الإنسان –غير العجز– بالرهبة إزاء روعة الكون..

وتأخذه هذه الرهبة فيبحث عن الخالق!

إن الكون هائل رائع واسع فسيح الأبعاد..

ولهذا كله وقعه في الحس البشري.. لا يمكن أن يهرب منه ولو أراد الهروب!

إنها روعة تبدهه في كل اتجاه.. أياً كان الاتجاه.. وتبدهه في كل مستوى وفي كل نطاق.

السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم.. تلك الأجرام الهائلة المعلقة في الفضاء بغير عمد..

وتوالى الليل والنهار والضوء والظلام..

ودورة القمر من الهلال البازغ في الأفق صغيراً ضئيلا كالخيط المنير.. إلى البدر الكامل.. ثم يعود أدراجه حتى يصير كالعرجون القديم.

والرعد والبرق والصواعق والمطر والسحاب..

والأرض وما عليها من جبال رواس، ووديان وأنهار..

والكائنات التي لا عدد لها ولا حصر على اليابسة وفي جوف الماء وفي وسط السماء، كل منها يختلف عن الآخرين..

والدقة المعجزة في كل الخلق..

في انتظام الفلك في دورته.. لا يختل قيد شعرة في الفضاء الرهيب..

في الشطأة الصغيرة النابتة من الأرض تفلق الطين لتبرز إلى النور..

في الطائر الصغير الناقف من البيضة يتحرك ويسقسق ويتناول من فم أمه الحب..

في الريشة الدقيقة الزاهية الألوان الدقيقة التركيب..

في كل شيء تقع عليه العين أو يدركه الحس..

وأياً كان مستوى الإنسان من العلم والثقافة والمدنية والرقي.. فالكون يوقّع على حسه توقيعات شتى تناسب مداركه ومعلوماته.. وفي كل حالة يروعه ويهزه من الأعماق..

يروعه فيبحث عن الخالق!

هكذا بالفطرة..

إنه يدرك من تجاربه أو يدرك بالبديهة أن كل شيء له صانع. ومن ثم يبحث عن صانع الكون الأعظم الرائع الفسيح.

وقد يهتدي في بحثه وقد يضل..

قد يهتدي إلى أن الله هو الصانع.. وقد يضل فيعبد الكون ذاته بدلا من أن يعبد الله..

ولكنه في كلتا حالتيه يؤخذ بروعة الكون، لأن في فطرته أن يؤخذ بالجمال والروعة والجلال.

وفي كلتا حالتيه تكون هذه الروعة لديه عنصراً من عناصر الدين.

* * *

ويروعه الموت..

فهو بالنسبة إليه حدث ضخم هائل مروّع..

إن الطفل –لشدة ألفته للحياة، ورغبته فيها، وتشبثه بها –يحسب أن الحياة هي القانون الطبيعي للوجود من حوله، ويتصور أنها الأمر الدائم للأحياء.. بل إنه لفرط حيويته وتشبثه بالحياة ليضفي الحياة حتى على الجوامد المحيطة به، فيتصورها حية تحس وتتحرك كالأحياء.

ثم يفجؤه الموت.. يراه يقع أمامه.. فيرتا ع.

هذا الكائن الذي كان حياً أمامه يأكل ويشرب، وينمو ويتحرك، ويتعاطف معه ويستجيب.. هذا الطائر أو الحيوان الأليف.. أو الإنسان.. إنه –في لحظة– يقع أمامه ميتاً لا حراك به.. ساكنا لا ينطق ولا يقدر على شيء.. ولا يتعاطف ولا يستجيب.

وتصيبه هزة عنيفة تهزه من أعماقه..

ما معنى هذا؟ ما معنى "الموت"؟ ما معنى الفناء؟

والوجود إذن.. هذا الذي كان من قبل بديهية لا تحتاج إلى سؤال.. ما معناه؟ ما حدوده؟ ومن الذي يرسم هذه الحدود؟

هنا نافذة إلى الله..!

نافذة إلى القدرة التي تخلق وتمنح الحياة.. ثم تأخذ الحياة وتردها إلى العدم الذي لا وجود له.

وقد يهتدي الإنسان في هزته تلك إلى الله.. وقد يضل فيحسب أن الطبيعة أو الدهر أو ما شابهها هي التي تسلب الكائن الحياة.. أو يتصور الموت ذاته إلها في مقابل إله الحياة!

ولكنه في كلتا حالتيه يروعه الموت.. ويقوده إلى الدين.

* * *

وتروعه "الأحداث".. أي "حدوث" الأشياء..

كيف تحدث؟ بأي قوة عجيبة قادرة منشئة مبدعة؟

الميلاد والموت.. الصحة والمرض.. القوة والضعف.. الرزق والمكانة.. الذهاب والمجيء.. وشتى الأحداث التي تصيب الإنسان في حياته أو يراها تقع أمامه ناظريه..

من الذي يحدثها؟ وكيف يحدثها؟

وهنا كذلك تتفتح نافذة إلى الله.. إلى القدرة القادرة التي تُحدث الأشياء. القدرة التي تقول للشيء كن، فيكون.

ولقد يهتدي إلى الخالق الحق.. أو يتصور آلهة شتى تدبر الكون وتحدث الأحداث.

ولكنه في كلتا الحالتين يؤخذ "بحدوث" الأشياء.. ويقوده ذلك إلى الدين.

* * *

تلك كلها عوامل تفتح في القلب البشري نوافذ إلى الخالق المدبر المبدع القدير. وتوقظ العقيدة الكامنة في صميم الفطرة.. توقظها ولكنها لا تنشئها إنشاء من لا شيء!

إن الكون الخارجي لا يُحدث في النفس شيئاً لا يكون موجوداً فيها من قبل!

الأصوات التي تحدث في الكون ليست هي التي تنشئ القدرة على السمع! فهي موجودة سواء سمعها الإنسان أم لم يسمعها.. وهي موجودة ومع ذلك لا تسمعها الكائنات غير ذوات الآذان؟

والأضواء التي تحدث في الكون ليست هي التي تنشئ القدرة على الإبصار! فهي موجودة سواء رآها الإنسان أم لم يرها.. وهي موجودة وإن كانت لا تراها الكائنات التي ليس لها عيون!

وكذلك بقية الأشياء..

ولكن حين توجد الحاسة فهي تستطيع أن تميز الأصوات والأضواء والأشياء، وتتأثر بها، ثم تتكيف بهذه التأثرات تكيّفات شتى، تناسب فطرتها واستعداداتها.

فالحيوان يرى ويسمع.. والإنسان يرى ويسمع.. ثم يتأثر كل منهما بالشيء ذاته تأثراً خاصاً، وينتج عنه في حياة كل منهما أثر مختلف.

وكذلك الأمر في فطرة الدين..

إن التوقيعات الكونية على الحس البشري توقظ الفطرة وتوجهها إلى الخالق.. ولكنها لا تنشئ هذا التوجه ابتداء.. فهو من صميم الفطرة.. منذ لحظة الميلاد: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا" صدق الله العظيم.

والقاعدة العامة في كيان الحياة كلها أن الخارج لا ينشئ شيئاً، ما لم يكن الاستعداد له موجوداً في الداخل من قبل!

وهذا التوجّه موجود في داخل النفس. وإنما ينتظر –كالقدرة على النطق– أن توقظه من الخارج شتى المؤثرات.

والطفل، منذ يأخذ في الإدراك، يأخذ في هذا التوجه.

يأخذ يسأل سؤالا ملحا عن عشرات وعشرات من الأمور.

من الذي "عمل" السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم؟

من الذي يعمل النور والظلام؟ والبرق والرعد والمطر والسحاب؟

كيف ماتت القطة العزيزة أو الكلب أو الأرنب أو العصفور؟

وما معنى الموت؟ ولماذا تموت الأشياء؟

ما اتساع الكون؟ ما آخر مداه؟

متى أكبر؟

كيف جئت إلى هذا العالم؟ ومن الذي جاء بي؟

ثم يأخذ الطفل في النضج.. وتزداد معارفه.. ويزداد بحثه في الكون والحياة والأحياء.

وفي كل مرحلة يتكوّن في نفسه تصور جديد من تصورات الدين.

* * *

والكبت.. وعقدة أوديب.. وكل هذه الأساطير التي ابتدعها فرويد بلا دليل علمي.. لا علاقة لها البتة بفطرة الدين. فالدين لا ينشأ من الكبت، ولا صلة له بالجنس أو العشق المزعوم.

وإنما هو شيء من صميم الفطرة، ينمو معها كلما نمت. ينمو نمواً فطرياً "طبيعياً" دون تدخل من أحد. وإنما التدخل الخارجي ينظمه ويوجهه الوجهة الصالحة، ويقيمه على أساسه الصحيح.

والمنع أو الكبت ليس هو الذي ينشئ الدين في النفوس. وإنما الأجدر أن يكون الدين هو الذي يساعد على نمو "الحواجز" التي تنظم انطلاق الطاقة الحيوية وتحدد لها مجالها النظيف.

فالدين تتبعه حتما وتلازمه "قيم" معينة..

يتبعه قيام حواجز في النفس تضبط السلوك والمشاعر، وتقول للإنسان هذا جائز وذاك أمر لا يجوز.

وارتباط الدين بهذه الحواجز قديم قدم البشرية..

فإحساس الإنسان الفطري بضآلته إزاء القوة الخالقة، وإحساسه بالروعة والجلال، وإحساسه بأنه مأخوذ بمظاهر القدرة المختلفة، هو الذي يجعله يخرّ ساجدا يتعبد..

ثم يحس –إحساسا فطريا– بغير ضغط خارجي– أنه ينبغي له أن يلتزم بحركات معينة وأفعال معينة وسلوك معين إزاء هذه القوة التي يتعبدها، لكي ينال رضاها ويتقي غضبها. وهو يلمس في حسه دائماً مظاهر هذا الغضب وهذا الرضى.. على نحو من الأنحاء.

والخوف والرجاء.. أكبر خطين متقابلين في النفس البشرية.. هما اللذان ينظمان هذا الالتزام إزاء القوة الخالقة ويجعلانه دستوراً مفصلا من المشاعر والسلوك والأعمال والأفكار والطقوس والشعائر..

ومع هذا الالتزام تنشأ "القيم" المختلفة.. أو تتبلور.

والقيم معناها [كما سنبين بالتفصيل في الفصل القادم] أن هناك حواجز تحجز الطاقة الحيوية لتضبط منطلقاتها، وترفعها إلى أفق أعلى.

ومن ثم يرتبط الدين برغبة الالتزام الفطرية في النفس البشرية[1]، ثم بالقيم والضوابط، ارتباط متسلسلا، طبيعيا، فطريا، لا ضغط فيه من الخارج ولا إكراه.

وإنما الديانات السماوية تنظم هذا كله وتوجهه الوجهة الصحيحة.

تنظم التوجّه المبهم إلى القدرة الخالقة، فتجعله توجّهاً واعيا صريحا خالصا إلى الله.

وتنظم الالتزام فتجعله التزاما بعبادات وشعائر محددة يعلم الله حكمتها فيفرضها على الناس.

وتنظم القيم، فتجعلها قيما عليا راشدة بريئة من الميل والهوى والنقص والانحراف.

والذي تفرضه الديانات السماوية وتلزم الناس به ليس هو الدين. ولا العقيدة. ولا التزامات العقيدة. ولا القيم المرتبطة بالعقيدة. وإنما هو النهج الصحيح في كل هذه الأمور.

(1) انظر فصل "الخطوط المتقابلة في النفس البشرية".

وإذا لم يُفرض هذا المنهج، فسيكون هناك دين وعقيدة وقيم والتزامات. ولكنها تكون كلها عرضة للانحراف، كما ينحرف كل شيء في الفطرة البشرية لا يتلقى توجيهه الصحيح.

والنفوس المنحرفة تنفر من قيود الدين السماوي والتزاماته، لا لأن الدين ليس فطرة، أو أن الالتزام ليس فطرة، ولكن لأن انحرافات هذه النفوس تجعلها معوجّة، فلذلك تحس أن "الاعتدال" و"الاستواء" و"الاستقامة" الموجودة في دين الله تضغطها وترهق كيانها الذي لا يصبر على الاستواء!

* * *

والملحدون في الجاهلية الحديثة في الغرب يتمردون على الله لأسباب محلية في الكنيسة الأوربية نفّرت الناس من الدين!

فقد تولت الكنيسة –بادئ ذي بدء– وضع صورة من عندها للعقيدة المسيحية المنزلة، لم تكن خالية من شوائب الوثنية المحيطة بها، ولا أساطير الأمم المجاورة لمنبت العقيدة الأصلية. وقد نشأ ذلك من أن أول داعية للمسيحية لم يكن هو ذاته رأي المسيح ولا سمع تعاليمه مباشرة، وإنما هو أخذها بالسماع ممن تداولوها خلال قرن كامل بعد السيد المسيح، دون كتاب مدون، وفي ظل العسف والاضطهاد الرومانيين اللذين كانا يمنعان المؤمنين الأوائل بالمسيحية من الالتقاء والتدارس فيما لديهم من أمور العقيدة وتعاليمها.

ثم نشرت الكنيسة الرهبانية –بعد دخول الإمبراطورية الرومانية في المسيحية– بقصد مقاومة الترف الروماني الوثني الفاجر والانحلال الخلقي الذريع. ولكنها اشتطت في هذه الرهبانية إلى درجة تعطل دفعة الحياة وتقاوم الفطرة البشرية ودوافعها الحية، وتحولها إلى سلبية هزيلة لا تنتج ولا تعمر ولا تتقدم، فضلا عما تحمله من كبت مرهق للأعصاب.

ثم إنها هي ذاتها لم تمتثل لهذه الرهبانية التي فرضتها على الناس! فسرعان ما اكتشف الناس أن رجال الدين –الذين يزجرون الناس وينهرونهم عن كل متاع أرضي، ولو كان حلالا طيبا– يغرقون هم في ألوان من المتاع الفاجر الدنس الذي تأباه نفوس الناس العاديين فضلا عن رجال الدين المتنطسين! وكانت الأديرة والصوامع مباءات للفاحشة المنكرة التي يأباها الحس السليم!

ثم جعلت الكنيسة من دينها هزواً ولعباً حين أخذت تبيع صكوك الغفران للناس، وتجعلها تجارة فاسقة، تثرى هي من روائها، بينما تؤدي إلى إفلاس العقيدة في النفوس!

ثم لم تكتف الكنيسة بكل ذلك، بل فرضت على الناس سلطانا بشعا يطاردهم في يقظتهم ومنامهم، يفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين، ويفرض عليهم الإتاوات والعشور، والخدمة المجانية التي تشبه السخرة في إقطاعيات الكنيسة الشاسعة، ويفرض عليهم فوق ذلك كله أساطير الكنيسة باسم كلمة السماء!

لقد كانت الطامة الكبرى —بعد كل هذا الفساد والانحراف في التصور العقيدي والسلوك العملي– أن الكنيسة فرضت نظريات "علمية" معينة، عن شكل الأرض وطبيعة الكون وعمر الإنسان.. الخ قالت عنها إنها مقدسة لأنها كلمة السماء، من خرج عليها فهو كافر مستحق للحرمان.

فلما أثبت العلم النظري والتجريبي فساد هذه النظريات، وأعلن العلماء فسادها، قامت قيامة الكنيسة، التي فزعت من نور العلم، ومن ضياع الجهل الذي تستعبد الناس عن طريقه، فهي حريصة على بقائه واستمراره.. قامت قيامة الكنيسة تحرق العلماء وتعذبهم وتقتلهم، لأنهم —مثلا– قالوا بكروية الأرض، أو بأنها ليست مركز الكون..

ولقي علماء مثل جاليليو وكوبرنيكوس وجوردانو برونو من التعذيب الوحشي البشع على أيدي رجال الدين ما قطع في نفوس الناس ومشاعرهم كل مودة للدين ورجال الدين، وأنشأ بدلا منها في نفوسهم بغضا بشعا لا يتعقل ولا يتلبث وهو يلقى عن كاهله الدين وكل ما يتعلق به من قيم والتزامات وعقائد وتعاليم.

فلم يكن الناس —في نفرتهم هذه– في حالة نفسية تسمح بالبحث والتأني، لفرز الحق من الباطل، وإلقاء الباطل واتباع الحق.. وإنما كانوا كالملسوع الذي يصيح هاربا من كل لمسة ولو كانت لمسة الدواء!

وبسبب من ذلك التاريخ الفاسد المنحرف كله قامت الحضارة الغربية الحديثة على أساس معاد للدين، نافر منه، منسلخ من كل ما يتصل به من عقيدة أو تصور أو سلوك أو شعور أو فكر.. وانتشرت العدوى مع الحضارة الغالبة حيثما وطئت قدماها، فأصبح النفور من الدين في هذا العصر الحديث كأنه "ظاهرة" بشرية! وهو لا يزيد على أن يكون مرضا أصاب جيلا من البشرية أو عدة أجيال!

والبشرية اليوم في طريقها للعودة إلى الله!

في طريقها أن تعود إلى فطرتها، بعد هذه الجولة التائهة في شعاب الجاهلية المنحرفة.. التي لم تجد فيها الأمن والراحة.. بل وجدت من الشقاء النفسي والفكري والروحي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي ما لم تجد مثله في تاريخها الطويل..

* * *

والدين الذي فرضه الله يلتقي بالفطرة التقاء كاملا.. ولكنه يلتقي بها على استوائها، في صورتها الصحيحة التي ينبغي أن تكون عليها.. ثم هو يقوّمها من انحرافها الذي تتعرض له في أثناء نموها وتطورها.

وفي الفصول السابقة بينا خطوط النفس البشرية ومكوناتها وطبيعة فطرتها.

فهنا نبين كيف يلتقي الدين الذي فرضه الله –الإسلام[1]– بهذه الفطرة ويقوّمها:

بادئ ذي بدء يوقع القرآن على الحس البشري، على ذات الأوتار التي يتجه بها هذا الحس فطريا إلى العقيدة..

فإذا كان الإحساس بقوة الخالق المطلقة، والإحساس بروعة الكون، والإحساس بالموت والحياة، والإحساس بحدوث الأشياء، هي الأوتار الفطرية –الظاهرة– التي توجه الإنسان إلى العقيدة، فالقرآن يوقظ هذه الإحساسات وينبهها، لكي لا تتبلد بحكم الإلف والعادة اللذين يبلدان الحس بهذه الأمور.

وقد تحدثت في كتاب "منهج التربية الإسلامية" عن هذه الظاهرة في القرآن في فصل "تربية الروح" بتفصيل لا أملك هنا إعادته، فهو ألصق بموضوع التربية منه بدراسة النفس الإنسانية. ويكفي هنا أن نثبت هذه الحقيقة، ثم نأتي بنماذج قليلة لهذه التوقيعات المتعددة في القرآن:

"الروح.. تلك الطاقة المجهولة التي لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها.. هي وسيلتنا للاتصال بالله.

"وهي مهتدية إلى الله بفطرتها. إنها من روح الله التي أودعها قبضة الطين: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ". ومن ثم فهي بذاتها تهتدي إلى خالقها، وتتصل

(1) قال تعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ" سورة آل عمران [19].

به على طريقتها. تهتدي إليه كما يهتدي كل شيء من خلق الله، بفطرته، دون كد ولا تعب ولا جهد في الاهتداء "رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى".. ومع ذلك فالإنسان يضل.. يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض.. يضل فلا يهتدي إلى الله، ولا يصل بروحه إليه، ولا يستمد منه، ولا يلجأ إلى حماه.

"على أنه حتى حين يضل، حين تنغبش روحه فلا تستطيع أن تشف، حين يغشيها ركام الشهوات فيحجب عنها النور، حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة –برغم ضلالها– تتجه إلى خالقها، كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء، لا تراه كله، ولكنها لا تعمى عنه. فيعبد الناس الله ويشركون به غيره من الكائنات "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى". "وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ". أو يعبدون قوة –ما– يزعمون أنها الله. ولكنهم –فيما عدا الشذوذ الذي لا يحسب له حساب– لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوي مسيطر مريد.

"ومهمة العقيدة هي مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها. مهمتها أن تساعد الفطرة في الاهتداء إلى الله.. الاهتداء الذي هو كامن في كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض.

"مهمتها أن تطلق الروح من إسارها.. لكي ترى الله.

* * *

"طريقة الإسلام في تربية الروح هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله، في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور.

"....

"ويستخدم لذلك وسائل شتى.

"فهو من ناحية يثير حساسية القلب بيد الله المبدعة في صفحة الكون، لتحس دائماً بوجود الله، وقدرته المطلقة التي ليست لها حدود.

"ومن ناحية يثير حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه. فهو مع الإنسان أينما كان، وهو مطلع على فؤاده، عالم بكل أسراره، وبما هو أخفى من الأسرار.

"ومن ناحية يثير في القلب وجدان التقوى والخشية الدائمة لله، ومراقبته في كل عمل وكل فكرة وكل شعور.

"ومن ناحية يثير فيه الحب لله، والتطلع الدائم إلى رضاه.

"ومن ناحية يبعث فيه الطمأنينة إلى الله في السراء والضراء، وتقبل قدره بالتسليم والرضاء. والهدف في النهاية واحد: هو وصل القلب البشري بالله"[1].

* * *

وهذه بعض التوقيعات على وتر الإحساس بقدرة الله المطلقة في شتى مجالاتها:

"وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ، وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ"..[2]

"اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ"[3].

"وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ، وَهُوَ الَّذِي

(1) من كتاب "منهج التربية الإسلامية" ص43-48.

(2) سورة النحل (78-81).

(3) سورة البقرة [255].

يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ"[1].

وهذه بعض التوقيعات على وتر الإحساس بروعة الكون:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[2].

" هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ، أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ"[3].

وتلك بعض التوقيعات على وتر الإحساس بالحياة والموت.

"يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ"[4].

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ

(1) سورة الأنعام [59-60].

(2) سورة البقرة [164].

(3) سورة النحل [10-17].

(4) سورة الروم [19-20].

مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"[1].

"وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ"[2].

"اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى"[3].

"الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً"[4].

"أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ"[5].

"قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ"[6].

وتلك توقيعات على وتر الإحساس بحدوث الأشياء:

"قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[7].

"سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ"[8].

"قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"[9].

([1]) سورة الحج [5].
([2]) سورة لقمان [34].
([3]) سورة الزمر [42].
([4]) سورة الملك [2].
([5]) سورة النساء [87].
([6]) سورة آل عمران [54].
([7]) سورة آل عمران [26].
([8]) سورة مريم [35].
([9]) سورة التوبة [51].

"وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[1].

"أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"[2].

وهكذا.. من التوجيهات التي يفيض بها كتاب الله الكريم..

ومن هذه التوقيعات كلها ينتهي إلى توجيه القلب البشري إلى الله الحق، الخالق المدبر المنشئ المريد..

* * *

ثم يخطو الإسلام مع الفطرة البشرية خطوة أخرى، فيلتقي بالطبية المزدوجة والكيان الموحد في الإنسان.

يلتقي بهذا الكيان الموحد المشتمل على طبيعة مزدوجة، فيرسم له منهجا مزدوج الطبيعة موحد الاتجاه.

فهناك جسم وروح. ونشاط للجسم ونشاط للروح. ولكنهما في النهاية يلتقيان.

وهناك دنيا وآخرة. وعمل للدنيا وعمل للآخرة. ولكنهما طريق واحد لا يفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل، ما دام كلاهما موجها إلى الله.

وحيث تضل النظم الأخرى كلها، فتفصل بين نشاط الجسم ونشاط الروح، وتجعل لكل منهما دستورا ومنهجا مختلفا عن الآخر.. وتفصل بين الدنيا والآخرة، فتجعل اتجاه كل منهما مخالفا لاتجاه الأخرى.. فإن الإسلام يلتقي مع الفطرة على طبيعتها، فلا يفصل بين أجزاء الكيان المترابط، ويراعي –في الوقت ذاته– ما فيه من ازدواج.

([1]) سورة البقرة [245].

([2]) سورة النمل [62-64].

فالإنسان يأكل ويشرب.. ويقوم بنشاطه الجنسي.. الخ، ليرضي جانب الجسد من كيانه.. ولكن الإسلام يوجهه ألا يقضي ضروراته بجسده وحده، وإنما بالمزاج المترابط من الجسم والروح [وإن برز فيها الجانب الجسدي] فيجعل الأكل عبادة والجنس عبادة، إذ يربطهما باسم الله، وبالقيم المستمدة من التوجه إلى الله. قيم النظافة والطهارة والترفع عن مستوى الحيوان. فلا يصبح شيء من هذا النشاط ضرورة غليظة يقضيها الإنسان بمبعدة من إشراقة الروح التي تلطفها وتمنحها معناها الإنساني اللطيف الشفيف.

والإنسان يتعبد ويرتفع ويرفرف.. ليرضي جانب الروح من كيانه.. ولكن الإسلام يوجهه أن يقضي نشاطه الروحي بكيانه المجتمع المترابط.. فيرسم له عبادات تشمل كيانه كله [وإن برز فيها الجانب الروحي] كالصلاة والصيام والزكاة والحج.. فلا ينعزل بروحه –حتى في عبادته– عن واقعه الجسدي، ولا يجعل العبادة رهبانية وعزلة عن الحياة!

ويعيش الإنسان حياته، ويعيش للآخرة.. ولكن الإسلام يوجهه أنّهما طريق واحد وطريقة واحدة.. ليست هناك أعمال خاصة بالدنيا ينعزل فيها الإنسان عن الآخرة، حتى الطعام والشراب والجنس والقتال والبروز والملك.. الخ. وليست هناك أعمال خاصة بالآخرة ينعزل فيها الإنسان عن الدنيا، حتى العبادة والتهجد. وإنما العمل الواحد –وكل عمل– هو للدنيا والآخرة في آن واحد: يأكل بنظافة واعتدال وطهارة وباسم الله، فيأخذ نصيبه من الدنيا، وهو في الوقت ذاته متوجه بهذه "المعاني" كلها للآخرة في ذات العمل وفي ذات اللحظة. ويمارس نشاطه الجنسي بنظافة وطهارة، وباسم الله، فيأخذ متعته الدنيوية وهو في الوقت ذاته متوجه إلى الآخرة بما التزم في هذا النشاط من طهارة.. ويسعى إلى الملك أو البروز أو القتال.. بنظافة واعتدال وطهارة وباسم الله وفي سبيل الله.. فيمارس نشاطه الدنيوي كله، وهو في الوقت ذاته متوجه إلى الآخرة عامل لها شاعر بها ملء كيانه. فتلتقي الدنيا والآخرة في كيانه المزدوج الطبيعة الموحد الاتجاه.

يقول الله في كتابه: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"[1].

ويقول: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2].

فيجمع الدنيا والآخرة في الآية الواحدة والعمل الواحد.

(1) سورة القصص [77].

(2) سورة الأعراف [32].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فله بذلك أجر"[1].

فيجعل طريق العمل في الدنيا هو ذاته الطريق إلى الآخرة.. العمل إلى آخر لحظة من الحياة الدنيا.. حتى والقيامة تقوم[2]!

* * *

ثم يخطو الإسلام مع الفطرة خطوة أخرى، فيلتقي بالخطوط المتقابلة في النفس البشرية.

وقد تحدثت بالتفصيل في كتاب "منهج التربية الإسلامية" كذلك عن طريقة معالجة الإسلام للخطوط المتقابلة في النفس البشرية بما لا أملك إعاداته في هذا الكتاب.. فيكفي أن نسجل هنا هذه الحقيقة مع إشارة سريعة إلى طريقة الإسلام في معالجة تلك الخطوط المتقابلة.

"ومزية الإسلام –في مسايرته للفطرة– أنه لا يترك وترا من أوتار النفس لا يوقع عليه. ثم هو لا يوقع على وتر أكثر من طاقته، أو يبخسه قدره فلا يوقع عليه ما يستحق من نغمات! وبذلك يشمل الكيان الإنساني كله، وفوق ذلك يحدث التوازن في داخل النفس بشدها إلى أوتادها جميعاً فلا تميل من هنا ولا تميل من هناك، والتوقيع على أوتارها جميعاً فلا تنطلق من جانب وتظل في الجانب الآخر صماء!"[3].

يوقع الإسلام على خطّي الخوف والرجاء –أكبر الخطوط المتقابلة في النفس البشرية– فينفي عنهما أولا كل خوف خاطئ وكل رجاء منحرف، ثم يوقع عليهما نغمات الخوف والرجاء الصالحين لكيان الإنسان: الخوف من الله ومما يخوّف به الله.. والرجاء في الله الذي يملك وحده كل شيء في هذا الوجود.

وفي أثناء هذه التوقيعات يكون قد بنى الكيان الصالح للنفس البشرية!

([1]) ذكره علي بن عبد العزيز في المنتخب عن أنس رضي الله عنه.

([2]) انظر الكلام هذا الحديث العجيب في كتاب "قبسات من الرسول" فصل: "فليغرسها!".

([3]) من كتاب "منهج التربية الإسلامية" ص155.

فهو إذ ينفي عنها الخوف الخاطئ من قوى الأرض- البشرية أو المادية أو المعنوية- والرجاء الخاطئ في قوى الأرض الزائلة أو متاعها الزائل أو قيمها الزائفة.. يكون قد أعطاها قوة ذاتية عظمى، قوة تتغلب بها على كل قوى الأرض ومغريات الأرض..

وإذ يوقع عليها الخوف الصائب من الله ومن غضب الله وعذابه، والرجاء الصائب في الله ومرضاته وثوابه، يكون قد ربطها بالعروة الوثقة ومنع عنها الميل والانحراف..

وفي الوقت ذاته يكون قد رسم لها قيمها وأهدافها وخطط لها نشاطها السوي، وهو يفصّل لها ما يحبه الله وما يكرهه، وما يرضى عنه وما يأباه من الأقوال والأفعال والمشاعر والأفكار..

ويوقع على خطّي الحب والكره، فينفي عنهما كل حب باطل وكل كره منحرف، ويوقع عليها نغمات الحب والكره الصالحين لكيان الإنسان.

فكل حب للشر أو الطغيان أو الفاحشة أو الانحراف فهو حب باطل ينبغي أن تتطهر منه النفس.. وكل كره للخير وللناس وللأحياء ولما أمر الله به من أمر فهو كره باطل ولا ينبغي أن تشتمل عليه نفس سوية. والحب الصحيح ينبغي أن يكون حباً لله وللكون وللحياة وللأحياء وللإنسانية والقيم الفاضلة التي رسمها الله. والكره الصحيح ينبغي أن يكون للشر والطغيان والانحراف.

وهو إذ يوقع عليهما أنغامهما الصحيحة يكون كذلك قد بنى -من جانب آخر- الكيان الصالح للنفس البشرية!

فحين تتوجه طاقة الحب والكره -الفطرية- إلى مجالها الصحيح تكون النفس قد اعتدلت، ويكون سلوكها العملي والشعوري قد استقام على النهج، وأصبحت النفس خيّرة كما ينبغي للإنسان الكريم.

ويستغل الطاقة الحسية والطاقة المعنوية فيعطي كلاً منهما غذاءه الحق. يعطي الطاقة الحسية مجالها الطبيعي من طعام شراب وجنس.. الخ ويعطي الطاقة المعنوية مجالها من عقيدة وفنون وعلم وتفكير. ثم يراعي ما بين الطاقتين من اتصال فطري، فيربط ما بين النشاط الحسي والنشاط المعنوي، ويوحد بينهما في الاتجاه.

ويستغل الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب.. فيعطي الكون المادي حسابه الكامل، وينعى العقيدة في الله –الذي يؤمن به الإنسان بالغيب– تنمية كاملة تجعلها تسيطر على كل نشاط الإنسان.

ويستغل طاقة الواقع وطاقة الخيال.. فيطلق النشاط البشري في عالم الواقع يعمل وينشئ ويبني ويعمر، ويقيم النظم المادية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والروحية.. ويطلق الخيال يتخيل الكمال المطلق في الله، ويتملى الجمال، ومشاهد اليوم الآخر، والثواب والعقاب.. ويربط ذلك كله ربطاً محكماً كما هو مترابط في كيان الإنسان. فينطلق الإنسان في نشاطه الأرضي المعمّر، وفي حسه من الجانب الآخر "ما ينبغي" أن يكون عليه هذا النشاط، فيتكامل بذلك نشاطه، وتكون هذه هي الخلافة الحقة عن الله في الأرض...

ويستغل الالتزام والتحرر.. فيفرض على الإنسان –من جانب الالتزام– ما فيه صلاح حياته، وما لا بد من فرضه لتستقيم الحياة في مستواها الأدنى، ويترك لجانب التحرر –أو التطوع– أن يعمل حراً فيما يزيد على الحد الأدنى المفروض، وما يرفع الحياة إلى مستواها الأعلى المطلوب ["فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ[1]"].

ويستغل السلبية والإيجابية.. فينشئ سلبية صحيحة إزاء الله، الذي يملك –وحده– كل أمر في هذا الوجود، وإيجابية صحيحة إزاء كل قوى الكون ["وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ[2]"]، ويجعل هذه الإيجابية الكاملة إزاء الكون وقواه، مستمدة من السلبية الكاملة إزاء الله.

ويستغل النزعة الفردية والنزعة الجماعية، فيتعامل تعاملا مباشرا مع "الفرد" الإنساني: يخاطبه، ويربط بينه وبين الله رباطاً ذاتياً فردياً محكماً، ويشعره كأنما هو وحده في الكون والله يرعاه في فرديته الكاملة تلك، ثم يتعامل معه على أنه "مجتمع" إنساني مسئول عن إقامة حكم صالح وحياة رشيدة، ومسئول عن تقدير القيم والفضائل ومقاومة الشر والطغيان والانحراف. وبذلك يجمع نزعتيه معاً في هذا الرباط مع الله.

* * *

([1]) سورة البقرة [184].

([2]) سورة الجاثية [12].

ثم يخطو الإسلام مع الفطرة الإنسانية خطوة أخرى، فيعالج الإنسان من حيث هو دوافع وضوابط كل منهما قائم وكل منهما أصيل..

فهو يعترف بدوافعه الفطرية كلها بل ينميها ويقويها ويجعلها مطلوبة جميعاً. إنه يريد للإنسان أن يأكل ويشرب، ويأمره بذلك أمراً ["كُلُواْ وَاشْرَبُواْ"[1]] ويأمره أن يقضي ضرورة الجنس [فمن رغب عن سنتي فليس مني[2]] ويبيح له أن يتملك وأن يقاتل وأن يبرز.. كل دوافعه مباحة ونظيفة ومعترف بها، بل هو مدعو إلى تنميتها وتقويتها.. فهذا هو سبيل الكائن البشري إلى الخلافة عن الله في الأرض.. ولن يستطيع أن يبني ويعمر، ويمشي في مناكب الأرض، ويستغل طاقاتها المذخورة ويتعرف على قوانين الكون وينتفع بها إلا أن يكون قوى الكيان قوى الدوافع مقبلا كل الإقبال على الحياة..

وفي الوقت ذاته ينسى الضوابط جميعاً، ويستغل طاقاتها الكاملة، ويربطها بالعقيدة في الله. لكي يجعل انطلاق الدوافع الفطرية نظيفاً بما ينبغي للإنسان الذي كرمه الله. ذلك أنه لن يستطيع القيام بالخلافة عن الله في الأرض إذا انطلقت دوافعه –القوية– بلا ضابط ولا دليل. إنها عندئذ تصبح قوة مدمرة بدل ما هي قوة منشئة بانية. مدمرة للفرد الذي تتملكه، وللمجتمع الذي تنطلق فيه.

ولكن الإسلام لا يجوز على هذه ولا تلك، ولا ينعى إحداهما على حساب الأخرى.

لا ينعى الدوافع بالصورة التي تجعلها صعبة الضبط عسيرة القياد.. ولا ينعى الضوابط بالصورة التي تجعلها قوة كابتة تغل للنشاط الإنساني عن الانطلاق.

وإنما هو ينميهما معا، فيضمن قيام كل منهما بمهتها، ويضمن كذلك بينهما التوازن والاعتدال.

ومع ذلك كله يراعي الإسلام ما في الفطرة البشرية من الضعف إزاء الشهوات –رغم وجود الضوابط الفطرية، ورغم العمل على تقويتها– فيعترف للإنسان بضعفه ["يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً[3]"] ويعامله على أساس هذا الضعف، فيغفر له زلاته ما دام لا يصر عليها: ["وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ

([1]) سورة البقرة [60].

([2]) عن أنس رضي الله عنه.

([3]) سورة النساء [28].

ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[1]"].

* * *

وأخيرا.. يتمشى الإسلام مع الفطرة البشرية في كيانها الشامل المترابط، إذ يجعل دستوره –المفصل في القرآن وسنة الرسول– شاملا للعقيدة والواقع. للحياة الفردية بجميع تفصيلاتها والحياة الجماعية في كل نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والروحية.. كلها تنبع من منبع واحد، وتتجه وجهة واحدة.. فلا يختص بالحياة الواقعية دستور، وبالحياة التعبدية دستور.. ولا يختص "بالأحوال الشخصية" قانون وبالأحوال العامة قانون.. وإنما هو دستور واحد يشمل هؤلاء جميعاً، وتصدر عنه التشريعات جميعا، فلا يتفرق الإنسان مزقا بين واقعه وخياله.. بين فرديته وجماعيته.. بين أخلاقه وسلوكه.. بين دنياه وآخرته.. وإنما يكون شخصا واحدا في هؤلاء جميعا، يتعامل مع القوى كلها بكيانه المجتمع المترابط، ويسلك سلوكه كله بذلك الكيان.

وبذلك يكون الدين من الفطرة..

ودين الفطرة هو الإسلام..

(1) سورة آل عمران [134-136].

القيم العليا

القيم العليا.. كيف تنشأ؟

ما صلتها بالفطرة البشرية؟ ما مكانتها في كيان الإنسان؟

هل هي أصيلة في الكيان البشري أم مفروضة عليه من خارج نفسه؟

وإن كانت أصيلة فكيف تنمو؟ ولماذا تنمو في بعض النفوس ولا تنمو في بعضها الآخر؟ أو تنمو في بعضها أكثر مما تنمو في بعضها الآخر؟

وما دورها في حياة الإنسان؟

هل هي ذات دور أصيل في حياته، أم إنها شيء على هامش الحياة.. "للزينة" لا للاستعمال؟!

* * *

حين واجه النقاد فرويد بأنه يحقر الإنسان، ويرسمه في مستواه الأدنى، وينفي القيم العليا من حياته.. قال إنه لم يصنع ذلك! وإنه لم ينف قط وجود القيم العليا في حياة الإنسان!

وحقا إنه لم ينف وجودها..

ولكنه اعترف بها اعترافا أسوأ من النفي!

فقد اعترف بها –من ناحية– على أنها شذوذ [وقد مر بنا نص كلامه في هذا الشأن] وعلى أنها قسوة! وعلى أنها تتعارض مع النمو "الحر" للطاقة الجنسية! [التي هي –في نظره– محو الطاقة الحيوية!].

واعترف بها –من ناحية أخرى– على أن الوسيلة الوحيدة لتكوينها هي الكبت. ثم أنفق حياته العلمية كلها يقول إن الكبت عملية ضارة مدمرة لكيان الإنسان!

وفي كلا الحالين يراها أمورا مفروضة على كيان الإنسان من الخارج، وليست أصيلة في ذلك الكيان!

* * *

ثم أطلق –وهو يشرح كيفية نمو القيم العليا [الدين والضمير والأخلاق والتقاليد.. الخ]– أطلق أسطورته الكريهة المبنية على العشق الجنسي الذي يحسه الأولاد نحو الأم:

ذات يوم في الماضي السحيق الموغل في الظلمات ارتكبت البشرية جريمة مروعة:

أحس الأولاد برغبة جنسية نحو أمهم. ولكنهم وجدوا أباهم حائلا دون الوصول إلى هذه الشهوة، فقرروا أن يقتلوا أباهم ليخلو لهم الطريق.. وبالفعل قتلوه..

وما إن أتموا فعلتهم الشنيعة حتى أحسوا بالندم على ما قدمت أيديهم.. فأقسموا ليقدسُنّ ذكراه.. فعبدوه. ونشأت بذلك أول عبادة في الأرض.. عبادة الأب.. [التي تحولت فيما بعد إلى عبادة الطوطم، وهو حيوان تعبده القبيلة كلها وتعتقد أن دماءه تجري في دمائها، ويحرمون ذبحه إلا في مناسبات دينية خاصة حيث يحتفل بذبحه ويأكل منه الجميع لتجري دماءه في دمائهم من جديد]!

ثم وجدوا أنهم سيتقاتلون فيما بينهم على أمهم فلا ينالها أحد منهم.. فحرموها عليهم جميعا.. ونشأ بذلك أول تحريم [جنسي] وصارت الأم منذئذ محرمة على الأبناء!

هذا في البشرية الأولى..

ولكن هذا الحدث –منذ حدوثه– لم يترك البشرية في راحة!

"وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة ذاتها [إحساس الأبناء بالجريمة] وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد، وهي رد فعل لنفس الحدث العظيم [قتل الأب] الذي نشأت عنه الحضارة، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة"![1]

فالطفل –الذكر– يكرر هذه الجولة على مدار التاريخ!

كل طفل ذكر يولد، يحس نحو أمه بعشق جنسي. ثم يجد أباه حائلا.. [ولكنه في هذه المرة لا يقتله لأنه صغير! فيكتفي بكراهيته!] فيكبت شهوته الجنسية نحو أمه. وتنشأ بذلك عقدة أوديب!

([1]) كتاب Totem & Taboo ص145.

ومن هذا الكبت ينشأ الضمير!

فإن الطفل يتلبس بشخصية والده في لا شعوره، ليحل محله –لا شعوريا [ولا واقعيا!]– مع الأم! فيصنع بنفسه ما يصنعه أبوه به [وبغيره] من المنع والزجر. فيزجر نفسه ويمنعها عن الأشياء التي يقوم أبوه بمنعه عنها. فينشأ هذا الضمير الداخلي الذي يزجر الإنسان ويمنعه. وبهذه الطريقة تنشأ القيم العليا كلها في حياة الإنسان.. بما فيها الدين!

* * *

تلك الأسطورة الملوثة بلوثة الجنس.. ما دليل فرويد عليها؟

وكيف يسمح عالم لنفسه أن يقيم كل تفسيره للحياة الإنسانية.. على أسطورة؟

ومع ذلك فقد أفلتت منه –دون أن يدري– وهو يروي هذه الأسطورة البشعة– اعترافات ضمنية خطيرة!

أفلت منه اعتراف بأن الأولاد أحسوا بالندم على قتل أبيهم!

وتلك "قيمة" من القيم الإنسانية.. وجدت في نفوس الأبناء من تلقاء أنفسهم، لم يوح بها أحد من الخارج ولم يضغط عليهم أحد للإحساس بها!

فالندم على فعل من الأفعال معناه الإحساس بأنه لم يكن يجوز أن يعمل. معناه إدراك أن هناك ما ينبغي وما لا ينبغي. معناه التمييز بين الأعمال، وتقدير أن هذا حسن وهذا رديء.

إنه إذن قيمة خلقية..!

وأفلت منه ثانيا أن الأبناء قرروا التعاون فيما بينهم –بدل الاقتتال على الأم كما تصنع ثيران البقر مع أمها، حيث تقتتل حتى يبقى أحدها، وهو أقواها، فيفوز وحده بالأم– وحرّموا أمهم عليهم.

وتلك "قيمة" أخرى من القيم الإنسانية.. وجدت تلقائيا في نفوس الأبناء!

وإذن، فعلى زعم أن هذه السطورة قائمة على أي أساس –وهو زعم لا سند له على الإطلاق– فإن البشرية الأولى قد اهتدت اهتداء تلقائيا إلى "القيم الإنسانية".. ومعنى ذلك أن القيم جزء أصيل من كيان الإنسان!

ثم.. إذا كانت هذه هي طريقة ميلاد الضمير في الأولاد الذكور.. فكيف ينمو الضمير في نفوس الإناث؟!

إن الطفلة الأنثى –في زعم فرويد– تصاب بعقدة إليكترا.. عشق الأب!

إنها تريد أن تأخذ مكان أمها من أبيها، ولكنها تجد الأم حائلا.. فتكبت هذا العشق [وتكره الأم!].

نعم!.. وتتلبس بشخصية الأم لتحل محلها –لا شعوريا ولا واقعيا!– مع الأب!

ولكن.. الضمير ينبت من التلبس بشخصية الأب الآمر الناهي في البيت والمجتمع! والبنت تأخذ شخصية الأم.. فكيف ينشأ الضمير في نفس الأنثى؟.. أم إنها تنشأ بلا ضمير؟!

* * *

على هذا النحو من التفكير الأسطوري تُنْشأ نظريات كاملة في علم النفس، ويقال عنها إنها نظريات "علمية" مبنية على البحث والدراسة، وتأخذ دورتها فتدخل في عقول جيل كامل من البشرية أو جيلين متتابعين، وتدخل في كثير من فروع المعرفة وأنواع الفنون!

وما من شك في أن حقائق جزئية تَرِدُ في أثناء هذا اللون من التفكير.. ولكنها تضيع في غمار اللوثة الجنسية العاتية، وفي موجة الاعتساف الشديد في التفسير والتصوير.

"فحجز" الدوافع الفطرية هو الذي يساعد على تنمية القيم العليا.. هذه حقيقة.

ولكنها حقيقة على غير النهج الذي انتهجه فرويد، واختلق فيه ما اختلق من أساطير..

فالدوافع الفطرية ليست جنسا بحتا كما يزعم فرويد..

و"الحجز" أو "الضبط" عملية مختلفة عن "الكبت"..

وأسطورة العشق الجنسي للأم هي مجرد أسطورة لا يقوم عليها دليل.

والتصاق الطفل والطفلة بالأم في فترة الرضاعة وما بعدها التصاق متماثل، فلا بد له من تفسير واحد، يسقط من حسابه أسطورة العشق الجنسي الذي يتجه نحو الأم تارة ونحو الأب تارة.. ووضعهما مختلف في الحياة..

* * *

القيم العليا وثيقة الصلة بالجانب الروحي في الإنسان.. هي الانبثاق الطبيعي لهذا الجانب.. وهي التحقيق الواقعي له في كيان الإنسان.. ومن ثم فهي أصيلة أصيلة في أعماق هذا الكيان.

من أين تأتي أحلام البطولة؟

وأحلام الكمال؟

وإحساس الإنسان بالجمال؟

إن أحلام البطولة تستهوي الطفل الصغير كما تستهوي الإنسان الراشد. وقد كانت تستهوي البشرية في طفولتها وما تزال تستهوي البشرية اليوم، وإن اختلفت مقاييس البطولة من عمر لعمر، ومن عصر لعصر..

وهي مسألة ذات دلالة لا تخفى..

فالبطل.. حتى في صورته الحسية الغالبة التي قد تستهوي الطفل الصغير والبشرية للطفلة، صورة القوة الجسدية الفائقة التي لا تُغلب ولا تُهزم، وإنما تنتصر دائماً في كل معركة.. وبأيسر الأسباب.. هذه الصورة ليست حسية بحتة حتى في هذا الوضع. فهي تضيف إلى القوة الجسدية الفائقة صفة "الشجاعة".. وهي صفة نفسية لا تلتبس بالصفة الجسدية [فقد توجد إحداهما دون أن توجد الأخرى] وإن كانت تتلبس بها وتقوم عليها. ثم هي في أغلب الأحيان تضيف إلى صفة الشجاعة "قيما" أخرى.. فالبطل ليس "شجاعا" فحسب، ولكنه كذلك "نبيل"، لا يستخدم شجاعته في سفك الدماء والسرقة والنهب.. ولكن في إغاثة الملهوف وإعانة الضعيف ودفع الظلم عن المظلوم؛ وكلها قيم "إنسانية" لأنها خاصة بعالم الإنسان لا وجود لها في عالم الحيوان.

وحقيقة إنه ليست كل أحلام البطولة كذلك. فقد يوجد فيها المجرم سفاك الدماء المعتدي الأثيم.. ويندرج في سلك البطولة في عالم الطفل أو في عالم الكبار سواء. ولكنه انحراف ككل انحراف يصيب البشرية فلا ينفي كيانها الأصيل ولا كيانها السوي.. وإنما يشير فقط إلى موضع الانحراف..

والذي يعنينا على أي حال هو الدلالة المستمدة من أحلام البطولة السوية- وهي موجودة دائماً في كل عصور البشرية وفي كل مراحل الفرد الإنساني.. فما دلالتها؟

إن أحداً لا يفرض الإعجاب بها في نفس الطفل. وأحدا لا يفرض على البشرية الاستهواء لها والتوفر لإنتاجها في أدبها وأساطيرها ومختلف فنونها..

ليست مفروضة عليها من الخارج..

وإنما هي نابعة من أعماق الكيان البشري.. منبثقة منه انبثاقاً ذاتياً كاملا.. بمجرد التلويح لها من بعيد.

وإذن ففي أعماق الكيان البشري "رصيد" لأحلام البطولة.. رصيد "للقيم" العليا في حياة الإنسان.

وينبغي هنا أن نفرق -مؤقتا- بين الحلم والتطبيق الواقعي..

فلا يصح لنا أن نقول: إن هذه أحلام، لا رصيد لها من الواقع، ومن ثم فهي غير ذات دلالة في كيان الإنسان!

هذه النظرة التي قد تسمي نفسها "واقعية"[1] هي نظرة مخطئة من الوجهة النفسية، فضلا على أنها نظرة مغرضة! فحين نبحث التركيب النفسي للإنسان لا ينبغي أن نفرق بين طاقة الشعور وطاقة السلوك إلا من حيث اختلافهما في الصورة الخارجية. أي في أن إحداهما طاقة كامنة والأخرى طاقة ظاهرة. وحقيقة إننا -من ناحية أخرى- نقول إن الرصيد الشعوري الذي لا يتحول إلى سلوك واقعي هو رصيد مضيع لا قيمة له في عالم الواقع.. ولكن هذا لا ينفي أنه رصيد موجود في عالما لنفس. كل عيبه أنه لا يأخذ مجراه الطبيعي. لا يكتمل نموه. لا يأخذ طريقه إلى التنفيذ.. فيكون مستغرقاً لشِقّ من النفس دون سائرها. ومن ثم يكون اختلالا عن الصورة السوية للنفس، التي تعمل بكيانها المتكامل لا بشق واحد مبتور.. والذي

---

(1) انظر فصل "الواقعية في التصور الإسلامي" في كتاب "منهج الفن الإسلامي".

نريد أن نثبته الآن -مؤقتاً- هو وجود هذا الرصيد في النفس، وأنه أصيل غير مَأْتِيّ به من الخارج، وإنما نابع من الكيان الأصيل.

ثم إن هذه النظرة -الواقعية (!)- هي كما قلنا نظرة مغرضة..

فأصحابها -سواء في علم النفس أو في عالم الفنون أو في علم الاجتماع- يحسبون على "الإنسان" نواياه السيئة وميوله الشريرة.. حتى ولو ظلت ميولا كامنة لا تأخذ سبيلها إلى التحقيق.

ففرويد يقرر -في كتاب Totem & Taboo وكتبه الأخرى- أن "الشيطان" هو انعكاس فكرة الشر في كيان الإنسان!

كذلك...!

فما بال "المِلك"؟!

ما بال صورة الخير الخالص والنظافة الكاملة والرقة الشفيفة والانطلاق من كل حقد أو غل أو طمع أو كيد شرّير؟

أو ليس يقتضي الفرض الذي افترضه فرويد أن يكمل الصورة فيقول إن الملك هو انعكاس فكرة الخير في كيان الإنسان؟ أم نستخدم الفرض الواحد حين يكون في سبيل تلويث صورة الإنسان وتشويهها، وترفض استخدامه هو ذاته حين يؤدي -بنفس المنطق- إلى إضفاء النظافة والشفافية على كيان الإنسان؟!

وفرويد -مرة أخرى- يحسب على الإنسان كل نية "مكبوتة" بسبب عجزها عن الظهور على السطح واتخاذها مجراها العملي في السلوك. يحسبها عليه عنصراً مكوّناً للنفس مع أنها كامنة لم تظهر. فيحسب على الطفل الذكر -في زعمه- كراهيته لأبيه مع أن هذه الطراهية تُكبت -كما يقول- بفعل الحب السابق الذي يتوجه به الطفل إلى أبيه [كتاب Totem & Taboo ص129]، وكذلك كراهية الطفلة الأنثى -في زعمه- لأمها. ويحسب عليه الرغبة الكامنة في تحطيم المجتمع [الذي يمثل -في زعمه- كل القيود المقيّدة لنشاط الفرد] حتى ولو لم تتخذ -بسبب العجز- أي خطوة في سبيل التنفيذ العملي، وبقيت كامنة في اللاشعور! ويحسب عليه الرغبة في تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد [التي تقف حائلا دون النمو "الحر" للطاقة الجنسية] ولو بقيت رغبة كامنة في اللاشعور بسبب العجز عن التنفيذ.

أوليست تقتضي الاستقامة الفكرية "العلمية" —إذا حسبنا على الإنسان نواياه السيئة وميوله الشريرة وهي كامنة لا تأخذ سبيلها إلى التنفيذ– أن تحسب له نواياه الطيبة وميوله الخيّرة حتى إن كانت —بسبب العجز– لا تأخذ سبيلها إلى التنفيذ؟! أم نستخدم الفكرة حين "تخدمنا" في تلويث صورة الإنسان وتشويهها، وترفض استخدامها —هي ذاتها– حين تؤدي –بنفس المنطق– إلى إضفاء النظافة والشفافية على كيان الإنسان؟!

وبعض الفنون "الواقعية!" ترسم الإنسان في صورة سافلة منحطة دنيئة، أسوأ بكثير حتى من "الواقع" المنحرف الذي يعيش فيه هذا الجيل من البشرية، بحجة أنه لو خلّيَ بينه وبين هذا الشر كله لفعله! لأنه مفطور على الدناءة والخسة والانتهازية والطمع والأنانية والبغض والإيذاء.. لو لم تحل دونه القيود المفروضة عليه من الخارج. أفلا تقتضي "الواقعية" كذلك أن ترسم الإنسان في الصورة المقابلة لأنه لو قوينا ضوابطه وأقمنا بنيانه النفسي على أساس متين لفعل كثيراً من ألوان الخير؟!

وعلم الاجتماع "التقدمي" يقيم بنيانه كله على أساس أن القوى المحركة لسلوك الإنسان هي قواه الجسدية: البحث عن الطعام. والبحث عن المسكن. والبحث عن الجنس.. وأن "الحق والعدل الأزليين" وغيرهما من القيم العليا أحلام تخديرية تخدر الناس عن الواقع السيء الذي يعيشون فيه.. ثم..؟! ثم يزعم أصحاب هذا المذهب أنه حين تقوم الطبقة الكادحة بتحطيم الطبقات الأخرى كلها وإلغاء الملكية وإلغاء الفروق بين الناس.. تقوم "العدالة" في المجتمع ويستقر "الحق" الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أي.. ماذا؟!

أي أنه هناك حق وعدل أزليان.. وهناك قيم عليا في كيان الإنسان!!

* * *

وأحلام "البطولة" تشبهها أحلام "الكمال"..

إنها انبثاق ذاتي للكيان الإنساني لم يفرضها أحد من الخارج، ولا يملك أحد من الخارج أن يفرضها على كيان الإنسان!

و"الكمال" لا يتحقق أبدا في واقع الإنسان..

ومع ذلك فدلالة هذه الأحلام قائمة رغم استحالة التحقيق..

دلالتها قائمة فيما تنطوي عليه الفطرة البشرية من حب للارتفاع، فلولا هذه الرغبة الفطرية في الارتفاع ما وجدت أصلاً صورة الكمال في خيال البشرية، ولا سعت البشرية إلى محاولة تحقيق ما يمكن تحقيقه منها في واقع الحياة..

هذه الرغبة في الكمال —الذي لا يتحقق أبداً في واقع الأرض– هي الدافع الأكبر لكل حركات التاريخ وكل حضارت الإنسان..

حتى الصورة الدنيئة المزرية التي يرسمها علم الاجتماع "التقدمي" للإنسان، الذي يزعم أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام.. حتى هذا "العلم!" لم يستطع أن ينكر هذه الحقيقة.. فمن بعد أن زعم زعمه هذا المنكر، قال إن الإنسان لم يكتف بالحصول على الطعام، وإنما سعى إلى "تحسين" الطعام ذاته وتحسين وسائل الحصول عليه..

وهنا رانت الغشاوة على أصحاب المذهب فلم يبصروا الحقيقة وهي أمامهم يلمسونها لمس العين ولو تفتحت منهم البصائر والقلوب! الحقيقة "الإنسانية" ليست هي البحث عن الطعام.. فالحيوان كذلك يبحث عن الطعام.. ولكنها هي السعي إلى "تحسين" الطعام ووسائل الحصول على الطعام.. هي الرغبة في "الكمال"!

وكل "التطور" البشري —سواء منه التطور السوي والتطور المنحرف —كان الدافع من ورائه هو هذه الرغبة الكامنة في أعماق الإنسان أن يصل إلى أقصى ما يستطيع من "الارتفاع".. أن يحقق أقصى ما يستطيع من "الكمال". وإنما ينحرف الإنسان في تطوره — كما يصيب الانحراف كل نشاط بشري– حين تنقلب "القيم" في حسه، فتنقلب بصيرته، ويرى الهبوط والنكسة هما التطور والارتفاع! فيحسب أنه مرتفع حين يتخلى عن دينه وأخلاقه، وأنه متطور حين يتخلى عن قيود "الإنسان". ولكنه لا يصنع ذلك وفي حسه أنه هبوط وانتكاس [إلا في الفطرة المريضة التي تلجأ إلى الجريمة على وعي بأنها جريمة، لترضي في نفسها نزعة البغض والإيذاء]: "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً"[1].

وكل التقدم الآلي والعلمي والحضاري والفكري كان وراءه هذا الدافع.. الرغبة في الكمال.. الشعور بأن هناك نقصا يجب إكماله.. في هذا العلم.. أو في تلك الآلة.. أو في ذلك النظام.. أو في تلك الفكرة.. وكلما خطا الإنسان في ذلك كله خطوة، استشرف أفقا أعلى، وبانت له إمكانيات جديدة، وتطلع إلى "كمال" جديد. والكمال لا يتحقق أبدا في

([1]) سورة الكهف [103-104].

عالم الواقع، ولكن الرغبة الدائمة فيه تظل تدفع الإنسان وتدفعه ليحصل كل يوم على نصر جديد!

وبذلك تصبح هذه القيمة "الخيالية" قيمة حقيقية واقعية.. بل تصبح أعظم القيم في حياة الإنسان!

* * *

والجمال...

الإحسال بالجمال من أعجب الأعاجيب في كيان الإنسان..

كيف يحدث؟!

كيف يحدث التوافق بين الحس البشري وبين الجمال الخارجي؟

إن "العلم" كله يعجز عن تفسير "ماهية" هذا الإحساس، كما يعجز عن تفسير كل الظواهر النفسية الأخرى، ويكتفي بتسجيلها، وتصويرها "من الظاهر" وتتبع مظاهرها. وإلا فالعلم لا يعرف كيف يحدث الإدراك. وكيف يحدث التذكر. وكيف يحدث التفكير... ولا يعرف كذلك كيف يحدث الإحساس بالجمال. ولكنه يسجله فقط ويتتبع مظاهره المختلفة.. والفن كذلك.. يسجل مظاهر هذا الإحساس دون أن يتعرض لماهيته أو يدرك منشأه.. ولكن العلم والفن يلتقيان في أمر واحد.. هو أنه إحساس فطري –يزيد في بعض النفوس أو ينقص– ولكنه لا يفرض على النفس من الخارج، ولا يملك أحد أن يفرضه على النفوس!

فما الدلالة وراء هذا الإحساس؟

إن الإنسان يحس بالجمال ألوانا مختلفة من الأحاسيس..

يحس بالجمال الحسي.. في المنظر الجميل، والوجه الجميل والجسم الجميل واللون الجميل والصوت الجميل.. إلى آخر هذه المجالات، وهي مجالات واسعة متعددة الدرجات والآفاق..

ويحس بالجمال المعنوي.. في الفكرة الجميلة والإحساس الجميل والسلوك الجميل.. إلى آخر هذه المجالات، وهي كذلك مجالات واسعة متعددة الدرجات والآفاق..

وهو إحساس فطري..

والدلالة واضحة..

إن هنا "قيما" في حياة الإنسان أعلى من الطعام والشراب والجنس.. أعلى من عالم الضرورة القاهرة.. وهي قيم ذات أثر واقعي في حياة الإنسان!

* * *

والإحساس بالجمال موكل بأمور عظيمة الخطر في حياة الإنسان..

إنه الركن الأكبر في عالم الفنون.. وهو كذلك ركيزة كبرى للعقيدة.

وقيام الفنون على الحس الجمالي أمر واضح لا يحتاج إلى بيان. فالفنون كلها —من زواياها الخاصة– تعالج ألوانا مختلفة من الجمال ومن الإحساس بالجمال: الصورة المعبرة بالألوان والأضواء والظلال. واللحن المعبر بالأصوات والأنغام. والأدب المعبر بالألفاظ. كلها تبحث عن الجمال، وتعبر عنه في صورة جميلة.

أما ارتباط الجمال بالعقيدة فبيانه أن العقيدة تعتمد —فيما تعتمد– على إحساس الإنسان بأن هذا التصرف أو هذا الإحساس أو هذه الفكرة تصرف جميل أو إحساس جميل أو فكرة جميلة.. ومن ثم يستجيب لها الإنسان، استجابة لحاسة الجمال، وتلبية للدافع الذي يدفع الإنسان أن يحب الجمال ويصنع الجميل!

ومن ثم يؤدي الإحساس بالجمال دوره الخطير في حياة الإنسان..

وكلما ارتفعت الفطرة السوية في مجالاتها العليا، زادت قيمة هذا الإحساس في النفس، وزاد دوره التوجيهي في الحياة..

ففي الآفاق العليا تدرك النفس السوية نواميس الكون الأكبر وما تشتمل عليه من تناسق وتوافق وجمال. وتحس أنها جزء من ذلك الناموس.

جزء متناسق متجاوب متناغم.. لا جزء متنافر منحرف عن الناموس..

وعندئذ تجعل سلوكها متناسقا مع فطرة الكون.. متناسقا مع الجمال الذي يشتمل عليه..!

وعندئذ تترفع عن النكسة والهبوط إلى عالم الضرورة، وهي تستمتع بالجمال في أففها الطليق.

تترفع عن الجريمة. وتترفع عن الرذيلة. وتترفع عن الخضوع المذل للضرورة القاهرة.. لأن الجمال انطلاق من الضرورة، وانعتاق من القيود[1]..

وتلك هي القمة التي ينتهي إليها الإحساس بالجمال.. القمة التي يلتقي فيها الجمال بالكمال. والتي تصل الإنسان في أفقه الأعلى بالله.

* * *

وفي جميع تلك الآفاق رأينا حقيقة واحدة..

إن القيم العليا جزء من كيان الإنسان الداخلي، ليست مفروضة عليه من خارج نفسه، ولا تملك قوة أن تفرضها فرضا على النفوس!

إنها انبثاق ذاتي من كيان الإنسان..

ومع ذلك فهي في حاجة إلى معاونة من الخارج لكي تأخذ مجالها الصحيح.. ولو لم تحدث هذه المعاونة الخارجية فهي عرضة لأن يتأخر نموها في النفس.. أو ينحرف عن سواء السبيل.

فلننظر إذن ما الذي يعوقها عن النمو الذاتي ويحوجها إلى عون الآخرين..

* * *

القدرة على الكلام والقدرة على المشي قدرتان فطريتان يولد بهما الإنسان، ومع ذلك لا تتم إحداهما إلا بمعاونة الآخرين.

والقيم العليا كذلك جزء من كيان الفطرة ولكنه يحتاج إلى معونة الآخرين.. وإن اختلف في كل حالة نوع العائق ونوع العون الذي يبذل للتغلب عليه..

([1]) انظر فصل "الجمال في التصور الإسلامي" من كتاب "منهج الفن الإسلامي".

في حالة المشي يحتاج جسم الطفل اللين العضلات إلى "قوة" رافعة توازن ثقل الجسم ثم تتغلب عليه.. ريثما تشتد هذه العضلات فتؤدي هذه المهمة بذاتها دون معونة من الآخرين. وإذا لم توجد هذه القوة الرافعة سواء كانت يد الأب أو الأم أو أحد القريبين من الطفل.. أو المقعد أو المنضدة أو الحائط أو الباب أو السور.. فالأرجح أن يظل الطفل قعيداً كسيحا، يزداد ثقل جسمه وتزداد رخاوة عضلاته، فلا تحمل الثقل المتزايد، وتعجز عن النهوض..

وفي حالة الكلام يحتاج الطفل أن يسمع أولا أصواتا مختلفة ترتبط في حسه بمدركات معينة، ثم يحاول تقليدها ليتغلب على "الثقل" الموجود في لسانه وحنجرته وحباله الصوتية. فتأتي "القوة الرافعة" في هذه الحالة من الآخرين عن طريق أذني الطفل، وتحاول في جهد بطيء دائب أن "تشد" في كل مرة حبلا من حبال الصوت، وعقدة من عقد اللسان.

ومع ذلك لا ينكر أحد أن القدرة على المشي والقدرة على الكلام قدرتان فطريتان، وهما في حاجة لتحقيقهما في عالم الواقع إلى كل هذه الجهود!

والقيم العليا –الفطرية– تواجه "ثقلا" ضخما جدا في كيان الإنسان.. تواجه النوازع الفطرية كلها، بكل شدتها وعرامتها، وكل ضروراتها القاهرة التي لا قبل للإنسان –وحده– بموازنتها فضلا عن التغلب عليها. ولو لم يتدخل الآخرون لضبطها وقيادتها فهي –كنقلة الجسم التي تمنع الطفل من المشي، وثقلة اللسان التي تمنعه من النطق– كفيلة بأن تقعد بالإنسان على الأرض، لا يرفرف بروحه في السماء!

ومن ثم فهي في حاجة إلى جهد دائب لتنميتها وتدريبها وتقويتها.. وإلا كانت هزيلة ممسوخة، لا تعبر عن وجودها في عالم الواقع، ولا تسجل حقيقتها في عالم العيان..

وهذا الجهد هو الذي تقوم به التربية في حياة الإنسان.

* * *

مهمة التربية هي إقامة الحواجز أمام الدوافع الفطرية.. لا لكبتها من منبعها، ولكن لرفع مستواها، وتحويل طاقتها إلى عمل وإنتاج.. أي إلى "قيم" مختلفة المجالات والدرجات.

وهذه القيم –ككل شيء في حياة الإنسان– تبدأ في النطاق الحسيي، ثم تعبر الجسر إلى النطاق المعنوي، ثم تظل طيلة حياة الإنسان تتراوح بين هذا وذاك، وتجمع بين هذا وذاك.

عالم الطفل –في فترة من الفترات– هو الثدي والحضن.. ولا زيادة.

واشتهاؤه الثدي والحضن هو اشتهاء بيولوجي.. وضرورة لحفظ كيان الطفل من الجوع، ومن أي أذى يصيبه إذا لم يكن في حضن أمه الحنون.

وفي الأسابيع الأولى يكون إدراك الطفل ضئيلاً جداً.. ولا فرصة هناك لنمو أية قيمة نفسية في وجدانه.. لأنه يعيش عندئذ في محيط جسمه بطريقة مباشرة..

ثم تنشأ الضوابط رويدا رويدا في هذا العالم الصغير الذي يعيش فيه..

إنه في مبدأ الأمر يطلب الثدي ويعطاه.. ويطلب الحضن ويعطاه.

ولكن الأم ترى بعد فترة أنه "يحسن" تعويد الطفل الاكتفاء بعدد معين من الرضعات، وزمن معين في كل رضعة.. كما ترى أنه يحسن تركه بعيداً عن الحضن فترة من الوقت..

ولا شك أن هذا لا يكون على هوى الطفل! فهو أمر لا يسير في تيار شهواته، بل يقف حاجزاً في طريق هذه الشهوات..

إنه في الحقيقة أول خطوة في سبيل إبراز الحاجز الداخلي الكامن في باطن النفس!

لقد جاء المنع من الخارج.. نعم.. ولكنه –طوعاً أو كرها، وبوعي أو غير وعي– ينشئ عادة في داخل النفس. عادة الامتناع عن شيء مطلوب ومرغوب ومحبوب.

وهي عملية يصاحبها الألم..

ولكن الألم ليس منشؤه أنها مفروضة عليه من الخارج دون استعداد لها من الداخل! فنمو الأسنان يصاحبه الألم! ولم يقل أحد إن نمو الأسنان مفروض على الإنسان من خارج كيانه!

ولو لم يكن هناك رصيد في الفطرة لتقبل هذا المنع، والرضوخ له، والتعود عليه، لما حدث ذلك أبداً! ولظل الطفل يبكي وقته كله من الألم دون أن يتعود قط على الامتناع!

ولكن الذي يحدث أن فترة الألم الأولى يتبعها التعود على هذا المنع بحيث يخف الألم تدريجياً ثم يزول.

عند ذلك يكون الحاجز قد ارتفع فعلاً في داخل النفس وقام بعملية الحجز لشهوة الثدي وشهوة الحضن. ولكنه حجز غير كامل. حجز جزئي لفترة من الوقت.

ورويداً رويداً يعطى الطفل طعاماً آخر غير الثدي، ويتعود على التنوع. أي تنمو في نفسه الفرملة التي تقوم بتنويع مسار الدافع الفطري، فلا يعود مساراً واحداً محدداً على طريقة الحيوان!

ورويداً رويداً كذلك يعطى الطفل حضناً آخر غير حضن الأم.. ويتعود على التنوع هناك!

ثم يأتي دور الفطام..

وهو أشد صدمة يصاب بها الطفل وأقساها.. وأعظمها أثراً في نفسه. ويحسن بطبيعة الحال أن تكون تدريجية جداً، وطويلة الأمد، حتى لا تترك هزة في نفس الطفل.

ولكنها تحدث في النهاية على أي حال..

وحين يتعودها الطفل في النهاية يكون قد نما حاجز مرتفع في داخل النفس، يحوّل شهوة الثدي نهائياً إلى طريق جديد!

ويماثلها دور الفطام "النفسي" من الأم، حين يفد وافد جديد.. وهي صدمة كذلك شاقة وعنيفة وقاسية، وينبغي أن يخفف وقعها على نفس الطفل بكل وسيلة ممكنة.. ولكنها تحدث على أي حال بصورة من الصور. ويتعود الطفل في النهاية ألا ينظر إلى أمه على أنها الملك الخاص الذي يتصرف فيه وحده بلا شريك!

وحين يتعود ذلك يكون قد نما في نفسه حاجز مرتفع، يحوّل شهوة الحضن –الحسي والمعنوي– في طريق جديد..

وفي هذا الأمر يستوي الطفل الذكر والطفل الأنثى بغير فارق ملحوظ.. ولا يوجد ظل لقصة العشق الجنسي المزعوم، ولا تتجه الغيرة إلى الأب أو الأم وإنما إلى الوافد الجديد!

* * *

ثم تندرج الحواجز وتتنوع..

يكبر الطفل ويأخذ في الحركة والمشي.. ويأتي بأفعال لا عداد لها، بعضها صالح وبعضها ضار. فهو بعدُ قليل الإدراك لا يعرف ما ينفع وما يضر.. ثم إن هذه الأفعال هي طريقه الذي لا طريق غيره إلى المعرفة. معرفة باللمس. ومعرفة بالذوق. ومعرفة بالنظر. ومعرفة بالسمع. ومعرفة بالشم.

ولكن أمه وأباه ينهرانه عن بعض تلك الأعمال المحببة إليه.. وهذا النهر يؤلمه ولا شك وخاصة في بادئ الأمر، فيغضب ويبكي ويحتج. ولكنه بعد قليل يتعود. ومع كل نهرة أو زجرة ينمو في داخل النفس حاجز جديد.

وفي هذه الأثناء يتم بين الوعي واللاوعي أمر ذو أهمية بالغة في حياة الإنسان.. فالطفل الذي يتلقى هذا الزجر والنهي من والديه [والتشجيع على الأعمال المستحسنة من جانب آخر] يتلبس –بلا وعي في بادئ الأمر، ثم بوعي وإرادة بعد ذلك– بشخصية والديه اللذين ينهرانه أو يقدمان له التشجيع، فتنمو في داخل نفسه شخصية جديدة آمرة ناهية، مشجعة مستحسنة، تزين له بعض الأعمال وتمنعه من بعضها الآخر، هي مزيج من شخصيته هو الذاتية وشخصية الوالدين [أحدهما أو كليهما].. وفي هذه الشخصية المزودة تنبت النوابت الأولى من الضمير..

* * *

ويخرج الطفل من نطاق ذاته رويداً رويداً إلى العالم الخارجي.. إلى المجتمع.. "فيتعامل" مع الناس. مع الوالدين أولا، ثم مع الإخوة إن وجدوا. ومع الأقوياء والأصدقاء.. ثم مع الغرباء.

وفي كل نوع من أنواع هذا التعامل تنمو حواجز جديدة وضوابط. فهي يتعلم –بالتجربة– أنه ليس كل ما يريده يحصل عليه. أو يمكن أن يحصل عليه. فقد يريد أمراً مستحيلا لا سبيل إلى تحقيقه: كأن يريد بقوته الصغيرة زحزحة الحائط من مكانه، أو إنزال القمر من السماء ليلمسه بيديه! وحين يتعود أن يرضى بهذه الأمور تكون الموانع الداخلية قد نبتت بالفعل واستقر بها المقام.

وفي كل مرى تكون عملية شاقة ومجهدة ومؤلمة. ويسبقها في كل مرة بكاء طويل وعويل. ولكنها في النهاية تتم.. لأن هناك استعداداً سابقاً في النفس لإقامة الحواجز في طريق الشهوات!

ثم إنه في تعامله مع الناس تصطدم أنانيته بأنانيتهم، ويتعلم بعد فترة أنه لا يستطيع في كل مرة أن يفرض أنانيته هو على الآخرين.

وفي مبدأ الأمر يتألم ويصرخ ويبكي.. ثم يتعود.. وحين يتعود بالفعل.. ثم حين يتعلم – بعد مرحلة أخرى من النمو– أنه لا يجوز له أن يفرض أنانيته على اللآخرين، لا لأنه لا يستطيع، ولكن لأن هذا أمر غير جائز وغير لائق.. تكون الضوابط قد قطعت شوطاً هاماً في طريق النمو، وتكون في هذه المرة ضوابط "خلقية" بمعناه المباشر الذي يعرفه الكبار.

وفي أثناء ذلك كله تقوم التربية على عنصرين في آن واحد: التوجيه المباشر الذي يزين بعض الأعمال وينهى عن بعضها الآخر. والقدوة التي يقتديها من أبويه والمحيطين به. وهذه القدوة عامل مهم جداً في التربية والتوجيه وعظيم الخطورة إلى أقصى حد. والقدوة المباشرة – من الأبوين والأقرباء والأصدقاء– لها الأثر الأكبر ولا شك. ولكن المجتمع كله قدوة على نطاق واسع، يلتقط منه الطفل قيمه وأخلاقه وتقاليده على غير وعي منه. ويؤثر ذلك كله في بناء الضوابط الداخلية وبناء الضمير.

وفي مرة من المرات يبدأ التفكير في الخلق والخالق. يبدأ التفكير في الله والعقيدة.

وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع. في فصل "الدين والفطرة".

ولكنا نلاحظ هنا فقط أنها عملية فطرية. وأن العقيدة —حين تأخذ وضعها الفطري في نفس الطفل —تروح تنمّي هي الضوابط في داخل النفس وتقويها، وتستغل ما تجمّع من طاقة حيوية وراء الحواجز في مستويات أعلى من الدفعة الغريزية المياشرة..

* * *

ويأتي يوم.. بطيء وتدريجي... ينضج فيه الإنسان..

تكون الضوابط والحواجز قد أخذت بنيتها الكاملة، وراحت تؤدي عملها الكامل في داخل النفس.

عندئذ تكون قد التقطت التوجيه الكامل والتهذيب الصحيح من البيئة من حولها: من الأم والأب. ومن غيرهما من المحيطين بالطفل، ثم غيرهم ممن يحتك بهم الإنسان. [وحتى الآن نفترض في كل بحثنا أن التوجيه كامل والتهذيب صحيح والنفس سوية.. وفي الفصل القادم نتحدث عن الانحراف والشذوذ].

عندئذ تعمل الضوابط عملها الفطري على نسقه الأعلى..

عندئذ لا يكون الطعام شهوة.. وإنما يكون رغبة تحفّها الضوابط من كل مكان.

الضوابط التي بدأت غير واعية، ثم تحولت رويداً رويدا إلى دائرة الوعي.

من سلوك وآداب في تناول الطعام تمنعه أن يكون شرها وحيوانية وبطنة.

وأهداف تمنع التناول الحرام، والأثرة البغيضة، وتتحرى الحلال الطيب وتؤثر الآخرين.

وحرية لا تجعل الطعام ضرورة قاهرة. إنما تتيح للإنسان –فترة من الوقت على الأقل– أن يستعلي على الضرورة ويتحرر من القيد.

ولا يكون الجنس شهوة.. إنما يكون رغبة تحفّها الضوابط من كل مكان.

ضوابط السلوك والآداب، التي تمنع الفوضى الجنسية في المجتمع. وتمنع ممارسة الجنس – حتى في النطاق المشروع– على طريقة البهائم: دفعة جسدية بلا مشاعر ولا عواطف ولا وجدان.

وضوابط الأهداف التي تمنع الإسراف فيه وتمنع أن يكون هو هدفاً في ذاته. وترتب عليه نظما خلقية واجتماعية وسياسية وفكرية وروحية ["وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً"[1]].

والحرية التي تجعل الإنسان –لفترة من الوقت على الأقل– يستعلي على ضرورة الجنس ويتحرر من القيد.

ولا يكون القتال شهوة.. وإنما رغبة تحفّها الضوابط من كل مكان.

ضوابط السلوك والآداب التي تمنع الغدر والخيانة والتعذيب والتمثيل ["إن الله كتب الإحسان على كل شيء.. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته[2]"].

([1]) سورة الروم [21].

([2]) انظر فصل "وليرح ذبيحته" في كتاب "قبسات من الرسول".

وضوابط الأهداف التي تحوّل القتال إلى صراع نبيل لإقرار الحق والعدل والإنسانية الكريمة، صراع الشر والطغيان والانحراف..

والحرية التي تجعل الإنسان –على مقدرة– يكظم الغيظ ويعفو عن الناس ["وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[1]"].

ولا يكون الملك شهوة. وإنما يكون رغبة تحفها الضوابط من كل مكان.

ضوابط الآداب والسلوك التي لا تجعلها مباهاة مؤذية للناس..

وضوابط الأهداف التي تحول بينها وبين الترف الفاجر الحرام.. وبينها وبين الغصب والنهب والسلب والطريق الحرام. وتحوّلها إلى إيثار جميل نبيل ["وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2]"].

والحرية التي تكفل للإنسان أن يستعلي على شهوة الملك دون أن يحس بالمذلة أو الهوان..

وهكذا تتحول الطاقات كلها إلى طاقات رفيعة وقيم عليا.

ولا يحدث الحرمان..

فالضوابط بأنواعها الثلاثة التي ذكرناها، لا تهدف إلى حرمان النفس من المتاع، ولا تهدف –كما حسب فرويد– إلى إشقاء البشرية!

إنها على العكس –تهدف –فطرياً– إلى سعادة البشرية.

فالنمو "الحر" للدوافع الفطرية.. التي هي في حساب فرويد دوافع كلها جنسية.. هذا النمو الحر لا يسعد البشرية إطلاقاً، حين يمضي هكذا بلا صمام!

([1]) سورة آل عمران [133-134].

([2]) سورة الحشر [9].

والحيوان له صمامه الفطري الذي يحول دون الدمار. فيدرك الحيوان قبل نقطة الخطر ويقفه عن نشاطه..

أفكان يريد فرويد أن يحرم الإنسان من صمام الأمن؟! أو كان يريد أن يكون النمو "الحر" ممتداً حتى يدمر كيان الإنسان كله ويتلفه.. لأنه لا يعرف حد الاكتفاء؟!

إن الله في عليائه قد أراد للبشرية الخير، حيثما أراد فرويد لها الدمار!

أراد أن يرفع مستواها وفي الوقت ذاته لا يحرمها من المتاع. فالمتاع الطيب كله مباح: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ[1]". الطيبات من الشيء: من المأكل والمشرب والملبس والمسكن ومن الجنس ومن الملك ومن القتال ومن حب البروز..

ثم أراد أن يمنع الطاقة الفطرية الحيوية من الاستهلاك كلها في مستوى الحيوان فلا تنتج شيئاً.. فرفع مستواها ثم حول جانباً منها إلى "الخلافة".. إلى العمل المثمر الطيب النظيف.

وأراد أن يكون ذلك كله فطرة في نفوس الناس.

ولكنه –هكذا شاءت حكمته- أراد أن يكون الأمر كدحاً: "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ"[2] فتنمية الضوابط –الفطرية- تحتاج إلى الكدح والجهاد والمغالبة لتيار الشهوات الدافق.. المغالبة الدائمة التي لا تفتر..

وإلا.. فالشهوة العنيفة عرضة لأن تهدم الحواجز الضعيفة، وتغرق القيم العليا، وتردمها في الأوحال!.. وعند ذلك ينشأ الشر في حياة الإنسان!

([1]) سورة الأعراف [32].

([2]) سورة الانشقاق [6].

الانحراف والشذوذ

هذه المراحل الطويلة من النمو التي وصفناها في الفصول السابقة، وهذه الجوانب الكثيرة المتعدد المتقابلة في كيان الإنسان.. كلها عرضة للانحراف!

وقد كنا –حتى الآن– نتحدث عن النفس السوية المتكاملة، التي نمت نموها الطبيعي، وتكاملت كل جوانبها، فقامت –على قواعدها الصحيحة– كالبنيان الراسخ، ثم انطلقت تعمل بكل طاقتها في مجالها الصحيح.

وكنا نشير –بين الحين والحين– إشارات عابرة إلى الانحراف والشذوذ، وأنهما يفسدان هذا البنيان الراسخ، ويجعلان طاقته بعيدة عن مجالها الصحيح.

فهنا نتتبع النفس في مراحل نموها المختلفة، وفي جوانبها المتعددة، لنرى كيف يحدث الانحراف عن سواء السبيل.

* * *

وينبغي قبل أن نبدأ في بيان الحالات المختلفة للانحراف والشذوذ، أن نقرر حقيقة إنسانية جديرة بالتسجيل، هي تعدد الأنماط البشرية، وعدم انحصارها في صورة معينة مكرورة.

لقد ميز الله الإنسان بخصال كثيرة، من بينها هذه السعة العجيبة في أنماط البشرية.. تتشابه كلها دون أن تتماثل. حتى لنستطيع أن نقول إنه لا يوجد فردان من البشرية يتماثلان تماثلا كاملا على مدار الأجيال، كما لا تتماثل بصمات الأصابع بين أي فردين على مدار التاريخ!

هذا التعدد في الأنماط يعطي الحياة البشرية ولا شك ثراء لا يعرفه عالم الحيوان.. ثراء يجعل الحياة أوسع بكثير وأعمق بكثير من صورتها الظاهرة. فكل إنسان عالم وحده، مع تشابه هذه العوالم وتقاربها. والتقاء إنسان بإنسان، هو التقاء بين عالمين مختلفين، مع تشابه "اللغة" الشعورية والفكرية والجسدية في نهاية المطاف.

وتلك نعمة كبرى من نعم الخالق على الإنسان. وإلا فلو أن هذا الإنسان –مع ما وهبه الله من قوة الإدراك والمعرفة والإنتاج المادي والفكري والروحي– كان صورة واحدة مكرورة..

ألا ما أضيق الحياة عندئذ وما أبعثها على الضجر والملال..! ولكنها، بهذا الثراء الناشئ من تعدد الأنماط، جديرة حقا بهذا المخلوق الذي كرمه الله ورعاه..

وثمت نعمة أخرى أخص من هذه، هي تعدد الأنماط السوية للإنسان..

إن الله لم يكتب على الإنسان صورة واحدة من السواء، بحيث تحتاج البشرية إلى الانحراف والشذوذ لتعدّد أنماطها وتُثري حياتها! بل بسط نعمته كاملة.. فجعل السواء أنماطا متعددة، كلها سويّ، ومع ذلك لا يتماثل سواء وسواء، ولا شخص سوي وشخص سوي. بل يظل كل إنسان سويّ عالما وحده يلتقي بغيره من العوالم على سواء وعلى اختلاف في ذات الوقت، في البنية النفسية وطريقة التصرف وطريقة الإحساس.

وربما تكون المسألة أقرب إلى التصور لو تذكرنا تعدد أنماط الجمال.. كلها جميلة، ومع ذلك فكل جمال صورة وحده لا تختلط بغيرها من صور الجمال. وكذلك النفوس السوية.. جميلة.. ولكنها "متخصصة" في جمالها، كل واحدة منها ذات طابع واتجاه.

فلسنا نحتاج إذن إلى الانحراف والشذوذ لتعديد أنماط الحياة وإزائها، والثراء متوفر مع الاستواء. ولكن حكمة الله قد خلقت مع ذلك أنماط أخرى شاذة ومنحرفة، ليتبين الفرق بين هذا الاتجاه وذاك!

* * *

ثم ننتقل خطوة أخرى فنقرر أن السواء الكامل نادر الوجود.. ولا بد من انحرافة –ولو بسيطة– من هنا ومن هناك! فهل نقول إذن أن البشرية كلها منحرفة كما قال فرويد، ونلغي عندئذ جميع المقاييس؟![1].

كلا!

ونعود ثانية إلى التشبيه بالجسم لأنه يقرب الصورة إلى الأذهان:

([1]) في كتابه Three Contributions to the Sexual Theory ص22 يقول: إننا جميعا مصابون بالهستريا إلى حد ما: "We are all hysterical to some extent" انظر بعد ذلك الفصل الأخير من هذا الكتاب: "بين الواقع والمثال".

الجسم"الكامل" نادر الوجود. سواء من الظاهر أو من الباطن. فالجسم الذي يتساوى فيه الشّقان المتقابلان تساويا كاملا، فلا تختلف عينه اليمنى عن اليسرى أدنى اختلاف، ولا أذنه اليمنى عن اليسرى، ولا طاقة أنفه اليمنى عن اليسرى، ولا كتفه ولا ذراعه ولا يده ولا رجله ولا قدمه ولا أصابعه.. جسم نادر الوجود حقا إن لم يكن مستحيل الوجود! وذلك مع افتراض أن هذا الجسم سائر على المقاييس الأصولية في نسبة الطول ونسبة العرض ونسبة الأعضاء بعضها إلى بعض، بحيث لا يختل مقياس واحد من هذه المقاييس!

والجسم الذي سلمت أحشاؤه كلها سلامة كاملة، فلا يختل منه قلب ولا كبد ولا معدة ولا أمعاء في ليل أو نهار، ولا ينبض قلبه نبضة زائدة أو نبضة ناقصة، ولا يصاب بإمساك ولا إسهال ولا عسر هضم ولا صداع ولا ألم.. هو جسم مستحيل الوجود في واقع الحياة..

ومع ذلك لم يقل خبراء "الجمال" إن أجسام البشرية كلها منحرفة، ولم يقل خبراء الطب إن البشر جميعا مرضى ليس بينهم سليم!

وإنما اصطلحوا على كلام معقول: فهناك دائرة من الانحرافات البسيطة نقصاً وزيادة لا تحسب في عالم الانحراف وإنما تحسب في عالم الاستواء، ما دامت لا تشوه مظهر الجسم أو لا تفسد دورة الحياة فيه.

فحين تكون كتف أعلى قليلا من كتف، أو ساق أقصر قليلا من ساق، بحيث لا يظهر ذلك إلا للفاحص المدقق الذي يتعمد الفحص والتدقيق، فهذا الجسم سويّ رغم ما فيه من انحراف بسيط.

وحين يوجد قلب يخفق أحياناً بسرعة زائدة عن المعدل، أو كبد تكسل أحياناً عن الإفراز، وأمعاء تمسك أحياناً عن العمل، فهذا الجسم "طبيعي" وليس مريضاً، رغم ما فيه من اختلال بسيط.

أما حين يصل الأمر إلى النشوء الظاهر أو الاختلال الدائم في وظيفة من وظائف الأعضاء، فعندئذ يقال إن هذا الجسم مختل أو مريض.

وكذلك الأمر في عالم النفوس. هناك دائرة من الانحرافات البسيطة نقصاً وزيادة لا تحسب في عالم الانحراف وإنما تحسب في عالم الاستواء، ما دامت لا تشوّه النفس ولا تفسد دورة الحياة فيها.. وما دام لا يمكن أن تخلو منها نفس من النفوس. وإنما يدخل الأمر دائرة الانحراف حين يزيد الاختلال عن حده البسيط.

وليست هناك بطبيعة الحال خطوط حاسمة للسواء والانحراف في عالم النفوس، كما لا توجد خطوط حاسمة للصحة والمرض في عالم الأجسام. ولكن هناك أموراً معينة يكون من المؤكد أنها داخلة في دائرة الانحراف، وأموراً أخرى داخلة في دائرة الاستواء. وبينهما متشابهات، قد تحسب هنا مرة ومرة هناك.

ويبقى بعد ذلك بيان الفرق بين ما يسمى بالانحراف وما يسمى بالشذوذ.

كلاهما خارج بطبيعة الحال عن دائرة الاستواء، ولكنهما يختلفان في درجة الخروج. فأما الانحراف فهو الشوط الأول من الخلل، وأما الشذوذ فهو شوطه الأخير.

ولكن المسألة ليست مجرد الاختلاف في الدرجة.. فهناك قانون من قوانين الطبيعة يقول إن التغير الكمي إذا زاد عن درجة معينة ينقلب إلى تغير نوعي. فالإنسان مثلا يسرع في المشي، فيظل يسمى ماشياً إلى درجة معينة. فإذا زادت سرعته بعد ذلك فإن حركته لا تعود تسمى مشياً، وإنما تتحول إلى جري، فليست "كمية" الحركة وحدها هي التي تغيرت. وإنما "نوع" الحركة كذلك تغير.

وفي عالم النفوس ينطبق كذلك هذا القانون. فحين يزيد الانحراف عن درجة معينة فإن وضعه في النفس يتغير، ويصبح عملية أخرى مختلفة، وتوصف بأنها شذوذ.

وكما أنه لا توجد خطوط حاسمة تفصل بين الاستواء والانحراف، فكذلك لا توجد خطوط حاسمة تفصل بين الانحراف والشذوذ، فهما دائرتان –إلى حد ما– متداخلتان، نهاية هذه في بداية تلك. ولكن "العملية النفسية" مختلفة في الحالتين رغم وجود هذه المنطقة المشتركة عند الطرفين. فالانحراف يحدث خللا في دورة الحياة السوية ولكنه لا يعطلها تعطيلا كاملا ولا يقلب وظيفتها في النفس، بينما الشذوذ يحدث هذا القلب والتعطيل.

مرة أخرى مثال من الجسم:

قد تكسل المرارة مثلا عن وظيفتها، فلا تفرز السائل الذي يهضم المواد الدهنية، فيحدث من ذلك خلل –يتراوح مقداره– في عملية الهضم. ولكن في مرحلة معينة من مراحل المرض قد تفرز المرارة سائلها الأصفر في الدم. فيحدث تسمم سريع. هذه عملية غير تلك.. وهكذا بقية الأمراض.

وكذلك الأمر في النفوس.. فالأنانية الزائدة انحراف.. وهي تظل في دائرة الانحراف ما دامت لا تصل إلى حد الجريمة. فإذا وصلت إلى الجريمة: إلى العدوان على الآخرين وعدم الاكتفاء بالموقف السلبي منهم، فهي شذوذ.

والانحراف كما قلنا لا يعطل دورة الحياة.. كما قد يعيش إنسان حياته كلها بقلب مريض أو كلية مريضة. وتكون حياته مهددة دائماً وناقصة النشاط، ولكنه يعيش. غير أنه لا يستطيع أن يعيش حين تزيد نسبة البولينا في الدم، أو حين يعجز الدم عن تغذية عضلة القلب ذاتها.. وكذلك قد يعيش الإنسان بانحراف نفسي مدى حياته كلها، ويكون مريضاً بلا شك، ونشاطه السوي محدود. ولكنه –بطريقة ما– يعيش. أما حين تصل المسألة إلى الشذوذ فالأمر مختلف. ولن "يموت" الإنسان بطبيعة الحال حين تختل نفسه إلى درجة الشذوذ، ولكنه يعيش في اضطراب دائم وإيذاء دائم للآخرين.

* * *

والآن نبدأ الحديث عن ألوان الانحراف المتلفة وألوان الشذوذ.

قلنا بادئ ذي بدء إن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة وكيان موحد.

هذا هو الوصف الشامل للإنسان. وهذه كذلك أول نقطة يمكن أن يبدأ عندها الانحراف والشذوذ.

الإنسان على فطرته السوية كيان متعادل متوازن.. قبضة الطين ونفخة الروح يكوّنان مزاجه الممتزج المترابط الموحد.. الذي يختلط فيه العنصران ويمتزجان، فلا يعود هناك انفصال بينهما ولا اثنينية متميزة.. وإنما يصير الإنسان جسماً وروحاً معاً في كل حالة من حالاته، مع اختلاف النسب بين مختلف الحالات..

نعم، هما عنصران متداخلان. لا يوجد أيهما بمفرده على الحال التي كان عليها قبل الامتزاج. ولكنهما لا يظهران بنسبة واحدة في جميع حالات الإنسان. فأحياناً تغلب نسبة هذا العنصر أو ذاك. ولكن لا يحدث أبداً أن يكون أحدهما موجوداً بمفرده والآخر غائباً عن الوجود. وما بين الطرفين المتطرفين توجد آلاف من النسب المختلفة، كل منها يمكن أن يكوّن حالة من حالات الإنسان. وهو يتدرج ما بين هذه النسب المختلفة المتفاوتة تدرجاً طبيعياً سوياً فيما سميناه من قبل "الجنوح" ناحية الجسد أو ناحية الروح.. ولكنا لاحظنا في هذا الشأن أمرين: أن النفس السوية تتداول هذا الجنوح بصفة مستمرة، فتجنح مرة هنا ومرة

هناك، ولا تثبت على جنوح واحد [إلا في الحالة المرضية] وأنها تصل بهذا التداول المستمر إلى التوازن في نهاية الأمر.. كما يميل الإنسان الواقف على عارضة رفيعة مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار ليحفظ توازنه، فيكون هذا الميل من هنا ومن هناك هو المعين له على التوازن المنشود.

فالآن نصل إلى بيان أول نقطة يمكن أن يحدث فيها لونان من الانحراف والشذوذ.

هذه النسب المتفاوتة التي أشرنا إليها من قبل، وقلنا إنها تتسع لآلاف من الحالات المختلفة، ينبغي في الحالة السوية ألا تقترب من الأطراف التي تقع عندها نقطة الصفر في هذا الاتجاه أو ذاك: لا صفر الجسد ولا صفر الروح!

وقد لا يحدث أبداً –مهما كانت شدة المرض النفسي– أن تصل إلى نقطة الصفر. ولكن الحالات التي تصغر فيها نسبة أحد العنصرين إلى ما يقرب من نقطة الصفر هي حالات غير سوية إذا زادت عن لحظات عارضة من هنا أو من هناك. وهي تدخل في دائرة الانحراف أو دائرة الشذوذ بمقدار ما تقترب من نقطة الصفر، وبمقدار ما تثبت على هذا الاقتراب.

حقاً إن هناك ساعات يغلب فيها الجسد، وساعات تغلب فيها الروح.

فساعة المتاع الجنسي –حتى في أنظف حالاته– هي من غير شك ساعة متاع جسدي غالب ظاهر صريح.

وساعة العبادة المستغرقة هي من غير شك ساعة متاع روحي غالب صريح.

ولكنا بيّنا في فصل "طبيعة مزدوجة" أنه لا يمكن في الحالة السوية أن يكون الجنس متاعاً جسدياً خالصاً ولا أن تكون العبادة متاعا روحياً خالصاً، فلا بد من امتزاج العنصرين في كل حالة.

أما في حالة المرض فإن النسبة تقترب كما قلنا من نقطة الصفر اقتراباً يزيد أو ينقص بحسب درجة المرض، فيكون الانحراف أو يكون الشذوذ.

هناك شخص همه هو جسده وملذاته وشهواته.. لا يكاد يفيق منها، ولا يكاد يذكر أن له طاقة روحية مودعة في كيانه ليحقق بها هدفاً أسمى من نشاط الحيوان. هدفاً يتمثل في

"الإنتاج" المادي والفكري والروحي جميعاً.. يتمثل في إقامة الحياة البشرية على أسس نظيفة وعادلة، بريئة من الظلم والفساد.

فهذا بلا شك شخص منحرف. يعمل بجانب واحد من كيانه ويعطل الجانب الآخر أو يكاد. فهو كالشخص الذي يميل بكتف واحدة من كتفيه على الدوام، في مشيته وحركته ومنامه..

وبصرف النظر عن وضع هذا الانحراف في ميزان الأخلاق [سنعالج هذا الأمر في الفصل القادم: الخير والشر في النفس البشرية] فإننا نتكلم هنا عن الناحية النفسية البحتة [بغرض البحث التفصيلي فقط. وإلا فالإنسان وحدة متراكبة كما أكدنا في الفصول السابقة، لا يمكن فصل بعضه عن بعض].. ومثل هذا الشخص –من الناحية النفسية– منحرف كذي الكتف الواحدة المائلة.

وهناك شخص همه نظافة روحه.. فيقلل من متاع جسده إلى أقصى حد.. بل ينقلب على جسده يعذبه ويهينه.. يجيعه ويظمئه ويؤلمه ويؤذيه.. ليظفر –في وهمه– برفعة الروح.

وهذا أيضاً شخص منحرف. يعمل بجانب واحد من كيانه ويعطل الجانب الآخر أو يكاد. ولا يفترق عن الأول إلا بأنه يميل بكتفه الأخرى. وفي كلتا الحالتين لا استواء.

الشخص الأول انحرف ناحية الحيوان. لا لأنه يستمتع بمتاع الجسد، فهذا نشاط إنساني أصيل، مطلوب في حالته السوية. ولكن لأنه جنح جنوحا ثابتاً ناحية الحيوان، فثبت على الحالة التي ينبغي –في الحالة السوية– أن يمر بها مروراً ولا يثبت عليها.

والشخص الثاني انحرف ناحية الملَك. لا لأنه يستمتع بمتاع الروح. فهذا نشاط إنساني أصيل، مطلوب في حالته السوية. ولكن لأنه جنح جنوحاً ثابتاً ناحية الملك. فثبت على حالة كان ينبغي –في الحالة السوية– أن يمر بها مروراً ولا يثبت عليها.

ومن ثم فأي مخالفة للوضع الطبيعي للإنسان تسبب الانحراف. فليس الانحراف هو الجنوح الثابت نحو الحيوانية وحده كما قد يخيل الكثير من الناس [وإن كان هذا هو الأكثر حدوثا] ولكن الجنوح الدائم نحو الملائكية هو كذلك انحراف بالنسبة للإنسان.

وليس الأمر هنا أمر هبوط أو رفعة. فالذي يعذب جسده لتصفو روحه يهدف في وهم نفسه إلى الرفعة.. ولكنه يخالف طبيعة "الإنسان". ومن ثم فهو منحرف عن الوضع السوي الذي ينبغي أن يكون عليه. والمحك في ذلك ينبغي أن يكون هو الإنسان ذاته كما خلقه

الله. فهو لم يخلقه حيوانا ولا ملكا. ومن ثم فالجنوح الدائم نحو الحيوانية أو الملائكية انحراف عن طبيعة الإنسان ووظيفة الإنسان.

وكما قلنا لن نتحدث في هذا الفصل عن القيم الخلقية رغم استحالة تجزئة الإنسان ونشاطه وقيمه، وسنتحدث فقط عن القيم النفسية [كل القيم تلتقي في النهاية على سواء. ولكنا نفصل بينها هنا لضرورة البحث].

الإنسان الجانح نحو الحيوانية قد نما جانب من جوانب نفسه نمواً زائداً عن الحد، بينما ضمر في نفسه الجانب المقابل. فهو إذن ليس في حالته السوية التي تنمو فيها كل أجزاء النفس بنسب متعادلة متوازنة. فهو كالمصاب بتضخم عضو من أعضائه، أو بورم خبيث في مكان من جسمه: لا يحسب له هذا التضخم في جانب الصحة، بل يحسب في جانب المرض الذي يهلك الجسم ويدمره إذا لم يعالج في وقته المناسب.

والإنسان الجانح نحو الملائكية مثله تماماً من الناحية المقابلة. لقد نما جانب من نفسه نمواً زائداً عن الحد وضمر في نفسه الجانب المقابل. ولا عبرة بأن هذا الجانب مشرق في ذاته ومضيء ورفيع.. فهو متصف بهذه الصفات كلها وهو في وضعه الطبيعي، أي على ركيزته الفطرية السوية التي ترتكز على بناء جسدي روحيّ في ذات الوقت. ولكنه حين يزيد عن حده يدمر القاعدة التي يرتكز عليها. وينشأ عن ذلك تعطيل الكيان البشري في مجموعه. تعطيل بالسلبية.. وتعطيل بعدم الإنتاج. وتعطيل بصرف الطاقة في مناوأة الجسم ومتاعه [السويّ] بدلا من صرفها في مقاومة شرور المجتمع الخارجي، والتعرف على قوانين الكون والحياة، والاستفادة بها في إقامة الحياة على أسس نظيفة جميلة وعادلة.

* * *

ذلك هو اللون الأول من ألوان الانحراف: الجنوح الدائم نحو الملك أو الحيوان.

أما اللون الثاني فهو جنوح مؤقت ولكنه شديد نحو هذا الجانب أو ذاك.

هذا إنسان يتداول في نفسه نشاط الجسد ونشاط الروح. ولكنه حين يقوم بنشاط الجسد يقوم به صرفا [تقريباً] فلا يمزج به إشراقة الروح . وحين يقوم بنشاط الروح يقوم به صرفاً تقريباً فلا يمزج به نشاط الجسد المعقول.

مثل أولئك الناس فيهم اختلال ولا شك. وهم متطرفون في تصرفاتهم وإن كانوا يمارسون كل نشاط الإنسان. ففي ساعة المتاع الجسدي يقبلون عليه كالحيوان. يأكلون بشراهة لا

تلطفها إشراقة الروح التي تجعل للطعام هدفاً، وتخلط به قيما، وتهذب من شراهته. ويمارسون نشاطهم الجنسي في تلمظ حيواني غليظ، لا تلطفه إشراقة الروح التي تمزج به عواطف جميلة وفنوناً رقيقة وتهذيبا في السلوك.. وفي ساعة المتاع الروحي يغرقون فيه إلى حد نسيان أنفسهم.. إلى حد التصوف والتزهد! ثم يعودون.

وقد يبدو لأول وهلة أن ذلك شيء نادر الحدوث في بني الإنسان! ولكنه –على درجات متفاوتة– كثير الحدوث جدا.. إلى درجة لا تخطر على البال!

لقد كان المصريون الفراعنة يغرقون في متاع الجسد فيسكرون ويرقصون، ويغرقون في حمأة الجنس.. ثم يخرجون إلى المعبد يبكون وينوحون ويتذكرون الموت، وينقطعون –فترة– عن الحياة!

وما زال أبناؤهم حتى اليوم يقولون في أمثالهم: "ساعة لربك وساعة لقلبك..!" بمعنى انفصال هذه الساعة عن تلك. ساعة الرب لا مجال فيها للقلب –أي للمتاع "الدنيوي". وساعة القلب لا مجال فيها للرب– أي لتذكر الآخرة وعبادة الله!

ومن ثم تتفكك شخصية الإنسان وتنحل.. لا "المبادئ" والعقائد تحكم السلوك.. ولا السلوك يرتبط بشيء من المبادئ والمثل.. ويبدو الإنسان كأنه شخصيتان منفصلتان، إحداهما حيوان أو قريب من الحيوان. والآخر زاهد متصوف منصرف عن متاع الأرض!

وكذلك –على طريقة أخرى– كانت أوربا في عصورها الوسطى تعيش بشخصيتين منفصلتين: إحداهما الشخصية المسيحية المتعبدة المتصوفة الزاهدة –في داخل الكنيسة!– تسمو أراوحها على التراتيل الشجية والأنغام الرائقة.. والأخرى هي الشخصية الرومانية الإغريقية التي تعيش في حدود ما تدركه الحواس فحسب.. ومن ثم تظل الحياة "الواقعية" غير محكومة بمبادئ المسيحية ومثلها المترفعة التي تقول: "أحب أعداءك". والتي تقول: "إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن فأدر له الأيسر". والتي تقول: "إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بدنك كله في جهنم". وتظل المسيحية تابعة في داخل المعبد لا تنشر لواءها على واقع الحياة.

وظلت أوربا بذلك مفككة مجزأة الشخصية، حتى جنحت في عصرها الحديث نحو عالم الجسد، فاستبدلت انحرافا بانحراف، وشذوذا بشذوذ! فضلا عن أنها لم تفق بعد من آثار انحرافها الأول. فكأنها تضيف هذا إلى ذاك!

والإنسان الذي يعيش على هذا النحو المزدوج، لا ينحرف لأنه يجنح جنوحا مؤقتا نحو عالم الجسد أو نحو عالم الروح. فتلك عملية سوية فطرية. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب..."[1]. ولكن الانحراف نشأ من التطرف في هذا الجنوح المؤقت، بصورة تكاد تفصل الجسد عن الروح، وتجعل لكل منهما عالما غير متصل بالآخر أي اتصال.

والإنسان في فطرته السوية لا يعرف هذا الانفصال —الدائم أو المؤقت. ومن ثم فنشاطه الفطري السوي نشاط متكامل مترابط.. السلوك مرتبط بالقيم. والقيم تحكم السلوك. فإذا انفصل السلوك عن القيم كما هو منفصل في حياة البشرية اليوم —شرقها وغربها– فصار لها سلوك "واقعي" تحكمه الضرورة القاهرة ودفعة الغريزة، وقيم معلقة في الفضاء تُبحث وتُفَلْسَف بمعزل عن الحياة الواقعة.. فذلك انحراف خطر على كيان البشرية لأنه غير أصيل في كيانها ولا يتمشى مع فطرتها. إنه تمزيق للشخصية وتفتيت.. لا ينتج عنه إلا الضعف والتفكك والانحلال.. وفي نهاية الأمر يصل إلى البوار.

والأفراد في ذلك كالشعوب. فهي عملية واحدة تصيب الفرد فتدمر كيانه. وتصيب الأمة فتدمرها. و"علم النفس" القائم اليوم في الغرب لا يحسب هذا انحرافا ولا شذوذا إلا حين يتم اختلال الجهاز النفسي، فيعجز عجزا تاما عن "التكيف" أو التفاهم مع البيئة الخارجية.. ولكن الواقع أن هناك درجات كثيرة من الاختلال تسبق هذه الصورة الحادة. وهي إن كانت لا تُعجز الكيان النفسي عجزا كاملا، فذلك لا ينفي عنها صفة الانحراف. كما يمرض الجسد —لفترات طويلة أحيانا– دون أن يعجز عجزا كاملا عن العمل. ولكن أحدا من الأطباء لا يقول عنه عندئذ إنه سليم! أو يسكت عن علاجه بحجة أنه لم يعجز تماما عن القيام بشيء من النشاط.

والبشرية اليوم تعاني هذا المرض النفسي على درجاته المختلفة من الانحراف إلى الشذوذ. فنجد الشخص الواحد —في حالات الانحراف– يعيش حياتين منفصلتين، إحداهما أشبه بالآلة أو البهيمة، والأخرى متعلقة بمثل جوفاء لا رصيد لها من الواقع. وتجد الأمة الواحدة —في حالات الشذوذ– تتغنى بالحرية والعدالة والإخاء– ثم تسل قواتها لتبيد ألوفا من البشر لأنهم يطلبون الحرية والعدالة والإخاء!

---

(1) رواه ابن حبان والحاكم عن أبي ذر.

وأوربا لا ترى ذلك انحرافا ولا شذوذا لأنها غارقة فيه قد أعماها الدوار. ولكن المقاييس السوية أمامنا، وهي المرجع الذي ينبغي أن تقاس به الأمور!

* * *

وننتقل مع التركيب النفسي للإنسان خطوة أخرى، فنتحدث عن الخطوط المتقابلة في النفس البشرية، وكيف يحدث فيها الانحراف والشذوذ.

إن من المهام الرئيسية لهذه الخطوط إحداث التوازن في نفس الإنسان بتوازيها وتقابلها، ومع ذلك فهي عرضة للانحراف والشذوذ، وعندئذ تصبح سببا من أسباب الخلل بدلا من أن تكون عامل اتزان! مثلها في ذلك مثل الساقين أو الذراعين والكتفين، المفروض فيهما أن يمنحا الجسم اعتداله وتوازنه. ولكن حين يحدث الخلل في ذات الساق أو الذراع أو الكتف فإنها تخل بتوازن الجسم كله وتصبح من أسباب التشويه بعد أن كانت من عوامل الجمال.

وهنا لونان من الخلل يمكن أن يصيبا الخطوط النفسية المتقابلة فينتج عن كل منهما انحراف أو شذوذ:

الخلل الأول هو انحراف أي خط من الخطوط [أو أي زوج] عن مساره السويّ الذي كان ينبغي أن يسير فيه. كما تعوجّ في الجسم الساق أو القدم أو الذراع أو الكتف [أو الزوجان معا] فلا تكون في وضعها الصحيح ولا تؤدي مهمتها الأصيلة. والخلل الثاني هو زيادة أي من الخطين المتقابلين عن زميله المقابل له، بما يفقدهما توازنهما بالنسبة لبعضهما البعض، ويفقد النفس كلها توازنها تبعا لذلك. كما تطول في الجسم ساق عن ساق، أو كتف عن كتف.. فتختل حركة الجسم جميعا..

وقدر من هذا الانحراف يحدث في كل نفس سوية كما بينا من قبل. ولن توجد النفس التي تتوازن توازنها الكامل في كل لحظة وإزاء كل حدث من الأحداث [وليس مطلوبا أن توجد!] وإنما نسميه انحرافا أو شذوذا حين يزيد عن القدر المعقول.

وسنتتبع الخطوط المتقابلة كلها لنستعرض في كل منها ألوان الاختلال.

* * *

الخوف والرجاء أكبر خطوط النفس البشرية وأوسعها مجالا[1].. وفي الوقت ذاته [أو لهذا السبب ذاته] هي أشدها عرضة لاتساع مجالات الانحراف والشذوذ!

وقد يتنافى فصل "الخطوط المتقابلة" أن الخوف والرجاء يؤديان مهمة رئيسية في حياة الإنسان. فكل منهما لازم للحياة لا تستقيم بدونه النفس. ولكن على شرط أن يكون كل منهما في وضعه الصحيح ويؤدي مهمته الصحيحة.

الخوف مهمته الأولى صيانة حياة الإنسان من الخطر والتلف اللذين يمكن أن يقضيا عليه لو لم يكن في تركيبه هذا الشعور الفطري بالخوف.

ولكن حين ينحرف خط الخوف عن مساره فإنه هو ذاته يعرض الإنسان للتلف والبوار!

الإنسان الذي يخاف كل شيء لا يقدم على عمل ولا يتقدم من مكانه خطوة مخافة الأخطار في الطريق! وبهذا يتعطل قدر كبير من نشاطه وإنتاجه الذي كان يمكن أن يؤديه في حالته السوية، فضلا عن القلق الدائم والاضطراب النفسي الذي يصيبه من التوقع الدائم للأخطار. وفوق ذلك فهو شخص جبان حياته كلها خوف ولا إقدام. فلا هو يدفع عن نفسه أذى ولا يذود ظلما، ولا يسعى للمشاركة في أمر من الأمور العامة التي تعرض الإنسان لشيء من المشقة. وبذلك يفقد نفسه ويفقده مجتمعه على قدر ما يعمل في نفسه هذا الانحراف أو ذلك الشذوذ.

وقد يكون الخوف عاما وقد يكون متخصصا.. فبعض "المرضى" يخافون كل شيء. وبعضهم يخاف شيئاً معينا كالذي يخاف الوحدة. أو الظلام. أو الموت. أو الفقر. أ و المرض. أو الحوادث.. أو الصرصار! وليس من غرضنا في هذا البحث أن نشرح الأسباب الشعورية أو اللاشعورية التي تحدث هذه الانحرافات. فذلك مبحث متخصص، ونحن هنا بصدد نظرية عامة عن النفس الإنسانية. فبحسبنا هنا أن نصف هذه الظاهرة، وأن نذكر أنه لا بد لها من أسباب تحدثها [فالأصل هو الاستواء، والانحراف لا بد له من سبب] سواء كانت هذه الأسباب استعداداً وراثياً أو اكتساباً في أثناء الطفولة بصفة خاصة. كما تذكر

([1]) راجع فصل "الخطوط المتقابلة في النفس البشرية" في هذا الكتاب.

كذلك أن التربية السليمة —في فترة الطفولة خاصة– هي الموكلة بتقويم هذا الاعوجاج، وتوجيه طاقة الخوف الفطرية في مسارها السليم[1].

وقد تحدثنا عن الخوف حين ينحرف بالزيادة عن قدره الطبيعي. وقد ينحرف كذلك بالنقصان! وقد يبدو لأول وهلة أن نقصان الخوف فضيلة جميلة لا عيب فيها ولا داعي لعلاجها، بل هي شيء يسعى الإنسان لأن يناله!

وليس الأمر كذلك! فالشخص الذي ينقص الخوف في نفسه عن مقداره الطبيعي قد يبدو جريئا مقداما. ولكنه في الحقيقة متبجح معتد أثيم.. لأنه لا يخاف! لا يخاف الله، ولا يخاف الحق، ولا يخاف العواقب.. وحتى إذا لم ينحرف في طريق الشر والإيذاء، فقد يخاطر بلا مبالاة فيتعرض للعطب والهلاك.

ولا يوجد بطبيعة الحال مقياس دقيق للسواء والانحراف.. وقد يكون الإقدام في موقف ضرورة لازمة ويكون في موقف آخر مخاطرة غير متعلقة.. ولا يمكن الحكم على إنسان بأنه سوي أو منحرف بموقف واحد أو تصرف واحد، وإنما يكون الحكم بمجموعة من المواقف ومجموعة من التصرفات.

والرجاء من الجانب الآخر.. مهمته موازنة الخوف من ناحية، وإغراء البشرية بالتقدم والإنتاج والبناء من ناحية أخرى. وهو في حالته السوية يؤدي دوراً رئيسياً في حياة الإنسان. ولكنه عرضة للانحراف بالنقص والزيادة كالخوف سواء.

حين ينقص الرجاء عن معدله الطبيعي يصبح الشخص متشائماً والحياة في عينيه قائمة. والتشاؤم مرض يصيب النفس فتنكمش وتنحسر عن مجالات نشاطها الحيوي، فضلا عن أنه شعور مؤذ يفسد متاع الحياة ويفوّت على النفس طيباتها، فضلا عن الأسى والحزن والألم الذي يصيب النفوس المتشائمة، ويكيف كل تصرف وكل شعور.

وحين يزيد عن معدله الطبيعي يصبح خيالا أجوف وأحلاما فارغة! وهو مرض كذلك وإن كان مرضاً براقا في ظاهره، كالذي يتورد خداء نتيجة الحمى لا من السلامة والنشاط!

([1]) راجع كتاب "منهج التربية الإسلامية" فصل "خطوط متقابلة في النفس البشرية" بصفة خاصة.

والمصابون بالتفاؤل الزائد عن الحد ينفقون حياتهم في أوهام لا تعود عليهم بطائل، وتبدد نشاطهم الحيوي في غير إنتاج نافع. كإناء البخار المثقوب، يتسرب منه البخار أولا بأول بدلا من أن يتحول إلى طاقة محركة في عالم الواقع.

وهذا غير ما يصيب هذا الخط من انحرافات في "نوع" الرجاء. فقد يرجو باطلا، وقد يتعلق بأمر لا يصيبه منها إلا الضرر والبوار. وفي الجملة هو اختلال يفقد التوازن ويبدد الطاقات.

تلك ألوان من الانحراف والشذوذ تصيب كل خط بمفرده من الخطين المتقابلين. ثم يوجد انحراف آخر حين لا يتوازن الخطان بالنسبة لبعضهما البعض، والمفروض فيهما في الحالة السوية أن يتوازنا ليعادل كل منهما الآخر. فإذا زاد الخوف على الرجاء، أو زاد الرجاء على الخوف حدث جنوح مرضيّ شبهناه من قبل بذي الكتف الواحدة الماثلة من اليمين أو من اليسار.

وكما قلنا من قبل لا يحكم على الإنسان بموقف واحد ولا تصرف واحد.. وإنما بمجموعة كاملة من المواقف والتصرفات.

* * *

والحب والكره هما الخطان التالين في النفس البشرية، اللذان تكاد مساحتهما تساوي مساحة الخوف والرجاء.

وهما عرضة لألوان شتى من الانحراف والشذوذ.

وقد تحدث فرويد بتفصيل شديد عن هذه الانحرافات لأنه اعتبرهما الخطين الرئيسيين في النفس البشرية بل الخطين الوحيدين، ومن هنا صب فيهما كل انحرافات البشرية!

والواقع -بصرف النظر عن فرويد -أن انحرافاتهما شديدة وكثيرة. ومع أن مساحتهما في النفس ليست أكبر من مساحة الخوف والرجاء ولا مقدمة عليهما كما ظن فرويد، إلا أن هذه المساحة مملوءة بخيوط أدق ومن ثم فهي أكثر!

الانحراف الأكبر في الحب أن يتوجه إلى شيء أو شخص لا يستحق الحب! والانحراف الثاني أن يتوجه إلى شيء أو شخص -ولو كان مستحقاً للحب- بقدر أكبر مما ينبغي! وكلا الأمرين يفقد الإنسان التوازن المطلوب.

حين يتوجه الإنسان بطاقة الحب إلى شخص أو شيء أو فكرة أو نظام أو موقف أو تصرف لا يستحق الحب، فهو ينحرف وراء هذا الحب في اتجاه باطل، ولا يكون مستخدماً لطاقة الحب الفطرية في مجالها الصحيح. وعلى قدر ما يكون الفساد في ذلك الشخص أو الشيء أو الفكرة أو النظام أو الموقف أو التصرف تكون خطورة الانحراف أو خطورة الشذوذ.

وحين يتوجه الإنسان إلى شيء من ذلك كله توجهاً عنيفاً يفقده ضوابطه، فلا يملك نفسه،ولا يملك رشده، ولا يعرف أين ينبغي أن يقف ولا متى ينبغي أن يرجع.. فهذا اختلال ظاهر ملموس.

ولا نريد أن نخوض في ألوان الحب الفاسد ولا مظاهر الانحراف فيه، فهي ظاهرة. ولكنا نشير فقط إلى أن فرويد –الذي تخصص في الكتابة عن شذوذات الحب– لم يجعل في حسابه أن حب القيم الفاسدة لون من الانحراف.. لأنه لا يُدْخِل القيم في حسابه! ولم يجعل في حسابه أن مشاعر الحب المحرمة لون من الشذوذ، لأنه يعتبر "النظافة" وحدها هي الشذوذ! [قال فرويد صراحة في كتاب Three Contributions ص82 إن التسامي لون من الشذوذ!!] ومن ثم يضيع كثير من الجهد العلمي الذي بذله فرويد هباء بسبب ما في نظريته من انحراف وشذوذ!

والكره صنو الحب في انحرافاته وشذوذاته. فهو عرضة لانحرافين رئيسيين: التوجه إلى شخص أو شيء أو فكرة أو نظام أو موقف أو تصرف لا يستحق الكره [بل يستحق الحب] والتوجه إلى شيء من ذلك كله [ولو كان مستحقاً للكره حقاً] بدرجة من العنف تفقد الإنسان تعقّله واتزانه.

ومرة أخرى لا ينبغي الجري وراء فرويد في نظريته الخاطئة عن الكره [وقد شرحنا ذلك من قبل في الحديث عن الحب والكره في فصل الخطوط المتقابلة في النفس البشرية] ولا يجوز أن نصدق أسطورته القائلة بأن الإنسان يتوجه تلقائياً بشعور الكره إلى كل شخص أو شيء يتوجه إليه بشعور الحب! [أسطورة الازدواج العاطفي Ambivilence].

ثم يأتي الانحراف الآخر من زيادة نسبة أحد الخطين إلى الآخر، والمفروض فيهما أنهما متوازيان ومتعادلان.

فالشخص الذي تزيد فيه نسبة الحب عن الكره شخص لطيف حقاً، متسامح، ودود. وكل ذلك جميل في ظاهره. ولكنه حين يزيد عن مقداره شخص سلبي وغير واقعي. وغير

منتج. فهو حين لا يكره الشر ولا يقاومه. ولا يكره الظلم والفساد. ولا يكره انحرافات الناس ولا يقوّمها.. فماذا تكون النتيجة؟! وما القيمة العملية لكل الصفاء الذي يصنعه الحب؟! وماذا صنعت الهندوكية على كل ما فيها من صفاء ومودة ولطف، في تحسين حال البشرية وإقامتها على منهج صحيح؟!

أما الشخص الذي تزيد فيه نسبة الكره فهو شخص حقود لا يحب الخير للناس لأنه لا يحب الناس. وهو شخص مريض لأنه "يفرز" إفرازاً زائداً من إحدى "غدده النفسية" التي ينبغي أن يظل إفرازها في حدود المعدل المطلوب.

ولا ينبغي أن ننسى أن قدراً من الحب والكره لا إرادة للإنسان فيه ولا حيلة! ولذلك لا يعتبر في دائرة الانحراف. ولكن المطلوب من الإنسان أن يستخدم فرامله الضابطة ليصبح هذا الحب أو الكره في نطاق المعقول [أحبب حبيبك هوناً ما.. وابغض عدوك هونا ما..!][1] ولا يعتبر في دائرة الانحراف على أي حال إلا القدر الزائد عن المعقول. والإنسان المتوازن – بحكم توازنه– يضبط هذه الانفعالات ويوجهها الوجهة الصحيحة بقدر ما يستطيع. ولكنه منحرف حين لا يحاول الوصول إلى هذا الاتزان.

* * *

الحسية والمعنوية.. والواقع والخيال.. والإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب.. تلك الأزواج الثلاثة المتداخلة، وإن كانت –كما بينا من قبل– متميزة ومستقلة، يصيبها الانحراف والشذوذ كما يصيب بقية الخطوط.

حين تزيد الحسية عن معدلها يغرق الإنسان في المتاع الحسي ويصبح كل همه وكل مشتهاه.

وحين تزيد المعنوية عن معدلها ينسى الإنسان متاعه الحسي ويصبح كل همه القيم والمعنويات. ولا شك أنه يبدو لنا –لأول وهلة– أن هذا شيء جميل لا عيب فيه. ولكنا لو تدبرنا الأمر لم نجده كذلك.

"جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها! فقالوا: أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد غفر له

([1]) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا. وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له. ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني"[1].

وتدبر هذه الواقعة يعطينا مفتاح الموقف: ليس الاهتمام بالمعنويات أمراً مذموماً في ذاته. بل هو طلبة الإنسانية الراشدة الجديرة بالخلافة عن الله. ولكن الأمور لا تستقيم حين يهمل الإنسان عالم الحس ويترهبن. فأبسط النتائج لذلك توقف عملية الحياة وتوقف الإنتاج! وإنما نحمد من إنسان معين أن يغلّب معنوياته على حسياته ليضرب المثل للناس. ولكنا لا نحمد له أن يبالغ في ذلك كما صنع أولئك الرهط الثلاثة، لأنه يعطي مثلاً سيئاً لا ينفع الحياة. [وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا][2].

والواقع والخيال طاقتان فطريتان متوازنتان.. وضروريتان.

فإذا زادت الواقعية فذلك انحراف.. وهو انحراف شديد الظهور في هذا الجيل من البشرية الذي يعيش اليوم في ظل التقدم العلمي وفتوحاته الباهرة.

وفي غير هذا الكتاب تحدثنا عن هذه الواقعية المريضة التي أصابت الغرب في "نهضته" الحديثة[3]. ولن نعيد هنا ما كتبناه هناك. وإنما نتحدث عن هذا المرض كظاهرة نفسية.

الشخص الذي ينهمك في عالم "الواقع" ينتج فيه ولا شك إنتاجاً ظاهراً، ويزداد قوة في حساب المادة. ولكنه يضيّق أفقه إلى أقصى مدى حين يحصر اهتمامه في هذا الواقع الضيق المحصور. ومهما يكن من إضافته للحياة بهذه الواقعية فهو ينقص منها بتضييق آفاقها. والشعب الأمريكي مثل بارز لهذا الانحراف، فهو –من شدة حياته في دائرة الواقع– قد صار يشبه الآلة في انتظامها ودقتها.. وعدم إحساسها.

والأزمة التي تمر بها الفنون في العصر الحديث أزمة ذات دلالة. فهي تدل على نضوب جانب من جوانب الإنسان وجفافه، وهي ظاهرة خطيرة حين تصل إلى مداها، لأنها تقف النمو البشري وتحصره في محيط الآلة ومحيط الحيوان.

---

(1) عن أنس رضي الله عنه.

(2) سورة القصص [77].

(3) كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" و"معركة التقاليد" و"منهج الدين الإسلامي" بصفة خاصة.

وعلى كل "العلم" الذي تعلمه أمريكا وروسيا، وتبدو ظواهره في سباق الفضاء الجبار، فإن "إنسانية" هذين الشعبين في طريقها إلى الهبوط الدائم بسبب إغراقها في الواقع المحصور.

والخيال هو الذي يوازن الواقع ويوسع آفاقه. وهو –كما بينا من قبل– عنصر ضروري للحياة. فلن يحسّن الإنسان نظمه وأفكاره ومشاعره إلا إذا "تخيل" ما هو خير منها. والإحساس بالجمال وتصور الكمال– وهما دافعان أصيلان من دوافع البشرية إلى التقدم –لا يتمان إلا عن طريق القدرة على التخيل والإبداع. وتلك مهمة الخيال في حياة البشرية..

ولكن الزيادة في نسبة الخيال تضر ولا تنفع.. فالشخص أو الأمة اللذان يعيشان في الخيال لا ينتجان شيئاً لعالم الواقع، ويبددان طاقتهما في لا شيء.

والشخص الذي يعيش في أوهام دائمة من الخيال شخص مريض.. وعرضة لكثير من ألوان الشذوذ، الجنسي بصفة خاصة، وعرضة للانطواء والسلبية. وليس من الضروري أن يصاب بكل هذه الانحرافات، ولكنه كما نقول عرضة لها، لأنه لا يوجه طاقته نحو الواقع ليوازن خيالاته، ولأنه يتعود أن يحقق وجوده –نظرياً– في عالم الخيال فيصاب بأحلام اليقظة، وتصبح تلك بديلا من النشاط الواقعي المثمر.. وهو في كل حالاته شخص غير موزون.

وقريب من ذلك –وليس الشيء ذاته– الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب.

فالذي يحصر عالمه فيما تدركه الحواس فحسب، يلغي من حسابه الله والعقيدة وما يتصل بها من قيم ونظم ومشاعر وأفكار، وهذا الانحراف الخطر هو الذي يستولي على الغرب في وقته الحاضر، ويتسبب عنه كل ما يعانيه الغرب من اختلالات في النظم والعقائد والأفكار.

إن الإيمان بالله واليوم الآخر –وهو إيمان بالغيب– يعدّل كثيراً من ألوان السلوك البشري، ويوازن كثيراً من الطاقات والتصرفات. أما إنكار الله واليوم الآخر فأقل ما ينتج عنه هذه المظالم التي تملأ وجه الأرض، والتي يرتكبها من يرتكبها لأنه ليس في حسابه أنه سيلقى الله. وهذا التكالب البشع على متاع الأرض –وما ينتج عنه من انحرافات– هو تكالب العامل الأساسي فيه عدم إيمان الناس بوجود يوم آخر خالد النعيم، يعوض الإنسان عن متاعه الزائل الذي لا يشبع منه بنعيم خالد لا يزول. ولو آمن الناس بالله واليوم الآخر لانصلح حال البشرية وزال ما تعانيه اليوم من القلق والاضطراب النفسي والعصبي الذي لا مثيل له في كل تاريخ البشرية.

والغرب بطبيعة الحال لا يسمي هذا مرضاً، ولا انحرافاً ولا شذوذاً.. حتى وهو يرى ما ينشأ عنه من أمراض وانحرافات وشذوذات!

ولكن الإيمان بالغيب ينبغي أن يظل في حدود معدله المطلوب. وإلا فإن زيادته عن المعدل السوي تصيب الإنسان بألوان أخرى من الانحراف.

الإيمان الزائد بالغيب –على حساب الإيمان بما تدركه الحواس– يعرض الإنسان لإهمال عقله وفكره، والنتائج العملية التي يجنيها من إعمال عقله وفكره.

يعرضه لإهمال "العلم" النظري والتجريبي القائم كله على ما تدركه الحواس، فيفسر الحياة كلها بعوامل غيبية لا سبيل إلى السيطرة عليها ولا التحكم فيها [إلا بأعمال السحر.. وهذا منشأ الخرافة].

ويعرضه كذلك للوسواس.. فما دام كل شيء نابعا مما وراء الحس [ولا شيء في عالم الحس] فلا يقين بشيء، وكل شيء عرضة للتغير بلا سبب ظاهر ولا مفهوم، وكل حركة وكل سانحة قد تكون رمزا لشيء مجهول.. [وهذا منشأ الوسواس]

وحقيقة إن ما وراء الحس هو المنبع الحقيقي لكل شيء. وإن العوامل الغيبية هي التي تسيطر على الكون والحياة. ولكن الله –من وراء الغيب– قد أعطى الإنسان عالما محسوسا يعيش فيه، وأعطاه الأداة التي تتفاهم مع هذا العالم المحسوس وتتعرف قوانينه لتستخدمها وتنتفع بها –وهي العقل– وسخر للإنسان كل ما في السماوات والأرض ["وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ"[1]]. فأصبح متعينا على الإنسان أن يستخدم ما تدركه حواسه ويؤمن به –مع إيمانه بالغيب– ليتوازن هذا وذاك.

أما الإيمان بالغيب وحده، أو بنسبة زائدة عن المعدل، فهو إهدار للواقع الحسي وتعطيل عن الإنتاج المثمر وقلق كذلك في النفس واضطراب.

والتوازن هو الإيمان بالعالمين معاً، والعمل بمقتضى هذا الإيمان. ["كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ"[2]].

* * *

(1) سورة الجاثية [13].

(2) سورة آل عمران [110].

الفردية والجماعية نزعتان فطريتان، متعادلتان متوازنتان، وهما تؤديان دورهما في حياة الإنسان بهذا التعادل والتوازن. فإذا زادت إحدى النزعتين على حساب الأخرى فذلك انحراف يخل بتوازن النفس.

فحين تزيد النزعة الفردية فهي إما فردية انعزالية انطوائية، وإما فردية أنانية عدوانية. وفي كلتا الحالتين هي مرض وانحراف عما ينبغي للنفس السوية.

الفردية الانطوائية [وهي في الغالب مزيج من مرضين معا: الفردية والسلبية[1]] تقبع داخل ذاتها ولا تخرج إلى المجتمع ولا واقع الحياة. لقد تجسم فيها جانب الفرد وانحسر جانب الجماعة. وهي ليست شريرة [في الغالب] بل قد يكون منها علماء وفنانون يخدمون البشرية بعلمهم وفنهم. ولكنهم لا يحبون التعامل المباشر مع الحياة ولا يطيقونه.. معاملاتهم ضيقة ومحصورة، وفي حدود الأفراد لا الجماعات. وقد يعطفون على المجتمع جدا، ولكنهم يهربون منه، لأن جهاز التعامل المباشر مع الآخرين معطل في نفوسهم، لا يحدث النشوة الطبيعية التي يحدثها في النفوس السوية.. ولأنهم [في الغالب] طيبون ونافعون بإنتاجهم الفكري، فالناس تتجاوز عن انحرافهم أو شذوذهم، أو تتسلى بالحديث عنه! ولكنه في مقياس النفس اختلال! وهو ليس فريضة على الفنانين والمفكرين! فالاستواء لا يمنع المواهب من الظهور. بل على العكس يوسع مساحتها ويزيد ثمرتها. والمفكرون والفنانون الأسوياء في تركيبهم النفسي أبعد أثرا في الحياة من الانعزاليين الانطوائيين الذين يقدمون للبشرية أفكارهم دون أن يجاهدوا في عالم الواقع لتحقيق هذه الأفكار. ولكل درجات مما عملوا. ولكن بعضهم أفضل من بعض بجميع المقاييس..

أما الفردية العدوانية فهي التي يحس الناس فيها بالانحراف واضحا، لأن العدوان يظهره ويجسمه. والمصاب بهذا المرض شخص أناني لا يحس بوجود أحد إلا ذاته. وحين يحس بالآخرين، فهو يحس بهم كأن وجودهم يضغط وجوده هو المنتفش الزائد عن حقه! فيكرههم ويعتدي عليهم.

والطغاة كلهم من ذوي الفردية الأنانية العدوانية. ولذلك فالطغيان مرض نفسي. ولا يمكن أن يلجأ إليه شخص سوي. وهنا الفرق بين الزعامة والطغيان. فالزعيم شخص "عظيم" أي أنه ضخم الشخصية، ولكنه ليس فرديا أنانيا. بل هو محب للجماعة متجاوب معها مخلص لها حسن المعاملة لها. وإنما عظم شخصيته هو الذي يجعله في مكان القيادة، وليس أنانيته الطاغية التي تميل إلى استعباد الآخرين وإخضاعهم. وربما كان المحك الواضح للفرق بين

(1)سنتحدث في آخر الفصل عن امتزاج الأمراض وتداخلها.

التركيب النفسي للزعيم والتركيب النفسي للطاغية، أن الزعيم يبحث عن القوى والطاقات في الجماعة فينميها، ويفرح كلما وقع على طاقة نافعة فيستعين بها ويدفعها إلى الأمام، بينما الطاغية لا يطيق إلا نفسه، فكلما وجد طاقة بارزة سعى إلى التخلص منها ولو بطريق الغدر الخسيس! ولا يعنيه أن تكون نافعة للمجموع. فنفع نفسه عنده هو الأول والآخر، ولا مصلحة لأحد سواه.

وكما أن الفردية الانطوائية مزيج من مرضين معا: الفردية والسلبية الزائدة، فكذلك الفردية العدوانية مزيج من مرضين: الفردية والإيجابية الزائدة. وفي كلا الحالين ينحسر الجانب الجماعي من النفس ويبرز الكيان الفردي في صورة من الصور. وتختلف درجة السوء من فردية لأخرى، ولكنها في جميع الحالات انحراف عن الاستواء الفطري الجميل.

أما النزعة الجماعية الزائدة.. أو الانسياح في الجماعة.. فهي مرض يذهب بالشخصية أو يضعفها. فالإمعة الذي لا رأي له ولا شخصية، الذي ينساق وراء كل رأي، ويهتف وراء كل ناعق، ويسير تارة إلى الشمال وتارة إلى اليمين.. هو شخص ضاعت فرديته فأمحت شخصيته، وأصبح كماً مهملا لا حساب له ولا وزن. وهذا مرض خطر. . فإن الله لم يخلق الناس ليذيبوا ذواتهم ويعدموا شخصيتهم على هذا النحو. فضلا عن أن إقامة الحياة الراشدة التي أمر بها الله تحتاج إلى أشخاص ذوي شخصية ورأي وقدرة على احتمال التبعات. أما هؤلاء الإمعات فلا يقيمون شيئاً ولا ينقضون شيئا. وهم هم الوقود الذي يأكله الطغاة، بل هم الذين يشجعون الطغاة على طغيانهم. فالعبيد يصنعون الطاغية. ["فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ"[1]].

وجميل أن يخدم الإنسان الجماعة ويحبها ويتجاوب معها. وهي نزعة سوية مطلوبة تؤدي دورها في الحياة. أما أن يفنى فيها، فيسايرها وهي صاعدة، ويسايرها وهي هابطة سيان، ولا يفكر في تقويمها حين تخطئ، ولو بالقلب، وهو أضعف الإيمان.. فأمر لا جميل ولا مفيد، فضلا عن الضعف والخزي والهوان.

* * *

والسلبية والإيجابية نزعتان فطريتان متعادلتان، فإذا زادت إحداهما أو نقصت حدث في النفس الاختلال.

---

(1) سورة الزخرف [54].

وقد بينا من قبل دور السلبية السوية، وكيف أنها ضرورية في حياة الإنسان. فأما السلبية الزائدة، سواء كانت انعزالا انطوائياً عن الحياة، أو انسياحاً في الجماعة تضيع فيه الشخصية وتمحّى.. فهي مرض يبدد طاقة الإنسان الحية ويضيعها بغير ثمرة، أو بغير ثمرتها الكاملة التي كان يمكن أن تؤدى إليها في الحالة السوية. وهي من الأمراض التي تصيب "الشخصية". فالشخص السلبي لا يمكن أن يكون ذا شخصية قوية، ولا يمكن أن يكون له تأثير على الآخرين. [قلنا في الفقرة السابقة إن بعض الانطوائين يكونون علماء وفنانين ينفعون البشرية بإنتاجهم الفكري. ولكن ليس كلهم بطبيعة الحال! وهؤلاء الانطوائيون المنتجون ليسوا سلبيين إلى درجة المرض] فالنفع والتأثير، يحتاجان إلى قدر من الإيجابية يجعل الناس يحسون "بوجود" الشخصية فيحترمونها. ولا يمكن أن يتأثر الناس بشخص لا احترام له في نفوسهم!

أما الإيجابية الزائدة فانحراف مقابل، يؤدي إلى التبجح والعناد والطغيان والعدوان وعدم احترام حقوق الآخرين ووجودهم.

وقد يبدو لأول وهلة أن الإيجابية الزائدة مزية وفضيلة، فهي تورث الشجاعة وبروز الشخصية واحترام الآخرين لصاحبها. وذلك كله صحيح في الحدود السوية المعقولة. أما حين تزيد عن حدودها فهي مرض متعب! متعب لصاحبه وللآخرين. فصاحب هذا المرض صعب الانقياد جداً.. حتى للحق! فهو يظن الخضوع للحق حطة ومذلة! وصعب الانقياد للجماعة. فهو نافر ناشز. ولا تستقيم أمور الجماعة حين ينشز أفرادها على هذا النحو. وفوق ذلك كله فهو ذاته لا يعيش في راحة، فهو لا يفتأ يحس أن افتياتا وقع عليه من هنا أو من هنا. وهو إما أن يصل إلى القيادة والزعامة ليتصرف في الناس على هواه، وإما أن ينشز ويشغب على النظام، ولذلك فهو دائم الاحتكاك بالناس حتى يقهرهم أو يقهروه. ولكنه لا يحسن أن يعيش في سلام ومودة مع الآخرين.

وتلك ليست فضيلة بطبيعة الحال.. وإنما هي مرض متعب خطير!

* * *

والزوج الأخير من الخطوط المتقابلة التي أثبتناها في هذا الكتاب هو الالتزام والتحرر. وقد بينا من قبل وظيفة كل من الخطين وطريقة تعادلهما في الحياة السوية. فأما حين تزيد النسبة أو تنقص عن معدلها السوي فلا بد أن يحدث انحراف.

حين يزيد الميل إلى الالتزام فإنه يوشك أن يستعبد الإنسان حتى لا يملك التصرف في أبسط الأمور. ويصبح الإنسان بالفعل أقرب إلى العبد منه إلى الشخص الحر.. ولو كان رسمياً من الأحرار!

والموظفون في دواوين الحكومة مثل من أمثلة هذا الانحراف. فقد انطبعوا على الالتزام "بالأوامر" و"الروتين" حتى صارو أدوات عاجزة، تعجز حتى عن التنفيذ السليم للروتين!

والطغيان في أي بلد يسعى إلى بذر هذا اللون من المرض في نفوس الشعب الذي يحكمه، ليأمن على وجوده، ويضمن أن تنفذ أوامره بلا معارضة ولا سؤال.

ولسنا هنا نتحدث عن أسباب الانحراف وإنما نصف مظاهره. ومظاهره هي هذه العبودية الصريحة أو المقنعة التي تتملك المصابين بهذا المرض، فتعجزهم عن التصرف في المواقف التي لا تسعفهم فيها القوالب المحفوظة، ويتعين عليهم فيها أن يتصرفوا من ذات أنفسهم.

وهو —ككل مرض نفسي– درجات مختلفة، تبدأ من الانحراف البسيط إلى الشذوذ. والشذوذ في هذه الحالة يصل إلى العجز الكامل عن التصرف، والنفور من الحرية حين يعطي المريض الحرية. لأنه يحس كأنما الجن والغيلان ستتلقفه في كل خطوة لو خرج عن الروتين المرسوم، أو لو وجد في موقف ليس له روتين سابق محفوظ!

وطبيعي أن مثل هؤلاء الأشخاص –أو الشعوب– يرفضون كل فكرة جديدة ولو كانت صائبة، ويرفضون كل تقدم ولو كان إلى الخير: ["إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ"][1].

وعندئذ يكون الالتزام قد جاوز غايته السوية، التي مؤداها إطاعة النظم والقوانين الصالحة على وعي وبصيرة ورشد، وليست الطاعة العمياء التي لا تضيف شيئاً إلى رصيد الحياة وتحول الناس إلا آلات.

أما التحرر الزائد عن الحد فعيبه أنه مرض يجعل صاحبه يستنكف الالتزام بأي أمر من الأمور، وينفر من القيود إطلاقاً ولو كانت قيوداً ضرورية وصالحة. لأنه يرى في الالتزام مساساً بكرامته، وفي التقيد حداً من كيانه الذاتي. وهذا مرض ولا شك. فالشخص السوي

([1]) سورة الزخرف [23].

لا يستنكف الالتزام بالأوامر الصالحة، ولا يحس فيها ما يجرح كرامته. بل على العكس يجد راحة حقيقية في إطاعة داعي الخير والالتزام بأوامره. أما المريض بالرغبة الزائدة في التحرر فقد يتعمد مخالفة كل أمر رغبة في المخالفة ليس غير، لا عن اقتناع حقيقي بأن المخالفة أصوب من الالتزام!

والغرب اليوم مصاب هذا المرض إلى درجة الشذوذ.. فهو يستنكف أن يعبد الله، وينفر من القيود الخلقية في سلوكه الجنسي، ويحسب هذا "تحرراً" سوياً، وهو مرض بالتحرر الزائد عن الحد..

وفي كتاب "الإنسان" وكتاب "معركة التقاليد" وكتاب "منهج الفن الإسلامي" تحدثت عن الأسباب التي أدت بالغرب إلى الإصابة بهذا المرض الذي وصل هناك إلى درجة الشذوذ. ونكتفي هنا بأن نذكر أن "العقلاء" في الغرب، من الساسة والزعماء والمفكرين قد بدأوا يحسون بخطر هذا المرض المدمر، فيدقون لشعوبهم أجراس الخطر، وينذرون هذه الشعوب بأنها معرضة للانحلال والانهيار..

والغرب —مع ذلك– لم يضع يده على موطن الداء كله.. ولكنه بدأ يحس على أي حال أن ما أصابه لم يكن تحرراً سوياً وإنما هو مرض يحتاج إلى علاج.

أما علم النفس في الغرب فلعله لم يفق بعد من النكسة التي أصابته على يد فرويد.. ولكنه سيئوب حتماً إلى رشده ويرى الأمر في وضعه الصحيح.

* * *

تحدثنا حتى الآن عن الخطوط المتقابلة في النفس البشرية ومظاهر الاختلال التي تتعرض لها في أثناء النمو. ولعلنا لاحظنا أن بعض مظاهر الاختلال متداخلة بعضها في بعض. فالسلبية الزائدة والالتزام الزائد عن الحد مرضان متشابهان من بعض الوجوه ومتداخلان. وكذلك من الجانب الآخر الإيجابية الزائدة والتحرر الزائد عن الحد. كما تتداخل الواقعية الزائدة مع الإيمان المفرط بما تدركه الحواس، وتتداخل من الجانب الآخر النزعة الخيالية المسرفة مع الإيمان المفرط بما لا تدركه الحواس.. الخ.

وليس منشأ هذا التداخل أن هذه الخطوط —في أصلها السوي– غير متميز بعضها عن بعض. فهي —كما رأينا في حديثنا السابق عنها– متميزة ومستقلة. ولكنها متشابكة كشبكة الأعصاب في الجسم يتصل بعضها ببعض. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن المرض قلما

يصيب "عضواً نفسياً" واحداً، وإنما يصيب مجموعة الأعضاء المتشابكة، وتنتقل العدوى انتقالاً طبيعياً من عضو إلى عضو. كما تحدث –في حالة الجسم– إضابة بالدوسنتاريا في الأمعاء وتتلف الكبد بعد ذلك أو تتلف الزائدة الدودية!

وفضلا عن ذلك فإن العمليات النفسية –كما بينا في فصل "الخطوط المتقابلة"– معقدة شديدة التعقيد. ولا توجد عملية واحدة تصدر عن جزء واحد من النفس، وإنما تصدر عن النفس في مجموعها، مع "تخصص" في أحد الجوانب، لذلك يكون طبيعياً أن تتعدد مصادر المرض وتتشابه بعض الأعراض.

* * *

وننتقل مع الانحرافات خطوة أخرى فنتحدث عما يحدث بالنسبة للدوافع والضوابط من أمراض. وسنجد –مرة أخرى– تشابهاً مع بعض الأمراض التي ذكرناها من قبل، بسبب ما أشرنا إليه منذ هنيهة من تشابك وتعقد في بناء النفس البشرية.

الدوافع والضوابط –في حدودها السوية– تؤدي –كما ذكرنا في الفصل الخاص بها– مهمة المحرك والفرملة في النفس. ولنا ان نتصور ما يمكن أن يحدث حين يكون المحرك أقوى من طاقة السيارة –والفرامل ضعيفة– أو تكون الفرامل لاصقة بالعجلات تمنعها من الاستجابة لدفعة المحرك.. وما أشبه ذلك من اختلالات.

وقد قلنا إن الدوافع بصفة عامة يمكن أن تختصر في دافع أصلي شامل، هو حب الحياة. وهو دافع ضروري وأساسي في مهمة الخلافة التي يقوم بها الإنسان في الحياة. ولكنه دافع خطر حين يزيد عن الحد. فالتعلق الشديد بالحياة مصيره إلى إفساد الحياة ذاتها باللهفة الدائمة التي لا تشبع، والقلق الدائم والاضطراب.

وقد خرجت أوربا من رهبانية القرون الوسطى متلهفة إلى الحياة، ممسكة فيها بأنيابها. وحدث تقدم عظيم في العلوم والإنتاج المادي بهر العيون وزاد القوم تشبثاً بالحياة. وظن الناس أن هذا هو الطريق! وأن التقدم العلمي والمادي لا يأتي إلا من هذا الطريق.

ثم مر جيل أو جيلان.. وبدأت الموجة المندفعة تكشف عن مخاطرها.. إن هذا التشبث الزائد بالحياة هو ذاته الذي يصيب النفوس هناك بالقلق والاضطراب النفسي والعصبي وضغط الدم والجنون والإحساس الدائم بالفراغ والخواء، والمحاولة الدائمة للهروب من هذا الفراغ والخواء بالبحث عن متعة جديدة.. أو بالانتحار..!

وتلك نتيجة طبيعية –غير مستغربة ولا مفاجئة– للتشبث الزائد بالحياة.

فالدوافع الفطرية بصفة عامة –سواء الأصل أو الفروع– خلقت هكذا: لا تشبع بالغذاء الزائد عن الحد، وإنما تنفلت من حيزها المعقول؛ ولا تعود تشبع مهما قدم إليها من الغذاء! وهذا مبدأ الانحراف الذي ينتهي بالشذوذ. وقد استفحل المرض في الغرب ونشأ عنه كل ما هو مشاهد اليوم من انحرافات خلقية واقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية وروحية.. الفوضى الجنسية. وتفكك روابط الأسرة. والرأسمالية. والشيوعية. والشقاء الفردي والجماعي الذي يظلل الأرض بوجهه البشع كما لم تعرفه البشرية قط في تاريخها الطويل.. ثم الحروب المدمرة الكافرة: حربان في ربع قرن والثالثة تهدد العالم بالدمار المفزع الرهيب.

من أجل ماذا؟

من أجل التشبث الزائد بالحياة.

وليس معنى ذلك أن ينصرف الناس عن الحياة لينجوا من هذه الأمراض والاختلالات..

فالانصراف عن الحياة.. أو ضعف الدفعة الحيوية.. هو الانحراف المقابل. وهو مرض كذلك. لأنه يعطل وظيفة الإنسان الرئيسية التي خلق من أجلها. وظيفة الخلافة عن الله في الأرض. ويؤدي إلى سلبية مريضة لا تنتج ولا تتقدم، ولا تضيف في عالم الواقع جديداً ينفع الأحياء [كالهندوكية والرهبانية].

وكلاهما اختلال يصيب الدوافع الفطرية بصفة عامة، ويصدق كذلك على كل دافع بالتفصيل.

* * *

قسمنا الدوافع من قبل إلى: حفظ الذات، وحفظ النوع، والملك والقتال، وحب البروز.

ونتحدث الآن عن كل واحد من هذه الدوافع، وما يصيبها –بالنقص والزيادة– من انحرافات.

حفظ الذات، بما يشمله من طعام وشراب، وما يتبعه من حب للراحة والاستمتاع، دافع طبيعي فطري يؤدي مهمته السوية في حياة البشرية.

ولكنه حين يزيد عن حده المرسوم تنشأ عنه ألوان مختلفة من الأمراض والانحرافات..

الأنانية التي تبحث عن خيرها وحدها على حساب الآخرين. والاستعباد لشهوة الطعام والشراب والملبس والمسكن. والترف والاسترخاء. والقعود عن الجهاد في سبيل الحق ودفع الظلم، حرصاً على سلامة الذات من التعرض للأخطار. وقد جاء في تصريح للرئيس الأمريكي أن مستقبل أمريكا في خطر، لأنه من بين كل سبعة شبان يطلبون للتجنيد لا يوجد إلا سنة يصلحون للتجنيد، والآخرون أفسدهم الترف والإغراق في الشهوات. فضلا عن فرار المجندين من الجيش بنسبة ذريعة، إذ فر في سنة واحدة مائة وعشرون ألفاً من الجيش الأمريكي إيثاراً للراحة وابتعاداً عن الأخطار!

ومن جهة أخرى حين ينقص هذا الدافع تنشأ السلبية المترهبنة التي لا تبالي بالحياة.. فلا تتقدم عن طريقها الحياة.

وقد أشرت في كتاب "منهج التربية الإسلامية" إلى وجوب التفريق بين الزهادة في متاع الأرض، التي يتصف بها المصلحون، والرهبانية السالبة التي لا تهتم بأمر الحياة والأحياء. فهذه الزهادة ليست ضعفا في الدافع الحيوي، وإنما هي ضبط فائق لهذا الدافع، في سبيل القيم العليا في الحياة. وينبغي على أي حال ألا تصل إلى الانصراف الكامل الذي يعطل دفعة الحياة.

وحفظ النوع يتمثل في الدافع الجنسي..

والزيادة فيه تؤدي إلى أمراض وانحرافات غنية عن الإشارة. والمجتمع الغربي الذي أصيب في نكسته الأخيرة بالسعار الجنسي، يعرض أمثلة شتى لهذا الانحراف.. بما في ذلك الشذوذ الجنسي بمعناه المعروف، والذي ينشأ كنتيجة فرعية لهذا السعار! [جاء في الأخبار أن أمريكا —وهي من أشد البلاد إباحية وفوضى في المسألة الجنسية– طردت ثلاثة وثلاثين من موظفي خارجيتها لإصابتهم بالشذوذ الجنسي، ولأنهم —بهذه الصفة– لا يؤتمنون على أسرار الدولة!]

أما النقص في هذا الدافع فيولد أمراضا أخرى، منها البلادة والسلبية والرهبانية وعدم الإقبال الجاد على الحياة.

وقد تحدث فرويد حديثا مستفيضا —مسرفاً– عن الدافع الجنسي في جميع صوره وأشكاله، وانحرافاته وشذوذاته، وليس من همنا هنا استقصاء هذه الصور وتتبعها. فذلك مبحث متخصص. وسنعود إلى بعض هذا الحديث عند الكلام عن الضوابط وأثرها الزائد بالنسبة للدافع الجنسي. ولكنا نكرر ما أشرنا إليه مراراً من شذوذ فرويد وانحرافاته وهو يتكلم عن دافع الجنس بهذا الإسراف المعيب.

والملك دافع فطري يؤدي مهمته في الحياة البشرية..

ولكنه حين يزيد ينقلب إلى أثرة بغيضة لا تشبع، وعدوان على حقوق الآخرين. وهو مرض يصيب الأفراد والشعوب والدول فلا يتركها في راحة، ولا يسلم من عدوانها الآخرون. والاستعمار بكل جرائمه لون من هذا الانحراف يقول علماء الاقتصاد إنه نتيجة "حتمية" وحقيقته أنه انحراف في النفوس.

أما نقص هذا الدافع فنتيجته السلبية والخنوع لعدوان الآخرين الراغبين في مزيد من التملك والاستحواذ!

والقتال دافع فطري ضروري للحياة..

ولكنه يزيد فينقلب إلى رغبة في العدوان وتلذذ بإذلال الآخرين. ويصل في حالات الشذوذ إلى شهوة في القسوة والتعذيب [سادزم] تلتذ بمنظر الدم، ومشاهدة الألم.. كتلذذ الحيوان المفترس، بل أشد من الحيوان. فمعظم الوحوش لا تفتك إلا في حالة الجوع، ولا تلتذ بتعذيب الفريسة إلا من أجل الحصول على الطعام. وهي وحوش على أي حال.

وينقص هذا الدافع فيتحول إلى خنوع واستسلام وضعف وسلبية ورضا بالمذلة والهوان.. ويصل في حالات الشذوذ إلى تلذذ بالألم الذي يحدثه الآخرون [ماسوشزم] وإلى الاستمتاع بالحياة كلها عن طريق الألم والعذاب!

وأخيراً حب البروز..

إنه دافع خطير من دوافع البشرية.. ضروري جداً. وخطر جداً في ذات الوقت!

فهو المسئول —في الحياة السوية– عن كثير من ألوان التقدم البشري، وكثير من ألوان الإنتاج، المادي والفكري والروحي سواء..

وهو المسئول —في حالات المرض– عن كثير من انحرافات البشرية!

حين يزيد حب البروز فهو يتخذ صوراً مختلفة، تتشكل غالباً بشكل الدافع —أو الدوافع– الأقوى في النفس. فحين يكون حفظ الذات هو الدافع الأقوى يتخذ حب البروز صورة الإسراف في الطعام والشراب والملبس والمسكن. وحين يكون الجنس هو الأقوى يتخذ

صورة الإسراف الجنسي والتباهي به. وحين يكون الملك هو الأقوى يتخذ صورة الإسراف في الملك والتباهي بالاقتناء. وحين يكون القتال هو الأقوى يتخذ صورة التباهي بالعدوان.

ولا يمتنع أن تكون الدوافع كلها قوية في وقت واحد، فيتخذ حب البروز صورة الإسراف فيها جميعاً في وقت واحد، على اختلاف في الدرجات.. وفي حالات الشذوذ يصل الأمر إلى "جنون" العظمة.. وهو آخر الطريق!

وفي جميع الدوافع يختلف الجنسان قليلا أو كثيرا في طريقة الانحراف. ولكنهما أشد اختلافا في دافع البروز. فقد يتشابهان —أو يتماثلان– في انحراف الطعام والشراب أو الملك. ولكنهما يختلفان حتما في طريقة البروز. فالرجل يبرز بخصائص الرجولة، والمرأة تبرز بخصائص الأنوثة [إلا إذا حدث اختلال جنسي إضافي يجعل الرجل مخنثا والأنثى مسترجلة]..

وأشد ما تختلف فيه المرأة عن الرجل في مرض البروز، أنها تحب البروز بملابسها، وفتنتها الجسدية.. ويصل الأمر في حالات الشذوذ إلى مرض حب الاستعراض.. سواء بالملابس الشاذة أو المغرية.. أو بالعري لاستعراض اللحم العريان.

وقدر من حب البروز فطري كما قدمنا. وقدر من رغبة المرأة في نيل الإعجاب فطري كذلك ونظيف. ولكنا هنا نتحدث عن القدر الزائد عن الحد السوي. فحب الاستعراض ليس فطرة سوية. بل مرض. وحب التعري للفتنة الجنسية ليس فطرة [ففي الفطرة حياء جنسي] وإنما هو مرض. وهو مرض مستفحل في "الحضارة" الحديثة بصفة خاصة. وفرويد صاحب نصيب وافر في نشر هذا المرض، بالإضافة إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي صاحبت الثورة الصناعية والحربين العالميتين. وانتشر الوباء إلى حد أن الإصابة به صارت شيئا عاديا لا يلفت النظر ولا يثير الإنكار. بل وصل الشذوذ إلى درجة أن الحالة السوية السليمة هي التي صارت تلفت النظر وتثير الاستنكار! ولكن انتشار الأمراض لم يكن قط مبررا لاعتبارها حالة سوية، ولا للقعود عن العلاج!

وقد بدأت الحضارة الغربية —كما قلنا– تتنبه إلى أمراضها. وفي مقدمة هذه الأمراض العمل الدائم بكل الوسائل: السينما والإذاعة والتلفزيون، على إفساد فطرة المرأة، وإقناعها بأن دورها الأصيل في الحياة هو الإغراء!

أما النقص في هذا الدافع فيؤدي إلى سلبية مريضة وانطوائية ونفور من العمل المثمر وانحسار عن الحياة.

* * *

أما الانحراف من جهة الضوابط فمتعدد الألوان.

وقد لا نحتاج إلى الحديث عن ضعف الضوابط.. فهو شبيه بالحديث عن زيادة الدوافع عن قدرها السوي. فلن تصل الدوافع إلى حد الإسراف في الحقيقة إلا بسبب ضعف الضوابط التي تضبطها وتحدد لها مسالكها.

أما الإسراف في عملية الضبط فهو الذي يحتاج إلى بيان.

وقد أسرف فرويد في الحديث عن الكبت حتى خيّل للناس أن كل عملية ضبط هي عملية ضارة مدمرة للكيان البشري، معطلة للدفعة الحيوية عن الانطلاق.. وأحسب أننا نتحدث بما فيه الكفاية عن هذا الأمر. ولكن لا بأس هنا من الاستشهاد بفرويد ذاته في التفريق بين الضبط والكبت في كتابه "Three Contributions" حيث يقول إن الكبت هو استقذار الدافع الغريزي، وعدم اعتراف الإنسان فيما بينه وبين نفسه أن هذا الدفع يحق له أن يوجد في نفسه. ثم قال: "وفرق بين هذا الكبت (اللاشعوري) وبين الامتناع عن إتيان العمل الغريزي. فهذا مجرد تعليق للعمل".

فليس كل ضبط إذن كبتا ضارا مقلقا للأعصاب. فضلا عن كون الضبط عملية ضرورية للحياة البشرية لا تستقيم بدونها هذه الحياة. وفضلا عن أنها –كما بينا– عملية فطرية، نابعة من كيان النفس ذاته وليست مفروضة عليها من الخارج.

إنما يحدث المرض من زيادة الضبط عن الحد المقرر، بحيث يغلق مصارف الدافع الفطري أو يضيّق عليها الخناق. وذلك أمر لم يأمر به الله الذي خلق الدوافع والضوابط معا ليعملا –متساندين– في إرساء الحياة البشرية على قواعدها السليمة بلا تفريط ولا إفراط.

حين يشتد الضبط عن قدره الضروري فإنه يمنع تدفق الحياة في مساربها الفطرية كما ينبغي لها.. وهذا يؤدي إلى أحد شيئين: إما أن يضعف الدافع الفطري ويذبل.. وإما أن يتفجر في غير سبيله الطبيعي.. في مسارب منحرفة عن الغاية الأصيلة، أو منقلبة عليها.. وقد بيّن علم النفس التحليلي أن كثيرا من الجرائم متصل بالكبت. أي بالقمع اللاشعوري للدوافع الفطرية، وسد المنافذ النظيفة أمامها. وإن كنا لا نؤمن بكل ما يقول به التحليليون الفرويديون كما سنبين بعد قليل.

حب الحياة هو الدافع الأكبر في كيان الإنسان [كما هو في كيان كل كائن حي]. هو السيل المتدفق في مسارب النفس ومسارب الحياة. والضبط المسرف الذي يخنق الدوافع

الفطرية قد يفلح في إضعاف هذا الدافع الأكبر حتى ليوشك أن يذبل ويموت. وينصرف الإنسان عندئذ عن الحياة في زهادة يائسة لا تقبل على شيء من متاع الدنيا ولا نشاطها المعقول. وتصير الحياة في نظر صاحبها أياما تقضى حيثما اتفق، بلا هدف محدد ولا غاية مأمولة. ولا يخفى ما في ذلك من تبديد للنشاط وتضييع للطاقة.. ووقف كذلك لدفعة الحياة. فالآمال في الحياة لا تتحقق إلا بالكدح المتواصل. ولا يكدح الإنسان إلا لأنه يريد شيئا فيسعى إلى تحقيقه. فإذا كان لا يريد، فَلِمَ يكدح إلا مضطرا لمجرد المحافظة على الحياة في أضيق نطاقاتها؟

والفلسفة الهندوكية المتصوفة المترهبنة قائمة على ذلك: تقوية الضوابط إلى أقصى حد ممكن، وإضعاف الدوافع كذلك إلى أقصى حد. ويقولون إنهم ينعمون بمتاع الروح.. نعم. ولكنهم يغالبون الفطرة البشرية ويحاولون أن يصنعوا منها ما لم تخلق له. فتفسد حياتهم في النهاية وتتوقف عن العمل والإنتاج والامتداد. فضلا عن عملية التعذيب الدائمة للجسد، يمنعه من الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس [إلا قطرات من الشراب وكسر من الطعام وخرق من الملبس لا تقيم حياة إنسان] وتعذيب النفس بمنعها من رغباتها جميعاً في الاستمتاع بالملك والاستمتاع بالبروز [النظيف]...

وهؤلاء الرهبان الفلاسفة مع ذلك خير بكثير من الأفراد العاديين المرضى بالإسراف في الضبط. فإن لهم إرادة هادفة.. وإن كانوا قد ضلوا الطريق ولكن كثيراً من المرضى العاديين يفقدون حتى إرادتهم، ويصيرون إلى سلبية ميتة لا خير فيها للحياة.

فأما حين يقوم الصراع العنيف بين القوة الضابطة والدوافع الفطرية، ثم لا تقدر القوة الضابطة على إماتة الدوافع أو إضعافها، وهي مع ذلك لا تصرح لها بالانطلاق في مجراها الطبيعي، فحينئذ تحدث تلك الانحرافات العديدة التي تخصص في كشفها علم النفس التحليلي: من سلوك منحرف [سيكوباتي] وتصرفات شاذة. تصل إلى الجريمة الصريحة في نهاية الشوط.

والكبت الجنسي خاصة مسئول عن كثير من السلوك المنحرف والتصرفات الشاذة، وعن كثير من الجرائم. ولكن ليس على النحو الذي بالغ فرويد في وصفه وتحليله وادعائه. فعقدة أوديب التي ألصقها بالبشرية كلها لا يوجد عليها دليل علمي. وإنما هي حالية مرضية شاذة تنشأ من التعلق الشديد بالأم لأسباب فردية –لا أسباب بشرية عامة. وأياً كانت الأسباب –وليس هذا مبحثنا هنا– سواء كانت قسوة الأب الشديدة، أو تدليل الأم الزائد، أو عدم وجود الأب، أو نفور الطفل من سلوك شائن يتعلق به.. إلخ.. فهي حالة فردية شاذة، قد تمنع الطفل الذكر من الاتجاه الجنسي الصحيح، وقد تدفعه لاستقذار الجنس في

لاشعوره. وقد تدفع به إلى الشذوذ، أو ألوان أخرى من الانحراف. كما أن التربية التي تصب في نفوس الأطفال النفور من الجنس واستقذاره تؤدي إلى انحرافات من هذا النوع. ولكن فرويد وأتباعه قد بالغوا في ذلك إلا حد يفهم منه أي ضبط للمشاعر الجنسية أو توجيه بشأنها سيؤدي إلى تلك الانحرافات. وذلك غير صحيح. فلا بد من الضبط في شئون الجنس كما لا بد منه في كل تصرف إنساني. في الطعام والشراب والملك والقتال والبروز.. وإلا فكيف نتصور الإنسان في هذه الأمور كلها بغير ضبط؟ ولماذا نجيز الضبط في الأمور كلها إلا في الجنس؟!

هذا هو الإسراف الذي ينبغي أن نحذره ونحن نتحدث عن الكبت الجنسي.

الكبت ضار. نعم.. في كل شيء، وفي الجنس كذلك. ولكن الضبط ضروري في كل شيء. وفي الجنس ككل شيء.. لأنه لا يزيد عن كونه دافعا فطريا في حاجة دائمة للتهذيب.

ثم إن كثيراً من الجرائم والانحرافات التي أصر فرويد على تفسيرها تفسيراً جنسيا، تحتمل تفسيرات أخرى لا جنسية. ولكنها —في إصراره على تلويث البشرية كلها بلوثة الجنس– كان يرفض أي تفسير لا يدخل فيه الجنس!

فكراهية الأب —المكبوتة– التي قد تؤدي في نهاية الشوط إلى جريمة القتل، ليس من الضروري على الإطلاق أن ترتبط بعشق الأم! فهي وحدها تحمل مبرراتها وخط سيرها الذاتي! وقد تقترن بالالتصاق بالأم، نعم. ولكنها كذلك قد لا تقترن. ولا تحتاج إلى دافع إضافي لتصل إلى الجريمة! ولكن كيف يترك فرويد فرصة لإدخال الجنس في الموضوع ولا يستغلها؟! وكيف يؤدي إذن مهمته الأصيلة في تلويث البشرية؟

ثم.. لقد أغفل الكبت الاقتصادي والكبت السياسي والكبت الاجتماعي إغفالا كاملا من الموضوع! وهي —كالكبت الجنسي– مسئولة عن كثير من الجرائم وكثير من الانحرافات.

أو ليس الفقر —وهو كبت قهري لرغبة الملك– مسئولا عن انحرافات كثيرة فيها الحسد والحقد، والسرقة والنهب والغصب والقتل والتشرد النفسي.. أي إباء الاندماج في الجماعة والسلوك الصالح معها؟

والكبت الاجتماعي أو السياسي —أي كبت الرغبة السوية في البروز– أليس مسئولا عن انحرافات كثيرة منها الميوعة والتفاهة والتعلق "بالتقاليع" الفارغة لتحقيق البروز من غير

طريقه السليم. ثم الجريمة كذلك لتحقيق نفس الهدف.. للوصول إلى الشهرة والذكر بين الناس؟!

نعم. إن كل أنواع الكبت ضارة. سواء كان العامل فيها أمراً خارجا عن الإرادة — كالقوة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو سلطة الوالدين– أو كانت عوامل شخصية يقوم بها صاحبها نتيجة اقتناع خاطئ. ولكن القول بأن كل الكبت كبت جنسي، أو بأن الكبت الجنسي وحده هو المسئول عن كل انحرافات الأرض.. فقول لا يصدر إلا عن شخص شاذ مريض!

ومن نتائج الكبت كذلك –أحيانا– الصراع الدائم في باطن النفس، الذي يجعلها كمناطق البراكين والزلازل عرضة للهزات الدائمة والانفجارات.. وعرضة للتشقق والانفصال أحيانا كما يحدث في حالة الفصام [الشيزوفرينيا] وازدواج الشخصية، الذي يجعل الإنسان شخصين منفصلين ليس بينهما ارتباط.

* * *

وأخيرا نتحدث عن النوع الأخير من المرض النفسي الذي ينشأ من توقف النمو عند مرحلة نفسية معينة، أو عدم تكامل النضوج في جميع أجزاء النفس.

المفروض أن تنمو النفس نموا دائماً حتى تصل إلى مرحلة النضوج والاستقرار، كما يستمر نمو الجسم إلى أقصى درجات الاكتمال المتاحة له، ثم يثبت على ذلك فترة طويلة لا تصيبه إلا تغيرات طفيفة، حتى تصيبه الشيخوخة في نهاية المطاف. ولو تصورنا جسما لا ينمو مع السن فيقف عند مرحلة الطفولة أو المراهقة أو الشباب المبكر غير المكتمل.. أو تصورنا جسما ينمو في جميع أجزائه إلا جزءاً واحداً أو بضعة أجزاء تظل على حالة الطفولة [كالمصابين بشلل الأطفال في عضو من أعضائهم].. إذا تصورنا هذه الصورة أمكن أن نتصور ما يقابلها في عالم النفس، إذا توقف النمو النفسي كله عند مرحلة معينة، أو تكامل النمو في أجزاء من النفس دون أجزاء.

والنفس تتعرض لهذين المرضين لأسباب مختلفة، قد يكون من بينها قسوة المعاملة في أثناء الطفولة وقد يكون التدليل الشديد! فكلا الطرفين المتطرفين يعرض النفس للاختلال! أحدهما يضيق مجاري الدفعة الحيوية ويضع لها قيودا حديدية فتظل ضامرة [كأقدام الصينيات في الأجيال الماضية التي كانت توضع في قوالب معدنية منذ الطفولة فتظل على وضع الطفولة مدى الحياة، وتعجز بطبيعة الحال عن حمل الجسم!] والثاني –وهو التدليل– يعوّد النفس

الاسترخاء فتترهل ولا تنمو.. كالطفل الذي يحمله أبواه باستمرار، لا تنمو عضلات رجليه ولا يشتد عوده ولا يتعود المشي وتحمل المشاق. وقد يكون السبب –بغير تدليل– حمل المسئوليات كلها عن الطفل، وتعويده على أن يقوم غيره بأمره باستمرار، فلا تعركه التجربة الذاتية التي هي الوسيلة الوحيدة لتدريب "عضلات النفس" وتقويتها.. أو قد تكون صدمات نفسية عنيفة تجعل الشخص يتشبث –لا شعوريا– بفترة نفسية معينة لا يريد أن يغادرها، أو يرتد إليها بعد أن يكون قد غادرها، ليهرب من مواجهة واقع سيء لا يقدر على مواجهته أو تغييره..

وأيا كانت الأسباب –ولسنا هنا بصدد بسطها وشرحها– فهي تحدث وقفا كاملا أو جزئيا في النمو النفسي. فتجد إنسانا بالغا يتصرف تصرفات الأطفال أو تصرفات المراهقين.. فلا يقدر المسئولية في أعماله، أو يعبث عبثا صبيانيا لا يليق بالكبار، أو يندفع اندفاعات عاطفية مفاجئة كأيام المراهقة.

أو قد تجد إنسانا يتصنع التعب أو المرض أو الحزن أو الألم لتدلله وتعطف عليه.. وتراه يستبقي دائماً سبباً لاستدرار العطف، فإذا مرض لا يحب أن يشفى من قريب! وإذا وقع في أزمة يحب أن تطول إلى أقصى مدى –ولو ضايقته!– لأنها تثير عطف الناس عليه!

أو تجد رجلا همه –كالمراهقة المنحرفة– أن يوقع الفتيات في هواه! وينفق جهده وماله في تجميعهن حوله بالهدايا والتزين في الملبس ليبدو وجيها في أنظارهن! أو امرأة همها إيقاع الشبان.. تتزين لهم وتستعرض نفسها أمامهم لتعجبهم.. إلى غير ذلك من أمثال هذه التصرفات.

ثم.. قد تجد إنسانا عاقلا راشدا في كل تصرفاته إلا نقطة معينة، هي نقطة مرضه التي يشابه فيها الطفل أو المراهق.. وغالبا ما يكون في هذه الحالة واعيا لنقطة المرض فيه، فيحاول أن يداريها، أو يواجهها بصراحة على أنها "نقطة ضعف" فيه! وغالبا ما يستطيع كذلك أن يحافظ على اتزانه –رغم وجود نقطة الضعف هذه– لأن القوة الواعية الضابطة تكون في مجموعها أكبر من دفعة الانحراف.

وأخيراً قد تجد إنسانا كان سويا في كل شيء، ثم أصابته صدمة نفسية عنيفة فأفقدته توازنه.. فعاد –من حيث لا يشعر ومن حيث لا يَقْدِر– إلى حالة طفولة أو حالة مراهقة.. ولا تدخل هذه الحالة في نطاق المرض الواعي الذي يملك الإنسان تغييره أو "ينبغي" عليه تغييره. إنما تحتاج إلى علاج نفسي خاص..

* * *

تلك جملة الانحرافات التي تتعرض لها النفس الإنسانية في مراحل نموها المختلفة.. وقد تحدثنا عن أعراضها ولم نتحدث عن أسبابها إلا في إشارات عابرة، لأن ذلك مبحث متخصص ليس مكانه الكلام عن نظرية عامة في النفس الإنسانية.. ولكنا نردف تلك الإشارات العابرة بكلمة أخرى موجزة عن أسباب الانحراف بصفة عامة، وهي أربعة أنواع من الأسباب.

* * *

أول الأسباب وأكبرها هو سوء النظام الذي يحكم المجتمع، ويعدى —بالقدوة السيئة– في أثناء مراحل النمو والالتقاط.. يدخل في ذلك النظام الروحي والفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي.. على الاتساع.

وكل فساد في النظام ينعكس حتما على الأفراد، وعلى الأطفال بصفة خاصة في مرحلة التكوين. وما دامت العزلة غير مستطاعة، فلا يمكن حماية الطفل من انعكاسات الفساد في المجتمع إلا بجهد تبذله التربية المنزلية. فإذا لم تقم التربية بهذا الجهد، وهي غالبا لا تقوم ما دام الفساد هو الغالب على النظام، فلا مناص إذن من العدوى والمرض والانحراف.

* * *

النظام الفكري والروحي الذي لا يؤمن بالله ولا يسير وفق هدى الله. الذي يعبّد البشر للبشر، ولا يدعهم يعبدون الله وحده ويستمدون منه وحده، فيحرمهم من فطرتهم الطبيعية في عبادة الله ويستبدل بها عبادة العباد.. الذي لا يؤمن بالقيم العليا ولا يؤمن بضرورة الضوابط في حياة الإنسان.. والذي يبيح الفوضى الجنسية على أنها انطلاق وتحرر، ويبيح الأنانية والأثرة على أنها حرية شخصية..

النظام الاقتصادي الذي ينشر الفقر في جانب والترف في جانب آخر..

النظام الاجتماعي الذي لا يعطي الفرد وضعه الصحيح في المجتمع، فيضخم كيانه على حساب المجتمع أو كيان المجتمع على حسابه..

كل هذه الأنظمة الفاسدة لا بد أن تطبع بطابعها المنحرف كيان الأفراد.. ولا بد أن يلتقط الطفل توجيهها الفاسد بغير وعي، وينشأ على أنها وضع طبيعي لا انحراف فيه..

صحيح أن الفطرة البشرية –بقوتها الذاتية التي أودعها الله فيها– تثور بعد أمد على هذه الانحرافات، حين تذوق نتائجها الفاسدة، وتحس بالتعارض القائم بينها وبين هذه الانحرافات.. ولكن هذه عملية طويلة بطيئة الأمد، قد تستغرق أجيالا بعد أجيال.. وفي أثناء هذه الأجيال كلها يكون الناس عرضة للانحرافات ما لم يعصمهم عاصم من اقتناع شخصي بخط الفطرة الأصيل.

* * *

وسوء التربية من أكبر أسباب الانحراف. فالتربية هي الوسيلة الوحيدة للتقويم. وحين يترك الطفل بلا تقويم فهو عرضة على الدوام لأن يصيبه أي انحراف من تلك الانحرافات المتعددة التي بيناها في هذا الفصل.. حتى بدون أسباب خارجية أو قاهرة.. فالدفعات الفطرية ذاتها إذا لم تنظمها الحواجز والضوابط ستنشأ طاغية لا محالة.. لأنها لم تتعود على الضبط، ولأن جهاز الضبط لم ينمُ ليقوم بمهمته. وقد بينا بوضوح أن الضوابط –ولو أنها فطرية– في حاجة إلى معونة خارجية لتنميتها. كما يحتاج المشي والنطق. وتلك مهمة التربية. فإذا لم تقم التربية بمهمتها في تنمية الضوابط، فكل انحرافات الدوافع يمكن أن توجد بصورة تلقائية ودون أي سبب إضافي! كالأشجار التي لا بد أن تقلم وتشذب لكي تثمر.. إذا تركت بلا تقليم ولا تشذيب فلن تحمل الثمار..

وذلك أبسط ما يمكن أن ينشأ من سوء التربية.. أو في الحقيقة من عدم التربية! ولكنه ليس النتيجة الوحيدة. ففي إمكان سوء التربية أن يزرع في النفس أمراضا لم تكن لتوجد بطبيعتها لولا سوء التوجيه.

فعن طريق القدوة السيئة أو التوجيه الفاسد يمكن تنمية الحسية المفرطة أو السلبية المفرطة أو الفردية المفرطة.. أو العكس. ويمكن تربية الطفل على الانطوائية المريضة أو الجرأة المتبجحة. ويمكن أن يوقف نموه عند درجة معينة لا يتعداها، أو يُشل جزء من نفسه عن النمو والنضوج.

وهكذا وهكذا.. كل الانحرافات يمكن أن تحدث عن سوء التربية، كما أن كل الانحرافات يمكن أن تقوّم عن طريق التربية السليمة الراشدة الواعية الدائبة.. وهي المهمة الحقيقية للوالدين.

* * *

وهناك الاستعداد الوراثي للانحراف.. فقد يولد الطفل باستعداد وراثي لعنف الدوافع الفطرية أو عنف الضوابط، أو عنف الحسية أو المعنوية، أو عنف السلبية أو الإيجابية، أو عنف الواقعية أو الخيالية، أو الفردية أو الجماعية.. الخ.. الخ.. وهذا الاستعداد الوراثي لا حيلة للطفل فيه.. فهو مفروض عليه، يحمله في "جينات" الوراثة من قبل الميلاد. ولكنه مع ذلك ليس أمرا حتميا. والتربية هي صمام الأمن ضد هذا الاستعداد. وهي كفيلة بتصحيحه وتوجيهه الوجهة الصحيحة، بشيء من التعب والدأب واليقظة الدائمة والانتباه.

فالمعروف طبيا أن أبناء المدخنين أو المدمنين على الشراب يولدون وفيهم استعداد وراثي للتدخين أو تعاطي الشراب. ولكنه ليس حتما أن يصبحو كذلك! ومن الممكن جدا أن ينجوا من الخطر ويصبحوا أشخاصا عاديين أسوياء، حين يجدون التوجيه السليم، أو فقط حين لا يجدون المغريات التي تدفع بهم في هذا السبيل.

والاستعداد النفسي للمرض شأنه شأن هذا الاستعداد سواء. ليس حتماً أن يصيب الطفل لو وجد التوجيه والتصحيح.

* * *

والسبب الأخير هو العيوب الجسمية الخِلْقية والتشوهات التي تشعر الطفل بالنقص فيحاول التعويض فينحرف في محاولة التعويض. ومنذ القدم لاحظ الناس الناس أن "كل ذي عاهة جبار". وهو قول صحيح وإن لم يكن على إطلاقه.. فمحاولة التعويض عن النقص مسألة فطرية يقوم بها الجسم ذاته —آليا– كما تقوم بها النفس. فالذي تنقصه إحدى الحواس يعوضها —في الغالب– بحاسة أخرى. الأذن تعوض العين. والعين تعوض النطق.. وهكذا. ثم وجد أنه حين تسأصل إحدى الكليتين لمرض يصيبها يتضاعف نشاط الكلية الأخرى لتعوضها، وحين تستأصل اللوزتان تنمو الغدد الصغيرة القريبة منها كأنما لتعوض مكانها. وهكذا.

والنفس كذلك تتجه –بلا وعي تقريباً– إلى تعويض النقص. ومن هنا يتجبر ذو العاهة ليشعر الناس أنه قوي، وأن عاته لم تنقصه عن البشر العاديين! ويبالغ في ذلك —لأن النقص يوجعه– فيصل إلى التطرف المريض.

ولكن ذلك ليس حتما.. فليست هناك وسيلة واحدة حتمية للتعويض هي الانحراف. بل هناك عشرات الوسائل النظيفة الخيّرة المستعلية التي يعوض بها الناقصون نقصهم. فقد يصبح فناناً. وقد يصبح عالماً بارعاً. أو عاملاً ماهراً. أو شخصاً نبيل العواطف حي المروءة،

يعوض بفيض مروءته ما يحس به من نقص، فينال من حب الناس واحترامهم وإعزازهم ما يكفل له التعويض المطلوب.. أو يكون قوي الشخصية –في غير انحراف– ينال بالمهابة –السوية– ما يعوض عن ضآلة الحجم –مثلا– أو عن عيب خلقي فيه، فتكون المهابة وقاية له من تفحّص الناس للعيب وتقحّمهم له.

والتوجيه السليم في التربية هو المعين الأكبر على توقي مثل هذه الانحرافات، وإتاحة الفرصة للتعويض الخيّر السليم.

* * *

تلك جملة الانحرافات وأسبابها العامة.. وطريقة الوقاية منها –وكذلك طريقة علاجها– هي تتبع خط الفطرة السوية وتقويم النفس– في مرحلة الطفولة خاصة– على هدى الفطرة السليمة السوية.

وليس هذا كتاباً في التربية.. وإنما نحن هنا ندرس فقط ظواهر النفس المختلفة في حالة السواء وحالة الانحراف[1].

وينبغي –قبل أن نختتم هذا الفصل– أن نشير إلى موقف علم النفس الغربي من موضوع الانحراف والشذوذ.

لقد بالغ علم النفس الغربي مبالغة شديدة في تصوير بعض أنواع الانحراف، بينما أغفل إغفالا معيبا أنواعا أخرى من المرض تبلغ أحيانا درجة الشذوذ، لأن الغرب لا يحسها على أنها أمراض، وهو غارق فيها إلى الأذقان. كما أضاف إلى قائمة المرض حالات سوية لأنها لا تعجبه في انتكاسه الحاضر ولا ينظر إليها بعين الارتياح!

لقد بالغ علم النفس الغربي مثلا في تصوير الانحرافات التي تنشأ عن شدة الضبط –أو الكبت– حتى كاد يوحي بأن الضبط ذاته عملية ضارة لا ينبغي القيام بها، وأن الأطفال لا ينبغي أن يوجّهوا خوفا من العقد النفسية التي يمكن أن تصيبهم، وإنما يكون التوجيه –إذا لزم الأمر– من بعيد جداً وعلى حذر شديد!

(1) انظر في موضوع التربية كتاب "منهج التربية الإسلامية".

ثم خرج على ضوء هذا "العلم" جيل مائع رخو متحلل من الأمريكان، هو الذي شكا منه كنيدي خشية على مستقبل أمريكا، وطلب تربية جادة تزيل هذا الترهل الخطر والميوعة المتحللة!

وفي الوقت ذاته أغفل علم النفس الغربي إغفالا يكاد يكون تاما كل الانحرافات التي تنشأ من عدم الضبط، أو من الإفراط في مسايرة الدوافع الفطرية! ولم ير فيها انحرافاً على الإطلاق!

وثمت ظروف محلية كثيرة في أوربا قد أدت إلى هذا الوضع. وكان فرويد أحد العوامل الرئيسية في هذا الاتجاه، كما أن الثورة الصناعية والحربين العالميتين وما أحدثتا من تدمير للقيم والمعتقدات، و"انفلات" من القيود، كانت كلها أسباب لتبرير هذا الانحراف في نظر الغربيين.. ولكن هذا كله قد يفسر ولكنه لا يبرر! فلا شيء يبرر الانحراف!

كذلك لم يضع علم النفس الغربي في حسابه وهو يشخص الأمراض النفسية أن نقص الاتجاه الروحي أو انعدامه، هو من الأمراض التي تصيب النفس! لأن الغرب كله واقع في هذا المرض حتى لم يعد ينكر وقوعه!

ولم يضع حسابه كذلك أن الواقعية المفرطة، أو الإيمان المفرط بما تدركه الحواس أمراض نفسية ينبغي أن تعالج.. لأن الغرب واقع لقمته في هذا الانحراف!

ولم يضع في حسابه أن إيمان الإنسان بمثل وقيم مثالية معلقة في الفضاء، وجريان سلوكه الواقعي بعيداً عن تلك المثل والقيم مرض يفكك الشخصية في النهاية.. لأن الغرب كله مصاب بهذا التفكك الوبيل!

ولم يضع في حسابه أن الابتعاد عن الله، والاستنكاف عن عبادته، و"التحرر" من التزامات العقيدة أمراض نفسية لا وجود لها في الفطرة السوية.. لأن الغرب كله واقع في هذا الداء[1]!

ولم يضع في حسابه أن السعار الجنسي مرض، وأن خروج المرأة للفتنة والإغراء شذوذ بالنسبة للفطرة.. لأن الغرب صار يرى –في نكسته المقلوبة– أن هذه هي الفطرة وما عداها شذوذ!

([1]) راجع فصل "الدين والفطرة" في هذا الكتاب.

وفي الوقت ذاته صار ينظر إلى الإيمان بالغيب على أنه انحراف عن الواقعية لا ينبغي أن يقع فيه الأسوياء! وإلى العفة الجنسية على أنها انحراف وكبت لا يلجأ إليه الشخص السوي فتى كان أو فتاة!

وهكذا تنقلب الموازين في حساب "العلم الموضوعي" الذي لا يتحيز ولا يتأثر بالمسائل الشخصية والاتجاهات الذاتية!!

* * *

إن عيب هذا العلم أنه لا يتتبع الفطرة البشرية ذاتها ليتخذ منها الأوزان والمقاييس.. وإنما يأخذ أحكامه وقيمه وموازينه من واقع جيل منحرف أثرت فيه عوامل محلية –ومؤقتة– فأخرجته عن صوابه وانحرفت به عن السبيل.

والعلم –نور الإنسانية الهادي!– ينبغي أن يكون أوسع أفقاً من واقع جيل.. أي جيل. ينبغي أن يجعل في حسابه الأجيال كلها، والبشرية كلها.. وأن يتجاوز النكسة الحاضرة ويخرج من إسارها، إن كان في مكنته حقاً أن يفعل، ويكون "موضوعياً" حقاً كما يقول.

إن مرجع الحكم على الإنسان.. هو الإنسان! الإنسان في واقعه الأكبر الشامل المحيط، الذي يشمل كل جوانب النفس لا يهمل منها شيئاً ولا يستصغر منها جانباً، ولا يتحيز لجانب دون جانب[1].

والانحراف والشذوذ ينبغي أن يقاسا بمقياس الفطرة السوية المتكاملة، لا بمقياس جيل معين، منحرف شديد الانحراف...

وحين نهتدي إلى الفطرة –كما خلقها الله– في تكاملها العجيب وتناسقها الدقيق، ستتبين لنا على الفور أماكن الانحراف والشذوذ، وطريقة التقويم، بغير كد ولا افتعال ولا تزوير..

([1]) انظر في أواخر الكتاب فصل "التفسير الإنساني للإنسان".

الخير والشر في النفس البشرية

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا".

صدق الله العظيم

ما الخير وما الشر في حقيقة الواقع؟

وما المقياس الذي تقاس به هذه القيم في حياة الإنسان؟

إن هذا الموضوع بالذات طالما تخبطت فيه الفلسفات المختلفة منذ بدء التفكير البشري إلى اليوم، واختلف فيه الفلاسفة والمفكرون من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وأدلى بدلوهم فيه الفلاسفة المثاليون والواقعيون والتجريبيون والماديون والروحيون.. وكان من بين من أدلى فيه بدلوه: التفسير المادي للتاريخ، الذي زعم أن "القيم" غير ثابتة، ولا يمكن أن تكون ثابتة.. لأنها تُستمد من "الطور" الاقتصادي والاجتماعي الذي يكون فيه الإنسان؛ وما دامت الحياة الاقتصادية والاجتماعية متطورة على الدوام، فالقيم لا بد أن تكون متطورة معها، غير ثابتة على وضع من الأوضاع. وأن ما يعتبر خيراً في لحظة قد يصبح شراً في لحظة أخرى. وما يكون "قيمة" في طور من الأطوار قد يصبح لا قيمة له، حين يفقد الرصيد الاقتصادي والاجتماعي الذي أعطاه قيمته. فالطور الإقطاعي مثلا ينشئ قيمه الخاصة، الخلقية والفكرية والروحية، ومن بينها التدين والمحافظة الشديدة على كيان الأسرة، والتعاون والتكافل في المجتمع، والفروسية وما حولها من تقاليد وأخلاق، وسيطرة الأب والزوج وتشددهما في وضع "القيود" الخلقية على المرأة.. الخ.. الخ. وذلك كله ناشئ –في نظر التفسير المادي للتاريخ– عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الزراعي الإقطاعي، لا لأن شيئاً من ذلك ذو قيمة ذاتية ثابتة.. ثم يتطور المجتمع فينتقل من الإقطاع إلى الرأسمالية فتذوب "القيم" السابقة كلها وتنشأ قيم جديدة متمشية مع الطور الاقتصادي الجديد.. فيذهب عن الناس تدينهم، ويصبح عدم التدين "قيمة" ناشئة من المجتمع الجديد ومتمشية مع تطوراته! ويذهب عنهم المحافظة على تقاليد الأسرة، ويصبح تفكك الأسرة وانحلال روابطها قيمة جديدة "تطورية" وتقدمية! وتذهب عنهم أخلاق الفروسية ويحل محلها شعور فردي أناني يبحث عن صالح نفسه في عزلة عن الآخرين، ولا يؤمن بالمروءة والنخوة والبذل.. ويصبح ذلك كله قيمة اجتماعية جديدة، تطورية تقدمية! وهكذا! وإن كان فلاسفتهم يزعمون أن الطور الأخير للبشرية –حين تصل إليه– وهو الطور الشيوعي، سيكون طورا ثابتا (لِمَ؟) وستكون قيمه ثابتة!

وأدلى بدلوه كذلك التفسير الجنسي للسلوك البشري، الذي أقامه فرويد وحواريوه، والمستمد في الأصل من التفسير المادي الحيواني للإنسان الذي أقامه دارون من قبل.. وزعم هذا التفسير أنه لا توجد قيم على الإطلاق في نفس الفرد! فهو محكوم بغرائزه أبدا [وبغريزة الجنس بصفة خاصة في نظر فرويد] وأن هذه الغريزة تسعى إلى الحصول على اللذة والهروب من الألم.. وأن هذه هي "القيمة" الوحيدة في كيان الفرد.. وهي قيمة غير خلقية. وإنما الأخلاق والتقاليد والقيم الخلقية كلها مفروضة على الإنسان من الخارج –من المجتمع– ومن سلطة الأقوياء الذين يريدون أن يخضعوا الضعفاء لسلطانهم، فينشئون لهم قيودا قهرية يحددون بها سلوكهم، وتلك هي القيم الاجتماعية والخلقية والدينية!

وأدلى بدلوه كذلك التفسير الجمعي للسلوك البشري –يمثّله دركايم وحواريوه– وهو قريب من التفسير المادي للتاريخ من إحدى نواحيه.. وهي زعمه أن القيم كلها ينشئها "العقل الجمعي" دون أن يستشير فيها الأفراد أو يخضع لميولهم ورغباتهم، أو يرتكز بالضرورة على شيء في داخل كيانهم. وأن هذا "العقل الجمعي" متطور على الدوام متغير، ومن ثم فهو يغيّر قيمه باستمرار، ويُخْضِع لها الأفراد بالقوة القاهرة، الناشئة من أن الفرد بمفرده لا يستطيع أن يقف أمام سطوة المجتمع، وأنه ينشأ مطبوعا بطابعه أراد أم لم يرد.. والقيم على أي حال غير ثابتة، لأن العقل الجمعي لا يثبت على شيء إلا ريثما يتحول عنه إلى وضع جديد..!

وثمت مذاهب أخرى شتى.. متشعبة حسب مزاج أصحابها وتصورهم لحقائق الحياة.

وقد ناقشت هذه المذاهب كلها أو بعضها في الكتب الأخرى[1]، ولن أناقشها هنا تفصيلا.. ولكني أكتفي بأن أقول إن موضع الخلل فيها جميعاً أنها تنشئ أفكارها بعيداً عن الفطرة البشرية في واقعها الحقيقي، وتتخيل أشياء لا صلة لها بهذا الواقع.. أو تتخيل صورة منحرفة لهذه الفطرة تبني عليها أفكارها ومذاهبها.. أو قد تهتدي إلى حقيقة جزئية في الكيان البشري، فترسم على أساسها صورة جزئية غير شاملة للكيان كله، ومن ثم تخرج صورة مشوهة لا تعبر عن حقيقة الإنسان.

ومعظم هذه المذاهب يركز على حقيقة الجسد، وينفي أو يستصغر حقيقة الروح، وحقيقة ارتباط الروح بالجسد في كل نشاط يقوم به الإنسان.

التفسير المادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ يريان الحياة كلها من خلال ضرورات الجسد القاهرة، من خلال حاجة الإنسان إلى المأكل والمسكن والجنس، وسيطرة هذه

([1]) كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" وكتاب "معركة التقاليد" وكتاب "منهج الفن الإسلامي".

الحاجات على سلوك الإنسان. ومع ذلك فهما –بعد هنيهة– ينسيان وجود الإنسان كلية، ويقيسان الحياة من خلال القيم الاقتصادية "المستقلة عن إرادة الإنسان" [كما يقول ماركس] والتي تفرض نفسها فرضا على حياة الناس. وكأنما يتصورونها قائمة بذاتها، وإنما تتخذ الناس فقط إطارا لقوتها ومظهراً لتحققها!! [كما يتصور المؤمنون قوة الله!].

والتفسير الجنسي للسلوك البشري كذلك يرى الحياة كلها من خلال ضرورات الجسد، ولكنه يحصرها في ضرورة الجنس، ويجعل الحياة كلها تنبثق من هذه الضرورة. وينفي حتى تأثير العوامل الاقتصادية والبيئية وتطور أساليب الإنتاج.. التي هي عماد التفسير المادي للتاريخ.

والتفسير الجمعي يتخيل –مثل التفسير المادي– وجود قوة مستقلة عن كيان الفرد قائمة بذاتها، كأنما بغير إطار!! وكأنما تتخذ الأفراد مجرد إطار لقدرتها! وهو بذلك يلغي ما للإنسان الفرد من حرية واختيار.. أي أنه في الحقيقة يشارك التفسيرين الآخرين في إهمال الجانب الروحي من الإنسان، الذي تتمثل فيه الإرادة والإيجابية والاختيار..

كلها اختلالات..

ولا تقل عنها اختلالا تلك المذاهب المثالية التي تركز على حقيقة الروح وحدها، وتنفي أو تستصغر حقيقة الجسد، وحقيقة ارتباط الروح بالجسد في كل نشاط يقوم به الإنسان.

المذاهب البوذية والهندوكية وما شابهها، التي ترى أن "الخير" هو سحق الجسد أو كبته وحرمانه، بحجة تطهيره، وأن القيم الروحية وحدها هي الحقيقة الجديرة بالاتباع.. تنسى كلها أنه لا وجود في كيان الإنسان للروح الخالصة الصافية التي يتخيلونا؛ وأن كل حركات التجويع والإنهاك والتحكم في الجسم –على كل ما تأتي به من "معجزات" روحية، كأولئك الذين يدخلون النار فلا يحترقون، أو يظلون بلا طعام شهورا ولا يموتون، أو يسيطرون بقوتهم الروحية على قوانين المادة– كل ذلك لا ينشئ مذهبا اجتماعيا، ولا يصلح للتطبيق في الحياة البشرية "على الاتساع". ومن ثم فكل ما تحمله تلك المذاهب من "القيم" لا يعيش في عالم الواقع، وليس له رصيد من الحق يعطيه قيمة في الحياة.

والمذهب الحق هو الذي يتمشى مع الفطرة الحقيقية للإنسان، ويعيش كذلك في واقع الإنسان.

فطرة الإنسان جسم وروح مترابطان ممتزجان. ومن ثم فكل مذهب يريد أن يتمشى مع الفطرة ينبغي أن يكون شاملا لهذين العنصرين، وشاملا لهما في حالة ارتباط وامتزاج.

ولكن..

من الذي يحكم هذا المزاج المترابط من قبضة الطين ونفخة الروح؟

تحكمه قبضة الطين؟ أم تحكمه نفخة الروح؟

هذه هي المسألة التي تحدد "القيم" كلها في حياة الإنسان.

إنها ليست –بادئ ذي بدء– مسألة الفصل بين الجسم والروح..

إن الله قد خلق الإنسان على هذه الصورة، لأنه –سبحانه– يريده على هذه الصورة! وجعل الخير كل الخير بالنسبة للوجود الإنساني أن يعمل الإنسان بكيانه المجتمع المترابط، لا بأي من عنصريه دون الآخر، ولا بالعنصرين منفصلين كل يسير في اتجاه.

إنما هي فقط مسألة من يحكم هذا المزاج المترابط المكون من الطين والروح..

وهنا ترجع المسألة إلى "النشأة التاريخية" للإنسان.. كيف صار إنساناً، ومتى صار..

"إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ".

هذه أولا قبضة الطين تُسوّى جسدا. ثم تنفخ فيه الروح العلوية. وهنا.. هنا فقط يلتزم الملائكة بالسجود –خضوعا لأمر الله– ولم يأمرهم بالسجود للجسد المسوّى على هيئة الإنسان.. وإنما بعد نفخة الروح العلوية فيه..

"فالقيمة" إذن في كيان الإنسان لم تنشأ من قبضة الطين. لم تنشأ من الوجود الجسدي..

وإنما نشأت القيمة حين تلبست نفخة الروح بقبضة الطين فغيّرت طبيعتها، فشفّت بالمعرفة والإدراك والإرادة والاختيار.. ولم يعد فيها ما كان فيها من قبل من صفاقة وعتامة وانطماس.

تلك هي النشأة التاريخية..

أي أن الإنسان يكون على فطرته الحقة —وهو مزاج مترابط من الجسد والروح– حين تمنحه الروح المعرفة والإدراك والإرادة والاختيار.. أي حين تحكمه الروح.

ولا يكون على فطرته السوية —وهو مزاج مترابط من الجسد والروح– حين يكون الجسد هو الحاكم، فيطمس إشعاعة الروح وشفافيتها، ويحجب المعرفة والإدراك والإرادة والاختيار.

هو في كلتا حالتيه مزاج مجتمع مترابط.. غير منفصل الأجزاء [ولا يحدث هذا الانفصال أبدا إلا إذا حدث اختلال في كيان الإنسان] ولكن هذا المزاج يكون محكوما بالجسد تارة، وتارة يكون محكوما بالروح.

ونعبر عن ذلك بقولنا إنه يكون شريرا تارة وخيّرا تارة.

شريرا حين يحكم الجسد مزاجه المجتمع المترابط، وخيّرا حين تحكم الروح هذا المزاج.

وليس هذا حكما تعسفيا مفروضا على الإنسان من خارج كيانه. وإنما هو الحكم الذي يتمشى مع حقيقة الفطرة، ومع النشأة التاريخية للإنسان.

والخير والشر بذلك يصبحان ذَوَيْ مفهومين واضحين محددين لا يلتبسان ولا يحار فيهما الإنسان.

حين يحكم الجسد هذا المزاج المجتمع المترابط فما الذي يحدث؟

إنه لا يلغي وجود الروح. ولكنه يطمس عليها بعتامة الطين، فتختنق وتُكْبتُ إشعاعاتها التي تمنح الطين خفة وشفافية وانطلاقاً.

الجسد يريد يأكل ويشرب و "يستمتع"..

وليس هذا "حراما" في ذاته. ولكنه، حين يصير الجسد هو المسيطر، ينقلب إلى "فاحشة" لأنه يزيد على القدر السليم المعقول الذي لا يعطب الكيان ولا يفسد "الجمال" الواجب في حياة الإنسان.

فما دام الجسد هو المسيطر، فسوف يسعى إلى الطعام إسرافا، وبغير تَوَخٍّ للنظافة والطهارة في اكتسابه، وبغير تحرز من ظلم الآخرين في سبيل الحصول عليه.. فينشأ عن ذلك الشر.

وما دام الجسد هو المسيطر فسوف يسعى إلى الجنس إسرافا وبغير تَوَخٍّ للنظافة والطهارة في الحصول عليه، وبغير تحرز من الاعتداء على أعراض الآخرن خلسة أو جهارا. فينشأ عن ذلك الشر[1].

وما دام الجسد –بنوازعه– هو المسيطر فسوف يسعى إلى السلطان إسرافا ليحقق لنفسه المتاع، وليضمن لنفسه الفائدة، دون توقٍ لظلم الآخرين وسحقهم إذا وقفوا في الطريق.. فينشأ عن ذلك الشر.

وصحيح أن شهوة السلطان تبدو أحياناً شهوة "نفسية" لا صلة لها "بالجسد" إذ تستولي على أفراد لا همّ لهم في الطعام والشراب أو الجنس، أو المتاع الجسدي على وجه العموم.. كما يحدث في الطغاة "المتقشفين" من أمثال هتلر وستالين.. وأن هذه الشهوة هي تضخيم "للإرادة" في كيان فرد يختل، أي تضخيم لسمة هي أصلا من سمات الروح.

ولكن هذا الذي يبدو في الظاهر ليس صحيحا في الحقيقة، فعلى الرغم من أن الإنسان يعمل دائماً –حتى في حالات اختلاله– بمزاجه المجتمع من الجسم والروح، إلا أن "السيطرة" على هذا النحو غريزة حيوانية، يمارسها الحيوان بكاملها، ويمارسها الإنسان المختل على صورة قريبة من الحيوان. و"الإرادة" التي تكوّن الطغيان هي إرادة النوازع المرتبطة بالكيان الحيواني وليست إرادة النوازع المرتبطة بكيان الروح. والحيوان يحب أن يسيطر بأن يقتل الآخرين أو يسلبهم غذاءهم أو أرضهم أو أمنهم وراحتهم.. ومن ثم تصبح السيطرة الطغيانية عملية حيوانية في أساسها، تجرجر الروح في ركابها، مقهورة مسلوبة مطموسة الإشعاع. ويستوي أن يكون الطغيان سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا.. فرديا أو جماعيا.. فهو أصل واحد متعدد الأشكال.

([1]) الجدل كله حول القيم الأخلاقية كامن في هذه النقطة. إذ يرى التطوريون والتقدميون أنه لا شر في الانطلاق الجنسي ولو وصل إلى آخر الحدود! والمسألة –فيما أرى– لم تعد في حاجة إلى جدل! فالأمم التي أباحت هذا الانطلاق الجنسي هي ذاتها التي بدأت تصرخ اليوم محذرة من نتائجه الخطيرة. وفي سنة واحدة [1962] صدر تصريحان خطيران أحدهما من خروشوف زعيم روسيا الشيوعية يقول إن الشباب الروسي مائع منحل متفكك غارق في الانحراف، وأنه لا يؤتمن –بذلك– على مستقبل روسيا! والآخر من كنيدي حاكم الولايات المتحدة يقول فيه إن الشباب الأمريكي شباب تافه تأكله المتع الجسدية الزائدة عن الحد وتفسد أخلاقه وتشيه فيه الطراوة والنعومة والشذوذ، فهو بذلك يشكل خطرا على مستقبل أمريكا! وكلا التصريحين ذو دلالة خطيرة في شأن "الحرية" الجنسية التي يراها هذا الجيل من البشرية خيرا، وتصرخ الوقائع بأنها شر لا خير فيه! [انظر بالتفصيل كتاب "التطور والثبات في حياة البشرية"].

وفي كل ذلك ينشأ الشر.. وينشأ من خضوع الكيان المجتمع المترابط لسيطرة الجسد.. ويكون شرا في جميع الأوضاع والبيئات، وجميع الأجيال و"الأطوار".. لأنه اختلال في ميزان "الإنسان".

* * *

أما حين تحكم الروح هذا الكيان المجتمع المترابط فإنه يحدث شيء آخر.

إن هذا أولا يكون الوضع "الطبيعي" للإنسان، الذي يتمشى مع نشأته التاريخية، ويحققها في كمالها.

وهو ثانيا لا يكبت الجسد ولا النشاط الجسدي [إلا في حالات الاختلال التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، ونحن هنا نتحدث عن الأوضاع السوية] وإنما ينظم فقط منطلقات هذا النشاط وينظفها ويضبطها.

إن حكم الروح للكيان الإنساني المترابط لا يمنع الإنسان من الطعام والشراب والجنس، والمتاع الحسي بكل أنواعه، وإنما يضيف إليه فقط متاعا روحيا لطيفا، يجعله شفافا رائقا، متحررا –إلى حد ما– من الضرورة القاهرة والقيد المتحكم.

إنه يأكل ويشرب –كما مر بنا– ولكن بلا إسراف. فسيطرة الروح تضبط هذا الإسراف وتنظمه، وإن كانت لا تكبته من أساسه. ثم لا يجعل الطعام والشراب هدفا في ذاته، وإنما وسيلة لحفظ الأود؛ وسيطرة الروح هي التي توقظ الإنسان للهدف من كل عمله يعمله، لأنها هي المنوطة بالوعي والإدراك. ثم يتحرى النظافة والطهارة في طعامه وشرابه؛ وسيطرة الروح هي التي تتحرز من القذارة الحسية والمعنوية، وتختار السلوك النظيف لأنها هي المنوطة بالاختيار. ثم هو يبعد عن نفسه الأثرة البغيضة، فيشرك معه غيره في طعامه وشرابه ["وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"] وسيطرة الروح هي التي تدفع إلى هذا البذل والإيثار، لأنها هي المنوطة "بالحب" الذي يتوجه للغير.

وينشأ من ذلك الخير...

خير لا يفوت الفرد ذاته –فهو يستمتع بالقسط المعقول من الطعام والشراب– ثم يصل كذلك للآخرين.

وهو يستمتع بمتاع الجنس بلا إسراف ولا فاحشة، ويستمتع به على مستوى المشاعر والعواطف لا على مستوى الجسد وحده، فيوسع مساحته في النفس، ويضيف إليه ألواناً من الجمال.

وينشأ من ذلك الخير..

الخير الفردي، بتمتيع كل فرد بنصيب معقول من المتاع. والخير الجماعي بحفظ المجتمع من الجريمة والتفكك والانحلال والهبوط والتفاهة، التي تصاحب دائماً الانفلات والإباحية في شئون الجنس.

وهو يملك.. ولكنه يتحرى النظافة فيما يملك، ويتحرى عدم إيقاع الظلم بالآخرين، ويتحرى التزكية لما يملك بإشراك الآخرين فيه.

وينشأ عن ذلك الخير..

الخير الفردي في الاستجابة لنزعة التملك الفطرية في الإنسان. والخير الجماعي بتكافل المجتمع وتعاونه، واشتراكه في الجهد والجزاء.

وهو يبرُز ويسيطر.. ولكنه يتحرى البروز النظيف والسيطرة في سبيل الخير: ["وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً"[1]. "وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ"[2]] البروز الذي لا يتم بتحطيم الآخرين وسحقهم، وإخضاعهم لنزوات إنسان. والسيطرة التي توجّه إلى الحق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر..

وينشأ عن ذلك الخير..

خير فردي بإعطاء الإنسان شخصية إيجابية فاعلة متحركة نشيطة منتجة، مستمتعة راضية. وخير جماعي، بتوجيه المجتمع نحو الخير، وتقليل فرصة الظلم والطغيان التي تنشأ من وجود مجتمع خانع سلبي يستسلم لكل طغيان.

وسيطرة الروح هي المنظم لكل ذلك، والضامن له في داخل النفس وواقع الحياة.

([1]) سورة الفرقان [74].

([2]) سورة المطففين [26].

وفي كل ذلك لا يكبت نشاط الجسم، ولا تمتنع لحظات "الجنوح" الطبيعية التي يجنح فيها الإنسان بجسده في لذة أو متاع.. وإنما ينطلق الجسم والروح ما تزال ممسكة بالقياد، فتسمح بالمتاع ولكنها تمنع الفحش والإسراف.

وفي كل ذلك يكون الخير صادراً عن الكيان الطبيعي للإنسان.. حسب تركيبه الأول الذي خلق به بادئ ذي بدء ["لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"][1] ويكون متمشياً مع الفطرة السوية التي ليس فيها اختلال، ولا هي مضغوط عليها من الخارج بشيء لا يناسب طبيعتها.

ويكون ذلك الخير خيراً في جميع الأحوال والملابسات، والأطوار والبيئات.. لأنه ناشئ عن الحقيقة الطبيعية "للإنسان".. الإنسان عامة في كل زمان ومكان.

* * *

والإنسان –بطبيعته المزدوجة– قابل قبولا طبيعياً أن يتخذ هذا الوضع أو ذاك: وضع سيطرة الجسم على الكيان الممتزج، أو سيطرة الروح. أي أنه مشتمل –بصورة طبيعية– على استعداد للخير واستعداد للشر: ["وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"[2]. "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً"[3]. "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"][4].

بل إنه –حين يترك وشأنه– أكثر ميلا لأن يستجيب لثقلة الطين: ["وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً"[5]. "لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ"[6]].

ومن ذلك ينشأ الشر في حياة الإنسان ويملأ وجه الأرض: ["ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ"][1].

([1]) سورة التين [4].

([2]) سورة البلد [10].

([3]) سورة الإنسان [3].

([4]) سورة الشمس [7–10].

([5]) سورة النساء [28].

([6]) سورة التين [4–5].

وليس هذا الشر ناشئاً من الاستجابة إلى دوافع الجسم. فهذا بذاته لا ينشئ شرا، بل ينشأ عنه الخير حين يكون في الصورة التي وصفناها من قبل.

إن الجسم ليس شريراً بذاته، ولا منبوذاً ولا محتقراً ولا ساقطاً من الحساب. فهو لم يخلق عبثاً.. تعالى الله عن العبث وعن عدم القصد.. وإنما الجسم هو وعاء الطاقة الحيوية العاملة النشيطة التي تعمّر الأرض، وتستخرج كنوزها وتستغل طاقاتها، وتنشئ وتبني وتنتج، فتسمح للحياة الإنسانية بالوجود والبقاء، والامتداد والارتقاء..

والاستجابة لدوافع الجسم هي التي ينشأ عنها الوجود والحركة والعمل والإنتاج.. وكل ذلك مطلوب ومقصود، لأنه الأداة التي تقوم عليها خلافة الإنسان عن الله في الأرض، والتي بغيرها لا يكون لهذه الخلافة معنى ولا وجود.

فليس الجسم ولا الاستجابة لدوافعه هما منبع الشر في حياة الإنسان.

إنما الشر –كما أسلفنا– ينشأ من تولي الجسم قيادة الكيان المجتمع المترابط الذي ينبغي أن تتولى قياده الروح، بحكم النشأة الطبيعية التي جعلت الإنسان إنساناً، ورفعته عن الحيوان، وقد كان قمينا أن يكون حيوانا لولا تلك النفخة العلوية في قبضة الطين.

وحين يلغي الإنسان كيانه الروحي [وهو تعبير مجازي، لأنه لا يحدث –بغير خلل وظيفي– أن يصبح الإنسان جسدا خالصا بغير روح] أي حين يجعل الجسم هو صاحب القياد، فتنطمس إشعاعة الروح المضيئة وتبو في عتامة الطين.. فحينذاك ينشأ الشر، وحينذاك يهبط الإنسان إلى مستوى أسوأ من مستوى الحيوان رغم أنه ما زال محتويا على عنصر الروح!

يهبط.. لأنه لا يستخدم طاقات روحه:

"لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"[2].

والإشارة إلى القلوب والأعين والآذان ليس المقصود بها الحواس الظاهرة بطبيعة الحال، وإنما المقصود ما وراءها من وعي وفهم وإدراك، والاستفادة بما يُرى ويُسمع ويُحس، في انتهاج النهج السوي واتخاذ الطريق المستقيم.

([1]) سورة الروم [41].
([2]) سورة الأعراف [179].

عندئذ يصبح الإنسان كالأنعام [أي كالحيوان] بل أضل.

أضل لأن الحيوان من ناحية ليس مطالبا بالارتفاع ولا قادرا عليه. وإنما هو على فطرته الطبيعية حين يأتي ما يأتي من أعمال. وليس من شأنه أن يقدّر "قيما" لأعماله. ومن ثم فهو لا يخالف عن طبيعته ولا عن الدور المقدر له في الحياة. والحيوان من ناحية أخرى له غريزة تضبط أعماله وتقف بها عند الحد الملائم لفطرته، فتمنع عنه الإسراف والشطط بالنسبة للمقاييس الحيوانية وبالنسبة للقصد الذي يقصده الخالق منه، وإن كان الحيوان ذاته يأتيه بلا عي ولا اختيار.

أما الإنسان الذي لا يستفيد بطاقات روحه –مع أنه ما زال محتويا على عنصر الروح– فهو أضل. لأنه يخالف فطرته السوية ويهبط عنها، وفي الوقت ذاته يسرف ويشتط، لأنه –وقد عطّل الضابط الإرادي الذي وهبه له الله متمثلا في نفخة الروح– لا يملك الضابط الغريزي الذي يضبط تصرفات الحيوان.

ويكون ذلك شرا لا شك فيه، وانحرافا عما ينبغي أن يكون عليه الإنسان.

ولكنه كما قلنا انحراف "طبيعي" إذا ترك الإنسان وشأنه، لأنه –وهو مشتمل على استعداد الخير واستعداد الشر– قمين في هذه الحالة أن ينقلب وينتكس إلى أسفل، بسبب ثقلة الطين.. وعندئذ تصدق عليه كل التفسيرات المنحرفة التي تصور الحياة البشرية في صورة حيوانية، كالتفسير المادي للتاريخ، والتفسير الجنسي للسلوك البشري..

ولكن الله لا يترك الإنسان وشأنه..!

لقد خلقه. وهو يحبه ويعطف عليه ويريد له الخير..

ولذلك يرسل الرسل يعرّفونه المنهج الصحيح ويردونه إليه..

والرسالات إذن ذات مهمة رئيسية في حياة البشرية، وليست نافلة تستغني عنها حين تريد.

والإنسان إما أن يهتدي بهذا الهدي الإلهي، فيجعل لروحه قياد كيانه الممتزج المترابط، ويكون في وضعه الصحيح بالنسبة للفطرة، وإما أن يرفض الهدى، ويجعل القياد لجسمه وشهواته، فهو كالأنعام بل هو أضل. وهو منتكس بروحه إلى أسفل، وغارق بكيانه في الطين.

وهذا هو التفسير "النفسي" للخير والشر في كيان الإنسان.. وهو تفسير واضح بسيط، لا يتخبط تخبط "الفلسفات" التي تشطح هنا وتشطح هناك، وتتجافى المنبع الأصيل الذي ينبغي أن ترجع إليه في قياس الخير والشر في كيان الإنسان.. وهو فطرة ذلك الإنسان!

الثابت والمتطور في كيان الإنسان

علم النفس يرسم الإنسان في صورة ثابتة كأنه ذو كيان ثابت لا يتغير على مدار القرون والأجيال.. فهل هذه حقيقة؟

هل إنسان الغابات كإنسان المراعي كإنسان الزراعة كإنسان الصناعة كإنسان العصر الذري والسفر بين الكواكب؟ وهل من المعقول أن ما ينطبق على واحد من هذه الأناسي ينطبق على الآخرين؟

وما قيمة التقدم والتطور إذن؟ وما دوره في حياة البشرية، إذا كانت البشرية ستظل ثابتة على ما هي عليه في كل التاريخ؟

هذا السؤال —أو هذا الاعتراض– تعترض به المذاهب الاجتماعية الحديثة التي تبنى مباحثها كلها على أساس فكرة التطور، وتصل —من زاوية نظرها الخاصة– إلى أنه لا وجود لشيء ثابت في حياة الإنسان، ومن ثم فلا توجد —في رأيها– أية مقاييس ثابتة يقاس بها نشاطه العقلي أو النفسي أو المادي.. ولا يصح أن ترسم له صورة ثابتة. وإنما ترسم صورة للوجه الموجود في هذه اللحظة —أو في هذا الجيل– وهي عرضة لأن تتبدل غدا، وتصبح غير ذات موضوع

هذه النظرة "الحديث" للموضوع متأثرة دون شك بنظرية دارون، الذي ألغى فكرة الثبات إطلاقا، والذي قال إن الأصل الذي نشأ عنه الإنسان بمفهومه الحالي مختلف أشد الاختلاف عن "الإنسان". وإن ما يسمى بالإنسان فعلا، قد تطور تطورات شتى حتى صار إلى ما هو عليه اليوم. وإنه بناء على ذلك لا ينبغي أن يُنظر إلى الإنسان الحالي بأكثر من أنه طور انتقالي في حياة هذا المخلوق، يمكن أت يتطور غدا إلى شيء آخر مختلف عنه.

وقد أخذت المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الحديثة عن هذه النظرية بلا تحفظ.. لأنها أُخِذَت بها بادئ ذي بدء على أنها الكلمة النهائية في الموضوع! ولأن هذه المذاهب ولدت في عصر الانقلاب الصناعي في الغرب، الذي غيّر صورة الحياة تغييرا شاملا، وغيّر علاقات الناس بعضهم ببعض، كما غير تقاليدهم وأخلاقهم وعقائدهم في هزات عنيفة متوالية، خيّلت لمن يشاهدها من الظاهر أنها تنشئ الإنسان إنشاء من جديد، وتبت ما بينه وبين ماضيه، وتعده في الوقت ذاته لمستقبل قد يكون مقطوع الصلة بحاضره!

ثم كانت الفتوح العلمية المتوالية التي ساعدت من جانبها على تغيير صورة الحياة تغييرا شاملا، حتى خيّلت للناس أن "العلم يعيد إنشاء الحياة" كما يقولون، وأن الإنسان، صاحب هذا العلم وصانعه، لم يعد مقيدا بشيء.. ولا بذات نفسه! وأنه غدا سيصنع نفسه! [Man Makes Himselfعنوان كتاب من تأليف جوردون تشايلد V. Gordon Childe] وسيكيف دوافعه وأهدافه غير متقيد بما كان يسميه من قبل "الطبيعة" وينسب إليه الإبداع والخلق.. فقد سيطر الإنسان على الطبيعة، وصار –كما يقول جوليان هكسلي في كتابه "الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World– صار الإنسان هو الله المنشيء المريد! [ص224 من الترجمة العربية].

بمثل هذه النظرية المبهورة اللاهثة نظر الإنسان إلى "التطور".. ففقد نفسه وفقد رشده! وظن أنه لا يوجد مقياس ثابت للنفس الإنسانية، ولا لشيء البتة في حياة الإنسان..

ولكنه –لأكثر من سبب، وفي أكثر من جانب– بدأ يفيق! وبدأ يعدل نظرياته.. وإن كان لم يفق بعد إفاقة كاملة، ولم يستطع التغلب الكامل على البهر الذي أصابه في القرن الماضي وبداية القرن العشرين.

فالداروينية الحديثة –التي يمثلها جوليان هكسلي وغيره من العلماء– لم تعد تؤمن –رغم إلحادها بالله– أن الإنسان مجرد حيوان متطور بلا زيادة، يتطور على قاعدته الحيوانية التي صدر عنها [في رأي دارون] وإنما تؤمن بأنه ذو خصائص منفردة متميزة. وأنه يتطور على قاعدته الإنسانية الواضحة الخطوط والسمات، التي تتميز بخصائص معينة أهمها:

"قدرته على التفكير الخاص والعام –التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان– وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (الجماعة الدينية) وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها" ثم "أنه لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره[1]".

وليس يهمنا هنا أن نناقش فكرة التطور من أساسها، ومدى صحتها العلمية. فالعلماء البيولوجيون يتولون ذلك، ويناقشون بالفعل أسس النظرية على ضوء الأبحاث العلمية الحديثة.

([1]) من كتاب "الإنسان في العالم الحديث" تأليف جوليان هكسلي، ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر.

وإنما يهمنا أن نثبت نقطة واحدة من كلام الداروينية الحديثة هي القاعدة الإنسانية للإنسان التي يتطور على أساسها. فهناك إذن على أقل تقدير خطوط عريضة ثابتة في الكيان الإنساني، يزيدها التطور ثباتا ورسوخا وتعمقا نحو الإنسانية، ولا ينحرف بها خارج نطاق الإنسان..

تلك نقطة رئيسية في البحث..

ثم هناك مجموعة من الحقائق الهامة في الموضوع.

إن التغير الاقتصادي والاجتماعي والحضاري والعلمي الذي حدث في القرنين الأخيرين، والذي ظل مستمراً في الحقيقة منذ بداية عهد الإنسان إلى العصر الحاضر، قد غبّر "صورة" الحياة ولم يغبر جوهرها...

ولنأخذ مثلا رغبة اتخاذ السكن..

إنها رغبة فطرية.. يحققها إنسان الغابات باتخاذ "عش" معلق في الشجرة، وإنسان المراعي باتخاذ مثابة من البوص والغاب، وإنسان الزراعة بكوخ من الطين، وإنسان المدينة ببيت مشيد أو عمارة.. وقد يتخذ إنسان الفضاء غدا سفينة فضاء يسكن فيها وينتقل بها بين الكواكب.. فما الذي تغيّر؟

تغيرت "الصورة" التي تتحقق بها الرغبة الفطرية. تغيرت بتغير الإمكانيات المادية والعلمية، وتطور قدرات الإنسان العقلية والفنية. ولكنها ظلت في خطها الأصيل. وحين تطورت، تطورت على قاعدتها الإنسانية المتخصصة، لا على أي قاعدة أخرى [الحيوان لا يطور مسكنه!] والقاعدة الإنسانية هنا ترتكز على ركائز إنسانية متفردة هي القدرة على استخدام الأدوات والاستفادة من "الأفكار" السابقة، ثم النزعة إلى "الجمال"، التي تسعى دائماً لتجميل ما هو كائن بالفعل، لتصل به إلى "الكمال" بقدر ما يتحقق في عالم الإنسان.

الجوهر إذن لم يتغير، وإنما "تطور" على خط امتداده الأصيل، الذي ترسم إمكانياته فطرة الإنسان ذاتها، وليست هناك عوامل أخرى غير فطرة الإنسان هي التي أحدثت التطور. فالكون المادي.. أو القوى المادية التي يعزو إليها التفسير المادي للتاريخ كل تطور في حياة الإنسان.. هذه القوى موجودة بالنسبة للحيوان.. والحيوان يتطور فيما يقول دارون.. ولكنه —على فرض صحة النظرية– يتطور على قاعدة حيوانية لا تشبه في شيء تطور الإنسان..

ومن ثم فالعنصر الفعال في الأمر هو الإنسان. الإنسان بفطرته المنفردة، المتطورة في حدود هذه الفطرة وعلى خطوطها الأصيلة، والتي تزداد –كلما تطورت– رسوخاً وتعمقاً في القاعدة الإنسانية، لا تحيد عنها إلى فطرة أخرى، أو تسير بلا هدى من خطوط الفطرة الأصيلة!

ولنأخذ رغبة اللبس..

إنها رغبة أخرى فطرية.. يحققها سكان الغابات بمنطقة من الجلد أو الريش تستر العورة، ويحققها البدوي غزلا خشناً من الصوف، ويحققها المدني نسيجا متقنا وأزياء متفننة.. فما الذي تغيّر؟

تغيرت الصورة التي تتحقق بها الرغبة الفطرية بتغير الإمكانيات المادية والعلمية وتطور قدرات الإنسان.. ولكنها تتغير وتتطور على قاعدتها الإنسانية المتخصصة المتفردة، المرتكزة على ذات الركائز الإنسانية: القدرة على استخدام الأدوات، والاستفادة من الأفكار السابقة، والنزعة إلى الجمال...

ثم تنحرف هذه الفطرة في العالم الغربي فتنتكس نحو العرى.. فهل يعتبر ذلك إلغاء للفطرة أو إعلانا عملياً بعدم وجودها؛ وأن الأمر في مسألة اللبس متروك "للتطور" الاجتماعي الذي لا يرتكز على أساس ثابت؟!

هذا هو الوهم الذي يقع فيه بعض "علماء" الغرب الحديث..

فهذا "التطور" المزعوم –رغم انحرافه عن الفطرة وانتكاسه– لم يغادر ركيزته الإنسانية المتخصصة مغادرة كاملة. فالمرأة التي تتعرى في الغرب الحديث تظن أنها هكذا أجمل.. فهي إذن نزعة جمالية.. لكنها منحرفة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فما زالت –فيما عدا حالات الشذوذ المرضي– تستر ذات الأماكن التي اتجهت الفطرة إلى سترها منذ بدء التاريخ الإنساني ["فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ"][1].

([1]) سورة طه [121].

والأمر الثالث –الذي سنتحدث عنه في النقطة التالية– هو أن هذا الانحراف عن الفطرة لم يسعد البشرية.. وإنما أحدث لها القلق والاضطراب.. لأنه خروج على الفطرة، وكل خروج على الفطرة لا بد أن يحدث في النهاية الشقاء!

إنما نريد أن نقول قبل الانتقال إلى هذه النقطة، إن الدوافع الفطرية كلها التي تحدثنا عنها على أنها "مكونات" النفس الإنسانية لم ينلها أي تغيير جذري حين تغيرت صورة الحياة في القرنين الأخيرين هذا التغير الشامل.. وإنما تغيرت فقط الصورة التي تتحقق بها الرغبة الفطرية دون تغيير في منبعها ولا في خط تطورها المرسوم من لدن الفطرة التي فطرها الله.

فما زالت الرغبة الدافعة الأولى هي حب الحياة.. يتخذ صوراً شتى ولكنه هو هو حب الحياة والتشبث بها والرغبة بالاستمتاع بما فيها من متاع.

وما زالت الرغبة في حفظ الذات، وما يتفرع عنها تفرعاً مباشراً من مطعم ومشرب وملبس ومسكن.. هي ذاتها لم تتحور، ولم تتحول عن وجهتها، وإنما تغيرت الصور التي يحفظ بها الإنسان ذاته..

وما زالت رغبة الجنس هي رغبة الجنس الفطرية العميقة في كيان الجنسين..

وما زالت رغبة الاقتناء والملك هي رغبة الاقتناء والملك. وحين حاربتها الدول الشيوعية وحاولت استئصالها من النفوس تغلبت الفطرة في نهاية الأمر، واضطرت الدول الشيوعية إلى التزحزح عن موقفها المعاند، فأباحت اقتناء بعض الأشياء، وأباحت اختلاف الأجور بين الطبقة الواحدة، لمن شاء من العمال والصناع أن يبذل مزيداً من الجهد ليحصل على مزيد من الأجر "يقتني" به ما يباح اقتناؤه من الأشياء!

وما زالت نزعة القتال هي نزعة القتال.. تتخذ صوراً شتى.. من أول المباريات الرياضية إلى التهديد بتدمير العالم كله بالصواريخ!!

وما زال حب البروز هو حب البروز.. يتخذ صوراً شتى.. من "خدمة الجماعة" إلى الدكتاتورية والطغيان!!

فحين نقول إن هذه هي "الدوافع الفطرية" في كيان الإنسان، فما الذي تغيّر إذن في كيان الإنسان حين انتقل من حياة الغابة إلى غزو الفضاء؟!!

والنقطة الثالثة التي أشرنا إليها آنفاً هي أن الفطرة قد تنحرف انحرافاً قاسياً عن خط سيرها الأصيل.. ولكنا نخطئ إذا ظننا أن هذا الانحراف "تطور" أصاب الفطرة في جوهرها فغيّر مسارها.. والأمر ليس متروكا لأوهامنا نتخيل كيف نشاء.

ففي الفطرة مثلا حياء جنسي يجعل الأنثى تظهر ثم تختفي ليبحث عنها الرجل ويتعب في البحث عنها حتى يملكها في النهاية. ولهذه الفطرة حكمتها.. فهي تضمن للأنثى –فطرياً– أن تحصل على رجل يستحق أن تكل إليه أمرها وتهبه نفسها، بعد أن يثبت أنه أهل لذلك. وتضمن لها فطرياً كذلك ألا ينصرف عنها حين يجدها سهلة بين يديه يحصل عليها بأقل الجهد. وقد تدرك الأنثى هذه الفطرة إدراكا واعيا وقد لا تدرك.. ولكنها –على فطرتها السوية– تنصرف دائما بموجب هذه الفطرة وعلى خطوطها المرسومة.

ثم جاء العصر الحديث "فحرر" المرأة..

وقد تحدثت في كتاب "معركة التقاليد" عن قصة التحرر هذه، فلن أعيدها في هذا المكان. وإنما نأخذ الأمر من واقعه الحالي.. تحررت المرأة وتعرت في ذات الوقت. وفقدت –في الغرب المتحضر– حياءها الجنسي، فصارت في كل ملبسها وحركاتها وتصرفاتها تعمل –علانية– على إغراء الرجل، ودعوته –بشتى السبل– أن يقضي معها دافع الجنس.

فما الذي حدث؟!

حدثت نتائج عظيمة الخطورة من وجهة النظر التي نبحث فيها..

حدث أن الرجل –في أمريكا المتحررة إلى أقصى حد، وفي دول الشمال في أوربا كذلك –صار هو الذي يتدلل و"يتعزز!" والأنثى تجري وراءه وترتمي في أحضانه. ليقبّلها.. ذلك أنه انصرف عنها حين ابتذلت نفسها له وخلعت حياءها الفطري، الذي كان يضمن لها –فطريا– أن يكون الرجل هو الذي يسعى إليها!

وصارت الفتاة –في حلبات الرقص هناك– تتودد وتتظرف لتحصل على رقصة من شاب، فإذا أخفقت كل محاولات الإثارة والإغراء انكفأت تبكي في مرارة.. علنا في المرقص.. لأنها لم تنل أحد الشبان!

فهي إذن لم تسعد حين غادرت خط فطرتها الأصيل، وإن توهمت أنها تحصل على متاع بغير حد!

وحدث أن خرج جيل من الأولاد الذكور مخنثين ومصابين بنسبة عالية من الشذوذ الجنسي في ذات البلاد التي خلعت المرأة فيها حياءها ونزلت إلى السوق تصطاد هي الرجال! والعلاقة دقيقة ومتشابكة بين خروج المرأة هكذا وانتشار الشذوذ الجنسي في الأجيال الحديثة في أوربا وأمريكا.. فالطفل الذكر يتلبس لا شعوريا بشخصية أبيه بوصفه الجنس الغالب. وذلك جزء من الفطرة! فلما تحررت المرأة، وخلعت –فيما خلعت– حياءها، وصارت تشبه الرجل أو تريد أن تشبهه في كل شيء، تشوش الأمر في نفس الطفل الذكر، وصار يتلبس –لا شعوريا– بشخصية أمه بوصفها الجنس الغالب على الوضع الجديد! فينشأ –من الوجهة النفسية– خليطا شاذا من شخصيته المذكرة الأصيلة وشخصية أمه المؤنثة، فيصبح شديد الاستهداف للشذوذ الجنسي[1]!

فالأجيال الناشئة لم تسعد إذن حين غادرت الأم خط فطرتها الأصيل..

وحدث أن فسدت الحياة الأسرية فارتفعت نسبة الطلاق في أمريكا إلى 40%، وهي نسبة بشعة جدا، معناها تهدم الأسرة وانحلال روابطها وشقاء زيجاتها وعدم استقرارها. وهو أمر شديد الاتصال بالفتنة الدائمة التي تقدمها المرأة للرجل [والرجل للمرأة] الفتنة التي تجعل متاع الحس هو مقياس الحياة، وتجعل الزواج يبدو شيئا بليدا خامدا لا فتنة فيه ولا إغراء! فما أسرع ما تنفصم العرى ويبحث كل من الزوجين عن صيد جديد. فإذا حالت قوانين الدولة دون الطلاق –كما في الدول الكاثوليكية– حدث ما هو أشنع من الطلاق، وهو المحافظة على الرباط الرسمي مع اتخاذ العشاق والعشيقات للهرب من جحيم الأسرة المفككة العواطف النافرة القلوب!

فالرجل والمرأة كلاهما لم يسعدا إذن حين خرجت المرأة عن خط فطرتها الأصيل!

وبعد ذلك ومعه، ذلك الاضطراب والقلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية وضغط الدم والانتحار والجنون.. أعراض مصاحبة كلها للخروج على الفطرة السوية، تدل دلالة واضحة على شيئين معا: الأول أن هناك فطرة يشقى الإنسان شقاء بالغا حين يخالفها. والثاني أن الانحراف عن الفطرة لا يكوّن فطرة جديدة للإنسان.. ولا يلغي واقع الفطرة الأصيلة، أو يجعل الإنسان بلا فطرة على الإطلاق!

---

(1) هذه التجربة الجديدة في الغرب لم تبحث هناك بحثا كافيا من الوجهة النفسية. ولكنها حكمة قديمة يعرفها الشرق، حين يقول عن الولد المائع المخنث إنه "تربية أمه"! وهي حقيقة نفسية عميقة.. مع اختلاف الظروف الظاهرية في الموضوع!

وفوق ذلك جميعا.. فلا ينبغي أن ننسى أن هذا الانحراف كله لم يأت به "التقدم" الصناعي، ولم تأت به الحتمية التاريخية والاقتصادية ولا المادية.. وإنما جاء من أن دفعة فطرية أصيلة هي دفعة الجنس قد انحل عقدها وانفلتت من القيد! أي أن انحراف الفطرة قد جاء من داخل الفطرة لا من خارجها كما يحب أن يزعم التطوريون وهواة التفسير المادي والاقتصادي للتاريخ! وقد سبق أن بينا في فصل الانحراف والشذوذ كيف يحدث انحراف الفطرة حين يساء توجيهها أو لا توجّه على الإطلاق!!

فالفطرة إذن شيء حقيقي واقعي له وزن وثقل.. حتى في حالات الانحراف.

والأمر الأخير أن في الإنسان قدرا ضخما من المرونة يخيّل لمن يأخذ الأمر من ظاهره أنه ليس للإنسان كيان ثابت، وأن التطور المادي والاقتصادي هو الذي يصنع الإنسان، على غير قواعد ثابتة ولا نمط معروف.

ولسنا هنا نتحدث عن الانحرافات. بل نتحدث عن حالات نفترض أنها كلها سوية طبيعية.. فما الذي يحدث في حقيقة الأمر حين ينتقل الإنسان من طور اجتماعي إلى طور؟

قلنا من قبل إنه يغيّر فقط صورة الدافع الفطري لا حقيقته الجوهرية.

ونزيد هنا أن في الإنسان جوانب كثيرة متعددة وطاقات مختلفة قد لا تعمل كلها في وقت واحد، لأن الإمكانيات الحضارية، ولأن التوجيه القائم لا يحركانها للعمل جميعا.

ونشبه الأمر بما يحدث في الجسم لتتضح الصورة..

في الجسم مئات من الأعضاء والأحشاء المفروض فيها أن تعمل جميعا في وقت واحد. ولا يكتمل نشاط الجسم وقيامه بوظائفه الحيوية إلا بعملها جميعا في مجالاتها المقررة. ولكن يحدث في عالم الواقع أن يدرب الإنسان بعض عضلاته فتنمو نموا بارزا، ويهمل أخرى فتضر عن حجمها "الطبيعي". أو يكسل عضو من الأعضاء الداخلية فلا يفرز إفرازه الكامل، أو ينشط نشاطا زائدا فيفرز زيادة عن المقرر.. فهذا كله لا يعني أنه لا توجد مقاييس ثابتة لمكونات الجسم البشري ووظائفه ونشاطاته! وإنما يعني فقط تلك الحقيقة: وهي النمو البارز هنا والضمور هناك.. وحقيقة إن الظروف الخارجية هي التي تصنع ذلك بالجسم. ولكن لا يقول أحد إن هذه الظروف قد خلقت عضوا جديدا أو أزالت أحد الأعضاء!

ونعود إلى عالم النفس..

هناك جوانب متعددة في النفس ووظائف متعددة..

وهناك مرونة تسمح ببروز أحد الجوانب بروزا ثابتا أو مؤقتا، وانحسار أحد الجوانب كذلك.. وهناك ظروف خارجية دائمة تؤثر في حياة الإنسان.. وتوجيهات خارجية دائمة..

ويحدث أن تعمل هذه الظروف والتوجيهات على إبراز جانب معين من الإنسان وإخفاء جانب أو إضعافه..

فعندئذ لا ينبغي أن يقال: إنه لا يوجد كيان ثابت للإنسان، ولا مقاييس يقاس بها نشاط الإنسان!

وإنما تقال فقط هذه الحقيقة: وهي بروز جانب هنا، وانحسار جانب هناك!

وعندئذ لا ينبغي أن يقال إن الظروف الخارجية هي التي تنشئ هذا الجانب في النفس أو تزيله من الوجود، إنما يقال فقط إنها تقويه أو تضعفه.. ولكنه كائن في صميم الفطرة، كامن أو في حالة بروز!

وهناك محك بسيط لهذه الحقيقة.. إن الظروف الخارجية لا يمكنها مهما أوتيت من سطوة وضغط أن تنشئ في كيان الإنسان شيئا ليس فيه استعداد سابق إليه!

والتجربة الشيوعية تنبت ذلك..

لقد حاولت القضاء على رغبة الملك، بكل ما تملك من سطوة وقوة وطغيان. حاولت أن تنشئ كيانا نفسيا ليست فيه هذه الرغبة.. ولكن لأن هذه نزعة فطرية، لم تستطع القوة القاهرة كلها أن تنزعها من النفوس!

وحاولت الرهبانية من قبل قتل الدفعة الفطرية للجنس.. ولكن لأن هذه نزعة فطرية، لم تستطع الرهبانية أن تنزعها من النفوس. ثم انتكست الرهبانية ذاتها إلى جرائم جنسية بشعة في داخل الأديرة والصوامع، ترتكب فيها المحرمات كلها من سوية وشاذة.. الرهبان والراهبات سواء!

وحاولت الدكتاتوريات النازية والفاشيّة والشيوعية أن تقتل النزعة الفردية في النفوس لحساب النزعة الجماعية.. ولكن لأنها نزعة فطرية، أخفقت هذه المحاولات كلها، وعمدت هذه الدول إلى التنفيس عن النزعة الفردية المكبوتة —وإن يكن في غير الميدان السياسي!-

فأفسحت المجال للهو والعبث تنساق فيه الشعوب من ناحية، وخلقت اهتماما مصطنعا زائدا بالألعاب الرياضية والمباريات يجد فيه الأفراد منطلقا لنزعتهم الحبيسة!

وحاولت الهندوكية أن تنشئ إنسانا بلا دوافع! إنسانا بلا جسد! إنسانا يعبر عن إشراقة الروح الصافية منفصلة عن قبضة الطين.. ولكن، لأنه لا يوجد استعداد في نفس الإنسان لأن يكون كذلك، أخفقت هذه المحاولة ولم تصنع شيئا إلا السلبية المريضة في نهاية المطاف!

وهكذا تغلب الفطرة دائماً جميع التوجيهات والظروف المضادة لاتجاهها، المنافية لطبيعتها، ولو خضعت لضغطها القاهر فترة من الوقت تقصر أو تطول! وإنما الظروف والتوجيهات كما قلنا تعمل في حدود تقوية بعض الجوانب الموجودة بالفعل وإضعاف بعضها الآخر.. فما الدلالة التاريخية والإنسانية لهذا الأمر؟

دلالته أن وجود جوانب ناقصة أو ضامرة في العهود التاريخية التي سبقت فترة الرشد في حياة الإنسان، ليس معناه أن هذه الجوانب لم تكن موجودة أصلا، فاستحدثتها الظروف المادية والاقتصادية والاجتماعية والتقدم العلمي، وإنما معناه أنها كانت كامنة فأظهرتها هذه الظروف، أو غير مكتملة النمو فأكملت الظروف تنميتها. وليس معناه كذلك أن كيان البشرية يتغير في جوهره بتغير الظروف. فالخطوط الرئيسية لم تتغير. وإنما تغيرت الصور التي تعبر عنها، وتغير كذلك مدى القوة في التعبير.

ودلالته –بعد أن بلغت الإنسانية رشدها– أن ينبغي لها أن تنظر في نظمها وتوجيهاتها، فتجعلها شاملة للكيان النفسي كله، وعلى وضعه الفطري الصحيح. فلا تبيح الانحراف على أنه تطور، ولا تبيح وجود فراغ في جانب من جوانب الإنسان الفطرية ونشاطاته المتعددة، بحجة أن التطور قد أبطله فلم يعد له وجود. ولا تحلم حلما فارغا بأن في استطاعتها أن تخرج على خطوط الفطرة، أو تنشئ فطرة جديدة، أو تنشئ إنسانا لا فطرة له.. فكل هذه أوهام أنشأتها البهرة بالعلم، والتغير الظاهري الذي حدث في صورة الحياة في القرنين السابقين. ولكن التجارب ذاتها التي حدثت في هذين الجيلين تثبت عمق الفطرة وثقل واقعها، ورسوخها في كيان الإنسان.

* * *

وخلاصة هذا الحديث كله أن علم النفس حين يرسم صورة ثابتة للكيان النفسي للإنسان، فهو لا يخالف الحقيقة.

وهو كذلك لا يمنع احتمالات التطور ولا ينفيها من حسابه..

إنما يجعل في حسابه أن هذا التطور يشمل الصورة ولا يؤثر في الجوهر. وعلم النفس ليس موكلا بالصورة إلا بمقدار ما تعبر عن الجوهر. فلا يهمه أن تكون الصورة التي يرسمها صورة الأمس أو اليوم أو الغد.. إنما يهمه في كل حالة أن يرى إلى أي حد تعبر هذه الصورة عن الجوهر السوي، وإلى أي حد تنحرف عن مسارها الصحيح.

ومرجعه في ذلك هو الفطرة.. كما هي في شمولها وانفساح جوانبها. الفطرة التي تستمد من حياة الأجيال كلها، لا من جيل واحد معين، والتي تدل الدلائل على وجودها وثقل واقعها، والتي تثبت التجربة أن الخروج عليها لا يسعد البشرية ولا يريحها، وإنما يشقيها ويعذبها.. ثم تثبت التجربة أخيرا أنها تغلب كل محاولة للقضاء عليها أو إساءة توجيهها، وترتد –ولو بعد أجيال عدة ومحاولات قاسية– إلى أصلها الحقيقي، في ثورات سلمية أو دموية، ترفع فيها ما وقع عليها من ضغط، وتنفض عنها ما وقع من انحراف!

التفسير الإنساني للإنسان

يقول جوليان هكسلي في كتابه "الإنسان في العالم الحديث": إنه "بعد دارون لم يعد في وسع الإنسان ألا يعتبر نفسه حيواناً"!.. وتلك ملاحظة صادقة بالنسبة للداروينية ونظرتها للإنسان. فمما لا شك فيه أن دارون قد رد الإنسان حيوانا، ثم لم يرفعه من وهدة الحيوانية التي أنزلها إليها، برغم أن إيحاء نظرة "التطور" ذاتها كان يقتضي إعطاء الإنسان مكانة متميزة، بفضل خصائصه المتميزة التي حصل عليها في أثناء التطور، وذلك بفرض أن النظرية كلها صحيحة من الألف للياء! فالحيوان ذو العينين، المتطور -فرضاً- عن حيوان غير ذي عينين، يصبح من لحظته الأولى كائنا متميزا، لا ينطبق عليه ما كان ينطبق على سالفه، ويؤخذ من جانب تميزه، أكثر مما يؤخذ من جانب مشابهته لما سبقه من الأحياء!

ولكن الرغبة المجنونة في مكايدة الكنيسة بتحقير الإنسان قد أنست الداروينيين أنفسهم، فمضوا يقررون حيوانية الإنسان في حماسة، بل يعتزون بحيوانية الإنسان!

ومضت إيحاءات الداروينية تنفث سمومها على نطاق واسع، فتتشربها مذاهب الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس.. والآداب والفنون.. وكل الإنتاج الفكري الغربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين![1]

التفسير المادي للتاريخ..

التفسير الجنسي للسلوك..

التفسير الجثماني للمشاعر..

الاتجاهات الواقعية والطبيعية في الآداب والفنون.. الخ.. الخ.

كلها انعكاسات للداروينية.. وكلها توكيد لحيوانية الإنسان!

إن "القيم العليا" و"الضوابط" هي المميز النهائي للإنسان عن الحيوان.. والقيم العليا والضوابط، هي بالذات الأشياء التي تحقرها هذه المذاهب جميعا، وتشكك في قيمتها، وتأبى -في جميع الأحوال- أن تردها إلى الجانب الروحي في الإنسان، لأنها -بادئ ذي بدء- لا تؤمن بوجود جانب روحي في الإنسان!

(1) انظر فصل "اليهود الثلاثة" في كتاب "التطور والثبات في حياة البشرية".

التفسير المادي للتاريخ يقول: إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام!

ويقول: إن "القيم" كلها مجرد انعكاس للوضع المادي –أو الاقتصادي– وليست شيئاً قائماً بذاته، ولا رصيد لها في "الفطرة" البشرية.. فالفطرة البشرية ذاتها شيء لا وجود له في عرف هذا التفسير!

ويقول: إن هذه القيم، فوق أنها ليست أمراً "إنسانيا" ذاتيا، وإنما انعكاس للوضع المادي أو الطور الاقتصادي، فإنها لا ثبات لها، ولا مقياس. فهي "متطورة" مع التطور المادي، وخاضعة له. فإذا اقتضى الوضع الاقتصادي في وقت من الأوقات أن تكون المرأة عفيفة ومخلصة لزوجها، فهذا انعكاس البيئة الزراعية، وليس "قيمة" إنسانية. فإذا جاء طور اقتصادي آخر كالطور الصناعي يستلزم "تحرير" المرأة اقتصاديا، فهو كذلك "يحررها!" خلقيا وجنسيا.. ويستتبع ذلك أن تكون العفة الجنسية قيدا سخيفا لا مبرر له: فقد كانت تستوجبه تبعية المرأة للرجل اقتصاديا (!!) فما دامت مستقلة، لا تعتمد عليه في الرزق، فهي كذلك لا تتعفف من أجله.. وإنما تصنع بنفسها ما تشاء. وتصبح "القيمة" الخلقية الجديدة المنعكسة عن الوضع الاقتصادي هي الإباحية الجنسية!!

ويقول فوق ذلك: إن هذا التطور المادي –أو الاقتصادي– الذي يصنع القيم، ويقلّبها كيف يشاء، هو أمر خارج عن إرادة الإنسان! فالإنسان لا يستشار في وضع قيمه. لا يستشار فكره ولا روحه، ولا تستشار فطرته –اللاوجود لها!– وإنما التطور يفرض نفسه –سبحانه!– على الخلائق، فيصوغهم بجبروته، وينشئ لهم قيمهم، ثم يسلبها منهم ويبدلهم بها غيرها، على هواه هو، وبمقتضى قوانينه هو "الحتمية"، وليس للخلائق إلا أن تتلقى، وتعكس في ذواتها جبروت هذا الجبار وحتميته، فتكيف نفسها بمقتضاها، راضية خانعة ذليلة مستعبدة.. لا حول لها ولا طول!

ثم.. ثم يقول إن الطعام والكساء والجنس هي غاية غايات الإنسان، ومحور حياته، ومحور تأثراته من لدن هذا الجبار المهيمن في العلياء! أي.. في النهاية.. أنه حيوان!

وهو مع ذلك حيوان ذليل.. أذل من الحيوان الحقيقي.. فالحيوان لا يقهر على شيء ليس في "طبيعته"! ولا بد –في التعامل معه– من إطاعة كيانه والسير معه على مزاجه هو دون تعديل.. أو بأبسط التعديلات.. إذا "قبل" الحيوان! و"التطور" لا يُفرض عليه رغم أنفه. وإذا تطور بقهر "الطبيعة" فعلى آماد متطاولة تبلغ ملايين السنين! أما الإنسان.. بسبب مرونته الفذة التي أفرد بها الله.. فالتفسير المادي بسلبه كيانه الذاتي كله، وإيجابيته الفاعلة كلها، ويفرض عليها في جيل واحد أن يتطور من حال إلى حال، تطورا –كما يقول

ماركس وإنجلز- خارجا عن إرادته، لا يَدَ له في وضعه، ولا قدرة له على تعديله، وليس له فيه أكثر من الطاعة العمياء!

* * *

والتفسير الجنسي للسلوك، تفوح منه "الحيوانية" نفاذة الرائحة!

إن أحداً لم يلوث الإنسان بمقدار ما لوثه فرويد.. حين أصر على تفسير كل نشاطه بالتفسير الجنسي.. المغرق في الحيوانية..

أسطورته الكبرى التي جعلها المحور الرئيسي لكل نظرياته.. أسطورة العشق الجنسي للأم.. أخذها -باعترافه [في كتاب Totem &Taboo]- من مثال أورده دارون من عالم البقر! ففي عالم البقر تهيج الثيران في موسم الإخصاب، فتقتل أباها الشيخ، ثم تقتتل فيما بينها على الأم، كل يريد أن يفوز بها لنفسه، فتموت الثيران الضعيفة أو تخور قواها مما تنزف من الدم. ويبقى الثور الأقوى، يفوز وحده بالأم، ويلبي معها داعي الجنس! وفرويد.. في بساطة.. بلا تحرج ولا تأثم.. ولا تأنيب ضمير.. ينقل هذه الظاهرة الحيوانية إلى عالم الإنسان.. وينسبها إلى البشرية الأولى، كأنما قد شهد مولدها وعاين تحركاتها، وسجل ما جرى لها من الأحداث!.. ويغفل.. في بساطة.. بلا تحرج ولا تأثم ولا تأنيب ضمير.. أن بعض الحيوانات ذاتها يأبى الولد منها أن يطأ أمه ولو دفع إلى ذلك دفعا وعوقب على الامتناع بالضرب الأليم!

ذلك.. لأنه "عالم" كبير!!

ثم لا يكتفي بأن تكون تلك اللوثة المجنونة قد أصابت البشرية الأولى مرة.. بل يصر على تلويث الأجيال البشرية كلها، فيزعم -على هدى الأسطورة ذاتها التي لا دليل عليها!- أن كل ولد ذكر في التاريخ يعشق أمه بعشق الجنس، وكل بنت تعشق أباها بنفس العشق!

ثم لا يكتفي بهذا القدر.. فما تزال في نفسه بقية من شهوة التلويث.. فيفسر السلوك كله.. كله.. بتلك اللوثة المجنونة. فإذا الطعام جنس والشراب جنس والنوم جنس والصحو جنس. والتبول والتبرز جنس. والرضاعة جنس. ومص الإبهام جنس. والنشاط الفكري والنفسي كله نابع من هذه الفوهة المجنونة الثائرة كالبرهان!

أما "القيم".. فهي الكبت لذلك الجنس! هي الوقوف في طريق "النمو الحر للطاقة الجنسية"! هي المتسمة "بطابع القسوة حتى في صورتها الطبيعية العادية"! هي التي ينشأ عنها القلق والاضطراب والعقد النفسية والانحراف والشذوذ!!

والإنسان بذلك كله حيوان.. ولكنه في وضع أسوأ من الحيوان الحقيقي.. فهذا الأخير يصرف طاقته في نشاط "سوي" بالقياس إليه.. فلا يصاب بالعقد والاضطراب النفسي والعصبي.. ولا يشكو الاختلالات في كيانه. أما الإنسان.. بما وهبه الله من قدرة على الرفعة، ففرويد يسلبه كيانه الرفيع كله، بل يقول صراحة وضمناً، إن الإنسان كان يمكن أن يكون أفضل من ذلك وأحسن لو كان طاقة حيوانية "حرة" لا يقف في سبيل نموها قيم ولا "كبت".. فكأن الإنسان في الواقع لا يطول حتى مقام الحيوان!

* * *

والتفسير الجثماني للمشاعر تفسير "علمي" معملي" (!) يريد أن يفسر الإنسان على قاعدته الجسمية وحدها، على أساس أن "النفس" بمشاعرها وانفعالاتها وأفكارها مجرد انبثاق جسمي.. ينبع من الجسد ويحكمه الجسد.

فهذه الغدة تصنع الدافع الجنسي. فيقوى أو يضعف. ويكون الإنسان واضح الذكورة أو الأنوثة أو مختلط الصفات.

وتلك الغدة تصنع الأمومة. فتقوى أو تضعف. أو تموت.

وإفراز الغدة الكظرية [الأدرينالين] يصنع الشجاعة [أو الجبن!].

وإفراز الغدة الدرقية الزائد يصنع المزاج العصبي. والناقص يصنع البلادة.

وهكذا يفسر الإنسان كله من داخل جسده.. ويفسر –في الحقيقة– على أساس حيواني! فالحيوان هو الذي يحكمه جسده بإفرازاته، وطبيعاته وكيماوياته وكهربياته، فلا يحيد يمنة أو يسرة عن حكم هذه الإفرازات، لأنه لا توجد في كيانه قوة أخرى غيرها تحكم تصرفاته..! فهم إذن يريدون تفسير الإنسان في نطاق "حيوانيته" وحدها، ويحذفون حذفاً "علمياً!" كل ما يخرج عن ذلك النطاق.

وإذ كانت القيم العليا من ضير وعقيدة وإيمان بالحق والعدل والجمال والكمال.. لا تدخل المعمل، أو لم يكتشف المعمل حتى اليوم موطنها الجثماني أو الغُدّي.. فلا بأس بإغفالها إغفالا كاملا ليظل الإنسان في داخل النطاق المطلوب صبه فيه، وهو نطاق الحيوان!

* * *

والمذاهب "الواقعية" في الأدب والفنون توجه همها إلى رسم الإنسان في صورته الدنيا.. صورته الهابطة إلى عالم الضرورة والقيد.. بحجة أن هذا هو "الواقع".

وتختلف هذه المذاهب، ثم تلتقي في نقطة الالتقاء، التي تجمع ما بين المذاهب الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المعاصرة، وهي حيوانية الإنسان وماديته.

الأدب "الاجتماعي" يرسم الإنسان محكوماً بالحتميات الاقتصادية والاجتماعية، يولد فيها، ويصطرع معها فينهزم –في كل مرة– أو يسايرها فتطبعه بطابعها الحتمي.. فإذا تشبث بالقيم العليا تحطم [وإلى هنا لا ضير!] ولكنه يتحطم وهو موضع السخرية والزراية لأنه يتشبث بشيء غير ذي وجود!

ثم هو في صراعه مع القوى الاجتماعية والاقتصادية التي تحطمه أو يسير معها، يصارع بجسده.. أو بضروراته.. بالطعام والمسكن والجنس. هذا إذا أراد أن يتحطم تحطماً شريفاً! أما إذا أراد أن يكون موضع السخرية والهزء والزراية.. فليصارع بالعقيدة، أو بالضمير، أو بالحق والعدل الأزليين، أو بحاسة الجمال أو حاسة الكمال! فعندئذ ينال ما ينال من تحطم واستخفاف!

والأدب الجنسي يصور الحياة كلها كأنها لحظة جنس مسعور.. فلا شيء في الحياة غير الجنس. الخطوط كلها تتفرع لتلتقي عنده، والعقد كلها تنمو لتنعقد فيه.. ولا يتحقق كيان الإنسان إلا في لحظة الجنس الفاجرة التي يلبي فيها جسد صراخ جسد آخر.. وينتهيان في لذة الجسد الحيوان.

والصراع في الأدب الجنسي هو صراع الأجساد.. الفتاة تقول لنفسها: هل أمنح جسدي لهذا الولد أم لذاك؟ أيهما أكثر استحقاقا لأن أحقق كياني معه في لحظة جنس طاغية؟ والولد يقول لنفسه: إنني أريد هذا الجسد المثير، ولا بد أن أناله. لا بد أن "أجاهد" بشتى الطرق للوصول إليه، لأحقق وجودي في لحظة معه.. لا بد أن أحطم جميع العقبات.

وفي عالم الأدب الجنسي تحدث "المأساة" الدرامية.. تحدث حين تقف "قيمة" من القيم في وجه لحظة الجنس المسعورة، التي يحقق فيها كيانهما الولد والبنت.. وعندئذ تكون "القيمة" هي الغلطانة.. والولد والبنت على صواب!

والمذهب "الطبيعي" لون من الأدب الواقعي أشد "واقعية".. أي أشد حيوانية..

إنه يرسم الإنسان –فيما يرى– على "طبيعته".. أي سافلا دنيئاً مخاتلا مخادعا نهازاً للفرص منافقاً وصولياً لا يعبأ بالقيم، بل يدوسها تحت قدميه في تلذذ، ويعلن –حين ينتهي من خنقها– لحظة الانتصار!

وفي هذا المذهب يقوم الصراع.. صراع بين سفالة وسفالة.. ومخاتلة ومخاتلة.. ويغلب الأقوى بطبيعة الحال.. أي الأشد سفالة وأشد حيوانية [وإلى هنا لا ضير] ولكنه يغلب عن جدارة تستحق الإعجاب!

وقد يحدث الصراع بين القيم وبين "طبيعة" الإنسان.. لتنهزم القيم بالطبع، وتنتصر الطبيعة السافلة الدنيئة المنحطة.. طبيعة الحيوان. وتنهزم القيم بعد أن تفقد احترامها، وتصبح من ناحية أضحوكة، ومن ناحية أخرى معطلة للحياة.

وفي هذا المذهب كذلك تحدث المأساة.. حين يتحطم شخص سافل جداً لدرجة أنه كان ينبغي أن ينجح وينتصر ويتمكن.. يتحطم لأن الحظ خانه.. أو لأن منافقاً من الذين يتظاهرون بالإيمان بالقيم قد وقف له في الطريق. ولا بد أن يكون منافقاً لأنه لا يوجد مؤمنون حقيقيون بالقيم.. لأن القيم ذاتها كلها نفاق! وفي تلك اللحظة يكون السافل الأكبر موضع العطف، ويكون المنافق موضع السخط والسخرية.. لا لأنه منافق والنفاق عيب، ولكن لأنه ليس صريحاً في مواجهة الناس بما يشتمل عليه اشتمالا "طبيعياً" من السفالة والدناءات[1]!

وهكذا تلتقي هذه الآداب "الواقعية" كلها عند نقطة مركزية واحدة.. هي حيوانية الإنسان.

* * *

(1) انظر بالتفصيل كتاب "منهج الفن الإسلامي" فصل "الواقعية في التصور الإسلامي".

هذه المذاهب كلها في الاجتماع وعلم النفس والأدب والفن.. تعجز جميعها عن تفسير "حقيقة" الإنسان..

التفسير المادي للتاريخ، حين يقول إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام، يغفل عن الحقيقة "الإنسانية" الأصيلة، وهي أن الإنسان حين يبحث عن الطعام يبحث عنه "كإنسان".. يبحث عنه بكيانه المجتمع كله، الذي يشمل فيما يشمل الأهداف والقيم، والإحساس بالجمال والرغبة في الكمال.. فيظل "يحسّن" طعامه، ويحسن وسائل الحصول عليه، وفي الطريق ينشئ نظماً وحضارات وتشريعات وقوانين ومذاهب وأفكاراً ونظريات.. أي أنه يواجه الحياة كإنسان، ويتأثر بها ويؤثر فيها كإنسان. وتلك هي الحقيقة المركزية التي ينبغي التوكيد عليها، لا حقيقة البحث عن الطعام، التي لا يختص الإنسان بها، بل يشترك فيها مع الحيوان.

وحين يقول إن تغير وسائل الإنتاج هو الذي يغير حياة الناس من طور إلى طور، وهو الذي ينشئ لهم أفكارهم وعقائدهم، يعجز عن أن يفسر لنا: كيف ظهر الإسلام، وهو أضخم حركة ثورية في التاريخ.. الحركة التي أخرجت الناس من ظلمات الجهل والخراقة والعبودية للقيم الأرضية والقوى الأرضية والناس، إلى نور المعرفة ويقين الحق والتحرر من كل عبودية في الأرض لقيمة أو قوة أو بشر، بالعبودية لله وحده، واستمداد القوة الإيجابية من هذه العبودية الصحيحة لله المعبود، الحقق وحده بالعبادة، والسيطرة بهذه القوة على كل نظم الأرض الزائفة، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو فكرية أو سياسية.. الحركة التي أبدعت في عالم السياسة فكرة وحدة الدولة وكانت —في غير الإسلام– إقطاعيات متفرقة يقوم الإقطاعي فيها بالسلطة القضائية والتشريعية والتنفيذية.. واستعباد الناس. وفكرة مسئولية الحاكم أمام الأمة عن تنفيذ الدستور، الدستور الإلهي الذي يمثل الحق والعدل، وإلا سقط حقه في السمع والطاعة وحق الناس أن يخرجوا عليه. وفكرة مسئولية الدولة عن كل فرد فيها بإيجاد عمل له أو إعالته من بيت المال. وأبدعت في عالم الاجتماع فكرة التكافل في المجتمع. كله مسئول عن بعض، وكله متكافل في حمل المغانم والمغارم سواء. وأبدعت في عالم العلم المذهب التجريبي الذي تقوم عليه حضارة الغرب كله في العصر الحديث..

كيف قامت هذه الحركة؟ وكيف امتدت في الزمان والمكان، وانتشرت إيحاءتها في كل البشرية، حتى التي لم تعتنق الإسلام، بل حتى تلك التي عادت الإسلام؟

أين هو التغير الذي حدث في أدوات الإنتاج أو أسلوب الإنتاج لتكون من نتيجته "الحتمية" بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بالدين الجديد؟!

وحين ينفي وجود "فطرة" للإنسان سابقة على النظم والقواعد، ثابتة على مدار الأجيال، ملزِمة للتطور لا ملزّمة به، يعجز عن تفسير ارتداد الشيوعية في روسيا عن فكرة الأجر الموحد، وإباحة التفاوت في الأجور في الطبقة الواحدة، وارتدادها عن محاربة فطرة الاقتناء والتملك، بإباحة إنفاق الأجر الإضافي في اقتناء بعض الأشياء.

وحين ينفي أن "القيم" شيء له وزنه وحسابه؛ شيء ينبغي توجيه الطاقة —إليه لتنميته في النفوس وتقويم مساره، بصرف النظر عن النظام الاقتصادي وعدالته؛ ويصر على أن القيم مجرد انعكاس للتطور الاقتصادي.. يعجز عن تفسير صرخة خروشوف الخطيرة في عام 1962 حين قال إن الشباب الروسي مائع متحلل غارق في الشهوات، ينبغي تقويمه وإلا فمستقبل روسيا مهدد بالضياع! مع أن اقتصادياتها تسير حسب "المذهب" المرسوم!

وفي الجملة يعجز عن تفسير الإنسان.. لأنه يصر على تفسيره في نطاق الحيوان!

* * *

والتفسير الجنسي للسلوك تفسير واضح البطلان.

ففضلا عن أساطير فرويد التي أقام عليها بلا دليل كل بناء البشرية.. فهذا التفسير يعجز عن بيان أي سبب لتقدم البشرية وتعقد أساليب حياتها واشتباكاتها المختلفة. فالعشق الجنسي واحد. وعقدة أوديب [وإليكترا] واحدة. والكبت واحد. ونتائج الكبت واحدة. فلماذا "تتطور" البشرية وتتغير؟ لماذا تقوم النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية؟ لماذا تنشأ الحضارات وتزدهر ثم تنهار؟ لماذا تحدث كل حركات التاريخ؟ والدين كله كبت.. فلماذا تتعدد أنواع الكبت، أي لماذا تتعدد مذاهب الدين؟! والفن كله كبت.. فلماذا يختلف فن عن فن وفنان عن فنان؟ وليوناردو دافنشي الذي شرح هو فنه شرحاً جنسياً كبتياً عقدياً.. لماذا لم يكن موسيقياً بدل أن يكون رساماً؟ بل.. لماذا لا يصبح كل من تصيبهم هذه العقد دافنشيين مثل دافنشي؟ وما التفسير الجنسي للعبقرية ذاتها، فضلا عن توجهها هذه الوجهة أو تلك؟

وفي الجملة يعجز عن تفسير الإنسان.. لأنه يصر على تفسيره في نطاق الحيوان، وفي جانب واحد من جوانب الحيوان!

* * *

والتفسير الجثماني للمشاعر يعجز عن تفسير الجانب "الإنساني" كله من الإنسان.

الجنس ينبع من الغدد الجنسية. نعم، ولا شك. وكذلك هو في الحيوان. فلماذا يمارس الإنسان نشاطه الجنسي على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان؟ لماذا ينشئ له عواطف؟ وأهدافاً" وقيما؟ ونظما؟ ومذاهب؟

لماذا "يتزوج" الإنسان ويقيم للزواج مراسم ومواثيق؟ وأين مكان ذلك في غدة الجنس؟

ولماذا ينشئ حول الجنس فنونا.. نظيفة أو ملوثة، رفيعة أو هابطة؟

ولماذا يختلف اثنان دفعتهما الجنسية واحدة، فينطلق هذا كالبهيمة، ويتعفف الآخر كالإنسان؟!

والأمومة تنبع من غدة الأمومة..

وهي كذلك في الحيوان.

فلماذا تختلف أمومة الإنسان عن أمومة الحيوان؟ لماذا تتعهد الأم الإنسانة بأكثر من "التربية الحسية": الإرضاع والحضانة والحنوّ.. لماذا تربي طفلها على قيم معينة وأخلاق معينة؟ ثم لماذا تختلف قيم هذه الأم وأخلاقها عن قيم الأم الأخرى، بينما لا تختلف أم عن أم في النوع الواحد من أنواع الحيوان؟! وأين مكان هذا كله في غدة الأمومة التي يراد بها تفسير الإنسان؟

وإفراز الغدة الكظرية يصنع الشجاعة [أو الجبن]!

كذلك..؟!

فما الذي يفسر دور التربية في حياة الإنسان، وتنشئتها قومها على الشجاعة وقوما على المذلة والهوان؟ بل ما تفسير أن الشخص الواحد الشجاع بالفطرة يدرب على الجبن والمذلة فيذل، والشخص الجبان يدرب على الشجاعة فيتشجع؟ وما مكان هذا كله في إفراز الغدرة الكظرية أو في كل جسم الإنسان؟!

وإفراد الغدة الدرقية يحدث المزاج العصبي أو البلادة الهادئة..

نعم..

فما بال هذا الشخص يستسلم لمزاجه العصبي والآخر يكظمه ويدرب نفسه على الهدوء؟ وما مكان ذلك في إفراز الغدة التي تصنع المزاج؟

بل الطعام ذاته.. جوع المعدة هو الدافع لشهوة الطعام.. فأين مكان الشوكة والسكين والملعقة في شهوة المعدة، وأين مكان مفارش المائدة وأناقة الحفلات؟!!

إن التفسير الجثماني للمشاعر تفسير ساذج جداً على كل عمليته ومعمليته! وهو أكثر المذاهب العلمية عجزا عن تفسير الإنسان!

* * *

أما الأدب فله موضع آخر[1]..

ولكن يعنينا هنا فقط أن نبين كيف تخفق هذه المذاهب "الواقعية" في تفسير الإنسان..

إنها كلها لا تبين –إذا كانت القيم العليا بهذا الهوان وهذه الضآلة وهذه التفاهة –لماذا تتشبث بها البشرية كل هذا التشبث؟ ولماذا تصر –حتى وهي تخفق في تحقيقها المرة بعد المرة– على أن تحاول من جديد تحقيقها والارتفاع إليه؟! بل.. لماذا "تنافق" بهذه القيم؟ إن هذا النفاق –رغم سوئه– أدل على هذا التشبث! فالبشرية قد لا تقدر على الارتفاع، ومع ذلك تحب أن تظهر وكأنما ارتفعت بالفعل! ألا يدل ذلك على شيء؟ ألا يدل على أن هذه الرغبة في الارتفاع رغبة فطرية في "الإنسان"؟! رغبة يتميز بها على الحيوان؟

ثم.. هل هي حقيقة أن البشرية لا تنجح أبدا في تحقيق القيم العليا؟ وهذه النماذج العالية من البشرية، هل كلها خرافة؟ من يقول إن هذا هو "الواقع" الذي ينبغي أن تدور حوله الفنون؟!

كلا! إن "الواقعية" التي تصر على تفسير الإنسان في نطاق الحيوان، تعجز عن تفسير الواقع الإنساني الأكبر، ثم تغفل بالتدريج عالمه الأكبر، لتحصره في الطعام والشراب والجنس، وعالم القيد والضرورة، حتى ليصبح في النهاية كائنا مشوها ممسوخا، غريبا على عالم الإنسان![2]

([1]) انظر كتاب "منهج الفن الإسلامي".

([2]) انظر كتاب "منهج الفن الإسلامي"

* * *

هل معنى ذلك أن هذه المذاهب كلها خواء من العقيدة؟

كلا! ففيها ولا شك جانب من الحق هو الذي جعلها "تعيش" رغم كل ما فيها من انحرافات واختلالات.

ولكنه حق جزئي لا يفسر كل الإنسان.

وعيبها الرئيسي أنها تصر كلها على تفسير الإنسان من جانب الحيوان.

ولا بد من تفسير "إنساني" للإنسان!

فكل التفسيرات "الحيوانية" قد عجزت عن تفسيره. عجزت عن الإحاطة به كله، ورسمه على حقيقته. وبدت كالخرق المهلهلة لا تستر كيانه!

لا بد من تفسير يشمل الإنسان كله ولا يغفل جانبا من جوانبه. ويفسره في حالات رفعته وحالات هبوطه، ولكن على قاعدته الإنسانية المتميزة، التي يختلف فيها عن الحيوان، حتى وهو يقضي ضرورة الحيوان.

وقد مر بنا من كلام جوليان هكسلي ما يثبت تفرد الإنسان حتى في كيانه البيولوجي الذي خدع دارون من قبل، وظنه مشابها تمام المشابهة لكيان الحيوان. وذلك فضلا عن الخصائص العقلية والمعنوية التي اختصه الله بها وحده، وأدار حياته كلها عليها. وفضلا عما يقرر جوليان هسكلي من حقيقة جوهرية هامة هي تفرد الإنسان في طريقة تطوره ذاتها، فلا يتطور على القاعدة الحيوانية، وإنما يتطور على قاعدة "الإنسان"!

وجوليان هكسلي –كما مر بنا– رجل ملحد لا يبدي أي توقير للمفاهيم الدينية أو المقدسات الروحية.

فإذا قال ذلك فما يدفعه إلا الحقائق العلمية وحدها، دون انفعال سابق، ولا وجدان ديني يؤثر في تفكيره، فيجعله يرفع الإنسان ويكرمه عن الارتكاس في عالم الحيوان.

وهو –بعد– لا يؤمن بالإنسان كله، فما زال مقيدا في أغلال من رواسب الجيلين السابقين، تأخذ العزة بالإثم أن يعترف بالله، أو باستمداد الجانب الروحي في الإنسان من قوة الله حين يهتدي إليه، ويعرف طريقه إلى الوجود الأكبر السائر على ناموس الله.

ولسنا نستشهد به لنقف عند أو نسير في حدوده.. ولكنا نقول فقط إن الحق قد بدأ يتجلى حتى للمنكرين المتشبثين بالإنكار..

* * *

والتفسير الإنساني للإنسان لن يرسم له صورة مزورة مزوقة خداعة! فالعلم الصحيح لا ينبغي أن يزوّر بالزيادة أو النقصان.

بل يرسم له صورة حقيقية دقيقة، تشمل الأبيض والأسود. تشمل عوامل الرفعة وعوامل الهبوط.

لن يرسمه مَلَكاً منزها عن الأخطاء. فليست هذه حقيقة. ولا حيوانا محكوما بضروراته. فليست هذه حقيقة كذلك.

إنما الحقيقة شيء بين هذا وذاك.

الحقيقة تشمل جانبا من التفسير المادي للتاريخ، والتفسير الجنسي للسلوك، والتفسير الجثماني للمشاعر، والواقعية التي ترسمها الفنون والآداب المعاصرة.. ثم تضيف إلى ذلك كله جوانب أخرى، حقيقية الوجود حقيقية التأثير في الحياة.

الدوافع الفطرية من طعام وشراب وملبس ومسكن، وجنس وقتال وتملك وبروز.. كلها حقيقة. فلتأخذ مكانها في الصورة بمساحتها الحقيقية، لا ينقص منها ولا يزاد.

والقدرة الفطرية على الضبط حقيقة كذلك. فلتأخذ مكانها في الصورة بمساحتها الحقيقية، لا ينقص منها ولا يزاد.

والمساحة الحقيقية للدوافع الفطرية أنها قوية ملحة. وأنها غير قابلة للقمع من منبتها، ولا خير للإنسان في ذلك القمع. وأنها صعبة الضبط، ما لم تُعَوَّد ذلك من طفولتها. وأنها –مع ضبطها وتعويدها على الضبط– تفلت بين الحين والحين، فيقع الخطأ أو الخطيئة.. ثم يتوب الإنسان.

والمساحة الحقيقية للضوابط الفطرية أنها –مع كونها فطرية– تحتاج إلى معونة خارجية لتنيمتها وتقويتها، كالقدرة على المشي والقدرة على الكلام. وأنها ما لم تتلق هذه المعونة الخارجية –بالتربية– تنشأ ضعيفة مهزولة ممسوخة، لا تقوى على ضبط الدوافع الفطرية القوية

العنيفة الملحة. وأنها –عند تنميتها وتقويتها– تقوم بدور حاسم في حياة البشرية. تقوم برفع مستوى الطاقة المحركة كلها من أساسها، وحجز جانب منها لتحويله إلى إنتاج مادي وفكري وروحي، وإن كانت تعجز أحيانا عن الضبط، فيقع الخطأ أو الخطيئة.. ثم يتوب الإنسان.

تلك هي الحقيقة الواقعية للإنسان السوي.

ثم تقع الانحرافات.. انحرافات من كل لون وفي جميع الاتجاهات..

ولكنها انحرافات.. فلا يأتي يوم تصبح فيه هي الحقيقة البشرية، ويصبح السواء هو الشذوذ!

وكما تصيب الأمراض الجسم وتشفى، فكذلك انحرافات النفس تشفى بالعلاج. وتلك حقيقة إنسانية هامة، ترفع عنها لعنة الانحراف الدائم والشذوذ المقيم!

ونعود إلى حقائق النفس البشرية:

دفعة الجسم القاهرة حقيقة. فيجب أن تأخذ مكانها الحقيقي في الصورة.

وإشراقة الروح المرفرفة حقيقة كذلك. فيجب أن تأخذ مكانها الحقيقي في الصورة.

والمكان الحقيقي لدفعة الجسم أنها هي التي تمد الإنسان بالطاقة الحية التي تعمل في واقع الأرض، وتمده بالرغبات التي تحرك مشاعره في شتى الاتجاهات.

والمكان الحقيقي لإشراقة الروح أنها هي التي تمد الإنسان –فطريا– بعقائده وقيمه العليا، التي توجّه الدوافع في أثناء اندفاعها، فتمنعها أو تحاول أن تمنعها –من الشطط والإسراف.

وهذه المحاولة الدائمة هي رسالة البشرية. وهي رسالة حقيقية يشهد بها كل التقدم الذي أحرزته البشرية في نظمها وعقائدها وعلاقاتها. ولا ينقص منها شيئا أن ترتد البشرية عنها أحيانا وتنتكس. فذلك جانب من الاحتمالات الطبيعية البشرية. ولكنه ليس الاحتمال الدائم ولا الاحتمال الوحيد.

ثم.. حقيقة أخرى في كيان الإنسان: هي تعدد جوانبه. ومن هذا التعدد تنشأ حقيقتان:

إحدى الحقيقتين أنه لا يحدث في أية لحظة من اللحظات أن ينحصر كيان الإنسان في جانب واحد: الجانب الجسدي أو الروحي أو الفكري.. أو الاقتصادي أو المادي.. وإنما هو دائما شامل لأكثر من جانب. شامل لكيانه كله في الحقيقة.

والحقيقة الثانية أن الإنسان لا يمارس أي نشاط من نشاطاته بجانب واحد من جوانبه ولو كان نشاطا متخصصا إلى أقصى حد.. فلا يقوم بنشاطه الجنسي بدافع الجنس وحده، وإنما بمجموع كيانه، ولا يقوم بنشاطه الاقتصادي أو الاجتماعي أو الفكري أو السياسي بمعزل عن بقية الكيان. ومن ثم تمتزج منه الروح بالجسد، والقيم العليا بالضرورة القاهرة.. ويخرج من ذلك كيان ممتزج هو الإنسان..

والتاريخ الإنساني هو مصداق هذه الحقائق..

هو مصداق عمل الدوافع والضوابط معاً في حياة الإنسان. ومصداق عمل الجسم والروح معاً. ومصداق تعدد الجوانب وشمول الكيان..

ثم مصداق الانحرافات الدائمة، والاستعداد الدائم للشفاء من الانحرافات..

وهذا الجيل من البشرية من أشد أجيالها انحرافا، وأشدها عتواً في الانحراف.. ولكنه ليس الوضع الدائم البشرية، ولا وضعها الأخير.. إلا إذا كانت إرادة الخالق سبحانه قد اقتضت تدمير البشرية والقضاء عليها.

وهذا الجيل من البشرية، متأثراً بواقعه الضيق، قد سجل انحرافاته على أنها هي الحقيقة البشرية الدائمة في جميع الأجيال، وسمّى ما يخالفها شذوذاً يخالف الواقع.

ولكن البشرية –ما لم يرد الله لها الدمار النهائي– ستفيق من غشيتها، وتعود إلى فطرتها. تعود إلى "الواقع" الأكبر الذي يمثل حقيقة الإنسان. الواقع الذي يشمل الدوافع والضوابط. يشمل قبضة الطين ونفخة الروح. يشمل الجوانب المتعددة التي تعمل معا في كل وقت وفي كل اتجاه.

عندئذ ستنكر ما وصمتها به الداروينية القديمة من حيوانية هابطة. وستنكر ما تسربت إليه إيحاءات الداروينية المسمومة من مذاهب فكرية واجتماعية واقتصادية ونفسية وأدبية وفنية..

ستنكر التفسير الحيواني للإنسان..

وستسعى إلى إيجاد تفسير شامل للإنسان كله، في جميع جوانبه وجميع مجالاته. تفسير يسجل ساعة الرفعة وساعة الهبوط، ولكنها يسجلها على قاعدتها الإنسانية الأصيلة المتميزة.. حتى في حالة الانحراف!

ستسعى إلى إيجاد "التفسير الإنساني للإنسان".

وهذا الكتاب كله، بجميع فصوله وتفصيلاته، هو محاولة لتقديم التفسير الإنساني للإنسان.

بين الواقع والمثال

هل نرسم الإنسان كما هو في الواقع، أم نرسمه كما ينبغي أن يكون؟

وما قيمة الصورة المثالية التي لا يمكن –في عالم الواقع– أن تكون؟

أما في هذا الكتاب فقد رسمنا الصورتين معاً. صورة الواقع وصورة المثال.

رسمنا الصورة الكاملة للكيان الإنساني ونشاطاته. الصورة السوية الموزونة المتعادلة بلا اختلال. ورسمنا إلى جانبها صوراً شتى للانحراف والشذوذ الذي يصيب ذلك الكيان.

وقلنا إن الصورة الكاملة لا توجد في واقع الحياة! فلماذا إذن نرسمها، ونتعب أنفسنا في تخيلها وتملّيها؟!

لن نقول إن النزوع إلى الكمال فطرة بشرية، وإن هذه الصورة المثالية تحقيق لذلك النزوع!

إنما نقول إن هذه الصورة المثالية ضرورة!

إن الجسم الكامل المتعادل المتزن بلا اختلال لا وجود له في عالم الواقع. ومع ذلك فنحن في الفن أو التشريح أو الطلب نرسم الصورة المثالية الكاملة لجسم الإنسان ونشاطه الجسدي. فلماذا نرسمها؟

قد يكون الفن نزوعا "خيالياً".. أما التشريح والطب فهما "علمان" "واقعيان" لا يتهمان بالخيال. فلا بد إذن أن تكون هناك ضرورة لما يرسمانه من صور الكمال.

والضرورة واضحة..

إن الأصل في الكيان –الجسدي أو النفسي– هو الصحة. والمرض هو الطارئ، وهو الانحراف.

وكون الإنسان –بكيانه الجسدي والنفسي– عرضة دائماً للإصابة بالأمراض، لا ينفي أن الأصل هو الصحة. ولا ينفي وجوب المحاولة الدائمة للرجوع إلى حالة الصحة.. بقدر الإمكان.

ومن ثم ضرورة الصورة الكاملة!

فكي نعود إلى الصحة –أو نحاول العودة– يجب أن نعرف ما هي الصورة الصحيحة التي ينبغي أن نعود إليها، ونعرف درجة الانحراف.. لنشخص المرض ونرسم العلاج.

في الطب نرسم صورة كاملة للقلب المثالي، والكبد المثالية والمعدة المثالية.. إلخ. ونعرف في الوقت ذاته أنها صورة لا توجد في واقع الأجسام.

وفي علم النفس نرسم صورة كاملة للدوافع السوية والضوابط السوية، والتوازن الكامل والاعتدال. ونعرف في الوقت ذاته أنها صورة لا توجد في واقع النفوس..

ونرسمها لأننا في حاجة إليها..

فلكي نعالج القلب المريض ينبغي أن نعرف فيم اختل عن وظيفته المثالية، وبأي قدر كان الاختلال.

ولكي نعالج النفس المريضة ينبغي كذلك أن نعرف فيم اختلت عن وظيفتها المثالية، وبأي قدر كان الاختلال.

ولكن هناك حقيقة ينبغي أن نلتفت إليها..

من أين جئنا بالصورة المثالية؟ وكيف قررنا أن "هذا" هو المثال؟

ذلك سؤال له أهميته.. لنضمن لأنفسنا أننا لا نزوّر من عندنا مثالا زائفاً لا يتحقق أبداً في جزئية من جزئياته، وعندئذ يفقد هذا المثال قيمته ولا يصلح مرجعاً تقاس إليه الأشياء.

فأما في عالم الجسم فقد اتّخذ المثال من جزئيات متعددة، متفرقة في أجسام كثيرة، كل جزئية منها قد بلغت الكمال..

حقيقة أنها لا تجتمع كلها، بمثاليتها هذه، في جسم واحد. ولكن يحدث في عالم الواقع أن يوجد قلب مثالي في شخص، وكبد مثالية في شخص، ومعدة مثالية في شخص.. ومن هذه الجزئيات المثالية المتفرقة عرفنا الوظيفة المثالية لكل عضو، وجمعنا الصورة المثالية للجسم كله لتكون مرجعاً لنا في علم الصحة وعلم الأمراض.

وفي عالم النفس كذلك..

تتفرق المثاليات في نفوس شتى.. ولا تجتمع في نفس واحدة كل المثاليات.

ولكن توجد مع ذلك نفس بشرية كاملة هي مرجع القياس.. هي نفس محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. أكمل نفسه خلقها الله، على النموذج الرباني الذي ارتضاه الله للإنسان، وطلب من الناس تحقيقه، كل وما يستطيع..

وكما أننا لا نتطلب من أي جسم أن يكون مثالياً خالصاً، ولكنا نتطلب منه أن يحاول ذلك دائماً بقدر ما يستطيع، فكذلك لا نتطلب من أي نفس أن تكون منطبقة على النموذج الأعلى الذي رسمه الله للناس، ولكنا نتطلب منها أن تحاول ذلك دائماً بقدر ما تستطيع.

وكما أننا نعتبر بعض الانحرافات البسيطة عن الحالة المثالية للجسم انحرافات طبيعية لا تحتاج إلى علاج، فكذلك نعتبر بعض الانحرافات النفسية البسيطة أمراً سوياً لا يحتاج إلى علاج.

ولكنا نحتاج إلى العلاج حتما حين يصل المرض إلى تعطيل دورة الحياة، سواء في عالم الأجسام أو في عالم النفوس.

* * *

مهمة الصورة المثالية إذن أنها تساعدنا في العلاج.. وهي عملية لا غنى للإنسان عنها على مدار النفوس ومدار الأجيال.

ولكنها تؤدي مهمة أخرى في الحياة السوية، قبل المرض والعلاج!

مهمة في التربية..

مهمتنا الأولى في تربيةالجسم ليست علاجه، وإنما وقايته من الأمراض! وقد تكون الوقاية الكاملة مستحيلة. ولكنا مع ذلك نحاولها دائماً، ويجب أن نحاولها، لنقلل فرصة المرض إلى أقصى حد ممكن، ونصل إلى أقرب نقطة نستطيعها من الكيان السليم.

ومهمتنا الأولى في تربية النفس هي وقايتها من الانحراف. وستكون الوقاية الكاملة مستحيلة. ومع ذلك ينبغي أن نحاولها، لنقلل فرصة المرض إلى أقصى حد ممكن، ونصل إلى أُقرب نقطة مستطاعة من الكيان السليم.

ولكي نصل إلى الوقاية الجسمية –على استحالة كمالها– نرسم دستوراً للنشاط الجسمي الكامل، مستمداً من الصورة المثالية وقائماً على أساسها، ونحاول تنفيذ هذا الدستور في عالم الواقع بقدر ما نستطيع.

ولكي نصل إلى الوقاية النفسية –على استحالة كمالها– نرسم دستوراً للنشاط النفسي الكامل، مستمداً من الصورة المثالية وقائما على أساسها، ونحاول تنفيذ هذا الدستور في عالم الواقع بقدر ما نستطيع.

وحين لا نرسم هذا الدستور للنشاط الجسمي أو النفسي، يضل نشاطنا عن أصوله الواجبة، ولا نعرف المقياس الصحيح للأشياء..

وإلى هنا كنا نتحدث عن "الضرورة".. ضرورة الصورة المثالية للحياة البشرية..

ولكن الحياة لا تقف عند نقطة الضرورة.. وتحاول بفطرتها أن تصل إلى الجمال والكمال.. إلى مجالات زائدة على الضرورة.. مترفعة على الضرورة..

ومن أجل هذه الفطرة النزاعة إلى الجمال والكمال –وإن كانت نزاعة كذلك للارتكاس والهبوط!– من أجلها نرسم الصورة المثالية الكاملة، ليحاول من يحاول أن يصل إلى الكمال..

وفي ذلك كسب مؤكد للبشرية..

فهي حين ترفع وجهها إلى أعلى، وتحاول الصعود، ستصعد –بمجموعها– عن الدرك الهابط المرتكس. وتصبح الحالات الشاذة المرتكسة أقل في العدد وأقل في درجة الهبوط..

ثم.. تتوزع البشرية على القمة الصاعدة.. بعضها ينتهي جهده عند أول الطريق. وبعضها يصعد درجات ثم يتعب. وبعضها يمضي قدما إلى أقصى حد مستطاع..

ولن يثبت الناس –حتى الصاعدون منهم– عند أقصى نقطة يصلون إليها. ففي طبيعة البشرية أن تهبط في لحظة الضعف عن المستوى الذي تقدر على الصعود إليه. ولكن في طبيعتها كذلك أن تعود إلى الصعود.

والصورة المثالية هي المشجع لهم على الصعود أولا، ثم على العودة إلى الصعود بعد كل انتكاس..

ومن هنا يلتقي الواقع بالمثال في حقيقة الحياة كما يلتقيان في حقيقة الفطرة.. ويكمل كل منهما الآخر في حلقة محكمة الاتصال.

والإسلام دين الفطرة.. لا يفصل من ثم بين الواقع والمثال.. بل يمزجهما مزجا محكما في دستوره الرفيع.

ومن أجل ذلك رسمنا في هذا الكتاب الذي يتبع دستور الفطرة في كل تفصيلاته، صورة الواقع وصورة المثال، ممتزجتين متداخلتين، كما ينبغي أن يكون الأمر في التفسير الإنساني للإنسان.



التطور و الثبات

في حياة البشرية

محمد قطب

الفهرسْ

مقدمة

هذا العصر هو عصر التطور..

كل شيء فيه يتطور..

الأفكار والعقائد.. القيم والمفاهيم.. والآخلاق والتقاليد.. الصور المادية للحياة.. المسكن والملبس والمأكل.. وسائل المواصلات ووسائل الإعلام.. الحرب والسلم.. الآلة.. الإنسان!

ولا يمر يوم ولا تمر ساعة.. بل لا تمر لحظة لا يذكر فيها لفظ التطور من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض.. في الغرب " المتحضر " والشرق " المتأخر ".. في كل مكان!

ولا يوجد شيء واحد ولا عمل واحد ولا مفهوم واحد لا تدخل فيه فكرة التطور.. ولا يتصور الناس شيئا في الحياة كلها إلا من خلال فكرة التطور التي تشمل كل شيء وكل كيان!

* * *

وحين تستولي فكرة التطور على أفهام الناس بهذه الصورة، فلا بد أن يصطدم تفكيرهم بالدين! فالدين – في حس البشرية – يمثل الثبات. ثبات الإله. وثبات العقيدة. وثبات القيم. وثبات المفاهيم. وثبات التقاليد. وثبات الحياة.

وما دام الدين في حس البشرية يمثل هذا الثبات كله، فلا بد أن يصطدم في حسها بمفهوم التطور الشامل، الذي لا يطيق تصور الثبات في أي شيء على الإطلاق، ولو كان فكرة الله أو فكرة الدين.

* * *

وفي الغرب اصطدمت بالفعل فكرة التطور بمفهوم الدين. وقام بينهما صراع عنيف منذ " عصر النهضة " الذي قام على أساس لا ديني. وانتهى الصراع بتنحية الدين عن الحياة العملية. وعن الاقتصاد والاجتماع والسياسة. وعن العلم والفن.. ولم يبق له إلا ركن ضئيل في

حياة الأفراد.. يشبعون ميلهم الشخصي إليه بالذهاب إلى الكنيسة، أو اتباع بعض تعاليم الدين في السلوك الشخصي، بينما الحياة الواقعية كلها تحكمها المفاهيم المضادة لفكرة الدين.

وفتر الصراع الذي كان حادا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لأن الدين لم تعد له القدرة على الصراع، والمتدينين ورجال الدين لم يعد في وسعهم إلا الرضى من الغنيمة بالسلامة الشخصية، والانعزال عن الركب المتحرك.. أو ومحاولة اللحاق بذلك الركب عن طريق " تطوير " الدين (!) وجعله تابعا ذليلا للتطور، بعد أن عجز عن قيادة الحياة!

* * *

أما في الشرق.. " الإسلامي ".. فما زال الصراع قائما بين الدين والتطور!

لأن الدين – من ناحية – ما زالت له قبضته على نفوس الجماهير، كعقيدة وفكرة إن لم يكن كواقع وسلوك، رغم الجهد الضخم الذي يبذل لتفتيت العقيدة وتحطيمها، وتحويل الاهتمامات عنها إلى مفاهيم جديدة وأفكار جديدة..

ولأن " التطور " من ناحية أخرى لم يبلغ مداه بعد.. لا التطور الصناعي ولا الاجتماعي ولا الاقتصادي المجلوب من الغرب، والذي يحمل في أطوائه المفهوم " اللاديني " للحياة.

ومن ثم فما تزال هناك معركة!

والكتّاب ورواد التطور يختلف موقفهم من المعركة باختلاف درجة اصطباغهم بالفكر الغربي، ودرجة صراحتهم في إدارة العراك!

فبعضهم يهاجم الدين صراحة، ويقول إنه بقية من الماضي المظلم ينبغي أن تزول.. وخرافة لا يصح أن تعيش في عصر النور!

وبعضهم لا يجد في نفسه الجرأة التي يهاجم بها الدين صراحة، فيستتر وراء مهاجمة " الأفكار الرجعية " أو " رجال الدين ".. ومن هناك يهاجم كل المفاهيم الدينية وهو آمن من تهمة الإلحاد والمروق. فلا يستطيع – مثلا – أن يقول إن الله – سبحانه – رجعي لأنه يقصر زينة المرأة على رجلها أو محارمها. فهذا القول الوقح يعرضه لا محالة لغضبة الجماهير، فلا ينسب إلى الله هذا القول! وينسبه إلى رجال الدين الرجعيين! ولا يجرؤ – مثلا – أن يقول إن

الله – سبحانه – مخطئ حين يحرم الفاحشة، وقيام أي علاقة جنسية خارج الزواج الشرعي. فلا ينسب هذا التحريم إلى الله سبحانه! ويقول إن " المفاهيم الرجعية " للأخلاق، التي تحرم الصداقات والعلاقات بين الجنسين هي مفاهيم بالية ينبغي أن تتطور.. وأن تزول!

وبعضهم يقول إن الدين أفكار سامية جميلة (!) ولكن ما فيه من تشريعات وتوجيهات قد نزل لعصر معين وظروف معينة.. والظروف قد تغيرت.. فلا بد من إبقاء الدين " روحا " صافية، لا تتدخل في التشريع، ولا تحكم الحياة الواقعية.. من أجل الإبقاء على معانيه السامية وأفكاره الرفيعة، ومنعها من الاصطدام بالواقع المتغير المتطور، فتتحطم، وتترك الناس بلا هداية من روح الدين!

وبعضهم لا يذكر اسم الدين على الإطلاق.. وإنما يهاجم المفاهيم الدينية " كمفاهيم " لا علاقة لها بالدين.. مفاهيم اجتماعية أو فكرية أو سياسية أو اقتصادية. ويسخّفها لعدم تمشيها مع روح العصر، والتطور العلمي والحضاري.. ويترك هذا التسخيف يفعل فعله الخفي في تحطيم القيم الدينية دون أن يتعرض إطلاقاً لذكر الدين!

وبعضهم – للتوريط – ينسب إلى الدين كل ما يريد بثه من أفكار " تطوّرية " بحجة مرونة الدين وصلاحيته للحياة في كل عصر.. فهو يبيح الاختلاط، ويبيح تزين المرأة، ويبيح قيام علاقات بين الجنسين (دون الفاحشة من باب التأدب!) ويبيح نقد المفاهيم بل النصوص الدينية ذاتها وتمحيصها (للاقتناع بها عن تفكر وتدبر!) ويبيح ترك بعض المفاهيم الدينية واستبدال غيرها بها (لأن الناس أعلم بأمور دنياهم!) أو بعبارة أخرى يبيح نقض الدين كله بحجة التجديد والتطوير!

وبعضهم – المضلَّلين المخدوعين! – يكتبون – في إخلاص! – عن وجوب تطوير الدين حتى لا يفوته الركب، وينعزل في زوايا النسيان!

*   *   *

والجماهير تتشرب الإيحاءات المختلفة التي يصبها في أذهانها " المثقفون " بمختلف وسائل الإعلام: الكتاب والقصة والمسرحية والمقال والخبر والتحقيق الصحفي والرسم الكاريكاتوري والنكتة المصورة.. والإذاعة والسينما والتليفزيون.. وتظل هذه المفاهيم تدور في نفوسهم، وتصطرع – في وعي أو غير وعي – بمفهوم الدين. وتنتج عن ذلك نتائج متباينة.. فبعضهم ينتهي به الأمر إلى الخروج الصريح من دائرة الدين. وبعضهم ينعزل الدين في وجدانه عن الحياة.. " فيتدين " في داخل قلبه: يصلي ويصوم، وقد يزكي ويحج، ثم يمارس الحياة

الواقعة بكل مفاهيم " التطور "، فيترك بناته – مثلا – يلبسن فساتين فوق الركبة، ويخالطن الشبان، لأن " العصر " يريد ذلك، وهو يريد لبناته أن يكنّ على " موضة " العصر. وبعضهم يتجمد – في تحجر – على مفاهيم معينة يظنها هي الدين، ويخاصم الحياة المتحركة كلها لأنها خروج على الدين. وبعضهم يظلون في حيرة، لا يدرون ماذا يصنعون!

* * *

وهذا البحث يتناول قضية التطور، في مواجهة قضية الدين..

وقد تناولت هذا الموضوع من قبل في كتب سابقة ولكن دون تفصيل.

تناولته أول مرة – بصورة مباشرة – في فصل " أنتم أعلم بأمور دنياكم " في كتاب " قبسات من الرسول " فتحدثت حديثاً سريعا عن قضية التطور، وعن الثابت والمتطور في كيان الإنسان، وطريقة الإسلام في معالجة هذا وذاك.

ثم تناولته في فصلين من كتاب " معركة التقاليد " تحدثت فيهما عن المفهوم الأوربي للتطور؛ وما يحمله في طياته من حقائق وأباطيل، وكيف أثر في الحياة الأوربية ثم انتقلت عدواه إلى الشرق عن طريق الاستعمار.

ثم أفردت له فصلا في كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " بعنوان " الثابت والمتطور في كيان الإنسان ".

ولكن الرغبة كانت تتزايد في نفسي كل مرة أن أتناول الموضوع في بحث متخصص، لا تناولا عرضيا في أثناء الطريق.

وأخيراً كان هذا الكتاب، تناولت فيه الموضوع من جميع الزوايا التي جالت في خاطري، في الفكر الغربي والإسلامي سواء.

وهو يتناول أربع قضايا رئيسية:

المفهوم الغربي للتطور، وأسبابه ونتائجه في الحياة الغربية.

حقيقة الفطرة البشرية وما تشتمل عليه من جوانب ثابتة وجوانب متغيرة.

المفهوم الإسلامي " للإنسان " وطريقة الإسلام في معالجة الثابت والمتطور في حياة البشرية.

والقضية الرابعة تتناول الموقف الراهن للحضارة الغربية وللإسلام، وما يحمله الموقف من دلالة لمستقبل البشرية.

والموضوع واسع ما في هذا شك، والقضايا التي يتناولها شديدة الخطورة بالنسبة للمفاهيم الحالية للحياة. وهو في حاجة إلى دراسة واسعة مستفيضة جادة في كل مناحي التفكير البشري والحياة البشرية.

وما يتسع بحث كهذا لكل جوانب الموضوع بطبيعة الحال.

ولكن حسبه أن يتناول القضية في جوهرها. بل حسبه أن يفتح الباب للتفكير.

فإن نجح في ذلك فما توفيقي إلا بالله.. وله الحمد وله الشكر في جميع الأحوال.

محمد قطب

عَصْرُ التطوُرْ

في العصور الوسطى كان " الثبات " هو الطابع المسيطر على الحياة كلها في الغرب. وكان العالم الإسلامي قد أخذ دورة من النشاط الحي المتحرك الغلاب.. ثم أخذ يركن إلى الهدوء أو إلى الركود التدريجي البطيء.

وكان مفهوم الثبات في أوربا مستمداً من الدين، كما هو مستمد من الوضع الاقتصادي والاجتماعي الثابت الأركان.

كان الدين – بمفهومه الكنسي الأوربي – " عقيدة ".. أي علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان، ولا تحكم – إلا قليلا – واقع الحياة. أما هذا الواقع فتحكمه تشريعات مستمدة من القانون الروماني، ومستمدة من أهواء حكام الإقطاع، أي مستمدة – في النهاية – من أصول وثنية لا علاقة لها بالدين.

وما دام الدين " عقيدة " بهذا المفهوم، أي اعتقادا في الله، وارتباطا وجدانياً به، وتعبدا روحياً إليه.. فهو " ثابت " بكل معنى الكلمة، فالله في الوجدان ثابت، وطريقة الوجدان في التطلع إليه تمثل كذلك لوناً من الثبات.

على أننا حتى لو فرضنا أن الدين – بمفهومه الكنسي الأوربي – كان ديناً كلياً شاملا [كما هو منزل من عند الله قي الحقيقية] أي ديناً يحكم الوجدان والحياة الواقعة في ذات الوقت، ويشرع للناس أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى جانب ما يشرع لهم عباداتهم وسلوكهم الفردي.. فلا ندري على وجه التحقيق كيف كانت تصبح صورة المجتمع الأوربي، ما دامت الحكومات الأوربية لا تحكم بهذا الدين!

إنما نحن نعلم على وجه اليقين – من التاريخ – أن دور الإسلام لم يكن كذلك..

فهو أولا قد حافظ على مفهوم السماوي فترة طويلة من الوقت، كان فيها يشرع للوجدان وللحياة الواقعة على السواء. وعلى الرغم من الفساد الجزئي الذي أصاب الحكومة الإسلامية، وأصابها مبكرا منذ عهد الدولة الأموية، فإن " الدين " لم يعش في عزلة عن المجتمع قط، إلا في العصر الأخير.. في القرن الثامن عشر الميلادي وما تلاه، بعد الحملة الصليبية التي قادها نابليون على مصر، وتبعتها حملات صليبية أوربية متعددة على العالم الإسلامي: فرنسية وانجليزية وبلجيكية وهولندية وألمانية.. ثم أمريكية.. في صورة " استعمار "

حربي واقتصادي وسياسي.. يعمل بادئ ذي بدء على خلع الحكومة المسلمة القائمة بتنفيذ شريعة الله، وإخضاع الحكم لتشريع غير رباني، وبصفة خاصة غير إسلامي.

كما أن الإسلام قد " حرك " الحياة و " طورها " في كل مكان حل فيه.. وكانت آيات التطوير شاملة لشتى الاتجاهات.

ففي الجزيرة العربية وما شابهها في البناء الاجتماعي والاقتصادي، أحدث حركة ضخمة حين حول المجتمع القبلي إلى " أمة ". أمة متماسكة، تحكمها حكومة مركزية واحدة، وتطبق فيها قانونا واحدا، ويجمعها في النهاية شعور الأمة الموحدة، لا المقاطعات المستقلة ولا الأقاليم المتفرقة المنعزلة. وفي البلاد ذات الحضارات السابقة أحدث حركة مماثلة حين حرر الأمة من عبادة الوثن الحاكم إلى عبادة الله.. فانطلقت المشاعر التي كانت حبيسة في عبودية الحاكم، تنشط في مجالها المتحرر مختلف ألوان النشاط.

وفي جميع الأحوال أحدث " حركة " اقتصادية ضخمة، فانتقل بالمجتمع الإسلامي الواسع من مرحلة الرق، والرعي، إلى الزراعة والتجارة والصناعة على مستوى " دولي ".. فحال دون الركود الاقتصادي على وضع معين فترة طويلة من الوقت. وأهم من ذلك أنه – بتشريعاته الخاصة، الاقتصادية والاجتماعية – حال دون " ثبات " الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأفراد والأسرات. فلا نظام فيه " للطبقات " كالذي عرفته أوربا. ولا " أشراف " بالمولد يظلون يتوارثون الأرض والمال والمركز الاجتماعي والسيادة. وإنما هو مجتمع " مفتوح " يستطيع كل فرد فيه بوسيلة أو بأخرى أن يرتفع إلى القمة وأن ينزل إلى الحضيض. ثم تتفتت الثروات بتشريع الإرث فلا تبقى في يد شخص واحد أو أسرة معينة. ثم التجارة بتقلباتها تغني هذا وتفقر ذاك، وتحدث حركة دائمة في أوضاع الناس، فلا الغني يبقى غنيا إلى الأبد ولا الفقير يظل على فقره، وإنما يتبادلون المراكز كلما تقلبت الأحوال. ثم " الصناعة " في المدن الصناعية تحدث ألوانا من الثروة وألوانا من العلاقات غير ثروة الإقطاع وعلاقاته.. وهكذا تمور الحركة في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

وكذلك كانت الفتوح والغزوات التي صاحبت تاريخ الإسلام سببا في حركة من نوع آخر. حركة الجيوش وحركة الأفكار وحركة الحضارات. فمع كل فتح جديد حركة. ومع كل حركة تبادل حي بين الغالبين والمغلوبين. تتولد عنه مفاهيم اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة، يحكمها في النهاية مفهوم الإسلام.

وفوق ذلك كله كانت الحركة العلمية.. وهي تعتبر في ميزان التاريخ أكبر حركة فيه إلى ما قبل العصر الأخير. وهي ليست مجرد علم. وإنما هي على وجه التحديد " حركة علمية

". حركة تأخذ وتعطي، وتنمو وتزداد. حركة تأليف وترجمة ونشر [عن طريق المدارس والمكتبات العامة] على نطاق واسع غير معهود من قبل في التاريخ. حركة في الفلسفة التجريدية والعلوم النظرية والتجريبية.. ويكفي من دلالاتها أن يكون العلماء المسلمون هم الذين أنشأوا المذهب التجريبي الذي سارت عليه العلوم كلها فيما بعد، وطبقوه على أوسع نطاق، في الجغرافيا والفلك.. وفي الطب والكيمياء والطبيعة.. وفي اتجاه الحياة عامة بلا استثناء.

في هذا الجو " المتحرك " النامي المتطور كان يعيش العالم الإسلامي، حيث كانت تعيش أوربا في جو من الركود و " الثبات "...

وحتى حين استهلك العالم الإسلامي طاقته [لأسباب تاريخية ليس هنا مجال تفصيلها، ولكن يمكن تلخيصها في كلمة واحدة: أنها البعد التدريجي عن " الإسلام ".. أي عن مصدر الحركة والإشعاع].. حتى حينئذ كانت فيه من بقايا الرصيد الضخم، رصيد الحركة والنماء والتطور، في أيام الحروب الصليبية، ما كان كافيا لأن يشعل الشرارة في أوربا، فيخرجها من الظلمات إلى النور.

في الحروب الصليبية التقت أوربا " ببقايا " الحركة الإسلامية.. أكبر حركة مد في التاريخ.. فكانت هذه البقايا تحمل من الحيوية والحركة والاشتعال، ما استطاع أن يوقظ أوربا من سباتها، ويبعثها تطلب الحركة والحياة.

أولى ثمار الحروب الصليبية كانت حركة البعث العلمي. فقد تعرف الصليبيون على المعارف الإسلامية، سواء ما كان منها من أصل إغريقي، وما كان إضافة جديدة أضافها العلماء المسلمون في فترة الركود الأوربي الطويل. وكانت حركة البعث هذه أول شرارة انطلقت لتحرر الأرواح في أوربا من ظلام الجهل والخرافات والأساطير.

ثم كان تحطيم النظام الإقطاعي والسعي لتكوين الدول والأمم في مكان الإقطاعيات والقبائل، حين لمس الصليبيون في حربهم مع المسلمين مزايا الحكومة المركزية الموحدة، والقانون الواحد الذي يسري على الجميع، القانون الذي لا ينبع من هوى حاكم الإقطاعية، ولا تتداخل فيه السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، كما كانت كلها تتداخل في شخص الحاكم هناك. كما ساعد تكوّن المدن التجارية والصناعية التي نشأت في أثناء الحروب الصليبية – على غرار المدن الإسلامية الساحلية – على تفتيت الإقطاع وتحرير العبيد.

باختصار بدأت أوربا " تتحرك " من سباتها الطويل.

* * *

وحين بدأت تتحرك.. أخذت الحركة تصطدم بمفهوم " الثبات ".

وقد كان هذا المفهوم بعيد الغور في التربة الأوربية.. فلفترة طويلة من الزمن كان كل شيء ثابتا في أوربا لا يتحرك ولا يريم. العبيد في الأرض. والسادة في الإقطاعيات. كل منهما يرث عبوديته أو سيادته على مدار الأجيال ومدار القرون. ورجال الدين ذوو المنزلة والسطوة عنصر يكمل الصورة ويثبّت الإطار.

الحياة هي الحياة.. الرجل والمرأة والأطفال يتعاقبون على طور واحد. فرد يذهب وفرد يخلفه في مكانه، يأخذ نفس السمت ويؤدي نفس الدور، فكأنما لا يذهب الذاهب ولا يجيء.. في حدود " الطبقة " بإطارها الجامد الذي لا يتحطم، يعيش كل إنسان. الشريف في " شرفه " والشعب في شعبيته، ورجل الدين في مسوحه.. بلا تبديل.

الحياة الاقتصادية والاجتماعية السياسية والفكرية والروحية تسير على نفس الوتيرة منذ عهود لا يعيها وعي الفرد، وإنما يتصورها امتدادا " أزليا " ثابتا في الماضي، ويراها في الحاضر ثابتة، فيتخيل لها كذلك ثباتا " أبديا " فيما يُقبل من التاريخ..

وفي ظل هذا المفهوم الثابت تثبت الأفكار والقيم والأخلاق والتقاليد.. ويشمل ذلك كلَّه من الخارج إطارُ الدين، فيُحكِم الصورة الثابتة، ويزيد في تثبيت المفهوم.

* * *

والجهل والأساطير والخرافة تزيد من عنصر الثبات..

فالعلم حركة.. حركة في الذهن تتبعها حركة في واقع الحياة. وما دام الذهن يعمل ويتحرك، ويعرف جديداً كل يوم، فلا سبيل للركود الجامد ولا الثبات الجائم.. وإنما السبيل للتغير والتطور، والتحوير والتبديل.

ولقد كانت الكنيسة الأوربية قيّمة على هذا الجهل حريصة عليه.. فأي شيء – كالجهل – يمكن أن يضمن لها استنامة الجماهير لسلطانها الطغياني، وأي شيء يمكن أن تحذره أكثر من العلم الذي " يحرر " الأرواح والنفوس؟!

ومن هنا كان الدور " الطبيعي " للكنيسة – من موقفها الذي ترصد منه الحياة الأوربية – أن تحافظ على الجهل أطول مدة تستطيعها، وتمنحه سلطان الدين وعنوانه، وأن تحارب العلم ما وسعتها المحاربة، وتسمه بالعصيان والمروق، وتطرده من رحمة الله.. كذلك فعلت مع كوبرنيكوس وجاليليو وجوردانو برونو.. ومع كل عالم تجرأ أن يناقض جهالتها المقدسة، ويفتح الباب للعلم كي ينير الطريق.

* * *

من هذا " الثبات " الهائل الراسخ العميق الغور، أخذت أوربا تتحرك على صدى الحروب الصليبية، وما أطلقته هذه الحروب في كيانها من هزات.

وكان أمراً طبيعياً أن تقوم " الحركة " في أوربا على غير أساس الدين..

أمراً طبيعياً من جميع الوجوه..

فالدين كما تصورته الكنيسة الأوربية وصورته للناس، كان – كما قلنا – يمثل الثبات المطلق في جميع الأمور. فالحركة إذن لا بد أن تصطدم به، كما تصطدم كل حركة بالسكون. ولا بد أن تقوم على غير أساس منه، لأنه لا يسمح بمفهوم الحركة، ولا يمكّنه من الوجود.

والكنيسة فوق ذلك كانت قد أصبحت غولا بشعاً يطارد الناس في يقظتهم ومنامهم، يفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين، ويفرض عليهم العشور والضرائب، وأعمال السخرة فيما تملك من الأرض، والتجنيد في الجيوش التابعة لها التي تحارب بها الملوك. فكان رد الفعل الطبيعي هو " التحرر ". التحرر من سلطان الكنيسة الطغياني، وإقامة البناء الجديد – بناء النهضة – على مبعدة من ذلك السلطان.

فإذا أضيف إلى ذلك أن الكنيسة قد بدأت بالفعل بتعذيب العلماء وتحريقهم وقتلهم لأنهم يعلنون ما تصل إليه أبحاثهم العلمية المخالفة لأساطيرها المقدسة.. فقد كان الطبيعي إذن أن تقوم الحركة " العلمية " مناهضة لسلطان الكنيسة، بعيدة عن مفهوم الدين.

وذلك كله فوق الروح الإغريقية الرومانية الوثنية العميقة الغور في النفس الأوربية، والتي كانت تختفي تحت قشرة رقيقة من المسيحية في العصور الوسطى، فما إن واتتها الفرصة في حركة العداء للكنيسة حتى برزت من تحت السطح، وعادت تحكم الحياة وتحكم الأفكار والنفوس!

* * *

ولا شك أن هذا كله كان بطيئاً جداً وتدريجياً جداً.. فالحركات – مهما اشتد أوارها – بطيئة الحدوث في النفوس، بطيئة التغلغل، لأن عليها أن تقاوم رواسب كثيرة واعية وغير واعية، وتصطدم بكثير من العقبات..

والأفكار التي تبدأ في نفوس أفراد متحمسين، يقتحمون المخاطر ويرتادون الطريق، لا تتحول إلى أفكار " جماهيرية " على نطاق واسع، إلا بعد أجيال من دورتها الخفية في النفوس.

ومن ثم فقد استغرقت " النهضة " قرونا عدة وهي تقاتل سلطان الكنيسة، وتقيم الحياة – جزءا جزءا – بعيداً عن سلطان الكنيسة، ولكنها كانت " لادينية " منذ مولدها، و" هيلينية " في وجهتها، وفي استمداداتها وإيحاءاتها، أي.. بعيدة عن روح الدين.

* * *

وقام الصراع.. الخفي والعلني في نفوس الناس بين مفهوم النهضة ومفهوم الدين.

صراع مرير بطيء طويل الأمد.

فقد كانت ثمار النهضة مغرية ولا شك.. ثمارها الفكرية والعلمية والفنية.. كانت – بالنسبة لأوربا – نورا ينفذ في الظلمات، وتتفتح عليه العيون مبهورة بعد طول الظلام. وكانت حركة من الركود الآسن المتعفن. والحركة في ذاتها محببة، لأنها تلبي الفطرة التي تكره السكون. كما أنها كانت تعتمد – في أغوار النفس الأوربية – على الميراث الإغريقي الروماني الذي لم تكن المسيحية قد أطفأته إطفاء كاملا، إنما كان مكموراً فقط تحت غشاء الدين..

كل ذلك يسّر للنهضة أن تمضي قدما في نشر رسالتها في المعرفة والحضارة، والعلوم والفنون..

ولكن – من جانب آخر – كانت " العقيدة " عزيزة على الجماهير. فقد صاحبتها ألف سنة أو تزيد. وأيًّا تكن درجة تعمقها، وأيا يكن تغلغلها الحقيقي في الحياة، وحكمها لسلوك الناس.. فقد كانت " موجودة " ومؤثرة في وجدان الجماهير. ولم يكن من السهل اقتلاعها ولا محوها من الوجود.

ومن ثم عاشت أوربا فترة من الوقت غير قصيرة بشخصية مزدوجة: مسيحية من ناحية، وهيلينية من ناحية. مسيحية في داخل الكنيسة، وهيلينية في واقع الحياة. مسيحية في الوجدان وهيلينية في التفكير.

واستمر هذا " الطور " عدة قرون.

ولكن المعرفة الخفية كانت تدور في داخل النفوس.. وتدور – رويدا رويدا – في صالح الهيلينية المنبعثة في عصر النهضة لا في صالح الدين.. وإن كان الدين – بعد – صاحب سلطان في نفوس الجماهير.

* * *

وجاء اليوم الذي وقع فيه الصدام الحاد المدمر العنيف.

وقع على يد دارون..

فقد أصدر دارون كتابه في " أصل الأنواع " سنة 1859، وفي سنة 1871 نشر كتابه في " أصل الإنسان ".

ورُسم خط واضح من خطوط التاريخ.

فمن قبل وقع الصدام بين الكنيسة وبين كوبرنيكوس [1] وجاليليو [2] وجوردانو برونو [3]، وعذبتهم وأحرقتهم ونكلت بهم أبشع تنكيل حين عارضوا فكرتها في أن الأرض مركز الفلك والإنسان مركز الكون.. وقد تكون الجماهير قد استبشعت عمليات النكال والتعذيب، ولكنها رغم ذلك وقفت في صف الكنيسة تصفق لانتصارها على " الملحدين ".

---

(1) سنة 1473 - 1543.
(2) سنة 1564 - 1642.
(3) سنة 1548 - 1600.

ثم جاء دارون بالطامة الكبرى حين قال إن الإنسان أصله حيوان..

وكفرته الكنيسة بلا شك..

ووقفت الجماهير في بادئ الأمر في جانب الكنيسة. فقد عز عليها بطبيعة الحال أن يصمها دارون بالحيوانية، وينزع عنها " قداستها " وتميزها ورفعتها، حين ينزع عنها كرامة الإنسان ويردها إلى أصل الحيوان.

ولكنها رويدا رويدا في المعركة الحادة التي قامت بين دارون وبين الكنيسة، غيرت موقفها! فقد وجدت أن هذه فرصة سانحة للإجهاز على ذلك الغول البشع الذي يضطهد الناس بسلطان الدين.

ونسيت الجماهير بعد فترة كرامتها " الإنسانية " الملموزة، وفرحت بالانطلاق والتحرر.. ولو في إهاب الحيوان! وحمدت لدارون وقفته " الجريئة " في وجه الطغيان. وحمدت له أكثر من ذلك أنه أعطاها السلاح الجبار الذي تحطم به ما بقي من سلطان الكنيسة الجائر: سلاح " العلم ".. سلاح العرفان.

* * *

ولكن شيئاً كبيراً كان قد حدث في هذه الأثناء..

فكرة " التطور " حلت محل فكرة " الثبات "..

لقد كانت " الحركة " من قبل قد اصطدمت بالثبات فعلا، وبدأت تزلزله من مكانه. ولكن الصراع كان خفيا، وكان هينا لينا داخل النفوس. فقد عاشت الهيلينية والمسيحية معاً جنبا إلى جنب في ظل ازدواج الشخصية الذي عاشت به أوربا طوال عصر النهضة وما بعده.. وكان من الممكن أن تستمر في هذا الازدواج فترة طويلة أخرى لولا هذه الأحداث..

وكان دارون هو الناقوس الذي دق معلنا مجيء الأحداث.

لقد صارت الحركة المضادة للثبات الآن نظرية " علمية "، ولم تعد مجرد وجدان خفي في داخل النفوس. نظرية اسمها " التطور ".. اسم جديد، مغرٍ جذاب!

واندفعت الجماهير وراء اللعبة الجديدة..

العلماء أولا.. ومن ورائهم الجماهير..

" هيجة "!.. كل شيء يتطور..

إذا كانت الحياة تتطور.. من الخلية الواحدة إلى الإنسان المعقد الشديد التعقيد؛ وإذا كان الإنسان ذاته قد تطور من حيوان سابق إلى حيوان يشبه الإنسان، إلى إنسان يشبه الحيوان.. إلى إنسان.. فماذا يمكن أن يكون ثابتا على وجه الأرض على الإطلاق؟!

لقد كانت صدمة عنيفة لفكرة الثبات..

صدمة لم تطقها في مبدأ الأمر أعصاب العلماء ولا أعصاب الجماهير..

ولكن هؤلاء وهؤلاء حين أفاقوا من الصدمة أخذوا يتشبثون في فرحة ولهفة باللعبة الجديدة، وأخذوا ينطلقون بها في كل مكان.

إنه ليست الأحياء وحدها هي التي تطورت أو تتطور.

إنه كل شيء.. كل شيء في هذه الحياة..

حتى الأفكار والمجتمعات تتطور.. إنها ليست " ثابتة "كما كانت تبدو من قبل.

والدين..؟! يا للعجب! إنه هو الآخر يتطور! من كان يتصور؟!

إن فكرة الله " تطور " في تفكير البشرية! إنها ليست فكرة أزلية ثابتة كما كان يصورها الدين وتصورها الكنيسة. لقد تطورت من قبل، ويمكن اليوم أن تتطور. كانت عبادة للوالد. وعبادة للطوطم. وعبادة لقوى الطبيعة المختلفة. وعبادة للأوثان. ثم صارت عبادة لله. ولكنها يمكن أن تتطور.. يمكن أن تكون عبادة لأي شيء آخر.. ماذا لو أصبحت عبادة " للطبيعة "؟!

الطبيعة جميلة.. الطبيعة خلاقة.. الطبيعة هي الأم التي ولدتنا.. أو " خلقتنا ".. فلنعبدها! إننا كاسبون بذلك مكاسب عظيمة. سنحطم الكنيسة ذات السلطان الطاغي الذي لا يرحم، وذات الجهالات والخرافات والأساطير. وسنعبد إلها " جميلا ".. وفوق ذلك فإنه إله بلا كنيسة! بلا التزامات! بلا ضرائب ولا عشور. بلا رهبانية.. بلا تزمت. إله يمنحنا

الحرية لأننا سنعيش في ظله أحراراً من كل قيد.. طلقاء.. نفعل ما يحلو لنا، لأنه لا يحاسبنا ولا يزجر أفعالنا. سنولد من جديد. لن نولد – هذه المرة – في المسيح. ولكن سنولد في أحضان الطبيعة.. فأي فرحة لنا في هذا الدين الجديد؟!

* * *

ولكن موجة الاندفاع وراء التطور، والابتعاد عن مفهوم الدين، لم تكن قائمة على دارون وحده، وإن كان دارون بطلها المغوار..

لقد كان هناك حدث اقتصادي واجتماعي ضخم يهز أركان الحياة هزاً، ولا يقل مفعوله عن مفعول نظرية التطور.. ذلك هو الانقلاب الصناعي في أوربا.

بدأ الانقلاب الصناعي بظهور الآلة.. وأحدث انقلابا كاملا في الحياة الأوربية لا يقف عند حدود العلاقات الاقتصادية أو الاجتماعية وإنما يتعداها إلى كل نواحي الحياة.

بدأت المدن الصناعية تنشأ، وتجتذب إليها الشباب من الرجال يعملون في المصانع الجديدة ويسكنون في المدينة على نسق جديد لا يعرفونه من قبل.

لقد كانت الحياة من قبل هادئة رتيبة بطيئة آسنة.. تمر بمتاعبها وملاعبها على وتيرة واحدة في القرية أو الإقطاعية.. الفلاحون يعملون في الأرض أرقاء أو طلقاء، وزوجاتهم في المنازل يدبرن شئونها ويغزلن الغزل ليبعنه في السوق.. والأسرة – في صورتها تلك – مكينة الروابط، لا يفكر أحد أو يجرؤ على تفتيت روابطها. والناس متعارفون على مفهوم معين للدين والأخلاق والتقاليد، يرعونه حق رعايته أو لا يرعونه، ولكنهم لا يفكرون في مناقضته حتى ولو خالفوا تعاليمه في سلوكهم الواقعي. ولكل شيء من ذلك قداسة. قداسة استمدها من طول الممارسة وثباتها، فوق استمدادها من رهبة الدين.. والجريمة الخلقية يرتكبها نفر من الشبان الطائشين لأنهم طائشون.. وقد يتغاضى عنها " المجتمع " ولكنها في نظره جريمة. والفتيات لا يرتكبن هذه الجريمة لأن سمعتهن تذهب إذن إلى الأبد – كذلك تقضي مفاهيم المجتمع – فهناك الفضيحة وهناك العار.. وهناك أيضاً – في هذه الحالة – رهبة الدين.. فلا تقدم الفتيات عليها إلا فلتة عابرة في القرية في كل جيل.

وفجأة أخذت الأمور تتغير..

فالمصانع الجديدة تجمّع حولها الشبان الأقوياء المفتولي العضلات.. الذين يقدرون على الجهد العضلي العنيف فقد كانت الآلات في منشئها تحتاج إلى مثل هذه الجهد لإدراتها. وقد جاء هؤلاء الشبان إلى المدينة أفرادا بلا أسر، يرتادون الطريق ويمارسون هذه التجربة الجديدة، لا يجرؤون على إحضار أسرهم معهم قبل أن يستقر لهم المقام.

وهم شبان مغامرون.. انفلتوا من " القيد " الإقطاعي.. الذي كان يكبلهم بالأرض، والمذلة للسيد، فجاءوا يمارسون " الحرية " في المجتمع الجديد.

وهو مجتمع لا يعرفهم.. لا يعرف ذواتهم. إنهم في أغمار مجهولون، لا يحفلهم أحد، ولا يتقيد سلوكهم بمعرفة الناس لهم، واستحيائهم هم من الناس الذين يعرفونهم، ويعرفون أسرهم ويعيّرونهم بالسلوك المنحرف..

ثم هم شباب قوي في فترة الفتوة الفارهة.. بلا أزواج.

إذن.. فالطريق هو الجريمة الخلقية، والظروف كلها تمهد الطريق.

وجاء دور المرأة لتعمل..

ساءت العلاقة بين العمال وأصحاب المصانع. يشغلونهم فوق ما يطيقون ويعطونهم أبخس الأجور. ويضرب العمال أو يهددون بالإضراب، فيبحث " السادة " الجدد عن سلاح مضاد.. هو إيجاد " جيش احتياطي " من العمال الذين يقبلون العمل بنفس الأجر بل بأجر أقل..

وجاءت المرأة التي هجرها عائلها، أو التي لا تجد عائلا بعد نزوح ألوف الشبان إلى المدينة وترك ما يقابلهن من الفتيات بلا رجال.. جاءت فوقعت في المصيدة المنصوبة. جاءت تبحث عن عمل لتعيش. ورضيت بهذا الأجر الدون تحت وطأة الظروف.

ورُسم خط جديد من خطوط التاريخ..

المرأة تعمل " بالجملة "..

وتاخذ أجرا في يدها تملكه لنفسها دون شريك أو رقيب.

وصحيح أنها تعول به نفسها أو أسرتها. ولكنها صارت " تملك " بعد أن لم تكن تملك و " تتصرف " في ملكها بعد أن لم تكن تتصرف. فقد كانت تقاليد المجتمع الأوربي

وتشريعاته تحجب المرأة عن التعامل الحر في المال والملك، وتمنعها من حرية التصرف المباشر في أي شأن من الشئون.

وأحست المرأة رغم وطأة الظروف كلها أنها " تتحرر ".

والتقى شاب متحرر بفتاة متحررة!

لم لا يلبيان معاً – في حرية – داعي الجنس المحبوس؟!

ولم يكن هذا دفعة واحدة بطبيعة الحال، وما كان من الممكن أن يكون. فهناك الرواسب الواعية والخفية العميقة المترسبة في النفس تزجرها عن الانطلاق. ولكن رويدا رويدا تتم جميع الأمور.

* * *

ونشأ مع الرأسمالية الصاعدة جيل يمارس لونا من الحرية السياسية لم يكن موجودا من قبل. برلمان وانتخابات وتمثيل شعبي ومهني نقابي.. وخطب واجتماعات. وحرية في القول والعمل.. شيء لم يكن موجوداً في داخل الإقطاع. شيء دافع إلى النشاط والحركة. دافع إلى الأمام. وفي الوقت ذاته " متحرر ".. يطلب مزيدا من الحقوق مزيدا من الحرية. ويقابل صعابا في الطريق، من " السادة " أصحاب النفوذ، الحريصين على التفرد بالسلطان، فيحفزه ذلك إلى مزيد من الصراع في سبيل الحرية. ويعدي التحررُ النفسَ من شعور إلى شعور. ومن فكرة إلى فكرة. فتطلب الحرية في جميع المجالات ومن بينها التحرر من قيود الأخلاق كما رسمها المجتمع الزراعي في ظل الإقطاع وثبّتها إطار الدين...

* * *

وتتفكك روابط الأسرة..

الرجل يعمل والمرأة تعمل والأطفال يعملون..

ولا يعود البيت في حسهم جميعاً هو ذلك الرباط المقدس الذي يربط بعضهم ببعض، والذي يلتزمون نحوه بآداب ومشاعر وتقاليد و " طقوس ".. كانت تنشأ في المجتمع الريفي من وجود " امرأة " مستقرة تنظم هذه المشاعر وتمسكها بيدها.. أو بقلبها.. فلا

تفلت منها. كما تنشأ من سيطرة الزوج على الموقف كله داخل الأسرة، وصدور " التشريعات " في داخل المنزل منه وحده، فيوجد رباطان متقابلان يربطان كل أفراد البيت: رباط عاطفي تملك قياده الأم، ورباط عملي يملك قياده الأب، والأطفال بين هذا الرباط وذاك يروحون ويجيئون في " حضن " الأسرة لا يتعدونه.

كل ذلك تغير حين خرجت المرأة من مستقرها فانفلت الرباط العاطفي.. فلا وجود له في زحمة العمل والجهد الناصب الذي تبذله المرأة فيه. وتغير كذلك حين " استقلت " المرأة اقتصاديا، فصارت " سلطة " مع سلطة الأب.. فانفلت الرباط العملي الذي كان يحكمه تفرد الأب.. ثم تغير مرة ثالثة حين ذهب الأطفال يعملون، فيصهرهم جو العمل مبكرا قبل أوانه، ويفسد فيهم مشاعر الطفولة، ويستحث فيهم مشاعر النضوج في كيان طفل، فتختل مشاعرهم وينفلتون من الرباط.. الرباط العاطفي والرباط العملي سواء.

* * *

ويحدث ذلك كله تغيرا ملحوظا في صورة المجتمع.

كل العلاقات المعهودة تتغير.. أو.. " تتطور "!

العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والخلقية والفكرية.. لا شيء على حاله، بعد أن ظل على حاله مئات السنين.

الصورة الثابتة، التي كان الفرد مجرد لبنة فيها، يذهب فيجيء غيره يخلفه في نفس مكانه.. لم يعد لها وجود.

لا الرجل ولا الطفل ولا المرأة.

لا البيت ولا الشارع.

لا العبد ولا السيد.

لا العمل ولا نوع الثروة.

كل شيء قد تغير..

وتغير بسرعة مدهشة لا عهد بها من قبل فقد كانت من قبل تمر السنوات العشر أو العشرون أو الخمسون او المائة لا تكاد تحدث تغيرا يذكر في الصورة. بحيث يغري الأمر بالظن أن كل شيء " ثابت "، لبطء الحركة وضآلتها. فاليوم صارت السنوات المائة، بل الخمسون، بل العشرون، بل العشر، تحدث تغير ملموسا واضحا في كل شيء:

رجل من حيث هو " رجل " لم يعد له السلطان المطلق قي بيته كما كان.

وامرأة لم تعد تعتبر نفسها قعيدة بيتها، ولا ملزمة بالطاعة الكاملة لذلك الرجل الذي كان.

وطفل مشرد نفسيا وإن كان يحمل بين أصابعه شيئاً من النقود.

وبيت لا رباط فيه.

وشارع مزدحم بالناس. أصناف مختلفة من الناس. رجال ونساء وأطفال، كزحمة المواسم والأعياد في القرية، ولكن في غير موسم أو عيد. وعلى نحو آخر غير ازدحام القرية. فهنا ناس لا يعرف بعضهم بعضا، ولا يحفل بعضهم شئون بعض، ولا يلتزمون إزاء بعضهم البعض بتقاليد التعارف والارتباط.

وعبد " تحرر " من ربقة الأرض. ووقع في عبودية جديدة، هي عبودية المصنع ورأس المال. ولكنه مع ذلك مستبشر: دخله زاد. وأصبح يصارع، يملك حق الصراع. ويطالب بحقوق. ويملك حق المطالبة بالحقوق. ويتكتل في تكتلات ذات فاعلية ووزن، ويصبح بالتدريج قوة سياسية متزايدة. ثم هو يعيش مع غيره من العبيد في جو سمته [الظاهرية على الأقل] هي الحرية لا العبودية. وخصوصاً في الجانب الخلقي. ثم هو يشعر بفرديته المتميزة [في سلوكه الشخصي] حيث كان مقيدا في كل خطوة من قبل بالسلوك الجمعي الذي يربط إطار القرية كله؛ بينما يشعر بجماعيته المتكتلة [في النقابات والأحزاب والهيئات والجماعات] حيث كان يحس بالضياع من قبل كفرد لا مجموع له، لأن المجموع الذي يمثله ليس له حساب. وباختصار قد انقلب كيانه كله، بجميع جزئياته، وأصبح صورة مقابلة تمام التقابل لكل ما كان!

وسيد ما زال يشعر بالسيادة ولكن من نوع آخر. فهي سيادة صارت تعتمد على المال السائل بعد أن كانت تعتمد على الأرض. صارت مركزة في حيز أصغر ولكنه أفعل. ومع ذلك فهي سيادة تحتاج إلى صراع مع العمال والنقابات من جهة، والمنافسات الشديدة من جهة أخرى، بصورة لم تكن موجودة من قبل في الإقطاع المستقر الثابت الأركان.

وعمل من نوع جديد. لا يتعامل مع " المجهول " لا يتعامل مع " الغيب " كما كان يصنع وهو يبذر البذرة في الأرض وينتظر الناتج من السماء. وإنما يتعامل مع القوى المنظورة التي تتدخل في " المادة " فتشكلها وتصوغها كما يريد " الإنسان ". يتعامل مع " الطبيعة " لا " ما وراء الطبيعة "! يتعامل مع المادة لا مع الله.

كل شيء صورة مختلفة تمام الاختلاف عما كان قبل ذلك " الانقلاب ".

*   *   *

ثم يتدخل " العلم " فيكمل صورة التغير..

التقدم العلمي يقفز قفزاً هائلا كل يوم، ويغير شكل الحياة البشرية.

الآلة.. المركبة البخارية.. السيارة.. الكهرباء.. الصناعة الآلية في مكان الصناعة اليدوية.. كل شيء قد تغير عن ذي قبل. ثم.. هو دائم التغير لا شيء يثبت على حاله أكثر من بضع سنين، قد تختصر إلى بضعة شهور.. ثم يتغير. يدخل عليه تحوير جديد.

وصور الحياة تتغير تبعا لكل تغير جديد يحدثه العلم.

فالسفر بالقطار شيء يختلف تماما عن السفر على الحصان أو العربة التي تجرها الخيول.

والنسيج الآلي شيء آخر غير النسيج اليدوي..

والكهرباء غير الفحم..

والشارع الذي تصب فيه المخترعات الجديدة كل يوم، شيء آخر غير الشارع الثابت في طوله وعرضه ومعروضاته.

والبيت الذي يستحدث أدواته يختلف عن البيت الذي ظل قروناً يستخدم نفس الأدوات..

بل نظريات العلم ذاتها تتغير.. في الطبيعة والكيمياء والطب والفلك والرياضة والأحياء.. نتيجة للكشوف الجديدة والآلات العلمية المستحدثة. وهل هناك ما هو أضخم

من القول بأن الكائنات الحية تطورت من الكائن الوحيد الخلية؟ أو القول بأن الهواء مملوء بملايين من الأحياء الدقيقة التي لا ترى ولا تُحس، وهي مع ذلك شديدة الخطورة، تحدث الأوبئة والأمراض؟ أو القول بأن الكواكب ليست سبعة فقط، أو أن هناك ملايين من النجوم لا تراها العين وهي مع ذلك أكبر وأشد اشتعالا وإضاءة من الشمس؟!

وينشأ من ذلك كله شعور عميق بالتغير.. أو التطور. أو عدم الثبات.

* * *

وتجمع " حصيلة " هذا كله في اتجاه معين، او اتجاهين متصاحبين..

التطور من ناحية.. ومن ناحية أخرى الابتعاد التدريجي عن الدين..

التطور لم يعد " نظرية علمية " كالتي نادى بها دارون في داخل المعمل، وفي حدود العلم الذي بحث فيه: علم الأحياء.. وإنما صار " لوثة " أصابت العلماء كما أصابت الجماهير.

لوثة تصيب كل شيء، وتتصور كل شيء من خلال فكرة التطور.. لا شيء ثابت على الإطلاق

لا الدين. ولا الأخلاق. ولا التقاليد. ولا القيم. ولا الأفكار. ولا " الحقائق ". ولا المعلومات. ولا شكل الحياة. ولا شكل المجتمع. ولا كيان الفرد. ولا علاقات الفرد بالمجتمع. ولا علاقاته مع الدولة.. ولا مشاعر الرجل ولا مشاعر المرأة. ولا أهداف الحياة..

بل ينبغي العمل على محاربة " الثبات " بكل وسيلة من وسائل الحرب.

كل شيء " ينبغي " أن يُطوَّر بالقوة، إذا لم يتطور من تلقاء نفسه. لا شيء ينبغي أن يكون ثابتاً على الإطلاق. فالثبات ضد ناموس الحياة. والناموس هو التطور. وكل شيء ثابتٍ فهو إذن مخالف للناموس!

ومن ثم أصبح التغيير أو التطوير هدفا في ذاته وليس وسيلة إلى غاية فحسب. وأصبح الناس يكرهون أن يروا شيئاً ثابتاً على وضعه في كل الأرض!

فإذا كانت العقيدة في الله تمثل لونا من الثبات.. فلتتغير.. إما أن نغير المعبود أو نغير العبادة! فلنكف عن عبادة الله. ولنعبد الطبيعة. أو نعبد أنفسنا.. المهم هو التغيير! ولنكف عن الطريقة التقليدية للعبادة. فلنتعبد بطريقة أخرى، ولتكن العربدة والانفلات.. المهم هو التغيير!

وإذا كانت الأخلاق تمثل لونا من الثبات.. فلتتغير.. فلنستحدث أخلاقا جديدة. ولو لمجرد التغيير! فلتكن الانتهازية فضيلة، والأنانية فضيلة، وتقطع الروابط العائلية فضيلة..

وإذا كانت التقاليد تمثل لونا من الثبات.. فلتتغير.. فلتسبق المرأة الرجل. وليتجرأ الصغار على الكبار. ولتتغير الملابس: ملابس الرجل وملابس المرأة. ولتكثر " الموضات " فذلك أدعى للتغيير السريع والتبديل.

ذلك من جانب لوثة التطور..

أما من الجانب الاخر فلم يعد للدين وزن حقيقي في هذه الأمور!

لقد جاءت الزلزلة الأولى للدين من أنه يمثل مفهوم الثبات في عصر يتمثل كله بمفهوم التطور والتغيير، أو مفهوم الحركة على وجه العموم. الحركة التي تصطدم بالسكون.

ولكن الأمر زاد اتساعا في هذا الاتجاه.

إن كل علاقات المجتمع تقوم على غير أساس من الدين..

ليسن النهضة " الفكرية " فقط، هي التي قامت على أساس لا ديني " secular " وإنما الواقع العملي كذلك الذي انبثق من النهضة الفكرية..

فالنظام الرأسمالي الصاعد قام على أساس ربوي صريح. والدين يحرم الربا ويمنع التعامل على أساسه. وعلى الرغم من احتجاج الكنيسة وصراخها ضد نظام الربا، فقد مضت الرأسمالية الطاغية في طريقها لا تصيخ سمعا لصراخ الكنيسة، مدفوعة بشهوة المال المجنونة التي لا تتريث ولا تتأثم.. ولا تهمها قيود الأخلاق أو قواعد الدين.

والعلاقات الجنسية " الحرة " التي قامت بين الرجل والمرأة في ظل العمل المشترك، والاختلاط في المجتمع، والاشتراك في النوادي، والسعي المشترك إلى " الترفيه ".. وفي ظل الاستقلال الاقتصادي للمرأة وظنها – من ثم – أنها لم تعد ملزمة بالمحافظة على عفتها، لأنها

تستطيع أن تعول نفسها إن رفض الرجل إعالتها بسبب أخلاقها.. وفي ظل صعوبات الحياة المتزايدة التي تشغل الشاب فترة من الوقت عن تكوين الأسرة والاستقرار الوجداني والجسدي في إطارها.. الخ.. هذه العلاقات قامت كلها على أساس مخالف للدين. ورغم المواعظ التي ألقاها " رجال الدين " بالمئات والألوف، فإن الصياغة الواقعية للمجتمع ظلت تسير في اتجاهها المنفلت من رباط الأخلاق. لأن الأخلاق كانت قد أصبحت مثلاً معلقاً في الفضاء لا رصيد له من الواقع. ولأن الدين – وهو في عزلة عن المجتمع منذ مولده في أوربا، لا يحكم الحياة الواقعة ولا يشرع لها في كل شيء – لم يكن يملك أن يوجه سفينة المجتمع في خضمها الهائج المضطرب الذي صنعه الانقلاب..

والعلم سار منذ البدء في طريق غير طريق الدين، لأن الدين – كما تمثله الكنيسة يومئذ – لم يكن في طوقه أن يمد العالم بشيء؛ لا بمذهب – كالمذهب التجريبي الذي أمد به الإسلام التفكير العلمي – ولا بمعلومات صحيحة تفيده، ولا بتشجيع من أي نوع. بل كان العكس هو الحاصل. فالكنيسة تشجع الجهل وتحارب العلم وتنكل بالعلماء.

ومنتجات العلم – بعضها على الأقل – تتجه نحو الكسب قبل أن تتجه نحو الفائدة، مدفوعة بشهوة رأس المال، وذلك مخالف لروح الدين. ولكن الدين هناك ليست له قوة التوجيه ولا الخبرة بالتوجيه في ذلك المجال..

ورويدا رويدا أحس الفرد العادي أن حياته تصوغها الأشياء " المتطورة " ولا يصوغها الدين.

العلم يصوغ حياته المادية ويشكلها..

والسياسة تصوغ علاقاته السياسية وتشكلها

والرأسمالية تصوغ حياته الاقتصادية

والانقلاب الصناعي ومعقباته تصوغ حياته الاجتماعية

والهيلينية تصوغ حياته الفكرية...

وينعزل الدين انعزالا شديداً في داخل الوجدان.. فكل يوم تنتزع الحياة الواقعية جزءاً من مساحته، وتزحزحه عن مكانه في النفس، فيسلك الفرد سلوكه سلوكه الاجتماعي

والفردي، والعملي والعلمي، والسياسي والاقتصادي دون أن يحس بمكان للدين في هذا كله. أو يحس بمكان لفكرة الله.

وإن لم يكن ينفر من الدين.. فهو على الأقل يهمله وهو متوجه إلى واقع الحياة...

* * *

ولكن الأمر لم يظل في داخل هذه الحدود.. حدود " إهمال " الدين وعدم تحكيمه في أمور الحياة..

لقد مضى الأمر خطوة أبعد. خطوة " التحطيم " المتعمد لقواعد الدين.

وتلك كانت مهمة اليهودية العالمية!! وقد قامت بها بنجاح منقطع النظير.

* * *

لا ينسى اليهود قط حقدهم على الأمميين " او " الأميين " كما يعبر القرآن الكريم: " ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في **الأميين** سبيل ". ذلك أنهم هم شعب الله المختار، وغيرهم من " كلاب " البشرية لا جزاء لهم سوى الإضعاف والإفناء والتدمير..

وثأرهم مع المسيحية في أوربا ثأر قديم.. ثأر الاضطهاد الفظيع الذي نالوه تحت الحكم الروماني المسيحي، والإذلال الذي أصابهم في كل مجتمع مسيحي.

إذلال تمثله رواية " تاجر البندقية " لشكسبير، كما تمثله رواية " الزنبقة الحمراء Scarlet Pimpernel " تأليف البارونة أوركزي Orczy.

كان المسيحي يحتاج إلى المال فيقترضه من اليهودي، ومع ذلك يأبى إلا أن يحقر مقرضه، فلا يسلم عليه بيده، ولا يلمسه، إنما يوقفه بعيداً عنه كالمنبوذ، ويقول له آمراً موبخاً: ضع المال بعيداً واغرب عن وجهي يا خنزير. فإذا ابتعد خطوات في ذلة ذليلة، اقترب " السيد " المسيحي ليأخذ المال الذي اقترضه من اليهودي!

إذلال لا تنساه ذاكرة يهود..

وقد فرحت اليهودية العالمية أيما فرحة بقيام النهضة الأوربية الحديثة على أساس لا ديني (secular) فذلك نصف الطريق نحو تحطيم المسيحية، خصمها القديم.. وقامت تنفخ في هذا الاتجاه من وراء الستار.

وكانت فرحتها أعظم وأشد يوم ظهر دارون – المسيحي – بنظريته في أصل الأنواع وأصل الإنسان، فقد أحست بذكائها، بما وراء ذلك الحدث الضخم من صدام عنيف مع الكنيسة.

يقول كتاب بروتوكولات حكماء صهيون في ذلك: " إن دارون ليس يهودياً، ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع، ونستغلها في تحطيم الدين [المسيحي] "

وكان ذلك حقاً..

بذل اليهود جهود الجبابرة لتوسيع الهوة التي قامت بين الدين وبين الداروينية، على أمل تحطيم الدين في النهاية، تحقيقاً لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة، وحقدهم – في أوربا – على المسيحيين بصفة خاصة، من أجل ما لاقوه منهم من اضطهاد.

واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال..

استغلته على يد ثلاثة من أكبر علمائها.. قاموا بصياغة الفكر الأوربي كله في ميدان الاقتصاد وعلم النفس والاجتماع.. أخطر ميادين ثلاثة في عالم الفكر.. على أساس معاد للدين، بل محطم لكل مفاهيمه.

أولئك هم: ماركس – وفرويد – ودُرْكايم.

اليهود الثلاثة
ماركس / وفرويد / ودُرْكايم

من الحق أن نقول إن اليهود ليسوا هم الذين **أنشأوا** الفُرقة بين أوربا وبين المسيحية. فقد قامت الفرقة بالفعل منذ قيام النهضة دون تدخل من اليهود [وإن كان ذلك قد جاء على هواهم بلا شك] وقام الخصام والصراع على يدي دارون دون تدخل منهم كذلك [وإن كانوا قد فرحوا لذلك فرحاً شديداً كما تقول بروتوكولات حكماء صهيون].

ولكن الدور الذي قاموا به مع ذلك كان شديد الخطورة..

قامت الفرقة بين الدين والعلماء، وبين الدين والمفكرين، وبين الدين ودعاة الحرية، وبين الدين والمرأة الراغبة في اقتحام المجتمع و " الاستمتاع " بالحياة.. ولكن الابتعاد عن الدين، أو النفور منه، أو الاكتفاء بإهماله والانصراف عنه كان حتى ذلك الحين **مزاجا شخصياً** لأصحابه، يصنعونه لحسابهم الخاص كأفراد..

وقامت الفرقة بين الناس وقواعد الأخلاق – في ميدان الجنس بصفة خاصة – كمزاج شخصي كذلك، أو "كضرورة " يتلمس الناس إليها الأعذار..

ولكن " العلماء " اليهود الثلاثة تدخلوا في الأمر ليجعلوا من كل ذلك **نظرية** يسندها العلم، ويعطيها سند " الحقيقة العلمية " في أنظار الجماهير! فلا يعود الأمر بعد مزاجا شخصياً يحتاج الإنسان إلى الاعتذار عنه، وتلمس المبررات له، وإنما يعود **واجباً** يقتضيه التقدم العلمي، لا يحتاج إلى مبرر آخر، فهو يبرر نفسه بنفسه.. ولا يُعتذر عنه فهو في غير حاجة إلى اعتذار.. بل الذي يحتاج إلى التبرير والاعتذار هو التمسك بالدين والأخلاق والتقاليد.. فهي تهمة ينبغي التبرؤ منها أو تقديم المبرر المعقول!

وذلك هو الدور الخطير الذي قام به ماركس وفرويد ودركايم.. كل في اختصاصه.. وأثر تأثيراً بالغاً في الفكر الغربي كله في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين..

إنهم لم يقولوا إن المفهوم الكنسي للدين هو المنحرف، وهو الذي يحتاج إلى تقويم.. وإنما قالوا إن **الدين ذاته** هو الانحراف الذي يحتاج إلى تقويم!

ولم يقولوا إن المفهوم السائد للأخلاق هو المنحرف، المحتاج إلى تعديل.. وإنما قالوا إن الأخلاق ذاتها ليست قيمة حقيقية من قيم الحياة!

ثم قالوا هذه القولة وتلك لا كاعتقاد شخصي يراه المؤلف، ويدعو إليه كمذهب فردي! وإنما كدراسات علمية ونظريات علمية وحقائق علمية.. تلبس مسوح البحث والدراسة والتحقيق!

ومن هنا كانت الفتنة التي تعرض لها المجتمع الغربي كأعنف ما تكون الفتنة.. والتي يعيش في نتائجها منذ ذلك الحين!

* * *

لقد كانت العوامل كلها موجودة بالفعل لتؤدي لذلك الانحراف الخطير.. وكانت – في ذاتها – عوامل عنيفة، اجتماعية واقتصادية وفكرية.. متمثلة في نظرية دارون من ناحية، والانقلاب الصناعي من ناحية أخرى.. ومع ذلك فلم يكن من الحتم أن تصل هذه العوامل إلى تحطيم الدين وتحطيم الأخلاق.

لقد ابتعد الناس عن الدين مرات كثيرة في حياة البشرية لأسباب اجتماعية واقتصادية وفكرية. وانحرفوا مرات كثيرة عن الأخلاق وانغمسوا في الشهوات.. وكانوا في كل مرة يعودون.

ولكنهم في هذه المرة أبعدوا في الضلال جداً، وكأنما قرروا بينهم وبين أنفسهم ألا يعودوا بعد ذلك أبداً مهما فعل الفاعلون!

ذلك أنهم – في كل مرة سابقة – كانوا ينحرفون كمزاج شخصي، لا يجد سندا في النهاية حين يشتد ويعم المجتمع كله أكثر من سند " الأمر الواقع ". ولكنه انحراف. وانحراف مرذول.

أما في هذه المرة فقد قدم لهم " العلماء " السند العلمي للضلال المنحرف، فزين لهم فرأوا أنه الحق، وأنه الصواب، وأنه الأمر الذي ينبغي اتباعه، لا تمشيا مع الأمر الواقع، وإنما سعيا إلى الأفضل والأقوم والأصح!

قدموا لهم الفرملة التي تمنع العودة، وتسمح فقط بالمضي المجنون في طريق الشيطان.

* * *

اتخذ اليهود الثلاثة نواحي مختلفة من الفكر. فكتب ماركس في الاقتصاد وفرويد في علم النفس، ودركايم في علم الاجتماع... ولكنهم في النهاية يلتقون في عدة أمور.

لقد أخذوا كلهم، بادئ ذي بدء، من النظرية الداروينية فكرة حيوانية الإنسان وماديته، فمدوها ووسعوا نطاقها، وعمموا إيحاءاتها المسمومة في كل اتجاه.

وليس هنا المجال – ولا هو من همي في أي بحث – أن أناقش نظرية دارون.. وإنما أنا دائماً أناقش **إيحاءاتها**، وليست هذه الإيحاءات نظرية علمية! ثم إني أكتفي في مناقشتها دائماً بإيراد الداروينية الحديثة Neo Darwinism التي تؤمن بالتطور كدارون، ولكنها مع ذلك لا تؤمن بحيوانية الإنسان ولا ماديته الكاملة، إنما تؤمن **بتفرد الإنسان**، تفرده بيولوجيا وسيكلوجيا، وتفرده كذلك في طريقة تطوره، **فهو يتطور على قاعدته الإنسانية الخاصة**، لا على قاعدة الحيوان.

وسنورد هذه المناقشة في مكان آخر، حين نحتاج إلى مناقشة الأراء... وإنما نحن هنا نثبت وقائع التاريخ.

* * *

كانت نظرية دارون ذات إيحاء قوي بحيوانية الإنسان لا شك فيه. يقول جوليان هكسلي في كتابه " الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World " – وهو من علماء الداروينية الحديثة –: " وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً " [4].

وهذا الإيحاء هو الذي مده العلماء الثلاثة ووسعوه على أوسع نطاق...

وهنا يخطر – من أجل الحقيقة التاريخية – سؤال: هل كان في الإمكان حبس نظرية دارون في المعمل الذي نشأت فيه، وحجزها عن التأثير في المجتمع الغربي والفكر البشري كله؟

ربما كان هذا مستحيلا في نظرية من هذا النوع، وفي ظروف كالتي ولدت فيها تلك النظرية الخطيرة..

[4] ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر.

ومع ذلك فلم يكن حتما أن تتجه هذا الاتجاه في التأثير، لو تلقفتها أيدٍ أخرى، مخلصة للحقيقة، مؤمنة بالله، أو في القليل مقدرة " للإنسان " والخير الإنساني.

إن الفكر الغربي الذي كان يعيش في ظل فكرة الثبات المطلق، قد فوجئ مفاجأة عنيفة بفكرة التطور، فأفقدته الهزة صوابه، وصار عرضه للانحراف.. ولكن لم يكن حتما أن ينحرف.. كان يمكن أن يرتد إلى الصواب حين يجد الهداة الذين يردونه إلى الصواب.

ولقد عرف المسلمون التطور معرفة وثيقة، وصاحبوه مصاحبة عميقة في تاريخهم الحيّ كله، فلم ينحرفوا به عن سواء السبيل.

عرفوه في فقههم، حين قال عمر بن عبد العزيز: " يجدّ للناس من الأقضية (أي الأحكام) بقدر ما يجدّ لهم من القضايا ". وحين أخذ الفقهاء هذا الاتجاه فنمّوا الفقه بالاجتهاد حتى شملوا به كل ما جدّ في حياة الناس من أحداث ووقائع واتجاهات.

وعرفوه في علمهم: يقول " دريبر " الأمريكي في كتابه "النزاع بين العلم والدين": " وإننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر. **ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً، كان يدرس في مدارسهم. وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه،** وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً " [(5)].

وظلوا مع ذلك مؤمنين بإنسانية الإنسان، ومؤمنين بالأخلاق. ذلك أنهم كانوا يؤمنون بالله.

أما اليهود الثلاثة فلم يأخذوا على عاتقهم رد أوربا إلى صوابها بعد هزة التطور، وإنما أخذوا على عاتقهم أن ينفخوا في انحرافاتها بقوة وعنف، وإصرار وتمكن، حتى تزيد الهوة اتساعا وتشتد سرعة الانزلاق.

[(5)] عن كتاب " الإسلام دين علم خالد " للأستاذ محمد فريد وجدي ص 233 من الطبعة الثانية. وينبغي الاحتراس هنا من مثل هذا القول وإن كان يقال في معرض إنصاف الإسلام والفكر الإسلامي. فالذي اهتدى إليه المسلمون في تفكيرهم شيء آخر غير مذهب النشوء والارتقاء كما قرره دارون وولاس. لقد لاحظوا التدرج في مراتب المخلوقات من الجوامد إلى الإنسان. ولكنهم لم يقولوا – كما قال دارون – إن الإنسان من أصل حيواني، ولم يبخسوه قدره ولا نفوا عنه مزاياه التي تفرد بها، وردوا تميزه – ابتداء – إلى إرادة الله الصريحة من خلقه هكذا متميزا متفردا ليصبح خليفة الله في الأرض. ومن ثم عرفوا فكرة التطور ولكنها لم تتحول في تفكيرهم إلى لوثة مدمرة كما حدث في الفكر الغربي.

*　　*　　*

كانت نظرية دارون قد أعطت إيحاءين متصاحبين: الإيحاء بالتطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات، والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته، بإرجاعه إلى الأصل الحيواني من ناحية، وحصر القوى التي تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية الممثلة في " البيئة " أو على الأكثر في " الطبيعة "، وإغفال الجانب الروحي إغفالاً تاماً، وإغفال تدخل الله في عملية الخلق أو عملية التطور سواء [6].

ومن هذين الإيحاءين – أحدهما أو كليهما، ومتصلين أو منفصلين – أخذ العلماء الثلاثة: ماركس وفرويد ودركايم.

فأما ماركس فقد كان ميدان بحثه علم الاقتصاد، ولكنه لم يقصر بحثه على دراسات أكاديمية في علم الاقتصاد، وإنما وضع مذهباً كاملا، يتناول تصوراً كاملا للحياة من زاوية معينة، يتمثل فيها الإيحاءان الداروينيان متصلين متصاحبين.

فهو قد وطد أركان التفسير **المادي** للتاريخ، وهو تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله، كما يجعل هذا النشاط مادياً بصفة أساسية، ومنبعثا عن الكيان الحيواني للإنسان.

القوى المادية – والاقتصادية – هي العنصر الفعال في تاريخ البشرية:

" في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها، وهي مستقلة عن إرادتهم.. **فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة**، ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم [كارل ماركس].

" تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي: وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي. فحسب هذه النظرية نجد أن **الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها في عقول**

[6] قال دارون: " إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله، هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت ".

الناس، أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل " [فردريك إنجلز].

كلام صريح لا يداري هدفه الصريح!

فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية، وأسلوب الإنتاج والتبادل – وليس الحق والعدل الأزليان – هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة، وإليه ترجع الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية..

وتاريخ البشرية كله هو هذا التاريخ المادي. اختراع آلة جديدة أو تغير أساليب الإنتاج هو الذي يصنع التاريخ. و " الأطوار " التي مرت فيها البشرية من أول الشيوعية الأولى، إلى الرق، إلى الإقطاع، إلى الرأسمالية، إلى الشيوعية الثانية [والأخيرة!] ترجع كلها إلى اختراع الآلات وتغير أساليب الإنتاج.

والعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قيما قائمة بذاتها، أصيلة في الكيان البشري.

إنما هي انعكاس لأسلوب الإنتاج في الحياة المادية.. أي نتيجة للكيان المادي.. في الحياة والإنسان.

والحق والعدل الأزليان ليسا قيمة حقيقية من قيم الإنسانية..

إنما القيمة الحقيقية هي التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل..

وحين نرسم دستورا للحياة البشرية، فهو محصور في نطاق " المطالب الرئيسية للإنسان " المأكل والمسكن والإشباع الجنسي [المنيفستو أو الإعلان الشيوعي].

أما الدين والأخلاق والتقاليد فهي السخرية العظمى في نظر ماركس..

الرسالات السماوية بادئ ذي بدء وهم من أكبر أوهام البشرية.. " فحقيقة العالم تنحصر في ماديته " [7]! وفي ظل التفسير المادي للتاريخ لا يوجد الله. ولا الوحي. ولا الرسالات.

---

[7] كارل ماركس في كتاب " Anti - Dihring "

والدين ثانيا – أفيون الشعوب – شيء ابتدعه الإقطاعيون لتخدير العبيد والطبقة الكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة، وإغرائهم بالصبر على سوء أحوالهم والرضى بها طمعا في الجنة في الآخرة، مما ييسر لهؤلاء الإقطاعيين أن يستمتعوا بالثروات المغتصبة وهم آمنون.

والقيم ثالثا – ومن بينها القيم الخلقية – إنما هي مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي، ومن ثم ليس لها وجود أصيل في الحياة البشرية، فضلا عن كونها غير ثابتة. فهي متطورة بحسب الطور الاقتصادي الذي تمر به البشرية. ولما كانت الأطوار الاقتصادية للبشرية حتمية ومتعاقبة، فالقيم الخلقية تأخذ أوضاعا محددة ومتطورة.. وهي حتمية التطور مع تطور أوضاع البشرية.

وإلى هنا يتضح المقصود من النظرية في أوضح صورة وأصرحها..

أولا.. لا دين.

فالدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح هنا في الأرض ولا علاقة له بالسماء، ولا رصيد له من الحقيقة.

وثانيا.. لا قيم ولا أخلاق.

فالقيم ليس لها وجود ذاتي، إنما هي انعكاس للأوضاع الاقتصادية. وليس لها ثبات لأن مصدرها – وهو الأوضاع الاقتصادية – دائم التغير. ثم هي حتمية التطور فلا يمكن الإمساك بها على وضع معين مهما حاول المحاولون من المفكرين أو رجال الدين.

.. ولم يقل دارون كل ذلك ولا شيئاً من ذلك!

ولا كان من همه أن يقول!

ولكن العالم اليهودي الذي أخذ إيحاء نظريته المسموم، قد مده مَدَّة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار البحث " العلمي " في علم الاقتصاد.

وانتشر الإيحاء المسموم – على يد ماركس – فدخل كل الحياة الغربية على الاتساع.

حقيقة إن روسيا وحدها – في مبدأ الأمر – هي التي اعتنقت المذهب الشيوعي كاملا وأعطته قوة التطبق. وروسيا وحدها – في مبدأ الأمر – هي التي قاومت الدين مقاومة

" رسمية " على نطاق واسع، واضطهدته كل أنواع الاضطهاد، من أول القتل والاعتقال والمصادرة والنفي، إلى تدريس الإلحاد رسميا في المدارس والجامعات..

ولكن الغرب كله – الذي لم يصبح شيوعيا من حيث المذهب – قد أخذ مع ذلك بالتفسير المادي للتاريخ.

أخذ به في إعطاء الجانب الاقتصادي الاهتمام الأكبر، والميل إلى تفسير الحياة الإنسانية كلها من خلال التفسير الاقتصادي والمادي، وإغفال " القيم " وأثرها في الحياة، وفي توجيه سلوك الناس..

وأخذ به في اعتبار القيم الأخلاقية " متطورة " لا ثبات لها، ولا سبيل إلى ثباتها.. ومتطورة على أساس التطور الاقتصادي بصفة خاصة.

وأخذ به في اعتبار الدين آخر ما يمكن أن يؤثر في الحياة!

وصارت الحياة الغربية القائمة في ظل النظام الرأسمالي – المضاد للنظام الشيوعي – لا تفترق كثيراً في الأساس الفكري والحضاري و " الإنساني " عن مثيلتها في العالم الشيوعي.

صحيح أن الدين في الغرب لم يصادر..

وصحيح أن الأفراد هناك " متدينون " بمعنى الذهاب للكنيسة يوم الأحد، ورسم علامة الصليب في الصلاة، والإيمان بان هناك رباً خلق الحياة والإنسان، ويقدر على كثير من الأمور (!).

ولكن هذا " الدين " لا يكيف شيئاً من حياة الناس الواقعية ولا مشاعرهم.. فالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري قائم على أساس أن الحياة المادية هي الأصل. وهي الحقيقة بالعناية. وهي المسعى الذي يستغرق نشاط الإنسان. وهي " حقيقة " الحياة.

ثم إنه لا وجود – في واقع المجتمع – للأخلاق المستمدة من مفهوم الدين. فالنشاط الجنسي " الحر " للأولاد والبنات والرجال والنساء لا صلة له البتة بمفهوم الدين. والصراع المتكالب على الحياة لا صلة له البتة بمفهوم الدين. والمتاع الحسي الزائد عن الحد لا صلة له البتة بالمفهوم المسيحي على وجه الخصوص.

والإيمان الساري عند الجماهير كلها في الغرب – أوربا وأمريكا سواء – هو أن مقاييس الأخلاق قد تغيرت. وأن " تطورها "كان حتميا في ظل المجتمع الصناعي. وأنه لا مجال مطلقا للمقاييس القديمة للأخلاق [التي كانت مستمدة من الدين] لأن المرأة قد تحررت [اقتصاديا] ولأن النظرة [الزراعية] للعفة لم يعد لها مجال..

أي.. أنه التفسير المادي للتاريخ هو الذي يحكم الحياة في الغرب. ويحكمها في ذات النقطة أو النقطتين اللتين أردا ماركس تحطيمهما – تحت ستار البحث العلمي في علم الاقتصاد – وهما الدين والأخلاق.

ومعناه مرة أخرى أن الإيحاء المسموم للداروينية قد وُصِّل على يد العالم اليهودي الأكبر إلى مناطق من الحياة البشرية لم يكن حتما أن يصل إليها، فحُطِّم به في واقع الحياة الدين والأخلاق والتقاليد **في صورة علمية منظمة** لا تقوم على مذهب شخصي [في ظاهر الأمر]، وإنما تقوم على أساس البحث " العلمي " والدراسة والتحقيق. ومن ثم يجد فيها المنحرفون الضالون سنداً يسند ضلالهم وانحرافهم، ولا يحوجهم إلى الاعتذار عن إهمال الدين وتحطيم الأخلاق والتقاليد، بل يجعلهم يسعون إليه سعيا ليكونوا مواكبين لموكب العلم، مستمسكين بوحي المعرفة الصحيح!

* * *

أما فرويد فلم يأخذ من دارون جانب التطور، وإنما أخذ عنه حيوانية الإنسان.

إنه – ككل باحث نفسي – يرسم صورة ثابتة لكيان الإنسان، وإن كان في كتابه Totem & Taboo [وربما كان في هذا الكتاب وحده] يأخذ جانب التطور أيضاً، وهو يتحدث – إلى جانب سيكلوجية الفرد – عن سيكلوجية الجماعات، وعن تطور الدين وتطور المحرمات.. **ولكنه يرسم هذه الصورة من جانب الحيوان لا من جانب " الإنسان"**.

ولئن كان ماركس قد تحدث عن الدين والأخلاق، وسخافتهما وبعدهما عن أن يكونا قيما أصيلة، في ظل البحث " العلمي " في الاقتصاد، فإن فرويد قد تحدث عن الموضوع ذاته والاتجاه ذاته في ظل البحث " العلمي " في علم النفس.

إن ميدان بحثه هو النفس الإنسانية.. هو المشاعر والانفعالات.. هو العالم " الداخلي " في مواجهة العالم " الخارجي " الذي تحدث عنه ماركس. النفس في نظره هي الميدان الأصيل للحياة؛ عن تركيبها الذاتي تنبثق الأفعال والأفكار والمشاعر، وتتحول إلى

وقائع عملية في واقع الحياة.. أي أنه – من جهة البحث – يأخذ بالضبط الجانب المقابل لماركس، ومع ذلك – ومن عجب – يصل معه إلى النتيجة ذاتها في موضوع الدين والأخلاق، ويتخذ في بحثه نفس التفسير الحيواني للحياة الإنسانية وللإنسان!

مصادفة..!!

ولكن الحق أن الصورة التي يرسمها فرويد للنفس الإنسانية – وإن التقت مع ماركس في النهاية عند نقطة تسخيف الدين والأخلاق، واعتبارهما قيما غير أصيلة في الحياة البشرية، وإنما انعكاسا لشيء آخر، مادي في أصله وحيواني – فإن فرويد كان أفحش وأخطر في تلويثه لتلك النفس، والانحطاط بها إلى الحضيض.

إن الحياة النفسية للإنسانية ليست حيوانية فحسب، ولكنها – كلها – تنبع من جانب واحد من جوانب الحيوان، هو الجنس المسيطر على كل أفعال الإنسان.

إن حياة الإنسان بادئ ذي بدء حياة حيوانية بحتة. " فغرائزه " هي التي تحكمه. هي التي تسيطر على كل نشاطه. والجانب المسمى " الروح " لا وجود له على الإطلاق [وإلى هنا يتلقي مع ماركس التقاء كاملا في تصور النفس الإنسانية]. أما الجانب الذي اسمه " العقل " فهو موجود بكل تأكيد. وهو " طبقة " من طبقات النفس. هو الوعي. وهو الضابط لتصرفات الإنسان. وهو الذي يواجه الحياة الواقعية، ويقرر موقف الإنسان إزاءها. ولكن أي نتيجة يا ترى لوجود العقل – أو الذات الواعية Ego – في كيان الإنسان؟ النتيجة: " أن موقع الذات بين الطاقة الشهوانية [التي هي الحقيقة الباطنية للنفس في نطر فرويد] وبين الحقيقة الخارجية، كثيراً ما يغريها بأن تكون منافقة مخادعة نهازة للفرص، كالسياسي الذي يرى الحقائق، ولكنه يجب أن يحافظ على مكانته بين الجماهير! "[8] ومن ثم " فالقيم " في كلمة واحدة هي خرافة و " ضحك على الذقون "! عملة زائفة يتبادلها الناس وهم في حقيقتهم عالمون بأنها خداع! [وهنا يلتقي – من بعيد – بفكرة ماركس عن القيم، وإن كانت الأسانيد مختلفة في الحالين].

ولكن فرويد بعد ذلك " يتخصص " فيأتي بالأعاجيب:

[8] كتاب " The Ego and the Id " ص 83 من الطبعة الثالثة سنة 1942.

إن حقيقة الإنسان الباطنية العميقة [id] ليست هي الطاقة الشهوانية فحسب. وإنما هي على وجه التحديد الطاقة الجنسية. الجنسية بالذات دون أي طاقة أخرى من طاقات الإنسان [أو الحيوان].

وليس هنا مجال مناقشة فرويد، فقد ناقشته كثيراً وطويلاً في كل الكتب السابقة. [9] ولكنا نلحظ فقط شيئاً بارزا في نظريته النفسية.. فقد كان الجنس – في أوربا المسيحية المتزمتة [رغم بدء الانحلال الخلقي فيها]. طاقة مستقذرة، ينفر الناس من الحديث عنها وكشفها للنور , فيجيء فرويد، فيصر إصراراً محموما على أن يفسر النفس كلها، بجميع ألوان نشاطها، من خلال هذه الطاقة المستقذرة بالذات! ويصر – أكثر من ذلك [وهذا هو المهم] – على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة خاصة بأنها انبثاق جنسي.. وجنسي على وجه التحديد!!

مصادفة..!!

الحياة كلها جنس، ومنبثقة من خلال الجنس..

والجنس يبدأ مبكراً جداً.. لا في مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس.. وإنما.. من لحظة الميلاد. بل يولد الإنسان جنساً خالصا مركزا في إهاب طفل حيواني صغير!!

كل أعمال اطفل تعبير عن طاقة الجنس.

الرضاعة جنس. ومص الإبهام جنس. وتحريك العضلات جنس. والتبول جنس. والتبرز جنس. والالتصاق بالأم جنس. وهذا الأخير بصفة خاصة هو الذي يشكل الحياة النفسية للبشرية كلها أفراداً وجماعات!

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس. ثم يجد الأب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق. فتنشأ في نفس عقدة أوديب. [والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس كذلك ثم تكبت العشق فتنشأ في نفسه عقدة إليكترا]. ومن هذه العقدة اللعينة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد، وكل " القيم العليا " في حياة البشرية!!

والأمر كله مستمد من تلك الحادثة التي " رآها! " فرويد في منشأ تاريخ البشرية!

---

[9] بصفة خاصة فصل " فرويد " من كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام ".

ذلك أن الأبناء – في مطلع البشرية – اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس، ثم وجدوا أباهم عائقا في الطريق فقتلوه. ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فأقسموا ليقدسن ذكراه. فعبدوه. ومن ذلك نشأت عبادة الأب. ثم تحولت إلى عبادة الطوطم لأنه في النفس البشرية هكذا يرتبط الأب برمز الحيوان! [لماذا؟!]. وفي الوقت ذاته وجد الأبناء أنهم سيتقاتلون بينهم للحصول على الأم. وهذا أمر لا يجوز! [لماذا؟!]. فقرروا تحريمها على أنفسهم، فنشأ بذلك أول تحريم [جنسي] وانصب على الأم. كما قرروا التعاون فيما بينهم بدل الخصام والعراك [لماذا؟!] فنشأت " القيم ".

وهذه القصة التي " رآها! " فرويد تحدث في البشرية الأولى، ليست حادثة تاريخية مفردة، فقد تركت طابعها في الحياة البشرية كلها منذ ذلك الحين. فكل طفل يعشق أمه بدافع الجنس: وكل طفل يكبت ذلك العشق. ثم ينمو الدين والأخلاق والتقاليد.. والقيم العليا والحضارة، من ذلك الكبت الجنسي لعشق الأم. ومع ذلك فالكبت لم ينته. وإنما هو يتحول إلى قلق نفسي دائم لا يترك الناس في راحة [" وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها، والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد، وهي رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذي نشأت عنه الحضارة، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة "! فرويد – كتاب Totem & taboo ص 145].

واضح أن هذا التفسير للإنسان تفسير حيواني بحت..

فالقصة كلها التي " رآها! " فرويد، مستمدة من ملاحظات دارون في عالم الحيوان. فقد لاحظ أنه في عالم البقر تتجه الثيران الفتية للحصول على البقرة الأم، فتجد أباها عائقا في الطريق، فتتجه كلها نحوه لتقتله. فإذا فرغت من ذلك عادت فاصطرعت فيما بينها حتى يتغلب أحدها – وهو أقواها – فيفوز وحده بالأم ويصبح هو السيد الجديد.

وواضح كذلك مدى تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد، وتقذيرها في نفوس الناس، بغمسها في مستنقع الجنس المستقذر في أوربا المسيحية، وإخراجها منه يتقاطر منها نقيع الجنس المكبوت!

وحقيقة إنه سعى إلى إزالة " القذارة " عن الجنس! ولكن هذه مسألة أخرى!

جاء في كتاب بروتوكولات حكماء صهيون: " يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا.. إن فرويد منا. وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء

الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه "

إن هناك هدفا مزدوجا يتم في نفس الوقت: فالجنس يُنظف ليستباح. لتنطلق الغرائز " المكبوتة ". لينطلق الشباب كالبهائم، دون أن يحسوا في ضميرهم لذعا ولا في نفوسهم ندامة ولكن في الوقت ذاته يُقذر الدين والأخلاق والتقاليد بتصويرها نابعة في الأصل من الجنس – المستقذر حينئذ في النفوس!

أي أنه تتم عملية إبدال دقيقة خبيثة بشعة.. فينزل الدين والأخلاق إلى مكان الجنس المستقذر، ويرتفع الجنس إلى مكان الدين والأخلاق في النظافة والتقديس!

وليس هنا – كما أسلفت – مجال المناقشة مع فرويد، فقد ناقشته في الكتب السابقة، وبينت فساد هذه الأساطير والأضاليل التي يقيم عليها تفسيره للحياة البشرية، بلا سند علمي ولا منطق سليم.

إنما نثبت هنا فقط مجموعة من الحقائق حول هذا التفسير الجنسي للسلوك البشري:

أولا: إنه استمد من إيحاءات نظرية دارون ذلك التفسير الحيواني للإنسان. ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً من ذلك كله، ولا كان من همه أن يقول. ولكن العالم اليهودي الذي أخذ إيحاء نظريته المسموم، فقد مده مَدَّة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار البحث " العلمي " في علم النفس.

ثانياً: أنه وجّه الإيحاء المسموم كله الذي استمده من دارون إلى نقطتين مركزتين، في أثناء هذه الجولة الواسعة في باطن النفس، وفي التاريخ، هما الدين والأخلاق. فسعى إلى تلويثهما بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ كله. ووضعهما في صورة منفرة مقززة ينفر منها كل إنسان! ولم يكتف في ذلك بالتلميح، بل كان صريحاً جداً وهو يقول: إن التسامي نوع من الشذوذ! [Three Contributions to the Sexual Theory ص 82] وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية! [The Ego and the Id ص 80] وإن أساطير المسيحية تصور في حقيقتها رغبة الابن (المسيح) في قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه، ولكنه أصبح إلها مكان أبيه! [Totem & Taboo ص 154] وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية! [Three Contributions ص 85] وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسي، والكبت الجنسي خطر على

الكيان النفسي والعصبي، لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات [كل كتب فرويد بلا استثناء!]

*　　*　　*

أما دركايم فله قصة ثالثة...

إنه – مرة أخرى – يقف من فرويد موقف التقابل الكامل.

إنه لا يعترف أن الكيان النفسي للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية. بل العكس في نظره أقرب إلى الصواب. إن الحياة الاجتماعية هي التي تشكل مشاعر الفرد. وعليه فلا يجوز أن نفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس كله، وإنما ينبغي أن نفرق بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقاً كاملا، حتى وإن قام بينهما – أحيانا – نوع من الاتصال:

" ولكن الحالات النفسية التي تمر بشعور الجماعة تختلف في طبيعتها عن الحالات التي تمر بشعور الفرد، **وهي تصورات من جنس آخر**، وتختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد، ولها قوانينها الخاصة بها " [10]

".. إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية **توجد خارج ضمائر الأفراد**، الذي يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم " [11]

" ولكن لما كان هذا العمل المشترك [الذي تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية] **يتم خارج شعور كل فرد منا**، وذلك لأنه نتيجة لعدد كبير من الضمائر الفردية، فإنه يؤدي بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير، وهي تلك الضروب **التي توجد خارجة عنا، والتي لا تخضع لإرادة أي فرد منا "** [12]

---

[10] قواعد المنهج في علم الاجتماع تأليف إميل دركايم، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي – مقدمة الطبعة الثانية، ص 15.

[11] ص 22 من المصدر السابق.

[12] ص 25.

" ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة [التي تفسر الظواهر الاجتماعية من داخل نفوس الأفراد] على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها! ويكفي في البرهنة على ذلك أن نعود إلى التعريف الذي سبق أن حددنا به الظواهر الاجتماعية. فلما كانت الخاصة الجوهرية التي تمتاز بها هذه الظواهر تنحصر في القيام بضغط خارجي على ضمائر الأفراد، **كان ذلك دليلا على أنها ليست وليدة هذه الضمائر** " [13]

" وبهذا المعنى ولهذه الأسباب يمكننا، بل يجب علينا أن نتحدث عن شعور اجتماعي يختلف عن شعور الأفراد. وإذا أردنا تبرير هذه التفرقة بين الشعور الاجتماعي والشعور الفردي، فلسنا في حاجة إلى تجسيد الشعور الاجتماعي. فإن لهذا الشعور وجوداً من جنس خاص. ومن الواجب أن نعبر عنه بمصطلح خاص، لمجرد السبب الآتي، وهو: أن الحالات التي تدخل في تركيبه **تختلف عن الحالات النفسية التي يتركب منها شعور الفرد اختلافاً نوعياً**... ومن جهة أخرى فما كان يرمي تعريفنا للظاهرة الاجتماعية إلا إلى تحديد الفرق بين كل من الشعور الاجتماعي والشعور الفردي " [14]

هكذا لا يعترف دركايم بأن الحياة البشرية – ذات الصفة الاجتماعية – يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردي. إنما يفسرها وجود " العقل الجمعي " خارج نطاق الأفراد!

ومرة ثانية يقف دركايم من فرويد موقف التقابل الكامل. ففي كتاب " قواعد المنهج في علم الاجتماع " يتحدث عن " تطور " الجماعات شأن كل باحث في علم الاجتماع – ولكنه يأبى أن ينسب هذا التطور إلى عنصر من عناصر النفس المفردة:

" ولن نستطيع معرفة المصدر الذي تنبع منه هذه التيارات الاجتماعية إلا إذا صعدنا في مجراها حتى منابعها الأولى، وحينئذ يجب علينا أن نلاحظ الظواهر الاجتماعية في ذاتها.. ويجب أن ندرس هذه الظواهر من الخارج على أنها أشياء خارجية... ولئن خيل إلينا أن وجود هذه الظواهر خارج شعور الأفراد ليس إلا وجودا بحسب الظاهر فسوف يتبدد هذا الشك كلما تقدم علم الاجتماع. **وسيرى المرء كيف تقتحم الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلي للأفراد** " [15]

---

[13] ص 166.
[14] ص 168 - 169.
[15] ص 66.

ومع ذلك..!

أهي مصادفة تلك الطريقة التي يتحدث بها عن الدين والأخلاق؟!

" فمن هذا القبيل أن الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسري بوجود العواطف التي يكنها الآباء للأبناء، ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء؛ كما يفسرون نشأة الزواج بالمزايا التي يحققها لكل من الزوجين وفروعهما، والألم بما يحدث من غضب الفرد إذا أصيبت مصالحه بضرر جسيم. وترجع الحياة الاقتصادية في نهاية الأمر – كما يفهمها ويفسرها الاقتصاديون، وبخاصة أصحاب المذهب المحافظ – إلى هذا العامل الفردي البحت، وهو الرغبة في تحصيل الثروة. وليس الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالظواهر الخلقية. فإن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق. وكذا الأمر فيما يتعلق بالدين، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التي تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان.. الخ. ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها! "

" ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء، وغير ذلك من العواطف، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو. ولكن التاريخ يوقفنا على **أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان** "

" وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها، إذا صح هذا التعبير... ومن ثم فليس من الممكن، تبعاً لهذا الرأي، أن تصبح مجموعة **القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها** موضوعا لعلم الأخلاق... " [16]

واضح؟!

إن الدين ليس شيئاً فطريا. وكذلك الزواج والأسرة. والقواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها!

[16] ص 59 - 60.

ولن نناقش هنا دركايم! لن نناقش أسطورة " العقل الجمعي " القائم خارج نطاق الأفراد، والمخالف لكيان الأفراد، والذي يقهرهم من الخارج على غير رغبة منهم ولا استعداد فطري!

ولكننا نثبت فقط ما حول هذه الأسطورة من الحقائق:

لقد أخذ دركايم كثيرا عن دارون:

أخذ عنه بادئ ذي بدء فكرة التطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات.

وأخذ عنه فكرة " القهر الخارجي " الذي يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه، فيطوّره.

وأخذ عنه التفسير الحيواني للإنسان، فهو لا يفتأ يستشهد في كل حالة بما يحدث في عالم الحيوان:

" أضف إلى ذلك أنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشري منذ نشأته. وإنه لمن الطبيعي جداً أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التي تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب. وذلك لأننا نلاحظ، في الواقع، أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعاً لطبيعة مساكنها التي توجب عليها الحياة في جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة " [17]

" ولكن أليس معنى ذلك أن "كونت " يفسر الماء بالماء، وأنه يشرح التقدم بوجود ميل فطري يدفع الإنسان إلى التقدم الذي لا يعدو أن يكون سوى فكرة ميتافيزيقية ليس ثمة ما يدل على وجودها بحسب الواقع؟ وذلك لأن الفصائل الحيوانية – بما في ذلك الفصائل الراقية منها كل الرقي – لا تشعر قط بهذه الحاجة التي تدفعها إلى التقدم " [18].. الخ.

ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً مما قاله دركايم، ولا كان من شأنه أن يقول. ولكن العالم اليهودي أخذ الإيحاء الحيواني لنظريته، ومده مَدَّة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار من البحث " العلمي " في علم الاجتماع.

---

[17] ص 173.
[18] ص 176.

ثم إنه – في جولته الواسعة في علم الاجتماع – قد عني عناية خاصة بأن يقول إن الدين ليس فطرة والزواج ليس فطرة، والأخلاق ليست قيمة ذاتية، ولا هي ثابتة على وضع معين، فإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه، فإن " المجتمع " هو الأصل في ظل الظواهر الاجتماعية، وليس " الإنسان "!

* * *

ومن حصيلة هذا كله حدثت حركات ضخمة في المجتمع الغربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد التقت " توجيهات " العلماء الثلاثة – وغيرهم بطبيعة الحال، ولكنهم هم في المقدمة – التقت عند نقط رئيسية، متصلة ومتصاحبة:

الحملة على الدين والأخلاق والتقاليد، ونفي القداسة عنها، وتشويه سمعتها أو التشكيك في قيمتها.

والقيام بهذه الحملة باسم " العلم " والبحث العلمي.

والربط بين هذا التحلل الديني والانحلال الخلقي وبين " التطور ".

والإيحاء بأن هذا التحلل والانحلال أمر " حتمي " لأن التطور حتمي لا قبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم.

تقول بروتوكولات حكماء صهيون: " لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه[19] بالترويج لآرائهم. **وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تاكيد** ".

* * *

[19] فيلسوف ألماني نادى في تشنج هستيري بفكرة الإنسان الأعلى Superman و " موت الإله "! وهو يعفي هذا الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء! ومن ثم تجد فيه " برتوكولات حكماء صهيون " بغيتها المنشودة.

ولقد حدث بالفعل ذلك الأثر الهدام للأخلاق!

وسرت في الجماهير لوثتان معاً في ذات الوقت: لوثة التطور.. ولوثة العداء للدين والأخلاق.

وربما برز اسم فرويد في هذا الأثر المدمر أكثر من زميليه الآخرين، لأن آراءه أخذت " شعبية " واسعة النطاق، بينما بقي الآخران – وخاصة دركايم – فوق مستوى الجماهير. ولكن الحصيلة النهائية للوثة التطور ولوثة العداء للدين والأخلاق ينبغي أن ترد لهم جميعاً، وإن تفاوتت النسب و " حقوق التأليف " بين أعضاء الثالوث!

لقد صارت " الموضة " هي التطور. وما لا يتطور بذاته ينبغي أن يطور بالقوة! إنه لا ينبغي أن يظل شيء على الإطلاق ثابتاً في كل الأرض. لا الدين. ولا فكرة الله. ولا الأخلاق. ولا التقاليد. ولا القيم. ولا الروابط الاجتماعية. لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.

ينبغي أن نتطور. وأن نتحرر من السكون الميت والثبات المعيب.

ينبغي أن نحطم قيود الأخلاق. فهي قيد يعوق التطور. وقد تقدينا بها في الماضي في المجتمع الزراعي فينبغي أن نطرحها اليوم في المجتمع الصناعي المتطور [ماركس] أو تقيدنا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية وبأن الأخلاق " كبت " ضار بكيان الإنسان [فرويد] أو تقيدنا بها جهلا منا بأنه لا توجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية، إنما هي تتطور بتطور وسائل الإنتاج [ماركس] أو بتطور حالة المجتمع [دركايم].

وينبغي أن نحطم الدين. فهو قيد آخر يعوق التطور. وقد ورثناه من أسلافنا في عماية وجهالة وجمود وتأخر، وقد كان هذا كله يناسب المجتمع الزراعي المتأخر، ونحن اليوم في المجتمع الصناعي المتطور الذي لا يطيق هذه الخزعبلات [ماركس] أو قد كان هذا يناسب عصر الجهالة السابق، يوم كنا نظن الدين شيئاً له قداسة، منزلا من السماء، قبل أن نعرف أنه كبت جنسي ضار مؤذ منفر [فرويد] أو يوم ظننا – خطأ منا وجهالة – أنه فطرة إنسانية [دركايم].

ينبغي أن ننشئ أنفسنا إنشاء في المجتمع الجديد.. المتطور.. المتحرك.. الوثاب. ينبغي أن ننطلق مع وثباته الظافرة بلا دين. بلا أخلاق. بلا تقاليد. فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الصحيح! [" العلماء " الثلاثة!].

* * *

وتركزت الفتنة كلها في " تحرير المرأة "..

حقاً لقد كان هذا العصر هو عصر تحرير المرأة!

فقد كانت القوى الشريرة كلها التي تعمل في الأرض تعلم أنه لا وسيلة لإفساد الأمم كلها خير من " تحرير " المرأة، أي إخراجها إلى الطريق فتنة للرجل لكي تفسد أخلاقه وتنهار.

ينبغي بأي ثمن أن تخرج المرأة إلى الطريق..

تخرج بحجة الاستقلال الاقتصادي..

تخرج بحجة ممارسة حقها في الحياة..

تخرج بحجة التعليم أو بحجة العمل..

تخرج " للاستمتاع "..

المهم أن تخرج.. ولكن أهم من ذلك أن تخرج في صورة إغراء.

إنها إن خرجت تتعلم أو تعمل او تمارس حقها في الحياة، وهي محتشمة متحفظة، محافظة على أخلاقها، وعلى طبيعتها " المنزلية " بمعنى الرغبة في " الاستقرار " في أسرة حين تسنح الظروف.. فلا فائدة إذن من كل " التعب " الذي تعبناه في إفساد البشرية!

ينبغي أن تخرج المرأة في صورة تفتن الرجل وتغريه.. وإلا فما الفائدة؟

ولكن كيف السبيل؟!

السبيل هو الدعوة..!

يكتب الكتاب.. ويكتب الصحفيون. ويكتب القصاصون..

السبيل هو السينما..!

تُمثَّل الأفلام الداعرة العارية الداعية إلى الفساد..

السبيل هو الإذاعة والتليفزيون [على التوالي]

السبيل هو بيوت الأزياء..!

السبيل هو صناعة أدوات الزينة..!

السبيل – بكل سبيل – هو إيجاد صورة من " الحياة الاجتماعية " لا تستغني عن المرأة الفاتنة المغرية – بهجة المجتمع – وإيجاد تصور للحياة لا يستغني عن المرأة الفاتنة المغرية " لتشارك " الرجل في حمل الأعباء؛ وإيجاد " واقع عملي " لا يستغني عن المرأة الفاتنة المغرية كجزء واقعي من الحياة!

ووجد كل كذلك بالفعل..

واستراحت القوى التي تعمل لإفساد البشرية.. وطلبت المزيد!

وجاء المزيد – [قصداً أم عَرَضاً؟] – بالحربين العالميتين!

قتل في الحرب الأولى عشرة ملايين من الشباب، وفي الثانية حوالي أربعين.

وَوُجِدَت – بعددهم – أسر بلا عائل، ونساء بلا رجال..

وخرجت المرأة – راضية أو مكرهة – تعمل.. وتبحث عن الجنس..

وحدث مزيد من " التحرر ".. من انحلال الأخلاق!

وصار الروتين العادي في الحياة الغربية أن تعمل كل فتاة.. وأن يكون لها صديق – أي عشيق – تمارس معه نشاط الجنس، كاملا في أغلب الأحيان. روتين عادي لا يستنكر. لا يفكر أحد في استنكاره على الإطلاق. إلا المجانين! الذين يظنون أنه يوجد دين! أو أخلاق! أو تقاليد!

المجانين الجهلاء الرجعيون المتزمتون المتحجرون المتعفنون.. الذين يعيشون بعقلية القرون الوسطى. الذي يحجبون عن أعينهم النور. الذين يريدون إرجاع الساعة إلى الوراء.. الذي لا يعرفون أنه التطور.. التطور الحتمي الذي لا قبل لأحد بوقفه.. التطور الذي أحدثه القرن العشرون!

التطور..!

هل هو التطور حقا، الذي صنع هذه الصورة الاجتماعية في القرن العشرين..؟

بصرف النظر عن رأينا الشخصي في هذه الصورة: إن كانت تقدما مشرفا أو انحلالا مزريا. إن كانت رفعة للبشرية أو نكسة بشعة إلى عالم الحيوان.

هل التطور هو الذي أحدثها؟

هل هي شيء " جديد " حقا، أنشأه " التقدم " العلمي والحضاري في القرن العشرين؟

إذن فلنسمع.. شهادة التاريخ!

شهادة التاريخ

حين يعيش الإنسان فترة من الحياة فإنه يراها مجسمة مضخمة، لأنه يعيش دقائقها وتفصيلاتها وجميع لحظاتها، لحظة إثر لحظة، فيراها – من ثم – أضخم من أي فترة اخرى من التاريخ!

وهذا أمر " بشري " من جميع جوانبه!

فالعين ترى المنظر القريب كبيراً مفصلا مجسما.. ثم يتضاءل في نظرها – هو ذاته – حين تبعد عنه بضع خطوات أو بضعة أميال..

والإنسان يحس بأموره هو كبيرة مفصلة مجسمة، لأنها أقرب شيء إليه.. ثم يرى مثيلاتها عند شخص آخر – أمامه – فلا يحسها بهذا الكبر والتفصيل والتجسّم، وإن عطف عليها أو شارك فيها بوجدانه.. ولا يخيل إليه أبداً أنها تشابه تجربته الشخصية.

بل الإنسان الواحد يحس لحظته الراهنة كبيرة مفصلة مجسمة، لأنه يعيشها الآن، فهي قريبة من حسه وشعوره وتفكيره، فإذا مرت ودخل في غيرها، تضاءلت في حسه – وهي جزء منه هو ذاته – وصارت – بكل آلامها أو آمالها – أصغر من لحظته الجديدة الراهنة الداخلة في بؤرة الإحساس والتفكير و " المعايشة "..

ومن ثم يرى أهل القرن العشرين أن هذا القرن فريد تفرداً كاملا **في كل شيء**، وأنه لا مثيل له في شيء قط على مدار التاريخ..

ذلك لأنهم يعيشونه.. أما الآخر فتاريخ!

وحقيقة إن القرن العشرين متفرد في كثير من الأمور. فهذه " الصورة " من الحياة، بكل تفصيلاتها ودقائقها، لم تعشها البشرية قط من قبل.. لم يكن لديها صواريخ ولا طائرات ولا سفن سريعة ولا قطر ماردة، ولا إذاعة ولا سينما ولا تليفزيون.. ولا إنتاج آلي ضخم يشمل كل مرافق الحياة..

ذلك كله صحيح..

ولكن دلالته غير صحيحة!

دلالته التي يريد الناس أن يستخرجوها منه أنه **لا شيء على الإطلاق** مما يعيشونه اليوم قد عاشه أي جيل من قبل. وأنه لا شيء مما يحدث اليوم قد حدث في أي يوم من التاريخ!

والناس لا يقرأون التاريخ!

لا يقرأونه لأنهم مشغولون بأحداث الحاضر الجسيمة، التي يزيدها جسامة أنهم يعيشون فيها بالفعل، فتبدو لهم دقائقها مجسمة ضخمة. ولا يقرأونه كذلك غرورا منهم! غرورا يخيِّل إليهم أنهم مقطوعو الصلة بالماضي كله، لأنهم خلق جديد لا شأن له بماضي الإنسانية السالف، ولا شبه بينهم وبينه، فلا " عبرة " إذن ترتجى من وراء قراءة التاريخ!

وقد يتواضعون قليلا فيدرسون تاريخ أوربا الحديث! تاريخ النهضة. لأنهم – وقد تثقفوا – يعرفون أن التغيرات لا تحدث بين يوم وليلة. وإنما هي تمر في " تطور " بطيء جداً. فالقرن العشرون، بما يحمله من آيات ضخمة، قد ولد – مثلا – في عصر النهضة، أي في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر، " فيحسن " من باب الاستئناس أن يقرأ الإنسان التاريخ الحديث والمعاصر، ليرى فيه مولد القرن العشرين!

ولكنهم لا يصلون في التواضع – إلا نادراً – إلى حد قراءة ما سلف قبل ذلك من التاريخ!

ولست أتحدث بطبيعة الحال عن " العلماء " و " العقلاء ".. إنما أتحدث عن " الجماهير ".. بما في ذلك " جماهير المثقفين "!

* * *

لذلك فنحن محتاجون إلى قراءة التاريخ!

محتاجون إليه لنرى صورة البشرية على حقيقتها، ولنحدث شيئاً من الاتزان في رءوسنا التي أدارها الدوي الطنان الذي نعيشه في القرن العشرين: دوي الآلات الضخمة، والسباق المجنون.. ودوي الفتنة المائجة في الطريق.

* * *

أغمض عينيك لحظة.. أغمض عينيك عن شاشة التليفزيون التي أمامك! أو عن الصاروخ الجبار الذي انطلق منذ لحظة. أو عن السيارة الفاخرة التي تنهب بك الأرض. وأغمض عينيك لحظة كذلك عن تلك الفتاة التي لبست أحدث ما أخرجته بيوت الأزياء في باريس.. فستانا يحاذي الركبة، وينحسر عنها حين تجلس فيكشف عما فوقها، ثم تزينت أعظم زينة، وخرجت " تتبختر " في رشاقة فاتنة تلهب المشاعر وتجذب العيون.

أغمض عينيك لحظة.. وانس أنك تعيش الآن في النصف الثاني من القرن العشرين. واستمع لهذه الكلمات!

" أرقى الأمم القديمة حضارة وأزهرها تمدنا في التاريخ، هم اليونان. وفي عصرهم البدائي كانت المرأة في غاية من الانحطاط وسوء الحال من حيث نظرية الأخلاق والحقوق القانونية والسلوك الاجتماعي جميعاً. فلم تكن لها في مجتمعهم منزلة أو مقام كريم. وكانت الأساطير (Mythology) اليونانية قد اتخذت من امرأة خيالية اسمها " باندورا " (Pandora) ينبوع جميع آلام الإنسان ومصائبه، كما جعلت الأساطير اليهودية حواء: العين التي تنشق منها جداول الآلام والشدائد. وغير خاف على أحد ما كان لهذه الأسطورة اليهودية الشنيعة عن حواء من تأثير عظيم في سلوك الأمم اليهوية والمسيحية قبل المرأة، وما كان لها من مفعول قوي في حقول القانون والأخلاق والاجتماع عند هؤلاء الشعوب. وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الأسطورة اليونانية عن (باندورا) في عقولهم وأذهانهم. فلم تكن عندهم إلا خلقاً من الدرك الأسفل، في غاية من المهانة والذل في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية. وأما منازل العز والكرامة في المجتمع فكانت كلها مختصة بالرجل.

وبقي هذا السلوك قبل المرأة في أول عهدهم بالنهضة المدنية ثابتا على حاله، ربما تخللته تعديلات قليلة. فإنه كان من تأثير ذيوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة في المجتمع وأصبحت أحسن حالا وأرفع منزلة من ذي قبل، وإن بقيت منزلتها القانونية على حالها لم تتبدل. فهي أصبحت ربة البيت، منحصرة واجباتها في حدوده، وأصبح لها في داخله سلطة ونفوذ تام. وكان عفافها وتصونها من أغلى وأنفس ما يملك، ومما ينظر إليه بعين التقدير والتعظيم. وأيضاً كان الحجاب شائعا في البيوتات العالية. فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين: قسم للنساء وآخر للرجال. وما كان نسوتهم يشاركن في المجالس والأندية المختلطة ولا يبرزن في الأماكن العامة. وكان يعد زواج المرأة وملازمتها لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف. ولأمثالها كانت الحرمة والمنزلة في المجتمع. وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة العهر والدعارة نظرة كره وازدراء.. هذا في عصر كانت الأمة اليونانية في إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها، وكانت تنمو صعدا إلى الرقي والكمال. ولا ريب أنه كانت توجد

عندهم مفاسد خلقية في ذلك العصر، إلا أنها كانت منحصرة في نطاق محدود. وذلك أن الرجال لم يكونوا يطالَبون بمُثُل من العفاف وطهارة الأخلاق وزكاء السجية كانت تطالب بها المرأة وتؤاخذ عليها، بل كانوا يستثنوْن من التخلق بتلك الأخلاق الحسنة، ولم يكن من المتوقع منهم أن يعيشوا عيشة ذوي العفاف والحشمة. ومن أجل ذلك كانت المومسات جزءا من صميم المجتمع اليوناني لا ينفك عنه أبداً، ولا يعاب المرء إذا عاشرهن وخادنهن.

ثم جعلت الشهوات النفسية تتغلب على أهل اليونان ويجرف بهم تيار الغرائز البهيمية والأهواء الجامحة، فتبوأت العاهرات والمومسات مكانة عالية في المجتمع لا نظير لها في تاريخ البشرية كله، وأصبحت بيوت العاهرات مركزا يؤمه سائر طبقات المجتمع، **ومرجعاً يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة.** فكانت شموسا في سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ وما عداها من الفنون. بل أصبحن القطب الذي تدور حوله رحى الأمة اليونانية. **فما كنّ يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب، بل كانت المشاكل السياسية أيضاً تحل عقدها وتفك معضلاتها بحضرتهن وتحت إشرافهن.** وقد بلغ بهم التعسف في هذا الشأن أن **كانوا يرجعون في المسائل الرئيسية التي تعلو بها أمة وتسفل، وتحيا لها وتموت، إلى المرأة التي ربما لا ترضى أن تعاشر رجلا بعينه أكثر من ليلة أو ليلتين.** ثم زاد أهلَ اليونان حبهم للجمال وتذوقهم المفرط تماديا في الغي وارتطاما في حمأة الرذائل، وأضرم في قلوبهم ناراً للشهوات لا تخمد. **فالتماثيل – نماذج الفن العارية – التي كانوا يُظهرون بها وبالافتنان في صنعها وإتقانها ذوقهم هذا، كانت هي التي تحرك فيهم الشهوات دوما وتمد في غرائزهم البهيمية. ولا يخطر لهم ببال أن الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الأخلاق، والاندفاع وراء تيار الأهواء عار وهجنة. وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لا يرون في الزنا وارتكاب الفحشاء غضاضة يلام عليها المرء ويعاب. وأصبح عامتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظر من لا يهتم به، ولا يرى إليه من حاجة. وقلما يرون بأسا بأن يعاشر الرجل المرأة ويخادنها علنا من غير عقد ولا نكاح.**

...

...

والذين تسلموا ذروة المجد والرقي في العالم بعد اليونانيين هم الرومان. وفي هذه الأمة أيضاً نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط التي قد شاهدناها في اليونان. فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلمة الجهل، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة، كان الرجل

رب الأسرة في مجتمعهم، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده، بل بلغ من سلطته في هذا الشأن أن كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الأحيان.

ولما تخففت فيهم صورة الوحشية وتقدموا خطوات في سبيل المدنية والحضارة، تخففت القسوة في تلك السلطة وجعلت الكفة تميل إلى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً، وإن بقي نظام الأسرة القديم ثابتاً على حاله. وهؤلاء لم يكن الحجاب عندهم معمولا به – كاليونان – في إبان مجد الجمهورية الرومانية ورقيها. لكنهم كانوا قيدوا النساء والشباب عامة بقيود مثقلة من نظام الأسرة. فالعفاف كان شيئاً ينظر إليه بعين الإجلال ولا سيما في شأن النساء، وكان يعد مقياساً للشرف وكرم المحتد. وكذلك كان مستوى الأخلاق عندهم عالياً. ومن أمثال ذلك أن اتفق ذات مرة أن عضو مجلس الشيوخ قبل زوجه أمام ابنته، فغضب عليه القوم وحكموا على صنيعه بأنه غض من كرامة الخلق القومي وإهانة له، وأمضوا إقرار النكير (Vote of Censure) عليه في مجلس الشيوخ. هذا وما كان مباحا عندهم ولا مرضياً في أخلاقهم أن يتعاشر الرجل والمرأة بدون عقد مشروع. وما كانت المرأة تتبوأ مكانة العز والكرامة في المجتمع إلا بأن تكون أمًّا لأسرة (Matron) والمومسات، وإن كانت طبقتهن موجودة، وكان للرجال نوع من الحرية في مخادنتهن، إلا أن عامة الرومان وجمهورهم كانوا يزدرونهن وينظرون إليهن نظرة احتقار وتعيير. وكذلك ما كانوا ينظرون بعين الاستحسان إلى الرجال المخادنين لهن.

ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل برقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة. وما زال هذا التبديل يطرأ على نظمهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة وعقد الزواج والطلاق، إلى أن انقلب الأمر ظهراً لبطن، وانعكست الحال رأساً على عقب، فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدني (Civil Contract) فحسب، ينحصر بقاؤه ومضيه على رضا المتعاقدين، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلا. ومنحت المرأة جميع حقوق الإرث والملك، وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطة عليها للأب ولا للزوج، **ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشئون معايشهن فحسب، بل دخل في حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومي على مسير الأيام. فكن يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة، مما يعود به أزواج المثريات من النساء عبيداً لهن في ميادين العمل والواقع. ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلا جعله شيئاً عادياً يلجأ إليه لأتفه الأسباب**. فهذا " سنيكا " الفيلسوف الروماني الشهير (4 ق. م – 56 م) يندب كثرة الطلاق ويشكو تفاقم خطبه بين بني جلدته فيقول: " إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحيي منه في بلاد الرومان , وقد بلغ من كثرته وذيوع أمره أن **جعلت النساء يعدون أعمارهن بأعداد أزواجهن**. وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلا بعد آخر وتمضي على ذلك من غير حياء. وقد

ذكر مارشل (43 – 104 م) امرأة تزوجت عشرة رجال، وكذلك كتب جووينل (60 – 140 م) عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات، وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس جيروم (340 – 420 م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها، وكانت هي أيضاً الزوجة الحادية والعشرين لبعلها.

ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع. وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنا شيئاً عادياً. فهذا كاتو (Cato) الذي أسندت إليه الحسبة الخلقية سنة 184 قبل الميلاد، يجهر بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب. وذاك شيشيرون (Cisro) المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ويشير بإطلاق العنان لهم في هذا الشأن. ولا يقتصر الأمر عليهما بل يأتي إبكتيتس (Epictetus) الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين (Stoics) فيقول لتلاميذه مرشداً ومعلماً: " تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج ما استطعتم. ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحداً أو تؤنبوه إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته ".

" ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا الحد، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعري المشين. وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء. ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات وانجذبت إليهن نساء البيوتات. وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص في عصر القيصر تائي بيريس (14 – 37 م) لمنع نساء البيوت من احتراف مهنة المومسات وصناعتهن النافقة. **ونالت مسرحية فلورا (Flora) حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات. وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد. أما سرد المقالات الخليعة والقصص الماجنة العارية فكان شغلا مرضيا مقبولا لا يتحرج منه أحد، بل الأدب الذي كان يتلقاه الناس بالقبول والرضى هو الذي يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف، وهو الذي تبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات.** " [20]

* * *

[20] كتاب الحجاب للسيد أبي الأعلى المودودي، ص 14 – ص 24.

الآن تستطيع أن تفتح عينيك!

ما رأيك في هذا " الشريط " من الأخبار؟!

لكأنك تراه أمامك اللحظة في السينما أو التليفزيون!

هل هناك كبير فرق؟! ما أشبه الليلة بالبارحة!

إن بعض أجزاء الصورة توشك أن تكون بحذافيرها وصفا لما هو كائن اليوم في القرن العشرين، لا ما كان موجودا قبل عشرين قرنا، أو أكثر من عشرين!

المرأة المتبرجة المتزينة التي تفتن الرجل بتبرجها وزينتها..

المرأة التي تقضي في شئون الأدب والفن والسياسة..

المرأة التي تملك الرجل وتسيره حسب هواها..

المرأة " المستقلة اقتصاديا " التي تفهم من استقلالها الاقتصادي أن لها حق " التحرر " أو التحلل الخلقي..

الرجل الباحث عن متاع الجسد، الساعي خلف المرأة المتبرجة..

الرجل المشغول بمتاع الجسد عن جديات الأمور.

الرجل الباحث عن " بهجة المجتمع " وعن المرأة التي " تشارك في حمل أعباء الحياة".

الرجل الذي ينظر إلى المرأة المتحللة على أنها " ضرورة اجتماعية " ويرحب بها على هذا الأساس.

و الأدب المكشوف، والمسارح العارية، والتفنن في الفحشاء.
أكثير هو الذي تغير؟!
بل.. هل تغير شيء في الحقيقة؟!

* * *

إن الإنسان ليذهل من قراءة التاريخ.

يذهل أن تكون صورة الحياة اليوم – في جوهرها – هي إلى هذا الحد تكرار لما كان قبل ألفين من السنين!

ويذهل من جهالة الجاهلين، ودعاوى المزيّفين!

المزيفين الذين يزعمون أن الحياة الاجتماعية الحديثة صورة فريدة لم تتكرر في التاريخ، ونتيجة " للتطور " الذي جاء به " العلم ".. والجاهلين الذين يصدقون هؤلاء المزيفين!

أين هو " التطور " في صورة الحياة الاجتماعية؟!

لقد تغيرت الأدوات حقاً.. ما في ذلك شك! ولكن " العمل " ذاته هل تغير؟!

وأية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التي تجعلنا نحسب الأمر جديداً لأن " كرستيان ديور " هو الذي يصدر أزياء النساء ولم يكن موجودا من قبل، وأن السينما هي التي تعرض العري والدعارة والفجور ولم تكن موجودة من قبل، وأن التليفزيون هو الذي ينقل صور الفساد إلى داخل البيوت ولم يكن موجودا من قبل، وأن الشارع الذي تستعرض فيه المرأة قدرتها على الفتنة والإغراء شارع واسع " مسفلت " نظيف مزدحم بالسيارات الخاصة والعامة ولم يكن موجودا من قبل؟!

أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التي تنسب ذلك " التقدم الاجتماعي " " الضخم " الذي نعيشه اليوم، والذي أخرج المرأة إلى الطريق عارية تبتغي الفتنة وشغل الرجل بفتنتها.. إلى اقتصاديات القرن العشرين الفريدة في التاريخ، وظروف القرن العشرين الفريدة في التاريخ، وعلم القرن العشرين الفريد في التاريخ، واختراعات القرن العشرين الفريدة في التاريخ و " أيديولوجيات " القرن العشرين الفريدة في التاريخ؟!!

أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التي تنسى وقائع التاريخ الماضي وتزعم أن البشرية " ولدت " اليوم مولداً لم تولده من قبل قط، وأن هذا الجيل من البشرية جيل منقطع الصلة عن كل شيء قبله. " جيل الصواريخ ".. الذي لا يتقيد بدلالات الماضي، ولا يتأثر بها، ولا تعنيه في شيء، لأنه ينشئ نفسه إنشاء على نحو غير مسبوق..؟!

بل أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التي تزعم أن الكيان البشري الداخلي قد " تطور " أو تغير خلال كل هذه القرون؟!

*　　*　　*

تلك شهادة التاريخ. فلنتدبرها. إنها تقول أشياء كثيرة..

تقول أولا: إن " القرن العشرين ".. أو " الحياة الاجتماعية في القرن العشرين ".. أو " دور المرأة في الحياة الاجتماعية في القرن العشرين " أو " علاقة الرجل والمرأة في القرن العشرين " ليست صورة فريدة ولا جديدة في حياة البشرية.. فقد مرت صور من قبل فيها مشابه عجيبة منها، حتى لينسى الإنسان إذا أغمض عينيه وهو يسمعها أنه يعيش في القرن العشرين، أو أن تلك الصور كانت قبل ألفين من السنين!

وتقول ثانياً: إن الأسباب المزعومة التي تفسر بها الحياة الاجتماعية في القرن العشرين، ودور المرأة فيها، وعلاقتها بالرجل فيها، ليست هي الأسباب الحقيقية.. أو ليست كلها على الأقل. فإنها إن عزيت إلى أي سبب متعلق بالقرن العشرين وحده وما حدث فيه من " تطور " وتقدم، فكيف يمكن تفسير الصورة المشابهة الشديدة الشبه منها، التي حدثت في القرن الأول للميلاد، أو قبله بعدة قرون؟!

وتقول ثالثاً: إن الكيان البشري ليس كما تصوره نظريات القرن التاسع عشر والقرن العشرين، على يد ماركس ودركايم، ومن شابههم ومن أخذ منهم.. ليس " متطوراً " من داخله بالصورة التي تلغي كل ثبات فيه أو فيما حوله.. وليس " الجنس " اكتشافا جديداً يكتشفه فرويد.. فقد اكتشفته قبله حضارات عديدة في التاريخ!

* * *

وليس معنى هذا أننا نلغي عمل التطور، أو نسقط فترة الألفين من السنين!

كلا! فما يصنع ذلك عاقل!

إنما نريد فقط أن نصحو من غفلتنا التي تتصور الحاضر منقطعاً عن كل دلالة الماضي، نابتاً نباتاً شيطانياًعلى نسق غير مسبوق.

لقد حدثت أحداث ضخمة في القرنين التاسع عشر والعشرين: في عالم المادة وعالم البشر على السواء.

الانقلاب الصناعي كان حدثاً تاريخياً ضخماً ولا ريب.

الرأسمالية والشيوعية حدثان ولا شك من أحداث التاريخ..

النظرة إلى " الإنسان " قد تقلبت مرات عدة من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين بصورة لم يسبق لها مثيل: من تقديس فرديته إلى الحد الذي يكاد يلغي المجتمع إلى جواره، إلى تقديسه في صورة الجماعة إلى الحد الذي يكاد يلغي شخصيته الفردية ويعتبره مجرد فرد في القطيع. من " إنسان " رفيع المنزلة يعتبر مركز الكون، إلى حيوان أو ناجم من حيوان.. لا مزية له على غيره من الأحياء إلا أنه في طور السيادة في الوقت الحاضر، وقبله كانت أنواع من الحيوان هي السيدة على ظهر الأرض! ثم من إنسان عابد لغيره: لله أو الطبيعة أو أي شيء آخر، إلى إنسان متأله لا يريج أن يعبد إلا ذاته في القرن العشرين!

والعلم قد خطا خطوات جبارة لا مثيل لها في التاريخ كله.. فجّر الذرة وأطلق الصاروخ.. وسخر للإنسان كثيراً من قوى الأرض والكون.. ويسّر الحياة المادية أيما تيسير.. وحمل عن الناس الجهد البدني الذي كان يشقيهم من قبل ويعنتهم، فحمّله للآلة، وانطلق الإنسان خفيفاً مذخور الطاقات!

" صورة " الحياة كلها قد تغيرت من الألف إلى الياء..

ولكن.. " الإنسان" هل تغير؟!

ألوان نشاطه.. ودلالة مناشطه وأعماله؟ هل تغيرت؟!

هل صار – في انحرافاته واعتدالاته – شيئاً آخر غير " الإنسان "؟ الإنسان الذي عاش – مثلا – قبل ألفين من السنين؟!

هل صارت دلالات أعماله بالنسبة إليه – في انحرافاته واعتدالاته – شيئاً آخر غير ما كان من الدلالات؟!

*　　*　　*

تلك شهادة التاريخ..

فلنتدبرها..

إنها تروي لنا أشياء خطيرة.. عن الثابت والمتطور في كيان الإنسان.

الثابت والمتطوّر في كيان الإنسانْ

هل وعينا شهادة التاريخ؟

هل استخرجنا منها كل دلالتها؟

إن دلالتها لا تقف عند حد هذا التشابه العجيب بين فترتين من فترات التاريخ يفصل بينهما عشرون قرنا من الزمان.

إنها تلفتنا إلى ما هو أعمق من ذلك وأخطر.. إلى الطبيعة البشرية ذاتها.. إلى ذلك " الإنسان " المتضمَّن في أحداث التاريخ، متأثراً بها ومؤثرا فيها على مدار الأجيال..

هذا " الإنسان " هو الذي نريد أن نصل إليه من خلال الأحداث والظروف.. ومن وراء الملابسات والتقلبات.. نريد أن نفحصه من الداخل.. أن نتعمق كيانه.. أن نتعرف إليه.. فمن المؤكد – من تخبطاتنا في النظر إليه – أنه هو " المجهول " الأكبر في هذا القرن العشرين.. قرن " العلم " والكشف والعرفان!

* * *

يقول ألكسس كاريل في كتابه " الإنسان.. ذلك المجهول " – وهو " عالم " من علماء الطب والحياة، وليس فيلسوفا صاحب نظريات:

" إننا لا نفهم للإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة!!

وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية، ما زالت غير معروفة... وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها، يمكن أن تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لنا.. ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب.. فمن

الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب... " [21]

هذا تقرير عالم في العلوم، أتيحت له فرص نادرة – كما يقول في مقدمة كتابه – لأن يقضي معظم وقته يبحث في المعمل، ويفيد من تجارب العلماء الآخرين في الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء إلى جانب تخصصه في الطب. ومع ذلك " فالجماهير "، بما في ذلك " جماهير المثقفين " يأخذها غرور العلم الأجوف، فيظنون أنهم عرفوا كل شيء – في عالم الإنسان خاصة – وأنهم مؤهلون لأن يفتوا في قضايا الإنسان في تأكد وتمكن.. فتكون فتواهم هي هذه الأقوال الزائفة، التي توحي بأن إنسان القرن العشرين كائن متفرد، مقطوع الصلة – أو يكاد – بكل الأجيال قبله، وأن تجربته التي يعيشها في هذا القرن تجربة متفردة لأنها تصدر عن كيان " متطور " لا مثيل له من قبل، وأن دلالات الأفعال بالنسبة لهذا الإنسان دلالات غير مسبوقة، ولا شبه بينها وبين دلالات البشرية فيما مضى من القرون..

وتتغذى هذه النظرة الزائفة على " علوم " كثيرة و " نظريات "..

فالتفسير المادي للتاريخ يقول إنه " ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، ولكن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم " [كارل ماركس] ووجودهم متغير على الدوام بحكم التطور في أدوات الإنتاج، تبعا لما يجد من كشوف واختراعات على الدوام " فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة " [ماركس] " الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل " [فردريك إنجلز].

ومن ثم فلا يوجد كيان ثابت للإنسان!

الإنسان هو حصيلة الظروف المادية والاقتصادية. وهو انعكاس الطور الاقتصادي الذي يعيش فيه. وما دامت هذه الأطوار دائمة التغير، فالإنسان – حصيلتها وانعكاسها – ليس له كيان ثابت، وإنما هو في تطور مستمر تبعا لهذه التغيرات. والتطور يشمل كيانه كله: أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه الفردي والجماعي.. وكل شيء فيه.

[21] ترجمة شفيق أسعد فريد. منشورات مكتبة المعارف ببيروت. ص 16 – 18

كان الإنسان في المجتمع الزراعي يعبد الله.. لأنه.. يضع البذرة في الأرض ويطلب الحبَّ من الرب! لأنه عاجز بنفسه عن التأثير في عملية الإنتاج، لا هو يستطيع أن يسرعها أو يبطئها عن مدتها " الغيبية " ولا هو يستطيع – إلا بقدر ضئيل – أن يتحكم في النتائج [بالجهد المبذول من جانبه] فالأعاصير والآفات، وتقلبات البرد والحر لا سلطان له عليها البتة.. ولا بد أن ينتظر فيها كلمة السماء.

وكان الرجل هو المنتج الرئيسي، وهو الذي يعول المرأة. ومن ثم كان هو المسيطر صاحب السلطان. وكانت الأسرة تمثل سلطان الزوج، وهو حريص عليها شديد الحرص لأنها تهيئ له ذلك السلطان، ومن ثم يفرض على المرأة قيودا خلقية شديدة، فالعفة شرط رئيسي لحياتها وعنصر لا غناء لها عنه. والعفة معناها [في هذا التفسير] أن يتأكد الرجل – صاحب السلطان – أن هذه المرأة أو تلك له وحده لم يمسسها أحد غيره. ثم يجيء الدين [الذي يمثل هذا " الطور "] فيقول إن العفة مطلب إلهي من البشر، عليهم أن يلتزموا به من أجل الله.

وكانت الحياة الزراعية بما فيها من تكاليف شاقة تستلزم نوعا من التعاون الفردي، فصار هذا التعاون خُلقا.. وصار جزءا كذلك من مفهوم الدين.

وكانت الأسرة متعارفة، بحكم قرابتها وتصاهرها في محيطها المحدود، وبحكم التعاون بينها في جمع المحاصيل وبيعها وتبادلها، فكان هذا التعارف خلقاً.. وكان جزءا من مفهوم الدين.. الخ.. الخ..

ومن هنا كانت أخلاق المجتمع الزراعي ومشاعره ومفاهيمه ومبادئه وسلوكه العملي.. كلها نابعة من حقيقة الأرض، ومرتدة إليها.. فالأرض – بمفهومها الزراعي – هي التي تشكل حياة الإنسان.

ثم انتقل الناس إلى الطور الصناعي.. فتبدلت الأحوال..

عملية الإنتاج لم تعد " غيبية ". فهي عملية منظورة. الآلة المنتِجة منظورة، والمادة المنتَجة منظورة كذلك. و " الإنسان " هو الذي يديرها وليس " الله " [!!] ومن ثم فلا ضرورة شعورية لعبادة الله!

والمرأة قد استقلت اقتصادياً بحكم سلسلة من الظروف الاقتصادية المتوالية.. فلم يعد الرجل هو الذي يعولها. ومن ثم لم يعد الرجل هو المسيطر. أو على الأقل لم تعد سيطرته مطلقة. فلم يعد في وسعه – تدريجياً – أن يفرض العفة على المرأة. أي يفرض عليها أن تكون له وحده. فصار من حقها – تدريجياً – ألا تكون عفيفة. لأنها تستطيع حين يرفضها

الرجل – إذا رفضها! – لعدم عفتها، أن تعول نفسها بنفسها.. ولأنها استقلت اقتصادياً اضطر الرجل أن يحترمها، وينزل لها عن سلطانه، ويعطيها حق الإباحية الجنسية.. ثم انتهى الأمر أن يحبذ هو تلك الإباحية بحكم " التطور "..

وعاش الناس في المدينة – لا في القرية – بأعداد متزايدة، ومن أصول غير متعارفة. فلم يعد التعارف شرطاً للحياة الإنسانية. وصار الخلق الجديد للمدينة – الخلق المتطور – أن يعيش كل إنسان حياته الخاصة في عزلة عن الآخرين.. عزلة شعورية وواقعية..

وبطل التعاون الفردي، لأن عملية الإنتاج صارت متخصصة، كل عامل يدق مسمارا أو يخط خطا أو يدفع شريطاً معدنياً أمامه.. إلخ. بلا تعاون ملموس بين واحد وواحد في المصنع الكبير.. فصار " عدم التعاون الفردي " هو الخلق الجديد المتطور..

وهكذا استمد المجتمع الصناعي أخلاقه ومشاعره ومفاهيمه ومبادئه وسلوكه العملي من الآلة، والإنتاج المادي.. فصارت الآلة هي التي تشكل حياة الإنسان..

وهكذا.. لا يكون شعور الناس هو الذي يعين وجودهم. ولكن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم، على حد قول العالم الكبير كارل ماركس!

*　　*　　*

هكذا تحسب الحسبة في التفسير المادي للتاريخ!

ثم يجيء " علم " الاجتماع على هدى دركايم فيقول إن الدين والزواج والأسرة ليست فطرة لدى الإنسان! وإنما هي من عمل " العقل الجمعي "، وهو شيء [ما هو؟!] دائم التطور والتغير والتشكل، لأن المجتمعات لا تثبت على حال واحد. ومن ثم فكل مجتمع يصنع دينه [أو لادينه!] ونظم زواجه [أو لا زواجه!] ونظم أسرته [أو لا أسرته!] فإذا قال العقل الجمعي في طور من أطواره: ليكن دين.. فليكن دين! وإذا قال: ليكن زواج.. فليكن زواج. وإذا قال: لتكن أسرة.. فلتكن أسرة. أما إذا قال – حسب هواه، أو حسب " حتمية الظواهر الاجتماعية " التي لا تنشأ من ضمير الفرد ولا فطرته، ولا علاقة لها بمشاعره الفردية، ولا برضاه أو عدم رضاه عنها! – إذا قال: ليكن لا دين. وليكن لا زواج. وليكن لا أسرة. فسرعان ما يرضخ الأفراد " لقهر الظاهرة الاجتماعية " فينسلخون من دينهم وأخلاقهم ويتبرأون منها. ويحلون روابط الزواج والأسرة، ويصبحون أي شيء يريده العقل الجمعي – سبحانه – لا قاهر سواه.

*　　*　　*

ثم تجيء بهرة العلم..

الكهرباء بأعاجيبها..

والآلة بضخامتها..

والتغير الدائم.. كل يوم جديد..

ما تكاد البشرية تفتح فاها عجبا للتليفون – مثلا – وقدرته السحرية على نقل الصوت – في أسلاك – عبر السهول والدويان والجبال، حتى يكون اللاسلكي قد فجأها بما هو أعجب وأشد فتحا للأفواه. وحتى يكون التليفزيون..

وما تكاد البشرية تفيق من دهشة السيارة التي تسير بلا حصان.. بقوة الاحتراق الداخلي، كأنما يدفعها جن أو ساحر يسخر الجن، حتى تفجأها الطائرة.. ثم الصاروخ..

وما تكاد تفيق من عملية النسج الآلية، التي تقوم الآلة فيها بعمل ستة من العمال دفعة واحدة، حتى تفجأها الآلة التي تصنع كل شيء! والتي تقوم بعمل ألوف العمال، على دقة وتمكن لا تطيقه طاقات الإنسان.

ثم تتوالى العجائب كل يوم وكل لحظة.. فتعطي الحياة شكلا مختلفا في كل لحظة، وتغير مشاعر الناس وأفكارهم ومفاهيمهم ومبادئهم وسلوكهم الواقعي كل لحظة.. سلوك راكب الجمل ومفاهيمه غير سلوك راكب السيارةغير سلوك راكب الطائرة، غير سلوك راكب الصاروخ المسافر بين الكواكب في عصر الفضاء..

فأنّى " للإنسان " أن يكون هو الإنسان.. بل أين هو الإنسان ذاته في هذا السباق الجبار؟!

وحين نصل من القضية إلى هذا الحد.. حين تأخذ رءوسنا تدور من طنين الآلات وانفجار الطاقات.. حين تبهر أعيننا شدة التغير ومداه.. فنظن أن " الإنسان " قد تغير.. أو أنه لا يوجد وجود حقيقي للإنسان (!).. عند ذلك ينبغي أن نعود سريعا إلى شهادة التاريخ.. فهي العاصم لنا من الدوار!

شهادة التاريخ.. هي الرد على هذه " التهيؤات "!

صورتان من الحياة يفصل بينهما ألفا عام.. وتفصل بينهما أدوات مختلفة من أدوات الإنتاج.. وأطوار مختلفة من العلوم والكشوف والاختراعات.. ومع ذلك يتشابهان إلى هذا الحد الذي يثير الدهشة. كادان في بعض الجزئيات يتماثلان!

إذن..؟!

لا بد أن هناك تفسيرا آخر " للإنسان "..

ولا بد أن هناك عوامل أخرى غير هذه العوامل المنظورة، هي التي تحكم تصرفات الإنسان!

* * *

التفسير المادي للتاريخ يحاول أن يفسر الإنسان من الخارج.. يحاول أن يفسره على أنه هو في ذاته عجينة لينة قابلة للتشكل الدائم، ومهمتها هي التشكل الدائم.. لا قوام لها في ذاتها.. وإنما تستجيب دائما للمؤثرات.. ومن ثم تأخذ صورة القالب – الاقتصادي والمادي – الذي توضع فيه، ولا تضغط هي على الحوادث أبدا، ولا يكون لها هي التأثير على هذا القالب، لأنه " **حتمي** " من ناحية، ومن ناحية أخرى " **مستقل عن إرادة الناس** " [كارل ماركس] [22].

والتفسير الجمعي للتاريخ يحاول كذلك أن يفسر الإنسان من الخارج.. يحاول أن يفسره على أنه – أراد أو لم يرد – يتشكل على الدوام " بالقهر " الاجتماعي الذي لا يراعي مشاعر الفرد ولا رغباته، ولا علاقة له بها [دركايم] [23] وعلى أن الظواهر الاجتماعية لا صلة لها " بفطرة " الإنسان.. فالأمور التي يُظن أنها من الفطرة، كالدين والزواج والأسرة، والقيم الخلقية، ظواهر اجتماعية في حقيقتها، قد يرتضيها الفرد وقد لا يرتضيها، ولكنها " تكون ".. وبالتالي، فإنه إما ألا تكون للإنسان فطرة ثابتة.. وإما أن هذه الفطرة – على فرض وجودها – ليست مرجعا لحياة الإنسان!!

[22] " في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محددة لا غنى عنها. وهي مستقلة عن إرادتهم. وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محددة من تطور قواهم المادية في الإنتاج. والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع. وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية، والتي تطابقها أشكال محددة من الوعي الاجتماعي " [ماركس].

[23] مرت بنا مقتطفات من أقواله في فصل سابق.

ثم تجيء شهادة التاريخ فتكذب هذا وذاك!

فكلا التفسيرين يعجز عن تفسير هذا التشابه العجيب في الحياة الاجتماعية الذي يفصل بينه ألفا عام..

التفسير المادي للتاريخ الذي يضع همه كله في التغيرات المادية وتطور أساليب الإنتاج، يعجز بداهة عن تفسير موقفين متشابهين من الناحية " الإنسانية " لا شبه بينهما على الإطلاق في عالم المادة وأساليب الإنتاج!

والتفسير الجمعي الذي يضع همه كله في العقل الجمعي، والقهر الاجتماعي الواقع على الفرد الذي لا تحكمه الفطرة.. يعجز عن تفسير الموقفين المتشابهين، إلا على فرض واحد – لا يريد أصحابه الاعتراف به – **هو أن يكون هذا العقل الجمعي – على فرض التسليم بوجوده – جزءا من فطرة الإنسان!**

ولا تفسير لشهادة التاريخ إلا تفسير واحد: أن يكون للإنسان فطرة، وأن يكون لهذه الفطرة لون من الثبات! وكل تفسير خلاف ذلك فهو عاجز عن التفسير، متمحل، مجانب للصواب!

* * *

ما الذي أغرى تلك التفسيرات المنحرفة أن تصنع هذا الصنيع " بالإنسان "؟!

إنها مزية الإنسان العظمى، التي ميزه الله بها عن الحيوان، هي ذاتها التي تجعل هذه التفسيرات المنحرفة تنزله من مكانه الرفيع، فترده إلى وضع أسوأ حتى من الحيوان!

المرونة.. وتعدد الجوانب!

ويعجب الإنسان حين ينظر إلى تلك التفسيرات القاصرة الزائفة، كيف تشوه المزية التي وهبها الله للإنسان، ليوسع حياته ويثريها، ويعدد أنماطها ومستوياتها، واتجاهاتها وألوان نشاطها.. فتقلبها – في تفسيرها – أداة للسلبية والخنوع، والانطباع الدائم بالمؤثرات المادية " المستقلة عن إرادة الإنسان " أو القهر الاجتماعي " المستقل عن كيان الفرد ".. أو ما شابه ذلك من المؤثرات

المرونة التي مكنت الإنسان أن " يواجه " البيئة المادية في جميع ظروفها وحالاتها، فيسيطر عليها في النهاية على نحو من الأنحاء [" وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ "] [24] ولا يفنى ولا يدول حين تواجهه الصعاب.

وتعدد الجوانب الذي تتمثل فيه عبقرية الإنسان، والذي أتاح له أن " ينشئ " الحضارات المختلفة، وأن يجعل هذه الحضارات شاملة لنشاط الروح ونشاط الفكر ونشاط الجسد.. شاملة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمادية والفكرية والروحية..

هذه المزية وتلك – وكلتاهما موهبتان للإنسان ليعطياه إيجابية وحيوية فاعلة – تردهما التفسيرات المنحرفة الزائغة إلى سلبية بغيضة تتأثر بالأحداث من الخارج، ولا تؤثر هي من الداخل في الأحداث!

المرونة – القابلية للتشكل الدائم – أغرت التفسير المادي للتاريخ أن يظن أنه لا يوجد "كيان " ثابت للإنسان. وأنه ليس لهذا الكيان كلمة ذاتية في الموضوع! عليه فقط أن يتلقى فيستجيب!

وتعدد الجوانب – وخاصية بروز بعضها أحيانا وانحسار بعض – أغرت هذا التفسير والتفسير الجمعي كذلك أن يظنا أنه لا يوجد كيان ثابت للإنسان، وإنما هي " أطوار " لا يجمعها في النهاية كيان!

وهذا وذاك – وغيرهما من التفسيرات الزائغة المنحرفة – يأخذون جزئية صغيرة، أو وجها واحداً من وجوه الإنسان، ويفسرون على ضوئه الإنسان كله، أو وجها واحداً من وجوه الإنسان، ويفسرون على ضوئه الإنسان كله، فيخرج من بين أيديهم مشوه الكيان!

والإنسان في حقيقته أكبر من تلك الجزئية الصغيرة وأكبر من ذلك الوجه المفرد الذي تفسر من خلاله الحياة.

ومرونته وتعدد جوانبه اللذان أغريا هذه التفسيرات الجزئية أن تشوه صورته هما **مزيتان إيجابيتان** على مدار التاريخ، وإن كان لهما – بالفعل – وجه سلبي هو الذي تركز عليه هذه التفسيرات!

---

[24] سورة الجاثية [13].

إن الإنسان المزدوج الطبيعة، المكون من قبضة الطين ونفخة الروح، متحدتين ممتزجتين [25]، يحمل في كل تصرفاته وجهين متقابلين. ومن مجالات هذا الازدواج أن توجد فيه هاتان الصفتان المتقابلتان: السلبية والإيجابية، وأن تشملا – من الجانبين – كل تصرفاته، في اللحظة الواحدة وفي جميع اللحظات. وإن كان في طبيعته أن يجنح أحيانا بهذه الصفة أو تلك، فتزيد نسبتها مؤقتا، ثم يعود – ما دام سويا – إلى الاتزان. وتلك هي الحقيقة الكبرى التي غابت عن وعي تلك التفسيرات، فوقعت فيما وقعت فيه من انحرافات!

والآن نعود إلى القضية الأساسية في هذا البحث.. قضية الثابت والمتطور في كيان الإنسان.

ما " الفطرة " الإنسانية.. وما دلالتها في حياة الإنسان؟

وإذا كانت للإنسان فطرة " ثابتة " فما تفسير التغير الدائم في حياة البشرية الذي يصل من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، والذي **لا تتماثل** فيه حالتان من حالات الإنسان، وإن تشابهتا تشابها شديداً في بعض الأحيان؟

بل قبل ذلك.. ما الذي يثبت لنا أن للإنسان " فطرة " على الإطلاق؟ ولماذا لا يكون – كما يفسره علم النفس التحليلي – مجموعة من الحالات النفسية المتتابعة بلا وحدة، أو – كما يفسره التفسير المادي للتاريخ – مجموعة من الأطوار؟

الذي يثبت ذلك هو الإنسان ذاته! وهو تاريخ الإنسان!

فلننظر إلى " الدوافع الفطرية ".. هل لها وجود حقيقي ملموس بارز.. وهل هذا الوجود ثابت أم يتغير بتغير " أطوار " الإنسان؟

" حب الحياة " هو الدافع الأكبر للإنسان. وهو دافع مشترك بين جميع الأحياء. كلهم يحبون الحياة ويتشبثون بها، ويعملون على البقاء فيها أبداً.. وإن كان من طبيعتهم أن يصيبهم الفناء. ولكن مزية الإنسان العظمى في كل جوانب حياته هي الوعي والإدراك وحرية الاختيار. فهو يحب الحياة ويدرك أنه يحبها، ويعي لهذا الحب أهدافا وغايات، ثم يختار – في نطاق الحرية المخولة له في فطرته – اللون أو الصورة التي يمارس بها حب الحياة.

[25] انظر بالتفصيل فصل " خطوط متقابلة في النفس البشرية " في كتاب " منهج التربية الإسلامية " وفصل " طبيعة مزدوجة " في كتاب " دراسات في النفس الإنسانية ".

هل هذا الدافع ثابت في كيان الإنسان أم متغير؟

هل يجيء على البشرية طور لا تحب فيه الحياة؟

إن حالات الانتحار – وهي الشذوذ المنحرف إلى أسفل – وحالات التضحية بالنفس – وهي حالات الارتفاع – لا تنفيان هذا الدافع،، بل ربما تؤكدانه.. فضلا عن أنها – من جانبيها – حالات نادرة في البشرية!

إن الذي يؤدي به الشذوذ المنحرف إلى الانتحار، شخص يحب الحياة جداً في حقيقة الواقع، ولكنه لا يجد فيها متاعه المنشود الذي يحبه، فينتحر لأنه لا يطيق الحرمان من ذلك المتاع!

والذي يؤدي به الارتفاع إلى التضحية بالنفس في سبيل عقيدة أو فكرة، يحب صورة من الحياة أعلى من الصورة الواقعة. وفي هذا المستوى العالي يقدم حياته الخاصة في سبيل أن يحقق صورة من الحياة أفضل – على هذه الأرض – أو في سبيل أن ينال حياة أفضل من حياة الأرض كلها – في الآخرة – فهي إذن دفعة متسامية لتحسين هذه الحياة، وليست خروجاً على حب الحياة!

ثم تأتي الحالات " العادية " كلها تؤكد عمق هذا الدافع في حياة **كل إنسان** رغم التباين الواسع ما بين إنسان وإنسان.

وحب الحياة يتفرع عنه فرعان كبيران: حب الذات [أو حفظ الذات] وحفظ النوع.

فهل من شك في هذا أو ذاك؟

وإذا قسمنا هذين الدافعين إلى فروعهما المتميزة – المتشابكة في النهاية – وهي دافع الطعام والشراب والملبس والمسكن. ونزعة الملك. ونزعة القتال أو الصراع. ونزعة البروز والتميز. ودافع الجنس [26].. فلننظر في كل منها على حدة، لنرى هل هي نزعات ثابتة في الكيان البشري، أم إنها توجد وتختفي حسب الأحوال؟

---

[26] فصلنا الحديث عن هذه الدوافع في فصل " الدوافع والضوابط " في كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " ولا نملك الحديث عنها هنا بالتفصيل بطبيعة الحال، وإنما نأخذ خلاصتها في هذا البحث، فمن يرغب في التفصيل فمكانه هناك!

المأكل والمشرب والملبس والمسكن.. لم يجادل فيها أحد بعد مجالة جدية (!) [ربما تجادل " الحضارة " الغربية التقدمية الراقية في مسألة العري الكامل على الشواطئ وفي الأدغال! وبصرف النظر عن هذه النكسة الحيوانية البشعة، فإنها تاخذ صورة وقتية.. للاستمتاع كما يقولون، ثم يعود العرايا فيلبسون! ومن ثم فلا جدال من حيث المبدأ!].

وطاقة الجنس كذلك.. لم يجرؤ أحد أن يقول إنها مستمدة من الطور الاقتصادي أو المادي! وإنها توجد – مثلا – في المجتمع الرعوي ولا توجد في المجتمع الزراعي. أو توجد في السيد – مثلا – ولا توجد في الرقيق! إنما أقر الجميع بأنها مسألة جسدية بحتة، أو جسدية نفسية. توجد حين توجد الغدد المهيمنة عليها وتؤدي وظيفتها الصحيحة، وتغيب حين يختل عمل الغدد اختلالا وظيفياً لا شأن له بأساليب الإنتاج وأطوار التاريخ!!

ولكن الشيوعية بصفة خاصة قد حاولت أن تنتزع نزعة معينة من هذه النزعات الفطرية وتلقيها خارج كيان الإنسان.. لتنفي وجودها من ناحية، ومن ناحية أخرى تنفي وجود كيان ثابت للإنسان! تلك هي نزعة الملك.. وذلك لغاية في نفس يعقوب.. لتصادر الملكية الفردية وتستبدل بها الملكية الجماعية.

وقد ناقشت هذا الأمر في كتاب " الشبهات " وكتاب " الدراسات ". وما بي من ميل هنا إلى إعادة المناقشة التفصيلية التي بينت فيها ضلال هذه الدعوى وبطلانها. ولكني – توفيراً للجدل هنا – أقول إن الشيوعية ذاتها، حين نقلت " الملك " من الفرد إلى المجموع، لم تنكر نزعة الملك في الحقيقة من حيث هي.. وإنما أرادت فقط أن تتحايل عليها وتوجهها إلى أفق آخر يخدم أغراضها المذهبية.. ومع ذلك فقد اضطرت أخيراً إلى التسليم بالأمر الواقع، وأباحت ألواناً من الملكية الفردية – في المواد الاستهلاكية – ترضى بها نزعة الملك الفردية في الإنسان.. وهذا يكفي!

كذلك حاولت الشيوعية أن تصنع مثل ذلك في نزعة البروز. حاولت أن تقتلها في مجالها الفردي. فلا يبرز الفرد إلا لحساب المجموع! وسارت خطوات وتخبطت في الطريق! وكان ستالين ذاته – بزعامته الفردية الطاغية التي اعترف بها خروشوف فيما بعد! – أكبر تكذيب عملي لهذه " الأيديولوجية " الخيالية الفارغة. ثم عادت الشيوعية فسلمت بالأمر الواقع، وأباحت التفاوت في أجور العمال – أجور الطبقة الواحدة والعمل الواحد – لمن أراد أن يبذل جهداً أكبر ويحصل على أجر أكبر، ينفقه في " الكماليات ".. إنها نزعة البروز إذن في صورة من الصور.. الفردية في نهاية المطاف!

أما نزعة القتال والصراع، فالأمم منذ القدم حاولت أن توجهها وجهة جماعية، في الحرب من أجل المجموع، أو العقيدة، أو ما شابه ذلك من الأهداف العامة. أو وجهة فردية متسامية، في المسابقات التي تهدف إلى " الفوز " وهو غاية القتال والصراع. وكل هذه المحاولات لا تنفي على أي حال وجود هذه النزعة في صورتها الفردية، وإنما تحاول فقط أن تستغلها لخير المجموع.

* * *

تلك نوازع الفطرة الرئيسية.. فما الذي يتغير أو يتطور فيها على مدار التاريخ؟!

إن قوما سيقولون بلا شك: لقد تحدثت عن الإنسان من الداخل. ولم تتحدث عن واقع البشرية: عن الكيان الاقتصادي والكيان الاجتماعي والسياسي المتغير. عن الإنتاج وأساليبه وصراعاته. عن التقدم والتطور الدائم في حياة الإنسان..

نعم. تحدثنا عن الإنسان من الداخل..

ولكن.. هل الحياة الواقعية إلا الانعكاس الحقيقي لكيان الإنسان؟!

كيف إذن نوفق بين الكيان الإنساني الثابت، وبين تغير الحياة الإنسانية على الدوام؟

إن " الصورة " التي يترجم بها الإنسان عن دوافعه الفطرية تتغير و " تتطور " من جيل إلى جيل.. تتطور بفعل الاحتكاك الدائم بين العقل البشري والكون المادي، ونشوء صور جديدة للحياة الواقعية نتيجة لهذا الاحتكاك.

هذه حقيقة..

ولكن.. حين تتغير " الصورة ".. هل يتغير " الإنسان "؟!

فلنأخذ مثلا نزعة الطعام..

إنها نزعة فطرية ثابتة في جميع الأناسي، بل في جميع الأحياء، ولكن " صورة " الطعام تتغير وتتطور.

يأكل الإنسان فريسة نيئة في عصر الصيد، لأنه لا يملك وسيلة أخرى للأكل. إمكانياته **المادية** لا تسمح له بأكثر من ذلك. ومعارفه ومعلوماته قاصرة عند هذا الحد. ثم يكتشف النار. فيتيح له هذا الاكتشاف عالما جديدا كل الجدة، ويغير " شكل " حياته كله. وفي ميدان الطعام بصفة خاصة تتغير الصورة، فيطهو الإنسان اللحم قبل أن يأكله. ولكنه ما زال ينهشه نهشا بالأصابع والأسنان. ثم يرتقي ويستحدث مختلف الأدوات. يستحدث سكينا يقطع بها اللحم قطعا ضغيرة يستطيع إمساكها بيده ووضعها – لا نهشها – في فمه. ثم يرتقي أكثر، ويستحدث مزيدا من الأدوات، وتتعدد ألوان طعامه، ويتأنق فيها، ويجعل للطعام آدابا وقواعد وتقاليد.. و " فنونا " لا تفرغ منها البشرية!

ما الذي تغير؟! نزعة الطعام ذاتها أم صورة الطعام؟!

ولنأخذ مثلا نزعة السكن..

إنها نزعة ثابتة في الفطرة.. كل البشر – بل كل الأحياء – يسعون إلى اتخاذ المسكن. ولكن " صورة " المسكن تتغير وتتطور.

يسكن الإنسان في مبدأ حياته في الكهوف. لأن إمكانياته **المادية** لا تتيح له شيئاً يسكن فيه سوى هذه المساكن " الجاهزة " غير المصنوعة، ولأن معلوماته وخبراته المحدودة لا تتيح له أن " يصنع " مسكنا لنفسه في أية صورية. ثم تتغير ظروف حياته وتزداد خبراته ومعلوماته، فيسكن في " عش " في أعالي الأشجار أو في كوخ بجانب الماء. ثم في مساكن من الغاب وبيوت من الطين. ثم في بيوت من الحجر أكبر وأفسح.. ثم في ناطحات السحاب على الأرض. أو فيما لا نعلم غداً على سطوح الكواكب حين يصل إليها بالصواريخ..

ما الذي تغير؟! نزعة السكن أم صورة المساكن؟

ولنأخذ نزعة اللباس..

نزعة فطرية في بني آدم منذ طفق آدم وحواء يخصفان على سوآتهما من ورق الجنة إلى الوقت الحاضر.. ولكن صورة اللباس تتغير..

" يلبس " الإنسان أوراق الشجر، أو بالأحرى يغطي بها عوراته ولا زيادة، لأن إمكانياته المادية لا تتيح له أن " يصنع " لنفسه ملابس، ولأن معلوماته وخبراته المحدودة لا تتيح له أكثر من المادة الجاهزة يغطي بها من جسمه ما تستطيع تلك المادة أن تغطيه.. ثم

يرتقي.. يستجد معلومات وخبرات ويزداد إمكانيات.. فيغطي عوراته بقطعة من الجلد، أكثر إحكاما من ورق الشجر وأكثر سترا للعورات.. ثم ينسج قطعة من القماش يؤدي بها الغرض ذاته.. ثم تزداد ملابسه تنوعا وتأنقا.. حتى تصير لها قواعد وآداب وتقاليد.. وتصبح فنا من فنون البشرية..

ما الذي تغير؟! نزعة اللبس ذاتها أم صورة اللباس؟

ولنأخذ دفعة الجنس..

دفعة فطرية تشترك فيها الأناسي وكثير من الأحياء.. ولكن " صورة " الجنس تتغير. ولا نقول هنا "كانت " ثم " صارت " فما زالت تتقلب إلى هذه اللحظة بين ما كانت عليه وما صارت إليه! [وسنعود إلى الحديث عن هذه النقطة بالذات بعد قليل] وإنما نقول إنها تارة تكون دفعة مباشرة كدفعة الحيوان. كل همها اللقاء الجنسي، وإرواء دفعة الجسد الهائج في صورة الغريزة. وتارة تكون مسبوقة بأنواع من الغزل العنيف أو الرقيق [كما يختلف في عالم الحيوان ذاته بين " غزل " النمور المحطم المدمر، وبين رقة الغزل عند الحمائم وأنواع أخرى من الطيور!] وتارة تخضع للتنظيمات الخلقية والدينية والاجتماعية والاقتصادية. وتارة تتحلل من هذه القيود. ولكن لها على أي حال – ككل النزعات الفطرية الأخرى – قاعدة دنيا أقرب إلى عالم الحيوان، وقمة عليا أليق بالإنسان.. ولكن.. حتى في هذا الأمر..

ما الذي تغير؟! دفعة الجنس ذاتها أم صورة اللقاء؟

ولنأخذ نزعة الملك..

نزعة فطرية رغم جدل الشيوعية! يثبتها كما قلنا اضطرار الشيوعية إلى إباحة الملكية الفردية في بعض الأمور.. ولكن صورة الملك تتغير. في فترة من الفترات لم يكن هناك ما يمتلك! لم يكن الصيد الذي يصيده الإنسان ملكا لفرد بعينه لأنه **لا يستطيع** أن يمتلكه وهو لا يصيده بجهده وحده من ناحية، ولا يستطيع أن يحتفظ به من ناحية أخرى لأنه ينتن ويفسد. ولكن حتى في ذلك الحين كان يثور الصراع على " امتلاك " امرأة. فيتصارع من أجلها الرجال. ثم صار هناك " إنتاج " يمكن أن يمتلك. فامتلك الإنسان الأدوات البسيطة التي أنتجها. ثم امتلك المحاصيل حين تعلم الزراعة. وامتلك حيوان الزراعة المستأنس حين تعلم كيف يستأنسه. وامتلك الأرض التي تغل المحاصيل. ثم امتلك المصانع. واليوم يمتلك القنابل والصواريخ! وقد يمتلك الكواكب في الغد القريب أو البعيد..

ما الذي تغير؟! نزعة الملك أم صورة التملك؟

ولنأخذ نزعة البروز..

نزعة فطرية تدفع البشرية من مولدها إلى حاضرها. بل هي موجودة عند كثير من الحيوان.. ولكن صورة البروز تتغير. ولعلها من أشد النزعات تباينا وتشكلا في حياة الإنسان. يبرز في عصر الكهوف بالقوة البدنية الفائقة التي يصطاد بها الصيد ويحارب الوحوش والأعداء.. ثم يبرز بالحيلة. أي بالتفكير. ويبرز بمحاولة الاختراع. أي بالمهارة. ويبرز بالجمال. ويبرز بالملبس والمسكن والمأكل والمشرب. ويبرز بالجنس " فيقتني " النساء. ويبرز بالقتال والصراع. ويبرز بالطاعة ويبرز بالمعصية! يبرز بالخير ويبرز بالشر. يبرز في المسابقة الرياضية والمسابقة العلمية والفنية. يبرز في السياسة. يبرز بالقدرة على الكلام والتأثير. أو القدرة على الدس والخديعة.. ألوان مختلفة من البروز ومستويات مختلفة..

ما الذي تغير؟! نزعة البروز أم صورة البروز؟

ولنأخذ نزعة القتال والصراع..

نزعة فطرية في البشرية وغيرها من الأحياء.. ولكن صورة القتال تتغير. القتال بالقوة البدنية المباشرة، القوي يصرع الضعيف. والقتال بالهراوة والحجر الضخم. والقتال بالحيلة والخديعة. والقتال بالأدوات المسنونة: السهم والرمح والسيف. والقتال بالمقلاع. والقتال بالبارود. بالرصاصة والقنبلة. والقتال بالصورايخ وأشعة الجراثيم وأشعة الموت وأشعة النوم وال..؟!

ما الذي تغير؟! نزعة القتال أم صورة القتال؟

* * *

تلك حياة البشرية من الداخل والخارج في ذات الوقت.. في المشاعر الدافعة والصورة الواقعة. في " الإرادة " و " التطبيق ". في " الفكرة " و " الواقع " أو الفكرة والمادة.

ما الذي تغير في عصور التاريخ؟ ما الذي تغير في " الإنسان " حين استجد أدوات ووسائل للطعام، وأدوات ووسائل للسكن، وأدوات ووسائل للبس، وأدوات ووسائل للنشاط الجنسي، وأدوات ووسائل للملك، وأدوات ووسائل للبروز، وأدوات ووسائل للصراع؟!

هل تغير " الإنسان "؟ هل تغيرت دوافعه حين وجدت له الوسائل والأدوات؟ هل صار لا يأكل؟ لا يشرب؟ لا يلبس؟ لا يسكن؟ لا ينشط نشاط الجنس؟ لا يملك؟ لا يحاول الصراع؟!

هل جدت له دوافع جديدة لم تكن له من قبل أو أمحت من نفسه دوافع كانت فيه؟

ماذا على وجه التحديد؟!

حقاً لقد حدثت في حياته تغيرات ضخمة، ما بنا أن ننكرها أو نغفلها من حسابنا! بل نحن نريد أن نثبتها ونبرزها ونؤكد عليها!

إنسان الغابة غير إنسان المرعى غير إنسان القرية غير إنسان المدينة.. وإنسان الحضارة المحدودة غير إنسان الحضارة العالية.. غيره في طريقة التفكير والتصور. غيره في تناول الحياة..

غيره على أنحاء شتى.. ومستويات متباينة.

ونريد هنا أن نفرز **أنواع التغير والتطور – فإنها متباينة – ثم ننظر هل هذه التطورات ذاتها جزء من الفطرة. الفطرة الثابتة. داخل في كيانها. أم عنصر جد على الإنسان من أثر التطور المادي وتقدم الوسائل والأدوات**، لنحكم على **دلالة التغير بالنسبة للفطرة**، ولكي نستخلص أخيراً من هذا الحكم: **هل هناك مقياس من الفطرة يقاس به التطور ويرجع إليه، ويحكم عليه إن كان تطورا فاسدا أم يسير في طريق الصلاح**.. أم إنه ليس هناك مقياس؟

تلك أمور على أعظم جانب من الأهمية في قضية التطور.. فإن القوم المصابين بلوثة التطور في الغرب، ومن أخذ منهم العدوى في الشرق، لا يفرقون بين تغير وتغير، ولا يقيمون مقياسا تقاس به الأمور. لأن التطور – في نظرهم– مقياس لذاته! لا يُحكم عليه بشيء – كما يقولون – من خارجه! فإذا سار نحو الفردية الجانحة – مثلا – فلأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع إلى ذلك **وتحتمه**، ومن ثم لا يحكم عليه بأنه خطأ أو صواب! والحكم الوحيد هو الظرف الاقتصادي والاجتماعي. فإذا كان يقتضي الفردية ويحتمها فالفردية عندئذ صواب. وإذا كان يقتضي الجماعية ويحتمها فالفردية إذن – إن وجدت –

خطأ ينبغي أن يصحح! ولا يوجد مقياس ثابت تقاس إليه الفردية الجانحة أو الجماعية الجانحة فتخطّأ أو تصوّب، وتمنع أو تجاز!

وإذا سار المجتمع نحو الأخلاق التي تحرم النشاط الجنسي خارج نطاق الأسرة، وتفرض العفة على المرأة، أو عليها وعلى الرجل، فليس ذلك لأن هذه الأخلاق قيمة موضوعية لها مقياس من فطرة الإنسان تقاس إليه، وإنما لأن الطور الاقتصادي الاجتماعي يقتضيها **ويحتمها**، فهي صواب إذن في نطاقها هذا وظروفها تلك. فإذا تغير الظرف الاقتصادي والاجتماعي، وصار يقتضي التحلل الجنسي والإباحية، والتخلص من قيود العفة، وممارسة النشاط الجنسي الحر في الشوارع أو الغابات أو شواطئ البحيرات، فهذا إذن صواب بمقياسه الخاص، لأنه لا مقياس من الفطرة ولا مقياس من أي شيء " خارج " الظرف الاقتصادي والاجتماعي..

وهكذا يقولون في كل جانب من الحياة البشرية..

لذلك ينبغي ونحن نناقش هذه القضية الخطيرة أن نضع نصب أعيننا تلك الأمور التي أشرنا إليها آنفا:

ما أنواع التغير؟ [فإنها أنواع متباينة]..

هل التغيرات التي حدثت في التاريخ جزء من الفطرة أم أمور جدّت عليها من خارجها بفعل التطور المادي؟

ما دلالة هذه التغيرات بالنسبة للفطرة السوية [هل هي متمشية معها أم ضدها]؟

ما المقياس الذي يقاس به التطور؟ [إن كان فاسداً أو يسير في طريق الصلاح]

* * *

ونبدأ بفرز **أنواع التغير** التي أصابت البشرية منذ مولدها، كما يتبين لنا من الدراسة العلمية للإنسان الأول والمجتمعات الأولى، وكما يتبين لنا من دراسة التاريخ.

هنالك – على الأقل – أربعة أنواع متميزة من التغير أو التطور:

التطور في الأدوات وأساليب الإنتاج.

التطور في التشابك الاقتصادي والاجتماعي في بنية المجتمع.

التطور " النفسي " [السيكلوجي].

التطور [أو التغير] الأخلاقي.

والتفسير المادي للتاريخ – وإن لم يفرزها كما نفرزها نحن، لأن هذا أمر لا يعنيه! – يجعلها كلها – جملة واحدة – مرتبطة بعضها ببعض، ثم مرتبطة بالتطور في أساليب الإنتاج وناشئة عنه!

ونحن نرى الارتباط واضحا ووثيقا بين التطور في استعمال الأدوات وأساليب الإنتاح، والتطور في البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع. وإن كنا – كما سيجيء – لا نحب أن نعتقد أن الارتباط ناشئ من علاقة السببية المباشرة. أي لا نحب أن نعتقد أن السبب **الوحيد** في تطور البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع هو تطور الأدوات وأساليب الإنتاج. فهذا سبب واحد، ومعه أسباب أخرى **نفسية** سنبينها. ولكنا نقول فقط إن هناك ارتباطا كبيراً بين هذا وذاك..

أما التطور النفسي – أي التعقد في الكيان النفسي للإنسان، وزيادة التشابك بين أطرافه – فالتفسير المادي للتاريخ يؤكد أنه نتيجة مباشرة لتطور أساليب الإنتاج. ولا شك عندنا أن تطور أساليب الإنتاج عامل مؤثر، بل شديد التأثير. ولكنا نريد أن نبين – رغم ذلك – أن هذه الظاهرة، وهي التطور النفسي، **ظاهرة مستقلة إلى حد كبير**، يمكن أن توجد بمنأى عن تطور أساليب الإنتاج، كما وجدت في الحضارات القديمة، ووجدت في أعلى مراحلها في الإسلام!

وأما التطور [أو التغير] الأخلاقي فنحن نرفض ابتداء أن نعلقه بتطور أساليب الإنتاج! ونحتكم في ذلك إلى شهادة التاريخ!

ولكنا – قبل المضي في البحث – نؤكد حقيقة تهدينا إليها الدراسة النفسية، وهي أنه **لا توجد في الحياة البشرية ظاهرة مستقلة تمام الاستقلال** عن الأخرى! إنما قلت عن التطور النفسي إنه ظاهرة مستقلة إلى حد كبير. ولم أقل منفصلة. لأنه لا انفصال البتة بين شيء وشيء في الحياة البشرية. الإنسان يمارس حياته بكيانه كله. وهذا الكل الشامل الذي يتكون منه الإنسان يحتوي على **جوانب متخصصة، ولكنها ليست منفصلة**. كعملية الإبصار يختص بها الجهاز البصري، فلا يبصر الإنسان برجله أو بظهره أو بأذنه. ومع ذلك

لا ينفصل الجهاز البصري عن بقية الجسم وكما توجد في الجسم أجهزة شديدة التخصص كجهاز الإبصار أو السمع، فإن فيه كذلك أجهزة أقل تخصصا [أ وأوسع نطاقا] كجهاز الدورة الدموية الذي يدخل في كل أجزاء الجسم. وكذلك الأمر في الكيان البشري في مجموعه: فالتطور في استخدام الأدوات وأساليب الإنتاج يؤثر في الحياة البشرية كلها. نعم ولا شك. ولكن التطور النفسي والتطور الخلقي عمليتان شديدتا التخصص كالسمع والإبصار!

وننتقل بعد هذا من الإجمال إلى التفصيل..

*　　*　　*

حين انتقل الإنسان من أكل الفريسة النيئة إلى الطهو على النار.. إلى استخدام السكين.. إلى التأنق الشديد في الطعام. إلى وضع القواعد والآداب والتقاليد بشأنه. إلى تحويل الطعام إلى " فن " قائم ذاته..

وحين انتقل من سكنى الكهوف إلى سكنى الأشجار إلى سكنى الأكواخ.. إلى بناء البيوت من الطين.. إلى إقامة العمائر الفخمة ذات الهندسة المتقنة.. إلى التأنق إلى تحويل السكنى إلى " فن " قائم بذاته سواء في المبنى أو ما في داخل المبنى من الأثاث..

وحين انتقل من اتخاذ ورق الشجر لباسا إلى اتخاذ الجلد إلى اتخاذ القماش.. إلى التأنق الشديد في اللبس.. إلى وضع قواعد للملابس وآداب وتقاليد.. إلى تحويل اللبس إلى فن قائم بذاته..

وحين انتقل من التعبير المباشر عن الجنس.. إلى اتخاذ التقاليد والنظم والقواعد والمراسم والاحتفالات.. إلى التوسع في مفهوم الجنس ذاته حتى يتحول إلى فن قائم بذاته، وتنشأ من حوله فنون مختلفة، في الأدب والتصوير الموسيقي والنحت والرقص والغناء..

وحين انتقل في الملك من تملك الأشياء الفجة إلى تملك الأرض والرقيق.. إلى تملك المصانع.. إلى تملك " رأس المال " كقوة اقتصادية واجتماعية وسياسية.. إلى تملك الأمم والشعوب.. إلى تملك الكواكب في المستقبل المنظور..

وحين انتقل من البروز الجسدي الحسي إلى البروز النفسي والبروز الروحي.. وشمل البروز كل الانتقالات السابقة في المطعم والمسكن والملبس والجنس والتملك..

وحين انتقل من القتال بالقوة البدنية المباشرة إلى استخدام الحجر الثقيل إلى استخدام الهراوة القاتلة إلى استخدام الأداة المسنونة من سهم أو رمح أو سيف.. إلى استخدام البارود.. إلى استخدام الطاقة الذرية..

ما الذي حدث على وجه التحديد.. وكيف ولماذا حدث؟

يقول التفسير المادي للتاريخ إن استخدام " الأدوات " هو السبب في هذا الانتقال. فلولاه لم ينتقل الإنسان من طور إلى طور، وبالتالي لم يعدل كل حياته على أساس جديد. فلولا اكتشاف النار ما تمكن الإنسان من طهو الطعام. ولولا اختراع النسيج ما تمكن من نسج ملابسه، وبعد ذلك تفصيلها على قد الإنسان. ولولا استخدام الأدوات ما أمكن البناء.. الخ. ثم – يقول التفسير المادي للتاريخ – إن استخدام الأدوات يحدث **تغييرا حتميا** في المشاعر والأفكار والقيم والمبادئ.. فحين اكتشف الإنسان النار فكر أن يطهو الطعام، وفكر بالتالي في فنون من تحسين الطعام لم تكن لتخطر على باله لو لم يكتشف النار. وحين اخترع المغزل والمنسج فكر أن ينسج الأقمشة، وفكر بالتالي في تفصيل الملابس والتأنق فيها، ولم يكن شيء من ذلك ليخطر على باله لولا اختراع المغزل والمنسج. وحين أمكنه استخدام الأدوات المسنونة فكر في استخدامها في الصيد والقتال.. وحين اكتشف الزراعة فكر في تملك الأرض والإغارة على أرض الآخرين وأسر الأسرى واسترقاقهم ليعملوا له في الأرض.. وهكذا نشأت نتائج اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية وأخلاقية **حتمية** نتيجة اكتشاف الأدوات واختراع المخترعات.. وعلى هذا تصبح الأدوات والآلات هي المحرك الأول والدائم لحياة البشرية!

والقضية بصورتها هذه براقة وخادعة..

فحين يكون السبب والنتيجة متلاحقين في سلسلة متصلة، فإنه تسهل الخديعة، ويسهل الانخداع! ويسهل على من يريد، أن يوحي أو يعتقد أن النتيجة هي السبب والسبب هو النتيجة..

ولكن هذه القضية " العلمية " التي تناولها التفسير المادي للتاريخ بهذه الصورة، لها وجه آخر " علمي " لا يصعب علينا الوصول إليه لو بحثنا الأمر في هدوء بعيدا عن البريق الخاطف الذي تقدمه " العلوم " و " الدراسات العلمية " في القرن العشرين!

أولا.. لماذا اكتشف الإنسان النار؟!

ثانيا.. لماذا استخدمها – حين اكتشفها – في " تحسين " الطعام بطهوه؟!

ثالثا.. لماذا لم يقف عند الدرجة التي وصّله إليها اكتشاف النار وهي مجرد طهو الطعام، فراح يتفنن في الطعام المطهو درجات بعد درجات؟!

رابعا.. حين لان له الحديد والنحاس والبرونز والذهب والفضة، أي دافع **حتمي** دفعه أن يتخذ الملاعق والشوك والسكاكين وهي ليست داخلة في عملية الطعام ذاته كضرورة بيولوجية، ثم أي دافع **حتمي** دفعه أن يتخذ من أدوات الطعام هذه أداة للزينة، فيتفنن في صنعها، وتجميلها، ونقشها، ثم.. ما علاقة هذا كله " بالقيم " التي اتخذها حول الطعام: سواء في رسم قواعد له وتقاليد، أو في طريقة توزيعه بين الناس، أو في التمييز بين الطيب منه والخبيث على غير المستوى الحسي الذي تقرره المعدة.. أي على مستوى الحلال والحرام؟!!

وكذلك..

لماذا اخترع المغزل والمنسج؟

لما استخدمهما – حين اخترعهما – في نسج القماش ثم في " تحسينه "؟

لماذا لم يقف عند حد استخدام النسيج، فراح يتفنن في الملبس فيما وراء مستوى الضرورة؟

وأي علاقة بين هذا التحسين الذي أنتجته الأدوات، وبين " القيم " التي اتخذها الإنسان حول الملابس، سواء في رسم قواعد لها وتقاليد، أو في طريقة توزيعها بين الناس، أو في ربطها بالقيم الخلقية والدينية؟!

وحين اخترع الأداة المسنونة..

لماذا اخترعها بادئ ذي بدء؟

ولماذا استخدمها في القتال؟

ولماذا لم يقف عند الحد الذي وصّلته إليه، فراح يبحث عن وسائل جديدة للقتال حتى وصل إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية وقنبلة الكوبلت وقنبلة الجراثيم؟

وأي علاقة بين هذه الأدوات كلها وبين " القيم " التي ربطها الإنسان بالحرب، سواء في تحليلها وتحريمها، أو وضع قواعد لها وتقاليد؟!

وحين وحين وحين..

ألا توجد من وراء ذلك دلالة.. واضحة؟!

هل الآلة هي التي وجهت الإنسان؟ أم الإنسان هو الذي وجه الآلة؟!!

لن نضع القضية هنا كما توضع تلك الأحجية المشهورة: البيضة قبل الفرخة أم الفرخة قبل البيضة؟!

فالقضية التي بين أيدينا هنا ليست أحجية، وليست في حاجة إلى التمحل والروغان!

إن الحيوان، زميل الإنسان في سكنى الأرض، وزميله – في رأي الداروينية – في كثير من الخصائص، وفي الأصل المشترك، لم يكتشف ولم يخترع على طول مقامه في هذه الأرض!

فالاكتشاف والاختراع إذن مزية بشرية **في صميم فطرة الإنسان**.. تلك بديهية.

يقول جوليان هكسلي – العالم الدارويني الحديث – في كتابه " الإنسان في العالم الحديث ":

" وأولى خصائص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصوري.. ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة.. ومن أهم نتائج تزايد التقاليد – أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية – ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات.. **وإن التقاليد والعدد لهي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية. وهذه السادة البيولوجية – في الوقت الحاضر – خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة**.. " [27]

وهذا العالم – كما بينا في كتب سابقة – عالم ملحد، لا ينسب إلى الله شيئاً من عملية الخلق، ولكنه يثبت للإنسان تلك المزية أو المزايا المتفردة: قدرته على التفكير

[27] ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر فصل " تفرد الإنسان " مقتطفات ص 3 – 5

التصوري.. وقدرته على استخدام العدد.. وميله وقدرته على تحسين ما لديه من عدد وآلات.. وإقامة التقاليد وتنميتها.. ويسمى ذلك كله خواص **بيولوجية** أي.. في صميم الفطرة البشرية.

إنها لم تنجم إذن من استخدام العدد والآلات.. وإنما هي التي أنتجت استخدام العدد والآلات!

لقد تبين لنا إذن – من البحث " العلمي " لا من الفلسفة النظرية – وجه الصواب في القضية الشبيهة بأحجية البيضة والفرخة! إن " الإنسان " هو الأصل. هو المنبع. وليست هي العدد والآلات!

الإنسان – بادئ ذي بدء – هو الذي اتجه إلى الاكتشاف والاختراع!

لماذا؟!

يقول هكسلي الملحد: إن تلك خاصية بيولوجية للإنسان! أي أنها تحمل في ذاتها تفسيرها!

ونقول نحن – ولا يتعارض ذلك مع " العلم " وإنما يكمله ويقوّمه من انحرافه – إن الله الذي خلق الإنسان ليجعله خليفته في الأرض، هو الذي منحه هذه الخاصية، لأنها وسيلة من وسائل الخلافة وأدواتها، وإن الله هو الذي قيض للإنسان اكتشاف النار – لا المصادفة! – بأن أودع في فطرته الالتفات إلى ظواهر الطبيعة، و " تصورها " والاستفادة منها. وإلا فالمصادفة التي أحدثت النار أمام الناس، فالتقط منها الفكرة واستخدمها، تحدث ملايين المرات أمام الحيوان فلا يدركها ولا يتصورها ولا يلتقطها ليستخدمها.

وإذن فقد أُودعت الفطرة الإنسانية القدرة على التصور، ومن ثم القدرة على الاكتشاف والاختراع، ومن ثم القدرة على استخدام الآلات.. والقدرة على تحسين الآلات.. كما أودعت في الوقت ذاته ما يسميه هكسلي " بالتقاليد " ونسميه نحن "القيم" والقدرة على ربط الأعمال – بما فيها استخدام الآلات – بقيم نفسية واقتصادية واجتماعية وخلقية ودينية.

وهذا هو الذي يفسر لنا كل الأسئلة التي قدمناها منذ قليل..

لماذا اكتشف الإنسان النار؟ لماذا استخدمها – حين اكتشفها – في تحسين الطعام بطهوه؟ لماذا لم يقف عند الدرجة التي وصله إليها اكتشاف النار؟ لماذا أنشأ حول الطعام قيما مختلفة وأدابا وتقاليد؟

أما اكتشاف النار – كحادثة مادية وكأداة مادية – فلا يفسر شيئاً مما يريد أن يفسره به التفسير المادي للتاريخ!

لقد كان من الممكن – بادئ ذي بدء – ألا يكتشف الإنسان النار **لولا ما ركب في فطرته** من القدرة على التفكير التصوري. وكان من الممكن – حين اكتشفها – ألا يستخدمها في طهو الطعام [إذ ما الذي يدفعه إلى ذلك بصورة حتمية؟!] وكان من الممكن – حين استخدمها في طهو الطعام – أن يقف عند هذا الحد فلا يتفنن تفننا في الطعام. وكان من الممكن أخيراً ألا يصوغ حول الطعام قيما وآدابا وتقاليد!!

كلا! **لم تنشئ** النار شيئاً من ذلك كله! **لولا الرغبة الفطرية الكامنة**، السابقة في وجودها على النار!! القدرة الفطرية على التفكير التصوري هي التي مكنت الإنسان من اكتشاف النار [وهي موهبة الله للإنسان]. ثم الرغبة الفطرية في التحسين والتجميل هي التي قامت ببقية المهمة في خط طويل على مدار التاريخ!

وتلك عقدة القضية.. ومفرق الطريق!

* * *

هل معنى ذلك أن الآلة لم تغير شيئاً في حياة الإنسان!؟

كلا! لا نقول ذلك! ولا يمكن أن يقوله إنسان!

إن صورة الحياة قبل اكتشاف أية أداة أو اختراع أية آلة تختلف اختلافا – جزئيا أو كاملا – عن صورتها بعد الاختراع أو الاكتشاف. إذ تستجد للناس أفكار جديدة وعلاقات جديدة ومشاعر جديدة وتنظيمات جديدة [سنتحدث في الفقرة التالية عن التطور الاجتماعي والاقتصادي].

فبعد اكتشاف النار حدث تطور هائل في الأرض. وبعد اختراع المحراث. وبعد اكتشاف البارود. وبعد اكتشاف الكهرباء...

ونحن – كما قلنا – نريد أن نبرز هذا التطور ونؤكد عليه.. لأنه – من وجهة نظرنا – حقيقة " **إنسانية** "!

إنما الأمر الذي نريد أن نناقشه هو هذا: هل الآلة أنشأت جديداً في كيان الإنسان، أم إنها **حققت** رغبات كامنة في فطرة الإنسان؟!

والفرق – لعله – واضح بين الوضعين.. وهو فارق كبير.

فحين تنشئ الآلة جديدا في كيان الإنسان، تكون الآلة حقا هي الأصل في التطور كما يرسمها التفسير المادي للتاريخ. وحين تحقق رغبات كامنة في فطرة الإنسان يكون الإنسان هو الأصل كما يرسمه التفسير " الإنساني " للإنسان [28]!

النار.. هل هي التي **أنشات الرغبة** في طهو الطعام؟

في ظاهر الأمر يبدو ذلك! ولكن أية قوة حتمية في النار تدفع الإنسان إلى طهو الطعام عليها؟!

إن القصة يمكن أن تُتصور على هذا النحو: أنه وقع في تجارب الإنسان – بما يسمونه المصادفة، ونرده نحن إلى حقيقته " العلمية " وهي قدر الله ومشئيته – أن شبت النار قريبا من الفريسة أو وضع الفريسة قريباً من النار فنضجت فأعجبته رائحة الشواء واستطعم طعمه، بما في فطرته من استعداد وتقبل لهذه الرائحة وذلك الطعم. ثم راح – بما فطرته من التفكير التصوري – يستعيد العملية ليحصل على نفس النتيجة.

وفي كلا الحالين لم تكن الأداة المستحدثة – وهي النار – هي التي **أنشأت** الأمر في باطن النفس، وإنما هي **حققته.** حققته في عالم الواقع بعد أن كان كامنا في باطن النفس.

وتغيرت صورة الحياة – في ميدان الطعام – بعد اكتشاف النار. فقد هيأت الأداة المستحدثة فرصا متزايدة لألوان من الطعام جديدة، و " فنون " مستحدثة.

نعم. ولكن هل كان في وسع النار – بإمكانياتها المستحدثة – أن تصنع شيئاً من ذلك كله لولا أن نفس الإنسان قد استطابت ذلك وأنست إليه ورغبت فيه؟!

---

[28] انظر فصل " التفسير الإنساني للإنسان " في كتاب " دراسات في النفس الإنسانية "

لو أن النار أعطت الطعام طعما لا يستسيغه الإنسان.. هل كان يقبل عليه؟

ومن ناحية أخرى.. لولا الرغبة الدفينة في " تحسين " الطعام، هل كان يستخدم النار في هذا السبيل؟

إن النار قد أعطت الإنسان إمكانيات جديدة حافلة.. ولكنها إمكانيات لأي شيء؟! إمكانيات لتحقيق رغبات كامنة في الفطرة، تنتظر الفرصة المواتية للتحقيق!

وقد لا تكون الفطرة واعية لتلك الرغبات في كل حالة! وهذا هو الذي يؤدي إلى الخديعة الأولى في فهم الموضوع!

قد لا يكون الإنسان الأول واعيا لكون النار ستعطيه طعوما شهية مستساغة. وقد لا يكون اكتشف هذا الأمر إلا بعد أن جربه بالفعل. ولكن.. حتى على هذا الفرض، فالمرجع الأخير هو الفطرة. إن المحاولة والخطأ طريقة من طرق التعلم والمعرفة عند الإنسان وعند الحيوان. ولكنها في الحالين تصطدم في النهاية بفطرة الحيوان أو فطرة الإنسان.. **ولا تتعداها**. فقد استساغ الإنسان صنوفا من الطعام ولم يستسغ صنوفا أخرى والنار هي النار! أي أن ميدان استخدام النار ومدى استخدامها يسيران على خط الفطرة، ولا يغيران هما شيئاً من حقيقة الفطرة على مدى التاريخ.

وإنما جاءت الخديعة الأخرى من **اتساع الفطرة الإنسانية**.. حتى خيل لبعض الناس أنه لا حدود لها، ومن ثم فلا قيمة حقيقية لوجودها ما دامت تتسع لكل شيء!!

كلا! إن اتساعها لا يلغي حقيقتها، ولا يلغي دلالتها!

إنها تسع أشياء كثيرة ولكنها **لا تتسع لكل شيء** فلها – في النهاية – خطوطها الأخيرة التي تصطدم بالأشياء وترفضها، وتصر على رفضها مهما كان الضغط الواقع عليها، فلا تقبل أشياء ليس لديها الاستعداد الفطري لتقبلها.

وهنا الخديعة الثالثة! الناشئة من **مرونة الفطرة!** إنها – لمرونتها الشديدة – تحتمل كثيراً من الضغط الواقع عليها من شيء يخالف طبيعتها. ولكنها من ناحية **لا تحتمل كل شيء** ومن ناحية أخرى **لا تحتمله إلى الأبد!** وإنما تحتمل بعض الأشياء.. وبعض الوقت. ثم تثور فتلفظ ما لا تسيغه ولا تستريح إليه. لقد ثارت على الدكتاتوريات لأنها تكبت الوجود الفردي للإنسان. وثارت على ملكية الدولة لأنها تكبت النزعة الفطرية للملكية الفردية. وثارت – كما سيجيء – على كثير من ألوان الانحراف.

وتلك هي الحقائق التي غابت عن التفسير المادي للتاريخ. والتفسير الجمعي للحياة البشرية!

إنهما كلاهما يرصدان التاريخ من خط الخنوع والاستسلام للقوى القاهرة. ولكنهما لا يرصدانه من خط الثورة على تلك القوى وتدميرها وإزاحتها!

والحقيقة العلمية النزيهة من الغرض، ينبغي أن ترصد التاريخ من خطيه. لأن كلا خطيه حقيقة.. ترسمه من خط الخنوع وخط الانتفاض: خط السلبية وخط الإيجابية.. **وكلاهما موجود وفطري في كيان الإنسان!**

* * *

من هذه المرحلة من المناقشة نصل إلى مجموعة من الحقائق:

أن الفطرة هي الأصل في تصرفات الإنسان.

أن الأدوات والآلات المستحدثة هي في ذاتها تعبير عن الفطرة [من حيث القدرة على التفكير التصوري والرغبة في التحسين].

وأنها – وهي تعبير في الأصل عن الفطرة – تسير على هدى الفطرة في تطبيقاتها العملية [من حيث تحقيقها لرغبات الإنسان].

وأنها – في تطبيقاتها العملية – لا تنشئ جديداً في كيان الإنسان، وإنما تحقق ما كان كامنا من قبل في ذلك الكيان.

وأنها تغير صورة الحياة تغييراً شاملا.. ولكن التغير ذاته يحدث استجابة لمطالب الفطرة، ويقع في حدودها لا يتعداه.

تلك الحقائق الخمس وما تستلزمه من حقائق أخرى فرعية يمكن التحقق منها بسهولة في جميع ميادين النشاط الإنساني. ولا نحتاج أن نتتبع خطوط الفطرة جميعها لنتثبت من هذه الحقيقة، ولكنا نضرب بعض الأمثلة للتوضيح والتوكيد:

لم يكن اختراع الطائرة هو الذي أنشأ الرغبة في السفر السريع والتنقل بين جهات العالم. وإنما الأحرى أن تكون هذه الرغبة الكامنة هي التي أوحت باختراع الطائرة، حين

وجدت الإمكانيات العلمية التي تهيئ الفرصة للتحقيق العملي لهذه الرغبة. فمن قبل ظل الإنسان يزيد سرعته في السفر بمختلف الوسائل **لإنه يرغب في ذلك**، وكان يحلم – حين يعجز عن التنفيذ العملي – بوسائل خاطفة تنقله في لحظة من مكان إلى مكان! فالطائرة [ومن بعدها الصاروخ] هي تحقيق الحلم البشري القديم الذي كان يخايل للبشرية وتتمنى تحقيقه..

وصحيح أن هذه الرغبة حين تحققت باختراع الطائرة قد أوجدت إمكانيات جديدة لم تخطر على البال – في صورتها التفصيلية – من قبل. إمكانيات في السلم وإمكانيات أخرى في الحرب. وترتب على هذه الإمكانيات المزدوجة إعادة تشكيل علاقات البشرية في السلم وفي الحرب على نسق جديد.. وصوغ مشاعرهم وأفكارهم على نسق جديد..

هذه حقيقة تنطبق على كل اكتشاف أو اختراع جديد.. فهو يهيئ إمكانيات لم تكن منظورة من قبل بالتفصيل.

ولكن **الرغبة العامة** تسبق دائماً كل اختراع جديد.. فالمخترع لا يقول سأصنع اختراعا ما – أي اختراع – ثم أبحث عن وسيلة للاستفادة منه. وإنما هو يقول: أنا – أو نحن البشر – نريد آلة تصنع كذا. فلأحاول اختراعها!

خط البحث العلمي وحده هو الذي يبدو أنه ينشئ نفسه بنفسه. كل خطوة تؤدي إلى ما بعدها بطريقة حتمية (!) لا هدف وراءها ولا أغراض! كلا! ليس حقيقة! إنما وراءها **الرغبة الفطرية في المعرفة!** هي التي تدفع البحث العلمي وهي التي تغذوها. والإنسان لا يتدخل فيما يصل إليه البحث العلمي من قوانين لأنها لا تقع تحت سلطانه لا لأنه لا يرغب في ذلك! إنها نواميس كونية ليس من شأنه – ولا في طوقه – أن يتدخل فيها أو يغير منها. فهي ملك الخالق الذي خلقها ويسيطر عليها. ولكن الإنسان يتدخل في التطبيق العملي لنتائج البحث العلمي.. أي لنتائج كشفه عن النواميس الكونية [التي أعطاه الله القدرة على كشفها وتسخيرها: " وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ " [29]] وهو في تدخله يحاول أن يجعل التطبيق العملي في خدمة أهدافه ورغباته القائمة في نفسه من قبل، والتي تنتظر الفرصة المواتية للتطبيق.

وحين يفتح الكشف أو الاختراع الجديد آفاقا جديدة لم تخطر بتفصيلها في بال الإنسان من قبل، فإنه على الدوام يسعى لتحقيق رغبة عامة من رغبات الفطرة، كالرغبة في

[29] سورة الجاثية [13].

القوة. والرغبة في السيطرة. والرغبة في الخلود. والرغبة في استشفاف الحجب والرغبة في البروز. والرغبة في الملك.. إلى آخر هذه الرغبات. ولكنها لا تستجد فكرة ولا شعوراً لا يقع تحت واحدة من هذه الرغبات العامة الموجودة في الفطرة من قبل [والمقدورة من لدن خالقها حين خلقها ووهبها إمكانيتها]

ومن ثم " فالتطور " الذي يحدثه الاختراع أو الاكتشاف الجديد في نفس الإنسان هو **التنمية الدائمة** للرغبات الفطرية الموجودة من قبل في حالة كامنة، بإعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق أوسع وأشمل وأدق. وليس هو إنشاء الرغبات الفطرية من حيث لا تكون!

والتنمية شيء والإنشاء شيء آخر..

الطفل يولد مكتمل الكيان ولكن في حالة كامنة.. ثم ينمو.. فيتحقق بالتدريج كيانه، ولكن لا ينشأ فيه شيء جديد. لا تنشأ له قدم ولا ساق ولا أذن ولا عين.. فهذه موجودة من قبل، ولكنها غير مستكملة التحقق.. والنمو يحققها حتى تصل إلى آخر مداها. فالتطور هنا هو النمو.. وليس هو النشوء من اللاوجود!

وذلك ينطبق على كل كشف وكل اختراع جديد.

فالمحراث الذي قلب ظهر الأرض وقلب تاريخ البشرية، كان ولا شك رغبة كامنة في نفس مخترعه، ليحقق به رغبة أو مجموعة من الرغبات الفطرية. وإلا ما أجهد نفسه في اختراعه! واكتشاف البارود ليس هو الذي أنشأ الرغبة في التدمير ولا الرغبة في القتل على نطاق واسع. وإنما هو أعطاها الإمكانيات للتنفيذ. ولكنها كانت موجودة من قبل، ومتحققة في النطاق الصغير.. وفي الخيال كانت تداعب الأحلام!

وهكذا.. لا يحدث شيء خارج نطاق الفطرة. المحدود بحدود. أياً كانت سعة هذه الحدود!

* * *

وصلنا من بحثنا للنوع الأول من أنواع التطور – وهو تطور الأدوات وأساليب الإنتاج – إلى أنه **تحقيق** للفطرة **وليس تغييراً** للفطرة.. تحقيق لها بتنمية إمكانياتها العملية على الدوام.. وهذا يزيد مساحتها، ويعيد تشكيلها على الدوام في أشكال جديدة، ولكنه لا

يضيف إليها عنصراً لم يكن موجوداً في جوهرها إما في صورة بدائية وإما في صورة كامنة.. وفرق بين التنمية والتشكيل في حدود الإطار الموجود بالفعل، وبين استحداث أمر جديد في ذلك الإطار. كما وصلنا إلى أن هذا اللون من التطور يسير على هدى الفطرة ويتتبع خطوطها، فالفطرة دائماً من ورائه تحدوه، وإن كان هو بدوره يقوي إمكانيات الفطرة.. ولكنه يقويها لأنها هي – من الأصل – راغبة في التحقق والتمكن والقوة عن هذا الطريق.. فالأمر لا يعدو الفطرة في نهاية المطاف.

والآن ننتقل إلى اللون الثاني من التطور، وهو التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في حياة الإنسان.

التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي هو الميدان الرئيسي لنشاط التفسير المادي للتاريخ! فقد جال فيه وصال ليقول إنه ينشأ عن تطور أساليب الإنتاج. وإن تطور أساليب الإنتاج هو السبب الأوحد فيه!

حين اكتشف الإنسان الزراعة تغير وجه الأرض..

فقد استقر الإنسان في الأرض ليزرع وينتظر نتيجة الزرع، بعد أن كان جوالا يبحث عن المرعى والصيد. وكان الاستقرار نتيجة **حتمية**.. وحين استقر كان لا بد من تنظيم اجتماعي، ينظم علاقات أولئك المستقرين في بقعة واحدة من الأرض بصفة دائمة.. وكان هذا التنظيم نتيجة **حتمية**.. ونشأت علاقات اقتصادية محدودة نتيجة لعملية الزراعة، فهناك محاصيل تنتج، تفيض عند بعض الناس عن حاجتهم، وتنقص عند آخرين، فلا بد من التبادل بين الفريقين.. وكان هذا نتيجة **حتمية**.. ثم حدثت المنازعات على الأراضي والإنتاج من ناحية، وإغارات الأقوام بعضهم على بعض للاستيلاء على الأرض المنزرعة من ناحية أخرى، فاستلزم ذلك وجود نوع من الحكومة يفض المنازعات من ناحية، ونوع من القوة المحاربة تصد الإغارات من ناحية أخرى.. وكان هذا التشكيل السياسي والحربي نتيجة **حتمية**.. ووجد الرقيق، من نتيجة الحرب، وصار عملة اقتصادية واجتماعية وسياسية صاحبت المجتمع الزراعي فترة طويلة جداً من الزمان. ووجد الإقطاع كتنظيم اقتصادي واجتماعي وسياسي.. وكان ذلك كله نتيجة **حتمية**.

ثم اخترع الإنسان الآلة.. وتغير وجه الأرض من جديد..

نشأت المصانع في المدن. واحتاجت إلى رجال أشداء يديرونها. وكان هؤلاء في الريف، مستعبدين في الأرض، فكان لا بد من تحريرهم من عبودية الأرض ليديروا الآلة،

فحدثت حركة تحرير الرقيق.. وكانت نتيجة حتمية. ثم تكتل العمال في مصانع المدن، وأخذ رأس المال ينمو فتنشأ طبقة استغلالية جديدة مصاحبة في مبدأ الأمر ثم مناوئة لطبقة الإقطاع.. وكان ذلك نتيجة حتمية [وتغيرت أخلاق المجتمع ومفاهيمه نتيجة انتقاله من الزراعة إلى الصناعة كما أشرنا إلى ذلك من قبل] وحدث صراع سياسي بين الطبقات المستغِلة والطبقات المستغَلة على التشريع والتوجيه، لخدمة مصالح كل طبقة.. وكان ذلك نتيجة حتمية. وما زال هذا الصراع قائماً، ويقول التفسير المادي للتاريخ إنه لا بد أن يؤدي إلى نتيجته الحتمية، ثم تختلف التفسيرات – أو المذاهب – في أمر هذه النتيجة، فيقول مذهب إنها الشيوعية، ويقول مذهب آخر إنها الاشتراكية، ويقول مذهب ثالث إنها التعاونية.. ويقول الجميع إنهم ديمقراطيين!

صورة – في هذا الوضع – منطقية، مرتبة، منظمة، مُقنعة!

ومع ذلك فعند التمعن فيها تتبدى فيها جملة ثقوب!

إنها أولا تفسر كل تطور اجتماعي واقتصادي وسياسي بتغير أساليب الإنتاج فحسب. وقد مر بنا صراحة ماركس وإنجلز في هذا الأمر أنهما يقولان في وضوح كاف: " فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم. " [ماركس]. " إن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل " [إنجلز].

وعلى ذلك لا توجد في نظرهما أية أسباب أخرى غير تطور أساليب الإنتاج.

إنهما – مثلا – لا يقيمان وزناً لعملية النمو الطبيعية في بنية النفس والمجتمع! النمو الذي يعتبر تطور أساليب الإنتاج مظهراً واحداً من مظاهره.. فالنفس كما تنمو بتحقيق إمكانياتها العملية عن طريق العدد والآلات، وتحسينها، كما يقول جوليان هكسلي، تنمو كذلك بتحقيق إمكانياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. الكامنة في فطرتها.

يقول هكسلي في كتاب " الإنسان في العالم الحديث ":

" وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان، والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية، تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

الأولى: قدرته على التفكير الخاص والعام.

الثانية: التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

الثالثة: **وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها** " [30]

إن وجود التنظيمات الاجتماعية والسياسية والدينية والخلقية والاقتصادية هو إذن خاصية من الخواص النفسية للإنسان! إنها في صميم فطرته، لم تنشئها أساليب الإنتاج كما يبدو لأول وهلة على هدى التفسير المادي للتاريخ. وإنما تطور أساليب الإنتاج يمكن أن يعطيها صورة معينة. وفرق – كما بينا مرارا من قبل – بين الإنشاء والتشكيل. فرق واضح وكبير. فحين تكون النفس هي الأصل، ففي وسعها – نظريا على الأقل! – أن تتشكل بأكثر من صورة. أما حين تكون أساليب الإنتاج هي الأصل فهي إذن تعطي صورة حتمية لا فكاك منها! وسنرى بعد قليل أن هذه الفرصة النظرية كانت حقيقة، وحقيقة ضخمة في حياة البشرية يعجز عن تفسيرها كل تفسير مادي للتاريخ! ولكنا لا نريد أن نسبق الحديث!

إن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية.. الخ خاصية نفسية للإنسان. ومن ثم فهي تخضع لفطرة الإنسان **في النمو**. والنمو خاصية نفسية بيولوجية لا تحتاج إلى تفسير من خارجها! [إلا القول بأنها موهبة من الخالق]. وحقيقة إن النمو يحتاج إلى غذاء. ولكن ليس حقيقة أن الغذاء هو الذي **ينشئ** خاصية النمو! إنما الغذاء يتيح فقط الإمكانيات العملية لهذه الخاصية الكامنة في الفطرة.

ومن ثم فإن نمو التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية وتعقدها خاصية فطرية في الإنسان. وهي **تتواكب** مع نمو أساليب الإنتاج لا كسبب ونتيجة، ولكن كقوتين متواكبتين تستمدان من أصل واحد هو الفطرة. **ولا يمنع ذلك من وجود علاقة السبب والنتيجة بين الجزئيات.** أما الاتجاه العام في مجموعه فلا يمكن اعتبار أساليب الإنتاج فيه سببا للتطور الاجتماعي والاقتصادي أكثر من اعتبار التطور الاجتماعي والاقتصادي سببا في تطور

[30] الإنسان في العالم الحديث ص 32 من الترجمة العربية.

أساليب الإنتاج! والأولى أن نتصورهما – على حقيقتهما – قوتين متواكبتين تستمدان من الأصل المشترك في الفطرة البشرية!

وإلا.. فكيف نغفل أن الضرورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد أدت إلى استحداث أساليب متطورة للإنتاج تناسب الوضع القائم، بنفس الصورة التي تؤدي بها تطورات الإنتاج إلى استحداث تنظيمات اجتماعية واقتصادية؟!

وكيف نغفل قبل ذلك أن " الحاجات البشرية الفطرية " هي الدافع وراء هذا التطور وذاك في نفس الوقت؟!

إن الرغبة – الفطرية – في الاجتماع بالآخرين هي التي أنشأت " المجتمع " بادئ ذي بدء – في أية صورة من صوره – لتلبية تلك الرغبة العميقة في نفس الفرد.

وحين نشأ المجتمع – في أية صورة من صوره – تعددت حاجاته ونمت، **بحكم الفطرة التي أنشأته من قبل**، بما أودعها خالقها من طاقات واستعدادات واتجاهات. " وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا " فنمو " الإنسان " إلى شعوب وقبائل هو العمل **الحتمي** الناشئ من إرادة الله، والمنفذ عن طريق الفطرة التي خلقها الله وأودعها هذا الميل والقدرة على تحقيقه. وليس ناشئا من تطور أساليب الإنتاج، ولا أي ضرورة أخرى " خارج " النفس البشرية.

وخاصية النمو، التي تنمي الطفل حتى يبلغ أشده، وهي خاصية بيولوجية، أي في صميم الفطرة، هي ذاتها التي تنمي المجتمعات الصغيرة إلى مجتمعات كبيرة. فتنمي العشيرة إى قبيلة، والقبيلة إلى أمة.. وهكذا. وتنمي العلاقات بين الناس من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة.. وفي أثناء ذلك تجيء أساليب الإنتاج المتطورة فتحتل مكانها من الصورة، و " تلبس " في حيزها، قوة متفاعلة مع السياق كله، آخذة ومعطية في ذات الوقت، ومتجهة في اتجاه الفطرة الكبير.. في اتجاه النماء. ويتبادل تطور الإنتاج وتطور المجتمع علاقة السببية من طرفيها، فتارة يكون تطور الإنتاج هو السبب في تطور المجتمع، وتارة يكون تطور المجتمع هو السبب في تطور الإنتاج.. وفي النهاية يكون المصدر هو الفطرة المتصفة بخاصية النماء!

اختراع الآلة هو السبب في وجود المجتمع الصناعي. ولكن رغبة البشرية في " القوة " من ناحية، ورغبتهم في زيادة الإنتاج لتيسير كل حاجات المجتمع من ناحية أخرى هي

السبب في اختراع الآلة! ووراء هذا وذلك الفطرة البشرية المشتملة على القدرة على استخدام العدد والآلات، والرغبة في تحسين العدد والآلات!

ثم هناك نظم اجتماعية مثل الزواج والأسرة لم تنشأ من تطور أساليب الإنتاج. **فهي نمو اجتماعي بحت**. وجد في مجتمع الصيد في ظلمات التاريخ، ووجد في المجتمع الرعوي، والمجتمع الزراعي والمجتمع الصناعي. وعلى الرغم من الانهيار " الإنساني " الذريع الذي يعانيه الناس في القرن العشرين، فيدمر فطرتهم تدميرا [سنتحدث عن هذا فيما بعد] فما زال الزواج والأسرة نظامين " طبيعيين " تحدث النظم الأخرى [الإباحية والتحلل] إلى جانبها كشذوذ يصيب البشرية بالدمار لا " كتطور " يهدف إليه العقلاء، أو يرتاح إليه العقلاء! وإن الدعوى المزيفة التي أقامها دركايم، حين زعم أن الزواج والأسرة ليسا من الفطرة، لهي زعم لم يقم صاحبه عليه أي دليل [وسنعود إلى ذلك في الفصل القادم بالتفصيل]

إن تطور أساليب الإنتاج إذن ليس هو السبب الوحيد للنمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، كما زعم ماركس وإنجلز وغيرهما من هواة التفسير المادي للتاريخ. وإنما هو واحد من أسباب!

وحقيقة إن تطور أساليب الإنتاج يحدث تغيرات في صورة الحياة البشرية. **ولكنها ليست حتمية**. وأوضح الأمثلة على ذلك وأقربها أن أساليب الإنتاج في القرن العشرين واحدة في الأمم الكبرى. ومع ذلك فهي في الغرب تصاحب الرأسمالية وفي الشرق تصاحب الشيوعية! على بعد ما بين هذه وتلك في شكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية!

بل الأدهى من ذلك أن روسيا – الشيوعية – قد أخذت أساليب الإنتاج المادي عن أوربا الرأسمالية! فقد كانت خارجة من الإقطاع والظلام والجهالة في ظل القيصرية، بغير تجربة في عالم الصناعة، وبغير أدوات صناعية ذات بال، فلما أنشأت نظامها على مذهبها الفكري الخاص، وقررت إحداث حركة صناعية ضخمة، استخدمت أساليب الإنتاج المتقدمة الموجودة لدى أوربا الرأسمالية، ولكنها أعطتها أهدافها هي، وقيمها ومبادئها! فحيث تستخدم هذه الأساليب في الغرب لتوكيد فردية الإنسان، استخدمتها روسيا لإلغاء فردية الإنسان وتوكيد صفته الجماعية! فألغت الملكية الفردية، والأحزاب السياسية المتعددة، و " ديمقراطية " الحكومة، وأعلنت " دكتاتورية " البروليتاريا!

بل الأشد سخرية من ذلك أن ماركس – وهو يتصور على هواه خطوات التاريخ الحتمية، المبنية على حتمية مراحل النمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، المترتبة بدورها على تطور أساليب الإنتاج – قد افترض أن الشيوعية ستبدأ في غرب أوربا، وفي إنجلترا بصفة

خاصة، كنتيجة حتمية للتقدم الصناعي والصراع الطبقي بين العمال ورأس المال! فكانت النتيجة الحقيقية [غير الحتمية]! أن قفزت روسيا من الإقطاع إلى الشيوعية مباشرة، متخطية خطوة الرأسمالية [الحتمية!!] وبقيت إنجلترا رأسمالية إلى هذه اللحظة!

ومن ناحية أخرى فإن التغير في صورة الحياة البشرية – في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي – قد لا يقوم على تطور أساليب الإنتاج على الإطلاق!

ومثال ذلك هو الإسلام!

" أية قوة مادية.. أية تغيرات في أساليب الإنتاج.. في الجزيرة العربية أو في العالم أجمع.. هي التي أدت – بصورة حتمية – إلى ظهور محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – يدعو إلى هذا الإسلام ويبشر بالدين الجديد؟

يقولون إن العرب في الجزيرة كانوا قد استنفدوا طور " القبيلة " وأخذوا يتطلعون لأن يكونوا أمة.. فكان ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أمراً طبيعياً متمشيا مع طبيعة الأحداث، ومستجيبا لحتمية التطور.

ومع ما في هذا القول من التجوز، فسنسلم به توفيرا للجدال!

من قبيلة إلى أمة.. معقول!

ولكن هل كان الإسلام دين " الأمة العربية "!؟

كيف وهو يقول – في مكة – قبل الذهاب إلى المدينة، وقبل تأسيس الدولة، وقبل اجتماع الأنصار، وقبل تجميع القوى المادية والقدرة التنفيذية.. قبل أن يؤمن به أحد إلا بضعة نفر مشردين في الشعاب، ومطاردين من الأهل والخلان، هائمين بغير مستقر ولا حماية ولا أمل في الغد القريب فضلا عن الغد البعيد.. كيف وهو يقول في هذه الظروف عن القرآن الكريم: " وما هو إلا ذكر للعالمين " في سورة " القلم " من أوائل ما نزل من القرآن الكريم. وفي سورة سبأ المكية ما هو أصرح في هذا المعنى. ذلك قوله تعالى: " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ". وكذلك آية الأعراف المكية: " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً "؟

ثم هل كان الإسلام دين " الأمة العربية " ونبي الإسلام يقول: " الناس سواسية كأسنان المشط. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى "؟

أهي دعوة لتكوين أمة، أم دعوة إلى " الإنسانية " عامة من أول خطوة في الطريق؟

فهل كذلك الحتمية التاريخية يا هواة التفسير المادي للتاريخ؟ من القبيلة إلى الإنسانية قفوة في سنوات؟!

وتتكون الأمم من القبائل.. فهل مجرد هذه الخطوة يعدل النظم الفكرية والعقيدية والاجتماعية والاقتصادية.. دون تغير مادي، ولا تحول في أساليب الإنتاج؟

منطلق البيئة لم يكن هو المنطق الذي أتى به الإسلام.. بل لقد قام الصراع طويلا – جداً – بين منطق البيئة ومنطق الإسلام، حتى تغلبت العقيدة الجديدة بما فيها من قوة ومن عناصر خير غلابة، فقهرت منطق البيئة وأجلته من النفوس.

كان منطق البيئة يحتقر المرأة ويضعها في مكانة تشبه مكانة السائمة والحيوان.. توأد أحياناً وهي وليدة. وتستقبل بالابتئاس والغيظ. وتذل وهي فتاة. " وتمتلك " وهي زوجة كما تمتلك الأشياء. ولم تكن المرأة ذاتها تسخط على هذا الوضع، ولا كان هناك من يطلب لها وضعا غيره من الرجال. لا في الجزيرة العربية، ولا في أي مكان في الأرض.

وجاء الإسلام يقول: " فمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى – وهو مؤمن – فلنحيينه حياة طيبة " " فاستجاب لهم ربهم: أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض ".

وجاء يقول: " عاشروهن بالمعروف " ويجعل لهذا المعروف قواعد وتشريعات وتوجيهات.

وجاء يعطيها – إلى جانب المساواة في الإنسانية، والمساواة عند الله – حق الملك والتصرف: " للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون " " للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن " وهو حق لم تعطه فرنسا لنسائها إلا في القرن العشرين.

وكان منطق البيئة هو منطق الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق، ولم يكن تحول العرب إلى أمة بطريقة – حتمية – ليغير هذا المنطق، فكم من أمة يسود فيها هذا المنطق إلى هذه اللحظة في القرن العشرين!

فجاء الإسلام يعطي كل ذي حق حقه، بإنسانيته المجردة، لا بكونه صاحب قوة أو نفوذ أو سلطان، حتى ولو لم يكن مسلما، ما دام يعيش في المجتمع الإسلامي. وقد نزلت تسع آيات في سورة النساء لتبرئ يهوديا اتهم ظلما، وتآمر على اتهامه رجال من المدينة أقوياء بعصبيتهم ولا ولي له ولا نصير [سورة النساء (105 - 113) ومما جاء فيها: " ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا " إشارة إلى ذلك اليهودي البريء!].

وكان منطق البيئة هو توقير زعيم القبيلة – أو الملك حين تتكون الأمة – توقيرا يجعل منه إلها لا يسأل عما يفعل. وكان هذا هو منطق العالم كله مع حكامه في ذلك الحين، فإذا الإسلام يجعل في هذه الأمة من الوعي السياسي البالغ القمة ما يجعل فردا من عامة المسلمين يقول لأشد الخلفاء مهابة في تاريخ الإسلام – عمر بن الخطاب – " والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف "! ثم يجعل عمر لا يغضب لنفسه من هذه القولة الجريئة. بل يحمد الله!

وكان منطق البيئة يجعل الكرم العربي الشهير مقتصرا على الحفاوة التي يسير بذكرها الركبان، وتصلح للمفاخرة بين القبائل، أما العطف على الفقير المسكين، والعطف الذي ينبع من منبع إنساني بحت، ولا يهدف إلى شهرة ولا فخر ولا تظاهر، فقد كان أمرا نادراً في تلك البيئة قليل الحدوث! فجاء الإسلام يلح إلحاحا شديدا جدا في إعطاء المسكين " حقه " في مال الله، وإكرامه، والعطف عليه، ومواساته، حتى ليجعل ذلك أمرا للرسول ذاته صلى الله عليه وسلم، وما كان في حاجة قط إلى هذا الأمر: " فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر " وإنما كان توجيه الأمر إليه صلى الله عليه وسلم للإشعار بأهميته وبأنه واجب القضاء.

وكان منطق البيئة – ومنطق العالم كله يومئذ – يجعل السادة سادة والعبد في منزلة تقرب من منزلة الحيوان، يهان ويعذب ويقتل بلا حساب.

وجاء الإسلام يزوج بنت عمة رسول الله – القرشية – من زيد.. من أحد الموالي، وجاء يجعل هذه المولى قائداً لجيش من جنوده أبو بكر وعمر وزيرا الرسول وخليفتاه!

ويقول الرسول الكريم: " من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه ".. ولم يكن ذلك لأن أحدا طالب لهم بهذه الكرامة.. ولم يكن كذلك لأن الوضع الاقتصادي أو علاقات الإنتاج أو أدوات الإنتاج تغيرت أدنى تغيير!

وكان منطق البيئة يؤمن بالملكية الفردية المطلقة من كل قيد، الخاضعة لغير قانون.

وجاء الإسلام ينظم هذه الملكية بنظام لم يثب العالم إلى شيء منه إلا في هذا العصر، بعد أن اكتوى بجحيم الإقطاع والرأسمالية وتجرع منهما الحميم؛ جاء يقول إن المال مال الله والجماعة وكيلة عنه. والفرد موظف فيه، يستحقه بأداء حقه والقيام عليه. فإن سفه أو لم يؤد حقه عاد إلى الجماعة صاحبة الحق الأول فيه، ثم ينص على طريقة توزيعه "كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ".

وكان منطق البيئة وكان.. وكان.. فجاء الإسلام يلغي ذلك المنطق ويستبدل به منطقا آخر بعيداً كل البعد، غريبا كل الغرابة على تلك البيئة وعلى كل البيئات يوم كان، ولا يجعل كلامه مبادئ " مثالية " معلقة في الفضاء، بل واقعا محسوسا يتمثل في بشر يدبون على الأرض وقلبهم متجه إلى السماء!

فكيف حدث ذلك؟

أية حتمية تاريخية وأي تفسير مادي يمكن أن يفسر هذه العجيبة في تاريخ الإنسان؟!

شيء واحد يمكن أن يفسر.

إن الإنسان حين يؤمن بالله إيمانا صحيحا وتعمر قلبه عقيدة سليمة يصنع هذه المعجزات! " [31].

*   *   *

ذلك مثال يلغي – في ضربة قاضية – كل التفسير المادي للتاريخ!

وهو مثال من عالم الواقع لا من عالم النظريات.. مثال من وقائع " التاريخ "!

وإن تفسيره لهو التفسير الوحيد الذي يأباه التفسير المادي للتاريخ، ويشتط في إبائه! تفسيره أن هناك " علاقة " بين الإنسان والله! وأن قدر الله هو الذي يشكل واقع الأرض ويقرره! قدر الله الذي وجه الإنسان الأول إلى اكتشاف النار واختراع الآلات.. وجهه إلى تكوين القبائل والشعوب للتعارف.. بغير سبب إلا إرادة الله للإنسان أن يصنع ذلك.. هو

[31] من كتاب " معركة التقاليد " الطبعة الثانية ص 104 - 109.

ذاته الذي وجهه إلى الإسلام، وإلى بناء مجتمع مثالي على هدى الإسلام، بغير سبب إلا إرادة الله للإنسان أن يصنع ذلك! لا بتطور أساليب الإنتاج ولا بالنمو " الطبيعي " للمجتمع! وإن كان قد اعتمد في هداية الإنسانية للإسلام، وهدايته إلى إقامة هذا المجتمع المثالي، على المكونات البشرية **الفطرية** التي أودعها الخالق فطرة الإنسان [32].

وكل تفسير للتاريخ يغفل الله، وقدر الله، وتدخله المباشر في حياة البشرية، ويفسر حياة الإنسان كحدث قائم بذاته، أو قائم لأسباب " مادية " محيطة بوجوده، هو تفسير خاطئ لا يفسر حقائق الوجود!

إن الحماقة التي أدلى بها دارون وهو يقول: " إن تفسير شئون الحياة بوجود خالق له إرادة في الخلق، يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت ".. إنها.. حماقة!

ومن شاء فليفسر وقائع التاريخ ووقائع الحياة ووقائع الكون بدون إدخال هذا العنصر " الخارق للطبيعة "! إن تفسيره لن يذهب به أبعد من خطوات.. ثم يتعثر في الطريق!

وإدخال هذا العنصر الخارق للطبيعة لن يلغي –كما يفهم " العلم " الغربي في حماقة – قوانين العلم وقوانين الطبيعة وقوانين المادة وقوانين الاجتماع وقوانين الاقتصاد. كلا! وإنما يكملها ويصححها ويقوّمها.. ويعطيها دلالتها الحقيقية في سياق الأحداث!

* * *

ثم إن التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي – كالتطور العلمي – لا يخرج بالإنسان عن فطرته، لأن الناس محكومون بفطرتهم في نهاية المطاف!

كل اختراع جديد يهز الناس وقت ظهوره هزاً، ويطلق أفكارهم ومشاعرهم فيتخيلون عالما جديدا مختلفاً كل الاختلاف، عالما لا تحكمه مشاعر الماضي ولا تصوراته.. عالما كأنما يحكمه جانب جديد من النفس لم يكن له وجود من قبل!

---

[32] انظر فصل " رصيد الفطرة " في كتاب " هذا الدين " وفصل " الدين والفطرة " في كتاب الدراسات.

ثم.. تبرد حرارة الاختراع.. ويتعود الناس وجوده.. ويعودون رويداً رويداً إلى فطرتهم.. وإلى مشاغلهم العادية، وآمالهم ومخاوفهم! يعودون إلى البحث عن الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس.. يعودون إلى حب الملك، وحب الصراع وحب البروز.. يعودون إلى الخوف من الموت والبحث عن الخلود!

وكذلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. تهز الناس في جلتها.. وتشكل أفكارهم ومشاعرهم في شكل جديد. ولكنها لا تخرجهم من فطرتهم!

ففي العشيرة والقبيلة والأمة والمجتمع الإنساني.

وفي المجتمع الرعوي والمجتمع الزراعي والمجتمع الصناعي..

في حكومة " الأب " وحكومة الإمبراطور المقدس والحكومة الديمقراطية وحكومة الطبقة الواحدة والحزب الواحد..

في كل ذلك لا يخرج الإنسان عن الفطرة في نطاقها الواسع..

إنها الفطرة في نزعتها الفردية والجماعية. في نزعتها للالتزام والتحرر. في نزعتها للسلبية والإيجابية. في حب الملك. وحب البروز وحب الصراع.. تأخذ أوضاعا شتى!

ومرونة الفطرة وسعتها ليستا دليلا على عدم وجودها كما خيل لدركايم وللتفسير المادي للتاريخ!

والدليل على وجودها هو ثورتها على ما لا يلائم طبيعتها. ثورة طبيعية لا تُتلمس لها الأسباب!

إن التفسير المادي للتاريخ يتمحل الأسباب لثورة الرقيق في أوربا في نهاية العصور الوسطى، فيقول إنها كامنة في نشوء المجتمع الصناعي وحاجة المصانع إلى العمال، وضرورة تحرير رقيق الأرض للعمل في المصانع!

كذلك..؟!

وليس الفطرة البشرية التي تأبى العبودية في النهاية وإن خضعت لها عشرات أو مئات من السنين؟!

فما تفسير ثورة العبيدة الشهيرة في العصر الروماني بقيادة " سبارتاكوس "، قبل نشوء المجتمع الصناعي، وقبل حدوث أي تطور في أساليب الإنتاج يدعو لتحرير العبيد؟ تلك الثورة التي هزت الإمبراطورية كلها من قواعدها؟

وليس معنى ذلك أن نلغي الأسباب المباشرة التي أدت لتحرير رقيق الأرض عند نشأة المجتمع الصناعي! كلا. وإنما معناه فقط أن نردها إلى الفطرة التي تترقب الفرصة المناسبة لتحقيق وجودها. ومعناه أن نفسر بهذه الظروف **نجاح** الثورة الثانية بينما هزمت الأولى شر هزيمة في عصر الإمبراطورية الرومانية. ولكن الهزيمة والنصر شيء آخر غير دلالة الفطرة واتجاهها.. وهو واحد في الحالين!

والتفسير المادي للتاريخ يتمحل الأسباب للاستعمار فيقول إنها كامنة في بحث رأس المال عن الأرباح والأسواق لتصريف فائض الإنتاج بعد الوصول إلى الإنتاج الكبير..!

كذلك..؟!

وليس في انحرافة من انحرافات الفطرة تنزع إلى الغلبة والسلطان وإخضاع الآخرين واستذلالهم؟!

فما تفسير الاستعمار الروماني الشهير الذي استعبد أمما وشعوبا بأسرها، وامتص دماءها، وأكل خيراتها، وتركها في أسوأ حال من الفقر والمرض والجهل، ليستمتع هو وحده باللذائذ الحرام، والبذخ الفاخر، والتلذذ بحمامات الدماء؟!

وليس معنى هذا أن نلغي الأسباب المباشرة التي أدت إلى الاستعمار الحديث! وإنما معناه فقط أن نردها إلى مكانها من الفطرة في انحرافها، حيث يستوي – من حيث الدافع – الاستعمار الأول والاستعمار الأخير!

ثم.. لقد شاء المذهب الشيوعي أن يحول الفطرة عن طريقها في مسألة الملكية الفردية، واستخدم لذلك الضغط والإرهاب والحديد والنار والتجسس، وكل وسائل الحكم البوليسي الشنيع، التي اعترف بها خروشوف في " اعترافاته " عن عهد ستالين [بعد وفاته بطبيعة الحال!] فماذا كانت النتيجة في النهاية؟! كان ذلك التراجع المستمر من قِبل الحكم البوليسي، خطوة خطوة نحو الفطرة البشرية. من إباحة التفاوت في الأجور بين عمال الطبقة الواحدة والعمل الواحد، وإباحة الملكية الفردية – في المواد الاستهلاكية! – إلى اعتراف خروشوف بأن العمل في المزارع الجماعية لا يسير كما كان مقدراً له، ولا يعطي الغلة التي تعطيها المزارع الفردية.. إلى..؟!

كلا! إنها الفطرة في النهاية – **باعتدالاتها وانحرافاتها** – تحدد حدود التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، في أثناء نموه **الفطري**.. فتتركه – لسعتها ومرونتها – يتشكل في أشكال شتى.. ولكن في حدود الفطرة في نهاية المطاف!

وخلاصة البحث في التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي هو هذه المجموعة من الحقائق:

أنه قد يرتبط بالتطور في أساليب الإنتاج. ولكنه لا يكون ارتباط النتيجة بالسبب، وإنما **ارتباط المواكبة والمصاحبة**، مع تبادل علاقة السببية من طرفيها. فيؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به.

وأنه ينشأ من خاصية النمو الفطرية في كيان الإنسان [ما لم يقف في طريق النمو عائق غير طبيعي].

وأنه – مع ذلك – ليس تطوراً حتمياً من حيث الصورة التي يأخذها.

وأنه – سواء كان ناشئا من تدخل قدر الله المباشر كما في الديانات السماوية كلها، والإسلام على رأسها، أو تدخله غير المباشر عن طريق ما أودعه الله في الفطرة من طاقات – فهو في النهاية قائم على الفطرة البشرية، ومرده إليها.

وأنه أخيراً لا يخرج عن حدود الفطرة مهما تطور وتغير. فهو تغيرٌ في الصورة لا تغير في جوهر الكيان.

* * *

كنا إلى هذه اللحظة نبحث في التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. وقد رددناها في وضوح جازم إلى الفطرة البشرية وطاقاتها واستعداداتها، ووكدنا حقيقة ثبات الفطرة رغم هذه التطورات. ونريد – قبل أن ننتقل إلى بحث اللونين الأخيرين من التطور: التطور النفسي والتطور الأخلاقي – أن نبين حقيقة هامة قد لا تتضح على حقيقتها في ظل ذلك التوكيد.

إننا لا نلغي على الإطلاق **قيمة** التطور العلمي أو التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. ولا نقول إنه لا يغير شيئاً في واقع الحياة!

ذلك كلام لا يقوله العقلاء!

كمن يقول إن الطفل الرضيع كالرجل البالغ في جميع الأوضاع!

وما قصدنا غلى شيء من ذلك. بل نحن – كما أسلفنا – نميل إلى إبراز هذا التطور وذاك إبرازاً واضحا ملموسا، ونؤكد حقيقته!

ولكننا فقط نرده إلى الفطرة.. ونرد الفطرة إلى مشيئة الله وقدره.

إننا نريد أن نقول إن " صورة " الحياة كلها تتغير بعد كل اكتشاف أو اختراع جديد، وبعد كل تحول من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتجدّ للناس مشاعر وأفكار وتصورات لم تكن من قبل، كما تقوم علاقات الناس فيما بينهم على هذه المشاعر الجديدة والأفكار والتطورات.

ولكن تغير " صورة " الحياة لا يغير " فطرة " الإنسان. هذه هي المسألة التي نكررها ونؤكدها. إنها أشكال متغيرة من فطرة ثابتة. وكلا التغير والثبات له حقيقته وله دلالته، بلا تعارض ولا تضارب. لأن " الحق " لا يتعارض ولا يتضارب إلا في الأفهام الجزئية التي لا تدرك ما بين بعضه وبعض من ارتباط.

إن النمو الدائم في جسم الطفل ونفسه وعقله حقيقة.. لها وزنها ودلالتها.

ومع ذلك ففي الطفل ما في الرجل البالغ من خطوط فطرية أصيلة ونزعات فطرية.. بلا افتراق في الجوهر وإن تعددت الصور والأشكال.

الطفل يخاف والرجل البالغ يخاف. الطفل يرجو والرجل البالغ يرجو. الطفل يبحث عن الطعام والرجل البالغ يبحث عن الطعام. الطفل يصارع والرجل البالغ يصارع. الطفل يفكر والرجل البالغ يفكر.. الطفل " يكدح " والرجل البالغ يكدح..

كل خطوط الفطرة الأصيلة ودوافعها موجودة في نفس الطفل، في صورة بدائية أو كامنة.. ثم تنمو.. حتى تصل إلى النضوج والاكتمال..

وكذلك حياة البشرية.. كامنة بأكملها في فطرتها.. ثم تتشكل في مراحل النمو المختلفة، فتتحقق طورا بعد طور في صورة إثر أخرى.. وكل الصور تحقيق لذات هذا الكيان!

*   *   *

وإذا فرغنا من الحديث عن تطور أساليب الإنتاج – أو التطور العلمي بصفة عامة – والتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وما بينهما من ترابط، ومدى ذلك الترابط، ومدى ما بينهما من استقلال نسبي، نتحدث الآن عن التطور النفسي ثم التطور الأخلاقي.. وقد كان من الممكن أن نتحدث عنهما معاً في آن واحد، لأن بينهما نوعا من الترابط غير قليل. ولكنه كالترابط بين النوعين الأولين من التطور، ليس ترابطا كاملا، فكل منهما متخصص في جانب، كما سيتبين لنا من الحديث.

التطور النفسي [السيكلوجي] نقصد به مدى النمو والنضوج في النفس من حيث هي مشاعر واتجاهات وأفكار وتصورات وقيم وارتباطات وجدانية.. على أوسع نطاق. والتطور الأخلاقي نقصد به تطور القيم الخلقية في ميدانها المتخصص، من حيث الحكم على أعمال الإنسان بأنها خطأ أو صواب، حلال أو حرام، مرتفعة أو هابطة.. ومن حيث مدى مراعاة الإنسان لهذه الأحكام.

وواضح لأول وهلة أن هناك نوعا من الترابط بين النضوج النفسي [السيكلوجي] والنضوج الخلقي. ولكن هناك إلى جانبه نوعا من التخصص يجعل هذا غير ذاك. فقد تكون النفس ناضجة من حيث " قوة " المشاعر وعمقها واتساع نطاقها.. ثم تكون في ذات الوقت منحرفة من الناحية الخلقية.. وعلى العكس قد تكون مستقيمة من الناحية الخلقية ولكنها من الناحية النفسية بدائية ضامرة غير مكتملة النضوج. لذلك أفردنا الحديث عن كل منهما، مع بيان مدى الترابط ومدى الاستقلال.

*   *   *

التطور النفسي يتجه – فطريا – إلى النضوج والتكامل في كل جوانب النفس. وهو حركة فطرية تحدث في النفس كما يحدث النمو في الجسم، فلا تحتاج إلى تفسير من خارجها، إلا التفسير الذي يشمل الإنسان كله، والكون على اتساعه، وهو أنه يسير بمقتضى ما فطره عليه خالقه، وما أودعه من سنن وطاقات واستعدادات، وبمقتضى قدر الله الذي ينشئ كل نمو وكل حركة وكل تكيف في هذه الطاقات والاستعدادات.

والتفسير المادي للتاريخ يجعل التقدم المادي – أي التقدم في أساليب الإنتاج – هو محور التطور النفسي كذلك. ويستند إلى ظاهرة خداعة، هي أن التقدم العلمي، وما ينشأ

عنه – في نظره – من تقدم وتطور في بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ينمي النفس بطريقة آلية، لأن النفس هي انعكاس الوسط المادي. فإذا " ارتقى " الوسط المادي كان من جراء ذلك ارتقاء النفس.

وتلك – كما نقول – ظاهرة خداعة!

حقا إن التقدم العلمي يساعد على **لون** من النضوج.

فالطفل الذي يولد في القرن العشرين، في النصف الثاني منه خاصة، وحوله السينما والإذاعة والتليفزيون، والطائرة والصاروخ، والآلات الدقيقة التركيب، وحوله التشابكات الاجتماعية المعقدة، والتشابكات السياسية الدولية والمحلية، المتقلبة من لحظة إلى لحظة.. ساعة تجنح إلى السلام وساعة تجنح إلى الحرب.. هذا الطفل أنضج ولا شك في " معلوماته " وفي بعض مشاعره وتصوراته وأفكاره من رجل بالغ كان يعيش في القرن العاشر مثلا أو الثاني عشر..

ولكنا نكون مخطئين إلى حد مضحك إذا تصورنا أن هذا الطفل أنضج **في مجموع نفسه** من ذلك الرجل! فهو طفل مهما يكن من نمو مدركاته.. يتناول الحياة بنفسية الطفل ومطالب الطفل وتصورات الطفل.. وذلك الرجل رجل بالغ مجرب، ناضج في مجموع نفسه بمقدار ما تتيح له بنيته الخاصة من النضوج.

الدلالة التي نستحرجها من المثال واضحة.. إن التقدم العلمي ينضج حقا بعض جوانب النفس. ولكنه – بمفرده – لا يصلح للحكم على مدى النضوج واتجاهه، لأن الجانب الذي ينضجه ليس من السعة والشمول بحيث يعطي النفس طابعها المميز الأخير!

وقد وقع القرن العشرون في هذه الأضلولة حين بهره التقدم العلمي!

لقد ظن أنه خير القرون طراً في كل شيء، لأنه أشد القرون تقدما في العلم، وأشدها – حتى الآن – سيطرة على قوى الكون..

وأعماه هذا الظن عن أن يدرك عيوبه.. النفسية والخلقية على حد سواء!

إن هذا القرن الذي تقدم في العلوم كل هذا التقدم، ففجر الذرة وأطلق الصاروخ وغزا الكواكب.. يعيش بنفسية الطفل في بعض جوانب الحياة، وبنفسية المراهق في بعضها الأخر. وفي بعضها الثالث بنفسية الحيوان، من غير ضوابط الحيوان.

وهذا العلم كله – بمفرده، أي بدون توجيه نفسي وخلقي معين – لا يستطيع أن يصلح ما فسد من النفوس. بل هو قمين أن يزيدها فسادا لأنه يلهب غرورها فتظن أنها على صواب! [" قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً "!] [33]

هذا التقدم العلمي كله: الثلاجة الكهربائية، والغسالة الكهربائية، والإنسان الآلي والمخ الإلكتروني. والزر الذي تضغط عليه فيدور مصنع كامل دقيق الآلات أو ضخم الآلات. أو يأتيك طعام جاهز يلبي نداءك كالجني القديم في الأسطورة. أو تسمع الموسيقى الحالمة التي ترتاح إليها نفسك. أو يتكيف جو حجرتك أو فراشك.. أو.. أو.. الخ.

التقدم الذي ينقلك في لحظة عبر العالم. تسمعه وتشاهده وتشاركه. في الإذاعة أو التليفزيون أو التليفون اللاسلكي. فيفتح لك نوافذ متعددة على العالم ترى منها ما لم تكن تحلم أن تراه لو قضيت عمرك كله في الأسفار. هذا وأنت جالس في مكانك لم تبرح. كالجني القديم في الأسطورة ينقل العالم إليك وأنت مستريح..

التقدم الذي نفذ إلى آفاق الكون، فرأى ملايين الملايين من النجوم والكواكب، قاس حرارتها وعرف أبعادها ورصد أفلاكها. ثم قفز إليها يريد أن يضع قدمه على أرضها.

هذا التقدم كله.. ماذا صنع في " نفسية " القرن العشرين؟. ولا نتحدث بعد عن الأخلاق.

هذه الضحالة المزرية بكرامة الإنسان! التي لا تطيق التعمق في المعرفة ولا التعمق في المشاعر ولا التعمق في الأفكار. وإنما تريد أن تأخذ الأمور كلها من سطوحها. قفزا قفزا. كالطائر المجنون.

هذه التفاهة " الجزئية " في الحكم على الأمور، التي لا تطيق النظرة الشاملة ولا تصبر عليها، وإنما تأخذ كل جزئية بمفردها، منفصلة ومستقلة، على غير حقيقتها في بنية الكون وبنية الأحداث.

هذه الآلية الهابطة، التي تحيل المشاعر والأفكار والأعمال نشاطا آليا كنشاط الالة. زر يضغط عليه فتنطلق أعمال. زر يضغط عليه فتنطلق أفكار. زر يضغط عليه فتنطلق

---

[33] سورة الكهف [103 – 104].

مشاعر. أقرب إلى مشاعر البهيمة، وأحيانا أحط من مشاعر البهيمة المحكومة بفطرتها المضبوطة المستقيمة.

هذه المادية المغلقة التي تغلق جوانب الروح، وتطمس على رفرفاتها، وتجثم على الأرض لا تريد الانطلاق ولا تقدر عليه.

هذه " الواقعية " المريضة التي تعيش في حدود اللحظة، وتأبى أن " تتصور " و "تتخيل".. لتتصور " الكمال " وتسعى إلى تحقيقه.

هذه الحسية التي تحيل المشاعر لذة جسد محصورة، لا تتندى بعواطف "الإنسان".

تلك هي حصيلة " التقدم! " النفسي في القرن العشرين! ولا نتحدث بعد عن الأخلاق!

إنها حصيلة " الآلة "! حصيلة تحويل الإنسان كله إلى آلة تعمل في نطاق الحس القريب.

إنها اختلال نفسي لا مثيل له قط في سالف القرون!

* * *

والتفسير المادي للتاريخ يقدم لهذا الأمر تفسيرات شتى، ومبررات شتى. بعضها يقدمه في تبجح وبعضها يقدمه على استحياء.. فحتى التفسير " المادي " للتاريخ ينبغي أن يستحيي من هذا المسخ المشوه الذي صار إليه الإنسان في القرن العشرين!

وما يعنينا هنا أن نناقش التفسيرات والمبررات والاعتذارات. ولكن يعنينا فقط أن نبرز هذه الحقيقة: أن التقدم العلمي لا علاقة له بالوضع النفسي للإنسان. فالعلم يتقدم في سبيله، صاعدا أبدا، كل خطوة تؤدي إلى تقدم جديد. والنفس تمضي في سبيلها. إن وجهت الوجهة الصالحة يكون فيها الخير، وإن وجهت الوجهة الفاسدة لا يمسكها عن الفساد كل التقدم العلمي والتطور في أساليب الإنتاج.. بل قد يزيدها فسادا كما هو الحال في القرن العشرين.

ونعود إلى دراسة التطور النفسي في ذاته. ما هو؟ وما العوامل المؤثرة فيه؟ وما دلالته على الفطرة البشرية؟

النفس البشرية – ككل شيء في حياة الإنسان – تنمو بفطرتها نحو النضوج والتكامل والتعقد والشمول.

وتتعرض في أثناء نموها للاعتدال والانحراف. كلاهما فطرة في طبيعة الإنسان [34]..

في طفولتها تكون أقرب إلى البساطة. تعبيرها ساذج مباشر. " فراملها " ضعيفة التكوين. حسية أكثر مما هي معنوية. جزئية أكثر مما هي شاملة. جزئية في تناولها وتفسيرها للأمور. وفي الوقت ذاته واسعة الخيال على غير أسس تحكم هذا الخيال. فهو خيال مطلق يتخيل كل شيء ويصدق كل شيء في بساطة وسهولة ويسر.

وتأخذ البشرية في النضوج..

لماذا؟

هكذا ركب في فطرتها. فلا تحتاج إلى مبرر آخر!

ولكن النضوج [أي النمو] يحتاج إلى غذاء. وإلا فإنه يذبل ويذوي ويموت.

والخالق الذي خلق النفس ووضع في فطرتها ذلك النمو، وضع لها كذلك غذاءها " الفطري " على مقربة منها. كما جعل الثدي على مقربة من فم الطفل، والغذاء كله على مقربة من الإنسان.

غذاء النمو النفسي هو " التجربة ".. وفي فطرة الإنسان أن يجرب ويستفيد بالتجربة.

وميدان التجربة هو الحياة كلها على الاتساع: في عالم الحس وعالم النفس وعالم الروح. في الكون المادي والكون المعنوي سواء.

" عقل " الإنسان يحتك بالكون المادي فتكون تجربة. يكشف النار. يكشف خواص المادة. يكشف طريقة " التعامل " مع المعادن أو النبات أو الحيوان.

و " نفس " الإنسان تحتك بالكون المادي فتكون تجربة من نوع آخر. يكتشف **عجزه** عن أمور **ومقدرته** على أمور. ومن العجز والمقدرة كليهما تتكون له مشاعر وعقائد

[34] انظر كتاب الدراسات، " فصل الانحراف والشذوذ "

وأفكار. فيتعبد. ويعتقد. ويتجبر أحيانا ويغتر! ويحاول التغلب على العجز بالمزيد من القدرة، فتنمو في نفسه وعقله وجسمه طاقات مختلفة كانت كامنة من قبل.

ويحتك بالناس فتكون تجربة من نوع ثالث.. بل تجارب شتى متعددة. يكتشف أنه يحب الناس ويكره الناس [لأسباب!] [35] وأنه يطغى على غيره أحيانا فيستخذي هذا الغير أو يقاوم الطغيان، وأنه هو كذلك يستخذي لطغيان غيره عليه أحيانا ويقاوم أحيانا. وأنه يحتاج إلى الناس ويستغني عن الناس. ويتخصام ويتصافى. ويحارب ويسالم. ويتعاون وينعزل. فتنشأ من كل ذلك " نظم " وشرائع وعلاقات.

وهكذا.. كلما خطا خطوة وقعت له تجربة جديدة، ومن هذه التجارب ينمو ويتسع ويشتد قوامه. ويتدرج من البساطة إلى التعقيد. من التعبير الساذج المباشر إلى التعبير الناضج البعيد الغور. وتقوى " عضلات " نفسه وفراملها، ويختلط الخيال بالواقع، ويصير أقرب إلى " تعقل " الأمور.

وتتواكب الأمور كلها في وقت واحد.. في عملية النمو السوية. فتزداد الخبرة وتتحسن العدد والآلات وأدوات الإنتاج، وينمو الكيان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. وكذلك تنمو " النفس " في مجموعها وتنضج وتتعمق.

ولكن الأمور لا تستقيم في كل حالة.. فقد ينمو جانب من النفس أو جانب من الحياة ويتعثر جانب آخر.. فلا يحدث التواكب الفطري السليم الذي ينبغي أن يكون.

يتقدم الإنتاج المادي أو الخبرة النفسية أو الخبرة الفكرية ولا تستقيم بقية الخبرات..

وقد عرف التاريخ نماذج من ذلك كثيرة..

فالإغريق قد بلغوا الذروة – في عصرهم – في التقدم " الفكري " الخالص. في الفلسفة والعلوم النظرية. ومع ذلك كانت في حياتهم اختلالات جمة. أبرزها الاختلال في الجانب الروحي. فالذهن المتضخم كان يطغى على نشاط الروح.

والهند – في عصرها – بلغت الذروة في التقدم " الروحي ".. في إشراقات التصوف وسبحات التعبد، و " الفناء " في الكل الأعظم الذي يشمل روح الوجود. ومع ذلك كانت

---

[35] يقول فرويد إن الحب والكره ظاهرة مزدوجة في الكيان النفسي تحدث بلا سبب! وقد ناقشنا ذلك تفصيلا في كتاب الدراسات.

في حياتهم اختلالات جمة. أبرزها السلبية المنصرفة عن الإنتاج المادي. فالنشاط الروحي المتضخم يفسد إيجابية الحياة.

والرومان – في عصرهم – بلغوا الذروة في التقدم " المادي ".. في تطبيقات المدنية العملية، من طرق وجسور وخزانات وحمامات وهندسة للري وتنظيمات للحكم وسياسة للسلم والحرب.. ومع ذلك كانت في حياتهم اختلالات شتى. أبرزها الاختلال الروحي والخلقي.. فقد انغمسوا في لذائذ الحس وتكالبوا على متاع الأرض، فانقلبوا وحوشا يلغون في الدماء أو أجسادا بلا أرواح.

والمصريون – في عصرهم – بلغوا الذروة في النشاط الروحي والنشاط المادي معاً. فكانت لهم عقائد وعبادات أرقى بكثير مما عرفه زمانهم في شتى الأمم، وفيها نفحة من بقايا الديانات السماوية التي وصلت إليهم، وإن كانت مشوهة منحرفة، وكانت لهم هندسات وتنظيمات وإنتاج مادي رفيع.. ومع ذلك كانت في حياتهم اختلالات شتى. أبرزها عبادة الفرعون وتأليهه، والاستنامة من ثم للضغط والطغيان [وهو عيب بارز في تاريخهم كله] والجنوح إلى التفكير في الموت والعالم الثاني ومن ثم الاكتفاء من الحياة الدنيا بالحد الأدنى الذي لا يرفع مستوى الحياة؛ لا عن عجز عن المدنية والتقدم [فقد كانت الصناعات الدقيقة الرفيعة كلها تصنع من أجل الفرعون وبتسخيره] ولكن عن قناعة ذليلة ترتضي لقمة الخبز والحصير المفروش على الأرض الجرداء.

في كل هذه الحالات لم يتواكب التقدم في جوانبه المختلفة كما ينبغي أن يكون..

كانت البشرية في طفولتها.. أو في طفولاتها المختلفة.

ثم بلغت سن الرشد في فترة من حياتها معينة.. على يد الإسلام.

يمكن أن نقول إنها بلغت سن الرشد بدعوتها إلى الإسلام أو باستجابتها إليه، يوم خاطب الله تعالى المسلمين بقوله: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً " [36]. ففي ذلك اليوم كان قد اكتمل لها الرشد حقا، وانطلقت تقيم الخلافة الراشدة على ظهر الأرض.. فكيف كان ذلك الرشد؟ وما مظاهره ومميزاته؟

الرشد العقلي ظاهر في طبيعة الرسالة ذاتها.. التي تخاطب العقل، ولا تقهره بالمعجزات الحسية، وإنما ترشده وتوضح له المسالك ليهتدي – بذاته – إلى الحق الذي

[36] سورة المائدة [3].

خلقت به السماوات والأرض وما فيهن. والذي تقوم عليه حياة الإنسان وتقوّم به أعماله في آخرته ودنياه.

وظاهر كذلك في إطلاق طاقة العقل في جميع ميادين النشاط العقلي المتاحة للإنسان.. بتدبر آيات الله في الكون، وبتعرف على " القوانين الطبيعية "والنواميس التي تحكم كيانه. ويمشي في مناكب الأرض يبحث عن الرزق، فيحتك بالكون المادي ويستنبط طاقاته. ويمشي في " التاريخ " فيستنبط أسباب قيام الأمم وزوالها، ويستفيد بها خبرة لحاضره ومستقبله. ويتدبر حكمة التشريع ليقيم تنظيماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية على هدى وبصيرة.

والرشد الروحي في الاهتداء إلى الله الحق. والاتصال به. والاستمداد منه. والتعبد الصحيح إليه، بإفراده بالعبودية، ونبذ العبادات الضالة كلها، من عبادة بشر لبشر، أو عبادة بشر لوثن أو قوة من قوى الكون، أو عبادة بشر لذاته وأهوائه وشهواته..

والرشد " الحسي " في البحث عن وسائل التقدم المادي والحضاري، وهضمها وتمثيلها والإضافة إليها حتى صارت حضارة الإسلام مضرب المثل في التاريخ..

كيان راشد ناضج تواكبت جوانب النمو فيه **فتوازنت** على شمول وإحاطة.

وكانت تلك قمة البشرية..

وانطلقت تلك الأمة الراشدة تبني مثلا للتاريخ.. مُثُلا في كل جوانب الحياة وكل مجالات النشاط الإنساني. الفتح الخاطف الذي لا مثيل له من قبل ولا من بعد في كل التاريخ.. من المحيط للمحيط في نصف قرن من الزمان!

نشر العقيدة الصحيحة في ربوع الكون المعمور على ثبات وقوة وتمكن.

إقامة المثل الخلقية الباقية التي تستمد منها البشرية كلها في جميع عصورها في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين صنعهم على عينه: أبي بكر وعمر.. وعثمان وعلي.. وأبي عبيدة وخالد.. وسلمان وصهيب.. وبلال وعمار. وأسماء وعائشة.. وفاطمة وأم سلمة.. وسمية ونسيبة.. ومئات وألوف على مدار الأجيال حتى اللحظة الراهنة رغم جميع التقلبات والأحداث!

إقامة الحضارات بكل الوسائل المتاحة في الأرض.

إنشاء المذهب التجريبي الذي قامت عليه بعد ذلك العلوم الحديثة كلها، وخطا به العلم هذه الخطوات الجبارة في العصر الحديث..

و... في كل جانب من جوانب الحياة..

تلك كانت قمة البشرية.. " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " (37).

ولكن " البشرية " لم تحافظ على قمتها!

لقد تقدم العلم. وتقدمت " الخبرات " النفسية في شتى الميادين.. ولكن عادت الاختلالات إلى الظهور!

تجنح البشرية بروحها مرة. وعقلها مرة. وجسدها مرة.

تهتم بالحضارة المادية وتهمل حضارة الروح..

تهتم بالتقدم العلمي وتهمل التوجيه الخلقي..

تهتم بالحياة الدنيا وتهمل الآخرة..

وتفقد البشرية توازنها، ولا تتواكب الخبرات.. فينحدر الكيان النفسي في مجموعه..

وتنشأ من ذلك " حضارة " القرن العشرين!

* * *

حين نصل إلى هذا الحد من البحث، نعود إلى زاوية النظر التي نرصد منها الموضوع كله.. " **دلالة الفطرة** ".

لقد قلنا من قبل إن التقدم العلمي جزء من الفطرة يحققها في أحد جوانبها. وكذلك قلنا عن التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. وقلنا إن هذا التطور وذاك لا يخرجان عن حدود الفطرة في نهاية المطاف..

---

(37) سورة آل عمران [110].

فماذا نقول هنا عن التطور النفسي؟

إنه نفس الموقف ونفس القضية..

كل ما يحدث فهو في حدود الفطرة..

ولكن الفطرة هنا - بصورة أوضح من كل ما سبق - ذات وجهين متقابلين، ينشأ من أحدهما الاعتدال، ومن الآخر ينشأ الانحراف!

إن الخط النفسي - كما رأينا - لا يصعد دائماً في جميع الحالات، كخط التقدم العلمي..

ولذلك سبب من ذات الفطرة!

التقدم العلمي صاعد أبداً لا ينكص، لأن في فطرة الإنسان أن يطلب المزيد من المعرفة. وفي فطرته أن يحسّن على الدوام ما يملك من أدوات. إن التحسين يستجيب للفطرة من **كل جوانبها**. فهو يلبي رغبتها في المعرفة. ورغبتها في الجمال. ورغبتها في التطلع إلى الكمال. كما أنه يستجيب لرغبتها في الراحة ورغبتها في القوة والقدرة والبروز. فكل تحسين يحقق - ولو في أحد جوانبه - مزيداً من الراحة للإنسان [وذلك دافع من دوافع الاختراع: تيسير الحياة] كما يحقق شعوراً بأن الإنسان قد قدر على عمل جديد، وبهذه القدرة يحقق ذاته ويبرز.. وفي اختصار فالفطرة هنا دافعة دفعاً ملحاً دائباً نحو التقدم العلمي. ولهذا ظل التقدم العلمي يسير في خط صاعد طوال التاريخ. **لهذا**، وليس لأي سبب آخر من " خارج " الفطرة، يدعيه التفسير المادي للتاريخ! ولهذا الكيان **الكلي الشامل**، الذي يشمل الإنسان كله، لا لجزء واحد منه كما زعم التفسير المادي للتاريخ حين قال إن تاريخ الإنسان كان دائما تاريخ المحاولة لتحقيق كيان " الإنسان " ولم يكن تاريخ البحث عن أي جانب واحد منفصل في هذا الكيان!

أما التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فهو يسير قدما في جانب واحد منه: هو جانب التعقد والتشابك وإحكام الروابط و " مزجها " بعضها ببعض. ولكنه لا يسير قدما من حيث " الكيف "، فهو يسير متأرجحاً بين الفردية الطاغية والجماعية الطاغية.. وأبرز الأمثلة على ذلك: الرأسمالية والشيوعية في القرن العشرين. ولكن مرد ذلك أيضاً إلى الفطرة! ففيها اعتدالات وفيها انحرافات، وفيها مرونة تتسع لأشكال شتى وضغوط متعددة.. حتى تثور في النهاية وتلفظ ما لا يناسبها من الأوضاع والظروف.. وفي كل ثورة من ثورات

الفطرة يحدث انتقال من طور إلى طور، ينطلق في طريقه فترة حتى تغلبه الانحرافات فيبيت في انتظار انقلاب جديد. وهذا – وليس التطور في أساليب الإنتاج وحده كما يزعم التفسير المادي للتاريخ – هو الذي يفسر التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في حياة البشرية.

وأما التطور النفسي فهو لا يسير على خط واحد على الإطلاق!

هناك مرحلة كان خط التطور واضحا فيها.. إلى الأمام، وهي المرحلة السابقة لمرحلة الرشد.. والتي أدت إلى الرشد.

كان النمو في هذه المرحلة هو العنصر البارز الواضح. النمو إلى الأمام. إلى النضوج والتكامل والشمول. ومع ذلك فلم يكن خطا واحداً صاعدا في كل مراحله. فالتاريخ يثبت قيام حضارات **وانهيارها**، والانهيار نكسة إلى الوراء. ومعنى ذلك أنه يحدث تقدم ونكوص. فلا يسير الخط على سواء.

ثم بلغت البشرية الرشد على مولد الإسلام وانتشاره. ولم ترتفع قط عن تلك القمة في تاريخها كله. فقد كانت هذه أعلى قمة وصلتها البشرية.. وكذلك لم تثبت عليها، بل أخذت في الانحدار.

وقد حدثت أنواع من النمو الجزئي في النفس البشرية بعد الإسلام ولا شك، في الجوانب التي تتغذى على التقدم العلمي الصاعد أبدا، وعلى التعقد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الدائم [التعقد لا التقدم].. ولكن النفس في مجموعها لم تتقدم بعد تلك القمة أبدا بل لم تثبت عليها. وقد مر بنا بيان الانحدار النفسي المتواصل في " حضارة " القرن العشرين.

والمرجع الأخير هنا – كما في الأمور الأخرى كلها – هو الفطرة!

ففي الفطرة البشرية استعداد للهبوط يقابل الاستعداد للارتفاع. كلاهما فطري. وكلاهما أصيل. ليس أحدهما مجلوبا من خارج النفس ولا مفروضاً عليها من خارجها " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا " [38] " لَقَدْ

[38] سورة الشمس [7 – 10].

خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " [39]] [40].

والنفس – في حالتيها – داخل حدود الله كما خلقها الله..

والتوجيه هو الذي يدفع النفس إلى فطرة الارتفاع أو فطرة الهبوط.

ولقد كان التوجيه الإسلامي هو قمة التوجيه نحو الارتفاع، وكان النظام الإسلامي هو قمة الأنظمة التي تسمح بتحقيق ثمرة تلك التوجيه، فارتفعت النفس البشرية إلى قمتها. والتوجيه الغربي في القرن العشرين هو الدرك المقابل للتوجيه الإسلامي، والأنظمة الغربية تكمل هذا التوجيه وتحققه في عالم الواقع! فهبطت به النفس البشرية إلى دركها الأسفل، الذي لا يبدو أن هناك مزيدا عليه.

الضحالة المزرية بكرامة الإنسان. التفاهة الجزئية في الحكم على الأمور.. الآلية الهابطة.. المادية المغلقة التي تغلق جوانب الروح.. الواقعية المريضة التي تعيش في حدود اللحظة.. الحسية التي تحيل المشاعر لذة جسد محصورة.

ولكن النفس البشرية قابلة للصعود مرة أخرى حين يهتف لها هاتف الصعود..

وفي حالتيها تكون في حدود الفطرة.. وتكون الفطرة – بشعبتيها المتقابلتين – ثابتة رغم تغير الأشكال!!

* * *

والآن نقترب حثيثاً من الحديث عن " التغير " الأخلاقي.. ولا نقول " التطور "!

على هدى ما تبين لنا من دراسة التطور النفسي، لا نجد مشقة في تتبع التغير الأخلاقي في تاريخ البشرية. فهنا تتبدى لنا الفطرة البشرية المزدوجة في أجلى معانيها وأوضح مظاهرها.

---

[39] سورة التين [3 – 6].
[40] انظر كتاب " دراسات في النفس الإنسانية ".

فلئن كان الخط العلمي صاعداً أبداً لا ينكص.. ولئن كان " التعقد " الاجتماعي والاقتصادي والسياسي صاعداً أبداً [دون التقدم في هذا الميدان ذاته] ولئن كلن التطور النفسي أقل استقامة وأكثر تقلباً.. فالجانب الأخلاقي من الحياة البشرية هو أكثرها تقلباً على الإطلاق، وأقلها استقامة على " خط " معين في أي مرحلة من مراحل التاريخ.

إنها بادئ ذي بدء مسألة تبرز فيها الفردية على الرغم من تأثرها بالمحيط الجماعي الشامل، ولا يكون التخصص الفردي واضحاً بقدر ما يكون في الجانب الخلقي. فلئن كان التقدم العلمي والتطور الاجتماعي تحكمهما الظروف الجماعية بشكل واضح، وكان التطور النفسي مزيجاً من الفردية والجماعية.. فالمسألة الخلقية يبرز فيها الجانب الفردي، وإن يكن المحيط الجماعي الذي يعيش فيه الفرد هو الذي يساعد أو يعوق النمو الخلقي في الأفراد على تفاوت في التأثير يرجع إلى طبائع الأفراد ومدى صلابتها.

ثم إنها لم تتخذ خطا مستقيما أبدا في التاريخ.. إنما أخذت على الدوام صورة دورات صاعدة هابطة.

يهتف للبشرية هاتف بالصعود: نبي مرسل أو زعيم مصلح أو قائد.. فتتجه – في مجموعها – إلى الصعود فترة من الوقت، ويبقى حثالة من الناس في أسفل القاع، مذمومين مدحورين. لأن الموجة صاعدة. ثم يتعب الناس من الصعود، أو من الاستقامة على القمة! فيبدأون دورة الهبوط.. وهنا تنتفش الحثالة الموجودة في أسفل القاع، وتحس أن " الضغط " عليها قد خف، فتأخذ في النشاط، ويكون نشاطها في مبدأ الأمر محدودا، ومنظورا إليه باستنكار. وتهبط الموجة أكثر، ويخف الضغط على الحثالة الواطية، فتزداد انتفاشاً ونشاطاً وتتسلم هي القيادة! وتبقى قلة من الناس مرتفعين، ولكن تحت ضغط مرهق عنيف.. وتشتد الموجة في هبوطها حتى تطغى.. ويصطدم بقرارة الفساد في النفس البشرية حتى تمجها " الفطرة ".. حتى الفطرة المريضة.. فتبدأ تلفظها لأنها تجاوزت آخر مداها. وعندئذ تأخذ الموجة في الصعود مرة أخرى على يد نبي مريسل أو زعيم مصلح أو قائد..

وذلك تاريخ البشرية!

ولئن كان التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ألصق شيء بالتطور المادي، ومع ذلك فهو مستقل عنه، ويمكن أن يوجد بلا تدخل منه [كما حدث في الإسلام]، وكان التطور النفسي أقل لصوقا بالتطور المادي، وأكثر استقلالا عنه، فالتغير الأخلاقي هو آخر شيء يمكن أن يرتبط بالتطور المادي!

والقصة الطويلة – جدا – التي يرويها التفسير المادي للتاريخ، في ارتباط الأخلاق بتطور أساليب الإنتاج.. قد كذبتها شهادة التاريخ!

ولا نحتاج أن نعود إليها! فقد تبين لنا من شهادة التاريخ أن وضعين متشابهين إلى حد يثير الدهشة، قد فصل بينهما ألفا عام.. وفصل بينهما ما بين العمل اليدوي، واستخدام الطاقة الذرية في الصناعة والزراعة والطب و.. التدمير!

إذن.. فالعلاقة بين الأخلاق ووسائل الإنتاج هي أضعف العلاقات على الإطلاق.

ولسنا نقول – مع ذلك – إن تفسيرات التفسير المادي للتاريخ بشأن " تطور " الأخلاق في القرنين الأخيرين كلها بعيدة عن الواقع! إنما نقول فقط إنها تفسيرات مضللة لأنها تأخذ في حسابها المظهر الخارجي ولا تنفذ إلى الباطن.. إلى " الفطرة ".

إن كل التغيرات الأخلاقية التي حدثت مع الانقلاب الصناعي، ومع الداروينية والتوجيه اليهودي، لم تكن حتمية! وهنا مفرق الطريق بين التفسير المادي للتاريخ، والتفسير الإنساني للإنسان!

ظروف أوربا المحلية هي التي أنشأت الانهيار الخلقي في تلك الفترة، وليست الطبيعة البشرية.

" فالتطور " – بمعنى نمو الحياة وتجددها – كان عنصراً دائما في حياة المسلمين.. فلم يفسدهم. لا أفسد أخلاقهم ولا أشاع الخلل في نفوسهم. إنما فسدوا واختلت نفوسهم حين تغيرت في حياتهم دوافع النمو والتجدد، وجنحوا إلى الجمود والتحجر.

والصناعة – في حدود – كانت جزءاً من مكونات المجتمع الإسلامي.. فلم تفسدهم. لم تفسد أخلاقهم ولا جعلتهم يتركون الآخرة لحساب الدنيا ويتكالبون على متاع الأرض. إنما فسدوا حين قل نشاطهم الصناعي وحصروا أنفسهم في ألوان من الإنتاج ضئيلة الفائدة.

وتحرير المرأة – نفسياً وإنسانياً – كان جزءاً أصيلا من العقيدة الإسلامية ذاتها التي حررت الإنسان كله – بشقيه – من كل عبودية لغير الله تعالى، وجعلت أداة تحريره الكبرى هي علاقته المباشرة مع الله، التي يستصغر بعدها كل قوة من قوى الأرض، ويرفض الخضوع لها إلا أن تكون هي مهتدية بهدى الله. ومنذ اللحظة الأولى للبعثة المحمدية أخذت المرأة وضعها الإنساني والاقتصادي والاجتماعي، فاتصلت بربها مباشرة، وصار لها حق الملك

والتصرف والخطبة والزواج [وطلب الطلاق أيضاً] وصارت تجادل عن حقوقها [" قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ "] [41] ثم نزل الوحي بإنصاف المرأة وتثبيت حقها الإنساني في الحياة.. ومع ذلك فهذا التحرر لم يفسد المسلمين. وإنما فسدوا يوم طغوا على كيان المرأة فخنقوا كيانها المتحرر وغلفوها بعبودية لغير الله ظالمة، وبتأخر وقذارة وانحطاط..

ومن ثم فكل " العوامل " التي ينسب إليها هواة التفسير المادي للتاريخ " تطور! " المفاهيم الخلقية في القرنين الأخيرين كانت – في صورة ما – موجودة في المجتمع الإسلامي فلم تفسده، بل كانت دعامة من دعائم الأخلاق فيه.

إنما كانت هناك أمة مؤمنة. على هدى من دينها. راشدة لا تستمتع للتوجيه اليهودي الماكر الخبيث. ولذلك لم تفسد بهذه العوامل المزعومة، بل تماسكت وصعدت على استواء.

ولو حدث " الانقلاب " الصناعي في أمة مسلمة مؤمنة مهتدية، فقد كان حريا أن يقوّم أخلاق الأمة ويزيد تماسكها، لا أن يفرط عقدها ويحل أخلاقها ويطلق فتيانها وفتياتها كالبهائم الشاردة لا تشبع من السعار المجنون، بينما الحيوان ذاته محكوم بفطرة مضبوطة لا تنحرف عن خطها القديم:

إنما " حضارة " الغرب الملحدة الكافرة هي المسئولة عن التحول الهابط، وليست وسائل الإنتاج ولا حتمية التاريخ!

وعلى أي حال فكل جدالٍ زائفٌ بعد شهادة التاريخ!

* * *

ونريد أن نخلص من الموضوع إلى غايته..

لقد رأينا أن هناك أربعة أنواع مختلفة من التطور:

---

[41] سورة المجادلة [1].

التطور المادي – التطور الاجتماعي – التطور النفسي – التطور [أو التغير] الأخلاقي.

ورأينا أن مردها جميعا في نهاية المطاف إلى الفطرة. كما رأينا أن الفطرة شيء ثابت رغم تعدد الأشكال وتطورها على الدوام.

وهنا شبهة ينبغي أن نزيلها بقوة.

إن قولنا المكرر الملحّ بأن الفطرة ثابتة لا يعني قط أننا نلغي من حسابنا قيمة التطور.

إننا إن ألغينا قيمة التطور فإننا نلغي حقيقة الإنسان! فالإنسان مخلوق ليتطور على الدوام. والتطور أبرز ما في فطرته، وأشد ما يميزها عن فطرة الحيوان! وعن كل فطرة ثابتة الكيان.

كل ما في الأمر أننا نرد التطور الدائم إلى الفطرة الثابتة الجوهر. ونرى – في ذات اللحظة – الجوهر الثابت والصورة المتغيرة حقيقتين متجاورتين، أو حقيقة واحدة شاملة تفسر كل نشاط الإنسان.

ثم نحكم على الإنسان – في تطوره – بالمقياس الثابت الذي تقدمه الفطرة!

وهذه الحسبة الرياضية المعقدة في ظاهرها – أو المتناقضة – بسيطة جداً حين نمثل لها في كل من الأنواع الأربعة السالفة من التطور.

فمقياس الفطرة الثابت بالنسبة للتقدم العلمي أنه يسير في خط صاعد أبدا. وبهذا المقياس – الثابت – نحاسب الإنسان. فكل إنسان يأخذ بنتائج العلم في تقدمه النظري والعملي **فهو سليم الفطرة** سائر في الطريق الصحيح. وكل إنسان يرفض – لأي سبب – الاستفادة من ذلك التقدم **فهو منحرف الفطرة** في حاجة إلى علاج.

ومقياس الفطرة الثابت بالنسبة للتقدم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي أنه ينحو دائما نحو التشابك والتعقد، **والمفروض فيه** أن يعمل على التوازن بين مختلف طاقات البشرية ونوازعها. فكل جيل من الناس يصلون إلى هذا التوازن، فتنضج نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية **على توازن**: توازن بين الفرد والمجتمع، وبين الطاقة المادية والطاقة المعنوية، وبين السلبية والإيجابية... الخ... الخ فهو جيل سليم الفطرة سائر في الطريق

الصحيح. وكل جيل يرفض النضوج الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، **أو ينحرف عن التوازن** فهو جيل متخلف أو منحرف. في حاجة إلى علاج.

ومقياس الفطرة الثابت في التطور النفسي هو النمو الدائم نحو **النضوج والتكامل والشمول والتوازن.** فكل فرد أو جيل يتجه نحو هذا اللون من النمو فهو سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح. وكل فرد أو جيل يثبت على درجة معينة من النمو – متخلفة – أو يتقدم ببعض جوانب نفسه ويتأخر ببعض، أو يفقد توازنه، فهو منحرف الفطرة في حاجة إلى علاج [والمقياس الواضح المحسوس هو القمة التي وصلت إليها البشرية على هدى الإسلام مع إضافة ما يجد بطبيعة الحال من تقدم علمي وتقدم في أشكال المجتمع، وهو أمر تدعو إليه طبيعة الإسلام، فمن اتجه نحو هديها فهو سائر في الطريق الصحيح، ومن انحرف عنها فهو منحرف معتل].

ومقياس الفطرة الثابت في الجانب الخلقي **أن يكون الإنسان إنسانا!** وهو مقياس مستمد من الفطرة! فالإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، ممتزجتين مترابطتين في كيان موحد. له دوافعه وأشواقه. دوافع الجسد وأشواق الروح. له نزعاته الفطرية من طعام وشراب وملبس ومسكن، وجنس وتملك، وصراع وبروز.. وله " قيم " تجعل لجميع الأعمال غاية وهدفا، ولا تكون هي هدفا في ذاتها كما يحدث في عالم الحيوان. وهدفا واعيا مدركا بما يتناسب مع طبيعة الإنسان.. ثم إنه له إلى جانب الدوافع ضوابط تضبط منصرفات الطاقة الفطرية وتنظفها دون أن تكبتها أو تقتلها من منبتها، وهذه الضوابط فطرية كالدوافع سواء بسواء. يستخدمها الإنسان السوي استخداما فطريا غير مفروض من الخارج [وإن كانت تنمية الضوابط في حاجة إلى عون خارجي بالتربية، كالقدرة على النطق والقدرة على المشي، فطريتان كامنتان في الجسم. ولكنهما تحتاجان إلى العون الخارجي لتنتقلا من الحالة الكامنة إلى الوجود الواقعي]. وفي هذه الفطرة خطوط متقابلة: الخوف والرجاء.. الحب والكره. الحسية والمعنوية. الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب. الواقع والخيال. السلبية والإيجابية. الالتزام والتحرر. الفردية والجماعية.. وهذه الخطوط مهمتها أن تعدد جوانب الإنسان وتوازن نشاطه.. ثم إن في صميم الفطرة أن تهتدي إلى خالقها، فتعرفه وتتصل به وتقبس من نوره وتهتدي بهديه وتتعبد له وحده.. ومن هذه القاعدة تنبثق كل مبادئ الأخلاق [42] فمن سار عليها فهو سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح. ومن انقلب عليها فهو منحرف هابط مرتكس إلى مستوى الحيوان!

---

[42] انظر بالتفصيل كتاب الدراسات.

*　　*　　*

وهواة التفسير المادي للتاريخ يجادلون أشد الجدال في هذه **الدلالات**. وفي الدلالة الخلقية خاصة. يجادلون في أن ما حدث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين هو انحراف عن الفطرة. ويقولون إنه تطور، وإنه صاعد، وإنه سليم!

ولقد سمعنا من قبل شهادة التاريخ لتزييف قصة التطور، فأثبتت لنا هذه الشهادة أن ما حدث في العصر الحديث لم يكن " تطورا " فريدا في بابه، ناجما عن الظروف المادية الخاصة بهذا العصر، إنما كان له شبيه في حياة الإغريق والرومان من قبل ألفين من السنين!

الآن.. لكي نتأكد من دلالة الفطرة بالنسبة لهذا " التطور " المزعوم.. هل هو انحراف عن الفطرة وارتكاس إلى الحيوانية المريضة، أن تطور صالح يسير مع فطرة الإنسان..

بل.. لكي نتأكد من وجود فطرة على الإطلاق يرجع إليها في قياس المسائل الخلقية.. فطرة ثابتة تقول لا، ونعم، في كل مرة، عن قواعد ثابتة مكينة في كيان الإنسان..

لكي نتأكد.. فلنستمع إلى شهادة القرن العشرين!

شهادة القرن العشرين

كما استمعنا من قبل لشهادة التاريخ. لنثبت أن ما يسمى " تطورا " خلقيا في القرن العشرين، ناشئا من " التقدم " العلمي والصناعي والاجتماعي.. الخ ليس شيئاً فريدا في التاريخ، وإنما كان له شبيه من قبل.. نستمع الآن لشهادة القرن العشرين ذاته، لنرى هل هو " تطور " أم انحراف!

إن الدفعة التي نفخ فيها ماركس وفرويد ودركايم، وغيرهم ممن يحذون حذوهم، قد أفهمت هذا الجيل من البشرية أنه حين ينفلت من إطار الدين، وينسلخ من قواعد الأخلاق – في مسائل الجنس على الخصوص – ويأبى التقيد بشيء على الإطلاق مما كان في الماضي.. حين يصنع ذلك فهو " يتطور ". أي يرتقي ويتقدم إلى الأمام..

وفهم هذا الجيل من البشرية أنه " مطالب " بتحطيم ذلك كله: الدين والأخلاق والتقاليد.. وأنه لن يرتقي ويتقدم حتى يأتي عليها جميعا ويقتلعها من جذورها. وأنها " معركة مقدسة " يخوضها هذا الجيل ضد الرجعية والجمود والتأخر.. ضد الجهل والخرافة والأسطورة.. ضد " القيد " الذي يعوق الانطلاق.

وكانت الشياطين تنفخ في روح الجيل من جوانب متعددة في آن واحد.. أو إن شئت قل تنفخ فيها من كل جانب.

فالذي يتحدث في علم النفس يقول إن الدين كبت.. ينبغي أن يحطم لكي لا يؤذي الكيان النفسي للفرد!

والذي يتحدث في الاقتصاد يقول إن الاقتصاد الصناعي يحتاج إلى مجتمع " متحرر " من القيود الموروثة من المجتمع الزراعي، ومن بينها كذلك احتجاز المرأة لمهمة الأمومة! إذ ينبغي – في المجتمع الصناعي – أن تخرج المرأة تعمل!

والذي يتحدث في الاجتماع ينظر بعين السخرية إلى تلك السذاجة التي كانت تخيل للناس أن الدين فطرة! وأنه شيء منزل من السماء! ألا يعلم الناس أن البشر هم الذين ابتدعوا الدين أيام جهالتهم وسذاجتهم؟! انظروا إلى المجتمعات المتأخرة التي ما تزال تعيش في الأحراش في أفريقيا وأستراليا.. وستجدون بذرة الدين هناك. في الجهل والسذاجة والخرافة والأسطورة.. ثم انظروا إلى التقدم الحضاري في القرن العشرين! أما تستحون من أن يكون في ضمائركم ووجداناتكم بقية مما ورثتموه عن سكان الغابات والأحراش؟!

والذي يتحدث عن العلوم.. العلوم البحتة، لا ينسى الدين كذلك! إنه يذكر الناس بيوم كان الناس متدينين فكانوا لجهالتهم الشديدة ينسبون ما يحدث في الكون كله إلى الله! يا لجهالتهم! لم يكونوا يعرفون القوانين الطبيعية التي تحكم الكون.. أما " نحن " العلماء في القرن العشرين..

والذي يتحدث في الفن.. يزري بتلك الأيام التي كان التحدث عن الجنس فيها يعتبر " عيبا " تأباه الأخلاق! تباً لكم أيها المتأخرون! كم كنتم تحجبون من ألوان الجمال الممتع البهيد الأخاذ! انظروا إلينا نحن المتحررين! اليوم نحن نجعل الجنس فنا قائما بذاته.. لحظة الجنس " كون " كامل.. تعالوا نتتبعه من جميع أقطاره.. تعالوا نصفه داخل النفوس وفي واقع الحياة.. تعالوا نكشف متعه ومباهجه.. تعالوا نعرِّ الناس ذكورا وإناثا ونطلقهم ينشطون نشاط الجنس.. ونمسك الكاميرا للتسجيل.

أما الذي يتحدث في " التطور ".. فهو يدخل الميدان من كل باب. من أي باب. يتحدث ليقول إن الدين " ظاهرة " تاريخية! تمر بها البشرية في دورها الطبيعي وتبرأ منها بمضي الأيام! [كالحصبة التي تصيب الطفل مثلا!!] ولكنها إذ تبرأ منها تتحصن ضدها، فلا تعود إليها بعد ذلك أبداً! " فالمصل " المضاد للدين هو العلم. هو المعرفة. وهو اليوم متيسر بعون الله – بعون الشيطان (!) – في كل مكان. في المدرسة. في السينما. في الإذاعة. في التليفزيون. في الصحافة. في الأدب. في الفن. في كل مكان يجد الإنسان المصل الواقي من الدين!

وهكذا دخل في ورع هذا الجيل من البشرية أنه لا مناص! إما الدين والرجعية والتأخر والتخلف الاقتصادي والاجتماعي والخرافة.. وإما الانطلاق والتحرر والنشاط والحركة والمعرفة والتقدم العلمي والاقتصادي والاجتماعي.. بلا دين!.. فمن ذا الذي يرمي بنفسه إذن في هاوية الظلمات وهو يرى مرتقى النور؟!

كلا!

فمن شاء له مزاجه المنحرف أن يتدين.. فلا بأس! نحن في عصر " الحرية ". ومن الحرية أن نترك كل صاحب مزاج لمزاجه. ولو كان منحرفا! نعم. فهذه هي الحرية. فمن شاء أن يتدين فما عسانا أن نصنع له؟ لا شيء. ولكن لا بد من تحصين المجتمع ضد الجرثومة الفاتكة.. نقدم المصل الواقي من الرجعة إلى الوباء الفتاك. نقدم " تنظيمات " عملية تجعل هذه الرجعة مستحيلة، وتتركها حالات فردية غير مخشية الانتشار. " فالاختلاط " على نطاق واسع كفيل – بذاته – أن يحطم هذه العقدة اللعينة.. عقدة الدين. في لحظة

الاختلاط.. وسط المغريات، والأنفاس الحارة والشواظ المتلمظ.. والجسد ملاصق للجسد وتواق إليه.. في الخلوة والزحمة سواء.. في تلك اللحظة من ذا الذي يذكر دينه؟! يذكره ليحرمه من تلك المتعة المباحة؟ وي! ومن ذا الذي يرتكب هذه الحماقة؟! خلّ الدين للحظة أخرى.. خل الدين لساعة الخلوة. ساعة لا يحرمنا فيها الدين من المتاع.. مثلا للحظة الكنيسة! ومع ذلك تلاحق الشياطين نفوس الشباب حتى في هذه الخلوة الروحية في داخل الكنيسة، فما يكاد " الأب " ينتهي من " الموعظة " في الكنيسة الأمريكية، حتى يطفئ الأنوار الكبرى ويضيء المصابيح الخافتة المغرية بالخلسة! ويدير اسطوانات الرقص للشباب والفتيات.. بنفسه.. ليتطور! هل يصح أن يبقى الدين في عزلة عن المجتمع؟!!

الاختلاط على نطاق واسع.. هو صمام الأمن ضد الدين. إنه يأكل هذه الجرثومة أكلا كما تقتل مضادات الحيوية الجراثيم (Anti - Biotics!).. إنه يزيحها من مكمنها في أعماق النفس، بأن يضع إلى جوارها متعة الشهوة العارمة المتجددة النشيطة.. أنشط ما في كيان الإنسان حين يطلق لها العنان!

فليكن الاختلاط على نطاق واسع إذن هو " شعار " المجتمع " المتطور "..

وليكن السؤال هكذا في كل مكان في الأرض: مجتمع مختلط؟ أم رجعي؟!

ويكون رد الفعل بطبيعة الحال هو نفي التهمة الشائنة عن النفس. من ذا الذي يرضى لنفسه التهمة وسوء السمعة وسوء الحال؟

وليكن معنى " الروح الجامعية " في الجامعة هو الاختلاط! لأي مدى يختلط الطالبات والطلبة؟ لأي مدى تستطيع البنت أن تنتقي ولدا من هؤلاء وتجلس معه على حشائش الجامعة أو في " البوفيه ".. فترة ريثما تنتهي الدروس ويخرجان.. ويذهبان.. أين يذهبان..؟!

وليكن توظيف المرأة في المصانع والمتاجر والدواوين " سياسة ".. ليكون الاختلاط طابعا " رسميا " للمجتمع.. وتكون نتائجه " الحتمية " هي القضاء على الجرثومة الخبيثة الملعونة.. ملعونة لأنها بعد أن تبدو أنها قتلت قتلا كاملا.. تعود!

وليكن الأدب والفن والإذاعة والسينما والتليفزيون والصحافة.. بكل ما تملك من قوة " الدعوة " ومغريات العرض والتشويق، أداة في يد تلك السياسة، توجهها حيث يراد لها التوجيه.

الاختلاط. البهجة. المتعة. التحرر.. أيها " الرجل " هل تكره " الاستمتاع "؟! أيتها " المرأة " ألا تحبين أن تثبتي " ذاتك "؟.. إنك في حقيقة الأمر لطيفة ومغرية.. " جذابة " ولكنك لا تجربين سحرك. جربي.. هل تعلمين أنك لو تأنقت في ملبسك وتزينت فإن هذا الرجل سيلتفت إليك.. سيعجب بك. سيتجه إليك بعواطفه. سيحبك. قد يتزوجك. لم يرض؟ جامد.. رجعي.. متحجر.. جربي مع الآخر.. رضي؟ ألم نقل لك! لقد نجحت في إثبات ذاتك.. يا له من انتصار.. الآن قد نزلت الميدان.. فلا تنكصي على عقبيك!

يا بيوت الأزياء.. يا مصانع الزينة.. يا بيوت " الجمال ".. إياك أن تكفي لحظة لكي لا " يبرد " الشواظ المنطلق المسعور.. لا تكفي عن إزجاء المغريات. يا سلام. فستان يجنن عقول الرجال. فتنة. إغراء.. من يتماسك أمام هذا الإغراء؟ الصدر المكشوف المغري. من يصمد للفتنة؟ الساق العريانة.. الرقصة والثنية في المشية.. الرنة في الصوت الناعم.

أيتها البنت.. إياك أن يحجزك أبوك عن " تحقيق ذاتك ".. ما لأبيك ومالك؟ ثوري. إرمي في وجهه تقاليده البالية. تمسكي بالتحرر. قولي له إن عارضك: إنك من جيل رجعي. أنا من جيل " متطور ".

أيها الولد. تريد أن تتدين؟! يا مجنون! تحرم نفسك؟! عش واستمتع! هيا أقدم! تنظر لك! خذها! حقق ذاتك!

* * *

وهكذا تبلورت فكرة " التحرر " حول ذلك التحلل الخلقي، الذي لا يسمى بطبيعة الحال تحللا لكي لا يفسد مفعوله. وإنما يسمى " تطورا " ليظل مفعوله قائما على الدوام.

التطور.. معناه الانفلات من قيود الدين وقيود الأخلاق. وقيود التقاليد. وقيود " الإنسان "!

فإذا قام مجنون يحاول وقف التيار الجارف من الانفلات والتحلل تصايحت حوله الأصوات، ألوف الأصوات وملايين الأصوات، تهزأ به وتسخر، وتصمه بكل تهمة شنيعة لكي يكف.. لكي لا يفسد المفعول!

رجعي. متأخر. جامد. متحجر. جاهل. متهوس. مجنون. يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء. يريد أن يوقف عجلة التطور.

العجلة ستدوسه.

ستدوسه " حتمية " التطور!

فهو ليس تطورا فقط. وإنما هو كذلك حتمي! فلقد يخشى أن يقوم فعلا جماعة من " المجانين " يحاولون رد البشرية إلى صوابها، وتذكيرها " بإنسانيتها " الشاردة المفقودة، فلا بد من الاحتياط من قيام مثل هذه الجماعة في أي مكان على الأرض، تعيد نشر الجرثومة الخبيثة الملعونة، التي تبدو أنها قتلت قتلا كاملا. ثم تعود!

فإذا كان الاختلاط على نطاق واسع هو المصل الواقي من الدين في نطاق الواقع العملي.. " فالحتمية " هي المصل الواقي من الرجعة إليه في نطاق " الفكر ". ومن هنا نكون احتطنا للأمر من كل جوانبه في عالم الفكر وعالم الواقع سواء. ومن قام بعد ذلك يقف في طريق " الحتمية التاريخية " و " حتمية التطور "، فلا يلومن إلا نفسه. يذهب مزقاً في الآفاق.

* * *

ومضت الموجة العاتية تكتسح في طريقها كل شيء.. وبدت فعلا ذات قوة " حتمية " مروعة.. لا يقف في سبيلها شيء..

ونبت جيل في أوربا وأمريكا متحلل من كل قيد.. حقيقة.. لا يربطه رابط من خلق أو دين أو تقليد في مسألة الجنس. لا شيء على الإطلاق يقول له: أمسك. كل شيء يقول له: أقدم.

كل التوجيهات وكل " التنظيمات " وكل التيارات تهيئ له الانطلاق الجنسي وتزينه له وتدفعه إليه.

وصار أمراً طبيعياً جداً، وهيناً جداً، ومعروفا جداً أن تتخذ كل فتاة " صديقا " (Boy Friend) وكل فتى " صديقة " (Girl Friend) يقضيان معاً " ضرورة " الجنس بصورة من الصور تبلغ حد العلاقة الكاملة بلا حواجز إن شاء وإن شاءت.. وحبوب منع الحمل تيسر الطريق.

و " استمتعت " أوربا وأمريكا بنتائج " الاختلاط "كاملة.. حتى الثمالة.

وبدا للناس هناك أن هذا هو الأمر " الطبيعي " الذي لا يستنكر. لِمَ يستنكر؟

ما المانع؟ هل هناك مانع " حقيقي " يمنع من هذا السلوك؟

الدين؟ تلك الخرافة القديمة الذميمة؟ لقد " عجز " الدين عن وقف " التطور ". عجز عن الوقوف في وجه " الحتمية " التاريخية. فكيف نلتفت إلى هذا العاجز الذي يختنق صوته بين الأصوات؟

الأخلاق؟ قيم وضعتها أجيال عابرة. قد ذهبت. لن ترجع. أنّى للماضي أن يحكم الحاضر؟ أنى للموتى أن يحكموا الأحياء؟ ألسنا نحن الأحياء؟ هل هي حياتنا نحن أم حياة أولئك الذين ماتوا وانتهت مهمتهم في حياة البشرية؟ لقد كانوا يتحدثون بظروف أيامهم. ونحن نتحدث بظروف أيامنا. بالذرة. بالصاروخ.

ماذا؟ ما المانع؟ أي شيء يضيرنا؟ المجتمع يزداد " تقدما " كل يوم. الاختراعات مستمرة. العلم يقتحم كل يوم أفقاً لم يقتحم من قبل. الإنتاج يزيد. وسائل الراحة والتيسير متوالية تترى.

" الإنسان يصنع نفسه " (43)

لا حرج. ولا قيد. ولا رجعة.

الحياة تجارب. وتلك تجربة القرن العشرين. أروع تجربة في تاريخ البشرية. تجربة يقوم بها " الإنسان " بعيداً عن وصاية " الله ". لقد شب عن الطوق. ما حاجته اليوم إلى الله أو الدين؟ إنه هو الإله الجديد، يصنع دينه بنفسه بعيداً عن إيحاءات الدين الموروث.. دين القرون الوسطى في عصر الظلمات (44)

ولم يفكر أحد في أثناء الدفعة المسعورة التي تنفخ فيها الشياطين، أن هناك " فطرة " للإنسان تتأذى من هذا الانحراف المجنون..

" فطرة "...؟!

---

(43) " Man Makes Himself " عنوان كتاب لمؤلف أمريكي يدعى " جوردن تشايلد " V. Gordon Childe

(44) يقول جوليان هكسلي في كتابه (الإنسان في العالم الحديث) Man in the Modern World: ولقد كان الإنسان في العصور السابقة يلقي العبء على كائن مقدس غير مفهوم يسير الأمور بطريقة غامضة. أما الآن فيجب عليه ألا يفعل ذلك نظرا لزيادة معرفته بحقائق الكون. ومعنى ذلك قيام الإنسان بالتبعات التي كان من قبل يلقيها على الإله (ص 224 من الترجمة العربية)

هل بعد هذا العلم كله، والتقدم كله، والانطلاق كله، والتحرر كله.. يجيء من يحدثنا عن الفطرة؟

فطرة ماذا؟!

ألم تقرأ التفسير المادي للتاريخ؟ ألم تعلم أنه ليس هناك كيان ثابت يسمى الإنسان؟ وأن الإنسان هو حصيلة ظروفه الاقتصادية والاجتماعية.. والمادية. وظروف اليوم غير ظروف الأمس. فحصيلتها مختلفة. ومؤدى هذا الاختلاف أن تجارب الماضي لا تقيد إنسان القرن العشرين، ولا يحكم بها على نشاطه وأعماله. إنما يستمد الحكم الجديد من الوضع الجديد..!

الفطرة..؟!

بل الفطرة ذاتها – إن شئت أن تستخدم هذا اللفظ الرجعي المتأخر – هي التي تدفع إلى هذا الانطلاق. فالجنس عملية " بيولوجية " بحتة. ما دخلها بالأخلاق؟ هذا منطق الفطرة! هل الكلب وأنثاه، يعرفان في لحظة الجنس شيئاً اسمه الأخلاق؟ وماذا يزيد الإنسان عن الكلب؟ أوهام صنعتها الأديان!!

الفطرة.. لا فطرة. أو إن شئت فهاتيك الفطرة. نحن نعيش على الفطرة على الدوافع الفطرية. بلا كبت أو ضغط أو حرمان!

ومضت الموجة العاتية إلى قمتها.. لا يضبطها شيء أو يمسكها عن تحطيم " الإنسان "!

الحتمية.. من ذا يمكن أن يقف الحتمية؟

ثم.. لماذا يوقفها؟

العيش لذيذ في ظل " التطور ".. انفلات بلا قيود.. وانطلاق بلا حدود. متعة..

ومن الذي يتجه إلى وقفها؟ البنت المجنونة بالإغراء لتثبت ذاتها وتحقق كيانها؟ أم الولد الغارق في المتاع الميسر اللذيذ الذي لا يكلف دراهم معدودات؟

أم بيوت الأزياء ودور السينما والمخرجون والمنتجون وال.. الذين يعملون في تلك الصناعة الرابحة بالملايين؟

أم " الأدباء " و " الفنانون " الذين تروج كتبهم وأعمالهم في هذا السعار المجنون؟

أم الشياطين الذين يقودون البشرية إلى الدمار؟

كلا!

*　*　*

ومع ذلك.. يقف أناس ليصيحوا صيحات النذير!

يقف أناس ليقولوا: قد جاوزنا المدى وأبعدنا في التيه!

يقف أناس ليقولوا: عودوا إلى " الفطرة ". عودوا إلى الأخلاق. عودوا إلى الفرامل. فأنتم تدمرون أنفسكم. تدمرون مستقبلكم. تدمرون " البشرية "!

أناس من اتجاهات شتى.. ليس فيهم واعظ من رجال الدين!

رجال " علم " ورجال " سياسة ". وفلاسفة. وملحدون!

وتتوالى الشهادات من تلك الأفواه.. أفواه القرن العشرين!

يقول.. " ألكسس كاريل " في كتابه " الإنسان ذلك المجهول ":

" إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا. لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا **الحقيقية**. إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا [ص 38].

يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب في العالم الذي ابتدعه. **إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته**.. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية.. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقومنا، ولا بالنسبة لهيئتنا.. إننا قوم تعساء **لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا.. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه**

الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها.. " [ص 43 - 44].

" إن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي. وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بني الإنسان – إلى حد كبير – للنقائص الموجودة في جوهم السيكلوجي. **إذ أن تفوق المادة ومبادئ " دين الصناعة " حطمت الثقافة والجمال والأخلاق** " ص [184]

" لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما. ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن، أو مطامعهن الاجتماعية، أو مباذلهن، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية، أو اللعب البريدج، أو ارتياد دور السينما.. وهكذا يضيعن أوقاتهن في الكسل. إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار، فيتعلم منهم أموراً كثيرة.. إن الكلاب الصغيرة التي تنشأ مع أخرى من نفس عمرها في حظيرة واحدة، لا تنمو نمواً مكتملا كالكلاب الحرة التي تستطيع أن تمضي في إثر والديها. والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء. لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقا للقوالب الموجودة في محيطه. إذ أنه لا يتعلم إلا قليلا من الأطفال في مثل سنه. وحينما يكون مجرد وحدة في المدرسة، فإنه يظل غير مكتمل. ولكي يبلغ الفرد قوته الكاملة فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة " [ص 318 - 319].

" **من المعروف أن الإفراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي. ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته.. ولقد أكد فرويد، عن حق، الأهمية القصوى للدوافع الجنسية في وجوه نشاط الشعور. ومع ذلك فإنه ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص.. ومن ثم يجب ألا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا، وسيطرة على أنفسهم.. وبينما يصبح الضعفاء، المعتلو الأعصاب، غير المتزنين، أكثر شذوذا عندما تكبت شهوتهم الجنسية، فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة، بممارسة هذا الشكل من الزهد** " [ص 174].

" الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها المجتمع العصري. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره، وعرفنا أنه لا يستطيع

تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها " التكنولوجيا " وأن **مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله**. وأن العلم والتكنولوجيا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة، **وإنما نحن المسئولون، لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا القوانين الطبيعية، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى. الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائما.. فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في ارتياد الأرض المحرمة.. هي إضعاف السائل.. ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار** " [ص 322].

* * *

ويقول " ول ديورانت " الفيلسوف الأمريكي في كتابه " مباهج الفلسفة ":

" وثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطيرة، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض. وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا؛ ويبدو العالم كله مستغرقا في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب. إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط. نعني كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس؟ **إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا** الفساد الماجن من جهة، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى، حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات... " [45] [ص 6 – 7 ج 1]

" واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا. فقد كان القانون الأخلاقي قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج، لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج. أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل، وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل. ويجب على القانون

[45] يلاحظ أن الكاتب – مع إقراره بأن حرارة الإيمان الديني قد أنشأت ذات يوم اتزانا في العقل – لا يدعو ولا يعمل لاستعادة حرارة الإيمان الديني. إنما هو يلجأ إلى " الفلسفة " لتعيد اتزان العقل المفقود! والفلسفة في تاريخها الطويل كانت حصيلة ذهنية باردة، لم تؤثر قط في حياة البشرية الموارة. فالحياة البشرية لا تؤثر فيها إلا العقيدة الدافعة. ولكن الكاتب الغربي – الأمريكي – لا يملك إلا هذا الحل الهزيل.. لأنه هارب من الكنيسة!

الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة!... " [ص 125 ج 1]

" فحياة المدنية تفضي إلى كل مثبط عن الزواج، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها ولكن النمو الجنسي يتم مبكرا عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادي. فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عمليا ومعقولا في ظل النظام الاقتصادي والزراعي، فإنه الآن يبدو أمرا عسيراً أو غير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال، حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين. ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم. وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعا للسخرية؛ ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالا، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال. ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا، وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس. لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي، ولم يعد العالم المدني يحكم به [46] " [ص 126 - 127].

" ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه. ولا في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب.. **ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية. وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله**. وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة؛ وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان. وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر. **غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية، وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين، وهم في حُمَّى الفوضى الصناعية، من حِمى الزواج ورعايته للصحة.**

ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة. لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر. ويجد الرجل لإرضاء غرائزه

---

[46] واضح أن الكاتب يسير هنا على هدى التفسير المادي للتاريخ، فيفسر التحلل الخلقي " بالتطور " الاقتصادي. ولن نناقش هذه " الشهادات " هنا، وإنما ننقلها كما هي بغير تعليق، لأن الذي يهمنا منها هو النتائج التي يصل إليها أصحابها في النهاية، من القول بأن هذا " التطور " أو أياً كان اسمه، ينذر البشرية بالانهيار. وهي نتيجة مشتركة وصل إليها " الشهود " جميعا على اختلاف مذاهبهم.

الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا بأحدث التحسينات، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية. ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها. . " [ص 127 - 128].

" وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية. وحين اكتشف الشبان والفتيات – وقد أكسبهم المال جرأة – أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين... " [ص 134]

" ولما كان زواجهما [الرجل والمرأة في المجتمع الحديث] ليس زواجا بالمعنى الصحيح – لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة – فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه، ومقومات الحياة. يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع. وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان. وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر. وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف. فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته... " [ص 225]

" لندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا. **أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده.** فنحن غارقون في تيار من التغيير، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها. وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم، فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء، فقد فقد الزواج القاصر [المقصور] على واحدة جاذبيته الهامة. ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر، حيث لا يكون النسل مقصودا. وسيزداد الزواج الحر، مباحا كان أم غير مباح. ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد. سينهار " المستوى المزدوج " وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج. سينمو الطلاق، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة. ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة. وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا في كل طبقة، يضحي الحمل أمرا عارضا في حياة المرأة، أو

تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت.. وهذا كل شيء "[47]. [ص 235 - 236].

*　　*　　*

ونشرت جريدة " أخبار اليوم " في عددها الصادر في 12 مايو 1962، تحقيقا صحفيا بعنوان " شباب العالم في طريق الضياع! " جعلت مقدمته هكذا: " إلى أين يتجه شباب العالم؟! في أمريكا يرتفع ترمومتر الانحراف بين الشباب.. وفي بريطانيا تتألف عصابات من المراهقين للسطو وتدخين الحشيش.. وفي سويسرا يتزايد الانحلال.. وفي روسيا يجتمع المجلس الأعلى للسوفيت ليبحث مشكلة انحراف الشباب الروسي.. لقد أبرقت " أخبار اليوم " إلى مندوبيها ومراسليها في عواصم العالم وطلبت منهم صورة كاملة من الانحراف الجارف الذي يهدد شباب العالم.! "

وهذا هو نص التحقيق:

من لندن كتب زغلول السيد:

إن جرائم من كل نوع يرتكبها الشبان في بريطانيا كل لحظة. وهي جرائم تختلف باختلاف الطبقات. إذ أن بريطانيا هي أكثر بلاد العالم حساسية بالنسبة لنظام الطبقات. الصحف البريطانية تنشر كل يوم جرائم تقع في مختلف أنحاء البلاد. وتصور لنا هذه الجرائم تلك الجريمة التي وقعت أخيراً عندما دخل بعض الشبان السينما، ولم يعجبهم الفيلم فانهالوا على مقاعد السينما الوثيرة يمزقونها بالسكاكين، ثم مزقوا الشاشة بأيديهم. وكانت النتيجة أن أغلقت السينما أبوابها. ولم يكن هذا الحادث هو الأول من نوعه. وإنما كان الثالث!

هجوم العصابات:

ومنذ أيام نظمت إحدى عصابات الشباب هجوما على عصابة أخرى وطعنت بالسكاكين عشرة من أفرادها. وقد أعد الهجوم كما تنظم الحملات العسكرية. فقد أرسلت عصابة " موسويل " بعض أفرادها للقيام بمهمة الاستطلاع ثم بدأ بعد ذلك الهجوم

[47] ألف الكاتب كتابه هذا سنة 1929! وقد تحققت كل الشرور التي توقعها الكاتب يومئذ، فأصبح المجتمع الأمريكي كما توقعه بالفعل، كما أن هذه الشرور ذاتها تنتقل – بالعدوى – إلى المجتمعات " المتحضرة " التي تنقل حضارتها عن الغرب.

بالسكاكين والعصي والقضبان الحديدية والزجاجات المكسورة. وكان أفراد العصابة الأخرى يرقصون التويست في قاعة البلدية. وفاجأتهم عصابة " موسويل " بالهجوم وارتفعت صرخات الفتيات اللاتي كن يشتركن في الرقص وسالت الدماء في كل مكان.

جرائم الطبقة الدنيا:

ومثل هذه الجرائم هي التي يشتهر بها أفراد الطبقة الدنيا. وهي في الواقع أفظع الجرائم وأكثرها إزعاجا... فالشبان المنحرفون من أفراد هذه الطبقة يتجمعون أحياناً في عصابات كبيرة ويهاجمون القرى والمدن الصغرى ويتصرفون بالطريقة التي يشاهدونها في الأفلام تماماً.

5 شبان أمام القاضي:

وفي الأسبوع الماضي وقف خمسة شبان أمام القاضي الإنجليزي سيمور كولينز في ويست لندن بتهمة الانحراف والبطالة. قال القاضي لجون بومونت (23 سنة) إنك شاب تتمتع بإمكانيات طيبة. ولكنك تترك نفسك تتهاوى وتزداد كسلا وخمولا حتى تصل إلى مرحلة لا يستطيع أحد أن يساعدك فيها.

وقال القاضي لبول إيفا " 23 سنة " هل تعتقد حقاً أن أي شخص يمكن أن يستخدمك في عمل. وأنت تترك شعرك يسترسل على جبينك ورقبتك؟

وقال لشارلس ويستوود (21 سنة) يلزمك قدر كبير من المجهود لتجعل من نفسك إنساناً مهذبا.

تركت الكلية إلى الشارع:

ويرد الشبان بأقوال مختلفة. فمالكوم دريك (23 سنة) قال: " لقد ساعدني أبواي على تحصيل قدر كبير من التعليم. ولكن في منتصف مرحلتي الدراسية بالكلية بدأت أتساءل: ما الذي سأكونه في المستقبل؟ ورأيت نفسي مساعد صيدلي أجلس طوال اليوم وراء " البنك " وعندما تمعنت في هذه الحياة لم أجد فيها كثيراً من السعادة. كل ما فيها مرض وأدوية وحبوب مهدئة.. ولذلك فقد تركت الكلية، وقررت أن أحيا طليقاً في شوارع لندن وباريس! "

احتقار الحياة.. بالإجماع:

إن هؤلاء الشبان جميعاً مجمعون على احتقار الحياة، وكان مثل هؤلاء يموتون في الشوارع من الجوع، أما المتعطلون في لندن منذ ثلاثين عاما الآن فإن المجتمع يساعدهم "على نحو ما" على الحياة.

يشرح أحدهم وهو شارلس ويستوود كيف يحصلون على نقود فيقول: " إن دخلنا الأسبوعي يتراوح بين 30 و40 شلنا، ونحن نحصل على المال من الفتيات اللاتي يشفقن علينا، أو الفتيات اللاتي يشعرن بالسرور منا، كما نحصل على المال من السياح الذين يريدون التقاط صور لنا، أو من زائري لندن الذين يريدون الاطلاع على خبايل الليل في المدينة. أو من المثقفين الذين يقضون الليل في مناقشتنا، أو من الناس الذين يشعرون بالوحدة ويريدون رفيقا. أو باختصار من أي شيء مشروع ولكن بلا مجهود أو عمل ".

جرائم الحشيش:

وهذا النوع من الجرائم التي يرتكبها الشبان المتعلمون من الطبقة المتوسطة مثل تدخين " الحشيش " يتزايد باستمرار. ويجذب هذا النوع من الجرائم الفتيات تماماً كما يجذب الشبان. ولكن لما كان من الصعب على الفتيات أن يحصلن على " الحشيش " فإنهن يلجأن إلى نوع من أقراص المخدرات الخفيفة. وتباع هذه الأقراص سراً في بعض المقاهي والبارات. وقد اكتشف البوليس في بلدة إيستبورن أن طالبات المدارس يتناولن هذه الأقراص. والسبب الذي أبدينه هو " الهرب من الحياة " [48] وأسوأ مناطق الإجرام والانحراف في لندن منطقة " سوهو " التي تنتشر فيها أوكار المخدرات وحيت ترقص الفتيات التويست طوال الليل حتى إذا طلع الصبح يصبح التخدير والإرهاق قد أعياهن فلا يهمهن بعد ذلك ماذا يحدث لهن!

مواجهة الحقائق:

والسؤال الآن: ما الذي تفعله بريطانيا لمواجهة هذه الجرائم المتزايدة؟

لقد ذهبت إلى إدارة الأحداث المنحرفين بوزارة الداخلية. وقابلت مستر رومان مدير الإدارة الذي قال لي إن أسباب الجرائم تختلف من طبقة إلى أخرى. وإن أسوأ أنواع الشبان المنحرفين هم الشبان الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا. ولقد دل التحقيق على أن تربية

---

[48] في بحث جديد للدكتور لينيكن في جريدة الصنداي تيمز الإنجليزية بتاريخ 27 يناير سنة 1963 يقول عن الشباب المنحرف الذي يتعاطى المخدرات هناك: " إنهم يقولون إن الحشيش محاولة للتعبير عن أنفسهم، ولتحديد ملامحهم في مجتمع ضائع. في عالم بلا شكل! وهم يفخرون بأنهم قد فتحوا لنا باب إدراك الخيال الإنساني! "

الطفل مسئولة إلى حد كبير عن سلوكه. ولقد كانت الحرب مسئولة في البداية. فقد هاجرت بعض الأسر أثناء الحرب وتركت أطفالها الذين لم يجدوا آباء وأمهات يعتنون بهم. واتجه الكثيرون منهم إلى الجريمة.

ولا شك أن السينما والتليفزيون لهما تأثيرهما على الشبان أيضاً. لقد شنق صبي في الثالثة عشرة من عمره صديقا له بجورب أمه. وعندما سئل عن السبب أجاب قائلا: " لقد رأيت شيئا كهذا في التليفزيون. "

العلاج:

وقد أمرت الحكومة بإجراء تحقيق خاص في مسألة الأفلام والمسرحيات العنيفة التي تعرض في التليفزيون. ولكن هذا ليس السبب الوحيد في انتشار جرائم الشباب. لقد قال مستر بومان إن الحكومة لم تستطع توفير التسهيلات اللازمة لكي يقضي الشبان أوقات فراغهم بطريقة مرضية، ولذلك فإن الحكومة تشترك الآن في مشروع كبير يهدف إلى بناء مزيد من الأندية وحمامات السباحة وغير ذلك من وسائل قضاء وقت الفراغ.

وفي نفس الوقت يشترك جيش كبير من الأطباء والإخصائيين الاجتماعيين والإخصائيين في التربية في دراسة أسباب انحراف الشبان واحتياجاتهم ومشاكلهم.

صورة من سويسرا:

ومن سويسرا كتب إبراهيم سعدة:

الوقت الواحدة بعد منتصف الليل. الشوارع خالية تماما.. البرد يجمد الأطراف ويشل حركة الدم في العروق. وفجأة ظهرت سيارة قديمة مكشوفة!.. لا تعرف لونها فهي مطلية بجميع الألوان الطبيعية وغير الطبيعية. لوحة طائشة عبثت بها ريشة الفنان الغريب الذي يقلد بيكاسو. رسومات عجيبة. فوق هيكل السيارة. ونوافذها. وكل مكان فيها. حتى ليصعب عليك التقاط أرقامها.. أكثر من 7 أشخاص كانوا يركبون هذه السيارة.

لا يمكنك أن تفرق بين الصبي والفتاة. الملابس واحدة. نفس البنطلون الضيق جداً الذي يحدد أكثر مما يخفي. نفس " البلوزة " الملونة بالأحمر والأخضر والهباب مع النمبي. الشعر طويل ويصل إلى أعلى الدقن.. وإلى ما وراء القفا.

إلى داخل الشقة:

ثم وقفت السيارة أمام إحدى الفيلات المتناثرة في إهمال أمام بحيرة جنيف. ويدور المفتاح المفقود في القفل.. وتندفع المجموعة داخل الشقة – في الدور الثاني من الفيلا – وتضاء الأنوار.. والشموع.. وتفرقع زجاجات النبيذ والبيرة والويسكي ثم يسكب كل هذا في وعاء كبير لتكوين أعجب كوكتيل لم يسمع بمثله أمهر " متردوتيل " حتى يومنا هذا! وانسابت الموسيقى من الآلة الصغيرة التي تدور فوقها أحدث الأسطوانات الراقصة وغير الراقصة.. واختفت الأنوار.. واكتفت المجموعة بالشموع الملونة.. والأضواء غير المباشرة والتي تنبعث من خلف مقعد.. من وراء ستارة.. فوق دولاب! ووضع كل " مخلوق " سيجارة أو سيجارا أو بيبة بين شفتيه.. وبدأت حلقات وسحب الدخان المتباينة تحلق في سقف الغرفة الضيقة. وكان لا بد من الرقص لتكتمل " الحفلة ".. ولم تتنبه المجموعة إلى أن الساعة قاربت الثالثة صباحا.. بل اختاروا أعنف أنغام راقصة كالروك أندرول.. وأجنها كالتويست، وبدأوا يضربون بأقدامهم وأجسامهم فوق الأرض... ثم توزع أوراق " الكوتشينة " بالتساوي على اللاعبين.. ثم يسحب الأول ورقة من اللاعب الثاني فإذا وجده عنده مثلها ألقى بالورقتين على الأرض.. وهكذا حتى ينتهي الدور بأن تتبقى ورقة أخيرة في يد لاعب فيعتبر الخاسر في هذا الدور.. ويستحق توقيع العقاب عليه.. والعقاب الوحيد في هذه اللعبة هو أن يقوم الحاضر بخلع أي قطعة من ملابسه.. فيبدأ عادة بخلع الجاكيت.. أو الكرافت.. أو الحذاء.. وهكذا حتى تنتهي اللعبة بأن يخلع اللاعبون ملابسهم كلها ويصبحون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم.. بين ضحكاتهم وصرخاتهم وغمزاتهم.. وتزداد هذه الصرخات في حالة وجود فتاة أو أكثر ضمن " الشلة "..

وحكاية أخرى..

ولم تتنبه كل العائلات إلى نداء الصحافة! إن بعضها لم يستفد من الدرس المؤلم الذي جاء بعد القبض على " شلة " المراهقين التي كتبتها في بداية هذا التحقيق! الدليل.؟ لقد عرفت سويسرا عصابات البلوفر الأسود.. إنها البدعة المستوردة من باريس.. الشباب الضائع الذي استطاع الهروب من سيطرة الآباء فعاش في الشوارع والمقاهي والمواخير.. حياة بوهيمية لا معنى لها.. الأيام تمر وهو في مكانه في المقهى أو على الرصيف، لا يشعر بها حتى تنتابه حالة من حالات الملل والضيق.. فيقرر أن يقدم على شيء يبعده عن هذا الضيق وهذا الملل ويقربه من الضياع.. أي شيء خارق للعادة ليلفت إليه الأنظار.. وتنشر صوره في الصحف ويقفز اسمه إلى الصفحات الأولى.. ويتحدث عنه الناس في كل مكان.

الشباب الضائع فقد زمامه:

هذه المشكلة لا تهم سويسرا وحدها.. وإنما تعاني منها معظم دول أوربا. بدأت الأزمة في باريس.. فقالت الصحافة إن الشباب الفرنسي مظلوم إن السينما الأمريكية هي السبب. أفلام المغامرات والعصابات ورعاة البقر هي التي حطمت معنويات الجيل الجديد. إن المراهق الفرنسي يقلد آل كابوني.. ويحلم بالثراء بعد السطو على أحد البنوك على الطريقة الأمريكية التي يشترط فيها اختفاء جميع رجال الشرطة تماما من أمام البنك لحظة تنفيذ الخطة. آراء أخرى لا توافق الرأي الأول وتقول إن السينما والأفلام الأمريكية مظلومة وبريئة من هذا الاتهام. وإن أهم أسباب انحراف الشباب في فرنسا هو انحلال المجتمع نفسه. انعدام الروابط بين أفراد الأسرة. سياسة " عدم المبالاة " التي يطبقها الآباء في تربية الأولاد. إن ترك المراهق وحده في هذا الحياة المبكرة يدفعه إلى الحيرة.. والضياع. الأفلام المثيرة تؤثر فيه.. التصرف الخاطئ يجد فيه نوعا من المغامرة.

حفلات ساهرة وألوف الجنيهات:

ففي كل شهر – على الأكثر – تقام في باريس حفلة ساهرة للشباب يغني فيها جوني هوليدي الذي لا يزيد عمره على 18 سنة ومطرود من المدارس الإعدادية وصاحب مئات الألوف من الجنيهات الآن! ويتسابق أكثر من 10 آلاف مراهق ومراهقة لسماع هذا المغنى.. برغم ارتفاع ثمن تذكرة الدخول. تبدأ السهرة في التاسعة مساء ولا تنتهي إلا بعد تدخل البوليس والمطافئ والإسعاف والآباء.!

وتسيل الدماء ويسقط العشرات قتلى وجرحى!

الرقابة الدقيقة:

وعلماء النفس يطالبون أولا بالعلاج الوقائي.. يطالبون بفرض الرقابة الصارمة على الأفلام السينمائية.. سلسلة الأفلام الإباحية المنحلة التي تخرجها فرنسا وألمانيا وإيطاليا يجب أن تتوقف.. أن يمنع عرضها تماما لا أن يقتصر على تحديد سن المتفرج بعمر معين. هذه الرقصات الانحلالية يجب أن تمنع من التلفزيون ومن المحال العامة.. والقبض على المنحل جوني هوليدي وأمثاله وإيداعهم إصلاحيات يتربون فيها.

جرائم الأحداث في أمريكا:

ومن واشنطون كتب فريد زوسي:

سجلت جرائم الأحداث في الولايات المتحدة ارتفاعا ملحوظا في العام الماضي معادتها منذ 12 سنة على التوالي حيث بلغ عدد الأولاد الذين مثلوا أمام محاكم الأحداث حوالي المليون. بعد أن كان هناك 773 ألف قضية أمام محاكم الأحداث في عام 1959.

ومشكلة الأحداث تثير الأمة الأمريكية. ولا سيما بسبب امتدادها إلى الطبقات العليا في المجتمع. كما أن هناك نسبة عالية من الانحراف بين الفتيات، ويثرن مشكلة كبيرة في كيفية التصرف معهن لأن معظم مؤسسات الأحداث خاصة بالأولاد.

وقد ألقى البوليس أخيراً القبض على مجموعة من الأولاد تتراوح أعمارهم بين 15 و 17 سنة من أغنى العائلات متهمين في 11 تهمة سرقة وأربع تهمات اقتحام منازل، ومتهمين بسرقة سيارة، وعشر تهمات تخريب وتدمير. وفي نيوجرسي قبض البوليس على عصابة تضم 17 من الأحداث بتهمة سرقة أشياء ثمينة تقدر أثمانها بحوالي 10 آلاف دولار وبيعها بأثمان بخسة. ولقد اعترفوا بأنهم يتلقون من آبائهم أموالا كافية تجعلهم في غنى عن السرقة، وأنهم أقدموا على السرقة لأنها " شيء مثير ". وفي ويست شستر وهي إحدى الضواحي الغنية بمدينة نيويورك اتهم المدعي العام أكثر من 250 شابا معظمهم من العائلات الغنية المعروفة ببيع واستخدام المخدرات. وقد تحول الكثيرون منهم إلى مدمنين وبعضهم من طلبة الجامعات.

قانون الكونجرس الأمريكي:

وقد أصدر الكونجرس الأمريكي أخيراً بعد ست سنوات من المناقشة قانون جرائم الأحداث عام 1961 ووقعه الرئيس كنيدي. ويعد هذا القانون بمثابة نقطة تحول في مكافحة جرائم الأحداث، وهو يخصص 30 مليون دولار لهذا الهدف خلال السنوات الثلاث القادمة، ولما كانت البطالة بين الشباب من الأسباب الرئيسية للانحراف، لذلك أكدت حكومة كنيدي عزمها على القيام ببرنامج ضخم لتشغيل الشباب، ومن مراحل هذا البرنامج إنشاء قوات السلام خارج الولايات المتحدة وفي أعالي البحار.

مشكلة دولية:

وهنك حقيقة هامة هي أن جرائم الأحداث ليست مقصورة على أمريكا ولكنها مشكلة ذات طابع دولي، وقد أكد ذلك عدة مئات من المندوبين من جميع أنحاء العالم الذين حضروا مؤتمر الأمم المتحدة لمنع الجريمة وتقويم المنحرفين الذي عقد في لندن عام 1960 وحضره مندوبون من الاتحاد السوفيتي أيضاً.

* * *

وأخيراً تجيء تلك الشهادة من رئيسي أكبر دولتين في العصر الحاضر، الدولتين الحاكمتين بأمرهما في الأرض، واللتين تتنازعان فيما بينهما مناطق النفوذ في العالم أجمع.

في عام واحد، 1962، يصدر تصريحان من رجلين يباعد بينهما ما بين الشيوعية والرأسمالية من خلاف في المذهب وخلاف في السياسة وخلاف في الوسائل. ولكن يجمع بين تصريحيهما شبه واضح. إن كلا منهما يقدم إنذاراً لشباب وطنه، أنه جاوز المدى في انحلاله، وأنه في طريقه إلى الانهيار.

قال خروشوف: إن الشباب الشيوعي قد بدأ ينحرف ويفسده الترف! وإن من بينه " عصبجية وصيّعا! " وأنذر بأن الحكومة السوفييتية تبحث إطلاق يد البوليس في معالجة هؤلاء " البلطجية " كما أنذر بأن معسكرات جديدة قد تفتح في سيبيريا للتخلص من الشباب المنحرف لأنه خطر على مستقبل روسيا!!

وقال كنيدي: إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، بسبب انهماكهم في الشهوات! وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا. وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج!

* * *

ولا يفوتنا أن نشير إلى الفضيحة الكبرى التي حدثت في إنجلترا منذ قريب وأتهم فيها وزير الحرب بإذاعة أسرار عسكرية هامة تعرض وطنه للخطر في مقابل شهوة دنسة مع فتاة ساقطة تحيط نفسها بجو من الدعارة يسقط فيه الأمراء والوزراء!

وهذا كله فوق حوادث الجنون والانتحار ولأمراض العصبية والنفسية وضغط الدم، الآخذة في الزيادة المستمرة، والتي لا مثيل لها في عددها وفي ضراوتها، في كل أجيال التاريخ!

* * *

إنها أمور خطيرة جداً تلك التي تقولها شهادة القرن العشرين!

إنها تقول أولا: إن هذا التحلل الخلقي ليس " تطورا " وإنما هو **انحراف**.

وتقول ثانيا: إنه انحراف ضار بالكيان البشري مؤدٍ إلى الدمار.

وتقول بالتالي: إن هناك " فطرة " للإنسان، تتأذى من كل شيء لا يلائم طبيعتها، وتمرض من استمرار تعاطيه.

وتقول كذلك: إن هذه الفطرة **ثابتة،** فما كان يؤذيها ويدمرها قبل ألفي عام ما زال يؤذيها ويدمرها بعد مرور الأجيال الطوال، ولم يحدث فيها " تطور " يجعلها تصحّ على ما كانت تمرض به في تلك الأزمان. بل هي ما زالت تمرض به على نفس الصورة وبنفس المقدار.

وتقول أخيراً إن الجانب الخلقي – على الأقل – من حياة الإنسان، ذو مقياس ثابت يقاس به في جميع الأجيال، فما كان صوابا في علاقات الناس – وعلاقات الجنسين بصفة خاصة – قبل ألفي عام، ما يزال هو الصواب، وما كان خطأ وانحرافا في تلك العلاقات ما يزال هو الخطأ والانحراف، بعد كل " التقدم " العلمي، " والتطور " الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، " والتحور " النفسي في ألفين بل ألوف من الأعوام!

وخلاصة ذلك كله أن أي نظام لحياة البشرية ينبغي أن يجعل في حسابه ذلك المقياس الثابت للأخلاق، مهما كانت مرونته في الجوانب المادية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي ينبغي أن تنمو، وينبغي أن يسمح لها بالنمو في ظل أي نظام صالح للحياة..

وهذا يقودنا إلى الحديث عن موقف الإسلام من الحياة البشرية..

الإسلام وحَياة البشرية

الإسلام دين الفطرة..

ومزيته العظمى أنه يساير الفطرة ويطابقها مطابقة كاملة.

وقد تحدثت في كتابين سابقين عن لون هذه المطابقة ومداها. فتحدثت في كتاب " منهج التربية الإسلامية " عن طريقة الإسلام في تربية النفس البشرية، وكيف أنه يشملها كلها من جميع جوانبها، ويشملها كلها في آن واحد:

" طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء. جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه على الأرض.

إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه على ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، لا يغفل عن شيء من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصيل.

ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر منها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر، فيضبطها بضبطها الصحيح.

وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة. لا يعالج كلا منها على حدة فتصبح النغمات نشازا لا تناسق فيها. ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع " [49]

وفي كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " عدت إلى رسم مكوّنات النفس الإنسانية وطريقة الإسلام في معالجتها " ووكدت بصفة خاصة حقيقة الترابط في كيان الإنسان:

" هذا الكيان الإنساني المفرد، لا نصل إلى كل قراره في الحقيقة حين ندرك فقط أنه كيان مزدوج الطبيعة، ثم ندرك أن هناك امتزاجا بين عنصريه المكوّنين له، يجعله – وهو يجمع بين نشاط الملَك ونشاط الحيوان – يؤدي كلا منهما بطريقته الخاصة، طريقة الإنسان، التي تحمل مشابه من الملك ومشابه من الحيوان، ثم تفترق في النهاية عن الملك والحيوان.

[49] منهج التربية الإسلامية، ص 19 من الطبعة الثانية.

ليس هذا هو القرار الأخير في كيان الإنسان!

وإنما نصل إلى قراره حين ندرك أن في الحقيقة كيان موحد، على الرغم مما في طبيعته هذه من ازدواج.

كيان موحد.. كل ما ينبعث عنه من نشاط فإنما يصدر عن كيانه الموحد المتشابك المعقد التركيب!

أعمال الإنسان كلها ذات ترابط وثيق وإن بدت منفصلة في بعض الأحيان.

النشاط المادي والنشاط المعنوي..

النشاط العملي والنشاط التعبدي..

النشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والنشاط الفكري والروحي..

كل لون من ألوان النشاط هذه وما شابهها قد يبدو لأول وهلة نشاطا منفصلا، متخصصا، مستغرقا، يقوم به الإنسان بجانب من جوانبه، ولا يتصل ببقية الجوانب أي اتصال..

وذلك وهم ظاهري، كوهم تجزؤ الإنسان إلى جسم وروح منفصلين.

وَهْمٌ يغري به بروز أحد هذه الجوانب في لحظة وتوارى الجوانب الأخرى مؤقتاً وراء هذا البروز " [50]

وهنا في هذا الكتاب نبحث الموضوع من زاوية أخرى، هي زاوية الثابت والمتطور في كيان الإنسان، وطريقة الإسلام في معالجة النفس البشرية في هذا المقام.

* * *

إن الكيان البشري وحدة..

[50] دراسات في النفس الإنسانية، فصل " طبيعة مزدوجة "

وحقيقة إن فيه جوانب ثابتة وجوانب متطورة كما رأينا فيما سبق من البحث. أو فيه – على الأصح – صور متغيرة وجوهر ثابت.. ولكن عجيبة الإنسان الكبرى أن الثابت والمتطور فيه يكوّنان وحدة واحدة في النهاية، مترابطة متماسكة متحدة، لا يمكن فصل بعضها عن بعض.

العقل البشري يتطور.. ينمو على الدوام.. تجدّ له معلومات وخبرات وتصورات. ولكنه مع كل تطوره لا يقفز وحده خارج كيان الإنسان، ويتطور بمفرده، تاركا بقية النفس. **وإنما يتطور وينمو وهو في داخل الإطار الكلي للإنسان**، سواء في ذلك الإنسان الفرد، أو الإنسان المتجمع في صورة مجتمع.. وكذلك النتاج العلمي أو المادي لهذا التطور، إنه ينمو على الدوام، ولكنه لا يستقل بنفسه عن الكيان البشري، وإنما يأخذ حيّزه – مع تطوره الدائم – في داخل الكيان الثابت الذي يتكون منه " الإنسان ".

والنمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والنمو النفسي كذلك.. كل شيء ينمو ويتطور، وهو في النهاية داخل في الكيان الثابت الذي لا تغير جوهرة التطورات..

ومن هذا الخيط المزدوج يأخذ الإسلام الأمر، وعلى أساسه يقيم نظامه للحياة البشرية.

* * *

" بسم الله الرحمن الرحيم. يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً " [51] صدق الله العظيم.

في هذه الآية الواحدة العجيبة أربع قضايا متوالية تحدد الجانب الثابت من حياة البشرية!

" اتقوا ربكم الذي خلقكم " " من نفس واحدة " " وخلق منها زوجها " " وبث منهما رجالا كثيراً ونساء "

وإنه للون من الإعجاز أن تجتمع القضية هكذا، أو القضايا الأربع، بهذا التتابع السهل البسيط، في آية واحدة معدودة الكلمات!

---

[51] سورة النساء [1].

آية واحدة تقص في إيجاز معجز كل تاريخ البشرية..!

وتجيء آيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم فتفصل جوانب هذه القضية تفصيلا وتزيدها بيانا. وسنستعرض بعض هذه الآيات في أثناء الحديث التفصيلي عن تلك القضية أو القضايا الأربع المتوالية، ولكنا نريد هنا أن نبرز اجتماعها في تلك الآية المفردة التي تحدد في بساطتها تلك حقائق البشرية الأساسية في ألفاظ معدودات.

قضية الربوبية. قضية وحدة الإنسانية. قضية وحدة الجنسين. قضية المجتمع البشري.. أربع قضايا متوالية تحدد الإطار الذي تعيش في داخله البشرية.

" اتقوا ربكم الذي خلقكم " قضية الربوبية والخلق. الله هو الخالق. قضية أزلية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ! ومن ثم يترتب عليها تقوى الله. فتنشأ القضية الأولى في حياة الإنسان: قضية العقيدة.

" من نفس واحدة ".. قضية الإنسانية الناشئة من نفس واحدة. من أصل واحد مشترك. من كيان واحد يضمها جميعاً. قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ! ومن ثم يترتب عليها أخوة البشرية.

" وخلق منها زوجها ".. قضية الجنسين، الرجل والمرأة، أحدهما من الآخر. فالمرأة " من " ذات النفس التي هي الرجل.. قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ! ومن ثم يترتب عليها المساواة " الإنسانية " بين الجنسين، وكذلك وجود علاقة ثابتة بين الجنسين.

" وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ".. قضية المجتمع المتكون من الأفراد، الناشئين من نفس واحدة، والذي هم أخوة في الإنسانية. قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ! ومن ثم يترتب عليها أن تكون تنظيمات المجتمع قائمة على هذه الحقائق: الأخوة ووحدة النشأة ووحدة " النفس " البشرية..

هل تتغير هذه الحقائق أو " تتطور " بتطور أساليب الإنتاج أو تقدم العلوم؟ أم هل تتغير دلالتها؟!

إنها ثابتة لا تقبل التغيير، لأنها حقائق " تاريخية " وجدت وانتهت، ولا سبيل إلى تغيير حقائق التاريخ!

وعلى هذه الحقائق الأربع الثابتة، تقوم حقائق أخرى، وتشريعات وتوجيهات، لا بد أن تكون ثابتة لأنها تتعامل مع حقائق ثابتة، ولا بد أن تكون دائمة ما دامت الحياة البشرية على الأرض.

ونأخذ في التفصيل...

* * *

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ "

قضية الربوبية والخلق هي القضية الرئيسية في التصور الإسلامي، لأنها **الحقيقة الأولى** التي تنبثق منها كل الحقائق التالية وتعود إليها.

إن الله هو الخالق الذي خلق الكون وخلق الإنسان.. ومن ثم فهو " الرب " الذي ينبغي عبادته.. وحده.

تلك حقيقة أزلية **لا سبيل إلى تغييرها!** فكل التطور المادي والعلمي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي لن يوجد خالقاً جديداً يُنسب إليه الخلق كله وخلق الإنسان خاصة، غير الله! وكل ما يحدثه " الإنسان " على وجه الأرض من تغيير وتطوير، وإنشاء وتعمير، وهدم وتدمير.. كله لا يغير تلك الحقيقة الأزلية، ولا ينشئ خالقاً في السماوات والأرض غير الله!

والملحدون من أمثال جوليان هكسلي، الذين يقولون إن الإنسان ينبغي أن يأخذ على عاتقه ما كان يلقيه من قبل في عجزه وجهله على عاتق الله.. يهزلون! ولا يحترمون عقولهم.. وإن كانوا " مخلصين " في إلحادهم – كما يعتذر لهم بعض " المثقفين "! – فهم يسيئون تفسير حقائق الحياة. فالله الذي خلق الإنسان قد منحه الخلافة في الأرض: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً " [52]. ومن مقتضى هذه الخلافة أن **ينشئ** الإنسان بإذن الله أشياء وأوضاعا وأحداثاً على وجه الأرض. أن **ينتج**. أن **يعمل**. أن **يطور** الموجود ليبدع منه أشكالا جديدة على الدوام. وذلك معنى الخلافة التي جعلها الله

(52) سورة البقرة [30].

للإنسان... أفذلك يغري الإنسان أن ينسى حقيقته ويخاصم الله! " أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ؟! " (53)

ماذا أحدث الإنسانُ على غير قانون الله؟!

أليس في كل ما يعمل وينتج وينشئ ويطور، يعمل بمقتضى القانون الإلهي الذي أودعه فطرة الكون، وكل عمله " أن يتعرف " على " القوانين الطبيعية " التي هي " سنة الله ".. يتعرف عليها بما وهبه الله من طاقة المعرفة، ثم يحاول التطبيق عليها، بمقتضى ما وهبه الله من قدرة على التطبيق؟

أي شيء في عمله كله خارج عن النطاق الذي رسمه له الله؟

كلا! إنهم يهزلون ولا يحترمون عقولهم.. أو يعميهم الجهل عن حقيقة الناموس..

لا خالق إلا هو في السماوات والأرض.. تلك هي الحقيقة " العلمية " التي تنشأ منها كل الحقائق الأخرى في هذا الوجود.

وما دام هو الإله، فمقتضى ألوهيته أن يقوم العباد بعبادته: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " (54).

والعبادة لفظ شامل واسع محيط. إنه ليس شعائر التعبد المحصورة المحدودة. ولكنها **كل شيء**. **هي عمل العباد كله**. فالعباد مخلوقون للعبادة. أي أن كل عملهم الذي يعملون مفروض أنه عبادة. ومن ثم يلتقي العمل بالشعائر التعبدية ويصبحان شيئاً واحداً في عرف الإسلام.

وما دام هو الإله الواحد الأحد، فمقتضى وحدانيته هو إفراده بالعبادة. فلا يعبد غيره في الأرض. وليس معنى ذلك هو المعنى الضيق المحصور، وهو ألا يسجد الإنسان لأحد ولا يركع لأحد. فهذا المفهوم لا يناسب إلا المفهوم الضيق للعبادة المحصور في الشعائر التعبدية. ولكن العبادة بمعناها الحقيقي، التي هي **عمل الناس كله**، هي التي ينبغي أن تكون لله وحده ولا تكون لأحد غيره من الخلق. **فكل** العمل البشري – وهو العبادة – ينبغي أن يكون لله وحده دون شريك.

---

(53) سورة يس [77].
(54) سورة الذاريات [56].

فيأكل الإنسان لله ويشرب لله ويسكن ويلبس لله. وينشط نشاطه الجنسي لله. ويملك لله. ويقاتل لله. ويبرز لله. ويحب لله ويكره لله إلخ.. الخ وذلك هو معنى العبادة لله في نطاقها الواسع.. نطاقها الحقيقي.

ومقتضى وحدانيته كذلك أن تكون له الحاكمية وله التشريع. فالحاكمية ألوهية، وطاعة الحاكمية عبودية.. ولن يشرع إنسان للناس – من عنده – إلا أن يكون شاعراً أن الناس ينبغي أن يطيعوه هو ولا يطيعوا سواه. أي – بمعنى من المعاني – يعبدوه! وما دام يضع لهم عقوبات حين يخرجون على طاعته – هو – فهو يستعبدهم لنفسه، وهم – حين يطيعونه راضين – يتعبدون له! ويستوي أن يكون المشرع إنساناً فرداً أو مجموعة من الناس تعطي نفسها الحق في التحليل والتحريم لبقية الناس، وترسم العقوبات للمخالفين.. إنها تعطي نفسها حقوق الإله، وتتطلب من الناس ما يتوجهون به إلى الله. وهو ما لا يحق لهم ما داموا ليسوا آلهة ولا خالقين..

تلك هي القضية الأولى في التصور الإسلامي. أن تكون العبادة لله وحده. والحاكمية لله وحده. والتشريع من عند الله وحده.

وهي قضية تقوم على حقيقة أزلية.. وحقيقة " علمية " هي أنه لا إله إلا الله.

والذين يدعون إلى أن يشرع الإنسان لنفسه، ويضع القواعد لنفسه، ها هم أولاء في صراحة يقولون: إن الإنسان ينبغي أن يحمل على عاتقه هو ما كان يضعه على عاتق الله من قبل، **ويصبح هو الله!** [55]

ويلتقي بهذه الحقيقة الأزلية حقيقة مقابلة في الفطرة.. أن الفطرة البشرية تتجه إلى عبادة الله: " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا " [56]

وتلك حقيقة علمية، تثبتها وقائع التاريخ..

الإنسان في كل عصوره وكل أحواله يعبد الله. ولكنه يهتدي تارة ويضل أخرى. فيعبد الله على صفاء وصحة، أو يعبده في صور منحرفة، أو يعبده ويشرك به آلهة أخرى..

---

[55] جوليان هكسلي، كتاب " الإنسان في العالم الحديث " [وغيره كثيرون!]

[56] سورة الأعراف [171].

ولكنه في كل حالة يعبد الله.. الخالق.. الذي خلقه وخلق الكون والحياة.

ولا تحتاج الفطرة إلى من يوجهها إلى عبادة الله. فهي تعبده تلقائيا – ضالة أو مهتدية – بلا تدخل. وإن كانت توقيعات مختلفة من الكون في الحس البشري " توقظ " الفطرة وتنبهها إلى حقيقة الله.

العجز البشري، الذي يحسه الإنسان في أعماقه مهما وصل من القوة والمقدرة. العجز عن تحقيق **كل** ما يريده الإنسان والسيطرة على **كل** ما يريد السيطرة عليه. العجز عن الخلود. العجز عن معرفة الغيب. العجز على أن يكون الإنسان إلها، يقوم بذاته ولا يحتاج إلى مدد من خارجه.. من غذاء أو كساء أو جنس!!

والروعة التي يحسها الإنسان إزاء الكون.. الكون الهائل، والكون الدقيق. الأجرام المروعة في ضخامتها، والدقة المعجزة في تفصيلاتها وجزئياتها وتنظيماتها ودورة أفلاكها.

والموت.. الذي يروع الحس البشري ويلجئه للبحث عن واهب الحياة.

وروعة حدوث الأحداث: الليل والنهار، والزمان والمكان، والموت والحياة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، واللذة والألم والسعادة والشقاء.. الخ

كلها توقيعات يوقعها الكون على الحس البشري، فتوقظ فطرته إلى الله! [57]

والإسلام يقيم نظامه كله على هاتين الحقيقتين المتقابلتين: حقيقة وجود الخالق وحقيقة توجه الفطرة إليه.

فهو يمنح الإنسان عقيدة في الله، تلبي فطرته المتوجهة إلى الله، وتصحح الفطرة وتقومها من ضلالها إن ضلت عن حقيقة الله. عقيدة تلبي حاجة الإنسان الفطرية إلى الله. وحاجتها الفطرية إلى عبادته. وحاجتها الفطرية إلى التعرف على مركزها من الحياة والكون، وعلى حقيقة الصلة بينها وبين الله.

وعقيدة – من ناحية أخرى – تنظم حياة الإنسان، بمقتضى عبوديته لله وحاكميه الله له، فتجعل التشريع كله والنتظيم، مستمدا من العقيدة، مرتبطا بها متعلقا بعبادة الله. [58]

---

[57] انظر فصل الدين والفطرة في كتاب الدراسات.

[58] انظر كتاب " هذا الدين " وكتاب " المستقبل لهذا الدين ".

وعقيدة – من ناحية ثالثة – تجعل التشريع والتنظيم متمشيا مع فطرة الإنسان، في الثبات والتغير على السواء! ومن ثم تلتقي العقيدة بالفطرة في كل اتجاه.

* * *

والنظم التي خرجت على تلك الحقيقة الأزلية، ماذا صنعت ببني الإنسان؟!

لقد صنعت بهم شرورا كثيرة..

استعبدتهم بعضهم لبعض.. في حدود " الوطن " الواحد، وفي حدود العالم الكبير!

" فالطبقة الحاكمة " كما تعترف المذاهب كلها، تشرع لنفسها ولمصالحها على حساب بقية الطبقات. أي أنها تتأله على حساب الآخرين، وتستعبد الآخرين لحسابها ألوانا من الاستعباد.

و " الفرد الحاكم " هو الطاغية في كل أطوار التاريخ..

ذلك في حدود " الوطن ".. أما في حدود العالم الكبير، فأمة تستعبد أمة وتذيقها العذاب، وهذه وتلك خارجتان على الله!

واستعبدتهم لشهواتهم.. فحين ينفلت الإنسان من ضوابط العبادة الحقة لله تملكه شهواته ونزواته، فيستعبد لها ويستذل.

ووضعت لهم نظما لا تلائم فطرتهم [انظر ألكسس كاريل] لأنها قائمة على الجهل المطبق بحقيقة الإنسان. وكان من جراء هذه النظم هذا الفساد الذريع والشقاء الذي يغشى وجه الأرض..

ومزقتهم، بين حاجتهم الفطرية إلى الله والعقيدة، وبين التنظيمات الضرورية لهم، لأمنهم وراحتهم، والتي تستمد – في حياتهم – من عند غير الله. فتتضارب الحاجات، وتتمزق المشاعر، ويحدث الجنون والاضطراب..

وفي النهاية تهدد – كما رأينا في شهادة القرن العشرين – بتدمير البشرية! [59]

* * *

والعقيدة في الله أمر ثابت، لثبات الحقيقة التي ترتكن إليها، وهي وجود الخالق ووجود المخلوق.

ومن ثم كانت العقيدة – كما أنزلها الله – ثابتة في جميع أطوار التاريخ. لا تتبدل ولا يطرأ عليها تغيير.

" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.. وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.. وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... " [60]

دعوة واحدة على مدار التاريخ..

ولكن للعقيدة جانبها المتطور على مدار التاريخ! جانب التشريع والتنظيم الذي يناسب درجة النمو التي تكون عليها الأمة وقت الرسالة. النمو النفسي والاجتماعي والعقلي..

وحين تبلغ البشرية رشدها تجيئها العقيدة في صورتها الأخيرة الثابتة، وتحمل هذه العقيدة في الوقت ذاته كل المرونة المطلوبة لتطورات المستقبل [كما سيجيء بالتفصيل في نهاية الفصل]: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً " [61]

أما الذي يزعمه علم الاجتماع الغربي من " تطور " العقيدة في الله ذاتها، ليوحي إيحاء خبيثا بأن العقيدة أمر بشري، ابتدعه البشر في جهالتهم، وينبغي أن نتبرأ منه في عصر النور (!).. أما هذا فمغالطة لا تثبت للتمحيص

---

[59] راجع كتاب " الإسلام ومشكلات الحضارة " لسيد قطب.

[60] سورة الأعراف.

[61] سورة المائدة [3].

إن الذي " تطور " لم يكن هو العقيدة في الله. إنما كان انحراف العقيدة في الله!

حين عبدت البشرية أباها، وعبدت الطوطم، وعبدت الوثن، وعبدت قوى الطبيعة المفرقة.. كانت في كل ذلك تنحرف عن العقيدة الصحيحة في الله، وتتصوره تصورات شتى منحرفة، تتطور في كل مرة مع تطور " المعلومات " والتصورات البشرية، والتشابكات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. ولكنها لم تكن في شيء من ذلك تتبع دين الله.

ومن ناحية أخرى فمن الثابت في التاريخ – الذي أغفله علم الاجتماع الغربي عن عمد – أن البشرية – فيما بين انحرافاتها المتكررة " المتطورة " – قد مرت بفترات فاءت فيها إلى العبادة الصحيحة – عن طريق الرسالات السماوية – قبل أن تعود مرة أخرى إلى الانحراف.

ومن ثم فإن " تطور " التصورات المنحرفة يفقد دلالته التي يلصقها بها علم الاجتماع الغربي. فهو ليس دليلا على أن الدين قد ابتدعه البشر ولم ينزله الله، وليس دليلا كذلك على أن العقيدة في الله عنصر متطور، يجيء عليه وقت يزول من النفوس بحكم " التطور ".. وتستبدل به عبادة أخرى، أو لا عبادة على الإطلاق!

بل إن هذه الانحرافات " المتطورة " لتعطي دلالة عكسية لما يقوله علم الاجتماع الذي أبدعته الشياطين!

إنها تعطي دلالة **ثبات العقيدة!** ففي جميع الأجيال، وعلى جميع المستويات توجد عقيدة في الله!! تهتدي أو تضل، وتأخذ صوراً شتى، ولكنها في النهاية عقيدة في الله! فهي إذن عنصر ثابت في كيان الإنسان!

والقرن العشرون، أو " علماؤه " من الشياطين، لا يستطيعون أن يأخذوا من هذه الانحرافات التوجيه الذي يريدونه، وهو أن الناس في القرن العشرين أحرار في ألا يعبدوا الله! وأن الخروج من عبادة الله ظاهرة " بشرية " آن أوانها في القرن العشرين!

كلا! إن ما أثبتته الفطرة في مئات الألوف من السنين.. لا يلغيه الواقع المنحرف لبعض الشياطين في القرن العشرين، ممن فسدت فطرتهم فارتكسوا إلى ما دون مستوى الآدميين!

* * *

" اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ".

ينتقل القرآن بعد ذلك إلى القضية التالية، بعد قضية ربوبية الخالق وعبادة العباد.

" خلقكم من نفس واحدة ".

تلك الحقيقة الثابتة لا تغيرها التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولا التطور في أساليب الإنتاج! إن شيئا من ذلك كله لا يقول إن الإنسان يرجع في تاريخه إلى أصول متعددة.

حتى التفسير الحيواني للإنسان – تفسير دارون – لم يقل إن هناك أصولا متعددة للجنس البشري. وإنما هو أصل واحد مشترك في نهاية المطاف.

ولكن تلك الحقيقة الثابتة تعطي كثيراً من المعطَيات.

إن وحدة البشرية وأخوّتها حقيقة علمية. تترتب عليها أمور خطيرة في علاقات الناس بعضهم بعض.. أمور تغفلها النظم " البشرية "كلها، ويذكرها الإسلام.

ولا نعود إلى النظم السالفة، التي جعلت من الناس قوما منبوذين لا حقوق لهم، ولا كيان، ولا " آدمية ".. إنما نتحدث عن النظم " المتحضرة " الراقية في القرن العشرين!

كيف تبدو أخوّة البشرية ووحدتها في ظل " التفرقة العنصرية " التي تشوه وجه الأرض في القرن العشرين، في أمريكا المتحضرة، وانجلترا [في جنوب أفريقيا] وغيرها من بلاد الله؟!

كيف تبدو هذه الحقيقة الثابتة في ظل النظم التي استكبرت عن عبادة الله وقالت إنها شبت عن الطوق، ولم تعد في حاجة إلى وصاية الله أو وصاية الرسل والأنبياء.. لأنها تعيش في عصر " العلم " و " التقدم " و " المدنية "؟!

كيف هي حين يمسك البيض " المتحضرون " بشاب زنجي ذنبه أنه أسود اللون، فيضربونه ويركلونه حتى الموت، ويعلقونه في فروع الشجر زيادة في التنكيل، ورجل البوليس الأبيض واقف ينظر ولا يتدخل حتى ينتهي الجرم البشع الشنيع!

تلك هي الحضارة! الحضارة الراقية التي تستكبر على الدين. وتنظر إلى العقيدة في الله على أنها رجعية وتأخر وانحطاط!

*　　*　　*

والإسلام قد راعى هذه الحقيقة الثابتة في تشريعاته وتوجيهاته:

" وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** " [62]. ولم يقل أبيضكم. ولا أكثركم " حضارة! " من ذلك النوع الذي يبيح قتل الملونين لأنهم ملونون، ويثور ثورة همجية حين تأمر الدولة بإعطاء أحدهم حق التعليم في مدارسهم وهو من أبسط حقوق " الإنسان "!

" لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى " [63]

" اسمعوا وأطيعوا، ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى " [64]

وراعاها في واقعه التاريخي. فبلال الحبشي الأسود هو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يظهر على ظهر الكعبة فيؤذن يوم الفتح، وهي التي يعظمها العرب في الجاهلية والإسلام. وعمار وابن مسعود كذلك هما اللذان يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وبين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهم – في حديث واحد في شأن واحد فيقول: " إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي – وأشار إلى أبي بكر وعمر – واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه " [65]

وراعاها مع غير المسلمين، لأنها حقيقة لا تتعلق بوجود المسلمين، وإنما تتعلق بوجود " الناس ": " يا أيها **الناس** اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ". فعامل الناس جميعاً على أساس إنسانيتهم المطلقة ما داموا لا يفسدون في الأرض ولا يحاربون المسلمين ولا يفتنونهم في دينهم: " لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " [66]

---

[62] سورة الحجرات [13].
[63] أخرجه الطبري.
[64] رواه البخاري.
[65] أخرجه الترمذي.
[66] سورة الممتحنة [8].

بل راعاها في الحرب مع الذين يقاتلونه في الدين! فكانت تلك المعاملة الإنسانية الكريمة التي لم يعرفها التاريخ في غير حروب المسلمين!

والذين لا يؤمنون بالله ولا يريدون أن يكونوا مسلمين في كل الأرض، لعلهم يستنبطون شيئا من التفسير المادي للتاريخ، أو التفسير الحيواني للإنسان يبررون به وحشياتهم في السلم والحرب، في الاضطهاد العنصري والقتل والتدمير على نطاق واسع، وفي وسائل التعذيب الوحشي التي يستخدمها الطغاة من حكامهم ليسندوا ألوهيتهم الزائفة.. في عصر " الحرية " و " التقدم " والاستكبار عن عبادة الله!

* * *

وقد انعكس هذا المفهوم الإسلامي عن وحدة البشرية وأخوتها في مجموعة من التشريعات والتوجيهات والتقاليد، لم يكن لها مثيل في تاريخ الأمم الأخرى كلها، خارج نطاق الإسلام.

فقد انبثق من هذا المفهوم بادئ ذي بدء أن يكون المسلم هو القاعدة الأولى للبشرية. فهذا هو الذي يتناسب مع أبناء " النفس الواحدة ": " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً " [67]. " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " [68] فالأمر الأول موجه إلى المؤمنين ليدخلوا في السلم كافة، ذلك بأن يسلموا أنفسهم كلها لله، فيسود السلام بينهم وبين فطرتهم، وبينهم وبين الكون من حولهم، وبين بعضهم وبعض، وبذلك يصبحون الأمة الراشدة التي تشرف على بقية البشرية: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً " [69] الأمة التي تجعل من نفسها المثال الذي تترسمه البشرية، فأولى بها أن تكون ترجمة صادقة لمفهوم القرآن، وتكون خالصة لله. والأمر الثاني يحدد العلاقة بين هذه الأمة المؤمنة وغيرها من الناس. فإن جنحوا للسلم، إن امتنعوا عن العدوان، وأطلقوا الحرية للدعوة إلى الله بينهم، تاركين الناس لحرية اقتناعهم، فالأمر للمسلمين أن يجنحوا هم كذلك للسلم، وقد باتت الأبواب مفتوحة أمامهم لمزاولة الدعوة إلى دين الله في الأرض، بلا حاجز من سلطة تحول بينهم وبين الناس، وإقامة نظام الله في الأرض بلا مانع من سلطة تحول بينهم وبين إقامة شريعة الله، ليسود السلام كل الأرض، تحقيقاً

(67) سورة البقرة [208].
(68) سورة الأنفال [61].
(69) سورة البقرة [143].

لأخوة البشرية في صدورها من " نفس واحدة ". فأما حين يقع العدوان على دعوة الله أو على المسلمين، أو على النظام الإسلامي، في صورة من صور العدوان، سواء بالوقوف في وجه الدعوة، أو محاربة النظام القائم على شريعة الله، أو فتنة المسلمين عن دينهم، فالحرب تقع لرد العدوان الظالم: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " (70) " فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ " (71).

وانبثق عن هذا المفهوم كذلك أنه " لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " (72). حقيقة إن الإسلام هو الهدى. والمسلمون هم الأمة المهتدية الراشدة. ولكن ليس لهم مع ذلك أن يُكرهوا إخوتهم في البشرية على اتباع دين الحق! إنما عليهم أن يدعوهم إلى الهدى.. دعوة بالتي هي أحسن. كما يليق بالإخوة: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ " (73) " وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (74). وإنما تقع الحرب في الدعوة لا لإكراه الناس على الدين، فالأمر صريح بأنه لا إكراه في الدين. ولكن لإزالة القوى الظالمة التي تحجب الهدى عن الناس. فإن جنحت تلك القوى الظالمة المعتدية إلى السلم وأبدت أنها لا تقف في سبيل الدعوة إلى الله الحق، فلا حرب ولا عدوان.

وانبثق عنه أن تكون العلاقة بين المؤمنين وأصحاب الديانات الأخرى هي علاقة المودة: " وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ " (75). فهي علاقة المؤاكلة والتزاور والتزاوج.. وهي أوثق العلاقات.

ثم انبثق عنها أن يقوم العدل بين البشر على أساس إنسانيتهم وحدها. بصرف النظر عن أي اعتبار آخر.. ولو كان هذا الاعتبار هو العداوة للمؤمنين! ففي وسط الحرب الخبيثة التي كان يشنها اليهود على الإسلام في مهده، يحاولون زلزلة المؤمنين واقتلاع العقيدة الجديدة من جذورها قبل أن ترسخ في الأرض، والدس والكيد ونشر الأراجيف، وتشكيك الناس بعضهم في بعض، وإيذاء المسلمين والمسلمات في أعرضهم.. بالإضافة إلى الحرب الرسمية التي تستخدم فيها أدوات القتال، مع الغدر في هذه الحرب ونقض المواثيق وانتهاك

(70) سورة البقرة [190].
(71) سورة البقرة [193].
(72) سورة البقرة [256].
(73) سورة النحل [125].
(74) سورة النحل [125].
(75) سورة المائدة [5].

الحرمات.. في وسط كل ذلك لا يقبل الإسلام عدواناً وقع على واحد من اليهود، إذ رُمِيَ بتهمة ظالمة وكاد يحكم عليه من أجلها، فيتنزل الوحي بتبرئته في هذه الآيات البينات: " إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا، وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا، هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً، وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " [76]. وقد نزلت هذه الآيات التسع بهذا التفصيل والبيان والتوكيد الشديد المكرر، لتحمي الرسول صلى الله عليه وسلم من الحكم على هذا اليهودي البريء الذي كانت القرائن – الظاهرة – كلها تتهمه، وكان الحق أنه بريء من الاتهام! ووضع الإسلام بذلك في عالم الواقع هذا المبدأ الإنساني الخالد.. الذي لا يوجد قط بهذه الصورة في غير الإسلام!

ثم كانت هذه التوجيهات العامة: " وَلا تَلْمِزُوا **أَنْفُسَكُمْ** وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ " [77]. " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً " [78] [وهو مكتوب على الأمة المسلمة كذلك] " وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " [79].

هكذا.. إنسانية على الاتساع! في السلم وفي الحرب سواء. في الحب وفي الكره سواء!

وكان هذا في نظر الإسلام عنصراً ثابتا في حياة البشرية، لا تقلبه الظروف والأهواء، لأنه ليس نابعاً من الظروف، وإنما ينبع من حقيقة ثابتة لا تغيرها تطورات " الإنتاج " ولا أحداث التاريخ!

---

[76] سورة النساء [105 - 113].
[77] سورة الحجرات [11].
[78] سورة المائدة [32].
[79] سورة المائدة [8].

* * *

والقضية الثالثة هي قضية العلاقة بين الجنسين.. وهي من أخطر قضايا البشرية.

" خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ".

إن الزوجين – الرجل والمرأة – من " نفس " واحدة. والإشارة إلى النفس هنا ذات دلالة لا تخفى. إن المشاركة ليست في " النوع الإنساني " فقط. ولكنها أخصّ من ذلك كثيراً. إنها المشاركة في " النفس ".. النفس الواحدة. ومن ثم يتشاركان في الكيان الإنساني الداخلي، الذي تشير إليه لفظة " النفس " كما يتشاركان في الإطار الخارجي للإنسان.. " فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى **بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** "[80]... متداخلين ممتزجين لا يتميزان من حيث الكيان الإنساني للإنسان!

وهذه الحقيقة الأولية التي وضعها الإسلام بهذه الصورة، ورتب عليها ما يتفق معها من تشريعات، لم تفيء إليها البشرية خارج نطاق الإسلام إلا بعد فترة طويلة جداً.. وبعد صراعات مدمرة، حطمت الأسرة والمجتمع في الغرب، وحطمت الأخلاق والتقاليد، وأدت إلى تلك الفوضى الجنسية البشعة التي ردت الإنسان حيواناً يرتكس في سعار مجنون. بينما الإسلام قد أعطاها للمرأة تكريماً وكرما، مع المحافظة الكاملة على كيانها، وكيان الرجل معها، وكيان الأسرة والمجتمع.. وذلك هو الفرق بين دين الله ودين البشر الذين يشرعون لأنفسهم، ويزعمون لأنفسهم حقوق الإله!

لقد رتب الإسلام على هذه المشاركة في النفس الواحدة، نتائجها الطبيعية، فأعطى المرأة حق الملك والتصرف والكسب والعمل والتعليم، والزواج وطلب الطلاق، والمجادلة عن نفسها والمنافحة عن حقوقها.. وهي مصونة الأخلاق، تقوم بهذه الأمور كلها على مستوى " الإنسان " الراشد العابد النظيف، لا على مستوى الحيوان المنفلت من القيد، ولا الشيطان القاعد للفتنة والإغراء: " لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ "[81] " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ

---

(80) سورة آل عمران [195].
(81) سورة النساء [32].

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ " [82] " قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ " [83]

وفرنسا – المتحضرة – لم تعط المرأة حق التصرف المباشر فيما تملك، وحق التعامل المباشر مع المجتمع إلا في القرن العشرين! وأوربا كلها لم تعط المرأة حق المساواة في الأجر على العمل الواحد إلا في القرن العشرين. وما تزال انجلترا إلى هذه اللحظة لا تراعي هذه المساواة بين الموظفين والموظفات، بحجة أن المرأة تحمل وتلد وتطلب إجازة للوضع!

ولم تصل المرأة إلى هذه الحقوق حتى اضطرت أولا أن تخرج للعمل لتكفل نفسها لأنه لا عائل لها يكفلها! واضطرت ثانياً أن تتخلى عن أخلاقها لأنها قيد يمنع حصولها على العمل، من الرجل الحيوان الذي يريد – قبل أن يمنحها لقمة الخبز التي تريدها – أن ينال منها المتعة الحرام. ثم انتهى الأمر بها أن تقوم – غير مضطرة – بدور الفتنة في الأرض، وتحول الحياة في الغرب إلى ماخور كبير. ثم.. ثم قال الغرب بعد هذا الصراع الحيواني كله مع المرأة: إنه لا يعطي لها هذه الحقوق لأن ذلك مقتضى الحقيقة الأولية في خلق الرجل والمرأة، ولكن لأن " التطور " الاقتصادي قد اقتضى ذلك!! التطور " الحتمي "! أي.. والناس راغمون!! بينما يضع الإسلام هذه القواعد مبتدئا – بلا ضغط من الظروف الاقتصادية ولا قهر – والناس راضون، لأنهم بذلك يعبدون الله! ويضعها قواعد ثابتة – لأنها مستمدة من حقيقة ثابتة – تطبق في المجتمع الرعوي – الذي كان يوم نزل الإسلام – وفي المجتمع الزراعي الذي تلاه، كما تطبق في المجتمع الصناعي والمجتمع الذري سواء. لا دخل لها " بتطور " أساليب الإنتاج ولا تطور الاقتصاد والمجتمع. لأنها تتعلق بشِقَّي " الإنسان ".. الإنسان من حيث هو إنسان!

* * *

وتتفرع من قضية الجنسين قضايا كثيرة متشعبة، ذات خطر كبير في حياة البشرية:

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً " [84]

---

[82] سورة النساء [19].
[83] سورة المجادلة [1].
[84] سورة الروم [21].

الأزواج – كما مر بنا في الفقرة السابقة – من " أنفسكم ". من "نفس واحدة". ولكن الآية هنا تضيف بيان نوع العلاقة بين الجنسين واتجاهها وحكمتها.

لماذا خلق الله الأزواج؟ إن حكمة الله واسعة شاملة.. ولكن الآية تحدد الحكمة –أو تشير إلى بعض اتجاهاتها – " لتسكنوا إليها " ذلك هدف خلقة الزوجين في عالم الإنسان.

والسكن علاقة واسعة يشملها السكون والراحة والاطمئنان. وتظللها السكينة ويرفرف عليها الهدوء. وهذا ما يريده الله من علاقة الزوجين. إنه لا يريدها خصاما وعراكا تفسد معه طيبات الحياة. ولا يريدها مشغلة دائمة وهمًّا مقعدا مقيما كما هي اليوم في الغرب حين انفلت من إطار الوحي الإلهي وأخلد إلى الأرض واتبع هواه.

" وجعل بينكم مودة ورحمة " ذلك تركيب الفطرة: التجاذب بين الجنسين. ولئن كان القرآن لم يستخدم هنا كلمة " الحب " وإنما استخدم " المودة " فلأنه – من ناحية – يريد أن يرفع العلاقة إلى أفق شفيف منير، ولأنه – من ناحية أخرى – أكثر واقعية! إن الوله والعشق والتطلع.. مرحلة من مراحل الدفعة الجنسية، تقع في فورة الشباب ولكنها لا تدوم.. وليس من شأنها أن تدوم! إنما الذي يدوم هو المودة! إنها تشمل العلاقة كلها في جميع مراحلها، وتبقى بعد فتور الوله والعشق والتطلع بحكم طبائع الأشياء وطبائع النفوس!

هذه القضية الثابتة ذات أطراف ثابتة، وعلاقات ثابتة. ومن ثم ترتبت عليها أمور ثابتة في حياة البشرية!

فالقضية تقوم ابتداء على وجود " الرجل " من ناحية و " المرأة " من ناحية. وتلك حقيقة ثابتة [فيما عدا انحرافات الفطرة التي سنتكلم عنها بعد قليل!] ثم على وجود تجاذب بين الرجل والمرأة من ناحية أخرى. وتلك حقيقة أخرى ثابتة. ثم على رغبة تحقيق السكن من هذه العلاقة القائمة على التجاذب من ناحية ثالثة. وتلك حقيقة كذلك ثابتة.

وإذ كانت جميع أطراف القضية ثابتة كما هو واضح.. فنتائجها لا يمكن أن تخضع للتطور والتغيير!!

وهنا تتداخل تلك القضية الثالثة [قضية الجنسين] مع القضية الرابعة التي سنتحدث عنها تفصيلا في الفقرة التالية، وهي قضية المجتمع [" وبث منهما رجالا كثيراً ونساء "] فتتحدان معاً كل علاقات الجنسين.

إن هذا التجاذب القائم بين الرجل والمراة، ووجودهما في ذات الوقت في مجتمع، قد استلزم تطبيق العلاقة بينهما على أسس تلتقي مع فطرتيهما أولا، وتلتقي كذلك مع حقيقة وجودهما في مجتمع.

لو كان الأمر أمر رجل واحد وامرأة واحدة في كل الأرض.. لما احتاج إلى تنظيم كثير! ولكن خروج النسل من هذه العلاقة بينهما أولا، وتحول النسل إلى رجال كثير ونساء ثانيا، يجعل الأمر في حاجة إلى تنظيم دقيق محكم يمنع الخلل الذي ينشأ – كلما اتسعت الدائرة – من الفوضى التي لا يضبطها دليل.

لقد استلزم وجود رجال كثيرين ونساء – لا رجل واحد وامرأة واحدة – تنظيم صور " التجاذب " الذي يحدث حدوثا فطريا بين الرجال والنساء. لكي لا يصبح فوضى تصطدم فيه مختلف " التجاذبات " فتؤدي إلى ضياع " السكن " المرجو لكل نفس من جهة، وتؤدي إلى فساد روابط المجتمع من جهة أخرى. كما استلزم وجود النسل المنبث من لقاء شِقَّي النفس الواحدة قيام " الأسرة " وتنظيم علائقها.

وهكذا تشعبت علاقات كثيرة مختلفة من الحقيقة الرئيسية وهي خلق الزوجين وشد بعضهما إلى بعض برباط الجذب و " المودة ".. ثم صارت هذه العلاقات المتشعبة **ثابتة** لأنها ترتكز على حقائق ثابتة.

وأمر العلاقة بين الجنسين هو أشد ما يجادل فيه المصابون بلوثة التطور في الغرب والشرق، وأشد ما يجادل فيه الأولاد والبنات الذين أعمتهم الشهوة المنفلتة من قيادها، فلم تعد تبصر إلا متعة الجسد الفائر، ولم تعد تطيق قيداً يوضع في طريق السعار المجنون.

ولكننا ونحن نناقش الأمور الجادة في حياة البشرية لا ينبغي أن نغمض عيوننا عن الحقائق الثابتة " الصارمة " التي لا تلين لشهواتنا وأهوائنا، ولا تدور معها حيث تدور. " إننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائما... فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة.. هي إضعاف السائل. ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار " [ألكسس كاريل].

لذلك لا ينبغي لنا ونحن نبحث هذا الموضوع الجاد، أن ندور مع شهوات الأولاد والبنات، أو نندفع وراء المصابين بلوثة التطور.. إنما ينبغي أن نبين لهؤلاء وهؤلاء حقائق

الفطرة، فيساعدهم ذلك على مواجهة أزمتهم والتغلب عليها بإنشاء أوضاع تلائم الفطرة وتسير في اتجاهها..

إن ثبات العلاقة بين الجنسين، وعدم خضوعها " للتطور " أمر تمليه الفطرة التي لا حيلة لأحد فيها. والتي رأينا من شهادة القرن العشرين أنها لم تتطور في عشرين قرنا من الزمان، ولم تعط إلا إجابة واحدة في كلتا المرتين، وفي كل مرة استئذنت في ارتياد الأرض المحرمة!

لقد أعطت الفطرة إجابتها واضحة حاسمة جازمة في كل مرة انفلت فيها عقد " الضوابط " في علاقات الجنسين، وانفلت فيها الأولاد والبنات وراء دفعة الجسد لا يطيقون صبرا ولا يخضعون لتنظيم.

أعطت الفطرة إجابتها في اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة. وأعطت إجابتها في العالم الإسلامي يوم انحل وركبته الشهوات. وأعطت إجابتها في فرنسا في الحرب العظمى الثانية. وتعطي إجابتها الآن على نطاق واسع في كل الأرض، وفي أمريكا وروسيا على وجه التخصيص..

إجابة واحدة لا تتغير: الانحلال الخلقي والإباحة الجنسية.. معناها الدمار. معناها الشقاء. معناها الضياع. لا إجابة غير هذه الإجابة في كل التاريخ!

وعبثا حاول القرن العشرون أن ينجو من قانون الفطرة الصارم. أو من عقوبة الفطرة التي تصيب مخالفيها.

عبثا حاول أن يقول إنه خَلْق وحده لا شبيه له من قبل!

وعبثا حاول أن يقول إنه لا توجد " فطرة ثابتة " للإنسان!

وعبثا حاول أن يقول إن ما أصاب الأمم السالفة من الدمار مع النشاط الجنسي " الحر " لن يصيبه!

وعبثا حاول أن يقول إنه سيمنع الدمار قبل حدوثه لأنه جيل واع فاهم عارف دارس متعلم!

وعبثا حاول أن يقول إن لديه علاجا لكل داء!

عبث.. كله!

إنها إجابة واحدة ثابتة تصدر عن الفطرة الثابتة..

إما تنظيم علاقات الجنس بقيود من الدين والأخلاق والتقاليد.. وإما الانفلات الحر.. والشقاء البشع والدمار الرهيب..

تلك هي " الحتمية " الحقيقية.. لأنها حتمية الفطرة كما خلقها الله.

ما قيمة الجدل والإنكار؟

ما قيمة دفن الرءوس في الرمال؟

الشهوة لذيذة. نعم. والانفلات محبوب:

" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... [85] ".

ولكن العقوبة عنيفة، هائلة. مخيفة...

الضغط العصبي والنفسي. الانتحار والجنون. الشذوذ والجريمة.. الدمار.

تلك شهادة القرن العشرين..

من ذا الذي يملك عقلا في رأسه، ثم يندفع وراء لوثة التطور، أو وراء شهوة الأولاد والبنات، وهو يرى أمامه النتائج بالفعل، منذرة بأبشع نهاية للبشرية؟!

بل من ذا الذي في قلبه ذرة حب لهؤلاء الأولاد والبنات ثم لا يمسك بحجزهم أن يتهاووا في الهاوية؟

إن علينا واجبا " إنسانيا " ضخما، نؤديه لأنفسنا. لإنسانيتنا. لأولادنا وبناتنا، أن نبصّرهم بحقيقة موقفهم وحقيقة الفطرة لكي لا يذهبوا في طريق الضياع.

---

[85] سورة آل عمران [14].

وقد يكرهوننا – نعم – ونحن نبصرهم! كما يكره الطفل الطبيب ويسبه ويلعنه وهو يحقنه بالدواء!

ولكن أي أحمق يلقي الدواء من يده لأن الطفل يسبه ويلعنه؟ أو يتركه في لوثة الحمى لكي يحبه؟!

كلا! إن كنا جادين.. فلنتبين حقائق الفطرة، ونبينها للناس.

أو إن كنا لا نريد أن نتعب خواطرنا، أو كنا نحن – كالأولاد والبنات – نريد أن " نستمتع ". نريد أن " ننتهب لذة العيش ". نريد أن نلغ في حمأة الجنس.. فلنكن صرحاء! ولنقل إننا هكذا " مبسوطون " مرتاحون ملتذون لا نريد أن نفيق من دخان الحشيش والأفيون. وليكن بعد ذلك ما يمكن أن يكون!!

* * *

حقائق الفطرة تقول إن هناك تجاذبا فطريا بين الجنسين.. لا بد أن يأخذ سبيله إلى اللقاء. ففي أي صورة يكون هذا اللقاء؟ على صورة التخصص؟ أنثى معينة لكل رجل، ورجل معين لكل امرأة؟ أم على صورة المشاع: كل أنثى لكل رجل وكل رجل لجميع النساء؟

تجربة القرن العشرين تعطينا الإجابة الحاسمة عن هذا السؤال.

إن المجتمع الغربي – أو الشيوعي – لم يصل لصورة الفوضى الكاملة. فما زال فيه أفراد فاضلون بل " متطهرون ". بل " متزمتون " يحافظون على التقاليد وينظرون بتقزز عنيف لتلك الفوضى الجنسية الضاربة بأطنابها هناك.. ومع ذلك.. مع أن الفوضى لم تصل لصورتها الكاملة.. فإن بوادر الانهيار قد بدت واضحة تنذر بانهيار المجتمع، مع القلة القليلة الفاضلة المتبقية فيه.. فكيف إذا زادت عن ذلك، وهي ما تزال في طريقها إلى الزيادة، لأن الشياطين لم تشبع بعد، ولم تزل تطلب المزيد من التدمير؟!

والمجادلون يقولون: لا هذا ولا ذاك.. لا التزمت ولا الإباحة.. شيء وسط بين الطرفين المتطرفين!

لا نحرم كل علاقة بين الجنسين، ولا نطلق لها العنان!

أكذوبة لطيفة مخدرة! تريح الأعصاب من عناء التفكير والتدبير، وحمل الهم، ووجع القلب!

نبيح للشبان والفتيات الاختلاط.. مع الرقابة!

الولد والبنت يشتركان في " النشاط الاجتماعي ". في الجامعة بلا شك. وفي المدرسة الثانوية إذا أمكن. وفي الشارع. والنادي. والـ...

تحت رقابتنا!

ماذا يمكن أن يصنع الأولاد والبنات وهم تحت رقابتنا؟!

ستتهذب مشاعرهم. ويذهب الجوع الجنسي الناشئ عن الحرمان من ناحية. ويتعارف الجنسان من ناحية أخرى فلا يصير كل منهما مجهولا من الآخر متهيبا له، تملأ رأسه الخيالات المنحرفة عنه..

و.. تحت رقابتنا! ماذا يمكن أن يحدث تحت رقابتنا؟!

ولقد يحدث فعلا أن يميل ولد إلى بنت، أو بنت إلى ولد.. أليس كذلك؟

شيء فطري. ماذا يمنع؟.. تحت رقابتنا!

ولقد يحدث فعلا أن يشتد الميل.. شيء فطري!

فلنكن واقعيين! هل يمكن أن نمنع هذا الشيء الفطري؟

فلنكن بعيدي النظر: هل الأفضل أن يتم اللقاء خلسة.. أم تحت رقابتنا؟!

ولقد يحدث فعلا أن يطغى الميل ويشتد..

" يا سيدي.. وماله.. بكرة يتزوجها "!

فلنكن بعيدي النظر: هل الأفضل أن يتزوج بنتا لا تعرفه أو يعرفها.. أم بنتا تعرفه ويعرفها؟

ضمة؟! قبلة؟ في السينما أو في الشارع.. في الظلمة.. أو في الخلوة؟!

يا سيدي.. وماله..

شيءٌ من عبثٍ جنسي؟! لا ضير البتة. تجرب يأخذ منها خبرة.. والبنت؟ ستعرف صاحبها! تأخذ موعظة تنفعها في غفلتها! هل أنت ستحرسها إن شاءت أن تفسد؟ كلا! فلتتركها!

ماذا يحدث حتى من غير رقابتنا؟!!

تلك طريق الحرية في القرن العشرين!!

بدأت – والله! – بهذا التفكير المخلص لا من جانب الشياطين الذين أوحلوا بلوثة التطور وأوحوا بالانفلات من القيد والانطلاق كالحيوان.. ولكن في أذهان المربين والآباء والأمهات، وربما بعض " رجال الدين " المتطورين!

ثم.. كانت النتيجة التي يشكو منها المربون والآباء والأمهات والساسة والعلماء.. و.. رجال الدين!

لا وسط لشهوات البشرية!

لا وسط يمكن الوقوف عنده بالإرادة الواعية أو النية المخلصة..

إنما الوسط المتخيل الذي يراود الناس أحيانا، فيودون – في إخلاص – أن يقفوا عنده، هو مرحلة من مراحل " التطور! ". مرحلة من مراحل الانزلاق لا تكون قد أبعدت بعد في الهبوط! ولكنها مرحلة لا يمكن الوقوف عندها أبداً. تلك حتمية الفطرة! وتلك تجربة التاريخ!

لقد قال القرن التاسع عشر الذي بدأ تجربة الاختلاط هذه: سنقف عند المرحلة المأمونة. لن نوغل. لن نفقد أنفسنا. لن تبلعنا الهوة.. لكن لم يقدر أن يفعل! بلعته الهوة أو كادت في القرن العشرين!

والبطء الذي تتم فيه عملية الانهيار، البطء الذي يجاوز أعمار الأفراد إلى أعمار الأجيال، هو الذي يغري الأفراد بأن يعتقدوا أن الوقفة ممكنة عند الحد الأوسط!

كلا! وهم باطل! لم يحدث في التاريخ!

ليس " التطور " هو الذي يقول. ليس التفسير المادي هو الذي يقول. إنما تلك حقيقة الفطرة. وهي " الحتمية " المفردة الصادقة في كل هذه الأباطيل.

ما دام قد انفلت من القيد فلا وقفة!

والوقفة الظاهرية التي تستغرق جيلا أو بضعة أجيال هي التي تخدع المخلصين فتخيل لهم أن الوقفة أمر ممكن! إنها خدعة! انظر إلى رقعة أكبر لكي ترى حقيقة الخط الهابط ومدى الاندفاع! إن عقرب الساعات في الساعة بطيء الحركة فلو نظرت إليه لبضع دقائق فلن تراه يتحرك من مكانه! ولكن انظر إليه بعد ساعة! ثم بعد ساعات! والساعة ذات التقويم بها خانة تبين اليوم من الشهر. بطيئة الحركة! تتحرك مرة واحدة في اليوم. لو نظرت إليها بضع ساعات فلن تراها تتحرك من مكانها! ولكن انظر إليها بعد يوم كامل. ثم بعد أيام!

وانظر إلى التاريخ على نطاق واسع. انظر إلى الأجيال. في الجيل الواحد قد لا تتغير الصورة كثيراً. وإن كانت في هذا الجيل خاصة عنيفة التغيير، لأن الشياطين ينفخون فيها بعنف عنيف. ولكن انظر إلى رقعة واسعة لكي ترى الصورة على حقيقتها..

لا وسط لشهوات البشرية!

تلك حتمية الفطرة.. في نهاية المطاف! فطرة الفرد.. وفطرة الجماعات!

إن الشهوة **لا تشبع** بالإرواء الدائم! بل تشتد ظماءً وتجن!

خذ أمريكا مثلا..

هل في المجتمع الأمريكي حواجز تمنع من إرواء الشهوة؟ أي حواجز؟!

كلا! لا شيء البتة!

ومع ذلك ففي هذا المجتمع ذاته ينتشر إلى حد " الشبق " عشق الصور العريانة!

وتنتشر حوادث الاغتصاب والخطف الجنسي. والقتل بعد إتمام الجريمة الخلقية!

وينتشر – أبشع من ذلك – الشذوذ الجنسي في الأولاد والبنات على حد سواء!

وفرنسا وسويسرا وبلجيكا.. نفس الصورة.. ودول الشمال " أرقى " بلاد الأرض!

إجابة واضحة تعطيها الفطرة حينما تستأذن في ارتياد الأرض المحرمة! إجابة **ثابتة** في التاريخ!

* * *

هل معنى ذلك أن " نكبت " مشاعر الجنس؟

أو ليست المضار الناشئة من الكبت والحرمان وبيلة هي الأخرى؟

بلى! وبيلة!

الحرمان الكامل طويل يفسد مشاعر النفس ويتلف الأعصاب!

والشذوذ الجنسي الذي يصاحب الحرمان الطويل معروف في التاريخ. والخيالات المريضة التي تشغل كل جنس بالجنس الآخر، وتحصر تفكيره الظاهر والباطن في مشاعر الجنس. و.. و.. كل شيء معروف!

والحرمان الكامل الطويل مجاف للفطرة ولم يطلبه الله من البشرية!

إنما وضع نظاما " معتدلا " وسطا لا يكبت المشاعر ولا يطيل فترة الحرمان.

فالكبت بمعناه النفسي، أي استقذار الدافع الجنسي، أمر لا وجود له في مفهوم الإسلام، الذي يضع علاقة الجنسين في النور الكامل، ويقول إنها فطرة. وإنها فطرة سوية. وإنها فطرة مصرح بها ومرغوب فيها! " وإن في بضع أحدكم لأجراً! قالوا يا رسول الله: إن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟! قال: أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ قالوا: بلى! قال: فإذا وضعها في حلال كان له فيها أجر! " [86]

وتطويل فترة الحرمان أمر يأباه الإسلام **بكل** وسائله! فهو يدعو دعوة صريحة إلى التعجيل بالزواج. ويضع الترتيبات الاقتصادية التي تعين عليه، بما في ذلك إعانة بيت المال للشبان المتزوجين! فالنظام الإسلامي نظام متوازن في جملته تتناسق فيه التصورات الاعتقادية

---

[86] رواه مسلم.

والتوجيهات الخلقية مع التنظيمات السياسية والاقتصادية، وتتكامل كلها وتتفاعل، لإنشاء مجتمع كامل فاضل. ومن ثم فهو لا يكل مسألة التبكير بالزواج لمجرد التوجيه، ولكنه يكفل لها التحقيق بتيسير وسائل الحياة العملية في نظامه المتكامل.

ولن نقف هنا طويلا لنناقش إمكانية هذا الأمر في تعقدات المجتمع الحالية! فالبشر مطالبون أن يكيفوا أوضاعهم على ضوء فطرتهم، لا أن يمسخوا فطرتهم على ضوء أوضاع يخضعون لها في ذلة واستخذاء! ثم.. إن التعقيدات الاقتصادية ليست هي السبب الحقيقي في إطالة فترة التعطل الجنسي التي تغري بالفساد! فالشباب في أمريكا يتكسب في سن مبكرة جداً، ثم ينفق كسبه في المتعة الحرام! لأن هذا هو التوجيه الذي تصبه في أعصابه الشياطين! ولا يعجز المجتمع الأمريكي الثري عن تنظيم عملية الزواج للشباب لو أراد.. لو كفت عن تضليله الشياطين! والمجتمع الشيوعي تعوله الدولة! ولا تعجز الدولة عن تنظيم عملية الزواج للشباب لو أرادت.. لو لم يكن في حساب القائمين عليها أن " الأخلاق " خرافة ينبغي أن تباد! ومع ذلك فقد سمعنا صيحة خروشوف المنذرة بالوبال!

أما نحن – المسلمين! – فنحن لا هنا ولا هناك! [87]

إنما يعنينا على أي حال أن نتبين طريقة الإسلام في مسايرة الفطرة، وتنظيم حياة البشرية على أساسها. على الأقل. لكي نعرفها!

لا كبت. ولا حرمان. ولكن تنظيم.

تنظيم يشمل الفرد والمجتمع في ذات الوقت، وبوسيلة واحدة مشتركة. فالمجتمع النظيف المتوازن، تقوم فيه الأسرة النظيفة المتوازنة، التي تربي الفرد النظيف المتوازن. والفرد النظيف المتوازن بدوره ينشئ الأسرة وينشئ المجتمع. ومن ثم يعمد الإسلام إلى تنظيف ضمير الفرد، بربط قلبه ومشاعره بالله، وتربيته على طاعته، وحبه وخشيته، وفي ذات الوقت يضع التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتوجيهات الفكرية والروحية التي ترسي المجتمع على قواعده السليمة، التي تنشئ الأفراد المتوازنين.

وفي مسألة الجنس بصفة خاصة يكره الإسلام الاختلاط بلا سبب، ويبيحه في أضيق الحدود. ويمنع التبرج والفتنة ولا يبيحهما على الإطلاق! ويكره خروج المرأة بلا سبب ويبيح خروجها عند الاقتضاء نظيفة المشاعر نظيفة السلوك.

---

[87] انظر فيما بعد فصل " نحن والغرب "!

ويكره لها العمل الذي تتشبه فيه بالرجل، ومع ذلك يبيحه إباحة كاملة في حالة الضرورة. ويشجع على الزواج وييسر وسائله، ويدعو إلى التبكير فيه. ويمنع إقامة علاقات جنسية خارج هذا النطاق.

تلك هي الخطوط السريعة لسياسة الإسلام في أمر الجنس، وهي أمور سهلة ميسرة متناسقة مع النظام الإسلامي حين يطبق في واقع الحياة..

وكلها ترتكن إلى الفطرة ودوافعها و " حتمياتها ". كما ترتكن إلى الحقائق الثابتة في حياة البشرية!

* * *

التجاذب بين الجنسين – كما قلنا – فطرة، حتمية الحدوث. وما دام الجنسان ليسوا أفرادا معدودين، ولكنهم رجال كثير ونساء، فقد لزم تنظيم التجاذب بينهما لكي لا يؤدي إلى الفوضى والاضطراب.

وإباحة الاختلاط بلا سبب، وتبرج المرأة وانشغال بالها بالفتنة والإغراء هما اللذان أفسدا الغرب وأنشآ تلك النذر التي شكا منها كنيدي وخروشوف، والفلاسفة والعلماء.

فالإسلام لذلك لا يبيح هذا ولا ذاك.

وليس الحجاب التقليدي هو المقصود. ولا الكبت ولا الحرمان.

لقد كانت المرأة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تخرج وتعمل وتقاتل وتعلم بنات جنسها.. كل ذلك بقدر الضرورة الواجبة لشخصها وللجماعة المسلمة.

نعم. وفي المجتمع المسلم تقوم بكل تلك الألوان من النشاط عند الاقتضاء. **في المجتمع المسلم**. أي في المجتمع النظيف الذي يعبد الله، ويطبق شريعته، ويأتمر بأوامره. أما في غير هذا المجتمع فليس لها – أو لأي أحد – أن يحتج بالحقوق أو الحريات التي أعطاها الإسلام للمرأة! وهي – والمجتمع معها – لا يطبقان في حياتهما هذا الإسلام.

إنه لم يقل لها – بداهة – أن تعيش وترضى بمجتمع غير مسلم، لا يطبق نظام الإسلام في حياته. فإذا هي قبلت أن تعيش في مثل هذا المجتمع – غير منكرة عليه – فما لها إذن وما للحقوق التي نظمها الإسلام للمجتمع الإسلامي، رجاله ونسائه على السواء؟!

ولم يقل لها – بداهة– أن تخرج متبرجة شغلتها الفتنة! فإذا كانت اليوم – بحكم العدوى الآتية من الغرب – تصنع ذلك، فهي وشأنها.. ولا شأن لها بالإسلام! ولا تتمحك في الإسلام!

وما دامت تخرج – في المجتمع المسلم – لهذه الشئون، فالعزلة الكاملة ليست قائمة بين الجنسين. ولكن لا تقوم العلاقات " الخاصة " بين الشبان والفتيات، والرجال والنساء. لا يقوم نظام " الأخدان " الذي يسمى " الصداقة " في الغرب.

وهي تخرج محتشمة كشرط أساسي لقيام المجتمع المسلم. تلك مسألة لا يمكن أن يتنازل عنها الإسلام!

ويقول دعاة الحرية ودعاة التطور ودعاة تطوير الإسلام (!) إن المسألة عادة! فنحن حين نعتاد أن نرى المرأة الحاسرة عن شعرها وذراعيها وساقيها.. لا يحدث شيء!! في مبدأ الأمر تحدث هزة.. هزة المفاجأة. ثم يصبح المنظر عاديا جداً.. لا يثير شيئا على الإطلاق. بل يصبح – عجيبة! – أقل إثارة من الفتاة المغطاة الشعر والذراعين والساقين!

وسنسلم معهم – والله – بكل ما يقولون. ثم نظل عند رأينا.. رأي الإسلام!

إن الذين يقولون إن منظر المرأة الحاسرة لا يثير شيئا في نفس الرجل حين يعتاد عليه.. أولئك ينظرون إلى الرقعة الصغيرة من التاريخ.. ولا ينظرون في تاريخ الأجيال! ينظرون إلى عقرب الساعات بضع دقائق ويقولون إنه لا يتحرك من موضعه ولا يدل على شيء!

ولكن.. فلنحسب الحسبة من أولها.. لنصل منها إلى نهايتها!

لماذا حسرت أول بنت عن ساقيها وذراعيها وشعرها؟

في وقت من الأوقات كان المجتمع لا يبيح ذلك. عن إيمان. ويراعيه بدقة. ثم تنحل قليلا روابط المجتمع، ويفتر الإيمان.. فتخرج " الحثالة " تحاول أن تنتفش حين يخف عليها الضغط! [88] عندئذ تخرج أول فتاة حاسرة. ماذا تقصد؟ تقصد بلا شك إثارة الفتنة بهذا الصنيع. وتحدث الفتنة بالفعل. وتحدث العدوى. فالمجتمع في سبيل الانحلال. وتحدث الهزة الأولى. " الطيبون " يستنكرون، والخبيثون يمضون في الطريق على حذر في مبدأ الأمر. ثم في استهتار حين تخف حدة الاستنكار..

---

[88] راجع فصل " الثابت والمتطور في كيان الإنسان " من هذا الكتاب.

وتخف الهزة فعلا. يعتاد الناس على المنظر الجديد. يصبح عاديا حقا لا يثير شيئا في النفس. إنه جزء من " الروتين " اليومي يفقد دلالته بعد حين، لتبلد الحواس عليه. كما تتبلد حتى على فعل السموم.

هذه حقيقة..

ولكنها نصف الحقيقة..

ونصفها الآخر هو الذي ينساه – أو يتناساه – دعاة الحرية ودعاة التطور. ودعاة تطوير الإسلام!

إن التي خرجت أول مرة تبغي الفتنة [ومثيلاتها بطبيعة الحال اللواتي تكاثرن بالعدوى] لم تعد لهن ميزة في المجتمع الجديد، الذي قلدهن كله، فأصبحن فيه عاديات.. لا يثرن الانتباه.

وهن لا يردن أن يكنّ عاديات.. يردن أن يثرن الانتباه!

فإذا كان القدر – البسيط – من العري الذي تعرينه أصبح عاديا.. فلا بد إذن من المزيد.. بضعة سنتيمترات تتعرى من أي مكان. من صدر الفستان. من ظهره. من تحت الركبة..

وتعود الصيحة.. والهزة.. وتعود فتفتر.. يصبح عاديا هذا القدر من " الفتنة " فلا يثير الفتنة! يصبح من روتين اليوم المعتاد!

نعم.. ولكن لن تقف العجلة!!

البنت الأولى – ومثيلتها – لا بد ستزداد!

القصد هو الفتنة! فإذا بطلت الفتنة بتعرية الصدر، لأن كل الفتيات يعرين صدورهن، والشبان اعتادوا المنظر وتبلدت حواسهم عليه، فلا بد من شيء جديد يثير الفتنة ويزيد الإغراء.. تعرية جديدة. بدعة جديدة في المشي. خلاعة في الضحكة.. تبدل في الأخلاق.. أي إثارة.. القصد هو الفتنة!

والبركة في " المودة " وبيوت الأزياء! والسينما والتليفزيون! تلتقط الخيط الهابط، وتزيد هبوطا في الحمأة!

لا تقف العجلة..!

والطيبون المخدوعون. الذين يظنون أنهم يستطيعون وقف العجلة عند حد معين.. عليهم أن يفيقوا من غفلتهم، ليروا أين: في أي مكان في الأرض، وفي أي عصر في التاريخ، أمكن وقف العجلة عند الحد " المعقول "! وما الحد المعقول؟! وعليهم أن ينظروا في المجتمع الحاضر من حولهم ليروا كيف ومتى يمكن وقف العجلة المندفعة في طريق الفتنة والإغراء.. والتردي في الفاحشة.. والتحلل من كل رباط..؟!

كلا! لا تقف العجلة.. تلك شهادة القرن العشرين، في كل الأرض.. وهي كذلك شهادة التاريخ..

إنها الحتمية الوحيدة الصادقة لأنها حتمية الفطرة التس تقول إنه لا شِبع للشهوات إلا **بالضبط** وبالتقييد!

من أجل ذلك لا يبيح الإسلام الفتنة والإغراء.. ولا يبيح الفاحشة.. ويصر على الحشمة في الزي وفي المشية وفي الحديث، للرجل وللمرأة سواء:

" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ **وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** وَلْيَضْرِبْنَ **بِخُمُرِهِنَّ** عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [89] ". " فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ [90] ". " وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى [91] "

هذا.. أو الدمار!

الدمار الرهيب الذي بدأ يهدد الغرب.. ويؤذن غدا بتدمير البشرية!!

---

[89] سورة النور [30 - 31].
[90] سورة الأحزاب [32].
[91] سورة الأحزاب [33].

*   *   *

وتلك قضية ثابتة لا تتغير!

ثابتة لأنها لا تنبع من تغير أساليب الإنتاج، ولا من التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ولا من التطور العلمي.. أو أي لون من ألوان التطور.. وثابتة لأن كل " تطور " تقع فيه البشرية لا يحول دون نتائجها الحتمية!

إنها تنبع من الفطرة. من مكونات النفس البشرية. من قوة الجذب بين شقي الإنسانية. جذب إما أن ينظم.. وإما أن ينفلت قياده بلا نظام..

وكل دعاوى التطور.. وكل النيات الحسنة التي تتعلق بأمل الوقوف عند " الحد المعقول ".. الوقوف قبل الهاوية.. الحيلولة دون الاندفاع الخطر.. الـ.. الـ.. كلها تقف مخذولة أمام شهادة القرن العشرين.. وشهادة التاريخ.

وليست الأمور بالتمني..

إن حقائق التاريخ وحقائق الفطرة أمور جادة لا تحتمل العبث.. ولا تحتمل التضليل! وكذلك لا تحتمل المخالفة!

" سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً " [92]

" إننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً.. فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة.. هي إضعاف السائل. ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار " [ألكسس كاريل].

*   *   *

ينظم الإسلام اللقاء – الفطري – بين الجنسين في علاقة مشروعة هي الزواج. بعد تحريم العلاقات الأخرى كلها، وتربية الفرد خلقيا ودينيا على النفور من الفاحشة والتقزز

---

[92] سورة الأحزاب [62].

منها، وتنظيف المجتمع من المثيرات غير العادية التي تجعل الفضيلة مستحيلة. فيمنع التبرج والرقاعة والخلاعة ولين الحديث وفنون الإغراء، ويوجد للناس – من الجنسين – أهدافا جادة بدلا من تلك الأهداف التافهة المحصورة في الإغراء من جانب، والوقوع في الإغراء من جانب آخر، من أجل التسلية والبهجة والمتاع الرخيص! أهدافا جادة تشمل إقامة الجماعة الراشدة التي تنشد القيم العليا وتحاول تطبيقها في الأرض، في عالم المادة وعالم الروح. في التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية.. النظيفة المتعالية.. ولكل من الجنسين فيها نصيبه كما سيجيء.

وحين ينتظم اللقاء الفطري في رباط الزواج المقدس تنشأ الأسرة.

والأسرة هي النظام الطبيعي الذي يلبي الفطرة..

وقد أطلقها دركايم كلمة خبيثة لم يثبتها بدليل.. وإنما تركها تشكك الناس في مقدساتهم وفي فطرتهم، حين قال إن الإسرة ليست نظاما فطريا!!

وشهادة ألوف السنين وعشراتها.. ليست في نظره ذات دلالة! ولا تشهد – في نظره – باتجاه الفطرة!

وما البديل؟ ما البديل حين يصدر " العقل الجمعي " أمره – سبحانه! – بتحطيم الأسرة والعدول عنها؟

البديل الوحيد هو الفوضى الجنسية.. ودمار المجتمع في آخر المطاف!

الأسرة هي التي تلبي كل دوافع الفطرة. دافع الجنس. والرغبة في النسل. والرغبة في " الاستحواذ ". وفي " الامتداد " و " البروز ". وفي السكن والاستقرار..

وذلك فوق أنها ضرورة " فطرية " لتربية الأطفال، لا تغني عنها المحاضن ولا المدارس ولا التربية الجمعية التي تطبقها النظم الجمعية الحديثة. [راجع شهادة ألكسس كاريل ص 118 من هذا الكتاب، وشهادة أنّا فرويد في كتابها " أطفال بلا أسر " حيث تتحدث عن الاختلالات النفسية والعصبية التي تنشأ من وجود عدد كبير من الأطفال يشتركون في أم واحدة هي الحاضن المربية، ضد الفطرة التي تجعل الطفل في سنتيه الأولين على الأقل في حاجة إلى أم كاملة لا يشركه أحد فيها].

وإذ كانت الأسرة ضرورة ثابتة للبشرية، لا تلغيها تطورات الإنتاج ولا تطورات الاقتصاد [حتى وإن كانت تنحرف بها في عصر من العصور الفاسدة، كما حدث في اليونان القديمة وفي الغرب الحديث] فهي في حاجة غلى نظام ثابت مثلها ينظم أركانها ويرسي قواعدها. وقد أعطاها الإسلام التشريع الثابت الذي يكفل استقرارها وتمكنها.

أعطاها تشريعات الخطبة والزواج والطلاق والحضانة والإنفاق. والصلح والخصام. والنشوز من أحد الزوجين. كما حدد حقوق الزوج وحقوق الزوجة وحقوق الأطفال المادية والمعنوية. وحدد " آداب " الأسرة، وآداب المجتمع كله تجاه الأسرة وعلاقات الزواج..

وأعطى ذلك كله صفة الثبات.. لأنها أمور مرتكنة مباشرة على الفطرة. على الجانب الثابت من الكيان البشري. على وجود الرجل من طرف، والمرأة من طرف، والتجاذب الدائم بينهما الذي لا بد أن يفضي إلى اللقاء.

و " التطوريون " يقولون إن نظم الأسرة لا يجوز أن تكون ثابتة. لأنها تتأثر بالتطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية..

المرأة اليوم قد استقلت اقتصاديا. وصارت تعمل. وصارت الأدوات العلمية الحديثة تيسر لها شئون المنزل، فلم تعد تشغل بالها ولا وقتها كما كانت من قبل، ونشأ عندها " فراغ " لا بد أن تقضيه في " المجتمع " بصورة من الصور، وطاقة لا بد أن توجهها للنشاط " الاجتماعي ". كما أن الاستقلال الاقتصادي لم يجعل للرجل ذلك السلطان الذي أعطاه له الإسلام [الذي نشأ في مجتمع – لا ننسى! – متأخر! بدوي رعوي!].. الخ.. الخ.

وقد ناقشت تلك الدعاوى في كتب سابقة. ولكن لا بأس هنا بالمزيد!

إن الاستقلال الاقتصادي الذي تفرح به المرأة الغربية الحديثة، والذي كلفها الحصول عليه أن تخرج من دينها وأخلاقها وتقاليدها، كانت قضية مسلّمة في النظام الإسلامي لا تحتاج إلى جهاد.. و.. لا يترتب عليها إفساد الأسرة!

وإن " العمل " الذي اضطرت إليه المرأة الغربية اضطراراً اقتصادياً، واضطرت فيه كذلك إلى التنازل عن أخلاقها لتأكل.. حق أعطاه الإسلام للمرأة.. ولكن دون أن يضطرها إلى التبذل، ودون أن يقبل منها – أو من الرجل – ذلك التبذل.

ولكن الإسلام لم يقم علاقات الأسرة على استقلال المرأة اقتصادي أو عدم استقلالها. ولا على خروجها للعمل أوعدم خروجها. إنما أقامها على أسس الفطرة. والفطرة ثابتة لا تتغير..

إن الإسلام – رغم إعطاء المرأة الاستقلال الاقتصادي الكامل، ورغم تقرير حقها – عند التطبيق الواقعي – في أن تعمل وتخرج إلى " المجتمع " للضرورة.. أقام الأسرة على أساس أنها " أنثى " لا رجل! أنثى تقوم بالمهمة الفطرية للأنثى، وتتكيف نفسيا وعصبيا بهذه المهمة، وتتخصص لها، وتطلق فيها طاقتها الحيوية وتبذل فيها نشاطها. ثم ترعاها. ترعى نتاجها الطبيعي، وتمنحها الجو العاطفي الذي يمسكها ويحافظ على روابطها. وكفل لها مقابل ذلك أن يعولها الرجل – لا ليسلبها حق الاستقلال الاقتصادي [فهو مكفول] ولا ليسلبها حق العمل [فهو مكفول كذلك عند الضرورة. ضرورتها هي الفردية أو حاجة المجتمع إليها] – ولكن لكي لا تشغل بالها وأعصابها بإعالة نفسها وهي متزوجة وفي كنف رجل، حتى تتوفر لها شحنتها الكاملة من أجل مهمتها المقدسة: مهمة الإنتاج البشري ورعايته. بينما ينصرف الرجل للإنتاج المادي ورعايته، متخصصا له، مطلقا شحنته العصبية فيه.

والغرب الحديث – بحكم ظروفه أو بحكم انحرافاته – قد أبى الاستماع لنداء الفطرة، وتنظيمها الطبيعي، وزعم أنه " سيطور " علاقات الأسرة، ويطور وضع المرأة، بل يطور كيان المرأة ذاتها من الداخل لتصبح مخلوقاً جديداً متطورا غير ما أرادته لها عصور الظلام! مخلوقا " مساويا " للرجل في كل شيء. كل شيء على الإطلاق!

فماذا كانت النتيجة؟

لنسمع هنا شهادة " العلم ".. وهي جزء من شهادة القرن العشرين!

يقول ألكسس كاريل في كتاب " الإنسان، ذلك المجهول ":

" إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم. إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك.. إنها تنشأ من تكوّن الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض.. ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً، وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة.. والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيراً عن الرجل. فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها..

وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي. فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها. ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي. فعلى النساء أن ينمين أهليتهن، تبعاً لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذكور. فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال. فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحدودة " [ص 114].

"... وعلى أي حال يبدو أن النساء – من بين الثدييات – هن فقط اللائي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين. كما أن النساء اللائي لم يلدن لسن متزنات توازنا كاملا كالوالدات. فضلا عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن. صفوة القول أن وجود الجنين، الذي تختلف أنسجته اختلافا كبيراً عن أنسجة الأم، بسبب صغرها، ولأنها – جزئياً – من أنسجة زوجها، يحدث أثراً كبيراً في المرأة. إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن بدرجة كافية. مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة. ومن ثم فمن سخف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة. ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادي ولا أن تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم.. يجب أن يبذل المربون اهتماما شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى. كذا لوظائفهما الطبيعية. فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين، ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدين ". [ص 116 – 117].

" أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال، وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط، بل أيضاً على رعاية صغارها ". [ص 368].

تلك شهادة عالم طبيب، لا يستمد " رجعيته " من المفاهيم الدينية، ولكن من حقائق العلم المعملية!

وهذه شهادة طبيبة نمسوية التقت بها الدكتورة بنت الشاطئ في النمسا، ونشرت حديثها عنها في جريدة الأهرام بعنوان " جنس ثالث في طريقه إلى الظهور ":

".. شاءت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد، لزيارة صديقة لي طبيبة بإحدى ضواحي " فينا " – بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب – وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة. فما كان أشد عجبي حين فتحت لي صديقتي باب بيتها معجلة، وفي يدها " بطاطس " تقشره. ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك.

ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة فابتدرتني قائلة:

ما كنت تتوقعين هذا المنظر: طبيبة في المطبخ، يوم الأحد!

قلت ضاحكة: أما العمل يوم الأحد فربما فهمته. وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك، فهذا ما لم أنتظره.

فردت: لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب. فالعمل في عطلة الأحد هو المستغرب عندنا. لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين. وأما اشتغالي في المطبخ، فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي. إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معي سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة.

ولما سألتها عن سر هذا القلق – مع استقرار الوضع الاجتماعي للمرأة الغربية – أجابت بأن ذلك القلق لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا في المرأة العاملة، وذلك لما حظوا من تغير بطيء في كيانها، لم يثر الانتباه أول الأمر، لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات. وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض، وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع، تحت ضغط الحاجة والاستقرار في العمل. ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات، لم يكن أكثره عن اختيار، بل عن عقم استعصى علاجه. وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لا يرجع إلى عيب عضوي ظاهر، مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارئ على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي – عن قصد أو غير قصد – عن مشاغل الأمومة، ودنيا حواء، وتشبثها بمساواة الرجل، ومشاركته في ميدان عمله.

واستند علماء الأحياء في هذا الفرض – نظريا – إلى قانون طبيعي معروف، وهو أن " الوظيفة تخلق العضو " ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة للأنوثة، لا بد أن تضمر تدريجيا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه " عالم الرجل ".

" ثم تابع العلماء هذا الفرض، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً، وإذا بهم يعلنون – في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ – عن قرب ظهور " جنس ثالث " تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء.

وثارت اعتراضات.. منها: أن كثرة المعاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد. ومنها: أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمل، ويتيح لها بحكم القانون، فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل. ومنها: أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب.

وكان الرد على هذه الاعتراضات: أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائما الخوف من أعبائه، والشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل. ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة، تحت ضغط القانون. وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات. وأما قصر عهد المرأة بالخروج، فيرد عليه بأن هذا الخروج – على قرب العهد به – قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل، وإصرار عنيد على التشبه به، مما عجل ببوادر التغير، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة، وقوة رسوخها في ضميرها.

وما يزال المهتمون بهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى، ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن، وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة ".

* * *

تلك شهادة " العلم ".. أو شهادة " الفطرة "!

إنها تقول شيئاً واضحاً محدداً.. إن المرأة ينبغي أن تكون " أنثى ". وينبغي أن تتفرغ لوظيفتها الطبيعية الأولى.. الهامة. الخطيرة. المقدسة. ولا تفتن عنها بأية وظيفة أخرى قد تستطيعها، وقد تتقنها، وقد تبذ فيها الرجال.. الخ، ولكنها ليست وظيفتها! وليس من صالحها هي – كامرأة – أن تستبدل بها وظيفتها! كما أنه ليس من مصلحة النوع البشري أن تختل وظائف الجنسين فيه، أو أن يختل كذلك تركيبهما العضوي، فوق اختلال تركيبهما النفسي والعصبي!

وتنظيم الإسلام للأسرة قائم على تلك " الفطرة ".. الثابتة التي لا تتبدل إلا بالانحراف. وتلك نتائج الانحراف كما يرويها " العلم " المحايد، الذي تشترك فيه الطبيبة مع الطبيب!

ولكن المهم أن الإسلام – وهو يجاري الفطرة في تخصيص المرأة لوظيفتها – لم يجعل ذلك – بأي شكل من الأشكال – وسية لاستلاب إنسانية المراة أو تحقيرها أو إهانتها.. **الإسلام!** نحن نتكلم عن مجتمع يتعامل بالإسلام لا عن أي مجتمع منحرف يسيء فهم الإسلام، أو يسيء استخدام السلطة التي منحها للرجل في بعض المواضع، أو لا يحترم روحه ونصوصه التي تقول: " وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ " [93] وتقول: " بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ " [94]. ثم وتقول " خيركم خيركم لأهله [أي لزوجته] وأنا خيركم لأهلي " [95].

ثم إن الإسلام، وهو يخصص المرأة للأسرة.. لرعاية الإنتاج البشري.. لا يضعها هناك لأنه يهمل كيانها أو لا يحسب حسابها في تنظيم الحياة البشرية وتنظيم " المجتمع "! كلا! إنه يعهد إليها بصيانة قدس من أقداس الإسلام والمجتمع الإسلامي. فالأسرة في نظر الإسلام – وكذلك هي في الواقع – هي المحضن الذي يتربى فيه الطفل، ويتشرب أخلاق الإسلام وعقائده وشرائعه. وهذه المهمة الضخمة الخطيرة الهائلة، التي تترتب عليها كل صورة المجتمع المقبلة – أي أخطر ما يسعى الإسلام إلى إقامته – موكولة للمرأة، المتخصصة لها، المكفولة الراحة فيها، ولذلك لا يشغل أعصابها بالمهام الأخرى، التي يستطيع الرجل أن يقوم بها **ولا يستطيع** أن يقوم بسواها! ولا يشغل أعصابها بإعالة نفسها وهي تقوم بهذه المهمة الخطيرة المقدسة.. ثم لا يفسد أعصابها وكيانها بتوجيهها إلى مصارعة الرجل في المجتمع – أو حتى مصاحبته – بالصورة التي تحولها – كما تقول الطبيبة المخلصة لبنات جنسها – إلى جنس ثالث معذب شقى في طريقه إلى تدمير خصائصه الذاتية!

أما الفراغ المزعوم، الذي تسعى المرأة الغربية الحديثة إلى ملئه بالعمل تارة، وبالنشاط " الاجتماعي " تارة.. والفساد في المنتديات وأماكن اللهو و " الاحتفالات " تارة أخرى.. فهو فراغ مفتعل. نشأ أولا من إقامة نظم اقتصادية واجتماعية فاسدة، وتوجيهات نفسية وخلقية فاسدة. تتجه كلها إلى تأخير الزواج وتأخير إنجاب الأطفال. ثم تقليل عدد الأطفال.. فينشأ الفراغ.. المنافي للفطرة. ونشأ ثانياً من الظن الخاطئ بأن أي أحد غير الأم يستطيع أن يقوم بالتربية ويعفي الأم منها.. فينشأ الفراغ.. المنافي للفطرة!

إن التربية " بالجملة " في المحاضن وما أشبهها تخرج أجيالا شاذة منحرفة ناقصة الآدمية.. ثم إنها تشغل فتيات بدور الأمومة الصناعية وهن محرومات من الأمومة الحقة! ثم تقوم بحركة بهلوانية مجنونة غير عاقلة الهدف: تعمل المرأة لتكسب لتستطيع الإنفاق على

---

[93] سورة النساء [19].
[94] سورة آل عمران [195].
[95] رواه الترمذي.

الحاضنة التي تربي لها طفلها في أثناء العمل!! وفي الطريق: يحرم الطفل من أمه الحقيقية، وتحرم الحاضنة من الأمومة!!

مجموعة عجيبة من الاختلالات.. لا تحدث إلا في قمة " الحضارة! " التي يمارسها الغرب في القرن العشرين!!

والإسلام – كلمة الله إلى الأرض – حاشا أن يقع في هذه الاختلالات، لإرضاء مشاعر مجنونة عند مجانين!

*　　*　　*

ننتقل الآن إلى القضية الرابعة:

"خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، **وبث منهما رجالا كثيراً ونساء"**.

إنها قضية المجتمع المكون من رجال ونساء، مشتقين في الأصل من النفس الواحدة التي خلقها الله.

وقد أخذنا جزءا من هذه القضية فيما سبق حين تعرضنا لعلاقة الجنسين في داخل المجتمع. فالآن نكمل الحديث عنها فيما سوى علاقة الجنس.

إن تكون المجتمع من الأفراد: من الرجال والنساء، قضية **ثابتة** لأنها تستند إلى حقيقة ثابتة لا تغيرها تطورات العلم ولا تطورات التاريخ.

وقد استلزم وجودها وجود علاقات معينة **ثابتة** بين الفرد وبقية الأفراد. أي بين الفرد والمجتمع.

ونبدأ بمناقشة تلك الأسطورة التي زعمها دركايم.. أسطورة " العقل الجمعي " الذي يحكم الأفراد بغير مقتضى فطرتهم، ويفرض عليهم ما لا يرغبون فيه بطريقة القهر الاجتماعي الذي لا يملك الفرد رده ولا التصرف فيه. إنها أسطورة عجيبة إن لم نقل كذلك خبيثة فقد انتهى منها كما رأينا إلى أن الأسرة ليست فطرة [أي أن البديل – وهو الفوضى الجنسية – ممكن الحدوث بصورة طبيعية إذا أراد ذلك العقل الجمعي!] والدين ليس فطرة [أي أن البديل – وهو التحلل الديني – ممكن الحدوث بصورة طبيعية إذا أراده العقل الجمعي] وأن الجريمة

ليست ظاهرة اجتماعية معتلة! وإنما هي ظاهرة اجتماعية طبيعية **ومفيدة** للمجتمع!! [كتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع (ص 118 من الترجمة العربية): " ومن ثم تكاد تكون الجريمة الظاهرة الوحيدة التي تنطوي بصفة لا تقبل الشك على جميع أعراض الظاهرة السليمة " ص 119 " ولكن معنى ذلك أيضا أننا نؤكد من جهة أخرى أن الجريمة عامل لا بد منه لسلامة المجتمع. وأنها جزء لا يتجزأ من كل مجتمع سليم "!].

إن هذه الأسطورة كلها تقوم على شيء واحد: أن الإنسان الفرد يقوم في أثناء وجوده في " الجماعة " بأعمال قد لا يرضى عنها أو يرغب فيها. بل قد يستنكرها إذا خلا لنفسه فيما بعد!

وهذه – ولا شك – حقيقة! ولكن ما دلالتها؟!

إن هؤلاء السادة " العلماء " الكبار يغفلون عن حقيقة " فطرية "كبيرة، هي ازدواج الطبيعة الإنسانية [96] ويفسرون الإنسان دائما بأحد جانبيه دون الآخر، ومن ثم يتمحلون الأسباب للوجه الآخر – الموجود دائما – فيفسرونه بتفسير آخر " خارج "كيان الإنسان! فتارة يكون المادة. وتارة يكون المجتمع. وتارة يكون...!

إن من الخطوط المتقابلة في النفس البشرية: **الفردية والجماعية. والسلبية والإيجابية.** كلاهما موجود وجودا فطريا في الإنسان. كلاهما أصيل. ليس أحدهما مفروضا على الإنسان من خارج كيانه. وكلاهما يؤثر فيه. وهو قابل للتأثر من كلا طرفيه بصورة فطرية، لا من طرف واحد فحسب.

والذي يجعل الإنسان في المجتمع يقوم بأعمال لا يرضى عنها كفرد، بل يستنكرها حين يخلو إلى نفسه، ليس هو " القهر الاجتماعي " في كل حالة، وإنما هو في كثير من الحالات " المشاركة الوجدانية "! أي الرغبة – الفطرية – في مشاركة الآخرين ولو على حساب الكيان الفردي، **لفترة من الوقت** وليس كل الوقت!

والذي يهدم دعوى دركايم، أن القهر الاجتماعي – وهو حقيقة في كثير من الحالات – لا يستطيع مهما أوتي من قوة وضغط أن يلغي فطرة الفرد. فطرة الإنسان. وإن كبتها إلى حين. فكل الضغط الذي مارسته الشيوعية لم يستطع إلغاء النزعة الفردية للتملك! فاضطرت الشيوعية إلى التراجع! كما أن " الثورات " هي التعبير الدائم عن رفض الخضوع

[96] انظر فصل " طبيعة مزدوجة " في كتاب الدراسات.

للقهر. ومع أن الثورة ذاتها ظاهرة " جماعية " إلا أنها ولا شك تتجمع من نفوس الأفراد. بل قد تبدأ بفرد واحد ثائر، يجمّع حوله الآخرين. يجمعهم من داخل فطرتهم. من عدم رضاهم عن القهر.

فالجماعية التي تطغى أحيانا على الفرد. والسلبية التي تسكت أحيانا على القهر، كلتاهما نزعة فطرية. ومن ثم تصبح كل الظواهر الاجتماعية في النهاية فطرية. سواء كانت سليمة أو معتلة. فالفطرة عرضة للانحراف وعرضة للاعتدال. ومن اعتدالاتها وانحرافاتها تنشأ اعتدالات الفرد وانحرافاته، واعتدالات المجتمع كذلك وانحرافاته.

* * *

" المجتمع " جزء من الفطرة. الفطرة الثابتة. والعلاقة بين الفرد والمجتمع كذلك ثابتة في عمومها. وكونها تقلبت في شتى العصور ذات اليمين وذات الشمال، فأخذت صورة فردية حادة أو جماعية حادة، لا يعني أنه ليس لها مقياس من الفطرة ولا أنه مقياس غير ثابت. وإنما يعني فقط أنها – ككل شيء في الفطرة البشرية – قابلة للانحراف كقابليتها للاعتدال.

والقانون الثابت الذي ينبغي أن يحكم علاقة الفرد بالمجتمع، هو أنهما ناشئان معا من النفس الواحدة. فليس أحدهما " أقدس " من الآخر، وليس لأحدهما حرمات أكثر من الآخر!

وعلى هذا الأساس تصان حرمات الجميع وحقوق الجميع.

ومن ذلك نشأت – في الإسلام – نظرية الحدود أي العقوبات المحددة من الله. ونشأ كذلك ثبات هذه الحدود.

إن العقوبة في طبيعتها، وفي ثباتها، تخضع لهذه الحقيقة الثابتة: وهي أن الرجال الكثيرين والنساء [المكوّنين للمجتمع] منبثون من ذات النفس الواحدة. ومن ثم فحقوقهم " الإنسانية " جميعا واحدة وحرماتهم واحدة.

حرمة الدم، وحرمة العرض، وحرمة المال، حرمات متساوية. وثابتة. لا تغيرها التطورات.

وعقوبات العدوان على حرمات الدم والعرض والمال كذلك عقوبات ثابتة لا تغيرها التطورات.

ومن ثم جاءت في الإسلام عقوبات القتل [وما دونه من جراح] والزنا والسرقة. والإفساد في الأرض الذي يشمل الجرائم السابقة جميعا ويزيد عليها فتنة الناس في أمنهم وعقيدتهم.

أما عقوبة الردة فهي مرتبطة بالعقيدة في الله. وهي عنصر كذلك دائم وثابت في حياة البشرية.

وقد تحدث كثيرون عن " التطور " في النظر إلى العقوبة، وتحذلق كثيرون وهم يشيرون إلى أبحاث علم النفس الحديث - والتحليلي خاصة - في طبيعة الجريمة، وأبحاث علم الاجتماع، وعلوم كثيرة أخرى تبحث في هذا الميدان..

تحدثوا كثيرا وتحذلقوا كثيراً.. وقالوا عن العقوبات الإسلامية جهالات كثيرة!

قسوة. رجعية. تأخر. عدم احترام إنسانية الفرد. النظرة الانتقامية لا النظرة العلاجية.. الخ.. الخ.

وفي كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام " فصل كامل عن الجريمة والعقاب. وفي كتاب " قبسات من الرسول " فصل آخر بعنوان " ادرءوا الحدود بالشبهات ". ولا أملك هنا إلا تلخيص الفكرة في سطور.

إن كل " التطور " " والتقدم " " والتحضر " لم يستطع أن يضيف جديداً لفكرة الإسلام! بل لم يصل بعد إلى عدالة الإسلام، ونظرته التربوية والتوجيهية.

إن الإسلام لا يبدأ بالعقوبة!

ولكن يبدأ بوقاية المجتمع من أسباب الجريمة!

ثم بعد ذلك - بعد أن يهيء الوقاية المطلوبة. بعد أن لا يعود هناك دافع معقول للجريمة - يأخذ في تطبيق العقوبة!

ومع ذلك – فاحتياطاً من عدم التأكد من استحقاق المتهم للعقوبة استحقاقا كاملا – يقول: ادرءوا الحدود بالشبهات، أي: يفسر الشك في صالح المتهم! ويقول: " لأن يخطئ الإمام بالعفو خير من أن يخطئ بالعقوبة [97] "!

فأية عدالة..! وماذا أضاف التطور والتقدم والتحضر إلى تلك القمم العالية. بل ماذا يمكن أن يضيف؟! بل ماذا بلغ، وماذا يمكن أن يبلغ؟!

" روي أن غلمانا لابن حاطب ابن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة، فأتى بهم عمر، فأقروا، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم، فلما ولى رده. ثم قال: أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم **حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له،** لقطعت أيديهم. ثم وجه القول لابن حاطب ابن أبي بلتعة فقال: وأيمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك! ثم قال: يا مزني بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة. قال عمر لابن حاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة "!

ذلك هو الإسلام! إنه لم يوقع العقوبة على السارق – حين رأى أن " المجتمع " هو الذي يدفعه إلى السرقة – بل وقع العقوب في الواقع على هذا المجتمع الظالم ممثلا في صاحب رس المال! وذلك قبل التشدق بالبحوث النفسية والبحوث الاجتماعية والاقتصادية بأكثر من ألف عام!

وعقوبات الإسلام كلها منظور فيها هذه النظرة. وقاية المجتمع أولا من أسباب الجريمة. بالتشريع والتوجيه معا. ثم النظر في كل حالة مفردة للتأكد من دوافع الجريمة فيها. ودرء العقوبة بالشبهة.

والمهم هنا أن نثبت أن هذه الحدود ثابتة، لأنها ترتكز على عوامل ثابتة. مع ما فيها من " المرونة " الإسلامية التي تجعلها تتسع لجميع الحالات، وتردها إلى مقياس العدالة الثابت في جميع الأحوال.

وقد مر بنا من قبل في الحديث عن القضية الثانية: قضية وحدة البشرية وأخوتها، كلام يدخل في قضية الفرد والمجتمع، فيحسن أن نذكر به في ظل القضيتين المتداخلتين في حقيقة الأمر:

إن علاقة المجتمعات – الناشئة من نفس واحدة – ليست علاقة الخصام والحرب:

---

[97] حديث ذكره صاحب مصابيح السنة في الصحاح.

" وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ **لِتَعَارَفُوا** " [98] فالهدف الأخير هو التعارف. هو السلم الذي يدخل فيه الناس كافة. التعارف بكل الوسائل التي تؤدي إليه.

والحرمات تصان لجميع الناس لا لطائفة دون طائفة ولا لفرد دون فرد.

" مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً " [99] [وهو كذلك مكتوب على المسلمين]

وضمانات التحقيق وضمانات العدالة في القضاء تشمل كل أبناء النفس الواحدة أيا كان لونهم أو دينهم أو شعبهم أو قبيلتهم. وأيا كانت العلاقة بينهم وبين المسلمين. علاقة حرب أو سلام. وقد مرت بنا الآيات التي نزلت لنصفة الرجل اليهودي. والتوجيه العام: " وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " [100]

* * *

تلك هي الأمور الثابتة في تشريعات الإسلام وتوجيهاته، وتنظيماته للحياة البشرية.

وهي ثابتة لأنها تقوم على جوانب ثابتة في كيان الإنسان، لا يغير منها شيئا كل التطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية.

إنها أعمق في الفطرة من كل تطور. وأثبت من كل تغيير..

ولا يجوز أن يخدعنا أنها لا تأخذ هذه الصورة الثابتة في الواقع البشري.. فتفسير ذلك كامن في انحرافات الفطرة لا في تطورها.

والفرق بين الانحراف والتطور يتبين من النتائج التي يؤدي كل منهما إليها.

---

[98] سورة الحجرات [13].
[99] سورة المائدة [32].
[100] سورة المائدة [8].

التطور – الذي يتمشى مع الفطرة – يؤدي إلى نتائج نافعة صالحة. أما الانحراف – الذي يسير ضد اتجاه الفطرة – فيؤدي إلى الأمراض النفسية والاجتماعية. والعصبية والعقلية.. الخ. وإلى الدمار.

وقد قالت لنا شهادة القرن العشرين ما فيه غناء؛ فقد بينت لنا بجلاء ما نشأ عن انحراف الفطرة في الأمور الثابتة التي لا تقبل التطور. وخاصة في علاقات الجنس ومقاييس الأخلاق!

*   *   *

إلى هنا كنا نتحدث عن الجانب الثابت من الكيان البشري، وعن التشريع الإسلامي الذي يقابله ويغطيه..

والآن ننتقل إلى الجانب المتطور في حياة الإنسان، لنرى كيف يواجهه الإسلام.

إن " صورة " الحياة البشرية تتغير تغيرا واسع المدى في كل حين نتيجة الاحتكاك الدائم بين العقل البشري والكون المادي.. وينشأ عن ذلك تنظيمات جديدة وأحوال.

وقد بينا في الفقرات السابقة أن هذا التغير – الذي نصفه بأنه واسع المدى – **لا يشمل** جوانب معينة من الكيان البشري والحياة البشرية، لأنها ترتكز إلى أسس عميقة في الفطرة غير قابلة للتغير.. إلا بالانحراف الذي يصيبها بأشد الأضرار، ويعرضها للدمار. فالآن نقول إنه يشمل كل الجوانب **الأخرى** في الإنسان.

يشمل التقدم المادي والعلمي وتطور أساليب الإنتاج.

ويشمل " صورة " المجتمع.. هل هو مجتمع رعوي. أو زراعي. أو صناعي. أو ذري.. أو..

ويشمل بالتالي اقتصاديات هذا المجتمع. وطبيعة الروابط والعلاقات بين المالكين وغير المالكين.

كما يشمل الصورة السياسية للمجتمع. أي شكل الحكومة وتنظيماتها.

وهذه الأمور كلها مرتبط بعضها ببعض، وإن لم يكن - كما أثبتنا من قبل - ترابط السببية المباشرة. وإنما ترابط المواكبة والمصاحبة والتأثير المتبادل.

ولكنها كلها متغيرة.. هذا هو الطابع الذي يشملها جميعاً.

العلم يكتشف ويخترع على الدوام. ولم يكف عن هذه المهمة أبداً منذ مولده إلى هذه اللحظة. فهو ينمو نماء دائما - إلا في فترات الانحراف حين يخمل ويعقم ويكف عن التجدد - ويضيف دائماً حصيلة جديدة من المعرفة.

وباختراعاته واكتشافاته يطور الآلات والعدد والأدوات.. أي أساليب الإنتاج. وتلك - كما رأينا من كلام جوليان هكسلي - فطرة. ولكن " الصورة " التي تؤدي إليها هذه الفطرة متغيرة على الدوام.

وحين تتطور أساليب الإنتاج تنشأ نظم اقتصادية جديدة. وصورة جديدة من المجتمع. وصورة جديدة من الحكومة.. ويسير كل ذلك على سنة النمو الفطرية في كيان الإنسان.

ولكن.. لا ينبغي أن ننسى أن إنشاء نظم اقتصادية جديدة لا يتوقف حتما على تغير أساليب الإنتاج كما زعم التفسير المادي للتاريخ. فقد رأينا كيف أنشأ الإسلام نظاماً اقتصادياً متفرداً، غير مسبوق من قبل، وهو في الوقت ذاته غير قائم على أي ضرورة اقتصادية ولا على أي تطور في أساليب الإنتاج! وكذلك أنشأ صورة جديدة للمجتمع، وصورة جديدة للحكومة..

إنما يحدث - في المعتاد - أن تتواكب التطورات كلها وتتصاحب.. وينشأ عنها تغيرات دائمة في صورة الحياة البشرية. وهذا هو الذي نناقشه في هذه الفقرة، لنرى موقف الإسلام من هذه التطورات.

* * *

كما واجه الإسلام الجانب الثابت من الكيان البشري بتشريعات وتوجيهات تناسبه وتتلاقى معه، بحيث ينطبقان انطباقاً كاملا في كل لحظة [فيما عدا حالات الانحراف بطبيعة الحال: حيث تفترق الصورة المطلوبة عن الصورة الواقعة بسبب الانحراف لا بسبب التطور. وينبغي في تلك الحالة إعادة الأمر إلى وضعه الصحيح].. كذلك يواجه الإسلام الجانب

المتطور بتشريعات وتوجيهات تناسبه وتتلاقى معه، بحيث ينطبقان انطباقاً كاملا في كل لحظة.. ما عدا حالات الانحراف!

إن عملية النمو العلمي والمادي، والاقتصادي والاجتماعي والسياسي، عملية فطرية. والتغير الدائم فيها فطري وطبيعي. **ولكن ليس معنى هذا أن كل تغير يحدث يكون طبيعياً وملائما للفطرة!** فالفطرة عرضة دائما للانحراف حين يساء توجيهها [أو حين تترك بلا توجيه صالح!] وعندئذ تنمو حقيقة، ولكنها تنمو نمواً منحرفاً. كالطفل الذي ينمو بساق معوجة. إنه ينمو –كما تقتضي الفطرة أن ينمو – ولكن من يقول إن نموه سليم؟!

إنهما أمران معا في ذات الوقت: النمو.. واستقامة النمو على الفطرة. وهذا ما يراعيه الإسلام!

بينا من قبل في فصل " الثابت والمتغير في كيان الإنسان " حقيقة هامة نحتاج هنا إليها حاجة شديدة، هي أنه – حتى في الجانب المتغير من الإنسان – تتغير " الصورة " ولا يتغير " الجوهر ". ومؤدى ذلك أن " التطور " لا يكون سائباً منفلتا من كل رباط، يتجه بحسب هواه، أو بحسب ما تقوده الظروف. إنما ينبغي أن يكون له رباط من الفطرة. رباط يجعل له هدفاً صالحاً راشداً بانياً يتفق مع اتجاه الفطرة السوية. رباط يمنع الخلل والانحراف في أثناء عملية النمو الفطرية.

التقدم العلمي تدفعه الرغبة الفطرية في المعرفة. والعقل البشري يكتشف ويخترع بمقدار ما يوفقه الله ويفتح عليه من طاقة المعرفة. ولكن التطبيق العملي لحقائق العلم المحايدة.. ليس أمراً محايداً! فالتطبيق يمكن أن يتجه إلى الخير، ويمكن أن يتجه إلى الشر. **والفطرة السوية تستخدم العلم في سبيل الخير فقط**، ولا تستخدمه في سبيل الشر. لأن الشر لا يخدمها.

والنمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي نمو فطري. ولكن له وجهين متقابلين. أو وجوهاً شتى تندرج تحت اتجاهين. أحدهما للخير والآخر للشر. والفطرة السوية تنمو في سبيل الخير وتأبى النمو المنحرف في سبيل الشر.

والنمو النفسي كذلك.

كل حركات النمو هذه فطرية، فينبغي أن تحكمها الفطرة السليمة. ومن ثم ينبغي أن يكون هناك " إطار عام " يشمل عملية النمو، ويمنعها من الانحراف. وذلك بالضبط ما يصنعه الإسلام!

* * *

إن الإسلام كلمة الله النهائية للبشرية: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً " [101]. ولم يكن لمجتمع الجزيرة العربية وحدها. ولا لعهد الرسول وحده صلى الله عليه وسلم. ولا لأي بيئة أو جيل محدد على وجه الأرض.

وإنما للبشرية كافة. وفي جميع أعصرها: " وما أرسلناك إلا رحمة **للعالمين** " و " العالمين " لفظ يشمل الزمان والمكان على أقصى اتساع. بلا حدود!

لذلك لم يضع الإسلام – في الأمور المتغيرة – أحكاما تفصيلية.

لقد وضع التشريعات التفصيلية الثابتة في الأمور الثابتة في أعماق الفطرة. التي لا تتغير. أي لا ينبغي أن تتغير. لأن كل تغير فيها هو انحراف ضار بحياة البشرية [راجع شهادة القرن العشرين!]

أما الأمور المتغيرة – ولو أن مبادئ الشريعة العامة تحيط بها وتشملها – فلم ترد فيها أحكام تفصيلية عرضة لأن تتحطم عند أول نمو يحدث في المجتمع.. وهو حادث لا محالة!

لو وضع تشريعات اقتصادية تفصيلية ثابتة للمجتمع الرعوي القبلي، لحطمها النمو الزراعي، ثم النمو الصناعي، وجعلها غير صالحة للاستعمال. ولكان ذلك في الوقت نفسه قيدا يعوق المجتمع عن النمو الفطري الصحيح.

ولو وضع صورة محددة لشكل الحكومة، مفصلة على قد الحكومة " المدينة " مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو على قد الجزيرة العربية القريبة العهد بالنظام القبلي، لما صلحت هذه الحكومة لمجتمع الجزيرة العربية ذاته بعد جيل واحد من الزمان، بعد الفتوح والامتداد، والاحتكاك بشتى النظم والحضارات، ونمو الحاجات..

---

(101) سورة المائدة [3].

وحاشا لله أن يكون نظامه الدائم عرضة لهذه الاضطرابات..

وإنما كان موقف الإسلام من هذا الأمر، هو موقفه في كل أمر.. المطابقة الكاملة مع الفطرة!

" إطار " ثابت يسمح بكل أنواع النمو الفطري الصحيح. وأسس عامة تحدد الاتجاه وتعين الطريق وتمنع الانحراف. وتسمح بأشكال متعددة تقوم كلها على القواعد الكلية والمبادئ الثابتة، كما تقوم على الخصائص المميزة للنظام الإسلامي، التي تفرقه وتميزه عن الأنظمة التي وضعها البشر لأنفسهم.

وسنرى، بشيء من التفصيل، كيف كان موقف الإسلام من النمو العلمي، والنمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والنمو " الحضاري " على وجه الإجمال.

فأما النمو العلمي، فلم يكن القرآن – كما يحلو لبعض ذوي النوايا الطيبة في هذه الأيام أن يتصور! – لم يكن ليحوي " نظريات " علمية، في الطبيعة والكيمياء والفلك والذرة والصواريخ. وليس من شأنه أن يفعل!!

إنما شأنه أن **يوجه** النمو العلمي بما ينفع الفطرة ويلائمها.. وذلك ما حدث بالفعل.

لقد أشار القرآن إلى طاقة المعرفة: " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا " [102] وأشار إلى وجوب التعلم: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، **عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** " [103].

ثم أوجب تدبر آيات الله في الكون والتعرف عليها: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ **لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** " [104].

(102) سورة البقرة [31].
(103) سورة العلق [1 - 5].
(104) سورة البقرة [164].

وأوجب المشي في الأرض والبحث عن رزق الله فيها: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا** وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ " [105].

وأعلم الإنسان – في ظل هذا التوجيه كله – أن السماوات والأرض – بما تحويان من موجودات وطاقات – مسخرة للإنسان بأمر الله: " وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ " [106]. فعليه إذن أن يسعى إلى تحقيق هذا التسخير بالفعل: بالعلم [التعرف على قوانين الكون التي يسيره الله بمقتضاها] والتطبيق [المشي في مناكب الأرض والأكل من رزقهِ].

ومن تلك النقطة. من هذا التوجيه. انطلق العقل السليم يرتاد الكون.

العقل الذي كان في جاهلية العرب لا يتجه إلى العلم إطلاقا.. كل همه أن ينظم شعراً جزلا مصقولا رصينا، يضمنه على الأكثر بعض " الحكم " النظرية.. انطلق في عالم الواقع ينشئ أكبر حركة علمية في تاريخ الأرض إلى ما قبل العصر الحديث.. ويكفي أن يكون هو الذي أنشأ المذهب التجريبي الذي تقوم عليه كل فتوحات العصر الحديث!:

يقول " بريفولت " في كتاب " بناء الإنسانية " Making of Humanity:

" لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية [107] على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام؛ ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة. بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية. فإنه **على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة،** فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره: **أي في العلوم الطبيعية، وروح البحث العلمي.**

[105] سورة الملك [15].

[106] سورة الجاثية [13].

[107] يقصد الحضارة الإسلامية كما قال فيما بعد. ذلك أن التاريخ لم يعرف للعرب حضارة متميزة إلا بالإسلام. كما أن الحضارة الإسلامية لم تكن قط حضارة للعرب كجنس. إنما كانت نتاج الإسلام ذاته من جميع العناصر المسلمة التي دخلت في الإسلام. وهي تحمل طابع الإسلام لا طابع العرب. والعرب عنصر واحد من العناصر الكثيرة التي صنعت هذه الحضارة.

... وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة. بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية [يقصد الإسلامية!] بأكثر من هذا: **إنه يدين لها بوجوده نفسه**. فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعلم فيه وجود. وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية، استجلبوها من خارج بلادهم؛ وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية. وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجميع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي.. كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني. أما ما ندعوه " العلم " فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان.. وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي (108) "

ويقول المؤلف نفسه:

" وإن " روجربيكون " درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة " أكسفورد " على خلفاء معلميه العرب في الأندلس. وليس " لروجربيكون " ولا سميه " فرنسيس بيكون " الذي جاء بعده، الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، **فلم يكن روجربيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية**. وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة. والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية. وقد كان منهج العرب في عصر " بيكون " قد انتشر انتشارا واسعا، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوربا.

ومن أين استقى " روجربيكون " ما حصله من العلوم؟

من الجامعات الإسلامية في الأندلس. والقسم الخامس من كتابه (Cepus Majus) الذي خصصه للبحث في البصريات، هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم (109) ".

---

(108) عن كتاب " تجديد الفكر الديني في الإسلام " تأليف محمد إقبال وترجمة عباس محمود ص 149 – 150.

(109) المصدر السابق ص 148.

ويقول دريبر الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه " النزاع بين العلم والدين ":

" تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم؛ وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها. **ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العملي الحسي**.

وإن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جلية في التقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم، وإننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر. ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية – الذي يعتبر مذهبا حديثا – كان يدرس في مدارسهم. وقد ذهبوا فيه إلى أبعد مما وصلنا إليه. وذلك بتطبيقه على الجوامد والمعادن [110]. وقد استخدموا علم الكيمياء في الطب، ووصلوا في علم الميكانيكا إلى أنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام. وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة. ووصلوا في نظريات الضوء والإبصار إلى أن غيروا الرأي اليوناني القائل بأن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي، وقالوا بالعكس. وكانوا يعرفون في نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها. وقد اكتشف " الحسن ابن الهيثم " الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره من الجو.

وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق، وكذلك نراهما في المغرب بعد أن يغيبا بقليل" [111].

❋ ❋ ❋

وهذا يكفي لإثبات طبيعة الحركة العلمية التي نشأت في ظل الإسلام، والتي حوى القرآن " إطارها " التوجيهي، ولم يكن ليحوي تفاصيلها لأنها متغيرة على الدوام.

إنما يهمنا فيها أن نشير إلى أن **الإسلام كان يوجه الحركة العلمية في طريق الخير**، ويعصمها من الانحراف الذي يمارسه العلم في ظل الحضارة الغربية، حيث تستغله الشياطين في إفساد أخلاق الأمم والأفراد، وتدمير مقدساتهم، وحل روابطهم وإشاعة التفاهة في نفوسهم، بتأثير السينما والإذاعة والتليفزيون والصحافة.. ثم يستغل في إنتاج الدمار على نطاق واسع، بينما العالم يهدده الفناء بالجوع، والطاقة الذرية – التي تستخدم للدمار – هي

---

[110] راجع الهامشة في ص 28.

[111] عن كتاب الإسلام دين العلم الخالد لفريد وجدي.

وحدها – في الوقت الحاضر – التي كان يمكن أن تزيد إنتاجية الأرض من الغذاء لسد الأفواه الجائعة المسكينة!

* * *

وفي النمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كذلك..

إطار عام يسمح بانفساح الصورة. **ولكنه لا يسمح بانحراف الصورة!**

أشار القرآن إلى نمو " الأمة " الإسلامية من قبائل متفرقة متناحرة إلى " أُمة " موحدة الهدف مترابطة الكيان:

" وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (112) ".

وأشار إلى مقومات هذه الأمة، وأسس حياتها وخصائص نظامها.

"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (113) ".

" وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (114).

" وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (115) ".

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (116) ".

(112) سورة آل عمران [103].
(113) سورة آل عمران [110].
(114) سورة آل عمران [104].
(115) سورة المائدة [2].
(116) سورة النساء [59].

" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [117] ".

" وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ [118] ".

" وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا [119] ".

" وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ [120] ".

" وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [121] ".

" فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً [122] ".

ثم لم يحدد " صورة " الأمة كيف تكون. تكون مرة مجتمعاً رعوياً. ومرة مجتمعاً زراعياً. ومرة مجتمع مدينة، ومرة مجتمع تجار. أو صناع. ومرة.. ومرة.. لا يتقيد المجتمع في نموه بصورة معينة، ولا يجد عائقاً واحداً يعوقه عن النمو، إنما يجد دائما توجيهات توجهه في عملية النمو وتمنعه من الانحراف.

ثم يشهد التاريخ أن النمو الاجتماعي والحضاري في المجتمع الإسلامي قد بلغ الذروة – في عصره – فلم يأل المسلمون جهداً في الاستفادة بكل التنظيمات الإدارية التي وجدوها عند الأمم المفتوحة. ولا الحصيلة الحضارية التي وجدوها عندهم سواء في مصر أو الشام أو فارس، فيما لا يعارض عقيدتهم وتصورهم الخاص لغايات الحياة الإنسانية. كما اطلعوا على أسس الحضارات الرومانية والإغريقية والهندية، واقتبسوا بحرية كل ما لا يتعارض مع الأصل الذي ابتعثهم الله ليقروه في الأرض، جاعلين عقيدتهم وتصورهم الميزان الذي يقبلون على أساسه ما يقبلون ويرفضون ما يرفضون.

[117] سورة الحجرات [10].
[118] سورة الشورى [38].
[119] سورة الحشر [7].
[120] سورة المائدة [49].
[121] سورة المائدة [44].
[122] سورة النساء [65].

وقد كان المجتمع الإسلامي – رغم كل ما أصابه من تدهور لأسباب مختلفة – قمة عالية أيام الحروب الصليبية نشأ من احتكاك الصليبيين بها كل ما حدث من تقدم فكري واجتماعي وحضاري في الغرب الحديث، بشهادة من مرّت شهادتهم من الكتاب الغربيين.

* * *

أما النمو الاقتصادي فقد وضع القرآن له إطارا ثابتا، ثم تركه ينمو بحرية داخل الإطار، دون أن يضع له صورة معينة، أو يعوقه بقيد واحد عن النمو الصالح الرشيد.

النظرية العامة للاقتصاد الإسلامي تقوم على أساس أن الله سبحانه استخلف الإنسان – كنوع – في الأرض، وأن المال فيها مال الله، والجماعة الإنسانية مستخلفة فيه، وفق شروط الله الواردة في شريعته، سواء في صورة مبادئ كلية أو تشريعات جزئية – والأولى هي الأكثر – وأن الفرد موظف في هذا المال، تقوم وظيفته على أساس الملكية الفردية لجانب من هذا المال مقابل جهد يبذله، وبشرط حسن التصرف في هذه الملكية – بما يعود على نفسه وعلى الجماعة كلها بالخير، وفي حدود شروط الله التي بدونها لا يتحقق الخير. فإن هو سفه وأساء استخدام حق الملكية قيد حق التصرف، وعاد حق التصرف هذا إلى الجماعة، صاحبة الحق الأول المستمد من خلافتها عن الله في الأرض. وهذا لا يخل بقاعدة الملكية الفردية التي يقوم عليها نظام الإسلام كله – لا النظام الاقتصادي وحده – ولكنه فقط يحيط هذه القاعدة بالقيود التي تكفل حسن التصرف في هذه الملكية، ويحفظ للجماعة حقها المقرر في مال الأفراد بالزكاة وغيرها من التكاليف بقدر حاجة الأمة وبحسبها، مع الإبقاء على ملكية الأفراد، فيما عدا بعض الموارد العامة التي تبقى ملكية عامة:

" وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ " (123).

" وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ **أَمْوَالَكُمُ** الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ **لَكُمْ** قِيَاماً " (124).

ثم يجعل هناك قاعدة عامة لتوزيع المال في الجماعة:

"كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ " (125).

---

(123) سورة النور [33].
(124) سورة النساء [5].

فلا ينبغي أن تحتكره أيدي الأغنياء في أية صورة. يجب أن توزع ملكيته في الأيدي الكثيرة كي تتداوله، وكي تتم دورة المال الطبيعية في أيدي أكبر عدد من الأمة.

وهناك حق المعوزين والمحرومين، تتقاضاه الجماعة حقا مفروضا، وتوزعه على المحتاجين إليه:

" وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ " [126].

هو حق الزكاة. ووراءه التكاليف الطارئة التي يؤخذ بحسبها كلما وجدت من أموال الأغنياء.

ثم هناك قواعد لكسب المال والتعامل فيه. فلا يجيء هذا الكسب، ولا يتم هذا التعامل بطريقة فيها مضارة من أي وجه لفرد أو أكثر في الجماعة. ومن ثم يحرم الغصب والنهب والسرقة والغش والاحتكار. كا يحرم الربا وهو أبشع هذه الوسائل جميعاً:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ [127] " " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ " [128].

وهناك أمر بالمعاونة " النظيفة ". " وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " [129].

تلك قواعد عامة. وذلك هو الإطار الذي ينمو فيه الاقتصاد الإسلامي بلا عائق.. إلا العوائق التي تمنع الانحراف.

---

[125] سورة الحشر [9].
[126] سورة الذاريات [19].
[127] سورة البقرة [278 - 279].
[128] سورة البقرة [275 - 276].
[129] سورة البقرة [280].

ولقد نما الاقتصاد الإسلامي في ظل هذه المبادئ العامة نموا مطردا من الوعي إلى الزراعة إلى التجارة إلى الصناعة [البسيطة] إلى تداخل هذه الأنواع جميعاً في وقت واحد. ونما معه الفقه الإسلامي في جوانب " المعاملات " نموا هائلا حتى كون ثروة تفخر بها البشرية. وفي الوقت ذاته حالت تلك المبادئ العامة دون كثير من الانحرافات التي أصابت الاقتصاد الغربي. فحالت دون الإقطاع في صورته الأوربية البشعة التي كانت تستعبد الفلاح للأرض، ولهوى السيد الذي كانت تجتمع في يده في وقت واحد السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية... مما لم يكن له مثيل في الإسلام. وكان قمينا أن يحول دون بشاعات الرأسمالية لو بقي حياً عاملا في الأرض، ولم توجه إليه الضربات القاصمة من كل مكان، ولم يتهاون أهله فيه كما حدث في القرون الأخيرة على وجه التحديد.

وهنا قد يبدو لبعض الناس أن الإسلام – وهو يحرم الربا – يضع قيوداً على "النمو" الاقتصادي، تمنع التقدم والانطلاق... وقد كانت تلك الشبهة تلذع بعض المسلمين في مبادئ هذا القرن فيسعون إلى الاعتذار عن الإسلام في هذا الأمر! أو يسعون إلى الإفتاء بجواز الربا للضرورة أو جوازه لأنه اليوم شيء آخر غير المنهي عنه في القرآن! وما زالت الشبهة تلذع بعض المسلمين حتى اليوم فيصنعون هذا وذاك!

ولا نحتاج – في هذا العصر خاصة – أن نطيل الحديث في ويلات الرأسمالية، وهي النظام الذي يقوم على الربا أساسا، ويضيف إليه أو ينتهي إلى الاحتكار.

إن بشاعات الرأسمالية الربوية غنية عن البيان. وقد قال فيها أعداؤها – بل أصدقاؤها أنفسهم – ما فيه الكفاية. ولا يطلب عاقل من الإسلام أن يبيح الأداة التي تتسبب في كل هذا الظلم وكل هذا الدمار!

أما كيف يدار الاقتصاد المسلم بغير الربا في ظل التقدم الصناعي فمبحث متخصص لا نتعرض له هنا. وقد ألف فيه بعض العلماء المسلمين. فألف السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ثلاثة بحوث رئيسية: " أسس الاقتصاد الإسلامي " و " الربا " و " ملكية الأرض في الإسلام ". وألف سيد قطب كتاب " العدالة الاجتماعية في الإسلام ". ونشر غيرهما بحوثا متفرقة عن الموضوع في أولها بحوث الأستاذ عيسى عبده إبراهيم في صحف شتى، وما زال الأمر متسعا لمزيد من البحث.. ولكن الأمر الذي ينبغي أن يستقر في أذهاننا بداءة **أنه لا يمكن** أن يحرم الله شيئاً فيه مصلحة للناس لا تتحقق بغيره! وقد أثبت التطبيق العملي صدق ذلك مرة بعد مرة. وكلما تقدم العلم وتقدمت تجارب البشرية [وانحرافاتها] ظهرت أسباب كانت مجهولة، توجب تحريم ما حرم الله! ثم بعد ذلك على المسلمين أن يستنبطوا النظم والتنظيمات التي تنفع الناس ولا تحل ما حرم الله. لأنه

حرمه لسبب. لأنه يريد للناس الخير ولا يريد بهم الضر ويريد بهم اليسر ولا يريد لهم الحرج: " مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ " [130] " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " [131].

وكذلك قد يقال إن الإسلام يضع قيوداً على " النمو " الاقتصادي لأنه لا يرحب كثيرا بخروج المرأة للعمل؛ " والتقدم " الصناعي الحديث قد استوجب ذلك.

وقد بينا من قبل أن الإسلام **لا يمنع** خروج المرأة للعمل عند الاقتضاء، وإن كان حقيقة لا يرحب بذلك كثيرا في غير الوظائف النسوية الخاصة.

ولكنا نضيف هنا: أنه تبين لنا أولا مدى الضرر الذي يصيب المرأة من تحويلها إلى رجل يعمل في السوق وفي المصنع... ضرر لا يوازي قط أي زيادة في الإنتاج المادي يمكن أن يحدثها اشتراك المرأة في العمل.

وتبين لنا ثانياً مدى الضرر الأخلاقي الذي أصاب المجتمع الغربي في مقابل تلك الزيادة في الإنتاج. وهو ضرر يوشك أن يدمر الدنيا كلها.. فلا تستفيد حتى بذلك الإنتاج!

ثم.. إن الإنتاج في سبيله أن يتولاه الإنسان الآلي والمخ الإلكتروني والآلة الضخمة السريعة الإنتاج.. فما الحاجة غدا – في الغد القريب – إلى إشراك المرأة في العمل.. إلا شهوة الإشراك؟! وحتى من قبل ذلك، فها نحن أولاء نرى الرجال يتعطلون بالألوف والملايين، وبينما تفتح الأبواب لتشغيل النساء. فهل هي مصلحة الإنتاج التي تحتم أن يتعطل الرجال ويضطلع النساء بالعمل؟ أم إنه أمر آخر تعرفه برتوكولات صهيون؟

والإسلام يبيح النمو الطبيعي الصالح الراشد البنّاء.. ولكنه ليس مسئولا أن يبيح انحرافات البشرية!

* * *

وفي الكيان السياسي وضع الإسلام القواعد العامة، وترك التفصيلات للنمو الدائم الذي يلائم كل مرحلة من مراحل النمو العلمي والحضاري والاجتماعي والاقتصادي.

---

[130] سورة المائدة [6].
[131] سورة الحج [78].

" إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ " (132).

" وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ " (133).

" وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا " (134).

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " (135).

" وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ " (136).

" وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ " (137).

هذه القواعد: الحاكمية لله وحده. والحكم بشريعة الله دون سواها. والعدل من الحكام. والطاعة من المحكومين في حدود شريعة الله. والشورى بين المحكومين والحكام.. هي أسس الحكم في الإسلام. أما شكل الحكومة فهو متروك بكليته للأمة المسلمة تقرره في حدود هذه القواعد. فكل حكم بغير شريعة الله فهو حكم غير إسلامي. وكل حكم بغير شورى فهو حكم غير إسلامي. وكل حكم لا عدل فيه فهو حكم ينكره الإسلام.

وربما لم يكن التطبيق الواقعي في عالم السياسية والحكم كاملا إلا في فترة الخلافة الراشدة، التي وضعت القواعد السليمة للحكم: " إذا أحسنت فأعينوني وإذا أخطأت فقوموني " [أبو بكر]. " أطيعوني ما أطعت الله فيكم. فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " [أبو بكر].. ثم في فترات متقطعة أخرى.

ولكن الفقه الإسلامي على أي حال قد شهد في عصوره المختلفة " نمواً " ضخما في النظرية السياسية. استفاد فيه من كل ما جد على المجتمع الإسلامي من أطوار، واستنبط لكل ما جد أحكاما من الإسلام.

---

(132) سورة يوسف [40].
(133) سورة المائدة [44].
(134) سورة الحشر [7].
(135) سورة النساء [59].
(136) سورة النساء [58].
(137) سورة الشورى [38].

والذي يعنينا هنا أن نثبت المرونة الكبيرة التي يتسم بها التشريع الإسلامي في السياسة، مع الحيلولة دون الانحراف [في الأصول الشرعية. أما أسباب الانحراف في التطبيق فليس هنا مجالها. وهي انحراف على أي حال!] والقيمة الكبرى هي أن يضع الإسلام الموازين التي يتبين في مواجهتها كل انحراف عند التطبيق، ويوصم بأنه انحراف!

* * *

ذلك موقف الإسلام من الجانب المتغير في حياة الإنسان.

لا يعوق التقدم؛ بل يدفع إليه. ولكنه يضع المبادئ التي توجه إلى الخير وتمنع الانحراف. فيتمثل فيه الثبات والتطور في وقت واحد. ثبات القواعد وتطور الأشكال...

وقد رفضت أوربا وصاية الدين على التطور العلمي والتطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.. فماذا كانت النتيجة؟

تقدم العلم حقا تقدما باهراً في ظل النهضة الأوربية اللادينية. ولكن لا لأنها لا دينية!! وإنما لأن الدين الكنسي هناك كان يحارب العلم ويفرض القيود على العقل ليستديم الجهل أطول مدى مستطاع! ولكن هذا التقدم العلمي ذاته مأخوذ -كما مر بنا من شهادة بريفولت ودريبر وغيرهما - من المسلمين، الذين كانوا يضعون العلم - والحياة كلها - تحت وصاية الدين، ويستمدونها من قواعد الدين..

ثم..؟

ثم انطلق العلم - المنفلت من وصاية الدين - بلا ضابط فوقع في غواية الشياطين.. يفسدون به الأخلاق، ويحلون روابط المجتمع، ويشيعون به التفاهة والسطحية والضحالة.. ويدمرون به وجه الأرض.

أما الاقتصاد.. فيكفي الإقطاع والرأسمالية ثم الشيوعية لبيان الفساد الذي حل بالاقتصاد الأوربي حين أبى وصاية الله عليه! فساد يحيل البشر إلى سادة وعبيد، مع اختلاف فقط في صورة السيادة وصورة الاستعباد!

وفي الاجتماع.. تكفي المفاسد الاجتماعية والخلقية التي يعانيها المجتمع الغربي، والتي ردته مجتمعا حيوانياً هابطا لا يفيق من متعة الجسد ولا يشبع. ولا يتعاطف بنوه كما يتعاطف

بنو الإنسان. وإنما يعيش الغرب في فردية بغيضة كريهة. فردية انفصالية لا تجمع شتات أمه " تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى " [138]. ويعيش الشرق الشيوعي في جماعية آلية لا تعرف طعم المودة الإنسانية الحقيقية، وإنما تحكمها الدولة بالإكراه، في المزارع الجماعية والمصانع الجماعية التي يسيطر عليها الإرهاب.

وفي السياسة.. تكفي المظالم التي تملأ وجه الأرض اليوم.. من استعمار واستغلال واستعباد. ومن دكتاتوريات بشعة تستخدم الحديد والنار والتجسس، وأبشع أنواع التعذيب التي يتصورها العقل، لتحتفظ بسلطانها الجبري على الجماهير.. تكفي هذه المظالم، فهي ليست في حاجة إلى بيان.

أما الإسلام – في هذه الأمور كلها – فهو " المحجة البيضاء " كما عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. المحجة التي تفرق النور عن الظلمة، والصلاح عن الفساد.

المرونة الكاملة التي تسمح بالنمو. والصلابة الكاملة التي تمنع الانحراف.

وهو يستمد مزيته الكبرى في هذا الشأن من مطابقته التامة للفطرة الثابتة الجوهر، المتغيرة الأشكال.

* * *

ذلك موقف الإسلام من الثابت والمتطور في حياة الإنسان.. موقف لا يصدر إلا عن تدبير إله!

فكل النظم التي صدرت عن تدبير البشر انحرفت ذات اليمين وذات الشمال. ولم تهتد إلى الصواب.. لأنها لم تهتد إلى " الفطرة "...

جهلتها – كما قال ألكسس كاريل – جهلا مطبقا، ثم راحت – بهذا الجهل – تشرع للإنسان!

والإسلام – كلمة الله إلى البشر – يقف موقفا فريداً في كل مفاهيم البشرية وتصوراتها، وتطبيقاتها العملية لهذه المفاهيم والتصورات.

---

(138) سورة الحشر [14].

إنه يشمل جوانب الفطرة **جميعها** فلا يركز على جانب ويهمل بقية الجوانب.

ويساير الفطرة في جميع جوانبها، ويعطيها غذاءها الحق. فما كان منها ثابتا، أعطاه التشريع الثابت، وما كان منها متغيراً سمح له بالتغير المطلوب.

وبذلك فهو دين الفطرة..

وهو كذلك دين البشرية كلها في جميع عصورها وجميع " تطوراتها ".

دين يدفع ذاته إلى التطور الصاعد الراشد البنّاء.. ولا يقف من التطور الحق موقف الجمود والرجعية. إنما غيره من النظم المنحرفة، التي تضفي على الانحراف ثوب التطور، هي التي يمكن بحق أن تسمى رجعيات!

الإسلام والرجعيات

كل انحرافات البشرية التي تلبس ثوب التطور.. هي رجعيات جاء الإسلام ليقومها ويصححها!

ولأول وهلة قد تبدو هذه القضية بعيدة عن التصديق!

كيف؟! وهذا " التقدم " كله الذي أحرزه العلم؟ و " النمو " و " التطور " الذي حدث في النفس والمجتمع؟

كيف يكون هذا كله رجعية؟ وكيف يكون الإسلام – السابق في الزمن – قد جاء ليقومها ويصححها؟!

*　　*　　*

من أجل الحكم في تلك القضية الغربية المظهر، ينبغي أن نضع مقياسا للتقدم والرجعية.

هل هو مقياس الزمن وحده؟ كل " جديد " تقدم، وكل " قديم " رجعية؟!

إن هذا المقياس يصلح حقا لقياس التقدم العلمي. فكل جديد في دنيا العلم يمثل خطوة تقدمية لأنه يبدأ من الخطوة السابقة ويضيف إليها.. وإن لم يضف إليها فإنه يفقد مبرر وجوده.

أما بقية أنواع التحول.. الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والنفسي والخلقي.. فهي ينطبق عليها المقياس ذاته، فيصبح الزمن وحده هو المقياس؟

نريد أن نرد الأمور إلى مقياسها الصحيح..

هل الثلاجة الكهربائية والطائرة والصاروخ والمخ الإلكتروني هو مقياس التقدم.. أم " الإنسان " هو المقياس؟!

سيقول قائل: أو ليس الإنسان هو الذي صنع الطائرة والصاروخ والمخ الإلكتروني؟

بلى. ولا شك. ولكن: كيف يستخدمها؟ هذا هو المقياس.

يستخدمها ليرتفع بها؟ ليشر بمشاعر " إنسانية " أكثر؟ ليكون شعوره بأخوة البشرية أعمق؟ ليكون شعوره برباط " النفس الواحدة " أشد؟ ليحب أخاه؟ ليكون إنسانا مع عدوه؟ أم ليصبح وحشا ساحقاً ماحقاً يحكمه البغض وتوجهه الأنانية وتعميه وحشية الصراع.. أو تفاهة الصراع؟

أيهما المقياس؟

الآن.. هل اتضحت الفكرة أكثر؟ هل بدا لنا – كما ينبغي أن يبدو – أن التقدم العلمي في ذاته لا يرفع إنسانا ولا يخفضه. إنما الروح التي يستخدم بها الإنسان ثمار العلم هي التي تخفض وترفع، وتقربنا من الحيوان أو تقربنا من الإنسان؟

الآن.. هل اتضح لنا المقياس؟

هل نعتبر حرب الإبادة حضارة؟ والتفرقة العنصرية حضارة؟ والاستعباد حضارة؟ والفوضى الخلقية حضارة؟ والجنون والمرض والانتحار حضارة؟ وتحطم الأسرة والمجتمع حضارة؟ والشقاء الشامل حضارة؟!

أي خير قدمه العلم للبشرية في النهاية، في ظل التوجيه الفاسد والنظرة المرتكسة إلى " الإنسان "؟!

* * *

ولن نلغي العلم بطبيعة الحال، ولن نسقطه من ميزان التقدم..

ولن نلغي النمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. والنمو النفسي..

كل واحد منهما له وزن في الميزان..

لكن.. في الكفة الأخرى نضع " الإنسان ".. وموازين الإنسان.

ننظر هل يهدف هذا العلم وهذ التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي إلى رفع " القيم الإنسانية " أم إلى تحطيمها وإبادتها..؟

وننظر في مجموع الأمر. لا في جزئيات متفرقة.

فالطب تقدم ولا شك. والعلم بمخترعاته وكشوفه قد يسر كثيراً من "الخدمات" وحقق خيراً كثيراً للناس. وكل ذلك ينبغي أن نحسب حسابه ونحن نقوّم هذه الحضارة في الميزان.

لكن مَنْ.. يرجح؟ هذا الخير على كثرته؟ أم ذاك الشر الواغل في الأعماق؟

كيف نهرب من شهادة القرن العشرين؟ كيف نلوي عيوننا عن مواجهة دلالتها؟

ثم. من ذا الذي يقول: إنه إما أن نقبل هذه الشرور كلها، ليتحقق لنا قدر من الخير.. وإما لا خير على الإطلاق؟

من قال إن الخير ضريبته التدمير؟ وضريبته إفساد الأخلاق؟ وضريبته إشقاء البشرية؟!

إن هذه هي الصورة " الغربية " للحضارة.. ولكنها ليست الصورة " البشرية " للتقدم!

والمطلوب أن نبقي كل الخير الذي حققه العلم والتقدم، ونقوّم في ذات الوقت ما أحدثه التوحيه الفاسد من شر.

ذلك شأن " الإنسان " الحق.. وذلك مقياس الرجعية والتقدم!

* * *

المقياس هو " الفطرة "!

المقياس هو الإنسان!

" يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب في العالم الذي ابتدعه. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته.. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة، هو إحدى الكوارث التي عانت منها البشرية.. **إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقليا.. إن**

الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها " [ألكسس كاريل].

شهادة واضحة حاسمة لا تحتاج إلى تعليق.

" الإنسان " هو المقياس الذي ينبغي أن نقيس به التقدم والرجعية. فكل نظام يرفع " الإنسان " فهو نظام تقدمي. وكل نظام يرتد بالإنسان إلى الوراء من حيث كيانه الإنساني فهو **رجعي** أيا كانت درجة الحضارة المادية التي يشتمل عليها، وأيا كانت الآلات التي يستخدمها من الدقة والجبروت!

وحقا إن استخدام العدد والآلات والسعي إلى تحسينها مزية إنسانية أصيلة. ولكنها وحدها لا تنشئ الإنسان! ووحدها لا تصلح مقياسا لتقدم الإنسان!

ماذا لو تضخمت يد الإنسان جداً، وأصبحت لها قوة جبارة.. وبقية الجسم كسيح مقعد لا يستطيع أن يتحرك من مكانه؟ ما قيمة اليد القوية الجبارة وهي لا تستطيع أن تمتد بقوتها خطوات؟!

ذلك هو وضع التقدم العلمي والصناعي والحضارة المادية في القرن العشرين! يد جبارة في جسم مقعد كسيح! وفضلا عما في هذا الوضع من اختلال بالنسبة لمجموع " الإنسان "، فإنه – في النهاية – يذهب بالفائدة العملية من هذا التقدم الجبار.

ولكن هذا القول المجمل يحتاج إلى نفصيل.

ما هي مواضع الاختلال في الكيان الإنساني في القرن العشرين؟ ما انحرافاته التي ترجع به إلى الوراء في سلم " الإنسانية " وتجعل حصيلته " رجعية " في نهاية المطاف؟

أو.. من ناحية أخرى: ما خصائص " الإنسان " التي ينبغي أن يحافظ عليها، وركائزه الرئيسية التي دمرتها حضارة القرن العشرين؟

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً " [139] من عجب أن تكون كل القضايا الثابتة هي التي اختلت وانهارت في هذا القرن العشرين!

قضية العقيدة. قضية النفس الواحدة. قضية الجنسين. قضية الإنسانية الواحدة..! تلك بالذات التي حدث فيها الاختلال.. وتلك بالذات التي تنذر اختلالاتها بتدمير البشرية!

* * *

حين انحرف الناس عن العقيدة في القرن العشرين. حين جعلوها وراء ظهورهم. حين نحوها من حياتهم العملية تنحية كاملة، وصارت – في أحسن حالاتها – ظلا باهتا في ضمائر الناس.. هل ارتفعوا في سلم الإنسانية أم انحدروا هابطين؟!

إن العقيدة المدركة الواعية – كما رأينا في بحثنا من قبل، وكما رأينا من كلام جوليان هكسلي نفسه وهو ملحد – [140] ركيزة من ركائز " الإنسان " تميز بها عن الحيوان [141]. فإلغاؤها – أو إهمالها – ارتداد عن خاصية الإنسان بحتة، ورجعة إلى الوراء!

وقد لمسنا بالفعل آثارها في حياة هذا الجيل من البشرية.

فقد أنتجت – أول ما أنتجت – ذلك التمزق في نفس الإنسان. التمزق بين حاجة النفس الفطرية إلى خالقها، وحاجتها إلى الأمن الاجتماعي والسياسي و " الحضاري ".. الذي يأبى الغرب في موجته الملحدة الكافرة اليوم أن يربطه بالعقيدة في الله!

وأنتجت – فيما أنتجت – ذلك القلق النفسي والروحي الذي يفسد أعصاب الناس في الغرب. ففي وسط هذا الصراع المدمر الرهيب الذي يخوضه الناس في في كل لحظة وفي كل جانب من جوانب الحياة: صراع في عالم المادة وصراع في عالم الأفكار وصراع في عالم السياسة وصراع في داخل المجتمع وصراع في داخل النفس المفردة.. في وسط هذا الصراع المدمر الرهيب يحتاج الإنسان إلى سند. يحتاج إلى قوة ثابتة يرتكن إليها. يحتاج إلى من يمسح

---

[139] سورة النساء [1].
[140] ص 83 من هذا الكتاب.
[141] انظر كتاب الدراسات.

على قلبه المتعب وضميره الحيران. يحتاج إلى اليد الحانية التي تمسك به في أزمته وتقوده إلى الطمأنينة والهدوء..

يحتاج إلى الله...

و " الحضارة " الغربية تنهاه – بتوجيهاتها وتنظيماتها – أن يلجأ إلى الله! تنهاه أن يلجأ إليه في السياسة، أو يلجأ إليه في الاقتصاد. أو يلجأ إليه في تنظيم المجتمع. أو يلجأ إليه في وضع دستور للآداب والأخلاق والسلوك. أو يلجأ إليه في الفن... وإنما يلجأ إليه – إذا شاء بعد هذا كله – في سويعة عابرة في الصلاة في الكنيسة. ثم يعيش بقية يومه وبقية عمره في جو مضاد للعقيدة، واقف لها بالمرصاد!

فيتمزق ويقلق.. ويضطرب ويحتار..

ويهبط في ميزان " الإنسان "..

وليس هذا وحده.. فحين لا يؤمن الناس بالله الإيمان الحق، ولا يؤمنون باليوم الآخر.. فليس في حسهم إذن إلا هذه الحياة الدنيا.. ينتهبون لذائذها في الفرصة المتاحة التي لن تتكرر.. ولن تعود!

ويتكالب الناس على متاع الأرض.. متاع الجنس ومتاع الحس. ومتاع القوة ومتاع السلطان..

وتنقلب حياتهم – بدلا من المتعة الزائدة المرجوة – إلى جحيم من العذاب. عذاب القلق الدائم على الفرصة الذاهبة. وعذاب السعار الذي لا يشبع لأنه متلهف على الدوام!

ويهبط الناس في ميزان " الإنسان "..

يهبطون إلى مستوى أدنى حتى من الحيوان. فالحيوان يملك الضوابط الفطرية الغريزية التي تقف به قبل نقطة الهلاك وتصون طاقته عن الدمار..

والإنسان – بلا عقيدة – يرتد أسوأ من ذلك الحيوان. لأنه يصبح بلا ضوابط.. ولا أهداف:

" لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " [142].

إنها نكسة.. رجعية! ومع ذلك.. فبمقياس الزمن ذاته.. هل هي حقاً " اختراع " جديد في القرن التاسع عشر أو العشرين؟!

كلا! ما أقدمها في التاريخ!

ليست أول وثنية! ليست أول كفر بالله وإلحاد.. ما أقدمها!

ما الدليل على وجود الله؟ كيف يرسل الله الرسل؟ كيف ينزل الوحي؟ كيف يبعث الموتى؟ كيف..؟

" وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ **كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ** قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ " [143]

" وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ " [144]

" أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ " [145]

بل أبلغ من ذلك وأدق! إنك حين تقول للناس اليوم في القرن العشرين إنه ينبغي توحيد الألوهية. فلا يكون إله للعبادة. وإله للعلم. وإله للاقتصاد. وإله للسياسة.. يستنكرون! ويقول القرآن حكاية لقول الكفار القدماء:

" أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ " [146].

وهذه **الرجعية** التي يمارسها القرن العشرون في عالم العقيدة، هي ذاتها التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها، ويرد البشرية فيها إلى الصواب.. وما زال موقفه منها هو ذات الموقف في القرن العشرين!

---

[142] سورة الأعراف [179].
[143] سورة البقرة [118].
[144] سورة الجاثية [24].
[145] سورة الإسراء [49].
[146] سورة ص [5].

وقضية الجنسين.. بما فيها " الأخلاق "..

لقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية.. ولا نحتاج إلى حديث جديد. لا عن طبيعتها ولا عن آثارها في حياة البشرية..

فهذا الشقاء البالغ الذي أحدثته في نفوس الشباب من الجنسين.. هذا الشرود الخطر الذي لا يجعل أحداً يستقر.. هذا التدمير في الأسرة والمجتمع والنفوس.. وهذه الحيوانية التي يأنف منها الحيوان.. وهذا السعار المجنون الذي لا يشبع..

إنها ردة بمقياس " الإنسان ".. فما خلق الله الإنسان ليهبط هذا الهبوط كله، ويشرد ويقلق ويحل به الدمار، وما كان " التقدم " ليصيب الناس بكل هذا الشر، الذي رأينا أمثلة بارزة منه في شهادة القرن العشرين.. إنما الشر ينتج من الانحراف. من الابتعاد عن الفطرة. من عدم ملاءمة هذا النظام " للإنسان "..

ومع ذلك.. فبمقياس الزمن ذاته.. هل هو تقدم أم رجعية؟!

لقد قال القرن العشرون إنه " يتطور " في مسائل الأخلاق والجنس. ويُحدث جديداً لم تعرفه البشرية من قبل. ثم قالت شهادة التاريخ إنه أمر قديم جداً موغل في التاريخ.. عرفته اليونان القديمة وروما القديمة والهند القديمة وفارس القديمة..

عرفته على نفس الصورة.. أو في صور مختلفة.. لا فرق! لا فرق من الداخل في نفس " الإنسان ". ولا فرق من الخارج في واقع البشرية.. انحراف لا بد أن يؤدي إلى نتائجه المحتومة لأنه يخالف الفطرة.. وهي الحقيقة الحتمية الوحيدة في تاريخ الإنسان.. عنها تتفرع كل الحتميات!

إنه ذات **الرجعية** التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها، ويرد البشرية فيها إلى الصواب.

إنها الجاهلية التي كانت تتبرج فيها المرأة وتقعد لفتنة الرجل وإغرائه، ويشغل فيها الرجل بتلك الفتنة والإغراء، سواء في الجزيرة العربية أو في خارجها. وجاء الإسلام ليرفع الناس من بهيميتها، ويقر في ضمائر الناس قيما عليا ترفع علاقة الجنس عن أن تكون بهيمية جسد مسعور. يرفعها إلى السكن والمودة والرحمة: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ". ويرفعها إلى " التنظيم " الذي يليق بالإنسان.

وهذا الذي يصنعه القرن العشرون، سواء بمقياس " الزمن " أو بمقياس " الإنسان " لا يزيد على أن **رجعية** هابطة، يصححها الإسلام!

* * *

وقضية النفس الواحدة. وقضية الإنسانية الواحدة..

إن القرن العشرين ينحرف فيها انحرافات شتى. من أبرزها: انحراف الفردية الطاغية التي تطغى على المجتمع، وانحراف الجماعية الطاغية التي تطغى على الفرد، وانحراف العدوان المستمر من بني الإنسان على " إخوتهم " في البشرية.

انحراف الفردية الطاغية يمثله اليوم النظام الرأسمالي الذي يقول عنه الغرب إنه " تطور "! ويمثله الدكتاتوريون الطغاة في كل الأرض.. فهل هو " تطور " لا مثيل له من قبل؟

من حيث " الصورة " نعم.. أما من حيث الجوهر؟

إن " رأس المال " في صورته الطاغية تطور في نوع الملكية وتطور في صورة الاستغلال. لكن طغيان المالك واستغلاله لمن لا يملك.. هل هو جديد حقا على البشرية؟! أو ليست هي ذات " الدوافع " في النفس البشرية المنحرفة، وتؤدي إلى ذات الظلم؟ هل كان الغني في الجزيرة العربية.. أو في الدولة الرومانية أو الفارسية شيئاً آخر في معدنه غير الرأسمالي الحديث الذي يطغى بسلطان رأس المال؟

أو ليس هو الانحراف ذاته الذي جاء الإسلام لتصحيحه؟ جاء ليأخذ السلطان الطاغي من هذا الفرد، **بسلبه حق التشريع** الذي يستعبد به الناس. ورد التشريع إلى الله الذي لا يحابي أحداً من البشر. فلم يعد الحاكم يشرع لنفسه ولا لطبقته كما يحدث في العالم الرأسمالي.. وفي كل مكان في الأرض لا يقوم على هدى الإسلام..

فالفردية الرأسمالية الطاغية – رغم صورتها الظاهرية الجديدة – رجعية كانت موجودة قبل الإسلام في صورة من الصور، وجاء الإسلام ليصححها ويقوّمها. وما زال وضعه منها اليوم هو وضعه منها قبل مئات السنين!

أما فردية الدكتاتور الطاغية – التي عرف هذا القرن العشرون نماذج طاغية منها – فقد عرفتها البشرية كثيراً قبل الإسلام. وجاء الإسلام ليرفع هذا الطغيان عن كاهل البشرية

بأن يجعل العبودية واحدة **لله وحده**، ولا عبودية لأحد من البشر على الإطلاق. ومن ثم عاد الطغاة المقدسون بشراً عاديين بلا قداسة. وصار الحكام أشخاصاً عاديين لا سلطان لهم إلا تنفيذ شريعة الله. فأما إن اعوجوا فلا طاعة لهم على الناس. وإنما التقويم أشد التقويم: قال سلمان الفارسي لعمر ابن الخطاب، أعدل حاكم في تاريخ الأرض: " والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف " فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوم عمر بسيفه!

ذلك موقف الإسلام من الطغيان من قبل.. وهو موقفه منه حتى اليوم. الطغيان في أية صورة من صوره **رجعية** ترجع بالبشرية إلى ما قبل الرشد.. الذي يحدده في تاريخ البشرية مولد الإسلام. وقد جاء الإسلام ليصحح وضع البشرية من هذا الطغيان..

أما الطغيان الجماعي الذي تمثله اليوم الشيوعية – آخر " تطور " في عالم الاقتصاد والاجتماع – فهو صورة جديدة. نعم. أما الجوهر؟

هذا الطغيان الذي يذيب كيان الفرد. ويجعله مجرد واحد من القطيع.. يتبعه أن يسير.. لا رأي له في تقويمه، ولا الإشراف عليه، ولا له كيان متميز يحس بذاته في وقت من الأوقات.. هل يختلف من حيث الجوهر عن طغيان " القبيلة " قبل الإسلام، ذلك الطغيان الذي أنطق الشاعر الجاهلي بهذا البيت:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت.. غويت وإن ترشد غزية أرشد؟!

ثم جاء الإسلام.. جاء ليرد " للفرد الإنساني "كيانه إزاء طغيان المجموع. بأن جعله – وهو الفرد – قوة هائلة حين يتصل بالله، ويعبده حق عبادته، ويستلهم هداه. قوة توجه المجتمع إلى الصلاح وتصده عن الفساد. " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ " [147] وتوجه الحاكم إذا اعوج، وتُشَاوَر في شأن الحكم وسياسة المجتمع.. ومن ثم يرفع عنها العبودية للمجموع.

وهذا الطغيان الجماعي الجديد الذي تمارسه الدول الجماعية، لا يزيد على أن يكون رجعية من تلك الرجعيات التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها. وما زال موقفه منها اليوم كموقفه منها يوم جاء!

---

[147] سورة آل عمران [104].

إن الإسلام ينصب الميزان الحق بين الفرد والمجتمع. لا هذا يطغى ولا ذاك. ويستمد ميزانه من الحقيقة الثابتة: " خلقكم من نفس واحدة "..

وبذلك يقوّم الرجعيات.

* * *

أما العدوان المستمر الذي يمارسه القرن العشرون.. عدوان البشر على البشر.. في الحرب وفي السلم. عدوان أمم على أمم. وأمم على أفراد. وأفراد على أفراد.. التفرقة العنصرية. والاستعمار والاستعباد. والتعذيب الوحشي الذي يمارسه الطغاة ليسندوا حكمهم ضد ثورة الجماهير. ما اسمه؟ ما اسمه في ميزان " الإنسان "؟ تقدم أم رجعية؟ هل فيه جديد إلا الزيادة في الوحشية والضراوة في القتل والتعذيب؟

ولقد واجه الإسلام يوم جاء به صنوفاً مختلفة من هذا العدوان. فجاء ليصححها ويقومها. بتهذيب الضمير البشري من ناحية، ووضع التشريعات التي تمنع العدوان من ناحية أخرى. نظف النفس من " الغل " الأحمق البشع الذي يدفع إنساناً إلى قتل أخيه الإنسان أو تعذيبه أو العدوان عليه. وجعل الحرب الوحيدة التي يبيحها هي الحرب لله. لإعلاء كلمة الله لا كلمة بشر من الناس. وبشروط " إنسانية " تمنع القتل الوحشي والتمثيل والتعذيب.

إن ما يمارسه " التقدم " العصري في القرن العشرين، هو الرجعية ذاتها التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها.. وما زال موقفه منها اليوم كموقفه منها يوم جاء!

وهكذا.. كلما تتبعنا شيئاً من " تطورات " الغرب وجدنا أنها ليست تطوراً في الحقيقة. وإنما هي انحراف ورجعية. انحراف بمقياس " الإنسان " ورجعية بمقياس الزمان.

إنها نكسة حيوانية إلى الوراء..

وموقف الإسلام منها هو موقفه من الرجعيات جميعاً: موقف التقويم والتصحيح.. موقف القوة التقدمية الهادية التي تشير للناس إلى الطريق الصحيح.

وهكذا كان ينبغي أن يكون موقفنا نحن من الغرب..

ولكن.. أين نحن؟!

نحن والغرب

حين تكون المقدمات كلها صحيحة، فينبغي أن تؤدي إلى نتيجة صحيحة..

وما دام الإسلام هو القوة التقدمية الهادية المرشدة إلى الطريق الصحيح.. وما دامت الحضارة الغربية تشتمل على كل هذا القدر من الانحراف والردة إلى عالم الحيوان.. فقد كان ينبغي أن نكون نحن – المسلمين – في مقعد القوة والتمكن والتقدم والحضارة والسلطان، والنظافة الكاملة في التعامل والأخلاق، والترابط في المجتمع، ويكون الغرب في مكان الضعف والذلة والهوان.. ولكن الأمر الواقع هو العكس. فالغرب ليس قوياً فقط، وليس " متحضراً " فحسب، بل إنه في معاملاته الفردية نظيف نظافة ملحوظة، مستقيم استقامة واضحة.. قلما يخدع الإنسان منهم غيره، أو يغشه، أو يحاوره أو يداوره. أو يكذب عليه في مجال التعامل اليومي، وفوق ذلك يخلص في عمله ويتقنه ويضع فيه كل جهده.. بينما نحن – المسلمين! – نغش ونخدع، ونحاور ونداور، ونكذب وننافق، ولا نخلص في عملنا ولا نتقنه ولا نضع جهدنا الحقيقي فيه.

دين بلا نظافة.. ونظافة بلا دين!

تلك هي الصورة التي تربك أفهام الأجيال الناشئة في العالم الإسلامي فتصرفها عن الإسلام!

وهي لا تنصرف عنه تلقائياً.. وإنما بذل جهد جهيد خلال القرن الماضي كله وما يزال يبذل في هذا القرن للوصول إلى هذه النتيجة..

جهد جهيد بذله المبشرون والمستشرقون.. ثم تلقفه منهم " تلاميذهم " المسلمون (!) في الشرق الإسلامي، فأخذوا يرددون الأسطوانة ذاتها، ولا يملون من ترديدها ليصلوا في أذهان الأجيال الناشئة إلى الربط بين هذه " الحقائق " الظاهرية.. لتصل إلى النتيجة المطلوبة..

المبشرون بادئ ذي بدء كانوا يقولون إن الإسلام رجعي متأخر.. بدليل التأخر والرجعية المخيمة على أهله. والمسيحية تقدمية متحضرة.. بدليل الحضارة والتقدم الموجود في الغرب المسيحي.

والمستشرقون على آثارهم [وهم بقية منهم لبسوا مسوح البحث " العلمي " ليخفوا وراءها مسوح التبشير] قالوا إن سر التأخر والرجعية كامن في الإسلام ذاته. فهو – بذاته – الذي قاد أهله إلى الانحطاط والتأخر، لأنه جامد لا يتطور ولا يسمح بالتطور! [ولعلهم يقولون أيضا إنه يدعو إلى الجهل وعدم الأخذ بأسباب القوة!!]

ثم جاء تلاميذهم من " المسلمين ".. من " قادة " الفكر والصحافة والأدب والسياسة يقولون: هلم ننبذ تعاليم هذا الدين الرجعي الجامد المتأخر.. لكي نتحضر. لكي نصبح مثل أوربا لكي ننال العلم والقوة والتقدم والسلطان.

والتقت تلك الإيحاءات السامة كلها في نفوس الأجيال الناشئة في العالم الإسلامي، لتؤدي إلى نتيجة معينة: نحن متأخرون لأننا مسلمون وأوربا متحضرة لأنها ليست مسلمة!

ثم دار الزمن دورة واختفت من الأفق أقوال المبشرين المباشرة.. فقد احتجبوا عن العمل المباشر بعد أن اطمأنوا إلى قيام تلاميذهم " المسلمين " بالدعوة بدلا منهم، واطمأنوا إلى سياسة الدولة التعليمية التي أوحوا بوضعها عن طريق الاستعمار الذي كان بيده مقاليد الحكم والتوجيه.. سياسة لا تعلم الناشئة شيئاً عن حقيقة الإسلام، وإنما تعلمهم بدلا منه أوربا وحضارتها وتفوقها الساحق.. وتعلمهم كذلك شبهات حول الإسلام يتسرب إلى أفهامهم تأثيرها المسموم بوعي أو بغير وعي. واطمأنوا كذلك إلى دور المدارس الأجنبية وما تحدثه من آثار سامة في تحطيم عقائد المسلمين، وليّ أعناقهم إلى أوربا و " الحضارة " الأوربية.. واطمأنوا أخيراً إلى تكبير تلاميذهم وتضخيمهم حتى يصبحوا هم قادة الفكر والتوجيه ويصبح في أيديهم من السلطان ما يكفي لتثبيت ذلك التوجيه..

واختفت كذلك من الأفق حملة المستشرقين المباشرة على الإسلام، التي كانت على أشدها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ ظهر للمستشرقين بالتجربة العملية أنها أدت إلى عكس الغرض المطلوب، إذ أيقظت المسلمين من سباتهم، ووجهت مشاعرهم وعقولهم وأقلامهم إلى الدفاع عن الإسلام. فظهرت عشرات من الكتب أو مئات تدافع عن الإسلام. وكان في هذا خطر عظيم على الهدف المنشود من وراء حركة الاستشراق. خطر صرح به المستشرق المعاصر " ولفرد كانتول سميث " في كتابه " الإسلام في التاريخ المعاصر Islam in Modern History " حيث يقول في أكثر من مكان في كتابه: إن الحركة المتحررة التي قادها الكتاب المتحررون، والتي اتجهت إلى نقد الدين، كانت كفيلة بأن تؤتي ثماراً طيبة. لولا أن حركة " الدفاع " عن الإسلام قد حالت دون هذه الثمار!!

لذلك اتجه المستشرقون إلى وسيلة أخبث، تنوّم المشاعر للسموم بدلا من أن توقظها للخطر الماثل، وهي البدء بتمجيد الإسلام وتعظيمه، وإعطائه حقه المنصف، حتى إذا استرخت أعصاب القارئ المسلم على المديح، واطمأنت نفسه إلى " نزاهة القصد والضمير العلمي! " في هذا المستشرق أو ذاك، دس له السم في العسل، ووضع في خلال المديح والتمجيد ما يشاء من التشويه والتشكيك، وهو مطمئن إلى مفعوله الأكيد! ثم.. الإيحاء – بل التصريح – بأن الإسلام كان عظيماً ونافعاً وتقدمياً أيام زمان! أما اليوم فهو عقبة في سبيل التقدم، ولا مجال لهذا التقدم إلا بالأخذ بوسائل الغرب في كل شيء [انظر كل كتب المستشرقين المعاصرين! وبصفة خاصة كتاب " جب " " الاتجاهات الحديثة في الإسلامModern Trends in Islam " وكتاب " جرونيباوم " " الإسلام... " وكتاب سميث المشار إليه " Islam in Modern History "].

اختفت الحملة الأولى والثانية وظهرت في الأفق دعوة جديدة، هي التي ما تزال قائمة حتى اليوم، على يد أولئك " التلاميذ " المخلصين من " المسلمين! ".

إن أوربا اليوم متقدمة.. وهي ليست متدينة!

لقد طرحت الدين جانباً فتقدمت وتحضرت ووصلت إلى القوة والسلطان!

ونحن متدينون (!).

وفي الوقت ذاته متأخرون!

فينبغي أن نسلك الطريق القويم.. ننبذ ديننا – كما فعلت أوربا – فنتقدم ونتحضر ونصل إلى القوة والسلطان! وليس من الضروري أن نكفر ونلحد! إنما يجب أن نسارع إلى فصل الدين عن كل ما له علاقة بواقع المجتمع وواقع الحياة!

وتلك هي خلاصة السموم كلها التي وضعها التبشير والاستشراق والاستعمار!!

*　　*　　*

ولكن.. بغض النظر عن هذه القصة الطويلة التي استغرقت قرنين من الزمان، فإن هناك واقعاً ملموساً ينبغي تبين أسبابه: واقع القوة والتمكن و " النظافة " الحسية والمعنوية في الغرب في المعاملات اليومية [بصرف النظر عن شئون الجنس!] ووقائع الضعف والتخلف و

" القذارة " الحسية والمعنوية في الشرق " الإسلامي " [بالإضافة إلى انتشار الفساد الخلقي في شئون الجنس!!]

هذا واقع ينبغي تبين أسبابه، لتتضح القضية في أذهاننا على حقيقتها، وتتضح الصلة بين المقدمات التي قدمناها كلها وبين الواقع.. وإلا فقدت دلالتها الحقيقية وأصبحت غير ذات موضوع!

* * *

هذا الواقع.. حقيقةٌ مضللة!

وظاهر هذه الحقيقة يقول: هناك دين بلا نظافة [في الشرق] ونظافة بلا دين [في الغرب].

وباطن الحقيقة ليس كذلك!

والمرجع هو التاريخ...

إن أوربا اليوم ليست متدينة.. بمعنى أن الدين لا يحكم الحياة. لا يحكم واقع المجتمع، ولا يحكم الاقتصاد والسياسة، ولا يحكم التعليم، ولا يحكم التوجيه الفكري للناس. وإن كان – فيما عدا هذا – قد يسيطر على مشاعر الناس لحظات في داخل الكنيسة، أو الاحتفال بقديس من القديسين أو.. في التأثر ببعض الأساطير!!

ولكنها دون شك لم تكن كذلك قبل قرون..

يومئذ كانت العقيدة في النفوس أرسخ، وتوجيهها للحياة أشد..

وربما **لم تكن** أوربا في يوم من الأيام مسيحية بكل معنى الكلمة. فقد ظلت في أعماق الضمير الأوربي – تحت القشرة المسيحية – رواسب عميقة من آثار الفكر اليوناني والحضارة الرومانية الوثنيين، يوجهان جوانب من الحياة الأوربية بوعي أو بغير وعي.. ولكن هذا لا ينفي أن العقيدة المسيحية كانت هي الغالبة في القرون الوسطى.

ثم ضاق الناس بكنيستهم لأسباب عدة:

كانت الكنيسة قوة طاغية غاشمة تفرض على الناس الإتاوات والعشور وترهقهم من أمرهم عسراً.

وكانت تفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين.

وتفرض عليهم أفكاراً " علمية " مزيفة، باسم أنها كلمة السماء. فإذا أثبت العلم التجريبي والنظري كذبها راحت الكنيسة تحرق العلماء وتعذبهم كما فعلت بكوبرنيكوس وجاليليو وجوردانو برونو لأنهم لم يوافقوا على نظريتها في شكل الأرض ومركزها من الكون.

إلى جانب ذلك مهزلة صكوك الغفران التي تحول الدين إلى سخرية لاهية ضخمة، وتنزع عنه كثيراً من جديته وقداسته.. وكذلك الفسد الخلقي الذريع الذي كان يمارسه " رجال الدين! " متسترين وراء مسوح الرهبان، مما يعف عنه الفرد العادي غير المتمسك بأهداب الدين!

كل ذلك أحدث انفصاماً بين الدين وحياة الناس.. وعزل الدين من الواقع الحي إلى داخل الوجدان.

ثم حدث حادث ضخم في الحياة الأوربية ترتبت عليه آثار في غاية الخطورة. وهو الحروب الصليبية.

ففي تلك الحروب التي انهزم فيها الأوربيون – المسيحيون – في كل حرب تقريبا، وفي النهاية الحاسمة كذلك – تيقظ أولئك الغربيون إلى أمر حاسم: لا بد أن يكون في حياتهم أخطاء واختلالات أدت بهم إلى الهزيمة المنكرة، ولا بد أن يكون في حياة المسلمين من أسباب السلامة والقوة ما مكنهم من الانتصار.

ومن هذه اليقظة تولدت " النهضة " الأوربية.. في كل مجال.

نهضة علمية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وفكرية، وروحية.. الخ.

" لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية [148] على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام. **ولم يكن العلم**

[148] راجع الهامشة ص 178 من هذا الكتاب: " يقصد الحضارة الإسلامية.. الخ ".

وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة. بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة **أشعتها إلى الحياة الأوربية**. فإنه على الرغم من أنه **ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة**، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره: أي في العلوم الطبيعية، وروح البحث العلمي ". [بريفولت في كتاب " بناء الإنسانية Making of Humanity "].

وعلى الرغم من اهتمام الرجل بالعلوم، وروح البحث العلمي – وما لهذا من دلالة في النهضة الأوربية المعاصرة – فإنه لم يغفل الحقيقة الأوسع مدى وهي أنه " ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية **بصورة قاطعة** ".

وليس هنا مجال التفصيل في هذا الشأن.. فذلك تتولاه بحوث التاريخ.

ولكنا نقول في إيجاز شديد إن الحروب الصليبية هي التي وجهت أوربا إلى إنشاء نظام " الأمة " بعد أن كانت إقطاعيات يحكم كلا منها إقطاعي تتمثل في شخصه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية، ويستعبد الناس في الأرض.. وقد وجد الصليبيون في العالم الإسلامي " أمة " تحكمها حكومة مركزية موحدة ويسري فيها **قانون واحد** يطبق على الجميع بالسوية.. فنقلوا هذا النظام إلى بلادهم فصارت أمما ودولا بعد أن كانت إقطاعيات. وتحطم النظام الإقطاعي وتحرر عبيد الأرض ليصيروا أحراراً كالمسلمين.

والحروب الصليبية وما تلاها من الاحتكاك بالفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية هي التي أدت إلى الثورة الدينية على الكنيسة، التي قام بها مارتن لوثر وكالفن في أوربا.

وهي كذلك التي أدت إلى الحركات التحريرية الكبرى ومن بينها الماجنا كارتا وإعلان حقوق الإنسان.

وكانت – إلى جانب ذلك – ذات أثر كبير **في الأخلاق الأوربية**. فقد أخذ الصليبيون – المنهزمون – عن المسلمين – الظافرين – كثيراً من أخلاقهم الشخصية من صدق وأمانة وإخلاص وتماسك وترابط وتحاب ومودة وتعفف عن الدنايا.. وقد كانوا – في أثناء إقامتهم مع المسلمين في الشام – يرون كيف كان التاجر المسلم إذا جاء وقت الصلاة يترك متجره – **مفتوحاً –** ويذهب إلى المسجد يؤدي فريضته ثم يعود فلا يسرقها سارق!

ويرون كيف يحترم الصغير الكبير، وكيف يتفشى " السلام " بين الناس سواء بالتحية بالفم أو في واقع المجتمع.. كما كانوا يرون دقة أصحاب الصنايع وإتقانهم أعمالهم والإخلاص فيها، وكيف كانت " ذمة " التاجر المسلم رأس ماله الأول، يعد ويفي ويضبط الميعاد!

بهذه الأمور كلها تأثرت الحياة الأوربية إلى جانب الحركة العلمية الكبرى التي نشأت من انتقال المذهب التجريبي من مدارس الأندلس ومدارس الشرق إلى الغرب الأوربي...

وخلاصة هذا الأمر **أن الأخلاق الأوربية ذات أصل ديني مسيحي وإسلامي على السواء!**

... ولقد وقعت الفجوة بين الدين والحياة في أوربا.. للأسباب التي ذكرناها.

وكانت جفوة تدريجية بطيئة استغرقت بضعة قرون حتى وصلت ذروتها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وفي أثناء هذه الجفوة تنكر الناس للدين، وفصلوه عن كل القيم النافعة في الحياة!

فصلوه عن العلم.. فنشأت حركة إحياء العلوم على أساس لا ديني.. بل على أسس مناهضة للدين.

وفصلوه عن المجتمع.. فجاء النمو الاجتماعي الحديث على أساس لا ديني (secular) إن لم يكن على أسس معادية للدين.

وفصلوه عن الأخلاق!

قالوا: إن الأخلاق جميلة نعم.. ولكن ليس من الضروري أن نأخذها من تعاليم الدين فلنجعلها قائمة بذاتها، تستمد من " الواقع " أو من " العقل " أو من " الضمير الاجتماعي ". أو من أي معين إلا الدين! [ولا يدخل في هذا الشأن الأخلاق الجنسية.. فهذه قضوا عليها نهائياً بتوجيه الشياطين!].

وهكذا بقيت لأوربا أخلاق.. لكن بغير عنوان الدين!

وقد كانت الجفوة من الشدة والعنف بحيث لم تفصل فقط بين الدين والأخلاق.. بل قد نفّرت الناس تنفيراً من أن يربطوا أي ربط بين الدين والأخلاق.. بل إلى إنكار وجود

رابط بينهما على الإطلاق.. بل إلى الإصرار على رفض الأخلاق إن كانت تلبس ثوب الدين، وعدم قبولها إلا أن كانت مفصولة عن الدين واقفة له بالمرصاد!

نعم، يجب أن تكون لنا أخلاق.. ولكن حذار حذار من ربطها بالدين. وإلا تركناها لكم بأجمعها وصرنا لا أخلاقيين! كما أصبحنا من قبل لا دينيين!

وزيادة في التحذير والتنفير تنشأ " مذاهب " كالوجودية تناقش " الأخلاق " من حيث المبدأ، وتقول: لا أخلاق! فما أراه " أنا " خيراً فهو خير.. وما أراه شراً فهو شر!

* * *

ولكن هذه مرحلة في " التطور "!

والذين يظنون أنها يمكن أن تقوم إلى الأبد هم الذين ينظرون إلى رقعة صغيرة من التاريخ! الذين ينظرون إلى عقرب الساعات في الساعة بضع دقائق، ثم يقولون إنه لا يتحرك من مكانه ولا يريم!

لقد بقيت الأخلاق الأوربية – النابعة من المعين الديني – بقيت فترة من الزمن وهي منفصلة عن معينها الأصلي، تسير بقوة الدفع الذاتية، بغير عنوان الدين.

ظلت أوربا فترة من الزمن " نظيفة " الأخلاق، تتعامل على استقامة.. لا يخدعك الغربي ولا يغشك في المعاملات اليومية الفردية. لا يقول لك كلاما ويقصد كلاماً آخر. لا يقدم لك البضاعة المزورة. لا يعطيك الوعد ويخلفه... **إلا في السياسة!**

وقال الناس – هنا في الشرق الإسلامي –: لا تحتجوا على الغرب بالسياسة.. فالسياسة خدعة! ولكن انظروا إلى التعامل الشخصي. إنها بالضبط الأخلاق التي تنسبونها للإسلام! ولكنها هناك واقع عملي. يربى عليه الطفل فيتشربه، ويربى عليه المجتمع فيصونه! إنها ليست نظريات كالتي تقدمونها باسم الإسلام! ليست مواعظ! إنها حقائق تربوية ضخمة. يبذل فيها جهد دائب لتربية الطفل عليها منذ مولده. يربيه عليها والداه في المنزل، والمدرسون في المدرسة، والواقع الخارجي في المجتمع.. فتتأصل.

الوالدان بذاتهما قدوة.. لا تكذب الأم أمام الطفل ولا الأب فلا يشاهد الطفل الكذب أمام عينيه. فيتعود الصدق من الواقع الموجود في الأسرة. ثم يذهب إلى المدرسة فلا

تكذب عليه المدرسة ولا المدرس. ويخرج للمجتمع فيجد الصدق حقيقة.. فينشأ صادقا لا يكذب.

والأمانة كذلك. لا تغش الأم ولا الأب. ولا المدرسة ولا المدرس. ولا الناس في المجتمع. فتصبح الأمانة في نفس الطفل حقيقة.. حقيقة ذات رصيد من الواقع.

وكذلك كل آداب السلوك..

وبهذه الصورة تنشأ كل " الفضائل " التي نفتقدها في الشرق " الإسلامي ". إنها هناك حقيقة ولدينا نحن خواء ومواعظ دينية!

وهم هنالك يصنعونها لا باسم الدين.. وتفلح! ونحن هنا نعظ إليها باسم الدين.. فلا تنجح!

حقا.. هذا هو الوجه الظاهر من القضية..

ولكن هذه كما قلت مرحلة من مراحل " التطور "!.. ولها بعد نتائجها.. الحتمية!

لقد انفصلت الأخلاق في الغرب عن معينها الأصلي. معين الدين. فكيف صارت؟

قامت السياسة بادئ ذي بدء على غير أساس أخلاقي!

في الداخل.. صارت " الطبقة " التي تحكم تشرع لصالحها هي على حساب بقية الطبقات. وظن " علماء " السياسة والاقتصاد هناك أن هذه حتمية " اقتصادية "! وليست حتمية اقتصادية في الواقع. ولكنها تصبح حتمية حين تنفصل السياسة عن مبادئ الدين.. فتصبح السياسة بلا أخلاق! وحين كان المسلمون مسلمين لم تكن هناك طبقة حاكمة تشرع لصالحها. وإنما كان الحكام ينفذون مبادئ الدين التي تقضي بالعدالة بين الجميع!

وفي الخارج.. كانت السياسة الغربية كلها خداعا واحتيالا وغشا ونصبا وسرقة وغصباً وامتصاصاً للدماء! وظن " علماء " السياسة والاقتصاد هناك أن هذه أيضاً حتمية اقتصادية! وإنما هي نتيجة حتمية لانفصال السياسة عن مبادئ الدين! وحين كان المسلمون مسلمين كانت " السياسة " الخارجية هي الصدق والأمانة في السلم وفي الحرب سواء. ومحافظة المسلمين على عهودهم ومواثيقهم مضرب المثل في التاريخ! يقول " ت. و. أرنولد في كتابه " الدعوة إلى الإسلام " [ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، ص 58 من الترجمة

العربية]: " كذلك حدث أن سجل في المعاهدة التي أبرمها أبو عبيدة مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة: فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا " ثم قال: ".. فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك (أي بتجهيز هرقل لمحاربته) كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جنى من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع. وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم. ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم ". وهذا هو الإسلام!

ثم انفصل السلوك الجنسي عن الأخلاق! وقال الناس هنا وهناك إن هذا "تطور"!

وقد بينا في كل الفصول السابقة أنه ليس " تطورا " وإنما هو انحلال. ولا نحتاج أن نعيد هنا ما قلناه من قبل من آثار الهبوط الجنسي والإباحية الحيوانية في المجتمع الغربي.. فيكفينا في هذا شهادة القرن العشرين، التي أدلى بها الغربيون أنفسهم، وشكوا فيها من انحطاط تلك " الأخلاق ". إنما يعنينا أن نبرز حركة " التطور " المستمرة، الناشئة من انفصال الأخلاق في الغرب عن معينها الأصلي.. معين الدين. وكيف يشمل الفساد جزءاً منها بعد جزء.. لسبب واحد.. هو أنها انفصلت عن ذلك المعين!

إن الذي يزيغ أبصار الناس هنا وهناك.. أن هذا الفساد الخلقي في شئون الجنس – الذي نشأ من ابتعاد المفاهيم الخلقية عن مفاهيم الدين – **قد وقف عند هذا الحد**، ولم يسر إلى بقية شئون الأخلاق! فماذا علينا إذن – ما دام هذا – ولنسمه الفساد – تطوراً " حتمياً! "، ماذا علينا أن نبيح هذا الفساد الذي لن نستطيع أن نقوّمه أو نقف في وجهه، ما دامت بقية الكيان الخلقي ما زالت سليمة، والتعامل مستقيما ونظيفاً لم يمسسه السوء؟!

إن الشاب والفتاة في الغرب منحلان خلقيا في شأن الجنس [بمقاييسنا نحن!] ولكنهما ما زالا نظيفي التعامل. لا غش. ولا كذب ولا خداع. واستقامة في الخلق والضمير. وإخلاص في العمل وإتقان.. فماذا نخسر لو جاريناهم وماذا نكسب من دعوى الرجوع إلى الدين؟!

حتى في هذا.. نعود إلى شهادة القرن العشرين!

أين هي " الأخلاق " في الجيل الناشئ في الغرب اليوم؟!

عصابات الخطف والنهب والسرقة والإجرام.. وعصابات الحشيش والأفيون. هل هذه هي الأخلاق؟!

عصابات تيسير الطلاق، التي توقع الأزواج أو الزوجات في جريمة الزنا، ثم تضبطهم متلبسين، لتيسر على الطرف الآخر أن يطلب الطلاق ويقدم الأسباب. والتي يقوم بها أطباء ومحامون.. هل هذه هي الأخلاق؟!

بيع أسرار الدولة العسكرية لأعدائها مقابل تلبية الشذوذ الجنسي.. هل هذه هي الأخلاق؟!

إنها ليست " حالات فردية " مما يوجد في كل مجتمع ولا يلفت إليه الأنظار! إنها **ظاهرة اجتماعية** تجتمع لها المؤتمرات لتدرسها وتحققها. وتنبه إلى خطورتها!

ثم.. **هي آخذة في الازدياد!**

حتى الأخلاق " البسيطة " جداً.. التي كانت مضرب الأمثال في الغرب: " الأمانة " في الترام والأتوبيس وعدم " التزويغ " من دفع أجرة الركوب! حتى هذه! صار الجيل الناشئ في أوربا يهرب منها ويخالفها!

قالوا.. هذا أثر الحرب!

وربما كان كذلك! وحقاً إن هذه ليست – بعد – الصورة **الغالبة** للمجتمع الغربي! ولكنها في طريقها إلى الازدياد.. ومن هنا خطورتها. ومن هنا دلالتها.

كلا! ليست الحرب!

لقد خاض العالم الإسلامي حروبا جمة.. ولقد عاش نصف القرن الأول في حرب دائمة لا تفتر! ومع ذلك فقد كان نصف القرن هذا بالذات هو الفترة التي ترسخت فيها أخلاق الإسلام، وانتشرت في كل مكان وطئته جنود الإسلام!

ليست الحرب! إنما هو الابتعاد عن الدين! هو فصل الأخلاق عن معينها **الأصلي الذي لا معين سواه!**

لقد خُدع الناس في الغرب خديعة ماكرة حين ظنوا أنهم يستطيعون أن يظلوا بعيداً عن الدين، ثم يظلوا ناجحين، ويظلوا على خلق قويم!

إنها مرحلة من مراحل " التطور ".. لا تثبت! كيف يثبت الناس على المنزلق؟!

لقد بدأ الفساد بالسياسة. ثم شئون الجنس. ثم بقية " الأخلاق ".

ومظاهر القوة والتماسك والصعود والتقدم التي تزيغ أبصار الناس في الشرق وفي الغرب، فيحسبون أنهم يستطيعون أن يتعدوا عن قانون الله **في أي شيء** ثم يظلوا ناجحين.. هذه المظاهر خداعة ماكرة! ولنسأل كنيدي.. ولنسأل خروشوف!

إنهما يخشيان نتيجة الانحلال الحالي على مستقبل أمريكا وروسيا! وهما ليسا طفلين صغيرين.. وليسا هازلين.. إنما هما جادان أشد الجد.. يبصران ما لا يبصره هنا الكتاب المزيفون.. التقدميون التطوريون.

إن الغرب يملك قوة حقيقية جبارة وهائلة.. لأنه ما زال يملك رصيداً من " الأخلاق " التي كانت في أصلها مستمدة من الدين.. ولكنه – حين فصلها عن معين الدين – بدأ يهبط.. في كل مجال. ووصل الهبوط إلى الحد المنذر بالخطر.. الذي أطلق الصيحة على لسان كنيدي وخروشوف.

ولن ينهار الغرب غداً.. في أيام أو سنوات!

لا تقاس أعمار الأمم بالأيام والسنوات! وإنما تقاس بالأجيال!

ولكن يتضح الخط الصاعد والخط الهابط من خلال الأجيال!

وشهادة القرن العشرين تقدم لنا الجواب! إنها تقول في أوضح صورة: هذا الجيل في طريقه للانحدار!

كلا.. لا نظافة بلا دين!! إنما هي مرحلة من مراحل الانزلاق.. لم تصل بعد إلى القذارة الكاملة، لأن الأمم تنزلق في بطء شديد.. في أجيال.. وقد بدأ الغرب في الهبوط على المنزلق.. وشهد بذلك الناس هناك!

* * *

أما نحن.. فلسنا مسلمين!

كل دعوى بأننا مسلمون.. باطلة!

مسلمون بأسمائنا؟! مسلمون بسكنانا في الأرض التي "كان " يسكنها المسلمون؟!

أين نحن من الإسلام؟! ماذا فينا يحكمه الإسلام؟!

الإسلام لا يحكم واقع حياتنا كله.. ولا سلوكنا الفردي.. فكيف نكون مسلمين؟!

ولقد كتبت كتابا كاملا سميته " هل نحن مسلمون؟ " بينت فيه كيف بعدنا عن الإسلام وجافيناه. وما أحتاج أن أعيده هنا في هذا الكتاب!

ولكني فقط أقول هذه البديهية التي يستطيع أن يراجعها كل إنسان في نفسه: ماذا فينا يحكمه الإسلام؟!

إن تلك البقية الباقية من العقيدة الإسلامية في صورة " عبادات ". في صورة صوم وصلاة ومسابح، و " حج مبرور ".. كلا! ليست إسلاما!

" لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ " (149)، " فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً " (150).

الإسلام هو أن نكون مسلمين **في كل لحظة وكل عمل**. كل شئون المجتمع. كل شئون الحياة. كل التعامل الفردي. كل السلوك الشخصي.. وإلا فلسنا بمسلمين.

ونحن ضعاف متخلفون.. كذابون منافقون.. مخادعون غشاشون.. لأننا غير مسلمين.

ويوم كنا مسلمين.. لم يكن شيء من ذلك كله في واقعنا ولا في أخلاقنا!

(149) سورة البقرة [177]
(150) سورة النساء [65]

ولم تكن " الأخلاق " يومئذ وعظا باسم الدين! إنما كانت تربية كاملة في ظل الدين. تربية ينشأ عليها الطفل منذ مولده، ويجد قدوتها في والديه، ورصيدها الواقعي في المجتمع.

ولكننا انحرفنا عن الإسلام في المدى الطويل..!

وما بي هنا أن أدافع عن الإسلام أو أدافع عن الغرب! إن حرباً واحدة أو حربين متلاحقتين أفسدتا من المجتمع الغربي ما أفسدتاه في كل مجال.. حتى الأخلاق الفردية التي كان يفاخر بها الغرب! والعالم الإسلامي قد لاقى صنوفا من الويلات: اليهود والتتار والصليبيين والمستعمرين والمبشرين والمستشرقين، وتلاميذ المبشرين والمستشرقين. والحكام الطغاة من الداخل، والأعداء من الخارج.. وظل متماسكا ألف سنة.. حتى أخذ في الانهيار بعد كل هذه الويلات!

والموجود عندنا اليوم على أي حال ليس دينا بلا نظافة.. وإنما هو لا دين! فقد انحرفنا عن كل مفاهيم الدين، وكل مقومات الدين!

ومع ذلك.. فهناك فرق رئيسي بين انحرافنا وانحراف الغرب!

انحرافنا وانحَرافهمْ

لقد انحرف الغرب.. وانحرفنا! وطال علينا الأمد في الانحراف.. عدة أجيال!

وحالنا ولا شك أسوأ من الغرب.. فهم على الأقل ما يزالون يستمسكون بعدة فضائل – وإن كانت في طريقها إلى التفكك والانحلال بعد الحرب الثانية على الخصوص.. ولكنها لم تتفكك بعد على تمامها. ما زالوا يستمسكون ببعض الفضائل الفردية في التعامل: من استقامة وصدق وبعد عن الغش والنصب والاحتيال. وبعض الفضائل الجماعية في " التنظيمات " المختلفة التي يقوم عليها المجتمع الغربي.. وفي " العمل " بصفة خاصة، فالعامل أو الموظف يعمل ثماني ساعات متوالية (مع فترات من الراحة القصيرة تبلغ في مجموعها ساعة أو أكثر) بجد كامل وإخلاص، لا يتحدث، ولا يقص القصص، ولا يتشاغل عن عمله في صورة من الصور. ومن أجل ذلك كله يملك الغرب القوة " المادية " والقوة العلمية والقوة التنظيمية التي يملكها اليوم..

ونحن لم تعد لدينا فضائل...

لا فضائلنا نحن الإسلامية الأصيلة.. ولا فضائل الغرب الذي نقلده اليوم كالقرود تارة وكالعبيد تارة!

لا نحن في تعاملنا الفردي نصدق أو نخلص أو يستقيم لنا وعد أو نية.. ولا تنظيماتنا تتماسك إلا بمقدار ما تخشى السلطة القائمة عليها، وسرعان ما تتراخى اليد الممسكة بالسلطة، وسرعان ما تتفكك التنظيمات! وحالنا في " العمل " و " الإنتاج " هو حالنا في التنظيمات والتعامل الفردي: لا صدق ولا إخلاص، ولا صبر على عملية الإنتاج. ومن أجل ذلك نتخلف في عملية السباق الجبار الذي يصطرع فيه العالم الحديث..

ومع ذلك.. فانحرافهم أخطر من انحرافنا وأمعن في الضلال!

*　　*　　*

وللوهلة الأولى لن نصدق هذه الحقيقة!

فقد ربّانا الاستعمار الصليبي في الجيل الماضي على أن أوربا عملاق ضخم لا ينهار ولا يقهر.. ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فكل ما يفعله صواب، وكل ما يأتي

من عنده فضيلة.. ومن أجل ذلك انسقنا في التقليد.. كالقرود والعبيد.. فقلدناهم في الانحلال الخلقي والتفاهات " والتقاليع! ".. في " موضات " الأزياء وموضات الأفكار سواء.. ولم نقلدهم في الصبر على العمل والصبر على التنظيم، لأن " العبيد " لا يقلدون " السادة " فيما يحتاج إلى الهمة والجهد، إنما يقلدون في مظاهر الأشياء.. التي تنساب العبيد!

ثم ولد جيل جديد ظللنا نقول له إننا تحررنا من سيطرة الاستعمار، وصرنا " سادة ".. ولمس هذا الجيل بالفعل بعض مظاهر القوة وبعض مظاهر السيادة.. ولكنه رأى بعينيه أننا نأخذ وسائل الحياة الغربية كلها دون تمييز، ونتخلى عن مكوناتنا كلها دون تمييز.. نتخلى عن مقدساتنا لنصبح تطوريين.. أي أننا في الحقيقة نستعبد أنفسنا للغرب، حتى ونحن نصطرع معه على السيادة؛ وندخل في نطاق تأثيره حتى ونحن نحاول التحرر منه..! وفي النهاية لا ننال الغرض الحقيقي على تمامه: وهو احتذاء الغرب في القوة المادية والقوة العلمية والتنظيم.. لأننا مشغولون في عملية تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد، وشبابنا مستنفد الطاقة في السينما والتلفزيون، وأقاصيص الجنس المحموم!

لذلك لن يصدق هذا الجيل أو ذاك لأول وهلة هذه الحقيقة: أن انحراف الغرب أخطر من انحرافنا، رغم أننا الضعفاء وهم الأقوياء!

* * *

حياتنا وحياة الغرب قائمتان على أسس منحرفة.

لكن الفرق بين انحرافنا وانحرافهم، أنهم لا يملكون أساسا للتقويم، ونحن نملك هذا الأساس!

نحن نملك الأساس السليم للقوة والتقدم والحضارة " الإنسانية " الحقيقية والرفعة والصعود.. وعيبنا أننا لا ننشئ حياتنا وحضارتنا على ذلك الأساس السليم.. وذلك سر تخلفنا، وسر ما فينا من ضعف وانحراف.

أما الغرب فلا يملك أساس التقويم.. عيبه ناشئ من حضارته ذاتها.. فكلما سار فيها شوطا، على خطوطها المنحرفة، زاد في الانحراف. بل كلما زاد في القوة – على خطوطها المنحرفة – زاد في الهبوط!

" إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من من عودة غيرها إليها، **ولكنها لا تدرك ذلك** ". [ألكسيس كاريل].

إن الحضارة الغربية ذاتها هي المنحرفة.. والناس هناك لا يفسدون لأنهم ينحرفون عن الخطوط الأصلية للحضارة الغربية، ولكن لأنهم – على وجه الدقة – يسيرون على خطوط تلك الحضارة، ويتبعونها بصدق وإخلاص!

نحن المسلمين انحرفنا عن الإسلام.. ففسدنا وضعفنا وتخلفنا.. أما الغربيون فلم ينحرفوا عن وحي حضارتهم. لقد اتبعوها صادقين، فكانت هي السبب في انحرافهم، وانحدارهم – كما يقول "كاريل " – إلى البربرية والهمجية والضياع.

الانحراف الغربي الأكبر، أنه لا يدرك ما في حضارته من انحراف!

* * *

تقوم الحضارة الغربية الحالية على أسسها الإغريقية الرومانية القديمة، بنفس الأهداف ونفس الروح..

الحضارة الإغريقية مدتها " بالأفكار ".. التجريدية بصفة خاصة.

والحضارة الرومانية مدتها " بالتنظيم "، والبحث عن الفائدة العملية، والبحث عن المتاع.

ولقد أخذت عن العالم الإسلامي " المذهب التجريبي " في العلم، الذي قامت عليه كل الحركة العلمية الحديثة، كما أخذت عنه كثيراً من الأفكار والاتجاهات.. ولكنها مزجت ذلك كله بالروح الإغريقية الرومانية الوثنية، لأنها قامت – بادئ ذي بدء – على عداء مع الكنيسة ونفور من الدين..

لذلك انحرفت.. بادئ ذي بدء!

وظل الانحراف يزداد!

لقد فصمت هذه الحضارة – ابتداء – ما بين السماء والأرض من روابط، ففصمت – مقابلها – جانبين ممتزجين في كيان الإنسان، فجعلت كلا منهما على حدة، ثم كبتت أحد الجوانب بكل وسائل الكبت، ونمت الآخر بكل وسائل التنمية!

تلك هي الخطيئة الأولى في هذه الحضارة، التي تلتها الخطايا الأخرى متتابعات.

إن النفس البشرية وحدة. والسماء والأرض وحدة. وفصل السماء عن الأرض في الحس البشري، وما يقابله من فصل الجانب الروحي عن الجانب المادي من الإنسان، لا بد أن تترتب عليه نتائجه " الحتمية ". فكلا الجانبين المعزولين، سواء الذي كبت منذ البدء، والذي نمى أكثر من طاقته.. لا بد في النهاية أن يذبلا معاً.. لأنهما منفصلان! وذلك مغزى الكلمة الصادقة التي يقولها ألكسس كاريل، ويؤكدها في كتابه بشتى أنواع التوكيد " العلمي " القائم على الدراسة والمشاهدات.

فصمت الحضارة الغربية ما بين الإنسان والله. فماذا كانت النتيجة؟

تقدم العلم. ونظمت الحياة على الأرض أرقى أنواع التنظيم.. وخيل للناس هناك أن هذا التقدم والرقي هو حصيلة ذلك الفصام [151]!

ذلك وهم أنشأته الظروف والملابسات هناك!

فالتقدم العلمي ليس عدوا للدين. وكذلك تنظيم الحياة على الأرض!

قد يكون هذا وذاك عدوا للمفهوم الكنسي للدين أو لرجال الدين والكنيسة. ولكنه ليس عدواً " للدين " ذاته. ليس عدواً لدين الله. فدين الله لا يمكن أن يقف في سبيل البشر، وهو الذي نزل لإصلاح البشرية.

والدليل هو الإسلام!

فالحركة العلمية الكبرى التي نشأ عنها المذهب التجريبي.. أو العلم الحديث في أوربا، قد نشأت في ظل الإسلام، بل نشأت من وحي الإسلام وتوجيه الإسلام!

---

[151] اقرأ فصل " الفصام النكد " في كتاب " المستقبل لهذا الدين ".

فالعرب – من قبل – لم يكونوا أهل علم. والعلوم اليونانية التي أخذ المسلمون عنها وتتلمذوا عليها بادئ الأمر لم تكن في ذاتها تنحو نحو التجريب، كما قال بريفولت ودريبر [152]، ولم تكن – بذاتها – تحدث تلك النهضة. إنما التوجيه الإسلامي هو الذي حولها من التأمل إلى التجريب.. ومن ثم تقدمت تقدما كبيرا بحساب ذلك الزمان.

و " التنظيم " بكل أنواعه أخذ المسلمون أشكاله وأجهزته من الحضارات السابقة في ظل المبادئ الإسلامية الثابتة، ومزجوه بروح الإسلام وأضافوا إليه، فلم تقم العداوة بينه وبين الدين. بل كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب هو الذي سارع – بروحه المسلم المتمكن في الإسلام – إلى " تدوين الدواوين ".

فالوهم الباطل الذي خيل للغرب أن التقدم العلمي والتنظيم الحضاري هما حصيلة الفصل بين الدين والحياة العملية.. وَهْمٌ أنشأته ملابسات خاصة هناك، وليس حقيقة بشرية!

ولكنه كان أخطر ما جنت به الحضارة الغربية على أجيال البشرية!

لقد أنشأ مسخا مشوها في مكان " الإنسان "!

مسخا نمت فيه الجوانب الفكرية والجوانب المادية إلى أقصى حد.. وضمرت فيه الجوانب الروحية إلى أقصى حد.. فصار كريها منفراً مخيفا.. ينذر بالضياع والدمار!

هذا المسخ المشوه قد أغلق على نفسه نوافذ المعرفة كلها إلا ما يدخل من نافذة " الذهن " ونافذة " الحس ". وألغى ما يدخل من نافذة " الروح ".

والإنسان – إذا شبهناه مؤقتا بمعمل هائل دقيق التركيب – لا بد أن تدخل الأضواء إلى ظلماته من جميع النوافذ في آن واحد.. ليستطيع أن يقوم " بالتمثيل الضوئي " الخاص به على طريقة الإنسان! وكل خلل يصيب جهازا من أجهزته، أو كل نقص يصيب " الضوء " النافذ إلى ظلماته، يجعل الحصيلة النهائية ناقصة، وقد يجعلها تنتج مركبات خطرة.. سامة.. مدمرة لكيان الإنسان!

وهذا المسخ المشوه الذي لا يؤمن إلا بما تدركه الحواس ويدركه الذهن. يصاب – أول ما يصاب – بالعمى النوعي. فلا يبصر أمامه إلا جانبا من الشاشة. جانباً من الحياة. وبقية الشاشة في نظره مظلم.. أو لا وجود له على الإطلاق.

---

[152] راجع ص 177 - 179.

وتأثير ذلك في إدراكه وفي سلوكه خطر وشديد الخطورة!

فهو يدرك الأشياء ناقصة، وتتكون في حسه الصورة مشوهة.. ثم يسير في حياته على هدى هذه الصورة المشوهة، فإذا كل خطوة اضطراب.

ولا نحتاج هنا أن نعيد كل شهادة القرن العشرين.. وإنما نحتاج أن نشخصها لنعرف علاجها.

فحين تعمى روح الإنسان عن حقيقة الحياة والكون، ولا نرى منها إلا الجانب الظاهر للحس.. يختل التوازن في داخل كيان الإنسان كما يختل مسار الكوكب لو حجبت عنه فجأة بعض عناصر الجاذبية وترك لبعضها الآخر! وقد اختل بالفعل توازن الإنسان في هذا العصر، فجذبته الأرض بكل عنفها، حين انقطع عن جاذبية السماء!

نشاط الروح.. في اتصالها بخالقها، واستمدادها النور منه، والاتصال بروح الكون اتصال المحبة والتفاهم والتعاون، والاتصال بروح البشرية على إخاء. هذا النشاط لم يودعه الخالق كيان الإنسان اعتباطا، تعالى الله عن العبث وعدم القصد: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ " (153) " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً "؟! (154). وإنما أودعه كيان الإنسان ليعادل به جواذب الأرض وهواتفها، وهي عنيفة شديدة تحتاج دائماً إلى ما يوازنها ويعادلها.

فلما حدث " الفصام النكد " في الغرب بين الإنسان والله. بين الدين والحياة.. انكفأ الإنسان على وجهه يهيم في الأرض.. باحثا عن اللذة والمتعة والقوة.. بلا هدى يعصمه من السعار.

والسعار المحموم الذي يغشى المدنية الغربية اليوم هو النتيجة الحتمية لذلك الفصام.

إنه ليس انحرافا عن أصول الحضارة الغربية.. إنما هو الحضارة الغربية ذاتها في ذروة اللمعان! إنه لا يمكن أن يُتقى.. ما دام الأساس ذلك الأساس!

---

(153) سورة الدخان [38].

(154) سورة المؤمنون [115].

و " الطيبون " الذين يظنون أنهم يستطيعون أن يأخذوا الحضارة الغربية – على أصولها الغربية – ثم يحولوا دون انحرافاتها..أو يمتنعوا عن أضرارها.. هم " طيبون " جداً.. مضَّللون جداً.. لأنهم يتخيلون شيئاً لا يمكن أن يحدث.. شيئاً ضد طبائع الأشياء!

هذا السعار المحموم الذي يتجلى في " الإغراق " في كل شيء.. الإغراق في المادية. الإغراق في الآلية. الإغراق في وحشية الصراع. الإغراق في متاع الجنس. الإغراق في البحث عن السلطان.. إنه ليس شيئاً عارضاً نشأ عن مخالفة الناس في الغرب لأصول الحضارة الغربية، إنما هو شيء في صميم تلك الحضارة، ونتيجة حتمية من نتائجها.

نتيجة حتمية لطمس الجانب الروحي في الإنسان!

ولقد سخر الغرب كله بحقيقة الروح.. سخر منها التفسير المادي للتاريخ [وهو ليس ملكا للشيوعية وحدها في الحقيقة، فقد رأينا أن الغرب الرأسمالي محكوم بمفاهيمه [155]] وسخر منها التفسير الجنسي للسلوك البشري. وسخر منها التفسير الجمعي للإنسان [دركايم] وسخر منها طائفة كبيرة من الكتاب والعلماء والصحفيين والفنانين.. أو في القليل تجاهلوها فلم يجعلوها في الحساب!

وكانت النتيجة الحتمية هي ذلك الانحراف المجنون.

حين لا يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر.. أو لا يؤمن بهما إيمانا جاداً يحكم السلوك والمشاعر والحياة العملية.. فالنتيجة الحتمية هي أن يرى هذا العالم وحده.. عالم الأرض.. وأن يعبد *** القوى الأرضية: يعبد الدولة. أو يعبد المجتمع. أو يعبد المادة. أو يعبد ذاته. أو يعبد الشيطان!

ثم.. يتكالب على متاع الأرض كله.

يتكالب على الفرصة الوحيدة المتاحة للمتاع..

ومن هنا لا يكون شيء من التكالب الذي يدمر البشرية اليوم أمراً عارضاً في الحضارة الأوربية يرجى له الصلاح. إنما هو شيء في صميمها، ونتيجة حتمية من نتائجها!

---

[155] راجع شهادة ول ديورانت الأمريكي في فصل شهادة القرن العشرين.

تكالب الفرد الرأسمالي في الغرب على تركيز المال في يده، وتركيز السلطة الناشئة من المال.. وما يتبع ذلك من استغلال بشع، وامتصاص دماء، واستعمار وطغيان.. إنه ليس خللا " اقتصاديا " في الحضارة الغربية. إنه نتيجة " التفرغ " لهذه الأرض.. والانصراف عن هدى الله.

وتكالب الدولة الشيوعية على تركيز المال في يدها وتركيز السلطة الناشئة من المال.. وما يتبع ذلك من استعباد الدولة للناس، وإذلالهم، ونزع آدميتهم، وتحويلهم إلى آلات.. ليس مجرد اختلال " اقتصادي " مقابل لاختلال الرأسمالية. إنه مثلها تماما، اختلال في تصور الكون والحياة وتصور الإنسان.. اختلال نشأ من التفرغ لهذه الأرض.. والانصراف عن هدى الله.

وتكالب الشرق والغرب على القوة، بالصورة التي تنذر بالتدمير.. ليس اختلالا " سياسياً " عارضاً.. وإنما هو اختلال أصيل في النظرة إلى " القيم " التي تحكم الحياة.

والتكالب الجنسي.. لا يحتاج إلى تعليق! [156]

كلها اختلالات!

اختلالات لها ظروف محلية في أوربا.. ولكنها نشأت بادئ ذي بدء من ذلك الفصام النكد بين الدين والحياة.

هذا الفصام هو الذي أتاح للتوجيه اليهودي أن يدخل المعركة لتدمير المسيحية، وتدمير " الأمميين " بصفة عامة.

وهذا الفصام هو الذي أقام الانقلاب الصناعي في صورته المادية الخالصة التي لا تراعي قواعد الأخلاق ولا قواعد " الإنسانية ".

وهذا الفصام هو الذي أخرج المرأة من وظيفتها الفطرية الأولى إلى المصنع والمتجر والطريق.. وأخرجها للإغراء والغواية.. لتحطيم ما بقي في الحياة من علوية ورفعة.. والهبوط بها إلى حمأة الجنس المسعور.

[156] اقرأ فصل " تخبط واضطراب " من كتاب " الإسلام ومشكلات الحضارة "

وهذا الفصام هو الذي سخر العلم في طريق الشر [إلى جانب ما يؤديه من خدمات للبشرية] فأفسد الأمم والأفراد.

وهذا الفصام هو الذي جعل صورة " الإنسان " مشوهة ممسوخة.. فقامت نظم التربية ونظم السياسة ونظم الاقتصاد ونظم المجتمع والفنون تغذي هذه الصورة الممسوخة وتمد لها في التشويه!

وفي اختصار هو الذي أنشأ كل ما في الغرب من الفساد!

* * *

وهو فساد خطر لأنه لا يملك السبيل إلى التوقف أو العلاج!

لا يملك مقياس الحكم الصحيح على الأشياء..

لو كانت للحضارة الغربية مقاييس " إنسانية " صالحة، انحرف الناس عنها، لكان هناك الأمل في عودة الناس إلى المقاييس " الصحيحة "، ورجوعهم عن الفساد.

ولكن ما هي المقاييس " الصحيحة " لهذه لحضارة؟!

لقد " قالت " هذه الحضارة كلاما كثيراً عن " حقوق الإنسان " و " الحرية والإخاء والمساواة " و " الكرامة الإنسانية " و " الرفعة الإنسانية " و " العظمة الإنسانية " و.. و.. و..

ثم عملت هذه الحضارة – مخلصة – على خطوطها الأصيلة – لتحقيق هذا الكلام!

عملت – مخلصة – وهي ترى " الإنسان " في الحقيقة في صورة " الحيوان "! وهي تفصل الإنسان عن الله. وتفصل الحياة عن الدين. وتفصل المادة عن الروح، وتفصل الدنيا عن الآخرة!

وكانت النتيجة أن عملها أوصلها إلى غايتها المحتومة!

فانقلبت حقوق الإنسان، والحرية والإخاء والمساواة، والكرامة الإنسانية، والرفعة الإنسانية، والعظمة الإنسانية،.. إلخ.. إلخ إلى هذه الصورة البشعة التي لمسنا جانباً منها في شهادة القرن العشرين، ولمسنا جانباً منها في هيروشيما ونجازاكي، وجانباً منها في التفرقة العنصرية في أمريكا وأفريقيا.. وجانباً منها في كل مجال وفي كل مكان!

لم ينحرف الناس عن " أصول " الحضارة الغربية! إنما اتبعوها فأوصلتهم إلى البوار!

و " الطيبون " الذين يرون الوجه اللامع من الحضارة الغربية، والبقية الباقية من الفضائل الموجودة في الغرب، عليهم أن يروا كذلك الوجه الأسود الكالح لهذه الحضارة، ثم يتذكروا شهادة كاريل:

" إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ".

إنها نهاية الخط.. خط الانحراف.

ولكنه انحراف أصيل في هذه الحضارة لم يطرأ عليها من خارجها. لم يطرأ من انحراف الناس في تصور مفاهيمها أو تمثل حقائقها. وإنما نشأ من طبيعة قيامها منذ أول لحظة على أساس معادٍ للدين، شارد من الله.

ونحن – كما أسلفنا – أسوأ من الغرب في وضعه الراهن..

نحن أضعف منه قوة وعلماً وتنظيما.. وكذلك نحن فاسدو الأخلاق.

أخلاقنا هي الغش والنفاق والكذب والخديعة.. وهي النفور من المسئولية وعدم الصبر على التنظيم وعدم الجد في الإنتاج.

وأخلاقنا في شئون الجنس لم تعد في شيء أنظف من الغرب! والبركة في التوجيه المستمر من الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون وكتاب القصة " الفنانين " "الموهوبين" " المبدعين "!

ولكننا مع ذلك نملك السبيل إلى التقويم، بصرف النظر – مؤقتا – عن اتجاهنا أو عدم اتجاهنا إلى السبيل!

نحن نملك الإسلام..

نملك أكبر قوة إصلاحية على وجه ارض..

وانحرافاتنا كلها هي الانحراف عن الإسلام..

وطريقنا للقوة والصعود والتمكن والتقدم والحضارة والإنسانية. بل طريقنا لإنقاذ البشرية كلها.. هو الرجوع إلى الإسلام.

أما الغرب.. فلا طريق أمامه – على خطوطه الحالية – إلا طريق الضياع والدمار..

فأي الطريقين هو الذي يكتب مستقبل البشرية؟!

مستقبل البشرية

حين أطلق الفيلسوف المعاصر " برتراند راسل " نبوءته الصادقة سنة 1950: "لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض. وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانوناً من قوانين الطبيعة. وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التي لقيها خلال أربعة قرون.. " حين أطلق نبوءته الصادقة هذه لم يكن يشير إلى ملابسات " سياسية " معينة تنهي دور الرجل الأبيض في تاريخ الحضارة البشرية.. فالسياسة في الحقيقة إن هي إلا المظهر الخارجي لحقيقة الأوضاع الداخلية للأمم: الأوضاع الفكرية والروحية والنفسية والاجتماعية والعلمية والمادية.. سواء! وإنما كان الرجل – الفيلسوف – يدلي – على طريقته الفلسفية – بنصيبه في شهادة القرن العشرين!

انتهت سيادة الرجل الأبيض، لأن حضارته قد وصلت إلى غايتها – على خطوطها المنحرفة – فأخذت في الانهيار.. تلك شهادة القرن العشرين من جميع جوانبها، ومن بينها نبوءة ذلك الفيلسوف.

وليس أمام الرجل الأبيض طريق – من حضارته الحالية – ينقذ به نفسه، وينقذ البشرية التي يتولى اليوم قيادتها، ويتولى كذلك هلاكها [157]!

فطريقه الذاتي المملوء بالحفر المدمرة.. وهو منطلق بأقصى ما وسعه من طاقة في هذا الطريق.. طريق الشيطان!

* * *

ومع ذلك فلسنا متشائمين بمستقبل البشرية!

ولسنا نبني تفاؤلنا – بطريقة صبيانية – على التقدم العلمي الجبار الذي سييسر الحياة في المستقبل، وسيصنع الأعاجيب! ولا على دعاوى " الإنسان " في السيادة على البيئة والتحكم في الظروف والتحرر من العجز والتحرر من القيود.. إلى آخر هذه الدعاوى الفارغة التي يرددها كتاب الغرب المفتونون وتلاميذهم في الشرق، الذين يحسبون أنفسهم من " الرواد " حين يلوكون هذه الأقاويل.. فقد رأينا من شهادة ألكسيس كاريل أن التقدم العلمي ذاته

[157] اقرأ فصل " انتهى دور الرجل الأبيض " في كتاب " المستقبل لهذا الدين ".

– على خطوطه الحالية – هو الذي سيسرع بالناس إلى العودة للبربرية والهمجية، وأن تحكم الإنسان في البيئة وسيادته عليها – بتصوراته الحالية – هو ذاته الذي يجعله ينشئ حضارة لا تلائمه، وتؤدي به إلى الدمار!

وإنما نبني تفاؤلنا على الواقع السيئ الذي تعيشه البشرية اليوم في ظل الحضارة الغربية! والذي يأخذ طريقه إلى الازدياد!

فهذا الواقع السيئ هو الذي سيهدي البشرية إلى الصواب!

* * *

لم يعد لدى حضارة الغرب رصيد طيب تعطيه..!

إن التقدم العلمي هو الرصيد الوحيد الذي سيسلمه الغرب للبشرية.. وهو من الأصل رصيد البشرية كلها على مدار الأجيال.. بدأه المصريون القدماء والإغريق والهنود.. وأخذه المسلمون منهم وأضافوا إليه.. وسلموه لأوربا ففتحت فيه فتوحاً واسعة.. وستسلمه أوربا غداً لمن يحمل الراية في المستقبل.. دورة دائمة تتداولها الأجيال.

ولكن الغرب – فيما عدا هذا – لا يملك الكثير!

هناك فضائل نفسيه واجتماعية وتنظيمية ما زال يحملها الغرب ولا شك.. هي التي تحفظ كيانه إلى هذه اللحظة أمام هذا السيل الجارف من المدمرات.. في الفوضى الجنسية والخلقية، والإلحاد، وتفكيك روابط الأسرة والمجتمع، الانفلات من كل القيم وكل المعنويات.

ولكن هذه الفضائل هي التي تتضاءل يوماً بعد يوم.. كل حرب وكل أزمة تنقص منها وتزلزلها.. لأنها فقدت معينها الأول الذي يصونها ويجددها على الدوام: معين الدين.. الصلة الحقة بالله.

وشهادة القرن العشرين.. والشباب المهدد بالضياع.. وصيحة كنيدي وخرشوف.. وبرتراند راسل.. وغير هؤلاء وهؤلاء.. كلها تشير إلى أن هذه الفضائل في طريقها إلى التضاؤل. والانهيار!

" سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً " [158].

* * *

وإذن فلن يكون الخلاص على يد الحضارة الغربية، ولا حضارة من نوع الحضارة الغربية!

البشرية في حاجة إلى تحول جذري في مجالاتها جميعاً.. في حاجة إلى بناء جديد.

وهناك خطوط ستظل بلا شك دون تغيير أو حاجة إلى التغيير.. فالعلم يسير على خط صاعد وسيظل كذلك. ولا خوف عليه – حين تتغير نظم البشرية ومناهجها – أن يتوقف أو يضيع! وتاريخ البشرية كله يومئ إلى أنه لم يتوقف قط. وإنما تتسلمه أمة من أمة لتزيد عليه وتنميه. وفي التاريخ الحديث شواهد على ذلك. فقد كانت روسيا حين بدأت ثورتها تكاد تكون أمية في دنيا العلم.. ثم إذا هي تسبق الغرب – الذي تتلمذت عليه – في أبحاث الذرة وأبحاث الفضاء! والصين بدأت من تحت الصفر! واستعارت من روسيا كل شيء.. العدد والأدوات والفنيين والأموال.. ثم.. إذا هي خطر ماثل، يلجئ روسيا ذاتها إلى محاولة التفاهم مع الغرب للوقوف أمام الخطر الأصفر...

لا ارتباط إذن بين التقدم العلمي وبين الحضارة الغربية الحالية.. ولن يقف العلم أو ينهار إذا انهارت في القريب أو البعيد حضارة الرجل الأبيض!

و " التنظيم " العلمي للحياة لا يتوقف هو الآخر.. إنما يحتاج إلى تعديل " الآلية " المسيطرة عليه، والتي تأخذ اليوم برقاب الغرب، وتقتل منه الروح، و " فردية " الإنسان[159].

وفيما عدا هذا ينبغي أن يشمل البشرية تغيير جذري يغير كل طريق البشرية!

* * *

---

(158) سورة الأحزاب [62].

(159) كل إنسان – كما خلقه الله – عالم فرد لا يتماثل مع غيره من الأفراد، وإن تشابه مع الجميع. ولكن الآلية التي يعكسها العلم اليوم على الغرب تفقد الفرد فرديته، وتصب الناس في قوالب جاهزة كالإنتاج المادي! [انظر كاريل: الإنسان ذلك المجهول].

ما صورة هذا التغيير؟

فلننظر في انحرافات البشرية الحالية، لنعرف كيف يكون التغيير الذي يهدف إلى معالجة الانحراف!

هنالك نقطتان رئيسيتان تنحرف فيهما البشرية الحالية انحرافاً جذرياً خطيراً.. أو هو انحراف أصلي نشأ عنه انحراف آخر لا يقل عنه خطورة..

الانحراف الأصلي هو البعد عن الله.. النفور من الدين.. وإقامة الحياة كلها على أساس لا ديني (secular).

والانحراف الذي نشأ عنه هو تشوه التصور الإنساني " للإنسان ". فهو يقوم من ناحية على أساس التصور المادي الحيواني للإنسان، ومن ناحية أخرى على أساس "جزئية" الإنسان.

والعلاج – إذن – هو العودة إلى الله بادئ ذي بدء. وهو تصحيح تصور الإنسان لنفسه. على أساس " **إنسانية** " الإنسان من ناحية. و " **شمول** " الإنسان من ناحية أخرى.

العودة إلى الله لا تعني مجرد إضافة قدر من " الروحانية " على أسس الحياة الغربية الحالية! فهذا المزيج المتنافر لن يصلح الحياة البشرية في شيء! ولن يزيد الناس إلا تمزيقاً واضطراباً وحيرة في مواجهة الحياة!

* * *

إنما المقصود شيء آخر.. شيء يصنع تغييراً جذريا في " التوجه " الإنساني ذاته! فيتجه بادئ ذي بدء إلى الله! لا إلى أحد سواه!

إنه شيء حقيقي. شيء جاد! لا مجرد تلهية وعبث وزخرفة!

التوجه إلى الله معناه إفراده – سبحانه – بالألوهية. معناه حاكمية الله وحده. معناه أن يكون هو – سبحانه – صاحب الأمر الحقيقي بين الناس. هو الذي يضع للناس شريعتهم ومنهج حياتهم. هو الذي يخطط لهم سياسة مجتمعهم وسياسة أموالهم. هو الذي يحدد لهم علاقة الفرد بالمجتمع. وعلاقة الناس بالدولة. وعلاقة الرجل بالمرأة. وعلاقة الأمة بالأمم. وعلاقة " الإنسان " " بالإنسان ".

شيء حقيقي جاد.. لا مجرد تلهية وعبث وزخرفة!

ليس مجرد صلوات لله في المعابد، ولا سبحات روحية مرفرفة، ولا تزجية لأوقات الفراغ!

إنما هو إقامة الحياة كلها على أساس العبودية الحقة لله! وعدم الاستنكاف من عبادة الله على هذا المنوال!

أما المزج بين الحياة الحالية وبين " قدر " من التدين، فقد كان النقطة الخطرة التي بدأ عندها الانفصام الحالي، والتمزق، والحيرة، والاضطراب!

إن الحياة لا تصلح بعبادة إلهين مختلفين. أو إله في السماء وآلهة متعددة في الأرض! نهايتها الحتمية هي ما وصلت إليه أوربا اليوم من تمزق وفساد.

ولا تصلح كذلك بعبادة إله غير الله. فكل إله غير الله باطل، سريعا ما يَعطب ويُعطب عبَّادَه. وآخر هؤلاء الآلهة المزيفين هو الإنسان ذاته.. حين عبد الإنسانُ ذاته! فسريعا ما عطب ذلك المعبود وأعطب نفسه التي تعبده! وأسرع بنفسه إلى الهلاك والبوار!

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ! " (160).

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ! " (161).

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ! " (162).

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ! " (163).

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ! " (164).

(160) سورة النمل [60].
(161) سورة النمل [61].
(162) سورة النمل [62].
(163) سورة النمل [63].
(164) سورة النمل [64].

وعبادة الله الواحد معناها نقض الأسس الحالية كلها للسياسة والاجتماع والاقتصاد.. وتغيير صورة الحياة بأكملها.

معناها إلغاء عبادة الدولة. وعبادة رأس المال. وعبادة المجتمع. وعبادة الفرد الإنساني.. وما يترتب على كل هذه العبوديات من انحراف.

النظم الجماعية التي تجعل الدولة – أو الزعيم – هو المعبود.. والنظم الفردية التي تجعل رأس المال هو المعبود.. والنظم التي تقدس المجتمع وتجعله محور ارتكازها الآمر الناهي المسيطر، وتلغي بذلك كيان الفرد وتسحق وجوده، فلا يتبقى له إلا كونه فرداً في القطيع.. والنظم التي تقدس الفرد فتنفخ في كيانه على حساب المجتمع، فتفكك المجتمع. كلها نظم باطلة.. منشأ بطلانها هو " العبادة " المنحرفة التي تتوجه بها لغير الله!

ولن تصل هذه النظم إلى " التوازن " الذي يوازن انحرافاتها ويَعْدِلُها إلا بنقض هذه العبادات المنحرفة كلها، والعودة **الحقيقية** إلى عبادة الله.. أي استمداد النظم والمناهج كلها منه، لا مجرد التسلي بالتوجه إليه في ساعات الفراغ!

والانحرافات الاجتماعية والخلقية التي رأينا جانبا منها في شهادة القرن العشرين، والتي تخصصت كتب " غربية " كاملة لشرحها والإفاضة فيها.. لن تتوازن كذلك إلا بنفض العبادات المنحرفة، ومن بينها عبادة المجتمع وعبادة الإنسان لذاته.. أي لشهواته! والعودة إلى عبادة الله، الذي يضع الضوابط المنظمة للحياة البشرية.

* * *

أما انحراف التصور الإنساني " للإنسان ".. وهو فرع من الانحراف الأصلي الذي بعد بأوربا عن الدين، فانفلت قيادها التصوري كما انفلت قيادها الاجتماعي والخلقي.. أما هذا الانحراف فقد أخذ طريقين رئيسيين.

إقامة الحياة كلها على أساس حيوانية الإنسان وماديته.

وإقامتها على أساس المفهومات الجزئية للإنسان.

وكلاهما أنشأ ألوانا من الفساد الخطر في حياة البشرية..

حيوانية الإنسان وماديته ترتب عليها في التصور الأوربي إقامة مجتمع لا تسيره مفاهيم " الإنسان " ولا تصوراته، ولا مشاعره، ولا سلوكه. إنما تسيره في مكان ذلك كله مفاهيم " الحيوان "! ومفاهيم " الآلة "! ومن ثم تضاءل مكان العقيدة في حسه، وانفلتت ضوابطه الخلقية في مجال الجنس، وهبطت علاقة الجنسين عنده إلى علاقة جسدية " بيولوجية! " همها الحصول على اللذة، والإغراق في المتاع. وذلك – بصفة خاصة – هو الذي يسرع بتدمير البشرية كما قالت شهادة القرن العشرين! كما ترتب عليها تحويل الإنسان إلى " آلة " إنتاجية.. تنتج وتنتج وتنتج.. ولا " تحس " إلا على مستوى الحيوان[165].

أما جزئية الإنسان فقد ترتب عليها تضخيم جوانب منه على حساب جوانب أخرى، أو تجاهل الكيان الكلي عامة، ومحاولة " إنشاء " إنسان جديد على أسس فاسدة تصطدم مع الفطرة وتفسد كيان الإنسان.

فالتفسير المادي للتاريخ، والتفسير الجنسي للسلوك، والتفسير الجمعي للحياة، والتفسير " الرجالي " للمرأة [166].. والتفسير الآلي للسلوك [الذي يفسر السلوك البشري على أنه صادر عن " الآلة " البشرية] وغيره وغيره وغيره.. كلها قائم على أخذ جزء من الإنسان والزعم بأنه هو " الإنسان "، وتصور الحياة كلها على هذا الزعم!

وانعكاس هذا الانحراف وذاك على الحياة البشرية المعاصرة واضح شديد الوضوح. فتضخيم الجانب المادي من الحياة على حساب الجانب الروحي والعاطفي. وتضخيم الجانب الجنسي على حساب الجانب الخلقي. وتضخيم الجانب الجماعي على حساب الجانب الفردي [أو العكس].. ومحاولة " صياغة " إنسان جديد لا يحس ولا يفكر على مستوى " الإنسان " وإنما على مستوى الآلة أو مستوى الحيوان.. ومحاولة " إنشاء " امرأة ليست أنثى.. الخ.. الخ.. كلها تهوسات نشأت من انحراف التصور الإنساني للإنسان، ولا علاج لها إلا العودة للتصور الشامل للإنسان!

التصور الشامل الذي يتصور الإنسان في حقيقته الشاملة المتكاملة: قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، ممتزجين مترابطين، يتكون منهما كيان واحد موحد الأجزاء.

الجسم والروح حقيقة واحدة.

الجانب المادي والجانب الروحي حقيقة واحدة.

---

[165] راجع "كاريل ": الإنسان ذلك المجهول، و " ول ديورانت ": مباهج الفلسفة.

[166] راجع شهادة الطبيبة النمسوية ص 218 - 221.

الجانب الاقتصادي والاجتماعي والجانب الخلقي والمعنوي حقيقة واحدة.

كل نشاط الإنسان حقيقة.. وحقيقة مترابطة ممتزجة.

لا ينفصل النشاط الجنسي عن الأخلاق، لأن هذا وهذه جزءان غير منفصلين من كيان " الإنسان ".

والبحث عن الطعام.. والإنتاج المادي.. وتحسين أساليب الإنتاج.. والتقدم العلمي.. كلها لا تنفصل عن النشاط الروحي و " القيم " الخلقية والإنسانية. لأنها جميعاً جوانب متعددة – مترابطة – من كيان واحد شامل متكامل.

ومن ثم لا تنفصل في حياة الإنسان عقيدته عن واقعه. وأخلاقه عن سلوكه. ونشاطه الجنسي عن نشاطه الروحي. ونشاطه المادي عن نشاطه المعنوي.. لأنه لا انفصال في نفس الإنسان بين هذه وتلك. وليست نفس الإنسان " خزائن " منفصلة: خزانة للعقيدة، وخزانة للواقع. خزانة للجنس، وخزانة للأخلاق. خزانة للنشاط المادي، وخزانة للنشاط الروحي. وإنما يواجه الإنسان الحياة بكيانه المتكامل ونشاطه الشامل، وإن برزت – في لحظة – بعض جوانبه وانحسرت جوانب أخرى.. فهي **لا تنفصل** بحال من الأحوال![167]

وبهذا التصور المبني على حقيقة الإنسان، تتوازن الحياة البشرية وتنجو مما فيها من انحراف.

* * *

ذانك هما الانحرافان الأساسيان في حياة القرن العشرين: البعد عن الله، وفساد التصور " للإنسان ".

ومن هذين الانحرافين الرئيسيين نشأت كل الانحرافات الأخرى الجزئية.

ووصل الانحراف إلى درجة من السوء لا يمكن أن تستمر! لا يمكن أن تستمر دون تدمير البشرية!

---

[167] راجع كتاب " الدراسات ".

وهذه هي النقطة التي ينشأ منها التغيير!

فحين تحس البشرية بالخطر على كيانها ذاته.. حين تقف على حافة الهاوية. تستيقظ! وتسعى إلى التغيير!

وستستيقظ البشرية من هوستها المجنونة لا شك! وستسعى للتغيير!

ستعود – ولا بد – لنظام يتجنب ما وقعت فيه من انحراف.

ستعود إلى الله. وإلى التصور الصحيح للإنسان.

ستعود إلى الإسلام!

فليس في أفكار البشرية كلها فكرة واحدة تُصلح هذا الانحراف كله إلا الإسلام!

فهو الذي يربط الإنسان – ربطاً جاداً – بالله، ويستمد من الله منهج الحياة. وهو الذي يتصور الإنسان على حقيقته الشاملة المتكاملة المتوازنة.

وليس أمام البشرية إلا طريقها المنحرف الذي تسير فيه اليوم ويوصلها إلى الهاوية.. أو الرجوع إلى الإسلام.

ونحن نعتقد – من واقع البشرية الحالي – أنها ستفيق من غشيتها، وتفيء إلى الإسلام! ما لم يكتب الله لها التدمير في هذا الجيل أو الجيل الذي يليه في غد غير بعيد!

ونحن أكثر إيماناً برحمة الله من أن يدمر البشرية – في غوايتها في هذا الغد القريب.. قبل أن تستجيب!

* * *

ولكن هذه لن تكون مسألة سهلة!

حقا لقد بدت بوادر توحي بعودة الإنسان في الغرب إلى الدين!

فالعلماء – أنبياء البشرية اليوم – بدأوا واحدا إثر واحد يصلون بعقولهم العلمية البحتة إلى وجود الله من وراء الدقة المعجزة التي يدار بها الكون!

قال جيمس جينز العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحدا شاكسا: " إن مشكلات العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله! ".

وقال أ. كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك، في كتابه " Man Does Not Stand Alone " المترجم بعنوان: " العلم يدعو للإيمان ": " إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة. وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الفاخرة لذكائه، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون [168]... إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم. غير أن تحطيم ذرة دالتون – التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون – إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلا جوهريا. ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالا لوجود مدبر جبار، وراء ظواهر الطبيعة" [169].

وكان أول انعكاس في نفس جاجارين رائد الفضاء الروسي حين خرج إلى الفضاء.. هو البحث عن الله! وإن كانت " الدولة " الشيوعية قد انزعجت من تصريحه بذلك بعد عودته إلى الأرض، وخشيت على ما جهدت في نشره من الإلحاد، فأوحت إلى الرائد الثالث " تيتوف " أن يقول إنه بحث عن الله في السماء فلم يجده!

المهم.. أن رجال " العلم " بدأوا يلوذون بحمى الله.. في داخل معاملهم وأبحاثهم العلمية البحتة.. وذلك أول الطريق!

ثم إن صيحات الخطر تنطلق في كل مكان تنذر بسوء مصير البشرية إن هي داومت السير على ما هي فيه اليوم من انحراف.. وكلها تنادي أن العودة إلى الله هي العلاج، والعودة إلى التفسير الشامل للإنسان!

ولكن الأمر ليس هينا بحيث تكفي فيه صيحات متفرقة من هنا أو هناك!

إن أسبابا جمة – حقيقية وخطيرة – تصد الناس في الغرب عن الله، وعن النهج القويم للحياة.

---

[168] يلاحظ تأثر الكاتب برواسب الحضارة المادية حتى وهو يستشرف بعقله إلى النور الإلهي.. " برنامج ينفذه بارئ الكون ".. إنه تعبير مثقل برواسب الحضارة المادية وأساليبها العملية.. والإدارية!!

[169] العلم يدعو للإيمان. ترجمة محمود صالح الفلكي ص 44 – 45.

* * *

إن الحماقات التي ارتكبتها الكنيسة الأوربية كانت حماقات تاريخية! ولم تكن شيئاً عارضا في حياتها أو حياة البشرية!

يستوي في هذه الحماقات الطغيان البشع الذي مارسته الكنيسة على الناس. والجهالة المخرفة التي عاش فيها رجال الدين في القرون الوسطى. والمفاسد الخلقية الشنيعة التي ارتكبوها في ذات الأمكنة المخصصة للعبادة والقداسة والترفع عن الشهوات. ومهزلة صكوك الغفران.. ثم تقتيل العلماء وتعذيبهم حين يكتشفون حقائق الكون والحياة!

هذه الحماقات كلها قد حفرت آثاراً عميقة في مشاعر الغرب وأفكاره.. ليس من الهين إزالتها.. وهي حصيلة أجيال!

حقا إنها حصيلة غير منطقية! فلم يكن لزاما على الغرب حين عادى الكنيسة أن ينفر من الله ويعادي الدين. وكان بوسعه أن يصحح مفهومه الديني بدلا من تحطيمه. ولكن هذا هو الأمر الذي وقع بالفعل، وهو الذي يواجهنا بنتائجه اليوم أياً ما كان فيها من أخطاء!

والعودة إلى الدين – مهما كانت بوادرها ظاهرة اليوم – ستكون – حسبما نرى بمنطقنا البشري المحدود – بطيئة بطيئة تحتاج إلى أجيال! [ما لم يرد الله غير ذلك! وما أسهل ما يريد الله. وما أسهل ما ينقلب الإنسان فرداً وجماعة من موقف العناد مع الله، إلى موقف التسليم! وهي حالة لها نماذج مكرورة في البشرية، خاصة في أوقات الأزمات!]

وليس هذا هو السبب الوحيد.. فقد لابسته كذلك ظروف وملابسات.

إن " المنطق العلمي " الذي يسيطر اليوم على الغرب، أو " المنطق المادي "، يقف عثرة في سبيل العودة إلى الدين والعودة إلى الله!

إن الإيمان " بقوانين الطبيعة " وثبوتها.. يفسد تفكير الغرب، ويفسد توجهه إلى الله! " فالعلم " كله في الغرب قائم على أساس ثبوت هذه القوانين وعدم تعرضها – ولا إمكان تعرضها – للتغيير! وهذا حق من أحد جوانبه. فلم يكن العلم ليتقدم خطوة واحدة لولا افتراض ثبوت السنن الكونية، التي تبنى عليها المشاهدات والتجارب، وتستمد منها النتائج والقوانين..

ولكن الغرب.. يريد أن يقيد بها قدرة الله!

ومن ناحية أخرى يتصور أن الله – مع التسليم بوجوده – قد أودع الكون هذه القوانين ثم تركها تعمل بطريقة آلية فتؤدي إلى كل عمليات " الخلق " وكل عمليات الكون، دون تدخل منه سبحانه!

وقد لقيت فتىً ألمانيا – مسلماً! – اجتذبته بساطة العقيدة الإسلامية واستقامتها وشمولها فآمن بأنها الحق، ومع ذلك فهو يجد أزمة عنيفة في نفسه من أجل " المعجزات " لأنها تخالف قوانين الطبيعة!

إنه لا يستطيع أن يتصور حدوث المعجزة بحال! ولا تدخل الله المباشر في شأن من شئون الخلق أو شئون الحياة، بعدما أودعها " القوانين " التي تسير عليها!

وحين قلت له إنه يخطئ في تصور أن تدخل الله المباشر لا يحدث إلا في " مخالفة " قوانين الطبيعة وإنما يحدث هذا التدخل المباشر في كل لحظة للمحافظة على ثبوت هذه القوانين، وإلا ما ثبتت على ما هي عليه.. كانت هذه مفاجأة ضخمة لتفكيره! هذا وهو يقرأ في القرآن: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) [170]

فكيف بغير المسلمين في الغرب الذي أفسدته هذه التصورات؟!

لقد نما المذهب التجريبي في العالم الإسلامي في ظل العقيدة الإسلامية، وفي ظل الإيمان بثبوت " سنة الله " [التي يسميها الغرب جهلا وعناداً منه " قوانين الطبيعة! "] ومع ذلك لم يصطدم في حسهم بقدرة الله المطلقة التي تستطيع أن تغير ما تشاء حين تشاء! فآمنوا بالعلم، وآمنوا بالمعجزة؛ في بساطة بلا تعارض ولا تمزق في التفكير! وهذا هو المنهج الصائب في تفهم الحقيقة الإلهية والحقيقة الكونية. ولكن " العلم " في الغرب المبني على نفهم قاصر، يصد الناس عن السبيل!

والمتاع الزائد عن الحد...

إنه " الأزمة " الحقيقية في حياة الغرب..

---

[170] سورة فاطر [41].

لقد يمكن أن يصطلح " العلم " مع الإيمان " بالغيب " في يوم قريب أو بعيد.. وخاصة بعد البحث في قلب " الذرة " الذي غير النظرة كلها إلى الكون " المادي " وقرب ما بين المادي واللامادي في أفكار الغربيين.

ولكن المتاع الزائد عن الحد مشكلة ضخمة..

من ذا الذي يستمع في لذة هذا المتاع إلى صوت الدين؟!

الشبان والفتيات الذين يقضون أوقات فراغهم أكواما من اللحم المسعور؟

كيف يفيقون؟ كيف تصدق أعصابهم الملتذة بهذا المتاع أنهم مدمَّرون؟!

قد يرى " الحكماء " ما هم فيه من دمار محقق.. أما هم.. وهم يحترقون بالنار المحببة.. هل يحسون – أو يبالون – أنهم يحترقون؟!

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..) [171].

والمتاع الزائد عن الحد اليوم فنون.. وفنون!

إنه ليس ساعات اللقاء الجنسي وحده.. ولكنه كل شيء في حياة الغرب!

العمل هناك – على طريقة الآلة الإنسانية – مرهق للأعصاب، كابت للحيوية والانطلاق. ثم.. ينطلق الناس من أعمالهم، ليزيحوا الكبت الواقع على كيانهم الحي.. ولكن ينطلقون على طريقة الحيوان!

حيوانية الإنسان وآليته.. ذلك تصور القرن العشرين.

ومن أجل احتمال الآلية المملة الرتيبة، توضع أشد المشهيات في الجانب الآخر.. جانب الحيوان!

ولم يكن هذا ضرورة " حتمية " في حياة الناس. ولكنه " ضرورة " في هذا التصور المنحرف المجنون.

---

[171] سورة آل عمران [14].

ثم.. تدخل اليهودية العالمية.. تنتهز الفرصة المواتية للتدمير!

الإغراء.. في كل صورة..

المرأة مغرية في الشارع.. مغرية في السينما.. مغرية في المسرح.. مغرية في الشاطئ.. مغرية في الغابة.. عارية في كل مكان!

والسينما والمسرح والنادي والملعب.. والشارع والمكتب.. مجالات للإغراء!

والفن.. الموسيقى والأدب والرقص والغناء.

وترف الحياة ونعومتها..

من ذا الذي يفكر في الدين.. أو في الأخلاق.. ليحد من هذا المتاع؟!

* * *

وكل تنظيمات الغرب القائمة على أساس لا ديني (secular) والتي فرح الغرب بفصلها عن الدين! كيف يعود – بسهولة – فيقيمها على أساس من العقيدة في الله؟

التنظيمات الاقتصادية. والتنظيمات السياسية. والتنظيمات الاجتماعية. و. و. من ذا الذي يرحب بإقامتها على أساس العقيدة في الله، التي تحد من مطامع الطامعين، وتضبط شهوات " أصحاب المصالح " في كل هذه الميادين؟

والمرأة.. والمرأة التي " تحررت " من كل قيد قيدتها به الأجيال! كيف تعود؟!

كيف تعود إلى مهمتها الفطرية وتقصر نفسها عليها وهي ترى نفسها اليوم ملء " المجتمع "، وملء المصانع والمتاجر والدواوين والشوارع.. وأهم من ذلك كله.. ملء مشاعر الرجل.. كل رجل؟!

كيف تقبل أن ينحصر سلطانها في بيت واحد ورجل واحد، وهي اليوم ترى " وجودها " واسع الآفاق، يشمل كل رجل يقع عيناه على فتنتها، فيعجب بها ولو لحظة عابرة في الطريق.. وتتجمع اللحظات لتكوّن لها " الحياة "!

*　　*　　*

كلا! لا يرجع الناس في الغرب بسهولة إلى الدين! ولا ترجع البشرية كلها التي يحكمها الغرب اليوم، وتنتشر منه إليها المفاهيم، وأنماط السلوك..

لا يرجعون إلا بقارعة!

ولكن القارعة على الأبواب!

إنهم ليسوا مخيرين!

أو هم مخيرون! بين الدمار الشامل الرهيب.. وبين العودة إلى حمى الله ومنهج الله مهما يكن فيه – في تصورهم المنحرف اليوم – من " القيود "!

والدمار يفتح فاه في كل لحظة.. انتهاء سيادة الرجل الأبيض رعب [له!] والخوف على المستقبل في روسيا وأمريكا رعب [لهما] والحرب الذرية رعب يشمل الجميع!

وكلما هم العالم أن يستريح لإبعاد خطر الحرب.. عادت الأزمة تطل من جديد.

القارعة على الأبواب.. والناس ليسوا مخيرين.. أو هم مخيرون بين العودة إلى الله وبين الدمار الرهيب.

وستجد البشرية ذات يوم أن الله أكرم لها وأشفق عليها من أنفسها.. فتعود إليه.

ولن يكون هذا صباح الغد!

إنما تقع القارعة – أو الصحوة – في المعتاد حين يشتد الفساد بالناس جيلا بعد أجيال!

ونحن – حين نقول إن مستقبل البشرية هو العودة إلى الله – لا نرقب هذا الغد القريب الذي يحوي أعمارنا وأعمار هذا الجيل!

فعمر البشرية لا يقاس بعمر فرد أو أفراد في جيل.. إنما يقاس بأجيال بعد أجيال!

ولكنا – مع ذلك – نراه بوضوح كأنه الغد!

نراه.. لأنة سنة " حتمية ". سنة الله.

ستعود البشرية غدا إلى الله...

ولكن.. ماذا يكون يا ترى دور المسلمين؟!

دور المسلمين

دور المسلمين هو أن يكونوا دائما في الطليعة. أن يمسكوا في أيديهم مقدم الزمام.

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ **وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)** (172).

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) (173).

(**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (174).

ذلك دور المسلمين: أن يكونوا خير أمة في الأرض، ويكونوا – بهذا – شهداء على الناس وقادة للبشرية.

ولكن الموقف اليوم أن المسلمين في ذيل القافلة لا في مقدم الزمام.

ذلك لأنهم ليسوا مسلمين!

ووعد الله للمسلمين وعد صادق لا يتخلف: " **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً **يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " (175).

الشرط أن يكونوا مسلمين!

---

(172) سورة الحج [78].
(173) سورة البقرة [143].
(174) سورة آل عمران [110].
(175) سورة النور [55].

وحين ينحرفون عن الإسلام كما انحرفوا بالأمس وينحرفون اليوم، فليس لهم إلا وعد الله الصادق الذي لا يتخلف: " قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ، قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" [176].

ولكن لهم – حين يكونون مسلمين – دوراً لهذه البشرية المنحرفة الضالة التي تشقى اليوم بانحرافها وضلالتها!

إنهم – وحدهم في كل الأرض – الذين يملكون المنهج الصالح للحياة.. المنهج الهادي من الضلال.

هم – وحدهم – الذين يملكون المنهج الذي يرأب صدع البشرية ويداوي انحرافاتها المدمرة.

المنهج الذي يرأب الفصام الذي أحدثته أوربا بين الإنسان والله! بين الدين والحياة. بين الدنيا والآخرة. بين الجسم والروح. بين الواقع والمثال.

المنهج الذي يلم شتات النفس البشرية بتوحيد وجهتها وتوحيد عبادتها: تعبد إلهاً واحداً، وتتجه وجهة واحدة. في نشاطها الروحي والمادي. نشاطها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. نشاطها العقلي والفني [177].. كل لون من ألوان النشاط. وبذلك يقف الاضطراب القلق الذي يمزق النفس البشرية اليوم ويأكل نشاطها، ويفسد الشباب ويدمر المجتمع، ويفزع المسئولين عن التوجيه في الدول الكبرى والصغرى على السواء!

المنهج الذي يكفل للنفس البشرية أن تنشط كل نشاطها الطبيعي بلا قلق ولا تصادم، كما يسير الكوكب في مداره الصحيح، موزونا بين الشد والجذب، متحركا حركة اتزان.

تنشط في دنيا العلم بلا تصادم مع العقيدة ولا نفرة من الدين.

وتنشط في دنيا الواقع غير مثقلة بالكوابت المعوقة ولا منفلتة من الفرامل الضابطة.

---

(176) سورة الأنعام [64 - 65].

(177) انظر كتاب " منهج الفن الإسلامي ".

وتمارس نشاطها " الحيوي " كله، بما في ذلك نشاط الجنس، في نظافة تشبع الرغبات ولا تفسد الأعصاب.

وتنظم مرافق الحياة كلها في تعقل واتزان.

ذلك هو المنهج الذي يملكه المسلمون..

وهو هو المنهج الذي تحتاج إليه البشرية لينقذها من انحرافها، وينقذها من الدمار الرهيب.

ولكي تهتدي البشرية إلى حقيقته، فلن يكفي أن تقرأ عنه وتفهمه.. إنما ينبغي أن تراه في صورة عملية واقعية.. صورة منفذة في واقع الأرض.. وذلك دور المسلمين للبشرية!

* * *

ولكن البشرية المعادية اليوم للدين.. والمعادية للإسلام والمسلمين على وجه الخصوص لن تتركهم ينفذونه في واقع الأرض! لن تترك لهم فرصة إثبات حقيقته العلوية!

ستحاربهم حرب الإفناء!

والحرب قائمة بالفعل في العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط.

الحرب الصليبية الجديدة التي بدأت في القرن الماضي وما تزال.. وتساندها الصهيونية.

حرب بجميع وسائل الحرب. بالسلاح والجيوش. بالاستعمار " الاقتصادي " والاستعمار الفكري والروحي.. بإفساد الأخلاق.. بتدمير اهتمامات الشباب الجادة وتحويلهم إلى فتات يتهافت حول السينما والتليفزيون، وأقاصيص الجنس المحموم، ومباريات الجمال ومعارض الأزياء، وسائر ما ابتدعته الشياطين.. يستهلك فيها طاقته الحيوية.

تنسلخون من دينكم - أيها المسلمون - نعطيكم من كل الخيرات: نموّنكم ونحضركم، ونعطيكم قروضا ومشروعات وأدوات وآلات وإمكانيات.. وتصرون على دينكم.. فلن نسمح لكم بالحياة!

تلك هي الحرب المسعورة التي يواجهها الإسلام. حرب لا هوادة فيها ولا هدانة ولا فتور. حرب تشمل حركات البعث الإسلامي من المحيط إلى المحيط. حرب يصرح بها بعض الصرحاء أحياناً كما صرح بها " بيدو " وزير خارجية فرنسا السابق، حين قال عن حرب الجزائر إنها حرب الهلال والصليب ويجب أن تمضي إلى غايتها.. ويخفيها آخرون.

* * *

والمسلمون في حاجة إلى فترة طويلة من الجهاد والجهد لكي يستطيعوا أن يؤدوا دورهم للبشرية.

في حاجة أولا إلى تفهم دينهم.. فإنهم لا يفهمونه!

الجهالة الطويلة التي رانت على قلوبهم منذ عصر الركود. وحرب التشويه التي شنها المبشرون والمستشرقون والمستعمرون الصليبيون، وتلامذتهم من " أساتذة " الجيل. والفتنة بالمذاهب الغربية – ذات السيادة – المعادية للدين. والتأثر بما قاله الأوربيون في دينهم كما صورته لهم الكنيسة، والظن بأنه ينطبق على كل مفهوم " الدين ". ثم موقف الضعف السياسي والحربي والاقتصادي إزاء الغرب، الذي يشككهم في كل قيمهم الذاتية، ويسهل عليهم تصديق كل نقيصة في أنفسهم وكل فضيلة في الأقوياء المتمكنين!

هذه الأسباب كلها مجتمعة قد غشت على قلوب المسلمين وأبصارهم فلم يعودوا يعرفون حقيقة هذا الدين. فصارت المهمة الأولى لهم أن يعرفوه.

وهم في حاجة ثانياً إلى أن يعيشوه!

فالمعرفة النظرية وحدها لا تكفي! لا تعطي الطعم الحقيقي لشيء من الأشياء! إنما يعرف الإنسان حقيقة الفكرة حين يعيشها بالفعل، ويتفاعل معها في واقع الحياة.

والإسلام غريب اليوم على قلوب المسلمين وضمائرهم غربته يوم بدأ. أو أشد غربة!

لقد كان غريباً – حقيقة – يوم بدأ. ولكنه كان يواجه نفوسا لم تفسد فطرتها كل الفساد. أو لم تكن عميقة الغور في الفساد. فسرعان ما انجابت القشرة الفاسدة وصفت النفوس للنور الحق.

واليوم يواجه الإسلام – فيمن يسمون " المسلمين " ذاتهم – نفوسا توغل فيها الفساد: الفساد الذي أحدثه الجمود والانحسار والتوقف. والفساد المجلوب من الغرب. والتحلل الخلقي والاستمتاع الزائد عن الحد، الذي يصرف الغرب عن الرجوع إلى الدين. كما يواجه مسلمين تعودوا – بحكم الأمر الواقع تحت توجيه الاستعمار الصليبي – أن يعيشوا بعيداً عن روح الإسلام وتشريع الإسلام. وأن تحكم حياتهم كلها – في الأخلاق والسلوك والتفكير والتنفيذ – مفاهيم غير إسلامية.

لذلك فالغربة اليوم عن الإسلام أشد.

والمسلمون في حاجة – بعد أن يعرفوا الإسلام – أن يعيشوه في واقع الحياة.

ثم هم في حاجة – بعد أن يعيشوه بالفعل – أن ينمّوا الفقه الإسلامي ليواكب الحياة الحاضرة في القرن العشرين ويحكم كل جزئياتها.

وهو جهد ضخم ما في هذا شك. ولكنه ليس الجهد الأول ولا الأخطر! إنما الجهد الأول والأخطر هو أن يعرفوا الإسلام ويعيشوه! وبعد ذلك سيجيء النمو تلقائياً وتدريجياً – في ظل الحياة الإسلامية والمفهوم الإسلامي – على يد الفقهاء المجتهدين.

وفي أثناء ذلك كله هم في حاجة إلى التعرف على علم الغرب كله وأسباب قوته المادية من تنظيمات وبحوث وخبرات. حتى يستعيدوا حاستهم العلمية الأصيلة – التي فقدوها في الأجيال الأخيرة – ويشاركوا مشاركة حية فعالة – على طريقتهم الإسلامية النظيفة – في تلك التنظيمات والخبرات والبحوث.

* * *

كل ذلك يحتاج إليه المسلمون أولا حتى يؤدوا دورهم للبشرية.

وهو جهد ضخم شاق.. ولكنه مع ذلك ضروري. ضروري للمسلمين أنفسهم لكي يعيشوا على مستوى " الإنسان " كما علمهم الله بالإسلام. الإنسان المتنور المتحضر المتوازن النظيف المتطلع إلى الأمام. وضروري كذلك للبشرية لكي ترى النموذج الواقعي الحي للفكرة النظيفة السليمة، فتتبعها – راضية – لتخرج بها من الظلمات إلى النور، وتتقي الدمار الذي ينذر بإفناء البشرية.

ولكن العداوات المحيطة بالإسلام لن تدع المسلمين يقومون بهذا الجهد!

الحرب الدائرة المسعورة لن تهدأ. لن تفتر.

لن يدع أعداء الإسلام المسلمين يفهمون دينهم أو يعيشونه.

إنه لا مانع لديهم من أن يبقى الإسلام – إذا شاء – صلوات ومشايخ ومساجد للبركة!

ولا مانع لديهم من " تطوير " الدين وتعديل مفاهيمه بإدخال المفاهيم الغربية في صلبه!

أما قيام مجتمع مسلم واع فاهم مثقف نام يفهم الإسلام ويعيشه بالفعل.. فهذا بالذات هو الأمر المرهوب الذي يرهبه أعداء الإسلام.. والذي ينبغي أن يحولوا دونه بكل سبيل!

كلا! لن يدع الأعداء الفرصة لنماء هذا الدين!

ولقد قاموا بالفعل بقتل جميع الإمكانيات بالنسبة لقيام جماعة مسلمة في هذا الجيل!

* * *

ولكن البشر ليسوا هم المحكّمين في دين الله!

" وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ "! (178).

ذات يوم في التاريخ توغل الصليبيون في البحر الأحمر وقلبوا سفينة للحجاج وقتلوا من فيها، ونزلوا في جدة، وساروا بالفعل نحو الأرض المقدسة بأقدامهم المدنسة.

لو أن إنساناً وقف يرصد التاريخ في تلك اللحظة، مقطوع الصلة بالغيب المستور، لقال إن الإسلام قد انتهى ولن تقوم له قائمة بعد اليوم.. فليس بعد ذلك شيء..

---

(178) سورة يوسف [21].

ولكنا نعلم من التاريخ أن هذه الحادثة بالذات هي السبب في قومة صلاح الدين.. قاهر الصليبيين!

واليوم يخنق الصهيونيون والصليبيون الإسلام في كل الأرض..

ثم.. ثم ينتشر الإسلام في أفريقيا بصورة تزعج أعصاب المبشرين والدول التي تبعث المبشرين!

وينتشر الإسلام في زنوج أمريكا المضطهدين.. في داخل السجون التي تضطهدهم وتشردهم!

تلك إشارة إلى المستقبل!

وهي إشارة موحية للأجيال القادمة من المسلمين!

" وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ "!

صدق الله العظيم.



منهج التربية الإسلامية

الجزء الأول

(في النظرية)

محمد قطب

المحتويات

الجزء الأول
في النظرية

الجزء الثاني
في التطبيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

في هذه الفترة الحرجة التي تمر بها البشرية: الفترة التي يصل فيها الفزع إلى غايته، والقلق إلى أقصاه. يتبدى واضحًا إلى أي مدى تخبطت البشرية حين شردت عن الله وعن منهجه للحياة.

لقد تخبطت البشرية ما بين عبادة العقل وعبادة المادة، وعبادة الحتمية التاريخية والحتمية الاقتصادية والحتمية الاجتماعية. إلى آخر هذه الآلهة المزعومة التي يعبدها الناس في هذا الجيل ليهربوا بها من عبادة الله!.. فكانت الشقوة التي تفسد الأعصاب والنفوس، وكان العذاب الذي يمس الأفراد والجماعات، وكان الفزع الدائم من الدمار الرهيب!

وليس للبشرية علاج من هذه الشقوة المفسدة والعذاب المفزع إلا أن تعود إلى الله، لتجد الأمن والرعاية في حماه، وتجد التوجيه الراشد في منهجه للحياة.

ومنهج التربية الإسلامية -الذي يشرح هذا الكتاب بعض جوانبه- هو المنهج الرباني لتقويم البشرية وتوجيهها، لترشد وتتوازن، وتسلك سلوكها المستقيم في الحياة.

واليوم إذ أقدم الطبعة الثالثة من الجزء الأول من الكتاب، أنوه بأن الجزء الثاني -الذي تحدثت عنه في مقدمة الطبعة الأولى منذ سنوات عديدة- قد صدر بالفعل، فأصبح الكتاب اليوم في جزءين: هذا الجزء يتناول النظرية، والجزء الثاني يتناول التطبيق.

والله الموفق إلى سواء السبيل.

محمد قطب

مقدمة الكتاب [1]

كيف غفلنا عن أن هناك منهجًا إسلاميًا للتربية، وأن هذا المنهج موجود في القرآن؟!

إنني أتحدث عن نفسي.

لقد ظللت زمنًا أقرأ القرآن دون أن أفطن إلى هذه الحقيقة!

لقد أحسست بطبيعة الحال أن في القرآن توجيهات تربوية كثيرة، وأن لهذه التوجيهات أثرًا في النفس, وأن الإنسان حين يتدبرها ويتأثر بها، يصبح له سلوك معين وتفكير معين وشعور معين، هو أقرب إلى الصلاح والتقوى، ويصبح الإنسان أكثر شفافية وأكثر إنسانية.

أحسست هذا لأنه بديهية واضحة لا تحتاج إلى تفكير.

ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين هذا الإحساس المبهم الذي لا يعرف الإنسان من أين ينبع على وجه التحديد، وبين الإدراك الواعي بأنها ليست توجيهات تربوية متناثرة تجيء عرضًا في سياق الآيات، وإنما هو منهج شامل متكامل، كل جزئية فيه مقصودة، وكل كلمة فيه بحساب!

وقد لا يكون من الضروري لكل إنسان أن يدرك بوعيه وجود هذا المنهج الشامل المتكامل المفصل، فإن الإحساس المبهم الذي يثيره القرآن في قارئه أو سامعه، يؤدي مهمته في توجيه النفس إلى الخير وتعويدها على الصلاح. ولا شك أن أعدادًا لا حصر لها من المسلمين في العصور الأولى أو الأخيرة قد أخذت انطباعاتها من هذا الطريق المباشر، الذي يصل مباشرة إلى أعماق النفس، ويحركها ويوجهها إلى حيث ينبغي أن تكون.

ومع ذلك فلهذا الوعي قيمته.

له قيمته في أنه يسند الإحساس الوجداني المبهم ويزيد من تأصله في النفوس.

وله قيمته لدى الدارسين والباحثين، الذين يصعب عليهم إمساك الوجدانات الطائرة، فيريدونها مناهج ثابتة تخضع للبحث والتحليل.

---

[1] كتبت هذه المقدمة سنة 1960.

وله قيمته أخيرًا في مواجهة الفتنة بالمناهج الشائعة في الغرب والشرق، والتي تفتن الناس بأنها "مناهج" مفصلة مدروسة، فيغفلون عما فيها من انحراف خطر، ويظنونها صالحة لمجرد كونها مدروسة مفصلة!

* * *

ولقد ظللت زمنًا أقرأ القرآن دون أن أفطن إلى هذا المنهج.

وحتى حين ألفت كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" وأبرزت فيه بوضوح أن للإسلام نظرة خاصة إلى "الإنسان"، وطريقة خاصة في معاملة النفس الإنسانية، تختلف في أساسها عن الطريقة المادية التي يمارسها الغرب المادي: شرقه وغربه سواء. حتى حينئذ لم أكن فطنت إلى منهج التربية الإسلامية، لأني كنت مشغولًا بالدراسة النفسية في ذلك الكتاب، وبالنظرة العامة إلى الإنسان.

وقد أوردت في ذلك الكتاب صفحة واحدة عن التربية الإسلامية، لا تحمل أكثر من خطوط عريضة جدًّا لهذه التربية، ثم كتبت عنها فصلًا واحدًا في كتاب لم ينشر عن سياسة التعليم. وكنت في هذا وذاك أعالجها في حذر ومن بعيد.

ذلك أنها لم تكن في حسي قد اتضحت بعد!

ومرت سنوات وأنا لا أزداد قربًا من موضوع التربية ولا أتجه إلى الكتابة فيه.

حتى كانت ليلة عجيبة ما زلت أذكرها كأنها الأمس، وقد مر عليها أكثر من أربع سنوات!

كنت في ضائقة نفسية شديدة لا يبدو في ظلمتها بصيص من النور.

وكان القرآن كتابنا الأوحد الذي نقرأ فيه.

وكنت إلى تلك الليلة قد قرأته –كله– ثلاث مرات أو أربعًا، وعشت فيه كل لحظة من النهار والليل، وعشت منه كل آية وكل حادثة وكل خبر وكان توجيه.

وفجأة –في تلك الليلة– أحسست بصفاء ذهني وروحي غير معتاد. وفجأة كذلك أحسست بمجموعة من الخواطر تنثال على نفسي متتابعة كأنها درس محفوظ!

يا عجبًا! هذا منهج متكامل للتربية الإسلامية لم يخطر في نفسي أبدًا من قبل!

منهج متكامل لا يترك صغيرة ولا كبيرة. يشمل النفس الإنسانية كلها بحذافيرها، ويشمل الحياة البشرية بالتفصيل!

كيف كان هذا المنهج غائبًا عني.. لا أدري!

إنه في وضوحه وبساطته يشبه البديهيات!

ومع ذلك فقد كان غريبًا عن نفسي قبل ذلك بلحظات!

ومنذ تلك اللحظة أصبح منهج التربية الإسلامية واضحًا في نفسي، واعيًا في حسي، أجد له الشواهد في كل توجيه قرآني، وفي كل حديث أو عمل للرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الترجمة الواقعية للقرآن. وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان خلقه القرآن.

ومن ثم كان هو النموذج الحي للتربية الإسلامية، والمفسر لهذا المنهج، سواء بأخلاقه الذاتية أو بتوجيهاته للناس.

وأخذت أدرس المسألة على هذا النحو، وصح في عزمي أن أسجلها في كتاب.

* * *

ومنهج التربية الإسلامية فريد في كل مناهج الأرض، وإن التقى ببعضها في التفصيلات والفروع. فريد في شموله ويقظته لكل دقيقة من دقائق النفس البشرية وكل خالجة وكل فكرة وكل شعور. وفريد في أثره في داخل النفس وفي واقع الحياة. فقد كان من أثره تلك الأمة العجيبة في التاريخ. الأمة التي انتفضت من تراب الأرض فوصلت إلى السماء. والتي قامت من شتات متناثر لا يكاد يلتقي على غير الصراع والحرب، فإذا هي أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها في الأرض، تفتح وتغزو، وتعمر وتبني، وتقيم مثلًا أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد، وتنتشر في سنوات قليلة في رقاع الأرض، تنشر النور والهدى، وتنشئ الحياة بإذن ربها من جديد.

هذه الأمة كلها من نتاج هذا المنهج. كلها، بمادياتها ومعنوياتها، بمشاعرها وأفكارها، وسلوكها وأعمالها.. أمة فريدة في التاريخ.

ولئن كان الزمن قد مزق هذه الأمة وشتت كيانها، على مراحل بطيئة استغرقت أكثر من ألف عام، فقد كان سبب التمزيق على أي حال هو البعد عن منهج التربية الإسلامية، وعن الحياة الاجتماعية الإسلامية مع المحافظة على بعض المظاهر الخاوية أحيانًا، والبعد عنها جهرة في بعض الأحيان.

فإذا كان هذا الكتاب يستطيع أن يكشف للمسلمين عن نواح من منهجهم، ويبعثهم على فهمها والإيمان بها، فقد أدى مهمته كاملة، ومن الله التوفيق.

وقد خصصت هذا الجزء من الكتاب لشرح النظرية، مأخوذة من وجهة النظر النفسية، على أن يخصص جزء آخر للتطبيق، في مراحل الطفولة، والمراهقة، والشباب المبكر، والنضج، واستعراض ما كتبه المسلمون في التربية في العصور المختلفة، والموازنة بين النظرية الإسلامية والنظريات الغربية في التربية.

اللهم وفقني إلى ما فيه الخير، إنك سميع مجيب الدعاء.

محمد قطب

تمهيد

الوسائل والأهداف

هل العبرة في مناهج التربية بالوسائل أم الأهداف؟

إن بعض الوسائل على الأقل يتغير من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل.

ثم إن الوسيلة الواحدة يمكن أن تخدم أهدافًا عدة، أو لا تخدم هدفًا على الإطلاق!

الرياضة البدنية مثلًا وسيلة من وسائل التربية. ولكنها -في ذاتها- لا تحدد منهجًا ولا ترسم طريقة.

فهي يمكن أن تربي الطاعة والحرص على النظام كما كانت في ألمانيا النازية، حيث كان الشباب يدرب على الرياضة البدنية تدريبًا عنيفًا، لا لخلق أجسام قوية فحسب. ولكن لتعويد الشباب على طاعة الأوامر، والفناء في شخصية الدولة. والفناء في شخصية هتلر القائد المتحكم صاحب السلطان.

ويمكن أن تربي التعاون والروح الجماعية كما يقصد بها في إنجلترا ودول الشمال.

ويمكن أن تنقلب إلى أنانية فردية كما هو الحال في بعض الرياضيين عندنا حيث يوجهون همهم إلى البروز الشخصي، حتى في كرة القدم، التي أنشئت في الأصل لبث الروح الجماعية المتعاونة!

ويمكن أن تنقلب إلى عبادة الجسد, والافتتان بالقوة الجسمية البحتة، أو "بجمال" الأجسام، كما كان الحال عند الرومان.

ويمكن أن تنقلب إلى مجرد تربية "عجول آدمية" منتفخة الرقبة ممتلئة العضلات، لا تحس من الروح الرياضية شيئًا، ولا ترتفع عن محيط الحيوان!

والتربية بالقصص وسيلة من وسائل التربية، ويمكن أن تخدم أهدافًا عدة، ويمكن ألا تخدم هدفًا على الإطلاق!

يمكن أن تربي في الناس الروح الفنية والحساسية المرهفة للجمال.

ويمكن أن تربي فيهم التفكر في الأنفس وفي الآفاق، وتوجههم إلى تدبر العبرة من الحوادث، والتطلع إلى الهدى، والبعد عن الضلال.

ويمكن أن تكون مجرد "تسلية."

ويمكن أن تشيع في الناس التفاهة والانحلال.

وهكذا كثير من الوسائل، لا يحكم بذاته على منهج، ولا يبين الطريق.

ولكن هذا ليس معناه أن نهمل الوسائل ونسقطها من الحساب.

كلا. فالوسائل هي أداتنا الوحيدة لتحقيق ما نؤمن به من الأهداف، وينبغي العناية الكاملة بها، والتدقيق في بحثها واختيارها، إذ الوسيلة الفاسدة تضيع الهدف الصالح وتحيد عن الطريق.

ومن ثم فالوسائل والأهداف ترتبطان ارتباطًا كاملًا في مناهج التربية.. لا تفترقان. لا يمكن تقويم الهدف من غير الوسيلة التي تؤدي إلى تحقيقه، ولا يمكن تقويم الوسائل بمعزل عن الأهداف.

* * *

ومنهج التربية الإسلامية منهج متميز متفرد في وسائله وفي أهدافه بشكل ظاهر يلفت النظر، ويدعو إلى التفكر في مصدر هذه العقيدة التي تفردت على مدار التاريخ.

ولا شك أن التقاء عرضيًا يحدث بين الإسلام وغيره من مناهج التربية ومناهج الحياة، سواء في الوسائل أو الأهداف. ولكن هناك حقيقة تظل قائمة بعد ذلك. هي أن البشرية لم تعرف في تاريخها كله نظامًا بهذه السعة وهذا الشمول وهذه الإحاطة، بحيث لا يند عنه شيء في حياة الإنسان ولا لحظة من حياته، لا تقع في محيط منهاجه الشامل الدقيق. وتظل له مزية أخرى فوق ذلك: هي أن هذه السعة وهذه الإحاطة لا تخرجان به عن وحدة الهدف ووحدة الطريق. فهو ليس طرائق قددًا كل منها يؤدي إلى غاية منفصلة, ويجذب النفس في اتجاه، فتتمزق بين الشد والجذب، وإنما هو طريق واحد وغاية واحدة، تجمع كل شتات النفس وتوحدها. فتستقيم على النهج، وتتجمع على الغاية. فتلتقي النفس من داخلها في سلام بعضها مع بعض، وفي سلام من خارجها مع الكون والناس والحياة.

ومنذ اللحظة الأولى يحس الإنسان بذلك التفرد.

فبينما تلتقي مناهج التربية الأرضية كلها تقريبًا على هدف متشابه، وإن اختلفت في وسائل تحقيقه متأثرة بالبيئة والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية إلخ، نجد الإسلام منذ البدء مفترقًا عنها في هذا الهدف، مغايرا لها في الاتجاه.

تلتقي مناهج التربية الأرضية على أن هدف التربية هو إعداد "المواطن الصالح."

وتختلف الأمم بعد ذلك في تصور هذا المواطن وتحديد صفاته. فقد يكون هو الجندي الشاكي السلاح، المتأهب في كل لحظة للوثوب سواء للعدوان أو لرد العدوان. وقد يكون هو الرجل الطيب المسالم الذي لا يحب الاعتداء على أحد, ولا اعتداء أحد عليه, وقد يكون هو الناسك المتعبد الذي يهجر الحياة الدنيا وينصرف عن صراع الأرض الكريه. وقد يكون هو العاشق لوطنه المجنون بعنصريته. وقد يكون.. وقد يكون.. ولكنها تشترك كلها في شيء واحد، في إعداد "المواطن الصالح."

أما الإسلام فلا يحصر نفسه في تلك الحدود الضيقة، ولا يسعى لإعداد "المواطن" الصالح، وإنما يسعى لتحقيق هدف أكبر وأشمل، هو إعداد "الإنسان" الصالح.

الإنسان على إطلاقه، بمعناه الإنساني الشامل. الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه. الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو "مواطن" في هذه البقعة من الأرض أو في ذلك المكان.

وذلك معنى أشمل ولا شك من كل مفهوم للتربية عند غير المسلمين.

* * *

منذ الخطوة الأولى، في العهد المكي، والمسلمون قلة قليلة تعد بالأفراد. قلة مطرودة من كل حمى إلا حمى الله، محرومة من كل قوة وكل سلطان.. يقرر القرآن عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها، فيقول في سورة مكية من أوائل السور: سورة التكوير: "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ".

"لِلْعَالَمِينَ" منذ أول خطوة. لا للعرب، ولا لأهل مكة، ولا لقريش. للعالمين كلهم في كل بقاع الأرض، لا فرق بين أعجمي وعربي في ميزان الله إلا بالتقوى والهدى: "وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ[1]".

دعوة لا تعرف حدود الوطن ولا العنصر ولا القبيلة ولا الأسرة. لا تعرف حاجزًا واحدًا من الحواجز المصطنعة التي يقيمها الناس لأنفسهم في الأرض، ويتصارعون من داخلها على الغلبة والسلطان.

دعوة لا تقسم الناس طوائف، ولا تقسمهم ألوانًا ولا عناصر. وإنما تنفذ إلى قلوبهم مباشرة، حيث يكمن "الإنسان". الجوهر الفذ الي تتكون منه الإنسانية.

* * *

وهو في عمله لإعداد "الإنسان الصالح" لا يترك الناس حيارى يخبطون في التيه، كل منهم يرسم الصورة على هواه, وإنما يحدد لهم "مواصفات" هذا الإنسان في دقة ووضوح، ويرسم لهذا المنهج الذي يصلون به إلى تحقيق تلك الغاية.

فهذا الإنسان هو الإنسان "الأتقى": "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[2].

وهو الإنسان الذي يعبد الله ويهتدي إليه: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[3]. ولكن العبادة ليست مقصورة على المناسك التعبدية المحدودة، وإنما هي معنى شامل جدًّا وواسع جدًّا، يشمل دقائق الحياة وتفصيلاتها، ويشمل كل عمل وكل فكرة وكل شعور: هو التوجه بكل نشاط حيوي إلى الله، ومراعاة ما يرضي الله في هذا النشاط وما يغضبه، وتوقي غضبه والعمل على رضاه.

([1]) سورة الحجرات (13).

([2]) سورة الحجرات (13).

([3]) سورة الذاريات (56).

وهو الإنسان الذي يتبع هدى الله: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"[1]، فهو يستمد من هذا الهدى منهج حياته ومنهج شعوره ومنهج سلوكه، ولا يتلقى من مصدر سواه.

وهو بالجملة الإنسان الذي يفي بشرط الخلافة في الأرض: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"[2]. "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"[3]. فشرط الاستخلاف هو العمل بمقتضى هذا التكريم الإلهي، فلا يهبط الإنسان عن مستوى "الإنسانية" ولا يتنازل عن الأفضلية التي فضله بها خالقه على كثير ممن خلق. فينشط في عمارة الأرض بما يوحيه حمله "في البر والبحر" ورزقه "من الطيبات" فيستغل هذه الطاقات الممنوحة له في كل اتجاه. ولكن على المستوى الكريم الرفيع، في حدود التقوى والاستمداد من منهج الله.

* * *

ولكي يصل إلى هذا الهدف المحدد الواضح السمات، الذي نفصله في الفصول التالية من الكتاب، فهو يرد الناس إلى خالقهم ويصلهم به مباشرة وبلا حواجز: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ"[4]. "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ"[5]. "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ"[6].

وهذا الرد إلى الخالق هو محور العقيدة الإسلامية كلها، ومحور منهجها التربوي كله، ومنه تتفرع كل التشريعات والتنظيمات والتوجيهات، ومنه تسير الحياة البشرية على نهجها القويم.

([1]) سورة البقرة (38).

([2]) سورة البقرة (30).

([3]) سورة الإسراء (70).

([4]) سورة الانفطار (6-8).

([5]) سورة الانشقاق (6).

([6]) سورة ق (16).

يرتد الناس إلى خالقهم، فيعلمون أنه وحده صاحب القوة والحول، وصاحب الجبروت والسلطان. هو المالك لكل ما في الأرض وكل من في الأرض "بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ[1]" فلا يتطلعون لأحد غيره، ولا يتعبدون لأحد سواه. ومن ثم تتحرر قلوبهم وأرواحهم، وينطلقون خفافًا إلى الله.

ويرتدون إلى خالقهم فيهتدون بهديه ويسيرون على منهجه، ولا يسيرون على نهج أحد آخر ولا قوة أخرى من قوى الأرض، لأنها كلها ضعيفة هزيلة، كلها ضائعة مضيعة. كلها زائلة فانية. والقوة الحقيقية هي قوة الله، والسلطان الحقيقي سلطانه، والمنهج الصحيح منهجه، ومن ثم تصلح نفوسهم وتصلح حياتهم على الأرض.

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون بقوتهم إزاء كل قوى الأرض. قوتهم التي يستمدونها من قوة الله، فإذا هم قوة فاعلة موجهة مريدة. قوة تبني وتنشئ وتعمر، وتستغل ما سخر لها من قوى الأرض: "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ"[2]، فلا يقعدها العجز، ولا تضعف بها الوسيلة، وإنما تظل تحاول حتى تصل، مستمدة عزيمتها من الله.

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون أن منه المنشأ وإليه المصير. كلهم نشأوا من قدرته القادرة، وكلهم صائر إليه: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ"[3] "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِير"[4] "إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُون"[5] ومن ثم يتطلعون إليه وحده في كل أمر، ولا يلجئون إلى أحد سواه.

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون المشاركة في الإنسانية، فهم جميعًا قد صدروا عن إرادة الله، ثم هم جميعًا خلقوا من نفس واحدة، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

(1) سورة يس (83).

(2) سورة الجاثية (13).

(3) سورة الطارق (5-10).

(4) سورة ق (43).

(5) سورة مريم (40).

وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"[1] ومن ثم تصلح نفوس بعضهم تجاه بعض، وتقوم بينهم أواصر الإنسانية والتعاون والمحبة، ولا يقوم بينهم النزاع والشقاق.

* * *

ذلك باختصار هو الأساس الذي يقوم عليه منهج التربية الإسلامية، وتلك خطوطها العريضة التي سيجيء تفصيلها في الكتاب، وهي كلها مستمدة من حقيقة واحدة: حقيقة الخالق الذي ترجع إليه جميع الأمور.

وسوف يتبين لنا في البحث التفصيلي مدى تفرد الإسلام في الأهداف والوسائل، ولكنه منذ اللحظة الأولى واضح التفرد، فكل النظم الأخرى غير الإسلام أحد فريقين: فريق يصل الناس بخالقهم، ليتركوا الأرض، ومتاع الأرض، وكفاح الأرض. وفريق يصل الناس بالأرض فيستمتعون بها، ويكافحون من أجلها، ويعمرون فيها. ويتركون الله.. والإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بالله ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته، فيسير بجسمه على الأرض، وهو متجه بروحه إلى السماء.

(1) سورة النساء (1).

خصائص المنهج الإسلامي

طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئًا ولا تغفل عن شيء. جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض.

إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه على ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، لا يغفل شيئًا من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئًا ليس في تركيبها الأصيل.

ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر منها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر، فيضبطها بضبطها الصحيح.

وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة. لا يعالج كلًا منها على حدة فتصبح النغمات نشازًا لا تناسق فيها. ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع.

* * *

وحين يستعرض الإنسان وسائل الإسلام في التربية، يعجب للدقة العجيبة التي يتناول بها الكائن البشري. الدقة التي تتناول كل جزئية على حدة كأنها متفرغة لها، ليس في حسابها سواها، ثم الشمول، على هذا المستوى من الدقة. الشمول الذي يتناول الجزئيات جميعًا، وفي وقت واحد.

إنها دقة معجزة لا تصدر إلا عن الخالق المدبر العظيم.

"فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ"[1].

والإسلام دين الفطرة. فما من نظام يعالج الفطرة كما يعالجها الإسلام، أو يستخلص من هذه الفطرة بعد تهذيبها وضبط إيقاعاتها ما يستخلصه الإسلام.

إنه لا يعطي كل جانب من الإنسان غذاءه فحسب, بل يعطيه إياه كذلك بالقدر المضبوط الذي لا يجيعه ولا يتخمه، ومن ثم ينطلق الإنسان وقد أخذ حظه من الغذاء الصالح، بمقاديره الصالحة، نشيطًا منتجًا متحركًا على الدوام.

([1]) سورة الروم (30).

وما من نظام آخر يعالج النفس البشرية بهذه الدقة وذلك الشمول.

هناك نظم آمنت بجانب واحد من الكيان البشري فراحت تعمل على تغذيته بما تراه صالحًا له.

نظم آمنت بالجانب المحسوس من الإنسان والحياة. كل ما تدركه الحواس فهو حقيقة. وما لا تدركه فهو غير موجود، أو ساقط من الحساب. ومن ثم راحت هذه النظم تهتم بكل محسوس على الأرض: الزراعة والصناعة والبناء والتشييد والإنتاج المادي على أوسع نطاق. وتهتم بكل محسوس في الكيان البشري، فحاولت أن تيسر له مأكله وملبسه ومسكنه، ويسرت له قضاء الشهوات.

ثم أغفلت من كيانه جانب الروح.

أهملت كل ما لا تدركه الحواس. أهملت الله والعقيدة، وما يشع من العقيدة من مثل وأخلاق.

وكانت النتيجة أن استمتع الناس بحياتهم الأرضية أعظم متاع، واستفادوا بالتنظيمات من كل نوع: التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمادية.. ثم.. انهار المتاع كله نتيجة خواء الروح من الإيمان وخواء الحياة من العقيدة. وانقلب المتاع السهل الحلو إلى تكالب على شهوات الأرض يقض المضجع ويكدر الحياة، ويجعلها سباقًا دائمًا لا ينقطع ولا يترك فرصة للراحة: راحة الجسد أو النفس أو الضمير. تزايد الصراع فما عاد صراعًا في باطن النفس، ولا صراع فرد مع أفراد، أو صراع جماعة مع جماعة. وإنما أصبح صراع نفوس وأفراد وجماعات ودول وجيوش وطائرات وصواريخ. ودمار رهيب يهدد وجه الأرض.

ونظم آمنت بالجانب الروحي من الإنسان.

آمنت بأن هذا الجانب هو الجوهر الحق. وكل ما عداه خداع لا يثبت على حقيقة. زبد يذهب جفاء.

وراحت تغذي الروح بما ترى أنه غذاؤها الحق.

راحت تتعبد وتتنسك، وترفع الإنسان على ضرورات جسده كلها، وتقهر هذا الجسد لأنه دنس لا تنبغي إطاعته، ورجس لا ينبغي له أن يكون.

واستمتع الناس بحياة الروح. سبحوا في ملكوتها الطليق من أوهاق الضرورة، النظيف من أدران الشهوات, وحلقوا في آفاق عليا من الأفكار والمشاعر جميلة كالأحلام.. ثم.. تمرد الجسد المكبوت على خلق الفطرة، وكفر الناس بمتاع الروح.. أو أصابتهم السلبية الخاملة التي لا تنتج شيئًا في واقع الأرض، لا تنشئ ولا تعمر، ولا تهدم ولا تبني، ولا تغير الباطل ولا تقيم الصحيح من الأوضاع.

كلاهما انحراف عن السبيل.

كلاهما ينحرف بالإنسان عن الخلافة الحقة التي أرادها له خالقه يوم قال: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً". الخلافة الراشدة العاملة بفطرة الله ومنهج الله.

والإسلام يجمع هذه وتلك، ولا ينحرف كما تنحرف هذه وتلك.

الإسلام يؤمن من الكائن الإنساني بما تدركه الحواس، وبما يقع خارج نطاق الحواس.

يؤمن بكيانه المادي المحسوس وأنه قبضة من طين الأرض: "إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ[1]".

يؤمن بما لهذا الكيان المحسوس من مطالب، ويؤمن بما فيه من طاقات.

ويعترف بهذا الكيان اعترافًا كاملًا لا يغض شيئًا من قيمته، ولا يهدر شيئًا من طاقاته.

ييستجيب لحاجاته ومطالبه، فيوفر له المأكل والملبس والمسكن والجنس، ونصيبه من المتاع. ويجند طاقاته لتعمل في تعمير الأرض وإنشاء النظم وتشييد الحضارات.

وفي الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحي للإنسان، يؤمن بأن فيه نفخة من روح الله: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[2]".

يؤمن بما لهذا الكيان الروحي من مطالب، وما يشتمل عليه من طاقات.

([1]) سورة ص (71).

([2]) سورة ص (72).

فيعطيه ما يطلبه من عقيدة ومثل وصعود وترفع، ويجند طاقاته في إصلاح كيان النفس وإصلاح شرور المجتمع، وإقامة الحق والعدل الأزليين. بأن يصله بالله، يستمد وجوده ووحيه من مولاه.

وليس هذا فقط ولا ذاك.

ليست مزية الإسلام أنه يشمل الكيان البشري كله ولا يترك شيئًا من جوانبه المتعددة الطاقات.

وإنما المزية الحقة أنه يساير الفطرة فيما هو أبعد من هذه الحقيقية.

إن كيان الإنسان من جسم وروح، أو جسم وعقل وروح إذا اعتبرنا العقل كيانًا متميزًا عن هذين، هذا الكيان ليس منفصل الأجزاء. إنه ليس جسمًا وحده مستقلًا بذاته لا علاقة له بالروح أو العقل. وليس عقلًا منفصلًا مستقلًا بذاته لا يرتبط بجسم أو روح، وليس روحًا وحدها هائمة بلا رابط من عقل أو جسم. وإنما هو كيان واحد ممتزج مترابط الأجزاء.

ولقد أغرى الانفصال الظاهري بعض النظم فتخصصت. تخصصت لعبادة الجسد أو عبادة العقل أو عبادة الروح. ونسيت الكيان المتكامل وأهملته من الحساب.

وقد أغرى البحث العلمي المتخصص بطبعه، فقسم الإنسان جسمًا بلا عقل، أو روحًا بلا جسم، أو عقلًا بلا روح. وراح يبحث كل واحد على حدة وهو يوهم نفسه أن هذا هو الإنسان.

ولكن الواقع المشهود ليس كذلك.

نعم توجد لحظات كأنها لحظة جسد خالصة أو لحظة عقل خالصة أو لحظة روح.

كأنها.. وليست كذلك في الواقع!

واستغراق الإنسان في لحظة من هذه اللحظات هو الذي يوهمه أن هذا الانفصال قائم، وأنه في حيز الإمكان.

لحظة الروح الخالصة.. أروع لحظة على ظهر الأرض في تاريخها كله, أرفع إشراقة لأعظم روح. لحظة الوحي الذي تنزل على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأضاء روحه الصافية وأضاء وجه الأرض كله كما لم يضئ قط. هذه اللحظة لم تكن لحظة روح خالصة!

"لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ"[1]!

حتى في تلك اللحظة "الخالصة" تحرك اللسان وهتف هاتف من هواتف النفس، حرصًا على حفظ القرآن أن يذهب من الذاكرة. تحرك الجسم وتحرك العقل في أروع لحظة وأرفع إشراقة لأعظم روح..

ولحظة التفكير الخالصة التي يسهو فيها الإنسان عن جسمه وروحه، لا تنسيه جسمه في الواقع إلا نسيانًا ظاهريًا، لأنه في تلك اللحظة ساكن أو مستريح، ولو أحس بالألم في أي جزء من جسمه، لو أحس بالصداع أو أحس بالجوع أو أحس بالعطش لجسمه المهجور!

ولحظة الجسد الخالصة التي ينسى فيها الإنسان عقله وتركبه الشهوة الجارفة، ليست طويلة الأمد كما قد يخيل لصاحبها, وهو منهمك في طعام شهي أوشراب شهي أو متاع لذيذ. وهي فوق ذلك ليست خالصة إلا من الظاهر، فالعقل ساكت لأنه ساكن أو مستريح. ولو خطرت للإنسان فكرة مزعجة أو ذكرى غائبة لأيقظته من متاعه "الخالص" ولتغير إحساسه في متاعه لحظات.

كل ما يحدث أن لحظة من اللحظات يغلب عليها لون معين من المشاعر، أو يبرز فيها جانب معين من الإنسان. ولكنه لا ينفصل قط عن ترابطه مع بقية الكيان البشري، ولا يستقل بعيدًا عنها في اتجاه.

وكما يتصل الكيان النفسي الداخلي بعضه ببعض, حتى مع غلبة جانب من الجوانب في بعض اللحظات، فكذلك يتصل الكيان الخارجي في واقع الحياة. لا يوجد عمل واحد من أعمال الإنسان منفصلًا في حقيقته عن بقية الأعمال، وإن بدا من الظاهر كذلك، أو ظهر غالبًا في بعض الأحيان.

حياة الإنسان المادية لا تنفصل عن حياته العقلية وحياته الروحية.

ومشاعره الروحيه لا تنفصل عن واقعه المادي.

وتفكيره العقلي مرتبط بالجميع.

---

(1) سورة القيامة (16-17).

تلك حقيقة الكيان البشري. ولكن الذي يُرى في الظاهر حين تستغرق الناس مطالبهم المادية أو جهدهم المادي.. أو العقلي أو الروحي.. أن الجوانب الأخرى تتوارى مؤقتًا فلا تبرز على السطح.

ولكنها لا تقطع الاتصال!

إن الكيان النفسي للإنسان كيان مرن متحرك لا يجمد على صورة واحدة.

إنه دائم البروز والانحسار. يبرز منه جانب ويختفي وراءه جانب. في حركة دائمة لا تهدأ. ولكن مزيته هي مرونته. المرونة التي تسمح له بالتحول الدائم والتشكل المستمر دون أن يفقد ترابطه أو يتفكك. إنه –والتشبيه مع الفارق– كجسم الأميبا، دائم التشكل ولكنه هو هو في المجموع.

وحين يحسب الإنسان أن بروز أحد جوانبه في لحظة من اللحظات معناه انقطاعه عن بقية الكيان الداخلي. أو حين تريد له عقيدة من العقائد أو نظام من النظم أن يحسب كذلك، فالذي يحدث أن الجوانب الأخرى تكبت في الداخل. تكبت ولا تنفصل عن الكيان!

فحين توحي عقيدة من العقائد أو نظام من النظم بأنه ليس ثمة روح، أو ليس ثم إله. وأن الواقع المادي هو الحقيقة الوحيدة (حقيقة العالم تنحصر في ماديته[1]) وأن الإنتاج المادي والتنظيم الاقتصادي هو كل حياة البشرية, حين ذلك تكبت مؤقتًا جوانب الإنسان الروحية والوجدانية والفكرية. وقد تذبل وتنحسر ويصيبها الشلل فتعجز عن النشاط. ولكنها لا تبقى كذلك إلى الأبد، وإلا مات الشعب وانقرض كما حدث لبعض الشعوب في التاريخ.

وكل النظم التي تأخذ جانبًا واحدًا من الإنسان وتفصله عن بقية الكيان تقع في هذه الخطيئة، وتؤدي بشعوبها إلى الهلاك في النهاية بوسيلة من وسائل الهلاك.

والإسلام –كلمة الله إلى الأرض– قد سلم من هذه الخطيئة ونجا من ذلك الانحراف.

إنه في الوقت الذي يؤمن فيه بكل جوانب الإنسان: جسمه وعقله وروحه، ومطالب كل جانب وطاقاته، يؤمن كذلك بوحدة الكيان البشري واتصاله، واستحالة فصل جانب منه عن جانب في الفطرة السوية التي تسير على نهجها الذي خلقه الله.

([1]) ذلك شعار المذهب المادي.

ومن ثم لا يفصل في داخل النفس بين الجسم والعقل والروح. ولا يفصل في واقع الحياة بين هذه الطاقات. بل يأخذها بفطرتها السوية ممتزجة مترابطة، ويرسم لها دستورها على ذلك الأساس.

الروح والعقل والجسم كلها كيان واحد ممتزج مترابط اسمه الإنسان.

والروح والعقل والجسم كلها تعمل ممتزجة مترابطة في واقع الحياة.

ولقد يغلب أحد جوانب الكيان في لحظة وتتوارى بقية الجوانب أو تنحسر. ولكنها لا تنفصل قط وإلا فإنها تموت!

اليد وحدها تعمل وتتحرك وتمسك وتدع. ولكنها لا تعمل مستقلة عن بقية الجسم. إنها مرتبطة به بالعروق والدماء والأعصاب. ولو انفصلت لحظة فقدت القدرة على الحياة. وكذلك الكيان كله. كل جزء منه كاليد من الجسم. جزء مستقل في الظاهر، وفي الواقع متصل أوثق اتصال.

والإسلام يجاري الفطرة في تركيبها جميعه.

يجاريها في السماح ببروز بعض الجوانب أحيانًا وانحسار بعض، فيجعل ساعة للعبادة، وساعة للتفكر، وساعة للعمل، وساعة للاستمتاع.

ولكنه يجاريها كذلك في ترابط الجوانب كلها وامتزاجها، فلا يسمح بفصل جانب عن بقية الجوانب، أو إبراز جانب بكبت الجوانب الأخرى في أي وقت من الأوقات.

ساعة العبادة ليست تهويمة روح خالصة، وإنما هي حركة جسم وحركة عقل وإنطلاقة روح، والصلاة تظهر فيها بوضوح هذه الحقيقة، فهي تشمل الجسم والعقل والروح كلها في آن[1]، ثم كل عمل في عرف الإسلام عبادة ما دام يتجه به الإنسان إلى الله.

وساعة التفكر -أيًّا كان لونه وهدفه- لا تنقطع عن الإحساس بالله والتفكير فيه. لا تنقطع عن صلتها بالروح.

وساعة الجسد الخالصة لا يفصلها الإسلام عن الروح!

(1) انظر فصل "العبادات الإسلامية" من كتاب "في النفس والمجتمع".

إن كانت طعامًا أو شرابًا فهي باسم الله. والصلة بالله هي صلة الروح. وإن كانت متعة جنس –حلال– فهي كذلك، يُقرأ عليها اسم الله. ويقول فيها الرسول الكريم: "إن في بضع أحدكم لأجرًا" , قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ثم يكون له عليها أجر؟! قال: "أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال فله عليها أجر[1]!".

وكذلك نظم الاقتصاد والإنتاج المادي والتنظيمات "الأرضية" البحتة. لا يعالجها الإسلام منفصلة عن الكيان النفسي في مجموعه. فلا يعترف بأن هناك قوانين اقتصادية منقطعة عن الصلات النفسية والروحية. أو أن هناك قوانين مادية لا تتصل بقوانين الروح!

ويقيم تنظيماته كلها على أساس هذه الحقيقة. على أساس الفطرة البشرية الممتزجة المترابطة التي لا ينفصل فيها كيان عن كيان، ولو غلب جانب من الجوانب في بعض الأحيان.

تشريعاته "الأرضية الخالصة" من زواج وطلاق وإرث وتنظيم اقتصادي وسلام وحرب وسياسة.. إلخ، كلها تقوم على أساس العقيدة، مرتبطة بها ارتباط العقل والجسم بالروح. وكلها تجيء في القرآن ممتزجة بالتوجيه إلى الله وخشيته وتقواه.

وتوجيهاته "الروحية الخالصة" ليست مقصودة لذاتها. العبادة الخالصة التي هي غاية الخلق كلهم من جن وإنس: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[2] ليست مقصودة لذاتها. فالله سبحانه لا ينفعه ولا يضيره أن يعبده الناس أو لا يعبدوه: "مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ"[3] . "وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"[4]. وإنما هو كرم الله سبحانه أن يجعل العبادة –التي هي غاية الخلق– هي الوسيلة لإصلاح النفوس وإصلاح الحياة في الأرض. ثم كرمه السابغ سبحانه أن يثيب الناس على العبادة وهي عمل يعمله الإنسان لنفسه، والله غني عنه وعن العالمين[5]!

* * *

(1) رواه مسلم.

(2) سورة الذاريات (56).

(3) سورة الذاريات (57).

(4) سورة العنكبوت (6).

(5) انظر فصل "العبادات الإسلامية" من كتاب "في النفس والمجتمع".

هكذا يعالج الإسلام النفس البشرية والحياة البشرية: جسم وعقل وروح ممتزجة مترابطة في كيان واحد. وطاقة جسمية وطاقة عقلية وطاقة روحية عاملة في الأرض، ممتزجة مترابطة، لا ينفصل عمل هذه عن تلك، ولا تنحسر واحدة انحسارًا دائمًا لتبرز الأخريات.

وهو يصل من هذا المزج إلى نتائج معينة هي التي تحدد سمات "الإنسان الصالح" وتبرزه حقيقة ملموسة في واقع الحياة.

فالتوقيع على أوتار النفس كلها، مجتمعة مترابطة، يضمن شيئين معًا وفي آن واحد:

الأول: هو استغلال طاقات الإنسان كلها، فلا تهدر منها طاقة واحدة يمكن أن ينتفع بها الإنسان في عمارة الأرض والخلافة عن الله. فهذه الثروة المتمثلة في الكيان البشري ثروة ثمينة متفردة في نوعها، عجيبة في النتائج التي يمكن أن تصل إليها. ومن الكفران لنعمة الله – وهو بخس من الإنسان لنفسه في ذات الوقت– أن يهمل شيئًا منها فلا يستغله إلى آخر مداه.

من الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته الحيوية في عمارة الأرض، بالتنقيب عن كنوزها، والتعرف على رزق الله الواسع فيها، واستغلال ذلك كله لترقية الحياة وتنميتها، والوصول بها كل يوم إلى مستوى جديد.

ومن الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته الروحية في التعرف على الله، والاتصال به، والاستمداد من قوته، والاهتداء بهديه، والعمل بمقتضى ذلك كله على ترقية الحياة النفسية وتنميتها، والتعود على الخير، والتعود على الحب، والتعود على الشعور بترابط الإنسانية، ومحاولة إيصال الخير المادي الذي يصل إليه الإنسان بطاقته المادية، إلى جميع البشر، الخلفاء لله في مجموعهم، الشركاء في كل ثمار الحياة.

ومن الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته العقلية في التعرف على أسرار الكون وقوانينه، والتعرف على سنن الله في الكون المادي وفي حياة الإنسان، واستغلال ذلك كله في تنظيم الحياة البشرية وتقويمها، والسير بها على نهجها القويم.

ومن بخس الإنسان لقدر نفسه أن يجهل طاقاته أو يهدر بعضهما لحساب بعض. فهو يستطيع دائمًا أن يكون نفسه كلها، وأن يعمل بطاقاته جميعًا في واقع الحياة. يستطيع أن يكون الإنسان العابد لله، المستمد من هداه، ويكون الإنسان المفكر المتعرف على أسرار الكون وقوانينه، ويكون الإنسان العامل بجهده الحيوي لترقية الحياة وتنميتها. ولن يعطله

جانب من هذه الجوانب –حين يسير على المنهج السوي– أن يشبع الجوانب الأخرى، أو يستفيد منها إلى غايتها. فهكذا قد خلقه الله قادرًا على هذا النشاط المتعدد، محققًا لكيانه في الاتجاهات كلها، وبهذه الطاقات المتعددة ذاتها منحه الخلافة في هذه الحياة.

بل الأمر أبعد من ذلك. فهو حين يستغل طاقاته كلها يكون أجود إنتاجًا وأوفر حصيلة. فهذا المخلوق البشري كالنبع الثر. يفيض بقدر ما تتفتح منه العيون، كلما فتحت عينًا جديدة تدفق المجموع. وهذا واقع الحياة الإسلامية الأولى هو الشاهد على تلك الظاهرة البشرية الفذة، فقد نشطت في كل اتجاه في العلم والعمل والفتح والتنظيم والتشييد، فكان علماؤها هم العلماء، وقادتها هم القادة، ونظامها هو النظام وحضارتها هي الحضارة, ولم تشعر أن نشاطها المادي يمنعها من عبادة الله والاستمداد من هديه، ولا أن عبادة الله تمنعها من الضرب في مناكب الأرض ولا عمارتها، ولا أن هذا وذلك يمنعانها من التفكير العلمي التجريبي، بل كانت هذه الجماعة –كما يقول "جب" وغيره من المستشرقين– هي التي أدخلت الطريقة التجريبية في البحث العلمي.

والأمر الثاني أن استغلال هذه الطاقات مجتمعة يحدث توازنًا في داخل النفس وواقع الحياة سواء.

التوازن –وهو سمة من سمات الإنسان الصالح– معنى واسع شامل يشمل كل نشاط الإنسان.

توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح. توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته. توازن بين ضروراته وأشواقه. توازن بين الحياة في الواقع والحياة في الخيال. توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذي لا تدركه الحواس. توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية. توازن في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. توازن في كل شيء في الحياة.

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"[1]. وسطًا في كل شيء، متوازنين في كل ما تقومون به من نشاط.

هذا التوازن هو في الحقيقة سمة الكون كله الذي تتوازن فيه كل الأفلاك وكل الطاقات، لا تختل منها واحدة في الكون على اتساعه. وهو كذلك سمة الإنسان الصالح الذي يفي بشروط الخلافة عن الله في الأرض، ويسير حسب منهج الله خالق الكون والإنسان.

---

(1) سورة البقرة (143).

والوصول إلى التوازن في حياة الإنسان –المتعدد الطاقات والاتجاهات– ليس أمرًا هينًا في الحقيقة. فهو جهد جاهد يستغرق حياة الإنسان كلها، ويشمل كل لحظة من لحظات هذه الحياة. جهد التوفيق بين الضرورات القاهرة والأشواق الطائرة. جهد التوفيق بين ما يجب أن يكون وما يمكن أن يكون. جهد التوفيق بين مطالب الفرد الواحد المتعددة المتعارضة وبين مطالب المجموع. جهد التوفيق بين العمل للعاجلة والعمل للآجلة. جهد التوفيق بين هذه اللحظة وهذا الفرد وهذا الجيل وبين جميع اللحظات وجميع الأفراد وجميع الأجيال, جهد جاهد يستغرق كل طاقة الحياة!

ومع ذلك فهو هدف يستحق كل ما يبذل فيه من جهد، لأنه يحقق للإنسان في الأرض أقصى ما يستطيعه من سلام وسعادة وإنتاج، في كل حقل من حقول الإنتاج المادي والمعنوي على السواء.

وكل ما يصيب الإنسان في الحياة من شر. كل ما يصيبه من قلق أو جزع أو اضطراب. كل ما يصيبه من فساد وبوار وشقوة. هو نتيجة حتمية لفقدان التوازن في داخل النفس، وفقدانه من ثم في واقع الحياة.

حين تطغى على الإنسان شهوة من شهواته: شهوة مال أو شهوة جنس أو شهوة قوة أو شهوة سلطان.. فذلك اختلال في باطن نفسه، لا يسعده في الحقيقة وإن بدا له في أول الأمر أنه مستمتع وراض وسعيد. إنما هو في الواقع في شقوة دائمة لأنه قلق على ما عنده وراغب في المزيد. ثم هو اختلال في واقع الحياة. فكل شهوة زائدة عن الحد لا تحرف صاحبها وحده، وإنما تصيب غيره من الناس في الطريق. تصيبهم بعدوان يقع عليهم لا محالة من هذه الشهوة التي تجاوز الحدود.

وحين يجنح الإنسان بطاقة من طاقاته على حساب بقية الطاقات، فذلك اختلال في باطن النفس ينتج عنه اختلال في واقع الحياة. حين يجنح بطاقته الحيوية فيسعى إلى المتاع الزائد عن الحد، أو يجنح بطاقته العقلية فيعيش في برج عاجي بعيدًا عن واقع الحياة. أو يجنح بطاقته الروحية فيهوم في سبحات روحية سلبية لا تتحول إلى عمل وإنتاج في عالم الحس، فلن يكون سعيدًا وهو فرد، لأنه يظل يظلع في مشيته وتختل مواقع أقدامه –لأن الثقل يقع عليها غير متوازن– ولن يكون سعيدًا وهو مجموع، فلا يمكن أن تستقيم حياة جماعة كل همها المتاع الحيواني –وقد انهارت فرنسا حين وصلت إلى هذا المدى من المتاع. ولا جماعة يشتغل مفكروها بالفلسفة المنقطعة عن واقع الأرض– وقد تعرضت أوربا لأعنف الاضطرابات في القرنين الأخيرين، وانتهت إلى الشيوعية في نهاية المطاف، كرد فعل للفلسفة المثالية التي كانت تحلق في أفكارها النظرية الخاوية وتترك جموع البشر يأكلهم الجوع والحرمان والمذلة المهينة

لكرامة البشرية. ولا جماعة تعيش في تهويمة الروح السالبة –وقد كانت الهند والصين ترزحان تحت وطأة التأخر والانكماش والضياع حتى بدأتا تتخلصان أخيرًا من هذه التهويمة السالبة وتعيشان في واقع الحياة.

لذلك يحرص الإسلام على التوازن ويجعله هدفًا أساسيًا في منهاجه، ويبذل فيه كل ما في الطاقة من جهد, يبدأ فيه مع الطفل من مولده, ويسير فيه مع الإنسان في جميع مراحل نموه، ولا يتركه في لحظة واحدة دون معاونة أو توجيه.

وطريقته هي تلك التي أسلفنا: التوقيع على أوتار النفس كلها، مجتمعة مترابطة في آن. فإن ذلك –كما سنرى في الفصول التالية– يؤدي إلى التوازن المنشود حين تتخذ له الوسائل الصحيحة التي يرسمها منهج الإسلام.

* * *

من خصائص المنهج كذلك –وهي من سمات الإنسان الصالح في ذات الوقت– الإيجابية السوية. فمن نتائج المزج بين طاقات الإنسان كلها وربطها بعضها ببعض، أن يتحول المخلوق البشري إلى طاقة إيجابية عاملة في واقع الحياة. ولكنها الإيجابية السوية التي لا تتنكب الطريق.

في الكائن الإنساني استعدادات مختلفة متباينة فيها الموجب وفيها السالب في كل اتجاه. وإذا تركت هذه الاستعدادات وشأنها، كل منها ينمو من ناحيته أو يتوقف عن النمو، فالنتيجة هي اختلال التوازن من جهة، واضطراب السمة التي يتصف بها الإنسان في مجموعه، فهو سلبي أحيانًا وإيجابي أحيانًا، على غير منهج سوي أو هدف مرسوم.

والإنسان –كما يريده الله– قوة فاعلة موجهة مريدة، ومن ثم فهو قوة موجبة في واقع الحياة، قوة دافعة إلى الإمام. قوة تسيطر على القوى المادية وتستغلها في عمارة الأرض.

"وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ[1]". قوة يغير الله واقع البشر عن طريقها: "إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ[2]". قوة تنشئ واقعها حسب المنهج

([1]) سورة الجاثية (13).

([2]) سورة الرعد (11).

الذي تؤمن به، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم بنفسها نظامها: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ[1]".

قوة إيجابية ... ولكن بغير طغيان.

والطغيان -بكل أنواعه- هو المنزلق السهل أمام الإيجابية الفاعلة.

يطغى الإنسان على نفسه فيكبت بعض طاقاتها ليبرز بعضها الآخر. يكبت طاقة الروح ليبرز طاقة الجسم أو طاقة العقل. يكبت معنوياته ليبرز جوانبه المادية، ويحقق كيانه عن طريق الإنتاج المادي.

ويطغى الإنسان على غيره، فيعطي نفسه حقوقًا لا يعطيها للآخرين. يعتبر نفسه -فردًا أو شعبًا- من عنصر ممتاز يحق له أن يستعبد الآخرين ويخضعهم لسلطانه. يحق له أن يسلبهم كراماتهم وحرياتهم ومقومات حياتهم، لينتفش بها وحده ويتضخم.. أو يحق له أن يصنع كما يشتهي، يقرر حقوقه كما يتراءى له، ويقرر واجباته بنفسه -إذا رأى أن تكون عليه واجبات! - ولا يعنيه ترابط المجتمع ولا الخلل الذي يطرأ عليه حين يصنع كل فرد فيه ما يريد حينما يريد.

تلك نماذج من الإيجابية المختلة.

وفي مقابلها.. سلبية مريضة.

يكون الإنسان سلبيًا مع نفسه، فيطلق لها عنان الشهوات، لأنه لا يملك القوة الضابطة -القوة الموجبة- التي يضبط بها نوازع الشهوة.

ويكون سلبيًا مع غيره. سلبيًا إزاء القوى المادية والاقتصادية والاجتماعية. سلبيًا إزاء العرف والعادات والتقاليد. سلبيًا إزاء سطوة المجتمع أو جموده أو القوى المسيطرة عليه. ومن ثم يضيع كيانه الفردي وينسحق تحت ما يقع عليه من ضغوط.

كلاهما اختلال لا يليق بخليفة الله في الأرض!

([1]) سورة آل عمران (110).

وكلاهما اختلال ينشأ من سوء التربية وسوء التوجيه، ينشأ من التوقيع على بعض أوتار النفس دون بعضها الآخر. أو ينشأ من التوقيع على بعضها بالنغمة النشاز.

فحين يكون التوقيع على النزعة الفردية وحدها أو النزعة الجماعية..

أو حين يكون على الجانب المادي وحده أو الجانب الروحي.

أو حين يكون على الطاقة المحركة وحدها أو الطاقة الضابطة.

فالنتيجة هي الإيجابية المختلة هنا أو السلبية المختلة هناك.

وكذلك حين يكون التوقيع على إحدى هذه الطاقات بأكثر مما ينبغي لها، بحيث تطغى على ما يقابلها من طاقات.

والإسلام يريد الإنسان قوة إيجابية فاعلة، ولكنها سوية, وطريقته هي ذاتها التي أسلفنا: التوقيع على الأوتار كلها، مجتمعة مترابطة في آن.

* * *

ومن خصائص المنهج كذلك –ومن سمات الإنسان الصالح في ذات الوقت– الواقعية المثالية أو المثالية الواقعية.

الإسلام يأخذ الكائن البشري بواقعه الذي هو عليه. يعرف حدود طاقاته ويعرف مطالبه وضروراته، ويقدر هذه وتلك: "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا"[1]. "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُم"[2]. ويعرف ضعفه إزاء المغريات: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ"[3]. وضعفه إزاء التكاليف: "يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا"[4].

(1) سورة البقرة (286).
(2) سورة التغابن (16).
(3) سورة آل عمران (14).
(4) سورة النساء (28).

يعرف كل ذلك فيساير فطرته في واقعها، ولا يفرض عليه من التكاليف ما ينوء به كاهله ويعجز عن أدائه: "هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"[1]. ويجعل التكليف الملزم في حدود الطاقة الممكنة. ولكنه مع ذلك لا يتركه لفطرته الضعيفة دون تقويم، فتظل تهبط وتتراجع عن موقفها إلى موقف دون.

كلا! إنه في واقعيته يأخذ الواقع الأكبر للإنسان، الواقع الذي يشمل لحظة الضعف ولحظة القوة. لحظة الهبوط ولحظة الارتفاع.

إن مزية الإنسان الكبرى هي هذا الاستعداد الدائم للصعود. الاستعداد لأن يتفوق على نفسه، ويرتفع على "الواقع" ليبلغ المثال. وقد لا يبلغه في كل مرة. بل قد لا يبلغه في أية مرة! ولكنه يظل يحاول –ما دام يوجه إلى الطريق– وفي محاولته تلك يرتقي ويرتفع في الآفاق.

وتمر على هذا الإنسان لحظات معجزة يحقق فيها انتصارات رائعة على نفسه وعلى كل قوى الأرض المحيطة به، ذلك حين يرتفع بإيمانه بالطاقات التي وهبها له الله، فيحاول أن يحقق كيانه كاملًا كما أراده له الله.

وهذه اللحظات "واقع" وإن كانت هي "المثال."

والإسلام –وهو يجاري واقع الفطرة بما فيه من ضعف وطاقة محدودة– لا يغفل عن تلك الطاقة المكنونة التي تحقق المثال. ومن ثم يسير في نهجه على واقعية تشمل المثال في أطوائها، ومثالية لا تغفل واقع الحياة!

* * *

تلك أبرز الخصائص في المنهج الإسلامي، وهي بذاتها أبرز سمات الإنسان الصالح الذي يسعى المنهج لتحقيقه في واقع الأرض:

الشمول والتكامل.

التوازن.

الإيجابية السوية.

([1]) سورة الحج (78).

الواقعية المثالية.

وفيما يلي من الفصول تفصيل لهذه الخصائص وهذه السمات.

منهج العبادة

من أبرز سمات المنهج الإسلامي أنه منهج عبادة، ولكن العبادة في هذا المنهج تحتاج إلى توضيح. فهي ليست قاصرة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة. وإنما هي معنى أعمق من ذلك جدًّا. إنها العبودية لله وحده. والتلقي من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كله. ثم هي الصلة الدائمة بالله في هذا كله..

وهذه الصلة في الحقيقة هي منهج التربية كله، تتفرع منه جميع التفريعات وتعود في النهاية كلها إليه.

والصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر الشعائر التعبدية، إن هي إلا مفاتيح. مجرد مفاتيح للعبادة، أو"محطات" يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد، ولكن الطريق كله عبادة، وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل، أو فكر أو شعور فهو كذلك عبادة.. ما دامت وجهته إلى الله. ما دام قد شهد حقًّا –لا باللسان– أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأقام حياته كلها وواقعه كله على هذا الأساس.

والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة.

إنها لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك التعبد. وما كان هذا هو القصد من الآية الكريمة "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[1]. وإلا فما قيمة لحظات عابرة في صفحة النفس وفي صفحة الكون، لا تكاد تترك لها أثرًا وتضيع في الفضاء؟

إنما قيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة. قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور، قائمة كلها على منهج واضح، يتبين فيه –في كل لحظة– ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون.

ومرد الأمور كلها في ذلك هو الله، هو المرجع الذي يُرجَع إليه في كل أمر، ودستوره هو الدستور الذي يستشار في كل لحظة، يستشار في داخل القلب وفي وعي العقل وفي واقع السلوك.

---

(1) سورة الذاريات (56).

وإيجاد الصلة بين القلب البشري وبين الله، الصلة الدائمة التي تدفع القلب إلى الرجوع لله في كل لحظة، واستشارة دستوره في كل أمر، هو القاعدة الرئيسية للتربية الإسلامية، التي بها يتم كل شيء، ومن دونها يصبح كل شيء خواء.

والإسلام يتخذ لهذا الهدف كل وسيلة من الوسائل الموصلة، بالتوقيع على كل وتر من أوتار النفس كما أسلفنا، وربط هذا التوقيع بالله، وسيأتي في الفصول القادمة تفصيل شامل لهذه الطريقة، وخاصة في "تربية الروح". ولكننا هنا -ونحن بصدد القواعد العامة للمنهج- نقرر هذه الخصيصة التي يتميز بها المنهج الإسلامي على غيره من المناهج.

بعض مناهج التربية يربط القلب البشري ببقعة من الأرض معينة، وبعضها يربطه بفرد من الناس معين، وبعضها يربطه بأسطورة من الأساطير، ثم يكون المنهج كله قائمًا على هذه القواعد، فيصطبغ العمل والشعور والفكر والسلوك بهذه الصبغة، ويتجه كله في هذا الاتجاه، ثم نيشأ الفرد على "فضائل" بعينها مستمدة من هذه القاعدة، نابعة من مفاهيمها، متمشية مع صالحها.

ولا شك أن في هذه الفضائل قدرًا من الفضائل "المطلقة" التي تلتقي عندها البشرية، فمهما ضلت البشرية وانحرفت فإنها -ببصيرتها التي وهبها الله لها- تهتدي إلى قدر من "الحق" قليل أو كثير. ولكنها غالبا ما تكون فضائل "محلية" أو "إقليمية". وليس من بينها فضائل "إنسانية" حقًّا إلا ما كان نابعًا من العقيدة في الله، مستمدا من دستوره الذي ارتضاه.

وخذ لذلك مثلًا مناهج التربية الأوروبية، وخذ من بينها أفضلها جميعًا في نظر كثير من الناس: التربية الإنجليزية. إنها تنشئ الفرد على كثير من الفضائل: لا يسرق ولا ينهب ولا يغتصب ولا يكذب ولا يغش. استقامة جميلة في الطبع والمعاملة. استقامة مريحة تثير الإعجاب. وميل إلى التعاون ونبذ للأنانية وإحساس بالصالح "العام" وتضحية بشيء من الصالح الخاص في هذا السبيل.

كل ذلك نعم!

ولكنه في حدود بريطانيا! في حدود القومية البريطانية!

فإذا انتقل هذا الرجل الإنجليزي قيد شعرة خارج الحدود البريطانية، خارج الوثن الذي ربي على عبادته، وقام منهج التربية كله على أساسه، فهنا يفجؤك منه شخص آخر لم تعهده

من قبل! الأنانية البغيضة والجشع الكريه. الغش والخداع والكذب والدسيسة، والغصب والسلب والنهب، وإيثار الصالح الخاص على كل قيم إنسانية أو صوت للضمير!

لماذا؟ هل تغير؟

كلا. وإنما هو ما يزال مخلصا للوثن الذي يتعبده؛ ولم يكن قط مخلصا "للإنسانية" لأنه لم يترب تربية إنسانية. ولم يكن قط مخلصًا لله، لأن قاعدة ترقيته لم تكن الاتصال الحقيقي بالله.

ذلك مثل يبين الفارق الحاسم بين منهج التربية الإسلامية ومناهج التربية غير الإسلامية، ويبين في الوقت ذاته لماذا يحرص الإسلام -كلمة الله إلى "الإنسان" عامة- على أن يقيم منهجه التربوي على أساس العبادة -بمعناها الشامل الواسع- وعلى أساس الصلة الدائمة بالله.

إنه لا ضمان للخير الحقيقي في هذه الأرض إلا بعقد الصلة الحية الواصلة بين القلب البشري والله. لا ضمان لإقامة الحق والعدل الأزليين إلا بالتقاء البشر كلهم عند خالقهم، ومن ثم استشعار الرابطة الإنسانية الحقيقية التي تربط الجميع.

وإذ يدرك الإسلام هذه الحقيقة فإنه يجعل العبادة هي القاعدة الكبرى، ويستمد منها نظام الحياة كله.

الفرد في خلوته. والناس في جمعهم. في وقت التعبد وفي وقت العمل. في وقت التعامل في تجارة أو صناعة أو سياسة أو حرب أو سلم. في وقت المودة وفي وقت الخصومة. في كل لحظة من هذه اللحظات يربي الإسلام الفرد على أن تكون صلته بالله، وتعامله مع الله، وخشيته من الله، وحبه لله، ورجوعه إلى منهج الله.

وهذه هي العبادة في مفهوم الإسلام.

ليس معناها أن يتزهد الإنسان ويتنسك ويترهبن.

وليس معناها أن تستولي التقوى على قلبه في السجود والركوع، فإذا ختم صلاته هبت في داخل نفسه نوازع الطمع والجشع والعدوان. أو تخاذل عن القيام بالأمانة. أو ضعف عن نصرة الحق. أو تواكل عن العمل المنتج في عالم الحس.

كلا! فما هو إذن موصول القلب بالله. إنه "متسكع" في "محطة العبادة" ولكنه لا يسير في الطريق.

والعبادة هي السير في الطريق، مع الترود بين الحين والحين؛ السير في الطريق والقلب يحمل الشحنة الحية الواصلة، التي تدفع للعمل.. تدفع دائمًا إلى الإمام.

والإسلام يحرص حرصًا شديدًا على هذه الشحنة الحية التي تعبئ القلب، فتكون الهادي له في الطريق. تهديه وهو في خلوته يفكر ويشعر، وتهديه وهو قائم يعمل بيديه وجسمه، وتهديه وهو يلقى إخوته في البشرية ويتعامل معهم. تهديه وتضيء له كالقبس ظلمات الطريق فلا يتعثر. وإن تعثر لا يجثم في عثرته، وإنما ينفض عنه التراب ويقوم، ما دامت الشحنة حية تضيء.

والإسلام صريح في اعتبار العمل هو العبادة، ما دام القلب يتجه فيه إلى الله.

"لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"[1].

هذا هو منهج العبادة الذي يرسمه الإسلام ويقيم عليه أسسه التربوية. ويشترط فيه الصدق مع الله، والتقوى لله، أي: الصلة الدائمة بالله.

وفيما يلي من الفصول بيان لطريقة الإسلام في ربط القلب البشري بالله.

([1]) سورة البقرة (177).

تربية الروح

ما هي الروح؟

شيء مبهم غامض ليست له حدود!

وهذا الإبهام في طبيعة الروح، والغموض الذي يحيط بها، والعجز عن إدراك كنهها، هو الذي أغرى الماديين في العصور الحديثة أن يهملوها إهمالًا ويسقوطها من الحساب.

كل ما لا تراه الحواس -في نظرهم- فهو غير موجود! والروح لا ترى بالحواس.. فهي إذن شيء ليس له وجود!

ولكن ألدوس هكسلي يرد عليهم في هذا الأمر، رغم أنه لا يؤمن بالدين، فيذكرهم بحقيقة ينسونها وهم يجادلون: "إنه لم يعد لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزود بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس. وإن جهلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له. فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر. من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك؟ أو التذكر؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف. ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية."

إن ألدوس هكسلي لا يسير معنا الطريق كله. ولكنه يسير نصف الطريق. يقرر أن هناك طاقة مجهولة في الإنسان يقدر بها على الاستشفاف، ويقرر كذلك أن جهلنا لكُنه هذه الطاقة لا يعني أنها غير موجودة في الواقع. فهي موجودة رغم هذا الجهل. وهي حقيقة علمية. وأهم من ذلك أنه يقرر أننا اعترفنا من قبل بوجود طاقات بشرية أخرى رغم أننا نجهل كنهها تمام الجهل، كعملية الإدراك وعملية التذكر.

وذلك نصف الطريق! فهكسلي يقصر هذه القدرة على الاستشفاف، ثم يقصرها على "بعض" الناس فقط، ولا يجعلها طاقة "بشرية" أصيلة. ولكن حين ينظر الإنسان إلى الاتجاه المادي الغارق في المادية، الذي يسيطر على تفكير الغرب ومشاعره، يجد أن هذا الاعتراف من رجل لا يؤمن بالعقيدة، يعد في الواقع تقدمًا كبيرًا نحو الفهم الصحيح للإنسان، الفهم الذي قررته العقيدة منذ أقدم الأزمان!

الروح طاقة مجهولة.. مبهمة، غامضة، محجوبة عن الإدراك.

ومع ذلك فهي حقيقة!

وإذا كنا نظن أن عملية الإدراك أو عملية التذكر عملية "محسوسة"، ومن أجل ذلك نؤمن بوجودها الواقعي، فنحن مخطئون في هذا الظن، فهي في الحقيقة ليست محسوسة في ذاتها! وإنما نحن ندرك نتائجها، ووضوح الإحساس بنتائجها هو الذي أغرانا بذلك الظن الخاطئ، كما أنه هو الذي أدخل في وهمنا أننا "نعرف" كيف يتم الإدراك وكيف يتم التذكر! أما الحقيقة فهي أننا لا نعرف كنه هذه العملية ولا تلك، ونكتفي منهما بالنتائج التي تدركها الحواس!

ولو تدبرنا الأمر لوجدنا الطاقة الروحية كذلك!

إنها مجهولة في كنهها، مبهمة، غامضة، محجوبة عن الإدراك. ولكن نتائجها ليست مجهولة، ولا محجوبة عن الإدراك.

ونحن لو حاولنا أن نعرّف عملية التذكر، فلن نجد إلا لفظة واحدة نشرحها بها! سنقول إنها عملية التذكر!

ولو حاولنا أن نعرف عملية الإدراك، فلن نجد إلا اللفظة ذاتها أو ما يرادفها، وسنقول إنها عملية الإدراك!

ولكننا سنقول عن الروح: إنها الطاقة التي يتصل بها الإنسان بالمجهول.. بالغيب المحجوب عن الحواس!

الاستشفاف "عملية" من عمليات الروح.

والحلم التنبؤي عملية من عمليات الروح.

والتخاطر عن بعد (التليباثي) كحادثة عمر الشهيرة مع سارية، حين ناداه على بعد ألوف الأميال: يا سارية الجبل! الجبل! فسمعه سارية ونجا من الكمين وانتصر ... هذا التخاطر عملية من عمليات الروح.

وهي كلها عمليات جليلة عظيمة باهرة معجزة.. يقف الإنسان حائرًا أمامها، مبهوتًا من العجب والإعجاب!

ولكنها مع ذلك عمليات جانبية ... إنما الوظيفة الكبرى للروح، هي الاتصال بالله.

كيف يتم هذا الاتصال؟ كيف يتم التليباثي، والاستشفاف، والحلم التنبؤي؟ لا ندري. كما أننا لا ندري كيف يتم الإدراك والتذكر. ولكنه يتم على أي حال!

* * *

الروح.. تلك الطاقة المجهولة التي لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها, هي وسيلتنا للاتصال بالله.

وهي مهتدية إلى الله بفطرتها. إنها من روح الله التي أودعها قبضة الطين: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين"[1]. ومن ثم فهي بذاتها تهتدي إلى خالقها، وتتصل به على طريقتها: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا"[2]. تهتدي إليه كما يهتدي كل شيء من خلق الله، بفطرته، دون كد ولا تعب ولا جهد في الاهتداء: "رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"[3]. كل ما في الأمر أن الله قد كرم هذا المخلوق البشري: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"[4]. ومن آيات هذا التكريم أن جعل للإنسان فؤادًا واعيًا: "وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ"[5] فجعل عملية الهدى عملية واعية يشترك فيها الفؤاد البصير، فتفترق بذلك عن الطاعة التي يمارسها الجماد والنبات والحيوان.

ومع ذلك فالإنسان يضل. يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض ... يضل فلا يهتدي إلى الله، ولا يصل بروحه إليه، ولا يستمد منه، ولا يلجأ إلى حماه.

على أنه حتى حين يضل، حين تتغبش روحه فلا تستطيع أن تشف، حين يغشيها ركام الشهوات فيحجب عنها النور. حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة -برغم ضلالها- تتجه إلى خالقها، كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء، لا تراه كله، ولكنها لا تعمى عنه. فيعبد الناس

([1]) سورة الحجر (29).

([2]) سورة الأعراف (172).

([3]) سورة طه (50).

([4]) سورة الإسراء (70).

([5]) سورة السجدة (9).

الله ويشركون به غيره من الكائنات "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى"[1]. "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ..[2]" أو يعبدون قوة –ما– يزعمون أنها الله. ولكنهم –فيما عدا الشذوذ الذي لا يحسب له حساب– لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوي مسيطر مريد.

ومهمة العقيدة هي مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها. مهمتها أن تساعد الفطرة في الاهتداء إلى الله.. الاهتداء الذي هو كامن في كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض.

مهمتها أن تطلق الروح من إسارها.. لكي ترى الله.

* * *

والإسلام يعنى عناية خاصة بالروح.

إنها في نظره مركز الكيان البشري ونقطة ارتكازه.. إنها القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ويترابط عن طريقها. إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان. إنها الموجه إلى النور. يكفي أنها صلة الإنسان بالله.

والإسلام –في عنايته الفائقة بتربية الروح– هو دين الفطرة.

فالحق أن الطاقة الروحية في الإنسان هي أكبر طاقاته، وأعظمها، وأشدها اتصالًا بحقائق الوجود.

طاقة الجسم محدودة بكيانه المادي وبما تدركه الحواس.

وطاقة العقل أكثر طلاقة، ولكنها محدودة بما يعقل. محدودة بالزمان والمكان. بالبدء والنهاية. ومحكومة بالفناء.

وطاقة الروح –وحدها– في كيان الإنسان، هي التي لا تعرف الحدود والقيود. لا تعرف الزمان والمكان. لا تعرف البدء والنهاية. لا تعرف الفناء.. هي وحدها التي تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل. هي وحدها التي تملك الاتصال بالخلود الأبدي والوجود

([1]) سورة الزمر (3).

([2]) سورة الزمر (38).

الأزلي.. تملك الاتصال بالله. كما أنها هي التي تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان.

كيف؟ لا نعلم! لكنا نحس! نحس بإشراقة الروح الصافية التي تشمل الحياة كلها في ومضة وتشمل الآباد والآماد. نحس بسبحة الروح الطليقة التي تجوب آفاق الكون وتتصل بكل حي فيه، والكون كما يقول العلم كله حياة! نحس بتلك اللحظة الدقيقة العجيبة العظيمة الرائعة، التي يرتعش فيها الكيان كله، ويحس في أعماقه أنه يرى الله!

وقد كان طبيعيًا إذن أن تهتم العقائد كلها بأمر هذه الروح. وكان طبيعيًا أن يهتم الإسلام خاصة بهذه الطاقة، وهو الذي جعل منهجه الاهتمام بالطاقات البشرية كلها، وإعطاءها حقها من الرعاية والتوجيه.

* * *

طريقة الإسلام في تربية الروح هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله، في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور.

إن الإنسان –بطبيعته– قد تشرق روحه لحظة. قد تأخذه روعة الصبح الوليد مرة، وهو يتنفس كمن يصحو من سباته. قد تأخذ بلبه الليلة المقمرة، فينتشي بشعرها المهموس، وأطيافها الراقصة، وظلالها المسحورة. قد تأخذه ضخامة الكون وانتظام سننه ودقة نظامه. قد تروعه حادثة مفاجئة فتهز نفسه وتوقظه لعالم الغيب ومدبر الأمور. وكل ذلك جميل. ولكنها لحظات منقطعة لا دوام لها ولا استقرار. لحظات خاطفة لا تلبث –بزوال مؤثرها– أن تزول. والإسلام لا يريد ذلك. لا يريد لهذه الإشراقة الروحية أن تنطفئ. لا يريد لها أن تخنس وتخبو. لا يريد أن يغشي صفاءها شيء أو يحجبها عن انطلاقها في الآفاق. ومن ثم لا يكتفي بتلك اللحظات الفائقة التي تجيء عرضًا ولا تلبث أن تزول، لا تكاد تترك لها أثرًا في النفس، ولا تسيرها على منهج واضح أصيل.

إنما يريد الإسلام أن يجعل هذه الإشراقة منهج حياة! يريد أن يذكي الشعلة المقدسة فتظل على الدوام مضيئة. يريد أن تظل القبسة التي يشتمل عليها الإنسان من روح الله، مشعشعة واصلة لنبعها الأصيل.

يريد ألا تكون الطلاقة فلتة عابرة، وإنما تكون هي الأصل، والقعود عنها هو الفلتات!

وحين يصنع الإنسان ذلك فهو لا شك يحقق أرفع ما في كيانه، ويصل إلى ما يشبه المعجزات.

ومع ذلك ففي الإسلام تتجلى رحمة الله بعباده.. إنه لا يريدهم على المستحيل. وهو يعلم أن الطلاقة الدائمة الكاملة بالنسبة للبشر مستحيل فقبضة الطين لها ثقلة. ودفعة الشهوة لها قوة. وثقلة المادة لها ضغط. ومن ثم يقول: "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ"[1]. ويقول: "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"[2].

ولكنه لا يقول -كما تقول المذاهب "الواقعية" المنحرفة، المذاهب التي تؤمن بحيوانية الإنسان وماديته[3]- لا يقول: أيها البشر، ما دامت فيكم ثقلة الطين ودفعة الشهوات وضغط المادة، فلا فائدة من رفعتكم، ولا أمل في انطلاقكم. فاجثموا حيث أنتم على الأرض؛ كلوا وتمتعوا كما يتمتع الحيوان!

كلا. لا يقول ذلك، لأنه -وهو دين الفطرة- يؤمن بكل ما تحتويه الفطرة من طاقات، ويؤمن أولًا بطاقة الروح وقدرتها الفائقة على التحليق والانطلاق.

وهو -في واقعيته الكاملة التي تحسب حساب الضعف البشري- لا يكف أبدًا عن المحاولة؛ لا يكف عن النفخ الدائم لإذكاء شعلة الروح. لأن هذا هو الطريق الوحيد للرفعة، والطريق الوحيد لموازنة ما يهبط بالنفس من أثقال.

والطريق -كما أسلفنا- هو عقد الصلة الدائمة بين الإنسان والله.

ويستخدم لذلك وسائل شتى.

فهو من ناحية يثير حساسية القلب بيد الله المبدعة في صفحة الكون، لتحس دائمًا بوجود الله، وقدرته المطلقة التي ليست لها حدود.

ومن ناحية يثير حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه. فهو مع الإنسان أينما كان، وهو مطلع على فؤاده، عالم بكل أسراره، وبما هو أخفى من الأسرار.

---

(1) سورة التغابن (16).

(2) سورة البقرة (286).

(3) انظر "معركة التقاليد" فصل "حقائق وأباطيل".

ومن ناحية يثير في القلب وجدان التقوى والخشية الدائمة لله، ومراقبته في كل عمل وكل فكرة وكل شعور.

ومن ناحية يثير فيه الحب لله، والتطلع الدائم إلى رضاه.

ومن ناحية يبعث فيه الطمأنينة إلى الله في السراء والضراء، وتقبل قدره بالتسليم والرضاء. والهدف في النهاية واحد: هو وصل القلب البشري بالله.

* * *

الكون آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة التي تبهر العقول.

ولكن الإلف والعادة يفسدان روعة التطلع لآية الكون، وروعة الإحساس بها جياشة واصلة إلى الأعماق.

الحواس تتبلد لما ترى وما تسمع، فتمر بكل شيء كأنه لا وجود له، وتنسى -بحكم التعود- أن كل شيء حولها آية للقدرة المبدعة الخالقة التي تبدع كما تريد.

الليل والنهار متعاقبين متكورين على الأرض، مختلفين في الطول باختلاف الفصول واختلاف المكان.

الشمس الطالعة الغاربة في كل يوم لا تكف يومًا عن الطلوع أو تكف يومًا عن الغروب.

النجوم المتلألئة في ظلمة الليل كأنها عيون توصوص في الظلمة وتتناجى على ما بينها من أبعاد.

القمر الذي يبدأ زيقة صغيرة لا تكاد ترى، ويظل يكبر حتى يمتلئ وجهه بالنور، ويغمر الأرض بنور رائق شفاف حالم هادئ جميل، ثم يتناقص حتى يعود كما بدأ زيقة لا تكاد ترى. ثم يختفي في المحاق.

الحياة النابتة في الشطأة الصغيرة التي تفتح الأرض بقوة فتتشقق عن ورق أخضر صغير جميل.

الحياة النابتة في الطائر الصغير والحيوان الضئيل وهو يدرج وراء أمه تزقه أو ترضعه أو تغذوه.

الحياة المنبثة في تضاعيف الكون "الميت" لظاهر العين، وهو في حقيقته طاقات حية متحركة على الدوام.

النظام المذهل في روعته، المذهل في دقته، الذي يسير عليه الكون كله، فلا يختل منه كوكب واحد، ولا يخرج عن مساره قيد أنملة في الزمان الطويل الذي يقدر بالبلايين والبلايين من السنين.

الزمن ذاته! كنهه وحقيقته، وطريقة إدراكه!

المخلوق البشري المعجز بكل ما فيه من أجهزة دقيقة وطاقات.

"العمليات" الجسمية، و"العمليات" الفكرية، و"العمليات" الروحية في كيان الإنسان.

امتزاجه وترابطه المحكم الشامل الدقيق الذي يجمع كل طاقاته ويوحد بينها في كيان.

آيات كلها من آيات الله في الكونِ. كل منها معجز. وكل منها هائل. وكل منها مثير. ولكنها لطول الإلف والعادة يمر بها الإنسان دون وعي ودون تفكير.

والإسلام -وهو يربي الروح- يعمد إلى هذه الآيات، فيبث فيها الحياة:

فالقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة. في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس، ويوقظها من إلفها وعادتها، فتتفتح للكون كأنه جديد.

وللقرآن في هذا الجانب قدرة عجيبة. فإيقاظ النفس من إلفها ليس مهمة ميسرة!

الإلف جزء من كيان النفس، يؤدي لها مهمة ضرورية لا محيص عنها. فلا بد أن تألف النفس والحواس والأعصاب ألوانًا معينة من التجارب والأحاسيس والأماكن والأشياء. لكي تنطلق إلى تجارب جديدة وأحاسيس جديدة وأماكن حديدة وأشياء جديدة. ولولا الإلف والعادة لقضى الإنسان حياته كلها يتعلم النطق مثلًا، أو يتعلم القراءة أو الكتابة أو الحساب! أو يشغل أعصابه بالعادي من الأمور، فلا تبقى فيها طاقة لتحمل شيء جديد.

تلك وظيفة الإلف والعادة في كيان النفس.

ولكنهما في أحيان كثيرة يتجاوزان وظيفتهما، فيطغيان على كل مساحة النفس، فتتلبد المشاعر، وتغلق البصائر، وتجمد الأفكار!

عندئذ يصبح الإلف عائقًا عن التقدم، معطلًا عن الطلاقة، مجمدًا للكيان.

وعندئذ لا بد من إيقاظ النفس من سباتها لتتفتح و"تستنشق" الحياة!

وحين يحدث التفتح فإنه يُحدث أعجب الأثر في الكيان البشري. إنه يشبه -مع الفارق- ذلك النشاط الحي الذي يحس به الإنسان في أعضائه حين يخرج من الغرفة المقفلة الفاسدة الهواء، فيتلقى النسيم المنعش على صفحة وجهه ويستنشقه إلى أعماقه. إنه يتجدد, يتجدد حقيقة, حسًا ومعنى. وينطلق في خفة نشيط الحركات.

والتفتح النفسي يشبه ذلك الأثر ولكنه أعمق وأشمل وأروع. إنه يهز الكيان النفسي كله ويوقظه وينشطه ويجدد حياته. كل فكرة تمر به جديدة. وكل إحساس يخطر له جديد. وكل تجربة يمر بها فهي حية. حية تطلق شحنة من النشاط وطاقة من الإشعاع.

وما أعجب كل شيء يحدث لأول مرة! إنه تجربة نفسية رائعة حية ... كأنها لمسة رفيقة تلمس طرف عصب مكشوف، فيتفزز ويتأثر، وينقل اللمسة إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها. إنها عملية جميلة ممتعة. تملأ الحياة ثراء وسعة ومتاعًا متجددًا على الدوام.

ولو استطاع الإنسان أن يعيش كل شيء كأنما يحدث لأول مرة..! إذن لاستطاع أن يحس بالشباب الدائم الذي لا يدب إليه العجز ولا الشيخوخة ولا الفناء!

ولكنها عملية عسيرة. فمطالب العيش الدائمة، وزحمة الحياة، وقصر العمر، ووفرة المشكلات.. كلها تستنفد الطاقة وتستنفد الاهتمام.

ومع ذلك فالقرآن يصنع هذه العجيبة!

إن أسلوبه الساحر، وجوه المشرق، وروحه الصافية، لتنقل الإنسان نقلًا من إلفه وعادته، وتهزه ليستيقظ، تلمس -برفق- أعصابه المكشوفة! فتعطيه الشحنة كاملة، ينقلها إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها.. ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة، ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب.

والإنسان يعيش في القرآن مع الكون في لقاء دائم جميل حبيب. لقاء يلذ النفس ويمتع الحس ويطلق الروح.. نشيطة طليقة تسبّح لله.

والقرآن في ذاته كتاب جميل ممتع، لا ينتهي منه قارئه حتى يحب أن يعود من جديد. ومن ثم كان اللقاء متجددًا في داخل النفس وفي صفحة الكون، لا ينفد، ولا يُسْأم، ولا يزول.

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[1]".

"إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[2]".

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[3]".

"هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ

([1]) سورة البقرة (164).

([2]) سورة الأنعام (95-99).

([3]) سورة الأعراف (54).

فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ، أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ"[1].

"وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ، وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[2].

"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ"[3].

"أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا"[4].

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"[5].

"يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ

([1]) سورة النحل (10-17).

([2]) سورة النحل (65-69).

([3]) سورة النحل (78-81).

([4]) سورة الأنبياء (44).

([5]) سورة الحج (5).

مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ"[1].

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ"[2].

"وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ، سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ، وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ"[3].

"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ، خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ"[4].

([1]) سورة الروم (19-25).

([2]) سورة فاطر (27-28).

([3]) سورة يس (33-44).

([4]) سورة الزمر (5-6).

"كَلَّا وَالْقَمَرِ، وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ"[1].

"فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ"[2].

"فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ"[3].

"أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ؟"[4].

"وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ"[5].

وهكذا ... وهكذا.. يوقظ القرآن الحس لآيات الله في الكون وفي النفس، ليعيش متفتحًا لها، حفيًا بها، محسًا بعظمتها، متتبعًا لها في كل صغيرة وكبيرة، شاعرًا بالقدرة القادرة، من وراء كل آية، واليد المبدعة من وراء كل تدبير؛ ومن ثم تتوجه الروح إلى الخالق، تسبح بحمده، وتتطلع إلى حماه.

بل يصل استخدام "الطبيعة" في إيقاظ الحس، وإحياؤها داخل النفس، إلى حد استخدام تشبيهات من الطبيعة الحية لتمثيل المواقف النفسية، والاجتماعية والاقتصادية:

"كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

([1]) سورة المدثر (32-34).

([2]) سورة عبس (24-32).

([3]) سورة الطارق (5-10).

([4]) سورة الغاشية (17-20).

([5]) سورة التكوير (17-18).

وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"[1].

"أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ"[2].

"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ"[3].

"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[4].

والفنون تعالج أحيانًا مثل هذه الأمور، فتلفت الناس إلى جمال الطبيعة وروعتها، وتفتح الحس لها ليتملاها، ويحس بها جديدة حية متحركة أخاذة, ولكنها كثيرًا ما تنحرف فتجعل ذلك هدفًا في ذاته، ثم تضل فيصبح الجمال معبودًا تفتن به النفس فيصرفها عن الجد في الحياة.

أما القرآن فيجعلها رباطًا بين القلب البشري والله، وهاديًا إلى سواء السبيل في داخل النفس وفي واقع الحياة.

* * *

وكما يوجه القرآن القلب البشري إلى قدرة الله المبدعة في صفحة الكون، فكذلك يوجهه إلى قدرته القاهرة التي تمسك بيدها كل أمر، وتدبر وحدها كل تدبير.

([1]) سورة البقرة (264-266).

([2]) سورة الرعد (17).

([3]) سورة إبراهيم (24-26).

([4]) سورة النور (35).

ولا نحتاج أن ننقل الشواهد الكثيرة من القرآن على هذا التوجيه، كما نقلنا من قبل الشواهد على التوجيه لآيات الله في الكون. فإنما صنعنا ذلك هناك لنبين أن ما يبدو تكرارًا في القرآن ليس تكرارًا في الحقيقة. وإنما هو تجديد للمسات. كل لمسة في موضع. وكل لمسة لها جو من الإشعاع.

وإنما نكتفي هنا بآيات متفرقة:

"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِير"[1].

"بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون"[2].

"اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ"[3].

"وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُور"[4].

"وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[5].

"قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير"[6].

"سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون"[7].

([1]) سورة البقرة (107).

([2]) سورة البقرة (117).

([3]) سورة البقرة (255).

([4]) سورة آل عمران (109).

([5]) سورة آل عمران (189).

([6]) سورة آل عمران (26).

([7]) سورة مريم (35).

"إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ"[1].

"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"[2].

"إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ"؟[3].

"أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[4].

"مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا"[5].

"هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟"[6].

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ"[7].

"إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا"[8].

"مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[1].

([1]) سورة الرعد (11).

([2]) سورة الكهف (17).

([3]) سورة آل عمران (160).

([4]) سورة النمل (62-64).

([5]) سورة فاطر (10).

([6]) سورة فاطر (3).

([7]) سورة فاطر (15-17).

([8]) سورة فاطر (41).

"أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ؟"[2].

"قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ"[3].

"أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[4].

"وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ"[5].

"وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ"[6].

"قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"[7].

"وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ"[8].

"أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير"[9].

"وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"[10].

"وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[1].

([1]) سورة فاطر (2).
([2]) سورة يس (23).
([3]) سورة الزمر (38).
([4]) سورة يس (81-83).
([5]) سورة الأنعام (18).
([6]) سورة الإنسان (30).
([7]) سورة التوبة (51).
([8]) سورة البقرة (105).
([9]) سورة البقرة (148).
([10]) سورة البقرة (212).

"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ"[2].

"قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[3].

"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ"[4].

"وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى"[5].

"لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ"[6].

"وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ"[7].

"وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا"[8].

"وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ"[9].

"فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد"[10].

"وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا"[11].

([1]) سورة البقرة (245).

([2]) سورة البقرة (253).

([3]) سورة آل عمران (73).

([4]) سورة آل عمران (159).

([5]) سورة الأنفال (17).

([6]) سورة يونس (64).

([7]) سورة هود (123).

([8]) سورة الرعد (15).

([9]) سورة النحل (53).

([10]) سورة البروج (16).

([11]) سورة الأحزاب (62).

وكلها آيات توجه القلب لهذه الحقيقة الضخمة في بنية الكون وبنية النفس: إن الله وحده هو الخالق. والله وحده هو المدبر. والله وحده هو الذي يصرف الأمور. ولا قوة سوى قوته. ولا تدبير سوى تدبيره. وكل من عداه مخلوقات هزيلة ضائعة فانية لا تملك لنفسها شيئًا فضلًا على أن تملك للآخرين. النفع والضر بيده وحده. لا ينفع أحد إلا بإذنه، ولا يضر شيء إلا بإذنه. الرزق بيده. والموت والحياة بيده. والبعث والجزاء بيده. "بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[1].

* * *

وكما يوجه القلب إلى قدرة الله المبدعة، وقدرته القاهرة، كذلك يوجهه إلى علم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء في السموات ولا في الأرض، ولا في داخل النفوس:

"وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"[2].

"عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ"[3].

"يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ"[4].

"وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ"[5].

"يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ"[1].

([1]) سورة الملك (1).

([2]) سورة الأنعام (59-60).

([3]) سورة الرعد (9-10).

([4]) سورة سبأ (2).

([5]) سورة فاطر (11).

"ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ"[2].

"يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى"[3].

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[4].

* * *

فإذا وجه القلب هذه التوجيهات كلها، وهزه بها من أعماقه، وجعله ينفعل بها انفعالًا حيًّا متجددًا مطردًا لا ينقطع ولا يفتر. فقد انعقدت بين الله وبين القلب البشري صلة لا تنقطع في النهار أو الليل. لا تنقطع في عمل أو شعور أو فكر. لا تنقطع في سر ولا جهر. لا تنقطع في خلوة ولا صحبة, لا تنقطع ما دامت الحياة.

ويتصل القلب بالله صلات شتى:

يتصل به خشوعًا وتقوى.

ويتصل به مراقبة له في كل أمر من أمور الحياة.

ويتصل به حبًّا وتطلعًا.

ويتصل به اطمئنانًا إلى قدره، وتسليمًا بما يرضاه.

* * *

الخشوع والتقوى هما سمة المؤمن الذي تأثر بالقرآن، واهتز للمساته وانفعل بتوجيهاته:

([1]) سورة غافر (19).

([2]) سورة لقمان (15-16).

([3]) سورة طه (7).

([4]) سورة المجادلة (7).

"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ"[1].

"اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ"[2].

"وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ"[3].

"إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا"[4].

"وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا"[5].

والخشوع والتقوى هما ثمرة هذه الجولات الهائلة التي يجولها القرآن مع القلب البشري في آيات الكون، وآيات النفس، وقدرة الله القادرة، وقدرته القاهرة، وعلمه الشامل، وملكه العظيم. فما يملك القلب أمام هذه اللمسات المتوالية من كل جانب. وما يملك حين تتفتح بصيرته على القدرة المعجزة والملكوت الهائل. وما يملك وهو يرى آيات الله في كل شيء حوله. في الدقيق والكبير. في الجامد وفي الحي. في حبة الرمل الضائعة في الأرض يحيط بها علم الله.. في النبتة النابتة والشجرة النامية.. في الزهرة الأريجة البديعة الألوان. في ملايين الملايين من الخلائق. في ملايين الملايين من النجوم. كله صادر عن إرادة الله. وكله مدبر بأمره. وكله صائر إليه.. ما يملك القلب إزاء ذلك إلا أن يخشع ويهتز لعظمة الله.

وما يملك وهو يرى آيات القدرة كلها، وهو يحس السموات والأرض معلقة بإرادة الله، وكل ما فيها من كائنات وخلائق خاضع لمشيئته، طائع لإرادته.. ما يملك إلا أن يحس بتقوى الله في أعماقه، فيعبده ويخشاه.

* * *

(1) سورة المؤمنون (1-2).
(2) سورة الزمر (23).
(3) سورة الحج (34-35).
(4) سورة مريم (58).
(5) سورة الإسراء (109).

وحين يتيقظ القلب لعلم الله الشامل المحيط، العلم الذي لا يند عنه شيء، والذي يعلم السر وأخفى، والذي لا يغفل عن الإنسان لحظة واحدة، ولا يتركه أينما كان. حين يحس بمراقبة الله الدائمة له في كل تصرف، وكل فكرة، وكل شعور، وكل هاجسة في النفس مستورة، وكل خائنة في العين خافية. يهتز ويرتعش، ويخر خاشعًا، ويراقب الله في الصغيرة والكبيرة، وفي الجهر وفي الخفاء.

يراقبه وهو يعمل، ويراقبه وهو يفكر، ويراقبه وهو يحس.

يراقبه وهو يعمل. فلا يعمل شيئًا بغير إخلاص. لا يعمل شيئًا بقصد الشر. لا يعمل شيئًا دون تمعن وتفكر. لا يعمل مستهترًا ولا مستهينًا بالعواقب.. ولا يعمل شيئًا لغير الله!

إن الله لا يحاسبه على ظاهر عمله. إنما يحاسبه على النية وراء العمل، وعلى الإخلاص فيه: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"[1].

والله لا يقبل أن يكون شيء من العمل لغير وجهه: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت رجلًا غزًّا يلتمس الأجر والذكر. ما له؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا شيء له"! فأعادها ثلاث مرات, ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا شيء له"! ثم قال: "إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه"[2].

ويراقبه وهو يفكر. فالله مطلع على أفكاره. يراقبه فلا يفكر في الشر ولا يتمناه للناس. وإنما يفكر فيما ينفع الخلق. يفكر في أن يعمل صالحًا. حتى يصبح الخير له عادة متأصلة نابعة من أعماق النفس.

ويراقبه وهو يحس. فالله يعلم السر وما أخفى من السر. الهاجسة في باطن النفس لم يطلع عليها أحد، ولم تتبين حتى لصاحبها لأنها مطمورة في الأعماق! يراقبه فلا يحس بإحساس غير نظيف. يراقبه فينظف مشاعره أولًا بأول. لا يحسد. ولا يحقد. ولا يكره للناس الخير. ولا يتمنى أن يحرمهم منه ويستحوذ هو عليه. ولا يتشهى الشهوات الباطلة والمتاع الدنس! إنه ليس وحده! ولا يكون مطلقًا وحده! "والأخلاق" التي ينبغي له أن يتخلق بها ليست نفاقًا اجتماعيًّا، يلبسها أمام الناس ليقال عنه إنه فاضل، أو لأنه لا يملك الظهور

---

(1) البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(2) أبو داود والنسائي.

أمامهم بأدرانه وخباياه. بل هي أخلاق تنبعث من الداخل. من الإيمان بها. والإيمان بالله. إنه ينظف سلوكه وفكره وشعوره لا لأن الناس معه وهو مضطر إزاءهم أن يتنظف. وإنما لأن معه دائمًا وفي كل لحظة الله: "وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا" وهو لا يملك أن يستتر من الله كما يستتر من الناس. لا يملك أن يغلق على نفسه بابًا لا يراه الله من ورائه. ولا أن يقيم حول مشاعره المنحرفة سياجًا يحميه من علم الله. وما دام يحفظ الله في قلبه، فليكن قلبه نظيفًا لا يتدنس بالأدران! قال: وما الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1].

وحين توجد في القلب هذه الحساسية المرهفة تجاه الله، تستقيم النفس ويستقيم المجتمع وتستقيم جميع الأمور.

ويعيش المجتمع نظيفًا من الجريمة. نظيفًا من الدنس، نظيفًا من الأحقاد، لأنه لا يتعامل في الحقيقة بعضه مع بعض، وإنما يتعامل أولًا مع الله.

* * *

وحين يعيش الإنسان في جو الإسلام وجو القرآن، لا يملك نفسه من حب الله، حتى وهو يخافه ويخشاه!

إنها عجيبة من عجائب العقيدة.

في ظل العقيدة يتطلع القلب إلى الله بحب دافق وشوق دائم للقياه.

كيف يتم ذلك؟

إنه ليس عملًا واحدًا، ولا كلمة واحدة، ولا شعورًا واحدًا، ولا لمسة واحدة.

إنما هو مزيج من الأعمال والأقوال والمشاعر واللمسات.. كلها في النهاية تحدث هذا الحب المتدفق الفياض.

الحياة الدائمة مع الله.. في صفحة الكون وباطن النفس.

([1]) أخرجه البخاري من حديث الإيمان: أنظر فصل "تعبد الله كأنك تراه" في كتاب "قبسات من الرسول".

التطلع الدائم إلى الله. في السموات والأرض.. وفي الظاهر والباطن.. في السر والجهر.. في المعلوم والمجهول.

المراقبة الدائمة لله في كل عمل وكل فكرة وكل شعور..

الإحساس الدائم بالله في كل لحظة..

المصاحبة الدائمة لله في كل أمر..

الصلاة والعبادة..

قراءة القرآن..

ومئات من المشاعر الخفية، واللمسات اللطيفة، والخفقات، واللمحات، والومضات.

وفي النهاية يتدفق هذا الحب الواغل في الأعماق.. حب أعمق من أن يصفه اللفظ، وألطف من أن يمسكه التعبير. سارب في النفس، مشع في الكون، لا تمسكه الألفاظ!

ولكنه على خفائه ذلك قوي جاهر مبين! يعلمه صاحبه. ويحسه في أعماقه، ولا يحتاج أن يعبر عنه بلفظ، فهو ممتلئ به لا يحس الفراغ الذي يُحْوِجُ للتعبير!

وذلك الحب، وهو قمة العبادة هو الكفيل بطاعة الله طاعة منبعثة من الرضا، لا من القهر والخوف من العقاب. وهو الكفيل بالتطوع النبيل فوق ما تفرضه الضرورة وما يفرضه القانون. التطوع الذي يرتقي بالإنسانية إلى أعلى، ويحثها على التقدم إلى أمام.

* * *

وحين يعيش الإنسان في جو الإسلام وجو القرآن لا يملك نفسه من التسليم بالله.

إن الله هو مالك الملك. وهو موزع الرزق. وهو قاسم الحياة والموت. وهو مدبر الأمر، وحده لا شريك له "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[1].

([1]) سورة فاطر (2).

فلمن يلجأ الإنسان إلا إليه؟ وما قيمة اللجوء لغير الله وما نتيجته؟ ماذا يملك الناس من أمر أنفسهم حتى يملكوا من أمر غيرهم؟ ما قيمة اللجوء لغير الله وما نتيجته إلا المذلة للناس، والهوان والضعف، والخسران المبين: "أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا"[1].

وهل يملك الإنسان أنى لجأ أن يخرج من قدر الله؟ أفإن ذهب إلى فلان يحتمي به فلن يصل الله إليه ولن ينفذ قدره فيه؟ "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك"[2].

أفليس الأسلم إذن والأجمل أن يركن الإنسان إلى الله ويلجأ إلى حماه؟

كذلك تصنع العقيدة في النفوس. إنها تولد هذا الاطمئنان إلى الله والتسليم بقدره، والرضا بما يرضاه.

كذلك فعلت في نفس محمد صلى الله عليه وسلم، فأسلم نفسه لله كلها لم يحتجز لنفسه ولا لغيره شيئًا منها، وعاش مسلمًا لله قانتًا، راضيًا بقدر الله في السراء والضراء، مطمئنًا دائمًا إلى أن الخير هو ما اختاره الله: "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ"[3]. "فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"[4]. فالله وحده هو الذي يعلم. والله وحده هو الذي يرتب النتائج على الأسباب. يرتبها بحكمته سبحانه، وبقدرته سبحانه. ولا يملك البشر أن يرتبوا شيئًا على شيء ولا أن يجزموا بنتيجة شيء عن شيء. أو يعرفوا على وجه اليقين أين يكمن الشر وأين يكمن الخير. إنما هو الله المدبر. وهو القادر. وهو الفعال لما يريد.

وكذلك فعلت في نفوس الصفوة من المؤمنين في صدر الإسلام، فأسلموا نفوسهم لله – بقدر ما أطاقت نفوسهم– وأحسوا أن ذلك هو الخير. وأنهم أودعوا نفوسهم، وأعمالهم، ومشاعرهم، عند الحق الذي لا تضيع عنده النفوس.

([1]) سورة النساء (139).

([2]) حديث رواه الترمذي.

([3]) سورة البقرة (216).

([4]) سورة النساء (19).

وكذلك تفعل في كل نفس يتملكها الإيمان الحق، فتسلم أمرها لله كاملًا، وتطمئن إلى قدره, وتستريح ولا تعود تقلق على الصغيرة أو الكبيرة. ولا تعود تجزع لما يصيبها من الضراء أو تطيش بما يصيبها من السراء. لا تقلق على الرزق فهو بيد الله. ولا على الحياة فالموت والحياة في يد الله. ولا على الصحة فالصحة والمرض بيد الله. ولا على المكانة. ولا على ما يصيبها من أذى الناس. ولا شيء مما يقلق النفوس على الأرض ويصيبها بالجزع والاضطراب "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلَّا الْمُصَلِّينَ.."[1].

وعندئذ تنطلق النفس للعمل بما فيه الخير. تنطلق خفيفة من الأعباء!

ولقد يغلب على الظن أن هذا التسليم المطلق لله هو التواكل.. هو الضعف ... هو السلبية.. هو الخنوع!

كلا! فما كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ضعيفًا ولا سلبيًا ولا خانعًا ولا قاعدًا عن الجهاد والحركة والاندفاع الدائم نحو الخير والبناء والتعمير.. وما كانت أمته التي رباها على عينه كذلك.

وتلك هي أمثلة التسليم الحق لله! فلا سلبية إذن ولا ضعف ولا تواكل.

إنه التوكل على الله، لا التواكل عليه. التوكل الذي يشحذ العزيمة ويمنح المضاء.

التوكل الذي يزيح عن القلب سم القلق المدمر المحطم للأعصاب.

يزيح عن القلب التردد الناشئ عن الخوف، والقعود الناشئ من العجز عن مواجهة الأحداث.

الأحداث بيد الله. والنتائج بيد الله. والأعمار بيد الله. ففيم التردد، وفيم الخوف، وفيم القعود؟

كلا! بل هي عزيمة وقوة وانطلاق!

(1) سورة المعارج (19-22).

وبهذه العزيمة وهذا الانطلاق وجدت تلك الأمة الفريدة في التاريخ. الأمة التي انتشرت في رقاع الأرض ورقاع التاريخ: "خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"[1].

الأمة التي كانت تجاهد ولا تهاب, وتحرص على الموت فتوهب لها الحياة.

والعبادة هي الوسيلة الفعالة لتربية الروح. العبادة بمعناها الواسع الذي يشمل الحياة.

العبادات المفروضة من صلاة وزكاة وصيام وحج. كلها قد قصد بها تربية الروح، وسند النفس وهي تواجه الحياة الواقعة بما فيها من مشكلات وعقبات، وتواجه ثقلة الجسم ودفعة الشهوات[2].

والصلاة خاصة هي جوهر العبادة وركنها الركين، ومن ثم كانت العناية الشديدة التي يوجهها إليها الإسلام:

"والمسلم حين يتوضأ ينظف يديه من الوسخ الظاهر، وينظفهما كذلك مما اجترحتا من آثام. ولا يتم وضوؤه الحقيقي الكامل حتى يستشعر هذا المعنى، ويحس أنه يغسل عن يديه حقًّا ما اقترفتاه من الإثم. أي أنه يتذكر ما اقترفه من الإثم بيديه، ويتوجه إلى الله يطلب المغفرة.. ولعل هذا التوجه أن يجعله في المرة التالية يتوب..!

"وهو يغسل عينيه لينظفهما.. من التراب والوسخ.. وينظفهما كذلك من كل نظرة آثمة أو نظرة خائنة.. وحين يستشعر في نفسه هذا المعنى فلعله في المرة التالية أن يستحي من الذنوب!

"وهو يغسل أذنيه ويغسل ساعديه وقدميه على هذا النحو ذاته وهو يستشعر المعنى نفسه، فتتم له في كل مرة وفي آن واحد طهارة البدن وطهارة الروح.

"وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يوجه المسلمين لهذا المعنى ويكرره عليهم مرات كثيرة، يقصد إلى ذلك قصدًا، ويرمي لتثبيته في قرارة النفس. "إنه لا يريد أن يكون الوضوء –وهو مدخل الصلاة– "روتينًا" آليًّا يؤديه المسلم بحكم العادة وهو شارد الفكر غير عابئ الضمير. وإنما يريد أن يتوجه له المسلم بنفسه كلها وكيانه كله, وأن يعبر هذا المدخل إلى الصلاة بقلب خاشع وضمير متيقظ، فيكون ذلك تهيئة نفسية جميلة للحظة التطلع إلى

([1]) سورة آل عمران (110).

([2]) انظر فصل "العبادات الإسلامية" من كتاب "في النفس والمجتمع".

الله. اللحظة التي تربط الأرض بالسماء، تربط البشر بالخالق. تربط تلك الذرة الضئيلة الفانية بقوة الأزل والأبد، فتقبس منها النور والقوة والثبات و"الوجود".

"ولا يريد أن ينصرف الوضوء إلى معناه الحسي الظاهر فيفقد معناه!

"إنه إذا انحسر إلى مجرد تنظيف لظاهر الجلد، فقد يغني إذن عنه أي تنظيف! ثم يظل يفقد معناه وحكمته حتى يفقد أثره الروحي في أعماق النفس، أثر التطهر من الداخل، والتوجه إلى الله بنفس تنظفت حقًّا، ورغبت إلى الله حقًّا، بحكم ما اشتملت عليه من نظافة وطهور. والرسول المربي لا يريد أن يرين على قلوب الناس ما يطفئ تلك الإشراقة الجميلة التي تنبعث من الروح الطاهرة. أو يحول دون هذه الانتفاضة الحية التي تهتز بها النفس المتطهرة، فتنفض عنها ما علق بها من ركام الأرض ووعثائها، وما هبط بها من ضرورات ضاغطة وقيود عاتية، ثم تنطلق. جديدة.. حية.. شابة.. فتية.. مغسولة من الأدران.. تحلق في الأكوان، وتسبح في ملكوت الله.

"إن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يذكر الإنسان بدنه الظاهر وينسى روحه الباطنة. لا يريد أن يحجبه عالم الظاهر من عالم الخفاء. لا يريد له أن يكون تافهًا لا يرى من الأشياء غير ما تدركه الحواس! وإنما يريد له أن يأخذ الحياة بكل شمولها وكل عمقها. يريد له ألا يقف عند الظواهر المحسوسة بل ينفذ إلى ما وراءها في أعماق الضمير وأعماق الكون. يريد له أن يرى الحقيقة الكاملة. يريد له أن يرى الله.

"ثم يدخل المسلم في الصلاة.. يدخل ذلك العالم الواسع الفياض بمجالي النور".

"يدخل في تلك اللحظات العلوية العجيبة التي يتفتح لها القلب البشري -حين يتفتح- فإذا هو ينتقل من حدود الحس الضيقة، وينتقل من حدود الأرض، وينتقل من حدود "الواقع"، وينتقل من حدود "المعلوم" كله والمنظور. إلى ذلك العالم الذي لا حدود له ترى ولا غاية تدرك ولا ملمس يحس! عالم النور الغامر الذي ليست له حدود. النور الذي تدركه الأرواح، وتنهل منه الأرواح: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ".

"الصلاة التي تربط الإنسان بخالقه، فإذا هو كائن عجيب لا يشبهه شيء من خلق الله كله. كائن يقف بجسمه على الأرض وروحه تسبح في السماء. كائن قادر -في عجزه وطاقته المحدودة الفانية- أن يقوم بالمعجزة.. أن يقبس من الروح الخالقة. أن يحطم السدود والحواجز.

أن تنفسح جوانحه فيشمل الكون. أن تنفسح روحه فتشمل الحياة. أن ينفسح كيانه فيتذوق الخلد. ويتذوق حقيقة الوجود"[1].

والصيام.. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[2].

إنها التقوى لله غاية الصيام.. التقوى التي تنشأ من الطاعة؛ الطاعة التي تتطوع بالامتناع عن شهوات النفس وشهوات الجسد، في حين تملك ألا تمتنع ولا تطيع!

والصيام حين يؤدى على أصوله، ولا يكون مجرد امتناع عن الطعام والشراب.. حين يكون صيام النفس من الداخل لا صيام الأحشاء.. حين يتوجه به الإنسان إلى الله.. حين يحس أن كل خاطرة في نفسه، وكل إحساس في شعوره، وكل لفتة وكل نظرة وكل خالجة وكل سر، ينبغي أن تكون –في هذا الشهر خاصة– نظيفة متطهرة تصلح للصيام والتبتل، والتوجه الكامل إلى الله.. حينئذ تملأ التقوى القلب، وتنطلق الروح إلى آفاق عالية من النور المشرق الوضيء.

والزكاة.. تطهير من شح النفس، وإطلاق للروح من الأثرة البغيضة التي تحس بوجودها وحدها ولا تحس بالآخرين. إنها إحساس بالأخوة النبيلة التي تجمع الأسرة البشرية الواحدة، فإذا كلها قريب من قريب. وكل فرد فيها ذو رحم مع الآخرين. الأخوة التي تخرج بالإنسان عن الشعور "بالملك" فيما يمتلك. فليس هناك ملك خالص في الأسرة الواحدة. وإنما الناس شركاء في الخير، أصلاء في رزق الله العميم.

والحج. "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ، لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ

([1]) من فصل لم ينشر بعد في كتاب "قبسات من الرسول".

([2]) سورة البقرة (183).

أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"[1].

"والذين يذهبون إلى الحج صافية قلوبهم لهذه الفريضة، يحكون عجبًا ويحسون عجبًا.

"إن حالات "الوجد" التي تستجيشها في وجدانهم زيارة الأماكن المقدسة وأداء الفريضة فيها لهي حالات عجيبة نادرة المثال في واقع الحياة. حالات ترتفع فيها النفوس البشرية عن ملابسات الأرض، ومطامع الأرض، وشهوات الأرض، وتتجرد لله خالصة، تتوجه إليه أن يتقبلها في عباده، ويمنحها مغفرته ورضوانه.

"والشفافية التي يحسها الناس هناك، وهم يسيرون حيث سار الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ويصلون حيث صلى، وحيث تنزل عليه الوحي، وحيث جاهد وصبر، وحارب وانتصر.

"إنها مشاعر عميقة تهز الوجدان هزًّا، وتصل إلى أعماقه ... تصل إلى الكيان الخالص المصفّى من الأدران، إلى الجوهر المشرق المستضيء بنور الله، هنالك حيث أودعه الله ليتصل به ويلقاه"[2].

تلك هي العبادات "المفروضة".. ولكنها ليست كل عبادة الإسلام.

إن الإسلام يوسع معنى العبادة حتى تشمل كل الحياة. كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة. وكل عمل يتركه الإنسان تقربًا لله واحتسابًا فهو عبادة. وكل شعور نظيف في باطن النفس فهو عبادة. وكل امتناع عن شعور هابط من أجل مرضاة الله فهو عبادة. وكل ذكر لله في الليل والنهار فهو عبادة. ومن ثم تشمل العبادة الحياة. ويصبح الإنسان عابدًا لله حيثما توجه إلى الله.

وبهذا المعنى تصبح العبادة هي الصلة الدائمة بين العبد والرب، وتصبح هي التربية الدائمة للروح.

* * *

([1]) سورة الحج (27-35).

([2]) من فصل "العبادات الإسلامية" كتاب "في النفس والمجتمع".

هذه الصلة الدائمة بالله.. حبه وخشيته وتقواه. التطلع الدائم إليه واللجوء إلى حماه. الرضى بما يحبه ويرضاه. أي نتيجة تنتج عنها؟ وأي ثمرة تتوصل إليها؟

إنها نتائج شتى وثمار جنية كثيرة في كل اتجاه.

من ثمارها الإحساس الحي بالصلة الوثيقة بين الإنسان والكون. صلة التعاطف والقربى والحب والإعجاب. الإنسان بضعة من هذا الكون الهائل الفسيح. بضعة صادرة من ذات المصدر الذي صدر منه الكون. صادرة من إرادة الله. ومن ثم فهناك وشيجة القربى وصلة النسب العريق! هناك الصلة الحية التي تربط قلبًا بقلب، وشعورًا بشعور!

هذا التعاطف يحييه القرآن بوسائل شتى، منها إحياء مشاهد الكون وجعلها تتحرك حركة الأحياء:

"فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"[1].

"إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ"[2].

"وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا"[3].

"إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا"[4].

"لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ"[5].

"وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ"[6].

(1) سورة فصلت (11).
(2) سورة الانشقاق (1-5).
(3) سورة الشمس (1-4).
(4) سورة الزلزلة (1-5).
(5) سورة يس (40).
(6) سورة الحج (5).

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ"[1].

"لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ"[2].

"وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً"[3].

"وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ"[4].

ومنها جمع الخلائق كلها في حكم واحد وميزان واحد:

"سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[5].

"يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ"[6].

"وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ"[7].

"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ"[8].

ومنها رد الإنسان إلى منشئه من تراب الأرض وطينها وتربتها:

"وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا"[9].

"مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى"[1].

([1]) سورة فصلت (39).

([2]) سورة الحشر (21).

([3]) سورة الإسراء (12).

([4]) سورة التكوير (17-18).

([5]) سورة الحشر (1).

([6]) سورة التغابن (4).

([7]) سورة الروم (26).

([8]) سورة الأحزاب (72).

([9]) سورة نوح (17-18).

وهكذا ... وهكذا مما يربط وشائج القربى بين النفس والكون. ويعمق الإحساس بما بينهما من اتصال.

والفنون كما قلنا مرة تعالج هذا الأمر. ولكنها لا تصل به إلى هدفه. إن الاستمتاع بجمال الكون جزء أصيل من العقيدة الإسلامية. جزء مقصود، لما يحدث في النفس من رحابة أفق وسعة تصور وعمق وإدراك. ولكنه ينبغي أن يصل إلى غايته. يصل إلى الإحساس بالله. فيلتقي الفن بالعقيدة، والمتعة الحسية بالمتعة الروحية، وتصفو سريرة الإنسان بهذه السعة التي يحسها والشمول الذي يقدر عليه، فيصبح إنسانًا صالحًا. صالحًا لأن الحواجز قد زالت من نفسه حين وسع أفقه واتصل بالله.

* * *

ومن ثمارها حب الحياة في جميع الأحياء.

فإذا أحس الإنسان بالوشيجة الحية بينه وبين الكون الجامد لظاهر العين، الحي في حساب الروح، فإنه من باب أولى سيحس بالوشيجة الحية بينه وبين الأحياء. التي يشعر بحياتها الحس والروح على السواء.

والحديث الدائم عن الأحياء في القرآن، ولفت النظر إليها، سواء في عالم النبات أو الحيوان، ينتج هذا الأثر في النفس، فتحس بصلة القربى وعمق الاتصال. وتولد في الإنسان حبًّا لكل كائن حي، حتى وهو يصارع ما يضره من هذه الأحياء!

إنه يصارعها ليدفع أذاها عن نفسه، ولكنه –فيما عدا هذا– يحس نحوها بالصداقة والود، ويهفو لها بالوئام والسلام.

وهذا الإحساس –كالإحساس بالصداقة مع الكون الواسع– يعمل عمله في تهذيب النفس، وتطرية خشونتها وإزالة جفوتها. فإن التعود على شعور الصداقة والحب، وهو شعور رخيّ نديّ، يزيل التوتر الذي يصيب النفس من مجاهدة "الواقع" المادي والواقع الحسي، والذي يصيبها من الكدح الذي لا بد للإنسان منه لكي يعيش.

هذا التوتر– الذي ينشأ طبيعيًّا من عملية الكدح– هو حصيلة خطرة. إنه كالسموم التي تنشأ في داخل الجسم من عملية الطعام. لا بد أن تطرد. لا بد لها من مزيل.

([1]) سورة طه (55).

وإذا كان الجسم يتخلص من سمومه بطريقة ما، ويمرض إذا تراكمت السموم داخله.. فإن النفس كذلك ينبغي لها أن تطرد سمومها. وليس شيء يزيل سموم النفس كما يزيلها الحب. ذلك الروح العلوي الشفيف الذي تتمثل فيه عظمة الإنسان؛ تتمثل فيه نفخة الروح التي نفخها الله في قبضة الطين.

الحب على نطاقه الواسع. الحب لكل شيء ولكل موجود.

وهذا الذي يصنعه الإسلام، ويصنعه القرآن.

* * *

والحب كذلك للناس ... حتى والإنسان يصارع فيهم الشر ويصيبه منهم الأذى في الطريق!

إن العبادة الدائمة لله، والحياة الدائمة في كنفه، والتطلع الدائم إلى رضاه،.. تحدث هذا الشعور الوثيق بالحب لبني الإنسان.

الناس كلهم من خلق الله. إخوة في الخليقة.

والناس كلهم من طين الأرض. إخوة في المنشأ.

والناس كلهم صائرون إلى الله. إخوة في المصير.

والناس كلهم في نفس واحدة. إخوة في الإنسانية.

والناس كلهم، أو ينبغي لهم، أن يعبدوا الله ويلتقوا في حماه، إخوة في الاتجاه.

ومن هنا ينشأ الحب للإنسانية، والصلة بين بني الإنسان. ويروح الإسلام يغذيه بكل توجيهاته وكل تطبيقاته حتى يصبح جزءًا من العقيدة حيًّا ممتزجا بالكيان.

وحين يكون هذا هو المبدأ؛ حين تكون هذه هي الركيزة الموجودة في باطن النفس، فإن صراع الشر في الناس يكون هو الحالة الطارئة التي لا تلبث أن تزول. ويصير السلام هو الأصل في الحياة، والحرب هي الشذوذ.

وحتى لو طال الصراع واستمر، وحتى لو بلغ الأذى مبلغه، فليس هناك الحقد على بني الإنسان. إنما هو الكره للشر الذي في نفوسهم، والرجاء لهم في الوقت ذاته أن يهتدوا ويكفوا عن الطغيان.

وحتى إذا انقطع الأمل والرجاء فيهم، وصرح الشر، وأعلن القتال. فهو ليس قتال الوحوش ولا بربرية الحيوان وإنما هي مشاعر البشر المترفعة المستعلية على الأحقاد.

ذلك كان شعور الرسول وتوجيهه وهو يمنع التمثيل بالقتلى وينهى عنه أشد النهي. وكان شعوره وتوجيهه وهو يقول: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء, فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة"[1]. وكان شعوره وتوجيهه وهو يقول: "استوصوا بالأسارى خيرًا". وكان شعوره وتوجيهه وهو يقول عن قومه الغلاظ القساة الذين يرمونه بكل شر ويلتوون عليه كل التواء: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون". وذلك كان شعور المسلمين وسلوكهم في كل حرب دخلوا فيها، حتى في الحروب الصليبية حين أمكنهم الله من عدوهم الذي فسق وفجر ونقض كل عهود الأمان، ودخل على المسلمين في بيت المقدس فأعمل فيهم السيف وحول المسجد إلى بركة بشعة من الدماء. حتى حينئذ تذكر المسلمون إيحاء دينهم. وارتفعوا على أنفسهم وعلى البشرية كلها، فلم ينتقموا بالمثل من المجرمين!

ذلك الشعور الإنساني النبيل هو مفتاح الحياة الصالحة في الأرض. وهو وصية الله للناس في الأرض. وهو ثمرة العبادة الدائمة والاتصال الدائم بالله.

والدعوات "الإنسانية" الأرضية تحاول هذه المحاولة وتدعو إليها بكل سبيل.

وكل دعوة إلى الخير فهي خير..

ولكن الأمر الواقع هو أن كل دعوة إنسانية منقطعة عن الله والعقيدة لم تستطع أن تتجاوز حدود دارها، ولم يكن لها رصيد في واقع الأرض. إنها أحلام جميلة ومثل طائرة في الهواء ... أما الواقع الذي تحقق في واقع الأرض ودوّنه التاريخ، فهو واقع هذه العقيدة الإسلامية التي تستمد كيانها من الله. وهذه دعوة غاندي الإنسانية المرفرفة ما كادت تصل إلى الواقع حتى تحولت مع جيرانه المسلمين إلى عصبية دينية ووطنية لا ترعى حرمة ولا تخضع لمنطق ولا تحتكم لقانون. وهذه هي الشيوعية –الدعوة الإنسانية المزعومة– تؤيد اغتصاب

---

(1) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

اليهود لكيان العرب سنة 1948، وتؤيد فرنسا في الجزائر سنة 1960! وتعيش على "حمامات الدم" حتى مع "المواطنين"!

* * *

ومن ثمارها الاستعلاء على دفعة الجسد وموازنة ثقلة الأرض.

إن دفعة الجسد جزء من الكيان الحي للإنسان. جزء مطلوب لذاته، وهو موضع الرضاء الكامل، لا الكبت والاستقذار[1]. ولكنه مع ذلك حين يترك وحده يهبط بالإنسان عن مستواه اللائق بخليفة الله في الأرض. يهبط به إلى مستوى الضرورة وعالم الحيوان.

ويستعبد الإنسان نفسه لشهوته. فلا يملك نفسه منها، ولا يستطع تحررًا ولا انطلاقًا.

وليس في هذه العبودية سعادة للإنسان نفسه، بصرف النظر عن الآفاق العليا التي يعجز عن التحليق فيها، والتبعات الجسام الملقاة على عاتق الإنسان. ليس فيها سعادته لأنها تصبح سعارًا دائمًا لا يهدأ، وشواظًا لا ينطفئ ولا يكف عن اللذع والإحراق.

من أجل ذلك يعمل الإسلام على موازنته –لا كبته– بإطلاق الروح في ملكوت الله، وصلة القلب الدائمة به، فتهويمة الروح تخلع الإنسان قليلًا من تشبثه بالأرض، ونشوة القلب تخفف قليلًا من ثقلة الجسم. فيحس الإنسان بخفة في كيانه كما لو كان يسير على كوكب مخفف الجاذبية، فإذا خطواته رشيقة الحركة وإذا قفزته طيران!

* * *

ومن ثمارها الاستعلاء على كل قوة في الأرض.

فما وزن هذه القوى الأرضية كلها بإزاء قوة الله؟ لا شيء. لا شيء البتة على الإطلاق.

وإذن فلا عبودية لقوة من قوى الأرض. ولا ذلة ولا استكانة ولا خنوع.

كل قوة على الأرض إما أن تكون مهتدية بهدي الله مستمدة من نهجه وهداه. وإذن فهي حق. وإذن فينبغي أن تساند بكل ما في طاقة الإنسان من سناد.

([1]) انظر الفصل الخاص بتربية الجسم.

وأما أن تكون ضالة منحرفة عن الله. خارجة على نهجه مستكبرة على هداه. وإذن فهي باطل. باطل ينبغي أن يجاهد بكل ما في طوق الإنسان من جهاد.

ولا هدنة بين الحق والباطل.

إنه الجهاد الدائم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

جهاد تراعى فيه كل مبادئ "الإنسانية" كما رسمها خالق الإنسان. ولكنه جهاد. جهاد واستعلاء. لا ضعف ولا استخذاء ولا هوان: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[1].

في صميم عقيدة المؤمن أنه خير من كل قوة فاسدة على الأرض. وأقوى من كل قوة فاسدة على الأرض. أقوى ولو ضعفت قوته المادية أمام الباطل. أقوى ولو انهزم. أقوى ولو غُلب على أمره. أقوى ولو غلت قوته المادية عن الجهاد. أقوى بروحه المتصلة بالله. وأعز بروحه المهتدية بهداه.

وهذا الاستعلاء على الباطل، وهو عنصر أصيل في العقيدة الإسلامية والتربية الإسلامية، هو ثمرة من ثمار العبادة الدائمة والصلة بالله. ثمرة قد تجيء دفعة واحدة، وقد تجيء رويدًا رويدًا وتتمكن، ولكنها عنصر أصيل لا يكون بدونه إيمان.

* * *

ومن ثمارها استمداد القوة من الله تجاه "القوى المادية" التي تظن النظرة القصيرة أنها هي الواقع الحق وكل ما عداها أباطيل!

القوى الاقتصادية، والقوى الاجتماعية، والقوى السياسية، والقوى المادية. كلها حقائق. ولكنها حقائق صغيرة هزيلة، ليست لها "حتمية" وليس في يدها وحدها تقرير الأمور.

والعقيدة الحية تستطيع أن تصارعها كلها وتتغلب عليها وتوجهها الوجهة الصحيحة!

حين وقف أبو بكر في حروب الردة وحده، من كان يسنده من كل قوى الأرض؟

([1]) سورة آل عمران (139).

الجيوش لا تريد أن تحارب. والأفكار تجزع من حدوث الصدام. وأبو بكر وحده. وحده حتى من عمر بن الخطاب، أعنف الناس حماسة في الجاهلية وفي الإسلام!

فكيف وقف أبو بكر وانتصر، وضم إلى صفه قوة الجيوش وقوة الأفكار؟

هل شيء هو غير الإيمان؟

هل شيء هو غير تلك الطاقة الروحية العجيبة التي رباها الإسلام، والتي كانت أوثق الطاقات الروحية صلة بنبي الإسلام "ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ"[1]؟ ومن ثم صمدت وحدها وغيرت الميزان؟

* * *

من أجل ذلك يحرص الإسلام على هذه الطاقة الروحية ويضعها في المقام الأول. لأنها -في حقيقة الأمر- هي التي تنشئ الواقع المادي وتشكل ظروفه. هي التي تهدم وتبني، وتثبت وتمحو. هي الجوهر الحق، والمادة مجرد كساء.

وتلك طريقة الإسلام في تربية الروح. طريقة عميقة محيطة شاملة، توقع على كل وتر، وتلمس كل جانب حي. طريقة تشمل النشاط البشري كله وتحيط بكل جذوره. طريقة لا تدع شيئًا يفلت ولا شيئًا ينحرف عن السبيل.

وهي مهمة دائمة لا تسكن في نهار أو ليل. وإنما تصاحب الإنسان في كل عمل يعمله وكل سلوك يسلكه. بل تصاحبه في داخل نفسه، وتؤنس مشاعره وتشع عليه من نور الله.

([1]) سورة التوبة (40).

تربية العقل

قلنا من قبل: إن الكائن الإنساني وحدة مترابطة ممتزجة الأجزاء. لا ينفصل منه جسم عن عقل وعن روح. وقلنا: إننا سنضطر اضطرارًا إلى الحديث عن كل واحد على حدة، ولكنها ضرورة بحث لا رصيد لها من الواقع.

وفي هذا الفصل، والفصل الذي يليه[1]، سيتبين لنا مصداق هذه الحقيقة: حقيقة الترابط والامتزاج في الكيان البشري. لقد أفردنا فصلًا خاصًّا بتربية الروح لأنها هي القاعدة التي يقيم عليها الإسلام بناءه كله: تشريعاته وتوجيهاته، وتنظيماته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والفكرية ... ولكننا سنرى في هذا الفصل وفي الذي يليه، كيف تتصل التربية العقلية والتربية الجسمية كلتاهما بالقاعدة الروحية، وتمتزج بها، وتترابط معها، فإذا هي بناء واحد متكامل موحد الكيان.

سيبدو لنا أن منهج الإسلام يستمد كل ألوان التربية من تلك القاعدة الروحية، كأنما يستنبتها نباتًا من "تربة" الروح، فتخرج مشعة بإشعاعها، متأرجة بأريجها العذب، حتى وإن كانت فكرة عقل أو دفعة عضلات.

* * *

العقل البشري طاقة من أكبر طاقاته، ونعمة من أكبر نعم الله عليه.

"قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ"[2].

"والفؤاد" يستخدم في القرآن بمعنى العقل، أو القوة الواعية في الإنسان، أو القوة المدركة على وجه العموم.

ولقد فتن الإنسان بعقله، إذ استطاع به أن يميز بين الأشياء، ويدرك خصائصها، ويستنبط فوائدها، ويشكل صورًا جديدة من "المادة" التي وجد نفسه محاطًا بها على ظهر الأرض أو في السموات.

---

(1) تربية الجسم.

(2) سورة الملك (23).

وفي العصور الحديثة خاصة زادت فتنة الإنسان بعقله، حين رأى المخترعات التي ينتجها، والكشوف التي يقع عليها، وبلغت الفتنة قمتها بانطلاق الطاقة الذرية وانطلاق الصواريخ.

وكانت هذه الفتنة على حساب الروح. على حساب الطاقة التي تتصل بالله وتتصل بالمجهول.

وهي فتنة عمياء. لا تبصر فلو كانت تبصر ما رضيت أن تقص أجنحة الكائن البشري وتقعده عن الانطلاق، ليجثم على الأرض، في حين أنه قادر على ارتياد الأرض بقدميه في ذات الوقت الذي يرتاد بجناحيه فسحة السماء.

ولو كانت تبصر ما رضيت أن تبدد الطاقة الكونية الكبرى، طاقة الروح، لتُضخِّم الطاقة العقلية وتفرش مساحتها، في حين أن هذا العقل البشري على ضخامته لا يستطيع أن يهتدي وحده. ولا بد له من مدد مشع ينير طريقه في الظلمة. مدد من طاقة الروح.

إن كشوف العلم كلها ومخترعاته ليست هي التي توجه الحياة أو التي تحكمها، إنما الذي يوجهها ويحكمها هو طريقة الاستفادة من كشوف العلم ومخترعاته: أفي سبيل الخير أم في سبيل الشر، وفي سبيل السلم أم في سبيل الحرب. والعقل يميز ولا شك بين الخير والشر، ولكنه ليس هو الذي يقرر الطريق! فكثيرًا ما قرر عقل الإنسان أن كذا من الأمور خطأ ولا يجوز فعله، ثم اندفع إليه لانحراف روحه وانجرافها مع الشهوات!

الروح هي التي تقرر!

الروح الواصلة المهتدية تقرر طريق الخير، وتسخر العقل ليسير في طريقه.

والروح المنقطعة الضالة تقرر طريق الشر. وتدفع بالعقل في ذلك الطريق.

* * *

والإسلام دين الفطرة.

الإسلام يحترم الطاقات البشرية كلها، فهي هبة الله المنعم الوهاب، ولكنه يعطيها أقدارها الصحيحة. لا يبخسها قدرها. ولا يعطيها فوق قيمتها. ويستغلها جميعًا إلى أقصى طاقتها لفائدة المخلوق البشري وصلاح حاله على الأرض.

ومن ثم فهو يحترم الطاقة العقلية ويشجعها، ويربيها لتتجه في طريق الخير.

ولكي يصل إلى ذلك فإنه يمزجها بمزيج الروح, ويستنبتها- كما قلنا من قبل- في "تربة" الروح الأريجة المشعة، لتستمد من أريجها العذب وإشعاعها الطليق.

* * *

يبدأ الإسلام التربية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي، فيصون الطاقة العقلية أن تتبدد وراء الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها.

وهو يعطي الإنسان نصيبه من هذه الغيبيات، بالقدر الذي يلبي ميله للمجهول[1]. ولكنه يكل أمر ذلك إلى الروح، فهي القادرة على ذلك المزودة بوسائل الوصول. أما العقل فوسيلته إلى الله وإلى معرفة الحق، هي تدبر الظاهر للحس والمدرك بالعقل، ومن ثم يحدد الإسلام مجاله بهذا النطاق، ولا يتركه يغرق في التيه الذي غرقت فيه الفلسفة من قبل واللاهوتيات، فلم تصل إلى شيء حقيقي يستحق ما بذل فيها من جهد؛ إن لم تكن قد غبشت مرآة الفكر البشري، وشتتت ما ينعكس عليها من أضواء[2].

ثم بعد ذلك يأخذ في تدريب الطاقة العقلية على طريقة الاستدلال المثمر والتعرف على الحقيقة، فيتخذ إلى ذلك وسيلتين:

الوسيلة الأولى هي وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي.

والوسيلة الثانية هي تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط.

والوسيلة الأولى يصل إليها بطائفة من التوجيهات والتدريبات:

فهو أولًا يبدأ بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التي لم تقم على يقين، وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن. فينعي على المقلدين الذين يقولون:

---

(1) انظر بعد ذلك فصل "خطوط متقابلة في النفس البشرية".

(2) انظر فصل "لا تفكروا في ذات الله" من كتاب "قبسات من الرسول".

"إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ"[1]! "قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ"[2] وينعي على الذين يتبعون الظن: "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ"[3] "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا"[4].

ثم هو يأمر بالتثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه: "وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا"[5]. وهي مسئولية ضخمة، يبرز التعبير ضخامتها بإفراد السمع والبصر والفؤاد في مبدأ الأمر ليكون كل منها مسئولًا على حدة، ثم جمعها كلها بعد ذلك، وإشراكها في المسئولية، بهذا الجمع والتوكيد: "كُلُّ أُولَئِكَ". وذلك كله ليحس الإنسان بعظم التبعة وهو يقدم على الأمر، فلا يأخذ الأمور باستخفاف، ولا يأخذها بلا تثبت وهو عنها مسئول.

والتوجيهات في هذا الباب كثيرة، فأصحاب الكهف مثلًا يقولون: "هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ"[6] هلا يقدمون دليلًا واضحًا على هذه الآلهة التي يتخذها القوم من دون الله؟ دليلًا يتثبت منه العقل قبل اقتفائه؟ وفي حادث الإفك يقول القرآن: "لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ"[7]. والشهادة ضرورية في إقامة الحدود للتثبت في الأمر. فلا تؤخذ الأمور اعتباطًا وإنما ينبغي الوصول فيها إلى اليقين قبل إصدار الحكم. ودرء الحدود بالشبهات -وهو مبدأ فقهي إسلامي مأخوذ عن السنة- يشير إلى هذا الاتجاه، وهو ضرورة التثبت الكامل قبل النطق بحكم في أي موضوع. وأن الأمر يظل معلقًا ما لم يصل الإنسان إلى الدليل القاطع، وكلها توجيهات وتدريب للطاقة العقلية على طريقة العمل الصحيحة ومنهج التفكير السليم.

والوسيلة الثانية -وهي تدبر نواميس الكون- تطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم.

([1]) سورة الزخرف (23).

([2]) سورة البقرة (170).

([3]) سورة النجم (23).

([4]) سورة النجم (28).

([5]) سورة الإسراء (36).

([6]) سورة الكهف (15).

([7]) سورة النور (13).

إن نواميس الكون تجري في دقة عجيبة ونظام لا يختل. وفوق ما يوحيه ذلك للقلب البشري من تقوى الله الصانع المدبر والتوجه إليه في كل أمر، فإنه يعود العقل على دقة النظر وانضباط الأحكام، إن دورة الأرض ودورة الشمس ودورة الأفلاك ليست مضبوطة بالساعة ولا بالدقيقة ولا بالثانية ولا بالثالثة.. ولكنها مضبوطة بسرعة الشعاع الذي يقطع 186 ألف ميل في الثانية! والنظر في هذه الدقة المذهلة يعود العقل أن يدقق! فكل خلل بسيط في التفكير أو التقدير ينتج عنه أخطاء جسيمة، لو كان يحدث مثلها في الكون لانفلت عقده وتهاوى ما فيه من أفلاك! والعقل قمين –حين يرى تلك الدقة والترابط– أن يحاول ضبط أفكاره وربطها، والوصول إلى الكليات التي تربط الجزئيات وتحكمها– كما يرى في نظام الكون الكبير.

وقد انطبع تفكير المسلمين بهذه الدقة العلمية –على الرغم من قلة ما كان بأيديهم يومئذ من الآلات والأدوات– فوصلوا إلى كشوف علمية تثبت لهم الجد في التحصيل والصدق في التفكير، كما ثبت لهم قدرًا من الدقة يعتبر مثاليًّا بالنسبة لذلك الحين. وأبحاث ابن الهيثم في البصريات، وأبحاث البتاني الذي قاس بالدقة دورة الأرض حول الشمس وحسب بالدقة مواعيد الكسوف والخسوف، تعتبر شاهدًا على طريقة تأثر العقل الإسلامي بمنهج التربية الإسلامية في تربية العقول.

* * *

يوجه الإسلام الطاقة العقلية أول ما يوجهها إلى التأمل في حكمة الله وتدبيره. وهو أمر أقرب ما يكون إلى مملكة الروح.

الله الخالق المدبر الذي خلق السموات والأرض بالحق، ويدبرها بالحق.. ذلك موضع التأمل.

وهو بحر واسع من التأملات لا ينتهي ولا ينفد ... ولقد عالجته الفلسفات من أول ظهورها إلى اليوم. ولكن في ذهنيات مجردة جافة لا تنبض بالحياة ولا تصل إلى غاية. بينما يمزجها القرآن بنداوة الروح فتنبض، وتسري الحياة إليها فتهز القلب البشري وتربطه بالله[1].

إن هذا التأمل ليس مقصودًا لذاته، ليس مقصودًا به أن يصبح فلسفة! يتعاظل فيها الفلاسفة ويغمضون ويبهمون. ثم لا ينتهون إلى شيء!

---

(1) انظر فصل "لا تفكروا في ذات الله" في كتاب "قبسات من الرسول".

إنما غايته إصلاح القلب البشري، وإقامة الحياة في الأرض على أسس من الحق والعدل الأزليين الكامنين في بنية الكون وبنية الحياة.

يكرر القرآن هذه الحقيقة في كثير من آياته:

"وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ"[1].

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ"[2].

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ"[3].

"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"[4].

"خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ"[5].

"مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ"[6].

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا"[7].

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ"[8].

"وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ"[9].

"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ"[1].

([1]) سورة الأنعام (73).

([2]) سورة إبراهيم (19).

([3]) سورة الحجر (85).

([4]) سورة النحل (3).

([5]) سورة العنكبوت (44).

([6]) سورة الروم (8).

([7]) سورة ص (27).

([8]) سورة الدخان (38).

([9]) سورة الجاثية (22).

الحق إذن في بنية الكون ذاته يوم خلقه الله. فقد خلقه بالحق، فامتزج الحق في كيانه، وارتفع عن الباطل والضلال.

فالكون لم يوجد مصادفة، ولم يوجد باطلًا، ولم يوجد عبثًا. وكذلك الإنسان:

"أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ"[2].

وفي آية التغابن يربط بين خلق السموات والأرض بالحق، وخلق الإنسان في صورته الحسنة: "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ" فيجعل خلق الإنسان على صورته التي هو عليها جزءًا من الحق الذي خلقت به السموات والأرض. كما يربط في آية الجاثية بين خلق السموات والأرض بالحق، وجزاء كل نفس بما كسبت: "وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ" فيجعل الجزاء الأخروي جزءًا من الحق الذي خلقت به السموات والأرض. كما جعل الرجعى إلى الله حقًّا ينفي به عن الله سبحانه وتعالى العبث في الخلقة: "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ؟". وبذلك يكون الإنسان منذ نشأته إلى رجعته، إلى توفيته الجزاء يوم الجزاء، قائمًا بالحق في كل مرحلة، محاطًا بالحق في كل خطوة، لا باطل في خلقته ولا عبث ولا لهو ولا انحراف.

هذا المعنى عميق جدًّا في بناء الفكرة الإسلامية. والقرآن لا يزال يلح في توكيده، والتوقيع على الحس البشري ليتنبه إليه. إنه أساس العقيدة الذي تنشأ عليه الحياة.

الحق في السموات وفي الأرض وفي الناس والحياة.

والقرآن ذاته هو الحق. ونزل بالحق.

"وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ"[3].

وفي هذا الجو المشبع "بالحق" يربي الإسلام النفس البشرية، فيعمق في شعورها الإحساس بالحق حتى يصبح هو العقيدة ويصبح هو الحياة.

([1]) سورة التغابن (3).

([2]) سورة المؤمنون (115).

([3]) سورة الإسراء (105).

إنه لا شيء يحدث باطلًا، ولا شيء يحدث اعتباطًا. كل شيء بالحق ... ولقد يعجز الذهن البشري أحيانًا عن أن يحيط ببعض الحقائق التي تصادفه في حياته فيضل. يضل فيظن أن الحياة باطل وكل شيء فيها عبث لا حكمة فيه.. ومن ثم تتشتت روحه وتنفجر وتتناثر، وتفقد "الحق" الذي يسير كيانها.. فتضيع.

وكأي من روح ضالة أضلها هذا الوهم وشردها وشتت كيانها، فعاشت بلا هدف. شقية معذبة. لا هي تصل إلى غاية، ولا هي تقدر على إنتاج مفيد.

وكأي من روح ضالة أضلها هذا الوهم فغرقت في الشهوات، تغرق في كأسها المدنس شقوة العذاب.

وكأي من روح ضالة أضلها هذا الوهم فطغت وتجبرت وراحت تنشر الفساد في الأرض، والمظالم في الناس.

وألوان من الضلالات شتى، منبعها كلها هذا الوهم الباطل: أن الحياة بلا غاية والكون بلا ناموس!

من أجل ذلك يهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بلفت الحس البشري إلى "الحق" في السموات والأرض والحياة والإنسان. ويجعل التدبر في هذا الأمر جزءًا من العقيدة، تقوم به القوة الواعية في الإنسان. وتقوم به في جو من إشراقة الروح، حتى لا تذهب بددًا وتتيه في الظلمات:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"[1].

فأولو الألباب "يتفكرون". يستخدمون قواهم الواعية في تدبر آيات الله في الكون وتأملها. ولكنهم لا يتفكرون فكرًا مجردًا ذاهلًا عن الواقع المحسوس، هنالك في الأبراج العاجية، حيث لا يصلون إلى شيء. ولا يتفكرون كذلك بمعزل عن الله، فيضلوا، إنما يتفكرون وهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ومن ثم يتصل الفكر عندهم بالله،

(1) سورة آل عمران (190-191).

ويتصل "العلم" كذلك بالله[1]. وهم لا يتفكرون في الله وآياته هكذا بلا هدف. وإنما هم يصلون إلى هدفهم سريعًا: "مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا". فيعرفون لتوّهم أنه الحق. ويلاحظ أن الآية لم تفصل بين التفكر وبين نتيجة التفكر، ولا حتى بكلمة "يقولون": "وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا". فكأنما التفكر ونتيجته شيء واحد متصل متلاحق سريع. ثم هم لا يقفون عند النتيجة "الذهنية" التي انتهوا إليها من التفكر "وعرفوها". لا يقفون عند المعرفة في ذاتها بلا غاية. فالمعرفة ما لم تؤد إلى شيء.. ما لم تؤد إلى غاية في حياة الإنسان. فوجودها وعدمها سيان. وإلا فكم من حقيقة "موجودة" في الكون. ولكنها ليست موجودة بالنسبة للإنسان، حتى يتفاعل معها، وينتج عن تفاعله معها شيء ما في حياته الواقعية على الأرض.. لذلك لا يقفون عند المعرفة الذهنية، وإنما تتحرك في الحال قلوبهم وأرواحهم بالتسبيح: "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ".

ثم لا يقفون عند التسبيح المجرد. لا يقفون عند مجرد الاعتقاد في الله وتسبيحه. إنما هم يصلون من ذلك إلى الإيمان الكامل الذي يشمل الحياة كلها والأعمال والمشاعر والأفكار. يصلون إلى المنهج الإيماني الذي يعيشون به على الأرض، وينفذونه في واقع الحياة، ويجاهدون في سبيله:

"رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"[2].

إن هذه الآيات هي المنهج الكامل للتأمل الإسلامي في ملكوت الله. وهي التوجيه الذي يوجه العقل في أول مهمة من مهامه: مهمة تدبر آيات الله في الكون.

إنها تبدأ بالتفكر وتنتهي بالعمل. العمل بمقتضى الدستور "الحق" الذي نزل به القرآن.. والجهاد في سبيل إقرار هذا الدستور، وتسيير دفة الحياة على نهجه وشريعته. ثم تصل إلى

([1]) انظر فصل "طلب العلم فريضة" في كتاب "قبسات من الرسول".

([2]) سورة آل عمران (191-195).

الغاية القصوى. تصل إلى الجزاء في الآخرة فتصل الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة. وتصل البشر بالله.

منهج مذهل في دقته وتكامله وروعة توجيهه ... كله في ست آيات!

وحين يقيس الإنسان هذا اللون من التوجيه للطاقة العقلية في تدبر حكمة الله وتدبيره، بالفلسفة قديمها وحديثها، والمعاظلات الذهنية المنبثة في تضاعيفها، يدرك في الحال عظم الفرق، وعظمة المنهج الإلهي في تربية العقل البشري. ويعلم أنه سبحانه خلق كل شيء بالحق. وجعله منهجًا لإقامة الحق في الحياة.

* * *

وقد كان العقل الأوربي قد شطح وهو يبحث في آيات الكون حتى زعم أن الكون بلا خالق، وأنه حدث مصادفة، وأنه لا قاعدة له ولا ناموس!

ثم فاء أخيرًا إلى الحقيقة، فاء إلى شيء من "الحق" الذي خلقت به السموات والأرض والحياة والإنسان. وبدأ علماء الغرب يعرفون أنهم كانوا خاطئين في شطحتهم، مبتعدين عن العلم الصحيح.

يقول أ. كريسي موريسون في كتاب "العلم يدعو للإيمان:"

"إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة. وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الفاخرة لذكائه، إنما هي جزء من برناج ينفذه بارئ الكون".

"إن الإنسان ليكسب مزيدًا لا حد له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم. غير أن تحطيم ذرة دالتون –التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون– إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة، قد فتح مجالًا لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلًا جوهريًّا. ولم يعد التناسق الميت للذوات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالًا لوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة."

أما الفكر الإسلامي فلم يكن في حاجة إلى هذه الشطحة وهو يتأمل ملكوت الله، أو يبحث في العلوم المختلفة نظريها وتجريبيها، يوم كانت أوربا ما تزال غارقة في الظلمات، لأنه يفكر مهتديًا بالله، ويفكر بعقله المستضيء بإشعاع الروح[1].

* * *

ويوجه الإسلام الطاقة العقلية إلى النظر في حكمة التشريع:

"وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[2].

"وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[3].

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"[4].

"الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"[5].

"وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[6].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ

---

(1) انظر فصل "طلب العلم فريضة" في كتاب "قبسات من الرسول".

(2) سورة البقرة (179).

(3) سورة البقرة (184).

(4) سورة البقرة (219).

(5) سورة البقرة (229-230).

(6) سورة البقرة (241-242).

رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[1].

"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"[2].

"ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[3].

"وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ"[1].

([1]) سورة البقرة (282).

([2]) سورة النساء (23-26).

([3]) سورة المائدة (89).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[2].

إلخ. إلخ.

* * *

إن التشريع منزل من عند الله. ولكن القائمين به هم البشر. وينبغي أن يكون البشر واعين لحكمة التشريع، وإلا فلن يطبقوه على تمامه، ولن يطبقوه على وضعه الصحيح.

إن الحياة لا تسير آلية بحيث تنطبق عليها القاعدة التشريعية انطباقًا آليًّا. وإنما هناك مئات من الحالات للقاعدة الواحدة. وما لم يكن الإنسان فاهمًا للحكمة الكامنة وراء التشريع، وفاهمًا لترابط التشريعات في مجموعها، فلن يتمكن من تطبيقها في تلك الحالات المختلفة التي تعرض للبشر في حياتهم الواقعية. وقد عني القرآن كما هو ظاهر من آيات التشريع التي أوردناها بأن يوقظ العقل البشري لتدبر هذه الآيات. وفهمها، ووعيها، حتى يستطيع تطبيقها على خير وجه. وهناك كثير من آيات التشريع الأخرى في القرآن، لا يرد فيها التوجيه الصريح بالتدبر والتفكير ولكنها محمولة على هذا الأمر العام، الذي يدعو العقل للفهم والتبين، قبل التطبيق والتنفيذ.

وقد شهد الواقع الإسلامي جهدًا ضخمًا في ميدان الفقه. يعتبر تراثًا إنسانيًّا خالدًا. والكثير من هذا الفقه قد بقي حيًّا إلى هذه اللحظة، رائعًا بعمق ما فيه من استدلال. وقد كان انطلاق الفكر الإسلامي في هذا الميدان صدى للتوجيه القرآني الحكيم، بتدبر الآيات وتعلمها، والنهي عن الخوض فيها بغير عدتها الواجبة لها من العلم والتبين والتفكير.

ومنذ العصر الأول ظهرت –حتى في التشريعات التفصيلية الثابتة المحكمة– حالات تستدعي إعمال الفكر، وفهم الحكمة، وفهم الترابط العام بين جميع التشريعات. ومن ذلك عدم تطبيق عمر لحد السرقة على الفتيان الذين سرقوا ناقة ابن حاطب بن أبي بلتعة, لأنه اعتبر الجوع الذي يقاسونه شبهة تدرأ عنهم الحد وقال: "والله لولا أنني أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له، لقطعت أيديهم", وكانت حكمته في هذا التصرف مستمدة من وعيه بحكمة التشريع الإلهي في مجموعه.

([1]) سورة الأنعام (119).

([2]) سورة الجمعة (9).

التشريع الذي يجعل ولي الأمر مسئولًا عن كفاية الفقراء وإتاحة الحياة الكريمة لهم، قبل مطالبتهم بالتزام الفضيلة، وقبل معاقبتهم حين ينحرفون.

ومن جانب آخر فإن التشريعات المتعلقة بأمور متغيرة في الحياة البشرية، وهي سياسة الحكم وسياسة المال قد اقتضت حكمة الله فيها أن يشمل التشريع الأسس والمبادئ دون التفصيلات والأشكال، لأن أية تفصيلات وأية أشكال ستكون موقوتة بفترة معينة، بينما الأسس والمبادئ هي الإطار الذي ينبغي أن تسير الأمور في حدوده، متجددة بتجدد كل عصر ودرجته من العلم، ودرجته من التفاعل مع الكون المادي، وصورة المجتمع الذي يعيش فيه؛ ملتزمة مع ذلك بهذا الإطار العام لا تخالفه ولا تخرج عنه. ففي سياسة الحكم مثلًا ورد أساسان شاملان هما العدل والشورى: "وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ"[1] "وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ"[2]. ولكنه لم يبين أي طريقة تكون عليها الشورى. أهي مجمع من رؤساء القبائل والعشائر؟ أم مجلس برلماني. منتخب أو معين. أم مجلسان. أم ... أم.. لأن هذه صورة متغيرة بتغير صورة المجتمع وإمكانياته. وجاء في سياسة المال: "كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ" فقرر كراهية حصر المال في يد فئة قليلة يتداولونه بينهم وبقية الأمة محرومة منه. أما طريقة اشتراك الأمة في الخير المشترك فقد تركها لكل جيل يصوغها في الصورة التي تلائم ظروفه وعلمه وإمكانياته، بحيث لا يخرج على تلك القاعدة الكبيرة، فلا يلجأ مثلًا إلى الإقطاع أو الرأسمالية كما فعلت أوربا. ولا يلجأ لنزع الملكية جميعًا كما صنعت الشيوعية[3].

ولهذا وذاك طلب يقظة الإنسان لحكمة التشريع الإلهي. ووعيه وتدبره، ضمانًا لسير الأمور في الأرض على نهج من العدالة والحق المستمدين من العقيدة في الله.

ولكن ينبغي لنا أن نلاحظ كيف امتزج التشريع دائمًا بالتوجيه إلى الله، لا تكاد تخلو آية تشريعية في القرآن كله من ذكر الله، والتوجيه إلى خشيته. والترغيب في مثوبته ورضاه.

لقد كان من مزايا هذه العقيدة الكبرى أنها أطلقت العقل البشري يعمل في أوسع نطاق متاح على الأرض. ولم تغلق عليه الأبواب أو تجمده في قوالب مصبوبة لا فكاك منها. وكان من آيات الإسلام الكبرى أنه في دعوته إلى الإيمان بالله لم يقهر العقل بالخوارق القاهرة

([1]) سورة النساء (58).

([2]) سورة الشورى (38).

([3]) انظر فصل "أنتم أعلم بأمور دنياكم" في كتاب "قبسات من الرسول".

التي يعنو لها الفكر, ولا بأسرار لا حيلة له فيها ولا اختيار. بل خاطبه ووعّاه وأيقظه وناقشه. وجعله يشترك في عملية الإيمان الواعية، الجديرة بالإنسان الذي كرمه الله بالأفئدة والأبصار.

ولكنه كما قلنا من قبل لم يدعه يحمل العبء الثقيل وحده فلا ينهض به. وإنما أعطاه دائمًا إشعاعة من قبس الروح المضيئة تضيء له الطريق، وزوده دائمًا بنور الإيمان. وكان في ذلك ملبيًا لطبيعة الفطرة. ملبيًا لحقيقة الكيان البشري الذي لا تنفصل فيه طاقة عن طاقة، ولا جزء عن بقية الأجزاء.

وكما أطلقه من قبل يتدبر آيات الله في الكون، ليهتدي إلى "الحق" في خلق السموات والأرض والحياة والإنسان، ويعمل بمقتضى هذا الحق، ويجاهد في سبيل إحقاقه، فكذلك يطلقه هنا يفهم حكمة التشريع ليهتدي إلى ذلك "الحق" فيعمل بمقتضاه.

ومن هنا يمتزج التشريع بالتوجيه، وتمتزج الأحكام بالتقوى التي تضيء الوجدان.

ولم يكن ذلك تلبية لفطرة النفس الداخلية فحسب، بل كانت كذلك خير سياسة تضمن سير الأمور في المجتمع بدافع من الرغبة لا بدافع الخوف من العقاب.

لقد شرعت العقوبات لضمان تنفيذ الحد الأدنى من التشريع الذي لا يقوم المجتمع بدونه. ولكن ذلك لم يكن كل هدف الإسلام. فهو يكفي لحفظ المجتمع من السقوط، نعم. ولكنه لا يكفي لترقية المجتمع وحثه دائمًا إلى الأمام. فهذا أمر تقوم به الرغبة المنبعثة من داخل الضمير. الرغبة النبيلة المتطوعة التي لا تبحث عن حدود القانون لتقف عندها ملقية أثقالها، نافضة يديها. وإنما تبحث عن الآفاق العليا تحاول الصعود إليها. وتجد لذاتها في ذلك الصعود. وهذا لا يجيء بالتشريع. وإنما يجيء بالتوجيه. توجيه القلب إلى الله، ووصله به والتطلع إلى رضاه.

وهما أمران متلازمان.. الحد الأدنى المفروض، والحد الأعلى المطلوب. ومن ثم تلازم التشريع والتوجيه في القرآن، وامتزجا فهما شيء واحد عسير التفريق!

* * *

ويوجه الإسلام الطاقة العقلية كذلك لضمان سير الأمور في المجتمع على منهج صحيح.

إنه لا بد للمجتمع من سياسة. سياسة ينفذها الحاكم والشعب، على التشاور بينهما والتضامن و "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"[1].

وما لم تكن هذه السياسة واعية، فإن الفساد يتطرق للمجتمع، وتنهار الدولة ويستولي عليها الأعداء.

وكل فرد من الأمة المسلمة مطالب بالرقابة على المجتمع، مسئول عن كل ما يقع فيه، وإلا أصابه جزاء غفلته ولو لم يكن هو ذاته من الظالمين. "وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً"[2]. وإنما تصيبكم جميعًا جزاء قعودكم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"[3]. "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه. وهو أضعف الإيمان"[4]. "إن الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم"[5].

هذا التكافل في المجتمع، والرقابة على سير الأمور فيه، يقتضيان وعيًا كافيا ويستلزمان عقولًا ناضجة. ولا بد من توجيه الطاقة العقلية للعمل في هذا الميدان، فهذا هو الضمان لحسن سير الأمور.

والقرآن يوجه المسلمين في ذلك توجيهات شتى. فهو مرة يبصّرهم بأعدائهم الذين يتربصون بهم لِيَحْذَروهم، ويكونوا على الدوام متيقظين لهم واعين لمؤامراتهم ودسائسهم. وتارة يوجههم لطريقة تلقي الأنباء والتصرف في الأمر حتى تشيع الشائعات حول أمر من الأمور. وتارة يوجههم إلى حسن الحكم على الأشياء والأشخاص، وعدم التسرع في إصدار حكم على أمر لم تتبين كل خطوطه، وتارة يوجههم لطاعة أولي الأمر في حدود طاعة هؤلاء لله والرسول, وهكذا وهكذا:

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) سورة الأنفال (25).

(3) سورة المائدة (78-79).

(4) متفق عليه.

(5) رواه ابن ماجه وابن حبان.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"[1].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"[2].

"وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا"[3].

"فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ؟"[4].

"قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[5].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"[6].

ويلاحظ في هذه الآيات والكثير غيرها مما يجري مجراها، ما لاحظناه من قبل من أن كل توجيه تنظيمي يصحبه ويلزمه التوجيه إلى الله والدعوة إلى تقواه. وهذا عدا التوجيهات الإيمانية الأخرى في هذا الموضوع بالذات. التوجيهات التي ترد القيم الاجتماعية كلها إلى الله، والإيمان بالله، وتجردها من كل قيمة زائفة من قيم الأرض، سواء كانت هذه القيمة سلطاناً

(1) سورة آل عمران (118-120).

(2) سورة النساء (59).

(3) سورة النساء (83).

(4) سورة النساء (88).

(5) سورة المائدة (100).

(6) سورةالحجرات (6).

عاتيًا في الأرض، أو جاهًا كاذبًا، أو مالًا يفتن عن الإيمان، أو ترفًا يفسد النفس ويفسد العزيمة، أو إشراكًا بالله قوة من قوى الأرض الهزيلة الفانية. وذلك كثير جدًّا في تضاعيف القرآن، تستخدم له كل وسائل البيان من موعظة مباشرة، إلى أمر إلى نهي، إلى قصص تمثيلي، إلى قصص واقعي. وكلها تهدف إلى هدف واحد: هو إيقاظ القلب البشري للقيم الحقيقية الواجبة الاحترام الجديرة بالاتباع، وإيقاظ العقل لتدبر هذه القيم ووزن الأمور وزنها الصائب، لتسير الأمور في المجتمع على هذا النور، ولا ينخدع الناس بالقيم الزائفة فينحرفوا عن سبيل الله، ولا تفتنهم قوة زائلة أو جاه زائف أو مال فاتن أو شهوة مندفعة، عن المصلحة الاجتماعية الحقيقية المتمثلة في توجيه الله ومنهج الله.

* * *

ويوجه القرآن الطاقة العقلية إلى النظر في سنة الله في الأرض وأحوال الأمم والشعوب على مدار التاريخ.

"قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ، هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ"[1].

"أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ"[2].

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"[3].

"فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ، وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ"[4].

([1]) سورة آل عمران (137-138).

([2]) سورة الأنعام (6).

([3]) سورة الأنعام (11).

([4]) سورة الأعراف (136-137).

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[1].

"وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ، ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"[2].

"أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ"[3].

"أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ"[4].

"وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ"[5].

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"[6].

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ"[7].

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ

([1]) سورة الأعراف (96).

([2]) سورة يونس (13-14).

([3]) سورة هود (18-20).

([4]) سورة يوسف (109).

([5]) سورة الحج (40-41).

([6]) سورة النور (55).

([7]) سورة النمل (69).

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ"[1].

"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"[2].

"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ"[3].

* * *

هذه الدعوة المتكررة تلفت النظر ولا شك. إنها دعوة تلح على الناس أن ينظروا في تاريخ من قبلهم، ويدرسوا عوامل الفناء والبقاء في المجتمعات، دراسة واعية متفتحة بصيرة مُعْتَبِرَة.

إنها ليست دعوة "لحفظ" التاريخ من أجل الامتحان فيه آخر العام! وليست دعوة للتفكه بدراسة التاريخ والتظاهر بالعلم! إنها دعوة للنظر والاعتبار. دعوة للاستفادة من تجارب البشرية السابقة. دعوة ذات منهج مرسوم.

إن تاريخ الأمم وحياة المجتمعات في نظر الإسلام -وهو كذلك في واقع الأمر- ليس أطوارًا متعاقبة بغير معنى، ولا هدف، ولا غاية، ولا نظام معروف. إنها تتبع سنة معينة. "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا"[4]. سنة الله التي تعمل بما أودعه الله في الإنسان من طاقات واستعدادات، وما أعطاه من قدرة على الاختيار بين أحد طريقين: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"[5].

([1]) سورة القصص (4-6).

([2]) سورة الروم (9).

([3]) سورة غافر (21).

([4]) سورة الأحزاب (62) انظر "معركة التقاليد" فصل "حقائق وأباطيل".

([5]) سورة الشمس(7-10).

إنها طريقان لا ثالث لهما: الهدى أو الضلال. الاهتداء بما أنزل الله على عباده من منهج، وما وجههم من توجيه، أو الانحراف عن طريق الله الواضح المبين. الهدى يتبعه الخير والبركة والتمكين في الأرض. والضلال يتبعه الفساد والضعف والانحلال والفناء، ولو ظل الباطل يقاوم ويعاند، ولو ظل متماسكًا فترة من الوقت يبهر الأنظار.

وليس للبشرية في تاريخها كله سوى أحد هذين الطورين المتغايرين.. مهما بدا في الظاهر من "تطور"، وتغير، وانتقال.

ليست العبرة بالقوة المادية: "كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ". ليست بإثارة الأرض واستغلال مواردها. ليست بالتمكين المادي: "كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا". ليست بتغير وسائل الإنتاج. ليست بأي شيء يقع خارج النفس. إنما العبرة بالنفس من داخلها. مهتدية أم غير مهتدية. مستغلة لقوى الأرض المادية في سبيل الخير أم في سبيل الشر.

إن التفسير المادي للتاريخ ليبدو في نظر الإسلام -وكذلك في الواقع- قزمًا ضئيلًا يمسك في يده مفتاحًا كلعب الأطفال يحاول به أن يفتح الباب الضخم.. باب التاريخ! إنه يغفل الحقائق الكبرى ويهتم -كالأطفال- بالبريق الظاهر، ويقصر همه على ظواهر الأشياء.

إنه يغفل حقيقة بديهية هي أن وسائل الإنتاج المادي لم تكن قط هي المقرر لوقائع التاريخ. إنما طريقة استخدام وسائل الإنتاج، والروح التي تستخدم بها، هي التي تقرر وقائع التاريخ!

في عهد "الزراعة" وجد الإقطاع في أوربا ولم يوجد الإقطاع في الإسلام. لأنه لم تكن في أوربا عقيدة هادية في توزيع المال على الناس. وكانت في الإسلام عقيدة هادية تأمر بتوزيع المال على الجميع "كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ"[1] فلم يوجد قط الفلاح المستعبد للأرض، الذي يباع معها ويمتلك معها، ولا يستطيع مغادرتها وإلا أمسك به القانون ورده لصاحبه يفعل فيه ما يشاء!

في عهد "الصناعة" وجدت الرأسمالية والشيوعية متجاورتين في الأرض، وكل منهما له طريقته في التوزيع!

([1]) سورة الحشر (7).

وفي كل عهد يمكن أن يستخدم الشيء الواحد ذات اليمين وذات الشمال، بحسب ما "يعتقد" الناس أنه الحق. أو بحسب ما تجرفهم إليه الشهوات والأهواء.

وليست "الأطوار" التي يرسمها التفسير المادي للتاريخ إلا أطوار الحضارة المادية في الأرض. ولكنها ليست أطوال التاريخ، ولا أطوار الإنسان. فقد كان الإنسان مهتديًا في كل عصر من عصور التاريخ، وكان ضالًّا في كل عصر من عصور التاريخ، فلم يقيده شيء من الأطوار المادية بهدى أو ضلال. ولم يرسم له التقدم المادي طريقًا معينة يتحتم عليه المسير فيها، ولا كانت لهذا التقدم في ذاته دلالة معينة في خط سير البشرية. وأوضح الأمثلة على ذلك هذا العصر الذي نعيش فيه. العصر الذي وصل فيه التقدم العلمي والمادي إلى ذروته، ووصلت الإنسانية إلى حضيضها من التقاتل الوحشي والتخاصم الذي يقطّع أواصر الإنسانية ويجعلها تعيش في رعب دائم وخوف من الدمار، كما وصلت إلى الحضيض في تصورها لأهداف الحياة وغاية الوجود الإنساني وحصرها في اللذة والمتاع، وانحطاطها –تبعًا لهذا التصور– إلى أحط دركات الانحلال الخلقي والفوضى الجنسية التي يعف عنها الحيوان[1]!

والإسلام يوجه القلب البشري أن يفتح بصيرته على عوامل التطور الحقيقية في المجتمعات، ويستخدم طاقته الواعية في تدبرها والبحث في أسبابها ونتائجها، بما يعرض عليه من الأمثلة التاريخية المتعددة التي تحققت فيها سنة الله الخالدة: سنة التمكين للمؤمنين –حين يؤمنون الإيمان الحق– والتدمير على الكافرين ولو استكبروا بباطلهم بعض الوقت وعتوا في الأرض مفسدين. سنة دائمة لا تتغير. النصر للإيمان. والخذلان للكفر. وإن بدا في لحظة من اللحظات أن الواقع هو النقيض!

إن القرآن يوجه القلوب والعقول ألا تستعجل النتائج. فهي لا بد آتية حسب السنة الماضية التي لا تتبدل. وأعمار الأفراد ليست هي المقياس. والجولة العارضة ليست هي الجولة الأخيرة. قد ينتصر الباطل فترة من الوقت ويزدهر ويتمكن ويعلو في الأرض. ولكن هذا ليس نهاية القول ولا نهاية المطاف. إنه جزء من سنة الله المتشعبة الجوانب. قد يكون لأن الناس ضعفوا واستكانوا ولم يطلبوا التغيير: "إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"[2]. وقد يكون لأنهم استطابوا الظلم: "كيفما تكونوا يول عليكم"[3]. وقد يكون فتنة للذين ظلموا

([1]) انظر "معركة التقاليد".

([2]) سورة الرعد (11).

([3]) رواه الحاكم.

"لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1] وقد يكون الله يريد أن يمحص المؤمنين ليحملوا العبء على سلامة وتمكن واستعداد: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ"[2] وقد يكون.. وقد يكون.. ولكن السنة دائمًا واحدة لا تتبدل. ماضية لا تتخلف ولا تنحرف عن السبيل.

ومن ثم فالمسلمون مطالبون بدراسة التاريخ وتأمله ليحفظوا هذه العبرة وليفيدوا منها في تصحيح منهجهم والاهتداء به إلى سواء السبيل.

ومنهج التاريخ الإسلامي وعلم الاجتماع الإسلامي من ثم يفترقان عن منهج التاريخ ومنهج الاجتماع الأوربيين في الوقت الحاضر افتراقًا أساسيًّا لا يمكن إغفاله. فهو ينبغي أن يكتب وأن يدرس على أساس هذين الخطين الرئيسيين في حياة البشرية: الاهتداء بهدي الله والانحراف عن سبيل الله، وأثر كل منهما في واقع التاريخ، وهو ذات العنصر الذي تغفله أوربا عمدًا، وتروح تدرس ظواهر الأشياء المنقطعة عن الحقائق الأصيلة في سنة الله وواقع التاريخ!

* * *

ثم يوجه العقل البشري إلى استخلاص الطاقة المادية وتذليلها لخدمة الإنسان.

"كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ"[3].

"فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ"[4].

"وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ"[5].

([1]) سورة النحل (25).
([2]) سورة آل عمران (139-141).
([3]) سورة الأعراف (160).
([4]) سورة الملك (15).
([5]) سورة الأعراف (10).

"وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ"[1].

إلخ.. إلخ.

يوجهه إلى استخلاص الطاقة المادية وقد وجهه من قبل إلى تدبر حكمة الله في الخلق، وأنه سبحانه خلق السموات والأرض "بالحق". ووجه إلى حكمة التشريع وأنها إقامة العدل والحق بين الناس في الأرض. ووجهه إلى طريقة إقامة المجتمع الصالح وأنها إطاعة الله ورسوله، وإطاعة أولي الأمر فيما يهتدون بهدي الله ورسوله. ووجهه إلى سنة الله الماضية في الأمم على مدار التاريخ، وأنها التمكين لمن يؤمنون بالله ويستخدمون مواهبه ونعمه في سبيل الخير "وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ"[2] والذل والهوان للذين يكفرون بالله ويستخدمون مواهبه ونعمه في الفساد في الأرض: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"[3]. فهؤلاء دمر الله عليهم حين لم يرعوا نعمته وكذبوا بآياته، وما كانوا في هذا التدمير مظلومين.

ويوجهه إلى استخلاص الطاقة المادية وقد وجه روحه من قبل إلى الارتباط بالله وخشيته وتقواه.. ومن ثم يعمل العقل البشري في استخلاص هذه الطاقة غير مفتون بها، ولا شاعر بأنها خلاصة الحياة وجوهرها الأوحد. فينتفع بثمارها وهو مالك لأمره منها، غير مستعبد لها ولا منجرف في طريقها.

وتلك نقطة حاسمة فيما بين الإسلام وغيره من النظم والعقائد والأفكار.

إن الإسلام لا يهمل واقع الأرض ولايهمل عالم المادة. والتاريخ هو الدليل.

لقد نشأ الإسلام في البادية العربية، في بلاد لا تعرف من الحضارة المادية إلا القليل الذي يهبط عليها من أصقاع الأرض مع القوافل الغادية الرائحة. ولا تهتم هي إلا بالشعر والحروب القبلية.. لا تفكر في علم ولا اختراع ولا بحث تجريبي ولا تفكير نظري.. ولكن الإسلام بعثها بعثًا عنيفًا متدفقًا كأنما هي سيل يتحدر من ارتفاع شاهق فيملأ السهول

([1]) سورة الأنبياء (80).

([2]) سورة الحج (40-41).

([3]) سورة الروم (9).

والوديان.. بعثها فإذا هي تنشط في كل ميدان من ميادين النشاط البشري: في العلم والعمل. في الحرب والسياسة. في الفقه والتشريع.. وما أسرع ما وقع المسلمون على علوم الإغريق والمصريين والهنود، من طب وفلك وطبيعة وكيمياء ورياضيات، فنهلوا منها في نهم، وانطلقوا يضيفون في كل فرع منها إضافات حية أصيلة، تقدمت بالمعرفة الإنسانية أشواطًا هائلة وعاها التاريخ، ووعتها أوربا بصفة خاصة، إذ قامت كل نهضتها الحديثة عليها، وإن كانت الخسة قد أدركتها، فتنكرت للمسلمين الذين تتلمذت على أيديهم في الأندلس وغير الأندلس، وراحت تحاربهم وتجليهم من الأرض، ثم تستعمرهم أبشع استعمار.

والمذهب التجريبي الحديث، الذي قام عليه كل "العلم" الأوربي، هو -باعتراف الأوربيين أنفسهم- تراث إسلامي أصيل. يقول هـ. ر. جب في كتابه "الاتجاهات الحديثة في الإسلام:"

"أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى أوربا في العصور الوسطى". وفي ذلك الاعتراف ما يكفي لإثبات جهد المسلمين الملموس في ترقية العلوم -نظريها وتجريبيها- وقت أن كانوا مسلمين.

ولكن هذا التقدم المادي -الذي قطعوا فيه أشواطًا عظيمة- لم يفتنهم قط ولم يخرج بهم عن إنسانيتهم! وتلك مزية الإسلام!

إن المسلمين لم يفتنهم التقدم المادي فينقطعوا عن الله ومنهجه وعبادته والسير على هداه.

لم يفتهم فينقطعوا عن عالم الروح.

ولم يفتنهم فيستغلوا علمهم في سبيل الشر.

لم يفتنهم فيحولهم إلى المادية الكريهة التي تسيطر اليوم على الغرب.

لم يفتنهم فينبذوا أخلاقهم جانبًا بحجة أنهم "تقدميون!"

بل سار العلم في ظلال العقيدة يكشف ويصل كل يوم إلى جديد، وهو ماض في طريق الخير، لأنه سائر في طريق الله[1].

* * *

ليس في حياة المسلمين تلك النفرة الكريهة بين الدين والعلم. ولا بين البشر والله.

ولقد أثرت في لا شعور الأوربيين تلك الأسطورة اليونانية النكدة، أسطورة بروموثيوس سارق النار، فشكلت مشاعرهم تجاه الله سبحانه، وانحرفت بهم عن نهجه وهداه.

"هذه الأسطورة تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة صراع دائم وضغينة وأحقاد. علاقة لا ترف فيها مشاعر الرحمة أو العطف أو المودة. ولا يهدأ أوارها حتى يشتغل من جديد.

"والمعركة قائمة على النار المقدسة: نار "المعرفة". البشر يريدون أن يستولوا على هذه النار المقدسة ليعرفوا أسرار الكون كلها ويصبحوا آلهة. والآلهة تنكل بهم في وحشية وعنف، لتنفرد وحدها بالقوة، وتنفرد دونهم بالسلطان!

"تلك إذن هي طبيعة العلاقة بين البشر والله! العلاقة التي اندست في أوهام الأوربيين وصارت تصرف أفكارهم بغير وعي. العجز وحده هو الذي يخضعهم لمشيئة الله! وهم غير راضين عن هذا العجز ولا ساكتين عنه. فهم في محاولة دائمة يطلبون "القوة" ويطلبون "المعرفة". يحاولون دائمًا أن يقهروا هذا العجز. أو يقهروا –بلغتهم– قوة الطبيعة. أو –بلغتهم اللاشعورية أيضًا– ينتزعوا الأسرار! ينتزعوها من الإله الوثني القديم الذي كانوا يحاولون أن ينتزعوا منه ناره المقدسة!

"وبهذا الدافع الخفي المطبوع في أعماق النفس الغربية –في أعماق اللاشعور– يحس الغربيون أن كل خطوة يخطوها "العلم" ترفع الإنسان فوق نفسه درجة، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر!

"وتظل "المعركة" هكذا دائرة: كل فتح جديد من فتوحات العلم يخفض الإله ويرفع الإنسان، حتى تأتي اللحظة المرقوبة التي ينحلب لها ريق الغرب ويتلهف إليها. اللحظة التي "يخلق" فيها الإنسان الحياة، ويصبح هو الله"[1].

([1]) انظر فصل "طلب العلم فريضة" في كتاب "قبسات من الرسول".

هذه واحدة..

وفي أوربا التي يسيطر عليها العلم المنقطع عن الله، والمادة المنقطعة عن الروح، أحدث التقدم المادي الضخم انقلابًا خطرًا في كيان الإنسان. انقلابًا أدى به إلى أن يكون آلة حيوانية تعمل كآلالات.

"وقد كانت "الآلة" -في فترة طويلة من تاريخ البشرية- مصدر قوة سيكلوجية للإنسان.

"كان هناك عامل مهم في الموضوع. كان الإنسان هو الذي يدير الآلة! كان يشعر أنه هو القوة الموجهة، وأن الآلة خاضعة لإشرافه وتوجيهه. ومن ثم فهو المسيطر، وهو صاحب السلطان.

"ولكن الآلة تطورت بعد ذلك.

"لم تعد آلة يدوية، يديرها الإنسان بيده، ويشعر بالسلطان عليها، إن شاء وقفها، وإن شاء أطلق لها العنان.

"لقد تضخمت حجمًا حتى صار الإنسان بجوارها جرمًا صغيرًا لا يكاد يبين.

"وصارت لها قوة ذاتية تتحرك بها من الداخل. ولا يملك وقفها بطريقة مباشرة حين يريد.

"وتغير موقفه منها تغيرًا كاملًا داخل المصنع.

"فبعد أن كان العامل أو الصانع يصنع العمل كله بيده، أو بالإشراف على آلته وتوجيهها، صار العامل قطعة صغيرة من مجموع العمل. وصارت الآلة المعقدة تقوم بأجزاء كثيرة متعاقبة. ولم يبق للعامل إلا أن يقوم بدق مسمار أو ربطه، أو تقديم مادة خامة للآلة الضخمة التي تبتلعها في طرفة عين وتطلب المزيد.

"وهنا حدث انقلاب كبير في سيكلوجية الإنسان.

"فقد أخذ رويدًا رويدًا يفقد سيطرته على نفسه ويفقد في الوقت ذاته إنسانيته.

([1]) من كتاب "قبسات من الرسول" فصل "طلب العلم فريضة".

"لقد توغل شبح الآلة الضخمة في أعماق حسه، وصارت هي القوة القاهرة التي تملي عليه إرادتها، وتصرف حياته كما تريد.

"أحس الإنسان بالضآلة فانكمش داخل نفسه. انكمشت مشاعره الحية ورفرفاته المضيئة. انكمشت عواطفه المتدفقة وأشواقه المتطلعة إلى الأفق الطليق.

"ورويدًا.. رويدًا تصلبت أنسجة نفسه وجفت، فصارت كالآلة البليدة الصماء التي تسيطر على كيانه.

"وصارت حياته كلها روتينًا كروتين الآله! يبدأ في الصباح وينتهي في المساء.

"زرار واحد أو مجموعة أزرار تفتح في لحظة معينة مضبوطة كانضباط الآلة، فتشتغل الآلة النفسية مندفعة بما فيها من وقود مشحون. وتظل تعمل وتعمل وتعمل.. حتى يدق لها الجرس. وهنا يسكت العمل فجأة كما ابتدأ فجأة. يسكت كما تسكت الآلة حين يقطع عنها التيار.

"ثم تشتغل قطع أخرى من الآلة النفسية حين يجيء عليها الدور.

"أو تقف خامدة بليدة بلا حراك.

"ولكن الدفعة الحيوية البشرية المكبوتة منذ الصباح لا بد أن تنطلق في صورة من الصور، فهي لم تستهلك كلها في النشاط الآلي الجامد البليد.

"وإنها لتنطلق بالفعل. انطلاق البهيمة حين تفك عنها القيود.

"فورة جسد هائم مجنون. يهفو إلى جسد هائم مجنون.

"وتندفع الشحنة الحبيسة في متصرفها الحيواني، فتهدأ الأعصاب الثائرة لحظة ريثما تشحن في الغد بالطاقة المكبوتة التي تبحث عن التفريغ.

"وتصبح كذلك حياة الإنسان: آلية جافة جامدة لا مكان فيها للعواطف الحية أو الأشواق الرفافة، أو اللمسات الدقيقة العميقة، لا مكان فيها للتطلع إلى فكرة عليا أو إحساس كبير. وحيوانية هابطة تستغرق ما بقي من النشاط المذخور.

"وبهذا وذلك يتوارى "الإنسان" ويحل محله الحيوان الآلي الذي يملأ وجه الأرض في العصر الحديث"[1].

وهذه واحدة.

ثم ذلك الصراع المجنون الذي يمارسه الغرب اليوم. الصراع على الكسب المادي والغلبة عليه. الصراع الذي يهدد وجه الأرض بالدمار.

وهذه وهذه وتلك كلها نتائج لانقطاع الصلة بين الدين والعلم، وبين الإنسان والله.

ولذلك يحرص الإسلام أشد الحرص على ربط القلب دائمًا بالله، وتوجيه العقل -وهو يعمل في استنباط الطاقة المادية في الأرض- إلى حكمة الله من الخلق, وآياته في رحاب الكون.

العلاقة الدائمة بين العبد والرب في الإسلام هي علاقة المودة والحب والتطلع والرجاء.

والبشر لا يحتاجون إلى أن يصارعوا الله سبحانه ليحصلوا على المعرفة، فهو قد أعطاها لهم واهبًا منعمًا فياضًا بالإحسان. هو الذي وهب للناس "السمع والأبصار والأفئدة" وهو الذي "جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ" وهو الذي "رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ" وهو الذي "سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ" وهو الذي "عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ". فالرد على هذه المواهب الجليلة كلها هو الشكر والعرفان، والمودة والحب، وليس العصيان والكفران.

والعلاقة بين العقل والروح قائمة أبدًا لا تنفصم في منهج الإسلام. ومن ثم لا يضل العقل -وهو يتعلم- ولا ينحرف عن طريق الخير.. ولا يستخدم معلوماته في سبيل الشر.

والعلاقة بين الروح والمادة قائمة.. فلا تستعبد الإنسان المادة، ولا يقع فريسة للآلة تستعبده وتسيطر عليه. إنه حافظ لكيانه المتكامل، مستمد قوته من الله. ومن ثم يظل هو المسيطر وهو العنصر الإيجابي الفعال.

وتلك طريقة الإسلام في تربية العقل. "صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً"[1].

([1]) من كتاب "في النفس والمجتمع" فصل "الإنسان والآلة".

([1]) سورة البقرة (138).

تربية الجسم

حين نتحدث عن الجسم في مجال التربية فليس المقصود هو عضلاته وحواسه ووشائجه فحسب. وإنما نقصد كذلك الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم، والمتمثلة في مشاعر النفس. طاقة الدوافع الفطرية والنزوعات والانفعالات.. طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاق.

ودون أن ندخل في جدل مع علم النفس التجريبي الذي يقول: إن النفس كلها، بما فيها من مشاعر وأفكار وتصرفات إن هي إلا انعكاس الجسم بكيماوياته وكهربياته، ولا مع النظريات الفلسفية التي تقول إن الجسم مجرد وعاء للنفس. نقول: إن هناك اتصالًا وثيقًا بين النفس والجسم، وتفاعلًا مشتركًا، النفس تؤثر في الجسم، والجسم يؤثر في النفس، ولا انفصال بين هذه وذاك.

ولقد قدمنا في الفصول السابقة أن الكائن الإنساني وحدة متصلة مترابطة لا يمكن أن تحل إلى أجزاء، وإنما هي ضرورة البحث التي تملي علينا أن نتحدث عن كل جزء على حدة, وإن لم يكن كذلك في الحقيقة.

وهنا بصفة خاصة لا نستطيع أن نفصل بين النفس والجسم. لا نستطيع أن نتحدث عن نشاط جثماني واحد لا يدخل في نطاق النفس. السمع والبصر والذوق والشم واللمس كلها حواس. حواس جسمية. ولكنها لا تؤدي وظيفتها منفصلة عن الكيان النفسي كله. ولا يمكن الحديث عنها منفصلة إلا إذا تحدثنا عن تركيبها الفسيولوجي أو ذهبنا بها إلى الطبيب ليعالج ما طرأ عليها من اختلال في الوظيفة. ولكننا حين نتحدث عنها في مجالها الحيوي الشامل، نتحدث عنها كحاسة موصلة إلى غاية. موصلة إلى أثر نفسي معين يتحقق عن طريق استخدام هذه الحواس. فالرؤية ذاتها بلا وعي. والسمع ذاته بلا تدبر. والذوق والشم واللمس بلا انعكاس لها في محيط النفس.. ليست هي الشيء الذي له قيمة في حياة الإنسان، ولا هي شيء يربى لذاته.

"وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"[1] أي: أن حواسهم لا تؤدي وظيفتها النفسية وإن كانت صحيحة التركيب من حيث هي حواس.

([1]) سورة الأعراف (179).

وكذلك عضلات الجسم وأحشاؤه وعروقه وأعصابه. إنها تركيب جسمي. نعم. ولكنها في النهاية "طاقة حيوية" مجتمعة متحركة لغاية نفسية مرتبطة بها أشد ارتباط.

والإسلام في تربيته للجسم والطاقة الحيوية يراعي الأمرين معًا. يراعي الجسم من حيث هو جسم، ليصل منه إلى الغاية النفسية المرتبطة به. فحين يقول الرسول الكريم: "إن لبدنك عليك حقًّا": من إطعام وإراحة وتنظيف وتقويم، فهو يدعو إلى هذه العناية الشاملة بالجسم كله، ليأخذ "الإنسان" بنصيب من المتاع الحسي الطيب الحلال الذي أمر الله به في توجيهاته الكثيرة: "وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"[1] "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ"[2] أي لغاية نفسية مقامة على قاعدة جسمية؛ ثم ليوفر الطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق أهداف الحياة، وهي أهداف تشمل كل كيان الإنسان.

وكذلك توجيهات الإسلام المختلفة في هذا الباب. فالرماية والفروسية -أو الرياضة البدنية عامة- هي جزء من منهج التربية الإسلامية تنص عليه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقصد بها تقوية الجسم ورياضته على احتمال المشاق وبذل الجهد. كما يقصد بها قوة الأخذ بنصيب الإنسان من الحياة، والاستمتاع به. فالجسد الهزيل المريض لا يأخذ نصيبه الحق من المتاع؛ فوق أنه لا يوصل شحنة الحياة إلى النفس توصيلًا صحيحًا تقوم عن طريقه بمهمتها المفروضة عليها؛ وفوق أن جهاد الحياة -والحياة كلها جهاد- في حاجة إلى جسم وثيق متين البنيان.

وقد كان من ذلك سباقه صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، وسبقها إياه مرة وسبقه إياها مرة. وسباقه بناقته القصواء. وكذلك السعي والهرولة في شعائر الحج. كلها تدريب لعضلات الجسم ووشائجه لتربية القوة فيه والسلامة والتمكن.

ولكننا في مجال الحديث عن التربية الإسلامية، لن نقف عند حدود الجسم بمعناه الفسيولوجي البحت -وإن كان لذلك المعنى أهميته في نظر الإسلام ونصيبه من عنايته- وإنما نتحدث كذلك عن الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم والمتمثلة في مشاعر النفس، التي ذكرناها في مقدمة هذا الفصل، والتي يخصها الإسلام بجهد فائق من التربية والتدريب.

* * *

([1]) سورة القصص (77).

([2]) سورة الأعراف (32).

هذه الطاقة يعترف بها الإسلام اعترافًا كاملًا صريحًا قويًّا.. لا يعترف بها خلسة وفي الظلمة، بل يعترف بها جهرة، ويسلط عليها الأضواء.

ولكنه "يربيها" كما يربي طاقة العقل وطاقة الروح. يربيها لا بالقمع ولا بالكبت، ولكن بالتنظيف والتهذيب.

إنه لا يستقذر الطاقة الحيوية في ذاتها، ولا يحتقرها ولا ينفر منها. لا يقول إنها -في ذاتها- دنس ينبغي التطهر منه، ورجس ينبغي اجتنابه. بل يعترف بها في صراحة كاملة، ويزيد على ذلك فيدعو إلى الاستمتاع بالطيبات منها والإقبال عليها: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1]. "كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ"[2] "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"[3]. "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ"[4] "نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ"[5].

بل يزيد الرسول الكريم فيجعل عليها أجرًا! قال: "وفي بضع أحدكم صدقة"! قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟! قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ " قالوا: نعم. قال: "فإذا وضعها في حلال فله عليها أجر"[6].

والإسلام صريح غاية الصراحة في معالجة الأمور الجسدية، في الغسل والوضوء، كما هو صريح في معالجة الأمور الجنسية "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ"[7] "أُحِلَّ لَكُمْ

([1]) سورة لأعراف (32).

([2]) سورة سبأ (15).

([3]) سورة الكهف (7).

([4]) سورة الأعراف (31).

([5]) سورة البقرة (223).

([6]) رواه مسلم.

([7]) سورة البقرة (222).

لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ"[1]. وليس بعد ذلك صراحة في الاعتراف بالطاقة الحيوية نظيفة محببة معروضة في موضع النور!

كما أن الإسلام يحرص على المظاهر الجسمية النفسية في مجال الجنس. إنه يحب أن يكون الرجل واضح الرجولة والأنثى واضحة الأنوثة. يكره التخنث والميوعة، ويكره المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال. لأنه يحترم الطاقة الجنسية على فطرتها السليمة. يحترمها احترامًا جادًّا، لا على أنها وسيلة للفحش، ولا على أنها وسيلة للتميع والانحلال.

والإسلام لا يحتقر "الجسم" ولا يستنكره ولا يستقذره. وأبلغ دليل على ذلك أن العبادات الإسلامية تشرك الجسم في العبادة ولا تسقطه من الحساب.

والصلاة بصفة خاصة ملحوظ فيها ذلك الارتباط. فالوضوء عملية جسمية –وإن كانت له معان روحية– قصد بها تطهير البدن قبل الدخول في الصلاة. والصلاة ذاتها حركة جسم في ذات الوقت التي هي فيه يقظة فكر وطلاقة روح. ويظل الجسم مشاركًا للعقل والروح في أثناء الصلاة، يشارك بالحركة والخشوع. ويشارك بالمحافظة على الطهارة، وإلا فسدت الصلاة.

والصيام عبادة نفسية جسمية في آن. وكذلك العبادة بمعناها الواسع.. عبادة "العمل" إنها مشاركة جسمية في التوجه إلى الله.

* * *

ولكن الإسلام وهو يحترم الطاقة الجسمية احترامًا كاملًا، لا يتركها على حالها، ولا يطلق لها العنان! إنه ينظمها ويضبط منصرفاتها. لأنها –هكذا طبيعتها– إذا تركت وشأنها لا تقف عند حد، وتدمر الكيان.

إن للحياة –كما خلقها الله– أهدافًا حيوية لا بد من تحقيقها لتستمر الحياة على وجه الأرض. أهدافًا تتمثل في المحافظة على الفرد، والمحافظة على النوع عن طريق المحافظة على الفرد. وقد وضع الخالق في الفطرة ضمانة التنفيذ. وضعها في الأعماق. وضعها في صميم البنية. في "مادة الجسم". في تلك القبضة من طين الأرض المشتملة على عناصر الأرض وكيماوياتها ودوافعها.

---

(1) سورة البقرة (187).

لكي يحافظ الفرد على نفسه لا بد له من طعام وشراب وكساء ومأوى ينام فيه. ولكي يحافظ على النوع لا بد له من طاقة جنسية للتوالد، وطاقة للدفاع عن نفسه وعن غيره ضد أي اعتداء. ثم لا بد له –من أجل هذا وذاك– أن يحب نفسه فردًا متميزًا مستقل الكيان، ويحب نفسه عضوًا في جماعة تتكون من نفسه ومن الأفراد الآخرين، كما يحب هذا الكيان المجتمع من نفسه ومن الآخرين.

تلك أهم "الدوافع الفطرية" التي أودعها الله فطرة الإنسان ليحافظ على نفسه ويحافظ على نوعه. وجعل في بنيته الضمان لتحقيق أهدافها وتنفيذ مطالبها.

فالجوع والعطش ضمان لإعطاء الجسم حاجته الدائمة من الطعام والشراب. والألم اللاذع من البرد والحر وتقلبات الجو ضمان لإعطاء الجسم وقايته من كساء ومأوى وما إليه. والرغبة العنيفة في الجنس ضمان لتحقيق التوالد المستمر الذي يحفظ النوع على ظهر الأرض. والرغبة الشديدة في إمتاع النفس ضمان لاستمرار تزويد الإنسان بضروراته من كل نوع. وهكذا كل مطلب من مطالب الحياة يحمل ضماناته في يديه. فطرة لا تحتاج في الإحساس بها إلى تفكير.

وليس "الألم" وحده هو الدافع. فذلك رباط من جانب واحد! وفي الجانب الآخر رباط اللذة. فكل دفعة فطرية، أو كل مطلب من مطالب الحياة، مزود بضمانين في وقت واحد. ضمان يدفع من الخلف، وضمان يجذب من الأمام. أحد الضمانين هو الألم الناشئ عن عدم تحقيق الرغبة، والآخر هو اللذة الكامنة في التحقيق.

والألم واللذة الكامنان في بنية الجسم وبنية النفس هما الدافع الأكبر من بين دوافع الحياة.

و"الدوافع الفطرية" هي خلاصة ذلك المزيج الكامن في بنية الجسم وبنية النفس.

إنها رغائب يحف بها الألم واللذة. أحدهما يدفع بها، والأخرى تحدوها لتنطلق إلى الإمام.

وإذا عرفنا ذلك أدركنا مكمن الخطر في هذه الرغائب. إنها ضرورية لبقاء الحياة واستمرارها. ولكنها في الوقت ذاته معرضة للانطلاق العنيف. وكيف لا تنطلق –إذا تركت وشأنها– وفي طبيعتها كل ذلك الدفع وكل ذلك الحداء؟

وحين تنطلق –كالمطية الفارهة– فإنها تعرض راكبها للعطب والهلاك.

فهي أولًا تعطب جسده بالعلل والأمراض، والاستهلاك السريع قبل الأوان.

وهي ثانيًا تشقيه ولا تتركه في راحة. فمن شأنها -حين تترك لتنطلق- أن تظل منطلقة لا تشبع من الانطلاق. وحينئذ تنقلب اللذة إلى ألم، والمتعة إلى عذاب.

الذي يسرف في الطعام لا يشبع كما يبدو لأول وهلة. بل يصيبه النهم فلا يقنع ولا يستريح.

والذي يسرف في إمتاع الجسم بالراحة لا يشعر بمزيد من الراحة كما يبدو لأول وهلة. بل يصيبه الكسل والترهل، ويعجز بعد قليل عن الحركة النشيطة القادرة، ويصبح الكسل المضجر الممل نوعًا من العذاب.

والذي يسرف في الجنس لا يأخذ مزيدًا من المتاع كما يبدو لأول وهلة. بل يصيبه النهم الجنسي فلا يكتفي ولا يشبع، ويظل دائمًا جوعان يبحث عن صيد جديد.

والذي يسرف في الملك لا يزداد متعة بما يملك. بل يصيبه الجشع فلا يشبع مهما امتلك، ويظل يشعر دائمًا بأن ما لديه قليل وأنه في حاجة إلى مزيد.

وهكذا تفسد المتعة الأولى وتنقلب إلى هم مقعد مقيم.

وثمة أمر آخر.

فليس هم الحياة -كما فطرها الله- مجرد أداء "المطالب البيولوجية".

كلا! ففي فطرة الحياة إلى جانب ذلك جمال. جمال زائد على الضرورة وليس خاضعًا لمنطق الضرورة. جمال يتمثل في إحسان الأداء لا في مجرد الأداء.

نظرة واحدة في الكون الواسع العريض تفتح بصيرة الإنسان إلى ذلك.

"أرأيت هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان؟

"أتظن ذلك "ضرورة"؟

"قالوا لتجتذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس! وتساعد كذلك في تلقيح النبات!

"فهل تظن ذلك؟ هل من "الضرورة" بالقياس إلى النحل أن يكون في الزهرة كل هذا الجمال؟

"كلا والله! فالنحل خَلْق متواضع! وإنه ليحط على الزهرة الأريجة البديعة كما يحط على الزهرة العادية الجمال.

"فليس جمال الزهرة إذن ضرورة! وكل الأهداف "البيولوجية" يمكن أن تتم في أبسط زهرة كما تتم في أجمل الأزهار.

"ورأيت هذه "الطبيعة"؟.

"رأيت حمرة الشفق المبدعة ورأيت جمال الصبح الوليد؟

"رأيت روعة الجبال التي تبهر الأنفاس وتهز الوجدان؟

"والبحر الممتد إلى غير نهاية منسرب الموج، تراه في الليل الساكن كأنما تعمره الأطياف. أو الأشباح؟."

"والليلة القمراء.. هل "ذقتها"؟ هل "ذقت" طعم السحر في ضوئها، وظلها، وأطيافها السارية وحديثها المهموس؟

"هل تظن ذلك ضرورة؟ وأين هي الضرورة في ذلك كله. والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا الجمال؟

"ورأيت هذا الوجه الرائع؟

"هاتان العينان الحالمتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار.. تلك التقاطيع المنسقة. هذا المعنى المعبر.. تلك "الروح" التي تطل من وراء القسمات.

"تظن ذلك ضرورة؟ وما الضرورة؟

"أليست كل العمليات "البيولوجية" من طعام وشراب وتنفس تتم في أقبح وجه وأجمل وجه على السواء؟

"بل.. نداء الجنس ذاته. أليس يتحقق في كل أنثى وكل ذكر بصرف النظر عن ذلك الجمال؟

"كلا. إنه ليس "ضرورة" وإنما هو "جمال".

"هو إحسان في الأداء لا مجرد الأداء.

"تلك فطرة الحياة كما خلقها الله.. فطرة "الطبيعة"[1].

وثمة شيء آخر..

إن "حفظ" الحياة على وجه الأرض ليس هو كل هدف الحياة!

بل هدفها هو حفظها وترقيتها على الدوام.

وقد كان الإنسان قمة الحياة على الأرض. هو أرقى كائناتها وأفضلها. ولكنه هو ذاته مَعْرِضٌ للرقي الدائم والتقدم إلى الإمام، يرتقي بكل طاقاته وفي جميع اتجاهاته. وذلك يستلزم توفير الطاقة للتقدم، كما يقتضي عدم الهبوط إلى الحد الذي يعجز عن الصعود. والانطلاق مع الشهوات يستنفد الطاقة المذخورة أولًا بأول فلا يترك رصيدًا للقوة الصاعدة، فضلًا عن أنه يهبط بالإنسان إلى درجة من الشعور والتفكير والسلوك لا يصلح معها للارتفاع، إذ يشعر أن الارتفاع قيد للذة الهابطة وشاغل عن المتاع!

والإنسان خليفة الله في الأرض.. القوة الإيجابية الفاعلة المريدة المنشئة بإذن ربها.. إن استهلك جهده في تحقيق مطالب الحيوان ودوافع الحيوان، فكيف يتحقق له كيان الإنسان؟ كيف تتحقق له الخلافة؟ كيف ينشئ الحضارات وينشئ الأفكار؟ كيف يعمّر الأرض؟ كيف يقيم فيها الحق والعدل الأزليين المستمدين من ذات الله، وسننه التي خلق بها السموات والأرض والحياة؟

والإنسان.. قبضة من طين الأرضونفخة من روح الله.. فكيف يحقق كيانه الكامل إذا أخلد إلى الأرض واتبع هواه ولصق بالطين واستعبد للشهوات؟

* * *

(1) من كتاب "قبسات من الرسول" فصل "وليرح ذبيحته".

من أجل ذلك كله لا يترك الإسلام الإنسان لشهواته تستعبده وتجرفه إلى حيث لا يملك لنفسه القياد.

بل يضبطها ويهذبها وينظفها.

ولكنه لا يكبتها.

إن الكبت مناف لفكرته ومنهجه في الحياة.

فكرته ومنهجه هي أخذ الكائن البشري بجميع خصائصه وجميع طاقاته.. واستغلالها كلها لتحقيق أهداف الحياة.

وفكرته ومنهجه هي احترام كل طاقة ما دامت تؤدي مهمتها التي فطرها عليها الله.

وفي ظل هذه الفكرة وذلك المنهج لا يوجد مجال للكبت ولا أصل لمحاربة الطاقات.

وكيف يكبتها ويحاربها وهو في حاجة إليها؟

كيف يكبت شهوة الطعام وهو في حاجة إلى أجسام قوية متينة تحتمل الجهاد في سبيل الله؟

كيف يكبت شهوة الجنس وهو في حاجة إلى ذرية صالحة كثيرة تنشر الفكرة في أرجاء الأرض؟

كيف يكبت حب الإنسان لنفسه وهو الطريق المضمون للعمل والإنتاج اللذين يحتاج إليهما لكي ينهض بواجب الخلافة في الأرض وعمارتها؟

كيف يكبت طاقة القتال وهو في حرب دائمة مع قوى الشر في الأرض، وفي حاجة دائمة لدفعة القتال؟

وكيف يكبت أية طاقة وهو لا يستغني عن واحدة منها ما دام يريد الحياة؟

كلا! لا يكبت الطاقات ولا يستأصلها من منبتها، لأنه لا يعتزل الحياة ولا يترهبن. ولا يترك الواقع ويعيش في الأحلام. بل يغذي كل طاقة من هذه، ويحرص على بقائها حية فاعلة قوية على الدوام.

كل ما في الأمر أنه لا يرسلها بلا ضوابط. لأن هذا مفسد لفطرة الإنسان.

و"الضبط" ليس كبتًا وإن تشابها في مظهر الامتناع.

يقول فرويد الذي أفنى حياته يتحدث عن الكبت والعقد النفسية حتى خيّل للناس أن كل امتناع عن رغبة هو كبت وباعث للاضطراب. يقول في كتاب "Three Contributions to the Sexual Theory" ص82: "وفرق بين هذا "الكبت اللاشعوري" وبين الامتناع عن إتيان العمل الغريزي، فهذا مجرد تعليق للتنفيذ".

ليس الكبت إذن هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي. الامتناع الواعي المقصود. إنما الكبت هو استقذار الدافع الغريزي واستنكاره، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه بأنه يحق له أن يشعر بوجود ذلك الدافع أو يخطر له على بال.

وهذا المعنى غير موجود في الإسلام أصلًا، وقد مر بنا نظرته إلى الدوافع الفطرية على أنها أمر واقع مزين للناس. بل الناس مدعوون إليه. بل هم عليه مأجورون.

أما الضبط فعملية أخرى واعية. إنها تتم على هذا النحو: إن هذا الشعور الذي أحس به ليس قذرًا في ذاته ولا تحريج عليه. وإنما التحريج على التنفيذ -الآن- أو التحريج على قدر معين من التنفيذ. وهذا التحريج له سبب. فهو ضروري لحفظ الكيان الفردي أو الجماعي من التفتت والانهيار.

إنني جائع. من حقي أن آكل. ليس في شهوة الطعام عيب. لا أهبط عن آدميتي حين أجوع وحين آكل. ولا يصيب احترامي لنفسي أي ضرر، ولا احترام الناس لي.

ولكن ليس معنى هذا أن آكل حتى التخمة. إن ذلك يفسد معدتي ويعطب كياني. ويجعلني بعد ذلك عرضة لنهم دائم لا يشبع.

وليس معناه أن أغرس يدي في الطعام وألتهمه كالمسعور. فهكذا يصنع الحيوان. وأنا إنسان. الحيوان لا يملك التصرف في دفعة الغريزة، ولا يملك إلا نوعًا واحدًا من السلوك. وأنا أملك التصرف. أملك الإرجاء بعض الوقت إن أردت أو اضطرتني الحاجة. وأملك التنويع في السلوك. أملك الالتهام على طريقة الحيوان. وأملك التأنق في التناول والتهذيب في الأداء.

وليس معناه أيضًا أن أسرق لآكل. فذلك حرام؛ إنما آكل من ملكي، مما أحل الله لي، ولا آكل سطوًا على أموال الغير، ولا غشًّا ولا خداعًا ولا سحتًا، ولا آكل مما حرم الله.

وليس معناه أن أذلَّ كرامتي لآكل –ما دامت فيّ طاقة بعدُ على الامتناع– لا أتذلل ولا أتزلف ولا أنافق ولا أخادع من أجل لقمة الخبز، وإنما أبحث عن الكرامة في ذات الوقت الذي أبحث فيه عن طعام.

وليس معناه أن أعيش لآكل. ففي الحياة أهداف أخرى جديرة بالتحقيق. والطعام ليس هدفًا في ذاته. وإنما هو وسيلة لهدف. وسيلة لحفظ الحياة. فلأجعل في بالي أنه وسيلة. ولا أقلب الوسيلة إلى غاية، ولا أجعل همي كله هو الطعام، والتفنن فيه والتلذذ به كأنه وحده شاغل الحياة.

وليس معناه أن آكل وحدي وأنسى المحرومين من الطعام. فهم إخوة لي في الإنسانية، وأنا وهم شركاء في السراء والضراء. وشركاء في الخير المشترك. وقد أتيت بهذا الطعام من حلال مالي. ولكني لا أستحله كله وحولي جائع أو محروم. فلأقتطع قطعة منه فآكل ويأكل معي آخرون...

هكذا يدور الحديث بين الإنسان ونفسه على وعي مرة وعلى تَعَوُّد مرات. وتلك كلها "ضوابط" لشهوة الطعام ليس فيها "كابت" واحد يحرّم الطعام!

وحين يقوم هذا الحديث بين الإنسان ونفسه على وعي أو على تعود، فلن يفسد عليه قط لذة الاستمتاع بالطعام، فأي شيء في كل ذلك يفسدها؟! وإنما هو يستجد لنفسه لذائذ جديدة لم تكن من قبل. إنه يستمتع باللذة الحسية البحتة.. اللذة "الكيماوية" والعصبية والمادية. ولكنه يضيف إليها في ذات الوقت لذائذ نفسية وروحية. يضيف إليها الإحساس بآدميته المترفعة عن التلمظ على الطعام و"لهطه" كالحيوان! ويضيف إليها لذة الشعور بالاختيار الحر إزاء دفعة الغريزة، فإن هذا الاختيار يشعر الإنسان بكيانه. يشعره بأنه موجود. موجود بقدر ما يختار. ويضيف إليها لذة الإحساس بالمشاركة الوجدانية مع الآخرين من بني البشر. ويضيف إليها متعة الروح بشعور الإنسان أنه يتطهر –في كسب طعامه وأداء زكاته– لله، ويعيش في رحابه ويتطلع إلى رضاه.

ذلك كله بالإضافة إلى اللذة الحسية غير المنقوصة. فمن ذا الذي يترك هذا النعيم المتاح كله ويخلد إلى الطين, ويقصر نفسه على متاع الحيوان؟!

* * *

وكذلك الأمر في شئون الجنس.

فحين يقول إنسان لنفسه:

إنني أحس في أعماقي بحنين إلى الجنس الآخر، ورغبة قوية في اللقاء بأحد أفراده، والامتزاج معه، والإفضاء إليه، والاتحاد الكامل معه حتى كأننا شخص واحد لا شخصان منفصلان.

هذا الإحساس ليس عيبًا في ذاته ولا قذارة. إنه فطرة الله التي فطر الناس عليها. كل الرجال وكل النساء يشعرون بهذا الحنين وهذه الرغبة، ولا بد أن يشعروا بها ليحققوا غاية الحياة ويحفظوا النوع على وجه الأرض. والتركيب الجسمي يشير إلى هذه الوظيفة. ففسيولوجياته، وبيولوجياته، وكيماوياته كلها مهيأة للقيام بهذه الوظيفة على وجهها الأكمل، لتنتج أجيالًا جديدة من الحياة، وهو أمر لا يتم بغير لقاء زوجين.

وحين أحس بهذا الإحساس وهذا الميل، فأنا سائر مع الفطرة في اتجاهها السليم.

ولكن ليس معنى هذا أن يكون التفكير في مسائل الجنس هو شغلي الشاغل، وهمي المقعد المقيم، فالحياة ليست جنسًا خالصًا، ولا هي محصورة في هدف واحد. إن علي تبعات أخرى تجاه نفسي وتجاه الناس. علي أن أتعلم. وعلي أن أنتج. وعلي أن أنظر في أمر المجتمع: أسائر هو على ما ينبغي له أم منحرف عن سبيله. وما أسباب انحرافه. وعلي أن أقوم بدوري في تقويمه من انحرافه. علي أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. وقد يصيبني من الناس أذى وأنا أقوم بهذا الواجب فينبغي أن أجند نفسي على احتمال الأذى وأجند نفسي لمقاومة الشر. وعلي أن أقوم بدوري الإيجابي في هداية الناس إلى الحق. وخير وسيلة لذلك هي القدوة. فينبغي أن أكون أنا بذاته قدوة حسنة. وإلا فلا قيمة لكل ما أقوال من أقوال. وأنا أقول للناس إن الذي يفسدهم هو انجرافهم في طريق الشهوات، فلأكن أنا المثل في عدم الانجراف مع الشهوات.

وكذلك ليس معنى هذا أن أخطف فتاة ما لأقضي معها رغبة الجنس. فهذه الفتاة ليست لي. لا أملكها لنفسي حتى أتصرف في شأني وشأنها على هذا الوضع. إن لها عرضًا يكافئ عرضي لا يجوز لي أن أدنسه. إني أحب أن يكون عرضي نظيفًا طاهرًا لم يدنسه شيء. فلأحافظ على عرض هذه الفتاة كذلك. وإني أحب حين تكون لي زوجة أن تكون نظيفة. أن تكون خالصة لي. بروحها وجسمها جميعًا، فلأترك هذه الفتاة إذن نظيفة لمن ستكون زوجًا له، فلأتركها له خالصة كما أحب أن تكون زوجتي لي خالصة.

ولو أنها رضيت رضاء بأن أقضي معها رغبة الجنس أو دعتني هي إلى ذلك فلا فارق! إنه لا يجوز لي! إنها كالحارس الذي يدعو الناس إلى سرقة المال الذي يحرسه! فلذلك لا يعطي الناس الحق في السرقة، لأن الحارس لا يملك المال في الحقيقة! وهذه الفتاة الحارسة على عرضها لا تملك التصرف فيه ولا دعوة الناس إلى اغتصابه! إنه ليس عرضها وحدها! إنه عرضها وعرض والديها وعرض أسرتها وعرض مجتمعها. وعرض الإنسانية! إنه عرض الأمانة التي ائتمن الله عليها البشر, وينبغي أن يردوا له الأمانة نظيفة كما تلقوها، كاملة كما تسلموها. إلا بحقها الذي نص عليه صاحب الحق.

وليس معنى هذا كذلك أن تكون صورة الجنس في حسي وفي تفكيري هي صورة الجسد الهائم الشهوان، فأنا لست جسدًا خالصًا، ولا تمر علي لحظة واحدة في حياتي أكون جسدًا بلا عقل، أو جسدًا بلا روح، وإنما أنا دائمًا وفي كل لحظة جسد وعقل وروح، وإحساسي بالجنس هو قطعة مني، هو جزء من كياني كله، فلأكن إذن على الفطرة السليمة لبني البشر. فليكن إحساسي بالجنس شاملًا لكياني كله. شاملًا لكل ما أنا مشتمل عليه من مشاعر. فليكن رغبة جسم، وخفقة قلب، ورفة روح. فليكن "عاطفة"، فليكن -إلى جانب الرغبة- مودة ورحمة وتعاطفًا وتفاهمًا وامتزاجًا روحيًّا ولقاء يرتفع بالكيان إلى عليين. ولن يتأتى ذلك وأنا أتناوله خلسة في الظلمة أو سرقة من الحارس الذي لا يملك التصريح! وقد تأتي علي لحظة يخيل إلي فيها أن هذه الخلسة المختلسة تحقق كياني كله, وترتفع بي -في وهمي- إلى حيث أريد أن أكون، ولكنها مشاعر الرغبة هي التي تحيل ذلك، فلأنظر إلى الأمر في غير ساعة الرغبة لأدرك الحقيقة، أو.. فلأنظر لخلسة يختلسها شخص غيري.. ما رأيي فيها؟ هل أصدقه لو قال إنها نظيفة وسامية؟ هل أقبلها في أهلي؟

كلا! ليس معنى إحساسي بالجنس شيئًا من هذا كله. وإنما أنا أحس بتلك الرغبة الفطرية وأستجيب لها على طريقة الإنسان. الإنسان الذي يملك تصرفه ويختار طريقه. لا على طريقة الحيوان الذي لا يملك التصرف ولا يختار الوسيلة ولا يعرف غير ما تمليه عليه فسيولوجياته وبيولوجياته وكيماوياته. لأنه جسد بغير عقل، وشهوة بغير روح..

وأنا أحس بميل شديد لإنسانة معينة. أعجبني شكلها. أعجبني سلوكها وطريقة تصرفها. أعجبني أخلاقها. أحسست بالارتياح إليها. أحسست بهاتف خفي يقول لي هذه هي التي تكملك. هذه هي "الشق" الذي يكمل كيانك. وإن هذا الميل ليحرك نفسي حركة جادة. إنه ليس تزجية فراغ ولا حلمًا في اليقظة. إنني أريدها. لا شك عندي في ذلك. لقد رتبت -في خيالي- أن تكون حياتي مع هذه الفتاة. فلأشرع إذن في التنفيذ. فلآخذ الإذن من صاحب الإذن الأول الذي يملك الأمانة. فلآخذ الإذن -في قلبي- من الله. فلأتوجه إليه

أن يوفقني إليها وأن يتمم شأني على ما يحبه ويرضاه. ثم فلأتوجه إلى أهلها أطلب يدها وأتفاهم معهم على الأمر. ولأكن في تصرفاتي كما ينبغي حتى أقع في نفسها كما وقعت في نفسي، وأعجبها كما أعجبتني، وتميل إلي. فلأكن رجلًا. فلأكن بحيث تحس أنها تستطيع أن تثق بي وتطمئن إلي.

أو.. أني لا أملك في الوقت الحاضر الوسيلة.. فلأصبر إذن حتى يأذن الله بالتيسير، ولأنصرف إلى العمل الجاد الذي يوصل، ولأنصرف إلى أهداف الحياة الأخرى التي تتطلب مني الجهود[1].

فإذا تزوجت -الآن أو في المستقبل- هذه الفتاة التي ملت إليها ومالت إلي، فنحن الآن في حل من المتعة الكاملة التي أباحها الله. أباحها بلا قيود: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ"[2]. "نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ"[3] نحن في حل أن نصبح جسدًا واحدًا وروحًا واحدة. وإني لأحس معها بامتزاج كامل لا يعرف أحدنا أين ينتهي وأين يبدأ الآخر. نحن كيان واحد مختلط الأجزاء. وأنا أحس براحة ضميري لأنني ألتقي بها على طهارة قلب ونظافة روح. وأنا أستمتع منها بكل ما يستمتع به جسم من جسم. ولكن لا تمر علينا لحظة جسد خالصة. هنالك دائمًا ذلك التعاطف القلبي والامتزاج الروحي. وعلاقتي بها تشمل من نفسي دائمًا مساحة أكبر من مساحة الحس. حتى في لحظة اللقاء الحسي. وأنا بهذا كله أوفر نصيبًا من المتعة وأوفر في الأعصاب.

هذا أمر الجنس في حساب الإسلام. لا كبت ولا استنكار ولا قذارة. بل متاع كامل بكل ما في الفطرة من جوانب المتاع. متاع الحس القريب، مضافًا إليه ألوان من المتعة لا يعرفها الحيوان ويقدرها الإنسان!

* * *

([1]) في المجتمع المسلم -كما سيأتي- يتوافق التنظيم الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي والسياسي والتعليمي. إلخ. مع القواعد الروحية وتؤدي كلها إلى هدف واحد: هو السير على منهج الله. كما أن المجتمع المسلم لا يعج بالمثيرات الدنسة التي تهيج المشاهر وتفقد الإنسان القدرة على الاصطبار.

([2]) سورة المؤمنون(1-6).

([3]) سورة البقرة (223).

وكذلك في الإسلام كل نزعة فطرية.

إنه لا يكبت طاقة من الطاقات لأنه لا يريدها أن تموت. إنه في حاجة إلى كل طاقة حية في كيان الإنسان. وهو في حاجة إلى كيان سليم قوي فياض متحرك متمكن من الحياة. إن رسالته هي رسالة القوة. القوة في الحق. القوة في البناء والتعمير. القوة في حمل الأمانة. القوة في القيام بمقتضياتها. القوة في الجهاد في سبيلها. وقوة الرغبة في الحياة.

إن الثابت -عمليًّا- أنه لا يجاهد في سبيل الحق شخص لا يرغب في الحياة!

وقد يقع الإنسان في تناقض -ظاهري- إذ حكم بأن المجاهدين حقًّا هم الزاهدون في رغائب الحياة! إن هذه حقيقة ولا شك! فحين يتغلب حب الحياة والحرص على متاعها فإنه يصرف النفس عن الجهاد في سبيل المثل. لأن الجهاد يذود عن المتاع!

ولكنها حقيقة كذلك أن المنصرف عن متاع الأرض، لأنه يحس بضعف الدوافع في كيانه لهذا المتاع، لا يحرص على إصلاح باطل ولا إحقاق حق ولا جهاد في سبيله. لأن الأمور عنده يستوي بعضها مع بعض، ورغبته في كل شيء ضعيفة، فهو ينظر لكل شيء بغير مبالاة!

إنما الزهادة التي يتصف بها المجاهدون حقًّا عملية نفسية مختلفة تمام الاختلاف! إنها ليست الرهينة الصارفة عن الحياة! إنهم كلهم -بلا استثناء تقريبًا- من ذوي الرغبة الجياشة والحيوية الفائضة. ولكنهم -مع هذا- يرتفعون على أنفسهم ويزهدون في المتاع! والقوة النفسية الهائلة التي يضبطون بها رغائبهم الجياشة وحيويتهم الفائضة، هي ذاتها التي يجاهدون بها الباطل ويصمدون في الجهاد!

إنها زهادة القوة لا زهادة اللامبالاة!

الأصل هو القوة. هو التمكن. هو الرغبة الدافقة في كل شيء. ومن بين صنوف هذه القوة، قوة "الضبط" التي يحكم بها الزاهدون رغائبهم، ويرتفعون عليها، ويمسكون في أيديهم القياد.

وعلى هذا النحو نفهم جانبًا من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وجانبًا من فكرة الإسلام.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم راغبا في الحياة, قوي التمكن جادًّا في كل رغبة من رغائبه. كان يمشي وكأنما يتقلع من الأرض. وكان يأكل بشهية ورغبة. وكان يمارس نشاطه الجنسي في قوة وتمكن ومواظبة. نفس فياضة الحيوية، وكيان دافق الدفعات. طاقة قوية في منبعها، ومنبعثة بكل قوتها في جميع المجالات. وكان مع ذلك المحارب القوي، والمجاهد القوي، والمتعفف عن أي متاع يصرفه عن الجهاد!

وتلك هي النفس المتكاملة. تأخذ انطلاقها الكامل في كل اتجاه بقوة وإصرار وتمكن، وفي الوقت ذاته تخلع نفسها بقوة من كل متاع حين تريد. إنه التحرر القوي. وهو كذلك التحرر الحقيقي. التحرر الذي تتمثل فيه حرية الرغبة وحرية الامتناع. فلا تصبح الرغبة مالكة لقياد الإنسان توجهه كما تشاء وهو إليها منقاد. ولا يصبح الامتناع موتًا وتهاويًا وانخذالًا ولا مبالاة.

وذلك هو منهج الإسلام في تربية النفس. إنه لا يكبت رغائبها فيقتل حيويتها ويبدد طاقتها ويشتت كيانها. فلا تعمل، ولا تنتج ولا تصلح لعمارة الأرض وترقية الحياة. وفي الوقت ذاته لا يطلق رغائبها بلا ضوابط. لأن ذلك يبدد طاقتها من جانب آخر، يبددها في نشاط الحيوان وعلى مستوى الحيوان.

ووسيلته إلى ذلك -كما قلنا- هي "الضبط".

إنه يعمل على تربية القوة الضابطة وتنميتها منذ نعومة الأظفار.

يربي الأطفال منذ طفولتهم على بعض العادات التي "تضبط" سلوكهم فلا ينفلت عيارهم, ويعوّدهم على الامتناع عن بعض رغباتهم التي تزيد عن الحد. وهو لا يصل إلى ذلك باستخدام القسوة. فليس هدفه هو الانتقام من الطفل، ولا إنضاجه على شؤبوب من النار! وإنما وسيلته هي الحب! الحب المتمثل في الأسرة، والذي يربط الأم والأب والأطفال. ويجعل التوجيه نصيحة لينة رفيقة حازمة في ذات الوقت، تنفذ إلى القلب وتستقر في الأعماق. والعقوبة ليست هي أول الطريق! إنما هي وسيلة احتياطية حتى لا تنفع القدوة ولا تنفع النصيحة ولا ينفع الغرس عن طريق الحب والمودة القائمة بين الآباء والأبناء.

يقول الرسول الكريم: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين, واضربوهم عليها وهم أبناء عشر"[1]. هكذا لا يبدأ التعليم بالعصا، ولا تبدأ التربية بالعقوبة، وإنما هناك فسحة

([1]) أخرجه أبو داود.

طويلة مديدة لغرس هذه العادة الحميدة، عادة الصلاة. فسحة يعمل فيها الحب، وتعمل فيها القدوة، وتعمل فيها النصيحة، وتعمل فيها الكلمة الرفيقة الحازمة في آن. فإذا لم يفلح هذا كله فلا بأس حينئذ في شيء من الشدة يقوّم الكيان، ولكنها ليست الشدة التي تفسد الكيان. وقد ربى الرسول الكريم بناته وأبناء بناته لم يضرب أحدًا منهم قط! ولا أحتاج في تربيتهم لغير الحب الحازم والقدوة والتوجيه. والرسول هو قدوة المسلمين يأخذون عنه في كل أمور الحياة.

والصلاة من "الضوابط" التي تعود النفس على أداء عمل معين في وقت معين. وتلك إحدى وسائل الضبط. كما أنها تعود النفس على التزام الجد فترة من الوقت. وتلك أيضًا إحدى وسائل الضبط. فوق ما ينبغي لها من خشوع وتطهر وتنظف ورعاية. وكلها ضوابط تعود النفس من الداخل على ضبط الشهوات.

والصيام -بصفة خاصة من بين العبادات- عملية ضبط قوية فعالة، تتمثل فيها بشكل بارز إحدى وسائل الإسلام في التربية عن طريق الضبط. ففي الصيام يمتنع الإنسان -مختارًا- عن كثير من لذائذه المباحة، ويتعود -في إصرار وقوة- أن يرتفع على الرغبة، ويحقق كيانه بذلك الارتفاع.

وكل عبادة هي في الحقيقة ضبط لشهوة من الشهوات، وتعويد للنفس أن تضبط مشاعرها وتضبط سلوكها، "وتختار" طريقها بين مختلف الطرق. تختار طريق الحق والإحسان والإخلاص.

ولا يفرض الإسلام الضبط على النفس فرضًا وهي ليست مهيأة له، وليس لديها إليه استعداد!

كلا! فالقدرة على الضبط قدرة بشرية أصيلة، موجودة في داخل الكيان.

يقول جوليان هكسلي في كتابه "الإنسان في العالم الحديث" -وهو كاتب ملحد لا يصدر في قوله عن إيمان بالله ولا توقير للمفاهيم الدينية- يقول في فصل بعنوان: "تفرد الإنسان":

"يجب ألا يعزب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما يظن عادة. وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات.. ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة. وليست الثدييات بأفضل من ذلك. بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية

كبرى، حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ. ولا بد أن يكون سلوك الحيوانات عرفيًّا، أي أنه ثابت في حدود ضيقة. أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حرًّا نسبيًّا – حرًّا في الأخذ والعطاء على حد سواء. ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكلوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية، والإنسان فريد في بعضها. فلقد أدت هذه المرونة مثلًا إلى كون الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا بد أن يتعرض للصراع النفسي. ومع ذلك فطبقًا للآراء الحديثة توجد "لدى الإنسان" أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد، وهي التي يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع.."[1].

هناك إذن أجهزة –بيولوجية كما يقول هكسلي في كتابه– تتميز بها الإنسان عن الحيوان، تساعده على ضبط انفعالاته وتوجيهها توجيهًا حرًّا –نسبيًّا– بطريقة لا يقدر عليها الحيوان.

والإسلام يستغل هذه الطاقة الضابطة، كما يستغل الطاقات كلها، في تربية النفس والارتفاع بها لكي تحقق الكيان الأعلى للإنسان.

ويتخذ إلى ذلك وسائل شتى.

فهو –كما قلنا من قبل– يربط القلب البشري بالله، وخشيته وتقواه، ومراقبته في كل عمل وكل شعور وكل فكر، والتطلع إلى عطفه ورضاه. وذلك في ذاته ضابط من أكبر الضوابط يكبح جماح النفس، وإن كان لا يكبتها، لأن الله الذي يرتبط به القلب قد أباح المتاع وحرض عليه: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2]. كل ما هناك أنه يريدها نظيفة طاهرة: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"[3].

وهو كذلك يربط القلب باليوم الآخر..

(1) الكبت كما عرفه هكسلي في كتابه هذا هو المنع اللاشعوري للنزعة الفطرية (وهو تعريف فرويد له) أما ما سماه بالقمع فهو العملية الإرادية. وهي التي نفضل –كما صنعنا في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام"– أن نسميها "الضبط".

(2) سورة الأعراف (32).

(3) سورة البقرة (222).

والإيمان باليوم الآخر إيمانًا حقيقيًّا حيًّا راسخًا في القلب، يصنع كثيرًا من العجائب في النفس الإنسانية!

إنه يمنع اللهفة المجنونة على شهوات الأرض وإن لم يكن يحرم الإنسان من المتاع. فاللهفة تستبد بالنفس حين تحس أن فرصة الحياة الدنيا هي الفرصة الوحيدة المتاحة. ومن ثم تتكالب على انتهاب هذا المتاع في فرصة العمر القصيرة المحدودة. قبل الفوات. وتوغل في ذلك إلى درجة السعار المجنون. أما حين تنفسح الفرصة وينفسح الأمل. حين يؤمن الإنسان إيمانًا حقيقيًّا بأن فرصة العمر القصير المحدود ليست نهاية الحياة ولا نهاية المتاع، وإنما هي فترة قصيرة ومتاعها كذلك قصير: "قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ"[1] فإنه يأخذ منه على هينة، بلا تلهف زائد ولا قلق ولا تفزز. وهو بهذا يجمع الحسنيين: فهو يحس إحساسًا حقيقيًّا بطعم المتاع الأرضي، لا كالمعجل الذي لا يكاد يتذوق، لأنه يزدرد ازدرادًا قبل وقت الفوات! وفي الوقت ذاته يحس باطمئنان القلب واطمئنان الأعصاب وراحة الضمير. وهو كسب آخر يضاف إلى المتاع المتزن المتذوق الرائق المعقول.

ثم هو دائم التذكير بأن هذه الشهوات ليست غاية في ذاتها، يستغرق الإنسان في طلبها والانكباب عليها. وإنما هي وسائل إلى غايات أخرى أرفع منها وأولى بالالتفات:

الطعام وسيلة لحفظ الأود: "ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه"[2].

والجنس وسيلة لانتشار النوع: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"[3]. وهو كذلك وسيلة لنشر نوع ممتاز من البشر. هو المسلمون المؤمنون بالله: "تناكحوا تكثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة"[4]. ووسيلة كذلك للسكن والراحة لا للسعار والفتنة: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً"[5].

([1]) سورة النساء (77).

([2]) حديث رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

([3]) سورة النساء (1).

([4]) عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً.

([5])سورة الروم (21).

والمال وسيلة لإقامة الجماعة: "وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا"[1].

وطاقة القتال لجهاد الشر في الأرض: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ"[2] ولضمان الحياة ضد الاعتداء: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"[3]. ولكنها ليست للفتك والاعتداء: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"[4].

وهو يبعث النشاط الحيوي في اتجاهات شتى، تشمل كل كيان الإنسان، فلا تتدفق الطاقة الحيوية كلها في جانب واحد، جانب الجنس أو المال أو الطعام. إلخ، فتخرج به عن الحد المأمون.

يبعث النشاط في العلم والعمل والتجارة والصناعة والزراعة، والفتح والغزو، وعمارة الأرض، وإقامة الدولة، وتنظيمها، وسياستها، ومراقبة الأمور في المجتمع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي كلها أمور تستغرق النشاط الإنساني وتوزعه وتوسع مساحته، فلا يتكتل في بقعة واحدة ويترك بقية الجوانب خواء.

وهو يستنفد الطاقة النفسية في اتجاهات عليا، فلا تركن إلى الأرض، ولا تخلد إلى المتاع الحسي وحده تنفق فيه كل الطاقة يوجه النفس إلى الجهاد في سبيل الله، ويملؤها بالعقيدة حتى تملأ كل شعابها وتتشرب بها. وهي عقيدة تتصور صورة معينة للحياة البشرية، كريمة نظيفة عالية واسعة الآفاق، وتحرص على تحقيق مثلها في واقع الأرض. وتحث على الجهاد في سبيل هذا التحقيق. وهذا هدف مشترك بين الرجل والمرأة على السواء. فكلاهما بشر، وكلاهما مطالب باعتناق هذه العقيدة وتحقيقها -بنصاعتها وطهارتها واتساع آفاقها- في داخل النفس وفي واقع الحياة[5]: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا

([1]) سورة النساء (5).

([2]) سورة التوبة (73).

([3]) سورة البقرة (179).

([4]) سورة البقرة (190).

([5])انظر كتاب "معركة التقاليد" فصل "حين نكون مسلمين".

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"[1].

ثم هو يستنفد الطاقة الجسمية كذلك في اتجاهات عليا. لا بقصد إنهاكها ولا بقصد كبتها، ولكن بقصد تحويل الفائض منها عن أن يستغرق في متاع الحس القتال. فيوجه الفتيان إلى الفروسية، وهي رياضة عالية تقوي البدن -على طريقة الإسلام في إعداد القوة- وفي الوقت ذاته ترفع النفس عن محيط الحس، وتوجه طاقة القتال إلى منصرف خيّر نبيل. ويوجه الفتيات إلى تدبير المنزل، وهو رياضة كذلك عالية، تمكن المرأة من فنونها الأنثوية، وتحقق لها كيانها الأنثوي بطريقة فاضلة نظيفة، فلا تعود في حاجة إلى التعبير عن رغبة الجنس بلهفة الحس. كما أنها تستنفد طاقة الجسد الفائضة في عمل نافع نبيل.

وهو كذلك يقيم نظام المجتمع كله بصورة لا تحفز الدوافع الفطرية إلى أبعد من المدى المأمون. فيمنع الإسراف في كل شيء على الإطلاق: "وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"[2].

يمنع الإسراف في الطعام والشراب: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا"[3].

ويمنع الإسراف في المتاع والترف والراحة: "الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"[4] "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا"[5] "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ"[6].

ويمنع الإسراف في التملك، فيضع للاستحواذ حدودًا لا يكون حلالًا إلا بها، فيمنع الغصب والسرقة وأكل مال الأجير والافتيات على حقوق الناس، كما يمنع الربا والاحتكار وهي وسائل التضخم المالي في جميع العصور. ويضع كذلك مصارف معينة لا بد منها لتزكية

([1]) سورة آل عمران (195).

([2]) سورة الأنعام (141).

([3]) سورة الأعراف (31).

([4]) سورة المؤمنون (33).

([5]) سورة الفرقان (17-18).

([6]) سورة سبأ (34).

المال وجعله حلالًا طيبًا. فالزكاة والصدقات والإنفاق في سبيل الله والإنفاق على الوالدين والأقربين.. كلها لمنع الإسراف في التملك والتخفف من شح النفس.

ويمنع الإسراف في القتل "وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا"[1].

ويمنع الإسراف في الجنس. فلا يبيح المثيرات العنيفة في المجتمع. فلا اختلاط ولا تبرج ولا عري ولا غناء فاحشًا، ولا قصص مكشوفة، ولا دعوة مباحة لشتى صنوف البغاء[2].

وهكذا وهكذا في كل نزعة فطرية وكل لون من ألوان السلوك. وبذلك ينشأ مجتمع متوازن, وإنسان متوازن، توازنت طاقاته، وعملت روحه وعقله وجسمه جميعها في آن. والجسم في كل ذلك محترم معترف بكيانه، غير منبوذ ولا محتقر ولا مهان.

([1]) سورة الإسراء (33).

([2]) انظر "معركة التقاليد" فصل "حين نكون مسلمين".

خطوط متقابلة في النفس البشرية

في الفصول السابقة تحدثنا عن طريقة الإسلام في تربية الروح وتربية العقل وتربية الجسم، ورأينا الترابط الكامل بين جوانب الكيان البشري في حقيقة الواقع وفي منهج الإسلام، كما رأينا كيف يقيم الإسلام التوازن في هذا الكيان البشري، بالدخول إليه من منافذه الثلاثة جميعًا. وربطها كلها بعضها ببعض. وتوجيهها إلى الله.

والآن نأخذ في تفصيلات أدق من السابقة.

لقد كانت الروح والعقل والجسم خطوطا عريضة واسعة المدلول، ولكن في النفس البشرية إلى جانب ذلك خطوطًا دقيقة. أو قل أوتارًا دقيقة. والإسلام يوقع عليها جميعًا أنغامها المناسبة. جميعها في آن واحد، ليستخلص منها كما أشرنا من قبل "السيمفونية" البشرية الكاملة المتناسقة الألحان.

وإن من عجائب التكوين البشري تلك الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية، كل اثنين منها متجاوران في النفس, وهما في الوقت ذاته مختلفان في الاتجاه: الخوف والرجاء.. الحب والكره.. الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال.. الطاقة الحسية والطاقة المعنوية.. الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بما لا تدركه الحواس.. حب "الالتزام" والميل للتطوع.. الفردية والجماعية.. السلبية والإيجابية.. إلخ. كلها خطوط متوازية ومتقابلة. وهي –باختلافها ذلك وتقابلها– تؤدي مهمتها في ربط الكائن البشري بالحياة، كأنما هي أوتاد متفرقة متقابلة تشد الكيان كله، وتربطه من كل جانب يصلح للارتباط! وفي الوقت ذاته توسع أفقه وتعدد جوانبه وتفسح مجال حياته، فلا ينحصر في نطاق واحد ولا مستوى واحد. وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد في كل ما نعرف من مخلوقات الله. كيان يرجع في النهاية إلى النشأة الأولى العجيبة المعجزة: قبضة الطين ونفخة الروح..

ومزية الإسلام– في مسايرته للفطرة– أنه لا يترك وترًا من أوتار النفس لا يوقع عليه. ثم هو لا يوقع على وتر أكثر من طاقته، أو يبخسه قدره فلا يوقع عليه ما يستحق من نغمات! وبذلك يشمل الكيان الإنساني كله، وفوق ذلك يحدث التوازن في داخل النفس بشدها إلى أوتادها جميعًا فلا تميل من هنا ولا تميل من هناك، والتوقيع على أوتارها جميعًا فلا تنطق من جانب وتظل في الجانب الآخر صماء!

وسنعرض في هذا الفصل طريقة الإسلام العجيبة في التوقيع على هذه الأوتار المختلفة المزدوجة، واستخدامها جميعًا وسائل لتحقيق ما يهدف إليه من أهداف.

الخوف والرجاء

خطان متقابلان من خطوط النفس، يوجدان فيها متجاورين مزدوجي الاتجاه.

إن النفس -بطبيعتها- لتخاف وترجو. هكذا ركب في فطرتها ... يولد الطفل وفيه هذان الاستعدادان متجاورين. يخاف الظلمة ويخاف الوحدة ويخاف السقوط ويخاف الاصطدام ويخاف المناظر التي لم يألفها والأشخاص الذي لم يألفهم.. ويرجو ... يرجو الأمان والراحة والدفء والاستقرار في حضن أمه وهو يرضع، وبعد ذلك في حضن أمه وفي حجر أبيه, وفي يدي من يستريح إليهم من الناس. وينمو الطفل وينمو معه هذان الخطان المتقابلان. وتتنوع المخاوف ويتنوع الرجاء، ولكن الخطين هما هما في تقابلهما وازدواجهما.. يحددان له مشاعر الحياة واتجاهاتها. يخاف الموت، ويخاف الفقر، ويخاف العجز، ويخاف الخيبة، ويخاف الخزي، ويخاف الألم الحسي والمعنوي، ويخاف المعلوم، ويخاف المجهول. كلها مخاوف. كلها أنغام مختلفة تصدر عن هذا الوتر الواحد الذي يعتبر -كزميله المقابل له- أقوى الأوتار و"أوسعها" من القمة إلى القرار. وهو كذلك يرجو ... يرجو الاستقرار والأمن والراحة كما كان يرجوها وهو طفل، ولكن على مستويات أعلى وأوسع، ويرجو التوفيق, ويرجو القوة, ويرجو المكانة, ويرجو الجاه، ويرجو النعيم، ويرجو آمالًا شتى لا تنقضي.. ولا تحصى. كلما تحقق أمل جَدَّ أمل جديد.

والخوف والرجاء بقوتهما تلك وتشابكهما واختلاطهما بالكيان البشري كله في أعماقه، يوجهان في الواقع اتجاه الحياة، ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره. فعلى قدر ما يخاف، ونوع ما يخاف. وعلى قدر ما يرجو، ونوع ما يرجو. يتخذ لنفسه منهج حياته، ويوفق بين سلكوه وبين ما يرجو وما يخاف.

الذي يخاف الموت. لا يقدم. والذي يخاف الفقر يجعل همه المال. والذي يخاف السلطان يتحاشى كل عمل يعرضه للصدام. والذي يخاف الألم أو الهزيمة يفر من المعركة.. معركة الحياة الكبرى. وينحسر بنفسه عن المغالبة والاقتحام.

والذي لا يخاف شيئًا من هذا كله فهو متحرر منه، طليق من ضغطه عليه، مقتحم متمكن غلاب.

والذي يتطلع إلى الجاه والسلطان والمكانة والغنى والنعيم ... يرسم أهدافه على أساس ذلك، ويتخذ الوسائل التي توصل لما يريد.

أما إن كان لا يتطلع إلى شيء من ذلك فلن يتخذ له الوسائل، وهو متحرر من ضغطها عليه، مالك لنفسه إزاءها، لا يستعبد، ولا يهون.

وهكذا يتحكم هذان الخطان في حياة البشرية..

والتربية الناجحة توقع على هذين الوترين ما يربي النفس، ويشفيها من انحرافها، ويقويها ويقومها، ويضعها في وضعها الصحيح.

والإسلام يحكم رباط الوتر أولًا قبل التوقيع عليه حتى لا تصدر عنه نغمة نشاز.

إن الوتر غير المحكم الرباط، والوتر المشدود أكثر مما ينبغي، يصدران أنغامًا شاذة تنفر منها الأذن السليمة، ولا يستريح إليها الوجدان.

ومن أجل ذلك يعمد العازف إلى إحكام الوتر قبل أن يبدأ العزف الحقيقي. ضربة هنا وربطة هناك. ثم يستوي الوتر بين أصابعه متقن النغمة سليم الإيقاع.

والإسلام يعمد إلى خطي الخوف والرجاء، فينفض عنهما أولًا كل خوف فاسد وكل رجاء منحرف، ثم يعمد إليهما بعد ذلك فيوقع عليهما الإيقاع الصحيح الذي يصدر عن نفس بشرية سوية ينبغي لها أن ترجو وينبغي لها أن تخاف.

ينفض من وتر الخوف أولًا كل ما يرهق كاهل البشر من مخاوف زائفة.. زائفة لأنه لا طائل وراءها: لا تقدم ولا تؤخر. ولا تغير شيئًا من واقع الأمر!

ينفض عنه الخوف من الموت! إذ إنه.. ما قيمته؟ هل يؤخر الأجل، أو يغير المكتوب؟ كلا! وما دام لا يغير شيئًا من الواقع فهو إذن أمر لا يليق. إنه تبديد للطاقة وتدمير للكيان. بلا نتيجة.

لذلك يكرر القرآن هذه الحقيقة في صور شتى وإيقاعات متنوعة:

"إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ"[1].

"وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا"[1].

([1]) سورة ق (43).

"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ"[2].

والحذر لا يجدي ولا يغير شيئًا من واقع الأمر:

"أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ"[3].

"قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ"[4].

وإذن فالخوف من الموت لا يجوز أن يكون. إنها نغمة نشاز تصدر عن وتر الخوف حين يتوتر أكثر مما ينبغي، ويوشك أن ينقطع من شدة الإيقاع!

والخوف على الرزق كذلك!

"قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ"[5].

"قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ"[6].

"هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"[7].

"أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ"[8].

"اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ"[9].

([1]) سورة المنافقون (11).

([2]) سورة آل عمران (185).

([3]) سورة النساء (78).

([4]) سورة آل عمران (154).

([5]) سورة يونس (31).

([6]) سورة سبأ (24).

([7]) سورة فاطر (3).

([8]) سورة الملك (21).

([9]) سورة الرعد (26).

"أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ"[1].

"إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا"[2].

"فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ"[3].

"وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ"[4].

"وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ"[5].

"وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ"[6].

"إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ"[7].

وكذلك الخوف من أذى الناس ومن أي ضرر توقعه بالإنسان قوى الأرض:

"قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ"[8].

"قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"[9].

"وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"[10].

([1]) سورة الروم (37).

([2]) سورة العنكبوت (17).

([3]) سورة العنكبوت (17).

([4]) سورة الذاريات (22).

([5]) سورة العنكبوت (60).

([6]) سورة الحجر (20).

([7]) سورة الذاريات (58).

([8]) سورة الأعراف (188).

([9]) سورة التوبة (51).

([10]) سورة النساء (78).

"قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا"[1].

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ"[2].

"قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ"[3].

"أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ"[4].

"مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[5].

"إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ"[6].

وكذلك الخوف من النتائج المجهولة المبنية على حاضر معلوم:

"وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ"[7].

"فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"[8].

"وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا"[9].

([1]) سورة المائدة (76).

([2]) سورة الأنعام (46).

([3]) سورة الأنعام (63-64).

([4]) سورة يس (23).

([5]) سورة فاطر (2).

([6]) سورة آل عمران (160).

([7]) سورة البقرة (216).

([8]) سورة النساء (19).

([9]) سورة لقمان (34).

"لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا"[1].

وهكذا يتناول القرآن كل المخاوف البشرية الزائفة واحدًا واحدًا فينفضها عن النفس. ويرفع عنها إصرها، ليطلقها تواجه الحياة قوية عزيزة متمكنة متطلعة، مطمئنة إلى قدر الله.

ثم يمسك وتر الخوف –الفطري في النفس البشرية– فيوقع عليه نغمة الخوف الأصيلة التي ينبغي أن تصدر عن هذا الكيان.

إن قوى الأرض كلها لا تخيف –أو لا ينبغي أن تخيف– لأنها قوى مسخرة. لا تستمد من نفسها، ولا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، والقوة التي ينبغي أن تخاف حقًّا هي القوة التي بيدها كل شيء. هي المانحة حقًّا والمانعة حقًّا. وإذن فخوفها هو الخوف الواجب. وخشيتها هي السبيل.

الخوف ينبغي أن يكون من الله، ومما يُخَوِّف به الله.

"إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[2].

"أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ"[3].

"قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"[4].

"لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ"[5].

"وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ"[6].

"يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ"[1].

([1]) سورة الطلاق (1).
([2]) سورة آل عمران (175).
([3]) سورة الزمر (36).
([4]) سورة الأنعام (15).
([5]) سورة المائدة (94).
([6]) سورة الأنعام (51).

"يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا"[2].

"إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا"[3] إلخ ... إلخ ... إلخ.

أما هذا اليوم الذي كان شره مستطيرًا –وهو أخوف ما يخافه القلب المؤمن المستوي على النهج– فهو من أوسع أبواب التخويف في القرآن. والآيات التي تذكر عذاب الآخرة كثيرة كثيرة منبثة في تضاعيف القرآن لا تحتاج إلى بيان. ولكن نشير فقط إلى حقيقة بارزة فيها، هي أنها تشمل جميع أنواع الخوف وكذلك جميع المستويات!

ولقد يغلب على الظن أن العذاب الحسي هو أداة التخويف الوحيدة في القرآن:

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ"[4].

"فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ"[5].

"أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ"[6].

"خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ، إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ، وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ، لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ"[7] ...إلخ ... إلخ.

ولكن الحق أن أدوات التخويف شتى، وأنغامه متعددة.

([1]) سورة النور (37).

([2]) سورة الإنسان (7).

([3]) سورة الإنسان (10).

([4]) سورة النساء (56).

([5]) سورة البقرة (24).

([6]) سورة الصافات (62-68).

([7]) سورة الحاقة (30-37).

فهو تارة يمزج العذاب الحسي بالعذاب المعنوي مع تغليب الحسي:

"فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ"[1].

فهنا وصف مفزع لشدة العذاب، حسي كله إلا في كلمة "غَمٍّ" فهي هنا تلقي ظلال العذاب النفسي بجانب العذاب الجسدي الفظيع.

وتارة يمزج الحسي بالمعنوي على سواء:

"فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ"[2].

فهنا يجعل الخزي في الدنيا، وهو مما يخافه القلب البشري، لونًا معجلًا من العذاب يضاف إلى عذاب يوم القيامة. والخزي هنا من الله. ومن ثم فهو مخوف حقًّا ومرعب حقًّا. لأنه خزي من السلطة الحقيقية التي تملك أن تخذل وتخزي. ثم هو خزي لا رادّ له لأنه من عند الله.

وتارة يغلب العذاب المعنوي:

"نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ"[3].

فليس الوجه البارز للنار هنا هو هذابها الحسي، وإنما هو اطلاعها على الأفئدة، وما يحدثه ذلك من رهبة في القلب، حين تفتح النار عيونها. وترسلها من خلال النفس لتطلع على الأسرار!

وتارة هو عذاب معنوي خالص:

"يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ"[1].

([1]) سورة الحج (19-22).

([2]) سورة البقرة (85).

([3]) سورة الهمزة (6-7).

"يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ"[2].

"إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"[3].

فالهول هنا كله نفسي بحت، تتذاوب تحته النفس وتنسحق سحقًا دون ذكر لعذاب الأجسام.

وكذلك:

"يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ"[4].

"هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ، وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ"[5].

فالخزي المعنوي هنا هو العذاب.

وكذلك يرتفع العذاب في بعض المواضع إلى قمة المعنويات حيث يقول تعالى في سورة البقرة [174]:

"وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ".

أو يقول في سورة آل عمران: [77].: "وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِم"..

وهكذا يشمل جميع الدرجات وجميع المستويات!

([1]) سورة الانفطار (19).
([2]) سورة عبس (34-37).
([3]) سورة الحج (1-2).
([4]) سورة المعارج (43-44).
([5]) سورة المرسلات (35-37).

إن الناس ليسوا كلهم سواسية في تركيبهم النفسي. منهم الحسيون الذين يأخذون الحياة عن طريق الحس والحواس. وهؤلاء هم أغلبية البشرية! ومنهم قلة ترتفع عن ذلك المستوى. فتهمها المواقف النفسية والحالات المعنوية وتؤثر فيها. بل الشخص الواحد يكون حسيًّا تارة ومعنويًّا تارة أخرى حسب تقلبات مزاجه وتقلبات ظروفه. ومن ثم يوقع الإسلام على وتر الخوف جميع الأنغام وجميع المستويات، ليشمل الناس كلهم من جهة، ويشمل كل واحد في جميع حالاته من جهة أخرى، ولا يدع فرصة واحدة تفلت ولا شخصًا واحدًا لا يوقع على أوتار نفسه بالنغم الذي يناسبه وبالقدر الذي يطيق!

* * *

والرجاء كذلك. يستخدم الإسلام معه المنهج ذاته ليصل إلى التقويم المرغوب.

يبدأ أولًا بتحويل الرجاء عن الآمال الكاذبة والقيم الزائفة، ليوجهه بعد ذلك إلى القيم الحقيقية وإلى الطريق الصحيح.

يرجو البشر كثيرًا من ألوان النعيم في الأرض. المال والبنين. والشهوات. والجاه والعزة والسلطان والقوة.. إلى آخر أنواع المتاع الجسدي والنفسي, والإسلام -كما قلنا في الفصل السابق- لا يحرم المتاع النظيف ولا يدعو لى الرهبنة والانصراف عن شؤون الأرض، بل يدعو إلى ذلك المتاع دعوة صريحة ويستنكر تحريمه: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1]. ولكنه مع ذلك لا يحب للناس أن يوغلوا في طريق الشهوات فتفتنهم عن القيم الحقيقية الباقية الخالدة حين يزول متاع الأرض القريب. ومن هنا يكرر في مواضع كثيرة أنه لا يحرم طيبات الأرض ولا يستنكرها، ولكن "الباقيات الصالحات خير وأبقى".

"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ"[2].

([1]) سورة الأعراف (32).

([2]) سورة آل عمران (14-15).

"الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا"[1].

"وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"[2].

"قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى"[3].

"وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"[4].

"وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ"[5]. إلخ ... إلخ...

إنه يوجه القلب البشري -مع الاستمتاع بطيبات الأرض وتعميرها والمشي في مناكبها ابتغاء الرزق- ألا تفتنه هذه المتع الأرضية ولا تستغرق كيانه. ويوجهه أن يرجو -في الدنيا والآخرة- وجه الله، ويتطلع إلى مثوبته ورضاه.

وكان عذاب الآخرة أوسع أبواب التخويف، فكذلك نعيم الآخرة أوسع أبواب الرجاء.

وما قيل عن العذاب هناك يقال هنا عن النعيم.

إن المتبادر إلى الذهن أن النعيم الحسي هو صورة الجنة الأخروية التي وعد الله بها المتقين:

"عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ، لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[6].

---

(1) سورة الكهف (46).
(2) سورة الكهف (28).
(3) سورة النساء (77).
(4) سورة العنكبوت (64).
(5) سورة الزخرف (35).
(6) سورة الواقعة (15-24).

ولكن على الرغم من تكرار الوصف الحسي في مشاهد النعيم، فإنه يندر أن يجيء وحده، ويغلب أن يمتزج النعيم الحسي بالنعيم المعنوي في كل مشهد. فحتى الآيات السابقة، وهي أشد مشاهد النعيم حسية في القرآن كله تقريبًا، يجيء بعدها: "جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلامًا سَلامًا". فينتهي النعيم الحسي بذلك الجو المطهر الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، والذي يشمل النفوس فيه سلام يتردد صداه في جنبات الجنان.

وثمت كثير من ألوان النعيم المعنوي تجيء متناثرة في سور القرآن، إما وحدها وإما ممتزجة بالنعيم الحسي كما رأينا في المثال السابق.

"إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ، وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ"[1].

"إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ"[2].

"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ"[3].

"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ"[4].

"يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي"[5].

وفي هذا المثال الأخير يتبدى النعيم الروحي الخالص الذي لا تشوبه شائبة من متاع حسي. إنه الطمأنينة والرضا في رحاب الله. والله ينادي هذه "النَّفْسُ" فيقول لها ارجعي إلى

(1) سورة الحج (23-24).
(2) سورة المطففين (22-24).
(3) سورة الغاشية (8-16).
(4) سورة عبس (38-39).
(5) سورة الفجر (27-30).

"رَبِّكِ" راضية مرضية، ثم يحيطها برعايته العلوية الشفيفة فيقول لها ادخلي "فِي عِبَادِي" "وَادْخُلِي جَنَّتِي" بما في الإضافة إليه سبحانه من تقريب وتكريم.

وشبيه بذلك في سورة مريم [96]: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا".

فهنا يرتفع النعيم ويلطف ويشف حتى يصبح "وُدًّا" من الله لعباده. وذلك أروع المتاع.

إن الناس كما قلنا صنوف شتى، ومستويات شتى. فيهم من يأخذ الحياة حسًّا، ومن يأخذها معنى. وكل بشر إلى جانب ذلك تعتوره هذه الحالة وتلك، أو يمزج بينهما في اللحظة الواحدة. ومن ثم جاء التوقيع القرآني أنغامًا شتى على ذلك الوتر الواحد، تشمل الحسيات والمعنويات جميعًا. كما أن وصف القرآن للنعيم الحسي يعطيه طعمًا خاصًّا حبيبًا حتى للذين لا يحفلون كثيرًا بعالم الحس!

* * *

من هذين الوترين المتقابلين المتجاورين يمسك الإسلام بزمام النفس البشرية! فيعدها ويمنيها، ويخوفها ويرهبها.. وفيما بين ذلك يغرس فيها كل البذور الصالحة التي يقصد إلى غرسها في قرارة النفوس.

إنه يربط بهذين الخطين -المعروفين في اصطلاح المؤلفين المسلمين باسم الترغيب والترهيب- يربط بهما كل نشاط البشرية.

فالقرآن يربط توجيهاته كلها، وأوامره ونواهيه بهذا الخط أو ذاك، أو بهما مجتمعين، ويكرر ذلك تكرارًا حتى تتلازم في أعماق النفس، ويصبح هذا التلازم قوة شعورية ولا شعورية توجه إلى الخير وتبعد عن الشر:

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا، خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا"[1].

"الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ"[1].

([1]) سورة الكهف (107-108).

"الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[2].

ثم تجيء الآيات الأخرى تفصل هذا الإيمان والعمل الصالح، فتبين "مفرداته" المتعددة.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[3].

"فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"[4].

"وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ"[5].

"قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"[6].

---

(1) سورة يونس (63-64).

(2) سورة غافر (7-9).

(3) سورة الصف (10-12).

(4) سورة آل عمران (195).

(5) سورة آل عمران (169-171).

(6) سورة التوبة (24).

"وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ"[1].

"وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"[2].

"الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"[3].

"الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[4].

"وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ، إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَة"[5].

"وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"[6].

وهكذا يوقع الإسلام على هذين الوترين المتقابلين جميع أنغام الخوف والرجاء التي يمكن أن تعرض لحياة البشر على الأرض. ويصل من ذلك التوقيع المنوع النغمات المتجدد الألحان إلى تحرير النفس من الخوف الأرضي والتعلق بمتاع الأرض الزائل، وإطلاق البشرية عاملة في سبيل الخير. في كل ميدان من ميادين العمل: في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وعمارة

([1]) سورة التوبة (68).

([2]) سورة الفرقان (68-70).

([3]) سورة البقرة (262).

([4]) سورة البقرة (275).

([5]) سورة الهمزة (1-9).

([6]) سورة آل عمران (133-134).

الأرض، على أسس من نظافة الخلق ونظافة الضمير، ابتغاء مرضاة الله، وفرارًا من عذاب الله، كما يصل إلى تهذيب الضمير البشري وإرهافه إلى الدرجة التي ينتفض فيها صاحيًا لأقل لمسة وأبسط توجيه، حتى يكفي أن يظن أن ذلك يرضي الله فيعمله، ويكفي أن يظن أن ذلك يغضب الله فيبتعد عنه. وكذلك كان المسلمون الأوائل الذين رباهم القرآن. وصلت حساسيتهم المرهفة -واطمئنانهم مع ذلك إلى الله- إلى حد كانوا يعيشون فيه مع الله نهارهم وليلهم، ولا ينصرفون عنه في عمل أو راحة. وكانوا بذلك كما حدث عنهم خالقهم: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ". صدق الله العظيم.

الحب والكره

والحب والكره خطان آخران من خطوط النفس المزدوجة المتقابلة، يشملان مساحة واسعة من النفس، ومساحة واسعة من الحياة. إنها مساحة قريبة من تلك التي يشملها الخوف والرجاء.

وكما صنع الإسلام في الخطين الأولين، كذلك يصنع في هذين الخطين، فيحكم أولًا رباط الوترين المتجاورين، ثم يوقع على كل منهما النغمة التي ينبغي أن تصدر عنه بلا تراخ ولا توتر شديد.

إن الإنسان يحب نفسه. كذلك رَكّب في فطرته: "وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ"[1]. يحب أن يستمتع بكل لون من ألوان الملذات الحسية والمعنوية. يحب أن يكون بارزًا ظاهرًا قويًّا متمكنًا ذا سلطان. يحب أن يقهر ويتغلب, يحب أن يستحوذ على كثير. يحب أن يُعَمَّر وأن يخلد. يحب أن يكون نقطة ارتكاز الكون!

وإنه ليكره ... يكره كل ما يقف في سبيل هذه الشهوات. يكره العوائق المادية أو المعنوية التي تقفه دون تحقيق رغباته. يكره الناس حين يحس أنهم يشاركونه فيما يحب أن يستحوذ عليه وحده. يكره كل أذى يقع عليه وكل اعتداء.

تلك نغمات تصدر عن وتري الحب والكره في النفس البشرية. بعضها صالح وكثير منها نشاز!

([1]) سورة العاديات (8).

والإسلام لا يحارب الفطرة ولكنه يهذبها. إنه يريد للناس أن يحبوا وأن يكرهوا. لأن هذه فطرتهم. ولكن الحب على إطلاقه والكره على إطلاقه يدمران النفس ويبددان طاقتها، ويوزعانها، ويستعبدانها فلا تملك الخلاص! وحين ينقلب الحب والكره إلى شهوة لا ضابط لها فإنها لا تصطدم بالآخرين فحسب، بل يتصادم بعضها ببعض داخل النفس وتؤدي إلى البوار.

من أجل ذلك يضع الإسلام "ضوابط" لشهوة الحب والكره. ضوابط تتصل بالروح، وضوابط تتصل بالعقل. وجميعها يتصل بالله.

ولا يكره الإسلام للناس أن يحبوا أنفسهم! فحب النفس كما قلنا من قبل دافع فطري قوي، وهو من أكبر الحوافز على العمل والتعمير والإنتاج، وكلها أهداف يحفل بها الإسلام ويعمل على تنشيطها بكل سبيل.

ولكنه لا يفهم حب النفس على أنه الانجراف وراء الشهوات! بل على العكس يعتبر ذلك ظلمًا للنفس. وإنه لكذلك في الحقيقة. فالذي يطلق لنفسه العنان في كل ما توسوس به يظلمها ويوردها موارد الهلاك[1]. إنه يفهم حب النفس على أنه النصيحة لها والتوجيه الصالح. التوجيه الذي تتحقق به سعادتها في الدنيا والآخرة. وفي الآخرة على وجه التخصيص. فهي الدار الباقية. نعيمها خالد وعذابها مقيم. بينما الحياة الدنيا "لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا"[2]. فأية حماقة في أن يبيع الإنسان الدار الباقية ونعيمها الخالد، بنعيم زائل لا يمتع المتعة الكاملة حتى في هذه الدنيا، فهو دائمًا مشوب، وأقل الشوب أنه صائر إلى الفناء؟!

كلا! ما هكذا ينبغي أن يكون حب النفس! إنما الحب الحقيقي أن يصون الإنسان نفسه من مذلة العبودية في الأرض للشهوة, ومذلة الخزي والعذاب يوم الجزاء.

ولكي يصل الإسلام إلى ذلك فإنه يوقع على وتر الحب أنغامًا جميلة شفيفة رائقة تنتهي في النهاية إلى أن يحب الإنسان نفسه في وضعها الصحيح!

يوقع أولًا نغمة الحب لله ... وإنها لتوقيعات شتى.

([1]) انظر الفصل السابق "تربية الجسم".

([2]) سورة الحديد (20).

فالله هو الواهب المنعم الذي وهب الحياة للإنسان. ووهب له كل ما يملك من طاقات ومزايا وصفات.

"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ"[1].

"الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"[2].

"سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى"[3].

"وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا"[4].

"يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ"[5].

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً"[6].

"وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ"[7].

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"[8].

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"[9].

"الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ"[1].

([1]) سورة التغابن (3).

([2]) سورة الرحمن (1-4).

([3]) سورة الأعلى (1-2).

([4]) سورة مريم (9).

([5]) سورة الانفطار (6-7).

([6]) سورة الروم (54).

([7]) سورة الصافات (96).

([8]) سورة الإسراء (70).

([9]) سورة التين (4).

"أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"[2].

والله هو الذي يسر للإنسان الحياة على سطح هذا الكوكب، ووهب له كل "الإمكانيات" اللازمة له، والمساعدات التي تجعل الحياة ممكنة وميسرة وجميلة:

"هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا"[3].

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ"[4].

"وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ"[5].

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ"[6].

"اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا"[7].

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً"[8].

"وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ"[9].

"أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ"[1].

([1]) سورة السجدة (7).

([2]) سورة البلد (8-10).

([3]) سورة البقرة (29).

([4]) سورة الحج (65).

([5]) سورة الجاثية (13).

([6]) سورة الأنعام (1).

([7]) سورة النحل (81).

([8]) سورة الروم (21).

([9]) سورة الزخرف (12).

"وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ، وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ"[2].

والله بعد ذلك بعباده رؤوف رحيم. ولا يكلفهم فوق طاقتهم، ويريد لهم الخير:

"هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"[3].

"يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ"[4].

"لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"[5].

ثم هو –رغم ذلك– يغفر للمسيئين والمخطئين ما داموا لا يصرون على الإثم:

"وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ"[6].

"إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"[7].

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ"[1].

([1]) سورة يس (71-73).

([2]) سورة النحل (66-69).

([3]) سورة الحج (78).

([4]) سورة البقرة (185).

([5]) سورة البقرة (286).

([6]) سورة آل عمران (134-136).

([7]) سورة الفرقان (70).

"إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ"[2].

"إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا"[3].

فمن أولى من الله بالحب. الله المنعم الوهاب. الغفور التواب؟

* * *

ويوقع نغمة الحب للكون الذي خلقه الله. فالإسلام –كما قلنا من قبل– يعقد صداقة قوية بين الكون والإنسان. صداقة الأخوة في الصدور عن الله (وقد كشف العلم الحديث عن وحدة البناء في الكون والحياة والإنسان) وصداقة العبادة المشتركة والتسبيح المشترك لله. وصداقة الإحساس بتسخير الكون لمنفعة الإنسان.

ويوقع نغمة الحب للكائنات الحية التي تشارك الإنسان سكنى الأرض.

ثم يوقع نغمة الحب لبني الإنسان.

إن الناس الذين خلقهم الله من نفس واحدة، لا بد أن يكونوا أحبة. فهم إخوة. إخوة في الخلقة وإخوة في الرحم. وإخوة في الحياة على سطح هذا الكوكب. وإخوة في المصالح المشتركة. وإخوة في المنشأ والمصير.

والقرآن يذكر بهذه الأخوة، وبحقها على الناس، في صور جميلة أخاذة تهز الوجدان:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ"[4].

"وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا"[5].

---

(1) سورة الزمر (53).

(2) سورة النساء (48).

(3) سورة الزمر (53).

(4) سورة النساء (1).

(5) سورة آل عمران (103).

"وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"[1].

"وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ"[2].

"وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ"[3].

"وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ"[4].

وأحاديث الرسول الكريم في ذلك الباب كثيرة، جميلة شفيفة:

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[5].

"وتبسمك في وجه أخيك صدقة! "[6].

"وتلقي السلام على من عرفت ومن لم تعرف"[7].

"إن من عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء والشهداء". قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: "هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم نور، على منابر من نور. لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس". ثم قرأ: "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"[8].

وهي كلها توجيهات إلى الحب الصافي الرائق الذي يليق بالإخوة البررة الكرام.

([1]) سورة الحشر (9).

([2]) سورة الحجرات (11).

([3]) سورة الحجرات (12).

([4]) سورة البقرة (237).

([5]) رواه البخاري.

([6]) رواه ابن حبان والبيهقي.

([7]) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

([8]) رواه النسائي وابن حبان.

وحين يوقع الإسلام أنغام الحب هذه كلها، فإنها -بطبيعتها- توازن حب الإنسان لنفسه، وتضعه في وضعه الصحيح، الذي لا يظلم ولا يجور، ولا يغتصب لنفسه حقوق الآخرين.

* * *

أما الكره فيوجهه إلى قوى الشر في الأرض.

إنه لا يجوز للإنسان أن يكره الله سبحانه، أو يكره رسوله، أو أيًّا من ملائكته ورسله؛ ولا يجوز له أن يكره الكون، ولا الحياة، ولا بني الإنسان.. ولكن عليه أن يستخدم طاقة الكره الفطرية في كراهية الشر بجميع صوره وجميع ألوانه، وحيثما كان.

الظلم بجميع ألوانه شر ينبغي أن يُكْرَه وأن يقاوم:

"يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا"[1].

والعدوان شر ينبغي أن يكره وأن يقاوم:

"فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ"[2].

"وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"[3].

والاعتداء على الضعفاء في الجماعة شر ينبغي أن يكره وأن يقاوم:

"وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا"[4].

---

(1) حديث قدسي أخرجه مسلم.
(2) سورة البقرة (194).
(3) سورة البقرة (179).
(4) سورة النساء (75).

وقبول الاعتداء على النفس يسميه القرآن ظلمًا للنفس ويتوعد من يقبله، ويدعو إلى مقاومته:

"إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا"[1].

وفتنة الناس عن دينهم شر ينبغي أن يكره وأن يقاوم:

"وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ"[2]. "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ"[3].

والإفساد في الأرض ومحاربة الله ورسوله، والصد عن سبيله شر ينبغي أن يكره وأن يقاوم:

"إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ"[4].

والفواحش ما ظهر منها وما بطن شر ينبغي أن يكره وأن يقاوم:

"الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"[5]. "إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"[6].

وكل انحراف عن سبيل الله شر ينبغي أن يكره وأن يقاوم:

([1]) سورة النساء (97-99).

([2]) سورة البقرة (191).

([3]) سورة البقرة (193).

([4]) سورة المائدة (33).

([5]) سورة النور (2).

([6]) سورة النور (19).

"من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان"[1].

وجماع الشر كله هو الشيطان.. هو الذي يتمثل فيه الشر كله، وهو الذي يدعو إلى كل شر، ومن ثم ينبغي أن توجه له طاقة الكره كاملة، وتعلن عليه حرب لا هوادة فيها ولا تسليم:

"أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ"[2].

والمؤمن بكل طاقاته مجند حياته كلها لدفع هذا الشر ومحاولة التغلب عليه. وبذلك يتوازن الحب والكره. ويصدر عن كل وتر منهما نغمه الصحيح.

الواقع والخيال

في فطرة الإنسان طاقتان متقابلتان. طاقة الواقع وطاقة الخيال.

وينبغي -لكي يحقق الإنسان كيانه كله - أن تعمل فيه هذه الطاقة وتلك، وأن يمارس نشاطه هنا وهناك.

وقد تقلبت النظم الأرضية في ذلك كثيرًا بين الخيال والواقع، تجنح هنا مرة وهناك مرة، ولا تتوازن في كثير من الحالات.

والعالم اليوم يعاني موجة من "الواقعية" البغيضة! وقد جاءت بعد موجة مغالية في "الرومانتيكية" المغرقة في الخيال!

كلاهما انحراف!

كانت الرومانتيكية تهمل واقع الأرض وتهيم في الأحلام. والواقعية اليوم تتنكب الأحلام عمدًا وتجنح إلى الواقع الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، ويمارسه الناس وهم واقعون تحت ضغط الضرورة، لا منفلتين منها ولا مترفعين عليها. واقع المادة وواقع الحيوان![1].

([1]) حديث متفق عليه.

([2]) سورة يس (60-62).

إن هذا الواقع الصغير الذي رسمت حدوده الداروينية القديمة[2] لينتهي بالحياة عند المطالب القريبة التي تحتمها الضرورة، ولا يرتفع عن ذلك، ولا يحلم بما هو أجمل أو أكمل أو أفضل. ومن ثم يظل مستواه يهبط، ويظل محيطه يضيق، حتى يصل في النهاية إلى جعل الإنسان آلة حيوانية، يتصرف كما تتصرف الآلة، وينطلق كما ينطلق الحيوان.

لأنه يعيش بجناح واحد. جناح الواقع، ويقص جناحه الآخر. جناح الخيال.

أو الأوفق أن نقول: إنه يعيش بقدميه المربوطتين إلى الأرض، ويقص جناحيه المحلقين في السماء.

والإسلام -كعهده دائمًا- يحب أن يستغل الطاقات البشرية جميعًا، ويوقع على كل أوتار النفس، ليصل من ذلك إلى التوازن في الكيان البشري، وإلى تنمية هذا الكيان وتوسيع آفاقه، ليليق ببني الإنسان.

من أجل ذلك يوقع على الوترين المتقابلين، كل في نطاقه، وكل بما يصلح له.

فأما طاقة الواقع فيعطيها عملها الكامل في نطاق الحياة الدنيا ونطاق الأرض.

إقامة الدولة، وتنظيمها، وحمايتها. وتنظيم المجتمع بحاجاته المادية والاقتصادية والسياسية والتعليمية. إلخ. واستخلاص معادن الأرض وطاقاتها واستغلالها لمنفعة البشر. وتنظيم العلاقات مع الدول الأخرى في الحرب والسلم إلخ إلخ.

كل ما "يحتاج" إليه الإنسان في الأرض، كل "الضرورات" التي لا يستغني عنها. كل العلوم. كل المخترعات. كل التنظيمات.

ولكنه لا يقتنع بالضرورة. لا يحجّر مشاعر الناس ويوقفها في حدود هذا الواقع الصغير. لكي لا تفسد. لكي لا تهبط. لكي لا يأكلها الصراع على عالم المادة. لكي لا يأكل مشاعرها الحقد والحسد والأطماع.

([1]) انظر كتاب "معركة التقاليد" وفصل "فوق الواقع" من كتاب "في النفس والمجتمع".

([2]) تمييزًا لها من الداروينية الحديثة Neo darwinism التي تؤمن بتفرد الإنسان واتساع آفاقه عن محيط الحيوان (انظر "معركة التقاليد).

إنه يلبي الفطرة الإنسانية. بل الفطرة الحية على إطلاقها. بل فطرة الخليقة حتى في الجماد!

إن الجبال لا تكتفي بأن تكون جبالًا.. ولكنها تكون جميلة ورائعة مكسوة بالثلوج أو مكسوة بالغابات!

إن السحاب لا يكتفي بأن يكون سحابًا يحمل الماء.. ولكنه كذلك يكون جميلًا بأشكاله وألوانه. ثم ينتشر عليه في بعض الأحيان طيف الشمس (قوس قزح) في منظر رائع جميل!

إن النبات لا يكتفي بأن يكون نباتًا، ولكنه يورق ويزهر، ويستمتع منه الإنسان بزهره الأريج وشكله البهيج!

إن الطير لا يكتفي بأن يكون طيرًا، ولكنه يسقسق ويغرد ويلعب ويقفز، وتزهو منه الألوان!

إن الحيوان لا يكتفي بأن يكون حيوانًا، ولكنه يقفز ويمرح، و"يتخابث" في لطف ويُسْتأَلف للإنسان!

الإنسان وحده هو الذي يراد له أن يعيش في عالم "الضرورة" وعالم "الواقع"؟ الإنسان وحده هو الذي يراد له أن يخالف الكون وفطرة الحياة؟

من يقول ذلك؟ إلا من انحرفت فطرته وفسدت سجاياه!

كلا! لا يقبل الإسلام أن يحصر الإنسان في حدود هذا الواقع الصغير. إنما يريد له أن يعيش في "الواقع الكبير" الذي يشمل الضرورة والانفلات من عالم الضرورة. يشمل ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.. فكلاهما عنصر أصيل في الإنسان.

لذلك يشغل طاقة الخيال لتساند طاقة الواقع، وترفعها عن قيود الواقع المحدود.

يشغلها في تخيل الكمال المطلق بقدر ما تطيق. لأن تخيل الكمال المطلق يجعلها تهفو لإصلاح "الواقع" ومحاولة الوصول به إلى الكمال. ومن ثم يصبح الخيال واقعًا بعد حين! ويرتفع مستوى البشرية كلها بقدر ما تطيق!

ويشغلها في تصور الكمال والجمال في العالم الآخر.. فيغذي خيالها بمئات من المناظر والمشاهد والصور والحالات. يكفي قولة الرسول عن الجنة: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!" إن هذه الجملة وحدها لتفتح للخيال طاقة يطل منها على الجمال المطلق والكمال المطلق.. طاقة لا تكفي فردًا بمفرده، ولا جيلًا بمفرده. وإنما هي للبشرية كلها في جميع الأجيال! وهي بعد ليست خيالًا لمجرد المتعة والتلذذ السلبي الذي لا هدف له ولا غاية وراءه. "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ" وإنما الهدف هو إصلاح القلب البشري على الأرض، ليعمل الإنسان في الأرض وقلبه متجه إلى السماء. وليرعى الله في كل عمل لينال ثوابه ومغفرته ورضاه. ومن ثم يرتبط الواقع والخيال كلاهما بالله. ويعمل الواقع والخيال كلاهما لإصلاح النفوس وإصلاح الحياة!

الحسية والمعنوية

وقريب من الخطين السابقين هذان الخطان المتقابلان: الطاقة الحسية والطاقة المعنوية، كل منهما مكملة للأخرى، وكل منهما تعمل في اتجاه.

الطاقة الحسية هي طاقة الجسد المتصلة بالحواس والأعصاب والكيماويات والبيولوجيات والفسيولوجيات. والطاقة المعنوية لا يدري أحد على وجه التحديد "مكانها" و"ماهيتها" ولكنها هي التفكير التصوري التجريدي الذي يدرك "الكليات" و"المعنويات". يدرك "القيم العليا". يدرك "الفضيلة". يدرك "العدل". يدرك "الحق". يدرك "الجمال".. وما إلى ذلك من كليات ومعنويات وتجريدات.

يقول جوليان هكسلي في كتابه "الإنسان في العالم الحديث" في فصل "تفرد الإنسان": "أول خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحًا قدرته على التفكير التصوري ... ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة.." ويقول في موضع آخر من نفس الفصل: "وهذه الخواص الذي امتاز بها الإنسان، والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية، تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

"الأولى: قدرته على التفكير الخاص والعام".

"الثانية: التوحيد النسبي لعملياته العقلية، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان".

"الثالثة: وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها".

"وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان، وهي بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية، ولنذكر منها العلوم الرياضية البحتة والمواهب الموسيقية والتذوق والإبداع الفنيين، والدين، والحب المثالي".

هاتان الطاقتان إذن موجودتان في الإنسان. ولكن الطاقة التي تعتبر "إنسانية" بصفة خاصة، الطاقة التي يتفرد بها الإنسان ولا وجود لها في الحيوان، هي الطاقة المعنوية التي تدرك الكليات والمعنويات والتجريدات. ومع ذلك فالجاهلية الحديثة التي يعيش بها الناس في القرن العشرين، تجنح رويدًا رويدًا إلى إهمال هذه الطاقة التي هي إنسانية بصفة خاصة، وتكبير الطاقة الأخرى المشتركة بين الإنسان والحيوان.

إن الجاهلية الحديثة لا تستغل الطاقة المعنوية إلا في مجال واحد. مجال "العلم" بنظرياته وتطبيقاته. إنه ولا شك مجال ضخم. وإنه ليفتح آفاقًا جبارة كل يوم، ويدفع بالبشرية –في هذا المجال– إلى الأمام. ولكن مجال هذه الطاقة أوسع بكثير من ميدان العلم. إنه يشمل كذلك الفن. والعقيدة. والفضائل. والأخلاق. والقيم العليا.. يشمل أرفع جوانب الإنسان.

والفن في العالم الحديث رغم إمكانياته الضخمة يتدهور كل يوم وينحدر بدعوى "الواقعية" التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة. واقعية المادة وواقعية الحيوان. ومن ثم يفقد رفرفته وطلاقته، ونشدانه الدائم للجمال والكمال. أما العقيدة وما يشع عنها من فضائل وأخلاق وقيم عليا. فقد ظلت تتضاءل في العالم الحديث بتأثير الجاهلية المسيطرة عليه، حتى صارت أسطورة يتندر بها الناس.. ويضحكون.. ويهزأون! تمامًا كما كانوا في جاهليتهم الأولى. وكما يكونون في كل لحظة يتخلون فيها عن كيانهم الإنساني الأصيل، ويخلدون إلى الأرض وينحصرون في دنيا الحيوان: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ"[1].

أما الإسلام فعلى عهده دائمًا، مساير للفطرة مرتفع معها إلى آخر ما تطيق الارتفاع، لا يتخلى عن مهمته مهما كانت الظروف. لا تيئسه الجاهلية التي يجد عليها الناس، فإنما جاء ليبدد الجاهلية وينشر المعرفة الصحيحة. وتلك مهمته الدائمة في حياة البشرية.

الإسلام يساير الفطرة بشقيها، فيعطي الطاقة الحسية غذاءها، ويمنح الطاقة المعنوية مجال العمل والإبداع.

([1]) سورة الأعراف (175-176).

كل لذائذ الحس مباحة ما دامت في الدائرة المأمونة النظيفة التي لا تضر بالفرد ولا تضر بالمجموع. لذائذ الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس. وما يبتدعه الإنسان من أدوات تيسر حياته وتوفر جهده وتمتع حسه المتعة الحلال. وفي ذلك غذاء كامل لطاقة الحس.

أما الطاقة المعنوية.. الطاقة التي هي إنسانية أصيلة. الطاقة التي تميز بها الإنسان عن الحيوان.. فالإسلام يحتفل بها احتفالًا ضخمًا، ويجعلها هي أساس الحياة الإنسانية، بما أنها هي أساس إنسانية الإنسان.

أول ما يحتفل بها يمنحها العقيدة. العقيدة على شمولها واتساعها وطلاقتها. العقيدة بمعنى الإيمان بوجود الله ووحدانيته. وبمعنى العبادة لله وإخلاص الدين له. وبمعنى تصور الكون والحياة على أساس هذا الإيمان بالله. وبمعنى الإيمان بالحق الذي خلق به الله السموات والأرض. وبمعنى إحقاق هذا الحق على ظهر الأرض. وبمعنى إقامة المجتمع الإنساني على أساس الحق الإلهي الذي نزل به القرآن. وبمعنى الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل الحق وفي سبيل الإسلام. الجهاد في سبيل إقامة مجتمع نظيف متوازن يؤمن بما أنزل الله، ويحكم بما أنزل الله. تلك هي العقيدة التي يبذرها الإسلام في النفوس، ويغذي بها الطاقة المعنوية في الإنسان.

والحياة في ظلال هذه العقيدة متعة للنفس ما بعدها متعة.. متعة الاتصال الدائم بالله، وتوسيع آفاق الإنسان حتى تتصل بالكون كله على اتساعه وتصبح طاقة كونية ممتزجة بطاقة الكون، داخلة في ناموسه الأكبر غير منفصلة عنه، وغير منحصرة بذاتها الصغيرة الفانية عن طاقة الحياة.

وهذا الكلام ليس شعرًا! إنما هو واقع! واقع يكشف عنه العلم الحديث خطوة بعد خطوة كلما فتح الله عليه سرًّا من الأسرار! ولقد كان اكتشاف الطاقة الذرية والجاذبية الكونية حدثًا في تاريخ العلم. وهو كذلك حدث في تاريخ "المعرفة" بمعناها الواسع. فقد كشف للإنسان أن تقسيم الكون إلى مادي ولا مادي يوشك أن يصبح خرافة! وأن الكون كله في حقيقته مجموعة من "الطاقات" متحركة على الدوام، مترابطة على الدوام، فإذا اختلت فسد ترابطها وانفجرت وتبددت في الآفاق. والإنسان أحد هذه الطاقات الكونية، يحكمه الناموس ذاته وتوجهه إرادة الله الواحد الذي خلق الكون والحياة والإنسان. ومن ثم فهو حين يتجه لله وحده بالعبادة، فهو يصنع ما يوحي به ناموس الكون الأكبر الذي هو بضعة منه. وحين يتجه للكون بالحب فهو يتجه إلى "أخ" له في الخلقة والطبيعة. وحين يتجه إلى "الإنسانية" بالحب ويتحرك ويعمل في نطاق ذلك الحب، فهو يحقق ناموس الكون الذي يقول إن الكون "طاقات" متجاذبة مترابطة متحركة في ترابطها وتجاذبها على الدوام.

ومن ثم كذلك تصبح "الفضائل" كلها من صدق ونظافة واستقامة وتطهر، و"القيم العليا" كلها من حق وعدل وجمال وكمال.. جزءًا من بنية الكون وبنية الإنسان. جزءًا من فطرة الخليقة التي خلقها الله. ويصبح الإنسان طاقة كونية، ويصبح متجاوبًا مع الفطرة، ومتمشيًا مع الناموس.. كلما تمسَّك بهذه الفضائل وهذه القيم.. كما يصبح ناشزًا عن الفطرة، منحرفًا عن الناموس، منفصلًا عن طاقة الكون، منحصرًا بذاته الصغيرة في حدودها الضيقة، كلما بعد عن هذه الفضائل وهذه القيم وأخلد إلى الأهواء والشهوات.

ذلك هو التصور الإيماني للحياة. وتلك هي حقيقة الواقع التي يكشف عنها العلم يومًا بعد يوم. والإسلام يجعل هذا التصور قاعدته الأساسية، ويجعله كذلك غذاء كاملًا للطاقة المعنوية، التي هي الأساس الإنساني للإنسان. وهو لا يجعله متعة أحلام وتأمل منقطعة عن الواقع! كلا! فكل شيء في الإسلام له غاية! غاية عليا هي صلاح القلب الإنساني واستقامته على الفطرة التي فطره عليها الله. ومن ثم فإن الإسلام لا يميل كثيرًا إلى "الفلسفة" التجريدية البحتة التي تدور وتدور وتدور. ثم ترجع من حيث بدأت، ولا تمنح البشرية غذاء حقيقيًّا صالحًا للحياة. والإسلام لا يكره التأمل في ملكوت الله. بل يدعو إليه دعوة حارة قوية ملحة، ولكنه يخرجها من توها أن تصبح تأملات في البرج العاجي، فيربطها بواقع العمل وواقع الشعور وواقع السلوك. ويجعل لها صدى مباشرًا في حياة الناس على الأرض. كما رأينا في ذلك المنهج الذي بيناه في تربية العقل ونحن نستعرض الآيات: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ... فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ..." فهو تأمل يؤدي مباشرة إلى الإيمان. والإيمان يؤدي مباشرة إلى العمل وإلى الجهاد في سبيل تحقيق التصور الإيماني الذي أنشأه التأمل في الملكوت. وبذلك يرتبط الحسي والمعنوي في واقع الحياة كما هما مرتبطان في واقع النفس. ويكون هذا الدين العجيب المعجز هو "دين الفطرة" كما حدّث عنه القرآن الكريم: "فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم".

ما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس

وقريب من الخطين السابقين هذان الخطان الآخران: الإيمان بما تدركه الحواس، والإيمان بما لا تدركه الحواس[1].

إنهما طاقتان فطريتان في كيان الإنسان. كلتاهما إنسانية أصيلة، فالحيوان لا "يؤمن" بشيء من الأشياء. ومع ذلك فالإيمان بما تدركه الحواس ليس هو مزية الإنسان العظمى. إذ هو أقرب في طبيعته للطاقة الحسية المشتركة بين الإنسان والحيوان. أما القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس فهو المزية الأساسية للكائن البشري، والموهبة العظمى التي وهبها الله للإنسان.

وعلى الرغم من هذه البديهية التي يؤيدها العلم التجريبي نفسه –كما ذكرنا من قول جوليان هكسلي– فالجاهلية الحديثة تطمس بصيرة الإنسان في هذا الجانب، وتحدد كيانه، وتحصره في محيط ما تدركه الحواس وحده. وتقول إن هذه هي "الواقعية!"

"إن حقيقة العالم تنحصر في ماديته"!.. كذلك يقول المذهب المادي على لسان ماركس. وكذلك يؤمن الغرب كله بصرف النظر عن مذاهبه الاقتصادية، فالخلاف فيها خلاف على القشرة، أما الأساس المشترك فهو إيمان بمادية الحياة ومادية الإنسان![2].

والإسلام يؤمن بالطاقات الإنسانية جميعًا، ويعطي كل طاقة ما يصلح لها من الغذاء.

يؤمن بميل الإنسان للإيمان بما تدركه الحواس. ويعطي غذاء لهذه الطاقة، الكون المادي كله بما فيه من محسوسات.

الكون المادي مبسوط أمام الإنسان تدركه حواسه مباشرة بالعين والأذن والشم والذوق واللمس، أو تدركه بواسطة الآلات المقربة والمكبرة والمجسمة.

وهذا الكون المادي مبسوط أمام تجارب الإنسان ومحاولاته لاستغلال طاقته.

([1]) هذه الخطوط الثلاثة: الواقع والخيال، والحسية والمعنوية، والإيمان بما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس، قد تبدو لأول وهلة كأنها شيء واحد. وحقًّا إن فيها شيئًا من التداخل، ولكنها مع ذلك متميزة كما يرى القارئ من تفصيل الكلام.

([2])انظر بالتفصيل كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" وكتاب "معركة التقاليد".

وليست المذاهب المادية الغربية هي التي "اخترعت" هذا الاختراع أو اكتشفته في القرن العشرين! فقد مر بنا من قول هـ. ا. ر. جب، أن المذهب التجريبي الحديث قد انتقل إلى أوربا على يد الباحثين من المسلمين. وأن ملاحظاتهم العلمية والتفصيلة الدقيقة هي التي مهدت للعلم الحديث سبيل الظهور.

لقد كان المسلمون –بتوجيه دينهم المتمشي مع الفطرة– يؤمنون بالكون المادي والطاقة المادية في الإنسان، فيلاحظون دقائق هذا الكون، ويستنبطون قوانينه، ويستغلون طاقاته. وكانت علومهم في هذا الباب علومًا حقيقية نافعة. ويكفي أن نذكر أن الطب العربي كان يدرس في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر وأن نظريات الحسن بن الهيثم في البصريات كانت تدرس هناك حتى القرن التاسع عشر، وأن لفظة الكيمياء في اللغات الأوربية كلها هي اللفظة العربية، وأن كثيرًا من ألفاظ الفلك عربية الأصل.

وليس هذا وحده.. فالإسلام –على طريقته– قد استغل "ما تدركه الحواس" استغلالًا ضخمًا في تربية القلب البشري وربطه بالله. استغله حين وجه الأنظار إلى "الكون المادي" لتبصر فيه يد الله القادرة المبدعة الصناع. استغل الحواس كلها في هذا الأمر. العين والأذن والشم والذوق واللمس.

يوجه العين للإبصار: "الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا"[1].

"أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ"[2] "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ.. يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ"[3] "انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ"[4].

ويوجه الأذن للسمع: "وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِه"[5]. "أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ"[1] "بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ"[2].

([1]) سورة الرعد (2).

([2]) سورة الغاشية (17-20).

([3]) سورة النور (43).

([4])سورة الأنعام (99).

([5]) سورة الرعد (13).

والذوق: "صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ"[3]. "نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ"[4].

وهكذا ينبه كل حاسة من حواس الجسم ويعطيها عملها سواء في تدبير المعاش، واستخراج الطاقة المادية واستغلالها لصالح الإنسان، أو في الاطلاع على آيات الله في الكون وتدبر قدرته المعجزة في الخليقة. ولا يزعم أي مذهب "مادي" أنه يستطيع أن يستغل الحواس، وما تدركه الحواس، أكثر مما يفعل الإنسان!

ولكن الغرب المادي وقف عند هذه الحقيقة القريبة، وأنكر ما لا تدركه الحواس! أنكر "الروح" لأنه لا يراها ولا يسمعها ولا يذوقها ولا يلمسها! وأنكر الله! فالله: "لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ"[5]، ولا تدركه بقية الحواس. ومن ثم فهو في حساب الغرب المادي غير موجود. أو هو -من باب الذكرى!- موجود ولكن على هامش الحياة وهامش الوجدان! سبحانه وتعالى عما يصفون. كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا.

إنها النكسة الزرية التي تعانيها الجاهلية اليوم بأبشع مما كانت تعانيها بالأمس. فربما كانت للجاهلية القديمة أعذار من الجهل والتأخر واستغلاق العقول. أما الجاهلية الجديدة فهي تزعم أنها "تعلم": "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"[6].

وقد وصل الغرب في نكسته من عدم الإيمان بالروح، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر. وصل إلى الدرك الذي لا هبوط بعده، ولا ارتكاس دونه. وصل إلى الحيوانية الكاملة في كل شيء. في الأخلاق وفي السياسة وفي كل مناحي الحياة. هذه الإباحية الخلقية التي تدنس وجه الأرض. هذه المذابح البشرية القائمة في كل مكان: حربان في ربع قرن والثالثة تنذر بالدمار الشامل الرهيب. هذا الصراع المجنون على متاع الأرض الحسي. هذه اللهفة الدائمة والقلق الدائم والاضطراب. هذا الشد والجذب الذي يفسد الأعصاب ويبدد الكيان. إنها

([1]) سورة البقرة (19).

([2]) سورة الحاقة (6).

([3]) سورة الرعد (4).

([4]) سورة النحل (66).

([5])سورة الأنعام (103).

([6]) سورة الروم (7).

النتيجة الحتمية لإنكار الله واليوم الآخر وإنكار الروح ... النتيجة الحتمية لمعاكسة الفطرة، وعدم الإيمان بما لا تدركه الحواس.

والإسلام -كلمة الله للناس- حاشا أن يقع في هذه الخطيئة. خطيئة معاكسة الفطرة، وسد منافذ النفس البشرية كلها إلا منفذ الحواس.

"الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"[1].

أول صفة للمؤمنين هي أنهم يؤمنون بالغيب! وذلك حق من جميع نواحيه! فالله سبحانه بالنسبة للحواس البشرية "غيب" والمؤمنون يؤمنون بالله بالغيب، وإن كانت الروح -لا الحواس- تتصل به مباشرة بالطريقة التي فطرها الله عليها، وتحس إحساسًا بينًا بذلك الاتصال.

ومن جهة أخرى فالمؤمن هو الإنسان الكامل. الإنسان الذي يساوق فطرته كلها. والذي يلبي من هذه الفطرة إيمانها بما لا تدركه الحواس، وهو الجانب الذي تدركه الأرواح.

وقد جعل القرآن الإيمان بالغيب قاعدة الإيمان كله، وقاعدة الحياة البشرية كلها، لأنه لا يستقيم في الواقع وجود للإنسانية بغير هذا الإيمان، كما رأينا في الجاهلية الأوربية في هذا الزمان!

ولكنه لم يقصر الإيمان بالغيب على الله سبحانه واليوم الآخر والملائكة، وهي قواعد العقيدة التي لا بد منها لصلاح الأمور على الأرض، بلي أعطى تلك الطاقة الإيمانية غذاء آخر خصيبًا في ذكر الجن والشيطان.

إن الشيطان في العقيدة الإسلامية شخصية تكاد من بروز ملامحها أن تكون ملموسة! والقرآن يوجه القلب في مواضع كثيرة إلى الحذر من هذا الشيطان الذي "يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ"[2]. وإلى مخاصمته وإعلان الحرب عليه لقاء تسببه في إخراج آدم من الجنة، وتوعده بإغواء بنيه وإدخالهم إلى الجحيم. والأوصاف الحية "لشيطنة" الشيطان تجعله كما قلنا شخصية بارزة الملامح واضحة السمات: "وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ

([1]) سورة البقرة (1-3).

([2]) سورة الأعراف (27).

الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ"[1]. "وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[2].

وواضح أن الشيطان يؤدي "دورًا" في العقيدة الإيمانية، لتوجيه الطاقة البشرية لمكافحة الشر في نفوسهم وفي نفوس الآخرين، لتصلح القلوب وتصلح الحياة.

ولكن دور الجن في العقيدة ليس كذلك:

"قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا، وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا، وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا، وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا، وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا، وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا، وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا، وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا"[3].

هذه الإشارة المفصلة في سورة الجن. والإشارة العابرة في سورة الأحقاف: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ...".

ليس دورها في العقيدة كدور الإيمان بالله واليوم الآخر، ولا كدور الشيطان. وقد كان يمكن أن تستقيم العقيدة وتكتفي بدون ذكر الجن وهذه التفصيلات. ولكن الإسلام -كما

---

(1) سورة الأنفال (48).

(2) سورة إبراهيم (22).

(3) سورة الجن (1-16).

قلنا- يساير الفطرة البشرية جميعًا، ويصل إليها من كل منافذها، ولا يترك منفذًا واحدًا صغيرًا أو كبيرًا يمكن أن ينفذ إليه دون أن يفعل ذلك. والميل الفطري إلى الإيمان بكائنات لا تدركها الحواس هو نافذة إلى النفس يمكن أن يلجها الإسلام ليصل منها إلى مكمن العقيدة في النفس فيوقظها ويحييها ويزيد "مساحتها". ومن أجل ذلك ذكر هذة الحقيقية. حقيقة الجن. لا لأنها من قواعد العقيدة، ولكن لأنها تغذي تلك الطاقة الفطرية البشرية التي يريد الإسلام أن ينفذ إليها من كل باب. ولكن فلننظر بأي قدر ذكرها ولأية نتيجة!

لقد قلنا إن الإسلام يرفع على كل وتر بقدر ما يصلح له وما يحتاج إليه. وقد ذكر القرآن الجن في هذين الموضعين، وفي قصة سيدنا سليمان وفي مواضع أخرى عابرة، لا ليشغل البشرية بأبحاث تفصيلية عن الجن، وأعدادهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وطريقة اتصالهم بالإنس، وكيفية تسخيرهم، وحدود طاقاتهم.. إلى آخر هذه المباحث التي شغلت المسلمين فترة من الوقت، كانت ولا شك من فترات الفراغ!

إنها إشارة عابرة ... جاءت لتوسع مساحة النفس ... ليخرج الإنسان من دائرة حواسه الضيقة، فيقر في خلده أن الكون أوسع مما تراه حواسه وأشمل. وأن الله آيات في الكون لا يدركها الإنسان بحواسه أصلًا ولكنها مع ذلك موجودة. لعل ذلك أن يفتح بصيرته ويوحي إليه بالإيمان.

ثم إن الجن في سورة الجن وسورة الأحقاف يقومون بالدعوة إلى الإسلام والإيمان بالله. فهم لم يجئ ذكرهم لمجرد "الترفيه العقلي" وإنما لهدف جاد، هو بيان أن كل خلق الله يؤمنون به ويسبحون بحمده ويدعون بدعوته.. إلا الضالين فمأواهم جهنم وعليهم لعنة الله. ومن ثم يؤدي ذكرهم دورًا في العقيدة، وإن كان بطريقة أخرى غير الدور الذي يؤديه الشيطان.

أما الإيمان بالملائكة فداخل في أصل الإيمان كما أسلفنا. والقرآن يصل النفس بهم في صور شتى:

فهم آية من آيات القدرة الخالقة: "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[1].

وهم الذين ينزلون على قلوب البشر بوحي الله: "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ"[1] "يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ"[2].

([1]) سورة فاطر (1).

وهم جند مجندون في طاعة الله: "لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"[3].

وهم يستغفرون للمؤمنين: "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ"[4].

وهم بالجملة صورة وضيئة من الإيمان الخالص تغري بالحب وتوحي بالتطهر والارتفاع.

وبهذا وذلك ينفذ الإسلام إلى النفس عن طريق إيمانها بما تدركه الحواس، وإيمانها بما لا تدركه الحواس. فيكون قد حقق لها كيانها الأكمل، ويكون قد نفذ إليها من منافذها كلها. وهداها إلى الله.

الفردية والجماعية

من الخطوط المزدوجة في كيان الإنسان هذان الخطان المرتبطان المتناقضان:

إحساس الإنسان بفرديته، وإحساسه بالميل إلى الاجتماع بالآخرين والحياة معهم كواحد منهم.

وهذه الظاهرة ذات أثر بالغ في الحياة البشرية. فكيان المجتمع كله قائم على محاولة التوفيق بين هذين المتناقضين في الظاهر، ومدى النجاح في عملية التوفيق.

ولقد اضطربت كثير من النظم وكثير من الفلسفات بين هذه النزعة وتلك. بعضها يوسع دائرة الفردية حتى تصل إلى الأنانية المرذولة، وتفكيك روابط المجتمع، وتشتيت طاقاته. وبعضها يوسع الدائرة الجماعية حتى تقضي على كيان الفرد وتكاد تلغي وجوده، إذ تعتبره ذرة ضئيلة تافهة لا يستمد كيانه إلا بوصفه فردًا في القطيع.

ونحن نرى في هذه اللحظة على وجه الأرض مذهبين متنافرين، كل منهما يقوم على اتجاه.

([1]) سورة الشعراء (193-194).

([2]) سورة غافر (15).

([3]) سورة التحريم (6).

([4]) سورة غافر (7).

الرأسمالية في الغرب قائمة على أساس فردية الإنسان. فتوسع له في حدود فرديته، وتترك له حرية التصرف في كثير من الأمر، حتى يصل إلى حد إيذاء نفسه وإيذاء الآخرين، فلا تحرج على نشاطه الزائد عن الحد، ولا تقفه عند حد معقول. يطلق لنفسه عنان الشهوات والأهواء. ويحطم الأخلاق والتقاليد. ولا يعترف بحق أحد في توجيهه وضبط تصرفاته. ويحول أمواله إلى أداة لاستغلال الآخرين. وامتصاص جهدهم ودمائهم وتحويلها إلى ترف فاجر ومتاع حسي غليظ ... ويفسد سياسة الحكم وسياسة المجتمع، ويفسد تصور الناس للحياة. ومع ذلك فهو يمارس "حريته الشخصية" وليس لأحد عليه سلطان!

والشيوعية في الشرق قائمة على أساس جماعية الإنسان. فتوسع في دائرة الجماعة –أو في الحقيقة الدولة– وتحجر على كل نشاط للأفراد –اللهم إلا نشاطهم الحسي الغليظ, فتتركه لهم مباحًا للتنفيس عن الطاقة المكبوتة!– فتمنع اشتراك الناس الفعلي في سياسة الحكم وسياسة المجتمع، وتفرض عليهم النظم والترتيبات بحجة أنها أعرف منهم بمصالحهم. فتعين لهم أعمالهم، وأماكن إقامتهم، كما تعين لهم أفكارهم ومشاعرهم وطريقة إحساسهم بالأمر. ولا تترك لهم سبيلًا للاختيار. وتحكمهم بالحديد والنار والتجسس، وتعتبر كل نصيحة للدولة أو القائم عليها خيانة تعاقب "بالتطهير" لأنها نزعة فردية آثمة، موجهة ضد كيان الجماعة المقدس، من فرد لا قداسة له في ذاته ولا كيان!

والفلسفات كذلك تخبطت كثيرًا في هذه الأمور. ولم يستطع كثير منها أن يَخْلُصَ إلى حقيقة بديهية بسيطة، يؤيدها الواقع المشهود.

إن هذه الفلسفات تفترض أنه إذا كان الإنسان فردي النزعة فالمجتمع إذن مفروض عليه من خارج نفسه متحكم فيه بغير إرادته، ضاغط على كيانه، محطم لشخصيته، ومن ثم فهو مكروه. وتفتيته وتفكيكه حلال!

أو ... أن النزعة الجماعية هي الأصل. فالطفل يولد ضعيفًا لا حول له ولا قوة ... ولا كيان.. ولولا وجوده في الجماعة ما استطاع أن ينمو وأن يعيش.. وهو في حاجة دائمة للجماعة لكي يستمر في وجوده. وإذن فالنزعة الفردية رجس ينبغي أن يقاوم.. ينبغي أن تسحق هذه الرغبة وأن تزال!

لماذا؟!

إن هذه الفلسفات لا تنتبه إلى الطبيعة المزدوجة في هذا الكائن البشري.التي تبدو متناقضة حين ينظر إليها من السطح. ولكنها مع ذلك مترابطة. وهي تؤدي مهمتها في حياة

الكائن البشري بتناقضها ذلك وترابطها. كما يؤدي مهمته الحب والكره، والرجاء والخوف، والسلبية والإيجابية، والحسية والمعنوية، والإيمان بالواقع والإيمان بما وراء الواقع.. ويخرج لنا في النهاية مخلوق متعدد الجوانب موحد الكيان!

إن في صميم الفطرة هذين الخطين.. كل منهما حقيقة. وكل منهما أصيل. والتناقض يحدث في باطن النفس، كما يحدث الاضطراب في واقع الحياة، حين تزيد النسبة المقررة لكل واحد فينحرف عن مساره، ويعتدي على مسار الآخر ويشده إليه. أما حين يأخذ كل منهما مداره الصحيح. فلن يحدث التنافر بين الفرد والجماعة أو يحدث الشقاق.

وحقيقة إنها مهمة عسيرة. ولكنها ليست مع ذلك مستحيلة.

وأي شيء في حياة الإنسان غير عسير؟! "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ"[1] "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ"[2]. والكدح في كل شيء وفي كل خطوة وفي كل حركة. والكدح في المشاعر والتفكير. إنما يفترق كدح عن كدح، في أن أحدهما مهتد ومبصر وواصل، فيعوض كدحه في الحياة الدنيا بذلك الشعور الواصل، وفي الآخرة بحسن الثواب. والآخر ضالٌّ منحرف مقطوع.. يغرق في لذائذ الحس.. ثم يفيق على الضياع!

والإسلام يوفق بقدر ما في طاقة البشر بين النزعتين الأصيلتين المتناقضتين في الظاهر.

إنه بادئ ذي بدء لا يعتبر إحداهما أصيلة وغيرها دخيل. ولا يعتبر أن تغذية إحداهما تعني بالضرورة الإساءة إلى الأخرى أو إسقاطها من الحساب.

والإسلام دين الفطرة، وهذه فطرة الإنسان: فرد داخل في المجموع. أصيل الفردية، أصيل في الميل للمجموع. وهو دائم التقلب بين نزعتيه المتناقضتين، كما يتقلب في نومه من جنب إلى جنب ليستريح! ولكنه في كل لحظة شامل لجانبيه معًا على اختلاف في النسبة والمقدار.

والإسلام يعالج كلتا النزعتين فيغذيهما معًا، ويجعلهما متساندتين بدلًا من أن تكونا متنازعتين!

إنه يحتاج إليهما معًا؛ لأن الفطرة لا تستقيم بإحداهما دون الأخرى. ولذلك لا يكبت أيًّا منهما, ولا يزيلها من الوجود. إن كان في استطاعة أحد أن يزيلها من الوجود!

([1]) سورة البلد (4).

([2]) سورة الانشقاق (6).

الإنسان الذي لا شخصية له في ذاته ولا وجود، لا ينشئ إلا مجتمعًا مستضعفًا خانعًا يصلح لأن يحكمه "فرد" متسلط دكتاتور! ثم يتهاوى حين يذهب ذلك الدكتاتور!

والإنسان الذي تبرز شخصيته -بانحراف- إلى حد الأنانية المرذولة أو الطغيان، لا يستطيع أن يعيش في وفاق مع الجماعة.. ولا بد أن يتشتت المجتمع ويؤول إلى البوار.

لا بد من إنسان متوازن في فرديته ومتوازن في ميله إلى الجماعة وتعاونه معها. وحينئذ يصبح المجتمع أشخاصًا حقيقيين لا أصفارًا ولا نكرات. أشخاصًا لهم وجود واقعي. متساندين في الوقت ذاته "صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ"[1]. وذلك هو ما يسعى إليه الإسلام.

وهو يصل إلى ذلك بوسائل شتى.

فأما الفردية.. الشخصية الاستقلالية.. الكيان الإيجابي القوي.. فينشئه الإسلام بربط القلب البشري بالله!

إن الإنسان ليتصل بربه.. فردًا!

هذه الصلة العميقة الوثيقة السارية في أعماق النفس هي عند كل إنسان صلته الشخصية الفردية بالله!

وإن الإنسان ليستغرق أحيانًا في العبادة لله ويستغرق في الحب، إلى حد أن ينسى كل شيء في الوجود غيره هو وغير الله! ويخيل إليه في لحظة الاستغراق العميقة أن الوجود كله قد شف وراق. ثم خلا من كل شيء ومن كل أحد.. إلا قلبه الخافق.. والشعاع النوراني الذي يصل قلبه بالله!

في لحظة الاستغراق هذه يمتلئ الإنسان بالشحنة التي توجهه في الحياة.. توجهه فردًا إيجابيًّا له كيان. وإنما لتمنحه قوة عجيبة إزاء كل أحد وكل شيء وكل حدث[2]. إنه يحس أنه يحمل تلك القبسة النورانية المقدسة. القبسة التي احتملها كيان الإنسان الأول الذي خلقه الله من طين الأرض ونفخ فيه من روحه. ومن ثم فهو قوي فعال مريد متصرف. فهو لا يخضع لغير الحق الذي أنزله الله. ولا يرضى بأن يخنع ويستنيم ويصبح سلبيًّا إزاء ما حوله من قيم أو أشخاص أو قوة مادية. لأنه يحس وجوده الفردي ذلك المشحون بتلك القبسة من

([1]) سورة الصف (4).

([2]) انظر بعد ذلك "السلبية والإيجابية" في نهاية هذا الفصل.

الله، مكافئًا لهذه القوى جميعها، بل مستعليًا عليها في داخل نفسه, ولو هزمت قوته المادية المحدودة فترة من الزمان!

ولهذا السبب ذاته تكره الدكتاتوريات الأديان! إنها من ناحية لا تطيق أن يكون الولاء لأحد غير الدكتاتور! ومن ناحية أخرى لا تطيق أن يكون الولاء لله بالذات، لأن هذا الولاء لله هو الذي يؤلب البشر على الطغاة ويحفزهم أن يقفوا لطغيانهم بالمرصاد، و "من رأى منكم منكرًا فليغير.."!

هذه الصلة الفردية الشخصية بالله هي التي تمنح الإنسان وجوده المستقل، فلا يَنْبَهِمُ ولا يضيع في القطيع.

وثمت عنصر آخر يربي هذه الفردية المستقلة، ويميز كل شخص بمفرده في داخل حسه: إنها المسؤولية الفردية عن الأعمال. "وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"[1]. "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة"[2]. "لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا"[3]. "بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ"[4].

فهي إذن تبعة فردية: كل إنسان مسؤول عن عمله، لا يستطيع أن يلقي حمله على غيره، ولا هو يتلقى على كتفه أحمال الآخرين. والشعور الدائم بهذه المسؤولية الفردية يحدد للإنسان في داخل نفسه كيانًا متميزًا واضح الحدود، أعصابه صاحية لكل ما يمسه ولو من بعيد!

ذلك غذاء الفردية في الإسلام!

ولكنه غذاء عجيب جدًّا، يؤدي هو ذاته لبث الروح الجماعية في قلب الإنسان!

إن الله الذي يتصل به القلب ويقبس منه النورانية والشفافية، هو الذي يليّن قلب الإنسان لأخيه، فيحبه ويمنحه من نفسه، ويفنى فيه!

([1]) سورة فاطر (18).

([2]) سورة المدثر (38).

([3]) سورة البقرة (48).

([4]) سورة القيامة (14-15).

"وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"[1].

منتهى الحب. ومنتهى البذل. ومنتهى الإيثار.

والحب هو الرباط الحي الذي يربط الجماعة.. يشدها كالبنيان المرصوص.. فإذا كل لبنة قائمة بذاتها قوية الوجود.. ثم إذا البناء كله جماعة.. ليست فيه لبنة ناشزة خارجة عن الحدود!

وبهذا الحب الذي يبثه الإسلام ويغذيه قام المجتمع الإسلامي الأول الفريد في كل التاريخ. مجتمع لا من الأصفار المتذاوبي الكيان. مجتمع كل فرد فيه أمة! وهو على ضخامة شخصياته وإيجابيتها العجيبة الفذة، متحاب مترابط، لا تكاد تحس أين يبتدئ كيان كل واحد منهم وأين ينتهي الآخر. لأن الحب قد أزال الحدود!

والقرآن يغذي هذه الجماعية بتوجيهاته الدائمة إلى التعاون والتشاور والوفاق:

"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"[2].

"وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا"[3].

"وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ"[4].

"مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ"[5].

"وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ"[6].

([1]) سورة الحشر (9).

([2]) سورة المائدة (2).

([3]) سورة آل عمران (103).

([4]) سورة التوبة (71).

([5]) سورة الفتح (29).

([6]) سورة الشورى (38).

كما يغذيها بالخطاب الجماعي والتوجيهات الجماعية.. التي تلقي المسؤولية على الجماعة كلها متساندة، لأنها -في الواقع- مسؤولية كل فرد، ومسؤولية الجميع:

"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"[1].

"لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[2].

"وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً"[3].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ"[4].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ"[5].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا"[6].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ"[7].

هذا بالإضافة إلى أن طبيعة الإسلام ذاتها تقتضي وجود جماعة متكافلة تقوم بالتكاليف الجماعية. كما أن التصور الإسلامي والفضائل الإسلامية تحتاج إلى جماعة. إلى وسط تحيا فيه وتنمو. إلى محضن يتلقف الأجيال الناشئة فينشئها على تلك الفضائل ويطبعها على

([1]) سورة آل عمران (110).

([2]) سورة المجادلة (22).

([3]) سورة الأنفال (25).

([4]) سورة التوبة (123).

([5]) سورة محمد (7).

([6]) سورة الحجرات (6).

([7]) سورة الصف (10-11).

ذلك التصور. وتلك كلها مهام لا يقوم بها الأفراد متفرقين، وإلا ضاع جهدهم بددًا ولم يثمر ثماره المرجوة. وإنما تقوم بها الجماعة مجتمعة فتصبح المهمة أيسر والثمرة أقرب إلى المنال[1].

وهكذا تتحد الجماعة في الهدف وتتحد في العمل، فتلتقي قلوبهم وتتعاون، وترتبط كلها بالله في النهاية، فلا يقوم بينها الشقاق والخصام، وتلتقي النزعة الفردية والنزعة الجماعية كلتاهما في نظام!

الالتزام والتطوع

في الكائن البشري خطان متناقضان متقابلان، يعجب الإنسان لأول وهلة كيف يوجدان بتناقضهما ذلك متجاورين في النفس الواحدة. والواقع أن الازدواج هو السمة العامة للكيان البشري كله، الناشئة في الأصل من ازدواج منشئه من قبضة الطين ونفخة الروح. ومن ثم فلا موجب للعجب مما يحويه الإنسان في كيانه من متناقضات ظاهرية. إنما الذي يعجب له الإنسان حقًّا، ولا يملك نفسه أمامه من الإعجاب، هو الطريقة الفردية التي يسلكها المنهج الإسلامي للجمع بين هذه المتناقضات كلها، وربطها في نظام!

في الإنسان ميل للالتزام. ميل لأن يلتزم بأشياء معينة وينفذها. ولو وجد نفسه طليقًا من كل التزام خارجي لفرض على نفسه أمورًا معينة والتزم بها.. إرضاء لما في طبيعته من ميل للالتزام! ومن ثم فالفوضى المطلقة لا وجود لها، ولا يمكن أن توجد. لأنها ليست جزءًا من طبيعة الإنسان!

ومع عمق هذا الميل للالتزام في الطبع البشري، فإن فيه إلى جانب ذلك ميلًا للإحساس بأنه غير ملتزم! وأنه يؤدي الأشياء لأنه هو يريد أن يؤديها، لا لأنها مفروضة عليه!

كلا الخطين أصيل وعميق. وكلاهما يؤدي دوره في فطرة النفس وواقع الحياة.

وقد كان الميل للالتزام هو الأساس التي قامت عليه "الحكومة" في النظم البشرية، كما قامت عليه كل التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ... إلخ. الناس يحبون أن يلتزموا بنظام معين، ويختارون شخصًا أو هيئة من الأشخاص يولونهم أمر الإشراف على ذلك الالتزام. فتقوم "الجماعة" وتقوم "الدولة" وتقوم غيرها من النظم والمؤسسات.

---

(1) انظر فصل "المجتمع المسلم" فيما يلي من الكتاب.

وقد كان الميل للشعور بعدم الالتزام هو أساس الإبداع البشري والتقدم الدائم إلى الأمام. يحب الناس أن ينطلقوا من التزاماتهم، أو أن يشعروا بأنها ليست التزامًا بل إرادة ذاتية. وفي كلتا الحالتين تحدث "حركة" في النفس والمجتمع.

وهذان الخطان -على أنهما فطريان- ينحرفان كما ينحرف كل شيء في الفطرة حين تفقد اتصالها بالسنن العامة، وتفقد "وعيها" الصحيح بالأمور.

يفسد الخط الأول فيصبح الالتزام عبودية للنظام، أو لبشر من البشر، أو لعادة من عادات النفس، أو لتقليد من تقاليد المجتمع، لا يملك الإنسان أن يتحرر منه أو يشعر إزاءه بوجوده المتميز.

ويفسد الخط الثاني فيصبح الخروج من الالتزام فوضى بلا حدود ولا ضابط إلا أهواء النفوس وشهوات الأجساد. وعندئذ يصبح "التحرر" الظاهري من الالتزام هبوطًا في الواقع وعبودية للشهوات.

وكثيرًا ما يحدث الانتكاسان في النفس الواحدة، "فتلتزم" للنظام أو الدولة أو لفرد من الأفراد، و"تتحرر" من قيود الأخلاق وهواتف الضمير.. وبذلك يرتكس الإنسان بجانبيه جميعًا في عبودية كاملة وحيوانية مطلقة.

والإسلام -كما عهدناه- يوقع على جميع أوتار النفس، ويوقع عليها بالنغم المناسب والقدر المضبوط.

يوقع على خط الالتزام. فيفرض قدرًا معينًا من الأوامر والنواهي والتعليمات والتنظيمات.. القدر الذي تحتمه الضرورة، والذي يفسد المجتمع بدونه. ثم يحتاط، فلا يجعله التزامًا للدولة في ذاتها، ولا لأولي الأمر بذاته، ولا للمجتمع، ولا للتقاليد.. وإنما هو التزام.. لله. لله فقط. لا لأحد من البشر. ومن ثم يتحرر الضمير البشري من كل عبودية لغير الله.

ويوقع على خط التطوع -أو عدم الميل للشعور بالالتزام- فيحبب للنفس أولا أن تؤدي كل ما عليها من الالتزام خالصًا لوجه الله.. فيرتفع من صورة الالتزام القاهر إلى الرغبة الذاتية في الأداء. وتلك هي الثمرة الحقيقية للإيمان. ثم هو يدع الباب مفتوحًا -بعد أداء ذلك الحد الأدنى من الالتزامات الضرورية لحفظ المجتمع من الفساد- يدع الباب مفتوحًا للتطوع

الحقيقي الصاعد السامق النبيل، دون فرض أو إلزام أو إكراه. إنما هو حقيقة تطوع، يصنعه الإنسان ليرتفع في درجات الإيمان ودرجات القرب من الله. "وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا"[1].

* * *

يفرض الإسلام التزامات معينة، هي "الفرائض" والحدود. وهي كثيرة ومتشعبة تشمل العبادات والمعاملات، وسياسة الحكم وسياسة المال، والقوانين الجنائية والمدنية والتجارية والدولية.. إلخ. وهذه -فيما عدا العبادات- التزامات متفق عليها في كل النظم. ينبغي أن تفرض فرضًا، وأن تقوم عليها سلطة تضمن تنفيذها. وهي من جانب آخر تستجيب لنزعة الالتزام الفطرية في كيان الإنسان.

ولكن الإسلام أولًا يضيف إليها التزامات العبادة. وذلك فارق رئيسي بينه وبين كل النظم الأرضية. التي لا يهمها تنظيف القلب البشري من الباطن، وتكتفي بتنظيفه من الظاهر، ولو كان ينطوي من الداخل على قذارات! والنتيجة الحتمية الدائمة لمثل هذه النظم هي انهيار المثل والمبادئ، وانحسار "الإنسانية" والصراع الوحشي على مغانم الأرض، وتفتيت الكيان البشري وتشتيته، والقلق واضطراب الأعصاب، على نحو ما هو موجود في عالم اليوم.

ثم هو ثانيًا يجعل إطاعة الالتزام عبادة تؤدى إلى الله.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"[2].

فالأمر أولًا مردود في النهاية إلى الله. وطاعة أولي الأمر ثانيًا ليست هدفًا في ذاتها. ولا أولو الأمر سلطة مستقلة تطاع لذاتها. إنما مرد الطاعة لهم هو طاعتهم هم لله: المصدر الأول والأخير.

"وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ"[3]. فليس هو نكالًا من البشر، ولا دخل للبشر في هذا التشريع، إنما هو يؤدى لله.

([1]) سورة الأنعام (132).

([2]) سورة النساء (59).

([3]) سورة المائدة (38).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ". "وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ". "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[1].

وهكذا كل تشريع وكل توجيه، مرتبط بالله، مصدره هو الله، ويؤدى من أجل الله.

ومن هذه المرحلة الوسيطة ... مرحلة أداء الفرائض والالتزامات إطاعة لله، لا لنظام ولا لبشر ولا لدولة ولا لتقليد.. يرتفع إلى أولى مراتب التطوع، وهي أداء الالتزام حبًّا لله لا خوفًا من العقاب الذي فرضه الله!

"وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا"[2].

"فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ"[3].

"وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ"[4].

"لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا"[5].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ". "إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي"[6].

ثم يرتقي درجة أخرى في التطوع، فيبيح الحد الأدنى، ويخيّر النفس في التطوع بما هو أعلى من ذلك الحد، مع تحبيب التطوع إليها واستحثاثها إليه:

([1]) سورة البقرة (282).
([2]) سورة طه (112).
([3]) سورة الأنبياء (94).
([4]) سورة البقرة (265).
([5]) سورة النساء (114).
([6]) سورة الممتحنة (1).

"وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[1].

"إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[2].

"وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[3].

"وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ". "وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[4].

"وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[5].

ثم يرتقي درجة أخرى!

إنه لا يطلب شيئًا ... ولا حتى التطوع!

إنه يرسم صورًا جميلة أخاذة ساحرة. ثم يسلط عليها النور.. ويتركها هكذا.. معروضة للأنظار. فمن شاء فليتطوع على قدر ما يستطيع، وهو شاعر شعورًا كاملًا بأنه مدفوع إلى هذا التطوع بدافع ذاتي، لا قهر فيه ولا فرض ولا مجرد دعوة!

"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ

(1) سورة البقرة (184).

(2) سورة البقرة (271).

(3) سورة البقرة (280).

(4) سورة النساء (25).

(5) سورة النور (60).

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[1].

هل من كلمة واحدة تفيد القهر؟ هل من كلمة واحدة تفيد الفرض؟ هل من دعوة واحدة مباشرة إلى العمل كأولئك المؤمنين المفلحين الذين ترسم لهم هذه الصورة المعجبة؟ كلا! إنها الصورة وحدها هي التي تدعو. هي وحدها ذات الجاذبية التي تجذب الناس إلى أعلى، باختيارهم الكامل، وحريتهم الكاملة. الحرية التي يتحقق بها وجودهم الأرفع والأكمل والأجمل والأشف!

وكذلك:

"إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ، وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[2].

وكذلك:

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا، وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا"[3].

([1]) سورة المؤمنون (1-11).

([2]) سورة فصلت (30-33).

([3]) سورة الفرقان (63-76).

إنها وسيلة مثلى للتربية. تطلب من النفس الطلب وأنت تشعرها بأنك لا تطلب! إنما أنت فقط تعرض نموذجًا جميلًا للإنسان! وأنت ضامن بعد ذلك أن الإيحاء سيعمل عمله، وسيحاول من يحاول أن يكون مثل ذلك النموذج الجميل المعروض أبدًا للأنظار!

السلبية والإيجابية

وقريب من هذين الخطين، وإن كانا غير متطابقين، هذان الخطان الآخران؛ السلبية والإيجابية:

في كل نفس هذان الاستعدادان المتناقضان: استعداد لأن تكون سلبية، واستعداد لأن تكون إيجابية، على اختلاف في النسبة، واختلاف في مواضع السلب ومواضع الإيجاب.

ولولا أننا مشغولون هنا بمبحث تربوي لا سيكلوجي ولا بيولوجي، لوقفنا طويلًا عند تلك الحقيقة العجيبة في الخلقة، وهي أن الجنين يتكون من التقاء خليتين: البويضة الأنثوية والحيوان المنوي. وأن لكل من هذين طريقة في السلوك مخالفة للأخرى. فالبويضة في مسارها من المبيض إلى الرحم تسير "مع التيار" بينما الحيوان المنوي في مساره من الرحم إلى الأغشية الداخلية ليلتقي بالبويضة ويلقحها، يسير "ضد التيار" وفي فطرته القدرة على المغالبة والاقتحام والمسير ضد التيار ليؤدي مهمته. والجنين هو خلاصة هاتين الطاقتين! خلاصة السلبية والإيجابية معًا وفي ذات الوقت!

إنها حقيقة عجيبة في الخلقة. توحي بالظن أنها هي منشأ هذين الاستعدادين النفسيين المتناقضين! والله أعلم بمن خلق. وهو اللطيف الخبير.

وأيًّا ما كان المنشأ فهكذا هي الفطرة بمتناقضاتها العجيبة المتجاورة المتقابلة.

وحين يترك الناس بلا توجيه معين، فقد تنحرف فطراتهم ذات الشمال وذات اليمين. وقد تصدر عن أوتار نفوسهم أنغام ناشزة تنفر منها الأسماع.

قد تنقلب السلبية كما أشرنا في الفقرة السابقة إلى عبودية ذليلة لفرد أو قيمة أو عادة أو تقليد، مهما يكن قيمًا في ذاته وواجب الاحترام، فإن العبودية له مسخ للكيان البشري وتشويه. وهي في الوقت ذاته إضاعة للضمان الوحيد لتقويم الفساد في الأرض. وهو الرقابة الواعية على الناس والقيم والعادات والتقاليد.

فلا إصلاح بغير رقابة واعية. ولا رقابة يمكن أن تصدر عن العبيد!

يستذل الإنسان للدولة أو النظام.. فيفقد شخصيته وذاتيته. يفقد قدرته على الحكم على الأشياء. ويفقد بالتالي قدرته على التوجيه. ويصبح كما سالبًا، ينقاد ولا يقود، يوجَّه ولا يوجِّه. ترسم له التعليمات فينفذها، ولا يفكر يومًا في اختبار هذه التعليمات ليرى إن كانت صالحة حقًّا أم داعية إلى الفساد.

ويستذل الإنسان لعادة أو شهوة، فينطلق معها إلى آخر المدى ... وتستعبده. تستعبده الكأس أو لفافة التبغ أو قطعة المخدرات.. أو يستعبده قدح الشاي أو القهوة أو الأكلة الطيبة. أو يستعبده الفراش الوثير والترف والنعيم.. أو تستعبده شهوة الجنس أو شهوة المال أو شهوة الخصام أو.. شهوة العبودية! فيصبح منقادًا لما يُستعبد له. لا يملك نفسه ولا يحررها. ولا يصلح للانطلاق لإصلاح ما يفسد من الأمور في الأرض. فالانطلاق يحتاج إلى إيجابية ووعي، وقدرة على التحكم في الشهوات. قدرة على الاستغناء فترة من الوقت أو جميع الوقت عن لذائذ الأرض. فقد يؤدي الجهاد في سبيل الإصلاح إلى الحرمان من هذه اللذائذ.. بل إلى الحرمان من الحياة.

ويستذل الإنسان لتقليد اجتماعي له أصل أو لا أصل له، فينساق وراءه، ويظل يزاوله حتى وهو لا يؤمن به في دخيلة نفسه. ومن ثم يصبح منافقًا، وينقلب المجتمع إلى بؤرة من النفاق.

تلك عيوب السلبية.. حين توقع على الوتر نغمة نشاز.

أما الإيجابية فقد تنحرف إلى تبجح وعناد وإصرار وتشدد.. في فعل السيئ من الأمور.

يريد الإنسان أن "يثبت وجوده" أن "يحقق ذاتيته" فيحطِّم.. فالتحطيم أسهل من البناء! ويعتدي. فالعدوان أقرب إلى النفوس الهابطة! ويرتكب كثيرًا من ألوان الشر ليبرز ويشار إليه بالبنان. أو "ينحل" من كل رابط كما تصنع " الوجودية" فلا مقياس لشيء أو فكرة أو سلوك أو عمل إلا ما يراه هو أنه صواب، وليتفكك المجتمع وليتناثر فليس له في حسه وجود! وفوق كل شيء يتبجح بمعصية الله.. أو بإنكار الله، ليقال عنه إنه جريء! حر الفكر! مقدام!

ألوان من الانحراف لا تصدر عن فطرة سليمة! فالفطرة السليمة تثبت وجودها وتحقق ذاتيتها في عمل الخير. وإنه لقمم عالية من فوقها قمم، لا يرقاها إلا "الإيجابيون" حقًّا،

المالكون لنفوسهم، الموجِّهون لها، الداعون الناس إلى ما فيه الخير، القائدون لهم في سبيل الفلاح، "وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا"[1].

والإسلام يتناول هاتين الطاقتين فيضع كلًّا منهما في مكانها الصحيح. وفي التو تنطلق النفس صحيحة البنيان قوية الكيان. كما تدور الساعة في اللحظة التي يتم فيها وضع المسامير و"التروس"، في مكانها الصحيح.

يجعل الإسلام سلبية كاملة إزاء الله.

وإيجابية كاملة إزاء كل قوى الكون.

وبذلك تصلح النفس وتستقيم الحياة.

سلبية كاملة إزاء الله.. فالله هو الخالق، والله هو المدبر، والله هو مالك الملك ومصرف كل أمر. هو الذي يحيي ويميت ويبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر. وهو القاهر فوق عباده. وهو الفعال لما يريد. وهو الذي يملك حقًّا أن ينفذ ما يريد، حيث لا يملك أحد غيره من البشر لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا.. فضلًا عن أن يملكوا للآخرين.

إنها حقيقة.. حقيقة "علمية"! الله وحده هو المالك لما يريد.

ومن ثم فموقف الإنسان من الله هو التسليم الكامل المطلق بلا مراجعة ولا سؤال ولا تردد ولا اقتراح ولا اعتراض.. إذ.. ما القيمة "العملية" لكل ذلك؟ وما النتيجة من العناد؟!

كلا! التسليم هو الأولى والأوفر والأجمل والأفضل!

وهو تسليم كريم ... إنه ليس تسليمًا لقوة مساوية للإنسان فيكون في ذلك التسليم غضاضة على النفس. وليس تسليمًا لعدو قاهر. وإنما لرب رحيم يصف نفسه بالرحمة المطلقة الشاملة في كل سورة: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ". وليس تسليمًا لسلطة تسيء استخدام السلطة! سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. إنما هو تسليم للمانح الوهاب المتفضل المنعم، الذي تفضل دون قهر أحد ودون طلب من أحد فوهب للإنسان وجوده، ووهب للإنسان مواهبه، وأنعم عليه نعمه، وحباه بالتسهيلات من كل جانب سواء في تصويره في أحسن صورة، أو في تسخير الكون لصالحه، ليستطيع الحياة، وليستطيع ترقية الحياة.

([1]) سورة الفرقان (74).

إنه إذن يُسْلِم نفسه تسليمًا كريمًا "لائقًا" لا وجه للغضاضة فيه!

وهو تسليم الحب! وليس تسليم القهر!

إن الله هو القاهر فوق عباده حقًا. وهو يملك كل وسائل القهر، وبيده ملكوت كل شيء. ولكن الله ذاته هو الذي يحب عباده ويرضى عنهم، ويدعوهم إلى حبه "والرضى عنه."

"قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ"[1].

"رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[2].

وهو تسليم الاطمئنان:

"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ"[3].

* * *

ومن هذا التسليم الخالص لله يستمد الإنسان إيجابيته الكاملة تجاه الأشياء والأشخاص والأحداث!

إنها العجيبة التي تحدث في النفس المؤمنة! عجيبة الإيمان التي تملؤها فتطلقها بانية منشئة هادية، مكافحة معتزة مجاهدة مستعلية!

"وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ"[4].

تلك هي العزة إزاء الأشخاص.

"وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ"[1].

([1]) سورة آل عمران (31).

([2]) سورة المائدة (119).

([3]) سورة الشورى (10).

([4]) سورة المنافقون (8).

وتلك هي العزة إزاء الأحداث.

"وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ"[2].

وتلك هي العزة إزاء الأشياء.

عزة كاملة في كل اتجاه..

وهذه معجزة الإيمان.. التسليم الكامل لله يعطي النفس هذه القوة العجيبة التي تكافح بها كل شيء وتستعلي بها على كل شيء، وتنشئ بها ما تريد.

إنه لا عبودية لقوة المادة ولا قوة الاقتصاد ولا قوة الدولة ولا قوة المجتمع ولا قوة العادة ولا قوة التقاليد. لا "حتمية" لشيء على وجه الأرض إلا سنة الله: "وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا". ومن سنة الله أن تكون النفس المؤمنة قوة كونية قادرة، تسير مع الناموس الأكبر، وتفهم عنه أسراره، وتستغل قواه وطاقاته. لأن هذه القوى والطاقات كلها مسخرة للإنسان بإذن من الله.

ومن ثم كان المسلمون الأوائل الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان حقًّا ينشئون نظامًا غير مسبوق في كل الأرض. نظامًا سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وفكريًّا وروحيًّا لا توحي به ضرورة من ضرورات الأرض، وليس نتيجة "حتمية" لشيء من ظروف الأرض. إنما ينشأ إنشاء؛ إرادة واقتدارًا، بدافع الإيمان.

ومن ثم كذلك كان المسلمون الأوائل الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان حقًّا يستعلون على القوى المادية والقوى الاجتماعية والقوى البشرية. فيثبتون -وهم القلة القليلة- لكل كيد قريش، وكل قوة قريش، وكل اقتصاديات قريش؛ وكل عادات العرب وتقاليدهم ومفاهيمهم. ثم يثبتون لكيد القوى البشرية وطغيانها، ويستعلون عليها ثم يهزمونها ويغلبون عليها. بشيء واحد. هو الإيمان.

ومن ثم كانت وقفة أبي بكر الخالدة في وجه قوى الأرض كلها ... بمفرده.. بمفرده مؤمنًا بالله الإيمان الحق، واصلًا إلى الله الوصول الحق.. مسلمًا لله الإسلام الحق.. فنصره الله، وحول "شعوره" المؤمن إلى وقائع وأحداث وتاريخ.

([1]) سورة آل عمران (139-140).

([2]) سورة الجاثية (13).

بذلك يضع الإنسان سلبيته الفطرية في مكانها الحق.. ثم يصبح بعد ذلك أكبر قوة إيجابية على وجه الأرض!

من وسائل التربية

في الفصول السابقة لمسنا تلك الدقة العجيبة في العناية بكل وتر من أوتار النفس البشرية، وكل جانب، وكل اتجاه. ومع ذلك فالإسلام لم يستنفد بعد كل وسائل التربية، وما زال في جعبته مزيد!

إنه يربي بالقدوة، ويربي بالموعظة، ويربي بالعقوبة، ويربي بالقصة، ويربي بالعادة، ويربي بالأحداث.

كل لون من هذه الألوان ينفذ إلى النفس من أحد منافذها، ويلعب على بعض أوتارها. حتى يغادر الإنسان في النهاية ولم يبق منفذ واحد لم ينفذ إليه، ولا وتر واحد لم يوقع عليه، ولا جانب ولا اتجاه.

التربية بالقدوة

القدوة في التربية هي أفعل الوسائل جميعًا وأقر بها إلى النجاح.

من السهل "تأليف" كتاب في التربية! ومن السهل تخيل منهج، وإن كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول. ولكن هذا المنهج يظل حبرًا على ورق ... يظل معلقًا في الفضاء ... ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض ... ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه. عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة، يتحول إلى حركة، يتحول إلى تاريخ.

ولقد علم الله سبحانه -وهو يضع ذلك المنهج العلوي المعجز- أنه لا بد من ذلك البشر. لا بد من قلب إنسان يحمل المنهج ويحوّله إلى حقيقة، لكي يعرف الناس أنه حق. ثم يتبعوه.

لا بد من قدوة..

لذلك بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم ليكون قدوة للناس: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ"[1].

([1]) سورة الأحزاب (21).

ووضح في شخصه صلى الله عليه وسلم الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي.. الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ.

سئلت عائشة رضي الله عنها، عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان خلقه القرآن!

إجابة دقيقة عجيبة مختصرة شاملة.. كان خلقه القرآن! كان الترجمة الحية لروح القرآن وحقائقه وتوجيهاته.. ومن ثم كان -كالقرآن- قوة كونية عظمى. قوة من صنع الله، يتكامل فيها الناموس، وتتكامل فيها القوى، وتلتقي السماء بالأرض أروع لقاء شهده الكون. لا عجب إن كان مولده مولد النور..

لقد عرف العلم أخيرًا حقيقة عرفتها الروح البشرية ببداهتها منذ آماد.. عرف أن المادة عبارة عن طاقة، وأن الطاقة تتحول إلى إشعاع..

ولقد أدركت الروح البشرية ببداهتها منذ آماد أن الإنسان طاقة.. وأن طاقته تتحول إلى إشعاع، تتحول إلى نور.

ولكنها لم تدرك هذه الحقيقة على تمامها وكمالها وحقيقتها، حتى رأت محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. طاقة من النور الشفيف بعثها الله لتنير للناس على الأرض السبيل: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا"[1].

ولقد فاض هذا النور في القلوب وفاض في الوجود، وكشف الطريق للناس فساروا فيه مهتدين واصلين.

وبهر النور نفوس الناس، فتعلقت به وأحبته كما لم يحب أحد أحدًا في العالمين. لم ينل أحد من البشر ما نال محمد من الحب.. حتى من المعارضين لدين الله، والنافرين من الهَدْي الجديد!

ولقد قامت المعركة بين الحق والباطل كما كان طبيعيًّا أن تقوم ... وانتصر الحق كما كان طبيعيًّا أن ينتصر، فانزاحت الظلمة التي كانت تحجب النور عن الناس، وبقي هذا النور -محمد بن عبد الله- ساطعًا مشعشعًا، "وَسِرَاجًا مُنِيرًا" كما أراده الله، يهدي الناس من خلال القرون ويربط قلوبهم بالله.

(1) سورة الأحزاب (45-46).

ولقد كان محمد عجيبة من عجائب الكون. طاقة كونية كما قلنا، صادرة من الله، معجزة كآيات الله.

عظمات.. لا تحد.

شخوص كثيرة مجتمعة في شخص واحد. كل واحد منها متكامل في ذاته كأنه متخصص في جانبه منقطع له.. ثم تجتمع الشخوص كلها -على تكامل كل منها- فتكامل على نطاق أوسع، وتناسق في محيطها الشامل، وتتألف منها نفس واحدة تجمع كل النفوس، وتجمعها في توازن واتساق!

روح شفيفة تعدل وحدها كل روحانية المسيح عليه السلام. والمسيح كان "متخصصًا" في الروحانية.

وقوة حيوية فياضة تعدل وحدها أشد الناس حيوية لو كان متخصصًا فيها بلا زيادة! يمشي وكأنما يتقلع من الأرض تقلعًا. ويمضي في الأمر كأنما كل نفسه فيه. يحارب منطلقًا كالعاصفة لا يرده شيء. قال علي رضي الله عنه: كان أشجعنا أقربنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال! ويتزوج ويستمتع بطيبات الأرض كواحد متفرغ لذلك المتاع! يسلم على الناس بجميع يده وفي حرارة وقوة. يرضى من كل نفسه فيعرف أصحابه في وجهه السرور. ويغضب فيبدو الغضب على وجهه ويدر عرق في جبهته.. هي القوة الحيوية الفياضة في كل اتجاه.

ورجل سياسة يشيد أمة من الفتات المتناثر فإذا هي بناء ضخم لا يطاوله شيء في التاريخ. ويمنح هذا البناء من وقته وفكره وروحه وجهده ومشاعره ما يشغل -وحده- حياة كاملة بل حيوات.

ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش ويحارب وينتصر ... كقائد متخصص كل همة القتال، متفرغًا له عن كل ما عداه.

وأب وزوج ورب أسرة كبيرة كثيرة النفقات.. نفقات النفس والفكر والشعور فضلًا على نفقات المال. كرجل متخصص للأبوة على أعلى نسق شهدته الأرض، ومتخصص للأسرة لا يشغله عنها شاغل من الحياة.

وصديق وقريب وصاحب للناس تشغله همومهم، وتملأ نفسه مشاعرهم، ويعودهم ويزورهم ويعينهم ويمنحهم من مودته وعطفه ما يشغل رجلًا إنساني القلب يهب حياته كلها لشؤون الناس.

وعابد متحنث لربه، كرجل منقطع للعبادة، متخصص لأدائها، لا تصله بالأرض رابطة، ولا يشغله هم من الهموم، ولا تجيش في نفسه نوازع، ولا تتحرك في كيانه رغبات.

ومع ذلك كله فهو قائم على أعظم دعوة شهدتها الأرض. الدعوة التي حققت للإنسان وجوده الكامل. وتغلغلت في كيانه كله فمدته على أقصى اتساع.

عظمات.. لا تحد.

كل هذه الشخوص المتفرقة مجموعة في شخصه. مجموعة على تناسق وتوافق واتزان. كل منها يأخذ نصيبه كاملًا من نفسه ومع ذلك لا يميل، لأن طاقات أخرى عظيمة توازنه في كل اتجاه.

ذلك محمد بن عبد الله.. النور الكوني الذي بهر العالمين.

وحق للناس أن يحبوه كل ذلك الحب ويعجبوا به ويَتْبَعوه.

ولقد كانت حكمة الله سبحانه من بعثه على هذه الصورة المتكاملة الشاملة العظيمة، كحكمته في إنزال القرآن على هذا النهج الشامل المعجز العظيم، فكان محمد –في كونه آية كونية– كفئًا لهذا القرآن.. وكان خلقه القرآن!

* * *

وكان قدوة للناس في واقع الأرض ... يرونه –وهو بشر منهم– تتمثل فيه هذه الصفات كلها وهذه الطاقات، فيصدقون هذه المبادئ الحية لأنهم يرونها رأي العين ولا يقرأونها في كتاب! ويرونها في بشر، فتتحرك لها نفوسهم، وتهفو لها مشاعرهم. ويحاولون أن يقبسوا قبسات من الرسول.. كل بقدر ما يطيق أن يقبس، وكل بقدر ما يحتمل كيانه الصعود. لا ييأسون ولا ينصرفون.. ولا يَدَعونه حلمًا مترفًا لذيذًا يطوف بالأفهام. لأنهم يرونه واقعًا يتحرك في واقع الأرض. ويرونه سلوكًا عمليًّا لا أماني في الخيال.

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل. وكان مربيًا وهاديًا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به، سواء في ذلك القرآن المنزل وحديث الرسول.

عن طريقه أنشأ الله هذه الأمة التي يقول فيها سبحانه: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"[1]. وبه منّ الله على تلك الأمة: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"[2].

وهذه القدوة باقية ما بقيت السموات والأرض..

إن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ليست آية عصر ولا جيل ولا أمة ولا مذهب ولا بيئة. إنها آية كونية.. للناس كافة وللأجيال كافة: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"[3]. "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا"[4].

فهو للعالمين كلهم. وللناس كافة. في جميع الأزمان من لدن مبعثه. وفي جميع الأجيال. وفي كل الأرض. آية باقية لا تذهب ولا تنقص ولا تزول.

وإنه لحي اليوم في هذه اللحظة كما كان حيًّا في شبه الجزيرة قبل ألف وثلاثمائة عام. لم ينقص شيء ولم يتغير شيء. كما لا تتغير الشمس ولا تتغير سنن الكون ولا تفنى الطاقات.

وإن سيرته حين تُقْرَأ لتلمس النفس وتهزها من قواعدها كما لا يهزها شيء. وتتغلغل فيها إلى الأعماق.

وطبيعي أن الذين شهدوه صلى الله عليه وسلم وأخذوا الحياة مباشرة عن شخصه الكريم، قد أخذوا الشحنة كاملة في أرواحهم وقلوبهم وأفكارهم ومشاعرهم وأجسادهم، فانطلقوا –وهم حفنة قليلة– يصنعون أعجب أحداث التاريخ، كما تنطلق الطاقة الذرية المركزة تحدث الأعاجيب.

([1]) سورة آل عمران (110).

([2]) سورة آل عمران (164).

([3]) سورة الأنبياء (107).

([4]) سورة سبأ (28).

ولكن القوة الحيوية العجيبة التي كان يشتمل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم، من الضخامة والعظمة وقوة الإشعاع والإيحاء بحيث يملك استحياءها في قلبه كل شخص يلقي إليها نفسه ويفتح لها مشاعره، فتنتفض حية شاخصة كأنه يلمسها في العيان.

وليس ذلك بدعًا في واقع النفوس وواقع الحياة.

إن الأمم تعيش أجيالًا على سير أبطالها المحليين الصغار، الذين يلبون حاجة جيل معين في بيئة معينة في بقعة من الأرض محدودة. وكلما ارتفع "البطل" في مقياس الإنسانية كانت حياته أشمل وأطول، وأخلد على مر الأزمان ... فكيف بداعي السماء للأرض؟ كيف بالآية الكونية التي تشمل كيان الحياة؟

لقد بعثه الله للناس كافة وللعالمين. وهو أعلم حيث يجعل رسالته. وأعلم بمن خلق. وهو اللطيف الخبير. وقد جعله القدوة الدائمة للبشرية، يقبسون من نوره، ويتربون على هديه، ويرون في شخصه الكريم الترجمة الحية للقرآن، فيؤمنون بهذا الدين على واقع تراه أبصارهم محققًا في واقع الحياة.

وكان هذا تدبيرًا لله سبحانه، يكافئ تدبيره في تنزيل القرآن.

* * *

وإذ يجعل الإسلام قدوته الدائمة هي شخصية رسوله، فهو يجعلها قدوة متجددة على مر الأجيال. متجددة في واقع الناس.

إنه لا يعرض عليهم هذه القدوة للإعجاب السالب والتأمل التجريدي في سبحات الخيال[1].

إنه يعرضها عليهم ليحققوها في ذوات أنفسهم، كل بقدر ما يستطيع أن يقبس، وكل بقدر ما يصبر على الصعود. ومن ثم تظل حيويتها دافقة شاخصة، ولا تتحول إلى خيال مجرد تهيم في حبه الأرواح دون تأثر واقعي ولا اقتداء.

والإسلام يرى –كما أشرنا في أول الفصل– أن القدوة أعظم وسائل التربية، فيقيم تربيته الدائمة على هذا الأساس.. لا بد للطفل من قدوة في أسرته ووالديه لكي يتشرب منذ

(1) انظر مقدمة كتاب "قبسات من الرسول".

طفولته المبادئ الإسلامية وينهج على نهجها الرفيع. ولا بد للناس من قدوة في مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده النظيفة لكي يحملوا الأمانة لمن يربونهم من الأجيال، ولا بد للمجتمع من قدوة من قائدهم أو زعيمهم أو حاكمهم، تتحقق في شخصه المبادئ، وينسج على منواله المحكومون.

والقدوة للجميع هي شخصية الرسول التي تتمثل فيها كل مبادئ الإسلام وقيمه وتعاليمه.

ومن ثم يقيم الإسلام منهجه التربوي على أساس أنه هو الذي يسير دفة المجتمع ودفة الحياة..

إنه لا يجعل التربية مجهودًا فرديًّا يخفق أو ينجح. وتذروه الرياح والأعاصير! وإنما يجعله منهجًا شاملًا متكاملًا يبدأ بولي الأمر وينتهي بالطفل الرضيع: حكم إسلامي، ومجتمع إسلامي.. وتربية إسلامية. وتلك مسألة بديهية. فكل نظام يضع منهجه على أساس أنه هو الذي يقوم بتنفيذه. والإسلام أولى النظم بتلك القواعد البديهية لأنه لا يستطيع أن يعمل بأدوات غيره. ولا بد له أن يستخدم أدواته الخاصة لتحقيق منهجه المتفرد على مدار التاريخ.

وحين يتكون مجتمع إسلامي فإنه يشْرِب أطفاله مبادئ الإسلام عن طريق القدوة القائمة في هذا المجتمع، متمثلة في الأسرة والوالدين[1].

إن الولد الذي يرى والده يكذب. لا يمكن أن يتعلم الصدق!

والولد الذي يرى أمه تغش أباه أو أخاه أو تغشه هو نفسه. لا يمكن أن يتعلم الأمانة!

والولد الذي يرى أمه مستهترة لا يمكن أن يتعلم الفضيلة.

والولد الذي يقسو عليه أبوه لا يمكن أن يتعلم الرحمة والتعاون.

والأسرة هي المحضن الذي يبذر في نفس الطفل أول بذوره، ويكيّف بتصرفاته مشاعر الطفل وسلوكه.

---

(1) انظر فصل "المجتمع المسلم" في هذا الكتاب.

ومن ثم ينبغي أن تكون أسرة نظيفة. أسرة مسلمة. حتى ينشأ جيل مسلم يحقق في نفسه مبادئ الإسلام. يأخذها بالقدوة المباشرة. المنقولة عن قدوة الرسول.

وينبغي أيضًا -بالإضافة إلى ذلك- أن تكون سيرة الرسول جزءًا دائمًا من منهج التربية، سواء في المنزل أو المدرسة أو الكتاب أو الصحيفة أو المذيا ع. لتكون القدوة دائمة وحية وشاخصة في المشاعر وفي الأفكار.

التربية بالموعظة

في النفس استعداد للتأثر بما يلقى إليها من الكلام. وهو استعداد مؤقت في الغالب. ولذلك يلزمه التكرار.

والموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان. وتهزه هزًّا. وتثير كوامنه. لحظة من الوقت. كالسائل الذي تُقَلِّب رواسبه فتملأ كيانه. ولكنها إذا تركت تترسب من جديد.

لذلك لا تكفي الموعظة وحدها في التربية إذا لم يكن بجانبها القدوة والوسط الذي يسمح بتقليد القدوة ويشجع على الأسوة بها. فالقدوة المنظورة الملموسة هي التي تعلق المشاعر، ولا تتركها تهبط إلى القاع وتسكن بلا حراك.

وحين توجد القدوة الصحيحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ في النفس، وتصبح دافعًا من أعظم الدوافع في تربية النفوس..

ثم إنها من جانب آخر ضرورة لازمة.. ففي النفس دوافع فطرية في حاجة دائمة للتوجيه والتهذيب. ولا بد في هذا من الموعظة. فقد لا يلتقط الإنسان القدوة الصالحة، أو قد لا تكفيه بمفردها.

قد لا يسرق الوالد ولا الأم ... ولكن الطفل يجنح إلى السرقة بدافع من دوافع الأطفال.

قد لا يكذب الوالد ولا الأم ... ولكن الطفل يكذب ليكمل نواحي النقص التي يحسها في نفسه أو في بيته أو في والديه!

قد لا يقسو الوالد ولا الأم ... ولكن الطفل يمسك الطيور فيخنقها، والقطط فيشد ذيولها وينصل آذانها!

لا بد حينئذ من الموعظة! موعظة لطيفة خفيفة مؤثرة. ترد الطفل إلى صوابه وتعوده على مكارم الأخلاق.

والإنسان الكبير كالطفل الصغير في حاجة دائمة إلى المواعظ، فقد لا يلتقط القدوة الصالحة. أو قد لا تكفي وحدها للتقويم.

فقد يعدل الحاكم ويَظْلِم المحكومون. ويستعلي القائد ويسفل الشعب! مدفوعين بما ركب في طبيعة الإنسان من ضعف واتباع للشهوات.

لا بد حينئذ من الموعظة!

والقرآن مليء بالمواعظ والتوجيهات:

"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ"[1].

"وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا"[2].

"وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ، يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ، وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا

---

(1) سورة النساء (58).

(2) سورة النساء (36).

يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ"[1].

"لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا، وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا، وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا، وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا، وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا، إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا، وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا، وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا، وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا، وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا"[2].

وهذه مجرد نماذج من الوعظ ... وإلا فالقرآن كله موعظة للمتقين!: "هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ"[3].

التربية بالعقوبة

حين لا تفلح القدوة ولا تفلح الموعظة، فلا بد إذن من علاج حاسم يضع الأمور في وضعها الصحيح.

والعلاج الحاسم هو العقوبة[1].

([1]) سورة لقمان (13-19).

([2]) سورة الإسراء (22-38).

([3]) سورة آل عمران (138).

وبعض اتجاهات التربية الحديثة تنفر من العقوبة وتكره ذكرها على اللسان!

ولكن الجيل الذي أريد له أن يتربى بلا عقوبة –في أمريكا– جيل منحل متميع مفكك الكيان.

إن العقوبة ليست ضرورة لكل شخص. فقد يستغني شخص بالقدوة وبالموعظة فلا يحتاج في حياته كلها إلى عقاب. ولكن الناس كلهم ليسوا كذلك بلا ريب. ففيهم من يحتاج إلى الشدة مرة أو مرات.

وليست العقوبة أول خاطر يخطر على قلب المربي ولا أقرب سبيل. فالموعظة هي المقدمة، والدعوة إلى عمل الخير، والصبر الطويل على انحراف النفوس لعلها تستجيب.

"وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[2].

"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"[3].

"وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ"[4].

والموعظة وسائل مختلفة لا وسيلة واحدة, والقرآن مليء باللمسات الدقيقة اللطيفة الموحية المؤثرة التي تهز الوجدان وتؤثر فيه بكل وسائل التأثير.

ولكن الواقع المشهود أن هناك أناسًا لا يصلح معهم ذلك كله؛ أو يزدادون انحرافًا كلما زيد لهم في الوعظ والإرشاد!

وليس من الحكمة أن نتجاهل وجود هؤلاء أو نتصنع الرقة الزائدة فنستنكر الشدة عليهم!

([1]) التربية بالعقوبة يكملها ويقابلها التربية بالمثوبة، وقد تحدثنا عنهما هناك في الخطوط المتقابلة ولكننا رأينا أن نفرد هنا كلمة خاصة بالعقوبة لأهميتها بعد القدوة والموعظة.

([2]) سورة فصلت (33-34).

([3]) سورة النحل (125).

([4]) سورة المزمل (10).

إنهم مرضى. نعم. ومنحرفون. و"العيادات السيكلوجية" قد تصلحهم! ولا أحد يمنع عنهم العلاج النفسي أو أي نوع من أنواع العلاج. ولكن فلنحذر أن نجعل وسيلتنا في تربية النفوس أن نجاريها في انحرافاتها ونتلمس لها الأعذار. فإن ذلك نفسه يبعث على الانحراف ويزيد عدد المنحرفين!

إن التربية الرقيقة اللطيفة الحانية كثيرًا ما تفلح في تربية الأطفال على استقامة ونظافة واستواء. ولكن التربية التي تزيد من الرقة واللطف والحنو تضر ضررًا بالغًا لأنها تنشئ كيانًا ليس له قوام.

والنفس في ذلك كالجسم! إذا رفقت بجسمك رفقًا زائدًا فلم تحمله جهدًا خشية التعب، ولا مشقة خشية الإنهاك، فالنتيجة أنه لا يقوى أبدًا ولا يستقيم له عود. وإذا رفقت بنفسك رفقًا زائدًا فلم تحملها أبدًا على ما تكره، فالنتيجة أنها تتميع وتنحرف ولا تستقيم. وفضلًا عن ذلك فإنها تشقي صاحبها لأنها لا تدع له فرصة يتعود فيها على ضبط مشاعره وشهواته. فيصطدم بـ"الواقع" الأرضي الذي لا يعطي الناس قط كل ما يشتهون.

ومن هنا كان لا بد من "شيء" من الحزم في تربية الأطفال وتربية الكبار. لصالحهم هم أنفسهم قبل صالح الآخرين.

ومن الحزم استخدام العقوبة أو التهديد باستخدامها في بعض الأحيان.

والإسلام يتبع جميع وسائل التربية فلا يترك منفذًا في النفس لا يصل إليه. إنه يستخدم القدوة والموعظة، والترغيب والثواب. ولكنه كذلك يستخدم التخويف والترهيب بجميع درجاته. من أول التهديد إلى التنفيذ.

فهو مرة يهدد بعدم رضاء الله.. وذلك أيسر التهديد وإن كان له فعله الشديد في نفوس المؤمنين:

"أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"[1].

ومرة يهدد بغضب الله صراحة (كما جاء في حديث الإفك) وتلك درجة أشد:

([1]) سورة الحديد (16).

"وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[1].

ومرة يهدد بحرب الله ورسوله:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"[2].

ومرة يهدد بعقاب الآخرة:

"وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا"[3].

ثم يهدد بالعقاب في الدنيا:

"إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ"[4].

"وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"[5].

"وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"[6].

"إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"[7].

ثم يوقع العقاب!

([1]) سورة النور (14-17).

([2]) سورة البقرة (278-279).

([3]) سورة الفرقان (68-69).

([4]) سورة التوبة (39).

([5]) سورة الفتح (16).

([6]) سورة التوبة (74).

([7]) سورة التوبة (55).

"الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ"[1].

"وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا"[2].

درجات متفاوتة لدرجات من الناس! فمن الناس من تكفيه الإشارة البعيدة فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه، ويعدل عما هو مقدم عليه من انحراف. ومنهم من لا يردعه إلا الغضب الجاهر الصريح. ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ. ومنهم من لا بد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه. ومنهم بعد ذلك فريق لا بد أن يحس لذع العقوبة على جسمه لكي يستقيم!

التربية بالقصة

في القصة سحر يسحر النفوس!

أي سحر هو وكيف يؤثر على النفوس؟ لا يدري أحد على وجه التحديد!

أهو انبعاث الخيال يتابع مشاهد القصة ويتعقبها من موقف إلى موقف، ومن تصرف إلى شعور؟

أهو "المشاركة الوجدانية" لأشخاص القصة وما تثيره في النفس من مشاعر تنفجر وتفيض؟

أهو انفعال النفس بالمواقف حين يتخيل الإنسان نفسه في داخل الحوادث، ومع ذلك فهو ناج منها متفرج من بعيد؟

أيًّا كان الأمر فسحر القصة قديم قدم البشرية، وسيظل معها حياتها كلها على الأرض.. لا يزول!

وأيًّا كان الأمر فلا شك أن قارئ القصة وسامعها لا يملك أن يقف موقفًا سلبيًّا من شخوصها وحوادثها. فهو -على وعي منه أو غير وعي- يدس نفسه على مسرح الحوادث.

---

(1) سورة النور (2).

(2) سورة المائدة (38).

ويتخيل أنه كان في هذا الموقف أو ذاك، ويروح يوازن بين نفسه وبين أبطال القصة فيوافق، أو يستنكر، أو يملكه الإعجاب.

والإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة، ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب، فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم.

وهو يستخدم كل أنواع القصة: القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها. والقصة الواقعية التي تعرض نموذجًا لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج، والقصة التمثيلية التي لا تمثل واقعة بذاتها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة من اللحظات وفي أي عصر من العصور.

من النوع الأول كل قصص الأنبياء. وقصص المكذبين بالرسالات وما أصابهم من جراء هذا التكذيب. وهي قصص تذكر بأسماء أشخاصها وأماكنها وأحداثها على وجه التحديد والحصر: موسى وفرعون. عيسى وبني إسرائيل. صالح وثمود. هود وعاد. شعيب ومدين. لوط وقريته. نوح وقومه. إبراهيم وإسماعيل.. إلخ.. إلخ.

ومن النوع الثاني قصة ابني آدم: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.."[1].

ومن النوع الأخير قصة صاحب الجنتين: "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا، وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا، لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا، وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ

---

(1) سورة المائدة (27-30).

فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا"[1].

والقرآن يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي: تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس، والتربية بالقدوة والتربية بالموعظة. فهي سجل حافل لجميع التوجيهات، وهي كذلك –على قلة عدد الألفاظ المستخدمة في أدائها– حافلة بكل أنواع التعبير الفني ومشخصاته: من حوار إلى سرد إلى تنغيم موسيقي. إلى إحياء للشخوص، إلى دقة في رسم الملامح، إلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة في القصة لتوجيه القلب للعبرة، والتوقيع عليه بالنغم المطلوب[2].

وقصة آدم بصفة خاصة من أهم القصص التوجيهي في القرآن. فهي قصة البشرية الأولى، وقصة البشر كلهم على مدار التاريخ: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[3].

إنها قصة "الإنسان" الذي كرمه خالقه ورفعه، ومنحه خلافة الأرض، على أن يكون سيدًا لنفسه، وعبدًا لله وحده دون شريك. ولكنه يضعف، بسبب شهوة من شهوات نفسه: شهوة جنس، أو شهوة مال، أو شهوة مِلك، أوشهوة قوة، أو شهوة علم، أو شهوة خلد..

([1]) سورة الكهف (32-43).

([2]) لا نملك هنا ذكر التفصيلات الوافية في شأن القصة. وهي مدروسة بالتفصيل في فصل "القصة في القرآن" في كتاب "التصوير الفني في القرآن" لسيد قطب.

([3]) سورة البقرة (30-39).

فيسلم زمامه للشهوة، فيستزله الشيطان من مقودها. ويقوده ويستعبده فلا يعود سيد نفسه، وينسى مهمته الضخمة في خلافة الأرض وتعميرها. ينسى أن مهمته الحقيقية الكبرى هي وصل الأرض بالسماء. فيخلد إلى الأرض وينحصر في عالم ضيق صغير محدود الهواتف محدود الجنبات. ولكن الله مع ذلك لا يطرده من رحمته: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ" فهو قريب منه يحدوه ويهديه، ما دام لا يصر على لحظة الهبوط، وما دام يفتح قلبه وبصيرته لله. وعندئذ يعود إلى الخلافة الراشدة، ويحقق كيانه الأسمى مهتديًا بهدي الله، واصلًا إلى حماه[1].

وقد كان أمرًا طبيعيًّا أن تكون القصة في القرآن "موجهة" خاضعة للأغراض الدينية التي جاءت لتحقيقها. فليس القرآن كتاب قصص في أصله، وإنما هو كتاب تربية وتوجيه. ولكن الدقة في الأداء، ومراعاة القواعد الفنية فيه, يجعل القصة –مع خضوعها للغرض الديني– طليقة من الوجهة الفنية. ويجعل استخدام القصص للتربية –على إطلاقها– جزءًا من منهج التربية الإسلامية. بشرط واحد: هو أن تكون "نظيفة".

وليس المقصود بالنظافة أن تعرض النفس البشرية بيضاء من غير سوء!

صحيح أن القرآن يختار من نفس "بطل القصة" اللقطة المترفعة المستعلية النظيفة الرائقة الشفيفة، التي تصلح للقدوة، وتغري بالارتفاع. ويختار من نفوس المنحرفين اللقطة التي تصور سواد قلوبهم وسوء انحرافهم، لتصلح للتنفير من أفعالهم. والاعتبار بمصايرهم –وهذا منطقي مع أهدافه، فضلًا على أنه كله حقائق– إلا أنه في لقطات أخرى، وخاصة في القصص الطويلة التي تتسع للعرض والتحليل، يعرض النفس البشرية كاملة، بل ما فيها من لحظات "الضعف البشري" كل ما هنالك أنه لا يصنع كما تصنع الفنون "الواقعية!" الحديثة، المتأثرة بالتفسير الحيواني للإنسان، ولا يجعل من لحظة الضعف بطولة تستحق الإعجاب والتصفيق والتهليل! إنه يعرضها عرضًا "واقعيًّا" خالصًا، ولكنه لا يقف عندها طويلًا، وإنما يسرع ليسلط الأنوار على لحظة الإفاقة.. لحظة التغلب على الضعف البشري، لأنها هي الجديرة فعلًا بتسليط الأنوار عليها. وهي في حقيقتها هي "الإنسان" الذي كرمه الله وفضله على كثير من الخلق، وعهد إليه بالخلافة الراشدة في هذه الأرض.

فهو إذ يعرض الفتنة التي وقع فيها سليمان أو داود أو يوسف أو موسى ... إلخ يعرض لحظة الضعف كما هي بلا "رتوش". إنها فتنة, إنها ضعف. إنها خضوع لدافع من دوافع

[1] انظر الجزء الأول من "في ظلال القرآن" (الطبعة الثانية) ص 70-74.

النفس الفطرية. ولكنها –على واقعيتها– لا تستحق الاحتفال! إلا من جانب واحد. هو أن الإنسان يفيء منها إلى نفسه. ويعرف أنها كانت لحظة ضعف. فيرتفع عنها. وينيب إلى الله.

"وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ، قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ"[1].

"وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ، رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ، وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"[2].

"وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ". "قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[3].

"وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ، فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ، وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ

([1]) سورة ص (21-25).

([2]) سورة ص (30-35).

([3]) سورة يوسف (24، 33-34).

مِنَ النَّاصِحِينَ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ"[1].

تلك وأمثالها لحظات "ضعف بشري" يعرضها القرآن دون مداراة على أصحابها. ولكنه لا يصنع منها بطولة. لأنها في الحقيقة ليست كذلك! وقصة آدم ذاتها من الأمثلة التي يتبين فيها المنهج القرآني، ويتبين إلى أي مدى يختلف هذا المنهج بوضوحه ونصاعته واستقامته عن المنهج الأوربي الذي يصنع من لحظة الضعف بطولة!

إنها -كما أسلفنا- لحظة ضعف أصابت آدم "فنسي". نسي نفسه وعهده مع ربه، وخلافته الراشدة، وجنح إلى شهوة من شهواته فاستزله الشيطان منها، وقاده من مقودها.

هكذا يعرضها القرآن، وهكذا تتبدى في الحقيقة البشرية الواقعة على مدار الأجيال والقرون. ولكن الآداب الأوربية بما فيها من انحراف وتعثر، تعرضها على أنها مفخرة لآدم وبطولة! إن لحظة العصيان هي اللحظة التي حقق فيها آدم كيانه وأصبح سيد نفسه! وهي اللحظة التي أصبح فيها القوة المسيطرة الفعالة. ولتذهب إلى الأبد تلك الجنة التي كان فيها آدم، فإنها لا تساوي شيئًا إزاء تحقيق الإنسان لكيانه وذاتيته، واختياره مصيره بنفسه، بحرية، بعيدًا عن وصاية الله!

كذلك تعرضها الآداب الأوربية المنحرفة المنقطعة عن هدى الله، المتأثرة في صميمها بما رسب في كيانها من أساطير اليونان القديمة التي تصور الصراع الدائم بين البشر والآلهة, وتتمنى انتصار البشر على الآلهة الظالمين الطغاة[2].

وهي آداب ذات إيحاء خبيث لا يخفى. فهي توحي للناس بعصيان ربهم والإغراق في الشهوات لكي يحققوا ذواتهم! كأنما الطريق الوحيد لإثبات الذات هو الشهوات والعصيان! وكأنما الطاعة لله هي انعدام الشخصية وزوال الكيان! إنها نظرة -فوق ما فيها من مرض وانحراف- فجة تعيش في مستوى الأطفال! فالطفل وحده هو الذي يظن أنه يثبت وجوده حين يعصي، ويلغي كيانه إذا أطاع! ولكنه حين يكبر وينضج، حين يفهم الحياة في عمقها وحقيقتها يعرف أن هناك طريقين لا طريقًا واحدًا لإثبات الذات: طريق الطاعة وطريق العصيان. طريق الهدى وطريق الضلال. وأن الإنسان لا يثبت وجوده بطريق الانحراف عن الجادة والعناد مع الحق. إلا في حالة الضعف والمرض والهبوط. أما في حالته السوية، حالة

([1]) سورة القصص (15-22).

([2]) راجع الحديث عن أسطورة برمثيوس في فصل "تربية العقل".

الصحة والارتفاع، فإنه يجد ذاته في مستواها الأعلى حين يطيع دوافع الخير والهدى والاستقامة والصعود، ويحقق كيانه بقدر ما يستطيع من إطاعة تلك الدوافع الخيّرة المهتدية إلى الله. أي بقدر ما يستطيع أن يضبط من شهواته ليقدر على الصعود.

هذه حقيقة البشرية على الأرض ... وهي الحقيقة التي ترمز لها قصة آدم في القرآن..

كما أن هناك نقطة بارزة أخرى في القصص القرآني وهو يعرض قصص "الفاحشة". إنه لا يعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة، كما تفعل القصص "الواقعية" و"الطبيعية" في المذاهب الحديثة الضالة. فلحظة الجنس –منحرفة أو غير منحرفة– لا تستأهل الوقوف عندها بأكثر من مجرد الذكر. إنها ليست هي الحياة. إنها عارض يعرض في الحياة ويقضى. يقضى ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق. يفسح المجال للتصور الإيماني الكبير للكون والحياة والإنسان. لملء المشاعر بذلك التصور، وإطلاق النفس في واقع الحياة تحاول أن تحقق من كماله وجماله ما تقدر عليه: من إقامة مجتمع نظيف. من تربية نفوس مستقيمة. من إقامة الحق والعدل في الأرض. من تمتيع الناس بحقوقهم، وتجميل الحياة لهم بحيث تستحق أن تعاش –في غير فتنة بها ولا انحراف.. وتلك كلها أهداف ضخمة تشغل الجنس البشري، وتشغل هم الإنسان الرفيع الذي ينبغي أن يعمر وجه الأرض. ومن ثم لا تستحق لحظة الجنس الوقوف الطويل عندها، وتفصيصها، وإعادتها، والتفنن في عرضها، لأن ذلك إسراف في المقادير اللازمة بالنسبة للحياة البشرية، وتحويل للوسيلة إلى أن تكون غاية، وهي ليست كذلك في الواقع ولا ينبغي أن تكون ... كل ذلك على فرض أنها لحظة جنس نظيفة عالية –لأنها في حدودها المشروعة– فكيف إذا كانت انحرافًا وخروجًا على المشروع؟ إنها لا تستحق أن تروى بغير التنفير الذي يثير منها الاشمئزاز.

تلك قاعدة مرعية في كل قصص القرآن عن "الفاحشة"، وهي كذلك ينبغي أن تكون مرعية في كل القصص "الإسلامي" إن الإسلام لا يحرم الفن. ولا يحرم وصف المشاعر الجنسية –نظيفة أو غير نظيفة– ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف. ولكنه يعرضها كما ينبغي أن تعرض. لحظة ضعف لا لحظة بطولة. ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب، ولا يلبث دائرًا في حلقتها المرتكسة على الدوام.

وهكذا تلتقي مطالب الفن ومطالب التصور الإيماني دون تعارض ولا نزاع. ويستفيد الإسلام بالقصة في التربية دون أن يخرج عن أهدافه الأصيلة، أو بجانب الحق، أو يحول الفن إلى خطب وعظية سطحية التأثير[1].

التربية بالعادة

العادة –كما أشرنا من قبل– تؤدي مهمة خطيرة في حياة البشرية. فهي توفر قسطًا كبيرًا من الجهد البشري –بتحويله إلى عادة سهلة ميسرة– لينطلق هذا الجهد في ميادين جديدة من العمل والإنتاج والإبداع. ولولا هذه الموهبة التي أودعها الله في فطرة البشر، لقضوا حياتهم –كما قلنا– يتعلمون المشي أو الكلام أو الحساب!

ولكنها على عظم مهمتها في حياة الإنسان تنقلب إلى عنصر معوّق معطل، إذا فقدت كل ما فيها من "وعي" وأصبحت أداء آليًّا لا تلتفت إليه النفس، ولا ينفعل به القلب.

والإسلام يستخدم العادة وسيلة من وسائل التربية، فيحول الخير كله إلى عادة، تقوم بها النفس بغير جهد، وبغير كد، وبغير مقاومة.

وفي الوقت ذاته يحول دون الآلية الجامدة في الأداء، بالتذكير الدائم بالهدف المقصود من العادة، والربط الحي بين القلب البشري وبين الله. رابطًا تسري فيه الإشعاعة المنيرة إلى القلب، فلا ترين عليه الظلمات.

وقد بدأ الإسلام –وهو ينشأ في الجاهلية– بإزالة العادات السيئة التي وجدها سائدة في البيئة العربية. واتخذ لذلك إحدى وسيلتين: إما القطع الحاسم الفاصل، وإما التدرج البطيء، حسب نوع العادة التي يعالجها، وطريقة تمكنها من النفس.

فكل عادة تتصل بأصل التصور والعقيدة والارتباط المباشر بالله، فقد قطعها قطعًا حاسمًا من أول لحظة. فهي كالأورام الخبيثة في الجسم ينبغي أن تستأصل من جذورها, وإلا فلا حياة.

والشرك بكل عاداته وتصوراته، من عبادة للأوثان، واجتماع حولها، وأداء لمراسم معينة من أجلها، كل ذلك قطعه من أول لحظة، وبضربة حاسمة. لأنه لا يمكن أن يستقيم إيمان وشرك، وعبادة لله وعبادة لغيره من الكائنات. ومن ثم كان ينقل المسلم نقلًا كاملًا حاسمًا

---

(1) راجع في هذا كتاب "منهج الفن الإسلامي".

صريحًا من "البيئة الفكرية" التي كان يعيش فيها إلى البيئة الجديدة الإيمانية، التي تقيم كل شيء فيها على أساس وحدانية الله الخالصة، ووحدانية القوة المسيطرة على الكون والمصرفة لجميع أموره.

وعادة مثل وأد البنات لم يكن يمكن مهادنتها وهي تقوم على أساس غير إيماني ولا إنساني. والخوف من الفقر -وهو الدافع الأول لوأد البنات- لا يجوز أن يخالط النفس المؤمنة المطمئنة إلى الله. ثم إنه ظلم لا يستقيم مع "الحق" الذي خلقت به السموات والأرض: "وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"[1].

وكذلك العادات النفسية من كذب وغيبة ونميمة وغمز ولمز وكبر وعنجهية.. إلخ، كان لا بد من مواجهتها مواجهة حاسمة، وإن كانت الوسيلة إلى ذلك التوجيه المحيي للقلب، والاتصال بالله في السر والعلن، وفي الأخذ والعطاء.

وكلها عادات يمكن أن تنتقل فيها النفس -باللمسة الموحية- في لحظة واحدة من أقصى الشمال لأقصى اليمين دون تدرج ولا إبطاء!

أما العادات "الاجتماعية" التي لا تقوم على مشاعر "الفرد" وحدها، وإنما ترتبط بأحوال اجتماعية واقتصادية متشابكة فقد لجأ فيها إلى التدرج البطيء مع استمرار الوعظ والتوجيه واستحياء القلوب.

الخمر. والزنا. والربا. والرق.. لم تكن عادات "فردية" وجدانية بقدر ما كانت عملة سارية في المجتمع. وهي كذلك ليست من العادات التي تستطيع كل نفس أن تحسم موقفها منها في لحظة، فلا يعاودها الحنين إليها ولا تعود!

لذلك لجأ في علاج كل منها إلى التدرج على مراحل ودرجات، أو أخر تحريمها حتى اكتمل نمو المجتمع المسلم.

كانت أول إشارة لتحريم الخمر: "تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا"[2]. ففصل بين السكر وبين الرزق الحسن. وكان توجيهًا لطيفًا أحس منه أذكياء القلب من المسلمين أن الله لا بد محرمها ذات يوم قريب أو بعيد.

---

(1) سورة التكوير (8-9).

(2) سورة النحل (67).

ثم كانت الإشارة الثانية: "يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا"[1]. إنها مرحلة الإقناع الوجداني والعقلي، لتتزحزح النفس عن إلفها، وتتحول عن عادتها.

ثم كانت الإشارة الثالثة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى"[2]. فنهى المسلمين عن السكر في أوقات الصلاة. وهو نهي عن التعاطي في الواقع. لأن الإنسان لا يستطيع عمليًّا أن يشرب ثم يفيق قبل حلول موعد الصلاة.

ثم كانت الخطوة الحاسمة الأخيرة هي التحريم القاطع: "إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[3].

أما الزنا فقد تدرج به الأمر كذلك من النصيحة إلى التهديد بالعقوبة إلى تقرير عقوبة مجملة إلى تقرير عقوبة مفصلة محددة.. كما تدرج من عدم إكراه الفتيات على البغاء مع إباحة زواج المتعة. إلى تحريم البغاء وتحريم زواج المتعة كليهما، والخلوص إلى إغلاق كل الطرق فيما عدا الزواج المؤبد الدائم المعقود باسم الله وبنية الدوام.

أما الربا فقد أخر تحريمه إلى العام العاشر من الهجرة حتى اكتمل نمو المجتمع المسلم والنفس المسلمة.

وأما الرق فقد اتخذ في معالجته وسائل بطيئة جدًّا تنتهي في النهاية بتحرير الرقيق، إذ كان إلغاؤه في حاجة إلى التدرج البطيء، وإلى تحرير الرقيق من داخل نفوسهم قبل تحريرهم من الخارج بقانون. وقد كانت وسيلته هي ردهم رويدًا رويداً إلى الإحساس بإنسانيتهم، بالمعاملة الحسنة، ويربطهم بالله، وتعويدهم على "تذوق" الحرية حتى لا ينفروا من مذاقها حين يصبحون أحرارًا يتولون تبعة أنفسهم في مواجهة مشكلات الحياة[4].

أما بذر العادات الصالحة فله كذلك عدة طرق وعدة مراحل.

([1]) سورة البقرة (219).

([2]) سورة النساء (43).

([3]) سورة المائدة (90).

([4]) اقرأ بالتفصيل فصل "الإسلام والرق" من كتاب "شبهات حول الإسلام".

فأما الإيمان بعد الكفر، فقد كان يستخدم له الهزة الوجدانية المحيية الموحية. التي تنقل النفس فجأة من تصور إلى تصور، ومن شعور إلى شعور. ثم لا يدعها تبرد! ففي الحال يحولها إلى عادة! عادة مشتبكة بزمان ومكان وأشخاص. فهو ينقل المسلم من بيئته الكافرة التي كان فيها ليربط بينه وبين مؤمنين آخرين، يتعاطف معهم وتنشأ بينه وبينهم صلات من المودة و"القربى" التي تعدل قرابة الدم بل تزيد! ويتعود أن يلقى هؤلاء المؤمنين على حديث الإيمان وأفعال الإيمان، فيصلي معهم. وتصبح الصلاة عادة. ويستمع معهم إلى القرآن. ويصبح استماع القرآن عادة. ويتواد معهم وتصبح المودة عادة. ويحتمل معهم الكروب. ويصبح احتمال الكروب في سبيل العقيدة عادة! ثم يجاهد معهم الكفار ويصبح الجهاد عادة!

وينشئ مجتمعًا تعيش فيه التصورات والفضائل الإسلامية، وبذلك تصبح العادة عملًا فرديًّا وارتباطًا جماعيًّا في آن واحد، فيضمن لها ذلك الدوام والاستمرار. كما يضمن لها الحيوية -التي تتضاعف بلقاء الآخرين -فلا تتبلد ولا تتحجر كما ينشئ منها نظامًا اجتماعيًّا قوي الأسس متين البنيان.

وكذلك كل العادات النفسية من صدق.. ووفاء. ومحبة. وعطف. وبذل. وإيثار...

والإسلام يلجأ في ذلك أولًا إلى إثارة الوجدان وإنشاء الرغبة في العمل. ثم يحول الرغبة إلى عمل واقعي ذي صورة محددة واضحة السمات، فيلتقي الظاهر والباطن ويتطابقان ويتكافآن: رغبة وسلوكًا. ثم يحول الرغبة والعمل من مسألة فردية إلى رباط اجتماعي.

الصلاة رغبة في الاتصال بالله والدعاء إليه وطلب المعونة منه. فيحول هذه الرغبة إلى عمل محدد ذي مراسم وحدود. ثم ينظمها في أوقات محددة. ثم يدعو إلى الجماعة ويجيب إليها.

والزكاة رغبة في التحرر من الشح والعطف على المحتاج والتعاون مع الجماعة. فتتحول الرغبة إلى عمل ظاهر محدد. ذي نسبة معينة في المال وأوقات معينة في الأداء. ثم يحول العمل الفردي إلى نظام تقوم عليه الدولة والمجتمع.

وكذلك كل عادة من عادات الإسلام، تبدأ باستحياء الرغبة ثم تتحول إلى عمل حي، لا يكلف أداؤه شيئًا من الجهد، وهو مع ذلك رغبة واعية لا أداء آلي مجرد من الشعور.

تفريغ الطاقة

من وسائل الإسلام في تربية الإنسان وفي علاجه كذلك، تفريغ الشحنات المتجمعة في نفسه وجسمه أولًا بأول، وعدم اختزانها إلا ريثما تتجمع للانطلاق.

إنه يملأ النفس والجسم بشحنات مختلفة، هي إفرازهما الطبيعي الفطري، الذي يتكون على الدوام ما دامت الفطرة سليمة لم يصبها عطب، ثم يطلق هذه الشحنات في عمل إيجابي إنشائي، لتعمل في سبيل البناء والتعمير والخير.

إن هذه الطاقة التي يفرزها الكيان الإنساني من تلقائه -ويجمّعها الإسلام- هي طاقة حيوية "محايدة" تصلح للخير وتصلح للشر، تصلح للبناء وتصلح للهدم، كما يمكن أن تنفق بددا بلا غاية ولا اتجاه.

والإسلام يوجهها وجهتها الصحيحة. في سبيل الخير.

والمهم كذلك أنه لا يختزنها أكثر مما ينبغي. فالاختزان الطويل بلا غاية عملية مضرة بكيان الإنسان. وكثير جدًّا من ألوان المرض النفسي التي يتحدث عنها علم النفس التحليلي والأطباء النفسيون، مردها إلى طاقة مختزنة بلا مبرر، لم تجد منصرفها الطبيعي، ولم تجد منصرفها الصحيح.

لذلك لا يخزن الإسلام هذه الطاقة. وبذلك يقي النفس من كثير من أنواع الانحراف المعروفة في علم النفس، فلا تنشأ فيها تلك العقد المدمرة والاضطرابات التي تبدد طاقتها. ويعالجها كذلك بنفس الطريقة إذا حدث -لسبب من الأسباب- أن أصيبت بذلك الانحراف، ولا شيء يعالج النفس أكثر من إطلاق شحنتها في عمل إيجابي يحقق كيان الإنسان، ويحقق إحساسه بذاتيته، ويفرغ كذلك الإفرازات المختزنة التي تسبب المرض والاضطراب.

من أمثلة ذلك ما يلجأ إليه الإسلام من تفريغ طاقة الكره -وهي طاقة فطرية طبيعية- في كره الشيطان واتباع الشيطان، والشر الذي ينشئه الشيطان وأتباعه على وجه الأرض. بهذه الطريقة لا يتحول الكره إلى طاقة سامة مبعثرة لنشاط الإنسان ومسممة لكيانه. وفي الوقت ذاته يتحقق بها كيان إيجابي للفرد حين يعمل في واقع الأرض لمقاومة الشر، ويتدرب كيانه وينضج بهذه المقاومة والجهاد. وفوق ذلك يتحقق هدف إنساني أعلى، بتنظيف المجتمع من الفساد والشر، وتتحقق الغاية من خلق الإنسان وتكريمه وتفضيله واستخلافه في الأرض.

وكذلك تفريغ طاقة الحب في حب الله والكون والناس والأحياء والخير بوجه عام. إنه يؤدي الأهداف السابقة ذاتها، فطاقة الحب -ذلك الإفراز البشري- قمينة إذا لم تفرغ شحنتها أولًا بأول، أو لم تفرغها في منصرفها الطبيعي، أن تفسد وتتحول إلى طاقة سامة مدمرة لكيان الإنسان! ذلك حين يحول الإنسان كل طاقة الحب مثلًا إلى نفسه.. إلى ذاته.. إلى عشق الذات وعبادتها! لأنها مختزنة لا تجد طريقها إلى خارج النفس. أو يحولها إلى معشوقات صغيرة في عالم الحس من طعام وشراب وجنس ولذائذ لأنها لا تجد طريقها الصحيح. أو يحولها إلى حب الفاسد من الناس والأفكار والأشياء.

بينما يضمن الإنسان حين يفرغها أولًا بأول، وفي منصرفها الصحيح، أن تتحول إلى ثمرة جنية في داخل النفس وفي واقع الحياة. تنصرف في سبيل الخير، وتعطي الإنسان كيانًا إيجابيًّا فاعلًا، وتحقق غاية الله من خلق الإنسان.

وعلى هذا النحو ذاته يفرغ الإسلام الطاقة الحيوية في الجهاد والزرع والإنتاج والتعمير.. تفريغًا بنائيًّا إنشائيًّا، يهدم الباطل ويزيل ما يخلفه من أنقاض، ويبني في مكانه الحق والعدل. ويعالج بذلك بناء النفس فلا تنحرف ولا يصيبها اضطراب.

ملء الفراغ

كما يفرغ الإسلام طاقة الجسم والنفس كلما تجمعت، ولا يختزنها دون ضرورة، فإنه في الوقت ذاته يكره الفراغ!

إن الفراغ مفسد للنفس إفساد الطاقة المختزنة بلا ضرورة، وأول مفاسد الفراغ هو تبديد الطاقة الحيوية. لملء الفراغ! ثم التعود على العادات الضارة التي يقوم بها الإنسان لملء هذا الفراغ.

والإسلام حريص على "شغل" الإنسان شغلًا كاملًا منذ يقظته إلى منامه، بحيث لا يجد الفراغ الذي يشكو منه، ويحتاج في ملئه إلى تبديد الطاقة أو الانحراف بها عن منهجها الأصيل.

وليس معنى ذلك هو استنفاد المخلوق البشري واستهلاكه. فليس ذلك قط من أهداف الإسلام الذي يدعو إلى استمتاع الإنسان بالطيبات وتذكر نصيبه من الحياة الدنيا.

وليست المشغلة كلها إجهادًا واستنفادًا للطاقة، فإن منها تهويمة العبادة، ومنها ذكر الله في القلب، ومنها غفوة الظهيرة في الهاجرة، ومنها السمر البريء مع الأهل والأصحاب. ومنها التزاور، ومنها الدعابة اللطيفة النظيفة.. إلى آخر أنواع الترويح.

ولكن المهم ألا يوجد في حياة الإنسان فراغ لا يشغله شيء. أو فراغ يشغله الشر والفساد والتفاهة. وحين ألغى الإسلام عادات الجاهلية وأعيادها ومواسمها وطرائق حياتها، لم يترك ذلك فراغًا يتحير المسلمون في ملئه، أو يملأونه دون شعور منهم فيما لا يفيد. بل جعل لهم في الحال عادات أخرى وأعيادًا ومواسم وطرائق حياة تملأ الفراغ. كانوا يجتمعون على موائد الخمر والميسر أو لعبادة الأوثان أو لسماع الشعر الضال الذي لا يعبر عن هدف إنساني، فجمعهم على عبادة الله يؤدون الصلاة جماعة، ويتذاكرون القرآن جماعة، ويستمعون إلى توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم ويتزاورون لمثل ذلك. وكانوا يعيثون في أعيادهم فسادًا, فألغاها وجعل بدلًا منها أعيادًا كريمة نظيفة زاخرة بالمعاني الطيبة والأهداف الرفيعة.

وحين قطع علاقة القربى في أول عهده، مع المشركين الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد، ملأ فراغها بالولاية بين المؤمنين وجعلها مكان القربى، فملأت فراغها حقيقة وصارت تعدل في حسهم صلة الدم، حتى إن المؤاخاة التي جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار وصلت بالأخيرين إلى اقتسام كل شيء مع المهاجرين: "وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"[1] وكانت تصل إلى حد الاشتراك في الميراث.

وهكذا لم يعد في نفوس المؤمنين فراغ.

وتلك من أنجح الوسائل في تربية النفس، خاصة حين تمنع النفس -لتقويمها- من شيء من رغائبها. فالوسيلة الصحيحة لملء فراغ هذه الرغبة، هي إيجاد نشاط جديد لهذه الرغبة ذاتها، أو لرغبة سواها، فالنفس من الداخل كلها وثيقة الاتصال!

التربية بالأحداث:

الحياة الدنيا كد وكدح ونصب ... وتفاعل دائم مع الأحداث. وما دام الناس أحياء فهم عرضة على الدوام للأحداث.. تقع بسبب تصرفاتهم الخاصة، أو لأسباب خارجة عن تقديرهم وخارجة عن إرادتهم. والمربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة وبغير

([1]) سورة الحشر (9).

توجيه. وإنما يستغلها لتربية النفوس وصقلها وتهذيبها، فلا يكون أثرها موقوتًا لا يلبث أن يضيع.

ومزية الأحداث على غيرها من وسائل التربية أنها تحدث في النفس حالة خاصة، هي أقرب للانصهار. إن الحادثة تثير النفس بكاملها، وترسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل والانفعال يكفي لصهرها أحيانًا، أو الوصول بها إلى قرب الانصهار. وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس. وليس من اليسير الوصول إليها والنفس في راحتها وأمنها وطمأنينتها، مسترخية، أو منطلقة في تأمل رخي.

وصحيح أن بعض حالات الوجد والانفعال الروحي في العبادة لها من الحرارة ما يحدث هذا الانصهار في النفس. ولكنها حالات نادرة لا يقدر عليها إلا الأقلون. أما الحادثة -بقوتها المفروضة على النفس من الخارج- فهي تحدث هذا الانصهار بلا إرادة ولا وعي، ولا رغبة ذاتية في الوصول إلى هذه الدرجة العليا من الإحساس. ومن ثم فهي أقرب تأثيرًا في جموع الناس الذين لا يصلون بذاتهم إلى درجة الانصهار.

والمثل يقول: اضرب والحديد ساخن! لأن الضرب حينئذ يسهل الطرق والتشكيل. أما إذا تركته يبرد فهيهات أن تشكل منها شيئًا ولو بذلت أكبر الجهود.

لذلك كان استغلال الحادثة و"الحديد الساخن" مهمة كبيرة من مهام التربية، لينطبع على النفس في حالة انصهارها ما يريد المربي أن يطبعه من التوجيهات والتهذيبات، فلا يزول أثرها أبدًا. أو لا يزول من قريب.

ولقد قام القرآن -وهو يربي الأمة الإسلامية في منشئها- باستغلال الأحداث في تربية النفوس استغلالًا عجيبًا عميق الأثر، كان من نتيجته تلك الأمة العجيبة الفريدة في التاريخ كله. الأمة التي شهد لها خالقها فقال: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ".

ويبدو لأول وهلة فارق رئيسي بين التربية بالأحداث في مكة، والتربية بالأحداث في المدينة. في العهد المكي كان التوجيه إلى الصبر على الأذى، واحتمال المكروه. ومغالبة النفس على هذا الاحتمال. وفي العهد المدني كان التوجيه إلى رد العدوان، ومجابهة المعتدين بالقوة، ورفض الخضوع والمذلة وإباء الضيم.

وجهان متقابلان. ولكني أرى أنهما يهدفان إلى هدف واحد!

التجرد الخالص لله. والتوازن الذي يحدثه هذا التجرد في داخل النفس..

ولكي تحدث التوازن فإنك "تضغط" مرة من ناحية اليمين ومرة من ناحية الشمال حتى يستوي لك التوازن المطلوب!

كان في العرب عنجهية بالغة واعتزاز عنيف بالذات. في الحق أو الباطل سيان. لم يكن الاعتزاز "لمعنى" أو "لقيمة" من القيم العليا. وإنما كان للذات. لا يحتمل أحدهم أن يصيبه أذى –ولو بالحق– فينتضي سيفه ويخرج للقتال. لا يبالي أصيب أم أصاب. ولا يبالي أين وجه الحق: معه أم عليه. لذلك كانت الثارات لا تنقطع في أنحاء الجزيرة. والمظالم كذلك لا تنقطع. والقبائل لا تعرف السلام ولا تقوم بينها العلاقات بالحق.. وفي الوقت ذاته لا يرتفع العرب إلى معنى من المعاني الكبيرة التي تقوم عليها الإنسانية الرفيعة الجديرة بمعنى "الإنسان". وحتى "فضائلهم" التي يمارسونها من كرم وقرى للضيف، ووفاء بالعهد –أحيانًا– وإباء للضيم، فللمفاخرة التي "يجري بذكرها الركبان" ودفعًا للعار الذي يعيرهم به الخصوم، وليس إيمانًا حقيقيًّا بهذه القيم يمارسونه في جميع الأحوال! وأبلغ دليل على ذلك أنهم في الوقت الذي كانوا ينحرون الذبائح للأضياف –ليتحدث الناس بكرمهم– كانوا يأبون إباء شديدًا أن يطعموا الضعيف والمحروم والمسكين الذي لا يحس به أحد، ولا يصل حديثه إلى الأسماع! مما جعل القرآن يلح في هذه الدعوة إلحاحًا شديدًا. ويثير وجدان القوم بكل ألوان الإثارة ليحسوا بالوازع الإنساني الحقيقي الذي يدفع إلى الخير ولو لم تعلم به الناس!

وفيما عدا حلف الفضول –وهو صحوة نادرة من صحوات الضمير البشري– لم يكن للعرب "عهد" بالمعنى الإنساني المفهوم. إنما كانت عهودهم أن يحالف بعضهم بعضًا في العدوان وفي رد العدوان سواء. لا فرق بين حق وباطل، ولا معيار يمكن الرجوع إليه إلا الأهواء! وأعجب مثل لذلك ما كانوا يصنعونه في الأشهر الحرم من تقديم وتأخير ونسيء؛ ليوافق أمزجتهم في العدوان أو رد العدوان! فإذا أدركتهم الأشهر الحرم وهم في المعركة ولم يشاءوا الانصياع لحرمتها, أجلوها لحين الانتهاء من المعركة التي بين أيديهم، أو أجلوها للعام المقبل وجعلوا السنة التي هم فيها بغير أشهر حرام! وقد يجيء العام المقبل فتعن لهم شهوة أخرى فينسئون الشهر الحرام مرة ثانية: "إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا"[1].

لذلك كانت تربية القرآن لهؤلاء العرب بالأحداث في العهد المكي هي "تجريدهم" من ذواتهم. تجريدهم من الاعتزاز بكل ما يعتزون به من أهواء ذاتية وقيم أرضية. ليعتزوا "بالحق"

([1]) سورة التوبة (37).

وحده. الحق مجردًا من أشخاصهم. الحق متلبسًا بذواتهم ولكنه متميز فيها تميزًا واضحًا. بحيث تتبع ذواتهم الحق، ولا تتبع أهواءهم أو مشاعرهم الشخصية. وذلك بأن يتجردوا لله. يتجردوا له تجردًا خالصًا. ينتزعون به أنفسهم من كل ما يجيش فيها من مشاعر، وما ترتبط به من وشائج، وما تعتز به من قيم وأشياء.

ولذلك كان الامتحان الأكبر لهم في العهد المكي هو تحمل الأذى في سبيل الله، في سبيل الدعوة الناشئة المضطهدة المطاردة.. دون رد على العدوان ودون أخذ بالثأر من المعتدين.

لقد كان في وسع المسلمين الأوائل أن يثيروها حربًا قَبَلِية.. أو حربًا شخصية.. كل إنسان يأخذ بثأره وينتهي الأمر.. ولو بمقتل المؤمنين جميعًا وفنائهم.. فما كانوا يبالون في جاهليتهم أن يبقى منهم أحد بعد أخذ الثأر! ولكن ذلك لم يكن ليصبح انتصارًا للدعوة، ولا انتصارًا للدين الجديد! إنه يكون استمرارًا للجاهلية! استمرارًا للاعتزاز بالقيم الشخصية والقيم الأرضية المبتوتة الصلة بالله والحق والعدل و"الإنسانية". استمرارًا في الهبوط لا أخذًا في وسائل الارتفاع.

ولكن التربية التي منعتهم من أخذ الثأر– التربية التي وجهتهم إلى الصبر واحتمال الأذى والعدوان دون رد. التربية التي وجهتهم إلى ما يشبه –في ظاهره– أن يكون رضى بالهوان والظلم.. هذه التربية هي التي أنشأت النفوس الجديدة المعتزة بالله، المعتزة بالقيم التي ينشئها الله؛ والتي أنشأت أعز نفوس عرفتها البشرية وأكرم نفوس.. نفوس مستعلية بالإيمان: مستعلية على ذواتها، وعلى شهواتها، وعلى أهوائها، وعلى كل قيمة مادية أو أرضية لا تسير في طريق الله.

في تلك الفترة كانت التربية تقول –في سورة المزمل– "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا"[1] وكانت تقول في نفس السورة: "قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا"[2].

كانت التربية هي الصبر على الأذى. وقيام الليل للتجرد لله.. لعبادته وحده في ناشئة الليل: "إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا"[1].

([1]) سورة المزمل (10).

([2]) سورة المزمل (2-5).

وقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه يقومون الليل يتعبدون ويتهجدون ويتعلمون التجرد الكامل لله حولًا كاملًا حتى تورمت أقدامهم وتشققت، فأنزل الله عليهم: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[2].

فلما علم المربي الرحيم أن هذه النفوس المؤمنة الصابرة قد تجردت له، واهتدت بهديه، وتربت على طاعته، ولم يعد لها وجود إلا الوجود الذي يريده لها الله، مطمئنة في ذات الوقت أنه الوجود الأرفع والأسمى، الذي يحقق أرفع ما في كيان الإنسان.. عندئذ أذن للمؤمنين في الهجرة، ثم أذن لهم بإنشاء دولة لهم في المدينة تقوم على أساس تقوى الله وتستمد من شريعة الله. وتدافع عن كيانها بكل القوة المتاحة لهم حينذاك.

لم يكن الأمر كما يبدو من ظاهره أمر ضعف المسلمين في مكة وقوتهم في المدينة ... فقد كان المسلمون –على ضعفهم في مكة– يملكون كما أسلفنا أن يتصرفوا تصرف العرب في الجاهلية. كما أن المربي –في المدينة– كان يمكن أن يكلهم إلى قوتهم، ويتركهم يتصرفون بوحي هذه القوة دون توجيه!

ولكن الذي حدث لم يكن كذلك! لقد كانت التربية بالأحداث في عهد القوة في المدينة قوية صارمة كما كانت في مكة؛ تهدف إلى الهدف ذاته: تخليص النفوس من أدرانها وتعلقاتها، وتجريدها خالصة لله:

"وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ"[3].

لقد كان الدرس هنا قاسيًا عنيفًا ... يوم اعتز المسلمون بكثرتهم وأعجبتهم قوتهم فقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة! كان الدرس –كما كان في مكة– هو ردهم إلى الله، ليعتزوا به وحده، ويستمدوا منه القوة وحده، ولا ينظروا لأية قوة أرضية –معهم أو عليهم– على أنها

([1]) سورة المزمل (6).

([2]) سورة المزمل (20).

([3]) سورة التوبة (25).

العامل الحاسم في المعركة، أو أنها هي التي تقرر شيئًا على الإطلاق من مصاير الأمور! لقد كانت القوة الأرضية في مكة ضدهم. فرباهم هناك على أنها لا تعني شيئًا في حقيقة الأمر. وأنها ليست هي التي تقرر مصير الدعوة. وإنما الذي يقررها هو الله. وهم مدعوون أن يلجئوا إلى الله وحده ويعتزوا به وبقوته. ثم كانت القوة الأرضية في المدينة معهم. فرباهم كذلك على أنها لا تعني شيئًا في حقيقة الأمر. وأنها ليست هي التي تقرر مصير الدعوة. وإنما الذي يقررها هو الله. ودعاهم -كما دعاهم هناك- أن يلجئوا إلى الله ويعتزوا به وبقوته: "ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[1].

وكذلك في سبيل هذا التجرد ذاته كانت التربية بالأحداث في سورة آل عمران، للذين فتنتهم أسلاب المعركة في أحد فنسوا هدفها الأصيل.

"وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"[2].

وكذلك في سورة الأنفال إذا يتحدث عن وقعة بدر: "وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ، إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[3].

وفي سورة التوبة كانت التربية بالأحداث للذين تخلفوا عن القتال في وقعة تبوك: "فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ.. لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا

([1]) سورة التوبة (26-27).

([2]) سورة آل عمران (152).

([3]) سورة الأنفال (7-10).

لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ.. وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.. وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.. إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.. لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ، مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئًا يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[1].

هذه الطرقات العنيفة كلها و"الحديد ساخن" لينطبع في النفوس الأثر المطلوب، ولا يتخلف الناس عن الجهاد في سبيل الله ... وقد كان.. لم يتخلف بعد ذلك أحد من المؤمنين ولا من الأعراب!

وهكذا كانت التربية بالأحداث في مكة وفي المدينة، ذات هدف واحد في الواقع, وإن تعددت الصور والتوجيهات: إنها كلها دعوة للتجرد من القيم الأرضية كلها، والوشائج الذاتية كلها، ومن كل حرص على مصلحة أو مغنم شخصي ... ليكون كل شيء في سبيل الله: "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

([1]) سورة التوبة (81-121).

كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"[1].

وحين يحدث ذلك في داخل النفس تكون النفس قد توطدت وتثبتت، وركزت على الركيزة التي لا تهتز ولا تختل ولا تضعف ولا تميد.. وتكون قد توازنت فلا يفسدها الضعف ولا تفسدها القوة. لا تنحسر حيث ينبغي التقدم، ولا تندفع حيث ينبغي الانتظار. وتكون قد تربت على طاعة الله، وشفت وراقت حتى لهي نور متألق يشع في الآفاق؛ وعندئذ يصدق عليها وصف الله لها في كتابه الكريم: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ".

* * *

وقد لا نملك -ونحن نطبق منهج التربية الإسلامية- أن نعيد شريط الأحداث كما حدث أول مرة، لنتتبع توجيهات القرآن في التربية بالأحداث واحدًا إثر واحد بحسب ترتيب النزول!

ليس هذا بطبيعة الحال هو المقصود.

إنما المقصود هو حكمة التربية بالأحداث..

المقصود هو الطرق والحديد ساخن. حتى لا تفلت الحادثة بلا عبرة مستفادة، ولا أثر ينطبع في النفس ويبقى.

والهدف هو ربط القلوب دائمًا بالله، في كل حادثة وفي كل شعور. والمجال دائمًا مفتوح أمام كل مربٍ له عين مفتوحة وقلب واعٍ وإدراك بصير. إنه يستطيع أن يدرك اللحظة المناسبة للتوجيه، اللحظة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال درجة الانصهار. وعندئذ يعقد العقدة الوثيقة التي لا تنحل، ويطبع الطابع العميق الذي لا يزول.

---

(1) سورة التوبة (24).

المجتمع المسلم

من البديهيات المقررة في منهج التربية الإسلامية أن يكون هناك مجتمع مسلم. فكل الجهود المضنية التي تبذل في التربية عرضة لأن تذهب كلها ضياعًا حين لا يوجد هذا المجتمع، أو حين يوجد مجتمع يعادي الفكرة ويعمل على تحطيمها.

وصحيح أن تكوين المجتمع المسلم هو الهدف الأخير من التربية الإسلامية، ولكنه في الوقت ذاته هو الأداة الموصلة إلى تثبيت المفاهيم الإسلامية وتنشئة الأفراد عليها منذ نعومة أظفارهم، حتى ينطبعوا بانطباعاتها، ويكونوا صدى ذاتيًّا للتفاعل معها والتشرب بها.

وهذا التداخل بين الأهداف والوسائل، هو ذاته التداخل بين الفرد والمجتمع وبين الجيل والأجيال. لا تستطيع في أية لحظة أن ترسم حدًّا فاصلًا بين جيل وجيل، ولا بين فرد والمجتمع الذي يعيش فيه هذا الفرد، ولا بين وسيلة من الوسائل والهدف الذي تؤدي إليه الوسيلة.

وطبيعي -في إنشاء مجتمع إسلامي- أننا نبدأ بالفرد، أو بمجموعة أفراد. كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلقى الوحي والرسالة، وامتلأت بها نفسه، فتحركت للعمل في واقع الأرض. وتلك سمة الرسالات الكبيرة كلها، وعلى رأسها هذه العقيدة الحية المتحركة التي أودع الله فيها خلاصة الدين كله، وخصائص الرسالات كلها، وأودع فيها من الحيوية والحركة ما استطاعت به أن تثبّت جذورها في التربة الجافية القحلة التي لم تكن تركز فيها نبتة سليمة، ثم تمتد في آفاق الأرض بسرعة لا مثيل لها في التاريخ كله.. وما استطاعت به أن تقاوم كل صنوف الكيد والتخريب من التتار مرة ومن الصليبيين مرة ومن الداخل مرات. وما استطاعت به أن تقوم من كل نكسة صادفتها حية متوفزة مستعدة للنماء.

هذه الحيوية المتحركة التي ملأت قلب محمد صلى الله عليه وسلم -وتملأ كل قلب وهب نفسه لهذه العقيدة على مدار التاريخ- جعلته يتحرك في واقع الأرض لبث الدعوة في نفوس أفراد آخرين، ليمتلئوا بالفكرة كما امتلأ، وليتحركوا في واقع الأرض كما تحرك. أي: جعلته يتحرك لإنشاء المجتمع المسلم الذي تعيش فيه الفكرة. ويكون هو التحقيق العملي لها في واقع الحياة.

ثم تأخذ الدعوة دورها. فيتكون المجتمع المسلم الذي ينشئ الأفراد على أخلاقه وتقاليده, ومناهج سلوكه ومناهج تفكيره، فيكون المحضن الدائم الذي يفرخ في عشه كل

جيل جديد. ويتحول الهدف الأول وسيلة لتحقيق الهدف ذاته، كما يتداخل كل جيل في الجيل الذي قبله والجيل الذي يليه.

ومنذ تلك اللحظة التاريخية أصبح المجتمع المسلم حقيقة واقعة، وأخذ دوره في التاريخ.

ولكنه -مع ذلك- لا يستقيم دائمًا على النهج، ولا يسير في طريقه القويم.

وقد كانت آخر نكسة أصابته على يد الغزو الصليبي في القرنين الأخيرين، حين أحس بالهزيمة من داخل روحه، فراح يسلم حصونه وقلاعه واحدة إثر واحدة، ويفرط في مقدساته الفكرية والروحية، ويتخلى عن مقومات وجوده.

حين ذلك انهار المجتمع المسلم وأصبح في حاجة إلى إعادته من جديد!

"كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ".

كما نشأ المجتمع المسلم في الجاهلية الجاهلة المتعنتة المعاندة الجافية، كذلك ينشأ المجتمع المسلم في كل جاهلية تمر بالبشر على مدار التاريخ، وكذلك ينشأ في الجاهلية الجديدة التي يعيش فيها البشر في هذا القرن العشرين.

* * *

والمجتمع المسلم على أي حال ضرورة لازمة للتربية الإسلامية.

فالجهد الذي يبذل في تنشئة أفراد المسلمين، عرضة -كما أسلفنا- لأن يضيع كله هباء حين لا يوجد المجتمع المسلم، أو حين يوجد المجتمع الذي يعادي الفكرة ويعمل على تحطيمها.

أنت تربي ابنك أو ابنتك على أخلاق معينة تستوحيها من كتاب الله وسنة رسوله، ومن تقاليد المجتمع المسلم التي تقرأ عنها وتتصورها، ومن مفهوم التربية الإسلامية كما تمتلئ به نفسك. ثم لا تستطيع أن تحبس ابنك أو ابنتك في معزل عن المجتمع. فإن ذلك مستحيل. بل إنهما لا يكونان مسلمين إذا تربيا في عزلة كاملة عن الحياة الواقعة، فالإسلام ليس عزلة عن الحياة ولا يمكن أن يكون، بل هو حركة حية في واقع الأرض وسلوك واضح للعيان.

وإذن فأنت -بالضرورة- تطلقهما في المجتمع الموبوء. فما الذي يحدث؟

الطفل الذي يجد غيره من الأطفال يسبونه بأقذع السباب، المنتقى من ألفاظ قصد بها قصدًا أن تخدش الحياء لتكون مؤلمة وموجعة.

والطفل الذي يجد الغش والخداع والنفاق هو العملة السارية في المجتمع. معلمه أو معلمته يغشانه في الدرس، فلا يعملان بذمة وضمير إلا والناظر على مقربة أو المفتش على الباب. وبقية الدروس "بلطجة" أو تهويش. وبائع الحلوى أو التاجر الذي يتعامل معه يغشه في البضاعة أو السعر. وكل إنسان يغش كل إنسان، ويتملقه وهو حاضر أمامه فإذا انقلب من عنده راح يهجوه بأقذع لسان.

والطفل الذي يجد العبودية بكل ألوانها ومختلف صنوفها هي المتحكمة فيما حوله، الكبير يستعبد الصغير، والقوي يستعبد الضعيف، وهذا يخنع للعبودية ويذل.

والمراهق والمراهقة اللذان يغشيان هذا المجتمع الدنس الذي تشيع فيه الفاحشة من كل صوب.

الفتاة التي تجد زميلاتها في المدرسة يقصصن مغامراتهن الدنسة، ويروين من الحكايات ما يمليه خيالهن المريض.

والفتاة التي تجد نساء المجتمع يتبرجن على أبشع صورة لإبراز مفاتن الجسد وإبراز معالم الحيوان.

والفتاة التي تطالعها إعلانات السينما بصورها المهيجة ومواقفها الفاضحة العنيفة، ويطالعها الدنس في كل صحيفة تقرؤها أو مجلة تقع بين يديها.

والفتى الذي يعيش في مثل هذا الجو الموبوء. اهتمامات إخوانه تفاهة، وحياتهم عبث، وأهدافهم خواء. وسلوكهم نكسة إلى عالم الحيوان، في قذارة يتعفف عنها الحيوان.

والشاب والشابة اللذان يجدان كل قيم المجتمع معكوسة، وكل فضائله في التراب.

الذي يصل هو الوصولي المنافق، والذي ينجح هم العبيد.

الذي يحافظ على كرامته، أو يحافظ على دينه، أو يحافظ على أخلاقه هو في ذيل الصف, إن لم يكن في أسوأ مكان.

والتي تحافظ على دينها وأخلاقها وكيانها منبوذة من الجميع.

الفتاة النظيفة لا تجد أن تتزوج، ولا تحقق -في نظافة- رسالتها في الحياة.

والفتى النظيف في حيرة من أمره لا يصل إلى شيء مما يريد.

وهذا إن ظلا على نظافة.

فهذا الإغراء العنيف كله، والفتنة الجائحة، والصور المثيرة، والنسوة العارية، والمشية الخليعة، والقصة الخليعة، والنكتة الخليعة، والأغنية الداعرة، والاختلاط الدنس، والجو الموبوء ...

ما نتيجة هذا كله بالنسبة للأطفال والمراهقين والشباب؟

كيف يكونون مسلمين؟

كلا.. لا يمكن أن نحلم في الخيال، ونفترض أن يكونوا مسلمين.

إنما الذي يحدث فعلًا -وتلك سنة الله في الأرض مع كل فكرة يريدها الله أن تنجو وتنفع وتمكث في الأرض- أن قلة من الناس، أفرادًا معدودين، يحققون البطولة. يمسكون في أيدهم القياد. يرتفعون على المجتمع الدنس وعلى أنفسهم، فلا ينجرفون في التيار، ولا يغرقون في الوحل، يمسكون في أيديهم الراية التي يتجمع حولها النظيفون والنظيفات، ويتكون المجتمع المسلم على أيديهم: "كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ"[1] "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا"[2].

المجتمع المسلم ضرورة للتربية الإسلامية.

فلن يكون كل الناس أبطالًا يعيشون في الدنس على نظافة، ويعيشون في الوكسة مرتفعين، والفرد العادي -مهما بذل في تنشئته فردًا- في حاجة إلى المجتمع الذي يسانده ويرسخ في نفسه الإيمان بالفضائل التي يؤمن بها، ويساعده بالقدوة الصالحة على تحويلها إلى سلوك عملي في واقع الحياة.

والسمة الأولى للمجتمع الإسلامي أنه مجتمع متحرر وفي ذات الوقت نظيف.

---

(1) سورة الأنبياء (104).

(2) سورة الأحزاب (62).

والتحرر في مفهوم الإسلام معنى شامل جدًّا وعميق.

تحرر من كل ما يكبل النشاط السوي للفرد والجماعة. تحرر من كل القيم الزائفة والعوائق التي تعوق رفعة البشرية وتقدمها ونماءها.

تحرر على مستوى الإنسان، وليس انفلاتًا من قيود الإنسان. ومن ثم فهو تحرر نظيف لا يلتبس بانطلاق الحيوان.

حين يتحرر الإنسان من كل عبودية غير العبودية لله الحق، فإنه يحس بنفسه قوة هائلة فاعلة منشئة موجهة، لا تتقيد بشيء غير الحق، ولا تخضع لشيء إلا ما أمرها به خالقها وهو دائمًا حق. حينئذ تنطلق تنشئ في واقع الأرض نظامًا يحقق ذلك التحرر المستمد من طاعة الله، المحقق لمنهج الله.

وفي المجتمع المسلم –الذي تقوم فيه العلاقات كلها مرتبطة بالله– يتعاون الناس على البر والتقوى, ولا يتعاونون على الإثم والعدوان. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. ويتعاونون على تهيئة الجو للأجيال الناشئة أن تتربى في ظل العقيدة النظيفة من الأدران.

في هذا المجتمع يتعاون الحاكم والمحكوم على تنفيذ منهج الله في تقويم البشرية. منهجه الشامل الذي يتناول الإنسان فردًا وجماعة، واقتصادًا واجتماعًا وحربًا وسلامًا وتنظيمات وشرائع.

ويتعاون الفرد مع أخيه في إقامة المجتمع الصالح.

ويتعاون الرجل والمرأة في تنشئة الأجيال.

في هذا المجتمع توجد الحكومة المسلمة والشعب المسلم والاقتصاد المسلم والاجتماع المسلم والأسرة المسلمة والمدرسة المسلمة والصحيفة المسلمة والإذاعة المسلمة والفن المسلم.

ويوجد بطبيعة الحال الرجل المسلم والمرأة المسلمة..[1]

والمفاهيم الإسلامية تحكم الجميع.

مجتمع يقوم على التكافل الاقتصادي والاجتماعي والفكري والروحي بين أفراده[1].

([1])انظر فصل "حين نكون مسلمين" في كتاب "معركة التقاليد".

مجتمع يقوم على النظافة. نظافة التعامل بين الحاكم والمحكوم. نظافة بين الشاب والفتاة. نظافة بين الزوج والزوجة والأطفال. نظافة بين العامل وصاحب العمل. وبين الرئيس ومرءوسيه. نظافة السلوك الظاهر والنية المضمرة. نظافة العمل والتفكير والشعور.

مجتمع يقوم على الحق. لا غدر ولا عدوان ولا باطل ينمو ويتاح له النماء.

مجتمع يقوم على القيم الإنسانية التي لا تهمل الواقع المادي والإنتاج المادي, ولا تعطيهما كذلك فوق حقهما المقدر, ولا تهمل الواقع الروحي للبشرية, الذي هو وسيلتها الحقيقية للرقي النفسي والتحضر والارتفاع.

مجتمع يوجه الطاقة الإنشائية للناس في سبيل البناء والتعمير والخير، ولا يوجهها للعمل في سبيل الشر والفساد.

مجتمع يقاوم الشر ولا يسمح له أن يستشري في الأرض. ويقاوم الفجور والفساد والفاحشة.

مجتمع يقيم الموازين العادلة للناس في الجهد والجزاء، فلا يفتنهم عن الإيمان بالفضيلة، والإيمان بالعمل في سبيل الخير.

ذلك أنه مجتمع يقوم على الإيمان بالله، ويستمد من منهجه وحده لا من أي منهج سواه[2].

* * *

في مثل هذا المجتمع ينشأ "الإنسان الصالح".

ينشأ بقدر أقل من الجهد، وقدر أكبر من الصلاح.

وليس معنى هذا أن نترك أبناءنا وبناتنا على هواهم حين يوجد المجتمع الصالح، اتكالًا على أن المجتمع سيصنع لهم كل شيء؛ وسيربيهم على الفضيلة من تلقائه.

---

(1) انظر بالتفصيل في هذا كتاب "العدالة الاجتماعية في الإسلام".

(2) انظر في نهاية الكتاب فصل "بين الواقع والمثال".

كلا! فكل نبتة هي نبتة مستقلة تحتاج إلى العناية بها في منبتها حتى تترعرع ويكتمل لها النضوج. وكل ما يحققه المجتمع الصالح أنه يوجد الجو المعاون على النماء، الخالي من الأعاصير التي تقتلع النبتة أو تميلها أو تحطم منها الأغصان والفروع.

والمنبت الطبيعي لكل نبتة هو الأسرة، الأب والأم مجتمعين في عش سوي نظيف.

وقد مرت بنا عناية الإسلام بالأسرة، وبالأب والأم كفردين مسلمين.

وإنما نزيد هنا أن الأسرة الفاضلة هي عماد المجتمع المسلم، وهي وليدته في ذات الوقت، على التداخل الذي بيّنا بين الوسائل والأهداف.

وحين يوجد الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم نكون قد حققنا منهج التربية الإسلامية بحذافيره. ويكون لنا أن نتوقع أطيب الثمار.

ثمرة التربية

أي صورة من الأناسي تلك التي تطالعنا بعد هذا الجهد الذي نبذله في التربية على منهج الإسلام؟ أي إنسان هو الذي ربينا له روحه وعقله وجسمه على هذا النحو، ووقعنا على الخطوط المتقابلة في نفسه، وربيناه بالقدوة وربيناه بالموعظة وربيناه بالقصة وربيناه بالعادة وربيناه بالأحداث..؟

نقول إنه "الإنسان الصالح".. فما صورة ذلك الإنسان.. الصورة التي يمكن أن نمسك خيوطها ونتبع ملامحها ونعرضها نموذجًا للاقتداء؟

بديهي أن نقول إنه إنسان عابد. وإن العبادة -على النحو الذي شرحناه في فصول الكتاب- هي منهاج حياته كلها، وهي الصورة التي تطالعنا منه في كل لحظة من لحظات حياته ... أي: إنه لا يكون عبدًا إلا لله، وأنه في كل عمل يعمله وكل سلوك يسلكه وكل فكرة تخطر في باله، متصل بالله، مراع له، متوجه إليه.

ولكن هذا لا يعطينا فكرة واضحة عن "ملامح" هذا الإنسان، وإن أعطانا "سَمْتَه" العام.

ما زلنا في حاجة إلى مزيد من التوضيح.

سنقول إن ملامح التقوى والخشوع والحياء تظهر على وجهه:

"إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[1].

"سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ"[2].

"إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ". "وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ". "أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"[3].

([1]) سورة الحجرات (13).

([2]) سورة الفتح (29).

([3]) سورة الأحزاب (35).

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ". "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ"[1].

"الحياء من الإيمان"[2].

نعم. نحن أمام شخص تشع التقوى من وجهه، ويبدو في قسماته الخشوع، ويتسم في حركاته وفي حديثه بالهدوء والوداعة والحياء.

ولكن. لا! لا يخدعك هدوءه ذلك ورقته واستحياؤه فتظن به الضعف!

إنه لا يضعف ولا يخشع ولا يحني هامته إلى الأرض ساجدًا. إلا لله. وحده لا شريك له. أما ما عدا ذلك فهو قوي قوي. صلب العود. شديد المراس، متين.

اختبر هدوءه ذلك ورقته في أن تحاول العدوان على شيء من مقدساته! عند ذلك تبرز لك السمة الأخرى المتممة للأولى:

"مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ"[3].

نعم. لا تمنع الشدة الرحمة. ولا تمنع الرحمة الشدة. هذه في موضع وتلك في موضع. وكلاهما صواب.

إنها ليست الرقة المطلقة والرحمة في كل مناسبة ومع كل شخص.

وهي كذلك ليست الشدة الجافية التي تسم الطبع كله بالغلظ والجفاء.

وإنما هي المرونة الحية التي تقدر على مواجهة كل موقف بما يليق، والتي تملك في داخلها طاقة للرحمة وطاقة للشدة، تستمد منهما بحرية حين تشاء.

كان التوجيه للرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة للكفار والمنافقين: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ"[1].

([1]) سورة النور (30-31).

([2]) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

([3]) سورة الفتح (29).

وفي الوقت ذاته كان التوجيه إليه بالنسبة للمؤمنين: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"[2].

فالغلظة على الكفار ليست عن غلظة في الطبع وفضاظة. فهاتان الصفتان البغيضتان ينفيهما الله سبحانه عن رسوله صلى الله عليه وسلم. وإنما كانت عن قوة في مواجهة الشر، واجبة لأنها في النهاية تؤدي إلى الخير.

وفي ذلك مفتاح الموقف بالنسبة للمؤمن. فهدفه الأخير هو الخير. وهو يصل إليه بكل طريق ممكن. قد تكفيه في دفع الشر كلمة طيبة: "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[3], "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ"[4]. وقد تفلح الموعظة الحسنة: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"[5]. وقد تخفق الوسائل كلها فلا تنفع إلا الشدة، وعندئذ تكون الشدة هي الصواب.

* * *

المؤمن قوي في كل حالاته، مستعل في كل حالاته: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[6].

وتلك سمة من سماته.

إنه لا يستعلي في السراء كبرًا وانتفاشًا كاذبًا وفرحًا في الساعة الرخية.

كلا. فما هذا استعلاء؛ وإنما هو كبر وغرور لا يحبهما الإسلام:

([1]) سورة التوبة (73).
([2]) سورة آل عمران (159).
([3]) سورة فصلت (34).
([4]) سورة المؤمنون (96).
([5]) سورة النحل (125).
([6]) سورة آل عمران (139).

"وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ"[1]. "وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا"[2].

دعوة إلى التواضع والقصد والاعتدال.

إنما الاستعلاء الحقيقي هو الاعتزاز بالله، والاعتزاز بالنفس وصيانتها عن كل مذلة لغير الله، وكل دنس يصيبها، وكل خضوع لما يملك الإنسان دفعه من الأذى والضرورات.

ومن ثم فهو غير مقتصر على ساعات النصر والغلبة والرخاء. فالتوجيه في الآية للمؤمنين بأنهم الأعلون، كان على إثر الهزيمة في المعركة وغلبة الكفار: "وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ"[3]. فهم الأعلون حتى وهم منكسرون في الحرب. بل هم الأعلون منذ أول لحظة يدخل الإيمان في قلوبهم، وعدوهم ظاهر في الأرض ومستحوذ على كل نصيب.

هذا الاستعلاء من أبرز سمات الإنسان المؤمن –وهو الإنسان الصالح– يصاحبه في كل موقف من مواقف حياته، فيملي عليه السلوك الذي ينبغي عليه أن يسلكه.

هو في وجه الظلم والعدوان مستعل ولو كان في موقف الهزيمة. لأنه لا يستمد استعلاءه من النصر فتفقده الهزيمة إياه. وإنما يستمده من الإيمان بالله والاتصال به، ومن ثم لايفقده في الهزيمة ويسترده في النصر، بل هو كامن في داخل نفسه، مصاحب لها في كل حال.

وهو في وجه المغريات مستعل ولو كان في حاجة. لأنه لا ينبغي له –وهو المؤمن المتصل بالله– أن يحيد عن منهج الله ويخالف عن دستوره، من أجل كسب مهما يكن من عظمه فهو حقير، ومهما يكن من كثرته فهو زائل، ويبقى الله، وحساب الله: "وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى"[4].

([1]) سورة لقمان (18-19).

([2]) سورة الإسراء (37).

([3]) سورة آل عمران (139-140).

([4]) سورة طه (131).

وهو في وجه الشهوات مستعل ولو أحس بلذعها في أعصابه. لأنه –وهو المؤمن المتصل بالله– أكرم عند الله وعند نفسه من أن يذل لشهوة تدنسه وتمرغه في الوحل، من أجل متعة عابرة لن تغنيه، وسيجد أطيب منها في الحلال ويجد أطيب منها دائمًا عند الله: "وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ"[1].

وهو في وجه القيم الزائفة مستعل لأنه يملك القيم الحقيقية المستمدة من الله ومنهج الله، فلا تزلزله قيم زائفة من صنع البشر، لا ترفع ولا تخفض إلا في ظاهر الأمر، ولا يمكن أن تفرض نفسها على مشاعر المستعز بالله والمستعز بنفسه وقيمه، لأنها لا تساوي شيئًا في ميزانه، ولا تغير حقائق الأشياء: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ"[2].

والمستعلي على هذا النحو، لا يصعر خده للناس ولا يمشي في الأرض مرحًا، فذلك صغار هو يستعلي عنه! إنما يحترمه الناس ويقدرونه من تلقاء أنفسهم لأنهم يحسون أن بداخله "حقيقة" صلبة، لا خواء ولا نفخة فارغة.

* * *

نعم. هو في استعلائه لا يحتقر الناس. فليس من سمات الإنسان المؤمن –وهو الإنسان الصالح– أن يحتقر الآخرين.. إلا أن يكونوا ينالونه بالأذى فهو يرد عن نفسه بأن يظهر لهم الاحتقار. وإذا كان الله قد صرح للمظلوم أن يجهر بالسوء من القول وهو لا يحبه: "لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ"[3], فهو كذلك يبيح رد عدوان الحقراء باحتقارهم وإظهار الاستعلاء عليهم: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا"[4].

ولكن الإنسان الصالح –في غير هذا– شخص إنساني النزعة. يفيض قلبه بالعطف على بني الإنسان، بكل ما فيهم من ضعف بشري، وكل ما فيهم من طمع وجشع ولجاجة وغرور!

([1]) سورة النور (33).

([2]) سورة الكهف (28-29).

([3]) سورة النساء (148).

([4]) سورة الفرقان (63).

إنه يتذكر وحدة المنشأ: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ"[1] ويتذكر أخوته لهذا البشر. ويتذكر أن يجاهد نفسه فتغلبه أحيانًا ويخضع لضرورة قاهرة.. فيدركه العطف على الناس، والاعتذار لهم عما يرتكبونه من هفوات: "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ"[2].

وهو إنساني النزعة يحب للناس الخير، ويحس نحوهم بالرحمة ولو كان لا يعرفهم ولا تربطهم به قرابة أو صحبة. إنساني النزعة يعمل طاقته لينفع، وليصيب النفع أكبر عدد من الناس:

"إن من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس. قيل: يا رسول الله من أين لنا صدقة نتصدق بها؟ فقال: "إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح والتحميد, والتكبير والتهليل, والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتميط الأذى عن الطريق وتسمع الأصم وتهدي الأعمى وتدل المستدل عن حاجته. وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف"[3].

بل إنساني النزعة حتى وهو يشتد ويحارب ويقتل في سبيل الله:

"إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"[4].

* * *

والحب.. القدرة على الحب.. سمة بارزة من سمات الإنسان الصالح المؤمن. بل هو إنسان بمقدار ما يقدر عليه من الحب: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[5], الحب الخالص الذي لا ينتظر جزاء ولا شكورًا ولا يهدف لكسب. الحب في الله.

(1) سورة الأعراف (189).

(2) سورة آل عمران (133-134).

(3) رواه ابن حبان والبيهقي.

(4) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(5) رواه البخاري.

إنها العظمة النفسية من الداخل، والغنى النفسي.. هو الذي يفيض على الناس بالحب ويمنحهم العطاء. لأنه يستمد من معين ضخم لا ينفد.. معين الحب الإلهي الزاخر الفياض.

ومن حبه للناس يحب لهم الخير، ويدعوهم إلى الخير.

إنه حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر -وتلك سمة دائمة من سماته- يصنع ذلك لأنه يحب للناس الهدى ويحب لهم الخير. لا لأنه يحب أن يسيطر عليهم ويسوقهم أمامه فيطيعوه.

وهو كريم ذو مروءة تنفعل نفسه بآلام الناس فيسرع إلى نجدتهم، يبذل لهم المعونة ويبذل لهم من جهده وماله: "وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ"[1].

* * *

وهو شخص متوازن. تلمح الاعتدال في سلوكه وفي فكره وفي شعوره. متوازن لأن طاقته كلها تعمل، وتأخذ نصيبها من الحياة.

متوازن لا يندفع مع نزوة طارئة، لأن عقله يرده عن الاندفاع.

متوازن لا يسبح في بحر عاجي من الأفكار والأحلام ويترك الواقع، لأن قوته الحيوية ترده عن التحليق الفارغ وتوقظه لواقع الحياة.

متوازن لا يغرق في متاع الأرض ولا يغرق في عالم المادة، لأن روحه المتفتحة الطليقة تنتشله من هذه الوهدة وتوازن ما فيه من ثقلة الطين. فهو يستمتع بطيبات الحياة دون تكالب عليها، وهو على استعداد دائم للتخلي عنها إذا دعا إلى ذلك داع من دواعي الجهاد في سبيل الله.

متوازن لا يستطيره خبر يسمعه حتى يتثبت ويتبين: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"[2].

([1]) سورة البقرة (177).

([2]) سورة الحجرات (6).

متوازن لا تستطيره كل نظرية جديدة يسمعها، حتى يزنها بميزانه، ويتثبت مما فيها من الحق، لأنه لا يحب أن يكون مثل الذين: "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا"[1]. "وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا"[2].

وفي الوقت ذاته لا يجمد على كل قديم عنده، فالجمود ليس من الإيمان، والاعتراف بنعمة الله يقتضي إعمال الفكر الذي وهبه الله للإنسان للتدبر والمعرفة. ومن الواجب أن يبحث الإنسان عن الحق ويتبعه حالما يثبت له أنه حق. "الحكمة ضالة المؤمن"[3].

متوازن لأن فيه قوة ضابطة موجهة، مهتدية بمنهج الله ودستوره، تقول له افعل هذا ولا تفعل ذاك.

* * *

وهو قوة فاعلة في واقع الأرض.

يبدهك بفاعليته وإيجابيته.

إنه -بطبيعة إيمانه- لا يملك أن يكون سلبيًا في الحياة.

إن دفعة الإيمان الحية المتحركة تدفعه دفعًا لتحقيقها في عالم الواقع المشهود المحسوس.

وإن دستور الله ومنهجه المفضل ليحتم عليه -بمقتضى إيمانه بأحقيته وأفضليته ووجوبه- أن يعمل على تنفيذه وتحويله من واقع شعوري إلى واقع عملي.

وإن طبيعة تصوره لحقيقة القوة الخالقة، وحقيقة الإيمان وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وارتباطها بعضها ببعض، لينشئ له رأيا ذاتيًا في كل أمر يَعْرِضُ له أو يُعْرَضُ أمامه، رأي موجه بتوجيهات المنهج، ومسترشد بوصاياه. ومن ثم لا يملك أن يكون سلبيًا إزاء حادث أو فكرة أو رأي أو عمل، ما دام له تصور خاص لما ينبغي أن يكون عليه الحادث والفكرة والعمل.

---

(1) سورة النجم (28).

(2) سورة الإسراء (36).

(3) رواه القضاعي والترمذي.

ثم طاقته الحيوية التي رباها الإسلام ... رباها لتعمل، لا لتظل مخزونة بلا انتفاع. تعمل لتعمير الأرض وترقيتها بمقتضى إرادة الله. فهو لا يمكن أن يظل خاملًا كسولًا متواكلًا ينتظر حتى تدفعه الأحداث، ولا يتحرك هو مع الأحداث وقبل الأحداث.

* * *

ومن إيجابيته الفعالة يقف في طريق الشر.

إنه لا يمكن أن يسمح للشر أن يعدي من جانبه وهو يملك وقفه أو تغييره. ذلك مخالف لما في طبعه من إيجابية، ومخالف لقواعد الإيمان.

وإنما هو يجاهد هذا الشر ما وسعه الجهاد. وحتى إن غُلِبَ لا يُسْلِمُ قلبه للشر، وإنما يغير المنكر في قلبه، وهو أضعف الإيمان.

* * *

وهو بمقتضى إيجابيته وفاعليته شخص استقلالي النزعة.

استقلالي بمعنى أنه شاعر بوجوده وأهميته ووزنه في هذه الحياة. وعامل بمقتضى ذلك الشعور.

وهو لا يشعر بأهميته بوصفه فلانًا ابن فلان، المعتز بكذا من الحسب والنسب والقوة والمال .. وإنما يشعر بأهميته لأنه مؤمن مهتد إلى القوة الحقيقية في هذا الكون، ومعتز بهذا الإيمان.

هذا الهدى يجعله قوة كونية فاعلة، ومن هنا يحس بقدره الحقيقي، ويقدر أهميته -فردًا- بهذا الميزان، وحينئذ يكون استقلالي النزعة لأنه يحس أنه لا يستمد وجوده من أسرة أو ميراث، ولا من وظيفة أو مجتمع، ولكن من ذاته ... ذاته المهتدية بالله.

* * *

وهو مع استقلاله بكيانه المتفرد شخص اجتماعي إلى أبعد الحدود.

فليس استقلاله حاجزًا يحجز بينه وبين الناس! فالرباط الحي موجود دائمًا بينه وبين غيره من الكائنات. الرباط الحي هو الصلة بالله، صلة يلتقي عليها جميع الأحياء.

والحب.. طاقة الإيمان الكبرى.. قوة واصلة تكره الحواجز وتجرف السدود.

وما ركب في طبع المؤمن من التعاون على البر والتقوى يقتضي بطبيعته الاجتماع بالناس.

والإسلام يكره العزلة وينفر منها: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم"[1].

ومن ثم فهو اجتماعي مصاحب وَصول ودود.

* * *

ليس بينه وبين الناس حواجز، ومع ذلك لا يزعجهم برفع الحواجز كلها و"برفع التكليف"!

إنه ليس معنى أنه يحب الناس ويخلطهم بنفسه أن يقتحم عليهم دورهم بلا موعد، ويقتحم عليهم راحتهم بغير استئذان!

كلا! فقد هذبه الإيمان وأصلح سلوكه.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون"[2].

"إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ"[3].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ"[1].

([1]) رواه البخاري وأحمد.

([2]) سورة النور (37).

([3]) سورة الحجرات (4-5).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ"[2].

هذا التهذيب قد جعل منه شخصًا حساسًا صاحب ذوق، لا يجعل من حبه للناس ذريعة لإزعاجهم وإقلاق راحتهم، لأنه بذلك لا يقوم بما يقتضيه الحب من إيثار، وإنما في الحقيقة يعمل بمقتضى أنانيته هو في ذلك الحب، فيمتع نفسه بصحبة الآخرين على حسابهم هم؛ ويزعم لنفسه أنه يمتعهم بمودته ... ولا ينتظر حتى يطلبوا منه هذا الإمتاع! وليس طلب الموعد والمحافظة عليه والاستئذان للزيارة إقامة للحواجز وتعطيلًا للمودة، بل هو حرص على المودة أكبر، وإيثار للناس بالراحة، ومنطق الحب ليس إلا الإيثار.

* * *

وهو شخص نظيف.

نظيف في ثيابه، نظيف في سلوكه. نظيف في تعامله مع الناس.

"وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ"[3].

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"[4].

"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا"[5].

"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ

([1]) سورة النور (58).

([2]) سورة الأحزاب (53).

([3]) سورة المدثر (4).

([4]) سورة البقرة (222).

([5]) سورة النساء (58).

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[1].

وهي نظافات متعددة في كل باب.

فالخشوع في الصلاة والمحافظة عليها نظافة في التعامل مع الله ونقاء في السريرة.

والإعراض عن اللغو نظافة في الفكر والضمير واللسان، وصون لها عن التفاهات والانحرافات.

والزكاة تنظيف للنفس من شح المال.

وحفظ الفروج نظافة من دنس الشهوة التي تدنس الفرد وتشيع الفاحشة في المجتمع فتدنسه.

ورعاية الأمانة والعهد نظافة في التعامل مع الناس واستقامة في الطبع وصدق وإخلاص.

وكلها من سمات الإنسان المؤمن الصالح الذي يربيه الإسلام.

* * *

وهو شخص حساس للجمال. ولكن على نظافة واعتدال.

إن طول مصاحبته للقرآن والحياة الدائمة في جوه قد فتحت بصيرته على مجالي الجمال في الكون، وأحدثت في نفسه حساسية مرهفة لكل شيء حي وكل شيء جميل.

الليل والنهار.. والسماء والنجوم.. والنبات المتفتح والطير والحيوان.. كلها آيات من الجمال في الكون، وكلها يلمس الحس ويثير الوجدان.

وفي نفسه حس شاعر يلتقي بالجمال في كل هؤلاء.

ولكنه لا يقع في الفتنةِ. لا يقع في فتنة الأجساد الجميلة والوجوه الفاتنة إلا في حدود ما أباح له الله. فهنا قيد من النظافة قد تعمق في حسه وقنع به وارتضاه.

([1]) سورة المؤمنون (1-11).

* * *

ثم هو شخص مسلم أمره إلى الله.

إنه يؤدي واجبه في الأرض ويتوكل على الله في السماء.

يستعلي على الدنايا، ويستعلي على القوى الزائفة، ويستعلي على الباطل، ويترك مصيره لله.

ويسعى للرزق بكل ما أوتي من قوة ويترك النتيجة لله.

وينفق مما أعطاه الله، ويترك حساب الغد إلى الله.

ويسير مع الأقدار. مؤمنًا بأنه لن يصيبه إلا ما كتبه له الله.

ويحتمل الشدة ويصبر على الضراء. في سبيل الله.

ويرجو من الله الخير..

* * *

وفي الجملة فهو إنسان يعيش بأقصى طاقته في عالم الواقع، ويحاول في الوقت ذاته أن يحقق المثال. ولا انفصال في نفسه ولا في عالمه بين الواقع والمثال!

بين الواقع والمثال

نظم التربية كلها -والتربية الإسلامية من بينها- متهمة بأنها ترسم نماذج مثالية خيالية لا تتحقق في عالم الواقع، لأنها غير قابلة للتحقيق.

وفي ظاهر الأمر يبدو في ذلك شيء من الحق، ولكنه عند التدقيق لا يلبث أن يزول.

إن مهمة كل منهج من مناهج التربية أن يرسم الصورة الصحيحة التي "ينبغي" أن تكون، والتي يرجع إليها دائمًا في تصحيح الأوضاع وضبط المقاييس. وبغير هذه الصورة المتكاملة لا يمكن أن نعرف بالضبط كم قطعنا من الشوط، وكم بقي في الطريق، لنقيس الجهد الذي ينبغي أن يبذل، ونقيس طاقتنا إلى هذا الجهد المطلوب.

كل المطلوب من منهج التربية ألا تكون الصورة التي يرسمها خارجة عن حدود الطاقة، ممتنعة على التحقيق. وألا تكون موضوعة في الوقت ذاته على صورة قالب محدود على سبيل الإلزام، بحيث يصبح الإنسان ضائعًا إذا لم يصل إلى الصورة المحدودة والقالب المطلوب.

وهذا وذاك لا يوجدان في منهج الإسلام.

لا الصورة المتكاملة مستحيلة التطبيق. ولا هي مرسومة في قالب معين على سبيل الفرض والإلزام!

الصورة المتكاملة وجدت بالفعل في واقع الأرض، متمثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومحمد رسول الله بشر.. يحمل كل طبائع البشر.

ولا نقصد بذلك أن أحدًا من البشر سيصل به التهذيب القرآني أن يصبح محمد بن عبد الله.

ولكننا نقصد فقط أن القدوة به قائمة في حدود أنه بشر. وأنه إذا استحال على الناس أن يصلوا إلى تلك القمة الشامخة التي لم يصل إليها أحد في تاريخ البشرية كله، من الأنبياء وغير الأنبياء، فإنهم بالأسوة الحسنة في شخصه صلى الله عليه وسلم يستطيعون -في بعض جوانبهم على الأقل، وفي حدود ما وهب الله لهم من طاقة- أن يقتربوا من هذه القمة

الشامخة درجات من الاقتراب. وهذا هو المستوى الأعلى الذي تحقق فعلًا على نطاق غير ضيق ... في أشخاص الصحابة والتابعين، وفي أشخاص متناثرين على مدار التاريخ.

وإذن فهذا المستوى الأعلى ممكن في هذه الحدود.

وكل درجة يقتربها الإنسان من هذه القمة الشامخة فهي عظمة تحسب له في ميزان الله, وميزان البشر على السواء.

كل قوة في الحق. كل تضحية في سبيل الله. كل صدق وأمانة وإخلاص واستقامة. كل رحمة شفيفة. كل مودة وحب. كل عمل للخير. كل حس مرهف, وسلوك مهذب. كل قوة حيوية دافعة. كلها، ما دامت مخلصة لله، تحسب في ميزان العظمة ويكتب لها البقاء.

وتلك ثمرة التربية الإسلامية في واقع الأرض.

وفي التاريخ أمثلة لا تعد لهذه العظمات النفسية التي رباها الإسلام[1]. كانت أبرزها تلك الفترة التي انطلقت فيها الأمة الإسلامية الناشئة المصنوعة على عين الله ورعاية رسوله، تعمل في كل ميدان، وتكتب العظمات في كل صفحة من صفحات الحياة. ثم قلت النماذج شيئًا ولكنها لم تنقطع قط عن الوجود، في كل صحوة من إغفاءه، وكل هبة من انتكاس.

أولئك الذين حققوا المثال.

حققوه بقدر ما وهب الله لهم من طاقة، وبقدر ما استطاعوا أن يبذلوه من مجهود.

وتلك قيمة المنهج الذي يرسم الصورة المتكاملة ويعرضها أمام الناس.

إنه ليس خياليًّا ولا مثاليًّا ولا منقطعًا عن واقع الأرض.

بل إنه على العكس من ذلك واقعي في الصميم.

واقعي بدليل أنه أنتج بالفعل ثمرات طيبة شهدتها البشرية ونعمت بها على مدار التاريخ.

([1]) اقرأ بالتفصيل فصل "نظرة الإسلام" في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام".

وواقعي لأنه يخاطب الناس من طريق مقدرة كامنة في نفوسهم، موجودة بالفعل، مشتمل عليها كيانهم. وهي القدرة على الصعود حين يهتف لهم هاتف الصعود.

هذه المقدرة طاقة حقيقية أودعها الله في الفطرة البشرية، ووكل بها ترقية الحياة الإنسانية والصعود بها دائمًا إلى الأمام.

والإسلام يحرص على استغلال هذه الطاقة، ويصر على ذلك أشد الإصرار.

لأنه واقعي مغرق في الواقعية!

إنه يعرف أن هناك نتائج واقعية معينة يصل إليها حين يهتف للناس من طريق الصعود.

إنه لا يتوقع -ولا يتطلب- أن يصل الناس جميعهم إلى القمة.

ولكنه يتوقع -ويتطلب- ويحدث ذلك بالفعل- أن يرتفع الناس في مجموعهم درجات مختلفة من الارتفاع.

بعضهم يقترب من القمة الشامخة، وبعضهم يصعد درجات، وبعضهم يتعب فيجلس في الطريق ليستريح. وبعضهم ينتكس فيهبط إلى الأرض ...

ولكن المجتمع يرتفع في مجموعه...

كلهم يرتفعون.. حتى المنتكسون عددهم يقل، وتوجد أمامهم فرصة دائمة للارتفاع!

فأية واقعية عميقة تلك التي تنبت من النظرة المثالية؟!

* * *

ولا يغفل الإسلام أبدًا عن واقع الطبيعة البشرية وما ركب فيها من تنوع في الطاقات والاتجاهات والمستويات.

لذلك لا يلزم الناس بصورة مثالية معينة مصبوبة في قالب لا تتعداه. إنما هو يطلب إلى كل إنسان أن يبلغ حدود الكمال الممكن له هو بحسب استعداداته وطاقاته واتجاهاته.. وكل ما يفرضه هو المحاولة الدائمة لبلوغ ذلك الكمال الخاص في حدود الإطار المثالي العام.

وهو واقعي في ذلك إلى أبعد الحدود.

ولكنه في واقعيته يختلف عن النظم "الواقعية" الأخرى التي عرفتها البشرية في العصر الحديث خاصة.

إنه يشمل الواقع الأكبر للفطرة البشرية لا الواقع الصغير المحدود.

الواقع الأكبر الذي يعمل حساب قدرة الإنسان على الرفعة كما يعرف استعداده للهبوط.

إنه لا يصنع كما تصنع بعض المذاهب الواقعية، التي أخذت عن دارون وماركس وفرويد إيمانها بحيوانية الإنسان وماديته[1]، فيقول: ما دام الإنسان يحمل هذا الاستعداد الدائم للهبوط مهما حاولنا أن نرفعه، فلنكف إذن عن المحاولة ولنتركه يهبط حتى يقر على القرار!

كلا! إنه لن يقر على القرار أبدًا. سيهبط ويهبط ويهبط على الدوام!

سيهبط إلى بشاعة يتعفف عنها حتى ذلك الحيوان الذي رد دارون الإنسان إليه وتبعه ماركس في عالم الاقتصاد وفرويد في عالم المشاعر النفسية.

سيهبط لأنك تجذبه من خيط الهبوط دائمًا ولا تهتف إليه من طريق الصعود.

تلك واقعية الحيوان، التي هبطت بالإنسان في العالم الحديث إلى ما تحت مستوى الحيوان.

أما الواقعية النظيفة التي يمارسها الإسلام، فهي التي تحسب حساب الإنسان في مجموعه، بكل طاقاته واستعداداته، فتهتف له دائمًا من طريق الصعود، لأنه ليس في حاجة لمن يهتف له من طريق الهبوط! وتحسب حساب الإنسان الفرد فتكلفه المحاولة الدائمة لبلوغ الكمال الذي يستطيعه هو، وهو بفطرته يستطيع الكثير ... متى كان هدفه هو بلوغ الكمال.

والإنسان في نظر هذه الواقعية كائن ليس بالملاك ولا بالشيطان، ولكنه قادر على الصعود إلى نظافة الملائكة، وقادر على الهبوط إلى دنس الشيطان.

([1]) انظر بالتفصيل فصل "حقائق وأباطيل" في كتاب "معركة التقاليد".

والطريق الواقعي لتربيته ومعالجته، وهو رسم الصورة المتكاملة أمامه، وتدريبه دائمًا على الصعود إليها والدنو منها، بكل طريق ممكن، وكل جهد مستطاع.

منهج التربية الإسلامية

الجزء الثاني

(في التطبيق)

محمد قطب

مقدمة

من بديهيات الإسلام أن يكون الناس مسلمين، وأن يتربوا تربية إسلامية!

ومع بداهة هذه القضية فإنها توشك أن تكون مجهولة في مجتمعاتنا الجاهلية المعاصرة، أو هي على الأقل قضية مبهمة عائمة ليس لها مدلول محدد واضح السمات. وأقصى ما يمكن أن تعنيه في حس أكثر الناس -سواء عملوا بها أو لم يعملوا، وسواء كانوا راغبين فيها أو راغبين عنها- هو أن يكون الإنسان "متدينًا" أي: يصلي ويصوم ويؤدي الفرائض، وأن يكون مستقيم الأخلاق.

ولا شك أن هذا **من الإسلام**، ولكنه على وجه التأكيد **ليس كل الإسلام**. وإنما انحسرت الصورة وانحصرت في تلك المعاني؛ لأن الإسلام ذاته قد انحسر في واقع المجتمع وفي وجدان الناس، فلم يعد له شموله وتكامله الذي أنزله الله به، ولم يعد يحكم من حياتهم -حين يحكم منها شيئًا على الإطلاق- إلا ذلك الجانب المحدود، الذي هو أقرب أن يكون مزاولة فردية للإسلام، لا تؤثر في خط سير المجتمع، ولا تحكم واقعه المتعدد الجوانب المتشابك العلاقات.

ولا شك أن هذه المزاولة الفردية للإسلام، وفي هذه الجوانب المحدودة من الحياة، ليست هي الإسلام الذي تربت عليه الأجيال الأولى من المسلمين، فكان منهم تلك الأمة الفريدة التي وصفها الخالق سبحانه بقوله: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"[1] والتي كتبت من فصول التاريخ المجيدة ما لم يتيسر لأمة أخرى في التاريخ.

بل إن كونها -فضلًا عن ذلك- مزاولة محدودة في نطاق ضيق من المجتمع، ليست هي الأصل فيه، وليست هي الغالبة عليه، وإنما هي سلوك القلة القليلة منه، التي ما تزال ترتبط بالإسلام بنوع من الرباط.. إن هذا لهو الذي انحدر بتلك الأمة من أن تكون "خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ" إلى أن تكون ذلك الغثاء الذي تتداعى الأمم عليه كما حدّث الرسول صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل إنكم كثير, ولكنكم غثاء كغثاء السيل.."[2].

([1]) سورة آل عمران [110].

([2]) أخرجه أبو داود.

..لولا حركات البعث الإسلامي، التي تسعى من جديد إلى إقامة دين الله في الأرض، وإلى الممارسة الشاملة للإسلام في واقع الحياة!

* * *

ولقد كنت قبل سنوات مضت قد ألفت كتابًا بعنوان "منهج التربية الإسلامية" تحدثت فيه عن النظرية الإسلامية في التربية، ورجوت الله في مقدمته أن يوفقني إلى كتابة الجزء الثاني منه، الذي يتحدث عن التطبيق. وهاأنذا أعود إلى الموضوع بعد تلك الأعوام، أحاول الكتابة عن الجانب التطبيقي لذلك المنهج الذي أوضحت نظريته هناك.

وإني لأستشعر منذ البدء صعوبة المحاولة، وأستشعر -إزاء ضخامتها- ضآلة جهدي المحدود. وما أرى أن محاولتي الحاضرة ستوفي بكل ما رجوته في مقدمة الكتاب الأول، ولا أن حصيلتي من التجربة خلال تلك الأعوام كفاء لما ينبغي أن تكون عليه الكتابة في هذا الموضوع الحيوي الخطير.

ولكن الله العظيم الرحيم لا يكلف نفسًا إلا ما آتاها. وبحسبي في اللحظة الحاضرة أن أقدم ما تجمع لدي من حصيلة في هذا الأمر. فإذا منحني الله المزيد من الوقت، ومن الجهد، ومن حصيلة التجربة، ومن التوفيق، فسيكون هناك بإذن الله عودة جديدة إلى الموضوع، وإلا فبحسبي ما وفقني الله إليه، وأرجو أن يكون الموضوع موضع اهتمام دائم من الدعاة إلى الإسلام، ليوفوه حقه من الدراسة في جميع جوانبه، ويقدموا للراغبين منهجًا كاملًا للتربية الإسلامية، مفصلًا وميسرًا للتطبيق.

و "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ"[1] "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"[2].

* * *

يسألني كثير من الناس، من الشباب خاصة، كيف نطبق الإسلام؟ كيف نصبح مسلمين؟ كيف ننشئ المجتمع المسلم؟ إننا على يقين من أن الإسلام هو الخير المطلق، والحق الذي لا مرية فيه، ولكن كيف نطبقه في هذا المجتمع البعيد بواقعه عن حقيقة الإسلام؟ أو –

---

(1) سورة الأعراف (43).

(2) سورة طه [114].

على الأقل- كيف نمارس الإسلام في حياتنا الخاصة في وسط أحوال في هذا المجتمع بعيدة كل البعد عن مبادئ الإسلام، بل مناوئة له في أكثر الأحيان؟!

وهذه أسئلة جادة، ومشكلة حقيقية تواجه الراغبين حقًّا في تطبيق الإسلام.

ولا بد من إجابة صريحة واضحة لهذه التساؤلات الجادة. وإلا فسيظل في أعناقنا أمام الله وزر الحيرة التي يقع فيها كثير من الناس -من الشباب خاصة- الذين يرغبون أن يكونوا مسلمين بحق، ثم لا يجدون الطريق.

وما أزعم أن عندي -ولا عند أحد على الإطلاق- حلولًا سحرية لهذه المشكلات! بل إنه لا توجد في الواقع حلول سحرية لأية مشكلة في الأرض على الإطلاق!

إنه لا بد لحل أية مشكلة في حياة الناس من بذل الجهد البشري، ومن العزيمة الصادقة مع الجهد المبذول، وبغير الجهد لا تأتي الثمرة المرغوبة ولو وجدت النية الطيبة ووجدت التمنيات. وذلك من صميم التوجيه الإسلامي للمسلمين:

"لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا"[1].

ولئن كان الكلام في الآية عن العمل للآخرة فإن العمل للدنيا كالعمل للآخرة, سواء في حس الإسلام2 [2]... لا بد فيه من الأخذ بالأسباب، مع وجود النية الصادقة، ومع التوجه إلى الله بالتوفيق. وذلك هو المعنى الحقيقي للتوكل على الله. وما عداه فهو تواكل لا يعرفه الإسلام.

بل إنني لا أزعم -ولا أظن إنسانًا جادًّا مخلصًا يستطيع أن يزعم- أنه حتى مع الجهد المبذول والنية الصادقة والعزيمة يمكن أن تحل جميع المشكلات التي تواجه المسلمين اليوم في فترة قصيرة من الزمان.

إن ما أصاب المسلمين اليوم من هوان وذلة وخزي، وانحلال وتفكك وضعف، إنما هو حصيلة قرون طويلة من التخلي التدريجي المستمر عن حقيقة الإسلام، ونتيجة فساد لا

([1]) سورة النساء [123-124].

([2]) انظر -إن شئت: "مفهوم الدنيا والآخرة" من كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح في حياة المسلمين".

ينحصر في السلوك وحده, وإنما يتعداه إلى المفاهيم والتصورات، وذلك أخطر بكثير مما لو كان الفساد في السلوك وحده مع صحة التصور وسلامة المفهوم.

مفهوم لا إله إلا الله. مفهوم العبادة. مفهوم القضاء والقدر. مفهوم الدنيا والآخرة. مفهوم الحضارة وعمارة الأرض.. مفهوم التربية ذاته ... وكثير غيره من المفاهيم الإسلامية الأصيلة ... أين هي اليوم في أذهان "المسلمين" مما كانت عليه في حس المسلمين الأوائل الذين كتبوا التاريخ؟!

فإذا كان الفساد واقعًا في المفاهيم الأصيلة بالإضافة إلى الفساد الكثيف في السلوك، فليس من طبائع الأشياء أن يتم في سنوات قليلة إصلاح ما حدث من الفساد في قرون!

إنما يحتاج الأمر إلى بذل الجهد، والصبر على الجهد، والصبر على المعاناة، مع التوكل على الله والتقوى لله:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[1].

* * *

يحتاج الأمر إلى دعوة...

دعوة الناس إلى الإسلام من جديد.

وتحتاج الدعوة إلى كل مستلزماتها: من إخلاص وتجرد، وصدق في النية وفي السلوك، وصبر وثبات، ومشقة وتضحيات..

وفي النهاية -في الوقت الذي يقدره الله- تؤتي الدعوة ثمارها.. ويتغير الواقع السيئ الذي يعيشه الناس اليوم، ويتغير وضع المسلمين في الأرض من الذلة المخزية والهوان البائس إلى العزة التي كتبها الله للمؤمنين، وإلى النصر والاستخلاف والتمكين:

"وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ"[2].

([1]) سورة آل عمران [200].

([2]) سورة المنافقون [8].

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا"[1].

"وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"[2].

* * *

وإن فريقًا من الناس ليستبطئون الطريق.. طريق الدعوة الطويل، الذي لا يغير الأحوال في سنوات قليلة، وقد لا يغيرها في جيل واحد من الزمان، إنما يحتاج إلى جهد متواصل في أكثر من جيل، ويتعرض -بسبب العداوات المكثفة المرصودة للإسلام في الداخل والخارج- يتعرض للضرب المستمر وللتعويق.. بل يتعرض أحيانًا إلى ألوان من التعذيب الوحشي لا مثيل له في التاريخ.

فأما الذين يستبطئون الطريق وهم مصرون على الإسلام لا يرضون به بديلًا لأنهم يعرفون أنه الحق، ويعرفون أنه خير الدنيا والآخرة، فهم يفكرون في حلول سريعة, لعلها تكون أقدر على تحقيق الأمل المنشود في فترة قصيرة من الزمان.

وأما الذين يستبطئون الطريق والإسلام ليس همهم الأول، أو ليس همهم على الإطلاق، فيقولون: ماذا علينا بهذا الجهد الطويل كله، فوق ما فيه من معاناة ومتاعب وتضحيات؟ وما لنا ألا نأخذ "الحلول الجاهزة" ممن سبقنا من الأمم في الغرب أو الشرق، فننهض سريعًا من كبوتنا، ونعوض في زمن سريع ما تخلفناه في أجيال؟!

فأما الفريق الأول فهو جاد ومخلص، ولكنه عجلته لا تؤدي به إلى شيء!

فمنذا الذي يسند الحكم الإسلامي حين يقوم؟ أتسنده القوى العالمية في الشرق أو الغرب وهي التي تتربص بالمسلمين الدوائر، وتحارب حركات البعث الإسلامي بأيديها أو بأيدي عملائها تلك الحرب الضارية الضروس؟ أم لا بد له من قاعدة صلبة من الداخل تحميه؟ وكيف تتكون هذه القاعدة إلا عن طريق الدعوة الطويل. الذي يتعرض فيه الدعاة لما

([1]) سورة النور [55].

([2]) سورة الروم [6].

يتعرضون له من ابتلاءات ومشقات، وتضحيات وعذابات.. ولكنه ينبغي أن يبقى موصولًا لا تنقطع فيه خطوات السالكين؟!

وأما الفريق الآخر فهو فريق الكسالى العازفين عن الجهد، المشفقين من تحمل التكاليف.. أو هو فريق العبيد المستعبدين بأرواحهم وأفكارهم "للسادة" في الشرق أو الغرب سواء!

وإلا فليراجع هؤلاء تجربة قرن كامل من الزمان أو قرابة قرنين في الحقيقة، كان "المسلمون" خلالها يجرون وراء "الحلول الجاهزة" من الشرق والغرب.. ما الذي أنتجته تلك التجربة الطويلة وما دلالتها؟

هل تغير وضع المسلمين وما هم فيه من خزي وهوان دولي؟

ألم تضع في تلك الفترة فلسطين؟

ألم يتعرض المسلمون للمذابح في إفريقيا وآسيا من تشاد إلى أرتيريا إلى الهند إلى الفلبين؟

بل.. ألم تدخل الجيوش اليهودية بلادهم، واستقرت فيها مدى من السنين؟

ثم أين يذهب المسلمون من الله إن أخذوا الحلول الجاهزة من الشرق أو الغرب ولم يأخذوا الحل من الإسلام، حتى لو كانت الحلول الجاهزة تحل مشكلاتهم بلا جهد، والإسلام لا يحلها إلا بالجهد المعنت، وبالتكاليف الباهظة، وبالمشقات؟

هل لنا في ذلك خيار؟

"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ"[1].

فهل يحق لنا -حتى لو كانت الحلول الجاهزة تعطينا ثمرة حقيقية- أن نتنكب المنهج الرباني، ونأخذ من مناهج البشر القائمة على غير الإسلام، ونستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير: "أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"[2].

([1]) سورة الأحزاب [36].

([2]) سورة المائدة [50].

فكيف إذا كنا حين نتنكب طريق الله، ونأخذ الحلول الجاهزة من الشرق أو الغرب، لا نزيد إلا مذلة وهوانًا في الأرض، فوق تعرضنا لسخط الله في الدنيا والآخرة سواء.

"يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ، يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ"[1].

وذلك كله فضلًا عن أن الحلول الجاهزة ليست حلولًا سحرية تعمل في ذات نفسها، وإنما لا بد لها لكي تؤتي ثمارها من بذل الجهد، والصبر على الجهد، والصبر على المعاناة.. فأي عاقل في الدنيا يرضى لنفسه أن يبذل الجهد في طريق يؤدي إلى خسران الدنيا والآخرة، ولا يبذله في السبيل الواصل المؤدي إلى الخير، في الدنيا والآخرة سواء؟!

وليس معنى ذلك -في مجال التربية الذي نحن بصدده- أن نغلق قلوبنا وعقولنا دون تجارب البشرية النافعة، فلا ذلك مما يأمر به العقل، ولا هو من أوامر الإسلام!

الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها.

إنما معناه على وجه التحديد أن تكون قاعدة حياتنا هي الإسلام. ومنهج حياتنا هو الإسلام. ومنهج حكمنا هو الإسلام. ومنهج سياستنا واقتصادنا واجتماعنا هو الإسلام. ومنهج أخلاقنا هو الإسلام. ومنهج تربيتنا هو الإسلام.. ثم نأخذ من تجارب البشرية -في حرية كاملة- كل ما يفيدنا ولا يتعارض مع الإسلام.

* * *

وإقرار منهج التربية الإسلامية وتنشئة الأجيال عليه في حاجة إلى جهد ضخم, وتغيير شامل لكل صور الحياة في مجتمعاتنا الجاهلية المعاصرة، التي تتمسح بالإسلام تمسحًا ثم تأبى أن تنفذ في واقعها شيئًا من تصورات الإسلام ومفاهيمه أو أنماط سلوكه العملية.

بل إن تربية طفل واحد على مبادئ التربية الإسلامية في صورتها المثالية، ليحتاج إلى ذات التغيير الشامل لكل صور الحياة في تلك المجتمعات الجاهلية!

وإلا فأين تذهب بطفلك بعيدًا عن هذا المجتمع؟!

([1]) سورة الحج [12-13].

تحبسه في صومعة؟ إنك بذلك لا تربيه تربية حقيقية, فضلًا عن أن تكون تلك التربية هي التربية الإسلامية!

فإن أطلقته في هذا المجتمع فكيف تحميه -بادئ ذي بدء- من بذاءات المجتمع الجاهلي التي ينثرها في الطريق في كل لحظة؟ وكيف تحميه من صور الانحراف الخلقي في كل أمر من أموره: في المرأة المتبرجة المشغولة بالفتنة، في مغازلات الشباب على قارعة الطريق، في الغش والكذب الذي يتعامل به الناس في الأخذ والعطاء، في صور الظلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الواقع على جمهور الناس؟

ثم حين تذهب به إلى المدرسة فكيف تحميه من مدرّسته المتبرجة للفتنة، وكيف تحميه من طقوس التقديس التي تقدم كل يوم للطواغيت الذين لا يحكمون بما أنزل الله، وكيف تحميه من المناهج الفاسدة التي تدرس له في المدرسة، والتي تبعده إبعادًا عن الله ورسوله، وعن كل ما يتصل بالدين في معناه الحقيقي على الرغم من حصة "الدين" الرسمية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تترك طابعها في حياته، ولا تؤدي إلى شيء حقيقي في واقع الحياة، بل تؤدي في الواقع إلى زيادة نفوره من الدين!

بل كيف تحميه -حتى في بيتك- من الأغنية البذيئة المفسدة، وهي تدخل بيتك -ولو أغلقته عليك- من مذياع الجار، أو من ترداد المتسكعين في الطريق؟!

كلا! إن تربية طفل واحد، كألف طفل، ككل الأطفال.. تحتاج إلى تغيير شامل لكل صور الحياة في المجتمع الجاهلي! وكذب الطغاة -ويعلمون أنهم كاذبون- حين كانوا يقولون للمسلمين وهم يعذبونهم في السجون: ما لكم ونظام الحكم؟! ربوا أنفسكم وأولادكم كما ترغبون، ولا تتعرضوا لنظام الحكم!! فهل يتركون الفرصة الحقيقية للناس ليربوا أنفسهم وأولادهم على الإسلام؟!

* * *

والجهد الذي ينبغي أن يبذل لتطبيق التربية الإسلامية على نطاق واسع هو جهد الدولة المسلمة في الحقيقة، التي تملك الوسائل المعينة وتملك السلطة للتطبيق. فإن المهمة الأولى للدولة المسلمة هي تحقيق الإسلام في واقع الأرض، وإقامة حياة الناس كلها على مبادئ الإسلام. من أول سياسة الحكم، إلى سياسة الاقتصاد، إلى سياسة الاجتماع، إلى سياسة الأخلاق، إلى أنماط السلوك اليومية بين الناس، إلى الشارع، إلى البيت، إلى وسائل الإعلام..

فأما حين تكون الدولة لا تقوم بذلك، أو تقوم بما هو مناقض له، فقد تعين أن تقوم بهذا جماعة من الناس تندب نفسها للدعوة إلى تحقيق الإسلام في واقع الأرض.. تنفذه في ذات نفسها أولًا ثم تدعو الناس إلى تنفيذه ... وتجاهد في سبيل ذلك، وتحتمل المشقة ولو حاربتها الجاهلية بكل وسائل الحرب، حتى يأذن الله بتغيير ما عليه الناس، حين يغيرون ما بأنفسهم من مشاعر وتصورات:

"إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"[1].

وستكون مهمتنا في جميع الأحوال: سواء قامت الدولة المسلمة -حين توجد- بتطبيق منهج التربية الإسلامية على النطاق الواسع، أو قامت به جماعة من المسلمين في ذات نفسها ثم دعت إليه الناس ... ستكون مهمتنا أن نتعرف على المنهج في كتاب الله وسنة رسوله، ثم في صورته التطبيقية المتكاملة في المجتمع الإسلامي الأول، لنستنبط من هذا كله منهجًا مفصلًا قابلًا للتطبيق في لحظتنا الحاضرة وظروفنا الحاضرة.

ونحاول في هذا الكتاب أن نبين كيف يكون التطبيق، مستمدين العون من الله.

والله ولي التوفيق..

محمد قطب

([1]) سورة الرعد [11].

كيف تربت الجماعة الأولى

الجماعة الأولى هي الجماعة التي رباها الرسول صلى الله عليه وسلم على عينه، ومنحها كل جهده ورعايته وتوجيهه، والتي اجتمعت لها عناصر التربية الإسلامية بكل تمامها، على يد أعظم مرب في التاريخ.

وإنها لهي المقصودة أولًا بقوله تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"[1].

ولقد كانت خير أمة في تاريخ البشرية كله. وحوت من ألوان العظمة في كل اتجاه ما لم يجتمع لأمة أخرى في التاريخ بهذه الوفرة وذلك التعدد وتلك الآفاق: عظمات حربية وعظمات سياسية وإدارية وعظمات نفسية وعظمات روحية.. عظمات من كل نوع، وفي فترة وجيزة من عمر الزمن كأنها لحظات!

وتلك الأمة هي التي وضعت أسس التاريخ الإسلامي المقبل كله ورسخت قواعده في الأرض، بما قدمت من مبادئ وقيم ومثل عليا مطبقة في عالم الواقع بصورة فريدة في التاريخ، صورة يلتقي فيها المثال والواقع، فلا تكاد تعرف من روعة العظمة المذهلة أيهما الواقع وأيهما المثال!

ولقد كان ذلك كله هو الثمرة الجنية للتربية الإسلامية في أعلى صورها، على يد أعظم مرب في التاريخ.

وإذا كان الواقع التاريخي الإسلامي لم يشهد تكرار ذلك النموذج الرفيع بصورته تلك إلا في نماذج فردية على مدار الأجيال، بينما كانت تلك النماذج محتشدة في الجماعة الأولى احتشادًا فذًّا جعل المؤرخين الأوائل يشيرون إلى معظمها مجرد إشارة عابرة. كأنما هي ظاهرة عامة لا تحتاج إلى إشادة ولا حديث خاص! فستظل هذه الجماعة على الرغم من ذلك هي النموذج الذي تتطلع إليه الأجيال وتحاول أن تعيده في عالم الواقع. فإن أفلحت في أي جيل أو أي قرن، فهو الخير للبشرية كلها بغير نزاع. وإلا فالمحاولة في ذاتها خير، لأنها سترفع كل إنسان إلى أقصى حدود طاقته الذاتية، فلا تظل في نفسه فضلة من خير محبوسة عن العمل أو محجوزة عن النماء.

---

(1) سورة آل عمران [110].

وهكذا تظل القدوة قائمة في جماعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن لم يتكرر مثالها على مدى التاريخ.

* * *

ونحن مطالبون بدراسة وافية لتلك الجماعة الأولى تفسر لنا أسرار عظمتها، وبلوغها ما بلغت إليه من قمم شامخة في كل مجال خاضته. فهي –قبل كل شيء– جماعة من البشر. بل جماعة من البشر من أمة كانوا غارقين في الجاهلية إلى آذانهم، وقاوموا دعوة الخير مقاومة عنيدة لأنهم قوم لدّ الخصومة كما وصفهم القرآن:

"فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا"[1].

"مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ"[2].

فكيف استطاعت جماعة بهذا الوصف أن تصل إلى تلك الآفاق؟! وما العناصر التي تكونت منها تلك العظمة الفائقة؟ وهل هي عناصر "طبيعية" بشرية، أم إن فيها عنصرًا خارقًا غير قابل للتكرار؟!

وماذا نملك نحن –ونحن جماعة من البشر كذلك– ماذا نملك من العناصر التي كونت هذه الأمة، وماذا نفتقد، لنعلم المدى المتوقع لنا في النجاح أو الفشل في بلوغ الغاية التي نريد؟

تلك الدراسة الوافية ضرورية لنا ضرورة كاملة ونحن نحاول تجميع عناصر التربية الإسلامية، فتلك الجماعة هي التي طبّقت أو طُبِّقت فيها التربية الإسلامية بتمامها كله، فلن نجد إذن خيرًا منها لتجميع العناصر المطلوبة، ولن نجد خيرًا منها صورة تطبيقية لهذه العناصر. وذلك أمر له أهمية مضاعفة، فليس يكفي –في أمور التربية– أن نعرف العنصر ذاته في صورته النظرية المجردة، إنما يفيدنا كثيرًا أن نراه مطبقًا بالفعل، ويفيدنا أكثر أن نراه مطبقًا في أعلى صوره، لأن ذلك يعطينا فكرة عملية عن المدى الذي يمكن أن يبلغ إليه كل عنصر من هذه العناصر، لنقيس جهدنا إليه في كل مرة، ونحاول المزيد!

---

(1) سورة مريم [97].

(2) سورة الزخرف [58].

إنك حين تشرح لدارس النبات أو الحيوان طريقة استنباته أو تربيته، تشفع ذلك بعرض نماذج واقعية من ذلك النبات أو الحيوان، وتختار -من بين ما تختار، أو في مقدمة ما تختار- النماذج الفائقة، لتعطي الدارس فكرة عن المدى الذي يمكن أن يصل إليه، والذي ينبغي عليه أن يحاوله، ثم تشرح له في الوقت ذاته عناصر التفوق في ذلك النموذج ليحاول استيفاءها في تجاربه الخاصة.

وفي عالم الإنسان كذلك..

ينبغي أن نستعرض النماذج الفائقة ونبحث سر تفوقها، لنعلم المدى الممكن، ونحاول الوصول.

* * *

وعناصر التربية في الجماعة الأولى هي كتاب الله وسنة رسوله.. مضافًا إليها شخص الرسول صلى الله عليه وسلم حاضرًا بنفسه في ذلك المجتمع، وقائمًا بتعهد هذه الجماعة بذاته الكريمة.

فأما كتاب الله وسنة رسوله فهما حاضران أبدًا. باقيان أبدًا إلى قيام الساعة، تكفل الله بحفظهما، ليحفظ بهما هذا الدين:

"إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[1].

وكذلك حفظت لنا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم مدونة ومفصلة أدق تفصيل، وقام علماء المسلمين بتمحيص الدخيل عليها فنبذوه، وبينوا بجهدهم العلمي الفذ درجات الحديث من الصحة إلى الوضع، وما يؤخذ به وما لا يؤخذ به في كل مجال من الفقه والتشريع إلى مكارم الأخلاق.

وأما وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه فهو العنصر الذي لم يتكرر في أي جيل آخر. ولكن لدينا سيرة مفصلة لحياته صلى الله عليه وسلم تجعل كأنه حيّ بين ظهرانينا، بل إنه -لفرط عظمته صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يكون مجرد "شخصية تاريخية" عاشت دورها التاريخي ثم أصبحت مجرد ذكرى أو مجرد تاريخ. وإنما هو -بحيويته

---

(1) سورة الحجر [9].

الفائقة- يعايش كل جيل من أجيال البشرية معايشة كاملة بقدر ما يتجه ذلك الجيل إلى شخصه الكريم صلى الله عليه وسلم ويستوحي سيرته الحية الزاخرة.

ولئن كان وجوده صلى الله عليه وسلم بشخصه، وتعهده الجماعة الأولى بذاته الكريمة، وهو المربي الذي لم يتكرر في التاريخ. لئن كان ذلك عنصرًا فذًّا أثر في التكوين الفريد لهذه الجماعة، وجعلها لم تتكرر بصورتها الفائقة مرة ثانية، فإن وجوده صلى الله عليه وسلم بشخصه ليس شرطًا لقيام المجتمع المسلم في صورته العادية، ولا تطبيق التربية الإسلامية على مستواها العادي، وإلا فلو كان ذلك شرطًا لما فرض الله على المسلمين إقامة المجتمع المسلم ولا تطبيق التربية الإسلامية، وهو يعلم -سبحانه- أن الرسول صلى الله عليه وسلم لن يخلد في الأرض! ثم إن مجتمع التابعين -وهو جزء من الفترة الفائقة في تاريخ الإسلام- لم يشهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما سمع سيرته كما نقرؤها أو نسمعها نحن اليوم، ومع ذلك كان له تفوقه الملحوظ، وكان يمارس التربية الإسلامية على مستواها الرفيع.

عنصر آخر ربما كان من عناصر التفوق الرائع لذلك المجتمع الأول، لم يتكرر في بقية التاريخ.. ذلك هو عنصر "الجدة" فكل حركة جديدة تكون في تكونها وتحركها أنشط وأبلغ من الأجيال التي تخلفها. لأن المولد الجديد يعطيها حيوية غير عادية، ولأنها تمارس البناء خطوة خطوة ودرجة درجة، سواء البناء النفسي الداخلي أو البناء الاجتماعي الخارجي، وتبذل الجهد في كل خطوة وتتحمل المشقة، فتكون حريصة على سلامة البناء، حريصة على صيانته من كل خدش أو تشويه. أما الأجيال التي تجيء بعد ذلك -التي لا تمارس البناء بنفسها، إنما تجده قائمًا بالفعل- فهي أقل حرصًا على سلامته، وأقرب إلى التهاون فيه، حتى يأتي -على طول المدى- ذلك الخَلْف الذي يصفه القرآن:

"فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ؟!"[1].

ولكن هذا العنصر بالذات هو اليوم في صالحنا، كما لم يكن قط من قبل!

لقد دار الزمن دورته وعاد الإسلام غريبًا كما بدأ، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(1) سورة الأعراف [169].

"بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء"[1].

هذه الغربة تجعل محاولة العودة كأنها جولة جديدة.. جديدة كالجولة الأولى أو أقرب شيء إليها. وسيتوفر لها عنصر الجدة كما لم يتوفر من قبل، فيكون حافزًا لها على بلوغ القمة كما لم يحدث من قبل.

وإذن فبين أيدينا اليوم من عناصر التربية الإسلامية –الدائمة والعارضة– ما يجعلنا نتوقع ميلادًا جديدًا لمجتمع إسلامي فائق التكوين.

* * *

وحين ندرس حياة تلك الجماعة المسلمة الأولى فينبغي أن نبدأ دراستنا من الجاهلية، لنعرف مدى التغير الذي حدث بتأثير التربية الإسلامية، ونقدره حق قدره كما أشار عمر رضي الله عنه حين قال: "لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية" لنعرف أهو مجرد تعديل لحياة الجاهلية في بعض جوانبها، أم نشأة جديدة ومولد جديد.

وكتب التاريخ المتداولة بين أيدينا قد لا تعطينا صورة حقيقية للجاهلية، إما جهلًا بحقيقة الجاهلية وإما تحريفًا مقصودًا لغاية في نفوس واضعيها[2]. فهي غالبًا ما تعطينا "صورة" الجاهلية العربية على أنها هي "جوهر" الجاهلية. فتجعل الجاهلية محصورة في: عبادة الأصنام ووأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر وغارات السلب والنهب.. إلى مثل ذلك من مظاهر الجاهلية التي قد توجد بذاتها في أي جاهلية وقد لا توجد، ومع ذلك تظل الجاهلية جاهلية بجوهرها المشترك بينها جميعًا بصرف النظر عن سماتها الخاصة التي قد تتغير من بيئة إلى بيئة ومن جيل إلى جيل.

وإذا أردنا التعرف على جوهر الجاهلية فلنرجع إلى كتاب الله، فإن اللفظة ذاتها لم تستخدم في اللغة قبل نزولها في القرآن، وإن كان أصلها موجودًا ومستخدمًا في أشعار العرب من قبل كقول الشاعر: "ونجهل مثل جهل الجاهلينا" أما صيغة "الفاعلية" (جاهلية) فقد وردت أول ما وردت في القرآن الكريم.

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) انظر –إن شئت– فصل "الجاهلية" من كتاب "كيف نكتب التاريخ الإسلامي".

وحين نتتبع المواضع التي ذكرت فيها الجاهلية ومشتقاتها ومرادفها: [الَّذِينَ "لا يَعْلَمُونَ"] فسنجد أنها جاءت في معنى من معنيين؛ يشكلان معًا حقيقة الجاهلية وهما: الجهل بحقيقة الألوهية، والجهل بما ينبغي تجاه الله سبحانه وتعالى من خالص الطاعة والعبودية، أو بعبارة أخرى مخالفة منهج الله، والحكم بغير ما أنزل الله.

فمن أمثلة الجهل بحقيقة الألوهية:

"وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ"[1].

ومن أمثلة الجهل الثاني:

"قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ"[2].

"أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"[3].

من هنا يتبين أن مظاهر الجاهلية ليست هي في ذاتها محور الثقل -وإن كان لها وزنها واعتبارها في عملية التحول من الجاهلية إلى الإسلام- وإنما محور الثقل هو جوهر الجاهلية الذي هو الشرك بشعبتيه: شرك الاعتقاد وشرك الاتِّباع: أحدهما أو كلاهما سواء:

"وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ"[4].

هو عبادة الجبت والطاغوت بتعبير القرآن، وهو كل شيء أو شخص أو عرف أو وضع أو سلطة أو شرع يستعبد الإنسان بغير إذن من الله، ويطلب من الناس الطاعة -أو يمارس الناس له الطاعة- مخالفين بطاعته أوامر الله.

---

(1) سورة الأعراف [138].

(2) سورة يوسف [33].

(3) سورة المائدة [50].

(4) سورة النحل [35].

ويهمنا على أي حال أن ندرس مظاهر الجاهلية العربية؛ لنعلم كيف فعل منهج التربية الإسلامية في إزالتها، لنعرف طريقته العامة في إزالة انحرافات الفطرة، لكي نستخدمها في إزالة انحرافات المجتمع الحالي، وإن خالفت انحرافات المجتمع العربي الجاهلي في تفصيلاتها.

نعم، يهمنا أن ندرس مظاهر الجاهلية العربية لنعرف طريقة علاجها في المنهج الرباني ... ولكن ينبغي أن نجعل في بالنا أنها مجرد مظاهر، وأن الجوهر الحقيقي للجاهلية هو عبادة الجبت والطاغوت.. هو الجهل بحقيقة الألوهية، ورفض إخلاص العبودية لله، بما يستتبعه حتمًا من اتخاذ مناهج غير منهج الله، وعدم التحاكم إلى ما أنزل الله.

كان العرب إلى جانب عبادتهم للأصنام وغيرها من المعبودات كالجن والملائكة.. إلخ، يضيفون جهالة أخرى تتمثل في عدم الإيمان باليوم الآخر. وكانوا يتعجبون ممن يدعوهم إلى الإيمان به ويعجبون به:

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ؟!"[1].

وكان من آثار ذلك في حياتهم ما لا بد أن يكون في كل جاهلية لا تؤمن باليوم الآخر: الإحساس بقصر الحياة، وأنها فرصة وحيدة إن لم يهتبلها الإنسان فقد فاتته بغير رجعه، فينكب على الملذات لا يبالي الحرام منها وغير الحرام.. أو ترخص الحياة في حسها فيستهتر بها؛ وقد يجتمعان معًا كما في بيت طرفة بن العبد:

ألا أيهـــذا الزاجـــري أحضـــر الـــوغى وأن أشـــهد اللـــذات.. هـــل أنـــت مخلـــدي؟!

وكانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي يتعايش بها سكان الجزيرة ويتحركون من خلالها، سلمًا وحربًا وتعاقدًا وتعاهدًا وبيعًا وشراء وتجارة.. ولكن هذه القبيلة كانت تضغط ضغطًا شديدًا على كيان الفرد فينسحق تحت ثقلها، وتنمحي شخصيته في شخصيتها، فيصبح كما يقول الشاعر:

وهـــل أنا إلا مـــن غزيـــة إن غـــوت غويـــت وإن ترشـــد غزيـــة أرشـــد!

(1) سورة سبأ [7-8].

وكانت أعنف عقوبة تفرضها القبيلة على الفرد هي "خلعه" منها، فيصبح "خليعًا" مشردًا لا كيان له ولا وجود!

وكان عرف الآباء والأجداد قوة ساحقة كذلك لا يستطيع أحد الفكاك منها كما وصف ذلك القرآن:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ؟"[1].

"بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ"[2].

وكان مجتمعًا -ككل مجتمع جاهلي- تحكمه القوة لا الحق. فالذي يملك القوة يحكم، ومن لا يملكها يُحكَم عليه! وثم يقع التظالم لا محالة:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم! ومن لا يظلم الناس يظلم!

فالطريقة الوحيدة لدفع الظلم هي البدء بالظلم! ومن هنا كانت الغارات الدائمة بينهم والعدوان المستمر والثأر، وكانت الحمية التي يصفها القرآن:

"إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ"[3].

وكانت الآفاق كلها قريبة كما هي دائمًا في كل جاهلية. محصورة في محيط هذه الأرض، مشغولة بالملذات الحسية، أو بما يؤثر في المكانة الاجتماعية علوًّا وسفلًا، من أموال وبنين، أو ذكر حسن أو ذكر قبيح:

"وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ!"[4].

بل لم يكونوا حتى مشغولين بما كان يشغل بعض الجاهليات الأخرى من علم وتقدم مادي، كالجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية والجاهلية الفرعونية.. إنما كان أشد ما يشغلهم

([1]) سورة البقرة [170].

([2]) سورة الزخرف [22].

([3]) سورة الفتح [26].

([4]) سورة سبأ [35].

هو قول الشعر وحفظ الأنساب، والتفاخر والتهاجي بمعارك السلب والنهب والأحساب والأنساب. إلى جانب المشغلة بالحياة اليومية القريبة التي يشغل بها الناس في كل مكان.

لقد كانت تستعبدهم في الحقيقة أرباب أربعة، أو فئات أربع من الأرباب في آن واحد: ربوبية الأصنام المعبودة والجن والملائكة وغيرها من المعبودات التي يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى, أو لتشفع لهم عند الله، وربوبية القبلية، وربوبية العرف الموروث عن الآباء والأجداد، وربوبية الهوى والشهوات.. وهذا كله مع إدعاء العبادة -نظريًّا- لله، والمعرفة النظرية بأنه خالقهم وخالق الكون والحياة!

ومن هناك انتشلهم الإسلام ... ليحررهم من عبادة الأرباب إلى عبادة رب الأرباب. ومن عبادة بعضهم بعضًا إلى عبادة الله الواحد بلا شريك. ومن عبادة الجبت والطاغوت إلى عبادة الإله الرحيم الكريم الذي يكرم عباده ولا يهين بشريتهم، وهو الذي كرمها وفضلها وجعل الإنسان خليفة ممكنًا في الأرض.

وليحررهم من الانحصار في الحياة الدنيا إلى الصورة الأكثر علوًّا وإشراقًا وامتدادًا وفسحة.. الدنيا والآخرة في عقيدة واحدة ونظام واحد.

ويحررهم من ظلم بعضهم بعضًا إلى عدالة الله الحكم العدل، بتحريرهم من شرائع البشر ومناهجهم إلى شريعة الله ومنهجه، يخضع لها الجميع في وقت واحد وبدرجة واحدة.

جاء، كما لخص ربعي بن عامر الموقف في كلمات بليغة في مواجهة رستم قائد الفرس، حين قال له رستم: ماذا جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

جاء لينشئهم من جديد ... في مولد جديد للإنسان.

* * *

كيف صنع الإسلام بهم ما صنع في تلك الفترة الوجيزة؟

إن الفارق بين حالهم في الجاهلية وحالهم في الإسلام هو ولا شك حصيلة التربية الإسلامية التي رباهم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم على منهج القرآن وبوحي تعاليمه.

ولقد كانت لهم ولا شك في الجاهلية فضائل، ولا تخلو أي جاهلية في التاريخ من بعض الفضائل، فإن النفس البشرية حتى في أسوأ أحوالها لا تتمحض للشر! ولكن الجاهلية لا تترك تلك الفضائل على حالتها الفطرية وإنما تلتوي بها فتحولها عن وجهتها. كما حولت الجاهلية العربية فضيلة الكرم إلى المفاخرة وإنفاق المال "رئاء الناس" كما جاء في القرآن. أما حين لا يكون هناك مجال للمفاخرة وتحدث الركبان فهم كما قال عنهم القرآن:

"كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ"[1].

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ"[2]!!

وكما حولت فضيلة الشجاعة والاستعداد لبذل النفس فيما هو أكبر من كيان الفرد، إلى غارات السلب والنهب والعدوان المستمر على الآخرين والحمية الجاهلية التي تندفع إلى القتال دون أن تعلم -أو تسأل- في حق هو أم في باطل!

ومن هذه العجينة المشوهة، بفضائلها ورذائلها، صاغ الإسلام أروع نماذج البشرية في التاريخ كله. صاغ الأمة التي وصفها خالقها -سبحانه- بقوله: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"..

فبأي وسيلة صنع الإسلام ذلك؟ وهل هي وسيلة متاحة في كل وقت، كلما جربت وكيفما جربت آتت ثمارها، أم إن هناك مناخًا معينًا هو الذي أثمر تلك الثمرة العجيبة، وينبغي توفيره في كل مرة لتنتج الوسيلة نتيجتها؟

لقد بدأ الإسلام بتصحيح العقيدة في الله.

والمتتبع للسور المكية يجد أن هناك موضوعًا واحدًا هو الغالب على هذه السور كلها، وهو موضوع العقيدة.

وحين نقول "العقيدة" فإننا نقصد بطبيعة الحال "العقيدة الصحيحة". وإلا فإن اعتقاد الإنسان بوجود إله مسألة فطرية لا تحتاج إلى نبي ولا رسول! واتجاه الفطرة البشرية إلى

(1) سورة الفجر [17-18].

(2) سورة يس [47].

خالقها بلون من ألوان العبادة مسألة فطرية كذلك لا تحتاج إلى نبي ولا رسول![1] إنما الذي يحتاج دائمًا إلى الأنبياء والرسل هو تصحيح العقيدة. فإن الفطرة -إذا تركت وشأنها- كثيرًا ما تضل، فتتصور الله على غير حقيقته، وتشرك معه آلهة أخرى، وتتقدم له نتيجة لذلك بعبادة مشوهة، ليست هي ما يفرضه الله. فيجيء الأنبياء والرسل ليردوا الفطرة إلى سلامتها ويعطوها الدين القيم على حقيقته الربانية:

"فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم"[2].

وكما جاء كل نبي من قبل ليقول للناس: "لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، "اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ"، فكذلك جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول نفس القولة الخالدة التي تمثل الحقيقة الأزلية: "لا إله إلا الله" ويطلب من الناس أن يعبدوه وحده دون شريك.

والسور المكية كما قلنا لا تتناول إلا موضوع هذه العقيدة بكل ما يستلزمه الحديث فيها من تفصيلات. فينبغي أن نعلم من ذلك أن هذا هو حجر الأساس في التربية الإسلامية كلها، وفي الحياة الإسلامية كلها كذلك.

وهنا ينبغي لنا أن نقف وقفة عند ظاهرة ذات دلالة:

ألم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الله؟ ويعرفون أنه الخالق؟ وأنه المدبر؟ وأن بيده ملكوت كل شيء؟ وأنه يجير ولا يجار عليه؟

بلى! لقد سجل عليهم القرآن علمهم بذلك كله:

"وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ"[3].

"وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ"[4].

---

(1) الدول الشيوعية الملحدة تبدو استثناء من هذه القاعدة العامة. ولكن هذه الدول تصادم الفطرة في كثير من شئونها ولا تتمشى معها. وهي تكبت "التدين" بالحديد والنار، فلا تتخذ دليلًا على عدم عموم الحقيقة التي أشرنا إليها.

(2) سورة الروم [30].

(3) سورة لقمان [25].

(4) سورة الزخرف [87].

"قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ، قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟"[1] .

فكيف إذن سماهم القرآن "الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ"؟ ولماذا بدأ معهم درس العقيدة من نقطة الصفر. بل بدأ بذات المعلومات التي سجل على العرب علمهم بها –ثم ألغاه من الحساب! – أنه هو سبحانه خالق السموات والأرض، وخالق الناس، وأنه المدبر، وأن بيده ملكوت كل شيء. وأنه يجير ولا يجار عليه!!

هذا أمر له دلالة ينبغي أن نتبينها ونحن بصدد الحديث عن منهج التربية الإسلامية لكي لا تفوتنا هذه الدلالة.

لا بد أن يكون "العلم" الذي يتطلبه الإسلام بالألوهية نوعًا آخر غير العلم الذي كان في الجاهلية، الذي أثبته القرآن عليهم ثم نفاه، ووصف أصحابه بأنهم "الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ" ثم حين بدأ يعلمهم حقيقة الألوهية لم يأخذ علمهم السابق رصيدًا يبني عليه, ويكمل ما كان ينقصه أو يصحح ما فيه من خطأ. بل اعتبره غير موجود البتة، لأنه بدأ بذات المعلومات في تفصيل شديد يوحي بأنه يستنبتها في قلوبهم استنباتًا جديدًا ولا ينمي ما كان موجودًا منها بالفعل من قبل.

ما الفرق إذن بين أن يعرف العرب في الجاهلية أن الله هو الخالق، الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، وبين أن يعرفوا في الإسلام أن الله هو الخالق، الذي خلقهم وخلق السموات والأرض؟!

الفارق في الحقيقة هو في "نوع المعرفة" وليس في "المعلومات!"

حقيقة إن معلوماتهم عن الله في الجاهلية كانت مشوهة وناقصة. فقد كانوا يستكثرون على قدرته –سبحانه– أن يحيي الموتى ويبعثهم من جديد، وكانت تلك من أعقد مشكلاتهم "الفكرية" في شأن هذا الدين!

---

(1) سورة المؤمنون [84-89].

"وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ"[1].

"وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا"[2].

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ"[3].

"وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"[4].

وكانوا يتصورون أن لله –سبحانه– بنات هن الملائكة.

وكانوا يتصورون أن بنات الله هؤلاء يتشفعن عنده لهم، وأن لهن كلمة عنده سبحانه مجابة!

وكانوا يتصورون أن الأصنام التي يعبدونها تقربهم إلى الله زلفى، وأنها تعلم الغيب، فيستشيرونها في الخروج والقعود، وأنها تضر وتنفع مع الله، وأنها تبارك الرزق والأولاد حين ترضى، وتمحقهما حين تغضب، ولذلك كانوا يسترضونها بالقرابين والنذور...

وكل تلك أخطاء في التصور الاعتقادي ينبغي تصحيحها في نفوسهم لتستقيم عقيدتهم في الله.

ولكن الأمر ذا الدلالة كما قلنا أنه لم يتخذ معلوماتهم "الصحيحة" التي يعرفونها عن الله رصيدًا يكمل عليه، بل بدأ معهم من نقطة الصفر، بل الأكثر دلالة أن هذه المعلومات الصحيحة ذاتها هي التي أكد عليها القرآن تأكيدًا شديدًا, بما يوحي –كما قلنا– أنه يستنبتها من جديد، من بذرة جديدة تمامًا غير البذرة الفاسدة التي كانت قد تعفنت في قلوبهم وصارت غير صالحة للاستنبات.

في دلالة ذلك على وجه التحديد؟

---

(1) سورة يس [78].

(2) سورة الإسراء [49].

(3) سورة سبأ [7].

(4) سورة هود [7].

دلالته أن المعرفة "الذهنية" ليست هي المعرفة التي يريدها أو يعترف بها الإسلام. فإنها معرفة سطحية وميتة، لا تفعل شيئًا في واقع الحياة، ولا تؤثر شيئًا في سلوك الإنسان. وإذن فوجودها كعدم وجودها سواء. بل ينبغي أن تنتزع البذرة الفاسدة كلها بما بقي فيها من أجزاء سليمة، وتستنبت البذرة السوية كلها من جديد.

يؤكد هذه الدلالة ما قرره القرآن على لسان يوسف عليه السلام بشأن مصر على عهد يوسف:

"إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ"[1].

والمعروف عن المصريين أنهم كانوا "يعرفون" الآخرة، ويؤمنون بأن هناك بعثًا وثوابًا وعقابًا في يوم هائل مروع تصفه كتبهم وكتاباتهم على جدران المعابد والآثار. ولكن القرآن اعتبر معرفتهم هذه غير موجودة، واعتبرهم كافرين بالآخرة بذلك التوكيد الذي يعبر عنه أسلوب القرآن: "وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ"، وذلك لأن معرفتهم النظرية المتوارثة عن الآخرة لم يكن لها وجود حقيقي في واقع حياتهم، فهم -مع هذه المعرفة النظرية- يعبدون الفرعون من دون الله. ولو كان علمهم بالآخرة حقيقيًّا وكان يعطي فاعليته الحقيقية، لعبدوا الله وحده، صاحب ذلك اليوم الآخر، ولم يشركوا معه عبادة الفرعون.

المعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة إذن شيء، والمعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتنفعل بها النفس كلها وتعطي تأثيرًا معينًا في السلوك الواقعي شيء آخر، هي ما يطلبه الإسلام بالذات، ويستنبته في قلوب الناس ليصبحوا مسلمين.

وبذلك يزول العجب من ذلك الأمر: أن القرآن سجل على العرب معرفتهم بأن الله هو الخالق المدبر، ثم ألغاها البتة، وبدأ معهم من جديد! لا عجب حين نعلم أن المعرفة الأولى ليس لها أثر واقعي في الحياة, والمعرفة الثانية -الحقيقية- هي ذات الأثر البالغ الحاسم في حياة البشرية.

* * *

كيف توصل القرآن إلى استنبات البذرة الحية الجديدة للعقيدة في نفوس المؤمنين؟

---

(1) سورة يوسف [37-38].

إن للقرآن طريقته الخاصة في لمس القلوب واستجاشة وجدانها إلى حقيقة الألوهية.

وإن القسم الأكبر من السور المكية منصب على التعريف بحقيقة الألوهية، والقسم الأكبر من التعريف بحقيقة الألوهية منصب على عرض آيات القدرة القادرة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض، في الخلق ثم في الموت والحياة، وإحداث الأحداث وتدبير الأمر وعلم الغيب.

وتلك هي منافذ العقيدة الفطرية التي أودعها الله في الفطرة لتتنبه إلى خالقها، وتتوجه إليه بالعبادة.

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا"[1].

ولا نعلم نحن كيف أخذ الله على البشر ميثاق الفطرة ولا متى تم ذلك. ولكنا نعلم أن في الفطرة هذه المنافذ، تلجئها إلجاء للبحث عن الخالق والتوجه إليه. فالكون بضخامته الهائلة، وبدقته المعجزة التي لا يختل فيها شيء قيد شعرة, وظاهرة الموت والحياة, وظاهرة حدوث الأحداث وتواليها, ورغبة الإنسان في معرفة الغيب وعجزه عنها, ورغبته في السيطرة على كل شيء وعجزه عنها؟ كل أولئك يوقظ الفطرة إلى وجود الخالق الذي خلق الكون بضخامته وبدقته، والذي يحيي ويميت، والذي يحدث الأحداث ويدبر الأمر، والذي يعلم الغيب، والذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض..

ولكن حس الإنسان يتبلد بالإلف والعادة، فيفقد التأثر بالشحنة الحية المؤثرة التي تهز المشاعر وتحول السلوك. فيجيء القرآن -بطريقته الخاصة- فينفض الركام عن الفطرة، ويزيل التبلد الذي يحدثه الألف والعادة، كأنما يكشف أعصاب الحس لتتلقى الشحنة كاملة كما تلقتها أول مرة، فيهتز الوجدان وتنفعل النفس. ويحدث الأثر المطلوب![2] وتلك خاصية القرآن!

والقرآن هو أداة التربية الإسلامية الأولى حين يتلقاه الإنسان بقلب متفتح، فيتلقى منه الشحنة المقدسة التي أودعها الله فيه:

([1]) سورة الأعراف [172].

([2]) انظر فصل "الإيمان بالله" في كتاب "دراسات قرآنية".

"كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"[1].

"أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"[2].

ومن أجل هذا –وغيره– يوجب الإسلام على المسلمين قراءة القرآن وتدبر آياته، فهو معين التربية الأول، ومعين الحياة..

* * *

هذه المعرفة الحية بالله، بصفاته التي يعرفه بها القرآن، أنه الخالق البارئ المصور، الرزاق الضار النافع المحيي المميت، صاحب اليوم الأول واليوم الآخر.. هذه المعرفة هي اللبنة الرئيسية في التربية الإسلامية، لا شيء قبلها، وكل شيء بعدها يجيء.

ومما له دلالة بارزة في منهج التربية الإسلامية أن درس العقيدة لم ينقطع بانتهاء الفترة المكية، بل استمر حتى بعد تكون الدولة المسلمة في المدينة، وبعد رسوخ الإيمان في قلوب المؤمنين، إلى حد القتال في سبيل العقيدة، والاستشهاد في سبيل الله!

كل الفرق أنه بعد أن كان الدرس الوحيد في السور المكية صارت معه دروس أخرى في المدينة، من تشريعات وتوجيهات وتنظيمات وتوعية سياسية وإعدادات لمعركة لا إله إلا الله؛ وأنه بعد أن كان الدرس يلقن هناك على سبيل التأسيس، صار يلقن هنا على سبيل التذكير، بعد أن ترسخت قواعده هناك.

ولكن استمرار تلقين الدرس للمؤمنين بعد أن آمنوا هو الأمر ذو الدلالة الهامة، لأن معناه أن هذا درس لا ينتهي أبدًا مهما كانت حالة المؤمن من الإيمان.. فلا بد من التذكير الدائم حتى للمؤمنين.. والله هو خالق هذه الفطرة والعليم بمساربها ومسالكها، وما هي في حاجة إليه لتقويمها وإصلاح ما ينحرف منها، فإذا ظل يذكر المؤمنين بالعقيدة وهم مؤمنون فلأنه يعلم ثقلة الأرض وجاذبيتها، وحاجة الناس إلى الجهد الدائب والتذكير الدائم لموازنة ثقلتها. ولأنه يعلم أن الشياطين إنما تتلقف الغافلين!

تلك المعرفة الحية من شأنها أن تربط القلب البشري بالله..

---

(1) سورة ص [29].

(2) سورة محمد [24].

فأين يذهب القلب البشري بعيدًا عن الله، وهو معه أينما كان، في صحوه ونومه، في يقظته وغفلته، في إقباله وإدباره، لا يغيب منه شيء عن علم الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؟

أين يذهب من علمه الشامل ومن حسابه الشامل كذلك، وهو يحاسب على الصغيرة والكبيرة ويجزي بها في يوم القيامة:

"فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"[1].

ذلك هو وجدان التقوى الذي يعمر قلوب المؤمنين.

ولكن القلب المؤمن وإن كان يخشى الله فهو يحبه في ذات الوقت: "وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ"[2]. فالله هو الرؤوف الرحيم. وهو الرب الودود الغفور. وهو الذي يرعى البشر ويهديهم إليه، ويرزقهم من الطيبات ويمنحهم من النعم ما لا يستطيعون أن يحصوه.

ومن خيطي الخشية والرجاء يتعلق القلب البشري المؤمن تعلقًا دائمًا بالله.. فيكون ذلك هو المعين الأول للتربية الإسلامية، وذلك هو الأثر المباشر لمصاحبة القرآن, وتدبر القرآن[3].

* * *

فلنحاول أن نلقي نظرة في داخل قلب من تلك القلوب التي آمنت بالله، لنتعرف على مسار الإيمان في ذلك القلب، ونتعرف على آثار التربية الإسلامية فيه.

كيف صنعت العقيدة الصحيحة في ذلك القلب، وكيف أثرت في سلوكه العملي؟

لقد كان، قبل لحظات من إيمانه، فردًا من أفراد هذا المجتمع الجاهلي، يفكر بتفكيره، ويشعر بمشاعره، ويتصرف بمفاهيمه وعاداته وسلوكه, ويعطي نفسه مكانه فيه في القمة أو الحضيض بحسب دستوره وشريعته السائدة، وعلى مقتضى القواعد والقيم التي يضعها ذلك الدستور، فإن كان ذا مال وبنين وحسب ونسب فهو في مركز من مراكز القيادة، وإن كان صفر اليدين فهو مجرد واحد من القطيع. اهتماماته هي اهتمامات هذا المجتمع الجاهلي:

---

(1) سورة الزلزلة (7-8).

(2) سورة الإسراء [7].

(3) انظر إن شئت فصل "تربية الروح" في الجزء الأول من كتاب "منهج التربية الإسلامية".

القبيلة ومفاخرها، و"أيامها" ذات الذكر، وهل باتت مغلوبة أم غالبة، وتجارته إن كان صاحب تجارة أو السعي على قوته إن كان من الفقراء المستضعفين في الأرض. وسهرة الليلة الماضية وسهرة الليلة إن كان من أصحاب السهرات.. أو هموم الليلة الماضية وهموم الليلة إن كان من أصحاب الهموم ... وهذه وتلك كلها في محيط الأرض ومحيط الحس القريب. والأرباب المختلفة ذات مطالب دائمة تشغل الحس وتؤرق النفس، أو في القليل تحفزها لأدائها: ربوبية الأصنام المعبودة، وربوبية القبيلة، وربوبية العرف الموروث من الآباء والأجداد، وربوبية الشهوات. كلها تتنازع نفسه وحسه، وتخضعه لها واعيًا أو غير واع.

ثم.. آمن.

أي انقلاب هائل حدث في نفسه لحظة إيمانه؟!

إنه -في الحق- أعظم انقلاب يمكن أن يحدث في القلب البشري.. بل في الكون كله!

إنه -لتوه- قد أزاح عن قلبه ربوبية كل الأرباب ... حين عرف رب الأرباب.

في لحظة انجابت الغاشية، ورأى الأمر على حقيقته.. إنه لا وجود البتة لكل تلك الأرباب التي كانت تستعبده من قبل وتخضعه لسلطانها! إنها وهم هائل كان يعشش في نفسه وفي خياله، ويفعل فعله الكامل كأنه ذو وجود حقيقي، بينما هو في الحقيقة غير موجود!

وإله واحد هو الإله الحق، وهو صاحب هذا الكون كله، وصاحب الوجود الحقيقي بين كل هذه الأرباب المدعاة.

وفي لحظة.. لحظة الإيمان.. تنجاب من "خانة" العبادة في النفس كل تلك الآلهة المزيفة ويلقى بها في العدم، وتملأ الخانة في التو عبادة واحدة مشرقة مضيئة.. عبادة الله.

وتتغير محاور الثقل في داخل النفس.. الثقل الأكبر أصبح الآن للعقيدة الصحيحة.. لله. وبقية الأشياء تراجعت أو فقدت ميزانها البتة، ولم تعد هي المسيطرة على الوجدان.

وتغيرت الصورة.

لقد كانت صورة الوجود في حسه مبهمة غامضة غير ذات دلالة:

"نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"[1].

وهذه الأرباب المتعددة، كل منها يحكم جانبًا من هذا الكون حسب اختصاصه! ويحكم بالتالي جانبًا من القلب البشري!

والأمر فوضى أو قريب من الفوضى في الحس وفي الكون. لا رابط ولا ضابط. يستطيع الإنسان أن ينفلت كما يشاء.. إلا من سلطان الأرباب المتسلطة: الأصنام والقبيلة وعرف الآباء والأجداد! وكل شيء يعمل، أو كل شيء ينقضي فقد انقضى بلا رجعة. أو إن كان هناك عقاب من الله وثواب، فهو في هذه الدنيا. ومن ثم فإن كان ذا مال وبنين فقد أكرمه الله –لطيبته!– وإن كان قد قدر عليه رزقه فقد أهانه الله:

"فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ!"[2].

تلك كانت الصورة.. ثم تغيرت الصورة..

إن الكون –كون الله– محكم التدبير لا يتم فيه شيء على الإطلاق إلا بقدر من الله، وتدبير ومشيئة. كل شيء محسوب بدقة معجزة. الليل والنهار. والشمس والقمر، والموت والحياة. والمال والبنون. والرزق المبسوط والرزق المقدور. لا شيء يحدث من تلقاء نفسه، ولا شيء يحدث فوضى بلا تدبير. ولا شيء يمضي بغير رجعة.. فكل شيء أحصاه الله في كتابه، ويخرج الكتاب يوم القيامة للناس فيحاسبهم بمقتضى ما سجل فيه من أعمال ومشاعر وأفكار، وهو المطلع على الأعمال والمشاعر والأفكار:

"يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى"![3].

وأي شيء أخفى من السر؟! إلا خطرات القلب التي يكتمها صاحبها في قلبه، أو التي لا يدرك هو وجودها ومع ذلك يعلمها الله!

* * *

---

(1) سورة الجاثية [24].

(2) سورة الفجر [15-16].

(3) سورة طه [7].

وحين تتغير الصورة فلا بد أن يتغير السلوك..

لقد كانت آلهة قائمة في حسه، يؤمن بوجودها فيتوجه إليها بلون من ألوان العبادة في صورة شعائر تعبدية أو صورة اتباع. واليوم انجابت عن حسه تلك الآلهة المزعومة ولم يعد في قلبه إلا الله. فلا توجه إذن لتلك الآلهة، والتوجه كله إلى الله، ولا شعائر تعبدية ولا اتباع. لقد خلا حسه تمامًا من أي شريك لله، في خلق أو رزق أو إحياء أو إماتة أو ضر أو نفع أو تدبير للأمر.. ومن ثم فرغت من حسه كذلك كل التوجهات التي كان يتوجه بها إلى الشركاء. وحل محلها توجه واحد هائل شامل إلى الله، الذي يحبه ويخشاه.

ثم.. لقد أحس بحب هائل عميق لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي هداه إلى هذا الحق، والذي يأتيه بوحي السماء.

وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لشخصية محببة في ذاتها، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورة لبشر في تاريخ الأرض. والعظمة دائمًا تحب, وتحاط من الناس بالإعجاب, ويلتف حولها المعجبون يلتصقون بها التصاقًا بدافع الإعجاب والحب. ولكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يضيف إلى عظمته المحببة تلك، أنه رسول الله، متلقي الوحي من الله، ومبلغه إلى الناس. وذلك بُعْد آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه. فهو لا يحبه لذاته فقط كما يُحَب العظماء من الناس، ولكن أيضًا لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عند الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلهي المبجل المكرم؛ ومن ثم يلتقي في شخص الرسول -صلى الله عليه وسلم- البشر العظيم والرسول العظيم، ويلتقي في حس المؤمن حب البشر العظيم والرسول العظيم, ثم يصبحان شيئًا واحدًا في النهاية، غير متميز البداية ولا النهاية. حب عميق شامل للرسول البشر أو للبشر الرسول. ويرتبط حب الله بحب رسوله ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك..

هذا الحب الذي يحرك حياته كلها هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق منه.

كل شيء في التربية بعده سهل، مهما كان صعبًا في ذاته. فأما إن لم يوجد، فستكون أي تربية إلا أن تكون هي التربية الإسلامية!

يقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[1].

ويقول: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"[2].

* * *

ثم لقد أحس ذلك المؤمن من لحظته أن هذا المجتمع الجاهلي ليس مجتمعه! ليس هناك ما يربطه به. ولا وجهته هي وجهته، ولا أفكاره ومشاعره هي أفكاره ومشاعره، ولا قاعدة حياته هي قاعدة حياته.

إنه لم يعد من هذا المجتمع على وجه التأكيد.

لقد كان إلى ما قبل لحظة إيمانه جزءًا منه، مترابطًا ومتفاهمًا معه، يتكلمان لغة فكرية وشعورية وعقيدية وسلوكية واحدة. أما منذ تلك اللحظة فقد انقطع الخيط بينهما، ولم يعد بينهما لغة مشتركة تتفاهم بها المشاعر والقلوب.

لقد أنكر مجتمعه كما أنكر ذاته نفسها حين كانت قطعة من هذا المجتمع. لقد ولى وجهة جديدة، وأصبح له طريق جديد.. فما يلتقيان.

وهل كان له طريق من قبل؟

نعم. إذا اعتبرنا مجموعة الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك اليومي "طريقًا" من أي نوع.. ولكنه الآن وقد وجد الطريق الحق لا يحس أنما كان له طريق! يحس أنه كان هائمًا على وجهه بغير وجهة. يحس أنه كان ضائعًا بغير غاية. يحس أنه لم يكن له وجود حقيقي إنما كان هو ذاته مجموعة من الأوهام لا يربطها كيان.

---

(1) أخرجه البخاري.

(2) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

وكما يدرك من صورة نفسه قبل أن يجد الطريق الحق، الواضح المعالم، المستقيم الخطى، المحدد الغاية، فإنه هكذا ينظر الآن إلى هذا المجتمع الذي كان من قبل قطعة منه. يراه هائمًا على وجهه بغير وجهة. ضائعًا بغير غاية. ليس له وجود حقيقي إنما هو مجموعة من الأوهام.

ويحس لتوه بالافتراق عن هذا المجتمع.. كل منهما يمشي في طريق. أو أنه هو يسير في طريقه المحدد، والمجتمع يهيم في غير طريق..

وتتقطع الأواصر بينه وبين هذا المجتمع ولو كانت أواصر القربى!

ما الذي يربطه اليوم بهؤلاء القوم، وهم على عمايتهم وجهلهم بالحقيقة الكبرى التي أنعم الله عليه بمعرفتها: حقيقة الألوهية؟ إنه يحس هذه الحقيقة ملء كيانه كله، ثم يرى القوم خواء منها، تعشش في وجدانهم في مكانها خرافات ما أنزل الله بها من سلطان. لقد كان مثلهم تملأ وجدانه الخرافة؛ ولكنه اليوم وقد تفتحت بصيرته ينظر بعين جديدة صادقة النظرة نافذة إلى الحقيقة، فيستنكر تلك الخرافة ويستبشعها ويستعيذ منها. ويحمد الله على أن نجاه منها وهداه إلى سواء السبيل..

ويتجه قلبه لتوه إلى كيان آخر، يلتصق به ويحس أنه أصبح قطعة منه، ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه، التي أدركت تلك الحقيقة الكبرى، فالتقت قلوبها ومشاعرها عليها..

نعم.. هنا متجهه وهاهنا ارتباطه..

هذا هو الجو الذي يستطيع أن يتنفس فيه فلا يحس الاختناق، ويجد اللغة المشتركة يتحدث بها إلى الآخرين..

ولكن.. ههنا عجيبة أخرى لم تكن من قبل!

هذا مجتمع جديد أصبح قطعة منه. نعم. ولكن ما بال هذه المشاعر الجديدة التي لم يكن يجد مذاقها من قبل، وما بال هذه الأواصر التي لا يعرف لها مثيلًا فيما مضى من حياته؟!

مجتمع من نوع جديد؟؟

ألم يكن يعيش في مجتمع من قبل؟ وكان بينه وبينه تفاهم ومودة والتقاء في الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك؟

بلى! ولكن على أي شيء كان يجتمع الناس في مجتمع الجاهلية، وفيم يجتمع اليوم مع إخوته في الله ورسوله؟

ألا إنها إذن هي الأخوة هنا.. حيث لم تكن هناك.

لقد كان يجتمع مع لدات له من قبل في المجتمع الجاهلي. ففيم كانوا يجتمعون؟ يسمرون مثلًا.. في لحظات الصفاء؟.. نعم! ولكن كل منهم مشغول بذاته. مشغول بإبرازها خشية أن يبرز أحد ذاته أكثر منه، فيتميز في المجلس بشيء!

أو.. ينسون أنفسهم في مجلس لهو وشراب فارغ الحديث!

أو يلتقون أو يتصارعون على مصالح التجارة..!

أو يلتقون في حلف قبيلة وقبيلة ضد غيرها من القبائل، فيدبرون معًا خطة العدوان..!

أو يروون الشعر أو يتفاخرون بالأنساب..!

تلك دنيا لقائهم.. وتلك مشاعر اللقاء..

أما اليوم فشيء آخر لم يذق طعمه من قبل أبدًا.. إنها الأخوة.. إنه الحب.. إنه الترابط والالتصاق!

يالله! كيف لم يدرك من قبل وهو في جاهليته أن تلك المشاعر التي يتبادلها مع أقرانه ولداته ليست صافية حقًّا، وإنما يشوبها الهوى، وتشوبها المصلحة، ويشوبها حب كل منهم لذاته وحرصه على إبرازها؟

لقد كان يمارس تلك المشاعر من قبل فلا يحس بكدرها، ويظنها -هكذا- صافية رائقة رائعة. ويتحدث بهذا في شعره على أنها مثل عليا في مكارم الأخلاق! واليوم، وقد رأى الصفاء الحقيقي وأحسه، ومارس مشاعر الأخوة مع إخوته في الله ورسوله.. اليوم فقط يدرك حقيقة مشاعر الأمس، ويدرك أن أعلاها وأروعها لم يكن صافيا في الحقيقة إنما كان مشوبًا بالأكدار!

هنا مشاعر من لون جديد في هذا المجتمع الجديد..

لا مصالح هنا ولا تجارة ولا لهو ولا سمر يجنح فيه كل واحد إلى إبراز الذات.

هنا حب..

كل منهم يحب الله ورسوله، ثم يلتقي بأخ له يحب الله ورسوله، فتتعانق -لتوها- أرواحهم، وتلتقي -لتوها- قلوبهم، كل منها يأخذ من معين واحد، فتلتقي كلها على المعين، وعلى الأخذ من المعين!

نعم. إنه لقاء مزدوج ولذلك هو عميق..

إنهم التقوا أولًا لأن كلًّا منهم جاء إلى الله ورسوله يتلقى منه، ويهتدي بهديه، ويتوجه إليه. فالتقوا على المعين.

ثم إن أخذهم كلهم من معين واحد، في وقت واحد، بطريقة واحدة، أوجد رابطة جديدة بينهم عمقت في نفوسهم ذلك اللقاء، وذلك الالتقاء.. فصاروا كأنهم روح واحد في أجسام متعددة، أو قلب واحد ينبض في أكثر من كيان..

وتمت بالتقائهم على هذا النحو خطوة جديدة من خطى التربية الإسلامية!

كانت الخطوة الأولى هي **حب الله ورسوله**. والخطوة الثانية هي **الالتقاء على حب الله ورسوله**.

ما الجديد في هذه الخطوة؟ وما أثرها في "التربية" التي هي موضوع حديثنا هنا؟ وما الفرق بينها وبين الخطوة الأولى؟

* * *

إن المخلوق البشري كما خلقه الله كائن ذو شعبتين في آن واحد، ملتقيتين بلا انفصال ولا تعارض في هذا الكيان..

شعبة فردية ذاتية، وشعبة جماعية "غيرية".. كلتاهما جزء منه، وهو يتكون منهما جميعًا، ولا بد أن تعملا معًا ليتكامل كيانه.

من أجل ذلك لا يمكن أن يتربى الإنسان تربية حقيقية متكاملة إلا في جماعة.

وعلى أهمية التربية الفردية إلى أقصى مدى الأهمية، فإنها وحدها لا تنشئ كيانًا سويًّا للإنسان، لأن هناك جوانب من النفس البشرية لا تنضج ولا تعمل إلا في داخل جماعة فيها أفراد آخرون غير ذات الإنسان. فإذا لم يلتق الإنسان بالجماعة، أو لم يتعود التعامل معها، فستظل هذه الجوانب كامنة معطلة غير مدربة على العمل، فتنكمش وتتضاءل، كما ينكمش ويتضاءل كل عضو لا يستخدم في جسم الإنسان.

كيف تتعامل مع الآخرين؟ هل تبدأ نحوهم بمشاعر الحب؟ هل تبدأ بمشاعر الكراهية؟ هل تبدأ بمشاعر محايدة لا حب فيها ولا بغض؟ هل تبدأ بشعور من عدم المبالاة، يستوي عندك أن تعرفهم أو لا تعرفهم، أن يكونوا سيئين أو يكونوا طيبين؟

تلك أنواع أربعة متباينة من المشاعر في بدء التعامل، وهي كلها بدائل على خط واحد من خطوط الاتصال. وهناك بدائل أخرى على خطوط أخرى: هل تعاملهم باستعلاء؟ هل تعاملهم بتواضع لإحساسك بأنك أقل منهم؟ هل تعاملهم على أنهم أنداد لك؟ هل تعاملهم بتواضع وأنت على ثقة من نفسك؟ تلك أربعة بدائل أخرى على خط الإحساس بالذات.

هل تعاملهم وفي حسك أن تسيطر عليهم وتتزعمهم وتخضعهم لك؟ هل تعاملهم وفي حسك أن تخضع لهم وتذوب فيهم؟ هل تعاملهم وفي حسك أنه لا سلطان لك عليهم ولا سلطان لهم عليك؟ تلك ثلاثة بدائل أخرى على خط الإحساس بالسلطان [وهو غير الإحساس بالذات, وإن كان مشتركًا معه في بعض مظاهره. ولكن لتوضيح الفارق بينهما نقول: إنك قد تعامل الناس باستعلاء وليس في نيتك أن تسيطر عليهم، لأنك تحس إحساسًا مضخمًا بذاتك دون أن تكون لديك نزعة السلطان. ومن هذا النوع أشخاص ممن يسمون أنفسهم أدباء وفنانين ومفكرين! يستعلون على الناس ولكنهم لا ينزعون إلى السيطرة عليهم، بل قد يعتزلون الناس عزلة كاملة!]

ثم، هل تتعامل معهم بجفوة دائمة؟ أم تتعامل معهم برقة دائمة؟ أم تتعامل معهم حسبما يقتضيه موقفهم؟ تلك بدائل ثلاثة على خط "المزاج" النفسي للإنسان.

ثم، هل تنزع إلى التعاون معهم إذا حدث ما يستدعي التعاون؟ أم تنكمش عن التعاون ضنًّا بجهدك عليهم؟ هذان بديلان على خط الأنانية والغيرية.

وهل تسارع إلى تقديم المعونة أم تتثاقل في تقديمها؟ هذان بديلان على خط المزاج النفسي ولكن من جانب آخر غير جانب الجفوة والرقة..

وهكذا.. وهكذا.. عشرات من البدائل على عشرات من الخطوط في ألوان مختلفة من التعامل مع الآخرين.

متى تنضج هذه "العمليات" النفسية وكيف تنضج إن لم تكن في داخل الجماعة؟!

و"الجماعة" من الوجهة الشرعية واجب لا يتم الإيمان إلا به..

ولكننا هنا نتحدث في مجال متخصص هو مجال التربية. فنقول إنها واجب لأنه لا يمكن أن يتم البناء النفسي والأخلاقي الصحيح للإنسان إلا في داخل الجماعة، حيث يبرز الجانب الجماعي من الإنسان بصورة تلقائية بحكم ضرورة "التعامل" مع الآخرين، وحيث يمكن للمربي أن يلاحظ أسلوب التعامل، فيقوم ما قد يكون فيه من انحراف، أو يثبت ما يجده فيه من استقامة لكي يتأكد وجوده ولا يكون عرضة للانحراف عندما تضغط الظروف على المشاعر والوجدان.

وقد يبدو الإنسان لطيف المعشر حلو الشمائل حين تلتقي به لأول وهلة لقاء محدود التعامل، أو لقاء في فسحة لا تحتك فيه المصالح ولا تحتاج فيه "الذات" إلى البروز. ثم تفاجأ به ذا جفوة وغلظة، أو ذا أنانية حادة، أو ذا نزعة إلى التسلط، أو كسولًا لا يتعاون مع الآخرين، حين تجمعك به ظروف تضطر الإنسان أن يكشف عن حقيقة ذاته.. وخاصة ظروف الضيق والشدة. وهي أشد ما يبرز حقيقة الإنسان.

ومن هنا لا يستطيع المربي أن يعرف طبيعة الشخص الذي يربيه حتى يوجده في جماعة، ويرقب طريقة تصرفه إزاءها. ثم يقوّم ما يحتاج في نفسه إلى تقويم..

ونعود الآن إلى الجماعة المؤمنة، الملتقية في الله ورسوله، بعد أن أدركنا كيف أن التقاء هذه الجماعة على حب الله ورسوله كان خطوة تالية من خطى التربية الإسلامية، بعد خطوة الحب ذاته لله والرسول. الأول تكون الفرد بكيانه الفردي، والثانية تكونه بكيانه الجماعي، فيتكامل من هذه وتلك.

* * *

لقد أحس ذلك المؤمن برباط من نوع جديد يربطه بهؤلاء الإخوة في الله ورسوله.

إن كل واحد منهم يحب أخاه كنفسه. ولا هو من قبيلته، ولا بينهما آصرة الدم.

بل إن آصرة الدم -حين كانت في الجاهلية- لم تكن تنشئ في نفسه ذلك الحب الصافي العجيب الذي يحسه الآن لأخيه في العقيدة الذي لا تربطه به آصرة الدم.. وكم من صراع ومنافسة وتحاسد وتباغض كان يكون قاعدة المشاعر بين من تربطهم أواصر الدماء، وإن تظاهروا بالمحبة رئاء الناس! أما هنا فلا تحاسد ولا تباغض. ولكن مودة ومحبة وإيثار..

حقًّا إنها أقوى من روابط الدماء!

ثم إن لقاءاتهم السرية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تزيدهم ترابطًا وألفة ومحبة.

إن اللقاء في الفسحة قد ينشئ مشاعر طيبة في نفوس الناس.. ولكن المحك الحقيقي هو اللقاء في الضيق! فإن تمت المودة في اللقاء على الضيق فهي المودة الأصيلة الباقية الثابتة لأنها الخلاصة الصافية من مشاعر النفوس..

وذلك هو الذي كان.. والذي أحسه ذلك المؤمن وهو يلتقي بإخوته في دار الأرقم، مستترين فيه من بطش قريش!

ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام؟!

لماذا أحس ذلك المؤمن بتلك المشاعر الصافية التي لم يكن يحسها من قبل، ولماذا لا تتذوق الجاهلية طعم هذه المشاعر ولا تتوصل إليها؟ لماذا لا توجد تلك المشاعر إلا على العقيدة؟!

إن الأمر ليس سرًّا غامضًا ولا سحرًا، وإن كان أقرب في نظر الناس إلى السحر!

في الجاهلية يتلاقى الناس وقد أبرز كل منهم ذاته بادئ ذي بدء بحثًا عن مصلحته. فلا تتلاحم المشاعر ولا القلوب. لأن هذه البروزات يحتك بعضها بعض، في العلانية أو تحت السطح، فتمنع التلاحم الحقيقي، ولو التصق بعضها ببعض -على المصلحة- فترة من الزمان.

وفي الإسلام يلتقي الناس على العقيدة في الله. يلتقون لأن كلًّا منهم يحب الله ورسوله. فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخرين. إنما يكون الجانب البارز هو الحب. والحب عنصر سريع التلاحم شديد الالتصاق..

والإنسان المؤمن ليس في حاجة إلى توكيد ذاته بالبروز الزائد عن الحد. إنه موجود بالفعل، مطمئن إلى وجوده، يجد ذاته متكاملة في هذه العقيدة، ويطمئن قلبه بذكر الله:

"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"[1].

ومن ثم يتعامل تعاملًا سويًّا مع الآخرين، ويستطيع التلاحم معهم في يسر، لأنه في حيزه الطبيعي بلا زيادة.

ولكن الإنسان الجاهلي يبحث عن وجوده الحقيقي فلا يحسه -وإن زعم لنفسه أنه موجود- ومن ثم ينتفخ أكثر من حقيقته لعله يحقق ذلك الوجود المفقود! ويلتقي الناس ببروزاتهم وانتفاخاتهم المريضة تلك.. فلا يلتحمون..

بل إن الأمر أعمق من ذلك وأعجب في شأن هذه العقيدة وما تنشئه من تلاحم في القلوب والأرواح.

إن الإنسان المؤمن لا يكتفي بأنه لا يلجأ إلى الانتفاخ الزائد لإثبات وجوده، بل إنه - من حبه لله ورسوله، وحبه لأخيه الذي التقى به في الله ورسوله- ليحب أن يؤثر أخاه على نفسه، فيأخذ أقل من حيزه الطبيعي الذي يحق له أن يشغله، فتوجد دائمًا فسحة في المشاعر، لا تمنع الاحتكاك فحسب، بل تبعده كذلك عن الحدوث!

وذلك من معجزات العقيدة، ومعجزات التربية على العقيدة:

"وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ!"[2].

* * *

ثم إن هذا الالتقاء في الله ورسوله، فوق تربيته مشاعر الحب، وهي العنصر الأسمى في كيان الإنسان، فإنه يضاعف رصيد كل واحد منهم من الخير المستقى من الإيمان.. كأنما كل واحد منهم يتلقى ذلك الخير من خلال نفوس إخوته بالإضافة إلى نفسه، فتضاعف الحصيلة لكل منهم بذات الجهد المبذول!

---

(1) سورة الرعد [28].

(2) سورة الحشر [9].

وتلك تجربة واقعية يعرفها كل من مارس الحياة في جماعة تؤمن بالله ورسوله، وتلتقي على حب الله ورسوله.

مجرد التقاء الأخوة يضاعف رصيد كل منهم من الإيمان، ويضاعف استعداده لتلقي مزيد من الخير والانفتاح على مزيد من الآفاق!

كيف يحدث ذلك؟

إنه كذلك ليس سرًّا غامضًا ولا هو بالسحر، وإن بدا في نظر الناس أقرب إلى السحر..

إن "المشاركة الوجدانية" حقيقة نفسية معروفة، وحين تكون المشاركة في الخير، يتضاعف الخير! ويتضاعف نصيب كل واحد من الخير!

إن رؤية أخ لك على الهدى يؤنس طريقك، ويشعرك أنك لست وحدك على الطريق. ثم إن ممارسة الأخوة معه في صورة واقعية تعمق مشاعر الأخوة في نفسك في كل مرة، فتحس في كل مرة أنك تعيش الإسلام بالفعل من خلال مشاعر الأخوة تلك، فيزيد رصيد المشاعر الإسلامية في نفسك. ثم تتعاونان على الخير، في جو المودة الذي يجمعكما، فينضاف إلى الرصيد معنى آخر من معاني الإسلام -هو التعاون على البر والتقوى- فيتضاعف الرصيد في نفس كل منكما. وهكذا في سلسلة متصلة الحلقات تعمق مشاعر الإسلام في النفس, ويتضاعف رصيد الإنسان الواقعي منه، كما يلتقي الصوت والصدى في مكان واحد فيتضاعف الصوت، أو كالمرايا العاكسة تزيد من قوة الضوء.

* * *

والمربي الأعظم صلى الله عليه وسلم يتولى أصحابه بالرعاية..

إن التربية -في عالمنا- موهبة وعلم وفن..

موهبة تجعل إنسانًا من الناس، بتركيبه الجسمي والعقلي والنفسي والروحي، أقدر على التربية والتوجيه من إنسان آخر. وعلم وخبرة يتعلمهما الإنسان من الكتب أو من تجارب الآخرين أو من تجاربه هو الشخصية. وفن يطبق به العلم الذي تعلمه بصورة صحيحة تناسب الحالة التي أمامه.

وقد أوتي المربي الأعظم -صلى الله عليه وسلم- ذلك كله وأكثر منه، إلهامًا وعلمًا لدنيًّا من الله تبارك وتعالى، إذ صنعه على عينه ليكون للعالمين هاديًا ونذيرًا..

إن المربي ينبغي أن تكون فيه صفات معينة تؤهله لهذه المهمة الخطيرة.

ينبغي أولًا أن يحس الشخص الذي يتلقى التربية أن مربيه أعلى منه، وأنه منه -بالطبيعة- في موقف الآخذ المتلقي، لا في موقف الند، ولا في موقف أعلى من موقف المربي!

وتلك حقيقة نفسية تعمل عملها تلقائيًّا في النفوس! فأنت لكي تتلقى، لا بد أن تقتنع أنك في موقف المتلقي، وإلا فلو أحسست أنك أنت في الموقف الأعلى فما الذي يدفعك أن تتلقى من شخص بعينه من الناس؟

والعلو أمر شامل يشمل مسائل كثيرة في وقت واحد، ويختلف من وضع إلى وضع. فقد يكون علوًّا روحيًّا، أو يكون تفوقًا عقليًّا، أو يكون تفوقًا أخلاقيًّا، أو نفسيًّا، أو عصبيًّا. أو حتى جسديًّا في بعض الأحيان، وتلك كلها من عناصر "الشخصية" الإنسانية، تزيد أو تنقص في كل شخص، وتكون في مجموعة ما نطلق عليه "شخصية الإنسان". فنقول باختصار إن شخصية المربي ينبغي أن تكون أكبر من شخصية الذي يتلقى التربية على يديه.

وبهذه المناسبة نقول: إنه مما ييسر على جميع الآباء تربية أطفالهم في السنوات الأولى أن شخصيتهم تكون -بالطبيعة- أكبر من شخصية أطفالهم، فيتلقى هؤلاء عنهم في سهولة طبيعية. ولكن تبدأ بعد ذلك المشاكل! فكلما كبر الطفل احتاج أن تظل شخصية الوالدين أكبر منه، وهنا يسقط بعض الآباء في الاختبار، إما لأن شخصياتهم ليست أكبر من أبنائهم بالقدر الكافي، وإما لأنها ليست أكبر منهم على الإطلاق! بل يحدث في أحيان نادرة أن يحس الطفل -الكبير- أن شخصيته أكبر من شخصية والديه، وهنا يرفض التلقي منهما ويتمرد عليهما!

أما بالنسبة لتربية الكبار فالأمر أشق وأدق. فهو محتاج إلى "قيادة" وإلى "زعامة"، يحس الكبار أمامها أنهم أصغر من قائدهم، وأنهم في موقف التلقي منه لا في موقف الند ولا في موقف التوجيه.

وينبغي أن يحس المتلقي ثانيًا أن مربيه -بالإضافة إلى أنه أكبر شخصية منه- عنده ما يعطيه..

فليس يكفي أن تكون شخصية المربي أكبر من شخصية المتلقي -وهي البديهية الأولى في عالم التربية- إنما ينبغي كذلك أن تكون عنده حصيلة يعطيها للآخرين في صورة تجربة واقعة.

هناك شخصيات كبيرة لا تستطيع أن تعطي، ومن ثم لا تستطيع أن تربي.

هو في ذاته شخصية فائقة التكوين. متفوق عقليًّا أو روحيًّا أو نفسيًّا أو عصبيًّا أو أخلاقيًّا.. ولكنه -لسبب ما- لا يستطيع أن يعطي التجربة الواقعية. لأنه عزوف عن الناس. لأنه صاحب تجربة فكرية فقط بغير رصيد من التجربة الواقعة. لأنه رجل "مثالي" حالم يحلم بالمثل ولا يمارس التطبيق الواقعي أو لا يحسنه. إلى غير ذلك من الأسباب التي تشكل عيبًا في الشخصية ولكنها لا تمنعها أن تكون كبيرة، أكبر من شخصية المتلقي، ومع ذلك تعجزها عن القيام بدور التربية والتوجيه. ومن الأمثلة المعهودة أن تجد أستاذًا جامعيًّا ممتازًا في علمه, ممتازًا في خلقه، ممتازًا في محاضرته. ومع ذلك فهو لا يستطع أن يربي، ولا أن يكون جيلًا من "التلاميذ" بمعنى الحواريين والأتباع.

وينبغي ثالثًا أن يكون المربي -بالإضافة إلى كبر شخصيته [بالنسبة للمتلقي] وإلى أن عنده ما يعطيه- ينبغي أن يكون حسن الإعطاء.

فمجرد أن يكون لديه ما يعطيه ليس كافيًا في شئون التربية، إنما ينبغي أن يعطيه بطريقة حسنه كذلك، وإلا ضاع الأثر المطلوب أو انقلب إلى الضد، حين يعطي المربي ما عنده بطريقة منفرة..

"وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"[1].

نعم ينبغي أن يكون التقديم في صورة ترغب المتلقي في أن يتلقى، لا في صورة تنفره من التلقي..

والضمان الأول لذلك هو الحب؛ فما لم يشعر المتلقي أن مربيه يحبه، ويحب له الخير، فلن يقبل على التلقي منه ولو أيقن أن عنده الخير كله. بل لو أيقن أنه لن يجد الخير إلا عنده! وأي خير يمكن أن يتم بغير حب؟!

([1]) سورة آل عمران [159].

ولكن الحب وحده كذلك لا يكفي. فقد تحب طفلك وتحب له الخير، ولكن طريقتك في تقديم الخير إليه تشككه في حبك له، وتوهمه أنك تكرهه، وأن توجيهاتك له صادرة عن البغض لا عن الحب، لأنك تقدمها إليه في صورة فظة لا رفق فيها ولا لين. من أجل ذلك يمن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الموهبة النبيلة في شخصه الكريم:

"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"[1].

واللين مع ذلك ليس معناه ترك الحبل على الغارب حتى تصير الأمور فوضى، إنما معناه فقط ما عبر عنه القرآن، عدم الفظاظة وغلظ القلب. أما الحسم فأمر ضروري مع اللين:

"فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ"[2].

فاللين في موضعه ضروري في عملية التربية. والحسم في موضعه كذلك ضروري على نفس المستوى. إنما المنهي عنه هو الفظاظة وغلظ القلب لأنها لا تأتي بخير، وتؤدي إلى الانفضاض بدلًا من التقويم.

وإذن فطريقة العطاء مهمة كالعطاء ذاته، في مزيج من الحب والرفق والحسم، ومعرفة بمواطن اللين ومواطن الحسم، على قاعدة دائمة من الحب..

وينبغي رابعًا أن يكون عند المربي المقدرة على الاهتمام بالآخرين، والاهتمام بأن يعطيهم ما عنده من الخير.

هنالك شخص طيب في ذاته. وقد يكون عنده ما يعطيه، ولكنه لا يهتم بإعطائه للآخرين. لا لأنه يكرههم ولا يحب لهم الخير، ولكن لأنه عزوف يعيش في عزلة، أو كسول يكره الحركة. ذلك لا يصلح للتربية؛ لأن الاهتمام بالآخرين عنصر ضروري في التربية، من الجانبين جانب المربي وجانب المتلقي. أما المربي فإن فقد الاهتمام بالآخرين فلن يتجه أصلًا إلى التربية, فضلًا على كونه لا يصلح لها -ولو احترفها احترافًا- وأما المتلقي فلا يمكن أن ينشرح صدره للتلقي من شخص يحس في أعماقه أنه لا يهتم به!

فالاهتمام والرعاية إذن عنصر ضروري من عناصر التربية لا بد أن يتوفر في المربي لكي ينجح في مهمته الخطيرة.

---

(1) سورة آل عمران [159].

(2) سورة آل عمران [159].

وينبغي خامسًا أن يكون المربي قادرًا على المتابعة والتوجيه المستمر.

فالاهتمام وحده لا يكفي إن كان اهتمام اللحظة العابرة, ثم ينقطع بانتهاء اللحظة أو انتهاء المناسبة. فالتربية عملية مستمرة لا يكفي فيها توجيه عابر –مهما كان مخلصًا ومهما كان صوابًا في ذاته– إنما يحتاج الأمر إلى المتابعة والتوجيه المستمر.

إن المتلقي نفس بشرية وليس آلة تضغط على أزرارها مرة ثم تتركها وتنصرف إلى غيرها فتظل على ما تركتها عليه!

نفس بشرية دائمة التقلب متعددة المطالب متعددة الاتجاهات، وكل تقلب، وكل مطلب، وكل اتجاه في حاجة إلى توجيه!

وليست الحالة المستجدة فقط هي التي تحتاج إلى توجيه! إنما تحتاج هذه إلى توجيه جديد. أما الحالة التي حدثت من قبل مرة ومرات، وأعطيت التوجيهات فيها مرة ومرات، فهي ليست حالة منتهية! وليست في غير حاجة إلى توجيه!

فالعجينة البشرية عجينة عصية تحتاج إلى متابعة دائمًا. وليس يكفي أن تضعها في قالبها المضبوط مرة فتنضبط إلى الأبد وتستقر هناك! بل هناك عشرات من الدوافع الموارة في تلك النفس، دائمة البروز هنا والبروز هناك، ودائمة التخطي لحدود القالب المضبوط من هنا ومن هناك، ولا بد في كل مرة من توجيه لإعادة ضبطها داخل القالب، حتى تنطبع نفس المتلقي بالتوجيه، فيقوم هو بذاته بعملية المتابعة والضبط بدلًا من المربي. ولكن لا يحدث أبدًا أن يستغني الأمر عن المتابعة والتوجيه والضبط، من المربي أو المتلقي سواء! ومن هنا مشقة التربية وخطورتها. وضرورتها في ذات الوقت. فإما هذا الجهد الدائب. وإما الضياع!

والشخص الذي لا يجد في نفسه الطاقة على المتابعة والتوجيه المستمر شخص لا يصلح للتربية, ولو كان فيه كل جميل من الخصال!

وليس معنى التوجيه المستمر هو المحاسبة على كل هفوة! فذلك ينفر ولا يربي! فالمربي الحكيم يتغاضى أحيانًا أو كثيرًا ما يتغاضى عن الهفوة وهو كاره لها لأنه يدرك أن استمرار التنبيه إليها قد يحدث رد فعل مضاد في نفس المتلقي. ولكن إهمال التنبيه ضار كالإلحاح فيه. وحكمة المربي وخبرته هي التي تدله على الوقت الذي يحسن فيه التغاضي, والوقت الذي يحسن فيه التوجيه. ولكن ينبغي التنبه دائمًا من جانب المربي إلى سلوك من يربيه، سواء قرر

تنبيهه في هذه المرة أو التغاضي عما يفعل. فالتغاضي شيء، والغفلة عن التنبه شيء آخر. أولهما قد يكون مطلوبًا بين الحين والحين. أما الثاني فعيب في التربية خطير.

وينبغي سادسًا أن يكون المربي قادرًا على القيادة مع قدرته على المتابعة والتوجيه.

والقيادة موهبة توحي للمتلقي أن يتلقى أولًا. وأن يطمئن لما يتلقى ثانيًا. ثم أن يطيع. وبغير ذلك لا يكون للتوجيه جدوى ولا يتم من عملية التربية شيء، ولو كانت التوجيهات صحيحة، ولو كانت عند المربي القدرة على المتابعة والاهتمام.

أن تصدر الأمر هذا وحده لا يكفي.. ولو كان الأمر صحيحًا في ذاته وضروريًّا في مناسبته. إنما ينبغي أن تكون لديك القدرة على جعل المتلقي ينفذ ذلك الأمر، وإلا فالنتيجة أسوأ من عدم إصدار أمر على الإطلاق!

فحين تصدر الأمر للمتلقي ثم لا ينفذه استخفافًا بمن أصدر إليه الأمر. فقد انتهت المسألة وانقطع الخيط.. ولا جدوى في الاستمرار.

حقًّا قد يحدث أحيانًا أن يكون العيب في المتلقي، لأنه عاص متمرد شاذ الطبع، وذلك أمر سنعرض له بإذن الله في غضون الكتاب.

ولكنا هنا ونحن نتحدث عن المربي، نشير إلى هذه البديهية، وهي أن من يعجز عن القيادة لا يصلح للتربية، ولو كان في ذاته شخصًا طيبًا مشتملًا على كل جميل من الخصال.. وليس كل إنسان طيب الخصال قادرًا على القيادة ولا الزعامة، ولا مطالبًا بها كذلك! فهي أصلًا موهبة لدنية، تصقلها التجارب وتزيدها مضاء وقدرة، ولكنها لا تنشئها حيث لا تكون!

وقد يكون الأمر هينًا بالنسبة للآباء وهم يربون أطفالهم، فهم قادرون على فرض إرادتهم عليهم بطريقة ما، وإن كانوا كثيرًا ما يسيئون التصرف فيفسدون أطفالهم في النهاية من حيث يريدون لهم الخير. أما بالنسبة لتربية الكبار فالأمر مختلف، وخاصة حين يكون الأمر أمر دعوة لا أمر سلطان.. هنا يتحتم أن يكون المربي قادرًا على القيادة، وأن يكون له من شخصيته ما يفرض طاعته على الناس بغير سلطان.

وقد كان يمكن أن نجعل هذا البند السادس جزءًا من البند الأول المتعلق بالشخصية. فالقدرة على القيادة فرع عن الشخصية القوية، ولكن هناك حالات تكون فيها الشخصية

قوية في ذاتها, ومع ذلك تكون عاجزة عن القيادة لفظاظة أو عزلة وعزوف عن الناس.. وسبحان موزع الطاقات وموزع الأرزاق!

* * * ص285

هذه الخصال الست: أن تكون شخصية المربي أكبر من شخصية المتلقي، وأن يكون عنده ما يعطيه، وأن يحسن طريقة العطاء، وأن يكون له القدرة على الاهتمام بمن يربيهم، والقدرة على المتابعة والتوجيه الدائم، والقيادة التي تقدر على فرض الطاعة. هذه هي الخصال الضرورية للمربي - أي مرب- لكي يتمكن من القيام بمهمته الخطيرة في تربية الآخرين.

طفل واحد يتربى في حاجة إلى هذه الخصال الست، كأمة كاملة تتربى. ولكن شتان في الدرجة بين الطفل الواحد والأمة الكاملة.

كلما زادت رقعة التربية وزاد عدد المتلقين كانت الدرجة المطلوبة من هذه الخصال أكبر.

فكل إنسان قد يصلح -جوازًا- أن يكون مربيًّا في حدود بينه وأطفاله [وإن كان كثير من الآباء في الحقيقة يعجزون!].

ولكن تربية أربعين طفلًا في فصل من مدرسة مهمة تحتاج إلى موهبة أكبر، وإلى قدر من الخصال المطلوبة أكبر، وإلى علم وتجربة أكبر [وإن كان كثير من المدرسين في الحقيقة يعجزون!].

أما قيادة جماعة من البشر، فهي في حاجة إلى شخصية غير عادية، موهوبة ومدربة وذات خبرة تقدر على توفير مطالب التربية لهذه الجماعة، وهي شيء غير الطفل الواحد وغير المجموعة من الأطفال.

وأما قيادة أمة فأمر أخطر بكثير من قيادة جماعة، وأحوج بكثير إلى مزيد من الخصال الست المطلوبة..

فما بالك بقيادة البشرية؟!

لقد كان محمد -صلى الله عليه وسلم- معدًّا لقيادة البشرية!

* * *

بهذه التهيئة الربانية لقيادة البشرية كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرعى أصحابه ويوجههم ويربيهم على منهج الإسلام. وهؤلاء الذين تلقوا منه مباشرة وتربوا على عينه صلى الله عليه وسلم هم الذين كتبوا التاريخ!

وإذا كان كل تلميذ في العادة يقبس قبسة من أستاذه، فلنا أن نتصور كيف تكون القبسات حين يكون الأستاذ هو الرسول صلى الله عليه وسلم. وإذا كان المنهج يترك طابعه فيمن يتربون عليه. فلنا أن نتصور كيف يكون الطابع حين يكون المنهج هو القرآن..

ولقد كان كذلك..

وخرجت على هذه التربية خير أمة أخرجت للناس. الأمة التي تركت بصماتها على التاريخ كله من بعدها، وتركت فيه آثارًا لا تزول.

ولم يتم هذا دفعة واحدة. فالتربية عملية طويلة تستغرق السنوات الطوال.. ولقد استغرقت ثلاث عشرة سنة في مكة، وسنوات في المدينة، حتى وصلت إلى الدرجة التي استحقت فيها ذلك الوصف من خالقها: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"[1] وكانت مع ذلك ما تزال تكبو أحيانًا كما كبت في أحد ويوم حنين، ثم تقوم من كبوتها على درس من الدروس القرآنية البليغة، لتصعد قمة جديدة من قمم البشرية الشامخة..

كذلك لم يتم هذا كله في أمن ودعة. ولعله ما كان يمكن أن يتم.. فالله العليم الخبير. الذي فطر هذه الفطرة البشرية، يعلم أنه لا بد من الشدة تشدد العزائم، ولا بد من المحنة تعرك النفوس.

ولكن الذي تم من أول لحظة هو ذلك الحب العميق لله ورسوله، والالتقاء على حب الله ورسوله، والاستعداد العميق للتلقي من الله ورسوله، ونبذ التلقي من أي مصدر آخر في الوجود..

وتلك كانت القاعدة الضرورية التي تنشأ عليها التربية الإسلامية فتؤتي ثمارها المرجوة. ومنذ اللحظة الأولى تكونت هذه القاعدة في نفوس المؤمنين، فأهلتهم أن يتلقوا من أعظم مرب في التاريخ، وأهلتهم أن يستوعبوا هذه التربية بكاملها، خطوة بعد خطوة وتوجيهًا بعد توجيه. حتى استقامت نفوسهم على أفقها الأعلى. وكانت منهم تلك النماذج من البطولة في

([1]) سورة آل عمران [110].

كل جانب من جوانب الحياة. وهذا الحشد من الأبطال، الذي لم يحتشد بهذه الوفرة في تاريخ أمة على مدى التاريخ..

* * *

كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم من صفات العظمة الخارقة ما يحبب فيه أتباعه حبًّا كان يغيظ قريشًا ويكرثها ويثير عجبها حتى قال أبو سفيان حانقًا: "ما رأيت أحدًا يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمدًا"! وكان فيه من صفات القيادة والزعامة ما يجعله مطاع الأمر بين أتباعه بغير سلطان. وما كان له عليهم من سلطان قبل إقامة الدولة إلا سلطان الحب الخالص والإعجاب العميق. وكان شديد الاهتمام بهم، يرعى كل واحد منهم كأنما هو صاحبه الأوحد أو صاحبه الأثير عنده. وكان يمنحهم من الحب ما تقر به نفوسهم فيطمئنون على مكانتهم عنده، ويبادلونه الحب بأقصى ما تستطيع نفوسهم الصافية..

ثم.. لقد كان عنده ما يعطيه..

وأي عطاء؟!

منهج الحياة كلها.. كبيرها وصغيرها.. دنياها وآخرتها.. روحيها وماديها.. والنعمة الكبرى التي تؤهل الإنسان لرضاء الله..

كان عنده الإسلام!! ومنهج التربية الإسلامية!

* * *

كان القرآن في مكة يتنزل كله في العقيدة، يعرف الناس بالله، وباليوم الآخر، وبقصص الأنبياء والمكذبين من قبل، وبقصة آدم، وبقصة الشيطان مع آدم, وبأخلاقيات لا إله إلا الله التي يريد الله أن تحل محل أخلاق الجاهلية..

وكلها دروس في العقيدة، ودروس في التربية الإسلامية في ذات الوقت. ذلك أن التربية الإسلامية قائمة على العقيدة ومرتبطة بها أشد الارتباط، وكل درس قرآني في العقيدة كان يضيف إلى رصيد التربية على المنهج الرباني الفريد.

والتعريف بالله -كما أسلفنا- هو الموضوع الذي يشمل المساحة الكبرى من السور المكية، وهو لا يزال يتردد في كل سورة. بصور متعددة، وأجواء متعددة، ومواقف متعددة،

يجيء ذكرًا مباشرًا لصفات الله سبحانه تعالى. ويجيء وصفًا لقدرته القادرة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض. ويجيء في تفصيل خلق الله للسموات والأرض وتقدير أقواتها وتدبير أمرها. ويجيء في مشاهد القيامة في مواقف الحساب والثواب والعقاب. ويجيء في سرد قصص الأنبياء ووحي الله لهم، وقصص المكذبين وما فعل الله بهم. ويجيء في قصة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله. ويجيء في قصة إبليس وطرده من الجنة وترصده لبني آدم. ويجيء في مناقشة عقائد الجاهلية الفاسدة وأخلاقها المنتكسة، والدعوة إلى الأخلاق الربانية الإيمانية.. ومن ثم كانت الموضوعات كلها -على اختلافها- موضوعات عقيدة، إذ كان الهدف الأساسي من إيرادها جميعًا هو التعريف بعظمة الله الخالق الرازق المدبر المحيي المميت المنتقم الجبار الغفور الرحيم، صاحب اليوم الأول واليوم الأخير ... ثم تأتي الأهداف الأخرى كلها منطوية تحت هذا الهدف الأكبر ومرتبطة به.

وقد يخطر على البال لأول وهلة أن هذا التعريف الواسع بالله سبحانه في السور المكية إنما جاء بهذا الاتساع لأن العرب في جاهليتهم كانوا في حاجة إلى هذا التكرار والتوكيد ليتركوا عقائد الشرك الفاسدة ويوقنوا بوحدانية الله فيعبدوه وحده ويخبتوا إليه.

ولكن ذكر الله -على نفس النمط وإن كان في مساحة أقل- في السور المدنية ينفي على الفور هذا الخاطر. فقد كان القرآن في المدينة يتنزل في أمة مسلمة تؤمن بالله ورسوله وتجاهد بأموالها وأنفسها في سبيل الله. فلو كان هذا التكرار والتوكيد موجهًا إلى الكفار وحدهم ليؤمنوا ما كانت هناك ضرورة لتوجيهه إلى المؤمنين الذين آمنوا بحقيقة الألوهية بالفعل، وترسخت في وجدانهم إلى حد أنهم يقاتلون من أجلها ويستشهدون في سبيلها بنفس راضية مطمئنة..

لا بد إذن أن يكون هذا التكرار والتوكيد لازمًا للمؤمنين أيضًا، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وليظلوا على ذكر دائم لربهم، ولا يغفلوا عنه لحظة، فلحظة الغفلة هي لحظة الشيطان..

وذلك درس مهم في التربية الإسلامية، وعته الجماعة الأولى فكانت على ما كانت عليه من عظمة ورفعة وسموق. وينبغي لكل جماعة تريد أن تستأنف الطريق أن تكون على وعي منه، لأنه هو الزاد، وهو المعين على وعثاء الطريق..

وليس القصد من ذلك هو حلقات الذكر المعروفة عند المتصوفة. فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وهو القدوة في كل أمر من أمور الإسلام. ولا كانت الجماعة الأولى تفعل ذلك، وهي التي تمثل فيها المنهج الرباني بتمامه كله.

ولا يمكن أن يكون لنا اعتراض على ذكر الله.. فذلك أمر من أوامر الإسلام. ولكن التعرف على المنهج الرباني في التربية يدلنا على أن التذكير الدائم بالله كان وسيلة لغاية، ولم يكن هو نهاية الغاية..

الغاية هي الخلافة الراشدة عن الله في الأرض. وهي العبادة لله، التي تشمل كل حياة الإنسان وكل متجهاته:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"[1] "قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ"[2].

وطاعة الله وتنفيذ أوامره وخشيته وتقواه هي الأداة للقيام بالخلافة الراشدة عن الله.

والذكر الدائم لله، واستحضار عظمته في الوجدان، هو الوسيلة لتحقيق الخشية والتقوى، التي هي أداة الخلافة الراشدة والمعين عليها.

فالوقوف عند الوسيلة دون الوصول بها إلى الغاية لا يكون تحقيقًا للإسلام كما أراده الله، ولا يكون تحقيقًا لمنهج التربية الإسلامية كما طبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمامه مع الجماعة الأولى من المسلمين، ومن هذه الزاوية ينبغي أن نحكم على الأمور..

إنما تربت الجماعة الأولى على ذكر الله بصورته الحية الدافعة، التي تدفع النفس إلى العمل وتعينها على مشقة الطريق.

* * *

وكان القرآن يحدث المؤمنين عن اليوم الآخر، ويجسمه لهم كأنما يرونه اللحظة أمامهم، ويعيشون مشاهده الحية بوجدانهم. بل بلغ من إعجاز القرآن في تصوير مشاهد القيامة أن يحس الإنسان كأنما يوم القيامة هو الحاضر الماثل, وكأنما الدنيا ماضٍ قد انقضى وانطوى من زمان بعيد!

وذلك درس من دروس التربية في ذات الوقت الذي هو من دروس العقيدة..

---

(1) سورة البقرة [30].

(2) سورة الأنعام [162-163].

فثقلة الأرض عنيفة في الحس البشري شديدة العنف.. بقدر عنف الدوافع الفطرية وضغطها على الحس:

"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"[1].

ولا شيء يمكن أن يعين الإنسان على ضبط هذه الدوافع والوقوف بها عند الحدود المأمونة التي فرضها الله، قدر ما يعينه الإيمان باليوم الآخر، الذي يعوض فيه الإنسان عن كل حرمان تعرض له في الأرض، بنعيم دائم لا ينفد، فضلًا عن كونه نعيمًا أجمل وأصفى وأجود.

وأي بديل يمكن أن تصنعه البشرية لضبط الدوافع ووقفها عند حدها لا يمكن أن يقوم مقام الإيمان باليوم الآخر أو يفعل مفعوله في النفس.. وهذه تجارب البشرية كلها قد عجزت عما قامت به التربية الإسلامية في إحكام ويسر، وهي ترتكز إلى هذا الإيمان العميق باليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب.

أحد البديلين هو الدولة والقانون. والإسلام لم يغفل الدولة والقانون حين قامت الدولة في المدينة. ولكنه يعلم أن عين الدولة لا يمكن أن ترى كل حالة، ويد القانون لا يمكن أن تطولها..

والبديل الآخر هو طرح الأرض جانبًا وإهمال الجسد ونبذه واحتقاره كما تصنع البوذية والرهبانية، لتطهر الروح.. فيختل توازن الإنسان بكبت هذه الدوافع الفطرية واستقذارها، وتختل الحياة البشرية بتعطيل دفعتها الإيجابية المتحركة الفاعلة في واقع الأرض.

ولكن التربية المرتكزة على الإيمان بالله واليوم الآخر هي وحدها التي تحفظ للإنسان توازنه في الأرض، ولا تعطل دفعة الحياة.

* * *

وكان القرآن يعرف الإنسان بنفسه، بعد أن عرفه بربه وباليوم الآخر.. ويجيب كذلك على تساؤلات الفطرة: من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على الإنسان فرضًا وتلح في طلب الجواب..

---

(1) سورة آل عمران [14].

كان يعرفه بمنشئه، من قبضة من طين الأرض ونفخة علوية من روح الله. وبدوره في الأرض وهو الخلافة عن الله. وبغاية خلقه وهي عبادة الله، بمعناها الواسع الشامل الذي يعني الائتمار بأمر الله في كل شأن من شئون الحياة، والتوجه في عمله إلى الله, وبمصيره بعد الموت، من بعث وجزاء..

وبذلك تكتمل الصورة كلها من المنشأ إلى المصير. ويعرف الإنسان طريقه ومهمته ودوره، فلا يتخبط في اختيار الطريق، ولا يتخطى المهمة ولا يقصر عنها، ولا يركبه الغرور في أداء الدور فيصنع من نفسه إلهًا أو طاغوتًا يستعبد الناس، ولا ينحسر بدوره كذلك فيقبل العبودية الذليلة للطاغوت بدلًا من العبودية الكريمة لله..

وهذا كذلك درس في العقيدة ودرس في التربية في ذات الوقت، لأنه يحدد خط السير، ويضبط مسار الخطى عليه..

وإن الجاهليات لتأكلها الحيرة وتفسد حياتها حين تسأل: من أين؟ وإلى أين؟ ثم لا تجد الإجابة الصحيحة فتضرب في التيه، كما يقول شاعر جاهلي معاصر:

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت ... ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت!

وحين تدركها هذه الحيرة وتحس بالضياع، تلجأ إلى ملذات الحس, تستنفد بها الطاقة وإلى المخدرات والمغيبات تغرق فيها همها المقيم.. فلا هي في الحقيقة تنسى ولا هي في النهاية تستقر..

والتربية الإسلامية التي ترتكز على هذه الصورة الواضحة المحددة للمنشأ، والدور، والغاية، والمصير، هي التي تمنح الإنسان الطمأنينة وتطلق طاقته للبناء في واقع الأرض بلا حيرة ولا قلق ولا اندفاع مجنون.

* * *

وكان القرآن يعرف الإنسان بقصته مع الشيطان، وكيف استكبر وأبى أن يسجد لمعجزة الله في خلق آدم على هذه الصورة الفريدة في كل الخلق. وطرده من الجنة، وتوعده بغواية بني آدم وفتنتهم عن طاعة الله وشكره، بتزيين الأرض لهم، وشغلهم بها عن الآخرة والعمل لها، وتزيين الكفر والعصيان واتباع مناهج غير منهج الله.

وهذا درس في العقيدة ودرس في التربية كذلك.

فالإنسان عرضة دائمًا لأن يغفل وينسى:

"وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ"[1].

ولا بد من تذكيره لكي يتيقظ من غفلته ويتذكر. والتوكيد على التربص الشيطاني للإنسان معين على اليقظة والتذكر. ومن ثم فهو يؤدي مهمة تربوية، تساعد على ضبط الدوافع الحادة. وتزجر عن الاندفاع وراء الشهوات.

* * *

وكان القرآن يندد بأخلاق الجاهلية المنتكسة ومفاهيمها الجاهلة الهابطة، ويضع في مقابلها الأخلاق الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها البشر السوي، الذي كرمه الله وفضله، وهداه النجدين، وأعطاه القدرة على التمييز والاختيار:

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"[2].

وبعض السور تكاد أن تكون "متخصصة في هذا الأمر. فسورة الفجر تندد بأخلاق الجاهلية، وسورة الإسراء تفصل الأخلاق الإيمانية المطلوبة من المؤمنين. وسور أخرى تعرض لهذه الموضوعات في أثناء السياق.

والجانب التربوي من هذا الموضوع واضح بلا شك. فكلها توجيهات أخلاقية، ومن ثم فهي توجيهات تربوية. وهي متصلة بالعقيدة في ذات الوقت. فهذه العقيدة الإسلامية ليست نظرية تحفظ، وليست لاهوتًا يدرس، إنما هي واقع سلوكي معين لا بد أن يرى أثره في واقع الأرض. ومن ثم كانت لها "أخلاقيات" متصلة بها ومنبثقة عنها، أخلاقيات تشمل الحياة كلها وتضع لها منهجًا مفصلًا، في السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلاقات الجنسين وعلاقات الأسرة، وعلاقات السلم وعلاقات الحرب.. وفي كل مجال من مجالات الحياة. وكانت مهمة التربية الإسلامية المرتكزة على توجيهات القرآن وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم هي ترسيخ قواعد هذه الأخلاقيات والتدريب الدائم عليها، حتى تصبح عادة للإنسان يقوم بها دون جهد، ويتوجه إليها من تلقاء نفسه في كل عمل يقوم به، ولكل عمل

---

(1) سورة طه [115].

(2) سورة الشمس [7-10].

على الإطلاق أخلاقيات حددها القرآن أو حددها الرسول صلى الله عليه وسلم في توجيهاته للمؤمنين.

* * *

كان القرآن في مكة يتنزل بهذه المعاني التربوية العقيدية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحدثهم عن الله عز وجل، ويرسخ في نفوسهم جلال عظمته، ويبين لهم في شخصه الكريم كيف تكون العبودية الخاصلة لله، تسليمًا مطلقًا لله، وخضوعًا كاملًا لأوامره وتوجيهاته، وتوقيرًا خالصًا لذاته العلوية، وذكرًا وتسبيحًا، وتطلعًا دائمًا بالخشية والحب، وربطًا لكل شيء في هذا الكون بإرادته ومشيئته، رؤية لقدرته القادرة في كل ذرة من ذرات هذا الكون.

كما كان صلى الله عليه وسلم يحدثهم عن اليوم الآخر وأهوال الحشر، وما ينتظر الكفار فيه من ألوان العذاب البشع، وما ينتظر المؤمنين من ألوان المتاع التي لا تخطر على قلب بشر، ويعلمهم أن طاعة الله ورسوله هي الطريق إلى هذا المتاع الخالد الدائم، وأن الكفر بالله ورسوله هو طريق النار. وكانت أحاديثه التفصيلية عن يوم الحشر وأنواع العذاب وألوان النعيم تزيد الصورة القرآنية تجسدًا في وجدانهم، فيعيشونها اللحظة كأنما يرونها رأي العين، وتنفعل بها نفوسهم فيعيشون في خشية من ذلك اليوم الرهيب.

وكان يحدثهم كثيرًا عن أخلاقيات لا إله إلا الله ويعاود تذكيرهم بها، ويتابع ممارستهم لها، ويقوم ما يحتاج إلى تقويم في تلك الممارسة العملية، ذلك أن المربي العظيم يعلم أن هذا الأمر في حاجة إلى تذكير وتوكيد، ومتابعة دائمة، فإن الإنسان إذا ترك وحده عرضة لأن ينسى، وعرضة لأن تغلبه النفس الأمارة بالسوء، حتى ينتهي بها التذكير الدائم والممارسة الفعلية لأن تصبح هي النفس اللوامة التي تقوم من تلقاء ذاتها بتذكير صاحبها ومتابعته.. فإذا وصلت لأن تكون هي النفس المطمئنة، التي اطمأنت بالإيمان واستقامت عليه، فتلك غاية الغايات..

وكان المربي العظيم يعلم كذلك أن الإيمان يمكن أن يتم في لحظة، لأنه مسألة بصيرة تتفتح فترى الحق فتسارع إليه. وأنه حين يحدث لا يرتبط بإلف ولا عادة ولا وضع سابق. أما الأخلاق فهي أمر آخر، يحتاج إلى تعويد طويل حتى يصبح عادة تلقائية، ويحتاج إلى عمل دائب لغسل رواسب الجاهلية من النفس. وهي رواسب لا تذوب في لحظة لأنها متشابكة مع خيوط النفس وداخلة في بنائها. كالبقعة الداخلة في النسيج. ربما تغسلها مرة فتذهب. وربما

تحتاج إلى غسلات كثيرة حتى تذهب، وربما تظل تغسلها حتى يبلى الثوب وهي تخف قليلًا ولكنها لا تذوب!

كان المربي الملهم يعلم ذلك من النفس البشرية فيصبر على أصحابه. ولا يتعجل جذبهم إلى القمة التي يقف هو عليها بعون من الله. وكان يتخولهم بالنصيحة المرة تلو المرة في غير إملال مضجر ولا تهاون في أمر الله.

وسارت هكذا الأمور حتى جاء الابتلاء.. وما كان من الممكن ألا يجيء!

إن الجاهلية لا يمكن أن تصبر أبدًا على دعوة لا إله إلا الله! ولم يحدث قط في التاريخ أن جاهلية صبرت على هذه الدعوة أو هادنتها ولو لم تتعرض الدعوة لها بشيء من جانبها!

لقد قال لهم شعيب: "وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا"[1].

هكذا.. لا يقبلون حتى المهادنة حتى يحكم الله في الأمر..

وهذا الموقف الذي تقفه الجاهلية دائمًا -ولا بد أن تقفه ما دامت جاهلية!- لا يأتي اعتباطًا، ولا يأتي من ظروف محلية خاصة بالمكان أو الزمان أو البيئة أو أشخاص الحكام أو أشخاص الدعاة, إنما يأتي من طبيعة الدعوة ذاتها ومن طبيعة الجاهلية.

فما الدعوة؟ وما الجاهلية؟

الدعوة تقول لا إله إلا الله. والجاهلية تقول -بقولها أو فعلها- هناك آلهة مع الله، وهناك سلطان بشري يحكم الناس باسم هذه الآلهة المدعاة.

والدعوة تقول إن الولاء لله وحده. و"الملأ" صاحب السلطان في الجاهلية يريد الولاء لنفسه وسلطانه، ومن هنا ينشأ الصراع.

إن الجاهلية، أو الملأ صاحب السلطان في الجاهلية، يحس تجاه النبي القادم بلا إله إلا الله، كما يحس السارق المغتصب حين يرى رجل الشرطة يظهر في الطريق. يحس أنه قادم

(1) سورة الأعراف [87-88].

نحوه هو بالذات ليسترد السلطان المدَّعى. سلطان الله. ومن ثم لا يستطيع أن يهادنه أو يسكت على وجوده، طالما بقيت في يده بقية من سلطان!

والابتلاء الناشئ من عدوان الجاهلية على الرسول الداعي لا إله إلا الله وعلى الذين آمنوا معه يصبح بذلك سنة من سنن الدعوة. سنة ربانية لا تتبدل ولا تتخلف:

"أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ"[1].

ونحن الآن نتحدث في مجال التربية..

هل لا بد من الابتلاء في الدعوة؟ هل هو ضرورة "تربوية" للقائمين بالدعوة للا إله إلا الله؟!

إنها سنة، نعم، ناشئة من طبيعة الدعوة وطبيعة الجاهلية. ولكن ما دورها في "منهج التربية الإسلامية"؟!

لقد علم الله أنها ضرورة لازمة لتربية الجيل الأول على الأقل، الذي يحمل على أكتافه مسئولية التأسيس وإقامة البناء، فجعلها سنة دائمة مع ذلك الجيل الأول بالذات!

إن العجينة البشرية كما أسلفنا عجينة عصية. وإنه لا يكفي أن تضعها مرة في داخل القالب المضبوط لتستقر وحدها هناك! إنها دائمة التقلب والبروز من هنا ومن هناك بتأثير الدوافع القوية والجواذب العنيفة التي تجذبها نحو الأرض وتحركها فيها.

والدعاة بالذات. أو الجيل الأول من الدعاة بالذات، يحتاج إلى صياغة خاصة ليحمل تكاليف الحق. وإنها لتكاليف مرهقة تحتاج إلى تدريب وإعداد خاص..

إنها ليست نزهة مسلية. ولا عرضًا قريبًا. ولا سفرًا قاصدًا..

إنها الدعوة..

إنها تشييد بناء متين يستظل فيه الناس بظل الله في الأرض، ويستروحون فيه عدله ورحمته، في ظل تحكيم شريعته..

---

(1) سورة العنكبوت [2-3].

بناء يقام لله. ويكون الحكم فيه لله. لا لشخص من الأشخاص ولا لمصلحة من المصالح ولا لهوى من الأهواء.

ثم إنه بناء في حاجة إلى حماية ووقاية من الأعداء، الذين يكرهون لا إله إلا الله، لأنها تسلبهم سلطانهم المغتصب وترده إلى الله، أو لأنها تضبطهم بميزان الله، وهم يريدون الانفلات بما تمليه عليهم الشهوات..

فمن أين لهذه العجينة الطرية العصية أن تخلص من نوازعها وجواذبها وهواتفها التي لا تفتأ تخرجها من قالبها المضبوط، وتبرز بها من هنا ومن هناك، لتستقيم على وضعها المنضبط، حتى تقيم العدل الرباني في الأرض، لا تميل به المصلحة ولا الهوى ولا الرغبات؟!

ثم أين لهذه العجينة الطرية العصية أن تصلب وتنضبط لتحتمل تكاليف الجهاد، والجهاد قائم بالضرورة لحماية البناء الرباني من الأعداء؟!

أفي الرخاء تتحول هذه العجينة إلى صورتها المنضبطة في القالب المطلوب؟

يعلم الله أن ذلك لا يكون..

إن العجينة الناضجة "على البارد" لا تحتمل الضغط ولا تثبت للصدام.. وسرعان ما تتفلق من هنا وهناك!

لا بد من صناعة خاصة لأولئك الذين يقومون بالدور الأول إزاء الجاهلية، ويؤسسون للبناء..

وكما تحتاج العجينة إلى حرارة النار لإنضاجها، فكذلك تحتاج العجينة البشرية إلى حر الابتلاء..

وفي حر الابتلاء تثبت العجينة الطريَّة العصيَّة وتصلب، وتصبح قادرة على الصمود والصدام..

وفي حر الابتلاء كذلك تترسخ العقيدة وتمتد جذورها في النفس حتى تتمكن منها، ولا تعود تقتلع أبدًا مهما اشتدت بها العواصف بعد.

إن الإيمان في الرخاء سهل، لأنه لا يكلف صاحبه كثيرًا، ولا يهدده في أمنه وسلامته. ولكن حقيقة الإيمان لا تتبين -حتى لصاحبها- إلا بالابتلاء كما تدق المسمار في الحائط

فتحسبه راسخًا لأول وهلة ما دام ثابتًا في مكانه، ولكنك لا تأمن عليه حتى تختبره. فتضغط عليه بأصبعك أو تحاول انتزاعه.. ثم لا تعلق عليه شيئًا إلا إذا ثبت بعد الاختبار!

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ"[1].

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"[2].

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً؟"[3].

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ"[4].

كلا! لا بد من الابتلاء. لترسيخ العقيدة ذاتها، استعدادًا لإقامة البناء..

تقول عقيدة لا إله إلا الله؛ إن الله هو الضار النافع وحده، وإنه هو المسيطر وهو المدبر بغير شريك، وإنه لا يحدث شيء في الأرض إلا بما أراده الله.. ويؤمن الناس بذلك إيمانًا سهلًا في الرخاء، ويحسبون هذا الإيمان راسخًا، ويحسبونه قضية منتهية لا تحتاج إلى مراجعة..

ثم.. يحدث الابتلاء.

ويصبح أهل الحق في موقف الضعف والهوان والذلة. وأهل الباطل في موقف السيطرة والسطوة والاستعلاء، وفي موقف العدوان كذلك والإيذاء..

أو ما زال ذلك "المؤمن" يؤمن بأن الله هو الضار النافع وحده؟! أم تسرب الشك إلى نفسه دون أن يحس، وحسب أن أولئك الطغاة يملكون سلطة حقيقية في أيديهم، ويملكون بأنفسهم الضر والنفع له أو لغيره من الناس؟!

---

(1) سورة آل عمران [142].

(2) سورة البقرة [214].

(3) سورة التوبة [16].

(4) سورة العنكبوت [10].

فأما إن ثبت في مكانه، واستيقن أن ما يصيبه من الضرر على أيدي هؤلاء إنما يصيبه بإرادة الله ومشيئته لا بإرادة هؤلاء ومشيئتهم، وأن هؤلاء لا يملكون له ولا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا. أما إن حدث ذلك فقد آمن حقًّا أن الله هو الضار النافع وحده.. وأما إن تزلزل يقينه، ونظر إلى أولئك الطغاة كمن يملك التصرف في شيء من عند أنفسهم. فهو إذن غير صالح لإقامة البناء! وكان من الحكمة أن ينكشف قبل إقامة البناء بالفعل، لأنه يومئذ كان يؤسس على باطل ويبني غير مستقيم!

"مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ"[1].

فلن يقول لكم الله سلفًا إن هذا طيب وهذا خبيث. إنما يبتليكم فيميز الطيب من الخبيث!

وتقول عقيدة لا إله إلا الله: إن الله هو الرازق وحده. "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ"[2].

ويؤمن الناس بذلك في سهولة في اثناء الرخاء.. فما دامت أرزاقهم جارية على حالها لم يمسها سوء، فلن يكلف الناس شيئًا أن يؤمنوا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين!

ثم يحدث الابتلاء، ويبتلى الإنسان فيرزقه نتيجة تمسكه بعقيدته، وإبائه أن يتركها ويعود في ملة الجاهلية..

أو ما زال ذلك "المؤمن" يؤمن بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين؟ أم تزلزل إيمانه وظن أن أولئك الطغاة يملكون شيئًا من الرزق، ويستطيعون أن يقطعوه أو يطلقوه؟

فأما إن ثبت في مكانه، وعلم أن ما أصابه في رزقه لم يكن بسبب سلطة ذاتية يملكها الطغاة، ولكن لأن الله أراد ذلك الابتلاء لحكمة يريدها، فقد آمن حقًّا أن الله هو الرزاق وحده. وأما إن تزلزل يقينه فما عاد صالحًا لإقامة البناء!

---

(1) سورة آل عمران [179].

(2) سورة الذاريات [58].

وهكذا ... وهكذا من تفصيلات العقيدة وفروع الإيمان. لا يتبين الإيمان على حقيقته إلا بالابتلاء في كل معنى من معاني هذه العقيدة، ولو بدت -في الرخاء- راسخة متينة لا تتزعزع.

وكذلك الأمر في أخلاقيات لا إله إلا الله..

ما أيسر الخلق الحسن في الرخاء! إنه قد لا يكلف شيئًا إلا مجاملات قليلة يبدو الإنسان بعدها غاية في حسن الأخلاق!

بل قد يُخْدَع الإنسان ذاته في نفسه. فيحسب أنه صادق التخلق بأخلاق لا إله إلا الله..

ثم تجيء الشدة والحرج والكرب والضيق..

أو ما زال ذلك "المؤمن" على استعداد لأن يبذل من نفسه في الضيق ما كان يبذله في الرخاء؟

أو ما زال قادرًا على احتمال أخطاء الناس وتصرفاتهم المنحرفة؟

وحين يكون هناك اثنان. وفرصة واحدة. فرصة لاحت بعد كرب وشدة وحرج.. فهل يسرع هو إلى اقتناصها مؤثرًا نفسه على "أخيه" في العقيدة، أم ما زالت في نفسه الفسحة التي يستطيع بها -ولو على كره- أن يترك الفرصة لأخيه. أم إنه يستطيع أن يؤثره على نفسه عن طيب خاطر. تقربًا إلى الله؟!

درجات من التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله.. لا تتبين حقيقتها في الرخاء السهل.. ولا تنكشف إلا في الشدة والضيق..

من هنا كانت حكمة الابتلاء المذكورة صراحة في آيات القرآن.

إن الجيل الأول من الدعاة، الذي يكون من قدره أن يواجه الجاهلية بكل عنفها وضراوتها في محاربة العقيدة والمؤمنين بها. حربًا تقصد بها الإبادة الكاملة ولا تقصد بها الإبقاء.. هذا الجيل في حاجة إلى صياغة خاصة ليحتمل التكاليف، وهي تكاليف باهظة عنيفة مرهقة، سواء في مرحلة المواجهة أو مرحلة التمكين حين يقدر الله التمكين..

فأما المواجهة فهي تعرض الإنسان للاضطهاد والتعذيب وانقطاع الرزق، كما تهدده في أمنه وسلامته.. وقد تكلفه حياته، موتًا في التعذيب أو إبادة بالقتل.

وأما التمكين فهو في حاجة إلى خلوص كامل وتجرد، لإقامة البناء على العدل الرباني، لا يميل مع المصلحة ولا الهوى ولا الشهوات، وإلا انتكس البناء وضاع الجهد، وانقلب الدعوة صدًّا عن سبيل الله:

"وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[1].

وهذه الصياغة الخاصة لا يمكن أن تتم في الرخاء السهل، إنما تتم في الشدة المحرقة..

وكما تدرب الجيش المحارب في الصحراء على احتمال العطش والهجير وزوابع الرمل، وكما تدرب الجيش المحارب في الصقيع على احتمال أقسى درجات البرد والريح العاصفة المدوية.. فكذلك يتم تدريب الجيل الأول من الدعاة في ذات الجو الذي سيتعرضون له.. فيدخلهم ربهم المحنة رحمة بهم لا غضبًا عليهم ولا قِلىً لهم. حتى يعودهم على الجهد، فلا يجهدهم العمل، ولا يجهدهم الاستمرار فيه..

إنها الرحمة إذن، والتربية الربانية.. فضلًا على تمييز الخبيث من الطيب من أول الطريق.

إنه التدريب الرباني على تحمل المشاق، والإعداد الروحي والنفسي والعقلي والبدني للقيام بأخطر مهمة في هذا الكون كله: مهمة إقامة الخلافة الراشدة في الأرض...

* * *

ثم إنها فرصة لتدريب من نوع آخر، ضروري للدعاة بصفة عامة، وللجيل الأول من الدعوة بصفة خاصة.

إن الداعية لا يصلح أن يكون ملتصقًا بالأرض خاضعًا لجواذبها.

([1]) سورة النحل [94].

وحين يقوم المجتمع المسلم بالفعل، فقد يحتمل وجود أشخاص يلتزمون بأمر الله على حرف، ويوازنون أنفسهم -بالجهد- إزاء جواذب الأرض. ولكن الجيل الأول الذي يحمل تبعات التأسيس والبناء لا يصلح أن يكون كذلك، فإن حمله أثقل ومهمته أخطر.

حمله أثقل لأنه يواجه الجاهلية بضراوتها وإصرارها على إبادة الدعوة؛ ويواجه احتمالًا راجحًا إن لم يكن أكيدًا بالتعرض للحرمان من متاع الأرض المباح، بل للحرمان من حياته ذاتها بكل ما فيها من متاع.

ومهمته أخطر لأنه لا يطلب منه أن يكون مجرد مسلم عادي، إنما يطلب منه أن يكون نموذجًا يحتذى، لأن أنظار الناس متعلقة به تأخذ منه القدوة، فإن كان هو هابطًا، أو واقفًا على حرف يكاد يهبط، فهو نموذج سيئ وقدوة سيئة.

فلكي يكون قادرًا على حمل تلك التبعة الثقيلة بشقيها: مواجهة التكاليف الباهظة بنفس راضية، والارتفاع إلى مستوى القدوة، فإنه يلزمه تدريب من نوع خاص، يتعود فيه على الحرمان من متاع الأرض، ويتعود فيه على التخفف من جواذب الأرض، والقدوة على الانفلات منها في لحظة حين يدعو إلى ذلك داع.

ومع أن الإيمان باليوم الآخر يصنع صنيعه في النفس المؤمنة، وييسر عليها احتمال حرمان الأرض في سبيل رضا الله، إلا أن الإيمان درجات. والمطلوب لدور البناء والتأسيس ينبغي له أن يكون على الدرجة العليا من الإيمان. وهذا هو الذي يحتاج إلى التدريب الخاص، حتى يكون -على المستوى العملي- مستعدًّا للانخلاع من متاع الأرض في لحظة، بلا توجع ولا تحسر ولا لهفة...

في هذا التدريب الخاص -داخل الابتلاء- يُبْعَد الإنسان عن متاع الأرض على غير اختيار منه.. وقد يكون على غير رضا منه في مبدأ الأمر! ثم تمر الأيام وتطول المحنة بالشهور والسنوات.. فماذا يحدث من تحولات في داخل النفس؟

إنه -في الحقيقة- يحدث شيء كثير!

يحدث أولًا أن يكتشف الإنسان في نفسه طاقة على الصبر والاحتمال, لم يكن يظنها موجودة في نفسه، أو لم يكن يظنها بهذا القدر. وفي هذا تثبيت له على الابتلاء، وتشجيع على احتمال مثله إذا تعرض له في ظرف آخر. كأي تجربة جديدة قد يخشى الإنسان

خوضها، فإذا خاضها بنجاح لم تعد تكرثه من بعد، حتى وإن كانت تكلفه الكثير من الجهد..

ويحدث ثانيًا أن يكشف الإنسان أن كثيرًا من "ضرورات" الحياة التي ظنها في الرخاء ضرورة حياة أو موت ليست في الحقيقة كذلك! فها هو ذا قد حرم منها ومع ذلك لم يمت! وها هو ذا قد حرم منها ومع ذلك لم يفقد من "حجم" الحياة وعمقها كثيرًا في نفسه. بل الأصح هو العكس.. لقد زادت حياته غنى وعمقًا واتساعًا بألوان من المشاعر جديدة، رفيعة عالية، ما كان يحسها في الرخاء ولا يتذوق طعمها. وما كان يتأتى له أن يتذوقها لولا هذا الحرمان الإجباري الذي أوقعه فيه الابتلاء على كره منه! مشاعر وتصورات وأفكار ذات أعماق وأبعاد، وذات نور وشفافية وإشراق. حتى وإن كانت قاعدتها هي الألم، وغذاؤها هو الدموع..

ويحدث أخيرًا أن يرى الحياة الدنيا على حقيقتها، بحجمها الطبيعي..

إن نفس الإنسان كحسه.. القريب منها تراه أضخم من حقيقته، والبعيد عنها تراه أقل من حقيقة..

ضع أصبعك قريبًا من عينك تحجب عنك كل ما وراءها من المرئيات رغم حجمها الصغير، وأبعدها عنك تراها على حقيقتها، ولا تحجب عنك إلا خطًّا ضئيلًا لا يكاد يؤثر في رؤيتك للأشياء!

والنفس كذلك وهي ملتصقة بالأرض خاضعة لجواذبها. تراها في حسها ضخمة جدًّا، وهائلة جدًّا، وحرية بأن يعيش لها الإنسان كل لحظة من لحظات حياته. ثم تبتعد عنها -أو تبعد عنها قسرًا- فتراها على حقيقتها. وترى ما وراءها مما كانت تحجبه وهي قريبة من الحس.. فتخف الثقلة فلا تعود مقعدة، وتخف الجذبة فلا تعود قاهرة. وتخف المشغلة فلا تعود همّ الليل والنهار.. وينطلق الإنسان من إسارها بجهد أيسر.. أو بغير جهد حين يبلغ من التدريب مداه...

تلك دروس التربية في المحنة.. وهي دروس -كما ترى- لازمة للجيل الذي يقوم على أكتافه البناء؛ الجيل الذي يراد له أن يصنع صناعة خاصة، سواء في أثناء مواجهة الجاهلية الضارية، أو بعد ذلك حين يحدث التمكين، وفي كلا الحالين يكون المطلوب نماذج فائقة من البشر، استطاعت أن تتجرد لله، وأن تحتمل المشقة في سبيل الله.

* * *

وفي أثناء الابتلاء كان القرآن يتنزل في مكة بقصص الأنبياء وقصص المكذبين من قبل على مدار التاريخ، إلى جانب المعاني الأخرى التي سردناها من قبل.. وهي دروس في العقيدة ودروس في التربية في ذات الوقت..

دروس في العقيدة، تبين أن كل رسول أو نبي إنما جاء بكلمة واحدة لا تتغير: لا إله إلا الله. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. فالعقيدة واحدة لا تتغير, عقيدة أزلية واحدة لا يدخل عليها تبديل ولا تحوير.. وتبين أن الجاهلية كلها وقفت موقفًا واحدًا هو الصد عن سبيل الله، ورفض لا إله إلا الله بادي ذي بدء، ومحاربة النبي والذين آمنوا معه بغية التخلص منهم ومن دعوتهم الخطرة على كيانهم وسلطانهم الذي يمارسونه في الأرض بغير حق، ويستعبدون به الناس لأنفسهم من دون الله. وتبين أخيرًا المصير الحتمي للطغاة الذين يحاربون دعوة لا إله إلا الله، إذ يدمر اللهم عليهم وينجي رسوله والذين آمنوا معه ويمكن لهم في الأرض، بعد أن يملي للكفار فيزيدوا في طغيانهم، ويغتروا بانتصارهم المؤقت على دعوة لا إله إلا الله فيظنوا أنهم مبيدوها وقاهرون فوقها.. ثم يأخذهم الله من حيث لا يحتسبون، وهم في ذروة النصر الوهمي وذروة الانتشاء..

تلك دروس العقيدة. وهي هي دروس التربية كذلك، فهي تقول لهم: لستم وحدكم على الطريق. إنما سبقتكم أمم ابتليت كما ابتليتم، وطغى عليها الطغاة كما طغوا عليكم، فصبروا على الاضطهاد والتعذيب والتشريد والتقتيل. فكونوا كذلك صابرين مثلهم. فهذا سبيل الدعاة وهذا قدرهم..

ثم هي تقول لهم: إن الله هو الذي يقدر ذلك كله.. هو الذي يمد للطغاة، ليزدادوا كفرًا على كفرهم، وليبتلي المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، فرسخوا إيمانكم بالله لتخرجوا ناجين من الابتلاء، مستحقين عند الله حسن الجزاء.

ثم هي تقول لهم:إن الله هو الذي ينهي المحنة حين يحل الموعد المقدور في قدر الله. وإذن فسبيل المؤمنين هو الصبر حتى يأتي الله بالتغيير، وهو التوجه لله والتطلع الدائم إليه أن يكشف الغمة عنهم ويقرب الفرج إليهم.. وبذلك يرتبط القلب البشري بالله مزيدًا من الارتباط، ويتربى على التطلع الدائم إليه والتوجه إليه في الكبيرة والصغيرة على السواء.

والرسول صلى الله عليه وسلم كذلك يحدثهم بأخبار من كان قبلهم، وعن صبرهم في الابتلاء، ويطلب إليهم الثبات والصبر والتعلق بالله، ويعطيهم من نفسه النموذج والقدوة في

ذلك كله. فتمتزج دروس العقيدة ودروس التربية في مزيج واحد يصنع في نفوس المؤمنين –دون أن يشعروا– تلك التحولات الضخمة التي حدثت، فيخرجون من المحنة أصلب عودًا وأمضى ثباتًا، وقد ترسخت العقيدة في نفوسهم فلم تعد تقتلع، وترسخ منهج التربية الإسلامية في وجدانهم فاستقاموا عليه. وتجردت نفوسهم لله فلم تعد تبغي لنفسها شيئًا إلا الوصول لرضوان الله..

ولما علم الله من قلوبهم ما علم؛ علم منها إخلاصها وتجردها، واستقامتها على أمر الله واستعدادها للبذل في سبيل الله، أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، وبدأت جولة جديدة في منهج التربية الإسلامية بعد قيام الدولة في المدينة...

* * *

في المدينة بدأ دور جديد للجماعة المسلمة، ودور جديد للتربية الإسلامية، يستند إلى الدور الماضي كله ويضيف إليه.

لقد صارت الجماعة المضطهدة المستضعفة المطاردة الخائفة جماعة آمنة مستقرة مستمكنة:

"وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[1].

وبرزت جوانب جديدة في حياة الجماعة المسلمة اقتضتها الظروف الجديدة، وبرزت بإزائها جوانب جديدة من النفس، في حاجة إلى توجيه، أو على الأقل في حاجة إلى تدريب عملي يؤكد التوجيه ويثبته ويعمق جذوره..

وكانت البداية الرائعة هي استقبال الأنصار للمهاجرين ذلك الاستقبال الفريد في التاريخ.. إذ أفسحوا لهم صدورهم، وديارهم، وأموالهم. بل وصل الأمر إلى التنازل عن "الفائض" من النساء للذين جاءوا من مكة بغير زوجات!

"وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[1].

([1]) سورة الأنفال [26].

كانت المؤاخاة التي عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار تدريبًا عمليًّا على "الأخوة الإسلامية" التي تبعثها تلك العقيدة في نفوس المؤمنين بها: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ"[2] وكان تدريبًا ناجحًا. فذًّا في نجاحه، فريدًا في التاريخ.

وكانت كذلك تدريبًا عمليًّا على "التكافل" وهو معنى من المعاني العميقة في بناء الجماعة الإسلامية: القادرون يكفلون غير القادرين. على أساس الأخوة في الله من جانب، وعلى أساس التصرف في مال الله بما يرضي الله من جانب آخر.

إن العقيدة الإسلامية -والتربية الإسلامية كذلك- تربي المسلمين على أن المال الذي في أيديهم هو مال الله في الحقيقة. هو الذي وهبه -وإن شاء أخذه- وهو الذي ملكه لمن ملكه له، ومن ثم يخف في أنفسهم الشعور البشري بالملك، الذي يستبد بالناس في الجاهلية فيصبح جنونًا لا يترك صاحبه في راحة؛ يريد أن يستزيد دائمًا لينتفش ويستكبر بمقدار ما يزيد. أما في حس المسلم فالمال في يده نعم. ولكنه مال الله في الحقيقة. وقد أمر الله بإنفاق جانب منه للمحتاجين إليه من "الإخوة" في المجتمع الإسلامي. فينفق المسلم ذلك عن طيب خاطر -بمقدار رسوخ العقيدة ورسوخ التربية الإسلامية في نفسه- سواء في الزكاة المفروضة أو في التطوع الذي ليست له نسب مقررة ولا حدود؛ ويتم بذلك التكافل الذي تتسم به حياة المسلمين، سواء في داخل الأسرة أو في المجتمع على اتساعه؛ ويتم التخفف من الشح، وذلك ركيزة من ركائز التربية الإسلامية.

ثم يبدأ الجهاد في سبيل الله..

وهو وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة واحتمال المشقات، في حاجة إلى تربية وتدريب جديد..

بالأمس كان وجه العقيدة -ووجه التربية كذلك- هو احتمال الأذى الذي تصبه الجاهلية على المؤمنين، وقد اجتازت الجماعة الأولى ذلك الوجه بثبات باهر ونجاح باهر، بتوجيهات القرآن وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم وسهره على رعايتها وتقويمها وتثبيتها.

([1]) سورة الحشر [9].

([2]) سورة الحجرات [10].

واليوم أصبح وجه العقيدة –ووجه التربية كذلك– هو احتمال الأذى في سبيل الذود عن العقيدة من الأعداء.

قد يكون بينهما جانب مشترك. ولكنه على وجه التأكيد لون جديد من التربية والتدريب والإعداد..

قد يحتمل الإنسان أذى مصبوبًا عليه من الظالم.. ولكن أن يقاتله ويعرض نفسه للموت في القتال هذا أمر آخر..

حقيقة إن القتال يرتكز على ذات القاعدة التي ربيت من قبل في محنة الابتلاء:

أن الموت والحياة بيد الله، والضر والنفع بيد الله، لا يملكهما غيره وإن وَهِمَ البشر غير ذلك.

وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية التي يحرص المؤمن عليها، وأن متاع الدنيا قليل لا يساوي الحرص عليه.

وحقيقة إن الرصيد الذي اكتسبه المؤمنون في المحنة، من صلابة العود، والاستعداد للانخلاع من متاع الأرض حين يدعو الداعي إلى ذلك، هو ذات الرصيد المطلوب للقتال..

ومع ذلك فالأمر محتاج إلى توجيه جديد وتدريب جديد، لأن احتمال الأذى كما قلنا شيء، والخروج إلى المخاطر شيء آخر..

والدليل على أنه درس جديد وتدريب جديد هو كل تلك الآيات التي تحرض المؤمنين على القتال في السور المدنية الطويلة بصفة خاصة: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة. ثم الأنفال والتوبة.. وسورة آل عمران كلها –على طولها– حديث واحد منوع عن معركة لا إله إلا الله، وما حول المعركة من معان متشعبة الأطراف..

والدليل كذلك ما جاء في بعض هذه الآيات بصفة خاصة:

"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ"[1].

([1]) سورة البقرة [216].

"وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ، وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"[1].

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا، أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ"[2].

"أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[3].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ"[4]..

ولقد كان تدريبًا شاقًّا وطويلًا ومجهدًا حتى استوت عليه النفوس.. وكان من آثاره ذلك النصر الكاسح الذي لا مثيل له في التاريخ، حين امتدت الدولة بالفتوح في أقل من عشر سنوات بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فشملت العراق وفارس والشام ومصر.. ثم امتدت في أقل من خمسين سنة فشملت من الهند إلى الشمال الإفريقي..

وكان القرآن يلقي الدرس تلو الدرس يستحث المسلمين على القتال في سبيل الله، ويرسم الصور المشرقة للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، كما يحذرهم من التولي يوم الزحف، أو القعود الذي لا يصدر إلا عن المنافقين:

---

(1) سورة آل عمران [143-148].

(2) سورة النساء [77-78].

(3) سورة التوبة [13].

(4) سورة التوبة [38].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"[1].

"وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[2].

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على القتال ويشجعهم عليه ويحبب إليهم الاستشهاد في سبيل الله، ويعطيهم من نفسه القدوة في الشجاعة والإقدام والثبات والطمأنينة في القتال.

* * *

ثم تأتي مع نمو الدولة، وتزايد ألوان النشاط فيها، وتعدد الملابسات المارة بها، تدريبات تربوية جديدة يتنزل بها القرآن أو يوجه إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلها يرسخ العقيدة، وكلها يرسخ منهج التربية الإسلامية في النفوس.

فثمت توجيهات لطاعة القيادة، والالتجاء إليها في المشكل من الأمر، لكي لا تنتشر الفوضى بالتصرفات الفردية غير المنضبطة:

"وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا"[3].

وتوجيهات لتوقير القيادة واحترامها:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ"[1].

([1]) سورة الأنفال [15-16].

([2]) سورة آل عمران [167-168].

([3]) سورة النساء [83].

وتوجيهات لاستئذان القيادة في الانصراف:

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[2].

وتوجيهات أخلاقية لما ينبغي أن يكون عليه تعامل الإخوة المسلمين في المجتمع المسلم كالتي تحتويها سورة الحجرات، من الإصلاح بين المتخاصمين، والضرب على يد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله. وتحريم سخرية المؤمنين بعضهم بعض أو لمز أنفسهم، أو التجسس، أو الغيبة...

وتوجيهات خلقية أخرى بعدم دخول البيوت إلا باستئذان، وبغض البصر ومنع التبرج والفتنة وإبداء المرأة لزينتها كالتي تحويها سورة النور.

وتوجيهات سياسية بعدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء كما جاء في سوة المائدة.

وتوجيهات سياسية أخرى تبين مخطط اليهود والنصارى في محاربة الإسلام, وواجب المسلمين نحو هذا المخطط، من عدم اتباعهم، وعدم اتخاذ بطانة منهم، وعدم الاستجابة لفتنتهم كما جاء في سورة آل عمران.

وتوجيهات سياسية ثالثة بالنسبة للمنافقين، والدور الذي يقومون به في المجتمع الإسلامي، وضرورة الابتعاد عنهم وعدم الاختلاف في شأنهم، وعدم الدفاع عنهم, وعدم توليهم كما جاء في سورة النساء بصفة خاصة، وكذلك في البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والحشر والمنافقون.. وسور أخرى كثيرة..

وتوجيهات اجتماعية بحماية الضعفاء في المجتمع المسلم من نساء أو ولدان أو رجال ضعفاء، ويتامى، وأرقاء كما جاء في سورة النساء والبقرة.

([1]) سورة الحجرات [2].

([2]) سورة النور [62-63].

وتوجيهات اقتصادية كتحريم الربا، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل كما جاء في سورة البقرة وسورة النساء..

وعديد من التوجيهات في كل مناحي الحياة التي كانت تنمو بسرعة في المجتمع المسلم وتحتاج إلى توجيهات متلاحقة لبيان سبيل التعامل الصحيح فيها..

وبهذه التوجيهات من القرآن ومن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لتنفيذها، ومراقبته الدائمة لها، ومصاحبته للصحابة مصاحبة الصديق المحب الموجه في رفق، الشديد في الحق، الملهم بأحوال النفوس وخير الطرق للدخول إليها..

بهذا كله تم منهج التربية الإسلامية لهذه الجماعة كما أراده الله، وكما وجه رسوله صلى الله عليه وسلم إليه، على القاعدة الأولى التي نشأت من مكة: قاعدة حب الله ورسوله. والطاعة لله ورسوله. والتلقي من عند الله ورسوله ورفض التلقي من كل مصدر سواه..

تلك كانت القاعدة الأولى التي انبنى عليها كل ما جاء بعد ذلك من دروس التربية ودروس العقيدة، حتى استقامت تلك النفوس على القمة السامقة، ووقفت هناك وقفتها المشرقة العالية، تنير الطريق لكل البشرية:

"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"[1].

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"[2].

ولقد كان جهدًا جهيدًا ما بذل في سبيل تربية هذه الأمة، وما بذلته هذه الأمة من نفسها لتستقيم على تربيتها الإسلامية..

جهد لم يخل من عثرات في الطريق وكبوات..

فقد عثروا يوم أحد بما استوجب تنزيل سورتين كاملتين: سورة آل عمران وسورة الأنفال.

---

(1) سورة آل عمران [110].

(2) سورة البقرة [143].

وعثروا يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا, وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وولوا مدبرين.

وشق عليهم القتال يوم الأحزاب حتى زلزلوا زلزالًا شديدًا.

قال رجل من الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله. أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه؟ قال: نعم يابن أخي. قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله كنا نجهد. فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض, ولحملناه على أعناقنا. قال، فقال حذيفة: يابن أخي! والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويًّا من الليل ثم التفت إلينا فقال: "من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع -يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة- أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟ " فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني..!

وعثروا في حديث الإفك حتى شق ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم شهرًا كاملًا إلى أن نزل الوحي بتبرئة عائشة رضي الله عنها.

ولكن هذه كلها كانت دروسًا في التربية ... التربية بالأحداث.. كل حدث من هؤلاء كان يهز المجتمع المسلم كله هزًّا عنيفًا، ثم تتنزل الآيات فتلقي الدرس و"الحديد ساخن" فيترك الدرس طابعه بعد ذلك لا يزول..

ولكن مع هذه العثرات -البشرية على أية حال- كانت تلك النماذج الفائقة الفريدة في التاريخ:

النموذج الذي أنزل الله فيه:

"وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"

ونموذج تحريم الخمر...

لما حرمت الخمر أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديًا ينادي في طرقات المدينة: أيها الناس. ألا إن الخمر قد حرمت.. وكانت كلمة واحدة وكان فيها الكفاية.. رووا عن أنفسهم قالوا: فقام كل واحد إلى ما كان في بيته من زقاق وأدنان فأراقها في الطريق، حتى

بقيت طرقات المدينة أيامًا يشم منها رائحة الخمر. **ومن كان في فمه شربة رماها**. نعم. هي الطاعة الكاملة والامتثال الكامل. حتى من كان في فمه شربة قذف بها ولم يبلعها.. وإن أحدًا لا يراه إلا الله.. ودول "متحضرة" تبذل جهدها في مقاومة السكر الزائد عن الحد، الذي يؤدي إلى ارتكاب الجرائم من قتل واغتصاب وحوادث طريق، فلا يكون من جهدها الجاهد إلا زيادة السكر وزيادة المخمورين!

ونماذج الجهاد في سبيل الله..

الرجل الذي يقول: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلني؟! ثم يلقي بنفسه في المعركة فيستشهد..

والذي يأخذ تمرات في يديه، ثم يأخذ في أكل تمرة منها، فإذا الجنة تشده إليها، ورغبة الاستشهاد في سبيل الله تملك عليه نفسه فيتعجل الذهاب ولا يصبر حتى يكمل ثمرته، فيلقيها عنه وهو يقول: لئن بقيت حتى أنتهى منها إن هذا لأمر يطول.. ويذهب إلى الجنة التي تناديه..

نماذج ونماذج ونماذج لا تتسع لها هذه السطور..

ولكن حسبنا أن نقول إن هذه الجماعة التي ربيت على هدى القرآن، وعلى عين الرسول صلى الله عليه وسلم، هي التي كتبت التاريخ.

موضع القدوة في جماعة الرسول صلى الله عليه وسلم

أين موضعنا اليوم من جماعة الرسول صلى الله عليه وسلم؟ كيف نقتدي بها؟ وما موضع القدوة فيها؟

هل نحن امتداد لها على خط لم ينقطع؟ أم نحن بدء جديد يبدأ على طريقتها؟ وإن كنا بدءًا جديدًا فمن أين نبدأ؟ نبدأ من نقطة الصفر في مكة؟ أم من مرحلة متأخرة في مكة؟ أم من نقطة البدء في المدينة؟ أم من نهايتها؟ وهل يمكن أن يعاد الشريط كما هو في أي مرحلة من مراحل التاريخ؟

أسئلة ينبغي أن نحدد إجابتها على وجه الدقة، لنعرف طريقنا، ونعرف خطوات عملنا، ونعرف خطوات عملنا، ونعرف ما يحتاج إلى تركيز أكثر أو تركيز أقل..

وينبغي أن نواجه أنفسنا في صراحة وشجاعة، إن كنا حقًّا جادين في العمل من أجل الإسلام والتربية الإسلامية. فما أخسر المجاملة في هذا الشأن بالذات! نضحك على أنفسنا ثم لا نصنع شيئًا في الحقيقة, ثم نوهم أنفسنا أننا عاملون!

إننا -دون التعرض للحكم على أعيان الناس- نعيش في مجتمع جاهلي منقطع الصلة بالإسلام!

وقد تحدثت عن هذه القضية في غير هذا الكتاب[1] بما لا أحتاج أن أعيد نقله هنا في هذا الكتاب، ولكني أقول في أقصى اختصار ممكن: إن حكمنا على هذا المجتمع بأنه مجتمع جاهلي ليس حكمًا على أفراده. إنما معناه فقط إن "المظلة" التي تظلل الناس في هذا المجتمع هي مظلة جاهلية لأن شريعة الله ليست هي المحكمة في الأرض، ولأن الصورة الغالبة على هذا المجتمع ليست هي الصورة الإسلامية، ولأن الأفكار والتقاليد وأنماط السلوك التي تحكم المجتمع ليست هي الأفكار ولا التقاليد ولا أنماط السلوك التي أمر بها الله ورسوله. ولكن هذه المظلة الجاهلية لا تلقي حكمها على كل الناس الواقفين تحتها، فهؤلاء كل منهم له حكمه الخاص، بحسب موقفه الشعوري والفكري والعملي من هذه المظلة، كما يقول حديث

(1)انظر كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح" فصل "مفهوم لا إله إلا الله".

الرسول صلى الله عليه وسلم: "..فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع"[1].

ومن الكذب على الله وعلى التاريخ إذن أن تقول إننا امتداد لجماعة الرسول صلى الله عليه وسلم على خط غير منقطع. فلو أن واحدًا من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بعث في هذه اللحظة ورأى أحوالنا لفزع منها، ولحكم من توه أن هذا المجتمع قد ارتد إلى أبشع من الجاهلية الأولى التي شهدها ذلك الصحابي قبل أن يدخل في الإسلام. فما كانت المرأة في مجتمعه الجاهل بهذا التبرج، ولا كان الشباب في مجتمعه بهذه الميوعة والطراوة والانحلال، ولا كان المجتمع كله واقعًا في الكذب والخداع والنفاق والرذيلة كهذا المجتمع الذي نزعم زورًا أنه مجتمع إسلامي!

وسيتذكر ذلك الصحابي ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لواحد من أجلّة الصحابة: "أنت امرؤ فيك جاهلية" من أجل كلمة واحدة قالها، إذ قال لبلال رضي الله عنه: يا ابن السوداء! فكيف يكون حكمه يا ترى على هذا المجتمع بكل أوزاره التي يحملها وكل معاصيه؟!

كلا! ما ينبغي لنا أن نخدع أنفسنا ونزعم أننا مجتمع إسلامي [بصرف النظر عن الحكم على ذوات الناس، فهذا أمر لا نتعرض له] ولا يجدي شيئًا كذلك أن نخدع أنفسنا هذه الخديعة. فغاية ما يحدث منها أن نظل نَصِف علاجًا لا ينفع، ويظل الداء باقيًا دون شفاء!

يجب إذن أن نصارح أنفسنا –في شجاعة وصراحة– أنه ينبغي علينا أن نبدأ بدءًا جديدًا إن كنا نريد أن نعود حقيقة إلى الإسلام، في صورته الربانية التي أنزله الله بها، لا في أي صورة مزيفة نبتدعها، ثم نضع عليها لافتة من عندنا تقول: هذا إسلام!

ولكن هنا يجابهنا ذلك السؤال الهام: من أين نبدأ؟

هل نحن في مثل العهد المكي فنبدأ من حيث بدأ العهد المكي؟

أم نحن في مثل العهد المدني فنبدأ من هناك؟

أم نحن في صورة أخرى غير هذه وتلك، تفرض علينا بدءًا من نوع جديد؟

([1]) أخرجه مسلم وأبو داود.

الحق أنه لا يمكن –بصفة عامة– أن يدار شريط الأحداث بصورة واحدة مرتين في أي فترة من فترات التاريخ.

والحق كذلك أننا في وضع لا يتماثل تمامًا مع العهد المكي –وإن كان أشبه به– ولا مع العهد المدني، وإن كان يحوي مشابه منه.

بل نستطيع أن نقول إننا صورة فريدة –سيئة– لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإسلام على الأقل، إن لم يكن في تاريخ البشرية!

* * *

كان الناس في الجاهلية الأولى –أي: في العهد المكي– مشركين شركًا واضحًا صريحًا لا لبس فيه بالنسبة لأنفسهم ولا بالنسبة للمسلمين الذين آمنوا من بين هذا المجتمع بالدين الجديد الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كانوا يعتقدون اعتقادًا مقررًا لديهم وواضحًا أن هناك آلهة متعددة، ويرفضون رفضًا صريحًا فكرة الإله الواحد، ويتعجبون من الداعي إليها، ويعجّبون منه:

"أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!!"[1].

وكانوا في سلوكهم العملي يتبعون هذه الآلهة المدعاة فيما تحل لهم وتحرم عليهم، فيأكلون الميتة، ويحرمون بعض الأنعام بغير ما حكم الله، ويجعلون بعضها حلالًا لبعض الناس وحرامًا على آخرين في ذات الوقت، افتراء على الله.

"وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ، وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ، وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا

---

(1) سورة ص [5].

بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ"[1] صدق الله العظيم. قد ضلوا وما كانوا مهتدين. ولكنهم مع ذلك كانوا منطقيين في ضلالتهم!

كان هناك تطابق كامل وواضح بين اعتقادهم الضال وسلوكهم الضال. يعتقدون بوجود الآلهة فيتبعونها. ويتبعونها لأنهم معتقدون بوجودها وبألوهيتها وبفاعليتها وبواجب العبادة والاتباع لها.

وبمجرد أن زال الاعتقاد زالت العبادة وزال الاتباع.. فكانوا منطقيين مع أنفسهم مرة أخرى في إيمانهم كما كانوا منطقيين مع أنفسهم في ضلالتهم.

آمنوا أنه لا إله إلا الله، فعبدوه وحده، واتبعوه وحده، ونفذوا شريعته تنفيذا كاملًا لا يخلطون بها شيئًا من شرائع الخلق. ولم يستغرق ذلك منهم تفكيرًا ولا جدلًا ولا تلكؤًا [إلا المنافقين] ولا كان في حسهم أنه في حاجة إلى بحث فردي أو بحث جماعي. فهو البديهية المنطقية مع موقفهم الاعتقادي.. لا تحتاج إلى تبرير ولا تفسير.

آلهة متعددة معتقد بوجودها.. فمعبودة ومتبعة.

إله واحد معتقد بوجوده.. فمعبود ومتبع.

قضية بديهية واضحة لا تحتاج إلى بيان.

إنما كان البيان كله موجهًا في مكة للمشركين، ثم –في المدينة– للمنافقين.

في مكة كان يقول للمشركين: "اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ"[2].

وكان يقول لهم: "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ"[3].

فيربط اتخاذ الشركاء باتباع شريعة أولئك الشركاء. ثم يناقشهم –بمختلف الوسائل التي يستخدمها القرآن– لبيان سخف هذا الاعتقاد، واستحالة وجود الشركاء، ثم، بالتالي،

---

(1) سورة الأنعام [136-140].

(2) سورة الأعراف [2].

(3) سورة الشورى [21].

يطالبهم بإبطال شريعتهم، لأنها باطلة، لم تصدر من جهة ذات سلطان؛ واتباع ما أنزل الله لأنه هو وحده الإله الحق، وصاحب السلطان وصاحب الأمر: "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ"[1].

وفي المدينة كان يقول عن المنافقين: "فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"[2].

وكان يقول لهم: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ"[3].

أما المؤمنون فما كانوا في حاجة إلى توكيد هذه البديهية الواضحة في حسهم، ولا إلى بيان أسبابها، فهي مسلّمة لديهم. لذلك لم يأت ذكرها إلا لمجرد التذكير:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"[4].

وبقي المسلمون يحملون هذه البديهية في حسهم ما يقرب من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، منذ قامت الدولة الإسلامية في المدينة حتى نحيت شريعة الله عن الحكم في القرن الهجري الأخير..

كانوا يحكمون بشريعة الله، ويرون -بداهة- أن هذا هو مقتضى كونهم مسلمين..

* * *

أما نحن -في قرننا هذا الحالي- فإننا حالة فريدة -سيئة- في تاريخ الإسلام كله. إن لم يكن في تاريخ البشرية.

فنحن نؤمن بوحدانية الله لا شريك له، ثم -لأول مرة في تاريخ الإسلام- لا ننفذ شريعته! ولا نرى حَرَجًا في ذلك ولا مأثمة. بل يرى فريق منا -ممن يزعمون رغم ذلك أنهم مسلمون! - أن الخير هو في تنحية هذه الشريعة الربانية واتخاذ تشريعات أخرى من صنع البشر!

---

(1) سورة الأعراف [54].

(2) سورة النساء [65].

(3) سورة المائدة [44].

(4) سورة النساء [59].

حالة فريدة في تاريخ الإسلام..

وأكاد أقول في تاريخ البشرية كله. ذلك أن البشرية في تاريخها كله كانت لا تخرج عن إحدى حالتين اثنتين: إما مؤمنة بالله الواحد، فمنفذة لشريعته المنزلة؛ وإما مشركة في الاعتقاد، تؤمن بوجود آلهة أخرى مع الله, فمنفذة حينئذ لشرائع الشركاء من دون الله.

أما أن نؤمن بالله الواحد ثم ننفذ شريعة غيره فخبل لم يحدث من قبل في جاهلية ولا في إسلام!

وبصرف النظر عن وضع الناس في أحوال كهذه الأحوال -وتلك قضية لا نتعرض لها في هذا الكتاب- فإننا هنا معنيون بأمر واحد: من أين نبدأ؟

وواضح أننا لا نبدأ بدعوة الناس إلى الإله الواحد، فتلك مسلمة عندهم ومستيقنة [بصرف النظر حاليًا عما يقع فيه عباد الأولياء والأضرحة من تشفيع الموتى من البشر عند الله ونحر الذبائح لهم ليقوموا بهذه الشفاعة. فتلك مسألة في طريقها إلى الزوال التدريجي فيما أحسب..] وإنما نبدأ ببيان معنى لا إله إلا الله. فتلك هي التي تحتاج عندهم إلى بيان وتعليم وتثقيف.

لقد عملت ظروف كثيرة في القرنين الأخيرين خاصة -ومن أهمها المخطط الصليبي الصهيوني لمحاربة الإسلام -على تجهيل المسلمين بحقيقة لا إله إلا الله، وفصلها فصلًا كاملًا عن قضية الحكم بما أنزل الله. لأن المخططين كانوا يعتزمون قتل الإسلام بتنحيته تدريجيًّا عن حكم الحياة الواقعية للناس. فبدأوا بتنحية الشريعة، ثم ثنوا بانتزاع المفاهيم الإسلامية واحدًا إثر واحد من أفكار الناس ومشاعرهم وتقاليدهم وأنماط سلوكهم، مع المحافظة التامة على المظاهر الزائفة للإسلام منعًا من إثارة الشكوك، كما قال اللورد كرومر في كتابه "مصر الحديثة" وذلك حتى لا يتنبه المسلمون إلى الكيد المدبر لهم، ويظلوا في اطمئنان خادع إلى أن إسلامهم ما زال بخير، فلا يهبوا لنجدة العقيدة التي تقتلع من الجذور[1].

من أجل ذلك ركزوا -وساعدهم في ذلك رجال دين محترفون- على الأحاديث النبوية التي تقول: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة" وهي أحاديث صحيحة ولا شك. ولكنهم أهملوا -متعمدين- بيان حقيقة "لا إله إلا الله" التي تدخل الناس الجنة، وصلتها الوثيقة التي لا تنفصم بالحكم بما أنزل الله.. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم اشترط فيها إخلاص

(1) راجع فصل "أثر المخطط الصليبي الصهيوني في حياة المسلمين" من كتاب "المستشرقون والإسلام".

القلب، وبين إخلاص القلب بأنه عدم الشرك، وبين أنواع الشرك فعدد من بينها التحاكم إلى غير شريعة الله عن رضى ومتابعة![1].

والحادث الآن في الأجيال القائمة هو هذه الجهالة بالمعنى الحقيقي للا إله إلا الله..

وبصرف النظر مرة أخرى عن كون الناس معذورين بهذه الجهالة أو غير معذورين، وعن كون مقتضى لا إله إلا الله -الذي يعطي الإنسان صفة الإسلام (وهو الإقرار بما جاء من عند الله، وعدم الرضا بشريعة غير شريعة الله) معلومًا من الدين بالضرورة أو غير معلوم (!!) فإننا معنيون بتحديد نقطة البدء. وقد تحددت لنا الآن بوضوح فيما أحسب. فإننا لا نبدأ بدعوة الناس إلى الاعتقاد بوحدانية الله، إنما نبدأ بشيء لم يكن طيلة ثلاثة عشر قرنًا يحتاج إلى بيان، والآن يحتاج إلى البيان، وهو حقيقة معنى لا إله إلا الله، وصلتها الوثيقة التي لا تنفصم بالحكم بما أنزل الله.

وهذا فارق أساسي بيننا وبين نقطة البدء في العهد المكي.. ولكنه فارق يجعل الأمر بالنسبة للدعاة أسوأ!

لقد كان الجهد الذي بذله الرسول صلى الله عليه وسلم مع المشركين في مكة -يؤيده الوحي- منصبًّا كله على إقناعهم بأنه لا إله إلا الله. ولكنه لم يبذل جهدًا على الإطلاق في إقناعهم- بعد أن آمنوا- بتحكيم شريعة الله، ولا بأن تحكيم شريعة الله هو مقتضى الإيمان بلا إله إلا الله. لأن هذه كما قلنا كانت بديهية في حسهم لا تحتاج إلى بيان. وكذلك لم يبذل صلى الله عليه وسلم جهدًا مع المنافقين في إقناعهم بأن التحاكم إلى شريعة الله هو مقتضى شهادة لا إله إلا الله. إنما كان -بتوجيه الوحي- يتحداهم بذلك ليكشفهم -لا ليجادلهم ولا ليقنعهم! كان يقول لهم- أو يقول الوحي- إن كنتم مؤمنين حقًّا فآية إيمانكم هي التحاكم إلى ما أنزل الله:

"فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"[2].

"وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ

([1]) راجع فصل "مفهوم لا إله إلا الله" في كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

([2]) سورة النساء [65].

الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ"[1].

أما هذه الأجيال القائمة، التي تربت في ظل المخطط الصليبي الصهيوني لمحاربة الإسلام، فهي في حاجة إلى جهد ضخم لاستيعاب هذه الحقيقة التي لم يكن المسلمون يحتاجون فيها إلى كلمة واحدة خلال القرون! ولأن الحقيقة معماة عنهم –عن قصد– فالجهد ليس هينًا في الحقيقة. فأنت تقول لهم: لكي نكون مسلمين فلا بد أن نتحاكم إلى شريعة الله، فيقولون لك: إننا مسلمون بلا إله إلا الله!

وأيًّا كان الجهد المطلوب وصعوبته، وأيًّا كان الحرج الذي يصيب الدعاة في سبيل توضيح هذه الحقيقة، فقد تحددت لنا نقطة البدء على أي حال، وذلك من الأهمية بمكان.

ثم إنه لا يكفي بطبيعة الحال أن نقول وأن نعلم.. إنما ينبغي أن نعمل بما نقول وبما نعلم، وإلا فقد حق علينا القول:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ"[2].

فعندما تستقر هذه الحقيقة –حقيقة "لا إله إلا الله"– في الأذهان، فينبغي أن تتحول إلى رصيد واقعي في حياة الناس. فإذا كانت لا إله إلا الله معناها اتباع منهج الله بعد الإيمان بوحدانيته سبحانه وتعالى, فينبغي أن نعمل على تحويل حياتنا كلها لتستقيم على منهج الله في كل شيء: في سياسة الحكم، في سياسة المال، في سياسة المجتمع، في الأخلاق، في علاقات الجنسين، في علاقات الأسرة، في نظم التعليم، في وسائل الإعلام.. في كل شيء على الإطلاق.

وهنا قد يتشابه منهج عملنا مع منهج العمل في الفترة المكية: تأسيس العقيدة الصحيحة [ببيان المعنى الحقيقي للا إله إلا الله]. ترسيخ معنى الطاعة لله والرسول. ترسيخ

([1]) سورة النور [47-52].

([2]) سورة الصف [2-3].

معنى التلقي من عند الله وحده ونبذ التلقي من كل مصدر سواه. ترسيخ أخلاقيات لا إله إلا الله.

ولكنا مرة أخرى سنجد هنا فارقًا بيننا وبين العهد المكي.

ففي العهد المكي لم تكن معظم التشريعات قد نزلت بعد، ولم يكن المسلمون قد التزموا بها. أما نحن اليوم فما دمنا مسلمين كما نقول، فنحن ملتزمون بالإسلام كله، بتشريعاته وتنظيماته وتوجيهاته جميعًا. فنحن إذن –نظريًّا– في العهد المدني، حيث نحن ملتزمون بالإسلام كله، وواقعيًّا نحن قريب من نقطة البدء في العهد المكي [على اختلاف في نقطة البدء ذاتها كما بينا] كما أننا نقف موقفًا مماثلًا للمسلمين في العهد المكي، من حيث إننا دعوة لم تصبح بعد دولة، ومن حيث إننا دعوة مضطهدة من الذين لا يحكمون بما أنزل الله.

وليس هنا مجال الحديث عن منهج العمل بالتفصيل.

إنما كنا نتحدث هنا فقط عن موضع القدوة في جماعة الرسول صلى الله عليه وسلم. أين نقتدي بها وكيف. وبدأنا بتحديد نقطة البدء وهي بيان المعنى الحقيقي لشهادة لا إله إلا الله. ثم حددنا الخطوة التالية بأنها هي العمل على تحويل المجتمع الجاهلي إلى المنهج الإسلامي إلى أن تستقيم عليه أحواله، وينفض ما تراكم عليه من ركام الجاهلية الذي غشي على صورته الإسلامية.

ونضيف إلى ذلك أن أداة التحويل التي نحول بها المجتمع إلى المنهج الإسلامي هي التربية الإسلامية. ولا أداة غير ذلك.

وسواء قامت الدولة بالأمر أم قامت به جماعة ندبت نفسها للدعوة، فلا أداة لها إلا تربية جيل جديد على منهج التربية الإسلامية الذي تربت عليه الجماعة الأولى، والذي ينبغي أن تتربى عليه كل أجيال المسلمين على مدى التاريخ..

وقد أشرنا من قبل إلى أنه يستحيل إعادة الشريط كما هو مرة أخرى في أي فترة من فترات التاريخ.

ولكن جوهر التربية الإسلامية لا يمكن أن يتغير، مهما تغيرت الصورة الظاهرة، ومهما تغيرت الملابسات في المجتمع.

وقد تغيرت ولا شك مظاهر كثيرة منذ ذلك الحين..

كان المسجد هو مكان الصلاة ومكان الدرس ومكان الحكم في قضايا الناس، ومكان الإفتاء فيما يعن لهم من أمر، ومكان المؤتمرات السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ.

ولم يعد ذلك في الإمكان اليوم فقد اتسعت رقعة الحياة من ناحية، واتسع "التخصص" من ناحية أخرى حتى أصبح لكل شأن من هذه الشؤون مكان، بل أكثر من مكان.

ولم تكن هناك وسيلة إعلام إلا التقاء الناس بالحاكم أو المسؤول وجهًا لوجه. واليوم توجد صحافة وإذاعة وسينما وتليفزيون وكتاب.

وكانت التربية تتم في يسر –نسبي– بعد انحلال عقدة الشرك ودخول الناس في الإيمان، لأن الجاهلية الأولى –رغم شركها– كانت تحتوي على خصال كثيرة مفتقدة في الجاهلية الحاضرة. كان الناس يأخذون الأمور بجد أكثر. وكانت فيهم استقامة في الطبع، إن قالوا نعم فهي نعم، وإن قالوا لا فهي لا، ولم يكونوا يراوغون في التواء كما تراوغ الجاهلية الحاضرة. وكانت وسائل الفتنة في المجتمع أقل خطرًا وفتكًا مما هي اليوم. فهي محصورة في أماكنها، من شاء ذهب إليها ومن شاء لم يذهب. ولم تكن تأخذ بتلابيب الناس في البيت وفي الشارع وبالكلمة والصورة والعري المتفنن في الفتنة كما هو الحال اليوم. كما كان من خصال تلك الجاهلية "التوقير" الذي يتعامل به المجتمع، سواء توقير الصغير للكبير، أو توقير "القيم" التي يقتنعون بها، بينما الجاهلية الحاضرة قائمة أساسًا على "عدم التوقير" لأي قيمة أو أي شيء على الإطلاق.

تلك كلها فروق تفصيلية ستجابهنا عند تطبيق منهج التربية الإسلامية، سواء كان القائم بالتطبيق هو الدولة أو الجماعة التي تنتدب نفسها للدعوة. وستحتاج منا إلى استحداث وسائل للتربية، أو تطبيقات لم تكن قائمة أولم تكن ضرورية من قبل.

ولكن هذه الفروق التفصيلية كلها لا تغير شيئًا في المنهج وروحه.

إنها تشبه تصرف الفقه الإسلامي في تطبيق الشريعة: الشريعة ثابتة لا تتغير، والفقه دائم النمو ليواجه حاجات كل عصر.

إنما المهم عندنا ثلاثة أمور رئيسية:

الأول: أن نعلم من أين نبدأ. ثم ما هو المطلوب منا بعد نقطة البدء، وما هي وسيلتنا لأداء المطلوب منا. وقد بينا ذلك في هذا الفصل..

والثاني: أن نعلم أن الجماعة الأولى التي رباها الرسول صلى الله عليه وسلم على عينه، وحقق فيها منهج التربية الإسلامية بتمامه كله، هي القدوة الدائمة لنا بعد شخص الرسول صلى الله عليه وسلم. وأن صورتها الواقعية هي المرجع الدائم لنا في منهج التربية بعد كتاب الله وسنة رسوله. وأن هذه الجماعة -مع اختلاف بعض أحوالنا عن حالها، واختلاف ظروفها عن ظروفنا- ستظل لأجيال المسلمين كلها -بل لأجيال البشرية كلها- هي النور الذي يستضيئون به ويحاولون أن ينسجوا على منواله. فإن استطاع المسلمون أن يعيدوا سيرتها في أنفسهم في أي جيل من أجيالهم، فهو الخير لهم ولكل البشرية. وإن لم يستطيعوا فلن تذهب محاولتهم هباء، لأنهم سيكونون في أثناء المحاولة قد ارتفعوا بأنفسهم إلى أقصى طاقتهم فيكون الخير..

والثالث: أن نعلم أن لا طريق لنا إلا ذلك الطريق الذي سلكته الجماعة الأولى في خروجها من جاهليتها حتى استوائها على قمة الإسلام الشامخة. وأنه برغم اختلاف بعض الأحوال والظروف -مما قد يقتضي تعديلات في تفصيلات المنهج- فإن وجهة المسلمين إن أرادوا أن يعودوا إلى الحياة مرة أخرى، وينفضوا عنهم ذلك الهوان المخزي الذي يعيشون فيه، ينبغي أن تكون هي تلك الجماعة الأولى، وعلى رأسها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل أن تكون هو موسكو أو لندن أو واشنطن أو بكين.. ولا بأس -بعد أن يتجهوا إلى هذه الجماعة لينسجوا على منوالها ويحاولوا الاقتداء بها- أن يستفيدوا مما يجدونه صالحًا للاستفادة به في موسكو أو لندن أو واشنطن أو بكين!

وفيما يلي من الفصول بيان لمنهج التربية الإسلامية من الطفولة إلى مرحلة النضج.. في شيء من التفصيل.

مع الطفولة حتى الصبا

"ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[1].

أي أنه يولد على الفطرة السوية، وأبواه يجعلان هذه الفطرة تستقيم على طبيعتها السوية أو يعملان على انحرافها، وذلك حسب التوجيه الذي يوجهانه به، أو التربية التي يربيانه عليها.

ومن ثم كانت التربية مهمة خطيرة في حياة البشرية. لا حياتها الدنيا فحسب، وهي التي يحرص عليها البشر كافة، ولكن حياتها الآخرة كذلك، وهي التي لا يحرص الناس عليها في جاهليتهم، ولكن المؤمنين يحرصون أشد الحرص عليها.

ومن البدائه في منهج التربية الإسلامية أنه ينبغي أن يكون الوالدان مسلمين حتى يمكنهما تنشئة أطفالهما تنشئة إسلامية. ومع بداهة هذه الحقيقة فكم من الذين يقولون بأفواههم إنهم مسلمون. يحرصون على إسلامهم فهمًا أو ممارسة؟!

كم منهم يؤدي شعائر الإسلام التعبدية، فيصلي ويصوم، ويؤدي الزكاة إن كان ممن تجب عليهم، ويفكر في الحج إن كان من القادرين عليه؟ فضلًا على أن يعرف أن "لا إله إلا الله" معناها تحكيم شريعة الله، فيسعى إلى تحكيمها، أو على الأقل ينكر بقلبه حكم الجاهلية، وهو أضعف الإيمان الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليس وراءه من الإيمان حبة خردل؟!

"ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"[2].

هل تعجب إذن من أن ينشأ الأطفال بعيدين عن الإسلام، وأهلهم لا يتيحون الفرصة لفطرتهم أن تستقيم على طبيعتها السوية، وإنما يعملون على انحرافها بما يمارسون هم من انحراف عن طريق الله المستقيم؟!

([1]) متفق عليه.

([2]) أخرجه مسلم.

وكما قلنا من قبل فإن تربية طفل واحد على الإسلام -كتربية ألف طفل- كتربية جميع الأطفال- تحتاج إلى البيت المسلم، والشارع المسلم، والمدرسة المسلمة، والمجتمع المسلم.

إن هذه العناصر كلها مجتمعة ذات أثر بعيد في تنشئة الأطفال. هي التي تطبعهم بطابعها، فتنشئهم على استقامة أو تنشئهم على انحراف.

وحقيقة إن المزاج الشخصي للطفل، ووراثاته القريبة والبعيدة من أبويه وأهله ذات أثر في تكوين شخصيته لا يمكن إغفاله، فهو يولد بها قبل أن يتاح للبيت أو الشارع أو المدرسة أو المجتمع أن تلقي عليه تأثيراتها وتطبعه بطابعها. وفي البيت الواحد يمكن أن يوجد أخوان ينشآن في ذات البيئة وفي ذات الجو، يكون أحدهما كريما والآخر بخيلا؛ أو يكون أحدهما شجاعا والآخر جبانا, أو يكون أحدهما منفتحًا على الناس والآخر منطويًا على نفسه؛ أو يكون أحدهما مؤثرًا يتعاون مع الآخرين ويبذل لهم من نفسه والآخر أنانيًّا لا يحب إلا نفسه، أو يكون أحدهما محبًّا للسلطان والآخر خانعًا للسلطان.. إلى آخر تلك الفروق التي تفرق بين مزاج إنسان وإنسان، وين شخصية إنسان وإنسان..

ولكن هذه الوراثات ليست في الحقيقة بالضخامة التي يتصورها الناس عادة إلا حين تترك وشأنها بغير توجيه يقوّم انحرافاتها أو يخفف من غلوائها.. فتكون عندئذ هي الغالبة وهي المسيطرة على شخصية الإنسان.

وما نقول إن التوجيه والتربية يلغيان أثر الوراثة.. بل لا نقول إنه من الخير في كل حالة إلغاء هذا الأثر من نفس الطفل، فقد خلق الله الناس مختلفي الطبائع والأمزجة لحكمة يريدها سبحانه، لكي تتنوع الحياة البشرية وتثرى، ولا يكون الناس نسخة واحدة مكرورة كالدودة أو الجرثومة أو الحيوانات الدنيا. والحيوانات العليا ذاتها حين ينعم الإنسان النظر في حياتها يجد فروقًا ظاهرة بين فرد من أفرادها وفرد ولو كانت كلها من نوع واحد، كأن التنوع ذاته سمة من سمات الرقي في عالم الخلق.. فكيف بالإنسان أعلى مخلوقات الله في الأرض وأكرمها على الله:

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"[1].

إن هذا الإنسان أولى بالتنوع، وأولى بأن يكون التنوع سمة أصيلة من سماته.

([1]) سورة الإسراء [70].

ثم إن الخلافة التي أقام الله بها الإنسان في الأرض، قد اقتضت في علم الله أن تكون الحياة البشرية متعددة الجوانب فسيحة الآفاق؛ واقتضت كذلك أن تكون طبائع البشر متنوعة متعددة ليقوم المجموع البشري بمهمة الخلافة، كلٌّ من موقعه وزاويته، وكلٌّ بالجانب الأبرز في كيانه. فهذا يصلح للسياسة وهذا يصلح للحرب وهذا يصلح للفكر وهذا يصلح للقول وهذا ذو طبيعة عملية, وهذا ذو طبيعة نظرية.. وهكذا وهكذا تتعدد الطبائع وتتعدد الوظائف في مهمة الخلافة الشاملة الهائلة..

كلا! ما يقول أحد إنه من الخير -حتى إن كان من الممكن- إلغاء الوراثات التي تطبع الطفل بطابعها المتميز وتعطيه شخصية متميزة وقدرات وميولًا واتجاهات متميزة..

إنما نقول فقط إن التربية والتوجيه من واجبهما -وهما قادران على هذا الواجب- أن يقوّما انحرافات تلك الوراثات ويخففا من غلوائها حين تكون ذات طبيعة حادة متجاوزة للقصد.

ومن هنا يكون البيت والشارع والمدرسة والمجتمع هي ذات الأثر الحقيقي والحاسم في تنشئة الأطفال، مع عدم إغفال العامل الوراثي على الإطلاق، بل مع توكيد وجوده وتوكيد أهميته في الحياة البشرية.. وذلك على الصورة التي بيناها، وهي أن العامل الوراثي أصيل في النفس، ومطلوب لذاته، ولكن التربية والتوجيه عليهما أن يستخلصا خير ما فيه، ويقوّما ما قد يكون فيه من انحراف أو غلو..

وحين لا تكون هناك تربية، أو حين تكون التربية والتوجيه فاسدين، فإن انحرافات العامل الوراثي تتأكد بدلًا من أن تُقوم، وتبرز بدلًا من أن تُسوَّى.. فيخيل للناس حينئذ أن الوراثة هي الغالبة وهي الحاسمة في تكوين الشخصية.. وليس الأمر في حقيقته كذلك، إنما يكون كذلك -كما قلنا- حين تترك الوراثة وشأنها دون توجيه. وكل شيء يترك وشأنه لا بد أن يستفحل وأن يصل إلى غاية مداه، لا لأنه هو في طبيعته بهذه القوة وهذا العنف، ولكن لأنه لا يجد عائقًا يعوقه أو يشذبه وهو ماض في طريقه..

شجرة اللبلاب من أضعف الشجر عودًا لأنها شجرة متسلقة لا تستطيع أن تعتمد على ذاتها، ولا بد أن تستند إلى شيء تتسلقه وتنمو من فوقه.. ولكن كيف تصبح حين تأخذ مداها من النمو والتسلق والتشابك بمداداتها التي تشتبك عن طريقها بالأشياء؟! إنها تسد عليك الطريق، ولا تستطيع المرور من خلالها إلا بالجهد!

وقريب من ذلك أمر الوراثات الموروثة في نفس الطفل.. قد لا تستطيع اقتلاعها البتة، ولكنك تستطيع ولا شك أن تقومها وتشذبها وتخفف من غلوائها، ولو استلزم ذلك بعض الجهد. وكلما بدأت بالتقويم مبكرًا زادت أمامك فرصة الإصلاح. ولكنك إن تركتها حتى تستفحل فقد يصعب الأمر عليك. ولكن الذي نريد أن نؤكده هنا -مع ذلك- أن التقويم -في أي سن وفي أية ظروف- **ليس مستحيلًا على الإطلاق** وإن اقتضى المزيد من الجهد. وشهادة التاريخ الكبرى في هذا الشأن هي التحول الضخم الذي حدث في نفوس المسلمين الأوائل حين انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام، بكل وراثاتهم وبكل انحرافاتهم المكتسبة في الجاهلية.. وأبرز صفحة في هذه الشهادة جميعًا هي صفحة عمر بن الخطاب!

فأين عمر في الإسلام من عمر في الجاهلية؟ أين جفوة القلب وخشونة الحس والعناد الأصم من رقة عمر حين أسلم، ولين جانبه إلى الحق وانعطافه إليه، وحساسيته المرهفة وبكائه لآلام الناس؟

ومع ذلك فإن الطابع العام لعمر رضي الله عنه ليس هو الذي تغير، وما كان مطلوبًا منه في الإسلام أن يتغير. بقيت له قوته وصرامته وحسمه وعزمه. ولكن في الحق والخير وإنفاذ كلمة الله. ثم قوم الإسلام ما كان فيه من انحراف وغلو، فصار عمر في إسلامه آية من آيات الإسلام..

تلك شهادة التاريخ، وهي شهادة ذات أهمية بالغة في مجال التربية.

إن انحرافات البشرية كلها في أي زمان وأي مكان وأي عمر وأي ظروف، لا تستعصي على العلاج حين يوجد المنهج الحق، مهما احتاجت من جهد. إنما تستفحل وتستعصي حين لا تكون هناك تربية.. أو حين تكون التربية والتوجيه فاسدين.

ولا نقول مع ذلك إن مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي رباه على عينه، وطبق فيه منهج التربية الإسلامية بكل تمامه، كان مجتمعًا ملائكيًّا أو كان خاليًا من الانحراف والمنحرفين..

كلا! وما يمكن أن يكون ذلك في أي مجتمع بشري على وجه الأرض ...

فالبشر هم البشر ... وكل بني آدم خطاء..

وقد وجد في هذا المجتمع من يسرق ومن يرتكب الفاحشة.. كما وجد فيه المنافقون بكل كذبهم والتوائهم ولؤمهم وخستهم..

ولكن المعوّل عليه في هذه الأمور هو النسبة الغالبة، والتيار الغالب في المجتمع: أهو تيار الخير أم الشر؟ ولقد كان تيار الخير هو الغالب في هذا المجتمع الرباني ولا شك، مع احتفاظه بكل بشريته، ولكن في صورتها الفائقة، وفي مستواها الأعلى، الذي يقترب فيه الواقع من المثال، بل يتطابقان في كثير من الأحيان حتى لا تعود تعرف من شدة العجب أيهما هو الواقع وأيهما هو المثال!

وفي مثل هذا المجتمع يوجد الهبوط, ولكنه يكون أقل هبوطًا، ويوجد الانحراف ولكنه يكون أقل انحرافًا.. لأن المجتمع بأكمله -بجميع مستوياته النفسية والخلقية- يرتفع درجات إلى أعلى، فيزداد الخير خيرًا ويقل الشر حدة؛ ويظل الأبيض والأسود قائمين في المجتمع ولكن السواد لا يصبح هو الغالب، ولا يكون هو الشيء الطبيعي الذي لا يثير الاستنكار.

وبمثل هذا المقياس تقاس حقائق الأمور..

* * *

البيت والشارع والمدرسة والمجتمع إذن هي ركائز التربية الأساسية، وهي التي تعطي الحصيلة النهائية للعملية التربوية، مع عدم إغفال الطابع الذاتي والوراثات الخاصة، بل مع توكيد وجودهما وإبراز دورهما في الحياة البشرية.

ومن أجل تربية طفل واحد -كتربية جميع الأطفال على السواء- نحتاج أن يكون البيت والشارع والمدرسة والمجتمع في الصورة التي نرغب في تنشئة هذا الطفل عليها، لأن تأثيرها على طفل واحد كتأثيرها على كل الأطفال مجتمعين؛ ومتطلبات طفل واحد منها كمتطلبات كل الأطفال مجتمعين..

ولا يحسبن أحد أن هذه القولة تهويل بلاغي أو مبالغة لفظية..

كلا إنها حقيقة علمية مجردة لا انفعال فيها ولا تهويل..

فما دمت لا تستطيع -ولا ينبغي لك- أن تحبس طفلك -وهو طفل واحد- عن النزول إلى الشارع للعب أو للسير والانتقال فيه؛ ولا عن الذهاب إلى المدرسة ليتعلم؛ ولا عن الاختلاط بالمجتمع ومفاهيمه وعاداته وتقاليده وأنماط سلوكه.. ولا عن التأثيرات الناشئة من ذلك كله.. فلن تستطيع إذن أن تنشئ هذا الطفل -الواحد- كما تريد أنت، مهما كنت في بيتك على أعلى درجات المثالية في سلوكك الشخصي أو في منهجك التربوي..

صحيح أن البيت هو المؤثر الأول. وهو أقوى هذه العوامل الأربعة جميعًا. لأنه يتسلم الطفل من أول مراحله فيبذر فيه بذوره قبل أي شيء أو أي أحد آخر، ولأن الزمن الذي يقضيه الطفل فيه أكثر [في سنواته الأولى على الأقل] ولأن الأشخاص المحيطين بالطفل فيه هم ألصق الناس جميعًا به وأحبهم إليه [وخاصة أمه] ومن ثم فهم أكثر الناس تأثيرًا فيه بالقدوة وبالتلقين على السواء..

كل ذلك صحيح، وسنبين فيما يلي من الكتاب بتفصيل أوفى خطر البيت وعظم تأثيره في التربية، ولكن ذلك لا يعني أنه هو المتفرد بالتأثير، ولا ينفي أثر الشارع والمدرسة والمجتمع في تكوين أخلاق الطفل وعاداته.

ولئن وجدت حالات فردية استطاع البيت فيها بجهد يفوق الطاقة أن ينشئ أطفاله على صورة مخالفة تمامًا لما عليه الشارع والمدرسة والمجتمع، فليس هذا أصلًا مفروضًا في طبائع الأشياء، ولا هو بالجهد الذي يقدر عليه كل الناس.. بل وليس كل الناس مؤهلين له ولو أرادوه ورغبوا فيه وعملوا عليه وبذلوا فيه الجهد، فهو يحتاج أن يكون المربون في ذلك البيت —من نساء ورجال– ذوي شخصيات فائقة غير طبيعية ... وتلك موهبة لا يهبها الله لكل إنسان! وإن كانت أمنية الأماني لكل إنسان!

فمن أجل هذا الطفل الواحد إذن –بحقيقة علمية مجردة لا انفعال فيها ولا تهويل– تحتاج أن يكون الشارع والمدرسة والمجتمع على الصورة التي ترغب في تنشئة ذلك الطفل عليها، إلا أن تكون من ذوي القدرات الفائقة الموهوبة النادرة، ولا تضمن مع ذلك، أن يكون تأثيرك هو الأوحد أو هو الغالب على كل ما عداه!

فإن كنا نريد إذن أن نربي أطفالنا تربية إسلامية –وذلك هو المقتضى الطبيعي لكوننا مسلمين– فلا بد –بداهة أن يكون لدينا البيت المسلم، والشارع المسلم، والمدرسة المسلمة، والمجتمع المسلم.. وإلا فلن تكون الحصيلة في النهاية كما نريد.

* * *

البيت كما قلنا هو المؤثر الأول، وهو أقوى العوامل الأربعة جميعًا، بحكم التصاق الطفل به، وقضائه أطول فترة من طفولته في داخله، وبحكم أنه هو أول من يتسلم خامة الطفل ويؤثر في تشكيلها.

وقد قلنا إنه في حالات نادرة يكون تأثير البيت معادلًا لتأثير العوامل الباقية كلها أو متفوقًا عليها. ولكنه في جميع الحالات صاحب التأثير الأقوى، إلا أن يكون من التميع والتفكك وضياع الشخصية بحيث ينعدم تأثيره، فيكون الشارع أو المدرسة أو المجتمع هو الأطغى تأثيرًا والأفعل في نفس الطفل. وحتى عندئذ لا يكون تأثير البيت غير موجود، إنما يكون موجودًا بصورة سلبية. أي: أنه -بتميعه وتفككه وضياع شخصيته- طبع الطفل الذي ينشأ فيه بطابعه، فجعله سهل التأثر بكل ما يأتيه من خارج ذاته.

والغالب بطبيعة الحال أن يكون البيت والشارع والمدرسة والمجتمع كلها سائرة في اتجاه واحد، ومتجانسة في هداها أو في ضلالتها، فيكون تأثيرها -الطيب أو الخبيث- متوازيًا ومتآزرًا في نفس الطفل، بحيث لا يشعر بانتقال حقيقي من البيت إلى الشارع إلى المدرسة إلى المجتمع الواسع، ولا يشعر بالشد والجذب بين هذا الاتجاه وذاك.

ولكن ذلك لا يحدث -بتمامه- إلا في حال استقرار المجتمع على الهدى أو استقراره على الضلال؛ أي: في حالة وجود تيار غالب مسيطر، يشكل كل شيء بطابعه، ويدفعه في طريقه المرسوم.

وحتى حينئذ فلن يخلو الحال من بعض الصراعات الناشئة من الاختلافات الطبيعية بين بشر وبشر، وطائفة وطائفة في ذلك المجتمع ذي الاتجاه الغالب المسيطر.

أما في حالات التحول، سواء من الضلالة إلى الهدى، أو من الهدى إلى الضلال، أو التحول من طور من الضلالة إلى طور آخر؛ أو في حالة وجود تيارات متباينة متصارعة في المجتمع، فهنا تكون الصراعات بين البيت والشارع والمدرسة والمجتمع صراعات طبيعية ومتوقعة لا غرابة فيها، وتشتد بمقدار تباين هذه التيارات من ناحية، وبمقدار درجة تصارعها من جانب آخر. فقد تتباين التيارات -فترة- ولا تتصارع، لانعزال كل منها عن الآخر، واكتفائه بوجوده الذاتي بغير رغبة في إزاحة التيارات الأخرى, أو بغير قدرة على إزاحتها. أما حين توجد هذه الرغبة في الإزاحة أو القدرة عليها فلا بد أن ينشأ الصراع ويشتد، ولا بد أن يتمثل في واحد أو أكثر من هذه العوامل الأربعة: البيت والشارع والمدرسة والمجتمع، أو يتمثل فيها جميعًا في وقت واحد.

ومن بديهيات المجتمع الإسلامي أن يكون البيت والشارع والمدرسة والمجتمع كلها سائرة في طريق واحد هو طريق الإسلام والتربية الإسلامية؛ وألا يوجد الصراع بينها، ما دامت كلها تنهج نهجًا واحدًا وتستمد من معين واحد؛ وأن تتآزر جميعًا على تكوين الشخصية الإيمانية المسلمة التي هي طابع الإسلام وحصيلته الواقعية كذلك.

والشخصية الإيمانية المسلمة ليست صورة واحدة مكرورة كالنسخ المطبوعة، وإن كان الإسلام ولا شك يوحّد كثيرًا من أنماط السلوك وعاداته، ويجعلها طابعًا مميزًا للمجتمع الإسلامي كله، ينعكس في السلوك الفردي لكل مسلم، كالآداب العامة، وطريقة التعامل في البيع والشراء. وآداب الزيارة، وآداب الحديث، وآداب الزواج، وآداب الأسرة.. إلخ.. إلخ. ولكن هذا التوحيد العام لأنماط السلوك وعاداته لا يلغي الفوارق الذاتية بين البشر المسلمين, ولا يجعلهم نسخًا مكرورة، وإنما يسمح بوجود درجات من الاختلاف تبلغ ما بين أبي بكر وعمر من فوارق، وما بين علي وعثمان، وما بين أبي ذر وخالد بن الوليد! كلهم مسلمون على مستوى القمة، ولكل مع ذلك طابعه الخاص!

ومع عناية الإسلام بأن يكون البيت والشارع والمدرسة [وكانت يومئذ تقام في المسجد] والمجتمع كلها سائرة في طريق واحد ومؤدية إلى غاية واحدة، فقد كان تركيز الإسلام الأكبر على البيت والأسرة، لأن البيت -بداهة- هو المحض الذي ينشأ فيه الطفل حتى يكبر، ويلتقط منه الانطباع الأول الذي قد يؤثر فيه مدى الحياة.

نقول قد ولا نقول على وجه اليقين، لكي لا نغلق الباب أمام التأثيرات الأخرى ذات الفعالية، ولكي لا نغلق الباب أمام التأثيرات التي يمكن أن تحدث تغييرًا شاملًا في النفس في فترات "الانقلابات" الوجدانية التي تحدث في حياة الإنسان بعد مرحلة الطفولة، وبصفة خاصة مرحلة المراهقة، ومرحلة الشباب المبكر.. كما أن الباب مفتوح أمام "الانقلاب" الوجداني في أي مرحلة من مراحل العمر، كالمرحلة التي انتقل فيها عمر رضي الله عنه من الجاهلية إلى الإسلام..

وتتضح لنا عناية الإسلام بالبيت والأسرة باعتبارهما محضن الطفولة الأول, وموطن التأثير الأكبر في مجال التربية.. تتضح لنا هذه العناية من مراجعة تشريعات الإسلام وتنظيماته وتوجيهاته جميعًا..

فأما التشريعات والتنظيمات فقد كفلت قيام الأسرة على رباط شرعي معلن قائم باسم الله؛ وفي ذلك ما فيه من حفظ الأنساب واطمئنان الأب إلى أبنائه واطمئنان الأبناء إلى أبويهم.. وذلك عنصر مهم من عناصر الاستقرار في نفس الطفل، إن لم يدركه وهو صغير فإنه يدركه في مرحلة من مراحل عمره لا محالة، ويدمر كيانه إن لم يستقر فيه على يقين، أو كان اليقين على غير ما يحبه ويرضاه.

كما كفلت التشريعات والتنظيمات قيام الزوج بكفالة الزوجة وإراحة أعصابها -في الظروف العادية- من جهد الكدح من أجل لقمة الخبز، وذلك لكي تتفرغ لمهمتها العظمى في تنشئة الأجيال.

ولئن كان الجنون الذي أصاب الجاهلية الحديثة هو تشغيل المرأة، وشغلها بقضية المساواة مع الرجل، وحملها على أن تستنكف التفرغ للأمومة وبناء الأجيال القادمة من البشرية وتعده حطًّا من قيمتها وتضييعًا لمواهبها، وتصعيب الحياة الاقتصادية وتعقيدها - بخبث- بحيث لا يكفي فيها إيراد الرجل وحده لإقامة بيت وأسرة، لكي تكره المرأة على العمل، أو لكي تجد المبرر الظاهري لهجر البيت والخروج للعمل..

لئن كان هذا هو الجنون الذي أصاب الجاهلية الحديثة، فإن المرأة العاملة المتزوجة ذات الأولاد لهي التي تصرخ مستجيرة من ذلك الجهد المهلك المضني، خاصة بعد أن تكثر مطالب الأسرة وتتعدد, وتكون قد شبعت في ذات الوقت -ولو قليلًا- من مهمة الإغراء لجميع الرجال، وتلقي الإعجاب من جميع الرجال!!

ولقد كان الإسلام أرأف بها وأرحم، وأعلم باحتياجاتها واحتياجات الطفولة واحتياجات البشرية كلها وهو يضع هذه التشريعات وهذه التنظيمات..

وكفلت التشريعات والتنظيمات كذلك وجود قوامة مسئولة عن شئون الأسرة كلها، وجعلت هذه القوامة في يد الرجل الذي هو الزوج والأب كذلك..

ولئن كان من جنون الجاهلية الحديثة إثارة المرأة وإحراج صدرها من قيام الرجل بالقوامة عليها وعلى الأطفال كذلك بوصفه الزوج والأب، فلقد أكرهت هذه الجاهلية أخيرًا على الاعتراف بأن أهم أسباب تشرد الأجيال الحديثة من الشباب، وانغماسهم في انحرافات الشذوذ الجنسي، وانحرافات المخدرات، وانحرافات الجريمة، **هو غياب سيطرة الأب**، سواء لطغيان شخصية المرأة عليه في داخل الأسرة، أو لتفكك الأسرة وعدم وجود المجال للرجل صاحب السلطان.

ولقد كان الإسلام أعرف باحتياجات البشرية السوية وهو يجعل القوامة للرجل داخل الأسرة، ولم يكن ليستجيب لانحرافات الجاهلية -أية جاهلية- وهو المنزل من عند الله العليم الحكيم:

"قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ"[1].

"أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"[2].

وأما توجيهات الإسلام فهي تدعو إلى توفير أكبر قدر من الاستقرار لهذا المحضن الذي ينشأ فيه الأطفال، لتكون تنشئتهم في أفضل وضع لهم، وفي أنسب الظروف ملاءمة لنموهم السوي على الفطرة السليمة.

فهو أولًا يستثير وجدان المودة والرحمة بين الزوجين، ليكون هذا هو الرباط الأقوى الذي يربط قلب الأب وقلب الأم، فيربط معهما كيان البيت كله:

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[3].

ثم هو يوصي كلًّا منهما بإحسان المعاملة من جانبه والحرص على هذ الرباط من أن تنفصم عراه، فيقول للرجال:

"وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"[4].

فيجعل الأمل هو الغالب، والصبر على المكروه هو الواجب، فلا يسرع الرجل إلى فصم تلك العلاقة لأول تغير في قلبه، أو بادرة سوء يراها منها.

ويضع أمام المرأة الصورة الجميلة لهذه المعاشرة توجيهًا لها أن تحاول تحقيقها، بما يحفظ للبيت استقراره وأمنه:

"فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ"[5].

---

(1) سورة البقرة [140].

(2) سورة الملك [14].

(3) سورة الروم [21].

(4) سورة النساء [19].

(5) سورة النساء [34].

ويضع أمامهما معًا صورة دقيقة عميقة للعلاقة بينهما تجعلهما ممتزجين متحدين متداخلين كالإنسان وثوبه:

"هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ"[1].

بكل ما يوحي به التعبير من معاني الملامسة والمكاشفة والالتصاق الجسدي والروحي والوجداني كلها في آن.

ويدعو إلى علاج كل بادرة من بوادر الخلاف قبل أن تصل إلى القطيعة:

"وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا، وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا"[2].

"وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ"[3].

وهكذا ... بكل الوسائل.. يحرص على بقاء هذه الرابطة مستقرة جهد الطاقة، ولا يفرط فيها إلا أن تصبح الحياة في ظلها مستحيلة لأسباب غير قابلة للعلاج، فعندئذ لا يكون هناك حل إلا الانفصام، و.. "أبغض الحلال إلى الله الطلاق"[4].

والملحوظ في هذه التوجيهات كلها، كما هو الملحوظ في التشريعات والتنظيمات، أن تكون الأمور في الوضع الأمثل بالنسبة للرجل والمرأة كليهما، بما يعلم الله من طبائعهما، وبما كلفهما من تكاليف تتعلق بمهمة الخلافة في الأرض:

"لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ"[5].

كل في دوره وفي وظيفته, وبما هو مهيأ فطريًّا لأدائه..

---

(1) سورة البقرة [187].

(2) سورة النساء [34-35].

(3) سورة النساء [128].

(4) أخرجه أبو داود والحاكم.

(5) سورة النساء [32].

ولكن من الواضح كذلك أنها تهدف إلى ما وراء الرجل والمرأة في ذاتهما.. تهدف – بتوفير الاستقرار النفسي والعصبي والاجتماعي والاقتصادي للرجل والمرأة– إلى تهيئة الجو الصالح للأمومة والأبوة، لتنشئة الأجيال المقبلة في أنسب وضع لهذه التنشئة وأفضل وضع.. فلا شيء ييسر التربية السليمة ويجعلها أقرب إلى إيتاء الثمرة المرجوة من الجو المستقر حول الطفل، والحب المرفرف حوله من خلال الأبوين، ولا شيء يفسد التربية ويجعلها أبعد عن إيتاء ثمرتها من جو القلق العصبي والنفسي والفكري والروحي، والجو المشحون بالبغضاء والشقاق والتوتر..

* * *

ومن البديهيات –كما أسلفنا– أن تكون الأم والأب مسلمين ليتمكنا من تربية أطفالهما تربية إسلامية.

إنها بديهية من أجل الرجل بمفرده، ومن أجل المرأة بمفردها، ولكنها أكثر بداهية, وأشد ضرورة من أجل تنشئة جيل قادم على مبادئ الإسلام.

الإسلام بالنسبة للكبار والصغار تربية وممارسة عملية. وليس دعوى تدّعى ولا ألفاظًا تقال.. والتنشئة على الإسلام لا بد لها من جو معين، ينشأ فيه الكبير أو الصغير، يتلقى فيه تعاليم الإسلام، ويتشرب روحه، ويمارسه ممارسة فعلية، ويتكون منه في نفسه رصيد واقعي. وبغير ذلك يكون الإسلام صورة بغير واقع، أو دعوى بلا رصيد.

والإسلام نزل من عند الله ليطبق ويمارس ويعاش في واقع الحياة..

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ"[1].

فليس الإسلام دعوى فارغة ولا أمنية تُتَمَنّى:

"لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا"[2].

(1) سورة النساء [64].

(2) سورة النساء [123-124].

وليس الإسلام كذلك ميراثًا يورث بغير وعي. فالذين "يرثون" الكتاب وراثة لا يعملون به:

"فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ[1].

إنما هو ميراث حي، ينبغي أن يورث بالتربية الواقعية عليه، فيصبح رصيدًا ذاتيًّا للجيل الناشئ، يعيشونه في عالم الواقع، ويورثونه بدورهم لمن يليهم من الأجيال على نفس الصورة: صورة الممارسة الفعلية والتربية الواقعية. وبذلك يستمر الواقع الإسلامي قائمًا ومتصل الحلقات..

ولقد كان كذلك خلال قرون متطاولة من الزمان؛ ولكن الوهن التدريجي، سرى إلى المسلمين فتخلخلت قبضتهم رويدًا رويدًا عن حبل الله الذي أمرهم أن يعتصموا به: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا" حتى جاءت أجيال أخذت الكتاب "وراثة" ليس غير.. فانقطع الحبل المتصل.. وصرنا إلى ما صرنا فيه من الضياع.

إنما الأصل في الإسلام أن يسلمه كل جيل إلى الجيل الذي يليه أمانة حية فاعلة في واقع الحياة. ذات رصيد واقعي متمثل في سلوك عملي إلى جانب التصورات والمشاعر. سلوك عملي يترجم مفاهيم الإسلام وتصوراته ومبادئه وأخلاقياته إلى واقع ملموس.

ولا يكون هذا -بداهة- إلا بأن يكون الأب والأم ذاتهما مسلمين بالمعنى الحقيقي للإسلام، لا إسلام الأسماء ولا شهادات الميلاد! فالأب والأم وأي إنسان في الوجود لا يستطيع أن يعطي إلا من الرصيد الذاتي الذي يملكه، وفاقد الشيء لا يعطيه. فإن لم يكن لهم ذلك الرصيد الذاتي من الإسلام فكيف ينشئون غيرهم على الإسلام؟!

ولقد تستطيع المدرسة المسلمة -بالجهد- ولقد يستطيع المجتمع المسلم -بالجهد كذلك- أن يربيا إنسانا -صغيرًا أو كبيرًا- تربية إسلامية لا يكون ترباها في البيت على يد أبوين مسلمين. ولكن جهدهما غير مضمون الثمرة لأن تأثير البيت المعاكس يظل دائمًا عرضة لإفساد ما تحاوله المدرسة ويحاوله المجتمع. إلا أن ينقل الإنسان إلى بيئة جديدة تمامًا

([1]) سورة الأعراف [169].

غير البيئة التي نشأته بادئ ذي بدء، حيث يتلقى الإسلام على أصوله ويمارسه ممارسة واقعية تمسح من نفسه آثار الانحراف..

ولكن الأصل في الأشياء كما أسلفنا أن يكون البيت المسلم هو المحضن الطبيعي والموئل الأول الذي ينشئ الطفل تنشئة إسلامية صحيحة. وينبغي لذلك أن يكون الأب والأم في ذاتهما مسلمين إسلام الممارسة الواقعية كما أرادها الله.

وسنتحدث في نهاية كل فصل من الفصول القادمة ["من الصبا إلى الشباب الباكر" و"من الشباب الباكر إلى النضج" و"مرحلة النضوج"] عما يمكن تحقيقه من منهج التربية الإسلامية في المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه، حيث نفتقد البيت المسلم والشارع المسلم والمدرسة المسلمة والمجتمع المسلم، ولكننا ينبغي في المبدأ أن نرسم الصورة في وضعها الإسلامي الكامل الصحيح. لنعرف الأصل الذي ينبغي علينا تحقيقه، ولنعلم -في كل لحظة- كم حققنا من هذا الأصل، وكم أعجزتنا الظروف القائمة عن تحقيقه، لنحاول من جديد، ونظل نحاول حتى نصل -في أي جيل من الأجيال- إلى تحقيق الصورة الحقيقية الأصيلة.

وينبغي أن نعلم، ونحن نرسم الصورة الحقيقية، أنها ليست الصورة "المثالية" التي يعلم الناس سلفًا أنها غير قابلة للتطبيق! كلا! ليس الإسلام كذلك! إنه دين واقعي ونظام واقعي، قابل للتطبيق بحذافيره في عالم الواقع. وقد طبق بالفعل في عالم البشر بتمامه كله. وليس هناك مانع نظري ولا عملي يمنع من تطبيقه بكل تمامه مرة ثانية!

إن هذا الدين لا يفرق بين المثال والواقع، لأن مثله مرسومة بحيث تستطيعها الطاقة البشرية:

"لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"[1].

ولأنه يربي أتباعه بالصورة التي ترتفع بواقعهم إلى أقصى حدود طاقتهم، فيلتقون بالمثال.

لذلك فليست هناك في الإسلام تلك الفجوة المعهودة بين المثال والواقع أو -كما يعبرون في أوربا- بين النظرية والتطبيق.

(1) سورة البقرة [286].

ولقد كان "ولفرد كانتول سميث" صادقًا في ملاحظته في كتاب "الإسلام في التاريخ الحديث Islam in Modern History ص 17 وهو يقارن بين الإسلام والمسيحية من جهة، وبينه وبين الشيوعية من جهة أخرى، حين قال إن الإسلام يعمل على تحقيق "ملكوت الرب" في الحياة الدنيا ولا يرجئ تحقيقه إلى الآخرة كما تفعل المسيحية.

و"ملكوت الرب" في تعبير ذلك المستشرق، هو الحكم الرباني. الحكم بما أنزل الله. أي: الصورة المثالية للإسلام. وهي كما يقول بحق، قابلة للتطبيق الواقعي، وجهد المسلمين في الأرض يتجه إلى تحقيقها في عالم الواقع[1].

فحينما نرسم الصورة الصحيحة الأصلية للبيت المسلم، والشارع المسلم. والمدرسة المسلمة، والمجتمع المسلم، فنحن نرسم الصورة الواقعية التي عاشتها الجماعة المسلمة الأولى وارتفعت فيها بالواقع حتى التقت بالمثال.. ثم بعد ذلك ننظر ماذا نستطيع نحن –في جاهليتنا المعاصرة– أن نطبقه من صورة الواقع أو من صورة المثال.

* * *

تبدأ تربية الطفل المسلم من نقطة سابقة كثيرًا على مولده.. وهي وجود أبوين مسلمين هما ذاتهما قد تربيا على الإسلام.

وبمقدار رصيدها الذاتي من التربية الإسلامية يكون توقعنا لثمرة تربيتهما لهذا الطفل، على أحد احتمالات ثلاثة:

أن يكون مزاج الطفل الوراثي أفضل منهما؛ أو على مستواهما؛ بافتراض أنهما شخصان عاديان؛ أو أسوأ منهما نتيجة تراكمات سيئة قد لا تظهر في أحد الأبوين بمفرده, ولكنها تتراكم بالتقائهما، أو نتيجة وراثات بعيدة في الأسرة من غير الوالدين.

فأما في الحالة الأولى فسيكون استعداد الطفل لتلقي مبادئ التربية الإسلامية طيبًا، وسيخفف كثيرًا من الجهد الذي يبذله الوالدان في التربية، وسيكون للجو الإسلامي الذي يعيشه البيت تأثير تلقائي كبير في نفس الطفل، فلا يحتاج إلى أكثر من توجيهات عابرة بين الحين والحين، وإلى تلقين الأمور التي تحتاج بطبيعتها إلى تلقين.

([1]) لا يقول هذا لوجه الله! ولكن يكفينا هنا شهادته تلك!

وأما في الحالة الثانية –التي نفترض أنها الحالة المتوسطة، والتي عليها الكثرة الغالبة من الناس– فسيكون الجهد المبذول أكبر، والعناية المطلوبة أشد. فنحن مع كائن عادي، لديه الاستعداد للخير والاستعداد للشر؛ الاستعداد للصعود والاستعداد للهبوط؛ الاستعداد للاستقامة والاستعداد للالتواء. بنسب متقاربة. والتربية هي التي يمكن أن ترفع نسبة أحدهما على الآخر، بما ترسخ من وجود أحدهما, وتقاوم من وجود الآخر.

وأما في الحالة الثالثة فالأمر يحتاج إلى جهد خاص لا بد أن يبذله الوالدان لتقويم تلك الوراثات السيئة في وقت مبكر، قبل أن تكون لها السيطرة على نفس الطفل. ولا بد أن يكون لها السيطرة إذا تركت وشأنها دون تقويم. أما حين يكتشفها الوالدان في وقت مبكر، ويتعهدانها بالملاحظة والرعاية والتوجيه، فسيحدث التعديل المطلوب بقدر نسبي من اليسر، أيسر بكثير من محاولة هذا التقويم في فترة متأخرة من العمر. ومع ذلك فلن يكون الأمر مستحيلًا حتى حينئذ. فهناك أكثر من فرصة للتقويم، ولإحداث تغييرات جذرية في النفس البشرية على امتداد حياة الإنسان.

وسنقصر حديثنا في التربية على الحالة الثانية والثالثة، حالة الطفل ذي الوراثات العادية، والطفل ذي الوراثات السيئة، مع إشارات عابرة للحالة الأولى، حالة الطفل ذي الوراثات الممتازة، ذلك أنه أيسرها جهدًا وأقلها كلفة في البيت المسلم، وإن كان عرضة لكثير من ألوان الجنوح في البيت الجاهلي والمجتمع الجاهلي!

والأب المسلم والأم المسلمة شخصان يعتقدان بوجود إله واحد، ويوقران هذا الإله، وتظهر في تصرفاتهما آثار هذا التوقير، بالتزام أوامر الله وعدم التبجح بالخروج عليها، وإن وقعت منهما هفوات فلا يصران عليها.

تلك هي الصورة "العادية" للمسلم والمسلمة. وليست هي الصورة المثالية كما قد يبدو لنا في غربة الإسلام الحالية، التي انحدرنا فيها إلى مستوى أصبحنا ننظر فيه إلى الشخص الذي لا يسرق أو لا يكذب، أو الذي يفي بما يعد، كأنه شخص أسطوري يتسامع به الناس ولا يصدقون وجوده!

إنما الصورة المثالية شيء آخر أعلى بكثير من مجرد التزام أوامر الله, وعدم التبجح بالخروج عليها. إنها الخشية الدائمة لله، والتقوى الدائمة لله, والتطوع النبيل بما هو أكثر من الحد الأدنى المفروض، واحتمال الأذى في سبيل الله، والجهاد بالأنفس والأموال ابتغاء مرضاة الله.

تلك هي الصورة المثالية، الواقعية في ذات الوقت، التي تحققت في ألوف الأفراد بل في مئات الألوف في المجتمع المسلم الأول، وما زالت تتحقق كلما مس قلب بشري تلك الشحنة المقدسة فاستضاء منها بقبس من نور الله.

أما الصورة العادية فهي التي يفترض أن يكون عليها كل مسلم ومسلمة!

وليس معنى ذلك أنهم سيصبحون ملائكة لا يخطئون! كلا.. إن كل بني آدم خطاء. ولكن خير الخطائين هم التوابون كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم. لذلك لم نقل إنهم لا يخطئون. إنما قلنا فقط إنهم لا يتبجحون بالخروج على أوامر الله! فإذا أخطؤوا.. ولا بد لكل بشر أن يخطئ.. عادوا إلى الله فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا عليها وهم يعلمون.

"وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ"[1].

كما أن الأب المسلم والأم المسلمة شخصان متحابان في الله، متعاونان على إقامة الإسلام في ذات نفسيهما، يأتمران بالمعروف ويتناهيان عن المنكر، ويتناصحان في الدين.

"وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[2].

وليس معنى ذلك أنه لا يقع بينهما خلاف ولا شقاف ولا عتاب. فهذا لا يمكن أن يتحقق في عالم البشر. ولم يتحقق في بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة البشرية كلها، والذي قال القرآن في أزواجه رضوان الله عليهن:

"يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ..."[3].

إنما معناه أنهما يئوبان سريعًا إلى الله، فلا يستمر الخلاف والشقاق والعتاب، ولا يصبح هو الصورة الغالبة على الحياة.

---

(1) سورة آل عمران [135-136].

(2) سورة التوبة [71].

(3) سورة الأحزاب [32].

وغني عن البيان أن الأب المسلم والأم المسلمة لا يخدع أحدهما الآخر ولا يغشه ولا يكذب عليه [في غير المباح!] ولا يدبر له المكائد ولا يخونه ولا يسرقه ولا يسعى إلى دماره. وحتى إن كان أحدهما يكره الآخر فقد أُمِرا بالتجمل والصبر، والإبقاء على الصلة القائمة بينهما.. وإلا فإنهما يفترقان بالمعروف إذا تعذرت بينهما الحياة..

في مثل هذا الجو يولد الطفل المسلم، فتتلقاه منذ اللحظة الأولى الفرحة الفطرية بالوليد، التي تلتقي عندها البشرية كلها، مهتدية وضالة، لأنها من أمور الفطرة التي لا تتعلق بالهدى والضلال.. ولكن يفترق بعد ذلك الطريق.

فبينما لا يشغل الناس في الجاهلية إلا تلك الفرحة الفطرية، والحنان الفطري والرعاية الفطرية للوليد، فإن الأبوين المسلمين يحسان إلى جانب ذلك بمسؤولية معينة تجاه الله، هي أن ينشئا طفلهما على منهج الله. فذلك قائم في حسهما من أول لحظة، وهما على وعي منه، ما داما مسلمين حقًّا، وليسا مسلمين "بالوراثة" أو بالاسم أو بشهادة الميلاد! وهما يتحريان ذلك الأمر، ويعملان له، ويجتهدان فيه.

وفي مبدأ الأمر يكون وعي الطفل ضئيلا وإدراكه في أضيق حدود, ولكن غير صحيح أنه لا يعي على الإطلاق.. فهو في أيامه الأولى يعي تلك البسمة الحانية في وجه الأم، ويرتاح لها، وتطمئن نفسه إليها. ويعي غضبها كذلك وينزعج منه ويبكي.

وهو لا يملك من وسائل التعبير في أيامه الأولى، وشهوره الأولى كذلك إلا بسمة الرضا والارتياح, أو بكاء القلق والانزعاج والخوف والغضب والجوع والألم من كل نوع، مع حركات معينة في جسده في حالة الرضا، وحركات عصبية مع البكاء؛ ولكنه إن كان ضئيل القدرة على التعبير فليس معنى ذلك أنه ليس لديه ما يعبر عنه! بل إنه ليحمل في قلبه الصغير شحنة ضخمة من العواطف والانفعالات، إن تكن وقتية، وإن تكن سريعة الاستهلاك، فهي مع ذلك تخط خطوطها في تلك الصفحة البيضاء أو الباهتة الخطوط!

الحقيقة أن الصفحة ليست بيضاء كما نتوهم، بمعنى أنها خالية من الخطوط..

هل رأيت الثمرة في بدء تكونها؟

إنها خضراء كلها ما تزال.. ولكن دقق النظر فيها تجد أن فيها بداية للملامح التي ستكون عليها في المستقبل.. بداية خطوط، لم تتلون بعد ولكنها بدأت تتميز وبداية تعريجات هنا وهناك.. إنها بداية تكون "الشخصية" المميزة للثمرة!

والطفل كذلك.. إنه ليس صفحة بيضاء بغير خطوط.. هناك خطوط باهتة لم تتميز بعد، ولكنها ستتميز لا محالة.. إما على صورتها الموروثة بغير تعديل إذا لم يحدث تدخل معين في شأنها، وإما على صورة معدلة إذا حدث تدخل مقصود.

وكل انفعال يمر في نفس الطفل، وكل تجربة يخوضها، تجربة سرور ورضاء أو تجربة خوف أو انزعاج أو ألم أو قلق، تحفر مكانها أو تخط خطها في تلك الصفحة، حتى يتكون فيها في النهاية خط بارز واضح نتيجة تراكم التجربة وتراكم الانفعال.

ومن هنا خطورة السنوات الأولى في حياة الطفل.. وإن كانت كما أسلفنا لا تغلق الباب نهائيًّا أمام فرص التعديل في أي مرحلة من مراحل العمر القادمة، وخاصة في مواسم "الانقلابات" الطبيعية في المراهقة والشباب المبكر..

في تلك الصفحة البيضاء ظاهريًّا، الباهتة الخطوط في الحقيقة، ترتسم الملامح الأولى للشخصية، ويتوقف الكثير على طريقة التعامل الذي يتعامل به الأبوان مع الطفل.

وفي تلك المرحلة الباهتة الخطوط قد لا يستطيع الوالدان أن يميزا تلك الخطوط بسهولة، لأنها باهتة أولًا، ولأن وسائل التعبير عند الطفل محدودة للغاية قبل أن يستطيع النطق ويتعلم التعبير باللغة، الذي هو معجزة من معجزات الخلق في هذا المخلوق البشري:

"وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا.."[1].

"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[2].

ولكن حتى مع عدم وضوح الخطوط تمامًا فإن الأم تبدأ تدرك شيئًا عن مزاج الطفل وطبائعه، فهي ألصق الناس به وأقربهم في التعامل إليه. وعلى أي حال فإن مطالب الأطفال جميعًا في تلك المرحلة متقاربة ومتشابهة، وإن اختلفت الطبائع والأمزجة كثيرًا فيما بعد. كل الأطفال يطلبون الحب والحنان والرعاية والأمن في حضن الأم أو قريبًا منها. والأم بفطرتها تعطي ذلك الحنان والحب. وتؤدي تلك الرعاية المطلوبة.. ولكن الجاهلية الحديثة تسيرها ضد فطرتها وضد حاجة الطفل الفطرية حين تفرض عليها أن تعمل، وأن توزع نفسها بين

([1]) سورة البقرة [31].

([2]) سورة النحل [78].

مطالب العمل ومطالب الأمومة، وهي مطالب متضاربة في الوقت والجهد والاتجاه النفسي والعصبي كذلك! ثم تروح تزعم أنها تعمل على حل مشاكلها بتيسير المحاضن لأطفال الأم العاملة! وما أبأسه من حل، يضيف إلى تعاسة الأم العاملة وتوزع وقتها وجهدها وطاقتها العصبية مشكلة التشرد النفسي لأطفال المحاضن، الذي تنشأ عنه أجيال مشردة من الشباب، تصنع في نفسها ما نراه اليوم من ألوان الانحراف والفساد!

والأم المسلمة -في المجتمع المسلم- في ظل الدولة المسلمة التي تطبق شريعة الله ومنهجه في الحياة- عليها أن تدرك هذه الحقيقة إدراكًا واضحًا عميقًا: أن الطفل -في سنواته الأولى على الأقل- يحتاج إلى أم متخصصة لا يشغلها شيء عن رعاية الطفولة وتنشئة الأجيال.. وأن كل أمر تقوم به خلافًا لتدبير أمر البيت ورعاية أطفاله إنما يتم على حساب هؤلاء الأطفال, وعلى حساب الجيل القادم من البشرية. فأما حين تكون الضرورة قاهرة فهي الضرورة القاهرة، نخضع لها بلا اختيار. وأما التطوع بالفساد بغير ضرورة ملجئة فهي الحماقة التي ترتكبها هذه الجاهلية باسم التقدم والعلم والحضارة في القرن العشرين! وكل الضرورات الاقتصادية التي افتعلتها هذه الجاهلية لإكراه المرأة على العمل، أو لإعطائها المبرر الظاهري لهجر البيت والخروج إلى الشارع للفتنة.. كلها لا تبرر ذلك الدمار الذي يصيب البشرية في أنفسها من جراء إلغاء وظيفة "الأم المتخصصة" من المجتمع، ووضع "الأم العاملة" بدلًا منها، أي: الأم الموزعة الجهد والوقت والأعصاب.. وذلك فضلًا على أنها ضرورات مفتعلة وغير حقيقية؛ إنما خططها الشياطين وعقدوها ليزعموا أنه لا حل لها إلا تشغيل المرأة. وما أيسر الحل لو أرادت الجاهلية الحل بالفعل "وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ"! فرفع تكاليف الحياة ليس "تطورًا حتميًّا" وإنما هو من صنع رأس المال المسيطر اليوم على البشرية، كما أن عمل المرأة ليس هو حله الوحيد حتى لو كان ضرورة لا فكاك منها! ولتجرب هذه الجاهلية -إن كانت صادقة بالفعل في البحث عن الحل- فلتجرب أن تعطي الشاب المتزوج الذي لا يتزوج موظفة إعانة زواج تساوي أجر الزوجة الموظفة! ولننظر بعد ذلك كم ينتظم الإنتاج في الدواوين والمصالح والمصانع، وكم تتهيأ الظروف لتنشئة أجيال من البشر مطمئنة مستقرة لا تتشرد ولا تنحرف ولا يجرفها التيار!!

الأم المسلمة -في المجتمع السلم- في ظل الدولة المسلمة التي تطبق شريعة الله ومنهجه في الحياة- أم متخصصة إلا في حالة الضرورة القاهرة، وهي ضرورة نادرة الحدوث في المجتمع المسلم والدولة المسلمة. وهي بتخصصها ذلك تمنح الطفل حاجته الفطرية إلى الحب والحنان والرعاية. فينشأ نشأته السوية التي تتوازن فيها نفسه، أو يكون لديها على الأقل استعداد للتوازن المطلوب.

وتلك نقطة البدء في تربية الطفل، وهي نقطة بدء خطيرة في حياة البشرية؛ لأنها هي التي ترسم مستقبل البشرية!

إن الحب الذي تمنحه الأم للطفل، ولا يستطيع غيرها أن يمنحه إياه، هو الذي يعلم الطفل الحب، ويوازن في نفسه خط الكره الفطري، الذي ينبت في النفس تلقائيًّا لأنه من خطوط الفطرة التي يولد بها الإنسان[1].

كل إنسان سوي يولد وفي نفسه مجموعة من الخطوط المتوازية المتضادة في الاتجاه، كالخوف والرجاء، والحب والكره، والحسية والمعنوية، والإيمان بما تدركه الحواس, والإيمان بما لا تدركه الحواس، والواقع والخيال، والفردية والجماعية، والسلبية والإيجابية، والالتزام والتحرر. وكلها خطوط أصيلة في الفطرة البشرية، وتؤدي عملها في تكوين البناء النفسي للإنسان.

وفي نفس الطفل تكون هذه الخطوط كلها باهتة لم تتميز بعد بشكل واضح، كالثمرة في بدء تكونها، ولكنها موجودة بغير شك. والمعاملة الخارجية للطفل هي التي تعمق هذه الخطوط وتبرزها، أو تعمل على وقف نموها فتظل على حالتها الطفلية، أو تكبتها فتحول بينها وبين التعبير عن نفسها بصورة محسوسة.

وأغلب الانحراف ينشأ في هذه الخطوط المتقابلة. فهي في حالتها السوية متوازنة في حدود معقولة من الميل هنا أو هناك. ولكن حين يبرز أحد الخطين المتقابلين ولا يبرز الآخر المقابل له [وهذه هي الصورة الغالبة] أو يبرزان معًا بروزًا زائدًا عن الحد، أو ينقصان معًا نقصًا زائدًا عن الحد، فهنا ينشأ الانحراف..

والأمزجة الوراثية السيئة إن هي إلا نوع من هذه الأنواع الثلاثة من الانحراف، وأولها – كما قلنا– هو الغالب، ولكن الأخيرين كذلك موجودان بنسب متفاوتة في البشرية..

وهنا تأتي مهمة التربية لإعادة التوازن إلى هذه الخطوط المتقابلة ومنعها من الانحراف. فأما إن كانت التربية فاسدة فإنها تنشئ الانحراف من عندها أو تزيده حدة إن كان موجودًا من قبل.

ولنعد إلى خطي الحب والكره، فإنهما من أخطر الخطوط في بناء النفس الإنسانية..

([1]) انظر فصل "خطوط متقابلة في النفس البشرية" في الجزء الأول من كتاب "منهج التربية الإسلامية" أو في كتاب "دراسات في النفس الإنسانية".

يولد الطفل بخطين باهتين متقابلين، أحدهما يتجه إلى الحب والآخر يتجه إلى الكره. كلاهما فطري، وكلاهما ضروري في حياة الإنسان.. كل إنسان لأن كل إنسان ينبغي أن يحب وأن يكره. يحب الأشياء التي يجب أن تُحَب، ويكره الأشياء التي يجب أن تكره. وإلا فهو إنسان غير سوي، ناقص الكيان..

وحين يترك الإنسان بغير توجيه فهو عرضة لنوع معين من الاختلال في هذين الخطين، فيحب ذاته بأكثر مما ينبغي. ويكره الآخرين.. وهذا -بالذات- هو الذي يحتاج إلى التعديل، لإنشاء التوازن بين الخطين، وإعادته كلما اختل.

والذي ينشئ التوازن، ويعيده إذا اختل، هو هذا الحب الذي يضفيه الوالدان، والأم خاصة، على ذلك الطفل الوليد، بالقدر المضبوط الذي يحتاج إليه، بلا زيادة ولا نقصان.

فإذا لم يجد الطفل ذلك الحب لأي سبب من الأسباب، سواء كان السبب قسوة وغلظة في قلب الأم، أو شقاقًا وشجارًا دائمًا بين الوالدين لا يجعل في نفسهما فسحة يتجهان بها إلى الطفل بالحب والعطف، أو كان السبب انشغال الأم عن الطفل بالعمل خارج البيت، فهناك نتائج لفقدان هذا الحب كلها سيئة على الإطلاق. وأبرزها أن ينمو خط الكره دون أن ينمو خط الحب، أو بأكثر منه، فتنشأ في نفس الطفل الكراهية للآخرين والحقد عليهم، فلا يرتبط بهم برابطة الحب والتعاون الضروريين لبناء البشرية. وليس أقل هذه النتائج سوءًا أن ينزوي الطفل وينطوي على نفسه فيكون سلبيًّا لا ينتفع منه المجتمع بشيء..

والأم المسلمة عليها أن تدرك ذلك بادئ ذي بدء..

عليها أن تدرك أنه لا شيء على الإطلاق ينبغي أن يحول بينها وبين منح الطفل حاجته الطبيعية من الحب والحنان والرعاية. وأنها تفسد كيانه كله إن هي حرمته حقه من هذه المشاعر، التي أودعها الله برحمته وحكمته في كيانها بحيث تتفجر تلقائيًّا لتفي بحاجة الطفل، حين تسير الأمور في مسارها السوي ولا تتدخل الجاهلية لتلويَها عن الطريق..

كذلك عليها أن تدرك في نفس الوقت أن هناك قدرًا مضبوطًا من الحب والحنان والرعاية هو المطلوب. وأن الزيادة فيها كالنقص، كلاهما مفسد لكيان الطفل في مقبل حياته.

الزيادة تؤدي إلى التدليل. والتدليل يؤدي إلى رخاوة الكيان النفسي للطفل -فتى كان أو فتاة- والرخاوة عيب في البناء تجعله غير متماسك، وغير صالح للاعتماد عليه في مهمات الأمور. وظروف الحياة لا تتركنا لأنفسنا ولا ترحم رخاوتنا:

"يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ"[1].

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ"[2].

والمدللون ذوو الطبائع الرخوة لا يقدرون على الكدح، فيَتْعَبون في حياتهم ويُتعِبون.

والأم المسلمة عليها أن تدرك أن الإسلام جهاد دائم في الأرض.. جهاد لتكون كلمة الله هي العليا.. جهاد يشترك فيه الرجل والمرأة كلاهما.. كل في دوره ووظيفته وما هو مهيأ له.. وأن الطفل الذي ينشأ اليوم -فتى كان أو فتاة- هو رجل الغد أو امرأة الغد. وكلاهما - في الإسلام- يؤدي دوره في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا. فينبغي أن يؤهل لهذا الجهاد منذ اللحظة الأولى.. منذ مولده.. بأن يعطى القدر المضبوط من الحب والحنان والرعاية، بغير نقص مفسد ولا زيادة مفسدة، وأن كل نقص أو زيادة في ذلك العنصر الحيوي، إنما تفسد بقدرها من كيان هذا الطفل، الذي هو رجل الغد أو امرأة الغد، ونحن محاسبون أمام الله عن كل فساد نحدثه في الفطرة السوية، وعن كل تضييع لطاقة كان يمكن أن تبذل من الجهاد في سبيل الله...

والتربية في حقيقتها مسؤولية أمام الله:

"كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته.."[3].

* * *

فإذا أخذ الطفل نصيبه وحقه من الحب والحنان والعطف، فقد جاءت المرحلة الثانية من مراحل تربية الوليد، وهي تعويده على "الضبط". وهي مسألة ذات خطر كذلك في حياته.

إن "الضوابط" في كيان الإنسان فطرية كالدوافع سواء بسواء. ولكن الدوافع أبرز ظهورًا وأسبق، كما أنها تعمل من تلقاء ذاتها. أما الضوابط، فمع كونها فطرية، فإنها تتأخر في ظهورها أولًا، وتحتاج إلى معونة خارجية لتنميتها، لأنها دائمًا تواجه ثقلًا أو ضغطًا معينًا، عليها أن توازنه أولًا ثم تتغلب عليه، مثلها مثل وقوف الطفل وحركته، ومثل نطقه بالأحرف

---

(1) سورة الانشقاق [6].

(2) سورة البلد [4].

(3) أخرجه البخاري ومسلم.

والكلمات كلتاهما طاقة كامنة في تكوينه، ولكنها تحتاج إلى معونة خارجية لتنميتها. الأولى لأنها تقاوم جاذبية الأرض، والثانية لأنها تقاوم ثقلة اللسان، فإذا لم تتلق المعونة الخارجية فقد تعجز عن العمل أو تتأخر عن موعدها المعهود[1].

والطفل في حاجة إلى معونة أمه لكي يتعلم الضبط ويتعوده.

أول ما يحتاج إليه هو ضبط إفرازاته. والأم تعود طفلها تدريجيًّا على ضبط هذه الإفرازات بتخصيص مواعيد معينة لها، والجسم يتعود على عملية الضبط هذه تلقائيًّا ولكن بعد التدريب الذي يستغرق لا محالة فترة من الوقت.

ثم يحتاج إلى ضبط رضاعته ... وهذه كذلك يتعود عليها الطفل بعد التدريب. وقد يكون الأمر شاقًّا في المبدأ ولكنه ضروري مع ذلك، وإن بكى الطفل واستاء من هذا الضبط.

والأم التي ترضع طفلها كلما بكى، لكي يسكت، أو لأنها لا تطيق أن تسمعه يبكي، تضره بذلك لأنها لا تعينه على ضبط رغباته، ولا تعوده على ذلك الضبط في صغره فلا يتعوده في كبره.. ومن منا تتركه ظروف الحياة لرغباته يشبعها كما يشاء؟ وذلك فضلًا على أن المسلم بالذات ينبغي أن يتعلم الضبط ويتعوده منذ باكر عمره، لأن الجهاد في سبيل الله لا يستقيم في النفس التي لا تستطيع ضبط رغباتها، فتنساق معها.. وكيف يمكن الجهاد بغير ضبط للشهوات والرغبات، حتى إن كانت في دائرة المباح الذي لا إثم فيه في ذاته، ولكنه يصبح إثمًا حين يشغل عن الجهاد في سبيل الله:

"قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"[2].

فكل ما ذكرته الآية ليس محرمًا في ذاته، ولكنه صار فسقًا وحرامًا حين أصبح سببًا في القعود عن الجهاد في سبيل الله، وحين رجحت كفته في ميزان القلب على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله.

---

(1) انظر فصل "الدوافع والضوابط" في كتاب "دراسات في النفس الإنسانية".

(2) سورة التوبة [24].

فما الوسيلة للاستقامة على ميزان الله إلا ضبط هذه الرغبات، والاستغناء عنها حين تحول بين الإنسان وبين سبيل الله؟!

والضبط مقدرة يتدرب الإنسان عليها وعادة يتعودها. وكلما تدرب عليها وهو صغير كان أقدر عليها وأكثر تمكنًا منها، فيجدها حاضرة في أعصابه حين تفجؤه الأحداث.

* * *

هذان الخطان من خطوط التربية: الحب والحنان والرعاية من جانب، وتنمية القدرة على الضبط من الجانب الآخر، هما من الخطوط الأصيلة والدائمة في منهج التربية الإسلامية، لا يختصان بمرحلة بعينها من مراحل العمر، وإنما يظلان عاملين طالما كان هناك تربية وتوجيه.

والحق أنهما يمثلان -معًا- أصلًا من الأصول الإسلامية وهو التوازن.

فالمنهج الإسلامي منهج متوازن، وهدفه هو إنشاء "الإنسان الصالح" الذي هو في ذات الوقت إنسان متوازن[1]. وسنرى من كل تفصيلات المنهج أن التوازن هدف أصيل يسعى الإسلام لتحقيقه في واقع الأرض، ليكون الإنسان في وضعه الأسمى الذي خلفه الله عليه, ولا يميل فيفقد توازنه وينتكس إلى أسفل:

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ"[2].

والحب والحنان والرعاية -كما رأينا- عنصر حيوي للنمو النفساني السليم للطفل، وللإنسان عامة، ولكنه حين يزيد عن حده ينشئ الرخاوة والترهل البدني والنفسي والروحي والفكري. فلا بد من عنصر آخر يوازنه هو الضبط.

والضبط كذلك له معيار لا ينبغي أن يزيد عنه أو ينقص. فالزيادة أو النقص في أي عنصر من عناصر التربية كلاهما مفسد، لأنه يخل بالتوازن المطلوب.

حين تزيد قوة الضبط فهي عرضة لأن تزيد على حساب حيوية الإنسان وقدرته على الانطلاق والإيجابية الفاعلة في الأرض.

([1]) انظر الجزء الأول من "منهج التربية الإسلامية".

([2]) سورة التين [4-5].

وحين تنقص فإنها تعطي مجالًا للرخاوة والترهل. أو للفوضى.. وكلاهما أمر لا يحبه الإسلام، لأنه مخالف للميزان المضبوط الذي يريد أن يربي أتباعه عليه، والذي يريد الله أن تقوم عليه حياة البشر على الأرض.

والوالدان الحكيمان يستطيعان بحكمتهما وخبرتهما أن يضبطا "الميزان" بحيث تعتدل كفتاه، ما بين الحب والرعاية والعطف، وبين الحسم الذي ينمي القدرة على الضبط، مع مراعاة الفروق الفردية بين طفل وطفل حسب وراثاته الذاتية، وحسب ظروفه الذاتية. فهناك طفل أحوج إلى الحنان والعطف لكي يتوازن كيانه، وطفل أحوج إلى الحسم لكي يتوازن كيانه كذلك. فلا يعطى الاثنان جرعة متماثلة من العطف أو الحسم، إنما يعطى كلٌّ منهما ما يناسبه من هذا وذاك.

ولا بد من الحذر وإعادة الموازنة كلما قطعنا شوطًا من التربية.

فالطفل المعتل الصحة كثيرًا ما يتلقى من أبويه –وأمه خاصة– جرعة زائدة من الرعاية والعطف، يكون محتاجًا إليها بالفعل في أثناء مرضه، ولكنها تفسده إن ظل يتناولها على الدوام بعد انتهاء الحاجة إليها، وتعرضه لأن يكون هش البناء النفسي والعصبي، سريع التأثر، قليل الصبر على الجهد والمجالدة. لذلك لا بد من تقليل هذا القدر الزائد من العطف تدريجيًّا، وزيادة الجرعة المعطاة من الصلابة والحسم حتى يتعادل الميزان. ولو أن هذه عملية شاقة –على الأم بصفة خاصة– ولكن عليها هي كذلك أن تتعود الضبط لمشاعرها تجاه أطفالها، فذلك خير لهم في مستقبل الحياة.

وعلى العكس من ذلك الطفل العنيف الدوافع، بالوراثة أو لأي سبب آخر. إنه أحوج إلى عنصر الحسم ليوازن اندفاعاته، وليتعود القدرة على ضبطها حتى لا تجمح به ولا تجنح.

ولكن ليس معنى هذا هو استمرار الشدة عليه بسبب وبغير سبب، فذلك كفيل أن يفسده ويزيده نشوزًا بدلًا من إصلاحه. وخاصة إذا وصل الأمر إلى أن يحس الطفل –وهما أو حقيقة– أن أبويه لا يحبانه ولا يريدانه.

والأمر كما قلنا يحتاج إلى حكمة يداول فيها الأبوان بين العطف والحسم، مرة هكذا ومرة هكذا حتى يستقيم ما هو معوج من كيان الطفل، ويستطيع أن يضبط نزواته.

كما ينبغي أن تكون سياسة الأبوين موحدة أو متقاربة تجاه الطفل بحيث لا يشعر أن هناك فارقًا ملحوظًا بين معاملة كل منهما له. وبالذات لا ينبغي أن يقف الأبوان موقفين

متعارضين -أمام الطفل- تجاه عمل قام به، أحدهما -مثلًا- يطالب بعقابه والآخر يعارض في توقيع العقوبة عليه، فإن هذا يفسد الموازين في حسه، ويشعره بأن الأمور ليس لها ضابط محدد، ولا معيار معين يلتزم به. وأن في إمكانه أن يخالف تعاليم أحد الوالدين ويجد من يدافع عنه من طرف آخر!

وحتى حين يكون موقف الوالدين مختلفًا بالفعل في تقدير ما ينبغي أن يعامل به الطفل في موقف معين، فلا يجوز لهما أن يعلنا خلافهما ذلك أمام الطفل، إنما فيما بينهما فيما بعد، وعلى غير مسمع من الطفل، لأنه يدرك مغزى الخلاف بين الوالدين بشأنه -مهما بدا لنا أنه لا يدرك- ويتأثر بنتائجه- مهما بدا لنا أنه لا يتأثر- والنتيجة كما قلنا هي اضطراب المعايير في حسه، بحيث لا يصبح الخطأ والصواب واضحي المعالم عنده، ومن ثم لا يعود يلتزم بما يطلب منه.

وليس معنى ذلك -إذا أسرف أحد الوالدين في العقاب مثلًا- أن يقف الطرف الآخر مكتوفًا وهو يحس بهذا التجاوز، ولكنه عليه أن يقوم بتسكين الموقف دون إظهار المعارضة. كأن يأخذ الطفل بعيدًا ويقول له: انظر كيف أغضبت أباك -مثلًا- لأنك صنعت كذا وكذا. اعتذر له لكي يرضى عنك. وبذلك ينقذ الطفل من العقاب الزائد دون أن يحس أن أبويه قد اختلفا بشأنه.

ثم ينبغي أن نتجنب السياسة المقررة سلفًا إزاء الطفل، بمعنى أنها لا تتغير مهما غير سلوكه. فإن ذلك مفسد له في جميع أحواله سواء كان يتلقى جرعة زائدة من العطف أو الحسم. فإنه إن كان يتلقى جرعة زائدة من العطف -كسياسة مقررة دائمة مهما فعل- فإن ذلك يغريه بالمخالفة وعدم الطاعة وعدم الانضباط، معتمدًا على أنه يتلقى العطف دائمًا مهما أخطأ، ومهما عظم خطؤه. وذلك فساد ولا شك. وإن كان يتلقى جرعة زائدة من الحسم -كسياسة مقررة دائمة مهما فعل- فإن ذلك ييئسه من تغيير مشاعر والديه نحوه مهما عدل من سلوكه وأصلح من عيوبه. وذلك يغريه أن يعدل عن التصحيح ويتمادى في الخطأ ما دام لا يجد التقدير على الجهد الذي يبذله لإصلاح نفسه، ولا يجد التشجيع. كما أنه يولد في حسه شعورًا بالاضطهاد والظلم، فيدمر في نفسه القاعدة التي تنبني عليها في المستقبل القيم العليا والمبادئ، لأنه يجد في أقرب الناس إليه وألصقهم به -وهما الوالدان- نموذجًا سيئًا لأنه ظالم، فكيف يتعلم هو العدل؟ وكيف يتعلم بقية القيم والمبادئ التي يقوم عليها الإسلام؟!

إلى هذا الحد تؤثر تلك الأمور التي تبدو صغيرة وعابرة وغير ذات وزن. ونشير هنا -بالمناسبة- إشارة عابرة إلى أن مثل هذا كان هو السبب في جفوة عمر رضي الله عنه في

الجاهلية. فقد كان أبوه -الخطاب- شديدًا جافيًا عليه، نابذًا له واجدًا عليه، فنشأت فيه هو تلك القسوة والشدة التي كان يشكو منها المسلمون قبل أن يسلم عمر ويتعدل بناؤه النفسي كله بلمسة الإيمان.

ومن أجل ذلك يحرص الإسلام حرصًا شديدًا على ألا يحس الطفل بالظلم من والديه. ويوصي الرسول صلى الله عليه وسلم بالعدل بين الأخوة لهذا السبب ذاته، لأنه شعور أي واحد منهم بوقوع الظلم عليه من والديه يفسد كيانه. ويدمر -كما قلنا- القاعدة التي تنبني عليها في المستقبل تلك "القيم" و"المبادئ" التي هي حقيقة الإسلام.. ولا يمكن أن يقوم البناء بغير قاعدة يتلقاها الطفل في أيامه الأولى من المحيطين به، وأقربهم إليه وألصقهم به هما الوالدان.

* * *

وذلك ينتقل بنا إلى الخط الثالث من خطوط التربية الإسلامية بعد المعيار المضبوط من "العطف" و"الحسم" وهو "القدوة".

لقد كبر الطفل الآن شيئًا ما، وكبر معه وعيه وإدراكه، فأصبح أكثر إدراكًا لما حوله وأكثر تأثرًا به. وهنا تأتي مرحلة من أشد المراحل خطورة في حياة الإنسان، وهي مرحلة الاقتداء بمن حوله. فإذا كانت القدوة حسنة فهناك أمل راجح في صلاح الطفل، وإن كانت القدوة سيئة فهناك احتمال أرجح بفساده.

وقدرة الطفل على الالتقاط -الواعي وغير الواعي- كبيرة جدًّا، أكبر مما نظن عادة ونحن ننظر إليه على أنه كائن صغير لا يدرك ولا يعي!

نعم. حتى وهو لا يدرك كل ما يراه فإنه يتأثر به كله! فهناك جهازان شديدا الحساسية في نفسه هما جهاز الالتقاط وجهاز المحاكاة. وقد يتأخر الوعي قليلًا أو كثيرًا، ولكن هذا لا يغير شيئًا من الأمر. فهو يلتقط بغير وعي، أو بغير وعي كامل، وهو يقلد بغير وعي، أو بغير وعي كامل، كل ما يراه حوله أو يسمعه.

ومن طريق الالتقاط والمحاكاة يتعلم الكلام؛ وهذا يثبت أن هناك قدرًا من الوعي يكفي لتعلم معاني الأصوات والمفردات والجمل، وينفي فكرة عدم الإدراك التي يتوهمها كثير من الناس في الطفل الصغير. وإذا كانت الأمور الأخرى -التي نسميها معنوية- أخفى وأعقد على إدراك الطفل، فهذا لا يعني عدم إدراكها البتة، فإن عملية تعلم اللغة وإدراكها معجزة

ضخمة يحار العلم في تكييفها، وتدل دلالة قاطعة على أن هذا الكائن البشري يتفجر وعيه في وقت باكر جدًّا، أبكر كثيرًا مما نعتقد نحن الكبار!

وأيًّا كان القدر الحقيقي للوعي والإدراك في هذه السن الباكرة، وأيًّا كانت درجة التوصيل بين جهازي الالتقاط والمحاكاة وجهاز الوعي، فإن جهازي الالتقاط والمحاكاة –بوعي أو بغير وعي– يرسمان –أو يعمقان– خطوطًا كثيرة ورئيسية في البناء النفسي للطفل.

ولا شك أنه لا يدرك ما ندركه نحن الكبار من معنى القيم والمبادئ. ولكنه –بطريقة ما– ينشئ في نفسه قاعدة تنبني عليها تلك المبادئ في المستقبل. فإذا كانت القاعدة مضطربة ومعوجة فليس لنا أن نأمل أن تكون القيم والمبادئ سليمة عنده.

وقد مر بنا منذ قليل كيف أن إحساس الطفل بالاضطهاد والظلم من أبويه يؤثر في بناء هذه القاعدة فيدمرها بدلًا من أن يشيدها..

ورويدًا رويدًا –مع زيادة الوعي– يلتقط من أبويه –بالقدوة– قدرًا متزايدًا من القيم والمبادئ، السيئة أو الحسنة حسب الأحوال!

ومرة واحدة من القدوة السيئة تكفي!

مرة واحدة يجد أمه تكذب على أبيه أو أباه يكذب على أمه، أو أحدهما يكذب على الجيران.. مرة واحدة كفيلة بأن تدمر قيمة "الصدق" في نفسه، ولو أخذا كل يوم وكل ساعة يرددان على سمعه النصائح والمواعظ والتوصيات بالصدق!

مرة واحدة يجد أمه أو أباه يغش أحدهما الآخر أو يغشان الناس في قول أو فعل.. مرة واحدة كفيلة بأن تدمر قيمة "الاستقامة" في نفسه، ولو انهالت على سمعه التعليمات!

مرة واحدة يجد في أحد من هؤلاء المقربين إليه نموذجًا من السرقة, كفيلة بأن تدمر في نفسه قيمة "الأمانة".

وهكذا ... وهكذا في كل القيم والمبادئ التي تقوم عليها الحياة الإنسانية السوية..

وقد يغفر الطفل للآخرين أن يكذبوا ويخدعوا ويسرقوا ويغشوا ويخونوا... أو لا يتأثر به كثيرًا، أو لا يتأثر به على الإطلاق.. إذا كان يأوي إلى ركن ركين من القيم والمبادئ متمثلة

في أبويه. وخاصة حين يبين له أبواه بالقدر الكافي من الإبانة والتوضيح أن تلك نماذج سيئة لا ينبغي له أن يحاكيها، مستندين إلى النموذج الطيب الذي يقدمانه هما لطفلهما..

ولكنه لا يغفر لأبويه أبدًا شيئًا من ذلك، ولا يمكن أن يمر شيء منه بغير تأثير عميق في نفسه. قد يبقى بقية العمر كله لا يتغير.

ومن هنا كان حرص الإسلام الشديد على أن يكون الأبوان في ذاتهما مسلمين، أي ممارسين لحقائق الإسلام وقيمه ومبادئه، وحرصه على تربية الناس على منهج الإسلام، لكي يكونوا هم القدوة المباشرة لأبنائهم في الفترة التي ينحصر عالم الطفل فيهم، فتتكون في نفوس الأطفال -بالالتقاط والمحاكاة- تلك القيم والمبادئ الإسلامية بغير جهد يذكر، وتنشأ في نفوسهم منذ الصغر فتكون عميقة الجذور، ثم يزيدها التعليم رسوخًا، ويزيدها المجتمع الإسلامي قوة، حين يكبر الطفل فيتلقى التعليم، ثم يكبر أكثر فيحتك بالمجتمع ويأخذ منه ويعطي.

ومن هنا كذلك كان حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على توصية الرجل وهو يتزوج أن يظفر بذات الدين، فيقول له: "تنكح المرأة لأربع خصال: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك"[1].

فذات الدين هي الركن الركين في إقامة البيت المسلم والأسرة المسلمة، وفي تنشئة الأطفال -بالقدوة قبل التلقين- على قيم الإسلام ومبادئه منذ نعومة أظفارهم، فتصبح عادة لهم وطبيعة، وتصبح جزءًا من كيانهم ليس من السهل أن يحيدوا عنه حين تحاول أن تلويهم الأعاصير..

وحين توجد القدوة الحسنة متمثلة في الأب المسلم والأم ذات الدين فإن كثيرًا من الجهد الذي يبذل في تنشئة الطفل على الإسلام يكون جهدًا ميسرًا وقريب الثمرة في ذات الوقت. لأن الطفل سيتشرب القيم الإسلامية من الجو المحيط به تشربًا تلقائيًّا، وستكون تصرفات الأم والأب أمامه في مختلف المواقف، مع بعضهما البعض ومع الآخرين، نماذج يحتذيها ويتصرف على منوالها.

وليس معنى هذا أنه لن يبذل جهد على الإطلاق في عملية التربية، أو أنها كلها ستتم تلقائيًّا عن طريق القدوة المتمثلة في الوالدين. كلا! لا يمكن أن تتم التربية بلا جهد! إنها جزء

([1]) أخرجه الشيخان.

من "الكدح" المكتوب على البشرية أن تكدحه في الأرض! ولكن هذا الجهد يكون محببًا إلى النفس ولا شك حين يرى الإنسان ثماره الجنية، ويراها قريبة المنال.

ولا شك أن الجهد سيختلف من طفل إلى طفل حسب مزاجه ووراثاته وظروفه الخاصة.

فأما الطفل ذو الوراثات النفسية الفائقة[1] والظروف الطبيعية، فسيكون أقل الجميع حاجة إلى الجهد، وسيكون أكثرهم تشربًا للقدوة الصالحة من حوله وأشدهم تأثرًا بها، لأن لديه استعدادًا طبيعيًّا فائقًا لتلقي القيم والمبادئ الصالحة والانطباع بها والممارسة العملية لها، ولن يحتاج إلا إلى قليل من التوجيه بين الحين والحين. والتوجيه مرة واحدة في الأمر الواحد قد يغنيه بقية العمر فلا يحتاج إلى توجيه جديد.

وأما الطفل ذو الوراثات العادية فستكون القدوة الطيبة معينًا كبيرًا له في الاستواء على الميزان، لأنها ستنمي جانب الخير الطبيعي في نفسه وستجعله هو الأرجح وهو الأقرب انبعاثًا حين يهم الطفل بالتصرف في أمر من الأمور. ولكن لن تكفيه القدوة وحدها، أو لن تكون هي حافزه التلقائي في كل حالة. ولا بد –رغم وجود القدوة الطيبة وتأثيرها الأكيد فيه– من ملاحظة تصرفاته أولًا بأول، وتوجيه إلى الصواب كلما أخطأ أو هم بالخطأ، بشيء من الرفق أحيانًا وشيء من الحسم أحيانًا [مع التغاضي بين الحين والحين] حتى يتعود الاستواء ويصبح طبيعة ذاتية له، فيقترب –بعد هذا الجهد– من الطفل ذي الوراثات الفائقة، الذي استوى على الميزان بغير جهد يذكر.

وأما الطفل ذو الوراثات السيئة فهو طفل متعب، رغم وجود القدوة الطيبة أمامه. ذلك أن وراثاته السيئة تلتوي به عن قبول القدوة الطيبة ومحاكاتها، لأن استعداده للانحراف أكبر من استعداده للاستواء.

ولكن ليس معنى هذا –من ناحية– أن القدوة الطيبة عديمة الأثر في نفسه، ولا أنه –من ناحية أخرى– مستعص على التربية السليمة. معناه فقط أنه طفل متعب، وأنه في حاجة إلى جهد زائد لكي يستقيم.

([1]) نفرق هنا بين الوراثات النفسية الخاصة بالأمزجة والطبائع والوراثات العقلية الخاصة بدرجة الذكاء، كما نفرق بينها كذلك وبين الاستعدادات الخاصة التي يولد بها الطفل كالاستعداد الفني أو العملي أو العلمي أو اليدوي. إلخ. ونهتم هنا بصفة خاصة بالوراثات النفسية. وإن كانت الأخرى داخلة في الاهتمامات التربوية دون شك، ولكنها تجيء تالية للبناء النفسي السليم للطفل.

ونستطيع –بمعادلة حسابية– أن نقول: إن القدوة الطيبة هي دائمًا قيمة موجبة، يحذف بإزائها قدر مساو من الجهد. فالحالة التي تحتاج إلى جهد متوسط تصبح –بوجود القدوة الطيبة– في حاجة إلى جهد يسير. والحالة التي تحتاج إلى جهد كبير تصبح –مع القدوة– في حاجة إلى جهد متوسط فحسب. والحالة التي تحتاج إلى جهد ضخم بصورة غير عادية تصبح –مع القدوة– في حاجة إلى جهد كبير ولكنه في حدود الطاقة، مع وجود أمل أكبر في نجاح الجهد. وهكذا لا تضيع القدوة الطيبة أبدًا في أية حالة..

والطفل ذو الوراثات السيئة في حاجة إلى ملاحظة أدق ومتابعة أشق. ولا يكفي توجيهه مرة ومرة ومرة.. فقد يعود بعد هذه المرات كلها إلى ارتكاب ذات الخطأ أو ذات الجرم الذي نبه إليه. وعندئذ لا بد من مزيد من الحسم ولكن بالصورة التي لا تفسد القلب ولا تيئس الطفل من عطف والديه. ولا بد من تشجيعه عند أي تحسن يطرأ على حالته ليظل على خط التحسن ولا ينتكس بدافع اليأس وعدم التقدير. ولا بد من الصبر الطويل حتى يستقيم الحال. ولا بد أن يشعر الطفل – بصورة ما– أن والديه، حتى في وقت شدتهم عليه من أجل الخطأ الذي يرتكبه، لا يكرهانه ولا ينبذانه. إنما يحبان له الخير، ويشتدان عليها أحيانًا من أجل حبهم له وحبهم لصلاح أمره..

مهمة شاقة ولا شك.. خاصة حين تبطئ الثمرة ويطول الجهد ويطول التدريب.. ولكنها أبدًا ليست ميئسة!

وفي النهاية، بعد الجهد الشاق المضني، قد لا يصل ذلك الطفل أبدًا إلى مستوى الطفل ذي الوراثات الفائقة أو قريبًا منه. ولكن لا شك أنه سيكون أصلح وأكثر استقامة مما لو ترك بغير هذا الجهد الشاق.. كما أن حالته كانت ستكون أسوأ لولا وجود القدوة الطيبة من حوله..

إنه –بغير هذه القدوة وبغير هذا الجهد– كان سيصبح مجرمًا جانحًا محترفًا للشر مدمنًا عليه. فأي نجاح للتربية حين ترفعه من هذه الهوة إلى أن يصبح إنسانًا يخطئ ولكنه يفيء إلى الصواب، وينحرف عن السلوك الأمثل ولكنه لا يقع في الجريمة؟!

لا شك أنه نجاح يذكر. وأنها –في النهاية– ثمرة تستحق كل ما بذل فيها من جهد، من أجل الأبوين ذاتهما فإنه أروح لقلبيهما دون شك أن يريا أبناءهما أقرب إلى السواء من أن يكونوا أقرب إلى الانحراف، ثم من أجل المجتمع كله في النهاية، فإنه خير للمجتمع أن يكف أفراده –ولو بالجهد– عن الاتجاه إلى الجريمة، من أن يجند جهده لمكافحة الجريمة وقد يفلح وقد يخيب.

* * *

وفي كل حالة من الحالات الثلاث رأينا أن القدوة الصالحة عنصر رئيسي ذو أهمية بالغة في عملية التربية.. ولكنه ليس وحده..

إنه لا بد -دائمًا- من عنصر آخر إلى جانب القدوة، لا غنى عنه مهما كان من صلاح القدوة وعظم استقامتها على الطريق..

لا بد من التلقين..

ولو كانت القدوة تكفي وحدها لإتمام عملية التربية والوفاء بكل المطلوب فيها لكانت القدوة العظمى للبشرية كلها، ممثلة في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، كافية وحدها لإقامة منهج التربية الإسلامية. ولكن هذه القدوة على ضخامتها التي لا مثيل لها في تاريخ البشرية كله حتى على مستوى الأنبياء والرسل، كانت تلجأ إلى التلقين والتوجيه، فضلًا على الكتاب المنزل، وهو كله من أوله إلى آخره تلقين وتوجيه..

ذلك أن أمورًا بأعيانها لا بد من التلقين والتوجيه فيها.. بالإضافة إلى أن البشر جميعًا مهما علت مراتبهم واستقامت فطرتهم لا يمكن أن يتم بنيانهم النفسي كله بالتلقي التلقائي عن طريق القدوة، ولا بد أن يحتاجوا إلى التلقين والتوجيه بين الحين والحين.

وعلى الرغم من أن التلقين يأتي تاليًا للقدوة في الترتيب والأهمية, وأنه يعتمد اعتمادًا كاملًا عليها، حتى إنه بغير القدوة الصالحة لا يثمر، بل قد يأتي بثمار عكسية إذا وجدت القدوة السيئة..

على الرغم من ذلك كله فإن التلقين عنصر عظيم الخطر في ذاته وضرورة لا غنى عنها على الإطلاق، لكل الناس في كل الأعمار، وللأطفال بصفة خاصة، الذين لا تتسع مداركهم ليفهموا -تلقائيًّا- حكمة كل تصرف يقوم به الكبار فيلزم تلقينهم إياها؛ والذين تختلف دوافعهم عن دوافع الكبار، وقدرتهم على الضبط عن قدرة الكبار، فيعجزهم ذلك عن أخذ القدوة في بعض الأمور فيلزمهم التلقين..

وذلك كله فضلًا على الوراثات المختلفة التي قد تجعل الطفل عجينة مختلفة التركيب عن عجينة أبويه. فلا يحدث الالتقاء التلقائي بينهما وبينه.. ولا يلتقط القدوة تلقائيًّا، فيحتاج إلى التلقين..

كثيرًا ما يسأل الطفل أمه أو أباه: لماذا تصنعون كذا؟ يريد أن يعلم حكمة تصرف معين لأنه لم يستطع إدراكها، ولا يريد أن يأخذ ذلك التصرف بالقدوة دون أن يعرف سببه أو حكمته. عندئذ لا بد من تلقينه السبب حتى يطيع الأمر عن علم أو عن اقتناع.

وهنا وقفة عند "الاقتناع".. سببها ما أشاعته التربية الأمريكية خاصة، والتربية المستندة إلى نظريات التحليل النفسي عامة، من أنه لا يجوز فرض الأوامر فرضًا على الطفل دون اقتناع منه بأدائها، لأن ذلك يولد في نفسه كبتًا ويفسد شخصيته!

ألا إنها فتنة متلفة.. تسببت في كثير من التميع والانحلال والتفكك الذي أصاب هذا الجيل من الشباب في كل العالم "المتحضر" الذي غزته جاهلية القرن العشرين وأتلفت مقومات نفسه ومقومات حياته.

أما "العلم" فلا بأس أن يعلم الطفل حكمة أي تصرف أو سببه. أما تعليق تنفيذه للأمر على اقتناعه هو الشخصي بصواب ذلك الأمر فمفسدة للطفل أي مفسدة! فضلًا على مجافاته لأبسط مقتضيات المنطق السليم.

وإلا فما العمل حين تكون خبرة الأرض كلها قد استقرت على أمر معين ولكن الطفل غير مقتنع به؛ لأن خبرته المحدودة تعجزه عن إدراك الحكمة فيه؟!

نترك الأمر الضروري اللازم، الذي نعلم نحن -بوعينا وخبرتنا- أنه ضروري ولازم، وأن عدم الإتيان به ضرر محقق.. نتركه، ويحدث الضرر، لأن الطفل لم يقتنع به بعد، وقد لا يقتنع به أبدًا؟!!

ونزعم أن ذلك تربية.. ونقول إنها تربية "حديثة"؟!

ومن أين نشأ شباب "الهيبيز" إلا من هذه التربية الحديثة؟!

ومن أين نشأت انحرافات الشباب في الدول المتحضرة -على طريق الجاهلية الحديثة- إلا من أنهم "لم يقتنعوا" بالقيم والمثل والأخلاق والمبادئ، فتركهم آباؤهم وشأنهم حتى يقتنعوا.. ثم لم يقتنعوا حتى اللحظة.. وسيطول انتظار البشرية حتى يقتنعوا!!

ألا إنها سفاهة في الرأي لا تنشأ إلا في الجاهلية المفككة العرى، المتحللة الروابط، المنحلة القوام..

فضلًا على التدبير الشيطاني الماكر الذي يزين ذلك للبشرية في صورة "علم" و"مناهج تربوية" و"نظريات نفسية"..

وجميل جدًّا أن يقتنع الطفل -أو الشاب- أو الإنسان الناضج- بحكمة ما يفعل، فإن ذلك أيسر للتنفيذ القلبي وأرجى للثمرة من التنفيذ بغير اقتناع. ولكن أن نكل الحق - الذي نعلم أنه حق- إلى اقتناع كل فرد، وفيهم الشخص الضيق المدارك وفيهم الشخص ذو الطبائع الملتوية وفيهم الشخص المتمرد على كل أمر لمجرد أنه أمر ولو علم أنه الحق.. هذا أمر لا يأتيه إلا من سفه نفسه بفعل الجاهلية المتراكمة على قلبه حتى تطمس بصيرته..

وإن منهج التربية الإسلامية ليقوم ابتداء على طاعة الله، طاعة تسليم وإخبات، سواء "علم" الإنسان الحكمة أم لم يعلم، وسواء "اقتنع" بها عقله.. أم لم يقتنع:

"فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"[1].

"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ"[2].

"إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[3].

"قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ"[4].

"وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ"[5].

ثم إن هذا التسليم المطلق لا يكون لغير الله, وللرسول الذي ينطق بالوحي الإلهي:

"وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"[1].

([1]) سورة النساء [65].
([2]) سورة الأحزاب [36].
([3]) سورة النور [51].
([4]) سورة البقرة [140].
([5]) سورة البقرة [232].

"وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى"[2].

فمن حق المسلم -بل من واجبه- أن يسأل: لماذا؟ حتى إذا علم أنه أمر الله ورسوله فقد انتهى السؤال ووجبت الطاعة وإلا فقد انتفى الإيمان..

والله سبحانه وتعالى -برحمته- يتفضل على البشر أحيانًا ببيان حكمة التشريع، ويعطيهم التشريع أحيانًا أخرى بغير بيان حكمته. وفي الحالين تلزم الطاعة ويلزم التنفيذ..

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ"[3].

فيبين لهم حكمة تحريم الخمر والميسر..

ويقول لهم أحيانًا أخرى:

"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ"[4].

فلا يبين لهم حكمة التحريم..

وهذه واجبة الطاعة كتلك..

ولا يمنع الله سبحانه وتعالى البشر عن استنباط حكمة التشريع بالاجتهاد في ذلك, ولكنه لا يكل تنفيذهم لأوامره إلى معرفتهم بحكمة هذه الأوامر.. فهو العليم بها وبما وراءها من خير. وعلى البشر الطاعة في كل حالة ولو جهلوا الحكمة، لأن الطاعة هي العبادة التي خلق الله الجن والإنس ليقوموا بها:

---

(1) سورة الحشر [7].

(2) سورة النجم [3-4].

(3) سورة المائدة [90-91].

(4) سورة المائدة [3].

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[1].

ومنهج التربية الإسلامية يقوم على ذات القاعدة، لأنه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله، أي: من مصادر الوحي.

وتطبيقه على الطفل مقتضاه التلقين والتوجيه والأمر فيما لم يأخذه الطفل -تلقائيًّا- عن طريق القدوة، وهو بالنسبة إليه كثير. ولا بأس بشرح حكمة الأمر للطفل حتى يقتنع به وهو ينفذه، فذلك أيسر للتنفيذ القلبي وأرجى للثمرة. ولكن لا بد من الإلزام حين تعجز مدارك الطفل عن تبين الحكمة، أو تلتوي به طباعه عن تقبلها. ولا يجوز بحال أن نعلق تنفيذ الأمر على اقتناع الطفل به، خاصة بعد أن رأينا ثمار ذلك المنهج الجاهلي في شباب الهيبيز، والمنحلين من كل نوع في أرجاء الأرض.

وليس معنى هذا هو التحكم الفارغ من الأبوين لمجرد الإلزام بالطاعة وتعويد الطفل عليها.. فذلك حري أن ينتهي بالطفل إلى التمرد إن كان شديد المراس، أو الاستكانة والانطواء والاستخذاء إن كان لين القوام النفسي. وكلاهما فساد.

إنما معناه أن يتحرى الوالدان القصد في الأوامر، ولا يأمرا إلا بما له فائدة حقيقية في التربية، ولو لم يدركه الطفل في حينه ولم يقتنع به.. مع ترك المجال دائمًا لقدر من الاختيار في تصرفات الطفل؛ لكي لا ينشأ سلبيًّا من ناحية، ولكي يتعود من طفولته أن يتحمل تبعة عمله.. فيختار، ويتحمل تبعة ما يختار.

والوالدان المسلمان يستمدان أوامرهما ونواهيهما وتوجيهاتهما بصفة عامة من كتاب الله وسنة رسوله. ولكن لا بد أن تواجههما حالات لا يجدان فيها النص المنطبق على الحالة، فيجتهدان؛ ولكن عليهما كما قلنا أن يتحريا القصد ولا يفرضا الالتزام الكامل إلا في جديات الأمور، أو في الأمور التي يقدران أن الطفل لا يحسن التصرف فيها لو ترك الأمر فيها إليه وحده, ومع ذلك فإنه يحسن في الحالة الأخيرة أن تشرح للطفل الاحتمالات المختلفة التي يمكن أن تواجهه، ويترك له حق الاختيار والاختبار، فذلك أدعى إلى تنمية شخصيته وتأهيلها للتصرف في الواقف، وتحمل تبعة التصرف.. وذلك من منهج الإسلام.

ذلك وجه من أوجه التلقين الضرورية بالنسبة للطفل. وهناك أوجه أخرى..

---

(1) سورة الذاريات [56].

فدوافع الطفل كما قلنا تفترق عن دوافع الكبار، وقدرته على الضبط تفترق عن قدرتهم.. ومن هنا لا تكفي القدوة أو لا تؤثر في بعض المواضع ويلزم التلقين..

فقد يكون الأب والأم بعيدين عن الكذب، كما ينبغي للأب المسلم والأم المسلمة، وقد يكونان في حياتهما لم يكذبا كذبة أمام الطفل. ولكن ليس مقتضى ذلك حتمًا ألا يقع الطفل في الكذب.. إنما مقتضاه فقط أنه يسهل رده عنه إلى أن يتعود الصدق ويستقيم عليه..

فالطفل له دوافعه الذاتية للكذب، التي لا يستمدها من قدوة سيئة أمامه، وكذلك لا ترده عنها القدوة الصالحة تلقائيًّا بغير تلقين وتوجيه، وجهد يبذل في التلقين والتوجيه.

فهو يكذب أحيانًا -دون أن يقصد الكذب- بدافع من قوة خياله، الذي يجسم له أشياء لم تحدث، فيراه كأنما حدثت بالفعل، ويقصها على أنها واقع..

وعند ذلك لا ينبغي أن يجابه الوالدان بأنه كذاب. بل تكون نصيحتهما له أن يتذكر جيدًا، وأن يدقق في التذكر، لعل الأمر ليس كما يقول، ولعله كذا وكذا.. حتى يرداه إلى حقيقة الواقعة.

وهو يكذب أحيانًا بقوة خياله كذلك ولكن على وجه آخر.. فهو يتمنى، ثم يصدق ما يتمنى ويتخيل أنه حدث بالفعل، فيشبع رغبته بتحقيقها في الخيال. ثم يصدق الخيال.

وهذا كالسابقة لا يجوز مجابهته فيها بأنه يكذب، إنما يكون التذكير حتى يعود إلى الواقع.

ويكذب أحيانًا -بالتمني- ولكن على وعي بالكذب، تحقيقًا لأمان ورغبات لا تتحقق في واقع حياته "فيفشر" ويزعم أنه يمتلك كذا، أو يصنع كذا، مما يحقق له بطولة وهمية، أو تعظيمًا لشخصه على غير الواقع. وغالبًا ما يكون هذا "الفشر" مع أقران الطفل، الذين يشعر في دخيلة نفسه أنه أقل منهم.

وهذه حالة مرضية تحتاج إلى علاج. وليس علاجها مواجهة الطفل بأنه كذاب و"فشار". أو على الأقل إن كان أقرانه يواجهونه بذلك فلا ينبغي للأبوين أن يسيرا في نفس الطريق، إنما عليهما دراسة الأسباب الدفينة التي تجعله يضخم الواقع بالوهم. وأن يعالجاه بإعادة الثقة إليه في نفسه على حجمها الطبيعي الواقعي دون زيادة مدعاة. فلا شك أنه لو كان واثقًا بنفسه معتدًّا بها ما لجأ إلى الإضافة إليها عن طريق الادعاء. وحين يوفق الوالدان

إلى إثارة اعتداده بنفسه في شيء يملكه بالفعل ويقدر عليه بالفعل فلن يحتاج بعد ذلك إلى الادعاء.

ويكذب أحيانًا ليستولي على مزيد من النقود ينفقها في أشياء يشتهيها ولا يحصل عليها في حدود ما يعطى له من "المصروف". وذلك انحراف لا بد من تقويمه بشيء من الحسم ولكن مع كثير من النصيحة، وبالتلقين بأن الكذب أمر رديء جدًّا، يفقده ثقة والديه وثقة أحبائه وثقة الناس جميعًا، ويدعو إلى احتقارهم له.. وهكذا حتى يكف..

وكل حالة من حالات الكذب لها ما وراءها من أسباب. ولا بد من دراسة الأسباب لاختيار الأسلوب المناسب من العلاج.

وللطفل دوافعه الذاتية للسرقة كذلك. والسرقة والكذب هما أكثر انحرافات الطفولة حدوثًا، وأكثرها حاجة إلى الجهد من الوالدين حتى يعبر الطفل مرحلتهما بسلام ويستوي على الطريق..

وقد لا يشاهد الطفل حالة سرقة واحدة حوله تدفعه بالقدوة السيئة إلى ارتكاب السرقة. بل قد يكون الجو كله من حوله غاية في النظافة والاستقامة والأمانة.. ومع ذلك لا يلتقط القدوة الصالحة لأن دوافعه الذاتية تدفعه بعيدًا عنها.

وحب الطفل للحلوى من أشد أسباب ارتكابه للسرقة. سواء كانت سرقته للحلوى ذاتها إن وجدت أو للنقود التي يشتري بها ما يشتهيه منها. وقد يكون الأب فقيرًا لا يملك تزويد الطفل بمشتهياته فيسرق من المنزل أو من أماكن أخرى لإرضاء رغباته الطبيعية أو الجامحة.. وقد يرغب -غير الحلوى- في ركوب الدراجات المستأجرة أو ما شابه ذلك من رغبات..

وتلك مشكلة إذا كان الأب فقيرًا بصفة خاصة.. وهي في حاجة إلى صبر وأناة حتى يقلع الطفل عن السرقة. وقد لا يكون البدء بالعقوبة مناسبًا في كل حالة. إنما يبدأ بالنصيحة والتلقين. وبتعويده الصدق من جانب آخر. فإنه إن تعود الصدق سيضطر إلى الاعتراف بالسرقة وهو اعتراف مزر بالكرامة، قد يصده عن السرقة ذاتها حتى لا يضطر إلى الاعتراف المزري بها.. ثم قد لا تجدي الوسائل كلها ويحتاج الأمر إلى العقوبة. وقد يحتاج إلى عقوبة حاسمة كذلك. ولكن هذا الأمر له مخاطره كما سيجيء في الحديث عن التربية بالعقوبة. فليكن اللجوء إليها اضطرارًا وليس مبادرة. وليتوقّ الوالدان مخاطرها كذلك.

ثم قد يكون من دوافع الانحراف عند الطفل -رغم وجود القدوة الصالحة أمامه- وراثاته السيئة التي تجعله -مثلًا- محبًّا للسيطرة أو العدوان، فيعتدي على أقرانه في اللعب أو غير اللعب ويجيء هؤلاء أو أهلوهم يشتكونه إلى والديه. أو تجعله بخيلًا وأبواه كريمان. أو جبانًا وأبوه شجاع. أو ملتويًا وأبواه مستقيما الطبع. أو محبًّا للشر وأبواه خيّران.

تلك كلها حالات تحتاج إلى التلقين والتوجيه، وإلى جهد خاص في معالجتها حتى تستقيم.. وقد يطول الجهد كما أسلفنا، ويطول التلقين والتوجيه، وتبطئ الثمرة، ولا تكون في النهاية كاملة. ومع ذلك فالنتيجة النهائية تستحق ما يبذل فيها من الجهد، لأنها خير من تركها تستفحل وتؤدي إلى الجنوح والجريمة..

وهكذا نرى في جميع الحالات، سوية ومنحرفة، أنه لا غنى عن التلقين مع وجود القدوة الصالحة..

والتلقين ذاته في حاجة إلى منهج.. فليس أي كلام يصلح تلقينًا، وليست كل طريقة صالحة للتلقين..

وما دمنا نتحدث عن منهج التربية الإسلامية فمن البديهي أن يكون منهج التوجيه والتلقين هو المنهج الرباني. أي: أن أوامرنا ونواهينا وتوجيهاتنا لأطفالنا ينبغي أن تكون مستمدة من الله ورسوله أو -في حالة غياب النص- لا تكون مصطدمة بأوامر الله ونواهيه وتوجيهاته. فلا نأخذ توجيهاتنا لأطفالنا من الجاهلية المحيطة بنا في كل الأرض في القيم أو التصورات أو الأخلاق أو التقاليد أو أنماط السلوك..

وليس مؤدى ذلك أن نغلق قلوبنا وأفكارنا عن تجارب البشرية المفيدة. كلا! ليس ذلك من أوامر الإسلام, فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولكن مؤداه أن نحذر أن تفتتنا الجاهلية ولو عن بعض ما أنزل الله إلينا:

"وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ"[1].

([1]) سورة المائدة [49].

مؤداه ألا نستقي الأصول من أي مكان في الأرضِ، إلا من كتاب الله وسنة رسوله. أما التطبيقات –أي طريقة التنفيذ والأداء– فلا بأس باقتباس أي شيء نافع نجده في أي مكان في الأرض بحيث لا يكون متعارضًا مع الأصول المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله. مع يقين جازم في أنفسنا أن هذه الجاهلية لا تملك من ناحية الأصول إلا أحد شيئين: إما قيمًا ومبادئ ومفاهيم مشابهة لما في الإسلام، فلنأخذها إذن من مصدرها الرباني الأصلي، وإما قيمًا ومبادئ ومفاهيم مخالفة. فلا يمكن بحال من الأحوال أن يتحقق منها الخير! وإن بدت للوهلة الأولى لامعة مصقولة براقة!

أما طرق التطبيق والأداء فقد نجد عند غيرنا الكثير مما ينفع.. فلا بأس من أخذه من هناك..

لا بأس –مثلًا– أن نتعرف على طريقتهم في تعويد الأطفال على الصدق، وعلى الأمانة، وعلى الشجاعة، وعلى الاعتماد على النفس,.. إلخ فكلها قيم إسلامية أصيلة، نتوصل إلى تطبيقها من كل طريق نافع.

ولكن لا نأخذ منهم مثلًا مبدأ تعليق التزام الطفل بالأوامر على اقتناعه بها؛ ولا الحرية الزائدة للطفل التي لا يوقر بها الكبار؛ ولا الجو المتحلل الذي يعيش به الأطفال في الأسرة المفككة هناك.. لأن هذه كلها قيم ومبادئ تخالف كتاب الله وسنة رسوله..

والأبوان المسلمان كما قلنا يستمدان توجيهاتهما لأبنائهما من كتاب الله وسنة رسوله، فإذا لم يجدا النص فيتصرفان بما لا يتعارض مع أوامر الله ورسوله. أما طريقة التوجيه والتلقين فلكل إنسان طريقته الذاتية التي يحسنها ويستحسنها. فضلًا على أن لكل طفل طريقة مناسبة له قد لا تناسب غيره. فهناك طفل تكفيه الإشارة، ويكفيه التوجيه مرة، فينطبع على التوجيه بقية حياته. وهناك طفل آخر لا تكفيه الإشارة ولا التوجيه الصريح مرة ومرات.. ولا يستجيب حتى يرى أن النية قد انعقدت على عقوبته عقوبة موجعة. فطريقة التلقين لهذا تختلف ولا شك عن التلقين لذاك.

ولا يمكن وضع دستور مفصل لكل حالة.. إنما يوضع دستور شامل للمبادئ العامة التي تستنبط منها التطبيقات المناسبة لكل حالة.. وسيظل الاختلاف قائمًا بعد ذلك بين أب وأب، وأم وأم، في طريقة التنفيذ، حتى لو تشابهت المبادئ التي يأخذون منها، وتشابهت الغاية من التنفيذ.. ولا ضير من هذا الاختلاف فهو سنة ربانية في خلق الخلق، وأبرز ما تكون في خلق الإنسان..كل إنسان عالم وحده لا يتماثل قط مع أحد من هاتيك الملايين التي عمرت الأرض خلال التاريخ. إنما الضرر أن يحدث الاختلاف على الأصول والمبادئ

العامة.. وهذا لا يحدث حين يكون الناس مسلمين، لأن عندهم المرجع الثابت، وعندهم أمر الله إليهم:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"[1].

* * *

وحين ننتهي من تقرير هذه المبادئ الأربعة من مبادئ التربية: الحب والحنان والرعاية. والضبط والحسم. والقدوة. والتلقين. فإننا نأخذ في بسط بعض الوسائل التربوية الأخرى، فنتحدث عن التربية بالمثوبة، والتربية بالعقوبة، والتربية بالعادة، والتربية بالأحداث، والتربية بالقصة، والتربية باستنفاد الطاقة في عمل الخير، والتربية بشغل أوقات الفراغ. وكلها واردة في منهج التربية الإسلامية، ولكل منها دور تؤديه..

في نفس كل كائن بشري سويّ خطان متقابلان أحدهما يتصل بالخوف والآخر يتعلق بالرجاء[2].

وقد أودعهما الله الفطرة البشرية لحكمة يعلمها. وإنهما لمن أعمق الخطوط المتقابلة في كيان الإنسان، بل هما أعمقها جميعًا. وإنهما ليستيقظان في نفس الطفل الوليد قبل الخطوط الأخرى كلها، حتى خطي الحب والكره، اللذين يبدوان لأول وهلة أعمق الخطوط في نفس الإنسان. فهو من لحظة إدراكه لوجود أمه يتعلق بها، يجد في حضنها الأمن والطمأنينة والراحة فضلًا على الغذاء والدفء. ويخاف ويبكي إذا خرج من هذا الحضن الآمن بضع لحظات أو بضع خطوات..! حتى يتعود على أشخاص آخرين غير الأم، ويتعود على أن يبقى وحده فترات من الوقت.. ثم يظل عالمه الفردي والجماعي يتسع حتى يشمل الكون كله!

ومن خلال الخوف والرجاء -قبل الحب والكره، ثم مع الحب والكره ومع بقية الخطوط المتقابلة في النفس البشرية- يتلقى الإنسان تأثيرات الكون والحياة من حوله ويعطيها تأثيراته.. فكأنما هذه الخطوط هي "المدادات" التي يمدها النبات المتسلق ليثبت بها كيانه

---

(1) سورة النساء [59].

(2) راجع فصل "خطوط متقابلة" في الجزء الأول من "منهج التربية الإسلامية".

ويستمر بها في النمو، أو كأنما هي الأوعية النفسية التي تتم بها دورة الحياة الوجدانية من الإنسان وإليه، وكأنما الخوف والرجاء أوسعها جميعًا وأكثرها حملًا لدفقات الحياة.

ومن خلال هذين الخطين -مع بقية الخطوط ولكن في مقدمة كل الخطوط- يتكيف البناء النفسي للإنسان، فيتعدل أو ينتكس، ويستقيم على الخط السوي أو يسير على خط الانحراف.

فإذا كان يخاف مما ينبغي أن يخاف منه، ويتعلق بما ينبغي أن يتعلق به، فقد استقامت حياته وأصبح في أحسن تقويم. أما إن خاف ما لا ينبغي أن يخافه، وتعلق بما لا ينبغي أن يتعلق به، فقد انتكس أسفل سافلين.

ومنهج التربية الإسلامية يربي الناس على الخوف مما ينبغي أن يخافوه، والتعلق بما ينبغي أن يتعلقوا به. وينفي عن القلب البشري الخوف مما لا ينبغي أن يخاف، والتعلق بما لا ينبغي التعلق به..

يربيهم على الخشية والتقوى لله. والخوف من عذاب الله وغضبه المؤدي إلى العذاب. وعدم الخوف من شيء أو على شيء آخر.

ويربيهم على التعلق بالله، وطلب العون منه وحده لا من أحد من خلقه، والتعلق بالآخرة ونعيمها، ورضوان الله المؤدي إلى النعيم. وعدم التعلق بما يشغل الإنسان عن هذا الأمر.

وفيما بين ذلك مئات من ألوان الخوف والرجاء أو ألوف، تندرج في النهاية تحت هذا العنوان أو ذاك:

"..إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ"[1].

"وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ"[2].

"وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ"[1].

---

(1) سورة الرعد [19-21].

(2) سورة النور [52].

"أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ"[2].

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ"[3].

"أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد"[4].

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا"[5].

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ، يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ"[6].

"اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ"[7].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ"[8].

---

(1) سورة الإسراء [57].

(2) سورة الزمر [9].

(3) سورة العنكبوت [10].

(4) سورة الزمر [36].

(5) سورة النساء [77].

(6) سورة الحج [11-13].

(7) سورة الرعد [26].

(8) سورة التوبة [38].

"قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"[1].

وكلها آيات تحدد -من خلال خطي الخوف والرجاء- منهج الحياة.. كل الحياة!

ومنهج التربية الإسلامية، وهو المنهج الرباني الذي يحدد أصوله كتاب الله وسنة رسوله، يوقع على هذين الخطين توقيعات تربوية هائلة، يهدف من خلالها إلى إقامة البناء السليم للنفس، وتحديد خط السير الصحيح الذي ينبغي أن يسير عليه الإنسان في الحياة الدنيا، لتستقيم حياته في الدنيا ويظفر في ذات الوقت برضوان الله ونعيمه المقيم في الآخرة. فتصلح دنياه وآخرته. ويحذره طيلة الوقت من الانحراف عن هذا الخط الصحيح سعيًا وراء متاع زائف زائل، لا يستحق أن يعرض الإنسان نفسه من أجله لغضب الله، ولا يستحق أن يفقد في سبيله نعيم الآخرة الخالد، ويحق عليه العذاب.

ومشاهد القيامة في القرآن -إلى جانب الآيات التي ذكرنا منها نماذج تشير إلى طريقتها واتجاهها دون أن تستوعبها فهي أكثر من أن تستوعب في بحث- كلها توقيعات تربوية هادفة على خطي الخوف والرجاء، وكذلك كل ما يعرف بالترغيب والترهيب من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

والناظر إلى سعة هذه الآيات -بما فيها مشاهد القيامة من نعيم وعذاب- وسعة الأحاديث الواردة في الترغيب والترهيب، يدرك إلى أي حد يهتم المنهج الرباني بهذين الخطين -معًا- ويدرك بالتالي أنه لا بد أن يكون لهما أثر كبير في تربية النفس البشرية.

كما أن الناظر إلى الجماعة المسلمة الأولى -التي أخرجت "خير أمة أخرجت للناس"- والتي تربت على هذا المنهج الرباني، بما فيه من توقيعات كثيرة ومختلفة على خطي الخوف والرجاء، يدرك عظم الثمرة التي تؤتيها هذه التوقيعات في كيان الإنسان، وأنه لا بد من استخدامهما في أي منهج تربوي يراد به صلاح النفوس وصلاح الحياة.

وحين نعود إلى الطفل فسنرى أننا في حاجة إلى استخدام هذين الخطين، والتوقيع عليهما توقيعات شتى من أجل إتمام تربيته، إلى جانب ما ذكرنا من الوسائل التربوية من قبل: الحب. والحسم. والقدوة. والتلقين.. وأنه إذا كان الإنسان الناضج -كما يتبين من الكتاب

---

(1) سورة التوبة [24].

والسنة- لا يستغني في تربيته عن هذه التوقيعات المتكررة، فالطفل من باب أولى أشد حاجة إليها.

وكما أن الإنسان الناضج قد تلقى -في المنهج الرباني- توقيعات تختلف من الحسي إلى المعنوي، أو تمزج بينهما، فالطفل كذلك يحتاج إلى توقيعات حسية تارة ومعنوية تارة، أو مزيجًا منهما معًا تارة أخرى، مراعاة لكون التكوين البشري يشتمل على خطين متقابلين، أحدهما يتصل بالحسي والآخر يتعلق بالمعنويات[1]. ومن هنا تكون التربية بالمثوبة والتربية بالعقوبة وسيلتين أساسيتين من وسائل التربية للإنسان -كل إنسان- والطفل أولى بطبيعة الحال.

وهنا كذلك وقفة عند التربية بالعقوبة، سببها تلك "النظريات" التربوية الحديثة، التي تريد أن تعتمد على التربية بالمثوبة وحدها دون التربية بالعقوبة، أو -إذا لزم الأمر في الحالات القصوى- على العقوبة المعنوية دون الحسية.

وما بنا من حاجة إلى إعادة الحديث عن ميوعة الأجيال التي نشأت على هذه "النظريات" ورخاوتها وتحللها وتفككها..

ولسنا نقول كذلك إن العقوبة ينبغي أن تستعمل بغير حساب وبغير ضرورة. ولا إنها ينبغي أن تكون حسية في كل حالة!

كلا! إنما نتحدث فقط عن المبادئ العامة. فنقول: إن التربية بالعقوبة أمر طبيعي بالنسبة للبشر عامة والطفل خاصة. فلا ينبغي أن نستنكر من باب التظاهر بالعطف على الطفل ولا من باب التظاهر بالعلم! فالتجربة العملية ذاتها تقول إن الأجيال التي نشأت في ظل تحريم العقوبة ونبذ استخدامها أجيال مائعة لا تصلح لجديات الحياة ومهامها. والتجربة أولى بالاتباع من النظريات مهما كانت لامعة ومغرية. والعطف الحقيقي على الطفولة هو الذي يرعى صالحها في مستقبلها لا الذي يدمر كيانها ويفسد مستقبلها.

ونقول كذلك إن العقوبة الحسية ليست أمرًا مستنكرًا في ذاته ولا محرمًا، ولا ضارًّا بكيان الطفل كما تزعم المذاهب المربية التي تروَّج في جاهلية القرن العشرين؛ وإن كنا نقرر، بما يحتاج إليه الأمر من التوكيد، أن العقوبة كلها بشقيها ليست أول ما يلجأ إليه المربي، إنما ينبغي أن يبدأ بالمثوبة إلى أن يحتاج إلى العقوبة، وأن العقوبة الحسية ليست أول ما يلجأ إليه المربي من أنواع العقوبة، بل ينبغي أن يبدأ بالعقوبة المعنوية إلى أن يحتاج إلى العقوبة الحسية.

---

(1) راجع فصل "خطوط متقابلة" في الجزء الأول من "منهج التربية الإسلامية".

وبذلك نضع الأمر في نصابه من شقيه، ونعطي -على هدي المنهج الرباني- كل ذي حق حقه، آخذين في اعتبارنا الفوارق الفردية بين طفل وطفل، والتي تقرر مقدار الجرعة اللازمة من المثوبة ومن العقوبة، ومن الحسية ومن المعنوية جميعًا..

فهناك طفل لا تحتاج أن تعاقبه مرة في حياتك.. فلم تعاقبه؟!

وطفل يرى في إعراضك عنه لحظة عقوبة قاسية لا يحتملها وجدانه.. فلم تتجاوز معه مجرد الإعراض؟ أو تطيل عليه الإعراض؟

وطفل يبكي ألماً إذا عبست في وجهه. فلم تتجاوز معه هذه الوسيلة الناجعة؟

ثم.. هناك طفل لا يرعوي أبدًا حتى يذوق العقوبة الحسية الموجعة.. وأكثر من مرة.. أتكتفي معه بالإعراض عنه لحظة، أو "تحتال عليه" بالإغراء لكي يكف عما هو فيه من أخطاء؟! إنك تفسده بذلك تمامًا كما تفسد الطفل الآخر بتوقيع العقوبة الحسية عليه!

فوضع قاعدة مسبقة بتحريم العقوبة الحسية أو تحريم العقوبة إطلاقًا، مفسد في التربية كوضع قاعدة مسبقة بضرورة استخدامها في كل حالة ولو لم تدع الضرورة إليها.. والمربي الحكيم يدرس حالة الطفل الذي بين يديه، ويقدر -من دراسته لظروفه الخاصة ووراثاته- إن كان ممن تصلح له المثوبة أو العقوبة، أو المداولة بين هذه وتلك. وإن كان ممن تصلح له المثوبة والعقوبة على المستوى الحسي أو المعنوي، أو المداولة بين هذه وتلك.

وسنجد حين نستعرض النماذج البشرية أن معظمها يقع في الدائرة التي تلزمها المثوبة والعقوبة تارة بعد تارة، وأن معظمها ممن يحتاج إلى المثوبة والعقوبة على المستوى الحسي والمعنوي كليهما على تداول بينهما أو على امتزاج. وأن قلة من البشر فقط هم الذين يحتاجون إلى جرعة من المثوبة أكبر وجرعة من العقوبة أقل. وأن قلة مماثلة [أو أكبر قليلًا] تحتاج إلى جرعة من العقوبة أكبر من جرعة المثوبة. ولا أظن أن هناك بشرًا في الدائرة السوية تلزمه العقوبة الدائمة بلا ثواب!

فإذا تقررت في حسنا هذه المبادئ بوضوح، ولم نعد نعير التفاتًا إلى صيحات الجاهلية الحديثة التي تريد أن تحرم العقاب لكي لا "تنعقد" نفس الطفل ولا يصيبه الكبت! فتصيبه من الناحية الأخرى بالميوعة والرقاعة والتفاهة والتحلل..

إذا تقرر في حسنا ذلك، فلننظر لماذا نحتاج إلى المثوبة والعقوبة في تربية الطفل، وعلى أي منهج تكون..

هناك أعمال نريد من الطفل أن يعملها لأنها ضرورية له، أو لأنها تساعده في عملية النمو الجثماني أو النفسي أو العقلي. وهناك أعمال أخرى نريد أن نمنع الطفل من عملها لأنها خطرة عليه، أو لأنها تعوده عادة سيئة، أو لأنها انحراف عن السلوك السوي، أو لأنها تعطل نموه الجثماني أو النفسي أو العقلي..

وفي كلا الحالين نحتاج إلى حوافز ومشجعات. أو إلى نواه وزواجر.. ومن هنا تأتي الحاجة إلى المثوبة أو العقوبة. ذلك أن الطفل -وخاصة في الفترة الأولى- قد لا يستجيب من تلقاء نفسه لما نريد منه أن يعمله أو يكف عنه؛ لأنه لا يعرف لماذا؟ لماذا يعمل ولماذا يكف..

هناك أعمال ذاتية، يقوم بها من تلقاء نفسه ولا يحتاج من أحد أن يدله عليها، كالرضاعة، أو طلب الطعام، أو إخراج الإفرازات، أو تحريك يديه ورجليه، أو الحركة بجسمه حين يبدأ يحبو، أو محاولة الوقوف، أو محاولة إخراج أصوات ذات دلالة كمقدمة للكلام.. إلخ. وكلها حركات سائرة في الاتجاه الطبيعي، وفي طريق النمو.. ولكن بعضها يجهد الطفل كالمشي والكلام فيحتاج إلى تشجيع لكي يستمر فيها ولا يتوقف.

وهناك أعمال ذاتية كذلك، وطبيعية، ولكن الاستمرار فيها بعد وقتها المفروض يعتبر علامة سيئة، كمص الإبهام، وعدم ضبط الإفرازات، والالتصاق الشديد بالأم ورفض الطفل للوجوه الجديدة ولصحبة الآخرين، والعبث بالأعضاء الجنسية، ورفض أخذ بديل عن الثدي، ورفض الالتزام بمواعيد معينة للطعام أو النوم.. إلخ. وإبطال هذه العادات السيئة كلها لا يكون على هوى الطفل، مع أنه أمر ضروري لسلامة نموه وسلامة تكوينه النفسي. ولا بد من مشجعات تشجعه على إبطالها، ونواه وزواجر تمنعه عنها.

هنا، وفي مرحلة باكرة جدًّا، نحتاج إلى المثوبة والعقوبة، بمقادير تتفاوت -كما ذكرنا- بين طفل وطفل..

المشي مثلًا، أو حتى الوقوف، تجربة محببة إلى الطفل جدًّا، لأنها نمو، وقدرة جديدة مكتسبة، يحقق فيها ذاته، ويحس أنه صار أكبر وأقوى و"أعظم" مما كان من قبل. ولكنها لا تتم بغير ألم وبغير جهد. ثم إنه عرضة وهو يقوم بهذا الجهد أن يقع على الأرض مرات كثيرة. تؤلم جسمه فيبكي.

عندئذ لا بد من تشجيعه لكي يعاود التجربة، ولا يمتنع عن المضي فيها بسبب الألم أو الجهد، فيتوقف نموه أو يتأخر من موعده، فتتأخر كل القدرات التالية المترتبة عليه..

والتشجيع قد يكون بابتسامة. أو بقبلة حانية من الأم أو الأب. أو بتربيته على جسمه، أو بإحداث "هيصة" كبيرة حول الطفل يشعر فيها بالاهتمام الشديد به وبجو المودة من حوله.. أو بلعبة تعطى له كمكافأة على الجهد الذي بذله, أو بشيء من الحلوى أو الطعام.. أو بأي شيء مما يعرف الوالدان من دراستهما لطفلهما أنه محبب إليه ومن ثم فهو مشجع له.

وفي المرحلة الأولى تكون عملية التشجيع ضرورية دائمًا، لأن الأعمال التدريبية التي يقوم بها ليستكمل نموه شاقة بالنسبة إليه ومجهدة، ولا بد من حفزه عليها حفزًا لكي لا يتوقف نموه.

والكلام بصفة خاصة يحتاج إلى تشجيع كثير ومستمر، ذلك أن عملية مجهدة، والفشل في التعبير في مبدأ الأمر يحرج صدر الطفل ويضايقه ويشعره بالمشقة.. حتى يستقيم لسانه وتصبح الكلمات أيسر على لسانه. ولا بد من الإلحاح المستمر على الطفل لكي ينطق، ولا بد كذلك من التشجيع.

والفرحة التلقائية التي يقابل بها الوالدان بداية النطق عند طفلهما هي وحدها أكبر مشجع على الاستمرار في الكلام. وذلك من الموافقات الفطرية التي أودعها الخالق في نفوس الكائنات ليتم ما رسمه في سنته سبحانه.. ولكن على الوالدين أن يعلما -إلى جانب ذلك- أن التشجيع مطلوب ولا غنى عنه، وأنه واجب لا ينبغي لهما أن يغفلا عنه.

أما العادات السيئة التي يتعرض لها الطفل، وهي كثيرة، فلا بد من إبطالها ولو كان في ذلك مشقة على الطفل وعلى والديه كذلك. والخوف من إزعاج الطفل أو مضايقته بمنعه عن عاداته السيئة المحببة إليه، أو الخوف عليه من تأثير عملية الزجر على مشاعره وأعصابه، معناه أننا سنتركه لعاداته السيئة تلك، تستفحل وتستعصي على العلاج فيما بعد، أو تترك آثارًا مفسدة في شخصيته في المستقبل.

وليس لنا خيار في الأمر.. فهذه المشقة مفروضة على الكبير والصغير.. والكدح المفروض على البشرية حتى تلقى ربها هو كدح يبدأ مبكرًا جدًّا، من أول الميلاد! وإن أشفقنا على الطفل من الانزعاج أو المضايقة أو الجهد فتركناه وشأنه، فإننا نعرضه في مستقبل حياته لانزعاج أكبر، ومضايقة أشد، وجهد أشق.. فالخير إذن أن نبدأ من البداية الطبيعية في مرحلة الطفولة. ولا بأس علينا أن نجعل الأمر في أخف صورة ممكنة، فليس المفروض أن نثقل على الطفل -متطوعين- ولا أن نحمله فوق طاقته، بل المفروض أن نعاونه بكل طاقتنا حتى يجتاز تلك المرحلة في سلام. ولذلك فإننا نبدأ بالتشجيع.. أي: نبدأ بالمثوبة.. فنعطي "ثمنًا"

معنويًّا أو حسيًّا لكل عادة سيئة يكف عنها الطفل. مع محاولة شغله دائمًا عن العادة السيئة بأخرى لا ضرر منها، وخاصة مص الإبهام والعبث بأعضائه، فهاتان يجب أن يشغل عنهما بشيء آخر في ذات اللحظة التي تنتابه العادة فيها حتى ينسى..

ولكن التشجيع وحده قد لا يكفي. ولا شغله عن العادة السيئة بأخرى. إذ تكون العادة السيئة أشد تأصلًا في نفسه، أو يكون هو أشد تعلقًا بها، بحيث لا يلهيه شغله عنها ولا تشجيعه على تركها. عندئذ ليس أمامنا خيار في صرفه عنها بالزجر، اللين في بادئ الأمر، ثم الحسم في نهاية الأمر.. ولو أدى ذلك إلى استخدام العقوبة البدنية في نهاية المطاف. ذلك أنه من المحتم -لصالحه هو نفسه- أن يكف عن هذه العادات السيئة، ولا بد من الوصول إلى إبطالها بأي وسيلة. فإذا لم تجد الوسائل اللينة كلها فما العمل إلا استخدام وسيلة خشنة؟!

ولا خوف على الطفل من العقد ولا الكبت ولا ضمور الشخصية ولا شيء مما تلوكه النظريات المريبة كله ما دام الزجر أو العقوبة لا يتجاوز الحد المعقول. والحد المعقول تقرره حكمة المربي وخبرته، وتقرره كذلك طبيعة الطفل ذاته.

ثم إن التشجيع، الذي تريد تلك النظريات المريبة أن تجعله هو الوسيلة الوحيدة للتربية، ليس سلاحًا مأمونًا في كل حالة ولأي مدى من الزمن بلا حدود. بل إن له مخاطر. وينبغي الكف عنه بمجرد أن تظهر هذه المخاطر.

وأكبر المخاطر فيه أن يتحول عند الطفل إلى شرط للقيام بالعمل المطلوب أو الكف عن العمل غير المرغوب، أي أنه يمتنع عن الإتيان بالعمل إذا لم يجد حافزًا عليه، أو يمتنع عن الكف عن عمل سيئ حتى يقبض "الثمن" للكف.

هنا تصبح المثوبة شرًّا خالصًا لا خير فيها، لأنها تعوق الإحساس "بالواجب". الواجب الذي ينبغي أن يعمل لأنه واجب في ذاته لا لأنه هناك أجرًا عليه. وهذا تعويق للنمو النفسي، وإفساد كذلك للشخصية..

ففي اللحظة التي يتحول فيها التشجيع -الحسي أو المعنوي- إلى شرط للقيام بالعمل أو الكف عنه ينبغي أن يوقف التشجيع في الحال، ويلزم الطفل بأداء العمل أو الكف عنه إلزامًا بغير أجر.. ولا بأس بعد ذلك من العودة إلى التشجيع بعد القيام بالعمل المطلوب، وبعد أن تزول نهائيًّا صورة الشرط سواء كان شرطًا مقدمًا أو مؤخرًا.. المهم هو الفصل الكامل بين أداء العمل الضروري وبين اشتراط الثمن له من أي نوع..

أما الأعمال التطوعية، أو لا يمكن أو لا يجوز القهر عليها، فلا بأس من أن يظل التشجيع عليها قائمًا ولو في صورة ثمن مشروط. مع ضرورة التوفية بالشرط المتفق عليه، لأن الإخلال به يفقد ثقة الطفل بوعود والديه، ويصدمه صدمة عنيفة لا يزول أثرها من نفسه.

فحين تقول لطفلك، حين يكبر ويتعرض للامتحانات ومشكلاتها: إذا حصلت على نسبة عالية في الامتحان فسأشتري لك ساعة أو دراجة أو.. أو.. مما يحبه الطفل، فليس في ذلك بأس. لأنك لا تملك في الحقيقة أن تقهره على الحصول على هذه النسبة العالية، ولا حتى على النجاح ذاته. إنما تملك فقط أن تشجعه. ولو وصل التشجيع إلى الثمن المشروط. ثم لا بد أن توفي بما وعدت.

ولكنك تكون مخطئًا أشد الخطأ -مثلًا- حين تأمر طفلك أن ينزل إلى السوق ليشتري شيئًا ضروريًّا للبيت، فيمتنع، فتقول له: اذهب وسأعطيك كذا! أو يشترط عليك ثمنًا للذهاب فتقبل الشرط! إنك بهذا تفسده أي مفسدة! لأنك تقتل في نفسه الإحساس بالواجب وضرورة الالتزام بأدائه..

ثم.. حين يصل الأمر بالطفل ألا يؤدي شيئًا على الإطلاق إلا "بالتحايل" عليه أو بإعطائه الثمن، فإنه لن يفلح في شيء في مستقبل حياته، إلا أن يصطدم صدمات عنيفة تغير منه ما نشأ عليه من رخاوة وترهل ونفعية.. فأيهما خير: أن يقوم منذ مبدأ الأمر بالجهد الميسر، أم يترك حتى يصبح لا تقوّمه إلا الصدمات القاصمات؟!

إن التشجيع -الحسي أو المعنوي- خير، وعنصر ضروري من عناصر التربية لا غنى عنه.. ولكن إلى أمد معين وفي حدود معينة، إذا تجاوزها فإنه يتحول إلى عنصر مفسد مدمر مضيّع..

وينبغي -لكي لا يتحول التشجيع إلى شرط للقيام بالعمل أو الكف عنه- أن ننتقل به درجة درجة مع مراحل النمو العقلي والنفسي للطفل، حتى ينتهي إلى أعلى درجاته.. التي هي أعلى درجات المنهج الإسلامي.. وهي العمل -أو الكف عن العمل- ابتغاء مرضاة الله.

في المبدأ تكون الحلوى أو اللعبة أو النقود أداة للتشجيع.. ولا بأس من ذلك في موعده الطبيعي وفي حدوده "المشروعة".

ثم يرتقي التشجيع درجة فيصبح: من أجل أن تحبك أمك أو يحبك أبوك.

ثم يرتقي درجة أخرى فيصبح: من أجل أن تكون ولدًا طيبًا "أو بنتًا طيبة" ويحبك أبوك وأمك ويقول الناس: إنك طيب.

ثم يرتقي إلى درجته العليا فيصبح: من أجل أن تكون طيبًا ويحبك الله ويرضى عنك..

وعلى هذه الصورة الأخيرة ينبغي أن يظل حتى يلقى الله..

وليست هناك حدود حاسمة قاطعة للانتقال من مرحلة إلى مرحلة من مراحل التشجيع. ولا يمكن رسم جدول زمني لها. وإنما هي تتوقف على درجة النمو العقلي والنفسي، والوراثات الخاصة، والظروف الخاصة بنشأة كل طفل على حدة؛ والذي يحددها هو حكمة المربي وخبرته بنفسية طفله واحتياجاته. ولكن المرحلة الأخيرة. وهي وصل قلب الطفل بالله، لا ينبغي أن تتأخر كثيرًا على أي حال. وفرصتها الطبيعية هي الفترة التي يبدأ الطفل فيها من ذات نفسه يبحث عن الخالق ويسأل عنه.. كما سيجيء في نهاية الفصل.

أما العقوبة فقد أسلفنا أننا لا نلجأ إليها ابتداء. إنما نبدأ بالتشجيع. ولا نلجأ إليها أبدًا إلا حين يفشل التشجيع أو يبدأ يدخل في الدائرة الضارة. حين يصبح شرطًا مشروطًا لا يتم العمل أو الكف عن العمل إلا به.

والعقوبة درجات.. تبدأ من الكف عن التشجيع [وهذه في ذاتها عقوبة لمن كان يتلقى التشجيع من قبل]، إلى الإعراض المؤقت وإعلان عدم الرضا، إلى العبوس والتقطيب والزجر بصوت غاضب، إلى المخاصمة الطويلة والمقاطعة [أو التهديد بها]، إلى الحرمان من الأشياء المحببة إلى الطفل [أو التهديد به]، إلى التهديد بالإيذاء، إلى الضرب الخفيف.. إلى الضرب الموجع وتلك أقصى الدرجات.

ولا ينبغي تخطي ذلك التدرج، والبدء بالنهاية، وهي الضرب سواء كان خفيفًا أو موجعًا.. لأكثر من سبب.

فأولًا: ينبغي أن تكون هناك بدائل متدرجة للعقوبة لأن الطفل سيخطئ كثيرًا -ولا بد أن يخطئ- وسيحتاج إلى العقوبة -في الغالب- مرات كثيرة. فمن المصلحة إذن أن يكون خط العقوبة طويلًا كذلك لكي لا تنفد الوسائل سريعًا ونحتاج إلى تكرار الوسيلة الواحدة أكثر من مرة في المدى القريب، لأن ذلك يفقدها كثيرًا من تأثيرها، فتصبح بعد قليل عديمة الجدوى.

وثانيًا: هناك خطر من التعود على الضرب بالذات -أكثر من أي وسيلة أخرى- لأنه عقوبة بدنية، والجسم يمكن أن يتعود على الأذى فلا يعود يتأثر به كثيرًا؛ وعندئذ نكون قد فقدنا كل وسائلنا الفعالة دفعة واحدة! لأن من يتبلد حسه على الضرب، وهو أقسى العقوبات، لا يزجره ولا يؤثر فيه وجه عابس ولا صوت غاضب ولا حرمان ولا تهديد بحرمان! وعندئذ ماذا نفعل؟!

إن هذه شكوى معهودة من الآباء الذين يسارعون إلى استعمال العقوبة البدنية الموجعة ويلجّون فيها حتى يتبلد عليها حس أطفالهم، ثم يروح الواحد منهم يشكو: الولد.. لا أدري ماذا أصنع به.. "غلبت" من الضرب فيه ولا ينصلح حاله.. فماذا أصنع؟

لا شيء! لأنه استنفد وسائله كلها من أول لحظة.. ولم يعد هناك من سبيل إلا تغيير المربي ليمكن تغيير الوسيلة! أي: بنقل الطفل إلى مكان آخر، أو يد أخرى تتعهده، تفتح معه صفحة جديدة تبدأ بالتشجيع.. تبدأ من أول الطريق!

وهذا خطر الإسراف في العقوبة، والضرب بصفة خاصة..

إن العقوبة تظل شيئًا مرهوبًا قبل أن تنفذ؛ ثم يكون لها وقعها الكامل في أول مرة تنفذ. ولكنها إن كررت في المدى القريب تظل تفقد شيئًا من تأثيرها في كل مرة، حتى يعتادها الحس وتصبح بغير تأثير، ومن ثم تصبح بغير فائدة.

والمشرفون على السجون يعرفون هذه الحقيقة ويشكون منها. ويقرون أنهم ينفذون العقوبة وهم يعلمون أنه لا فائدة منها! وذلك لكثرة تكرار ذات الوسيلة..

ولكن المربي ينبغي أن تكون عقليته ونفسيته ووسيلته غير عقلية المشرفين على السجون!

إنه مرب قبل كل شيء.. وهو يقوم بالعقوبة للإصلاح، لا للانتقام والتشفي.. ومن ثم ينبغي أن يستهدف الإصلاح الحقيقي ويبحث عن الوسائل الفعالة الموصلة إليه.. ويكف عن الوسيلة إذا وجد أنها لا تؤدي إلى الإصلاح المنشود، أو وجد أنها -بدلًا من أن تصلح- تزيد الفساد..

بل إن شعور الطفل بأن العقوبة توقع عليه للانتقام والتشفي -لا للإصلاح- قد يحدث انحرافًا معينًا في نفسه، وهو أن يتعمد إثارة والديه ليستمتع بمنظر هياجهما وثورتهما عليه، ويحس بالانتفاش الداخلي والارتياح، لأنه -وهو الصغير- استطاع أن يثير أولئك الكبار ويزعجهم! ولا مانع لديه عندئذ من احتمال الأذى -ولو اشتد- في سبيل هذه المتعة التي

يجدها في نفسه, كلما استطاع أن يثير ثورة والديه وهياجهما عليه! وعندئذ تكون الخسارة مزدوجة: فلا العقوبة أدت غرضها في الإصلاح، وزاد في نفس الطفل انحراف جديد هو تحقيق الذات عن طريق غير سوي.

العقوبة إذن -رغم ضرورتها في كثير من الحالات- ينبغي أن تنفذ بالحكمة الواجبة في كل شأن من شئون التربية، فلا يسرف المربي في استخدامها، ولا يتخطى تدرجاتها. ثم عليه أن يراعي كذلك أن تكون العقوبة مناسبة للجرم. فلا تكون لديه جرعة جاهزة من العقوبة يستخدمها لكل حالة على السواء، فإن ذلك يغري الطفل بالكبيرة ما دام يعاقب على الصغيرة كالكبيرة. كما أنه من الأفضل التهديد بالعقوبة أكثر من توقيعها بالفعل، لأن ذلك يحتفظ برهبتها الدائمة في نفس الطفل، فالتهديد بالمقاطعة يروع الطفل أما المقاطعة الفعلية فسيتعودها إن تكررت. والتهديد بالحرمان موجع. والحرمان الفعلي موجع كذلك في مبدأ الأمر. ولكنه إن طال تعودته النفس وفقد تأثيره. والتهديد بالضرب مفزع. أما الضرب الفعلي فهو موجع في البدء، عديم التأثير في النهاية..

ولا ضرر بعد التهديد من عدم تنفيذه في بعض الأحيان اكتفاء بأثره المرهوب[1]. فليس من الضروري أن ينفذ التهديد بالفعل حين يقع من الطفل ما هدد من أجله بالعقوبة. إنما يمكن أن يستتاب دون تنفيذ التهديد. بشرط واحد، وهو ألا يعتقد الطفل أن التهديد هو لمجرد التهديد لا للتنفيذ! فإنه إن اعتقد ذلك فلن يهمه التهديد بطبيعة الحال! فمن أجل ذلك ينبغي أن ينفذ التهديد -ولو مرة- إذا أحس المربي أن الطفل قد استخف بالتهديد ولم يعد يهمه أمره. أما إذا وجد أنه ما زال يخاف منه ويتقيه -ولو وقع في الخطأ المنهي عنه أكثر من مرة- فلا بأس بالاستمرار في التهديد بغير تنفيذ. وعمر رضي الله عنه يقول: علق عصاك بحيث يراها أهل الدار! أي للتهديد! ولكنه لم ينصح باستعمالها في كل مرة!

بهذه الصورة -وبالحكمة الواجبة- تؤدي العقوبة دورها في التربية في وقت الحاجة إليها، وتتعاون المثوبة والعقوبة معًا على إقامة البناء النفسي السليم للطفل، على خطي الفطرة الطبيعيين: خطي الخوف والرجاء.

* * *

(1) هنا تفترق المثوبة عن العقوبة. فلا ضرر من عدم تنفيذ التهديد بالعقوبة أحيانًا. ولكن عدم تنفيذ الوعد الموعود بالمثوبة أمر شديد الخطورة في جميع الأحوال.

ومن وسائل التربية، التربية بالعادة.. أي: تعويد الطفل على أشياء معينة حتى تصبح عادة ذاتية له، يقوم بها دون حاجة إلى توجيه.

ومن أبرز أمثلة "العادة" في منهج التربية الإسلامية شعائر العبادة وفي مقدمتها الصلاة. فهي تتحول بالتعويد إلى عادة لصيقة بالإنسان لا يستريح حتى يؤديها. وليست الشعائر التعبدية وحدها هي العادات التي ينشئها منهج التربية الإسلامية، ولكنها في الواقع كل أنماط السلوك الإسلامي، وكل الآداب والآخلاقيات الإسلامية: آداب الطعام والشراب، وآداب المشي، وآداب الجلوس، وآداب النوم، وآداب اليقظة، وآداب التحية, وآداب الأسرة, وآداب الجنس, وآداب قضاء الضرورة, وآداب الحديث، وآداب الاجتماع، وآداب الافتراق، وآداب السفر، وآداب العودة من السفر.. إلخ.. إلخ...

وقد كانت هذه كلها أمورًا جديدة على المسلمين، لم يكونوا يمارسونها في الجاهلية، فعودهم الرسول صلى الله عليه وسلم إياها ورباهم عليها بالقدوة والتلقين والمتابعة والتوجيه حتى صارت عادات متأصلة في نفوسهم, وطابعًا مميزًا لهم، يميز المسلمين عن غير المسلمين في كل الأرض.

والأبوان المسلمان يعودان طفلهما هذه العادات بالوسائل ذاتها: القدوة والتلقين والمتابعة والتوجيه، حتى إذا اكتمل نموهم كان قد اكتمل في ذات الوقت تعودهم العادات الإسلامية، وهي كما رأينا منهج شامل يشمل حياة الإنسان كلها من يقظته إلى منامه إلى يقظته التالية.. ويشمل حياة الفرد وحياة الأسرة وحياة الجماعة وحياة الرجل وحياة المرأة وحياة الطفل جميعًا..

والتعويد لا يتم بسهولة بطبيعة الحال. فليس يكفي أن تقول للطفل مرة -أو حتى مرات- اصنع كذا فيصنع! فالعادة المطلوبة هي قيد على السلوك أو ضبط له في اتجاه معين. وكل قيد أو ضبط يحتاج إلى جهد معين لكي يتم؛ ولكنه بعد أن يتم يصبح أمرًا سهلًا للغاية ينفذ بأيسر الجهد أو بغير جهد على الإطلاق. ويكون الجهد -على العكس- هو محاولة إبطاله أو تغييره!

والعادة ضرورية جدًّا في حياة الإنسان لكي تصبح الخبرة القديمة عادة، ويتسع الجهد البشري لاكتساب خبرات جديدة على الدوام، وإلا فلو أن الإنسان ظل يبذل في كل عملية من عملياته الجسدية أو الشعورية أو الذهنية ذات الجهد الذي بذله فيها أول مرة وهو يتعلمها أو يجربها لأول مرة، فسيظل جهده محصورًا في عمليات محدودة لا يستطيع تخطيها ولا الإضافة عليها. ولكن من تيسيرات الفطرة التي يعين بها الخالق هذا الكائن البشري على

أداء مهمته الضخمة، مهمة الخلافة في الأرض، أن جعل في كيانه القدرة على التعود على الأشياء التي يمارسها أكثر من مرة بانتظام معين. وبمجرد أن تتحول الخبرة الجديدة إلى عادة، ينطلق الجهد العصبي الذي كان مخصصًا لها، ليعمل في ميادين جديدة، ويساعد في اكتساب خبرات جديدة. كما يكون لديك طاقة كهربائية توجهها لإدارة آلة معينة، ثم تسحبها لإدارة آلة جديدة.. وهكذا. مع الفارق. وهو أن الآلة البشرية تظل عاملة بعد أن تسحب منها شحنتها الأولى، أو القسط الأكبر منها، بينما الآلة المادية تكف عن العمل إن حولت عنها التيار..

ومن معينات الفطرة في هذا الأمر أن الجهاز العصبي ذاته هو الذي يساعد على التعود، بمقدار ما يكون رافضًا أو معوقًا في بادئ الأمر! فالخبرة الجديدة كأنما تحفر حفرًا على المسطح العصبي، يحتاج في بادئ الأمر إلى جهد لتعميقه. ويحتاج كذلك إلى مداومة لفترة من الوقت. كالقناة التي تشقها في الأرض، تبذل جهدًا في شقها. ثم إن تركتها تردمها الأتربة كأنك لم تشقها من قبل، وتحتاج إلى أن تحفرها من جديد، بذات الجهد الأول أو قريب منه. ولكنك إن أعدت المرور عليها مرات صارت عميقة بالقدر الكافي، فلا تنطمر تماما حتى لو أهملتها بعض الوقت، ولا تحتاج حين تعود إلى استخدامها أن تشقها من جديد، وإنما تحتاج إلى جهد قليل لإزاحة ما علاها من الركام. أما إن داومت استخدامها فقد رسخت في الأرض ولم تعد في حاجة إلى جهد، وصارت تجذب الماء للمرور فيها كلما مر بها، فلا يغادرها إلى سواها.

مثل هذا يحدث في داخل الجهاز العصبي. فالخبرة الجديدة تلقي قدرًا من المقاومة في بادئ الأمر حتى تخط لها خطًّا متميزًا أو قناة متميزة تسير فيها. حتى إذا تعمقت القناة بالقدر الكافي -عن طريق التكرار- سارت في داخلها الخبرة بجهد أيسر، حتى تتم في النهاية بلا جهد يذكر، بل أكثر من ذلك أن هذه القناة العصبية هي التي تجذب الخبرة المتصلة بها للسير فيها! ففي الموعد المحدد، الذي يتعود عليه الإنسان، أو في المناسبة المحددة لاستخدام تلك الخبرة، تنبعث الإشارة التي تستدعي الخبرة من مكمنها وتسيرها في قناتها، وإلا أحس الإنسان بالقلق أو التعب أو التوتر العصبي أو النفسي. وهكذا تتكون العادة في داخل النفس، وترسخ حتى تصبح ضرورة لا بد من أدائها في موعدها أو في مناسبتها!

وتكوين العادة في الصغر أيسر بكثير من تكوينها في الكبر.. ذلك أن الجهاز العصبي الغض للطفل أكثر قابلية للتشكيل وأيسر حفرًا على مسطحه. أما في الكبر ففضلًا عن اشتغال الجهاز العصبي بكثير من المشاغل، ووجود مئات أو ألوف من القنوات المتشابكة على سطحه، التي لا تترك من ازدحامها مجالا كبيرا للإضافة, فإن الجهاز العصبي ذاته يفقد

مع الكبر كثيرا من مرونته الأولى فيصبح الحفر عليه أشق.. ومع ذلك فهو ليس مستحيلًا في أي فترة من فترات العمر، خاصة حين تحدث انفعالة ضخمة، كما حدث للمؤمنين حين دخلوا الإسلام أول مرة، فإن الشحنة الجديدة كأنما تغسل الجهاز العصبي من رواسبه، وتعده للتلقي من جديد..

ومن أجل هذه السهولة في تكوين العادة في الصغر يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتعويد الأطفال على الصلاة قبل موعد التكليف بها بزمن كبير.. حتى إذا جاء وقت التكليف كانت قد أصبحت عادة بالفعل، ولم تكن في حاجة إلى إنشائها ابتداء بما يستلزمه ذلك من جهد.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر"[1].

فمنذ السابعة يبدأ تعويد الأطفال على الصلاة، مع أنهم لن يكلفوا بها إلا بعد سنوات قد تمتد إلى خمس أو ست. لتكون هناك فسحة طويلة لإنشاء هذه العادة وترسيخها؛ حتى إذا بلغ الطفل العاشرة، وصار على مقربة من موعد التكليف، فقد وجب أن يكون قد تعودها بالفعل. فإن لم يكن قد تعودها من تلقاء نفسه خلال سنوات التعويد الثلاث، فلا بد من إجراء حاسم يضمن إنشاء هذه العادة وترسيخها.

وقد اختص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة بهذا الأمر لأنها هي عنوان الإسلام الأول والأكبر، حتى ليقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة"[2].

ولكن جميع آداب الإسلام وأوامره سائرة على ذات النهج. وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدد لها زمنًا معينًا كالصلاة. فكلها تحتاج إلى تعويد مبكر، وكلها تحتاج بعد فترة من الوقت إلى الإلزام بها بالحسم إن لم يتعودها الصغير من تلقاء نفسه.

والقدوة الصالحة من أعظم المعينات على تكوين العادات الطيبة، حتى إنها لتيسر معظم الجهد في كثير من الحالات، ذلك أن الطفل يحب المحاكاة من تلقاء نفسه، وأطفال المسلمين يحاكون أبويهم في الصلاة حتى من قبل أن يتعلموا النطق! ويصبح تعويدهم عليها أمرًا سهلًا

([1]) أخرجه أبو داود.

([2]) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

في الموعد المحدد.. إلا الشواذ من الأطفال. والشذوذ أمر متوقع حدوثه دائمًا بسبب وراثات سيئة أو ظروف خاصة سيئة. وهؤلاء هم الذين يحتاجون إلى المزيد من الجهد للتعويد – بالتلقين إلى جانب القدوة– وهؤلاء هم الذين توقع عليهم العقوبة إن لم يستجيبوا للتعويد في الموعد المحدد..

وكما يكون تكوين العادة بالقدوة فإنه يكون بالتشجيع، ويكون عن طريق الإلزام باللطف، أو الإلزام بالشدة.

فتعويد الطفل –مثلًا– على تنظيم أشيائه وترتيبها وعدم إلقائها وبعثرتها في الحجرة أمر ضروري ولازم. وقد يصنعه من تلقاء نفسه نتيجة وراثات طيبة، أو نتيجة القدوة الصالحة أمامه[1]. فإذا لم يصنع وجب تشجيعه على ذلك بكل وسائل التشجيع الحسية والمعنوية التي مر ذكرها من قبل، ومن أهمها إضفاء المديح له والإشادة بنظافته وترتيبه ونظامه. فإن كان كل ذلك لا يجدي فلا بد من الأمر، ومتابعة الأمر حتى ينفذ. ومداومة الأمر والمتابعة حتى تتكون العادة. فإذا كان الأمر لا ينفذ، أو لا ينفذ إلا ما دامت الرقابة قائمة، فالمسألة في حاجة إلى مزيد من الحسم.. إلى حد العقوبة بكل درجاتها التي بيناها من قبل.

ومثل ذلك يقال في كل العادات التي يراد تعويد الطفل عليها، وكل العادات السيئة التي يراد تبديلها أو الكف أنها. والتعويد في الحقيقة هو أكثر ما يستغرق الجهد من الأبوين، وهو هو عملية التربية الحقيقية. فبغير أن تتكون للطفل عادات سليمة لا نكون قد صنعنا شيئًا في الواقع إلا الأماني الطيبة التي لا تغني شيئًا في واقع الأمر.

والإسلام في ذلك واضح أشد الوضوح. إنه لا يعتبر التحول الحقيقي قد تم حتى يتحول إلى عمل ملموس في واقع الحياة.

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى

([1]) يحدث في أحيان غير نادرة أن يقوم الطفل بترتيب أشيائه وتنظيمها من تلقاء نفسه، استجابة لاستعداد وراثي فائق، على الرغم من وجود القدوة السيئة أمامه متمثلة في أحد والديه أو كليهما!

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"[1].

فهذا التفكير الإيماني كله، وهذا التذكر وهذا التدبر ... وهذا التوجه الحار الصادق إلى الله، الذي لا ينبع إلا من قلب مؤمن بحق.. وهذا الاستغفار والإنابة.. وهذا الإقرار بالإيمان بمجرد سماع الداعي إليه.. هذا كله أصبح مقبولًا ومستجابًا عند الله حين صار عملًا يعمل!

فلم يقل النص القرآني إن الله استجاب للدعاء وهو دعاء، وللتفكر وهو مجرد تفكر، وللإقرار بالإيمان وهو مجرد إقرار.. إنما قال إنه استجاب لما تحول ذلك كله إلى عمل.. وأبرز السياق هنا نماذج معينة من العمل، تتناسب مع جو السورة التي تتحدث كلها عن معركة لا إله إلا الله.

والقرآن يزيد الأمر وضوحًا وصراحة:

"لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا"[2].

ومنهج التربية الإسلامية هو المنهج المستمد من الوحي الرباني في الكتاب والسنة. وهو يهدف إلى تحقيق ذات المبادئ الربانية. يهدف إلى تحويل المشاعر والأفكار والنوايا الطيبة إلى عمل له وجود واقعي، وإلى سلوك عملي مؤثر في واقع الحياة.

والوسيلة العملية إلى ذلك هي تحويل القيم والمبادئ -بالتربية- إلى سلوك واقعي متمثل في عادة متعمقة الجذور في النفس، كما تم الأمر في الجماعة المسلمة الأولى، التي رباها الرسول صلى الله عليه وسلم على عينه بالهَدْي الرباني.

ولكن هنا ينبغي التنبيه إلى أمر هام.. فالعادة -بقدر لزومها في التربية وضرورتها في إقامة مجتمع ذي طابع سلوكي محدد- لها ضررها وخطورتها في ذات الوقت إن لم يتنبه القائمون بأمر التربية إلى مكمن ذلك الخطر فيها! فعلى قدر ما تيسر من طبع السلوك

([1]) سورة آل عمران [190-195].

([2]) سورة النساء [123-124].

العملي بالطابع المطلوب بلا جهد، فهي عرضة لأن تحول السلوك إلى أداء آلي خال من الإحساس بالقيم الحقيقية التي هي الرصيد الواقعي لذلك السلوك، والتي لا يساوي السلوك شيئًا إن فقدها، حتى وإن بدا جميل الصورة ومثيرًا للإعجاب!

تلك فائدة العادة وذلك ضررها..

وعلى المربي أن يأخذ الفائدة ويتجنب الضرر.. وذلك بأن يكون هو ذاته مستشعرًا للقيم والمبادئ الإسلامية من وراء سلوكه اليومي، ولا يكون مؤديًا لهذا السلوك بطريقة آلية، وخاصة في الصلاة وهي عنوان الإسلام، وأشد الأمور عرضة في ذات الوقت أن تؤدي أداء آليًّا بغير رصيد واقعي من الخشية والتقوى لله. وذلك وحده يعطي جوًّا معينًا للبيت المسلم، يلتقطه الصغير ويؤثر فيه بوعي وبغير وعي. فتظل تلك القيم حية في نفسه ولا تتحول إلى أداء آلي. ثم بمداومة تذكير الصغير بالله. وبأن الأعمال كلها تعمل على وجهها الذي تؤدى به لأن الله يريدها كذلك. ولأننا حين نصنع ذلك نكون موضع رضا الله، ومستحقين لنعم الله. فهذا التذكير بالله هو الضمان ضد تحول السلوك إلى أداء آلي. وهو الرصيد الحقيقي للقيم والمبادئ، والرصيد الحقيقي للتربية الإسلامية كذلك.

وعلى قدر هذا التذكر الحي لله. والإحساس الحي بوجوده سبحانه وبرقابته على الأعمال، يكون رصيد التربية في دنيا الواقع، وتكون فاعليتها في النفس.. فلا عجب إذن أن تكون جماعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الجماعة المثالية في تاريخ البشرية كله، بما كانت عليه من ذكر دائم لله، وإحساس حي بوجوده، وتوجه دائم إليه بالخشية والتقوى لتنال رضاه..

* * *

من وسائل التربية الفعالة كذلك التربية بالأحداث.. أي استغلال حدث معين لإعطاء توجيه معين. وميزته على التوجيهات الأخرى التي تعطى للطفل باستمرار، أنه يجيء في أعقاب حديث يهز النفس كلها هزًّا فتكون أكثر قابلية للتأثر، ويكون التوجيه أفعل وأعمق وأطول أمدًا في التأثير من التوجيهات العابرة التي تأتي "على البارد" بغير انفعال.

وقد كانت الأحداث في حياة الجماعة المسلمة الأولى، والتوجيهات القرآنية المتنزلة فيها، من أبلغ وسائل التربية لهذه الجماعة وأعمقها أثرًا فيها ... ففي كل حدث درس. وفي كل درس عبرة لا تنسى..

كان الحدث يهز الجماعة المسلمة كلها فتنفعل به انفعالًا يصل إلى درجة التوهج في داخل النفوس. وعندئذ ينزل التوجيه –والنفوس في هذا التوهج– فيترك طابعه الذي لا يزول. أو كان يحدث الحدث فيتنزل التعليق عليه حارًّا متدفقًا فيكون هو الذي يشعل النفوس إلى درجة التوهج، وفي ثناياه يجيء التوجيه المطلوب، كما يطرق الحديد بعد تحميته حتى يتوهج، فيشكل على الشكل المطلوب!

ومراجعة سريعة لسورة الأنفال –التي نزلت تعليقا على ما حدث بين المؤمنين من خلاف على توزيع أنفال بدر– وسورة آل عمران التي نزلت تعليقا على هزيمة أحد، التي نتجت عن عصيان فريق من المؤمنين لأوامر الرسول القائد عليه صلوات الله وسلامه، وسورة التوبة التي نزلت تعليقًا على موقف المنافقين من غزوة تبوك –غزوة العسرة– وسورة الأحزاب التي نزلت تعليقًا على الهزة التي أصابت المؤمنين يوم الأحزاب، وسورة النور، التي نزلت تعليقًا على حادثة الإفك.. ترينا كيف كانت طريقة التربية بالأحداث على المنهج القرآني.. كيف كان الشعور يحمى ليتوهج، ثم تنزل الطرقات عنيفة متوالية، فإذا هي تطبع في النفس طابعًا لا ينتهي بعد أن تبرد المشاعر وتهدأ، بل يصبح جزءًا من كيانها لا يزول..

ولذلك كان الدرس يقال مرة ثم لا يعاد..

قال لهم في سورة الأنفال:

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" [1].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ" [20].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" [24].

"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" [46].

فما عادوا بعدها لما نهوا عنه..

وقال لهم في سورة آل عمران:

"وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" [129].

فما بارحهم هذا الاستعلاء بالإيمان بعد ذلك أبدا بصرف النظر عن وضعهم في المعركة منتصرين أو منهزمين!

وهكذا ... وهكذا من أثر تلك الطرقات على أثر تلك الأحداث.

وقد كانت تلك الأحداث في حياة الجماعة الأولى مرتبة في علم الله لتتنزل بها هذه التوجيهات وتلقى فيها تلك الدروس التربوية العميقة الأثر في حياة تلك الجماعة التي صنعت التاريخ:

"وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا.."[1].

"..يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ"[2].

والمربي لا يستطيع بطبيعة الحال أن يفتعل الأحداث! فهي تجري بقدر الله في الصغيرة والكبيرة سواء.. ولكن تطبيق المنهج يقتضي منه أن ينتهز الفرص المناسبة ليلقي دروسه التربوية في الأحداث التي تقع -بقدر الله- والتي يرى أنها صالحة لتوجيه تربوي معين. سواء كان الانفعال بالحدث قائمًا في نفس الطفل بالفعل، أو كان على المربي أن يثير ذلك الانفعال بتعليقاته عليه، حتى إذا علم أن التوهج الشعوري قد حدث داخل نفسه أعطاه التوجيه المطلوب.

وغالبًا ما يجيء الأمر بعد مخالفة تقع من الطفل ويكون لها أثر غير عادي في حياته. فعندئذ يكون التوجيه أفعل. أما أحداث كل يوم العادية فليست هي المقصودة بالتربية بالأحداث، ولا تصلح لذلك، لأن التعليق والتوجيه ينبغي أن يكون مناسبًا للحدث ذاته حتى لا يشعر الطفل بالمبالغة التي تفقد التوجيه وزنه في حسه!

([1]) سورة آل عمران [166-167].

([2]) سورة الأنفال41-42].

ولقد يحدث بطبيعة الحال أن يكون الطفل مستهينًا بما وقع منه، والمربي –بخبرته– يراه عظيمًا وخطيرًا وفي حاجة إلى توجيه شديد. فعندئذ يبين للطفل جسامة ما حدث منه، ويوضح له أن الاستهانة من جانبه خطأ ينبغي الكف عنه.

كما حدث للمؤمنين في حادث الإفك:

"إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"[1].

فقد صحح لهم خطأهم في تصورهم أن هذا الذي فعلوه كان هينًا. وبين لهم أنه كبيرة من الكبائر، وبين لهم ما كان ينبغي أن يكون عليه السلوك الصحيح في هذا الموقف. ثم أعطاهم توجيهًا حادًّا عنيفًا حاسمًا يشتمل على تهديد خفي لهم بالخروج من دائرة الإيمان إن عادوا إلى مثل ما فعلوه. وقال لهم في النهاية إنه يعلمهم ويبين لهم الآيات بعلمه سبحانه وحكمته..

والمنهج في هذه الآيات واضح مفصل مسلسل. وهو دستورنا في التربية حين تحدث المواقف التي تستدعي نوعًا خاصًّا من التوحيد، وهي مواقف لا تخلو منها حياة إنسان.

* * *

والتربية بالقصة لون آخر من التربية يستخدم الحادث، ولكنه حادث خارجي، يقع لأشخاص آخرين غير قارئ القصة أو مستمعها.. ومع ذلك فهو مؤثر في النفس كما لو كان يقع للإنسان ذاته!

وهذا التأثير للقصة يقع عن طريقين اثنين في وقت واحد، يقوي كل منهما الآخر ويزيد مفعوله. أحدهما هو المشاركة الوجدانية، فالأشخاص في القصة يضفي عليهم الفن القصصي حياة وحركة فيصبحون أحياء يتملاهم الخيال ويتابع حركتهم، ومن ثم يشاركهم وجدانيًّا فيما هم من أحداث وانفعالات. فيفرح لهم أو يحزن، أو يحنق عليهم أو يتشفى فيهم كما لو كانوا يعملون أعمالهم اللحظة، ويثيرون مشاعرنا تجاههم الآن.

---

(1) سورة النور [15-18].

أما الطريق الآخر فربما كان يتم على غير وعي كامل من الإنسان. ذلك أن قارئ القصة أو سامعها يضع نفسه في موضع أشخاص القصة أو يضع نفسه إزاءهم، ويظل طيلة القصة يعقد مقارنة خفية بينه وبينهم، فإن كانوا في موقف البطولة والرفعة والتميز، تمنى لو كان في موقفهم ويصنع مثل صنيعهم البطولي. وإن كانوا في موقف يثير الازدراء والكراهية حمد لنفسه أنه ليس كذلك! واعتز بنفسه أنه لا يقف مثل هذه المواقف المسفة! ومن هنا يحدث تأثر ذاتي إلى جانب المشاركة الوجدانية، ينتج من هذا التلبس بأشخاص القصة, ووضع الإنسان نفسه محلهم أو بإزائهم، وعقد المقارنة بينه وبينهم..

وبهذا التأثير المزدوج تثير القصة انفعالاتنا وتؤثر فينا تأثيرًا توجيهيًّا يرتفع بقدر ما تكون طريقة الأداء الفنية بليغة ومؤثرة، وبقدر ما تكون المواقف داخل القصة مواقف "إنسانية" عامة لا مواقف فردية ذاتية.

ومن هنا خطورة "الفن" في التربية..

إن الفنان ذو براعة خاصة، تجعله يستطيع التأثير في الناس من خلال وصفه للمواقف والمشاعر والأحداث. ولا يكاد ينجو إنسان من تأثير الفن عليه, والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "إن من البيان لسحرًا! "[1].

فإذا كان الفن الذي يقدمه الفنان للناس زائفًا.. وإذا كان يصف الانحراف والجريمة كأنها بطولة محببة، فهو قمين -ببراعته الفنية المؤثرة- أن يفسد مشاعر القارئ ويحببه في الجريمة وفي الفاحشة بما يزين من صورتها في حسه، وخاصة جرائم الجنس، وعند المراهقين والشباب صغار السن بصفة خاصة..

أما إن كان على بينة من ربه، وأوتي البراعة الفنية، فهو قمين أن ينشئ في نفوس قرائه حبًّا للقيم العليا والمواقف الإنسانية الفائقة فيدفعهم ذلك إلى محاولة الصعود..

ولقد استخدم القرآن القصة استخدامًا واسعًا جدًّا في تثبيت القيم الإيمانية وترسيخها وتعميقها في نفوس المؤمنين.. يستوي في ذلك قصص الأنبياء، وقصص المؤمنين الذي ابتلوا فصبروا حتى جاءهم النصر أو قدموا أنفسهم شهداء للحق، وقصص المكذبين وطغيانهم الموقوت، الذي يمد الله لهم فيه فترة من الوقت ليزدادوا طغيانًا وتجبرًا، ثم يدمر عليهم في النهاية

---

(1) أخرجه البخاري.

ويسحقهم، أو مشاهد القيامة الشبيهة بالقصة، المساوية لها في التأثير إن لم تكن أعظم تأثيرًا..

واستخدام القرآن للقصة في التربية يقررها كمبدأ من مبادئ التربية الإسلامية، علينا أن نستخدمه ونستغل قوة تأثيره في الكبار والصغار سواء..

ونستطيع -بالنسبة للطفل- أن نبسّط له قصص القرآن بلغة سهلة يستطيع أن يستوعبها سماعًا أو قراءة.. كما نستطيع أن نؤلف له قصصًا مناسبة تؤكد على الفضائل والمشاعر النظيفة والمواقف الطيبة التي نريد تثبيتها وتوجيه الطفل إليها، كما تنفّر من المواقف السيئة والمشاعر الهابطة والرذائل التي نريد إبعاد الطفل عنها..

ولا بأس -تربويًّا وفنيًّا- من استخدام الحيوان وإعطائه صورًا إنسانية. ومن استخدام مخلوقات خارقة [أو خرافية] كذلك بشرط أن يكون لها مغزى تربوي، فالطفل يصدقها في مرحلة معينة من عمره حين يكون خياله واسعًا وفياضًا، وتعطيه الأثر التربوي المقصود، ثم يكبر ويعلم أنها كانت قصص خرافة، ولا يزول من نفسه مع ذلك أثرها التربوي المقصود!

وينبغي أن تكون القصة أو الأحدوثة ["الحدوتة"] مشوقة للطفل ومناسبة لكل عمر، ومصوغة في القالب الذي ينفذ إلى حسه بسهولة، ومواقفها في الوقت ذاته دافعة إلى الخير مبعدة عن الشر. فلا نرسم موقفًا هابطًا في صورة جميلة محببة، ولا نرسم موقفًا عاليًا في صورة تثير السخرية أو النفور..

والكتابة للأطفال وتأليف القصص لهم موهبة خاصة لا يؤتاها كل إنسان.. مضافًا إليها خبرة ودراسة دقيقة تعين الموهبة وتوجهها إلى الصواب.

وليس كل أب أو أم على هذه الموهبة.. فالفنانون قلة في البشرية، وفنانو الطفولة أقل.. ولكن حسب أي أب أو أم أن يلجأ إلى الرصيد الموجود بالفعل فينتقي منه ما يناسب طفله..

وإن كنا نقول بهذه المناسبة إن كتب الأطفال الإسلامية قليلة جدًّا إلى درجة معيبة! وإنه على الرغم من الثراء غير العادي الذي يحفل به التاريخ الإسلامي، في الشخصيات والمواقف والأحداث البطولية، والنماذج الفائقة من البشر في كل اتجاه، فإن ما كتب عنها سواء للكبار أو الصغار ضئيل ضآلة مؤسفة، والنقص أشد فيما يخص الصغار.

وحقًّا إنه ليس كل إنسان يحسن الكتابة للأطفال ولو أوتي الرغبة وتوفرت لديه المادة.. ولكني أعتقد أنه لو اتجهت النية وانعقد العزم فسنجد بين الكتاب والفنانين المسلمين من ينتدب لهذا الأمر ويوليه جهده وعنايته..

المهم أن نبدأ.. بإحساس من الواجب الذي يؤدَّى لله..

* * *

بقي لدينا من وسائل التربية التي ذكرناها وسيلتان متقاربتان في الأسلوب متشابهتان في الغاية. إحداهما تتصل بالجهد الفائض والأخرى تتصل بالوقت الفائض.. وكلتاهما ذات أهمية في التربية، ينبغي أن يحسب لها الحساب.

فأما الجهد الفائض -وهناك دائمًا عند الأطفال [والشباب من بعد] جهد فائض- فينبغي أن يستنفد في عمل طيب، سواء كانت له منفعة مادية أو لم تكن. فليس المهم بالنسبة للطفل الصغير النفع المادي، بقدر ما يهم البناء النفسي السليم.

وإن الجاهلية الحديثة في الغرب لتستغل جانبًا من هذا الجهد الفائض في تشغيل الأطفال في عمل يدر عليهم كسبًا ينفقونه على أنفسهم [مصروف اليد] لأن أهلهم لا ينفقون عليهم، بدعوى تعويدهم الاعتماد على أنفسهم من صغرهم، وتربية الشعور بالمسؤولية في نفوسهم، وتعويدهم على العمل ذاته منذ طفولتهم.

والإسلام -وإن كان يبني الشخصية الإسلامية على تحمل التبعة والجهد، وعلى النشاط والكد، وعلى التدريب العملي على الحياة منذ الصغر، وعلى إعداد النفس "للتجنيد" فيما بعد.. فيأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم الأولاد السباحة والفروسية- إلا أنه لا يذهب إلى هذا المدى من تشغيل الأطفال بغير ضرورة وأهلهم موسرون. إنما يكلف أهلهم بالإنفاق الكامل عليهم حتى يبلغوا سن التكليف. وليست الوسيلة الوحيدة لتعويدهم العمل والشعور بالتبعة هو تكليفهم بالإنفاق على أنفسهم جزئيًّا وهم أطفال وكليًّا وهم مراهقون! [بعد الشهادة الثانوية] إنما يكون ذلك كله تحبيبًا لا إلزامًا، حتى يحين وقت الإلزام.

ولكن الإسلام حريص على أي حال على استنفاد الجهد الفائض في عمل طيب.. لأن تركه بغير توجيه صالح مجال فساد كبير للصغار والكبار سواء!

إن هذا الجهد الفائض سيستنفد لا محالة في شيء ما.. فإن لم يستنفد في الخير فلا بد أن يستنفد في الشر! ومن هنا خطورته، ومن هنا تبعة المربي إزاءه..

لا بد من تنظيم منطلقات لهذا الجهد، لتصريفه فيما ينفع البناء النفسي السليم للطفل..

وبالنسبة للطفل الصغير حتى السابعة وما بعدها يكون اللعب جانبًا هامًّا من حياته.

فالجهد الفائض يمكن أن يصرّف في اللعب، كله أو بعضه على الأقل. واللعب ذاته بالنسبة للصغير مجال واسع للتربية والتوجيه وتنمية المواهب والقدرات والاستعدادات. فهو ليس مجرد إنفاق طاقة فائضة، ولكنه فرصة للتربية والتدريب في ذات الوقت. ومن هنا ينبغي أن يكون اللعب موجهًا وتحت إشراف المربي، سواء كان لعبًا فرديًّا للطفل في سنواته الأولى أو لعبًا جماعيًّا حين يكبر ويستطيع المشاركة مع الآخرين ويتذوقها، وذلك حين ينمو في نفسه الخط الجماعي بعد الخط الفردي[1].

وليس معنى كونه موجهًا، وكونه تحت إشراف المربي أن يكون إلزامًا وقسرًا كالدروس المقيدة في المدرسة!

كلا! إن هذا يزهّد الطفل في اللعب ويكرهه فيه!

إنما المقصود أن يرغّب الطفل ويحبب في أنواع اللعب التي يراها المربي مفيدة له أو الموصوفة في الكتب المتخصصة [وليس هنا مجال الحديث التفصيلي في هذا الشأن] وأن يكون الإشراف من بعيد حتى لا يحمل صورة الإلزام والمراقبة، فاللعب "لعب" على كل حال، وقلبه إلى "جد" يفسد طعمه ويفسد مفعوله! إنما يمكن أن يأخذ الإشراف صورة المشاركة الخفيفة بين الحين والحين، أو صورة هذا السؤال للطفل:

بأي شيء تلعب؟ لا! هناك لعبة أجمل! انظر! تصنع كذا وكذا..

ومع ذلك فإن لم يستسغ الطفل اقتراحك فليس لك أن تقسره عليه! إنما يكون من واجبك في بعض الحالات أن تكفه عن لعبة معينة إذا كان فيها خطر عليه، أو كانت تعوده عادة سيئة لا ينبغي أن يتعود عليها..

ولا بأس –إلى جانب اللعب– من تشجيع الطفل على القيام بأعمال معينة لاستنفاد الطاقة الفائضة لديه. كتكليفه بترتيب أشيائه وتنظيمها فهذا عمل ذو هدف مزدوج: استنفاد الطاقة أولًا، وتربية عادة طيبة في ذات الوقت. أو تشجيعه على القيام ببعض الأعمال في

---

(1) راجع فصل "خطوط متقابلة" في الجزء الأول من "منهج التربية الإسلامية".

المنزل، أو تكليفه بشراء أشياء من الخارج حين يكبر سنه ويصبح صالحًا للخروج والتعامل مع الآخرين.. إلى غير ذلك من الأعمال النافعة، التي لا تبقي للطفل جهدًا فائضًا يصرفه في شر أو سوء.

وليس المقصود بطبيعة الحال إنهاك الطفل بالعمل بحجة استنفاد الفائض من طاقته! فلا ننسى أنه بعد طفل! وأن اللهو والمرح هو عالمه الأصيل الذي لا ينبغي إفساده "بالعمل" بمعناه الجاد إلا بعد سن معينة [في السبع الثانية لا في الأولى] ولا ننسى كذلك أن إرهاقه بدنيًّا أو عصبيًّا يعاكس نموه الطبيعي ويؤثر على صحته.. وليس هذا هو المقصود!

والوقت الفائض شبيه بالجهد الفائض.. إنه طاقة، ينبغي أن تصرف في الخير وإلا صرفت في الشر.

ومن هنا فإن "وقت الفراغ" أمر شديد الخطورة، إن لم يحسن استخدامه وشغله فيما لا يضر..

وإن "شغل أوقات الفراغ" لهو مشكلة من أسوأ المشاكل في الجاهلية.. وفي جاهلية القرن العشرين بصفة خاصة!

وما الخمر والميسر، والمخدرات، و"حانات" الرقص المجنون، وانحراف الشباب وجنوحه إلى الجريمة وإلى الشذوذ إلخ.. إلخ.. ما كل ذلك إلا صدى لمشكلة الوقت الفائض الذي لا يعرفون له متصرفًا إلا هذا السوء!

و"الحضارة" الجاهلية في القرن العشرين هي التي أوجدت هذه المشكلة بهذه الصورة دون شك، بقتلها إنسانية الإنسان وطمس إشراقة روحه، وتحويله إلى آلة تعمل معظم النهار، وحيوان ينطلق سواد الليل..

والفراغ في الجاهلية الحديثة ليس في حقيقته فراغ الوقت، ولكنه فراغ النفس.. فراغ القلب.. فراغ الروح. فراغ القيم والمبادئ العليا. فراغ الأهداف الجادة التي تشغل الإنسان حين يكون على صورته الربانية "في أحسن تقويم". فراغ العمل على إقامة الخلافة الراشدة في الأرض، بكل ما تشمله من جهد جاد وجهاد للباطل، وعمل لإقامة الحق..

وحين يوفر التقدم العلمي والصناعي جهد الإنسان البدني، ويوفر له مزيدًا من الوقت، ثم يكون في نفسه وقلبه وروحه ذلك الفراغ، فهنا تحدث المشلكة التي يحلونها بالخمر والميسر والجنس.. والجنون.

ثم يقولون إنها ضريبة الحضارة!

كلا! إنها جريمة الجاهلية..

وفي الإسلام لا توجد هذه المشكلة قط.. لأنه لا فراغ!

لا يمكن أن يوجد الفراغ في قلب عامر بذكر الله! ولا في روح متعبدة لله! ولا في نفس مستقيمة على هدى الله!

وكيف يوجد الفراغ والإنسان مشغول بإقامة الخلافة الراشدة، عامل على إقامتها في ذات نفسه، وساع إلى إقامتها في واقع الحياة؟

كلا! لا فراغ!

والعبادة -بمعناها الواسع الشامل- أي التوجه إلى الله بكل عمل، والسير على هدى منهجه في كل عمل.. تملأ الفراغ كل الفراغ!

ومن هنا لا يحتاج المسلم إلى الخمر والميسر ولا يغرق في حمى الجنس ولا في المخدرات، لأنه لا يحس ذلك الفراغ الداخلي القاتل الذي يهرب منه في هذه الأشياء!

ومع ذلك فقد حرص الإسلام على "شغل أوقات الفراغ" -حين توجد- بالعمل النافع المثمر الذي يعين الإنسان على الطريق:

يشغله في الذكر والعبادة التطوعية بعد أداء الفرائض..

يشغله في حفظ القرآن وتلاوته تعبدًا إلى الله..

يشغله في زيارة الأصحاب والأحباب وعيادة الأرضى من المعارف والأصدقاء..

يشغله في ساعة مرح نظيف مع الزوجة والأولاد في البيت، أو مع الأحباب المؤمنين في أي مكان..

وكلها طاعات يتقرب بها إلى الله، وتزيد نفسه ثراء في كل مرة لأنها تضيف إلى رصيد الخير فيها، ولا تستنفد طاقة النفس في التفاهات أو في المدمرات من الشهوات..

والإسلام حريص على تعويد أتباعه على ذلك منذ صغرهم لكي لا تنشأ عندهم عادة "قتل الوقت" بالسيئ من العادات أو المشاعر أو الأفكار أو الأعمال. فوقت الفراغ فرصة لكل سيئ من الأمور إذا لم يحسن استغلاله, وخاصة إن وجدت الطاقة الفائضة، فهنا يكون الفساد أشد..

وبالنسبة للطفل فإن الطاقة الفائضة والوقت الفائض أمران متداخلان متقاربان. فما قلناه هناك بشأن الطاقة الفائضة نقوله هنا مرة أخرى بالنسبة للوقت الفائض: اللعب، وتنظيم أشيائه وترتيبها، والتشجيع على بعض الأعمال المنزلية. ثم نضيف إليه بالنسبة للوقت، بعض أوقات يجتمع فيها الأبوان بالطفل، يحدثانه بقصة، أو يستمعان منه إلى قصة، أو يخرجون في نزهة أو زيارة لبعض الأصدقاء، فكلها أمور تشغل الوقت في النافع، ولا تترك فراغًا للسيئات...

* * *

ثم تجيء مرحلة شديدة الأهمية في حياة الطفل.. حين يبدأ يبحث عن الخالق.

إن الفطرة البشرية تتيقظ لوجود خالقها في مرحلة باكرة جدًّا.. منذ الطفولة.

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا!"[1].

ولا نعلم نحن كيف أخذ الله ميثاق الفطرة ولا متى تم ذلك..

ولكنا نعلم أن هناك منافذ في الفطرة تتلقى تأثيرات معينة من الكون والحياة، فتستيقظ إلى حقيقة الخلق، وتنبعث تبحث عن الخالق.. سواء اهتدت إلى الله الحق، فعرفته على حقيقته المنفردة، المنزهة عن الشبيه والشريك، أم ضلت فتصورته في صورة ضالة وأشركت معه آلهة أخرى..

في كل حالة -مهتدية أو ضالة- هي تبحث عن الخالق، وتتقدم إليه بلون من ألوان العبادة..

([1]) سورة الأعراف [172].

وهذه التأثيرات المنبعثة من الكون والحياة ذات ثقل بالغ لا يتسنى للفطرة أن تفلت من وقعها عليها.. فتنطلق -حتمًا- تسأل من الخالق؟ من المدبر؟ من وراء الأحداث الجارية التي تحدث في الكون؟ من منشئ الحياة وواهبها للأحياء وآخذها منها؟ من صاحب القدرة القادرة الذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.. في كلمة: هو الله! ثم تتصوره في أي صورة وتعبده حسبما تصورته!

الكون بضخامته الهائلة..

والكون بدقته المعجزة..

وظاهرة الحياة والموت..

وظاهرة حدوث الأحداث وجريانها..

وظاهرة القدرة القادرة إلى جانب العجز البشري..

وعجز الإنسان عن استشفاف الغيب.

كلها منافذ يوقع الكون والحياة توقيعاتهما عليها فتستيقظ تبحث عن الخالق.. وكلها من موحيات العقيدة في نفس الإنسان[1].

والطفل -في سن باكرة جدًّا- تستيقظ فطرته لهذه التوقيعات فيروح يبحث عن الخالق..

إنه في سن معينة يبدأ يمطر أهله بالأسئلة، التي قد لا يجدون لها إجابة مقنعة بالنسبة للطفل، وهي في الحقيقة بدء تيقظه لهذه الحقيقة الضخمة.. حقيقة الخلق.. وحقيقة الألوهية..

حين يبدأ يسأل:

السماء مدورة.. لماذا؟

السماء زرقاء.. لماذا؟

([1]) انظر فصل "العقيدة" من كتاب "دراسات في النفس الإنسانية".

الشمس أكبر من القمر.. لماذا؟

أين تذهب الشمس في الليل؟

أين يذهب القمر حين لا يكون موجودًا في السماء؟

أين آخر الأرض؟

ما الذي يحمل الأرض؟ وما الذي يحمل السماء؟

أو يسأل: كيف جئت إلى الوجود؟

إلى مئات أخرى من الأسئلة التي ليس لها إلا إجابة واحدة: الله هو الذي خلقها.. أو الله هو الذي جعلها هكذا..

إنه عندئذ يكون قد أخذ يتلقى توقيعات الكون والحياة، وبدأت فطرته تستيقظ.. تبحث عن الله..

هنا يجيء دور التربية لتأسيس العقيدة السليمة في نفس الطفل، في لحظة تهيئها الفطري لاستقبال العقيدة..

إن الطفل ذاته هو الذي ينبعث للسؤال، ولا يحتاج أن ينبهه أحد إلى ذلك ولا أن يستلفت نظره، فقد تكفل الخالق سبحانه، وهو يأخذ على الفطرة ميثاقها، أن يوقظها، ويوجهها لتبحث عنه وتهتدي إليه.. وإن كان من رحمته البالغة أنه لم يأخذ الفطرة بميثاقها وحده, وإنما أرسل الرسل يذكرون الفطرة بميثاقها، ويهدونها إلى الطريق الحق:

"رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"[1].

وما مهمة المربي إلا أن يلتقط الخيط، وينتهز الفرصة السانحة، ليعرف الطفل بإلهه الحق، ويربط مشاعره به، ويعلق قلبه بالتطلع إليه والخشية منه..

([1]) سورة النساء [165].

وينبغي أن نتذكر بطبيعة الحال أن مدارك الطفل ما تزال صغيرة، وأن قدرته على الاستيعاب محدودة، فنحدثه بما يناسب قدرته ومداركه لا بما نعرفه نحن عن حقيقة الألوهية، وإن كانت هناك حقائق يلتقي عندها الصغير والكبير:

"قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ"[1].

للكبار هي أم للصغار أم لهم جميعًا؟

"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا"[2].

للكبار هي أم للصغار أم لهم جميعًا؟

فأما ما يعجز عن فهمه وإدراكه فيؤجل حتى يحين وقته. إنما المهم أن نبدأ معه حين يبدأ هو, يستطلع أحوال الكون والحياة من حوله، ويسأل الأسئلة التي لا إجابة لها إلا: الله.

وسنقول له أشياء لن يستطيع تصورها ولا تخيلها، ولكنا مع ذلك لا بد أن نلقيها في خلده حتى يتم إدراكها فيما بعد..

حين نقول له إن الله يرانا ويسمعنا, وإن كنا نحن لا نراه:

"لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ"[3].

فلن يفهم ذلك وهو صغير. ولكنه حين يكبر يستطيع أن يستوعب هذا الأمر على أنه حقيقة، وإن كان سيعرف أنه لن يدرك الكنه لأن ذلك خارج عن نطاق الإدراك البشري!

ومع ذلك فلا بد أن نقول له هذه الحقيقة لأنه يظل يسأل دائمًا: أين الله؟ ولماذا لا نراه!

([1]) سورة الرعد [6].

([2]) سورة لقمان [10].

([3]) سورة الأنعام [103].

وحين نحدثه عن رضا الله وعن غضب الله، فلن يدركه إلا في صورة حسية، وقد يجسم صورة للرضا والغضب.. ومع ذلك فلا بد أن نحدثه عن رضا الله وغضبه لنزرع في نفسه الفضائل التي ينبغي أن يمارسها، والسيئات التي ينبغي أن يحجم عنها..

وذات يوم.. حين ينضج عقله وتتسع مداركه، فسيعلم أن تصوره لله سبحانه وتعالى في طفولته كان تصورًا ساذجًا وغير صحيح، ولكن الأثر التربوي الذي ارتبط بفكرته عن الله في طفولته سيبقى.. وسيتعمق ويرسخ, ويقوم عليه بناء نفسي سليم.

إن تأسيس العقيدة السليمة منذ الصغر أمر بالغ الأهمية في منهج التربية الإسلامية.. وأمر بالغ السهولة كذلك! فما على المربي -كما قلنا- إلا أن يلتقط الخيط وينتهز الفرصة السانحة.

ولكن هناك محاذير ينبغي للمربي أن يتوقاها:

فلا يجوز له أن يثقل ذهن الطفل ويكده في تصور أمور لا يستطيع أن يتصورها أو يدركها.. ولا داعي للعجلة على الإطلاق. فسيحين الوقت لكل شيء فيما بعد.

ولا يجوز له أن يتكئ على خط الخوف حتى يرعب الطفل بغير موجب، بكثرة الحديث عن غضب الله وعذابه والنار وبشاعتها. إنما ينبغي -كما هو مقرر في المنهج الرباني في كتاب الله وسنة رسوله- المزاوجة الدائمة بين الرضا والغضب، والنعيم والعذاب. وينبغي كذلك أن نبدأ بالترغيب لا بالترهيب، حتى يتعلق قلب الطفل بالله من خيط الرجاء أولًا فهو أحوج في صغره إلى الحب.. ولا بأس بأن يصل الترهيب إلى نفس الطفل من طريق غير مباشر. كأن يقال له حين يقوم بعمل خير: إن الله سيحبه من أجل هذا العمل ويدخله الجنة. وإنه ليس كالأولاد الآخرين الذين يعملون السيئات، والذين سيعذبهم الله في النار.. فنكون قد ذكرنا له العذاب ولكن من طرف خفي، يحدث في نفسه الرهبة المطلوبة, ولكنها لا ترتبط بشخصه مباشرة فتفزعه في سنه الصغيرة دون موجب تربوي..

وعن طريق التعريف الدائم بالله، كلما نمت مدارك الطفل واتسعت، وربط القلب والمشاعر دائمًا به، تستنبت الفضائل في نفس الطفل، ويعمق فيه حب الخير، ويبعد عن الشر..

ورويدًا رويدًا -ودون عجلة على الإطلاق- يفهم الطفل حقيقة الألوهية، وواجب العبودية نحوه، ومعنى العبودية الحقة.

ورويدًا رويدًا كذلك يحفظ بعض آيات القرآن، سواء من السور القصيرة أو من القصص الوارد في السور المتوسطة والطويلة، ليكون ذخيرة له عندما يبدأ في الصلاة، وليتعود القرب من القرآن والأنس إليه والإقبال عليه..

والقدوة في هذا الأمر كله هي المعين الأول على بناء العقيدة السليمة والسلوك الإيماني القويم.

* * *

ثم يأتي وقت يخرج فيه الطفل إلى الشارع.. ولا بد أن يحدث ذلك ما لم تتدخل عوامل غير طبيعية تمنع الطفل من الخروج.

وفي المجتمع المسلم، الذي يتحاكم إلى شريعة الله، ويطبق في أمور حياته منهج الله، يكون الشارع إسلاميًّا كما يكون البيت. ومعنى كون الشارع إسلاميًّا أن تراعى فيه حرمات الله، ولا يقع فيه ما يخالف أوامر الله وتوجيهاته. فإذا وقع ذلك -ولا بد أن يقع بين الحين والحين ما دمنا في مجتمع بشري لا ملائكي- فإنه يكون موضع الاستنكار لا محالة. لا موضع الترحيب، ولا موضع عدم المبالاة..

فأول ما يلفت النظر في الشارع المسلم أنه لا توجد فيه امرأة متبرجة بحال من الأحوال، لأن المجتمع المسلم لا يسكت على هذا الأمر بالذات، من بين جميع الأمور، لشدة ما نبه إليه كتاب الله وسنة رسوله. ولا تجد بالتالي شبابًا متسكعًا صناعته معاكسة الرائحات والغاديات، لأن الإسلام شدد على هذه كما شدد على تلك.

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[1].

([1]) سورة النور [30-31].

فهي أوامر مشددة للرجال والنساء جميعًا ألا يقعدوا وألا يقعدن للفتنة في الطرقات [ولا في غير الطرقات بطبيعة الحال]!

تلك سمة بارزة مميزة للشارع المسلم، لا تخطئها العين خلال قرون متطاولة من التاريخ، كان الشارع الجاهلي فيها، في خارج العالم الإسلامي يعج بالمنكرات. وقد ظل الشارع المسلم محافظًا على سمته تلك طالما كان المجتمع مسلمًا تراعى فيه حرمات الله، ذلك أن الشارع جزء من المجتمع بطبيعة الحال، يأخذ لونه وسمته، ويتزيى بزيه وينطبع بطابعه. فلما ارتد المجتمع جاهليًّا في القرن الأخير، صار الشارع جاهليًا بالضرورة، وخرجت المرأة متبرجة في الطريق، وخرجت الفتنة وراءها من كل طريق، كما خطط لها أعداء الإسلام من الصليبيين والصهيونيين في غفلة كاملة من المسلمين..[1] .

وفي الشارع المسلم لا يتحدث الناس عن الفاحشة..

فليس الأمر فقط أنه لا توجد الفتنة الهائجة التي تفتن الناس -رجالًا ونساء- وتخرجهم عن طاعة الله ورسوله. ولكن الأمر أبعد من ذلك في المحافظة على الأعراض وعلى الأخلاق في المنهج الرباني.. فالفاحشة ذاتها لا تذكر إلا بشهود أربعة! وإلا فهي قذف توقع على قائله عقوبة القذف: ثمانين جلدة، ولا تقبل شهادته أبدًا إلا أن يتوب وتُعلم توبته..

وحكمة الشرع في ذلك واضحة. فحين لا يتحدث الناس عن ارتكاب الفاحشة، تظل مرهوبة في النفوس لا يقدم عليها أحد استعظامًا لأمرها، بالإضافة إلى شدة العقوبة المفروضة عليها. أما حين يكثر الحديث فيها وتصبح حديثًا شائعًا متداولًا فإن رهبتها تذهب من النفوس. فمن أجل صيانة المجتمع من الفاحشة كان هذا الأمر بعدم الحديث فيها إلا بشهود أربعة. وحين يوجد الشهود يقام الحد، فيكون أرهب في النفس. ولحكمة كذلك جاء في القرآن:

"وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"[2] زيادة في إشاعة الرهبة من هذه الجريمة بالذات، التي تحل كيان الأمم وتذهب بتماسكها حين تتفشى فيها.

([1]) انظر فصل "أثر المخطط الصليبي الصهيوني في حياة المسلمين" من كتاب "المستشرقون والإسلام".

([2]) سورة النور [2].

ولا يوجد من ثم في الشارع المسلم ذلك السيل من الشتائم البذيئة القذرة التي يفيض بها الشارع الجاهلي؛ لأنها كلها تدخل في دائرة القذف وتوقع عليها -في الشرع الإسلامي- عقوبة الجلد وإسقاط الشهادة، وهو نوع من إسقاط الاعتبار.

وهكذا لا تلتقط أذن السائر أو السائرة في الطريق كلمة تخدش الحياء. فتظل النفوس نظيفة من الداخل، لأنها لا ترى الفاحشة ولا تسمع عنها ولو إيحاء من بعيد!

وللمجتمع المسلم وسائله بطبيعة الحال لضمان التلبية النظيفة لدافع الفطرة.. نتحدث عنه في الفصل القادم حين نتحدث عن مشاكل الجنس للمراهقة والشباب المبكر. إنما نتحدث هنا بالقدر الذي يتعلق بالشارع المسلم ونظافته من الفاحشة، وذلك جزء من التربية الأخلاقية للمجتمع المسلم في شئون الجنس، نستكمل الحديث عنها هناك.

وفي الشارع المسلم تراعى الأخلاق العامة التي يفصلها المنهج الرباني, وتفصلها أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة. فلا يتحلق الناس في وسط الطريق، ولا يعطلون المرور فيه، ولا يتصايحون فيه كالأنعام، ولا يهرجون تهريج التافهين الفارغين الذين لا تشغلهم جديات الأمور. ولا تقع المعارك المتكررة فيه ولا السباب واللعان، فإن وقعت قام أناس في الحال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويردون الأمور إلى نصابها من موظفي الدولة المختصين [أي: الشرطة] أو غيرهم من الناس، ولا يتحلقون "للفرجة" وزيادة الضجيج!

ولا يكون الشارع بصورة من الصور ملتقى الفارغين من الناس. فليس في المجتمع المسلم فارغون يتسكعون في الطرقات! إنما يمضي كل إنسان إلى عمل يشغله. فإن كان عمله في الطريق، بائعًا أو شاريًا، أو عاملًا أو صانعًا فهو مشغول كذلك في مهمته لا يجد الفراغ النفسي ولا فراغ الوقت الذي يتسكع به في الشارع مخالفًا لآداب الإسلام.

وغني عن الذكر أن الشارع المسلم لا يستخدم في قضاء الضرورة فهذه من الملاعن الثلاث التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن الشارع الإسلامي باختصار صورة معبرة عن أخلاقيات المجتمع المسلم ومبادئه وقيمه ومفاهيمه. سواء في ذلك أخلاقيات الجنس، أو أخلاقيات التعامل: في البيع والشراء. أو السلام والتحية. أو آداب المرور. أو آداب الجلوس. أو آداب العلاقة بين الصغير والكبير، أو بين السائر والجالس. إلخ.. إلخ.

كما أنه صورة معبرة عن التحاكم إلى شريعة الله.. فالأمور لا تجري في فوضى بلا ضابط. إنما يضبطها الشرع الرباني والمنهج الرباني. فهي إما أن تسير كما أمر بها الله ورسوله، وإما أن تقوم بما أمر به الله ورسوله، من أول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى التعزير إلى إقامة الحد..

وبعبارة أخرى فإن الله "موجود" في حس الناس في الشارع الإسلامي، كما هو موجود في حسهم في البيت الإسلامي والمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية. تشعر بآثار هذا الوجود في توقير الله وإطاعة أوامره، وتجنب نواهيه..

وحين يخرج الطفل المسلم إلى الشارع المسلم فلا ضير..

بل هو لا بد أن يخرج لا محالة ما دام سوي البدن والعقل والنفس..

فمنذ مولده يظل عالمه يتسع رويدًا رويدًا حتى يشمل في النهاية كل الكون، المحسوس منه وغير المحسوس، وقد يظل عالمه في الشهور الأولى محصورًا في حضن أمه وثديها ووجهها وفراشة الذي ينام فيه. ولكنه بعد قليل يبدأ يأنس إلى أشخاص آخرين غير الأم: يأنس لأبيه، ولإخوته إن كان له إخوة، أو لوجوه أخرى من المقيمين معه في المنزل، ثم يبدأ يأنس لآخرين ممن يزورون البيت بين الحين والحين، ويتعرف عليهم إذا عادوا إليه.. ثم يبدأ يمشي بنفسه فيصبح لعالمه أبعاد أخرى غير التي كانت له وهو محمول بين ذراعي من يحمله أو يحتضنه. ثم يطل من الباب أو النافذة فيرى عالمًا أكبر من البيت، وأشمل وأفسح، فتتوق نفسه إلى الفرجة ثم إلى الخروج. ويجد والديه يمنعانه في بادئ الأمر، ويزيده ذلك شوقًا وتحرقًا.. حتى يسمح له في النهاية بالخروج!

والخروج إلى الشارع تجربة ضخمة في حس الطفل، مفيدة ومثمرة وضرورية..

فمنذ اللحظة التي يتسع فيها عالمه النفسي والوجداني والعقلي عن حدود البيت، يصبح البيت في حسه قيدًا يرغب في الانفلات منه. وعندئذ لا بد أن يسمح له بالخروج، في صحبة الآخرين في مبدأ الأمر إلى أن يُطمأن إلى خروجه وحده فيما بعد. وحبسه في البيت -تحت أي ستار كان- هو تعويق لنموه النفسي والعقلي والوجداني، يترك طابعه فيه بقية العمر إذا لم يصحح في حركة تصحيح جذري. فقد يطبعه بالجبن والخوف. أو يطبعه بالانطواء والعزلة. أو يطبعه بالنفرة من الناس. أو يطبعه بالاضطراب والحيرة عند مواجهة المواقف الجديدة.. أو يطبعه برفض كل تجربة جديدة يخوضها وحده، ويتمسك بأن يخوضها غيره له أو يخوضها معه ليطمئن! أو يطبعه بذلك كله في آن واحد!

ذلك أن الشارع هو مجال اكتساب الخبرة ونمو الشخصية في ذلك كله!

في الشارع يرى أناسًا أغرابًا لا تربطهم به صلة كتلك التي تربطه بأهل المنزل.. فيتعود أن يرى الأغراب ويعيش بينهم بلا توجس.

وفي الشارع يجد أقرانًا في مثل سنه وأكبر وأصغر.. فيتعامل معهم في لعب أو حديث أو حتى مشاجرة. وفي كل مرة يكتسب خبرة جديدة ويتخطى حاجزًا من الحواجز، ويمارس الحياة ممارسة فعلية. فالحياة أخذ وعطاء. وسلم وحرب. وغلبة وغلب. وخصام وصلح. وحب وكره. واجتماع وافتراق. وجهد يبذل, ورغائب تتحقق أو لا تتحقق..

ولا يمكن أن يتم ذلك كله في داخل البيت، ولو كان فيه إخوة وأخوات وأقارب. فالحياة ليست مقصورة على التعامل مع الأقارب. إنما يقع أكثرها تعاملًا مع أناس لا تربطهم بالإنسان رابطة قرابة ولا صداقة. فما لم يتعود الإنسان ذلك في صغره، ويمارسه ويتدرب عليه تدريبًا عمليًّا، فستظل نفسه متوجسة مضطربة لا تجد طمأنينتها واستقرارها في المجتمع الكبير..

ومن هنا يكون الخروج إلى الشارع وممارسة الحياة فيه ضرورة للطفل، لا يكتمل بنيانه النفسي والعقلي إلا به، ولا تنمو كل جوانب شخصيته إلا فيه. فإن منع من الخروج إليه – لأي سبب– فستظل جوانب من نفسه ضامرة غير نامية، وتظل فاعليته وإيجابيته ناقصة بمقدار ضمور هذه الجوانب وعجزها عن "التعامل" مع المواقف والأشخاص..

والشارع كذلك هو الذي يكشف الجوانب الكامنة من طبيعة الطفل، التي قد لا تتبدى داخل البيت، أو قد يبدو عكسها داخل البيت!

فهناك طفل وديع جدًّا في البيت، "عفريت" في الخارج. وهناك العكس: لا يهدأ في البيت لحظة فإذا خرج إلى الشارع ظل ساكنًا صامتًا لا يتحرك ولا يتكلم.. كلاهما غير طبيعي. وكلاهما في حاجة إلى دراسة لتبين السبب في ذلك التناقض. وقد يكون تناقضًا مأمون العاقبة. فلا بأس. وقد يكون اختلالًا في الشخصية فلا بد من علاجه.

وهناك طفل ميال إلى السيطرة. أو إلى العدوان. وطفل خانع للسلطة مستسلم للعدوان. كلاهما في حاجة إلى علاج. ولن يتبين ذلك الخلل في نفسه إلا حين يخرج إلى الشارع بالفعل، ويتعامل مع الآخرين على الطبيعة.

وهناك طفل بخيل يضن بأشيائه أو بجهده على الناس. وآخر متلاف لا يبقي شيئًا، ولا يدخل جهدا لمن يستحق ولمن لا يستحق..

كل تلك الأمور وعشرات أمثالها في حاجة إلى مراجعة ومتابعة وضبط، ولن يتبينها الوالدان بتمامها والطفل محجوز داخل البيت، وداخل نوع محدد من التعامل، وهو التعامل مع الأهل والأقارب. إنما تتبين الأمور على حقيقتها من خلال التعامل مع الأغراب. ولا بد أن يعطى الطفل الفرصة لهذا التعامل، لتنمية شخصيته إلى أبعادها الطبيعية من جانب، ولكشف جوانب الخلل فيها للوالدين من جانب آخر ليعملا على إصلاحها.

والشارع -بعد- ككل شيء في الحياة، وككل وسيلة من وسائل التربية، لا يخلو من المخاطر!

فبصرف النظر عن حوادث الطريق، وهي قدر مقدور لا فرار منه، وإن وجبت الحيطة أخذًا بالأسباب كما أمر الإسلام: "اعقلها وتوكل"[1], فهناك -حتى في الشارع المسلم والمجتمع المسلم- أقران سوء! وهناك مستويات من التربية مختلفة، ومستويات من الأخلاق مختلفة.

وقد قلنا أكثر من مرة إن المجتمع الإسلامي ليس مجتمعًا من الملائكة. كلا! إنه مجتمع بشري تمامًا، لم يتغير من بشريته شيء. كل ما في الأمر أنها بشرية فائقة، ارتفعت -بمجموعها- إلى أقصى درجات ارتفاعها. ولكن ليس معنى هذا أنها ارتفعت كلها إلى القمة! فسيظل فيها من هو في المستوى الأدنى للحياة الإسلامية الصحيحة، وسيظل فيها من هو تحت المستوى الأدنى بدرجات.. أي تحت الصفر!

وهؤلاء وهؤلاء كانوا سيصبحون في المجتمع الجاهلي أشد سوءًا وأكثر حطة. وقد رفعهم المجتمع الإسلامي درجات كثيرة، فوصل منهم من وصل إلى نقطة الصفر، وظل بعضهم دونها بدرجات لأنهم كانوا لولا ذلك في الدرك الأسفل من الوجود!

وإذن فليس كل الناس في المجتمع الإسلامي ولا كل الأطفال على المستوى المطلوب.. حقيقة إنه لا يوجد الهبوط الفاحش الذي يوجد في المجتمع الجاهلي، ولكن توجد درجات من السوء أقل..

---

(1) رواه البيهقي وابن حبان.

وطفلك المسلم، الذي ربيته في بيتك تربية إسلامية، عرضة أن تختل موازينه حين يختلط بتلك المستويات الأدنى من التربية والأخلاق. ونبادر هنا فنقول إن كلمة "المستوى" لا تشير في المجتمع المسلم إلى المستوى الاقتصادي! كلا! إن هذا أمر لا علاقة له البتة بالمستويات النفسية والخلقية في المجتمع المسلم. والإسلام لا يقوم الناس على أساس الفقر والغنى. إنما يقسمهم إلى أتقياء وغير أتقياء، بصرف النظر عن الغنى والفقر، واللون والجنس. واللغة والدم:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[1].

وقد كان بلال العبد الحبشي الفقير المعدم في أعلى القمة من المجتمع المسلم، حتى يقول عنه عمر العربي القرشي، أمير المؤمنين، "سيدنا بلال"..

كلا! لا تنصرف كلمة "المستوى" في المجتمع الإسلامي إلى حسب أو نسب أو غنى أو فقر.. إنما تنصرف إلى مقدار التمكن في الإسلام، والتشبع بروحه والسير على منهجه والسلوك الواقعي على مقتضاه.

وبهذا المعنى نقول: إن طفلك الذي ربيته على المنهج الإسلامي وبلغت به مستوى عاليًا من التربية الإسلامية قد يختلط في الشارع بمستويات أخلاقية وتربوية أدنى من مستوى طفلك فيختل توازنه ويضيع أثر جهدك الذي جهدته في تربيته..

نعم. ذلك عرضة أن يحدث. وإن لم يكن -في المجتمع الإسلامي الحقيقي- هو الاحتمال الأرجح..

ومع ذلك فلا بديل!

إن البديل المتخيل، وهو حبس طفلك في البيت أشد ضررًا من تعريضه لمخاطر الاختلاط بتلك المستويات الأدنى من البشر!

فهناك سيكون عرضة لضمور الشخصية، والانطواء والعزلة والاضطراب والحيرة بعد ذلك في المجتمع الكبير..

([1]) سورة الحجرات [13].

وحين تخرج طفلك إلى الشارع فقد تختل موازينه بالاحتكاك بأقران السوء، فيتعود عادات سيئة، أو ينحرف انحرافات خلقية فيكذب ويسرق أو يعصي التوجيهات والأوامر، أو يتجاوز القدر المسموح به من اللعب أو قضاء الوقت في خارج البيت.. إلخ.. إلخ.

عندئذ لا بد من تدخل الوالدين للتصحيح.. والتصحيح السريع قبل أن تتمكن الانحرافات منه، ولكن ليس بحرمان الطفل من الشارع وحبسه في البيت، إلا أن يكون ذلك لفترة قصيرة كعقاب وعلاج..

لا بد من مزيد من الجهد يبذل مع الطفل.. مزيد من النصح، ومزيد من التلقين، ومزيد من استنفاد الطاقة في الخير، ومزيد من شغل أوقات الفراغ في العمل النافع، ومزيد من التشجيع على الأخلاق الفاضلة.. ومزيد إذا لزم الأمر من العقاب!

ولكن خسائر النزول إلى الشارع في النهاية ستكون أقل من خسائر القبوع في داخل البيت.. وما دامت الرعاية قائمة والعين ساهرة على التصحيح السريع أولًا بأول قبل أن يتمكن الانحراف من نفس الطفل ويصعب التصحيح! وهذا كله فضلًا على أنك -في المجتمع الإسلامي الحقيقي- ستجد من بين الأطفال الأسوياء، الذين تلقوا منهج التربية الإسلامية في بيوتهم ونشّئوا عليه، العدد الكافي الذي تنتقي منه لطفلك أصدقاء مأمونين لا تخاف منهم على طفلك بل ترغب أن يصاحبوه!

* * *

ثم يذهب الطفل إلى المدرسة..

والمفروض -في المجتمع المسلم، الذي يتحاكم إلى شريعة الله ويطبق منهج الله- أن تكون المدرسة إسلامية، بمعنى أنها تربي تلاميذها ليكونوا مسلمين صالحين، وتتمشى مع التربية الإسلامية التي بدأها الطفل في المنزل وتسير بها خطوات جديدة نحو الاكتمال. بل المفروض -وفيها مدرسون متخصصون في التربية- أن تصحح وتقوم ما عسى أن يكون البيت المسلم قد نسيه، أو لم يحسن التوجيه فيه. فليس كل الآباء موهوبين في فن التربية، وليس كلهم على المستوى المطلوب من حسن التصرف وسعة الإدراك والمرونة اللازمة لعملية التربية. أما المدرسة فتلك وظيفتها الأولى: أن تربي على منهج من التربية مدروس ومفصل ومؤصل، وللمدرسين به خبرة وعلم.. وسيكون منهج التربية في المدرسة الإسلامية بطبيعة الحال هو منهج التربية الإسلامية وسيكون المدرسون قد درسوه في المعاهد التي تتولى تخريج المعلمين، وتخصصوا فيه، وأصبحوا على دراية به ودربة عليه.

وإذا كان أي منهج في الأرض يحتاج أن يكون المدرس الذي يقوم بالتربية على مقتضاه متشعبًا به، مؤمنًا بما جاء فيه، متحمسًا لتطبيقه، وإلا فلن يرجى منه أن يطبقه بإخلاص، ولا أن يؤتى ثمارًا حقيقية على يديه..

إذا كان هذا هو الشأن في أي منهج تربوي مطبق في أي مكان في الأرض، فالمنهج الإسلامي هو أولى المناهج جميعًا أن يكون كذلك، لأن ذلك أصل من أصوله العميقة: أن يكون قول الإنسان وعمله متطابقين:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ"[1].

ثم إن الإسلام عقيدة، في الوقت الذي هو نظام حكم، ونظام مجتمع، ومنهج تربية. وقد يصلح في أي شيء أن يؤدي الإنسان عمله على طريقة "تسديد الخانات" إلا في العقيدة!

ومقتضى ذلك كله أن يكون المدرسون في المدرسة الإسلامية مسلمين!

لا مسلمين بأسمائهم وشهادات ميلادهم! فهذه إن أغنت في أي مكان -وهي لا تغني-! فلن تغني في المدرسة بصفة خاصة، حيث المجال هو التربية، والتربية في حاجة إلى إيمان حقيقي بالمنهج، وليس إلى التظاهر بالإيمان به أو ادعاء الإيمان!

المدرسة الإسلامية تقوم على مدرس مسلم، يمارس الإسلام حقيقة، ويتخلق بخلق القرآن في سلوكه وتعامله وسمته ومظهره وسائر شأنه. وهو فوق ذلك عليم بمبادئ الإسلام وقيمه ومفاهيمه. وعليم بمنهج التربية الإسلامية في صورته النظرية والتطبيقية، ومدرب على طريقة تطبيقه قبل أن يتخرج ويمارس عمله في المدرسة.. إلى جانب تخصصه العلمي في المادة التي يدرسها.

وهذه الصورة التي تبدو عجيبة من العجائب في المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه، هي البديهية الأولى في المجتمع المسلم الحقيقي، الذي يمارس الإسلام بالفعل، ويستمد منه قيمه ومفاهيمه ومعايير حياته. بل لا يمكن تصور المدرسة الإسلامية أصلًا بغير هذا العنصر الأولي، الذي لا قيام لها من غيره.

---

(1) سورة الصف [2-3].

وفي الدولة المسلمة التي تحكم بشريعة الله وتطبق منهجه في الحياة، تكون معاهد التربية الإسلامية هي التي تتكفل بتخريج هؤلاء المدرسين، وتعليمهم منهج التربية الإسلامية، وتدريبهم عليه تدريبًا كافيًا قبل مزاولتهم العمل في المدارس. وتختار من بين المتقدمين إليها أفضلهم خلقًا وأقدرهم -في نظرها- على حمل رسالة الإسلام والتربية الإسلامية، إلى جانب التفوق العلمي المطلوب في كل حالة.

وحين يكون المجتمع مسلمًا بالفعل فلن تجد معاهد التربية الإسلامية عنتًا في الحصول على حاجتها من الطلاب الذين تتوفر فيهم الشروط الخلقية والدينية المطلوبة -إلى جانب الشروط العلمية- لأن ذلك سيكون هو الأصل في هذا المجتمع، وما عداه قلة شاذة ناشزة. ثم يكون عليها أن تؤهلهم التأهيل التربوي الخاص الذي يجعلهم قادرين على التربية بمقتضى المنهج الإسلامي. وذلك يحتاج، ككل شيء بطبيعة الحال، إلى مواهب خاصة تراعيها دائمًا معاهد التربية في اختيار طلابها، كما يحتاج إلى تدريب خاص.

والمدرس المختار على هذه المعايير، والمدرب على هذه الصورة، فهو الذي سيلتقي أولئك الأطفال الذين جاءوا من بيوتهم إلى المدرسة، فيكمل معهم شوط التربية الذي بدأوه في منازلهم، أو يبدأ معهم من جديد إن رأى أن الأمر يحتاج إلى البدء من جديد، وستكون المدرسة بهذه الصورة محضنًا إسلاميًّا كاملًا مهمته الأولى هي تنشئة الأطفال في جو إسلامي وبروح إسلامية، وتعريفهم بربهم وبحقائق دينهم -بقدر ما تتسع له مداركهم- وربط قلوبهم بالله، وتعويدهم على عادات الإسلام، وطبعهم بطابعه الأخلاقي المميز، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله، إلى جانب تعليمهم العلم الضروري لهم من لغات ورياضيات وإنسانيات وتدريبات عملية ويدوية وبدنية ... إلخ.

لقد كانت المدرسة في المجتمع الإسلامي الأول تقام داخل المسجد. ولهذا دلالته الخاصة في منهج التربية الإسلامية. فلا فرق بين المدرسة والمسجد في الحقيقة. كلاهما يقوم بالتربية، وكلاهما يقوم بالتعليم..

ولئن كان التخصص قد أصبح سمة هذا العصر، ولئن كانت المدرسة قد أخذت صورة معينة في نظام فصولها، وسبوراتها، ومقاعدها، وملاعبها.. إلخ، لا يتسع له المسجد ولا يصلح له، فضلًا عن الأعداد الغفيرة التي تؤم المدارس وتزدحم فيها، ولا يمكن للمسجد أن يستوعبها..

لئن كان هذا كله قد فرق بين مبنى المسجد ومبنى المدرسة وفصل بينهما، فإنه –بالنسبة للتربية الإسلامية– لا يفرق بينهما في المنهج ولا يفصل بينهما في الغاية. إنما يؤدي كل منهما دوره على طريقته، متكاملين، ملتقيين على الغاية، مشتركين في الطريق.

والمفروض في المدرسة الإسلامية أن تمارس شعائر العبادة بصورة جماعية في وقتها، سواء صلاة الظهر إن كانت المدرسة صباحية أو العصر إن كانت مسائية أو المغرب أو العشاء إن كانت ليلية. بحيث لا يمر الوقت المكتوب لأداء الفريضة والتلاميذ بعيدون عن أدائها أو مبعدون عنها. والمفروض أن يشترك النظار "والناظرات" والمدرسون "والمدرسات" في أداء هذه الفرائض ليكون جو العبادة شاملًا، وليلتقي التلاميذ ومدرسوهم لقاء العقيدة في الله. فذلك أدنى أن يربط بين قلوبهم، وأن يكون تأثيرهم أفعل في نفوس تلاميذهم، وأدنى أن يؤتي المنهج التربوي ثماره المرجوة..

والمفروض كذلك أن تكون أخلاقيات الإسلام هي قاعدة التعامل في المدرسة بين الناظر والمدرسين، وبين المدرسين والتلاميذ، لتكون المدرسة صورة حقيقية مصغرة للمجتمع الإسلامي الكبير، إن كانت متخصصة في عمل معين، فتخصصها لا يعزلها عن أخلاقيات المجتمع وأهدافه وقيمه ومبادئه وقواعد سلوكه.

والمفروض –بداهة– أن تكون المدرسات والناظرات مرتديات زي الإسلام، متخلقات بأخلاق الإسلام، غير متبرجات تبرج الجاهلية، ليكن القدوة العملية لطالباتهن، وليكون هناك تطابق بين سلوكهن الشخصي ومظهرهن وبين المنهج الذي يربين بناتهن في المدرسة عليه..

وغني عن الذكر أنه لن تكون في المدرسة الإسلامية تلك المدرسة التي تقول لبناتها في المدرسة الثانوية: إن البنت التي بلغت هذه السن وليس لها صديق، ينبغي أن تعرض نفسها على طبيب نفساني!!! ولا المدرسة التي تأتي في الصباح لتحكي لبناتها تفاصيل سهرة الأمس مع أحد عشاقها!!![1].

ثم إن المدرسة الإسلامية ليست مدرسة لتحفيظ المعلومات للامتحان فيها آخر العام..

([1])حدثت هذه وتلك في دنيا الواقع في بلد من بلاد الإسلام! "ولم يستنكرها على الصعيد الرسمي أحد! لأن القوم ثوريون تقدميون!

ولئن كان الخط التاريخي الواقعي للمدرسة الإسلامية قد انحرف, كما انحرف المجتمع الإسلامي كله خلال القرون، فصارت في وقت من الأوقات تحفظ المعلومات ولا زيادة. فنحن إنما نعود إلى المنهج ذاته نستمد منه مباشرة بصرف النظر عن الانحراف التاريخي.

والمنهج يعتبر المدرسة مكانًا لطبع التلاميذ بالطابع الإسلامي، إلى جانب تعليمهم العلوم كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"طلب العلم فريضة"[1].

والطابع الإسلامي يكوّن شخصية إيجابية فاعلة في الأرض، متحملة لتبعة أعمالها، جريئة مقدامة، قابلة للتجنيد السريع، متأهبة له أبدًا. كما يكون شخصية استقلالية كما وجه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين:

"لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت, وإن أساءوا أسأت, ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا"[2].

وهذا كله يقتضي أن تكون مهمة المدرسة أوسع بكثير من مجرد تلقين العلوم.

إن مهمتها هي تكوين "الشخصية" وهي في منهجنا هذا "الشخصية الإسلامية" بطابعها المتميز. وما التحصيل العلمي إلا جانب واحد من جوانب الشخصية ليس هو أهمها بأي حال, وإن كانت له أهميته الذاتية، إنما أهم منه كيفية الاستفادة بهذا العلم، وكيفية التصرف في الحياة العملية، وكيفية التعامل مع الناس والأحداث. وذلك يحتاج إلى تدريب عملي لا إلى تلقين نظري. فالتلقين النظري علم يحفظ! أما التدريب العملي فخبرة مكتسبة ورصيد واقعي من التجربة يسند صاحبه في الموقف العملي وييسر له التصرف فيه.

لا بد إذن أن تكون مناهج الدراسة في المدرسة عملية ونظرية معًا لا نظرية فحسب. وأن تكون في مدرسة البنين "ورشة" ضخمة إلى جانب الفصول، وفي مدرسة البنات بيت متكامل يدبرن شأنه.

كما أنه لا بد من اشتراك التلاميذ في إدارة المدرسة والقيام ببعض شئونها ليتدربوا على حمل التبعة وليكتسبوا الخبرة..

---

(1) رواه ابن ماجة.

(2) أخرجه الترمذي.

ولابد أن تكون الروح العسكرية واضحة في مدارس البنين، والروح المنزلية واضحة في مدارس البنات، لإعداد كل لدوره في مستقبل حياته بغير خلط كالذي تخلطه الجاهلية الحديثة بين البنين والبنات، لتخرج في النهاية هذا الجيل المترهل المتميع الذي يملأ الآن وجه الأرض. والذي لا تستطيع أن تحكم لأول وهلة -وأحيانًا لآخر وهلة- هل هو ولد أم بنت!

إن الإسلام منهج للحياة جاد لا يهزل.. يرفض التميع والانحلال والترهل.. من البنين والبنات سواء. ويرفض المتشبهين والمتشبهات بتوجيه صريح من رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال"[1].

ولقد يختلط البنون والبنات في سني الطفولة الأولى في المدرسة الواحدة.. إذا دعت إلى ذلك الضرورة.

ولكن منذ نهاية المرحلة الأولى تبدأ في الفطرة تتميز خصائص الرجولة وخصائص الأنوثة. وما أراده الله فطرة لا ينبغي للبشر أن يحيدوا عنه، لأنهم حين يحيدون عنه يفسدونه لا محالة، كما هو حادث لهذا الجيل.

والمدرسة الإسلامية تطبق منهج الله ولا تطبق مناهج البشر الضالين في جاهليتهم..

وهي لذلك تجعل مدرسة للبنين متخصصة ومدرسة للبنات متخصصة منذ يبدأ الفتى يستعد نفسيًّا وجسديًّا لمعالم الرجولة، وتبدأ الفتاة تستعد نفسيًّا وجسديًّا لمعالم الأنوثة، أي: ما يوازي في مدارسنا الحالية المرحلة الإعدادية.

وليس المهم أن يشترك البنون والبنات في مواد دراسية واحدة أو لا يشتركوا [ولا بأس من المراحل الأولى من أن يشتركوا في بعضها على الأقل] ولكن المهم هو "الجو" الذي يسيطر على المدرسة وعلى الدراسة: جو الرجولة في مدارس الرجال، وجو الأنوثة في مدارس الإناث.. وذلك جزء من "الشخصية الإسلامية" التي ينبغي على المدرسة أن تربيها. فالإسلام حريص على إعطاء الرجل المسلم شخصية الرجل الكامل الرجولة، وإعطاء المرأة المسلمة شخصية المرأة الكاملة الأنوثة. فهو دين الفطرة، المنزل من عند الله خالق هذه

---

(1) أخرجه البخاري.

الفطرة، وخالق الزوجين الذكر والأنثى ليكونا زوجين اثنين، وليس جنسًا متميع الصفات، لا يصلح أن يكون رجلًا ولا يصلح أن يكون أنثى، ولا يصلح أن يكون "إنسانًا" على الإطلاق..

ولقد نكون قد سبقنا المرحلة التي نتحدث عنها -وهي مرحلة الطفولة- بعض الشيء ونحن نتحدث عن مدرسة الرجولة ومدرسة الأنوثة. ولكن الواقع أن التهيؤ النفسي للرجولة والأنوثة يتم مبكرًا عن علاماته الجنسية المميزة، ثم إن مرحلتنا التي نتحدث عنها تمتد من الطفولة الصغيرة إلى الطفولة الكبيرة [فيما حول الثانية عشرة] فلسنا إذن بعيدين كثيرًا عن الرجولة والأنوثة في مرحلتنا التعليمية والتربوية الحاضرة..

وأخيرًا فإن كثيرًا من المواد الدراسية ستختلف في منهج المدرسة الإسلامية عن المدارس الحالية, فحصة التاريخ الإسلامي بصفة خاصة ستروي التاريخ بصورة مختلفة تمامًا عن صورته الحالية[1]. وستكون أمجاد التاريخ الإسلامي وبطولاته جزءًا هامًّا من الدراسة في المدرسة، سواء في حصة التاريخ أو حصة اللغة العربية أو حصة التعبير الفني. كما أن حصة الجغرافيا ستدرس العالم الإسلامي كوحدة متميزة من الوجهة الاقتصادية والبشرية. وستكون حصة الدين حصة تربية دينية حقيقية وليست حصة نصوص دينية كما هي اليوم. حصة يعيش فيها التلاميذ في جو الإسلام، وتاريخه المجيد، ومفاهيمه الشاملة التي تشمل الحياة البشرية كلها من سياسة واقتصاد واجتماع وفكر وفن وأخلاق.. ويرتبط فيها التلاميذ ارتباطًا وجدانيًّا بالله، فيخرجون من كل حصة أشد حبًّا لله وأشد توقيرًا له وخشية..

المدرسة الإسلامية باختصار هي "معمل التفريخ" الذي ينشئ الأجيال المسلمة.. أجيال تعرف دينها وتحبه وتعمل به. تعرف سعته وشموله وتكامله، وتعيشه وتمارسه في عالم الواقع..

هي السند الحقيقي للبيت المسلم. تكمل رسالته وتزيدها رسوخًا، وتسعف هي فيما قصر فيه البيت.

تربيتها وتعليمها، وجدها ولعبها، مستمدة كلها من روح الإسلام وتوجيهاته.

الشخصية الإسلامية هي طابعها المميز، وهي النموذج الذي تسعى إلى تكثيره وتعميمه.

---

(1) انظر كتاب "كيف نكتب التاريخ الإسلامي".

الحب والاحترام المتبادل هو أساس العلاقات فيها. حب مستمد من الأخوة الشاملة في الله. واحترام من الصغير للكبير مستمد من أوامر الإسلام.

النظام الدقيق إلى درجة الحسم هو طابع العمل فيها. نظام لا يسمح بالفوضى في الصغيرة ولا الكبيرة، ولا يتهاون استخفافًا ولا يؤدي العمل "تسديد خانات".

والحرص الأبوي على صالح التلاميذ هو الدافع الذي يحرك العملية التربوية والتعليمية، فهكذا يكون المربي المسلم في تبعته أمام الله: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"[1].

والأمانة في التعليم، والأمانة في التعلم، هي مقتضى جو "الفريضة" الذي وصف به الرسول صلى الله عليه وسلم طلب العلم حين قال: "طلب العلم فريضة". فلا غش من المدرس ولا غش من التلميذ!

* * *

وحين يخرج الطفل إلى الشارع. ثم إلى المدرسة، يبدأ احتكاكه بالمجتمع الكبير..

والشارع ولا شك جزء من المجتمع، والمدرسة جزء آخر.. ولكن المجتمع أكبر وأشمل، والنماذج التي يحويها أكثر تعدادًا وتباينًا وسعة. ص416

ولئن كان الشارع بالذات قطاعًا ممثلًا للمجتمع وقيمه وأخلاقه، إلا أنه -في المدن الكبيرة خاصة- لا يمكن أن يكون ممثلًا لكل نماذج المجتمع ولا كل اتجاهاته، كما يحدث في القرية الصغيرة أو المجتمعات البسيطة التركيب.

وتعرف الطفل على المجتمع يتم تدريجيًّا وفي بطء، مع اتساع حركته فيه، واتساع مداركه وقدرته على الاستيعاب والفهم، وزيادة احتكاكه بالنماذج البشرية السابحة في تياره.

وفي هذا المجتمع -على اتساعه- يعترف تدريجيًّا على الصورة النهائية لهذا المجتمع: قيمه ومبادئه وأفكاره وعاداته وتقاليده وأنماط سلوكه ودوافعه وأخلاقياته وطرق تعامله ومستوياته المختلفة في كل اتجاه.

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم.

ولا شك أن هذا التعرف يستغرق سنوات كثيرة، ويتوقف في الكثير منه على الطفل ذاته: درجة ذكائه، وتركيزه، وقدرته الذاتية على التعامل المباشر مع المجتمع.

فالطفل الذكي أقدر على النفاذ إلى داخل النموذج الذي يراه أمامه، وأقدر على الاستفادة من الخبرة المتحصلة لديه من كل تجربة يخوضها، فلا يحتاج إلى تجارب كثيرة في الشيء الواحد كما يحتاج الطفل المتوسط الذكاء أو القليل الذكاء.

والطفل ذو القدرة العالية على التركيز أقدر على استيعاب عدد أكبر من النماذج، من الطفل المشتت الانتباه. والقدرة على التركيز شيء غير الذكاء وقد لا يرتبط به. فهناك طفل شديد الذكاء ولكنه مهوش موزع الانتباه لا يستطيع التركيز على شيء. بينما يستطيع طفل عادي الذكاء ذو قدرة عالية على التركيز أن يحصل بانتباهه خبرات أكثر ومعلومات أكثر. أما الطفل البطيء التفكير فغالبًا ما يكون كذلك قليل القدرة على التركيز، ومن ثم بطيء التحصيل للخبرات والمعلومات سواء.

كذلك الأمر في القدرة على التعامل المباشر مع المجتمع.. فكلما زاد التعامل المباشر زاد رصيد الخبرة الذاتية ونمت الجوانب الاجتماعية من شخصية الطفل، فصارت حركته في المجتمع أيسر وأوسع، وصارت حصيلته في النهاية أكبر.

والطفل المنطوي على نفسه قد يكون -أحيانًا- ذا قدرة على التجريد النظري؛ وإذا كانت قدرته على التركيز عالية فقد يستطيع في أثناء تأملاته الصامتة التي ينفق فيها أكثر وقته وجهده أن يستخلص من أحوال المجتمع أكثر مما يستخلصه غيره من الأطفال حتى أصحاب التعامل المباشر والحركة الواسعة، ذلك أن هذه التركيبة النفسية تهيئه لأن يكون "مفكرًا" أو فنانًا في المستقبل إذا وجد الظروف الملائمة والتوجيه الصائب. ولكنه يظل مع ذلك قليل الخبرة العملية، ضئيل الرصيد الواقعي في التجارب، فلا يحسن التعامل مع هذا المجتمع الذي يعرفه -نظريًّا- أكثر من غيره. ذلك أن المعرفة النظرية شيء، والخبرة العملية شيء آخر. وسيظل -رغم قدرته على التجريد النظري، ومعرفته النظرية بأحوال الناس ودوافعها وقيمها ومبادئها- غير مكتمل النمو النفسي، وغير قادر على خوض التجارب الحية بمفرده، وعرضة للحيرة والارتباك في المواقف المفاجئة، رغم معرفته النظرية بما ينبغي أن يكون عليه التصرف في هذه المواقف!

وعاجلًا أو آجلًا يتعرف الطفل على مجتمعه. ويتأثر به في ذات الوقت..

فليس الأمر مقصورًا على التعرف. لأن عملية التعرف الاجتماعي لا تتم في فراغ شعوري أو وجداني أو عصبي أو فكري.. وليست كعملية التعرف على المعلومات البحتة التي تتم في نطاق الذهن وحده، ولا يصحبها إلا القليل من المشاعر النفسية العابرة.

إن عملية التعرف الاجتماعي تتم بالكيان النفسي كله. ومن ثم فهي تستخدم كل الأجهزة النفسية القابلة للتأثير والتأثر. وإذ كان الطفل أضأل كيانًا -لصغر سنة وصغر حصيلته من التجربة والخبرة والمعرفة وضعف مقدراته جميعًا- بالإضافة إلى أنه فرد واحد إزاء المجتمع الكبير، فهو إذن عرضة لأن يتأثر، أكثر كثيرًا من أن يؤثر.

وقد يكون الطفل المنطوي على نفسه أقل الأطفال عرضة للتأثر بالمجتمع، ولكنه لا بد أن يتأثر حتمًا قدرًا من التأثر. ثم إنه في النهاية ليس أفضل النماذج البشرية، وقد يكون أسوأها، ما لم يكن ذا مواهب فائقة جدًّا تعوض عليه ما يفقده من كيانه النفسي وخبرته الاجتماعية من جراء عزلته وانطوائه وسلبيته.

والخلاصة أن الطفل سيتأثر تأثرًا لا محيص عنه بالمجتمع من حوله. ولا يمكن فصله وحجزه عن هذا التأثر إلا بحبسه حبسًا مطلقًا عن التعامل مع المجتمع. وهذا أمر لا سبيل إليه بحال من الأحوال. وليس من الصواب حتى إن أمكن تنفيذه، لأنه ينشئ إنسانًا مختلًّا مشوه التكوين النفسي، كالجسم الذي أصابه الكساح من عدم الحركة، فأصبح مشوهًا عاجزًا ناقص التكوين.

وفي المجتمع المسلم تكون حركة الطفل في مختلف قنواته وتياراته هي الحركة السليمة الصحية الواجبة، التي ينبغي أن يدفع الوالدان طفلهما إليها دفعًا, حتى وإن كان كارهًا أو مترددًا أو خائفًا في مبدأ الأمر..

إن التعامل الجديد. والتعامل مع الأغراب.. له رهبة معينة في نفوس بعض الأطفال على الأقل. وهذه الرهبة ينبغي أن تزول بالتشجيع المستمر، والتعويد، والطمأنة، ومصاحبة الوالدين للطفل في مبدأ الأمر حتى يطمئن إلى التجربة الجديدة, وأنها مأمونة العاقبة ليس فيها ما يرهب أو يخيف.

وبعض الأطفال ولا شك يكونون على العكس من ذلك مندفعين إلى التعامل مع المجتمع والانسياح فيه إلى الحد الذي يحوج الوالدين إلى الحد من هذا الانسياح، وضبطه في الحدود المأمونة التي لا تنشئ عند الطفل تأثرات ضارة. وهؤلاء وإن كانوا متعبين من هذا الجانب، إلا أنهم أقل تعبًا من الآخرين المنطوين على أنفسهم، الهاربين من التعامل مع

المجتمع، الراهبين لكل تجربة جديدة، فهؤلاء يحتاجون إلى دفعهم دفعًا، كما يدفع الخائف من الماء دفعًا لكي يتعلم السباحة قهرًا عنه! وإلا فلن يتعلم أبدًا إذا ترك لتردده ورهبته وانزوائه.

والطفل في ذلك كالطفلة سواء..

ولئن كان الرجل -في المنهج الإسلامي- أكثر عرضة للاحتكاك بالمجتمع الخارجي، وأوجب أن يتدرب على ملاقاته وإحسان التعامل معه، وإحسان التصرف في المواقف المختلفة فيه، نظرًا لطبيعة التكاليف الملقاة على عاتقه.. فليس معنى هذا أن المرأة -في المنهج الإسلامي- معفاة من التعامل الخارجي، أو أن التدريب على هذا التعامل غير لازم لبناء كيانها النفسي السليم. فهي أولًا تتعامل تعاملًا كاملًا مع المجتمع النسائي. وهو مجتمع محتاج إلى الدربة الكاملة والخبرة والمرونة في التعامل معه كمجتمع الرجال بالنسبة للرجل سواء. إن لم يكن أكثر! ثم إنها هي المسؤول الأول عن تربية أطفالها بنين وبنات، ويلزم لها -من أجل هذا الأمر- قدر كبير من الخبرة الاجتماعية تؤهلها لهذه الرسالة الكبيرة. وليس مقتضى ذلك -كما تزعم الجاهلية الحديثة- أن تشارك الرجل في عمله وفي مباذله وفي انحرافاته لكي تكسب تلك الخبرة. كلا! فقد كانت المرأة في الجماعة المسلمة الأولى تكتسب خبراتها كاملة. وتؤدي رسالتها كاملة دون أن تحتاج إلى التبذل والاختلاط بالرجال بغير ضرورة، ودون أن تحتاج للخروج إلى الطريق عارية تبتغي الفتنة. ولم يقل أحد إن اكتساب الخبرة مرادف للقذر الروحي والنفسي إلا في هذه الجاهلية الحاكمة بأمرها في هذا القرن العشرين.

ثم إن المرأة في الإسلام مكلفة -من موضعها- برعاية القيم والمبادئ الإسلامية، ونشرها في المجتمع، والجهاد في سبيلها إن كان الخطر يتهددها من الخارج أو الداخل سواء. وهذا كله يحتاج أن تكون ذات معرفة بالدين، وذات خبرة بأحوال المجتمع، وذات دربة على التعامل معه. وكانت المرأة المسلمة في المجتمع الأول تصنع ذلك كله مع المحافظة الكاملة على أوامر الله لها ونواهيه. فليست أوامر الله لها قيدًا على نموها النفسي والعقلي والروحي كما تزعم الجاهلية الحديثة..

والطفلة إذن كالطفل في المجتمع الإسلامي في حاجة إلى التدريب على التعامل مع المجتمع، كل في حدود تكاليفه المقبلة واحتياجاته.

وفي المجتمع المسلم -كما قلنا- تكون حركة الطفل في داخله هي الحركة السليمة الصحية اللازمة..

فهذا المجتمع هو الترجمة الواقعية لمبادئ الإسلام وقيمه وأخلاقه..

مجتمع متواد متحاب مترابط. تجمع بينه أخوة الإسلام على غير قرابة ولا تعارف سابق: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ"[1]. حيثما التقوا فهم إخوة في الله، يربط بينهم رباط العقيدة بمثل ما تربط قرابة الدم أو أشد. يتعاونون على البر والتقوى, ولا يتعاونون على الإثم والعدوان. يعين قويهم ضعيفهم وكبيرهم صغيرهم. ويتبادلون الاحترام والتوقير بما تقتضيه هذه الأخوة. ويتكافلون في السراء والضراء بما أمر الله. ويفشون السلام بينهم كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"[2].

ويتعاملون بالصدق والأمانة والإخلاص. لا يغشون ولا يخادعون:

"من غشنا فليس منا"[3].

ويحرصون على إتقان أعمالهم:

"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه"[4].

ويوفون بالوعد إذا وعدوا لأن خلف الوعد من النفاق:

"آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف"[5].

ويتعاملون فيما بينهم بالحسنى:

"وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[6].

([1]) سورة الحجرات [10].

([2]) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.

([3]) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.

([4]) رواه أبو يعلى والعسكري عن عائشة رضي الله عنها.

([5]) أخرجه الشيخان.

([6]) سورة فصلت [34].

ويتحاكمون إلى الله ورسوله في أمور حياتهم كلها، صغيرها وكبيرها على السواء، في بيعهم وشرائهم؛ في عملهم وراحتهم، في سياستهم واقتصادهم؛ وفي نظرتهم للأمور وتقويمهم لما يجري في المجتمع من الأحداث. يتردد على ألسنتهم على الدوام ما أمر به الله ورسوله في هذا الشأن أو ذاك، ثم ينفذون هذه الأوامر طاعة لله وعبادة له، ويذكر بعضهم بعضًا إذا نسوا أو جهلوا ما أمر الله به.

وكما قلنا أكثر من مرة، إنه ليس مجتمعًا ملائكيًّا. بل هو مجتمع بشري بحت، ولكنه في وضع فائق من البشرية. يصل أعلى نماذجه إلى القمة المثالية، حيث يلتقي المثال والواقع. ويبقى أدنى نماذجه تحت الصفر، ولكنها قليلة أولًا، وليست شديدة الهبوط بالمقدار الذي كان يمكن أن تكون عليه في جاهليتها؛ لأن الرفعة العامة في المجتمع قد رفعته كله درجات إلى أعلى، بمرتفعاته ومنخفضاته سواء.

فالجريمة في هذا المجتمع تحدث ولا شك. وقد وقعت جرائم في مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم، أرقى مجتمعات البشرية في كل التاريخ. ولكنها نادرة الوقوع جدًّا. وتأخذ في الحال جزاءها فيكون ذلك مانعًا من التشجيع عليها والتمادي فيها.

وتحدث الانحرافات الخلقية من كذب وخداع والتواء وخيانة.. إلخ ولكنها ليست السمة الغالبة للمجتمع. ثم هي مستنكرة. وهذا هو المهم. فليس في الإمكان -في أي مجتمع بشري على الأرض، ولا المجتمع الإسلامي في قمته- أن يكون الناس كلهم مستوين على أخلاقيات الإسلام ومنهجه التربوي. ولكن المهم أن يستنكر المجتمع ما يقع في داخله من انحرافات، فيبقى أثرها السام محصورًا في أضيق نطاق. أما وقوعها وعدم استنكارها فهو الذي يجعلها تتفشى تدريجيًّا حتى تصبح هي الغالبة. ومن أجل ذلك لعن الذين كفروا من بني إسرائيل: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"[1].

فهذا الإنكار هو صمام الأمن للمجتمع، الذي يقف انتشار السيئات فيه ويعصمه من الانحراف الشامل. فإذا لم يعمل هذا الصمام عمله فلا شيء يحول إذن بين المجتمع والفساد؛ حى تبقى فيه قلة صالحة تدعو فلا يستجاب لدعائها!

"عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم فعرفت في وجهه أن قد حضره شيء، فتوضأ وما كلم أحدًا، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول: فقعد

(1) سورة المائدة [78-79].

على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "يا أيها الناس، إن الله يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم" , فما زاد عليهن حتى نزل"[1].

هذه هي صورة المجتمع المسلم. الصورة الواقعية الخالصة، كما حدثت بالفعل في واقع التاريخ، وليست الصورة الخيالية التي لا تقبل التطبيق.

وحين ينطلق الطفل إلى التعامل مع هذا المجتمع، كما لا بد أن يفعل، فهو في الواقع يثبّت تلك القيم والمفاهيم والمبادئ والعادات والتقاليد وأنماط السلوك التي تربى عليها في البيت المسلم والمدرسة المسلمة، ويزيدها تمكنًا ورسوخًا وفاعلية. فتتواكب التأثيرات كلها في نفسه، يقوي بعضها بعضًا. ويسند بعضها بعضًا، فإذا هو في النهاية قد تهيأ ليأخذ مكانه في هذا المجتمع: فردًا صالحًا في مجتمع صالح.

ولقد يحدث -كما لا بد أن يحدث- أن يصادف الطفل نماذج سيئة في هذا المجتمع ناشزة عنه. فإذا أدرك بوعيه، وبما تربى عليه في البيت والمدرسة من قيم وتصورات ومفاهيم، أنه نموذج سيئ وناشز، فقد انتفى الضرر المحتمل من هذا اللقاء، بل لقد أصبح لدى الطفل قدر مطمئن من المناعة يحميه من التأثر بما قد يلقاه في هذا المجتمع من سوء. وإلا فعلى الوالدين أن ينبهاه إلى هذه الحقيقة، ويبينا له الفرق بين هذا النموذج السيئ وبين النماذج الصالحة الأخرى التي يلقاها ويعايشها، ويؤكدا له أن النماذج السيئة لا يُقتدى بها إنما تُتجنب وتنبذ، لأنها خارجة على طاعة الله ورسوله.

وبهذه الطريقة يأمن الوالدان على طفلهما وهو يخوض تجاربه مع المجتمع، ويستخدمان النماذج الطيبة والهابطة كليهما في تثبيت القيم العالية في نفسه. أما الطيبة فعلى أنها النموذج الصالح الذي ينبغي الإقبال عليه والاقتداء به. وأما الهابطة فعلى أنها عاصية لله ورسوله ومن أجل ذلك فهي هابطة، فيكون ذلك نفسه تذكيرًا للطفل بما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الصالح. وحثًّا له بطريق المقارنة العكسية على أن يسلك الطريق القويم لكي لا يكون مثل هؤلاء المنحرفين.

* * *

ذلك منهج التربية الإسلامية للطفل المسلم في المجتمع المسلم..

---

(1) رواه ابن ماجة وابن حبان في صحيحه.

منهج يتعهده بالرعاية والتقويم منذ مولده إلى نضوجه. في البيت والشارع والمدرسة والمجتمع على اتساعه. كل عامل من هذه العوامل يعطيه دفعة إلى الإمام، وتتكاتف جميعها– على اتفاق وتناسق– لتنشئ منه في النهاية إنسانًا صالحًا، هو الإنسان المسلم، الذي يقوم بدوره في هذا المجتمع، من مكانه الذي يقف فيه –أيًّا كان هذا المكان– يحمل مسؤوليته في المجاهدة الدائمة لتكون كلمة الله هي العليا. يحكم منهج الله في ذات نفسه، ويلتفت إلى المجتمع ليرى إن كان منهج الله محكمًا فيه، وإلا وجب عليه أن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدر ما حباه الله من جهد، حتى يستقيم من أمر المجتمع ما أعوج منه.

والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة التي تحكم بشريعة الله وتطبق منهج الله، حريصان على هذا الأمر أشد الحرص: أمر تنشئة الأجيال على منهج الإسلام.

فالدولة بسلطانها المستمد من قيامها على تحكيم شريعة الله، وبالوسائل المتاحة لها بحكم هذا السلطان، دائبة المراقبة لأحوال المجتمع من جهة تمنعه عن الانحراف، وتحافظ عليه نظيفًا كما أمر الله ورسوله، وتنشئ من جهة أخرى مدارس ومعاهد لتربية النشء تربية إسلامية، وتوجه وسائل الإعلام فيها من جهة ثالثة لتعريف الناس بدينهم، وتقريبهم من ربهم، ودعوتهم إلى الاستقامة على أمر الله. وهي في كل ذلك تعين البيت المسلم وتوجهه إلى تربية النشء الصالح، إحساسًا منها بأن هذه أمانة في عنقها لله. فهي لا تحكم الجيل القائم وحده، ولكنها تهيئ لجيل قادم سيتسلم زمام الأمور من بعد؛ فينبغي أن يتسلمها قائمة على أمر الله ورسوله، ويكون هو كذلك ملتزمًا بأمر الله ورسوله، ليحمل الأمانة على ذات الطريق ولا ينحرف بها إلى طريق آخر.

ويكون هذا من بديهيات كونها دولة مسلمة..

والمجتمع كذلك في ذات الوضع. إنه يحس بثقل الأمانة على عاتقه فيعمل جاهدًا للوفاء بها. إنه لا يعيش ليومه وحده ثم يمضي، ولكنه يعد كذلك لغده. فهو مسئول أمام الله عن يومه كيف قضاه، وعن غده كيف أعد له. فأما يومه فعليه أن يتأكد فيه أن شريعة الله محكمة وأن منهجه نافذ في الأرض. وأما غده فعليه أن يهيئ له من ينفذ فيه شريعة الله ويحكم فيه منهجه، مِنَ الذين هم اليوم أطفال وغدًا شباب.. فينبغي أن يعاون في تنشئتهم على هذا الأمر بكل ما في طوقه من جهد، وأول ما يصنع في هذا السبيل هو إعطاء القدوة الصالحة. ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل على تقويم الانحراف والمنحرفين.

ويكون هذا من بديهيات أنه مجتمع مسلم..

والمدرسة المسلمة في ذات الوضع. إنها تحس أن في يدها أمانة التربية للجيل الناشئ، أكثر من أي جهة أخرى في المجتمع كله، بحكم أنها المتخصصة فنيًّا في هذا الأمر والمؤهلة علميًّا له. وأن كل خطأ يحدث في البيت أو في الشارع أو في المجتمع ويؤثر تأثيرًا سيئًا في الطفل فعليها هي تبعة تقويمه بما تملك من الوسائل الفنية والعلمية المتخصصة التي لا يملكها سواها. إنها -والتشبيه مع الفارق- مصنع هائل جدًّا، لصنع النماذج المطلوبة من البشر، ولإصلاح ما يتلف منها أو يعطب في الطريق. وعملها دائب في الإنشاء والإصلاح سواء؛ لأنها تملك الصناع المهرة المدربين، ولأنها هي المحملة بالأمانة الكبرى.

والتشبيه مع الفارق.. لأن صناعة النفوس أعلى وأثمن -وفي ذات الوقت أعقد كثيرًا- من صناعة الآلات والأدوات. والمدرسة في ذلك هي وريثة الأنبياء، حين تدرك مسئوليتها الحقيقية، وتقوم بها على وجهها الصحيح.

وأخيرًا فالأسرة المسلمة في ذات الوضع. إنها تحس بالأمانة على ذات المستوى. أمانة لله. وإن كانت تزيد على الدولة والمجتمع والمدرسة أنها تحس إحساسًا مباشرًا أن طفلها هو ذات نفسها، على الحقيقية لا على المجاز. وتزيد عليها عواطف الأبوة والأمومة التي لا يمكن أن يوازيها شيء في مشاعر الآخرين مهما أوتوا من الإخلاص والمودة والصدق. فالأبوان حين ينشئان طفلهما للمستقبل، يحسان في ذات الوقت أنه امتدادهما الذاتي في الأرض. فحبهما لصلاحه واستقامته حب مزدوج: حب لرؤية هذا الامتداد في أحسن صورة، وأداء للأمانة التي في عنقيهما لله..

وهكذا تلتقي الجهات كلها والوسائل والأهداف كلها في طريق واحد، متساندة متكاتفة متواكبة، على اتفاق بينها وتناسق، لتربية الطفل على منهج التربية الإسلامية..

* * *

ذلك في المجتمع المسلم..

أما في المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه فالوضع مختلف من أساسه وفي جميع تفصيلاته وأحواله، من أول البيت إلى الشارع إلى المدرسة إلى المجتمع على اتساعه...

البيت المسلم -بصورته التي ينبغي أن يكون عليها في الإسلام- أمر نادر الوجود جدًّا وصعب في إنشائه أشد الصعوبة.

وأما الشارع والمدرسة والمجتمع فأبعد شيء عن الصورة الإسلامية، وأدخل شيء في الجاهلية..

إن الشاب المسلم يبحث عن زوجة مسلمة تقيم في ذات نفسها حكم الله ورسوله فلا يكاد يجدها إلا بشق الأنفس، وعلى ندرة بالغة.

فقد عني المخطط الصليبي الصهيوني ضد الإسلام بإفساد المرأة وتعصيتها على الإسلام عناية خاصة، وأفرد لها في منهجه وسائل متعددة ومكثفة ودائبة لا تكف عن العمل لحظة، في المدرسة والشارع والسينما والتليفزيون والإذاعة والصحيفة والمجلة والكتاب والقصة والمسرحية وبيوت الأزياء وبيوت الزينة والإعلانات. وكل وسيلة وكل مكان.. وكان من هدفه في ذلك كله تيسير الفساد وتعميمه على أوسع نطاق ممكن، وتصعيب الاستقامة على أمر الإسلام.

وحقيقة إن عددًا من الفتيات يتكاثر باستمرار قد قد أفلتن من إسار الشيطان:

"إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ"[1].

ورحن في إيمان، واستعلاء بالإيمان، يعبدن الله حق عبادته غير مباليات بكيد الشيطان..

ولكن ما زال العدد أقل من أن يفي بحاجة الشباب المسلم الذي يريد أن ينشئ بيوتًا مسلمة. وما زال هذا الشباب يعاني أزمة في تأسيس البيت المسلم الذي يتوق إليه..

ثم هو حتى إن وجد بغيته بعد الجهد والمشقة لا يملك أن ينشئ أطفاله كما يريد..

وأنى له ذلك وهو لا يستطيع -ولا ينبغي له- أن يحبس طفله داخل جدران بيته، ولا يستطيع في الوقت ذاته أن يصد عنه تيار الفساد الجارف الذي يصب عليه في الشارع والبيت والمجتمع؟!

(1) سورة النحل [99-100].

بل حتى إن حبسه داخل جدران بيته -وذلك مستحيل بطبيعة الحال- فهل يملك حتى هناك أن يحبس عنه الأغنية الخليعة يتغنى بها المذياع عند الجار وتخترق إليه النوافذ والجدران، أو يتغنى بها الرقعاء في الطريق وتصل أصواتهم إليه؟!

ثم يخرج إلى الشارع الجاهلي فتنصب في أذنه الشتائم البذيئة القذرة، تعري كل مقدس، وتدنس كل حرمة، ولا يملك أن يصم أذنيه عنها أو لا يلقي باله إليها وهي تلاحقه في كل لحظة وفي كل شارع حتى أكبر شوارع العاصمة ذاتها بلا حياء. وذلك فضلًا عن التبرج الذي يقتل الإحساس بالعرض، والتخلع والتميع والرقاعة التي تدمر كل قيمة من قيم الإنسان، مجرد الإنسان، ولا نقول القيم العليا التي "ينبغي" أن يكون عليها الإنسان.

ثم يذهب إلى المدرسة فيجد النفاق عملة متبادلة يتبادلها الجميع بلا تحرج، والكذب والخديعة والالتواء والغش و"تسديد الخانات" يقوم به الصغار والكبار سواء. فضلًا على منظر "الأبلة" الكاشفة عن صدرها وذراعيها وما فوق ساقيها وقد جاءت تقوم "بالتربية!!!" في ذلك المكان! كما يجد في المناهج وروح الدراسة ما يلوي عنقه ليًّا بعيدًا عن الإسلام، ويبعده عن عبادة الله الواحد بلا شريك، ويعبده لمختلف الأرباب التي تعبدها الجاهلية المعاصرة من دون الله!

ثم يتطرق إلى المجتمع الواسع فيجد فيه كل رذيلة يمكن أن تُتَصور أو لا تُتَصور. ويجدها تحدث كل يوم. ويجدها تحدث بغير إنكار، لأنها هي العملة السائدة في المجتمع. بل يجد الفضيلة هي الشذوذ الذي يستنكر. يقال عن صاحبها: إنه عبيط! أو إنه أحمق! أو إنه مجنون يلقي بنفسه إلى التهلكة! أما إن قام واحد في هذا المجتمع يدعو إلى تحكيم شريعة الله فقد قامت القيامة ودقت أجراس الخطر، وتنادت الجاهلية بكل وسائل إعلامها: تعالوا وانظروا: رجعي ما زال ينادي بالرجعية!! ثم يأخذونه إلى حيث يعود أو لا يعود!

فأنى له أن يربي طفله على منهج التربية الإسلامية في صورته الصحيحة المتكاملة؟!

* * *

أمر عسير أشد العسر!

ومع ذلك فهو مطالب بالعمل في هذا السبيل! مطالب بأمر الله ورسوله.. لا يملك الفكاك من الأمر، ولا يملك وهو يقف بين يدي مولاه يوم القيامة أن يقول: كنا مستضعفين في الأرض!

"بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ"[1].

وهو ليس مطالبًا بالمستحيل..

"لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"[2].

ولكنه مطالب بالمجاهدة بأقصى ما في وسعه من طاقة الجهد:

"وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"[3].

وفي حالات نادرة –بقدرات ومواهب فائقة– قد يستطيع بالفعل أن يرى طفله تربية إسلامية صحيحة, برغم كل الفساد المصبوب عليه من المجتمع الجاهلي الواغل في الفساد..

ولكننا لا نتوقع من كل الناس أن يصلوا إلى تلك المرتبة الفائقة. وإن كان المسلمون جميعًا مكلفين أن يجاهدوا للوصول إليها، فإن وصلوا فقد تحقق لهم الخير كله. وإلا فقد بذلوا أقصى طاقة جهدهم وأجرهم على الله.

وليس هناك –كما قلنا– حلول سحرية للمشكلات. إنما هو الجهد. والصبر على الجهد. والصبر على مداومة الجهد. والصبر على بطء الثمرة مع مداومة الجهد!

وسيجد الشاب المسلم أول مشكلة له في محاولة العثور على الزوجة المسلمة، التي أسلمت نفسها لله وخرجت من إسار الشيطان، ورضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، فارتدت الزي الذي يرضاه الإسلام، وتخلقت بأخلاق الإسلام، وارتفعت على دنايا الجاهلية في الفكر والسلوك.

وحين لا يجد فعليه أن يختار من يتوسم فيها أكثر من غيرها الاستجابة لأمر الله ورسوله. وليبدأ عمله بتربيتها هي على منهج الله ورسوله، حتى تتهيأ نفسها لطاعة الله. ويثقل في حسها حب الله واتباع منهجه على اتباع المجتمع وانحرافاته.

([1]) سورة القيامة [14-15].

([2]) سورة البقرة [286].

([3]) سورة العنكبوت [69].

ولا ينبغي له أبدًا أن يتعجل، أو أن يعتقد أن الطريق أمامة معبّد، وأنها ساعة يقضيها في الوعظ والإرشاد ثم تنتهي المشكلة من جذورها وينتهي أثر المجتمع الفاسد في لحظات!

كلا! فليتجنب هذا الوهم، لكي لا يتعب وينفد جهده في أثناء الطريق!

وليحذر كذلك أن يدعوها إلى تغيير زيها بادئ ذي بدء!

إنما ينبغي أن يبدأ معها من أول الطريق..

يبدأ بتأسيس العقيدة السليمة وترسيخها في نفسها، وجعلها تعيش بوجدانها مع الله.

يعلمها إن "الإسلام" معناه الإذعان لله فيما أمر به. "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ"[1] وأن من حلاوة إيمان المرء "أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما"[2].

وحين تعيش في جو الإيمان، وتحب الله ورسوله حقًّا، سيسهل عليها -رويدًا رويدًا- أن تنخلع من إسار الجاهلية وتذعن لأمر الله، راضية بالإذعان لأنه عبادة. وراضية بأمر الله لأنه هو الخير. ثم معتزة بالإيمان، مستعلية به على كل إغراء الشيطان.

وحين يراها -في بعض الفترات في أثناء الطريق- تتأرجح بين ثقل المجتمع في حسها وبين مقتضيات العقيدة فليصبر. ولا يتعجل. ولا ييأس. لأن الجهد الشيطاني لإفساد المرأة المسلمة وتصعيب طريق الإسلام عليها جهد ضخم جدًّا لا يسهل التحول عنه في لحظات قليلة إلا لمن أوتيت العزم، وأولات العزم كأولي العزم ليسوا هم الكثرة الغالبة من الناس!

وفي النهاية، بعد الجهد، والصبر على الجهد، والصبر على المعاناة، فهو حري أن يوفق بإذن الله.

ثم تأتي مشكلة الأطفال..

سينشئهم على الإسلام ويفسدهم الشارع والمدرسة والمجتمع كله..

---

(1) سورة الأحزاب [36].

(2) البخاري ومسلم.

ومع ذلك فلا خيار.. وليس هناك بديل.. ولا حلول سحرية للمشكلات!

لا تستطيع -ولا يجمل بك- أن تحجز طفلك عن الشارع.. حتى وأنت تعلم أنه شارع جاهلي!

إنما عليك أن تقوم بعملية غسيل يومية لما أصاب طفلك من قدر الجاهلية في الطريق! وقد تفلح في ذلك تمامًا وقد لا تفلح. ولكن عليك المجاهدة الدائمة في كل حال. وهو عذاب ومشقة. ولكنك تؤديه لله. وتعلم أن جزاءه الكامل عند الله.

ويعينك في ذلك أن تجعل العلاقة بينك وبين طفلك قوية متينة عميقة. فحين يكون الطفل محبًّا لوالديه. متعلقًا برضاهما عنه، يكون وزن البيت في حسه أثقل من وزن الشارع، فيستطيع البيت من ثم أن يصلح ما يفسده الشارع، كله إن وفق الله، أو بعضه على الأقل بإذن الله.

ولا تستطيع -ولا يجمل بك- أن تحجز طفلك عن المدرسة.. حتى وأنت تعلم أنها مدرسة جاهلية!

وفي المدرسة ستقابلك مشكلة مضاعفة. وهي مشكلة "الأبلة" المتبرجة، المتناقضة تمامًا لصورة الأم المسلمة في البيت. وقد تستطيع بالنسبة للشارع أن تقول لطفلك: إن هؤلاء الأطفال سيئون. ومنحرفون و ... و ... ولا تصنع مثلهم لأنك غيرهم. ولكنك لا تستطيع بمثل هذه البساطة أن تقول ذلك عن مدرسة الطفل، وإلا فلن يتلقى منها العلم! ولا تستطيع كذلك أن تقول له إنها على صواب فيما تصنع بنفسها، وإلا فإن أمه إذن تكون على خطأ! وهو دائمًا يلحظ هذا التناقض بين زيها وزي أمة المسلمة, ولا يمكن أن يمر عليه بغير سؤال!

وتلك إحدى المشكلات التي ليس لها حل سحري! وكل ما يمكن أن تفعله هو أن تقول إن ما تصنعه أمه هو الأفضل. وذلك ريثما يدرك الطفل حين يكبر ويعي، الفارق بين زي الإسلام وزي الجاهلية، ويدرك أن هذا حلال وذاك حرام!

وعليك هنا كذلك أن تقوم بعملية غسيل يومي لما يصيب الطفل من أدران الجاهلية في المدرسة، سواء من الأقران الملازمين في الفصل أو من المدرّسة المتبرجة، أو من النفاق والغش والخداع وتسديد الخانات.. أو غير ذلك من الأدران التي ستلصق به حتمًا ولا تستطيع حجزها عنه. وقد تفلح عملية الغسيل في ذلك تمامًا وقد لا تفلح.. ولكنها دون شك ستخفف الأدران إن لم تكن قادرة على إزالتها إزالة تامة.

ومرة أخرى سيعينك حسن علاقتك بطفلك في هذا الأمر. وحين تكون الأم حبيبة إلى الطفل فسيفضل قدوتها على قدوة المدرّسة وإن أحبها لحسن طريقتها في التعليم أو لأي سبب آخر. وحين يكون الأب حبيبًا إلى طفله فستكون القيم والمبادئ التي يغرسها في نفسه أقرب إلى التأثير من القيم الوافدة من غير هذا الطريق..

ثم في النهاية سيخرج الطفل إلى المجتمع الواسع، الذي يعج بالفساد كالمستنقع الآسن. ولا حيلة لك ولا خيار!

إن حجزته عن التعامل مع المجتمع فأنت تشيع الكساح في كيانه النفسي. وإن أطلقته فسيجيء إليك كل يوم موحلًا بالأقذار!

ولا خيار..

ولا حلول سحرية..

الغسيل اليومي الشاق المرهق الذي قد يفلح مع ذلك تمامًا وقد لا يفلح. ولكنه في كل حال سيخفف أدران الجاهلية ويمحو شيئًا من آثارها في نفس الطفل..

وسينشأ الطفل ذاته محيرًا بين قيمك ومفاهيمك الإسلامية التي تنشّئه عليها، وبين السلوك الجاهلي المنحرف السائد في المجتمع. ويظل بين الشد والجذب حتى يستقيم عوده ويأخذ المناعة ويستقيم على أمر الله، بتوفيق من الله.

ولا حيلة لك في هذه الحيرة، ولا في ذلك الشد والجذب..

إنه عناء شاق مرهق لك ولزوجتك ولطفلك جميعًا في هذا المجتمع الجاهلي..

ومع ذلك فلا خيار..

"وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ"[1].

وذلك حتى يقوم الحكم الإسلامي الصحيح في الأرض، فينسخ الباطل ويقيم الحق..

([1]) سورة الأنعام [131].

من الصِّبا إلى الشباب الباكِر

نحن الآن مع كائن جديد لا يريد أن يكون طفلًا، ويكره أن يعامل على أنه طفل صغير كما كان بالأمس القريب. ويريد أن يعامل على أنه إنسان كبير. يريد أن يعامل على أنه رجل إذا كان ولدًا، وعلى أنه أنثى ناضجة إن كانت بنتًا!

نحن في فترة "انقلاب" كامل..

وقد مرت تغيرات كبيرة من قبل في حياة الطفل, ولكننا ربما لم نلتفت إليها كثيرًا لأنها جاءت تدريجية، أو لأننا نتوقع أن تكون حياة الطفل كثيرة التقلب فلا تفاجئنا التقلبات كثيرًا حين تحدث.

مرت على الطفل فترة في بداية طفولته كان فيها خياليًّا جدًّا. خياله واسع وحي وفياض. فهو من فرط حيويته وسعة خياله يضفي الحياة على كل كائن حوله، وليس على الأحياء وحدهم من ناس وحيوان. فالحائط حي والعصا حية، واللعبة حية يناديها ويتوقع أن ترد عليه أو ربما تخيل أنها ترد عليه بالفعل. وحين يقع وهو يتعلم المشي فإنه يتخيل أن الأرض قد ضربته، ويغضب منها لأنها آلمته. حتى إذا جاءت أمه وضربتها، فإنه يصدق أنها تألمت بالفعل من الضرب، وأن أمه ثأرت له منها.. فيرضى.

ثم تأتي مرحلة أخرى من الخيال، يفرق فيها الطفل بين الخيال والواقع, ولكنه ليس تفريقًا حاسمًا. فهو يركب العصا على أنها حصان، ويضربها لتجري, أو تلاعب البنت عروستها على أنها كائن حي يتجاوب.. ويعلم الولد أن العصا عصا وليست حصانًا في الحقيقة، وأنه هو الذي يجري بها حين يضربها، وليست هي التي تجري من تلقاء ذاتها. وتعلم البنت أن العروسة عروسة وليست ولدًا ولا بنتًا على الحقيقة، وأنها لا تنام من تلقاء نفسها ولكنها هي التي تنيمها، ولا تقف من ذات نفسها ولكنها هي التي توقفها، ومع ذلك فإن الولد والبنت يعيشان خيالهما كأنه واقع، بعد أن كانا في المرحلة السابقة يعيشانه واقعًا بالفعل. فهنا ما زال في الطفل قدر من الحيوية الفياضة يضفي الحياة على الكائنات، ولكن فيه من الوعي ما يعلم به أنها جمادات لا تنطق ولا تتحرك. ثم هو يحب عملية الإحياء هذه ويستريح إليها ويستكثر منها، فيعيش في نصف وعي، حالمًا طول يومه مع الكائنات التي يحييها بخياله ثم يعايشها كأنها حية.

ثم تأتي مرحلة –تدريبية ولا شك– ولكنها شبه مفاجئة لسرعة الانتقال فيها. يلقي الفتى فيها عصاه ولعبه التي يحييها بخياله، ويصبح واقعيًّا جدًّا. يريد أن يعرف كل شيء على حقيقته، ويعيشه في عالم الحقيقة الحسية الملموسة.

لم يعد الآن يتخيل العصا حصانًا. كلا! إنها عصا على الحقيقة الكاملة. والحصان حصان, لا التباس بينهما ولا مجال للالتباس. إنه يريد أن يركب الحصان الحقيقي إن أمكن، أو على الأقل يعرف كل شيء عنه! والعربة اللعبة التي كان يتخيلها كبيرة وضخمة وذات سائق يسوقها وذات حظيرة تبيت فيها صارت لعبة ضئيلة لا تغني نهمه ولا تشبع حاجته. إنه اليوم يريد السيارة الحقيقية ويريد أن يعرف –على الحقيقة– كيف تسير، وكيف تدور عجلاتها، وكيف تفرمل، وكيف تنعطف يمنة ويسرة، وكيف تصلح حين تعطب، وأين يذهب الوقود الذي يوضع فيها, وماذا يحدث لها حين ينفد الوقود..

والبنت تلقي عرائسها العزيزة عليها.. أو إن لم تلقها تمامًا فهي لا تتعامل معها على أنها كائن حي ولا على أنها مزيج من الخيال والحقيقة. ولكن على أنها لعبة فحسب. إنها الآن تريد أشياء أخرى. تريد أن تتعرف على العالم كله، ولكنه بصفة خاصة على "عالم المرأة" وما يحويه من أسرار!

إنها الفترة التي يأخذ الطفل يتعرف فيها على الكون من حوله. فترة "جمع المعلومات" والتزود منها بأكبر قدر مستطاع.

لم يعد الطفل الآن يصدق قصص الجن والعفاريت والحيوانات التي تتكلم. فقد عرفها وخبرها وجمع عنها من المعلومات ما فيه الكفاية. إنما صار نهمه الآن في القراءة أو الاستمتاع متجهًا إلى التعرف على الأشياء التي لا يعرفها، أو زيادة المعرفة بما عرفه من قبل. ثم إنه ليشعر بالامتياز على أقرانه بقدر ما يعلم من معلومات، ويكون من أسعد لحظاته أن يسمع زميلًا له يتحدث عن شيء فيخطئ في بيان بعض خصائصه فيصححها له! أو زميلًا يتساءل عن أمر يدخل في حيز معلوماته فينطلق بالإجابة. والطفل والطفلة في ذلك سواء كلاهما واقعي، وكلاهما مهتم بعالمه والتعرف عليه.

ولكن هذه الفترة تنتهي في صورة شبه مفاجئة، ويحدث "انقلاب" من نوع آخر.

إنه انقلاب عاطفي هذه المرة.. والخيال ينبعث إلى أشده مرة أخرى بعد فترة الواقعية السابقة. ولكنه خيال من نوع جديد غير خيال الطفولة بجنه وعفاريته ولعبه الحية التي يحييها بخياله ويعايشها..

إنه خيال "وجداني" هذه المرة. مرتبط بالانقلاب العاطفي الجديد. هائم في أحلام ومثل عليا وعوالم مضيئة من صنع الخيال.

وإنه لانقلاب مفاجئ للطفل نفسه، ولذلك فكثيرًا ما يعتريه الخجل أو الحيرة والارتباك.. وكثيرًا ما يهرب من الناس ليعيش بمفرده في عالمه الخاص..

ولا شك أن التغيرات الجسدية التي تطرأ على الطفل هي "مركز" ذلك الانقلاب. ولكن "إشعاعاته" أوسع بكثير جدًّا من تغيرات الجسد. بحيث يمكن أن ننظر إليه على أنه انقلاب نفسي أكثر مما هو جسدي كما يبدو للوهلة الأولى. وإن كان على أي حال يشمل النفس والجسد جميعهما وعلى نطاق واحد.

تلك المرحلة التي نحن بصددها الآن هي مرحلة المراهقة، ثم البلوغ..

المرحلة التي تبدأ تبرز فيها سمات الرجولة والأنوثة، ويتهيأ لها الجسم بتغيرات معينة، فيخشوشن صوت الولد ويرق صوت البنت، ثم تبدأ أعضاء الجسم تنمو تهيؤًا للبلوغ، الذي يبدأ فيه النضج الجسدي..

ولكن قبل أن يلحظ الطفل هذه التغيرات الجسدية في كيانه، يكون قد بدأ يتململ من نظرة الناس إليه على أنه طفل! وبدأ يعلن أنه لم يعد طفلًا! ويطالب والديه والآخرين بتغيير النظرة إليه!

إنه إذن تغيير نفسي شامل حتى قبل أن يدرك الطفل من تغيرات جسمه أنه لم يعد طفلًا بالفعل!

وقد يكون النشاط الداخلي للهرمونات التي تهيئ الجسم للبلوغ هو المسئول عن هذه التغيرات النفسية. فإنها تتأخر بالفعل إذا تأخر البلوغ. ولكن العلم لم يقل لنا حتى اللحظة كيف تصنع الهرمونات في "النفس" ما تصنع. وقد يكون العلم على بينة مما تصنعه الهرمونات أو أية كيماويات أخرى من تغيرات جسدية -حيوية وعصبية- أما تأثيرها في "النفس" فما زال موضع دراسة لم تسفر بعد عن نتيجة حاسمة. والدراسات التي تجري على المخ البشري تحاول أن تجد حلًّا لهذا السؤال. وتفترض فرضًا تسعى إلى إثباته هو أن المخ يحتوي خلايا "نفسية" مجاورة وموازية للخلايا العصبية، تتأثر معها -أو بمفردها- بمؤثرات معينة.

وأيًّا كان أمر هذه الدراسة، فالثابت على أي حال أن هناك "كيانًا نفسيًّا" للإنسان قائمًا بذاته كالكيان الجسدي، ولكنهما متصلان بصورة من الصور، بحيث يؤثر كل منهما في الآخر ويتلقى تأثيراته.

فحتى على فرض أن هرمونات الجنس هي التي تحدث هذه التغيرات النفسية، فهي لا تحدثها بذاتها كنتيجة مباشرة لما تحمله من مواد كيماوية. ولكن لأنها -بكيماوياتها- تنبه مراكز معينة في المخ، هي المتصلة بالعواطف، والأحلام، والمثل.. إلخ، وهي التي تجعل الطفل يحس من الداخل بأنه لم يعد طفلًا. مع أن كل شيء فيه يبدو لعين الرائي أنه طفل ما يزال!

يمكن أن يقال من ناحية أخرى، معنوية بحتة، أو نفسية بحتة، إن مجموع الخبرات والمعلومات التي يكتسبها الطفل تدريجيًّا في الفترة الأخيرة من طفولته، وهي التي تجعله يستنكف أن يعامل على أنه طفل، حين يبلغ اعتداده بها حدًّا معينًا يجعله يميز تميزًا واضحًا بينه وبين الأطفال الذين لا يعلمون هذه المعلومات ولا هذه الخبرات، ولا يستطيعون بعد أن يستوعبوها. يبدو ذلك من قوله عن أي طفل من الأطفال الذين يصغرونه: "إنه ما زال طفلًا [عيّل] لا يعرف شيئًا! " فكأنه يعتد "بالمعرفة" ويجعلها هي الفارق الأساسي -أو من بين الفوارق الأساسية- بينه وبين الأطفال.

ولا يمتنع على أي حال أن يتواكب تأثير الهرمونات الجنسية مع هذا التهيؤ "النفسي" البحت فيزيده قوة حتى يصبح شعورًا غلابًا في نفس الطفل.

في هذه الفترة من المراهقة -وقبل البلوغ- يتجمع الصبيان في مجموعات من الذكور لا تقبل الإناث في وسطها -في العادة- وتتجمع البنات في مجموعات من الإناث لا تقبل الصبيان في وسطها كذلك.

ويعجب الإنسان من هذه النفرة المؤقتة من الجنس الآخر كيف تكون.. ثم يكون بعدها ذلك الانقلاب الهائل نحو الجنس الآخر. بحيث يصبح حنينًا متدفقًا يشغل المشاعر والخيال!

تجد البنات في مجموعة يلعبن. فإذا جاء في وسطها ولد يطردنه من بينهن قائلات: "نحن بنات وأنت ولد فلماذا تأتي في وسطنا؟! هل أنت بنت [أو بنوتة!] تلعب مع البنات؟!".

وتجد الصبيان في مجموعة يلعبون، فإذا جاءت في وسطهن بنت تصايحوا عليها وطردوها: "نحن صبيان فما الذي يأتي بالبنات في وسطنا؟! اذهبي فالعبي مع البنات اللواتي مثلك!".

ومع أن علم النفس الغربي ذاته يعلم هذه الحقيقة ويسجلها، فإن الجاهلية الحديثة تنشئ مدارس إعدادية مشتركة لتكسر هذا الحاجز الفطري وتحاول تغيير طبائع النفوس! ولمصلحة من تغير الطبائع، وما الغاية من تغييرها إلا التعجيل بالفساد، خوفًا من أن يتأخر -قليلًا- إلى مرحلة البلوغ؟!

وفي تلك الفترة -قبل البلوغ- تنشأ زمالات وصداقات عميقة في نطاق كل من الأولاد والبنات على حدة. فيصطفي الولد مجموعة من الأولاد يصاحبهم ثم يصطفي من بينها زميلًا أو أكثر، كما تصطفي البنت صديقة أو أكثر، تكون بينهم مودة خاصة غير العلاقات العامة التي تربط المجموعة كلها من الأولاد أو البنات. بحيث يكون ذلك أمرًا معروفًا وملحوظًا، وكثيرًا ما يثير الغيرة في نفوس الأقران، وبين البنات بصفة خاصة.

وتكون هناك "قيم" معينة في داخل تلك المجاميع، يعتبر اتباعها ضروريًّا لعضوية الجماعة، ونقصها أو نقضها مبررًا للطرد منها، أو للتنديد بصاحبها.

فلكل لعبة -مثلًا- أصول. واللعب الآن جماعي وليس فرديًّا أو ذاتيًّا كما كان من قبل. واحترام هذه الأصول أمر شديد الأهمية في نظر الجماعة بحيث يصبح الخارج عليها خارجًا على الجماعة ذاتها، وينبذ منها -ولو مؤقتًا- ريثما يتعهد باتباعها، [وذلك أوضح في محيط الأولاد بصفة خاصة، حيث تكون ارتباطات البنات ارتباطات صداقة أكثر منها اشتراكًا في لعب جماعية. وإن كان للبنات لعبهن المشترك كذلك].

وكذلك للصداقة أصول. منها المحافظة على المواعيد والوعود. ومنها عدم تغيير الصديق. فهذه خيانة! [وخاصة في عالم البنات ولكنها موجودة كذلك بين الأولاد].

ثم إن التعامل كله له أصول.. هي الصدق والأمانة وعدم الغش وعدم الالتواء مع أفراد المجموعة، وعدم الوشاية بأسرارها لمجموعة أخرى! كما أن هناك ولاء وتناصرًا بينها ضد المجموعات الأخرى!

إنها فترة تكون "القيم" و"المثل العليا" على المستوى الجماعي، ولكنه محصورًا -ما يزال- في نطاق المجموعة الخاصة، التي تشبه "القبيلة" على المستوى البشري الواسع.

إن الطفل في الحقيقة يعيد -في كيانه الخاص- تاريخ البشرية كلها حتى يصل -وتصل- إلى مرحلة الرشد!

أو أن البشرية مرت -في نموها التاريخي- بمراحل مشابهة لمراحل النمو الفردي، فمرت بفترة طفولة باكرة، وطفولة متأخرة، ومراهقة ثم نضوج..

هما خطان متوازيان على أية حال، من هذا الاتجاه أو ذاك.

وهذه الفترة الغريبة من حياة الطفل، التي ينفر فيها -نفرة مؤقتة- من الجنس الآخر، ويكون مجموعات من جنسه، هي الفترة التي يبدأ فيها -كما رأينا- تكون القيم والمثل العليا في داخل نطاق تلك المجموعة الصغيرة. فكأنما هي "شتلة" نبات تستنبت في مكان معين محدود، لتستزرع بعد ذلك على نطاق واسع في كل مكان! وكأنما هذه المجموعة الصغيرة التي يؤثر الفتى أو الفتاة صحبتها، ويؤثرانها على كل ما عداها، هي السور الذي تحمى به هذه "الشتلة" حتى يتم استنباتها، لتوزع فيما بعد على الاتساع، بغير حواجز ولا أسوار!

إنها من عجائب الفطرة التي لا يملك الإنسان إزاءها إلا أن يهتف: سبحان الخالق المبدع.. الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

ولكن الذي يعنينا هنا -من زاوية نظر منهج التربية الإسلامية- أن نقرر أن القيم والمثل العليا فطرة. تنشأ تلقائيًّا في داخل النفس، في مرحلة معينة من مراحل نموها. وإنما التوجيه الخارجي هو الذي يشكل القيم ويحددها.

أو تقول أدق من ذلك: "إن النفس البشرية مهيأة -فطريًّا- لإفراز تلك القيم وهذه المثل، في هذه المرحلة المعينة من العمر، ولكن التوجيه -قبل ذلك وبعد ذلك- هو الذي يجعل تلك القيم المفرزة تلقائيًّا تجد تربة صالحة فتستمر في نموها وتترعرع، أو لا تجد تلك التربة فتذبل وتموت ولا تعود إلى الظهور، أو تتخذ صورة منتكسة بفعل الجاهلية..

إنها على أي حال إفراز بشري طبيعي في الغالبية العظمى من الناس في تلك المرحلة [فهناك قلة شاذة لا تتقبل هذه القيم وترفض العمل بها، فتكون سبب مشكلات دائمة في مجموعات الصبيان والبنات] ويكون هذا مصداق الحديث النبوي الشريف: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة.."

وفي فطرة البشر –على الرغم من مزاعم التفسير المادي للتاريخ– قيم ومثل لا علاقة لها البتة بالأحوال الاقتصادية ولا أطوارها " الحتمية! " لأنها تنشأ في نفوس كل الأطفال في جميع الأحوال الاقتصادية [فيما عدا القلة الشاذة التي لا تنفي القاعدة بل تقررها].

ومهمة المربي هنا أن يلتقط الخيط وينتهز هذه الفرصة السانحة لتثبيت تلك القيم وتقويمها إذا انحرفت..

إنها فرصة ربانية [وستجيء وشيكًا فرصة أخرى نتحدث عنها في مكانها] يمكن أن يعاد فيها تشكيل النفس كلها إذا كانت في حاجة إلى إعادة التشكيل فإذا كانت فرصة الطفولة قد أفلتت –لأي سبب من الأسباب– فستتهيأ في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها فرصتان هائلتان لإعادة التشكيل: إحداهما هذه السابقة للبلوغ، والأخرى التي تحدث في مرحلة البلوغ.

إن التغير الطبيعي الذي ينشأ في داخل النفس، يعطي الفرصة للمربي أن يتدخل في عملية التغيير ليوجهها الوجهة التي يرغبها. خاصة وأن هذه الفترة –بطبيعتها كما قلنا– هي فترة التكون التلقائي للقيم والمثل على المستوى الاجتماعي، بعد أن كانت في الفترة السابقة تكون –بالقدوة والتلقين والعادة– على المستوى الفردي. فإذا كانت الفترة الأولى –لسبب ما– لم تثمر ثمرتها المرجوة، فهنا مجال لمحاولة جديدة قد تعطي تلك الثمرة بعد الجهد المطلوب..

يستطيع المربي أولًا –ونحن نتكلم هنا عن المجتمع الإسلامي الحقيقي– أن ينتقي لطفله أصلح النماذج، سواء للمصاحبة العامة في المجموعة أو للصداقة الخاصة التي تكون طابع هذه الفترة. ويكون ذلك بالتلطف لا بالفرض الصريح. فالصداقة لا يمكن أن تفرض على النفس فرضًا. إنما يمكن أن تهيأ لها الفرص التي تنميها وتوثقها. فيستطيع الأب أن يدعو أصدقاء ابنه إلى البيت, ويسامرهم ويكرمهم فتتوطد صداقة ابنه بهم، وتستطيع الأم كذلك مع صديقات بنتها.

ويستطيع المربي كذلك –بمفرده، أو بالاشتراك مع أهل الصديق المختار، أو أهل المجموعة كلها– أن يشرف ويوجه تلك الصداقات وجهة صالحة، بتوجيه نشاطها إلى حيث يرجى الخير. فيقترح عليهم –مثلًا– نزهات في أماكن معينة، أو قراءات يساعدهم فيها، أو حلقات يعقدها لهم بغير تكلف يوجههم فيها إلى الخير. حتى لا ينصرف نشاطهم إلى العبث أو الفساد أو التدمير، وتنتكس القيم في نفوسهم، فبدلًا من أن تكون تعاونًا على البر والتقوى تكون "تعاونًا" كذلك ولكن على الإثم والعدوان!

كما يستطيع أن يسأل ابنه -لا سؤال المستجوب ولكن سؤال المستطلع- عن أحوال زملائه معه وأحواله مع زملائه، فإذا أخذ الطفل يقص قصصه -على راحته- راح المربي يلقي توجيهاته لتصحيح ما ينبغي تصحيحه من تلك القيم، مرشدًا طفله إلى الصواب.

وأخيرًا فإن على المربي أن يقطع تلك الصداقات إذا وجد فيها انحرافًا أو إغراء بالانحراف، على أن يوضح لطفله أنه لا يلغيها من حيث المبدأ، ولا يمانع في أن يكون لطفله صداقات واجتماعات مع الأصدقاء، ولكنه يعترض على فلان بالذات، أو على تلك المجموعة بالذات لأن أخلاقها سيئة، ولأنها تصنع كذا وكذا من الأمور..

* * *

ولقد سبق أن قلنا في مبدأ حديثنا عن تلك الفترة إن الطفل يكره فيها أن يعامل كطفل، مع أنه في عين الرائي لم يزد شيئًا حقيقيًّا عن الأمس القريب!

وهذا الأمر يصنع مشكلة في بيوت كثير من الناس مع أولادهم وبناتهم. ولا ينبغي أن يكون كذلك!

إن علاجه -على المنهج الإسلامي- غاية في السهولة بحيث لا ينشئ مشكلة على الإطلاق.

الولد يريد أن يحس أنه رجل. والبنت تريد أن تحس أنها أنثى ناضجة. .

ماذا علينا لو أعطيناهما هذا الإحساس؟!

لا شيء على الإطلاق!

إن الأب يقول: هذا الولد! إنه لا يريد أن يطيع أمري! يريد أن يدعي أنه رجل [عايز يعمل راجل!].

والأم تقول: هذه البنت! إنها لا تريد أن تطيع أمري! تريد أن تجعل نفسها فتاة كبيرة!

والولد والبنت يقولان: إن أهلنا ما زالوا يعاملوننا على أننا أطفال. لقد كبرنا.. ولم نعد أطفالًا!

ويدور الوالدان وأولادهما في حلقة مفرغة على هذه الصورة..

ولا بد من كسر الحلقة المفرغة ليستقيم الأمر.

إن الولد والبنت لا يطيعان الأمر لا رغبة في المعصية. إنهما فقط يريدان الاعتراف لهما بأنهما لم يعودا طفلين. ولو حدث ذلك لانتهت المشكلة على الفور. ولانتهى هذا العصيان بكل مشكلاته.

والمربي الحصيف لا ينتظر حتى يتحول الأمر إلى مشكلة ثم يبحث لها عن حل. إنه يتقي المشكلة ابتداء, ويحول دون حدوثها. وهو في حالتنا هذه يستطيع أن يحول دون حدوثها بغاية من اليسر.

حين يحس الأب أو الأم أن الولد بدأ يحس بأنه أكبر من طفل، فعليهما أن يسارعا -بفرح- إلى تقبل هذا الأمر، وعليهما هما أن يسعيا إلى إعلانه:

إن ابننا -فلانًا- لم يعد الآن طفلًا! إنه أصبح رجلًا!

كم يثلج صدر الصبى هذا الإعلان! كم يغذي إحساسه بذاته ويطمئنه على ذاته!

ثم على الفور ينبغي أن يتغير السلوك. لإعطاء هذا الإعلان رصيدًا من الواقع.

فبدلًا من أن يشتري له أبوه حاجاته دون مشورة منه ولا إشراك له في الأمر، ينبغي الآن أن يأخذ رأيه: ما رأيك في هذا الحذاء؟ ما رأيك في هذا القماش؟ ما رأيك في هذا اللون؟. أو بدلًا من ذلك -إذا كان قد دربه تدريبًا مناسبًا من قبل- يعطيه النقود ويترك له حرية شراء أشيائه، مع التوجيه اللازم والنصائح اللازمة بطبيعة الحال، بأن يشتري البضاعة الطيبة ذات الثمن المناسب.

ثم ... يشركه في شئون الأسرة: ما رأيك في المشكلة الفلانية؟ وليس من الضروري أن يأخذ برأيه في شيء -إلا أن يكون صوابًا يستحق الأخذ به- ولكن تكفي المشورة في ذاتها، فهي تعطيه الإحساس بأنه أصبح كبيرًا بالفعل.

ثم.. يرسله بين الحين والحين نائبًا عنه في قضاء أمر من الأمور. يقابل أحد معارفه أو يبلغه رسالة منه أو يقضي عملًا في السوق، أو في مكتب البريد، أو في ديوان من دواوين الحكومة.. إلى آخر ما يعن للوالد من حاجات..

كما أن الأم تستطيع أن تعهد إليه ببعض المسئوليات التي يقوم بها أبوه في العادة، لتشعره أنها تثق به كما تثق بوالده، أي: على مستوى الرجولة. كأن يذهب مع أخته في مشوار معين. أو يشتري شيئًا لأخيه الأصغر. أو يستقبل ضيوف والده في غيبته .. إلخ .. إلخ..

إن الوالدين بهذه الطريقة يكسبان كسبين عظيمين في آن واحد: الأول هو حل العقدة الشائكة في نفس الطفل، التي تحرج صدره وتحمله على العصيان، وهي استمرار والديه في النظر إليه على أنه طفل. فإذا اطمأن بهذه الصورة إلى "رد الاعتبار" أو بالأحرى "إثبات الاعتبار" فقد انحلت العقدة وذهب العصيان.

والثاني أنهما يدربانه تدريبًا عمليًّا على خبرات الحياة ومقتضياتها، فضلًا على تنمية شخصية الطفل بإتاحة الفرصة له للتعامل الفعلي مع المجتمع، وهو التعامل الذي قلنا إنه ضرورة لازمة للنمو السليم للإنسان.

وهما -بعد- لم يخسرا شيئًا في واقع الأمر، فهو ابنهما، وعليهما أن يفرحا بكبره ونمو شخصيته، لا أن يعاندا معه كالأطفال، ويصرا على معاملته كالأطفال!

والأمر مع البنت كذلك، وإن كان علاجها يقع على عاتق أمها أكثر مما يقع على أبيها..

فإذا رأت الأم بوادر هذه "الحالة" التي تنتاب الأولاد والبنات في هذه السن، فلتبادر هي بالتقاط الخيط، ولتعلن أمام الأب والإخوة والأصدقاء: إن بنتنا -فلانة- لم تعد اليوم طفلة! إنها صارت "ست بيت"!

فهذا الإعلان يصنع في نفسها كما صنع الإعلان السابق في نفس الصبي. ويطمئنها على ذاتها ويرضي نزعتها إلى تكبير نفسها.

ثم على الأم أن تشفع ذلك بتغيير جذري في المعاملة، كالتغيير الذي ذكرناه مع الولد، مع الفارق في الاختصاصات.

ففي شراء الأشياء اللازمة لها عليها أن تستشيرها في كل شيء يخصها، أو تسمح لها بالشراء لنفسها إن رأت ذلك مناسبًا بعد تدريب سابق. ولا عليها أن يكون اختيارها سيئًا مرة أو غير موفق مرات. إنه لا بد من هذا التدريب ولو ببعض الخسائر المادية [والأمر كذلك بالنسبة للصبي].

ثم عليها أن تشركها في تدبير المنزل. فهذا الذي يثبت لها إثباتًا عمليًّا أن أهلها لم يعودوا ينظرون إليها كطفلة. ويكون من المفيد جدًّا أن تعهد إليها أمها بعملية متكاملة ولو كانت صغيرة جدًّا. كإعداد المائدة مثلًا، أو إعداد "السلاطة" أو أي أمر يمكن أن تستقل به، مع اشتراكها في الأمور الكبيرة، فذلك أفعل في علاج الأمر، وأدعى لأن تشعر بذاتيتها وكيانها من أن تكون دائمًا تبعًا، أو جزءًا صغيرًا من كل لا تسيطر عليه.

ثم عليها تدريجيًّا أن تشركها في المسئولية لا في العمل وحده. كأن تشارك -ولو بالرأي- في عمل الميزانية. أو في اختيار ملابس لإخوتها الصغار.. إلخ.

وكذلك تشجعها على الدخول عند الضيفات والجلوس معهن بعض الوقت وتبادل بعض الحديث..

كل ذلك يحل عقدة "الكِبَر" عندها على صورة مفيدة ونافعة. فيسلس قيادها لأمها ولا تعود تعصي أوامرها، وفي الوقت ذاته تنمو شخصيتها, وتكتسب خبرات اجتماعية وخبرات في تدبير المنزل هي في حاجة إليها جميعاً.

* * *

فإذا انتهت هذه الفترة بمشاكلها، وأهمها رغبة "الكبر" بالنسبة للولد والبنت كليهما، ومشكلة الاطمئنان على الجماعات والصداقات التي ينخرط فيها الأطفال، وأنها لا تؤثر على أخلاقهم ولا تذهب بمجهود التربية السابق.. وإذا انتهز المربي الحكيم فرصة تكون القيم, والمثل على المستوى الاجتماعي فزاد من تأكيد هذه القيم وترسيخها..

عندئذ تبدأ الجولة الثانية من هذه المرحلة وهي جولة البلوغ، وما يصاحبها من انقلاب شامل في النفس.

إن الفتى والفتاة في هذه المرحلة -ولا نقول بعد الطفل والطفلة، فإنهما بالفعل لم يعودا طفلين- قد دخلا الآن -رسميًّا- في مرحلة جديدة من عمرها، لها متطلباتها الخاصة، ولها آفاقها الخاصة، وعلى المربين فيها واجباتهم الخاصة.

ونهمّ أن نقول إن هذه المرحلة هي أخطر مراحل العمر كله بالنسبة للفتى والفتاة سواء.. لولا أننا نعود فنرى أن كل المراحل في الحقيقة خطيرة! وإن أي انحراف في إحداها يمكن أن يسبب العطب والفساد إلى بقية العمر إذا لم يتدارك بالعلاج. مرحلة الطفولة خطيرة. ومرحلة المراهقة خطيرة. ومرحلة الشباب الباكر خطيرة. ومرحلة النضوج كذلك!

ثم إنه من ناحية أخرى لا توجد مشكلات حقيقية في أي مرحلة من مراحل العمر غير قابلة للعلاج والحل، في الظروف الطبيعية السوية للبيت والشارع والمدرسة والمجتمع. إنما توجد المشكلات وتتفاقم، لا من ذات المرحلة التي يمر بها الإنسان في مراحل نموه المختلفة.. إنما من الانحرافات التي تطرأ على واحد من هذه العوامل الأربعة أو منها كلها جميعًا..

إن "المشكلة" الكبرى التي تتحدث عنها كتب التربية وعلم النفس في هذه الفترة هي مشكلة الجنس.

فالتغيرات الجسدية التي تعلن بدء النضوج الجنسي تفرض نفسها فرضًا على الفتى المراهق والفتاة المراهقة، وتشغلهما، وتشد انتباههما إلى علاقات الجنس ومشاعره، بصورة تلقائية ليس منها بد، ولا يمكن تحاشيها..

ولكن هذا في ذاته ليس مشكلة.

وفي الإسلام بالذات لا توجد للجنس مشكلة، ولا لأي أمر آخر في الحقيقة حين يتبع المنهج الرباني في كل أمور الحياة. فإن الله -الذي فطر الفطرة البشرية- لم يجعل فيها -في ذاتها- مشاكل، في أي مرحلة من مراحل نموها.. إنما تنشأ المشكلة من مخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها لأي سبب من الأسباب.

وليس معنى هذا أن الحياة في ظل الإسلام رخاء ناعمة هادئة لينة لا تعب فيها ولا عناء..

كلا! إن الحياة كلها عناء. ولن تنفك كذلك..

"يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ"[1].

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ"[2].

ولكن التعب والعناء شيء و"المشكلة" شيء آخر.

([1]) سورة الانشقاق [6].

([2]) سورة البلد [4].

إنك لكي تفلح الأرض تتعب.. تشقها، وتبذر فيها البذور بعد انتقائها، وتسقيها، وترعاها من الحشائش الضارة، وترعاها من الآفات، وتحافظ عليها من أي مغير يغير عليها من حشرة أو حيوان أو إنسان.. وتظل تتعهدها يومًا بعد يوم حتى تؤتي أكلها وتجمع حصادها. وكل ذلك "كدح" و"كبد" وتعب ومشقة. ولكن هل هو "مشكلة"؟! إنه يصبح مشكلة فقط إذا غاب واحد من هذه العناصر كلها، أو تعذر، أو تعقد، أو فسد حاله..

وإنك لكي تتاجر تتعب.. تجمع المال الذي تبدأ به تجارتك، وتختار نوع التجارة الذي تنوي العمل فيه، وتكسب فيه خبرة كافية، وتدرس السوق واحتياجاته، ثم تشتري بضاعتك، ثم تعرضها العرض الذي يضمن رواجها، ثم تجتذب إليك الزبائن بحسن المعاملة والأمانة والصدق. ثم تكون معرضًا في كل وقت للكسب والخسارة فينبغي أن تجتهد بأقصى جهدك لتكسب ولا تخسر.

كل ذلك تعب ومشقة. ولكنه ليس مشكلة إلا إذا تعرض شيء من هذه العناصر كلها إلى ظروف غير طبيعية، فجعل الخسارة هي الحصيلة وليست الربح. أو هي الأمر الأرجح الذي لا تستطيع تلافيه إلا بجهد غير طبيعي.

وإنك لكي تتعلم وتدرس, تتعب.. تذهب إلى مكان الدراسة وتحبس نفسك للدرس، وتنتبه انتباهًا مركزًا لكي لا يفوتك البيان والشرح، وتعود إلى البيت تستذكر، وتسهر الليالي الطويلة في الاستذكار مع التركيز والانتباه، وتبذل في ذلك كله جهدًا عصبيًّا وذهنيًّا وجسديًّا، حتى يأتي الامتحان، وتحرص على أن تحصل على الدرجات العالية لييسر لك ذلك مرحلتك القادمة.. وهكذا سنة بعد سنة حتى إذا وصلت إلى المرحلة النهائية كان قد أجهدك المشوار..

تعب ومشقة وكدح.. ولكنه ليس مشكلة، إلا إذا وجدت عقبات غير عادية في الطريق تجعل في تحصيل العلم مشقة زائدة عن الحد، أو تجعل له نتيجة غير مضمونة رغم العناء والجهد..

وكل أمور الحياة كذلك..

وحين نقول إنه ليس في الإسلام مشكلة للجنس ولا لأي شيء آخر، فهذا الذي نعنيه..

لا نعني أن الحياة خالية من الكدح والمشقة. فذلك مخالف لسنة الله ومشيئته في خلق هذا الكائن البشري، الذي خلق ليعمل -أي: ليكدح وينصب- وليكون عمله هو مجال الابتلاء في الدنيا: "لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"[1] ومجال الجزاء في الآخرة بالنعيم أو العذاب:

"ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"[2].

"وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ"[3].

وإنما نعني أن الكدح في المنهج الإسلامي يسير في خطه الطبيعي، ويؤتي ثماره الطبيعية، ثم تكون هذه الثمار هي أطيب الثمار التي يمكن للبشر أن يحصلوا عليها في الأرض. وهنا مفرق الطريق بين كدح البشر في الجاهلية وكدحهم في الإسلام. في الحالين يكدحون، ثم يكون كدحهم وبالًا عليهم في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما جميعًا؛ أو يكون كدحهم مباركًا في الدنيا والآخرة جميعًا.

ثم نعود فنقول إن الحياة في ظل الإسلام لا تخلو من المشكلات بمعناها الذي شرحناه في السطور السابقة. ولكن لا يكون السبب فيها أبدًا هو الإسلام. إنما يكون السبب أحد شيئين: إما تفريط المسلمين في إسلامهم فيحدث الانحراف في حياتهم، ويتسبب الانحراف في قيام المشكلات، وإما كيد أعداء الإسلام في الداخل أو الخارج بما يحدث الاضطراب في حياة المسلمين. والنوع الأول من المشكلات ليس مفروضًا أن يحدث، وحينما يحدث فإنما تقع تبعته على المسلمين أنفسهم. وأما الآخر فلا معدى من حدوثه، ما دام في البشر من يكره الحق ويكره الخروج من الظلمات إلى النور. ومن أجل هذا الأمر كتب على المسلمين الجهاد والقتال:

"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ"[4].

([1]) سورة هود [7].

([2]) سورة الأنعام [60].

([3]) سورة الأنبياء [47].

([4]) سورة البقرة [216].

"وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ"[1].

"وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ"[2].

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ"[3].

تلك هي الصورة الإسلامية الصحيحة للحياة..

ليست بحال من الأحوال خالية من الجهد والمشقة والكدح والكبد، ولكن في سبيل ثمرة لا تتحقق أبدًا في غير الإسلام. وليست خالية من المشكلات ولكن ليس سببها هو الإسلام.

بينما الحياة في الجاهلية جهد كذلك ومشقة وكدح وكبد، ولكن في سبيل ثمرة فاسدة معطوبة لا يمكن أن تخلو من العطب. ومشكلات سببها النظام ذاته وليست آتية إليه من أعداء النظام..

فمن شاء أن يقول: ما دام الأمر تعبًا هنا وتعبًا هناك، فلنأخذ أيسر الجهدين وهو تعب الجاهلية، فهو مخطئ مرتين:

المرة الأولى لأن متاعب الجاهلية ليست في الحقيقة أيسر من متاعب الإسلام وإن بدت للوهلة الأولى كذلك. إنها تبدو كذلك لأن الشهوات ميسرة فيها على المستوى الحيواني، ولكنها تكلف الناس مع ذلك من أمنهم وطمأنينتهم وراحة أعصابهم ما تشهد به قوائم المرضى في العيادات النفسية والعصبية في كل العالم "المتحضر"! وما تشهد به انحرافات الشباب في ذلك العالم، الذي يحس بالضياع ويبحث له عن وجود، ويغرق في الجنس والمخدرات لينسى، ثم لا يستطيع أن ينسى، وإنما يقع فقط في حمأة الإدمان في الجنس

([1]) سورة البقرة [251].

([2]) سورة الحج [40].

([3]) سورة الحديد [25].

والمخدرات سواء. كما تشهد به النسبة المروعة للجريمة، التي هي آخذة أبدًا في الارتفاع، رغم كل الجهود التي تقوم بها الحكومات في ذلك العالم "المتحضر!"

والخطأ الثاني وهو الأجسم والأخطر، حتى لو تحققت المتعة الكاملة على الأرض، هو تعريض النفس للعذاب الرهيب في الآخرة:

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ!"[1].

والله لا يدعو الناس إلى الإسلام لكي يرتاحوا -في الحياة الدنيا- من الجهد، وهو يعلم أن أحدًا في الحياة الدنيا لا يرتاح من الجهد. إنما يدعوهم ليؤمنوا به وينفذوا منهجه ويكدحوا في سبيله ويجاهدوا ويحتملوا مشقة الجهد في سبيل ثمرة أرضية لا توجد في غير الإسلام، وفي سبيل ثمرة في الآخرة لا تنال بغير الإسلام.

والله -من قبل ومن بعد- غني عن عباده وعن عبادة عباده:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ"[2].

"وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"[3].

والله الخالق يملك سبحانه بما أنه هو الخالق لهذه العباد أن يكلفها ما شاء دون أن يسأل لماذا فعل:

"لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ"[4].

ولكن من رحمته لا يكلف نفسًا إلا وسعها. ثم من رحمته لا يكلفهم لذات نفسه -سبحانه- وهو الغني؛ إنما يكلفهم ما يصلح حياتهم على الأرض، ثم يأجرهم عليه في الآخرة وهم كانوا هم الكاسبين!

([1]) سورة القتال [12].

([2]) سورة الذاريات[56-58].

([3]) سورة العنكبوت [6].

([4]) سورة الأنبياء [23].

هو الذي وهب لهم متاع الحياة الدنيا، ثم يأجرهم على الاستمتاع به إن استقاموا في ذلك على منهج الله! "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ.."[1].

هو الذي وهب لهم أموالهم وأنفسهم ثم يشتريها منهم –وهو واهبها! – بأن لهم الجنة!

"مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً"[2].

"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[3].

* * *

ونعود إلى "مشكلة" الجنس في المرحلة التي نحن بصددها، فلا نجد للجنس "مشكلة" في الإسلام.

أما الجهد والمشقة فواقعان نعم. واقعان في الطفولة. وواقعان في المراهقة. وواقعان في الشباب. وواقعان في الكهولة. وواقعان في الشيخوخة. واقعان من أول العمر إلى منتهاه.

هل يتم تعليم المشي في الطفولة بلا مشقة؟ وتعلم الكلام؟ والتسنين؟ والتربية على العادات الطيبة والسلوك المستقيم؟

كلا! لكل مرحلة في حياة الإنسان جهدها ومشقتها..

ولكن الله من جانب آخر قد زود الإنسان بالقدرة على احتمال الجهد والمشقة. فالأمر –من طرفيه– متوازن. جهد مفروض من ناحية، وقدرة على بذله واحتماله من ناحية أخرى..

بل إن الأمر في الفطرة البشرية أعجب من ذلك!

---

(1) سورة الأعراف [32].

(2) سورة البقرة [245].

(3) سورة التوبة [111].

إن طاقة الجهد المذخورة في كيان الإنسان وجدت لتبذل! فإذا لم تبذل تمرض، ويمرض معها الإنسان!!

وحين نظن -بنظرتنا البشرية القاصرة- أننا نحل للإنسان مشكلاته إذا وفرنا عليه الجهد البتة، وجعلنا حياته رخاء لينة، فإننا نكون نحن الذين نخلق له المشكلة في الحقيقة، لأننا نتسبب في أن نجعل في حوزته جهدًا زائدًا -أو فائضًا- لا يجد منصرفه الطبيعي، فإما أن ينصرف في الفساد وهو الأرجح، وإما أن يترهل صاحبه ويمرض.. وكلاهما فساد!

وليس معنى ذلك أن نتعمد الجهد ونفتعله افتعالًا حتى نصل إلى درجة الإجهاد! كلا!

إن منهج الله يحوي المقادير المضبوطة لكل شيء. وما علينا إلا اتباعه. وهو ينظم نفسه بنفسه. في الجهد المبذول وفي توزيع الطاقة وفي الثمرة سواء.

وحين يختل الميزان بسبب انحراف البشر، ويحتاج الأمر إلى الجهد الزائد والمشقة التي تفوق الاحتمال العادي، فإن الله يختار من عباده قومًا يخصهم برحمته وفضله، ويؤتيهم طاقة على احتمال الجهد الزائد، ثم يتخذ منهم شهداء:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[1].

"وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ"[2].

تلك هي ذروة "الكدح" في حياة البشر في ظل الإسلام.. وهي -بجهدها العادي، وجهدها الزائد- في حدود طاقة البشر كما خلقها الله؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها. ثم إنها تستنفد الجهد الذي لا بد أن يبذل، لكي تظل النفس البشرية صحيحة سليمة لا يصيبها العطب بالاسترخاء والترهل، أو بصرف الطاقة في الفساد!

([1]) سورة المائدة [54].

([2]) سورة آل عمران [139-142].

وحين يسير الناس على المنهج الرباني ويلتزمونه، ويبذلون الجهد المطلوب بالقدر الذي رتبه الله في الفطرة من ناحية وفي النظام الذي أنزله مفصلًا على قد الفطرة من ناحية أخرى، تستقيم الأحوال كلها في الأرض، فضلًا على الجزاء الذي ينتظر المؤمنين في الآخرة.

وفي ذلك تستوي الطفولة، والمراهقة، والشباب، والكهولة، والشيخوخة.. لكل منها جهدها ومشقتها، ولكن في حدود طاقة الفطرة، وفي حدود صحة الفطرة كذلك وسلامتها.

فإن كانت فترة المراهقة والبلوغ تبدو أكثر خطورة وحروجة، فبسبب التفجر العاطفي والجسدي الهائل الذي يصاحبها، ويبدو كأنما تفجر فجأة، فيصبح كالفيضان الذي يوشك أن يحطم الجسور..

ولكنا حين نرقب الفيضان من مبدئه، ثم نرتب له منصرفاته، ثم نجعل الجسور قوية الاحتمال.. نكون في مأمن من غائلة الفيضان. وإن كنا دائمًا في كل مراحل العمر، في حاجة إلى اليقظة الدائمة والحذر والاستعداد...

* * *

الجنس -ككل طاقة حيوية في كيان الإنسان- خلقه الله ليعمل، ورتب له وهيأ له من المشاعر والأفكار في داخل النفس ما يوائم ويواكب الطاقة الجسدية، ليسيرا معًا متوازيين متساندين متلاقيين كما يحدث في كل المسائل الحيوية الأخرى، ثم رتب له وهيأ له في منهجه المنزل من التنظيمات والتوجيهات والتشريعات ما يحقق أهدافه في أسلم وضع وأنظف وضع، كطريقة الإسلام في كل شيء.

ليست إذن مشاعر الجنس وأفكاره بدعًا بين المشاعر والأفكار. وليست خصائص الجنس الجسدية بدعًا بين خصائص الجسد، وليس الجنس كعملية حيوية بدعًا بين العمليات الحيوية التي يقوم بها الإنسان من طعام وشراب وإفراز.. إلخ.

ومن هنا لا يضع الإسلام حاجزًا نفسيًّا خاصًّا أمام الجنس، غير ما يضعه لغيره من ألوان النشاط البشري، لا في طريقة الحديث عنه، ولا فيما يصرح به منه أو يمنع..

أي: بعبارة أخرى، ليس الجنس في ذاته موضوعًا "محرمًا" في الإسلام. ولا يمارس الإسلام أي لون من ألوان "الكبت" فيما يتعلق بالجنس.

ولنعد إلى تعريف الكبت في علم النفس الغربي، بل عند فرويد بالذات، مبتدع قصة الكبت الجنسي وملصقها بالدين..

إن فرويد نفسه -الذي سعى إلى تلويث صورة الدين في نفوس الناس بكل ما أوتي من جهد، تحقيقًا لمخططات حكماء صهيون لإفساد كل البشرية[1]- فرويد نفسه يقول في كتابه Three Contributions to the Sexual Theoryإن الكبت ليس هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي -فذلك مجرد "تعليق" للعمل- ولكن الكبت هو استقذار الدافع الغريزي والشعور بأنه دنس لا ينبغي للإنسان أن يفكر فيه. فيكبته في اللاشعور. وهذا الكبت -بمعنى الاستقذار- يظل قائمًا في النفس ولو أتى الإنسان الفعل الغريزي في اليوم عشرين مرة! فلا علاقة له بالممارسة، إنها علاقته بالشعور.

فإذا كان هذا قول فرويد -أبو الكبت ومبتدعه وملصقه بالدين- فليس لأحد من عوام "المثقفين" عندنا أن يقول شيئًا من عند نفسه ويلصقه "بالعلم"، ويتوهم أنه عالم نفساني كبير!

حقيقة إن فرويد -بخبثه الشيطاني- قد أعطى إيحاء -مجرد إيحاء- بأن الامتناع عن الممارسة يصاحبه -في العادة- كبت نفسي، وهذا ما يلتقطه عوام المثقفين ويتعالمون به! ولكنه لم يقل إن كل امتناع هو كبت، بل نص نصًّا صريحًا على أن الكبت ليس هو مجرد الامتناع، وسمى ذلك تعليقًا للعمل الغريزي suspension [أي: إرجاء له].

ولسنا نستمد حقائق منهجنا الرباني من شهادات فرويد ولا غيره من "الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" كما سماهم القرآن. فهؤلاء يقولون ما يقولون، ويتخبطون كما يشاءون. ولكنا فقط بصدد تصحيح وهم هائل يعشش في نفوس "المثقفين! " وعقولهم، ويحسبونه علمًا، ويتوهمون أن فرويد قد قال به. فإذا علموا فرويد نفسه -الذين يتلقون منه تعاليمهم- لم يقل ما يتوهمون أنه قاله، فلربما يفيئون إلى أنفسهم، ويخجلون من ترديد كلام ليس لهم به علم:

"وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا"[2].

([1]) راجع "بروتوكولات حكماء صهيون" -الإشارة إلى دور فرويد في المخطط الصهيوني- وفصل "اليهود الثلاثة" في كتاب "التطور والثبات".

([2]) سورة الإسراء [36].

إنما نقول إنه حتى مع التسليم بأن الكبت ينشأ من استقذار الدافع الغريزي –وهذا جائز[1]– وأنه ينشئ اضطرابات نفسية وعصبية، فإن الإسلام لا يستقذر الدافع الجنسي في ذاته، ومن ثم لا "يكبته" البتة.

إنما الذي يستقذره الإسلام ويستنكره هو الجريمة..

وجريمة الجنس، كجريمة السرقة، كجريمة القتل، كغيرها من الجرائم كلها دنس يستقذره الإسلام؛ لأنها تجاوز لما أمر الله به، واغتصاب لحق لا يحق للإنسان اغتصابه.

وطريقة الإسلام في استقذار جريمة الجنس، هي ذات طريقته في استقذار جريمة السرقة، هي ذات طريقته في استقذار جريمة القتل، هي ذات طريقته في استقذار كل تجاوز عما أمر به الله.

"وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا، وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا، وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا"[2].

وإذا كان الجنس –في الإسلام، وفي البشرية السوية كلها– يتم في ستر عن العيون، فليس ذلك نتيجة استقذاره. فإن الاستحمام –وهو أنظف نظافة يقوم بها الإنسان في بدنه– يتم كذلك في ستر عن العيون! ولم يزعم أحد أن الاستحمام عملية مستقذرة! وأن سترها عن العيون ناشئ عن استقذارها!

([1]) لا شك عندي أن استقذار الدافع الجنسي –أو أي دافع حيوي– ينشئ اضطرابًا شديدًا في النفس، ما بين الدفعة الحيوية الضاغطة وبين الشعور بالدنس والقذارة. ولكن الذي يحتاج إلى دراسة علمية هو مسألة الكبت "اللاشعوري" الذي يردده فرويد في جميع كتاباته. وكل شيء يقرره العلم على سبيل اليقين فنحن لا نرفضه. أما الدعاوي الذاتية –وفي مقدمتها عقدة أوديب التي زعمها فرويد– فنحن في حل من عدم الإيمان بها حتى يقوم عليها دليل علمي مقبول.

([2]) سورة الإسراء [31-38].

إنما الستر أو الجهر عملية منفصلة تمامًا عن الاستقذار أو الاستطياب. ومتصلة بشيء آخر، هو الضرر الخلقي الذي ينشأ -أو لا ينشأ- من الجهر. كما أنه متصل بالحياء الفطري الذي أودعه الله في الفطرة البشرية واختصها به، والذي يجعلها -في حالتها السوية- تخجل من كشف العورات.

فأما البهائم، والبشرية التي يراد لها في جاهليتها الحديثة أن تكون كالبهائم، فتكشف عوراتها كما تشاء! ولتمارس الجنس في العراء المكشوف كما تشاء!

كلا! ليس الستر نتيجة الاستقذار. ولكنه مقتضى الرفعة والتكريم الذي كرم به الله الإنسان أن يكون كالبهائم والسائمات:

"يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ"[1].

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"[2].

أما الجنس في ذاته -كدافع من دوافع الفطرة، وكاستجابة واقعية لدافع الفطرة، وكمشاعر وأفكار- فليس حوله طيف من استقذار أو إنكار:

"حبب إلي من دنياكم: الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة"[3].

"..وإن في بضع أحدكم [أي ممارسة العمل الجنسي مع الزوجة] لأجرا. قالوا: يا رسول الله! أإن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟! قال: "أرأيتم إن وضعها في حرام، أليس عليه فيها وزر؟ فإذ وضعها في حلال فله عليها أجر! "[4].

ثم إنه -في الإسلام- يمارس باسم الله، ويقرأ اسم الله عليه وهو أطهر الأسماء وأعظم الأسماء.

(1) سورة الأعراف [26].

(2) سورة الإسراء [70].

(3) رواه أحمد والنسائي.

(4) رواه مسلم.

ومن هنا لا ينشأ الاضطراب في النفس من مشاعر الجنس, ولا من كل ما يتعلق به من عمل.. إنما ينحصر الاستقذار في الجريمة.

وطريقة الإسلام في معالجة الجنس، كطريقته في معالجة كل الدوافع التي خلقها الله لتعمل لا لتكبت ولا لتعطل، أنه يقرها بادئ ذي بدء، نظيفة في ذاتها، محببة، بل مطلوبة، بل مستنكرًا تحريمها وكبتها وإغلاق الطريق دونها:

"قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

"وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ.."[2].

"أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني"[3].

ثم إن الإسلام يقيم أمام الدوافع الفطرية كلها -وليس الجنس بدعًا بينها- حواجز لا تغلق مجراها ولكن ترفعها وتضبط منصرفها، أشبه بالقناطر تقام أمام التيار، لا لتغلق المجرى، ولكن لترفع مستوى التيار، وتضبط منصرفه، ثم تتيح له -بعد رفعه- أن يصل إلى مجالات أخرى لم يكن ليصل إليها من قبل وهو في مستواه الأدنى.

نفس الشيء يصنعه الإسلام مع دوافع الفطرة.. يقيم لها "ضوابط" لا تكبتها، بمعنى أنها لا تستقذرها، ولكن تحدد لها المنصرفات المسموح بها. وهي "حُدُودُ اللَّهِ" التي حددها وقال: "فَلا تَعْتَدُوهَا"، والتي يعلم الله بعلمه وحكمته أنها هي الحدود الآمنة لتصريف تلك الطاقة، التي يتحقق بها خير الفرد والمجتمع كله، وخير النوع البشري جميعًا. وفي الوقت ذاته يرفع مستواها -بهذه الضوابط- فيكون أداؤها على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان، طريقة لا يقوم بها الجسد وحده، ولكن يقوم بها كيان "الإنسان" كله، بما فيه من عواطف وأفكار ومشاعر، وإشراقات روحية كذلك. ثم يطلق "المحجوز" من الطاقة، على مستواها الأعلى، فتكون تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية من ناحية، وتكون فنونًا وعلومًا من

(1) سورة الأعراف [32].

(2) سورة الحديد [27].

(3) أخرجه الشيخان.

ناحية أخرى، ولم يكن ذلك كله ليتيسر لو أنفقت الطاقة كلها -في مستواها الأدنى- على طريقة الحيوان، الذي لا ينشئ نظمًا ولا حضارات، ولا فنونًا ولا علومًا ولا ثقافات!

والجاهلية تعترف بضرورة "التنظيم" و"الضبط" لكل دوافع الفطرة.. إلا الجنس!

هو وحده من بين دوافع الإنسان الفطرية يراد له أن يكون بلا ضابط إلا الرغبة المحمومة والسعار المجنون!

إن الجاهلية لا تبيح إطلاق دافع التملك بلا ضابط ولا تنظيم، يستولي الإنسان على كل ما تهفو له نفسه من أي مكان يشاء. وتعتبر ذلك -في الجاهلية الغربية- سرقة يعاقب عليها القانون بالحبس. وفي الجاهلية الشرقية جريمة تخريب أو اغتصاب لملك البروليتاريا تعاقب عليه بأي شيء ما بين الحبس والإعدام. وكذلك تصنع في دافع الطعام، ودافع الملبس، ودافع المسكن.. لا تتركها نهب الشهوات..

الجنس وحده بدع بين الدوافع الفطرية له طريق خاص؟!

لماذا؟!

لأن الشياطين التي تحكم الأرض اليوم تريد ذلك! تريد أن تستعبد البشرية لشهواتها لتجرها من خطامها كالحمير:

"الأمميون [كل الأمم من غير اليهود] هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار!! " كذلك يقول التلمود لليهود، وكذلك يفعلون بالبشرية التي أسلمت لهم قيادها, وغاصت لقمتها في حمأة الجنس المسعور!

* * *

الإسلام لا يستقذر الجنس ولكنه لا يطلقه من عقاله يستعبد الإنسان بالشهوة.

يضبطه.. فيبيحه في الحدود المشروعة التي شرعها الله. ويدعو إليه عندئذ ويشجع عليه:

"تناكحوا تكثروا. فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة"[1].

([1]) رواه عبد الرزاق والبيهقي.

ويضبطه.. فيجعله مشاعر مودة ورحمة لا مجرد جسد بهيمي هائج كالحيوان:

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[1].

"نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ.."[2].

وقيل في تفسير التقديم: إنه العواطف والتهيئة النفسية والشعورية حتى لا يكون دفعة جسد فحسب.

ويضبطه.. فيجعله أسرة وأطفالًا وتنظيمات اقتصادية واجتماعية وفكرية وأخلاقية شاملة..

وهو ذات الطريق الذي يسلكه مع شهوة الطعام، وشهوة الملبس، وشهوة المسكن، وشهوة المال، وشهوة السلطان.. إلخ. فليس الجنس بدعًا بين دوافع الإنسان، ولا يخصه الإسلام بقيد خاص لا يقيد به بقية دوافع الفطرة، ليرفعها كلها إلى مستوى "الإنسان".

* * *

أما حل "المسألة" الجنسية ولا نقول "المشكلة" الجنسية في منهج التربية الإسلامية، فهو حل شامل يشمل المسألة من أطرافها جميعًا: أخلاقياتها، واقتصادياتها، واجتماعياتها، كما يشمل جوانبها الجسدية والروحية والشعورية كلها في آن واحد.

ونتتبع الخيط التربوي من أوله، فنجد أن الإسلام قد ربى الطفل[3] من قبل على حب الله وخشيته من ناحية، وعلى القدرة على الضبط من جانب آخر..

فأما حب الله وخشيته فقد تربى عليه منذ عرف الله.. منذ راح يبحث عن الخالق، فدله مربيه عليه وربط قلبه به.

---

(1) سورة الروم [21].

(2) سورة البقرة [223].

(3)حين نقول الطفل نقصد الولد والبنت على السواء.

وأما القدرة على الضبط فقد تعودها منذ طفولته وعلى المدى الطويل حتى أصبح اليوم في مرحلة البلوغ.

وحقيقة أن الدفعة الجديدة -الفوارة الموارة- قد تعصف -إذا تركت وشأنها- بقدرته السابقة على الضبط، وبخشيته السابقة من الله.

والإسلام لا يتركها وشأنها حتى تفعل ذلك! فالفطرة -ذات الدفعة الفوارة الموارة- هي الفطرة التي خلقها الله، والإسلام هو دين الله المنزل، المفصل على قد هذه الفطرة. ولم يجعل الله في الفطرة دافعًا قهريًّا يدفع إلى معصيته سبحانه، ثم يحرمه ويطلب من الناس ألا يعصوه!

كلا! ليس الأمر كما قال الشاعر الجاهلي الحديث يخاطب ربه:

خلقـــت الجمـــال لنـــا فتنـــة   وقلـــت لنـــا يا عبـــاد اتقـــون

فقد أبرز ذلك الشاعر الجاهلي عنصرًا واحدًا من عناصر الإنسان وهو "الدوافع" أو "الشهوات" وأغفل العنصر الآخر المقابل وهو "الضوابط" التي تضبط تلك الدفعات.

والله يقول: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ"[1].

فيذكر الدوافع والضوابط معًا.. فالذين "اتَّقَوْا" يتعرضون لذات الدوافع كما يتعرض غيرهم من الناس، لأنها مزينة للناس جميعًا ومحببة للناس جميعًا. ولكنهم يستخدمون ضوابطهم، فيصبرون, ويصدقون، ويقنتون، وينفقون ويستغفرون بالأسحار، فيكون جزاؤهم هو الجنات والخلود، والأزواج المطهرة والرضوان من الله.

وهكذا يكون الإنسان في صورته العليا، "في أحسن تقويم" لا كما أراده الشاعر الجاهلي مفتونًا بالشهوات.

([1]) سورة آل عمران [14-17].

ومنهج التربية الإسلامية وهو يعالج مسألة الجنس التي تفجأ الفتى والفتاة بطاقة دافعة لا قبل لهما بها، يعود إلى نقطة البدء: حب الله وخشيته، والقدرة على الضبط، ثم يثني بأمور أخرى..

ومما يلفت النظر أنه في هذا الوقت بالذات تصبح الصلاة والصيام فرضًا, وقد كانت الصلاة من قبل مجرد عادة تؤسس!

هنا إشعار للفتى والفتاة بالتكليف الحق من قبل الله، وبالتعرض الحق للثواب والعقاب، وقد كان ما مضى كله مجرد تعويد على التكليف..

هذا ضابط من الضوابط يُتَّكأ عليه الآن بالذات، إزاء هذه الدفعة الفوارة الموارة المفاجئة!

ولكن للإسلام -كما قلنا- وسائله الأخرى.

إن الجنس ليس شحنة جسد خالصة كما يراد تصويره في التفسير الجثماني للمشاعر. ولكنه شحنة نفسية كذلك. بالإضافة إلى الشحنة الروحية التي تصحبه، وسنتحدث عنها قائمة بذاتها فيما بعد.

فماذا تريد الشحنة النفسية على وجه التحديد؟

إنها تحدث في نفس الفتى رغبة قوية أن يكون رجلًا، وفي نفس الفتاة رغبة قوية أن تكون أنثى ناضجة.

لقد التقينا بهذه الرغبة من قبل في المراهقة قبل البلوغ. ولكنها كانت إلى طفولة الأطفال أقرب. أما اليوم فهي جادة وملحة وحقيقية.. ثم إن لها -مما طرأ على الجسم من تغيرات- ما يبررها!

وهنا أحد الخيوط التي يستخدمها منهج التربية الإسلامية في معالجة المسألة الجنسية.

إن تحقيق هذه الرغبة النفسية يفرغ شحنة هائلة، تظل لولا ذلك ملحة ضاغطة، وتأخذ صورة الضغط الجسدي إلى جانب الضغط النفسي. لأن الإنسان -في النهاية- وعاء واحد متحد الكيان؛ وكل ضغط يضغط عليه كله. وكل تخفيف يخفف عنه كله..

لذلك يلجأ المنهج الرباني إلى تحقيق هذه الرغبة النفسية بكل الوسائل، فيكون ذلك –من أحد جوانبه– تحقيقًا للكيان الجنسي الجديد، يخفف ضغطه على الأعصاب.

والتكليف هو جانب من جوانب ذلك التحقيق!

الآن صار الفتى رجلًا.. وكلفه الله التكاليف. أصبح محاسبًا على أعماله منذ اليوم؛ لأنه لم يعد طفلًا بعد الآن!

والآن صارت الفتاة أنثى، وتلقت التكليف الرباني، لأنها لم تعد طفلة منذ اليوم.

إنه إحساس عميق جدًّا في الجو الإسلامي الحقيقي، يملأ النفس اعتزازًا ويحقق لها كيان النضخ الذي تهفو إلى تحقيقه.

والمنهج الإسلامي يضيف إلى التكليف الشرعي حمل التكاليف الدنيوية كذلك. فقد صار الفتى منذ اليوم مسؤولًا في البيت وفي المجتمع، لأنه "بلغ مبلغ الرجال" فصار واحدًا منهم، يتصرف مثلهم، ويعهد إليه بالأمور مثلهم. وقد صارت الفتاة مسؤولة في البيت –ميدانها الأصيل– لأنها "بلغت مبلغ النساء" ودخلت عالمهن بالفعل فصارت واحدة منهن، يعهد إليها بما يعهد إليهن من أمور.

ولا يغفل المنهج بطبيعة الحال أن خبرة الفتى والفتاة محدودة حتى اللحظة. ولكنه يهدف إلى زيادتها وتوكيدها بهذه الطريقة، في ذات الوقت الذي يهدف فيه إلى تحقيق الرجولة للفتى والأنوثة للفتاة، لاستيعاب جانب من شحنة الجنس الفوارة الموارة، وتصريفها عن هذا الطريق.

ثم يلجأ المنهج إلى التربية عن طريق استنفاد الطاقة وشغل أوقات الفراغ، ليستنفد قدرًا آخر من شحنة الجنس.

فأما الفتى فيقول له: تعلم السباحة. وتعلم الفروسية.

وكلاهما جهد بدني شاق، وكلاهما كذلك من مظاهر الرجولة والقوة والفتوة. ومن هنا يستنفدان قدرًا مزدوجًا من الشحنة: من الجسد والنفس على السواء.

وأما الفتاة فيكلفها تدبير البيت ورعاية شؤونه.

وهو جهد بدني شاق من ناحية. كما أنه من مظاهر الأنوثة الناضجة المستمكنة من أنوثتها[1]. ومن هنا يستنفد قدرًا مزدوجًا من شحنة الجسد وشحنة النفس على السواء.

هذا، والمجتمع الإسلامي كما ذكرنا من قبل خال من الفتنة الهائجة التي تثير الدوافع، وتهيجها إلى درجة السعار الذي يستعصي على الضبط.

فلا تبرج يفتن الفتى ويخرجه عن طاقة احتماله. ولا دفعات شيطانية تفتن الفتاة وتوجهها إلى التبرج والاستعراض لتكسب إعجاب الشباب. ولا مناظر خليعة في صحيفة ولا مجلة ولا سينما ولا مسرح ولا إعلان تثير فورة الجسد، ولا أغاني رقيعة تثير كوامن الحيوان، ولا مجال للإثارة من أي نوع، لا بالحركة ولا الإشارة ولا اللفظة ولا التلميح ولا التصريح..

هذه النظافة التي يحرص عليها الإسلام حرصًا بالغًا، وتصل كما أسلفنا إلى تحريم الحديث عن الجريمة الخلقية إلا بأربعة شهود، هي جزء رئيسي من منهج التربية الإسلامية في مسألة الجنس. فهو لا يكلف الشباب الضبط ثم يثير دوافعهم إلى المدى الذي لا يقف له إلا أولو العزم من البشر، وهم دائمًا قليل.. إنما يجتث الفتنة المثيرة من جذورها قبل أن يكلف الناس الضبط، على طريقته في التكاليف جميعًا. يهيئ لها العدة قبل إصدار الأمر بالتكليف، وقبل المعاقبة على مخالفة التكليف.

ثم هو -على طريقته- يساير الفطرة ولكنه يرفعها إلى أفقها الأعلى..

وفي فطرة الجنسين في تلك الفترة، أو منذ تلك الفترة إلى آخر العمر، أن يسعى كل جنس إلى الحصول على إعجاب الجنس الآخر. والله هو الذي خلق هذا الدافع على هذه الصورة لحكمة يريدها: يريد أن يبذل كل جنس جهده في رفع طاقاته إلى أقصى مدى ارتفاعها قبل أن يحدث التزاوج، حتى إذا حدث كان الزوجان في قمة نشاطهما وحيويتهما وتهيئهما لهذا الحدث الضخم..

والجاهلية تحول هذا الدافع -بالنسبة للفتاة خاصة- إلى عملية استعراض جسدي على المستوى الأدنى، والإسلام يحوله إلى مستواه الأرفع.

([1]) هذا في الفطرة السليمة. أما الفطرة المنتكسة في الجاهلية الحديثة التي تنفر من "تهمة" عمل أي شيء في البيت خشية أن تكون رجعية.. فلها حديث آخر!

ذلك أن الجاهلية تريد الجسد وحده، والإسلام يريد "الإنسان" بكيانه كله. الإنسان "فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ".

فحيث تدفع الجاهلية الفتاة إلى تعرية جسدها، والتفنن كما تقول صحف الجاهلية في إبراز مفاتنها، لتنال إعجاب الشباب، بعد أن تكون تلك الجاهلية قد ربت هذا الشباب بالفعل على صورته الحيوانية: صورة الإعجاب بالجسد العاري ومفاتنه المبذولة, وتلقي الحياة كلها من طاقة الجنس وحده، فإن الإسلام يجعل وسيلة الفتاة إلى الحصول على إعجاب الشباب هي المحافظة الشديدة على أخلاقها، وعدم التفريط فيها بأية صورة من الصور، كما يجعل وسيلتها حسن إدارة البيت وحسن التهيؤ للأمومة، التي هي أعظم وظائفها وأخطرها، بعد أن يكون قد ربي الشباب بالفعل على الإعجاب بالقيم الخلقية و"الإنسانية" في المرأة، ونفره من فتنة اللحم العاري المبذول.

والأمر كذلك من الجانب الآخر، جانب الشاب. فحيث تربيه الجاهلية الحديثة على التميع والتطري والتقصع والتفاهة والسطحية، وتربي الفتاة على الإعجاب به في هذه الصورة الزرية المتدنية، يربيه الإسلام على الرجولة الحقة. على الجد والشهامة والكرامة. والقوة والفروسية والصلابة. والقدرة النفسية والبدنية على تحمل المسؤوليات والنهوض بها. ويربي الفتاة -على فطرتها الأصيلة- على الإعجاب به في هذه الصورة المستعلية.

وبذلك يستخدم المنهج الرباني خيوط الفطرة في رفع الإنسان إلى أعلى درجاته، في الوقت الذي تستخدم الجاهلية ذات الخيوط لتهوي بالإنسان إلى الدرك الأسفل من الحيوانية!

"صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً"[1].

"أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"[2].

* * *

وثمت خيط آخر من خيوط الفطرة يستخدمه المنهج الرباني..

(1) سورة البقرة [138].

(2) سورة المائدة [50].

ففي هذه الفترة التي تنفجر فيها شحنة الجنس، تنفجر شحنة روحية عجيبة، شفافة صافية مشرقة، ربما تكون في حس الجاهلية متناقضة مع شحنة الجنس بصورتها "الأرضية" الحسية الغليظة المعتمة.

وحين ينظر إلى الجنس على أنه شيء مستقذر، تكون شحنة الروح بالفعل متناقضة معها، ومحيرة في تناقضها.

أما حين يؤخذ الأمر من وجهة الفطرة السليمة فلا تناقض. فلا شيء في الفطرية السليمة مستقذر. ثم إن الإنسان –في النهاية– وحدة متكاملة تشمل الروح والجسد على السواء، ولا عجب أن تنطلق شحنة الجسد وشحنة الروح في وقت واحد وعلى صعيد واحد.

إن مرحلة البلوغ هي مرحلة بداية النضج. يتفجر فيها الكيان البشري بكامله. لينضج بكامله. ومن هنا يتم –في بناء الفطرة السليم– انطلاق شحنة الجسد وشحنة الروح في دفعة واحدة.

وإذا كان الطفل في الفترة السابقة ينمو على دفعات. مرة ينمو خياله ومرة تنمو واقعيته. مرة تنمو عضلاته ومرة تنمو عظامه. مرة تنمو قدرته على تعلم اللغة –أي لغة، وأي عدد من اللغات– ومرة تتوقف هذه القدرة أو تبطئ وتنمو قدرته على جمع المعلومات..

إذا كان الأمر كذلك في الطفولة –مع عدم التوقف التام في الحقيقة في أي عنصر من العناصر، إنما هي مسألة تبادل نسبي في معدلات النمو المختلفة– فإنه الآن –في مرحلة البلوغ– تنطلق معدلات النمو كلها تقريبًا دفعة واحدة. فيحدث نمو سريع في كل اتجاه. ومن بين هذه الاتجاهات المختلفة، المتكاملة في ذات الوقت، تنطلق شحنة الجسد وشحنة الروح معًا في آن.

وإن في ذلك لعبرة للجاهلية التي تهمل شحنة الروح وتحاول جهدها أن تكبتها، لتطلق العنان لشحنة الجسد وحدها، فتنطلق في سعار محموم لا يعرفه حتى الحيوان، الذي تلهمه غريزته متى يبدأ ومتى يكف، بينما يبدأ الإنسان في الجاهلية ثم لا يكف أبدًا.. كالمجنون.

وإن فيه لعبرة أخرى للجاهلية. فحين تنطلق في الفطرة السوية شحنة الجنس، لتؤدي دورها المطلوب في الحياة، تنطلق معها شحنة الروح "لتضبطها" وتسيطر عليها، لكي لا تنطلق كالحيوان!

ثم إن فيه لعبرة ثالثة للجاهلية، إن شحنة الجنس ليست جسدًا ينزو كالحيوان، إنها تنطلق من كيان النفس بأجمعه بما في ذلك الروح. أو قل إن شئت إن الفطرة السوية لا تسمح أن يتصرف الإنسان بجسده وحده، إنما هي -بحكم التكوين السوي ذاته- تفرض عليه أن يتصرف بكل كيانه في وقت واحد. فينصرف بعقله وجسمه وروحه جميعها في آن.

هذه الشحنة الروحية التي تتفجر في مرحلة البلوغ تأخذ صورة مشاعر دينية صافية رائقة شفافة، تجنح ببعض الشباب أحيانًا إلى الصوفية، ما لم يتداركها المربي بالتوجيه الصحيح. كما تأخذ صورة مثل عليا شاملة، وأحلام "بعالم المثل" تجنح ببعض الشباب أحيانًا إلى أحلام اليقظة ما لم يتداركها المربي بالتوجيه الصحيح. كما تأخذ صورة حنين مبهم إلى الجنس الآخر، تجنح ببعض الشباب إلى المشغلة العاطفية ما لم يتداركها المربي بالتوجيه الصحيح.

وإذا تخيلنا -لمجرد التقريب- أن الإنسان روح وعقل وجسم، وأن شحنة الروح المنطلقة قد امتدت واتسعت حتى ضمت هذا الكيان كله وشملته، فإنها من حيث انطلقت مع خطها الأصيل تأخذ صورة المشاعر الدينية، ومن حيث لامست العقل تأخذ صورة "عالم المثل" ومن حيث لامست الجسد بشحنته الفائرة تأخذ صورة هذا الحنين المبهم إلى الجنس الآخر، وأحلام اللقاء.. وبذلك تشمل الكيان البشري كله بإشعاعاتها الصافية.

وهنا الفرصة الذهنية للمربي الحكيم أن ينتهز فرصة انطلاق هذه الشحنة الروحية الهائلة ليعيد تشكيل النفس التي بين يديه على وضعها الصحيح إن كان ذلك قد فاته في الطفولة لسبب من الأسباب، أو يثبت هذا الكيان في صورته السليمة إن كان قد سار في طريقه السليم من قبل، فيعمق كل القيم والمبادئ السابقة ويزيدها رسوخًا.

إن هذه العاطفة الدينية تأتي في موعدها المناسب، مع بدء التكليف الرباني، لتصل القلب بالله، وتربطه به برباطي الحب والتقوى، فلا ينقطع هذا الرباط بعد ذلك أبدًا حين تجد الأحداث ويضرب الإنسان في خضم الحياة يلتقي بأزمات تلو أزمات. والمربي المسلم بطبيعة الحال ينمي هذه المشاعر الدينية ويوثقها، بمراقبة قيام الفتى [والفتاة] بشعائر العبادة، وبالتشجيع على تأدية بعض النوافل. وبقراءة القرآن والتعرف على بعض معانيه ومراميه، والحياة في ظله فترات متقاربة أو منظمة دائمة، واستجاشة المعاني الدينية في الإحسان إلى الفقراء ومساعدة الضعفاء وكفالة المحتاجين، والتزاور والالتقاء على حلقة دراسة دينية بين الحين والحين، والحديث المستفيض عن الرسول صلى الله عليه وسلم والجماعة المسلمة الأولى: كيف كانت حياتهم ترجمة صادقة لمبادئ الإسلام وقيمه. وذكر نماذج حية من البطولات الإسلامية في كل مجال. فهذه بالذات هي فترة الإعجاب الشديد بالبطولة، والرغبة في الاقتداء بها.

وعلى هذا المنهج ينمي المربي المشاعر الدينية ويتلافى كذلك تحولها إلى مشاعر صوفية، قد تكون شفيفة ولكنها سلبية، تأخذ بعض معاني الإسلام ولكنها تهمل أهم ما فيه: الإيجابية الواقعية الفاعلة في واقع الأرض.

وأما النزعة المتسامية إلى المثل العليا فعلى المربي أن يستغلها كذلك بتمامها..

لقد كانت الفترة السابقة مباشرة -قبل البلوغ- فترة تكون بعض المثل العليا على المستوى الاجتماعي، ولكن في نطاق "المجموعة" التي ينتمي إليها الطفل، أو في نطاق صداقاته الخاصة. أما الآن فإن المثل العليا تتكون على المستوى "الإنساني" كله، وشاملة لجميع القيم بلا استثناء. إنها حلم "بعالم المثل" الذي تتحقق فيه كل المثاليات.

وكما كان للمشاعر الدينية آفاقها العالية واحتمالات انحرافها، فكذلك لأحلام المثل هذه آفاقها واحتمالات انحرافها. ومهمة المربي دائمًا أن يأخذ الآفاق العالية ويتلافى الانحراف.

فهنا ينبغي تشجيع هذه المثل التي تأتي طواعية من داخل النفس بلا جهد في إنشائها. ولكن الجهد المطلوب ينبغي أن يبذل في تحويلها إلى حقيقة واقعة، والحيلولة بينها وبين أن تصبح أحلام يقظة تستهلك الطاقة النفسية المخصصة لها بغير أن تثمر ثمرة! وهو جهد غير قليل. ولكنه واجب وضروري، وإلا تحولت إلى قوة معطلة بدلًا من أن تصبح قوة دافعة. فإذا تعود الفتى و[الفتاة] على أحلام اليقظة فإنه يستسهل حل أزماته ومشكلاته -خيالًا- عن هذا الطريق السهل، ولا يتحرك لحلها حلًا واقعيًّا على الطبيعة، كما يفعل مدمن المخدرات، يتخيل في لحظة "نشوته" أنه قادر على حل مشكلات الأرض كلها لو عرضت عليه. فما الداعي إذن لأن يجهد ذهنه في حلها الآن، ما دام سيحلها -في حينها- بإشارة واحدة من يده؟!

وقد يكون طفلك فنانًا موهوبًا أو مفكرًا فيركز في تلك الفترة على التأمل الصامت الذي يشبه أحلام اليقظة. ولكن لا تخاطر بتركه لتأملاته على أمل أن يصبح فنانًا أو مفكرًا! إنه إن كان كذلك حقًّا فستغلب عليه نزعته فيما بعد؛ ولكن عليك أن توقظه دائمًا من أحلامه تلك، بتكليفه بأمور يقضيها بوعيه الكامل، تستغرق وقته وجهده، وبتقليل فرص خلوه إلى نفسه منفردًا بقدر الإمكان.

على أنه لا يمكنك -وليس من المصلحة- إطفاء شعلة الخيال إطلاقًا وكفها عن العمل. إن جزءًا من هذه الأحلام مفيد فلا تحاول قتله. فإذا لم يتخيل صبيك صورة مثالية للحياة

البشرية فلن يسعى إلى تحقيقها في ذات نفسه ولا في غيره. والمربي المسلم بصفة خاصة يملك فرصة لا يملكها غيره من المربين، هي أن يشبع هذه الأحلام بمثل واقعية من سير الجماعة المسلمة الأولى، التي يلتقي فيها الواقع بالمثال، فتستوعب نزعة الأحلام في نفسه، وفي ذات الوقت تضع أمامه قدوة واقعية يحاول محاكاتها فيكون بذلك الخير.

وأما ذلك الحنين المبهم إلى الجنس الآخر فلا ضير فيه إلا أن يتحول إلى مشغلة عاطفية، عندئذ ينبغي على المربي أن يصرف صبيه عنه باستنفاد الطاقة الفائضة وشغل الوقت الفائض في عمل نافع: العبادة والذكر والدراسة والرحلات والمعسكرات [للصبيان] والالتقاء بالآخرين المشغولين بجديات الأمور ومشاركتهم في جديات أمورهم. والأمر كذلك مع الصبية ولكن في نطاق فطرتها السوية، في تدبير شؤون البيت ورعاية من يكون فيه من الصغار، ومساعدة الأم في تبعاتها ومشاغلها وجهدها.

ثم إن النظام الإسلامي -بعد هذا التهذيب كله وهذا الضبط كله وهذا التحويل للطاقة إلى أبواب الخير النافعة وإلى بناء الكيان النفسي على صورة سليمة- لا يهدف أبدًا إلى جعل ذلك كله بديلًا من الاستجابة الفطرية لدافع الجنس! كلا! إنما ذلك كله تمهيد للاستجابة الفعلية ولكن بعد الضبط والتنظيف والتصعيد، حتى يأخذ ذلك الدافع مساحته الطبيعية بلا زيادة، ولا يصبح -الآن ولا بعد الآن- مشغلة للحس والنفس. فإنما خلقه الله في الفطرة ليؤدي مهمته ولكن لا ليعطل الدوافع الأخرى أو يشغلها عن وجهتها.

لذلك يدعو الإسلام -بعد هذا الجهد كله- إلى التعجيل بالزواج والتبكير فيه. ويرتب شؤونه كلها -الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والروحية، والتربوية -لتهيئة هذا الأمر في أيسر صورة، ولا يقيم حاجزًا واحدًا أمام تنفيذه، ولا يجعل شيئًا من الأشياء يحول دونه، إلا في الظروف القهرية التي تستعصي على الحل، وهنا يستخدم مزيدًا من الضبط:

"وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ"[1].

"يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"[2].

([1]) سورة النور [33].

([2]) أخرجه مسلم.

ومع ذلك يجعل الدولة مكلفة -من بيت المال- بإعانة من تحول ظروفه المالية دون إتمام ذلك الأمر الذي لا ينبغي أن يحول دونه شيء. كما يجعل عدم المغالاة في المهور جزءًا من توجيهاته للمسلمين، ويجعل زخرف الحياة وزينتها أمرًا خفيف الوزن في نفوسهم، فلا تقوم ضخامة المهر أو ضخامة تكاليف التأثيث عقبة في سبيل إتمام الزواج.

وبذلك كله تتيسر المهمة، بعد أن تكون النفوس قد أخذت حظها من التهذيب والضبط والارتفاع. فما إن يبلغ الفتى مرحلة الشباب، وما إن تستكمل الفتاة نضجها النفسي والعاطفي [وهي أسرع نموًا من الشاب في هذا الشأن] حتى تكون الأمور كلها قد تهيأت للتنفيذ..

وما نقول -مع ذلك- إن الفترة التي تنقضي ما بين تفجر الطاقة الجنسية في كيان الفتى والفتاة، وما بين الاستجابة العملية لهذا الدافع، وهي تستغرق سنوات تطول أو تقصر.. ما نقول إنها فترة هينة لينة ميسرة غاية اليسر! ولا إنها خالية من المشقة والجهد والمعاناة..

كلا! ما نقول ذلك وما بنا أن نقوله.

لقد أسلفنا أن الحياة كلها جهد ومشقة، وكبد وكدح.. **ولن تكون غير ذلك**.

فلئن كانت مشقة هذه الفترة هي الصبر على دوافع الجنس حتى يستجاب لها في صورة مشروعة، فإن مشقة الفترة التالية هي ما يترتب على هذه الاستجابة ذاتها من مطالب وتكاليف!

كلا! إنه لا يتم شيء في الأرض بلا مشقة!

ثم إنه -كما قلنا- لا تستقيم الحياة في صورتها الصحية السليمة إلا ببذل الجهد وتحمل المشقة، وإلا ترهلت النفوس وفسدت الأرض!

وإنما الذي نقوله إن الإسلام -وهو يكلف الناس الضبط في هذه الفترة، التي يعمل على تقصيرها لا إطالتها- يضع الضمانات كلها: التشريعية والتنظيمية والتوجيهية، لكي يكون الضبط أمرًا مستطاعًا في حدود الطاقة، ولا يكون أمرًا خارجًا على الطاقة.

فهو إذ يعترف بالدافع الجنسي نظيفًا طاهرًا بادئ ذي بدء يحول دون نشأة الكبت المتعب للأعصاب والنفوس.

وإذ يجعل المدى إلى التنفيذ الفعلي قريبًا وميسرًا يجعل في القلب طمأنينة إلى تحقيقه.

وإذ ينظف المجتمع من الفتنة الهائجة والمثيرات الجنونية لا يجعل هذا الدافع في حالة هياج مستمر مسعور.

وإذ يستنفد جزءًا كبيرًا من الشحنة النفسية والجسدية في تربية الفتى على الرجولة الحقة والفتاة على الأنوثة الحقة يخفف كثيرًا من ضغط هذه الشحنة على الأعصاب.

وإذ يستجيش المشاعر الدينية -وهي مستجاشة بصورة تلقائية- ويربط بين القلب البشري وبين الله برباط الحب والتقوى. فإنه يحبب للإنسان الطاعة، وييسر عليه احتمال المشقة في سبيلها.

وإذ يستنفد جزءًا من الطاقة وجزءًا من الوقت في محاولة تحويل نزعة المثل العليا إلى واقع، وممارستها في عالم الواقع، فإنه يوجد مشغلة فعلية تشغل الإنسان عن دوافع الجنس الملحة، وتصرفه إلى مجالات أخرى بناءة..

وإذ يتكاتف البيت المسلم والشارع المسلم والمدرسة المسلمة والمجتمع المسلم على هذه الأمور كلها، كل في حدود طاقته وفي مجال اختصاصه، فإن الأمر يصبح في النهاية ميسرًا إلى أقرب درجة مستطاعة من اليسر، وتكون المشقة في حدود الطاقة وحدود الاحتمال، فتكون مشقة بناءة هادفة، متمشية مع طبيعة الفطرة، معينة على استكمال بنائها.

وبذلك كله لا يصبح الجنس "مشكلة" في المنهج الرباني. إنما يصبح فقط -ككل شأن آخر- مسألة في حاجة إلى قدر من الجهد لضبطها وتنظيمها، كما ينبغي لكل شيء في حياة الإنسان، الذي يتميز بالضبط والتنظيم الواعي عن سائر ما على الأرض من كائنات!

* * *

إنما يكون الجنس مشكلة حقيقية في الجاهلية!

فالجاهلية بسوء توجيهها وسوء تصريفها -المتعمد أو الذي تنساق إليه بحكم جهلها وانحرافها- هي التي تجعل من هذا الأمر الطبيعي في حياة البشرية مشكلة تستعصي على الحل.

إنها منذ البدء تنشئ الإنسان تنشئة خاطئة منحرفة، تجعل كل الدوافع الفطرية عرضة للانحراف. ومع أنها تبذل الجهد -بطريقة معجبة- في ضبط بعض هذه الدوافع وتهذيبها، فإنها -عمدًا أو جهالة- تترك بعضها الآخر بغير تهذيب ولا ضبط، وفي مقدمتها -في الجاهلية الغربية- شهوة الجنس وشهوة المال وشهوة السيطرة والسلطان [التي تأخذ صورة سيطرة رأس المال] وفي الجاهلية الشرقية شهوة الجنس وشهوة السلطان مع حصر هذه الأخيرة في يد "الحزب" أو "الدولة" أو "الزعيم" المقدس صاحب السلطان!

والجنس -كما هو ظاهر- عامل مشترك في الجاهليتين معًا. وإن كان يأخذ من الوجهة "التنظيمية" صورة خاصة في هذه وتلك.

تلتقي الجاهلية كلها على إهمال القيم الدينية [أو نبذها نبذًا مطلقًا كما في الشرق] وعدم العمل على ضبط الدافع الجنسي ولا تهذيبه، وعلى ملء المجتمع بكل ألوان الإثارة الفاجرة في المسرح والسينما والتليفزيون والإذاعة والصحيفة والمجلة والإعلان والمكتب والمصنع والطريق. ثم تلتقي كلها على تيسير الفاحشة وتهيئة كل الوسائل لها، سواء أتاحت الزواج الصوري في مكاتب الزواج كما تفعل الجاهلية الشرقية، أم تركته "رباطًا مقدسًا" ووضعت في سبيله العراقيل كما تفعل الجاهلية الغربية. والنتيجة النهائية أن تغرق البشرية في الفاحشة وفي سعار الجنس المحموم، وأن تصبح علاقة الجنسين علاقة حيوانية هابطة، تضم جسدين هائجين ولا تعرف إشراقة الروح.

ونحن، في جاهليتنا المعاصرة، بحكم ظروفنا التاريخية في القرنين الأخيرين، والقرن الأخير خاصة، نتبع في موقفنا تجاه المسألة الجنسية جاهلية الغرب في الأغلب، نقول ما تقول، ونفعل ما تفعل، ونحتج بما تحتج به، وإن كان فينا من يتبع جاهلية الشرق ويدعو إليها.

يقول الكاتب الأمريكي "ول ديوارانت" في كتابه "مباهج الفلسفة":

"فحياة المدينة تفضي إلى كل مثبط عن الزواج، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو الجنسي يتم مبكرًا عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادي. فإذا كان قمع الرغبة شيئًا عمليًّا ومعقولًا في ظل النظام الاقتصادي الزراعي، فإنه الآن يبدو أمرًا عسيرًا وغير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين. ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم؛ وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعًا للسخرية؛ ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالًا، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة

من الرجال، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرًا مألوفًا، وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس. لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي، ولم يعد العالم المدني يحكم به"[1].

"ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولًا عنه.. ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية. وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله. وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة. وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان[2]. وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر. غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية، وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين -وهم في حُمَّى الفوضى الصناعية- من حمى الزواج ورعايته للصحة[3].

"ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة. لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر. ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظامًا دوليًّا مجهزًا بأحدث التحسينات، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية. ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها"[4].

"...ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال، ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفًا (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلئ الجيوب بما يكفي للزواج. ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة، فيحتفل الزواج بموت الحب.

---

(1) ص126-127 ج1. ويلاحظ أنه يتخذ نفس الموقف الذي يتخذه التفسير المادي للتاريخ في ربط التمسك بالأخلاق بالمجتمع الزراعي، وربط التخلي عن الأخلاق -في مسائل الجنس خاصة- بالانتقال إلى المجتمع الصناعي! ونحن -بالتالي- نصنع نفس الشيء! ونندد بالتقاليد "البالية! " التي تفرض على المرأة المحافظة على العفة، ونعدها من مخلفات الماضي السخيفة التي ينبغي أن نترفع عنها (!) في المجتمع الصناعي " المتطور" كأنما "التطور" يقتضي حيوانية الإنسان وارتداده عن إنسانيته!!

(2) أي: في منهج جاهلي صنعه الإنسان بنفسه بعيدا عن هدي الله، ورافضًا للاهتداء بهدي الله.

(3) ألف هذا الكتاب سنة 1929، وقد زاد العدد أضعافًا مضاعفة بعد ذلك!

(4) ص127-128 ج1.

"حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية. فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية. وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية[1]. فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها، وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب. ولكن قدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج المنتظر يتخلى عن تردده. إذ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليهما معا في مستواهما الحاضر من المعيشة؟"[2].

وهذا الذي يقوله "ول ديورانت" وصف صادق لما يجري في الجاهلية الغربية، والذي زادت نسبته اتساعًا منذ ألف كتابه هذا سنة 1929! وإن كانت كل المبررات التي يسوقها مبررات جاهلية بحتة، يمكن أن تفسر الواقع ولكن لا يمكن بحال أن تبرره. فليس فيها ضرورة واحدة "حتمية" كما يزعم التفسير المادي [الجاهلي] للتاريخ. إنما هي كلها ضرورات مفتعلة تسير حسب المخطط الشرير لإفساد البشرية.

ونحن نتبعهم في كل ما صنعوه، بل نجري وراءهم لاهثين خشية أن يكون قد فاتنا قدر من انحرافاتهم لم نفعله، فنكون رجعيين ومتأخرين بذلك القدر!

نصعب الزواج بكل وسائل التصعيب، ونطلق وسائل الإثارة بأقصى ما في طاقتنا من جهد. ثم يروح "علماؤنا" و"مفكرونا" و"كتابنا" والمشرفون على وسائل الإعلام منا، يناقشون "مشكلات الشباب"! المشكلات التي صنعناها لهم نحن بأيدينا باتباع مناهج الجاهلية! ثم يبحثون عن الحلول.. وماذا تكون الحلول، وكيف تكون –ما دمنا نسير في ركاب الجاهلية– إلا ما وصلت إليه تلك الجاهلية قبلنا من حلول؟!

لا بد أن نطلق "الحرية" الجنسية للشباب، حتى لا يصيبه "الكبت"، ولا تتبدد طاقته الحيوية في الاضطرابات النفسية والعصبية التي يصنعها الكبت!

نفس القولة التي قالتها الجاهلية هناك.. انسياقًا وراء المخطط الشرير..

([1]) مرة أخرى يأخذ المؤلف –الأمريكي– موقف التفسير المادي للتاريخ، ويربط بين "حرية" التحلل للمرأة وبين استقلالها اقتصاديًّا!

([2]) ص223 ج1.

أما أن نسعى إلى تنظيف الحياة "الإنسانية" من الهبوط الحيواني المزري الذي تعيش فيه، وتنظيف وسائل الإعلام من القذر المنتن الذي تخلطه الجاهلية "بالفن"، وتناول الجنس بصورته الفطرية السوية التي تجمع شحنة الجسد وشحنة الروح في كيان واحد، وتيسير الزواج في سنه الطبيعية بدلًا من تيسير الفاحشة في تلك السن.. أما هذا كله فلا نصنعه ولا نفكر فيه.. يا لله! أنكون رجعيين إلى حد النظافة؟!! نظافة الحس والشعور والسلوك والتفكير؟!! ويقول العالم عنا إننا متأخرون، نفكر بنظافة الدين، في وسط القذارة الشاملة التي تنشئها الحضارة الجاهلية في القرن العشرين؟!!

كل شيء إلا هذه التهمة الشنيعة التي لا يطيقها على نفسه إلا رجعي متطهر يريد أن يخالف فطرة الحيوان!

"وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ"[1].

وكذلك صارت سخرية المساخر في الجاهليات القديمة هي الشعار الذي ترفعه الجاهلية الحديثة بلا تحرج ولا تأثم ولا خجل ولا مداراة..

ومتى كان الخجل من صفات الحيوان؟!

* * *

والذين يريدون التربية الإسلامية في هذا المجتمع الجاهلي يدفعون الضريبة مضاعفة!

إنهم يجدون الطريق مسدودًا أمامهم لتنفيذ المنهج الرباني، في الوقت الذي تلاحقهم الجاهلية بكل وسائل الإثارة المحمومة في الشارع وفي المجتمع على اتساعه، وتضغط على حسهم وأعصابهم بصورة لا يصمد لها إلا أولو العزم من البشر وهم دائمًا قلة. بينما "التيسيرات" التي تتيحها الجاهلية لأبنائها هي تيسيرات مرفوضة في حسهم أصلًا، لأنها تيسيرات دنسة هابطة لا يرضى عنها الله ورسوله، ولا تليق بـ"الإنسان" الذي كرمه الله.

والذين يريدون الله ورسوله، ويريدون أن يطبقوا المنهج الرباني في الأرض وفي ذوات أنفسهم، لأن هذا هو مقتضى إسلامهم، ولا يكون لإسلامهم بدونه معنى.. هؤلاء لا يمكن أن يستبيحوا لأنفسهم الفاحشة استجابة لضغط الجاهلية، لأنهم إذن يعلنون انتصار الجاهلية في ذوات أنفسهم على العقيدة، وانتصار الباطل على الحق، وانتصار الشيطان على الإيمان.

(1) سورة الأعراف [82].

وإن حياتهم لتصبح قطعة من العذاب.. والجاهلية تؤزهم أزًّا ثم تسد أمامهم كل طريق نظيف، ولا تفتح أمامهم إلا الطريق الواحد الذي حرمه الله ورسوله.

وهذه المشقة البالغة التي يجدونها في حياتهم هي المقصودة بالذات في المخطط الشرير لإفساد البشرية، حتى لا يفلت الناس من الضغوط الهائلة التي تدفعهم إلى الجريمة, ولا يجدوا طريق النظافة ميسرًا حتى لا يبطل مفعول المخطط الشرير..

وفي لمحة من لمحات الوحي قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر"[1].

وإنه لهو هذا الزمان الذي نعيش فيه..

ولا حيلة مع ذلك ولا خيار..

إنه إما الصبر على هذا الجحيم الأرضي الذي تصنعه الشياطين في الأرض، وإما إعلان الهزيمة وانتصار الشيطان!

وليعلم كل مسلم يريد أن يطبق منهج الله في الأرض وفي ذات نفسه أن معركته مع الجاهلية في هذا الشأن ليست معركة "أخلاقية"، وإنما هي معركة عقيدة.

الجاهلية تريد أن تفتنه عن عقيدته ذاتها. تريد أن تقول له - بلسانها أو بفعلها سواء- إن ما أنزله الله وأمر به إنما هو أمور "مثالية" غير قابلة للتطبيق! وإن "التطور" -الذي هو قوة "حتمية"! - يجعل من المستحيل تطبيق المنهج الرباني الذي أمر الله بتطبيقه! كأنما كان الله - سبحانه وتعالى عما تقوله الجاهلية علوًّا كبيرًا- يجهل وهو ينزل منهجه ويأمر باتباعه إلى آخر الزمان، أنه سيأتي تطور "حتمي! " يمنع تطبيق منهجه، ويجعل أوامره -سبحانه- غير ذات موضوع!

إنها معركة عقيدة.. إما أن يخوضها المسلم بروح الجهاد في سبيل الله وسبيل العقيدة، وإما انتصار الجاهلية في ذات نفسه وانتصار الشيطان.

وإنها لمعركة عنيفة وشاقة ومرهقة ما في ذلك شك.. ولكن جزاءها كذلك هائل وضخم.. إنه الجنة:

([1]) أخرجه الترمذي.

"فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[1].

وفي سبيل هذا الجزاء الضخم يخوض المسلم معركته مع الجاهلية، ويستمد من الله العون للانتصار فيها على ذات نفسه وعلى كيد الشيطان..

ولن يناله "الكبت" الذي يخوفونه منه!

إن الكبت ينشأ أصلًا من استقذار الدافع الفطري. والإسلام لا يستقذر دوافع الفطرة، إنما يستقذر الهبوط بها إلى مستوى الحيوان، بغير ضوابط الحيوان الفطرية التي تقف به دون حد الهلاك. لذلك يقول القرآن عن أولئك الهابطين:

"أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ"[2].

كالأنعام في ظاهر السلوك. ولكنهم أضل في الحقيقة. فالحيوان يتبع فطرته كما خلقها الله، والإنسان الهابط يخالف الفطرة السوية، ثم لا يجد ما يقف به دون حد الهلاك!

والتربية الإسلامية تشد الإنسان من خيط الرفعة، ولا تترك ثقلة الدوافع تجذبه إلى أسفل فيكون أضل من الحيوان..

ولا تكبت دوافعه مع ذلك وإنما تهذبها وتضبطها..

وفي المجتمع المسلم تكون المسألة ميسرة برغم ما فيها من جهد؛ لأنه الجهد الواقع في حدود الطاقة، والضروري في ذات الوقت لمنع الفطرة من الترحل والتفكك والانحلال.

أما في المجتمع الجاهلي، وبصورته التي هو عليها في جاهلية القرن العشرين خاصة، فالأمر غاية في المشقة، ومجهد أشد الجهد.. ولكنه مع ذلك غير داخل في دائرة الكبت. لأنه لا صلة له باستقذار الدافع الجنسي الفطري، الذي خلقه الله ليعمل، لا ليكبت ولا ليستقذر.. ولكنه رسم له حدودًا مشروعة، علم الخالق الحكيم أنها هي المأمونة التي لا تؤدي إلى الدمار للفرد أو المجتمع سواء.

([1]) سورة السجدة [17].

([2]) سورة الأعراف [179].

وحين يتعرض الإنسان في معركة من أجل العقيدة إلى ألوان من الحرمان: الحرمان من المال أو المكانة أو الأمن أو السلامة، وقد يصل الأمر به إلى الحرمان من الحياة.. فإن حرمانه من حقه الرباني المشروع من الجنس لا يزيد على أن يكون أحد ألوان الحرمان التي يتعرض لها في معركة العقيدة..

والحرمان كله مشقة وجهد. والحرمان من الجنس مشقة كذلك وجهد. ولكنه يبذلهما في سبيل الله، ويتلقى عليهما الجزاء من الله، ويقضي حياته بما فيها من جهد زائد عن الحد، عالما بأن الجاهلية هي التي تجهده وتشقيه ببعدها عن منهج الله، وراضيًا بدوره في معركة العقيدة، أنه مضمون الجزاء عند الله، وأنه هو السبيل الذي لا سبيل غيره لتغيير الواقع السيئ الذي تعيشه الجاهلية:

"إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"[1].

* * *

وسبيل المربي إلى صيانة فتاه وفتاته عن أقذار الجاهلية الدنسة لن يكون سبيلًا بحال من الأحوال..

فدفعة الجنس الفوارة لها ضغطها على الأعصاب..

وبعد الأمل في الزواج القريب له ضغطه على الأعصاب..

والمثيرات المجنونة في الشارع والمجتمع والصحافة والسينما والمسرح والإذاعة والتلفزيون والكتاب لها ضغطها على الأعصاب..

والمغريات الميسرة لها ضغطها على الأعصاب..

والقدوة السيئة في المجتمع كله، صغيره وكبيره، لها ضغطها على الأعصاب..

ولا حيلة للمربي في ذلك كله؛ لأنه لا يستطيع أن يغير شيئًا منه. إنما حيلته الوحيدة أن يقوي الجسور في البنيان النفسي لفتاه وفتاته لكي تقاوم الفيضان!

([1]) سورة الرعد [11].

وسيلته هي تعميق الإحساس بالله في نفس الشخص الذي يربيه -فتى كان أو فتاة- وأن يحاول أن يجعل حب الله ورسوله أثقل في قلبه من ضغط المجتمع كله، وطاعة الله ورسوله أحب إليه من طاعة المجتمع كله.

ووسيلته أن يكون "صديقًا" لمن يربيه، وأن يجعل الصلة التي تربطه بالبيت أقوى وأثقل من الصلة التي تربطه بالمجتمع، وأن تكون صلة المودة بين الولد وأبيه، وبين الفتاة وأمها كافية "للمكاشفة" التي يمكن عن طريقها تصفية الضغط الزائد عن الحد، والتوجيه إلى اجتناب ما تغرق فيه الجاهلية الدنسة من الأوزار.

ووسيلته هي شغل الوقت في الطاعات والعبادات، والدراسات النافعة الشاغلة عن تفاهات الجاهلية وقذاراتها، واستنفاد الطاقة فيما يقوي الجسد على احتمال الجهد, ويقوي الروح على مقاومة الغواية.

ووسيلته هي الغسيل اليومي الدائم لأدران المجتمع الجاهلي قبل أن تلصق بالنفس.

وبعد ذلك فقد يثمر هذا الجهد كله ثمرته المطلوبة.. وقد يقصر...

وفي كلا الحالين لا خيار..

إنه لا بد من بذل الجهد.. والثمرة من عند الله!

* * *

ومن "مخاطر" تلك الفترة كذلك القابلية الشديدة للاستهواء..

ففي هذا السن يكون الفتى والفتاة قابلين للاستهواء بسهولة، لمن هم في سنهم، ولمن هم أكبر منهم، ولمن هم أشخاص خياليون في القصص والمسرحيات، ولمن هم أشخاص حقيقيون في التاريخ.

وهذه ليست "مشكلة" في الإسلام. ولكنها على وجه التأكيد مشكلة في الجاهلية.

فمنهج التربية الإسلامية يستغل هذه القابلية الطبيعية للاستهواء في هذه المرحلة، ليجذب منها الفتى والفتاة إلى خط الصعود وإلى الفضيلة وإلى القيم العليا والمبادئ الإنسانية الرفيعة.

إن الله هو الذي خلق الطاقات والاستعدادات في النفس، وخلقها لتؤدي مهمة معينة في التكوين النفسي للإنسان. وحين يكون منهج الله هو الذي يطبق في الأرض، يكون كل شيء في موضعه في داخل النفس وفي واقع الحياة. ولا تكون الطاقات والاستعدادات مصدر خطر على الكيان البشري، إنما تكون قوة بانية مفيدة.

وحقيقية إن الكيان البشري -في صورته الطبيعية- قابل لأن يطرأ عليه المرض كقابليته للصحة والاستقامة:

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"[1].

ولكن التربية الإسلامية على منهج الله هي التي تعين الإنسان على تزكية نفسه، أي: تقويمها على الفطرة السليمة.

وهذا الاستعداد الشديد للاستهواء في تلك المرحلة من العمر لم يخلقه الله عبثًا. ولم يخلقه ليكون "مشكلة" للإنسان، ولا ليكون -في ذاته- مصدر خطر عليه. ولكنه -ككل ما أودع الله في الفطرة من الطاقات والاستعدادات- يؤدي مهمته في البناء السليم للنفس حين يوجه التوجيه الصالح، على هدى المنهج الرباني؛ ويكون خطرًا عظيمًا مدمرًا حين يوجه التوجيه السيئ على هدى المناهج الجاهلية.

وهذه مسألة هامة ينبغي التنويه عنها. فإن مناهج الجاهلية في التربية وعلم النفس كثيرًا ما تشير إلى استعداد معين أو طاقة معينة في الكيان البشري على أنها -في ذاتها- خطرة، أو أنها -في ذاتها- مشكلة. وهذا ليس صحيحًا على الإطلاق. والمسلم -مربيًّا كان أو دارسًا- ينبغي أن يستمد حقائق حياته من كتاب الله وسنة رسوله، لا من أي مصدر من تلك المصادر الجاهلية التي تغير الحقائق جهلًا أو عمدًا لغاية خبيثة. والمصادر الربانية تقول إن الله بالناس رؤوف رحيم، وإنه لم يخلقهم ليعنتهم، ولا ليكلفهم فوق طاقتهم ولا ما يخالف فطرتهم، وإن ما وهب الله لهم من مواهب -سواء في صورة طاقات واستعدادات نفسية، أو طاقات كونية مذخورة في الكون- إنما وهبها لهم لخيرهم ولصالحهم، لا ليشقيهم بها ويشيع في نفوسهم الاضطراب والحيرة، بشرط أن يتبعوا منهج الله في كل شؤون حياتهم صغيرها وكبيرها على السواء.

([1]) سورة الشمس [7-10].

ومرة أخرى نقول إنه ليس معنى ذلك أن الحياة في ظل المنهج الرباني ستكون خالية من الجهد والكدح. كلا! لن تكون كذلك. لأن الإنسان خلق ليكدح في الأرض. ثم إن حياته لو خلت من الكدح والجهد فإنها تفسد وتترهل، وتصبح مصدر تعب وشقاء لا مصدر راحة ولا سعادة!

إنما معناه أن الجهد سيكون -من ناحية- في حدود الطاقة، ومن ناحية أخرى ستكون نتيجته ثمرة جنية طيبة لا ثمرة نكدة خبيثة كالتي يثمرها الجهد في الجاهلية.

وهذه القابلية الشديدة للاستهواء في هذه السن، هي واحدة من الاستعدادات البشرية الفطرية، لا خطر فيها -في ذاتها- إنما ينشأ الخطر عنها -في الجاهلية- لأنها تعرض الفتى والفتاة للانحرافات الحادة حين يكون الاستهواء متجهًا إلى النماذج السيئة من البشرية، سواء كان السوء خلقيًّا بالمعنى المتعارف عليه، أو إنسانيًّا بصفة عامة.

فالفتى يتعرض في تلك المرحلة -في الجاهلية- لأن تستهويه نماذج العصابات الشريرة: عصابات السرقة والقتل وقطع الطريق والسطو والجريمة عامة.. وتستهويه كذلك نماذج السلوك الجنسي الفاسد، سواء منه الشاذ والطبيعي.

وحقيقية إنه قد لا ينخرط في سلك هذه العصابات في سنه تلك وإنما في سن أكبر [وإن كانت الجاهلية الحديثة أو المخطط الشرير لإفساد البشرية قد وصل إلى إغراء الفتيان حتى في السن المبكرة بالانخراط في الفساد] ولكنه حتى إن لم يشترك الآن في هذه العصابات ونشاطها المنحرف فإنه يتهيأ لذلك نفسيًّا -بالإعجاب- حتى إذا جاءت السن التي يجسر فيها على المخاطرة انخرط في الفساد بالفعل. وغالبًا ما يكون مصادقًا لتلك العصابات أو متفرجًا عليها من قرب، يتشرب روحها، ويتعلم أساليبها، ويتدرب عليها سرًّا، حتى إذا آنس في نفسه القدرة أخذ في المغامرة حتى يصبح واحدًا من أفراد العصابة، يشارك في نشاطها المخرب، ويفاخر بذلك أمام أقرانه.

أما الفتاة فهي عرضة للانحراف الخلقي -الجنسي- بصفة خاصة، وإن كانت الجاهلية الحديثة -أو المخطط الشرير لإفساد البشرية- قد أشركتها كذلك في عصابات السرقة والقتل والسطو والتخريب.

وتجيء السينما والتلفزيون فيخدمان كل الأهداف الشريرة لذلك المخطط الشرير، فتصور الجريمة -سواء جريمة الجنس أو جرائم السرقة والسطو وقطع الطريق.. إلخ- تصويرًا مغريًا في صورة "بطولات" فتزيد الفتنة اشتعالًا بالنسبة للفتى والفتاة، وتهيئهما للجريمة، إما في

سنهما الباكرة تلك، وإما في المرحلة التالية مباشرة، حيث تكون بذرة الشر قد تعمقت في النفس في انتظار الفرصة المواتية..

ومن هنا تصبح القابلية للاستهواء خطرًا عظيمًا في الجاهلية. لا لأنها خطرة في ذاتها، ولكن لأن التوجيه الجاهلي المدمر هو الذي يسمها بسمة الخطورة ويوجهها وجهة الشر.

أما في ظل المنهج الرباني، وفي المجتمع المسلم الذي يطبق المنهج الرباني، فإن هذه القابلية الشديدة للاستهواء تكون عونًا هائلًا للمربي، يستخدمها في تقويم النفس التي يربيها، وبنائها البناء الصحيح. فإنما هي طاقة تصلح للتوجيه للخير كقابليتها للتوجيه للشر. وحيث توجهها الجاهلية إلى الجريمة والانحراف، فإن المنهج الرباني يوجهها إلى البطولات الحقيقية ذات المستويات الرفيعة في كل اتجاه، فتنجذب إليها وتعجب بها وتسعى إلى محاكاتها فيكون الخير في كل حال، سواء وصل الفتى والفتاة إلى تلك المستويات الرفيعة بالفعل، أو وقفت المحاولة عند حد معين، هو -على أي حال- خير من عدم المحاولة، وخير من قدوة السوء!

ولكن "المشكلة" ستظل قائمة بالنسبة للمربي المسلم الذي يربي فتاه أو فتاته في ظل الأوضاع الجاهلية! فنزعة الاستهواء القائمة في نفسيهما عرضة لأن تلتقط شيئًا من الشر الذي يغمر المجتمع الجاهلي ويلون كل تصرفاته. ويحتاج الأمر إلى جهد زائد يبذل في تحويل هذه النفوس الصغيرة الغضة عن الشر، وجذبها إلى الخير، الذي لا يرون نماذج حقيقية له فيما حولهما من المجتمع، إنما يرونه -على الأكثر- في البيت المسلم الذي يتربون فيه، ثم في نماذج المجتمع المسلم التاريخي الذي يسمعون عنه ولا يرونه بالفعل؛ وفيما يدعو إليه كتاب الله وسنة رسوله. كما يحتاج الأمر إلى الغسيل اليومي الدائم لإزالة أدران الجاهلية قبل أن تلصق في النفوس، وإلى الاجتهاد في اختيار الأصدقاء من أنظف النماذج المتيسرة في هذا المجتمع الجاهلي وأقربها إلى الاستقامة. وكذلك في اختيار الصحيفة والمجلة والكتاب وإن كان هذا مهمة عسيرة، فالفساد سار فيها كلها على السواء! أما السينما والتلفزيون فينبغي على المربي المسلم أن يبذر في فتاه وفتاته كل استنكاف من قذاراتهما وكل ترفع على ما فيهما من فساد، حتى ينفرا منهما تلقائيًّا دون حجر. فالحجر بغير اقتناع بأسبابه لا يؤدي وظيفته التربوية المطلوبة..

وهو جهد لا بد أن يبذل على كل حال.. والله هو الذي يعطي الثمرة في كل حال!

* * *

وأخيرًا فإن من "مشكلات" تلك الفترة فيما تقول الجاهلية مسألة الصراع بين الأجيال: بين جيل الآباء وجيل الأبناء، والشقاق الذي ينشب بينهما، ويجعل الفتى والفتاة ينظران إلى أبويهما نظرتهما إلى جيل "متخلف" غير واع وغير مدرك "للتطور" الذي وصلت إليه الأمور في المجتمع الجديد، ومن هنا لا يقتنعان بتوجيهاتهما وأوامرهما ولا ينفذانها.. ثم يقوم الصراع من الجانبين.

وعلى الرغم من كون هذه "المشكلة" تنبت بذورها في المرحلة التي نحن بصددها الآن، فإننا نؤثر أن نؤجل الحديث عنها إلى الفصل القادم حين نتحدث عن مرحلة الشباب المتجه إلى النضوج. فالمشكلة أظهر هناك وأوضح، وشكوى الآباء فيها أشد، إذ تصل إلى حد التمرد الكامل على أوامر الوالدين.

وسنرى هنالك -كما رأينا هنا، وكما رأينا من قبل- أن الجاهلية هي التي تنشئ المشكلة ثم تروح تبحث لها -أو تتظاهر بالبحث- عن حلول! بينما هي في الإسلام أمر يجري على الفطرة بلا مشاكل ولا أخطار!

من الشباب الباكر إلى النضج

هذه مرحلة من أخصب مراحل العمر، ومن أجملها عند الإنسان حين تصبح ذكرى فيما بعد!

ولئن كانت مرحلة النضج التي تلي ذلك هي أهم مراحل العمر من الناحية العملية، إذ هي مرحلة الإنتاج من ناحية، ومرحلة استواء الشخصية على صورتها المتكاملة من ناحية أخرى، إلا أن مرحلة الشباب الباكر حتى النضج هي أكثر فترات العمر حيوية ونشاطًا وتدفقًا وتطلعًا وحركة..

إنها مرحلة نمو واع، وتطلع إلى الزيادة في كل اتجاه.

نمو جسدي ظاهر وتطلع إلى مزيد..

ونمو عقلي ظاهر وتطلع إلى مزيد..

ونمو نفسي.. ونمو عاطفي.. ونمو روحي..

نمو في الخبرة ونمو في القدرة ونمو في المعرفة ونمو في المواهب والاستعدادات ...

نمو في كل اتجاه.. وتطلع دائم إلى المزيد..

هي فترة العواطف المتدفقة من كل نوع. وفترة التحصيل العلمي والقراءة والاطلاع. وفترة النشاط الجثماني الموار. وفترة التعلق بالمثل والمثاليات. وفترة التفكير في مشاكل المجتمع ومشاكل السياسة ومشاكل البشرية!

وهي فترة الرغبة الدافعة في الإصلاح والعمل المتحمس للتغيير، ومن هذا فهي فترة الانتماء إلى "الجماعات" و"الجمعيات" و"الأحزاب" و"التكتلات"، سواء كانت هذه كلها مما يستحق أو لا يستحق، فالرغبة في "الانتماء" والرغبة في الإصلاح والتغيير، كثيرًا ما تكون أكبر عند الشباب من القدرة على التمييز والقدرة على التمحيص.. وكثيرًا ما يكون البريق الخاطف أكثر لفتًا للشباب في هذه المرحلة من الجوهر والمضمون.. ولكنه –حين ينتمي– فهو ينتمي بكل إخلاصه وكل مثاليته وكل جهده وكل حيويته، وكل رغبته الحقيقية العميقة في الإصلاح والتغيير..

فترة خصبة لا تتكرر في حياة الإنسان.

والحق أنه لا توجد مرحلة تتكرر! فالطفولة لا تتكرر، والمراهقة لا تتكرر، كما أن هذه المرحلة أيضًا لا تتكرر. ولكن الإنسان حين يدلف إلى الشيخوخة ويعاوده الحنين إلى ما مر من سنوات العمر. فقليلًا ما يفكر في مرحلة الطفولة أو المراهقة أو يتمنى العودة إليها، ولكنه دائمًا يحن إلى مرحلة الشباب. ذلك أنها تتميز بالحيوية والوعي في آن واحد. ولئن كان الوعي يظل مع الإنسان بعد ذلك. بل يزيد ويتركز، ويصبح هو أهم ما يملكه الإنسان مع الخبرة المتزايدة، إلا أن الحيوية هي التي تظل تتضاءل حتى تخفت. ومن هنا يتمنى الشيخ –الذي يملك الوعي– أن يسترد ما فقده من حيوية الشباب!

*　*　*

ولئن كانت مرحلة الطفولة مرحلة نمو وتغير دائم لا يتوقف، حتى إن اليوم الواحد قد يضيف مزيدًا من النمو في بعض الأحيان، سواء في مرحلة المشي أو مرحلة النطق أو مرحلة التقاط الخبرات وظهور الاستعدادات..

ولئن كانت مرحلة المراهقة مرحلة تفجر جسدي وروحي مع النمو العقلي المتزايد..

فإن مرحلة الشباب الباكر الممتدة حتى النضج هي مرحلة نمو من نوع متميز..

ليس فيها التغير السريع الذي يميز مرحلة الطفولة، ولا التفجر المتقلب الذي يصحب مرحلة المراهقة، إنما فيها النمو المفضي إلى النضج وهو لون خاص غير اللونين السابقين..

أرأيت إلى الثمرة كادت تنضج؟! إن فيها كل ملامح الثمرة الناضجة أو معظمها، ولكنها لم تنضج بعد. وهي تتغير –إذا لاحظتها– يومًا بعد يوم، ولكنها تتغير وهي –تقريبًا– على صورتها! وإن التغير الذي يحدث فيها لعظيم الأهمية ولا شك، لأنه هو الذي يؤهلها لأن تصبح ثمرة ناضجة نافعة مرغوبة ومطلوبة. ولكنه لا يكاد يغير شيئًا من ملامحها الأصيلة، إنما يركز كل شيء فيها حتى تصبح في النهاية مكتملة النمو..

وهذه المرحلة في حياة الإنسان أقرب شيء إلى ذلك. إن ملامح الشخصية قد بدأت تبرز. وهناك تغير مستمر يطرأ عليها لا يتوقف. ولكنه لا يغير الملامح الرئيسية بقدر ما يركزها ويزيدها بروزًا، حتى تصل إلى صورتها المتكاملة. إنه لا يضيف عناصر جديدة بقدر ما يقوي ويركز ويصقل العناصر الموجودة بالفعل. وهذا هو الذي يميزها أساسًا عن المرحلتين السابقتين. فالتغير في مرحلة الطفولة هو تغير إضافة مستمرة. إضافة عناصر جديدة لم تكن

موجودة من قبل [أي كانت كامنة لم تظهر بعد، كما تكون الزهرة كامنة في كِمِّها لا تراها العيون] والتغير في مرحلة المراهقة هو تغير إضافة كذلك. ففي الجسم تنمو أعضاء كانت ساكنة من قبل وتؤدي وظائف جديدة لم تكن تؤدى من قبل, وفي النفس تتفجر مشاعر وعواطف من نوع جديد لم يكن موجودًا من قبل، واهتمامات جديدة مفاجئة. ولكن الذي يفرقها عن مرحلة الطفولة أن الإضافات هنا حادة ومتفجرة. وفي الطفولة كانت تدريجية وبطيئة.

أما مرحلة الشباب الباكر التي تؤدي إلى النضخ، فهي مع حيويتها الفائقة وخصوبتها، فإن الإضافة الهامة فيها هي الإضافة التي توسع وتعمق ما هو موجود بالفعل من الناحية الجسدية والعقلية والنفسية والروحية، أكثر مما هي إضافة عناصر جديدة لم تكن موجودة من قبل.

وليس معنى هذا أنه لا تضاف عناصر جديدة إلى الشخصية! كلا! فهناك إضافات هامة وخطيرة وحيوية. بل معناه فقط أن الصورة الحقيقية للإضافة ليست كما يراها الشاب من زاوية رصده الخاصة حين ينظر إلى نفسه، فيظن أن كل شيء فيه قد تغير، وأنه يفتح كل يوم آفاقًا جديدة ويكتشف من نفسه جديدًا كل يوم!

إنما السبب في هذه الرؤية التي يراها الشاب في نفسه أن الآن قد دخل في مرحلة الوعي. فهو يعي أحاسيسه وأفكاره، ويعي التغيرات التي تطرأ على نفسه وفكره وجسمه وروحه، فيخيل إليه أنها جديدة جدة كاملة، وأنها قد نبتت في كيانه فجأة بغير جذور سابقة!

أما الذي يرقب الأحوال من الخارج فإن له رؤية أخرى!

صحيح أنه جدّت -وتجدّ- أشياء جديدة لم يكن لها وجود واضح من قبل، ولكن معظم التغير الحادث هو في الحقيقة إضافة على الخطوط الموجودة بالفعل، والتي لم يكن الشاب على وعي كامل بها من قبل، لأنه -في المراهقة- يعيش فترة حالمة، تحلم أكثر مما تتجه إلى الإدراك والوعي.

ففي المراهقة تبدأ فورة الجسد. وفي الشباب الباكر تتركز هذه الفورة وتزداد قوة، سواء في طول القامة، أو نمو الأعضاء، أو قيامها بوظائفها.

وفي المراهقة كذلك تبدأ فورة النفس والمشاعر، وفورة الأحلام والتطلعات، وفورة القيم والمبادئ. وفي الشباب الباكر تتركز هذه الفورة وتزداد قوة. فالمشاعر متحمسة, والعواطف

جياشة. والأحلام والتطلعات أقوى ولكنها أكثر واقعية من خيالات المراهقة الحالمة، لأنها تتطلع إلى حلول عملية [سواء كانت هذه الحلول ممكنة التطبيق حقيقة أو متعذرة أو حتى مستحيلة! إنما المهم أن طريقة تناولها والتفكير فيها طريقة عملية وليست مجرد خيالات حالمة على طريقة المراهقة] أما القيم والمبادئ فهي اليوم أكثر اتساعًا وأكثر وعيًا وأكثر جدية، في حين كانت في فترة المراهقة قيمًا ساذجة ومبادئ محصورة النطاق.

وفي المراهقة بدأت المواهب والاستعدادات تظهر, ولكنها الآن أكثر بروزًا وأوضح.

وهكذا يمكن أن نقول في جميع الاتجاهات.. فيها إضافة، وإضافة حيوية، ولكنها إضافة التعميق والتحسين فيما هو موجود بالفعل، أكثر مما هي إضافة جديد لم تكن له جذور من قبل.

* * *

وإذا كانت هذه رؤية عامة لهذه المرحلة من العمر، فإنه يجب أن نفرق تفريقًا واضحًا بين البنين والبنات فيها، لأن الواقع الفطري هو الذي ينشئ تلك التفرقة، ولو كرهتها الجاهلية المعاصرة وحاولت أن تغفلها أو حتى تتبجح بإنكارها، أو تعمل على إزالتها.

إن المشهود الذي يقرره علم وظائف الأعضاء، وكانت أجيال البشرية السابقة تعرفه وتقره وتتعامل على أساسه حتى جاءت الجاهلية المعاصرة فحاولت أن تنفيه أو تنفي آثاره، هو أن البنات أسرع نضجًا من البنين في هذه المرحلة بشكل واضح. فإذا كانت مرحلة البلوغ متساوية -تقريبًا- عند البنين والبنات فيما بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة في الغالب[1]، فإن النمو بعد ذلك لا يأخذ طريقًا متساويًا عند البنين والبنات، فبينما تسرع الفتاة فتأخذ تمام نضجها الجسدي ابتداء من السادسة عشرة أو السابعة عشرة، يتأخر الفتى فلا يصل إلى مثل هذا المستوى من النضج قبل العشرين أو الحادية والعشرين.

وبينما يكون الشبان -على الرغم من المسحة العاطفية التي تشمل الجنسين في تلك الفترة- أكثر اهتمامًا بالمسائل العامة، سياسية واجتماعية وبشرية، وأكثر ميلًا إلى التفكير الفلسفي والعقلي، وأكثر اهتمامًا بتغيير الواقع وإصلاحه، تكون الفتيات أكثر انشغالًا بأمور ذات صبغة خاصة أو عائلية، وأكثر انسياقًا مع الأمور العاطفية، وأكثر إحساسًا بنتائج

([1]) في حالات نادرة يحدث البلوغ قبل ذلك -في الثانية عشرة- والبنات أكثر من البنين في ذلك، وفي أحوال أخرى يتأخر عن الرابعة عشرة والبنات أقل من البنين في ذلك!

التغير الجسدي الذي يصل سريعًا إلى مرحلة النضج, فتكون أكثر انشغالًا بهندامها وزينتها, وأكثر تفكيرًا في الزوج المرتقب أو الخطيب، وأكثر استعدادًا لبدء الحياة البيتية التي تحلم بها، التي يكون لها فيها كيان مستقل وزوج وأولاد..

والجاهلية المعاصرة تكره أن تقر بهذا الواقع، لأن لها مخططات لا يناسبها الإقرار به ومسايرته. ومن ثم فهي إما أن تتجاهله وإما أن تنفيه أو تحاول العمل على تغييره.

ومن بين وسائل التغيير التي تحاولها توحيد برامج الدراسة وتوحيد مراحلها وسنواتها كذلك.

فتوحيد برامج الدراسة تحاول به هذه الجاهلية أن تبث "الاسترجال" في عقل المرأة على خط مضاد لخط أنوثتها المتميزة، إذ إنها برامج رجالية في الأصل، فصّلت على قد الرجل وقصد بها إعانته على أداء وظائفه، والمرأة تدفع إليها دفعًا سواء كانت مناسبة أو غير مناسبة لطبيعتها. وتوحيد سنوات الدراسة ومراحلها تهدف به إلى تأخير سن التخرج بالنسبة للفتاة. وبالتالي تأخير سن الزواج عن اللحظة التي يكتمل نموها الجسدي وتكون كاملة الخصوبة وكاملة الاستعداد.

ويبرر هذا بمبررات ظاهرية كثيرة ومتنوعة.

فتارة يقال إن العلم قد أثبت أن البنت والولد متساويان في نسبة الذكاء. وتارة يقال إن التجربة أثبتت أن البنت أكثر تفوقًا من الولد في مواده الرجالية الأصيلة. وتارة يقال إن الزواج الباكر للبنت هو "وأد" لمواهبها وحرمان للمجتمع من نشاطها! وتارة يقال إن الزواج فنّ يحتاج إلى "خبرة".. وإن الفتاة ينبغي أن تحصل على هذه الخبرة من تجاربها الاجتماعية -والعاطفية كذلك! - لكي تصبح زوجة "صالحة! ". وتارة يقال إن الزواج له تكاليف، وإن المرأة ينبغي أن تسهم في التكاليف بأن تكون عاملة متكسبة، ولن تعمل وتتكسب حتى تتخطى كل مراحل الدراسة وسنواتها الطوال.

ومن بين وسائل التغيير كذلك محاولة شغل بعض النساء والفتيات بالأمور العامة -ولو تظاهرًا- حتى لا يقال إن المرأة -والفتاة في هذه السن خاصة- تكون مشغولة بكيانها الخاص أكثر من أي شيء آخر.

ومن بينها كذلك نزع الحياء الفطري الذي هو من سمات الأنثى عامة، ومن سمات هذه الفترة بصفة خاصة[1]، وذلك بتعرية الجسد حتى يفقد حياءه، وتشجيع الحديث في مسائل الجنس –فضلًا عن الممارسة بطبيعة الحال– لأن الحديث المكشوف في مسائل الجنس أشد قتلًا للحياء من الممارسة الفعلية التي يمكن أن تتم في خفاء عن العيون [وإن كانت الجاهلية المعاصرة تمارس الجنس في غير خفاء إمعانًا في قتل الحياء!].

ومن بينها كذلك توحيد نوع التعامل مع الذكر والأنثى في كل شيء: في الدراسة – والجامعية منها بصفة خاصة– وفي الوظيفة، وفي المركبة العامة، وفي لوائح الدولة، وفي المحظور وفي المباح.. وفي كل شيء على الإطلاق.. حتى تنسى المرأة أنها أنثى، وتتحول إلى مسخ لا سمة له ولا كيان!

ولكن الفطرة أعمق وأصدق وأعصى من كل هذه المحاولات!

يقول الدكتور "ألكسيس كاريل" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول":

"إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص بالأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم، إذ إنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك. إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض.. ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن المرأة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليمًا واحدًا، وأن يمنحها سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة.. والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافًا كبيرًا عن الرجل. **فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها**. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي. فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للانثناء، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي, فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي. فعلى النساء

([1]) هناك قصة عجيبة حدثت في النصف الأول من هذا القرن وشغلت العلماء والصحافة فترة طويلة – وإن كانت الآن تكاد تكون منسية تمامًا– مؤداها أن بنتًا ولدتها أمها في الغابة وتركتها هناك (تخلصًا منها في الغالب) فتبنتها غزالة فأرضعتها، ونشأت بين الغزلان حتى صارت مثلهم تمشي على أربع، وتجري بسرعة هائلة، حتى وقعت في قبضة مجموعة من البشر، فأجريت عليها مجموعة من الدراسات العلمية، وتعهدها العلماء حتى صارت تمشي مرفوعة القامة وتعلمت الكلام، وصارت تدريجيًّا تتعلم أحوال البشر. وموضع العبرة في القصة أن الفتاة حين بلغت عمرًا نفسيًّا معينًا أحست تلقائيًّا بالخجل الجنسي الذي لم تكن تحسه من قبل!

أن ينمين أهليتهن تبعًا لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذكور. فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال، فيجب عليهم ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة" (ص114 من الترجمة العربية).

"إن دور الرجل في التناسل قصير الأمد. أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر. وفي خلال هذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيماوية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص. وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته، فإنها تسلم مواد معينة تفرزها أعضاء الجنين. وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطرة. فحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريبًا من الأب كما ينشأ من الأم، وأن مخلوقًا من أصل غريب جزئيًّا يتخذ له مأوى في جسم المرأة، فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل. وقد تتسمم المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها، كما أن أحوالها الفسيولوجية والنفسية تكون دائمة التغير بتأثيره... صفوة القول إن وجود الجنين، الذي تختلف أنسجته اختلافًا كبيرًا عن أنسجة الأم، بسبب صغرها من ناحية، ولأنها -جزئيًّا- من أنسجة زوجها، يحدث أثرًا كبيرًا في المرأة. وإن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن بدرجة كافية، مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة. ومن ثم فمن سخف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة. ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادي، ولا أن تبث في نفسها النزعات التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم.. يجب أن يولي المربون اهتمامًا شديدًا للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى، وكذلك لوظائفها الطبيعية. فهناك اختلافات بين الجنسين غير قابلة للنقض. ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات ونحن نسعى لإنشاء عالم متمدين" (ص116-117 من الترجمة العربية).

"يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط، بل أيضًا على رعاية صغارها" (ص369 من الترجمة العربية).

تلك صرخة عالم غربي في وجه الجاهلية المعاصرة.. ولكنها تذهب صرخة في واد!!

ولا يعنينا -ونحن نتحدث عن منهج التربية الإسلامية- ماذا تفعل الجاهليات ببناتها، وماذا تقول في تبرير ذلك. إنما أشرنا إلى ما تفعله الجاهلية المعاصرة بسبب ما يقع في مجتمعاتنا نحن الجاهلية, التي تأخذ وسائل حياتها وغاياتها من تلك الجاهلية الغربية، فتضع للبنات ذات المناهج التي تضعها للبنين، وتمررهن في ذات المراحل الدراسية وذات السنوات، ثم تتجه اتجاهًا متزايدًا إلى إلغاء كل فرق في التعامل بين البنين والبنات في كل شيء. حتى التدريب العسكري في المدارس والجامعات! ذلك فضلًا عن اتباع ذات الوسائل والغايات في

تأخير سن الزواج للأولاد والبنات، ورفع الحظر عن العلاقات "الحرة" في المرحلة الطويلة التي تسبق الزواج!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتتبعن سنن الذين من قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه"! قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله؟! قال: اليهود والنصارى![1].

ومصداق ذلك ما يحدث اليوم في جاهلية القرن العشرين! سواء من جانب اليهود والنصارى أو من جانب "المسلمين!"

* * *

ولئن كانت فترة الطفولة في حاجة إلى رعاية شديدة من المربين لأنها الفترة التي توضع فيها الأسس التي ترتكز عليها الشخصية فيما بعد، وكانت فترة المراهقة في حاجة إلى رعاية شديدة كذلك؛ لأنها مرحلة تفجر في كيان الطفل، إن لم توجه له العناية فهو عرضة أن يدمر هذا الكيان وينشئه في طريق محفوف بالمخاطر. فإن مرحلة الشباب الباكر أشد حاجة إلى الرعاية؛ لأنها فترة تكوّن الثمرة المؤدي إلى النضج، وما لم تتعهد الثمرة فإن جهد الغرس كله يمكن أن يضيع!

وبسبب الخصوبة الفائقة في تلك الفترة تكون الحاجة الشديدة إلى الرعاية، لأنها يمكن أن تكون خصبة في الشر مثلما يمكن أن تكون خصبة في الخير، والتوجيه الرشيد هو الذي يستطيع أن يغلب احتمال الخير، ويجعل الثمرة تنضج -في موعدها- على سواء، بينما الغفلة والإهمال، أو التوجيه الخاطئ، يمكن أن يؤدي إلى تغليب احتمال الشر، وتخريج شخصية شاذة أو منحرفة يشقى بها صاحبها ويشقى معه أهله، وقد يشقى بها المجتمع أو تشقى به البشرية!! وكم من طغاة التاريخ الذين تسميهم الجاهلية "عظماء! " قد تلقوا بذور انحرافاتهم في هذه الفترة الخطيرة من العمر.. ثم تلقفتهم الشياطين![2].

* * *

([1]) أخرجه البخاري ومسلم.

([2]) انظر -على سبيل المثال- كتاب "لعبة الأمم" تأليف مايلز كويلاند!

تبدأ المرحلة التي نحن بصددها من نهاية المراهقة وتنتهي بمرحلة النضج، وإذا كان من العسير أن نحدد حدودًا حاسمة لأي مرحلة من مراحل العمر؛ لأنها جميعًا متداخلة بعضها في بعض، ومتدرجة بعضها من بعض، فإن هناك حدودًا تقريبية لكل مرحلة، لا تخطئ العين رؤيتها وتقديرها، وإن كانت تختلف مع ذلك اختلافات فردية من إنسان إلى آخر.

والذي يغلب على مجموع الأطفال أن تبدأ مرحلة المراهقة ما بين الثانية عشرة والثالثة عشرة، وأن تنتهي ما بين السابعة عشرة والثامنة عشرة, لتبدأ مرحلة الشباب الباكر، التي تستغرق ما بين هذه السن إلى ما بعد العشرين بسنوات.

فإذا افترضنا بصفة عامة أن الشاب الذي نتحدث عنه الآن هو ما بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، فلا ينفي ذلك أفرادًا من الشباب يبدأون قبل ذلك بعام أو عامين لأن عندهم استعدادات فائقة، وتبكيرًا في النمو، وأن أفرادًا آخرين يتأخرون بعض الشيء في نقطة البدء، أي: يظلون في فترة المراهقة مدة أطول.

ثم ينبغي أن نعلم كذلك أن المرحلة ذاتها تختلف بالنسبة للفتيات. فإذا كانت بداية المراهقة واحدة بالنسبة للبنين والبنات فإن الانتقال منها إلى مرحلة الشباب الباكر أسرع بالنسبة للبنات، لأن نموهن الجسدي أسرع بكثير، والنمو النفسي يتواكب مع النمو الجسدي كذلك فيسبق مثيله عند الأولاد، ومن هنا فلا تلبث الفتاة أن تكون مراهقة حتى تكون شابة! وقد يظل نموها العقلي في طريقه المتدرج ولكن نموها النفسي والعاطفي ينضج أسرع. فإذا أخذنا فتى وفتاة في سن السابعة عشرة فقد يكون مستواهما العقلي واحدًا أو متقاربًا، ولكن نموهما النفسي لا يكون كذلك. فبينما الفتى تبدو عليه بقايا الطفولة التي يحاول إخفاءها ليظهر بمظهر الرجال، فإن البنت لا يمكن أن تخطئها العين فتحسبها طفلة، سواء في تكوين جسدها أو تصرفها كأنثى، إنما غاية ما يقال فيها إنها أنثى صغيرة، بينما لا يقال للولد -بعد- إنه رجل صغير!

وبالإضافة إلى ذلك فإن خط النضج ذاته مختلف.

فليست المسألة فقط أن الفتاة تنضج أسرع من الفتى، ولكنها كذلك تنضج على خط مخالف، رغم وجود سمات عامة مشتركة بين الذكور والإناث في هذه المرحلة وفي كل مرحلة من مراحل العمر كله.

ولحكمة عليا خلق الله هذا الاختلاف، ليتهيأ كل من الجنسين لوظيفته وتكاليفه. فإذا كانت الجاهليات -أو الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة- تريد أن تغير خلق الله، وتبذل في

ذلك أقصى جهدها، فليست العبرة بما تصنعه الجاهلية في هذا السبيل، إنما العبرة بالنتائج المترتبة على معاكسة خط الفطرة وتغيير خلق الله. أهي نتائج سعيدة وسارة؟ أم إنها –كما يشهد واقع المجتمعات التي تحكمها هذه الجاهلية– هي الحيرة والقلق والاضطراب والضياع، والأمراض النفسية والعصبية والانتحار والجنون، والشذوذ والتشرد والجنوح الإجرامي، وزيادة نسبة الطلاق، وتفكك الأسرة، والشقاء الذي يهرب منه الناس بالإدمان على الخمر والإدمان على المخدرات؟!

وليست هذه الآثار كلها ناجمة بطبيعة الحال عن مرض واحد بعينه أو انحراف واحد من انحرافات الجاهلية، بل هي حصيلة كل الأمراض وكل الانحرافات في وقت واحد. ولكن من أبرزها جميعًا ولا شك إفساد فطرة المرأة بقضية المساواة المطلقة بين الجنسين، ومحاولة "ترجيل" المرأة وصرفها عن أنوثتها ووظائفها الأنثوية، في ذات الوقت الذي تُدْفَع فيه هي والرجل سواء إلى حمأة الجنس المسعورة، حيث يبقى لها هذا المجال وحده –من كل مجالات حياتها– تمارس فيه كيانها كأنثى، ولكن في غير النظافة اللائقة بالإنسان الذي كرمه الله ورفعه –منذ خلقه إنسانًا– أن يهبط إلى مستوى الحيوان!

وسواء كانت المرأة الجاهلية المعاصرة في الغرب واعية أو غير واعية لذلك التناقض الحادث في شخصيتها، حيث تمارس الحياة كلها كأنها رجل او امرأة رجلة، إلا لحظة الجنس المسعورة فتمارسها أنثى بطبيعة الأنثى وكيان الأنثى، فإن هذا التناقض يسري في كيانها ويمزقه على أي حال ويحمله فوق طاقته. وقد بدأت أخيرًا –رغم كل محاولات الجاهلية لصدها عن إفاقتها– بدأت تشكو شقاوتها علانية في الصحف والحلقات التليفزيونية، وتقول إنها ضجرت وتعبت وتريد أن تعود إلى البيت أنثى وأم أولاد![1]

وخلاصة القول بالنسبة إلينا أننا لا بد أن نتحدث حديثين مختلفين –في هذا الفصل والفصل الذي يليه[2]– عن كل من الجنسين، رغم وجود سمات عامة مشتركة بين الجنسين، فهما –من قبل ومن بعد– جنسان من كائن واحد هو "الإنسان"!

* * *

(1) من بين النماذج على ذلك حلقات حوار تليفزيونية طويلة في التلفزيون الفرنسي استغرقت شهورًا طويلة من سنة 1977. أفضت فيها بعض نساء المجتمع بهذه الحقائق.

(2) نتحدث في الفصل القادم عن مرحلة النضج الأخيرة.

نحن الآن مع كائن هو في حس نفسه جديد كل الجدة، وهو في حسنا نحن ابننا أو بنتنا اللذين كانا منذ قليل طفلين كبيرين، نلحظ نموهما الصاعد ولكنه لايفجؤنا بذات القدر الذي يفجأ الشاب نفسه أو الفتاة!

وحقيقة إن هناك ما يفجؤنا من حال هذا الكائن الجديد. ولكن ألم يفجأنا وهو وليد حين حاول الكلام أول مرة، وحين حاول المشي أول مرة، وحين بدأ ينطق بعض الكلمات بالفعل، وحين خطا خطواته الأولى بالفعل؟!

ألم يفجأنا بعد ذلك حين استقامت لغته واستقام مشيه وجريه وصعوده وهبوطه؟ ألم يفجأنا وهو يفك لعبته ويحاول إعادة تركيبها، وحين حاول أن يركب الدراجة أو يقفز فوق السور؟ ألم يفجأنا حين بدأ يتعلم القراءة ويتعلم الحساب؟

ألم يفجأنا حين ذهب إلى السوق أول مرة وعاد؟ وحين ذهب إلى المدرسة وعاد؟ وحين بدأ يستذكر دروسه؟

ألم يفجأنا –في مراهقته– بتغيرات جسده ونفسه وشعوره وفكره؟!

بلى! وهو اليوم يفجؤنا كذلك بما يجد من شؤونه! ولكنه ليس –كما يرى هو من نفسه– كائنًا جديدًا كل الجدة هبط اللحظة من السماء! ذلك أنه يعي أحواله –عن كثب– لأول مرة، أما نحن فنعي أحواله –عن كثب– منذ هو في "اللفة" وليد!

ومع ذلك فكمية التغير التي نلحظها ضخمة وهائلة، وإن كانت كما قلنا من قبل لا تتعلق بإضافة عناصر جديدة لم يكن لها وجود من قبل بقدر ما تتعلق بالزيادة والبروز فيما هو كائن من قبل بالفعل.

فأما الشاب فقد بدأت عضلاته تبرز، وبدأ هو كذلك يهتم بإبراز عضلاته، إنه يمارس ألوانًا من الرياضة البدنية بغير ملل، يصرف فيها جزءًا من طاقته الحيوية الفائضة، ويستكمل بها في ذات الوقت نموه الجسمي وقدراته الجسمية، من رشاقة الحركة والتوازن والصلابة والاحتمال.

وتختلف الميول الرياضية كثيرًا من شاب إلى آخر. فهذا يحب كرة القدم، وهذا يحب كرة السلة، وهذا يحب "العقلة" و"المتوازيين" وهذا يحب رفع الأثقال، وهذا يحب ركوب الدراجة، وهذا يحب ركوب الخيل، وهذا يحب السباحة أو التجديف. ولكن الأغلب أن تكون للشاب ممارسات رياضية مختلفة مع هواية محببة غالبة عليه.

ولا يمنع هذا من وجود حالات شاذة لا تميل إلى الرياضة لأسباب جسدية أو أسباب نفسية..

فأما الأسباب الجسدية فقد تكون ضعفًا وراثيًّا أو مكتسبًا نتيجة أمراض في الطفولة، تجعل الرياضة أمرًا شاقًّا أو مجهدًا فينصرف الشاب عنها على رغبة فيها أو على عزوف.

وأما الأسباب النفسية فقد تكون انطواء وخجلًا وخشية من الفشل أمام الآخرين، أي: نقصًا في ثقة الولد بنفسه بصفة عامة، وقد تكون اعتدادًا شديدًا بالنفس ولكن في اتجاه آخر! فقد يخيل للفتى أنه عبقري أو فيلسوف أو أديب أو فنان.. وأنه من أجل ذلك أرفع من أن يتميز بطاقته البدنية؛ لأنه يتميز بطاقته العقلية أو موهبته الفنية! أو قد تستغرقه هذه الموهبة بالفعل فتأخذ وقته وجهده فينصرف عن الرياضة، أو قد تكون له هواية عقلية كالشطرنج, أو الورق يجلس إليها الساعات الطوال لا يتحرك, فيتعود جسمه على السكون بدلًا من الحركة. أو قد تكون له مفاسد خلقية تشغله عن رياضته[1].

* * *

ثم إن مواهبه واستعداداته بدأت تبرز. وبدأ هو يهتم بإبرازها والتميز بها, ومحاولة التفوق بها على الآخرين.

والمواهب والاستعدادات كثيرة ومتنوعة. فهذا ميال للآداب أو الفنون، وهذا ميال للعلوم أو المهارة اليدوية. هذا له قدرة على حفظ الشعر أو النصوص الأدبية أو له براعة أسلوبية نثرية أو شعرية. وهذا رسام ماهر. وهذا بارع في حل المسائل الرياضية. وهذا له ميول هندسية أو ميكانيكية.. إلخ.. إلخ.

ولقد ظهرت هذه المواهب والاستعدادات من قبل فترة المراهقة ولكنها كانت ما تزال طفلة. أما اليوم فهي أبرز وأوضح، ولها إنتاج ظاهر. وعلى أساسها يختار الشاب حرفته المستقبلة، سواء وفق في دراسته للوصول إليها أم لم يوفق. فهو يقول لنفسه: أريد أن أكون طبيبًا أو مهندسًا أو أديبًا أو فنانًا أو باحثًا اجتماعيًّا أو مؤرخًا.. أو فيلسوفًا! ويحاول أن يختار الدراسة التي تناسب استعداداته وميوله.

---

(1) نتحدث هنا عن الشباب بصفة عامة لا عن الشاب المسلم بالذات.

وفي حالات شاذة نادرة يحلم بالبطولة عن طريق الشر، فيقول لنفسه: أريد أن أكون فتاكًا أو قاطع طريق أو عضوًا في عصابة من العصابات التي ترهب الناس.

* * *

ثم لقد نما نموًّا نفسيًّا هائلًا في هذه الفترة..

لقد كان في طفولته مشغولًا بنفسه يعيش في محيطها، وفي حدود عالم قريب محدود. فطعامه وشرابه وإفرازاته وملابسه ولعبه وأدواته هي المسائل الكبرى التي تشغله، والتي يطلب من والديه أن يحققاها له كلما أرادها أو رغب فيها, وهو يتوقع من والديه أن يكونا حت تصرفه دائمًا كلما أرادهما أو أراد منهما أن يحققا له شيئًا من مطالبه المتوالية التي لا تكف وإن كانت محدودة النطاق.

ثم يكبر قليلًا، ويتسع عالمه قليلًا، ولكنه ما زال ممركزًا حول نفسه. فذاته هي مركز حياته ومركز اهتمامه. وأبواه، ومن حوله، هم "الأدوات" التي يستخدمها لتحقيق رغباته، ويتوقع منهم أن يكونوا دائمي الاهتمام به، دائمي التلبية لما يعن له من حاجات.

فإذا استقام على منهج التربية السليم فسيتعود أن يضبط بعض رغباته ويسيطر عليها، ولكنه ما زال يعيش ممركزًا حول ذاته؛ لأن هذا طابع المرحلة الطبيعي الذي لا بد أن يأخذ مجراه.

ثم يكبر أكثر، ويتسع عالمه أكثر، فيتعرف على وجوه جديدة غير الوالدين، وأماكن جديدة غير المنزل، وتنشأ بينه وبين بعض الناس وبعض الأماكن صداقات، ويطلب من والديه أحيانًا أن يخرجا به خارج المنزل ليرى شيئًا معينًا مما أصبح يحبه، أو يلتقي بأشخاص معينين صغار أو كبار يكون قد تعلق بهم.. ولكنه ما زال في ذلك كله مركز الاهتمام حول ذاته قبل كل شيء.

ومنهج التربية السليم يعوده شيئًا فشيئًا أن يخرج من دائرة ذاته، فيعطي من لعبه ومن حلواه لأطفال غيره، ويتعاون معهم في اللعب، ويتعود أن يأخذ منهم ويعطي. كما يعوده أن يلتزم آدابًا معينة تجاه الآخرين تخرجه من دائرة ذاته إلى تعود احترام الآخرين، فيتعود أن يحس بوجود ذوات أخرى غير ذاته، فيخف تدريجيًّا تعلقه بذاته.

وكل ذلك واجب على المربي، ولكنه يؤتي ثماره على المدى، ويظل طابع الطفولة هو التمركز حول الذات.

ثم تجيء فترة المراهقة فيحدث فيها نمو نفساني ملحوظ.

إن المراهق أيضًا ممركز حول ذاته، ولكن على طريقة أخرى غير طريقة الطفل. ثم إنه –مع اهتمامه الشديد بذاته، ورغبته الشديدة في أن يظل اهتمام الآخرين متعلقًا به– فإن له مشاعر كثيرة يتوجه بها نحو الآخرين، ويهتم فيها بأشخاصهم.

إن الطفل –في تمركزه حول نفسه– يظل يستخدم الآخرين لتحقيق طلباته؛ لأنه بطبيعة الحال لا يملك أن يلبي لنفسه كل ما يريد من حاجات, وإن رُبِّي تربية استقلالية وعُوِّد منذ صغره الاعتماد على نفسه، أما المراهق فإنه –في تمركزه حول نفسه– يريد أن يثبت وجوده، يريد أن يهتم الناس به لما يفعله هو لا بما يفعله الآخرون له! إنه –في خياله أو في وهمه– بطل! إنه خارق القدرة! إنه حدث تاريخي! وهو يريد من الناس أن يعرفوا بطولته الفائقة هذه ويقروا بها! ولذلك فهو يحاول لفت نظرهم دائمًا بما يأتي من الأعمال التي يراها خارقة وغير مسبوقة!

ولا شك أن المراهق المسلم شيء آخر مختلف كثيرًا عن المراهق الجاهلي، في هذه النقطة وفي غيرها من النقاط كما بينا في الفصل السابق. ولكن ليس في الإمكان –ولا من المصلحة– قتل الشعور بالذات في هذه المرحلة، ولا كذلك في أي مرحلة أخرى.. إنما ينبغي تهذيب هذه الشعور بما بينا من منهج التربية الإسلامية وما سنبين فيما بعد..

أما الفترة التي نحن بصددها فقد حدث فيها نمو نفسي هائل.

لم يعد الفتى ممركزًا حول ذاته بالصورة التي كان عليها في الطفولة وفي المراهقة، إنما صار خط "الغيرية" واضحًا وبارزًا في نفسه وفي حياته.

لم يفقد إحساسه بذاته، وليس من المصلحة أن يحدث ذلك.

ولكن انظر إلى اهتماماته..

لقد كان المراهق قد بدأ يهتم بالآخرين ... ولكن من كان أولئك الآخرون؟ إنهم أشخاص محدودون يتعلق بهم ولاؤه وحبه وعواطفه. أما المجتمع.. أما المجموع البشري.. فأشباح من بعيد لم تتبين ملامحها في حسه بعد.

أما الشاب فقد اقترب من الصورة أو اقتربت منه الصورة حتى صارت في البؤرة وصارت محل التركيز.

إنه اليوم مشغول بالمجتمع من حوله، ومشغول بالبشرية! "مشغول بالآخرين"!

ما سبب تعاسة الناس في الأرض؟ ما سبب ما يقع على البشر من مظالم؟

هل السبب كامن في الناس أنفسهم؟ أم في حكامهم؟ أم في النظم السائدة بينهم؟

ومن أين يبدأ الإصلاح والتغيير لإزالة الظلم والشقاء في المجتمع القريب أو في البشرية كلها على السواء: يبدأ من إصلاح الناس، أو إصلاح الحكام، أو إصلاح النظم؟

وما طريق الإصلاح لهذا كله؟ وما المبادئ التي يقوم عليها الإصلاح؟

ومَنْ -مِنَ الجماعات أو الهيئات أو الأحزاب أو التكتلات- هو أقومها مبادئ، وأقومها طريقة، وأقربها إلى تحقيق الإصلاح المنشود؟

ومن هذا الخيط يسعى الشباب من جانبه إلى "الانتماء"، كما تتسارع الجماعات والهيئات والأحزاب والتكتلات إلى جذب الشباب إليها من هذا الخيط ذاته؛ لأنها تعلم وجوده، وتستغل وجوده، ثم تمضي بالشباب بعد ذلك في طريق الهدى أو في طريق الضلال.. في طريق الله أو في طريق الشيطان. وما أقل فيها من يتجه إلى الله، وما أكثر من يتجه إلى الشيطان. والشباب في الحالتين منقاد بإخلاصه الذاتي لمن يظن أنه على يديهم يتم الخلاص.. ويبيت يحلم "بالبطولة" عن هذا الطريق.

وتصل مشاعر الشباب في هذه الأمور إلى درجة الحماسة المتوقدة وإلى درجة الفدائية والتضحية بالنفس في سبيل ما يرى أنه الحق. وتستغل الجماعات والدول هذه المشاعر لما تريد تحقيقه من خير حقيقي أو خير مزيف أو شر صريح! فتجند طاقة الشباب وحماسته وفدائيته في الطريق الذي تريد، فيسخو الشباب بما يراد منه من جهد أو مال أو تعرض للخطر أو بذل للدماء، ومن أجل هذا تستكثر التكتلات الحركية من الشباب بين أعضائها، ومن أجل ذلك أيضًا تجند الدول جيوشها من الشباب.

وإذا كانت هذه هي الصورة العامة, فلا ينفي ذلك وجود حالات شاذة نادرة ينحرف فيها إحساس الشباب "بالآخرين" إلى بغض وكراهية، أو متعة مريضة وتلذذ بالشر والإيذاء، فيجند الشاب ولاءه وجهده وفدائيته لعصابات القتل والسلب والنهب والاعتداء على الأموال والأنفس والأعراض.. ويجد "بطولته" في هذا الطريق!

* * *

وينمو الشاب عاطفيًّا كذلك.

لقد كان في مراهقته يتخذ أصدقاء يلعب معهم حينًا ويلهو، ويستذكر معهم حينًا آخر، ويخرجون في نزهات أو جولات، ويكونون أحيانًا "جماعات" صغيرة تقوم ببعض ألوان النشاط. ثم كانت له "اهتمامات" بالجنس الآخر[1].

أما اليوم فقد اتسع مجال عواطفه وتضاعف..

إن له اليوم أصدقاء، قد يصطفي من بينهم واحدًا أو أكثر يلازمه ويستخلصه لنفسه ويفضي إليه بذات نفسه وأسراره. ولكنه مع ذلك قادر على منح صداقته وزمالته لعدد واسع من الناس. ومن هنا يمكن أن يحس بالزمالة لفرقة كاملة من فرق الدراسة -وخاصة الدراسة الجامعية- بينما كان في مراهقته لا يصادق من فرقته إلا أفرادًا معينين. ويستطيع أن يحس بالزمالة لفريق رياضي كامل، أو مجموعة كبيرة من البشر في الهيئة أو الجماعة أو الحزب أو التكتل الذي ينتمي إليه. وتظل هذه الزمالة أو الصداقة تتعمق على مدى الأيام، ومنها ما يبقى إلى نهاية العمر، بينما كانت زمالات المراهقة موقوتة سرعان ما تفرقها الأحداث!

ثم إن له عواطف اجتماعية، وأخرى إنسانية.

عواطف موجهة إلى المجتمع الذي يعيش فيه.. إلى مجموع الناس في هذا المجتمع لا إلى أعيانهم ولا أشخاص معينين منهم. يحس نحوهم برابطة ما. رابطة معنوية ولكنها عميقة وقوية، تأخذ شكل "المفهوم" الذي يعيش به، سويًّا كان هذا المفهوم أو غير سوي، فتأخذ شكل أخوة في الله. أو شكل رابطة وطنية، أو قومية، أو عرفية، أو لغوية.. أو ما يكون من أنواع الروابط بين الناس.

وعواطف موجهة إلى الإنسانية. إلى المجموع البشري بصرف النظر عن الأقوام والأجناس واللغات والألوان.. يحب أن يتعرف إليهم، ويحب أن يتعاون معهم على الخير..

([1]) نتحدث هنا -كما سبق القول- عن اتجاهات الفطرة الطبيعية، لا عن انحرافات الجاهلية. والجاهلية المعاصرة بسلوكها الواقعي وصحافتها وإذاعتها وتليفزيونها وأفلامها وبرامجها التمثيلية هي أشد جاهليات التاريخ انغماسًا في الفساد الخلقي وأكثرها ليًّا للفطر عن طريقها الصحيح.

ولا ينفي هذا بطبيعة الحال أن تكون هناك عواطف مضادة. فالحب والكره خطان أصيلان من خطوط الفطرة، والفطرة السوية تكره كما أنها تحب. تكره الشر والباطل وتكره الشريرين والمبطلين.

ولكن بصرف النظر عن البيئة التي تحيط بالشاب والمفاهيم التي يعيشها -ونحن حتى الآن نتحدث عن "الشاب" بصفة عامة ولم نتحدث بعد عن "الشاب المسلم" ولا عن دور التربية الإسلامية في تربية الشباب -بصرف النظر عن ذلك كله فإن وجود المشاعر "الإنسانية" وعواطف المودة والحب "للمجموع" الذي لا يراه الإنسان رؤية مباشرة, ولكنه يتجه إليه بعواطفه.. لا ينفي كل ذلك أن تكون هناك عواطف كره وعداء. على نفس الدرجة من الحماسة والعمق، لفئات معينة داخل المجتمع، أو كتل معينة من مجموع البشرية..

والهيئات والجماعات والأحزاب والتكتلات، والدول كذلك، تستغل مشاعر الكره كما تستغل مشاعر الحب، وتجندها لحسابها، وتصل بها إلى تحقيق أهدافها، سواء كانت أهداف خير أو شر. وقليلًا ما تكون للخير، وما أكثر ما تكون للشر، وما أكثر الحروب والصراعات الباطلة في حياة البشرية، التي يقودها أفراد وهيئات وحكومات ذات مصالح معينة.. ووقودها الشباب!

ومن بين العواطف التي نمت ما يتصل بالجنس الآخر.

لقد كانت هناك اهتمامات بالجنس الآخر في فترة المراهقة، وأحلام وخيالات. وقد تستمر هذه الرؤى المسحورة فترة من الوقت دون ارتباط معين. وقد ترسم هالات سحرية حول وجه معين لا مزية له في نظر الآخرين، ولا في نظره هو نفسه حين يأخذ في شيء من النضج فيما بعد. ولكنه في فترة المراهقة يضفي من خياله المسحور على كل شيء حوله فتبدو الأشياء العادية كأنها أطياف من عالم مسحور!

وفي مبدأ الفترة التي نتحدث عنها تكون في نفسه بقية من هذا الخيال المسحور تشكل عواطفه نحو الجنس الآخر. ولكنها -تدريجيًّا- تأخذ صورًا أكثر تحديدًا وأكثر واقعية.

إن هذه الفترة -في الفطرة السوية- هي فترة البحث الجاد عن شريكة الحياة.

وفي غير الجاهلية المعاصرة كان الناس يتسجيبون لدافع الفطرة السوية، فيتم الزواج بالفعل في فترة الشباب الباكر، وتكون تجربة الزواج من التجارب المؤهلة لتمام النضج.

ولكن الجاهلية المعاصرة -لأمور كثيرة تراد- أبطلت ذلك كله، وأحدثت واقعًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا لا ييسر الزواج المبكر بل يضع أمامه كل العراقيل كما قال "ول ديورانت" فيما نقلناه عنه من قبل، في ذات الوقت الذي تيسر فيه كل أنواع الفاحشة, وتصبح هي الأصل في حياة الناس! ثم تصاغ حول هذا الواقع نظريات وأفكار زائفة لتبريره, وتثبيته وتزيينه لكي لا يرجع الناس عنه ولا يفيئوا إلى فطرتهم السوية!

فأما الواقع فهو تعجيز الشباب عن الكسب المؤهل للزواج حتى فترة متأخرة من العمر، وتصعيب الحياة وتكثير مطالبها، ورفع أسعارها حتى تصبح حاجزًا يصعب تخطيه أو يستحيل تخطيه!

وأما النظريات والأفكار فتقول إن الشباب ينبغي أن ينضج أولًا قبل أن يتزوج لكي يستقر زواجه فيما بعد، ولا ينضج حتى تكون له علاقات جنسية كاملة واقعية ينضج من خلالها، ثم يتزوج بعد ذلك إن أراد!

من ثم تتحول فترة الشباب الباكر في هذه الجاهلية إلى فترة من العبث الماجن الذي لا تحده حدود. ثم تؤلف كتب في التربية وعلم النفس تقول: إن هذه الفترة فترة يتجه فيها كل من الجنسين إلى إقامة علاقات "واقعية" مع الجنس الآخر للتعرف عليه تمهيدًا للزواج والاستقرار الذي يأتي في مرحلة متأخرة فيما بعد، وإنه لا بد من وجود هذه العلاقات وإتاحتها لكي لا يحدث الكبت واضطراب الأعصاب، وإن الحالات التي لا تقوم فيها مثل هذه العلاقات تعتبر حالات شاذة تحتاج إلى علاج! ثم تقوم العيادات النفسية بتكملة الحلقة. فتنصح الزائرين والزائرات من الشبان والفتيات أن يقيموا علاقات تذهب عن نفوسهم الحزن وترفع الكبت وتطلق الشحنة الحبيسة في الأعصاب!

وتعلم الجاهلية في سريرة نفسها -أو يعلم الشياطين الذين يخططون لها- أن هذه كلها أمور مفتعلة وحجج غير حقيقية!

فهناك شباب -غير قليل- في تلك المجتمعات المتفسخة، ينشئ علاقات "مستقرة" أي: تقوم فيها معاشرة كمعاشرة الأزواج، ينجم عنها بنون وبنات، وتؤجر لها المساكن ويشترى لها الأثاث.. ثم لا يتزوجون! فليست الإمكانات المادية إذن هي التي تنقصهم، ولا هي ضرورة النضج قبل الاستقرار، إنما هي الرغبة المجنونة في معصية الله واتباع الشيطان!

ثم إن العلاقات الزوجية التي تنشأ بعد فترة العبث الماجن في الشباب الباكر لم تثبت حتى الآن أنها علاقات مستقرة وناضجة، بل الثابت من الإحصاءات أنه كلما أمعن الشباب

في "التجربة" بحثًا عن النضج المزعوم والاستقرار، زادت نسبة الطلاق بعد الزواج، وزادت البيوت المهجورة التي هجرها الزوج أو الزوجة بحثًا عن "تجربة" جديدة!

ونضرب صفحًا عن الجاهلية وما تفتعله وما تفعله، ونعود إلى عواطف الجنس في الفطرة، فنقول إن هذه الفترة هي فترة البحث الجاد عن شريكة الحياة.

فلم تعد المسألة مجرد أحلام مسحورة وهيام وخيالات. إنما هي عواطف واقعية تتجه إلى شخصية محددة. أو هو بحث واقعي عن شخصية محددة تتوفر فيها شروط معينة تتلاءم مع المفهوم الذي يعيش الشاب به، والصورة التي يريد تحقيقها، ولا يمنع هذا من وجود الرؤى المسحورة التي تصنع الهالات حول شخصية معينة قد تبدو في نظر الآخرين عادية بغير هالات. فهذا من طبيعة تلك الفترة من العمر عند بعض الناس على الأقل، الذين يلعب الخيال والفن دورًا في حياتهم، وهو من دوافع الفطرة الطبيعية التي أودعها الله في كيان الإنسان لتحدث التلاحم المطلوب بين شقي النفس الإنسانية: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[1] إنما الفارق بين هذه العواطف وعواطف المراهقة أنها هنا واقع تحفه الأحلام، وهي هناك أحلام بغير واقع حقيقي ولا هدف واقعي، ولا سعي جدي إلى غاية محددة.

* * *

وينمو الفتى نموًا عقليًّا واسع المدى..

حقيقة إن خبراته لا تكتمل في هذه المرحلة من العمر. بل إن مرحلة النضوج ذاتها لا تكتمل الخبرة في أولها، ولا يزال الإنسان يتعلم ويضيف إلى خبراته مهما امتد به العمر. إنما يكون الإنسان في سن الأربعين مثلًا قد حصل على قدر معقول من الخبرة والتجربة يؤهله لحمل المسؤوليات الكبيرة. ويلفت نظرنا في هذا الباب بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الأربعين من عمره، وقوله تعالى: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[2].

---

(1) سورة الروم [21].

(2) سورة الأحقاف [15].

فالخبرة إذن لا تكتمل في مرحلة الشباب الباكر، بل الأحرى أنها تبتدئ حينئذ مجرد بدء، وتظل السنوات تضيف إليها حتى يحصل الإنسان نصيبه منها في سن متأخرة.

ولكن النمو العقلي, والاستعداد لتلقي التجارب واستفادة الخبرة منها هو الذي يحدث في هذه الفترة على نطاق واسع.

فأما مستوى الذكاء المقدور للإنسان فإنه يبلغ ذروته في هذه الفترة, ولا يكاد يزيد بعد ذلك، كما تبلغ القامة ذروتها في الارتفاع المقدور لها ولا تكاد تزيد بعد ذلك!

أما الحصيلة العقلية التي يؤهل لها ذلك المستوى من الذكاء فهي تمتد بامتداد العمر، أو على الأقل حتى تنتهي الفترة الخصبة من العمر. ولكن القدرة على التحصيل في هذه الفترة بالذات قدرة فائقة بشكل ملحوظ. وفي تلك الفترة يقرأ الشباب معظم قراءاته ويطلع معظم اطلاعاته، قبل أن تخبو فيه رغبة القراءة والاطلاع بعد إتمام دراسته والانغماس في مشاغل الحياة.

والأصل الواجب ألا ينقطع الإنسان عن التحصيل والاطلاع لكي لا يتوقف نموه العقلي والعلمي.. والعملي كذلك. لكن حتى الذين يقومون بهذا "الواجب" يعلمون أن فترة "النهم" في القراءة والاطلاع هي فترة الشباب الباكر، حيث الرغبة والقدرة معًا متوفرتان، وحيث يستطيع بعض الناس أن يقرأ كتابًا كاملًا كل يوم، بلا ملل ولا رغبة في الانصراف!

وتبدأ هذه الفترة -على نظم الدراسة الحالية- في نهاية المرحلة الثانوية ثم تستوعب المرحلة الجامعية كلها وسنوات أخرى بعد التخرج. وفيها يحصل الشاب -سواء عن طريق الدراسة المقررة أو عن طريق اطلاعاته الخاصة- الجسم الأكبر من "المعرفة" التي يعيش بها بقية حياته، يضيف إليها دراسات واطلاعات جديدة فيما بعد إن كان من أصحاب النفس الطويل في التعلم، ويتوقف عندها إن كان ممن تفتر حماستهم للمعرفة بعد ذلك.

ولا يكاد يوجد نوع من المعرفة يستعصي على الشباب في تلك الفترة -مع مراعاة الميول والاستعدادات الخاصة بالطبع- إلا ما كان من أنواع المعرفة في حاجة إلى الخبرة بجانب القدرة على الفهم والاستيعاب. ومن هنا ينجز الشباب دراسته الجامعية بنجاح، وينجز كذلك قدرًا من دراساته العليا بقدرة ملحوظة على الاستيعاب والتحصيل. ويتعرض لمناقشة كل المشكلات، شاعرًا أن لديه القدرة على مناقشتها! وكثيرًا ما تكون مناقشته سطحية أو متلفسفة بغير موجب! ذلك أن النظر في المشكلات والبحث عن حلول لها أمر يتعلق بالخبرة والممارسة أكثر مما يتعلق بالمعلومات المحشودة في ذهن الإنسان. ولكن الشباب لا يدرك هذه

الحقيقة إلا متأخرًا، حين يحصّل قدرًا معقولًا من الخبرة والممارسة الواقعية! أما في شبابه الباكر فيظن أن معلوماته وقدرته على التفكير المجرد كفيلتان بحل أعقد مشكلات البشرية! ومن ثم يجد في نفسه الجرأة على النقد، وإعلان رأيه في بساطة واعتداد وبلا تحفظ! كما يكون نقده قاطعًا وحاسمًا لا يقبل الرفق ولا التوسط، ويكون مقتنعًا بمنطقيته وسلامته فلا يسهل عليه الرجوع عنه! ولذلك يتعرض الشباب للاندفاع والشطط في تلك الفترة ما لم يجد التوجيه التربوي السليم الذي يعوده على الانضباط ويقوم بين يديه المعايير.

ومع ذلك الاعتداد بالذات، والاعتداد بالعلم، والاعتداد بالرأي، والاعتداد بالقدرة على النظر في الأمور، فإنه في نفس الشاب كما كان في نفس المراهق من قبل قابلية شديدة للاستهواء! بل ربما كانت أوسع مدى وأعمق غورًا من قابلية المراهق لها.

هنا إعجاب شديد بالبطولة والتفوق، إن لم يضبط ضبطًا سليمًا فهو عرضة للانحراف الشديد، الذي يصل إلى "عبادة" البطولة في كثير من جاهليات التاريخ قديمها وحديثها سواء. وليس هتلر إلا نموذجًا واحدًا من نماذج الجاهلية المعاصرة وغيره في عالم السياسة كثير. غير أن الجاهلية المعاصرة قد هبطت هبوطًا شائنًا بمستوى "البطولة"، وعبثت عبثًا ماجنًا بقابلية الشباب للاستهواء، فجعلت ممثلي السينما "وممثلاتها" الرقعاء هم الأبطال الذين يجرون الشباب عن طريقهم من خيط الاستهواء ليلقوا بهم في حمأة التفسخ النفسي والفساد الخلقي والتفاهة والتميع والانحلال!

وبصرف النظر عن هذه الجاهلية بالذات، فإن هذه القابلية الشديدة العميقة للاستهواء هي التي تجمع الشباب حول القادة والزعماء، وحول الفنانين والكتاب، وحول المفكرين والعلماء، سواء كان التجمع فكريًّا أو عاطفيًّا يبدو في إظهار الأعجاب بما يصدر عنهم من أقوال أو أفعال، والتحمس له، والدفاع عنه ضد المعارضين والمنتقدين، أو تجمعًا حركيًّا في القضايا السياسية والاجتماعية. يصل كلاهما إلى التعصب أحيانًا وإلى العدوان.

وظاهرة الاعتداد بالذات والاستهواء للآخرين -رغم تناقضهما الظاهري- موجودتان بصورة طبيعية في الفطرة، لأنهما خطان من الخطوط المتقابلة في النفس البشرية، يتم عن طريقهما -في الفطرة السوية- التلقي من المصادر الجديرة بالتلقي عنها، والإيجابية اللازمة للحركة في ذات الوقت[1]، ولكنهما عرضة للانحراف ككل خطوط الفطرة حين يعوزهما التوجيه التربوي الصحيح، فيتلقى الشاب -بدافع الإعجاب- من مصدر لا ينبغي التلقي عنه، ثم

([1]) انظر فصل "خطوط متقابلة في النفس البشرية" في الجزء الأول من كتاب "منهج التربية الإسلامية" الفقرة الخاصة بالسلبية والإيجابية.

يعتد بما يتلقاه عن هذا المصدر إلى درجة التعصب، كأن الأفكار أو الأفعال التي يتعصب لها هي أفكاره الذاتية وأفعاله الذاتية!

ونحن –حتى الآن– نستعرض ملامح هذه المرحلة كما توجد عادة في نفوس الشباب، ولم نتحدث بعد عن الشاب المسلم وعن التوجيه الإسلامي لتلك الملامح والسمات، وإن كنا نستطيع أن نقدر –سلفًا– موقف المنهج الإسلامي مما يحدث في الفطرة من انحرافات.

* * *

تحدثنا حتى الآن عن النمو الجسدي، ونمو الاستعدادات والمواهب، والنمو النفسي، والنمو العاطفي، والنمو العقلي، وبقي أن نتحدث عن النمو الروحي.

لقد بدأ هذا النمو في فترة المراهقة، وهو هنا يتسع ويتعمق.

قل إن شئت إن البذرة الأولى لتفتح الفطرة لخالقها قد بدأت مبكرة في مرحلة الطفولة حين بدأ الطفل يتساءل عن أسرار الكون من حوله ويريد أن يعرف من الصانع لهذا الوجود كله. لكن الصلة الوجدانية بالخالق قد أخذت صورة أوضح وأدق مع التفجر الذي حدث في كيان الفتى في سن المراهقة، حين تفجرت الطاقات معلنة عن وجودها, كما تنبثق الأزهار في الشجرة خارجة من أكمامها لتحمل الثمرة فيما بعد.

وهناك في تلك المرحلة جاء التكليف الرباني، الذي يُفرض على الإنسان –رجلًا أو امرأة– في سن البلوغ. جاء وقد أعد له فاطر هذه الفطرة سبحانه. أعد له بهذا الانبثاق الروحي الذي يصحب مرحلة البلوغ.

والآن نجد هذه الطاقة الروحية في أصفى حالاتها [ما لم تتدخل الجاهلية تدخلًا جذريًّا لإفسادها].

إنها فترة تدين وبحث في أمور الدين.

فترة رغبة في التعرف الواعي على الخالق –سبحانه– بصفاته وأسمائه وأفعاله، ومحاولة الاقتراب إلى أقصى المدى من حقيقة الألوهية.

فترة نظر في الوجود ومحاولة التعرف على أسراره.

فترة حب فياض للكائنات.

ولئن كان بعض هذا كله يأخذ صورة ذهنية فلسفية جدلية، إلا أن جانبًا آخر منه يأخذ صورة روحية وجدانية عميقة.

والشباب -بغير توجيه سليم- يتعرض في هذه الفترة أحيانًا للشك "الفلسفي" في قضايا الألوهية والوحي والبعث والنشور والحساب والجزاء. ولكنه حتى عندئذ يعاني قلقًا "روحيًّا" لا ذهنيًّا فحسب. لأن الجانب الروحي في كيانه متفتح وفي حالة نشاط. وحين لا يجد الزاد الصحيح فإنه يضطرب ويختل، ويكون القلق هو العارض الدال على ذلك. ولكنه حتى في حالة اضطرابه موجود ومؤثر ومتأثر في ذات الوقت.

إن هذا التفتح الروحي -في حالته السوية- يحدث صلة عميقة جدًّا بالله، ثم بالكون والحياة والأحياء.

صلة بالله تظهر في التفكر والذكر والعبادة والرغبة القوية في التقرب إلى الله بالنوافل وبصالح المشاعر وصالح الأعمال.

وصلة بالكون والحياة والأحياء تشعر الإنسان أن الحياة منبثة في تضاعيف هذا الكون كله، وأنه هو جزء من هذا الوجود الحي، مترابط معه، موصول، متصاحب معه، وليس جزءًا معزولًا عنه ولا معاديًا له.

وحتى في حالة الضلال فقد يوجد هذا التدفق الروحي كله في صورة وثنية ضالة، تعبد الله على ضلالة. وتعبد الكون في صورة "عبادة الطبيعة" وتنحرف إلى ألوان من التقديس للحياة والأحياء.

ولكنها في هذه وتلك طاقة روحية أكيدة، عميقة الوجود في الكيان النفسي في تلك الفترة بالذات.

والجاهلية المعاصرة -وحدها تقريبًا في تاريخ الجاهليات- هي التي تعمل جاهدة على طمس طاقة الروح وتجريد الإنسان منها حتى في صورتها الوثنية الضالة، ليصبح بعد ذلك حيوانًا هابطًا أو آلة صماء.

وهي درجة من الانحراف نحسبها فريدة في تاريخ البشرية. فحتى اليهود في جاهليتهم المادية التي غرقوا فيها، كانت لديهم حين جاء الإسلام بقية -منحرفة- من طاقة الروح استخدموها في السحر:

"وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"[1].

أما جاهلية "العلم" في هذا القرن العشرين، فهي أجهل جاهليات التاريخ!

* * *

الآن وقد أعطينا وصفًا سريعًا للسمات البارزة في هذه المرحلة عند الشباب، نتحدث عن الشاب المسلم في هذه المرحلة، كيف يتكون وكيف يكون؟.

إن الإسلام دين الفطرة، ما جاء ليغير مسار الفطرة أو يغير بناءها. إنما جاء ليبين لها مسارها الصحيح ويقيمها عليه، لأن فاطر هذه الفطرة هو الذي نزل هذا الدين، وفصل فيه منهج الحياة. وقد فصله سبحانه بحيث يتلبس بالفطرة تمامًا -في حالة سوائها- ويقومها في حالة انحرافها لتستقيم.

وكل ما عرضناه من سمات هذه الفترة فإن له توجيهه المناسب في المنهج الرباني، الذي يجعله في أحسن تقويم. وما علينا -في التربية- إلا أن نطبق توجيهات المنهج فإذا لدينا ذلك الشاب المؤمن الذي نشأ في طاعة الله، والذي نوه به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن المستحقين للجنة عند الله: "سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله"[2].

وإنها لصورة كريمة حقًّا ومشرقة حقًّا تلك التي تصفها تلك الكلمات: شاب نشأ في طاعة الله.

---

(1) سورة البقرة [101-102].

(2) أخرجه الشيخان.

وهذه الصورة الكريمة المشرقة لم تكن قط خيالًا مثاليًّا غير قابل للتطبيق، بل كانت واقعًا. لأن المنهج الرباني نزل لينشئ واقعًا مشهودًا في الأرض، لا لينشئ أحلامًا جميلة غير قابلة للتطبيق.

وانظر إلى الشباب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد التابعين كيف كانوا.. بل انظر إلى شباب المسلمين في قرون متطاولة من التاريخ بعد تلك الفترة المثالية الفريدة، ثم انظر إلى شباب الجاهلية المعاصرة الممسوخ المشوه الكيان، واعجب -إن شئت- كيف يكون هذا وذاك نموذجين لنوع واحد من الخلق، هو "الإنسان"! لا جرم أن الآخرين هم كالأنعام بل هم أضل!

ألا إنه الإنسان مرة في أحسن تقويم، ومرة أسفل سافلين!

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ"[1].

* * *

قلنا في عرضنا لسمات هذه الفترة: إن القوة الجثمانية للشاب بدأت تظهر، وبدأ هو يعنى بإبرازها.

ونقول هنا: إن منهج التربية الإسلامية يعطي هذه الظاهرة حقها ولكن على طريقته الخاصة.

إن كثيرًا من مناهج التربية في القديم والحديث قد أولت عنايتها لهذه الظاهرة فجعلت للشباب ساحات وملاعب يدرب فيها عضلاته ويقويها ويستزيد فيها من قوة الجسد إلى أقصى الغاية. والشباب من تلقاء نفسه -ولو ترك بغير توجيه على الإطلاق- يتجه إلى اللعب والرياضة لتصريف الفائض من طاقته الحيوية وتقوية جسمه في ذات الوقت. وكان اليونان والرومان يعنون عناية شديدة. بكمال الجسم وجماله واقتداره وقوته، كما كان غيرهم من الشعوب.

والإسلام كذلك يعني بقوة الإجسام واقتدارها، فيوجه الشباب إلى الرياضة وخاصة السباحة والرماية. يقول الحديث: "علموا أولادكم السباحة والرمي"[1].

([1]) سورة التين [4-6].

ولكن العبرة ليست بتقوية الجسم وتدريبه. إنما تكمن العبرة –التربوية– في الهدف من وراء ذلك.

هل القوة الجسدية غاية في ذاتها كما كانت عند الإغريق؟ أم هي وسيلة لغاية؟ وأي غاية هي؟ الاستمتاع بمتاع الأرض إلى أطول مدى مستطاع دون أمراض أو بأقل قدر من الأمراض كما هو الهدف الغالب من الرياضة في الجاهلية المعاصرة؟ أم هو الكسب المادي كما تصنع هذه الجاهلية في مباريات المحترفين من لاعبي الكرة والمصارعين والملاكمين؟ أم هو تلهية الجماهير عن مظالم الطغاة كما هو مشاهد من "جنون الكرة" في كثير من بقاع الأرض؟ أم هو الإعداد للقتال كما كان في روما القديمة وكما كانت النازية تصنع في التاريخ القريب؟ وحين يكون الهدف هو الإعداد للقتال فأي قتال هو؟ وفي سبيل أي شيء؟!

إنها –كما ترى– أهداف متعددة ومختلفة، وإن كانت صورة الأداء واحدة في جميع الحالات. والعبرة بالهدف لا بصورة الأداء.

والإسلام يعنى بقوة الأجسام لسببين أحدهما عام والآخر خاص. فأما السبب العام فهو الذي يبينه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير"[2], وأما السبب الخاص فهو الإعداد للجهاد في سبيل الله. والسببان يلتقيان في الحقيقة. فهذا الدين دين قوة وغلبة، وليس دين استخذاء وضعف. وقد نزل ليحكم الأرض، ويقيم فيها حكم الله، ويزيل منها الطواغيت التي تعبد الناس لها من دون الله:

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"[3].

"هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ"[4].

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ"[1].

([1]) رواه الديلمي.

([2]) رواه ابن ماجه.

([3]) سورة البقرة [143].

([4]) سورة الصف [9].

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ"[2].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً"[3].

"وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ"[4].

"أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ"[5].

ودين على هذا النحو، يعد أهله لإقامة الحق والعدل في الأرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإزالة الطواغيت من الأرض ليكون الدين كله لله لا للطواغيت.. دين كهذا يحتاج إلى قوة وإلى أقوياء.

والقوة معنى شامل، يشمل قوة الأرواح وقوة العقول وقوة النفوس وقوة الأبدان. والإسلام حريص عليها كلها في آن.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصًا على أبدان أمته أن تكون قوية صحيحة، كما كان حريصًا على أرواحهم وعقولهم ونفوسهم. وقد أوصاهم ألا يسرفوا في الطعام, وبين لهم أن المعدة بيت الداء, لتظل أجسامهم بعيدة عن الأمراض. كما أوصاهم أن يتدربوا التدريبات الرياضية العنيفة كالسباحة والرماية وركوب الخيل لتشتد أجسامهم وتقوى، وتكون عدة لهم في الجهاد.

ولكن ما الفرق إذن بين الإسلام وبين الدولة الرومانية القديمة أو بينه وبين النازية الحديثة، وقد كانت كلتاهما تدعو إلى القوة والغلبة، وتعد شبابها للقتال؟

الفرق ليس في الصورة وإنما في الجوهر. ليس في الوسيلة وإنما في الغاية.

لماذا يقاتل الإسلام، ولماذا يقاتل الكفار في القديم أو الحديث؟

([1]) سورة الأنفال [39].

([2]) سورة التحريم [9].

([3]) سورة التحريم [123].

([4]) سورة الأنفال [60].

([5]) سورة الفتح [29].

"الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ"[1].

إنه ليس القتال في ذاته، إنما السبيل والغاية. في سبيل من؟ وفي سبيل ماذا؟

لتوسيع الرقعة؟ لإرضاء الزهو؟ لاستعباد الآخرين وقهرهم ونهب خيراتهم؟ لتحقيق المصالح الخاصة؟ للتكالب على متاع الأرض؟! تلك هي الأهداف التي تقاتل من أجلها الجاهليات. وتقدم شبابها وقودًا لصراعاتها.

وتلك بالذات التي جاء الإسلام ليحاربها. ويقاتل الطغاة الذين يسخرون شعوبهم من أجلها، ويحرر تلك الشعوب من استعباد الطغاة لها، وذلك بأن يدعوهم لعبادة الله الواحد فيتحرروا لتوهم من جميع الأرباب الزائفة التي تعبد من دون الله، وفي مقدمتها أولئك الطغاة بنظمهم وتشريعاتهم التي يستعبدون بها الناس.

وأمر المسلمين أن يدعو الناس إلى الإسلام أولًا، فإن أسلموا -لله لا لهم- فقد انتهى الأمر, ولم يعد هناك قتال:

"فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"[2].

فالإسلام إذن دين دعوة أولًا. دعوة لله. فإن أبى الناس الإسلام، وأبوا الخيار الثاني وهو إعلان الخضوع لقوة الإسلام وعدم الخروج عليه أو مناوأته، فعندئذ يقاتلون. ويقاتلون لا لإكراههم على العقيدة ولكن لإقامة العدل الرباني في الأرض، المتمثل في تحكيم شريعته، والناس أحرار بعقائدهم في ظل الإسلام.

من أجل هذه الأهداف يقاتل المسلمون. لتكون كلمة الله هي العليا. لا ليكون جنس أو قوم أو أفراد من البشر هم الأعلون.

وحين يربي الإسلام أهله جميعًا -وشبابه خاصة- على القوة، بما في ذلك قوة الأبدان، فليس لينكبوا على متاع الأرض حلاله وحرامه سواء، ولا ليتكسبوا بأجسامهم في مباريات محترفة، ولا ليتلهوا عن محاربة الظلم الواقع عليهم، ولا ليطغوا به في الأرض ويظلموا، ولا لينهبوا خيرات الشعوب.. إنما يربيهم على القوة -بما في ذلك قوة الأبدان- وهو يذكرهم في

---

(1) سورة النساء [76].

(2) سورة التوبة [11].

كل لحظة أنهم عباد الرحمن، الذين يخشعون للرحمن، ويأتمرون بأمر الرحمن، كما وصفهم القرآن في آخر سورة الفرقان [63-76].

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ.. وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورِ..."

وهكذا لا تنفصل تربية الأجسام في منهج التربية الإسلامية عن تربية الأرواح، وتكون الأجسام القوية وسيلة لنشر الخير في الأرض، لا لنشر الشر والفساد. وفي ذلك يتفرد المنهج الرباني عن مناهج البشر كلها خلال التاريخ.

* * *

وقلنا هناك إن المواهب والاستعدادات بدأت تظهر، وبدأ الشاب يعتز بها وينميها.

والإسلام حريص على هذه المواهب والاستعدادات يربيها وينميها ولا يكبتها ولا يتركها تتبدد بغير طائل.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف كل موهبة من مواهب أصحابه ثم يستخدمها في خير مجالاتها، ويستخدم صاحبها حيث تكون موهبته أنفع للإسلام والمسلمين.

وذلك هو منهج التربية الإسلامية.

إن الموهبة في ذاتها طاقة يمكن أن تستخدم في سبيل الخير كما تستخدم في سبيل الشر سواء. وليست هناك موهبة شريرة بذاتها ولا خيّرة بذاتها. إنما التوجيه الذي تتلقاه هو الذي يجعلها خيرة أو شريرة.

فماذا يتوقع من منهج التربية الإسلامية إزاء المواهب والاستعدادات؟

إنه لا يكبتها لأنها موهبة ربانية. وكل ما وهب الله للبشر فهو رزق ينبغي أن ينموه ويستغلوه ويشكروا فضل الله عليهم فيه.

ولا يبددها لأن تبديد الطاقة مخالف لتعاليم الإسلام كلها ومخالف لروحه كذلك.

إنما يوجهها وجهة الخير، التي تنفع صاحبها في الدنيا والآخرة، وتنفع الناس:

"فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ"[1].

ولنأخذ مثلًا موهبة الشعر، التي يظن أن الإسلام حاربها وكرهها وكره الناس فيها، بسبب قوله تعالى: "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ"[2].

فبصرف النظر عن أن هذه الآيات نزلت في شعراء المشركين الذين كانوا يهاجمون الإسلام ويسبون الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. فإن العبرة بالنص ذاته لا بسبب نزوله. فالنص يصف سلوكًا معينًا هو في ذاته معيب ولا يستحق الاحترام أو التقدير: "فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ" "يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ".

ثم إن النص القرآني الذي بدأ بقوله تعالى: "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ.." لم يجعلها قضية عامة شاملة لا استثناء فيها. إنما استثنى منها -برغم صيغة العموم في الآية الأولى- طائفة معينة ذات سلوك آخر مختلف:

"إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا.."[3].

فتبين من النص أنه ليس الشعر في ذاته هو الملعون ولا الشعراء بجملتهم جميعًا. إنما السلوك الجاهلي بالشعر هو المذموم، والسلوك الإيماني به خارج من الذم، بل هو في مقام المديح من ظاهر ما وصف به ذلك الفريق.. ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرب إليه حسان بن ثابت (شاعر الرسول كما يطلق عليه) ويستحثه على القول، ويقول له: "قل وروح القدس معك" وهو أكبر تشجيع له وأكرم تشجيع.

فلم تكن الموهبة في ذاتها إذن، إنما طريقة السلوك بهذه الموهبة، هي التي تضعها في سجل الخير أو سجل الشر، والتي تجعلها مطلوبة ومرغوبة أو منبوذة ومذمومة.

([1]) سورة الرعد [17].

([2])سورة الشعراء [224-226].

([3]) سورة الشعراء [227].

وهنا –بالنسبة للشعر– يعرض سؤالان، نجيب عليهما لأنهما في نظرنا داخلان في منهج التربية الإسلامية:

ألا نقدر الفن ذاته كفن، بصرف النظر عن الموضوع الذي يتناوله؟!

ثم.. هل نريد الشعر –أو الفن عامة– وعظًا ودعوة إلى مكارم الأخلاق لكي نبيحه ونشجع الشاب الموهوب عليه، وإلا قتلنا موهبته وضيعناها؟

فأما الفن للفن فهي صيحة جاهلية لا يقرها الإسلام ولا يتقبلها. بل إن الشيوعية ذاتها –وهي جاهلية– قد رفضت أن يكون الفن عاريًا من الالتزام, ولكنها حددت مجال الالتزام في حدود جاهليتها وحدها، أي: الحديث عن الشيوعية وعن صراع الطبقات وعن آلام الطبقة الكادحة المسحوقة تحت ضغط الإقطاع والرأسمالية! وحرمت –مثلًا– أن يكون الحديث عن آلام هذه الطبقة من الزاوية "الإنسانية" فهذا في نظرها عبث فارغ لا يؤدي إلى شيء؛ لأن الإنسانية خرافة! إنما ينبغي أن يكون الحديث من خلال صراع الطبقات لكي يتفجر الحقد الطبقي وتثور الطبقة الكادحة, وتسحق ما عداها من الطبقات!

والإسلام يرفض أن يقيم مفاهيمه على هذه الأسس المريضة الضيقة المحدودة الآفاق، وهو الذي يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[1]. ويقول: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"[2].

إنما يكره الإسلام الظلم، ويدعو إلى إزالته، ويندد بالساكتين عليه بدعوى أنهم مستضعفون في الأرض ويسميهم "ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ" .. ولكن لا على أساس الصراع الطبقي والحقد الطبقي، إنما على أساس إنسانية الإنسان، الذي كرمه الله وينبغي أن يظل مكرمًا. والذي خلقه في أحسن تقويم, ويأبى له أن يهبط أسفل سافلين. ثم يبين المنهج الذي يتم به تحرير الإنسان من كل طواغيت الأرض. وهو عبادة الله وحده بلا شريك، وإقامة المنهج الرباني في الأرض، وهو المنهج الذي يقف للطغاة بالمرصاد..

والفن الإسلامي هو الذي يدور في فلك هذا المفهوم الواسع الشامل، الذي يأخذ الإنسان كلًّا متكاملًا كما هو في حقيقته، لا يتحدث عن معدته وحدها، ولا عن جانبه

([1]) سورة الحجرات [13].

([2]) سورة الإسراء [70].

المادي وحده. إنما عن كيانه الإنساني كله الذي يشمل جسده وعقله وروحه، ويشمل دنياه وآخرته. ويشمل علاقته بربه وعلاقته بالكون والحياة والأحياء.

وهذا شيء أضخم بكثير جدًّا من الوعظ والحديث المباشر عن مكارم الأخلاق. وأضخم من أي مفهوم فني عاشت به البشرية في أي وقت من الأوقات.

فالشاب المسلم ذو الموهبة الفنية طاقة ثمينة ينبغي الحرص عليها وتشجيعها وتنميتها. وتوجيهها لخدمة الإسلام على ذات النحو الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشجع حسان بن ثابت على قول الشعر.

ولئن كانت ظروف المعركة يومئذ قد اقتضت أن يكون شعر حسان رضي الله عنه دفاعًا مباشرًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الإسلام، وسبًّا مباشرًا للكفر والكفار، فليست هذه هي الطريقة الوحيدة للأداء في منهج الفن الإسلامي، إنما يكون الأمر أجمل من الوجهة الفنية كلما استطعنا أن نصل إلى أهدافنا ونبلغ توجيهاتنا عن طريق غير مباشر، من خلال حركة النفس البشرية في إطار الأحداث[1].

وإذا كنا تحدثنا عن الشعر والفن، فلا نحتاج أن نتحدث عن عناية الإسلام بالمواهب والاستعدادات الأخرى ذات الطابع العلمي أو العملي خاصة، فكلها طاقات يحرص عليها الإسلام، ويستخدمها المجتمع المسلم والدولة المسلمة حين يقومان، وتستخدمها الجماعات الداعية إلى الإسلام في الوقت الحاضر، لخدمة الأهداف الإسلامية في جميع ميادين الحياة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية والعملية، وفي ميدان الدعوة كذلك، وهو ميدان واسع وبالغ الأهمية، فنحن نعيش في عصر صراع الدعوات (التي يسمونها أيديولوجيات) والذي تستخدم فيه كل وسائل الدعوة الظاهرة والخفية، ويحتاج من المسلمين إلى جهد فائق لتمييز الحق من الباطل، لذات أنفسهم وللبشرية كافة.

وهنا كذلك يتميز المنهج الإسلامي عن المناهج التربوية الأخرى التي تعني عناية ملحوظة بتنمية المواهب والاستعدادات، كما رأينا تميزه من قبل في العناية بالطاقة الجسدية للشباب.

إن المواهب -كل المواهب- هي كما قلنا طاقات يمكن أن تستخدم للخير كما تستخدم للشر. وجميع الأمم والمجتمعات تعلم ذلك، ولكنها تختلف في تقدير "الخير" و"الشر" باختلاف المفهوم الذي تعيش به، وباختلاف نظرتها إلى غاية الوجود الإنساني.

([1])انظر -إن شئت- حديثًا مفصلًا في هذا الموضوع في كتاب "منهج الفن الإسلامي".

فأما إن كانت غاية الوجود الإنساني مجهولة كما يقول الشاعر الجاهلي المعاصر:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت

فكل إنسان إذن وشأنه.. والموهوب وموهبته يتصرف بها كيف يشاء! لا معيار للخير أو الشر على الإطلاق!

وأما إن كانت غاية الوجود الإنساني أن يحقق ذاته فردًا مستقلًّا قائمًا بذاته على حساب الجميع, وعلى الرغم من الجميع كما تقول وجودية سارتر[1]، لأن الوجود الإنساني كله لا غاية له, والوجود الكوني لا غاية له، فلم يبق إلا أن يحقق الإنسان وجوده الذاتي على هذه الصورة.. فالمواهب والاستعدادات كلها عبث، ولا مجال للحرص على أي شيء منها في هذه الحياة، إلا بقدر ما تعين صاحبها على سحق الوجود البشري كله لتبقى الذات المفردة لصاحبها!

وأما إن كانت الغاية هي العمارة المادية للأرض والاستمتاع بما فيها من متاع بصرف النظر عن حرامه وحلاله وحقه وباطله، كما هو شأن الجاهلية المعاصرة في عمومها، فستحدث تنمية هائلة للاستعدادات والمواهب في جميع الاتجاهات -والعملية خاصة- ولكن على ذات الأساس الذي لا يفرق بين الحلال والحرام والحق والباطل، وستستخدم الاستعدادات والمواهب على نطاق واسع في خدمة الصراع الجبار الذي يحدث بين الأفراد والجماعات والدول والشعوب، التي تتصارع كلها على متاع الأرض، ويسعى بعضها إلى سحق بعض! وتكون المواهب والاستعدادات كلها -أو جلها- في خدمة الشيطان، كما تستخدم الطاقة الذرية في التخريب والتدمير، وكما تستخدم حبوب منع الحمل لإشاعة الفاحشة في الأرض، وكما يستخدم فن الصورة المتحركة في إفساد الأخلاق وحل الروابط البشرية في السينما والتليفزيون، وكما يستخدم "العلم" كله -حتى النافع منه- في إفساد العقيدة وصرف الناس عن عبادة الله، بدعوى أن الإنسان قد شب عن الطوق ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله!

أما في منهج التربية الإسلامية فتنمي المواهب والاستعدادات لتخدم غاية الوجود الإنساني كما حددها الله خالق الإنسان:

---

(1) انظر مسرحيته "الجحيم هو الآخرون".

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[1].

على المعنى الواسع الشامل للعبادة الذي لا ينحصر في شعائر التعبد كما صار في حس الأجيال المتأخرة من المسلمين، إنما يشمل الحياة كلها بكل فكرها وشعورها وسلوكها, كما فهمت الأجيال الأولى من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم من توجيهات القرآن وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم:

"قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ"[2].

فهي تشمل الخلافة في الأرض، وتشمل عمارة الأرض ولكن على منهج الله.

ليست العمارة المادية وحدها هي المطلوبة من الإنسان ليحقق وجوده الصحيح في الأرض. إنما هي العمارة على أساس من القيم والمبادئ التي تليق بالإنسان. على أساس إقامة الحق والعدل الربانيين في واقع الأرض. ومن ثم يكون المتاع محكومًا بمعيار الحق والباطل والحلال والحرام، الذي هو معيار الدنيا والآخرة في ذات الوقت.

وفي خدمة هذا المنهج الواضح المفصل في الكتاب والسنة، تنمي المواهب والاستعدادات في منهج التربية الإسلامية، فتكون ذات هدف خير واضح، وتكون في خدمة الله لا في خدمة الشيطان.

ولقد نحتاج أن نتعلم من الجاهلية المعاصرة وسائلها البارعة في تنمية الاستعدادات والمواهب، وهي وسائل بارعة حقًّا، ما دام الخط قد انقطع بيننا وبين واقعنا التاريخي الذي كانت فيه الأمة الإسلامية أبرع أمة في الأرض وأحسنها استخدامًا لمواهب أبنائها واستعداداتهم الفطرية.. ولكن الذي يحدث حين نرسل أبناءنا ليتعلموا في معاهد الغرب وجامعاته وسائل تنمية هذه الاستعدادات، أنهم لا ينقلون الوسيلة وحدها كما ينبغي أن يحدث، إنما ينقلون الوسيلة ملفعة بالغاية، فيختلط الخير بالشر -ويغلب الشر- لأن أبناءنا هؤلاء -حين يعودون- يعجزون عن استخلاص الوسيلة وحدها وتطويعها لأهداف أخرى من عند أنفسهم. لأننا نرسلهم -في الحقيقة- وليست لهم أهداف ذاتية ولا منهج ذاتي يفكرون به ويسلكونه، لأننا -في حقيقة الواقع- لا نعيش الإسلام منهج حياة، فلا نملك ما نتميز به عن الجاهلية السئدة في الأرض!

([1]) سورة الذاريات [56].

([2]) سورة الأنعام [162-163].

ولقد كانت أوربا في بدء نهضتها ترسل أبناءها ليتعلموا العلم في مدارس المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وغيرها من أماكن الحضارة الإسلامية، فيتعلمون الوسائل وحدها ويرفضون أن يأخذوا معها أهدافها الإسلامية وهي الحق المنزل من عند الله، ويصرون -يومئذ- على باطلهم، الذي كفروا به اليوم فأسلمهم إلى الضياع. أفنكون نحن على هذه الدرجة من الهوان فنعجز عن فصل الوسائل عن الغايات المنحرفة التي تتلفع بها، ونصر على أن نتبع أوربا في طريق ضياعها, ونحن نملك الحق المنزل من عند الله؟!

* * *

وتحدثنا عن النمو النفسي الذي ينقل اهتمامات الشاب من محيطها الضيق الذي كان يعيش فيه في طفولته ومراهقته، إلى نطاق واسع يشمل المجتمع الذي يعيش فيه، والمجتمع البشري كذلك.

ومنهج التربية الإسلامية يستوعب هذا النمو النفسي ويوجهه وجهة الخير على خطى المنهج الرباني المنزل من عند الله.

إن المنهج الرباني يدعو إلى ترابط المجتمع، بل الأمة الإسلامية بأسرها، فيحدث المؤمنين بأنهم إخوة:

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ"[1].

ويحدد هذه الأخوة تحديدًا واضحًا. إنها الأخوة في العقيدة. إنها ليست رابطة الدم ولا الجنس ولا اللغة ولا القوم ولا الأرض ولا المصالح المشتركة، ولا أي آصرة مما تقيم عليه الجاهليات روابطها في القديم أو الحديث. إنما يكون لهذه الروابط كلها وزن حين تكون قائمة في ظل العقيدة:

"وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ"[2].

أما في غير العقيدة فكلها روابط منبتّة ومحرّمة:

([1]) سورة الحجرات [10].

([2]) سورة الأنفال [75].

"قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"[1].

وليس معنى هذا هو العداء للبشرية:

"لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"[2].

فالعقيدة محور الحياة، ومحور الحركة، ومحور المشاعر، ومحور السلوك.

والولاء هو للمؤمنين:

"إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ"[3].

ومن هنا يوجَّه الشباب في المنهج الإسلامي إلى أن يكون ولاؤهم لجماعة المؤمنين، وأن تكون مشاعرهم نحو البشرية كلها بحسب موقف هذه البشرية من دين الله ومن المؤمنين.

أما داخل الجماعة المسلمة فهذه هي التوجيهات والتعليمات التي يتربى عليها الشباب [وغير الشباب بطبيعة الحال!]:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ

(1) سورة التوبة [24].
(2) سورة الممتحنة [8-9].
(3) سورة المائدة [55].

الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ"[1].

وعلى المربي أن يتابع ترسيخ هذه الأخلاقيات حتى تصبح عادة. وتصبح دستورًا داخليًّا يتصرف الشاب بمقتضاه تلقائيًّا كلما عرض موقف من المواقف المذكورة في تلك الآيات. ويحتاج الأمر إلى تذكير مستمر حتى ترسخ هذه العادة. ويكون عدم الترحيب وإظهار الاستنكار والامتناع عن الاستماع، من وسائل الصد عن الوقوع فيما نهى الله عنه من السخرية والغمز واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن بغير تأكد والتجسس والغيبة والنميمة. إلخ. وهكذا تشكل مشاعر الولاء على صورتها السليمة التي يريدها الإسلام.

ثم إن من علائم الأخوة ووسائلها التكافل في المجتمع المسلم بين القادرين وغير القادرين. وهذا أيضًا يحتاج إلى توجيه وإلى تعويد. والقدوة أمر عظيم الأثر في ذلك. فحين يرى الشاب –منذ كان طفلًا ومراهقًا– أن أبويه –إن كانا من القادرين– يقومان بكفالة المحتاجين ممن يعرفونهما فإن هذا سيؤثر في نفسه ويعوده على مشاعر التكافل.

والإسلام لا يقصر التكافل على المال. وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يشير إلى ألوان من التكافل غير المال:

"إن أبواب الخير لكثيرة. التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتميط الأذى عن الطريق وتسمع الأصم وتهدي الأعمى وتدل المستدل عن حاجته. وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف"[2].

ثم هناك التعاون:

"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"[3].

والتعاون يحتاج إلى تربية، تبدأ منذ الطفولة وتأخذ حيزًا أكبر في فترة المراهقة. ولكن مجالها الأوسع هو فترة الشباب، لأنها الفترة التي يتجه فيها الشباب من ذات نفسه إلى

---

(1) سورة الحجرات [11-12].

(2) رواه ابن حبان والبيهقي.

(3) سورة المائدة [2].

التكتل والتجمع، والتي يملك فيها في الوقت ذاته القدرة الجسمية والنفسية والعقلية التي تجعل التعاون مثمرًا وملموس الفائدة.

وغرس التعاون يحتاج إلى التركيز على خط الغيرية الذي ينمو من تلقاء نفسه في تلك الفترة، وضبط الخطوط الأخرى التي تعاكسه. وهي موجودة في الفطرة وجودًا تلقائيًّا، ولا ضير منها في صورتها العادية، ولكنها عرضة للتضخم المنحرف إن لم توجه التوجيه السليم. وأبرز الخطوط التي تعاكس خط الغيرية حين تنحرف هو شعور الإنسان المتضخم بذاته. ومثل هذا الشخص لا يتعاون مع الآخرين، لأنه يتوقع من الآخرين أن يخدموه لا أن يقوم هو بخدمتهم! وغالبًا ما يكون هذا الشخص قد مرد على انحرافه هذا منذ الطفولة بأن كان طفلًا مدللًا يسارع أبواه إلى إجابة طلباته المعقولة وغير المعقولة، ويحيطانه باهتمام زائد يضخم تمركزه الطبيعي حول ذاته ثم تجيء فترة المراهقة فالشباب فتزيد انحرافه تضخمًا.

وحب السيطرة كذلك مما يفسد الغيرية ويفسد القدرة على التعاون، وهو لون منحرف من ألون إثبات الذات، يدفع صاحبه إلى الإحساس بأنه ليس في مستوى الآخرين وإنما أعلى منهم، ومن ثم فلا ينبغي أن يتعاون معهم، وإنما يأمرهم ليطيعوا!

وواجب المربي أن يصلح هذه الانحرافات حتى وإن كانت نبتت في مرحلة الطفولة, ولم تقوم في موعدها المناسب هناك. ففترة الشباب الباكر بخصوبتها الفائقة صالحة لتقويم ما لم يقوم من قبل، بتنمية الاتجاهات السليمة ذات الجذور الموجودة في أصل الفطرة.

ويملك المربي -وخاصة في المدرسة- وسائل كثيرة لتقويم هذه الانحرافات إن كانت موجودة، ولتنمية القدرة على التعاون الجماعي المثمر. وحياة المعسكرات من أنجع وسائل التربية في هذا الشأن -والشباب يحب المعسكرات بطبيعته- فإنه لا يمكن أن يظل شاب على جموده أو عزوفه حين يرى الباقين كلهم يقومون بالأعمال المطلوبة منهم في المعسكر. إنما يخجل من موقفه ويضطر ولو كارهًا في مبدأ الأمر أن يعمل.. حتى يتعود أن يعمل بغير تضجر ولا كراهية. وسيجد الآخرين -وهم زملاء على نفس الدرجة ونفس المستوى- يقدمون له الخدمات فيستحي ألا يقدم لهم الخدمات بدوره. وهكذا يتعود على التعاون حتى يصبح سجية فيه.

وحب الرياسة والسيطرة يمكن علاجه كذلك في تلك الفترة, حتى وإن كان الشاب قد مرد عليه من أيام الطفولة أو المراهقة، وليس من الضروري أن تكون وسيلة العلاج هي التحطيم! فهذه آخر الوسائل جميعًا، حين تفشل الوسائل "السلمية" كلها في العلاج! إنما أنجع الوسائل هو أن يعهد إلى مثل هذا الشاب بتحمل المسؤولية. مسؤولية حقيقية جادة،

ويكون مسؤولًا عنها أمام المربي الذي يتولى الإشراف عليه. عندئذ سيحس أن المسألة ليست هي "المريسة" الفارغة إنما هي القيام بالمسؤولية على وجهها الأكمل الذي لا يعرضه للوم، ولا يعرض ذاته التي يعتز بها للحرج. وبذلك يصل المربي إلى هدفين طيبين بإجراء واحد، هما ضبط هذا الشعور المنحرف وتقويمه، وتعويد الشاب كذلك على تحمل التبعات. وكلاهما خير.

أما الشاب الذي يحجم عن التعاون مع الآخرين بسبب انطوائه على نفسه وعزلته فينبغي تشجيعه تدريجيًّا على الخروج من عزلته ومشاركة زملائه حتى يأنس إلى ذلك ويتعود عليه.

ومن وسائل الترابط في المجتمع المسلم كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن في مودة ورفق، وبدافع حب الخير للآخرين لا بدافع التعالي عليهم وتجريحهم وإحراجهم.

فالمجتمع الذي لا يأتمر بالمعروف ولا يتناهى عن المنكر مجتمع ملعون عند الله:

"لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"[1].

والجاهلية المعاصرة أسوأ مثل في هذا الشأن. فهم لم يقفوا عند حد عدم التناهي عن المنكر، الذي استحق اللعنة عند الله، إنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك فأصبح المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، وهي الدرجة التي تؤذن بالبوار والدمار فوق اللعنة. وهذا هو المصير المحتوم لهذه "الحضارة! " ما لم يغيروا ما بأنفسهم.

ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محكوم بشروط من جانب آخر. فلا يجوز أن ينتهي إلى التنابز المنهي عنه، ولا إلى السخرية المنهي عنها كذلك، ولا إلى التجسس، ولا إلى إساءة الظن بغير دليل. إنما هي النصيحة المخلصة والمودة والرفق، وعدم التشهير وعدم الإحراج. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحاشى أن يذكر شخصًا بعينه في مجال الإنكار بل يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، حتى ينبه الفاعل دون التشهير به على الملأ، لأنه يعلم صلى الله عليه وسلم أن التشهير على الملأ يحرج صدر المشهر به, ولا يجعل كلمة النصيحة والتوجيه تأخذ مكانها الصحيح عنده.

---

(1) سورة المائدة [78-79].

والمربي الحكيم يربي أبناءه على هذا الخلق الإسلامي بإعطاء القدوة من نفسه أولًا، وبالتوجيه والتذكير والتعويد.

وينبغي أن نذكر بصفة عامة أن التنمية النفسية الصحيحة لا تتم في كيان فرد يعيش بمفرده في عزلة عن الآخرين، وفي هذه الفترة بالذات.

فأما أنها لا تتم في كيان فرد بمفرده فلأنها مبنية أساسًا على "الغيرية". على التعامل مع الغير والترابط والتلاحم والتعاون. فهي -بطبيعتها- أمور جماعية، تحتاج إلى الوجود في جماعة والتعامل مع هذه الجماعة. وإلا فإنها تصبح أمورًا نظرية لا رصيد لها من الواقع، وتخيب حين تصطدم بالواقع!

كيف يتدرب الشاب على الأخوة، إذا لم يمارس الأخوة بمشاعرها الحقيقية مع "الإخوة" الذين يربطهم به هذا الرباط؟

كيف يتدرب على التعاون إذا لم يقم بهذا التعاون بالفعل مع أفراد آخرين؟

كيف يتعود أن يؤثر على نفسه إن لم يكن هناك إلا نفسه؟

إن الوجود في جماعة هو الذي ينمي هذه المشاعر, وهذه الألوان من السلوك، ثم إنه هو الذي يبرز للمربي ما فيها من نقص يحتاج إلى توجيه أو تقويم. والشاب الذي يتربى في عزلة عن الآخرين -وإن حاول أن يستقيم على المنهج السليم- تنمو بعض جوانب نفسه, وتظل جوانب أخرى ضامرة؛ لأنها لا تعمل، وقد تكون -في ضمورها- منطوية على كثير من العيوب الخفية، التي تنكشف لا محالة عندما تضطره الظروف أن يعيش في مجتمع، أو قد تكون -من عدم الممارسة- عاجزة عن العمل، ومن ثم تعرض صاحبها للفشل.

لذلك فلا بد من وجود جماعة..

فأما إن كانت الدولة مسلمة والمجتمع مسلمًا فالأمر سهل، لأنه لا يزيد على وضع الشاب في مجموعة من زملائه في شكل "أسرة" مترابطة، يتعهدها المشرف عليها بالمعايشة والمصاحبة والملاحظة والتوجيه. ويقوم معها برحلات بين الحين والحين، ويقيم معها بعض المعسكرات التي يتدربون فيها على العمل والتعاون، ويلتقي معها في دروس مستمدة من القرآن والحديث والسيرة النبوية وسير الصحابة رضوان الله عليهم، تكون كلها مجالًا للتربية والتوجيه المباشر وغير المباشر، مع القيام بشعائر التعبد في مناسباتها، فتقام الصلاة جماعة، ولا بأس من تناول "الأسرة" طعام الإفطار في رمضان معًا في بعض الليالي وإحيائها بالذكر

والعبادة وتلاوة القرآن مع صلاة القيام؛ حتى تكون ليالي عبادة متميزة تترك طابعها في الوجدان. كما تتزاور الأسرة وتتعاون على القيام ببعض الخدمات الاجتماعية التي تدخل في نطاق إمكانهم.. إلى أمثال هذه الألوان من النشاط التي تطبع النمو النفسي بالطابع الإسلامي الصحيح.

وأما حين نفتقد الدولة المسلمة والمجتمع المسلم اللذين يقومان بهذا التوجيه بل نجد بدلًا من ذلك التشجيع والإغراء على قيام "ثلل"[1] من الشباب تتسكع في الطرقات لمعاكسة المارين والمارات، أو تتجمع للعب الورق ولعب القمار، أو تذهب جماعة إلى أماكن اللهو والفساد والعبث والمجون، أو تقتضي وقتها في تفاهات فارغة تكره الجد وتنفلت منه، أو تتحلق حول التلفزيون الساعات الطوال حول مسرحية عابثة أو فلم هابط.. إلى أمثال هذه الألوان من النشاط التخريبي الذي يخرب بنية النفس ويحل روابطها..

عندئذ لا مناص من أن تقوم الجماعة التي تنذر نفسها للدعوة بتربية الشباب التربية الإسلامية الواجبة. ولن يكون لها سلطان بطبيعة الحال على الشباب كله، ولن تمنع سبيل الفساد في المجتمع من أن يجري مجراه ما دامت الدولة تيسر له وتشجع عليه بوسائل إعلامها ونظامها كله، ولكنها ستستخلص الفئة النظيفة من الشباب من أن يجرفها التيار الجارف، وتكون منطقة جذب دائم لمزيد من الشباب الراغب في الخروج من الحمأة الدنسة والتطهر من أرجاس الجاهلية.

ولن ترضى الجاهلية بطبيعة الحال عن هذه الجماعة، ولن يرضى "الملأ" المسيطرون على الجاهلية بوجود فئة متطهرة بين ظهرانيها، فتتصايح عليها كما تصايحت الجاهلية من قبل: "أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ!!"[2] وتتصدى الجاهلية للجماعة تريد الفتك بها، ويقع الابتلاء، ويقع في الطريق شهداء، ويعذّب معذّبون.. ويتربى الشباب في داخل المحنة، في البوتقة التي تصهر النفوس والمشاعر كما تصهر الأجساد بالعذاب.. وتتم سنة الله:

"أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ"[3].

([1]) ثلل جمع ثلة، وهي التي يسمونها في اللغة الدارجة "شلة" ومعنى ثلة في الفصحى المجموعة القليلة كما في قوله تعالى: "ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ".

([2]) سورة الأعراف [82].

([3]) سورة العنكبوت [2-3].

ويتم التمحيص الذي يعقبه التمكين حسب سنة الله:

"..وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ"[1].

ويتم تأهيل أهل الجنة للجنة حسب سنة الله:

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ"[2].

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"[3].

* * *

وتحدثنا قبل عن النمو العاطفي في مرحلة الشباب الباكر.

والتربية الإسلامية معنية بالنمو العاطفي عنايتها بكل أنواع النمو في الكائن البشري.

إن العواطف ليست "شأنًا خاصًّا" لصاحبها كما تعلن الجاهلية المعاصرة، ومن ثم يقع في دائرة "حريته الشخصية" أن يتصرف بها كما يشاء!

إن هذه الجاهلية -لغاية في نفس "يعقوب"- تطلق "الحرية الشخصية" للإنسان ابتداء من فترة المراهقة, ثم خاصة في فترة الشباب، لتحطم بها مقدسات البشرية كلها من عقيدة وأخلاق، بينما هي تضيق كل التضييق على هذه الحرية الشخصية في المجال الذي كان ينبغي أن تطلق فيه!

فالدين والأخلاق، والتقاليد الاجتماعية، والزواج، والأسرة.. كل هذه نهب مباح للحرية الشخصية تقتحمها اقتحامًا وتلتهمها التهامًا ولا تذر فيها شيئًا قائمًا على أصوله.

([1]) سورة آل عمران [140-141].

([2]) سورة آل عمران [142].

([3]) سورة البقرة [214].

أما حين تمس مصالح الرأسمالية في الغرب، أو تمس مصالح الحزب الشيوعي الحاكم أو اللجنة التنفيذية العليا أو الزعيم المقدس في الشرق، فهنا تخرس الألسنة المدافعة عن الحرية الشخصية أو تخرس، وتتسارع الأنظمة والتشريعات وأجهزة السلطة في تأديب المعتدي الأثيم الذي سولت له نفسه ما سولت، وقد لا ترضى في تأديبه بأقل من الإعدام! ويقال عندئذ إنه اعتدى على "الصالح العام"!!

والإسلام يحترم العواطف البشرية -كلها على إطلاقها- ولكنه لا يقبل لها أن تطغى وتتجاوز الحد..

عواطف الأم لابنها والأب لابنه، وعواطف الولد لوالديه، وعواطف الجنس، وعواطف الإخاء والزمالة, والعواطف الاجتماعية، والعواطف الإنسانية.. كلها عواطف عميقة في الفطرة، وكلها لها وزنها وتقديرها في دين الفطرة.

بشرط واحد، هو ألا تطغى وتتجاوز الحد..

والذي يرسم الحد هو الله.. ومن غيره يملك هذا الحق؟

"أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ"[1].

فمن كونه سبحانه وتعالى هو الخالق، فهو الآمر. ولا يحق لكائن من كان أن يكون له "الأمر" حتى يكون خالقًا مثل الله!

كذلك لأنه هو سبحانه "العليم الحكيم" فهو الذي يعلم ما يصلح لهذه الفطرة وما يصلحها، ويعلم الحدود التي ينبغي أن يقف عندها الإنسان فلا يتعداها أو لا يقربها:

"تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا"[2].

"تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا"[3].

---

(1) سورة الأعراف [54].

(2) سورة البقرة [229].

(3) سورة البقرة [187].

ولا يحق لكائن من كان أن يكون له الأمر حتى يكون عليمًا حكيمًا مثل الله، يعلم حقيقة خلق الإنسان وحقيقة نفسه، وحقيقة ماضيه وحاضره ومستقبله إلى أن تقوم الساعة وبعد أن تقوم الساعة.

فإن لم يكن هناك من أحد يخلق مع الله، أو يعلم علم الله ويملك حكمته، فليس من حق أحد أن يكون له الأمر.. أن يقول هذا حلال وهذا حرام. هذا حسن وهذا قبيح. هذا مباح وهذا غير مباح.. إلا بإذن من الله، وإلا فهو الشرك واتخاذ الشركاء من دون الله:

"أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ"[1].

أما المؤمنون فهذه سبيلهم:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..."[2].

فكل ما أحله الله ورسوله فهو حلال, وكل ما حرمه الله ورسوله فهو حرام.. وكذلك المستحب والمكروه والمباح.. المرجع فيها هو الله والرسول. وحتى ما يجتهد فيه البشر فهم يجتهدون فيه بإذن من الله وإلا ما حق لهم الاجتهاد.

وقد كلف الله الوالدين رعاية ولدهما وهدايته إلى الإسلام. فتلك هي الحدود التي تدور فيها عواطفهما نحوه، ملتزمة بأمر الله. فلا يجوز لهما أن ينشئاه على الكفر، أو ينشئاه بلا دين ولا أخلاق كما تفعل الجاهلية المعاصرة.

وكلف الأبناء أن يرعوا حق الوالدين وأوصاهم بهما خيرًا وإحسانًا والأم بصفة خاصة. فتلك هي حدود عواطف الأبناء للآباء. فلا يجوز لهم أن يهجروا آباءهم –وخاصة في شيخوختهم– كما يفعل الأبناء في تلك الجاهلية، حيث لا يعرف الولد ولا البنت أبويهما منذ يخرجان في سن الشباب، ولا يكلفان نفسيهما الإنفاق عليهما ولو كانا معوزين وكان الأولاد من أصحاب الملايين!

وأحل الله عواطف الجنس، وأشار إليها على أنها آية من آيات الله:

---

(1) سورة الشورى [21].

(2) سورة النساء [59].

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[1]. ولكنه اشترط أن تكون حلالًا طيبًا، لا سفاحًا ولا فاحشة ولا اتخاذ أخدان كما تفعل الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة:

"وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ"[2].

"مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ"[3].

فليس في الإسلام كبت لعواطف الجنس، وليس فيه حجر على الشباب أن يحس بها، والمنهج الرباني المتكامل -حين يطبق في واقع الأرض- لا يجعل الجنس مشكلة كما أشرنا في الفصل السابق، ولا يجعله أزمات بالنسبة للشباب، ولا يجعله أمرًا يتلف الأعصاب ويرهق المشاعر. إنما يجعله أمرًا طبيعيًّا سهلًا ميسرًا مثمرًا مباركًا ينشر في المجتمع السعادة والخير والنماء.

أما حين تعقد الجاهلية الأمور -كما وضح "ول ديورانت" في كتابه- وتسد كل الطرق النظيفة وتفتح كل أبواب الدنس الفاحش، فهي التي تصنع الأزمة بأيديها للشباب، ثم تروح تتظاهر بالعطف عليهم والسعي إلى حل مشكلاتهم النفسية والعصبية، بمزيد من سعار الجنس المجنون!! وتصف ألسنتهم الكذب فتقول إن الدين هو المسؤول عن الأزمة! والآن أصبحت أوربا بلا دين، ولم تعد هناك قيود البتة على النشاط الجنسي، سويِّه وشاذِّه سواء.. فما بال المصحات العقلية عامرة بالمجانين، وما بال العيادات النفسية تزخر بالزائرين؟!

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[4].

أما عواطف الإخاء والزمالة والعواطف الاجتماعية فقد رأينا كيف يحتفي الإسلام بها ويوجه إليها ويربي عليها. ولكن بشرط. هو أن تكون كلها في إطار الإسلام. فكلها عواطف ولاء. وولاء المؤمن محدد بالمؤمنين بعد الله ورسوله:

---

(1) سورة الروم [21].
(2) سورة النساء [24].
(3) سورة النساء [25].
(4) سورة الأعراف [96].

"إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا.."[1].

فلا ولاء لفرد أو مجتمع لا يؤمن بالله، وعلامة الإيمان هي التحاكم إلى شريعة الله:

"فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"[2].

ولا يعرف الإسلام أوثانًا تعبد من دون الله، يكون اسمها الوطنية أو القومية أو ما شابه ذلك من الأسماء، لا تكون داخلة في إطار الإسلام، أي: في إطار التحاكم إلى شريعة الله. إنما تكون هذه العلاقات كلها مباحة - بل مطلوبة أحيانًا- في ظل تلك المظلة الكبرى وهي الإيمان بالله والتحاكم إلى شريعة الله، ومحرمة ومبتوتة في خارجها، في إطار هذين التوجيهين الربانيين:

"قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"[3].

"وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ"[4].

فالتوجيه الأول يبت كل الصلات التي يراها علم الاجتماع "الجاهلي" هي الروابط التي تقوم عليها الأمة. من روابط الدم والأرض والمصالح المشتركة.. إلخ، إذا لم تكن قائمة على العقيدة.

والتوجيه الثاني -في ظل العقيدة المشتركة- يجعل بعض الروابط أقرب وأوثق من بعضها الآخر، لأن لها ظروفًا طبيعية تجعلها كذلك، ولأنها -في صورتها تلك- لن تكون حواجز تحجز بين بعض المسلمين وبعض، أو تقيم بينهم العداوة والبغضاء والنفور والقطيعة..

---

(1) سورة المائدة [55].

(2) سورة النساء [65].

(3) سورة التوبة [24].

(4) سورة الأنفال [75].

وبهذه المعايير الحاسمة يضبط الإسلام عواطف المؤمنين ضبطًا محكمًا فلا تتميع ولا تتذبذب في قضية خطيرة تقوم عليها كل حياة الدنيا وكل حياة الآخرة، وهي أن يكون الدين كله لله ولا يكون لله فيه شركاء.

والإسلام يوعّي شبابه وأبناءه جميعًا لكي لا تأكلهم الدعوات الزائفة، ولا تخدعهم الشعارات الجوفاء، ولا تستهويهم الدعايات الكاذبة سواء للمبادئ أو الأشخاص. إنه يمنحهم المحك الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والخير والشر.. إنه صدق التحاكم إلى شريعة الله:

"وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ"[1].

وكل الدعوات الزائفة التي تلتهم الناس في الجاهلية -والشباب بصفة خاصة- لا اعتبار لها ولا وزن عند المسلم الذي يتربى على منهج التربية الإسلامية، لأنه يزنها بميزان الله -الإسلام- فلا يجدها ذات وزن!

وحتى حين تتلبس هذه الدعوات بالإسلام فإنها لا تخدع المسلم الحق -أو لا ينبغي أن تخدعه- لأن كتاب الله يحمل إليه توعية كاملة في هذا الشأن.. شأنه في كل أمر من أمور الحياة الأساسية:

"وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"[2].

والذين يقولون في دعاواهم: نأخذ من الإسلام كذا، ومن الديمقراطية كذا، ومن الاشتراكية كذا.. ونظل مسلمين، يقول الله في أمثالهم:

---

(1) سورة النور [47-52].

(2) سورة المائدة [49-50].

"أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"[1].

وهكذا تنضبط مشاعر المسلم وعواطفه، وتنضبط حركته كذلك في خضم التيارات.

* * *

وتعنى التربية الإسلامية كذلك بالنمو العقلي الهائل الذي يحدث في هذه المرحلة من العمر.

والعلم من الوسائل المعينة على تغذية العقل ولا شك. ووقت أن كان المسلمون مسلمين حقًّا كانوا هم أهل العلم في الأرض. وكانت أوربا تتعلم وتتثقف في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم. وكان الأوربيون يترقون في وظائفهم ومكانتهم الاجتماعية والفكرية والعلمية –في بلادهم– بمقدار ما نهلوا من العلم في مدارس المسلمين!

ولكن هناك ما هو أهم من العلم في الحقيقة، وهو منهج التفكير. لأنه هو الذي يولد العلم والثقافة وطريقة النظر في الأمور.

ويقول المنصفون من أهل الغرب –وما أقلهم! – إن أهم ما تعلمته أوربا من المسلمين في بدء نهضتها هو المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي بنت عليه أوربا كل تقدمها العلمي فيما بعد.

والمنهج التجريبي في البحث العلمي هو بلا ريب نتاج الإسلام والتوجيه الإسلامي للعقل البشري. فقد كان المنهج –قبل المسلمين– هو منهج اليونان العقلي الفلسفي، الذي يكتفي بالإثبات العقلي وحده، ويعتبر القضية صحيحة إن صحت في الذهن، بصرف النظر عن موضعها من الواقع! فجاء الإسلام بتوجيهاته وتطبيقاته فحول العلم إلى مجراه التجريبي الواقعي.

ثم إن للإسلام منهجًا للنظر في الأمور، هو المنهج العقلي المتجرد من الهوى وشهوة النفس، المنضبط في الوقت ذاته بالوحي. وهذا المنهج هو الذي أخرج تلك الثروة الهائلة المتمثلة في الفقه الإسلامي وأصوله. وهي من أضخم الثروات البشرية في التاريخ، ومن أكثرها دلالة.

---

(1) سورة البقرة [85].

وقد انقطع الخيط اليوم أو كاد بين حاضرنا الضائع وهذا الماضي المجيد الذي يحمل تلك الثروة الفكرية الهائلة. وصرنا إذا أردنا أن نتعلم المنهج التجريبي أرسلنا أبناءنا إلى الجامعات الغربية، وإذا أردنا أن نتعلم منهج النظر –حتى في أخص شؤون ديننا وهو الشريعة الإسلامية واللغة العربية –أرسلنا أبناءنا للمستشرقين!!

وإرسال أبنائنا إلى الجامعات الغربية لتعلم المنهج التجريبي في البحث العلمي ضرورة لا محيص لنا اليوم عنها، إلى أن نسترد حاستنا العلمية التي فقدناها حين فقدنا حقيقة الإسلام في حياتنا وفي نفوسنا. ولا ضير علينا من ذلك إذا أخذنا احتياطاتنا لكي لا ينجرف شبابنا في لوثة الجاهلية الجارفة هناك. وذلك بألا نرسل إلا الشباب الذي نثق بإسلامه، بعد توعية كاملة بحقيقة الإسلام وحقيقة الجاهلية التي سيقابلونها، وأن يكونوا –زيادة في أسباب الوقاية– من ذوي الخبرة بالحياة ومن المتزوجين حتى لا يجرفهم تيار الفساد ولا يخطف أبصارهم البريق الخاطف الخاوي من الرصيد الإنساني الحقيقي.

أما إرسال أبنائنا إلى المستشرقين ليتعلموا اللغة العربية والشريعة على أيديهم فعجيبة من عجائب "المسملين!" في هذا العصر، لا يفسرها شيء إلا الخواء العقيدي الذي يعيشونه، والذي حولهم إلى ذلك الغثاء الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: "بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل"[1].

فما يأخذ أحد أمور دينه من أعداء دينه إلا أن يكون من غثاء السيل الذي تحدث عنه رسول الله، حتى لو كانوا يملكون منهجًا حقيقيًّا في النظر، ومنهجهم في النظر إلى الإسلام معروف. لا يمت إلى "العلم" بصلة على الإطلاق، إنما هي الرغبة في التجريح والتشويه وإلقاء الشبهات[2].

وواجب التربية الإسلامية على أي حال هو العودة بالشباب إلى معينهم الأصلي, يربون عليه منهج تفكيرهم ويغذون به عقولهم. العودة إلى الكتاب والسنة وكتب الفقه والأصول. حتى الذين يتعلمون الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والرياضيات.. فهم في حاجة جميعًا إلى أن يكون لديهم منهج فكر سليم.

([1]) أخرجه أبو داود.

([2]) انظر إن شئت كتاب "المستشرقون والإسلام".

والمسلم يتربى على تمحيص الحقيقة, والتجرد لها وعدم التأثر بمقررات سابقة ولا مقررات ذاتية لا برهان عليها، ولا بمجرد الظن:

"وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا"[1].

"وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ"[2].

"وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا"[3].

وحين يتربى المسلم على هذا النحو لا يتعرض للاستهواء للباطل، وهو -كما قدمنا- من أشد ما يتعرض له الناس في مرحلة الشباب الباكر, حين لا يكون لديهم الميزان الصحيح الذي يزنون به الأمور، فتستهويهم المبادئ الزائفة والأشخاص الذين أوتوا القدرة على الخداع والتضليل.

إن "الانقياد" خط من خطوط الفطرة كما أشرنا في هذا الكتاب وفي الكتاب الأول، من منهج التربية الإسلامية، ونحن نتحدث عن الخطوط المتقابلة في النفس البشرية، ومن بينها خطّا السلبية والإيجابية.

وقد جعل الله هذه القابلية للانقياد في أصل الفطرة، لينقاد الصغير إلى مربيه، ولينقاد الكبير إلى تعاليم ربه، وينقاد الناس لأولي الأمر (المؤمنين) فتستقيم الأمور في الأرض. ولو لم يكن في النفس البشرية هذه القابلية للانقياد ما تم شيء من هذا كله، وما استقامت الأمور في حياة الناس.

ولكن خط الانقياد -ككل خطوط النفس البشرية- عرضة للانحراف حين لا يتلقى التوجيه الصحيح. والشيطان -وأولياء الشيطان- يستخدمون هذا الخط ليبعدوا الإنسان عن الانقياد لله, أي: عن "الإسلام" وهو إسلام النفس كلها لله؛ فينقاد للشيطان.

ومنهج التربية الإسلامية يركز على هذا الخط الخطير من خطوط النفس البشرية؛ ليقومه ويصحح مساره، بحيث يكون الانقياد لله, ولما جاء من عند الله، وليحصِّن الإنسان -

(1) سورة الإسراء [36].

(2) سورة المؤمنون [71].

(3) سورة النجم [28].

والشباب خاصة- من الاستهواء لصيحات الباطل مهما كانت مزخرفة بمعسول القول. وهو منهج عقلي ونفسي في آن واحد. فالاستهواء في الحقيقة عملية مشتركة بين العقل والعاطفة. وتقويمها يحتاج إلى جهد في الجانبين معًا في آن واحد. جهد لتربية العقل على منهج سليم للنظر، وتربية النفس على الانضباط وعدم الانسياق وراء العواطف الجامحة. ومن أجل ذلك تحدثنا عن الاستهواء مرتين: مرة ونحن نتحدث عن النمو النفسي في أول الفصل، وهنا ونحن نتحدث عن النمو العقلي.

إن الجماعات والهيئات والأحزاب والتكتلات -كما أشرنا آنفًا- تستغل قابلية الشباب للاستهواء العقلي من ناحية، وحماستهم العاطفية وقابليتهم للاستهواء العاطفي من ناحية أخرى، لتحشرهم في زمرتها وتستخدمهم في تحقيق أغراضها.

والشاب المسلم الذي يتربى على المنهج الحق يكون في مأمن من الاستهواء بجانبيه العقلي والعاطفي سواء؛ لأنه يملك المحك الذي يميز به بين الدعوات الحقة والدعوات الزائفة، وبين العاملين بصدق والمزيفين المخادعين. فهو بادئ ذي بدء لا يمكن أن ينتمي ولا أن يعطي ولاءه لتجمع غير قائم على الإسلام. فأما إذا كثرت اللافتات وكلها تحمل اسم الإسلام فعليه أن يرجع إلى المحك ذاته ليميز بينها ويعرف أيها أولى بالاتباع.

والمحك واضح...

أيها أقرب تمثيلًا لحقيقة الإسلام المتكاملة التي يتمثل فيها الدين والدولة والدنيا والآخرة والفكر والسلوك ونشاط الجسد ونشاط العقل ونشاط الروح؟ لأن أي جانب من هذه الجوانب -وحده- لا يمثل حقيقة الإسلام وإن كان من الإسلام. فتربية الروح أمر جميل وضروري للحركة الإسلامية والحياة الإسلامية. ولكنها -وحدها- لا تكون المسلم الحق. وتربية الفكر بالثقافة الإسلامية أمر جميل وضروري, ولكنها -وحدها- لا تكون المسلم الحق. وكذلك تربية الجسد بالنشاط والتدريبات.. لا يكفي أي منها بمفرده، إنما يحتاج الأمر إليها جميعًا وفي وقت واحد.

ثم إن تقديم الإسلام على أنه "دين" يُعِدّ للآخرة وحدها هو تقديم ناقص كتقديمه على أنه نظم تعد للدنيا فحسب! ومهما كانت التربية التي تعد للآخرة من العمق والتأثير.. ومهما كان الجهد الذي يبذل في تقديم النظم الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية الإسلامية، ونظام الدولة، وطريقة إقامة الخلافة.. فأي منها لا يكفي وحده، ولا ينشئ الحركة الإسلامية الصحيحة.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن الرجال العاملين في الحقل الإسلامي لهم ميزانهم الذي يوزنون به كذلك.

فهم يوزنون من جهة مدى إدراكهم للحقيقة الإسلامية في شمولها وتكاملها. ومن جهة مدى قدرتهم على التحرك بمفاهيمهم الإسلامية بما يقتضيه الظرف الذي يعملون فيه. ومن جهة صدقهم في العمل، ومن جهة صبرهم وعزيمتهم عند الابتلاء.

وهكذا فإن الشاب المسلم الذي يرى لافتات كثيرة تعمل للإسلام أو تتظاهر بالعامل للإسلام يجد أن بين يديه المعايير والموازين التي تمكنه من التمييز بين الخبيث والطيب، والتمييز بين المتفاضلين حتى إن كانوا كلهم طيبين, وهكذا لا يضل سعيه وهو يختار الطريق.

كذلك فإن المنهج العقلي الإسلامي الذي يتربى عليه الشاب المسلم، يعاونه على التعرف على التيارات العالمية، السياسية والاجتماعية والفكرية، دون أن تغره مظاهرها، أو تغره الصورة التي تقنّع بها الحقائق وتخفى عن العيون؛ ذلك لأنه يملك من وعيه الإسلامي ما يبصره بالحقائق.

فلن يخفى عليه مثلًا أن ما يمارسه الغرب اليوم ليس حضارة حقيقية ولكنه جاهلية، لأنه لا يتحاكم إلى شريعة الله ولا يطبق منهجه في الأرض. ولن يخدعه التقدم المادي والعلمي والتكنولوجي والتنظيمي الضخم الذي يملكه الغرب، عن انحرافاته النفسية والخلقية وخاصة في مجال التبذل الجنسي، وعن حتمية السنن الربانية التي تقرر أن مصير هذه الجاهلية إلى الدمار والبوار برغم كل قوتها الظاهرة، لأن سنة الله تقول:

"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"[1].

وحين يدرس التاريخ على حقيقته فلن تخدعه النشرات الإخبارية التي يسمعها هنا وهناك وهي تحدثه عن "التوسع الإمبريالي" ضد الأمة العربية وأنه هو محور الصراع والنزاع، لأنه سيعرف أنه عدوان صليبي على الأمة "المسلمة" لا ضد الأمة العربية، تسانده الصهيونية العالمية، كُلٌّ لمصالحها، وكل لعداوتها التاريخية ضد الإسلام، وأن الهدف الحقيقي منها ليس امتلاك الأرض وتوسيع الرقعة (وإن كان هذا الهدف موجودًا بالفعل) إنما الهدف الحقيقي هو القضاء على الإسلام، وأنه حتى لو كان الهدف هو امتلاك الأرض وتوسيع الرقعة فإنه لا

([1]) سورة الأنعام [44].

سبيل إلى ذلك في الأرض الإسلامية إلا بالقضاء على الإسلام! وسيقرأ ويطلع ويجد من تصريحات زعماء الغرب وساسته وكتابه ما يكشف كشفًا واضحًا عن هذه الحقيقة، من مثل قول جلادستون رئيس الوزراة البريطانية في مجلس العموم البريطاني وقت احتلال الإنجليز لمصر عام 1882 م مشيرًا إلى القرآن: "إنه طالما بقي هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد! " وقول أللنبي حين دخل القدس عام 1917 على رأس الجيش العربي (!) الذي ذهب يقاتل تركيا: "الآن انتهت الحروب الصليبية! " (أي: بعد استرداد القدس من المسلمين!) وقول وزير الخارجية الفرنسية مسيو بيدو حين قام بعض أعضاء البرلمان الفرنسي يطلبون إنهاء الحرب في الشمال الإفريقي لأنها أنهكت فرنسا بغير طائل: "إن هذه حرب الهلال والصليب، وينبغي أن ينتصر الصليب!" وقول أنديرا غاندي في تصريح صحفي لها عام 1969 "إننا نحب جمال عبد الناصر ونؤيده لأنه قضى على الإخوان المسلمين في مصر! " إلخ.. إلخ.. إلخ.

وهكذا -في جميع الاتجاهات- سيكون له موقفه المتميز، المبني على الدراسة الواعية وتمحيص الحقائق، والاهتداء بنور الحق المستمد من الكتاب والسنة، وقراءة الحياة على ضوء السنن الربانية التي لا تتخلف ولا تتبدل.

* * *

وأخيرًا تحدثنا عن النمو الروحي في فترة الشباب الباكر.

وبديهي أن يكون منهج التربية الإسلامية حفيًّا شديد الحفاوة بالنمو الروحي، لأنه القاعدة الحقيقية للتربية كلها في المنهج الإسلامي، كما أشرنا إلى ذلك في الكتاب الأول من "منهج التربية الإسلامية" في فصل "تربية الروح."

ولا نحتاج أن نعيد هنا ما قلناه هناك..

إنما نقول فقط إنه حيث تجنح الجاهلية المادية المعاصرة إلى طمس الجانب الروحي في نفوس الشباب، فإن التربية الإسلامية ترتكز ارتكازًا واضحًا على الجانب الروحي، لأنه هو الذي ينشئ الصلة العميقة بالله، ويربط القلب البشري به، يحبه ويخشاه.

والشباب بفطرته -كما قلنا من قبل- يحس بالتفتح الروحي في تلك الفترة، ويتعلق بقضية الألوهية، كما يحس بمشاعر عميقة من المودة للكون والحياة والأحياء.. أفيكون عملنا

نحن أن يطمس هذا التفتح ونغلق عليه منافذه، في الوقت الذي نوسع فيه منافذ الجنس حتى يصبح جنونًا مسعورًا يلتهم كيان الشباب؟! ولحساب من..؟!

وإذا كانت مناهج التربية الجاهلية في الغرب اليوم تزعم أنها تأخذ الواقع البشري كما هو بأمانة "علمية! " فأين تذهب هذه الأمانة يا ترى حين يتعلق الأمر بجانب الروح؟ ولماذا تخنس الجاهلية هنا بينما ترفع رأسها جاهرة هناك؟!

أما الإسلام الذي يلتقي التقاء كاملًا مع الفطرة السوية لأنه دين الفطرة، فإنه يعمق هذا الجانب تعميقًا على ذات النهج الذي يعمق ويقوي به كل اتجاه آخر في الكيان البشري.

فإذا كنا في تربيتنا للشاب ننمي جسده، وننمي عقله، وننمي عواطفه، وننمي اهتماماته، فلماذا تبقى الروح وحدها بغير نماء؟!

كلا! إنها ينبغي أن تأخذ نصيبها الطبيعي من التنمية، بل أن تكون حجر الأساس في التربية كلها؛ لأن هذا هو الذي يجعل الإنسان في أحسن تقويم كما خلقه الله، منذ خلقه من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله:

"إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"[1].

والتربية الإسلامية تأخذ التفتح الروحي التلقائي لدى الشباب فتوجهه إلى حب الله وخشيته، وهما الخيطان اللذان يربطان القلب البشري بالله، واللذان هما خلاصة العبادة وثمرتها كذلك:

"يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ"[2].

والوسيلة هي ممارسة العبادة بكل ألوانها، مع الزيادة فيها -بالنوافل والتطوع- بقدر ما تطيق نفس كل شاب، دون قهر ولكن بالتحبيب والترغيب. ففي الصلاة فروض ونوافل، وفي الصيام فروض ونوافل، وفي الزكاة فروض وتطوع، وفي الحج والعمرة كذلك.

([1]) سورة ص [71-72].

([2]) سورة الإسراء [57].

وتلاوة القرآن وحفظه من المعينات ولا شك. ولكن قراءته مع أحد التفاسير أبلغ نتيجة وأعمق أثرًا من الحفظ وحده، لأن التدبر مطلوب من المسلم، ولن يستطيع التدبر الصحيح دون أن يستعين ببعض التفاسير.

وقراءة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخاصة ما جاء في باب الترغيب والترهيب تكمل الجو الذي يحدثه القرآن في النفس.

والحياة مع السيرة النبوية المطهرة ترفع الروح إلى آفاق عليا حين يعيش الإنسان مع أعظم شخصية في الوجود البشرى كله، ويقبس قبسات من الرسول صلى الله عليه وسلم تستضيء بها روحه وترفرف مع الملأ الأعلى.

وقراءة سير الصحابة رضوان الله عليهم تندي الروح وتعمق بشاشة الإيمان، لأنها نماذج بشرية فائقة كانت تعيش كل لحظاتها مع الله، كما وصفهم الله:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"[1].

هذه كلها وسائل معينة على تربية الروح. ولكن المنهج الإسلامي –وهو يعمق الجانب الروحي ويركز عليه– لا يدعه تهويمات روحية مجردة، ولا مجرد ذكر بالقلب أو اللسان كما تصنع بعض الحركات التربوية الروحية في تاريخ الإسلام المعاصر أو تاريخه السابق، سواء في حلقات الذكر أو في العزلة الروحية المنصرفة إلى العبادة بمعنى الشعائر التعبدية.

إن هذا الوصف الرباني ذاته الذي يصف فيه المولى جل وعلا تلك الفئة الفريدة من البشر، التي تربت تربية كاملة على المنهج الإسلامي، ليلفت نظرنا بشدة إلى حقيقة إسلامية

(1) سورة آل عمران [190-195].

رئيسية، هي أن وجدانات القلب وحدها، والتذكر والتفكر والتدبر، كلها لا تكفي وحدها لإقامة الحياة الإسلامية والحركة الإسلامية.

إن النص القرآني يعرض صورة شفيفة وضاءة "لأولي الألباب" الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون.. ويعرض صورتهم وهم يتضرعون إلى الله ضراعة حارة أن يكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم ويدخلهم الجنة.. ثم يقرر النص أن الله قد استجاب لضراعتهم فكفر عنهم سيئاتهم وغفر لهم ذنوبهم وأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار. فمتى استجاب سبحانه؟ هل استجاب للتذكر والتفكر والتدبر؟ أو استجاب للضراعة الإيمانية الحارة؟ إنه استجاب سبحانه حين تحول هذا إلى عمل: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ..".

فالدرس إذن هو أن تتحول الأفكار والمشاعر إلى عمل مشهود في واقع الأرض.

والتربية الروحية الصحيحة ينبغي أن تهدف إلى ذلك، فلا تكتفي بذكر اللسان والقلب، ولا بالشعائر التعبدية لتعميق الإيمان. إنما تسعى إلى تكوين تلك الصورة الشفيفة التي يصفها القرآن. أن يحدث الذكر بالعمل, وفي أثناء العمل لا بالشعائر التعبدية وحدها ولا في عزلة عن العمل الواقعي.

لقد كان ذلك المسلم يذكر الله فيجاهد في سبيل الله بماله ونفسه؛ لأن الله الذي يذكره بلسانه وقلبه يأمره بذلك. وكان يذكر الله فيتحاكم إلى شريعته، لأن الله الذي يذكره يأمره بذلك. وكان يذكر الله فيعد ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل لإرهاب عدو الله. وكان يذكر الله فيطلب العلم. وكان يذكر الله فيضرب في فجاج الأرض يبتغي من رزق الله وفضله. وكان يذكر الله فيقوم بعمارة الأرض. وكان يذكر الله فينشر الدعوة. وكان يذكر الله فيحتمل الأذى في سبيل الله.. ثم يظل -وهو يؤدي هذه الأوامر الربانية كلها- ذاكرًا لله، موصول القلب بالله. وهذا هو سر عظمتهم الفذة التي لا مثيل لها في التاريخ..

لقد كان ذلك المسلم أعمق روحانية بكثير من ذلك الذاكر في خلوته، أو القائم بشعائر التعبد فحسب. فإن حمل هذه الروحانية والتحرك بها دون أن تتناثر أو تغيض أعمق بكثير وأهم بكثير من حملها في حالة السكون.

حقيقة إن حملها في حالة السكون هو ذاته مرحلة من مراحل الروحانية والشفافية تحتاج إلى جهد ومجاهدة حتى يصل الإنسان إليها ويصبر عليها ويستسيغها فلا تعود نفسه تتفلت

منها. ولكن كم يدل على عمق الروحانية وتمكنها من النفس أن تتحرك في واقع الأرض وأنت محافظ عليها لا تتفلت منها نفسك ولا تعرض عنها "للتفرغ" إلى العمل؟

إنها لا شك درجة أعمق وأقوى، وأجدر بمحاولة الوصول إليها. ولقد كانت هي سر عظمة ذلك الجيل، أو من أسرار عظمته الأصيلة، التي من أجلها استحق ذلك الوصف الرباني الكريم: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"[1].

والخلوة لا شك ضرورية بين الحين والحين. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل ليخلو إلى ربه، وهو الموصول القلب لا يغفل عن ذكر الله لحظة، لأن ناشئة الليل -كما علمه ربه- "هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا"[2].

ولكن العظمة الحقيقية هي أن يظل الإنسان في روحانيته، كلها أو بعضها، حين يقوم يمارس العمل في واقع الأرض. فلا يشغله العمل عن الروحانية ولا تشغله الروحانية عن العمل. بل تكون الروحانية هي التي تحفزه إلى العمل وإلى التمكن منه على أعلى الآفاق!

هل رأيتهم -جيل الصحابة رضوان الله عليهم- وهم يقاتلون؟ هل رأيتهم وهم يضربون في مناكب الأرض؟ هل رأيتهم وهم يتزوجون وينسلون؟ هل رأيتهم وهم يقيمون السوق في المدينة ويروحون ويجيئون في التجارة. إلخ؟. هل تظن أحدًا من أهل الدنيا المتفرغين لها كان أشد منهم وطأة أو أشد تمكنًا في عمله منهم؟! ومع ذلك كانوا يحملون ذلك النور الصافي في قلوبهم، الذي يضيء لهم أرواحهم من الداخل، ويضيء أمامهم الطريق فيصلون إلى الغاية في أسرع وأقصر مما يصل طلاب الدنيا المتفرغون!

إنك تحتاج إلى سعة نفسية مضاعفة لتحمل في نفسك طاقة الروحاني المتفرغ للروح، وطاقة الأرضي المتفرغ للأرض، ثم تحملهما ممتزجين متفاعلين لا في عزلة هذه عن تلك.

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. فإنها هي الذروة العليا من التربية على المنهج الإسلامي الأصيل.

وكما ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فلنرب أنفسنا وأبناءنا على ذلك.

([1]) سورة آل عمران [110].

([2]) سورة المزمل [6].

وإنه لجهد ولا شك. ولكنه هو الجهد المثمر. هو الجهد القمين بأن يغير واقع الأرض حقًّا كما غيرته تلك الحفنة القليلة من المؤمنين في زمن وجيز لا مثيل له في كل التاريخ البشري، في قصره وسرعته وعظمة آثاره.

وحين تربي جيلًا من الشباب على هذا النحو، تكون قد صنعنا شيئًا حقيقيًّا لا للمسلمين وحدهم، ولكن لكل البشرية.

* * *

على هذه الصورة الشاملة المتكاملة يعالج الإسلام النمو الجسدي والنمو النفسي والعاطفي والعقلي والروحي في مرحلة الشباب الباكر فيصل به وشيكًا إلى مرحلة النضج.

وغني عن البيان أن الجاهلية لا تتركنا نربي أبناءنا على هذا النحو، لأن الجاهلية -في التاريخ كله- تكره النظافة النفسية والروحية وتتضجر من وجود المتطهرين فيها فتقول: "أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ"[1] لأن مجرد وجود النظافة -ولو في فرد واحد- يذكرهم بأنهم ملوثون, وهم لا يريدون أن يتذكروا لأنهم يستمرئون الدنس الذي هم فيه. ومن أجل ذلك يطاردون ما يذكرهم، يحاولون أن يمحوه من الوجود:

"وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً!"[2].

والجاهلية تطارد الشباب بالدنس الدائم في الإذاعة والصحافة والسينما والتليفزيون والنوادي والشوارع بل حتى داخل البيوت! ثم تتبجح فتقول: "تدين إذا شئت فنحن لا نحارب الدين!"

كأن هذا كله ليس حربًا على الدين!

ومع ذلك فحين تتدين بالفعل تنقض عليك الكلاب! لأن مجرد تدينك معناه أنك تحديت كل الشراك المنصوبة لك بيد الجاهلية. معناه أنك أشرت إليهم -ولو في داخل نفسك- فقلت لهم: إنكم ملوثون!

([1]) سورة الأعراف [82].

([2]) سورة النساء [89].

وقد تتغاضى عنك الجاهلية إذا كنت من أصحاب العزلة الروحية لأنها تقول في سرها: دعه ينشغل عنا في عزلته ونمضي نحن فيما نريد! ولكنها لا تتغاضى عنك حين تتدين التدين الحق الذي يريده الله. الدين المتحرك في واقع الأرض. الدين الذي يغير واقع الحياة.

ورغم ذلك فلا بد من التربية الإسلامية لكي نكون مسلمين.

وأيًّا كان الجهد الذي يبذله السابح ضد التيار، ويبذله المدرب الذي يدربه.. وأيًّا كانت الأخطار المحيطة بهما، فليس هناك طريق آخر. ليس هناك طريق سهل ميسر مأمون، ما دامت الجاهلية هي التي تحكم، وليست شريعة الله.

ولقد نبذل الجهد ولا نصل إلى الغاية المطلوبة بالصورة التي نريد. ولكن هذا ليس معناه إلغاء المحاولة والركون إلى القعود.

أولًا، لأنه بغير المحاولة فلن نصل إلى شيء على الإطلاق!

وثانيًا، لأننا حتى إن لم نبلغ الغاية التي نريدها على المستوى الذي نريده، فلن نكون قط على صورة الجاهلية، لأن الجاهلية تستمرئ الدنس وتريده، أو على الأقل تسلم نفسها له بلا مقاومة. أما نحن فنريد ما أمرنا الله أن نريده ونسعى إلى تحقيقه.

وثالثًا، لأننا حتى إن فشلنا فشلًا كاملًا- وذلك لا يحدث في الحقيقة- فإن من فضل الله علينا أنه يثيبنا على الجهد الذي نبذله لا على النتائج التي نتوصل إليها؛ وحين نبذل جهد الطاقة فإنه يثيبنا بما تهفو له كل نفس مؤمنة: رضاه والجنة.

* * *

تحدثنا حتى الآن عن الشاب المسلم في مجال التربية الإسلامية، وقلنا في مقدمة الفصل إن الفتاة تنضج أسرع من الفتى في تلك المرحلة وتنضج على خط آخر، وإنه من أجل هذا يلزمنا أن نتحدث حديثين مختلفين عن الشاب وعن الفتاة.

وعلى الرغم من وجود مشابه عامة في خط النمو، فهو نمو جسدي، ونمو في المواهب والاستعدادات، ونمو في الاهتمامات النفسية، ونمو عاطفي ونمو عقلي ونمو روحي، فإنه — كما قلنا- يأخذ عند الفتاة صورة متخصصة لا يصلح معها أن نربيها على طريقة الفتى وإن اتحدت الأهداف العامة في النهاية، وهي تربية الفرد المسلم والأسرة المسلمة للوصول إلى المجتمع المسلم والدولة المسلمة.

الفتاة أسرع نموًّا بصفة عامة في الناحية الجسدية والنفسية والعاطفية، بحيث نستطيع أن نضع فتاة السابعة عشرة -من حيث النضج الجسدي- في مستوى الشاب الذي تجاوز العشرين ببضع سنوات، كل على طريقته. فحيث يكون النمو عند الشاب هو قوة العضلات وامتلاءها، وصلابة العود والذكورة البادية في كل شيء، يكون النمو عند الفتاة استدارة العضلات ولينها، والأنوثة البادية في كل شيء.

والنمو النفسي والعاطفي يكون دائمًا متساوقًا مع النمو الجسدي. فالفتاة التي نما جسمها وأعضاء أنوثتها هذا النمو في السابعة عشرة, قد نمت نفسيًّا وعاطفيًّا كذلك -على اتجاهها الخاص- أكثر مما نما الشاب نفسيًّا وعاطفيًّا على اتجاهه، فأصبحت مهيأة لأن تكون ربة بيت، وتكون زوجة وأمًّا، بما لم يتهيأ مقابله شاب السابعة عشرة أن يكون مسؤولًا عن بيت، أو يكون زوجًا وأبًا. ولذلك لا يتناسب مثلًا أن تتزوج فتاة في السابعة عشرة شابًّا في السابعة عشرة [وهي في الواقع لا ترضى به!] لأنها تكون هي أنضج منه وأسبق في النمو! وإنما يتناسب أن تتزوج شابًّا قد جاوز العشرين فيحدث التكافؤ المطلوب.

وبصرف النظر مؤقتًا عن نوع النمو المتخصص، فأي جريمة نرتكبها في حق الفتاة -بحجة تحريرها ومساواتها بالرجل- أن نعطلها سبع سنوات أو ثماني سنوات في أخصب فترات نموها، حتى يلحق بها الشاب ويساوقها -على خطه- في درجة النمو؟!

ونحن نعطلها بطريقة الدراسة ومراحلها وسنواتها، المفصلة أصلًا على قد الشاب لا الفتاة، بزعم أنهما -من الناحية العقلية- يستوعبانها بطريقة واحدة وعلى مستوى واحد.

وهذا الزعم قد يكون صحيحًا صحة كاملة. فإن النمو العقلي -بمعنى القدرة على التفكير ونسبة الذكاء- يتساوق عند الفتى والفتاة بنسبة واحدة أو نسب متقاربة. ومن ثم يمكن -كما يحدث الآن- أن تتلقى البنت والولد مواد دراسية واحدة، وتكون نسبة تحصيلهما منها ونجاحهما فيها متساوية. أو تتفوق الفتاة أحيانًا حين تستطيع أن تحبس نفسها عن المشاغل التي تشغل الولد في نوادي الرياضة أو تجمعات الطريق. ولا يكون التفوق حينئذ لمزيد من الذكاء أو القدرة إنما لبذل مزيد من الجهد الموفور.

ولكن العبرة ليست بالقدرة العقلية على الدراسة والتحصيل. فنحن لا نعيش بعقولنا وحدها، ولكن بكياننا كله. كياننا النفسي والعاطفي والجسدي والعصبي، بالإضافة إلى كياننا العقلي والروحي.

فماذا تجدي المساواة في جانب واحد -حتى إن كانت كاملة- إذا كان الاختلاف قائمًا في بقية الجوانب؟ وكيف نستخلص الجانب المماثل وحده فنفصله عن بقية الكيان؟!

ولقد مر بنا الحديث عن محاولات الجاهلية المعاصرة لإحداث المساواة المفتعلة في بقية الجوانب حتى تصبح المرأة رجلًا أو امرأة رجلة. وبصرف النظر عما تحدثه تلك المحاولات من تشويه في الفطرة، فإن النتائج العملية ذاتها تقول إن المرأة الجاهلية الغربية قد شقيت بفطرتها المشوهة تلك أكثر مما كانت تشقى وهو مظلومة مهددة الكيان في المرحلة السابقة من تلك الجاهلية، وإنما بدأت تشعر هي نفسها بذلك، وتطالب لنفسها أن تكون أنثى حقيقية وربة بيت وزوجة وأم أولاد.

ودلالة ذلك أن هذه المحاولات لم تستطع في النهاية أن تغير حقيقة الفطرة رغم كل ما صاحبها من النشوة المؤقتة بالظفر والتحرر والانطلاق. لأن الفطرة -كما يقول ألكس كاريل بحق- أعمق بكثير من كل محاولة لتغييرها.

إن الدراسة المشتركة على برامج موحدة ومراحل دراسية وسنوات موحدة لم تلغ فوارق الفطرة العميقة ولم تؤد إلى المساواة المطلقة في كل شيء.. فما قيمتها إذن، ولماذا نصر عليها؟! إلا أن تكون الرغبة المحمومة في تحدي الفطرة.. من أجل الشيطان.

وقد لا تستسيغ الفتاة وحمّى المعركة دائرة ما تزال -ولفترة غير قصيرة بعدها- أن ترجع عما يسمونه "انتصارات" للمرأة! وأن تعود إلى تلقي برامج نسوية خاصة، لأن ذلك مرتبط في حسها بالمرحلة التي كان يقال لها فيها إنها "دون" الرجل، وإنها لا تصلح للدراسة التي يتلقاها الرجل لأن استعداداتها دون استعداداته. كما أنه مرتبط في حسها كذلك بالفترة التي كانت الجاهلية تعيرها فيها بأنها تحمل وتلد, وتقوم بشؤون البيت الحقيرة, بينما يختص الرجل بجلائل الأعمال! وتعيّر فيها جملة بأنها أنثى مهما قامت به من أعمال!

والإسلام ليست مهمته مساوقة الجاهلية ولا مداهنتها لكي ترضى عنه!

"فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ، وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ!"[1].

إنما جاء الإسلام لتقويم الجاهلية, وردها إلى سواء الفطرة باتباع منهج الله.

---

(1) سورة القلم [8-9].

وفي الجو الإسلامي لا تعيّر المرأة بأنها تحمل وتلد وتلي شؤون المنزل، إنما تكرم من أجل ذلك:

"وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ"[1].

والإشارة واضحة في الآية. فالوصية بالإحسان هي للوالدين كليهما، ولكن الذي يذكر تفصيلًا هو الأم جزاء ما قامت به من عمل جليل هو الحمل والرضاعة حتى الفصال.

والرجل يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم: من أحق الناس بحسن صحابتي، قال: "أمك". قال: ثم من؟ قال: "أمك"! قال: ثم من؟ قال: "أمك"! قال: ثم من؟ قال: "أبوك"![2]

وقوامة الرجل على المرأة، التي تأباها الزميلة الجاهلية من زميلها الجاهلي وهما جالسان إلى مقعد واحد في حجرة الدراسة يتنافسان ويتناطحان بقضية المساواة، ليس هدفها في الإسلام إهانة المرأة وتحقيرها وإنما هي لتنظيم التبعات، وتوزيع التكاليف بحسب الاستعدادات. فكيان المرأة الذي ينمو فيه الجانب العاطفي ليتواءم مع وظيفة الأمومة ورعاية الطفولة ليس هو الأصلح لوظيفة القوامة وحمل التبعات، التي تحتاج إلى الجانب العقلي والفكري أكثر، وهو الجانب الذي ينمو عند الرجل أكثر من الجانب العاطفي المتقلب بطبيعته، المتغير على الدوام، والذي يكون في مكانه الطبيعي في كيان المرأة ليتلقى مطالب الطفولة المتقلبة المتغيرة على الدوام!

وخالق الفطرة هو أعلم بها وأعلم بما يصلحها ويصلح لها.

ولكن خالق الفطرة لم يقل إن الرجل أعلى في درجة الإنسانية من المرأة أو إن المرأة من نوع آخر غير نوع الرجل. إنما قال سبحانه:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا.."[3].

---

(1) سورة لقمان [14].

(2) أخرجه الشيخان.

(3) سورة النساء [1].

"فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ.."[1]

والمرأة ذات الفطرة السوية تعتز بأنوثتها كما يعتز الرجل السوي برجولته سواء بسواء، لأن الله هو الذي أودع ذلك الاعتزاز في فطرة كل من الجنسين بجنسه. فإذا جاءت جاهلية من الجاهليات –أو كل الجاهليات– فحقّرت المرأة لأنها تحمل وتلد وتقوم بشؤون البيت، فإن الإسلام لا يحقرها من أجل ذلك. بل يخبرها بأن الله يعطيها ثوابها على القيام بوظيفتها بقدر ما يأخذ الرجل ثوابه على القيام بوظيفته. فالجنة التي تمنح للمقاتلين والشهداء في سبيل الله هي ذاتها الجنة التي تدخلها المرأة الصالحة التي قامت بحق زوجها وأولادها.

ومن هنا لا تشعر المرأة المسلمة –في المجتمع المسلم الحق– بتلك القضية المجنونة المثارة في الجاهلية المعاصرة. إنما المسألة في حسها –وفي حس الرجل المسلم كذلك– أنها قضية تكامل بين شقي النفس الإنسانية وليست قضية تناطح على المساواة، وأنها كما وصفها الله:

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[2].

ثم إنه لقاء للتعاون لا للخصام والتنافس. لقاء من أجل تكوين أسرة وتنشئة أطفال يتكون منهم الجيل الجديد. فهي إذن مسؤولية أكبر من شخصي الزوج والزوجة، وأهم من أن ينشغل الناس عنها بالتفاهات.

ومنهج التربية الإسلامية –في المجتمع المسلم الذي يلتزم بشريعة الله وينفذ أوامره– يعدّ الفتاة المسلمة في مرحلة الشباب الباكر لمهمتها العظيمة المرتقبة، حتى إذا جاءت الخطبة وجاء الزواج كانت مهيأة لدورها التهيئة الملائمة.

والتهيئة في الحقيقة تبدأ من دور المراهقة، إن لم تبدأ بصورة مخففة من قبل ذلك، من نهاية فترة الطفولة، بتكليف البنت ببعض أمور البيت الخفيفة التي تكسبها التعود على رعاية أموره في المستقبل. ولكن من فترة المراهقة يبدأ الإعداد الجاد لتهيئتها لتكون ربة بيت. ذلك أن الفتاة تدلف من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الشباب الباكر بسرعة ملحوظة كما قدمنا. فينبغي ألا يتأخر الإعداد فيجيء الشباب فالنضج وهي لما تتهيأ لمهمتها بعد.

---

(1) سوررة آل عمران [195].

(2) سورة الروم [21].

وإدارة البيت ورعاية شؤونه فن يحتاج إلى التدريب عليه. ولا يتم بين يوم وليلة. فهو ليس مجرد طبخات تطبخها حتى تجيدها، ولا مجرد تنظيف المنزل وترتيبه. إنما هو قبل كل شيء مسؤولية. وفرق كبير بين فتاة دربت على القيام بهذه المسؤولية وفتاة لم تدرب عليها، وإن أجادت الطهي والتنظيف والترتيب. إنما الشعور بالمسؤولية هو الحافز الذي يحفز على متابعة شؤون البيت، ووضع كل شيء في مكانه، وإعداد العدة لما يحتاج إلى إعداد، وملاحظة ما يتلف أو يضطرب نظامه، ومنع أكبر قدر ممكن من الفساد والتلف والاضطراب، وتهيئة أكبر قدر من التنظيم وحسن سير الأمور. وهذا أمر مختلف عن إتقان الطهي أو القدرة على التنظيف والترتيب، وإن كانت هذه كلها مطلوبة ولا شك. ولكنها –وحدها– لا تكوّن ربة البيت، إن لم يكن معها هذا الشعور بالمسؤولية. وهو هو الذي نوه به الرسول صلى الله عليه وسلم: "**والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها**" في الحديث المعروف الذي يبدأ بقوله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[1].

وعلى طريقة الإسلام في التربية بالعادة –بعد القدوة– وتربية هذه العادة في سن باكرة، سابقة على التكليف الفعلي، فإن التربية الإسلامية تبدأ في تعويد البنت على هذه المسؤولية منذ فترة المراهقة لتكون قد تدربت عليها حين تأتي مرحلة الشباب الباكر التي قد تمارس التكليف فيها في أية لحظة إذا قدر للفتاة أن تتزوج في سن مبكرة، كما كان الحال في المجتمع الإسلامي –قبل انتقال عدوى الجاهلية إليه بعد تنحية شريعة الله عن الحكم، وتنحية منهج الله عن العمل– وكان هذا هو الذي يتمشى مع الفطرة السوية كما خلقها الله.

أما في الجاهلية المعاصرة فالفتاة لا تتدرب على عمل البيت.. لأنها في البيت مشغولة بالاستذكار للمدرسة، وفي المدرسة تأخذ مناهج البنين التي لا تدرب على شؤون البيت!

بل تستنكر البنت في الجاهلية المعاصرة أن "تدخل المطبخ" أو تقوم بأي عمل من أعمال البيت على الإطلاق!

وي! أتكون مثل أمها "العتيقة" التي انتهى زمانها ووضع جيلها على الرف؟!

وي! أتتسامع بها زميلاتها في المدرسة فيتضاحكن عليها ويعيرنها؟!

([1]) أخرجه البخاري ومسلم.

كلا! إنما تقوم بأعمال المنزل الفتاة التي لم يقدر لها -لأي سبب- أن تتعلم! أما المتعلمة فلماذا تصنع ذلك؟ إنها تعد نفسها للوظيفة بعد إتمام دراستها الجامعية.. وليقم بعمل المنزل من يشاء!

فإذا فجأها الزواج في نهاية المطاف وجدت نفسها -فجأة- بلا عدة ولا تدريب ولا استعداد!

والجاهلية المعاصرة تزعم أنها تسارع إلى نجدة تلك الفتاة التي لم تتلق تدريبًا من قبل على أي شيء، والتي أعِدَّت على طريقة الرجال ومناهجهم ومراحل دراستهم، لتكون مسخًا مشوهًا لا هو رجل ولا هو امرأة على السواء!

تسارع إلى نجدتها بتوريطها في مزيد من البعد عن فطرتها السوية، ومزيد من تقديمها قربانًا للشيطان!

لا تشغلي بالك بهذه الأمور!

تريدين الطعام؟ المطاعم على استعداد لأن تقدم لك ولزوجك الطعام الذي ترغبان فيه. وهناك وجبات خفيفة تقدم في كل مكان لقاء دريهمات، تسد الجوعة وتصرف النفس عن طلب الطعام.

تريدين أحدًا لتنظيف البيت وترتيبه وأنت مشغولة في وظيفتك؟ هناك فتاة بالأجر تأتي إليك ساعة كل يوم أو كل أسبوع أو كلما طلبت.. وفري من راتبك جزءًا لهذه المهمة واستريحي من العناء.

رزقت بأطفال؟ لا بأس عليك ولا حرج. المحاضن موجودة تبذل لطفلك العناية الكاملة التي لا تستطيعينها في بيتك ولو كنت متفرغة! حمام دافئ كل يوم. طعام موزون بالجرام. تدريب جثماني على أسس علمية، لعب. تسلية. تعليم. كل ما تحلمين به من رعاية للأطفال....

نعم.. نقول نعم مؤقتًا! وماذا بعد؟!

وبعد يكون البيت كما وصفه "ول ديورانت" في كتابه، أشبه بفندق يلتقي فيه الزوج والزوجة اللذان يقوم كل منهما بدوره في الزواج كأنه وظيفة: الرجل في وظيفة الزوج والمرأة في وظيفة الزوجة. ويبرد البيت ويظلم ويبدو في حسيهما كأنه سجن مغلق، فتشرد الزوجة ويشرد

الزوج ويتشرد الأولاد! ولا يعود في البيت ذلك السكن والسكينة التي جعلها الله آية في الزواج:

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا..."[1].

أما التربية في المحاضن فيكفينا شهادة من الجاهلية ذاتها "وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا"[2] كتاب "أطفال بلا أسر" لأنّا فرويد، الذي تتحدث فيه عن الاختلالات التي تتم في نفوس أطفال المحاضن رغم كل "العناية" التي تبذل فيها للأطفال، لأنهم لا يجدون الحنان الضروري لهم والذي لا "تفرزه" إلا الأم.. الأم الحقيقية لا الحاضن التي تقوم بـ"وظيفة" أم.

والله أرأف بالمرأة من أن يعرضها لهذا الفساد في الفطرة الذي يحول حياتها إلى ضياع نفسي وروحي وعاطفي، وأرأف بالأطفال من أن يعرضهم لهذا العنت الذي يسلمهم إلى الضياع..

لهذا فإنه سبحانه يضع الموازين الحق التي تستقيم بها الأمور في الحياة الدنيا كما يضع الموازين الحق ليوم القيامة ليسأل الناس عما أفسدوا في الأرض ينبذ منهجه واتباع سبيل الشيطان:

"وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[3].

إن للفطرة ثقلًا ووجودًا حقيقيًّا مهما حاولت هذه الجاهلية إنكاره أو إخفاءه أو تغييره. وحين تشد الفطرة شدًّا إلى غير وجهتها الطبيعية فلقد تحتمل ذلك فترة من الوقت، يخيل للجاهلين فيها أنهم انتصروا عليها ونالوا مأربهم منها! ولكنها -بصرف النظر عن عودتها أو عدم عودتها إلى طبيعتها- لا بد أن تظهر عليها أعراض المرض الناجمة من شدها إلى غير وجهتها.

([1]) سورة الروم [21].

([2]) سورة يوسف [26].

([3]) سورة الأنعام [153].

لا يمكن أبدا أن تستوي الحياة بالفطرة سوية ومنحرفة على السواء! ولا يمكن أن تستقيم الأحوال بالفطرة موجهة إلى غير وجهتها الطبيعية كما تستقيم بها في وجهتها الصحيحة ووضعها الطبيعي.

وهذه الأمراض النفسية والعصبية والعقلية والخلقية.. والقلق والاضطراب والحيرة والضياع.. والأسر المفككة، والأطفال المشردون والمراهقون الجانحون. وغيرها من الأعراض التي تجتمع المؤتمرات النفسية والطبية وعلماء الاجتماع وعلماء القانون وعلماء الجريمة لمحاولة حلها.. هذه كلها لم تنشأ اعتباطًا بغير أسباب. ولا هي نتيجة "حتمية" للحضارة كما يزعمون، إنما تكمن أسبابها الرئيسية في المحاولة الشيطانية الدائبة لتغيير خلق الله، وترجيل المرأة وتأنيث الرجل، والمجافاة المقصودة لكل ما يأمر به الله.

والفتاة المسلمة لا ينبغي لها بحال أن تقع في غواية الجاهلية المعاصرة وهي ترى برهان ربها في ظهور هذا الفساد المدمر الذي يُؤْذن بانهيار هذه الحضارة من قواعدها إن لم تعد إلى الله: "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"[1].

وفي المجتمع المسلم -الذي يتحاكم إلى شريعة الله ويلتزم بمنهج الله- تعد الفتاة لوظيفتها -كما قلنا- منذ مرحلة المراهقة بصورة جادة، حتى إذا جاء التكليف كانت مهيأة له بالفعل وعلى أحسن صورة.

وليس معنى ذلك ألا تتعلم!

فلا الإسلام أمر بتجهيلها، ولا تركها جاهلة وعدم تعلمها مما تستقم به الأمور في المجتمع الإسلامي!

ولقد كان وجود المرأة الجاهلة في المجتمع الإسلامي -على غير ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم- من أكبر الثغرات التي نفذ منها الغزو الفكري إلى العالم الإسلامي في محاولة الأعداء الجاهدة للقضاء على الإسلام في القرنين الماضيين.

وما "قضية المرأة" المثارة اليوم في مجتمعاتنا من المحيط إلى المحيط، على نسق القضية الأوربية وبنفس أهدافها ونفس نتائجها، من تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد وتفكيك

([1]) سورة الروم [41].

الأسرة وإفساد الجيل الناشئ وإشاعة القلق والاضطراب والحيرة والضياع.. ما هذه القضية على هذا النحو إلا نتيجة من نتائج وجود هذه الثغرة التي نفذ منها الأعداء.

ولو كان المجتمع الإسلامي في القرنين الماضيين ملتزمًا بمنهج الله حقًّا ومنفذًا لتعاليمه على بصيرة، ما استطاع الأعداء أن ينفذوا من هذه الثغرة ولا من غيرها. لأن الإسلام الحق يسد الثغرات على الأعداء، ولأن الله سبحانه وتعالى تكفل بوقاية الأمة المسلمة من كيد الأعداء:

"وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"[1].

تكفل -سبحانه- بوقايتها من خلال طاعتها لله وتنفيذ أوامره. فقد جعل الله الوقاية في هذه الطاعة ذاتها، لأنها -أي الطاعة- تحصن الفرد المسلم والمجتمع المسلم في جميع الاتجاهات. تحصنه بالقوة السياسية والعسكرية والاقتصادية التي تكون للدولة المسلمة ما دام أهلها عاملين بمقتضى الإسلام. وبالقوة الخلقية التي تستعصي على كيد الشيطان. وبالقوة العلمية التي يدفعهم إسلامهم إلى تحصيلها. وبكل أنواع القوة على الإطلاق.

أما حين يتهاونون في تنفيذ أوامر ربهم فهنا تنفتح الثغرات للأعداء، وتنحسر عنهم الوقاية الربانية لأنهم لم يقوموا بشرطها الذي اشترطه عليهم: "وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا" أي تستقيموا على أمر الله ومنهجه.. ومن ثم ينفذ الأعداء من الثغرات.

والجهل الذي كان يغلف المرأة المسلمة، والمعاملة الجاهلية التي كانت تعامل بها في المجتمع المسلم[2]، هي التي هيأت للأعداء أن ينفذوا إلى العالم الإسلامي عن طريق دعاة

(1) سورة آل عمران 120.

(2) كان المجتمع مسلمًا بصفة عامة لتطبيق شريعة الله فيه، ولكن كانت فيه انحرافات جاهلية كثيرة من بينها طريقة معاملة المرأة. ولا تناقض بين الوصفين، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه وهو من أجلة الصحابة: "أنت امرؤ فيك جاهلية"؛ لأنه سب بلالًا رضي الله عنه وقال له: يا ابن السوداء! أما مجتمعاتنا الحالية فهي مجتمعات جاهلية كاملة -وإن احتوت أفرادًا مسلمين في داخلها- لأنها لا تطبق شريعة الله أصلًا، وإنما تطبق شرائع جاهلية لم يأذن بها الله.

يحملون أسماء إسلامية يطالبون بضرورة تحرير المرأة المسلمة وتعليمها[1].. فكان أن "تحررت" و"تعلمت" لا على النحو الذي يريده الله سبحانه وتعالى، ولكن على النحو الذي يريده الشياطين!

وتطبيق المنهج الإسلامي في التربية لا يقتضي بحال أن تكون المرأة المسلمة جاهلة لا تتعلم، حتى بصرف النظر عن الأعداء قد نفذوا من هذه الثغرة بالذات لإفساد المجتمع المسلم.

لأن طلب العلم فريضة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو -من ثم- فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولأن تربية النشء الجديد لا تكون عن جهالة بل ينبغي أن تكون على علم وعلى بصيرة إذا أريد لها أن تؤتي ثمارها على طريقة الإسلام.

والآن بالذات -ونحن بصدد الدعوة إلى الإسلام، وتعريف الناس بما جهلوه منه، وتربيتهم عليه، وإزالة الغربة التي أحاطت به- نحتاج إلى داعية مسلمة تقوم بالدعوة في صفوف الفتيات. ولا بد للداعية أن تكون متعلمة لا جاهلة.

ولكن أي علم هو الذي نريد؟

نتحدث أولًا عما ينبغي في المجتمع المسلم- حين يوجد هذا المجتمع- ثم نتحدث عما نستطيعه اليوم في مجتمعاتنا الجاهلية المعاصرة.

فأما في المجتمع المسلم فهناك علم مشترك بين الشاب والفتاة والمسلمين جميعًا صغيرهم وكبيرهم -كل بحسب سنه وما يناسبه- هو العلم بالدين.

وقد كان العلم بالدين قد تحول عند الأجيال المتأخرة من المسلمين إلى مجموعة من الدراسات الفقهية الضيقة، وفي دائرة العبادات بصفة خاصة، لا تعطي روح الإسلام الحقيقية، ولا تنشئ تربية إسلامية حقيقية. وكان هذا أيضًا من الثغرات التي نفذ منها الأعداء.

([1]) نادت المؤتمرات التبشيرية في مطلع هذا القرن بضرورة العمل على تحرير المرأة المسلمة وتعليمها (انظر كتاب الغارة على العالم الإسلامي ترجمة محب الدين الخطيب) وفي نفس الفترة نادى قاسم أمين بضرورة العمل على تحرير المرأة المسلمة وتعليمها!

إنما العلم المطلوب بالدين هو الذي يعطي معرفة بالحقائق الإسلامية وهي عظيمة وضخمة وشاملة، ولا يقتصر على بعض مسائل الفقه. فعقيدة لا إله إلا الله شيء ضخم جدًّا أضخم من الكلمة. والصلاة شيء ضخم جدًا أضخم مما تشتمل عليه من حركات وسكنات.. والعلم المطلوب هو الذي ينشئ هذه المعاني الكبيرة في النفوس، ويجعل الحياة تقوم عليها.

وهذا القدر كما قلنا مشترك بين البنين والبنات، والشبان والفتيات، والرجال والنساء، كل بحسب سنه واستعداده.

ثم ينبغي أن يكون هناك إلى جانب ذلك "تربية نسوية" تعد الفتاة لوظيفتها وتعلمها ما تحتاج إلى تعلمه من شئون هذه الوظيفة من إدارة شؤون المنزل ورعاية شؤون الأطفال والطرق المثلى لتربيتهم، وتحول مشاعر الجنس الفطرية إلى تهيؤ عملي لاستقبال حياة الزوجية المرتقبة، بدلًا من أن تحولها تبذلًا وسعيا وراء الإثارة والفتنة في محيط الشباب، مع الانصراف الكامل عن وظيفة الأمومة في ذات الوقت!

وبعد ذلك تتعلم الفتاة ما تجد في نفسها قابلية له وقدرة عليه بغير قيود.. إلا قيدًا واحدًا، هو ألا تصرفها هذه الدراسة نفسيًّا وعقليًّا عن وظيفتها الرئيسية التي ينبغي أن تعد من أجلها.

أما في مجتمعاتنا الجاهلية المعاصرة، فنحن لا نملك البرامج ولا مراحل الدراسة ولا طريقة التدريس، ولا نملك المدرسة المسلمة التي تعطي القدوة بزيها وأخلاقها وفكرها وسمتها الإسلامي وروحها الإسلامية.

فمهمتنا إذن مقصورة على البيت وعلى التجمعات النسائية التي تنشئها الجماعة الداعية إلى الله.

ولن تكون مهمة البيت سهلة حين يحاول تربية فتاة مسلمة في وسط الخضم الجاهلي. فالمجتمع كله بنظمه وتنظيماته، بمناهج تعليمه ووسائل إعلامه، يحارب الإسلام، والفتاة المسلمة بالذات، التي تتحدى بزيها -مجرد زيها- كل صيحات الجاهلية. وتكفي نظرة واحدة إلى فتاة مسلمة ملتزمة وفتاة مستعبدة للجاهلية ليتضح المدى العميق الذي انحدرت إليه الجاهلية مع المرأة بالذات. فهنا الزي الذي لا يكشف ولا يصف ولا يشف ويتحاشى الفتنة، وهناك الزي الذي يكشف ويصف ويشف ويعمد إلى الفتنة. نقيضان كاملان من حيث المبدأ وكذلك في صورة التطبيق.

والمجتمع يدعو إلى العري والتبرج وإبراز الفتنة ويحارب الالتزام بما أنزل الله. كما يدعو إلى تعرية العواطف وإبرازها وممارسة الفاحشة، ويحارب النظافة الحسية والشعورية التي أمر بها الله. ويدعو إلى الاختلاط -مع التبرج- ورفع حاجز الحياء الفطري، والانطلاق ذكرانًا وإناثًا كانطلاق البهيمة، ويحارب آداب الجنس وآداب المجتمع التي قررها الله.

ومن ثم فتربية فتاة مسلمة ملتزمة في هذا الخضم الجاهلي لن تكون مسألة هينة. فضلًا عن تربية فتاة يصل الالتزام في حسها والوعي بحقائق دينها الضخمة الشاملة أن تصلح لأن تكون داعية للإسلام في محيط الجاهلية.

ولكنا -مع الفتاة كما نحن مع الفتى- مطالبون بالمحاولة وبذل الجهد.

لأننا بغير المحاولة لا نصل إلى شيء. ولأننا -بالمحاولة- نحدث على أقل تقدير قدرًا من التغيير في الحاضر ينبني عليه التغيير المرجو في المستقبل. ولأن الله يأجرنا على الجهد المبذول -حين يكون جهد الطاقة- بما تهفو له كل نفس مؤمنة في الأرض: رضاه والجنة.

ولئن كان جهدنا مع الفتاة أكبر من جهدنا مع الفتى بسبب ثقل العراقيل الموضوعة أمام الفتاة أكثر من الفتى، فإن ثمرة الجهد كذلك أخطر. فإنشاء أم مسلمة واعية فاهمة هو شيء ضخم سواء في محيط مجتمعاتنا أو على المستوى البشري كله، لأنه يعطي النموذج العملي لعودة الفطرة إلى حقيقتها.

* * *

وكنا -في نهاية الفصل السابق- قد أشرنا إلى "مشكلة" الصراع بين الأجيال، وأرجأنا الحديث عنها إلى هذا الفصل بوصفها أوضح في فترة الشباب الباكر منها في مرحلة المراهقة، وإن كانت -في الجاهلية المعاصرة- تبدأ مع المراهقين وتستمر في فترة الشباب.

وهذه "المشكلة" في الجاهلية المعاصرة ذات أبعاد لا تقتصر على ما يحدث في داخل حدود الأسرة من صراعات بين الأبناء والآباء, تنتهي بالتمرد الكامل على سلطة الأبوين، وما ينجم عن ذلك من تفكك روابط الأسرة وجنوح الصغار ووقوعهم في عالم الجريمة وعالم الرذيلة وعالم المخدرات وما أشبه ذلك من ألوان الفساد.. إنما تتعدى "المشكلة" هذه الحدود، وتمتد إلى آفاق اجتماعية وآفاق سياسية، متخذة -حتى الآن- مظهرين مختلفين من مظاهر "الرفض" أو "الاحتجاج" كما يسمونه، أحدهما يتسم بالتطري والترهل والميوعة، ويضم أصحاب النفوس المتجهة بطبيعتها أو بعوامل إفسادها إلى هذه الخصال المتميعة، في

مثل حركات "الهيبيز" و"الخنافس" وما إلى ذلك من حركات، والآخر يتسم بالعنف، متمثلًا فيما قام في الغرب من حركات العنف الجماعية في السنوات الأخيرة، التي قام بقيادتها "مفكر" يهودي معاصر!

ورغم انزعاج الحكومات الحقيقي أو المفتعل في الغرب من هذه الحركات بشقيها، فإن شيئًا حقيقيًّا لا يعمل هناك لوقفها، بل تعمل كل التيارات الجاهلية -في الصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون والمسرح ... إلخ- على تقوية هذا الصراع وتغذيته، والوصول به إلى صورة "المشكلة" الحادة التي تستعصي على العلاج.

أما في مجتمعاتنا نحن الجاهلية فالظاهرة موجودة على الأقل في نطاق الأسرة بين جيل الأبناء والآباء, وبصفة خاصة بين الولد ووالده وبين البنت ووالدتها، تغذيها ذات الأدوات التي تغذيها هناك: الصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون والمسرح ... إلخ. ويراد منها ما أرادته المخططات الشريرة هناك[1]..

ويقال فيما يقال إنها مشكلة طبيعية! وإن منشأها الطبيعي هو "التطور "الهائل الذي حدث في حياة البشرية في القرنين الأخيرين، والقرن الأخير خاصة، وغيّر معالم الحياة كلها، المادية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وأوجد قيمًا ومفاهيم جديدة في كل شأن من شؤون الحياة -ومن بينها الأخلاق- وإن الجيل "الجديد" هو بطبيعة الحال أكثر تشبعًا بالقيم والمفاهيم الجديدة من الجيل السابق، الذي تربى في عصر سابق، على قيم ومفاهيم مخالفة، وليست لديه المرونة الكافية ليتخلى عن قيمه ومفاهيمه التي تربى عليها، ومن ثم ينشأ الصراع بينه وبين جيل الأبناء!

ويكون مقتضى ذلك ولا شك أن الجيل السابق هو المخطئ، وأن الجيل "الجديد" هو المصيب! وأن هذا الجيل الجديد ينبغي أن يحطم "عنجهية" الجيل السابق واستبداده، بأن يعلم التمرد عليه، ويرغمه -في النهاية- على الخضوع له والانصياع لأمره، وإلا فليتركه وشأنه، ويمضي هو يحيا حياته الخاصة بعيدًا عن سيطرته أو إشرافه!

وتكتب في ذلك المقالات والكتب والقصص والمسرحيات، ويعرض ما يعرض منها في السينما والتلفزيون وغيرها من وسائل "الإعلام"!

([1])راجع "بروتوكولات حكماء صهيون" في شأن الفوضى الشاملة المراد نشرها في صفوف "الأمميين".

وفي وسائل "إعلامنا" نحن تبرز بصفة خاصة صورة الأم الجاهلية الساذجة المحدودة الآفاق، التي تتمثل فيها التربية "الدينية" القديمة، وأمامها الفتاة "العصرية" المثقفة ذات "التجربة" والآفاق الأوسع، التي تقوم بتحطيم "التقاليد البالية" وتنشئ علاقات "حرة" مع الشبان، وتحدث ثورة عنيفة ضدها في البيت.. ثم.. ينتهي الأمر بالرضى بالأمر الواقع، وترضح الأم –والأب كذلك– لما فعلته الفتاة "المتحررة" ويحتفلون جميعًا بتحطيم تلك التقاليد!

وسواء كانت المشكلة طبيعية كما يزعم الدعاة "التقدميون" أو كانت مفتعلة، فقد نشأت أصلًا من لوثة التطور التي أصابت الفكر الأوربي بعد دارون، وطغت من هناك على كل الأرض.

وفي غير هذا الكتاب تحدثت حديثًا مفصلًا عن قضية "التطور والثبات في حياة البشرية" وأشرت إلى أمرين رئيسيين:

الأمر الأول: أن الحياة البشرية ليست كلها ثابتة وليست كلها متغيرة. إنما فيها جانب ثابت لا ينبغي أن يتغير، وإذا تغير تختل الحياة البشرية ويسودها الاضطراب. وفيها جانب متغير لا ينبغي أن يظل على حاله على الدوام، وإذا أريد له أن يبقى على حاله فإن الحياة تجمد وتقف عن النمو. وإن من الجوانب الثابتة في حياة البشرية –وفي حياة الكون كله– قضية الألوهية وما يتفرع عنها ويترتب عليها من مبادئ وقيم. فكون الله هو الإله الخالق، الذي خلق السموات والأرض وخلق الإنسان، قضية أزلية لا تتغير ولا يمكن أن تتغير. ويترتب عليها أن يعبد الإنسان ربه الذي خلقه ولا يعبد غيره، ولا يشرك به شيئًا، وتشمل هذه العبادة الاعتقاد بوحدانية الله بلا شريك، وأداء الشعائر التعبدية التي افترضها الله عليه. وتنفيذ شريعة الله دون غيرها من الشرائع، بما تشتمل عليه من نظم وأخلاقيات. وأما الجوانب المتغيرة فمنها "الصورة" السياسية، و"الصورة" الاجتماعية و"الصورة" الاقتصادية، وهذه تتغير على الدوام بحكم فاعلية الإنسان في الأرض [وهو مقتضى جعله خليفة في الأرض][1] وتفاعل عقله الدائم مع الكون المادي، بما ينشئ صورًا متجددة من الحياة المادية تؤثر بدورها في الصورة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبشر. ولكن هذا التغيير لا ينبغي أن يكون منفلتًا من كل قيد، وإنما تحكمه –في تغيره– القيم الثابتة أو الجوانب الثابتة في حياة الإنسان، فتضبط منطلقه في الأرض دون أن تقف حركته أو تعوقها، وتمنع عن حياته الخلل والاضطراب. وأن الشريعة الربانية المنزلة قد روعي فيها –من لدن منزلها سبحانه– أن

(1)"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" : سورة البقرة: [30].

تستجيب للجانبين معًا على نحو معجز. ففي الجوانب الثابتة تعطي الشريعة تفصيلات ثابتة غير قابلة للتغيير، وفي الجوانب المتغيرة تعطي أصولًا عامة ثابتة، وتترك للعقل البشري المؤمن أن يجتهد بما يراه محققًا للمصلحة -في المصالح المرسلة التي لم ينزل فيها نص- بحيث لا يتخطى تلك الأصول الثابتة ولا يصطدم معها. وهذا هو الذي يعطي تلك الشريعة مرونتها وصلاحيتها لجميع الأجيال إلى قيام الساعة، تواكب نمو الحياة البشرية وتضبط منطلقه في ذات الوقت.

والأمر الثاني: أن الداروينية بذاتها -بصرف النظر عن صحتها من الوجهة العلمية أو عدم صحتها[1]- لم تكن لتؤدي من تلقاء نفسها إلى ذلك التحول الخطير الذي حدث في الفكر الأوربي بعدها، من انتشار الإلحاد من جهة، ورفض فكرة "الثبات" في أي شيء على الإطلاق من جهة أخرى. إنما ظروف أوربا المحلية هي التي أدت إلى ذلك بما كانت تشتمل عليه من فساد عقيدي[2] وفساد ديني شامل[3], وفساد سياسي واجتماعي واقتصادي وفكري[4].. إلخ، كما حدث استغلال مقصود لتلك الظروف من ناحية أخرى على يد ماركس وفرويد ودركايم وغيرهم من "المفكرين!" و"العلماء"! الذين أخرجوا الداروينية من نطاقها المحدود داخل المعمل, وداخل علم الحياة، ليستخرجوا منها ويبنوا عليها نظريات

([1]) بعد تقدم العلم، وثبوت تفرد الإنسان لا نفسيًّا وعقليًّا فقط ولكن بيولوجيًّا أيضًا [انظر جوليان هكسلي في كتاب الإنسان في العالم الحديث] وثبوت أن لكل جنس من الكائنات صفات وراثية ثابتة وغير قابلة للتغير [انظر أي مرجع حديث في علم "الجينات"] تزلزلت كثير من القواعد التي بنى عليها دارون نظريته، ولكنا لا نتعرض لهذا الأمر، ولا نحتاج أن نتعرض له، إنما تقول إنه حتى لو سلمنا جدلًا بصحة النظرية، فلم تكن بذاتها تؤدي إلى الإلحاد، لولا صراع دارون مع الكنيسة وقوله: إن "الطبيعة" هي التي تخلق كل شيء, ولا حد لقدرتها على الخلق، بدلًا من أن يقول: "رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى".

([2]) مما أدخلته المجامع المقدسة من تحريفات متوالية لعقيدة التوحيد الصافية التي جاء بها عيسى عليه السلام.

([3])يتمثل في الفساد الذاتي لرجال الدين، وطغيان الكنيسة الروحي والسياسي والمالي والعلمي، مع فضائح الأديرة وما كان فيها من فساد خلقي, ومهزلة صكوك الغفران.. إلخ.

([4])كان من الفساد الفكري في الحياة العقلية الأوربية تصور الثبات الكامل الدائم في كل شيء, في الكون والحياة, وعدم تصور حدوث التغير، فلما جاءت الداروينية بفكرة التطور الدائم وعدم ثبوت شيء على حاله في عالم الأحياء, أحدث ذلك زلزلة شديدة في الفكر الأوربي بينما كان المسلمون يعرفون قضية الثبات والتغير منذ قرون!

اقتصادية ونفسية واجتماعية تعامل الإنسان من جهة على أنه حيوان، وتهدم من جهة أخرى كل "الثوابت" في حياة البشرية من دين وأخلاق وتقاليد اجتماعية، لتضع بدلًا منها قيمًا متغيرة، أو تضع بدلًا منها أحيانًا فوضى لا ضابط لها ولا حدود![1]

وأيًّا كانت عوامل الخلل في الجاهلية الأوربية، وسواء كان ما حدث فيها تلقائي الحدوث أو مفتعلًا تقف وراءه وتدفعه القوى الشريرة في الأرض، فإن اللوثة التي أصابت الفكر الأوربي والحياة الأوربية بعد الداروينية هي وضع الحياة كلها -بجانبيها الثابت والمتغير معًا- على خط التغير، الذي يَدْعونه التطور، ومن ثم انفلات البشرية إلى الفوضى الهائلة التي تعيشها اليوم، بدعوى أن التطور العلمي والمادي قمين بأن يغير الحياة كلها من ألفها إلى يائها, ولا يترك فيها شيئًا ثابتًا على الإطلاق!

وي! التطور العلمي والمادي يلغي تلك الحقيقة الأزلية الأبدية: أن الله هو الخالق؟

ومن الخالق إذن؟

الطبيعة؟!

وما الطبيعة؟!

وكيف يتسنى للطبيعة التي يقول عنها دارون إنها لا عاقلة ولا مريدة، وإنها تخبط خبط عشواء، أن تخلق الإنسان المفكر المريد المدبر؟ كيف يتسنى للخالق أن يخلق من هو أسمى منه؟!

وكيف يقولون من جانب آخر إن الإنسان سيد الطبيعة إذا كانت الطبيعة هي التي خلقت الإنسان؟!

ما أبأس هذا التطور العلمي، وما أشد تخبطه -هو وعباده- في الظلمات!

"اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ"[2].

([1]) انظر -إن شئت- كتاب "التطور والثبات في حياة البشرية".

([2]) سورة البقرة [257].

* * *

من هذه اللوثة نشأ ما يسمونه في الجاهلية الأوربية المعاصرة "صراع الأجيال"..

فما دامت الحياة كلها موضوعة على خط التغير، فأنى للأجيال أن تلتقي على أمر واحد من أمور الحياة، والزمن "المتطور" قد فصل بين جيل وجيل إلى غير لقاء؟! فإذا تواجه جيلان -في أي أمر- فهي مواجهة الصراع لا مواجهة الهدنة ولا مواجهة الاتفاق!

ثم تروح كل وسائل "الإعلام! " تغذي هذا الصراع الدائر وتقويه، وتنزع من قلوب "الجيل الجديد" أي توقير للجيل السابق، أي: الوالدين وما حولهما من قيم وتقاليد، وتزرع في تلك القلوب بذرة التمرد والعصيان.

ولربما كان الأمر يكون منطقيًّا ومفهومًا لو أن هذا الجيل الجديد -الصاعد- قد اكتشف الاختلالات القائمة في الجيل السابق فراح يقوّمها، ثم رفض الجيل السابق مقومات التقويم فتمرد الجيل الصاعد عليه، وأبى إلا إخضاعه أو إنشاء الحياة الجديدة على الرغم منه!

ولكن أين ذلك من الواقع؟

ما مقومات الإصلاح التي يحملها "الهيبيز" بتبذلاتهم وجرائمهم والدنس الحيواني الذي يعيشون فيه، مع تمييع الفطرة التي لا تكاد تميز معها بين فتى أو فتاة؟

وحتى حركات العنف.. ما الذي تحمله من مقومات الإصلاح الجذرية لفساد الحياة الأوربية الذي يشمل كل جوانب الحياة؟

إن نقطة الخلل العظمى في الحياة الأوربية أنها "جاهلية" لا تعرف الله، ولا تحكم بما أنزل الله.. فماذا تملك حركات العنف من زاد يُصْلح هذا الخلل الأعظم ويرده عن الفساد؟!

* * *

وما بنا أن نناقش الجاهلية الأوربية هنا أكثر من ذلك. إنما نسجل فقط أن ظاهرة "الصراع بين الأجيال" القائمة في تلك الجاهلية لا تعرفها قط الحياة الإسلامية الصحيحة التي تسير بمقتضى منهج الله.

تعرف الحياة الإسلامية جيدًا ظاهرة "الاختلاف بين الأجيال" ولكنها لا تعرف قط ظاهرة "الصراع بين الأجيال".

فأما الاختلاف بين الأجيال فأمر تنبه إليه عمر رضي الله عنه في وقت مبكر جدًّا من التاريخ الإسلامي، حين قال: "أحسنوا تربية أولادكم فقد خلقوا لجيل غير جيلكم" وكان يلمح بهذا إلى ما يحدث في حياة البشر من التغير في الصورة السياسية والصورة الاجتماعية والصورة الاقتصادية، فيقول: "أحسنوا تربية أولادكم" أي: اضبطوهم بالقيم الثابتة لكي لا يجرفهم التغير فيحيدوا عن سواء السبيل.

وذلك هو حجر الزاوية في الحياة الإسلامية الصحيحة المحكومة بمنهج الله..

إن صور الحياة تتغير، ولا بد لها أن تتغير.. ولكن ينبغي أن تظل -في تغيرها- محكومة بمنهج الله، المنزل أصلًا لكي يواكب نمو الحياة الدائم، ويضبط منطلقه فلا يضل عن الطريق.

تتغير صور الحياة، ولكن يظل الله هو المعبود..

تتغير صور الحياة، ولكن تظل شريعة الله هي الحاكمة..

تتغير صور الحياة، ولكن تظل أخلاقيات لا إله إلا الله هي التي تنظم علائق البشر..

تتغير صور الحياة، ولكن يظل البناء الرئيسي للفرد والأسرة والمجتمع والدولة لا يتغير، وهو قيامه على تقوى الله، وتنفيذه لأوامر الله..

فإذا سأل سائل ساذج: وما الذي يمكن أن يتغير من الحياة إذن إذا ظلت هذه الأمور كلها ثابتة؟ نقول له إن أشياء كثيرة جدًّا يمكن أن تتغير -في حدود النمو السوي للحياة البشرية- دون أن يحتاج ذلك لتغيير أمر واحد من هذه الأمور.

يستطيع راكب الجمل أن يركب السيارة أو الطائرة أو الصاروخ.. ولكن شيئًا من ذلك كله لا يجعله "يطغى" ويستكبر عن عبادة الله كما يصف القرآن: "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى"[1]. ذلك أن راكب الصاروخ المسلم سيقول وهو يصعد إلى الصاروخ: "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ"[2] فيظل -وهو يستخدم الصاروخ- شاعرًا بفضل الله عليه في وصوله إلى هذه الدرجة من العلم، ويظل موصول القلب به، شاكرًا لأنعمه، عابدًا له.

([1]) سورة العلق [6-7].
([2]) سورة الزخرف [13-14].

ويستطيع الاقتصاد الرعوي أو الزراعي أن "يتطور" إلى اقتصاد صناعي.. ولكن هذا لا يلجئه إلى استخدام الربا لأنه حرام، ولا الوصول إلى الاحتكار لأنه ملعون، ولا السرقة ولا النهب ولا الغش ولا الترف ولا عدم توفية الأجير أجره لأن هذا كله محرم في الإسلام، وهو هو الذي تستخدمه الرأسمالية ويترتب عليه ما يترتب من ظلم وفساد في الأرض.

وتستطيع الفتاة أن تتعلم، وأن تحذق كثيرًا من العلوم، وتحصل على كثير من الدرجات العلمية حتى أعلاها، ولكن هذا لا يحتم عليها أن تتبرج، ولا أن تفقد أخلاقها، ولا أن يكون الاختلاط هو دستور المجتمع، فإن التبرج والفساد الخلقي ليس هو الذي يعطي "العلم"! وليس شرطًا من شروطه ولا أساسًا من أسسه! ثم لا يترتب على تعلم الفتاة المسلمة أن ترفض قوامة الرجل، لأن القوامة لم يكن سببها نيل الرجل لشهادة جامعية لا تستطيع المرأة الحصول عليها! إنما سببه فروق فطرية أودعها الله في فطرة كل من الرجل والمرأة لتستقيم الحياة داخل الأسرة, وداخل المجتمع على وجهها الصحيح.

وهكذا.. وهكذا مما لا يشمله الحصر!

* * *

وحين تقوم الحياة الإسلامية الصحيحة على القيم والمبادئ الثابتة المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، ثم تنمو وتتغير ما شاء لها الله أن تنمو وتتغير في حدود هذه القيم والمبادئ، فإن "اختلافًا" كبيرًا يمكن أن ينشأ بين الأجيال المتعاقبة من المسلمين، ولكن لا ينشأ ذلك الصراع بين الأجيال، الذي تمارسه الجاهلية المعاصرة ثم تعود تشكو منه جادة في شكواها أو هازلة!

يمكن أن تتغير صورة الحياة من الجمل إلى السيارة إلى الصاروخ، ومن الاقتصاد الرعوي والزراعي إلى الاقتصاد الصناعي، ومن الفتاة التي تكتفي "بفك الخط" أو بما هو دونه إلى الفتاة الجامعية المثقفة، ومن الخيمة أو الكوخ الصغير إلى العمارة الشاهقة المزودة بالماء والكهرباء وكل "التكنولوجيا" المعاصرة.. ولكن يلتقي راكب الجمل وراكب السيارة وراكب الصاروخ، والراعي والفلاح والعامل الصناعي، والفتاة التي تفك الخط أو لا تفكه والفتاة الجامعية المثقفة، وساكن الخيمة أو الكوخ وساكن العمارة الشاهقة.. يلتقون كلهم على كلمة مبدئية يقولونها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلى الإقرار بشريعة الله وأنها هي التي تحكم الحياة، وعلى صلوات خمس يؤدونها في اليوم والليلة، وعلى صيام شهر رمضان، وعلى أداء الزكاة لمن كان يملك نصاب الزكاة، وعلى حج البيت من استطاع إليه سبيلا، وعلى توقير الصغير للكبير، وعلى إفشاء السلام، وعلى التزام آداب الجنس، وآداب اللباس والزينة،

وآداب الطعام، وآداب الكلام، وآداب الجوار، وآداب الحوار... ويلتقون على الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب.. ويلتقون على اتخاذ القدوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ويلتقون ... ويلتقون ... ويلتقون..

عندئذ "يختلفون" في أمور الحياة لمتغيرة ما شاء لهم الاختلاف.. وتختلف وجهات نظرهم في بعض الأمور التي لا يحكمها نص معين أو في كثير منها.. ولكن يبقى مع ذلك الاختلاف كله من الروابط ومن عوامل الالتقاء ما يجعلهم في أي جيل من الأجيال "أمة" واحدة، وما يجعلهم كذلك أمة واحدة خلال كل التاريخ.

"إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ"[1].

وعندئذ قد تختلف بعض وجهات النظر بين الولد وأبيه، وبين الفتاة وأمها، ولكن لا يحدث الصراع بين الجيلين، الذي يؤدي إلى التمرد والنشوز..

فحين يلتقي الولد والوالد[2] على منهج الله، وعلى ضرورة تطبيقه في واقع الحياة فمن أين يحدث الصراع؟

ثم حين يلتقي الولد والوالد على منهج الله. فمن أين يأتي التمرد الناشئ من اخلاف القيم والمبادئ التي تحكم الحياة؟

كلا! لا يحدث في الحياة الإسلامية الصحيحة صراع الأجيال..

أما ما يحدث اليوم في مجتمعاتنا الجاهلية فهو هو الذي نحتاج إلى منهج التربية الإسلامية ليرده إلى الصواب! يرد الولد والوالد كليهما إلى منهج الله وشريعة الله!

(1) سورة الأنبياء [92].

(2)أي "الأولاد" جميعًا من بنين وبنات، و"الوالدون" جميعًا من آباء وأمهات.

مرحلة النضوج

مرحلة النضوج هي المرحلة "المثمرة" في حياة الأمم والجماعات والشعوب.

أرأيت إلى الزارع الذي يزرع حقله؟ إنه يختار الأرض ثم يهيئها للزرع. ينقيها من الحشائش الضارة ثم يحرثها، ثم يضع البذرة. ثم يظل يتعهدها ويسقيها حتى تخرج من باطن الأرض نبتة صغيرة، ثم يواليها بالرعاية حتى يقوم النبات على ساقه، ثم يتفتح ويزهر..

إلى أي شيء يهدف من وراء هذا العمل كله، وهذا الجهد الدائب الذي يقوم به؟

إنه يهفو إلى "الثمرة" في نهاية المطاف، تعوضه عن جهده من ناحية، وتحمل من ناحية أخرى بذور الدورة القادمة، التي يتم بها الاستنبات من جديد.

والبشرية تأخذ ذات الدورة.. ومنذ الطفولة الباكرة إلى الشباب الباكر جهد دائب متصل يقوم به الآباء والمربون في انتظار "الثمرة". والثمرة هي ذلك الكيان الناضج –رجلًا كان أو امرأة– الذي يحمل مسؤوليته الفردية والاجتماعية، ثم يقوم بدوره في إنشاء جيل جديد يخلفه في مهمته على الأرض.

مسؤولية هائلة في الحقيقة..

وهي بالنسبة للإنسان المسلم أكبر وأخطر..

إنها –بالنسبة للإنسان المسلم– مسؤولية الخلافة الراشدة في الأرض:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"[1].

أو هي بعبارة أخرى مهمة عمارة الأرض بمقتضى منهج الله:

"هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ.."[2]

([1]) سورة البقرة [30].

([2]) سورة هود [61].

وفي قصة آدم -كما وردت في مواضع شتى من القرآن الكريم- مجموعة من الحقائق بشأن مسؤولية الإنسان في الأرض، ودوره في الحياة الدنيا.

فقد خُلِق الإنسان ابتداء من قبضة من طين الأرض ونفخه من روح الله:

"إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"[1].

قبضة من طين الأرض تمنحه كيانه الجسدي الذي يتحرك ويعمل ويقوم بالنشاط الحيوي، والذي تكمن فيه في الوقت ذاته رغائب الأرض وشهواتها. ونفخة من روح الله تمنحه شفافية روحه، وإدراك عقله، وقدرته على التمييز بين الخير والشر، وإرادته الضابطة التي تتحكم في الشهوات:

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"[2].

"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"[3].

وإذ ركب في كيانه مجموعة من الرغائب والشهوات فقد أباح له الله قدرًا من المتاع الأرضي يستجيب لتلك الشهوات المركبة في كيانه، ويعلم الله أنه القدر النافع لهذا الكيان، المعين له على أداء مهمة الخلافة في الأرض، وجعله "خالصًا" للذين يلتزمون به طاعة لله وإيمانًا به:

"وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ"[4].

"قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

([1]) سورة ص [71-72].
([2]) سورة الشمس [7-10].
([3]) سورة الإنسان [2-3].
([4]) سورة البقرة [36].

وفي الوقت ذاته منع عنه قسطا آخر من المتاع يعلم سبحانه وتعالى أنه لا يفيد هذا الكيان في حياته الدنيا ولا يعينه على أداء مهمته في الأرض، بل يقعد به عن أدائها، ويهبط بالإنسان عن مستواه الذي كرمه الله به ورفعه عن عالم الحيوان.

ولكنه جعل نقطة الابتلاء لهذا المخلوق البشري هي "تزيين" هذا المتاع، ليبتلي الإنسان في كيفية تصرفه في هذا الأمر: أيستجيب لدافع الشهوة ويتعدى الحدود المرسومة له ويهبط بذلك إلى مستوى الحيوان؟ أم يلجأ إلى طاقته الروحية، وعقله، وإرادته الضابطة، فيستجيب لأوامر الله، ويمتنع عن القدر الزائد من المتاع -وإن كان يشتهيه- فيحقق بذلك كيانه الأعلى، كيان الإنسان، وينصرف إلى الآفاق العليا التي كرمه الله بها، وفضله على كثير ممن خلق؟

ثم جعل له الجنة جزاء النجاح في الاختبار، والتزام حدود الله، التي تحقق له في ذات الوقت مصلحته الحقيقية في الحياة الدنيا، كما جعل النار جزاء المعصية التي ينتج عنها في الوقت ذاته البوار والدمار في حياته على الأرض.

"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ.."[2].

"إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"[3].

"تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ"[4].

ولقد أخبره عند هبوطه إلى الأرض -بعد فتنة الشيطان له وإخراجه من الجنة -أنه سيرسل له هدى عليه أن يلتزم به ليصلح حاله في الدنيا والآخرة:

"قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[1].

([1]) سورة الأعراف [32].

([2]) سورة آل عمران [14].

([3]) سورة الكهف [7].

([4]) سورة النساء [13-14].

وعلمه أن المطلوب منه –في كلمة واحدة– أن يعبد الله ولا يشرك به شيئًا:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[2].

"وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.."[3].

ولكنها عبادة شاملة، تشمل كيان الإنسان كله، كما تشمل حياته كلها لا لحظة "التعبد" المعروفة فحسب:

"قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ.."[4].

وأن الهدى الرباني المنزل من عند الله هو الذي يشتمل على تفصيلات "العبادة" المطلوبة من الإنسان, فتكون العبادة المطلوبة في كل حالة هي الطاعة لهذا الهدى المنزل. وتكون عبادة الشيطان من الجانب الآخر هي مجافاة هذا الهدى والإعراض عنه، لأن هذه هي الغواية التي توعد الشيطان أن يوقع فيها بني آدم جزاء تسبب أبويهم في إخراج الشيطان من الجنة:

"قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ"[5].

"كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ"[6].

"أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ"[1].

([1]) سورة البقرة [38-39].

([2]) سورة الذاريات [56].

([3]) سورة النساء [36].

([4]) سورة الأنعام [162-163].

([5]) سورة ص [79-85].

([6]) سورة الأعراف [29-30].

وتلك هي المسؤولية الملقاة على عاتق البشر أجمعين، والتي لا يؤديها في الحق إلا المؤمنون! أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، بهذا المعنى الواسع الشامل للعبادة، الذي يعني التوجه لله في كل أمر من الأمور، والالتزام بما أنزل الله في كل أمر من الأمور، سواء كان –في اصطلاح البشر– من أمور الآخرة، ويعنون بها الشعائر التعبدية، أم كان من أمور الدنيا التي يعنون بها عمارة الأرض. فكلاهما شيء واحد في الإسلام، تشمله تلك "العبادة" الشاملة التي تشمل كل حياة الإنسان.

وذلك هو منهج التربية الإسلامية وخاصة في مرحلة النضوج[2].

* * *

إن منهج التربية الإسلامية الذي بذل فيه الجهد منذ الطفولة الباكرة إلى الشباب الباكر، ليؤذن الآن أن يؤتي ثمرته. وثمرته هي "الإنسان الصالح" الذي يحمل "الأمانة" التي ناط الله به حملها بعد أن أشفقت من حملها السموات والأرض:[3]

"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ.."[4].

و"الإنسان الصالح" في الحقيقة هو أثمن ما في هذا الكون، لأنه موضع التكريم الرباني والتفضيل:

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"[5].

ولئن كان التكريم في الأصل لكل بني آدم، فإن الذي ظل مستحقًّا له هو الإنسان المؤمن وحده، أي: الإنسان الصالح، الذي زكى نفسه كما أمره الله. أما الذي دسى نفسه فقد نكس على رأسه ولم يعد من المكرمين:

([1]) سورة يس [60-61].

([2]) انظر –إن شئت– في الجزء الأول من منهج التربية الإسلامية فصل "منهج العبادة".

([3]) في الجزء الأول فصل بعنوان "ثمرة التربية" يرجع إليه من أراد.

([4]) سورة الأحزاب [72].

([5]) سورة الإسراء [70].

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا.."[1].

"لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"[2].

ولئن كانت الخلافة هي في الأصل "للإنسان" كله، فإن الإنسان المؤمن وحده – الإنسان الصالح– هو الذي يقوم بالخلافة الراشدة. أما الذين يرفضون الرشد فهم أولئك:

"سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"[3].

والغافلون هم أولئك الذين قال عنهم إنهم "كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ" وهؤلاء لا يقومون بالخلافة الراشدة، إنما يقومون بجهد ضائع.. ضائع في الدنيا والآخرة على السواء:

"قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا"[4].

ولئن كانت عمارة الأرض يقوم بها "الإنسان" كله، فإن الإنسان المؤمن وحده هو الذي يقوم بهذه العمارة بمقتضى المنهج الرباني، فيثمر جهده الثمرة المباركة:

"وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ"[5].

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.."[6].

---

(1) سورة التين [4-6].

(2) سورة الأعراف [179].

(3) سورة الأعراف [146].

(4) سورة الكهف [103-105].

(5) سورة الأعراف [58].

(6) سورة الأعراف [96].

أما حين يكفرون فقد يفتح الله عليهم أبواب كل شيء, فترة من الوقت تطول أو تقصر. ولكن بغير بركات وبغير طمأنينة في الأرض، ثم في النهاية يدمر عليهم:

"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"[1].

* * *

الإنسان الصالح هو الهدف النهائي من منهج التربية الإسلامية، وهو الثمرة كذلك.

وفي مقدمة الكتاب الأول من "منهج التربية الإسلامية" أشرت إلى الفرق الهائل بين "الإنسان الصالح" الذي يسعى الإسلام إلى إنشائه، و"المواطن الصالح" الذي تسعى إلى إنشائه مناهج التربية البشرية التي لا تقوم على المنهج الرباني، وإن بدا لأول وهلة أنهما شيء واحد بلا افتراق. وما نحتاج هنا أن نعيد ما قلناه هناك. إنما نقول باختصار: إن الإنسان الصالح يشتمل ابتداء على ما قد يشتمل عليه المواطن الصالح من عناصر الخير، ولكنهما يفترقان افتراقًا واسعًا بعد ذلك، ينشأ من قضية جوهرية في حياة هذا الكون كله وحياة الإنسان كذلك، هي قضية المعبود الحقيقي: أهو الله وحده بلا شريك؟ أم له شركاء يعبدون معه أو يعبدون من دونه.. كانت في الماضي أصنامًا حسية في الغالب، وهي اليوم أوثان معنوية من نوع آخر ولكنها تفضي إلى ذات النتيجة، تتخذ أسماء شتى، الوطنية.. أو القومية.. أو الإنتاج القومي.. أو المصلحة القومية.. أو الدولة.. أو الحزب.. أو المذهب.. أو الزعيم.. تطاع في معصية الله، وتقدم على ما أنزل الله، فتكون في الحقيقة أربابًا معبودة من دون الله، وتنشأ عن ذلك فروق كبيرة في الدنيا، فضلًا عن المصير في الآخرة.

فالرأسمالي الذي يستبيح لنفسه أن يمتص دماء الكادحين، ويغري البشرية بالفساد الخلقي والروحي والعقلي لكي يربح الأرباح الفاحشة من منتجات ليست من مستلزمات الحياة الجادة النظيفة الهادفة، ثم يقيم الحروب المحلية أو العالمية لكي يؤمن أسواقًا لتصريف بضائعه.. ذلك "مواطن صالح" في نظر الغرب الرأسمالي. بل هو صالح بمقدار ما يمعن في هذا الشر كله وينجح فيه!

والمواطن في الشيوعية صالح بمقدار ما يستطيع أن يستعبد نفسه للزعيم والحزب والمذهب والدولة، ولا يفتح فمه بكلمة نقد واحدة لما قد يتراءى له مستوجبًا للنقد! ولا بأس

([1]) سورة الأنعام [44].

عليه أن يقدس الزعيم القائم اليوم، حتى إذا مات ونبش قبره من بعده. أنحى باللائمة على الزعيم الأول وتابع الزعيم الأخير! ولا بأس عليه أن تجنده الدولة لإهلاك الناس بغير جزيرة كما جندت روسيا مواطنيها الصالحين عام 1956 لهدم البيوت على سكانها أحياء في المجر، لأنهم تجرؤوا فأرادوا أن يختاروا لأنفسهم طريقًا غير طريق الذل الذي عاينوه في الحكم الشيوعي "الإنساني" "الرفيع"!

وهم بطبيعة الحال لا يقولون في كتبهم ولا دساتيرهم إن هذه أو تلك هي مواصفات المواطن الصالح! ولكن هذا هو التطبيق العملي الذي يكشف "المبادئ" على حقيقتها، ويكشف عن مفهوم القوم الحقيقي لمبادئهم، رغم كل العبارات البراقة في الكتب والدساتير عن العدل، وعن الحرية والإخاء والمساواة. فإذا قال قائل منهم –أو من المدافعين عنهم– إن هذا خطأ في التطبيق، فليعطونا إذن مثالًا واحدًا للتطبيق المخالف لذلك في الشرق أو الغرب، وليرونا حركة التقويم الواحدة التي قامت لتصحح الخطأ وترده إلى الأصول!!

أما مواصفات "الإنسان الصالح" فقد تضمنها كتاب منزل من عند الله، وسنن سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما تضمنها واقع تاريخي ضخم شهدته البشرية أروع شهادة، وظل قائمًا في الأرض قرونًا طويلة رغم الانحراف المتزايد والبعد التدريجي عن منهج الله. أما انحرافات المسلمين التاريخية، التي بلغت ذروتها في المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم في أرض الإسلام، فهي انحرافات، لا يرضى بها أحد، ولا يبررها أحد، ولا يدافع عنها أحد! وقد قامت في التاريخ الإسلامي حركات متكررة لمحاولة تصحيحها، وردها إلى أصولها المتضمنة في الكتاب والسنة، على يد الدعاة والمجاهدين الذين لم ينقطع منهم تاريخ الإسلام، وها هي ذي حركات البعث الإسلامي القائمة اليوم، رغم كل الحرب المصبوبة عليها من كل أرجاء الأرض، تحاول أن تقوم انحراف المسلمين وتردهم إلى تلك الأصول.

وهذا هو الفارق بين المنهج الرباني، القائم على العقيدة الصحيحة في الله، والمناهج البشرية القائمة على المصلحة أو على الحقد أو على شهوة السلطان.

* * *

الإنسان الصالح هو الإنسان العابد لله، على المفهوم الشامل للعبادة الذي يشمل كل الحياة؛ وهو كذلك الإنسان الذي تتمثل فيه أخلاقيات لا إله إلا الله:

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا

كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا، وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا"[1].

"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"[2].

"وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ.."[3].

وهدف منهج التربية الإسلامية هو إنشاء هذا الإنسان الصالح، رجلًا وامرأة، وفردًا ومجتمعًا، وأمة ودولة..

وفترة النضج بصفة خاصة هي التي يفترض أن يصل الإنسان فيها إلى نضجه التربوي، بعد ما بذل في تربيته على المنهج الرباني منذ الطفولة الباكرة إلى تلك اللحظة، ويصبح منذ الآن إنسانًا راشدًا يحمل مسؤوليته ويقوم بدوره في تسيير عجلة الحياة..

كان يتلقى من مربيه.. والمفروض فيه اليوم أن ينتقل إلى مقام التوجيه، لنفسه ثم للآخرين..

---

(1) سورة الفرقان [63-76].

(2) سورة المؤمنون [1-11].

(3) سورة الشورى [37-39].

كان غيره يعوله.. والمفروض فيه اليوم أن يكون عائلًا، يكوّن أسرة ويكون مسؤولًا عن إعالتها وعن توجيهها..

كان يكتسب خبرات نظرية.. والمفروض فيه اليوم أن يكتسب الخبرة العملية التي يعيش بها ما قدّر له أن يعيش..

كان في موقف المتفرج أو المحبذ أو الناقد من بعيد.. والمفروض فيه اليوم أن يشارك في الأمور بنفسه، ويأخذ دوره فيما كان يتفرج عليه من بعيد..

* * *

إن السمات العامة لهذه الفترة هي الرغبة في حمل المسؤولية، والرغبة في العمل واكتساب الخبرة العملية، ثم النظرة الواقعية إلى الأمور.

وقد ركب الله هذه السمات في الفطرة لتقوم بدور معين في حياة البشرية.

وسواء كانت المسؤولية هي المسؤولية في أضيق نطاقها, وهي السعي وراء الرزق، وإنشاء أسرة وتحمل تبعاتها، أو كانت هي المسؤولية في أوسع نطاقها، كقيادة أمة أو قيادة دولة أو قيادة دعوة..

وسواء كان العمل يدويًّا أو عقليًّا أو فنيًّا[1].

وسواء كانت الخبرة محصورة في نطاق المهنة التي يمتهنها الإنسان ليكسب رزقه، أو كانت خبرة علمية أو سياسية أو اقتصادية أو حربية أو تربوية أو قيادية لا تنحصر في شخص صاحبها, إنما تتعداه إلى الأمة التي ينتسب إليها.. أو إلى كل البشرية..

وسواء كان نطاق النظرة الواقعية محصورًا في المجال الذاتي الضيق، أو شاملًا لأمور المجتمع وأمور الحياة..

فأوان هذه السمات كلها هو مرحلة النضج، وهي التي تنشئ الواقع العملي الذي تعيشه البشرية.

* * *

---

(1) أي يشترك فيه العمل اليدوي والعقلي كالهندسة.

والإسلام دين الفطرة. ومنهجه التربوي يهدف إلى أخذ خير ما في الفطرة, وتقويم اعوجاجاتها حين تنحرف عن الطريق.

فأما من حيث الرغبة في حمل المسؤولية، فإننا نرى في جماعة الرسول صلى الله عليه وسلم نماذج فريدة نادرة في التاريخ البشري كله. فشباب صغير، مما نراه في أيامنا هذه يلهو ويعبث وينفق وقته وجهده في اللهو والعبث والفساد، كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يعهد إليه بمهام خطيرة يعجب الإنسان لها ولا ينقضي عجبه منها!

فكم كان عمر أسامة بن زيد حين عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة جيش من جيوش المسلمين؟! كان في الثامنة عشرة من عمره. وهي سن يقضيها بعض الناس في مراهقة مريضة أو عبث صبياني مرذول! ويقضيها في أحسن الأحوال في تطلع إلى اليوم الذي يحمل فيه المسؤولية, ويقوم بعمل نافع في الحياة!

وكان محمد بن القاسم في التاسعة عشرة حين وصل بفتوحاته في عهد الوليد بن عبد الملك إلى حدود الصين. وكان عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش دون الخامسة والعشرين حين أقام دولته في الأندلس.. وغيرهم وغيرهم..

ألا أن الإيمان الحق ليسرع بالإنسان إلى اكتمال النضج، ويشحذ العزيمة كما يشحذ المواهب، ويرفع من لديه الاستعداد إلى مستوى العبقرية!

و"المسؤولية" الضخمة التي يضع الإسلام الإنسان فيها -أيًّا كان تخصصه الفردي، وأيًّا كانت مواهبه واستعداداته- هي إقامة منهج الله في الأرض.. هي المجاهدة لكي تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.

وهي مسؤولية لا تنحصر في جانب واحد.. لا تنحصر في "القتال" كما قد يبدو الأمر لأول وهلة. إنما القتال هو جانب واحد من جوانبها المتعددة. ولو كان الأمر أمر قتال فحسب، فقد كان يكفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يربي جيشًا من المقاتلين الشجعان ولا زيادة! وما أصغره من هدف لو انحصر فيه الأمر كله، هدف تحسنه كل الجاهليات الكبرى في التاريخ! عرفته من قبل الجاهلية الفرعونية والجاهلية الإغريقية والرومانية والفارسية وغيرها.. وعرفته في الحديث جاهليات أوربا وأمريكا، وتسابقت فيه وتفننت، سواء جيش هتلر من قبل، أو جيش روسيا وجيوش الحلفاء اليوم!

إنما القتال أمر عارض يعرض في الطريق، لا هو أول الطريق ولا آخر الطريق!

إنما أول الطريق هو بناء النفس الإنسانية على المنهج الحق.. بناء "الإنسان الصالح" كما قلنا في هذا الفصل..

بناء الإنسان الذي يعرف هذه الحقيقة الكبرى: أنه لا إله إلا الله، ويؤمن بذلك الإيمان الحق، الذي يتعمق نفسه حتى آخر أعماقها، فيعيد إنشاءها، كما يمر المغنطيس على قطعة الحديد فيعيد ترتيب ذراتها، فإذا هي شيء آخر غير الذي كان من قبل.. شيء تنبعث منه المغنطيسية وتنتج منه الكهرباء.. فتصبح له "طاقة" جديدة لم تكن له من قبل.

الإنسان الذي يرى الرؤية الصافية لهذا الوجود.. من خلقه؟ من أبدعه؟ من يدبر أمره؟ أي آيات معجزة فيه؟ ما دلالة هذه الآيات؟

ويرى الرؤية الصافية للوجود الإنساني: من أين؟ وإلى أين؟ من أين يبدأ وإلى أين المصير؟ وما الإنسان؟ أحيوان هو أم ملك أم شيطان أم "إنسان"؟! وما دوره في الأرض: يتجبر في الأرض؟ يتلذذ بمتاع الأرض؟ يقيم الحق والعدل في الأرض؟ يعبد الله؟ أم يعبد نفسه -أي: شهواته-؟ أم يعبد "الطبيعة"؟ أم يعبد الدولة؟ أم يعبد الدرهم والدينار -أو الدولار؟ وما مكانه من "القوى" الأخرى في الوجود: القوى المادية، والقوى الاقتصادية، والقوى التاريخية.. أعبد لها هو أم سيد؟ وما دوره معها؟ يصوغها أم تصوغه؟ ويتفاعل معها تفاعل المسيطر أم تفاعل المغلوب على أمره الذي لا حيلة له..

مئات من الأشياء تحتاج إلى رؤية صافية، لأنها هي هي التي تشكل منهج الحياة في الأرض، فضلًا عن مستقبل الإنسان في الآخرة.

وأول الطريق في المنهج الرباني هو بناء النفس الإنسانية التي تملك الرؤية الصافية.. تملكها في العقيدة.. تملكها في لا إله إلا الله.

إن هذه العقيدة الإسلامية الواضحة الصافية.. "لا إله إلا الله".. لهي التي تمنح هذه الرؤية الصافية التي يحتاج إليها الإنسان، حين تقول له إن الله هو الذي خلق هذا الوجود وأبدعه، وهو الذي يدبر أمره، وهو الذي أودع فيه هذه الآيات المعجزة لتدل الإنسان على إلهه، وتعرّفه بقدرته المعجزة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض، وتدله على أن السموات والأرض ما خلقت باطلًا، إنما خلقت بالحق.. ومقتضى ذلك الحق هو البعث والنشور والحساب والجزاء:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"[1].

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ"[2].

"أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ"[3].

وهذه العقيدة هي التي تجيبه عن تساؤلات الفطرة: من أين وإلى أين، فتقول له إن الله هو الذي خلق الإنسان، فهذه بدايته، وأنه راجع إليه, فهذا منتهاه:

"وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[4].

وهي التي تعرفه بحقيقة نفسه وحقيقة دوره على الأرض: إنه "إنسان" منذ مولده. لم يكن حيوانًا، وليس ملكًا، وليس شيطانًا، وليس إلهًا كذلك.. إنما هو إنسان. خلق منذ أول لحظة خلقًا مغايرًا للحيوان، ولمهمة مختلفة عن مهمة الحيوان، هي الخلافة في الأرض، وتعمير الأرض بمقتضى منهج الله. ودوره في الأرض أن يعبد الله -بالمعنى الشامل للعبادة الذي بيناه من قبل- وليقيم الحق والعدل في الأرض، فتقوم حياته بالقسط، وليجاهد في سبيل ذلك كله بما يقتضيه منه الجهاد. وموقفه من "القوى" أنه هو القوة المسيطرة في الأرض، بمقتضى الخلافة التي خلقه الله من أجلها، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه ليقوم بها على وجهها الأكمل!

وحين تعرف النفس الإنسانية ذلك كله تكون قد تهيأت للبناء السليم.. ويكون هذا أول هدف تقوم به هذه العقيدة الضخمة في حياة النفوس.

---

(1) سورة آل عمران [190-191].

(2) سورة ص [27-28].

(3) سورة المؤمنون [115].

(4) سورة البقرة [28].

ثم تكون الخطوة التالية هي إقامة البناء ذاته.. هي بناء النفس بمقتضى هذا "العلم" الذي تعلمته من العقيدة. فإن لهذه العقيدة مقتضى، ولا تكون موجودة على الحقيقة إلا حين يتحقق مقتضاها في واقع الأرض.

والبناء على مقتضى العلم يكون بتربية النفوس على طاعة الله.

فإن النفوس التي تعلم -إلى درجة اليقين- أن الله واحد لا شريك له في الخلق ولا في الرزق ولا في الضر ولا في النفع ولا في التدبير..

وتعلم -إلى درجة اليقين- أن مهمة الإنسان في الأرض محصورة في عبادة الله، ثم يتسع علمها فتعلم أن عبادة الله ليست هي ساعة "التعبد" التي لا تستغرق وقت الإنسان ولا جهده، ولا تكاد تشغل من حياته إلا سويعات من كل يوم، إنما هي الحياة كلها حتى الموت، بل الموت ذاته كذلك (بأن يكون على طاعة الله وفي سبيل الله): "قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ.."[1] وأن العبادة الحقة هي القيام بكل التكاليف الربانية كما أمر بها الله، سواء كانت هي عمارة الأرض، أو السعي للرزق، أو إنشاء أسرة وتحمل تبعاتها، أو إقامة الحق والعدل في الأرض: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا"[2] "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا"[3] "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى"[4] أو الجهاد في سبيل الله: "فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا، وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ.."[5] أو كان غير ذلك من التكاليف الكثيرة المنبثة في كتاب الله وسنة رسوله..

([1]) سورة الأنعام [162-163].

([2]) سورة النساء [58].

([3]) سورة النساء [135].

([4]) سورة المائدة [8].

([5]) سورة النساء [74-75].

والنفوس التي تعلم إلى درجة اليقين أنها راجعة إلى الله فمحاسبها الله على الكبيرة والصغيرة: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"[1]..

تلك النفوس لا بد أن تخاف الله وتميل إلى طاعته..

ولا نقول إنها ستكون نفوسًا ملائكية لا تخطئ أبدًا! كلا! فإن الناس كلهم خطاءون كما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن خير الخطائين التوابون:

"وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ"[2].

وهذه الخشية، أو الوجدان الديني الذي يؤدي إلى تقوى الله والسعي إلى مرضاة الله، هو الخطوة الثانية في منهج التربية الإسلامية، وهو الثمرة الثانية من ثمار هذه العقيدة الضخمة وآثارها في حياة النفوس.

ثم الخطوة الأخيرة هي ترجمة هذا العلم, وهذا الوجدان إلى واقع عملي.. أي تربية سلوك واقعي يتناسب مع هذا العلم وما أنتجه في النفس من وجدان، بشتى الوسائل التي تحدثنا عنها من قبل، من تربية بالقدوة إلى تربية بالموعظة، إلى تربية بالمثوبة والعقوبة، إلى تربية بالعبادة، إلى تربية بالقصة، إلى تربية بالأحداث، إلى تربية باستنفاد الطاقة في الخير وشغل أوقات الفراغ في الخير.. وهذا هو الذي قام به المربي الأعظم عليه صلوات الله وسلامه، فأنشأ به خير أمة أخرجت للناس، وخير جند قاتلوا في سبيل الحق والعدل، لأنهم قاتلوا في سبيل الله.

كلا! لم يكن همّ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يربي جيشًا من المقاتلين الشجعان ولا زيادة! إذن ما كان أيسر المهمة وأقل الجهد! إنما كان همه بناء تلك النفوس التي صنعت تلك العجائب في الأرض. ولم يكن أعجب ما صنعته تلك النفوس هو قتالها الرائع في سبيل العقيدة، وانتصارها الرائع على أضعاف أضعافها في العدد والعدة -وإن كان هذا كله عجيبة من عجائب التاريخ- إنما كان أعجب منه -وأندر في تاريخ البشرية كله- ذلك العدل الذي حكموا به أنفسهم وحكموا به البلاد المفتوحة "وحادثة القبطي مع ابن عمرو بن العاص

([1]) سورة الزلزلة [7-8].

([2]) سورة آل عمران [135-136].

شاهد يكفي" وذلك الاستعلاء بالإيمان –وحده دون كل متاع الأرض– "وحادثة ربعي بن عامر مع رستم قائد الفرس شاهد يكفي" وذلك الإيثار الذي شهد به الله سبحانه وتعالى: "وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"[1] "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا"[2] وتلك الطاعة الخالصة لله "وحادثة إعلان تحريم الخمر في المدينة شاهد يكفي" وذلك الخضوع للحق من أجل أنه الحق "وحادثة عمر مع سلمان حين قال له سلمان: لا سمع لك علينا اليوم ولا طاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزرت به؟ وحادثته مع المرأة التي قال لها: أخطأ عمر وأصابت امرأة، شاهد يكفي" وذلك التكافل الذي شهده المجتمع الإسلامي قرونًا عدة "رغم ما حدث من انحراف الحكم عن حقيقة الإسلام" وذلك الوفاء بالمواثيق الذي ظل المسلمون يحافظون عليه قرونًا عدة "رغم خيانات أعدائهم ونكثهم بالعهود والمواثيق, كما حدث مع صلاح الدين أيام الحروب الصليبية وغيره وغيره" وتلك الحضارة "الإنسانية" الرفيعة التي تتقدم التقدم المادي المتاح كله ثم لا تهمل عالم الروح ولا تفصل الدنيا عن الآخرة ولا ينسيها "التحضر" عبادة الله ولا نقول يصرفها عن الله، وتلك الأخلاق –وأخلاقيات الجنس خاصة– التي ظلت سائدة في المجتمع الإسلامي عدة قرون حتى بعد أن فسد الحكم وبعد عن الأخلاق..

ذلك هو المنهج الرباني، وتلك حصيلته الواقعية لا في جيل الرسول صلى الله عليه وسلم وحده، وإنما على مدى أجيال..

ومرحلة النضج هي أولى المراحل أن يتمثل فيها هذا كله، إذا اعتبرنا المراحل السابقة كلها مراحل إعداد، واعتبرنا مرحلة النضج هي المرحلة التي تعطي "الثمرة" بعد طول الرعاية والإعداد..

والقرآن إن كان يخاطب النفس البشرية بصفة عامة والمؤمنين بصفة خاصة، فإنه يخاطب مرحلة النضج بصفة أخص.

ونحن –بالمنهج الإسلامي المتضمن في الكتاب والسنة– نربي "الإنسان" في جميع أطواره، طفلًا ومراهقًا وشابًّا صغيرًا وإنسانًا ناضجًا. ولكن الإنسان الناضج أقدر على التلقي المباشر من المنهج الإسلامي. يقرأ القرآن فيجد كأن القرآن يخاطبه خطابًا مباشرًا، ويقرأ

(1) سورة الحشر [9].

(2) سورة الإنسان [8-9].

توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم فيحس كأنما هي موجهة إليه بالذات. ثم يحس أنه يملك الآن من الوعي ومن الاستعداد ما يتعامل به تعاملًا مباشرًا مع الكتاب والسنة.

وليس معنى هذا أن المربين قد انتهت الآن مهمتهم، ولم يعد لهم دور يؤدونه في مرحلة النضج. كلا! فقد كان المربي الأعظم صلوات الله عليه وسلامه يوجه الصغار والكبار، ويربي الصغار والكبار، لأن الناس جميعًا في حاجة إلى التربية والتوجيه في كل مرحلة من مراحل نموهم، إلى أن ينتهي دورهم في الحياة الدنيا. إنما معناه فقط أن الناس في مرحلة النضج في حاجة إلى نوع آخر من التوجيه غير الذي كانوا يتلقونه من قبل، هو التوجيه "العام" الذي يخاطب البشرية كلها أو يخاطب جماعة المؤمنين بصفة خاصة، وأن "المربي" الذي يحتاجون إليه الآن هو مرب من نوع آخر غير المربي "الخاص" الذي كان يتعهدهم منذ طفولتهم في البيت أو المدرسة، هو مرب له صفة "القيادة" سواء القيادة الفكرية أو الروحية أو السياسية أو الاجتماعية أو غيرها من أنواع القيادات.

وفي المجتمع المسلم الذي يتحاكم إلى شريعة الله ويحكمه منهج الله، توجد هذه القيادة دائمًا في صورة من الصور.

توجد بادئ ذي بدء في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. والسيرة النبوية الشريفة هي عنصر دائم من عناصر التربية الإسلامية لا يستغني عنه جيل من الأجيال:

"لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً"[1].

وتوجد في العلماء، وهم ورثة الأنبياء. وليس العلماء هم حفظة العلم. فما أكثر الحفاظ وأقل العلماء! إنما هم العاملون بهذا العلم، الذين يربون بعلمهم الناس، ويعطون في سلوكهم الواقعي ترجمة عملية لما يقولونه لطلابهم من أمور هذا الدين. هم الذين يخشون ربهم حق خشيته:

" إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"[2].

كما أن تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع المسلم هو بذاته تربية وتوجيه..

([1]) سورة الأحزاب [21].

([2]) سورة فاطر [28].

أما في مجتمعاتنا الجاهلية المعاصرة فالقيادة والقدوة –لمن يريد الإسلام– ما تزال قائمة في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته. ثم ينبغي أن تكون في جماعة تندب نفسها للدعوة، وتعطي من نفسها القدوة، وتقوم بدور التربية للناس في مرحلة النضج، وتعينهم على القيام بمسؤوليتهم تجاه الله وتجاه الإسلام.

* * *

كنا حتى الآن نتحدث عن السمة الأولى –والكبرى– من سمات مرحلة النضج، وهي الرغبة في تحمل المسؤولية، واستطردنا منها إلى الحديث عن ماهية هذه المسؤولية بالنسبة للإنسان المسلم، والتي تتلخص في إقامة منهج الله في الأرض، وإنشاء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة التي تحكم بما أنزل الله.. فذلك في الحقيقة هو المقتضى الحقيقي لشهادة لا إله إلا الله.

ونعود إلى بقية السمات فنجد الرغبة في العمل والرغبة في اكتساب الخبرة العملية، وهما رغبتان متساوقتان في نفس الإنسان، وموجودتان في الحقيقة منذ الطفولة، ولكنهما يأخذان صوراً شتى.

ففي الطفولة تتخذان صورة اللعب. وعن طريق اللعب يكتسب الطفل كثيراً من خبراته كما يكتسب كثيراً من معلوماته، وبذلك يمكن استغلال اللعب في التربية في هذه المرحلة من العمر.

وفي المراهقة والشباب الباكر ينصرف معظم "العمل" إلى التحصيل الدراسي والألعاب الرياضية، الفردية منها والجماعية. ويمكن استغلال كليهما في التربية كما أشرنا من قبل.

أما في مرحلة النضج فإن العمل يتخذ طابع المسؤولية، وهو الطابع العام لكل شيء في هذه المرحلة، كما يتجه إلى الناحية العملية من جهة أخرى.

اليوم يعمل الشاب عملًا يحس أنه مسؤول عنه لأنه هو وسيلته إلى الرزق. كما يحس أن التبعة الملقاة على عاتقه فيه أوسع من نطاق شخصه، لأنها تبعة اجتماعية. وقد تكون أخطر من ذلك تبعة "إنسانية". لذلك يحس دائمًا بالمسئولية وهو مقدم على العمل، سواء عمل حرًّا في التجارة أو الزراعة أو الصناعة، أو عمل موظفًا في وظائف الدولة أو في مؤسسة من المؤسسات.

ثم إن العمل بطبيعته يحتاج إلى الخبرة العملية، لأنه إنتاج متداول بين أيدي الناس، وليس إنتاجًا ذاتيًّا محصورًا في محيط صاحبه وحده. والناس دائمًا تبحث عن الأجود في كل أمر من الأمور.

وسواء كان العمل يدويًّا أو فنيًّا أو عقليًّا بحتًا فإن الخبرة مطلوبة فيه. فالناس تبحث عن العامل الماهر، كما تبحث عن المهندس الماهر والطبيب الماهر، كما تبحث عن السياسي الماهر والمفكر المقتدر.

والإسلام يحث على العمل والإتقان فيه، ويكره الترف والكسل والفراغ.

"من أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورًا له"[1].

ويقبّل الرسول صلى الله عليه وسلم يدًا ورمت من كثرة العمل ويقول: "هذه يد يحبها الله ورسوله"

ويقول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب المؤمن المحترف"[2].

ويقول: "لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"[3].

وأما الإتقان –الذي هو قرين الخبرة وثمرتها– فيقول عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه"[4].

وأما إنفاق الجهد في الجاد النافع من الأمور فيقول عنه: "إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها"[5].

فيضع بتلك التوجيهات وأمثالها دستورًا شاملًا للعمل، هو جزء من منهج التربية الإسلامية في مرحلة النضوج خاصة، وقد ظلت الأمة الإسلامية تحافظ على هذه التوجيهات

(1) أخرجه الطبراني.

(2) الطبراني والبيهقي.

(3) أخرجه البخاري.

(4) رواه أبو يعلى والعسكري.

(5) رواه الطبراني.

بقدر محافظتها على الروح الإسلامية الحقيقية، فكانت من أعظم الأمم إنتاجًا ومن أعظمها ثروة ومن أعظمها خبرة وإتقانًا. فلما انحرفت انحرف مفهوم العمل عندها كما انحرف غيره من المفاهيم. فقعد الناس عن العمل وانصرفوا عن الحياة الدنيا، وكان هذا رد فعل للترف الذي تفشى في المجتمع الإسلام في المشرق والمغرب، مما أدى في النهاية إلى ضعف الإنتاج بصفة عامة، وضعف الأمة الإسلامية وتخلفها، في الوقت الذي أخذت قوة أعدائها المادية تتزايد على الدوام.

وكلا الأمرين: الترف من ناحية، والانصراف عن العمل في الحياة الدنيا من ناحية أخرى، مخالف لروح الإسلام، وانحراف عن التربية الإسلامية الصحيحة. إنما يربي الإسلام أبناءه على العمل الجاد الهادف، الذي يعين على عمارة الأرض بمقتضى منهج الله.

وحقيقة إن الإسلام يستحث على التخفف من متاع الأرض، لكي لا يثقل المتاع بالنفس فتركن إلى الدنيا وتنسى الآخرة، أو تنصرف عن الجهاد في سبيل الله:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ"[1].

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا"[2].

ولكن هذا شيء، والتواكل المعيب والانصراف عن العمل في الحياة الدنيا شيء آخر. فالإسلام لا يعرف التواكل. وهو يكره العجز والكسل[3], والقعود عن العمل، ولا يدعو إلى الفقر، ولا إلى الركون إليه والرضا به مع القدرة على تغييره. إنما يدعو إلى النشاط في طلب الرزق، والتوسع فيه، مع التخفيف من المتاع في ذات الوقت، وإنفاق المال في سبيل الله، سواء في إعانة المحتاجين أو التجهيز لأعداء الله:

([1]) سورة التوبة [38].

([2]) سورة النساء [77].

([3]) من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم: ".. وأعوذ بك من العجز والكسل".

"وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ.."[1].

"وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ"[2].

"وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"[3].

وبذلك تظل الدولة الإسلامية قوية وغنية في مقابل أعدائها، ويظل أفراد الأمة بعيدين عن الترف المهلك، أقوياء النفوس بالتخفف من المتاع. ويتحقق بذلك التوازن الذي تفتقده الجاهليات دائمًا إذ تجنح إلى الإغراق في الترف المادي، أو الزهد في المتاع والزهد في الإنتاج المادي بحجة الارتفاع بالروح، فتنحرف هنا وتنحرف هناك.

وما أحوج البشرية كلها اليوم إلى المنهج الإسلامي المتوازن، تحافظ به على قدرتها التكنولوجية في الإنتاج المادي، دون أن تغرق في الترف المهلك والانحلال الخلقي الفتاك.

* * *

وحين نتحدث عن "العمل" يعرض لنا في جاهليتنا المعاصرة موضوع عمل المرأة في خارج البيت.

ففي المجتمعات الجاهلية التي تملأ وجه الأرض اليوم يعمل الرجال ويعمل النساء على السواء. ولا يكون الدافع إلى عمل المرأة في كل حالة هو الحاجة الاقتصادية سواء لنفسها أو للمجتمع الذي تعيش فيه (وإن قيل هذا في ظاهر الأمر للتبرير) إنما تعمل المرأة فقط لأن الرجل يعمل، ولأن المرأة ينبغي أن تعمل مثله، لكي تصبح مثله في كل شيء! ذلك أن الجاهلية تنشئ المرأة كالرجل، فتعلمها على مناهج الرجل، وتضع في رأسها أنها ينبغي أن تكون كالرجل في كل شيء، ثم تمضي في الطريق خطوة أبعد، فتدرب النساء على العمل كالرجال سواء.

---

(1) سورة البقرة [177].

(2) سورة الأنفال [60].

(3) سورة البقرة [195].

وعلى الرغم من أن معظم العمل المتاح للنساء في أمريكا هو عمل "السكرتيرات" سواء كانت "سكرتيرة" خاصة أو عامة.. وأن معظم العمل المتاح للنساء في روسيا هو العمل اليدوي في المصانع, بالإضافة إلى تنظيف الشوارع, وحمل حقائب المسافرين في المطارات ومحطات السكك الحديدية.. فإن مجال العمل مفتوح -نظريًّا- للرجال والنساء على السواء، كما أن "العمل" في حد ذاته هو الأمر الطبيعي للنساء كما هو للرجال على السواء!

وتحرص الجاهلية المعاصرة -في جميع الأحوال- على ألا تنشّئ المرأة لتكون أنثى! لتكون زوجة وأمًّا وربة بيت، وليكون "البيت" في حسها هو "العمل" المطلوب منها، والذي تكون في وضعها الطبيعي حين تؤديه! إنما تضع في حسها احتقار هذا كله، والنظر إليه على أنه حطة من شأنها، وأنه -حتى إن شغلها في يوم من الأيام- فإنما يشغل جانبًا هامشيًّا من حياتها، ليس هو الجانب الأكبر ولا الأخطر ولا الأهم!

إنما تتجه المرأة -"المثقفة"- أول ما تتجه حين تفرغ من دراستها -الرجالية- إلى "العمل".. والعمل في مجالات الرجال بالذات لتحقق كيانها! أما أن تكون زوجة وأمًّا- إن حدث هذا في أي يوم من الأيام- فليس هذا هو الذي يحقق كيانها، ولا الذي يعطيها قيمتها في المجتمع! إنما هو عمل لا بأس من أدائه -أحيانًا! - على ذات الصورة الرجالية التي يمكن للرجل أن يقوم بها! فالرجل يعمل -أساسًا- في المصنع أو المتجر أو المكتب أو الديوان، ثم يمكن أن يكون زوجًا وأبًا بالإضافة إلى عمله الأصلي في المصنع والمتجر والمكتب والديوان.. هذا إن عنّ له أن يتزوج! وإلا فإنه يستطيع أن يقضي حاجة الجنس في الطريق أو في الغابة أو في صداقات الليل أو صداقات النهار! وهي كذلك.. تعمل بصفة أساسية، ثم تكون زوجة وأمًّا -إن رغبت أو واتتها الفرصة- بالإضافة إلى عملها الأصلي، وإلا فهي في العمل أساسًا ثم تقضي حاجة الجنس كما يقضيها الرجل، في الطريق أو في الغابة أو في صداقات الليل أو صداقات النهار!

ما أبأسها جاهلية! وما أبأس المرأة فيها بصفة خاصة برغم كل ما يقال لها ويقال عنها من تحرر، وكسب مكانة، ونيل حقوق!

من يقول إن الزوجية من جانب المرأة كالزوجية من جانب الرجل؟ ومن يقول إن دور المرأة في "الأمومة" كدور الرجل في "الأبوة" سواء بسواء؟ من غير هذه الجاهلية الجاهلة التي تقودها الشياطين؟

وأيًّا كانت قدرة الشياطين على ليّ الفطرة عن سوائها فترة من الوقت تطول أو تقصر، فإن الفطرة -كما أشرنا آنفًا- أعمق وأصدق وأعصى من كل محاولات الجاهلية، ثم إنها قد بدأت تعلن بالفعل عن ثورتها، وعن رغبتها في العودة إلى استوائها المفقود.

* * *

والإسلام على أي حال لا يصيغ سمعه لانحرافات الجاهلية، وهو الذي جاء ليصحح -على الدوام- انحرافات الجاهلية:

"بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ[1] فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ"[2].

والإسلام لا يحرم العمل على المرأة ما دامت تلتزم في زيها وسلوكها وأخلاقها بالتزامات الإسلام.. وإلا فإن عملها حرام، لا لحرمة العمل في ذاته، ولكن لأنه يؤدي إلى ما حرمه الله من التبرج والفتنة وإفساد أخلاق المرأة والرجل سواء.

ولكن الإسلام -مع إباحة الأصل- يكره للمرأة أن تعمل بغير ضرورة ملجئة ملحة.

وفي المجتمع الإسلامي الحقيقي، الذي يطبق المنهج الرباني ويعيش في ظل الشريعة الإسلامية، لا تنشأ تلك الحاجة الملجئة الملحة إلا في أحوال نادرة لا تصبح قط أصلًا من أصول المجتمع الإسلامي.

فالمرأة في جميع أحوالها مكفولة الرعاية في الإسلام، من أجل أن تتفرغ لوظيفتها العظمى في تنشئة الأجيال. ففي طفولتها يرعاها والدها أو من يكلف شرعًا بالإنفاق عليها في حالة عدم وجوده. ثم هي -زوجة- يكفلها زوجها، وأبناؤه من بعده إن عجز هو عن الكسب. وبيت المال مكلف بالإنفاق على من تقعد به وسائله عن العيش الكريم رجلًا كان أو امرأة، بالإضافة إلى التكافل الذي يتميز به المجتمع الإسلامي سواء على نطاق الأسرة أو على النطاق الأوسع، والذي ترعى به حاجة المحتاجين ويرفع عنهم العنت. وهكذا تجد المرأة في جميع الأحوال من يكفلها، فلا تحتاج إلى العمل إلا في النادر القليل..

([1]) أي بما يذكرهم بما ينبغي أن يتذكروه، ويزيل عنهم غفلتهم.

([2]) سورة المؤمنون [70-71].

ثم إن في المجتمع الإسلامي من جانب آخر مجالات معينة لا يحسن أن تعمل فيها إلا المرأة، كتعليم البنات وتطبيب النساء وتمريضهن وما أشبه ذلك من الأعمال. فهذه تعمل فيها المرأة المسلمة الملتزمة بلا حرج. ولكن يظل البيت دائمًا هو الهدف الأول والموئل الأول، وتظل الأعمال الأخرى بديلًا ثانويًّا أو إضافة ثانوية، تقوم بها من كان لديها الرغبة من جهة والقدرة من جهة أخرى.

والإسلام يساوق الفطرة التي تتجه في مرحلة النضج إلى العمل وتحمل المسؤولية. ولكنه يوزع الأعمال حسب التكوين الفطري لكل من الرجل والمرأة، وحسب التكاليف المطلوبة من الرجل والمرأة، لحساب الأسرة وحساب المجتمع وحساب الأجيال، ولا يعتبر "العمل" هو فقط ذلك الذي يؤدّى خارج البيت، والذي يتناول الإنسان عنه أجرًا معينًا في نهاية الشهر أو نهاية الأسبوع. إنما يتعامل مع حقائق الأشياء. "فالعمل" في حقيقته هو ذلك الذي يبذل فيه الجهد –الجثماني أو العقلي أو كلاهما معًا– ليؤدي خدمة معينة للبشرية، أيًّا كان المكان الذي يتم فيه، وأيًّا كانت صورة الأجر الذي يُعْطى عليه. ولا يقر الإسلام تلك اللوثة الجاهلية التي تخرج المرأة من عملها الفطري لتعمل عملًا آخر، تفقد فيه أنوثتها وأخلاقها وفطرتها، ثم تفقد البشرية كلها من وراء ذلك "المربية" التي تربي الأجيال، وتتولى التربية بدلًا منها أجهزة ومؤسسات لا تغني غناء الأم، ولا تعطي الصحة النفسية المطلوبة لبني الإنسان[1].

* * *

ونعود إلى السمات المميزة لفترة النضج، فنجد النظرة الواقعية إلى الأمور، بعد النظرة الحالمة أيام المراهقة والخيال المجنح في فترة الشباب الباكر.

ولقد قلنا في فترة الشباب الباكر إن الشباب في تلك الفترة يبدأ يفكر في "الحلول العملية" لمشكلات الكون كله! ولكن هذه " الحلول العملية" قد لا تكون عملية على الإطلاق! بل قد تكون أحيانًا مستحيلة التنفيذ! إنما قصدنا هناك أن نفرق بين طريقة المراهقة وطريقة الشباب الباكر في التفكير. فحيث "يحلم" المراهق مجرد حلم، فإن الشاب الصغير "يفكر" ويحاول أن يكون واقعيًّا في تفكيره. ولكن نقص الخبرة والعجز عن الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، تجعل تفكيره في "الحلول العملية" سطحيًّا في النهاية أو غير عملي على الإطلاق!

---

(1) انظر حديث "أنّا فرويد" عن المحاضن في كتاب "أطفال بلا أسر".

أما هنا في مرحلة النضج فقد أخذت الأدوات تكتمل، فأصبح للواقعية رصيد حقيقي ترتكز عليه.

والواقعية أمر ضروري لازم لحياة البشرية لا تستطيع أن تنهض بدونه.

فالحياة معاناة واقعية، ومحاولة دائمة لمواجهة واقع معين لا معدى عن مواجهته بما فيه من مشكلات أو مشاق. ويحتاج الأمر دائما إلى الروح الواقعية في هذه المواجهة، وإلا تراكمت المشكلات والمشاق بدلًا من أن تحل، وأصبحت الحياة غير محتملة أو غير معقولة أو غير ممكنة على الإطلاق!

وفي فترة الطفولة والمراهقة يقوم الأبوان بالدور "الواقعي" كله. فهما اللذان يواجهان الواقع ويعدان الحلول لما يواجه الأسرة وما يواجه الطفل أو المراهق من أمور (وإن كان الأفضل إشراكه في بعض الأمر لتدريبه وتنمية شخصيته من أجل المستقبل).

أما في فترة الشباب الباكر فالشاب يشارك في بعض الأمر بالفعل، ولكن الخبرة والنظرة الواقعية لا تكون قد اكتملت عنده (إلا أن يكون ناضجًا نضوجًا مبكرًا لتفوق في شخصه أو لظروف عامة تعجل بالنضج كظروف الدعوة الإسلامية الأولى).

وأما في مرحلة النضج فقد أصبح الأمر لزامًا، لأن الشاب يتحمل مسؤولية نفسه، وغالبًا ما يكون معه أسرة كذلك يتحمل مسؤوليتها، بالإضافة إلى مسؤوليته الاجتماعية العامة (أو الإنسانية إن كان من ذوي الأفق الواسع أو المواهب الفائقة).

وفي موعدها المناسب -في الفطرة الربانية- تجيء النظرة الواقعية لتؤدي دورها في حياة الإنسان.

وللإسلام في تربية هذه الواقعية منهج محكم وشامل، لكي تؤدي مهمتها كاملة دون أن تتعرض للانحراف[1].

فالإسلام أولًا منهجه للنظر العقلي:

"وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا"[1].

(1) سنتحدث بعد عن بعض انحرافات الواقعية وخاصة في الجاهلية المعاصرة.

"قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا.."[2].

فالتفكر، وإعمال العقل، وعدم اقتفاء ما لا دليل عليه، والشعور بالمسؤولية عن كل كلمة ينطق بها الإنسان, وكل فكر يرد في ذهنه أن يمحصه ويقيمه على أسس سليمة، كل ذلك يجعل التفكير أدنى إلى السلامة وأبعد عن الشطط.

ثم هناك التجرد الواجب في هذا الشأن: "أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ.. ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا.."

"وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى.."[3].

"فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا.."[4].

"أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ؟!"[5].

ومقتضى ذلك هو النظر إلى الحقيقة في ذاتها، بحسب ما تهدي إليه الأدلة، دون تأثر بالهوى الذي يضل دائمًا عن الحق. كذلك لا ينبغي التقليد بغير بينة، واعتماد أقوال مسبقة للآخرين ليس عليها برهان:

"..قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ؟!"[6]

ولا اتباع الظن:

"إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا"[7].

هذا من جهة. ومن جهة أخرى يدعو الإسلام إلى النظر في الغاية المقصودة من كل أمر، لكي يكون التفكير مثمرًا. ولا يكون سفسطة فارغة، ولا تأملًا مبددًا في الهواء:

---

(1) سورة الإسراء [36].
(2) سورة سبأ [46].
(3) سورة النازعات [40].
(4) سورة النساء [135].
(5) سورة الفرقان [43].
(6) سورة البقرة [170].
(7) سورة النجم [36].

"يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[1].

فليس هناك في الإسلام تلك الدعاوي الجاهلية التي تقول: العلم للعلم. أو الفن للفن.. إلخ. إنما كل شيء ينبغي أن تكون له غاية واضحة منذ البدء. والغاية الكبرى التي تحكم جميع الغايات هي إحسان العبادة لله، على المعنى الشامل للعبادة الذي يشمل التكاليف كلها من شعائر التعبد إلى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، إلى إقامة "الدين" خالصًا لله في الأرض:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[2].

".. قال وما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[3].

"هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"[4].

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ"[5].

وليس هذا القيد -وهو الالتزام بالغاية- معوقًا للبحث العلمي كما قد يبدو لأول وهلة. بل العكس هو الصحيح. ففي ظل هذا القيد أو بالأحرى تلك "القيمة" العليا من قيم الحياة البشرية قامت -وأوربا في عصورها الوسطى المظلمة- أكبر حركة علمية في الأرض، هي التي أهدت للبشرية المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي تقوم عليه كل النهضة العلمية المعاصرة في الغرب. بل كان هذا القيد، أو بالأحرى تلك "القيمة" العليا بالذات، هي التي حولت العلم من تياره النظري الذي كان موروثًا عن اليونان إلى تياره العملي والتجريبي الذي صار إليه فيما بعد، وحدث على أثره كل ما حدث من التقدم في مجال العلم، وانتهت السفسطات الفلسفية التي كانت في نظر المسلمين من الجدل المنهي عنه، واتجه العلم إلى غاياته العملية التي صار إليها اليوم.

---

(1) سورة البقرة [189].

(2) سورة الذاريات [56].

(3) من حديث هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم.

(4) سورة هود [61].

(5) سورة الأنفال [39].

حقيقة إن هدف العلم في الإسلام هو -كما قلنا- إحسان العبادة لله -أي: خدمة الله- وهدفه في الجاهلية المعاصرة هو خدمة الإنسان (نظريًّا على الأقل، وإلا فإن قسطًا غير قليل من هذا العلم موجه إلى تدمير الإنسان!) ولكن حماقة الجاهلية المعاصرة هي التي تجعل من خدمة الله وخدمة الإنسان هدفين متعارضين أو في القليل متغايرين! ومزية المنهج الإسلامي الشامل أنه يزيل هذا التعارض الوهمي (إذ لا تعارض في حقيقة الأمر حين يستقيم الإنسان على وضعه السوي) ويجعل خدمة الإنسان -في حدودها السوية- جزءًا من خدمة الله. لأن خدمة الله هي تنفيذ أوامره على وجهها الأكمل، ومن أوامر الله عمارة الأرض وتحقيق المطالب اللازمة للإنسان السوي. إنما يحدث التعارض بين خدمة الله وخدمة الإنسان حين يصر الإنسان على اتباع شهواته واتباع هواه بدلًا من منهج الله. عندئذ يحدث التعارض بالفعل لأن خدمة الله تصبح قيدًا يقيد تلك الشهوات. ولكن تجربة التاريخ تقول إن الإنسان حين يرفض هذا القيد الرباني على شهواته قد "يستمتع" لفترة من الوقت متاعًا زائدًا عن الحد، ولكنه يدمر نفسه في النهاية حين تجرفه الشهوات فلا يملك قياده منها، ويتحلل كيانه ويفسد، ويعجز عن الوفاء بمطالب "الإنسان" في أفقه الأعلى. لأنه يعيش على مستوى الحيوان. فلا يخدم نفسه في الحقيقة إنما يسعى إلى تدميرها، ولو جاء الدمار بعد أجيال.. فالبشرية كيان ممتد لا يقف عند فرد بعينه ولا عند جيل، ولا ينبغي لفرد -ولا لجيل- أن يعمل على دمار أجيال تأتي بعده لمجرد أن يستمتع هو متاعًا زائدًا عن الحد. وذلك فضلًا عن مصير الآخرة، وهو الأخطر والأهم، لأنه هو الأدوم والأخلد، وهو الذي يعوّل عليه في الحقيقة:

"وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"[1].

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ"[2].

"أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ"[3].

"يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟! فيقول: لا يا رب!! "[1].

([1]) سورة العنكبوت [64].

([2]) سورة محمد [12].

([3]) سورة الشعراء [205-207].

ومنهج الإسلام لا يحرم الإنسان من القسط المعقول من المتاع، ولا يحرم المتاع في ذاته، إنما يحرم الفاحشة، ويحرم على الإنسان أن تستعبده الشهوات فتبعده عن طريق الله وتدمر كيانه في الدنيا والآخرة. ويهديه -بدلًا من ذلك- إلى النهج الأقوم والأفضل:

"قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ"[2].

"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ"[3].

وبذلك تصبح خدمة الإنسان جزءًا من خدمة الله بلا تعارض ولا افتراق.

وكما يوجه الإسلام إلى النظر في الغاية يوجه كذلك إلى الجانب العملي، بمعنى تحويل المفاهيم النظرية إلى واقع مطبق.

ولقد أشرنا في الفصل الماضي إلى هذا الدرس التوجيهي في القرآن:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) سورة الأعراف [32-33].

(3) سورة آل عمران [14-17].

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"[1].

وقلنا إن هذا التفكر والتدبر والضراعة الحارة قد استجاب لها الله حين أصبحت عملًا يحقق مقتضى التفكير والتدبر والضراعة في صورة سلوك واقعي.

ولئن كان هذا توجيهًا "عقيديًّا" بمعنى أنه توجيه إلى تحويل العقيدة من أمر مستكن داخل القلب إلى واقع سلوكي، فإنه في الحقيقة توجيه شامل لكل نشاط الإنسان على الأرض، لأن العقيدة في الإسلام تشمل كل شيء في حياة الإنسان:

"قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ.."[2].

ومن ثم فهو توجيه للنظر العقلي كذلك، لتحويل هذا النظر في النهاية إلى صورة سلوكية تطبيقية مشهودة في واقع الأرض.

وذلك كله تربية للنظرة الواقعية -في مرحلة النضج خاصة- في ضوء المنهج الإسلامي الشامل المحكم، ولكن بعيدًا عن انحرافات "الواقعية" كما نراها في الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة.

فالواقعية في عرف الجاهلية المعاصرة هي الانصراف عن "المثاليات" بدعوى أنها غير واقعية! ومعاملة الإنسان على مستواه الأدنى، قريبًا من غرائزه ودوافعه الدنيا، بدعوى أن هذا هو "الواقع" بالنسبة للإنسان!

والواقعية من جهة أخرى هي البحث عن المنفعة من أي سبيل تجيء، وإقصاء "الأخلاق" من كل التعامل الأرضي سواء في عالم السياسة -والدولية بصفة خاصة- أو في العلاقات الاقتصادية أو العلاقات الاجتماعية.. إلخ.

والواقعية من جهة ثالثة هي الانكباب على الحياة الدنيا (بدعوى إصلاحها!) والانصراف عن الآخرة بوصفها "غيبيات" لا ينبغي للعقل المتقدم أن يؤمن بها أو يعطل دفعة الحياة من أجلها!

([1]) سورة آل عمران [190-195].

([2]) سورة الأنعام [162-163].

والواقعية من جهة رابعة هي حصر الأمور كلها في السبب الظاهر والنتيجة الحتمية، ونفي قدر الله المهيمن على الأمور.

والواقعية أخيرًا هي نبذ العواطف "الإنسانية" بدعوى أنها مضيعة للوقت والجهد دون مقابل "مادي".

تلك خمسة أنواع –على الأقل– من الانحرافات الواقعة في نظرة الجاهلية المعاصرة إلى "الواقعية"! والإسلام –وهو يربي النظرة الواقعية إلى الأمور في مرحلة النضج– يربيها بريئة من مثل هذه الانحرافات.

فالواقعية الإسلامية –ابتداء– لا تأخذ الواقع الإنساني الأدنى على أنه هو "الإنسان" الذي ينبغي التعامل معه في عالم الواقع. ولا تنبذ الواقع الأعلى للإنسان، الذي يمكن أن يصل إليه بالتهذيب الروحي المستمر، الذي يرفع الإنسان من خيط الصعود فلا يستعصي على الارتفاع. و"الواقع" الذي عاشته الأمة الإسلامية الأولى على فترة غير قصيرة من الزمن نموذج لما يستطيع الإنسان أن يصل إليه من درجات الصعود، وهو في حدود بشريته ما يزال.

قل –إن شئتت– إن واقعية الإسلام هي الواقعية المثالية، التي تضع المثال على أنه قابل للتطبيق، وتحاول أن تصل إلى درجة المثال في غير عنت ولا اقتسار. هي الواقعية التي تأخذ الإنسان من واقعه الذي يعيشه– أيًّا كانت درجة هبوطه– وتحاول أن تصعد به إلى المرتقى السامق الذي يقدر عليه الإنسان وهو "في أحسن تقويم"[1].

ومزية هذه الواقعية أنها تأخذ الواقع البشري غير مخدوعة فيه، وغير مفترضة أن الإنسان مَلَكٌ بلا نوازع ولا شهوات تقعد به وتثقله وتشده إلى الأرض. ولكنها في الوقت ذاته لا تترك هذا الواقع على حاله حين يهبط ويتدنى، إنما تعمل دائمًا على رفعه دون كبته ولا قسره على ما ليس في طبيعته، حتى تصل به إلى أقصى ما في طاقته من قدرة على الارتفاع. وهي قدرة غير قليلة في الحقيقة حين يلتفت الإنسان إلى تربيتها وتنميتها، أو "تزكيتها" بالتعبير القرآني الجميل.

([1]) في "ظلال القرآن" حديث مستفيض في مواضع متعددة منه عن طريقة القرآن في رفع النفس البشرية إلى الآفاق العليا بغير قسر. واقرأ –إن شئت– فصل "بين الواقع والمثال" في الكتاب الأول من "منهج التربية الإسلامية" وفصل "فوق الواقع" من كتاب "في النفس والمجتمع".

هذه الواقعية التي تقول للمؤمنين: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ"[1] فتقر الواقع على صورته الدنيا، ثم تعمل على رفعه فتقول: "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ"[2] حتى تصل إلى تلك النماذج العالية من المقاتلين في سبيل الله، الذين "يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ"[3] والذين يقول أحدهم وهو يرمي تمرة كان يتبلغ بها: لئن بقيت حتى أنتهي من هذه إن هذا لأمر يطول!

والتي تقول: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ.."[4] فتصف الواقع على صورته الدنيا، ثم تعمل على رفعه فتقول: "أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ؟.."[5] حتى تصل إلى تلك النماذج العالية: "الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ"[6].

والتي تقول: "وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ"[7] فتصف الواقع على صورته الدنيا، ثم تعمل على رفعه فتقول: "وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[8] حتى تصل إلى تلك النماذج الشفيفة: "يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"[9].

وبذلك تكون واقعية تمامًا، ولكنها تتعامل مع الإنسان في واقعه الأعلى، ولا تقنع -كالجاهلية المعاصرة- بالواقع الأدنى، الذي يظل يتدنى كلما أعطي شرعية الوجود! والنماذج في الجاهلية المعاصرة أكثر من أن تحصى. كلما اعترف "الواقعيون" بالواقع الذي يرونه قائمًا في مجتمعهم، ولم يعملوا على مقاومته ولا محاولة رفعه بحجة "الواقعية"! "جاء" واقع جديد أسوأ منه، وصار بدوره "أمرًا واقعًا" يجد من يدافعون عنه، ويطالبون بالاعتراف به "لكي نكون واقعيين"! وهكذا أقر مجلس العموم البريطاني الشذوذ الجنسي واعتبره أمرًا مشروعًا يدخل في نطاق الحرية الشخصية، وباركته إحدى الكنائس في هولندا، فعقد القسيس عقد

([1]) سورة البقرة [216].

([2]) سورة البقرة [216].

([3]) سورة النساء [74].

([4]) سورة آل عمران [14-17].

([5])سورة آل عمران [14-17].

([6])سورة آل عمران [14-17].

([7]) سورة النساء [128].

([8]) سورة الحشر [9].

([9]) سورة الحشر [9].

زواج "شرعي" في داخل الكنيسة بين شاب وشاب!! وأقر البرلمان الدنمركي تعاطي المخدرات التي يتناولها الفتيان والفتيات حقنًا تحد الجلد في الشوارع والمركبات العامة.. وأقرت أوربا وأمريكا المسرحيات العارية التي يمارس فيها الجنس علانية على خشبة المسرّح أو على شاشة التليفزيون.. ولا يستطيع الخيال أن يتصور ما يأتي به الغد من صور "الواقعية" المتدنية إلى أدنى من مستوى الحيوان!

* * *

أما الواقعية التي تبحث عن "المنفعة" بصرف النظر عن "الأخلاق" فلا يقرها الإسلام في أي نوع من أنواع التعامل السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، أيًّا كانت المبررات التي تعطى للتبرير.

فهو يربي أبناءه مثلًا على الوفاء بالمواثيق سواء كان الوفاء بها صفقة رابحة من وجهة النظر البشرية أم صفقة خاسرة. ولا يجيز لأبنائه -كما تجيز الجاهلية المعاصرة في العلاقات الدولية خاصة- أن ينكلوا عن مواثيقهم حين يرون -بعين المصلحة القريبة- أن النكول عنها أربح لهم من المحافظة عليها:

"وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ، وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"[1].

ويعتبر نقض المواثيق على هذه الصورة من جانب الأمة الإسلامية صدًّا عن سبيل الله:

"لا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[2].

ويندد بأهل الكتاب الذين يقعون في هذه الخطيئة الكبرى:

"إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[1].

([1]) سورة النحل [91-92].

([2]) سورة النحل [94].

بل حتى عند خوف الخيانة من الأعداء لا يجوز نقض الميثاق غدرًا، وإنما ينبغي إعلانهم بما وصل إلى علم المسلمين من أنباء استعدادهم للخيانة، ونبذ الميثاق إليهم علانية حتى لا يؤخذوا على غرة:

"وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ"[2].

وهكذا لا تكون المصلحة القريبة هي المحكّمة في المواثيق كما تصنع الجاهلية المعاصرة – في العلاقات الدولية خاصة– فتبرم الميثاق حين ترى لها مصلحة في إبرامه، وتنقضه حين تلوح لها المصلحة في نقضه، وتظل تلك المواثيق حبرًا على ورق، ويعرف الجميع أنها كذلك، حتى هيئة الأمم ومجلس الأمن وما كان قبلهما من عصبة الأمم وما يمكن أن يلحقهما من المؤسسات! ويظل التعامل الدولي قائمًا على شريعة الغاب: القوي هو صاحب الحق، والقوي يأكل الضعيف!

وأما في العلاقات الاقتصادية فلا يجيز الإسلام سياسة الحصول على "الربح" من أي طريق ممكن، ولو دخل فيه التدليس والغش والخداع –بوسائل الخداع المختلفة وفي مقدمتها "الإعلان"– ولو دخل فيه إفساد الأخلاق لترويج صناعات مربحة كصناعة السينما وأدوات الزينة وأدوات "الإغراء".. ولو دخل فيه قبل ذلك الربا، وهو عماد "الربح" في الجاهلية المعاصرة.

إنما يقيم الإسلام اقتصادياته على النظافة "الأخلاقية" فيحرم الربا، ويحرم الغش والتدليس والخديعة، ويحرم ترويج الفساد بأي صورة من الصور مهما نتج عنه من "الربح".

كذلك كل تعامل يقوم بين البشر بعضهم وبعض في ظل الإسلام، ولو كان هؤلاء البشر من الأعداء والمحاربين!

يقول عمر لقائد جيشه في فتح فارس: إذا لاعب أحدكم أحد علوج الفرس فظن هذا أنه يعطيه عهد أمان فأنفذه!!

([1]) سورة آل عمران [77].

([2]) سورة الأنفال [58].

ويرد أبو عبيدة الجزية إلى أهل الشام حين بلغه تجهيز هرقل لمحاربته ويقول لهم: إنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم!

ويقول أحد الولاة لعمر بن عبد العزيز: إن الناس يدخلون في دين الإسلام فتضيع علينا الجزية! فيقول له: إنما بعثناك هاديًا لا جابيًا! ويصل التعامل النظيف مع البلاد المفتوحة إلى حد أن يقول يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاجتبيتها، ثم طلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس! فاشتريت بها عبيدًا فأعتقتهم!

* * *

وأما واقعية الانكباب على الحياة الدنيا ونبذ الآخرة بدعوى إصلاح الأرض (وإن كان الفساد هو الغالب اليوم على الأرض التي انكب ذووها على إصلاحها!) فالإسلام لا يفرق بين الدنيا والآخرة، ولا بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة!

لقد كان ازورار أوربا عن اليوم الآخر ناشئًا من ظروف معينة أحاطت بأوروبا في قرونها الوسطى "المظلمة" حين كانت الكنيسة تفسد الدين، ثم تفسد الحياة باسم الدين، ثم تقول للناس تقبلوا ما في الحياة الدنيا من الفساد والظلم، وسيعوضكم الله خيرًا في الآخرة! كما كانت الرهبانية التي تهمل الحياة الدنيا إهمالًا كاملًا هي الصورة المثلى للحياة "المستقيمة" في ظل الكنيسة، من أجل الحصول على رضوان الله ونعيم الآخرة.

فلما ضجت أوربا بواقعها السيئ وأرادت إصلاحه لم تصلحه على أساس من الدين، أي: الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن الصورة الوحيدة للدين عندها كانت هي التي تقدمها الكنيسة.. وما أبشعها من صورة! ثم كانت أوربا -بسبب الروح الصليبية والحروب الصليبية- عمياء عن الدين الحقيقي الذي يمكن أن يحقق لها الإصلاح المنشود وهو الإسلام. لذلك كفرت بالله واليوم الآخر، وسمت كفرها ذلك "واقعية"! وقالت: نؤمن فقط بما تدركه الحواس! وسمت الإيمان بالله واليوم الآخر غيبيات مريضة ينبغي أن يتحرر منها التفكير العلمي والتفكير الواقعي اللائق بالإنسان المتحضر!

ثم انكبت أوربا على "إصلاح" الأرض بعد طول إهمالها في ظل "التفكير الغيبي" المسيحي، فأقامت فيها العمران المادي الذي وصل إلى صورته الباهرة في ظل التقدم العلمي، وراحت تحاول أن تحطم الظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي قام عندها في

عصورها الوسطى في ظل العقلية "الغيبية" كما صاغتها الكنيسة، والذي تمثل عندهم في صورة الإقطاع، فكانت الديمقراطية الرأسمالية وتبعتها الشيوعية.. وبصرف النظر عن كون الرأسمالية والشيوعية إصلاحًا في الأرض أو إفسادًا في الحقيقة يضاف إلى فساد الإقطاع من قبل، وكلها نظم جاهلية متعاقبة، فإن فكرة "الإصلاح" امتزجت في الحس الأوروبي بالواقعية التي تنكر الآخرة وتنبذ الغيبيات..

هذه الواقعية التي لا تؤمن إلا بما تدركه الحواس، والتي تجعل الإيمان بالله واليوم الآخر مزاجًا شخصيًّا لمن أراد أن يؤمن به، على ألا تكون له صلة على الإطلاق بواقع الحياة.. هذه الواقعية لا يتقبلها الإسلام من جهة، ولم يقع في حياة المسلمين ما يدفعهم إليها من جهة أخرى!

فالإسلام قائم على الإيمان بالغيب.. ولكنه ليس الإيمان الأعمى بغير دليل، فمن صفات "عباد الرحمن":

"وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا"[1].

إنما هو الإيمان بالحق الذي تدل عليه الدلائل ولو لم تدركه الحواس، وهو على هذه الصورة الصفة الأولى التي يوصف بها المؤمنون، والتي يمتدحون بها كذلك:

"الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ.."[2].

وهو مديح ولا شك، لأن القدرة على الإيمان بالغيب، وعدم الانحصار فيما تدركه الحواس، هو من آيات التكريم لهذا المخلوق البشري الذي كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق، والذي أعده لدور الخلافة في الأرض، ولحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السماوات والأرض.

والجاهلية المعاصرة -بما ترتكبه من حماقة مفرطة في حق "الإنسان"- تريد أن ترد عنه هذه الكرامة التي كرمه بها الله، وترده إلى عالم الحيوان الذي حبسته الداروينية في إطاره، فتحصره في ضيق العالم المحسوس، وتحجبه حتى عن دلالات هذا العالم التي تتجاوز مدى ما تدركه الحواس، وتحبس روحه عن التحليق الطليق في جو تلك الدلالات..

---

(1) سورة الفرقان [73].

(2) سورة البقرة [1-3].

والإسلام دين الفطرة.. يخاطب الفطرة كلها مجتمعة، ويتجاوب معها مجتمعة.

يتيح لها، بل يحثها على النظر في العالم المحسوس، ولكنه لا يحبسها فيه، بل يطلقها تتدبر دلالاته، فتؤمن بالله واليوم الآخر:

"وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ؟!"[1].

"سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ"[2].

فالله حق. تدل دلائل الوجود كله على وجوده ووحدانيته. واليوم الآخر حق، يرشح للإيمان به قدرة الله على الخلق من جهة، ونفي العبث عن الحق جل جلاله من جهة أخرى.

"أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟!"[3].

"وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ"[4].

"أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ.."[5].

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ"[6].

وحين حبست الجاهلية المعاصرة روح الإنسان عن النظر في دلالات الكون المادي التي تتجاوز مدى ما تدركه الحواس، وقعت في حيرة وبلبلة في الرد على أسئلة الفطرة عن الخالق وعن مهمة الإنسان في الأرض وعن مصيره بعد الموت واضطرت أن تضع أجوبة زائفة عن هذه الأسئلة التي لا معدى عن ورودها على الفطرة ولا مهرب من الإجابة عنها:

([1]) سورة الذاريات [20-21].
([2]) سورة فصلت [53].
([3]) سورة إبراهيم [10].
([4]) سورة يس [78-79].
([5]) سورة المؤمنون [115-116].
([6]) سورة ص [27-28].

الطبيعة هي الخالق! (وظلت حقيقة الخلق وكنهه وكيفيته محجوبة عن الأبصار، تتهرب من الحديث عنها كل علوم الجاهلية!)

والإنسان سيد الطبيعة [وهي خالقته!] وهو عبد الحتميات: المادية والاقتصادية والتاريخية (وهي من صنع الطبيعة والإنسان المقيد بقوانين الطبيعة!) وهكذا يتأرجح بين السيادة والعبودية للشيء الواحد! ويظل في حيرة بين هذه وتلك، بدلًا من الرؤية الواضحة الصافية المطمئنة حين يكون عبدًا لله وسيدًا للكون المادي الذي خلقه الله:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ"[1].

"وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ"[2].

أما مصيره بعد الموت فهو أمر تتجاهل الجاهلية المعاصرة الحديث فيه، أو تقول كما قالت جاهليات من قبل:

"وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"[3].

أما الإسلام فيعطي الإنسان تصورًا كاملًا للبعث والنشور، والحساب والجزاء، كما يعطيه الإجابة الصحيحة لكل ما يرد على الفطرة من تساؤلات حول الكون والحياة والإنسان.

ثم إن حياة المسلمين التاريخية لم يحدث فيها ما يدفعهم إلى إنكار "الغيبيات" من أجل إصلاح الأرض. بل حدث العكس! فإن العرب حملة هذا الدين الأوائل وهداة البشرية إليه -لم ينطلقوا إلى إصلاح الأرض إلا بعد أن آمنوا بالغيب! آمنوا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين..

ولم يكن أولئك العرب شيئًا مذكورًا في الأرض، ولا كان لهم دور في حياة البشرية حين كانوا محجوبين عن الإيمان بالغيب، ولا كانت لهم أهداف ولا آفاق أبعد من واقع الحس القريب.

([1]) سورة البقرة [21].

([2]) سورة الجاثية [13].

([3]) سورة الجاثية [24].

ولكنهم أصبحوا "خير أمة أخرجت للناس" وقاموا بأكبر حركة إصلاح في الأرض، يوم آمنوا بما تنكره الجاهلية المعاصرة، وانطلقوا يكيفون حياتهم الواقعة بحسب ما يأتيهم من عالم الغيب!

لذلك ارتبط "الإصلاح" الحقيقي في حياة هذه الأمة بالإيمان بالغيب، على الصورة الإسلامية الصحيحة، بقدر ما ارتبط الإصلاح الزائف في حياة أوربا بنبذ الغيبيات والإيمان "بالواقع"!

فإذا كانت الحياة الإسلامية قد انحرفت في القرون الأخيرة وأصابها الفساد، فلم يكن ذلك بسبب الإيمان بالغيب، إنما كان بسبب الانحراف عن المنهج الرباني الذي تلقاه المسلمون من عالم الغيب، وأصلحوا به الواقع يوم كانوا مستمسكين به على بصيرة:

"قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي.."[1].

* * *

وأما واقعية السبب الظاهر والنتيجة الحتمية ونفي القدر الرباني المهيمن على الأمور، فقد لجأت إليه أوربا كذلك لذات الظروف السيئة التي مرت بها في قرونها الوسطى المظلمة.

كان يقال للناس في أوربا في جاهلية الدين الكنسي المحرف في القرون الوسطى إن الواقع السيئ الذي يعيشونه قدر من عند الله لا يمكن تغييره ولا ينبغي كذلك تغيره، لأن محاولة التغيير هي تمرد على قدر الله!

فلما حطمت أوربا نير الكنيسة قامت تحاول تغيير الواقع السيئ فلم تجد أنها مغلولة اليد عن التغيير بسبب قدر الله! ثم وجدت أن أحوالها الجديدة خير بكثير -في كل اتجاه بحسب ظنها- من واقعها السيئ الذي كانت تعيشه من قبل، فآمنت أنه كان ينبغي أن تتحرك لتغييره ولو كان ذلك تمردًا على قدر الله!

وكانت حصيلتها من المعركة أنها اعتقدت أن الذي يفعل في هذا الكون هو السبب الظاهر والنتيجة الحتمية، وأن قدر الله شيء وهمي لا وجود له، وأنه حتى إن كان له وجود فالإنسان موكل بالتمرد على هذا القدر من أجل إصلاح الأرض!! وسميت هذه واقعية!

([1]) سورة يوسف [108].

ونقول هنا كما قلنا هناك إنه لا الإسلام يتقبل مثل هذه الواقعية المنحرفة، ولا كان في حياة المسلمين التاريخية ما يلجئهم إلى قبولها أو اللجوء إليها.

الإسلام قائم على أساس أن الفاعلية الحقيقية في هذا الكون هي فاعلية قدر الله سبحانه وتعالى في كل أمر من الأمور:

"فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[1].

"إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ"[2].

"قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"[3].

"وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ"[4].

"أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا"[5].

"وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى.."[6].

ومع هذا فإن الإنسان له دور يؤديه، بوصفه الخليفة في الأرض، المكلف بعمارتها والسعي في مناكبها، والحامل للأمانة فيها، والمحاسب في النهاية عن عمله في أثناء وجوده فيها، والذي يجري قدر الله فيها بمقتضى عمله إن خيرًا فخير ,إن شرًّا فشر:

"ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ.."[1].

([1]) سورة يس [83].

([2]) سورة القمر [49].

([3]) سورة آل عمران [26-27].

([4]) سورة يس [33-35].

([5]) سورة الواقعة [63-65].

([6]) سورة الأنفال [17].

"ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ.."[2].

وبذلك يتوازن في حس المسلم إيمانه بفاعلية قدر الله في الكون وإيمانه بفاعلية الإنسان ومسؤوليته عما يعمل، بغير تعارض ولا افتراق:

"أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ.."[3].

ثم إن الإسلام يعلّم المسلم في ذات الوقت أن مع طلاقة المشيئة الربانية فإن لله سنة جارية تعمل في الكون حسب نواميس معينة غير قابلة للتغيير:

"فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا"[4].

وأن على الإنسان أن يتجنب الاصطدام بهذه السنة ومعارضتها, فإن ذلك يجلب عليه الدمار والبوار، إنما عليه أن يتجاوب معها ويستجيب لها فيكتب له الفلاح.

وهكذا يعمل المسلم في واقع الأرض ملتزمًا بتلك السنن، متوقعًا على الدوام أن يرى نتيجة عمله بمقتضى تلك السنن الربانية الثابتة، ولكنه يدرك على الدوام أنه ليس السبب الظاهر هو الذي يفعل، إنما هو الله. وأن النتيجة لا تأتي تلقائيًا من السبب الظاهر، إنما تأتي من ترتيب الله لها وتقديره لها بقدر من عنده. وأنه لو شاء الله ألا تترتب النتيجة المعينة على السبب، إنما تترتب عليه نتيجة أخرى، فليس هناك قوة في الكون كله تحول دون ما قدر الله..

ومن هنا لا يتعارض في حس المسلم إيمانه بالسبب والنتيجة –حسب السنة الربانية الجارية– وإيمانه بالمعجزة التي تختلف فيها النتيجة عن السبب الظاهر، وتعمل فيها سنة أخرى من سنن الله هي السنة الخارقة. فيؤمن بالوحي، وبالمعجزات والخوارق التي جاءت على يد الأنبياء والرسل، وبأن الله قادر على تغيير نظام الكون كله متى شاء. ولكنه في الوقت ذاته

([1]) سورة الأنفال [36].

([2]) سورة الروم [41].

([3]) سورة آل عمران [165-166].

([4])سورة فاطر [43].

يعمل على أساس أن السنة الجارية هي الأقرب احتمالًا. فيعدّ العدة ويتخذ الأسباب، ثم يتوكل على الله.

ومن هنا كذلك لا يحتاج المسلم -لكي تكون له فاعليته في الأرض، ولكي يغيّر وينشئ- أن يلغي الإيمان بقدر الله وقدرته. ولا يدفعه إيمانه بقدر الله -على الطريقة الإسلامية الصحيحة- إلى السلبية والتواكل وعدم اتخاذ العدة وعدم اتخاذ الأسباب. إنما كان الانحراف الذي وقع فيه المسلمون في القرون الأخيرة سببه فساد عقيدة القضاء والقدر عندهم، لا تلك العقيدة في ذاتها، لأن هذه العقيدة ذاتها -في صورتها السوية- هي التي دفعت المسلمين إلى تلك الفاعلية الفذة في واقع الأرض، فغيروا فيها -في عالم الحرب وعالم السياسة وعالم العقيدة وعالم الاقتصاد وعالم المادة وعالم الفن ... إلخ- ما لم يتح لأمة أخرى في الأرض في مثل ذلك الزمن القصير!

ولم يكن في حس المسلمين الأوائل قط أن الواقع الموجود لا يمكن تغييره لأنه قائم بقدر من الله! فقد جاءوا هم -بقدر من الله- لتغيير هذا الواقع، بمقتضى المنهج الرباني المنزل عليهم، وبمقتضى الأمانة التي يحملها "الإنسان"، وبمقتضى الفاعلية البشرية المتضمنة في "الخلافة" التي خلق الله من أجلها الإنسان.

ولم يكن في حسهم كذلك أن محاولة تغيير الواقع السيئ أو الواقع المنحرف يكون تمردًا على قدر الله. لأن الله لم يقبل من المشركين قولهم: "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ"[1].

إنما يتوجه المسلم -صاحب العقيدة السليمة- إلى تغيير الواقع السيئ والواقع المنحرف تطلعًا إلى قدر الله أن ينصره على هذا الواقع ويعينه على تغييره. وهذا معنى التوكل بعد اتخاذ الأسباب:

"فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.."[2].

فإذا قال قائل إن أوربا قد أبدعت ما أبدعت في ظل الإيمان بفاعلية الإنسان لا فاعلية الله، وفاعلية السبب الظاهر والنتيجة الحتمية لا فاعلية قدر الله، فذلك حق، ولكنها كذلك

(1) سورة الأنعام [148].

(2) سورة آل عمران [159].

"أبدعت" هذا القدر الرهيب من القلق والاضطراب والحيرة والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية والجريمة والإدمان على الخمر والإدمان على المخدرات.. لأن صراع السبب والنتيجة لا يأتي دائمًا على ما يهوى الإنسان، ولأن القلوب هناك لا تطمئن بذكر الله كما تطمئن قلوب المؤمنين:

"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"[1]

"قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"[2].

وقد أبدع هؤلاء المؤمنون ما أبدعوا من حضارة وتقدم في واقع الأرض، دون أن يصيبهم ما يصيب الجاهلية المعاصرة في قلق دائم واضطراب..

* * *

أما الواقعية التي تسخر من العواطف البشرية، وتعدها مضيعة للوقت والجهد لا تأتي بعائد مادي، فقد حدثت في أوربا في الواقع نتيجة النضوب الروحي والوجداني الذي أصابهم بعد تنحية الدين من حياتهم، وقطع صلاتهم بالله واليوم الآخر. ولئن كانوا يسمونها واقعية فهم في الحقيقة يحاولون بذلك أن يستروا ذلك النضوب المعيب الذي يغشي حياتهم، والذي يعيشون في ظله آلات تعمل وتنتج دون أن تحس.

بل إنها لتحس!

تحس بالفراغ القاتل فتروح تحاول ملأه باللهو والعبث والمجون، وتحاول ملأه بالمخدرات والخمر، وتحاول ملأه بالإغراق في الجنس.. وتلجأ أحيانًا إلى الكلاب! وعدد الكلاب في أوربا وأمريكا يكاد يصل أحيانا إلى نصف السكان!

ثم قالوا إن هذا نتيجة التطور!

ففي المجتمع الزراعي "المتأخر" تكون للناس عواطف ووجدانات، وروابط أسرية واجتماعية، ويتعاون الناس ويتوادون، لأن طبيعة الحياة الريفية تستوجب ذلك! أما في المجتمع الصناعي "المتطور" فتنفك هذه الروابط وتتقطع، لأن كل فرد من الناس له استقلاله

---

(1) سورة الرعد [28].

(2) سورة التوبة [51].

الاقتصادي، حتى الرجل والمرأة اللذان يكونان زوجًا وزوجة (!) فيصبح لكل منهم عالم مستقل، وتصبح الروابط بينهم روابط "عملية" لا روابط عاطفية ووجدانية! وذلك فضلًا عن أن سكان المدينة المزدحمة بالسكان، الدائمي التنقل من مكان إلى مكان، لا يمكن أن يتعارفوا، ولا أن تقوم بينهم الروابط -إلا تلك الروابط التي يقتضيها العمل- فينفرط عقدهم، ويصبح لكل منهم كيانه المستقل، لا يتدخل في شئون أحد ولا يتدخل أحد في شؤونه.. حتى الجيران في البيت الواحد لا علاقة لأحدهم بالآخر! ومن ثم لم يعد هناك مجال للوجدانات والعواطف، وانصرف كل إنسان إلى تنمية دخله الخاص، والتمتع بالحياة في حدود كيانه الخاص!

وصدقوا في وصف واقعهم الزري، وكذبوا في تعليله! وكذبوا كذلك في إعطائه صفة الشرعية والأمر الواقع المتسق مع طبائع الأشياء. فما يمكن -في خلق الله السوي- أن يهبط البشر عن إنسانيتهم كلما فُتح عليهم فتح علمي أو تقدموا في عالم المادة، بله أن يهبطوا عن إنسانيتهم بمقدار ما يفتح عليهم في ميدان العلم والتقدم المادي!

لا يمكن أن يكون الله قد كتب على البشرية كلما قامت بتسخير طاقات الكون المسخر لها من عند الله، وكلما مشت في مناكب الأرض تأكل من رزق الله، وكلما تقدمت في العلم الذي وهبها الله إياه، أن تنقلب مسخًا مشوهًا لا يمت بسبب إلى "الإنسان" الذي خلقه الله ليكون خليفة في الأرض، وكرمه وفضله ورفعه فوق سائر الكائنات!

إنما يحدث هذا من الكفر بالله واليوم الآخر، ومن إقامة الحياة على غير الأسس الربانية التي أنزلها الله لتحكم حياة البشر على الأرض، ومن عمارة الأرض على غير المنهج الرباني الذي يكفل التقدم المادي والروحي في آن.

كلا! ليس هو التطور، وإنما هو الانتكاس!

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ"[1].

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[1].

---

(1) سورة المائدة [65-66].

فإذا كانوا اليوم متقدمين علميًّا واقتصاديًّا وحربيًّا وسياسيًّا وماديًّا برغم هذا الانتكاس في إنسانيتهم، فليس هذا مخالفًا لسنة الله التي عرّفنا إياها في كتابه المنزل. إنما هو طور من أطوار تحركهم نحو الدمار:

"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"[2].

كلا! إنما أراد الله للإنسان أن يتقدم في ميدان العلم، وأن يسخر طاقات السموات والأرض ليقوم بعمارة الأرض والخلافة فيها (أي السيطرة والتمكن والإنشاء والتغيير) وهو محافظ على إنسانيته الرفيعة التي كرمه الله بها، في كل مجال من مجالات الإنسانية، سواء مجال الحق والعدل، أو مجال العواطف الإنسانية، أو مجال الترابط الأسري، أو مجال الأخلاق.

وذلك باتباع منهج الله..

فحين يتبع الناس الهدى الرباني فسينشئون حضارة متوازنة، يتوازن فيها جانب المادة وجانب الروح. وقد تكفل الله بذلك للناس حين يؤمنون: "لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِم" "لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ".

أما حين ينسون ما ذكروا به فقد تفتح عليهم أبواب كل شيء فترة من الوقت، وقد يتمتعون ويأكلون كالأنعام.. ولكنهم لا يجدون البركة في حياتهم قط ولا يجدون الاطمئنان، لأن الاطمئنان لا يجيء إلا من ذكر الله الذي يرفضون هم أن يذكروه، وأن يباركوا حياتهم بذكره:

"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"[3].

وكَذِبٌ ما يقولونه من أن العواطف والوجدانات لا مكان لها في عصر التقدم العلمي والمادي!

فما الذي يمنع الناس أن يكونوا آدميين حقًّا حين يتقدمون في ميدان العلم والإنتاج المادي؟!

([1]) سورة الأعراف [96].

([2]) سورة الأنعام [44].

([3]) سورة الرعد [28].

ما الذي يمنعهم أن يتعارفوا؟

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[1].

وإذا كان أهل المدينة الواسعة لا يستطيعون أن يتعارفوا كلهم، ولا أن يمارسوا التواد والمحبة على النطاق الواسع، فما الذي يمنع الجيران من أن يصنعوا ذلك؟ وما الذي يمنع أهل الحي الواحد، لو أنهم جعلوا ذلك في حسابهم ولم ينظروا إليه على أنه مضيعة للوقت والجهد؟

وأين يذهب الوقت والجهد الذي يضن به هؤلاء على العواطف الإنسانية وعلاقات المودة والقربى؟ أيذهب حقًّا في التقدم العلمي وزيادة الإنتاج؟!

فأين إذن الوقت الذي يذهب في الملاهي والمسارح و"علب الليل" ومباءات النهار؟! والذي يذهب في نوادي القمار؟! والذي يذهب في السكر، وفي غيبوبة المخدر؟! والذي يذهب في التخطيط لارتكاب الجرائم، سواء الفردية أو الجماعية أو الدولية، ثم في تنفيذ تلك المخططات؟!

لو التقى أهل الحي في صلاة؟

لو التقوا في عيادة المريض منهم ومواساة المحزون؟

لو التقوا في سمر بريء نظيف يروحون فيه عن أنفسهم بغير مأثم؟

هل يؤثر ذلك في الإنتاج والتقدم العلمي؟!

كلا! إنه ليس التطور وإنما هو الانتكاس.

ومنهج التربية الإسلامية -وهو ينشئ الناس على الواقعية -لا يجفف عواطفهم، ولا ينزع روح المحبة والود بينهم، إنما يجعل ذلك متممًا للإيمان، وقرينًا للإيمان:

"وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ.."[1].

([1]) سورة الحجرات [13].

"ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"[2].

"إن من عباد الله أناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء؛ يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى. قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: "هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها. فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور. ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ هذه الآية: "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"[3].

نعم.. وكذلك يكون "الإنسان" كما خلقه الله في أحسن تقويم..

* * *

على هذا النحو الشامل المحكم يربي الإسلام الإنسان في مرحلة النضج..

يضعه أمام مسؤولياته.. وفي مقدمتها مسؤوليته الكبرى أمام الله، التي تندرج تحتها جميع التكاليف وجميع المسؤوليات.

"..إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ.."[4].

"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"[5].

ويعمق في حسه معنى التوجه إلى الله بالعبادة والشكر والتوبة والإنابة:

([1]) سورة النساء [36].

([2]) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.

([3]) أخرجه أبو داود.

([4]) سورة الرعد [19-21].

([5]) سورة النساء [58-59].

"..حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[1].

ويحثه على العمل المنتج وعلى اكتساب الخبرة التي تصل إلى حد الإتقان.

ويربي فيه النظرة الواقعية إلى الأمور، بغير انحرافات الجاهلية في نظرتها الواقعية، فلا هو يفصل بينه وبين ربه، ولا بينه وبين مثله وقيمه، ولا بينه وبين أهله وعشيرته، ولا بين دنياه وآخرته.

واقعي.. ولكنه لا يحصر نفسه في حدود ما تدركه الحواس. لأن حقيقة الوجود أكبر بكثير وأعظم بكثير من حدود ما تدركه الحواس.

واقعي ... ولكنه لا يحصر نفسه في الأرض.. في الحياة الدنيا.. لأن حقيقة الآخرة أكبر بكثير وأخطر بكثير من حقيقة الأرض. ثم إنه لا انفصال في حسه بين العالم الحاضر والعالم المقبل، لأنها -كلها- رحلة واحدة أولها في الدنيا وآخرها في الآخرة. ولكنهما طريقان مختلفان في الحياة الدنيا يؤديان إلى نهايتين مختلفتين في الآخرة. أولاهما ينتهي فيها الكدح والمشقة والعذاب والجهد، ليبدأ نعيم لا حد له ولا انتهاء، والثانية ينتهي فيها ما قد يكون قد سبق من ألوان نعيم عارض، ثم يبدأ العذاب..

"كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ"[2].

واقعي ... ولكنه لا يحصر نفسه في الجانب المادي من الحياة.. لأن حقيقة الروح أفسح بكثير وأعمق بكثير من حقيقة الحس وحقيقة المادة. ثم إنه لا يوجد في الحقيقة ذلك الانفصال المتوهم بين عالم المادة وعالم الروح. لا يوجد في حقيقة الإنسان ولا في حقيقة الكون. فأما الإنسان فقد خلق من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ممتزجتين مترابطتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى:

---

(1) سورة الأحقاف [15].

(2) سورة الأعراف [29-30].

"إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"[1].

وأما الكون فقد أزاح العلم الحديث ذلك الفاصل المتوهم بين المادة والطاقة، ولم يعد أحد اليوم -من العلماء- يتحدث عن المادة بمعزل عن الطاقة أو عن الطاقة بمعزل عن المادة، لأنه لا عزلة في الحقيقة ولا انفصال!

واقعي.. ولكنه لا يحصر نفسه في حدود ذاته ولا حتى في حدود أسرته الصغيرة.. فحقيقة الترابط في المجتمع وفي الوجود البشري كله أكبر بكثير وأخطر بكثير من حدود ذاته ومن حدود أسرته. ومن ثم فهو -مع اشتغاله بذاته وأسرته- مشتغل كذلك "بالأمور العامة" كما يسمونها في مصطلح هذا العصر. ثم إن الإسلام يفرض عليه فرضًا أن يشتغل بهذه الأمور العامة، لأنه ما من موقف للناس في أي شيء من الأشياء إلا واقع في حدود شرع الله. فهو إما واجب وإما مستحب وإما مباح وإما مكروه وإما محرم. وهو مكلف أن يحكم فيه بما أنزل الله، ثم يكون له منه موقف معين بحسب هذا الحكم، فيقره ويدعو إليه، أو ينكره ويجاهده "بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان."

واقعي.. ولكنه ليس جامد الحس متحجر العواطف؛ لأن نداوة العواطف الإنسانية كسب للنفس أعظم بكثير وأروح بكثير من الكسب المادي. إنها هي الوجود الحقيقي للنفس الإنسانية بعد أن تشبع حاجات الجسد وتستقر:

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[2].

"وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[3].

"مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ"[1].

([1]) سورة ص [71-72].

([2]) سورة الروم [21].

([3]) سورة التوبة [71].

* * *

ثم يطلقه الإسلام يحقق وجوده في الأرض.. وجود الخليفة الراشد المكلف بعمارة الأرض بمقتضى منهج الله.. يقيم فيها شريعة الله. ويمشي في مناكبها ليأكل من رزق الله. ويستغل الطاقات المسخرة له من عند الله. ويجاهد لإقامة الحق والعدل الذي يأمر به الله. ويكون في أثناء ذلك كله متخلقًا بأخلاق لا إله إلا الله، فيحقق بذلك المعنى الحقيقي لعبادة الله:

"لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"[2].

فتكون منه حينئذ تلك الثمرة الجنية التي يحبها الله:

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ"[3].

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا"[4].

ويكون حقًّا على الله أن يهديهم سواء السبيل:

"وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"[5].

* * *

وبعد فذلك هو المنهج الرباني في شموله وتكامله وعمقه وإحاطته. وتلك هي طريقته في معالجة النفس الإنسانية من الطفولة الباكرة إلى مرحلة النضج.

([1]) سورة الفتح [29].
([2]) سورة البقرة [177].
([3]) سورة البينة [7-8].
([4]) سورة مريم [96].
([5]) سورة العنكبوت [69].

إنه منهج كفيل بالفعل بإنشاء "الإنسان الصالح" فردًا وجماعة وأمة متكاملة.

كفيل بإخراج تلك الأمة الخيرة التي استحقت ذلك الوصف الرباني: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.."[1].

والتي جعلها الله أمة وسطًا لتكون شاهدة ورائدة لكل البشرية: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ"[2].

ولئن كانت هذه الأمة قد تهاوت –دهرًا– في أداء رسالتها التي كلفها بها الله..

ولئن كان هذا التهاون لم يقف أثره عند هذه الأمة وما أصابها من ضعف وتخلف وهوان وتمزيق على يد أعدائها، بل تعداه إلى البشرية بأجمعها، التي فقدت الهداية الربانية التي كانت ممثلة في هذه الأمة، والتي تستطيع –وحدها– أن تقوّم انحرافات البشرية وتصلحها.. فراحت من جراء ذلك تتخبط في الظلمات، وتقودها الشياطين إلى مهاوٍ ومزالق لا مثيل لها في التاريخ البشري كله في شناعتها وبشاعة آثارها..

لئن كان هذا كله كذلك، فإن هناك اليوم حركات للبعث الإسلامي تبشر بالخير في كثير من أرجاء الأرض..

وحين يتربى جيل جديد من المسلمين على منهج التربية الإسلامية؛ يكون قد تحقق هذا الخير الذي تبشر به حركات البعث الإسلامي. وهو خير مزدوج لا يقف أثره عند هذه الأمة وحدها، وإنما يتعداه إلى كل البشرية.. فالبشرية الحائرة اليوم، التي تعاني لذع الضياع والحيرة والقلق والاضطراب، قد بدأت تبحث عن الطريق. ولن يكون الطريق إلا الإسلام. ولن يقدم الإسلام للبشرية الحائرة إلا من خلال بشر يؤمنون به، ويحملونه عقيدة مستقرة في القلب، وقيمًا ومبادئ متمثلة في واقع سلوكي مستمد من هذه العقيدة.. وعندئذ ينشرح صدر البشرية الحائرة للإسلام، وتجد فيه طريق الخلاص..

وحقيقة إن هناك عقبات كثيرة في الطريق..

([1]) سورة آل عمران [110].

([2]) سورة البقرة [143].

عقبات من القوى المعادية للإسلام في الأرض كلها، تحارب حركات البعث الإسلامي بضراوة، وتكيد لها بكل ما تملك من وسائل الكيد، من تشتيت وتفتيت واحتواء وفتنة وتعويق.

وعقبات من الطغاة الذين يناوئون حركات البعث الإسلامي بكل ما في أيديهم من السلطان، وينكلون بالدعاة في أبشع صورة من صور التنكيل الجماعي شهدها التاريخ، لحسابهم الخاص أحيانًا، ولحساب تلك القوى المعادية في جميع الأحيان.

وعقبات من مدى البعد الشاسع بين واقع هذه الأمة في تاريخها المعاصر وبين حقيقة الإسلام.

وعقبات من توزع الجماعات الإسلامية ذاتها، وافتقارها إلى الرؤية الواضحة، والقيادة الواعية المقتدرة التي ترتفع إلى مستوى المسؤولية ومستوى الأحداث.

ولكن المبشرات أكبر من المعوقات!

المبشرات -في داخل العالم الإسلامي- هي هذا التيار الزاخر من الشباب في كل مكان -فتيانًا وفتيات- يريدون الإسلام ويصرون عليه بوصفه البديل الوحيد من كل ألوان الجاهلية المعاصرة، والطريق الوحيد للخلاص ... وهم شباب يعلمون علم اليقين أن الإسلام يحارب، وأن طريق الإسلام مملوء بالعقبات ومملوء بالتضحيات. ومع ذلك يصرون على ارتياد الطريق.

والمبشرات -على مستوى البشرية- هي بدء تيقظ الفطرة البشرية من دوامتها التي غرقت فيها في القرنين الأخيرين، والأخير بصفة خاصة، دوامة النظريات الزائفة والمذاهب المنحرفة والسلوك المجنون.. واتجاهها إلى البحث عن بديل من هذه الدوامة يكون فيه طريق الخلاص. ولن يكون الخلاص -كما قلنا- إلا في المنهج الرباني المنزل، وإلا فهو المزيد من الجاهلية، والمزيد من الانحراف الذي يؤدي إلى الدمار..

وهي مبشرات ضخمة سواء في أصالة اتجاهها وارتكازها على رصيد الفطرة ورصيد الحق[1]، أو في اتساع نطاقها على محيط الأرض.

ولن يكون الأمر بالسهولة التي تكتب بها الكلمات أو تنطق بالأفواه.

---

(1) انظر "هذا الدين" و"المستقبل لهذا الدين".

إنه في حاجة إلى جهاد مرير وصبر وتضحيات..

ولكن الله هو الذي وعد المؤمنين الصادقين بالنصر حين يستقيمون له على الشرط:

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا"[1].

"وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"[2].

([1]) سورة النور [55].

([2]) سورة يوسف [21].

مرحلة النضوج

"لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"[1].

وتوجد في العلماء، وهم ورثة الأنبياء. وليس العلماء هم حفظة العلم. فما أكثر الحفاظ وأقل العلماء! إنما هم العاملون بهذا العلم، الذين يربون بعلمهم الناس، ويعطون في سلوكهم الواقعي ترجمة عملية لما يقولونه لطلابهم من أمور هذا الدين. هم الذين يخشون ربهم حق خشيته:

"إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"[2].

كما أن تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع المسلم هو بذاته تربية وتوجيه. أما في مجتمعاتنا الجاهلية المعاصرة فالقيادة والقدوة -لمن يريد الإسلام- ما تزال قائمة في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته. ثم ينبغي أن تكون في جماعة تندب نفسها للدعوة، وتعطي من نفسها القدوة، وتقوم بدور التربية للناس في مرحلة النضج، وتعينهم على القيام بمسؤوليتهم تجاه الله وتجاه الإسلام.

كنا حتى الآن نتحدث عن السمة الأولى -والكبرى- من سمات مرحلة النضج، وهي الرغبة في تحمل المسؤولية، واستطردنا منها إلى الحديث عن ماهية هذه المسئولية بالنسبة للإنسان المسلم، والتي تتلخص في إقامة منهج الله في الأرض، وإنشاء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة التي تحكم بما أنزل الله. فذلك في الحقيقة هو المقتضى الحقيقي لشهادة لا إله إلا الله.

ونعود إلى بقية السمات فنجد الرغبة في العمل والرغبة في اكتساب الخبرة العملية، وهما رغبتان متساوقتان في نفس الإنسان، وموجودتان في الحقيقة منذ الطفولة، ولكنهما يأخذان صورًا شتى.

---

(1) سورة الأحزاب [21].

(2) سورة فاطر [28].

ففي الطفولة تتخذان صورة اللعب. وعن طريق اللعب يكتسب الطفل كثيرًا من خبراته كما يكتسب كثيرًا من معلوماته. وبذلك يمكن استغلال اللعب في التربية في هذه المرحلة من العمر.



حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية

محمد قطب

الفهرس

مقدّمَة

لا تتسع هذه العجالة بطبيعة الحال لحديث مفصل عن التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، فالموضوع واسع متشعب يشمل تخصصات مختلفة ، ويحتاج الحديث المفصل في أيٍّ منها إلى متخصص – أو متخصصين – يلمون بدقائقها ، ويغوصون في أعماقها ، ويجلّون خوافيها .. مع تعدد مجالات النظر واختلاف زوايا الرصد في كل علم من هذه العلوم .

إنما أردت من هذه العجالة أمرا أبسط من هذا بكثير ، أشعر في الوقت ذاته بأهميته ، وأهمية توجيه النظر إليه ، والاهتمام بشأنه .

أردت أولا أن أعرض فكرة سريعة عن " التأصيل الإسلامي " : ما هو ؟ ما المقصود به ؟ ما ضرورته بالنسبة لحياتنا الثقافية والفكرية ، بل السياسية والاقتصادية والاجتماعية كذلك ، وكلها أمور متداخلة في الكيان النفسي والحياتي ، وإن بدا لأول وهلة أن كلا منها منفصل عن الآخر بسبب تخصصه ، واختلاف طرق البحث فيه .

ثم أردت بعد ذلك أن أعرض فكرة عامة عن المنهج الذي نحتاج إليه في التأصيل الإسلامي لهذه العلوم ، التي يجمعها – على الرغم من تخصصها ، وتميز بعضها عن بعض – رابط مشترك ، أو قاعدة مشتركة هي " الإنسان " . فإذا حددنا : ما الإنسان ؟ ما تكوينه ؟ ما حدود طاقاته ؟ ما غاية وجوده ؟ ما السنن التي تحكم حياته ؟ فقد حددنا القاعدة المشتركة التي تلتقي عندها هذه العلوم جميعا وتتفرع عنها .

وكثيرا ما يوحي إلينا التخصص الدقيق – أو الغرور العلمي أحيانا – أن كلا من هذه العلوم عالم مستقل بذاته ، متميز عن غيره تمام التميز . وهو وَهْمٌ يكذبه الواقع ، وتكذبه النظرة الشاملة ، التي لا تحجبها الجدران الكثيفة التي يقيمها كل علم من هذه العلوم حول نفسه ، عن رؤية العناصر المشتركة التي تربط بينها جميعا ، والمنطلق المشترك الذي تصدر عنه ، وهو الكيان الإنساني المترابط ، الذي لا تتفكك أجزاؤه في أثناء حركته ، ولا ينفصل بعضها عن بعض ، وإن اختلفت اتجاهاته ، واهتماماته ، وألوان نشاطه ، ما بين لحظة وأخرى على مدار حياته كلها من بدئها إلى نهايتها .

* * *

وغني عن البيان أن العلوم الاجتماعية قد نمت وتأصلت في أوربا في ظل أجواء نفسية وفكرية معينة ، أثرت في توجيهها ، وهي أجواء الصراع بين الكنيسة والعلم ، أو بين الدين

والحياة بصفة عامة ، وأن هذا الصراع قد خلَّف بصماته الواضحة عليها ، فنشأت إما معادية للدين ، أو في القليل مبتعدة عنه ، متنصلة من الاتصال به أو الاستمداد من وحيه . ثم أصبح هذا في حس الناس هناك هو " المنهج العلمي " الذي يجب أن تسير عليه البحوث العلمية ، والذي تعتبر أي مخالفة له خللا في الفكر ، ونقضا " للروح العلمية " و " الموضوعية " وإفساداً للبحث العلمي !!

وهذا الموقف الذي يقفه الغرب في تناوله للعلوم الاجتماعية – وغيرها كذلك [1] – ليس موقفا علميا في حقيقته ، وإن ألبس ثوب العلم ! إنما هو موقف وجداني انفعالي في الحقيقة ، له أسبابه الكامنة في مجرى حياتهم ، وله تأثيره الخطير على " الحصيلة العلمية " التي أنتجها الغرب في هذه العلوم ، على الرغم مما بذل في دراستها من جهد ، وما استحدث في دراستها من أدوات ، وعلى الرغم من محاولة وضع " ضوابط علمية " للبحث !

إن العالِمَ الغربي يتوهم في نفسه التجرد العلمي ، والدقة الموضوعية ، في تناوله لهذه العلوم ، ولا يتنبه إلى أنه قد دخل الساحة بمقررات مسبقة ، تؤثر – بوعي أو بغير وعي – في طريقة تناوله للموضوع ، وفي النتائج التي يستخلصها من بحثه .. تلك المقررات هي وجوب إبعاد الدين وكل ما يستوحى منه إبعاداً كاملا من نطاق البحث ! بل إنه يتصور أن اتخاذه هذا الموقف المسبق ، والإصرار عليه ، هو الواجب الذي تفرضه عليه طبيعة البحث العلمي ، وأن مدى دقة النتائج المستخلصة ، ومصداقيتها ، متوقف على مدى إخلاصه في أداء هذا الواجب " المقدس " !

وهنا بالذات يفترق طريقنا عن طريقهم ، أو يجب أن يفترق !

إن الظروف التي مرت بها أوربا وأنتجت الانفصام بين العلم والدين ، هي ظروف خاصة بأوروبا وحدها ، وليست ظروفا عالمية ؛ والمعايير التي أنشأتها تلك الظروف هي كذلك معايير محلية خاصة ، ليس لها صفة العموم ، ولا صفة اللزوم . ليست معايير " إنسانية " كما يحلو لأوروبا أن تتصورها ، بدافع الغرور الذي أنشأه النجاح الحاضر للغرب ، الذي جعله يتوهم أن الغرب هو العالم ! وأن معاييره يجب أن تخضع لها البشرية كافة ، وأن من اختلف عنها فهو المخطئ الذي ينبغي أن يعدّل موقفه ، وينقاد إلى " المعيار الصحيح " !

أما نحن فنقول إن الظروف التي مر بها الغرب ، وأنشأت له معاييره الخاصة ، ليست هي ظروفنا التي عشناها في ظل الإسلام ، سواء في فترة ازدهار الإسلام ، وازدهار الحضارة

---

[1] لم تخل دراسة العلوم البحتة من التأثر بهذا المنهج المعادي للدين ، المتنصل منه ، وأوضح مثال على ذلك نسبة الخلق والتدبير للطبيعة بدلا من الله ! والزعم بأن هذا هو الأليق بالبحث العلمي !!

الإسلامية والحركة العلمية الإسلامية ، أو في ظل الانحسار الذي طرأ على العالم الإسلامي حتى أوصل الأمة إلى حضيضها الذي وصلت إليه ، فصارت كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم " غثاء كغثاء السيل " ، أو في ظل الصحوة الإسلامية المباركة التي تبشر بالخير ، رغم تكالب العالم كله على محاولة القضاء عليها .

في جميع هذه الأحوال الثلاثة كانت ظروفنا مختلفة عن ظروف الغرب ، فلا عجب أن تكون معاييرنا مختلفة عن معايير الغرب ، وأن يكون تناولنا للعلوم الاجتماعية – وغيرها كذلك – مختلفا عن التناول الغربي في أسسه وقواعده ، وإن التقى معه في بعض الجزئيات ، أو حتى في كثير من الجزئيات التي تتخذ صورة أبحاث معملية وتجريبية . ذلك أن الخلاف الجوهري ليس في إجراء التجارب المعملية ورصد نتائجها ، إنما هو في تفسير الظواهر الاجتماعية وتأصيلها ، المستمد أساسا من تصورنا للكيان الإنساني ، ولغاية الوجود الإنساني .. وهنا يقع الخلاف ، وهنا يكمن الدافع إلى ضرورة التأصيل الإسلامي لهذه العلوم !

وفي الغربة الثانية للإسلام ، التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم [(2)] ، والتي نعايشها في واقعنا المعاصر ، فإن كثيراً من الناس من الذين درسوا هذه العلوم على طريقة الغرب وتأثروا بها ، يستنكرون هذه المحاولة ، ويرون فيها خروجا عن " المنهج العلمي " الذي ينبغي اتباعه في تناول هذه العلوم !

وقبل ظهور الصحوة الإسلامية لم يكن أحد من " المثقفين " يطيق مجرد الاستماع إلى الدعوة التي تهدف إلى إنتاج " أدب إسلامي " أو " اقتصاد إسلامي " أو " علم اجتماع إسلامي " أو " دراسات نفسية وتربوية إسلامية " .. وكانت تبدو بالنسبة لهم خبلا لا يقدم عليه عاقل ، وانحرافا خطيرا عن الجادة ! ولكن وجود الصحوة أمراً واقعا في الحياة الإسلامية قد خفف كثيرا من العجب والاستنكار الذي كانت الدعوة تواجه به في أول الأمر ، وإن لم يخفف من الحرب الموجهة للدعوة على أمل تعويقها أو القضاء عليها !

وهدفنا من هذه العجالة أن نسهم إسهاما متواضعا في إزالة الغربة عن الإسلام في ميدان من ميادينه الأصيلة التي ينبغي للصحوة أن توجه إليها اهتمامها ، وهو ميدان الفكر والثقافة ، الذي يحاول أعداء الإسلام بكل جهدهم أن يمنعوا الإسلام من دخوله أو التمكن فيه ! (**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**) [(3)] .

[(2)] قال صلى الله عليه وسلم : " بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ " أخرجه مسلم .

[(3)] سورة التوبة [31] .

إننا نؤمن إيمانا راسخا بأن المستقبل للإسلام ، وبأن كل المقاومة التي يقوم بها أعداء الإسلام لن تمنع تمكنه مرة أخرى في واقع الأرض ..

بل نؤمن أكثر من ذلك بأن تحولا هائلا قد بدأ يأخذ سبيله في الغرب ذاته ، الذي يصدّر إلينا أفكاره المنحرفة ، ويتبعه فيها من يتبعه ممن استولى الغزو الفكري على قلوبهم وعقولهم . واستمع إلى هذه الكلمات الواضحة الدلالة من كلام الأمير تشارلس ولي عهد بريطانيا :

" ولكن القرون الثلاثة الأخيرة شهدت في العالم الغربي على أقل تقدير انقساما خطيرا في طريقة رؤيتنا للعالم المحيط بنا . فقد حاول العلم بسط احتكاره – بل سطوته المستبدة – على طريقة فهمنا للعالم ، وانفصل الدين والعلم أحدهما عن الآخر ، بحيث صرنا كما قال الشاعر " وردزورث " لا نرى إلا القليل في أمنا الطبيعة التي نملكها . لقد سعى العلم إلى الاستيلاء على عالم الطبيعة من الخالق (سبحانه وتعالى) فجزأ الكون إلى فرق ، وأقصى " المقدس " إلى زاوية نائية ثانوية من ملكة الفهم عندنا وأبعده عن وجودنا العلمي . والآن فقط بدأنا نقدر العواقب المدمرة لهذا الأمر .. "

ثم يقول : " إن الثقافة الإسلامية في شكلها التراثي جاهدت للحفاظ على هذه الرؤية الروحية المتكاملة للعالم ، بطريقة لم نجدها نحن – خلال الأجيال الأخيرة في الغرب – موائمة للتطبيق . وهناك الكثير مما يمكن لنا أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامي في هذا المضمار .."

وفي الختام يقول : " إننا – نحن أبناء الغرب – نحتاج إلى معلمين مسلمين يعلموننا كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا .. " [4]

إن الدلالة في هذه الكلمات واضحة .. لقد بدأ بعض العقلاء في الغرب يدركون مدى التدمير الذي أحدثه الفصام النكد بين الدين والعلم وبين الدين والحياة . وبدئوا يدركون أن المنهج الإسلامي في هذا المجال هو المنهج الصحيح .

ولا يدفعنا الوهم أن نظن أن آثار هذا التحول ستطرق أبوابنا صباح الغد ! فما زال بين جموع الناس في الغرب وبين إدراك هذه الحقائق فجوة لا يعلم مداها إلا الله . وما زال بين الغرب الصليبي وبين الإسلام من العداء التقليدي ما تحتاج إزالته إلى جهود لا يعلم مداها إلا الله ..

ولكن تبقى الدلالة واضحة بالنسبة للمستقبل ..

المستقبل للإسلام ..

---

[4] عن جريدة الشرق الأوسط ، العدد 6592 بتاريخ 15 / 12 / 1996 .

ومقتضى ذلك أن ندرك أن التأصيل الإسلامي للمعرفة – في جميع مجالاتها – ليس حاجة للمسلمين وحدهم في واقعهم المعاصر ، إنما هو أمر لازم للبشرية كلها ، ليخرجها من الظلمات إلى النور .

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ [5] وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [6] .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وممن يهتدون بكتابك إلى الصراط المستقيم .

محمد قطب

---

[5] أي أنهم اختلفوا فبعث الله النبيين ..

[6] سورة البقرة [213] .

ظروف أوربا

من المعلوم عند المؤرخين والمفكرين الأوربيين أن الدين الذي اعتنقته أوربا لم يكن هو الدين الذي جاء به المسيح عليه السلام ، إنما هو الدين الذي نشره بولس في أرجاء الغرب ، وإن كان قد نسبه إلى المسيح !

استمع إلى المؤرخ الإنجليزي " ويلز " حين يقول :

" وظهر للوقت (أي في الوقت ذاته) معلم آخر عظيم ، يعده كثير من الثقات المعاصرين المؤسس الحقيقي للمسيحية ، وهو شاول الطرسوسي أو بولس .. والراجح أنه يهودي المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك . ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود ، بيد أنه كان متبحراً في لاهوتيات الإسكندرية الهيلينية .. وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلينستية ، وبأساليب الرواقيين . كان صاحب نظرية دينية ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل .. ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمثرائية ، إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية .. ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنبا إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تظهر قط فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم ، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية ، أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة : ديانة الكاهن والمذبح ، وسفك الدماء لاسترضاء الإله " [7]

ويقول المؤرخ الإنجليزي " فشر " :

" إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعاً من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات ، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة ، الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها " [8] !

ويقول " رينان " الفيلسوف الفرنسي :

---

[7] ويلز ، " معالم تاريخ الإنسانية " ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ج 3 ص 705 .

[8] فشر ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ج 1 ص 80 من الترجمة العربية .

" إنـه ينبغـي لفهـم تعليم يسوع المسيح الحقيقـي كمـا كـان يفهمـه هـو أن نبحـث فـي تلـك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظـلام . ويرجـع بحثنا إلـى أيام بولس الذي لـم يفهم تعليم المسيح ، بل حمله علـى محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم . وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم ، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ... وإن أولئك الشراح يدعون المسيح إلها دون أن يقيموا على ذلك الحجة . ويستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار : موسى ، والزبـور ، وأعمـال الرسل ، ورسائلهم ، وتـآليف آبـاء الكنيسـة . مـع أن تلـك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله " [9] .

ويقول " برنتون " :

" إن المسيحية الظافرة في مجمع نيقية – وهي العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم – مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين فـي الجليل [10] . ولـو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية ، لخرج من ذلك قطعا ، لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولـى فحسب ، بل بـأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا " ! [11].

ولم يكن هذا هو التحريف الوحيد الذي حدث في رسالة المسيح عليه السلام .

إن كل دين منزل من عند الله – والنصرانية ليست بدعا من ذلك – كان عقيدة وشريعة وتعاليم ربانية لتنظيم الحياة في شتى مجالاتها .

ولكن النصرانية التـي نشرها بولس في أرجاء أوربا كانت عقيدة بـلا شريعة ، إلا مـا كـان متعلقا منها " بالأحوال الخاصـة " من زواج وطلاق [12] وعلاقات أسرية . وبقي التشريع المهيمن على الحياة في ربوع الإمبراطورية الرومانية هو القانون الرومانـي ، لا قانون السماء ، بكل ما في القانون الروماني من رق وإقطاع وطبقية وحرمان للمرأة من الكرامة الإنسانية .

وقد يكون مفهوما أن تعجز الكنيسة في قرونها الثلاثة الأولـى عن تطبيق الشريعة الربانية لكونها نشأت في ظل الإمبراطورية الرومانية الطاغية ، ولم يكن لها عليها سلطان ، بل كانت

---

[9] عن " محاضرات في النصرانية " للشيخ محمد أبو زهرة ، ص 215 . طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض ، سنة 1404 هـ .

[10] أي المسيحية الأولى كما جاء في كلام الكاتب بعد ذلك .

[11] جرين برنتون ، في كتاب " أفكار ورجال " ترجمة محمود محمود ، ص 207 .

[12] تحرم الكاثوليكية الطلاق ولكنها تبيح التفرقة الجسدية بين الزوجين في حالة " الخيانة الزوجية " .

منبوذة مطاردة مضطهدة . أما أن يستمر عدم تطبيق الشريعة (إلا في ذلك المجال الضيق ، مجال الأحوال الشخصية) بعد أن سيطرت الكنيسة سيطرة كاملة على الدولة بعد دخول قسطنطين في النصرانية في القرن الرابع ، فأمر غير مفهوم – لنا على الأقل – إذ كان الأباطرة خاضعين تماما لنفوذ رجال الدين لا يملكون أن يعصوا لهم أمرا فيما بين القرن الرابع والقرن الثاني عشر على أقل تقدير ، ولو أمروا بتطبيق الشريعة لطبقوها !

وحين يخلو الدين من التشريع ، ويصبح عقيدة فحسب ، فإن علماءه وفقهاءه يتحولون إلى " رجال دين " أي إلى " كهنة " ، وسرعان ما يتحول الكهنة إلى وسطاء بين العبد والرب ، وتكون لهم قداسة ، ويكون لهم على قلوب الناس سلطان .. فيبدأ الطغيان !

وحدِّث عن طغيان الكنيسة الأوربية ولا حرج !

لقد انتقل الطغيان من المجال الروحي – الذي بدأ منه نتيجة خلو الدين من الشريعة وتمثله في العقيدة وحدها وما يتعلق بها من الأخلاقيات – فشمل كل مجالات الحياة واحدا بعد الآخر ، فأضاف إلى الطغيان الروحي الذي يحتكر الوساطة بين العبد والرب ، طغيانا ماليا يشمل العشور والإتاوات والتركات وسخرة العمل الإجباري في حقول الكنيسة يوم الأحد مجانا بلا مقابل ! وطغيانا فكريا يحرّم على العقل أن يفكر لكي لا يزيغ عن " العقيدة ! " ، وطغيانا سياسيا يخضع الأباطرة لسيطرة البابوات وأهوائهم وشهواتهم ، وطغيانا علميا يقف في وجه النظريات العلمية ، ويحرّق العلماء أحياء لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وبأن الأرض ليست مركز الكون !

وذلك كله بالإضافة إلى فضائح الأديرة وفساد رجال الدين ومهزلة صكوك الغفران ومحاكم التفتيش ووقوف الكنيسة ضد حركات الإصلاح [13] !

* * *

ماذا كان يتوقع من الناس حين تصبح الأمور على هذا النحو ؟

ألم يكن منطقيا أن يتمرد الناس – بعضهم على الأقل – على هذا الدين ، وعلى الكنيسة، أداة الطغيان الكبرى التي تذل الناس لسلطانها باسم الدين ؟!

بلى ! وقد وقع ذلك بالفعل ..

وخلال قرون متوالية احتدم الصراع بين رجال الدين وفئات متزايدة من المجتمع : العلماء و " المفكرين الأحرار " والأباطرة وغيرهم وغيرهم ، حتى حدث الانفجار المدوي في الثورة الفرنسية التي كان من بين شعاراتها : اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ! وظهرت " العلمانية

---

[13] اقرأ إن شئت فصل " الدين والكنيسة " من كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " .

" على السطح ، بمعنى إبعاد نفوذ رجال الدين عن مجالات الحياة المختلفة بدءا بالسياسة ، ثم الاقتصاد ، ثم الفكر ، ثم العلم ، ثم الأدب والفن ، ثم الأخلاق !

* * *

من وجهة نظرنا الإسلامية نقول إن " العلمانية " كانت موجودة دائما في الحياة الأوربية من أول لحظة إلى آخر لحظة ! ولكن الكتاب الأوربيين لا يعتبرونها قامت إلا حين اقتصر نفوذ رجال الدين على عالم الروح والآخرة ، وتركوا " السلطة الزمنية " للأباطرة ، أي حين انقسمت السلطة التي كانت كلها – بشقيها – في يد " الحكومة الثيوقراطية " إلى سلطة روحية وسلطة زمنية منفصلتين ، يتولى كلا منهما فريق غير الفريق الآخر ، ولا يتدخل أيهما في شئون الآخر.

العلمانية قائمة – من وجهة نظرنا الإسلامية – منذ لم تطبق الشريعة الربانية ، أي منذ أول لحظة اعتنقت فيها أوربا النصرانية ، على الرغم من وجود " الحكومة الثيوقراطية " ، فقد كانت تلك الحكومة هي حكومة " رجال الدين " ولم تكن حكومة دينية ، ما دامت لا تطبق شريعة الدين . وبيان هذه الحقيقة مهم لتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة التي تطلق اسم الحكومة الثيوقراطية على الحكومة الإسلامية التي تطبق الشريعة الربانية لتنفر الناس من تطبيق الشريعة حين يتذكرون انحرافات " الحكومة الثيوقراطية " الأوربية ومظالمها ، وحجرها على العقول ، وجمودها ، وجهالتها ، وإفسادها لكل مجالات الحياة !

* * *

والآن فلنلخص قضية الدين والحياة في أوربا تلخيصا يلقي الضوء على موقف أوربا الحاضر من الدين .

إن هذا الدين في صورته الربانية التي أنزل بها كانت له مهمة معينة يؤديها في فترة معينة.

أما المهمة فكانت إصلاح أحوال بني إسرائيل المتدنية إلى أقصى درجات الانحطاط . وأما الفترة الزمنية فكانت ممتدة إلى وقت بعثة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم بالدين الكامل الموجّه للبشرية كافة .

يقول تعالى في محكم آياته :

(إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا

يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ، وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ، وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ ، إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) [14] .

كان بنو إسرائيل قد فسدت حياتهم بعبادة الذهب وأخذ الربا وقسوة القلب وتحريف الشريعة وارتكاب الآثام :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) ؟ [15] .

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) [16] .

لهؤلاء أرسل المسيح عليه السلام بجرعة روحية هائلة ، لتعالج المادية المفرطة وقسوة القلب والتكالب على الحياة الدنيا ، وارتكاب الآثام والإفساد في الأرض .. فاتبعه من اتبعه من بني إسرائيل وكفر به منهم من كفر ، وهم الأكثرية كما توحي هذه الآيات الكريمة من كتاب الله:

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ، وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ، بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ، وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ، فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا ، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [17] .

---

(14) سورة آل عمران [45 – 51] .

(15) سورة الأعراف [169] .

(16) سورة المائدة [13] .

(17) سورة النساء [155 – 161] .

ولكن الجرعة الروحية الضخمة التي تنزلت بها رسالة المسيح عليه السلام لمعالجة المادية الطاغية وقسوة القلب في بني إسرائيل ، حين حولت إلى " منهج حياة " للأمم تحولت إلى رهبانية هائلة ، زاهدة في الحياة الدنيا ، معرضة عن كل متاعها ، محقّرة لها ، منكرة لكل نشاط يبذل فيها !

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..) [18] .

والله العليم الحكيم ، لم يكتب الرهبانية عليهم ولا على غيرهم ، لأنه يعلم سبحانه أنها لا تصلح منهجا للحياة ، ولا تحقق الغاية من خلق الإنسان ، الذي خلقه الله ليكون " خليفة " في الأرض ، ساعيا فيها ، معمرا لها ، مهيمنا على مجالاتها بما سخر الله للإنسان من طاقات السموات والأرض :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [19] .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [20] .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ..) [21] .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) [22] .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [23] .

ومن أجل القيام بمهمة الخلافة ، وعمارة الأرض ، والسعي في مناكبها ، أودع الله الفطرة دوافع موّارة ، تدفع الإنسان دفعا إلى النشاط والحركة ، وجعلها عميقة في الفطرة :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [24] .

---

[18] سورة الحديد [27] .

[19] سورة البقرة [30] .

[20] سورة هود [61] .

[21] سورة الملك [15] .

[22] سورة الجاثية [13] .

[23] سورة الأعراف [32] .

[24] سورة آل عمران [14] .

وقال علماء التفسير إن هذه الدوافع إذا استخدمت فيما أحل الله فالتزيين من عند الله . إما إذا استخدمت في معصية الله فالتزيين من الشيطان . فهي ليست فاسدة في ذاتها ، بل هي مغروسة في الفطرة لحكمة يريدها الله ، لتكون عونا للإنسان للقيام بدوره في الحياة الدنيا ، ما دامت ملتزمة بحدود الله . والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد ذلك حين يقول للذين تركوا متاع الأرض إعراضا عنه ، فقال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثاني وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام ، وقال الثالث : وأما أنا فلا أتزوج النساء . فقال عليه الصلاة : " ألا إني لأتقاكم لله ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني " [25]
.

ولكن الذين تلقوا الدفعة الروحانية الغالبة – التي أنزلت لعلاج مادية اليهود وقسوة قلوبهم – فجعلوها منهج حياة لهم ، فإنهم من جهة عطلوا دفعة الحياة ، ومن جهة أخرى لم يستطيعوا الاستقامة بها فلم يرعوها حق رعايتها :

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ [26] فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [27] .

والفسق الذي تشير إليه الآية الكريمة يملأ مجلدات ضخمة من تاريخ الكنيسة سجلت وصول الحالة الخلقية في الأديرة إلى درجة من الإسفاف يتعفف عنها الشخص العادي ، سواء بين الرجال بعضهم وبعض ، أو بين النساء بعضهن وبعض ، أو في السراديب الخفية التي حفرت بين أديرة الرجال وأديرة النساء للاتصال المحرم بين الرهبان والراهبات !!

أما تعطيل دفعة الحياة فواضح فيما كان في العصور الوسطى المظلمة في أوربا من جهل وتأخر وانغلاق ..

* * *

ولم يقف السوء الذي أحدثه احتقار الحياة الدنيا وازدراؤها عند هذا الحد – وهو في ذاته مفسد – ولكنه تجاوز ذلك إلى " الإنسان " ذاته ، الراغب بطبعه في متاع الحياة الدنيا !

لقد كانت نظرة مسيحية القرون الوسطى إلى الإنسان أنه خاطئ بطبعه ، هابط بشهواته ، لا أمل في رفعه من هبوطه طالما هذه الشهوات مركبة في طبعه – إلا أن يكبتها ويجتثها من جذورها .

---

(25) أخرجه الشيخان .

(26) أي ما كتبنا عليهم إلا أن يبتغوا رضوان الله أو ما قبلناها منهم إلا لأنهم ابتغوا بها رضوان الله .

(27) سورة الحديد [27] .

وامتزجت هذه النظرة – عقديا – بعدة أمور ، كلها خطير ، وإن كانت خطورتها لم تتبد لأصحابها في حينها !

فمن ناحية امتزج تقديس الرب وتعظيمه في حسهم بتحقير الإنسان في المقابل ! كأنما الألوهية والعبودية طرفان في معادلة ، لا يرتفع أحدهما إلا بإسقاط الآخر . [28]

ومن ناحية ثانية لم يعد الأمل في " الخلاص " ممكنا عن طريق " الأعمال " التي يقوم بها الإنسان ، ما دام خاطئا بطبعه ، ولا سبيل إلى تنقيته وترقيته طالما جرثومة الخطيئة في دمائه . إنما يجيء الخلاص من " الاعتقاد " في الرب المخلص يسوع ، الذي إذا آمن به الإنسان ربا ومخلّصاً تغفر له خطاياه .

ومن ناحية ثالثة انصرف اهتمامهم عن تحقيق " ملكوت الرب " في الحياة الدنيا على اعتبار أن هذا عمل ميئوس منه ، إنما يتحقق ملكوت الرب في الآخرة وحدها ، كما أشار ولفرد كانتول سميث في مقدمة كتابه " الإسلام في التاريخ الحديث Islam in Modern History " وهو يعقد موازنة بين رؤية المسلم ورؤية المسيحي للتاريخ ، إذ يقول : إن المسلم يرى أن تحقيق ملكوت الرب يكون بإطاعة شريعته وتطبيقها في الحياة الدنيا ، ولهذا يسعى أن يجعل سلوك الفرد وسلوك المجتمع مطابقا للشريعة ، ويرى أن النجاح في الحياة الدنيا لا يتأتى إلا بتحقيق " ملكوت الرب " في هذه الحياة . بينما يشعر المسيحي أن مهمة تقويم المجتمع أمر خارج عن اختصاصه ! إنما هو يسعى إلى الخلاص الفردي ، كل فرد بمفرده . كما أن صورة المجتمع ، ونجاحه أو فشله أمر خارج عن نطاق العقيدة ! بل إن كثيرا من المسيحيين الأتقياء ينظرون إلى النجاح في الحياة الدنيا على أنه فتنة تصرف الإنسان عن طريق الخلاص ، وأن الابتهاج بالنجاح الدنيوي خطيئة يجب أن يتخلص منها الإنسان ولا يسمح لها بأن تتملكه !

لذلك انحصرت فكرة الخلاص في التوجه إلى الآخرة عن طريق الإيمان بيسوع المسيح ربا ومخلّصاً – مع إهمال الحياة الدنيا يأسا من إصلاحها إضافة إلى الزهد فيها – فتحول الدين بذلك إلى دين أخروي ، لا يلتفت إلى الحياة الدنيا ولا يسعى لإصلاح أحوالها ، وإقامة العدل فيها ، والجهاد من أجل ترسيخ هذه القيم وتمكينها ، مع الرضى في الوقت ذاته بالألم والشقاء في الحياة الدنيا طمعا في الوصول إلى الملكوت !

ولا ننسى أن الكنيسة قد استخدمت هذه الروح – التي تأصلت عندهم تأصلا عقديا – في مقاومة حركات الإصلاح حين جاء أوانها في أوربا ، وتخذيل الناس عن الثورة على الظلم الواقع عليهم ، بدعوى أن الرضى بالظلم والألم والشقاء هو الذي يؤهل الناس لنيل الملكوت في الآخرة!

---

[28] وسنرى خطورة هذه النظرة حين حدث " الانقلاب " الأوربي ، فمجّد الإنسان وأسقط الإله !!

مما جعل ماركس يقول قولته المشهورة : " الدين أفيون الشعوب " . وهي قولة صادقة على دين الكنيسة الأوربية في العصور الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تخدر الجماهير بالدين لكيلا يثوروا على الإقطاع . وكان هذا منها دفاعا عن وجودها الذاتي في الواقع ، إذ كانت الكنيسة منذ زمن قد أصبحت من ذوات الإقطاع ، فلم يكن يعقل أن تشجع الناس على الثورة على الإقطاع !

* * *

ومن جهة أخرى آمنت الكنيسة بتصور خاطئ للحياة البشرية ، بثته في نفوس أتباعها ، وعمقته في إحساسهم ، مبني على فكرة الثبات المطلق في كل شيء . فقد وضع الإله نظاما ثابتا للكون المادي بشمسه وأرضه ونجومه وسمواته ، ونظاما ثابتا للحياة البشرية كذلك . وكما أن الأفلاك منتظمة في حركتها على نظام ثابت لا يتغير ، فكذلك الحياة البشرية ينبغي أن تجري على نظام ثابت لا يتغير – لأنه من إرادة الله الثابتة – وهو نظام يقسم الناس إلى طبقتين رئيسيتين : رجال الدين ورجال الإقطاع والملوك والأباطرة من جانب ، والشعب من جانب آخر . الطبقة الأولى تستمتع بالغنى والسلطان وملذات الحياة الدنيا ، والطبقة الثانية تقوم بالخدمات المطلوبة لهؤلاء ، وتعيش عيشة الكفاف ، وتكدح ليلها ونهارها ، وليس لها من متاع الحياة الدنيا شيء يذكر ، ولكن ينتظرها نعيم الآخرة ، ما دامت تؤمن بالمخلّص ، وتصبر على الابتلاء .

وكان لذلك التصور أثره – ولا شك – في الجمود الذي اتسمت به الحياة الأوربية في عصورها الوسطى المظلمة !

* * *

ولكن الطامة الكبرى كانت مصادمة العلم بالدين ، وتحريق العلماء أحياء لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وبأن الأرض ليست مركز الكون ! لقد كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير !

فإذا كان من حق الكنيسة – من حيث المبدأ – أن توجه سلوكيات الناس وأخلاقياتهم وعقائدهم ، وأن تحدد للناس حلالهم وحرامهم [29] ، فلم يكن من المستساغ – لا من حيث المبدأ ولا من حيث الواقع – أن تتدخل في النظريات العلمية فتخطّئها أو تصوّبها باسم الدين .

أما من حيث المبدأ فإن التوراة والأناجيل التي اعتمدت عليها الكنيسة – حتى على فرض صحتها وعدم تحريفها – هي كتب للهداية وليست كتبا للنظريات العلمية . فقد ترك الله مجال

---

[29] استخدمت الكنيسة هذا الحق استخداما خاطئا فأباحت الخمر والخنزير وهما مما حرم الله ، وحرمت الختان وهو مما أوجبه الله !

العلم للعقل البشري بعد أن أمده بالحواس المعينة له ، وبالقدرة على الملاحظة والتجريب والقياس والاستنباط . وإنما اختص الوحي بما لا يستطيع الإنسان من ذات نفسه أن يصل فيه إلى اليقين، بينما هو في حاجة إلى المعرفة اليقينية بشأنه لتستقيم حياته في الدنيا والآخرة ، كتوحيد الله سبحانه وتعالى ، وخبر البعث والمعاد والحساب والجزاء ، ومعرفة الحلال والحرام ، والمعايير التي ينبغي أن تحكم الحياة ..

وأما من حيث الواقع فإن رجال الدين ما كانوا رجال علم ، ولا زعموا لأنفسهم أنهم تمرسوا بالعلوم ، بل كان كثير منهم – باعتراف كتابهم ومؤرخيهم – يعتبرون في عداد الجهلاء !

لذلك كان تعرض الكنيسة للنظريات العلمية باسم الدين أمرا في غاية الغرابة ، كما كان تعقبها للعلماء بالحرق والتهديد به أمرا في غاية الفظاظة والوحشية ، ومنذرا بعواقب وخيمة لا يقف شرها عند حد !

يقولون في كتاباتهم إن الكنيسة وقفت هذا الموقف من العلم والعلماء لأن نفوذها كان قائما على الخرافة ، وأنها خشيت لو انتشر العلم وقوّض الخرافة أن يتقوض سلطانها على قلوب الناس.

وهذا حق .. ولكنه يخفون – عن عمد – حقيقة أخرى ذات أهمية خاصة ، هي أن العلوم التي اعتنقها العلماء ونادوا بها كانت في أصولها **علوما إسلامية** ، تعلمها علماؤهم حين تتلمذوا على كتب العلوم الإسلامية . وقد كانت تعني في نظر الكنيسة غزوا فكريا إسلاميا يهدد كيانها ، وسيطرتها على الناس . لذلك كانت حربها لها حربا صليبية في حقيقتها ، لمقاومة الخطر الإسلامي الزاحف على أوربا من الشرق والغرب والجنوب !

لقد كان التأثير الإسلامي – الثقافي والحضاري – تأثيرا كاسحا في وقت من الأوقات .

يقول المؤرخ البريطاني " ويلز " : " ولو تهيأ لرجل ذي بصيرة نافذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر ، فلعله كان يستنتج أنه لن تمضي إلا بضعة أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا ، وربما أصبح إسلاميا " [30] .

ويقول بريفولت في كتاب " بناء الإنسانية Making of Humanity " : " فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا

---

[30] ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ج 3 ص 966 .

كليا بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني . أما ما ندعوه " العلم " فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والقياس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي " [31]

" ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد أوربا إلى الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية " [32]

ويقول " ليوبولد فايس " (محمد أسد) في كتابه " الإسلام على مفترق الطرق " : " في ذلك الحين (يقصد في العصور الوسطى) أخذ النفوذ الإسلامي في العالم – في بادئ الأمر بمغادرة الصليبيين إلى الشرق ، وبالجامعات الإسلامية الزاهرة في أسبانيا المسلمة في الغرب ، ثم بالصلات التجارية المتزايدة التي أنشأتها جمهوريتا جنوة والبندقية – أخذ هذا النفوذ يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية العربية ... ولكن الذي صنعه العرب كان أكثر من بعث علوم اليونان القديمة .. لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة .. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها . ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يدشن في مدن أوربا النصرانية ، ولكن في المراكز الإسلامية : في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة " [33] .

ويقول " الفارو القرطبي " وهو يتحسر على شباب أهل بلده من النصارى لأنهم أهملوا لغة قومهم وكتب دينهم ، وشغفوا بالكتب العربية : " يطرب إخواني المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم . فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها ، بل للحصول على أسلوب صحيح رشيق .. وأسفاه ! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ليسوا على علم بأي أدب ولا أي لغة غير العربية . فهم يقرءون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف ، ويجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب . وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم .. " [34] .

---

[31] عن كتاب " تجديد الفكر الديني " لمحمد إقبال ، ترجمة عباس محمود ، ص 250 من الترجمة العربية .

[32] المصدر السابق ص 149 .

[33] ص 39 – 40 من الترجمة العربية ، لعمر فروخ .

[34] عن الترجمة العربية لكتاب " حضارة الإسلام " لجرونيباوم نشر مشروع الألف كتاب ص 81 – 82 .

وحين احتك الأوربيون بالمسلمين – احتكاكا حربيا في الحروب الصليبية ، واحتكاكا تجاريا عن طريق جنوة والبندقية ، واحتكاكا ثقافيا وحضاريا في الأندلس والشمال الأفريقي وجنوب إيطاليا وصقلية الإسلامية – حدث تحول هائل في الحياة الأوربية .

لقد وجدت أوربا نمطا من الحياة يختلف تماما عن النمط الذي عاشت به طوال قرونها الوسطى المظلمة .

وجدت دينا بلا كنيسة ولا رجال دين ! دينا يمارسه الناس في علاقة مباشرة بين العبد والرب لا يدخل فيها كاهن ولا قسيس .

ووجدت فكرا واسع الآفاق متعدد الجوانب ، لا حجر فيه على العقل البشري ، ولا رقيب فيه على الناس إلا ضمائرهم ولا محاكم تفتيش تقتحم ضمائر الناس لتفتش عن المخبوء فيها لتقذف به وبحامله إلى النار !

ووجدوا علاقات اجتماعية ليس فيها إقطاع ، وليس فيها عبيد يسامون الخسف والذل والهوان [35] .

ووجدوا شريعة موحدة يتحاكم إليها الناس كلهم سواسية ، لا تخضع لهوى أمير الإقطاعية الذي تتمثل فيه السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها في آن !

ووجدوا علما هائلا في كل أبواب المعرفة المتاحة يومئذ ، وحضارة مشرقة وطيدة الأركان.

وهذا كله على الرغم مما كان قد طرأ على المسلمين من انحرافات خلال قرون من الزمان!

ولم يكن لأوربا بدٌّ من أن تتأثر بهذا كله تأثرا يغير حياتها من الأساس . وكان يمكن – كما قال ويلز – أن تدخل أوربا في الإسلام ..

وكانت الكنيسة أول من استشعر هذا الخطر " الداهم ! " الذي يشكل بالنسبة لها تهديدا مباشرا لكيانها وسلطانها ، ولدينها كذلك ! فوقفت بعنف تذود عن نفسها ، وتصد المد الإسلامي عن أوربا بكل ما تملك من سلطان .

واتخذت الكنيسة وسيلتين أساسيتين لوقف المد الإسلامي : الأولى محاكم التفتيش بكل ما تشتمل عليه من وسائل التعذيب الوحشي ، والثانية أنها كلفت كتابها وشعراءها أن يشنوا حملة

---

[35] كان في العالم الإسلامي رق . ولكن الإسلام كان قد جفف كل منابع الرق التي كانت قائمة قبله ، فيما عدا بابا واحدا هو رق الحرب التي تقع بين المسلمين والكفار . ولكن ذلك الرقيق كان يعامل معاملة إنسانية وتفتح أمامه كل السبل لتحريره .

شعواء على الإسلام يشوهون فيها صورته في نفوس الأوربيين ، ويلصقون به وبأهله أبشع التهم التي تدعو إلى النفور منه والشعور بالبغضاء نحوه .. [36] .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كان الإسلام هو الذي أخرج أوربا من ظلمات القرون الوسطى لتبدأ " نهضتها " ، وإن كانت بسبب التشويه الذي تبنته الكنيسة لم تدخل في الإسلام .

استفادت أوربا كثيرا من الحركة العلمية الإسلامية ، ومن الحضارة الإسلامية المتعددة الجوانب . ولكنها وجدت جدارا ضخما يحول بينها وبين الإسلام . وعندئذ وقعت في المأزق الذي لم تنج من آثاره حتى اليوم . فلا هي كانت مقتنعة بدينها الذي شوهته الكنيسة وأفسدت مسيرته ، ولا هي دخلت في الدين الصحيح الذي كان قميناً أن يهديها إلى النور الحقيقي الذي أنزله الله لها، وللبشرية جمعاء :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [37] .

وقد كان مخرجها من مأزقها ذلك أنها رجعت إلى تراثها الوثني الذي عاشته قبل دخولها في دين الكنيسة ، أعني التراث الروماني الإغريقي ، لتستمد منه مقومات نهضتها ، وتبتعد في الوقت ذاته عن " الدين " .. وكان هذا هو البلاء الذي لم يصبها وحدها ، ولكنه أصاب العالم كله معها ، حين ملكت من وسائل القوة والتمكين ما مكنها من السيطرة على عالم اليوم .

إن هذا التراث يحمل في طياته فكرة خبيثة عن العلاقة بين البشر و " الآلهة " .. علاقة صراع دائم لا مودة فيه ولا هوادة ولا تعاطف .. الإنسان من جانبه في محاولة دائبة لإثبات ذاته يتحدى " الآلهة " وعصيانها والتمرد عليها ، و " الآلهة " من جانبها في محاولة دائبة لتحطيم الإنسان وإذلاله كلما أراد أن يثبت ذاته .. وتلك هي مأساة الحياة !

ولعل أوضح مثال على هذه العلاقة هو أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة . وهي أسطورة تأخذ شيئا من الواقع ، وتلونه بلونها الخاص .

تقول الأسطورة إن زيوس – إله الآلهة – خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ، ثم سواه على النار المقدسة (التي ترمز في الأسطورة إلى المعرفة) ثم أهبطه إلى الأرض وحيدا في الظلام ! (يرمز الظلام إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطوري يسمى بروميثيوس (لعله

---

[36] تجدر الإشارة إلى أن حصيلة هذه الحملة هي ذاتها التي استخدمها المنصرون والمستشرقون فيما بعد لمحاولة إبعاد المسلمين عن الإسلام وتنفيرهم منه !

[37] سورة المائدة [15 – 16] .

يرمز إلى الشيطان) فسرق له النار المقدسة من الإله (والرمز هنا أن الإنسان قد أخذ يتعلم) فغضب الإله على الإنسان والشيطان كليهما ! فأما الشيطان (بروميثيوس) فقد وكل به نسرا يأكل كبده طوال النهار ، وفي الليل تنبت له كبد جديدة فيجيء النسر في الصباح فيرعى كبده إلى الليل ، هكذا في عذاب دائم . وأما الإنسان فقد خلق له كائنا أنثى (ترمز إلى حواء) وأرسلها إليه في ظاهر الأمر لتؤنسه ، ولكنه أرسل معها صندوقا هدية ، فلما فتحه إذا هو مملوء بالشرور ! فتناثرت الشرور من الصندوق وملأت أرجاء الأرض ! وكان هذا هو الانتقام الإلهي من الإنسان الذي أخذ يتعلم !

ودعك الآن من الجانب " الفني " في الأسطورة ، وانظر إلى المضمون . إن تلك الأسطورة تعني – من بين ما تعنيه – أن العلم لا يأتي هبة من عند الله المنعم الوهاب ، وإنما اغتصابا يغتصبه الإنسان من الإله كرها عنه ! ثم إن الإله يغار من كون الإنسان قد تعلم ! وفي الوقت ذاته هو عاجز عن سلب العلم منه ! فينتقم منه بالتنكيد الدائم عليه ، لكي لا ينعم بثمار المعرفة التي اغتصبها اغتصابا من الإله !

وفي هذا الجو الملبد بمشاعر الحقد والصراع ولدت " النهضة " الأوربية .. ولدت نافرة من الدين ، متملصة منه ، نابذة إياه .. واجتمع لها رافدان من الحقد في آن واحد : الحقد على الكنيسة بسبب ما ارتكبت من آثام ، والحقد الذي يحمله التراث الوثني الذي اعتمدته أوربا زاداً تستمد منه مقومات نهضتها .

وفي ذلك الجو كذلك ولدت العلوم الاجتماعية في أوربا ، ثم نمت وترعرعت حتى آتت ثمارها الحاضرة !

* * *

لقد انقلبت أوربا في " نهضتها " مائة وثمانين درجة كاملة ، لتنتقم من الكنيسة ، ومن الدين الذي أذلت به الكنيسة رقاب العباد ..

انقلبت من دين يؤمن بالغيب [38] ويكاد يهمل عالم الشهادة ، إلى " دين " يصب اهتمامه في عالم الشهادة ويهمل عالم الغيب !

من دين أخروي يهمل الحياة الدنيا إلى " دين " دنيوي يهمل الآخرة !

من دين يمجّد الله ويسقط الإنسان من الحساب إلى " دين " يمجّد الإنسان ويسقط الإله من الحساب !

---

[38] الذي يسمونه في لغتهم الميتافيزيقا (أي ما وراء الطبيعة ، أو ما وراء العالم المحسوس) .

من دين رهباني يزدري الجسد ولذائذه الحسية إلى " دين " غارق في لذائذ الحس إلى درجة الحيوانية !

من دين يحارب العلم إلى علم يحارب الدين ، ومن دين يحارب الحضارة إلى حضارة تحارب الدين !

من دين يتصور " الثبات " في كل شيء ويرفض التطور ، إلى " دين " يتصور التطور في كل شيء ويرفض الثبات في أي شيء !

من دين يحجر على العقل أن يفكر إلى " دين " يؤله العقل ، ويجعله هو المحكم في الأمور كلها ، وأولها الدين ! .

من دين يحتقر المرأة ولا يعترف بكيانها الإنساني إلى " دين " ترفض به المرأة أن يتدخل الدين في شيء من أمورها على الإطلاق !

انقلاب كامل من أقصى الطرف إلى أقصى الطرف المقابل ، لا يتوقف عند نقطة الوسط المتوازن ، ولا يعرف الاتزان !

* * *

ثم زاد الطينُ بلةً بالداروينية !

لقد ركزت الداروينية على أمور بعينها هي التي زادت الطين بلة !

فقد نفت بادئ بدء صفة الخلق عن الخالق سبحانه وتعالى ، ونسبتها إلى الطبيعة . فقال دارون : " الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق :

Nature creates everything and there is no limit to its creativity.

ونفت الغاية من الخلق . فالإله الجديد – الطبيعة – يخبط خبط عشواء .

Nature works haphazardly.

وأخيرا ركزت على حيوانية الإنسان وماديته . فهو لم يخلق إنسانا من أول لحظة ، إنما هو نهاية تطور السلسلة الحيوانية ، تسبقه حلقة مفقودة ، ويسبق الحلقة المفقودة واحد من القردة العليا الأربعة : الشمبانزي والغوريلا والجيبون والأورانج أوتانج (الذي يسمى إنسان الغاب ولكنه ليس هو الجد الأعلى للإنسان !) والبيئة المادية هي التي تدفع الكائنات إلى التطور الدائم ، الذي انتهى بالإنسان ..

وبذلك أضيف رافد ثالث للبعد عن الدين ، ونبذه ، والتفلت منه في الحياة الأوربية المعاصرة ، لا يقل أثرا – إن لم يزد – عن موقف العداء مع الكنيسة ، وتأثير التراث الوثني الإغريقي !

وبالنسبة للعلوم الاجتماعية بالذات كان هذا الرافد الأخير أخطر الروافد جميعا ، وأشدها في التأثير !

إن الموضوع الأساسي للعلوم الاجتماعية كلها هو " الإنسان " . وبحسب تصورنا للإنسان يكون مسيرنا في هذه العلوم . فإذا كان تصورنا للإنسان أنه حيوان متطور ، وأن خالقه لا غاية له من خلقه ، فأين مكان " القيم " يا ترى في هذا الكيان الحيواني الذي برز إلى الوجود بغير هدف معين لدى الخالق الذي أوجده ؟ وما " المعايير " التي تحكم حياته ؟ وما المقاييس التي نرجع إليها لنحكم على أي إنجاز من إنجازاته ؟ وما الذي يوصف من أعماله بأنه خير ، وما الذي يوصف بأنه شر ؟ أم إنه لا خير ولا شر ، والكل في الميزان سواء ؟!

قضايا خطيرة في الحقيقة .. لا نلتفت إليها حين نتلقى علمنا في العلوم الاجتماعية من الغرب ، بينما هي مفرق طريق بيننا وبينهم : في التصور ، وفي طريقة التناول ، وفي النتائج المستخلصة ، حتى لو التقى فكرنا وفكرهم في بعض الجزئيات أو في كثير من الجزئيات ! فالجزئية وحدها لا تعطي التصور . إنما التصور المبدئي هو الذي يفسر الجزئية ويضعها في مكانها من الصورة الكلية المتكاملة .

ولقد تأثرنا – دون أن ننتبه لتأثرنا – بقولهم : إن هذه العلوم قد تخلصت من النظرة الذاتية أو المواقف الذاتية ، وأصبحت علوما موضوعية تجريبية قياسية ، يجب التسليم بنتائجها دون تردد ، كما نسلم بالنتائج التي نحصل عليها في الفيزياء أو الكيمياء أو علم وظائف الأعضاء !

ولا نريد أن نقول إن علم الفيزياء – منذ انساح الحاجز بين المادة والطاقة – قد دخل في متاهة عظيمة لم يخرج منها بعد .. ولا أن أسرار الذرة وأسرار النواة التي تتحكم في العمليات الكيميائية ليست كلها في حيز معلوماتنا ، وقد يكون المجهول منها أكثر من المعلوم .. ولا أن في الجسم البشري وفي وظائف أعضائه من الأسرار العجيبة ما يثير ذهول العلماء وهم يكشفون منه مجهولا بعد مجهول ..

إنما نقول إن النفس البشرية ليست كالمادة الجامدة ، وليست كالنبات أو الحيوان .. وإن معايير المادة ومعايير النبات ومعايير الحيوان لا تصلح ابتداء للحكم على تصرفات الإنسان ، ولا تستطيع تفسير حياته .

ثم نقول بعد ذلك إن دعوى الموضوعية في العلوم الاجتماعية التي يقدمها لنا الغرب دعوى داحضة ، ما دامت تستمد أساسا من التفسير الدارويني للإنسان ، وتلوّن بهذا التفسير كل التجارب وكل الأبحاث ، وتؤثر لا محالة في النتائج الأخيرة المستخلصة من الأبحاث !

ويكفي هذا لاستشعار الحاجة الملحة إلى التأصيل الإسلامي لتلك العلوم .

أحوال الأمة الإسلامية

إذا أمعنا النظر في أحوال أوربا فسنجد أن الفساد الأول في حياتها قد نجم ابتداء من المفاهيم الدينية الخاطئة التي اعتنقتها بدلا من الدين الصحيح . فهي مفاهيم محرفة ترتب عليها كما بينا في الفصل السابق ألوان كثيرة من الشر ، أدت بأوربا في النهاية إلى النفور من ذلك الدين ونبذه والتمرد عليه . ولقد كان التمسك بتلك المفاهيم الخاطئة في عصر أوربا الوسطى هو السبب الرئيسي فيما اتسمت به تلك العصور من الظلام ، لأنها – كما ألمحنا – حولت الدين إلى دين أخروي يهمل الحياة الدنيا ، يمجد الله ولكنه يحقّر الإنسان ، ويكبت دوافعه الفطرية ، ويزين له الرضى بالفقر والظلم والشقاء في الحياة الدنيا طمعا في نعيم الآخرة ، ويرفض الحركة التي تؤدي إلى عمارة الأرض وتنمية الحياة وترقيتها ويحارب العلم وينشر الخرافة والتصورات الخاطئة عن الكون والحياة والإنسان .

وليس العجب أن أوربا ثارت على الدين وكنيسته آخر الأمر ، إنما العجب أنها عاشت في ظله كل تلك القرون التي عاشتها ، غير شاعرة بما يحيطها من الظلام والظلم ، والجهالة والانغلاق ..

والحقيقة إن إحساس أوربا بما هي فيه ، ورغبتها في التخلص منه وتغييره ما بدأ إلا بعد احتكاكها بالإسلام والمسلمين ، من خلال القنوات المتعددة التي أَطْلَعَتْ أوربا على الإسلام : الحروب الصليبية ، والصلات التجارية ، والابتعاث إلى الجامعات الإسلامية ، وترجمة العلوم الإسلامية إلى اللغات الأوربية ..

ولكن موقف الكنيسة من المد الإسلامي الزاحف إلى أوربا من الشرق والغرب والجنوب ، كان هو السبب الرئيسي في الفساد الثاني الذي عاشته أوربا منذ " النهضة " إلى اللحظة الحاضرة ، على الرغم من كل التقدم العلمي والتكنولوجي والقوة المادية والحربية والسياسية والاقتصادية التي يملكها الغرب في وقته الحاضر . فقد أدى موقف الكنيسة بأوربا إلى الخروج من دينها ، وعدم الدخول في الوقت ذاته في الإسلام ، وانتشار المذاهب الفكرية والاجتماعية الكارهة للدين ، الراغبة في حصره في أضيق نطاق ممكن – إذا سمحت له بالوجود أصلا – وإبعاده عن مجالات البحث العلمي ، وعن السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والفن .. والأخلاق !

* * *

إذا اتضح لنا ذلك من ظروف أوربا فقد اتضح لنا – أو يجب أن يتضح لنا – أن طريقنا غير طريقهم ، لأن ظروفنا كلها غير ظروفهم ..

أول فارق بين ظروفنا وظروفهم هو اختلاف الدين .. فبينما اعتنقت أوربا دين بولس بدلا من الدين السماوي ، فإن الأمة الإسلامية قد اعتنقت الدين السماوي الحقيقي المنزل من عند الله ، الذي هو دين الحق من ناحية ، والدين المنزل للبشرية كافة من ناحية أخرى . والمنزل للزمن كله من مبعثه صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمان من ناحية ثالثة :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً) [39] .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ [40] **)** [41] .

ولننظر نظرة سريعة في خصائص الدين الإسلامي من جهة ، ومسيرة الأمة الإسلامية به من جهة أخرى ، لنرى الفارق بين المسيرتين .

ولنركز في نظرتنا السريعة على الجوانب التي يتقابل فيها موقف الدينين من قضايا الحياة الكبرى ، لنتبين فيما بعد أثر ذلك التقابل في المسيرة التاريخية لكل من الأمتين .

كان الدين الذي اعتنقته أوربا دينا أخرويا يهمل الحياة الدنيا ، وكان رد الفعل " النهوضي " عندهم هو الاهتمام الزائد بالحياة الدنيا وإهمال الآخرة ، فما موقف الإسلام في هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) [42] .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [43].

ليست الدنيا نقيضا مقابلا للآخرة ، ولا الآخرة نقيضا مقابلا للدنيا ، وليس العمل لإحداهما صارفا عن العمل للأخرى . إنما يعمل الإنسان بجهد كله ، ونشاطه كله ، ودوافعه كلها لعمارة الأرض ، وحين يعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني يكون قد عمل للآخرة في ذات الوقت دون

---

[39] سورة المائدة [3] .

[40] أي القرآن .

[41] سورة المائدة [68] .

[42] سورة القصص [77] .

[43] سورة الملك [15] .

أن يحتاج لأن يحيد عن طريقه أو يعطل طاقة من طاقاته ، أو يهمل واجبا من واجباته . ومن ثم لا تتنازع الدنيا والآخرة في حسه ، ولا تتمزق بينهما نفسه ، ولا تتشتت اتجاهاته .

* * *

وكان الدين الذي اعتنقته أوربا غارقا في " الميتافيزيقا " ، أي الاهتمام بعالم الغيب ، مهملا لعالم الشهادة ، ثم كان رد الفعل " النهضوي " عندهم هو إهمال " الميتافيزيقا " ووصمها بأنها خرافة ، والاهتمام الزائد بعالم الشهادة . فما موقف الإسلام في هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [44] .

إن الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ليس نقيضا مقابلا للإيمان بالمحسوس ، والتعامل معه تعاملا حسيا ماديا عقلانيا ، واستخلاص طاقات السموات والأرض ، واستخدامها في عمارة الأرض . ففي تركيب النفس الإنسانية كما فطرها الله تتجاور النزعتان معاً وتتآلفان وتتناسقان ، نزعة الإيمان بما تدركه الحواس ، والإيمان بما لا تدركه الحواس .. وتلك مزية ميز الخالق بها الإنسان عن الكائنات الأخرى ، وجعلها في مقدمة خصائصه :

(الم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ..) [45] .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [46] .

الحواس تتعامل مع الكون المادي – مع عالم الشهادة – تعاملا كاملا يشمل السمع والبصر (وما يؤديان إليه من ملاحظة وقياس واستنباط وتجربة وتعلم واختراع واستغلال) والأفئدة تتعامل مع عالم الغيب ، فتؤمن بالله ، وتتلقى عنه ، وتعمل بمقتضى وحيه ، وتؤمن بأنبيائه ، وتؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحساب وجزاء ، بلا تعارض ، ولا تنازع ولا شتات ..

---

[44] سورة البقرة [177] .

[45] سورة البقرة [1 – 3] .

[46] سورة النحل [78] .

* * *

وكـان الـدين الـذي اعتنقتـه أوربـا دينـا يمجـد الله ويحقّـر الإنســان ، ثـم كـان رد الفعـل " النهوضي " عندهم هو تمجيد الإنسان بدلا من الله . فما موقف الإسلام في هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

فالله تقدست أسماؤه هو الممجّد في السموات وفي الأرض ، وهو الفعال لما يريد :

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) (47) .

والإنسان في الوقت ذاته مكرم بتكريم الله :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (48) .

إن تمجيد الله سبحانه وتعالى ليس نقيضا مقابلا لتكريم الإنسان . وتكريم الإنسان كذلك لـيس نقيضـا مقـابلا لتمجيد الله . إنهمـا ليسـا نـدين متصـارعين كمـا تصـور الأسـطورة الوثنيـة الإغريقية ، بحيث يكون ارتفاع أحدهما هبوطا للآخر ! الله في علاه ، هو الحميد المجيد ، هو القوي القاهر ، هو العزيـز الحكيم ، هـو الخـلاق الـرزاق ذو القوة المتين ، والإنسـان هـو العبد الخاضـع لجبروتـه المتطلـع لرحمتـه ، ولكنـه فـي عبوديتـه مكرم ، لأن الخـالق كرّمـه ، ووهبـه من فضلـه ، وعلّمـه ورشّده ، وهداه النجدين . ومِنْ أكرم مـا كرمـه بـه أنـه لـم يقهره علـى الإيمـان كمـا قهر بقية الكائنات ، إنما وهب له عقلا يميز به ، وإرادة فاعلة يختار بها بين طريقين :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (49) .

الإنسان ليس إلهـا ، ولا ينبغي لـه أن يكون ، ولكنـه ليس همـلا ، وليس كائنـا سلبيا مهينـا محقرا لكونه ليس إلها ! والكون الذي خلقه الله يتسع لألوهيـة الله ولعبوديـة العبـاد كلٌّ فـي مقامـه ، بلا تناقض ولا صدام !

وحقيقة إن الإنسان قاصر . وإنه ضعيف . وإنه خطاء . وإنه لا حول له ولا قوة إلا بالله . ولكن هذا كلـه لا يمنـع عنـه الكرامـة التـي كرمـه بهـا الله ، والرفعـة التـي كتبهـا لـه الله ، إنمـا الـذي يزيـل عنـه الكرامـة ويهبط بـه أسفل سـافلين أن يـدعي الألوهيـة ، ويجعـل نفسـه نـدا لله ، أو يتخـذ

---

(47) سورة البروج [14 – 16] .

(48) سورة الإسراء [70] .

(49) سورة الشمس [7 – 10] .

أندادا من دون الله ، أو يخلد إلى الأرض ويتبع هواه . عندئذ فقط يسقط في الحضيض ، وتحق عليه اللعنة من الله . أما حين يقع منه القصور ، ويقع منه الضعف ، ويقع منه الخطأ ، فكل ذلك لا يزيل عنه الكرامة ، متى فاء إلى الله ، فتاب وأناب :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (50) .

" كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون " (51) .

* * *

وكان الدين الذي اعتنقته أوربا دينا رهبانيا يكبت الدوافع الفطرية ويحتقرها ويستقذرها ، ويردى الرفعة في إغلاق السبل عليها . وكان رد الفعل " النهوضي " عندهم هو الانطلاق مع الدوافع الفطرية إلى أقصى حد .. إلى حد الحيوانية .. والثورة على كل قيد يمنع الانطلاق . فما موقف الإسلام من هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

الإسلام لا يستقذر الدوافع الفطرية ولا يكبتها ، بل يدعو إلى إعطائها مجالها الطبيعي لتعمل ، ولكنه يضبطها ليرفع منطلقها ، ويربطها بالقيم العليا لكي لا تسف وتهبط إلى مستوى الحيوان ، ويظل أداؤها " إنسانيا " في جميع الأحوال :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) (52) .

---

(50) سورة آل عمران [135 – 136] .

(51) أخرجه الشيخان .

(52) سورة آل عمران [14 – 17] .

" وإن في بضع أحدكم لأجرا . قالوا يا رسول الله ، إن أحدنا ليأتي زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر ؟ قال : أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فإذ وضعها في حلال فله عليها أجر " [53] .

" ألا إني أتقاكم لله ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " [54] .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [55] .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [56] .

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) [57] .

* * *

وكان الدين الذي اعتنقته أوربا يقر الثبات في كل شيء ويمنع التطور ويحاربه ، ثم كان رد الفعل " النهوضي " عندهم هو إحداث التطور في كل شيء ، والنظر إلى الثبات – على إطلاقه – على أنه مَعْجَزَة وجمود ورجعية ومخالَفَة لطبيعة الكون وطبيعة الحياة .. فما موقف الإسلام من هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

لا الحياة كلها تتطور .. ولا الحياة كلها ثبات !

هناك ثوابت لا يمكن أن تتغير ، ولا يجوز أن تتغير . وهناك متغيرات لا يمكن أن تثبت على حالها ولا يجوز أن تثبت . وحين توضع الثوابت على الخط المتغير تفسد الحياة . وحين توضع المتغيرات على الخط الثابت تفسد الحياة . والإسلام يعالج الأمرين كلا بما يستحقه ، فيثبّت الثوابت ويسمح بالمتغيرات !

---

[53] أخرجه مسلم .

[54] أخرجه مسلم .

[55] سورة الأعراف [31] .

[56] سورة الأعراف [32] .

[57] سورة المائدة [5] .

الله سبحانه وتعالى موجود . ووجوده ثابت لا يتغير ، لأنه حيّ قيوم أزلي أبدي :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [58] .

وهو الخالق سبحانه ، والإنسان من مخلوقاته .. ومن حق الإله أن يُعْبَد ، ومن واجب المخلوق أن يعبد إلهه .

تلك قضية ثابتة .. حين توضع على الخط المتغير كما صنعت أوربا في جاهليتها المعاصرة يترتب على ذلك أن الإله الحقيقي لا يعبد ، وتعبد بدلا منه آلهة زائفة ، لأن الإنسان عابد بفطرته .. لا بد أن يعبد .. وليس الفرق بين إنسان وإنسان أن هذا يعبد وذاك لا يعبد .. إنما الفارق أن إنسانا يعبد الإله الحق ، وإنسانا يعبد آلهة أخرى مع الله أو من دونه سواء . وحين يخيل للإنسان في لحظة غروره – أو تمرده – أنه لا يعبد شيئا أبدا فهو في تلك اللحظة عابد لهواه :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [59] .

وحين يعبد هواه يفسد ، وتفسد معه الأرض ..

والقضية الكبرى في حياة الإنسان منذ سكن هذه الأرض .. القضية التي يترتب عليها حاله في الدنيا ومآله في الآخرة ، هي هذه القضية : هل يعبد الله الحق ، الجدير بالعبادة ، فتستقيم حياته في الدنيا والآخرة ، أم يعبد آلهة أخرى معه أو من دونه ، فتفسد حياته في الدنيا والآخرة ؟ وهي هي القضية التي أرسل من أجلها الرسل ، وأقيمت من أجلها الجنة والنار .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [60] .

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) [61] .

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) [62] .

ومقتضى عبادة الله اتباع ما أنزل الله :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) [63] .

---

(58) سورة الحديد [3] .

(59) سورة الجاثية [23] .

(60) سورة الأنبياء [25] .

(61) سورة النساء [36] .

(62) سورة هود [50] .

(63) سورة الأعراف [3] .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) [64] .

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [65] .

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [66] .

وحين يتبع الإنسان ما أنزل الله يكون في موضع الرفعة والتكريم :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [67] .

وحين يخلد إلى الأرض ويتبع هواه تزول عنه الرفعة والتكريم :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ، سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ) [68] .

أما المنهج الرباني المنزل من عند الله في الرسالة الأخيرة ، الموجهة إلى البشرية كافة ، والتي اكتمل فيها الدين ، فقد روعي فيه من لدن منزّله سبحانه أن يكون وافيا بحاجات الإنسان كلها ، ثابتها ومتغيرها ، بحيث لا تأسن الحياة في ظله حين يُتَّبع على بصيرة ، ولا تنفلت كذلك بلا ضوابط تضبط انطلاقها .

فهناك في التشريع الرباني ثوابت ومتغيرات :

من الثوابت عبادة الله وحده بلا شريك .

ومن الثوابت حرمة الدم والمال والعرض .

ومن الثوابت تنظيم علاقات الجنسين في قنوات منضبطة بحيث لا تنقلب إلى فوضى .

---

(64) سورة الشورى [21] .

(65) سورة البقرة [28 – 29] .

(66) سورة طه [123 – 124] .

(67) سورة المجادلة [11] .

(68) سورة الأعراف [175 – 177] .

ومن الثوابت تنظيم علاقات الأسرة والمحافظة عليها وعلى ترابطها وتوزيع المغانم والمغارم فيها بالعدل .

ومن الثوابت تحريم الربا والغصب والسرقة والغش والخداع في المعاملات الاقتصادية .

وكل هذه وضعتها الجاهلية المعاصرة على الخط المتغير فحدث ما حدث من الفساد في الأرض .

وهناك متغيرات تنشأ من الاحتكاك الدائم بين العقل البشري وطاقات الكون المادي ، فتتغير معها صورة الحياة ، كلما عرف الإنسان جديدا من خواص المادة ، فاستغل المعرفة في التحسين والتجميل والتكميل ، الذي هو ديدن الفطرة ، والذي أودعه الله في الفطرة ليكون دافعا لعمارة الأرض وتنمية الحياة وترقيتها . وموقف الشريعة تجاه هذه المتغيرات على نوعين ، بحسب نوع التغير الذي يحدث . فبعضها وضعت له الشريعة قواعد ثابتة تحكم المتغيرات دون أن تحبسها في إطار معين . كالثوابت التي تحكم المعاملات الاقتصادية وتتغير الصورة تحتها من اقتصاد رعوي إلى اقتصاد زراعي إلى اقتصاد صناعي ، دون أن تتغير الثوابت التي تحكمه، فيجتهد فيه العلماء الفقهاء في حدود الثوابت المقررة . وبعضها – كالتنظيمات الإدارية ، وكنظام المرور مثلا – لم تتعرض له الشريعة لأنه من المصالح المرسلة المتروكة للعقل البشري ، يجتهد فيها بما يحقق المصلحة للمسلمين . وفي جميع الأحوال يكون شرط الاجتهاد ألا يحل حراما أو يحرّم حلالا أو يصادم مقاصد الشريعة ، ولا مجال هنا للتفصيل ، إنما مكانه كتب الفقه والأصول . ولكن الذي نريد الإشارة إليه هنا هو تلك المرونة التي جعلها الله في شريعته الخاتمة، التي أنزلها لتحكم الحياة البشرية مدى الزمن كله من مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فتتسع لكل جديد صالح ، وتبقى ثوابتها ثابتة حيث يلزم الثبات.

* * *

إذا تأملنا هذه الخصائص التي جعلها الله في هذا الدين ، نجد أن المسلم السوي لم يكن قط – ولا يكون قط – في موقف الصراع مع دينه ، ولا هو في حاجة أن ينبذه ويتمرد عليه ، كما كان الحال مع الدين الذي اعتنقته أوربا ، والذي لم يكن لها بد من الصراع معه ، ونبذه والتمرد عليه ، إن أرادت أن تنهض وتتحرك وتتجدد وتنمو .. فحيثما توجه المسلم السوي ، في أي نشاط من نشاطاته ، وفي أي مجال من مجالات حياته ، فلن يجد الدين حاجزا يحجزه ، بل يجد على العكس من ذلك أن الدين هو الذي يحثه ويستنهض همته ، ويدفعه إلى العمل والنشاط .

والشاهد هو التاريخ ..

فالأمة التي حملت الإسلام إلى البشرية لم تكن قبل اعتناقها الإسلام أمة علم ، ولم تكن لها عناية كبيرة بعمارة الأرض . والإسلام هو الذي دفعها للبحث العلمي حتى صارت في يوم من الأيام هي الأمة العالمة في الأرض ، التي تتتلمذ عليها البشرية في العلوم . والإسلام هو الذي دفعها لاستنباط المنهج التجريبي في البحث العلمي الذي هو عماد التقدم الذي حدث في كل ميادين العلم الحديث . والإسلام كذلك هو الذي دفع المسلمين إلى المشي في مناكب الأرض وكشف مجاهلها ، وعمارتها بشتى أنواع العمارة من زراعة وصناعة وتجارة ، وبناء مدن وإنشاء طرق وتنظيم وسائل اتصال ، فضلا عن الخدمات الإنسانية الرفيعة ، من تعليم مجاني ، وتطبيب مجاني ، وأوقاف للخير ، ونشر للبر . وهذه الحضارة التاريخية الفذة ، المتعددة الجوانب ، الشاملة لكيان الإنسان كله : جسده وعقله وروحه . دنياه وآخرته . نشاطه العلمي ونشاطه العملي ونشاطه الفكري ، إنتاجه المادي وإنتاجه الروحي ، لا نقول فقط إنها تمت في ظل الإسلام بلا تعارض معه ولا صراع ، ولكن نقول إنها كانت نتاج الإسلام ، وترجمة واقعية للروح الدافعة في هذا الدين .

أما المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية فهي لا تخرج عن إحدى حالتين : إما التزام بهذا الدين ، وتمسك به على وعي وبصيرة ، وإما تفلت منه ، وانحراف عن مفاهيمه .

وشهادة التاريخ تقول : إن فترات الالتزام والتمسك هي فترات القوة والتمكين والرفعة والازدهار في جميع الجوانب ، وفترات التفلت والانحراف ، هي فترات الضعف والهبوط وزوال التمكين . وإن القرون الأولى كانت خير القرون في جميع المجالات ، وإن القرن الأخير هو أسوأ القرون جميعا في تاريخ الأمة الإسلامية ، ولذلك دلالة واضحة ؛ فالقرون الأولى كانت هي قرون التمسك الواعي بهذا الدين ، والعمل بمقتضياته في عالم الواقع . والقرن الأخير هو فترة التيه في حياة الأمة ، التي نسيت فيها دينها ، واتخذت لها مراجع من غير هذا الدين ، وانسلخ فيها من انسلخ من الإسلام .

والدلالة الواضحة لذلك أن منبع القوة لهذه الأمة هو هذا الدين ، ومصدر الضعف الذي يلم بها هو البعد عنه . بل هناك ما هو أوضح دلالةً على هذه الحقيقة .. فتاريخ هذه الأمة ليس كله صعودا وليس كله هبوطا على خط منحدر . إنما هو تاريخ يشتمل على ذبذبات صاعدة وهابطة . وفي فترة من تاريخ الأمة كانت البدع والانحرافات والترف والتفلت من التكاليف قد وصلت حد لم تكن قد بلغته من قبل ، فتكالب الأعداء عليها من كل جانب : الصليبيون والتتار والرافضة والفرق الباطنية ، وكادت الأمة تهلك وتزول من التاريخ ، وذلك في نهاية العصر العباسي الثاني ، فكان العلاج الذي تعاطته – بفضل من الله – هو العودة لهذا الدين .. وعندئذ

نفضت عنها ضعفها وتخاذلها وتقاعسها ، وعادت لها حيويتها ، فطردت التتار والصليبيين ، وعادت ممكنة في الأرض فخمدت شوكة الأعداء .

وهنا نقطة تقابل أخرى بين الأمة التي اعتنقت دين بولس ، والأمة التي اعتنقت دين الله الحق . فالأمة التي اعتنقت دين بولس كان دينها هو الداء ، كلما زادت جرعته في حياتها زاد ضعفها وفسادها والظلمات التي تحيط بها ، وكان جزءا من علاجها أن تخرج من ذلك الدين . بينما الأمة التي اعتنقت الدين الحق كانت عافيتها وحيويتها ورفعتها وقوتها في دينها ، كلما زادت جرعته في حياتها زادت تمكينا في الأرض ، ونجاحا في المسيرة في الحياة الدنيا ، فضلا عن رضوان الله في الآخرة .

وتلك حقيقة تاريخية مهمة يجب أن يفيء إليها الذين يدعون إلى تقليد أوربا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، والذين يظنون – بفعل تبعيتهم الفكرية للغرب – أن " الدين " كله دين ! لا فرق فيه بين زائف وأصيل ، وأنه – كله – مادة ضارة يجب أن تنبذ ، أو في القليل يحجم استخدامها فينحصر في أضيق الحدود ! بينما الغرب ذاته – الذي يتبعونه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير – يعرف جيدا حقيقة الإسلام ويعرف إلى أي مدى هو مصدر قوة لهذه الأمة ، ولذلك يحارب الصحوة الإسلامية الحاضرة بضراوةٍ وحشية ، خشية أن تزحزحه عن مكانه الذي ما احتله إلا في غيبة هذه الأمة ، وبسببٍ من غيبتها في التيه [69] .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [70] .

* * *

ولكن هناك وَهْماً ضخما يسيطر على الناس في الجاهلية المعاصرة ، منشؤه التمكين المادي الذي أحرزه الغرب في تاريخه الحديث . ذلك الوهم هو الظن بأن هذا التمكين لا يمكن أن ينشأ إلا عن منهج سليم للحياة ! ومن ثم فكل ما يفعله الغرب صحيح وسليم ومستقيم !

والذين يقولون ذلك أو يعتقدونه هم في جهل كبير بالسنن الربانية التي يُجْرِي الله بها حياة البشر على الأرض . فلو أن الله قد قدر ألا يحصل على التمكين إلا الطيبون الصالحون المستقيمون لكان ظنهم في مكانه ، ولكان هناك ارتباط بين التمكين في الأرض وسلامة المنهج من ورائه . ولكن انظر إلى سنة الله في هذا الأمر :

---

[69] اقرأ إن شئت كتاب " هلم نخرج من ظلمات التيه " .

[70] سورة البقرة [146] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ، كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) (71) .

فهذا تقرير صريح من الله سبحانه وتعالى أنه يعطي التمكين في الدنيا للمؤمن والكافر على السواء . أي لصاحب المنهج الصحيح وصاحب المنهج المعوج على السواء !

إنما يرتبط التمكين – حسب السنن الربانية – بمعايير أخرى وأدوات أخرى غير استقامة المنهج أو فساده تبينها الآية التالية :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ)(72).

والإرادة المذكورة في الآية ليست مجرد الرغبة ! فالرغبة بلا عمل لا تؤدي إلى شيء . إنما هي الرغبة مع استخدام الأدوات المؤدية إلى تحقيق الرغبة ، من جهد عقلي ونفسي وعصبي وجسدي ، يشمل البحث العلمي ، والدأب والمثابرة ، والجد في العمل ، والتنظيم ، وطول النفس ، ووضح الهدف .. فحين تتوافر هذه الأسباب فقد قضى الله أن يُوَفِّي للقائمين بها جزاء جهدهم في الحياة الدنيا ، ولا يبخسهم جهدهم . ويتم هذا بمشيئة من الله وليس تلقائيا كما يظن الجاهليون !

بل يقول الله سبحانه وتعالى ما هو أشد لفتاً للنظر من ذلك :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ..) (73) .

أي لما زاد فسادهم واشتد ، فتحنا عليهم أبواب التمكين من كل جانب !

ولله حكمته في ذلك . فهذا تمكين الاستدراج ، يستدرج به الله الخارجين على عبادته ليزدادوا إثما :

(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) (74) .

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (75) .

---

(71) سورة الإسراء [18 – 20] .

(72) سورة هود [15] .

(73) سورة الأنعام [44] .

(74) سورة آل عمران [178] .

(75) سورة القلم [14 – 15] .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) [76] .

وذلك فضلا عن كون هذا التمكين مهما طال فنهايته الدمار :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [77] .

وفضلا عن " الضنك " الذي يعيشون فيه رغم الوفرة المادية وفتح أبواب التمكين عليهم :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ..) [78] .

وهذا الضنك في حياة الغرب اليوم يتبدى واضحا في الأمراض النفسية والعصبية والقلق والانتحار والجنون والخمر والمخدرات والجريمة ، التي تتزايد على الدوام ولا يجدون إلى وقفها من سبيل .

وذلك كله فضلا عن المصير البئيس في الآخرة :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [79] .

أما الذين آمنوا فيشتركون في جانب من هذه السنن ويفترقون في جانب .

يشتركون في أنه لا تمكين بغير جهد يبذل ، وأدوات تتخذ .. ذات الجهد الذي يبذله الكفار من أجل التمكين ، وذات الأدوات : الجهد العقلي والنفسي والعصبي والجسدي ، الذي يشمل البحث العلمي ، والدأب والمثابرة ، والجد في العمل ، والتنظيم ، وطول النفس ، ووضوح الهدف..

ويفترقون – بالنسبة للحياة الدنيا – في أمرين ، يتحققان في تمكين الرضا ، ويفتقدان في تمكين الاستدراج ، هما البركة والطمأنينة .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [80] .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..) [81] .

---

[76] سورة النحل [25] .

[77] سورة الأنعام [44 – 45] .

[78] سورة طه [124] .

[79] سورة هود [15 – 16] .

[80] سورة الرعد [28] .

الطمأنينة مقابل القلق والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة . والبركة مقابل الضنك .

أما في الآخرة فالفارق هو فارق الجنة والنار ..

تلك هي السنن الربانية التي تحكم هذا الأمر . ويتبين منها أن النجاح المادي والتمكين في الأرض ليس في ذاته دليلا على استقامة المنهج وصلاحه ، ما دام هذا التمكين يمنح للكافر والمؤمن على السواء ! إنما هو دليل فقط على الاجتهاد في اتخاذ الأسباب ، ولا شك أن الغرب في جولته الراهنة قد برع براعة فائقة في اتخاذ الأسباب التي تؤدي إلى التمكين المادي ، وبلغ فيها ما لم تبلغه أمة في التاريخ .

أما استقامة المنهج فأمر آخر مختلف ، لا علاقة له بالتمكين المادي ، وتدل كل الدلائل على الانحراف الواقع في حياة الغرب اليوم فيما يتعلق بمنهج الحياة ، والقيم التي يعيش الناس من أجلها هناك .

إن الغرب – في جولتيه الماضية والحاضرة – قد أخذ جانبا واحدا من الإنسان ومن الحياة الإنسانية ، وأهمل الآخر .

ففي جولته الماضية – التي تمثلها العصور الوسطى الأوربية – ركز على عالم الغيب ، وعالم الآخرة ، وعالم الروح ، وإهمال عالم الشهادة ، وأهمل الحياة الدنيا ، وأهمل الجسد ودوافعه، فضلا عن الحجر الذي فرضته الكنيسة على العقل ، وكان ذلك كله سببا في الظلمات التي توصف بها العصور الوسطى هناك .

وفي جولة الحاضرة – التي بدأت منذ " النهضة " حتى الوقت الحاضر – ركز على عالم الشهادة ، والحياة الدنيا ، ونشاط الجسد ولذائذه الحسية ، وأهمل عالم الغيب ، وعالم الآخرة ، وعالم الروح ، فضلا عن تأليه العقل وجعله هو المحكم في كل الأمور ، ما يصلح له وما لا يصلح على السواء . وكان ذلك سببا في انحدار القيم والمبادئ والتحلل الخلقي الذي لا مثيل له في التاريخ .

في كلا الحالين كان الغرب يعيش في الظلمات ! كان يعيش بمسخ مشوه هو نصف إنسان ! إما هذا النصف وإما النصف الآخر . ولم يجتمع له قط كيانه المتكامل الذي خلق الله عليه " الإنسان " .

ولا يعني هذا أن حياة الغرب – في كلتا جولتيه – كانت كلها شرا أو أنها خلت من جوانب الخير ! كلا ! فما من جاهلية في التاريخ كله كانت كلها شرا ، وكانت خالية من الخير .

---

[81] سورة الأعراف [96] .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجاهلية العربية : " خياركم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " [82] .

ومعنى ذلك أنه يوجد خيار في الجاهلية !

ويقول عليه الصلاة والسلام : " دعيت إلى حلف في الجاهلية في بيت ابن جدعان لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت " ! [83]

ولكن الخير الجزئي المتناثر في الجاهليات لا يمنع وَسْمَ الجاهلية بأنها جاهلية ! ولا يعطيها شرعية الوجود من ناحية أخرى . ولا يمنع عنها الدمار في النهاية !

والخلاصة من هذا الأمر كله – فيما نحن بصدده في هذه العجالة – أن منهج الغرب في تناوله للعلوم الاجتماعية منهج لا يتفق معنا لأنه نتاج ظروف غير ظروفنا ، وليس علما " موضوعيا " كما يزعم الغرب ، وأن التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية حاجة ملحة للأمة الإسلامية ، وأن الصحوة ينبغي أن تضع هذا الأمر في حسابها ، وتوجه له من الاهتمام ما هو جدير به ، وإلا فسيظل الغزو الفكري المنبث في هذه العلوم في الوقت الحاضر يفسد عقول الدارسين ، ويبث فيها تبعية مريضة تجاه الغرب !

---

[82] أخرجه مسلم .

[83] انظر سيرة ابن هشام جـ 1 صـ 133 .

كيف يكون التأصيل الإسلامي

للعلوم الاجتماعية

تجدر الإشارة أولا إلى أننا اخترنا كلمة " التأصيل الإسلامي " بدلا من كلمة " الأسلمة " التي شاع استخدامها في الفترة الأخيرة ، لأن كثيرا مما كتب في مجال " أسلمة العلوم " لم يكن تأصيلا إسلاميا حقيقيا بالمعنى المطلوب ، بقدر ما كان اعتمادا للمفاهيم الغربية ، مع وضع " طلاء " إسلامي عليها ، يتمثل في بعض الآيات والأحاديث التي يرى مستخدموها أنها تناسب الموضوع !

التأصيل الإسلامي عمل مختلف .. إنه الانطلاق ابتداء من منطلق إسلامي ، سواء التقى بعد ذلك في بعض الجزئيات أو لم يلتق مع ما كتبه الغرب في تلك العلوم . فليس القصد الالتقاء لمجرد الالتقاء ، ولا الاختلاف لمجرد الاختلاف . إنما القصد التعرف على التصور الإسلامي ، وزاوية الرصد الإسلامية ، ثم الانطلاق منها إلى حيث تؤدي بنا باستخدام الوسائل العلمية المشهود لها ، والتي تناسب البحث المطلوب . وسنجد حين نفعل ذلك أن الخلاف الجوهري هو في نقطة الانطلاق . في زاوية الرؤية . في تفسير الوقائع ، ووضعها في مكانها في الصورة المتكاملة . وليس من الضروري في كل حالة أن يكون هناك خلاف في الجزئيات . ففي التاريخ مثلا أو في الاجتماع قد نتفق معهم في رصد الظاهرة التاريخية أو الظاهرة الاجتماعية لأنها واقع مشهود لا يختلف الناس في رؤيته . ولكن تفسيرهم للظاهرة ، المنبثق من رؤيتهم الخاصة ، كثيرا ما نختلف معهم فيه ، لأن رؤيتنا مختلفة عن رؤيتهم ، ورصيدنا الواقعي مختلف عن رصيدهم ، والميزان الذي نزن به مختلف عن ميزانهم . وأوضح مثال على ذلك أنهم يرون أن إلغاء عالم الغيب (الذي يسمونه الميتافيزيقا) أو في القليل إهماله ، كان تقدما تاريخيا واجتماعيا وإنسانيا اكتسبه الغرب في عصره الحاضر ، بينما نرى نحن ذلك انتكاسة إنسانية لا تليق بالإنسان .. فالظاهرة متفق عليها لأنها واقع مشهود ، ولكن تفسيرها عندنا وعندهم تفصل بينهما هوة لا لقاء بين أطرافها !

وحين يكون حديثنا عن العلوم الاجتماعية فالمنطلق الذي ننطلق منه هو تصورنا " للإنسان " . فمن هذا التصور تتفرع كل العلوم التي تتعامل مع " الإنسان " في شتى نشاطاته ومجالات حياته ، سواء التاريخ أو الاجتماع أو الاقتصاد أو التربية أو علم النفس أو الآداب . فكل علم من هؤلاء يتناول جانبا من حياة الإنسان ، يحاول تفسيره وتقنينه وتحليله وإلقاء الضوء

عليه . ويختلف كل علم عن الآخر فيما يركز اهتمامه عليه ، وفي طريقة تناوله للجانب الذي يركز عليه ، ولكنها تشتبك جميعا عند الأصل المشترك وهو " الإنسان " [84] .

وحين يكون هدفنا هو التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، فنقطة البدء التي ننطلق منها هي محاولة التعرف على صورة " الإنسان " كما تعرضها المصادر الإسلامية [85] ، فنسأل أنفسنا أولا ثم نحاول الإجابة : ما الإنسان ؟ ما تكوينه ؟ ما حدود طاقاته ؟ ما غاية وجوده ؟ ما معيار إنجازاته ؟ ما موقفه من الضغوط الواقعة عليه ، سواء من داخل نفسه أو من خارجها ؟ ما مبدؤه وما منتهاه ؟

وحين نجد الإجابة الصحيحة نكون قد خطونا الخطوة الأولى ، التي نأخذ بعدها في التطبيق على كل علم بمفرده ، مستندين إلى ذلك التصور العام ، الذي تلتقي عنده وتتفرع عنه كل العلوم .

* * *

وربما يسأل سائل – وكثير هم الذين يسألون – لماذا لا نأخذ التصور " الجاهز " الذي توصل إليه الغرب في دراساته ، والغرب قد تقدم عنا مراحل شاسعة في كل مجالات العلم وكل مجالات البحث ، وأصبحت لديه إجابات " معيارية " عن هذه الأسئلة جميعا تكفينا مئونة البحث، وتوفر عليها الجهود ؟!

فنقول بادئ ذي بدء إن التصور الغربي للإنسان يشتمل على خللين أساسيين : الخلل الأول هو اعتبار أن الإنسان هو ذلك الحيوان الدارويني المتطور ، الذي قدمته نظرية دارون في القرن الماضي ، وما تزال تغذيه في كثير من مجالات الدراسة ، والدراسات الاجتماعية بصفة خاصة . والخلل الثاني هو دراسة الإنسان بمعزل عن خالقه الذي أنشأه وأخرجه إلى الوجود ، كأنما الإنسان هو الذي خلق نفسه ، أو وجد بغير موجد ! ومن ثم فهو المرجع وهو المعيار لكل ما يصدر عنه من أفعال وتصرفات !

---

[84] يحسن بنا هنا أن نشير إلى أن بعض جامعاتنا تسمي هذه الدراسات أو بعضا منها " بالعلوم الإنسانية " ترجمة لكلمة Humanities المستخدمة في الغرب ، ظنا منهم أن المقصود بالكلمة هو " العلوم المتعلقة بالإنسان " وهذا غير صحيح بالنسبة للمصطلح كما يستخدمه الغربيون . فهم يقصدون به – منذ عصر النهضة عندهم – " العلوم التي تؤخذ المعرفة بها من الإنسان لا من الوحي الرباني " ! أي أنها تعني عندهم اتخاذ الإنسان مصدرا للمعرفة بدلا من الله ! فلنتنبه ونحن ننقل المصطلحات !

[85] الكتاب والسنة والعلوم المتعلقة بهما .

وسنتكلم عن موطن الخلل في كل من هذين الأصلين الخطيرين اللذين يحكمان الدراسات الغربية في العلوم الاجتماعية ، بوعي منهم أو بغير وعي ، ويؤثران في النتائج النهائية التي يصلون إليها في هذه العلوم .

فبالنسبة للخلل الأول تقول الداروينية إن الإنسان لم يخلق إنسانا من أول لحظة ، إنما هو تطور عن كائن آخر هو القرد الشبيه بالإنسان ، المتطور بدوره عن أحد القردة العليا الأربع : الشمبانزي والغوريللا والأورانج أوتانج والجيبون ، وإنه مر في تطوره بمراحل عدة ، كان يقترب فيها في كل مرة من وضعه الحالي . فكان في مبدأ أمره يمشي على أربع ، وينتصب قائما أحيانا كما تفعل القردة العليا ، ثم زاد انتصاب قامته حين أخذ يأكل من ثمار الأشجار ، فأصبح رأسه من ثم يرتكز على الجذع أكثر مما يكون معلقا في الفضاء ، فأتيح لمخه أن يكبر ، فتكلم وتعلم، ورويدا رويدا على مدى من الزمن لا يكاد يحصى أصبح هو " الإنسان " !

وما نريد أن نناقش النظرية الداروينية ذاتها ، ومدى صحة الفرضية التي قامت عليها ، ففي الساحة العلمية اليوم أكثر من رأي بالنسبة لأصل الحياة وأصل الإنسان ، ولم تعد النظرية الداروينية هي وحدها التي تحاول تفسير القضية ، وتفرض نفسها على الساحة [86] .

ولكننا نقول إنه حتى على فرض صحة النظرية – وهو فرض جدلي لا نسلم به – فقد كانت هناك عدة انحرافات في التطبيق بالنسبة للإنسان .

ففي النظرية التي اتخذت " التطور " اسماً لها ، وعَلَماً عليها ، جرى التركيز على الخصائص الجديدة التي " يكتسبها " الكائن المتطور ، لا على السمات التي يشترك فيها مع الكائنات السابقة عليه ، التي لم تسر على خط التطور مثله . فهناك – مثلا – بحسب النظرية ، كائن ليس له جهاز سمعي ، تلاه في التطور كائن يشبهه في كثير من الخصائص ، ولكنه " اكتسب " جهازا سمعيا لم يكن موجودا في الكائنات المشابهة له ، السابقة عليه ، والتي تطور عنها . فعند الحديث عن هذا الكائن يكون التركيز على هذه الحاسة الجديدة التي " اكتسبها " والأطوار التي مرت بها حتى اكتملت في وضعها النهائي . وكذلك لو كان الكائن قد " اكتسب " جهازا بصريا أو جهازا للطيران ، أو جهازا لتنظيم الدورة الدموية .. إلخ ، مما لم يكن لأقرانه الذين تطور عنهم .

وكان مقتضى ذلك بالنسبة للإنسان أن يكون التركيز على ما تفرد به الإنسان عن أشباهه من الكائنات السابقة عليه ، التي تطور عنها ، لا على أوجه الشبه بينه وبين تلك الكائنات ..

---

[86] انظر على سبيل المثال كتاب " أصل الإنسان " للعالم الفرنسي موريس بوكاي ، إصدار مكتب التربية الخليجي .

وذلك كله على فرض صحة الفرضية من أساسها .. ولكن الذي جرى على يد داروين كان هو التركيز على أوجه الشبه بين الإنسان والقردة العليا (مع افتراض وجود حلقة مفقودة بينهما) أكثر من التركيز على ما تفرد به الإنسان .. أي – بعبارة أخرى – التركيز على حيوانية الإنسان، وليس على إنسانيته !

وقد حاولت الداروينية الحديثة Neo Darwinism " سدّ هذا الخلل في تطبيق النظرية بالنسبة للإنسان ، فكتب " جوليان هكسلي Jullian Huxley " وهو من عمد الداروينية الحديثة كتابا سماه " الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World " بدأه بفصل طويل بعنوان " تفرد الإنسان Uniqueness of Man " قال فيه إن المعلومات التي بنى عليها داروين كانت ناقصة ، وإن العلم الحديث كشف عن جوانب كثيرة من تفرد الإنسان لم تكن معلومة لداروين ، وجاء في هذا الفصل قوله : " وبعد نظرية داروين لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا . لكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا ، وفي حالات كثيرة لا مثيل له . ولا يزال تحايل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام " . وجاء فيه : " .. وهكذا وضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الأديان " . [87] كما جاء فيه : " ... وأخيرا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره " [88].

ولكن على الرغم من هذه المحاولة من جانب الداروينية الحديثة فماذا نرى ؟

ما زال الإنسان حيوانا !

وما زال التركيز على الجانب " البيولوجي " من كيانه ، ولا ذكر على الإطلاق للجانب الروحي من الإنسان !

إن الذي تطور في الإنسان – كما تقول الداروينية – هو عقله وإبهامه !

عقله تطور حين تعود الإنسان – أو الكائن الشبيه بالإنسان – على الوقوف منتصبا لفترات طويلة ليأكل من ثمار الشجر [89] .. فارتكز رأسه على الجذع ، فأتيح للمخ أن يكبر ،

---

[87] يلاحظ أن جوليان هكسلي الذي يقول هذا الكلام كاتب ملحد شديد الإلحاد ، متبجح بإلحاده . ولكن الحقائق " العلمية " فيما يتعلق بتفرد الإنسان تلجئه إلجاء لهذا الاعتراف الذي يحمل في طياته دلالة واضحة .

[88] جوليان هكسلي ، الإنسان في العالم الحديث ، نشر مشروع الألف كتاب بالقاهرة ، ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر ، مقتطفات من ص 3 – ص 9 من الترجمة العربية .

[89] يبدو أن همه الأكبر كان هو الأكل !

فتعلم وتكلم .. وإبهامه تطور (لا أدري لماذا !) فصار يحسن الإمساك بالأشياء فاستخدم الأدوات ، ثم سعى إلى تحسينها ، فصارت له حضارة .. وصار له تاريخ !

ولكنه فيما عدا هذا حيوان ! كان وما يزال !

ولا ندري على وجه التحديد ما الذي حدا بداروين – والداروينية الحديثة من بعده – إلى التركيز على الجانب الجسدي من الإنسان – أو البيولوجي كما يقول هكسلي – وإن كنت أحسب أن جو الصراع بين الكنيسة و " العلماء " ، ورغبة هؤلاء في مكايدة الكنيسة بتوهين ركائزها وتسخيف مقولاتها ونفي مقرراتها كان وراء هذا الاتجاه .. ولكن النتائج كانت خطيرة جدا ، في ميدان العلوم الاجتماعية بصفة خاصة .

ولأمر ما نشرت هذه النظرية على نطاق واسع في كل الأرض [90] ! ولكن الذي يعنينا منها هنا على أية حال هو تأثيرها على الدراسات الاجتماعية بالذات .

الإنسان حيوان .. كان وما يزال ! تطور منه ما تطور ولكنه لم يخرج من حيوانيته ! فما أهداف الحيوان ؟ وما مشاغله ؟

إن له هدفين رئيسيين : الأول صراع البقاء ، والثاني الاستمتاع ، المتمثل في الطعام والشراب والجنس .

والحيوان يقوم بهذين الأمرين بدافع الغريزة ، بغير وعي منه لما يفعل ، ولا وعي منه بأنه يقوم بما يقوم به من أعمال وتصرفات لتحقيق هذين الهدفين الرئيسيين في حياته .

ولكن الحيوان المتطور قد " اكتسب " الوعي حين كبر مخه نتيجة انتصاب قامته ، فلم تعد كل أعماله غريزية ، بل حتى الغريزي منها صار الإنسان يمارسه بوعي منه ، يبدأ بإدراك الرغبة وينتهي إلى تحقيقها مرورا بالبحث عن الوسائل المادية إلى إشباعها ..

نعم ! ولكن الأهداف هي الأهداف ! صراع البقاء والاستمتاع .

فأما الحيوان فكان يستخدم قوته العضلية ليأخذ مكانه في صراع البقاء ، وليحصل على ضروراته ، وأحيانا يستخدم الحيلة ولكن بوحي الغريزة ، وفي نطاقها .

وأما الحيوان المتطور فهو – إلى جانب عضلاته – يستخدم الأداة المستجدة التي " اكتسبها " في تطوره ، وهي العقل ، وكلما ارتقى صار استخدامه للعقل أوسع مدى وأكثر فاعلية،

---

[90] تقول " بروتوكولات حكماء صهيون " في البروتوكول الثاني : لقد رتبنا نجاح داروين ونيتشه ، وإن تأثير أفكارهما في عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد !

وذلك فضلا عما يتيحه له التطور الآخر – تطور إبهامه – من استخدام أدوات لا حصر لها لتحقيق أهدافه .

وأما الاستمتاع فقد ارتقى كذلك مع الحيوان المتطور ، باستخدام التطورين الرئيسيين في كيانه ، فدخل فيه العقل على نطاق واسع ، يستجد فيه كل حين لونا جديدا من ألوان الاستمتاع، ويستخدم في سبيل ذلك مزيدا من الأدوات يخترعها العقل ، وتستخدمها اليد ذات الإبهام المتطور !

وتنشأ من ذلك الحضارة ..

فالحضارة من جانب هي حصيلة سعى الإنسان لإثبات ذاته في صراع البقاء ، وسعيه إلى الاستمتاع من جانب آخر ..

فسعية إلى إثبات ذاته في صراع البقاء يتمثل في القوة الحربية ، والقوة السياسية ، والقوة العلمية ، والقوة الاقتصادية ، وسعيه إلى الاستمتاع يتمثل في " الفن " بمختلف أنواعه إلى جانب المتاع الحسي المباشر بما يلبي نداء الشهوات ..

وهذه – بشقيها – هي معايير إنجازاته !

فالأمم تقاس بالقوة الحربية والقوة السياسية والقوة العلمية والقوة الاقتصادية التي تمكنها من البقاء في حومة الصراع ، وتكفل لها – كلما تمكنت – سحق القوى الأخرى أو التغلب عليها – كما تقاس كذلك بتعدد الفنون التي تستخدمها من أجل الاستمتاع .

ويكون هذا هو المعيار التاريخي ، والاجتماعي ، الذي تقاس به " عظمة " الأمم خلال التاريخ .

أين مكان " القيم " في هذا التصور ؟ .. نعني ما نسميه " القيم العليا " من نشر العدل وإزالة الظلم ونشر الخير ، وإشراك الناس في الخير بدافع " الإنسانية " بصرف النظر عن " المنفعة " ، والتعاون على البر والتقوى ؟! هل لها مكان ؟

إنها كلام جميل يتحدث عه المتحدثون ! وشعارات ترفع بين الحين والحين .. أو في كل حين ! ولكنها عند الجد لا تؤخذ مأخذ الجد ! فإنه لا مكان لها عند الحيوان الأصلي ، ولا مكان لها كذلك عند الحيوان المتطور ! .

* * *

الخلل الثاني في التصور الغربي هو دراسة الإنسان بمعزل عن خالقه ، كأنما هو قد خلق نفسه ، أو كأنما وجد بغير موجد ! ويترتب على ذلك – عندهم – ألا تكون للإنسان مرجعية

خارج حدود ذاته ! إنما يكون " هو " مرجع نفسه ، فما يراه " هو " يكون هو الأصل وهو الصواب . أي أنه – بعبارة أخرى – هو الإله .

ومن الوضح أن هذا الخلل في فكر الغرب قد نشأ من الصراع ضد الكنيسة وطغيانها . أو قل : من فساد الدين الذي اعتنقته أوربا ، والذي أفرز الكنيسة بادئ ذي بدء ، ثم أفرز طغيانها في جميع المجالات التي طغت فيها : الروحية والمالية والفكرية والسياسية والعلمية ، مما فصلناه في غير هذا المكان [91] .

لقد كان رد الفعل الأوربي تجاه فساد الدين وطغيان الكنيسة منذ عصر " النهضة " – كما أشرنا في الفصل السابق – هو التمرد على سلطان الكنيسة ، والتمر على الله ذاته – سبحانه وتعالى – وإقامة الإنسان نفسَه مرجعا بدلا من الله (وكان هذا – كما أشرنا من قبل – مولد " العلوم الإنسانية Humanities " أي العلوم التي يؤخذ العلم فيها من الإنسان لا من الوحي الرباني) .

ولسنا نحن الذين نقول ذلك من عند أنفسنا ، فكتاباتهم عن أنفسهم مليئة بمثل هذا .

خذ هذا النموذج من كتاب " مبادئ الفلسفة " تأليف رايو برث ، يقول عن عصر النهضة:

" وامتاز هذا العصر بشعور الإنسان بشخصيته المطلقة ، وبمعارضته للسلطة وذويها ، وذهابه شوطا بعيدا في اعتبار العالم كله وطنا له [92] ... وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية ، مخالفة في ذلك طريقة التفكير في القرون الوسطى ، ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء " الإنسانيين " ... وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون " نمو الفردية " أعني الرأي القائل بأن الإنسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه . وهو رأي كان قد أهمل في عصر عبودية العقل " [93] .

وخذ نموذجا أوضح وأصرح . يقول " جوليان هكسلي " في كتابه الذي أشرنا إليه آنفا (الإنسان في العالم الحديث) : إن الإنسان قد خضع لله في الماضي بسبب عجزه وجهله .

---

[91] انظر إن شئت فصل " دور الكنيسة " من كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " .

[92] يغفل الكاتب – بطبيعة الحال – أثر احتكاك أوربا بالمسلمين ، وتعرفها على الخرائط الإسلامية ، ورغبتها في التعرف على ما كان مجهولا لها من أرجاء الأرض ، والرغبة في استلاب خيرات المسلمين ، في بعث هذا الشعور في نفوس الأوربيين .

[93] رايو برث ، مبادئ الفلسفة ، ترجمة محمد أمين ، طبع دار الكتاب العربي ببيروت ، ص 119 – 120 من الترجمة العربية .

والآن – وقد تعلم وسيطر على البيئة – فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله !

ويقول في نفس الكتاب : إن أسطورة بروميثيوس ما تزال كامنة في كيان الأوربي الحديث توجهه على غير وعي منه . فالأوربي المعاصر هو " بروميثيوس الحديث " الذي يريد أن يضع نفسه في مكان الإله . وكلما تعلم ، وزادت سيطرته على البيئة ، ارتفع في حس نفسه درجة ، وهبط الإله مقابل ذلك في حسه بنفس القدر ، حتى إذا استطاع يوما أن يخلق الحياة انتهى الإله من حسه تماما ، وأصبح هو الله .

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ، كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) [94] **(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)** [95] .

ولم يكن موقف الفارين في الغرب من طغيان الكنيسة ، الفارين في الوقت ذاته من الدين ومن فكرة الإله **(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)** [96] خللا عقديا فحسب ، **(وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)** [97] إنما كان إلى جانب ذلك خللا علميا ، وإن ظنت أوربا – في وهلتها – أنها – وقد اهتدت أخيرا إلى العلم – قد اهتدت إلى الأداة البديلة ، التي ستغنيها عن الدين ، وتوصلها في الوقت ذاته إلى الحقائق النهائية التي لا يرقى إليها الشك ، مع تحرير العقل من الخرافة ، وتحرير الضمير الإنساني من الطغيان !

يقول برنتون : " فالمذهب العقلي يتجه إلى إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون . ومن الوجهة التاريخية فإن نمو المعرفة العلمية ، وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون " [98] .

ويقول : " إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة في هذا العالم " (يقصد المعتقدات الدينية) ثم يقول : " الإله في عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة . ولكن صانع هذه الساعة الكونية – ونعني بها الكون – لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد . فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد . أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء

---

(94) سورة عبس [17 – 23] .

(95) سورة العلق [6 – 7] .

(96) سورة المدثر [50 – 51] .

(97) سورة النساء [50] .

(98) جرين برنتون ، منشأ الفكر الحديث ، ترجمة عبد الرحمن مراد ص 27 .

من آلته الضخمة ليجروا عليها . وإنه ليبدو أنه ليس ثمة ذاعٍ أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الكونية ، الذي لا يستطيع – إذا ما أراد – التدخل في شئون عمله " [99] !!

وقد أفضت دراسة الكون والحياة بمعزل عن الخلق – سبحانه – إلى اختلالات علمية كثيرة ، إلى جانب كونها كفرا بالله تعالى شأنه ، من القول بحتمية " قوانين الطبيعة " [100] والقول بالطبيعة الخالقة " التي تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق " [101] ! والقول بالخلق الذاتي [102] ، والقول بأزلية المادة وأبديتها .. إلخ .

ولكن الخلل في دراسة الإنسان كان أشد وأبعد أثرا من الخلل في دراسة الكون والحياة ، إذ ترتب عليه سوء فهم في كثير من مجالات النشاط البشري ، وبروز كثير من التفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان !

ونضرب مثالا للتقريب ...

لو فرضنا أنه أتيحت لك طاقة كهربائية تستطيع أن تستخدمها في مجالات شتى ، فهل يكون سلوكا " علميا " سليما أن تقول : لا يهمني مصدر هذه الطاقة ، ولن أشغل نفسي بمحاولة التعرف على هذا المصدر . إنما الذي يعنيني هو هذه الطاقة ذاتها ، وطريقة استخدامها ، والمجالات التي يمكن أن تستخدم فيها ؟!

فكيف إذا فاجأتك هذه الطاقة بأمور لا تستطيع تفسيرها ، ومن ثم لا تستطيع أن تستخدمها على الوجه الأمثل ، فمرة تجدها متدفقة ومرة تراها منحسرة بغير سبب ظاهر لك .. مرة تنير ، ومرة تحرق .. مرة تزيد من حيويتك ومرة تعرضك للهلاك ! ألا يعينك التعرف على المصدر ، وطبيعته ، وطريقة تصريفه لهذه الطاقة ، على فهم تلك الظواهر التي لا تفسير لها عندك ، ويعينك ذلك على استخدام تلك الطاقة في أحسن أوضاعها ؟!

ذلك مجرد مثال للتوضيح .. ولله المثل الأعلى . فواجب عبادته سبحانه وتعالى والتعرف عليه لا ينحصر في أنه هو مصدر الوجود البشري وخالقه ، إنما هو إلى جانب ذلك هو المنعم المتفضل . هو الرزاق ذو القوة المتين . هو المدبر لأمر الوجود كله . هو الفعال لما يريد . هو

---

[99] المصدر السابق ص 151 .

[100] بما ينفي المعجزة ، وينفي قدرة الله على التصرف في الكون بما يخالف السنة الجارية !

[101] هذه قولة داروين .

[102] هذه قولة الملاحدة من " علماء ! " الحياة .

مالك يوم الدين . **(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** (103) وهو الذي **(يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** (104) .

ثم إن له سننا تجري في حياة الناس بما يشاء سبحانه ، ليس كلها خاضعا لمنطق العقل البشري ، وإن كان لها حكمتها عند الله ، كالإملاء للكفار والطغاة قبل التدمير عليهم ، وفتح أبواب كل شيء عليهم حين ينسون الله والآخرة نسيانا كاملا ، كما في قوله تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) (105) .

وقوله تعالى :

(وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (106) .

وقوله تعالى :

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (107) .

وقوله تعالى :

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) (108) .

وكتوزيع الأرزاق بين الناس (والمواهب من الرزق) ، وبسط الرزق وقبضه :

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً) (109) .

(يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ) (110) .

---

(103) سورة الحديد [3] .

(104) سورة البقرة [28] .

(105) سورة الأنعام [44] .

(106) سورة البقرة [15] .

(107) سورة الأعراف [183] .

(108) سورة الأعراف [95] .

(109) سورة الزخرف [32] .

(110) سورة القصص [82] .

وكلها أمور تصبح مفهومة حين تعرف حكمتها ، فأما قبل معرفة الحكمة منها فهي تؤدي إلى فهم خاطئ ، وإلى تصور خاطئ يؤدي إلى الظن بعبثية الحياة وعدم خضوعها لنظام ولا تدبير ، مما يؤدي بدوره إلى استهتار بالقيم ، وانفلات من الضوابط .

فإذا لم نتعرف على السنن الربانية التي تحكم حياة الإنسان ، فهل تكون دراستنا " موضوعية " ؟! وهل تكون النتائج التي نحصل عليها نتائج صحيحة من الوجهة العلمية ؟!

ثم إننا حين ندرس الإنسان بمعزل عن خالقه ، وعن السنن الربانية التي تحكم حياته ، فما المعيار الذي نقيس به تصرفاته ؟ وما معيار إنجازاته ؟ من الذي نعتبره مرتفعا راقيا ومن الذي نعتبره منتكسا هابطا ؟ أم الكل سواء ؟! وأي التصرفات نعتبره خيرا وأيها نعتبره شرا ؟ أم لا خير ولا شر ؟! وأي الإنجازات نعتبره صالحا وأيها نعتبره فاسدا ؟ أم يستوي الأمران في الميزان ؟!

من هنا تتخبط النظريات وتتخبط التفاسير التي تحاول أن تفسر السلوك البشري والحياة البشرية ، ما بين مبدأ اللذة والألم ، ومبدأ النفعية ، ومبدأ نسبية القيم ؛ وما بين التفسير المادي للتاريخ ، والتفسير اللبرالي ؛ وما بين الغاية التي تبرر الوسيلة ، واللاغائية ، والعدمية ، والفوضوية ، والوجودية .. وكلها مذاهب ، وكلها تفاسير !!

* * *

إذا جمعنا حصيلة الخللين الأساسيين في التصور الغربي للإنسان ، نجد أن الإنسان في ذلك التصور حيوان متأله ! حيوان بحكم منشئه . متأله بحكم جعله نفسَه حكما مطلقا في كل ما يتعلق به من الأمور : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والخلقية والفنية .. إلخ . ونجد أن هذا الحيوان المتأله هو موضع الدراسة في جميع الدراسات الاجتماعية ، سواء علم الاجتماع أو علم الاقتصاد أو علم التاريخ أو علم التربية أو علم النفس ، أو حتى الدراسات الأدبية .. حيوان يعيش بأهداف الحيوان ، ويرفض في الوقت ذاته أن يكون له مرجع يرجع إليه في تصرفاته سوى ما يراه " عقله " أو بالأحرى ما يجري به هواه .

فإذا أضفنا إلى ذلك خللا ثالثا في النظرة الغربية لا يقل خطورة عن الخللين السابقين ، هو دراسة الإنسان كأنه يعيش حياته الدنيا وحدها ، ولا معاد له في الآخرة ، فقد اختلت الموازين تماما ، ولم يبق شيء في الرؤية على وجهه الصحيح !

إن اعتبار الحياة الدنيا هي المبدأ والنهاية يؤثر تأثيرا بالغا في رؤية الإنسان للأشياء ، ليس فقط من الناحية الاعتقادية ، ولكن كذلك من الناحية السلوكية والعملية والعلمية . فحين يكون أمامك منظر متكامل تعرف مبدأه ومنتهاه ، وتستطيع أن تعرف مكان كل جزئية فيه ، ودلالتها في المنظر المتكامل ، ثم تقتطع جزءا من المنظر ، وتقول : يكفيني هذا الجزء ، ولست

بحاجة إلى باقيه ! هل يكون سلوكك " عقلانيا " ؟ وهل يكون واقعيا ؟ وهل تحصل على نتائج علمية صحيحة ؟!

إن إدراك الدلالة الخاصة لكل جزئية في الصورة يرتبط ارتباطا وثيقا بالرؤية الشاملة للكل المتكامل المتمثل في الصورة . أما في القطاع الذي تقتطعه – أيا كان حجمه – فكيف تأخذ الجزئية دلالتها ؟ وكيف تتكامل النظرة ؟ فإذا كان الجزء الذي اقتطعته هو الأصغر ، والمتروك هو الأكبر ، فأي خلل يمكن أن ينشأ في الرؤية ، وإلى أي مدى تفقد الجزئيات دلالتها ؟!

والعلوم الاجتماعية التي نشأت وترعرعت في الغرب في ظل الصراع الحاد مع الكنيسة ودين الكنيسة ، فقد ألغت اليوم الآخر من حسابها تماما ، على أنه " غيبيات " لا تخضع للبحث العلمي ، و " ميتافيزيقيا " ضارة ومعوّقة عن التقدم العلمي والعمراني ، فلا ينبغي الاهتمام يها والالتفات إليها ! ونشأ من ذلك اختلال هائل في رؤية القيم والأهداف .

فحين يعيش الإنسان للدنيا وحدها ، ويعتقد أن ما يجنيه فيها من خير أو شر هو الحصية النهائية لجهده ، وألا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء في الآخرة ، فكيف تكون قيمه ، وكيف تكون أهدافه ؟

لا جرم يركز على الهدفين الرئيسيين للحيوان : الغلبة في صراع البقاء ، والاستمتاع ، وإن كانت أدواته لتحقيق كل من الهدفين هي أدوات الحيوان المتطور ، أي باستخدام العقل ، واستخدام العدد والآلات .. ومن هنا يبرز مثل هذا الشعار : القوة هي الحق !! (Might is right) ويكون قانون التعامل بين التجمعات البشرية بعضها وبعض هو قانون الغاب : القوي يأكل الضعيف أو ينحيه من الطريق ، بصرف النظر عما هو حق وما هو عدوان . وإن كان الكلام " الحلو " الذي تعلمه الحيوان المتطور حين أتيح لمخه أن يكبر ، يفيض رقة وعذوبة وهو يتكلم عن التعاون الدولي ، وعن الحرية والديمقراطية واحترام حقوق " الآخرين " ! ولا ينفي هذا أن تكون هناك " أخلاقيات " في السياسة والاجتماع ، وعلاقات الناس بعضهم وبعض في داخل كل تجمع على حدة ، قائم على رابطة الدم أو العصبية القومية ، ولكنها – باعترافهم – أخلاقيات نفعية ، يتواضعون عليها لتقليل الاحتكاك في التجمع الواحد إلى أقصى حد ممكن ، وتوجيه العدوان إلى " الآخرين " ! ثم لينال كل إنسان حظه من الاستمتاع الحيواني بأقل قدر من المنغصات .. وحتى هذه " الأخلاقيات " كما يقول دركايم دائمة التقلب لا تثبت على حال !

إذا جمعنا هذه الاختلالات الثلاثة ، وتأثيرها على الدراسات الاجتماعية في الغرب فماذا نجد في النهاية ؟

وإن هذه الدراسات لا تتحدث عن الحقيقة الشاملة للإنسان ، ولا عن كل حالاته ، إنما تتحدث عن حالة معينة من حالاته ، هي حالة " الجاهلية " التي ينتكس إليها الإنسان حيث يستكبر عن عبادة الله ، ويرفض اتباع منهج الله ، فيكون الناس فيها **(كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)**[111] ويكون الهوى هو المعبود على الحقيقة **(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)**[112] .. ثم يقال هذه هو الإنسان !! وتتأسس على ذلك " علوم " ، وتسمى " العلوم الإنسانية " !!

* * *

الإنسان في التصور الإسلامي كائن مختلف تماما ! لا هو حيوان ولا هو إله ! وإنما هو إنسان !

خلق إنسانا من أول لحظة !

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[113] .

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)[114] .

وهو في جميع أحواله إنسان ؛ فيه صفات الإنسان مهما علا ومهما سفل . وإنه ليعلو فيكون – في رأي بعض العلماء – أعلى من الملائكة ، وإنه ليسفل حتى يكون – بشهادة خالقه سبحانه – أقل من الحيوان .. ولكنه دائما هو " الإنسان " .

وربما نستطيع أن نفسر هذه الحقيقة إذا رجعنا إلى طبيعة تكوينه : إنه قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله . فأما قبضة الطين فهي جسده بكل ما يحويه من نوازع وشهوات . وأما نفخة الروح التي اتحدت بقبضة الطين وامتزجت بها امتزاجا ، فقد جعلت لها ماهية خاصة ، فقد منحتها الوعي والإرادة والحرية ، وأذهبت عنها عتامة الطين ..

الوعي والإرادة والحرية هي الكيان الإنساني .. هي حقيقة الإنسان ، التي تصحبه في جميع حالاته وفي جميع تصرفاته الإرادية ، مهما علا ومهما سفل . فهو يعلو وهو واعٍ مريد ، ويسفل وهو واعٍ مريد ، وله دائما قدر من الحرية يعلو به حين يشاء ، ويسفل به حين يشاء ،

---

(111) سورة الأعراف [179] .

(112) سورة الجاثية [23] .

(113) سورة ص [71 – 72] .

(114) سورة الإنسان [2] .

ولكنه يعلو حين تضيء في كيانه إشراقة الروح فتصله بالله فيزكي نفسه ، ويسفل حين تنطفئ في كيانه تلك الإشراقة الملهمة ، فيتدنى مع ثقلة الشهوات :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (115) .

ثم إنه له بطبيعة خلقته تلك طريقين اثنين لا طريقا واحدا كالحيوان أو كالملاك . الحيوان طريقه هو الغريزة الحيوانية التي ترسم له أعماله وتحدد له تصرفاته فلا يملك أن يخالفها ، والملك طريقه هو الغريزة النورانية الشفيفة ، إن جاز لنا أن نسميها غريزة : غريزة الطاعة الخالصة لله ، والعبادة الخالصة لله :

(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) (116) .

(لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (117) .

أما الإنسان فهو في كل لحظة من لحظاته على مفرق طريق : على رأس طريقين ، أحدهما طاعة الله والآخر طاعة الشيطان الذي يحرض على معصية الله . وفي كل لحظة من لحظاته يستمع إلى أحد الندائين فيتجه إليه ، ويصم سمعه عن النداء الآخر . يستمع إلى النداء الرباني المنزل على الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ، فيعبد ، ويطيع ، ويصم أذنه عن نداء الشيطان . أو يستمع إلى نداء الشيطان ، فيتجه إليه ، ويصم أذنه عن النداء الرباني ، ولكن على صورتين مختلفتين في المدى والعمق والنية المصاحبة . إما غفلة مؤقتة عن النداء الرباني ، تتبعها الصحوة ، والاستغفار والتوبة ، وذلك شأن المؤمنين ، وإما غفلة كاملة عن النداء الرباني ، وانصياع كامل واعٍ لنداء الشيطان ، وهو الكفر والعياذ بالله .

فأما الأولون فلا يخرجون من رحمة الله سواء عاقبهم على غفلتهم العارضة أو شملهم بعفوه . أولئك يقول الله عنهم :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (118) .

---

(115) سورة الشمس [7 – 10] .

(116) سورة الأنبياء [20] .

(117) سورة التحريم [6] .

(118) سورة آل عمران [135 – 136] .

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) [119] .

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [120] .

وأما الآخرون فيقول الله لهم :

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) [121] .

ومن كون الإنسان له طريقان لا طريق واحد ، وله القدرة على التمييز بين الطريقين ، والقدرة على اختيار أحد الطريقين وجد الخير والشر في حياة الإنسان ، ووجدت القيمة الخلقية المصاحبة للعمل .

كل عمل يعمله الإنسان بوعيه وإرادته له قيمة خلقية لاصقة به ، فيوصف بأنه خير أو شر . وليست هذه القيمة الخلقية مفروضة عليه من خارج كيانه كما يزعم علم الاجتماع الجاهلي [122] ، أو علم النفس الجاهلي [123] . إنها نابعة من تكوين الإنسان ذاته . من كون أن له طريقين ، وله القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحد الطريقين .

فالحيوان لا توصف أعماله بأنها خير أو شر ، لأنه لا خيار له فيها ، وليس له إلا طريق واحد يسلكه بدافع الغريزة ، ولا يملك غيره، أما الإنسان الذي يميز بين طريقين ويختار أحدهما بإرادته فإن أعماله الإرادية لا بد أن توصف بأنها خير أو شر ، ولا يمكن فصل أعماله عن القيمة الأخلاقية المصاحبة لها .

إنما " المعايير الخلقية " هي التي يمكن أن تفرض من خارج الكيان الفردي .. المعايير التي تحدد أن عملا بعينه يعتبر خيرا وأن عملا آخر يعتبر شرا . وهذه هي التي يختلف الناس في تقديرها حسب مصدر التلقي الذي يتلقون منه القيم والمعايير . أما أن يزعم زاعم – كما يزعم بعض " علماء ! " الغرب – أن الإنسان ليس كائنا أخلاقيا في ذاته ، إنما تفرض عليه القيم

---

[119] سورة النساء [17] .

[120] سورة الأنعام [54] .

[121] سورة يس [60 – 64] .

[122] انظر دوركايم .

[123] انظر فرويد .

الأخلاقيـة مـن خـارج كيانـه ، فهـذا زعـم تفردت بـه الجاهليـة المعاصـرة مـن بـين كـل جاهليـات التاريخ!

أما السلطة التي تقرر المعايير – ولا بد من سلطة تقرر – فتقول هذا خير وهذا شر . هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح – هذه السلطة عند المؤمن هي الله سبحانه وتعالى، الذي له الأمر بمقتضى أنه هو الخالق :

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) (124) .

أما عند الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فالسلطة التي تقرر المعايير هي سلطة بشرية لا ترجع في تقديراتها إلى الله ، سواء كانت هي الدولة أو المجتمع أو " الطبقة المستغلة " .. أو الهوى والشهوات ! وهي في جميع أحوالها سلطة جاهلية لأنها تحكم في الأمور بغير ما أنزل الله.

* * *

هذا الإنسان – بخصائصه تلك – خلق لغاية :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (125) .

والعبـادة – بوصـفها خلقـا أو طبيعـة أو سـلوكا أو توجهـا – عميقـة الجـذور فـي الفطـرة البشرية:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) (126) .

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (127) .

ولكـن الفطـرة تسـتقيم أحيانـا وتعتـل أحيانـا ، فتسـتقيم العبـادة تبعـا لـذلك أو تعتـل . فأمـا أصحاب الفطرة السوية فيعبدون الله وحده بلا شريك ، لأنه وحده الحقيق بالعبادة ، وأما أصحاب الفطر المعتلة فيعبدون آلهة أخرى ، مع الله أو من دونه سواء .. ويكون معبودهم الحقيقي هو الشيطان .

---

(124) سورة الأعراف [54] .

(125) سورة الذاريات [56] .

(126) سورة الأعراف [172] .

(127) سورة الروم [30] .

وكون العبادة من الفطرة ، تصح مع صحتها وتنحرف مع مرضها ، كان بديهية واضحة في حياة البشرية ، حتى جاءت الجاهلية المعاصرة فزعمت – لأول مرة في التاريخ – أن العبادة ليست أصلا ثابتا في كيان الإنسان ، إنما هي حالة مرت بالبشرية في طور من أطوارها ثم " برئت " منها ، حين أدت مهمتها واستنفدت أغراضها .. و " تحرر " الإنسان من " الدين " [128]!

أي عبادة للشيطان أشد من هذه العبادة ؟!

إن " المعبودات " اليوم لا تكاد تحصى ! فهي أحيانا " الدولة " وأحيانا " الوطن " وأحيانا " القومية " وأحيانا " النظام " وأحيانا " الزعيم الأوحد " وأحيانا " المصلحة القومية " وأحيانا " الرأي العام " – المحلي أو العالمي – وأحيانا " الإنتاج " وأحيانا " العقل " وأحيانا " العلم " وأحيانا " التقدم " وأحيانا " الموضة " .. كلها معبودات ترسم للناس مناهج حياتهم فيعمل الناس بوحيها وأمرها في الوقت الذي يعصون فيه أوامر الله ، ويستكبرون عن عبادة الله !

وحين يخيل لإنسان ما في لحظة ما أنه متحرر تماما من كل عبادة ، ليس لأحد ولا لشيء عليه سلطان .. ففي تلك اللحظة ذاتها يكون غارقا في العبادة حتى أذنيه .. عبادة الهوى والشهوات :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [129] .

كلا ! إن العبادة جزء من الفطرة ، كامن في أعماقها .. تستقيم الفطرة فتستقيم العبادة ، وتعتل فتعتل معها العبادة ، وتتشتت في اتجاهات مختلفة :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [130] .

* * *

والعبادة – الصحيحة – هي كما يقول ابن تيمية رحمه الله : اسم شامل لكل ما يحبه الله ويرضاه . وقد فصلتها الكتب المنزلة من عند الله ، ثم أخذت صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة في الرسالة الخاتمة المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) [131] .

---

[128] يقول دوركايم في كتابه " قواعد المنهج في علم الاجتماع " : كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة أشياء في الفطرة ولكن التاريخ يطلعنا على أنها ليست فطرية في الإنسان !

[129] سورة الجاثية [23] .

[130] سورة الأنعام [153] .

[131] سورة المائدة [3] .

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) [132].

وهي تشمل عدة أمور ، تضم في إطارها جملة الحياة :

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ..) [133] .

تشمل الاعتقاد اليقيني الجازم بأن الله واحد لا شريك له ، متفرد في أسمائه وصفاته وأفعاله .

وتشمل توجيه العبادة – بكل أنواعها – لله وحده بلا شريك ، سواء كانت العبادة صلاة أو نسكا أو دعاء أو استعانة أو ذبحا أو نذرا أو موالاة أو معاداة أو موادّة أو مباغضة .

وتشمل التحاكم إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع .

وتشمل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني الذي يحدد الحلال والحرام ، والمباح وغير المباح ، والحسن والقبيح .

وتشمل الأخلاق والأفكار والمشاعر والسلوكيات التي يحبها الله .

وكلها – في المنهج الرباني – داخلة في مقتضيات لا إله إلا الله ، التي تشمل الصلاة والنسك والمحيا والممات ، وتوجهها كلها لرب العالمين [134] .. وإن كانت المخالفة عن أمر الله فيها لا تندرج كلها تحت حكم واحد ، فمنها ما هو مخرج من الملة ، كشرك الاعتقاد ، وشرك العبادة ، وشرك التحاكم – عن إرادة ورضى – إلى غير شريعة الله . ومنها ما يكون نقصا في الإيمان ولكنه لا ينقض أصل الإيمان .

والعبادة بهذا المعيار منهج حياة كامل ، يشمل في أطوائه كل نشاط الإنسان .. يشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفكر والفن .. كما يشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالبشر من حوله ، وعلاقته بالكون والحياة . فأما الذين استقاموا على الهدى فهم يستمدون من المنهج الرباني منهج حياتهم ، في الصغيرة وفي الكبيرة . وأما الذين أبوا واستكبروا فحياتهم نهب للشياطين :

---

(132) سورة المائدة [48] .

(133) سورة الأنعام [162 – 163] .

(134) اقرأ إن شئت " مقتضيات لا إله إلا الله في الرسالة المحمدية " من كتاب " لا إله إلا الله " .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) [135] .

و " الإنسان " في أي وضع من أوضاعه هو أحد اثنين لا ثالث لهما – أيا كان جنسه ولونه ولغته وثقافته ومبلغه من " العلم " ومبلغه من الحضارة ومبلغه من الثروة ومبلغه من القوة – فهو إما ذلك الذي يستمد منهج حياته من المنهج الرباني ، وإما ذلك الذي يستنكف أن يأخذ عن الله منهج حياته ، ويستكبر عن عبادة الله :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [136] .

ولا يعني هذا التقسيم " المبدئي " أنه لا توجد تقسيمات أخرى ومفاضلات أخرى بين البشر.

فلا المؤمنون كلهم نوعية واحدة ودرجة واحدة ، ولا الكافرون كذلك .

يقول تعالى عن المؤمنين :

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) [137] .

(لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) [138] .

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [139] .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) [140] .

" المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفي كل خير " [141] .

---

(135) سورة البقرة [208] .

(136) سورة التغابن [2] .

(137) سورة فاطر [32] .

(138) سورة النساء [95] .

(139) سورة الحجرات [13] .

(140) سورة الأنعام [132] .

(141) أخرجه مسلم .

والكفار جميعا ملعونون ولكنهم كذلك درجات ، بعضهم أشد كفرا من بعض . ومنهم من هو في ضحضاح من النار ومنهم من هو في الدرك الأسفل من النار . وفي الدنيا كذلك فيهم خيار وفيهم دون ذلك .

ولكنهم كلهم بشر ، فيهم الخصائص الرئيسية للإنسان : فيهم الوعي والإرادة والحرية ، ويفترقون في إشراقة الروح ، فهي عند المؤمن عنصر فعال يرفعه إلى أعلى ويزكي نفسه ، وعند الكافر عنصر مطموس لا يعمل ، فتهبط به ثقلة الطين .

* * *

وهذا الإنسان الذي زوده الله بهذه الخصائص : الوعي والإرادة والحرية – ليس مخلوقا عبثا ، وليس متروكا سدى . إنما هو مسئول .. مسئول في الدنيا والآخرة ، مقابل هذه الخصائص التي أعطيت له :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (142) .

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) (143) .

كلا ! إنه مسئول عن كل تصرف يتصرفه في الحياة الدنيا بوعيه وإرادته وحريته .

وتتمثل مسئوليته في أنه مفطور على حب الاستمتاع ، وأن المتاع موجود في الحياة الدنيا ومتاح ، ولكن الله رسم له حدوداً معينة (هي التي يعلم سبحانه أنه يتحقق بها الخير في الحياة الدنيا) ووضَعَ الإنسانَ مقابل ذلك المتاع .. للابتلاء – بمعنى الاختبار – وجعل موضوع الاختبار هو : ماذا يأخذ من متاع الدنيا وماذا يدع . وما الطريقة التي يأخذ بها ما يأخذ ويدع بها ما يدع . والمحك هو الالتزام بحدود الله أو تجاوز الحدود :

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) (144) .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (145) .

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) (146) .

---

(142) سورة المؤمنون [115] .

(143) سورة القيامة [36] .

(144) سورة الإنسان [2] .

(145) سورة الكهف [7] .

(146) سورة البقرة [36] .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (147) .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا) (148) .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا) (149) .

ومقابل الالتزام جنة عرضها السموات والأرض . ومقابل التجاوز عذاب لا يقف عند حد .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) (150) .

والإنسان في ذلك جزء من بنية هذا الكون الهائل العظيم ، الذي خلقه الله بالحق . ولا يتم هذا الحق بالنسبة للإنسان حتى يحاسب في اليوم الآخر عما فعله في الحياة الدنيا ويأخذ جزاءه عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) (151) .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) (152) .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (153) .

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (154) .

---

(147) سورة آل عمران [14] .

(148) سورة البقرة [229] .

(149) سورة البقرة [187] .

(150) سورة النساء [13 – 14] .

(151) سورة يونس [4] .

(152) سورة ص [27] .

(153) سورة آل عمران [190 – 191] .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) (155) .

ومن ثم فليس الإنسان حرا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . فذلك شأن الإله سبحانه وتعالى ، والإنسان ليس إلها :

(.. إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) (156) .

(لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) (157) .

وكذلك ليس ساقطا عنه التكليف كالحيوان ، لأنه ليس حيوانا . ولا هو مقهور على التصرف بطريقة معينة كالكون المادي .. إنما هو " إنسان " ذو وعي وإرادة وحرية في نطاق معين . وعلى قدر هذا النطاق يسأل عما يفعل ، ويجازى عليه .

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ، وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) (158) .

* * *

ما النطاق المتاح للإنسان ؟!

إنه النطاق المتناسب مع وظيفته :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (159) .

وهذا الخليفة مكلف بعمارة الأرض :

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (160) .

ومزود بالأدوات التي تعينه على عمله ، ومسخّرة له المواد التي يحتاج إليها في العمل :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (161) .

---

(154) سورة الأنبياء [47] .

(155) سورة الزلزلة [7 – 8] .

(156) سورة الحج [14] .

(157) سورة الأنبياء [23] .

(158) سورة الأعراف [6 – 9] .

(159) سورة البقرة [30] .

(160) سورة هود [61] .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) [162] .

ولكنه مكلف – في عمارته للأرض – أن يعمرها بمقتضى المنهج الرباني :

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [163] .

في هذا النطاق منح الحرية التي تقابلها المسئولية .

فهو يملك أن يعمّر الأرض بمقتضى المنهج الرباني إذا شاء والتزم ، ويستطيع كذلك أن يعمرها بمناهج من عند نفسه يخالف بها أمر الله إذا شاء ألا يلتزم . ولكن لا تجري الأمور في الحالتين على صورة واحدة – وإن تشابهت أحيانا – إنما تختلف النتائج في الدنيا وفي الآخرة على السواء ، بمقتضى سنن لا يملك الإنسان أمرها ، إنما هي سنن إلهية ، الله هو الذي قررها وقدرها ، وهو الذي يجريها بمشيئته في حياة الإنسان ، ولا يملك الإنسان إزاءها إلا الإذعان ، وإن كابر وزعم أنه إله !

وبين حرية الاختيار وحتمية السنن التي لا تتبدل ولا تتحول تسير الحياة البشرية في مجراها الذي قدره الله ، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

* * *

في عمارة الأرض يحتاج الإنسان إلى السمع والأبصار والأفئدة .

السمع والأبصار والحواس جميعا هي أدواته للتعرف على ما حوله ، والتعرف على الكون المادي ، وعلى خصائص المادة التي سيستخدمها في عمارة الأرض .. وهو يستخدمها بجهد يبذله – مكتوب عليه في قدر الله ..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) [164] .

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) [165] .

---

(161) سورة النحل [78] .

(162) سورة الجاثية [13] .

(163) سورة البقرة [38 – 39] .

(164) سورة البلد [4] .

(165) سورة الانشقاق [6] .

فبغير الجهد لا يصل إل شيء ، لأنه ليس إلها يقول للشيء كن فيكون ، إنما هو " إنسان " له قدرة ممنوحة له من عند الله ، ولكنها قدرة محدودة بالقياس إلى القدرة التي لا تحد .. قدرة الخالق العظيم التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض .

وهو حري أن يعرف حدود قدرته تلك لكيلا يطغى بها على الخلق ، ولا يتمر بها على سلطان الله ، بدلا من أن يشكر المنعم الوهاب الذي منحه ما منحه من القدرات والخيرات :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [166] .

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [167] .

ولكن السمع والأبصار ، وما تؤدي إليه من الإدراك الحسّي ، وما ينشأ عن ذلك من "" علم " ، وما يؤدي إليه ذلك العلم من عمل في عمارة الأرض .. كل ذلك لا يفي بتحقيق ما خلق الله الإنسان من أجله :

(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) [168] .

لا بد مع السمع والأبصار من " الأفئدة " التي وهبها الله للإنسان لتحقيق غاية معينة ، لا يتم تحقيق غاية وجوده إلا إذا أداها .

الأفئدة هي الأداة التي تصل الإنسان بالله ، يحبه ويخشاه ، ويتطلع إليه في كل خطوة ، ويدهوه ويستغفره ويتوب إليه ، ويستمد منه العون ، ويطلب منه التوفيق :

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) [169] .

وهي الأداة العظمى في العمارة الحقيقية للأرض . فليست العمارة المادية وحدها هي المطلوبة من الإنسان في الأرض ، إنما هي عمارة " القيم " التي تحقق ما سخر الله للإنسان من طاقات السموات والأرض بحيث يجري الأمر فيها حسب المنهج الرباني الذي أنزله الله لعمارة الحياة الدنيا ، وجعل جزاءه النعيم الخالد في الآخرة .

وهذه القيم ، وهذه العمارة القائمة على القيم هي المهمة الحقيقية للإنسان ، التي بدونها لا يكون قد عمل شيئا في الحقيقة ، ويكون عمله كبناء أقيم على جرف هار :

---

(166) سورة النحل [53] .

(167) سورة إبراهيم [34] .

(168) سورة عبس [23] .

(169) سورة الإسراء [57] .

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ_ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [170]

من أجل ذلك يقول الله عن الذين يعطلون هذه الأداة الضخمة أنهم يلغون حتى سمعهم وأبصارهم ، لا لأنها لا تدرك الإدراك الحسي ، ولكن لأنها غافلة عن دلالة ما تسمع وما ترى فكأنها غير موجودة ما دامت لا تؤدي مهمتها :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [171].

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ) [172] .

* * *

يقوم الإنسان بعمارة الأرض مدفوعا بدوافع كامنة في الفطرة .. أوجدها فيها الخالق الذي كلفه بتلك العمارة وأعانه عليها ، وأمده بالأدوات اللازمة للقيام بها .. فما معيار إنجازاته في عمارة الأرض ؟

لكل عمل يعمله درجة ، والنجاح والفشل مرهون بمجموع الدرجات .

نعم .. ولكن !

في المنهج الرباني " مادة رسوب " – إذا استعرنا الاصطلاح – يعتبر الإنسان راسباً إذا رسب فيها ، ولو حصل على النهاية العظمى في سائر المواد ! تلك المادة هي الإيمان بالله واليوم الآخر ! .

إن استغلال الحواس مطلوب . واستخدام العقل مطلوب . وتسخير الطاقات التي أودعها الله في السموات والأرض مطلوب . والتحسين والتجميل والتكميل مطلوب [173] . وبذل الجهد – العضلي والعقلي – لتحقيق ذلك كله مطلوب . وكله ينال الإنسان عليه درجات بمقدار ما يبذل

---

(170) سورة التوبة [109] .

(171) سورة الأعراف [179] .

(172) سورة الأنعام [112 – 113] .

(173) سنتكلم عن هذه النقطة فيما بعد .

من الجهد .. ولكن هذا كله لا يضمن النجاح – في المنهاج الرباني – بغير الإيمان بالله واليوم الآخر .. ويعتبر الإنسان راسبا إذا رسب في هذه المادة الرئيسية !

وهنا مفرق الطريق بين مفهوم الإسلام ومفاهيم الجاهلية !

إن الجاهلية تعتبر أن النجاح في العمارة المادية للأرض . في اكتساب القوة والتمكن . في الغلبة والسيطرة . في استخدام العقل والحواس ، ثم في الاستمتاع بمتاع الأرض .. هو قمة النجاح الذي لا يحتاج الإنسان معه إلى شيء ، ولا يحتاج بعده إلى شيء ..

وكان يمكن أن يكون هذا معيارا صحيحا لو أن الإنسان هو الإله ! هو الذي يقدر المقادير ، وهو الذي يقرر لنفسه مبدأه ومنتهاه ، ومشيئته هي النافذة في الكون وفي الحياة !

فهل هو بالفعل كذلك ؟!

فما باله " عاجزا " في أمور لا تحصى ، تزيد عددا ومدى وأثرا عن كل ما يعتبر نفسه " قادرا " عليه ، حتى لو ظن – في غفلته – أن قدرته فيما هو قادر عليه هي من عند نفسه وليست من عند الله :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) (174) .

(فَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (175) .

ما بال علمه قاصرا حتى عن الإحاطة بكل ما تشمله نقطة صغيرة في فضاء الكون – هي الكوكب الذي يعيش فيه – والكون فيه من أمثالها الملايين ، ومن أضعاف أضعافها الملايين ، بل ملايين الملايين ؟

ما باله عاجزا عن علم الغيب .. لا غيب السنوات القادمات بل غيب الغد القريب ، بل غيب اللحظة التي بدأت منذ لحظة ولما تنته بعد ؟!

بل ما باله في لحظات الضيق ينسى قدرته المزعومة ويلجأ إلى القوة الحقيقية التي تملك كل شيء :

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْأِنْسَانُ كَفُوراً) (176) .

---

(174) سورة القصص [78] .

(175) سورة الزمر [49] .

بل ما باله يقف عاجزا أمام ما يسميه " كوارث الطبيعة " من زلزال مدمر ، أو إعصار كاسح ، أو فيضان هادر ؟ .

بل ما باله لا يملك حتى الهواء الذي يتنفسه ، وحتى الماء الذي يشربه ؟

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) (177) .

فإذا كان هذا هو الإنسان في حقيقته ، فما قيمة انتفاشته الفارغة حين يقول : أنا أقرر لنفسي المعيار ؟! أو حين يقول : لقد شب الإنسان عن الطوق ، ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله !!

وما قيمة أن تقوم " علوم " تجعل معيار النجاح هو ذلك المعيار الجاهلي ، سواء كانت اقتصادا أو اجتماعا أو تاريخا او تربية أو علم نفس ، و تغفل " مادة الرسوب " ، وهي المادة التي لا ينجح في ميزان الله من رسب فيها ولو ملك كل ما في الأرض ومثله معه ، بينما الميزان في يد الله سبحانه وتعالى وليس في يد الإنسان ؟!

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) (178) .

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) (179) .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)(180) .

أما أنهم ينجحون في الدنيا .. فنعم ! حين يبذلون الجهد اللازم ويتخذون الأسباب ! ولكن لولا أن الله كتب لهم النجاح بهذه الأسباب – لحكمة يريدها – ما نجحوا من تلقاء أنفسهم ، لأن الأسباب لا تفعل من ذات نفسها ولكن بتقدير الله لها ، ويجري النجاح بها بسنة مقدرة من عند الله :

---

(176) سورة الإسراء [67] .

(177) سورة الملك [21] .

(178) سورة الفرقان [23] .

(179) سورة إبراهيم [18] .

(180) سورة الكهف [105] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [181].

بل أكثر من ذلك !

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [182] .

فليس النجاح – في الدنيا – بهذه الأسباب حتمية لا بد أن تتحقق بالجهد البشري ! إنما هو أمر قدره الله لحكمة يريدها ، وإذ شاء سبحانه ألا يقع النجاح فإنه لا يقع ، ولو اتخذت الأسباب . وما أمر فرعون بمجهول في التاريخ البعيد ، وما أمر هتلر بمجهول في التاريخ القريب !! كل منهما اتخذ من الأسباب ما يفوق التصور ، وكل منهما باء بالفشل الذريع ، فغرق أحدهما في اليم ، وانتحر الآخر مغلوبا على أمره وهو على قيد خطوة من الوصول !

* * *

من جهة أخرى فإن مجرد النجاح في " مادة الرسوب " لا يضمن النجاح في الحياة الدنيا إذا لم يحصّل الإنسان درجات النجاح في بقية المواد ! وهي تكليف رباني ، يعتبر " الإنسان المؤمن " مقصرا إذا لم يقم به ، ويعتبر عدم القيام به نقصا في إيمانه في ميزان الله ، ويعاقب الله الإنسان إذا لم يقم به بشتى أنواع العقاب .

خذ مثالا لذلك هذا التكليف الرباني للأمة المسلمة :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) [183] .

كم يشمل هذا التكليف – المفرد في ظاهره – من التكاليف المتضمنة في أطوائه ؟

هل يمكن إعداد القوة بغير جهد يبذل في صنع السلاح والتدريب عليه ؟

وهل يمكن صنع السلاح بغير علم وعمل ؟ علم بالفيزياء والكيمياء وفنون الصناعة المختلفة (التكنولوجيا) وعمل في إقامة المصانع ، وإعداد المهندسين الذين يقومون بإنشائها

---

(181) سورة هود [15 – 16] .

(182) سورة الأنعام [44 – 45] .

(183) سورة الأنفال [60] .

وتركيب الآلات فيها وصيانتها والإشراف على الإنتاج فيها ، ومتابعة ما يجد في العالم من تقنيات (وخاصة عند العدو) والمحاولة الدائمة للابتكار والتفوق ؟

وهل يمكن التدريب بغير إعداد مدربين متمكنين من العلم وفي الوقت ذاته يملكون الصدق والإخلاص اللازمين ، أي من الذين تربوا تربية روحية جهادية على يد مربين نذروا أنفسهم لإعلاء كلمة الله .

وهل يمكن إنتاج السلاح والتدريب عليه (وهو معنى إعداد العدة) بغير مال وفير ينفق في هذا الشأن (وهو ما أشارت إليه الآية إشارة واضحة في قوله تعالى : **(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ)** ؟

وهل يمكن توفير المال بالقدر المطلوب ما لم تكن الأمة – في مجموعها – عاملة مجتهدة منتجة ، وفي الوقت ذاته مقتصدة غير مسرفة ، أي أنها تنتج كثيرا وتستهلك قليلا ، لكي يتوفر الفائض الذي ينفق في إعداد العدة ؟ .

وهكذا نرى أن هذا التكليف الرباني – المفرد في ظاهره – قد حوى من التكاليف ما يشكل منهجا كاملا لحياة أمة بأكملها يشمل كل فرد فيها ، إما بفرض عين أو فرض كفاية ، ويشمل مساحة واسعة من العلم والعمل ، وتأثم الأمة في مجموعها إن لم يقم القادرون من أفرادها بأداء ما يجب عليهم أداؤه ، وتعاقب الأمة – في مجموعها – في الحياة الدنيا بغلبة أعدائها عليها ، وفي الآخرة ينال كلٌّ نصيبه من الحساب بحسب موقعه وقدرته : أولياء الأمور أولا ثم عامة الناس ..

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) [184] .

إن المعايير الربانية جادة كل الجد ، محكمة ، دقيقة ، حاسمة . إنها ليست شيئا هلاميا لا قوام له ، ولا شيئا رجراجا لا تثبت له صورة محددة ، ولا هي مجرد شعارات ترفع ، ولا أماني يصوغها الخيال كما يتصور الجاهليون عما يسمونه " المعايير الدينية ! " ولا هي كذلك تجامل الناس لمجرد قولهم – أو ظنهم – أنهم مؤمنون صادقو الإيمان ما لم يحققوا تكاليف الإيمان التي فرضها الله عليهم . والذين يظنون – من الجاهليين – أنهم هم البارعون ، وهم الواقعيون ، وهم العمليون ، لأنهم يحددون أهدافهم تحديدا واضحا ، ويتخذون الأسباب الواقعية العملية التي تحقق أهدافهم بعيدا عن " مثاليات " الدين ، هؤلاء لم يتعرفوا على حقيقة المعايير الربانية ، ولم يدرسوا السنن الربانية دراسة " علمية " واعية ، ليعرفوا أنها لا تغفل اتخاذ الأسباب ، ولا تكل الناس إلى

---

[184] سورة الأنفال [25] .

المشاعر والوجدانات ، والأماني الفارغات ، إنما تتطلب منهم جهدا حقيقيا في عالم الواقع .. غير أنها تفترق عن معايير الجاهليين في أمرين رئيسيين :

الأمر الأول : هو تحديد غاية الوجود الإنساني ، التي يتخذ الإنسان الأسباب لتحقيقها ، ومن ثم الالتزام بالأسباب التي تتواءم مع هذه الغاية ولا تصادمها .

فالنجاح – الأرضي – بالغش والكذب والخديعة والنفاق والمداهنة – وهو ما تدعوا إليه الميكيافيللية صراحة وتطبقه بلا تحرج في معظم معاملاتها – لا يعتبر بالمعايير الربانية نجاحا يتفق مع غاية الوجود الإنساني الذي رفعه الله وكرّمه :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [185] .

وإن من التكريم أن تكون وسائل الإنسان في تحقيق ذاته وتحقيق غاية وجوده غير وسائل الحيوان التي يستخدمها في صراع البقاء ، وفي الاستمتاع . وحين يطبق البشر في حياتهم قانون الغاب ، و " ينجحون " على أساسه في تحقيق ذواتهم ، أو " يستمتعون " على طريقة الحيوان ، ويتجاوزون الحد في المتاع الحسي ، فما الفرق إذاً بينهم وبين الوحوش الضاربة ، أو بينهم وبين السائمة ، وأين منهم شرف الانتماء إلى آدم الذي أسجد الله له الملائكة :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ..) [186] .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ..) [187] .

لقد خلق الله الإنسان لأهداف أخرى غير التي خلق الحيوان من أجلها . ولم يكن خلقه مجرد إضافة حيوان جديد إلى قائمة الحيوان ، إنما كان إيجاد جنس آخر من الخلق ، خلقه الله بقدرته ، ليعبد الله على وعي ، ويعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني . ومن أجل هذه الغاية وهب له ما وهب من المزايا ، وأنزل الكتب لهدايته على أيدي الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم . وكان من أهداف إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [188] .

---

[185] سورة الإسراء [70] .

[186] سورة البقرة [34] .

[187] سورة محمد [12] .

[188] سورة الحديد [25] .

فأنّى يتحقق القسط بين الناس حين يطبقون في حياتهم قانون الغاب الذي وضع للحيوان؟!

وليس القسط مجرد شعارات ، ولا " مثاليات " غير قابلة للتطبيق ، يتجافاها " الواقعيون " من الجاهليين ليصلوا إلى " النجاح " ! إنما هو واقع قابل للتطبيق ، وطبقته الأمة المسلمة عدة قرون في واقع الأرض ، على الرغم من كل ما أصابها من انحراف في أثناء مسيرتها التاريخية ، وكانت " ناجحة " بكل المقاييس ، وفي جميع الميادين ، ولكن على المستوى اللائق بالإنسان ، سواء في معاملة " الآخر " الذي لا يؤمن بالإسلام وبمبادئه [189] ، أو في نظافة المجتمع من الفاحشة ، أو في الخدمات الإنسانية التي تقدم للناس ، أو في التعاون على البر والتقوى ، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن التمكن في الأرض – على هذا المستوى – أمر مطلوب ، ومنّة يمن الله بها على المؤمنين حين يتبعون منهجه :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [190] .

وهو يحقق للناس كل ما يصبون إليه من " النجاح " في واقع الأرض ، ولكن في طهارة من الدنس ، وترفع عن مستوى الحيوان ..

أما الأمر الثاني الذي تفترق فيه المعايير الربانية عن المعايير الجاهلية ، فهو مدّ الوعي بالوجود الإنساني إلى ما وراء الحياة الدنيا القصيرة الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، لا لإيجاد معيارين مختلفين يتردد الإنسان بينهما ، مرة هنا ومرة هناك ، ولكن لتثبيت المعيار الأول وتمتينه وتمكينه ، وجعله أكثر فاعلية في حياة الإنسان . فالمعيار الأول ، الخاص بالنجاح والتمكين في الحياة الدنيا بمقتضى المنهج الرباني ، هو ذاته الذي يوصل الناس إلى الآخرة سالمين غانمين مستحقين لرضوان الله . ولا يحتاج الأمر إلى إضافة شيء خاص – لا تصلح به الحياة الدنيا – ولا إلى حذف شيء معين مما تصلح به الحياة الدنيا حسب المنهج الرباني . فحسب الإنسان أن ينشط في الدنيا بعمله وعمله ، ومجاله الفردي ومجاله الأسري ومجاله

---

[189] يشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغير المسلمين في البلاد المفتوحة كانت مثالا رائعا من التسامح لا مثيل له في التاريخ ، ويتضح مدى نبله بالمقارنة مع وضع الأقليات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة اليهود والنصارى والمشركين عامة .

[190] سورة النور [55] .

الاجتماعي ومجاله البشري ملتزما بما أنزل الله ، متوجها بعمله ومشاعره إلى الله ، ليستحق عند الله نعيم الآخرة . فإن تكن إضافةٌ بالتطوع النبيل بما لم يفرضه الله فرضا ، أو الزهد النبيل في شيء لم يفرض الله الزهد فيه ، فهذا رفع للدرجات عند الله ، ولكنه ليس شرطا للأمن والكرامة يوم القيامة .

وإن الصورة المريضة التي تعيشها الأمة اليوم ، ويتخذها الجاهليون المعاصرون حجة لنبذ المعايير الربانية واتخاذ معايير الجاهلية الأوربية ، ليست من الإسلام ، ولا تحسب على الإسلام، ولا يحتج بها على الإسلام . إنما هي انحراف لتسأل عنه الأمة في الحياة الدنيا ويوم تقوم بين يدي مولاها :

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلونَ) [191] .

إنما الصورة السليمة التي عاشتها الأمة بالإسلام قرونا متوالية هي المرجع ، وهي المحك لواقعية المعايير الربانية ، وأنها ليست مُثُلاً معلقة في الفضاء غير قابلة للتطبيق ، كما يزعم الذين انحطت عزائمهم عن الرفعة التي أرادها الله للإنسان ، فأخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، وأبوا الاحتكام إلى ما أنزل الله ، ثم زعموا أنهم هم الفائزون !

(لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [192] .

على أن الخسارة ليست واقعة في الدار الآخرة وحدها ! فالوضع المضطرب الذي تعيشه البشرية اليوم في مختلف أرجاء الأرض ، هو شهادة الواقع على مدى صلاحية المعايير الجاهلية المجافية للمنهج الرباني لقيادة البشرية إلى النجاح الحقيقي ، الذي يستمتع فيه الإنسان بالحياة . وانظر فقط إلى نسبة الأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة .. والفزع الدائم من الأزمات ، سواء السياسية أو الحربية أو الاجتماعية أو الاقتصادية .. واسأل نفسك هل أدى التقدم العلمي والتكنولوجي وظيفته التي كان قمينا أن يقوم بها في ظل المنهج الرباني ، يوم يقوم الناس بالقسط ؟!

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [193] .

* * *

---

[191] سورة الزخرف [44] .

[192] سورة النحل [109] .

[193] سورة طه [124] .

هذا التصور الإسلامي للإنسان ، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، قد برئ من الاختلالات الرئيسية الثلاثة التي وقع فيها التصور الغربي . فلا هو يتعامل مع الإنسان على أنه حيوان متطور ، ولا على أنه إله ، ولا على أنه يعيش حياته الدنيا منقطعة عن الآخرة .

والعلوم الاجتماعية التي تدرس أحوال الإنسان مستندة إلى هذا التصور ومستمِدَّة منه ، لا بد أن تختلف اختلافا جذريا في المنطلق وفي الغاية ، عن العلوم التي تستمد من التصور الغربي ، ولو التقت معها في بعض الجزئيات ، أو في كثير من الجزئيات . فليست الجزئية هي التي تحدد الصورة النهائية ، إنما الصورة الشاملة هي التي تحدد مكان الجزئية من الصورة ، ودلالتها في الكل المتكامل الذي تمثله الصورة .

وفي الفصل التالي نعرض خطوطا عريضة لما نتصور أن تكون عليه الدراسات الاجتماعية المستمدة من التصور الإسلامي للإنسان .

خطوط عريضة في التأصيل الإسلامي

قلت في نهاية الفصل السابق إن الاستمداد من التصور الإسلامي للإنسان ، سيصل بنا في العلوم الاجتماعية إلى نتائج تختلف في المنطلق وفي الغاية عن النتائج التي يتوصل إليها " العلماء " في الغرب ، وإن التقت معهم في بعض التفصيلات أو في كثير من التفصيلات .

ونقول هنا إنه على الرغم من أن هذا الاختلاف سيقع تلقائيا ، نتيجة اختلاف التعامل مع الحيوان المتأله الذي يعيش لدنياه وحدها منقطعة عن الآخرة ، عن التعامل مع الإنسان العابد لله، الذي يعلم أنه عبدٌ لله ، ولكنه مكرم بعبوديته لأن الخالق الكريم كرمه ، والذي يعيش لدنياه وآخرته في آن واحد .. على الرغم من ذلك فإن الكاتب المسلم الذي يتصدى للكتابة في العلوم الاجتماعية من منطلق إسلامي ، يجب أن يوجه باله إلى عدة أمور ، تعاونه في البحث ، وتجنبه منزلقات كثيرة يقع فيها " علماء " الغرب ..

الأمر الأول أن من بديهيات البحث العلمي أن تكون " العينة " التي يُجْرَى عليها البحث ممثلة تمثيلا صادقا للنوع أو الشيء المراد دراسته وتقنينه ومعرفة خواصه وترتيب النتائج عليه .

فإذا أردنا – مثلا – أن نختبر خواص الحديد ، فلا يكفي – للاطمئنان إلى النتائج اطمئنانا علميا – أن نأخذ عينة من مكان معين ، ونجري عليها ما نشاء من التجارب ، ثم نقول: ثبت لدينا أن خواص الحديد هي كذا وكذا .

ولكن لا بد من أخذ عينات من أماكن شتى ، وإجراء التجارب على كل منها ، فإذا ظهر لنا بعد تكرار التجربة على العينات المختلفة أنها كلها تعطي نتيجة واحدة ، أو نتائج متشابهة بحيث لا يؤبه للخلاف الطفيف فيها ، قلنا مطمئنين : إن خواص الحديد هي كذا وكذا ، وأشرنا إلى الفروق الطفيفة إن وجدت مثل هذه الفروق .

هذا مع العلم بأن التعامل مع المادة أكثر ضمانا في الحصول على نتائج قطعية ونهائية، لأن المادة – في الغالب – تعطي نتائج متماثلة في الظروف المتماثلة . وإن كان العلم الحديث – المتقدم – قد نفى الحتمية القطعية حتى في عالم المادة ، واستبدل بها نظرية الاحتمالات التي تقول إنه لا شيء قطعي في الكون المادي ، إنما هي احتمالات ، الاحتمال " أ " أكبر من الاحتمال " ب " ، والاحتمال " ب " أكبر من الاحتمال " جـ " .. !

فكيف مع الإنسان .. وكيف مع النفس البشرية ؟!

إننا نتعرض لخطأ علمي فادح حين نأخذ العينة البشرية التي ندرسها من جيل معين من أجيال البشرية ، ثم نستخرج منها نتائج عامة ، ولو قمنا بإجراء التجارب على كل أفراد ذلك الجيل ، وهذا مستحيل بالطبع ! .. لأن الجيل الذي نختاره للدراسة قد لا يكون ممثلا للنوع البشري في جميع أحواله ، وقد تكون هناك أجيال أخرى منه ذات خصائص مختلفة .

فكيف إذا كانت دراستنا لا تشمل كل أفراد الجيل ، وكان الجيل لا يشمل بالضرورة كل خصائص النوع البشري .. كم تكون دراستنا بعيدة عن الواقع ، وبعيدة عن " الأصول العلمية " التي يجب توافرها في البحث ؟

وقد يبدو ما قلناه بديهية مسلمة لا يغفل عنها " عالم " !

ولكن انظر إلى دوركايم – مثلا – وهو في حس كثير من دارسي علم الاجتماع عمدة لا يراجع ولا يناقش فيما يقول ! .. انظر إليه يأخذ العينة التي يبني عليها استنتاجاته من جيله المنحرف – الذي عملت عوامل كثيرة على إشاعة الانحراف في كيانه – فيقول إن الدين والزواج والأسرة ليست من الفطرة !

فعلى أي شيء بنى تلك النتيجة التي أعطاها صفة القطع ؟!

لقد بناها على جيل معين من أجيال البشرية فرط في دينه ، ولم يعد يلتزم بالزواج إطاراً للعلاقة بين الجنسين ، ولم يعد يهتم بالأسرة كياناً يجمع الأم والأب والأولاد ..

فهل يمكن أن توصف هذه الاستنتاجات بأنها " علمية " وأنها سليمة ؟

وهل يلغي جيلٌ دلالة أجيال لا يحصيها إلا الله وحده ، ولكن لدينا من الآثار المكتوبة والمنقوشة ما يغطي منها سبعة آلاف من السنين أو خمسة آلاف في أقل تقدير ؟!

ولا ندخل الآن في نية الكاتب من إصدار هذه " الفتوى " العلمية المزيفة ، وماذا كان يريد من وراء نفي الثبات عن الدين والزواج والأسرة ، واعتبارها أشياء ليست من الفطرة (أي قابلة للإلغاء في أي وقت) إنما نسأل من الوجهة العلمية البحتة ، هل هذا المنهج : وهو أخذ العينة من جيل معين من أجيال البشرية ثم تعميم النتائج المستمدة منها على النوع البشري كله .. هل هو منهج " علمي " سليم ؟!

وهل معنى هذا – من جهة أخرى – أن نلغي دلالة هذا الجيل الذي وقع فيه التفريط في الدين ، وعدم التزام الزواج إطاراً للعلاقة بين الجنسين ، وعدم التزام الأسرة كيانا يجمع الآباء والأبناء ؟

إننا إذا أغفلنا هذا الجيل ، وألغينا دلالته ، لا نكون واقعيين من ناحية ، ولا تكون النتائج التي نصل إليها صحيحة من الوجهة العلمية ، ولا متصفة بالعموم والشمول الذي ندعيه في البحث العلمي .

إنما يكون المسلك العلمي الصحيح أن نرصد الظاهرة خلال الأجيال ، في آلاف السنين التي نملك عنها بيانا نطمئن إلى صحته ، ثم نقرر **شذوذ هذا الجيل** عن سلسلة الأجيال قبله ، ثم نحاول أن نرصد أسباب هذا الشذوذ في واقعنا المعاصر ، لنعلم إن كان شيئا عارضا قابلا للزوال ، أم إنه تحول في الفطرة البشرية ذاتها خرج بها عن خطها إلى خط جديد ..

وإذا فعلنا ذلك فسيتضح لنا أن " الفتوى " التي أصدرها دوركايم ، ونفى فيها أن يكون الدين والزواج والأسرة أشياء من الفطرة ، هي – على أقل تقدير – فتوى ينقصها الدليل العلمي ! [194]

* * *

المزلق الثاني الذي يقع فيه بعض المؤلفين في العلوم الاجتماعية – والذي يجب أن يتجنبه الكاتب المسلم – هو الدعوى التي تقول إن البحث العلمي يجب أن يكون " واقعيا " لا يتعلق " بالمثاليات " ، أي أنه يجب أن يتعامل مع ما هو كائن لا مع ما ينبغي أن يكون !

إن هذا المنطلق يصح في حالة واحدة ، هي أن يكون " ما يجب أن يكون " غير قابل – في ذاته – للتطبيق ، لمخالفته للفطرة البشرية ، أو لكونه خارج حدود قدرة الإنسان . فأما إن كان مما يقدر الناس عليه ، ومما طبق بالفعل في فترة معقولة من الزمن ، فلا تقبل دعوى " الواقعية " في عدم التعامل معه ، ولو انحرف الناس عنه ، بل ولو كان أكثر الناس منحرفين عنه . فالقضية هنا لا تتعلق بالواقعية أو عدمها ، إنما تتعلق بالمرجعية : هل هي للإنسان أم هي لخالق الإنسان !

وهذا المزلق بالذات هو من أشد المزالق التي يقع فيها الغرب في دراساته الاجتماعية ، منذ خروجه من " الربانية " الكنسية إلى " الإنسانية " المتمردة على سلطان الله . فإذا اعتبر الإنسان هو المرجع أصبح الهبوط والانحراف أصلا لأنه هو الغالب على الناس في جاهليتهم ، وأصبح التسامي والارتفاع شذوذا لا يؤبه به لقلته وقلة تأثيره في المجموع .

ولكن المسلم مرجعيته هي ما جاء من عند الله ، وليس " واقع " الناس .

---

[194] سنتكلم عن هذه القضية بشيء من التفصيل فيما بعد .

وحين يضع الله حدا من الحدود ويجعله ملزما للناس ، فهو بالنسبة للمسلم ملزم ولو عصاه الناس أجمعون !

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (195) .

وهو ملزم باعتبارين اثنين في آن واحد .

الاعتبار الأول أنه منزل من عند الله الخالق ، الذي له الأمر بمقتضى كونه هو الخالق سبحانه :

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) (196) .

والاعتبار الثاني أنه منزل من عند الله العليم الحكيم ، الذي يعلم حقيقة الإنسان الذي خلقه، وحقيقة قدراته ، فيكلفه ما يعلم سبحانه أن فيه صلاحه ، وما يعلم أنه في مقدوره :

(.. قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (197) .

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (198) .

ومن ثم فكل التكاليف التي كلف الله بها الإنسان ملزمة له بهذه الاعتبارات ، وهي الأصل الذي يجب أن يكون عليه الإنسان . وحين ينحرف عنه يكون انحرافه في خانة " الخطأ " لا في خانة " الواقع " ، ولو وقع في الخطأ كل الناس ! .. فإن كثرة الخطأ وعمومه لا تنفي عنه صفته، ولا تعطيه شرعية الوجود .

ولكن حين يكون هذا الواجب الملزم قد طبق بالفعل لا في أفراد متناثرين بل في أجيال ، ولقرون عدة متوالية – كما وقع التطبيق على يد الأمة الإسلامية في واقعها التاريخي على الرغم من كل انحرافاتها – فإن الواجب عندئذ يكون أشد إلزاما ، وأوجب في التنفيذ ، وأوجب في اعتباره هو الأصل ، وإن عصاه من عصاه !

يقول تعالى في كتابه المنزل :

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) (199) .

---

(195) سورة النساء [64] .

(196) سورة الأعراف [54] .

(197) سورة المائدة [15 – 16] .

(198) سورة البقرة [286] .

فالإيمان بالله واجب ملزم في ذاته – بحجيته الخاصة – ولكن استجابة المستجيبين له تجعله أشد إلزاما ، وتجعل المخالفين أعظم جرماً عند ربهم ، وأشد استحقاقا للغضب وللعذاب الشديد .

كذلك فإن استجابة أجيال من الأمة الإسلامية لما " يجب أن يكون " ، على درجات مختلفة ، يجعله أشد إلزاما للبشرية كلها ، ويجعل المخالفين ، سواء من الأمة الإسلامية ذاتها أو من غيرها من الأمم ، هم المخطئين ، أيا كانت نسبتهم ، وأيا كانت نسبة بعدهم عما يجب أن يكون .

والواقعية الإسلامية لن تزيف الواقع ، ولن تعطيه وصفا ليس له . ولكن الفرق بينها وبين واقعية الغرب أنها تتسع للواقع كله ، بشقيه ، الواقع الذي يجب أن يكون عليه الناس ، والواقع الذي عليه الناس بالفعل في أي جيل من أجيالهم ، مقيسا بما يجب أن يكون ، أي موضوعة مخالفاته في خانة الخطأ والانحراف .

وقد يظن بعض الناس أن هذا افتعال وتمحل لا موجب له ! فندلهم – من الواقع – على موجبه !

تناقش البرلمان البلجيكي – الموقر [200] – ذات يوم في قضية الصور العارية التي تصور أوضاعاً مخلة بالأدب والحياء . فقال أعضاء – محترمون [201] – فلنكن واقعيين ! .. إن هذه الصور موجودة بالفعل ، وتملأ السوق ، وإن كانت تتداول خلسة . فما قيمة إصرارنا على منعها ، وتجاهل الأمر الواقع ؟!

وأخذ المجلس الموقر بوجهة نظر النواب المحترمين ، فأصدر قرارا بإباحة تداول الصور التي كانت ممنوعة بحكم القانون . وفي اليوم التالي – كما قالت الصحف البلجيكية ذاتها ، والصحف العالمية كذلك – انتقلت الصور من خفايا الأزقة كما كانت من قبل إلى صدر المحلات الواقعة في الشوارع الرئيسية .. فزاد الإقبال عليها وزادت نسبة انتشارها أضعافا مضاعفة .

ومرة أخرى وقع ذلك المجلس الموقر نفسه في تلك الواقعية الحمقاء ، فقال قائل فيه : فلنكن واقعيين ! .. إن المخدرات ممنوعة بموجب القانون ، ولكنها موجودة ومتداولة رغم قرار المنع ، فما قيمة القرار ؟! .. وتداول المجلس الموقر في الأمر فقرر رفع الحظر عن تعاطي

---

(199) سورة الشورى [16] .

(200) كل البرلمانات موقرة بالضرورة .

(201) وكل الأعضاء محترمون بالضرورة كذلك !

المخدرات ! .. ثم قالت الصحف إن الأطفال في الحافلات العامة صاروا يحقن بعضهم بعضا وهم راكبون في الحافلة !

فأي حماقة ترتكبها تلك الواقعية الحمقاء ؟!

إن قرار المنع هو لون من النهي عن المنكر ، ومهما يكن ضعفه ، وضعف فاعليته ، فهو على أية حال قيد على الانحراف ، فإذا رفعت القيد – بحجة الواقعية – فإن الأمر لا يقف عن الحد الذي كان عليه حين رفعت القيد ، وإنما تجربة الواقع التاريخي كله تقول إنه يزداد سوءا وضراوة بحكم ثقلة الشهوات في النفوس ، وجذبها الدائم للناس إلى أسفل . ولذلك أعطى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتبارا عظيما حتى جعل خيرية هذه الأمة متعلقة به (مع الإيمان بالله) ، وجعل اللعنة على الأمة التي كفت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [202] .

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [203] .

وحين يؤلف مؤلف كتابا أو يبحث بحثا ويسعى إلى نشره فإنه يقصد من وراء ذلك إلى قصد معين ، ودع عنك أكذوبة " الفن للفن " و " العلم للعلم " فهي لا تصدق بالنسبة لعملية النشر ! .. فإنما ينشر المؤلف كتابه لينشر فكره بين الناس . أي أنه داعية يدعو إلى فكر معين .. فما موقف المسلم من هذه القضية ؟! .. إلى أي شيء يدعو الناس ؟!

حين يعطى الواقع المنحرف شرعية الوجود بحجة أنه واقع بالفعل ، فإنه في واقع الأمر يدعو إلى مزيد من الانحراف ، ويؤدي إلى مزيد من الانحراف !

وعلى العكس من ذلك فإنه حين يجعل المرجعية لما أنزل الله ، ويزن الأمور بميزان الله ، فيضع الانحراف في خانة الانحراف ، ويبين الأصل الذي يجب أن يكون ، فهو داعية يدعو إلى الصعود ، ولن تضيع الدعوة في الأمة ما دام فيها دعاة مخلصون ، يبتغون بدعوتهم وجه الله . ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم . فكيف وأنت تدعو أمة بأكملها في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ؟!

---

(202) سورة آل عمران [110] .

(203) سورة المائدة [78 – 79] .

وليس مقتضى ذلك – قط – أن تتحول الدراسات الاجتماعية إلى مواعظ ! .. ولا يتصور الأمر على هذه الصورة إلا جاهل أو معاند . إنما هي الدراسة " العلمية " بكل موضوعية العلم ، " الواقعية " بكل صرامة الواقع ، ولكنها الواقعية الكبيرة التي تتسع لواقع التاريخ ، وواقع الأجيال، وتركز على صعود تصعده البشرية ، ولا تركز فقط على لحظات الهبوط ولحظات الانحراف !

وفيما يلي من الصفحات نعرض خطوطا عريضة لما يمكن أن يكون " ورقة عمل " للتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية .

(1)

في علم الاجتماع

علم الاجتماع الإسلامي ينبغي أن يركز على الموضوعات الآتية :

1- السنن الربانية التي تحكم الحياة البشرية ، وخاصة سنن التمكين في الأرض ، وسنن التدمير .

2- الثابت والمتغير في حياة البشرية .

3- الدين والفطرة .

4- مكانة الأسرة في البنيان الاجتماعي .

5- العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع .

* * *

أولا : السنن الربانية

تجري الحياة البشرية بمقتضى سنن أجراها الله في خلقه ، وثبتها سبحانه وتعالى لتنتظم الحياة البشرية على نسق واضح يعرف الإنسان خطواته ومبتدأه ومنتهاه ، لكي يسير على هدى ولا يتخبط في سيره . ثم عرّفنا بهذه السنن في كتابه المنزل ، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكي نكون على بينة من الأمر في تصرفاتنا ، ونقدر مسئوليتنا في كل تصرف ، فلا نكون في تصرفاتنا عفويين ، ولا فوضويين ، ولا قصار النظر [204] .

[204] مما يلاحظ أن هذه الأمراض الثلاثة : الفوضوية التي تكره النظام ، والعفوية اتي تكره التخطيط ، وقصر النظر ، الذي يصاحبه ويتبعه قصر النفس ، والاشتعال السريع والانطفاء السريع ، هي من أشد الأمراض التي أصابت الأمة حين فقدت وعيها الحقيقي بدينها ، والتمسك به على بصيرة ، ومن أشد ما ينبغي الالتفات إليه في حركة التصحيح .

ولأن السنن الربانية كثيرا ما تكون أطول مدى في تحققها من حياة الفرد القصيرة المحدودة – وخاصة ما يتعلق منها بالجماعات البشرية – فقد وجهنا الله سبحانه وتعالى أن نتدبر التاريخ ، ونستخرج عبرته ، إذ التاريخ هو المجال الواقعي الذي تحققت فيه السنن الربانية من قبل ، وتتحقق من بعد – لثبوتها وحتميتها – فما لا يدرك الإنسان تحققه في فرصة عمره المحدود ، يستطيع أن يراه متحققا في التاريخ ، فيستيقن من صدق السنن ، وأنها لا تتخلف ولا تنحرف عن مسارها ، ولا تجامل أحداً من الخلق .

وحول ثبات السنن واستمراريتها وعدم تخلفها وعدم تبدلها تثور عدة قضايا يدخل بحثها في مجالات علم الاجتماع الإسلامي ، بعضها يتصل بالعقيدة ، وبعضها يتصل بوضع الإنسان في الحياة .

فمما يتصل بالعقيدة أنه لا قيد على مشيئة الله سبحانه وتعالى ، فمشيئته حرة طليقة يفعل ما يشاء ، وهو فعال لما يريد . وتثبيت السنن في جريانها هو من فعله سبحانه وتعالى ومن مشيئته ، دون حتمية عليه جل وعلا ، فإنه إن شاء أن يغيرها فليس في الوجود كله من يقف أو ما يقف أمام مشيئته . ولكنه من رحمته بالإنسان ثبت تلك السنن ، ليعرف الإنسان طريقه على هداها ، ويرسم لنفسه خط سيره على هدى وبصيرة .

ثم إن لله خوارق تخرق السنن الجارية – سواء في الكون المادي أو في الحياة البشرية [205] – يجريها الله متى شاء لمن شاء ، ولا يسأل سبحانه عما يفعل في الكون الذي خلقه بقدرته، ويجريه بقدرته . ولكنا – نحن البشر – مأمورون في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن نتبع السنن الجارية ، وألا نتعلق بالخوارق ، التي لا نملك أمرها ، ولا نستطيع إجراءها ، بينما السنن الجارية معلومة الأول والآخر ، فالاهتداء بها هو الأليق بالبشر ، وهو سبيل النجاح .

وأما ما يتصل بوضع الإنسان في الحياة ، فإن حتمية السنن الربانية تختلف اختلافا جذريا عن الحتميات الزائفة التي أتت بها الجاهلية المعاصرة خاصة ، سواء الحتمية المادية أو الحتمية التاريخية التي اصطنها ماركس ، أو الحتمية النفسية التي اصطنعها فرويد ، أو الحتمية الاجتماعية التي اصطنعها دوركايم ، والتي تلغي إيجابية الإنسان إزاء الضغوط الواقعة عليه من خارج كيانه أو من داخل كيانه ، وتجعله عبداً ذليلا خاضعا للأوضاع المادية ، أو لضغط الشهوات ، أو لضغط المجتمع ، في الوقت الذي يرفض فيه أن يكون عبداً لله !

---

[205] هنا تفترق الرؤية الإسلامية عن رؤية نيوتن ومن سار على نهجه الخاطئ ، الذين قالوا بحتمية قوانين الطبيعة ونفوا المعجزات !

إن هذه الحتميات الزائفة تلغي في الحقيقة " إنسانية الإنسان " المتمثلة في الوعي والإرادة والحرية التي بثتها نفخة الروح في قبضة الطين ، وترده قبضة طين خالصة ، أو على الأكثر حيوانا قريب الصلة بقبضة الطين .

ماركس يقول صراحة إن وجود الناس (يقصدهم وجودهم في طور مادي معين) هو الذي يعين شعورهم ، وليس شعورهم هو الذي يعين وجودهم ، ومن شذ – بشعوره أو سلوكه – سحقته عجلة التطور الحتمي !

وفرويد يقول صراحة إن مخزون اللاشعور – الجنسي في طبيعته – هو الذي يشكل للإنسان سلوكه ، ولا معدى للإنسان عن طاعته ، فإن خرج عن طاعته أصابته العقد والاضطرابات النفسية والعصبية !

ودوركايم يقول صراحة إن " العقل الجمعي " هو الذي يشكل للأفراد عقائدهم وأفكارهم وأنماط سلوكهم ، من خارج نفوسهم ، ودون إرادة منهم ، ولا يملك الفرد مخالفته ، ولا حيله له إلا اتباعه !

وكلها – كما ترى – حتميات تلغي الوجود الحقيقي " للإنسان " .

وعالم الاجتماع المسلم عليه أن ينبه إلى زيف هذه الحتميات كلها ، ويبين في الوقت ذاته معنى حتمية السنن الربانية ، والفرق الهائل بينها وبين الحتميات الزائفة .

إن السنن الربانية لا تفرض على الإنسان سلوكا بعينه . إنما تقول له إنه إذا اختار كذا فالنتيجة الحتمية لهذا الاختيار هي كذا . فهي تدع له حرية الاختيار ، ولكنها ترتب نتيجة معينة، ثابتة لا تتغير ، على الاختيار الحر الذي يختاره . وهي من ثم تكرّم الإنسان إذ تدع له حرية الاختيار ، وتتعامل في الوقت ذاته مع العنصر " الإنساني " فيه – وهو الوعي والإرادة والحرية – فتقول له إنه مسئول عن عمله ، وعن النتائج التي تترتب على عمله ، لأنه اختاره بوعي وإرادة وحرية :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [206] .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) [207] .

---

[206] سورة الشمس [7 – 10] .

[207] سورة الزلزلة [7 – 8] .

وفرق كبير بين حتمية السنن الربانية – على هذه الصورة المؤكِّدة لإنسانية الإنسان وإيجابيته – وبين الحتميات الزائفة التي أتت بها الجاهلية المعاصرة خاصة على يدي أكابر " علمائها " !

وإن الإسلام – بواقعه التاريخي – لهو الشاهد على كذب تلك الحتميات الزائفة كلها ، وصدق السنن الربانية ، وتكريمها للإنسان ، فليس في الإسلام شيء واحد يمكن أن ينشأ من الحتمية التاريخية ، أو الحتمية النفسية ، أو الحتمية الاجتماعية ، التي زعمها ماركس وفرويد ودوركايم ، إنما هو واقع قوم اختاروا الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، فغيروا ما بأنفسهم ، فغيروا – بحول الله ، وبمقتضى سنن الله – كل الواقع المادي والاقتصادي والنفسي والاجتماعي الذي كان قائما في الأرض واستبدلوا به غيره !

شعور الناس هو الذي حدد وجودهم على عكس ما قال ماركس .

ارتفاع مشاعر الناس عن الحيوانية الغريزية هو الذي جعل منهم أكبر طاقة بانية معمرة في التاريخ ، على عكس ما قال فرويد .

إيمانهم – بإرادتهم ومن داخل نفوسهم – هو الذي أزاح كل الأعراف الاجتماعية التي كانت قائمة في وقتهم ، وأنشأ بدلا منها أعرافا جديدة قويمة ، على عكس ما قال دوركايم .

وثبتت سنة الله ، ووعده ووعيده ، فمكن الله للمؤمنين ، ودمر على الكافرين :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) (208) .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) (209) .

* * *

من بين السنن التي يجب التركيز عليها أنه لا تحصيل بغير جهد يبذل .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) (210) .

(يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) (211) .

---

(208) سورة النور [55] .

(209) سورة محمد [10] .

(210) سورة البلد [4] .

وواضح في الآيتين أن الحديث والخطاب هو " للإنسان " كله ، مؤمنه وكافره . فتلك من السنن العامة التي يشترك فيها " الإنسان " كله ، ولا تخص فريقا من الناس دون فريق [212] .

وأهمية التركيز على هذه السنة في واقعنا المعاصر هي ضرورة تصحيح المفاهيم التي أفسدتها انحرافات الأمة الإسلامية في مسيرتها التاريخية الطويلة فأبعدتها عن حقيقة الإسلام .

إن الإسلام دعا المؤمنين إلى التوكل على الله ، مع اتخاذ الأسباب :

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) [213] .

والعزيمة ليست مجرد الرغبة ، ولا مجرد النية ، إنما هي إجراء عملي يتم قبله ومعه إعداد العدة :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) [214] .

ولكن الصوفية المنحرفة – مع الميل البشري للتفلت من التكاليف – قد حول التوكل إلى تواكل مريض ، لا يمت بصلة للتوكل الإسلامي الصحيح المطلوب من المؤمنين ، وإن زعم أصحابه أنهم هم أصحاب الصلة الوثيقة بالله !

والتوكيد على هذه السنة التي تقول إنه لا بد من بذل الجهد ليتم التحصيل ، ضروري لمعالجة ما أحدثه التواكل المريض من ضعف وتخاذل وتقاعس في بنية الأمة .

* * *

من السنن العامة كذلك أن الله يعطي على الجهد – في الدنيا – للمؤمن والكافر سواء ، على قدر ما يبذلون من الجهد بالطريقة الصحيحة المتسقة مع السنن الكونية .

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) [215] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ)[216] .

---

[211] سورة الانشقاق [6] .

[212] هناك إلى جانب السنن العامة سنن خاصة بالمؤمنين وحدهم وأخرى للكافرين وحدهم ، سنتكلم عنها فيما بعد .

[213] سورة آل عمران [159] .

[214] سورة الأنفال [60] .

[215] سورة الإسراء [20] .

[216] سورة هود [15] .

ولكن النظر في هذه السنة يستتبع النظر في سنن أخرى في ذات الوقت ، فإن السنن في الربانية لا تعمل في حياة الناس فرادى ، ولكنها تعمل مجتمعة ، وإن بدت إحدى السنن في ملابسة معينة أظهر فاعلية من غيرها ، ولكن الحصيلة النهائية للواقع البشري هي الحصيلة النهائية للسنن الربانية مجتمعة ومتشابكة .

يترتب على هذه السنة – وهي مدّ المؤمن والكافر كليهما من عطاء الله ، وكون هذا العطاء في الدنيا مبذولا لمن أراد التحصيل منه ، وبَذَلَ الجهد اللازم له واتخذ الأسباب – يترتب على هذه السنة اعتبار هام بادئ ذي بدء ، هو أن النجاح والتمكين في الحياة الدنيا ليس في ذاته مقياسا للصلاحية ولا للخيرية ، ما دام يعطى للمؤمن والكافر على السواء !

وهذا مزلق من أشد المزالق التي تقع فيها العلوم الاجتماعية الغربية ، ويقع فيه – بالعدوى – كل من انجرف في تيار الغزو الفكري متأثرا بتلك العلوم ، والنظرة الكامنة وراءها ، ومتأثرا في الوقت ذاته بغلبة الغرب الحالية وانحسار الوجود الإسلامي إلى ما دون الحضيض !

النجاح والتمكين في الحياة الدنيا دليل مؤكد على شيء واحد – حسب السنة الربانية – هو أن أهله قد عزموا ، وقد أرادوا ، وقد اتخذوا الأسباب التي رأوها موصلة إلى الهدف المطلوب . ولكنه ليس دليلا مؤكدا على أي شيء وراء ذلك !

ليس دليلا على أن أصحابه ذوو منهج " إنساني " سليم ، ولا ذوو رقيٍّ أخلاقي ولا نفسي ولا حضاري ولا قِيَميّ .. بعبارة أخرى : لا علاقة له " بالخيرية " .

والأدلة من التاريخ أكثر من أن تحصى !

فقد اكتسح التتار – في همجيتهم – بقاعا شاسعة من الأرض ، ودكوا حضارات كانت قائمة ، وأزالوا دولا ذات سلطان .. ولم يتهمهم أحد بأنهم كانوا يومئذ على شيء من الخيرية في أمر من الأمور !

وقد سادت الإمبراطورية الرومانية الأرض ردحا من الزمن غير قليل ، وهي قائمة على العسف والظلم والقهر واستعباد الآخرين واستغلالهم أسوأ استغلال .

و " الحضارة " الغربية الحالية هي وريثة الإمبراطورية الرومانية في عسفها وظلمها وتجبرها وطغيانها ، وإن انخدع عن هذه الحقيقة المنخدعون !

كلا ! لا علاقة للتمكين في الأرض " بالخيرية " بمعناها الإنساني ، القيمي ، الأخلاقي ، وذلك بصريح الآية التي تقرر أن الله يمد هؤلاء وهؤلاء – أي الخيرين والشريرين – من عطائه في الحياة الدنيا ، وبشهادة التاريخ ، التي تشهد " بالنجاح " الأرضي لكثير من الأوغاد !

يقول صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما أعطى الكافر منها شربة ماء " [217] ولكنها لا تساوي عنده جناح بعوضة ! .. ولذلك يتركها لكل من هفت نفسه إلى شيء منها !

إنما الخيرية لها معيار آخر ، يقترن – أو لا يقترن – بالتمكين !

والأصل في السنة الربانية أن الله يمكن للمؤمنين ، حين يتخذون الأسباب اتخاذا صحيحا، ويتوكلون على الله حق التوكل ، ولا يتواكلون :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...) [218] .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [219] .

ولكن الله – لحكمة عنده – قد يجري سننا أخرى ، لا يكون فيها الخيرون الصالحون ممكنين في الأرض ، بل يكون الممكنون هم الطغاة المتجبرين ، الذين يسومون المؤمنين العذاب.

لقد كان سحرة فرعون – بعد إيمانهم – هم الخيرين الصالحين ، ولكنهم لم يمكنوا في الأرض ، بل اجتثهم الفرعون الشرير اجتثاثا من الأرض ، فقتّلهم ومثل بهم ، وبقي هو متمكنا إلى حين .

وكان المؤمنون الذين أحرقوا عن بكرة أبيهم في الأخدود الخيرين الصالحين ، ولكنهم لم يمكنوا في الأرض وكان الممكنون هم الطغاة الجبارين **(الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا)** [220] .

وكان أصحاب الكهف هم الخيرين الصالحين ، ولكنهم لم يمكنوا في الأرض ، وكان الممكنون هم الطغاة الذين اضطهدوهم ، والذين ظل الخوف من جبروتهم كامنا في قلوب أهل الكهف **(ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)** [221] . إذ قالوا حين قاموا : **(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً)** [222] .

---

(217) أخرجه الترمذي وابن ماجة .

(218) سورة النور [55] .

(219) سورة الأنبياء [105] .

(220) سورة البروج [10] .

(221) سورة الكهف [25] .

(222) سورة الكهف [20] .

هنا سنة أخرى من سنن الله هي سنة الابتلاء :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) [(223)] .

وغالبا ما يكون الابتلاء للتمحيص ، تمهيدا للتمكين بعد التمحيص .

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) [(224)] .

ولكن يكون الابتلاء الشديد أحيانا لحكمة أخرى غير التمكين في الأرض ، هي إعطاء النموذج الفذ للتجرد الكامل لله ، والاستعلاء بالإيمان على كل قوى الأرض ، وكل متاع الحياة الدنيا ، ابتغاء الآخرة وحدها ، دون أيّ أمل في أيّ نجاح في الأرض .. وهو نموذج يربي الله به الأجيال المؤمنة لترتفع وترتفع وترتفع .. وتبلغ الغاية في الارتفاع .

وكلها سنن ، يجري الله منها ما يشاء حين يشاء :

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) [(225)] .

* * *

ولكن حين يقدر الله التمكين للخيرين الصالحين ، حين يتخذون الأسباب الصحيحة للتمكين ، من العلم والعمل والعزم والمثابرة وعدم الوهن وعدم التخاذل وعدم التقاعس ، فإنه يخصهم بسنن خاصة لا ينعم بها على غير المؤمنين ، حين يقدر لهم التمكين في الأرض بما اتخذوا من أسباب .

فالكفار – كما قلنا – يمكن الله لهم في الأرض إذا شاء ، حين " يريدون " الحياة الدنيا وزينتها ، ويحولون هذه الإرادة إلى جهد يبذلونه في واقع الحياة ، مستغلين فيه ما سخره الله للبشر جميعا من طاقات السموات والأرض :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ)[(226)] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ...) [(227)] .

---

(223) سورة العنكبوت [2 – 3] .

(224) سورة آل عمران [141] .

(225) سورة الرعد [41] .

(226) سورة هود [15] .

(227) سورة الإسراء [18] .

(.. وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ..) [228] .

بل قد يزيد سبحانه فيفتح عليهم أبواب كل شيء من التمكين المادي حين يلجون في الغواية ، فييسر لهم القوة السياسية ، والقوة الحربية والقوة الاقتصادية ، والقوة العلمية ، والقوة التقنية ..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ..) [229] .

ولكن يبقى بابان لا ينفتحان للكفار أبدا ، لأن الله وضع مفتاحهما في يد المؤمنين وحدهم كما أشرنا من قبل ، باب البركة وباب الطمأنينة :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [230] .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [231] .

وواقع الغرب اليوم هو الشاهد على تحقق السنن الربانية التي لا تبديل لها ولا تحويل :

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) [232] .

فقد وصل الغرب – وأمريكا بصفة خاصة – إلى تحقيق " مجتمع الوفرة society of plenty " الذي كانوا يصبون إليه ، ويتخذون إليه الأسباب .. ولكن أين البركة وأين طمأنينة القلوب ؟!

سلهم عنها فهم بها خبراء !

وذلك في الحياة الدنيا ، أما حساب الآخرة فله شأن آخر ، حدث عنه ولا حرج !

* * *

من السنن التي تستحق التركيز من العالم المسلم ، ما يختص منها بقيام الدول وزوالها ، وقد كان لابن خلدون اهتمام بهذه الظاهرة وأعطاها تفسيره المعروف ، الذي أخذه عنه " توينبي " المؤرخ الإنجليزي المعاصر فيما سماه سنة الشيخوخة . ومفادها أن الدول تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وتكون في فترة شبابها قوية ذات شكيمة وعزيمة ، ثم يدب إليها الوهن فتهرم ثم تموت .

---

(228) سورة الشورى [20] .

(229) سورة الأنعام [44] .

(230) سورة الأعراف [96] .

(231) سورة الرعد [28] .

(232) سورة فاطر [43] .

وربما كان ما يقوله ابن خلدون ، وينقله عنه " توينبي " حقيقة واقعة ، ولكن لا شك أن له أسبابه ، ما دام الله يقول : **(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)** [233] . فالشيخوخة التي تصيب الأمم فتهلكها ليست في ذاتها هي السنة ، كما هي في حياة الأفراد من البشر :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً) [234] .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) [235] .

إنما يحدث الضعف الذي يؤدي إلى الموت في الأمم حين يغير الناس ما بأنفسهم . فنستطيع أن نقول بصفة عامة إن الدول في نشأتها تكون محوطة بأعداء يلزمها التغلب عليهم لكي تتمكن في الأرض ، فيبعثها ذلك على شحذ همتها واستجماع قوتها حتى تصمد في الصراع بينها وبين جيرانها ثم تتمكن من إخضاعهم أو القضاء عليهم . ثم تمر بعد ذلك فترة يكون الناس فيها أقوياء ولكنهم متربصون يقظون لئلا يقوم الأعداء مرة أخرى فيهاجموهم ، وتلك هي أقوى الفترات التي تمر بالدولة وأنشطها في كل اتجاه . ثم يطمئن الناس إلى أن قوتهم أصبحت لا تغالب ولا تغلب ، فيبدأ الترف يدب في أوصالها ، نتيجة امتلاكها القوة والثروة وعدم وجود المنازع الذي يؤبه له ويحسب له حساب ! والترف هو الحمض الأكال الذي يأكل الأمم والشعوب، لأنه مفسد متلف مفتّر باعث على القعود صارف عن بذل الجهد . وعندئذ يكون الهلاك بقدر من الله ، وبسنة من سنن الله !

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)[236] .

ومهما يكن من الأمر ، فالنقطة التي نود أن يتناولها علم الاجتماع الإسلامي هي : أمة العقيدة .. هل ينطبق عليها سنة الفناء بالشيخوخة كما يقول ابن خلدون ، أي الهلاك بالترف كما تقول السنة الربانية المفسرة ؟

نريد أن نفرق بين " الدولة الإسلامية " و " الأمة الإسلامية " .

---

[233] سورة الأنفال [53] .

[234] سورة الروم [54] .

[235] سورة آل عمران [184] .

[236] سورة الإسراء [16] .

لقد هلكت الدولة الأموية بالترف ، وهكلت من بعدها الدولة العباسية ودولة المسلمين بالأندلس ، والدولة العثمانية .. كلها هلكت بهذا الداء المهلك الذي جعله الله في سننه سببا لزوال الدول .

ولكن " الأمة الإسلامية " هل فنيت أو يكتب لها الفناء ؟!

فأما المستقبل فغيب لا يعلمه إلا الله . وأما الحاضر فيقول : إن الله قد أعفى هذه الأمة – حتى اللحظة – من هذه السنة – إن كانت سنة ! – وكتب لها البقاء .. خمسة عشر قرنا ربما كانت أطول عمر عاشته أمة واحدة في التاريخ ! وذلك على الرغم من فناء " دول إسلامية " كثيرة خلال هذا المدى من التاريخ .

والدلالة قائمة في حركات البعث الإسلامي .. إنها تقول : إنه ما زال في كيان هذه الأمة ما يبعثها من جديد كلما أوشكت على الفناء ، تحقيقا لوعد الله : " يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها " [237] وحين يتجدد الدين تتجدد الأمة ، لأن حياة هذه الأمة في هذا الدين !

وليس من شأن هذه العجالة على أي حال أن تستعرض السنن الربانية كلها ، أو تبسط الحديث فيها ، فإنما هي إشارات .. مجرد إشارات !

ثانيا : الثابت والمتغير في حياة البشرية

قضية الثابت والمتغير من القضايا الهامة في علم الاجتماع . فمن الواضح أنه يوجد في حياة البشرية ثوابت ومتغيرات . فما الذي يثبت وما الذي يتغير ؟ وعلى أي أساس يثبت الثابت ويتغير المتغير ؟ هل هناك أسس ومعايير ؟ أم الأمر فوضى بلا نظام ؟!

فأما دوركايم – الذي يرجع إليه كثير من " المفكرين " عندنا بلا ترو – فقد وضع الثوابت كلها – بما فيها الدين والزواج والأسرة – على الخط المتغير ، وقال إنه لا توجد ثوابت على الإطلاق !

يقول في كتاب " قواعد المنهج في علم الاجتماع " :

---

[237] أخرجه أبو داود .

" ومن هذا القبيل (يقصد محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية بأن لها جذورا في نفوس الأفراد) أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية لدى الإنسان وبأن هذا الأخير مزود بحدٍّ أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف . وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو ، ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان " !!

" وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها ، إذا صح التعبير ... ومن ثم فليس من الممكن تبعا لهذا الرأي ، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها ، موضوعا لعلم الأخلاق .. " [238] .

ثم قال فوق ذلك إن " العقل الجمعي " هو الذي يغير كل شيء في حياة الأفراد ، ويتحكم فيهم من خارج أنفسهم ويفرض عليهم كل ما يعتنقونه من العقائد والأفكار والمشاعر وأنماط السلوك !

" .. إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم " [239] .

ثم أضاف في النهاية إن هذا العقل الجمعي المتحكم في الأفراد من خارج كيانهم لا يثبت على حال !!

وهو لا ينفي الثبات على إطلاقه .

" ولكن لما كان هذا العمل المشترك (الذي تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية) يتم خارج شعور كل فرد منا – وذلك لأنه نتيجةٌ لعدد كبير من الضمائر الفردية – فإنه يؤدي بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، وهي تلك الضروب التي توجد خارجة عنا ، والتي لا تخضع لإرادة أي فرد منا " [240] !

ودعك مؤقتا من التملص – غير العلمي – من الحقائق الدامغة التي لا مهرب منها إلا بالتحايل عليها ، إذ يثبت أن الظواهر الاجتماعية تنشأ نتيجة " لعدد كبير من الضمائر الفردية " ، ثم يقول في نفس الوقت إنها " لا تخضع لإرادة أي فرد منا " . وهي معادلة لا تتم على أي ميزان إلا ميزان الهوى المختل .

---

[238] إميل دوركايم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي ، طبع القاهرة ، الطبعة الثانية ص 168 – 169 .

[239] المرجع السابق ص 22 .

[240] المرجع السابق ص 25 .

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) [241] .

ولكن انظر إلى ما ينفي ثباته ! إنه " القيم الإنسانية " بالذات : الدين والزواج والأسرة والأخلاق !

ولا يستحي دوركايم أن يجعل مرجعه في ذلك عالم الحيوان !

" أضف إلى ذلك إنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشري منذ نشأته . وإنه لمن الطبيعي جدا أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التي تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب . وذلك لأننا نلاحظ في الواقع أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعا لطبيعة مساكنها التي توجب عليها الحياة في جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة " [242] .

فهل كان دوركايم يكتب عن علم الاجتماع البشري أم علم اجتماع الحيوان ؟!

إن أثر اللوثة الداروينية واضح عند دوركايم ، سواء في رجوعه الصريح في قضية الثابت والمتغير إلى عالم الحيوان ، أو في تصويره " للعقل الجمعي " الذي يؤثر في الأفراد من خارج كيانهم ، والذي يوازي غريزة القطيع عند الحيوان . ولا نستغرب إذن من صاحب هذا التفسير الحيواني للإنسان أن ينفي أصالة الدين والزواج والأسرة والأخلاق في فطرة الإنسان ، لأنها ليست أصيلة في عالم الحيوان !

* * *

القضية في أمر الثابت والمتغير لها مدخلان ينتهيان في النهاية إلى نتيجة واحدة : المدخل الأول هو المرجعية ، والمدخل الثاني هو مراجعة التاريخ .

لمن المرجعية في تقرير ما يجب أن يثبت ، وما يباح فيه التغيير ؟ أهي للخالق ، العليم الحكيم ، أم للإنسان الذي لا يخلق شيئا ، وهو محدود العلم والحكمة ؟

وهذه القضية عند المسلم ليست محل مراجعة ، إنما يجادل فيها الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويقول الله عنهم : **(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** [243] .

---

(241) سورة المؤمنون [71] .

(242) " قواعد المنهج " ، المرجع السابق ص 173 .

(243) سورة غافر [56] .

وأما الواقع التاريخي للإنسان ، فهو يدلنا على أشياء غير التي أخبر بها دوركايم بغير دليل حين قال : " ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات (الدين والأخلاق والأسرة) ليست فطرية في الإنسان " !!

إن كل ما يقوم به الإنسان من ألوان النشاط هو أصيل في تكوينه . حتى شهواته التي قد ينشأ عنها انحرافه هي أصيلة فيه ، وإن كان الانحراف بها عن مسارها الصحيح ليس هو الأصل الذي خلق الله هذه الشهوات من أجله ، ولكنه يرد على الكيان البشري ، **كما يرد** المرض على الجسم وإن كانت الصحة هي الأصل فيه .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (244) .

الأصل في هذه الشهوات أن تكون دوافع لعمارة الأرض التي خلق الله الإنسان ليقوم بها .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (245) .

وحين تكون في مسارها الصحيح – أي حين تكون ملتزمة بالثوابت التي فرضها الله – فهي عندئذ قوة معينة على الخير ، مؤدية للخير ، في الدنيا والآخرة على السواء .

أما حين تنحرف عن المسار الصحيح – أي حين تصطدم بالثوابت التي فرضها الله – فهي عندئذ قوة مدمرة ، تهلك الإنسان ، وتفسد حياته في الدنيا والآخرة على السواء .

وفي الوقت ذاته هي نقطة الابتلاء الدائمة التي يختبر بها الإنسان : هل يطيع فيها ربه ، فيلتزم بالثوابت التي فرضها عليه ، أم يطيع الشيطان ؟

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) (246) .

وقد ثبّت الله الدين والزواج والأسرة ، فقال عن الدين :

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (247) .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) (248) .

---

(244) سورة آل عمران [14] .

(245) سورة هود [61] .

(246) سورة الأنعام [132] .

(247) سورة الروم [30] .

وقال عن الزواج والأسرة :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [249] .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) [250] .

ويقول الواقع التاريخي إن الإنسان خلال حياته كلها – فيما عدا هذا الجيل الضائع الذي أخرجته عن صوابه عوامل شتى – كان له دين يعتنقه – صحيحا كان دينه الذي يعتنقه أو منحرفا [251] – وكان يمارس الزواج ويسعى إلى الحياة في داخل أسرة . فإذا كان جيل من أجيال البشرية قد أفسد بعوامل شتى فلا يعتبر – من الوجهة العلمية البحتة – مقياسا ، ولا يلغي وجوده دلالة ظواهر اجتماعية لم ينقطع وجودها خلال عشرات من القرون ، ولا يحول الثوابت إلى متغيرات !

ثم إن الله ثبت " القيم الأخلاقية " التي ينبغي للإنسان أن يقيم عليها حياته ، ليكون جديرا بالكرامة التي كرمه بها خالقه يوم خلقه ، والتي وردت تفاصيلها في الوحي الرباني .

وهنا نجد أن الواقع التاريخي يقول إن أكثر الناس لا يلتزمون بهذه القيم الأخلاقية ، وينحدرون عنها بدافع الهوى والشهوات .

ولكن انحراف الناس عن الأصل – ولو انحرف الناس كلهم في جميع العصور [252] – لا يجعل الانحراف هو الأصل ، وذلك من المدخلين كليهما اللذين دخلنا منهما غلى قضية الثابت والمتغير : باب المرجعية ، وباب التاريخ .

فمن باب المرجعية نقول إن الذي يحق له أن يقول هذا حلال وهذا حرام . هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح هو الخالق الذي خلق ، وهو العليم الحكيم . وهو الله الذي لا إله غيره .

ومن باب الواقع التاريخي نقول إن الناس ينحرفون نعم . ولكنهم حين ينحرفون لا يسلمون من نتائج انحرافهم ، بل يصيبهم الخلل والاضطراب والضنك ، والواقع المعاصر للغرب أكبر

---

[248] سورة الأعراف [172] .

[249] سورة الروم [21] .

[250] سورة النحل [72] .

[251] سنتكلم في الفقرة التالية [الدين والفطرة] عن هذه القضية .

[252] الواقع أن في تاريخ البشرية فترات من الهدى وفترات من الضلال ، فليست كلها انحرافا عن الطريق .

شاهد عليه ، ومعنى ذلك أن الثبات في هذه القيم هو الواجب الذي يجب أن يكون ، وأن وضع هذه القيم على الخط المتغير هو الذي يشيع الخلل والاضطراب في حياة الأمم والشعوب والجماعات والأفراد . فالثبات فيها إذن هو الأصل ، والتغيير هو الانحراف .

هذا بالنسبة للثوابت التي ثبتها الله ، والتي يجب أن تظل ثابتة لا تتغير مهما تغيرت أحوال الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والمعلوماتية والتقنية ، لأنها لا تتعلق بهذه الأحوال المتغيرة ، إنما تتعلق بكيان " الإنسان " ، الذي هو إنسان منذ خلق ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو " الإنسان " .. لا هو حيوان ولا هو إله ..

فما الشأن بالنسبة للمتغيرات ؟ ما الذي يتغير ؟ ولماذا يتغير ؟

يحدث التغيير من احتكاك العقل البشري بالكون المادي ، فيتعرف على مكنوناته ، ويتعرف على خواص المادة ، فيسعى – بعقله وعضلاته – إلى تسخيرها لرغباته وحاجاته ، ثم يظل يحاول تحسينها وتجميلها وتكميلها حتى يصل بها إلى غاية ما يستطيع . ومن خلال هذه العملية الدائبة من المعرفة ، وتسخير نتائج المعرفة واستغلالها لتحسين أوضاع الإنسان وعمارة الأرض ، تتغير على الدوام في حياة الإنسان أمور بعد أمور .

ويجدر بنا أن نعرف أولا ما الذي يتغير على وجه الدقة ؟

هل تتغير دوافع الإنسان الأصيلة أم تتغير الطريقة التي يشبع بها الإنسان دوافعه ؟

نأخذ الدافع الأكبر في حياته : حب الحياة . هل يتغير من حيث الجوهر ؟ كيف يتغير ؟

ونأخذ حب الاستمتاع بما في الحياة من ألوان المتاع . هل يتغير من حيث الجوهر ؟ أم تتغير ألوان المتاع ؟

بفطرته يجب أن يكون له مأوى يأوي إليه . فيأوي – في بداوته وقلة حيلته – إلى الكهوف. ثم ينشئ أكواخا من غصون الشجر . ثم يبني أكواخا من الخشب المصنع ، أو بيوتا من الطين . أو بيوتا من الحجر أو قصورا شامخات .. ما الذي تغير ؟ حب المأوى ، والسكن إلى المسكن ، أم صورة المأوى ، وما يحتويه من أدوات الراحة ، وأدوات التجميل والزينة ؟

بفطرته يحب أن ينتقل من مكان إلى مكان ، يتعرف على الجديد ، ويزداد علما بالبيئة من حوله ، ويحاول استغلال ما يحصل عليه في تحسين أحواله . فينتقل – في بداوته – على قدميه في المساحة المحدودة التي يمكن لقدميه أن تحملاه في إطارها . ثم يستأنس دواب الحمل ، فتوفر عليه جهد التحرك بجسده ، ويستمتع بتحرك " الأداة " وهو فوقها مستقر ، وهي تحمله إلى مسافات أوسع مما كانت قدماه تصلان إليه . ثم تزيد معلوماته وقدراته فيستنبط أدوات للحمل

أسرع وأكثر راحة ، فيخترع السيارة ، ويخترع الطائرة ، ويخترع الصاروخ ، ويدور الأرض كلها في ساعات .. ما الذي تغير ؟ رغبة التنقل أم الوسيلة ؟

بفطرته يحب " المعرفة " .. فيسعى – بقدر ما تتيح له أدواته ، وهي السمع والبصر وبقية الحواس – إلى التعرف على البيئة القريبة الملاصقة ، ثم المجاورة ، ثم ما تحمله إليه أدوات الحمل .. ويُعْمِلُ عقله في محاولة التعرف على طبيعة الأشياء التي يصادفها ، ومعرفة خواصها، وكيفية الانتفاع بها ، فتتجمع عنده حصيلة من " المعلومات " تكون – مع التجربة والخبرة – جانبا من " المعرفة " المتاحة له . ويورث هذه المعلومات للجيل الذي يليه ، وهذا الجيل الجديد يجد معارف جديدة فيضيفها إلى معارفه الموروثة ، فتتسع دائرة المعرفة ، ثم تتعدد جوانبها وتتفرع ، وتصبح مهمة التلقين أعقد وأطول مدى ، فيتخصص لها " معلمون " ويحتاج الأمر إلى أماكن للتعليم يتلقى فيها الصغار حصيلة المعرفة المتاحة .. ثم تتوسع دور التعليم فتصبح مدارس ومعاهد وجامعات ، وتتوسع الأدوات فتصبح كتباً وصحفا ومجلات .. وكمبيوترات !

ما الذي تغير ؟ حب المعرفة من حيث الجوهر ؟ أم وسائل المعرفة ؟

وقس على ذلك ما شئت !

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن المستجدات كلها لا تضيف جديدا ولا تغير شيئا في حياة الإنسان ، بل هو في تغير دائم ، تختلف وتيرته من عصر إلى عصر ، ومن قطر إلى قطر ، ومن شخص إلى شخص .. ولكن الذي نريد أن نلفت النظر إليه أن هذا التغير الدائم – أيا كانت مساحته ، وأيا كانت أدواته ، وأيا كانت مجالاته – لا يغير الحقيقة الجوهرية للإنسان .. لا يغير دوافعه الأصيلة ، ولا أهدافه الأصيلة ، ولا غاية وجوده الأصيلة ، وهذا هو الذي تأبى الجاهلية المعاصرة أن تصدقه ، وعدم تصديقها إياه هو الذي يورثها الخبال !

مرة أخرى نعود إلى جوهر القضية ..

الخبل الأكبر هو في تصور " الإنسان " .. حيوان مرة ، وإله مرة ، حصيلتهما هما الحيوان المتأله ، الذي يعيش حياته الدنيا بلا معاد !

كلا ! إنه هو " الإنسان " ! لا حيوان ولا إله ! تتغير " صور " حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعلمية والمعلوماتية ، ويظل من حيث الجوهر هو الإنسان ، الذي خلقه الله ليكون خليفة في الأرض ، يعبد الله على بصيرة ويعمر الأرض بمقتضى منهج الله .

و " الثوابت " – لا المتغيرات – هي التي تحفظ له كيان الإنسان ، وتحقق له وجوده على مستوى الإنسان .

وحين تختل الثوابت .. حين توضع على الخط المتغير كما تضعها الجاهلية المعاصرة ، فما الذي يحدث في حياة الإنسان ؟!

تحدث كل الاختلالات الحادة التي تنتاب الإنسان المعاصر ، وتقلب حياته إلى " الضنك " الذي أنذره الله به ، رغم كل ما هو مفتّح له من الأبواب ، ورغم وصوله بالأمس إلى القمر وغدا إلى المريخ !

ما مر على البشرية عهد من الظلم والفساد والانحطاط الخلقي كما هو حادث في جاهلية القرن العشرين التي توشك أن تنتقل بكل خبلها إلى القرن الحادي والعشرين .

إن الثوابت هي " القيم " التي تحكم حياة الإنسان ، فحين يعيش الإنسان بغير قيم فكيف تكون حياته إلا قانون الغاب الذي يحكم السياسة والاقتصاد اليوم ، ويجعل المستضعفين من البشر فريسة لمن يسمون أنفسهم " الدول العظمى " ، وإلا التدني الأخلاقي والروحي الذي يشمل الصغار والكبار من الدول والشعوب والأفراد ، ويرسخ في الأرض عبادة الشيطان ؟!

أرُقِيٌّ هذا أم انتكاس ؟

إنما يحدث الرقي الحقيقي حين تحكم الثوابتُ المتغيراتِ ، فيزداد الإنسان رقيا كلما زاد علما على المنهج الرباني .

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [253] .

أما حين تحكم المتغيرات الثوابت فتزيحها من الطريق فالله يقول :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [254] .

---

[253] سورة فاطر [28] .

[254] سورة الأعراف [175 – 176] .

ثالثا : الدين والفطرة

الدين من الثوابت التي تشتمل عليها الفطرة ، ولكنا نخصه بحديث خاص لأهميته الخاصة ولأن الجاهلية المعاصرة تجتهد بكل قوتها لزحزحته من مكانه الثابت ، ووضعه على الخط المتغير ، الذي ينتهي به إلى الزوال !

ولا تداري الجاهلية المعاصرة موقفها من الدين ، إذ تقول صراحة إن الحياة البشرية قد مرت في ثلاثة أطوار ، طور السحر والخرافة ، وطور التدين ، وطور العلم . وأن كل طور قد أخذ دوره وانتهى وأفضى إلى ما بعده ، السحر أخلى مكانه للدين ، والدين أخلى مكانه للعلم ، والعلم هو المتربع على العرش اليوم .. وربما إلى نهاية الكون والحياة البشرية .

وحقيقة أن موجة الإلحاد قد بدأت تنحسر اليوم تحت مطارق العلم ذاته ، الذي لجأت إليه الجاهلية المعاصرة ليخلصها من سلطان الدين ! فالعلم اليوم هو الذي يرد الناس إلى الحقيقة التي أرادوا أن يهربوا منها وهي أن هذ الكون بما يحمل في أطوائه من دلائل القدرة المعجزة لا يمكن أن يكون قد خلق نفسه بنفسه ، ولا يمكن أن يكون قد وجد بغير موجد .. ولا بد أن يكون قد خلقه إله قادر بغير حد ، عليم بغير حد ، حكيم غاية الحكمة ، فعال لما يريد ..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [255] .

صحيح أن موجة الإلحاد قد بدأت تنحسر تحت مطارق العلم ، ومن لذع الألم الذي أحدثه الفراغ من الدين ، والجوعة الروحية التي تبحث اليوم عن الإشباع .

ولكن المعركة مع الشيطان وأوليائه ليست سهلة ، ولن يخرج الناس من دنس الشهوات التي أغرقهم فيها الشيطان لينسوا ربهم ويكفروا به ، بمجرد أن تقول لهم : إن هذا دنس ، أو بمجرد أن تقول لهم : آمنوا بالله ورسله .

إنه جهاد .. وجهاد قد يطول . فقد تسلحت الجاهلية المعاصرة بكل سلاح ظنت أنه يحميها من عودة الدين ، وكان من بين أسلحتها – ومن أفتكها – إغراق الناس في الشهوات بحيث يكرهون من يحاول أن يخرجهم من وهدتهم ويمد لهم طوق النجاة لينجوا من الهلاك .

والمسلمون هم المؤهلون – بإسلامهم – أن يقودوا البشرية إلى البر الآمن ، ويخرجوها بإذن ربها من الظلمات إلى النور .. ولكنهم لن يفعلوا ذلك حتى يعودوا هم أنفسهم عودة صادقة إلى الإسلام ، فيمارسوه في عالم الواقع ، ويكونوا منه على وعي وبصيرة .

---

[255] سورة فصلت [53] .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [256] .

والعلم جزء من الدعوة .. ومن بين العلم الذي يخدم الدعوة بيان حقيقة الفطرة ومكان الدين منها .

* * *

أودع الله فطرة الكون كله – والإنسان جزء منه – أن يتجه إلى الخالق ، ويسبح بحمده :

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) [257] .

ولكن الإنسان تفرد في خلقه ، وتفرد كذلك في عبادته . خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخ فيه من روحه ، فأكسبته النفخة العلوية الوعي والإرادة والحرية ، والإشراقة التي أذهبت عنه عتامة الطين .

وهو – في وضعه السوي – يعبد الله ويسبح بحمده عن طريقين اثنين ، كلاهما من أثر النفخة العلوية في قبضة الطين ، طريق " الوعي " وطريق " الوجدان " الذي نطلق عليه في مصطلحاتنا اللغوية طريق الروح .

متى يبدأ الوعي ؟

يظن كثير من الناس أن حالة " الوعي " التي تتجه إلى الخالق تأتي متأخرة في مرحلة النضج ، أو على الأقل في مرحلة ابتداء النضج ، أي مرحلة البلوغ .

ولكنا إذا دققنا الملاحظة نجد أن بداية الوعي تبدأ قبل ذلك بكثير ، منذ الطفولة !

أرأيت إلى الطفل بعد أن يستكمل قدرته على النطق في الخامسة أو السادسة (وأحيانا قبل ذلك) إذ يرهق أبويه بالأسئلة عن كل شيء حوله : من الذي صنعه ؟ وكيف هو مصنوع ؟ ولماذا هو على الحالة التي هو عليها ؟

لماذا تشرق الشمس بالنهار ولا توجد في الليل ؟ وأين تكون قبل أن تشرق ؟

لماذا يظهر القمر في الليل ؟

لماذا كانت السماء زرقاء ؟

---

(256) سورة يوسف [108] .

(257) سورة الإسراء [44] .

لماذا يزهر النبات ؟

كيف ينمو الشجر ؟

كيف ينزل المطر من السماء ؟

لماذا كان ورق الشجر أخضر ؟

كيف جئت إلى الوجود ؟ .

وعشرات من الأسئلة ومئات ، يتضجر الآباء من كثرتها ، وأحيانا لا يجدون لها إجابة !

إن إجابتها في الحقيقة عبارة واحدة ، هي هكذا كما خلقها الله !

إنه بدء تيقظ الفطرة عن طريق الوعي ، تسأل في الحقيقة عن الخالق لتتوجه إليه ! ومهمة التربية هي تركيز هذا الوعي ، ووضعه على المسار الصحيح .

* * *

متى يبدأ الوجدان طريقه .. طريق الروح ؟

لا ندري على وجه التحديد [258] .. ولعل الناس في هذا الأمر مختلفون .. منهم من يستيقظ وجدانه مبكرا ، ومنهم من يتأخر . منهم من تشرق روحه فيشتعل وجدانه ، ومنه من تخبو روحه حتى تكاد تنطمس .. ولكنا نحسب – من الملاحظات الفردية – أن نهاية مرحلة الطفولة وبداية فترة المراهقة هي الوقت الذي يتوقع فيه أن يتحرك الوجدان .. ومهمة التربية في جميع الأحوال هي التركيز على هذا الوجدان ليأخذ مساره الصحيح .

* * *

في الفطرة منافذ يدخل منها الإيمان إلى النفس الإنسانية ، تتلقى إيقاعات الكون ، فتوقظ الفطرة إلى عظمة الله ، وقدرته المعجزة ، وتفرده بالخلق والرزق والتدبير .. وتفرده بالألوهية ، فتتجه الفطرة إلى الله .

وفي كتاب الله توجيهات للفطرة ، تدخل من هذه المنافذ ذاتها التي أوجدها الله في النفس البشرية ، فتهتدي إن كتب الله لها الهداية ، وتستقيم على الطريق .

أوسع المنافذ هي آيات الله في الكون . إن لها تأثيرا ضاغطا على الحس ، لا مهرب له منه إلا أن يتعمد الإنسان أن يوصد قلبه ، فلا يتلقى الإيقاع !

---

[258] هذه نقطة حرية أن يدرسها علماء المسلمين دراسة علمية تجريبية .

الكون بعظمته المعجزة ، ودقته المعجزة في آن واحد .. هذه الآماد التي لا يحدها البصر، وهذه الأجرام التي لا يحصيها العد .. والدقة المعجزة في حركة الأفلاك ، وانتظام الليل والنهار والشمس والقمر .. بل الدقة المعجزة في ورقة الشجرة . في ريشة الطائر . في شذى الزهرة . في سقسقة العصفور .. بل الدقة المعجزة في تركيب العين . في تركيب الأذن . في حركة الدم في الشعيرة الرقيقة . في العصب الذي يحمل الإشارة للمخ . في عملية التفكير . في عملية التذكر . في الحياة بكل تفصيلاتها في الكائن الحي !

من ذا الذي يطيق حسه أن يبتعد عن تلقي الإيقاع إلا أن يكون – والعياذ بالله – قد أغلق النافذة عامدا لكي لا يتأثر بالإيقاع :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [259] .

*　　*　　*

الحركة .. سواء في الكون المادي أو في الحياة البشرية من المؤثرات التي توقظ الحس ..

من الذي يحرك الأجرام في السماء ؟ من الذي يحرك الأحداث في الأرض ؟

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [260] .

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [261] .

*　　*　　*

ظاهرة الموت والحياة .. تشد الحس إلى " المحيي المميت " الذي بيده الموت وبيده الحياة، يَقْدُرُ منهما ما يشاء لمن يشاء ، فيجري قدره بما شاء سبحانه ، لا يقف في طريقه حائل ، ولا يعترض طريقه معترض .

---

[259] سورة الأعراف [179] .

[260] سورة البقرة [164] .

[261] سورة آل عمران [26 – 27] .

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [262] .

*　　*　　*

الغيب المستور كله .. الذي لا يملك الإنسان وسيلة إليه ، مع شدة تشوّقه إلى الاطلاع عليه .. يشد الحس إلى عالِم الغيب ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال حبة من خردل .

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [263] .

*　　*　　*

هل للحس البشري مهرب من إيقاعات الكون والحياة ، إلا أن يتعمد إغلاق المنافذ كلها لكيلا يصل إلى حسه صدى آيات الله :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) [264] .

الأصل في الإنسان الإيمان ، والكفر هو المرض الذي يصيب القلوب ، فتنحرف عن الأصل .

" إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، فاجتالتهم الشياطين .. " [265] .

ومع ذلك تزعم الجاهلية المعاصرة على يد " علمائها ! " أن الدين ليس من الفطرة ! . أو أن الدين الذي أخلى مكانه للعلم ! أو أن الإنسان شب عن الطوق ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله !

ولكن المرض الذي يصيب الفطرة لم يكن قط – في أي جاهلية سابقة – إنكار الخالق سبحانه وتعالى ، إنما كان هو الشرك .. تصور وجود آلهة أخرى مع الله .

وما أرسل رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها ! فالفطرة – حتى في مرضها – تعرف ذلك دون إرسال رسول ! ولا قال رسول قط لقومه إن هناك إلها فاعبدوه ! . فالفطرة – حتى في

---

[262] سورة الزمر [42] .

[263] سورة الأنعام [59] .

[264] سورة يونس [101] .

[265] أخرجه الشيخان .

مرضها – تتجه إلى الإله الذي تتصوره ، فتعبده وتسبح بحمده ، وتقدم له الصلوات ، وتقدم له القرابين .

إنما بعث الرسل كلهم ليقولوا للناس : **(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)** [266] .

بعثوا لتصحيح العقيدة ، لا لإيجاد العقيدة في النفوس ..

إلا الجاهلية المعاصرة .. أول جاهلية في التاريخ أنكرت وجود الله ، وتبجحت بالإلحاد ، بمعنى إنكار وجود الله ، وسمت هذا " علما !! " وأسست له مذاهب ، وأقامت له دراسات !!

* * *

وعالم الاجتماع المسلم حاشاه أن ينزلق إلى تصديق علم الاجتماع الجاهلي الذي ينكر أن الدين فطرة في النفوس ، ولو قال به ألف " عالم " كدوركايم ، أو غيره من المفكرين .

كما أن عالم الاجتماع المسلم لا يثقل على حسه الواقع المنحرف الموجود اليوم في الأرض ، ولا يصده عن ذكر الحق ، سواء أعجب الحق الناس أو لم يعجبهم ، واستجابوا له أو أعرضوا عنه .

الحق أن الدين فطرة :

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [267] .

والحق أن الأرض – في القديم والحديث – تعج بالشرك :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) [268] .

والحق أن الله لا يرضى لعباده الشرك :

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [269] .

والحق أن الدين الذي يطلبه الله من عباده ليس مجرد أن يؤمنوا بأنه سبحانه هو الخالق الرازق المدبر ، فقد كان العرب المشركون يؤمنون بذلك كله ويقرون به ، ولكنهم كانوا مع ذلك مشركين .

---

[266] سورة هود [61] .

[267] سورة الروم [30] .

[268] سورة يوسف [106] .

[269] سورة الزمر [7] .

إنما الدين الذي يطلبه الله من عباده أن يؤمنوا به وحده ، ويعبدوه وحده ، ويتبعوا شرعه وحده ، ويتخذوا منهج حياتهم من منهجه وحده ، فيحلوا ما أحل الله ويحرموا ما حرم ويبيحوا ما أباح ويمنعوا ما منع .. وإلا فليسوا مؤمنين .

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا درس في العقيدة . ولكنا حين نتحدث عن مكان العقيدة من الفطرة نكون في صميم علم الاجتماع . والفرق بيننا وبين " علماء " الاجتماع عندهم في هذا الشأن أننا نثبت – بالدليل – وهم ينفون بلا دليل ! .

ثم إن درس العقيدة عن المسلم ليس درسا منقطعا في ركن من الحياة ، إنما هو درس يصحبه المسلم معه ويحتاج إليه أينما ذهب في مجالات الفكر والحياة ! .

رابعا : الأسرة والمجتمع

الأسرة – كما أشرنا من قبل – من الثوابت التي ثبّتها الله سبحانه وتعالى ، وشهد بثباتها الواقع التاريخي للبشرية ، وإن كانت الجاهلية المعاصرة تجادل في ثباتها .. لأول مرة في التاريخ .

والجاهلية المعاصرة لها ظروفها التي دفعتها إلى تحطيم الثوابت كلها ، والتمرد عليها ، ولكنها تدفع ثمن ذلك غاليا من أمنها وطمأنينتها وهناءة عيشها . فليس أحد حرا في أن يفعل في نفسه وحياته ما يشاء مخالفا لمنهج الله . ولئن كان الله سبحانه وتعالى لا يعاقب المتمردين على سلطانه في التو واللحظة ، إنما يمهلهم ، ويمد لهم إلى حين ، فالعبرة ليست بفترة الإمهال – التي هي فترة استدراج – إنما هي بالنتائج النهائية لا في الآخرة وحدها ، بل في الحياة الدنيا كذلك .

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) [270] .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)[271].

---

[270] سورة الشعراء [205 – 207] .

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [272] .

لقد تمردت الجاهلية المعاصرة على هذا الأصل الثابت الذي ثبّته الله لحكمة ، وجعل له روابط متينة تثبّته في القلب البشري وفي الحياة البشرية ، فأصابها من هذا التمرد كوارث كثيرة ما كانت تخطر على بال !

لقد فقدت الزوجية سكنها وهناءتها .

وإن هذا السكن لهو من الآيات التي يلفت الله النظر إليها ليتفكر فيها الناس :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [273] .

وحين حولت الجاهلية المعاصرة علاقة الزوجين – الذكر والأنثى – إلى علاقة جنس ، وعلاقة شهوة لا علاقة مودة ورحمة ، فقد فقدت السكينة التي خلق الله هذه الرابطة من أجلها ، فحين تبرد حرارة " الحب " [274] – وهي عرضة دائما لأن تبرد – تنفصم العلاقة ، ويتفرق الشركاء .. ويتشرد الأطفال .

ومشكلة جنوح الأحداث من المشاكل " الاجتماعية " الخطيرة التي تقلق بال الغرب – أو تقلق أصحاب الوعي فيه – فيجتمعون ، ويأتمرون ، ويتباحثون ، ثم لا يخرجون بحل حقيقي ، لأنهم يتصايحون وهم داخل القفص لا يخرجون منه ليحطموه ، ويستمتعوا بالطلاقة الحقيقية التي كتبها الله للمستجيبين له .

ومن وراء مشكلة الجنوح مشكلة الشذوذ .. وهو داء كتب الله اللعنة على من أصيب به ، ولكنه في حياتهم لا ينحسر ، بل يزداد انتشارا ، تنفخ في أواره الشياطين التي تسعى إلى تدمير البشرية .

كم من الطاقات يبددها الجنوح إلى الجريمة ، ويبددها الشذوذ ؟

وأي هناءة يحس بها الرجال والنساء والأطفال في هذا الجو الموبوء ؟

---

(271) سورة الأعراف [182 – 183] .

(272) سورة التوبة [82] .

(273) سورة الروم [21] .

(274) ورد في القرآن الكريم قوله تعالى (قد شغفها حبا) تعبيرا عن الشهوة الملتهبة ، بينما العاطفة الراسية المستمرة سماها " مودة ورحمة " .

إن الأسرة هي النظام الرباني ، الذي جعل الله فيه السكينة والبركة والأمن والطمأنينة والنمو السوي للأجيال .

وللأسرة ولا شك مشكلاتها ، التي هرب منها الجاهليون بحماقة ليقعوا في أشد منها !

لا شيء في الحياة الدنيا يمثل نعيما خالصا بلا تنغيص ! فقد كتب الله الكَبَدَ والكدح على البشر في الحياة الدنيا – لحكمة يريدها – ثم كتب النعيم الخالص للمستجيبين إليه من عباده في الحياة الآخرة جزاء ما أطاعوه في الحياة الدنيا .

(لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (275) .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) (276) .

" فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " (277) .

ولكن مشكلات الأسرة ، وما تحمل في طياتها من معاناة ، جزاؤها في الحياة الدنيا هو هذا السكن والسكينة والمودة والرحمة والنمو السوي للأجيال .. فماذا كان جزاء تحطيم الأسرة ، والحياة على طريقة الحيوان .. بل أضل من الحيوان ؟!

لقد ظلت الجاهلية المعاصرة تعمل على تحطيم الأسرة كأنما هي موكلة بالقضاء عليها من قبل الشيطان نفسه .

كان أول خطوات التحطيم إخراج المرأة من البيت لكي تعمل ، بحجة تحريرها .. ورفع الظلم الواقع عليها ، ولقد كان الظلم واقعا عليها حقا ، ولكن " تحريرها " على هذا النحو لم يكن هو العلاج ، لا لها ولا للمجتمع الذي كان يظلمها .

ثم عُلِّمت على مناهج الرجل فاسترجلت ، وما كان هذا خافيا على المخططين .

يتعلم الرجل ليعمل . وهذا دوره الذي خلق له . يكدح خارج البيت ليؤمن البيت ، ويؤمن الأسرة التي تقيم في البيت ، ويمهد لإنشاء جيل جديد سليم قدر الطاقة تحت إشراف ربة البيت ورعايتها .

ولكن المرأة التي تعلمت – أو عُلِّمت – على مناهج الرجل صارت مثله تريد أن تعمل .. فعملت .. ولكن لمن ؟!

---

(275) سورة الحجر [48] .

(276) سورة ق [35] .

(277) أخرجه البخاري .

حين خرجت لتعمل لم يعد هناك بيت ! ولم تعد هناك أسرة تقيم في البيت ! ولم يعد هناك مجال لإنشاء جيل جديد تحت رعاية ربة البيت !

ولم يكن ذلك خافيا على المخططين !

قالوا لها : لا بأس عليك : سننشئ المحاضن التي تقوم بدورك في البيت ، لتتفرغي أنت للعمل ! وأطفال المحاضن هم الذين يشكو المجتمع الغربي من ظاهرة الجنوح فيهم (Delinquency) .

ولعبت أيد كثيرة في أسعار الحاجيات فرفعتها رفعا تدريجيا دائبا لا يتوقف ، مع خفض القيمة الشرائية للعملة خفضا دائبا بنفس المقدار . بالإضافة إلى عملية دائبة أخرى تحول الكماليات إلى ضروريات ، وتبث – بالإعلان – روحا من التلهف الدائم على الشراء . ومن ثم لم يعد يكفي دخل الرجل وحده للقيام بتكاليف " البيت ! " المكتظ بالأشياء الخاوي من الحياة والأحياء ! وصار عمل المرأة أمراً لا معدى عنه ، لتتحمل نصيبها من التكاليف !

ولم يكن ذلك خافيا على المخططين .

كيف تنشأ " الأسرة " في هذا الجو ؟ وطرفاها مشغولان بالعمل ، إن لم يكونا مشغولين كذلك بالاستمتاع على مذهب " متع نفسك Enjoy yourself " والأولاد في المحاضن .. أو في الطريق ؟!

ثم تولت مناهج التعليم ووسائل الإعلام تخريج أجيال " متحررة " لا تقبل التدخل في " حريتها الشخصية " ! وتُعَوَّد على الانضباط الشديد في كل شيء إلا في القيم الخلقية ، التي صورت لهذه الأجيال – ولمربّي الأجيال أيضا – على أنها قيود سخيفة لا معنى لها ، وأنها كوابت تكبت الشخصية وتكبت " النشاط الحر ! " فضلا عن كون التمسك بها يعد " رجعية " بالية لا تتناسب مع حركة " التطور " !

وتضافرت العوامل كلها – مضافا إليها المخدرات ، ومسلسلات التلفاز والفضائيات – لإخراج الجيل المنحل الذي عهد إليه الشيطان بتدمير " الإنسان " ! [278]

* * *

والباحث المسلم في علم الاجتماع عليه أولا أن يفطن لهذا كله ، ثم عليه أن يبين للناس حرص الإسلام الشديد على الأسرة ، والحكمة من هذا الحرص الشديد ، البادي في التشريعات

---

[278] اقرأ – إن شئت " دور اليهود في إفساد أوربا " من كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " .

والتوجيهات ، والممارسة التاريخية لهذه الأمة قبل أن تتفشى فيها العدوى من الجاهلية المعاصرة .

إن الأسرة هي المحضن الطبيعي الذي تتربى فيه الأجيال على مكارم الأخلاق ، ولا توجد – حتى الآن – مؤسسة أخرى يمكن أن تقوم بهذا العمل الضخم بالصورة التي تقوم بها الأسرة .. إنما تقوم المؤسسات كلها – حين يحسن توجيهها وتنظيمها – بالمساعدة في هذه المهمة الرئيسية ، التي تقوم بها الأسرة بطريقة شبه تلقائية ، لأنها تملك العنصر الأهم ، ذا الفعالية العالية في العملية التربوية ، وهو الحب الفطري الذي يكنه الوالدان لأبنائهما ، ويكنه الأبناء للوالدين ، والذي لا يتوافر – بحكم الفطرة – بالقدر اللازم إلا بين الآباء والأبناء !

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) [279] .

خامسا : علاقات الفرد والمجتمع

حرصت الجاهلية المعاصرة ، وعلم الاجتماع الجاهلي معها ، على تصوير العلاقة بين الفرد والمجتمع على أنها علاقة خصام وصراع ، ولا مجال فيها لعلاقة ود صادق ولا تعاون قلبي!

وسواء كانت الجاهلية – في المعسكر الرأسمالي – تعيش الفردية الجانحة ، أو كانت – في المجتمعات – الاشتراكية قبل انهيار الشيوعية – تعيش الجماعية الطاغية ، ففي كلتا الحالتين لا تتفق مصالح الفرد والمجتمع .. ولا يصطلحان !

في الأمم التي تعيش الفردية الجانحة يصور المجتمع على أنه الطاغية الجبار ، الذي يريد أن يكبت كيان الفرد ، ويخضعه لمصلحته هو على حساب مصلحة الفرد ، ويفرض عليه من القيود ما يتعارض مع حريته الشخصية ومع نموه الحر .. ويوجه الفرد دائما إلى التمرد على تلك القيود (التي تتمثل فيها في الواقع الثوابت المتعلقة بالقيم الأخلاقية والدين والزواج والأسرة) بينما تمارس الرأسمالية حريتها كاملة في الطغيان والاستغلال والاستعباد ، دون أن يجرؤ أحد على الحد من سلطانها الطغياني !!

---

(279) سورة الإسراء [23 – 24] .

ويستوي أن يكون المحرض على تكريه الفرد في المجتمع وتبغيضه لتدخله في شئونه " عالم اجتماع " كدوركايم الذي يقول : " إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من حياتهم [280] .. أو " عالما نفسيا " كفرويد ، الذي يقول في كل كتبه إن " السلطة " المتمثلة في الدين والوالدين والمجتمع هي التي تصيب الفرد بالعقد النفسية والاضطرابات العصبية [281] .. أو كان " كاتبا " مثل سارتر الذي يقول إن " الجحيم هو الآخرون " [282] .. أو " مربيا " مثل " جون ديوي " الذي يقول " إن التربية يجب أن تكون عملية متحققة بنفسها في ذات نفسها دون تدخل من أي سلطة خارجية لتفرض هدفا خارجا عن العملية التربوية يعوق النمو الحر للفرد [283] . أو إيحاءً مسموما في فيلم سينمائي أو قصة أو مسرحية أو مسلسل تليفزيوني .. ففي النهاية يلتقي هؤلاء جميعا في أن " الفرد " يجب أن تتاح له الحرية إلى أقصى الحدود ، وأن " المجتمع " ليس له أن يفرض القيود !

إنه ذات الشعار الذي رفعته الرأسمالية اليهودية أول مرة " Laissez Faire , Laissez Passer " دعه يعمل (ما يشاء) دعه يمر (من حيث يشاء) ! وليذهب المجتمع إلى الجحيم!

أما في الأمم التي كانت تعيش الجماعية الطاغية ، فالفرد يصور فيها على أنه ذلك الأناني البغيض الذي يريد أن يحقق كيانه على حساب " المجتمع " ، وأنه بأنانيته الطاغية هو العدو الذي ينبغي للمجتمع أن يسحقه تحت أقدامه ، ويتخلص منه ولو بالقضاء الكامل عليه !!

في الحالين لا صلح ولا وئام !

وقد يكون هذا وصفا صادقا للمجتمعات الجاهلية الجانحة ذات " اليمين " وذات " اليسار"!

ولكنه ليس هو " الإنسان " كما ينبغي أن يكون !

والمجتمع المسلم له أوصاف غير تلك الأوصاف !!

---

(280) سبقت الإشارة إليه .

(281) راجع بصفة خاصة كتابه " The Ego and the Id " وكتابه Totem and Taboo .

(282) عنوان مسرحية لسارتر .

(283) يكرر ديوي هذا الكلام في كل كتاباته ، ولكنه ينسى فيقول إن هدف العملية التربوية يجب أن يكون هو الديمقراطية ! أي أنه يسمح بوجود هدف خارجي ، بشرط ألا يكون هو الدين ! فهو وحده هو المحظور !

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [284] .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) [285] .

والمجتمع المسلم ليس مجموعة من الملائكة ، ولن يكون البشر مجتمعا من الملائكة في يوم من الأيام ! إنهم بشر .. يتخاصمون ويتنازعون ويقع بينهم الصدام والصراع .. ولكنهم مع ذلك يظلون أرقى نفسيا وخلقيا من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يدينون دين الحق .

وشهادة التاريخ أولى بالاعتبار .

لقد ظل المجتمع المسلم إلى ما قبل نكسته الحالية التي تجمعت فيها كل الأمراض من الداخل والخارج ، أقل المجتمعات البشرية جرائم ، وأقربها إلى روح المودة والتسامح والتعاون على البر والتقوى ، وأقلها تناولا للخمر والمخدرات ..

ولنأخذ هذه المعايير الثلاثة : الخمر والمخدرات والجريمة ، ولنتدبر دلالتها .

الخمر والمخدرات عمليتا هروب من الواقع ، ومحاولةٌ لإيجاد " واقع " آخر – في الخيال – غير الواقع الحقيقي الذي هرب منه مدمن الخمر والمخدرات ..

لماذا يهرب الناس من واقعهم ؟! هل يسعون إلى الهروب منه لو كانوا سعداء به ؟

---

[284] سورة الشورى [36 – 38] .

[285] سورة الفرقان [63 – 76] .

والجريمة – كما هو واضح – عدوان من الفرد على المجتمع ، فهل يلجأ إلى العدوان ونفسه منسجمة مع ما حولها ، راضية بالعلاقات بينها وبين الآخرين ؟

فإذا اجتمعت الأمراض الثلاثة كما هي مجتمعة اليوم في المجتمع الغربي ، فدلالتها واضحة : أن العلاقات قد ساءت بين الفرد والمجتمع ، وأن الفرد غير سعيد بواقعه يريد أن يهرب منه .

ودليل المخالفة واضح كذلك .. فحين تقل نسبة الخمر والمخدرات والجريمة في المجتمع – كما كانت قليلة في المجتمع المسلم إلى ما قبل نكسته الأخيرة – فمعنى ذلك أن علاقات الفرد والمجتمع جيدة ، وأن الفرد ليس ناقما على مجتمعه ، ولا المجتمع ناقم على أفراده إلى الحد الذي يؤدي إلى انتشار الجريمة [286] .

وإذن فقد وجد في واقع التاريخ ، ولفترة غير قصيرة من الزمن ، مجتمع لا يحس الفرد فيه أنه مضغوط مكبوت ، مغلوب على أمره ، يتحين الفرص ليتمرد على المجتمع وينقض عليه ، ولا يحس المجتمع أن الأفراد فيه أعداء متربصون يجب سحقهم والقضاء عليهم ..

فكيف حدث هذا الانسجام بين الفرد والمجتمع على هذه الصورة في عالم الواقع ؟

المفتاح في الثوابت !

فحين يلتقي الفرد الواحد والأفراد الآخرون الذين يكونون المجتمع على الثوابت ، يقل الصراع إلى أقصى حد ، ويحس المجموع بالروابط الذي تشد بعضه إلى بعض ، فيصبح كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " [287] .

والرباط الأعظم في هذه الروابط بطبيعة الحال هو الدين ، هو العقيدة في الله واليوم الآخر . فهو العقدة التي تضم الخيوط جميعا ، وتربطها بعضا إلى بعض .

ولا يخرج الناس مع ذلك عن بشريتهم ، ولا يصبحون ملائكة ، وتظل فيهم دوافع البشر ، وتعتمل في نفوسهم نوازع البشر ، ولكن على مستوى " الإنسان " لا على مستوى الحيوان !

---

[286] لا يوجد مجتمع بشري – ولا مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم – يخلو خلوا كاملا من الجريمة . ففي مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم من سرق ومن زنا ومن شرب الخمر ، وأقيم عليه الحد . ولكن هناك فرقا واضحا لا ينكره إلا مغالط ، بين مجتمع لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذا يستنكر ، ومجتمع الجريمة فيه شيء عادي دائم الحدوث .

[287] متفق عليه .

* * *

المجتمع – في حقيقته – نابع من الفرد .

وقد اجتهد دوركايم بصفة خاصة – وإن كان قد اشترك معه كثيرون غيره – في تصوير المجتمع على أنه قوة ضاغطة على الفرد من خارج كيانه ، تسيّره على غير هواه !

" إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم " .

وقد سبق أن أشرنا إلى التملص – غير العلمي – الذي وقع فيه دوركايم حين اضطر أن يعترف أن الظواهر الاجتماعية تنشأ نتيجةً لعدد كبير من الضمائر الفردية ، ومع ذلك فهي في زعمه توجد خارجة عنا !

" ولكن لما كان هذا العمل المشترك (الذين تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية) يتم خارج شعور كل فرد منا ، وذلك لأنه نتيجةٌ لعدد كبير من الضمائر الفردية ، فإنه يؤدي بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، وهي تلك الضروب التي توجد خارجة عنا ، والتي لا تخضع لإرادة أي فرد منا " !! [288] .

وندع دوركايم لتخبطه " العلمي ! " – وإن كنا نعجب كيف لا يرى أنصاره المدافعون عنه ذلك التخبط – ونسأل أنفسنا : من أين ينبع المجتمع ؟

إن الكائن البشري ذو شعبتين في آن واحد ، يكوّنان في مجموعهما شخصيته : شعبة فردية تسعى إلى إثبات الذات وتوكيدها ، وشعبة اجتماعية تسعى إلى الاجتماع بالآخرين ، والأنس بهم ، والاشتراك معهم في بعض الأمور على الأقل إن لم يكن في كثير من الأمور .

كلتا النزعتين أصيلة فيه .. ليست إحداهما مفروضة عليه من خارج كيانه !

والمرجع في ذلك هو الواقع ! .

مَنْ مِنَ البشر يحب أن يعتزل الناس ويعيش مفردا لا يتصل بأحد ولا أحد يتصل به إلا أفراد نادرون لا يحسب لهم حساب في التعداد البشري الكثيف الذي يبلغ اليوم مليارات ؟!

وبقية البشر – الطبيعيين – ما حالهم ؟

---

[288] سبقت الإشارة إليه .

حالهم هو الذي ذكرناه .. تارة يبرز في الإنسان ذاته الفردية ، فيحب أن يثبت ذاته بوسيلة من الوسائل ، وتارة يسعى – مختارا مشتاقا متلهفا – إلى مصاحبة الآخرين والاشتراك معهم في أمر من الأمور .

بل إنه في اللحظة التي يحب أن يثبت ذاته ، لا يكتفي بأن يثبت ذاته بينه وبين نفسه بعمل من الأعمال ، إنما يسعى إلى الاجتماع بالآخرين ليثبت ذاته بينهم على نحو من الأنحاء . وصحيح أنه يضطر أحيانا لأن يتنازل عن بعض رغباته الخاصة من أجل وجود الآخرين من حوله . ولكنه يفعل ذلك – أو يتقبله – لقاء إشباع رغبته الأخرى في الاجتماع مع الآخرين .

كيف يقول عاقل إذاً إن " المجتمع " مفروض على الفرد من خارج كيانه ؟

إنما يحدث التنازع بين النزعتين الفردية والجماعية – كما يحدث بين نزعات كثيرة في كيان الإنسان – حين تزيد " الجرعة " في إحداهما عن القدر اللازم الذي تتوازن به الأمور ، أو حين تثور في النفس نزعات متضاربة في وقت واحد .

وزيادة الجرعة إما أمر عارض ، يعود بعده الإنسان إلى حالته الطبيعية فلا يعتبر مرضا ، وإما شيء دائم أو غالب ، فعندئذ يعتبر حالة مرضية .

إن الإنسان في حالته الطبيعية دائم التقلب بين نزعاته المختلفة ، وهذا من الإعجاز في خلقه فقد خلقه الله متعدد الجوانب ، ليقوم بمهمة الخلافة في الأرض ، والإنشاء والتعمير فيها ، وهي مهمة ذات مجالات مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وخلقية وفنية وعملية وتقنية .. ولو لم يكن الإنسان متعدد الجوانب لعجزه عن القيام بالمهمة الملقاة على عاتقه . ولكن الله لا يكلف نفسا إلا في حدود وسعها ، وقد زود سبحانه الإنسان بكل الأدوات اللازمة له ، ومن بينها تعدد النزعات ، وتعدد الجوانب ، وسهولة الانتقال – أو الانزلاق [289] ! – من جانب إلى جانب ، ومن وضع إلى وضع ، ومن مجال إلى مجال .

ويحدث أحيانا – كما قلنا – أن تتعارض في نفسه بعض الجوانب وبعض النزعات ، إما لتدافعها في وقت واحد – وكلٌّ منها يريد الساحة خالصة له – وإما لزيادة عارضة أو دائمة في جرعة من الجرعات .

---

[289] لانقصد الانزلاق بمعنى الهبوط من أعلى إلى أسفل وإنما نقصد الانتقال السهل من حالة إلى حالة بما يشبه " التزلج " على الجليد !

فأما التدافع العارض ، وأما الزيادة العارضة في الجرعة ، فسرعان ما تعود إلى وضعها السوي ، فقد زود الله الإنسان بجهاز ضابط ، يحقق الاتزان النفسي في الحالة السوية ، وهو من المزايا التي أكسبتها النفخة العلوية من روح الله لقبضة الطين .

أما التدافع الدائم الذي يوقع الحيرة والاضطراب والتردد وعدم الاستقرار ، أو الجنوح الدائم إلى جانب واحد على حساب الجانب المقابل [290] فهو مرض نفسي يخرج من دائرة حديثنا هنا ، فكلامنا كله متعلق بالفطرة السوية ومكان النوازع المختلفة منها .

وفي المجتمع المتوازن ، الذي تحكمه " الثوابت " ، فتعيد إليه حالة التوازن كلما اضطربت موازينه ، يأخذ الفرد والمجموع كلٌّ مكانَه بأقل قدر من الصراع والتنازع ، وتكون الأداة التي تجمعهما وتربط بينهما هي هذه الثوابت ذاتها ، فإنها – في صورتها الربانية – تمثل التوازن ، وتدعو إلى التوازن ، وتؤدي إليه .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [291] .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[292] .

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) [293] .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[294].

توازن شامل يشمل كل كيان الإنسان ، ويشمل فيما يشمل علاقة الفرد مع غيره من الأفراد، الذين يكوّنون " المجتمع " بالنسبة إليه [295] .

---

[290] اقرأ إن شئت فصل " خطوط متقابلة " وفصل " الانحراف والشذوذ " من كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " .

[291] سورة الحديد [25] .

[292] سورة البقرة [143] .

[293] سورة القصص [77] .

[294] سورة الملك [15] .

[295] المجتمع في حقيقته هو مجموع الأفراد مضافا إليه العلاقات التي تحكم اتصال الأفراد بعضهم ببعض ، وكل فرد يشعر بفرديته من جهة ، ويشعر أن " الآخرين " بالنسبة له هم " المجتمع " ، ومن ثم فإن العلاقة في حقيقتها هي علاقة كل فرد بكل فرد ، وإن قضية الفرد والمجتمع هي قضية علاقات دائرية تشمل كل فرد بمفرده، وتشمل في الوقت ذاته كل الناس في تشابك لا ينفصم إلا في حالة الانحراف .

وليس في هذه العجالة مجال للتفصيل ، فهذا شأن الكتابة المتخصصة في علم الاجتماع . ولكنا نقول باختصار إن المنهج الإسلامي يكلف الفرد المسلم تكاليف في نفسه خاصة ، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ثم تكاليف موجهة للآخرين ، بدءا بالوالدين والأقربين وانتهاء بالمجتمع كله، بل بالبشرية كلها .. وفي الوقت ذاته يكلف المجتمع تكاليف كالجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتعاون على البر والتقوى .. فتلتقي التكاليف في النهاية بين الفرد والمجتمع ، وتجمعهما في اتجاه واحد ، متوجه إلى الله ، عامل على رضاه .. وهذا هو الذي يجعل الفرد في المجتمع المسلم لا يحس أن المجتمع ضاغط على كيانه ، قاهر لوجوده الفردي ، ويجعل المجتمع لا يحس أن الفرد عدو لا يصلح له إلا السحق !

أما الفرد الشاذ الجانح فله علاجه في المنهج الرباني بحيث لا يقلق أمن المجتمع . علاج يبدأ بالتربية وينتهي بالعقوبة الرادعة إذا أصر على انحرافه .

وأما المجتمع الشاذ الجانح فله علاجه كذلك في المنهج الرباني ، وهو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتلك مهمة الدعاة ، أو الردع ، وتلك مهمة أولياء الأمور : " يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " .

والدارس المسلم في علم الاجتماع من مهامه أن يتبين تلك العلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع في الكيان الإنساني السوي ثم يبينها بدوره للدارسين . وأن يبين لهم كذلك أن الحالة السيئة التي وصلت إليها الأمة الإسلامية ، من تفكك الروابط الاجتماعية ، وانتشار الأنانية البغيضة ، وحرص كل فرد على أن يصل إلى أهدافه – المشروعة وغير المشروعة – على حساب الآخرين ، هذا كله لا علاج له إلا بالعودة إلى الإسلام !

(2)

في التاريخ

بين علم الاجتماع وعلم التاريخ جدار رقيق ، وفي الجدار نوافذ يطل منها كل منهما على الآخر ليطلع على ما عنده ! فالدارس في علم الاجتماع يحتاج أن يطلع على مسارات التاريخ ، ليعرف سير الظواهر الاجتماعية وجودا وعدما ، وترابطا وتفككا ، وثباتا وتغيرا ، ودارس التاريخ يحتاج إلى تفهم الظواهر الاجتماعية من أجل تفسير الأحداث التاريخية وتقويمها [296] .. ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

وقد توسعنا – شيئا ما – في الحديث عن بعض الموضوعات التي ينبغي لدارس الاجتماع المسلم أن يركز عليها ، ولا نحتاج لمثل ذلك في التاريخ ، لأن المكتوب في علم الاجتماع الإسلامي حتى الآن قليل للغاية ، بينما توجد كتابات في " التفسير الإسلامي للتاريخ " وإن كانت الفكرة ما تزال غريبة على الكثيرين من دارسي التاريخ !

والمؤرخ المسلم لن يخترع تاريخا جديدا للبشرية . ولكنه على وجه التأكيد سيجد نفسه مختلفا مع المؤرخين الآخرين في الأمرين اللذين أشرنا إليهما آنفا ، وهما التفسير والتقويم ، وهما في الحقيقة لب دراسة التاريخ . فليس التاريخ مجرد سرد للوقائع التاريخية – وإن كان هذا جزءا أساسيا من عمله – وإنما هو محاولة لربط الأحداث بعضها مع بعض برباط يجعل وجودها وتسلسلها على النحو الذي وقعت به مفهوما عند القارئ – وهذا هو التفسير – ثم يستخرج العبرة المستفادة منها ، وهذا هو التقويم .

ومن أجل التفسير والتقويم – اللذين هما لب دراسة التاريخ – فلا بد من الرجوع إلى القضية الرئيسية التي نحتاج إلى الرجوع إليها مع كل علم من العلوم الاجتماعية ، وهي قضية " الإنسان " : ما هو ؟ ما تكوينه ؟ ما حدود طاقاته ؟ ما غاية وجوده ؟ ما موقفه من السنن التي تحكم حياته ؟ ما موقفه من الضغوط الواقعة عليه من داخل نفسه أو من خارجها ؟ ما معيار إنجازاته ؟

---

[296] المقصود بالتقويم هو تقدير القيمة ، وكثير من الكتاب يستخدمون كلمة تقييم بدلا من تقويم والصواب التقويم .

وإذا لم نحدد الإجابة الواضحة على هذه الأسئلة فكيف نفسر التاريخ ؟ وكيف نقوّم أحداثه ؟ وماذا يبقى منه إلا أحاديث مفككة ، قد تصلح لتزجية الفراغ ، ولكنها لا تصلح للعبرة ولا تحقق الهدف من دراستها ، بينما الله سبحانه وتعالى يوجهنا توجيها واضحا للسياحة التاريخية في الأرض ، واستخراج العبرة من أحداث التاريخ :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ..) (297) .

وحين لا نهتدي إلى الإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة ، أو حين تأخذنا أهواؤنا أو ضغط ظروفنا بعيدا عن الصواب في إجابتها ، فسنخرج ولا شك بنتائج غير التي نحن حريصون على أن نصل إليها حين تستقيم تصوراتنا على النهج الصحيح ، وحين نرجع إلى المرجع الصحيح .

وهنا ستقوم نقطة الخلاف الرئيسية بين المؤرخ المسلم وغيره ، أو قل إن شئت بين التفسير الإسلامي والتفاسير الجاهلية للتاريخ .

حين يكون تصورنا للإنسان أنه ذلك الحيوان الدارويني المتطور ، المتأله في ذات الوقت يجعل نفسه هو المرجع فيما يأتي وما يدع من الأعمال ، وعدم الخضوع لمرجع خارجي عنه ، والذي يعيش للدنيا وحدها ، ولا يؤمن بالمعاد ولا يعمل له ، فكيف يكون معيار إنجازاته ؟

سيكون هو معيار الحيوان ، مع إضافة التطور الذي حدث لذلك الحيوان : الغلبة من جهة والاستمتاع من جهة أخرى ، باستخدام العقل المفكر ، والأدوات والآلات التي يخترعها ذلك العقل.. ولا زيادة .

وبهذا المعيار المنحرف يكتب المؤرخ الغربي عن " عظمة " الإمبراطورية الرومانية ، وغيرها من الإمبراطوريات ..

فعلى أي أسس قامت الإمبراطورية الرومانية ؟ على أسس الجبروت الغاشم ، والقوة الحربية القاهرة ، التي تخضع الآخرين لسلطانها ، وتستعبدهم لخدمتها .. فهل هذا معيار " إنساني " ؟ أم إنه قانون الغاب .. القوي يأكل الضعيف ، أو يزيحه من الطريق ؟ مع عمل الاعتبار بطبيعة الحال للفارق بين الحيوان الأصلي والحيوان المتطور : أن الأول يستخدم عضلاته وحدها في صراع البقاء ، أما الثاني فيستخدم عقله وأداوته ، فتكون وسيلته في استعباد الآخرين وقهرهم هي القوة الحربية ، والقوة السياسية ، والقوة العلمية ، والبراعة في استخدام الأدوات.. ولكن الهدف هو ذاته ، الذي يصارع من أجله الحيوان !

وقراءة التاريخ على هذا النحو تفسد كل عبرة التاريخ .

---

(297) سورة الروم [42] .

إن المؤرخ المسلم لن يغفل – ولا يجوز له أن يغفل – أن الرومان كانوا بارعين في الحرب، بارعين في السياسة ، بارعين في التنظيم ، عباقرة في العمارة المادية للأرض . في إنشاء المدن وتزويدها بالماء وتزيين مبانيها ، وإنشاء الطرق وصيانتها ، بارعين في فنون كثيرة أخرى .. ولكنه بحكم تصوره " للإنسان " وغاية وجوده ، سيركز تركيزا شديدا على " القيم " المفقودة في الإمبراطورية الرومانية – وغيرها من إمبراطوريات التاريخ – التي على رأسها الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعمادها القيم الأخلاقية الثابتة التي يجب أن تحكم حياة الإنسان .

وبماذا يخرج المؤرخ المسلم في النهاية حين يركز على هذه القيم وفي الوقت ذاته لا يغفل كل الإنجازات المادية ، وكل النجاحات الأرضية التي وقعت للإمبراطورية الرومانية أو غيرها من الإمبراطوريات ؟

يخرج بأنها حضارة جاهلية .. وما أكثر الحضارات الجاهلية في التاريخ !

حضارة من ناحية العمارة المادية للأرض ، وجاهلية بالمعنى القرآني .. الجهل بحقيقة الألوهية ، واتباع غير ما أنزل الله [298] .

ولا تعارض على الإطلاق – بحسب السنن الربانية – بين كونها جاهلية وبين التمكين الذي نالته في الأرض . والقوة الهائلة التي حصّلتها ، فذلك وارد – كما بينا من قبل – في السنن الربانية بكل جلاء .

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) [299] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ)[300] .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ..) [301] .

ولمعترض أن يقول إن هذا " إسقاط " لمعايير متأخرة على حقب زمنية متقدمة ، مما لا يجوز " علميا ! " لأنه يفسد البحث العلمي !

---

[298] راجع تفسير مصطلح الجاهلية عن ابن تيمية رحمه الله في كتاب " اقتضاء الصراط المستقيم " ص 78 – 79 .

[299] سورة الإسراء [20] .

[300] سورة هود [15] .

[301] سورة الأنعام [44] .

ونقول لـه : إن هذا يكون صحيحا لو كانت هذه المعايير متأخرة حقيقةً ، ولم تكن قائمة في الوقت الذي قامت فيه تلك الإمبراطوريات . فكيف إذا كانت قد أنزلت منذ آدم وحواء ؟!

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (302) .

وكيف إذا كانت كل الإمبراطوريات المعروفة تاريخيا قامت بعد الطوفان ، ووعت ذاكرتها أحداث الطوفان ؟

(إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ، لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) (303) .

والحصيلة النهائية للإمبراطورية الرومانية أنها راسبة في " مادة الرسوب " وإن أخذت النهايات العظمى في بقية المواد !

والجاهلية الفرعونية كذلك !

إنها جاهلية برعت في أمور كثيرة وصلت فيها إلى حد العبقرية ، كما يوحي بذلك بناء الأهرام ، والهندسة الدقيقة التي روعيت في بنائها ، وكذلك عملية التحنيط التي ما زال سرها خافيا حتى اليوم ، بالإضافة إلى صناعات أخرى كثيرة وفنون متعددة .. وفي الوقت ذاته كان لها سلطان وطيد سواء في بلادها الأصلية – مصر – أو في البلاد التي استولت عليها في فترات التوسع الحربي ، الذي كونت فيه إمبراطورية ..

ولكنها راسبة في " مادة الرسوب " التي يعتبر من رسب فيها راسبا ولو نجح في المواد الأخرى كلها بأعلى الدرجات !

وفي مصر بالذات أرسل نبيان على وجه التأكيد هما يوسف وموسى عليهما السلام ، مع احتمال كبير أن يكون قد أرسل قبلهما رسول ممن لم يقصصهم الله في القرآن .

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ، رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)(304).

والذي يرجح إرسال ذلك الرسول أن " كتاب الموتى " يحمل وصفا دقيقا لليوم الآخر ، وما يجري فيه من الحساب ووزن الأعمال ، والصيرورة إلى الجنة أو النار مما لا يفكر فيه البشر

---

(302) سورة البقرة [28 – 29] .

(303) سورة الحاقة [11 – 12] .

(304) سورة النساء [164 – 165] .

من تلقاء أنفسهم إلا أن يخبرهم بذلك نبي مرسل . كما أن المصريين كانوا يعرفون بدليل قول النسوة لما انبهرن بجمال يوسف عليه السلام :

(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (305) .

وقول فرعون وهو يصد قومه عن الإيمان بموسى عليه السلام : **(فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)** (306) .

ومع إرسال الرسل إليهم فقد ألّهوا الفرعون وعبدوه ، وكانوا يقدمون له الصلوات والقرابين ، وقبلوا منه قوله : **(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)** (307) .

والمؤرخ المسلم وهو يتناول تاريخ الجاهلية الفرعونية سيسلك ذات الطريق الذي يسلكه مع كل الجاهليات الأخرى ذات البراعات ، وذات العمارة المادية الفائقة للأرض . يسجل لها كل نجاحاتها في المواد التي نجحت فيها ، وكل انتصاراتها الحربية والسياسية والإدارية والعلمية والعمرانية ، لا يبخسها شيئا من ذلك ، ثم يسجل لها أنها رسبت في " مادة الرسوب " ، وأنها لذلك تعتبر راسبة رغم كل ما لديها من البراعة ، ومن نقط القوة في كثير من المجالات ..

وليس في ذلك ظلم ولا افتئات .. ولا افتعال .

إن درس التاريخ هو درس تربية في ذات الوقت .. بل هو من أعظم الدروس التربوية حين يلتفت إلى جانب العبرة فيه .. فعلى أي شيء نربي أبناءنا ؟!

هل نربي أبناءنا – نحن المسلمين – على الانبهار والتمجيد لمن عصى الله وتجبر على الناس ، وادعى الألوهية ، واتخذ الناس عبيدا له ؟! والذين بيّن الله لنا مصيرهم في الآخرة : أنهم مخلدون في نار جهنم ؟! وخاصة ونحن لا ننفي عنهم كل البراعات التي برعوا فيها ، ولا نخفي شيئا مما كانوا ناجحين فيه ..

بل نحن حريصون على إبراز تلك البراعات لأمر تربوي يراد .

إننا نريد أن نبرز السنن الربانية . كيف تعمل في واقع الأرض . والسنن الربانية تقول أمورا كثيرة مهمة في التوجيه العقدي والتوجيه التربوي .

تقول إن النجاح في الحياة الدنيا ليس في ذاته دليلا على أن أصحابه من الأخيار ، ولا أن منهجهم في الحياة الدنيا منهج صحيح . فقد يكونون من أشد الناس شرا وطغيانا وجبروتا ،

---

(305) سورة يوسف [31] .

(306) سورة الزخرف [53] .

(307) سورة القصص [38] .

ويكون نجاحهم في الحياة الدنيا – وهم في شرورهم تلك – استدراجاً لهم . **(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** [308] .

وهذا التوجيه له أهمية خاصة بالنسبة لنا في أوضاعنا المعاصرة ، التي ابتلينا فيها بالغزو الفكري من ناحية ، والانبهار بما عند الغرب من ناحية أخرى . والظن بأنهم ما داموا أقوياء وممكنين في الأرض ، فلا بد أن يكون كل شيء عندهم حسنا ، بما فيه أفكارهم ونظمهم وتصوراتهم وسلوكياتهم .. وهو ظن باطل بطبيعة الحال ، والجاهلية الأوروبية المعاصرة هي وريثة الإمبراطورية الرومانية في براعاتها الحربية والسياسية والتنظيمية والعمرانية والمادية ، وخلوها في الوقت ذاته من القيم الأخلاقية ، وانطماس الجانب الروحي فيها . فإذا أبرزنا جاهلية الإمبراطورية الرومانية ، ورسوبها في مادة الرسوب الرئيسية ، فذلك ييسر لنا إبراز جاهلية الغرب اليوم ، على الرغم من التقدم الجبار الذي أحرزه في ميادين كثيرة من أمور الحياة الدنيا .

وفي الوقت نفسه تقول السنن الربانية إنه لا ارتباط على الإطلاق بين التقدم المادي والعلمي وبين الفساد الخلقي والانطماس الروحي ، وإن الله يتيح النجاح للمؤمنين ، المتبعين للمنهج الرباني – حين يتخذون الأسباب المناسبة – ويمكن لهم في الأرض بكل وسائل التمكين ، ويمنحهم في الوقت ذاته رضوانه في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يفيض عليهم – بالإضافة إلى التمكين المادي – **(بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)** وطمأنينة في قلوبهم ، وفي الآخرة جنات الخلد .

وهذا التوجيه له أهميته كذلك بالنسبة لنا في أوضاعنا الحاضرة ، في مقاومة ما حل بنا في نكستنا الحالية من ليّ رقابنا نحو الغرب في تبعية مريضة لا تميز بين الخير والشر ، ولا بين الضار والنافع ، ظنا من الأجيال التي تربت في الغزو الفكري والانبهار بالغرب أن التمسك بالقيم عائق عن النجاح في الدنيا ، وأنه لا ينجح إلا من خلع دينه وأخلاقه وتخلص من كل القيم الثابتة في حياته . وهو ظن باطل بطبيعة الحال . ونحتاج هنا إلى دراسة التاريخ الإسلامي ، والتركيز على فترة الصعود فيه ، وقد امتدت قرونا متوالية ، أطول بكثير من الفترة التي تمكن فيها الغرب ، والتي لا تتعدى – حتى الآن – ثلاثة قرون ، بينما تؤذن حضارة الغرب الجاهلية بالانهيار .. حسب سنة الله !

وفي دراستنا لتاريخ الإسلام لا نحتاج أن نزور صورة زاهية تخالف الواقع ! فالصورة – في فترة الصعود بصفة خاصة – زاهية في ذات نفسها بما فيه الكفاية ! ولكنا نحتاج إلى إبراز نقاط معينة فيها :

---

[308] سورة النحل [25] .

1- أن الإيمان بالله واليوم الآخر في أصفى صورة عرفتها البشرية في تاريخها كله ، وأعمق صورة ، لم يكن في حياة الأمة الإسلامية دعوة إلى التعلق بالحياة الأخرى وحدها وإهمال الحياة الدنيا ، كما كانت النصرانية المحرفة في حياة أوروبا ، التي ابتدعت الرهبانية :

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [309] .

إنما كانت – مع الإشراق الروحي ، والتمسك بالثوابت الأخلاقية – عملا جادا في الحياة الدنيا في جميع الميادين ، أنتج حركة علمية فائقة ، وحضارة عمرانية شاملة ، مع التمكن الحربي والسياسي والاقتصادي ، ومع السبق في ميادين من الخير كثيرة ، كنشر التعليم المجاني ، وإتاحة العلاج المجاني ، وحبس الأوقاف الضخمة لأوجه البر .

2- أن حركة الفتح الإسلامي – وهي من أبرز ملامح فترة الصعود – لم تكن جبروتا ظالما يسعى لاستلاب الخير من أصحابها ، وإفقارهم وإذلالهم وقهرهم ، ككل حركات التوسع الجاهلية من أول التاريخ إلى هذه اللحظة ، إنما كانت لنشر النور والهدي – بغير إكراه – ورفع الناس من وهدة الشرك والخرافة ، وتطهيرهم مما هم غارقون فيه من أرجاس ، كما صور ربعي بن عامر رضي الله عه القضية لرستم قائد الفرس حين سأله : ما الذي جاء بكم إلى بلادنا ، فقال : إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الفاتح الوحيد في التاريخ الذي قرر أن يبقي ملكية الأرض المفتوحة لأصحابها ولا يمنحها للفاتحين ، مستنا بذلك سنة فريدة في التاريخ تقيد بها المسلمون من بعده . وعمر بن الخطاب كذلك هو الفاتح الوحيد في التاريخ الذي عاتب واليه لأن ابن ذلك الوالي تعدى على أحد أفراد الأرض المفتوحة ، فقال لعمرو بن العاص ، والي مصر : يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! ثم أوقع القصاص على ابن الوالي من أجل إقامة العدل الرباني .

3- أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة إنسانية النزعة ، لا تحجب الخير عن الآخرين ، ولا تضن بالعلم والثقافة ووسائل التمدن فتمنع الآخرين من الوصول إليها أو التمكن منها كما تصنع الجاهلية المعاصرة مع المسلمين بصفة خاصة ، لتمنعهم من الوصول إلى آفاق عالية في العلم ، وتقتل منهم من برع بصفة خاصة في علوم الذرة دون أن يتحرج ضميرها من هذا الصنيع! وقد كانت مدارسهم وجامعاتهم مفتوحة لليهود والنصارى يتعلمون فيها كل العلم الذي يرغبون في تحصيله .. ومن هناك قامت النهضة الأوربية ، بما تعلمته في مدارس المسلمين .

---

[309] سورة الحديد [27] .

4- أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة إنسانية بالمعنى الآخر ، معنى شمولها لكل جوانب الإنسان . جسمه وروحه . عقله ووجدانه . دنياه وآخرته . عمله وعبادته ، في توازن يحقق " إنسانية الإنسان " فلا هو حيوان ولا هو إله ، وإنما هو إنسان عابد لله ، متبع لمنهج الله.

* * *

ثم إننا لا نحتاج كذلك أن نداري على انحرافات الأمة الإسلامية وانتكاساتها ، وخاصة نكستها الحاضرة ، ولا أن نتلمس لها المعاذير الكاذبة ، فنلقي المسئولية في ذلك على أحد غير نفسها !

بل إننا حريصون أن ندرس ذلك بأمانة ، وصدق ، وإخلاص .

أما الأمانة فهي أمر رباني لهذه الأمة لا يسعها الخروج عن مقتضاه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ..) [310] .

فحين تنحرف الأمة الإسلامية ، وتقصر في أداء التكاليف التي كلفها الله إياها ، فلا بد أن نسجل ذلك بكل الأمانة التي أمر بها الله . ولكن يكون في حسابنا عدة نقاط :

1- إن المستشرقين – وتلاميذهم – عمدوا إلى تشويه " علمي " منظم هادف بالنسبة للتاريخ الإسلامي لأمر يراد . فركزوا على الخط الأسود في الصفحة ، وحجبوا البياض كله عن العيون ! وكان الهدف أمرين في وقت واحد . الإيحاء بأن التاريخ الإسلامي – " الحقيقي ! " – لا يستحق الاعتزاز به ولا الفخر بأمجاده فهو مليء بالبقع السوداء ! ثم الإيحاء بأن الإسلام – في صورته الزاهية التي تملأ وجدان المسلمين – لم يعش إلا سنوات قليلة لا تستحق أن يُنشأ لها فصل خاص في تاريخ البشرية (إنما الذي يستحق ذلك هو " الحضارة " الغربية !) .

وكلا الإيحائيين مطلوب عند أعداء الإسلام ، لأنهم يعلمون أن اعتزاز المسلمين بتاريخهم، وما فيه من أمجاد وعظمات ، من أهم أسباب استمرارية الأمة الإسلامية في الوجود ، وعدم انقراضها كما انقرض غيرها من الأمم التي طواها التاريخ .. وأنه من أهم بواعث " الصحوة الإسلامية الحالية ، التي لا يطيقها الغرب ، ويسعى إلى قتلها بكل الوسائل والأساليب .

فأما المؤرخ المسلم فينبغي له أن يرسم الصورة كاملة ببياضها وسوادها في حجمها الحقيقي دون إفراط ولا تفريط . وسيجد حين يفعل ذلك أنه خلال سبعة قرون على الأقل من تاريخ هذه الأمة كان البياض هو الغالب على الصورة ، وخلال خمسة قرون أخرى كان السواد

---

[310] سورة النساء [135] .

يتكاثر في الصورة ولكنها لا تخلو من البياض كما يزعم المستشرقون وتلاميذهم ، وأن القرنين الأخيرين كانا أشد فترات الظلام في تاريخ الأمة .

2- يحتاج المؤرخ المسلم إلى التركيز على انحرافات الأمة في فترتها الأخيرة ، لا بروح الشماتة كما يفعل العلمانيون في دراساتهم التي تنم عن حقد دفين في نفوسهم على الإسلام ، اكتسبوه من سادتهم الغربيين ، ولكن بروح التربية والتعليم . التعليم الذي يوضح مسار السنن الربانية ، وأنها لا تحابي أحداً من الخلق لمجرد قوله – أو ظنه – أنه على إيمان صحيح . إنما السنن متعلقة بأعمال الناس وواقعهم لا بأقوالهم ولا ظنونهم الفاسدة . وأن السنن الربانية لم تحاب الأمة الإسلامية حين انحرفت عن الطريق ، إنما عاقبهم الله – بسبب تقاعسهم وتواكلهم وإعراضهم – بنزع الاستخلاف والتمكين والتأمين منهم ، وهي الأمور التي تكفل بها الله سبحانه للأمة حين تكون على الشرط :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) (311) .

هذا نصيب التعليم في هذا الشأن . أما نصيب التربية فهو توجيه الأمة إلى أنها لن تخرج من انتكاساتها إلا بإزالة الأسباب التي أدت إليها ، كما تقول السنن الربانية .

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (312) .

ولن يعيد الله للأمة مجدها ، ومكانتها ، وقوتها ، حتى تعود عودة صادقة إلى الإسلام .

" لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها " .

وهو توجيه مهم في وجه الدعاوى التي تقول إنه لا سبيل لهذه الأمة إلى النهوض إلا بالانسلاخ من الإسلام ، أو في القليل حصره في داخل الوجدان ، ومنعه من الهيمنة على واقع الحياة !

3- إن إبراز انحرافات الأمة الإسلامية في انتكاساتها الأخيرة ، ومسئوليتها عما حدث لها من الضعف والهوان والذل والضياع الذي تعيشه اليوم ، لا ينفي مؤامرة الأعداء ضدها وضد الإسلام .

---

(311) سورة النور [55] .

(312) سورة الرعد [11] .

إن نفي المؤامرة سذاجة مفرطة ، بعد ظهور كل العلامات الدالة عليها ، بل بعد تصريح ساسة الغرب وكتابهم الذي لا مواربة فيه ، بأن عدوهم الأكبر هو الإسلام .

وإن الخطأ " العلمي " الذي يقع فيه الذين يلقون المسئولية كلها على الأعداء ، ويخلون أنفسهم من المسئولية ، مماثل تماما للخطأ المقابل ، الذي يلقي المسئولية كلها على الأمة الإسلامية وينفي تآمر الأعداء على الإسلام .

كلاهما نظرة جزئية عاجزة عن الإحاطة بالقضية من جانبيها . وكلاهما مغالطة للواقع المحسوس .

إن تحميل الأمة الإسلامية مسئولية ما هي فيه اليوم ، لا ينفي أن الأعداء يتآمرون منذ قرون للقضاء على الإسلام .

والإقرار بوجود المؤامرة لا ينفي مسئولية الأمة عن حالتها التي وصلت إليها اليوم . وتصوير هذين الأمرين على أنهما نقيضان لا بد من نفي أحدهما لإثبات الآخر ، خلل في الرؤية يقع فيه كثير من الناس بوعي وبغير وعي .

الأمة تتحمل المسئولية كاملة عن تقصيرها وتقاعسها وإعراضها ، وقد حذرها رسولها صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا ونيفا من مصيرها الذي صارت إليه اليوم ، حين قال عليه الصلاة والسلام : " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت " [313] .

وواضح من الحديث الإحاطة بالأمر من طرفيه معا : تقاعس الأمة ، وتكالب الأعداء ، وذلك من إعجاز الوحي :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [314] .

القضية في حقيقتها التاريخية أن الأعداء يكيدون دائما ولا يكفون عن الكيد :

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) [315] .

(وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) [316] .

---

[313] أخرجه أحمد وأبو داود .

[314] سورة النجم [3- 4] .

[315] سورة البقرة [120] .

ولكن هذا الكيد يصيب – أو لا يصيب – حسب مناعة الأمة الإسلامية تجاهه :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً) [317] .

الصبر على تكاليف هذا الدين ، والصبر على الثبات عليه مهما حاول الأعداء زحزحة الأمة عنه ، والتقوى التي لا تنال إلا بطاعة الله فيما نهى وفيما أمر .

وحين تقدم الأمة الصبر والتقوى – بمعناهما القرآني ، الذي يشمل إعداد العدة واتخاذ الأسباب والاستقامة على المنهج الرباني في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والأخلاق – لا يجد الأعداء منفذا ينفذون منه إلى قلب الأمة فلا يضر كيدهم شيئا . وحين تعجز الأمة وتتراجع عن الصبر المطلوب والتقوى ، ينفذ الكيد ، ويصيب الأمة في الأعماق ..

حقيقة شاملة ، لا تناقض بين طرفيها . ولا نحتاج أن ننفي طرفا منها لكي نثبت الآخر !

والحقيقة المشهودة أن الأمة ظلت تتراجع خلال القرون الأخيرة عن حقيقة دينها ، وعن تكاليفه في النفس والمال والفكر والخلق وكل مجالات الحياة ، ففتح هذا شهية الأعداء ، المتربصين أبدا ، الكائدين أبدا ، الذي لا يكفون عن الكيد أبدا ، فتجمعوا ، وأجمعوا أمرهم على الإجهاز على هذا الدين في أنسب الأوقات – في تصورهم – للقضاء الأخير على الإسلام .

وهذا ما ينبغي للمؤرخ المسلم أن يصحح فيه مفاهيم الناس ، سواء الذين يلقون اللوم كله على الأعداء ويهربون من مسئوليتهم ، أو الذين يبرئون الأعداء من التآمر ليلقوا المسئولية على الأمة المسلمة حقداً عليها وشماتة فيها .

وتصحيح المفاهيم في هذا الشأن واجب " علمي " في الوقت الذي هو واجب ديني عقدي. ولا تناقض في الإسلام ولا تنافر بين العلم والدين .

4– إنه على الرغم من كل ما وقع من الأمة من الانحراف ، وكل ما قام به الأعداء من الكيد ، فقد حدثت الصحوة .. ولهذا الأمر ولا شك دلالته الواضحة .

دلالته أن هذه الأمة – أمة العقيدة – لا تنطبق عليها سنة الفناء بالشيخوخة – إن كانت هذه سنّة – وأن فيها من الحيوية الكامنة ما يبعثها من جديد بعد أن تكون قد أشرفت على الهلاك .

وهناك أكثر من تفسير يمكن أن يفسر هذه الظاهرة .

---

[316] سورة البقرة [217] .

[317] سورة آل عمران [120] .

فحفظ الله لكتابه المنزل ، ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واحد من الأسباب التي حفظت هذه الأمة من الفناء خلال مسيرتها التاريخية الطويلة على الرغم من كل الكوارث التي أصابتها على يد أعدائها ، وعلى الرغم من كل التقصير الذي وقع منها .. إذ أن المنبع الذي تستقي منه الأمة وجودها ، موجود دائما ، في المتناول لمن يريد .

وكون هذا الدين هو دين الفطرة الذي يلبي كل احتياجات الفطرة السوية ، ويتجاوب مع النمو السوي في حياة الإنسان ، لا يعوقه ولا يعرقله ولا يكبته ، واحد من الأسباب .

وكون هذا الدين ليس نظريات في الكتب ولا شعارات مرفوعة في الفضاء ، وإنما هو واقع عملي ، ثم هو واقع عاشته الأمة بالفعل عدة قرون ، ووعت أحداثه ذاكرتها التاريخية المتجددة .. واحد من الأسباب .

وفوق ذلك كله ، وقبل ذلك كله ، وعد الله الدائم أن يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها :

(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً) [318] .

ومن ثم فإن الصحوة تمثل انبعاثة ذاتية لا تحتاج إلى أسباب خارجية لإحداثها ، وإن كانت الأسباب الخارجية قد تزيد في تدفقها أو تؤثر في مسارها .

والمؤرخ المسلم قبل هذا وبعد هذا مؤرخ .. عليه أن يبذل الجهد في تحرير الوقائع ، وتمحيص الروايات ، وتحري الدقة العلمية في الدراسة ، والتجرد من الهوى ما وسعه الجهد .

وعليه فوق ذلك ألا يفاجأ – ولا يوهن من عزمه – أن يجد نفسه أحيانا وحيدا في اللجة يسبح ضد التيار !

---

[318] سورة الأحزاب [38] .

(3)

في الاقتصاد

ليس من شأني في هذه العجالة ولا في غيرها أن أتكلم في علم الاقتصاد ، فهذا شأن المتخصصين في ذلك العلم ، ولكن هذا لا يمنعني من الإشارة إلى بعض الملاحظات :

تبدأ الدراسة المنقولة عن الغرب في علم الاقتصاد بتعريف " المشكلة الاقتصادية " ويقال للطلاب إن المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الندرة !

وقد عجبت حين علمت ذلك ، وعلمت أن هذا يقال في معاهدنا " الإسلامية " ! يقوله أساتذة مسلمون ، ويتلقاه عنهم طلاب مسلمون ، ويأخذون هذا الكلام قضية مسلمة ، ويبنون عليها دراستهم في علم الاقتصاد !

وكان موضع عجبي أن هؤلاء جميعا يقرءون – أو المفروض فيهم أن يقرءوا – قوله تعالى: **(قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)** [319] .

الله يقول إنه بارك فيها وقدر فيها أقواتها ، ونحن نقول إن المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الندرة ! أي قلة الموجود بالنسبة للمطلوب !

كلا ! إن المشكلة هي في السلوك البشري المخالف لمنهج الله ! فحين يأخذ أناس أكثر من حقهم الشرعي ، باستخدام وسائل لم يأذن بها الله ، ثم لا يؤدون حق المال الذي فرضه الله عليهم في أموالهم .. تنشأ المشكلة !

ومرة أخرى حين أخذ أنصار نظرية " مالتس " ينذرون بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، ويقولون إن الأرض لن تكفي سكانها بسبب الانفجار السكاني " الرهيب ! " عجبت لمن يردد هذا الكلام في عالمنا الإسلامي كأنه حقيقة !

ثم وقع في يدي كتاب ألفه أحد اللوردات الإنجليز بعنوان " معضلة الرجل الأبيض The White Man's Dilemma " ظهرت طبعته الأولى عام 1961 م ثم غُيِّر الكلام في الطبعات

---

[319] سورة فصلت [9 – 10] .

التالية (لأمر قد نفهم سره !) وقال المؤلف في طبعته الأولى كلاما ثمينا جيدا (يبدو أنه عوتب من أجله ونصح بتغييره) قرر فيه أن هذه الصيحة الخبيثة التي تقول إن الأرض لن تكفي سكانها سنة كذا ، عارية عن الصحة من الوجهة العلمية ، وإن وراءها قصدا خبيثا ، لأمر يراد !

قال : إن نسل الرجل الملون يتزايد باستمرار ، نتيجة تقدم الرعاية الصحية في السنوات الأخيرة ، الذي جعل نسبة الوفيات تقل عن ذي قبل ، بينما الخصوبة باقية على حالها ، فيكون من نتيجة ذلك أن يولد فيهم مواليد كثيرون وتقل الوفيات نتيجة الرعاية الصحية ، فيتزايد عددهم باستمرار ، بينما نسل الرجل الأبيض يتناقص باستمرار ، نتيجة عمل المرأة ، وعدم رغبتها في كثرة النسل ، لكي لا يعطلها الأولاد عن العمل من جهة ، ولكي تحافظ على رشاقتها من جهة أخرى (هذا كلام الرجل !) ، ونتيجة تأخر سن الزواج عندهم لأسباب اقتصادية ورغبة في تطويل فترة المتاع الحر ! وتكون النتيجة النهائية أن نسل الرجل الملون يتفوق في العدد على نسل الرجل الأبيض .

ثم قال الرجل في صراحة يحسد عليها (ولعلها هي التي عوتب من أجلها فغيّر ما غير في الطبعات التالية) إن الرجل الأبيض يستمتع الآن بالرفاهية والسلطان بما سلب من أقوات الرجل الملون ، ولكنه يخشى إذا استمر تزايد النسل عند الرجل الملون أن يتنبه هذا الأخير لحقيقة وضع الرجل الأبيض منه ، وأنه مغتصب لأقواته ، فيثور عليه ويسعى إلى استرداد أقواته المسلوبة ، وعندئذ يفقد الرجل الأبيض رفاهيته التي تعود أن يعيش فيها ، ومن أجل ذلك يوحي إلى الرجل الملون باستمرار أن يحدد نسله ، ويوهمه أن أقوات الأرض لن تكفي في المستقبل إذا استمر نسله في التزايد بمعدله الحالي !

وقال الرجل إن مساحات كبيرة من الأرض قابلة للاستغلال لم تستغل بعد ، وإن في البحار من المواد الغذائية ما لم يستغل عشره حتى اليوم ، وإن الأرض بيابسها ورطبها تكفي لإعالة سكان الأرض ولو بلغوا عدة أضعاف بالنسبة لعددهم اليوم !

كلام ثمين كما ترى .. يفضح هذه الدعوى التي يتبناها " الاقتصاديون " في بلادنا بغير وعي ، ويطالبون بتحديد النسل خوفا من عدم كفاية الأقوات في المستقبل !

وهذه كالأولى تدل على عدم أصالتنا في تناول علوم الاقتصاد ، حين نتبع ما يقوله الغرب بالحق وبالباطل ، ونحصر تفكيرنا فيما يريدوننا أن نفكر فيه ، وعلى النحو الذي يريدوننا أن نفكر به !

* * *

كيف تكون أصالتنا إن اتجهنا إلى التأصيل الإسلامي في علم الاقتصاد ؟!

لن أخوض في " تخصصات " علم الاقتصاد .. وأترك هذا للمختصين . ولكني أقول على هامش الموضوع إنه يجب علينا في دراستنا أن نعدل طريقة التناول ، فنقول – ونحن مستيقنون – إن جاهلية الناس ، أي عدم اتباعهم لما أنزل الله هي السبب الرئيسي في مشاكل الاقتصاد في الأرض .

لقد كان الإقطاع نظاما جاهليا ، والرأسمالية كذلك (ونوفر الكلام عن الشيوعية فقد سقطت التجربة ولم تعد في حاجة إلى تفنيد) .

فأما الإقطاع فقد باركته الكنيسة الأوربية ولم تعترض عليه ، مع أن واجبها كان يقتضي أن تحاربه وتقضي عليه ، ولكنها هي نفسها ذات إقطاعيات شاسعة فلم يكن منطقيا أن تقف ضد مصالحها الخاصة ! ولأنها من جهة أخرى لم تسع في تاريخها كله إلى تحكيم شرع الله ، إنما تركت القانون الروماني – بكل مظالمه – يحكم الأرض ، واكتفت هي بالسيطرة والسلطان !

وأما الرأسمالية فقد نبتت وقد فقدت الكنيسة كثيرا من سلطانها ، وفقد الدين مكانته في نفوس الناس ، وقالت الرأسمالية – اليهودية أساسا – إن الاقتصاد له قوانينه الخاصة ، ولا علاقة له بالدين ، ولا علاقة له بالأخلاق ، وصدقها الناس – أو خضعوا لسلطانها الطاغي دون مقاومة تذكر – فسيطرت على الاقتصاد الغربي دون منازع ، حتى جاءت الشيوعية فتصارعا فترة من الزمن ، ثم استعادت الرأسمالية سيطرتها بعد اندحار الشيوعية وأصبحت هي النظام العالمي في مجال الاقتصاد .

وحرصت الجاهلية المعاصرة حرصا شديدا على إبعاد القضية كلها عن الدين ، والنظرة الدينية ، والقيم الدينية ، من طريقين اثنين : أحدهما الادعاء بأن الدين لا علاقة له بالاقتصاد ولا بغيره من أمور الحياة الدنيا – أي الأمور " العلمانية " – وإنما هذه لها قوانينها الخاصة التي يشرف عليها العلمانيون ، الذين لا علاقة لهم بالدين . والثاني إبعاد الناس في واقع حياتهم عن الدين وتأثيره ، فلا يعودون يقيسون شيئا بمقياس الدين !

ولكن الباحث المسلم في علم الاقتصاد يجب أن يتبين نقطة الخلل الرئيسية في الاقتصاد الغربي ، وهي أنه اتباع لغير ما أنزل الله .

فلم يقل سبحانه وتعالى في أي كتاب من كتبه المنزلة إنه يجوز لأحد حين يملك الأرض (وشرط الملك ألا يكون بوسيلة محرمة) أن يكون مالكا للأرض ومن عليها من البشر في الوقت ذاته ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، وأن يكون صاحب الأرض هو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية في ذات الوقت ، كما كان الإقطاع في أوربا .

وعلى ذلك فالإقطاع حرام في دين الله الحق ، لا يستند لسلطان شرعي ، ولو باركته الكنيسة الأوربية ودافعت عنه !

أما الرأسمالية فعلى أي شيء تعتمد في مسلكها الذي يؤدي إلى تضخمها وطغيانها ؟

تعتد على الربا وهو محرم في دين الله .

وتعتد على عدم توفية الأجير أجره وهو محرم في دين الله .

وتعتمد على تقديم منتجات جديدة باستمرار تبدأ باعتبارها كماليات ، ثم تتحول بإغراء الإعلان إلى ضروريات ، وكثير منها أقرب إلى الترف منه إلى الضرورة الحقيقية ، والترف محرم في دين الله .

وتعتمد أخيرا على تلهية الناس بالحياة الدنيا وزينتها ، وشغلهم عن الله والآخرة ، لكي يظلوا يستهلكون ما تنتجه الرأسمالية من المنتجات ، ولا يشعرون بالشبع ، ولا يزهدون في الشراء .. واستحباب الحياة الدنيا على الآخرة محرم في دين الله .

بهذه الوسائل المحرمة تتضخم الرأسمالية ، وأشدها حرمة هو الربا ، الذي آذن الله مرتكبيه بالحرب :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ) [320] .

والذي قال فيه بعض خبراء الغرب أنفسهم إن نتيجته الحتمية هي تزايد الثروة في يد فئة يتناقص عددها على الدوام ، وتزايد الفقر في فئة يتزايد عددها على الدوام [321] .

وهكذا يتبين للباحث المسلم أن كل ما يقع من الظلم الاقتصادي في الأرض منشؤه اتباع غير ما أنزل الله ، وأن الظلم الاقتصادي يصاحبه دائما ظلم سياسي وظلم اجتماعي وانحراف فكري ، يلبس أقنعة شتى ولكنه دائماً ظلم ، وأن هذا الظلم المتشعب ، لا علاج له إلا بإزالة أسبابه .. أي باتباع ما أنزل الله .

* * *

---

[320] سورة البقرة [278 – 279] .

[321] انظر تقرير الخبير الألماني جوزيف شاخت عن الربا .

وقد وضـع الله نظامـا لحكم حياة النـاس فـي الأرض ، يقوم علـى العدل بـدلا مـن الظلـم ، ويقوم علـى جعل النـاس شركاء فـي الخيـر العـام ، فيحمـل القادرون غيـر القـادرين ، ويقـوم علـى توزيـع المغارم والمغانم بالقسط .

نظـام يقـوم فـي خطوطـه العريضـة علـى أن المـال مـال الله ، وأن البشـر مسـتخلفون فيـه بحسب شروط المالك سبحانه وتعالى لا بحسب أهوائهم ، ولا بحسب أطماعهم التي لا تشبع :

(إِنَّ الْإِنسَـانَ خُلِـقَ هَلُوعًـا ، إِذَا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعًـا ، وَإِذَا مَسَّـهُ الْخَيْـرُ مَنُوعًـا ، إِلَّا الْمُصَـلِّينَ ، الَّـذِينَ هُـمْ عَلَـى صَـلَاتِهِمْ دَائِمُـونَ ، وَالَّـذِينَ فِـي أَمْـوَالِهِمْ حَـقٌّ مَّعْلُـومٌ ، لِّلسَّـائِلِ وَالْمَحْرُومِ) [322] .

وأن الكسب والتملك مباح من حيث المبدأ ولكنه مقيد بأن يكون حلالا في مأخذه ، حلالا في استخدامه ، حلالا في إنفاقه . فلا يكون من غصب أو سرقة أو غش أو احتكار أوربا . ولا يستخدم فـي الضـرر ولا الإفسـاد ، ولا ينفـق فـي سرف ولا تـرف ولا مخيلـة ، ولا يكنـز ، وتخـرج زكاته فتجمع في بيت المال لتصرف في مصارف الزكاة .

وفـي داخـل هذه الحـدود العامـة – الثابتـة – عشـرات مـن الوسـائل ومئـات لـيس مـن شـأننا الحديث عنها في هذه العجالة ، إنما يتناولها الفقهاء والدارسون بالشرح والتفصيل .

ولا نقـول مـع ذلـك إن المجتمـع الإسـلامي الصـحيح لا يحـدث فيـه شـيء مـن الظلـم علـى الإطلاق ! فلن يكون الناس في أي وقت ملائكة لا يخطئون ولا يعصون ولا يتعثرون :

" كل بنـي آدم خطـاء وخيـر الخطـائين التوابون " [323] .

ولكن في المجتمع المسلم الملتزم توجد دائمـا أداة تصـلح مـا يفسـد النـاس فـي الأرض ، هـي الاحتكام إلى شريعة الله :

(فَإِنْ تَنَـازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُـونَ بِـاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) [324] .

ولا نتصور كذلك أن الحياة في المجتمع المسلم الملتزم خالية من المعانـاة ، فالمعانـاة قـدر مقدور على البشر في الحياة الدنيا . ولكن هناك فرق بين معاناة يصحبها الظلم ، ومعانـاة سببها طبيعة الكدح البشري ولكن ثمرتها بركة وطمأنينة في الحياة الدنيا ، ورضوان من الله في الآخرة .

---

[322] سورة المعارج [19 – 25] .

[323] أخرجه الشيخان .

[324] سورة النساء [29] .

* * *

المدخل إلى علم الاقتصاد الإسلامي هو مدخل تربوي سلوكي ، يضع قواعد السلوك الصحيح ويشارك في التربية عليها ..

يجب ابتداء أن ينتفي من حس الدارس المسلم في علم الاقتصاد أن الاقتصاد له قوانينه الخاصة التي لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق ! فقد ابتدعت الجاهلية المعاصرة هذه الدعوى لتستر وراءها جرائمها التي ترتكبها باسم " قواعد الاقتصاد " !

إن النشاط الاقتصادي جزء من النشاط البشري . والنشاط البشري كله يجب أن يكون لله ، أي ملتزما بما أنزل الله :

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ)[325] .

ومن أجل أن يتم ذلك لا بد من تربية الناس على العقيدة الصحيحة ، وعلى أخلاقيات لا إله إلا الله ، ولا بد أن يكون التحاكم في كل الأمور إلى شريعة الله ، وأن تكون مناهج التعليم ووسائل الإعلام ملتزمة بما أنزل الله ، معاونة في تثبيت القيم الإيمانية ، لا معارضة لها ولا معادية لمقتضياتها .. وهذا كله داخل في صميم التنمية الاقتصادية ، لا ينفصل عنها لا في التصور ولا في السلوك ، ولا تتم التنمية الاقتصادية بدونه .

لا بد ان يرفع الناس – بالتربية – إلى مستوى الإنسانية ، ولا يتركوا لجواذب الأرض تهبط بهم إلى دنس الشهوات ، لأن هذا – فوق كونه معصية لله – فهو مفسد للتنمية الاقتصادية ، يبدد الطاقة في الهدم لا في البناء .

لا بد أن تكون الآخرة حاضرة في قلوب الناس ومشاعرهم ، لا خيالا بعيدا يخايل من بعيد، ولا تكاد تثبت له صورة في الوجدان .

لا بد أن يتربى الناس على التكافل الذي أمر به الله .

لا بد أن يتربى الناس على العمل والإنتاج والإتقان – مع الاقتصاد في الاستهلاك – ليتوافر للدولة المسلمة ما تنفذ به أمر الله : **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)** [326] .

لا بد أن تكون هناك أسرة مسلمة متماسكة تكون بمثابة المحضن الذي يربي الأجيال على خصال الإسلام .

---

[325] سورة الأنعام [162 – 163] .

[326] سورة الأنفال [60] .

وبعد ذلك – لا قبله – ندخل في خصوصيات علم الاقتصاد ، فتكون النفوس مهيأة لتقبل الاقتصاد الإسلامي ، مطبقة له في عالم الواقع ..

ويجب أن يعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أنه لا يوجد " اقتصاد " في الأرض كلها ينقذهم مما هم فيه ، مما يسمى " الحلول الاقتصادية " أي الإجراءات الاقتصادية البحتة ، بغير إصلاح لنفوس الناس وعقائدهم !

إنما الذي ينقذهم هو هذا المنهج المتكامل الذي ذكرناه .. أي العودة إلى الإسلام الحقيقي، عقيدة وشريعة وأخلاقا وممارسة في عالم الواقع ، وإن الذي تكفل بإنقاذهم مما هم فيه إن اتبعوا ذلك المنهج هو رب العالمين نفسه لا أحد من الأحزاب ولا الجماعات ، وإنما البشر أدوات لتنفيذ وعد الله :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [327] .

---

[327] سورة النور [55] .

(4)

في التربية

حينما نكتب عن " التربية الإسلامية " فمن الطبيعي أن نركز على العقيدة الإسلامية ، وعلى الوجدان الديني باعتبار أنه الأساس الذي تقوم عليه التربية الإسلامية . وعندئذ يظن العلمانيون ، بل بعض المسلمين أنفسهم ، أن التربية الإسلامية محصورة في هذا الجانب ، وأنها توازي ما يسمى " التربية الدينية " في كتابات الغربيين التربوية . ومن ثم ينظرون إليها على أنها جزء من التربية المطلوبة (لمن أراد أن يطلبها !) ولكنها ليست هي التربية المنشودة ! وإنما هذه يبحث عنها في مصادر أخرى غير الإسلام !

وابتداءً لا بد من إزالة هذا الوهم ، المتأثر بصورة " الدين " في الغرب ، والواقع الذي يعيشه الغرب بالنسبة للدين . فالدين هناك " علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا علاقة لها بواقع الحياة " . علاقة تسكن في وجدان صاحبها ، وتؤثر في بعض سلوكياته الشخصية ، ولكنها لا تتدخل في حركة الحياة الواقعية ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، التي يشترك فيها صاحب الدين مع المتخلي عن الدين مع المتمرد على الدين ، كلهم بطريقة واحدة ، وبنسب متساوية ! فيصبح الدين مزاجا شخصيا لا يؤثر في واقع الحياة العملي !

هذه هي الصورة " العلمانية " للدين ، وهي السائدة في حياة الغرب ، والذي يَسَّرَ من سريانها هناك المفهوم الكنسي ذاته للدين ، الذي قال " أد ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! " وهو الشعار الذي رفعته النصرانية في أيم استضعافها ، ولم تغيره حتى في أوج سلطانها ، الذي امتد في أوربا ثمانية قرون على الأقل ، من القرن الرابع الميلادي إلى القرن الثاني عشر ، فقد كان سلطان الكنيسة متمثلا في إخضاع كل الناس – حاكمين ومحكومين – لأهواء رجال الدين وليس للدين ! ليس للشريعة المنزلة على عيسى عليه السلام ! فلما قامت العلمانية في أوربا ، كان هدفها إقصاء نفوذ رجال الدين عن السياسة (ثم عن الحياة العملية كلها) وليس إقصاء " الدين " ، الذي كان غائبا عن الهيمنة على السياسة (وعلى الحياة العملية كلها) منذ دخلت أوربا في مسيحية بولس ، وليس في دين عيسى عليه السلام [328] !

---

[328] راجع فصل " أحوال أوربا " في أول الكتاب .

هذا المفهوم الكنسي للدين ، الذي يَسَّرَ للعلمانية في أوربا أن تفصله عن واقع الحياة ، ليس هو حقيقة الدين المنزلة من عند الله .. وليس هو الإسلام على أية حال !

الدين في الإسلام هو الحياة ! الحياة كلها بحذافيرها ، بكل جوانبها وكل مجالاتها !

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ..)[329] .

ومن ثم لا يمكن فصله عن الحياة ، إلا إذا قلنا إنه يمكن فصل الحياة عن الحياة !

إنه العقيدة المستقرة في القلب ، والوجدان الذي يحرك الشعور ، والعبادات التي توجه لله سبحانه وتعالى وحده بلا شريك ، والشريعة التي تحكم السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والسلوك الفردي والاجتماعي ، وتحدد لكل شيء في حياة الإنسان حدودا لا يتعداها (وأحيانا لا يقربها إذا كانت متعلقة بأمور شديدة الجذب) :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا) [330] .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا) [331] .

وهو كذلك عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني :

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [332] .

وفي كل مجال من مجالات الحياة له تشريع أو توجيه بحيث لا يخرج شيء على الإطلاق عن أحوال الشريعة الخمسة : إما حلال وإما حرام وإما مباح وإما مستحب وإما مكروه .

ومن ثم فإن " التربية الإسلامية " لا تشمل العقيدة وحدها ، ولا الوجدان الديني وحده ، ولا الشعائر التعبدية وحدها ، فهذه كلها جوانب من الإسلام ، وليست هي " الإسلام " الذي قال الله عنه :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ) [333] .

وقال عنه :

---

[329] سورة الأنعام [162 – 163] .

[330] سورة البقرة [229] .

[331] سورة البقرة [187] .

[332] سورة هود [61] .

[333] سورة آل عمران [19] .

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) [334] .

* * *

التربية الإسلامية هي التي ربى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وتربى عليها التابعون وتابعوهم ، الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم خير أمة أخرجت للناس :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)[335] .

فهل كانت تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم محصورة في العقيدة أو الوجدان الديني أو الشعائر التعبدية ؟ وهل خرّجت هذه التربية مجرد عبّاد لله بالمعنى الضيق للعبادة .. بمعنى آخر : هل اقتصرت التربية النبوية على الجانب الروحي وحده ؟ أم كان الذين رباهم صلى الله عليه وسلم عمالقة في كل اتجاه : عمالقة في سياسة الحكم ، عمالقة في الحرب ، عمالقة في العلم ، عمالقة في الأخلاق ، عمالقة في كل شيء من شئون الحياة ؟ وكانوا هم ، وذراريهم الذين تربوا على أيديهم من بعدهم ، سادة العالم وقادته ورواده وهداته إلى النور ؟

هذا المعنى الواضح للتربية الإسلامية لم يعد واضحا في أذهان الكثيرين اليوم .. لعدة أسباب .

أولها : المفهوم الغربي " للدين " ، الذي يزحف على حياتنا عن طريق الغزو الفكري ، وينظر الناس إلى الإسلام من خلاله .

وثانيها : الواقع السيئ الذي يعيشه المسلمون اليوم ، والذي يوشك أن تختفي فيه آثار التربية الإسلامية ، والذي يجعل الأمة التي تحمل اسم الإسلام – إلا ما رحم ربك – أسوأ نموذج للأمم ، ضعفا وتخاذلا وتفرقا وتخلفا وتنابذا وسوء خلق .. فتبدو التربية الإسلامية الحقة إلى جانب هذا الواقع السيئ خيالات لا وجود لها في الواقع ، وشعارات معلقة في الفراغ .

يضاف إلى ذلك أن الجماعات الإسلامية التي انبثقت عن الصحوة الأخيرة لم تستوعب هي نفسها كل معاني التربية الإسلامية ، لتعرضها واقعا يقنع الناس بحقيقة هذه التربية ، بل زادت فتصارعت فيما بينها وتنابذت ، فأعطت المثل السيئ ، الذي يزيد الناس بعداً عن تصور الحقيقة .

---

[334] سورة المائدة [3] .

[335] سورة آل عمران [110] .

* * *

ولكن تظل الحقيقة مع ذلك هي الحقيقة !

تظل هي الحقيقة لأنها عاشت بالفعل ، في عالم الواقع ، عدة قرون .

عاشت بالقدر الذي يثبت لها وجودا تاريخيا ، ويثبت لها كيانا واضحا وهيكلا صلبا ، لا صورة هلامية ، ولا شيئا رجراجا يذهب ويجيء ..

وإذا كانت الأمة قد انحرفت عن الإسلام فعليها وزرها ، هي تتحمل تبعتها ، وتتحمل نتائج انحرافها ، ولكن يظل الإسلام هو الإسلام كما أنزله الله سبحانه وتعالى لا يتغير ، وتظل أصول التربية الإسلامية قائمة كما هي – وكما طبقت بالفعل فترة من الزمن غير قصيرة – لأنها محفوظة في الكتاب المحفوظ ، وفي تعاليم الرسول المربي صلى الله عليه وسلم ، المحفوظة هي الأخرى بحفظ الله .

واجبنا أن نتعرف عليها ، ونعيد لها الحياة .

* * *

منهج التربية الإسلامية منهج كامل شامل يشمل كل جوانب التربية ، وكل جوانب الحياة .

ومن عجب أن ننخدع بقوة الغرب المادية – أو قل : ننبهر بها – فنتوهم أن التربية الحقة هي ما يقدمه الغرب ، وأننا ينبغي أن نأخذ علوم التربية من هناك .

وأما أنهم بارعون في بعض جوانب التربية فأمر لا شك فيه .

ولا شك أيضا في أنهم أجروا من التجارب التربوية الجادة الدقيقة المؤسسة على قواعد البحث العلمي الصحيح ما أعطاهم حصيلة عملية يستطيعون أن يستندوا إليها وهم يقدمون نظرياتهم التربوية ، فلا تكون مجرد رؤية نظرية ، ولكنها رؤية تستند إلى واقع تجريبي ، يبلورها ، ويحدد صورتها ، ويجعلها جاهزة للتطبيق .

ولا شك أيضا في أنهم يتابعون أبحاثهم ، فلا يقعدهم الوصول إلى نتائج معينة عن إجراء تجارب جديدة ، وطرق أبواب جديدة من البحث .

وكل تلك إيجابيات يجب أن نستفيد منها ، لأنها تنقصنا ، ولأننا في حاجة شديدة إليها .

ولكن يجب في الوقت ذاته أن ننظر في الحصيلة النهائية لمناهج التربية عندهم ، لنعرف ماذا نأخذ منها وما ندع ، ولا يأخذنا الانبهار فنقول لأنفسنا : يجب أن نأخذ كل شيء ، ولا ندع أي شيء !

الحصيلة هي إنسان ذو شخصية فريدة بارزة ، واثقة من نفسها ، إيجابية ، لا ترهب التجربة ، ذات نزوع عملي ، وذات قدرات نامية ، متحملة لمسئوليتها ، منظمة ، متقبلة للنظام ، قادرة على التعامل مع الآخرين بقدر عال من التهذيب ، وبأقل قدر من الاحتكاك ، وقادرة على بذل الجهد ، وعلى المثابرة في بذل الجهد حتى تتحقق الغاية ..

وفي الوقت ذاته إنسان عالمه هو الحياة الدنيا ، قلما يؤمن بالآخرة أو قلما يفكر فيها ، شديد الرغبة في الاستمتاع بكل لحظة تمر به ، لا يبالي في استمتاعه بحلال أو حرام ، بل هو يستحل كل متاع يخطر في باله ، ويسعى إلى تحقيقه ، شاذا أو سويا ، ويرى أن ذلك من حقه الطبيعي ، وداخل في حريته الشخصية ما دام لا يؤذي الأفراد الآخرين ، الذين لهم مثل حقوقه ، ولهم أن يفعلوا بأنفسهم ما شاءوا .

وفي الوقت ذاته كذلك إنسان معرض لكثير من حالات القلق والأمراض العصبية والنفسية، وإدمان الخمر وإدمان المخدرات .. وليست الجريمة منه ببعيد !

هل يجوز لنا – حين نرى إيجابيات التربية الغربية ، وهي كثيرة – أن نغمض أعيننا عن سلبياتها ، وهي كثيرة كذلك ؟ وحين تبهرنا الإيجابيات فنغمض أعيننا عن السلبيات ، هل يكون موقفنا سليما ، وهل نكون أصلاء ؟ أم نكون أتباعا مقلدين .. فينتج من تبعيتنا في عالم الواقع أن نأخذ السلبيات لأنها سهلة الأخذ ، لا تحتاج إلى أكثر من الانفلات من الضوابط ، ونعجز عن أخذ الإيجابيات ، لأنها تحتاج إلى بذل الجهد ، ونحن لم نتعود عليه ؟!

ذلك حالنا مع الغرب في واقعنا المعاصر !

* * *

ما نقطة الخلل في مناهج التربية الغربية ؟ .

هي النظرة إلى " الإنسان " ..

الحيوان المتأله ، الذي يعيش لدنياه ، ولا يؤمن بآخرته .

إنه بارع جدا في العمارة المادية للأرض ، لأنها همه الذي يعيش من أجله . وبراعته تلك وروعة إنجازاته فيها هي التي تجعله يتأله ، لأنه يقول كما قال قارون من قبل (**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**) [336] وفي الوقت ذاته هو منحط إلى أسفل سافلين في شهواته الدنسة التي لا تشبع، لأنه ليس من طبيعتها أن تشبع حين يفتح لها الباب على مصراعيه ، بل من طبيعتها أن تزداد نهما وضراوة حتى تردي صاحبها .. ثم هو في النهاية إنسان غير سعيد بواقعه الذي

---

[336] سورة القصص [78] .

يعيشه ، فيسعى إلى الهروب منه في الخمر والمخدرات ، أو الصياح والضجيج ، أو الرقص المخبول .. أو الجريمة !

أو كذلك نريد أن نربي أبناءنا وبناتنا ؟!

يقول الحالمون : نأخذ إيجابياتهم ونترك عيوبهم وانحرافاتهم ..

حلم جميل ما باله لم يتحقق خلال قرنين من الزمان جرى فيهما العالم الإسلامي لاهثا وراء الغرب " لينهل " من منابعه ؟!

الإجابة – كما أسلفنا قبل قليل – أننا جابهنا الغرب وقد فقدنا أصالتنا ، فلم يعد في وسعنا أن نأخذ إلا السلبيات التي لا تحتاج إلى جهد ، وعجزنا عن أخذ الإيجابيات لأنها تحتاج إلى بذل الجهد ، والمثابرة عليه .. وهو أمر لا يطيقه إلا الأصلاء !

لكي نستفيد من إيجابيات التربية عند الغرب يجب أن نكون أولا مسلمين !! يجب أن نعود إلى أصالتنا ، وأن نسترد ذاتيتنا التي فقدناها في فترة الانبهار ، فتصبح عندنا العزيمة ، وتصبح عندنا البصيرة ، التي نأخذ منها ما ينفع ، وندع ما يضر ، والتي نتابع بها بذل الجهد حتى نصل إلى تحقيق المطلوب !

وهكذا كانت تفعل الأجيال الأولى من المسلمين تجاه ما تجد نفسها محتاجة إليه من الوسائل والأدوات ، مما ليس عندها ، ومما هو موجود لدى الجاهليات من حولها في فارس وبيزنطة .

كانت تأخذ في عزة المؤمن الواثق أنه بإيمانه هو الأعلى ، وأن لديه في المنهج الرباني كل ما يحتاج إليه من العقائد والمبادئ والقيم والأصول .. إنما يستعير من غيره أدوات ووسائل ، ويطوعها لما يريد هو ، ولا تطوعه هي لما تريد !

وواجبنا اليوم أن نفعل ذلك بالنسبة لما نحتاج أن نتعلمه من الغرب .. في التربية وفي غير التربية .

في التربية نملك المنهج الأعلى ، لأنه المنهج الرباني البريء مما يعرض للبشر من قصور وخطأ في الرؤية .. ولكنا نحتاج إلى استنباطه مرة أخرى من منابعه بعد أن نسيناه وهجرناه ، ونحتاج أن نستنبط الوسائل التي تعيننا على تطبيقه في عالم اليوم ، وهي ما سبقنا إليه الغرب وبرع فيه . ولكن أخذنا للوسائل من هناك لا يجعلنا نتبع مناهجهم بالضرورة ، إنما نطوعها لما نريده نحن من تطبيق المنهج الرباني ، البريء من الخلل والقصور .

والمنهج موجودة أصوله ومبادئه في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وموجودة صورته العملية التطبيقية في عمل الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه .. ثم إنه في تراثنا كثير من الكتابات النافعة نسيناها وأهملناها في فترة انبهارنا ، وظننّا أنها أمور حديثة كلها ، لم يفطن إليها إلا الغرب ، ولم يتعرف عليها إلا الغرب !

سنجد في كتابات الماوردي ، والقابسي ، والغزالي ، وغيرهم ، ما سنفاجأ بأنهم تنبهوا في عصرهم المتقدم إلى قضايا تربوية وتعليمية كنا نحسب أنها لم تعرف إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ! وكتبوا فيها كتابة علمية محددة نتيجة خبرتهم واجتهادهم .

والحصيلة التربوية لهذا المنهج – متمثلة في الجيل الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم – هي " الإنسان الصالح " في أعلى صورة يكون عليها الإنسان الصالح في واقع الأرض .

إنسان يؤمن إيمانا صادقا بالله واليوم الآخر ، يعيش بإيمانه في واقع الحياة الدنيا ، فيبذل فيها أقصى ما يبذل الإنسان من النشاط ، دون أن تكون الحياة الدنيا فتنة له تصرفه عن ربه وآخرته .

إنسان متوازن .. أجمل ما فيه توازنه .

توازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة . توازن بين نوازع الجسد ونوازع الروح . توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية . توازن بين الضرب في مناكب الأرض سعيا وراء الرزق والمتاع ، وبين الترفع على متاع الأرض رجاء الفوز برضوان الله في الآخرة ، فلا يطغيه السعي، ولا تقعد به الرهبانية . توازن بين الإيمان بالغيب والإيمان بالمحسوس . توازن بين العقل والإيمان. توازن بين الشدة في الحق وسماحة الأخلاق ولين الجانب ..

إنسان مجاهد .. يعلم أنه لا بد من الجهاد من أجل التمكين في الأرض . فلا يجنح إلى الترف الذي يؤدي إلى الترهل والطراوة والعجز .. ويكون مستعدا للفداء في أية لحظة بنفسه وماله، لا يتردد في العطاء .

إنسان عامل .. يعلم أنه لا بد من الكدح في الحياة ، وتحمل الكَبَد من أجل الوصول .

إنسان عزيز .. عزيز بالإيمان بالله ، والإيمان بالقضاء والقدر ، وأنه لا يصيب الإنسان إلا ما قدره الله له ، فلا يذل من أجل قضاء حوائجه ، ولا يهين نفسه من أجل متاع الأرض الزائل .

إنسان متعاون متكافل ، سهل الالتحام مع المجموع ، دون أن يذوب فيه ..

إنسان عفيف عن ارتكاب الكبائر ، سريع التوبة حين يخطئ ، كثير الاستغفار ..

هكذا كان الرعيل الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم في عالم الواقع ..

ومعلوم أن هذا المستوى الرفيع كان هو مستوى الصفوة ، وليس كل الناس ، حتى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومعلوم كذلك أننا قد لا نصل أبدا إلى تكوين جماعة من البشر على مستوى تلك الصفوة الفريدة في التاريخ ..

ولكن المنهج الإسلامي هو هو لكل مستويات البشر .. كل يأخذ منه قدر ما يطيق **(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)** [337] فمن أطاق الصعود إلى أقصى القمة فالمنهج معه يعاونه ويمده ويغذيه .. ومن قعدت به قدراته ففي حدود قدراته ، بشرط ألا يهبط عن الحد الأدنى المفروض .. وحتى حين يهبط – مع المجاهدة – فهو في رحمة الله ما يزال ، لا يطرده الله من رحمته وهو يستغفر ويتوب :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) [338] .

ولكن القيمة العملية للنموذج الأعلى هي أن يبقى حافزا دائما لمحاولة الصعود – ما دام قابلا للتطبيق الواقعي ولو في أفراد متناثرين – ومحاولة الصعود هي خير دائما من القعود ، لأن القعود ييسر الانزلاق إلى الحضيض !

ذلك هو المنهج الرباني ..

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) [339] .

ومهمة المشتغلين بالتأصيل الإسلامي في مجال التربية هي إعادة اكتشاف المنهج ، وتفصيل الحديث في جوانبه المتعددة ، وفي شموله وتوازنه ، مع محاولة إجراء التجارب العملية التي توصل إلى تحويل المنهج من نظريات إلى واقع قابل للتطبيق .

وذلك يحتاج – بداهة – أن يكونوا هم أنفسهم عميقي الإيمان بالمنهج ، واعين في الوقت ذاته إلى مكنوناته ، مجتهدين في اكتشاف أسراره ، جادين في الدعوة إليه ومحاولة تطبيقه .

---

[337] سورة الأنعام [132] .

[338] سورة آل عمران [135 – 136] .

[339] سورة البقرة [138] .

ولن تكون مهمتهم سهلة من جانبين : الانبهار بما عند الغرب ، الذي يصل إلى حد الفتنة، وبعد المسلمين في واقعهم المعاصر عن حقيقة الإسلام .

ولكنه جهاد .. يبذلون فيه جهدهم ويتطلعون إلى الأجر عند الله .. ولا يخذّلهم أن يروا إعراض المعرضين ، ولا سخرية المستعبَدين للغرب ، الذين لا يطيقون مجرد الحديث عن الإسلام !

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [340] .

---

[340] سورة آل عمران [139] .

(5)

في الدراسات النفسية

نواجه في عملية التأصيل الإسلامي في الدراسات النفسية عدة قضايا وافدة من الغرب ، لا بد من بحثها ، وبيان موقفنا منها ، لأنها تغزو أفكارنا ، وتؤثر تأثيرا كبيرا في طلابنا الذين يدرسون العلوم النفسية على طريقة الغرب ، وإن كان الذين يدرسون لهم ينطقون بالعربية ، ويحملون أسماء إسلامية !

وقضية الموضوعية في الدراسات النفسية ، وقضية الأبحاث التجريبية قد تكونان من أشد الوافدات تأثيرا على الدارسين في المجالات النفسية ، بالإضافة إلى علم النفس التحليلي والمفاهيم التي يقدمها في علم النفس .

* * *

تقوم دعوى الموضوعية في الدراسات النفسية على أساس أن معظم أبحاث علم النفس اليوم قد أصبحت تجريبية ، تجري في المعمل ، ويقوم الباحثون بتحليل النتائج تحليلا " علميا " فلا يكون لهم فيها موقف ذاتي . إنما تفرض التجارب نتائجها بنفسها ، ودور الباحث محصور في بيان النتائج المستخلصة بعد إجراء التحليلات العلمية على التجربة ، وعمل الإحصائيات اللازمة التي تبين مدى مصداقيتها ..

وهذا المنهج في الدراسات النفسية – على كل ما يقدم من معونة للدراسين ، وخاصة في مجال التعليم ، وفي مجال تعليم الصغار على الأخص – مملوء بالثغرات التي يجب أن يتجنبها التأصيل الإسلامي .

وقد أشرنا إلى بعض هذه الثغرات من قبل في الحديث عن بعض الدراسات الاجتماعية ، وهي بالنسبة لعلم النفس أجدر بالذكر ، وأولى بالانتباه .

فإذا تصورنا النفس البشرية طبقات – أو مقامات – فأي طبقاتها هي التي يمكن أن تدخل المعمل ، ويتم فيها التجريب ؟ لا شك أنها الطبقات القريبة من الحس ، كمعامل التعب ، ومعامل الانتباه ، وقياس الذكاء ، والميول التي يمكن أن تشاهد أو تحصى أو تقدم عنها استبيانات (على فرض أمانة المشاركين في الاستبيانات في تقرير حقيقة أوضاعهم ، وعدم اللجوء إلى التظاهر بما يعتقدون أنه مستحسن عند الناس !) .

ولكن هل تنتهي النفس البشرية عند هذه المقامات ؟ وهل هذا هو أهم أو أثمن ما في النفس البشرية ؟

حقا إننا من الوجهة العملية قد نستفيد فوائد كثيرة من مثل هذه التجارب – وخاصة في مجال التعليم – لأنها تجعلنا على بينة من أفضل وسائل الأداء لتحقيق الهدف الذي نريد تحقيقه، فلا نضيع جهدا يمكن أن نوفره ، ولا نبدد طاقة يمكن أن نستغلها فيما هو أفضل .

نعم ! ولكن .. في نطاق محدود من النفس ، وجوانب محدودة من الحياة !

ولا شك أن جنوح الغرب في واقعه المعاصر إلى الجانب النفعي (البراجماتي كما يسمونه Pragmatic) هو الذي جعل هذه التجارب – ونتائجها – تجد صدى واسعا عندهم ، لأنها تلبي أهدافهم في المحيط الذي يعيشونه ويهتمون به ..

ولكن هل هذا هو " الإنسان " كما يجب أن يكون ؟

هل تقف اهتمامات " الإنسان " السوي عند الأوضاع المادية والمجالات النفعية ؟ أو عند الحياة الدنيا ؟

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ..)[341] .

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) [342] .

فلو رفعوا اهتماماتهم – كما ينبغي للإنسان السوي أن يفعل – فهل تلبي تلك التجارب كل أهدافهم ؟

هل جربوا – مثلا – تأثير العقيدة في الإنسان ؟!

وأنّى لهم ذلك وهم لا يملكون عقيدة صحيحة أولا ، ولا يهتمون بها ثانيا ، ولا يرون لها أثرا واقعيا في حياتهم ؟! .

إن تأثير العقيدة الصحيحة في الإنسان لهو من أهم موضوعات علم النفس الإسلامي ، ومن أوسع مجالات الدراسة فيه ، وهو علم " تجريبي " ولكن مجال التجربة فيه ليس هو المختبر النفسي الضيق الذي يجرون فيه تجاربهم ! إنما هو التاريخ ! التاريخ باتساعه منذ كان في

---

(341) سورة النجم [29 – 30] .

(342) سورة الروم [7] .

الأرض مؤمنون ، أي منذ آدم عليه السلام ونوح من بعده .. ولكن أبرز نماذجه وأروعها وجد في أمة محمد صلى الله عليه وسلم .. ووعاها التاريخ .

إن الحديث في هذا الموضوع حديث دائم على ألسنة الدعاة .. ولكنه لا يخص الدعاة وحدهم ، وليس حكرا عليهم . إنه " علم " لأنه " واقع " ، وليس واقع فرد معين ، بل أفراد ، بل جماعات ، بل أمة .. واقع فذ لا يمكن إغفاله ولا إغفال دلالاته . وعالم النفس المسلم لا بد أن يعطيه ما يستحق من الاهتمام من الوجهة العلمية البحتة ، ثم من أجل إيحاءاته التربوية وهي ظاهرة للعيان .

ترى كم خصصنا له من دراساتنا ونحن ننقل علم النفس عن الغرب المنحل ، الذي يعيش بلا عقيدة ؟

نعم ! إن علم النفس الغربي ، وعلوم التربية الغربية لا تغفل هذا البحث إغفالا كاملا – فهو أمر بشري لا يمكن تجاهله ولا يمكن إغفاله مهما كابر المكابرون – ولكنهم يعطونه حيزا هامشيا ، على قدر ما يرون أهميته في حياتهم ، أو على قدر ما يرغبون أن يكون له من الأهمية في حياتهم ! أما الباحث المسلم فأمره مختلف ، فحياته قائمة على العقيدة ، وتاريخه هو تاريخ عقيدته ، ورفعته وهبوطه متعلق بعقيدته ، ومصيره في الدنيا والآخرة مرتبط بالعقيدة .. فالحيز الذي ينبغي أن تشغله من فكره ، ودراسته ، وتجاربه ، وعلومه ينبغي أن يكون بمقدار ما لها من الأهمية في ذلك كله .

ولا شك أن الجيل الأول رضوان الله عليهم هم أبرز النماذج التاريخية لأثر العقيدة في النفوس . فهم الذين نقلتهم العقيدة الصحيحة تلك النقلة الهائلة من الجاهلية إلى الإسلام .. من الضياع إلى الوجود .. من الهامشية إلى المركزية .. من الجهل إلى المعرفة .. من الشتات إلى التجمع .. من الظلمات إلى النور . وهم أصلح النماذج للدراسة في هذا الموضوع . ولكنهم ليسوا وحدهم في التاريخ حتى يقول قائل إنهم نموذج لا يقاس عليه .. إنما هم نموذج متكرر على مدى التاريخ – بدرجات مختلفة – وهم الذين يكتبون أروع صفحات التاريخ !

فالذين غيروا ميزان الحرب في حطين تحت قيادة صلاح الدين لم يكونوا من ذلك الجيل الأول . والذين غيروا ميزان الحرب في عين جالوت تحت صيحة " وإسلاماه " لم يكونوا من الجيل الأول . والذين هزموا الروس في أفغانستان وفي الشيشان لم يكونوا من الجيل الأول . والذين يحتملون ما لا يحتمل من ألوان التعذيب الوحشي في سجون الطغاة ويظلون مصرّين على عقيدتهم ليسوا من الجيل الأول .. إنما هي ظاهرة تتكرر كلما وجد مؤمنون في الأرض ،

والدارس المسلم أولى الناس بأن يدخلها في دراساته النفسية ، رضي " أهل الفن ! " أو أبوا ، واعترفوا أو لم يعترفوا بالنتائج التي تصل إليها الدراسة !

* * *

وهذا ينقلنا إلى الثغرة الثانية في التجارب النفسية التي يجريها الغرب ، ويستنتج منها معلوماته عن النفس الإنسانية (وقد سبق أن أشرنا إليه إشارة عابرة من قبل) .

هل العينة التي يجرون عليها تجاربهم ممثلة للنوع كله تمثيلا صادقا بحيث تعمم النتائج المستخلصة منها على كل البشرية ، ويقال – بحق – هذه هي النفس البشرية ؟!

إنها بحكم الواقع محصورة في هذا الجيل ، وفي بقعة واحدة من الأرض ، هي التي تجري فيها التجارب في الوقت الحاضر . فمن قال إن الغرب هو كل البشرية ؟ ومن قال إن الحاضر هو كل التاريخ ؟! وبالتالي : من يقول إن النتائج التي تستخلص من هذه التجارب نتائج نهائية كالنتائج التي تجري على المادة ، أو حتى على الحيوان ؟

إنما ينقصها لكي تكون معبرة عن هذا الجيل – ودع عنك تمثيلها للبشرية كلها في جميع أجيالها – أن تجري في أماكن مختلفة من الأرض ، من بيئات مختلفة ، من ثقافات مختلفة ، من عقائد مختلفة ، من رواسب تاريخية مختلفة ، ثم يقال في النهاية – في تواضع " علمي " تمليه روح العلم ذاته – هذا ما وجدناه في تجاربنا في هذا الجيل ، في المجالات التي يمكن أن تجري عليها التجارب من مجالات النفس الإنسانية ، ونتائجها مع ذلك ظنية لا يؤمن تعميمها على الواقع كله ، لا في هذا الجيل ولا في أي جيل !!

هل معنى ذلك أن نلغي الأمر كله وننفض أيدينا منه ؟!

كلا ! ولا يجوز لنا أن نهدر الكم الهائل من المعلومات التي حصلنا عليها من هذه التجارب ، ولا الفوائد العملية التي جنيناها منها ، وخاصة في مجال التعليم ، فضلا عن مجالات كثيرة أخرى .. إنما فقط علينا أن نتواضع بعلمنا ، ونعلم منذ البدء أن هناك آفاقا من العلم بالنفس البشرية لا تصل إليها تجارب المعمل ، ولا بد من الرجوع فيها إلى علم فوق علم الإنسان.

* * *

ثالثة الأثافي هي علم النفس التحليلي ، الذي يمكن أن نطلق عليه بحق علم تبرير الجريمة ! أو علم تزيين الجريمة !

لقد ذهب فرويد مؤسس هذا العلم ، وذهب الاهتمام الذي كان قائما حوله حتى الستينيات من هذا القرن في الغرب ، ولكن العلم الذي أسسه – إن سمي هذا علما – ما زال يعيش في العيادات النفسية المنتشرة في الغرب ، والتي أصبح من الأمور المعتادة فيه – إن لم يكن من الضرورات – أن يرتاد الإنسان – فتى أو فتاة ، رجلا أو امرأة – إحدى العيادات النفسية على فترات تختلف باختلاف " حالة " كل شخص ، وقد تصل أحيانا إلى مرة كل أسبوع !

وفي المعتاد يقول الطبيب النفسي للمريض الذي يعالجه " أنت تعاني من الكبت . من عقدة نفسية أو أكثر . انطلق ! هذا علاجك " !

عقدة التحليل النفسي أنه يسقط " الإنسان " ، إذ يسقط الإرادة الضابطة في الإنسان ، ويفسر الأمور على أساس جبرية نفسيه لا تدع للإنسان مجالا للاختيار .. هذا في مجال تبرير الجريمة . ثم يدعو إلى إطلاق الشهوة البهيمية على أنها علاج للكبت .. وهذا في مجال تزيين الجريمة . وفي كلا المجالين يتعامل مع الحيوان وليس مع الإنسان .

وعلى الرغم مما تكشف للناس من التزييف الواضح في نظريات فرويد الخاصة بالتفسير الجنسي للسلوك البشري ، ومن اعتماده في نظرياته على المرضى والشواذ ، وتعميم الملاحظات المستقاة من حالاتهم على الأصحاء والأسوياء [343] ، فما زالت السموم التي بثها قائمة في مجالات كثيرة ، من بينها العيادات النفسية التي أشرنا إليها ، ومن بينها الإعلانات التي يستخدم فيها الجنس للإغراء ، والتي تبثها وسائل الإعلام على مدار الساعة في كل الأرض !

وحين توارى فرويد عن الساحة – أو عن مكان الصدارة في الساحة – فقد خلفته مدرسة أخرى لا تقل عنه سوءاً في تصورها وتصويرها للإنسان . وهي المدرسة السلوكية التي لها السيادة اليوم في الدراسات النفسية ، والتي تعتمد اعتمادا أساسيا على تجارب المعمل ، ولكنها تستمد تجاربها أساس من عالم الحيوان ، ثم تجريها – بنجاح ! – على عالم الإنسان !

كلتا النظرتين : نظرة فرويد ونظرة السلوكيين ، تفسر جوانب من الإنسان ، ولكنها لا تحيط به ، ولا تستطيع أن تفسر المقامات العليا من النفس البشرية ، التي لا تصل إليها " جنسيات " فرويد ، ولا تجارب السلوكيين .

* * *

---

(343) لا يرى فرويد أن هناك في البشر من هو سَوِيّ ! ويقول صراحة إن كل الناس مصابون بهذا النوع أو ذاك من الأمراض النفسية والعصبية . وقال في كتاب " Three contributions " " ص 32 " نحن جميعا مصابون بالهستيريا إلى حد ما ! We are all hysterical to some extent.

لا مناص لنا عند التأصيل الإسلامي في الدراسات النفسية من الرجوع إلى المصادر التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لتكون أساسا لأبحاثنا ومنطلقا لدراساتنا وتجاربنا .

يقول الخالق سبحانه وتعالى عن خلق الإنسان :

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) [(344)] .

فنعلم من هذا المصدر الموثوق أن الإنسان قد ركب من عنصرين : قبضة الطين ونفخة الروح .

ثم نعلم من ذات المصدر أن نفخة الروح منحت قبضة الطين صفات لم تكن لها من قبل، نترجمها بمصطلحاتنا اللغوية بأنها الوعي والإرادة والحرية ، والتي تأتي الإشارة إليها في القرآن الكريم في لفظة " الأفئدة " ومرادفاتها .

وأن الله أودع في فطرة الإنسان أن يعرف خالقه ويتوجه إليه بالعبادة (أي الدين) :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) [(345)] .

(.. فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [(346)] .

وأن بعض الفطر تعتل " فيطبع " الله على قلوبها ، فتضل عن خالقها فتعبد سواه .

وأن الله خلق في الفطرة نوازع شتى ، هي بمثابة الدوافع التي تدفعه للعمل والنشاط ليحقق مهمة الخلافة التي خلق لها ، والتي من مهامها عمارة الأرض :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [(347)] .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [(348)] .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [(349)] .

---

(344) سورة ص [71 – 72] .

(345) سورة الأعراف [172] .

(346) سورة الروم [30] .

(347) سورة البقرة [30] .

(348) سورة هود [61] .

ولكنه لم يتركه مع هذه الشهوات بلا ضابط ولا قدرة على الضبط ، فإن " الأفئدة " التي جعلها الله للناس هي أداة الضبط التي يضبط بها الإنسان شهواته . وهي فطرية كالدوافع سواء بسواء :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [350] .

والإنسان السوي يستخدم الدوافع والضوابط معا فيتوازن وتستقيم حياته . أما إذا أحجم عن استخدام الضوابط الفطرية فإنه يهلك بشهواته ، تشقيه في الدنيا وتورده النار في الآخرة .

وقد خلق الإنسان لعبادته :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [351] .

و " الصحة النفسية " بالنسبة له هي أن يكون كيانه كله : فكره ومشاعره وسلوكه في الاتجاه الذي يحقق غاية وجوده ، أما إذا انحرف بفكره ومشاعره وسلوكه عن تحقيق غاية وجوده ، فقد يستمتع ولكنه متاع الحيوان ، ولا بركة له في حياته ولا اطمئنان :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) [352] .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [353] .

ثم إن الإنسان ليس أحادي الاتجاه كالحيوان ، إنما مزدوج الاتجاه (كما أنه مزدوج التركيب) ومن أجل ذلك فإن له في كل لحظة وفي كل حالة طريقين اثنين يختار أحدهما ، أحدهما يوصف بأنه خير والآخر يوصف بأنه شر ، وقد وهبه الله القدرة على التمييز بين الطريقين ، والقدرة على اختيار أحدهما :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [354] .

---

[349] سورة آل عمران [14] .

[350] سورة النحل [78] .

[351] سورة الذاريات [56] .

[352] سورة محمد [12] .

[353] سورة طه [124] .

[354] سورة الشمس [7 – 10] .

والطريق الذي يوصف بأنه خير هو الذي يكون فيه ملتزما بأوامر الله ونواهيه ، وعندئذ يكون قائما بواجب الشكر لله . أما الطريق الذي يوصف بأنه شر فهو الذي يكون فيه عاصيا لله، كافرا بنعمته :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) (355) .

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (356) .

وبسبب وجود هذه الخاصية فيه ، وهي أن له طريقين ، وله القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما فإن أعماله – خلافا لأعمال الحيوان – ذات قيمة أخلاقية مصاحبة لها، لا تنفك عنها ، فالخاصية الأخلاقية جزء من فطرة الإنسان ، أي أنه كائن أخلاقي بطبيعة تكوينه ، وليست الأخلاق – من حيث هي – مفروضة عليه من خارج كيانه كما تزعم بعض المدارس الغربية . إنما الذي يمكن أن يكون مفروضا عليه من خارج كيانه هو المعايير التي تحدد ما هو خير وما هو شر ، لا إعطاء الصفة الأخلاقية للعمل ، كما يزعم فرويد ودوركايم والسلوكيون . وحتى المعايير التي يضعها الله سبحانه وتعالى بصفة أنه سبحانه هو الخالق ، وأنه هو العليم الحكيم ، فليس كلها يفرض على الإنسان من خارج كيانه ، فإن الفطرة السليمة تتجاوب معها ، وتجد أنها مقبولة لديها ، لأن الله أودع الفطرة استحسان الحسن واستقباح القبيح بصفة عامة ، فأصبح اللقاء بين الفطرة ودين الفطرة سهلا ميسرا محببا لذوي الفطرة السليمة على الرغم مما فيه من التكاليف ، وإن كان الهوى يغلب النفس أحيانا فيختل تقديرها للخير والشر ، أو يجيء الاختلاف بسبب عدم الإحاطة وقصور الرؤية البشرية عن تقدير النتائج التي يمكن أن تترتب على العمل .. فيكون الملجأ في جميع الحالات هو اتباع ما أنزل الله .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (357) .

كذلك يلاحظ أن في تكوين النفس الإنسانية أدوات للتوازن تحفظ اتزان الإنسان حين تكون بمعاييرها التي أنزلها الله ، مما يمكن أن نسميه " الخطوط المتقابلة في النفس الإنسانية " مثل الحب والكره ، والخوف والرجاء ، والإيمان بالمحسوس والإيمان بما لا تدركه الحواس ، والفردية والجماعية ، والواقع والخيال ، والسلبية والإيجابية .. وكل منها قوة ضاغطة أو جاذبة ، فإذا كان كل منها في مكانه الصحيح اعتدل الإنسان وتوازن في نقطة الوسط المتوازن التي يكون الإنسان

---

(355) سورة الإنسان [3] .

(356) سورة البلد [10] .

(357) سورة البقرة [216] .

فيها في أحسن تقويم ، أما إذا اختلت أو اختل بعضها في النوع أو المقدار فهنا يفقد الإنسان توازنه ، ويحتاج إلى تقويم [358] .

* * *

تلك خلاصة سريعة للتطور الإسلامي للنفس البشرية .. وواضح أنه يختلف عن التصور الغربي السائد اليوم في أمور أساسية ، وإن التقى معه في بعض الجزئيات . ومهمة الباحث المسلم في الدراسات النفسية أن يستحضر معه دائما هذا التصور الإسلامي ، ثم ينطلق منه ليبحث في جميع المجالات التي يشملها علم النفس ، وخاصة في مجال التربية والتعليم ، وفي مجال الدعوة ، وهي التي تهم الباحث المسلم بصفة رئيسية .

أما التفصيلات فالمجال واسع لدراستها ، وإجراء التجارب عليها ، وتفسيرها ، ومحاولة تقنينها . وهو لا يبدأ في هذا الأمر من فراغ ، فكثير من علماء الإسلام السابقين قد خاضوا في هذه المجالات وأدلوا بدلوهم فيها ، وعلينا أن نعيد اكتشاف ما كتبوه ، ثم نضيف إليه ما يهدينا إليه البحث المستنير .

وإن من الموضوعات التي يجدر بالباحث المسلم أن يعكف عليها ويوليها اهتمامه ، هذه الموضوعات على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر :

- تأثير العقيدة في تشكيل النفس الإنسانية .
- تأثير العقيدة في إنشاء حالة الاتزان العاطفي والسلوكي عند الإنسان .
- تأثير العقيدة في دفع الإنسان إلى بذل الجهد والمثابرة عليه .
- الظاهرة الروحية عند الإنسان (التليباثي – الاستشفاف – الرؤيا الصادقة) .
- الإيمان بالغيب عند الإنسان وتفرده به عن الحيوان .
- مكان الدين من الفطرة .
- نشأة الضمير عند الطفل .
- نشأة القيم العليا في الفرد والمجتمع .
- دور العقيدة في علاج الاضطرابات النفسية والعصبية .

---

[358] اقرأ إن شئت فصل " خطوط متقابلة في النفس البشرية " من كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " .

- التكوين النفسي للرجل والمرأة ، وعلاقة هذا التكوين الفطري بالدور المنوط بكل منهما ، وهل هما متماثلان أم متكاملان مع الاختلاف .

وفي كثير من هذه الموضوعات سيجد الباحث المسلم نفسه رائدا .. وسيجد نفسه في أحيان كثيرة يسبح ضد التيار . فليعزم العزمة الصادقة وليمض في الطريق !

بين الواقع والمثال

ربما يكون قد اتضح لنا من الجولة السريعة التي قمنا بها في الفصول السابقة مدى البعد بين الصورة التي ننقلها عن الغرب في العلوم الاجتماعية وندرسها لأبنائنا في المدارس والجامعات ، وبين الصورة التي يفترض أن تكون لدى المسلم الذي يستمد مفاهيمه من الإسلام ، ويكون قد تبين لنا في الوقت ذاته مدى حاجتنا إلى التأصيل الإسلامي لهذه العلوم ، وإن بدت المفاهيم الإسلامية غريبة على كثير من الناس الذين تعودوا أن ينظروا إلى الأمور بعين الغرب ، ولا يرون فيها انحرافا ، ولا يرون أنها تحتاج إلى تعديل . ففي الغربة الثانية التي تحيط بالإسلام اليوم ، والتي أخبر عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا حين قال: " بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ " [359] ، تبدو المفاهيم الإسلامية كأنها مثل غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع ، ويبدو الواقع المنحرف كأنه هو الأصل في الأشياء ! وهذه النظرة بالذات هي أول ما يسعى إلى تصحيحه التأصيل الإسلامي في هذه العلوم !

وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى العزلة عن العالم ! فأنا لم أدْعُ إلى العزلة قط ، ولم أمارس العزلة ، بل إني أجتهد بقدر وسعي أن أطلع على أفكار القوم وممارساتهم ، وأجد ذلك أمرا ضروريا لي ، بل أقول – أكثر من ذلك – إن اطلاعي على أفكار الفوم وممارساتهم هو الذي نبهني إلى كثير من مجالي العظمة في دين الله ، حين أعقد المقارنة بينها وبين ما يجري في الجاهلية المعاصرة ، تصديقا لقول الفاروق رضي الله عنه : " لا يعرف الإسلام (أي لا يعرفه على حقيقته) من لم يعرف الجاهلية ! " فأنا أعدو إلى الاطلاع على ما عند الغرب ، ولكنّ هناك فرقا بين اطلاع المأخوذ ، الذي يتلقف كل شيء يجده هناك كأنه غنيمة عثر عليها ، وبين اطلاع المستبصر بنور الإسلام ، الذي يعرض عن الغث ، وينتقي الثمين .

أما الغربة فقد وجهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إزالتها ، فقال في الحديث الآنف الذكر ، بعد أن أخبر عن غربة الإسلام الثانية " فطوبى للغرباء ، يصلحون ما أفسد الناس من سنتي " [360] .

ولن تتأتى إزالة الغربة إلا بالدعوة ..

---

[359] سبقت الإشارة إليه .

[360] رواه الترمذي .

والدعوة كما أشرت في أكثر من كتاب هي بيان حقيقة الإسلام ، ثم التربية على مقتضيات الإسلام [361] . والتربية تشمل تثبيت العقيدة الصحيحة ، وتقويم السلوك بما يتناسب مع مقتضيات هذه العقيدة .

والثقافة الصحيحة هي جزء من التربية المطلوبة . فكما ندعو إلى تصحيح العقيدة وتقويم السلوك ، ندعو كذلك إلى تقويم الثقافة لتتمشى مع العقيدة الصحيحة والسلوك الصحيح .

ونعلم بطبيعة الحال أن هذا الأمر لا يتم بين يوم وليلة ! فلا بد من جهاد طويل لإرجاع الأمة إلى حقيقة الإسلام التي غفلت عنها ردحا من الزمن ، فأصابها ما أنذرها به رسولها صلى الله عليه وسلم : " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل " [362] .

وجزء من حالة الغثاء التي تعيشها الأمة اليوم ، راجع إلى غلبة الفكر الدخيل ، وتلقفها له على أنه طريق الخلاص ، بينما أصحابه أنفسهم قد بدءوا يحسون بما فيه من عوج ، ويبحثون عن البديل !

وقد أثبتنا نموذجا من ذلك الإحساس بضرورة التغيير في مقدمة الكتاب ، حين ذكرنا مقتطفات من محاضرة الأمير تشارلس ولي عهد بريطانيا ، التي قال فيها إن الغرب في حاجة إلى معلمين مسلمين يعلمونه كيف يتعلم الناس بقلوبهم كما يتعلمون بعقولهم !

وأضيف هنا أن هناك اتجاها في غرب أوربا وأمريكا ، يتزايد أنصاره كل يوم ، يدعو إلى فصل البنات عن البنين في جميع مراحل التعليم من الابتدائي إلى الجامعة ! واتجاها متزايدا إلى ما يطلقون عليه " التعليم المنزلي : Home Schooling " ، وقاية للأولاد والبنات من مخاطر الاختلاط ، ونحن في بلادنا ما زلنا ندعو إلى مزيد من الاختلاط !

نعم ! هنالك بدء يقظة على مستوى الأرض ، بدأت تحس بالعوج ، وتبحث عن البديل .. ولا يعلم إلا الله وحده مصير هذه اليقظة ، والمدى الذي تحتاج إليه ، وإن كان في تقديرنا أنها قد لا تؤتي ثمارا واضحة قبل قرن من الزمان ، تنفض فيه البشرية عن نفسها ما غرقت فيه من الدنس الفكري والسلوكي ، وتقبل البديل ..

والبديل هو الإسلام !

هو الذي أنزله الله ليصحح خطى البشر على الأرض ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور :

---

[361] انظر على سبيل المثال " واقعنا المعاصر " .

[362] سبق ذكره .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [363] .

والمسلمون أولى الناس أن يعوا إسلامهم ، ويرجعوا إليه .

والتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية جزء من الوعي المطلوب ، يحتاج أن يُبْذَلَ فيه الجهد ، ليؤتي ثماره مع الدعوة إلى الله ، ولو على المدى الطويل .. فطريق الدعوة كله طويل ، ولكنه هو الطريق الواصل بإذن الله :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[364] .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [365] .



---

(363) سورة المائدة [15 – 16] .

(364) سورة الصف [9] .

(365) سورة الأنعام [153] .